



جامعة البليدة -2- علي لونيسي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
بالتعاون مع المجلس الإسلامي الأعلى
وفرقة بحث PRFU الخطاب الرقمي وصناعة القيم

كتاب أعمال الملتقى الدولي الافتراضي الأول

صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب

صراعات الماضي مستجدات الحاضر وتحديات المستقبل

The Image of Islam and Muslims in the Occident : Past Clashes, Current Developments and Future Chalenges

المنعقد يومي: 09/10 شوال 1443ه الموافق
ل : 10 / 11 ماي 2022

فرقة بحث الخطاب الرقمي وصناعة القيم. جامعة البليدة 2

I02N01UN090220220001

المؤلف: مجموعة مؤلفين

كتاب أعمال الملتقى الدولي الافتراضي الأول:

صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب: صراعات الماضي، مستجدات الحاضر وتحديات المستقبل

يومي 09/10 شوال 1443ه الموافق لـ : 10 / 11 ماي 2022

الإيداع القانوني: 9916-9931-9999- أكتوبر 2022.

ISBN :978-9931-9916-0-1

9 789931 991601

إن الأعمال الواردة في هذا الكتاب تعبر حصريا عن رأي أصحابها وتحت مسؤوليتهم

ولا تمت بأي صلة بتوجيهات آراء هيئات ولجان الملتقى

جـامـعة البـليدة2- لونيسـي علـي-
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية



تحت الرعايـة السـاميـة
للمجلس الإسلامي الأعلى

فرقة البحث PRFU: الخطاب الرقمي و صناعة القيم
I02N01UN090220220001



كتاب أعمال الملتقى الدولي الافتراضي الأول:

صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب:

صراعات الماضي، مستجدات الحاضر وتحديات المستقبل

The Image of Islam and Muslims in the Occident :

Past Clashes, Current Developments and Future Chalenges

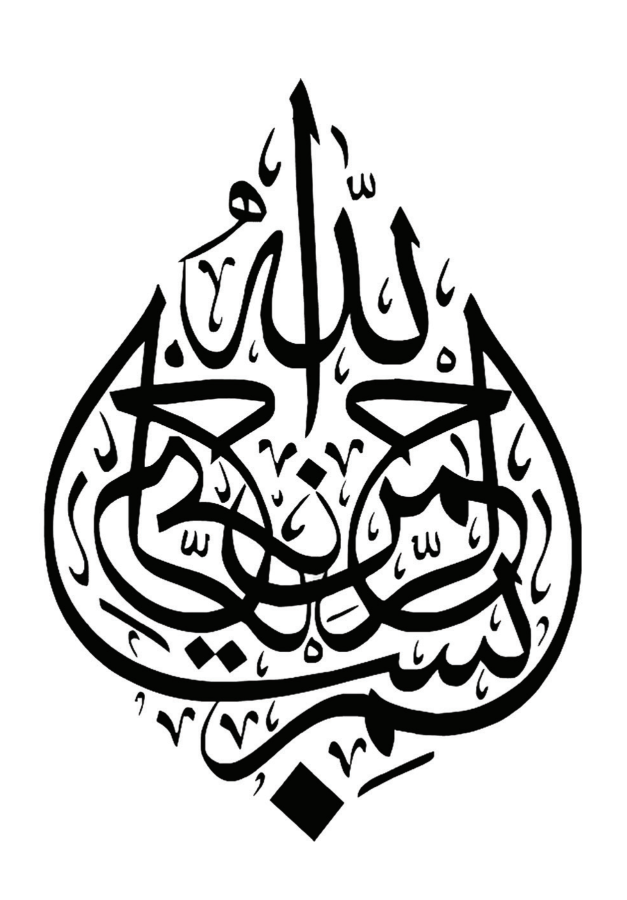
المنعقد يومي: 09/10 شوال 1443هـ الموافق لـ : 10 / 11 ماي 2022

تحت إشراف: د. بوهلـة شهيــرة

تنسيق وإعداد:

د.لمجد شهر زاد- د.فراح فوزية
د.سليماني سهيلة- د. رمادلية أمال
د. وهابي نزيهة- د.مهدي تواتي
د. شبين شفيعة

منشورات جامعة البليدة 2- علي لونيسي


بسم الله الرحمن الرحيم



كلمة الدكتور بوعبد الله غلام الله رئيس المجلس الإسلامي الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على اشرف المرسلين

جدير بالمؤسسة الجامعية أن تتناول في جدول اهتماماتها القضايا الكبرى التي تشغل بال الناس سواء ما تعلق بتفاصيل اليوميات أو تلك التي يتعلق على نتائجها مصير المجموعات البشرية الكبرى، وبالذات ما يدور في العلاقات الدولية وما ينتج من نتائج التحولات الاقتصادية والتكنولوجية الجديدة.

وما دامت الجامعة تحتل موقع (قاطرة المجتمع)، في إنتاج النخب وصناعة الاتجاهات الكبرى وتوضيح معالم سير المجتمع، فإن تناول جامعة البليدة 2 –لونيسي على– لموضوع مهم في أهمية (صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب . صراعات الماضي، مستجدات الحاضر، تحديات المستقبل)، عبر فتح ملفاته وتشريح تفاصيله عبر مؤتمر دولي تكون نتائج أشغاله وثمرات الأبحاث التي قدمها الباحثون والخبراء بمثابة ورقة طريق يستنير بها الرأي العام وكل من له علاقة بالعلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي.

إن ملف العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب ما يزال يشغل المفكرين والسياسيين والخبراء عبر مختلف الأجيال منذ زمن النهضة العربية، وفي الوقت نفسه يفرز المزيد من الأسئلة والإشكاليات التي تؤرق المشهد العام، خاصة وأن التطورات المتلاحقة أصبحت ذات حمولة معرفية ونفسية واجتماعية وسياسية مقلقة، كونها تجاوزت المستويات الاستعمارية الكلاسيكية وانتقلت نحول التأثير المباشر والتحكم المتغطرس في حياة شعوب العالم الإسلامي تجاوز تلك الحدود التي تم التعرف عليها والتآلف معها.

لقد مهد الأسلوب غير السوي والنتائج غير المنصفة لتعامل الغرب مع العالم الإسلامي منذ زمن الدراسات الاستشراقية مرورا بالغزو والاحتلال العسكري والاستيلاء الجشع على الثروات الطبيعية والمقدرات المعيشية لشعوب العالم الإسلامية الكثير من الآثار الخطيرة التي عملت على تضخيم الغطرسة الغربية وإعلاء مستويات احتقار هذه الشعوب من طرف النخب الغربية وتماديها في إهانتها والإيغال في الاستهتار بوجوده، وهو ما خلف ردود فعل غير متوقعة وغير مدروسة من طرف الأجيال الجديدة التي ظهرت في العالم الإسلامي.

لقد فتحت ثورة الاتصالات التكنولوجية الحديثة المجال واسعا للكثير من (المغامرة) في العلاقات الإنسانية وجعلت من إمكانية القول بزوال الحدود ممكنة جدا، وإن قدمت الكثير من الخدمات والمنافع للناس إلا أنها فتحت المجال واسعا للكثير من المخاطر التي سرعان من تألمت منها البشرية وشعرت بخطورتها على مصالحها التقليدية المباشرة بل على تهديد الكثير من معاني وجودها، مما استوجب على العديد من عقلاء العالم المسارعة إلى التنبيه على المؤلم والمتوقع من هذه المرحلة، التي تتطلب الانتباه الذكي لها من طرف الجامعة عبر الدراسات

والأبحاث والمتخصصة ليس فقط في مجالات الإعلام والاتصال بل في كل المجالات الحياتية التي بالضرورة أصبحت نتائج الثورة الاتصالية تصل إليها وتعمل على إدراجها في مجالات تأثيرها.

كون التحكم الدقيق اليوم في أعنة البحث العلمي والدراسات المتخصصة هو الكفيل بتجنيب المجتمع الكثير من التكاليف الباهظة والخسائر المؤلمة، ويساعد على تحقيق نهضة اقتصادية واجتماعية وقبلهما علمية وثقافية تكون فاعلة وشاملة، تعمل على تجسيد مقاصد الشريعة الإسلامية التي هي ثمرات ليست لسعادة شعوب العالم الإسلامي فقط بل هي للبشرية كافة (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)، وهي الكفيلة بتجاوز ما أحدثته الحملات الاستعمارية وقبلها الاستشراقية من تشويه بغيض لصورة المسلمين لدى شعوب العالم الغربي وما ولدته من أحقاد وصراعات دموية خلف المآسي والأحزان والكثير من الخراب والدمار، نعتقد اليوم أنه قد حان الوقت للوقوف في مجه مخططات تدمير الإنسانية وتغريب العمران في الأرض (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها)، لأن مهمة الإنسان هي العمران وعدم السير في مخططات الفساد، والسعي إلى التعاون (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا).

إن المجلس الإسلامي الأعلى وانطلاقا من مهامها الدستورية التي تأتي في مقدمتها (الحث على الاجتهاد وترقيته) يراهن على المكانة العلمية المهمة للجامعة ودورها المهم في المجتمع، وهو ما ترجمه عبر إبرام العديد من اتفاقيات التعاون والشراكة مع الجامعات ومخابر البحث في العديد من ولايات الوطن ومنها جامعة البليدة2 – لونيسي علي وكذا المؤسسات الوطنية، كون إمكانية الارتقاء بالاجتهاد في كل المجالات لا يمكن أن يتحقق إلا عبر الجامعة ومخابر البحث ومراكز الدراسات، التي تقع عليها مهمة ترقية المجتمع وتقديم المساهمة الفعالة في تنميته والارتقاء به إلى مصاف الأمم الشاهدة على الناس والقائمة على خدمة البشرية بما ينفعها ويسعدها.

رئيس المجلس الإسلامي الأعلى

كلمة رئيس الملتقى

بسم الله الرحمن الرحيم

« يرفع الله الذين آمنوا منكم، والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير»

صدق الله العظيم

الحمد لله جليل النعم، باعث الهمم، ذي الجود والكرم، والصلاة والسلام على خير البرية محمد بن عبد الله وعلى صحبه ومن ولاه واتبع هداه.

أما بعد:

انعقد بتاريخ: يومي 09/10 شوال 1443هـ الموافق لـ : 10 / 11 ماي 2022 ، المؤتمر الدولي الافتراضي الموسوم بـ" **صورة الاسلام والمسلمين لدى الغرب: صراع الماضي، مستجدات الحاضر، تحديات المستقبل**"، الذي نظمه قسم العلوم الانسانية بجامعة البليدة 2 وبرعاية المجلس الاسلامي الأعلى، حيث يعالج هذا المؤتمر موضوع هام وحساس وهو صورة الاسلام والمسلمين لدى الغرب، وهو أحد الموضوعات الشائكة التي تثير اهتمام العديد من الباحثين والمتخصصين لاسيما بعد أحداث 11 سبتمبر، والتي شكلت منعرجا خطيرا في العلاقة بين العالمين الاسلامي والغربي، والذي أثر بشكل مباشر على صورة الاسلام والمسلمين لدى الآخر، حيث ظهرت حملة اعلامية استهدفت كل من الاسلام كدين والمسلمين كأمة آخذة الطابع القانوني بحجة محاربة الارهاب ، فتم ربط كل ما له علاقة بالإسلام والمسلمين بالعنف والتطرف وهذا ما أدى إلى تشويه صورة الاسلام والمسلمين لدى الرأي العام العالمي.

والجدير بالذكرأن صورة الإسلام والمسلمين تشكلت لدى الآخر من جملة عوامل، يمكن تصنيفها ضمن عوامل دينية وفكرية، وعوامل تاريخية، وعوامل ذاتية وموضوعية، بما فيها عوامل مرتبطة بواقع المسلمين اليوم... وتتداخل هذه العوامل وتتشابك انعكاساتها، لتشكل مجمل الصورة الراهنة للإسلام والمسلمين في الوعي الجمعي لدى الآخر.

وأمام واقع هذه الصورة النمطية المفزعة والمغلوطة عن الاسلام والمسلمين، والتي تعطي انطباعات سيئة عن كل ما هو عربي واسلامي يقع علينا واجب تصحيح وإبراز صورة الاسلام والمسلمين والذي يستدعي الاحساس المتزايد بضرورة مساءلة النفس ومراجعة الذات للنظر في مسؤولياتنا نحن المسلمين بخصوص طبيعة صورة الاسلام والمسلمين في الغرب، فالأمة الاسلامية مطالبة اليوم أكثر من أي وقت مضى بممارسة ضرب من ضروب النقد الذاتي البناء لمواجهة التحديات والضغوط التي تتعرض لها دون انكفاء أو تقهقر، بحيث تصبح معركة تصحيح صورة الاسلام والمسلمين ومواجهة التغييرات الدولية بصفة عامة، هي معركة ذاتية بالدرجة الأولى تخص العالم الإسلامي. وأمام هذا الواقع المر نتساءل اليوم كيف يمكننا كباحثين وأكاديميين ايجاد السبيل الذي يمكننا من تصحيح هذه الصورة المغلوطة والعمل معا على صناعة صورة إيجابية للإسلام والمسلمين في فكر الآخر؟

وإذا كان تشويه صورة الاسلام والمسلمين يؤثر سلبا على ثقافتنا وحضارتنا فإن السعي الحثيث نحو تحسين هذه الصورة وتصحيحها يعد واجبا دينيا وضرورة ثقافية، فضلا عن كونه مطلبا واقعيا تمليه مسؤولية تبليغ الحقائق الاسلام للآخرين، ومن خلال ما سبق ذكره، فإن الاهداف الرئيسية للملتقى تتمثل في:

- الوقوف على أهم الابعاد التاريخية والحضارية والاجتماعية التي تشكل صورة الاسلام والمسلمين لدى الآخر
- التطرق لظاهرة الاسلاموفوبيا والبحث في عوامل تكريسها
- البحث عن واقع صورة الاسلام والمسلمين في الاعلام الغربي بمختلف وسائله
- البحث في مختلف السبل والاساليب التي يمكن من خلالها تصحيح صورة الاسلام والمسلمين لدى الآخر.

وقد جاء هذا الكتاب ليضم مختلف المداخلات القيمة التي عرضها السادة الباحثين في أشغال المؤتمر الدولي، والتي تعالج مسائل وقضايا مهمة مطروحة للنقاش والتي كانت مندرجة تحت المحاور الرئيسية لأشغال المؤتمر، حيث كانت ملمة بكل الجوانب المتعلقة بصناعة صورة الاسلام والمسلمين سواء كانت: تاريخية، ثقافية، حضارية، سياسية، اعلامية، أكاديمية....

نأمل أن يكون هذا المؤلف دعما للدراسات والأبحاث العلمية وأن يجد صداه عند القراء والباحثين.

أود في الختام أن أشكر كل من ساهم معنا من أساتذة وطلبة من داخل الوطن وخارجه في اثراء هذا المحفل العلمي فبارك الله فيكم وجزاكم الله خير جزاء،

كما اتوجه بشكر خاص لأعضاء اللجنة العلمية للملتقى كل باسمه وكل بمقامه، لم يكن ليصل هذا العمل على ما هو عليه لولا جهود اعضاء اللجنة العلمية فجزاكم الله عنا خير جزاء

والشكر الخاص إلى رئاسة الجامعة وعمادة الكلية بجامعة البليدة 2- علي لونيسي.

رئيسة الملتقى

د. بوهلـة شهـيرة

لجان الملتقى	
الرئيس الشرفي : أ.د خالد رمول، مدير جامعة البليدة 2- علي لونيسي	
المشرف العام: د. رضوان زعموشي، عميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية نائب المشرف العام: أ.د سيد أحمد نقاز، نائب العميد المكلف بالبحث العلمي و د. عبد الرحمن بوسليماني، رئيس قسم العلوم الإنسانية	
رئيس الملتقى: د. بوهلة شهيرة	المنسق العام للملتقى: د. فراح فوزية
رئيس اللجنة العلمية: د. كلفاح أمينة	نائب رئيس اللجنة العلمية: د. لمجد شهرزاد
رئيس اللجنة التنظيمية: د. شبين شفيعة	نائب رئيس اللجنة التنظيمية: د. وهابي نزيهة
رئيس لجنة التوصيات: أ. سليماني سهيلة	نائب رئيس لجنة التوصيات: د. أمرار فتيحة
رئيس اللجنة المكلفة بالاعلام: د. دليلة بوجناح	نائب رئيس اللجنة المكلفة بالاعلام: د. الهام بوثلجي، ود. مراد بوشحيط
رئيس اللجنة التقنية: د. رمادلية أمال	نائب رئيس اللجنة التقنية: د.عيشوش عثمان

اللجنة العلمية للملتقى			
أ.د نصر الدين العياضي	جامعة الجزائر 3	أ.د فايزة يخلف	جامعة الجزائر3
أ.د صفوان عصام حسيني	جامعة الجزائر3	أ.د تيطاوني الحاج	جامعة خميس مليانة
أ.د كريم بلقاسي	جامعة الجزائر3	أ.د ايلال نورالدين	جامعة البليدة 2
أ.د دهاش الصادق	جامعة البليدة 2	أ.د العايب سليم	جامعة البليدة 2
أ.د محمود علم الدين	جامعة القاهرة مضر	أ.د كموش مراد	جامعة تيبازة
د. زعموشي رضوان	جامعة البليدة 2	د. سيدي موسى محمد الشريف	جامعة البليدة 2
د.بن بوزة صالح	جامعة الجزائر3	د. حميدي مليكة	جامعة البليدة 2
د. محمد أبو الفحم	جامعة القدس المفتوحة –فلسطين	د.بومدين سعاد	جامعة البليدة 2
د. محمد موسى سميرة	جامعة كفر الشيخ مصر	د.نساخ فاطمة	جامعة البيلدة 2
د.لبنى عبد المجيد	جامعة حلوان مصر	د. تجنانت مراد	جامعة البليدة 2
د. هالة نوفل	جامعة قنا مصر	د. تواتي مهدي	جامعة البليدة 2
د. بهناس سعيد عادل	جامعة الجزائر3	د.قاسيمي الحسيني عبد المجيد	جامعة البليدة 2
د.كبور فاطمة	المدرسة العليا للصحافة	د. بوشيبة فايزة	جامعة البليدة 2
د.عبد القادر بوعقادة	جامعة البليدة 2	د. داود جمال	جامعة البليدة2
د.نشادي عبد الرحمن	جامعة البليدة 2	د. لعليجي محمد الأمين	جامعة البليدة 2
د. لونيسي زينب	جامعة البليدة 2	د.بوطبال حكيمة	جامعة البليدة 2
د. شايب نبيل	جامعة المدية	د. رحالي ميلود	جامعة البليدة 2
د. معريش كريمة	جامعة البليدة 2	د. مداني إيمان	جامعة البليدة 2
د. عليلاش وردية	جامعة البليدة 2	د. بهلول ايمان	جامعة البليدة 2
د.بن نيلي لخضر	جامعة البليدة 2	د.غويني ليلى	جامعة البليدة 2
د. فورالي حميدة	جامعة البليدة 2	د. صالح الأسد الأسد	جامعة تيبازة
د. بطراوي مصطفى	جامعة البليدة 2	د. جقريف زهرة	جامعة البليدة 2

د. دبدوش الهاشمي	جامعة البليدة 2	**د. كنزة مقدود**	جامعة البليدة 2
د. حيزر ززيقة	جامعة البليدة 2	**د. حايد عقيلة**	جامعة البليدة2
د. رملي بوزيد	جامعة بسكرة	**د. زوقاي مونيا**	جامعة البليدة 2

فهرس المحتويات

62	د/ محفوظ علي زوي	From 'Islam and the West' to 'Islam in the West': The New Visibility of Western Muslims Post-9/11 and the Myth of Islamization	جامعة قالمة	803
63	ط.د/ محمد خرباش	احتكاك المسلمين بغير المسلمين وأثره في اعتناقهم للإسلام –دراسة ميدانية–.	جامعة تلمسان	816
64	ط.د/ أسماء برناوي	أثر الاسلاموفوبيا على الجالية المسلمة في فرنسا	جامعة وهران 2	833
65	ط.د/ صفية شنين	صورة الاسلام في الدول الإسكندنافية – فلندا أنموذجا–	جامعة الجزائر 1	844

66	أ.د / النذير بولمعالي	الأقليات المسلمة في الغرب (الأصول والخصائص ـ التحديات ـ والواجب نحوها)	جامعة المدية	855
67	د/بهاء الدين عبد ربه خلف الله	الأقلية المسلمة داخل المجتمع الأوروبي بين الاندماج والتباعد في ظل المتغيرات العربية والإسلامية "بريطانيا أنموذجاً"	فلسطين	865
68	**Dr/Athmane Fouil**	Les pratiques des musulmans et la construction de l'image de l'Islam Cas d'un groupe d'immigrés algériens en France	**Ecole Polytechnique d'Architecture et d'urbanisme Alger**	882
69	د/ مبارك شريف خليل	انعكاس التهديدات اللاتماثلية على المنطقة المغاربية : قراءة ابستمولوجية في الصورة الذهنية .	جامعة بليدة 2	900

89	د/ عبد القادر طالب	الإعلام الجديد وسؤال الهوية العربية الإسلامية (قراءة في إشكالية القولبة والتنميط)	جامعة بومرداس	1180
90	د/ سعاد بومدين	معايير صياغة الصورة النمطية للمرأة المسلمة في وسائل الإعلام الغربية	جامعة البليدة 2	1195
91	ط. د/ وليد شايب الدراع	صورة المجتمعات العربية في القنوات الفرنسية الناطقة باللغة العربية (دراسة وصفية تحليلية لعينة من حلقات برنامج "في فلك الممنوع" على قناة France 24)	جامعة بسكرة	1205
92	ط.د/نوال بوزكري	الإسلام والمسلمون من خلال الشاشات الفضية الهوليودية_ كتاب الصورة الشريرة للعرب في السينما الأمريكية لجاك شاهين _ دراسة سيميائية	جامعة حمه لخضر– الوادي	1216
93	ط.د/ مصطفى حميدي	الإصدارات الإعلامية لتنظيم الدولة (داعش) وتعامل الإعلام الغربي معها	جامعة البليدة 2	1232
94	ط.د/ مصطفى بشراوي	البروباغندا" في خطاب المنظمات الدينية الغربية تجاه الدول الإسلامية: دراسة حول دور الهيئات الكنسية العالمية في دعم انقسام السودان	جامعة الجزائر03	1248
95	ط.د/ محمد بوطرنيخ	الصورة النمطية للمرأة المسلمة في الإعلام الغربي	المركز الجامعي تيبازة	1270

	المحور الخامس: سبل صناعة صورة إيجابية للإسلام والمسلمين لدى الآخر			
الرقم	الاسم واللقب	عنوان المداخلة	جامعة الانتماء	الصفحة
96	د/ نجاة بوثلجة	دور صفحة "المسلمون الجدد Muslims New((في تحسين صورة الاسلام لدى الغرب دراسة تحليلية لعينة من الفيديوهات الأكثر متابعة على اليوتيوب	جامعة قسنطينة 3	1283
97	د/ أمرار فتيحة	سبل صناعة صورة إيجابية للإسلام و المسلمين لدى الآخر من خلال الاعلام العربي الإسلامي تجربة مجلة إعلامية عربية اسلامية– دراسة وصفية و تحليلية	جامعة البليدة 2	1303

الرقم	الاسم واللقب	عنوان المداخلة	جامعة الانتماء	الصفحة
98	د/ عبد الرحمان نشادي	كيفية بناء الصورة الحسنة للإسلام	جامعة البليدة 2	1320
99	د/ إيمان تمرابط	تأثير الإرهاب على صورة الإسلام في السياسة العالمية بعد أحداث 09/11	جامعة باتنة 1	1333
100	د/ العطري بن عزوز	آليات ووسائل تعزيز الصورة الإيجابية للإسلام والمسلمين لدى الآخر وسبل تفعيلها	جامعة الأغواط	1347
101	د/ سيد علي موسى	دور الفرد المسلم في تحسين وتسويق صورة الإسلام لدى الآخر –الغرب– (العلماء، الباحثين، والإعلاميين أنموذجا)	جامعة البليدة 2	1361
102	ط.د/ عبد الرحيم فروجي قويدر	دور وسائل الإعلام و رجال الدين و مراكز البحث في تصحيح الصورة الذهنية للإسلام والمسلمين لدى الغرب	جامعة تيزي وزو	1374
103	ط.د/ حميدة بوعبدالله	إتيقا الاعتراف و العدالة من أجل إرساء ثقافة العيش المشترك –بين الإسلام و الغرب وفق رؤية بول ريكور	جامعة الجزائر 2	1388

الرقم	الاسم واللقب	عنوان المداخلة	جامعة الانتماء	الصفحة
104	د/ إسماعيل عريف	تصحيح الصورة النّمطيّة الغربيّة عن الإسلام من خلال الحوار مع الآخر	جامعة الوادي	1400
105	د/ محمد عليوة	جزيرة كوه بانيي التايلاندية نموذج مجتمع إسلامي يُحتذى	جامعة الجزائر 2	1412
106	د/ أمينة كلفاح	توصيف قناة " فهد الكندي " لشخصية المسلم الجديد و دورها في تصحيح الانطباع عن الإسلام لدى الغرب – دراسة وصفية تحليلية لعينة من مقاطع الفيديو خلال فترة ممتدة من 18أوت إلى 18نوفمبر 2021.	جامعة البليدة 2	1426
107	د/ أميمة رزاقي	جهود الداعية البريطاني دارن مايت في تحسين صورة الإسلام والمسلمين داخل المجتمعات الغربية –دراسة تحليلية لعينة من حواراته في الشوارع لندن	جامعة قسنطينة	1448

108	**ط.د/ ناصري زواوي**	ماذا فعل السياسيون في الداخل لتصدير صورة شعوبهم إلى الخارج.	**جامعة وهران**	1462
109	**ط.د/ نعيمة مزيادي**	الدراما التاريخية التركية ودورها في تصحيح الصورة النمطية السلبية للإسلام والمسلمين قراءة تحليلية لمسلسل قيامة أرطغرل	**جامعة قسنطينة 3**	1474
110	**ط.د/ عيسى بن باليط**	مدرسة الحكمة الخالدة بين الخلفية الإسلامية ونقد الحضارة الغربية	**جامعة الجزائر 1**	1489

ظاهرة الاسلاموفوبيا بين التحليل والتعليل في الإعلام الغربي صحيفة نيويورك تايمز الإلكترونية - أنموذجا

The Phenomenon of Islamophobia Between Analysis and Reasoning in the Western Media The New York Times Electronic Newspaper - a Model-

د.بوهلة شهيرة، جامعة لونيسي علي البليدة -2- الجزائر
Chahira.bouhella@gmail.com



تهدف هذه الدراسة للبحث في ظاهرة الإسلاموفوبيا والتي لطالما أرقت المجتمعات الاسلامية، وفي الواقع هي ظاهرة قديمة قدم الدين الإسلامي نفسه ومتجددة بتجدد الأحداث والمواقف العالمية، حيث أن هذه الدراسة ترمي للبحث في الأبعاد التفسيرية والتحليلية لظاهرة الإسلاموفوبيا في الإعلام الأمريكي، وذلك من خلال نموذج صحيفة نيويورك تايمز الإلكترونية، حيث تم الاعتماد على المنهج الوصفي من خلال استخدام أداة تحليل المضمون في شقها الكيفي.

وقد خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج من أهمها نجد: أن الصحيفة عبرت عن اتجاهاتها السلبية في تغطية موضوع الاسلام والمسلمين، ما يساهم في دعم وتأييد الصورة المشوهة والمغلوطة ونشر مشاعر الخوف والعداء في أوساط المجتمعات الغربية، كما ركزت الصحيفة في تناولها ظاهرة الإسلاموفوبيا، على موضوع الجهاد، حيث ألصقته بمختلف معاني الإرهاب، حيث وظفت في تفسيرها للظاهرة العديد من المقاربات والأساليب الاقناعية التي تناسب عقلية الفرد الغربي.

الكلمات المفتاحية:الاسلاموفوبيا، الإعلام الغربي، نيويورك تايمز، الصحافة الإلكترونية، المقاربات التفسيرية.

Abstract :

This study aims to investigate the phenomenon of Islamophobia, which has always promoted Islamic societies, In fact, it is a phenomenon as old as the Islamic religion itself and renewed with the renewal of global events and attitudes, As this study aims to research the explanatory and analytical dimensions of the phenomenon of Islamophobia in the Western American media, through the model of the New York Times electronic newspaper, where the descriptive approach was relied on through the use of the content analysis tool in its qualitative part.

The study concluded a set of results, the most important of which is that we find: that the newspaper expressed negative trends in covering the issue of Islam and Muslims, which contributes to supporting the distorted and false image and spreading feelings of fear and hostility among Western societies. Jihad, which she attached to the various meanings of terrorism, and employed in her interpretation

of the phenomenon of many persuasive methods that fit the mentality of the Western individual.

Keywords : Islamophobia, Western media, The New York Times, electronic press, explanatory approaches



مقدمة:

تعد الاسلاموفوبيا أو الخوف المرضي من الإسلام من المصطلحات الحديثة التداول نسبيا في الفضاء المعرفي، والتي اقترنت بتصاعد موجة العنصرية والكراهية وحتى الحقد على الاسلام والمسلمين، وقد تم نحت المصطلح الذي استعير في جزء منه من علم الاضطرابات النفسية للتعبير عن ظاهرة الرهاب أو الخوف المرضي من الإسلام، والملاحظ أن هذا التركيب الاصطلاحي المضلل كامن في صك المصطلح في حد ذاته، لأن فيه مزجا متعمدا بين مصطلحين متنافرين تنافرا سياقيا نابعا من اختلاف الحقول الدلالية (علم الدين/ علم النفس)، وتنافرا عقديا نابعا من المرجعيات الروحية للإسلام وللأديان بصفة عامة: ذلك أن أول مساعي الانسان المتدين هو السعي إلى الاطمئنان الروحي والنفسي، فإذا كان الاسلام فوبيا فإنه قد ناقض لذاته وصار خارج الاطار النفسي الذي يحقق السكينة، فالاسلاموفوبيا تعني ظاهريا الخوف المرضي للغربيين من الاسلام، ولكن في باطنه المخادع يعني أن الاسلام هو فوبيا : أي هو ذلك الاسلام الكريه البغيض الناتج عن التمثل لا الاسلام الواقعي الذي يكون شعور الغربي تجاهه شعورا طبيعيا وليس شعورا مرضيا أو توجسيا (المنصوري، 2014، الصفحات 246-247) ، وبالعودة لظاهرة في حد ذاتها وليس كمصطلح فهي الواقع ظاهرة قديمة قدم الدين الإسلامي نفسه، وهي ذات أبعاد تاريخية وحضارية عميقة لعبت ودرا مهما في رسم حدود العلاقة بين الاسلام والغرب، وقد أصبحت هذه الظاهرة حاضرة بقوة في واقعنا المعاصر، وخاصة في الدول الغربية بعد التفجيرات الشهيرة التي شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001. والتي اقترنت بتصاعد موجة العنصرية والكراهية ضد كل ما هو إسلامي.

وإذا انتقلنا للحديث عن وسائل الإعلام الغربية، وجدناها من أخطر المؤسسات التي تسهم في تشكيل صور نمطية عن الإسلام والمسلمين، حيث أن لها القدرة على صياغة تلك الصورة وحبكها بما يجعلها أكثر إثارة وجاذبية، خاصة وأنها تمتلك إمكانيات جبارة وقدرة هائلة على الانتشار وقوة الجذب والتأثير، فهي تعمل جاهدة على صناعة محتوى إعلامي نمطي مسيئ للإسلام والمسلمين وجعله مادة جماهيرية يتلقفها المشاهدون أو القراء فتؤثر بهم وترسخ في أذهانهم بشكل طبيعي، حيث أنها برعت في صناعة الاسلاموفوبيا وجعلها بضاعة سياسية، حيث منحت هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 التراخيص للأمريكيين من معلقين وصحفيين وسياسيين ومنظرين لتبني خطابات الاسلاموفوبيا، وقد اتجهنا في هذه الدراسة

لصحافة الإلكترونية الأمريكية من خلال نموذج صحيفة نيويورك تايمز ، حيث أردنا البحث في أعماق ظاهرة الاسلاموفوبيا والبحث في كيفية الطرح الإعلامي لها من خلال هذه الصحيفة والتقصي في الابعاد التاريخية والحضارية والقيمية الموظفة من طرف الصحيفة في تحليلها للظاهرة وتعليل أسباب الرهاب من الاسلام والمسلمين.

أولا- إشكالية وتساؤلات الدراسة:

نحاول من خلال هذه الدراسة الإجابة على التساؤل التالي: **ما هي المقاربات التفسيرية والتحليلية لظاهرة الإسلاموفوبيا في صحيفة نيويورك تايمز الإلكترونية ؟**

ويتفرع هذا التساؤل الرئيسي الى مجموعة من التساؤلات الفرعية وهي كالتالي:

- ماهي أهم محددات ظاهرة الاسلاموفوبيا في صحيفة نيويورك تايمز الإلكترونية؟
- ما هي أسباب ظاهرة الاسلاموفوبيا في صحيفة نيويورك تايمز الإلكترونية ؟
- ماهي علاقة الجالية المسلمة بظاهرة الاسلاموفوبيا في صحيفة نيويورك تايمز الإلكترونية ؟
- ماهي االمقاربات التاريخية والدينية الموظفة في معالجة ظاهرة الاسلاموفوبيا الصحيفة محل الدراسة؟
- ماهي الأبعاد القيمية والحضارية الموظفة في معالجة ظاهرة الاسلاموفوبيا في الصحيفة محل الدراسة ؟

ثانيا- أهداف الدراسة: تتمثل أهداف الدراسة فيمايلي:

- البحث في أهم زوايا معالجة ظاهرة الاسلاموفوبيا من طرف صحيفة نيويورك تايمز الإلكترونية.
- البحث في أهم الأسباب التي اعتمدها صحيفة نيويورك تايمز الإلكترونية في تحليلها لظاهرة الإسلاموفوبيا.
- إلقاء الضوء على علاقة الجالية المسلمة بظاهرة الاسلاموفوبيا حسب الصحيفة محل الدراسة.
- تقصي الابعاد التاريخية والدينية الموظفة في معالجة ظاهرة الاسلاموفوبيا الصحيفة محل الدراسة.

- تقصي الأبعاد القيمية والحضارية الموظفة في معالجة ظاهرة الاسلاموفوبيا في الصحيفة محل الدراسة.

ثالثا- منهج وأدوات الدراسة:

يشير المنهج إلى طريقة وصف الظاهرة المدروسة وتصويرها عن طريق جمع معلومات مقننة عن المشكلة وتصنيفها وتحليلها وإخضاعها للدراسة الدقيقة، وضمن هذا السياق، فإن هذه الدراسة تسعى للكشف عن الإطار التحليلي والتفسيري لظاهرة الاسلاموفوبيا في الإعلام الغربي، حيث أنه تم الاعتماد على المنهج الوصفي .

وبالنظر إلى سياق الإشكالية وطبيعة تساؤلات الدراسة فإن أداة تحليل المضمون تعد الأنسب للإجابة على تساؤلات هذه الدراسة، فهي عبارة عن أسلوب يحقق الاستدلال الموضوعي والمنظم للسمات الخاصة بالرسالة، وقد تم الاعتماد في تطبيق هذه الأداة على التحليل النوعي، لعينة المقالات الخاضعة لتحليل، حيث أن عملية التحليل ارتكزت على العناصر التالية:

- تحديد المحاور الأساسية لمعالجة موضوع الاسلاموفوبيا في الصحيفة محل الدراسة والذي تضمنت أربعة عناصر رئيسية هي: محددات ظاهرة الإسلاموفبيا/ أسباب الاسلاموفبيا/ الاسلام والمسلمين في المهجر/ الصراع بين العالمين الاسلامي والغربي.

- تحديد المقارابات التفسيرية الأساسية التي تم توظيفها في تحليل الظاهرة وتمثلت في: الممقاربة الدينية/ المقاربة الحضارية/ المقاربة التاريخية/ المقاربة الأمنية.

- تحديد الأبعاد القيمية في معالجة ظاهرة الاسلاموفوبيا من طرف صحيفة نيويورك تايمز، وتمثلت في: القيم الاجتماعية/ القيم الثقافية.

رابعا -مجتمع وعينة الدراسة:

يقصد بمجتمع الدراسة أنه ذلك الإطار الذي يحوي جميع مفردات الظاهرة التي يدرسها الباحث وبالنظر إلى إشكالية الدراسة وتساؤلاتها، فإن مجتمع الدراسة يتمثل في المادة الصحفية التي تناولت بعض المواضيع والقضايا المتعلقة بالعالم الاسلامي التي عالجتها صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية في موقعها الالكتروني: https://www.nytimes.com

إن دراسة مجتمع بالحجم المشار إليها يعد مستحيلا، ولهذا توجب علينا القيام بانتخاب عينة تكون ممثلة لمجتمع الدراسة من أجل الخروج بمجموعة من النتائج، فقد تم اختيار مجموعة من المقالات من

موقع الصحيفة بطريقة قصدية والتي تناولت بعض المواضيع والقضايا المرتبطة بالعالم الاسلامي، حيث بلغ عددها 17 مقالا. وهي مبينة في الجدول الآتي:

جدول رقم (01): عينة المقالات الخاضعة لتحليل

الرقم	عنوان المقال	رابط المقال
01	*Sabeen Mahmud, Martyr for Free Speech.*	https://www.nytimes.com/2015/04/30/opinion/sabeen-mahmud-martyr-for-free-speech.html
02	In debate over Patriot Act, lawmakers weigh terrorism risks VS. Liberties	https://www.nytimes.com/2015/06/02/us/politics/in-debate-over-patriot-act-lawmakers-weigh-risks-vs-liberty.html
03	Germany Arrests 4 It Says Planned ,Attacks on Muslim Sites	https://www.nytimes.com/2015/05/07/world/europe/germany-arrests-4-it-says-planned-attacks-on-muslim-sites.html
04	Probing the Heart of French Malaise	https://www.nytimes.com/2015/04/14/opinion/probing-the-heart-of-french-malaise.html
05	Old Tradition of Secularism Clashes With France's New Reality	https://www.nytimes.com/2015/02/06/world/old-tradition-of-secularism-clashes-with-frances-new-reality.html
06	Shooting Clouds Life as Both Muslim and Texan	https://www.nytimes.com/2015/05/07/us/muslims-garland-texas.html
07	A Norway Town and Its Pipeline to Jihad in Syria	https://www.nytimes.com/2015/04/05/world/europe/a-norway-town-and-its-pipeline-to-jihad-in-syria.html
08	The First Victims of the First Crusade	https://www.nytimes.com/2015/02/15/opinion/sunday/the-first-victims-of-the-first-crusade.html
09	Radical Islam, Nihilist Rage	https://www.nytimes.com/2015/01/04/opinion/sunday/kenan-malik-the-nihilist-rage-of-radical-islam.html
10	For the Mideast, It's Still 1979	https://www.nytimes.com/2015/07/29/opinion/thomas-friedman-for-the-mideast-its-still-1979.html
11	Defending the Faith' in the Middle East	https://www.nytimes.com/2015/05/24/opinion/sunday/defending-the-faith-in-the-middle-east.html
12	The Education of 'Jihadi John	https://www.nytimes.com/2015/03/03/opinion/the-education-of-jihadi-john.html
13	Pakistan Military Deals a Blow to Jihadists but Not to Ideology	https://www.nytimes.com/by/rod-nordland
14	French School Deems Teenager's Skirt an Illegal Display of Religion	https://www.nytimes.com/2015/04/30/world/europe/french-school-teenagers-skirt-illegal-display-religion.html
15	United in Outrage	https://www.nytimes.com/2015/01/12/opinion/after-the-charlie-hebdo-attack-the-french-join-hands.html
16	What Pakistan Knew About Bin Laden	https://www.nytimes.com/2014/03/23/magazine/what-pakistan-knew-about-bin-laden.html
17	The Unlikeliest of Coalitions	.https://www.nytimes.com/2014/09/21/opinion/sunday/can-adversaries-become-allies-to-fight-isis.html

المصدر: من إعداد الباحثة استنادا على الموقع الإلكتروني لصحيفة نيويورك تايمز

خامسا- الدراسات السابقة:

1- دراسة بعنوان: **الاسلاموفوبيا في الإعلام المكتوب الغربي: بحث في مصادر الصورة النمطية المعادية للإسلام** (افروجن، 2017)، حيث جاءت هذه الدراسة لتبرز من جهة طبيعة المصادر المغذية للصور النمطية عن الإسلام واستجلاء الأسباب التاريخية التي تقف وراء استمرار رجوع الوعي الجمعي للمجتمعات الغربية إلى مخزون الصور النمطية المسيئة للإسلام والمسلمين الضاربة في التاريخ القديم، ويستدعي العنصران الوقوف على أبرز العوامل التاريخية التي كان لها دور رئيسي في انتاج الصورة النمطية عن الدين الإسلامي ومعتنقوه، وكيف شارك الإعلام المكتوب الغربي في الترويج لظاهرة الاسلاموفوبيا وتشويه صورة الإسلام والمسلمين.

وقد توصلت الدراسة إلى أن جذور ظاهرة الاسلاموفوبيا امتدت عبر التاريخ ولاتزال مستمرة إلى يومنا هذ، فالعامل الأول يرتبط بالتعصب الشائع في الغرب ضد العرب والاسلام، وهو يرتبط مباشرة بتاريخ الاستشراق، والعامل الثاني هو الصراع بين العرب والصهيونية الاسرائيلية، والعامل الثالث هو الانعدام الشبه التام لأي موقف ثقافي يتعاطف مع الاسلام والمسلمين.

2- دراسة بعنوان: **الإعلام الغربي وصناعة الإسلاموفوبيا بعد هجمات 11 سبتمبر** 2001 (بن أزواو، الإعلام الغربي وصناعة الاسلاموفوبيا بعد هجمات 11 سبتمبر 2001، 2021)، حيث انطلقت الدراسة من الاشكالية التالية: كيف أصبح الإعلام الغربي وخاصة بعد هجمات 2021/11/09 يساهم في صناعة الإسلاموفوبيا؟، حيث سعت الدراسة إلى تتبع سير مصطلح الاسلاموفوبيا من منظور ابستيمولوجي- تاريخي بغية الوقوف على درجة تطور مفهومه الدلالي مع تحديد الأسباب الفاعلة التي تقف خلف إنتاج خطاب الكراهية ضد المسلمين في الإعلام الغربي.

وقد توصلت الدراسة إلى أن الإعلام الغربي وتغذيته لكراهية الإسلام والمسلمين تقف خلفها العديد من الأسباب الفاعلة، في مقدمتها الاستثمار السياسي لأحزال اليمين المتطرف في الغرب، ضف إلى ذلك أن الخوف من الإسلام يرتبط بالتاريخ ويتجسد ذلك عمليا في منطق صراع الحضارات سواء بينه وبين المسيحية أو بينه وبين فكرة الصهيونية، ذلك أن من يبرر هذا المنطق ينطلق من اختلاف شكل الثقافة الإسلامية عن الأشكال الأخرى، وفضلا عن هذا فإن تزايد العداء للإسلام كان في أحد فصوله يعزى إلى التأويل والفهم غير الدقيق للإسلام في ذاته، الأمر الذي أنتج حركات وايديولوجيات داخل عالم الإسلام تبرر منطق العنف، وهذا ما أصبح كحجة في وقت لاحق لدى الغربيين لنشر الفوبيا منه.

3-دراسة بعنوان: **الصورة النمطية للإسلام والمسلمين في الإعلام الأمريكي والمتغيرات الراهنة** (رزيوق، 2018)، حيث سعت الدراسة للبحث في دلالات الصورة النمطية التي يكونها الإعلام الأمريكي عن الإسلام والمسلمين والبحث في أهم الأسباب التي أدت إلى تكونها لدى الأمريكيين وتنامي الخوف من المسلمين أو ما يعرف ب " الإسلاموفوبيا " إلى مستوى أعلى مما كان عليه عقب هجمات سبتمبر 2001، ودور الخطاب السياسي والخطاب الإعلامي الأمريكي خلال حملات الانتخابات الرئاسية الأخيرة في ترسيخ هذه الصورة.

وقد توصلت الدراسة إلى أن ظاهرة صناعة الصورة النمطية المشوهة للإسلام وللمسلمين في الإعلام الأمريكي ليست ظاهرة إعلامية محضة، وإنما هي أوسع من ذلك، هي ظاهرة ثقافية وقد اشتركت فيها وسائل متعددة منها الخطاب السياسي وبعض الأعمال الاستشراقية والسينمائية التي تحاول تشويه الحضارة الإسلامية، إضافة إلى منابر أخرى كلها ساهمت إلى حد كبير في صنع هذه الصورة وفي تداولها وانتشارها وترسيخها في الوجدان الغربي.

سادسا- الاسلاموفوبيا " دلالات المصطلح وأسباب الظاهرة":

1-مفهوم مصطلح الاسلاموفوبيا: لقد أصبحت لفظة "إسلاموفوبيا" مصطلحا جامعا ودالا على عمليات التشويه والتمييع لصورة الاسلام والمسلمين انطلاقا من مرض الخوف منه، إن المصطلح الاكثر تعبيرا على عقدة الخوف والهلع من انتشار الاسلام ونفوذ قوته الدينية والثقافية والبشرية داخل المجتمعات والدول الغربية وترد كلمة "فوبيا Phobia" في القواميس النفسية بمعنى الخوف المرضي والرهبة (عزوزي ، 2006، صفحة 100) . ومصطلح "فوبيا Phobia" ذو المرجع السيكولوجي، فجذوره إغريقية تعني الخوف بشكل عام، وتستخدم في المجال الطبي لتصف الحالات المرضية النفسية الناتجة عن الخوف المبالغ فيه (الشيباني، 2014، صفحة 248).

وفي الإصطلاح العام يمثل المصطلح الأكثر تعبيراً عن عقدة الخوف والهلع من الاسلام. ويعد مصطلح الاسلاموفوبيا من المصطلحات الحديثة التناول نسبيا في الفضاء المعرفي المعنى بصفة خاصة العلاقة بين الإسلام بالغرب، وقد تم تعريف المصطلح على أنه جزء من علم الاضطرابات النفسية للتعبير عن ظاهرة الرهاب أو الخوف المرضي من الإسلام (برش و قارش ، 2018، صفحة 359)، ولقد ظل المصطلح غير محدد في معناه على الرغم من شيوعه وتداوله إلى غاية سنة 1997، حيث تم الترويج للمفهوم في بريطانيا من قبل منظمة RUNNYMED TRUST التي أصدرت تحت اشراف البروفيسور غوردن كونواي Conway نائب مستشار جامعة ساسكس دراسة تحت عنوان: "الاسلاموفوبيا: واقع لا خيال fact not fiction Islamophobia :"، حيث يعرف التقرير الاسلاموفوبيا بنظرة إلى العالم تنطوي على كراهية ومخاوف لا أساس لها ضد المسلمين، تؤدي إلى ممارسات تمييزية واقصائية (بخوش و سراي، صفحة 234).

أما المجلس الأوربي فقد عرف في التقرير الذي أصدره سنة 2005 عن الإسلاموفوبيا وتأثيرها على الشبيبة، عرف الإسلاموفوبيا بأنها" التخوف أو الأحكام المسبقة اتجاه الإسلام والمسلمين وما يتعلق بهم، سواء تم التعبير عنه بالأشكال اليومية العنصرية أو التميز أو في أشكاله الأكثر عنفا (عطوات، 2020، صفحة 203).

وحسب وكالة الاتحاد الاوروبي للحقوق الأساسية تعد الاسلاموفوبيا مصطلحا عاما للمعاملة التمييزية التي يخضع لها الأفراد في العالم الإسلامي، وتستخدم" الإسلاموفوبيا "اليوم كمصطلح تندرج تحته أنواع مختلفة من التمييز الديني ضد المسلمين، ويكتسب المصطلح تدريجيا قبولا علميا كمصطلح منفصل عن الصورة النمطية والعنصرية وكراهية الأجانب تجاه المسلمين. (عطوات، 2020، صفحة 203).

هذا وقد انتقل المصطلح أي الإسلاموفوبيا (رهاب الإسلام) من اللغة الإنجليزية إلى بقية لغات العالم دون استثناء وبقي محافظا على صيغته الاصطلاحية ومعناه الدلالي بالشكل نفسه، فعلي سبيل المثال في اللغة الفرنسية كان أول من استعمله هو ماليه اميل (Mallet Emile) في مقال له بعنوان: "ثقافة وحشية" نشره في جريدة Le Monde وتحدث فيه عن صنف من الاسلاموفوبيا الزاحفة (بن أزواو، الاعلام الغربي وصناعة الاسلاموفوبيا بعد هجمات 11 سبتمبر 2001، 2021، الصفحات 867-868).

وفي سنة 2017 ، بمناسبة الذكرى العشرين لنشر التقرير منظمة RUNNYMED TRUST ، تم إصدار تقريرًا محدثًا بعنوان:" الإسلاموفوبيا: لا يزال التحدي لنا جميعا". واعترف التقرير أنه خلال العشرين عامًا التي تلت ذلك "نما التحيز ضد المسلمين أكثر فأكثر"، حيث قدم التقرير تفسيرا لزيادة العداء اتجاه المسلمين (Torrance, Lipscombe, Piper, Zayed, & Little, 2021):

يدور مصطلح الاسلاموفبيا حول تكريس صفات سيئة يتهم بها الاسلام، ويتم زرعها في أذهان الغرب بوسائل مختلفة، وتتركز هذه الصفات في أن الاسلام كما يزعمون، دين متحجر منغلق عدواني يؤمن بالعنف ويرفض الآخر، ويهدد جيرانه، ولا يعترف بالثقافات الأخرى لدى الشعوب وبالتالي يناصبها بالعداء (قجة، 2006، صفحة 162)

2- أسباب ظاهرة الإسلاموفوبيا: إن الموجهة المحمومة للعداء للإسلام والمسلمين تجعلنا نطرح العديد من التساؤلات هل هي فعلا وليدة احداث الحادي عشر من سبتمر، أم هي وليدة ظهور بعض التنظيمات الارهابية على رأسها تنظيم "القاعدة"، و"داعش" أم هي وليدة النظام الدولي الجديد الذي ظهر بعد سقوط الاتحاد السوفياتي أم الظاهرة أقدم من كل هذا ولها صلة بالصراح الحضاري والتاريخي وحتى القيمي بين العالمين الاسلامي والغربي؟، ولعل الاجابة عن هذه التساؤلات تجعلنا نقف فعلا أمام الأسباب الحقيقية لتفسير هذه الظاهرة، والتي يمكن أن ندرجها في العناصر التالية:

-الأسباب السياسية: فقد حاول بعض منظري المخابرات الأمريكية الايهام بأن الإسلام عدو للحضارات المعاصرة كلها، وحاول هؤلاء المنظرون إثارة النعرات في مناطق شتى في العالم .بأساليب مختلفة تمتد عبر القارات، نعرات عنصرية وعرقية ومذهبية وتاريخية في محاولة محمومة لتفتيت العالم،ولعل كتابات لندسي في هذا المجال خير دليل على توجه الفكر السياسي المشحون بالكراهية، ومن أبرز كتاباته، كتابه" الكراهية الأبدية"، وفيه يقول:" إن الخطر الأعظم الذي يتهدد الحرية والسلام العالمي اليوم هو الأصولية الإسلامية، وإن الكراهية تجاه هذه الأصولية يتجاوز عمرها أربعة ألاف سنة، وإن على العرب أن يتخلوا عن كل طموحاتهم السياسية والاقتصادية ويسلموا بوجود إسرائيل حتى يتحقق السلام (قجة، 2006، صفحة 165).

ومنذ انتهاء الحرب الباردة انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بزعامة العالم لم يجد صناع القرار الأمريكي من عدو جديد سوى الإسلام الزاحف من الشرق إلى الغرب واصطلحوا على تسميته الخطر الإسلامي إلى الحد الذي قال فيه هنري كيسنجر مقولته الشهيرة " لم يعد لنا من عدو في القرن الواحد والعشرين سوى الإسلام داعياً إلى وأد القنبلة النووية الإسلامية في المهد" (لعقاب، 2007، الصفحات 31-32).

كما أن تصاعد اليمين المتطرف (الجنس الأبيض) في أوروبا والغرب الذي يؤمن فيه بتفوق العرق الأبيض على سائر الأجناس الأخرى، إذ كانت أبرز تجلياته صعود بعض أعضاء اليمين المتطرف إلى الحكم في بعض الدول الغربية، هذا اليمين الذي يقوم على حمل مشاعر الكراهية تجاه كل ما هو غير منحدر من الجنس الأبيض حتى وصلت الأمور في أستراليا بأن يرفع اليافطات بأن الإسلام عدو للغرب، وظهور

استطلاعات رأي في ألمانيا بوجود ما نسبته 40% من المستطلع آراؤهم يطالبون بإغلاق الحدود الألمانية في وجه هجرة المسلمين إليها (العودات، 2020).

- **الأسباب التاريخية**: استمرار العلاقة الغير مستقرة بين الاسلام والغرب عبر التاريخ وهي علاقة معقدة سمتها الغالبة حصول التواصل حينا والتنافر حينا آخر، لكن التنافر وحصول الصدامات والصراعات كان أمرا غالبا ومن أبرز مظاهر الصراع عبر التاريخ الحروب الصليبية، ولذلك اعتبر الاسلام دينا غريبا يشكل خطرا على الغرب، ويرجع السبب الرئيسي في استمرار هذا العداء إلى أن الغربيين ورثوا ذلك منذ قرون عديدة، حيث يقول المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون Gustave le Bon: إننا لسنا احرارا قط في تفكيرنا حول بعض المعلومات، فقد استمر التعصب الذي ورثناه ضد الإسلام ورموزه خلال قرون عديدة حتى أصبح جزءا من تركيبنا العضوي (عزوزي ، 2006، صفحة 102)
- **الأسباب الحضارية**: إن العلاقة بين الشرق والغرب تتعرض منذ قرون إلى قدر كبير من الشد والجذب الفكري والديني، فالتنافر الحاصل بين الحضارتين الإسلامية والغربية بدأ منذ ظهور الحضارة الإسلامية حيث أن هذا الصراع هو ليس وليد النظام العالمي الجديد الذي جاء بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وإنما هو ذو خلفية تاريخية، ويرجع محمد عابد الجابري: "أن الصراع بين الإسلام والغرب لعدة عوامل تتمثل أساسا في عامل المصلحة، ثم الذاكرة الثقافية التي تتخذ من الإسلام ذلك الخصم التاريخي فهو دون شك صراع تاريخي" (الجابري، 1995، صفحة 146)، ولقد عبر صامويل هنتنجتون عن هذه الفكرة بقوله: "إذا انتهى الأعداء (أعداء الحرب الباردة) فعلينا أن نلقى أعداء جدد لماذا؟ لأن التاريخ لا يستطيع أن يسير إلا بوجودهم" (مسوح، 2009، صفحة 48).
- **الأسباب الأمنية**: لقد شكلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر الشرارة التي تلقفها المسئولون الأمريكيون وليشعلوا حرباً دعائية عسكرية ضروساً لا هوادة فيها ضد الدول الإسلامية، قادها الرئيس الأمريكي بوش الابن الذي أعاد إلى الأذهان صورة الحملات الصليبية تسانده في ذلك وسائل الإعلام الأمريكية، وفي هذا الصدد يقول فهمي هويدي:" لقد ارتكب الإعلام الغربي جريمة تاريخية في حق المسلمين على المستوى الاخلاقي والإنساني، كما لعب دوراً في إفساد العلاقة بين المسلمين والغرب" (نافع، 2004، صفحة 42). وكان للإعلام الغربي نصيب كبير في ارتفاع وتيرة الإسلاموفبيا،"تمكن الإعلام الغربي بتقنياته الهائلة وتأثيره الواسع من نحت صورة نمطية غاية في السلبية عن الإسلام والمسلمين، صورة تحمل كل صفات القبح والإرهاب والتخلّف... وما شئت من النعوت القدحية". (شومان، 2019)، كما أعطت الأعمال الإرهابية أوراقاً رابحة لإلصاق العديد من التهم والمصطلحات بالإسلام والمسلمين ومن أبرز هذه المصطلحات نجد مايلي: الارهابين، الخطر الأخضر، الأصولية الاسلامية.

وإذا أضيفت الصورة التي زرعها داعش في نفوس الغربيين قد أساءت إلى العلاقة الإسلامية الغربية عموما، فإن موجات لجوء الملايين ودقهم ابواب اوروبا بأعداد غير مسبوقة شكلت ركيزة أساسية في تثبيت الإسلاموفوبيا كظاهرة دائمة ركز عليها دونالد ترامب في حملته الانتخابية، ولقيت صدى ايجابيا في الغرب.

-**الأسباب الاجتماعية والثقافية**: تزايد أعداد المسلمين وابنائهم واحفادهم في البلدان الغربية ودخول نخبة منهم إلى قبة البرلمانات الأوروبية يمكن أن يؤدي في المستقبل المنظور إلى امكانية بروز دور للجاليات العربية والاسلامية على القرارات السياسية للدول المضيفة (عزوزي ، 2006، صفحة 102).إضافة إلى هذا ظهور أزمة اللاجئين التي شهدتها الدول الغربية نتيجة لسوء الأوضاع الأمنية في العديد من الدول العربية، حيث ينظر الى ذلك أنها تؤثر في الطبيعة الديموغرافية للدول الأوربية والذي سوف يؤدي حتما إلى تشكل أزمة هوية ثقافية ودينية ، حيث تظل الأحزاب اليمينية في أوروبا ملتزمة بالفكرة القائلة إن المسلمين والمهاجرين واللاجئين يشكلون تهديدًا للأمن الشامل لأوروبا وهوياتها العلمانية والمسيحية الفريدة.

من خلال ما تم تناوله نستنتج أن الأسباب السابقة الذكر كان لها الأثر البالغ في خلق العداء والكراهية بين العالمين الغربي والإسلامي، وخلق حالة من الخوف المرضي اتجاه الاسلام كدين واتجاه المسلمين كأمة والذي كان أساسه قائما على العديد من الأسباب والعوامل ذات أبعاد ومرجعيات مختلفة سواء كانت تاريخية وأمنية اجتماعية وثقافية وسياسية....

سابعا- نتائج الدراسة التحليلية:

حول التمثل الغربي المعاصر الإسلام إلى فوبيا في حد ذاته، وجعل الخوف المرضي منه الهاجس الأول للغربي البسيط ورجل السياسة وللمفكر على السواء، وتكاد هذه المصطلحات تترادف في الفكر الغربي وهي الإسلام بصفته فوبيا وبصفته إرهابا، والإرهاب بصفته فوبيا وبصفته إسلاميا (الشيباني، 2014، صفحة 204)، حيث حاولنا من خلال الجدول التالي ابراز أهم المحاور التي وظفتها الصحيفة في تناولها ظاهرة الإسلاموفوبيا واستعراض طريقة تحليلها:

جدول رقم (02): محاور تحليل وتفسير ظاهرة الاسلاموفوبيا في صحيفة نيويورك تايمز الإلكترونية

محددات ظاهرة الاسلاموفوبيا	المرجعيات التفسيرية والتحليلية لظاهرة الاسلاموفوبيا
انتشار الفكر الجهادي	المرجعية التاريخية: الجهاد في أفغانستان/ الجهاد في العصور الوسطى/ الحروب الصليبية المرجعية الدينية: الجهاد أيديولوجية دنية عنيفة/ التنظيمات الارهابية تستلهم أفكارها من الشريعة الاسلامية المرجعية الأمنية: التحاق عدد من مواطني الدول الغربية بالتنظيمات الارهابية
اعتناق الاسلام وسيادته في الغرب	المرجعية الدينية: فوبيا أسلمة الغرب، زيادة عدد معتنقي الاسلام، زيادة عدد المساجد، ..... المرجعية الأمنية: تحول معتنقي الاسلام الى ارهابيين المرجعية الثقافية: فقدان الهوية الغربية المسيحية
الإسلام العدو المثالي للغرب	المرجعة الحضارية والقيمية: صراع في القيم الدينية/ اعتبار الاسلام قانون/ فصل الدين عن الدولة المرجعية الأمنية: الاسلام وتعاليمه كانت سببا في الاخلال بالمنظومة الأمنية للمجتمع الغربي
أسباب ظاهرة الارهاب	**تحليل الأسباب**
الطائفة السنية سبب الإرهاب	السبب الرئيسي لظهور التنظيمات الإرهابية في العالم الإسلامي يرجع إلى الطائفة السنية التنظيمات الإرهابية هي تنظيمات سنية "ظهرت منذ بداية الاحتلال الأمريكي للعراق
الإسلام السياسي سبب الإرهاب	طموح الإسلاموية ناتج عن حب العودة إلى العهد القديم والماضي الأسطوري والطموح إلى إيجاد خليفة جديد بإمكانه لم شمل العالم الإسلامي.
بعض الدول الإسلامية تصدر الإرهاب	جميع دول الخليج العربي، بدءاً من المملكة العربية السعودية، هي تدعم وتنظم وتمول الجماعات الإسلامية
التعصب الديني	المتطرفين يطمحون لإحياء الماضي والعيش بطريقة ومنهج العصور الوسطى بعيداً عن الواقع المعاصر التنظيمات الإرهابية تحارب من أجل تحقيق شريعة الله التي وضعت كلها في كتاب مقدس (القرآن) الإسلام يعيش أزمة عميقة، واخطرها التنظيمات الإرهابية التي تستلهم أفكارها من الشريعة الإسلامية
الإسلام والمسلمين في المهجر	**تفسير سبب الخوف من الجالية المسلمة**
المساجد أماكن للتطرف	اعتبار المساجد مؤسسات إرهابية يجتمع فيها المتطرفون
حضر الحجاب وباقي الرموز الدينية	قيم ومبادئ العلمانية التي تتنافى مع القيم الإسلامية
المهاجرون يشكلون خطر على الغرب	الأعمال الارهابية التي يقوم بها العديد من أبناء المهاجرين/ اعتناق المواطنون الأصليون الديانة الإسلامية والتي تجعل منهم إرهابيين متمرسين
الإسلام لا يتوافق مع القيم الغربية	الإسلام يفرض ممارسات يومية محددة على من يدينون به وهي لا تتوافق مع القيم الغربية: الصلاة، الحجاب، تعدد الزوجات، عدم قبولهم حرية التعبير.... الإسلام زعزع تماسك بنية المجتمع الغربي وأدى إلى تفككه مما ساهم في إحداث خلل فيه ، الإسلام وتعاليمه كانت سببا في الإخلال بالمنظومة الأمنية للمجتمع الغربي.
صعوبة التعايش مع المسلمين	بسبب اختلاف عقيدتهم التي تنعكس على مظاهر حياتهم اليومية، والتي تنعكس بدورها سلبا على المجتمعات الغربية
الصراع بين العالمين الإسلامي والغربي	**تحليل أسباب الصراع بين العالمين الاسلامي والغربي**
أحداث 11 سبتمبر	استحداث قانون "التخويل باستخدام القوة" لمواجهة الإرهاب
الاحتلال	حقبة الاحتلال تعد من أهم العوامل التاريخية التي ساهمت في تأصيل بذور الشقاق بين العالمين الإسلامي والغربي، وموجة العداء والانتقام لتزال قائمة إلى يومنا هذا
الحروب الصليبية	التنظيمات الإرهابية تستلهم أفكارها وتوجهاتها الايدلوجية من الماضي ولاسيما حقبة الحروب الصليبية

المصدر: من إعداد الباحثة استنادا على عينة المواد الخاضعة لتحليل

تظهر البيانات الكيفية في الجدول رقم (02) أعلاه عناصر تحليل وتفسير ظاهرة الاسلاموفوبيا في صحيفة نيويورك تايمز الإلكترونية، حيث تم التطرق لأهم المقاربات التفسيرية والتحليلية لشرح الظاهرة وتناول الحج الاقناعية لتبرير الخوف المرضي من الاسلام والمسلمين وذلك حسب العناصر التالية:

1-محددات ظاهرة الاسلاموفوبيا: المقاربات التفسيرية والتحليلية لظاهرة الاسلاموفوبيا

لقد بينت نتائج الدراسة غلبة الاتجاهات السلبية في تغطية موضوع الإسلاموفوبيا، وهذا ما يساهم في دعم وتأييد الصورة المشوهة والمغلوطة عن الإسلام والمسلمين ونشر مشاعر الخوف والعداء في أوساط المجتمعات الغربية، حيث أظهرت النتائج أنه تم تفسير هذا الموضوع وفق المحددات التالية:

المحدد الأول: انتشار الفكر الجهادي: الجهاد هو أحد أبرز المؤشرات التي اعتمدت عليها الصحيفة في تناولها ظاهرة الإسلاموفوبيا، حيث أنه أصبح لصيقا بمختلف معاني الإرهاب وصار فيه من التدليس والخلط المتعمد وغير المتعمد الشيء الكثير، خصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من شهر سبتمبر2001. حيث عالجت الصحيفة هذه الظاهرة محاولة تقديم تحليل منطقي يتلائم وتوجهاتها السياسية والفكرية، والتي ارتكز على المرجعيات التالية:

-**<u>المقاربة التاريخية</u>**: حاولت صحيفة نيويورك تايمز تفسير الإسلاموفوبيا أو الخوف المرضي من الإسلام بالتركيز على عنصر انتشار الفكر الجهادي، معتمدة في تفسيرها للظاهرة على المرجعية التاريخية متناولة إياه ضمن حقبة العصور الوسطى، فمعنى الجهاد حسب الصحيفة هو إيديولوجية دينية عنيفة ارتبطت تحديداً بالحروب الصليبية الأولى وهي تعد كذريعة للإرهاب الإسلامي" (Jacoby, 2015)، مشيرة إلى أن التنظيمات الإرهابية تستلهم أفكارها الجهادية العنيفة من التاريخ الإسلامي، فهو "مقياس لكيفية بقاء قوة الأيديولوجية الإسلامية المسلحة في العديد من الدول الإسلامية" (Nordland, Pakistan Military Deals a Blow to Jihadists but Not to Ideology, 2015). وقدمت الصحيفة مثالاً على ذلك دولة باكستان: " فالقومية الدينية التي روجتها الدولة الباكستانية خلال العقود الأخيرة، أدت إلى انتشار المنظمات الجهادية العنيفة (Rumi, 2015). كما تناولت الصحيفة محطة تاريخية أخرى كانت بمثابة الانطلاقة الفعلية للحركة الجهادية العنيفة المعاصرة، والتي تمثلت تحديدا في الغزو السوفياتي لأفغانستان، فقد ورد هذا في مقال للصحفي (Thomas L.Friedman) بعنوان: «**الشرق الأوسط لايزال في عام 1979**»، عبر فيه على أن " الإسلام فقد فرامله في عام 1979، فالغزو السوفياتي لأفغانستان في عام 1979 الذي أدى إلى نشوء الحركة الجهادية السنية وعلى رأسها تنظيم القاعدة" (L.Friedman, 2015).

- **<u>المقاربة الأمنية</u>**: عبرت الصحيفة عن قلقها من ظاهرة انتشار الفكر الجهادي التي اكتسحت العديد من المجتمعات الغربية، حيث جعلت العديد من الشباب يلتحقون بالعديد من التنظيمات الإرهابية وفي مقدمتها تنظيم (داعش)، فالخطر الحقيقي حسب الصحيفة يكمن بعد عودة تدفق "الأمريكيين المسلمين الراديكاليين الذين يسافرون إلى سوريا للانضمام إلى القتال وربما يعودون كمسلحين ومدربين جيداً لتنفيذ هجمات". وهذا ما سيشكل خطراً على أمن المجتمع الأمريكي، واستدلت

الصحيفة على ذلك من خلال افتتاحية كتبتها إثر هجمات (شارلي إيبدو) جاء فيها: " الهجمات التي تعرضت إليها فرنسا من طرف الجهاديين المخضرمين الذين يعودون إلى أوروبا بعد التدريب والقتال مع مجموعات إرهابية في الخارج" (The Editorial Board, 2015). وضمن سياق هذه الفكرة توجهت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تبني مشروعا أمنيا يقوم على مراقبة تحركات المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية من خلال التجسس على عادات صلاتهم في المساجد والتنصت عليهم في المقاهي والمطاعم ".

المحدد الثاني: اعتناق الإسلام وسيادته في الغرب: إن "التخوف من أسلمة الغرب ليس بالأمر الجديد، ولهذه الظاهرة أسباب عدة من بينها زيادة عدد المسلمين في أوروبا"، خصوصا في ظهور أزمة اللاجئين نتيجة سوء الأوضاع الأمنية التي تعيشها عدد من الدول الإسلامية، وتناولت هذا العنصر ضمن:

- المقاربة الدينية: عبرت بشكل صريح ومباشر عن اتجاهها السلبي نحو فكرة اعتناق الإسلام في المجتمعات الغربية "فالرغبة في فرض أي دين على أي مجتمع هي فكرة بغيضة بطبيعتها" (Fernandez & Goodstein, 2015). وتضيف الصحيفة أنه "مع استمرار نمو أعداد المسلمين ونفوذهم الاقتصادي، يظهر أن هناك متطرفون مسلمون في الولايات المتحدة يشجعهم المتطرفون في الخارج، حيث يرى النشطاء المحافظون أن هدف المسلمين في الولايات المتحدة هو فرض القانون الإسلامي أو الشريعة تدريجيا" (Fernandez & Goodstein, 2015).

- المقاربة الاجتماعية: عبرت الصحيفة عن القلق الذي تعيشه المجتمعات الأوروبية وعلى رأسها المجتمع الفرنسي، حيث "تبلور هذا القلق الجماعي عندما نشر اثنان من أبرز الكتاب في البلاد - وهما "إريك زيمور" و"ميشيل هويلك" كتبا رائدة تحذر من أسلمة فرنسا الزاحفة، حيث أن كلا الرجلين يتوقعان أن تقع فرنسا فريسة للإسلام المتشدد" (Emmanuel Gobry, 2015). ويحذر (زيمور) من أن الأسلمة تشكل خطراً، لأن الكآبة الفرنسية تسببت في فقدان الثقة في هوية فرنسا نفسها، التي أضعفت بشكل مميت ويمكن أن يحل محلها مسلمون واثقون لا يحملون أي شكوك ذاتية (Emmanuel Gobry, 2015). وحسب الصحيفة أن ظاهرة فوبيا أسلمة الغرب لم تقتصر فقط على المجتمع الفرنسي، وإنما وصلت إلى المجتمع الألماني، حيث شارك الآلاف من الألمان في مسيرات أسبوعية نظمتها مجموعة تعرف باسم **بيغيدا**، ضد أسلمة الغرب (Eddymay, 2015).

المحدد الثالث: الإسلام هو العدو المثالي للغرب: حاولت الصحيفة تقديم تفسيرا تبين فيه أن الإسلام هو العدو المثالي للغرب مستندة في تبرير اتجاهها على المرجعيات التفسيرية التالية:

- المقاربة التاريخية: حيث قدمت مثالا تاريخيا تستدل من خلاله على الدور الذي لعبه الدين الإسلامي في حث مشاعر الكره والعداوة لدى المسلمين اتجاه الغرب أثناء فترة حكم الإمبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى: "هي الأكثر إثارة في توظيف الجغرافيا السياسية للدين، في عام 1914 أصدر الشيخ الإسلام الذي أشرف على الشؤون الدينية للإمبراطورية خمس فتاوى، ترجمت إلى

لغات عديدة وحث المسلمين في الإمبراطوريات البريطانية والفرنسية والروسية للثورة. ولم يقم الوكلاء العثمانيون بتوزيع المنشورات الإسلامية فحسب بل أيضا البنادق (Motadelmay, 2015)،

-المرجعية الحضارية والقيمية :القيم التي يتضمنها الإسلام تتعارض مع القيم الغربية التي تقوم الأسس العلمانية.

-المرجعية الدينية: الجماعات الإرهابية تستلهم أفكارها من القرآن والحديث النبوي في القيام بهجمات إرهابية ضد عدد من الدول الغربية.

-المرجعية الاجتماعية: الإسلام زعزع تماسك بنية المجتمع الغربي وأدى إلى تفككه مما ساهم في إحداث خلل في بنية ووحدة المجتمع الغربي، الإسلام وتعاليمه كانت سببا في الإخلال بالمنظومة الأمنية للمجتمع الغربي.

1-تحليل أسباب ظاهرة الإرهاب وعلاقتها بالإسلام والمسلمين:

توفر أعمال الإرهاب ظروفا مواتية لاستهداف المسلمين في المجتمعات الغربية، حيث تضاعفت الاعتداءات على المسلمين خصوصا المرأة المحجبة. كما تصاعدت ظاهرة الإسلاموفوبيا لتخويف من الإسلام وتشويهه في نظر الغربيين، وقد حاولت صحيفة نيويورك تايمز الإلكترونية تقديم مجموعة من الأسباب والعوامل التي ساهمت في استفحال ظاهرة الإرهاب وارتباطها بالعالم الاسلامي تحديدا وذلك وفق العناصر التالية:

-الإرهاب بسبب الطائفة السنية: حيث أنها ترى أن أصل ظاهرة الإرهاب في المجتمعات الإسلامية هم المسلمين من الطائفة السنية وما يحملونه من فكر متطرف يقوم على المبادئ الوهابية والذي يدعو للجهاد والعنف، وقد ساد هذا الشعور على نطاق واسع في العالم الإسلامي بشكل عام وفي العالم العربي بشكل خاص بأن المستهدف الأول والأخير من الحملات الدولية المزعومة لمكافحة ما يسمى بالإرهاب هم المسلمون السُنة تحديداً. ومما زاد الطين بلة، وأكد مخاوف السنة أن الصحيفة خرجت بعنوان عريض على صدر صفحتها الأولى يقول: «**طائرات أمريكا وقوى التحالف الدولي تستهدف الإرهابيين السُنة في سوريا والعراق**». ولقد سيطرت هذه الفكرة على معظم المواضيع التي تناولت موضوع الإرهاب، حيث أن الصحيفة كلما تتناول مجموعة إرهابية أو تنظيماً إرهابيا إلا ووصفته بأنه سنيا فنجد مثلا: في مقالة بعنوان: «**روسيا ترسل طائرات حربية وخبراء لمساعدة الجيش العراقي**» للصحفي رود روندلند Rod Rondland)) يقول فيها: "طائرة حربية روسية جديدة في الحرب ضد المتطرفين السنة بينما أعلن المتطرفون أن زعيمهم هو الخليفة أو الحاكم المطلق لجميع المنظمات الجهادية في العالم" (Nordland، 2014).

- **الإسلام السياسي سبب الإرهاب:** اعتبرت الصحيفة أن الاسلام السياسي من أهم الأسباب التي ساهمت في استفحال ظاهرة الإرهاب في المجتمعات الإسلامية، حيث نشرت الصحيفة مقالا بعنوان:

«**عدمية الإسلام الراديكالي**»، للصحفي كنان ماليك Kenan Malik)) يقول فيه: "هناك أشكال كثيرة من الإسلاموية، من طالبان إلى حماس، من الإخوان المسلمين إلى بوكو حرام. ما لديهم من القواسم المشتركة هو القدرة على دمج العداء تجاه الغرب مع الكراهية للحداثة، وعلى ما يبدو لتوفير بديل لكليهما، فالإسلاميين يتزوجون من النضال السياسي مع حساسية اجتماعية متحفظة، وعداء للعولمة مع احتضان المجتمع العالمي من المسلمين المؤمنين. فالجهادية توفر أيديولوجية إسلامية ذات شكل عسكري وتبدو على شكل حركة اجتماعية عالمية، إن الذبح في بيشاور وعمليات قطع الرأس الجماعية التي تقوم بها الدولة الإسلامية، يخبرنا شيئا عن طابع الإسلام المعاصر والإسلاموية (Kenan , 2015). ويضيف قائلا: "يرى الكثير من الليبراليين، بأن التنظيمات الإرهابية لا تمثل "الإسلام الحقيقي" ، حيث يجادل الكثيرون بأن أعمال هذه الجماعات تحركها السياسة وليس الدين ،كما أنه ليس من المنطقي أن نفكر في التنظيمات الإرهابية على أنها مجرد دوافع سياسية، أكثر من مجرد تخيلها بأنها دينية بحتة، فالإسلام الراديكالي هو الشكل الديني الذي يعبر عن نفسه ضمن الغضب السياسي الوحشي" (Kenan , 2015).

- **بعض الدول الإسلامية تصدر الإرهاب:** ترى الصحيفة أن هناك مجموعة من الدولة المسلمة كانت سببا رئيسيا في استفحال ظاهرة للإرهاب في المجتمعات الإسلامية، من بين هذه الدول حسب الصحيفة نجد مثلا: باكستان حيث اعتبرتها أحد أهم الدول المصدرة للإرهاب، حيث أنها قامت بحماية ورعاية تنظيم طالبان من أجل تقوية نفوذها في المنطقة، حيث تم وصفها بالدولة المخادعة فحسب الصحيفة "الاستراتيجية التي تطورت في باكستان تتمثل في إظهار التعاون مع الكفاح الأمريكي ضد الإرهاب في الوقت الذي يجري فيه التحريض سراً على حركة طالبان وتنسيقها، وهنا يمكن تمييز العلاقة الحقيقية لباكستان بالتطرف المسلح، وهي حقيقة كانت الولايات المتحدة بطيئة في تقديرها، ورفضت في وقت لاحق المواجهة المباشرة (Gall، 2014).

كما اعتبرت الصحيفة المملكة العربية السعودية وقطر والإمارات العربية المتحدة، حيث ساعدت العديد من هذه الدول لفترة طويلة الجماعات الإسلامية المتشددة، فعلى الرغم من أن قطر تستضيف أكبر قاعدة عسكرية أمريكية في المنطقة، فقد دعمت مجموعة من الجماعات الإسلامية (بما في ذلك المتطرفين الإسلاميين في سوريا) بالملاذ الآمن والمساعدات المالية والأسلحة، وسمحت السعودية للشيوخ المرتبطين بالفرع السوري لتنظيم القاعدة بجمع الأموال بشكل علني (Board, 2014).

- **الإرهاب بسبب التعصب الديني:** اعتبرت الصحيفة أن التعصب الديني هو من أبرز الأسباب التي أدت لاستفحال الظاهرة الإرهابية في المجتمعات الإسلامية، فالتعصب هو الشعور بالتفوق والذي يقدمه الإسلام الراديكالي (Higgins, 2015). وقد أشارت الصحيفة إلى أن التعصب بأنه هو مستلهم من تعاليم الشريعة الإسلامية والتي مصدرها القرآن، فالجماعات الإرهابية تستغل المساجد والمدارس لنشر هذه التعاليم والتي هي أماكن لإعداد الجهاديين والانتحاريين واستدلت الصحيفة على ذلك من خلال تقديمها لعدد من الأدلة حول التنظيمات الإرهابية من بينها نجد تنظيم طالبان: "يوجد عدد من أفراد طالبان الذين يعيشون في منازل أكبر خلف أسوار عالية، وغالبا ما تكون بجوار المساجد والمدارس التي يديرونها" (

Gall، 2014)، حيث نقلت الصحيفة تصريح أحد مديري هذه المدارس في منطقة كويتا في باكستان يقول: "نحن نعلم الطلاب القرآن، وفي القرآن هو مكتوب أنه من واجب كل مسلم الجهاد، هذا كل ما نقوله لهم هو ما يوجد في القرآن الكريم، ثم يرجع الأمر إليهم أن يذهبوا إلى الجهاد أم لا " (Gall، 2014).

3- الإسلام والمسلمين في المهجر: تفسير أسباب الخوف من الجالية المسلمة: تتحدد أسباب الخوف من المسلمين في المهجر حسب الصحيفة في الآتي:

- **المساجد أماكن للتطرف:** عبرت الصحيفة عن قلقها من المساجد، وذلك لأسباب أمنية معتبرة إياها عبارة عن مؤسسات إرهابية متطرفة تلعب دوراً مهما في استدراج الشباب المسلمين في المهجر للالتحاق بالتنظيمات الإرهابية في الخارج، "فالسياسيين والعلماء ألقوا باللوم على المساجد، والتي تعد أماكن لاجتماع المسلمين النشطاء من الجماعات المتطرفة" (Higgins, 2015).

- **حظر الحجاب وباقي الرموز الدينية:** قدمت الصحيفة هذا العنصر وفق **مرجعية تتعلق بالهوية الاجتماعية الغربية**، حيث أشارت إلى أن الجالية المسلمة في فرنسا لا تتناغم مع مبادئ العلمانية الفرنسية والتي تنص على حضر استعمال الرموز الدينية داخل المؤسسات التعليمية ومؤسسات العمل وكذلك حضر الحجاب الكامل الذي يغطي الوجه في الأماكن العامة وكذلك يحضر على الطالبات ارتداء أوشحة الرأس لأنهن يزعجن ويشوشن على النشاط المدرسي (Erlanger & de Freytas-Tamura, 2015)،

- **المهاجرون يشكلون خطر على الغرب**: قدمت الصحيفة العديد من التهديدات التي تواجهها الدول الغربية، لاسيما عندما يتحول مواطنوها الأصليون إلى الديانة الإسلامية والتي تجعل منهم إرهابيين متمرسين، فقد نشرت الصحيفة قصة مواطن نرويجي اعتنق الإسلام "تحول إلى الإسلام بعد أن غير اسمه الأول من توρليف إلى عبد، وقالت والدته ريبيكا: " كان يقرأ طوال الوقت، وهي تلوح بنسخة من القرآن الذي وجدته في غرفة نوم ابنها، وجهاز إلكتروني يقرأ الصلاة الإسلامية. كما زار عدد من المساجد وأماكن الاجتماعات التي يرتادها النشطاء من الجماعات المتطرفة (Higgins, 2015).

- **صعوبة التعايش مع المسلمين:** وتم النظر للحياة والتعايش مع المسلمين على أنه أمر صعب، وتم تعليل ذلك وفق مرجعية اجتماعية قيمية بسبب اختلاف عقيدتهم التي تنعكس على مظاهر حياتهم اليومية والتي تنعكس بدورها سلبا على المجتمعات الغربية. كما أن عقيدتهم تدعو لممارسات يومية تتناقض وقيم العلمانية، "وفي حين أن العلمانية تعني الإبقاء على الدين في المجال الخاص، فإن "الأمر صعب أكثر فأكثر لأن الأقلية المسلمة تطلب القدرة على الصلاة كل بضع ساعات، والحصول على الغذاء الحلال، بما في ذلك في المؤسسات الخاصة" (Erlanger & de Freytas-Tamura, 2015). كما أضافت الصحيفة إلى أنه توجد هناك الفجوة بين الطرق التي يفهم بها المسؤولون الفرنسيون والمسلمون قواعد العلمانية" (Rubin, 2015).

وقد عبرت الصحيفة على أن مبادئ الإسلام لا تتوافق مع قيم العلمانية الغربية ولاسيما العلمانية الفرنسية، حيث تم تناول هذه الفكرة ضمن إطار التهديد الذي يشكله الإسلام نحو الغرب عموما وفرنسا

تحديداً معبرة على العلمانية الفرنسية تواجه تحديا شديداً من الإسلام الدين النابض بالحياة والمتنامي الذي وصل إلى فرنسا مع ما بعد الاستعمار (Erlanger & de Freytas-Tamura, 2015). فالقيم الغربية والمبنية على القيم العلمانية التي تدعو لفصل الدين عن السياسة وعن الحياة العامة والتي تدعو للمساواة بين الرجل والمرأة ، هي لا تتوافق مع قيم الإسلام الذي "لا يقبل بسهولة الحظر على ممارسة الدين في الحياة العامة، سواء كان الحجاب الكامل للنساء أو حمامات السباحة المختلطة ، صلاة الجمعة واكتظاظ المساجد أو الطعام الحلال في المدارس" (Erlanger & de Freytas-Tamura, 2015).

4-الصراع بين العالمين الإسلامي والغربي: تحليل أسباب الصراع بين العالمين الإسلامي والغربي

تناولت الصحيفة الصراع بين العالمين الاسلامي والغربي ضمن سياق ومرجعيات تاريخية محددة شكلت فاصلا بين الشرق والغرب وتتمثل هذه المحطات التاريخية في:

- أحداث 11 سبتمبر: كان من تداعيات أحداث 11 سبتمبر سلسلة أحداث سياسية وعسكرية غيرت مجرى تاريخ شعوب بأكملها، وأثارت دوامات من الحروب وأعمال العنف الدموية ذهب ضحيتها ملايين البشر بين قتيل وجريح ومعتقل ومشرد. فبعد أيام من وقوع الهجمات، أصدر الكونغرس الأميركي متعجلا قانون "التخويل باستخدام القوة" الذي يمنح رئيس البلاد سلطة "استخدام كل القوة الضرورية والمناسبة ضد الدول والمنظمات والأشخاص الذين خططوا وأعطوا الإذن وارتكبوا أو ساعدوا في الهجمات التي وقعت في 11 سبتمبر/أيلول 2001، وبما أن الكونغرس لم يحدد لهذا القانون تاريخ انتهاء صلاحية أو حدودا جغرافية، فقد اتخذته الإدارة الأميركية غطاء لشن عدة حروب بدءا بأفغانستان ومرورا بالعراق، حيث عبرت الصحيفة عن تأييدها لقانون "التخويل باستخدام القوة" لمواجهة الإرهاب "بالنظر إلى أن التهديد الإرهابي الذي نواجهه اليوم لا يقل أهمية عن ما كان عليه بعد الحادي عشر من سبتمبر، فأي شخص عاش أحداث 11 سبتمبر يجب أن يعترف بأننا بحاجة إلى أن نكون قادرين على تتبع الاتصالات بين الإرهابيين داخل الولايات المتحدة وخارجها" (Baker, 2015).

-الاحتلال: اعتبرت الصحيفة أن حقبة الاحتلال تعد من أهم العوامل التاريخية التي ساهمت في تأصيل بذور الشقاق بين العالمين الإسلامي والغربي، ولاسيما ما يحدث في عصرنا هذا من موجة العداء نحو الغرب ما هو إلا تعبير للغضب السياسي، وبالأخص الغضب الممارس من طرف الجماعات الإرهابية والتي هي في الأصل حسب الصحيفة هي تنظيمات سياسية دينية، وتحلل الصحيفة مرجع هذا الغضب السياسي ضد الغرب والذي يتخذ من الإسلام الراديكالي سيارته الرئيسية، فطابع المشاعر المعادية للغرب تغيرت بشكل لافت للنظر في العقود الأخيرة، حيث هناك تاريخ طويل من الحركات المناهضة للإمبريالية تمتد من ثورة هايتي إلى حركات الاستقلال في إفريقيا وآسيا (Kenan , 2015). فتحدى السلطة الغربية بوسائل عنيفة، كانت النتيجة تحويل المشاعر المناهضة للغرب من تحدي سياسي للسياسة الإمبريالية إلى غضب شرير ضد الحداثة، حيث أصبح الإسلام الراديكالي مثل قضيب البرق لهذا الغضب (Kenan , 2015).

-**الحروب الصلبية:** لقد تناولت صحيفة نيويورك تايمز الحروب الصلبية خلال الفترة الزمنية للتحليل، معتبرة هذه الحروب كأحد أهم النقاط الفاصلة بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي، حيث قامت الصحيفة بالربط بين ما يعيشه العالم الإسلامي وظهور العديد من التنظيمات الإرهابية التي تستلهم أفكارها وتوجهاتها الايدلوجية من الماضي ولاسيما من حقبة العصور الوسطى، مبررة ذلك بحقبة الحروب الصلبية فهي ترى أن العالم الإسلامي في حالة حرب مع الإسلام وأن الخلافة هي التي تحمي المسلمين من الصليبيين (Nawaz, 2015)، وقد كتبت الصحفية سوزان جاكوبي (Susan Jacoby) في مقال لها بعنوان: « **دروس من الحرب الصلبية الأولى**» أنه : " كان أول ضحايا الحملة الصليبية الأولى، المستوحاة في عام 1096 من خلال الرسالة المقدسة المفترضة لاستعادة القدس من المسلمين، هم اليهود والأوروبيين، فالحروب الصلبية تعتبر كذريعة للإرهاب الإسلامي" (Jacoby, Susan, 2015).

كما اعتبرت الصحيفة أن الصراع الحضاري يعتبر أحد أهم الأسباب التي تقف حائلا بين الشرق والغرب معتبرة أن ما يحدث اليوم هو عبارة عن صراع حضاري، فالمسلمون لديهم حنين إلى الماضي ولإنجازات الحضارة الإسلامية، وهنا نشير إلى أن أميركا كانت حتى أوائل القرن التاسع عشر مستعمرة من المستعمرات الأوروبية. فلما قامت بثورتها وطردت الاستعمار الأوروبي أصبحت دولة مستقلة ثم نمت لتصبح دولة كبرى. وقد اعتنقت المبدأ الرأسمالي والحضارة الأوروبية وصارت تعتنق الرأسمالية كما يعتنقها الأوروبيون سواء بسواء، وصارت حضارة أوروبا هي حضارتها. ثم صارت تتزعم هذه الحضارة وتدافع عنها.

خاتمة:

وفي نهاية هذه الدراسة يمكننا القول أن الاسلاموفوبيا هي ظاهرة قديمة لها جذور ضاربة عبر التاريخ ولا تزال مستمرة إلى يومنا هذا، والصور السلبية المتداولة عن الاسلام كدين والمسلمين كأمة يعاد انتاجها وتشكليها بقوالب ونماذج وفقا للظروف والمستجدات وفي هذه النقطة بالذات يظهر الدور الذي يعلبه الاعلام الغربي بكافة أنواعه في تشويه صورة الاسلام والمسلمين على كافة الأصعدة، والذي يعتمد على استراتيجيات اتصالية مقنعة بالنسبة للفرد الغربي من خلال الاعتماد على حجج وأدلة ذات مرجعيات ومقاربات دينية وتاريخية وحضارية وأمنية تجعلها أكثر استقرارا وقبولا في ذهن الفرد الغربي، ومن بين أهم وسائل الاعلام أردنا نقدم نموذج الصحافة الإلكترونية من خلال صحيفة نيويورك تايمز الإلكترونية، حيث خلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

- عبرت الصحيفة عن اتجاهات السلبية في تغطية موضوع الإسلاموفوبيا، وهذا ما يساهم في دعم وتأييد الصورة المشوهة والمغلوطة عن الإسلام والمسلمين ونشر مشاعر الخوف والعداء في أوساط المجتمعات الغربية
- ركزت الصحيفة في تناولها ظاهرة الإسلاموفوبيا، على موضوع الجهاد حيث ألصقته بمختلف معاني الإرهاب.

- اعتبار الجهاد إيديولوجية دينية عنيفة ارتبطت تحديداً بالحروب الصلبية الأولى وهي تعد كذريعة للإرهاب الإسلامي.

- عبرت الصحيفة عن خوفها من ظاهرة انتشار الفكر الجهادي التي اكتسحت العديد من المجتمعات الغربية، حيث جعلت العديد من الشباب يلتحقون بالعديد من التنظيمات الإرهابية.

- التخوف من أسلمة الغرب بزيادة عدد المسلمين في الغرب، خصوصا بعد ظهور أزمة اللاجئين نتيجة سوء الأوضاع الأمنية التي تعيشها عدد من الدول الإسلامية، وبالتالي فقدان الهوية الغربية.

- التخوف من سعي المسلمون في المهجر من فرض القانون الإسلامي أو الشريعة الاسلامية تدريجيا.

- استندت الصحيفة في تبرير خوفها من الاسلام والمسلمين معتمدة على مرجعيات تاريخية: على غرار الحروب الصلبية، وفترة الحكم العثماني...

- اعتبار القرآن والحديث النبوي سببا في ظهور التنظيمات الإرهابية وقيامها بتنفيذ هجمات إرهابية ضد عدد من الدول الغربية، لأنها تستلهم أفكارها من القرآن والسنة.

- اتهام الإسلام بزعزعة تماسك بنية المجتمع الغربي وتفككه، فالإسلام وتعاليمه كانت سببا في الإخلال بالمنظومة الأمنية للمجتمع الغربي.

- القيم التي يتضمنها الإسلام تتعارض مع القيم الغربية التي تقوم الأسس العلمانية.

- اعتبار أن أصل ظاهرة الإرهاب في المجتمعات الإسلامية هم المسلمين من الطائفة السنية وما يحملونه من فكر متطرف يقوم على المبادئ الوهابية والذي يدعو للجهاد والعنف.

- اعتبار أن الاسلام السياسي من أهم الأسباب التي ساهمت في استفحال ظاهرة الإرهاب في المجتمعات الإسلامية.

- اتهام مجموعة من الدولة الإسلامية بأنها سببا رئيسيا في استفحال ظاهرة للإرهاب في المجتمعات الإسلامية، على غرار: باكستان، السعودية، الامارات...

- الإشارة إلى أن التعصب هو الشعور بالتفوق والذي يقدمه الإسلام الراديكالي، وهو مستلهم من تعاليم الشريعة الإسلامية والتي مصدرها القرآن.

- التخوف من المساجد، واعتبارها مؤسسات إرهابية متطرفة تلعب دوراً مهما في استدراج الشباب المسلمين في المهجر للالتحاق بالتنظيمات الإرهابية.

- النظر للحياة والتعايش مع المسلمين على أنه أمر صعب، وتم تعليل ذلك لاختلاف عقيدتهم التي تنعكس على مظاهر حياتهم اليومية والتي تنعكس بدورها سلبا على المجتمعات الغربية.

- القيم الغربية والمبنية على القيم العلمانية التي تدعو لفصل الدين عن السياسة وعن الحياة العامة والتي تدعو للمساواة بين الرجل والمرأة ، هي لا تتوافق مع قيم الإسلام الذي "لا يقبل بسهولة الحظر على ممارسة الدين في الحياة العامة.

- تأييد قانون "التخويل باستخدام القوة" لمواجهة الإرهاب الذي تم استحداثه اثر أحداث 11 سبتمبر 2001.

- اعتبار حقبة الاحتلال من أهم العوامل التاريخية التي ساهمت في تأصيل بذور الشقاق بين العالمين الإسلامي والغربي، ولاسيما ما يحدث في عصرنا هذا من موجة العداء نحو الغرب ما هو إلا تعبير للغضب السياسي.

- اعتبار الحروب الصلبية كأحد أهم النقاط الفاصلة بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي، حيث قامت الصحيفة بالربط بين ما يعيشه العالم الإسلامي وظهور العديد من التنظيمات الإرهابية التي تستلهم أفكارها وتوجهاتها الايدلوجية من حقبة العصور الوسطى.

- اعتبار أن الصراع الحضاري يعتبر أحد أهم الأسباب التي تقف حائلا بين الشرق والغرب معتبرة أن ما يحدث اليوم هو عبارة عن صراع حضاري، فالمسلمون لديهم حنين إلى الماضي ولإنجازات الحضارة الإسلامية.

توصيات:

- إنشاء قنوات إسلامية تبث برامجها داخل المجتمعات الغربية بكل اللغات الحية من أجل ترجمة الحقائق وبلورة الثوابت الإسلامية أو عبر مواقع الأنترنت.

- إنشاء مسلسلات وأفلام كارتونية باللغات الأجنبية تعمل على نشر الصورة الصحيحة للإسلام والمسلمين.

- التوجه نحو الصناعات السينمائية التي تخلد البطولات التاريخية الاسلامية وترجمتها للغات متعددة، ونقلها للشعوب الأخرى من خلال القنوات الفضائية وشبكة الأنترنت وبلغات الشعوب الغربية.

- تفعيل الخطاب الإسلامي المعاصر والمعتدل، وترشيده والرفع من مستواه وإبراز وسطيته، وذلك بإشراك العلماء والهيئات والمنظمات الحكومية والمؤسسات الأكاديمية والدينية في العالمين الإسلامي والغربي.

- العمل على اعداد الملتقيات الوطنية والدولية لمناقشة القضية والسهر على البحث في الموضوع وإيجاد الحلول.

- الدعوة لتضافر الجهود العلمية من خلال المؤسسات الأكاديمية والإعلامية والهيئات المختصة بالشؤون الإعلامية في العالم الإسلامي لوضع استراتيجية إعلامية متكاملة طويلة المدى لتصحيح الصورة المشوهة عن العرب والمسلمين وقضاياهم العادلة.

- دعوة منظمة الأمم المتحدة والهيئات التابعة لها إلى وضع التشريعات والقوانين التي تمنع التطاول على الرسالات والأديان السماوية، وتحض على احترام مختلف الطوائف وعدم المساس بعقائدها.

- ضرورة إنشاء مراكز إسلامية للبحوث والدراسات، تهتم بدراسة وتحليل صورة الاسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية، حتى يمكن تولى عملية الرد وتصحيح الصورة المغلوطة بتوظيف الأدلة والبراهين المقنعة.

- تشجيع الأساتذة والباحثين في كتابة البحوث والمقالات والكتب حول الموضوع وبلغات متعددة ونشرها في منصات البحث العالمية.

- التوجه لإنشاء مراكز بحث متخصصة في صناعة الصورة الذهنية على مستوى الجامعات والبحث في سبل تحسين صورة الاسلام كدين والمسلمين كأمة. واستغلال مختلف السبل المتاحة سواء على مستوى الفكر أو الاقتصاد أو السياحة أو العمارة...في صناعة صورة ايجابية عن الدول الاسلامية.

- فتح منصات الكترونية فكرية عالمية تمكن من فتح قنوات للحوار مع العلماء والخبراء والأكاديميين في الغرب حول كل من شأنه إبراز المفاهيم الصحيحة للإسلام باستخدام المداخل والمقاربات الاقناعية المناسبة للعقلية الغربية.

- محاولة التواصل مع بعض الأطراف الغربية المدافعة عن الاسلامين والمسلمين والبحث في كيفية ايجاد حلولا مشتركة لإرساء صورة ايجابية في المجتمعات الغربية.

قائمة المراجع:

1- الكتب:

- الجابري محمد العابد (1995).. مسألة الهوية والعروبة والاسلام والغرب، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية (لبنان).

- عزوزي حسن. (2006). *دور الصحافة المكتوبة في تصحيح صورة الإسلام والمسلمين*، مؤسسة الملك عبد العزيز (المغرب)

- قجة محمد. (2006). *الاسلاموفوبيا : دلالات المصطلح وأبعاده*. مؤسسة الملك عبد العزيز (المغرب).

- لعقاب محمد. (2007). *الصلبية الأمريكية وعهد حرب الحضارات*. دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع(الجزائر).

- مسوح عطية. (2009). *حوار الحضارات*، دار اليانبيع لطباعة والنشر (سوريا).

- المنصوري, مبروك الشيباني (2014)، صناعة الآخر المسلم في الفكر الغربي المعاصر من الاستشراقإلى الاسلاموفبيا،ط1، مركز نماء للبحوث والدراسات(لبنان).

- نافع ابراهيم (2004). جنون *الخطر الأخضر وتشويه وحملة تشويه الإسلام*، مركز الأهرام للترجمة والنشر (مصر).

2- المجلات والدوريات:

- افروجن كهينة. (2017) الاسلاموفوبيا في الإعلام المكتوب الغربي: بحث في مصادر الصورة النمطية المعادية للإسلام. مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة المسيلة، العدد 12.

- بخوش نجيب و سراي سعاد. تنامي ظاهرة الاسلاموفوبيا في الإعلام الغربي- الاعلام الفرنسي أنموذجا. مجلة المقدمة، الجزائر. العدد 1.

- برش بشرى و قارش محمد. (2018). ظاهرة الاسلاموفوبيا في الفضائيات الاخبارية بين التناول الموضوعي والتضخيم الاعلامي في ضوء الأحداث الراهنة. مجلة الاحياء. جامعة الجزائر. المجلد 18، العدد 21.

- بن أزواو عمر. (2021). الاعلام الغربي وصناعة الاسلاموفوبيا بعد هجمات 11 سبتمبر 2001. ، مجلة حوليات جامعة الجزائر1 .المجلد 35. العدد1.

- رزيوق شريفة. (2018). الصورة النمطية للإسلام والمسلمين في الإعلام الأمريكي والمتغيرات الراهنة. *مجلة الصورة والاتصال, 7* (2).

- عطوات عبد الحكيم. (2020). تأثير ظاهرة الاسلاموفوبيا على اندماج المهاجرين المسلمين في الدول الأوروبية. *دفاتر السياسة والقانون, 12* (1).

3-المواقع الإلكترونية:

- Nordland, R. (2014). (R. J. Army, Producteur) Récupéré sur https://www.nytimes.com/2014/06/30/world/middleeast/iraq.html

- Rumi, R. (2015, 04 29). *Sabeen Mahmud, Martyr for Free Speech*. Récupéré sur New York Times: https://www.nytimes.com/2015/04/30/opinion/sabeen-mahmud-martyr-for-free-speech.html

- Torrance, D., Lipscombe, S., Piper, D., Zayed, Y., & Little, P. (2021). The definition of Islamophobia. *House of Commons Library*.

- Baker, P. (2015, 06 1). *In debate over Patriot Act, lawmakers weigh terrorism risks VS. Liberties*. (New York Times) Consulté le 03 15, 2022, sur New York Times: https://www.nytimes.com/2015/06/02/us/politics/in-debate-over-patriot-act-lawmakers-weigh-risks-vs-liberty.html

- Erlanger , S., & de Freytas-Tamura, K. (2015, 02 05). *Old Tradition of Secularism Clashes With France's New Reality*. (New York Times) Consulté le 03 04, 2022, sur New York Times: https://www.nytimes.com/2015/02/06/world/old-tradition-of-secularism-clashes-with-frances-new-reality.html

- Fernandez, M., & Goodstein, L. (2015, 05 07). *Shooting Clouds Life as Both Muslim and Texan*. Consulté le 02 14, 2022, sur New York Times: https://www.nytimes.com/2015/05/07/us/muslims-garland-texas.html

- Gall, C. (2014, 03 19). *Carlotta Gall, What Pakistan Knew About Bin Laden,*. Récupéré sur https://www.nytimes.com/2014/03/23/magazine/what-pakistan-knew-about-bin-laden.html

- Higgins, A. (2015, 04 04). *A Norway Town and Its Pipeline to Jihad in Syria*. Consulté le 03 06, 2022, sur New York Times:

https://www.nytimes.com/2015/04/05/world/europe/a-norway-town-and-its-pipeline-to-jihad-in-syria.html

- Jacoby, S. (2015, 02 15). *International New York Times*. (International New York Times) Consulté le 03 06, 2022, sur International New York Times: https://www.nytimes.com/2015/02/15/opinion/sunday/the-first-victims-of-the-first-crusade.html

- Motadelmay, D. (2015, 05 23). *Defending the Faith' in the Middle East*. Consulté le 03 06, 2022, sur New York Times: https://www.nytimes.com/2015/05/24/opinion/sunday/defending-the-faith-in-the-middle-east.html

- Nawaz, M. (2015, 03 03). *The Education of 'Jihadi John*. Consulté le 03 06, 2022, sur New York Times: https://www.nytimes.com/2015/03/03/opinion/the-education-of-jihadi-john.html

- Rubin, A. (2015, 04 29). *French School Deems Teenager's Skirt an Illegal Display of Religion*. Récupéré sur New York Times: https://www.nytimes.com/2015/04/30/world/europe/french-school-teenagers-skirt-illegal-display-religion.html

- Stroobants, J.-p. (2014). A Anvers, le procès de sharia4Belgium, recruteur présumé de djihadistes. *Le Monde*(21683), p3.

- The Editorial Board. (2015, 01 11). *United in Outrage*. Consulté le 02 16, 2022, sur New York Times: https://www.nytimes.com/2015/01/12/opinion/after-the-charlie-hebdo-attack-the-french-join-hands.html

- Board, E. (2014, 09 20). *The Unlikeliest of Coalitions*. Récupéré sur New York Times: https://www.nytimes.com/2014/09/21/opinion/sunday/can-adversaries-become-allies-to-fight-isis.html

- Christophe, A. (2014). Le Djihad 3.0, Le Monde. (21543), 20.

- Eddymay, M. (2015, 05 06). *Germany Arrests 4 It Says Planned Attacks on Muslim Sites,*. Consulté le 03 05, 2022, sur https://www.nytimes.com/2015/05/07/world/europe/germany-arrests-4-it-says-planned-attacks-on-muslim-sites.html
- Emmanuel Gobry, P. (2015, 04 13). *Probing the Heart of French Malaise*. Consulté le 02 17, 2022, sur New York Times: https://www.nytimes.com/2015/04/14/opinion/probing-the-heart-of-french-malaise.html
- Jacoby, Susan. (2015, 02 13). *The First Victims of the First Crusade*. Consulté le 03 06, 2022, sur New York Times: https://www.nytimes.com/2015/02/15/opinion/sunday/the-first-victims-of-the-first-crusade.html
- Kenan , M. (2015, 01 03). *Radical Islam, Nihilist Rage*. Consulté le 03 05, 2022, sur New York Times: https://www.nytimes.com/2015/01/04/opinion/sunday/kenan-malik-the-nihilist-rage-of-radical-islam.html
- L.Friedman, T. (2015, 07 29). *For the Mideast, It's Still 1979*. Récupéré sur New York Times: https://www.nytimes.com/2015/07/29/opinion/thomas-friedman-for-the-mideast-its-still-1979.html
- Nordland, R. (2015, 12 16). *Pakistan Military Deals a Blow to Jihadists but Not to Ideology*. Consulté le 03 10, 2022, sur New York Times: https://www.nytimes.com/by/rod-nordland
- العودات محمد. (2020, 11 02). *الاسلاموفوبيا في الغرب الأسباب والآثار*.على الرابط: https://bit.ly/3xMvDVp
- شومان محمود. (2019). *أسباب بروز الاسلاموفوبيا*.على الرابط: https://bit.ly/3K997IU

الحروب الصليبية ودورها في رسم صورة الاسلام والمسلمين المؤرخ ابن الأثير والحروب الصليبية(انموذجاً)

The Crusades and Theirrole in Drawing the Image of Islam and Muslims Historian Ibn al-Athir and the Crusades (a Model)

الاستاذ الدكتور ميسون ذنون العبايجي، العراق/جامعة الموصل/مدير مركز دراسات الموصل
maysoonthanoon2018@gmail.com



تعد كتابات المؤرخين العرب مصدرا مهما في رسم صورة الاسلام والفرنج لدى الاخر، فقد ساهم تحقيق المخطوطات العربية من قبل المستشرقين الاجانب في معرفة المسلمين من خلال هذه الكتابات، وقد كان المؤرخ الموصلي عز الدين بن الأثير احد المؤرخين العرب المسلمين الذي قدم معلومات غزيرة وغاية في الاهمية من خلال كتابيه (الكامل في التاريخ) و كتابه الاخر(التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية)، فأما كتابه الكامل فقد ارخ للحروب الصليبية للفترة(490-628هـ)، وكان معاصرا لثلاث حملات صليبية، من هنا جاءت اهمية هذه المداخلة في التعريف بابن الأثير، وبكتابه (الكامل) ، ثم اخذ نماذج من رواياته التاريخية التي تعكس وجهة نظره تجاه المسلمين والفرنج على حد سواء. من اهم النتائج التي توصل اليها البحث ان المؤرخ ابن الأثير كان احد المؤرخين العرب المسلمين الذي من خلال كتاباته تعرف الغرب عليه ، وحاولوا ان يقدموا صورة المسلم والمسلمين في ضوء كتاباته التاريخية عن الحروب الصليبية، لذا فان مؤلفاته وبخاصة الكامل لاقت رواجا كبيرا من قبل المستشرقين اذ تم تحقيق الكتاب، وترجم الى اللغتين اللاتينية والانكليزية، وبخاصة احداث الحروب الصليبية.

الكلمات المفتاحية: ابن الأثير، الكامل، الباهر، الحروب الصليبية، الموصل.

Abstract:

The research deals with Ibn Al Athir’s Point of view toward the franks mentioned in his book “Al Ta’rikh al Al Bahir fi al Dawla al Atabekiya“ It is well known that this book is rich in it’s historical material in which Ibn Al Athir tackled the most important battles which had taken place during the Attabik state period. The most famous figures were 'Imad ed din Zanki (1127-1146.A.D/521-541.A.D) and his son Nur ed din(1146-1173.A.D/541-569.A.H.) Therefore, the franks naming their leaders was concentrated on, their positive and negative characteristics of their leaders, and their lands under their control.

Keywords: Ibn Al Athir’s, Al Bahir,Al Kamil,Crusades,Mmsul



مقدمة

يمكن القول أن فترة الحروب الصليبية أو حروب الفرنجة كما وردت في المصادر التاريخية الإسلامية من الفترات الهامة في التاريخي الإسلامي خاصة والتاريخ العالمي عامة، ،ونظرا لما تركته هذه الحروب من آثار مختلفة في تاريخ الامة الإسلامية والغربية، وما ترتب عليها من نتائج هامة، جرى الاهتمام بها من قبل المؤرخين العرب والمستشرقين، وعلى ضوء ذلك ظهرت دراسات متعددة الاتجاهات تناولت تاريخ هذه الحروب ،وما زالت ميدانا خصبا أمام المستشرقين لإلقاء المزيد من الاضواء على كثير من جوانبها (البيشاوي،1990،ص17)،التي تحتاج مروياتها الى دراسات مستفيضة لمعرفة وجهة نظر المؤرخين المسلمين تجاه الفرنج ويعد ابن الأثير (ت630هـ/1232) ، من المؤرخين الذين، لا سيما ان الكتاب يزخر بمعلومات هامة عنهم، حيث ارخ فيه ابن الأثير لاهم شخصيتين أساسيتين كان لهما دور كبير في مقاومة الغزو الصليبي او الفرنج وهما عماد الدين زنكي (521-541هـ/1127-1146م)، وولده نور الدين محمود (541-569هـ/1146-1173م)، وقد تم من خلال ذكر المعلومات الخاصة بهاتين الشخصيتين العديد من الحوادث التاريخية التي تتعلق بحروبهم ضد الفرنج الموجودين في بعض مدن الجزيرة الفراتية وبلاد الشام.

فابن الأثير هو ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، والملقب بعز الدين. ولد في جزيرة ابن عمر في (الرابع من شهر جمادى الاولى سنة(555هـ/الثالث عشر من حزيران سنة 1160م)، في الجزيرة العمرية، وبالتحديد في باعيناثا، وهي قرية كبيرة كالمدينة، فوق جزيرة ابن عمر، لها نهر كبير يصب في دجلة، وفيها بساتين كثيرة من أنزه المواضع تشبه بدمشق(ياقوت الحموي 1955،1955، ج2 ،ص 138). نشأ ابن الأثير في اسرة اشتهرت بالعلم والثقافة ،اذ كان اخاه الملقب بـ مجد الدين أبو السعادات المبارك (ت606هـ/1208م) كان عالماً فاضلاً، قد جمع بين علم العربية والقرآن والنحو واللغة والحديث. وفضلا عن اشتغال مجد الدين بتحصيل العلم، فانه عمل موظفاً في الإدارة الآتابكية في الموصل وأعمالها، وله مؤلفات عدة منها: جامع الاصول من احاديث الرسول (العبايجي،2021)

أما الأخ الأصغر لعز الدين فهو ابو الفتح نصر الله الملقب بضياء الدين والمعروف بابن الأثير الجزري، صاحب كتاب المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر اشتهر بكتابة الإنشاء، واصبح وزيرا للملك الأفضل بن صلاح الدين بعد وفاة الأخير(589هـ/1193م).

وبخصوص ثقافة عز الدين بن الأثير العلمية فإنها لا تقل أهمية عن ثقافة ومكانة أخويه ، اذ تلقى تعليمه منذ صغره في الجزيرة العمرية، وسافر الى بغداد، وحلب، ودمشق، والقدس أيضا، وكان له العديد من التلاميذ من أبرزهم ابن العديم، وغيره. وقد ترك بعد وفاته العديد من المؤلفات منها أسد الغابة في معرفة الصحابة و اللباب في تهذيب الأنساب و التاريخ الباهر في الدولة الآتابكية وهو تاريخ محلي خاص

بحكام الدولة الآتابكية بالموصل . وأهم مؤلفاته التاريخية واكثرها شهرة هو كتابه الكامل في التاريخ وهو من التواريخ العامة الحولية، دون فيه الاخبار منذ بدء الخليقة الى نهاية سنة (628هـ/1228م) أي قبل وفاته بسنتين(العبايجي،2021) .

فالهدف من البحث محاولة معرفة الصورة التي عكسها ابن الأثير عن الفرنج، من خلال كتابيه **الباهر والكامل**، سواء أكانت سلبية ام ايجابية، في ضوء مروياته التاريخية، لا سيما وانه كان معاصرا لثلاث حملات صليبية على الشرق الإسلامي.

ومن هنا يمكن القول أن الباحث تواجهه اشكالات عدة في تناوله مثل هذا الموضوع وهي:

- هل رؤية ابن الأثير للفرنج جاءت من خلال مشاهدته العيانية؟
- هل رؤيته مستقاة من روايات المؤرخين السابقين له؟

وفي ضوء ذلك قسم البحث الى نقاط عدة منها:

- أولاً: اوصاف الفرنج.
- ثانياً: أوضاع المسلمين والفرنج في ضوء سيطرة الفرنج.
- ثالثاً: صفات قادة الفرنج.

أولاً- أوصاف الفرنج:

قدم ابن الأثير اوصافاً لقادة الفرنج سواء اكانت سلبية او ايجابية، مع الاخذ بنظر الاعتبار ذكر أسمائهم، والتي في بعض الاحيان لم يفرق بين قائد واخر، بسبب تشابه في الاسماء، وذكر في ضوء ذلك المناطق التي كانت تحت سيطرتهم او تابعة لهم اداريا.

إن معظم المعلومات التي قدمها ابن الأثير عن الفرنج كانت تأتي ضمن سياق الحديث عن الغزوات والفتوحات التي قام بها كل من عماد الدين ونور الدين، ان ابن الأثير قد افرد فقرات خاصة بالفرنج في كتابه "الباهر"، والخاصة بقتل او اسر حاكم فرنجي مشهور بالشجاعة، او عندما يسيطر قائد فرنجي ما على مناطق واسعة من بعض مدن الجزيرة او بلاد الشام، وفي حالة اسره او قتله فان ذلك يؤدي الى ضعف الجانب الفرنجي، ثم يتبع ذلك وقوع معظم مناطقه تحت سيطرة الجانب الإسلامي.

وقد استعان ابن الأثير بالعديد من المصادر التاريخية التي سبقته في هذا المجال ، وبخاصة عند كتابته عن الفترات الاولى للغزو الفرنجي لبلاد الشام (العبايجي،2021، ص88) ولم ينقل حرفيا عنها بل ان آراءه الشخصية كان لها دور كبير في اعطاء احكام خاصة بها مبنية على نتائج تلك المصادر، ويمكن القول ان المؤرخين الاوائل للحروب الصليبية لم تتكون لديهم صورة واضحة عن الفرنجة ولكن الصورة تطورت بعد استقرار الفرنج الطويل في مدن عدة من بلاد الشام، فهنا استطاع مؤرخو القرن (السادس

الهجري/ الثاني عشر للميلاد) ان يقدموا معلومات وافية عن الفرنج والتي تعبر عن وجهة نظرهم اضف الى ذلك وجهة نظر سكان المدن انفسهم، وكانت معلومات ابن الأثير وافية عن الفرنج في كتابيه "الباهر" و" الكامل" ، وهذا ناتج عن روح العصر الذي عاش فيه ابن الأثير .

من ضمن المنهج الذي اتبعه ابن الأثير استعان بالعديد من الكلمات او العبارات التي تعكس وجهة نظر المسلم تجاه الغزو الفرنجي، اضف الى ذلك انه يعبر عن الروح العصر الذي عاش فيه ابن الأثير ، وبخاصة جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين، وتحرير العديد من مناطق الساحل، وقد عاصر ابن الأثير تحرير اجزاء واسعة من هذه المناطق، وبخاصة في فترة حكم السلطان صلاح الدين بن ايوب، فقد كان مع جيش السلطان صلاح الدين سنة (584هـ/1188م) اثناء قيام صلاح الدين بتحرير الساحل الشامي من الفرنج بعد الانتصارات التي حققها في تحرير بيت المقدس في معركة حطين سنة(583هـ/1187م))(العماد الاصفهاني،1965) ، وكان عمره(28) سنة ، وذكر ذلك بقوله: " وكنت حينئذ بالشام في عسكر صلاح الدين يريد الغزاة" (ابن الأثير ،1966،مج12،ص25) ويبدو انه التقى به شخصيا في هذه الرحلة بقوله :"وكنت معه [أي مع صلاح الدين] حينئذ (ابن الأثير ،1966،مج12،ص25) ومن ضمن المعارك التي شهدها ابن الأثير تحرير حصن برزية سنة (584هـ/1188م) وهو حصن قرب السواحل الشامية على سن من جبل شاهق يضرب بها المثل في الحصانة وتحيط بها اودية من جميع جوانبها (ياقوت الحموي، معجم البلدان،1955، ج4، ص 383؛ ابن الأثير ،1966 ، مج12،ص 15).

وكثيراً ما يستشهد ابن الأثير بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة، واستخدامه مفردات لغوية ذات مدلول اسلامي مثل الفتح، الجهاد، جهاد الكفار (الباهر،1963، الصفحات: 79،69،68،59، 106، 112 ،122، 159، 171، 173) وخاصة اذا ما علمنا انه الف كتاباً في الجهاد (ابن الأثير ، 1970،مج1، ص 32) فضلاً عن ذلك أن معظم المؤرخين المسلمين المعاصرين له ممن كتبوا عن احداث حروب الفرنج وبالتحديد عن السلطان صلاح الدين بن ايوب والذين استعانوا بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية(العماد الاصفهاني،1965).

وعادة ما يأتي ابن الأثير على ذكر الفرنج وذلك من خلال حديثه عن المعارك التي كانت تدور بين الطرفين الإسلامي والفرنجي (1963،الصفحاتص12،ص18،ص19، ص27،ص35،ص39، ص55، ص87، ص88،ص89، ص91ص ،ص96،ص97،ص98) فالتسمية الأساسية والعامة هي الفرنج وهي تسمية وردت في معظم المصادر العربية على الإطلاق التي أرخت لفترات مختلفة من تاريخ هذه الحروب، فكلمة الفرنج تعني بالأصل الفرنسيين، فالقسم الأعظم من المساهمين في الحملة الصليبية الأولى فرنسيو الأصل (ماير،1990،ص84)، ولكن في بعض الأحيان استعان ابن الأثير ببعض التسميات ذات البعد الديني الإسلامي، والتي غالبا ما ياتي ذكرها في القران الكريم وكتب التفاسير، والتي من دون شك تعبر عن وجهة نظر المؤرخين المسلمين تجاه الفرنج ، وهي المرادفة لتسمية الفرنج كالنصرانية (ابن الأثير ، 1963،ص61) وفي موضع آخر اشار اليهم بأنواع النصرانية (ابن الأثير ، 1963،ص61)، او شياطين

الصلبان (ابن الأثير ، 1963،ص124)، أو المشركين بقوله :"ورايات المشركين خلال ديار الإسلام منشورة، وانصارهم على اهل الايمان منصورة"(ابن الأثير ،1963،ص32)، او اطلق عليهم تسمية شياطين الصلبان (ابن الأثير ،1963، ص39) أو اتباع الصلبان (ابن الأثير ،1963، ص55) ،او أهل التثليث (ابن الأثير ،1963، ص34)، او اهل الشرك(ابن الأثير ،1963، ص34) او عباد الطاغوت (ابن الأثير ، 1963، ص39) ورد ذكر الطاغوت في القران الكريم بقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

[سورة البقرة: 257]". والطاغوت جمعها طواغيت، ويقصد به الشيطان أو ما يزين لهم أن يعبدوا من الأصنام ويقال للصنم طاغوت(ابن منظور،1414هـ ، ج 15، ص 7)، او يصفهم بالعدو (ابن الأثير ، 1963،ص33،ص125،124ص، ص159)، وأشار ابن الأثير إليهم بصيغة اخرى يتبعها بكلمات أو عبارات عدائية ((Christie , 1996, P.26، مثل الفرنج لعنهم الله ،او خذلهم الله (1963، ،ص19، ص37).

ثانياً- أوضاع المسلمين والفرنج في ضوء سيطرة الفرنج:

أدرك ابن الأثير الاستقرار الطويل للفرنج في بلاد الشام لذلك اعتبر المناطق التي تحت سيطرتهم بانها بلادهم، لذلك كان يذكر بين الحين والآخر تسميات عدة تدل على ذلك ومنها بلد الفرنج (1963 ، ص99)، أو بلاد الفرنج (1963، ص144، ص158)، وهناك تسمية أكثر خصوصية عندما حدد طبيعة حكمهم وذلك بإطلاقه تسمية مملكة الفرنج (ابن الأثير ،1963، ،ص32)، وانفرد ابن الأثير بهذه التسمية عن بقية المؤرخين، بقوله: " وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين وشبختان الى عريش مصر، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب، وحمص وحماة ودمشق، وكانت ديار بكر إلى أمد فلم يبقوا على موحد ولا جاحد، من ديار الجزيرة إلى نصيبين ورأس العين، فاستأصلوا ما لأهلها من أثاث وعين" (ابن الأثير ،1963 ،ص32). وكما هو معروف أن مركز السلطة الملكية بيت المقدس وما يتبعها من مناطق تابعة لها، وهناك الإمارات الصليبية التي أسسها الصليبيون في فترات مختلفة أثناء تواجدهم في المنطقة.

وبين ابن الأثير بين الحين والآخر أهمية المدن التي كانت تحت سيطرة الفرنج في حال فتحها بالنسبة للمسلمين، خاصة وأنه إدرك أهمية قيام عماد الدين زنكي بغزو وفتح تلك المواقع وذلك من أجل توحيد البلاد الجزرية والشامية، ويمكن التعرف على المناطق التي كانت تحت سيطرة الفرنجة من خلال ما ذكره ابن الأثير لأسماء هذه المناطق بين الحين والآخر في صدد حديثه عن الحكام الفرنجة والمناطق التي تحت سيطرتهم وبصيغ متعددة، ففي بعض الآحيان ينسب بلداً أو حصناً ما إلى الفرنج بصورة عامة دون أن يذكر اسم الحاكم مع إعطاء وصف جغرافي للمكان كقوله: " في سنة أربع وأربعين وخمسمائة سار نور الدين إلى حصن أفامية وهو للفرنج أيضا، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة. وهو حصن منيع على تل مرتفع

عال من احصن القلاع وامنعها"(1963،ص100)، وهناك عدة أمثلة على ذلك منها قوله :" فرحل[أي البرسقي] إلى سميساط ،وهي أيضا للفرنج، فاخرب بلدها وبلد، سروج، وعاد إلى شبختان فاخرب ما فيه للفرنج ...."(1963، ص18-19)، ومثال آخر ذكر ما نصه:" وكانت الرها وسروج وغيرهما من ديار الجزيرة للفرنج لعنهم الله..."،المصدر نفسه. ص37. في سنة احدى وستين وخمسمائة، سار نور الدين إلى حصن المنيطرة وهو أيضا للفرنج ..."(1963 ،ص131).

وقد أشار ابن الأثير بين الحين والآخر إلى أوضاع المسلمين في الأماكن التي كانت تحت سيطرة الفرنجة من قلاع وحصون، خاصة إذا كانت هناك استعدادات من قبل الجيش الإسلامي لاستعادتها، ليظهر من خلالها دور القادة المسلمين في فتحها وتخليصها من السيطرة الفرنجية، وذكر ابن الأثير هذه المعلومات في سياق حديثه عن صفات حكام الدولة الآتابكية ودورهم في مقاومة الغزو الفرنجي، أو من خلال حديثه عن استعدادات الجانب الإسلامي عند التوجه إلى استرجاع أو غزو مناطق الفرنج، وقد ادرك ابن الأثير حال البلاد الإسلامية وما آلت إليه تلك البلاد من تردي الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وقد انفرد ابن الأثير عن باقي المؤرخين المسلمين، من خلال تكوينه انطباعاً عاماً عن أوضاع المسلمين تحت سيطرة الفرنجة، وما أصاب البلاد الإسلامية من الضعف، بالمقابل كان اعترف ابن الأثير بقوة الفرنج، وكثرة اعدادهم بحيث طالت سيطرتهم العديد من مدن الجزيرة الفراتية، وبلاد الشام، وعرض هذا الوضع في سياق حديثه عن مجيء عماد الدين زنكي لتوليه حكم الموصل (1963،ص32،ص72) إذ ذكر ما نصه :"نبتدئ قبل ذكر ملكه للبلاد[أي عماد الدين زنكي] بذكر الحال التي كان عليها المسلمون من الوهن والضعف، والمشركون من القوة، فنقول لما ملك المولى الشهيد البلاد ،كان الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت اجنادهم وعظمت هيبتهم، وزادت صولتهم، وتضاعفت سطوتهم، وعلا شرهم، واشتد بطشهم، وامتدت إلى بلاد الإسلام أيديهم، وضعف أهلها من كف عاديتهم، وتتابعت غزواتهم، وساموا المسلمين سوء العذاب..."(1963،ص74) بحيث ادى ذلك الى ان أصبح سكان هذه المدن في حيف وظلم شديدين (1963،ص74)، وذكر ابن الأثير في موضع اخر بنفس المعنى بقوله: "وكان الفرنج خذلهم الله تعالى قد استضعفوا بلاد الشام الإسلامية، فتابعوا الغارات على أهلها قصدوها، محاصرين لها لخلوها من حام ومانع، وقد قوي طمعهم في ملك ما بقي في يد المسلمين"(1963،ص81).

وقد بيّن ابن الأثير أثر الفرنج على هجرة السكان الأصليين من مناطقهم بقوله:" وأما الفرنج ،فقد كانوا لما ملكوا البلاد قد قهروا المسلمين، وملكوا بلادهم وأكثروا فيهم القتل، ولهم فيه الصوت العظيم والهيبة التي تحملهم على مفارقة بلادهم خوفا منهم" (ابن الأثير ،1963،ص79،ص81) وفي موضع آخر يذكر أسماء المناطق والأوضاع السيئة التي كانت تعاني منها جراء سيطرة الفرنج عليها، مثال ذلك في الرواية الخاصة بـ" ذكر ولاية الشهيد المولى عماد الدين زنكي الموصل وسائر بلاد الجزيرة" اذ قال ما نصه: "واما الرقة وحران فقد كان أهلها معهم في ذل وصعار، واستضعاف واقتسار، كل يوم قد أذاقوهم البوار، ومنعوهم القرار، والصقوا بهم الصغار، فهم ينادون بالويل والثبور، ويودون لو انهم من ساكني القبور"

(ابن الأثير ،1963،ص33،ص80).. وقد ذكر هذه المعلومات عند حديثه عن صفات عماد الدين بعد وفاته سنة (541هـ/1146م) والتي كان من ضمنها وصف شجاعته (ابن الأثير ،1963،ص80).

وقد خصص ابن الأثير في كتابيه **الباهر والكامل** مساحات واسعة للحديث القائد عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الآتابكية بالموصل(خليل،1985، ص67) والتي عاشت أسرة ابن الأثير تحت كنفها، وتمثلت هذه المعلومات في جهاد عماد الدين ضد الفرنجة، وعكس لنا صورة المسلمين قبل أن يتولى الأخير حكم الموصل وبعض مدن الشام، وقد وضع ابن الأثير الفرنج ضمن قائمة الأعداء المسلمين الذين كانوا يشكلون خطرا على دولة عماد الدين زنكي، مثل الخلافة العباسية، والسلاجقة، فضلاً عن بعض حكام الجزيرة الفراتية، ودمشق (1963، ص32)، إذ ذكر ما نصه :" ثم إلى جانبهما الفرنج من قريب ماردين الى باب دمشق، قد جاوروا بلاده من راس عين، وحران، وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، وهو أشد ما كانوا قوة وأكثر جمعاً.."(ابن الأثير ،1963،ص77،ص81).

ثالثاً- صفات قادة الفرنج:

وقد أورد ابن الأثير العديد من أسماء الحكام الفرنجة وغالباً ما يذكرهم بألقابهم الرسمية كأن يكون الملك أو البرنس، أو القمص دون أن يحدد أسماء هؤلاء القادة فيما عدا المعروف منهم، والذين حكموا لفترات طويلة قلاع أو مدن سيطروا عليها. فمن الألقاب يتردد ذكرها هي الملك وعادة ما يقصد به ملك بيت المقدس (1963،ص18)، أو البرنس والتي تعني الأمير صاحب انطاكية (1963،ص99). أو القمص حيث يتردد ذكر "القومس" أو "القمص" كثيراً في المصادر العربية الإسلامية التي ارخت للحروب الصليبية ، وهو تعريب حرفي للفظة اللاتينية (Comes) أي الأمير ، ومعناها الأصلي في اللاتينية "الرفيق" لأنه كان في بادئ الأمر يرافق الملك في حروبه وتنقلاته، ثم سمي بالأمير ، وقد اختلفت المصادر في كتابة هذا اللقب فهو إما القمس أو القومس أو القمص أو القومص ، وفي حالة الجمع قمامصة وقوامص ، وقد حُورت لفظة (Comes) في اللغة الفرنسية إلى (Comte) ، وذكرته المصادر العربية بألفاظ مختلفة ك كد أو كند وقند (ابن واصل 1953، ج1 ، ص73 ،هامش: 1). أو يذكر باسم صاحب طرابلس (ابن الأثير ،1963،ص124) وفي أحيان أخرى يذكر اسم الحاكم كقوله بردويل صاحب القدس ويرد أيضا بصيغة بغدوين وهو المعروف بهذا الاسم لدى المؤرخين العرب المسلمين ، في حين عرف في المصادر الغربية بـ بلدوين البولوني أو بلدوين دي بوايون (Baldwin de Bouillon) ، وهو اخو كوندفري ملك بيت المقدس ، واشترك هو واخوه في قيادة الجيش الصليبي المتوجه إلى بلاد الشام ، وكان عمره حينذاك ثلاث أو أربع وثلاثين عاماً ، واصبح حاكماً على الرها بعد سقوطها سنة (492هـ/1098م) ، واستمر في حكمها ، بعدها توج ملكاً على بيت المقدس بعد وفاة اخيه حتى سنة (494هـ/1100م) وبقي يحكم بيت المقدس إلى حين وفاته سنة (512هـ/1118م). (رنسيمان،1952/1981، ج1 ،ص210) مع الأخذ بنظر الاعتبار أن معظم المؤرخين ومن بينهم ابن الأثير لم يذكروا في معظم الأحيان أسماء هؤلاء بصورة صحيحة، ونتج عن ذلك خلط فيما بين أسماء هؤلاء الحكام، وحتى يتجاوزا عدم معرفتهم بأسماء القادة الفرنجة فانهم اكتفوا بذكر اللقب

الرسمي، على سبيل المثال من بين الأسماء التي يتكرر ذكرها في "الباهر" اسم جوسلين، وفي حقيقة الأمر أن جوسلين هذا هو اسم لحاكمين حكموا الرها و تل باشر، الوالد و الابن، فابن الأثير عندما يرد اسمه فانه لا يذكر فيما إذا كان الحاكم الأول او الثاني، إذ ورد اسم جوسلين لأول مرة في حوادث سنة (507هـ/1113م) بالصيغة الآتية: جوسلين وهو جوسلين دي كورتيناي (Joscelin de Courtenay) ابن خالة بلدوين الثاني ، قدم إلى الشرق ، وعند وصوله بادر بلدوين الثاني بان جعل له اقطاعاً ، وهي البلاد الواقعة غربي نهر الفرات ، على أن تكون تل باشر مقر حكمه ، وذلك في سنة (496هـ/1102م) وبقي حاكما على تل باشر إلى سنة (512هـ/1118م) ، وبعدها اصبح حاكماً على مدينة الرها (512-526هـ/1118-1131م) بعد أن قدمها له بلدوين الثاني لوقوفه بجانبه أثناء انتخابه ملكا على مملكة بيت المقدس(الصوري،1990، ج1، ص508؛ رنسيمان،1981/1952، ج2 ، ص65-66 ؛ماير،1990،ص 118-119)، أو صاحب تل باشر (1963،ص18،ص37) وهو الذي عاصر نهاية حكم عماد الدين زنكي ثم نور الدين زنكي. أما في المرة الثانية فإنه يذكره باسم جوسلين (ابن الأثير ، 1963، ص66، 67، 69، 70، 86، 101، 102، 104)، أو جوسلين الفرنجي والذي يعرف في المصادر الغربية باسم جوسلين الثاني (de Courtenay Joscelin II)ابن جوسلين الأول كورتيناي تولى إدراة الرها وتل باشر بعد وفاة والده سنة (526هـ/1131م) وفي هذه الأثناء كان يتولى حكم مملكة بيت المقدس الملك فولك (526-538هـ/1131-1143م) وزوجته الملكة مليسند. وتوفي سنة(554هـ/1159م) في السجن بحلب(رنسيمان،1981/1952، ج2،ص295) وهو الابن الذي أسر من قبل نور الدين سنة (546هـ/1151م) ،وقد خصص ابن الأثير العديد من الصفحات التي تحدث فيها عن أسر هذا القائد والذي كان لأسره الأثر الكبير على العالم الإسلامي آنذاك، فهنا لم يميز ابن الأثير بين الأب والإبن ويُظهر للقارئ أنه اسم لحاكم واحد. وهناك اسم ثالث ايضا وهو ابن جوسلين (1963،ص124) ، والذي) يقصد به ابن جوسلين الثاني وهو جوسلين الثالث كورتيناي586-572) (Joscelin III de Courtenayهـ/1176-1190م) ابن جوسلين الثاني. وقد كون اقطاعية هامة في المنطقة المجاورة لعكا تعويضا على ميراثه الذي فقده في الرها(سيتون(محرر)/1955/2004) وكان ابن الأثير حريصا على تقديم وصف للقادة الفرنجة، فكانت بعضها أوصافا سلبية، وفي البعض الآخر ايجابية، وأحيانا أخرى يدمج ما بين السلبي والإيجابي، وكان يلحق هذه الصفات باي قائد فرنجي يمتاز بصعوبة التغلب عليه عند محاولة المسلمين الاستيلاء على مدينته أو قلعته، ويعطي أوصافا أكثر عندما تنتهي المعركة لصالح الجانب الإسلامي، وأسر العديد من قادتهم المشهورين بالشجاعة، فمن أبرز تلك الصفات الإيجابية هي الشجاعة، وحسن الرأي، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن هذه الصفات خاصة فقط بحكام المناطق أي أنها صفة شخصية وليست عامة، وقد أطلقها على جوسلين الثاني في الموضوع الخاص باسترجاع عماد الدين الرها منه وعادة ما يبدأ بوصف القائد قبل أن يتحدث عن تفاصيل المعركة إذ قال ما نصه: " وكانت لجوسلين[أي الرها] والمقدم على رجالتهم وفرسانهم، وكلهم أذعن له بالنهاية في الشجاعة، فهم يخضعون له ببذل الطاعة.." (1963،ص66)، وفي سنة (546هـ/1151م) (ابن الأثير ،1963، ص102) وقع جوسلين أسيرا بيد نور

الدين، وهنا قدم ابن الأثير ردود فعل أسره على العالم الإسلامي، مركزا على إبراز صفاته السلبية والإيجابية معا، فقال ما نصه :" وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج، وشديد العداوة للمسلمين، وكان يتقدم على الفرنج في حروبهم، لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدة عداوته للملة الإسلامية، وقسوة قلبه على أهلها" (ابن الأثير ،1963، ص102)، وقد وصف البرنس صاحب انطاكية الذي قتل من قبل نور الدين سنة (544هـ/1149م) بانه :" وكان عاتيا من عتاة الفرنج وذوي التقدم فيهم والمُلك" (1963،ص99) وكلمة عاتيا مأخوذة من الفعل(عتا) يَعْتُو عُتُوّاً وعِتِيّاً استكبر وجاوز الحد، وقال الأزهري في ترجمة تَعا والعُتَا العِصيان والعاتي الجبار وجمعه عُتاةٌ والعاتي الشديد الدخول في الفساد المتمرد الذي لا يقبل موعظة، الفراء الأَعْتاء عِتِيّاً الدعار من الرجال الواحد عات وتعتى فلان لم يطع(ابن منظور،1414هـ،ج 15،ص 27)، في حين وصف جوسلين الثالث بأنه: من مشاهير الفرنج وأبطاله (ابن الأثير ،1963،ص124) أما الملك مُرِّي والذي يعرف في المصادر العربية باسم مري، أما في المصادر الغربية فيعرف باسم املريك الاول(57-559) (Amalrich I هـ/1163-1174م) الملك اللاتيني الخامس، وأطلق عليه وليم الصوري الذي عاصره والتقى به اسم عموري، تولى حكم مملكة بيت المقدس سنة(1163م/559هـ) بعد وفاة اخيه بلدوين الثالث وكان يبلغ من العمر خمسة وعشرين عام، من صفاته الشجاعة والجرأة، هادئ وصارم في القيادة العسكرية، مطلعا جيدا على مشاكل الشرق مناسبا جدا لتوليه منصب حاكم المشرق. (الصوري،1990، ج2،ص878 ؛ رنسيمان، 1981/1952،ج2، ص586؛ سيتون(محرر)/2004/1955، ص189، ص204)، فقد وصفه ابن الأثير بالشجاعة والمكر والدهاء بالقول: ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا إلى الشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء... (1963،ص137).

وقد تزامن ذكر ابن الأثير لأسماء قادة الفرنج أثناء ذكره للمعارك التي كانت تحصل بين الجانبين الإسلامي والفرنجي إذ توقف على أهمية كل معركة ومدى الأثر الذي تركته على المسلمين بصورة خاصة، فكان يفصل في وصف القتال إذا كانت هناك معركة كبيرة ونتائجها إيجابية على الجانب الإسلامي مثال ذلك في الرواية الخاصة باسترجاع الرها من قبل عماد الدين زنكي سنة(539هـ/1144م)(1963،ص66) وكذلك الخبر الخاص بالحملة الصليبية الثانية على دمشق فيما يعرف بحصار دمشق الفاشل سنة (543هـ/1148م) (1963،ص88) والرواية المتعلقة بفتح حارم من قبل نور الدين محمود بن زنكي سنة(559هـ/1163م)(1963،ص122) وأخيرا رواية توجه الفرنج إلى دمياط للاستيلاء عليها (565هـ/1169م)(1963، ص143).

وأورد ابن الأثير الصنوف القتالية للجيش الفرنجي وكان من أبرزها: الفرسان، والذين وصفوا بالشجاعة والمتمثلة بفرسان الداوية (Knights Templar) وتعود فكرة تأسيس هذه الطائفة الدينية العسكرية إلى فارس من شمبانيا اسمه باينز استطاع سنة (1118م) ان يقنع الملك بلدوين الأول بأن يسمح له ولفئة قليلة من رفاقه بالنزول في جناح بالقصر الملكي بساحة المعبد وهو المسجد الأقصى . وخضع الداوية أول الأمر لقاعدة البندكتيين ، على أنهم أضحوا طائفة مستقلة تتألف من ثلاث طبقات الفرسان ثم الأجناد ورجال الدين الذين شغلوا الوظائف الدينية وقاموا بكل ما لم يمت للعسكرية بصلة من

الصلات ، واتخذوا الصليب الأحمر شعارا لهم فجعله الفرسان على ارديتهم البيضاء ، وجعله الأجناد على ستراتهم السوداء(رنسيمان،1981/1952، ج2 ، ص 250)، وهناك أيضا فرسان الإسبتارية (Hospitallers / فرسان المستشفى) نسبة إلى الإسبتار وهي منظمة دينية عسكرية انشئت في بيت المقدس في القرن الثاني للميلاد ، أسسها بعض تجار امالفي في عام (1070م) كجمعية خيرية في مستشفى قرب كنيسة القيامة في بيت المقدس، الغرض منها العناية بفقراء الحجاج الأوربيين ، ثم دخل هؤلاء تحت النظام الديري البندكتي المعروف في غرب أوربا ، وصاروا يتبعون البابا في روما مباشرة ، وعند وصول الصليبيين إلى بيت المقدس وحصارها قدم الفرسان الإسبتار مساعدات هامة لهم (سميث،1989/1967،ص 7)، وهناك الراجلة أيضا والتركبلي وهي تعريب لكلمة (Turcopole) وهم جند في خدمة الفرنج، آباؤهم أتراك أو عرب وأمهاتهم يونان(ابن منقذ، 1930،ص51/هامش 65؛ ابن الأثير ،1963،ص144، هامش/4)، وكان على رأس هذه المجموعات المشاركة في القتال الملك والأمراء(ابن الأثير ،1963،ص41)، وفي بعض الأحيان يذكر رجال دينهم من قساوسة ورهبان في حالة كانت المواجهة شديدة وعنيفة بين الجانبين، كما هو الحال في الرواية الخاصة بـ"ذكر فتح حصن الآثارب من الفرنج" سنة(524هـ/1129م) فقال ابن الأثير عن إستعدادت الفرنج لمواجهة عماد الدين زنكي:" فحينئذ اهتموا بجمع الفرسان والأجناد، واحضروا من في أطراف البلاد، وجمعوا الداني والقاصي، والمطيع والعاصي......" (1963،ص40).

ومما تجدر الإشارة إليه أن أسلوب ابن الأثير قد اتصف بالبلاغة القائم على السجع، يقترب كثيرا من وصف العماد الأصفهاني(ت 597هـ/1200م) في كتابه الفتح القسي في الفتح القدسي ومؤلفاته الأخرى، خاصة عند حديثه عن حجم القوات التي حشدها الفرنج في المعارك الحاسمة التي يخوضها المسلمون ضد الفرنج، فكان يقدم من خلال هذا الوصف البلاغي طريقة ظهور الفرنج عند توجههم إلى قتال المسلمين، من حملهم للصلبان والإعلام، فضلاً عن ذلك الصنوف القتالية، وحجم قواتهم بقوله:" واقبلوا في جموعهم المحشورة، وعساكرهم المجرورة، وإعلامهم المنشورة، وصلبانهم وبنودهم وملوكهم وفرسانهم وكنودهم وجاءوا إليه وقد غص بهم من الأرض جنوبها، وامتلأ منهم شمالها وجنوبها (1963،ص40) والبَنْدُ العلم الكبير معروف فارسي، البَنْدُ علم الفرسان قال النضر سمي العلم الضخم واللواء الضخم البند(ابن منظور،1414هـ ،مج3،ص97).

واعترف ابن الأثير في بعض الأحيان بقوة وشجاعة الفرنج وصبرهم في قتال المسلمين، كما هو الحال في الوصف الذي قدمه من خلال الرواية الخاصة بـ فتح حصن الآثارب سنة (524هـ/1129م) اذ ذكر ما نصه: " فلما تعذرت عليهم الهزيمة، حموا انفسهم اللئيمة، وأمرهم ملوكهم بالصبر والثبات، والجلاد عن البنين والبنات، والأباء والأمهات، والأخوان والأخوات، فحينئذ صدقوا القراع، وأحسنوا المصاع، وصال ملوكهم وقمامصتهم، وفرسانهم وداويتهم، وقاتلوا قتال يأس من النجاة بالانهزام" (1963،ص41) والمصاع مأخوذة من الفعل صوع، صاع الشيء يصوعه صوعا فانصاع وصوعه فرقه والتصوع التفرق، يصوع أقرانه ؛أي: يحمل عليهم فيفرق جمعهم قال (ابن منظور،1414هـ، ج 8 ، ص 214).

وخصص ابن الأثير فقرات كاملة للحديث عن شخصيات فرنجية لها شهرة واسعة بحكم المنصب الذي كانت تشغله، وخاصة إذا كان الأمر متعلق بحاكم منطقة ما، ولكن معظم هذه المعلومات تتعلق بنصر حققه الجانب الإسلامي على حكام هؤلاء المناطق، ولكن لأهميتها وأثر هذا الإنتصار على المسلمين فأعطى ابن الأثير أهمية خاصة لهذه الأحداث، إذا كان الأمر خاص بأسر أو قتل أحد أمراء الفرنج، وكانت معاملتهم للمسلمين سيئة جدا، ومن بين تلك الفقرات الرواية الخاصة بـ " ذكر قتل البرنس صاحب انطاكية " (1963،ص98-99) سنة(544هـ/1149م)، وفي رواية أخرى " في أسر جوسلين وملك بلاده" (1963،ص102) سنة (546هـ/1151م)، ففي الرواية الأولى تحدث عن مقتل البرنس صاحب انطاكية والذي لم يعط اسمه الكامل، ويقصد به ريموند بواتيه، وقد وصفه بانه عاتيا من عتاه الفرنج، وذوي التقدم فيهم والمُلك (1963،ص99) وقد ذكر ابن الأثير وباختصار القتال الذي دار بين الجانبين، والذي كان نتيجته مقتل البرنس، وفي الموضع نفسه تحدث عمن خلف هذا البرنس وهو ابنه بيمند، الذي بقي مع أمه، إلى أن تزوجت أمه من أمير آخر وهو رينالد دي شاتيون، والذي أصبح وصيا على بيمند، ثم أسره نور الدين في غزوة أخرى، وعلى إثر ذلك أصبح بيمند صاحب انطاكية (1963،ص99) قد أورد ابن الأثير ابيات شعرية تحدثت عن مقتل البرنس (1963،ص99)، أما الفقرة الثانية فخصصها للحديث عن قصة أسر جوسلين الفرنجي، وكان أكثر شهرة من سابقه، إذ وصفه بأنه كان شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج، شجاعا يتقدم الفرنج في حروبهم، وشديد العداوة على المسلمين، قاس القلب على أهله. كثير الغدر والمكر، لا يفي بعهد. ولم يكتف بذلك بل إنه بين ردود فعل الفرنج على أسره بقوله:" واصيبت النصرانية كافة بأسره ،وعظمت المصيبة عليهم بفقده، وخلت بلادهم من حاميها، وثغورها من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده..." (1963،ص102) وقد بيَّن ابن الأثير أثر أسر جوسلين على الجانب الإسلامي وخاصة استغلالهم لهذا الأسر، حيث تم فتح معظم المناطق التي كانت تحت سيطرة جوسلين،:" فلما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم: فمنها تل باشر، وعين تاب، وإعزاز......الخ" (1963،ص102-103) واضاف القول:" وكان نور الدين رحمه الله تعالى ،إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر يكفيه عشر سنين، خوفا من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين، فتكون حصونهم مستعدة غير محتاجة شيء" (1963،ص102-103).

وأنفرد ابن الأثير بقصة أسر جوسلين عن غيره من المؤرخين السابقين له، وبالتحديد عن المؤرخ ابن القلانسي، والذي لم يعط أهمية لهذا الأسر، إذ أورد رواية أسر جوسلين أحداث سنة (545هـ/1150م)، من دون ان يعطي تفاصيل الاسر بقوله:" وورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب أعزاز وأصحابه وحصوله في قبضة الأسر في قلعة حلب فسُر بهذا الفتح كافة الناس" (ابن القلانسي،1908،ص310)، مع أنه عاصر أحداث الأسر، ويبدو أن الإنتماءات السياسية كانت تفرض مكانتها على المؤرخين انفسهم، لا سيما وأن ابن القلانسي(ت 555هـ/1160م) عاصر نهاية الدولة البورية (497-549هـ/1103-1154 م). وهي سلالة تركية حكمت في

دمشق، مؤسسها ظاهر الدين طغتكين (497-522هـ/1103-1128 م) كان من المماليك، ثم أصبح من جنود السلاجقة في الشام(الشمري،2020،ص87) فكان ابن الأثير يفصل فيما يختصره ابن القلانسي.

خاتمة:

وقد توصل البحث إلى نتائج عدة، من أهمها:

- يمكن القول أن ابن الأثير قدم صورة عن الفرنج من خلال معاصرته للفرنج، الناتجة عن شهادة عيانه.
- رسم ابن الأثير صورة الفرنج من خلال استشهاده بآيات القرآن الكريم، وكذلك المصطلحات ذات البعد الإسلامي تعود بالقارئ إلى أيام الفتوحات العربية الإسلامية.
- قدم ابن الأثير فيه من المعلومات التي من شأنها أن تعكس وجهة نظرة ابن الأثير تجاه الفرنج، وهذه المعلومات تتعلق بتسميات الفرنج، جنسياتهم، أوصافهم، قادتهم، ورجال دينهم.
- بين ابن الأثير موقف المسلمين من الفرنج، واستطاع أن يتفوق على المؤرخين الذين كانت إنتماءاتهم البلدانية قريبة من الحدث، فتمكن من إعطاء صورة عن الأماكن التي كانت تحت سيطرة الفرنج من بلاد الشام، أوضاع المسلمين وهو تحت سيطرة الفرنج، وفرّق بين الفرنج الذين استقروا في بلاد الشام ،والفرنج الذين قاموا بحملات جديدة على تلك المدن، عندما أطلق عليهم تسمية الفرنج الغرباء تمييزا لهم عن فرنج الساحل.
- لا يتوانى ابن الأثير عن تقديم صفات ايجابية عن الفرنج انفسهم، والهزائم التي تعرض لها الجانب الإسلامي من قبل الفرنج، والتي لم نجد صداها لدى المؤرخين الذين سبقوه في هذا المجال كابن القلانسي، مع استخدامه للعبارات التي تحمل في معناها البعد الإسلامي، وكأنه أراد بذلك أن يعيد للقارئ تاريخ المسلمين في بداياته الأولى وجهادهم ضد الكفار أثناء قيامهم بالغزوات والفتوحات للعديد من بلدان المشرق الإسلامي.

قائمة المصادروالمراجع

أولاً: العربية

- ابن الأثير ، علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم.(1963). التاريخ الباهر في الدولة الآتابكية، تحقيق: عبد القادر احمد طليمات. القاهرة: دار الكتب الحديثة.
- الكامل في التاريخ.(1966). بيروت: دار صادر، دار بيروت.
- أُسد الغابة في معرفة الصحابة.(1970). تحقيق: محمد ابراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور: القاهرة، مطبعة الشعب.

- البيشاوي ،سعيد عبد الله جبريل.(1990). الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية(1099-1291م-492/690هـ)،تقديم: الدكتور محمود سعيد عمران، مصر: الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
- خليل، عماد الدين خليل.(1985).عماد الدين زنكي، الموصل: مطبعة الزهراء.
- رنسيمان ، ستيفن.(1981/1952). : تاريخ الحروب الصليبية ،ترجمة :الباز العريني. ط2،بيروت،دار الثقافة.
- سميث ، جوناثان رايلي : .(1989/1967). الاسبتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص (1050-1310م) ، ترجمة : صبحي الجابي ، دمشق : دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر .
- الشمري، غانم شيخان جويعد الخليل الشمري.(2020). الاتابك ظهير الدين طغتكين، الكويت: دار الظاهرية للنشر والتوزيع.
- العبايجي، ميسون ذنون .(2021). ابن الأثير مؤرخاً للحروب الصليبية(دراسة في مصادره)، بيروت: دار العلم للملايين.
- العماد الاصفهاني ، عماد الدين محمد بن محمد .(1965).(ت 597هـ/1200م).
- الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق : محمد محمود صبح ، القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر.
- ابن القلانسي، ابو يعلى حمزة بن اسد بن علي.(1908). ذيل تاريخ دمشق ،بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين .
- ماير، هانس ابرهارد .(1990/1965): تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: عماد الدين غانم، ليبيا: منشورات مجمع الفاتح للجامعات.
- مجموعة من الباحثين.(1955-1989/2004).تاريخ الحروب الصليبية: إشراف:كينيث سيتون، تحرير: البيشاوي، سعيد عبد الله و عوض، محمد مؤنس ، ترجمة: مجموعة من الباحثين، الاردن: دار الشروق للنشر والتوزيع.
- ابن منقذ، اسامة.(1930). الاعتبار، تحقيق: فيليب حتي، الولايات المتحدة: برنستون.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم.(1953). : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، مصر :مطبعة جامعة فؤاد الأول.
- ابن منظور،محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل.(1414هـ).لسان العرب،ط3، بيروت: دار صادر .
- ياقوت الحموي.(1955). ، شهاب الدين بن عبد الله : معجم البلدان، بيروت : دار صادر ، دار بيروت.

ثانيا: المراجع الاجنبية:

Niall G. F. Christie,.(1996). The Presentation of the Franksin Selected Muslim Sources from the Crusades of the 12th Century,(ubmitted for the Degree of M.Litt. in the University of St. (,Andrews

محاكاة الجوهر والطبيعة في تفسير أكسيولوجيا المجتمع المسلم في الفن الإستشراقي " مُلاعب الأفاعي لجان ليون جيروم أنموذجا "

The Simulating Essence and Nature in the Interpretation of the Axiology of the Muslim Community in Orientalist Art« The Snake Charmer of Jean-Leon Jerome as Model ».

د. فراح فوزية، جامعة لونيسي علي البليدة -2- (الجزائر)،
farahfaouzia@gmail.com



تهدف دراستنا إلى الكشف عن هدف مضمر نحاول استنباطه واستقرائه من خلال أعمال الفنان المستشرق "**جيروم**" ، على ضوء نظرية محاكاة الجوهر والطبيعة في بعدها السيميائي، واختيارنا لوحة "**مُلاعب الأفاعي** " يرجع إلى تميزها عن لوحات الشرق التي تجسد هذا الغريب من زاوية الحرملك وما يدور فيها من أحداث، فدراستنا تحاول الكشف عن تفسير الفن التشكيلي لأكسيولوجيا المجتمع المسلم بريشة **جيروم**. وتخلص دراستنا إلى نتيجة هامة مفادها أن الفن الاستشراقي بقدر جمالية عرضه لطبيعة المسلم فهو قبيح في تجسيده لجوهره وعقيدته.

الكلمات المفتاحية : الفن الاستشراقي ، الجوهر والطبيعة ،المسلم ،السيميائيات ، الأكسيولوجيا

Abstract

Our study aims to reveal an implicit goal that we try to elicit and extrapolate through the works of the Orientalist artist Jerome, in the light of the theory of simulating essence and nature in its semiotic dimension. Our study attempts to reveal the interpretation of the plastic art of the axiology of the Muslim community by Jerome. Our study concludes with an important conclusion about Orientalist art as far as its aesthetic presentation of the nature of the Muslim, as it is ugly in its embodiment of his essence and faith.

Keywords: Orientalist Art, Essence and Nature, Muslim, Semiotics, Axiology.



مقدمة :

يحاول العمل الفني الخروج عن قانون الطبيعة فيخلق نظام تلازمي لا علائقي بينها وبين تصور الفنان للموضوع المعالج، وإلا لكانت أغلب الأعمال عبر التاريخ تشبه الصور الفتوغرافية، واستنادا لهذا المنطق تتأسس علاقة التشويه، التغيير والتحول في الفنون التشكيلية أثناء محاكاة الفنان للفضاء الذي يعتبره

جزء منه، مما ينجر عنه تجسيد لجملة من العلامات والعلاقات التشكيلة، والتي يحاول من خلالها الفنان خلق رسالة تتوارثها الأجيال بعد الأجيال.

ومن المواضيع التي استقطبت الرسامين والفنانين التشكيلين عبر الأزمة موضوع **"الاسلام"** و**"المسلمين"**، أو **"الشرق"** عموما، هذا الغريب الذي يتصوره كلا حسب مرجعيته، خبرته، أهوائه، ولمساته،...وغيرها من المبررات التي خلقت تبيان في الجوهر والعرض، إلا أنها تنصب تحت عنوان **"الفن الاستشراقي"**، فهو الفن الذي يجُمل ذات الفنان الغربية بكل انفعالاتها نحو حضارة الشرق، من رفض وقبول، من تراكمات واكتشافات ، من ولهان وشوق، من خيال وحقيقة، فالشرق بسحره وتاريخه وعراقته واختلافه كان محل غموض لدى الفنان الغربي، لتكون أنامله وابداعاته المنفذ الوحيد لبناء معالم الشرق على ضوء قصص ألف ليلى وليلى، فاطلق عنان ريشته لتمثيل مجتمع بتركيباته الذكورية والأنثوية، وبقيمه وفضائله بأنواعها السامية والرذيلة ، وحضارة بماضيها وحاضرها، وبلغته وآدابها، وعقيدته بمسلماتها والعمارة بمساجدها وبيوتها وفق لنافذته هو ، فترنحت بين كفتي التعتيم والتلفيق، والافتعال والتشويه، أين طمست العديد من معالم المجتمع المسلم وقيمه المحافظة، وتشويه عاداته وتقاليده، فاقتحمت مخيلاتهم بهو الحرملك والبلاط، وغرف الجنود والخدم، لتجسد الفتن والبغاء، والمسموح والممنوع، فطمسوا بذلك حرمة المكان وأهله، وقيم شعب وتراثه وهويته.

وعلى ضوء ما سبق، نطرح الإشكالية التالية :

كيف فسر الفن الاستشراقي منظومة قيم المجتمع المسلم على ضوء نظرية محاكاة الجوهر والطبيعة من منظور سيميائي من خلال لوحات عن الشرق مُلاعب الأفاعي لرسام جان ليون جيروم ؟.

أولا – التساؤلات : تتفرع الإشكالية إلى تساؤلات بحثية فرعية ، وهي:

1. التساؤلات الفرعية على ضوء نظرية محاكاة الجوهر والطبيعة لتفسير منظومة القيم للمجتمع المسلم ضمن لوحات عن الشرق لرسام جان ليون جيروم:

✓ ماذا نقصد ب: فلسفة القيم (الأكسيولوجيا) ، المجتمع المسلم ، محاكاة الجوهر والطبيعة، الفن الاستشراق ومرتكزاته ؟.

✓ ما هي أسس ومعالم النقد الفني على ضوء نظرية محاكاة الجوهر والطبيعة ؟.

✓ ماهي موقع ثنائية (الحقيقة / الخيال) المفسرة للمنظومة قيم المجتمع المسلم ضمن لوحات عن الشرق لرسام جان ليون جيروم بعنوان ملاعب الأفاعي ؟.

2. التساؤلات الفرعية على ضوء المقاربة السيميولوجيا لتفسير الرموز والدلالات المجسدة لمنظومة القيم للمجتمع المسلم ضمن لوحات عن الشرق لرسام جان ليون جيروم:

✓ ماهي جل العلامات و المفردات المكانية والعادات والتقاليد التي تمتد إلى الفضاء الجغرافي للمجتمع المسلم؟.

✓ ماهي أنواع الفنون التطبيقية والزخرفية الموظفة في لوحة جيروم والتي تمتد إلى الفنون الاسلامية ؟، و ما الغرض من توظيفها ؟.

✓ ما طبيعة الحكم المسند للعمل الفني بناء على طبيعة التعالقات التشكيلية ضمن الجانب التشكيلي والدلالي ؟ وما مقدار تجسيدها لفكرة المحاكاة لقيم المجتمع المسلم عن جيروم ؟.

ثانيا - أهداف وأهمية الدراسة :

تنساق دراستنا إلى الكشف عن هدف مضمر نحاول استنباطه واستقرائه من خلال أعمال الفنان المستشرق **جيروم** ، على ضوء نظرية محاكاة الجوهر والطبيعة في بعدها السيميائي، واختيارنا لوحة **ملاعب الأفاعي** يرجع إلى تميزها عن لوحات الشرق التي تجسد هذا الغريب من زاوية **الحرملك** وما يدور فيها من أحداث، فدراستنا تحاول الكشف عن تفسير الفن التشكيلي لأكسيولوجيا المجتمع المسلم بريشة **جيروم**.

ثالثا- منهج الدراسة :

تصنف دراستنا من بين الدراسات "**الوصفية**" التي تعتمد على وصف الظواهر بالعين المجردة وتتبع تطورها، فالهدف المنوط بهذا النوع من الدراسات هو الحصول على معلومات كافية ودقيقة عن الموضوع محل الدراسة ،كما هو في الحيز الواقعي؛ أي وصف ما هو موجود في الواقع من زوايا مختلفة محققة للأهداف المتوخاة من الدراسة دون التدخل في الأسباب الكامنة وراء وجود هذه الظاهرة المدروسة في هذه الوضعية أو تلك أو التحكم فيها بصورة جزئية أو كلية (بن مرسلي، صفحة 52). غير أننا نحتاج في هذا الوصف إلى اظهار بعض الجزئيات التي نسعى من خلالها لإظهار تفسير الإستشراق لقيم المجتمع المسلم من خلال الفن الاستشراقي، لذا نحتاج إلى تبني المنهج السيميائي كخطوة أساسية لاستنباط العلامات المضمرة في اللوحة الفنية وتفسير دلالتها وفق مقصدية الفنان .

1.منهج السيميائي :يمكن النظر إلى العمل الفني على أنه نص مؤلف من رموز لكل منها مضمونه الخاص، والفن في هذا الوجه مشابه للتنجيم، وهناك شروط اجتماعية تتعلق باستبدال المضمون في الفن ، أقل من تلك التي في اللغة اليومية، وعلى وجه العموم يشكل التكافؤ المتعدد الدلالة إلى إمكانية تفسير عديدة من حيث المبدأ ، ووجها مهما من وجوه العمل الفني (اصطيف، صفحة 119).

فسيمائيات الفن تقدم للمستقبل الموقع الذي تنكشف فيه حقيقة الوجود بعيدا عن الوصف العلمي للموجودات الخاصة ، فهي تتأسس لا على فرضيات أو مصادرات، وإنما من خلال تساؤل (وجد) لغويا واستيطيقيا (جماليات) وانطولوجيا (الوجود)...، فيكون الأثر الفني قابلا للتأويل بمعنى يعود الفكر على ذاته مثلما يعود إلى الماضي أي زمن ولادة العمل ، إذ يضع نفسه فيه ليصبح العمل ناطقا يتحدث مع المستقبل ويطرح عليه أسئلة ماهيته والدلالات الكامنة فيه (بن فرح، سبتمبر 2013، صفحة 90). فسيمائيات الفن تبحث عن المضمون في العمل الفني.

رابعا- البعد النظري والتنظيري للدراسة :

1. مدخل نظري :

1.1. ماهية الفن الاستشراقي :يعرفه **"جمال قطب"** الفن الاستشراقي في كتابه **"الفن والحرب"** (د.ت) عن **"مكتب مصر القاهرة** "على أنه :« ذلك العمل الذي يكون من إنتاج الفنانين الأوروبيين الذين تتجسد في إبداعاتهم روح الشرق» (بن التومي، سبتمبر 2013، صفحة 90). وتقول في هذا **إيناس حشني ،** في كتابها الموسوم **" الاستشراق وسحر حضارة الشرق"** عن **"دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع"** (2012): «عندما ننظر إلى نشاط الاستشراق في الفن يجب أن نراعي الفن بين معنيين (بن التومي، سبتمبر 2013، صفحة 90):

✓ **المعنى الأول:** ويقصد به "الفنون الشرقية"، وهي من إنتاج فناني الشرق أنفسهم، أو إنتاج حضاراتهم الشرقية المتعاقبة على مرّ العصور (جلول خدة، 2011/2010، صفحة 10).

✓ **المعنى الثاني:** فيقصد به الفن الاستشراقي أو الاستشراق في الفن، الذي يختص به المستشرقون سواء بإنتاجهم الفني أو بدراستهم المتعلقة بالفن وعلم الجمال ودراسة الآثار».

وبنظر إلى النمط الغالب على الفن الاستشراقي في تناوله لموضوع الشرق، فيقول الفنان العراقي **محمد فريح خميس** :«هناك مجموعة من العناصر المتشابهة بين الرسم الواقعي ورسوم المستشرقين، فكلاهما نقل تفاصيل حياة الشعوب وطريقة معيشتهم وعباداتهم وأحزانهم وأتراحهم. وعلى الرغم من أن العناصر المتباينة ما بين المدرستين والمتمثلة بطبيعة الحياة الماضية والواقع الحضاري الذي نعيش فيه اليوم، إلا أنهم يتوافقون على الفكرة الأساسية، وهي محاكاة الواقع وتصويره كما هو دون تغيير» (نجيب، 13أغسطس 2008).

2.1.المنظومة القيمية (الاكسيولوجيا) للمجتمع المسلم من منظور ثالوث (الفلسفة / السيميائيات / الفن) :

✓ **ماهية الإكسيولوجيا (Axiology)** : هو مبحث القيم؛ فهو العلم الذي يهتم بالبحث في قيم الأشياء وبيان أنواعها وأصولها ؛ فإن فسرت القيم ببنيتها إلى الصور الغائية المرتسمة في الذهن كان تفسيرها مثالياً، وإن فسرت بأسباب طبيعية أو نفسية أو اجتماعية كان تفسيرها واقعياً أو موضوعيا (بشري محمد الخراز، صفحة 381). والقيم الأساسية يمكن أن تتجسد في ثلاث ، وهي (بشري محمد الخراز، صفحة 381):

- **الحق:** فقيمته تمثل في البحث عن **علم المنطق (Logic)**
- **الخير:** فقيمته تمثل في البحث عن **علم الأخلاق (Ethics)**
- **الجمال:** فقيمته تمثل في البحث عن **علم الجمال (Aesthetics)**

✓ **تفسير الاكسيولوجا المجتمع المسلم من منظور فلسفي:**

- **المنطق** : اشتقت كلمة (logic) الإنجليزية أو الفرنسية (logique) من الكلمة اليونانية (logos) ومعنى لوغوس: الكلمة، ثم أخذت معنى اصطلاحيا ، وهو ما ورى الكلمة من عملية عقلية ، ثم ارتباط الكلمة بكلمة أخرى لتكون قضية أو حكما، ثم الاستدلال على الأحكام والبرهنة عليها وارتباطها ارتباطا

عقليا (بوعروري، 2018-2019). والمنطق باعتبار موضوعه هو علم يُبحث فيه عن أحوال المعلومات، أما باعتبار غايته فهو قانون تعصم مراعاته العقل من الخطأ. (مذكرة مادة نقد المنطق؛ تعريف المنطق ونشأته وانتقاله للمسلمين، صفحة 1) .

- **الأخلاق:** يذكر **ابن منظور في لسان العرب** أن "الخُلُق: الخليقة؛ أعني: الطبيعة، وفي التنزيل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4]، والجمع: أخلاق، لا يُكسَّر على غير ذلك، وقال **الفيروزآبادي:** "الخُلق: بالضمّ، وبضمتين: السجية والطَّبع، والمروءة والدين (كمال أحمد، 2012) . والأخلاق تتعلق . بوجهٍ عام . بمعايير السلوك التي يتحدد بموجبها الإعجاب بموقفٍ معين أو رفضه، احترامه أو إدانته، وربما تسري هذه المعايير على جميع المجتمع فتشكل نوعًا من الميثاق، أو ربما تنطبق فقط على بعض الممارسات المهنية لمجموعة بعينها من هذا المجتمع، والأخلاق هي ترجمة للكلمة اليونانية Ethos التي تعني الطبع، والعادة (الحفني، 1999، صفحة 106).

ورد في الأخلاق تعريفات كثيرة منها : صفة مستقرة في النفس فطرية أو مكتسبة ، ذات أثر في السلوك لمحمود أو المذموم (بن صالح بن عبد الله الشهري، 2019، صفحة 114) . ويقول **عبد الرحمان مرحبا** في كتابه **من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية (1983)**: « هناك تصوران للأخلاق قديما وحديثا ، فأما التصور القديم ونعني به الأخلاق عند اليونان فهو مطبوع بطابع السعادة» ، وهو يخلف مفهوم الحديث باعتبارها واجبا، فيضيف : «قاعدة السلوك عند **كانط** تقول:((افعل هذا لأنه واجبك)) ، فإن الأخلاق اليونانية تقول: ((افعل هذا فإنه يؤدي إلى سعادتك)) (جلول خدة، 2011/2010، صفحة 10) .

ويقول **د. عبد الكريم زيدان** في **"أصول الدعوة** "(2001) : « إن دلالتها في الإسلام مرتبط بمجموعة من المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان وتحديد علاقته بغيره، على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه، فهي جمع شامل في منظور متكامل بين مصدرها وطبيعتها ومغزاها الاجتماعي وغايتها. فهي مجموع من المعاني و الصفات المستقرة في النفس وفي ضوئها وميزانها يحسن الفعل في نظر الإنسان أو يقبح، ومن ثم يقدم عليه أو يحجم عنه (فائق الحسني الآلوسي، صفحة 3) .

وتعد الأخلاق الفاضلة من أهم الأسس التي اعتمد عليها الإسلام في بناء الفرد و إصلاح المجتمع ، إذ بها يتم دينه وتصلح بها دنياه وأخراه جميعا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنما بُعِثت لأتمم مكارم الأخلاق» (حسن أبو عوف ، 2017، صفحة 749).

يتضح لنا أن الأخلاق من منظور الإسلام ترتبط بمصدرها بالدين ، ويستحسنها الفرد بناء على غايتها الاجتماعية وهدفها .

الجمال ((Aesthetics): عرفه **أبو بكر الرازي، في مختار الصحاح (1983)** الجمال على أنه: «الحُسْن، وقد جمل الرجل بالضم، جمالاً؛ فهو جميل والمرأة جميلة وجملاء». أما الجمال عند **هيجل** في كتابه **"دروس في الاستطيقا" (2014)**:«نفرد هذه الدروس لاستطيقا، ذلك أن عرضا هو مملكة الجميل الواسعة وهو بشكل أدق الفن ومجالاته؛ إنما هو الفن الجميل، غير أن تسمية الاستطيقا تشير على نحو

أدق إلى علم الحواس والشعور، ذلك أن العلم الذي نقصد لا يعالج الجميل بالعامة، بل يعالج على نحو صرف الجميل الفني» (مجموعة من الباحثين و الأكاديميين العرب، 2015، صفحة 17). والجمال عند **ديدرو** هو إدراك العلاقات بين الأشياء وفرق بين الشعور و اللذة.

وقد وردت في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة **لسعيد علوش** (1982) على أنها : «نزعة مثالية تبحث في الخلفيات التشكيلية، وتختزل جميع عناصر العمل الفني في جمالياته» (راجي و فاضل ، 2016، صفحة 383) .

أما الجمال من منظور إسلامي فلا يمكن الوصول إليه إلا من خلال رؤية الإسلام الشاملة للعالم وعلاقته بالله سبحانه وتعالى، تلك الرؤية التي تمثل التصور الإسلامي لله والكون والإنسان والحياة ، وهذا التصور يختلف عن سائر التصورات الأرضية ، سواء في تلك التصورات المستمدة من العقائد الدينية المحرفة، أو من الأساطير، أو من فلسفة البشر) أحمد عاصي المحمود، السنة الثامنة2012 ، صفحة 175) .

2. **مدخل تنظيري:**

1.2. نظرية المحاكاة في الفن والسيميائيات:

✓ **الماهية و الجذور:** تدل المحاكاة في معناها العام على المماثلة و المشابهة في الفعل و القول، ففي معجم **لسان العرب** إنها من حَكِيَ الحكاية كقوله: حكيتُ فلانا أو حاكيته، فعلت مثل فعله أو قلت مثل قوله سواء لما أجاوزه، وحكيت عن الحديث حكاية، وفي الحديث ما سرني أني حكيت إنسانا وأن لي كذا وكذا ؛ أي فعلت مثل ما فعل (مديونة، 2006/2005، صفحة 03) .

وكلمة **محاكاة** في الأصل اللاتيني هي: (**mimesis**)، ليتم ترجمته إلى الإنجليزية: (Imitation). وهي تشير إلى نظرية **أرسطو** الشهيرة في الفنون. وأصل هذه النظرية تكلم فيها **أفلاطون** (ت: 348 ق.م)، حين اعتبر كل ما هو موجود في العالم محاكاة، أو إعادة تمثيل، لما هو موجود في عالم المُثُل. فالأشياء عند أفلاطون مخلوقة في ذلك العالم غير الحسي، على صورة الجمال التام، ومتعالية عن النزول إلى الدنيا. ورغم أن الإنسان كان هناك في أصله، إلا أن روحه تظل «تنشد العودة إلى موطنها الأصلي، بين الآلهة التي تسيطر على هذا العالم». ورغم أنه الآن موجود في هذا العالم الحسي، إلا أن فطرته مغروز فيها ـ بطريقة ما ـ بقايا من صور ذلك العالم الجميل، هي الأصل والمرجع الذي يقارن به كل ما يراه في عالم الواقع. فكلما واجه في هذا العالم جمالاً، اعتبرته روحه صورة باهتة عن الأصل في عالم المثال». من هنا فإن كل ما ينتجه الإنسان من فنون هو ـ في نظر أفلاطون ـ محاكاة لما كان هناك، وبدرجة ما يقارب الفرع الجديد أصله الأزلي، يكون جميلا (محجز، 2014) .

وقد حاول الكثير من الفلاسفة تفسير الفن على أنه نتيجة لعملية المحاكاة التي يحاول الفنان خلالها تقليد الطبيعة ، وقد سيطرت هذه النظرية زمنا طويلا على الفن ، تأثرت بتفسير أرسطو الذي ذهب إلى أن الفن هو محاكاة للطبيعة) الحمصي،(2022 . إلا إن المحاكاة الأفلاطونية في الفن تعني البعد عن الحقيقة "العمى ") بلاسم ،2008 ، صفحة(83 ؛ فهو يختلف عن التقليد. : و الاتجاه القائل **" إن الفن**

محاكاة"، هو أقدم الاتجاهات و أوسعها انتشارا، و قد اتخذ عدة مستويات؛ أولها : تلك المحاكاة التي عرفها الإنسان الأول، و تتمثل في محاكاته لعالم الأشياء من حوله، و هي أن يجعل شيئا من مادة ما في متناوله يشبه أو يحاكي شيئا من الطبيعة مستخدما براعته و مهارته فيكون بذلك فنانا، و على ذلك فأهم شيء في الفن هو المشابهة.) مديونة ، نظرية المحاكاة بين الفلسفة والشعر ، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في الأدب العربي، تخصص نظرية الأدب وعلم الجمال،2005/2006 ، صفحة(6

فقد توصل أفلاطون إلى نقطة" **المرآة والحقيقة** "وبذلك يكون مصطلح المحاكاة في منحاه السلبي "**البعد عن الحقيقة** "معبرا عنه بطلب أفلاطون " خذ مرآة و أدرها إلى كل الاتجاهات فإنك في الحال تصنع الشمس وفي كل ما في السموات والكواكب ونفسك وغيرك...ظواهر كثيرة ...ولكنها ليست أشياء موجودة حقيقة") بلاسم ،2008 ، صفحة(84 .

ويقول **البنى عبد الرحمن بوعلي** في كتابه **" الأدبية وبنية الوا قع والظاهرة الروائية"**: «....إلا أن أرسطو وجد في أفكار أستاذه أفلاطون مادة لصياغة نظرية جديدة للمحاكاة إلا أنه أفرغها من محتواها النهائي وأثراها بآرائه الثاقبة وملاحظاتــه الدقيقــة، فهو يرى أن المحاكاة ليست لعالم المثل الذي لا وجود له، وإنما للطبيعة مباشرة، وعليه فالمحاكاة هي أن يحاكي الشاعر أوجه الحياة في عالميتها الشاملة من حيث الشكل والجوهر، ومن ثم فالمحاكاة ليست نسخا مباشرا للحياة، وغنما تمثل لها».) محجز،(2014

إذن فالمحاكاة هي ما يسميه النقد الحديث في هذه الأيام :التخييل .(fiction) ، بل إن الفيلسوف العربي "**الفارابي**" قد استخدم هذا المصطلح، في ترجمته لمفهوم المحاكاة عند أرسطو، و وافقه في ذلك **"ابن سينا"**، كما يقول الدكتور **شكري عياد**)محجز، نظرية المحاكاة بين أفلاطون وأرسطو،(2014

✓ **دلالة محاكاة في العمل الفني في بعدها السيميائي:**

أن المضمون أو المضامين الدلالية للصورة هي نتاج تركيب يجمع بين ما ينتمي إلى البعد الأيقوني (التمثيل البصري الذي يشير إلى المحاكاة الخاصة بكائنات أو أشياء) وبين ما ينتمي إلى البعد التشكيلي مجسد في أشكال من صنع الإنسان وتصرفاته في العناصر الطبيعية، وما تراكمها من تجارب أودعها أثاثه وثيابه ومعماره وألوانه وأشكاله وخطوطه)محمد سليمان، أفريل2014 ، صفحة(173 . وعند تحديد نوع من أنواع العلامات في علم السيميائيات حسب **بيرس** الأمريكي فنجد العلامة الأيقونية : Iconic Sign مثل الصور والرسوم البيانية ،والخرائط ،والنماذج والمجسمات . وهي التي بينها وبين ما تدل عليه محاكاة ،أي هي تحاكي ما تشير إليه .وقد تكون هذه المحاكاة عالية كما في الصور التلفزيونية. أو منخفضة كما في اللوحات السريالية والأحلام وبعض مفردات اللغة التي تحاكي معانيها كالأسماء والأصوات) موسى عمر البشير،(2010 .

وبالرجوع إلى المحاكاة في الفن نجد تعبير الناقد "**فازاراي"** عن هذا المستوى عندما تأمل لوحة **الموناليزا الشهيرة** بقوله: «إنه على كل من يود أن يرى مدى قدرة الفن على محاكاة الطبيعة أن يتأمل هذا الرأس فيجد فيها المحاكاة كاملة، ففيها تجد ترديدا أمينا لكل سمة استطاعت الريشة أن تصورها بكل دقة؛ ففي العينين تجد البريق اللامع و الليل الذي نراه في الحياة، و حولهما تجد تلك الدوائر الشاحبة الحمراء

المنطفئة قليلا، التي تتمثل أيضا في الطبيعة و معها الأهداب التي لا يمكن أن ننسج على هذا النحو إلا بصعوبة بالغة، كذلك يصور الحاجبان بأكبر قدر من الدقة، حيث يمتلئان حيث يخفان مع تحديد معالم كل شعرة على حدة من منبتها في الجلد، و تتبع كل ثنية و عرض جميع المسام بطريقة لا يمكن أن تكون أقرب إلى الطبيعة مما هي، أما الأنف...فمن الممكن الاعتقاد بسهولة أنها حية") مديونة ،2005/2006 ، صفحة(6 .

وقد عبر **رينولدز** عن **نظرية الجوهر** بقوله" :«إن كل جمال الفن و عظمته ينحصر في رأيي في قدرته على العلو على جميع الصور الفردية و العادات المحلية و شتى أنواع التفاصيل و الجزئيات») مديونة، 2005/2006، صفحة(14 . فالجوهر بمبدأ تجزئة الأجسام إلى أجزاء أصغر فأصغر حتى نصل إلى حد تقف عنده التجزئة، وهذا الأخير سموه " الجزء الذي لا يتجزء" أو"الجوهر" ، وقد عرفه **الجرجاني** بقوله :« الجزء الذي لا يتجزأ : جوهر ذو وضع لا أن يقبل الانقسام أصلا ، لا بحسب الوهم ،أو العرض العقلي ، وتتألف الأجسام من أفراد بانضمام بعضها البعض») مخلوف،2020 ، صفحة(171 .

أما عن نظرية **محاكاة المثل الأعلى** فتذهب إلى أن الفنان لا يحاكي دون تمييز بل يقتصر في محاكاته على موضوعات معينة و قد عبر عنها **جونسون** بقوله" :«يقول الناس عن حق إن أعظم مزايا الفن هي محاكاة الطبيعة ، ولكن من الضروري تمييز جوانب الطبيعة التي هي أليق بالمحاكاة». و في قوله هذا يركز على الجانب الأخلاقي، و هذا معناه أن هذه النظرية تضع معيار لقيمة الفن يتمثل في أخلاقية العمل، لكن هذا غير كاف، فلابد لها أن تعمل حسابا لكل العناصر المؤلفة للعمل الفني ولا تقصر اهتمامها على أخلاقية الموضوع.)مديونة،2005/2006 ، صفحة(14

وبالرجوع إلى علاقة الفن بجوهر الطبيعة في الفن فنجد المسلمين استلهموا من الطبيعة الفنون التجريدية، واعتنوا بجوهر الطبيعة ليس بشكلها الظاهر، فأصبحت تمثل لهم لغة رمزية لها مصطلحاتها ومفهومها ذلك لإضفاء الجمال الروحي أو الوجداني على أسطح مختلف الناصر المعمارية ، فالزخرفة الإسلامية لم تهدف الى ملء الفراغ، بل لها وظيفة وجدانية لأنها تخاطب روح ووجدان المسلم ، وبالتأمل يشعر المسلم بالسكينة و الصفاء) أحمد محمد حواس،2018 ، صفحة(134 .

2.2.مقاربة سيمائية : لتفسير طبيعة العلامات وعلاقات التشكل في العمل الفني : تبحث السيميولوجيا عن شكل المضمون عبر العلاقات التشكيلة والتضادية الموجودة بين العناصر داخل العمل الفني) بلاسم ،2008 ، صفحة(141 . ومن بين العلامات الموجودة في العمل الفني نجد ما يلي) بلاسم ، 2008، صفحة(06 :

- ✓ الايقونة والمؤشرية في قيمتها الاجتماعية " العقدية "،"التاريخية" والتواصلية في الفن الكلاسيكي .
- ✓ الخطوط الألوان ، الكتل ، الفضاء ،المسافة ، المنظورات مجردة عن موضوعها في الرسم الحديث.

وبناء عليه ، فتبني المقاربة السيميائية على استخراج العلامات وتأويلها وفق السياق الذي رسمت فيه.

سادسا- مجتمع البحث وعينة الدراسة :

تعنى دراستنا بالمجتمع البحث الكبير الذي يضم عدة لوحات عن الشرق لجيروم، ولصعوبة تحليلها جميعا باختلاف سياقاتها ومواضيعها وتواريخ رسمها، وقع اختيارها على عينة منها بعنوان **ملاعب الأفاعي** .

1. **العينة القصدية :** فرضت علينا الدراسة اللجوء إلى اختيار جزء معين من مجتمع البحث، وهذا وفق الشروط العلمية المعمول بها، ولقد قمنا باختيار العينة القصدية من خلال أخذ لوحة من لوحات الشرق: الخاصة ب الرسام جان ليون جيروم الموسومة ب **ملاعب الأفاعي** و هذا لعدة أسباب، أهمها:

✓ تعالج مواضيع مخالفا عن المواضيع التي شاع تداولها عن الشرق مثل: (الحرملك ، وما يدور في الحمام، حياة الترف و اللهو...الخ).

✓ من اللوحات عن الشرق التي تشوه قيم المجتمع المسلم ، والتي شهدت شهرة وعُرضت في أكبر متاحف العالم .

✓ صاحبها رسام مشهور من المستشرقين له صلة بالشرق، وشغف ملازم له خلال زياراته المتعددة لدول كثيرة؛ منها : مصر وتركيا.

✓ اللوحات لها لمسة من الفنون التطبيقية الاسلامية ؛كالزخرفة الإسلامية، وفن الرشق والخط العربي.

✓ تعرضت اللوحة للنقد الفني من قبل الكثير من الباحثين .

✓ تضم اللوحة تقنيات مضمرة تطعن في سلوكيات المسلم اتجاه العقيدة ، و التي لم تبرز كمواضيع أثناء معالجتها سابقا من قبل باحثين ونقاد..

الصورة رقم (1) : تمثل لوحة لرسام جان ليون جيروم الموسومة ب ملاعب الأفاعي (1879)



سادسا- البعد التحليلي للعينة من لوحات الرسامين حول الشرق:

2. **طريقة التحليل المتبناة في الدراسة :** تتوزع دراستنا على مستويين من التنظير، وهما :

- ✓ **مستوى الأول :** تحليل العمل الفني بناء على نظرية محاكاة الجوهر والطبيعة.
- ✓ **مستوى الثاني :**تحليل العمل الفني على ضوء المقاربة السيميائي.

غير أننا؛ نحاول الدمج بين المستويين وفق مراحل التحليل قصد تفسير وجهة نظر الرسام وتصوره لقيم المسلم من خلال عدة جوانب، والتي تخدم أهداف الموضوع، وتجيب على الإشكالية المطروحة في الدراسة .

وبناء عليه، تم تحديد الخطوات التحليل وفق ما يبينه الجدول الموالي :

الجدول رقم (01) : مراحل التحليل المتبناة في الدراسة .

ر.ت	تحديد المرحلة	محددات وخطوات المرحلة
01	**المرحلة الأولى : مدخل تعريفي**	**بالسياقات المجاورة للمو اقف المصاحبة لرسم لوحات الشرق وعلاقتها بذهنية وشخصية الرسام الفنية.**
02	**مرحلة الثانية (استنباط العلامات المجردة)**	- تكون من خلال المسح البصري للعمل الفني بتحديد العناصر التالية : (موضوع اللوحة ، الوصف الأولي للوحدة "مجموعة الألوان ،الخطوط ، الأشكال، العناصر ") الموظفة في العمل الفني.
03	**مرحلة الثالثة: قراءة رمزية**	- تحديد العلامات من خلال اقصاء الدلالة المعجمية للعلامة (:أي العلامات المجردة) واعطائها بعد الرمزية .
04	**المرحلة الرابعة : سرد علاقات التحكم**	- توصيف (العلاقات الترابطية المنطقية) في العمل الفني.

05	**المرحلة الخامسة : توصيف الفضاء الجغرافي للمجتمع المسلم**	– سرد مفردات المكانية ومعالمها والعادات والتقاليد ضمن العلامات المستنبطة سابقا على ضوء نظرية محاكاة الجوهر والطبيعة.
06	**المرحلة السادسة : تحديد موقع اللوحة من الفن الاسلامي ومعالمه**	- تحديد أنواع الفنون التطبيقية والزخرفية الموظفة في أعمال الرسام والتي تمتد إلى الفنون الإسلامية مع تحديد الغرض من توظيفها .
07	**المرحلة السابعة : تقييم العمل**	-وتتوزع على خطوتين: أ- تحديد مرتكزات الفن التشكيلي الاستشراقي المشوهة لثالوث (الحريم، القيم، الاسلام) ضمن أعمال الرسام. ب- إصدار الحكم نحو اللوحة بناء على طبيعة التعالقات التشكيلية ضمن الجانب التشكيلي والدلالي، مع تحديد مقدار تجسيدها لفكرة المحاكاة لقيم المجتمع المسلم . ج- إصدار الحكم ضمن ثنائية الحقيقة والخيال .

سابعا- الدراسات السابقة :

1. **الدراسة الأولى (هيئة مقال) : سراب الاستشراق، مقاربة سيميائية للوحة "أوجين دولاكروا "(نساء الجزائر في مخدعهن لدكتور سليم بتقة**)بتقة،2014 ، الصفحات(249-233 : تحاول الدراسة تحليل لوحة(نساء الجزائر في مخدعهن) لـ"أوجين دولاكروا" بناء على مقاربة سيميولوجيا، باعتبارها بنية قابلة للتحليل والقراءة النقدية؛ وهذه البنية هي لغة الخطوط والأشكال والألوان ، وهذا بهدف الإجابة على الإشكالية المتمحورة حول: إذا كان الفن قادرا على الاعتناء بأشكال الثقافات الأخرى، أو أنه بإمكانه فقط تمثيل الثقافات الأخرى وفقا لإرثه الخاص؟.

كما تبين الدراسة خطوات التحليل التي تتلخص في المراحل التالية : الوصف البصري(وصف مبدئي لموضوع اللوحة ومكوناتها ،المنظر التركيبة ، المتقابلات)، التحليل الأكونوغرافي(من خلال وصف الحركات ، وتخطيط التفاصيل الدقيقة)، التحليل الكروماتيكي (تحليل الألوان)، إظهار مصدر الضوء.

وقد خلصت الدراسة بجملة من النتائج أهمها:

- تميزت اللوحة أثناء تجسيد **ديلاكروا** لحرم الفاخر الذي يمثل تصوره للواقع الجزائري بمغالطة فضيعة حيث صور النسوة الجزائريات في مخدعهن ملصقة لبيع، أين حصرها في بضاعة رخيصة، وأشياء صغيرة للزينة .
- لوحات الفنانين المستشرقين كانوا يعملون لصالح سياسات بلدانهم الاستعمارية، فقد خطوا الكثير من الخرائط والصور التي استعانت بها الجيوش في احتلالها لأوطان الآخرين.

2. **الدراسة الثانية (هيئة مؤلف) :** الموسوم ب "**صورة المرأة الجزائرية في لوحات الرسام الأمريكي المستشرق فريدريك أرثر بريدجمان" لصاحبته ليليا عثمان الطيب**) عثمان الطيب، مارس 2022) :

يسلط المؤلف الضوء على موضوع أحد رواد الاستشراق الفني وهو " **فريدريك أرثر بريدجمان** " باعتباره أحد أكثر رسامين الولايات المتحدة الأمريكية شهرة، ومن كبار الفنانين المستشرقين الذين أتوا إلى الجزائر وسحرتهم العادات والتقاليد التي تتميز بها، بالإضافة إلى المناظر الطبيعية والخالبة، ولكن أهم موضوع ركز عليه هو تمثيل ورسم المرأة الجزائرية، و منه فإن الباحثة طرحت موضوعها من خلال السؤال الجوهري التالي: **كيف تم تجسيد المرأة الجزائرية في لوحات الرسام الأمريكي المستشرق فريدريك أرثر بريدجمان؟.**

وقد تم تقسيم الكتاب نحو ثلاث فصول ؛ تتوزع على النحو الاتي :

- الفصل الأول: قدمت الباحثة فيه ماهية الاستشراق الفني :(مفهوم الاستشراق ، الاستشراق الفني و نشأته و مظاهره في الجزائر.)
- الفصل الثاني: تعريف الرسام الأمريكي **فريدريك أرثربريدجمان** (حياته وأهم لوحاته).
- الفصل الثالث: فهو دراسة تطبيقية وقراءة نقدية للوحات **فريديريك أرثر بريدجمان** التي تناولت المرأة الجزائرية كموضوع رئيسي فيها .
- وقد خلص المؤلف بجملة من النتائج أهمها:

- تطرق **بريدجمان** إلى موضوع الحريم والحرملك في لوحة **صمت الليل** ولوحة **ظهيرة الجزائر**، ولوحة **القيلولة**، ويعتبر تصوير الحريم من المواضيع التقليدية في الاستشراق الفني، فلوحة "صمت الليل" تصور النساء الجزائريات شبيهات بقصص ألف ليلة وليلة محاطات بآلة العود وأقمشة من الحرير والأرضية مفروشة بجلد أسد؛ حيث تبدو النسوة في غاية الرقة والذوق والأناقة ، واستخدم **بريدجمان** لعبة الضوء والظل لإظهار مكامن الأنوثة والأناقة معاً .

- جسد **بريدجمان** في لوحاته الجمال الأنثوي الجزائري من خلال توظيفه الألوان الزاهية المتناغمة والخطوط المناسبة في رفق والأناقة دون أن تصدم العين بتكسرها، فجمال المظهر الإنساني جسده بريدجمان في كيان الفتاة البهية الحسناء الشابة، فالنساء في لوحات بريدجمان مستديرات الوجه، ومكحولة العين، وسودوات الشعر، وقد زادتهن الملابس والحلي حسنا، فقد لخص بريدجمان باختصار جمال الجزائر في هيأة فتاة سواء كانت من العاصمة أو من تلمسان أو غير ذلك .

3. **الدراسة الثالثة :** بعنوان" **رسومات المستشرقين دلالتها الفنية والإيديولوجية**" للطالبة : "**قرارية مريم**")قرارية،(2019 . وتهدف الدراسة إلى استجلاء نظرة الغربي للفرد الشرقي والتي انعكست بصورة مباشرة في فنه، والتعرف على حقيقة الأفكار والإيديولوجيات التي ضمنها في لوحاته، كما ترمي هذه الدراسة إلى استقراء المعاني والدلالات التي تنطوي عليها رسومات المستشرقين وإبراز خصائص الفن

الاستشراقي والعوامل التي ساعدت على تطوره، وقد تم تبنى للوحة "**بالد العطش**" للفنان أوجين فرومنتان كعينة للتحليل .

وقد خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها:

- تكمن أهمية الفن استشراقي في أنه مثل توثيقا لبعض جوانب الحضارة الإسلامية إذ سجل الفنانون المستشرقون من خلال لوحاتهم لعادات وتقاليد شعوب الشرق وبعض مظاهر حياتهم اليومية والمناظر الطبيعية لبلدانهم، زيادة على هذا ساهم الفن استشراقي في نشر تعاليم الفن الأوروبي وخاصة فن التصوير، وذلك بإنشاء مؤسسات فنية كانت موجهة أساسا لأبناء المعمرين وقلة من أبناء العرب، وبالتالي ساهمت في خلق حركة فنية تشكيلية مزدهرة.

- أثر الفن الإسلامي على بعض الفنانين الذين هضموا فلسفته ومناهجه، فاستقوا منه مفاهيم جديدة أحدثت ثورة في عالم الفن كالتجريد وتحوير الصور إلى أشكال هندسية وخطوط، كما أثر الأدب أيضا في دفع الحركة الاستشراقية ، وذلك من خلال استلهام مواضيع لوحات من مؤلفات وروايات أدبية تدور حول الشرق الإسلامي، وأبرز مثال على ذلك **"موت ساردانبلوس " " لألوجين دوالكروا"** التي استلهما من قصائد **"بايرون"** الشرقية؛ أين يصوّر ديلاكروا دراما شعرية مقتبسة عن مسرحية لنفس الشاعر تحكي قصّة ملك آشوري قديم يقع تحت حصار فرضه عليه أعداؤه، وفي النهاية يفضّل الملك الانتحار على الاستسلام.

4. موقع الدراسة الحالية من الدراسات السابقة :

رغم اختلاف العينات الموجهة للتحليل ضمن الدراسات السابقة؛ إلا أنها تعتبر كمصدر يستعان به في عملية تحليل لوحات المصنفة ضمن الفن الإستشراقي ، فدراستنا تحاول إبراز رسالة الفنان المستشرق اتجاه الإسلام والمسلمين، من خلل نظرية المحاكاة والمقاربة السيميائية بهدف الخروج بقراءة مغايرة للأيقونات و العلامات المدمجة كرسائل مضمرة في اللوحة.

ثامنا - إجراءات تطبيقية وأدوات التحليل والنقد لوحات الشرق :

1. المرحلة الأولى: سياقات مجاورة للمو اقف المصاحبة لرسم لوحات عن الشرق وعلاقتها بذهنية وشخصية الرسام الفنية :

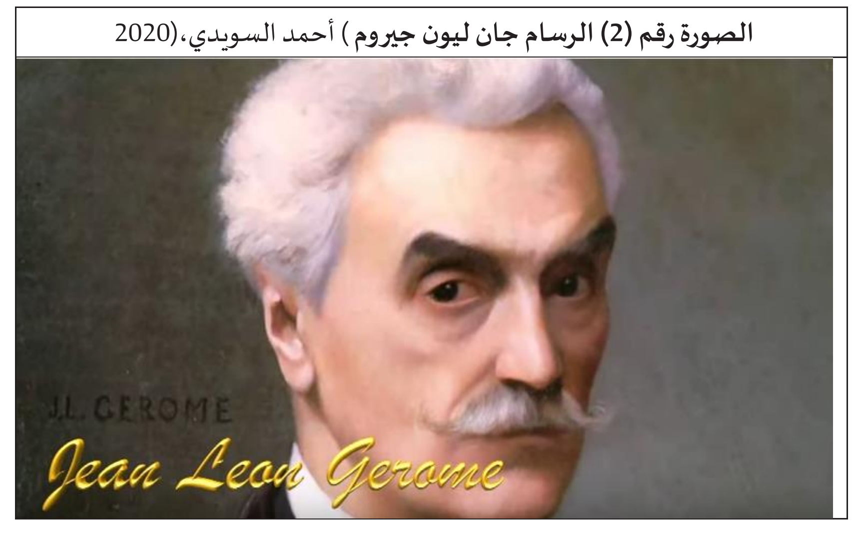
1.1. لوحات عن الشرق جان ليون جيروم بعنوان ملاعب الأفاعي(1879) :

✓ **نبذة عن حياة الفنان وأشهر أعماله** :Jean-Léon Gérôme)) (و. 11 مايو 1824 – 10 يناير 1904) رسام ونحات فرنسي مشهور، ويعد أحد أبرز المستشرقين الذين قدموا إلى الشرق العربي والإسلامي في القرن التاسع عشر، ومجموعة رسوماته تتناول رسومات تاريخية وأساطير. حيث تتلمذ على يد الفنان **بول دلاروتشي**، قام برحلة في العام 1854 إلى تركيا ومنها إلى مصر وكانت أول زيارة له لمصر، وقد كتب جيروم يومياته لرحلاته وطبعت فيما بعد في كتاب ، وقد شاركه في هذه الرحلة مصورين وصحفيين أصدقائه. قام في العام 1868 برحلة طويلة إلى مصر وآسيا الصغرى ، وقد زار في القاهرة الجوامع الأثرية

وصور الكثير للعمارة الإسلامية، يعتبر ممثلًا نموذجيًا للواقعية الأكاديمية ، والذي التزم بصرامة بالقواعد الفنية والجمالية الرسمية لأكاديميات الفنون في القرنين السابع عشر والتاسع عشر)جان ليون جيروم(
.

أما عن أشهر لوحاته نحو الشرق ، فنجد مثلا: (**بونابرت يطل على أبو الهول، الصلاة فوق سطح أحد المساجد بالقاهرة 1865 وتوجد بمتحف متروبوليتان للفن بنيويورك، حمام الحريم و تجمع في حريم (1875)، تاجر السجاد (1887)، سوق العبيد (1866) ، سوق الرقيق(1871).**

الصورة رقم (2) الرسام جان ليون جيروم) أحمد السويدي،(2020



✓ **سياقات مجاورة للمواقف المصاحبة لرسم لوحات الشرق وعلاقتها بذهنية وشخصية الرسام الفنية :**

بالرجوع إلى علاقة عنوان اللوحة بشخصية الفنان ، يجعلنا نضع العمل الفني الحالي ضمن سياقات أعماله المشهورة التي يغلب عليها مشاهد العري ، فيقول الباحث **إدريس بن مصطفى** في مقاله الموسوم " **تاريخ الحمامات الشعبية في البلاد العربية"** (2008) الصادر عن "**مجلة نزوى**" : « فقد حاول في كثير من لوحاته رسم صورة العربية داخل الحمّام، الذي ارتبط اسمه لدى المسلمين بالطهارة ، فكثرت الرسومات التي تصف الحمامات، وما يجري فيها عند كثير من الفنّانين ،واعتمدت مثل هذه اللوحات وعناصر تخص الشرق، كطوابع بريدية وذلك لسرعة انتشارها بين العامة ، وتداولها في بلدان مختلفة ، فكان هدفه ابراز جمال المرأة الشرقية بعيون غربية، بالإضافة إلى إبراز الفنون الزخرفة الإسلامية والنقوش والخط العربي الذي يزين الحمامات، والبيوت والمساجد، ونقلها لاستفادة منها في العمارة الغربية كمساهمة منه في نقل التراث الإسلامي، لذلك رسم المرأة وهي تستحم في الأنهارّ أو في الهواء الطلق، أو تستجم في الواحات على ضفاف الوديان في أوضاع عدة تتنافى مع قيم مجتمع المسلم»)مصطفى العبد الله،2018 ، صفحة(78 .

ونقلا عما تم تداوله في تفسير موضوع اللوحة ، نجدها تجسد فتى عاري يقف على سجادة صغيرة في وسط غرفة ذات جدران زرقاء، مشيحاً بوجه عن المشاهد، يحمل ثعباناً يلتف حول خصره وعلى كتفه،

بينما يجلس رجل كبير السن على يمينه يعزف على الناي. يشاهد الأداء مجموعة من الرجال المسلحين من مجموعة متنوعة من القبائل المسلمة، بملابس وأسلحة مختلفة. تبلغ أبعاد اللوحة 84 × 122 سم.)مروض الأفاعي(

فقد رسم **جيروم** هذه اللوحة لدى زيارته **للقسطنطينية** (اسطنبول)عام 1876. لا يمكن قراءة النقوش على الجدران بسهولة، لكن بعضها مكتوب بالخط العربي. على الرغم من الأخطاء الواضحة في الكتابة، إلا حتى أحد الأقسام يحمل نصاً كبيراً أعلى الجدار يمكن تحديده كجملة من آية قرآنية من ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256] ، أما النقوش الأخرى فهي مخصصة للسلطان. البلاط الأزرق مستوحى من **ألواح إزنيك في ألتينيول وبغداد كيوسك في قصر طوپ قپو***.

2. **المرحلة الثانية (استنباط العلامات المجردة):**

1.2. لوحة ملاعب الأفاعي لجيروم :

✓ **المسح البصري:** تعتبر هذه المرحلة مرحلة أولية، والتي يتم فيها وصف ما تراه العين المجردة، وهي توافق مرحلة" **التعيين** " من خلال سرد التالية : (موضوع اللوحة ، الوصف الأولي للوحدة "مجموعة الألوان ، الخطوط ، الأشكال و العناصر) .

الجدول رقم (2): يمثل مراحل المسح البصري

	مراحل المسح البصري	**دلالات أولية**	
1	**موضوع اللوحة:**	**علاقة اللوحة بالعنوان**	-من خلال العنوان المنسوب للوحة يتضح لنا أن الموضوع الرئيسي الذي يركز عليه جيروم هو الطفل والأفعى ، أين يسند لهذا الطفل وظيفة الملاعبة. - لا يشغل الموضوع الرئيس حيزا كبيرا ضمن اللوحة ، مما يستلزم وجود مواضيع موازية تنافس موضوع الطفل والأفعى .
		قراءة تعينية للوحة	**أ- يمكن تقسيم اللوحة إلى ثلاث مستويات بهدف الوصف :** ✓ **مجموعة الألوان : يركز جيروم على الألوان القوية ؛ حيث تم توظيف اللون البني في كل من العناصر التالية :** – الأرضية (اللون البني وتدرجاته) لتمييز بين مكعبات البلاط

* قصر ضخم في إسطنبول، تركيا، كان مركز إقامة سلاطنة الدولة العثمانية لما يقارب 400 عام (1465-1856). وهو الآن متحف ضخم في شرق حي فاتح في اسطنبول في تركيا (ساحر الأفعى - The Snake Charmer: موقع المعرفة)

الإسلامي المزخرف الذي يضم الأشكال الهندسية . - جسد الطفل العاري . - محيط السجاد الفارسي. - الأزياء ولفات القماش ذات حجم صغير التي تغطي أجساد جمهور من الناس . - تبقيع على جدران . - سلتين من القصب . - الأسلحة المعلقة بالجدران ، والتي يحملها الجمهور. **كما تم توظيف اللون الأزرق بتدرجاته والذي يحتل مساحة أكبر من اللوحة، أين تم توظيفه في كل من العناصر:** - الجدران أين تسمح تدرجاته اللونية بظهور تفاصيل الهندسة الإسلامية وزخرفتها . - وسط أو قلب السجاد الفارسي. - بعض ألبسة الجمهور . ✓ **التدرج اللوني** : تم توظيف الإضاءة لتحديد زاوية النظر والتركيز من خلال التبقيع باللون الأبيض ؛ أين تظهر ظلاله على الجدران، وبهذا تحدد بؤرة اللوحة ، فكلما تم الابتعاد عن نقطة المركز زادت الألوان تركيز وقوة ، كما يضفي على الأشياء عمقا وارتفاع. في حين نجد الأماكن البعيدة قليلة الإضاءة، فهي مضمرة من قبل الرسام، وبالتالي تحمل دلالة ثانوية بالنسبة للموضوع . ✓ **الصفاء اللوني** : أين يضفي على الأشياء إحساس بمعالمها وإعطائها أكثر قربا للطبيعة ، وأكثر تجسيد للتفاصيل الصغيرة، مثل: لون البشرة ،تعاليم الوجه ، وتوحي بجمالية البساطة . ✓ الأشكال الهندسية والخطوط : تتنوع الأشكل الهندسية المدمجة في اللوحة ويمكن تحديدها فيما يلي : - المربع : في تحديده لمكعبات البلاط و الجدران . - المستطيلات : في تحديد لمكعبات البلاط ، وجدارية التي تضم آيات قرآنية، و أيضا شكل السجاد .			

- **الدائرة و الأسطوانات :** في تمييز للسلة وبعض أنواع الأسلحة - الخطوط تتنوع سمات الخطوط الموظفة للوحة ، فهي بارزة ويمكن للمشاهد أن يميز بينها : فهناك المائل ، الأفقي العمودي ،المائل، المنحني المتعرج، الحلزوني ...وغيرها .كما تتميز إما بسمكها أو كونها رفيعة؛ حيث نشهد وضوح هذه الخطوط التي تحدد تفاصيل دقيقة بالصورة . كما تتجلى أيضا في الخط العربي المتنوع على الجدارية وتجسد أنواع الزخرفة الإسلامية. ✓ **مجموعة العناصر المتبقية:** ✓ **الفراغ :** يغيب هذا العنصر في اللوحة ، فالملاحظ أن لا وجود لأي حيز تم تلوينه بلون واحد دون إضافة له عناصر أخرى : كالخطوط أو الأشكال ، وبهذا تنسب لكل تركيب دلالة لأشياء لها مكان في اللوحة . ✓ **التجسيم :**يركز جيروم على أدق تفاصيل الجسمية للشخصيات أو الأشياء أو الجدران، أن وظف التظليل لإعطائها ارتفاع وأبعاد الثلاثية قصد محاكاة الواقع. ✓ **التناظر:** يظهر هذا في الزخرفة المزينة على الجدران، أين تخلق تماثل في تركيبتها ، وتحقق بذلك التكرار. ✓ **خط الأفق:** يظهر جليا من خلال التمييز بين الأرضية والجدران ، غير أنه ليس جليا في المستوى العلوي من اللوحة ، من خلال تمييز بن نهاية الجدار و السقف. ✓ **الشخصيات :** تظهر شخصيات مختلفة يمكن أن نميز بينها من خلال: الألبسة ، الأعمار ، ولون البشرة، كما يمكن تحديدها في ثلاث شخصيات ، وهي: الطفل ، العازف ، والجمهور .			

3.مرحلة الثالثة: قراءة رمزية: وتكون من خلال تحديد العلامات عن طريق اقصاء الدلالة المعجمية للعلامة (:أي العلامات المجردة) ، واعطائها بعد الرمزية. ويمكن تحديدها على النحو الآتي :

1.3 **رمزية العنوان :** لقد أحست **جينيت** (G.Genatte) بصعوبة كبيرة عند تعريف العنوان ، وهذ نظرا لتركيبته العويصة، فيقول:« ربما كان التعريف نفسه للعنوان يطرح بعض القضايا ويتطلب مجهودا

للتحليل ، ذلك أنه في الغالب مجموعة شبه مركبة أكثر منها عنصرا حقيقيا وذات تركيبة لا تمس بالضبط بطوله)حمداوي، ماي2012 ، صفحة(30 .

يتضح لنا من التعريف السابق، أن العنوان المنسوب للوحة يحمل في طياته عدة دلالات جعلت من اللوحة تنسب إلى مجموعة لوحات الشرق من جهة ، كما يحمل دلالات أخرى تنسب إلى نمط الترف و التسلية واللهو في بلاط السلطان وغرف قصره، من جهة أخرى . فتعبر كلمة الملاعب أو المروض للحيوانات، مهنة يمتهنها شخصيات راشدة في سن لها خبرة تمكنها من التحكم في حركة الحيوان المفترس ، أين تجلبهم القبائل للتسلية وترويح عن نفس كنوع من المتعة . غير أننا نجد في اللوحة شخص قاصر يراقص الأفعى، وعاري ، مما يؤول بالشذوذ والطعن في الأخلاق.

2.3. رمزية الألوان : للألوان دور هام في تجسيد معالم الصورة وتحديد بيئتها، وما مقدار تجسيدها للموضوع التي تحاول معالجته ، أين تمكن الفنان من إظهار معالم وتجسم كل العناصر التي تضمها اللوحة ، وحتى تحديد الفضاء هل هو داخلي أو خارجي؟، و كذلك زاوية النظر، وفي هذا يقول **شيفر** " **J. C. Schefer"** : «إن التنظيم الداخلي للعناصر بعدد محدد للوحة في بنية مغلقة توليف العناصر في تعارض مترابط . صور الإنسانية ،الأشياء الملموسة ، الاشكال ،المنظورات ....إنها شفرة تشخيصية ، ويمكن ملاحظة ذلك في لعبة الألوان ») بلاسم ،2008 ، صفحة(164 .

فيحيل اللون الأزرق بتدرجاته إلى الحكمة و الطهارة، غير أن هذا اللون يوفق الألوان الغالبة على جداريات ب"**بغداد كيوسك في قصر طوب قپو**".) مدينة توب كابي(

صورة رقم (2) لـ" بغداد كيوسك في قصر طوب قپو



كما تتجلى دلالة اللون الموظف في تمييز بشرة الجمهور و ألبستهم إلى اختلاف انتماءهم ، وبالتالي يرمز إلى القبائل السائدة في المجتمع العربي التي جلها تميل إلى البشرة الحنطية و السوداء .

3.3. **رمزية السجاد :** نلاحظ أن السجاد المشار إليه في اللوحة يتكون من ثلاث مستويات : مستوى السفلي الذي يتجسد في شراشف تزيف الحافة ، والمزينة بأشكال هندسية تأطر سجاد ، وقلب السجاد (غير واضح الرسم) ، ومنطقة أعلى السجاد جزء منها مخفي تحت السلة . وللسجاد رمزيتين ، وهما :

4.3. البعد الجمالي أثناء تغطيته للبلاط الموحد اللون ، وهذا من خلال زخرفته النباتية والهندسية و الحيوانية . وهو مستبعد من هدف اللوحة ، فلم يحاول الرسام إظهار جمالية السجاد الفارسي الذي يتميز بألوانه الزاهية وأنماط والأشكال هندسية المتقنة .(أنظر لوحة التي رسمها **جيروم بائع السجاد في القاهرة** " (1887) والتي تظهر جمالة السجاد).

5.3. **البعد الوظيفي:** هو أحد الأشياء التي يعتمدها المسلم أثناء تأديته للصلاة . وبالرجوع إلى زخرفة الموضحة في اللوحة لجيروم تحيل لنا أن السجاد المقصود هو سجاد الصلاة وليس أي سجاد آخر؛ حيث نجده في الغالب يكون مفرغا من الزينة في الوسط ، ذو لون موحد. وبهذا نرجح إسناد دلالة السجاد إلى رموز العبادة عند المسلمين.

6.3. رمزية الزخرفة وفن الرقش على الجدران : ارتبطت دلالة الفن الإسلامي **بالمقصدية،** حيث ربط العلماء المسلمون دلالته بالمقاصد السامية للفن؛ أين ينبغي أن تكون جميلة ورشيدة. فيقول **ابن الأثير** (ت، 630هـ) في معرض تعريفه للجمال:« بأنه البهاء والحسن والزينة التي تقع على الصور والمعاني، وأن خروج الفنون عن المقاصد الرشيدة، يجردها من شرف الاتصاف بالجمال». كما يرى **ابن سينا** (ت 428هـ) أن جمال المقاصد والغايات شرط في وصف الفنون بصفة الجمال فيقول: «جمال كل شيء وبهاؤه هو أن يكون على ما يجب له»)ذياب هندي و خالد الكيلاني،2019 ، صفحة(492 .

يتضح لدينا أن الفنون من منظور إسلامي ليست مجردة من الهدف، بل يتضمن مقاصد وأهداف ووظائف يسعى من خلالها الفنان لإيصالها إلى المتلقي، غير أنها يجب أن تصقل بالجمال ، فهي تربط الوضع الإلهي بالإبداع الإنساني الجميل. فالرقش ليس مجرد عملية تحلية وتزويق، بل هو فن حي إبداعي، وقد عبر عن ذلك **"غرابار" Oleg Grabar**) أحد فلاسفة الفن في الغرب بقوله:« ليس الرقش العربي مجرد زخرفة، بل كانت له دائمًا وظيفة رمزية، في جميع أشكال الرقش -سواء كان هندسيًّا أو نباتيًّا».

ويضيف **"غرابار"** مستتل موقفه اتجاه فن الرقش :« أن الالتجاء إلى الرقش هو انتقال إلى مستوى القيمة الثقافية للعمل الفني؛ إذ يلغي العلاقة بي الشيء المرئي وبين دلالته المادية ومعناه المتداول، وهكذا فإن الصورة تتغير كليا عن أصلها. و وراء الوظيفة الظاهرية للرقش يبدو نسق كامل من الإشارات والطابع الرمزي الكامل الذي يفرض نفسه علينا، ولكنه يترك لنا حرية التفسير، وعلى هذا فإن هناك معان كثيرة تبقى قائمة في الرقش العربي بانتظار تفسيرها، مما يعطي الرقش قيمة تذوقية لا حد لها . و يميز الفن الرقش عن غيره هو الرسم التجريدي أو اللاتصوري (Non Figuratifs) أو اللاموضوعي (Non-Objectif) هو تيار الشكل الفني عالمي، يعتبر ظاهرة معبرة للنشاط الفني الحديث ، كما يعبر عن ثورة استطبيقية أعادت صياغة العديد من المناهج والمعايير الشكلية ؛ وعلى حد قول **ميشال سوفور** : « تعدد أشكال التعبير قد كان أحد الخصائص الأكثر تفردا لفن الرسم التجريدي» ، فهو بذلك يرفض المحاكاة و التقيد بالمنظور والطبيعة وتشخيص الأشياء) بن مسمية ، مارس2020 ، صفحة(162 .

ولقد نجح الفنان المسلم من خلال تجريده بالقيام بعملية بلاغية كانت بمثابة انتقال ذهني جمالي من المفاهيم والحقائق الكبرى التي جاءت بها الحضارة الإسلامية من خلال الفكر الإسلامي إلى معادلات

جمالية تعبر عن تلك الحقائق، فجاءت تجريداته بمثابة تشكيلات وإشراقات جمالية غاية في العمق، كونها تستنبطن بداخلها فكرا له غاية في الأصالة)محمد عوض الله الرفاعي ، أفريل2002 ، صفحة(164 ، فلم تكن وظيفة التجريد في الفن الإسلامي النقل المرئي، بل إظهار ما هو غير مرئي ، والابتعاد عن تشبيه الشيء بذاته إلى تمثيل الكلي بالمطلق) حشلافي،2015 ، صفحة(182 .

ويعتبر التجريد أحد فنون الرمزية أين يتجسد من خلال" **فن الرقش**" ، فيتم إلغاء الجوانب الحسية والمادية في الطبيعة ، وذلك لإدراك الجوهر، فهدفه تمثيل الواقع وتداوله بنسق آخر محافظا على المفردة المجردة كطاقة لتوصيل المعاني والأفكار، لتتيح للمتلقي الوصول إلى تفسير الذهني للشكل بكل الخطوط الدالة والموحية للخصوصية الجوهرية ، فالغاية منه إظاهر اللامرئي في ضوء الإحساس بالنظم والقوانين التي تحكم الوجود) علي عبود ، عمى البهليل، و سالم،2016 ، الصفحات(221-220 . ودلالات التجريد في الرقش العربي واضحة في أسلوبين أساسيين ، وهما : **الرقش النباتي، الكتابي ، الآدمي و الحيو اني .**

وبالرجوع الى اللوحة يتضح لنا أن **جيروم** قد تأثر بهذا النوع من الفن ، غير أنا لا يمكننا أن نميز الكتابات على الجدران ، على الرغم من الأخطاء الواضحة في الكتابة، إلا اننا نلاحظ أحد الأقسام يحمل نصاً كبيراً أعلى الجدار يمكن تحديده كجملة من آية قرآنية من سورة البقرة رقم 256:{ **لا إكراه في الدين**}. أما النقوش الأخرى فهي مخصصة للسلطان) ساحر الأفعى(The Snake Charmer) ،(2021 .

7.3 رمزية المكان و الزمان وعلاقتها بنفريج عن نفس : إن ما يميز القاعة أو الحجرة كونها مكان مغلق أي فضاء داخلي ، على جدرانها أسلحة معلقة ،وهذا يدل على أن هذا المكان مخصص لراحة الجنود بعد عودتهم من الحملات، أو مكان لاستلقاء بعد العمل أو مهمة حربية ، أين نجد الجمهور (أو المتفرجين) مستلقون على الأرض يحملون بين يديهم أنواع مختلفة من الأسلحة، وأنظارهم موجهة للطفل العاري ، وما يظهر جليا أن هذا الطفل وصاحب الناي أو العازف حضرا إلى القاعة لتسلية الجنود و الترويح عنهم . وهذه الذهنية غلبت في حملات الحروب في أروبا أين تستعين لسلطات بالحفلات ، ونشوة الموسيقى والنساء للترويح على الجنود . وهي منافيا تماما لتعاليم المجتمع المسلم وقيمه.

8.3. **رمزية الأخلاق** : لقد ارتبطت الأخلاق بالدين من المنظور الإسلامي، ولعل مرتكزات هذا الدين الحنيف هو تجسيد الفضائل والأخلاق من خلال الممارسات في المجتمع ، إلا أن ما يجسده **جيروم** ينافي أخلاق وقيم المجتمع المسلم، فظاهرة التعري منبوذة في قبائل العرب ، حتى وإن تعامل جيروم مع هذا الوضع بتجاوز محسوس وقليل من تحفظ ،فقد أخفى بعض ملامح البارزة من عورة الطفل ، إلا أنه أبرز في اللوحة مقدار إعجاب الجنوب بأداء الطفل العاري وهذا توصيف بالشذوذ .

4. **المرحلة الر ابعة : سرد علاقات التحكم**: من خلال توصيف (العلاقات الترابطية المنطقية) في العمل الفني.

1.4 **تتحد العلاقات داخل هذا العمل بثلاث أنواع، وتندرج على النحو الآتي :**

✓ **العلاقات بين الألوان و الأشكال** : إن علاقة التجانس التي تربط بين عدة عناصر (لون الألبسة، البشرة ، الجدران الأرضيات ، الأشكال الهندسية) ، والتي تتضمنها تركيبة اللوحة تحيل إلى خبرة

الرسام من جهة ، ومدى اعتنائه بالتفاصيل والخطوط ،من جهة أخرة ، وهذا لا يكون وليد اللحظة ؛ أي أثناء حمل فرشاة للرسم، بل يجعلنا نتأكد أن هناك مقصدية جلية لهذا الترابط الذي لا يعارض مع الواقع، كما يجعلنا نتأكد أن **جيروم** كان يُدون كل التفاصيل التي تتعلق برحلاته، والتي تسهل عليه بناء تصورا ذهنيا يترجمه لاحقا في مرسمه .

✓ **العلاقات بين الشخصيات والبيئة**: تتمثل الهوية في الهيئة التي تكون عليها العناصر التالية (اللباس ، حركة الجلوس على الأرض، الزخرفة الاسلامية على الحائط) ، فيمكن لأي مشاهد اللوحة أن يحيله إلى الشعب الأوروبي ، بل من البداهة أن ينسبها إلى الشعوب العربية .

✓ **العلاقات الايقونية**: بهدف الكشف عن هذه العلاقة يمكننا طرح تساؤل التالي : **هل كان يهدف جيرون إلى إدراج لغة خطوط والأشكال و الألوان فقط لخلق جمالية الطبيعة ، أم كان له أيقونيا يحيل به إلى محاكاة طبيعة وجوهر المجتمع المسلم وقيمه ؟.**

يقول **سقراط** : «إن فنون التصوير و الشعر و الموسيقى و الرقص و النحت كلها من فنون المحاكاة»)بلاسم ،2008 ، صفحة(81 · ففي جوهره يشير إلى العلاقة بين عنصر ذي وجودين: أحدهما زائف و الآخر حقيقي وبينهما تقع المحاكاة .

إن الاستطراد النتائج المستخلصة من إدراكنا و فهمنا لرموز السابقة واستنباطنا لها هو استخلاصا لأهم الوظائف المسندة للفن الاستشراقي؛ فقد حددت الباحثة "**نادية قجال**" في بحثها الموسوم ب"**الوظائف الأساسية للرسم الاستشراقي قبيل و إبّان الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي**" جملة من الوظائف المسندة الرسم الاستشراقي المطابق للواقع سلاح ذو حدين؛ أين روج الفن لمطامع استعمارية من خلال تصوير نساء الحريم، مشاهد العري ومشاهد الرقص النسوي.) قجال،2009 ، الصفحات-132 140)

وبناء عليه، فإن محاكاة الواقع لها غرض إيحائي يسعى **جيروم** من خلاله إلى تفسير ثقافة شعبية سائدة في المجتمعات العربية، وهي: حب الرقص، الموسيقى واللهو ،تشابه في مجرياتها قصص "**ألف ليلى وليلى** "برغم من ادراجها في سياق مخالف، فأحداث ومجريات ومضامين **ألف ليلة وليلة** من أكثر القصص الوصفيّة التي تتكلم بلغة تجسيد الصورة في سرد أحداثها، فتجعل القارئ على يحلق في أجواء حالمة غير طبيعية، نتيجة كثرة ما تحمله من مفردات وتراكيب، تعجز معها القدرة التخيليّة الإبداعيّة للعقل البشري على بلوغ حوافها وسرد أبعادها، ذلك نظراً لكون القص الشعبي يُشكّل مزيجاً من عناصر أسطوريّة غرائبيّة، وأبعاداً مذهبيّة تشمل الموروثات الدينيّة والتاريخيّة والفلسفيّة عند القدماء، وفي الشرق خاصة») شاهين،(2012 . فالشرق في نظر الغرب على امتداد حقبة تاريخية كان مسرحا نُسجت حوله الحكايات و الأساطير والخيالات عبر أعمال فنية نقلها فنانون مستشرقون عبر لوحات حالمة عاكسة لقصص ألف ليلى وليلى) بن تومي ،2019 /2018 ، صفحة(8 ·

5. **المرحلة الخامسة : استخلاص النتائج واصدار الأحكام :**

1.5. اصدار الحكم على ملاعب الافاعي بناء على طبيعة التعالقات التشكيلية ضمن الجانب التشكيلي والدلالي، مع تحديد مقدار تجسيدها لفكرة المحاكاة لقيم المجتمع المسلم .

✓ **محاكاة الجوهر وطبيعة القيم المجتمع من خلال الزخرفة وتراكيب اللوحة :** اعتمدت المدرسة الواقعية على إبراز الفن المعماري للحضارة العربية والإسلامية، ودمجت معها بعضا من سور القرآن الكريم والحديث والحروف والزخرفة والخطوط العربية. وفي ذات السياق يقول **الفنان فريح** قائلاً: «تعتمد استخدام الألوان في رسوم المستشرقين بشكل كبير على الألوان الغامقة أو ما يطلق عليها بالألوان المعتقة أو الحارة كالبني ومشتقاته والأسود، لكن هذا لا يعني أن الرسام لا يستطيع استخدام الألوان الفاتحة لإعطاء روح للوحة من خلال إيجاد طريقة لتجانس الألوان الباردة مع الحارة من دون أن يشعر الناظر بتنافر الألوان. وتكمن أهمية الألوان الغامقة في هذا النوع من اللوحات إلى تاريخها القديم، فجميع لوحات المستشرقين التي يعاد رسمها من جديد تعتمد على العناصر الرئيسية التي تم توظيفها في اللوحة الرئيسية وتوليف فكرة جديدة من رحم اللوحة القديمة التي يعود تاريخ بعضها إلى مئات السنين (نجيب، 2008). غير أنه ما يمكن استخلاصه من تحليلنا للوحة **جيروم** ، هو سعيه لمحاكاة واقع المسلم مع وضع لمسة مزيفة لواقعه الفعلي ، فهو يتجاوز محاكاة الطبيعة إلى محاكاة جوهر وقيم المسلم ، وبناء عيه، يمكننا استنباط القيم التالية :

– **القيم الجمالية** : إن توظيف جيروم لهذا النوع من الفنون الإسلامية التي لها صلة وطيدة بالمجتمع العربي خلق محاكاة لجوهر القيم و الثقافة السائدة في البيئة التي يحاول أن يعيد تركيبها بلمساته الخاصة، ففن **الرقش و الاربيسك** كان فن بديل عن فنون التجسيم ، لذا حاول الفنان المسلم تبني أشكال وخطوط وزخارف ذات حس فني تحاكي بيئته وتعاليمه الدينية؛ وفي ذات السياق؛ يقول فيلسوف الفرنسي **"جاك بيرك" (Jacques Augustin Berque)** : « **إن الرقش العربي هو تركيب وتلاق ،فيه يتلاقى هدف الفنان مع الإدراك الحسي مع المادة، وهكذا يبدو الرقش العربي مرتبطًا بالمجتمع معبرًا عن ذلك بكنيته العربية**». وقد أطلق على هذا النوع من الفن اسم "الأرابيسك" للدلالة على الأشكال المجردة أو المحورة عن الواقع التي يبتكرها الصانع في رسمه أو نقشه، و المستوحاة من أعماله الجمالية العربية.) محمود أبو زيد،(2021 .

وبناء عليه، فقد أضفى **جيروم** جمالية للوحة من خلال جداريته التي أخذت مساحة أكبر في حيز اللوحة التي مازجت زخرفته الخطوط العربية ، فرغم أنها غير واضحة إلا أن «الخط العربي هو قيمة جمالية، حيث تمتاز الحروف العربية بأنها تكتب متصلة أكثر الأحيان، وهذا ما أعطي لها إمكانيات تشكيلية كبيرة، دون أن تخرج عن الهيكل الأساسي لها، ولذلك كانت عملية الفصل بين الحروف المتجاورة، ذات قيمة مهمة في إعطاء الكتابة العربية جمالية من نوع خاص، "من حيث تراصف الحروف، وتراكبها وتلاحقها» (أحمد محمود أبوزيد، 2017) .

– **القيمة الفنية :** إن مقدار محاكاة اللوحة لجوهر وطبيعة المجتمع المسلم تكمن في جوانب الإبداع الفني التي تنقلنا اللوحة إلى معالم الواقع ، فيعتبر اللباس و ملامح الشخصيات من أبرز ما يميز

هوية المجتمع العربي عن غيره؛ فالبشرة السوداء والحنطية ، والعابئات الرجالية و لفات الرأس تخص سكان القبائل العربية ، ومقدار وضوح هذه التفاصيل يصقل العمل قيمة فنية؛ بالإضافة إلى القيمة الإبداعية الجلية في الزخرفة ؛ أين حاول **جيروم** تحقيق معايير: التكرار ، الفراغ ، تجسيم الأشكال الهندسية ، التظليل ، ومقدار إظهار الخطوط و تفاصيل الرقش النباتي على الحائط .

✓ **محاكاة الجوهر وطبيعة القيم المجتمع من خلال الرسالة المضمرة ضمن سياق موضوع اللوحة :**

- **القيم الاخلاقية :** الأخلاق مجموعة من المبادئ المعيارية التي ينبغي أن يجر السلوك البشري على مقتضاها ؛ أي أن مبادئ الأخلاق ترسم طريقة السلوك الجيد وتحدده أهدافه وبواعثه (أوكتافيانو(Willy Oktaviano)، 2003، صفحة 62). وقد ارتبطت الأخلاق بالدين، فلا يجب أن تحيد سلوكيات المسلم عن تعاليم القرآن، فقد وردت الكثير من آياته الحث عن الأخلاق الحميدة والنهي عن عكسها تصريحا أو تضمينا، لذا يعتبر الحث على نشر سلوكيات السيئة منافي لتعاليم الإسلام وقيم مجتمع العربي، وهذا إمتثالا لقول الله تعالى في محكم تنزيله : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [سورة آل عمران:110]. فلوحة **ملاعب الأفاعي** تشوه بعض الممارسات والسلوكيات السلبية أثناء الترويح عن النفس في المجتمع المسلم ، فهي تروج للشذوذ. و **جيروم** بهذا يضع القيم الأخلاقية محل عرض لجلب الطلب .

- **القيم الدينية :** يحاول **جيروم** من خلال لوحته تدنيس المجتمع المسلم بقبوله الشذوذ الجنسي علناً، فالتمتع برؤية طفل عاري الجسد يلاعب أفعى، ونشوى الموسيقى يعج أرجاء القاعة، التي يوحي انعكاس الضوء على جدرانها أنها قاعة مفتوحة، فالضوء يعكس على الجدارية ، فجيروم ينوه إلى مشاهد اللوحة أن هذا السلوك لا يشكل حرجا عند العامة، أو في المجالس ، فيصور مجتمع منصهر عن دينه و أخلاقه، والأدهى من ذلك أن الجدارية تحمل خطوط عربية تحيل إلى سورة البقرة الآية (256)، ومقاصدها ينافي الصورة الذهنية التي تحملها رسالة جيروم.

✓ **اصدار الحكم ضمن ثنائية الحقيقة والخيال .**

ملاعب الأفاعي تنسج خيالا يجول في ذهن الغربي الذي ترتكز مساعي حياته إلى الحصول على ملذات الحياة، فما يستحبه ويطمح فيه يخالف تماما جوهر المسلم التي ترتكز مساعي حياته إلى كسب رضا خالقه ، وفي هذا يقول الله تعالى ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [النحل: 107]. فرغم مشاغل الدنيا وملذاتها يبقى للمسلم تقوى الله واستعصاما لمعصيته ، وهو بذلك يرقى في ادراكه للدنيا وملذاتها عن غيره . إلا أن لوحة ملاعب الأفاعي تشوه هذا الهدف وتنمقه بمتعة شاع استطرادها من ألف ليلى وليلى وحكايات شهرزاد الوهمية .

خاتمة :

الفن الإستشراقي هو أحد فنون التدوين للحضارة العربية ، لكن أخضعها أصحابها لذواتهم و انفعالاتهم في محاكاة طبيعة المسلم وجوهره وما تجسده لوحاتهم ما هو إلا أحد التخيلات الواهمة لعالم الشرق ؛ فهو أحد أهم أساليب التشويه التي تجسد الصورة الذهنية بأنامل الفنان وريشته ، وورشة الفنان ومخدع تفكيره و تصوراته نحو الشرق ليست إلا ظلال من ألف ليلى وليلى.

إن فن التشكيلي في بعده التجريدي عند الفنان المسلم تتنافا مع مبدأ المحاكاة و التماثل والتشبيه بما يوجد في الطبيعة ، فأوجد فن **الاربيسك** والزخرفة كبديل التي يعبر من خلاله على جوهر المسلم الحقيقي ؛ أين يجسد مفهوم التوحيد، فلا تحيد رسوماته عن عقيدته ، لذا براعة وجمالية فن الزخرفة كانت محل اهتمام هذا المستشرق، الذي حاول في لوحاته عن الشرق تخصيص حيزا داخل إطار لوحاته لتجسد رونق وجمالية فن الرقش، غير أن ريشته حادت عن أسس الزخرفة الإسلامية التي تزاوج بين الخطوط، الأشكال الهندسية ، النصوص العربية المستلهمة من القرآن والأحاديث النبوية ، فنجد مواطن توظيف الخط في الزخرفة على لوحات المستشرقين غير واضحة المعنى ، وبها أخطاء كثيرة ، فرغم ما تتميز به الكتابة من تلاحم في نهاية الحروف العربية في فن الرقش الإسلامي ، إلا أنها لا تخرج عن مدلولاتها.

لوحة ملاعب الأفاعي خرجت عن المألوف من التسميات المنسوبة للوحات الشرف في الفن الاستشراقي، و التي تنصب كلها في الحرملك والنساء ، غير أنها لم تبتعد عن موضوع الرئيسي وهدفها، والذي يتجسد في تشويه أكسيولوجيا المجتمع المسلم ، وتعتيم أبعاده القيمية: كالأخلاق والجمال، فرمزية الجمال عند المسلم لا ترتبط باللذات و لا الشهوات ، فمكارم الأخلاق عنده لا تقتصر على بعض التعاليم التي تجسدها الزخرفة الكتابية الناقلة للنصوص القرآنية ، وإنما فلسفة الجمال و الأخلاق هي الجوهر الذي لا يتجزأ.

وفي الأخير ، تخرج دراستنا **بتوصيتين هامتين :**

- إن الفن الاستشراقي بقدر جمالية عرضه هو قبيح في جوهره، لذا دراسة أنواعه يحتاج إلى تحليل أعمق ضمن مقاربات عدة، فتفكيك رموزه ورسائله لا يكون إلا على ضوء الفلسفة الإسلامية وتعاليمها ، لذا على الباحث في الفن الإستشراقي التسلح بعلوم الدين و الفلسفة.
- مبحث السيميائيات مفاده دراسة العلامات مع ارجاعها إلى سياقها، لذا يحتاج الباحث في مجال بحث فيها إلى دراسة نماذج الفنون ضمن مجتمعها، فالعينات الموجهة للتحليل يجب أن ترجع إلى ظروف رسمها لتحديد رمزية العلامة المدمجة في اللوحات ، قصد فك رموز ضمنية ، و تفسير العلاقات التشابكية و المنطقية بينها .

قائمة المراجع:

- إبراهيم محمد سليمان) .أفريل .(2014 مدخل لفهم سيميائيات الصورة .المجلة الجامعة،.(16)2

- أسماء حسن أبو عوف .(2017) . مقدمة في علم الأخلاق .حولية كلية أصول الدين والدعة الاسلامية،.9
- أمحمد حشلافي) .سبتمبر .(2015 ,إشكالية التجريد في الفن الإسلامي .مجلة لوغوس3)،.(4
- ثرية بن مسمية) . مارس .(2020 الفن الاسلامي و التجريد الحديث .مجلة مفاهيم الدراسات الفلسفية والانسانية المعمقة.
- سامرة مكي عمران راجي ، و محمد علي فاضل) . كانون الأول .(2016 ,جماليات المضمون في الفن المفاهيمي .مجلة كلية التربية الاسلامية للعلوم التربية والإنسانية ، جامعة بابل.(30)
- صليحة مديونة .(2005/2006) .نظرية المحاكاة بين الفلاسفة والشعر ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي .تلمسان :جامعة أبي بكر بلقايد ، كلية الداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، قسم اللغة العربية وآدابها.
- فاضل بن صالح بن عبد الله الشهري) .مارس .(2019 ,الأخلاق في القرآن الكريم،16) .، المحرر (جملة تأصيل العلوم.
- ساحر الأفعى .(2021) .(The Snake Charmer) تم الاسترداد من موقع المعرفة : https://www.marefa.org
- أحمد بن مرسلي) .بلا تاريخ .(مناهج البحث العلمي في علوم الاعلام والاتصال2) .، المحرر (ديوان المطبوعات الجامعية.
- أحمد بن مرسلي) .بلا تاريخ .(مناهج البحث العلمي في علوم الاعلام والاتصال .ديوان المطبوعات الجامعية.
- أحمد بن مرسلي) .بلا تاريخ .(مناهج البحث العلمي في علوم الاعلام والاتصال2) .، المحرر (ديوان المطبوعات الجامعية.
- اليزيد بوعروري .(2018-2019) .مقياس المنطق التقليدي، مطبوعة مقدمة للتأهيل الجامعي إلى أستاذ محاضر" أ"،السنة الثانية ليسانس ل.م.د .كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الفلسفة، جامعة محمد لمين دباغين سطيف.2
- أنصار محمد عوض الله الرفاعي) . أفريل .(2002 الأصول الجمالية و الفلسفية للفن الاسلامي ، رسالة دكتوراه منشورة .مصر :جامعة حلوان كلية التربية الفنية ، قسم علوم التربية الفنية.

- أيسر فائق الحسني الآلوسي) .بلا تاريخ .(قسم العقيدة والدعوة و الفكر، جامعة الأنبار، كلية العلوم الإسلامية .تم الاسترداد من الأخلاق في الكتاب والسنة، محاضرات للمرحلة الرابعة : https://www.uoanbar.edu.iq/IslamicRamadiCollege/catalog
- إيهاب كمال أحمد 22) .أفريل .(2012 ,تعريف الأخلاق في اللغة والشرع والاصطلاح .تم الاسترداد من شبكة الألوكة الشرعيةhttps://www.alukah.net/sharia/0/69571 :
- جان ليون جيروم) .بلا تاريخ .(تم الاسترداد من موقع المعرفةhttps://www.marefa.org :
- جميل حمداوي) .ماي .(2012 سيميائيات العنوان عتبة النص الموازي .مجلة أيقونات.
- حمودي مخلوف .(2020) .مفهوم الذرة بين نظرية الجوهر الفرد ونظرية الأوتار الفائقة .مجلة الباحث-المدرسة العليا للأساتذة الشيخ مبارك الميلي-،.(3)12
- خضر محجز 21) .فيفري .(2014 ,نظرية المحاكاة بين أفلاطون وأرسطو .تم الاسترداد من الحوار المتمدن ،العددhttps://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=401927 :4372
- خضر محجز .(2014 ,2 21) .نظرية المحاكاة بين أفلاطون وأرسطو .تم الاسترداد من الحوار المتمدن ، العددhttps://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=401927 :4372
- خلف أحمد محمود أبو زيد .(2021 ,11 1) .البعد الروحي في فن الرقش .مجلة فكر الثقافية.
- خلف أحمد محمود أبوزيد 11) .ماي .(2017 ,الخط العربي في الفنون الأوروبية .تم الاسترداد من مجلة فكر الثقافيةhttps://www.fikrmag.com/article_details.php?article_id=528 :
- خولة مصطفى العبد الله .(2018) .الاستشراق في فن التصوير بين المضمون الفكري والقيم الجمالية منذ بداية القرن الثامن عشر وحتى نهاية القرن العشرين، بحث مقدّ م إلى قسم الرسم والتصوير لنيل درجة الماجستير .دمشق :جامعة دمشق، كلية الفنون الجميلة، قسم الرسم والتصوير.
- ديما الحمصي .(2022 ,2 2) .ماهي نظرية المحاكاة في الفن والتراجيديا؟ تم الاسترداد من موقع ميثال : https://www.methaal.com
- سعدية موسى عمر البشير 07) .مارس .(2010 ,السيميائية: أصولها ومناهجها ومصطلحاتها .تم الاسترداد منhttps://takhatub.ahlamontada.com/t408-topic
- سليم بتقة .(2014) .سراب الاستشراق، مقاربة سيميائية للوحة" أوجين دولاكروا)"نساء الجزائر في مخدعهن .(حوليات الآداب واللغات، كلية الآداب واللغات.

- صالح ذياب هندي، و خالدة خالد الكيلاني .(2019) .الفن الإسلامي :مفهومه ومعايير .مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية،.46
- صليحة مديونة .(2005/2006) . نظرية المحاكاة بين الفلسفة والشعر ، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في الأدب العربي، تخصص نظرية الأدب وعلم الجمال .تلمسان :جامعة أبو بكر بلقايد.
- عبد الكريم أحمد عاصي المحمود) .السنة الثامنة .(2012 الجمال في المنظور الاسلامي .مجلة كلية الفقه المحكمة ،جامعة الكوفة.(16)
- عبد المنعم الحفني .(1999) .موسوعة الفلسفة والفلاسفة1) ،. المحرر (القاهرة، مصر :مكتبة مدبولي.
- عبد النبي اصطيف) .بلا تاريخ .(سيميائيات الفن : بوريس ،إيه ، أوسبنسكي .مجلة سيمائيات الفن.
- علي بن التومي) .سبتمبر .(2013 ظاهرة الاستشراف في الفن التشكيلي الجزائري – دراسة وتحليل بعض النماذج الثقافي.
- علي بن تومي .(2019 /2018) . ظاهرة الاستشراف في الفن التشكيلي الجزائري – دراسة وتحليل بعض النماذج التطبيقية ، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث .LMD –- وهران :كلية الآداب والفنون ، قسم الفنون ، تخصص النقد الفني، جامعة أحمد بن بلة.
- فضيلة نجيب 13) .أغسطس .(2008 ,رسومات المستشرقين تروي تفاصيل حياة الشعوب .تم الاسترداد من مجلة البيان الإمارات: https://www.albayan.ae/five-senses/2008-08-13-1.665593
- فضيلة نجيب13) .أغسطس .(2008 رسومات المستشرقين تروي تفاصيل حياة الشعوب) .مجلة البيان الإمارات.
- فيصل بشري محمد الخراز) .بلا تاريخ .(طبيعة الإكسيولوجيا أصنافها و معاييرها .مجلة كلية الآداب.
- ليليا عثمان الطيب) .مارس .(2022 صورة المرأة الجزائرية في لوحات الرسام الأمريكي المستشرق فريدريك أرثر بريدجمان .ألمانيا/ برلين :المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستر اتيجية والسياسية والاقتصادية.
- مجموعة من الباحثين و الأكاديميين العرب .(2015) .مؤنسات في الجماليات – نظريات، تجارب، رهانات) .الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة، المحرر (الجزائر ، بيروت، الرباط :الرابطة العربية الأكادمية للفلسفة ، منشورات الاختلاف ، منشورات الضفاف ، الكلمة ، الأمان.

- محمد أحمد محمد حواس .(2018) .تأثير المذاهب على العمارة الاسلامية للمساجد .مصر :مكتبة الأنجلوا المصرية.
- محمد أحمد السويدي .(2020 ,10 12) .موقع اليويتوب .تم الاسترداد من متحف_الفنون :جان ليون جيرومhttps://www.youtube.com/watch?v=iFexbFtytxI :
- محمد بلاسم .(2008) . الفن التشكيلي قراءة سيميائية في أنساق الرسم .الأردن :دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
- محمود شاهين 03) .جوان .(2012 ,ألف ليلة وليلة :محرك الاستشراق الفني وميدان أساطيره .تم الاسترداد من صحيفة البيانhttps://www.albayan.ae/paths/life/2012-06-03-1.1661753 :
- مدينة توب كابي) .بلا تاريخ .(تم الاسترداد من-https://shimanovskadm.ru/ar/sochi/gorod-topkapy-sultanskii-dvorec-topkapy-v-stambule-dorozhka-vedushchaya.html
- مذكرة مادة نقد المنطق؛ تعريف المنطق ونشأته وانتقاله للمسلمين) .بلا تاريخ .(جامعة أم القرى.
- مروض الأفاعي) .بلا تاريخ .(تم الاسترداد من موسوعة كشاف : https://www.kachaf.com/wiki.php?n=5edb615a5809e830e87b6f50
- مريم قرارية .(2019) .رسومات المستشرقين دالالتها الفنية والإيديولوجية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الفنون، .الجزائر :جامعة أبي بكر بلقايد، كلية الآداب واللغات، قسم الفنون.
- معمر جلول خدة .(2010/2011) .الدراسات الفلسفية الأخلاقية في الفكر المغاربي المعاصر ، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في الفلسفة، .كلية الاجتماعية قسم الفلسفة ، جامعة وهران2.
- نادية قجال) .أكتوبر– ديسمبر .(2009 ,الوظائف الأساسية للرسم الاستشراقي قبيل وإبّان الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي .مجلة انسانيات،.(46)13
- نجوى علي عبود ، عبد المولى عمى البهليل، و إيناس سالم 31) .ديسمبر .(2016 ,ملامح الفن التجريدي في الفن الإسلامي.(3)2 .
- ولي أوكتافيانو .(2003) .(Willy Oktaviano)الأخلاق الإسلامية وخصائصها .الزهراء مجلة الدراسات الاسلامية والعربية،.1
- يامنة بن فرح .(سبتمبر 2013)سيميائية الصورة في فن التصوير .مجلة الحوار الثقافي 2(2).

أثر القرآن الكريم والسنة النبوية في دور الدعاة إلى الله- عز وجل- في الاعتراف بالإسلام وحماية المسلمين في أرض المهجر (جعفر بن أبي طالب-رضي الله عنه- أنموذجا)

The Impact of the Holy Qur'an and the Sunnah of the Prophet on the Role of) the Callers to God - in Recognizing Islam and Protecting Muslims in the land of (exile (Jaafar bin Abi Talib (May God be Pleased with Him) as a Model

أ.م. د/ أحمد محمد محروس القطوري، الجامعة الإسلامية الأمريكية بمنيسوتا-فرع السنغال
ahmedmhrosq@gmail.com



هدفت الدراسة إلى الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي: ما هو أثر القرآن الكريم، والسنة النبوية في دور الدعاة إلى الله- عز وجل- في الاعتراف بالإسلام، وحماية المسلمين في أرض المهجر؟، وتأتي هذه الدراسة؛ لبيان أثر القرآن الكريم، والسنة النبوية في تربية الدعاة إلى الله-عز وجل-، للقيام بدورهم في الدعوة الإسلامية، وعرض محاسن الدين الإسلامي في كل مكان، وخاصة في أرض المهجر، ويبرز البحث الدور الذي قام به جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه)، والذي كان له بالغ الأثر في خدمة الدعوة إلى الله- عز وجل- وحماية المسلمين في أرض المهجر. ومن أهم النتائج:

- أكدت الدراسة على أهمية الدور الذي يقوم به الدعاة إلى الله- عز وجل-؛ لنشر الإسلام، وحماية المسلمين في كل مكان، وخاصة في أرض المهجر.
- أبرزت الدراسة الأسلوب الذي سلكه جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه) أمام النجاشي؛ فقد كسب تأييده للدعوة الإسلامية، وأعلن حمايته للمسلمين، وذلك ببراعته في عرض القضية، وردوده البلاغية على افتراءات قريش، وعرضه لصفات الرسول- صلى الله عليه وسلم-، ولمحاسن الإسلام.

الكلمات المفتاحية: القرآن،. السنة،. الدعاة،. أرض المهجر،. جعفر.

Abstract:

The study aimed to answer the following main question: What is the impact of the Holy Qur'an and the Sunnah of the Prophet on the role of the callers to God - the Almighty - in recognizing Islam and protecting Muslims in the land of exile? This study comes; To demonstrate the impact of the Holy Qur'an and the Sunnah of the Prophet in raising the callers to God - the Mighty and Sublime -, to carry out their role in the Islamic call, and to display the virtues of the Islamic religion everywhere, especially in the land of the Diaspora, and the research highlights the role played by Jaafar bin Abi Talib (may God be pleased with him).), which had a great impact in serving the call to God - the Almighty - and protecting Muslims in the land of the Diaspora. Among the most important results:

-The study stressed the importance of the role played by the callers to God - the Almighty -; To spread Islam, and protect Muslims everywhere, especially in the land of the Diaspora**.**

- The study highlighted the method adopted by Jaafar bin Abi Talib (may God be pleased with him) in front of the Negus; He won his support for the Islamic call, and declared his protection for Muslims, by his ingenuity in presenting the issue, his rhetorical responses to the fabrications of Quraysh, and his presentation of the characteristics of the Messenger - may God bless him and grant him peace - and the beauties of Islam**.**

Keywords: The Qur'an, Sunnah, preachers, the land of exile, Jaafar.



مقدمة:

الحمد لله الذي اختار من عباده رسلا للقيام بدعوته، واصطفى منهم محمدا؛ فأعطاه القرآن معجزة لرسالته؛ فربى به أصحابه للقيام بدعوته، ومنحهم جوامع سنته، فركبوا القفار، والبحار لنشر رسالته، وتميز منهم صاحب الراية الذي أقنع النجاشي بحكمته، وبلاغته، وأبكاه وأساقفته لما تكلم عن روح الله، وكلمته، ورد كيد من صد عن الدعوة وأبطل حجته، وأخلص في سره وعلانيته، نسأل الله أن يشرفنا بالسير في طريق الدعوة إلى شريعته، وأن يجمعنا بحبيبنا في الفردوس الأعلى، وأن نكون من رفقته، أما بعد.

فإن المتأمل في دور الدعاة إلى الله- عز وجل- يجد أنهم قد تحملوا كثيرا من المشقة، والصبر في نشر الدين الإسلامي، وقد قام جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) بدور بارز في أرض المهجر (الحبشة)، وقد وصل في خطابه أمام النجاشي(رحمه الله)، وأساقفته إلى الذروة في البلاغة، والإقناع بالحجة البالغة، والاستشهاد بالقرآن، والسنة، والاعتزاز بدينه، وضبط النفس، وبعده عن مجاراة خصمه، وقد عدد مساوئ الجاهلية، وعرض محاسن الإسلام، وبين شرف نسب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وأهم صفاته، وتحدث عن عدل النجاشي، وأسباب اختيارهم لأرضه، وقد كان موفقا في الاستشهاد بالقرآن، والسنة على نبوة عيسى- عليه السلام-، وبأنه عبد الله، ورسوله، وروحه، وكلمته؛ فقد تأثر النجاشي (رحمه الله)، وأساقفته، وفاضت أعينهم من الدمع، وأعلن النجاشي حمايته للمسلمين في أرض المهجر (الحبشة)، وعلى الدعاة إلى الله- عز وجل- أن يقتدوا بالأنبياء- عليهم السلام-، والدعاة إلى الله-عز وجل-، والاهتمام بلغتهم التي يخاطبون بها الناس في دعوتهم إلى الدين الإسلامي؛ حتى يكتب الله التمكين لدينه في كل مكان.

أسئلة الدراسة:

يعالج البحث الموضوع من خلال الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي: ما هو أثر القرآن الكريم، والسنة النبوية في دور الدعاة إلى الله- عز وجل- في الاعتراف بالإسلام، وحماية المسلمين في أرض المهجر؟

وكذلك تحاول الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. ما هي أهم الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الدعاة إلى الله- عز وجل-، وخاصة في أرض المهجر؟
2. ما هي الأساليب التي يستطيع بها الدعاة إلى الله- عز وجل- تغيير صورة الإسلام في أرض المهجر؟

أسباب اختيار الموضوع:

1. الإسهام في خدمة كتاب الله-عز وجل-؛ طلبا لمرضاته، وسعيا في تحصيل ثوابه، وعطائه.
2. التأكيد على أثر القرآن الكريم، والسنة النبوية في دور الدعاة إلى الله- عز وجل- في الاعتراف بالإسلام، وحماية المسلمين في أرض المهجر.
3. السعي في إبراز أهم الأساليب التي يستطيع بها الدعاة إلى الله- عز وجل- تغيير صورة الإسلام في أرض المهجر.

أهمية البحث:

من المتوقع أن تسهم هذه الدراسة في الآتي:

1. الكشف عن الدور البارز الذي يقوم به الدعاة إلى الله-عز وجل-، وخاصة في أرض المهجر.
2. يفيد البحث في إظهار الطرق التي يستطيع بها الدعاة إلى الله- عز وجل- محاورة غير المسلمين، وعرض خصائص الإسلام عليهم.
3. يسهم البحث في بيان كيفية تربية الدعاة إلى الله-عز وجل-، على القرآن الكريم، والسنة النبوية؛ ليستطيعوا القيام بدورهم على الوجه الأكمل.

أهداف البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى:

1. الكشف عن الدور المتميز الذي قام به جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه)، وما كان له من أثر في خدمة الدعوة، وحماية المسلمين في أرض المهجر.
2. التأكيد على أهمية تربية الدعاة إلى الله-عز وجل-، على القرآن الكريم، والسنة النبوية؛ لتتميز خطاباتهم في عرض محاسن الدين الإسلامي في كل مكان، وخاصة في أرض المهجر.
3. يسلط البحث الضوء على الخطاب الذي تميز به جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه)، أمام النجاشي، وأساقفته؛ لإقناعهم بالإسلام، وكسبهم لصفه، وهذا ما نحتاجه من دعاتنا في بلاد الغرب.

الدراسات السابقة:

لم أجد دراسة بنفس المسمى- والله أعلم-، ولكن وجدت بعض الأبحاث التي لمست جانبا من جوانب البحث، والتي منها:

1. دراسة: أحمد، عبدالله خضر، أثر الهجرة في تكوين الإمارات الإسلامية في إفريقيا (الحبشة نموذجا)، بحث منشور بمجلة قراءات- العدد التاسع عشر 1435هـ، تحدث فيها الباحث عن مراحل نشأة الإمارات الإسلامية في الحبشة، وكان من نتائجها:
   أ- قامت سبع ممالك بالحبشة كان لها الدور البارز في دخول القبائل الحبشية إلى الإسلام.
   ب- كان لإسلام هذه الأقاليم الدور الفعال في تغيير الحياة الاجتماعية، والثقافية، والسياسية في كل المجالات.
2. دراسة: عثمان، صفاء موسى، هجرة المسلمين إلى الحبشة دراسة تاريخية تحليلية، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير من كلية التربية-جامعة الجزيرة بحنتوب 2016م، وقد كشفت الدراسة غن هجرة المسلمين إلى الحبشة، وحماية الدعوة الإسلامية، وكان من نتائجها:
   أ- ترتب على الهجرة إلى الحبشة تبادل السفارات بين الرسول- صلى الله عليه وسلم-، والنجاشي(رحمه الله).
   ب- تأثر أهل الحبشة بالمهاجرين؛ فاعتنق بعضهم الدين الإسلامي؛ تأثرا بأخلاق المهاجرين.
3. دراسة: السمان، محمد عدنان، من معالم الاستشراف والتخطيط للمستقبل في الدعوة في ضوء السنة النبوية(الهجرة إلى الحبشة أنموذجا)، بحث منشور بموقع شبكة السنة النبوية وعلوما1432هـ، وقد تناول الباحث أثر استشراف الرسول- صلى الله عليه وسلم-، للمستقبل بتخطيطه للهجرة إلى الحبشة، والدروس المستفادة من الهجرة إلى الحبشة، وكان من نتائجها:
   أ- كانت حياة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- مثالا عمليا في الدعوة إلى الله-عز وجل-، وعلى الدعاة الاقتداء به، وباستشرافه للمستقبل.
   ب- الدعوة إلى الله- عز وجل- هي طريق الأنبياء-عليهم السلام-، ومن اقتدى بهم في كل زمان ومكان.

التعليق على الدراسات السابقة:

تتفق الدراسة الحالية مع الدراسات السابقة في موضوعها الرئيس وهدفها العام إلا أنها تختلف عنها في عدة جوانب، وهي:

1. أولا: أن الدراسة الأولى، والثانية قد تناولتا الموضوع من الناحية التاريخية، وتناولت الدراسة الحالية الموضوع من الناحية التاريخية، والدعوية، وأهمية دور الدعاة لدعوة غير المسلمين في أرض المهجر.
2. تناولت الدراسة الثالثة الموضوع من ناحية التخطيط للمستقبل من الرسول- صلى الله عليه وسلم- في ضوء السنة، وقد شملت الدراسة الحالية على الموضوع من الناحية التخطيطية، والتنفيذية في ضوء القرآن، والسنة.
3. تميزت الدراسة الحالية بأنها عرضت الوسائل، والأساليب التي دعا بها جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه) غير المسلمين في أرض المهجر.

منهجية البحث:

استخدمت الدراسة المنهج الاستقرائي، والتاريخي للإجابة على أسئلة الدراسة.

المحور الأول: جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) ودوره في أرض المهجر

أولا- نسبه، وإسلامه (رضي الله عنه):

1- نسبه (رضي الله عنه): هو جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه)، يكنى: أبا عبد الله، واسم أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب بن قصي الهاشمي، أخو علي بن أبي طالب، وهو أسن من علي بعشر سنين(رضي الله عنه)، وهو ابن عم رسول الله- صلى الله عليه وسلم.(ابن عبد البر، 1412هـ،ص242/1)، و(الذهبي، 1405هـ، ص206/1)، و(ابن الأثير، 1416هـ، ص54/1).

2- إسلامه(رضي الله عنه): أسلم جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) في بداية الدعوة بعد إسلام أخيه علي بقليل (رضي الله عنهما)، فقد روي أن أبا طالب رأى رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وعليا يصليان، فقال لجعفر: "صل مع ابن عمك"، وقيل: بأنه أسلم بعد واحد وثلاثين إنسانا. (ابن الأثير، 1416هـ، ص541/1).

ثانيا- مناقبه (رضي الله عنه):

كان أبو هريرة يقول عن جعفر(رضي الله عنهما): إنه أفضل الناس بعد رسول الله- صلّى اللَّه عليه وسلم.(ابن حجر، 1415هـ، ص47/8)، وقد قال له رسول الله- صلّى اللَّه عليه وسلم-: "أشبهت خلقي وخلقي".(البخاري، 1422هـ،ح 2699)، وهاجر (رضي الله عنه) من الحبشة إلى المدينة بعد فتح خيبر، فقال رسول الله- صلّى اللَّه عليه وسلم-: "ما أدري بأيهما أنا أشد فرحا، أبقدوم جعفر، أم بفتح خيبر؟". (ابن عبد البر، 1412هـ،ص242/1).

وقد استشهد (رضي الله عنه) في مؤتة، وأمَّره رسول الله- صلى الله عليه وسلم- على جيش مؤته بعد مقتل زيد بن حارثة، فعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما)، قال: أمَّر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم: "إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة(رضي الله عنهم)، " قال عبد الله: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين، من طعنة ورمية".(البخاري، 1422هـ،، ح4261)، و(الشيباني، 1421هـ، ح1750).

ثالثا- دوره (رضي الله عنه) في أرض المهجر(الحبشة):

كانت فكرة الهجرة إلى أرض الحبشة إيذانا ببداية جديدة نحو انتقال الدعوة خارج مكة المكرمة التي مارس أهلها أشد أنواع التعذيب، والاضطهاد لأهل الدعوة الجديدة، وخاصة المستضعفين منهم، وكان رسول الله- صلى الله- عليه وسلم- يحزن لما يلقاه أصحابه(رضي الله عنهم) من الأذى، والتعذيب من أهل مكة؛ فأمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة.

وقد هاجر المسلمون إلى أرض الحبشة؛ فامتلأت قلوب قريش غيظا، وحقدا، وأخذوا يدبرون المكائد لإرجاع المسلمين إلى مكة مرة أخرى؛ فأرسلت قريش عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص محملين بالهدايا إلى النجاشي، وإلى بطارقته؛ لإرجاع المهاجرين من أرض الحبشة، فلما كلمه عمرو بن العاص أرسل إلى أصحاب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فدعاهم، فلما جاءهم رسوله تشاوروا ماذا يقولون للنجاشي، ثم قالوا نقول: والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا- صلى الله عليه وسلم -، وقد توكلوا على الله-عز وجل- أن يقولوا هذا الكلام للنجاشي(رحمه الله).

ولما حضر جعفر وأصحابه (رضي الله عنهم)عند النجاشي، وكان قد دعا أساقفته، ونشروا مصاحفهم حوله، ثم سألهم النجاشي(رحمه الله) عن الدين الجديد الذي فارقوا من أجله دين قومهم، ولم يدخلوا في دينه، ولا في دين غيره؟ فرد جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه)، على النجاشي(رحمه الله)، بطريقة تبين فن التربية التي ترباها هذا الداعية على القرآن الكريم، وعلى سنة رسول الله- صلى الله عليه وسلم – في دار الأرقم خلال السنوات الأولى من البعثة في مكة قبل هجرته إلى الحبشة، وتؤكد على أنه كان على درجة كبيرة من العلم، والحكمة، وأنه كان جديرا بالإمارة التي اختاره الرسول- صلى الله عليه وسلم - لها، وينبغي على الدعاة إلى الله- عز وجل- أن يدرسوا الحوار الذي دار بين النجاشي (رحمه الله)، وجعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه)؛ ليستخلصوا منه الأساليب، والنتائج التي ينبغي أن تتوفر في كل داعية يحاور الناس؛ ليقنعهم بالإسلام، وخاصة الدعاة في أرض المهجر، فقد تكلم جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) عن:

1- عدد مساوئ الجاهلية: فقال أيها الملك، كنا في الجاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ويعتدي القوي منا على الضعيف.

2- تكلم عن شرف نسب رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، وعن أخلاقه: فقال: ثم بعث الله-عز وجل- إلينا رسولا، نعرف نسبه، وصدقه، ونعرف أمانته، وعفته.

3- تحدث عن دين الإسلام، ومحاسنه: فكان مما قال: وقد دعانا- أي: رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ، إلى عبادة الله-عز وجل-، وترك عبادة الأوثان، وأمرنا بالأخلاق الفاضلة، كالصدق في الحديث، وأداء الأمانة، وأن نصل أرحامنا، وأن نحسن الجوار، ونكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وألا نأكل مال اليتيم، كما قال تعالى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًاۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) (النساء: 36)، وقال تعالى:{ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًاۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًاۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الأنعام:151)، وكما قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم: "اجتنبوا السبع الموبقات"، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات".(البخاري، 1422هـ، ح2766)، و(النيسابوري، د.ت، ح 89)، وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ**

قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (33) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء:31-36)، وأوصى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بالحار؛ فقال: "ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه".(البخاري، 1422هـ، ح6015)، و(النيسابوري، د.ت، ح 2625).

4- تحدث عن ظلم قريش لهم: فقال: فلما آمنا به –أي: رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، وصدقناه، واتبعناه فيما أمرنا به، تجرأ علينا قومنا، وعذبونا؛ ليفتنونا عن ديننا.

5- بين له السبب الذي جعلهم يختارونه على غيره: فقال له: فلما ظلمونا وضيقوا علينا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك. ثم سأله النجاشي: هل تحفظ شيئا مما جاء به عن الله ؟ فقال له جعفر: نعم، ثم قرأ عليه صدرا من سورة مريم؛ فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت الأساقفة من حوله حتى أخضلوا مصاحفهم، ثم قال النجاشي(رحمه الله): إن هذا، والذي جاء به عيسى- عليه السلام- ليخرج من مشكاة واحدة، ثم قال لعمرو وصاحبه: انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون.(ابن هشام، 1375هـ، ص336/1- 337)، وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث عن أم سلمة(رضي الله عنها) (الشيباني، 1421هـ، ح1740).

وأراد عمرو بن العاص (رضي الله عنه) أن يوقع بينهم، وبين النجاشي؛ فلما كان الغد دخل عليه فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولا عظيما، فأرسل إليهم فسلهم عنه. فقال له جعفر: نقول هو عبد الله، ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فأخذ-أي: النجاشي- عودا وقال: والله ما زاد ابن مريم على هذا، ثم قال النجاشي: اذهبوا فأنتم سيوم في الأرض – السيوم: الآمنون في الأرض. (الخطابي، 1402هـ، ص719/1)، ثم قال: ومن سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ثلاثا.(ابن كثير، 1408هـ، ص89/3).

رابعا- من صفات الداعية التي تحققت في جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه):

تقدم جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه) يحاور النجاشي(رحمه الله)، وهو يعلم أن النتائج التي سيحققها خطابه أمام النجاشي ستحدد مصير بقاء المسلمين في أرض الحبشة، وستعطي للنجاشي(رحمه الله)، وأساقفته فكرة عن دين الإسلام، وستدحض حجة عمرو بن العاص وصاحبه أمام النجاشي(رحمه الله).

وقد راعى جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه) الأصول التي ينبغي أن يسلكها الدعاة في خطاباتهم؛ "فقد خاطبهم بالإسلام، وهذا هو أصل الدعوة الأول، وبلغهم دعوة الرسول-صلى الله عليه وسلم-، وهو النائب عنه في دعوته، ورسول الله-صلى الله عليه وسلم-، هو الداعي إلى الله، وهذا هو الأصل الثاني للدعوة، وقد بلغهم رسالة الإسلام؛ لأن الإسلام جاء للعرب، والعجم، كما قال تعالى:{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا

} (سبأ:28)، وهذا هو الأصل الثالث للدعوة أن تصل الرسالة للمدعويين في كل مكان من العرب، وغير العرب، وقد قام جعفر (رضي الله عنه) بدعوتهم بالوسائل، والأساليب التي تعلمها من القرآن والسنة، وهذه الأساليب، والوسائل هي أصل الدعوة الرابع".(زيدان، 1421هـ، ص5).

وقام جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه) بالدعوة إلى الله-عز وجل- بما تعلمه من القرآن الكريم، والسنة النبوية، وعرض على النجاشي(رحمه الله)، وبطارقته الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، كما قال تعالى: {ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (النحل:125)، ولم يتعرض لعمرو وصاحبه بالإساءة، إنما دفع مكائدهم بالتي هي أحسن، كما قال تعالى:{ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}. (فصلت:34)، وهذا مما ينبغي أن يتصف به الدعاة إلى الله- عز وجل-؛ "ليكسبوا الناس إلى صف الدعوة، فيدفعوا جهل الجاهل، وإساءته بحلمهم، وصبرهم".(الطبري، 1420هـ، ص471/21).

وقد صبر جعفر(رضي الله عنه) على سوء أخلاقهم، وعلى جهلهم، وإساءتهم، ولم يقابلها بالأخلاق المذمومة، ولا الألفاظ القبيحة، ولم يقابل سفاهتهم بالغضب، وإنما صبر، وتحمل، وكظم غيظه، وترك الانتقام، وما يصل إلى هذه الأخلاق العالية إلا ذو حظ عظيم، كما قال تعالى: { وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}. (فصلت:35).

ولاحظنا أن جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه) قد وصل إلى مرحلة عالية في الثبات، ورباطة الجأش،(أي: هدوء النفس وثبات القلب) (عمر، وآخرون، 1429هـ، ص339/1) ؛ فلم يشغل نفسه بالانتقام، وإنما بالدعوة إلى الله- عز وجل.(الرازي، 1420هـ، ص565/27)، وكان همه(رضي الله عنه) حماية المسلمين، وإقناع النجاشي بدعوة الإسلام؛ فأخذ يحدث النجاشي(رحمه الله) عن الدين الإسلامي بخطاب متميز، وبعبارات بليغة تبين مدى تعمق الدعوة في نفسه، ورضاه عن هذا الدين، وعن الدور الذي يقوم به، ولم يكن متصنعا في خطابه، ولا منافقا في كلماته؛ فلذلك وقعت كلماته موقعها عند النجاشي، وأساقفته، وهذا ما نحتاجه من دعاتنا في بلاد الغرب. ولا تتوفر هذه الصفات، وتلك القناعات إلا بالتربية الصحيحة، والصبر، والاقتداء بإمام الدعاة محمد- صلى الله عليه وسلم، كما قال له ربه- عز وجل:{ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ بَلَاغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ } (الأحقاف:35).

وقد سلك جعفر (رضي الله عنه) في خطابه عدة مسالك تبين حرصه على إقناع الآخرين، والمحافظة على إخوانه المسلمين في أرض المهجر، وأراد أن يكسب الملك، وحاشيته في صف الدعوة، وقد اتصف خطابه بالصدق، والتوكل على الله- عز وجل-، ومن المسالك التي اتبعها في دعوته:

1. التخلية قبل التحلية: فقد عرض مساوئ الجاهلية، وكيف كانوا يقومون بهذه الصفات مع أنها تخالف الفطر السليمة، ثم ذكر قواعد الإسلام والتي تؤكد على تميز هذا الدين، وموافقته للفطر السليمة.

2. وصف رسول الله-صلى الله عليه وسلم- بشرف النسب، وصدق الحديث، والأمانة في المعاملة.
3. بين القواعد الإجمالية للإسلام، والتي كان قد تعلمها في مكة في صدر الإسلام، كعبادة الله- عز وجل-، وترك عبادة الأصنام، والبعد عن الفواحش.
4. عرض مبادئ الإسلام على النجاشي، وأساقفته، كالمساواة، وعدم اعتداء القوي على الضعيف.
5. المهارة العالية التي اتبعها في خطابه؛ لإقناع النجاشي، وبطارقته، ولم يستطع أن يكذبه عمرو بن العاص، أو يقاطعه، وذلك لقوة حجته.
6. الوصول بالحوار إلى درجة عالية من البلاغة، والفصاحة، وذلك بفضل التربية المثالية التي تلقاها على يد النبي- صلى الله عليه وسلم- في دار الأرقم بن أبي الأرقم.
7. الثبات عند الحوار، وتملك النفس، والبعد عن الانفعال، وعدم مجاراة الخصم في سلوكياته.
8. المحبة للدين الإسلامي، وللدعوة، ولنبيها-صلى الله عليه وسلم؛ جعلته يتكلم بلسان الصدق، والدفاع عن الدعوة، وعن نبيها.
9. الحماية التي تمتع بها المهاجرون في أرض المهجر(الحبشة) بفضل جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) بعد خطابه أمام النجاشي(رحمه الله)؛ فقد استطاع أن "يستميل قلب النجاشي؛ ليقوم بحماية المسلمين".(الوكيل، 1400هـ، ص،235)

10.الاعتزاز بالدين الإسلامي، ورفضه هو وأصحابه السجود لغير الله-عز وجل.(الندوي، د.ت، ص89/1)، وهذه الصفات التي توفرت في جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه) يحتاجها الدعاة في كل عصر لدعوتهم إلى الله- عز وجل-، ونشر هذا الدين العظيم؛ ليدخل من في الغرب، والشرق في دين الله أفواجا، وتكسب الدعوة أرضا جديدة، ومسلمين آخرين.

المحور الثاني: أثر دعوة جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) في الاعتراف بالإسلام، وحماية المسلمين في أرض المهجر(الحبشة)

أولا- الاعتراف بالإسلام:

لقد أثر خطاب جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه) في النجاشي(رحمه الله) حتى قال: إن هذا والذي جاء به عيسى- عليه السلام- ليخرج من مشكاة واحدة.(ابن هشام،1375هـ، ص336/1- 337)، و(الشيباني،1421هـ، ح1740).

ولما أراد عمرو بن العاص أن يكيد لجعفر وأصحابه بقوله: إنهم يقولون في عيسى-عليه السلام- قولا عظيما؛ فلما قال جعفر عن عيسى- عليه السلام-: هو عبد الله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول؛ فأخذ النجاشي(رحمه الله) عودا، وقال: والله ما زاد ابن مريم على هذا. (ابن كثير، 1408هـ، ص89/3)، والأنبياء كلهم يدينون بالإسلام، ولكن شرائعهم مختلفة، كما قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (آل عمران:19)، وقال عن إبراهيم- عليه السلام-:{ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا

وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (آل عمران:67)، وقال موسى- عليه السلام- لقومه: {وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ}.(يونس:84).

ثانيا- حماية المسلمين:

كانت قريش في مكة تؤذي المسلمين، وخاصة الضعفاء منهم، ولما وجد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بأن الأذى قد اشتد بأصحابه أمرهم أن يهاجروا إلى الحبشة، وأخبرهم بأن بها ملكا لا يظلم أحد عنده".(البيهقي، 1424هـ،ح17734)؛ فلما هاجر المسلمون إلى أرض الحبشة، وجدوا الأمان في ديارها، وأمنوا على دينهم، وعبدوا الله- عز وجل-، لا يخافون الأذى، وهذا بسبب حماية النجاشي(رحمه الله) لهم، فعن أم سلمة (رضي الله عنها)، قالت: لما هاجرنا إلى أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار-تقصد النجاشي(رحمه الله)؛ فقد أمنا على ديننا، وعبدنا الله- عز وجل-، لا يؤذينا أحد، ولا نسمع شيئا نكرهه. (الشيباني، 1421هـ، ح1740)، ومنع النجاشي قريشا من أن تصل إلى غرضها بأخذ المسلمين الذين هاجروا إلى أرض الحبشة، وتردهم إلى مكة.(ابن هشام، 1375هـ، ص350/1)

ولقد استمع النجاشي(رحمه الله) إلى خطاب جعفر(رضي الله عنه) بإنصات، واهتمام، وإعجاب، ثم تكفل بحماية المسلمين في أرضه، ورفض أن يسلمهم لعمرو بن العاص وصاحبه، وقال لهم كلمات تبين حمايته لهم، وإعطائهم الأمان في أرض المهجر(الحبشة)، فقال لهم: اذهبوا فأنتم سيوم في الأرض - أي الآمنون في الأرض، ثم قال لهم: ومن سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ثلاثا.(ابن كثير،1375هـ، ص89/3).

ثالثا- إسلام النجاشي:

أسلم النجاشي (رحمه الله) على يدي جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه).(ابن سعد، 1410هـ، ص198/1)، و(الشامي، 1414هـ، ص344/11- 345)، و(الطهطاوي، 1419هـ، ص345/1)، ومما يدل على إسلامه:

1. إن رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، قد نعى النجاشي(رحمه الله) في اليوم الذي مات فيه، وصلى عليه، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه): "أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج إلى المصلى، فصف بهم وكبر أربعا".(البخاري، 1422هـ، ح4261)، و(النيسابوري، د.ت، ح 951)، وعن جابر (رضي الله عنه)، قال، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- حين مات النجاشي: "مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة".(البخاري، 1422هـ ، ح3877).
2. قال الذهبي، النجاشي: "اسمه: أصحمة، ملك الحبشة، وهو معدود في الصحابة(رضي الله عنهم)، وكان ممن حسن إسلامه، ولم يهاجر، ولا له رؤية، وذهب البعض إلى أنه يعد من التابعين، وذهب البعض إلى أنه يعد من الصحابة. ولما توفي صلى عليه رسول الله-صلى الله عليه وسلم- بالناس صلاة الغائب.(الذهبي، 1405هـ، ص428/1)، والصواب- والله أعلم- أنه ليس صحابيا.

3. روى البيهقي في شعب الإيمان أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- بعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي(رحمه الله) في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه(رضي الله عنهم)، وكتب معه كتابا يدعوه إلى الإسلام؛ فكتب النجاشي(رحمه الله) إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- كتابا، قال فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- من النجاشي الأصحم بن أبجر: "سلام عليك يا رسول الله من الله الذي لا إله إلا هو، فقد هداني الله إلى الإسلام، وقد وصلني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابه، فأشهد على أنك رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، صادقا مصدقا، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك جعفر، وأسلمت على يديه لله رب العالمين.(البيهقي، 1424ه، ح309)، وقد اختلف العلماء في النجاشي الذي كتب له رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، فذهب فريق إلى أنه صاحب جعفر وأصحابه(رضي الله عنهم)، وذهب فريق آخر إلى أن الكتاب الذي أرسله رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، كان للنجاشي الذي كان بعد المسلم (أصحمة) صاحب جعفر وأصحابه(رضي الله عنهم)، والله أعلم.(ابن كثير، 1408ه، ص104/3)، و(الندوي، 1425ه، ص406)، و(منيسي، 1421ه، ص87-90)

4- إسلام بعض أهل الحبشة:

وقد آمن بعض أهل الحبشة من النصارى، ودخلوا في الإسلام، ولما علموا أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- انتصر في بدر، قالوا للنجاشي: ائذن لنا، فلنذهب إليه، فأتوا النبي- صلى الله عليه وسلم- فشهدوا معه أحدا.(ابن الأثير، 1416ه، ص161/1).

وقدم على رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، وهو بمكة، وفدا من النصارى من أهل الحبشة، وقد كان في المسجد، فسألوه عن دينه؛ فدعاهم رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوه آمنوا بالله- عز وجل- ودخلوا في الإسلام، ومما أنزل فيهم: { وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (المائدة:83)، وقال تعالى:{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ 52 وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ 53 أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} (القصص:52-54).(ابن هشام، 1375ه، ص391/1-392).

وقد ذهب سعيد بن جبير، والسدي، وغيرهما إلى أن هذه الآيات: { لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ 82 وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ 83 وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ 84 فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ} (المائدة:82-85) نزلت في وفد النجاشي الذين جاؤوا إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم-؛ فلما حضروا إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وسمعوا كلامه، ورأوا صفاته، وقرأ عليهم

القرآن، بكوا، وخشعوا، وآمنوا بالله- عز وجل-، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه.(ابن كثير، 1419هـ،ص149/3).

المحور الثالث: النجاشي ودوره في حماية المسلمين بأرض الحبشة

أولا- نسبه، ومناقبه:

1.هو أصحمة بن أبحر، ملك الحبشة، وقيل اسمه عطية. والنجاشيّ لقب لملك الحبشة. (ابن حجر، 1415هـ، ص347/1)، وقيل اسمه: صحمة، وقيل: أصخبة، أو أصحبة.(ابن حجر، 1379هـ، ص203/3)، والنجاشي كلمة تطلق على كل من يحكم الحبشة، مثل كسرى للفرس، وقيصر للروم. (ابن دريد، 1987م، ص478/1)، و(ابن الأثير، 1416هـ، ص252/1)

2. مناقبه: لما مات النجاشي(رحمه الله)، ونعاه جبريل- عليه السلام- إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، أمرهم رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، بأن يخرجوا؛ لكي يصلوا عليه، قال بعضهم: كيف يأمرنا رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، أن نصلي على علج من علوج الحبشة؛ فأنزل الله- عز وجل: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}. (آل عمران:199).

وقد ذهب جابر بن عبد الله، وأنس، وابن عباس(رضي الله عنهم)، وقتادة، والحسن(رحمهما الله): أنها نزلت في النجاشي (رحمه الله)، وذهب مجاهد، وآخرون: أن الآية عامة في مؤمني أهل الكتاب، ورد أهل العلم: بأن النجاشي واحد من أهل الكتاب.(القرطبي، 1384هـ، ص4/ 322)، و(الطبراني، د.ت، ح2667)، والظاهر، والله أعلم- أن الذين طعنوا في صلاة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- على النجاشي(رحمه الله)، هم المنافقون. (الماوردي، 1409هـ، أعلام النبوة، ص117)، و(الطهطاوي، 1419هـ، ص130/1).

وقد عرف النجاشيّ(رحمه الله) برجاحة العقل، وسلامته، وكان رجلا راشدا، عارفا بالله- عز وجل-، صحيح الاعتقاد في نبي الله عيسى-عليه السلام- بأنه عبد الله ورسوله، وكانت رجاحة عقله سرّ المعاملة التي عامل بها المسلمين الفارين بدينهم إلى أرضه.(الغزالي،1427هـ، ص122).

ثانيا- دوره في حماية المسلمين:

غضب النجاشي(رحمه الله) عندما طلب عمرو بن العاص أن يرد المسلمين إلى قريش دون أن يستمع إليهم، وإلى دعوتهم؛ لأنهم اختاروه على من سواه، وكان عمرو بن العاص قد جاء بهدايا له، ولبطارقته؛ ليصدقوه عند الملك، فقال له عمرو بن العاص: "إن فتية منا-أي: من أهل قريش- قد فارقوا ديننا، وقد جاؤوا بدين جديد مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنت، ولم يتبعوا دينك، وقد لجؤوا إلى بلادك، وقد بعثنا إليك قومهم، وعشائرهم؛ لنردهم إليهم."، فقالت البطارقة-كذبا-: صدقوا أيها الملك، ولكن النجاشي(رحمه الله) غضب من هذ الكلام، ثم قال: "لا لعمر الله، وطلب أن يستمع إليهم؛ ليرى كلامهم، فقال: لا أردهم إلي قومهم حتى أكلمهم، وأسمع منهم، قوم لجؤوا إلى بلادي، واختاروا جواري".(الذهبي، 1405هـ، ص215/1)، وقد أفزع هذا الرد عمرو بن العاص، وصاحبه، وتبين من خلال رده الأمور الآتية:

1. صدق رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، فقد ذكر للصحابة: "بأن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده".(البيهقي، 1424هـ، ح17734).
2. إن النجاشي(رحمه الله) ملك لا يأخذ الأمور إلا بعد التثبت منها، ولا تغريه الهدايا، ولا تحوله عن العدل الذي اتصف به.
3. الذكاء الذي ظهر من النجاشي(رحمه الله) في رده على عمرو بن العاص، وتبين أنه لابد أن يسمع كلام المهاجرين، ويحلله، ويحكم عليه بنفسه.
4. فشل عمرو بن العاص في حيلته، ولم يستطع أن يقنع النجاشي بتسليمه المهاجرين.
5. أصبح للمسلمين أرضا يأمنون فيها على إسلامهم، وعلى نشر الدعوة الإسلامية، وذلك بفضل حماية النجاشي للمسلمين في أرض المهجر (الحبشة).
6. أكرم النجاشي(رحمه الله) المسلمين بأرض الحبشة، ورد كيد قريش لم ينالوا بغيتهم.(المطعني، 1414هـ ، ص127).

وقد أحسن النجاشي(رحمه الله) إلى الصحابة(رضي الله عنهم) في أرض الحبشة، وأمنهم على أنفسهم، فقال: اذهبوا فأنتم سيوم في الأرض-أي: في أرض المهجر(الحبشة)-، ثم قال لهم: ومن سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ثلاثا.(ابن كثير، 1508هـ، ص89/3).

ورفض النجاشي(رحمه الله) تسليم المسلمين إلى قريش بعد أن استمع إلى حديث جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه)، وأعجب بكلامه، وظل المسلمون في حمايته إلى أن هاجروا إلى المدينة في العام السابع من هجرة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة. (منيسي، 1421هـ، ص95).

ثالثا- رسائل رسول الله-صلى الله عليه وسلم- إلى النجاشي:

بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمرو بن أمية الضمري(رضي الله عنه) إلى النجاشي بكتابين يدعوه في أحدهما إلى الإسلام؛ فأسلم وشهد شهادة الحق، وأخذ كتاب رسول الله- صلى الله عليه وسلم -، ووضعه على عينيه، ونزل من على سريره، وجلس على الأرض تواضعا، وأمره في الكتاب الآخر بأن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب(رضي الله عنهما)، وكانت قد هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش، ولكنه تنصر هناك ومات.(ابن سعد، 1410هـ، ص198/1).

وقد قالت أم حبيبة (رضي الله عنها): "جاءت إلى جارية النجاشي يقال لها أبرهة تبشرني بأن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- كتب إليه أن يزوجه أم حبيبة، فقلت لها: بشَّرك الله بخير. وأعطيتها من الفضة والحلي التي كنت ألبسها سرورا بما بشّرتني به.

ولما كان العشى جمع النجاشي(رحمه الله) المسلمين وخطب فيهم، وكان مما قال: "الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد ان لا إله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإنه الذي بشّر به عيسى ابن مريم-عليه السلام-، أما بعد: فإن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- كتب إلي أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان(رضي الله عنهما)؛ فأجبت الى ما أمرني به، وقد أصدقْتها أربعمائة دينار. (ابن الجوزي، 1421هـ، ص425/1).

خاتمة:

الحمد لله الذي وفقني لإتمام هذا البحث بفضله، ومنِّه، ولا يدعي الباحث أنه قد أحاط بكل الآثار التي حققها جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه) في حماية المسلمين، والاعتراف بالإسلام في أرض المهجر (الحبشة)، ولكن قد تكون هذه بداية للتعمق في موضوعات هذا البحث؛ لأخذ الدروس والعبر من الدور الذي قام به جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه) في أرض الحبشة.

النتائج:

1. أكدت الدراسة على أهمية الدور الذي يقوم به الدعاة إلى الله- عز وجل-؛ لنشر الإسلام، وحماية المسلمين في كل مكان، وخاصة في أرض المهجر.
2. أظهرت الدراسة جانبا من فنون التربية للدعاة الذي تلقاه جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه)، وتعمق الدعوة في نفسه، والذي يجب أن يدرسه الدعاة، ويمارسوه في دعوتهم إلى الله- عز وجل.
3. أبرزت الدراسة الأسلوب الذي سلكه جعفر بن أبي طالب(رضي الله عنه) أمام النجاشي؛ فقد كسب تأييده للدعوة الإسلامية، وأعلن حمايته للمسلمين، وذلك ببراعته في عرض القضية، وردوده البلاغية على افتراءات قريش، وعرضه لصفات الرسول- صلى الله عليه وسلم-، ولمحاسن الإسلام.
4. التأكيد على دور الداعية إلى الله- عز وجل- في قدرته على عرض مبادئ الإسلام، وبيان أهم ما يميز دعوته؛ لإقناع المدعويين، ودحض حجج خصمه بالحكمة، والموعظة الحسنة.
5. كشفت الدراسة عن أثر القرآن الكريم، والسنة النبوية في غرس القيم والفضائل في نفوس المدعويين، والتأثر بالدعوة الإسلامية؛ للدخول في دين الله أفواجا.

توصيات:

- حث طلاب العلم على توجيه الجهود للقيام بالأبحاث التي تبين أثر الدور الذي يقوم به الدعاة إلى الله- عز وجل-؛ لنشر الإسلام في كل مكان.
- إقامة الندوات، والمحاضرات في المدارس، والجامعات، ووسائل الإعلام لتوعية الدعاة إلى الله- عز وجل- بأهمية دورهم، وأداء رسالة الإسلام في أرض المهجر.
- الاهتمام بإقامة دورات تدريبية لتربية الدعاة إلى الله- عز وجل-؛ لمعرفة كيفية مخاطبة غير المسلمين، والتحلي بصفات الدعاة، والوصول بخطابهم إلى أعلى درجات البلاغة، والفصاحة.

قائمة المصادروالمراجع:

- القرآن الكريم.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة،1416هـ، ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، بيروت
- صفة الصفوة،1421هـ، ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، القاهرة
- الإصابة في تمييز الصحابة، 1415هـ، ابن حجر، أحمد بن علي، بيروت
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، 1379هـ، ابن حجر، أحمد بن علي، بيروت

- جمهرة اللغة،1987م، ابن دريد، محمد بن الحسن، بيروت
- الطبقات الكبرى، 1410هـ، ابن سعد، محمد بن منيع، بيروت
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب،1412هـ، ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، القاهرة
- البداية والنهاية،1408هـ، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، بيروت
- تفسير القرآن العظيم، 1419هـ، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، بيروت
- السيرة النبوية، 1375هـ، ابن هشام، عبد الملك بن أيوب، القاهرة
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه = صحيح البخاري،1422هـ البخاري، محمد بن إسماعيل، السعودية
- أصول الدعوة،1421هـ، زيدان، عبد الكريم، بيروت
- السنن الكبرى،1424هـ، البيهقي، أحمد بن الحسين، بيروت
- غريب الحديث، 1402هـ، الخطابي، حمد بن محمد، بيروت
- سير أعلام النبلاء، 1405هـ، الذهبي، محمد بن أحمد، بيروت
- مفاتيح الغيب، 1420هـ، الرازي، محمد بن عمر، بيروت
- سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، 1414هـ، الشامي، محمد بن يوسف، بيروت
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، 1421هـ، الشيباني، أحمد بن حنبل، بيروت
- المعجم الأوسط، د.ت، الطبراني، سليمان بن أحمد، القاهرة
- جامع البيان في تأويل القرآن، 1420هـ، الطبري، محمد بن جرير، بيروت
- نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، 1419هـ، الطهطاوي، رفاعة رافع، القاهرة
- معجم اللغة العربية المعاصرة، 1429هـ، عمر، أحمد مختار، وآخرون، بيروت
- فقه السيرة، 1427هـ، الغزالي، محمد السقا، دمشق
- تفسير القرطبي،1384هـ، القرطبي، محمد بن أحمد، القاهرة
- أعلام النبوة، 1409هـ. الماوردي، علي بن محمد، القاهرة
- سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية منهاجا ... وسيرة، 1414هـ، المطعني، عبد العظيم إبراهيم، القاهرة
- إسلام نجاشي الحبشة ودوره في صدر الدعوة الإسلامية، 1421هـ، منيسي، سامية عبد العزيز، القاهرة

- السيرة النبوية، 1425هـ، الندوي، علي أبو الحسن، القاهرة
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، د.ت، الندوي، علي أبو الحسن، القاهرة
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم-صحيح مسلم، النيسابوري، مسلم بن الحجاج، د.ت، بيروت

الصيرورة التاريخية لصورة الإسلام والمسلمين على ضوء الخطاب الديني المسيحي

THE HISTORICAL PROCESS OF THE IMAGE OF ISLAM AND MUSLIM IN THE LIGHT OF CHRISTIAN RELIGIOUS DISCOURSE

د. مليكة حميدي، جامعة علي لونيسي- البليدة -2-الجزائر
MALIKA16@YAHOO.FR



تمتد جذور صورة الإسلام والمسلمين في ذهنية العالم الغربي النصراني المعاصر إلى العصور الوسطى. ومنبعها الخطاب الديني الكنسي المسيحي الذي يرجع إلى الحروب الصليبية المتخذة الدين غطاء لتحقيق مآربها تجاه العالم الإسلامي. واكب الخطاب الديني المسيحي كل التحولات الكبرى للعالم الغربي بطرقها و أساليبها المختلفة مندس في حركة الكشوف الجغرافية و الحركة الاستعمارية التنصيرية ، وفي الاستشراق الذي غذته الكنيسة إضافة إلى ما دس منه في العلمانية والعولمة و سياسة التغريب للعام الإسلامي و المناهج الدراسية والبحوث العلمية.

عمدت الكنيسة المسيحية المتعصبة على تشكيل الصورة النمطية للمسلم و نشر معلومات خاطئة عن الدين الإسلامي وبذلك غرست في أذهان أتباعها غريزة الكر له و الحقد عليه بما صورته لهم من صورة مشوهة تنفرهم منه و تدفعهم إلى معداته والعمل على محاربته بشتى الطرق و الأساليب الحديثة التي ما تزال سارية إلى حد الآن عبر مختلف الوسائط الإعلامية العالمية.

الكلمات المفتاحية: صورة؛ الإسلام؛ المسيحية؛ الاستشراق ، العصور الوسطى.

Abstract:

The roots of the image of Islam and Muslims in the mentality of the contemporary Christian Western world go back to the Middle Ages. The source of the Christian ecclesiastical religious discourse is due to the Crusades that used religion as a cover to achieve their goals towards the Islamic world. The Christian religious discourse kept pace with all the major transformations of the world in the movement of geographical, the colonial movement and in the Orientalis .

The Christian Church has deliberately formed the stereotype of the Muslim and spread false information about the Islamic religion and instilled in the minds of its followers the instinct of hatred for him and fight him in various modern ways and methods that are still in force until now through various media outlets.

Keywords:the image, Muslims, The Christian, Middle Ages, the Orientalism.



مقدمة :

تمتد علاقة العالم الإسلامي مع العالم النصراني إلى القرن 1هـ/ 7م بعد ظهور دين الإسلام ثم انتشاره شرقا و غربا، واحتكاك النصارى بالمسلمين في الحروب الصليبية و كذا عبر منافذ التواصل الحضاري في الأندلس و صقلية و جنوب إيطاليا. و رغم تأثر أوروبا بالحضارة العربية الإسلامية التي كانت إحدى دائم نهضتها إلا أنه بالمقابل أضمرت الحقد و الثأر من الإسلام و المسلمين و من أبرز مشهد لذلك الصورة النمطية المشوهة التي شكلتها و رسختها في الذهنية الغربية و العالمية في الماضي و الحاضر في محاولة لها الحد من انتشار الإسلام و النفور منه و تمديد في عمر المسيحية.

تبحث الدراسة عن الصورة الملفقة التي رسمت للإسلام و المسلمين و عبر سيرورة التاريخية للخطاب الديني الكنسي المغرض و جذوره و دوافعه و تطور طرقه و أساليبه عبر تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب ، و كذا مشاريعه و أهدافه و أساليبه الماضية و المعاصرة وأثرها على سمعة الإسلام والمسلمين.

أولا- **دو افع الخطاب الديني العنيف:**

كانت أوروبا تعاني من مشاكل عدة لذا وجدت في الحروب الصليبية متنفسا أي هربا من المشاكل التي عانت منها الكنيسة المسيحية المتمثل في صراع البابا غريغيروس السادس و السابع مع الإمبراطور هنري الثالث و هنري الرابع في ألمانيا وما تبعه من نزاع و قتال في المجتمع الأوروبي، (عاشور، ص 303) و يعتبر البابا عريغيروس السابع هو صاحب فكرة الحملة الصليبية لتحرير القدس و الذي نفذ مشروعها وحدد فيما البابا "أربان الثاني" 1096/8/15 م و ذلك في محاولة إيجاد الحلول للأوضاع المتفاقمة في أوروبا (عاشور ع.، العلاقات بين الشرق و الغرب، 2003 ،ض81 ،82) (الهاشمي، 2016،ص200)

- **البابا اربان الثاني** راى ضرورة القيام بمغامرة مثيرة تضع العالم النصراني باجمعه امام عمل واحد و هدف واحد و دعا الى للحرب الصليبية و رعايتها. و مثل ذلك خطابه في المجمع الكنسي في كليرمونث في 1095 تعبيرا صريحا عن الواقع المتصدع المعاش في اوروبا و مما قاله:"

- المهم إن تهبوا بلا تأخير لنجدة إخوانكم الذين يقطنون بلاد الشرق الذين طلبوا مرارا معاونتكم.....وهناك شعبا من الأتراك قادم من بلاد فارس قد غزا بلادهم ... وهم يقدمون في البلاد الرومانية على حساب الأراضي المسيحية الذين انهزموا سبع مرات في الحرب....إن هؤلاء الأتراك يهددون الكنائس ويخربون مملكة الله....انهضوا و أديروا أسلحتكم التي كنتم تستعملونها ضد إخوانكم و وجهوها ضد أعدائكم أعداء المسيحية ..." وان كل من يذهب و يموت محاربا الكفار سيغفر لهم ذنوبهم و سأمنح الغفران لكل من يساهم في هذه الحملة بموجب السلطة التي منحني

الرب إياها " حاربوا تحت راية المسيح قائدكم الوحيد" (عاشور ع.، العلاقات بين الشرق و الغرب ، ص ص85،87)، (الهاشمي، ، المرجع السابق ،ص 200)

استنتاج مما سبق نموذجين لشخصيتين كانتا وقودا للحروب الصليبية هما البابا غريغيروس السابع هو صاحب فكرة الحملة الصليبية لتحرير القدس و البابا "أربان الثاني" قائدها زعيمها الروحي المنفذ للمشروع الصليبي

ثانيا- الحروب الصليبية منشأ الخطاب الديني المغرض :

شكلت الحروب الصليبية حلقة جديدة من حلقات الصراع العقائدي بين الإسلام و النصرانية،كانت بداية بدوافعها دينية قامت على مهاجمة الإسلام في عقر داره لوقف زحفه و كسر شوكته و إضعاف أتباعه حتى يتسنى لها نشر النصرانية و الهيمنة على العالم.

1- نماذج من الخطاب الديني الكنسي ضد الإسلام: تمتد جذور الصراع الصليبي –الإسلامي الى القرن 1هـ/ 7م ممتدا عبر حوالي 15قرنا مع اختلاف أسلحته و تباين أساليبه فهو يعد أطول صراع في التاريخ. إذا كانت الكنيسة فد تنازلت مكروهة عن التوجيه المباشر في الدولة العلمانية في الغرب فإن تأثيرها لم يزل واضحا في جميع مجلات الحياة فيها. (شامة، 1980، ص 6) (الهاشمي، المرجع السايق، 2016، ص 197)

سعى الخطاب الديني الأوروبي على نشر معلومات خاطئة عن الإسلام وغرس في أذهان أتباعه غريزة الكره له بما تصوره من صورة مشوهة تنفرهم منه و تدفعهم إلى معاداته و العمل لمحاربته ، من صور الخطاب الكنسي أثناء الحروب الصليبية أن الإسلام يدعو إلى حياة الشهوة وإلى القوة الوحشية ، دينا يدعو إلى إقامة الشعائر الدينية بدلا من تطهير القلوب . (سري، 2006، ص121) (الهاشمي، المرجع السابق، 2016، ص204) .

أما الخطاب الديني في إسبانيا-غرب العالم الإسلامي في الأندلس تحول إلى –ثقافي –استشراقي- حيث صار للكنيسة دور كبير في حكومة ملوك الشمال النصراني لاسبانيا، فقام هؤلاء بضمها إلى جانبهم للوقوف ضد المسلمين وفي المقابل كانت الكنيسة تؤيد سلطتهم (رجب، (د.ت)ص 105)

وبتوافق السلطة الدينية مع السلطة الحاكمة أصبحت اسبانيا معقلا من أمنع معاقل الكاثوليكية واستغل ملوك اسبانيا النصرانية هذا الحدث الديني الكبير أولا في شحن عزائم شعبهم وإثارته ضد مسلمي الأندلس. (مؤنس، 1959 ،ص 22)

قصد الأندلس كثير من الطلبة الأوربيون ومن أشهرهم الراهب جربرت دو رياك Jerbert de Orliac الذي أصبح أشهر علماء عصره في أوروبا بثقافته في اللغة العربية و الرياضيات و الفلك و الذي تولى فيما بعد كرسي البابوية في روما باسم سلفستر الثاني Silvester 999 2هـ/1003م. و لذا يعد أول مستشرق من ذوي البابوية الفرنسية – و ما إن جلس على كرسي بطرس حتى أمر بإنشاء ثلاث مدارس عربية واحدة في إيطاليا و الثانية في رايمس بفرنسا و الثالثة في شارتر رغم معارضة الرهبان و الهدف منها فهم الإسلام و حضارته لضربه في الصميم و في عقر داره . (لوبون، د.ت .ص 678) (عبدالكافي، 2015، ص 315).

ومنذ عهد ملك قشتالة ألفونسو السادس أصبحت طليطلة المركز الرئيسي الذي تنتشر منه الثقافة العربية إلى كافة أوروبا؛ (بالناثيا، 1955،ص 572)وحينما اشتدت حملة الصليبيين الإسبان على المسلمين دعا ملك قشتالة النفونسو السادس، ميشال سكوت 1226-1175) Scott) ليقوم بالبحث في علوم المسلمين و حضارتهم. فجمع سكوت عددا من رهبان دير كلوني و انشأ فيه "حركة التوبة و التكفير عن الذنوب" بالقرب من مدينة طليطلة للعمل الموحد من أجل الحصول على معرفة علمية موضوعية عن الدين الإسلامي. واسند هذه المهمة للقس –بيت- المعروف بـ: بابا بطرس المبجل رئيس دير كلوني و صاحب رحلات تفقدية كثيرة للجزء المسيحي من اسبانيا. و من خطابه نقتطف ما يلي:" من الخطأ أن نعطي للحركة المحمدية اسم " البدعة" المخجل، يجب إن نفعل شيء ضدها أي يجب أن **نكتب.** (رو، 1960،ص 159).

كما كان من وراء حركة الترجمة الأولى لمعاني القران الكريم إلى اللغة اللاتينية عام 1143م بتكليفه العالم الانجليزي " روبرت اوف كيتون Robert Kettonبتلك المهمة و فور الانتهاء منها أرسل بطرس المبجل Pierre le vénérableهذه الترجمة إلى رئيس أديرة " برنلد كليرفو" Bernard de ciairvauمصحوبة برسالة تؤكد على أن صراع الكنيسة مع الإسلام يجب أن يتم على كل المستويات. (الهاشمي، المرجع السابق، 2016،ص 43).

وحاول بطرس تجسيد فكرته و إعطاء صورة الإسلام لبعض علماء اللاهوت اليونانيين المتمثلة في: أن الإسلام هرطقة مسيحية و ذهب إلى أسوا من هذا و انه من الواجب اعتبار المسلمين كفرة.و جوهر التفكير النصراني الكنسي أن محمّد صلى الله عليه و سلم ليس نبي وأسس دينا جديدا . فلا بد أن ساهم ايجابيا في مساندة قوى الشر و لا بد انه كان أداة للشيطان أو عميلا له و بهذا التفكير جعلوا الإسلام و المسيحية على طرفي النقيض (الشرقاوي، 1989، ص69).

كما حاول بطرس إيجاد مبررات لجهوده في مجال الترجمة من اجل التعرف على الإسلام وليحظى عمله بقبول النصارى له. ومن هذا الدير بدأ الرهبان بتغيير النصرانية الاسبانية وجعلها كاثوليكية روحية و تطهيرها من الفساد الذي أصابها من الإسلام حسب زعمهم. و في الواقع إن علماء و رجال اللاهوت في العصور الوسطى اطلعوا على المصادر الأولية للتعرف على الإسلام لكن كل محاولة لتقييم

هذه المصادر موضوعيا كانت تصطدم بالصورة الذهنية لديهم وهو" أن هذا الدين المعادي للنصرانية لا يمكن أن يكون فيه خيرا ، و كانوا يتلقفون كل الأخبار المسيئة للنبي العربي و للإسلام .

ولذا قام الصراع السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي على الأساس الديني مما دفع مفكرو الغرب إلى دراسة الدين الإسلامي، و إن كان الحديث عن الإسلام في الوسائط الفكرية في الغرب يسير في قنوات متعددة إلا إنه خرج من منبع واحد و هو تعصب الكنيسة و حقدها على الإسلام . و رغم الفارق الحضاري الواضح بين العلمين ، فإن الفكرة التقليدية التي كونتها أوروبا على الإسلام لم تتغير إلى حد الآن و مرجعها يعود إلى أراء مجموعة من المفكرين و فتاوى المبشرين المتشددين و المتحيزين و إلى المصادر بيزنطية شرقية و غربية والى احتكاك الصليبيين بالمشرق الإسلامي خلال القرنين12و 13. (شامة م.، 1980،ص6، 7).

ثالثا- **الجهود العلمية لتشويه صورة الإسلام و محاربة :**

في قراءة للخطاب الديني المسيحي يتبين له مغزاه التمحور من عاملين أساسيين هما:

- إخراج أوروبا من الوضع المتأزم (عاشور ع.، 1424هـ/2003م، ص ص 8-11) على كل المستويات و خاصة علاقة البابوية بالسلطة السياسية الحاكمة .

- الخوف من خطر الدين الإسلامي و سعة انتشاره على حساب النصرانية في أوروبا (عاشور، 2003، ص 19، 20). و لذا بذلت جهود علمية كبيرة من البحث و التأليف و عقد المجامع العلمية و الدينية بهدف تشويه سمعة الإسلام و تحريفه ومن تلك الجهود نختصر مايلي:

- جهود المفكر الإسباني ريموند لولكس (1235 -1315) Raymond Lulcus

يعتبر أول من حاول أن يرقى بالدراسات الشرقية و يجعل منها أداة للحروب الصليبية تعتمد على أسلحة روحية خالصة،و استطاع الحصول على موافق الملك صاحب أرغونة ليقوم بمهنة التبشير في مساجد برشلونة بين المسلمين. و دعا أمام مجلس فيينا الكنسي في عام 1311م إلى وضع خطة جديدة في مواجهة الإسلام تقوم على أساس إدخال هذه الدراسات في برنامج الجامعات الخاضعة للنفوذ الكنسي لتحقيق عدة أهداف منها: - وجوب إقامة مراكز خاصة تأخذ مسؤولية دراسات الأديان و العقائد التي يخصص لها الأذكياء و إلى ضرورة تأسيس فكر ديني فلسفي يستوعب الإسلام و يرد عليه؛ و دعا إلى العمل على توحيد نظم الرهبنة و الإرساليات و الفرسان لاستعادة القدس من المسامين. (الهاشمي، المرجع السابق، 2016، ص 47)

-جهود بدرو دالكالا Pedro de alcala

وفي سنة 1499 كلف مطران غرناطة المسمى فرنالدو دي تلفير احد المبشرين و هو بدرو دالكالا Pedro de alcala بوضع معجم اسباني –عربي حولت فيه لأول مرة الحروف العربية لحروف لاتينية حتى يسهل استعمالها من طرف الذين لا يعرفون العربية روكز المعجم على المفاهيم الدينية بالدرجة الأولى و طبع عدة مرات لكثرة الطلب عليه . (عريبي، 1991،ص 194) هذه الجهود كانت بالدرجة الأولى في خدمة الاستشراق.

رابعا-الخطاب الديني المسيحي والاستشراق :

إن تأسيس الاشتشراق بشكل رسمي بدأ في القرن الرابع عشر الميلادي بقرار من الكنيسة ليعمل لحسابها على أساس أن الإسلام يمثل مشكلة للغرب المسيحي، و كان هذا الغرب ان يتعامل مع هذه المشكلة –أي الإسلام- بوسائل فعالة. و يعد الاشتشراق نتيجة للحروب الصليبية التي كانت هي أيضا بقرار كنسي و هذا ما يستدل من كلام"جاردنار" Gaerdner ":"إن دافع الحروب الصليبية التي تمخضت عنها الحركة الإستشراقية كانت سياسية توسعية و إن تسربلت بالمسوح الدينية ... لقد خاب الصليبيون في انتزاع القدس من أيدي المسلمين بالسيف ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي... و الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة بقدر ما كنت لتدمير الإسلام (الشرقاوي، المرجع السابق، ص 8)

فالبداية المنظمة للاستشراق كانت في روما و من قلب الفاتكان و رواد الاستشراق هم علماء اللاهوت ورجال الكنيسة و بالتالي فإن قيام الاستشراق كان على أكتاف المبشرين و الرهبان و هم المشرفون والمسيرون لها هدفهم من ذلك الدفاع عن الكنيسة ضد الخارجين على سلطتها ممن تأثروا بالحضارة العربية الإسلامية (الهاشمي، المرجع السابق، 2016،صص123-124) و منذ الحروب الصليبية إلى يومنا هذا لا يزال كل بابا الفاتكان يسعى إلى دراسة الإسلام و تراث الحضارة العربية الإسلامية . و لا شك إن المستشرقين الغربيين يتحملون وزر تشكل العداء الذي يتبناه حاليا الغرب ضد الإسلام وصورة التي رسموها له ، كما يتحملون مسؤولية تأجيج العداء و توريثه و تغذيته و النفخ فيه. (الشرقاوي، ص16)

خامسا-أساليب وتوجهات جديدة في الخطاب الديني الصليبي:

لم يعد في وسع الكنيسة أو فرنسا وحدها مواجهة الاسلام فقد وضع ملك فرنسا لويس التاسع خيوط المؤامرة الجديدة على الإسلام و التي كان الأثر الجلي في إذكاء التوتر و الحقد ضد المسلمين في أرجاء أوروبا و التي تقوم على الأسس التالية:

- تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية لغرض واحد

- تجنيد المبشرين الغربيين في معركة سلمية لمحاربة تعاليم الإسلام و وقف انتشاره ثم القضاء عليه معنويا

- العمل على استخدام نصارى الشرق في تنفيذ سياسة الغرب المعادية للإسلام

- العمل على إنشاء قاعدة للغرب في قلب المشرق الإسلامي يتم اختيار أماكنها على سواحل لبنان و فلسطين.

- ملاحظة: تم تنفيذ هذه الخطة لما احتلت فرنسا الجزائر و استدمرتها بمختلف مشاريعها الإستدمارية

- يقول المستشرق محمّد أسد :لا شك أن الذي جلبته الحروب الصليبية لم تقتصر على اصطدام استعملت فيه الأسلحة ، بل كان أذى عقليا نتج عنه تسمم العقل الغربي ضد العالم الإسلامي عن طريق تفسير التعاليم و المثل العليا الإسلامية تفسيرا خاطئا متعمدا منها ؛مثلا سمي نبي المسلمين بعدو المسيح، و أن يصور دينه بأكلح العبارات كينبوع الفسق و الفجور و الانحراف عن الحق. و في أيام الحروب الصليبية تغلغلت الأفكار المسمومة و المشوهة لصورة الرسول صل الله عليه و سلم خاصة و للمسلمين عامة. (الشرقاوي، المرجع السابق، ص 121)

وبين المنبع والهدف اختلفت الأساليب و تعددت المناهج فآباء الكنيسة اتخذوا الهجوم المباشر أسلوبا و تشويه الحقائق منهجا فجاءت كتاباتهم عن الإسلام مخالفة للواقع متغلغلة بمظاهر التعصب و التحامل مما جعل الإسلام مخيفا للأوروبيين حيث كانت الكنيسة هي المصدر الوحيد للمعرفة آنذاك

أما المستشرقون فقد ادعوا أنهم ينهجون المنهج العلمي الحديث في الدراسات الإسلامية لكن بحوثهم دارت في دهاليز التعصب ضد الإسلام أخذين بأفكار الكنيسة و يستثنى منهم قلة من الباحثين الذين التزموا بالحياد العلمي في بعض جوانبه. (الشامي، 1980، ص 6، 7)

سادسا-الخطاب الديني المسيحي و الكشوف الجغرافية:

ضمت حركة الاستكشافات الجغرافية في طياتها مقاصد دينية ، و اعتبر القرن 16م بداية نشاط التنصير الجديد ،فيه قويت حركة اتحاد الكنائس و الاهتمام بكتب المعاجم و اللغات و غيرها من العلوم كلها بهدف التبشير و الدعوة إلى المسيحية . فأصدر البابا نيقولا الخامس مرسوما في 1454 يمنح البرتغاليون حق التمسك في أراضي الكفرة على الساحل الغربي لإفريقيا؛ و وضع خطة لضرب المسلمين ضربة أخيرة. كما اصدر البابا اسكندر في عام 1493م مرسوم يعرف – بخطط الهند -يمنح التاج الاسباني الحق المطلق في التجارة مع البلاد التي اكتشفت و وضع قيدا لذلك و هو أن تجلب تلك الشعوب

إلى المسيحية (الهاشمي، المرجع السابق، ص 125) و يبدو مما سبق حمل رواد الكشوف الجغرافية معهم الروح الصليبية بما فيها من حقد وكراهية على الإسلام و المسلمين ، ولذا تعد الكشوف الجغرافية وريثة الحروب الصليبية و مطية للاستعمار و التنصير العالمي.

سابعا-الخطاب الديني والحركة الاستعمارية التنصيرية :

كان المسلمون أحد أهم الأهداف التي وجه الاستعماريون صوبها إطماعهم عبر التاريخ . فالإسلام كان و لا يزل هدفا للعداء الصليبي منذ إعلان رسول صلى الله عليه وسلم للدين الإسلامي و تأسيس دولته و مسار الفتح الإسلامي للأراضي البيزنطية في بلاد الشام و مصر و شمال إفريقيا. في ذلك يقول المستشرق الأمريكي" روبرت بين" Robert Ben في كتابه" السيف المقدس"إن لدينا أسبابا قوية لدراسة العرب و التعرف على طريقتهم ، فقد غزوا الدنيا كلها من قبل و قد يفعلوها مرة أخرى. إن النار التي أشعلها محمّد- صلى الله عليه وسلم- ما تزال تشتعل بقوة و هناك ألف سبب للاعتقاد بأنها شعلة غير قابلة للانطفاء (الهاشمي، المرجع السابق، ص 206)

يتبين لنا من خلال الواقع التاريخي أن بعد فشل الحروب الصليبية استمر الخطاب الديني المسيحي متأججا لدى المستشرقين ثم انتقل عبر أساليب الاستعمار الحديث الذي جمع بين الهجوم العسكري و الهجوم الفكري الديني حاملا في طياته صورة ذهنية مشوهة لحقيقة الإسلام و المسلمين ولا تزال تلك الصورة مستمرة في تاريخنا المعاصر مما نشهده من إساءة لشخصية الرسول الشريفة و لآله و صحبه و عامة المسلمين .

ونتيجة لانتكاس الغرب النصراني أمام صمود الإسلام كان لابد من البحث في طرائق أخرى لهزم الإسلام تكون أقوى و امضي من السيف. وأجمع الكثير أن البديل لذلك تمثل في الغزو الثقافي و الفكري التي تقدمه دراسات متخصصة في التراث الإسلامي ولكن منبع تفكيرها مستمد من الخطاب الديني الكنسي منذ العصور الوسطى. و في ذلك يقول الباحث الأمريكي " هـ .كونوي زيغلر"H.Conway Zeigler : لقد سار المكتشفون و التجار و الجنود و المنصرون معا من فتح إلى فتح ... ولكن ليس من شك أن التوسع الاستعماري كان له وجهان اقتصادي و سياسي . وكان النشاط التنصيري جزءا أساسيا من هذا التوسع" (الأرو، 2008، ص 36)

ثامنا-الوسائط التنصيرية الحديثة و أثرها على صورة الإسلام و المسلمين الراهنة:

عمل الخطاب الديني على مر السنين و القرون على تشويه الإسلام في الذهنية الأوروبية و إضعاف تأثيره بين أبنائه ، و لجأ إلى وسائط جديدة تتماشى و متطلبات العصر في تشكيل صورة مسيئة والمنفرة

للإسلام و المسلمين و يمكننا ذكر بعض هذه الوسائط التي تمس كل الميادين الحياتية للمجتمع المسلم و منها ما يلي:

- استعمال وسائل الإعلام التقليدية و الحديثة:-الصحافة – الإذاعات التنصيرية المسموعة والوسائط الالكترونية بمختلفها. لأن الإعلام يعد من الوسائل الحديثة القائمة على الاستفادة من التقدم الكبير في تقنية الاتصال والمعلومات ويعتبر الإعلام أمضى الأسلحة تأثيرا في معتقدات الناس وسلوكياتهم . وقد أدرك المستشرقون أن الأمة الإسلامية عندما تعود إلى التمسك بدينها سوف تستعيد مكانتها و تسترد سيطرتها. وقد أيقن المبشرون خطورة الإعلام و أثاره القوية في محاربة الأفكار و المعتقدات بما له من نفوذ ليكون وسيلتهم في نشر قيّمهم و أفكارهم و إبعاد الناس عن إسلامهم حيث تؤدي المنظمات الإعلامية المسيحية المعاصرة دورا كبيرا في مجال الإعلام التنصيري الفعال.

- المطالبة بتحرير المرأة المسلمة في المجتمع الإسلامي وتشويه صورتها وسعي إلى إفساد دينها بالدعوة إلى خلع الحجاب لأنه دليل التخلف والقمع الدعوة وإلى السفور والتبرج والاختلاط وتحويل صورتها شكليا لصورة المرأة النصرانية في المجتمع الغربي. ومما قاله احد المستشرقين البريطانيين الذي كان يشن حملات التضليل على الدين الإسلامي زورا وبهتانا": أن لفشل الإسلام كنظام اجتماعي أسبابا: منها انه جعل المرأة في مركز منحط كثيرا عن الرجل. (الغلاييني، 1960، ص252). وبالتالي دفع المرأة إلى المطالبة بحقوق المساواة مع الرجل بغض النظر على الضوابط الشرعية التي تؤدي إلى تفكك البنية التحتية للمجتمع المسلم.

- تقديم الخدمات الاجتماعية و الطبية المجانية في مختلف البلدان الإسلامية وغيرها لكسب النفوس إلى النصرانية.

-تمزيق وحدة الدينية للأمة الإسلامية بدعم فرق البدع و الضلال في تسريب سموم أفكارها وسط المجتمعات الإسلامية و تشويه صورة المسلم الحقيقي الملتزم بدينه في خلقا و سلوكا.

– محاربة اللغة العربية الفصحى وإحلال اللهجات المحلية و استبدال الحروف اللاتينية بحروف عربية و نشرها وسط الشباب عبر شبكة التواصل الاجتماعي. (الهاشمي، المرجع السابق، ص 269)

- تشويه صورة الإسلام في المناهج الدراسية الغربية ،إذ ان هناك أسباب كثيرة راسخة تكمن وراء ظاهرة الإساءة إلى الإسلام و المسلمين في المناهج التعليمية الغربية ، و أكبر الأسباب خطئا بحق الإسلام هو اعتماد المناهج الغربية على ما كتب من خلال حركتي التنصير و الاستشراق. فرواد الاستشراق وصفوا المجتمع الإسلامي بكل ما ينفر الغرب منه. أما المنصرون كانوا رواد التعليم في الغرب حيث كانت

المدارس تقام في الكنائس في تاريخ أوروبا الوسيط و الحديث، فعمدوا على التشويه و الدس في الدراسات الإسلامية.

إضافة إلى ما صورته الكتابات الاستشراقية على أن الإنسان المسلم إنسان شهواني وهي الصورة التي انطبعت في الذهنية الغربية عن طبيعة الشخصية المسلمة. وألصقت صفات دونية للمسلم و بالمقابل فإن صورة الإنسان الشرقي غير المسلم- مثل البوذي و الهندوسي و الزرداشي- تبدو أفضل بكثير من صورة المسلم . (الهاشمي، المرجع السابق،، ص402، 403)

-أما في المناهج التعليمية المعاصرة التاريخية في الدول الأوروبية مثل البريطانية و الإيطالية والفرنسية وألمانية والاسبانية و كذا الأمريكية والاسترالية ، فكلها تجمع على ترسيخ صورة ذهنية مسيئة للإسلام و المسلمين للحد من انتشاره على حساب النصرانية في أجيالها. ويتبن لنا بأن الإغفال المتعمد على الحقائق التاريخية هدفه ترسيخ صورة المسلمين المشوهة في ذهن التلاميذ الأوروبيين والإصرار على عدم تصحيح المفهوم الخاطئ الذي تسرب في عقول التلاميذ و لازال عالقا بها لحد الآن.

– تشجيع حركة التغريب في المجتمع الإسلامي بتشجيع فئة مثقفة تتبنى الأفكار المستغربة

وتدافع عنها، فإن مصطلح التغريب استعمله الاستشراق الغربي للتعبير عن الخطة التي تقوم بها ذات النفوذ السياسي الخارجي في حمل العالم الإسلامي على الانصهار في مفاهيم الغرب وحضارته . والعمل على إخراج المسلمين من هويتهم الإسلامية التي أقامها الإسلام من خلال مجتمعهم و كيانهم و وجودهم السياسي والإقتصادي و الاجتماعي و صهرهم في بوتقة الغرب . (الهاشمي، 2006،ص283) فيتم ذلك إدخال عناصر غريبة عليهم وتحويلهم عن طبيعتهم و وجهتهم الإسلامية على النحو الذي يقضي على تميزها الخاص و يجعلها قريبة من المفهوم الغربي. (الجندي، (د ت) ،ص 3)

-نشر العلمانية : و المقصود بها إقامة حياة الفرد بعيدا عن الدين أو الفصل الكامل بين الدين و الحياة ؛ذلك لما أدرك الغرب استحالة القضاء على الإسلام و المسلمين نظرا لتمسكهم بدينهم و تطبيق تعاليمه عمليا في كل نواحي حياتهم بصورة صحيحة؛ لجأ إلى وضع أسلوبا جديدا لمقاومة الإسلام و إحلال قوانين وضعية غربية مكانه لتحقيق هدفهم في إبعاد المسلمين عن دينهم مصدر قوتهم و عزتهم. (الرحيلي، (د.ت) ص 2)

-إنشاء مراكز البحوث في الولايات المتحدة الامريكية(Think-Tanks) بعد الحرب العالمية الثانية و التي لها تأثير مباشر و غير مباشر على مراكز صناع القرار في البلاد، و لا سينا أن في السنوات الأخيرة استحوذ عليه حركة المحافظين الجدد المتطرفين الحاقدين على الإسلام و المسلمين. (العطار، 2007، ص 133)

-ظاهرة الإسلام فوبيا في السنوات الأخيرة من القرن الماضي أدت تحولات الخارطة السكانية الغربية إلى بروز تخوفات عند كثير من صناع القرار السياسي في الغرب وأسهمت في رسم صورة سلبية عن الإسلام عند المواطن الأمريكي، مما شكل صورة ذهنية مشوهة في عقلية وتفكير المواطن الغربي عموما . و المحور الأساسي في هذه الصور أن المسلمين يتسمون بالعنف و نتيجة ذلك ظهر مفهوم (الإسلامافوبيا- Islam phobia) (الدباغ، 1999،ص 18، 19). دخل هذا المصطلح قاموس السياسة الأوروبية و الأمريكية وعرب هذا المصطلح "إلى التخويف من الإسلام و المسلمين و بأنهم مصدر الفزع الكراهة" وعربه أيضا بعض الباحثين اختصارا للفظ إلى "إرهاب الإسلام". وهي تهمة ألصقت بالعرب والمسلمين أينما كانوا. وتعد هذه تهمة ابرز سلاح يوظفه الغرب في مواجهة العالم العربي و الإسلامي و إذكاء روح التخوف والتوجس منه بهدف إقصائه وتسويق صورته مشوهة التي يروجها التصوير الدعائي الغربي للإسلام حاليا.

خاتمة:

إن نظرة الغرب للإسلام و كذا نظرة نقاده للغرب نفسه كلاهما ينظر إلى الإسلام وتراثه وحضارته وإلى المشرق الإسلامي الذي يمثله عامة نظرة القرون الوسطى، بحيث ظلت وتظل الصور والأنماط قائمة والدائمة في الخيال الجماعي و الاجتماعي مع الإنسان المثقف والمفكر والفيلسوف الغربي والفرد العادي لم تتغير. فالأساطير التي تم تأسيسها منذ الصدمة الأولى بين الإسلام و النصرانية لم يزدها مرّ السنين والعقود والقرون إلا ترسيخا و تثبيتا وتدعيما و تعليما ونقلا وتأكيدا وذلك بتأثير من الخطاب الديني الكنسي في التوجيه الديني و التحالف السياسي و العسكري للدول الغربية.

فالصورة السائدة الآن عن الإسلام في الغرب ليست وقتية أو عارضة ، وإنما هي صورة صاغتها قرون طويلة من الصراع الفكري والتحدي الحضاري، فالخطاب ديني منهجي سطرت أهدافه الدقيقة وفق دعاية دينية كنسية على المدى القريب و البعيد . والأحكام الصادرة عن دراية وعلم وليس عن جهل ،فرواد الخطاب الديني المسيحي هم علماء ساندهم مثقفون في شتى العلوم و التخصصات. ويتبين من الصيرورة للأحداث التاريخية أن الدول الأوروبية التي رفعت راية العداء منذ القرون الوسطى استمرت في عدائها في الحديث و المعاصر وتأتي في مقدمتها فرنسا و بريطانيا و ألمانيا و التحقت بها الولايات المتحدة الأمريكية ...، لكن لا غالب إلا الله ناصر الإسلام و المسلمين في كل زمان و مكان قال الله عز و جل في الآية الكريمة : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (القرآن، سورة الصف، الآية 8).

وبدلا من أن يتعرف الغرب الأوروبي النصراني بفضل الحضارة العربية الإسلامية و ثقافة الشرق عليه مارس حربا عشواء قذرة من جانب المفكرين ورجال الدين و المستشرقين من الأوروبيين ضد الإسلام. فالتحالف كان على أشده: سياسي- عسكري-ديني- ثقافي رغم أن الشواهد التاريخية تؤكد أن الإسلام هو

ساهم في أخرج أوروبا من ظلمات العصور الوسطى لتبدأ نهضتها. و يبدو حرمان أوروبا من الدخول في الإسلام كان بسبب الحرب العشواء و التشويه الذي تبنته الكنيسة في تضليل الرأي العام الغربي بعدما جاءتهم أصدق دعوة لهم في الآية القرآنية الكريمة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبَدَ إِلاَّ اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (القرآن، سورة آل عمران 64)

ورغم أساليب التضليل و تواصل إرث الحقد و الكراهية متمثلا في الذهنية الغربية المعاصرة الحاملة لصورة مشوهة الإسلام و المسلمين، نلاحظ اعتناق عدد من النصارى للإسلام باستمرار خاصة الذين كانت لهم تجربة دينية و قضوا مرحلة من حياتهم في السلك الديني من رهبان و قساوسة ،فلما سئموا من تعاليم النصرانية اجتهدوا بحثا عن حقيقة التعاليم الدينية و الشرائع السماوية فوجودها في الدين الإسلامي ، دين الفطرة و الرحمة والسماحة . ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (القرآن، سورة الأنفال الآية 30)

وفي الوقت الراهن تطالعنا يوميا أخبار وسائل الإعلام على المسلمين الجدد الذين تحرروا من قيود أفكار الكنيسة ويسعون في نشر الإسلام بعدما أنار الله لهم طريق الهدى؛ ويعد اعتناقهم الإسلام فضيحة للكنيسة وما تبث فيهم من تعاليم مغرضة و صور مشوهة لا تعبر عن حقيقة و سماحة الدين الإسلامي" ويمكننا اعتبار تصرفات المسلمين الجدد-النصارى- أصدق تفنيد للأباطيل و انتصارا لدين الحق ؟ ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ (القرآن، سورة آل عمران الآية : 19) و الذي نوصي بأهمية العناية بكل وسائل الإعلام في مواصلة رسالته السامية في نشر حقيقة الإسلام والمسلمين مع تحمل ثقل المسؤولية وتبليغ الرسالة بكل صدق وأمانة للأجيال القادمة . وضرورة مراجعة و مراقبة البرامج الدراسية والأبحاث العلمية لاسيما في ديار المهجر لتوعية أبناء الجالية الإسلامية.

قائمة المصادروالمراجع

- القرآن الكريم.
- أنخل جنثالث بالناثيا. (1955 . تاريخ الفكر الأنداسي. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- انور الجندي. ((د ت). أهداف التغريب في العالم الاسلامي، قضايا معاصرة . القاهرة: الأمانة العلمية للجنة العليا للدعوة الاسلامية بالأزهر الشريف.
- اياد علي الهاشمي. (2016) . البعد الديني في الاستشراق الغربي. عمان: دار الفكر.
- جان بول رو. (1960). الاسلام في الغرب،ترحمة نجدة هاجر و سعد الغز. بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة و النشر.

- حسين مؤنس. (1959). فجر الاندلس ،ط1، الشركة العربية للطباعة والنشر، .
- حمود بن احمد الرحيلي. ((د.ت) . العلمانية و موقف الاسلام منها. المملكة العربية السعودية.
- طارق سري. (2006). ا لمستشرقون و منهج االتزوير و التلفيق في التراث للاسلامي . مصر: مكتبة النافذة،
- محمد عبد الحليم رجب. (د.ت).العلاقات بين الندلس الاسلامية و اسبانيا انصرانية في عصر بني أمية و ملوك الطوائف،، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني،بيروت.
- عبد الرزاق عبد المجيد الأرو. (2008،). التنصير في إفريقيا. مكة المكرمة.
- عبد الفتاح عاشور. (1976). تاريخ أروبا في العصور الوسطى ،بيروت ،دار النهضة العربية للنشر و التوزيع.
- عبد الفتاح عاشور. (1424هـ/2003م، . تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب. بيروت: دار النهضة العربية.
- غوستاف لوبون. (د.ت). حضارة العرب.
- محمّد شامة. (1980، . الاسلام في الفكر الغربي،. القاهرة: دار التراث العربي.
- محمد عبد الله الشرقاوي. (1989،). الاستشراق في الفكر الاسلامي المعاصر،. القاهرة: دار الهداية.
- محمّد ياسين عريبي. (1991،) الالستشراق و تغريب العقل التاريخي العربي. الرباط: المجلس القومي للثقافة القومية.
- محمود كامل عبدالكافي. (2015، ص 315). التسامح الديني و التعايش السلمي في الاندلس و آثرهما الحضارية. اسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
- مصطفى الدباغ. (1999،ص 18، 19). الإسلام فوبيا. عمان: در الفرقان للنشر و التوزيع.
- مصطفى الغلاييني. (1960، ص252). الاسلام روح المدنية. بروت: المكتبة العصرية للطباعة و النشر.
- موفق صادق العطار. (2007، ص 133). المحافظون الجدد و الحلم الامبراطوري. دمشق، دار الأوائل للنشر و التوزيع

الحرب الصليبية الأولى 490هـ/1095م على بلاد الشام (مظهر من مظاهر الصراع الحضاري الغربي مع العالم الإسلامي)

The First Crusade War 490 AH/1095AD on the Levant (A manifestation of the (Western civilizational conflict with the Islamic world

د.بغداد سحيري، جامعة المدية -الجزائر
issahiri@gmail.com



نحاول في هذه المداخلة المعنونة بالحرب الصليبية الأولى 490هـ/1095م على بلاد الشام (مظهر من مظاهر الصراع الحضاري الغربي مع العالم الإسلامي)، أن نعرج على مرحلة مهمة جدا من مراحل الصراع الحضاري بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي، حيث استعرضنا أهم المراحل التي شهد فيه الطرفان احتكاكا منذ ظهور الإسلام وتوسعه على حساب المسيحية في بلاد الشام، مبرزين أهم الأسباب التي أدت إلى تجدد الصراع بين الطرفين خلال هذه الفترة بالضبط، فقد رأى المسيحيون أن الإسلام قد أخذ منهم ما كان حقا لهم في الأراضي المقدسة، ورأوا بأن الفترة سانحة لاسترجاع ما ضاع منهم، وكان من نتيجة ذلك أن نشبت حرب حملت راية الصليب كشعار ديني رغم ما حملته نوايا المؤطرين والمنظرين للحرب من أطماع اقتصادية، وآلت هذه الحرب إلى نتائج كانت وخيمة على العالم الإسلامي بما تركته من مجازر في حق كل من تولى عملية الجهاد ضد الصليبيين وحتى من ليس أهلا لذلك في كثير من الأحيان، ولم يكتف الصليبيون بذلك وإنما اتخذوا من سائر بلاد الشام وبيت المقدس التي كانت هدفهم الأساسي موطنا لهم.

الكلمات مفتاحية: الحرب الصليبية، الصراع الحضاري، الغرب المسيحي، العالم الإسلامي، بلاد الشام.

Abstract

In this intervention entitled The First Crusade War 490 AH/1095AD on the Levant (a manifestation of the Western civilizational conflict with the Islamic world), we try to refer to a very important stage of the civilization conflict between the Christian West and the Islamic East, where we reviewed the most important stages in which the two parties witnessed Friction since the emergence of Islam and its expansion at the expense of Christianity in the Levant, highlighting the most important reasons that led to the renewal of the conflict between the two parties during this exact period. Among them, and as a result, a war broke out that carried the banner of the cross as a religious slogan, despite the economic ambitions of those who framed and theorists about the war. This war led to dire results for the Islamic world, with the massacres it left against everyone who took up the process of jihad against the Crusaders, and even those who were not qualified to do so in many cases. for them.

Keywords: The Crusades, Civilization Conflict, The Christian West, The Islamic World, The Levant.



مقدمة :

كان لظهور الإسلام مع بداية القرن السابع ميلادي، وتوسعه في بلاد الشام وما جاورها الخاضعة للمسيحية البيزنطية، الأثر البالغ على نفسية المسيحيين وعلى الديانة المسيحية ككل، فقد شغل كل الرقعة الجغرافية التي كانت تشغلها المسيحية بالأقاليم المذكورة، وهو ما ولد شعورا بالحقد والكراهية لدى أغلب المنتسبين لهذه الديانة، وتحول هذا الحقد إلى صراع مستمر بين الديانتين لإثبات الأحقية والوجود كلما سنحت فرصة لأحدهما على الآخر.

ومع منتصف القرن 05هـ/11م بدأ الضعف يدب في أغلب بلاد الشام الإسلامية، مقابل ازدياد الشعور بالحقد من جانب بعض المسيحيين في الغرب الأوربي، وقد رأوا بأن الفرصة سانحة من أجل استعادة ما كان تابعا لهم قبل ظهور الإسلام، ولتحقيق ذلك اتخذوا مجموعة من الذرائع غلب علها الطابع الديني، لإعلان الحرب على الإسلام في بلاد الشام، وكان من نتيجة ذلك أن سُيرت جيوش متتابعة أحدثت مقاتل كثيرة بدافع الانتقام من كل ما هو إسلامي.

وفي بحثنا هذا المعنون ب: **الحرب الصليبية الأولى 490هـ/1095م على بلاد الشام (مظهر من مظاهر الصراع الحضاري الغربي مع العالم الإسلامي)**، نحاول أن نجيب على الإشكالية التالية:

إلى أي مدى يمكننا اعتبار الحروب الصليبية انعكاسا للنظرة العدائية للغرب المسيحي تجاه الإسلام؟

وللإجابة على هذه الإشكالية قمنا بتقسيم البحث إلى أربع عناصر رئيسية، إضافة إلى مقدمة وخاتمة، جعلنا العنصر الأول بعنوان مفهوم الحركة الصليبية، بينما عنونا العنصر الثاني بأسباب الحروب الصليبية، ثم عنونا العنصر الثالث ببداية الحملات الصليبية، واتخذنا للعنصر الرابع عنوان نتائج الحروب الصليبية، واعتمدنا على مجموعة متنوعة من المصادر التي ترتبط بالموضوع ارتباطا وثيقا، سنأتي على ذكرها في آخر البحث.

اعتمدنا في معالجة هذا الموضوع على المنهج التحليلي والسردي، بحيث قمنا بسرد الاحداث التاريخية التي سبقت قيام الحرب الصليبية وفي فترة قيامها، ثم قمنا بتحليل لهذه الأحداث بناء على الشواهد التاريخية المصاحبة لهذه الحرب.

أولا- مفهوم الحركة الصليبية:

يرى مجموعة من المؤرخين أن الحروب الصليبية تمثل حلقة من حلقات الصراع الطويل بين الشرق والغرب، وهو الصراع التقليدي الذي ظهر بين الفرس واليونانيين ثم بين الفرس والإمبراطورية الرومانية البيزنطية، ويمكن تفسير أسباب هذا الصراع، وربطه بالعامل الحضاري باعتباره صراعا بين حضارتين مختلفتين، وليس إلى عوامل دينية، حيث أن الصراع دار في وقت كان الشرق والغرب يعتنقا الديانة

الوثنية، وبلغ أشده مع نهاية القرن الحادي عشر ميلادي، حيث وجد متنفسا له في الحروب الصليبية (يوسف، 1981، الصفحات 38-39).

ويرى فريق ثاني أن الحركة الصليبية هي انتفاضة كبرى نتجت عن عملية الإحياء الديني التي قامت في أوربا في القرن(10م)، وبلغت ذروتها في القرن (11م)، ويقولون بأنها مواصلة لأسلوب الحج إلى بيت المقدس، لكن بطريقة حربية. (عمران، 1995، الصفحات 13-14).

والحركة الصليبية عند فريق ثالث من المؤرخين هي وسيلة تحايل بها الغرب الأوربي للخروج من أنماط العصور الوسطى، والانطلاق إلى حياة أوسع وأرحب من الحياة التي يحيونها في الإمبراطورية الغربية التي تتسلط عليها الكنيسة (عمران، 1995، صفحة 14).

والحركة الصليبية بتعريف أدق هي حركة صليبية استعمارية (عمران، 1995، صفحة 14) استيطانية، آمن بها قوم حضروا مسلحين من بلاد الغرب، وانتزعوا قطعة من بلاد الشرق، أقاموا عليها دولة تنعموا بخيراتها، واستغلوا من استبقوا من أهلها، ودأبت دولتهم هذه على القتال والانتصار والتوسع إلى أن قابلتها قوة شرقية معاكسة، نمت وتعاظمت إلى أن كسرت شوكتها بعد ثلاثة أجيال، ثم أجهزت عليها واستأصلتها بعد فترة لم تتجاوز القرنين من الزمن (الشارتري، 1990، صفحة 13).

1.أسباب الحروب الصليبية: كما ذكرنا قبل قليل فإن الحروب الصليبية في حقيقتها هي صراع حضاري بين الغرب المسيحي من جهة وبين العالم الإسلامي من جهة أخرى، غير أن الجانب الأوربي كان أكثر تصميما على المضي فيها، حيث يرى الأوربيون أن التدافع الحضاري على حساب العالم الإسلامي هو ضرورة حتمية، وربط بعضهم أفول نجم الحضارة الغربية بظهور الحضارة الإسلامية، ولكي تعود حضارتهم عليهم أن يقفوا ندا للإسلام، ففي اعتقادهم أن العالم لا يمكن أن يعيش في ظل قوتين كبيرتين في آن واحد، بل ورأوا بأنهم الأنسب لقيادة العالم كما كانوا عليه من قبل طيلة عهود من الزمن.

وقد كان من نتيجة هذا الاعتقاد أن تكونت صورة قاتمة عن العالم الإسلامي وكل ما له علاقة به لدى الغربيين، واتخذوا لها الذرائع وبرروا لها بما يخدم تفكيرهم، وما سهل عليهم تنفيذ مخططهم هو حالة العالم الإسلامي الذي كان يعاني التشرذم والتناحر في ذلك الوقت، فإذا ما نظرنا إلى سير الحملات الصليبية ومخططها بدءا من آسيا الصغرى وصولا إلى بيت المقدس الذي كان غايتهم الأولى والأسمى، نجد أن كل القوى التي شغلت هذه الرقعة الجغرافية كانت تختلف عن بعضها اختلافا كليا سواء من ناحية الجنس أو المعتقد، فآسيا الصغرى والأناضول كانت تحت سلطان الأتراك السلاجقة وكذلك جزء من بلاد الشام، وهم على معتقد أهل السنة، بينما يشغل القسم الآخر من بلاد الشام بعض الأمراء العرب أو الفاطميين، وهم على معتقد الشيعة، وقد ولد هذا الاختلاف تنافرا كبيرا ما جعله طعما يسيرا لكل معتد خارجي.

كان العالم الغربي مع منتصف القرن الحادي عشر الميلادي الخامس الهجري يعاني على جميع الأصعدة، ولعل الوضع الاقتصادي المتدهور كان السبب الرئيس في تدهور الجوانب الأخرى، وقد ذكر أن الكثير من المنجمين استغلوا هذه الظروف ليدلوا بأفكارهم، وكان من نتيجة ذلك أن تأثر بهم الكثير من

الناس، وقد ذكر لنا قاسم عبده أن هؤلاء المنجمين والدجالين قد أذاعوا بين الناس أنه مع بداية الألف الثانية ستقوم القيامة، وأنه واجب على الناس أن يسارعوا في التوبة وفعل الخيرات، تكفيرا عن ذنوبهم في الدنيا (قاسم، 1978، الصفحات 30-31).

وما زاد من تدهور الفكر الأوربي في ذلك الوقت هو سيطرة رجال الدين من جهة وبعض الأمراء من جهة أخرى على عامة الناس، فقد ذكرت العديد من المصادر أن بعض الأمراء الأوربيين ممن كانت لهم أطماع اقتصادية كانوا يشجعون كل ما له علاقة بالحصول على موارد اقتصادية جديدة، ولا تهمهم مصادر هذه الموارد ما لم تمس بمصالحهم الشخصية (عمران، 1995، الصفحات 20-21)، وعليه كان الإستعمار خارج أراضيهم سيكون حافزا كبيرا لهم من أجل هذه الغاية، وسيكون أفضل لو أنه كان في العالم الإسلامي الذي يرونه عدوا حضاريا لهم وأن احتلاله لأجل الغاية الاقتصادية المذكورة سيكون حلا مرغوبا بكثرة منهم (المطوي، 1982، صفحة 27).

أما رجال الدين فقد كان دورهم كبيرا في تغذية هذه الحروب، وإذا كان لنا أن ننسب الحرب إلى طرف معين أو إبراز الدور الأكبر له فيها فإن هذا الطرف هو شرارة الحرب بحق، ففي المجمع الديني الذي عقدته الكنيسة بمدينة كليرمونت جنوب فرنسا 27نوفمبر (488هـ/1095م) (Upton, 2007, p. 36)استعمل البابا أوربان الثاني في خطبه جميع وسائل الإغراء لإثارة الحمية (باركر، الحروب الصليبية، 0000، صفحة 23)، فزيادة على إعلانه غفران الذنوب والتكفير عن المعاصي لكل مشارك في الحملة الصليبية، أعلن أنه أعفى حماة الصليبية من جميع التكاليف المدنية (الشارتري، 1990، الصفحات 35-36) (porges، 1942).

ويمكننا أن نعتبر، خطبته التي ألقاها بمجمع كلير مونت تلخيصا موجزا لجميع ما ذكرناه، حيث يقول:

" إنه لا يجوز لأي ساع في خلاص روحه أن يتوانى عن أن يسلك خاشعا طريق السيد، وإذا أعوزه المال فالرحمة الإلهية تعينه... أيها الإخوان يجب عليكم أن تتعذبوا كثيرا من أجل المسيح فتتحملوا المشقة، والفقر، وتكابدوا الحفاء والاضطهاد والذلة والمرض والجوع والظمأ وما شاكلها... " (مجهول، 1958، الصفحات 17-18)، وقوله أيضا: **" وليست هذه الحرب لاكتساب مدينة واحدة فقط بل هي أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى، فاتخذوا محجة القبر المقدس وخلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين وأنتم أملكوها لذواتكم فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبنا وعسلا "** (المطوي، 1982، صفحة 34).

كما رأينا فقد اتخذ المنظرون للحروب الصليبية من استخلاص بيت المقدس، وإنقاذ قبر المسيح عليه السلام وحماية الصليب من المسلمين، حجة يركبونها ويبررون بها رأيهم هذا، ويظهر من خلال الكلام أن الهدف من هذه الحرب هو مواجهة الإسلام بل والانتصار عليه على سبيل الانتقام، ولعل ما يؤيد رأينا في ذلك أن بعضا من الأسباب التي ذكرها الصليبيون أنفسهم تدل صراحة على صحة ما نقول، ومن هذه الأسباب نذكر:

- استنجاد إمبراطور بيزنطة (أليكسس كومينين Alexis comnene) بالبابا والأمم النصرانية لإنجاده من السلاجقة الذين ضيقوا عليه في القسطنطينية (موسى، 0000، صفحة 56)، فمنذ أن انهزم أمامهم في المعركة المشهورة ملاذكرت، حتى صاروا يغيرون عليه باستمرار وقد بلغ منه العجز عن صدهم حتى أصبح يخشى ضياع القسطنطينية منه إن استمر الوضع على حاله، ولذلك عاجل إخوانه في الغرب بطلب النجدة، وكانت هذه الدعوة بمثابة إعلان الحرب من الغرب على العالم الإسلامي.
- زوار بيت المقدس النصارى وادعاؤهم مضايقة المسلمين لهم، وانتهاكهم لحرمات الأماكن النصرانية المقدسة (قاسم، 1978، صفحة 22)، فقد ذكر بعض من المتعصبين الحجاج أن المسلمين كانوا يضايقونهم في حجهم في بيت المقدس، وقد ذكروا بعضا من القصص في ذلك، ومنها أن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، كان يضايقهم في بيت المقدس فقد قام مرة بهدم كنيسة القيامة، التي هي من مقدساتهم في بيت المقدس، غير أنه سرعان ما تدارك الأمر وأعاد بناءها من جديد، وذكروا عنه أنه كان يضايق إخوانهم في مصر ويصدر في حقهم المراسيم (المطوي، 1982، صفحة 31).

ولم يذكر المؤرخون أن المسلمين ضايقوا أهل الذمة أو الحجاج النصارى في أي وقت من الأوقات سوى ما ذكر عن السابق (الحاكم بأمر الله) ولذلك فإن حجة الصليبيين في حربهم على المسلمين لأجل هذا الأمر هي حجة واهية لا يمكن أن تصمد أمام الوقائع التي صاحبت الحروب المتواصلة من الغرب على الشرق الإسلامي بعد تلك الفترة، وكدليل على ما نقول فقد ذكر أن بطرس الناسك الذي هو أحد أكبر دعاة الحروب الصليبية، كان قد حج إلى بيت المقدس فترة حكم السلاجقة له، وأدى مناسكه بحرية ثم عاد إلى أهله، ولم يذكر أنه تعرض مضايقات من طرف المسلمين، وبالتالي فإن اتهامه للمسلمين بمضايقة النصارى مبالغ فيها (المطوي، 1982، صفحة 31).

- ويذكر بعض المؤرخين المسلمين، أن من أسباب هجوم الصليبيين على الشرق الإسلامي هو مراسلة الفاطميين لأمم الإفرنج وتشجيعهم على مهاجمة السلاجقة (الأثير، 1987، صفحة 13)لأنهم تغلبوا عليهم وافتكوا منهم بعض مدنهم في بلاد الشام، زيادة على الخلافات المذهبية ما بين أهل السنة والشيعة وكانت على أشدها في تلك الأزمنة، لذلك كانوا يتحينون فرصة مجيء الصليبيين إلى بلاد الشام، لاستعادة ممتلكاتهم (عريج، 0000، الصفحات 118-119).

وفي ذلك يقول السيوطي **" وفي سنة تسعين... جاء الفرنج فأخذوا نيقية، وهو أول بلد أخذوه، ووصلوا إلى كفرطاب واستباحوا تلك النواحي، فكان هذا أول مظهر الفرنج بالشام، قدموا في بحر القسطنطينية في جمع عظيم و انزعجت الملوك والرعية، وعظم الخطب، فقيل: إن صاحب مصر لما رأى قوة السلجوقية واستيلائهم على الشام كاتب الفرنج يدعوهم إلى المجيء إلى الشام ليملكوها..."** (السيوطي، 2003، الصفحات 335-336).

- تضاف إلى الأسباب السابقة التي رأينا أن أغلبها كان دينيا بعض الأسباب الأخرى والتي لا تقل أهميتها عن الأسباب الدينية، ومنها أنا الطبقة الشعبية في أوربا فترة الحروب الصليبية، كانت تعاني من الفقر

والاحتياج والظلم زيادة على المجاعة التي عمت أنحاء أوربا في هذه الأثناء، والتي انتابت هذه الطبقة الضعيفة أكثر من أي طبقة أخرى (موسى، 0000، صفحة 56) (محمود، 2002، صفحة 14)، وكان من الطبيعي أن تلبي هذه الفئة أي نداء ترى فيه متنفسا لها من حالتها، ولذلك فما إن أعلن البابا أوربان الثاني عن ميلاد الحركة الصليبية، حتى انضمت إليه جموع كثيرة من هذه الطبقة.

- ومن الناحية الاقتصادية فقد أدت الأوضاع المتدهورة في أغلب أوربا نتيجة المجاعات المتوالية في بعض المناطق كفرنسا، وسيطرة الإقطاعيين على أغلب الأراضي الزراعية الصالحة في أغلب أوربا، جعل من البحث عن حلول في خارج أوربا أمرا ضروريا، وقد جاءت فكرة الحروب الصليبية كباب كانوا ينتظرون فتحه، لأجل هذه الغاية (موسى، 0000، صفحة 56)، وحتى المدن التجارية الإيطالية لعبت دورا في إشعال الحرب الصليبية فقد عملت كل من (بيزة، وجنوة، وأمالفي، والبندقية)، على المشاركة وتدعيم هذه الحرب لأجل فتح أسواق جديدة لتوسيع التجارة والخروج بها من الأسواق المحلية والتقليدية إلى أسواق خارجية، وكانت أعينهم علة الأسواق الإسلامية في بلاد الشام ومصر (عمران، 1995، صفحة 58).

2.بداية الحملات الصليبية: تظافرت العوامل السالفة الذكر لتعلن عن ميلاد الحروب الصليبية، وكما أشرنا إليه فإن هدف الصليبيين كان بيت المقدس وكل البلاد المؤدية إليه، بدءا من آسيا الصغرى وبلاد الأناضول ثم بلاد الشام انتهاء ببيت المقدس، وكانت بداية الحرب مباشرة بعد مجمع كليرمونت، في أواخر عام (488هـ/1095م)، فقد سعى البابا أوربان الثاني إلى تسعير النفوس وإثارة الحمية لدى الأوربيين مستغلا عواطفهم الدينية كما ذكرنا آنفا، وباشر الاستعدادات الأولى للحرب حيث كلف مجموعة من الدعاة أرسلهم إلى مختلف أنحاء أوربا معلنين النفير العام صوب القبر المقدس، غير أنهم سمحوا لكل من حمل الصليب بالتوجه إلى الأراضي المقدسة، فانتابت المجتمعات الأوربية، نتيجة ذلك، موجات عارمة من الحماس الديني أسفرت عن قيام حملة الشعوب أو العامة، وضمت أجناسا مختلفة، من فرنسا وإيطاليا وألمانيا (الصوري، 1992، صفحة 108) (مجهول، 1958، الصفحات 18-19-20).

أ.الحملة الشعبية:احتشد الآلاف من فقراء الرجال والنساء وقطاع الطرق واللصوص والغوغاء، الذين لم يكن لهم أي وازع ديني أو أي علم بفنون القتال، وقد انضم إليهم بعض صغار النبلاء ممن كانت تدفعهم المطامع الشخصية الدنيوية (عمران, 1995, p. 26).

خرجت الحملة الشعبية (الجياع) (موسى، 0000، صفحة 62)، هذه على شكل مجموعات مختلفة تحت زعامة أشخاص عديدين مثل جوتييه، وبطرس الناسك، والتر المفلس وغيرهم (Stanley lane-porges ،Poole.M.a) (1898، 1942، الصفحات 15-16)، وقد اصطدموا أثناء تقدمهم بشعوب البلدان التي مروا بها مثل بافاريا والمجر وبلغاريا، وقاموا بأعمال السرقة والسلب والقتل وحرق المدن، ولم تنج ضواحي القسطنطينية من تعدياتهم، مما حمل الإمبراطور البيزنطي أليكسوس كومينين على اتخاذ مبادرة نقلهم إلى آسيا الصغرى، مدركا في الوقت نفسه، بما له من خبرة وتجربة، أن هذا الجمع الصليبي غير المنظم لا يثير الخوف في النفوس، وأنه إن عبر المضيق إلى آسيا الصغرى فسوف يدمره سلاجقة الروم

بسرعة، **" وقام بضعة آلاف من متشردي بطرس الناسك من الفرنسيين، مشارف مدينة نيقية عاصمة السلطان السلجوقي قلج أرسلان فنهبوا القرى، والمزارع، وقتلوا كل من صادفوه في طريقهم حتى السكان المسيحيون، بوحشية مروعة، وقيل إنهم عمدوا إلى شي الأطفال على السفافيد..."** (عمران، 1995، صفحة 64)، وحين عادوا، ومعهم غنائمهم، أخذوا يقصون بطولاتهم على زملائهم، فتحمس الجنود الألمان وخرج ستة آلاف منهم بقيادة رينالد إلى قلعة أكسير يجوردون، وهناك تعرضوا لكارثة حقيقية، إذ لم ينج منهم سوى ثلاثة آلاف من أصل عشرين ألفا (طقوش، 2007، صفحة 424) (يوسف، 1981، الصفحات 164-165).

ب-الحملة النظامية: بعد قيام الحملات الشعبية، كانت الاستعدادات تجري في الغرب الأوربي لتحرك الجيوش النظامية باتجاه الشرق، وقوامها الأمراء الإقطاعيون من فرنسا وإيطاليا ونورمنديا، وكان أفرادها أكثر تنظيما، بعد الاستعدادات بالعدة والعتاد، والاتصال مسبقا بأمراء وحكام النواحي الذين سيمرون في أراضيهم، حتى يمدوا لهم المساعدة (الصوري، 1992، الصفحات 145-146)، ولم تكن الحملة النظامية هذه تحت قيادة أمير واحد إنما كان لكل أمير رجاله وجنده واختلفت أهواؤهم، لتباين نظرة كل شخص إلى مفهوم الحركة الصليبية.

تكونت الحملة من أربعة جيوش نظامية، تولى بوهيمند (Bohémond) وابن أخته تانكرد(Tancred) قيادة القوات النورماندية، أما القوات البروفنسالية فكانت تحت قيادة ريموند الرابع(raymond4) كونت تولوز، والقوات الفرنسية تحت قيادة إتيين كونت بلوا(Etienne de blois)، وهيو كونت فرماندو (Hugh de ibelin) الابن الأصغر لهنري الأول ملك فرنسا(henri roi de France)، وروبرت الثاني كونت فلاندر(Robert lepieus roi)، أما جودفري دي بوايون(Godefroy de bouillon) دوق اللورين، وأخوه بلدوين(Baudouin) فقد قادا قوات اللورين السفلى (توديبو، 1999، صفحة 75) (Murray، 1998، الصفحات 29-30).

اتخذت هذه الجيوش أربع طرق مختلفة، لكنها اتفقت على الالتقاء عند أسوار القسطنطينية وبلغ عدد أفرادها ثلاثين ألف مقاتل، ويذكر أن عدد أفراد الجيوش التي وفدت من الغرب ونزلت في الأراضي الإمبراطورية البيزنطية، في المدة الواقعة بين صيف عام (1096م)، وربيع عام(1097م)، تراوح بين ستين ألفا ومائة ألف (طقوش، 2007، صفحة 425).

وبعد محادثات شاقة مع الإمبراطور البيزنطي أليكسوس كومينين((Alexis comnene، تم نقلهم إلى آسيا الصغرى وكان قد أن اشترط عليهم، في مقابل مساعدته لهم، بأن تعطى له كل الأراضي التي سيتم الاستيلاء عليها من السلاجقة، إذا كانت هذه الأراضي تابعة للإمبراطورية من قبل (الصوري, 1992, p. 147) (يوسف, 1981, pp. 160-161).

ثانيا- نتائج الحملة الصليبية الأولى:

خلفت الحملة الصليبية الأولى نتائج وخيمة على العالم الإسلامي، وقد أبانت عن حقد كبير يكنه الصليبيون تجاه العالم الإسلامي، فإذا ما نظرنا إلى تصرفات الجيوش الصليبية مع العزّل من المسلمين

نتأكد بأن الحرب لم تكن لأجل التكسب المادي فقط، وإنما هي حرب عداء ضد الإسلام والمسلمين، وما سنورده فيما يلي يؤكد رأينا، خصوصا ما حدث في بيت المقدس.

1-سقوط نيقية: كانت أولى المدن المتعرضة للغزو الصليبي من مدن العالم الإسلامي هي مدينة نيقية عاصمة السلاجقة، وكان هدفهم من ذلك هو تدمير قوتها حتى لا تكون خطرا يتهددهم من الخلف إن هم تقدموا صوب بلاد الشام، وكذلك تلبية رغبة الإمبراطور البيزنطي الذي اشتكى من قوة السلجوقية التي كانت تهدد القسطنطينية وقد ذكرنا سابقا أن من أهداف الصليبيين هو القضاء على راية الهلال التي يحملها السلاجقة وينافسون بها المسيحيين، وبالتالي فإن إسقاط نيقية يدخل ضمن الصراع الحضاري بين المسيحية والإسلام (مجهول، 1958، الصفحات 28-29).

وصلت القوات الصليبية إلى نيقية في شهر (جمادى الأولى490هـ/ماي1097م)، وضربت الحصار عليها ولم يكن حاكمها السلطان قلج أرسلان الأول (485-500هـ/1092-1107م)، فيها آنذاك، وهو ما سهل للصليبيين السيطرة عليها، بعد حصارها مدة خمسة أسابيع، سلمت بعدها إلى الإمبراطور البيزنطي، لأنها كانت من أملاكه (توديبو، 1999، الصفحات 110-111).

2-احتلال أنطاكية:وصل الصليبيون إلى أنطاكية في شهر (ذي القعدة 490هـ/سبتمبر1097م) وضربوا الحصار عليها ويصف لنا أحمد بن علي الحريري حالهم بقوله: **"ثم إن الفرنج شددوا الحصار على أنطاكية وصاحبها يومئذ ياغي سنان، ثم إن ياغي سنان أخرج النصارى المقيمين بأنطاكية وطردهم ونهب دورهم، ودام الحصار على أنطاكية تسعة أشهر، وهلك أكثر الفرنج عليها من القتل والموت، والجوع، وظهر من شجاعة صاحبها ما لم ير مثله "** (علي، 1981، الصفحات 62-63)، ولم تجد فرق السلب والنهب التي شكلوها للإغارة على المناطق الريفية المجاورة ما تنهبه، حتى باتوا في مأزق حقيقي، وفي المقابل، كان المسلمون في داخل المدينة، في نزاع كبير، على الرغم من أن جيشا إسلاميا، بقيادة كربوغا أمير الموصل، كان يشق طريقه لإنقاذ المدينة، لكنه وصل بعد فوات الأوان (توديبو، 1999، صفحة 185).

في هذه الأثناء حاك بوهيموند(Bohémond) مؤامرة، رأى فيها وسيلة لتحقيق أطماعه ودفعته للانضمام إلى الحملة الصليبية، وهي الاستقلال بحكم أنطاكية ليؤسس بها إمارة نورماندية، لذلك قرر الرحيل إذا لم يوافق القادة الصليبيون على منحه حكم أنطاكية بعد الاستيلاء عليها (الصوري، 1992، صفحة 344)، ونتيجة للخوف الذي انتاب الصليبيين، وافق الزعماء على طلبه، وكان بوهيمند(Bohémond) قد دبر مؤامرة مع أحد الأرمن على فتح باب البرج الذي يتولى حراسته، ودخل الصليبيون إلى المدينة واستولى بوهيمند على القلعة ليعلن تأسيس إمارة أنطاكية الصليبية في شهر (جمادى الآخرة 491هـ/جوان1098م)، وهي الإمارة الثانية التي يؤسسها الصليبيون بعد الرها (علي، 1981، صفحة 63).

3-احتلال بيت المقدس:

أ-الطريق إلى بيت المقدس: بعد أن تمكن الصليبيون من احتلال أنطاكية، قرر قادتهم مواصلة السير باتجاه بيت المقدس فزحفوا بجيوشهم إلى معرة النعمان بقيادة ريموند (raymond) الصنجيلي، وقاومتهم

المدينة زهاء أسبوعين قبل أن تسقط، وتعرض سكانها لأبشع المذابح (سليم، 1994، صفحة 143) (مجهول، 1958، الصفحات 97-100) (توديبو، 1999، الصفحات 260-263)، ثم زحف ريموند (raymond) بعد ذلك إلى كفرطاب ودخلها (الأثير، 1987، صفحة 16)، ثم زحف رفقة باقي القادة إلى قلعة مصياف، فخرج إليهم أميرها، وعقد معهم اتفاقية، ثم اتجهوا نحو بارين، ثم رفنية فالبقيعة، واستولوا على حصن الأكراد في شهر (صفر492هـ/ جانفي1099م)، وهناك استقبل الصليبيون رسل جناح الدولة أمير حمص محملين بالهدايا ومعلنين ولاء الأمير العربي، حتى لا يتعرضون لإمارته (الشارتري، 1990، الصفحات 67-68).

وأرسل ريموند قوة عسكرية صليبية، للسيطرة على أنطرطوس التابعة لإمارة طرابلس وذلك حتى يسهل عليه الاتصال بالبحر، وتوطيد العلاقات مع اللاذقية، غير أنه لم يتمكن من دخول عرقة، التي صمدت للحصار الذي استمر أربعة أشهر، فتركها الصليبيون في (19جمادى الآخرة 492هـ/13 ماي1099م)، ليواصلوا زحفهم على بيت المقدس (مجهول، 1958، صفحة 113)، وغادروا طرابلس يوم الاثنين (22جمادى الآخرة/16ماي)، فاجتازوا جبيل بأمان ولم يتعرض لهم أحد، ووصلوا في (25جمادى الآخرة/19ماي) إلى الحدود الفاطمية، عند نهر الكلب.

ولما اقتربوا من بيروت، بادر سكانها ببذل الهدايا والعطاءات، خشية من أن يتعرضوا للدمار كما سمحوا لهم باجتياز بلادهم، شرط ألا يضروا بالأشجار المثمرة والكروم، وكل المحاصيل الزراعية، وقبل الأمراء الصليبيون هذه الشروط (توديبو، 1999، صفحة 294)، ثم انطلقوا إلى صيدا ومنها إلى صور، ثم عكا التي وصلوها في أول رجب فصالحهم أميرها، وقدم لهم هو الآخر المؤن والهدايا، كما تعهد لهم بالدخول في طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس (الصوري، 1992، الصفحات 398-399)، ثم واصلوا تقدمهم فمروا بقيسارية وأرسوف، وواصلوا توجههم إلى بيت المقدس، فاحتلوا الرملة بعد أن أخلاها المسلمون (الشارتري، 1990، الصفحات 69-70)، ووصلوا إلى بيت المقدس يوم الثلاثاء في (14رجب492هـ/07جوان1099م)

ب. سقوط بيت المقدس: ضرب الصليبيون الحصار مباشرة بعد أن وصلوا إلى بيت المقدس وكان عددهم نحو أربعين ألفا (سويد، 1997، صفحة 55)، وبقي الجانب الشرقي والجنوبي الشرقي للمدينة بلا حصار، وذلك بسبب استحالة الهجوم من ذلك الجانب لوجوده في مواجهة وادي قدرون (وادي ستي مريم)، وكانت قوات ريموند دي صنجيل (raymond) متمركزة، في الأيام الثلاثة الأولى من الحصار، بدءا من البرج الذي تمركز عنده تانكرد(Tancred) (وسمي فيما بعد باسمه) حتى الباب الغربي للمدينة، إلا أن ريموند (raymond) اكتشف أن موقعه غير ملائم لمهاجمة المدينة (توديبو، 1999، صفحة 296)، وأن البرج يتحكم بمعسكره، كما أن الوادي الذي يقع بين معسكره والمدينة يعيق تحركاته، فقرر أن ينقل قسما من قواته لكي تتمركز على الهضبة المبنية عليها مدينة القدس، بين المدينة وكنيسة صهيون تاركا قسما من قواته في موقعها الأصلي (ماير، 2009، صفحة 118).

ويبدو أن قيام ريموند بهذه التحركات، بعد أن أدرك أن كونت تولوز يريد أن يحصل رجاله على طريق أسهل إلى المدينة لغرض الهجوم، كما أنه كان يرغب في حماية كنيسة صهيون والحيلولة دون تعرضها للأذى (الصوري، 1992، الصفحات 95-96).

استعصت المدينة عليهم أياما بعد المقاومة الكبيرة من الحامية الفاطمية التي كانت هناك، غير أنها لم تصمد أمام الحصار المتواصل والضربات المتكررة للصليبيين إضافة إلى تأخر المدد من القوى الإسلامية الكبيرة، وكل ذلك أدى إلى سقوط المدينة بأيدي القوات الصليبية يوم الجمعة في(23شعبان492هـ/15جويلية1099م)، بعد حصار دام نيفا وأربعين يوما، **" ولبث الإفرنج يقتلون في المسلمين بالقدس الشريف أسبوعا قتل في المسجد الأقصى ما يزيد عن السبعين ألفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وساداتهم وعبادهم وزهادهم ممن جاور في هذا الموضع الشريف..."** (العليمي، 1999، صفحة 307) ، هذا ولم يستثن هؤلاء الغوغاء لا النساء ولا الأطفال، وكانت بحق مذبحة مروعة خاض الصليبيون فيها حتى أكعابهم، في دماء القتلى (علي، 1981، صفحة 47).

وعندما التجأ المسلمون إلى المسجد الأقصى، تبعوهم دون أن يراعوا حرمته وأجهزوا على كل من احتمى به، حتى لقد فاض المسجد كله بدمائهم (توديبو، 1999، الصفحات 317-318)، وكان المسلمون يذبحون في الشوارع وفي البيوت بوحشية بالغة، ولم يجدوا في المدينة مكانا آمنا يعتصمون فيه، فألقى بعضهم بأنفسهم من فوق الأسوار، وازدحم آخرون في القصور والأبراج، وفي المساجد، ولم يكن يسمع في تلك الساعة غير أنين الجرحى وحشرجات الموتى، كما وطئ الفرسان أكداس الجثث وهم يطاردون أولئك الذين حاولوا الهرب، وحتى اليهود كانوا قد لاقوا نفس المصير عندما فروا للاحتماء في معبدهم الكبير (أمين، 1998، صفحة 13)، وجمعت جثث القتلى، وطرحت خارج أبواب المدينة، فتعالت أكوامهم **"حتى حاذت البيوت ارتفاعا، وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة** (مجهول، 1958، الصفحات 118-119) ".

وفي رواية ذكرها محمود سعيد عمران، **" أن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعصي"** (عمران، 1995، صفحة 33)، واحتمى افتخار الدولة (قائد الحامية الفاطمية) مع طائفة من الجند بمحراب داوود، حيث اعتصموا به، وقاتلوا ثلاثة أيام، ولكنهم لم يلبثوا أن ألقوا السلاح بعد أن بذل لهم الصليبيون الأمان، ثم أطلقوا سراحهم، وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي بيت المقدس التي نجت من وحشية الصليبيين (الأثير، 1987)، ومع ذلك فإن إطلاق سراح حاكم بيت المقدس لم يكف لمحو أثر الجريمة البشعة التي اقترفوها، وقتلهم آلاف الأبرياء من المسلمين بغير ذنب (طقوش، 2007، صفحة 438)، حتى أن بعض مؤرخيهم المعاصرين وصف هذه الجريمة بلطخة الخزي والعار في تاريخهم، لشناعتها وفظاعتها (سميث، 0000، صفحة 218).

لقد كانت هذه المذبحة وما سبقها من مذابح في مدن إسلامية أخرى، كلها نتيجة للحقد الصليبي على الإسلام، وقد ظهر هنا أن ما كان يبحث عنه دعاة الحرب الصليبية لم يكن استرجاع القبر المقدس كما

ذكروا، وإنما كان مقصدهم الانتقام من المسلمين وممن يواليهم من غير المسلمين، فقد رأينا حجم المذبحة التي تعرض لها ساكنة بيت المقدس، وقد رأينا كم أن الصليبيين لم يميزوا بين المحارب والمسالم وبين القادر على الحرب والعاجز، فقد انتهكوا وداسوا كل الأعراف ولم يراعوا أعراف الحروب التي تحرم الإجهاز على غير المحارب، فقتلوا الكبار والعجزة والصغار والمسالم والمسلم واليهودي، وكل من وصليت إليه سيوفهم.

ثانيا-التوسع الصليبي في إقليم الجليل ومدن الساحل الفلسطيني:

1. سقوط إقليم الجليل: بعد سقوط بيت المقدس وتأسيس المملكة الصليبية هناك قرر الصليبيون مواصلة احتلال باقي مدن فلسطين، وكانت البداية من إقليم الجليل، وهو من الأقاليم الواسعة في فلسطين، يقع إلى الشمال من بيت المقدس، ويمتد إلى قرب حمص (الحموي، 1977، الصفحات 157-158)، تحده من الغرب المدن الساحلية عكا وحيفا وقيسارية، بينما تحده من الشرق بحيرة طبرية ونهر الأردن، وتقع بمحاذاته مدن الناصرة وكوكبة والجليل، وكان من أوائل الأقاليم الفلسطينية التي تعرضت للعدوان الصليبي، بعد بيت المقدس.

ثم إن جودفري(Godefroy de bouillon) عهد إلى تانكرد (Tancred) باحتلال إقليم الجليل، فإن وفق في ذلك كان واليا عليه فتحمس تانكرد (Tancred) للمهمة كثيرا ولم تكن بالأمر الصعب عليه، فهو مع قلة رجاله، وضعف إمكانياته بعد رحيل العديد من الأمراء والجنود، إلا أن أهل الإقليم كانوا أضعف، حتى إنه احتله في فترة وجيزة (رانسيمان، 1968، صفحة 304)، كما احتل مدينة طبرية بسهولة بعد أن هرب منها أهلها، وفعل الشيء نفسه في مدينة بيسان في الجنوب الشرقي لإقليم الجليل، وهكذا مع نهاية سنة (492هـ/ 1100م)، وبداية سنة (493هـ/1101م) أصبح إقليم الجليل تابعا للصليبيين، وتحت إمارة تانكرد (Tancred) ، على أن هذا الإقليم صار تابعا لبيت المقدس وليس مستقلا بذاته (السرجاني، 2011، صفحة 117)، وبهذه الطريقة أصبحت كل من بيت المقدس ويافا واللد والرملة ونابلس وبيسان وطبرية، بيد الصليبيين.

2. احتلال مدن الساحل الفلسطيني: بعد أن سقط إقليم الجليل وجه الصليبيون نظرهم تجاه مدن الساحل الفلسطيني، فاحتلوا مدينة حيفا وقد كانت قريبة من بيت المقدس وبها حامية صغيرة وكان ذلك في (494هـ/1100م) (المقريزي، 1996، صفحة 161)، ثم احتلوا مدينة أرسوف، وقد نكلوا بأهلها قبل الظفر بها ففي شهر (ربيع الآخر493هـ/فيفري1100م)، بينما خرج بعض سكان أرسوف لمزاولة نشاطهم في مزارعهم القريبة، فقبض عليهم الصليبيون وانتقموا منهم انتقاما وحشيا بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم (طقوش، 2007، صفحة 441)، ثم حاصروا المدينة حتى يئس أهلها وقرروا تسليمها بالأمان مع دفع جزية سنوية للصليبيين (الصوري، 1992، الصفحات 217-218).

وبعد أرسوف اتجهت أنظار المتحالفين نحو مدينة قيسارية، حيث بدأ حصارها في شهر رجب واعتمد أهل المدينة على أسوارها، ورفضت حاميتها التسليم وظلت تقاوم خمسة عشر يوما حتى سقطت (الشارتري، 1990، الصفحات 113-114)، واستباح الصليبيون المدينة ونهبوها فلجأ سكانها إلى المسجد

الجامع في المدينة ولكن الصليبيين لاحقوهم، وجرت مذبحة داخل المسجد حتى صار صحن المسجد بحيرة من الدماء (عمران، 1995، الصفحات 34-35).

وجه الصليبيون بعد ذلك نظرهم إلى مدينة عكا فقاموا بحصارها شهر (رجب 496هـ/1103م) وضيق على أهلها وكادت تسقط في يده لولا أن وصلت إليها النجدات من سائر السواحل من صور وصيدا، واضطر إلى رفع الحصار عنها (باركر، الحروب الصليبية، 0000، صفحة 44)، ثم عاود حصارها بعد أن وصلته إمدادات عن طريق البحر شهر (شعبان 497هـ/1104م) (الوردي، 1996، صفحة 14)، ولم يدم طويلا حتى دخلها وعاث فيها الجنود فسادا وتدميرا على حد تعبير ابن الأثير: **" فلما فرغوا من جبيل ساروا إلى مدينة عكا استنجدهم الملك بغدوين ملك الفرنج صاحب القدس على حصارها فنازلوها، وحصروها في البر والبحر وكان الوالي بها اسمه ينا، ويعرف بزهر الدولة الجيوشي، فقاتلهم أشد قتال فزحفوا إليه غير مرة فعجز عن حفظ البلد فخرج منه، وملك الفرنج البلد بالسيف قهرا وفعلوا بأهله الأفعال الشنيعة..."** (الأثير، 1987، صفحة 72).

3. سقوط المدن الساحلية الشامية:

كما أشرنا إليه سابقا فإن هدف الصليبيين في حربهم هذه كان بغرض استرجاع بيت المقدس كما صرح بذلك دعاتهم، غير أن وصولهم إلى هدفهم يتطلب المرور عبر بلاد الشام، وقد كان من نتيجة هذا العبور أن احتلت أغلب بلاد الشام وخاصة مدن الساحل (رانسيمان، 1968، صفحة 95)، وكانت بعض هذه المدن قد تعرضت لمذابح مروعة من الصليبيين لم تستثن أي شخص وصلت إليه سيوف المحاربين، ومن هذه المدن نذكر مدينة طرابلس الشام التي سقطت بعد حملات كثيرة تولاها ريموند الصنجيلي (Raymond) وأدت إلى وفاته (الصوري، 1992، الصفحات 532-533)، ثم خلفاؤه من الأمراء (القلانسي، 1980، الصفحات 161-162)، وانتهت بأيديهم سنة 502هـ/1109م) (بردي، 1992، صفحة 186).

كما سقطت كل من مدينتي بيروت وصيدا، وهما مدينتان كبيرتان تطلبت من الصليبيين تحضيرات كبيرة (الذهبي، 1999، صفحة 08)، وكان الابتداء بمدينة بيروت التي خضعت لحصار بري وبحري من طرف بلدوين (Baudouin) وانتهى حصارها بسقوطها بعد مقاومة عنيفة من سكانها، وقد أمعن فيهم الصليبيون قتلا وقدر عدد القتلى أكثر من عشرين ألفا لم يفرق فيها بين الكبير والصغير والمقاوم والعاجز (الشارتري، 1990، صفحة 146) (القلانسي، 1980، صفحة 168)، وكذلك فُعل بمدينة صيدا، فرغم حصانتها ومقاومتها إلا أنها سقطت هي الأخرى بعد محاولات متعددة من بلدوين (Baudouin) لكنه لم يفعل بأهلها مثلما فعل بأهالي صور قبلها، بل إنه أحسن معاملتهم، بعد أن أعطى العهود على حماية من بها إن هم سلموها بالأمان وكان ذلك سنة (503هـ/1110م) (القلانسي، 1980، صفحة 168).

أما مدينة صور فحظها لم يكن معاكسا لأخواتها من المدن الشامية التي مر بها الصليبيون، فقد كانت هي الأخرى ضمن اهتماماتهم، فأغار على الصليبيون سنة (506هـ/1111م) ولم يقدروا عليها نظرا لحصانتها (الأثير، 1987، الصفحات 227-228)، وظل أهلها على حالتهم في مجابهة الصليبي ين، مرة

بالقتال وأخرى بالمهادنة، وهم ينتظرون المدد من الفاطميين، ولما يئسوا من وصولها قرروا تسلميها للفرنج بالأمان في سنة (518هـ/1125م) (القلانسي، 1980، صفحة 218).

خاتمة:

توصلنا في الأخير إلى حقيقة اعتبار أن الحروب الصليبية مظهر من مظاهر الصراع الغربي مع العالم الإسلامي هي حقيقة أثبتتها الأدلة التي أوردناها في البحث، وهي كالتالي:

- إن الأفكار والمعتقدات التي كانت منتشرة في المجتمع الغربي قبيل اندلاع الحرب الصليبية على العالم الإسلامي، والتي تقول بقرب يوم القيامة، وأن على المجتمع الغربي أن يكفر عن سيئاته من خلال المضاعفة في الأعمال الخيرة كالحج إلى بيت المقدس، والجهاد ضد غير المسيحيين، خير دليل على ما نقول.
- كما أن اعتماد خطاب الكراهية ضد الإسلام واستعمال الأساليب الحماسية من طرف بعض الأمراء وكذا البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت الكنسي كذلك دليل على صحة ما أشرنا إليه، فقد رأينا كيف أنه كان يرغب الناس في التوجه إلى بيت المقدس التي وعدهم بها ربهم على حد قوله، وأن كل من سيشارك في هذه الحرب سيكون معفى من التكاليف الدينية.
- وحتى النتائج التي انتهت إليها أغلب الحملات العسكرية الصليبية على المدن الإسلامية، أثبتت بما لا يدعو للشك مدى الحقد الغربي على كل ما له علاقة بالإسلام، وإلا فما تفسيرنا لعمليات التصفية الوحشية لكل ساكنة بيت المقدس وقبله معرة النعمان، وأرسوف وقيسارية، فقد كتب مؤرخوهم والذين كان بعضهم شهود عيان على هذه الجرائم كيف أنهم اقترفوا كل ما هو مناف لتعاليم الحروب.
- ثم إن اختيار بيت المقدس كهدف أول وأساسي للحرب ليدل دلالة واضحة على أن الحرب لم تكن فقط حرب سياسية وإنما صراعي ديني غربي على الإسلام، فبيت المقدس مكان مقدس للمسلمين كما هو للمسيحيين وكذلك اليهود، وقد كان اختيار الصليبيين له لأجل الاستئثار به وبالأماكن المقدسة فيه، وإزالة كل ما لا يمت لهم بصلة منه، وجعله مكانا خاصا بهم فقط، وما اختياره ليكون مقر المملكة دون باقي المدن إلا دليل على صحة ما نقول.

التوصيات:

يتوجب علينا كمسلمين إظهار الصورة الحقيقية لسماحة الإسلام، والعمل على تغيير النظرة العدائية الغربية لكل ما له علاقة بالإسلام وذلك من خلال:

- تنظيم ندوات ومنتديات فكرية تضم الجانبين الإسلامي والغربي، تطرح من خلالها قضايا تتعلق بالتعاليم الإسلامية كالعدالة وحرية المعتقد، كما نبرز كذلك أهم فترات الاحتكاك بين المسلمين وغيرهم خاصة المسيحيين، لنذكر بمدى سماحة المسلمين وهم في أوج قوتهم، وعدم اكتراثهم لمبدأ المعاملة بالمثل الذي كثيرا ما نجده عند غير المسلمين.

- فتح المجال أمام الغربيين لتنظيم رحلات إلى البلدان الإسلامية والاحتكاك بالمسلمين عن قرب لمعرفة الوجه الآخر المغيب عمدا من طرف جهات تحقد على الإسلام.

العمل مع السفارات والقنصليات في بلدان الغرب المسيحي على تنظيم نشاطات من شأنها التعريف بالإسلام الحقيقي، وتوجيه الجالية الإسلامية في هذه البلدان على ضرورة التصرف بما يمليه عليهم دينهم الحنيف حتى يكونوا قدوة يحتذى بها من طرف غير المسلمين.

قائمة المصادر والمراجع:

- Murray, A. (1998). *from Clermont to Jerusalem, the crusades and crusader societies(1095-1500).* brepols.
- porges, W. (1942). *the clergy and other noncombatants on the first crusade.* Chicago, Illinois.
- Stanley lane- Poole.M.a. (1898). *Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem.* London: G. P. putnam's sons, enterd at stationers, hall.
- Upton, t. P. (2007). *sacred topography western sermon perceptions of Jerusalem the holy sites and Jews during the crusade(1095-1193).* usa: proquest information andlerning company..

- الأثير, ا. (1987). *الكامل في التاريخ* (Vol. 09). بيروت: دار الكتب العلمية.
- الحموي, ي. (1977). معجم *البلدان* (Vol. 2). بيروت: دار صادر.
- الذهبي, ش. ا. (1999). *دول الإسلام* (Vol. 02). بيروت: دار صادر.
- السرجاني, ر. (2011). *قصة الحروب الصليبية*. دار التقوى.
- السيوطي. (2003). *تاريخ الخلفاء*. بيروت: دار ابن حزم.
- الشارتري, ف. (1990). *تاريخ الرحلة إلى القدس (1127/1095م)*. بيروت: دار الشروق.
- الصوري, و. (1992). *الحروب الصليبية* (Vol. 2). (ح. حبشي, Trans.) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- العليمي, م. ا. (1999). *الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل* (Vol. 1). عمان: مكتبة دنديس.
- القلانسي, ا. (1980). *ذيل تاريخ دمشق*. بيروت: دار الآباء اليسوعيين.
- المطوي, م. ا. (1982). *الحروب الصليبية في المشرق والمغرب*. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- المقريزي. (1996). *اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا* (Vol. 2). القاهرة: وزارة الأوقاف المصرية.
- الوردي, ا. (1996). *تاريخ ابن الوردي* (Vol. 2). بيروت: دار الكتب العلمية.
- أمين, م. (1998). *الحروب الصليبية كما رآها العرب*. (ع. دمشقية, Trans.) بيروت: دار الفرابي.
- باركر, أ. (0000). *الحروب الصليبية*. (ا. ا. العريني, Trans.) بيروت: دار النهضة.

- باركر, أ. (0000). *باركر أرنست: الحروب الصليبية، نقله إلى العربية، د- السيد الباز العريني، دار النهضة(بيروت)، ط2، سنة الطبع غير موجودة، ص23.* (ا. ا. العريني, Trans.) بيروت: دار النهضة.
- بردي, ا. ت. (1992). *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة* (Vol. 5). بيروت: دار الكتب العلمية.
- توديبو, ب. (1999). *تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس.* (ح. م. عطية, Trans.) الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- رانسيمان, س. (1968). *تاريخ الحروب الصليبية* (Vol. 1). (ا. ا. العريني, Trans.) بيروت: دار الثقافة.
- سليم, ا. م. (1994). *تاريخ معرة النعمان* (Vol. 1). دمشق: وزارة الثقافة السورية.
- سميث, ج. ر. (0000). *الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية.* (م. ف. الشاعر, Trans.) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- سويد, ي. (1997). *حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي.* بيروت: دار الملتقى.
- طقوش, م. س. (2007). *تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام.* بيروت: دار النفائس.
- عريج, ا. م. (0000). *الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر.* السعودية: ديوان المطبوعات الحديثة.
- علي, ا. أ. (1981). *الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين.* مكتبة دا الملاح.
- عمران, م. س. (1995). *تاريخ الحروب الصليبية(1095-1291م).* الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- قاسم, ق. ع. (1978). *ماهية الحروب الصليبية.* الكويت: عالم المعرفة.
- ماير, هـ. إ. (2009). *تاريخ الحروب الصليبية.* (ع. ا. غانم, Trans.) دار المدى.
- مجهول. (1958). *أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس.* (ح. حبشي, Trans.) بيروت: دار الفكر العربي.
- محمود, ا. (2002). *تاريخ الحروب الصليبية في مصر والشام.* الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
- موسى, ت. ب. (0000). *نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين محمود.* تونس: الدار العربية للكتاب.
- يوسف, ج. ن. (1981). *العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى.* بيروت: دار النهضة العربية.

الحروب الصّليبيّة و أثرها في تغيّر وجهة نظر شعوب الغرب الأوربي تجاه الإسلام والمسلمين.

The Crusades and Their Impact on Changing the View of the Peoples of Western Europe Towards Islam and Muslims

د. بن نيلي لخضر، جامعة علي لونيسي البليدة 2- الجزائر
bennili_lakhdar@yahoo.fr



إنّ ظهور الإسلام مع مطلع القرن السّابع الميلادي، وتوسّع المسلمين عن طريق الفتوحات قد خلق نوعا من التّذمّر لدى العديد من الشّعوب الّتي لم ترض بهذا الدّين الجديد، ومن بين هؤلاء نجد شعوب العالم المسيحي شرقه وغربه الّتي ناصبت المسلمين الحقد والعداء وهذا لجهلهم وعدم معرفتهم لمبادئ الإسلام أو بسبب حركة الفتوحات الّتي ترتّب عنها فَقْد العالم المسيحي لعديد الأقاليم التي كانت واقعة تحت هيمنته كبلاد الشّام ومصر وشمال إفريقيا (بلاد المغرب) وشبه الجزيرة الأيبيرية، لكن احتكاك هذه الشّعوب بالمسلمين وتعرّفهم على الإسلام أدّى إلى تأثّر الكثير منهم بمبادئه فغيّروا وجهة نظرهم حوله وحول المسلمين ممّا أدّى إلى التّعايش والتّسامح بين الجانبين وحتّى اعتناق البعض منهم له (للإسلام).

الكلمات مفتاحية: الإسلام، الفتوحات، العالم المسيحي، التّعايش، التّسامح.

Abstract :

The émergence of Islam with the beginning of the seventh Century AD, and the expansion of Muslims through conquests has created a kind of grumbling among many peoples that did not satisfy this new religion, among these we find the peoples of the eastern and Western Christian world that erected Muslims hatred and hostility and this because of their ignorance and lack of knowledge they changed their views about him and about Muslims, which led to The coexistence and tolerance between the two sides and even the conversion of some of them to him (to Islam).

Keywords: Islam, conquests, Christendom, coexistence, tolerance



مقدّمــة:

لقد بدأ العداء للإسلام منذ الوهلة الأولى لظهور الدّعوة المحمّدية بمعارضة قريش ومن شايعها من القبائل العربيّة، حيث حاول هؤلاء بكلّ ما أوتوا من قوّة وحيلة للقضاء على هذه الدّعوة وصاحبها وهي في مهدها، لكن محاولاتهم باءت بالفشل واستطاع الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بعون الله تعالى أن يتغلّب على جميع المكائد الّتي حيكت ضدّه وضدّ دعوته وأن يمكّن لهذا الدّين في الأرض، وقد واصل المسلمون

المشوار بعد الرّسول صلّ الله عليه وسلّم في تبليغ الرّسالة وإعلاء كلمة الله تعالى فبلغوا بفتوحاتهم وتوسّعاتهم شرقا إلى أقصى شرق آسيا وغربا إلى سواحل المحيط الأطلسي وجنوبا إلى الصّحراء الكبرى في إفريقيا وشمالا إلى غالة (فرنسا) في أوربا.

وقد قوبلت هذه الحركة التّوسّعيّة للمسلمين بتعالي صيحات المعارضين لهذا الدّين خاصّة في العالم المسيحي شرقه وغربه، حاملا لواء الحقد والكراهية والعداء لهذا الدّين بتشويه صورته للتّقليل من شأنه والطّعن في رسوله الكريم والحطّ من قيمته ودعوة النّاس إلى تركه وعدم اعتناقه، ويأتي على رأس هؤلاء المعارضين والمعادين للإسلام والمسلمين السّلطة البابويّة في غرب أوربا، الّتي جعلت من هذا الدّين وأتباعه ألدّ أعدائها فحرّضت أتباعها وجمعت الجيوش تحت رايتها معلنة الحرب باسم الدّين (الحرب المقدّسة) ضد الإسلام والمسلمين في الأندلس وبلاد المغرب والمشرق الإسلامي، ورغم ما ألحقته تلك الحملات الّتي أعدّتها البابويّة ضدّ المسلمين من أضرار بشريّة ومادّيّة إلاّ أنّه في بعض الأحيان كان لها نتائج عكسيّة بتعرّف الصّليبيّين على واقع الإسلام والمسلمين نتيجة الاقتراب منهم والاحتكاك بهم عكس الصّورة المقيتة الّتي غرستها البابويّة فيهم.

وهنا يمكن أن نتساءل كيف هي صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب المسيحي؟ وما أثر الحروب الصّليبيّة على المشرق الإسلامي في إعادة رسم صورة الإسلام والمسلمين لدى شعوب الغرب المسيحي من خلال أولئك الصّليبيين الّذين شاركوا فيها (الحروب الصّليبيّة)؟.

أولا- صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب قبيل انطلاق الحملات الصّليبيّة على بلاد الشّام:

لقد اعتمد العالم المسيحي عامّة شرقه وغربه على سيّاسة التّشكيك في الإسلام للتّقليل من شأنه وتشويه صورته بالطّعن في صاحب رسالته (محمّد عليه الصّلاة والسّلام) والشّكّ في نبوّته، فقد اعتبر المسيحيّون الإسلام في بادئ الأمر أنّه إحدى الشّيع المسيحيّة الكثيرة، وأنّ الرّسول الأكرم (محمّد صلّ الله عليه وسلّم) ما هو إلاّ هرطوق جديد في المسيحيّة مثله مثل الكثير من أمثاله في المشرق (فلوري، 2004، الصفحات 74- 75.)، وبالتّالي لا يعدو إلاّ نبيّا مزيّفا (فلوري، 2004، صفحة 107.).

ومن بين الّذين تبنّوا هذا الرّأي نجد القدّيس يوحنّا الدّمشقي (676- 749م) الّذي شبّه الإسلام بالوثنيّة وعبادة الأبالسة، وإلى جانبه نجد الأسقف البيزنطي ثيوفان (760- 816م) الّذي ذكر في مؤلّفه حوليّة عام 815م أنّ محمّدا (عليه الصّلاة والسّلام) هو رجل مصاب بالصّرع وتلقّى النّصح من راهب مسيحي هرطوقي فراح يخدع النّاس بأنّ عقيدته صدرت عن مصدر إلهي فنشرها عن طريق النّساء ويقصد بها السّيدة خديجة رضي الله عنها، ثمّ بقوّة السلاح ويقصد بها الغزوات والفتوحات، معتبرا إيّاه (الإسلام) زيغان وهرطقة نشرتها النّساء وديانة خليعة وحربيّة.

أمّا نيستاس البيزنطي Nécitas فقد أسهب في انتقاده للإسلام من خلال الطّعن في الرّسول الكريم (عليه الصّلاة والسّلام) ونبوّته، ففي رأيه أنّ محمّدا صلّ الله عليه وسلّم لم يكن مطلقا خاتم الأنبياء والمرسلين الّذين أتوا بالوحي بل كان هرطوقيّا وديانته خدعة وبدعة لا تعدو أن تكون إلاّ ديانة وثنيّة. (فلوري، 2004، الصفحات 108- 109).

أمّا عن صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب الأوربي المسيحي فقد كانت مجهولة إلى غاية ظهورهم المفاجئ في شبه الجزيرة الأيبيريّة (إسبانيا والبرتغال) نهاية القرن الأوّل الهجري/ مطلع القرن الثّامن الميلادي، بفتوحاتهم الّتي طالت حتّى بلاد الغال (فرنسا)، فاعتبروها عقابا من الله ناجم عن مآثم ملوك القوط الأخلاقيّة. (ماستنك، 2009، الصفحات 149- 154).

وهنا برزت طائفة من المتعصّبين المسيحيّين الأسبان جاهرت بعدائها للإسلام والمسلمين من خلال القيّام بشتم نبيّ الإسلام محمّد عليه الصّلاة والسّلام علانيّة فتمّت إدانتهم ثمّ إعدامهم الواحد تلوى الآخر، وسمّي هؤلاء بشهداء قرطبة وعلى رأس هؤلاء القدّيس أولوج 859 -810) Euloge م) وتلميذه ألفارو Alvaro، فالقدّيس أولوج انتقد الإسلام انتقادا لاذعا مشبّها إيّاه بعقيدة الأبالسة واصفا نبيّه الأكرم صلّ الله عليه وسلّم بأوصاف بذيئة بأنّه هرطوقيّا ونبيّا مزيّفا وشهوانيّا مفسدا جشعا، استقى أفكاره من الكتب المسيحيّة المقدّسة مشوّها أسسها بوحيه المزعوم، وقد سار ألفارو على نهج أستاذه في الطّعن في الإسلام والمسلمين، وقد شكّلت هذه الأحداث (شهداء قرطبة) مرحلة هامّة في تكوين ذهنيّة عسكريّة مناهضة للإسلام والمسلمين في الأوساط المسيحيّة بالغرب الأوربي وزيادة حدّة تطرّفها وعدائها المقيت للإسلام لاسيما وسط سلك الكهنوت، كما ساعدت دون أيّ شكّ على تكوين مفهوم شهادة شبه بشهادة المسلمين. (فلوري، 2004، الصفحات 112- 113).

وقد تعاظمت حدّة التّطرّف والعداء والبغض للإسلام والمسلمين في غرب أوربا خلال الفترة الممتدّة ما بين القرنين التّاسع والحادي عشر الميلاديّين مع تزايد فتوحات المسلمين وتوسّعاتهم في حوض البحر الأبيض المتوسّط، وسيطرتهم على أهمّ جزره كسردينيا، صقلّية وجنوب إيطاليا خلال القرن التّاسع الميلادي بل وصل تهديدهم إلى روما عاصمة البابويّة الّتي تعدّ أعلى هيئة دينيّة على رأس المسيحيّة الكاثوليكيّة في غرب أوربا. (غروسيه، 2014، الصفحات 29- 30)، حيث عثر على العديد من الكتابات اللاّتينيّة الّتي تظهر ذلك العداء منها على سبيل المثال ما كتبه رادبيرت دو كوربي Radbert de Corbie الّذي يصف المسلمين بأنّهم عنيفون يحبّون الحرب أي سفك الدّماء، وقد أخضعوا بقوّة السّلاح جميع ممالك الأرض طبقا لتوجيهات نبيّهم المزيّف ويقصد به سيّدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام، الّذي رسّخ في أذهانهم رغبة السّيطرة، وإلى جانبه نجد أيضا أنستاز المكتبي (توفي عام 879م) الّذي ترجم أعمال ثيوفان البيزنطي وضمّنها أفكاره عن الإسلام، حيث وصف الرّسول صلّ الله عليه وسلّم بالعنف والشّهوانيّة. (فلوري، 2004، صفحة 115).

كما استخدم الغرب الأوربي المسيحي عبارات عنصريّة لتمييز العرب والمسلمين منها مصطلح السارسانيّين أو السّراسنة وهذا بنسبهم إلى سارة زوجة سيّدنا إبراهيم عليه السّلام، كما استعملوا مصطلح الهاجريّن للدّلالة على العرب والمسلمين ونسبهم إلى هاجر وهي الجاريّة المصريّة الّتي تزوّجها سيّدنا إبراهيم عليه السّلام وأنجبت له سيّدنا إسماعيل عليه السّلام، كما أطلقوا عليهم لقب الإسماعليّين نسبة إلى سيّدنا إسماعيل بن سيّدنا إبراهيم عليهما السّلام الّذي يعود إليه نسب سيّدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام ونسب العرب المستعربة (العدنانيّة). (ماستنك، 2009، الصفحات 148-149).

ومع تزايد قوّة البابويّة وتعاظم نفوذها وهيمنتها على شعوب غرب أوربا وبلوغ عدائها للإسلام والمسلمين مرحلة الذّروة خاصّة مع ما يتعرّض له الحجّاج المسيحيّين من مضايقات على يد المسلمين أثناء رحلتهم نحو الأراضي المقدّسة بفلسطين، لم تجد البابويّة من سبيل للتّعبير عن ذلك العداء سوى الإعلان عن الحروب الصّليبيّة على الشّرق الإسلامي وتزعّمها لهذه الحركة بحجّة حماية الحجّاج المسيحيّين وتخليص الأراضي المقدّسة والقبر المقدّس من سيطرة المسلمين وكان ذلك مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي. (غروسيه، 2014، صفحة 32؛ العجمى، 2018، الصفحات 29- 30).

ثانيا- الحملة الصّليبيّة الأولى واستقرار الصّليبيّين في بلاد الشّام:

شكّلت الحركة الصّليبيّة أبشع صورة جسّدت حقد وعداء شعوب غرب أوربا المسيحيّة على الإسلام والمسلمين من خلال ما اقترفته جيوش الصّليبيّين من مجازر رهيبة في حقّ المسلمين ببلاد الشّام، ومن سلب ونهب وتخريب للممتلكات والثّروات وفي هذا المقام يقول ريمون الأجويلري Raymond d'Aguiliers عمّا فعله الصّليبيّون في مدينة بيت المقدس: (ما أن استولى رجالنا على الأسوار والأبراج ... فبعضهم أطاحوا برؤوس أعدائهم، بينما رشقهم البعض الآخر بالسّهام ... على حين عذّبهم البعض فترة طويلة بأن قذفوهم في النّار أحياء، وكانت أكوام الرّؤوس والأيدي والأرجل تسترعى النّظر في شوارع المدينة). (الجندى، 2006، صفحة 257.)، وفي هذا الشّأن دائما يذكر فوشيه الشارتري Fulcher de Chartres: (... وتمّ ذبح حوالي عشرة ألاف في المعبد – يقصد معبد سليمان-. ولو أنّك كنت موجودا هناك لغاصت قدماك حتّى العقبين في دماء المذبوحين. ترى ماذا أقول؟ إنّنا لم نترك أحدا منهم على قيد الحياة ولم ينجُ حتّى النّساء والأطفال.) (الشّارتري، 2001، صفحة 137.).

ولم يسلم حتّى الأموات من بطش وتنكيل الصّليبيّين بجثث المسلمين، وفي هذا الصّدد يذكر فوشيه الشارتري دائما: (كم سيكون المنظر مدهشا لو أنّك رأيت فرساننا ومشاتنا بعد أن اكتشفوا خداع المسلمين، فشقّوا بطون الّذين ذبحوهم لكي يستخرجوا من المعدة والأمعاء العملات الذّهبيّة الّتي كان المسلمون قد ابتلعوها وهم أحياء، ولنفس السّبب قام رجالنا بعد أيّام قليلة بجمع كومة من الجثث

وأحرقوها حتّى صارت رمادا بحيث يمكنهم أن يجدوا الذّهب الّذي ذكرنا خبره بسهولة.). (الشّارتري، 2001، صفحة 137.).

انطلقت أولى الحملات الصّليبيّة بعد تلك الخطبة الحماسيّة الّتي ألقاها البابا أوربان الثّاني Urban II (1088- 1099م) في ختام مجمع كليرمون المنعقد بجنوب فرنسا فيما بين 18 إلى 27 نوفمبر من عام 1095م، أمام تلك الجموع الغفيرة الّتي احتشدت في ذلك الحقل الفسيح خارج مدينة كليرمون بين تلال أوفريني Auvergne من رجال دين وأمراء ونبلاء وفرسان من مختلف أنحاء غرب أوربا، ودعوته لهم للخروج في حملة عسكريّة إلى الأراضي المقدّسة من أجل استعادتها من سيطرة المسلمين. (حسين، 2000، الصفحات 7- 8؛ سميث، 2009، صفحة 11.).

لقيت خطبة البابا أوربان الثّاني استجابة هائلة على الفور من الحاضرين، فصاحوا جميعا صيحة واحدة مدوّية هزّت أرجاء الفضاء قائلين Deus Vult أي الرّب يريدها، (العجمى، 2018، صفحة 37، 39.)، وعلى مدى ثمانيّة شهور بعد خطاب كليرمون أخذ البابا أوربان الثّاني يتنقّل بين أنحاء الغرب والجنوب الفرنسيّين للدّعاية للحملة الصّليبيّة وجمع أكبر عدد ممكن من الفرسان، وقد حدِّد موعد انطلاقها في الخامس عشر من شهر أوت من عام 1096م، أي بعد مضي فصل الشّتاء وجمع المحاصيل، على أن يكون اللّقاء بمدينة قسطنطين (القسطنطينيّة) على ضفاف البوسفور. (قاسم، 1978، صفحة 93.)، وقد بلغ عدد جنود تلك الجيوش المشاركة في هذه الحملة (الحملة الصّليبيّة الأولى) أكثر من 700ألف مقاتل وصلوا تباعا إلى الأراضي البيزنطيّة وتجمّعوا في القسطنطينيّة ومنها عبروا مضيق البوسفور إلى آسيا الصّغرى (تركيا حاليّا)، وفي السّادس من شهر ماي سنة 1097م/ 489هـ وصلت هذه الجيوش إلى مدينة نيقة عاصمة الدّولة السّلجوقيّة فتمّ حصارها حتّى استسلمت حاميتها من الأتراك في التّاسع عشر جوان من سنة 1097م (كومنينا، 2004، الصفحات 415- 422؛ قاسم، 1978، صفحة 101؛ صبرة، 2012، الصفحات 412- 413.)، بعد مفاوضات سريّة دارت بينهم وبين الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس كومنين Alexius Comnenus (1081- 1118م) وبذلك عادت نيقية إلى أحضان الإمبراطوريّة البيزنطيّة في السّادس والعشرين جوان من سنة 1097م بعدة ستّة عشر عاما من الحكم السّلجوقي لها. (ابن القلانسيّ، 1908، صفحة 135؛ عاشور، 1987، الصفحات 155- 157؛ وهبه، 1997، الصفحات 23- 25؛ غروسيه، 2014، صفحة 39؛ صبرة، 2012، صفحة 414.).

بعد سقوط نيقية واصل الصّليبيّون زحفهم فاستولوا على الرّها التي كانت تشغل مساحة من الأرض على جانبي نهر الفرات شمال العراق فأسّسوا (الصّليبيّون) بها أوّل إمارة صليبيّة بالشّرق الإسلامي، ثمّ واصل الصّليبيّون الزّحف نحو أنطاكية ببلاد الشام الواقعة على منحدر يؤدّي إلى وادي نهر العاصي على السّاحل الشّرقي للبحر الأبيض المتوسّط ففرضوا عليها حصارا أمتدّ لتسعة شهور ابتداء من الحادي والعشرين أكتوبر من سنة 1097م/ 489هـ وتمكّنوا من دخولها بعد خيانة أحد الأرمن المشتركين في الدّفاع

عنها، ليؤسّسوا بها ثاني إمارة صليبيّة بالشّرق الإسلامي (ابن القلانسيّ، 1908، الصفحات 134- 135؛ ابن خلدون، 2000، صفحة 86؛ قاسم، 1978، الصفحات 103- 104؛ غروسيه، 2014، صفحة 42؛ صبرة، 2012، الصفحات 414- 418.) وكان ذلك في شهر جوان من سنة 1098م/ 490هـ واستمرّ وجودهم بها حتّى عام 1268م/ 666هـ حين تحرّرت على يد الظّاهر بيبرس. (وهبه، 1997، الصفحات 25- 26؛ غروسيه، 2014، صفحة 42؛ صبرة، 2012، صفحة 418.).

بعد أنطاكية واصل الصّليبيّون الزحف نحو القدس حيث وصلوها في السّابع من شهر جوان من سنة 1099م/ 491هـ فحاصروها لمدّة خمسة أسابيع ثمّ اقتحموها بعد عجز الفاطميّين في الدّفاع عنها، فدخلوها يوم الجمعة الخامس عشر جويلية من سنة 1099م الموافق لأثنين وعشرين شعبان 491هـ فعاثوا فيها فسدا من سلب ونهب وقتل حتّى بلغ عدد من قتلوهم من المسلمين نحو سبعين ألفا حسب ما ذكره ابن خلدون (ابن خلدون، 2000، صفحة 86؛ قاسم، 1978، الصفحات 105- 106؛ وهبه، 1997، صفحة 26؛ نعيرات، 2002، الصفحات 79- 82.)، وعندما خمدت شهوة القتل لدى الصّليبيّن كانت أولى المهمّات الّتي واجهتهم هي مواراة الجثث الّتي فاحت روائحها النّتنة في كلّ أنحاء المدينة، ثمّ اجتمع زعماؤهم لاختيار حاكم منهم لبيت المقدس فاختير لهذا الأمر جودفري دو بواينGodfrey de Bouillon لكنّه لم يلبث طويلا إذ توفي بعد ذلك بحوالي سنة (08 جويلية سنة 1100م) فخلفه أخاه بلدوين الأوّل Baldwin I كملك على مملكة بيت المقدس الصّليبيّة الّتي ضمّت إليها إلى جانب مدينة بيت المقدس كلاّ من يافا والخليل وبيت لحم واللّد والرّملة. (قاسم، 1978، الصفحات 106- 108؛ وهبه، 1997، صفحة 27.)

وبعد سيطرتهم على بيت المقدس واصل الصّليبيّون توسّعاتهم في بلاد الشّام فضمّوا إليهم عكّة سنة 1104م/ 497هـ (الشّارتري، 2001، صفحة 192.)، ثمّ استولوا على طرابلس سنة 1109م / 502هـ بعد حصار طويل دام لسبع سنوات لتصبح ثالث إمارة صليبيّة في الشّرق الإسلامي بعد النّجاح الّذي تحقّق للصّليبيّين في حملتهم الأولى على المشرق الإسلامي، وبهذا بسط الصّليبيّون نفوذهم على كلّ السّاحل الشّرقي لحوض المتوسّط باستثناء مدينتي صور وعسقلان اللّتين بقيّتا خارج الهيمنة الصّليبيّة. (الشّارتري، 2001، الصفحات 210- 212؛ غروسيه، 2014، صفحة 48، 50؛ قاسم، 1978؛ وهبه، 1997، صفحة 29.).

إنّ نجاح الحملة الصّليبيّة الأولى قد مكّن الصّليبيّين من تأسيس أربعة كيانات سيّاسيّة بالمشرق الإسلامي (مملكة بيت المقدس، إمارة الرّها، إمارة أنطاكية، إمارة طرابلس)، وبالتّالي الاستقرار والاستيطان بالمنطقة ومنه العيش جنبا إلى جنب مع المسلمين لمدّة قاربت القرنين من الزّمن (1096- 1291م) بعد أن كانوا يتوجّسون منهم خيفة ويعدّونهم من ألدّ أعدائهم.

ثالثا- تأثّر الصّليبيّين بالمسلمين وتغيّر وجهة نظرهم تجاههم بعد استقرارهم في بلاد الشّام:

دام استقرار الصّليبيّين بالشّرق العربي الإسلامي ما يقارب القرنين من الزّمن (حوالي مائة وثلاث وتسعين سنة (1098- 1291م))، اختلطوا خلالها بالمسلمين وتبادلوا الحرب حينا والسّلم حينا آخر، وقد أدّى هذا الاختلاط الّذي لم يكن هناك بدًّا عنه بين الجانبين زمن السّلام إلى تبدّل ظاهري في شعور كلاًّ منهما نحو الآخر، بتهذيب أخلاق أولئك الغزاة الجفاة الّذين تمّ شحنهم بغضا وحقدا على المسلمين من قبل البابويّة من خلال ما تضمّنه خطاب البابا أوربان الثّاني الّذي ألقاه أمام الحاضرين في مجمع كليرمون، حين حثّ رجال الدّين على تحريض النّاس من شتّى الطّبقات ومن الفرسان ومن الجنود المشاة، ومن الفقراء والأغنياء بأن يسارعوا لاستئصال شأفة هذا الجنس الشّرير – ويقصد المسلمين- الّذين نعتهم بالكفر والهمجيّة وأنّهم جنس وثني شرّير ممقوت لدى الله، وهو ما دفع الصّليبيّين لارتكاب مجازر شنيعة في بداية غزوهم للمسلمين ببلاد الشّام ممّا شكّل وصمة عار في جبين نصارى الحملة الصّليبيّة الأولى.

وهنا يمكننا أن نتساءل عن الأسباب الّتي جعلت الصّليبيّين يخفون تلك الهمجيّة ويغيّرون وجهة نظرهم تجاه المسلمين بعد هذه الحملة، ويسعون جاهدين في سبيل التّفاهم مع السّكان المحلّيين من المسلمين والتعرّف عليهم والتّقرّب منهم، وما مدى تأثّر الصّليبيّين بالمسلمين طيلة وجودهم إلى جانبهم خلال هذه المدّة الّتي قاربت القرنين من الزّمن؟.

يمكن حصر الأسباب الّتي دفعت بالصّليبيّين إلى تغيير وجهة نظرهم تجاه المسلمين في عدّة نقاط أهمّها:

- الخلفيّة الّتي جاء بها الصّليبيّون من غرب أوربا إلى الشّرق ليقاتلوا المسلمين وتتجلّى في الانتقام من المسلمين واستئصال شأفتهم بسبب الأفكار المسمومة الّتي غُرِست فيهم عن الإسلام والمسلمين من قبل باباوات روما من أمثال البابا جريجوري السّابع والبابا أوربان الثّاني لتحقيق مآرب خاصّة بالبابويّة، وهذا ما اتّضح فيما بعد ممّا دفع بالعديد من الصّليبيّين الذين شاركوا في الحملة الصّليبيّة الأولى إلى الرّحيل عن المشرق الإسلامي والعودة إلى المواطن التّي جاؤوا منها في غرب أوربا.

- قوّة المسلمين وشجاعتهم دفعت الصّليبيّين إلى تغيير وجهة نظرهم نحو المسلمين، حيث كان الصّليبيّون ينظرون إليهم نظرة ازدراء واحتقار ويعتقدون أنّهم جبناء لا يجرؤون أبدا على القتال عن قرب، لكن ساحات الوغى أثبتت لهم عكس هذا التّصوّر وهو ما عبّر عنه بعض من شاركوا في هذه الحملة وكتبوا عنها من أمثال الفارس المجهول (المؤرّخ المجهول) صاحب كتاب أعمال الفرنج، وفوشيه الشّارتري الّذين أشاروا صراحة إلى شجاعة المسلمين ومهاراتهم القتاليّة. (الجندى، 2006، الصفحات 260- 261).

- اعتقاد الصّليبيّين يوم قصدهم لفلسطين أنّهم أرفع مكانة ومنزلة من أهلها وظنّهم أنّ المسلمين وثنيّين يعبدون محمّدا (صلّ الله عليه وسلّم) وصنمه، غير أنّ هذه الدّعاوى والأباطيل تبدّدت بعد وصولهم إلى الشّرق (بلاد الشّام) حيث وجدوا أنفسهم أمام شعب يعبد أفراده ربّ العالمين لا محمّدا (عليه الصّلاة والسلام) وصنمه كما يزعمون، وتعرّفوا إلى أناس أرقى منهم حضارة فيهم ما فيهم من مكارم الأخلاق، يحترمون المرأة ويشفقون من إيذاء الشّيخ والطّفل.

- عودة وهجرة عدد كبير من الصّليبيّين الّذين شاركوا في الحملة الصّليبيّة الأولى إلى أوطانهم في غرب أوربا وهو ما شكّل تحدّيّا كبيرا أمام قادة الحملة الصّليبيّة، إذ لم يبق إلاّ القليل منهم استوطنوا المناطق الّتي احتلّوها (الإمارات الصّليبيّة: الرّها، أنطاكية، مملكة بيت المقدس، طرابلس)، وبالتّالي كانوا أقلّ بكثير من عدد المسلمين ممّا دفعهم للتّقرّب منهم (المسلمون) للحفاظ على مكاسبهم هناك وكسب ودّهم وتجنّب ثوراتهم ضدّهم من جهة حتّى لا يقضى على وجودهم هناك هذا من جهة، من جهة أخرى أراد الصّليبيّون أمام نقص أعدادهم استغلالهم (المسلمون) لخدمة مصالحهم بالمنطقة والاستفادة منهم في ميدان البناء كإعادة ترميم الحصون التّي استولى عليها الصّليبيون، وفي تنشيط الحياة الاقتصاديّة كالتّجارة، وفي ميدان الزراعة وخدمة الأرض لجهل الصّليبيّين طبيعة هذا الوسط الجديد الّذي حلّوا به ولم يألفوه بعد وكي لا يعيشوا في عزلة فيه. (البطاوى، 2019، صفحة 160.).

وقد أدّى اختلاط الصّليبيّين بالمسلمين في بلاد الشّام في ذلك الوقت إلى تأثّر الصّليبيّين بالمسلمين في بعض الأمور وليس العكس، لأنّ هؤلاء الوافدين من غرب أوربا كانوا في مستوى حضاري أقلّ بكثير ممّا كان عليه المسلمون في بلاد الشّام، الأمر الّذي جعل الصّليبيّين هم من يحاولون التّشبّه بالمسلمين ومحاكاتهم والتّأثّر بأوضاعهم إن لم نقل انصهارهم وانغماسهم في صفات وعادات المجتمع الإسلامي. (الجندى، 2006، صفحة 264.)، وهو ما نستشفّه ممّا رواه أسامة بن منقذ الّذي كان شاهد عيان حول ضعف المستوى الحضاري والاجتماعي للصّليبيّين وتحسّنه بمعاشرتهم للمسلمين بقوله: (من الإفرنج قوم قد تبلّدوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم ولكنهم شاذّ لا يقاس عليهم.) (ابن منقذ، دون تاريخ، صفحة 140.)، ويقصد ابن منقذ هنا بكلمة تبلّدوا أنّهم تعوّدوا على نمط الحياة الإسلاميّة في بلاد الشّام.

ومن العوامل الّتي ساهمت في تأثّر الصّليبيّين بالمؤثّرات الشّرقيّة نجد ظاهرة الزّواج المختلط بارتباط بعض الصّليبيّين بنساء شرقيّات من أصول سوريّة وأرمينيّة وبيزنطية والعكس زواج بعض السّوريّين بالإفرنجيّات، فنتج عن ذلك الزّواج جيلاً جديداً لُقِّبَ باسم البولان Poulains، وقد ظلّت بعض العائلات ذات الأصول الإفرنجيّة حتّى بعد طرد الصّليبيّن واندمجت بأهل البلاد (الشّام) اندماجا كلّيا وفقدوا معه كلّ طابع لاتيني، ولازالت بعض الأسر منها إلى اليوم تعيش في البلاد العربيّة كلبنان مثلاً. (الجندى، 2006، صفحة 265.).

ومن مظاهر التّأثير العربي الإسلامي في الصّليبيّين اعتمادهم الطّراز المعماري العربي في بناء بيوتهم وقصورهم ممّا يتلاءم مع الظّروف البيئيّة والجغرافيّة في الأرض المحتلّة، فسكنوا بنايات ذات أفنيّة فسيحة تحيط بها الغرف والقاعات وتتوسّطها النّوافير لتلطيف الجوّ وإضفاء نوع من الرّاحة لدى ساكنته، بالإضافة إلى زخرفة جدرانها وسقوفها (البنايات) بالرّخام والفسيفساء ونقش الآيات القرآنيّة عليها. (الجندى، 2006، صفحة 266).

وقد تأثّر الصّليبيّون أيضا في غذائهم بالمطبخ الشّامي وبأنواع الأطعمة الشّرقيّة بل أنّ البعض من الصّليبيّين الّذين تأقلموا في بلاد الشّام قد تركوا الأطعمة الغربيّة وأصبحت الأطعمة الشّاميّة هي سيّدة موائدهم، وهو ما ذكره أسامة بن منقذ بقوله: (فمن ذلك أنّني نفذت صاحبا إلى أنطاكية في شغل. وكان بها الرئيس تادرس بن الصّفى وبينه وبيني صداقة، وهو نافذ الحكم في أنطاكية فقال لصاحبه يوما «قد دعاني صديق لي من الفرنج، لو تجئ معي حتّى ترى زيّهم»، قال: «فمضيت معه، فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتقاء، الّذين خرجوا في أوّل خروج الفرنج ... فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النّظافة والجودة. ورآني متوقّفا عن الأكل فقال: كُلْ طيب النّفس فأنا لا آكل من طعام الفرنج، ولي طبّاخات مصريّات، ما أكل إلاّ من طبيخهن، ولا يدخل داري لحم خنزير فأكلنا وانصرفنا.») (ابن منقذ، دون تاريخ، صفحة 140.)

ولم يقتصر التّأثير العربي الإسلامي بالنّسبة للصّليبيّين على المأكل والمشرب بل تعدّى ذلك إلى الملبس، فالصّليبيّون قلّدوا المسلمين في ملبسهم، فقد أقلع بعضهم عن الملابس الأوربيّة وتعلّقوا بالملابس والأزياء الشّرقيّة الّتي كانت أدعى إلى الرّاحة، فارتدوا الملابس الطّويلة المطرّزة والمحلاة بالجواهر واستعملوا الكوفيّة الشّاميّة حول القبّعة، ولم يقتصر هذا التّأثير على الرّجال فقط بل تعدّاه إلى السّيّدات الصّليبيّات اللّواتي تأثّرن بالنّساء الشّرقيّات (الشّاميات)في اللّباس وأدوات الزّينة فارتدين الملابس المجرجرة الأذيال والمؤلّفة من قميصين مرسلين إلى القدمين مثل النّساء المسلمات، كما تزيّن بالمجوهرات الدّمشقيّة والقاهريّة واستعملن المساحيق وأدوات التّطريّة كي تضفي على وجوههن بهجة ورونقا، كما فرض بعض الصّليبيّين على نسائهم وبناتهم أن يضربن الخمار على وجوههن كما هو مألوف عند المسلمين ويأبون خروجهنّ إلى الأسواق سافرات ولا يسمح لهم بالخروج إلاّ للضّرورة القصوى. (الجندى، 2006، الصفحات 268- 269).

ومن الأشياء الّتي راقت للصّليبيّين في البيئة الشّاميّة هي ارتيادهم للحمّامات الأمر الّذي لم يكن مسموحا به في الغرب، حيث أقبلوا عليها (الحمّامات) أيّما إقبال وقصدوها في أوقات فراغهم ليقضوا فيها السّاعات الطّوال طلبا للنّظافة والرّاحة والاستجمام. (الجندى، 2006، الصفحات 271- 272).

وقد امتدّ التّأثير العربي الإسلامي في الصّليبيّين إلى أبعد ممّا ذكرنا حيث وصل إلى مقوّماتهم وعناصر هويّتهم كاللّغة والدّين، فالكثيرون منهم نسوا لغتهم الأصليّة وبلدانهم الأولى وتحوّلوا إلى شرقيّين في عاداتهم

وتقاليدهم ونمط حياتهم، كما نجد الكثير من الفرسان الصّليبيّين قد سلكوا مسلكا سمحا مع العقيدة الإسلاميّة، وقد ضرب لنا أسامة بن منقذ مثلاً حول هذا السّلوك الجديد من خلال حادثة وقعت له مع رجل من الفرنج حاول منعه من أداء الصّلاة في المسجد الأقصى، فمنعه فرسان الدّاويّة عن ذلك وأخرجوا الرّجل واعتذروا لأسامة ابن منقذ عن هذه الحادثة. (ابن منقذ، دون تاريخ، الصفحات 134- 135؛ الجندى، 2006، صفحة 276.)، بل هناك الكثير من الصّليبيّين ممّن اعتنقوا الإسلام وتخلّوا عن مسيحيّتهم متأثّرين في ذلك بأخلاق المسلمين ودينهم السّمح كما هو الحال مع القائد صلاح الدّين الأيّوبي الّذي أحدثت بطولاته وأخلاقه وحسن سيرته تأثيرا سحريّا خاصّا في نفوس نفرٍ من الفرسان الصّليبيّين فهجروا دينهم وقومهم وانضمّوا إلى المسلمين. (الجندى، 2006، صفحة 277.).

خاتمة:

من خلال ما سبق يتّضح لنا ما يلي:

- أنّ سبب عداء شعوب الغرب المسيحي للإسلام والمسلمين ليس بسبب بغضهم له كعقيدة مخالفة للعقيدة المسيحيّة وإنّما جهلهم بتعاليمه ومبادئه وتقديم صورة خاطئة عنه لهذه الشّعوب.

- أنّ البابوية هي من سمّم عقول شعوب الغرب المسيحي وتحريضم ضدّ الإسلام والمسلمين لغايات مادّيّة ومعنويّة وهو ما دفع بهذه الشّعوب إلى خوض غمار الحروب ضد المسلمين إلى يومنا هذا.

- أنّ بعض شعوب الغرب المسيحي ممّن شاركوا في الحروب الصّليبيّة خاصة الحملة الأولى، هؤلاء قد أدركوا واقع الإسلام وحقيقة المسلمين بعد استقرارهم بينهم في بلاد الشّام (المشرق الإسلامي)، وهو ما أدّى إلى التّقارب بين الجانبين والتّعايش معا في أرض واحدة، والتّأثر بنمط حياة المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم وحتّى البعض منهم اعتنق الإسلام وهذا ما حصل أيضا من قبل في الأندلس.

توصيّات:

ما يمكن أن يوصى به من خلال هذا الملتقى هو:

- أن يستمرّ العمل في عقد مثل هذه الملتقيات الهادفة لتنوير العقول وإعطاء الصّورة الحقيقيّة للإسلام وتوضيحها لغير المسلمين.

- أن يكون للإعلام في دول العالم الإسلامي الدّور البارز في نشر الوعي وإعطاء صورة حسنة للإسلام والمسلمين بعكس ما يتم تداوله في الإعلام الغربي اليوم الّذي يسعى إلى هدم هذا الدّين من خلال تشويه صورته وصورة أتباعه.

- أن يكون المسلم سفيرا للإسلام يمثّله خير تمثيل خلقا وقولا وعملا خاصّة أبناء الجاليّة المسلمة في الدّول غير الإسلاميّة، فبغض الغرب المسيحي للإسلام والمسلمين اليوم سببه الرّئيسي هو جهل شعوبه لمبادئ وتعاليم هذا الدّين من جهة، ومن جهة أخرى أنّ أبناء الجاليّة المسلمة في أوساطهم (وسط شعوب الغرب) لم يمثّلوا الإسلام أحسن تمثيل بل أساؤوا إليه وشوّهوا صورته إمّا بمغالاتهم فيه وتعصّبهم وتشدّدهم أو لانتمائهم ظاهريّا لا باطنيّا.

قائمة المصادر والمراجع:

- أسامة أحمد عبد الرّحمن نعيرات. *إقطاعيّة بيسان ودورها في الصّراع الإسلامي الفرنجي من سنة 492- 690هـ/ 1099- 1291م*. (2002). عكّا- فلسطين: مؤسّسة الأسوار.
- أنّا كومنينا. *ألكسياد*. (2004). (الإصدار الأولى). (حسن حبشي، المترجمون) القاهرة: المجلس الأعلى للثّقافة.
- توماش ماستنك. *السّلام الصّليبي*. (2009). (الإصدار 2). (بشير السّباعي، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للتّرجمة.
- جان فلوري. *الحرب المقدسة*. (2004). (غسّان مايسو، المترجمون) دمشق: دار المدى للثّقافة والنّشر.
- جمعه محمّد مصطفى الجندى. *الاستيطان الصّليبي في فلسطين*. (2006). القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة.
- جوناثان رايلي سميث. *تاريخ الحروب الصّليبيّة*. (2009). (الإصدار 1، المجلد 1). (قاسم عبده قاسم، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للتّرجمة.
- حسن أحمد عبد الجليل البطاوى. *المجتمع الصّليبي في بلاد الشّام (1097- 1187م) التّباين الاجتماعي والخلافات المذهبيّة*. (2019). (الإصدار الأولى). دمشق: نور حوران للدّراسات والنّشر والتّراث.
- حسن عبد الوهاب حسين. *دراسات في تاريخ الحضارة الأوربيّة في العصور الوسطى (المجتمع الصّليبي في بلاد الشّام)*. (2000). دار المعرفة الجامعيّة- مصر.
- رنيه غروسيه. موجز *تاريخ الحروب الصّليبيّة في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسّط*. (2014). (الإصدار 1). (أحمد إيبش، المترجمون) أبوظبي: هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة.
- سعيد عبد الفتّاح عاشور. *الحركة الصّليبيّة صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى*. (1987). (الإصدار الثّالثة). القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة.
- عبد الرّحمن ابن خلدون. *العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر*. (2000). (خليل شحادة، سهيل زكّار، المحرر) بيروت- لبنان: دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

- عفاف سيّد صبرة. *تاريخ الدّولة البيزنطيّة*. (2012). (الإصدار الأولى). عمّان: دار المسيرة للنّشر والتّوزيع.
- فوشيه الشّارتري. *الإستيطان الصّليبي في فلسطين، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس 1095- 1127م*. (2001). (قاسم عبده قاسم، المترجمون). القاهرة: دار الشّروق.
- قاسم عبده قاسم. *ماهية الحروب الصّليبيّة*. (1978). القاهرة: عالم المعرفة.
- أبو مظفّر أسامة بن مرشد الكناني الشيرزي ابن منقذ. *كتاب الإعتبار*. (دون تاريخ). (فليب حتّي، د. ف.، المحرر) القاهرة: مكتبة الثقافة الدّينيّة.
- مصطفى وهبه. موجز *تاريخ الحروب الصّليبيّة*. (1997). (الإصدار الأولى). القاهرة: مكتبة الإيمان للنّشر والتّوزيع.
- نها عوض العجمى. *الحملات الصّليبيّة على مصر وبلاد الشّام (494- 690هـ/ 1095- 1291م) التّمويل والإمداد*. (2018). القاهرة: عين للدّراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة.
- أبو يعلى حمزة ابن القلانسيّ. *ذيل تاريخ دمشق*. (1908). بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيّين.

الصِّدَام المسيحي الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط وخطر فرسان الأسبتارية في القرن 16م

The Christian-Muslim Confrontation in the Mediterranean and the Danger of the Knights Hospitaller in the 16th Century

د. فيصل مبرك، المركز الجامعي سي الحواس- بريكة- الجزائر
fayssal.mabrak@cu-barika.dz

ملخص البحث

تعنى هذه الورقة البحثية بمشهد من مشاهد الصراع والصدام والحرب في البحر الأبيض المتوسط في القرن السادس عشر بين القوة الإسلامية (الدولة العثمانية وما تبعها من إيالات)، مع القوة الكاثوليكية التي مثلتها كل من إسبانيا، فرنسا والدويلات الإيطالية، وفرسان مالطا، والهدف من هذه الدراسة هو تسليط الضوء على البحر الأبيض المتوسط كمجال جيواستراتيجي في حقبة تاريخية محددة تجلت فيه كل معاني العنصرية والحقد والتعصب الديني، ما أسس لرسم صورة الإسلام في أوروبا وكذا صورة المسيحية عند المسلمين، ولعل أهم نتائج هذه الدراسة هو أن البحر الأبيض المتوسط مجال التصادم بين الحضارتين في العصر الحديث كان محل تنافس، والفوز به يعني تغلب إحدى القوتين على الأخرى، ولعل هذا ما وقع بالفعل بعد معركة ليبانتو الثانية 1571حيث انتصرت المسيحية، وعزز ذلك الانتصار بانتصارات أخرى مهدت لحركة استعمارية طالت معظم العالم الإسلامي.

الكلمات مفتاحية: الإسلام، المسيحية، مالطا، فرسان الاسبتارية، فرسان القديس يوحنا.

Abstract :

This research paper deals with a scene from the scenes of conflict, clash and war in the Mediterranean in the sixteenth century between the Islamic power represented in the Ottoman Empire and the subsequent provinces, especially Algeria, with the Catholic Christian power represented by the Spanish crown in addition to France and the Italian states, as well as the Knights of Malta, and the aim of this study is to shed light on the Mediterranean Sea as a geostrategic field in a specific historical era in which all the meanings of racism, hatred and religious fanaticism were manifested, which laid the foundations for drawing the image of Islam in Europe as well as the image of Christianity among Muslims, and perhaps the most important results of this study is that the Mediterranean Sea The Mediterranean is the area of collision between Islam and Christianity, and winning the Mediterranean means one of the two powers defeating the other. Perhaps this is what actually happened after the Second Battle of Lepanto 1571, where Christianity won, and that victory was reinforced by other victories that paved the way for a colonial movement that affected most of the Islamic world.

Keywords: Islam, Christianity, Malta, Knights Hospitaller, Knights of St John.



مقدمة :

لا يمكن فتح أي ملف له علاقة بتاريخ البحر الأبيض المتوسط؛ إلا وكان المؤرخ الفرنسي فرناند بروديل «Fernand Braudel» حاضرا فيه وبقوة، وعلى الرغم من أن هذا الرجل يحضى بالاحترام والمكانة العلمية؛ إلا أنه يبقى عرضة للنقد في بعض ما بنى عليه أفكاره، لا سيما تلك التي تمس قضية الانتماء الحضاري للبحر الأبيض المتوسط من حيث جدلية الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، ففرناند بروديل يعتبر البحر الأبيض المتوسط بحيرة غربية، لا يمثل فيها الإسلام إلا دور المتطفل، فهو بهذا يساير ما طرحه Henri Pirenne؛ بخصوص الموطن الحقيقي للإسلام، الذي لا يمكن أن يتجاوز الصحراء، وأن الإسلام يجب أن ينحصر مجاله تاريخيا وحضاريا بين مربع مكة؛ القاهرة، دمشق، وبغداد، ومنه فوصول الإسلام وانتشاره على سواحل البحر المتوسط، ما هو إلا تطفل تؤكده الحقائق التاريخية والقرائن الحضارية (liauzum,1999, p186).

غير أن الإسلام ومنذ سنوات الفتح الأولى تطلع إلى الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط من خلال فتحه لبلاد الشام وفلسطين ومصر وخوضه أولى الحروب البحرية "معركة ذات الصواري" (الصواري، هامش)، وتجدر الإشارة إلى أن النظرة الأوروبية هذه؛ ليست وليدة القرن العشرين بل ترجع إلى أقدم من ذلك بكثير فلا غرو أن تكون منطقة المتوسط منطقة صراع تفرض منطق القوة والغلبة، ولا سيما أن أوروبا في العصر الوسيط كانت تسمي البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأوروبي كما كان المسلمون أيضا حينها يسمونه بحر الروم أو البحر الرومي، لهذا اعتبر المتوسط ساحة قتال مقدس تقاطعت فيه المصالح الإمبراطوريات التوسعية والاقتصادية مع المصالح الكنسية.

أما المسلمون فقد رأوا في هذا البحر مجال جهاد وفتح إسلامي، فاعتبروا أن السيطرة على المتوسط يساوي السيطرة على كل عالم، وفي هذا المناخ أيضا وجد فرسان القديس يوحنا مساحة لتقديم تضحيات مقدسة مع مطالع العصر الحديث، فحاربوا بدعم أوروبا أحيانا؛ وحاربوا نيابة عنها أحيانا أخرى.

في منظور مغاير مخالف لكثير مما يطرحه المؤرخون الكلاسيكيون؛ نجد من يطرح قضايا التنافس والصراع والعنف في البحر الأبيض المتوسط يبدأ مع العصر الحديث بصورة أخرى، وهذا الطرح يتخذ معركة ليبانتو 1571 مَعَلَمَ بِدَايَةٍ له، ذلك أن تلك الأحداث الكثيفة الفوضوية "التي شهدها الحوض المتوسطي" في ظاهرها؛ أنتجت المفهوم الحديث للدولة، هذه الدولة التي تسعى لممارسة السباق والعنف خارج حدودها، فهي بذلك تنظر للمتوسط على أنه وسيلة من وسائل السياسة التجارية لضمان المصالح الإقتصادية دون أن تكتسب موقفا مهيمنا يسمح لها بالسيطرة على كل أبعاد الفضاء المتوسطي (Kaiser, 2007, p360)، وفي هذا الطرح سيجد فرسان القديس يوحنا أيضا مناخا جيوسياسيا لتحقيق مشروع قيام وطن قومي لهم

الإشكالية: وفي محاولتنا لفهم الواقع الجيوسياسي لحوض البحر الأبيض المتوسط ودور منظمة أخوية محاطة بالغموض والسرية مثل جماعة فرسان القديس يوحنا؛ لا يمكن إلا أن نطرح سؤالا يخص السياق التاريخي لنشاط هذه الجماعة لنعرف ماهي الأهداف التي تسعى إليها من خلال نشاطاتها الحربية والبحرية في القرنين 16 و17 الميلاديين؟ وماذا يعني البحر الأبيض المتوسط لأوروبا الغربية؟ وماذا يعني للدولة العثمانية أيضا؟

أولا- معارك البحر المتوسط:

أطلق على المعارك والحروب البحرية التي شهدها البحر الأبيض المتوسط في القرن 15م، 16م مصطلح القرصنة رغم أن القرصنة كظاهرة بحرية هي قديمة قدم التاريخ إلا أن هذه الفترة شهدت ازدهارا كبيرا لنشاطها في البحر المتوسط، وقد مارسها المسلمون والمسيحيون على حد سواء، في حالات الحرب أو السلم، لكنها اتخذت بعدا آخر بعد سقوط حكم المسلمين في الأندلس، واستمرت الحروب الاسبانية ضد المسلمين وانتقال الصراع سواحل شمال إفريقيا (نورويش، 2015، ص343)، وتميزت عن غيرها بالضوابط حسب ينقل عن بروديل في أطروحته، إذ يقول «...القرصنة ظاهرة قديمة في المتوسط، لكنها تختلف عنها في الأطلسي في أن الأولى لها قواعدها وأعرافها وتقاليدها، إذ كانت تعقبها مفاوضات بين الدول والمدن التي كانت تقوم بينها إلى تبادل القناصل صلات قوامها التواطؤ الذي يشترك فيه الأغنياء والدول إلى جانب الفقراء التائهين» (هلايلي و بوجلال ، 2017، ص565).

هذه الظاهرة عرفها البحر المتوسط منذ أن تمكن الانسان من صناعة السفن وممارسة الملاحة في البحر، أدى الجهاد البحري الذي تبنته البحرية الجزائرية في الفترة العثمانية إلى خلق نوع من التوازن بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، حيث نجد أن ضفته الشمالية شهدت ظهور قوميات أوروبية حديثة تغذيها النزعة التوسعية والسعي إلى السيطرة، والضفة الجنوبية بعدما كانت تحت حكم ثلاث دول متنافسة ومتناحرة فيما بينها (بنو حفص في تونس، وبنو زيان في الجزائر، وبنو مرين في المغرب الأقصى) كلها دخلت في فلك الصراع العثماني الإسباني لتظهر بذلك إيالات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب (سعيدوني، ورقات جزائرية، 2000، ص192).

تتراوح الآراء التي تفسر السبب الرئيسي للجهاد البحري بين من يفسره بالاضطهاد الذي كان موجها ضد المسلمين في الأندلس، وبين من يفسره بالسعي وراء الحصول على المداخيل والثروات التي كان يدرها هذا النشاط (شطب، 2015، ص55)، ففي أوائل القرن 16م تم وضع حد للتسامح المتبادل بين المسلمين والمسيحيين خاصة في التجارة البحرية وذلك نتيجة للاضطهاد والطرد لمسلمي الأندلس وظهور البحرية العثمانية في البحر المتوسط، فقد أسس المسلمون المنفيون من إسبانيا مستوطنات على طول سواحل شمال، ثم وجهوا غاراتهم ضد سواحل إسبانيا ومهاجمة السفن المسيحية، وبخاصة في مضيق جبل طارق والمنطقة البحرية المحيطة بجزيرة مالطا (مصطفى، 1993، ص92).

يبدو أن نقطة الاختلاف الحقيقية في الكتابات التاريخية هي المتعلقة بشرعية هذا النشاط، حيث أثارت هذه المسألة اختلافا بين المؤرخين ونالت الحظ الوافر من الاهتمام خاصة لدى الغرب، فبعد

خضوع الجزائر للحكم العثماني ومنذ تنصيب خير الدين بربروس بيلربايا عليها، عرفت نظاما إداريا وسياسيا وعسكريا وكذا اجتماعيا ساعدها لتصبح قاعدة عسكرية للإسلام والمسلمين فعرفت بدار الجهاد أو دار السلام، بينما نجد أن ما يصطلح عليه المؤرخون الغربيون بالقرصنة يقترن في كتاباتهم بالبحرية الجزائرية، ويرد ذلك بعدة أوصاف مثل: اللصوصية، السرقة، النهب...، كما وصفت الجزائر بوكر القراصنة، ومملكة القرصان وغيرها من الأوصاف، على الرغم من أن كل الدول الأوروبية كانت تمارس هذا النشاط ضد الدول المعادية، شأنها شأن الجزائر التي مارست هذا النشاط في إطاره الشرعي وفق ما ينص عليه قانون البحار (جميل، 2018، ص125).

ولم تكن القرصنة الأوروبية موجهة ضد السفن الإسلامية فقط، حيث نجد مثلا السفن الإسبانية والفرنسية عانت كثيرا من القرصنة الإنجليزية، سواء في حالات السلم أو الحرب، كما تعرض الإسبان للقرصنة الفرنسية، وفي هذه الحالات نجد أن المؤرخين الأوروبيين يحاولون تلطيف اللفظ بوصفها بأعمال اللصوصية الفردية، بينما يبدوا واضحا أن هؤلاء القراصنة مدعومين من طرف الدول الأوروبية مثل قراصنة الاسكوك وهم اللاجئون من المناطق التي فتحها العثمانيون تم منحهم أحد موانئ الساحل الأدرياتيكي من طرف ملوك الهابسبورغ من أجل استقرارهم فيه وممارسة أعمالهم (مروش، 2009، ص148).

وتجدر الإشارة إلى أن ما جاء في الكتابات التاريخية الغربية عن الجهاد البحري والنتائج المترتبة عنه والقصص التي تحاك في هذا السياق والتي تكاد تلامس الخيال في بعض الأحيان يتخللها الكثير من التضخيم والمبالغة في الوصف، فلا يجب التعاطي كثيرا مع مثل هذه الكتابات والادعاءات الواردة فيها، خاصة التي ترى في نشاط البحرية العثمانية والجزائرية بأنها عملا لصوصيا (هلايي و بوجلال ، 2017).

أما النقطة التي لا يختلف فيها المؤرخون بخصوص الأنشطة البحرية والغنائم التي تدرها بغض النظر عن مشروعيتها من عدمه، هو أنها كانت نشاطا مربحا على جميع الأصعدة، وأن الكثير من المدن الساحلية التي توجد بها موانئ كبيرة قد نالت حظا وافرا من عائدات البحر مما أدى إلى ازدهار الحياة الاقتصادية والاجتماعية بها مثال ذلك مدينة الجزائر أما إذا كانت قرصنة مضادة فإنها تصبح بمثابة حرب استنزافية ومعرقلة لمصالح الدول المعرضة لها (هلايلي، 2008، ص42).

ثانيا-أخوية فرسان القديس يوحنا الانتقال من المستشفى إلى الثكنات:

لقد ظهر رهبان الأسبتارية مع أولى الحملات البيزنطية على الشرق في شكل مقاتلين غادروا بلدانهم بقصد الاستقرار في الأراضي المقدسة، وفي فلسطين أسسوا مراكز استشفائية للحجاج بأمر من قبل غريغوري العظيم (ت604م)، وذلك في نهاية القرن السادس الميلادي، هذه المراكز التي تنوعت مهامها، لكنها احتفظت بدورها في ضيافة وخدمة الحجيج النصارى خلال الحكم الإسلامي لمنطقة فلسطين، فقد كانت موجودة تقريبًا بلا انقطاع حتى وصول الحملة الصليبية الأولى في نهاية القرن 11م، ومن أشهر تلك المستشفيات، مساكن الاستشفاء والضياف الكبرى المنسوبة للقديس يوحنا في القدس، في كل من القدس وعكا التي تأسست -على الأرجح- قبل عام 1070م، وبقيت تحت إدارة وتسيير تلاميذ القديس بنديك)

W.K. Lowther Clarke, 1931) وقد شكلوا رابطة دينية وعسكرية وقوة اقتصادية بعد الحملة الصليبية الأولى وقد ظهر دورهم البارز بقيادة زعيمهم الأول السيد جيرارد دي ريدفورت (المطوي، 1982، ص ص96، 97).

سعى السيد جيرارد حوالي عام 1080م، إلى أعلاء شأن المستشفيات بجدية من خلال الترحيب والحرص على سلامة الحجاج المسيحيين الذين جاءوا لزيارة الأرض المقدسة في وقعت كانت القدس تحت سيطرة المسلمين، ومع الحملة حملت الحملة الصليبية الأولى وفي حدود سنة 1099م دخلت المدينة تحت الحكم المسيحي، مما زاد ذلك من انعدام الأمن في المنطقة، فسعى الإخوة المضيافون، وعلى رأسهم جيرارد بمحاولات فرض الأمن والدعوة للمحبة والهدوء، حتى نال أول اعتراف من البابا باسكال الثاني في 15 فبراير عام 1113م وهو ما أكسب المتطوعين في المستشفيات نوعا من الشرعية والقداسة لدى القادة العسكريين وعامة الناس (PIERREDON, 1999, p77).

بقي النظام الديني للفرسان في مستشفى القديس يوحنا في القدس، خلال السنوات الأولى غامضا نوعا ما ومحاطا بالسرية، غير أنه ظاهريا يشمل ثلاث فئات ذوي مهام محددة: نبلاء الفرسان، والقساوسة الرهبان، والنخبة غير النبلاء، وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء المتطوعين من الفرسان كانوا على ثماني لغات فيما أحصي من خلال الوثائق الجديدة التي عثر عليها كل فئة تخضع لقائد يسمى pilier أو bailli (Charles-Roux, 2000, p65) وقد كان الجميع مهيأً أيضاً لحمل السلاح، لهذا كان الجميع يلقبون بالفرسان رغم اختلاف فئاتهم ولغاتهم.

غير أنه وفي وقت كان فيه الوضع السياسي متوترا غير مستقر؛ نتيجة الصراع المسيحي الإسلامي حول مدينة القدس، كان على فرسان الاسبتارية أن يتخذوا تدابير ونظم عسكرية لازمة تحميهم وتجد لهم مكانا في ذلك الصراع المحتدم، شأنهم شأن تنظيم فرسان الهيكل الذي تأسس في سنة 1119م، والذي باركته الكنيسة الكاثوليكية والبابا أوربان الثاني سنة 1129م، لذا فقد كان لزاما على زعيم رجال المستشفى ريموند دو بوي دي بروفانس (ت 1160) أن يغير اهتماماته من الأعمال الخيرية إلى التنظيم العسكري، وبناءً على طلب قدمه إلى البابا إينوسنت الثاني (1143-1130 م) منح ترخيصا بتشكيل تنظيم عسكري مشكل من فرسان ذوي لباس مخصص وعلم الصليب الأبيض عام 1130 لتمييزه عن فرسان الهيكل، الذين كانوا يرتدون الصليب الأحمر، وفي هذا الشأن نجد الكثير من الباحثين لا يميزون بين فرسان الهيكل، وفرسان الاسبتارية فرسان القديس يوحنا (محمد، 2009، ص13).

تجدر الإشارة إلى أن البعض من الفارين من محاكم التفتيش التي أقيمت بأمر من الملك فيليب الرابع والبابا كلمنث في 22 نوفمبر 1307م جعلتهم ينطوون تحت مضلة فرسان الأسبتارية، مما جعل الأخوية تتحول إلى اتجاه آخر يتجاوز المسيحية أحيانا إلى محاولة للبحث عن وطن خاص بهم بدل التجوال في كامل أوروبا وصقلية وإرمينيا (CHEVALIER, 2016, p14)، ولا سيما بعد أن نصت الأوامر الملكية والبابوية في معظم أوروبا على اعتقال فرسان الهيكل وتجريدهم من أموالهم وممتلكاتهم، وأقام البابا كليمنت إلى جلسات استماع ومحاكمات للنظر في شأن إدانة فرسان الهيكل، وقد أنكر فرسان الهيكل ما نسب لهم

من الدعوة إلى الإلحاد وإهانة لصليب، وعبادة الأصنام وممارسة الدعارة والشذوذ الجنسي، فنجا الكثير منهم، غير أنهم اضطروا فيما بعد وبأمر من الملك فيليب الرابع عام 1310 إلى إجبارهم على الاعتراف تحت ضغط التعذيب ليحكم على العشرات من أعضاء التنظيم بالإعدام حرقًا في باريس (Baigent, 2009, Leigh p167) و (Loiseleur, 2005).

ثالثا- شتات الفرسان بين جزر المتوسط قبرص، رودس ومالطا بداية القرن 16م:

تجدر الإشارة إلى أن فرسان الاسبتارية ليسوا بالضرورة فرسان الهيكل، على الرغم من التشابه الكبير والتقارب في الظروف التاريخية التي لقيها الفريقان، ففرسان الهيكل اختاروا الفرار إلى المناطق البعيدة ليعيشوا تحت الظل بعيدا عن التقلبات السياسية والمذهبية؛ وفي منأى من اضطهاد الملك الفرنسي فيليب، وهو ما جعلهم يختارون اسكتلندا لتكون مقرا آمنا لهم ليواصلوا طقوسهم في سرية تامة (Baigent, 2009, p167)، غير أن فرسان الاسبتارية الذين سيحملون فيما بعد اسم فرسان القديس يوحنا؛ كان لهم شأن آخر، وهو الاندساس داخل المقاتلين الأوربيين تحت مضلة المسيحية وتلبية الجهاد المقدس، مكونين في الوقت نفسه أخوية سرية تبحث عن وطن قومي لها (الباروني، 1952، ص75).

تذكر كارمن دي باسكال *Carmen De Pasqual* وهي أستاذة باحثة في التراث الثقافي المالطي، أن مالطة كغيرها من الجزر قبرص ورودس ... ولا طرابلس التي أقاموا فيها محتلين لمدة قاربت الخمسين سنة لم تكن تثمل لهم شيئا مقارنة برغبتهم في الاستقرار في مدينة القدس، فهذه الأماكن في نظر خدام القديس يوحنا لم تكن إلا صخورا بائسة عقيمة لا جدوى منها، غير أن الأمر تغير بعد 1530، وهو تاريخ استقرار جماعات من مناطق مختلفة ولغات مختلفة (ثماني لغات وجنسيات) كلها استقرت في جزيرة مالطا، وبهذا الحدث المحوري أصبحت مالطا أحد أثرى المناطق المتوسطية ثقافة، إذ لا يزال حتى اليوم في مالطا عدد من التحصينات والقصور والكنائس والحرف، وأيضا تراث مؤلف من المخطوطات النفيسة والأعمال المطبوعة تزخر بها مكتبة مالطا الوطنية (Depasquale, 2011, p97)، وتشير أيضا الباحثة نفسها؛ إلى أن قدوم فرسان القديس يوحنا إلى مالطا قد رسخ العلاقات بينها وبين أوروبا ولا سيما إيطاليا، عن طريق اللغة الإيطالية التي كانت تستخدم في الإدارة، وكذا فرنسا عن طريق لغتها التي كانت الأقرب إلى السكان، وخصوصا بعد القرن الثامن عشر الميلادي؛ فقد كان الفرسان الفرنسيون هم الأكثر عددا، لذا كانت فرنسا الدولة الأقرب إلى مالطا (Depasquale, 2011, p97)، أما الكنيسة الإسبانية الكاثوليكية فهي المرجعية المذهبية الأولى –على الأقل ظاهريا-.

لطالما عانى العثمانيون من قراصنة جزيرة رودس التي كانت في أيديهم لأكثر من مائتي سنة عندما تولى السلطان العثماني سليمان القانوني حكم الدولة العثمانية، إضافة إلى الجزر الصغيرة المجاورة لها، وكان هؤلاء القراصنة ينتمون إلى تنظيم ديني ترجع جذوره إلى عهد الحروب الصليبية الأولى على بيت المقدس (الوذيناني، 1997، ص43).

مثلت جزيرة رودس نقطة تهديد جدي لجميع السفن العثمانية التي أصبحت معرضة لنهب تجارتها وأسر ملاحيها، ولم تسلم سفن الحجاج من هذا التهديد، في المقابل كان البحارة والتجار والمسافرين

المسيحيين يجدون الحماية والعون من طرف قراصنة جزيرة رودس، وقد زاد عدائهم للعثمانيين إلى درجة مساعدة والي الشام عندما ثار ضد السلطان سليم الأول، كما أضمروا العداء الشديد لخليفته السلطان سليمان الأول (الوذيناني، 1997، ص43).

غير أن فتح مصر قد خلق ضرورة ملحة في تأمين المواصلات البحرية بين موانئ المشرق وميناء الإسكندرية، حيث يتركز الخطر خاصة في جزيرة رودس، إذ يضاف على هذا الخيار الاستراتيجي سبب آخر يدعوا السلطان العثماني للتحرك اتجاهها وتمثل ذلك في الشكاوى التي يتلقاها ضد فرسان القديس يوحنا الأورشليمي الذي كان يتآمر مع أعداء الإمبراطورية العثمانية (نورويش، 2015، ص343).

رابعا-الدعم الكنسي لفرسان مالطا:

بعد تمكن جيوش السلطان العثماني سليمان القانوني من فتح جزيرة رودس سنة 1522م، وقد أصدر قرارا يسمح لسكان هذه الجزيرة بالمغادرة، فرحل فرسان القديس يوحنا إلى مالطا وجعلوا منها قاعدة حصينة لهم (مصطفى، 1993، ص92)، هؤلاء الذين كانوا من ألد الأعداء للمسلمين، إذ قضوا حياتهم في محاربة المسلمين وتعطيل مصالحهم السياسية والتجارية، ولم يدخروا مجهودا في التضييق عليهم بشتى الوسائل، ومن قاعدتهم الجديدة – مالطا- أصبح فرسان يوحنا يغيرون على السفن العثمانية وقد أصبحوا أكثر تحصينا من ذي قبل، وأقوى عدة وعتادا خاصة بعدما أصبحوا من حلفاء الملك الإسباني شارل الخامس الذي منحهم جزيرة مالطا بشروط معينة أهمها أن تقوم هذه المنظمة بالدفاع عن قلعة طرابلس الغرب وكامل المدينة (التميمي، 1989، ص73)، وبالتعاون مع القبطان الجنوي الشهير أندريه دوريا، هذا الأخير الذي اتخذهم أداة لضرب الملاحة الإسلامية في الحوض المتوسط مستغلا بذلك موقعهم الإستراتيجي وقربهم من الساحل المغاربي والمصري والشامي، وهذا ما اعتبره الإسبان دعما لمواقع نفوذهم في حلق الوادي بتونس والمرسى الكبير ووهران بالجزائر.

لم تضيع أوروبا ومن ورائها الكنيسة فرصة واحدة في مسعاها لتطويق القوة البحرية ونشاط الملاحة الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط، لا سيما مع تنامي القوة الجزائرية التي أصبحت تشكل حقيقة تهديدا لأوروبا عموما وللتاج الإسباني بالخصوص، وبالضبط بعد خسارة الملك الإسباني شارلكان في معركة الساحل الجزائري 1541 (العبيدي، 2011)، فلهذا نجد الخطاب الإسباني سواء الملكي أم الكنسي يسعى إلى تأليب كل الأطراف على الجزائر وأي خطر بحري محتمل تتبناه الدولة العثمانية، فالإسبان في هذه الأثناء باتوا متفائلين بميلاد قراصنة جدد في البحر الأبيض المتوسط يعملون ضد الجزائر والدولة العثمانية ولصالح المسيحية الكاثوليكية، فكانت مالطا مركزا للقرصنة المسيحية المنظمة تحارب بدعم أوروبي نيابة عن أوروبا والمسيحية كلها (هلايي و بوجلال ، 2017، ص565)، وهي في نظرهم حركة جهادية صليبية مقدسة.

وصفت المصادر التاريخية الأوروبية الجزائر ونشاطها في البحر الأبيض المتوسط باللصوصية والقرصنة، وكثيرا ما كانت الخطابات في تلك الكتابات تراجيدية حماسية تدعوا إلى النفير العام وتحرير الأسرى والتكاتف والاتحاد من أجل تحرير البحر المتوسط من السيطرة الجزائرية العثمانية، وإنقاذ

الأبرياء المسيحيين من معاناة الأسر، فكثيرا ما كانت تدعو تلك الخطابات إلى جمع الكلمة للقضاء على السيطرة الإسلامية على حوض المتوسط، كل هذا نستشفه من خلال كتابات الأب دان ودييغو هايدو وغيرهما...

ولكن بالمقابل يمكن القول أن القرصنة لم تكن حكرا على الجزائر والدولة العثمانية فقط وإنما كانت القرصنة نشاطا شائعا، ويعترف بذلك فرناند بروديل مؤرخ البحر الأبيض المتوسط في القرن العشرين، وكذا غيره من المؤرخين المنصفين الذين يرون أن الهلال لم يكن إلا مواجها للصليب فحتى فرسان مالطا قد نصبوا أنفسهم كأصحاب حقوق في شرق البحر المتوسط انطلاقا من قاعدتهم مالطا، وكثيرا ما اعتدوا على السفن التجارية واعترضوا بعض السفن الحربية وقطعوا طريق الحج البحري بين رودس والإسكندرية هذه الطريق كانت أيضا طريق تجارة للخشب والسكر والتوابل والقمح والأرز، وفي هذا المجال اعترفت المؤرخة كورين شوفالييه أن القرصنة بالنسبة للمسلمين كانت شكلا من أشكال الجهاد البحري ولو انها تتخذ أحيانا طابع الحروب الصليبية من جانب المسيحيين» (هلايي و بوجلال ، 2017، ص565).

خامسا- الدولة العثمانية تسعى للاستياء على البحر المتوسط:

بعد استقرار الحكم لخير الدين في الجزائر وتمكنه من استرجاعها بمساعدة سلطان قلعة بني عباس من يد حاكم قبائل كوكو ابن القاضي الذي استسلم له عام 1526م، وجه اهتمامه لقلعة البنيون التي يسميها الجزائريون برج الفنار للتخلص من المدافع الإسبانية التي كانت تهدد المدينة، وبعد حصار طويل وتدهور حالة جنود الحامية الإسبانية ووصول أخبارهم إلى خير الدين راسل القائد مارتين فارغاس من أجل الاستسلام ولكنه رفض وأرسل إلى الملك الإسباني يصف له الحال ويطلب المدد (كربخال، 1984، ج2، ص364)، وبعد شن هجوم عنيف عليها وتثبيت مدفعين موجهين مباشرة نحو الجزيرة تمت قنبلتها لأكثر من 15 يوما، وقد قام بايفاد مبعوث إلى قائد الحامية الإسبانية المتواجدة في الحصن من أجل الاستسلام دون جدوى(Grammont, 1887, p35) ، وبعد معركة شرسة مع الحامية الإسبانية الموجودة في هذا الحصن بقيادة مارتان فيرغاس استسلم يوم 21 ماي 1529 م، وبذلك حقق خير الدين نصرا استراتيجيا على الإسبان إذ قام ببناء رصيف يربط ميناء مدينة الجزائر بصخرة البنيون.

مهد هذا الانتصار الذي حققه خير الدين لسلسلة من الحروب السجال التي دارت بين الاسبان والجزائريين، وقد كانت إسبانيا هي أكثر الدول الأوروبية تضررا من الانتصارات التي حققها خير الدين، وقد دخلت في تلك الفترة بما يصطلح عليه بتسمية الإمبراطورية المقدسة، والتي شملت العديد من الأقاليم الأوروبية المهمة، وكان أول رد فعل للإسبان بقيادة البحار الجنوي أدريه دوريا حين هجم سنة 1531م على ميناء شرشال وقد وضع تحت تصرفيه 40 سفينة على متنها 1500 مقاتل، كان هدفها احتلال مدينة شرشال التي كانت ملجأ يستقبل المهاجرين الأندلسيين، ثم التوجه إلى مدينة الجزائر للقضاء نهائيا على الإيالة، ألا أنه فشل فشلا ذريعا إذ استطاع خير الدين من تطويق جيش الأميرال دوريا بعد اقتحام هذا الأخير المدينة، وأسر خير الدين 600 جندي منهم، ودحرا دوريا مهزوما (أبلالي، 2017، ص123).

بنجاح خير الدين بربروس في الاستيلاء على تونس عام 1534م وافتكاكها من يد الإسبان، استولى الأتراك على ميناء آخر قوي على سواحل شمال إفريقيا، وبذلك شعر الإمبراطور شارل الخامس، بالتهديد العثماني المباشر، فكان له رد فعل على ذلك مما فتح الباب لسلسلة من الحروب بين الطرفين استمرت طوال القرنين 15 و16م، بين جهات عديدة من الدول الأوروبية بقيادة إسبانيا والدول الإسلامية بقيادة الدولة العثمانية (ماخوفسكي، 2016، ص87).

في المقابل استطاع القبطان الجنوي أندريه دوريا أن يكون أسطولا صليبيا قويا مكنه من استرجاع تونس سنة 1535م، بعد لجوء الأمير الحفصي إلى الإسبان فساعدوه على استعادة عرشه وبذلك عاد النفوذ الإسباني في الساحل الشرقي للمغرب، وبعدها بوقت ليس بطويل طلب الملك الفرنسي فرنسوا الأول المدد والعون من السلطان العثماني ضد الملك شارل الخامس، فأرسل السلطان قوة بحرية على رأسها خير الدين بربروسا من أجل مساعدة الفرنسيين في استرجاع قلعة نيس التي سيطر عليها الإسبان وكان ذلك بمثابة رد للعثمانيين على جهود أندريه دوريا (مصطفى، 1993، ص94)، وبعد إنهاء مهمته وفي طريق عودته أغار على الجزر الواقعة في البحر المتوسط مثل: إليا، إيسيكيا... وعاد محملا بالغنائم والأسرى كما حرر عددا معتبرا من الأسرى المسلمين في فرنسا دون تقديم فدية (ماخوفسكي، 2016، ص103).

كان من نتائج هذا التحالف الفرنسي العثماني أن سيطر خير الدين بربروسا على بنزرت في تونس، وبذلك أصبح الأتراك يشكلون تهديدا كبيرا على نابولي وتدمير بعض الجزر التي كانت خاضعة لنفوذ جمهورية البندقية المتحالفة آنذاك مع الإمبراطور الإسباني.

شهدت سنة 1537م مواجهة جديدة بين الخصمين خير الدين وأندريه دوريا بالقرب من السواحل الإيطالية، فبعد تحرك الأسطول العثماني المكون من 153 سفينة مضافا إليه 280 سفينة، صدرت الأوامر السلطانية بقصف الشواطئ الشرقية لإيطاليا، وبينما الأسطول في طريقه إلى هناك باغته دوريا واستطاع أن يستولي على حوالي 12 سفينة من أسطول الأتراك (متولي، 2005، ص260)، لكن خير الدين بربروس تمكن في عام 1538م من هزيمة اندريه دوريا الذي كان على رأس قوة بحرية صليبية تتكون من سفن البندقية وجنوة والبابوية وفلورنسا ومالطا في موقعة بريفيزا prevesa ويذكر خير الدين في مذكراته أن الأسطول الصليبي كان يتكون من أكثر 600 سفينة بينما كان هو كان على رأس قوة تتكون من 122 سفينة (مجهول، 2010، ص184).

ثم يعود أندري دوريا مرة أخرى ليظهر على واجهة الأحداث بعد أن أوكل له الامبراطور شارلكان بجمع أسطول كبير في خليج ليون جنوب فرنسا، من أجل توجيه الضربة القاضية لإيالة الجزائر، وهذه المرة كان على خير الدين أن يواجه القوى المسيحية المتحالفة ضده، حيث بلغ عدد السفن المشاركة حوالي 200 سفينة من بينها 8 سفن تابعة للبابا، و30 سفينة إسبانية (ماخوفسكي، 2016، ص103).

سادسا- حملة شارل الخامس على مدينة الجز ائر سنة 1541م:

منذ أن آل حكم مملكة إسبانيا للملك شارل الخامس –شارلكان- سنة 1516 م وضع هذا الأخير نصب عينيه هدفا واضحا وهو القضاء على إيالة الجزائر الفتية، ذلك كانت هذه الحملة من أشد الحملات الأوروبية في القرن 16م، وقد سخر لها الملك الإسباني كل أسباب النصر التي يصعب على الجزائر ردها (سعدي، 2017، ص 97)، وكل ذلك سببه التخوف الإسباني من هذه القوة الفتية والعمل على إنهاء ما تمثله من تهديد، وتوطيد الحكم الإسباني في المغرب العربي، وكانت أخبار هذه الطموحات الإسبانية تتبادر إلى مسامع الجزائريين مما يزيد من حماستهم للقتال والاستعداد للحرب.

بعد اختيار السلطان العثماني لخير الدين بربروس قائدا عاما للأسطول العثماني برتبة قبودان باشا، خلفه حسن آغا وهو ثالث البيلربايات في الجزائر، أصله من جزيرة سردينيا، تم أسره وهو في سن الطفولة، تميز بحسن الخلق والحزم، أظهر خير الدين باشا اهتماما كبيرا بحسن ورباه في منزله كابن له، رقي حسن آغا إلى رتبة كاهيا، وأظهر شجاعة في أداء مهامه، اتسم بصفات القيادة مما جعل خير الدين يختاره ليخلفه في حكم الجزائر عند خروجه منها إلى تونس سنة 1533م، وإلى الباب العالي سنة 1535م (Haedo, 1881, p62)، ومع بداية ولاية هذا الأخير حشد الملك الإسباني قواته وحلفائه وهجم على مدينة الجزائر سنة 1541م، فوجد حسن آغا نفسه أمام امتحان صعب، فهذه الحملة التي وصلت أنباؤها إليه سبقتها أنباء عن انتصارات حققتها قوات شارلكان في كل من تونس وعنابة بقيادة أندريا دوريا مستغلا بذلك خروج خير الدين منها، وبذلك تم تعزيز الحملة الإسبانية القادمة عن طريق القوات المتواجدة في عنابة مما يصعب مهمة المواجهة على حسن آغا (الميلي، 1964، ص63).

كانت هذه الحملة بمثابة انتقام إسبانيا من غارات خير الدين على السواحل الإيطالية والإسبانية وكذلك ردا على سقوط قلعة البنيون، وقد كان الهدف الأول لهذه الحملة هو اسقاط حكم الأتراك في مدينة الجزائر واحتلالها لأنه يرى أن وجود العثماني في الجزائر يعرقل المشاريع التوسعية لإمبراطوريته بل ويهدد مستقبلها (أبلالي، 2017، ص57)، رغم أن شارلكان قبل ذلك حاول استدراج خير الدين للوصول إلى اتفاق معه حيث عرض عليه حكم كامل شمال إفريقيا وأن يوليه منصب الحاكم العام لشمال إفريقيا إذا أعلن تبعيته للإسبان، ولن يكون ملزما إلا بدفع ضريبة جزئية فأبدى خير الدين مراوغة اعتقد من خلالها الإسبان أنهم استطاعوا استمالته إليهم (مجهول، 2010، ص195)، ولكنه تمكن من خداع أندريا دوريا الذي أشرف على الوفد المفاوض، كما حاول الاتصال بخليفته حسن آغا للتفاوض معه عن طريق الوالي الإسباني في وهران ويذكر ذلك مارمول كربخال في كتابه إفريقيا فقال «... وذكر الرسول لحاكم الجزائر بأنه ولد وفي رقبته تبعية للإمبراطور وسيكون ممنونا إذا استجاب لما عرضه عليه...» (كربخال، 1984، ج2، ص366)، وهو بذلك يذكره بأصوله الأوروبية والمسيحية وأن هذه أثمن فرصة له للانتقام ممن أسروه وأعطاه ضمانات لسلامته والسماح له وللحامية التركية في المدينة بالمغادرة دون التعرض لها في حالة استسلامه، ولكن بعد فشل مساعيه قرر أن يقود حملته ضد مدينة الجزائر (سعيدوني، 2014، ص155).

بعد خمس سنوات من الاستعداد قرر الامبراطور الإسباني الهجوم على المدينة ومعه قادة وبحارة مشهورون أمثال أندريا دوريا والدوق ألبا والكورتيز فاتح المكسيك، كان تحت إمرتهم أسطول كبير بلغ تعداد سفنه حوالي 516 سفينة (المطوي، 1982، ص271)، على متنها 24.000 جنديا من جنسيات أوروبية مختلفة وحوالي 12.000 بحارا، حيث جمعت هذه الحملة عددا من نبلاء إسبانيا وإيطاليا وألمانيا من الذين أرادوا أن يتطوعوا في هذه الحملة (Grammont, 1887, 58)، ويوم الأبعاء 19 أكتوبر بدأت الأرمادا تظهر للجند الجزائريين في أعالي البحر المتوسط، فقاموا بإخبار حسن آغا أن السفن الحربية تتجمع في البحر بأعداد كبيرة بحيث يصعب عدها، فباشر حسن آغا وقادته من كبار الضباط مع المقاتلين، في التمركز في مواقعهم الدفاعيه، حيث تولى الحاج مامي الدفاع عن باب عزون، والقايد يوسف ومعه ثلاث من الضباط هم سافي وأرسلان ورمضان مكلفون بباب الواد، وعلي هوتسوك مع القائد العام للبحرية يحرسون باب البحرية (هلايي، 2017).

على العموم ليس هناك تقديرات ثابتة اتفق عليها المؤرخين حول حجم الخسائر في هذه الحملة الصليبية الدولية على الجزائر، فيعتقد البعض أنها بلغت نصف الحملة، حيث ظل البحر في سواحل دلس والجزائر وشرشال يلقي جثث الجنود المسيحيين الغرقى وكذلك أحصنتهم وعتادهم، ولم تكن الهزيمة ضربة للملك شارلكان فقط بل اعتبرت ضربة عنيفة هزت العالم المسيحي بأسره، وهزت التواجد الإسباني في غرب المتوسط، وبدأت آمال الملك الإسباني في القضاء على دولة الجزائر الفتية تتبدد، وبذلك فتح المجال للجزائر بأن تظهر للعالم كقوة إقليمية ذات وزن في أحداث البحر الأبيض المتوسط.

سابعا- حصار مالطا و انتصار الإسلام المؤقت:

أصدر السلطان سليمان القانوني أوامرا إلى حسن باشا، ودرغوث باشا وعلج علي باشا وغيرهم من رياس البحر المسؤولين عن الإيالات العثمانية الغربية، ويوضح لهم مدى أهمية الحملة ضد مالطة بالنسبة له، والامكانيات الحربية والمادية التي بذلها من أجل الاستعداد لهذه الحملة، حيث جهز الأسطول العثماني بحوالي 170 سفينة، وجيش يتألف من 30 إلى 36 ألف جندي بقيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا، اضافة إلى حوالي 40 سفينة من الجزائر بقيادة حسن باشا، كما التحق درغوث باشا بأسطوله من طرابلس الغرب (مروش، 2009، ص137).

قام درغوث باشا بقيادة الهجوم على قلعة سانت إيلم، ولكنه توفي بعد اصابته بقنبلة، واستمر الحصار من 15 ماي إلى 20 سبتمبر 1565م، بسبب المقاومة التي أبداها الأعداء وكذا تأثر المقاتلين بوفاة درغوث باشا، لكن بعد وصول الدعم من القوات الإسبانية أمر الصدر الأعظم برفع الحصار والانسحاب، وتم مباشرة تعيين علج علي باشا بيلرباي على طرابلس الغرب.

كما نسجل احتكاك القوتين المتنافستين مرة أخرى في تونس سنة 1569م، حيث حاول علج علي باشا فتح تونس، ولكن أميرها أبو العباس أحمد الحفصي استنجد بالإسبان، فاستجاب الاسبان بارسال قوة بقيادة الدون خوان النمساوي الابن غير الشرعي لشارل الخامس، وقام باعادته إلى منصبه، وتولى مرة أخرى السلطنة الحفصية تحت السيادة الإسبانية (المطوي، 1982، ص273).

خاتمة:

إن مجال البحث في العلاقات بين الغرب والشرق واسع لا يمكن حصره من خلال الخوض في مختلف الاحداث المتشعبة، ويكفي أن تظهر في الأفق شعاع دين أو حضارة حتى تجد نفسها أمام تحديات المجاورين، ويكفي بروز الفوارق الأولى بين المتجاورين أن يخلق العداء والصدام، وفي مجال الدراسة والبحث والمقارنة بين خصوصيات الشرق الإسلامي والغرب المسيحي تطفح للسطح جليا تلك الفوارق الجوهرية في المعتقدات، أما في إطار القرن 16 الميلادي؛ فيمكن أن نقول أن كل العلاقات السياسية والدبلوماسية والثقافية والدينية والتجارية لها خلفيات قديمة ترجع إلى أولى المواجهات بين الدولة الإسلامية الفاتحة المتوسعة "الدولة الأموية" وبين الممالك والدول الأوروبية التي أصبحت تشعر بالخطر ولا تضمن بقائها، ولعل المواجهات الأولى لدولة الإسلام مع بيزنطا تشرح مدى شعور الغرب المسيحي بخطر توسع المسلمين، مثل حصار القسطنطينية سنة 40هـ، وفتوح مصر والمغرب وفلسطين والشام والأناضول والاندلس...

لا مفر من الاعتراف بأهمية البحر الأبيض المتوسط، الأهمية الحضارية بالنسبة لحضارات الشرق الأدنى، الأهمية التجارية والاقتصادية، وكذا بالنسبة للدولتين الأموية والعباسية، وأيضا الدولة العثمانية التي تمثل الإسلام في العصر الحديث، فسيطرتها عليه هي السيطرة على العالم فعلا، وهو التوجه الذي فكرت فيه الدولة العثمانية في زمن السلطان سليمان القانوني، إذ كانت استراتيجيتهم حينها حصار وفتح فينا، بالتزامن مع الهجوم من جهة الغرب على الأندلس، غير أن هذا الحلم الإسلامي لم يتحقق.

أهم ما ميز الفترة التي سبقت الوجود العثماني في الجزائر هو تلك الفرقة والعداء التي وسمت العلاقات بين المسلمين في المغرب والمشرق، ولكن بفضل الجهاد البحري الذي قاده السلاطين العثمانيون خلال القرن السادس عشر، تم توحيد الصفوف نوعا ما، بالمقابل حرص الغرب المسيحي بقيادة إسبانيا على حروب الاسترداد والسعي إلى توحيد كامل أوروبا، وتمكنوا من إسقاط العديد من المدن، وتطور الأمر فيما بعد إلى تهديد بالاحتلال الشامل لبلاد المغرب الإسلامي، وكان الجهاد البحري للمسلمين قد لفت أنظار أوروبا المسيحية، خاصة نشاط المجاهدين الجزائريين، الذين وجهوا هجماتهم باتجاه السفن والسواحل الأوروبية، وتسببوا بكثير من الازعاج والمتاعب لدول الضفة الشمالية للبحر المتوسط، وقد تزامن هذا النشاط مع مشاريع الدولة العثمانية في المتوسط.

لقد كانت نظرة الغرب المسيحي للمسلمين دونية احتقارية انتقامية على كل من يرتاد البحر من المسيحيين لأنهم قراصنة ولصوص بحر ليس إلا، وهو ما جعلهم يفكرون في شن أكبر حملة استعمارية احتلالية في تاريخ البشرية.

بهذا التوصيف العلمي فإن الأعمال التي تقوم بها القوات المسلحة التابعة لأي بحرية تحت تصرف دولة مستقلة ومعترف بها في الدفاع عن سواحلها ضد سفن الدول المعادية لا يمكن أن يطلق صفة القرصنة، ومنه فإن العمليات التي كان يقوم بها البحارة المسلمون في البحر الأبيض المتوسط ضد سفن إسبانيا والبرتغال وفرسان القديس يوحنا خلال العهد العثماني، هي عبارة عن جهاد بحري جاءت كرد فعل للتجاوزات التي تقوم بها الدول الأوروبية في مقدمتها إسبانيا، وكذا ردا للهجمات والتحالفات المسيحية ضدها، والاضطهاد الذي عانى منه المسلمون في أوروبا.

أما فرسان القديس يوحنا الذين استوطنوا جزيرة مالطا بعدما سقطت جزيرة قبرص في يد العثمانيين، نجدهم يستولون على كل السفن التجارية الإسلامية التي يتمكنون منها، ويجعلون من البحر الأبيض المتوسط غير آمن على الحجاج المسلمين والتجار الذين يتنقلون من الولايات العثمانية الغربية إلى المشرق، ورغم ذلك كانوا يرفعون الصليب وَيَدَّعُونَ أن الله يبارك أعمالهم، والغريب في الأمر أنه قبيل الوجود العثماني في الجزائر وبعد سقوط غرناطة تعرضت الكثير من المدن والموانئ الساحلية للاحتلال الإسباني، كما تعرض المسلمين في هذه الفترة لأقسى أنواع الاضطهاد الديني من قبل المسيحيين فيما عرف في التاريخ بمحاكم التفتيش، وعندما انتفض المسلمون للدفاع عن أنفسهم واستنجدوا بالعثمانيين من أجل تحرير بلادهم أطلق عليهم الكتاب والمؤرخون الأوروبيين والغرب بصفة عامة تسمية القراصنة، وتعابير أخرى تصفهم بالهمجية والبربرية.

توصيات:

من الجدير على الباحثين في التاريخ الخوض في المواضيع الجديدة والمستجدة كموضوع صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب، والبحث في السياقات التاريخية التي شكلت صورة المسلمين لدى الآخر المسيحي، أو الغربي بشكل عام، كما يجدر أيضا البحث في العلاقات بين الشرق والغرب في المحطات التاريخية الأساسية التي جمعت الطرفين معا، مثل الفتوحات الإسلامية، الحروب الصليبية، والأندلس، الجزر المتوسطية كقبرص وصقلية...

قائمة المراجع:

- Baigent, M., & Leigh, R. (2009). *Des templiers aux francs-maçons, traduction Corine Derblum.*
- Charles-Roux, J. (2000). *Jules Charles-Roux, Le Grand Prieuré dSaint- Gilles Saint- Gilles: sa légende, son abbaye, ses coutumes* (France).

- CHEVALIER, M.-A. (2016). *Le Royaume Arménien de Cécile et les ordres religieux-militaires de recrutement Occidental, Grands traits d'une Histoire partagée.* Articles et actes dans des colloques et chapitres d'ouvrages.
- Claude liauzu .(1999) .*La Méditerranée selon Fernand Braudel* .L'Année du Maghreb.
- Depasquale, C. (2011). *La vie culturelle des Chevaliers de Malte au XVIII e siècle.*
- Grammont, H. d. (1887). *Histoire d'Alger sous la domination turque (1515 – 1830).* Paris: édition Ernest Leroux.
- Haedo, F. D. (1881). *Histoire des rois d'Alger (Epitome de los reyes de argel – valladolid 1612).* Alger: Edition Adolphe Jourdan.
- Loiseleur, J. (2005). *La doctrine secrète des Templiers.* Arbre d'Or.
- PIERREDON, G. d. (1999). *L'Ordre de Malte Neuf siècles au service des pauvres.* HISTOIRE DES SCIENCES MÉDICALES.
- W.K. Lowther Clarke. (1931). *The Rule of Saint Benedict.* London: London.
- أبلالي، أ،(2017) ، التحرشات الإسبانية على سواحل الجزائر خلال القرن 10هـ16/م قراءة في الدوافع والنتائج، غرداية،
- الباروني، م، ع،(1952) ، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، طرابلس (مطبعة ماجي).
- التميمي، ع، ا،(1989) ، الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني وقضية الموريسكيين (زغوان).
- الشيخ، ر، غ،(2011) ، دراسات أفريقية في التاريخ الحديث والمعاصر (القاهرة).
- العبيدي، ع،(2011) ، الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر 1541وأثرها على توازن القوى في غرب المتوسط (وهران).
- المطوي، م، ا،(1982) ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي (بيروت).
- الميلي، م،(1964) ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة للنشر (الجزائر).
- الوذيناني، خ، ب،(1997) ، الفتح الإسلامي لجزيرة رودس 929هـ 1523 /م (الرياض).
- جميل، ع،(2018) ، عائشة جميل، سيدي بلعباس :أطروحة دكتوراه غير منشورة.
- سعيدوني، ن، ا،(2000) ، ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي (بيروت).
- سعيدوني، ن، ا،(2014) ، تاريخ الجزائر في العهد العثماني، الجزائر :دار البصائر.

- شطب،، ج،(2015) ، الاستراتيجية العثمانية في شمال إفريقيا في القرن 16م، الكوفة :مجلة آداب الكوفة.
- كربخال، م،(1984) ، إفريقيا ، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار المعرفة (الرباط).
- ماخوفسكي، ب،(2016) ، تاريخ القرصنة في العالم، مكتبة المشارق للنشر والتوزيع (القاهرة).
- متولي، أ، ف،(2005) ، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها إلى نهاية العصر الذهبي، ايتراك للنشر والتوزيع (القاهرة).
- مجهول، م،(2010) ، مذكرات خير الدين بربروس، شركة الأصالة للنشر والتوزيع (الجزائر).
- محاسيس، ن، س،(2011) ، معجم المعارك التاريخية ، دار زهران (عمان).
- محمد، م، ع،(2009) ، دولة فرسان مالطا وغزو العراق، دار الكتاب العربي (حلب).
- مروش، ا،(2009) ، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني -القرصنة الأساطير والواقع-، دار القصبة (الجزائر).
- مصطفى، أ، ع،(1993) ، أصول التاريخ العثماني، دار الشروق (بيروت).
- نورويش، ج، ج،(2015) ، البحر الأبيض المتوسط -تاريخ بحر ليس كمثله بحر-، المركز القومي للترجمة (القاهرة).
- هلايلي، ح،(2008) ، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى (عين مليلة).
- هلايي، ح، بوجلال، م، "قضايا البحر الأبيض المتوسط بين الجهاد والصليبية من خلال كتابات فرناند بروديل"، (2017) ، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 15- 16 (سيدي بلعباس).

موقف النورمان من الحضارة الاسلامية في جزيرة صقلية

The Position of the Normans on Islamic Civilization in the Island of Sicily

د. خلف الله وجدي، جامعة يحي فارس – المدية- الجزائر
khalfallahoudjdi2009@gmail.com



إن الحضارة الاسلامية التي وجدها النورمان في جزيرة صقلية بعد غزوهم لها، ساهمت بشكل كبير في رسم صورة حسنة عن المسلمين عندهم؛ وأثرت على حياتهم فتبنوها، وتجلى ذلك من خلال الألقاب والشعارات، والعلامات العربية التي اتخذوها، كما اهتموا بالعلماء وقربوهم إليهم وشجعوهم على التأليف والترجمة ، كالإدريسي الذي عاش في بلاط روجر الثاني وكتب له كتابه الشهير " نزهة المشتاق ". كل ذلك سنقف عنده في مداخلتنا المتواضعة هذه.

الكلمات المفتاحية: النورمان ، صقلية ، الحضارة الإسلامية

Abstract:

The Islamic civilization that the Normans found on the island of Sicily after their conquest of it, contributed greatly to drawing the good image of Muslims to them; And it affected their lives, so they adopted it, and this was evident through the Arabic titles, slogans, and signs they took. All of this will stand him in this modest intervention.

Keywords: Normans, Sicily, Islamic civilization



مقدمة:

في سنة 212هـ/827م، تمكن المسلمون من فتح جزيرة صقلية(Sicilia)، وجنوب إيطاليا، وبعد فترة قصيرة أصبحت هذه الجزيرة منارة علمية مشعة قصدها الطلاب من مختلف أنحاء المعمورة، كما عرفت نشاطا إقتصاديا مزهرا، وذلك بفضل موقعها الاستراتيجي الرابط بين المشرق والمغرب. غير أنه خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ،شهدت الجزيرة أوضاعا سياسية غير مستقرة، عجلت بسقوطها في يد النورمان (الشماليون) (Norman) المتربصين بها، وبذلك فقد المسلمون واحدة من أروع الجزر المتوسطية وأهمها، بعدما حكموها لفترة تقارب الثلاثة قرون.

والملفت للانتباه أن هؤلاء النورمان، الذين اشتهروا بالقساوة والوحشية في توسعاتهم مثلما فعله ابناء عمومتهم خلال اجتياحهم لإنجلترا، ما إن وطئت أقدامهم أديم صقلية حتى أظهروا تأثرا كبيرا بالحضارة

الإسلامية، وانتهجوا سياسة قوامها التعايش السلمي والتسامح الديني اتجاه المسلمين، واصبح العنصر الاسلامي هو العنصر الغالب في كل إداراتهم. ومن مظاهر هذا التأثر كذلك هو أن ملوك النورمان بداية بروجر الأول (Roger)(1092-1101م) – روجار في المصادر العربية- وصولا إلى ويليام الثاني (William)(1166-1194م)، قد اتخذوا القابا عربية كروجر الثاني الذي لقب نفسه بـ" المعتز بالله "، ولبسوا ملابسا عربية، واتخذوا الفتيان والجواري داخل قصورهم. والذي يزيد الامر غرابة ويبعث على التساؤل هو أنه في الوقت الذي غزا فيه النورمان جزيرة صقلية، وتعايشوا مع المسلمين، وتركوا لهم الحرية في ممارسة عاداتهم وتقاليدهم، وطقوسهم الدينية، كانت البابوية قد وجهت حملة صليبية كبيرة اتجاه مسلمي المشرق، ثم المجازر الرهيبة التي ارتكبها هؤلاء في حق المسلمين هناك. فما هو الشيء الذي حمل هؤلاء النورمان على اتباع هذه السياسة السمحة اتجاه المسلمين. أ لمصلحة المملكة الناشئة مثلما يذكره بعض المؤرخين؟ أو لتسامح المسلمين مع الأخر ولحضارتهم المشرقة، والتي ساهمت في رسم صورة حسنة عن الاسلام والمسلمين بالنسبة لهؤلاء النورمان؟ .

أولا- في عهد روجر الاول:

في سنة 484هـ/1191م، سقطت نوتو(Noto)أخر مدينة صقلية في يد النورمان، وبذلك فقد المسلمون واحدة من اهم وأروع الجزر المتوسطية بعدما حكموها لفترة تقارب الثلاثة قرون من الزمن، واللافت للانتباه هو أن هؤلاء الشماليين (النورمان) لم يتصرفوا مثلما تصرفوا به في غزواتهم السابقة لمختلف البلدان والشعوب، ولم يتصرف بذلك العالم المسيحي من قبل، وإنما أظهروا من أول يوم تأثرا كبيرا بالحضارة الإسلامية هناك، وسنوا سياسة قامت على التعايش السلمي والتسامح الديني، ووظفوا المسلمين في كل المجالات وقربوا اليهم العلماء وشجعوهم على العيش داخل قصورهم (عزيز احمد، 1980، صفحة 78).

وأول من سن هذه السياسة هو الكونت روجر الاول، الذي قرب إليه العلماء، وجند المسلمين في جيشه حتى أصبحوا العنصر الغالب فيه، بالإضافة إلى الحرية التي تركها لهم فيما يخص عاداتهم وتقاليدهم، واحترام دينهم فلم يرغم أحدا على التنصر. حيث ذكرت المصادر الأجنبية أن الملك النورماني روجر الأول أثناء حصاره لمدينة كابوا (Capua) بنابولي، زاره أحد الأساقفة وشاهد العلاقة الطيبة، والمعاملة الحسنة التي كانت بين الملك النورماني والجنود المسلمين، فطلب هذا الأسقف من أحد مقربي روجر الأول أن يستغل الفرصة، وينصحه بتنصيرهم، لكن هذا الأخير رد عليه بأن الملك النورماني يرفض ذلك جملة وتفصيلا (مارتينو ماريو مورينو، 1968، صفحة 20). وقد عبر الجغرافي الشهير شريف الإدريسي عن ذلك بقوله : " ولما صار امرها 'جزيرة صقلية ' إليه ' روجر الأول' واستقر بها سرير ملكه نشر سيرة العدل في أهلها، وأقرهم على أديانهم وشرائعهم وأمنهم في نفوسهم وأموالهم واهليهم وذراريهم، ثم أقام

على ذلك مدة حياته إلى أن وافاه الأجل المحتوم وتقضاه يومه المعلوم " (الادريسي الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز، 2002، صفحة 589).

ومن مظاهر تأثر روجر الأول بالحضارة الاسلامية، تقليده للطراز الاسلامي في القصور والحمامات التي قام ببنائها، وجعل زخارفها مشابهة تماما للزخارف الاسلامية الموجودة في البلدان الإسلامية كالعراق والأندلس، وزين هذه القصور بحدائق ونفورات، ووضع عليها لافتات تحمل اسم "الله "و "بسم الله الرحمان الرحيم " (زيغريد هونكه، 1993، صفحة 412). وما يوضح تأثر روجر الأول بالثقافة الاسلامية بشكل أكبر هي العملة التي قام بسكها، فقد ضرب عملة حملت في وجه اسم شقيقة روبرت جويسكارد (Robert Guiscard)، وفي الوجه الاخر حملت الآية التاسعة من سورة الصف " هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون". واعتمدت هذه العملة إلى جانب العملة الفاطمية التي كانت موجودة قبل الغزو النورماني للجزيرة (عزيز احمد، 1980، صفحة 73).

ثانيا- في عهد روجر الثاني:

وتجلى التأثير الاسلامي على ملوك النورمان بصورة أكبر في عهد روجر الثاني(1101 – 1154م) الذي خلف والده روجر الأول، فقد اتخذ هذا الأخير لقب " المعتز بالله"، وفي وثائق أخرى لقب " الملك المعظم ". وصدرت المراسيم والوثائق باللغة العربية إضافة إلى اليونانية واللاتينية، وكانت هذه الوثائق تحمل علامات وشعارات إسلامية مثل " الحمد لله حق حمده" و " الحمد لله شكرا لأنعمه"، وكان يرتدي عباءة عربية مطرزة بكتابات عربية، وصورة فهود تهاجم جمالا. أما بلاطه فقد سيطر عليه المسلمون، وكان له حريم وفتيان، أما الموظفون فقد كانوا من المسلمين والمسيحيين، وكانت مراسم بلاطه كمراسم السلاطين والخلفاء المسلمين. وفيما يخص المباني والعمران، فقد ظهر تأثر روجر الثاني بالطابع الاسلامي أكثر من البيزنطي، وخير دليل على ذلك دير القديس يوحنا الذي بناه في باليرمو (Palermo)، حيث كان يشبه في هندسته شكل مسجد اسلامي (عزيز احمد، 1980، صفحة 73؛ حسان حلاق، 1986، صفحة 124).

ومن مظاهر تأثر روجر الثاني بالحضارة الإسلامية كذلك: اهتمامه بالعلماء وتشجيعهم وتقريبهم إليه، ومن بين هؤلاء العلماء: محمد بن عيسى بن عبد المؤمن، وهو واحد من أشهر المنجمين والمهندسين؛ بالإضافة إلى الجغرافي الشهير الإدريسي، الذي دعاه روجر الثاني إلى بلاطه، وطلب منه أن يكتب له كتابا جامعا في الجغرافيا والأقاليم...، فكتب له الإدريسي واحدا من أروع الكتب الجغرافية وأوحدها وهو كتاب: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق " كما إشتهر بالكتاب الروجاري، نسبة إلى روجر الثاني. وعبر الادريسي عن ذلك بقوله:" أنه عندما خضعت له - روجر الثاني- بلاد ايطالية وقبل الشعوب سيادته شاء الملك أن يتفهم أجزاء إمبراطورتيه، فأراد أن يعرف حدودها وطرقها المائية والبرية ومناخ كل منطقة والبحار والخلجان التي تحيط بها؛ ليس هذا فحسب، وإنما أراد أيضا أن يتعرف على البلدان الأخرى.. وأمر بتأليف

كتاب يحوي وصفا كاملا للمدن والبلاد يوضح طبيعتها وثقافتها والنشاط البشري فيها، ويذكر بحارها وجبالها وأنهارها وسهولها واوديتها. وأن لابد أن يتناول هذا الكتاب علاوة على ذلك الحديث عن الحبوب والفواكه والنباتات التي تنمو في تلك البلدان والحديث عن الفنون والصناعات التي يتقنها أبناء كل إقليم. كما أوصى بذكر كل الصادرات والواردات والحالة المعيشية للشعوب والعادات والتقاليد والملابس المنتشرة بينهم (الادريسي الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز، 2002، الصفحات 6-7).

وتنفيذا لأمر الملك النورماني روجر الثاني، بقي الادريسي أكثر من 15 سنة في مدينة باليرمو(Palerme) يرسم ويسجل ويحصي كل ما رآه في حله وترحاله. وفي سنة 1145م، أنهى الادريسي مؤلفه الذي كلفه به الملك النورماني، كما قدم له مجموعة من الخرائط تزيد عن السبعين خريطة، تفوق في قيمتها وأهميتها ما أنجزه الجغرافي الشهير بطليموس (ت حوالي 165م) من قبل (زيغريد هونكه، 1993، صفحة 417) .

أما فيما يخص الجانب العسكري ومن أجل الحفاظ على أمن المملكة وتوسعها، بنا روجر الثاني جيشا قويا جعل معظم جنوده من المسلمين، كما أخذ عنهم فنون القتال، وطريقة بناء القلاع والحصون، فالتحصينات التي وضعها روجر الثاني في مدينة باري (Bari)، يرجع الفضل في بنائها للمسلمين (عزيز احمد، 1980، صفحة 77). ومن أجل السيطرة على الحوض الغربي للمتوسط، شيد روجر الثاني أسطولا بحريا كبيرا جعل من مدينة باليرمو عاصمة له، واختار أميرا عربيا يسمى " عبد الرحمان النصراني " لقيادته، ثم زادت مكانة أمير الأسطول " الأدميرال" النورماني نظير ما حققه من مكاسب بحرية، فعين روجر الثاني أميرا أخر هو" جورج الأنطاكي "، الذي كان يملك خبرة كبيرة في ادارة وتسير الأساطيل البحرية، وإليه يرجع الفضل في كل المعارك البحرية التي كسبها روجر الثاني أهمها: التوسعات النورمانية في المدن الساحلية للمغرب الأدنى، كل ذلك جعل روجر الثاني يثني عليه في العديد من المناسبات ويقول " إنه الشخصية الأولى في المملكة كلها " (زيغريد هونكه، 1993، صفحة 415).

وترى المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة، أن المسلمين جعلوا روجر الثاني أقوى وأغنى ملك اوربي خلال العصور الوسطى، وذلك بسبب مردودهم الفلاحي وتنوعه، ونظامهم الضريبي الدقيق الذي أغنى خزينته، ومن العائدات البحرية التي حققها جورج الأنطاكي، كل ذلك أهله لأن يحرز لقب " ملك صقلية وايطاليا وشمال افريقيا" (زيغريد هونكه، 1993، صفحة 415).

إن التسامح الديني الذي أظهره روجر الثاني اتجاه المسلمين، واهتمامه بالعلماء وإكرامهم وتقريبهم إليه أكسبه حبهم له، وتقربهم منه، واصبح بلاطه يعج بالشعراء والعلماء المسلمين يستفيد منهم، ويشجعهم على الكتابة والترجمة، كما أكسبه ذلك تعاطفهم معه والوقوف معه في المحن والشدائد، فعند وفاة أحد أولاده حزن المسلمون معه، ورثوا ابنه، حتى النساء لبسن الأسود حزنا عليه (زيغريد هونكه، 1993، الصفحات 415-416).كل هاته الصفات جعلت ابن الأثير يمدحه قائلا : " فسلك طريق ملوك

المسلمين من الحنائب والحجاب والسلاحية والجاندارية وغير ذلك وخالف عادة الفرنج فإنهم لا يعرفون شيئا منه وجعل له ديوان المظالم ترفع إليه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده، واكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج – النورمان وسكان الجزيرة من غير المسلمين- فأحبوه" (ابن الأثير علي بن محمد، 1987، صفحة 474).

وبالرغم من سياسة التسامح الديني، والتعايش السلمي التي ميزت علاقة روجر الثاني بالمسلمين فإن هذه السياسة تغيرت في اواخر حياته، ويرجع المؤرخون والباحثون ذلك إلى مجموعة من الأسباب أهمها:

- سوء حالته النفسية بسبب وفاة أولاده الثلاثة.

-ازدياد نشاط الموحدين في الحوض الغربي من المتوسط أدخل عليه الشك والخوف من المسلمين مما دفعه لاتباع سياسة جديدة قائمة على التنصير.

-ظهور الخطر البيزنطي في البحر الأدرياتيكي (عزيز احمد، 1980، صفحة 81) .

إن التغير الذي طرأ على سياسة روجر الثاني يفند الشائعات التي روجت حول إخفاء روجر الثاني لإسلامه، لأنه لو أسلم حقا ما كان له أن يقوم ببعض الأعمال السيئة اتجاه المسلمين.

ثالثا- في عهد خلفاء روجر الثاني:

وفي سنة 548/1154هـ، توفي روجر الثاني فخلفه في حكم المملكة ابنه ويليام الأول(1154-1166م)، لكنه لم يكن مثل والده في الشجاعة والقوة والحزم، وترك شؤون المملكة لوزرائه، كل ذلك جعل معاصريه يلقبونه بالسيء (the Bad) (David abulafia, 2008, p. 453). والشي الوحيد الذي شابه فيه والده هو التأثر بالمسلمين والاهتمام بعلمائهم. أما اللقب الذي اتخذه فهو "الهادي بأمر الله "، ووضع عبارة " الحمد لله و شكرا لأنعمه " في وثائقه، مثل والده فقد قرب ويليام الأول الادريسي إليه واكرمه، فوضع له هذا الأخير كتابا جغرافيا أخر حمل عنوان " روضة الأنس ونزهة النفس" (عزيز احمد، 1980، صفحة 70؛ حسان حلاق، 1986، صفحة 127).

لم تطل فترة حكم ويليام الأول، إذ توفي سنة 1166م، فخلفه ابنه ويليام الثاني الذي لقب بالطيب (the Good)، وبسبب صغر سنه لم يباشر الحكم حتى سنة 1171م، وقد اشتهر كوالده وجده روجر الثاني بتسامحه الديني وتعايشه السلمي مع المسلمين، وتأثره بالحضارة الإسلامية، وفي الوقت نفسه اعتبر نفسه حاميا للمسيحية وقدم الدعم للصليبين في حملاتهم (Alex Metcalfe, 2009, p. 147; Metcalfe, 2002, p. 328)

ويقدم لنا ابن جبير الذي زار صقلية سنة 580هـ/1185م، معلومات في غاية الأهمية حول أوضاع المسلمين خلال الحكم النورماني، ومدى تأثر ويليام الثاني بالحضارة الاسلامية وتسامحه الديني. ومن ذلك قوله بأن ويليام الثاني كان يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته هي " الحمد لله والشكر لأنعمه"، كما اشتهر بتقربه من المسلمين واعتماده عليهم في كل المجالات تقريبا بالإضافة الى الثقة التي وضعها فيهم. " وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهن من أشغاله، حتى إن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم، ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كبيرة " (ابن جبير، 2008، صفحة 255).

ومثل والده وجده روجر الثاني، فقد اهتم ويليام الثاني بتشييد القصور وانشاء البساتين الأنيقة وفق الطراز الإسلامي، كما اهتم بإظهار أبهة الملك والانغماس في نعيمه. وعبر ابن جبير على ذلك بقوله: " ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الأنيقة ولاسيما بحضرة ملكة المدينة، وله بمسينة قصر أبيض كالحمامة مطل على ساحل البحر، وهو كثير الاتخاذ للفتيان والجواري وليس في ملوك النصارى أثر في الملك ولا أنعم ولا أرفه منه، وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك، وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقيم مراتب رجاله، وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين، وملكه عظيم جدا، وله الأطباء والمنجمون، وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم، حتى إنه متى ذكر له طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بإمساكه وأدرك له أرزاق معيشته حتى يسلبه عن وطنه" (ابن جبير، 2008، صفحة 256).

وما يؤكد غلبة العنصر الإسلامي داخل بلاط ويليام الثاني هو انه لما وقع زلزال في أحد الأيام لم يكن يسمع داخل القصر إلا ذاكرا لله ولرسوله من نسائه وفتيانه. ومما جاء في رحلة ابن جبير كذلك أن ويليام الثاني بالرغم من تأثره بالحضارة الإسلامية وتعايشه السلمي وتسامحه الديني، فإن جواريه وفتيانه كانوا يكتمون اسلامهم ويؤدون الصلوات سرا، وعلم ابن جبير بذلك من فتى يسمى عبد المسيح كان كاتما لإيمانه " ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان أنهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون أفذاذا من مجلسه فيقضون صلاتهم. وربما يكونون بموضع تلحقه عين ملكهم فيسترهم الله عز و جل " (ابن جبير، 2008، صفحة 256). وهذا ما يفسر أن سياسة ويليام الثاني مثلما كانت تقوم على التسامح مثلما كانت تقوم على الشك والريبة (عزيز احمد، 1980، صفحة 82).

هذا عن أوضاع المسلمين داخل القصر أما خارجه، فقد ذكر ابن جبير بأن المسلمين في مدينة بليرمو حاضرة الجزيرة كانت لهم مساجد يعمرونها ويقيمون الصلاة بأذان مسموع، ولهم أحياء خاصة بهم كما لهم أسواق (ابن جبير، 2008، صفحة 261). وخلال تواجده بجزيرة صقلية ذكر ابن جبير أنه صلى صلاة العيد بأحد مساجد مدينة أطرابنش (طراباني) (Trapani) مع جماعة من اهلها " وكان مصلانا في هذا العيد المبارك بأحد مساجد أطرابنش المذكور مع قوم من أهلها امتنعوا من الخروج إلى المصلى لعذر كان

لهم، فصلينا صلاة الغرباء ...وخرج أهل البلد إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم" (ابن جبير، 2008، صفحة 265).

وبعد وفاة ويليام الثاني حدث انقسام داخل الجزيرة حول من يخلفه، وفي الأخير تم اختيار ابن عمه تنكرد دو ليتشي (Tancrède of Lecce)، وعرف هذا الأخير باضطهاده للمسلمين قبل توليه الحكم، وفي تلك الفترة حدثت مذبحة ضد المسلمين أعلنت ببداية النهاية للوجود الإسلامي بصقلية (Metcalfe, 2002, pp. 332-333; David abulafia, 2008, p. 472; عزيز احمد، 1980، صفحة 85) .

خاتمة:

وختاما لما سبق يمكننا القول أن الحضارة الإسلامية التي شيدها المسلمون في جزيرة صقلية، وتسامحهم الديني مع الآخر، جعلت الغرب الأوربي وعلى رأسهم النورمان غزاة الجزيرة ينبهرون بهذه الحضارة، ويأخذون صورة حسنة عن الإسلام والمسلمين.

- كما كان لتك الحضارة تأثير كبير على حياتهم، وذلك عندما اصبحوا يطبقونها في كل مجالات حياتهم ويقربون إليهم العلماء ويشجعونهم، ولم يقفوا عند هذا الحد بل إن ملوك النورمان بداية بروجر الأول إلى غاية ويليام الثاني اتخذوا ألقابا عربية، ولبسوا ثيابا عربية، واتخذوا الفتيان والجواري في قصورهم، واقتبسوا علامتهم وشعاراتهم من القران الكريم .

- أصبح مصير المسلمين بصقلية على المحك، وذلك مع نهاية حكم أسرة هوتفيل للجزيرة، وتعرضوا لكل أنواع الإضطهاد، وهو ما دفع بأغلبيتهم للهجرة نحو البلدان الإسلامية القريبة كالمغرب والأندلس ومصر، ومن بقي هناك أجبر على التنصر ومنهم من حول إلى حياة العبودية.

- وبالرغم من ذلك، فقد كانت جزيرة صقلية خلال الحكم الاسلامي منارة علمية مشعة قصدها الطلاب من كل انحاء المعمورة فالحضارة التي أسسها المسلمون هناك أشاد بها العدو قبل الصديق، ومنها(صقلية) انتقلت هذه الحضارة إلى أوربا بداية بإيطاليا التي كانت مهد النهضة الأوربية الحديثة خلال القرن الخامس عشر الميلادي.

توصيات:

وما يمكن قوله في ختام هاته الورقة البحثية هو أن المسلمين إذا أرادوا أن يؤثروا في الغرب المسيحي، ويثبتوا وجودهم، ويرسموا صورة حسنة عنهم، فعليهم بالعلم وبتطبيق الشريعة الإسلامية ولا شيء أخر دونهما، فالمسلمون لما اهتموا بالعلم والعلماء، وامتثلوا بالخصال السمحة خلال العصر الوسيط، أحدثوا نهضة علمية كبيرة، وكانوا مصدر الهام لكل الشعوب الأخرى مسيحية كانت أو غير ذلك، وخير مثال على

ذلك تأثر هؤلاء النورمان بالحضارة الإسلامية وتبنيهم إياها، ونفس الشيء حدث مع الصليبين الذين غزوا بلاد المشرق الإسلامي، فكان تأثرهم بالإسلام وبالحضارة الإسلامية كبير، وذلك عندما قاموا بنقل التراث الإسلامي إلى بلادهم محدثين بذلك قطيعة مع العصر الذي سيطرت فيهم الكنيسة والاقطاع على حياتهم، وفاتحين صفحة جديدة هي صفحة عصر النهضة الاوربية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: العربية والمعربة

- ابن الأثير علي بن محمد. (1987). *الكامل في التاريخ ، راجعه و صححه محمد يوسف الدقاق* (المجلد 8). بيروت ، لبنان: دار الكتب العلمية.
- الادريسي الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز. (2002). نزهة المشتاق في اختراق الافاق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- ابن جبير محمد بن احمد. (2008). تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ، تحقيق و تعليق علي كنعان. الامارات : دار السويدي للتوزيع و النشر.
- حسان حلاق. (1986). العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى . مكتبة المهتمين.
- زيغريد هونكه. (1993). شمس العرب تسطع على الغرب ، نقله عن العربية فاروق بيضون و كمال الدسوقي. بيروت: دار جيل .
- عزيز احمد. (1980). تاريخ صقلية الاسلامية ، نقله الى العربية و قدم لهو وضع له الحواشي و التعليقات الدكتور أمين طيبي. الدار العربية للكتاب.
- مارتينو ماريو مورينو. (1968). المسلمون في صقلية. بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية

ثانيا : الأجنبية :

- Alex Metcalfe. (2009). The Muslim Of Medieval Italy. Edinburgh: Edinburgh University Press.
- David abulafia. (2008). the new Cambridge medieval history (Vol. 4). Cambridge: Cambridge
- G.A. Loud And A. Metcalfe. (2002). The society of Norman Italy. Leiden. Boston: Leiden.

الخلفيات التاريخية لصراع الإسلام والغرب (قراءة في الأسباب والدو افع)

Historical Backgrounds of the Struggle of Islam and the West (Causes and Motives)

د. العيد بكري، المركز الجامعي سي الحواس بريكة - الجز ائر
bakrilaid20192019@gmail.com



صورة الإسلام لدى الغرب اليوم فكرا وواقعا ممارسا، تعكس مظاهر الجفاء والعداء تجاه الإسلام والمسلمين، هذه الأخيرة لها خلفيات تاريخية تعود جذورها إلى زمن ظهور الإسلام مطلع القرن السابع الميلادي، وانتشاره خارج الجزيرة العربية، وإزاحته للبيزنطيين من مواقعهم التي ملكوها، استغل الدين فيها كمطية لمهاجمة البلاد الإسلامية وإزاحة المسلمين عن المناطق التي كانوا قد فتحوها، وتمثلت مظاهرها في انطلاق حركات الاسترداد في بلاد الأندلس، والإعلان عن الحروب الصليبية باتجاه بلاد المشرق، كما كشفت هذه المرحلة عن ضعف المسلمين وتراجع السيادة الإسلامية في البر والبحر، كان من نتائجها فقدان الكثير من المناطق ومنها الأندلس، واندفاع الكشوفات الجغرافية الأوربية والحركة الاستعمارية التي ارتبطت بالصليبية، في محاولة السيطرة على مقدرات المسلمين وإمكاناتهم الطبيعية والبشرية، وكل هذه الظروف والأسباب ادت لمظاهر الحقد والكراهية تجاه الإسلام والمسلمين ونظرة العداء المتوارثة.

الكلمات المفتاحية: الغرب، الإسلام، الكشوفات الجغر افية، الحروب الصليبية، الأندلس.

Abstract:

The image of Islam in the West, characterized by hostility towards Islam, it is born of historical backgrounds rooted at the beginning of the 7th century AD, and its removal of the Byzantines from their positions, the hatred was fed and developed, was used as a way to attack Muslim countries, Its manifestations were the launch of the recovery movements in Andalusia, the declaration of the Crusades towards the Eastern Countries, this phase revealed the weakness of Muslims and the decline of Islamic sovereignty, the result of which was the loss of many areas, including Andalusia, and the rush of European geographical and colonial movement that was associated with the Crusaders, a these circumstances and reasons reflected the manifestations of hatred towards Islam and Muslims and the continuing of hostility.

Keywords: The West, Islam, Geographical Disclosures, The Crusades, Andalusia.



مقدمة:

تشير الأبحاث والدراسات التاريخية، وكذا المصادر إلى طبيعة الصراع الحضاري بين الشرق المسلم والغرب المسيحي، وامتد الصرع زماناً من ظهور الإسلام مطلع القرن السابع الميلادي إلى العصر الحديث،(هذا حسب حدود الدراسة وهو مستمر إلى اليوم)، أما مكاناً فضم قارتي أسيا وأفريقيا ومناطق وأجزاء من قارات أخرى، وتجسدت ملامح هذا الصراع في صدامات فكرية وأخرى عسكرية، وكانت أكثر شدة وضراوة، بعد أن تحرك المسلمون في سبيل نشر الإسلام، وقابل الغرب هذا التوسع بالدفاع ثم الهجوم، وتميزت علاقة الغرب بالمسلمين بالعداء في العموم مع وجود محطات أبرزت صورا للتعايش .

تأسيسا على هذا الطرح يدفعنا فضول البحث إلى طرح التساؤلات التالية: ما هي خلفيات صراع الإسلام والغرب؟ وهل يمكن رد هذا الصراع إلى العامل الديني؟ أم إلى العامل الاقتصادي؟ أم إلى عوامل أخرى؟ وما هي الطرق التي لجأ إليها الغرب لتنفيذ مشاريعه في البلاد الإسلامية؟ وهل يكمن الكشف عن مراحل هذا الصراع واختلال الموازين؟ ولماذا طال أَمَدُ هذا الصراع ؟ فهل مرد ذلك إلى القوة التي امتلكها الغرب ؟ أم إلى الضعف الذي عرفه المسلمون ؟ وما النتائج والآثار المترتبة عن هذا الصراع ؟

نحاول من خلال الدراسة عرض وتحليل الأسباب والعوامل الكامنة وراء هذا الصدام بين الإسلام والغرب، والتي تعلقت بسرعة انتشار الإسلام واكتساحه لمواقع الغرب، ثم مرحلة تراجع الإسلام وضعفه، وبداية هجوم الغرب على المناطق ذات السيادة الإسلامية، وكان أهمها استرجاع الغرب المسيحي للأندلس وإعلان الحروب الصليبية على بلاد المشرق ثم القيام بالكشوفات الجغرافية التي رافقتها سياسة التبشير، واطلعت الغرب على مقدرات العالم الإسلامي وخيراته، فكان الإحتلال الذي جعل من بين أسبابه التذرع بنشر المسيحية في البلاد الإسلامية.

ولتغطية مجال الدراسة، رتبت عناصرها وفق تسلسل زمني للأحداث، إلا أن طول الأحداث التاريخية أدى إلى تداخل عناصرها، وكمثال على ذلك الحروب الصليبية بالمشرق وحركة الاسترداد بالأندلس، وارتباط الكشوفات الجغرافية بالتبشير، وهذا الأخير بالاستعمار، وجمعت المادة العلمية من مصادرها مركبا بين عناصرها مبدياً ملاحظات وتعليقات وشروحا بشأنها، وللحفاظ على استيعاب فهم الفكرة في أحيان أجملتها تحت العنصر محل الدراسة معرجا عن جميع جزئياتها وتفاصيلها خلال مختلف المراحل التاريخية، وهذا للوصول إلى بناء معرفي متكامل .

تهدف الدراسة إلى الوقوف على أهم الأبعاد التاريخية والحضارية والاجتماعية، التي شكلت صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب المسيحي، ويمكن عدها صورة مشوهة لأسباب تاريخية، إنبنت على ضوئها النظرة القاتمة للإسلام والمسلمين، ولدت الكره والحقد الذي تحول إلى صدام.

أولا- أسباب الصراع بين الإسلام والغرب:

انطلق الإسلام بدعوة صافية تنسجم مع الفطرة البشرية، وبمنهجه الرباني، ارتكزت الدعوة على العقيدة ورد الأمور كلها إلى الله وبما يتطلب على المخلوق القيام به، واعتمد على المساواة بين البشر دون النظر إلى اللون والعرق، ورفض الظلم، فكان من نتائج ذلك أن دخل الناس فيه أفواجا، فخاف الطغاة وأصحاب الأهواء منه، فحاولوا الوقوف في وجهه، فخابوا وخسروا. (إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر، 1995،ص9. عبد العزيز الكحلوت، 1992، ص12-13.(

والصدام بين الغرب والإسلام هو صدام تاريخي، لأنه ترسخت في كلا هاتين الحضارتين تجاه الأخرى في الذاكرة الشعبية بكلا المجتمعين منذ قرون عديدة وبدءا بالقرن السابع الميلادي، حيث واجهت المسيحية تحديات القوة الإسلامية، وبحلول القرن الثامن كان العرب والمغاربة قد اجتاحوا شمال إفريقيا وقاموا بغزوات في عمق إسبانيا وفرنسا.(حسين سالم، 2019،ص1598.(

لم يرق لأوروبا امتداد الإسلام إلى أراضيها غربا في الأندلس وجنوبي فرنسا، وفي جهاتها الجنوبية الشرقية، وجعلت من الأندلس أو كما تعرف شبه " جزيرة أيبيريا " وطنا إسلاميا، فسعت جاهدة وفي محاولات لإزاحة الوجود الإسلامي من هناك(عماد الدين خليل، 2005، ص190) وهذا ما يجمله المستشرق الألماني بقوله « أن سبب العداوة أن الإسلام لما انبسط في العصور الوسطى، قام في وجه انتشار النصرانية، ثم امتد إلى الأراضي التي كانت خاضعة لصولجانتها ».(مصطفى خالدي وعمر فروخ،1953،ص36).

ويحاول البعض رد أسباب الصراع الإسلامي والغربي إلى الدوافع الاقتصادية، لكن في الحقيقة أن هذه الأخيرة تعتبر واحدة من أسباب الصراع فقط، ولعل أبرز عامل من عوامل الصراع هو العامل الديني،(عماد الدين خليل،2005، ص187. عبد العظيم رمضان، 1983،ص23) وخلفية ذلك انتشار الإسلام كحركة عالمية والتمكين لدولته، وغطى مجال البر والبحر، وتحدي عقيدة أوروبا النصرانية المحرفة، وشكل تهديدا لوجودها العسكري والاقتصادي والسياسي، واستمر هذا الصراع لقرون طوال.(عماد الدين خليل، 2005،ص 187.)

وخلال العصر الحديث أخذ الصراع بين الإسلام والغرب منحى آخر، فبعد الثورة الصناعية وما أفرزته من نتائج بدا التفوق الغربي، مما أدى إلى انتشار ظاهرة الاستعمار والامبريالية في كثير من دول العالم الإسلامي، فالدول العربية والإسلامية كانت منشغلة في كيفية التعامل مع الغرب، أما الغرب فمنشغل بكيفية الحفاظ على المكاسب المادية والاقتصادية.(حسين سالم،2019،ص1607.(

ثانيا- التوسعات الإسلامية تؤرق الغرب:

قام الصدام بين الحضارات على عدة قواعد أساسية، وهي الاختلاف في المعتقدات الدينية بين الشعبين والاختلاف في القيم، بالإضافة إلى الصراع المتنامي بين الهويات الحضارية والثقافية المختلفة، وتجسد أساسا هذا الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية .

ترجعُ بدايات التحرك البيزنطي المضاد للإسلام إلى عصر الرسالة، وذلك منذ العام الخامس للهجرة والمعارك التي خاضها الرسولﷺ ، وانتهاء بحملة أسامة بن زيد، كان المعسكر البيزنطي يتحسس الخطر الإسلامي القادم من الجنوب، وازدادت ضراوة بعد وفاة الرسولﷺ، خاصة، كانت بداية الصراع في فلسطين وكانت وقائع أجنادين واليرموك 13 هـ / 634م، لإزالة النفوذ البيزنطي في كامل بلاد الشام، وتمكن المسلمون من قطع ارتباط القبائل العربية شمالي الجزيرة بسادتهم القدماء الروم، ثم دخلت بيت المقدس سنة 15هـ / 636م، تحت نفوذ الإسلام،(ابن الأثير عز الدين،2003،ج2، ص112،199،258 ،265. محمد العروسي المطوي، 1982،ص 27 ـ 28) حيث تمكن المسلمون من إخراج البيزنطيين من ممتلكاتهم في أسيا وأجزاء من إفريقيا زمن الخلافة الراشدة، وانحسر نفوذهم بعد تتبعهم من طرف الأمويين والدويلات الإسلامية في الشام ومصر وشمالي إفريقية وانزووا في شبه جزيرة الأناضول، فضلا عن ممتلكاتهم في أوروبا(عماد الدين خليل،2005،ص188. عبد العظيم رمضان،1983،ص24).

لقد كان للفتوحات الإسلامية وقع على نفسية النصارى، حيث حملهم على الحقد والكره للإسلام أكثر مما حملهم على الإعجاب وبين والخوف منه، لذا كانوا ينتظرون اليوم الذي يتم فيه رد الثأر والانتقام، وإنما لا بد من اختيار الوقت المناسب لمنطقة غنية بثرواتها المادية.(محمد العروسي المطوي،1982،ص29.(

وهكذا وبمرور الوقت أصبحت المبادرة بيد المسلمين، وقل خطر هجماتهم لأنها تركزت عند خطر الثغور في الأناضول والجزيرة الفراتية بسبب يقظة القيادات الإسلامية، وتحصين خط الحدود، والمبادرة بالهجوم، وخاصة بعد أن ضعفت الدولة العباسية، وحل الكيان الحمداني الذي تشكل في حلب قريبا من خط الثغور، وتمكن الحمدانيون من التوغل في الجزيرة الفراتية وشمالي الشام، وكانت معركة ملازكرد سنة: 463هـ /973م في قلب الأناضول هزيمة ساحقة للبيزنطيين.(عماد الدين خليل،2005،ص188. عبد العظيم رمضان،1983،ص231 ـ 232 ، 256.)

ثالثا- الحماسة الدينية المسيحية في أوروبا و انطلاق الحروب الصليبية:

تعتبر الحروب الصليبية أحد أشكال الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي خلال العصور الوسطى(محمد العروسي المطوي،1982،ص27) ،امتدت على مجال مكاني شمل مجالات واسعة من الجزيرة الفراتية والشام وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا، وامتدت إلى أكثر من قرنيين من الزمان(1095 ـ 1296م

وارتبطت الحروب الصليبية في ظاهرها بالأسباب الدينية، غايتها تخليص قبر المسيح في بيت المقدس من المسلمين، وتحرير الأماكن المقدسة التي دنسها المسلمون، وحماية الصليب،ووضع حد لاعتداءات المسلمين على الحجاج المسيحيين، واستجاب ملوك الإفرنج لنداء الكنيسة بمهاجمة بلاد المسلمين والوصول إلى حلم بيت المقدس السماوي، كما صورته معتقداته اللاهوتية، فبالرغم من الحروب الواقعة بينهم،فإن ملوك الإنجليز والألمان والفرنسيين أعلنوا الوحدة والسير إلى بيت المقدس،وبغض النظر عن السبب الدين، وكانت في حقيقتها طريقا لتحقيق السيطرة على الشرق الإسلامي، وما حازته البلاد الإسلامية من خيرات اقتصادية ومراكز حربية.(محمد العروسي المطوي، 1982،ص34. مصطفى خالدي، 1953،ص 114)

وفي الحقيقة وإن تعددت أسبابها، لا يمكن تفسير دوافعها وردها إلى عامل واحد، وإنما في جوهرها وليد عوامل اقتصادية، واجتماعية، ودينية، وسياسية(عماد الدين خليل، 2005،ص188.عبد العظيم رمضان، 1983،ص294.علاوة عمارة،2003،ص 89.(

وقد توالت على بلاد المسلمين ثماني حملات صليبية، وكانت إما طمعا في الحصول على مغانم جديدة أو تحقيقا لما عجزت عنه الحملة السابقة، أو تحدي لمخاطر جديدة برزت من المسلمين، حيث تمكنت من الاستيلاء على مناطق من بلاد المسلمين، وتأسيس أربع إمارات في كل من الرها، وأنطاكية، وبيت المقدس، وطرابلس، وتوالى أخرى دون أن تحقق أهداف تذكر(ابن الأثير عز الدين،2003،ج9،ص13. 15 .19. عماد الدين خليل،2005،ص 191. حامد زيان غانم زيان، دت ، ص5)، حيث استفاد الصليبون من أخطاء المسلمين بذلك، وتحولت غاراتهم من هجمات سريعة إلى تأسيس دول على أرض المشرق، وصارت لها قواعد وموانئ ومرافئ تفد إليها الأساطيل الأوربية تحمل المؤن والسلاح للمقاتلين حيث تعزز بها سلطتها، وتقوي بها سلطانها(عبد العظيم رمضان، 1983،ص407)

وتركت هذه الحملات آثار على الطرفين، حيث بعثت هذه الحروب الرعب والفزع والتخريب والتدمير وخاصة ببلاد الشام، وكانت الطبقة الضعيفة أكثر تضررا، وسياستهم الفضيعة محل استنكار طال أمدها للأجيال وأورثت الحقد والتنافر بين الأجناس.(محمد العروسي المطوي، 1982،ص169)

يقول " هوارد غاردنر" أستاذ الإدراك والتعليم الأمريكي : « لقد خاب الصليبيون في انتزاع القدس من أيدي المسلمين ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي... والحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة بقدر ما كانت لتدمير الإسلام »، أما " ليفونيان لطفي"، الذي كتب عن الدين وتاريخ الإسلام إذ يقول: «أن الحروب الصليبية كانت أعظم مأساة نزلت بالصلات بين المسلمين والنصارى في الشرق الأدنى، لقد أحب الصليبيون أن ينتزعوا القدس من أيدي المسلمين بالسيف ليقيموا للمسيح مملكة في هذا العالم، إنهم لم يستطيعوا أن يقيموا مملكة، لكنهم تركوا بعدهم العداوة والبغضاء ».(مصطفى خالدي وعمر فروخ،1953،ص115)

ولما طال الصراع الذي تجاوز قرنيين حيث استنزف جهود الطرفين وعرقل تقدم الحضارة، فالصليبيون لم يكونوا يفوقون المسلمين ثقافة ورقيا، بل كانت البلاد الإسلامية أقوى بإمكاناتها الاقتصادية البشرية والعسكرية، وإنما لضعف همم المسلمين وتقاعسهم، وغياب الروح المعنوية التي بثتها تعاليم الإسلام الأولى، وغياب القيادة المؤمنة الموحدة، ولو تحققت الوحدة كانت النتائج حاسمة، إن زمن قيادة رجل كمودود وعماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين،لهي الفترة التي شهد لها بلم الشمل، وتحفز العالم الإسلامي لرفع المظلمة والدفاع عن الحمى، وتوحيد الكلمة ضد الصليبين، وهو الزمن الذي تلقى فيه الصليبيون أقصى الضربات، وألحقت بجيوشهم الهزائم المتوالية على يد هؤلاء القادة.(ابن الأثير عز الدين 2003،ج9،ص 124، 254، 375.محمد العروسي المطوي،1982،ص 169.محمد العروسي المطوي،1982،ص169.)

وإلى جانب غياب القيادة الموحدة، هناك نقيصة أخرى تتمثل في بروز ظاهرة الانحلال والتدابر بين القيادات السياسية والعسكرية والتي أهدرت الطاقات والقدرات، حيث كان النزاع سائدا في بلاد المشرق الإسلامي، فكان الفاطميون يقاتلون العباسيين في محاولة التوسع على أملاكهم، وكان العباسيون يلاحقون السلاجقة بعد تدخلهم في كل شؤون السلطة، وكان الأمراء الصغار يتقاتلون من أجل تلك القطعة أو المدينة، وبذلك ندرك أنه ليست قوة الصليبيين وراء انتصاراتهم وإنما تشتت المسلمين وانقسامهم(عماد الدين خليل،2005، 194.حامد زيان غانم زيان،د ت،ص25، 32، 41. محمد العروسي المطوي،1982،ص 16، 60.)

وأخطأ المسلمون في تقدير أبعاد الخطر الصليبي، ومن ذلك أن بنو عمار في طرابلس هادنوا الخطر ثم تحالفوا معه، وحذروهم من السلطة، فكانت النهاية سقوط طرابلس، ورفض رضوان ملك حلب الدخول في الحلف الإسلامي لمواجهتهم تحت قيادة كربوغا للعمل على استرداد إنطاكية، وذلك لتخوفه القديم من عدوه دقاق صاحب دمشق من جهة، وخشيته من أطماع كربوغا في حلب من جهة ثانية ولعدائه لجناح الدولة من جهة ثالثة، وتحالف مع النصارى الغربيين ككباش بن تتش الذي غضب على تعيين أخيه دقاق حاكما لدمشق. وتراخى الخليفة العباسي المستظهر في مقاومة الصليبيين وماطل في الجهاد، وساهم كل هذا في أن يحقق الصليبيون الانتصارات على المسلمين.(حامد زيان غانم زيان،د ت، ص54. عبد العظيم رمضان، 1983،ص407. علاوة عمارة، 2003،ص89)

رابعا- أثر سقوط الأندلس في اندفاع الغرب على البلاد الإسلامية:

كانت البابوية قلقة من تقدم الإسلام في بلاد الأندلس، وتنظر إلى المسلمين نظرة حقد وإشفاق على مواطن المسيحيين، حتى كانت موقعة بلاد الشهداء(بين بوتيه وتور) سنة: 114هـ /732م، التي استشهد فيها عبد الرحمان الغافقي، وتراجع المسلمون من بعده، حيث اهتز عرشها فرحا لما تحقق وتوقف الزحف الإسلامي بعدها، وأضفت على " شارل مارتيل " نعوت الإجلال والبطولة والمكانة، واعتبرت حروبه مقدسة

وأصبح بطل المسيحية، ثم جاء ابنه " بيبان " ومن بعده "شارلمان "، فإذا عرفنا أن هؤلاء الثلاثة عرفوا بمواجهة المسلمين خارج جبال البرانس، وعرفنا صلتهم بالبابا في روما،أدركنا قدم فكرة الصليبية، وظهورها ببلاد المغرب قبل المشرق.(سعيد عبد الفتاح عاشور،2001،ص149. محمد العروسي المطوي، 1982،ص189.190)

وكانت بلاد الأندلس نقطة انطلاق جيوش الصليبين للسيطرة على البلاد الإسلامية، فبعد أن ملكوا طليطلة وغيرها من مدن الأندلس قصدوا جزيرة صقلية وملكوها، ثم مدوا أطرافهم إلى إفريقية فملكوا أجزاء منها، ثم يمنوا وجهتهم نحول بلاد الشام.(ابن الأثير عز الدين، 2003،ج9،ص 13. إبراهيم حركات، 2000،ص 138)

وكان سقوط طليلطة إيذاناً ببداية حركة الاسترداد المسيحي وتوالت المدن الإسلامية في التهاوي والسقوط في يد الإسبان تبعا، وخاصة في عهد " فرديناند" ملك قشتالة وليون 1053 . 1065م،الذي تمكن من استعادة العديد من المدن والقلاع في فترة الخلافة الإسلامية، وقيام دولة الطوائف المتنازعة عن الحكم، ويعتبر عهده حدا فاصلا بين مقاومة الإسبان والدفاع عن وجودهم، وتطور إستراتجيتهم في الهجوم.(محمد محمود النشار،2007، ص6)

وحدث هذا بعد أن ضعف المسلمون، ودب وفشا فيهم الوهن، وقوي أعداؤهم، الذين ركزوا على الأندلس، حيث كانت النصرانية في أوروبا تقدم لهم المساعدة، رغم الإمدادات التي كانت تصلهم من المرابطين ثم الموحدين ثم المرينيين، واستمر نفوذ المسلمين في التراجع بسبب التناحر، إلى أن تمكن النصارى من بسط نفوذهم عليها، وإخراج المسلمين منها(إسماعيل محمد ياغي ومحمود شاكر،1995،ص11)، هذا وقد دعا البابا " أوربان الثاني" إلى مساندة الإسبان في حروبهم ضد المسلمين، فلبى نداءه الكثير من فرسان جنوب فرنسا.(محمد العروسي المطوي، 1982، ص189.190.)

وشكل سقوط الأندلس سنة : 897هـ / 1492م، نقطة تحول في تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، حيث اتخذت إسبانيا من هذا الحدث نقطة بداية لإعادة أمجاد المسيحية في المنطقة، بإزالة كل أثر إسلامي وتحويله إلى مؤسسات مسيحية(الشيخ رأفت، 1994، ص369 .جواد سماحي، 2021،ص137)، وانتشار ظاهرة التعصب الديني، استجابة لتحريض الكنيسة خاصة، حيث صدر قانون فرض التنصير، وحرمان المسلمين من إقامة شعائرهم الدينية، وإغلاق مساجدهم، وإحراق تراثهم المخطوط، وتجريدهم من أملاكهم ومن السلاح، وعد وجودهم في إسبانيا خطر على المسيحية الكاثوليكية(محمد العروسي المطوي،1982،ص251)، ولم يكتف الإسبان بهذه الإجراءات، بل عمدوا على تتبعهم نحو المناطق التي فروا إليها، وكان الإسبان متأثرين بنشاط الكنيسة خلال هذه الفترة، وعمل الكرادلة ورجال الدين.(عمر محمد الباروني،1952،ص3.4)

فكانت الموجه الاستعمارية التالية بعد الأندلس تتركز على مهاجمة المسلمين في شمال إفريقيا، باعتبارهم الحصن الحصين في الدفاع عن الإسلام المسلمين، وهذا ما أعطى حركات التوسع البرتغالي والإسباني صبغة صليبية بالقضاء على المسلمين وتتبع الفارين منهم من بلاد الأندلس، وقد تطلب هذا الدخول في صراع مع مسلمي شمال إفريقيا واحتلال هذه الأجزاء وسيطرة الإسبان والبرتغال على الكثير من الموانئ والمدن المغربية، ومما سهل غزوهم لهذه المناطق حالة الشقاق في أقطار المغرب بين المسلمين في بلاد المغرب والأندلس. (عبد الله عبد الرزاق إبراهيم،1990،ص7 .8 . الشيخ رأفت، 1994،ص369)

استمر الصراع بين المسلمين والمسيحيين من الإسبانيين والبرتغاليين نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر، حيث كانت أشد قسوة وعنف، وكانت منطقة البحر المتوسط قطب لرحاها(الناصر رئاسي،د ت،ص38)، وكانت موانئ أقطار شمال إفريقيا قاعدتها، وذلك بشن الغارات على السفن والسواحل الإسبانية، باسم الجهاد لإنقاذ إخوانهم المورسكيون من التنصير،فغنمت المغانم وأخذت معها الأندلسيين والأسرى الإسبانيين، وهو ما أطلق عليه الأوربيون اسم القرصنة الإسلامية، وهي في حقيقتها عمليات جهاد بحري إسلامي.(محمد حجي، 2000، ص61. محمد العروسي المطوي، 1982،ص261)

خامسا- الرحالات الاستكشافية و أثرها في تغذية الصراع الإسلامي الغربي:

بدأت عملية الكشوفات الجغرافية بعد سقوط الأندلس سنة: 897هـ / 1492م والاتجاه نحو السيطرة على العالم الإسلامي، والتحكم في سواحله المطلة على سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط وسواحل المحيط الهندي وجنوبي شرقي أسيا بعد القيام بالكشوفات الجغرافية دون سيطرة النصارى على المناطق الداخلية التي كانت خاضعة للمسلمين خضوعا كاملا.(إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر،1995،ص12)

يقول " جورج كيرك "البريطاني الأستاذ في تاريخ الشرق الأوسط : « لقد كان هدف الملاح هو استمرار الصليبيين بواسطة التغلب على دار الإسلام حربيا وتجاريا، وانتزاع تجارة الذهب وغيره من أيدي المسلمين، والاتصال في جنوب الصحراء بجان (حنا) نجاشي الحبشة للتعاون معه على مهاجمة المسلمين من الجنوب ».(محمد حسن العيدروس،1997،ص 13. عماد الدين خليل، 2005،ص188)

ولقد لقي نشاط الرحالة مباركة من الكنيسة ورجالها، ومن ذلك أن الرحالة البرتغالي "هنري الملاح" ابن الملك يوحنا الأول، فلقبه الأمير كان يخفي غرضه الذي كان يسيره، ويكشف الصليب الذي رسمه على ظهره الروح الصليبية التي كانت تسيطر عليه، والذي يرجع له الفضل في الكشوفات الجغرافية، قد أثرت عليه الروح الصليبية تجاه المسلمين، ويتضح ذلك من خلال الكتاب الذي أرسله إلى البابا " نيقولا الخامس" عام: 1452م « إن سروري العظيم أن نعلم أن ولدنا العزيز هنري أمير البرتغال قد سار في خطى

أبيه الملك جون بوصفه جنديا قادرا من جنود المسيح ليقضي على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة ».(عبد العزيز سليمان نوار و محمد محمود جمال، 1999،ص59. حسين مؤنس،2000،ص43.)

وباركت البابوية العمل العدائي ضد المسلمين، واعتبرت من يستشهد في تحقيق هذا الهدف من شهداء الكنيسة، فكان على أمراء إسبانيا والبرتغال تأييد هذا العمل، ورصوا المبالغ الضخمة للإنفاق على هذه الحملات التي تتجه ضد المسلمين، فكانت موجات الغزو الأوربي تحت هذا الستار الصليبي(عبد الله عبد الرزاق إبراهيم،1990، ص7 . 8) ، فإسبانيا في عهد الملك "فرديناند" وبعد نجاحها في طرد المسلمين وإبعادهم من الأندلس، ازداد تحمسها أكثر من ذي قبل، حيث اعتبرت أن من واجبها أن تعمل على نشر المسيحية بعقيدتها وأسسها الصحيحة في كل المناطق المفتوحة، وكان من حرصها أن عملت الملكة " إيزابيلا " تقديم المساعدة للرحالة "كريستوفر" من أجل الوصول إلى تحقيق هذا الهدف، حيث كان يعتز بمسيحيته، ويرفع راية الصليب، وكان مستعدا للقيام بحملة صليبية، وتخليص الأراضي المقدسة من سيطرة المسلمين، وتعهد لها بأن ما يستولي عليه من كنوز سيسخره لهذه العملية.(عبد العزيز سليمان نوار و محمد محمود جمال، 1999،ص58. جلال يحي، 2000، ص320 . 321)

وكان عاملا مهما في تقويض معالم الحضارة الإسلامية في القارة الإفريقية، وتمكن البرتغاليون بعد عملياتهم الكشفية من الوصول إلى رأس الرجاء الصالح عام: 1487م، واستطاع الرحالة "الفونسو البوكرك" من إقامة دولة في الشرق، ثم سيطر البرتغاليون على الخليج العربي خلال القرن السادس عشر وأبحر "فاسكودي جاما" إلى موزنبيق وتمكن في سنة: 1502م من السيطرة عل زنجبار وفي سنة: 1505م، تمكن البرتغال من احتلال سفالة وكلوه وممباسة في الفترة الممتدةمن1509إلى1519م.(عماد الدين خليل، 2005،ص196)

وكان الهدف من الرحلات الكشفية، إنهاء سيطرة العرب واحتلال إفريقيا، وإقامة قواعد وفكر في فتح طريق مائي عبر إفريقيا من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر، ثم إلى الهند للسيطرة على تجارة الشرق وذلك عن طريق مهاجمة المنشآت العربية، وتأسيس العديد من المراكز التجارية، وإبعاد العرب نهائيا عن تجارة الهند، بمهاجمة سفنهم، وتهديم مدنهم، وطرد التجار، ومحاصرة الإسلام والمسلمين بدول مسيحية، والتنسيق مع حاكم الحبشة المسيحي "برسترجون، "(جلال يحي،2000،ص369. عبد العزيز سليمان نوار ومحمد محمود جمال، 1999، ص60. عبد العزيز الكحلوت، 1992،ص8)، بهدف القضاء على مراكز المقاومة الإسلامية في مصر، والانتقام من المسلمين بتطبيق حركة الالتفاف الجنوبي(حسين مؤنس،2000،ص40 .41)، ، وكان اكتشاف رأس الرجاء الصالح بمثابة ضربة قاصمة للاقتصاد الإسلامي خاصة لدولة المماليك في مصر والشام.(عبد العزيز سليمان نوار و محمد محمود جمال الدين،1999، ص57)

ودخل البرتغال في صراع دموي مع الإمارات والممالك الإسلامية(عبد الله عبد الرزاق إبراهيم،1990،ص7)، لكنهم تمكنوا من احتلال البحرين ومسقط، وسيطر الإسبانيون على موانئ إفريقية ومراكش والجزائر وسبتة وطنجة ومليلة والمرسى الكبير، مستغلين تدهور أوضاع بلاد المغرب وتناحر الدول الحاكمة بها(عماد الدين خليل،2005،ص188. محمد حسن العيدوس،1997،ص13)، وازداد نفوذ هم بعد اكتشافهم لأمريكا، ونشأت أولى المستعمرات هناك، وتوصلهم إلى معرفة الطرق البحرية إلى الهند، وتحركت هممهم للفتح والاستعمار بعد سيطرتهم على الحوض الغربي والجنوبي للمتوسط.(عمر محمد الباروني، 1952،ص5.4)

غير أن هذه الحركة الاستكشافية الاستعمارية تزامنت وظهور العثمانيين في مياه الخليج سنة: 1585م، حيث استطاعوا الدفاع عن البلاد العربية ضد السيطرة الإسبانية والبرتغالية، حيث استهدفت خنق التجارة الإسلامية، ومن تحرير سواحل المغرب، ومواجهة الإسبان في جزائر البحر المتوسط والسيطرة على سواحل إفريقية والمحيط الهندي.(عماد الدين خليل،2005،ص188)

وخلال القرن الثامن عشر كان عمان أكبر قوة عربية خاصة في عهد " أحمد بن سعيد"، حيث استولى على ثغور البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج فإفريقية فرأس الرجاء الصالح، ووقفت في وجه البرتغال، وأجلاهم عن الثغور الهندية والفارسية والإفريقية، وكانت نهاية الوجود البرتغالي بداية لظهور قوى استعمارية جديدة تتمثل في بريطانيا، فاستمرت لعقود على إضعاف هذه القوة البحرية وظهور هولندا(محمد حسن العيدروس،1997،ص 7. عماد الدين خليل،2005، ص197)

سادسا-التبشير والبعثات التبشيرية:

تميزت حملات الإسبان في المناطق التي سيطروا عليها في الشمال الإفريقي بالسمة الصليبية، حيث لم يكن الهدف منها مد النفوذ والتوسع الإقليمي فحسب، وإنما كان الهدف منها التبشير بالمسيحية ونشرها في المناطق التي خضعت لنفوذهم، ومحاربة الأديان الموجودة بجميع الطرق والوسائل لاعتقادهم أن هذا العمل هو المرحلة الأولى لتنفيذ الاحتلال، وتسهل بذلك السيطرة والتحكم(عمر محمد الباروني،1952،ص5.4.)

فالأطماع الاستعمارية اختلطت منذ البداية بالجهود التنصيرية، وارتبط كل واحد بالأخر، فكانا وجهين لعملة واحدة، والبعثات التبشيرية هي التي ساعدت الحكومات الاستعمارية يقول المؤرخ " والتر رودني " : « وقد كانت البعثات التبشيرية المسيحية جزءا من قوى الاستعمار إلى حد كبير مثلها مثل المكتشفين والتجار والجنود »(عبد العزيز الكحلوت، 1992،ص8. نادية سلاماني، 2018، ص1)، ذلك أن المبشرين سواء علموا أم لم يعلموا، قصدوا أم يقصدوا سوى طلائع لمطامع الاستعمار، ولكن الذي لا ريب فيه أن

الدول المستعمرة قد لجأت إلى الثوب الديني لتثبيت نفوذها، ونشر مبادئها، وخدمة مصالحها في كل مكان استطاعت إلى ذلك سبيلا.(مصطفى خالدي ومحمد فروخ، 1953، ص2)

وقد حذر الكثير من المسؤولين من العمليات البشرية ومن خطورة انتشار الإسلام، ومن ذلك الأمين العام الممثل للمجلس الإفريقي في قسم البعثات الأجنبية للمؤتمر الوطني لكنائس المسيح في الولايات المتحدة " برين" من الخطر الإسلامي ضد الاستعمار بقوله: « وهكذا فإن الإسلام في إفريقية يهيئ مركز الحشد لكل أولئك الذين يقاومون التدخل الأجنبي ....ويذكر برين أنه في المستقبل القريب سيجد الغربيون أنفسهم في صدام مع ثقافة موحدة أكثر عداء لتدخلهم ».(عماد الدين خليل، 2005،ص198)

ويقول القس " سيمون " : أن الوحدة الإسلامية تجمع الشعوب السمر وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوروبية، ولذلك كان التبشير عاملا مهما في كسر شوكة هذه الحركة، ذلك أن التبشير على إظهار الأوربيين في ثوب جديد، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصري القوة والتمركز. (مصطفى خالدي وعمر فروخ، 1953،ص37.)

لذا يرى المبشر " شاتلييه " من الواجب القضاء على عامل وحدتهم « لا شك أن إرساليات التبشير تعجز عن نزع العقيدة عن المسلمين، ولن يتم ذلك، إلا ببث أفكارنا في مظاهر حياتهم ومعتقداتهم فتقضي إرساليات التبشير مأربها...عندما لا تسمح للإسلام أن ينعزل عنها... ليحتفظ بكيانه وقوته ...في عزلته ».(محمد عبد الفاتح مرزوق،1982،ص 12)

وكانت خطة التبشير التي رسمها و" زويمر" و" ماسينون " لا تختلف عما أشار إليها " شاتلييه"، بأن يكون عمل التبشير مبني على قواعد التربية، والتأثير على عقول المسلمين وقلوبهم، فإن عجزت الإرساليات عن زحزحة العقيدة من نفوس معتنقيها، فإنها تستطيع أن تحقق هدفها من هدم الوحدة الإسلامية بين الأقطار التي تتغلغل معها اللغات الأوربية، مما يساعد على إدخال الأفكار الغربية الهدامة للفكر الإسلامي عن طريق هذه اللغات، وحسب " زويمر " يتم نشر هذه الأفكار في مدارس المسلمين، ودليله في ذلك، أن المسلم لا يكون مسيحيا مطلقا، ولكن الغاية هي إخراج المسلم من الإسلام فقط ليكون إما ملحدا أو مضطربا في دينه وعندها لا يكون مسلما، وهذه أسمى الغايات الاستعمارية.(سلمان سلامة عبد المالك، 1994، ص72)، ووضع " جون تايلور" الخبير بالشؤون التبشيرية، في كتاب " المسيحية والسياسة في إفريقية "، المخططات التي يمكن بواسطتها السيطرة على الأمور السياسية، وتوجيه الانتخابات، وتحطيم المسلمين الذين هم العثرة أمام الاستغلال الاقتصادي .(عماد الدين خليل،2005،ص198)

وبهذا فقضية التبشير كانت محل اهتمام كبير من طرف الأوروبيين، لما لها من أبعاد دينية واجتماعية وسياسية وأخلاقية، وذلك بهدف السيطرة على الشرق الإسلامي، وعلى مقدرات الأمة، والوقوف في وجه

انتشار الإسلام بكل الأساليب والوسائل، وهو ما يوجب على المفكرين من المسلمين كشف خطط هؤلاء المبشرين، وتنوير العقول، وما يحاك ضد الإسلام والمسلمين.(سلمان سلامة عبد المالك، 1994،ص5)

وبعد أن عجز الصليبيون في قبول المسلمين على إعتاق المسيحية بالقوة والإكراه عمدوا إلى إغراء الناس بالمال والشهرة، وشراء ضمائر المفكرين لإلقاء المحاضرات بالمعاهد(مصطفى فوزي غزال، د ت ،ص5)، ، واستعمال الحيل، حيث جاء على لسان " المسيو أجين يوتج " في كتابه " استعباد الإسلام الحرب الصليبية الجديدة" أن الفاتيكان هو المركز الديني المقدس، حيث يوجد بابا الكاثوليك الحبر الأعظم للكاثوليكية يخطط دون ملل أو كلل لحرب صليبية، ودون أي تهاون أو كسل، وذلك من وراء ستار المداهنة، وفي ثوب من الرياء يشف عما تحته، فهو يهيئ مقدمات حرب دينية شديدة الفزع والهلع.(سلمان سلامة عبد المالك،1994، ص73)

لذا استغلت البعثات التبشيرية ظروفاً عدة منها حالة العوز والفقر والحرمان، ومارست عملها بتقديم العون والمساعدة والمال، لكل الذين يقبلون الدخول في النصرانية، وهو ما يفسر اليوم أن معظم الدول الإفريقية غالبية السكان فيها مسلمين، لكن قيادتهم تقع في يد الأقليات الصغيرة.

سابعا- التعليم المدجن والطعن في الإسلام:

لجأ الغرب إلى خلق طبقة موالية له وذلك عن طريق التعليم، حيث عمل الصليبيون في بلاد الإسلام على ممارسة الإرهاب الفكري على المسلمين، وهو أشد من حربهم المسلحة، فأوقدوا معركة فكرية في قلوب المسلمين باستعمارها عقيدة وفكرا ومنهج حياة، ليصبح العالم الإسلامي غريبا في أخلاقه ومقوماته، متنافرا مع دين الإسلام الحق، وذلك بتطبيق نظام التعليم الغربي واللجوء إلى المدارس الاستعمارية الأجنبية(بكر بن عبد الله أبو زيد، 2006، ص3 .4.)

وتعتبر هذه المدارس محاضن للأجيال المدجنين من أبناء المسلمين، وما في ذلك من تذويب للشخصية، وتشكيل العقل والفكر بما يرفضه الإسلام،وهي جلية من الصليبين أعمق من حروبهم الصليبية المسلحة، فهي تعلم الدنيا لا تعلم الدين بهدف إخراج المسلمين عن دينهم(بكر بن عبد الله أبو زيد،2006،ص5)، والسيطرة على المناهج والمقررات المدرسية، ومن ذلك ما أن احتواه كتاب موجه للتلاميذ الصف الابتدائي في الكونغو، إن " ليوبولد الثاني" الملك البلجيكي وجه الجيوش نحو الكونغو لتخليصها من العرب المستعبدين، وطردهم بعد سنين من الكفاح(عماد الدين خليل،2005،ص199)

وكان من نتائج تأثير هذه المدارس أن أصاب المسلمين الضعفُ، واتجه بعضهم في تقليد الصليبين، واقتنعوا أن هذا التقليد طريقا نحو التمدين، وتقدما نحو القوة، وابتدأ ذلك بالسماح للنصارى بإقامة المدارس الخاصة، وأصبح للنصارى عيون ترصد تحركات المسلمين في كل حركة ، ويصور " الجاحظ " تربص النصارى بشريعة الإسلام، وابتكار الخطط لإطفاء نور الإسلام، وصد الناس عنه فيقول: « على أن

هذه الأمة لم تبتل باليهود ولا المجوس ولا الصابئين، كما ابتليت بالنصارى، وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا، والضعيف الإسناد من رواياتنا، والمتشابه من أي كتابنا، ثم يخلون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين، وحتى ربما تجرؤوا على علمائنا، وأهل الأقدار منا ويشغبون على القوي، ويلبسون على الضعيف ».(إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر،1995،ص14)

كما عمد الغرب على تأليف الكتب المسمومة التي تطعن في الإسلام، وتنتقص من الشخصية القدوة ، ومن هذه المؤلفات وهي كثيرة ومتنوعة مؤلف " البحث عن الدين الحقيقي "، وهو محاضرات في التعليم الديني تأليف " المنسنيور كولى "، وقد نال رضا البابا " ليو الثالث عشر" عام: 1878م، جاء فيه: « الإسلام في القرن السابع للميلاد برز في الشرق عدو جديد، ذلك هو الإسلام الذي أسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب، لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين أتبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ...وبعد قليل أصبحت أسيا الصغرى وإفريقية وإسبانية فريسة له، حتى أن إيطالية هددها الخطر، وتناول الاجتياح نصف فرنسا لقد أصيبت المدنية، ولكن هياج هؤلاء الأشياع (المسلمين)، تناول في الأكثر كلاب النصارى... ولكن أنظر ها هي النصرانية تضع بسيف " شال مارتل " سدا في وجه سير الإسلام المنتصر عند بواتيه سنة: 752م، ثم تعمل الحروب الصليبية في مدى قرنيين تقريبا (1099 ـ 1254م) في سبيل الدين، وتدجج أوروبة بالسلاح، وتنجي النصرانية، وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب، وانتصر الإنجيل على القرآن، وعلى ما فيه من الأخلاق السهلة... ».(مصطفى خالدي ومحمد فروخ،1953،ص 72. 73.)

وهذا كان في الزمان المتقدم، أما في فترة متأخرة، فَتلقف الراية منهم من درس على أيديهم، وتربى على فكرهم وكفرهم، وتعلم في جامعاتهم، وتشرب عقائدهم، وجعل يبث سمومهم، وينشر إلحادهم بين أبناء الأمة من أفراخ النصارى المستشرقين ممن يسمون أنفسهم المستنيرين(خالد بن ناصر بن سعيد، 1439هـ،ص 8)

وكرد فعل ظهرت في إفريقيا في منقطة جنوب الصحراء زعامات وقيادات، خاضت المعارك في سبيل الحفاظ على حضارة الإسلام، ناضلوا بالسيف والقلم، ومنهم أحفاد " عثمان بن فودي" الذين جابهوا النفوذ البريطاني في المنطقة، وفي سانجامبيا تحت قيادة " محمد الأمين " الذي واجه التوسع الفرنسي، ودخل " ساموري توري " في بلاد الماندنجو في صراع مع الفرنسيين، وفي بلاد التشاد تمكن "رابح فضل الله"الذي انتصر على الفرنسيين والحق بهم الهزائم، وكل حركات إسلامية قامت على مواجهة المستعمر الأوربي للقارة.(عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، 1990،ص 8،9،10.إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر،1995 ،ص14)

ثامنا-الاستعمار الأوربي يعمق ظاهرة العداوة مع الإسلام:

ظهر الصراع الاستعماري بعد خروج المسلمين من الأندلس وسقوط آخر معقل غرناطة سنة: 1492م، ورمت الحركة الاستعمارية إلى تعقب المسلمين الفارين إلى سواحل المغرب، وإجهاض أي محاولة في العودة إلى هذه البلاد.(عبد الله عبد الرزاق إبراهيم،1990،ص7.(

بدأ الصراع بين الدول الأوربية في شرق المتوسط باندفاع البرتغال التي كانت تغذيه الروح الصليبية ظاهريا، ولكن الاندفاع كان إقتصاديا وتجاريا، والتمسك بالروح الصليبية من ورائه كسب العالم المسيحي وبابا الفاتيكان، ورفع معنويات الجنود والحماس لكسب المعارك، وتحقيق الهيمنة والسيطرة الأجنبية.(محمد حسن العيدروس،1997،ص12)

حاول البرتغال السيطرة على الطرق والمنافذ في هرمز وموانئ غرب الهند، والقضاء على التجارة العربية بممارسة القرصنة البحرية، والسيطرة على تجارة التوابل في جزر أندونسيا، في محاولة القضاء على الإسلام والمسلمين،هذا ما دفع بالسكان إلى التحالف مع الهولنديين أعداء البرتغال، فكان نتيجتها أن فشل البرتغال في سياستهم، وحل الهولنديون محلهم.(محمد حسن العيدروس،1997،ص14. عبد العزيز سليمان نوار و محمد محمود جمال،1999، ص60. 61)

وأدركت باقي الدول الأوربية المغانم والمكاسب التي حصل عليها الإسبان والبرتغال، فسعت إلى المنافسة، وكانت هناك شعوب من العالم تطالب بنصيبها من الثروات، حيث شعروا أنهم مظلومون بسبب احتكار الإسبانيين والبرتغال لثروات العالم، فكانت بداية الحد من نفوذهم باللجوء إلى القرصنة البحرية لمراكزهم وسفنهم.(جلال يحي،2000،ص 369.)

وهذا التنافس أدى إلى تراجع دور إسبانيا والبرتغال عن الكثير من مستعمراتها التي سيطرت عليها، لتحل محلها بريطانيا وفرنسا، وهولندا ثم روسيا بدافع صليبي أيضا ، وارتبطت هذه الحركة الاستعمارية بالروح الصليبية، فكثرت أعمال التخريب والإبادة الجماعية، والتصرفات الوحشية، وكان حال المسلمين دول متفككة، وأقوى ما فيها الدولة العثمانية التي نشأت حديثا، تقاتل أوروبا دفاعا عن الإسلام والمسلمين، وكانت المستعمرات تنتقل بين دولة إلى أخرى(إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر، 1995،ص13)،وللسيطرة أكثر اعتمد الغرب على الحيل والدسائس(محمد العروسي المطوي، 1982،ص27)، فجاءت الموجة الأوربية التالية على يد القوات الاستعمارية التي حركتها الثورة الصناعية في العالم القديم، للبحث عن مواد الخام، وأسواق لتصريف البضائع والمنتجات، واستغلال الطاقات البشرية، فيما يعرف بتجارة العبيد، التي ذهبت بالشعوب الإسلامية في القارة الإفريقية.(عماد الدين خليل،2005،ص197)

وإذا كان محرك هذه الموجة هو تحقيق أهداف اقتصادية، فإنها عبرت في أكثر من مرة عن الخلفية الصليبية، ودليل ذلك أن " غلادستون " رئيس الوزراء البريطاني يقولها صراحةً أمام مجلس العموم البريطاني وهو يمسك بالمصحف الشريف، مادام هذا في عقول المصريين وقلوبهم فلن نقدر عليهم أبدا،

والقائد البريطاني " اللنبي " يعلنها بوضوح وهو يدخل القدس : الآن عدنا يا صلاح الدين(عماد الدين خليل، 2005،ص198)

هذا وقد تزامنت الحركة الاستعمارية بحركة التبشير النصرانية بجناحيها الكاثوليكي والبروتستنتي، والتي انتشرت في بلاد المسلمين، وكانت خططها مبنية على إيجاد قواعد لتحرك الاستعمار، وتنشط لصالحة وتتلقى المساعدات، لكن هذا الهجوم الصليبي لم يمض بسلام، ذلك أن الشعوب الإسلامية لم ترض بالتسلط، ووجد المسلمون أنفسهم أصبحوا هدف لأطماع المستعمرين، فشمرت هذه الشعوب عن سواعدها مستغلة الإمكانات المتوفرة، وتمكنت من بعث حركات إسلامية أصيلة، استهدفت مقارعة العدوان بهدف تحرير الأرض، والعقيدة والإنسان، وقدمت نماذج للمقاومة(عماد الدين خليل،2005،ص199)

ومن الأمثلة عن المقاومات التي قارعت الاستعمار وارتبط اسمها بالجهاد والدفاع عن الدين مقاومة، وقف الشعب من وراءهم الأمير " عبد القادر الجزائري " ضد المستعمر الفرنسي التي بلغ صدها العالم واستمرت مقاومته طيلة 17 سنة، وفي المغرب الأقصى ارتبط باسم " عبد الكريم الخطابي " وابنه " محمد" ضد الاستعمار الإسباني، " ومحمد عبد الله حسن" في الصومال، " والحاج عمر" في غربي إفريقية، "والأمير رابح" في تشاد، وسلطان " تيبو " في الهند، وفي ليبيا تبدو مقاومة المجاهدين الليبيين صفحة مؤثرة في تاريخ الصراع، وبلغ الجهاد ذروته تحت قيادة "عمر المختار"، والجمعيات الإسلامية في أندونسيا.(إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر، 1995،ص14. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم،1990، ص 9)

خاتمة:

.وما يمكن قوله في خاتمة هذا الدراسة :

. امتد الصراع بين الإسلام والغرب منذ ظهور الإسلام إلى العصر الحديث،حيث تحرك هذا الهجوم عدة على محاور ، حيث ما يكاد محور ينتهي حتى يغذي محور أخر، وهذه المحاور هي بلاد الأندلس والمشرق الإسلامي، وشمال إفريقيا وشرقها، وأهم الحركات المناوئة للإسلام هي حركة الاسترداد المسيحي، والحروب الصليبية والكشوفات الجغرافية، والتبشير المسيحي، والاحتلال .

.تخوف الغرب وهم الخصوم من سرعة انتشار الإسلام وازدياد عدد معتنقيه، وزحزحة لمواقع الباطل ودحرها ومواصلة الجهاد الإسلام وعبر في حلقات متسلسلة أنه يواجه دفعا عن ذاته وأرضه ومعتنقيه،فولد لهم الفزع الذي كان بسبب خوفهم على مواقعهم ومصالحهم وزعامتهم، خاصة وأن الإسلام انتشر في موقع وسط كثير الخيرات.

. يعتبر سقوط الأندلس وضياعها نقطة تحول في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب،حيث عكست بداية التراجع الإسلامي عن المناطق التي اكتسبها المسلمون، وبداية الالتفاف الأوربي على خطوط المسلمين

في قارتي إفريقيا وأسيا، تولى تنفيذها البرتغال وإسبانيا عن طريق الكشوفات الجغرافية وعمليات التبشير، لتتولى الدور بعدها فرنسا وبريطانيا، واستمر إلى غاية سقوط الدولة العثمانية واقتسام أملاكها، ومن ثم ظهور الاستعمار الذي ارتكز على تحقيق الأهداف الاقتصادية، متسترا تحت غطاء الدين .

. قامت سياسة الغرب على استغلال الدين والتستر ورائه، فكانت جميع الخطط والأهداف المرسومة تكتسي طابعا دينيا، ومزاوجة بين استخدام القوة والاعتماد على الأسلوب ألإغرائي، ويفسر بالحقد والكره تجاه المسلمين، ولتجنب الصدام الذي قد يقع بين الدول الأوربية .

. كانت نتيجة الصراع بين الإسلام والغرب باهظة الثمن، حيث استنزفت طاقات وإمكانات العالم الإسلامي، وعرقلة تقدمه الحضاري، لكن ورغم ذلك عبرت الشعوب الإسلامية عن رفضها للظلم والضيم، فبادرت إلى تنظيم نفسها في حركات ومقاومات وانتصرت لدينها.

. كشفت الدراسة أن الإسلام وفي جميع المحطات قدم صورا رائعة في الابتعاد عن التعصب وخطاب الكراهية، وإقراره مبدأ التعايش السلمي قاعدة ومنطلق، مكرسا مبدأ حرية التفكير والرأي، والدعوة إلى التحلي بروح التعاون والتضامن والإخاء.

. وفي الأخير يمكن الإشارة إلى أن صورة الإسلام والمسلمين اليوم هي تلك الصورة المشوهة لتداعيات ثقافية وتاريخية واجتماعية، غذتها الكنيسة ورجالها وتسترت سياسة الدول وراءها لتحقيق مصالح مادية، رغم الجهود التي بذلها العلماء والمفكرون والدعاة المسلمون في التعريف بالإسلام وسماحته وعدله وفي كونه حضارة كاملة ونظاما جامعا .

توصيات:

من خلال الدراسة، وعرض جوانب مهمة من صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب، أرى من المفيد إبداء بعض التوصيات وتتمثل في الأتي:

. تنظيم ملتقيات وطنية ودولية بالتنسيق بين جامعات الوطن تتعلق ببحث علاقة الإسلام والغرب من شأنها أن تعمق النقاش وبخاصة تلك التي تتناول الصور السلمية للإسلام وتعايشه السلمي وعالميته، وفي جانب آخر يكشف عن حالات التعصب والاندفاع وألوان التحامل والصدام من الطرف الآخر.

. توجيه الطلبة والباحثين لإجراء أبحاثهم حول الخلفيات والإرهاصات التاريخية التي شكلت صورة الإسلام لدى الأخر . النمطية السلبية . خلال مختلف الفترات التاريخية، لأن الموضوع مازال بكرًا يحتاج إلى دراسات أعمق، وهذا من شأنه فهم الأحداث المعاصرة والتي اتسمت بالعداء والكره تجاه الإسلام والمسلمين، وهي في حقيقتها وليدة الماضي .

. من الاقتراحات المهمة ذات صلة، ومن خلال عرض هذه الدراسة المتواضعة، أرى أنه من الواجب على المسلمين كل في موقعه ومجاله اليوم إظهار الصورة الحقيقية التي جاء بها الإسلام من عدالة وتسامح ومساواة، والتعريف به لدى الآخر، بتنظيم مثل هكذا ملتقيات وندوات، أو باستغلال التطور العلمي الحاصل في ظل ظهور الإعلام الرقمي من شأنه أن يزيل تلك الصورة النمطية السلبية تجاه الإسلام والمسلمين وكشف الصورة المشوهة التي زُرعت وظلت متوارثة لعهود، ومن ثم التمكين له في هذه المعمورة .

قائمة المراجع:

. إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالغرب المسلم حتى القرن 9هـ / 15م،(2000)، دار الرشاد الحديثة، ط1، ج1، (الدار البيضاء المغرب.)

. ابن الأثير عز الدين (أبو الحسن ت 630هـ / 1232م)، الكامل في التاريخ،(2003)، دار الكتب العلمية،، ج2، (لبنان.)

. إسماعيل أحمد ياغي محمود شاكر،تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر الجناح الأسيوي،(1995)،دار المريخ للنشر، (المملكة العربية السعودية.)

. الشيخ رأفت، تاريخ العرب الحديث،(1994)،دار روتابرينت، (مصر)

. الناصر رئاسي، العلاقات العثمانية الأوربية في القرن السادس عشر،(د ت) دار الهادي للطباعة والنشر، ط1،(لبنان)

. بكر بن عبد الله أبو زيد،المدارس العالمية الأجنبية الاستعمارية تاريخها مخاطرها، (2006)، دار ألفا، ط1، (مصر)

. جلال يحي، أوروبا في العصور الحديثة، (2002)،الهيئة المصرية العامة للكتاب، (مصر)

. حامد زيان غانم زيان، الصراع السياسي بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية،(د ت)، دار الثقافة للنشر والتوزيع.

. حسين سالم، " الحضارات بين الصدام والحوار في العلاقات الدولية"،(2019)، مجلة الأستاذ الباحث للدراسات القانونية والسياسية، جامعة المسيلة، المجلد 4، العدد 2.

. حسين مؤنس، الشرق الإسلامي في العصر الحديث،(2000)، مطبعة حجازى، (القاهرة)

. خالد بن ناصر بن سعيد، الصراع العقدي في الأندلس، (1439هـ)، مكتبة الكوثر للنشر والتوزيع، ط1،(المملكة العربية السعودية)

.سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى،(2001)، دار النهضة العربية، (لبنان)

.سلمان سلامة عبد المالك، أضواء على التبشير والمبشرين،(1994)، مطبعة الأمانة، ط1، (مصر)

. سماحي جواد، " عامل الدين ضمن القوى الفاعلة بالحوض الغربي للمتوسط خلال القرن 10هـ / 16م"،(2021) ،مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، المجلد 14، العدد 1.

. عبد العزيز الكحلوت، التنصير والاستعمار في إفريقيا السوداء،(1992)، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط2، (ليبيا)

. عبد العزيز سليمان نوار و محمد محمود جمال، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى،(1999)، دار الفكر العربي، (مصر)

. عبد العظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية،(1983)، دار المعارف، (القاهرة)

. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المسلمون والاستعمار الأوربي لإفريقيا،(1990)، عالم المعرفة.

. علاوة عمارة، " الغرب من منظور ابن خلدون "، (2003)، مجلة رؤى، مركز الدراسات الحضارية باريس، العدد 18 / 19 .

. عماد الدين خليل، مدخل إلى التاريخ الإسلامي،(2005)، الدار العربية للعلوم، ط1،(لبنان)

. عمر محمد الباروني، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس،(1952)،مطبعة الماجي،(طرابلس)

. محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب،(1992)، دار الغرب الإسلامي ط2.

. محمد حجي، المورسكيون والجهاد البحري في المغرب الكبير ،(2000)، مطبوعات أكاديمية المغربية، الندوة الثانية، (المغرب)

. محمد حسن العيدروس، سقوط الحكم البرتغالي في الخليج،(1997)، درا المتنبي للطباعة والنشر، ط1،(الإمارات العربية المتحدة)

. محمد عبد الفاتح مرزوق، دفاع الإسلام ضد مطاعن التبشير،(1982)، دار العلوم للطباعة، (القاهرة)

. محمد محمود النشار،دراسات في تاريخ إسبانيا والبرتغال في العصور الوسطى، (2007)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1،(القاهرة)

. مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير في البلاد العربية،(1953)،منشورات المكتبة العصرية،(بيروت)

. نادية سلاماني، "دور البعثات التبشيرية في التمهيد للاستعمار الأوربي في أوغندنا" ،(2018)، مجلة الدراسات الإفريقية، جامعة الجزائر 2،المجلد 3، العدد السادس .

الصدام الحضاري من منظور العالم الإسلامي والعالم المسيحي

Civilization clash from the perspective of the Islamic world and the Christian world

ط.د/ محمد بن موسى، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، الجزائر
bmohammed179@gmail.com،



تهدف هذه الدراسة إلى توضيح فكرة مفادها أن سلامة العصر والأمم لا تكون إلا بالحوار والتفاعل الحضاري، وتوطيد العلاقات بين العالمين في مختلف مناحي الحياة بدل الصدام. ومن النتائج التي نكتشفها في هذا الطرح هي وجود عالمين مختلفين متصارعين(العالم الغربي والعالم الإسلامي)، وإبراز طرق الغزو والسيطرة للعالم الأوروبي على العالم الإسلامي من خلال ترويج مفاهيم خاطئة عن العالم الاسلامي، بأنه عالم العنف والإرهاب، ووجود مجهودات حول إحلال السلم والتفاعل الحضاري واعتماد أسلوب الحوار بدل الصدام الحضاري.

الكلمات المفتاحية: الحضارة، الصدام الحضاري، التفاعل الحضاري، الغرب، العالم الإسلامي

Abstract :

This study aims to clarify the idea that the safety of the times and nations can only be achieved through dialogue and civilized interaction, and the consolidation of relations between the two worlds in various aspects of life instead of clashing. Among the results that we discover in this proposition is the existence of two different conflicting worlds (the Western world and the Islamic world), highlighting the methods of conquest and control of the European world over the Islamic world by promoting misconceptions about the Islamic world, that it is a world of violence and terrorism, and the existence of efforts around the establishment of peace and civilized interaction and the adoption of Dialogue style instead of civilization clash.

Keywords: Civilization, civilization clash, civilized interaction, the West, the Islamic world



مقدمة :

يعتبر مفهوم حوار الحضارات من بين المفاهيم الرائجة التي فرضتها التغيرات الحاصلة في العلاقات الدولية لفترة ما بعد الحرب الباردة عام 1991م، حيث أصبحت الدول الغربية(الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية) في إطار بحثها الدؤوب عن عدو يحل محل الاتحاد السوفياتي، تُنادي بنظريات الصدام مع العالم العربي والاسلامي، مُتهمة إيّاه بكل مظاهر العنف، التعصب والتخلف، إلى أن ترسّخت

تلك الصورة في مُخيلة المواطن الأوروبي البسيط. وقد استغلت تلك الدول في حملتها الدعائية ضد الاسلام، تقدّمُها التكنولوجي في وسائل الإعلام والاتصال، مُوظفة بعض السلوكات الخاطئة لبعض الحركات الإسلامية التي تدعي تمثيلها للإسلام.

ومن هذا المنطلق، يتضح لنا التباين الصارخ في الحضارات من خلال التمدن الذي وصل إليه الغرب اليوم، وهو الذي يرى نفسه سيد العالم، وصاحب السلطة على العالم ككل، بتراثه، ونتاجه الفكري، التكنولوجي والاقتصادي الضخم، وهذا إن دل على شيئ، إنما يدل من المنظور الغربي على الصدام الحضاري بين الطرفين وتبعاته المُنجرة من عدم تكافؤ الأخيرين في مختلف الميادين لا سيما العلمية والدينية. والاشكالية المطروحة في ظل تلك المفارقات بين العالمين هي:

ماهي فلسفة العالم الغربي في تأزيم الصدام الحضاري؟ وما السبيل إلى التفاعل الحضاري بدل الصدام؟

احتوى البحث على ثلاث فرضيات اساسية هي:

- الفرضية الأولى: مجالات نظرية الصدام الحضاري عند الغرب، وآلياتها التاريخية في الخصم أو العدو، الإسلام.
- الفرضية الثانية: نظرة العرب إلى الصدام الحضاري وتبرئة الاسلام من الشوائب المنسوبة إليه.
- الفرضية الثالثة: تداعيات الصدام الحضاري على العالم، والاسلام دين عدل وتعايش بين الاديان والحضارات، لا دين صدامات.

يمكن أن نوضح أهداف هذا الموضوع في النقاط التالية :

- معرفة مرتكزات العالم الأوروبي للصراع الحضاري.
- نظرة العالم الاسلامي إلى الصراع الحضاري وكيفية التعامل معه.
- توضيح أهمية التفاعل الحضاري بدل الصراع الحضاري.

لقد اتبعت في هذه الورقة البحثية المنهج التاريخي الوصفي الاستنباطي لعرض أهم الأحداث التاريخية المتعلقة بالعصر ووصفها من مختلف الجوانب المرتبطة بها لنخرج في الأخير بمجموعة استنتاجات من خلال المنهج الاستنباطي.

أولا- مفهوم الحضارة:

لا شك أنَّ المصطلحات الرائجة في هذا الحقل، مثل المدنية، الثقافة والحضارة غير محددة، وللحضارة وحدها تعاريف كثيرة جداً... وإذا اكتفينا بما تلقيه كلمة الحضارة في الأذهان، وهو تقدم المجتمع البشري، هناك من يرفض ذلك، ولعل المنطق القرآني يرفضه أيضاً. فالبناء المادي مرفوض إذا لم يكن قائماً على أساس معايير إنسانية أو على معايير التقوى بالتعبير القرآني : { أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128)وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ } سورة الشعراء الآيتين (128-131). فالقوة المادية تكون سبب البطش والتجبر إذا لم تكن مقرونة بقيم ذات رصيد ديني.

وليس بعيداً عما سبق ذكره، فإنه ليس ثمة إجماع على مفهوم الحضارة، فضلاً عن أنَّ بعضهم يساوي بين هذا المفهوم وبين مفهوم الثقافة، كما أنَّ تصنيفات الحضارة تتفاوت تبعاً لتفاوت المعايير، الأمر الذي من شأنه أن يخلق تناقضات وارباكات حادة عند الحديث عن صدام الحضارات، أو حتى حوارها. وما يمكن أن نورده في هذه الأسطر، تعريفات جاءت بها الشخصيات التاريخية التالية :

- عرف كارل ماركس الحضارة تعريفا صراعيا، حيث يقول، أن كل اكتمال تاريخي لا يكون إلا نتيجة الضرورات المادية وحاجات الإنسان الأساسية، وبالتالي، الوسائل الفنية التي يخترعها ويستعملها في تلبية تلك الحاجات، فالحاجة والفن الصناعي يمثلان مركزَي التقاطب لقوى الإنتاج المركزيين، اللذان يحددان العلاقات الاجتماعية الخاصة بحضارة معينة، كما يحددان هذه الحضارة ذاتها ماديا ومعنويا(إسماعيل صبري مقلد، دون تاريخ ص117)

حسب ماركس، البنية التحتية تحدد نمط التفاعل الفوقي ،أي، بصياغة أخرى، الصفة الإنتاجية تحدد طبيعة البناء الاجتماعي، فهو يرجع التطور نحو الحضارة من خلال المتغير المرتبط بالدولة في ظل تطور المجتمعات من التركيبة البسيطة إلى الأكثر تعقيدا. (كيبش عبد الكريم و عبد اللطيف بوربي، ص71)

أما أرنولد توينبي، فيعرف الحضارة تعريفا مرتبطا بنظريته القائمة على التحدي والاستجابة، فبالنسبة إليه تنمو الحضارات بالتحدي الأقصى بدافع حيوي تكون فيه الاستجابة لرد وحيد ناجح باكتساب قوة الدفع إلى الأمام بانتهاج معارك جديدة(.سليمان الخطيب،1986، ص 21).

يربط توينبي نشوء الحضارة واستمرارها بوجود الدافع الحيوي الذي يعمل على تقدمها ونموها، حيث في غياب الرد، أي، الاستجابة على هذا الدافع تنهار الحضارة التي هي تفاعل ديناميكي وليس ستاتيكي، لكن من الصعوبة بمكان قياس متغير الدافع الحيوي من مجتمع لآخر(كيبش عبد الكريم و عبد اللطيف بوربي، ص71)

أمَّا مالك بن نبي، فيعرف الحضارة أنها إنتاج فكرة حية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضير للدفعة التي تجعله يدخل التاريخ، فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج المثالي الذي اختاره، وعلى هذا صياغة خصائص تتحكم في جميع خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى(مالك بن نبي،1988، ص49)

وبالنسبة لفرانسيس فوكوياما، فقد ذهب في إطار الصيرورة التاريخية إلى أنه لا يجب النظر للتاريخ على أنه مجرد تتابع للحضارات المختلفة، والوعي هو الأسلوب الذي يفكر به البشر حول مسائل جوهرية خاصة بالحق والباطل، والأنشطة التي يحدثونها مرضية ومقنعة، ومعتقداتهم عن الآلهة وحتى الطريقة التي يتصورون بها العالم. (فرانسيس فوكوياما، 1992، ص 26).

وهناك من يرى أن الحضارة جزء من التاريخ فعرفها حسين مؤنس، في مفهومها العام، أنها ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء أكان المجهود المبذول للوصول لتلك الثمرة مقصودا أم

غير مقصود، والثمرة مادية أم معنوية. وهذا المفهوم للحضارة مرتبط أشد الارتباط بالتاريخ لأنه هو الزمن والثمرات الحضارية تحتاج للزمن، أي أنها جزء من التاريخ. (حسين مؤنس، 1978، ص13)

إن الإختلاف في نشأة هذه الظاهرة يعود إلى الاختلاف في تحديد عناصرها، فابن خلدون يحدد عناصر الحضارة في عناصر الدولة، في ظل ارتباط الحضارة بالعمران، حيث أن غاية الملك والدولة هي العصبية. (Arnold Toynbee, 1985, p106) .أما مالك بن نبي يحدد عناصرها تحديدا وظيفيا من خلال تفاعل ثلاثة عناصر هي الانسان والتراب والوقت، وتولد لنا مركب يحدد بالعامل الديني. (عبد الرحمان بن خلدون، 1992، ص294).أما "وال ديورانت" يحددها في عناصر اقتصادية من الصيد إلى أسس الصناعة إلى تنظيم اقتصادي بالإضافة إلى العناصر السياسية والخلقية والعقلية (مالك بن نبي،1986، ص26) ، وهناك من يقسمها إلى مادية معيار التصنيف يكون على أساس (فلاحي- صناعي وتجاري) وحضارة معنوية على أساس ثقافي (مالك بن نبي،1986، ص26).

ثانيا- معنى الصدام الحضاري:

لا يستقيم فهمنا لمدلول الصراع إلا إذا عرفنا معنى اللفظ، ومغزى المصطلح. لغويا : نقول صدم صَدمًا أي دفعه وضربه بجسده. وأيضا: صادم –مُصادَمة أي ضربه. تصادم واصطدم الفارسان : ضرب احدهما الآخر بنفسه وتزاحما.(المنجد في الأعلام واللغة،2008م، ص420).

أمّا مُصطلح صراع، فقد جاء في لسان العرب: الصّرع : الطَّرح بالأرض، وخصه في التهذيب بالإنسان، صارعه صرعا وصرعا فهو مصروع وصريع، والمصارعة والصراع معالجتهما أيهما يصرع صاحبه. والصُرَعة(بضم الصاد وفتح الراء) الرجل الحليم عند الغضب، وهو المبالغ في الصرع الذي لا يغلب.(ابن منظور،1988، ص430).

وورد في القرآن الكريم مرة واحدة، (صرعى)، يقول تعالى: « فترى القوم فيها صرعى» (سورة الحاقة، الآية 07) والمعنى هنا الطرح بالأرض، وهو يخص الانسان.

اكتسب المصطلح مفهوما سياسيا واسع الانتشار واتخذ طابع النظرية في القرن التاسع عشر، حين ورد في البيان الشيوعي لماركس وانجلز. جاء في الموسوعة السياسية أن فكرة العصرية عن صدام الطبقات تعود إلى عهد الثورة الفرنسية، ولكن النظرية مستمدة من أفكار "ماركس" و"انجلز" في البيان الشيوعي والذي جاء فيه: "أن تاريخ المجتمع كله حتى اليوم هو تاريخ صداع الطبقات" (عبد الوهاب الكيالي وكامل الزهري ،1974، ص 344).

ويلاحظ هنا، ورد لفظ (كله) الذي يفيد الجمع وينفي الاستثناء، على وجه الجزم والقطع، وهي لازمة من اللوازم المرتبطة بالفكر الشمولي في كل زمان ومكان، سواء كان شيوعيا أو رأسماليا.

غلبت فكرة الصدام على الفكر الأوروبي في جميع المراحل التي مر بها، وأدت الشعوب الأوروبية ثمنا فادحا لهذه الغلبة القسرية، حيث عانت أشد المعاناة من الحروب الأهلية فيما بينها، كانت آخرها الحرب العالمية الثانية (1939-1945م) التي أضرمت شرارتها عقيدة عنصرية، ونزعة استبدادية، اصطبغتا بصبغة الصداع.

وعلى المستوى الفكري والمذهبي والسياسي، كانت الأفكار الكبرى التي أحدثت عميق التأثر في المجتمعات الأوروبية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، أفكارا ذات منطلقات صراعية، مثل الشيوعية التي قامت على مبدأ الصراع الطبقي الذي هو درجة عليا في سلم الصراع. وينطبق هذا حتى على الرأسمالية التي قامت هي الأخرى الصراع ضد العوائق والموانع والحواجز التي تمنع الرأسمال من الانطلاق من القيود، والتي تشن حربا عوانا على الأوضاع التي لا تتقبل المذهب الرأسمالي، حتى وإن أدى تطبيق هذا المذهب والعمل به إلى الإضرار بمصالح الشعوب الفقيرة. فمن أجل الوصول إلى الرفاهية والإزدهار الاقتصادي، لا شيئ يمنع من استغلال الشعوب الأخرى والهيمنة على مقدراتها. وهو الأمر الذي أدى ولا يزال يؤدي إلى زعزعة استقرار المجتمعات الحديثة، بما فيها المجتمعات الرأسمالية ذاتها.

ثالثا- الصدام الحضاري في منظور هنتنغتون :

1-التعريف بهنتنغتون: صامويل فيلبس هنتنجتون Samuel Phillips Huntington. (ولد 18 أبريل 1927 - توفي 24 ديسمبر 2008) أستاذ العلوم السياسية، اشتهر بتحليله للعلاقة بين العسكر والحكومة المدنية، وبحوثه في انقلابات الدول، ثم أطروحته بأن اللاعبين السياسيين المركزيين في القرن الحادي والعشرين سيكونون الحضارات وليس الدول القومية، كما استحوذ على الانتباه في تحليله للمخاطر على الولايات المتحدة التي تشكلها الهجرة المعاصرة. درس في جامعة يال، وهو أستاذ بجامعة هارفارد...برز اسم هنتنغتون أول مرة في الستينات بنشره بحث بعنوان «النظام السياسي في مجتمعات متغيرة»، وهو العمل الذي تحدى النظرة التقليدية المنظرة بالتحديث، والتي كانت تقول بأن التقدم الاقتصادي والاجتماعي سيؤديان إلى قيام ديمقراطيات مستقرة في المستعمرات الحديثة الاستقلال. (محمد سعدي، 2006، ص80).

2- أسباب الصدام الحضاري: يذهب هنتنغتون إلى أن الصراع الحضاري أعلى وأسمى من الصدام الإيديولوجي الذي عرفه العالم مابين 1945-1989م بين القطبين المتصارعين، وهما الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي، ومرد الصدام الحضاري ينطوي على العناصر التالية :

- الاختلاف بين الحضارات في التاريخ، الثقافة والعادات، والأهم من كل ذلك الدين.
- الإحتكاك بين الشعوب المتصاعد، وضح ما تشترك فيه وما تختلف عليه الحضارات.
- إن التطور الاقتصادي للتغيير الاجتماعي على مستوى العالم من شأنه أن يفصل بين الشعوب.
- تطور الوعي الحضاري، الغرب في القمة، مقابل ذلك نلاحظ ظاهرة العودة إلى الجذور في الحضارات غير الغربية.أي تنامي الحركات المتطرفة التي تنادي بالدول الوطنية. (كيبش عبد الكريم و عبد اللطيف بوربي، ص74)
- ازدياد التكتلات الاقتصادية وارتفاع التجارة بين بلاد المنطقة الواحدة . هذه الاختلافات تؤدي إلى صراعات في مستويات مختلفة هي :

* المستوى الأول: مجموعة متقاربة يكون صراعها على الأراضي الواقعة على حدود كل منها.

* المستوى الثاني : التنافس على القوى الاقتصادية، العسكرية والصراع للسيطرة على المؤسسات الدولية.

هذا الصراع من الحضارات سيؤدي إلى المجتمع الخالي من التناقضات الذي يظهر من خلال بنية النظام الدولي الحالي وملامحها وآفاقها.(كيبش عبد الكريم و عبد اللطيف بوربي، ص71).

رابعا- جذور الصدام في الفكر الأوروبي:

طرحت فكرة الصراع في القرن التاسع عشر في أوروبا، وحلت في نظرية داروين مكان النظريات الخاصة بالتوافق الطبيعي، وساد في الأوساط الفكرية والعلمية الاعتقاد بوجود كثير من الصراع في الطبيعة. وأن هذا الصراع هو من سمات الطبيعة، والفكرة الأساسية التي تمركز حولها الفكر الأوروبي، هي، أنه لا وجود لتشابه كامل بين الطبيعة والمجتمع، ولكن الصراع بين الناس ليس من أجل الوجود ، ولكنه من أجل تحقيق فرص أفضل للاستمتاع والارتقاء. (فرانكلين باومر، 1989، ص98).

وجاء المفكرون والعلماء الأوروبيون في أواخر القرن التاسع عشر، وفي النصف الأول من القرن العشرين، بلوروا فكرة الصدام، وأقاموا نظرياتهم سواء في مجال العلوم البحتة أو في حقل العلوم الانسانية على قاعدة الصراع بين الانسان والطبيعة، وبين الكائنات جميعا، وكان حظ علوم الاجتماع، وعلم النفس، علم الأدب والفنون من التأثر بفكرة الصدام في الحياة عظيما.

يذكر المفكر "جونز" ملخصا في دقة وتركيز الوضع الفكري في أوروبا فيما يعرف بعصر النهضة: استحوذ الإنسان في عصر النهضة بأهمية أكبر من الله، وأصبح الاهتمام بارتباط الانسان ببني جنسه أكبر من الاهتمام بارتباط روحه. واتخذ الإنسان الطبيعة والإنسانية هدفا عوضا عما فوق الطبيعة والكمال الإلهي، وبات الأمر الأهم ما يحققه الانسان في دنياه، لا ما ينتظره في العالم الآخر .ومطالب الانسان في هذه الدنيا إنما هي، عموما، غنى شخصية الفرد ونمو قواه العقلية، وقابليته المعنوية، واستثمار مظاهر الجمال المتنوعة، والحياة المجللة بالنعم الدنيوية، وهكذا خرج الانسان من كونه مربة للمشيئة الإلاهية، ومظهرا ثابتا للإنسان ليصبح ميدانا لتجاذب قوى الطبيعة وصدامها، فلا مفرا إذن للإنسان من الالتحاق بحلبة التنافس هذه.(محمد خاتمي،2000، ص ص 183-184).

خامسا- صدام الحضارات في المفهوم الاسلامي:

تقوم العلاقات الإنسانية في الرؤية الإسلامية، على أساس التعارف والتعاون على البر والتقوى، من منطلق وحدة الجنس البشري ووحدة الأصل المنبثق عن المشيئة الإلاهية. يقول جل وعلى في محكم تنزيله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: 13] .

والتعارف في المصطلح القرآني يتعدى المعنى اللغوي المباشر، إلى معاني أعمق مفهوما وأوسع دلالة. فلقد خلق الناس وجعلهم شعوبا شتى، وقبائل متفرقة، يسعون في الأرض من أجل غاية سامية قدرها الخالق سبحانه، هي التعارف فيما بينهم الذي يرقى إلى مستوى أعلى، هو تبادل المعرفة أو تبادل المعارف بكل ما في المعنيين من دلالات لغوية ومعرفية وانسانية عميقة. فكلما اتسعت المساحة المعرفية المتبادلة

بين الشعوب والأمم، على مختلف المستويات، ضايقت مساحة الخلاف، وانزوى الاختلاف، وتراجع، وفقد القدرة على التأثير السلبي الذي يلحق أقدح الأضرار بالمجتمعات الإنسانية. (عبد العزيز بن عثمان التويجري، 2000، ص10).

أما التقوى، التي هي القاعدة الثانية للعلاقات الانسانية والتي كُلف الانسان بها، وبالدعوة إليها وبالتعاون عليها، فهي كما يقول الشيخ محمود شلتوت، يرحمه الله: « أما تقوى الله تعالى فهي ترفع في معناها العام إلى إتقاء «الانسان كل ما يضره في نفسه وفي جنسه، وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة، والكمال الممكن في الدنيا والآخرة. والتقوى ليست خاصة بنوع من الطاعات، ولا بشيئ من من المظاهر، وإنما هي كما قلنا،اتقاء الانسان كل ما يضره في نفسه وفي جنسه، وما يحول بينه وبين الكمال الممكن. ومن ثمرات التقوى حصول الفرقان... مايفرق به المرء بين الخير والشر، والضار والنافع في هذه الحياة...فبالعلم الصحيح، القوة، العمل النافع، الخلق الكريم وما إلى ذلك من أثار التقوى، والتقوى هي الشجرة، والفرقان هو الثمرة.(محمد شلتوت، بدون تاريخ، ص571).

التدافع الحضاري في المفهوم الإسلامي هو سُنة الله في الكون، لا الصدام الحضاري، ليس يعني ذلك أن الحياة تسير وفق خط بياني صاعد ومطرد تتحقق فيه المصالح والمنافع للناس كافة في جميع الأحوال وترقى ذواتهم، وأن الخير يغلب الشر، وأن الحضارات تتواصل وتتلاقح وتتدافع ولا تتصارع، وقوله جل وعلى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [سورة الصف: 8] ونور الله في السياق القرآني هو المشيئة الإلهية، والإيمان بالله ونصرة المؤمنين وهو الخير، العدل، الفضيلة والسلام في النفس وفي الأرض. وتلك هي مقومات الحضارة التي تخدم الانسان مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف، الآية 21] وأمْرُ الله في هذا السياق القرآني أيضا، هو مشيئته تعالى الغالبة، وهو الحق والعدل الذان هما قاعدتا الحضارة التي يسعد الانسان في كنفها، ويبدع ويعمر الأرض ويصلح ولا يفسد.(عبد العزيز بن عثمان التويجري، 2000، ص11).

وفي المفهوم الإسلامي، فإن الصدام حالة عارضة، وهو شذوذ عن القاعدة، وليس طبيعة من طبائع الحضارات لأنه يتنافى والفطرة الانسانية، وهو نقيض التفاعل الحضاري الذي قامت الحضارة الاسلامية على أساسه، وهو إلى ذلك كله، البديل الموضوعي للفوضى التي تسود الأوساط الفكرية والسياسية في العالم اليوم، من جراء شيوع مفاهيم مغلوطة ورؤى مشوشة وتحليلات مغرضة تدفع بحركة الفكر العالمي وبالسياسة الدولية على وجه العموم. نحو مناطق مجهولة محفوفة بالمخاطر التي تُهدد الإنسانية في حاضرها وفي مستقبلها. (عبد العزيز بن عثمان التويجري، 2000، ص11)

إن الترويج لفكرة صدام الحضارات، يخدم أغراض فئة من البشر تسعى إلى إحكام سيطرتها على مقاليد الأمور في العالم أجمع ، وهي أغراض ليست بريئة وليست لها صلة بالأهداف الإنسانية النبيلة التي

تنبع من المبادئ والقيم الحضارية البانية للانسان، والعمران والحضارة. (عبد العزيز بن عثمان التويجري، 2000، ص11).

سادسا-التفاعل الحضاري كبديل للصدام الحضاري :

يذهب عديد المؤرخين إلى اعتبار الاختلاف الحضاري الذي يشهده عالم اليوم ما هو إلا تعاون واحتكاك فيما بينها، بدليل أن الحضارة الإسلامية احتفظت بمركز الصدارة منذ أوائل العصور الوسطى، لا في الشرق فحسب، بل كذلك في غرب اوروبا، إذ نمت الحضارة الغربية في ظل الحضارة الاسلامية التي هي أكثر منها رقيا وقتذاك، وكانت الحضارة العربية ...لا البيزنطية ...هي التي ساعدت العالم المسيحي في العصور الوسطى على استرداد نصيبه من التراث اليوناني العلمي والفلسفي (كريسنوفر دوسن، 1967، ص ص 203-204).

إن قاعدة التسامح التي يقوم عليها الاسلام فتحت امام الأمة الاسلامية السبيل إلى الاحتكاك الواسع بالأمم والشعوب. وشجعت الحضارة الإسلامية على التفاعل مع الثقافات والحضارات جميعا. ونعني بالتسامح الديني أن تكون لكل طائفة في المجتمع الإسلامي، الحرية في تأدية شعائر دينها، وان يكون الجميع أمام قوانين الدولة الإسلامية سواء .وإذا نظرنا إلى الإسلام من حيث مبادئه وتعاليمه الأصلية، نجد أنه ارقى الأديان في تحقيق مبدأ التسامح الذي هو القاعدة الأولى للتفاعل الحضاري. (أحمد أمين، 1952، ص ص 180-181).

إن التفاعل الحضاري يستند في مفهوم الفكر الإسلامي إلى مبدأ التدافع الحضاري لا الصراع الحضاري، وهو المبدأ القرآني المحض، الذي نجد له أصلا في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (سورة فصلت، الآية 34).

فالتفاعل إذا في المنظور الإسلامي، هو عملية تدافع لا تنازع، وتحاور لا تناحر. والتفاعل حياة، والتصارع فناء، والتفاعل الحضاري عندنا، حوار دائم ومطرد، ينشد الخير والحق والعدل والتسامح للانسانية قاطبة، ولا يسعى في الأرض بفساد. (عبد العزيز بن عثمان التويجري، 1998، ص ص 22-23) والتفاعل الحضاري يقي الإنسانية من السقوط الحضاري الذي تنتج عنه أزمة الحضارة. وهذا هو مأزق الانسان في العقد الأخير من القرن العشرين وإلى اليوم، ويعتقد كبار الفلاسفة التاريخ من بينهم "أزوالد شبنغلر" في كتابه "إنحطاط الحضارة" إلى أرنولد توينبي في كتابه دراسة للتاريخ أن حضارة الغرب العلمانية الإنسانية رغم ثرائها المادي وجبروتها العسكري تعاني من الام مبرحة، اذ فقدت القوى التي أدت إلى سيطرة هذه الحضارة قدرتها على الاستقطاب، وهاهي قوى التفكك والاضمحلال تتجاوز قوى التعاضد والتماسك، والمراسي التي تثبتت السفينة أخذة في التداعي، والقيم التي جمعت الناس معا تعاني من الاضطراب، ولم تعد العلل مقصودة على قطاع واحد أو عدد قليل من القطاعات، بل وأصبح نهر الحياة برمته ملوثا. (خورشيد أحمد، 1994، ص615).

خاتمة:

ومن خلال ما سبق عرضه من معلومات حول صدام الحضارات أو التفاعل الحضاري كبديل لهذا الصراع، يمكن أن :

- اعتمد الغرب على الروح الاستعلائية في مجال التقدم أو التطور الذي مس جميع المجالات، فكانت سياسته قائمة على تضخيم الأنا في مُقابل الاعتماد على النظرة الدونية لبقية المجتمعات الأخرى، والمجتمعات الإسلامية على وجه الخصوص.

- التقدم او التطور في مفهوم الغرب مُحتكر بين أيديهم دون سواهم، هذا ما ترك فجوة كبيرة بينهم وبين المسلمين، في حين الدين الإسلامي يدعو إلى التعايش، حرية التفكير وإبداء الرأي، والأكثر من ذلك الدعوة إلى روح التعاون وتجنب أسباب العداء أو الصدام.

- هذا ما يكشف لنا النظرة المادية دون النظرة الروحية لدى الدول الأوروبية والأمريكية في معالجة مثل هذه القضايا، وما أفرزته من مشاكل عويصة، أصبح يُطلق عليها اليوم الإرهاب الإسلامي، مع العلم انهم هم من إبتكر وجاء بهذا الإرهاب، وروج له وسائل الإعلام والإتصال الغربية.

- نتيجة أحداث 11سبتمبر 2001م، أصبح مفهوم الخطر الارهابي يقوم على أساس ثقافي حضاري وليس على أساس إيديولوجي واقتصادي أو سياسي، لقد أسست أحداث 11 سبتمبر لمفهوم جديد حول الخطر أو التهديد.

- في ظل تدهور الظروف الاقتصادية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تعيشها المجتمعات العربية الإسلامية يقابلها التطور الإعلامي والحضاري الغربي، فإن حوار الحضارات في هذه الظروف غير المتكافئة غير ممكن، وعليه فإن حوار المصالح هو الحل.

- وبالتفاعل الحضاري يتطهر نهر الحياة والحضارة من التلوث الذي يفرزه الصدام، وهيمنة الفكر المادي العلماني على الأفكار، الأقوال، الأفعال، الممارسات، أنماط السلوك ونُظم الفكر وأساليب الحياة. ولذلك نقول أن التفاعل الحضاري هو البديل للصدام الحضاري.

قائمة المصادروالمراجع:

*** القرآن الكريم :**

- ابن خلدون عبد الرحمان، **المقدمة** ، (1992م) ،الطبعة الأولى، لبنان،دار الكتب العلمية.
- ابن منظور،**لسان العرب**،(1988م). المجلد الثالث، طبعة يوسف خياط، دار الجيل.
- أمين، أحمد، يوم الاسلام،(1952م)، بيروت، دار الكتاب العربي.
- الخطيب سليمان، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، (1986)، ط1، الزهراء للعلوم العربية.
- بن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعيو،(1988م)، سوريا، دار الفكر.
- بن نبي مالك ،شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين،(1986م)، دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

- باومر فرانكلين، الفكر الاوروبي الحديث، الإتصال والتغير في الأفكار من 1600 إلى 1950، ترجمة أحمد حمدي محمود ،(1989م)، الجزء الثالث، القاهرة.الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- بن عثمان التويجري عبد العزيز ،صراع الحضارات في المفهوم الاسلامي،(2002م) الطبعة الأولى، المملكة المغربية منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيكو-.
- بن عثمان التويجري عبد العزيز ، الحوار من اجل التعايش،(1998م) القاهرة، دار الشروق.
- خاتمي محمد ،، فصول من تطور الفكر السياسي في الغرب، الطبعة الأولى، بيروت،دار الجديد.
- خورشيد أحمد، الانسان ومستقبل الحضارة من منظور اسلامي ،(1994م) عمان الأردن مؤسسة ال البيت للفكر الاسلامي.
- دوسن كريستوفر،تكوين أوروبا، ترجمة ومراجعة سعيد عبد الفتاح عاشورو محمد مصطفى زيادة،(1967م)، القاهرة مشروع الالف كتاب.
- سعدي محمد،مستقبل العلاقات الدولية،(2006م) ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
- شلتوت محمد ، تفسير القرىن الكريم، دار القلم، القاهرة.
- صبري مقلد إسماعيل، الإستراتيجية و السياسة الدولية، ط2، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية.
- فوكوياما فرانسيس، نهاية التاريخ و آخر البشر، ترجمة و تعليق: حسين الشيخ،(1992م) ط2، بيروت، دار العوم العربية.
- كيبش عبد الكريم و عبد اللطيف بوربي، إشكالية الصراع الحضاري في مرحلة العولمة، مجلة الفكر، جامعة بسكرة.العدد الثالث.
- مؤنس حسين، الحضارة، (1987م)،سلسلة عالم المعرفة،ع1، الكويت، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب.
- الكيالي عبد الوهاب و الزهري كامل، الموسوعة السياسية، ، (1974م) الطبعة الاولى، بيروت،المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- المنجد في الإعلام واللغة،(2008م)، الطبعة الأربعون،بيروت، دار المشرق.

دور المسلمين في العناية بمجتمع الحيوان ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط

The Role of Muslims in Spreading the Care of Animal Society in Maghreb Countries During the Middle Ages

ط.د/ زكية بن عمارة، جامعة الجزائر2-أبو القاسم سعد الله-الجزائر
benamarazakia191991@gmail.com



لطالما اعتبر مستوى إيجابية المجتمعات على مر العصور هو تحضرها وتطورها مع المجتمعات الأخرى المتعايشة معها سواء تعلق الأمر بالمجتمعات الحيوانية منها أو النباتية المتواجدة في نفس البيئة والمحيط الجغرافي خاصة وأنه في يومنا هذا قد أصبح معيارا رئيسيا لتطور البلدان وتقدمها، وبما أن معظم المجتمعات الحالية قد تأثرت بنسبة أو بأخرى بالمعتقدات المنتشرة العائدة في كثير من الأحيان إلى آثار ثقافية دينية سابقة انعكست بالإيجاب أو بالسلب على التكوين الفكري لهذا فإن هذا البحث قد عمد إلى الإجابة عن إشكالية محورية تمثلت دور في المسلمين في العناية بمجتمع الحيوان ببلاد المغرب خلال العصور الوسطى على اختلاف جوانبها وتأثيراتها ؟ بالاعتماد على المنهج التاريخي ذي الطابع السردي والوصفي للتوصل إلى انعكاسات ذلك على مجتمع الحيوان المتواجد في محيطه.

الكلمات المفتاحية: الإسلام،، المسلمين ،،مجتمع الحيوان،، بلاد المغرب،، العصر الوسيط.

Abstract :

The level of positivity of societies throughout the ages has always been considered to be attended the field of dealing with other societies, especially since it has continued to this day to become a major criterion for the development and progress of countries, and since most of the current societies have been affected to one degree or another by the beliefs spread in them and belonging to the Often to previous religious cultural monuments belonging to medieval, this research has intended to answer a central problem represented in the role of Muslims in caring for animal society in the Maghreb during the Middle Ages? By following the method of research, investigation and presentation of the various details associated in all its parts until the correct knowledge of them.

Keywords: Islam, Muslims, the Maghreb, the middle Ages, the animal society.



مقدمة :

احتوت أراضي بلاد المغرب خلال الفترات المتباينة للعصور الوسطى على العديد من الأفراد المختلفين في الانتماءات الجغرافية والثقافية وحتى الدينية المنعكسة بدورها على التكوبن الفكري والثقافي لها الأمر الذي انعكس بدوره على طرق التعايش مع غيرها من المجتمعات بما فيها مجتمع الحيوان المختلف في الجنس والنوع وطرق العيش على هذه الأراضي، وبما أن الدين الإسلامي وتعاليمه قد انتشرت بها فهي ولا بد قد أثرت على أفرادها على عدة مستويات، المستويات التي هدفت إشكالية هذا البحث إلى إبرازها من خلال الإجابة على إشكاليتها المتمحورة حول دور الدين الإسلامي والمعتنقين له في العناية بمجتمع الحيوان القاطن عليها والتأثيرات المختلفة المتماشية معه أو الناتجة عليه، والتي اندرجت ضمنها عدة فرضيات أبرزها:

-ما هي أبرز المجالات التي ساهم من خلالها المسلمون في إبراز دور دينهم الإسلامي في العناية بمجتمع الحيوان بهذه البلاد وخلال هذه الفترات؟

-في ما تمثلت الطرق المتبعة لتحقيق العناية الصحيحة تجاه هذه المجتمع؟

-ما هي أبرز الانعكاسات الناتجة عن اتباع هذه الطرق؟

وقد اعتمد بغرض العرض الجيد للبحث على المنهج التاريخي ذو الطابع السردي والوصفي للتوصل إلى المعلومة الصحيحة وعرضها بالطريقة الأصح.

أولا-مجالات مساهمة الإسلام في العناية بمجتمع الحيوان:

1.المجال السياسي والعسكري: عرفت أراضي بلاد المغرب خلال فترات العصور الوسطى العديد من الممارسات الإنسانية العسكرية المختلفتة في الأسباب والأحداث والنتائج أبرزها ما أورده إبن خلدون(توفي 808 هـ/1406 م) عن بعض "أنواعها التي لم تزل واقعة منذ الخليقة، والتي كان سببها في أكثره إما غيرة وإما منافسة وإما عدوان وإما غضب لله ولدينه وإما غضب لِمُلْكٍ وسعي في تمهيده، ويكون الأول بين القبائل المجاورة والعشائر، والثاني في اللأمم الوحشية الساكنين بالقفر والعرب، وهَمُّهُمْ غلب الناس على ما في أيديهم، والثالث هو الجهاد والرابع يقوم بها الخارجون عليها المانعون لطاعتها" (خلدون، 1421 هـ/2001 م، صفحة ج 1،ص 334)، و وضح الإسلام بعض تفاصيلها المرتبطة بعدم التعدي على الحيوانات والأطفال الصغار والنساء كونهم غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم وأنها مجتمعات أمثالنا نحن البشر (ورش، 27 /2 /1977م، صفحة سورة الأنعام،الآية 38 ،ص 132) (ورش، 27 /2 /1977م، صفحة سورة البقرة، الآية 217 ،ص 34) (ورش، 27 /2 /1977م، صفحة سوورة الأنفال، الآية 16 ،17 ،ص 178 ،179) ، ومن أبرز أضرار هذه الممارسات على مجتمع الحيوان ما وضحه أبو زكرياء(توفي 500 هـ/1107 م)عن منع الماء عنها ومعاملتها بعنف حتى يتمكن منها التعب والإرهاق والعطش بغرض تمويه الطرف الآخر ما عكس القرارات الغير صائبة للقادة العسكريين بهدف إنجاح هذه الأخيرة-الممارسات العسكرية-خاصة وأن معظمهم قد اشتمل على مؤسسين للدول بقوله: "اشتدَّ الحصار وطوَّقَ سبعة أطواق من الخيل وكان من القوم المحاصرين رجل يهودي أمر بجمال فزُمت أفواهها فعطَّشها ثم أخذ فوقها على حُرفٍ كريمة فجعل لهم في

قِصاعٍ كِبارٍ زَيتاً فإذا نظرت الجِمَالُ إلى ما في القِصاعِ جعلت أفواهها في القِصاعِ، فمن رآها من العَدُوِّ كريمة حسب أنها تشرب، وإذا اَعْيَتْهَا أَزِمَتُها رَفَعَتْ رؤوسها فَنَفَضَتْ الزيت عن مَناخِرها، ومن بَعُدَ عنها حَسِبَ أنها تَشْرب" (زكرياء، سير الأئمة وأخبارهم، 1399 هـ/1979 م-1402 هـ/1982 م، صفحة 173) خاصة وأن هذه الممارسات قد تكررت فكان منها"تعرض السوس للغزو سنة 529 هـ/1135 م، والوقائع والغزوات التي قام بها الموحدون سنة 530 هـ/1136 م، وتعرض إفريقية للغزو سنة 575 هـ/1180 م" (المراكشي، صفحة 12 ،13) .

وأورد إبن الأثير(توفي 630 هـ/1233 م)الأخطار التي لحقت بها نتيجة حدوث هذه الممارسات ضمن ظروف مناخية غير ملائمة وهلاك بعضها نتيجة البرد والجوع وتدهور الأحوال الصحية لها ناهيك عن الأخطار الناتجة عنها عليها إثر وقوعها وبعدها في حديثه عن"نزول جيش من الأندلس إلى عبد المؤمن بن علي في فصل الشتاء فتوالت الأمطار وصارت الأرض كثيرة الوحل تَسْرَخُ فيها قوائم الخيل إلى صدورها وهلكوا جوعا وبردا وسوءَ حالٍ" (الأثير أ.، 1407 هـ/1987 م، صفحة ج 9 ، ص 202).

2.المجال الإقتصادي: تطرق الدين الإسلامي إلى بعض المعاملات التجارية التي احتاجها الإنسان في حياته اليومية كما تطرق إلى ضرورة عدم إلحاق الأخطار بمجتمع الحيوان القائم بها خاصة إثر التنقل والترحال كونها تلقى فيه من التعب والإرهاق الشيء الكثير فلا داعي لزيادة الحمل عليها ومعاملتها بالشدة حتى أنه وضعت بعض الأحكام لضبط التسيير الحسن لها على حد قول إبن قُدامَةَ المقْدِسِيّ(توفي 620 هـ/1223 م)عن"مسألة ضرب الدابة بما جرت عليه العادة أو كَبْحِها باللِّجام لأجل الإصلاح" (المقدسي، 1421 هـ/2000م، صفحة ج 14، ص 494)خاصة وأن معظم المؤلفين قد أشاروا إلى هذه التصرفات النابعة من أشخاص نسبوا إلى أنفسهم المهدية والأخلاق الحسنة، الأخلاق التي عبرت عنها بصدق أفعالهم على أرض الواقع تجاه مجتمعات دعى إليها دينهم الإسلامي إلى تجنبها حسب ما وضحه إبن الأثير عن عُنف"إبن تُومَرْتَ"تجاه الحيوان بذكره لإحدى الحوادث الواقعة سنة 514 هـ/1121 م بقوله:"بينما إبن تومرت وعبد المؤمن بن علي في طريقهما إذ شاهدا أخت أمير المؤمنين في موكبها ومعها من الجواري الحِسان وهُنَّ مُسْفِراتٌ، فأمر بِسَتْرِ وُجوهِهِنَّ وضرب هو وأصحابه دوابهن فسقطت أُخْتُ أمير المؤمنين عن دابتها- يمكننا تخيل مدى شدة الضرب الذي تعرضت له الدواب من هؤلاء لدرجة دفع بها إلى إسقاط راكبها مع كونها من الحيوانات المتحملة للأثقال والضرب الذي أشار إليه إبن قدامة في العنصر السابق كما كشفت عن أخلاق مرتكبها كونها لم تكن القائمة بالفعل الخاطئ أي أنها عوقبت بسبب ذنب لم تفعله-" (الأثير أ.، 1407 هـ/1987 م، صفحة ج 9، ص 196).

وقد أشار إبن الأثير إلى نتائج هذا الفعل وعقابه يوم لا ينفع إنسان إنسانا في قوله:"إمرأة ربطت هرة فلم تُطعمها ولم تدعا تأكل من خشاش الأرض أي هوامها وحشراتها، وحديثه عن العصفور: لم يَنتفع بي ولم يدعني أَخْتَشُ من الأرض" (الأثير أ.، صفحة ص 33).

وبغرض إبراز الدور الكبير الذي لعبه مجتمع الحيوان في حياة الإنسان وضرورة التصرف تجاهه بما يرضي الله فقد خصص الله سبحانه وتعالى سورا كاملة في كتابه الكريم بإسم الأنعام والنحل حتى يتفكر

الإنسان فيها ويضمن حقوقها قبل أن يمارس واجباته عليها و وضح منافعها واستخداماتها في الأكل والدفء والتنقل الاستراحة أي الاعتماد عليها في التنقل لمسافات بعيدة لتوفر بذلك الجهد والتعب عليه (ورش، 27 /2 /1977م، صفحة الآية 136 ،137 ،142،ص 145 ،146) كما ذكر الدرجيني(670 هـ/1272 م)"قول أحدهم لأمير المؤمنين إن فرسي قد أتعبه السفر فلو أمرت لنا يا أمير المؤمنين بخيل، فأمر الإمام رحمه الله بدخول بيت الدواب لاختيار خيل مناسبة، فدخل واختار فرسا" (الدرجيني، صفحة ج 1 ،ص 60).

3.المجال الاجتماعي والثقافي: انتشر بين عامة بلاد المغرب العديد من الأفكار الخاطئة حول ممارسة أعمال سيئة استهدفت مجتمع الحيوان في تطبيق بعضها مما دفع بالمسلمين إلى مواجهتها وجعل مرتكبها مشركا بالله سبحانه وتعالى وهي السحر، السحر الذي انتشر بنسب متفاوتة ضمن هذه الأراضي حتى أن معظم المؤلفين قد أوردوا أكثر شخصية واجهت الفاتحين المسلمين بلقبها دون العودة إلى اسمها الحقيقي وهو الكاهنة بجبل الأوراس (عذارى، 1421 هـ/2013 م، صفحة ج 1،ص 224)، وما كشفه قول صاحب الاستبصار(6هـ/12 م) عن"رجل رحل من المشرق ودخل تامَسْنا من بلاد المغرب فوجدهم جُهالا وذلك سنة 123 هـ-741 م ورأى من السِّحر كثيرا، ومدينة قَصْرِ صَنْهاجَةَ التي احتوت كاهنة ساحرة تدعى"حاميم" وكانت لها أخت تسمى"دَبو" ساحرة كاهنة أيضا كان الناس يستغيثون بهما في كل حرب وضيقٍ، ورجل من السحرة المَهَرَةِ عرف باسم "إبن كُسَيَّةَ"كان أهل موضعه يسمعون منه ولا يعصونه طرفة عين، فإن عَصاه أحد منهم حَوِلَ كَسَاهُ الذي يَلْتَحِفُ به فَيُصاب ذاك الإنسان في ماله أو بدنه أو كلاهما صائبة أو عاهة وإن كانوا جماعة أصابهم مثل ذلك، وذكر مدينة تَبَسَا التي صُوِّر خارج حيطانها هيكل مِن صُوَرِ جميع الحيوانات بأغرب ما يكون من التصوير وقيل بأنها كلها طلاسم ووُجدت في خرائبها طلاسم وقد دخلتها فأعطاني إنسان من أهلها طَلْسَمًا" (مجهول، الاستبصار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب"، صفحة ص 161 ،191 ،192 ،212).

كما أشار إبن منظور المتواجد بهذه البلاد بسبب تولية منصب القضاء إلى أن أفراد بعض المناطق يصيبون بعض هذه المجتمعات بالعين عند اكتمال قوتها وجمالها وصحتها بقوله: "أن تصيب الضرع عَيْنٌ أو يُصاب الفرس بالعين فَيُصيبُه الدُّوار، وقيل فُلانا لَقَعَ فَرَسَكَ بعينه وأصابه بها فأصابه الدُّوار (منظور، صفحة مجلد 7 ،ص 285 ، مجلد 8 ،ص 231) .

ثانيا-مراحل العناية الإسلامية بمجتمع الحيوان:

1.الملاحظة والتدوين: تمكن إنسان بلاد المغرب من خلال ملاحظته لمحيطه إلى التوصل للعديد من الاكتشافات الخاصة بالتغييرات اللاحقة بأجسام هذا المجتمع عبر جوانب مختلفة من حياته، والذي تمكن من تقييدها عن طريق تدوينها ضمن مؤلفات تنوعت أفكارها ومعلوماتها بحسب مؤلفيها واختلاف انتماءاتهم الجغرافية والدينية كما هو حال إبن القيم الجوزية(توفي 728 هـ/1328 م)المتحدث عن طب الإنسان المعتمد في العديد من جوانبه على ملاحظة مجتمع الحيوان والممارسات التي استخدمها في حالة الإصابة بالعلة، بقوله: "إنَّ كثيرا من"الطب"أُخِذَ من الحيوانات البَهيمية كما نشاهده عند بعضها إذا

غَشِيَتْ أبصارها تأتي إلى ورق النبات وتُمرِّغُ عَيْنَيْها فيه، وأضاف أن من الأعراض التي أمكن حدوثها في جسم الحيوان المصاب بالطاعون عرض فساد العُضو وعرض الرُّشْحُ دمًا وصديدًا، وأضاف أنه أمكن من خلال معرفة دلائل الأعراض معرفة درجة خطورة العلة بقوله عن أسوأُ الطاعون الأحمر ثم الأصفر ثم الذي إلى السواد فلا يُفْلَتُ مِنه لأنه يُعبِّرُ عن ثلاث أمور هي الأثر الظاهر والموت الحادث عنه والسَّببُ الفاعل لهذا الوباء-كل طاعون وباءٌ لكن ليس كل وباءٍ طاعون-" (الجوزية، الطب النبوي، صفحة ص 28)، وأضاف إبن خلدون أن الإنسان من خلال إنتاجه للحيوان لاحظ الأعراض المختلفة الحادثة عليه ما دفعه للقيام بأعمال سَهَّلَتْ عليه الإنتاج بقوله: "من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنَّحل والدُّود لنتاجها واستخراج فضلاتها-هؤلاء القائمون على الفَلْحِ والحيوان-تدعوهم الضرورة ولا بُدَّ إلى البَدو لأنه مُتَّسَعٌ لما يحتوي من الحواضر من المزارع والمسارح للحيوان" (خلدون، 1421 هـ/2001 م، صفحة ج 1،ص 149)، واختص بعضها بذكر الصعوبات الطبيعية التي عايشتا كما هو حال إبن أبي زرع(توفي 726 هـ-1326 م)المتحدث عن التغييرات اللاحقة به إثر وقوع ظاهرة الزلزلة بمناطق مختلفة من أراضي بلاد المغرب بقوله: "الزلزلة التي لم يسمع الناس بمثلها سنة 267 هـ/881 م حتى اِنحطت منها الصخور والجبال وفرت الطيور من أوكارها و فِراخِها ومَاجَتْ في الهواء زَمانًا حتى سكنت الزلزلة (زرع، صفحة ص 67)، وحديثه عن"وُقوع ظاهرة الرَعد والبَرْق الشَديدَيْنِ والأعاصير في بلاد المغرب لتشمل منطقة المغرب وإفريقية وفاس سنة 307 هـ/920 م، والرياح الشديدة التي قلعت المباني بالمغرب سنة 342 هـ/954 م، والرياح الشديدة سنة 355 هـ/966 م التي اقتلعت الأشجار وأسقطت الديار وقتلت الرجال، وتكرارها سنة 379 هـ/990 م، وهَبّوب الرياح الشرقية بالمغرب ستة أشهر ثم أعقبها الوباء والأمراض الكثيرة التي مسَّتْ تلمسان سنة 385 هـ/995 م...ونَظَرَ الناس إلى البهائم بين السماء والأرض، وجَرَتِ الريح الشديدة بمنطقة مَكْناسَةَ وفاسَ وتازَةَ سنة 722 هـ/1322 م، والسَحاب والظُلْمَة الشديدة والإعصار العظيم...بمنطقة فاسَ سنة 724 هـ/1324 م نتج عنها حمل الناس والدواب والبقر والخيل والغنم والإبل وإهلاك الكروم و الأشجار" (زرع، صفحة ص 98 ،100 ،101 ،102 ،116 ،117 ،274 ،412 ،413).

وقد وضح حديث ابن مَنْظُورٍ(711 هـ/1312 م) التغييرات الحادثة على "بعض الحيوانات المتأثرة بالبرد أبرزها الماشية التي يكسرها البرد أو الطيور التي تغادر أماكن عيشها بمجرد تغير المناخ فيها كطائر الفَيْئَةُ الذي يشبه العقاب إذا خاف البرد اِنْحَدَرَ إلى اليَمَنِ، وذكر أن الحيوانات قد عَبّرت عن تعرضها للبَرْدِ بطرق مختلفة منها الصوت والفِعل كهَرِيرِ الكلب أي صوته عند عدم تحمله للبرد واشتداده عليه، واِكْتِنافِ الناقة إذا أصابها البرد بالإبل الأخرى لتَسْتَتِر من البرد" (منظور، صفحة مجلد 1 ،ص 127 ،182 ،مجلد 5، ص 260،مجلد 9،ص309).

ومن أهم التغييرات الحاصلة على مستوى الصحة لديها ما أورده البخاري (توفي 256 هـ/870 م) في قوله:"حَدَّثَنَا محمد بن عبد الله قال: حدثني أبي قال:حدثني أُمامَةُ أَنَّ أَنَسًارضي الله عنه، حَدَّثَهُ أَنَّ أبا بَكْرٍ رضي الله عنه كَتَبَ له التي أمر الله ورسوله ﷺ:لا يُخْرِجُ في الصَدَقَةِ هَرِمَةٌ ولا ذَاتُ عُوارٍ" (البخاري، 1463 هـ/2002 م).

وبَيَّنَ حديث الجاحظ(توفي 255 هـ/869 م)قدرة الإنسان على ملاحظة بعض الأعراض المرتبطة بتغير أَلْوانِ بعض أعضاء الحيوانات ودورها في إدراك التغييرات التي ألحقها بها الزمن في حديثه عن معرفة عُمر الكلب من خلال ملاحظة أسنانه بقوله: "يعرف فَتاءُ الكلب وهَرَمُهُ بالأسنان، فإذا كانت سوداء كانت دليلا على كِبَرِهِ وإذا كانت بيضاء دَلَّتْ على الفَتاءِ والحَداثة، وأسنان الذكر أكثر-في الدلالة على ذلك-" (الجاحظ، 1385 هـ/1965 م، صفحة ج 2 ،ص 212).

وذكر البيهقي(توفي 458 هـ/1066 م)"عدم أخذ الساعي مريضا ولا مُعِيبًا، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اختيار الحيوانات الخاصة بالصدقة وأنه لا يجب أن يُؤخذ فيها الهَرِمَةٌ ولا ذات العُوار" (البيهقي، 1424 هـ/2003 م، صفحة ج 4، ص 161).

2.التجربة والتطبيب: توجه الإنسان بعد ملاحظته واكتشافه للتغييرات الحاصلة على أجسام جسم الحيوان إلى تجربة ذلك وتطبيقه على أرض الواقع حتى يتمكن من استخدامها في حالات العلة المنتشرة ،ومن أبرز التجارب التي شاهدها على أرض الواقع ما وضحه العمري(توفي 749 هـ/1349 م)بقوله:"إن اللبؤة إذا ولدت الشِبل انخدش رَحِمُها من بَراثِن الشبل المولود فتمرض مرضا شديدا فيأتيها اللَّيْث بالحِرباء فإذا أكلتها برأت من مرضها، والخنزير إذا مرض أكل السرطان فيزول عنه مرضه، والفيل إذا مرض أكل الحية فيبرأ من مرضه، والحدأة إذا مرض أكل من ريشه فيبرأ من علته، والعصفور إذا مرض أكل لحم الحمار فيبرأ، والعقاب إذا مرض أكل أكباد الطير والسباع الصغار كالأرانب والثعالب لأنها تنفعه من أمراضه، وإذا مرض النَّسْرُ أكل لحم الإنسان وإذا أظلم بَصَرُه مَسَح عينيه بِمَرارة الإنسان حيث يتبع العساكر طمعا في لحم القتلى كما يتبع الأنعام زمن حملها طمعا فيما أَلْقَتْ به بعد الوِلادة، وإذا مرض الهُدهد أكل العقاب الجبلي فيزول مرضه، والشاهين إذا مرض أكل الدَّراريج فيزول مرضه" (العمري، 1406 هـ/1985 م، صفحة ج 20، ص 47 ،49 ،51 ،62 ،68 ،79 ،80 ،96 ،104 ،105 ،107 ،109 ،137 ،140)كما استخدم الإنسان بعض هذه المجتمعات في تطبيب حالات العلة المستقرة بجسمه كما وضحه العمري في حديثه عن"رجل رأى خنفساءً، فقال: ماذا أراد الله بخلق هذه؟ حسَّن صورتها أو طيَّب رائحتها؟ فاتفق أن اِبتلاه الله بقرحة عجز عنها الأطباء الحُذاق حتى سمع يوما طبيب ينادي في الدُروب فأمر بإحضاره، فقالوا ماذا يصنع شخص بقُرحة قد عجز عنها الأطباء الحُذَّاق الماهرون؟ فقال احضروه فلا ضرر علينا في ذلك فأحضروه فلما شاهد القُرحة قال: عَلَيَ بخنفساء،فَأُتِيَ بها فأحرقها ودَرَّ رمادها عليها فبرأت، فتذكر الرجل كلامه وقال: إنَّ الله تعالى أراد أن يُعرِّفني أن أخسَّ الأشياء أعز الأدوية" (العمري، 1406 هـ/1985 م، صفحة ج 20، ص 123) ، وذكر ابن منظور استخدام"العَنِيَّة التي تظم أبوال الإبل وبعض الأخلاط فتخلط ثم تُحبس زمانا من الشمس ثم تُعالج بها الإبل الجربى" (منظور، صفحة مجلد 15، ص 102).

ثالثا-انعكاسات المساهمة الإسلامية في العناية بمجتمع الحيوان:

1.الانعكاسات الإيجابية: لطالما دعى الدين الإسلامي إلى التفكر في المحيط بما احتواه من كائنات حية وظواهر وتغييرات بغرض أخذ العبرة والاستفادة منها في تسيير شؤونة الحياتية، والتي أشار إبن الأبار(توفي

658 هـ/1260 م) إلى بعضها ففي حديثه عن العلاقة الجامعة بينه وبين بعض المجتمعات الحيوانية التي تجاوزت حدود الصداقة العادية إلى المحبة والقرب ما دفعه إلى قول الأبيات الشعرية الكاشفة عنها أبرزها ما قاله بعضهم عند فراق كلبه إثر وَطْئِ فرسٌ له حول خبائه، فقال فيه هذه الأبيات:

فَكَمْ غَنَّيْنَا وَقَدْ رُحْنا إلى قَنصٍ   بِبَعْضِ حَضْـرِكَ عن قَرْعِ الظَنابيـبِ

ونَابَ نابُك في ما كُنْتَ تَفْرَسُـهُ   مِنَ الظْباء عَنْ الصُّـمِ الأنابِيــبِ

قَدْ كُنْتَ تُولِي الرَّدَى مَنْ حَـانَ   مَوْعِدُهُ حَتى أتاكَ لوَعْدٍ غَيْرِمَكْذوبِ" (الأبار، الحلة السيراء، 1963 م/1985 م، صفحة ج 2، ص 274)

ومن أبرز هذه العِبر ما أشارت إليه بعض المؤلفات نحو سعي هذا المجتمع إلى خدمة نفسه بنفسه دون انتظار أي تدخل خارجي عنه ليقوم بهذه المهمة، وهذا ما كشف عنه الحوار الجَامع بين الذئب وباثمان إثر المجاعة الحادثة بجبل نفوسة، بقوله:"خرج باثْمانْ يَسْتَقِي فَنَظر فإذا ذئب فقال له باثمان بِلِسانِ البربرية كلاما ترجمه بالعربية...هَلُمَّ فامْسِكْ لي السِّقايَة يا آفة الغنم، فأنطق الله الذئب وأجابه باللِّسان أيضا بما ترجمه:أنا ساعٍ في تحصيل مَعيشتي إذ لَسْتُ مِثلك يا باثمان تَدَّخِرُ الشَعير الحَوْلِيِ" (الدرجيني، صفحة ج 2، ص308).

كما استخلص الإنسان بعض الحيوانات المبينة لردود أفعال كشفت عن ذكاءها في حديث العمري عن"الثعلب الذي يجمع بعض العَنْصَل ويرميه حول وِجارِه وينام هانئا من الذئب لأنه إذا وقع عليه مات، وإذا جاع رمى بنفسه في الصحراء مُتناوما ويَمُدُ رجليه ويديه وينفخ في بطنه حتى يظن الطير أنه ميت من أيام فيجتمع عليه ليأكله فيَثِبُ عليه ويصيد منه، وإذا تَوَلَّدَ في جسمه القمل وتأذى منه أخذ لِيفة أو صُوفة ونزل في الماء قليلا قليلا حتى يجتمع القمل في تلك الصوفة فيرميها ويستريح منه" (العمري، 1406 هـ/1985 م، صفحة ج 20، ص 49 ،50)، وعن دهاء الكلب قوله: "أنه إذا أُرسل على الظباء ترك العَنْزَ وتَبِع التَّيْس رغم أنه أشد عدوا لِعِلْمِه أن التَّيس يعتريه البول من الفزع فلا يستطيع الإراقة من شدة الحَصْرِ فيقل عدوه لإراقته فيلحقه، وذكر أن من عجائبه في الصيد أنه يخرج في يوم الثلج ووجه الأرض كُله مغطى به ومعه الصياد المُجرب فلا يعرف موضع الصيد البتة رغم عقله وتجربته، فيذهب الكلب يمينا ويسارا حتى يقف على موضع الصيد وذلك لمعرفته بالنفس الخارج من الصيد رغم تواجده تحت الثلج كونه-الصيد-يُذيبُ ما والاه من الثلج حتى يرق ويخرج منه البخار وهذا غامض يعرفه الكلب ولا يعرفه الصياد الماهر، وأضاف أن من عجائبه ما قام به مع شخص نزع ثيابه ليخوض في الماء فَعَضَّ رجله فأوجع الرجل فضربه بالسيف فوقع في الماء، فإذا تحت الماء تِمساح يريد أن يخطف الرجل قد أحس به الكلب فَعَضَّهُ ليتأخر عن الماء وينْتَبِه لنفسه فأخذ التمساح الكلب وغاص به" (العمري، 1406 هـ/1985 م، صفحة ج 20، ص 62).

وتمكن الإنسان من تحقيق التطبيب المناسب للعديد من الأدواء المنتشرة بين مجتمعاته بالاعتماد على مجتمع الحيوان حسب ما بينه ابن الجزار القيرواني (توفي 369 هـ/979 م) عن "استخدام العقارب المحروقة في علاج الحصى الموجودة بعضو الكُلَى" (القيرواني، صفحة ص 20)واستخدامه في تطبيب

حالات العلة المتواجدة بأجسام حيوانية أخرى أي تطبيب جسم الحيوان بمكونات جسم حيوان آخر حسب ما وضحه ابن منظور عن "تسمين الإبل باستخدام عَتيقِ الشَحْمِ وعلف الخيل هَشيمَ السَّمَك عند عَوَزِ العَلف وإطعامها اللَّحم إذا عَزَّ الشَجر، وتطبيب بعض حالات العلة الجلدية باستخدام ألبان الإبل مع المِلْحِ، وسقي الخيل الألبان إذا أجدبت الأرض فتكون مقام العَلَفِ، وحديثه كذلك عن العَيِّنة بأنها أبوال الإبل يُؤخَذ معها أخلاط فتُخْلط وتُحْبَسُ زمانا مُحدَّدا عن الشمس وتُعالَجُ بها الإبل الجَرْبَى" (منظور، صفحة مجلد 4، ص 7، مجلد 6، ص 364).

وتحدَّث ابن بطوطة(توفي 779 هـ/1377 م)"عن تاجر تلمساني كان في قافلة فأدْخَلَ يده في جُحْرِ ضَبٍ ليُخرجه فوجد مكانه حَيَّة فأخذها بيده فلسعته في سَبَّابَتِهِ اليُمنى وأصابه وَجَعٌ شديد فَكُويت يَدُهُ، وازداد ألمه عَشِيَ النَّهار فَنَحَرَ جَمَلاً وأدخل يده في كِرْشِهِ وتركها كذلك ليلة ثم تَناثر لحم إصبعه فقطعها من الأصل، وأخبرنا أهل مَسوفة أن تلك الحية كانت قد شَربت ماءًا قبل لَسعه ولو لم تفعل لقتلته" (بطوطة، 1407 هـ/1987 م، صفحة ص 673، 689).

2.الانعكاسات السلبية: بفضل التفكر الذي قام به الإنسان تجاه المجتمعات المختلفة عنه في الشكل والقدرات وطرق الحياة تمكن من اكتساب معلومات شتى ضمن مجالات متنوعة كما أنه عجز عن تحقيق التغييرات الطبية تجاه بعض المجتمعات نتيجة عدم تحصيله لتفاضيل جل العلوم، وهذا ما وضحه إبن السيد حول تعرض جسم الحيوان لبعض أنواع العلة المستقرة بجسم الحيوان والمؤدية إلى هلاكه في حديثه عن حالة الخُمَّال وحالة الضُّلاع وحالة القُفاص وحالة القلاب وحالة الطَّنى وحالة الخَلَجِ وحالة العَرَكِ وحالة العَضُدِ وحالة القَصْرِ وحالة الخُراعِ وحالة المَيْقَعَةِ وحالة النُّقْرَة وحالة النُّفَّاض وحالة النُّقاز وحالة القُحال وحالة القُعاص عند الخيل والإبل وغيره، والتي استقرت في أعضاء ضرورية لضمان الحركة كعضو القوائم وعضو العِرق وغيره، بقوله:"الخُمال داء أخذ الفرس لا يبرح مكانه حتى يُقطع منه عرق أو يهلك، والضُّلاع داء في قوائم الخيل، والقُفاص داء تواجد في قوائم الدواب فألحق بها اليُبس ومنعها من الحركة ما ألحق بها الخطر والهلاك، والقلاب داء أصاب البعير فاشتكى منه فؤاده فمات" (السيد، صفحة السفر الخامس، ص 164، السفر السابع، ص 167).

وتحدَّث ان الأبار عن حالة الجرح المؤدية إلى هلاك الحيوان عند الأسد والنَّمر، بقوله:"عن مُلاعِبٍ من أهل الثقافة في اليوم المبارك أين وُجدت أربعة أُسُودٍ و نَمِرَانٍ يُدحرج إليها كرة متصلبة من خشب محكمة الصَّنعة تَحْجِبُهُ من بَأْسِها وهي رابضة وبِيَدِهِ حَدائِدٌ طِوالٌ في نهاية الإرْهافِ مُعدَّة لها فإذا أحسَّت به وَثَبَتْ على الكُرة فألقم أفواهها تلك الحدائد.... وأحيانا يُجْهِزُ بها عليها إذا لم يَأْمَنُ عاديتها، وقد حَضَّرَ بمجالها الرَّحْبِ للآخرين مَهَاوٍ تَسَعُ جُثثهم" (الأبار، الحلة السيراء، 1963 م/1985 م، صفحة ج 2، ص 261).

وأضاف ابن منظور بعض أنواع العلة المستقرة بجسم الحيوان والمؤدية إلى هلاكه منها علة الورم بقوله: "الورم في مُؤخر عرقوب الفرس يعظم حتى يمنعه المشي والسعي، والورم في حافر الفرس قيل بأنه داء أخذ في القوائم يُلحق بها الضعف وإن توفر التطبيب الإنساني المتمثل في الكي فإنه يجعله ضعيفا في حَمْلِهِ ومَشْيِهِ ما يجعلها عُرضة للخطر، وعلة الضَّواة وهي ورم أصاب البعير في الرأس ويغلب على العَيْنَيْنِ

مما يجعله عُرضة للخطر" (منظور، صفحة مجلد 3، ص 119 ،480،مجلد 14، ص490)، وقوله :"داء القُلاب في قلب البعير يشتكي منه ويموت من يومه، وقيل بعير مقلوب أو ناقة مقلوبة وهما غُدتان في الحلق وقيل قَلَبَ البعير قِلابا إذا لم تتم معاجلته من الغُدة فيموت، والكُلاب هو ذهاب العقل من الكَلَبِ فقيل كَلِب وكَلِبَت الإبل كَلْبا أي أصابها مثل الجنون الذي يحدث للكَلْبِ، وداء الطاعون عند الإبل يكون بظهور غدد من اللحم والجلد على جسمه، وقيل بأنه غُدة في أسفل البطن وقَلَّما يسلم منه، والبحَرُ هو شرب البعير الماء وإكثاره منه فيصيبه الداء ولا يبرأ منه إلا إذا تدخل التطبيب الإنساني المتمثل في الكي في مواضع مُحددة، وداء البَغَرِ عند الإبل تشرب فلا تَروى وتَمرض عنه فتموت، والنُقرة داء أخذ الشاة فتموت، والنُّقاُز داء أخذ في قوائم الغنم فَتَثْغوا ثَغْوَةً واحدة وتَنْقُزُ وتموت، والسُّواس داء أخذ الإبل في أعناقها فتَيْبَسُ حتى تموت، والقُعاص داء أخذ الدواب فَيَسيلُ من أنوفها شيء وقيل هو داء أخذ الغنم لا يُلبثها أن تموت، والنُّقَّاضُ داء أخذ الغنم فَتَنْفَضُ بِأبوالها أي تدفعها دفعا حتى تموت" (منظور، صفحة مجلد1،ص 687، 723،مجلد3 ،201 ،261 ،323،مجلد6،ص 108،مجلد7،ص 78).

واعتبر المرض من أشكال العلة المتواجدة بجسم الحيوان والمؤدية إلى هلاكه حسب المعلومات التي أوردها إبن منظور عن حالاته المتنوعة لدى الإبل والشاة، بقوله:"الإمجار أن تُلقح الناقة والشاة فتمرض فلا تقدر على المشي ما يجعلها عُرضة للخطر، وفي حالة غياب تدخل التطبيب الإنساني المتمثل في إخراج ما في بطنها بواسطة الجراحة فإنها تهْلكُ" (منظور، صفحة مجلد 2، ص 23،مجلد 5، ص 123) وعلة الإنتفاخ بقوله:"الحَبَطُ هو الانتفاخ عند الدواب أَيَّنْ كان من داء أو غيره فالإبل إذا أصابت مرعى طيبا أفرطت في الأكل حتى تنتفخ و تموت" (منظور، صفحة مجلد 2، ص 225،مجلد 7، ص 271)، وذكر علة الكسر بقوله"جَنَحَ البعير أي انكسرت أول ضلوعه مما يلي الصدر، وخَضَدَ البعير عُنق صاحبه إذا كسرها أثناء قِتاله فمات" (منظور، صفحة مجلد 3، ص 162)، وعن علة الوجع قوله:"المِلاح هو شكوى الناقة من حَياءِها فيؤذيها ولولا تدخل التطبيب الإنساني المتمثل في طلاء تلك المنطقة بالدواء ولصقها عليها فإنها لا تبرأ مما يجعلها مُعرضة للخطر، والحَصَلُ عند الفرس هو سف التراب عن البقل فيجتمع منه في البطن فيقتله وقيل حَصِلَ الفرس إذا اشتكى بطنه من أكل تراب النبت، والحقل داء في بطن الإبل من أكل التراب مع البقل وقيل حَقِلَ الفرس أي أصابه وجع في بَطنه من أكل التراب" (منظور، صفحة مجلد 2، ص 606،مجلد 11، ص 153 ،161).

خاتمة:

من خلال دراسة الموضوع تم التطرق إلى العديد من النقاط الضرورية التي ساهمت بصفة أو بأخرى في تأكيد كل مادعى إليه الإسلام أثناء انتشاره في مناطق مختلفة من بلاد المغرب خلال العصور الوسطى، والتي تمثلت في:

-دعوة الإسلام الإنسان للتفكر في محيطه وما احتواه من مجتمعات مختلفة عنه في الشكل والقدرات وطرق الحياة مكنته من ملاحظة واكتشاف جل التغييرات الحادثة عليها والتدوين حولها وتطبيقها على

أرض الواقع حتى تؤخذ الحكمة منها وتوضيح فكرة تعايش المجتمعات فيما بينها تحت ما يسمى الدورة الكونية للحياة الطبيعية على كوكب الأرض.

-تمكن الإنسان من خلال الملاحظة إلى اكتشاف طرق اتبعتها مجتمع الحيوان تجاه بعض حالات العلة المستقرة على مستويات مختلفة من أجسامها وطرق تطبيقها بنفسه دون انتظار الإنسان لفعل ذلك، وهذا ما يجب على الإنسان تطبيقه في حياته أي اعتماده على نفسه دون الإتكال على الغير في في شتى مجالات الحياة.

-من أهم مادعى إليه الدين الإسلامي وسعى إلى نشره المسلمون على اختلاف جذورهم الجغرافية وثقافاتهم ودياناتهم ببلاد المغرب عبر الفترات المختلفة للعصور الوسطى من خلال أخلاقهم وأمانتهم في نقل جميع المعارف والأحداث التي عايشوها بأنفسهم أو أخذوها عن غيرهم حول مجتمع الحيوان ونقلها إلى شعوب لاحقة عنهم وإخبارهم عنها بأسهل الطرق المتعارفة لديهم.

-من أبرز مراحل التطبيب لدى مجتمع الحيوان التطبيب الذاتي للحيوان أي محاولة تخلصه من الحالات السلبية بنفسه، والمرحلة الثانية التطبيب الإنساني المنقسم بدوره إلى قسمين رئيسيين هما التطبيب البسيط أي تقديم الغذاء في حالة عوزه وقلته له والقسم المركب المتمثل في عملية الكي والجراحة وغيره.

-من أهم التوصيات التي استخلصناها من خلال التطرق لهذا الموضوع هو نشر ثقافة التفكر في المحيط والكون بما احتواه من كائنات مختلفة عنا نحن البشر ودراستها بتعمن وتحليل حتى يتم التوصل إلى علاج الأمراض الحديثة المستعصية لأنه ولربما لم نتمكن حتى الآن من إيجاد التطبيب المناسب لها بسبب عدم البحث في المكان المناسب أي عدم استخدام طرق جديدة من البحث والتقصي في مجتمعات مختلفة عنا، وبما أن الدين الإسلامي قد دعانا إلى التفكر فإن هذا ليس اعتباطيا وإنما هو دعوة لهدايتنا إلى تخصيص أفكارنا فربما كان التطبيب بحوزتنا لكننا لم نهتدي إليه بعد أو هو بمقدرنا الوصول إليه لكننا غافلون عن البحث عنه في المكان المناسب.

-سيحتاج مستقبلنا إلى طرق تفكير جديدة وتجارب مستحدثة للتوصل إلى إيجاد طرق تطبيب جديدة لجل حالات العلة المنتشرة ومختلف التغييرات السلبية بأجسامنا أو بأجسام غيرنا من المجتمعات، وهذا لن يتحقق إلا بالتفكر والعمل بإتقان وصبر وصدق نية وجهد متواصل حسبما دعى إليه الدين الإسلامي، وهذه الأفكار التي نتسنتجها من خلال مراقبة غيرنا من المجتمعات خلال مختلف الفترات الزمنية.

-من أهم التوصيات التي يدعو إليها هذا الموضوع هو دعوة الباحثين للتعمق في الدراسات الخاصة بمجتمع الحيوان والنبات ببلاد المغرب خلال العصور الوسطى لأنها أسلاف لمجتمعات الحالية، وأن دراستها سيختصر الكثير من الوقت في مواجهة مختلف الأخطار اللاحقة بها كونها حاملة لنفس صفاتها الوراثية من جهة وأن التأثيرات الحاصلة عليها ستنعكس بنسبة أو بأخرى عليها وعلى الإنسان المعتمد عليها في تسير حياته لاتصال جميع العناصر المشكلة للبيئة والمحيطة فيما بينها.

قائمة المصادر:

- إبن القطان المراكشي. (بلا تاريخ). نظم الجمان لترتيب ماشلف من أخبار الزمان. دار الغرب الإسلامي.
- أبو الحسن إبن الأثير. (بلا تاريخ). النهاية في غريب الحديث والأثر. المكتبة الإسلامية.
- أبو الحسن علي بن أبي زرع. (بلا تاريخ). الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. فاس: دار المنصور.
- أبو الحسن علي بن إسماعيل إبن السيد. (بلا تاريخ). المخصص. لبنان: دار الكتب العلمية.
- أبو العباس الدرجيني. (بلا تاريخ). طبقات المشايخ بالمغرب.
- أبو جعفر أمد بن الجزار القيرواني. (بلا تاريخ). في المعدة وأمراضها ومداواتها. دار الرشيد.
- أبو عبد الله إبن بطوطة. (1407 هـ/1987 م). تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. بيروت: دار إحياء العلوم.
- أبو عبد الله أبو القيم الجوزية. (بلا تاريخ). الطب النبوي. بيروت: دار الفكر.
- أبو عبد الله بن الأبار. (1963 م/1985 م). الحلة السيراء. القاهرة: دار المعارف.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى. (1463 هـ/2002 م). صحيح البخاري. دمشق،بيروت: دار إبن كثير.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. (1385 هـ/1965 م). الحيوان. مصر: مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
- أبو لعباس إبن عذارى. (1421 هـ/2013 م). البيان النغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تونس: دار الغرب الإسلامي.
- أبي الحسن علي بن مكرم إبن الأثير. (1407 هـ/1987 م). الكامل في التاريخ. لبنان: دار الكتب العلمية.
- أبي زكرياء. (1399 هـ/1979 م-1402 هـ/1982 م). سير الأئمة وأخبارهم. لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- أحمد بن الحسن البيهقي. (1424 هـ/2003 م). السنن الكبرى. بيروت: دار الكتب العلمية.
- أحمد بن فضل الله العمري. (1406 هـ/1985 م). مسالك تلأبصار في ممالك الأمصار. لبنان: دار الكتب العلمية.
- القرآن الكريم رواية ورش بقراءة نافع. (27 /2 /1977م). القرآن الكريم. الجمهورية العربية السورية: وزارة الإعلام.
- 18.عبد الرحمن بن خلدون. (1421 هـ/2001 م). العبر وديوان المبتدأ ووالخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. لبنان: دار الفكر.

- 19.محمد بن مكرم بن منظور. (بلا تاريخ). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
- 20.موفق الدين أبو محمد بن المقدسي. (1421 هـ/2000م). المقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل. جدة: مكتبة السواد.
- 21.مجهول. (بلا تاريخ). الاستبصار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"صف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب". العراق: دار الشؤون الثقافية.

أثر الحملة الصليبية الأولى (488-492هـ/1095-1099م) في تشكيل صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب الأوروبي في العصور الوسطى

The Impact of the First crusade (488-492A.H/1095-1099A.D) on Shaping the Image of Islam and Muslims in the European West during the Middel Ages

ط.د/ ضيف الله عيسى، جامعة يحي فارس المدية-الجزائر
aissa1873@gmail.com



تهدف هذه الدراسة إلى إبراز مدى تأثير الحملة الصليبية الأولى (488-492هـ/1095-1099م) على تشكيل صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب الأوروبي في العصور الوسطى، من خلال ما كتبه المؤرخون الصليبيون الغربيون الأوائل المعاصرين لأحداثها والمرافقين لها، والذين شكّلوا صورة شامة عن الإسلام والمسلمين عبر كتاباتهم عن أحداث ومجريات هذه الحملة كشهود عيان قدموا تفاصيل دقيقة أسهمت في توضيح صورة الإسلام والمسلمين لديهم في تلك الفترة، وهذه الصورة المشوهة والمغلوطة انتشرت بعد ذلك في أوروبا على نطاق واسع وتجذّرت في الذهنية الأوروبية لعقود من الزمن، وحاوت هذه الدراسة معرفة الفروق إن وُجدت بين صورة الغرب الأوروبي للإسلام والمسلمين قبل أحداث هذه الحملة وبعد قيامها.

الكلمات المفتاحية: الحملة الصليبية الأولى ، صورة الإسلام والمسلمين ، الغرب الأوروبي ، العصور الوسطى.

Abstract :

This study aims to highlight the impact of the first crusade(488-492A.H/1095-1099A.D) expedition on shaping the image of Islam and Muslims in Western Europe during the Middle Ages .

Through what the Western European Crusaders' early contemporary historians have written and accompanying its events during that period of time Those who created a comprehensive and wide image of Islam and Muslims, whose writings on the events and of the First Crusade expedion came as eyewitnesses, provided accurate details that contributed to the image of Islam and Muslims during that period And this damaged image made was spread widely in Europe during that time to embed in their heads for coming decades.

Thus, this conducted study thrives to notice The difference if found , of how western Europe saw Islam Muslims before and after this first crusade took place

Keywords:the first crusade expedition, image of Islam And Muslims, Western European, the Middle Ages.



مقدمة :

كانت ومزالت العلاقات بين الدول تُحدّدُ بشكل كبير مستقبل ومصير الشعوب وثقافاتها وحضاراتها، وتساعد على بقاء أو استمرار أو حتى انتهاء ثقافة أو حضارة ما، والعلاقات الدولية ساعدت كثيراً حتى الآن في نمو المستوى المعرفي للشعوب تجاه بعضها البعض، وتعتبر الحروب الصليبية جزء رئيسي من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ومرحلة هامة ورئيسية من مراحل الصراع الطويل بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، كما تمثّل ذروة العلاقات الإنسانية بين الطرفين في العصور الوسطى، ولعلّ من أسباب هذا الصراع الصور والمفاهيم الخاطئة الموروثة من الماضي والتي ترسّخت لدى كل طرف عن الآخر، وبالرغم من كثرة الدراسات الحديثة التي تناولت جوانب شتّى في عصر الحروب الصليبية إلاّ أنها ركّزت على الجانب السياسي لهذه الحروب، كما أنّ معظم الكتابات التي تطرّقت إلى موضوع أثر الحروب الصليبية على الغرب الأوروبي تدور حول محور واحد وهو الآثار السياسية والاقتصادية والحضارية، ولا نجد دراسات كثيرة ومتعددة عن أبعادها التاريخية التي ساهمت في تشكيل صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب الأوروبي في تلك الفترة، ومن هنا ارتأيت المشاركة في فعاليات هذا الملتقى العلمي بهذه الأسطر المتواضعة والتي يتمحور موضوعها حول أثر أولى حلقات الحروب الصليبية في تشكيل صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب الأوروبي في العصور الوسطى، ألاَ وهي الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام والتي تكاد تحتل الصدارة بين جميع ما كُتب عن هذه الحروب .

وعلى ضوء ما سبق تعالج هذه المداخلة إشكالية أساسية مفادها :

إلى أي مدى أثّرت أحداث ومجريات الحملة الصليبية الأولى على تشكيل صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب الأوروبي في العصور الوسطى؟

أولا- الحروب الصليبية (المفهوم والدو افع) :

أ/- تعريف الحروب الصليبية : لا توجد حركة تعدّدت تعريفاتها بشكل كبير مثل الحركة الصليبية، وهذا التعدّد في التعريفات يدل على أنها حركة أثارت جدلاً كبيراً بين المؤرخين والباحثين وأسالت الكثير من الحبر ولا تزال تثير الجدل إلى يومنا هذا، ومردُّ ذلك إلى الزاوية التي نظر منها المؤرخون إليها كلُّ حسب إنتماءاته العرقية وإيدولوجياته الفكرية، ومن أقدم التعريفات للحروب الصليبية تعريف الكونت ريان " Riant " الذي عرّفها بأنها : "حروب دينية خالصة، دوافعها دينية، قامت بصورة مباشرة أو غير مباشرة من أجل اسْترداد الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين (بيت المقدس) من أيدي المسلمين" (Riant,1880, P12)؛ وطبعاً هذا القول يعبّر عن رأي المدرسة الفرنسية القديمة التي ترى بأن الدافع الديني هو الدافع الرئيسي لهذه الحروب وبالتالي فالحركة الصليبية في نظرهم حركة دينية خالصة، وهناك من رأى بأنها جزء من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (محمد مؤنس عوض،2000،ص11)،

وإحدى حلقات الصراع الطويل بين الشرق والغرب، وأنّ صراع الغرب الأوروبي مع المسلمين ما هو إلاّ امتداد لظاهرة تاريخية في الزمن القديم، ذلك الصراع التقليدي الذي ظهر بين الفرس واليونانيين ثم بين الفرس والإمبراطورية الرومانية والبيزنطية (محمود سعيد عمران،2000، ص13)، ويمكن تفسير هذا الصراع وربطه بالعامل الحضاري باعتباره صراعاً بين حضارتين مختلفتين، وليس إلى عوامل دينية حيث أنّ هذا الصراع دار في وقت كان الشرق والغرب يعتنقان الديانة الوثنية، وبلغ هذا الصراع أشده في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، عندئذ وجد متنفساً جديداً في الحروب الصليبية وزاد من حدته وجود سبب جديد وقوي للخلاف بين الشرق والغرب، ألاَ وهو الخلاف الديني بين المسيحية والإسلام(سعيد عبد الفتاح عاشور، 1971، ص21).

كما يذهب البعض إلى أنّ الحروب الصليبية التي بدأت الدعوة لها مع خطبة البابا أوربان الثاني سنة (488هـ/1095م) ليست إلا استمرار لحركة الحج الجماعي إلى بيت المقدس، مع حدوث تطور في الأسلوب وهو أن الحج الجماعي أصبح حربيّاً بعدما كان سلميّاً (قاسم عبده قاسم،1999،ص27)، ويرى المؤرخ الإسرائيلي براور "Prawer" أنّ الحروب الصليبية ما هي إلا حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى (Prawer,1972,P32).

وعلى ضوء الآراء السابقة وغيرها نستطيع تقديم تعريف دقيق حول ماهية الحروب الصليبية على أنها : حركة كبرى انبعثت من الغرب الأوروبي المسيحي في العصور الوسطى آمن بها قوم منهم واتخذت شكل هجوم استعماري استيطاني على بلاد المسلمين خاصةً في الشرق الأدنى بقصد امتلاكها (فوشيه الشارتري،1990،ص13)، وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الدينية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت سائدة في غرب

أوروبا آواخر القرن11م، واتخذت من الدين ستاراً لتحقيق أهدافها (محمود سعيد عمران ،1995م ،ص13).

ب/ - دو افعها :كما ذكرنا سابقاً فإن الحروب الصليبية حركة تاريخية كُبرى فريدة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، وتركت تأثيراتها المتعددة على كافة الجوانب والأصعدة لذا لابد أن تُدرس من خلال الدوافع التي حركتها والتي سنذكرها في النقاط التالية :

1- الدافع الديني: ويعتبر أوّل الدوافع التي روّج لها المؤرخون الغربيون وزعموا بأنه الدافع الأساسي والوحيد لهذه الحروب، متجاهلين ما فاضت به الحركة الصليبية من بواعث أخرى "سياسية وإقتصادية وإجتماعية وفكرية" (عليّة عبد السميع الجنزوري،1999م،ص249)، وهذا الدافع مرتبط بظاهرة الحج فيذكر أصحاب هذه المدرسة أنّ الحركة الصليبية قامت من أجل إسترداد الأماكن المقدسة (القدس) من أيدي المسلمين وجعلها تحت سيادة روما المسيحية، وذلك لوجود إضطهاد لحق بالمسحيين الشرقيين والحجاج المسيحيين لتبرير هذه الحملات(أرنست باكر،1967،ص16)، وطبعاً هذا الكلام غير صحيح

وإتضح أنه خالٍ من أي سند تاريخي لأنّ حركة الحج كانت مستمرة بشكل عادي إلى قبيل الحروب الصليبية.

2- الدافع الإقتصادي : أثبتت العديد من الأبحاث الحديثة قوة العامل الإقتصادي وأهميته في تحريك كثير من الهجرات والحروب الهامة في التاريخ فبالنسبة للحملات الصليبية فالدافع الإقتصادي كان له تأثير كبير في تلك الحركة، نظراً لسوء الأحوال الإقتصادية بغرب أوروبا وخاصةً فرنسا في آواخر القرن 11م (سعيد عاشور ،1971،ص34)؛ ففرنسا بالذات كانت تعاني من قلة الغلال وإرتفاع أسعارها ممّا ترتّب عليه حدوث أزمة في مادة الخبز وبالتالي ظهور المجاعة (قاسم عبده قاسم ،1990،ص51)، وهذا ما يفسّر كثرة الفرنسيين المشاركين في الحملة الصليبية الأولى مقارنةً بالوافدين من بلدان أخرى من غرب أوروبا(سعيد عاشور،1971،ص34)، بالإضافة إلى تطلع المدن البحرية الإيطالية (البندقية،جنوة،بيزا) لإستغلال الحركة الصليبية وفق مصالحهم التجارية وسعيهم لإمتلاك موانئ جديدة على ساحل شرق المتوسط والسيطرة على تجارة الشرق والغرب والقضاء على المسلمين كوسطاء تجاريين بهذه المنطقة فقاموا بتشجيع هذه الحملات ومساندتها والمساهمة فيها (محمد مرسي الشيخ ،2004،ص27)، والواقع أن الحركة الصليبية حركة قامت من أجل سلب منظّم لثروات الشرق والقضاء على تحكم المسلمين في التجارة العالمية في تلك الفترة.

3- الدافع الإجتماعي : من خلال دراسة النُظم الإقطاعية في غرب أوروبا خلال العصور الوسطى يمكن فهم الظروف الإجتماعية لمجتمعات الغرب الأوروبي في تلك الحقبة وماله من علاقة وثيقة بالحروب الصليبية (إسمت غنيم،1996،ص12)؛ فالمجتمع الأوروبي آنذاك كان يتكون من ثلاث طبقات (طبقة رجال الدين وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان وطبقة الفلاحين من الأقنان ورقيق الأرض)، وكانت الطبقتان الأولتان أقلية بينما كانت طبقة الفلاحين تمثل الغالبية المغلوب على أمرها وعانت من حياة بائسة وعيشة منحطة في ظل هذا النظام الجائر (سعيد عاشور،1986،ص281)، وكان معظم هؤلاء الفلاحين من العبيد والأقنان وإرتبطوا إرتباطا وراثيّاً بالأرض التي يعملون عليها، وقضوا حياتهم محرومين من أبسط مبادئ الحرية الشخصية، فكل ما يجمعه القن يعتبر ملكاً لصاحبه الإقطاعي لأن القن محروم حتى من الملكية الشخصية (سعيد أحمد برجاوي،1984،ص73).

وقد وجدت هذه الطبقة البائسة من الفلاحين المخرج الوحيد لأزمتها وحياتها القاسية الإنخراط في هذه الحروب فراراً من جحيم الحياة في ظل النظام الإقطاعي، فإذا عاشوا فقد فازوا بخيرات الشرق وتغيرت حياتهم وأوضاعهم الاجتماعية، وإذا ماتوا فحياتهم أقرب إلى الموت، فضلاً عن فوزهم بالجنة ونعيمها في الآخرة كما وعدتهم البابوية بذلك (إسمت غنيم،1996،ص12)، ويتضح من ذلك أنّ الحروب الصليبية نتاج لنمو النظام الإقطاعي بالمجتمع الأوروبي في القرون الوسطى.

4- الدافع السياسي :كما وضّحنا سابقاً بأن الذُّل والحرمان والهوان والأحوال المتردية هي التي دفعت الغالبية العُظمى من الأوروبيين بالترحيب بهذه الدعوة الجديدة والمشاركة في الحركة الصليبية بحثاً عن حياة أفضل، لكنها لم تخلوا كذلك من النزعة السّياسية وطموحات البابوية وأطماع الملوك والأمراء، فقد خرج العديد منهم نحو أراضي الشرق ليس حبّاً في بيت المقدس وانتزاعه من الكفار كما يزعمون، وإنّما جرياً وراء أطماع سياسية لم يتمكنوا من تحقيقها في بلدانهم وكذلك للحفاظ على عروشهم (سعيد عاشور،1971،ص40)، وكل هذا تحت ضغط البابوية وإلحاحها بل تهديدها لهؤلاء الملوك والأمراء بانتزاع الملك منهم، وذلك للاستيلاء على أراضي الشرق وثرواتها وزيادة نفوذ كنيسة روما(إسمت غنيم ،1996،ص15).

والحقيقة أنّ الحروب الصليبية ليست وليدة عامل واحد من هذه العوامل، وإنما هي نتيجة لتفاعل هذه العوامل مجتمعة، حيث لعبت دورها في توجيه هذه الحروب والتحكم فيها، وقد دفعت هذه الحروب الصليبية الألوف العديدة من المسيحيين إلى حمل الصليب وتعليقه على ملابسهم وخيولهم، وكان ذلك مؤشراً بارزاً على نجاح صبغها بالصبغة الدينية بإعتبار العامل الديني موحد إيديولوجي بين مختلف أطياف المجتمع المسيحي الأوروبي.

ثانياً-عرض تاريخي للحملة الصليبية الأولى (488-492هـ/1095-1099م):

كانت نقطة البداية للحملة الصليبية الأولى دعوة البابا أوربان الثاني وذلك خلال خطبة حماسيّة ألقاها في مجمع كليرمونت الكنسي سنة (488هـ/1095م) يدعو فيها الغرب الأوروبي إلى حملة مقدّسة باسم الرب هدفها تخليص الأرض المقدسة (فلسطين) من أيدي المسلمين وتحرير المسيحيين الشرقيين من اضطهاد وسيطرة المسلمين، وكانت دعوته هاته تناسب أوضاع العصر تماماً (قاسم عبده،1990،ص91)، فتحركت الجماهير الأوروبية من مواطنها الأصلية إلى الشرق في الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي يعاني الضعف نتيجةً للتفكك السياسي والخلاف المذهبي، وانقسمت هذه الحملة إلى قسمين :حملة العامة أو الحملة الشعبية وحملة الأمراء أو الحملة النظامية، فوصلت طلائع الحملة الشعبية إلى القسطنطينية سنة (490هـ/1096م) وعبروا إلى آسيا الصغرى والتقوا بالأتراك السلاجقة الذين فتكوا بهم وأوقعوا بهم هزيمة ساحقة فقتل الآلاف من الصليبيين عند قونية (محمد مؤنس عوض، 2000،ص71)، أمّا حملة الأمراء فتمكنت من الانتصار على السلاجقة في نيقية وموقعة ضورليوم سنة (491هـ/1097م)، ونتج عن هذا الانتصار بداية توسع الصليبيين على حساب المسلمين وتأسيس إمارة الرها وحصار وسقوط أنطاكية، وأخيراً الاستيلاء على القدس سنة (492هـ/1099م) بعد ارتكاب مجازر شنيعة انتهت بتأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية(إسمت غنيم ،1996،ص ص33-35).

ثالثاً- صورة الإسلام والمسلمين قبل الحروب الصليبية :

لقد شكّل الإسلام منذ ظهوره في القرن السابع الميلادي وحتى اليوم أكبر مشكلة واجهت العالم الأوروبي لدرجة يصعب التعامل معها، وقد حاول الأوروبيون أن يجدوا له تفسيراً في منظومة التاريخ الإنساني سواء من حيث السببيّة أو من حيث الإرادة الإلهية، فبعد حركة الفتوح الإسلامية الناجحة التي بدأت منذ (القرن الأول الهجري /السابع الميلادي) امتد المد الإسلامي لمناطق في أوروبا وآسيا الصغرى والبلقان والتي كان يستوطنها المسيحيون، لذا كان من الضروري للشعب المسيحي الأوروبي أنْ يشكّل فكرة واضحة عن الإسلام والمسلمين (منى حماد،1997،ص250)، وكانت صورة الإسلام و المسلمين التي انتشرت في الغرب الأوروبي قبل الحروب الصليبية وصلت عبر طريقين أولهما الإمبراطورية البيزنطية (الروم) ، أمّا الثاني فكان عن طريق الأندلس .

نتيجةً لحركة الفتوحات الإسلامية التي امتدت إلى أراضي الدولة البيزنطية واستمرار المواجهة العسكرية بين الطرفين، انتشرت قصص وأساطير تعكس تصورات البيزنطيين عن الإسلام والمسلمين، وهذه القصص التي نقلتها وروّجت لها المصادر البيزنطية كانت مليئة بالحقد والكراهية نتيجة الجهل العميق بالإسلام وعدم معرفة حقيقته وتعاليمه وموقفه من الديانات الأخرى؛ باعتباره ديانة سماوية جديدة لا تنكر ما سبقها في اليهودية والمسيحية كما تكشف عن عداوة متوحشة للمسلمين (قاسم عبده قاسم،2010، ص50)، وهذه الصورة محورها فكرة رئيسية واحدة وهي أنّ الإسلام ديانة منبثقة عن المسيحية وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق ارتد عن المسيحية وأنشأ ديانة جديدة بمساعدة الراهب بحيرى، كل هذه التصورات انتقلت إلى الغرب اللاتيني في العصور الوسطى الباكرة وقد أضاف إليها المسيحيون الغربيون صوراً أخرى مليئة بالحقد والكراهية، واعتبروا الإسلام هرطقة انبثقت من الديانة المسيحية ومؤسس هذه الديانة يعتبر المرتد الأكبر عن المسيحية وهم بذلك يقصدون النبي صلى الله عليه وسلم والراهب بحيرى الذي تنبأ بنبوّة رسولنا الكريم(أليسكي جورافسكي، 1996ص ص63-65).

وأمّا القناة الثانية التي نقل عنها الأوروبيون أفكارهم عن الإسلام والمسلمين كانت عن طريق الأندلس التي فتحها المسلمون مع بداية القرن الثامن الميلادي، ممّا أضعف الوجود المسيحي هناك وحصره في بقعة صغيرة في شمال إسبانيا (حسين مؤنس، 2008،ص286)، وعاش المسيحيون المتبقون تحت الحكم الإسلامي مُتمتعين بكل حرياتهم الدينية والثقافية نتيجةً لسياسة التسامح التي نهجها المسلمون مع النصارى بعد فتح الأندلس، وتأثروا في نفس الوقت بمظاهر الحضارة العربية فظهر منهم مفكرون يهاجمون الإسلام بصورة مباشرة (منى حسن محمود،1986،ص ص238-239)، وربط بعض الكتاب المسيحيين بين ظهور الإسلام وقُرب ظهور المسيح الدجال وقيام الساعة، ولم يروا فيه إلاّ خطراً يتهددهم وبأنّ من واجب المسيحيين مقاومته بكل الوسائل وأنّ المسلمين أعداء الدين المسيحي (ريتشارد سوذن،2006،ص ص55-59).

وهنا لابد أن نضع في اعتبارنا أن الذين كتبوا عن وجهة النظر المسيحية الأوروبية كانوا في الغالب من الرهبان ورجال الكنيسة الذين حكمتهم الاعتبارات الدينية لا الوقائع التّاريخية.

كانت هذه بعض من الصور والأفكار المغلوطة والمليئة بالجهل والحقد والكراهية عن الإسلام والمسلمين التي انتقلت فيها بعد إلى أوروبا الغربية وأثرت على تصورات المفكرين الغربيين عن الإسلام وانتشرت في أوروبا على نطاق واسع وترسّخت في العقلية الأوروبية خلال القرن الحادي عشر الميلادي عشية قيام الحملة الصليبية الأولى، وشكّلت فيها بعد خلفية دعائية وأداةً للتحريض ارتكز عليها البابا أوروبان الثاني في دعوته للقيام بهذه الحملة.

رابعاً- أثر الحملة الصليبية الأولى (488-492هـ/1095-1099م) في تشكيل صورة الاسلام والمسلمين لدى الغرب الأوروبي في العصور الوسطى:

كما رأينا سابقاً فإن الصورة المغلوطة والتصورات الخاطئة التي وُجدت في أوروبا عن الإسلام والمسلمين والتي روّجت لها الكنيسة الغربية واعتبرت المسلمين مغتصبين للأماكن المقدسة مضطهدين للمسيحيين الشرقيين عاملاً مهماً في قيام الحملة الصليبية الأولى، فوصل الصليبيون للشرق وهُمْ مشبعون بأفكار حاقدة ومُشوّهة عن الإسلام والمسلمين وهذا ما يُفسّر الطريقة العدوانية التي تعامل بها الصليبيون مع المسلمين في البداية وأبانت عن حقد المسيحيين الغربيين للإسلام والمسلمين الذي تجلا بشكل كبير في مذبحة بيت المقدس(492هـ/1099م)، ومع بداية الحملة تغيرت العلاقات بين العالم المسيحي الغربي والعالم الإسلامي الشرقي تغيّراً سلبيا مفاجئاً ونتج عن نجاح الصليبيين في إقامة مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية الثلاثة الأخرى (الرها، أنطاكية،طرابلس) سيادة مشاعر الانتصار والاحتقار من جانب المسيحيين الغربيين تجاه المسلمين (قاسم عبده،2010،ص48)، كما أدى إلى تكريس صورة سلبية للإسلام في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي نتيجة الاحتكاك المباشر الذي تمّ بين المسلمين والصليبين سواء على أرض المعركة أو في فترات السلم، وانتشرت هذه الصورة المغلوطة بشكل سريع في أوروبا وذلك نتيجةً لانتشار حكايات المحاربين الصليبيين العائدين إلى أوروبا التي كانت متعطشة لسماع أخبار وبطولات الصليبيين الغربيين في المشرق مع ما أضيف إليها من المبالغات البعيدة كل البعد عن الحقيقة، ونتج عن هذا الالتقاء المباشر بين المسيحيين الغربيين والمسلمين لأول مرة في الشرق الاهتمام بدراسة الدين الإسلامي إلاّ أنّ مشاعر الحقد والكره والاحتقار بقيت مسيطرة على ذلك التصور(منى حماد،1997،ص ص 253،260).

ومن خلال ما كتبه الصليبيون عن هذه الحملة تحت عنوان رئيسي وهو رحلة الحج أو رحلة الحُجّاج، يتضح أنهم اعتبروا الحملة الصليبية الأولى رحلة حج مقدسة للتخلص من خطاياهم وتخليص الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين الكفار، وأصبحت هذه الكتابات نموذجاً يُحتذى به في فن الكتابة التاريخية

ورسّخت بشكل كبير وواسع صورة المسلمين في أذهان المسيحيين الأوروبيين لعقود من الزمن(فوشيه الشارتري،1990،ص11).

كما أتاح انتصار الصليبين على المسلمين في هذه الحملة فرصة استيطان الأوروبيين الغربيين ببلاد الشام والاحتكاك والتعامل مع المسلمين عن قُرب وبصفة يوميّة وفعليّة، فتوضّح جهل المسيحين بالإسلام وعقائده وطبائع المسلمين وأخلاقهم، فأثرت هذه الحملة بشكل كبير في تشكيل مفاهيم الغرب اللاتيني عن الإسلام والمسلمين.

خامساً- لمحة عن صورة المسلمين خلال الحملة الصليبية الأولى لدى الغرب الأوروبي:

جاءت صورة الإسلام والمسلمين خلال فترة الحملة الصليبية الأولى على لسان مؤرخيها

الصليبيين الغربيين الأوائل المعاصرين لها والذين كانوا رجال دين وفرسان ومرافقين لهذه الحملة وشهود عيان عليها، وكان أبرزهم القس فوشيه الشارتري "Fulcher of Charters" في كتابه" A History of the expedition to Jerusalem" والذي تُرجم للعربية بعنوان "تاريخ الحملة إلى القدس1095-1127" والذي يعّد مصدراً أساسيّاً لدراسة هذه الحملة بإعتباره شاهد عيان عليها، كما يعتبر من أفضل مؤرخي الحملة الصليبية الأولى وأكثرهم تعلماً ومصداقية .

اعتبر فوشيه الحملة الصليبية الأولى رحلة حج للأماكن المقدسة والمشاركين فيه حُجّاج ومن يموت فيها فمصيره الشهادة وكل من ارتد عنها جباناً، ووصف المسلمين بأنهم أعداء المسيح وكفار وعبدة أوثان وقُساة برابرة لا يعرفون الرحمة وأنهم أتباع للشياطين (فوشيه الشارتري،1990،ص ص11-12)، ويشاركه في هذا الوصف الفارس الصليبي "ريموندا جيل"(Raymond de Agills) والذي يعتبر من الشهود العيان لهذه الحملة والمشاركين فيها، ويضيف على كلام غريمه فوشيه أنّ المسلمين يتعاملون بالسحر والتنجيم (ريمونداجيل،1990،ص ص246،90)، ويتفق معهما في هذا الوصف المؤرخ المجهول المعاصر للحملة الصليبية الأولى صاحب "Gesta" والذي يعد من أهم مصادر هذه الحملة كفارس شارك فيها وشاهد عيان على أحداثها، كما يبدي إعجابه بشجاعة وفروسية الأتراك المسلمين فهو كفارس إقطاعي يشهد لهم بالشجاعة والمهارة، ويذكر أنهم لو آمنوا بالمسيحية والمسيح لن تجد مقاتلاً أشجع منهم أو أمهر منهم (مجهول،1958،ص ص،40-62).

جميع هذه الأوصاف والمسميات التي نعت بها المؤرخون الصليبيون المسلمين في الأدوار الأولى من هذه الحملة، توضح الجهل وسوء الفهم المتعمد للإسلام من طرف المسيحيين الغربيين، كما تحمل في طياتها دلالات سياسية وعسكرية ودينية وحتى اجتماعية؛ فمصطلح الأعداء يحمل دلالة سياسية عن الاختلاف والعداوة والكره والصراع والتنازع، وتسمية الوثنيين التي وُصف بها المسلمون تمييزا لهم عن المسيحية

بهدف إعلان شأنها وبيان أفضليتها والتقليل من شأن الإسلام و المسلمين لها دلالات دينية واضحة، فالوثني برأيهم من لا يعتنق المسيحية ويخالفها وهم بهذا اعتبروا ديانة المسلمين ديانة وثنية ودولتهم زائلة ولابد أن تحل محلها الدولة المسيحية (لؤي إبراهيم بواعنة،2011،ص67)، كما أنّ إعجابهم بفروسية وشجاعة الأتراك المسلمين ومهاراتهم القتالية وهو تصور جديد لم يكن عندهم فيما سبق، لكنه في الحقيقة ما هو إلاّ تعظيم للانتصارات التي حققها الصليبيون في هذه الحملة على المسلمين وأنهم انتصروا على خصمٍ قوي بفضل نُصرة الرب لهم في هذه الحملة التي اعتبروها حملة مقدسة.

ولسنا هنا لاستعراض كل المصادر الغربية للحملة الصليبية الأولى ووصفهم الكامل للإسلام والمسلمين في هذه الحملة ودلالاته المتعددة والذي يحتاج إلى دراسة مستقلة، بل غايتنا إظهار بعض الفروق إنْ وجدت عن صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب اللاتيني قبل وبعد الحملة الصليبية الأولى وأثرها على التصورات الغربية للإسلام والمسلمين، فإتضح أنّ جميع مصادر تلك الحملة تتصف بجهل عميق وتعصب شديد تجاه الإسلام والمسلمين وهذه المشاعر كانت موروثة منذ فترة مبكرة من ظهور الإسلام وانتشاره، ولكنها ازدادت تعمقاً وشدة من حيث الكراهة والحقد والتعصب فإنتقلت صورة المسلمين في الذهنية الأوروبية من العداء المتعقل إلى الهياج والعداء الهيستيري مع بداية أحداث هذه الحملة، كما وضّحت جهل الصليبيين بأصول المسلمين وأجناسهم وبلدانهم والذي يظهر جليّاً في كل المصادر الغربية للحملة الصليبية الأولى.

خاتمة :

في ختام هذه الأسطر المتواضعة اتضحت لنا بعض النقاط أهمها :

- أن صورة الإسلام والمسلمين التي وردت في المصادر الغربية للحملة الأولى لم تختلف كثيراً

عن الصورة السابقة التي انتشرت في أوربا على نطاق واسع قبل قيام هذه الحملة؛ فالمسلمون وثنيون وكفار ومشركين يعبدون الأصنام وأعداء للمسيح وهراطقة يضطهدون المسيحيين في الشرق ويُدنسون الأماكن المقدسة، ولعلّ هذا التصورات والمفاهيم الخاطئة والصورة المشوهة والمغلوطة عن الإسلام والمسلمين التي وُجدت في أوروبا عشية قيام الحملة الصليبية الأولى ساهمت إلى حد كبير في إثارة جموع المسيحيين ضد المسلمين في الشرق والتي رأت فيهم الكنيسة مغتصبين للأماكن المقدسة، وبالرغم من احتكاك الصليبيين بالمسلمين خلال أحداث هذه الحملة إلاّ أنّ تصوراتهم ومفاهيمهم عن الإسلام والمسلمين لم تتغير بل بقيت نفسها مليئةً بالكره والتعصب الديني والجهل المتعمد بالإسلام ونظرة الإستعلاء والإحتقار للمسلمين، بل ازدادت حدّةً في الذهنية الأوروبية وتحولت من العداء المتعقل إلى العداء الهيستيري للإسلام والمسلمين.

- خلال فترات الحملة الصليبية الأولى وأحداثها تشكلت الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين لدى الغربيين الأوروبيين نتيجة للمواجهة العسكرية بين العقيدتين، والإحتكاك والتعامل بين الطرفين عن قُرب ونُقلت هذه الصورة الخاطئة والبعيدة كل البعد عن واقع الإسلام والمسلمين في تلك الحقبة تحت تأثير الكراهية التي خلقتها ظروف الحرب والصدام إلى أوروبا الغربية، وقد لاقت تلك الصورة أرضاً خصبة للنمو لأن الغرب كان يجهل الشرق وتراثه ولأنها وافقت تصوراته وأفكاره السابقة عن المسلمين وعقيدتهم، وبقيت هذه الصورة التي نشرها الصليبيون الأوائل بفعل أحداث هذه الحملة الأكثر إنتشاراً وتأثيراً في تشكيل قناعات العامة وتوجيه فكر المفكرين الأوروبيين بعد إنتقالها من جيل لآخر وصولاً لأيامنا هذه.

- أدّت الصورة التي نقلها المؤرخون الصليبيون الأوائل للحملة الصليبية الأولى عن الإسلام والمسلمين إلى قيام محاولات فكرية لتفسير ودراسة الإسلام، وظهرت هذه الدراسات لاحقاً بشكل واضح في أوروبا وجَذّرت بعد ذلك لما يعرف بفكرة الإستشراق والدراسات الإستشراقية، ولا تزال جذور الصورة الغربية للإسلام التي نمت وترعرعت خلال عصر الحروب الصليبية تظهر بشكل أو آخر في الدراسات الغربية عن الإسلام حتى في أشدها إلتزاماً بالموضوعية.

- قائمة المصادروالمراجع :

- المصادر المترجمة :

- اجيل ريموند، *تاريخ الفرنجة غُزاة بيت المقدس*، (1990م)، تر: حسين محمد عطية، ط01، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- الشارتري فوشيه، *تاريخ الحملة إلى القدس*، (1990م)، تر:زياد العسلي، دط ، دار الشروق للنشر و التوزيع ، عمان الأردن .
- مجهول، *أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس*، (1958م)، تر: حسن حبشي، دط، دار الفكر العربي، دم

- المراجع العربية :

- برجاوي سعيد أحمد، *الحروب الصليبية في المشرق*، (1984م)، ط01، منشورات دار الآفاق بيروت، لبنان.
- الجنزوري عليّة عبد السميع، *الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)*، (1999م)، دط، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر .
- حسن منى محمود، *المسلمون في الأندلس وعلاقاتهم بالفرنجة*،(1986م)، دط، دار الفكر العربي،القاهرة.
- عبد الفتاح سعيد عاشور، *الحركة الصليبية صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى*، (1976م)، ج01، ط02، مكتبة الانجلوا المصرية، القاهرة.

- عبد الفتاح سعيد عاشور، *أوروبا العصور الوسطى*،(1986م)، ج02، ط10، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

- عبده قاسم قاسم، *الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية دراسة عن الحملة الأولى 1095-1099م*، (1999م)، ط01، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، الهرم القاهرة.

- عبده قاسم قاسم، *ماهية الحروب الصليبية*، (1990م)، دط، عالم المعرفة، دم.

- عبده قاسم قاسم، *الغرب والعالم الإسلامي التطور التاريخي لصورة الآخر*، ضمن كتاب موسوعة تاريخ العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب، (2010م)، ط01، المجمع العلمي للتقريب بين المذاهب-المعاونية الثقافية، الجمهورية الإسلامية في إيران/طهران.

- عمران محمود سعيد، *تاريخ الحروب الصليبية 1096-1291م*، (2000م)، دط، دار المعرف الجامعية، مصر .

- غنيم إسمت، *الحروب الصليبية*، (1996م)، دط ، ددن ، دم .

- مرسي محمد محمد الشيخ، *عصر الحروب الصليبية في الشرق*، (2004م)، دط، ددن، دم.

- مؤنس حسين، *فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية(711-756م)*، (2008م)، ط04، دار الرشاد، القاهرة .

- مؤنس محمد عوض، *الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين 12و13م/6-7هـ* ، (2000م)، ط01، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، الهرم القاهرة.

- المراجع المترجمة :

- باكر أرنست، *الحروب الصليبية*،(1967م)، تر: السيد الباز العريني، ط02، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت لبنان.

- جورافسكي أليسكي ، *الإسلام والمسيحية*، (1996م)، تر: خلف محمد الجراد، دط، عالم المعرفة، دم .

- سوذن ريتشارد، *صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى*، (2006م)، تر: رضوان السيد، ط02، دار المدار الإسلامي، طرابلس.

- المراجع الأجنبية :

-Prawer Joshua, *The Latin kingdom of Jerusalem* ,European colonialism in the Middle Ages(1972),London.

-Riant, *inventaire critique des lettres historiques des croisades*,(1880),A.O.L,T.I.

المقالات العلميّة :

- بواعنة لؤي براهيم، *رؤية المؤرخين الفرنج لواقع المسلمين إبان الحملة الصليبة الأولى 490-521هـ/1096-1127م*، *(2011م)*، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الأردن، مج05، ع03.

- حماد منى، *صورة المسلمين في المصادر اللاتينية للحملة الصليبية الأولى*، (1997م)، الأردن، مجلة أبحاث اليرموك، مج13 ، ع01.

تجليات صورة الإسلام والمسلمين في نصوص وأدبيات الرحلات الاستطلاعية الأوربية نحو الجزائر (الرحلات الفرنسية نموذجا) .

The manifestations of the image of Islam and Muslims in the texts and literature of European exploratory trips to Algeria (French trips as a model)

د. خيري الرزقي، جامعة باتنة1 –الجزائر-
rezki.khairi@univ-batna.dz / khairi2028@gmail.com



تحمل المداخلة عنوان تجليات صورة الإسلام والمسلمين في نصوص وأدبيات الرحلات الاستطلاعية الأوربية نحو الجزائر وذلك بالاعتماد على بعض الرحلات التي يمكن من خلالها معرفة بعض الأوضاع العامة في الجزائر وخاصة الجانب الديني والثقافي والعلاقات مع الدول الأوربية في إطار الحروب الصليبية، تهدف المداخلة الى استخلاص الصورة التي رسمت عن الإسلام والمسلمين من خلال هذه الرحلات ، وهي الرحلات التي يمكن توظيفها في تدوين تاريخ الجزائر وفي تاريخ نظرة الآخر للإسلام بعد إخضاعها لشروط ومنهجيات معيّنة، وتدخل هذه الدراسة ضمن نوع التاريخ الثقافي على أساس اعتبار أن الرحلات كانت ملتصقة مباشرة بهذا الجانب ، وقد توصلت من خلال هذا الموضوع الى نتيجة رئيسية وهي محاولة الغرب المسيحي تشويه صورة الإسلام والمسلمين في الجزائر وهي الميزة التي انفرد بها غالبية الرحالة .

الكلمات المفتاحية: الرحلة ، الرحالة ، الإسلام ، الجزائريون ، صورة.

Abstract:

The intervention bears the title of the manifestations of the image of Islam and Muslims in the texts and literature of European exploratory trips to Algeria, based on some trips through which it is possible to know some of the general conditions in Algeria, especially the religious and cultural aspect, and relations with European countries within the framework of the Crusades. The intervention aims to extract the image that I drew about Islam and Muslims through these trips, which are trips that can be employed in writing down the history of Algeria and in the history of the other’s view of Islam after subjecting it to certain conditions and methodologies. This study falls within the type of cultural history on the grounds that the trips were directly related to this aspect, and through this topic I reached a main result, which is the attempt of the Christian West to distort the image of Islam and Muslims in Algeria, a feature that is unique to the majority of travelers.

Keywords: The Journey, Travelers, Islam, Algerians, Image.



مقدمة:

يعتبر أدب الرحلة من المصادر الأساسية في عملية التدوين التاريخي لتاريخ الشعوب على مختلف العصور والمحطات وسواء كانت هذه الرحلات قام بها المسلون داخل البلاد الإسلامية أو نحو العالم الغربي وعلى الخصوص نحو أوربا، أو تلك الرحلات التي قام بها الأوربيون نحو البلاد الإسلامية والتي زادت في عددها مع ظهور وتطور وانتشار الحركة الاستعمارية الأوربية الحديثة، هذا مع ملاحظة النشاط الواسع والمكثف في إطار عمليّة الإستشراق وخاصّة الفرنسي منه نحو المستعمرات فزادت الرحلات الأوربية الاستطلاعية وزاد معها تلك الكتابات التي تصف حال وأحوال المسلمين في البلاد الإسلامية، وما يعنينا منها هنا على كثرتها وتعدّد توجهات ما كان متجها نحو الجزائر وما حمله من كتابات والتي للأسف الشديد كانت كلّها كتابات مغرضة لا تخرج عن ذلك الإحساس الكره للمسلمين في الجزائر ومحاولة إعطاء صورة مشوهة عنهم وربّما هذا بغية تبرير حملاتهم تجاه البلاد .

ومما سبق يمكن أن نطرح الإشكالية الرئيسية للموضوع وهي : ما هي صورة الإسلام والمسلمين في الجزائر في هذه الرحلات ؟ ويمكن أن نطرح اشكالات بحثية أخرى فرعية ذات صلة بالبحث وهي : ما أغراض وأهداف الرحالة الفرنسيين من القيام بهذه الرحلات تجاه الجزائر بالضبط ؟ وما هي الصورة والانطباع الذي أردوا إيصاله للآخر عن الجزائريين من خلال ما كتبوا في رحلاتهم ؟ وهل استطاعت الكتابات الجزائرية الحديثة والمعاصرة الرد على ما جاء في رحلات الفرنسيين من كذب وظلم وافتراء .

تهدف المداخلة أساسا الى كشف عن قيمة الزيف والتحريف الذي صوّره الرحالة الفرنسيين عن المسلمين في الجزائر، واطلاع القارئ ممن لم يطلع على هذه الرحلات على محتواها لإدراك خطر كتابات الرحالة الأوربيين .

وبغية إعطاء الموضوع حقّه من الدراسة اخترت له المنهج الوصفي حين الكلام عن الجزائريين والمنهج التحليلي عند دراسة ما جاء من معلومات في هذه الرحلات، والمنهج النقدي حين الرد على ما كتبوا بأدلة علمية وتاريخية وحتى برحلات أخرى للجزائر وفي نفس الوقت والتي قالت بعكس ما قالته الرحلات الفرنسية تماما .

يمكن أن نتتبع مسار هذه الرحلات الفرنسية خلال القرون 17 م أين تجسّدت في رحلات المبشرين بالمسيحية بالدرجة الأولى أين ساهم أصحاب المدرسة الكلاسيكية في نشرها والتشهير لها، وخلال القرن 18م أين نلمس ذلك التطور في أدب الرحلة الفرنسية أين طغت عليها النزعات الفردية لأصحابها وبدأت تصوب فكرها نحو الجانب الحضاري للعالم الإسلامي وعليه يمكن القول هنا عن بداية النظرة الإستشراقية الفرنسية من خلال أدب الرحلة بغية أخذ كل جميل من الحضارة الإسلامية وزيادته في بناء الحضارة الأوربية ولكن مرّة أخرى في إطار نظرة استعلاء واحتقار للآخر وزاد أصحاب هذه الرحلات من

عصبيتهم الدينية والعرقية تجاه الإسلام والمسلمين عامّة وأصبحت الرحلات في هذه الفترة وكأنها هي الممثلة للدول الإستعمارية وسياساتها المختلفة .

إنّ بداية القرن 19م تمثل عصر اشتداد الرحلات الأوربية والفرنسية وزيادة عددها تجاه بلاد الشرق الإسلامي وأصبحت تلك الرحلات ما هي إلاّ مجرد أهداف للحركة الإستعمارية الأوربية الحديثة (هنتش، 2006، صفحة 254)التي مارست سياستها خارج نطاق الحضارة نهائيا من تقتيل وتشريد ونشر للكراهية وبالتالي فقد مهّدت الى تنفيذ عملية الإحتلال الذي بدوره أصبح ينظر للرحالة على أنّهم بمثابة العيون والمرشد في المستعمرات أين تمّ إحياء العصبيات القبلية والنعرات الداخلية وكل هذا بهدف تسهيل التوغل وإحكام السيطرة .

ومن بين أهم الرحلات الفرنسية التي كانت صوب الجزائر والتي حملت في طيّاتها مادة علمية كبيرة تحتاج من الباحثين الى الكثير من التمحيص والرد نجد رحلة وارني التي أعطاها عنوان : الجزائر أمام الإمبراطور، ورحلة بول بورد التي تحمل عنوان :رحلة عبر الجزائر، الى جانب رحلة الكاتبة الفرنسية المسماة لويس رجيس والتي تحمل عنوان : "قسنطينة، رحلات واقامات " هذا الى جانب رحلة أوغست باسيت ذات العنوان : رحلة عبر جزائر اليوم كما توجد هناك العديد من الرحلات الأخرى والتي لم تخرج في إطارها العام عن الرحلات السابقة الذكر ومنها رحلة الدكتور " شو " الانجليزي والتي تحمل عنوان : " جولات في ولايات متعددة ببلاد البربر والشرق " إضافة الى رحلة شارل دوغالون ورحلة " جان أندري باسيونال " (1724-1725) وهناك رحلة فانتيري دي بارادي (1789) ورحلة فرانشيسكو خيمينيث (1717-1720) ورحلة القس بواري وغيرهم من الرحلات كثير .

ويمكن أن نستعرض صورة الإسلام والمسلمين من خلال نماذج الرحلات الأوربية نحو الجزائر والمتناقضة فيم بينها فيما أوردت من معلومات ، ونكتفي هنا برحلة " الجزائر أمام الإمبراطور " لصاحبها وارني والتي من خلالها جاء بصور مشوهة وأغراض استعمارية، وفي المقابل سوف نتطرق الى رحلة " قسنطينة رحلات واقامات " لصاحبتها لويس ريجيس والتي من خلالها قد ناقضت كل ما جاء في رحلة وارني، وقد اخترت هذان النموذجان المتناقضان من أجل إبطال الرحلات (فهيم، أدب الرحلات ، 1989، صفحة 151) المغرضة والتي تصب في خانة الاستعمار والعمل على تثبيته في الجزائر .

أولا- صورة الإسلام والمسلمين من خلال رحلة : " الجز ائر أمام الإمبراطور1865 "

وهي رحلة لصاحبها " الدكتور وارني " (warnier, 1865, p. 35) والتي جاءت في ثلاث أجزاء حيث تضمن الجزء الأول منها معظم العادات والتقاليد التي كانت منتشرة بين الجزائريين الذين أطلق عليهم مصطلح " الأهالي " وبهذا القسم مادة علمية كثيرة مسمومة عن عامّة الشعب التي حاول صاحبها هنا أن يبرزهم على شكل فئتين غير متجانستين رغبة منه في بحث التفرقة وهما فئة العرب والبربر، والمتتبع لهذه الرحلة

يلاحظ اقتناع صاحبها تماما بضرورة احتلال فرنسا للجزائر مع وجوب تحقيق سياسة الإدماج الكلي لعناصر المجتمع الجزائري في المجتمع الفرنسي بالجزائر مع سيادة العنصر الأوربي الفرنسي وتحكمه في زمام الأمور .

بينما كان القسم الثاني من هذه الرحلة يتمحور حول قضايا مختلفة تتركز بالأساس حول سياسة الاستيطان أو التعمير بصفة عامّة مع تشجيع المعمرين كما يسميهم ومنحهم كل المعونة والحماية، هذا إلى جانب الحديث وتمجيد الجيش الفرنسي بالجزائر مع الإشادة بانجازاته العسكرية المحققة في الميدان بما فيها تلك الجرائم والمجازر التي ارتكبها في حق الجزائريين .

ومادام موضوع دراستنا صورة الإسلام والمسلمين في أدب الرحلة فان القسم الأوّل من رحلة "وارني " هو الذي يهمنا هنا، إذ نجده يستخدم مصطلح " الأنديجان " أي الأهالي بدلا عن مصطلح الجزائريين، وهذه في حد ذاتها نكران للهوية الوطنية الجزائرية وربما تعد هذه الرحلة هي أكبر ضربة وصورة مشوهة للجزائر في رحلة واني، وتزيد قسوته وحقده حينما يحاول إبراز أنّ المجتمع الجزائري غير متماسك اجتماعيا ولا يتمتع بوحدة اجتماعية، وأكثر من هذا عمد إلى تقسيمه إلى فئتين هما البربر وبها بدء حديثه ، والفئة الثانية كانت فئة العرب ، وبهذا يزول أي غموض حول أهداف رحلة وارني من الناحية الاجتماعية وهي بث روح التفرقة والخلافات العرقية لإضعاف الوحدة وإضعاف الموقف تجاه السياسة الفرنسية (2007، صفحة سعد الله).

والغريب في أمر وارني هنا أن حتّى داخل فئة البربر كما قال فيه هناك بربر مستعربة وقال عنها ربما تشكل فئة ثالثة داخل المجتمع الجزائري، محاولا كذلك فتح باب الفتنة بين الفئة الواحدة محاولا طرح سؤال خبيث وهو : هل فئة البربر المستعربة هي فئة بربرية أم فئة عربية وغرضه في كل هذا زرع الفتنة والتشكيك بين عناصر المجتمع الجزائري، بل ذهب وارني إلى أبعد من ذلك عندما تساءل قائلا : هل البربر المستعربة تخلّت عن بربريتها وسادها طابع العروبة أكثر من طابع البربر وكأنّه يوجه لوما لهذه الفئة من جهة، ومن جهة ثانية كأنه يدعوا باقي البربر إلى التنكر من البربر المستعربة وكل هذا –طبعا – يصب في خانة سياسة فرق تسد تسهيلا لسياسة الكولون وتحقيقا لفكرة الإدماج الكلي في المجتمع الفرنسي .

يحاول وارني في رحلته إعطاء الدور البارز والأكبر لفئة البربر متناسيا بأن المجتمع الجزائري على مختلف أطيافه الاجتماعية يشكل وحدة وطنية واحدة موحدة بفضل تعريب الإسلام، وما هذه الأفكار إلاّ محاولة منه لإيجاد مدخل ضيق أو ثغرة يستغلها في بث الخلاف وللأسف مازالت هذه العقلية عند الفرنسيين متجذرة إلى اليوم وتبرز من حين إلى آخر، كما نجد أنّ وارني يحاول عبثا الإقناع بأن البربر هم السكان الأصليين لكل إفريقيا وليست الجزائر فقط، وهنا يمكن الرد بأن أصلية السكان للبربر هي حقيقة تاريخية لكن وجب على وارني ومن اتبعه من الفرنسيين الحاقدين على الجزائر بأن فئة البربر كما يسميهم

قد أثبتت ولاءها للوطن وخير دليل على ذلك قيامها بمقاومات شعبية شجاعة ضد الفرنسيين وتواجدهم بالجزائر ويستمر ذلك الموقف المشرف حتى الى قيام الثورة التحريرية الجزائرية .

وعن التوزيع الجغرافي للبربر في الجزائر نجد أن وارني يحدد المنطقة الجغرافية ثمّ يضيف إليها من يسكنها من البربر على سبيل المثال يقول وراني أنّ الشريط الساحلي تسكنه فئة بربرية تسمّى القبائل ، بينما تسكن فئة الشاوية في جنوب منطقة عمالة قسنطينة، ويضيف أن بربر " الجبايلية " هي التي تسكن ضواحي عمالة مدينة الجزائر ووهران، وبربر الرواغة تستوطن منطقة وادي ريغ و ورقلة بالصحراء الشرقية للجزائر، هذا إلى جانب قبائل بني ميزاب بالصحراء الوسطى الجزائرية طبعا نسبة إلى وادي ميزاب.

إنّ ذهاب الرحالة وارني الى هذه الخريطة الجغرافية لتوزيع "البربر " في الجزائر ليس اعتباطيا وإنما يقدم من خلاله خريطة طبوغرافية للجيش الفرنسي الذي يعتقد قادته ومعظم أمثال وارني أن هؤلاء السكان في عقليتهم هم أقرب الى الأوربيين وبالتالي يمكن أن تسهل عمليّة التوغل ن لكن للأسف فمعظم المقاومة الرافضة لهم كانت قد واجهتهم في هذه المناطق مثل مقاومة وادي ريغ ، ومقاومة الأوراس، ومقاومة جرجرة وغيرها .

إنّ وارني قد ركز كثيرا على البربر في القسم الأول من الرحلة التي قام بها، ويذهب الى حد تشبيههم بالفرنسيين من حيث نمط المعيشة أو البنية المرفولوجية أو حتى طريقة ونظام الحياة اليومية التي قال عنها أنها تشبه النظام الديمقراطي أين تختار القبيلة الواحدة ممثلا عنها ويتم انتخابه من الجميع ويقول أن هذا النظام يشبه تماما نظام البلديات في فرنسا ن وأن هذا النظام يطلق عليه اسم " نظام الجماعة " أي ما نعرفه اليوم التجماعث أو نظام العزابة في وادي ميزاب، ومن هذه التركيبة النوعية في التمثيل يحاول وارني الدخول من خلالها ويشير إلى أن العيب هنا يمكن في فقدان هذا النظام لسلطة قرار فعلية وفعالة وقوة تحكم كل القبائل وفي هذا دعوى صريحة الى التمرد على سلطة البلاد الرسمية وخلق مجموع سلط محلية جغرافيا ومنه بث الفوضى السياسية وإضعاف الموقف، وبمعنى آخر بث فكرة إيجاد سلطة داخل سلطة والعمل على الإقناع بها، ومن هنا راح وارني ينشر فكرة قابلية البربر بجميع فرقهم على سهولة الاندماج داخل المجتمع الفرنسي وسهولة تأقلمهم مع القوانين الفرنسية وهم على العكس تماما من العرب الذين هم صعبوا المراس وتصعب معهم مهمة الإدماج وتحتاج فرنسا في ذلك الى طرق خاصّة ووقت أكبر.

ويذهب وارني إلى أكثر من هذا وتوغّل بحديثه داخل الأسرة البربرية الواحدة متحدثا عن الرجل البربري والمرأة البربرية، محاولا إبراز الفروق بينها وبين الأسرة العربية فيعطي صفات للرجل البربري بأنه بعيد عن تعدد الزوجات ومحبا ومقدرا لزوجته وأنّ المرأة البربرية امرأة حقيقية وتمارس سيادتها على بيتها من دون

اللجوء إلى الخدم في بيتها وعليه قال وارني أن الأسرة البربرية أكثر تماسكا بين أفرادها وهم بعيدون كل البعد عن الصراعات العائلية بينهم .

كما أشار وارني إلى أنّ البربري محبا للملكية الفردية وهذا إشارة منه الى السلطات الفرنسية بأنه في إمكانها سهولة تطبيق نظام الضرائب على هذه الملكيات، ومن جهة وبنيّة مبيّتة حسب ما يبدوا لنا أن الرحالة وارني قد تطرق إلى فئة من البربر الذين يعيشون وسط القبائل العربية وقال عنها كونها فئة مضطهدة وتعيش تحت سيطرة هؤلاء، وهنا يبدو أنه لم يعش الموقف حقيقة ولم يقف عنه بشخصه في هذه النقطة ولم يرى ذلك التعايش بين الفئتين في المجتمع الجزائري وقد كان غرضه من كل هذا بث العداوة والخلافات بين عناصر المجتمع وخاصّة حين ذهابه الى القول بأن العرب استغلوا البربر في بناء حضارتهم ونسبوا تلك الأعمال إليهم ويستشهد من التاريخ حين فتح اسبانيا إذ قال : " ...إنّ الفضل الأكبر يعود للعدد الضخم من المقاتلين البربر المكونين للجيش الفاتح ، وللأمراء البربريين كذلك الذين حكموا البلاد نيابة عن القادة العرب " (warnier، 1865، صفحة 23).

وفي المقابل يجد المتتبع لرحلة وارني ذلك التهكم والسخرية الكبيرين من العرب وهو المصطلح الذي يقصد به المسلمين و أحيانا يطلقه على البدو الرحل (السخري، 2008، الصفحات 7-8)،وتكرّر ذلك منه مطولا ولعدة مرات وفي الوقت نفسه يورد ذلك الإعلاء لفئة البربر وكل هذا يبدو ظاهرا بغرض ترسيخ العداء بين عناصر المجتمع ونشر النعرات العصبية والقبلية، وكل هذا قصده النهائي هو تشويه صورة الإسلام والعرب المسلمين في الجزائر .

كما ينكر وارني في رحلته نكرانا تاما للعرب ودورهم في الحضارة ويصفهم بالبعيدين عنها وهو الذي قال عنهم بأنّهم جاؤوا من قارة آسيا ولا علاقة لهم بأرض شمال إفريقيا البربرية، وأنّ العرب لم يستطيعوا التخلص من الصفات والعادات السيئة التي لازمتهم طويلا وخاصة عادة الترحال (وارني، 1865، صفحة 10)وعدم تمكنهم من التوافق والتأقلم مع البربر السكان الأصليون، كما أطلق وارني تهما تتناقض مع الحقائق التاريخية كون العرب ليس لهم حضارة بل هم أعداء الحضارة أصلا متناسيا في ذلك الحضارة العربية الإسلامية التي ساهمت حتى في تحضّر بلده الأصلي أيام العصور الوسطى لما كانت شوارع فرنسا تعج بالأوساخ وتشهد الظلام والسيطرة على القول كان العرب حينها يعيشون أوج تقدم العلوم والطب والرياضيات ....الخ (قباني، 1993، صفحة 183).

وفي شأن العرب والحضارة قال وارني : " ليس لهم أي حضارة ، بل هم أعداؤها، وأعداء العمل والنجاح ، يعيشون على السرقة ، وقطع طرق القوافل التجارية " (warnier، 1865) إنّ هذا التصريح ما هو إلاّ دليل قاطع على الحقد الذي يكنه وارني للعرب وتنكرا للماضي التاريخي والحط من القيمة وكل هذا لأغراض استعمارية بحتة أو ربما كان منه هذه التصاريح لعدم خضوع العرب للسلطة الفرنسية المحتلة وقيامه بأعمال ضدهم بغية عرقلة بسط نفوذهم على البلاد وهنا استنكر وارني مواقفهم تجاهها مثل

قيامهم بحرق الأرض في فصل الخريف وقال أن هذا التصرف يعرقل المعمرين في استغلالهم للأرض وعدم إنتاجيتها بسب حرقها .

ويستمر وارني بالحديث عن نظام القبيلة عند العرب ويعتبره عاملا يحد من انتشار التوسع الفرنسي في البلاد فهو يرى أن تمثيل القبيلة في المجتمع العربي يكون من قبل الرجل ومن طرف الأكبر سنا فيها وعند الموت يخلفه الابن وهكذا ، وهنا يعبر وارني أن هذا النظام في غير صالح فرنسا في تصديها للمقومات الشعبية حيث عادة ما كانت تستمر بعد موت شيخ القبيلة وبالتاي لا يهئ لفرنسا بال وعدم تمكنها على إخماد هذه المقومات مستشهدا في ذلك بمقاومة قبيلة سي سليمان بأولاد سيدي الشيخ .

ويواصل وارني تهكمه على الأسرة العربية التي قال بأن العرب فيها محبون كثيرا لظاهرة التعدد في الزوجات وأنهم لا يقدرونهن ويفرحون لموتهن بغية الزواج من جديد، هنا نلاحظ بأنه يصور العرب وكأنّهم زير نساء ولا يهمهم سوى تحقيق الرغبات ولا علاقة لهم بالمبادئ الإنسانية التي تنكر فعلا وفي كل الديانات السماوية الفرح بموت الآخر، وقد كان منه كل هذا بغرض الزيادة في إعطاء صورة أكثر تشويها عن الإسلام بصورة عامّة، ويذهب وارني إلى حد القول أن العربي يحزن عند موت ابنته لأنّه يكون بذلك قد ضيّع مالا كثيرا كان سيجنيه بعد زواجها وفي هذا تصوير العربي مرّة أخرى بأنه ذا نفسية وطبع مادي، إضافة إلى استعماله الخدم في منزله وأنه عديم الشخصية في كل مواقفه وتصرفاته (warnier، 1865).

وفي مجمل القول عن رحلة وارني الى الجزائر أنّها لا تخرج في عمومها وشكلها وغرضها عن باقي كتابات مؤرخي الحركة الاستعمارية، وكتابات المستشرقين الفرنسيين المدعمين والمساندين لاحتلال البلدان، ففي هذه الرحلة يلمس تلك الصورة المظلمة التي أرد وارني طبعها في ذهن التلقي عن العنصر العربي وعن الإسلام والمسلمين عامّة بالجزائر أين وصف جميع الجزائريين بالشعب المعادي للعمل والشعب الكسول والمعتمد على نظام العشائرية والقبلية التي ترتكز على الشراسة والعدوانية والعقلية المتوحشة البعيدة تماما عن مبادئ الحضارة متناسيا في كل ذلك أعمال سادته وأسلافه عند ارتكاب أبشع عمليات تقتيل بالجزائر خاصة في تاريخ البشرية جمعاء وطرق التنكيل بالجثث وطرق التعذيب التي أنشئوا لها مدارس خاصة مهمتها تخريج ضباط في تقنيات التعذيب والاستنطاق وكل هذا من أجل رفض السيطرة الأجنبية على البلاد، ومتى وجدنا شعبا عبر التاريخ يقبل باحتلال بلده من طرف أجنبي بما في ذلك الفرنسيين أنفسهم (2018، صفحة عبد العالي غزالي).

إنّ رحلة وارني لا تخرج إطلاقا عن الرحلات والكتابات الاستعمارية المغرضة التي تقدم صورا مظلمة عن الجزائرين والإسلام والمسلمين وتعطري تلك الصور المضيئة والمشرقة عن المعمرين والأوربيين عامّة وتتبع صفة الحضارة والتحضّر بهم والجهل والأمية والوحشية بغيرهم، فهي كتابات بعيدة كل البعد عن الحقيقة التاريخية وتجانب كل صواب .

ثانيا- صورة الإسلام والمسلمين من خلال رحلة : " قسنطينة رحلات و اقامات 1879"

وهي لصاحبتها الفرنسية لويس ريجيس التي حلّت بالجزائر وتنقلت بين مختلف ربوعها ومناطقها واصفة كل ما صادفها من منظار طبيعية وعادات سكان وعلاقات اجتماعية، وقد أثارت هذه الرحلة سخطا بين أوساط الطبقة المثقفة الفرنسية كونها تعطف كثيرا على حال السكان الأصليين وبالمقابل تذم وتفضح المعمرين الفرنسيين، وكأنّ لسان حالهم يقول بالعكس الى ما ذهبت إليه ريجيس وسار عليه غيرها مثل الرحالة وارني.

زارت ريجيس معظم مناطق الشرق الجزائري انطلاقا من مدينة سكيكدة إلى قسنطينة ووصلتها في شهر ماي 1879 لتمكث بها قرابة الأربعة أشهر بعدها تتنقل إلى باتنة في شهر سبتمبر من نفس السنة ثمّ إلى مدينة بسكرة أين زارت تقريبا كلّ أعرشها ومناطقها ثم تقرر العودة إلى قسنطينة من جديد وتعقد عزمها على زيارة الجزائر العاصمة والبليدة والمدية وقبلها عرّجت على مدينة بجاية والبرج وبعدها رجعت إلى فرنسا في رحلتها الأولى التي دامت حوالي ستة أشهر متنقلة في ذلك بين الطريق البري والبحري.

عادت لويس ريجيس في رحلة ثانية الى الجزائر شهر ماي 1880 وصولا الى ميناء سكيكدة كعادتها متجهة إلى قسنطينة أين مكثت بها فترة شهرين في المدينة العريقة وسمحت لها هذه الزيارة أن تكتب الكثير عن المدينة وعن سكانها لتعود منا مباشرة إلى بلدها فرنسا دون أن تزور مناطق أخرى هذه المرّة .

إنّ المطلع على رحلة لويس ريجيس يمكن له أن يصنفها إلى جوانب متعددة منها التاريخ، والمجتمع ، والدين، والاقتصاد والثقافة والسياسة ، بمعنى أنها كتبت ووصفت شتّى المجالات التي كانت آنذاك تحت سلطة وإدارة الاحتلال الفرنسي، بمعنى آخر أنّ لويس ريجيس وصفت أوضاع الجزائر تحت رحمة الكولون المستدمر، ومن بين أغراضها من الكتابة عن الجزائريين كانت إيصال أحوالهم إلى الفرنسيين من متتبعيها وربّما هذه الرحلة سوف تعكس صورة فرنسا ذات الحضارة المزيفة التي تدعيها وكيف مارستها وطبقتها على الجزائريين الذين كانت لويس ريجيس تعبر عنهم بمصطلح " الأنديجان " (louis, 1881, p. 247)ومن جهة أخرى عمدت ريجيس الى توضيح سياسة المعمرين وكيفية استغلالهم للأراضي الجزائرية لقرائها في فرنسا وهو الأمر الذي لم يعجب هؤلاء على مثل هذه الكتابات ولطالما احتجوا عليها أمام الحاكم العام الفرنسي بالجزائر.

في الجانب الاجتماعي خصّصت لويس ريجيس صفحات كثيرة للحديث عن المجتمع الجزائري مركز في كلامها عن السكان العرب وغيرهم وعاداتهم وتقاليدهم، والغريب في أمرها أنّها كانت تورد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في كتاباتها، فقد تحدثت عن الرجل وتحدثت عن المرأة وعن الزواج والطلاق وعادات زيارة المقابر وأخذ الطعام إليها، كما تحدثت عن المساجد الإسلامية وبعض الزوايا والحمّامات والبيوت العربية، ضف إلى ذلك حديثها عن المرأة العربية ولباسها وكل ما تعلق بها .

وذا ما تعمقنا بالاطلاع على ما كتبته لويس ريجيس نلمس ذلك القبول والميل الى كل ما هو جزائري محلي ولم تصله يد الإحتلال الفرنسي بعد ، فقد تركت مدينة قسنطينة أثرا بليغا في نفسها كونها مازالت تحافظ على خاصيتها العمرانية العربية ، لكن أبدت قلقها من مظاهر التغيّر التي بدأت تطرأ عليها بفعل بداية تخريب البيوت العربية وتعويضها بيوت ذات طابع أوربي ، وهنا أبدت حسرتها على فقدان المدينة لجمالها وزوارها ، ولكن وجبت الإشارة هنا الى أن هذا التخوف في حقيقة أمره يصب في صالح فرنسا وذلك كون المدينة تمثل مركزا حساسا بالنسبة للاحتلال وتراجع وتدور أمر المدينة يزيد من إضعاف مركزها المحوري الذي تتخوف منه الإدارة الكولونيالية ومنه يمكن أن يكون تراجع المدينة يمثل تراجعا للمقاومات الشعبية في المناطق الأخرى وبالتالي تحافظ فرنسا على مركزية الحكم في العاصمة بدلا من خلق أقطاب منافسة أخرى (louis، 1881).

إنّ الصور التي أوردتها لويسي ريجيس عن الإسلام والمسلمين في الجزائر هي في الحقيقة صورا متنوعة وكثيرة وفي غالبها كانت تنتصر فيها للمسلم الجزائري وتمنحه الأعذار مهاما كانت تصرفاته وهو الجزائري المسلم الذي لا يقبل على الإطلاق استبدال دينه الإسلام بدين آخر، وهنا تراودنا شكوك في توجه لويسي ريجيس الديني في حد ذاته إذ تبدو وكأنها تستعطف الجزائري المسلم وتظهر في صورة المدافع عنه بغية إيصال فكرة تسامح المسيحية ومنه الدخول في سياسة التبشير التي يستعمل أصحابها كل الطرق ويستغلون كل الوسائل والظروف .

ونظرا لتمسك الجزائري بدينه وأرضه فقد كان له من الطبيعي رفض كل الإغراءات الأخرى ورفضه لسياسة الإدماج مع المجتمع الفرنسي بالجزائر بل كان ينظر إلى ذلك بأنّه خروج عن الملّة والدين الإسلامي وكان من البديهي أيضا للجزائري أن يرفض كل صور الحضارة الأوربية في مختلف تجليّتها (حسين، 1983، صفحة 6).

تبدي لويس ريجيس إعجابها بصوت المؤذن في المسجد وتوافد المسلمين لأداء الصلوات وعلى الخصوص يوم الجمعة مشكلين بذلك نمطا وحدويا دينيا بين أفراد المجتمع ن لكنها نبّهت في الوقت ذاته الى عدم وجود المرأة من بين المصلين متحدثة هنا عن مقارنة بين عدد النساء والرجال في الكنائس وما يقابله في المساجد وربّما هذا راجع إلى جهلها بحكم الدين في قضية صلاة المرأة في المسجد، ويبدو لنا أن حديث لويس ريجيس هنا عن الوحدة الدينية وكأنه إشارة منها إلى الإدارة الفرنسية للتنبه إلى خطر هذه الوحدة على وجودها بالجزائر لكن في طابع إعجاب كي لا تثير شكوكا والمواقف مناهضة لها (louis، 1881).

وعلى العكس ما ذهب إليه بعض الرحالة من أن العرب المسلمين عديمي النظافة وبيوتهم متسخة ومحلاتهم و اقاماتهم كذلك على غرار ما ذهب إليه الرحالة بول بورد في رحلته المسماة " رحلة عبر الجزائر "

(paul, 1880, p. 229)وهنا ترد ريجيس بأن المسلمين ميزتهم النظافة وأسنانهم براقة من كثرة الوضوء تقول ومداومة الحفاظ على الصلاة ونفس الشيء بالنسبة للباسهم .

تبدو صورة المسلمين في الجزائر من خلال رحلة ريجيس أنهم أناس بسطاء ومتواضعون وكرماء فقد استضافوها في بيوتهم أثناء تنقلاتها في المدن الجزائرية وعلى الخصوص استقبالها من قبل شيوخ القبائل وكبار الأعيان أين ترك الاستقبال الحار انطباعا حسنا في نفسيتها، ومنه أوردت عدة صفات أخلاقية عنهم منها : حسن الخلق، التواضع، الرجولة، عزة النفس، احترام كبار السن، احترام رجال الدين والعلم وقد ربطت كل هذا بتعاليم الدين الإسلامي الذي يحثهم على ذلك وفي الوقت نفسه يدعوا هذا الدين إلى احترام الآخر من الكهنة والمسيحيين

لقد سجّلت لويس ريجيس انطباع سيئا عن فرقة العيساوة التي قلت عنهم بأن تصرفاتهم تدعوا الى التقزّز والغرابة في معتقداتهم وطقوسهم الغريبة وأنّهم غير ملتزمين بدينهم الإسلامي مع إهمال الصلاة وإدمانهم على الحشيش مما يجعلهم يتمددون في الشوارع بفعل تأثير مفعول المواد المخذرة وقالت عنهم أن يعيشون حياة الكسل واللهو والترف، وقد أرجعت أصولهم إلى المغرب الأقصى موطنهم الأصلي متحدثة عن أسباب توزعهم على البلاد المغاربية كتونس والجزائر (louis، 1881).

ومن ناحية الشباب فقد استهجنت لويس ريجيس تجمعاتهم أمام المحلات والدكاكين ومراقبة المارة والتفوه بكلام أحيانا غير أخلاقي وأعابت عليهم تضييع الوقت وعدم استغلاله في أنشطة أخرى تنفع، إلى جانب هذا نقلت أيضا فرحة العربي المسلم بالجزائر بزيادة ولد ذكرا في العائلة وعدم الاكتراث بولادة البنت وقالت أن هذا راجع الى طبيعتهم كونهم محابين وينظرون إلى الذكر كونه مصدر قوة وزيادة في عدد الجند، وهنا تبدو ريجيس أنّ فكرها لا بعد كثيرا عن تلك الأفكار الأوربية التي ترى أن الإسلام والمسلمين ذوي طابع دموي وحربي وبّما هذه هي الصورة الأكثر رسوخا في ذهنية الغرب عن المسلمين (قينة، 2009).

فيما تعلق بالمرأة فقد أبدت ريجيس إعجابها بالمرأة القسنطينية وبجملها وبلباسها، وخاصة النساء القرويات التي شبهتهن بالنساء في الريف الفرنسي، وهذا ما ذهب إلى عكسه رحالة آخرون فرنسيون بأن نفوا أي صفة للجمال في المرأة الجزائرية، وفي المقابل تستهجن ريجيس المرأة اليهودية التي رأتها في قسنطينة واستنكرت عنها تصرفاتها .

لقد أعجبت لويس ريجيس باحترام المسلمين لموتاهم وتقديسهم لهم وفق طرق خاصة في عملية الدفن وعدم منع نسائهم من زيارة موتاهم يوم الجمعة وفي هذا المضمار أعابت على الكولون عدم احترام مقابر المسلمين وعدم امتناعهم عن إقامة المشاريع المختلفة حتّى ولو كلّفهم ذلك إزالة المقابر التي تعترضهم من أجل إقامة المشروع .

وفي مجال التعليم تمنت ريجيس من الجزائريين أن يتقربوا من المدارس الفرنسية لمزاولة تعليمهم وبحث في عدم وصول الجزائريين على مرحلة التعليم العالي ، لكن هنا بدوا جليا أنها لم تتحدّث عن التعليم العربي الحر الإسلامي وأسباب تعطيله وتعطيل معلميه من الإدارة الفرنسية، وحسب رأيها فان امتناع الجزائري المسلم عن التعليم الفرنسي وإقباله على ما وجد من تعليم ديني جعله حبيس الماضي وهنا صعب عليه الاندماج بين الفرنسيين حيث قالت أنّه : " من جنس محارب وطبعا مستغرق في تأمله الديني ولذلك فلن يندمج معنا إلاّ بعد مجهودات قوية وبقرار حاسم سيكلفه الكثير حتّى يستطيع دخول مجرى الحياة والكينونة الأوربية ..." (louis، 1881).

إنّ حديث لويس ريجيس هنا يصب في إطاره العام وهو سياسة الإدماج التي تهدف السلطات الفرنسية تطبيقها على الجزائري، وكأنها توضح لهم أسباب عزوف الجزائريين عن الإدماج أن الخلل يكمن في تركهم خارج نطاق التعليم الفرنسي بمعنى كلامها فيه دعوة إلى فرض وإجبارية التعليم الفرنسي على الجزائريين، وفي هذا المجال راحت الفرنسية ريجيس تعد أسباب عزوف الجزائريين عن المدارس الفرنسية واعتبرت أن السياسة الفرنسية هي السب في ذلك بعدم فتح مناصب عليا للجزائري بعد التخرج واقتصار الأمر على أربع مراتب وظيفية فقط وهي : قاضي، شيخ قبيلة، صبايحي، أو قايد، هذا الأخير مهمته حماية أراضي الكولون والقاضي وجب عليه أن يحكم بما يمليه عليه القانون الفرنسي الذي تلقاه في المدارس الشرعية الثلاث الإستشراقية ، والصبايحي مهمته توفير الأمن ، وشيخ القبيلة تنحصر مهامه في المهادن وبث روح الطاعة والولاء، فكل من هذه المناصب في وظيفتها هي بالأساس تخدم بسط سلطة الإدارة الفرنسية لذلك عزف الجزائريون عن التعليم الفرنسي .

ومن الناحية الإقتصادية تحدثت لويس ريجيس عن مشاريع المعمرين وانتقدتهم بسبب عدم إكمالها وفشلها قبل وصولها الى مرحلة الإنتاج مصرحة في هذا الشأن بعد جدوى وصلاحية هذه المشاريع من أصلها وأعطت مثالا بمشروع الصحراء الداخلية (محمود، 2003، صفحة 8) الذي أفصحت عن عيوبه وخطورته واستهدافه لإزالة البيوت العربية التي تعطي للمناطق الجزائرية طابعها الخاص، كما أوصت الأوربيين بعدم الإكثار من المشاريع أي التقليل منها والعمل على إنجاحها، وقد شجعت على انشاء طرق السكك الحديدية لتحقيق الأغراض الإقتصادية حسبها هي من حيث السياحة وسهولة التنقل، لكن في الواقع بغية ربط مناطق البلاد وسهولة تجميع الخبرات وتوجيهها نحو الموانئ ومنها إلى فرنسا .

وهنا تطرح تساؤلات عديدة حول الرحالة الفرنسية لويس ريجيس كونها مع السكان الجزائريين والتعاطف معهم أم مع حركة الاستيطان والتشجيع عليها وتوضيح سبل وطرق نجاحها خاصة وأنها قد أفصحت بأن سياسة التعمير في الجزائر تحتاج الى وقت طويل وإستراتيجية سليمة وأنّه من المخاطرة بأن تستعجل فرنسا إيجاد سلطة قوية لها بالجزائر بسرعة دون مراعاة الصبر وطول المدة الزمنية (القاسم س.، 1983) وهنا تظهر ريجيس وكأنّها المرشدة للساسة الفرنسيين في المستعمرة الجزائرية ، ومهما كان من

أمر صورة الإسلام والمسلمين في رحلة لويسي ريجيس فإنها ارحم بكثير مما وصفهم غيرهم في رحلاتهم مثل رحلة وارني.

خاتمة:

بالتركيز على هاتين الرحلتين المهمتين من الكتابة التاريخية في إطار أدب الرحلة، والمتناقضتين من حيث المحتوى وهما رحلة وارني التي تحمل عنوان " الجزائر أمام الإمبراطور " والتي حاول صاحبها إعطاء صورة سوداء ومظلمة عن المسلمين في الجزائر، ولعب فيها على وتر العصبية القبلية بأن حاول فيها عبثا التفرقة بين العناصر المكونة للمجتمع الجزائري هادفا بذلك الى خدمة أسياده من دعاة الحركة الاستعمارية الهادفين إلى توسيع رقعة الإمبراطورية جغرافيا، متغافلا تحسين أوضاع الإمبراطورية الداخلية المتهالكة والمقبلة على الإفلاس، وقد كان في رحلته هذه غير منصف ولا عادل ولا حتّى صادق فيا ذهب إليه وهي كتابات لا تخرج عن الإطار العام لكتابات المستشرقين الفرنسيين التي تصب في خانة الاستعمار ، وبالمقابل في رحلة " قسنطينة رحلات واقامات " لصاحبتها لويس ريجيس، وهي الرحلة التي ناقضت كل ما جاء في الرحلة الأولى، وهي الرحلة التي حاولت إبداء تعاطفا مع السكان ووصف حالهم وأحوالهم، وفي الوقت نفسه كانت منتقدة لسياسة الكولون وكل ما ينجر عنها .

ومما سبق ذكره يمكننا الإجابة عن الإشكالية المطروحة وهي أن صورة الإسلام والمسلمين في رحلة وارني هي صورة مظلمة وحاقدة ومشوهة لكل ما هو إسلامي بالجزائر أراد من خلالها ترك انطباعا سيئا لدى التلقي ولذلك يمكن اعتبارها الى جانب نظيراتها من الرحلات في التوجه هي من أسّس للكراهية بين الشعوب في العالم وهي من ساهمت في تصوير المسلم بكونه ذلك الدموي المحب للحروب والمتسلط والمتشدد لرأيه ،بينما هذه الدرجة من العداء كانت غير واضحة في رحلة لويس ريجيس ولم تصرح بما يريده الساسة الفرنسيون منها وان كنّا نلمس تلك الأغراض للرحلة من خلال ما بين سطورها ولم تقله صاحبتها علانية .

وعليه يمكننا الوصول إلى الاستنتاجات التالية سواء كانت تدخل ضمن أوجه الشبه أو الاختلاف بين الرحلتين وهي :

-كلتا الرحلتين فرنسيتين وجاءتا في وقت تكاد تقضي فيها فرنسا على المقومات الشعبية .

- تمثل كلاهما وجهة نظر الفرنسي لصورة الإسلام والمسلمين سواء بالتصريح أو التلميح.

- رحلة وارني كانت فيها صورة الإسلام والمسلمين أكثر سوادا وأكثر شؤما.

- رحلة لويسي ريجيس مدافعة عن الإسلام والمسلمين حتى ولو كان ذلك يخفي وراءه أغراضا أخرى .

- تمثل الرحلتين مصدرا هاما من مصادر التاريخ الذي كتب عن الجزائر بغض النظر عن كونه تاريخا مغرضا .

- توجيه الخطاب في الرحلتين إلى مسؤولي الإدارة الفرنسية بالجزائر وهذا ما يعطيها صفة الطابع الرسمي وأنّها رحلات كانت تحت الحماية والرقابة .

- لعب وارني في رحلته على وتر العصبية القبلية بين السكان الجزائريين .

- شملت الرحلتين الحديث عن جميع القطاعات الجزائرية وكأنها كان في مهمّة وصف وتحضير للمعلومة.

- تطرقت الرحلتين إلى كبرى القضايا التي تهم الإدارة الإستعمارية بالجزائر وهي سياسة التفرقة ، حماية الكولون ، سياسة الإدماج وسبل تحقيقها ، نشر التعليم الفرنسي .

وفي الأخير نوجه دعوة وهي بمثابة توصيات بأن يكون هناك المزيد من الردود على ما جاء في هذه الرحلات الأوربية وخاصّة الفرنسية نحو الجزائر وما إقامة التظاهرات الثقافية وعقد الملتقيات، وطرح بعض الرحلات كدراسات أكاديمية وغيرها إلآخير فآل لهذه الردود ودراسة محتوى الرحلات لمعرفة كيفية الرد على ما جاء فيها.

قائمة المصادر والمراجع

***باللغة العربية :**

***الكتب :**

- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، (1983)، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر).
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (2007)، ج6، دار البصائر (الجزائر).
- ادوار سعيد، الإستشراق، تر كمال أبو ديب، (1981)، مؤسسة الأبحاث العربية (بيروت).
- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، (1983)، دار الأندلس، بيروت (لبنان).
- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، (1989)، عالم المعرفة (الكويت).
- رنا قبّاني، أساطير أوربا عن الشرق، (1993)، دار طلاس للدراسات والترجمة (دمشق).
- عمار السنجري،البدو بعيون غربية، (2008)، المركز الثقافي العربي، ط1، (الدار البيضاء).
- عمر بن قينة، رحلات ورحالون في النثر العربي الجزائري الحديث، (2009)، ط2 ، دار الأمة (الجزائر).

- مي عبد الكريم محمود، تائهون في صحراء الإسلام صورة الصحراء العربية في كتابات الرحالة والمستشرقين الفرنسيين، (2003)، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 (سورية).

***المجلّات :**

- غزالي عبد العالي، صورة الجزائر في مصادر الرحلة الغربية خلال العهد العثماني، (2018)، مجلّة الحوار المتوسطي، مج09، العدد 01.

***باللغة الفرنسية :**

- Warnier A : l,Algerie devant L'empereur ,paris , 1865.
- Bourde paul : A travers l,Algerie , paris , 1880.
- Regis louis : voyages et Séjours , paris , 1880 .

الدراسات الكولونيالية حول الطرق الصوفية بالجزائر خلال القرن التاسع عشر بين المنظومة المعرفية والنزعة الاستعمارية

Colonial studies on the sufi orders in Alegria during the nineteenth Century Between the cognitive system and colonialism

د. يوسف بن حيدة ، جامعة أم البواقي-الجزائر
Benhida.Youcef@univ-oeb.dz



عرفت الكتابات الكولونيالية حول التصوف والطرق الصوفية اهتماما واسعا من طرف الإدارة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر؛ وتركزت بشكل كبير خلال القرن التاسع عشر، حيث شكلت منطلقا للتعرف على المجتمع الجزائري وعلاقته بالزوايا والتصوف الطّرقي الذي كان يمثل خطرا كبيرا على التواجد الاستعماري خاصة فيما ارتبط به من مقاومة في بداية الاحتلال، وفي هذا الجانب سنتعرف على بعض النماذج من الدراسات الكولونيالية التي اهتمت بالطرق الصوفية والزوايا بالجزائر خلال القرن التاسع عشر، من خلال قراءة في المعلومات التي تضمنتها؛ وكذا الصورة التي سوقت لها؛ وما مدى مصداقيتها في التعامل مع الواقع الصوفي ؟وفق منهج تاريخي يرصد هذه الكتابات كمنطلقات فكرية والأهداف المرجوة منها، لنصل في الأخير إلى أنّ هذه الدراسات شكلت استمرارية للأنثربولوجيا الإستعمارية التي اهتمت بدراسة المجتمع الجزائري في جانبها الديني؛ بهدف إيجاد الحلول وطريقة للتعامل مع شيوخ الطرق والزوايا من أجل تسهيل السيطرة عليها والتمكين للإدراة الإستعمارية في استكمال مشروعها التوسعي الإستعماري.

الكلمات المفتاحية: الدراسات، الكولونيالية، التصوف، الزوايا، الإستعمار.

Abstract :

The colonial writings on Sufism and Sufi orders received wide attention on the part of the French colonial administration in Algeria; It was largely concentrated during the nineteenth century, as it formed a starting point for learning about Algerian society and its relationship to angles and tariqa mysticism, which represented a great danger to the colonial presence, especially with regard to the resistance associated with it at the beginning of the occupation. Sufism and angles in Algeria during the nineteenth century, through a reading of the information it contained as well as the image that was marketed for it; What is the extent of their credibility in dealing with the mystical reality? According to a historical approach that monitors these writings as intellectual premises and the desired goals, to come to the conclusion that these studies constitute a continuity of colonial anthropology that concerned itself with the study of Algerian society in its religious aspect; With the aim of finding solutions and a way to deal with the sheikhs of roads and angles in order to facilitate their control and enable the colonial administration to complete its colonial expansion project.

Keywords: Studies, colonialism, mysticism, angles, colonialism.



مقدمة:

ارتبط الاستعمار الأوربي ببلاد المغرب عموما والجزائر خصوصا بظروف تاريخية تحضيرية رصدتها الكتابات الأنثروبولوجية والتي شكلت منطلقا للتعرف على المجتمعات المغاربية من خلال الأدبيات والدراسات التي شكلت رصيدا معرفيا شمل عددا معتبرا من البحوث والتقارير الميدانية التي مهدت للسيطرة الاستعمارية، وفي هذه الدراسة سنتعرف على بعض النماذج من الدراسات الكولونيالية التي اهتمت بالطرق الصوفية والزوايا بالجزائر خلال القرن التاسع عشر، والتي شكلت منطلقا ومبادرة ضمن ما يعرف بالأنثروبولوجيا الاستعمارية عبر تقارير الضباط الذين اشتغلوا في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي؛ وارتبطت اهتماماتهم بمهام استخباراتية وميدانية لدراسة الواقع الديني في إطار التعرّف على مكونات المجتمع الجزائري وارتباطاته الدينية؛ وما يمكن أن يشكل خطرا على التواجد الاستعماري، والتساؤل المطروح هو كيف سوقت الكتابات الكولونيالية خطابها عن الطرق الصوفية بالجزائر؟ وإلى أي مدى ساهمت الدراسات الأنثربولوجية في التعريف بالطرق الدينية وفتح الرصيد المعرفي بموضوعية حولها؛ وما هي أبرز النتائج والتوصيات التي تضمنتها الدراسات عن مؤسسة الزوايا وعلاقتها بالأهداف المرجوة؟

وللإجابة على التساؤلات اتبعنا المنهج التاريخي في ترتيب الدراسات وأهميتها مع التركيز على المضامين العامة للكتابات من خلال مقاربة تحليلية للتعرف على الخطاب الكولونياني وآلياته في رصد الواقع الطُرقي بالجزائر ومكوناته خلال القرن التاسع عشر .

أولا - اهتمامات الأنثروبولوجيا الإستعمارية بالطرق الصوفية والزوايا:

اهتمّ الاستعمار الفرنسي بالزوايا والطرق الصوفية من خلال البعثات الإستكشافية والمراكز الإدارية الممثلة في المكاتب العربية التي تم تأسيسها سنة 1844 بغرض التواصل بين الفرنسيين والأهالي (بوعزيز، 2007، صفحة 11)؛ وتسهيل التعرّف على المجتمع الجزائري في إطار الدراسات الإستشراقية؛ فقد أولاها الرحالة والجواسيس والعسكريون اهتماما بالغا خلال القرن التاسع عشر متسائلين عن موقع الدين والزوايا من المجتمع وخاصة بعد تأسيس الجمعية الباريسية الإتنولوجية سنة 1839 (لكلرك، 1990، صفحة 22).ونظر للدواعي الاستعمارية والاستراتيجية وبعد أن حققت الحملة العسكرية غايتها في 1830، أصبحت الإدارة الاستعمارية بحاجة إلى معرفة بالواقع الجزائري أكثر من أجل التواصل مع المجتمع وممثليه ومؤسساته؛ والتغلغل أكثر بهدف السيطرة وتطبيق المشروع الاستعماري؛ وتحقيقا لهذه الغاية تنوعت واختلفت الكتابات بين التقارير العسكرية والدراسات السوسيولوجية والمبالغة التخويفية في قراءة ودراسة الواقع الاجتماعي والديني ومؤثراته والتعريف بالطرق الصوفية وعدد فروعها وأتباعها ومواردها، فصدرت الكثير من الدراسات المهتمة بالجماعات الدينية والزوايا الصوفية في الجزائر وبخاصة

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين؛ وأصبحت تشكل مادة معرفية ومصدرية للدراسات المهتمة بتاريخ الجزائر الصوفي.

ثانيا- نماذج من الدراسات المهتمة بالطرق الصوفية بالجزائر و أثرها العلمي والإستعماري :

من الدراسات الاستعمارية المتخصصة التي شكلت منطلقا للإدارة الاستعمارية حول موضوع الطرق الصوفية اخترنا أربع نماذج تعتبر من الكتابات التي أسست للدراسات الصوفية وفق المنهج الإحصائي؛ والتركيز على الجانب السياسي، وفيما يلي أبرز هذه الدراسات :

1. ادوارد دونوفو ودراسته الإثنوغرافية الصادرة سنة 1845:يعتبر ادوارد دونوفو Edouard De Neveu من أشهر العسكريين الذي أولوا أهمية بالغة في دراسته الإثنوغرافية بالجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر تحت عنوان: " Les Khouan,ordres religieux chez les musulmans de Algérie (Neveu, 1846) وبحكم موقعه كعسكري برتبة عقيد ونشاطه بالجزائر وتقلّده لوظائف متنوعة منها عضو في اللجنة العليمة؛ ومسؤول عن الشؤون الأهلية بالمكاتب العربية، إضافة إلى معرفته باللغة العربية ومصاهرته لإحدى الاسر الجزائرية (سعدالله، 1998، صفحة 301)، كل هذا سهّل له عملية التواصل مع أفراد المجتمع الجزائري؛ واكتشف تأثير الحراك الصوفي بالجزائر؛ فجاءت دراسته مُعرِّفة بأبرز الطرق الدينية المتواجدة بالجزائر وتأثيرها على التواجد الفرنسي، مبديا تخوفه من ردود الفعل والمقاومة التي قد تعرقل المشروع الاستعماري بالجزائر.

والمتأمل في دراسته يجد بأنّ الكاتب اعتمد على تقارير ومعطيات ميدانية شكل فيها الجانب الإحصائي عنصرا هاما؛ الهدف منها إعلام وتعريف الإدارة الاستعمارية الممثلة في الحاكم العام الفرنسي بالواقع الديني بالجزائر وتأثير الطرق الصوفية على المجتمع، حيث تضمنت الدراسة مقدمة في شكل تقرير موجه إلى الإدارة العسكرية مشيرا فيها إلى التطورات التي عرفتها المنطقة ممثلة في مقاومة الأمير عبد القادر خلال سنة 1837 وسنة 1942؛ ومبرزا دوره في محاولة تكوين دولة عربية ذات سيادة؛ وربط مقاومته ببعدها العربي مع استثناء الجانب الديني والجهاد كمنطلق وغاية قامت عليها، وقد أشار دونوفو أيضا إلى العلاقة بين الأمير عبد القادر وأحمد باي مبرزا غياب التنسيق بينهما؛ وتفسير استسلام الأمير عبد القادر بالفشل؛ دون إعطاء دلائل وتفسيرات للأسباب الحقيقية المرتبطة بثورته (Neveu, 1846, pp. 7-9)

كما تضمنت الدراسة عملية إحصائية لأبرز الطرق الصوفية التي عرفتها الجزائر انطلاقا من التعريف بمؤسسيها وأتباعها ومجال انتشارها وزواياها متضمنة سبع طرق صوفية رئيسية: القادرية ثم الطيبية والعيساوية والرحمانية والحنصالية والتيجانية وأخيرا الدرقاوية (Neveu, 1846, p. 23)، معرّفا بخصائص كل طريقة بداية بمؤسسها ثم عدد أتباعها وزواياها ومجال انتشارها؛ مع محاولة إبراز الجانب الإيجابي والسلبي لكل طريقة، كما تطرّق إلى مواردها المادية، ومكانتها الاجتماعية محاولا إبراز موقفها من الاستعمار وما قد تشكله من خطورة على سياسته التوسعية، مع التركيز على الغرض الذي كان وراء عملية التدوين والمتمثل في تعريف الإدارة الاستعمارية بالمكانة والقوة التي تحتلها الطرق الصوفية من سلطة

روحية ونفوذ على الأتباع، ومبرزا قوتها التي تحركها من أجل التأهب واليقظة اتجاه أيّ رد فعل قد تقوم به ضدّ مشروع الاستعمار (Neveu, 1846, p. 44).

هذه الدراسة شكلت منطلقا للإدارة الاستعمارية للاهتمام أكثر بموضوع الطرق الصوفية في إطار الأنثربولوجيا الاستعمارية التي أصبحت وظيفة تنقيبية لها أبعاد في محاولة فهم الواقع الطرقي ومكوناته؛ ووضع خطة مناسبة وفق ما يتوافق مع المعطيات الميدانية من أجل التوغل داخل المنظومة الصوفية بمؤسساتها والحدّ من نفوذها، حيث أعقبت هذه الدراسة اهتمامات أكثر من الإدارة الاستعمارية وتسخير الإمكانيات اللازمة بهدف تجنيد الدارسين في إطار العمليات الاستخباراتية والميدانية وفتح مجال البحث حول الطرق الصوفية وزواياها.

2. كتاب الإخوان لـ:شارل بروسلار Charles Brosselard : من الكتابات التي اهتمت بالطرق الصوفية بالجزائر كتاب (Les Khouan, de la constitution des ordres religieux musulmans en Algérie) لمؤلفه شارل بروسلار (1816-1889)؛ وهو مؤرخ فرنسي تولّى شؤون المكتب العربي بتلمسان وألف عن المؤسسات الدينية بالمنطقة حيث استفاد في مهامه من تعلم اللغة العربية والإطلاع على التراث الموجود بها من مخطوطات وكذا زياراته للزوايا والمساجد، وله كتابات أبرزها كتاب: "شواهد قبور وسلاطين وأمراء بني زيان الملتقطة من روضاتهم الملكية بمدينة تلمسان"، وكتابه "الإخوان عن الطرق الدينية الإسلامية في الجزائر" صدر سنة 1859، تناول فيه الممارسات السلوكية للطريقة؛ حيث أشار إلى مكانة شيخ الطريقة وسلطته الروحية على مريديه وتوجيههم لتركيز جهدهم العقلي والبدني في إبعادهم عن العالم الحقيقي من خلال أفعال وسلوكات طقوسية مكررة تجعلهم يفتقدون الحرية في الحكم على الأشياء؛ فهي بمثابة طقوس تتطلب الصبر والقدرة حتى يتسنى للسالك قطع مراحلها (Brosselard, 1859, pp. 20-21)، وتطرق الكاتب في دراسته إلى تنظيم الزوايا والمشرفين عليهم والعلاقة بين الخليفة والمقدم، والانخراط في الطريقة مشيرا إلى استقطابها لمختلف الفئات والشرائح وهو ما يساهم في انتشارها وحيويتها (Brosselard, 1859, p. 22)،كما اعتبر أنّ القادرية محاطة بتقديس خرافي، وأنّ المرابط يضيء الله خطواته بعد أن يساهم الصيام في تطوير قدراته الروحية والعقلية وتطورها، وتطرق في موضع آخر إلى الطرق الدينية خلال العهد العثماني وعلاقتها بالسلطة مشيرا إلى المعارضة التي كانت تتّبعها ضد الحكام؛ وما كانت تجده من قمع منتقدا هذه السياسة العنيفة.

هذه الملاحظة جعلت الكاتب يركّز في كتابه على مكانة الطرق الصوفية باعتبارها تشكل قوة لها نفوذ تحت إشراف شيوخها من خلال سلطتهم على الأتباع وتأثير ذلك على سياسة البلد، وهو ما جعله يصفهم بـ: "المليشيات المسلحة للدفاع ونشر العقيدة مستعدة للانطلاق بمجرد أول إشارة من قائدها نظرا لاعتقادهم في ولايته حيث يساهم ببركته في سقوط المطر؛ كما يساهم ذلك أيضا في التعبئة والتصدّي للأخطار الخارجية ما يدل على التأثير الروحي للمتصوفة على الأتباع وإقناعهم بالانتصار على الكفار" (Brosselard, 1859, p. 19).

أراد بروسلار من هذه الدراسة أن يبرز مميزات الزوايا والطرق الصوفية وتأثيراتها على الأتباع معرّجا على الخطر المهدد للاستعمار الفرنسي نظرا للمكانة التي يحتلها المتصوفة، وبنظرة يتبيّن منها المنهج التخويفي من القوة الصوفية ومؤسساتها على المصالح الاستعمارية، مطالبا من الإدارة الاستعمارية اتخاذ الإجراءات اللازمة من أجل التعامل مع شيوخ الطرق الصوفية والزوايا من خلال التمكين لهم وكسب ودّهم حتى يسهل السيطرة على الوضع والتمهيد لاستكمال المشروع الاستعماري.

3. "المرابطون والإخوان" للكاتب لويس رين: يعتبر لويس رين(louis-Rinn) (1838-1905) من الخبراء في الإدارة الأهلية الفرنسية؛ فهو عسكري تخرّج من المدرسة العسكرية الفرنسية سان سير سنة 1857 كضابط تولّى عدة وظائف في الجزائر؛ أشهرها توليه إدارة المصالح العامة مما سمح له بالتعرف على مكونات المجتمع الجزائري من القبيلة والمسجد والزاوية وسكان المدن وسكان الريف، وكان له تواصل مع شيوخ القبائل والمتصوفة والأئمة، وقد ألّف في مختلف المواضيع التي تهم الحياة الجزائرية الاجتماعية والدينية والثورات، واشتهر بكتابه موضوع الدراسة: " Marabouts et Khouan, étude sur l'islam en Algérie الذي أخرجه سنة 1884؛ حيث اعتمد فيه على تقارير رسمية كانت تصله من الإدارة المركزية ومن المكاتب العربية والولايات سواء من التقارير السرية أو العادية (Faucon, 1889, pp. 468-469)

ويعدّ الكتاب من الدراسات المتخصصة والمونوغرافيات التي رصدت الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر خلال الفترة العثمانية والاستعمار الفرنسي حتى بداية 1884 في شكل أرقام وإحصائيات تناولت أبرز الطرق الصوفية وشيوخها المؤسسين والمقاديم والمريدين والأتباع وعدد الزوايا؛ وكذا الأوقاف بمنهج تعريفي إحصائي مبني على معطيات وأرقام تقريبية إضافة إلى تكديس للمعلومات؛ مستقاة من دراسات ميدانية وتقارير عسكرية اهتمت بها الإدارة الاستعمارية من خلال نشاط المكاتب العربية ضمن أهداف كولونيالية تسعى إلى رصد العراقيل والصعوبات التي تواجه التوسع الاستعماري؛ وانطلاقا من مصلحة سياسية أو محاولة رصد المجتمع الديني من أجل اتّباع خطة أو سياسة لضبط التطورات المصاحبة للمقاومة (Rinn, 1884)

ركزت الدراسة أيضا على الجانب الإحصائي والتعريفي الذي شغل حيزا كبيرا؛ وفصّل فيها الكاتب مبرزا أهم الطرق الصوفية المتواجدة بالجزائر مقسما إيّاها حسب أصولها ومنطلقاتها بين الوافدة من المشرق وكذا جزائرية المنشأ ومغربية التأثير، والمنبثقة عن القادرية أو الشاذلية في السند الصوفي، مع التعريف بكل طريقة ونشأتها ومؤسسها وزواياها؛ وكذا ومواردها وهيكلها التنظيمي وعدد مريديها وأتباعها، والتي بلغت وفق إحصائياته حوالي ثلاثين طريقة خصص لكل طريقة فصلا تعريفيا وإحصائيا وأبرزها: الجنيدية، السهروردية، القادرية ،الشاذلية بفروعها: الجزولية والعروسية الزروقية البكرية واليوسفية الزيانية الحفناوية الحنصالية، الحبيبية، المدنية، النقشبندية، الخلوتية الرحمانية والسنوسية، التيجانية؛ وأبرز الكاتب بالأرقام عدد زوايا ومقدمي ومريدي كل طريقة في حدود سنة1884 ,Rinn, 1884) .pp. 158-481)

هذه العملية الإحصائية وعملية المسح الشاملة للطرق الصوفية بالجزائر تشكل مصدرا هاما لدارسي الطرق الصوفية رغم أنّ الأرقام تبقى تقريبية نظرا للظروف التي أنجزت فيها؛ وما يرتبط بها من تفسيرات كولونيالية؛ حتى أنّ الاهتمام بالجانب العددي لمكونات الزاوية أو الطريقة ينمّ عن تخوف استعماري وترقب من التطورات المحتملة والمقاومة التي يمكن أن يتسبب فيها الحشد الصوفي لمواجهة الاستعمار الفرنسي، ومن الملاحظات المسجلة في هذه الدراسة التفريق بين المرابطين والإخوان حيث أبرز بأنّ المرابطين الذي يشرفون على قبائل مرابطية أقلّ تعصبا من شيوخ الطرق خاصة إذا كانوا غير منخرطين ومنتمين لطريقة صوفية، وأنّ نفوذهم الروحي والقبلي من خلال نسبهم الشريف ومكانتهم سمحت لهم بالقيام بدور الوسيط والقاضي في حلّ النزاعات القبلية مستدلا في ذلك بأمثلة منها ما قام به شيخ زاوية شلاطة ابن علي الشريف من الاهتمام بالجانب التعليمي وعدم السماح لطلابها بالانخراط في الزوايا الصوفية (Rinn, 1884, p. 19)، وفي حديثه عن المرابطين أبرز الصراع الموجود بينهم وبين شيوخ الطرق والزوايا الصوفية في الفترة العثمانية مشبّها هذا المشهد بالفترة التي عرفتها أروبا في العصور الوسطى من تحكم السلطة الدينية الممثلة في الكنيسة على المجتمع والدولة وصراعها مع العلمانيين الدّاعين إلى فصل الدين عن الدولة، هذا التشبيه المبالغ فيه نوعا ما حاول من خلاله المؤلف أن يبرّر الغزو الاستعماري للجزائر بالهدف المرتبط بنشر الحضارة ورغبة فرنسا في نقل الجزائر من العصور العثمانية المظلمة إلى الحضارة الأوربية (Rinn, 1884, p. 450).

هذا الطرح الذي يحمل أبعادا كولونيالية حاول الكاتب التسويق له مبرزا الرسالة الحضارية للاستعمار من أجل تخليص الجزائر من الصراع الديني بين المرابطين وشيوخ الطرق الصوفية ونقلهم من فترة العصور الوسطى المظلمة إلى عصر النهضة والحضارة، راسما صورة قاتمة من خلال المصطلحات المستعملة مثل " الجمعيات السرية "، وتنفيذا للأهداف الاستعمارية، وسعيا لوضع حدود وهمية للمقاومة التي تزعمها الكثير من شيوخ الطرق والزوايا الذين تصدّوا لحملة التنصير الممنهجة من طرف الإدارة الاستعمارية .

كما فرّق رين في دراسته بين الطرق الصوفية التي تشكل خطرا على الاستعمار والطرق التي يمكن كسب ولاءها، فأشار إلى أن الطريقة الرحمانية والدرقاوية من أكثر الطرق مقاومة ومواجهة لفرنسا، في المقابل أشار إلى أنّ الطريقة الحنصالية والعيساوية والتيجانية لا تشكل خطرا على الاستعمار ويمكن اعتبارها من الطرق الموالية، ودعا السلطات الاستعمارية إلى الحفاظ على علاقتها مع هذه الطرق ومنحها امتيازات خاصة لقادتها وشيوخها معتبرا أنّ إضعاف أيّ طريقة من الطرق التي نشأت في الجزائر قد يؤدّي إلى نمو وتعاظم نفوذ مشائخ وزوايا الطرق الأخرى التي لها ارتباط بالخارج مثل: الرحمانية الخلوتية، والسنوسية والمدنية الدرقاوية حسب تعبيره (Rinn, 1884, pp. 450-521).

واستكمالا لأسلوبه التقسيمي الممنهج في التفريق بين الطرق الصوفية المعارضة والموالية اعتبر الطريقة التجانية طريقة موالية؛ ومن خلال ذلك حثّ السلطات الإستعمارية على تدعيم شيوخها وكسب ولائهم عن طريق تقديم المساعدات المادية وتقليد شيوخها الوظائف الدينية من أجل كسب ولائها أكثر،

حيث اقترح في هذا الجانب إعادة العمل بوظيفة : "شيخ الإسلام " التي كانت من الوظائف التشريفية الدينية خلال الفترة العثمانية والتي اختصّت بها أسرة الفكون بقسنطينة، واقترح ضرورة إعادة العمل بها وتقليد شيوخ التجانية مهمتها (Rinn, 1884, p. 450).

وفي إطار المهام الكولونيالية والمعلومات التي تضمنتها الدراسة فإنّ مخرجاتها جاءت في شكل توصيات للإدارة الفرنسية؛ حيث دعا الكاتب إلى ضرورة التعامل مع المرابطين بشكل حسن لضمان هدوءهم وولائهم، وأن يبذلوا ما في وسعهم ماديا من أجل كسب ودّ شيوخ الطرق الصوفية نظرا لمكانتهم ونفوذهم الروحي بدلا من مواجهتهم وتحطيم ممتلكاتهم لأنّ هذا قد يؤثر على استمرارية السيطرة الفرنسية ونفوذها، ويؤدي إلى ردّ فعل تحت مسمى الجهاد والذي لم يربطه بالدافع الديني بقدر ما أرجعه Rinn إلى طموحات مشائخ الطرق الصوفية للوصول إلى السلطة والجاه، مستدلا في ذلك بعدة ثورات شعبية مثل: ثورة العامري سنة 1876، وثورة الأوراس سنة 1879، وثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1880- 1881، وأيضا المقراني وعزيز والحداد سنة 1871، كل هذه الثورات وغيرها ربطها بطموحات فردية وأبعد عنها البعد الديني والوطني، واعتبر أنّ قادتها كانت لهم أهداف تتمثل في الحصول على الريّاسة والسيطرة التي قد تتحقق بجمع الأتباع إليهم وكسب النفوذ المادي الأدبي، إضافة إلى ردود الفعل ضدّهم والمتمثلة في القوة المستعملة من طرف فرنسا من أجل السيطرة عليهم والحصول على ممتلكاتهم والوقوف أمام نشاطاهم الديني والمادي المرتبط بدعم الأتباع وجمع ممتلكاتهم، واعتبر أنّ الحل الوحيد للحدّ من رغبات قادة الطرق الصوفية والزوايا في الوصول إلى السلطة والرياسة تكمن في السعي إلى احتوائهم واستعمال أسلوب اللّين معهم؛ وتوظيفهم في مناصب هامة حتى يتسنى كسب ودّهم ومن ثمّ تنجح الإدارة الاستعمارية في توقيف أي نشاط حربي من شأنه أن يضرّ بالمصالح الفرنسية ويعرقل عملية تحقيق أهدافها (Rinn, 1884, pp. 114-151)

هذه بعض المعلومات والآراء التي تناولها **رين** في دراسته بعمومها حول الطرق الصوفية والتي تبرز التوجه الاستعماري لكتاباته والتمهيد للسيطرة مستقبلا على الموارد المادية للزوايا، والحدّ من المقاومة التي قادتها الطرق الصوفية ضدّ التوسع الاستعماري، وبالرغم من القيمة المعرفية التي تضمنتها الدراسة والقدرة على النبش في حقل الزوايا والتصوف الطرقي بالتعريف وإبداء الملاحظات والتفسيرات والآراء إلا أنها لا تخلوا في طرحها من تشويه وتحريف للكثير من الحقائق التاريخية بسبب غياب الموضوعية وخاصة في تفسيره للثورات على أنها ترتبط بمصلحة فردية يسعى من خلالها شيوخ الزوايا إلى تحقيق السلطة والجاه مع استبعاد المنطلق الديني "الجهاد" كعامل من عوامل المقاومة، إضافة إلى بعض الأحكام التي ضمنها كتابه والتي من بينها اعتبار الطريقة القادرية في مناطق مختلفة من الوطن أكبر حليف لفرنسا وأنّ مقدميها من مساعدي فرنسا محاولا ربط ذلك بالتسهيلات التي وجدها الاحتلال في بدايته، دون التعقيب على البعد الصوفي لمقاومة الأمير عبد القادر وبن الناصر ابن شهرة كأحد أبرز المقاومات التي كان انتماؤها قادريا (يوسف، 2019، الصفحات 28-43).

كما ارتبطت الدراسة بتوصيات من الضابط رين من أجل أن تتعامل الإدارة الاستعمارية مع مؤسسة الزوايا والمرابطين والطرق الصوفية بما يخدم أجندتها ويحقق لها أهدافها وحتى لا تشكل هذه الزوايا خطرا على الاستعمار بما تقوم به من مقاومة وجهاد ضد الخطر المسيحي؛ خاصة وأنّ النفوذ المادي والأدبي للزوايا والطرق الصوفية شكل هاجسا كبيرا أمام التطور والتوسع الاستعماري؛ ولذلك اقترح سياسة المراقبة والتدجين وسياسة اللّين والرشوة وغيرها من الوسائل التي يمكن أن تكسب ولاء الطرق وتحدّ من نفوذها.

4.كتاب"الطرق الصوفية الدينية الإسلامية لـ "أوكتاف ديبون و ايكز افييه كوبولاني: تعدّ هذه الدراسة من أبرز الدراسات الهامة التي اهتمت بالطرق الصوفية، ويرجع ذلك إلى الكاتب كوبولانيCoppolani (1866-1905) الذي تولّى شؤون الأهالي والعسكريين في الجزائر سنة 1896.بتعاون مع أوكتاف ديبون Depont الذي تولى منصب المفتش العام للبلديات الممتزجة؛ حيث قاما بتجميع معلومات هامة عن التصوف والطرق الصوفية بالجزائر واستكمالها بمعلومات عن الطرق الصوفية بتونس حيث تم نشره سنة 1898 ثم سنة 1901؛ ويعدّ كتاب (les confréries religieuses-musulmane) من الدراسات الهامة التي أولتها السلطات الإستعمارية أهمية بالغة حيث تلقى الباحثان دعما من الحاكم العام جول كامبون(1891-1897)، الذي أمر بعملية جمع المعلومات عن المناطق التي تعرف تأثيرا دينيا؛ فقد ورد اسمه بشكل متكرر في مقدمة الكتاب (Coppolani, 1897, p. 24)، وهذا ما يبرز الخلفية الإيديولوجية للكتاب والهدف من الدراسة التي تضمنت معلومات ومعارف عن الطرق الصوفية والزوايا؛ كما يعتبر مكملا لما سبق من الكتابات مدعما بدراسات ميدانية وإحصائية، وفي وصف الكتاب فإنّه جاء مقسم إلى مقدمة وثلاثة عشر فصلا تناول فيها الكتاب في مقدمته الهدف من الدراسة والتي تشير إلى أن نجاح التوغل الإستعماري وإضعاف الطرق الدينية مرتبط بالإهتمام أكثر بالدراسات حول الطرق الدينية، مع وضع برنامج لاتّباع سياسة معينة في التعامل معها، وقد خضعت الدراسة في تقسيمها إلى ترتيب تاريخي؛ حيث يتناول الفصل الأول الطابع الإجتماعي للعرب في العصر الجاهلي؛ ثم تلته مرحلة البعثة النبوية متضمنة خصائص الدّين الإسلامي بالتطرق لبعض الميزات في السيرة النبوية والقرآن الكريم والسنة النبوية؛ والتطورات التي عرفتها الحضارة الإسلامية من تشيّعات وفرق ومذاهب، وتناول الكتاب فصلا عن الفتوحات الإسلامية والديانات التي كانت متواجدة بالعالم الإسلامي وعلاقة الدين الإسلامي بالمسيحي من خلال المقارنة بين المسيحية والإسلام والعلاقة بينهما وكذا التطورات التي طرأت عليهما زمانيا ومكانيا (Coppolani, 1897, p. 20).

كما تناولت الدراسة التطور الذي عرفه المغرب الإسلامي وظهور التصوف به خلال فترة المرابطين والموحدين، حيث جاءت مركزة على التصوف الإسلامي وأهم الطرق الصوفية المنتشرة ببلاد المغرب بشكل تعريفي متضمنة أرقام وإحصائيات للطرق الصوفية بالجزائر وتفرعاتها عن الطرق الأصلية التي تشمل كل من الطريقة الخلواتية بمصر وتركيا والنقشبندية والسهروردية والشاذلية والقادرية (Coppolani, 1897, p. 172)، وذلك وفق معطيات رقمية وإحصائيات تنفرد بها كل طريقة مستقلة بالدراسة انطلاقا من

التعريف بها وبشيوخها المؤسسين وسندهم في الطريق ومقدميهم وأتباعهم وزواياهم؛ والثروات التي تمتلكها الطرق مرفوقة في الكثير من المواضع بصور لمدن ومساجد وأشكال هندسية، ووثائق تتضمن أسانيد أو طلاسم أو شجرة لمشائخ الطرق الصوفية وسندهم التراتبي في صفحات متفرقة من الكتاب (Coppolani, 1897, pp. 14-52).

واستندت الدراسة على الجانب الإحصائي انطلاقا من تقارير إدارية ومعطيات ميدانية مستقاة من الواقع؛ هذه الأرقام جاءت ضمن جداول تبرز عدد الطرق وشيوخها والمشرفين عليها وزواياها وأتباعها، إضافة إلى الموارد المادية للطرق الصوفية والنظام المالي للزوايا وما يرتبط به من مداخيل قارّة وغير قارّة كالزيارات والهدايا التي يقدمها الأتباع (Coppolani, 1897, pp. 221-223). وعلى المستوى الإحصائي فإنّ الأرقام التي تضمنتها الدراسة تفتقر إلى الدّقة وذلك راجع إلى اعتبارات منها صعوبة التحديد والضبط، فقد تكون تقريبية، وذلك راجع إلى مدّة الدراسة خاصة فيما تناولته حول الطرق الصوفية بتونس التي جمعت المعلومات حولها في مدّة قصيرة بعد المراسلات التي كان يوجهها الحاكم العام بالجزائر إلى المقيم العام بتونس من أجل التسريع بتجميعها من أجل نشر الكتاب في وقته (التليلي، 1992 ، صفحة 81).

تضمنت الدراسة أيضا الحضور الاجتماعي للطرق الصوفية والزوايا من خلال موضوع التكافل والتضامن؛ مشيرة إلى استقطابها للأتباع والضعفاء والمحتاجين وعابري السبيل، حيث شكلت الزوايا مكانا للإيواء والإطعام، كل هذا مرتبط بما كانت تمتلكه من موارد وأوقاف وما يقدّمه الأتباع من زيارات وهدايا، وفي هذا الجانب أشار كوبولاني إلى الدور الذي كانت تضطلع به الزوايا في فترات الجفاف والقحط من دعم للسكان واستفادة الفلاحين من أراضيها المتمثلة في المطمورات والبساتين إلى أن تزول فترة القحط وتتيسّر الأحوال فبإمكان المستفيدين دعم الزاوية والمساهمة في ما تقدمه من مساعدات لتحقيق التضامن الاجتماعي (Coppolani, 1897, p. 471).

كما تناولت الدّراسة الجانب السياسي للطرق الصوفية وهو محور الدراسة في عمومها وعلاقتها بالاستعمار تخوفا من التطورات التي كانت تعرفها المقاومة الشعبية وقيادتها من طرف شيوخ الزوايا. حيث تضمن الكتاب موضوع علاقة الطرق الصوفية بالإدارة الاستعمارية مشيرا إلى التطورات التي عرفتها وإمكانية تدخل شيوخها في شؤون الدولة وتزعمهم للثورة، هذا التخوف له ما يفسره خاصة وأنّ الثورات التي كان يقوم بها السكان ضدّ فرنسا تبرز أن دعاتها وقادتها كانوا من المرابطين أو شيوخ الزوايا، وكانت تشكل الطرق الصوفية بإمكانياتها دويلات داخل دولة؛ مما جعل الاستعمار يبحث من خلال هذه الدراسة لفك شفرتها والبحث في مكوناتها حتى يسهل تشتيتها والتخلص من خطرها، وهو ما تبرزه سياسة كامبون الذي حاول التقرّب من الطرق الصوفية بالصحراء تمهيدا لمشروع التوسع حيث أجرى مفاوضات مع شيوخ أولاد سيد الشيخ مثل قدور حمزة وبن بوبكر، ودعا شيخ الطيبية في المغرب لزيارة الجزائر من أجل ضمان الاتصال بأتباعه بالجزائر وثنيهم عن المقاومة، وبذل مجهودات من أجل منح الأمان للشيخ بوعمامة بالجنوب الغربي في محاولة منه لاتّباع سياسة التفرقة بين الطرق الصوفية وعزل مقاومة الشيخ بوعمامة؛ وبحثا عن آليات التوغل في الجنوب الغربي (Coppolani, 1897, pp. 265-267).

ومما تضمنه الكتاب عدّة توصيات موجهة للإدارة الاستعمارية من أجل اتخاذ موقف بارز اتجاه الطرق الصوفية مثل:- ضرورة التعامل مع الزوايا وشيوخها والاهتمام بهم من الجانب المادي؛ وكذا تعيين شيوخها في المناصب الإدارية والدينية الهامة والتقرّب من أتباعها وربط علاقات جيّدة معهم بمراعاة الامتداد الجغرافي والمكاني لعديد الطرق والزوايا مثل التجانية والقادرية وغيرها؛ مما يسمح للإدارة الاستعمارية بالتوسع جغرافيا وضمان التحكم في المجال الذي تسيطر عليه ومنها نشر أفكارها أو رسالتها الحضارية (Coppolani, 1897, p. 27).

يتضمن الكتاب في ثناياه أيضا آليات التعامل المطلوبة من الإدارة الاستعمارية في علاقتها مع الطرق الصوفية حيث يستبعد عنصر المواجهة مع التركيز على عملية التدجين من خلال التعامل مع شيوخها لكسب ودّهم وتسهيل عملية اختراق زواياهم مع الحثّ على عدم التدخل في شؤونهم الداخلية المتعلقة بمنح الإجازات وكذا تعيين مقدمي الزوايا، وتدعيمهم بتأسيس زوايا جديدة، وتقليدهم الوظائف التي تسمح بالتحكم في نشاطهم، مع التركيز على إعادة النظر في الأوقاف والعمل بها وفق آليات تتحكم فيها الإدارة الاستعمارية حتى يتسنى لها مراقبة الموارد والممتلكات وتسهيل عملية نقلها ومصادرتها بطريقة قانونية (Coppolani, 1897, p. 367).

هذه بعض النقاط التي تضمنها الكتاب في عمومه والتي تبرز التوجهات الإيديولوجية والأبعاد الاستعمارية للسيطرة على الطرق الصوفية وعلى ممتلكاتها المتمثلة في الأوقاف والموارد المادية باعتبار أنّ الإدارة الاستعمارية كانت تسعى إلى ضبط هذه الموارد والإشراف على الأموال التي تبعثها الطرق الصوفية إلى الزوايا الأم بالخارج كالقادرية ببغداد أو الخلوتية وغيرها؛ كما تبرز هذه المقترحات الرغبة الاستعمارية في مراقبة الموارد المالية ونفقاتها والتي تعتبر مصدرا هاما للطرق الصوفية مما يسهل للإدارة الاستعمارية التحكم فيها أو الحصول عليها وفق إجراءات إدارية وقوانين (Coppolani, 1897, p. 283).

وفي إطار التوصيات التي تسمح باختراق الطرق والزوايا الصوفية نجد أن من المقترحات التي أشار إليها الكتاب دعوة الإدارة الاستعمارية إلى تكوين أطباء عسكريين وقيامهم بالعلاج في الزوايا واستقبالهم للمرضي، مما يسهل عليهم مراقبة نشاط الزوايا مع المساهمة في تعايشهم وتقرّب الإدارة الاستعمارية منهم، وكذا التحكم في آليات التعليم بإقحام اللغة الفرنسية وإدراجها ضمن البرامج التعليمية للزاوية لتسهيل عملية التواصل بين الفرنسيين وشيوخ الزوايا وأتباعهم؛ ومنه يسهل تحويل الزاوية إلى طابع فرنسي يسمح أكثر بالتحكم في المركز التعليمي الجديد. (Coppolani, 1897, p. 286)

هذه التوصيات التي تعتبر برنامج للتعامل مع الطرق الصوفية والزوايا والتي دعا من خلالها مؤلفي الكتاب إلى اليقظة والحذر تبرز بشكل واضح السلطة الروحية والمكانة المادية والأدبية للطرق الصوفية، وتخوّف العسكريين ومن خلالهم الإدارة الاستعمارية على مشروعهم التوسعي والسّعي إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة التي من شأنها أن تحول المنظومة الصوفية من وجهتها العدائية إلى تسخيرها لخدمة المصالح الفرنسية (سعدالله، 1998، صفحة 321) .

وتختزل الخلاصة التي تضمنتها الدراسة موضوع الأهداف الاستعمارية التي تتجلى في منهجها وموضوعها؛ وكذا العرض والتوصيات التي ركزت على ضرورة تقريب الإدارة الاستعمارية شيوخ الطرق منها؛ وفق آليات تقلل من نسبة معارضتها، وما من شأنه تسهيل وتهيئة المجال لتطبيق السياسة الاستعمارية.

خاتمة :

من خلال من سبق نستنتج مايلي :

– أنّ هذه الدراسات الكولونيالية ارتبطت بإيديولوجية وأبعاد استعمارية باعتبارها كانت موجهة للحكومة الفرنسية في إطار المشروع الاستعماري من أجل التحكم في مفاصل المجتمع والحدّ من نفوذ الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر.

– رغم ما تضمنته هذه الدراسات من معلومات متنوعة، وما قام به مؤلفوها من جهد في التعرّف على الطرق الصوفية والبحث في منطلقاتها وجذورها ومواردها وما يرتبط بها من مفاهيم وخصوصيات صوفية. إلاّ أن الكثير من الأفكار والتصورات حول شيوخ الطرق الصوفية كانت تحمل في طيّاتها مغالطات وأحكاما مسبقة غير مؤسسة على مرجعية معرفية نظرا لعدم اختصاص هؤلاء الكتاب الذين أغلبهم عسكريين في البحث الأنثربولوجي إضافة إلى المقاصد والنوايا السيّئة من وراء هذه الدراسات.

– أنّ الصورة التي سوقت لها هذه الدراسات في أغلبها تكاد تتفق على أن المقاومة والثورة التي تزعمها رجال الدين والزوايا لا تحمل أبعادا دينية بقدر ما يسعى قادتها إلى الحصول على السلطة والمكانة الاجتماعية إضافة إلى المبالغة في المنهج التخويفي؛ من خلال إبراز خطر الزوايا على المشروع الاستعماري.

– اهتمت هذه الدراسات بتوصيات سعى من خلالها هؤلاء الدارسون إلى دعوة الإدارة الاستعمارية إلى ضرورة التعامل مع الطرق الصوفية باللّين وكسب ودّ شيوخها بالرعاية المادية وتقليدهم الوظائف الهامة من أجل تسهيل عملية الاختراق والسيطرة الاستعمارية.

– هذه الدراسات رغم الطابع الإيديولوجي المتمثل في الأفكار المنحازة إلاّ أنّها تضمنت رصيدا معرفيا ومثّلت مصدرا هاما للكثير من الباحثين للتعرّف على النشاط الصوفي للزوايا والطرق الصوفية.

- شكلت التوصيات الإحترازية التي ضمنها الأنثربولوجيون في دراساتهم فيما بعد أرضية بنت عليها السياسة الاستعمارية مرتكزاتها تجاه المؤسسة الدينية للعمل تدريجيا في تنفيذ سياستها ومحاصرة الطرق الصوفية والحدّ من نفوذها لتسهيل عمل الإدارة الاستعمارية.

توصيات:

وفي الأخير نوصي بأن يتعامل الباحثون مع الدراسات الكولونيالية بنوع من الحذر ووفق منهج نقدي وموضوعي في ما تضمنته من معلومات؛ بهدف تصحيح الصورة التي سوقت لها هذه الدراسات من تشويه وتحريف لدور المؤسسات الدينية وفق الخلفية الاستعمارية التي مثلت الراعي الرسمي لهذه الدراسات، كما نقترح أن تعاد قراءة الأعمال الأنثربولوجية الكولونيالية وفق منهجية علمية؛ وتصحيح الكثير من المفاهيم والحقائق المشوهة التي أنتجتها هذه الدراسات؛ والصورة السلبية التي رسمتها عن شيوخ التصوف والزوايا لخدمة أجندتها الاستعمارية.

قائمة المصادروالمراجع :

1)الكتب:

- التليلي لعجيلي (1992) .*الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية ،-1881 1939.* تونس :منشورات كلية الآداب منوبة.
- سعدالله أبوالقاسم .(1998) .*تاريخ الجزائر الثقافي* .(ج .4).بيروت :دار الغرب الإسلامي.
- لكلرك ,ج .(1990) .*الانتربولوجيا والإستعمار* .(ت .ج .كتورة)بيروت :المؤسسة الجامعية للدراسات والنشروالتوزيع.
- يحي بوعزيز. (2007). *سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954* . الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية.

- Brosselard, C. (1859). *Les Khouan, de la constitution des ordres religieux musulmans en Algérie.* Alge: Imprimerie de A.Bourget.

- Coppolani, O. D. (1897). *les confréries religieuses -musulmanes.* Alger: Typographie Etlthographie, Adolphe, Jourdan, Libraire éditeur.

- Faucon, N. (1889). *Le Liver d'or de l'Algerie: histoire politique, militaire, administrative, événement et fait pricipaux, piographie des hommes ayant marqué dans l'armée, les sciences, les lettres, etc., de 1830à1889.* paris: challament et Cie éditeurs.

- Neveu, E. D. (1846). *Les Khouane , Order Religieux chez les musulmans de l' Algerie.* paris: Imprimerie de .A.GUYOT.IMPRIMEUR DU ROI.

- Rinn, L. (1884). *Marabouts et Khouan, étude sur l'islam en Algérie.* Alge: Adolphe Jourdan libraire éditeur.

2) المجلات:

- يوسف بن حيدة.(2019) .الامتداد الجغرافي والبعد الصوفي في مقاومة ابن ناصر بن شهرة -1851) .(1857*مجلة العلوم الإنسانية والحضارة* .(01)

صورة المجتمع الإسلامي المغاربي في العهد العثماني من خلال المرويات الأوربية

The Image of Maghrebian Islamic Society in the Ottoman Era Through European Narratives

د. ليلى غويني، جامعة علي لونيسي، البليدة 2 –الجزائر
ghouini.leila@gmail.com،Leila ghouini



ترمي هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على المرويات الأوروبية وما تبرزه من صورة للمجتمع المسلم ببلاد المغرب بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة في الفترة العثمانية، من خلال ما تم استنباطه من كتابات الرحالة الأوربيين أو مذكراتهم وتدويناتهم التاريخية، حول المظاهر الاجتماعية للمجتمع الإسلامي، إذ كانت مشاهداتهم التي دونت على شكل رسائل أو مذكرات، تظهر على أنها حقائق واقعية مضافا إليها تعليق من المؤلف، وقد صوروا فيها خليطا من عواطفهم التي تظهر الصور النمطية على الإسلام والمسلمين، فتضمنت هذه المرويات في طياتها حقيقة الحقد الدّفين الذي يحملونه في قلوبهم وحقيقة تحاملهم على الإسلام وأهله. وقد تم في هذه الورقة البحثية اختيار أربعة نماذج من المرويات وهي: رحلتان قام بهما طبيبان، هما: بيسونال وهيبرسيت، ورحالة الآنسة توللي الموكلة إليها مهمة مع أخيها القنصل بطرابلس الغرب، ورحلة للمتشدد دينيا إيفالد.

فإلى أي مدى نجحت الكتابات الأوربية في عكس شكل الحياة الاجتماعية للمجتمع الإسلامي المغاربي في العهد العثماني؟ وما مدى صدق معلوماتهم ومطابقتها لواقع الحياة حينها؟ وكيف جسدت المهمة الموكلة إليهم في تشويه صورة الدين الإسلامي من خلال ما ادّعوه به في تآليفهم، مقولة "استكشاف آخر ".

الكلمات المفتاحية: المرويات الأوربيّة- المجتمع المغاربي- الإسلام- استكشاف الآخر- العهد العثماني

Abstract :

This study aims to showcase European narratives and what they highlight about the image of the Muslim community in the Maghreb countries in general and of Islam during the Ottoman era in particular, through what has been inferred from the writings of European travelers or their historical diaries and notes on the social aspects of the Islamic community. Indeed, their observations, written in the form of letters or diaries, appear as actual facts to which the author's commentary is added. They expressed a mixture of their emotions that show stereotypes about Islam and Muslims, as these writings include the reality of the hidden hatred they carry in their hearts and the reality of their prejudices against Islam and its people.

In this research paper, four writing specimens have been selected: two journeys made by two doctors: Bisonal and Heberset; the journey of Miss Tolly, who was entrusted with a mission with her brother, the Consul in Tripoli, and a journey of the fundamentalist Ewald.

Hence, to what extent did European writings succeed in reflecting the form of the social life of the Maghreb Islamic community in the Ottoman era? Moreover, what is the veracity of their information and their conformity to the reality of life at

the time? Furthermore, was the task entrusted to them to distort the image of the Islamic religion manifest, through what they claimed in their writings by the expression "exploration of the other."

Keywords: European narratives - Maghrebian society - Islam - exploration of the other - Ottoman period



مقدمة:

تعد روايات الرحالة الأوربيين من بين المصادر التاريخية المهمّة، كونها تعطينا نظرة الآخر لمجتمعاتنا العربية المسلمة، من خلال وصف هؤلاء الرّحالة لمختلف جوانب الحياة اليومية والشعائر الدّينية التي عايشوها في قلب البلدان التي زاروها، فهم يكتشفون عالما جديدا، غريبا بالنسبة لهم عمّا ألفوه في أوطانهم، مختلفا في بنيته عن مجتمعاتهم ومعتقداتهم، فكان وصفهم له مبنيا في مجمله على زاويتهم الخاصة ونظرتهم الخارجية والفوقية، بعيدا عن الموضوعية والحياد. وهم في كل هذا يريدون إبراز تفوقهم الحضاري، فكانت مذكرات وسير بعض الشخصيات التي كانت تزور بلدان المغرب في رحلة استكشافية أو في مهمة رسمية، أو اضطرارية (أسرى) ذات أهمية بارزة في كتابة التاريخ، لما توفره من معلومات مختلفة في مجالات الحياة. وتكمن أهمية هذه الكتابات بأنها شاهد عيان للأحداث والحالة التي عاشها المؤلف، وقد تختلف مذكرات رجل الدّين عن مذكرات العالم والرحالة، كما تختلف شهادة الرّجل الأوربي عن شهادة المرأة الأوربية، فيما عاشه هؤلاء وتعايشوه مع المحيط الذي كانوا فيه، كما يختلف منهج الكتابة لدى هذه المرويات حسب مستوى المؤلف والمواقف التي مر بها، أو البلد الأوربي الذي ينتمي إليه، وهنا يكمن الاختلاف في طرح الأفكار ومنهج الكتابة وتجسيد المشاعر.

والسؤال الذي يتبادر للذهن: كيف صور هؤلاء الكُتَّاب - مع هذا الاختلاف- صورة الإسلام والمسلمين؟ وكيف كان أسلوبهم واختيارهم للأحداث والمشاهد التي عاشوها في المجتمع المغاربي ليتم نقلها للقارئ والاستفادة منها مستقبلا كمادة مصدرية لكتابة التاريخ الإسلامي المغربي في الفترة العثمانية؟.

أولا. نبذة عن الرّحالة وتدويناتهم:

من خلال ما تم ذكره سابقا، فقد تم اختيار نماذج مختلفة من الكتابات الغربية حتّى يتبيّن لنا طبيعة نظرتهم وتعاملهم مع المجتمع المسلم والإسلام عموما، بين ما دوّنه طبيبان مختصان في علم النبات، وكتاباتهما تعطي صورة الرّجل الأوربّي المثقّف وإن كان مستواه العلمي يجعل عقله يرتقي عن تبطين كلامه وتشويه صورة المجتمع المسلم، وبين مذكرات امرأة كونها تستطيع أن تصل إلى أماكن في قلب المجتمع المسلم لا يستطيع أن يصل إليها الرّجل الأوربي، فنرى إن كان ما كتبته يمثل الواقع المعاش الفعلي بين النساء المسلمات وفي البيوت، أم أنّ كتابات هذه المرأة تحمل بين سطورها أيضا خطّة استعمارية خبيثة دنيئة، وبين المبشّر المسيحي المتعصب ذي الأصول اليهودية، الذي يمثل نظرة رجل الدّين الأوربي، وإن كانت كتاباته تبرز الحقد الدّفين الذي تمتد جذوره عميقا في التاريخ، حقدا صليبيا هدفه القضاء على

الإسلام وأهله وتشويه بكل السبل. كما تم اختيار هذه العينات أيضا بحكم جنسياتهم، فالطّبيبات أحدهما فرنسي والثاني ألماني، والمبشر المسيحي من جنسية سويسريّة، أمّا المرأة فهي إنجليزية أخت قنصل، حتّى نتبيّن أي الكتابات كانت أقل تعصّبا وأقرب إلى الموضوعية.

الرّحلة الأولى: هي للطبيب الفرنسي جان أندريه بيسونال، الذي وُلِدَ بمرسيليا سنة 1694م، وقد ورث بيسونال مهنة الطّب عن عائلته التي كانت مختصة في هذا المجال، وتخصص في دراسة النباتات والطبيعيات، وإلى جانب الطّب؛ كان له شغف بالرّحلة والسفر إلى أماكن خارج بلده فرنسا. وكانت الرّحلة التي قام بها إلى بلدان المغرب تكتسي الطابع الرّسمي، فقد كلّفه الملك لويس الخامس عشر، بإيعاز من القس بينيون – محافظ المكتبة الملكية- بالقيام برحلة ظاهرها القيام بأبحاث حول النباتات والأزهار في سواحل المناطق المغاربية (تضمنت الوثيقة التي حملها بيسونال معه والتي كانت موجها إلى حكام الديات والبايات والولاة والأعيان بإيالة الجزائر وتونس وطرابلس الغرب لتوفير للرحالة الحماية وتقديم له كل وسائل الراحة حتى يقوم بأبحاثه العلمية وكانت سنة سنة 1724م) (بيسونال، 2003م، الصفحات 9-10) فكان الغرض العلمي هو الهدف المباشر، لكن المتفحص للرحلة يجد أنها لم تحمل معلومات عن الطبيعة والنباتات؛ بل كانت عبارة عن مجموعة رسائل، عددها أربعة عشر رسالة، عشرة منها تخص تونس، وأربعة تخص الجزائر، كان بيسونال يرسلها إلى القس بينيون وإلى الجغرافي دوليل وغيرهم من الشخصيات الأوربية، وكانت هذه الرسائل تحمل معلومات وملاحظات عن العادات والتقاليد والعمارة وطرق العيش وأسس الحكم وتنظيماته، كما اهتم بالتأريخ للمنطقة، فكان الهدف الحقيقي والخفيّ تقديم تقرير عن المنطقة الإسلامية ورصد معيشة المسلم بكل تفاصيلها بغية إيجاد الثغرات التي يمكن من خلالها نخر جسد الأمّة الواحدة ومعرفة تضاريسها تحضيرا للهجمة الاستعمارية (بيسونال، 2003م، الصفحات 11-13).

وتكمن خصوصية **الرحلة الثانية**، وهي رحلة المبشر إيفالد (إيفالد، 1991م)، رجل الدّين المسيحي، ذي الأصول اليهودية، معتنق المذهب الكالفيني، أنّ صاحبها لم تطأ قدماه بلاد الإسلام للإطلاع أو الاستكشاف أو السياحة، بل لهدف التبشير للدّين المسيحي، فحملت تدويناته في طياتها تعصبا وحقدا ليس على المجتمعات المغاربية بحسب، بل على الإسلام، الدّين الذي وجب اقتلاعه ومحوه من منابته واستبداله بالمسيحية التي تمثل في منظوره – كرجل دين أوربي سويسري- أساس الحضارة في مقابل الإسلام الذي هو دين البداوة والتّخلف (إيفالد، 1991م، الصفحات 10-11).

وقد جاء إيفالد إلى بلاد المغرب بإيعاز من جمعية مسيحية تابعة للكنيسة الإنجليكانية (Ecclesia Anglicana) التي تعنى بتنصير اليهود، ثم كُلِّف بمهمّة التبشير بسواحل إفريقيا الشمالية، وكان مجيئه عقب الاحتلال الفرنسي للجزائر، التي أقام بها منذ سنة 1832م، ثم شدّ الرّحال لتونس ما بين (1833-1834م)، حيث دشّن بها فرعا للجمعية المذكورة، وأشرف عليها إلى غاية 1841م. وقد سعى إيفالد في رحلته التي شملت الخط الرابط بين تونس وطرابلس، إلى التبشير للمسيحية، مجتهدا في كسب أنصار من أهالي

المدن التي كان يزورها، سواء من اليهود المقيمين بها أو محاولة تنصير المسلمين (إيفالد، 1991م، الصفحات 10-11).

ولم تكن هذه الرحلة تحمل الهدف التبشيري فحسب؛ بل اتضح من خلال ما كتبه إيفالد الغرض الاستعماري، فتونس في فترة زيارته لها كانت لا تزال تحت الحكم العثماني، ويبرز ذلك في وصفه لمختلف الوقائع والأحداث والمواقف ومشاهداته، وتصويره للحياة الاجتماعية والنقاشات التي كانت تحصل بين جماعة المسلمين حول موضوع الديانات، وما سهّل عليه التواصل مع العامة (مسلمين ويهودا) وطبقة العلماء، إجادته للغتين العربية والعبريّة (إيفالد، 1991م، صفحة 11، وما بعدها).

وينتهي الكتاب بتعريف القطر التونسي على الصعيد الاجتماعي والتاريخي والعقائدي بالخصوص، مع طغيان الضعف والسقم على الوصفين الاجتماعي والتاريخي، كون أنّ ثقافة إيفالد رهينة إيمانه بأفكاره ومعتقداته التبشيرية التي جعلته لا يستطيع أن يعطي وصفا مجردا خاليا من العصبية العقدية، ما جعله يقع في الكثير من الأخطاء الفادحة، سواء ضمن أخباره التاريخية أو وصفه لفرائض المسلمين وطقوسهم وشعائرهم، ما ينم عن قصوره عن معرفة ديانة المسلمين وتاريخهم (إيفالد، 1991م، الصفحات 13-14).

وتقدّم **الرحلة الثالثة** التي قام بها الطبيب وعالم النبات الألماني: ج. أو. هابنسترايت أخبارا مهمة عن المجتمع المغاربي في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وصاحبها من مدينة نوشتادت أون أورلا، الواقعة بمقاطعة الساكس بألمانيا، درس الطّب وتخصص في علم النباتات، وقد أهّله انضباطه أن يحظى بثقة ملك بولونيا أغسطس الثاني (1670- 1733م)، الذي كلّفه بترؤس بعثة علمية متّجه إلى شمال إفريقيا مهمتها التعرف عن كثب على الغطاء النباتي والثروة الحيوانية بالمنطقة، وقد استطاع هابنسترايت القيام بمهمته المطلوبة، وكان يرسل رسائل للملك، لكنها لم تحمل فقط وصفا للرصيد النباتي والحيواني، بل وصفت الحياة العامة لأهل المنطقة ورصدت تاريخها ولا سيما في الفترة الرومانية، وقد كانت هذه الرحلة مقارنة بغيرها تتسم بنوع من الموضوعية، ولربما كان هذا ما جعل الباحثين الأوربيين يهملون نشرها وتحقيقها رغم ما فيها من معلومات، كونها لا تتماشى مع نظرتهم الدّونية للعالم الإسلامي (هابنسترايت، د ت، الصفحات 13-14، 16).

أمّا **الرحلة الرابعة**، فهي عبارة عن مذكرات الإنجليزية الآنسة توللي - أخت قنصل طرابلس الغرب الإنجليزي المستر ريتشارد توللي (جاء القنصل الإنجليزي المستر ريتشارد توللي مع أسرته التي كانت تضم زوجته وابنتيه اللتين سبق وأن تعلمتا اللغة العربية وولدتا في طرابلس نفسها ، ثم عاد إليها مرة الثانية سنة 1783م إلى غاية سنة 1793) (توللي، منشورات الجامعة الليبية، صفحة 10)، الذي تم تعيينه ما بين (1783- 1793)- وقد كانت هذه الآنسة تتمتع بشخصية جذابة، لها طريقتها المميزة في التعامل، تحسن الإنصات وتقلل من الكلام، وتنتزع الآراء من ألسنة أصحابها بطريقة ذكية وبشكل لطيف وغير مباشر، وقد أوكلت إليها مهمة خاصة، تتمثل في الغوص في قلب المجتمع المسلم ومخالطة السيدات المسلمات، والدّخول إلى بيوتهنّ، وتدوين كل ما تلاحظه وتسمعه من أحداث ووقائع، وتقاليد، ورصد لأخلاق المسلمين

في تعاملاتهم مع محيطهم العائلي والاجتماعي وتبعثها في شكل رسائل إلى بلدها (توللي، منشورات الجامعة الليبية، الصفحات 8-9).

وتكمن أهمية مذكرات الآنسة توللي أنها نظرة امرأة، تستطيع أن تصل إلى معلومات دقيقة، إذ إنها يفتح لها ما لا يجوز للرجل، حيث فتحت لها كل الأبواب، ودخلت بيوت المسلمين سواء في المناسبات أو في الزيارات الخاصة، واستطاعت التعرف على النساء المسلمات وكيفية معاملة الرجل المسلم للمرأة، كما أقامت علاقات وروابط مع أفراد الأسرة القرمانلية (عن حكم الأسرة القرامانلية. انظر) (روشين، 2001، الصفحات 104-166)، مما أتاح لها حرية التنقل. ما يهمنا في هذه الدراسة هو الطرح الذي انتهجته هذه الكاتبة في تقديم صورة الإسلام والرجل المسلم من خلال ما اختارته من قصص حول معاملة الجواري المسحيات، كما تحدثت عن الرجل المسلم وحياة المرأة المسلمة بأسلوب ذكي يصعب على القارئ أن يلاحظ أنها تذم أو تقبِّح المسلم في معاملاته للمرأة، مما جعل مذكراتها تحظى بكم هائل من المعلومات الخاصة والقصص والأحداث من منظور امرأة مسيحية (توللي، منشورات الجامعة الليبية، الصفحات 8-16).

ثانيا. صورعن المجتمع الإسلامي المغاربي في كتابات الرحالة:

عند الاطلاع على تدوينات الرّحالة الأربع، يمكن استخراج بعض من الموضوعات التي تتبيّن منها الأغراض الحقيقية وراء مجيئهم لبلاد المغرب، وما يكنونه للإسلام والمسلمين، وتمثلت الموضوعات في ما ذكروه عن قصص الأسرى، ونظرة المجتمع المسلم للمرأة وتعامله معها، وإلى التعصب الديني وكيفية رؤيتهم لمختلف الشعائر الدينية الإسلامية، بالإضافة إلى ترويجهم لفكرة طبقية المجتمع الإسلامي وبعده عن الإنسانية والتخلف الحضاري.

1-التميز الطبقي والعرقي في المجتمع الإسلامي: حاولت الكتابات الأوربية الترويج لفكرة الطبقية والتميز العرقي في المجتمع الإسلامي، مع إظهار الحكام العثمانيين في بلاد المغرب أسيادا، ستعبدون أهله، على الرغم من أنهم يعتنقون جميعهم الدّين الإسلامي، ومن أجل ذلك اختار هؤلاء الأوربيون لفظة **"تركي"** (توللي، منشورات الجامعة الليبية، صفحة 125) (هابنسترايت، د ت، صفحة 29) بدل عثماني، لأن التركي تحمل معنا عرقيا- إثنيا، أما العثماني فلا تختص للعرق وإنما أي مسلم مهما كان أصله، فهو ضمن الحضارة العثمانية ويرتفع معها مفهوم الطبقية، لهذا نجد في كل من المذكرات أو كتب الرحالة تستعمل لفظ تركي للدلالة على الطبقية وأن الدولة العثمانية التي تمثل العالم الإسلامي في تلك الحقبة الزمنية هي دولة طبقية واستعمارية (توللي، منشورات الجامعة الليبية، صفحة 124).

وعند الحديث عن الفئات الاجتماعية ببلاد المغرب، حاول أصحاب الرحلات الأوربية تبيان أن التفرقة تنتشر بين الفئات المسلمة الموجودة في المجتمع الواحد، ودليل ذلك – بحسب رأي بيسونال وغيره- أن الديانة الإسلامية لم تمنع العنصر التركي من الهيمنة على المناصب والحكم والحصول على الامتيازات التي تمنح له كونه معيّن من طرف السلطة العثمانية (بيسونال، 2003م، الصفحات 51-55)، ويحاولون أيضا أن يبرهنوا على هذه الفكرة من خلال اختيار العبارات التي تظهر التفرقة داخل المجتمع المغاربي وهيمنة

الحكام العثمانيين، ومن العبارات التي استعملوها: «... **تخضع لسيادة الأتراك ...**» ، «... **استولى الأتراك ...**» ، « ... **سوف تظل إقليما خاضعا لتركيا ...**» (إيفالد، 1991م، صفحة 99، 102، 103).

كما حاولوا إثبات زعمهم من خلال وصف الاختلاف في العادات والتقاليد وخاصة اللّباس، بين ما يرتديه الأتراك، البدو، والأندلسيين، فالأتراك هم الأكثر تميزا بلباسهم وبمكانتهم الاجتماعية وطريقة عيشهم فلباس الرجل التركي يتميز بالفخامة من حيث نوع القماش والتطريز بخيوط الذهب والفضة، أما أهالي المدينة فكان لباسهم حسب قدراتهم المالية ولا يرتقي إلى ما يرتديه الأتراك الذين يمثلون الطبقة الحاكمة (توللي، منشورات الجامعة الليبية، الصفحات 68- 69).

وفيما يخص العنصر الأندلسي فيعتبر من الطبقة المتحضرة نسبيا التي تحضر في كنف الحضارة الأروبية، وهنا تتضح نظرة الرحالة الدّونية والمتعجرفة، في نسبة التقدّم الذي كانت عليه العناصر الأندلسية ببلاد المغرب كونهم جلبوها معهم من إسبانيا، متناسيا أنّ ما بلغته إسبانيا - التي كانت تسمى الأندلس- من تقدّم وازدهار حضاري ومعماري خاصة، إنّما كان في كنف الدّولة الإسلامية (حول الحضارة الأندلسية. انظر) (الحميد، د ت) (الكريم، د ت).

ويلاحظ أن الرحالة بيسونال، مثلا: يتحدث عن أهالي المجتمع المغاربي بالصورة التي شكّلها الأوربي في ذهنه، فعند وصف حياة البدو، يذكر الفقر، فيقول أنّ: « **البدو أو أهل الريف أيضا أكثر فقرا**» (بيسونال، 2003م، صفحة 59). حتي وصل به القول في شرح نوع من أنواع الأكل، أن ما يأكلونه يعطى للخنازير في أوربا: « **...السيسة، تشبه النخالة المنحلة التي تمنح للخنازير في أوروبا**» (بيسونال، 2003م، صفحة 59).

وعلى الرغم من أنّ الرحالة الألماني هابنسترايت كان أكثر موضوعية في أسلوب كتابته، غير متحامل على المسلمين والإسلام، إلا أننا نجده عند الحديث عن السكان وفئات المجتمع يركز هو الآخر على التفرقة العرقية في المجتمع الإسلامي خلال العهد العثماني، ويذكر أن السلطة كانت بيد الأتراك الأقحاح الذين ينحدرون من أب وأم تركيين، ويستدل على ذلك أن الأتراك ينظرون إلى الجزائريين نظرة يشوبها الاحتقار ويصفونهم بالعصاة والخارجين عن القانون، ويمتنعون عن تجنيدهم في الحامية التركية، ونفس النظرة تحملها النساء التركيات عن الجزائريات (هابنسترايت، د ت، صفحة 29)، كما يقول: «... **فئة الحضر ويقول هم السكان الأوائل للمدينة، وقد فرض عليهم الأتراك وضعية التبعية المطلقة فليس لأحد منهم الحق في حمل السلاح، كما أن أملاكهم معرضة للمصادرة لأقل خطأ ...**» (هابنسترايت، د ت، صفحة 32)، في إيحاء منه أنّ الوجود التركي في المنطقة ما هو إلا استعمال واحتلال واستعباد لأهلها.

2- الإسلام دين التخلف الحضاري: يلصق الرحالة الأوربيون بالإسلام– بزعمهم- أنه هو سبب تخلف بلاد المغرب عن الرّكب الحضاري، فيربطون عدم اتباع بلاد المغرب للتّطور الحضاري باعتناقها للإسلام، مقارنة بما كانت عليه خلال العهد الروماني، فمن خلال محطات كثيرة في نصوص مرويات الرحالة المختارة، نلاحظ تأكيد أصحابها على ذكر تاريخ المنطقة في الفترة الرومانية عن طريق وصف الآثار ومدح الازدهار الزراعي من مختلف أنواع الخضر والقمح. فهذا هابنسترايت اعتزازا منه بالتاريخي الروماني،

يتحدث عن الآثار الرومانية في كل مدينة أو منطقة شاهد فيها هذه الآثار، منها: مدينة الجزائر، مدينة سور الغزلان، قسنطينة، عنابة، مدينة تونس (هابنسترايت، د ت، صفحة 26، 69، 86، 88، 94، 111، 119).

أمّا إيفالد، فيعتز بالفن الرومني القديم (إيفالد، 1991م، صفحة 109) وبالحضارة الرومانية (إيفالد، 1991م، صفحة 152، 154)، ويصفها هي والحضارة البيزنطية أنّهما جلبتا الحضارة لمجتمع بلاد المغرب في عدة محطات زارها، خاصة لما يمر على الآثار في المدن والقرى، ويربط تخلف المنطقة وتأخرها عن الركب الحضاري بعد هذين العهدين باعتناق أهلها للإسلام (إيفالد، 1991م، صفحة 21، 32، 36، 38)، ومما يقوله في هذا الصّدد عن مدينة المهدية: «... **منطقة فقراء متوحشة لكنها ثرية بآثار العصور القديمة** ... » (إيفالد، 1991م، صفحة 51)، فيصف البقايا الفاخرة للمسرح الروماني المدرّج، التي بقيت موجودة في الفيافي المقفرة (إيفالد، 1991م، صفحة 54)، ويقول أيضا: « ... **أرى هذه الآية المعمارية العجيبة وسط هذه الصحراء الإفريقية تحط بها الوحشية العديمة الحضارة والمفتقدة لكل إحساس بالفن** ...» (إيفالد، 1991م، صفحة 54)، ويقول في موضع آخر: «... **لم تفارق عيناي هذا البناء العجيب، بينما عاد بي ذهني القهقري إلى العصور التي كان فيها الرومان والمسيحيون يعمرون هذا القطر المبارك، الذي غدا اليوم تعاسة** ...» (إيفالد، 1991م، صفحة 55). فهو يبدي إعجابه بما خلفه الرّومان من عمارة التي تدل على شدّة تقدّمهم وازدهارهم الحضاري، بينما يصف المسلمون الذين خلفوهم على حكم بلاد المغرب بالوحشية والتخلّف وعدم تذوق الفن، ويتحسّر كون هذه البلاد أصبحت تعيسة بعدما عاشت الازدهار في كنف الرومان والمسيحيين.

كما يشيد بيسونال أيضا بالازدهار الذي عرفه شمال إفريقيا خلال العهد المسيحي، بينما يحاول الحط من قدر المسلمين الفاتحين عند تأريخه لمرحلة الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب، والتشكيك في نسبهم، بل ويسيئ بكلامه لشخص الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ويختار لذلك عبارات دقيقة، مثل: «... **المسلمون وهذه الشعوب، التي قدمت من صحراء الجزيرة العربية، والقائلين بأنهم من سلالة إسماعيل وهاجروا في الظهور في القرن السابع، وهم مسيحيون في الأساس، اعتنقوا ديانة محمد المولود بينهم، والذي كان بقوة السلاح، وقد أجبر هذه الشعوب على اتباع أفكاره، وخرج العرب من الصحراء سنة 600 ميلادي**...» (بيسونال، 2003م، صفحة 116).

نلاحظ من خلال تأريخه أنه ينسب إلى الإسلام ما ليس فيه، من استعمال للقوة والعنف وإجبار الشعوب المغاربى على اعتناق الإسلام، متناسيا أنّ الإسلام لم ينتشر بحد السيف، بل هو دين متسامح غايته نشر العقيدة لا سفك الدّماء، دين يخير عدوه بين الدّخول في الإسلام طواعية فيصبح له من الحقوق والواجبات مع غيره من المسلمين، مطبقا شعار "عفى الله عمّا سَلَف"، وبين القبول بالجزية التي يدفعها أهل الذمة مقابل ضمان الحماية في كنف الدّولة المسلمة، ليكون خيار الحرب هو الخيار الأخير،كما استعمل بيسونال كلمة **"الصحراء" التي تبرز** الصورة النمطية اللصيقة بالعالم الإسلامي في المنظور الأوربي، وهي صورة الصحراء معناها البداوة والتخلف التي تبناها الغرب منذ القديم إلى يومنا هذا.

في حين نجد أن الآنسة توللي كانت أكثر موضوعية في تأريخها لمنطقة طرابلس الغرب (ليبيا حاليا)، فذكرت أن السكان الأصليين تقبلوا الإسلام دينا وظلوا عليه بالرغم من الاحتلال اللاحق لجيوش النورمان وفرسان مالطا (توللي، منشورات الجامعة الليبية، صفحة 32).

وقد نسب الرحالة الأوربيون بعض مظاهر الحضارة التي لاحظوها ببلاد المغرب خلال الفترة المدروسة للعنصر الأندلسي الذي جلب معه مميزات الحضارة الإسبانية، فهذا بيسونال يطرح ملاحظة حول الحضور الأندلسي الذي كان يميز القرى والمدن التي استقروا بها، وأوضح أن المهاجرين الأندلسيين لعبوا دورا هاما في نقل مميزات الحضارة الإسبانية المتمثلة في نشر زراعة الأشجار المثمرة وطوروا البستنة في شمال بلاد المغرب، حيث كانت تسيطر زراعة الحبوب من طرف قبائل البدو، كما يتجلى من تأملات بيسونال أن العمارة التي أدخلها العنصر الأندلسي إلى المجتمع المغاربي تنبثق من الحضارة الأروبية، حيث يستعمل القرمود الفرنسي ويذكر مدينة تستور (كان سكانها من الثغريين، وخاصة من قشتالة وأرقون، الذين دخلوها بعد الطرد النهائي. كما أن سكانها حافظوا على تراث متميز بالتأثير الأندلسي الإسباني في العادات والفنون والصناعات) (أحمد، 1998م، الصفحات 35-36) كمثال، فيقول: « ... **إن تستور قرية يقطنها العرب الأندلسيون، فهي مفتوحة ومقامة مثل قرى أوربا**...» (بيسونال، 2003م، صفحة 85). وتبنى البيوت على الطراز الإسباني حتى أنه يقول أن القرى أصبحت نفسها قرية اسبانية، وذلك في قوله: « ... **عندما وصلت إلى تستور اعتقدت فجأة أني تحولت إلى إسبانيا ... والمنازل مقامة على الطريقة الأوربية** ...» (بيسونال، 2003م، صفحة 85)

وبالإضافة إلى ما ذكره بيسونال عن الحضارة الإسبانية، فقد تكلم عن لغة العنصر الأندلسي بمدينة سليمان (تعتبر من أهم المراكز الأندلسية التي أنشأت في عهد عثمان داي، وقد استمدت اسمها من برج كان موجودا في موقعها يعرف ببرج أبي سليمان، فحذف الأندلسيون الكنية للتخفيف واحتفظوا بالاسم فقط "سليمان" وعمارة المدينة كانت شبه دائرية، محاطة بالأسوار، غير منفتحة، ذات شوارع ضيقة، بالنسبة لمنازلها كانت على الطراز الإسلامي - عكس المنازل التستورية ذات الطراز الأروبي) (أحمد ا.، 1990م، صفحة 35) (بيسونال، 2003م، صفحة 100)، فقال: « ... **أقام بها العرب الأندلسيون الذين ما يزالون يحافظون على لغتهم الإسبانية** » (بيسونال، 2003م، صفحة 103، 117)، والغريب في الأمر أنه استعمل كلمة:**" لغتهم الإسبانية"**، وهنا يريد أن يبرز أنهم مختلفون عن الأهالي رغم أنهم من أصل واحد، ومن خلال هذا يثبت لنا أن الرحالة يرمي إلى فكرة مهمّة أثناء وصفه للقرى من حيث العمارة وتقديم ملاحظاته حول الزراعة وأنواع المحاصيل، وهي أنّ العالم الإسلامي متخلف وأن التطور الضيق الموجود ينحصر عند الطائفة الأندلسية التي وفدت إلى بلاد المغرب مع الطرد النهائي سنة 1609م (كانت فكرة النفي النهائي على عهد فليب الثاني، ولكنها لم تطبق إلا ف عهد فليب الثالث حيث عقد المجلس في 4 أفريل 160 م، وتقرر قانون الطرد النهائي ونقشت الإجراءات اللازمة لتنفيذ هذا القرار، وتم وضعه على أرض الواقع في 22 سبتمبر 1609 م.) (أسعد، د ت، صفحة 224، 226)، ومنه يطرح فكرة انتقال الحضارة الأوربية إلى شمال إفريقيا، وإذا عدنا إلى حقيقة الأمر؛ فإننا نجد أن الرحالة زار هذه المدن سنة 1724م،

أي بعد أزيد من قرن من تواجد الأندلسيين بها، وهي فترة كانت لغة العناصر الأندلسية قد امتزجت مع اللغة المحلية؛ ولم تعد متداولة كلغة منفردة بذاتها، وما تبقى متداولا منها هي بعض الكلمات القشتالية (الإسبانية)، والتي تكون إما لبعض أنواع المأكولات أو بعض الكلمات التي أصبحت دخيلة على لغة العامة في المجتمع، لكن أن يحافظ هؤلاء الأندلسيون على اللغة الإسبانية بشكل كامل فهذا غير صحيح.

ومن بين ما يعتبره إيفالد ضربا من ضروب التّخلف لذا المسلمين، ويدعوا إلى الأسى والأسف هو أنّ هذا المجتمع عالمهم وعامتهم، جاهلون للتاريخ والجغرافيا وبعض العلوم التطبيقية مثل علم الفلك، وهي تشكل مواد غريبة عنهم تماما، والدّليل على ذلك أنّهم استفسروا منه عن أمور بديهية حتّى عند الصبيان في أوربا، الذين إن سمعوها لضحكوا، ومن بين تلك الأسئلة: كم بقي في البحر حتّى وصل بلادهم؟ وإن كان السلطان العثماني هو سيد الدّنيا قاطبة، وهنا يصفهم بالغرق في أسخف الاعتقادات الباطلة وأفظعها (إيفالد، 1991م، صفحة 137).

2-التعصب الديني عند المسلمين: يبرز موضوع التعصب الديني عند المسلمين خاصة عند المبشر إيفالد، الذي يركز على إعطاء نماذج عديدة عن ذلك – بحسب زعمه- فالتعصب عند المسلمين يبدأ منذ الصّغر، فأصغر الصّبية يسيء التّصرف ويقلل الاحترام إذا وقع بصره على بعض النصارى، بقوله :**" رومي بن كلب"** أي **" مسيحي ابن الكلب"**. وعلى الرغم من أنّ تطاول الأطفال قد يعرضهم للعقاب إذا رُفِعت ضدهم شكوى، لكنّ النصارى كانوا لا يتجرؤون على رفعها، ويستشهد إيفالد بحادثة وقعت له هو شخصيا، يقول عنها: «**وقد اكرمني بهذا اللقب الشرفي طفل لم يتجاوز الخامسة من عمره، حين أبصرني وهو يسير في الشارع صحبة أمه**» (إيفالد، 1991م، صفحة 44).

كما يصف المسلمين بالدناءة وعدم الوفاء، ويعطي مثالا عن مسلمي سوسة (تعتبر إحدى المدينة العتيقة التي اهتم بها عقبة بن نافع، حيث جعلها مقر سكناه وشيد قصره بها، وبنى جامعا وعددا من الدور) (مرمول، 1989م، الصفحات 64- 65) (الفاسي، 1983م، صفحة 83)، الذين لا يعترفون بالجميل وتنعدم لديهم النّخوة مهما كانت طبيعة معاملة الأوربي لهم، سواء كان عاملهم بلباقة أو بخشونة، ويستشهد في هذا الصّدد بما قصّه عليه رجل إيطالي مقيم بسوسة، تكفّل بتربية صبي من أبناء أهالي المسلمين الذين يعانون من الفقر، وحضي بمعاملة حسنة من جميع أفراد الأسرة إذ اعتبروه كأحد الأبناء، ولم يعد يشك أحد في ولائه للبيت وأهله. لكنه بمجرّد إعلان الحرب بين باي تونس وملك سردينيا، انقلب الصّبي المسلم على أهل البيت، فخاطبهم قائلا: «**الآن سننتقم منكم على آخركم يا معشر الكلاب المسحيين بسوسة**»، واستغرب سيده من كلامه فقال له: «**كيف أنت أيضا ضدنا؟! أنت كذلك تنكر معرفتنا؟!**»، فرد الصبي المسلم: «**ليس الآن وقت معرفة بل حان موعد الانتقام**». فيظهر الرحالة أن هذا الخادم المسلم، بعدما ترعرع في كنف هذه الأسرة المسيحية، خان العشرة وأنكر ونسي معروفهم معه وأصبح يشكّل خطرا حقيقيا، وما ذلك إلا بسبب أصله المسلم (إيفالد، 1991م، صفحة 45).

ويشير إيفالد أيضا إلى قصة حدثت معه يريد من خلالها إثبات أن للمسلمين خرافات باطلة وخوارق تتحدى كل التّصورات، وتدل على تعصّبهم الشديد، وهي أنّ تاجرا يبيع الصابون يحدق شيئا من الإيطالية

ترجاه أن يكتب له بالإيطالية مقابل الحروف العربية التي كان كتبها سابقا، وما إن همّ إيفالد بتلبية طلبه حتّى جاءته مجموعة من المسلمين يصيحون ليمنعوه، وكان مبدأ اعتراضهم أنّه لا يمكن أن يضع كلام الله بيد كافر وأنّ ذلك سيؤول به إلى الجحيم، وهنا يذكر أنّ هؤلاء المسلمين يدعون: « **أنّ جميع الكلمات الواردة في القرآن من وحي الله وأن الكلمات تتركب من الأحرف تشكل الأبجدية ولهذا يجب تكريم الأبجدية مثلما يكرم القرآن نفسه، وانصرفت قائلا أني لا أحب حمل أحد على ارتكاب خطيئة**» (إيفالد، 1991م، صفحة 43).

تسلط المرويات الغربية الضوء على ظاهرة الأسرى التي كانت منتشرة في الفترة المدروسة وتحاول من خلالها إبراز بشاعة وقساوة وتعصّب الرجل المسلم الذي كان يسيء معاملة الأسرى ويعذبهم، وخاصة الأسرى المسيحيون، فقد ذكر الرحالة نماذج عن ذلك، بأسلوب ذكي، يختار فيه الكلمات التي تظهر الكاتب على أنّه غير متحيّز لجنسه وعرقه ودينه، مجرّد شاهد عيان، يروي قصصا عن أسرى عانوا من العبودية والظلم والقهر على يد المسلمين، ويجعل القارئ يتعاطف مع الأسير الذي وقعت له هذه الحادثة أو تلك ويراه بصورة الضحية والمظلوم.

ومن ذلك بعض القصص التي تذكرها الآنسة توللي عن الأسيرات الأوربيات والجواري اللّواتي كن تخضعن لنفس طريقة العقوبة، إذ إنّه – حسب ما ذكرته- تقتل الجارية بمجرّد الشّك في سلوكها واتهامها بغير وجه حق، بالاعتماد على استصدار وثيقة تسمّى – بحسب تعبير توللي- "**تسكرة**" الموت، وهي ورقة تُشَرِّع قتل من يتهم أو يسيء التّصرف من الأسرى والجواري. ومما تستشهد به قصّة جارية قفقاسية (أوربية) بريئة، أعجب بها أحد الرّجال، فدبر لها مكيدة لتقتل، فكذب على سيدها وتم قتلها لمجرد الشك فقط، وتختار المؤلفة لرواية هذه القصة كلمات مؤثرة، مثل: « **يمكن الحصول على هذه الورقة الشؤومة بسهولة عظيمة**» (توللي، منشورات الجامعة الليبية، الصفحات 124- 125) لبرز قساوة الرجل المسلم وأحكام الشريعة الإسلامية التي تُشَرِّع القتل بورقة ورخصة بكل سهولة.

وفي نفس السياق تقص قصة آخرى وهي لجارية يونانية حضيت بالزواج من سيّد غني، واعتنقت الإسلام، وتحوّلت بعد ذلك إلى مسلمة اكتسبت طباعا، مثل: الأفقية وحب التّسلّط والتّعالي واستعباد غيرها من الجواري والعبيد، وتذكر توللي تفاصيل كثيرة عن هذه الجارية التي تحولت إلى سيدة مسلمة وأنّها تلبس أثمن الحلي وأغلى الملابس، لكن ليس هذا بيت القصيد بل لما تصف مشهد فتقول: «**... وكانت تجلس عند قدمها جاريتان سوداوان طول الوقت، وعند التنقل من محل إلى آخر تنهضان وتتبعانها وتجلسان ثانية عند قدمها... وهناك جاريتان سوداوان أخريان تقفان وراءها باستمرار ...**» (توللي، منشورات الجامعة الليبية، صفحة 141)، والعجيب أنها تركز على وصف هذا المشهد وكأنه غريب عنها هي الإنجليزية والمعروف أن انجلترا من أبشع الدول التي مارست تجارة الرق في إفريقيا، فالعجيب أنها تستغرب من جواري يجلسن بجانب سيدتهم، فهي تعطي صورة اللاإنسانية بقولها: « **عند قدمها وتتبعانها**»، وغيرها من الكلمات التي تحاول من خلالها استمالة القلوب وجعلها تنظر إلى المسلمة بصورة بشعة.

وعلى عكس ما حاولت توللي إظهاره، كانت شهادة بيسونال في هذا الموضوع أكثر إنصافا للمسلمين في تعاملهم مع الأسرى، فهو يقرّ أن معاملة الأتراك للعبيد النصارى أكثر إنسانية ورحمة وتقديرا، حيث يسمح لهم بممارسة طقوسهم المسيحية ويمنع التطاول عليهم فيما يخص ديانتهم ولهم الحق في الاحتفال بأعيدهم الخاصة، وذلك راجع بحسب ما أقره لضوابط الشريعة التي تحتم على المسلم الصالح أن يحسن معاملة أصدقائه، وأنّ الإسلام حث على الشّدة مع الأعداء زمن الحرب، وأوصى بالرّحمة للمنهزمين منهم، في حين يذكر بيسونال قساوة المسحيين على العبيد الزنوج ويذكر الفضاعة والقسوة والمعاملة غير الإنسانية تجاههم في أمريكا ويؤكد أن ما قاله حولهم لا يلقى استحسانا من أبناء جلدته (بيسونال، 2003م، صفحة 33).

وفي نفس الصّدد قارن بيسونال بين حالة الأسرى المسيحيين في الجزائر، الذين يتمتعون بالحرية في نهارهم مقابل دفع مبلغ كل شهر، ويتوجهون ليلا إلى مقراتهم التي كانوا يتمتعون فيها بالراحة، كما أنّ الأسير المسيحي إذا عامله سيده معاملة سيئة يستطيع الحصول على حكم عادل، لكن فقط إذا استطاع أن يثبت تظلمه، وهو هنا يتناقض في كلامه مدحا وذما للمسلمين في معاملتهم للأسرى الأوربيين، وبين الأسرى الجزائريين بمرسيليا الذين كانوا يعيشون حالة من الشقاء، لا يستطيعون إلا بشق الأنفس جرّ أغلالهم الثقيلة، لكنه في ذات الوقت يقول أنّ الأسير المسيحي الذي يرتد عن دينه ويعتنق الإسلام لا يحضا بالترحيب من المسلمين، لأنّ سيده المسلم يعتبر إسلامه خسارة للفدية التي كان يدفعها قبل إسلامه، ولأنّه أصلا مشكك في إسلامه وغير مصدّق له. وبالتالي فإنّ الرحالة رغم إقراره بأخلاق المسلم في التعامل مع الأسرى؛ إلا أنه يظهر المسلم استغلاليا للمسلم الجديد الذي كان في الأصل أسيرا مسيحيا وما ذلك إلا لأنه يأبى أن يسقط عنه صك العبودية (هابنسترايت، د ت، صفحة 46).

وطبعا لا يمكن للرحالة أن يغفلوا التحدث عن المرأة المسلمة ومعاناتها مع الرجل المسلم الذي يستعبدها ويكتم حريتها، فهذه الآنسة توللي تعطي صورة الرجل المسلم التعصب في كتاباتها من خلال التطرق لحالة المرأة المسلمة التي تخضع لأوامر الرّجل، مهما كانت صفته في البيت، أبا أو أخا أو زوجا أو واليا عليها، وأنّه ليس لها الحق في اتخاذ قراراتها بنفسها، فتذكر بعض المشاهد التي تختارها بعناية كبيرة، وتحسن استخدام الأسلوب الذي يبيّن أنّها مجرد وصف للعادات، ومن ذلك قولها أنّ لرئيس المنزل – مهما كانت صفته- الحق في حياة أو موت الأنثى سيئة الخلق في أسرته، وحتّى يستطيع القيام بذلك يطلب تسكرة الموت من الباشا، التي يستطيع بموجبها توقيع عقوبة الإعدام في حق تلك المرأة (توللي، منشورات الجامعة الليبية، صفحة 124).

ويرى الألماني هاينسترايت في العادات التي يمارسها المسلمون ولها علاقة بالمرأة نوعا من أنواع التشدد والقهر لها، حاجبا الحقيقة والحكمة الفعلية من وراء ذلك، فهو يستنكر عدم مشاركة المرأة في الحياة العامة وغيابها عنها، واحتشام النساء الشديد، وعدم السماح لها بالسير في الأزقة بدون حجاب، ويقول أنّ منازل النساء لا تكاد تصل إليها أشعة الشمس، بل أنهن عندما تسافرن على ظهور البغال يختبئن في ستائر غريبة، ويذكر حادثة وقعت معه كونه طبيبا، أنّ أحدا من الرجال المسلمين أراد منه معالجة زوجته، فلما

طلب منه رؤية المريضة، أجابه قائلا: «**الأفضل أن تموت على أن يراها أحد**»؟! (هابنسترايت، د ت، صفحة 47). وتشاطر تولي فكرة تحشم المرأة المسلمة وتصف لباسها في الخارج على أنها تمشي مستورة من القدم إلى الرأس ولا تترك إلا فتحة صغيرة جدا بحيث لا يمكن التعرف عليها ولا تجرأ المسلمة على إبراز جزء من وجهها خشية من أن تثير الشك وتخشى على سمعتها (تولي، منشورات الجامعة الليبية، صفحة 73).

3-وسم المسلم بالهمجية والمعتقدات المتخلفة: حاول الرحالة الأوربيون من خلال كتاباتهم الترويج لفكرة أنّ المسلم متناقض مع التعاليم التي جاء بها الدّين الإسلامي، غير مطبّق لها، وبالتالي فالإسلام يمثله هؤلاء المسلمون الذين هم بأنفسهم غير مقتنعون بما جاء به، غير مطبقين لأحكامه، فهذا هابنسترايت يشير إلى مسألة شرب الخمر، الذي يمتنع عن شربه الأتقياء من المسلمين، بينما يشربه غيرهم ويمتنعون عنه فقط في شهر رمضان، ثم يعودون إليه في عيد الأضحى – بحسب تعبيره- طيلة ثلاث أيام، لكنهم لا يجرؤون على شربه إلا مستترين، ويصل بهم الإدمان عليه لحد السُّكر الذي يوصلهم لارتكاب تجاوزات قد تتسبب في قتلهم في بعض الأحيان وهنا إيحاء أن الدين الإسلام يطبقه مجموعة قليلة فقط (هابنسترايت، د ت، صفحة 48). وفي الحقيقة لا يمكن الجزم أن ما يقوله الرحالة يخص الجزائريين والمسلمين لأن مجتمع مدينة الجزائر كان به تنوع في السكان وجماعة كبيرة من الأسرى المسحيين، وهم من كانوا يفتحون الحانات ويبيعون الخمور ويتعاطونها (حول الحانات فقد كان المسحيون هم من يمتلكونها بشكل خاص. انظر) (كاتكارت، 1982م، الصفحات 101- 102).

وأراد الرحالة الأوربيون تصوير المجتمع المغاربي المسلم على أنّه بعيد عن التّحضر، يتميّز بالهمجية والخشونة، ومن ذلك وصف الآنسة تولي للصحراء بأنها جرداء ومقفرة، وقولها أنّ المسلم يعتمد على اللصوصية التي جسّدتها في الغارات البحرية (تحكمت الروح الصلبية على مفهوم الغزو البحري ومن هذه المفاهيم كلمة الصوصية التي كانت موجودة في الكتابات المسيحية الأولى استعملت كلمة "Sarraceni"وهي كلمة لاتينية وتعني اللصوصية والسرقة) (مبارك، 1998م، الصفحات 15-27) التي كان يشنها الأتراك الجزائريون والتونسيون والطرابلسيون على السواحل الأوربية، وأنهم يعتمدون على هذه القرصنة دون العمل (تولي، منشورات الجامعة الليبية، صفحة 141).

ويوصّف إيفالد المسلم سواء كان في البادية أو المدينة بالكسل والخمول، والابتعاد عن العمل والميل إلى العنف، وأن الأعراب يقضون طوال النهار في الظل مستسلمين للنوم والراحة، أما أهل المدينة، فيقضون وقتهم في اللعب والجلوس في المقاهي أو الدكاكين للثرثرة أو الذهاب إلى الحمامات، ولا ينتزع من راحة المسلم إلا اذا أعلن عن حالة حرب أو إذا انتظمت عملية سلب ونهب، حينذاك تراه يسارع بتجهيز حصانه وتقلُّد سلاحه (إيفالد، 1991م، صفحة 71). ثم يقع في تناقض حول قضية كسل المسلم فيذكر في محل الآخر أن المسلم لا يعرف أيام عطلة بالمعنى الصحيح، وحتى يوم الجمعة هو ليس يوم عطلة، لأن المسلم في هذا اليوم يتوقف عن العمل وقت الصلاة فقط (إيفالد، 1991م، صفحة 148).

ويحاول الرحالة إثبات أن الاسلام هو سبب التخلف ومن ذلك زعمهم أن المسلمين لا يخضعون للحجر الصّحّي، لأنه يتنافى مع تعاليم دينهم، ويذكرون أنّ هذا الاعتقاد راسخ حتّى في أذهان الطبقة المثقفة التي تؤمن أنّ الإنسان يموت حتما إذا لحق أجله، سواء كان التزم بتدابير صحية أو لم يلتزم (إيفالد، 1991م، صفحة 118).

كما أنهم يلصقون بالمسلم حبه للقذارة وعدم ميله للنظافة والذوق الحضاري، ما عدى اعتنائهم الكبير بالمساجد، وبطبيعة الحال يرمي هؤلاء إلى فكرة هيمنة رجال الدين على الشعب وترويج أنّ الإسلام منحصر في المسجد فقط (إيفالد، 1991م، صفحة 62)، ويتناسون بهذا الزعم ما عانته أوربا خلال العصور الوسطى من هيمنة رجال الدّين وتحكمهم في أفكار وعادات المجتمع الأوربي، ويغفلون بُعد الفرد الأوربي (رجالا ونساء) عن الاعتناء بنظافتهم، والروائح الكريهة التي كانت تنبعث منهم بسبب طول عدم الاستحمام، مع ما كانوا يلبسونه – وخاصة النساء- من ملابس تحتوي على طبقات عديدة فوق بعضها البعض، الأمر الذي اضطرهم لابتكار أنواع من العطور لتزيل تلك الروائح المنبعثة من أجسادهم.

ومن الأمور التي يشير إليها إيفالد في إطار عادات ومعتقدات التّخلّف، كثرة قراء الغيب والسّحرة والمعزّمين وكتّاب التّمائم، الذين يصف عددهم بكلمة "جيوش"، ويقول أنّ معظمهم من النساء، وأنّهنّ يجبن الشّوارع وهن ينادين باسترسال: دقازة، دقازة، أي: قارئة الغيب. ويذكر أنّ سذّج العقول هم الذين يفتحون لهنّ أبوابهم، ويضيف من الخوارق أنّ المنازل لا يكاد يخلو واحد منها من العفاريت التي يستعصى طردها (إيفالد، 1991م، صفحة 137).

ويدّعي إيفالد أنّ من بين المعتقدات الباطلة التي يقرها المسلمون، هي اعتبار المجانين من الأولياء الصالحين، وأنّ أوليائهم على صنفين، صنف صادق، وصنف كاذب دجّال، ومن أغرب ما يقوله عن الأولياء المجانين: «... **وبما في ذلك الرجال والنساء على حد سواء، وتراهم يجوبون الشوارع في أغرب الأزياء ونصف عراة أحيانا أو عراة أحيانا أخرى...**» (إيفالد، 1991م، صفحة 137). وهذا أمر لا يمكن أن يكون مقبولا في المجتمع المسلم.

كما أنه يحاول إعطاء صورة التخلف للمسلم من خلال مشاهد حول ممارسات الدرويش التي تهين الإنسان. فهذا إيفالد يصف مشهدا لنّساء، شاهدهم عند مقام ولي كانوا يتسلقن صخرة مجاورة لضريح هذا الولي ثم ينحدرن منها على ظهورهن، وهذا من أجل استجابة دعواتهنّ، وينعت هذا الفِعل بقلة الذّوق وعدم الحياء (إيفالد، 1991م، صفحة 20).

وإذا رجعنا إلى نصوص أخرى ذكرها نفس الرحالة، نجده يتناقض في كلامه، حيث يحتكم ويستدل بالقرآن في قوله:

«... أنني وجدت سكان المكان كغيرهم من أهالي بلاد البربر في كل مكان متشبثين بالاعتقادات الباطلة. وقد طلب مني أخيرا أحد المسلمين أن أعلمه (خط الرمل) وهو ضرب من ضروب السحر يمكن لصاحبه من معرفة كم سيعيش ما ويعطيه القدرة على جعل الديار تنهار وعلى التحكم في حياة الإنسان أو مماته. وقلت للرجل: افتح قرآنك و اقرأ لي ما جاء في آخر سورة لقمان وسوف تلقى ما تتوق

إلى معرفته فأجاب: (ما أنا بطاهر الآن ولا يحق لي أن أمس القرآن. ها هو ذا افتحه بنفسك و اقرأ علي. ففعلت وقرأت عليه المقطع المعني حيث يأتي أن لا إنسان يدري كم يعيش مخلوق آخر، بل إن ذلك سر من الأسرار الخمسة التي لا يعلمها سوى الله وهي قيام الساعة وموعد نزول الغيث وما في الأرحام إن ذكر أو أنثى ومصير الإنسان مستقبلا ومتى وكيف و أين يموت إنسان ما» (إيفالد، 1991م، صفحة 48).

ثم يواصل في نفس الصّدد قائلا: «... **إن هؤلاء القوم لعلى قدر كبير من الاعتقاد في الخرافات والأباطيل، ثم إنهم يعملون أنّي أحذق العربية و أقرأ القرآن، وبالتالي يكفي أن أقول أني خبير بالسحر المعروف (خط الرمل)، و أني سوف أنفذ هذا السحر في صورة ما لم يحضروا لي بغلي وأن الجاني سيلقى عندئذ عقابا شديدا** ...» (إيفالد، 1991م، صفحة 59).

خاتمة:

من خلال ما سبق، نستنتج:

- شكلت المرويات الأوربية منذ منتصف القرن الثامن عشر ميلادي، مرجعا أساسيا للتأريخ للفترة العثمانية من تاريخ المغرب العربي، خاصة عند الباحثين الأوربيين والمستشرقين وأصبحت المادة المصدرية التي يستنبطون منها ما يريدون أن يصوروه ويثبتوه في ذهن الأروبي حاضرا ومستقبلا، وتحديد الصورة النمطية حسب النظرة الأوربية، كما غدت أيضا مادة مصدرية وعند الباحثين المسلمين الذين كانوا على صنفين، صنف صدّق تلك الأقاويل واعتبرها مُسَلَّمَات تاريخية وحكم من خلالها على الوجود العثماني بصفته احتلالا، وصنف آخر نظر بعين النقد والموضوعية، ومحّص هذه الكتابات ليتوصّل إلى حقيقة الأهداف الخفية من وراء هذه التدوينات وكان انتشار هذه المرويات وبروزها بحكم التقدم العلمي الذي عرفته دول أوربا في مجال البحث والتأليف والنشر.

-عمل الرحالة الأوربيون الذين تجولوا في بلاد المغرب على ترسيخ فكرة أنّ الوجود العثماني في المنطقة عبارة عن هيمنة إدارية واجتماعية واستعمارية.

-سعى الأروبي إلى ربط تخلف الذي يراه – بحسب رأيه- في المجتمع المغاربي عن الركب الحضاري، بتمسّكه بالإسلام عن طريق ما كانت تحمله المرويات الأوربية من معلومات حول العادات والتقاليد وسلوك الفرد المسلم لإثبات نظريتهم المزعومة.

توصيات :

إن التغلب على ما ألصق للمسلم وللإسلام من صور بشعة تميل للتعصب والإرهاب والتخلف والكسل، يتطلب منا التسلح بالمنهج النقدي والأسلوب التحليلي في إعادة قراءة المصادر الغربية وشد الهمة في كتابة تاريخنا المغاربي في الفترة العثمانية من خلال النظرة الموضوعية حتى نصحح ما قيل عنا ونتقدم بثقة واعتزاز بماضينا.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن أبي الضياف أحمد. (1990م). *إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج2.* تونس: الدار التونسية للنشر.
- الحمروني أحمد. (1998م). *أحمد الحمروني، الموريسكيون الأندلسيون في تونس- دراسة وبيبلوغرافيا، ط1*، . تونس: وكالة إحياء التراث والتنمية الثقافية، ميدياكم.
- الوزان، الفاسي. (1983م). *وصف افريقيا، تحقيق محمد حجي، ج2، ط2.* بيروت- لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- أندريه جون بيسونال. (2003م). *الرحلة إلى تونس 1724، تر محمد العربي السنوسي.* تونس: مركز النشر الجامعي.
- إيفالد. (1991م). رحلة *المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس سنة 1835 (مرواً بسليمان ونابل والحمامات وسوسة والمنستر والمهدية وصفاقس و قابس وجربة)، ترجمة منير القندري، ط1.* تونس: المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة.
- توللي. (منشورات الجامعة الليبية). *عشرة أعوام في طرابلس 1783- 1793، ترجمة عبد الجليل الطاهر، دط.* ليبيا: 1967م.
- ج. أو. هابنسترايت. (د ت). *رحلة العالم الالماني : ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ-1732م)، ترجمة ناصر الدين سعيدوني، د ط.* تونس: دار الغرب الإسلامي.
- جمال عبد الكريم. (د ت). *الموريسكيون ،تاريخهم وأدبهم، د ط.* القاهرة- مصر: مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة.
- حومد، أسعد. (د ت). *محنة العرب في الأندلس، د ط.* بيروت- لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- زكي، مبارك. (1998م). « الجهاد البحري في الغرب الإسلامي، المفهوم الإسلامي والمفهوم المسيحي»، .. *مجلة البعث العلمي، عدد 45، سنة 31، جامعة محمد الخامس، الرباط- المغرب* ، الصفحات 15- 27.
- عبية طه عبد المقصود عبد الحميد. (د ت). موجز *تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (92-897هـ/711-1492م)، د ط*، . د م ن: مكتبة المهتدي الإسلامية لمقارنة الأديان.
- كاثكارت. (1982م). *مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة اسماعيل العربي، د ط.* الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- كربخال مرمول. (1989م). *إفريقيا، ج3، ترجمة محمد حجي، وآخرون.* الرباط- المغرب الأقصى: دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع.

- نيكولاي إيايتش روشين. (2001). *تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، ترجمة عماد حاتم،* . بيروت- لبنان: دار الكتاب الجديدة المتحدة.

صورة الإسلام والمسلمين في المخيال الغربي من خلال كتابات المستشرقين والرحالة الأوروبيين

The Image of Islam and Muslims in the Western Imagination Through the Writings of) Orientalists and European Travelers

د. الصالح بليل، جامعة باتنة1 -الجزائر

saleh.bellil@univ-batna.dz



يحمل الغربيون في أذهانهم صورة عن الإسلام والمسلمين في غاية البشاعة والفضاعة منذ زمن طويل، وقد ساهم في رسم هذه الصورة المرعبة جملة من العوامل أقل ما يقال عنها أنها لم تنجح في رسم الصورة الحقيقية، ومن العوامل التي كان لها النصيب الأوفر في رسم هذه الصورة كتابات المستشرقين والرحالة الأوروبيين التي تعكس بمنتهى الصراحة مواقفهم إزاء عدد من القضايا التي هي من صميم الإسلام وحياة المسلمين .

لقد عملت في هذه الورقة البحثية على ابراز مواقفهم من الرؤية الكونية الإسلامية أي كيف ينظر الإنسان المسلم إلى قضايا الله والكون والإنسان والحياة، ومن حركة الفتوحات التي نفذها المسلمون في مختلف نواحي المعمورة لا سيما تلك التي مست الجغرافيا الأوروبية كالقسطنطينية وشبه الجزيرة الأيبيرية، كما اطلعت على آرائهم بشأن الوحي ونبوة نبي الإسلام وكيف عالجوا مسألة الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس وما وقع لهم من وقائع في طرق حجهم، ولم أنس الوقوف عند دور النصوص الدينية المسيحية ومقولة التفوق العرقي في توجيه تفكير الإنسان المسيحي والتحكم في مواقفه إزاء الإسلام والمسلمين، وموقفهم من الحضور العثماني في حوض الأبيض المتوسط وختمت ذلك برصد مخاوفهم من احتواء الإسلام للغرب ثقافيا وصهره في بوتقته .

إن إبراز آراء ومواقف هاتين الفئتين من القضايا المشار إليها بمنتهى الموضوعية والتجرد مكنني من التعرف على الصورة القاتمة التي رسموها للإسلام والمسلمين في المخيال الغربي وهذا ما سنكتشفه في متن هذا البحث .

كلمات مفتاحية: صورة، الإسلام والمسلمين، المخيال الغربي، الرحالة الأوروبيون، المستشرقون.

Abstract :

Westerners have in their minds an image of Islam and Muslims that has been very ugly and horrible for a long time. A number of factors contributed to the drawing of this terrifying image, to say the least, that it did not succeed in drawing the true image, and among the factors that had the greatest share in drawing this The picture is the writings of orientalists and European travellers, which frankly reflect their positions on a number of issues that are at the heart of Islam and the lives of Muslims.

I have worked in this research paper to highlight their positions on the Islamic cosmic vision, that is, how the Muslim person looks at the issues of

God, the universe, man and life, and from the movement of conquests carried out by Muslims in various aspects of the globe, especially those that affected European geography such as Constantinople and the Iberian Peninsula. Their views regarding the revelation and the prophecy of the Prophet of Islam and how they dealt with the issue of Christian pilgrims to Jerusalem and the facts that occurred to them in the ways of their pilgrimage. In the Mediterranean Basin and concluded by monitoring their fears of Islam containing the West culturally and melting it in its crucible.

Highlighting the opinions and positions of these two categories of issues referred to with the utmost objectivity and impartiality enabled me to identify the bleak picture they painted of Islam and Muslims in the Western imagination, and this is what we will discover in the body of this research.

Keywords: image; Islam and Muslims; Western imagination; European travelers; Orientalists.



مقدمة :

تشكلت عبر الزمن صورة مشوهة عن الإسلام والمسلمين في مخيال الإنسان الغربي جعلته يعيش تشنجا دائما إزاءهما وهذا الوضع أزعج المسلمين كثيرا وتسبب لهم في مشاكل لا حصر لها، وقد زاد هذا الأمر عن حده في الآونة الأخيرة ما جعل البحث في العوامل التي تقف خلفه من أجل إيجاد حلول تنهي هذه النظرة المشوهة أمرا ملحّا، وباستقصائنا لهذه العوامل وجدنا بأنها كثيرة ومتنوعة ما يجعل إمكانية الإلمام بها في بحث متواضع كهذا أمرا متعذرا لذلك آثرت النظر في عامل واحد رأيت أنه ساهم بشكل كبير في رسم هذه الصورة القاتمة. يتعلق الأمر بكتابات المستشرقين والرحالة الأوروبيين الذين زاروا بيت المقدس إبان الحروب الصليبية .

أما الرحالة فلكون أغلبهم قساوسة ورهبان ساهموا بشكل مباشر في الحملات الصليبية التي نفذها المسيحيون ضد المشرق الإسلامي ودونوا مشاهداتهم التي لم تكن صحيحة ومنصفة في كثير من الأحيان لتحكم العصبية والأحكام المسبقة فيها، وأما المستشرقين فلكونهم قد سخروا جهدهم ووقتهم للنظر في وحي المسلمين وتراثهم وحاولو إخبار بني جلدتهم بما يعتقدون أنه الفهم الصحيح للوحي وللتراث الإسلامي وقد خان الفهم أكثرهم لأسباب كثيرة تتأرجح بين ضعف التكوين العلمي في العلوم الإسلامية وعدم مناسبة المناهج المطبقة عليها وأخرى لها علاقة بالتعصب والإيديولوجيا والنوايا المبيتة .

وهناك سبب جامع يتعلق بمكانته هاتين الفئتين في المجتمع الغربي فهذه الشخصيات تتصدر المشهد الفكري الغربي ولها وزنها ومكانتها في قلوب الغربيين فما يكتبونه عن الإسلام يحضى بأعلى درجات القبول والمصداقية عندهم وهذا ما أهله لصناعة صورة الإسلام في مخيالهم.

يعالج هذا البحث إشكالية الصورة النمطية القبيحة للإسلام والمسلمين التي رسمها المستشرقون والرحالة الأوروبيون الذين زارو بيت المقدس في فترة الحروب الصليبية في المخيال الغربي من خلال كتاباتهم والتي تتناقض تماما مع الصورة الحقيقية.

أما بخصوص الهدف المتوخى منه فهو الخروج باقتراحات تسمح بتصحيح هذه الصورة وتمكن من تجاوز هذا المأزق التاريخي.

أما بخصوص المنهج المستعمل فقد وجدت بأن المنهج الاستقرائي هو المناسب لتتبع وتعقب آراء ومواقف المستشرقين والرحالة في مظانها والاطلاع عليها وفحصها ثم إصدار الحكم المناسب بشأنها وهذا ما فعلته في هذا البحث مع القيام بتحليل ونقد ما يحتاج إلى ذلك.

وقد ناقشت هذا الموضوع ضمن مجموعة من العناوين التي رأيت انها ستساهم وبشكل واضح في الكشف عن مواقف الرحالة والمستشرقين التي رسمت الصورة المخيفة للإسلام والمسلمين في المخيال الغربي..

أولا-الرؤية الكونية والتمدد السريع:

تختلف الرؤية الإسلامية للكون والله والانسان والحياة عن الرؤية المسيحية فالله عند المسلمين واحد لم يلد ولم يولد وهو مبدع الكون بما فيه وبمن فيه والانسان خلق من خلقه استخلفه في الأرض لإثمارها وإعمارها وسخر له الكون ليستعين به على تحقيق الإستخلاف المطلوب على عكس الرؤية المسيحية التي تنظر إلى الله والكون والإنسان والحياة نظرة تخالف الرؤية الإسلامية (سوذرن، 2006، الصفحات 40-41). إن هذا الاختلاف في الرؤية بين الطرفين أوجد حالة من النفور والعداء منذ اللحظة التي بزغت فيها شمس الإسلام فلم يكن ظهوره في الجزيرة العربية مرحبا به من قبل النصارى الذين كانوا يتزعمون العالم روحيا في هذه الفترة وكانوا يخشون لهذه الزعامة ان تذهب من أيديهم وقد تعاظمت هذه المخاوف عند الطرف المسيحي بعد الانتشار السريع للإسلام في القارات الثلاث (دياب، 2016، صفحة 16) وعوض الاعتراف بأن مبادئه السامية هي السر في انتشاره السريع اتهمه المستشرقون بأنه إنتشر بالسيف (زكريا، 1965، صفحة 43) وبذلك رسموا صورة مرعبة للإسلام في ذهن القارئ الغربي ولا يزال الإنسان الغربي يعيش هذه الفوبيا حتى هذه اللحظة وفي الفقرات التالية سنقف على هذه الاتهامات الخطيرة.

يذكر المؤرخ الفرنسي **هنري بيرين** أن الانتشار الكاسح للإسلام بدّل جغرافية المتوسط السياسية والدينية تبديلا مستداما بأن احدث قطيعة مع الفترة الرومانية التي كانت ترى في البحر المتوسط مركز العالم والفضاء الاستثنائي للمسيحية (دياب، 2016، صفحة 17)

ومن أشد المتعضين من الفتوحات الإسلامية المدعو **المستر كاش** الذي وصف في كتابه المعنون بـ" اتساع رقعة الإسلام" الفتوحات الإسلامية بأنها جرائم حرب مروعة حدثت بإيعاز من محمد، بدون وجه حق وأن المقتولين لم يرتكبوا ما يستوجب قتلهم وكل ذنبهم أنهم نظموا أشعار في هجاء الإسلام، وقد استقى اخباره من كتاب السير وليم المعنون بـ" حياة محمد" " (زكريا، 1965، صفحة 303،304) **وكاش لا** يعتبر ما قام به هؤلاء جريمة تستحق العقاب لأنه ينتمي إلى سياق ثقافي مختلف يؤمن بأن التشهير والسب من حرية التعبير، والغرض من هذا الاتهام الذي وجهه كاش إلى المسلمين ونبيهم والذي يثبت تاريخيا هو تشويه صورة الفتوحات الإسلامية لا غير إذ يهدف صاحبها إلى إظهار الإسلام بأنه دين دموي قام على إبادة المخالف وهذا ما فهمه السواد الأعظم من الغربيين إلى اليوم، أما بخصوص الأشخاص الذين كانوا يهجون النبي محمد ودينه فقد كلف حسان بن ثابت وغيره بالرد عليهم بنفس وسيلتهم أي بالشعر ولم يقتل بالسيف سوى أشخاص بأعينهم لأنهم زعموا على الفتك به ككعب بن الأشرف وأي رواية تذكر خلاف ذلك فهي رواية ملفقة (زكريا، 1965، صفحة 305،308) وقد اعتمد " كاش" وغيره على هذا النوع من الروايات لغايات في نفوسهم.

كما اعتمد المستشرقون في إثباتهم بأن الإسلام دين دموي انتشر بالسيف على الروايات التي تتحدث عن قتل اليهود في المدينة وإجلاء الكثير منهم عنها، وهذا حق أريد به باطل فالمستشرقون قدموا لقرائهم نصف الحقيقة ولم يقدموا الحقيقة كلها، فاليهود غدروا بالنبي **محمد** ﷺ وهموا بقتله وشكلوا مع أعدائه حلفا لإبادة المسلمين بالمدينة وهذا مناف للمعاهدات التي وقعوها معه في البداية والقاضية بعدم دخول اليهود في أي حلف ضد المسلمين وبذلك استحقوا القتل والإجلاء، ولا يجب أن ننسى بأن الإسلام يحرم قتل العزّل كما يحرم قتل الأطفال والنساء والشيوخ لذلك لم يدخروا جهدا في تشويه صورته فوصفوه بأقذع الأوصاف كالهرطقة ودين الوثنية وزعموا أن أكبر اوثانهم محمد ﷺ. (مؤنس، 1992، صفحة 54)

وقد أشكل على القس **فوشيه دي شارتر** (1060/1055م) حين زار بيت المقدس ما يقوم به المسلمون حين وجدهم يصلون في مسجد قبة الصخرة فقد غلب على ظنه أنهم يعبدون الصخرة وهذا ما جعله يصفهم بالوثنيين ويحكم على صلاتهم بأنها عمل لا جدوى منه. (الشارتري، صفحة 12)، ولا تكاد تخلو صفحة من صفحات كتابه هذا من وصف المسلمين بأقذع الأوصاف كالجنس المنحل والخسيس الذي تستعبده الشياطين وهذا التوصيف ساعد الأوروبيين على رسم صورة قبيحة للإنسان في المسلم وظن لقرون طويلة أنه كائن شرير.

أما **يوحنا الدمشقي** فقد ساهم بقسط وافر في رسم الملامح المخيفة للمسلم من خلال نعتهم بالكفار والمفسدين وأتباع أريان الذي يقول ببشرية المسيح عليه السلام وينفي عنه الربوبية، ووصف الإسلام بأنه بدعة مسيحية منشقة ومرتدة اباح جملة من المحظورا كالختان وعدم اتخاذ يوم السبت للراحة والعبادة والغاء المعمودية وشرب الخمور (حتي، 1950، صفحة 116)، ورغم التكوين الديني ليوحنا في المسيحية إلا أنه خلط بين الإسلام والمسيحية في كثير من المرات.

وعلى كل حل فالمسيحيين كانوا يعيشون خوفا مزمنا من الإسلام وسبب هذا الخوف هو عدم قدرتهم على فهمه فهما صحيحا (سوذرن، 2006، صفحة 39) وهذا ما سيصرح به بعض المستشرقين في الفقرات القادمة.

أختم قولي عن الفتوحات بالقول بأنها حاولت احتواء أوروبا كلها فعلت ذلك من جهتين مختلفتين من جهة القسطنطينية ومن جهة فرنسا فأخفقوا في الثانية ووفقوا في الأولى فلولا اخفاقهم في معركة بواتيه سنة 732م هذا الإصرار الإسلامي على فتح أوروبا رسم صورة قاتمة في أذهان الاروبيين عن الإسلام والمسلمين.

ثانيا:الوحي والنبوة: يصف المستشرقون نبي الإسلام بأنه محتال ومخادع خدع العرب بحيل السحرة والكهان (زكريا، 1965، صفحة 18)، وذهب عدد منهم إلى اعتباره إما شاعرا أو مفكرا أو شخصا مصابا بداء الصرع أو ساحرا (خليفة، 1994، صفحة 39)، أما المستر **كاش** الذي تقدم ذكره فقد اتهم النبي محمد ﷺ بأنه رجل نه غليظ القلب وغادر لا يعرف الرحمة وغيرها من التهم والأوصاف التي ساهمت في رسم صورة سيئة عنه في عقول الغربيين كما يقول الأستاذ كارا دي قو: (إن محمدا ظل وقتا طويلا معروفا في الغرب معرفة سيئة فلم توجد خرافة ولا فظاظة إلا نسبوها إليه. (زكريا، 1965، صفحة 24، 303)

أما بعض الطلاب الأوروبيين الذين درسوا الإسلام فقد نفوا تماما أن يكون محمد ﷺ نبيا رغم قدرته على تأسيس دين جديد، ووصفوه بأنه يأمر بالشر ما جعله أداة للشيطان أو عميلا له ويتهمه القديس **طوماس الإكويني** بأنه مزج ما جاء به بمعتقدات باطلة وبقصص يردها التاريخ ولا توجد لديه المعجزات التي تدلل على نبوته أما أصحابه فلا يعلمون شيئا عن الأمور السماوية وهم جماعة من الهمج يعيشون في الصحراء. (منغمري واط ، 2016، صفحة 133، 138)

ويعترف احد المنصفين اسمه **دير مانجيم** أن الغربيين أساءوا فهم الإسلام فراحوا يكيلون التهم له (زكريا، 1965، صفحة 24) ومن الأمثلة على الفهم السيء للإسلام أو لبعض مسائله اعتقاد الكاتب الأمريكي واشنجتون ايرفنج بأن الإيمان بالقدر خيره وشره هو صناعة محمدية انشأها من أجل نجاح شؤنه الحربية خالصة وسماها الجبرية (زكريا، 1965، صفحة 43)

أما عن علاقة المستشرقين بالقرآن فإنهم اقتنصوا نصوصا منه تتحدث عن الجهاد فقاموا باقتلاعها من سياقاتها ووظفوها في سياقات خاصة تشي بأنه يحث على العنف والقتل والكراهية للآخر المخالف، ويغمضون أعينهم عن المعاني الحقيقية لهذه النصوص، ولو امعنوا النظر في آيات الجهاد لعلموا أنها دعوة إلى جهاد من يقاتلهم ويعلن الحرب عليهم لا جهاد مبادءة أو طلب والدفاع عن النفس والديار حق تكفله جميع الشرائع والقوانين، ناهيك عن النصوص التي تنهى المسلمين عن الاعتداء على الغير، لكنه تأويل مقصود غرضه تصوير القرآن على أنه مصدر للعنف والكراهية.

ولم يقتصر لي اعناق النصوص على آيات الجهاد وحسب ولكنه طال أيضا النصوص التي تتحدث عن المرأة ثم يتهمون القرآن بأنه يحط من قيمتها في المجتمع الإسلامي كتلك النصوص التي تتحدث عن تعدد الزوجات وطاعة الزوجة لزوجها واللباس الشرعي، وهذا ما جعل الغربيين يتوجسون خيفة من الإسلام والمسلمين كون تعاليمه تختلف تماما مع فلسفتهم في الحياة.

وفيما يتعلق بلغة القرآن فقد عمل عدد غير يسير من المستشرقين على إظهارها بأنه لغة متناقضة مليئة بالأخطاء وهذا ما جعل الإنسان الغربي يعتقد بأنه القرآن كلام مؤلف أخذه نبي الإسلام من غيره أو بالأحرى كتب له وخاصة أولئك الذين اطلعوا على كلام المستشرقين الذين يقولون بأن محمدا ﷺ قد اعتمد في وضع كتابه على المصادر اليهودية والمسيحية (خليفة، 1994، صفحة 39)، أما المستشرق **سيل** فقد زعم في كتابه (ترجمة القرآن) أن **محمدا** ﷺ هو مؤلف القرآن وواضعه ويحمل أن يكون قد استعان بغيره في كتابته وتبنى رأيه هذا عدد كبير من المستشرقين أمثال **رودنسون** و **لامانس** و **تشامبيون وجلوب** (خليفة، 1994، صفحة 38) . إن هذه التهمة قديمة ظهرت مع القرآن وسجلها في قوله تعالى: (...وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا...) ولا زالت تتكرر، وقد انبرى فطاحلة اللغة المسلمين للرد على مثل هذه الافتراءات، فالتشكيك في مصدر القرآن نسف لدين المسلمين بالكلية، كما طعن المستشرق **فندر** في فصاحة القرآن فزعم أنها لا تعني بالضرورة أنه من عند الله وشبهه بعدة كتب لا ترقى إلى مستواه ككتاب الفيدا والإلياذة والاوديسة وقال إنها فصيحة ولكن مؤلفوها أميون وهي مقارنة غير عادلة طبعا، كما أنكر أمية النبي **محمد** ﷺ (زكريا، 1965، صفحة 144)

وتحدث عدد منهم عن الحروف المقطعة التي بدأت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم فزعم المسشرق المسمى لوت أن النبي محمدت ﷺ أثر فيها بالتراث اليهودي لاعتقاده بأن ذلك قد حصل بعد مجاوته لهم بالمدينة وقد جانب الصواب في ذلك لأن سبعا وعشرين سورة من أصل عشرين نزلت بمكة أي قبل احتكاكه باليهود، أما **نولديك** فظن بأن هذه الحروف ليست من القرآن وأنها مجرد رموز لأسماء اشخاص حازوا عددا من المصاحف قبل ظهور المصحف العثماني. (زكريا، 1965، صفحة 142)

ولم تقتصر اتهامات المستشرقين على القرآن فحسب ولكنها طالت السنة النبوية أيضا **فجولد تسهر** مثلا يعتبرها جوهر العادات وتفكير الأمة الإسلامية فهي بحسب تعبيره العادة المقدسة والأمر الأول

(المرصفي، 1990، صفحة 29)، ومعنى كلام تسيهر أن العادات المحمودة والفضائل والكمالات التي تراكمت عند المسلمين عبر الزمن شكلت في مجموعها ما يعرف عندهم بالسنة وهذا المفهوم الذي قدمه تسيهر للسنة موجود عند عدد كبير من المستشرقين، أما **مارغيليوث** فقد زعم بأن لفظ السنة ورد كثيرا في النصوص التي لها علاقة بالخليفة عثمان بن عفان ربما لسلوكه الخطير الذي يختلف عن سلوك أسلافه، ثم يعود ليقرر كغيره بأن السنة هي كل ما كان عرفا مألوفا لدى المسلمين (المرصفي، 1990، صفحة 31)، ولا أدري ما لذي يعنيه **مارغيليوث** بالسلوك الخطير لعثمان ولكنني أستطيع الجزم بأن كلامه ككلام من سبقه عار عن الصحة إذ أن السنة هي الوجه الثاني للوحي وتشمل أقوال النبي وأفعاله وتقريراته كما هو مبين عند المتخصصين في هذا المجال فهي مرتبطة أساسا بشخص النبي محمد ﷺ وليس بشخص آخر، ولا أريد التوسع في أقوال المستشرقين عن السنة النبوية فمدار أقوالهم جميعا على أنها مجمع الأعراف.

ثالثا-بيت المقدس والحجاج الأوروبيون:

يعتبر القدس مكانا مقدسا عند المسيحيين ففي احدى جنباته ولد المسيح الذي ألهوه لذلك لا يتوقفون عن الحج إليه وعندما فتح المسلمون بيت المقدس وصارت تحت عهدتهم اعتبرو ذلك احتلالا يجب مقاومته وهذا ما صرح به البابا أوربان الثاني في خطبته الشهيرة عندما أطلق حملته من كليرمون الفرنسية لتحرير القدس. (الشارتري، صفحة 13)

لقد زعم أوربان الثاني بأن الأماكن التي يقدسها المسيحيون في فلسطين قد تعرضت للتخريب، وحياة الحجاج قد باتت في خطر فالتحرك لحماية المقدسات وحياة الحجاج قد اصبح واجبا (مؤنس، 1992، صفحة 26)، وعندما يقول أوربان ذلك فليس لأنه شاهد ذلك بعينه بل لأن هذه الأخبار وصلته عن طريف الرحالة الأوروبيين الذين عادوا من فلسطين ودونوا ذلك في مؤلفاتهم، وممن كتب عن تخريب المسلمين لمقدسات المسيحيين الرحالة **سايلوف** الذي قدم صورة سيئة عن المسلمين إذ سجل بأنهم خربو مدنا فلسطينية بأكملها كبيت لحم والخليل والناصرة وغيرها وصيروها أماكن لا تصلح للسكن (مؤنس، 1992، صفحة 45)

قد ألحق سايلوف ضررا كبيرا بصورة المسلمين عندما وصفهم بالمخربين وبالباحثين عن الغنائم فلا شك بأن المسيحي الذي تقع عينه على مثل هذه الأخبار سيتخيل المسلمين في أبشع صورة وستمتلئ نفسه غيظا وحقدا عليهم وسيتمنى موتهم، ولا شك بأن الأمر لم يكن كما أخبر به سايلوف وأن خلفيته العقدية هي التي دفعته لتشويه صورتهم بمثل هذا الكلام الخطير، فهو كما جاء في كتاباته ناقم على كل ما هو عربي أو مسلم بسبب اعتقاده بأنهم يكرهون المسيحيين ويناصبونهم العداء ومتعصب لمسيحيته لذلك لا يتوانى عن اتهامهم بالتخريب كلما وقعت عينه على مكان مخرب. (مؤنس، 1992، صفحة 45)

وإذا كان **سايلوف** عند ذكر العرب أو لمسلمين يصفهم بأبشع الأوصاف فإنه كذلك لا يتوانى عند ذكر المقاتلين الصليبيين بوصفهم بكل أوصاف النبل والشرف (مؤنس، 1992، صفحة 47)، ولا شك بأن ذلك أيضا يرسم صورة بشعة للمسلمين في ذهن القارئ المسيحي.

بسبب اعتماد أوربان على مثل هذه الروايات المضللة أطلق صرخته المشهورة في المجمع الذي عقده جنوب فرنسا وقد نجح إلى حد كبير في حشد الجموع للقيام بحملة صليبية ضد المسلمين في القدس والأماكن التي مرت بها الحملة وقد سقط بعد هذه الصرحة عدد من الأماكن تحت ضربات الصليبيين كالرها وأنطاكية وبيت المقدس فأنشأوا بها إمارات وممالك عملت على حماية طرق الحج إلى بيت المقدس ما جعل عدد الحجاج يتضاعف في هذه المرحلة. (مؤنس، 1992، صفحة 27)

لقد نسي أوربان أو تناسى بأن المسلمين قد آلوا على أنفسهم أن يحموا المخالفين لهم في العقيدة سواء كانوا مواطنين في الدولة الإسلامية أو حجاجا قدموا إلى بيت المقدس من البلاد البعيدة، ثم إن المؤلفات التاريخية التي تتبعت حركة سير الحجاج الأوروبيين إلى بيت المقدس تقدم دلائل قاطعة بأن الكثير منهم يموت في الطريق إما بسبب الظروف الطبيعية أو بسبب الامراض والأوبئة، فالرحالة سايلوف نفسه يذكر أن عاصفة شديدة تسببت في إغراق عدد من أصحابه الذين رافقوه على متن السفينة التي أقلته (مؤنس، 1992، صفحة 43)، وأحيانا يهلك الحجاج المسيحيون بسبب الصراع القائم بين النصارى أنفسهم فعلى سبيل المثال لا الحصر تعرض الحجاج النورمان للمضايقات من قبل الجنود البزنطيين بسبب قيام النورمان بمهاجمة الأملام البيزنطية في جنوب إيطاليا، ولم يتعرض الحجاج المسيحيون للاضطهاد من قبل المسلمين إلا في فترات استثنائية من قبل جماعات تمردت على السلطة المركزية لا سيما في أثناء حكم الفاطميين وربما جماعات من البدو المنتشرة على الطرق المؤدية إلى بيت المقدس تقوم حياتهم على النهب كتلك التي صادفها الرحالة سايلوف في الطريق الممتد من يافا إلى بيت المقدس. (مؤنس، 1992، صفحة 26، 43)

وقريبا من رواية سالوف ما كتبه الرحالة والأب دانيال الروسي الذي زار بيت المقدس هو الآخر خلال عام 1104م فقد تحدث في رحلته عن اغتيال الحجاج المسيحيين من قبل المسلمين وبث الرعب في نفوسهم وأن ذلك قد جعلهم يعيشون أوضاعا صعبة للغاية. (مؤنس، 1992، صفحة 78)

اللافت للنظر في كتابات الرحالة الأوروبيون أنهم يعتبرون كل من يموت في القتال الدائر بين الجيوش الصليبية والإسلامية شهيدا استشهد من أجل الرب ومن أجل المقدسات المسيحية ولو كان هدفه غير ذلك وهذا ما كتبه الرحالة ورجل الدين والمرشد لقوافل الحجاج فتيلوس. (مؤنس، 1992، صفحة 107)

إن بعض الانتهاكات التي وقعت ضد الحجاج المسيحيين قامت بها طوائف متطرفة منحرفة تنتسب إلى الإسلام زورا وقد سفكت دماء المسلمين أيضا وقد أشار الرحالة اليهودي الاسباني بنيامين التطيلي الذي زار بيت المقدس ما بين 1163و 1173م إلى إمعان الإسماعيلية النزارية في سفك دماء المخافين لها من

المسلمين ما جعلها مصدر خوف وقلق للمسيحيين القادمين إلى بيت المقدس والقوات المسيحية المرابطة ببعض المدن الإسلامية (مؤنس، 1992، صفحة 165)، كما أشار الرحالة يوحنا فوكاس (حوالي عام 1185م) إلى عناصر الحشاشين الذين سببوا ذعرا للسكان (مؤنس، 1992، صفحة 218)

أما فوشي فينظر إلى لحملات الصليبية على أنها غزوات مباركة وحرب مقدسة لا تختلف عن حروب بني إسرائيل ضد اعدائهم وهي حروب من أجل البقاء ضد عدو متحرش مستضعف لهم لا يدخر جهدا لإفنائهم ، ويرى بأن الجنود الصليبيين الذين دخلوا إلى بيت المقدس مدججين بالسلاح مجرد حجاج يرغبون في زيارة الأماكن المقدسة مثلهم مثل العزل الذين جاءوا برفقتهم من البلاد البعيدة وعليهم أن يتغلبوا بالسيف على كل العوائق التي تعترض طريقهم ومن مات منهم وهو يدافع خصمه في هذه الرحلة فهو شهيد كما أن من يرفض المواجهة خائن، وفي المقابل يعتبر فوشي سكان المناطق التي دخلها الصليبيون كفارا ووثنيين وهمج وغيرها من الأوصاف القبيحة، ويشاركه في هذا الوصف الرحالة والأسقف الألماني ثيودوريش حيث ادعى بان الحجاج المسيحيين قد تعرضوا للذبح من قبل العرب في بيت المقدس وعزموا على إحراقهم (الشارتري، صفحة 11، 12)

لا أحد يستطيع ان ينكر دور هذه الكتابات في رسم الصورة القاتمة للمسلمين في أذهان الغربيين، فالكاتب شخصية دينية مرموقة شارك في الحملة الأولى التي انتهت باحتلال بيت المقدس وكان مستشار للقائد الصليبي بلدوين الأول وقد مكنته هذه الرحلة من الاطلاع عن أحوال المسلمين في الشام عن كثب وعاش بقية حياته في القدس (الشارتري، صفحة 10)

رابعا-الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية:

نظر عدد لا بأس به من المستشرقين وخاصة الإسبان منهم إلى الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية على أنه استعمار تميز بالوحشية واغتصاب ممتلكات الأرض نذكر منهم **فرانسيسكو خافيير سيمونيت** و **ايزيدورو الباجي وخوسيه أنطونيو كوندي**، وقد فاق المستشرق **سمونيث** غيره من المسشرقين في التحامل على مسلمي الأندلس فألف كتبا في ذلك أشهرها كتاب **" تاريخ المستعربين"** المليء بأفكاره المعادية للوجود العربي في الأندلس وخصص فصلا كاملا منه عنونه بـ**" المستعربون على مذبح الاستشهاد"** الذي يحكي فيه قصة نصراني تجرأ على سب النبي محمد ﷺ في صحن مسجد من مساجد المسلمين فانهالوا عليه ضربا حتى مات واعتبر بأن الرغبة الملحة لدى النصارى في الاستشهاد هي التي تدفعهم إلى سب نبيهم، وواصل تحامله على المسلمين فقال إن وجودهم في الأندلس لم يقدم أية إضافة حضارية لهذا القطر لأن السكان الأصليين كانوا أرقى منهم. (اليعبودي ، 2011، صفحة 113، 116)

أما رينهرت دوزي فقد دفعه امتعاضه الشديد من الوجود الإسلامي بإسبانيا إلى اعتباره توسعا يتخذ من السيف والرعب وسيلة لتحقيق ذلك ووصف الفاتحين للاندلس بأنهم أشخاص يسعون خلف الغنائم والمكاسب المادية. (اليعبودي ، 2011، صفحة 114)

إن كتابات المستشرقين الإسبان التي تناولت الفترة الإسلامية بإسبانيا مليئة باالشتائم والألقاب القبيحة من قبيل المتعصب والفاسد والمستبد والعنيف والدموي وفلول الهمج وغيرها من الاوصاف التي صنعت صورة الإنسان المسلم القبيح في مخيلة الإنسان الغربي عموما، وهي صورة أخذها المستشرقون من كتاب القديس جاك المعنون بـ" المورو والذي يعني في الخطاب الاستشراقي الاسباني العرق الذي لا يملك القدرة على ما يفيده في حياته بجميع تجلياتها فهو مجبول على الدسيسة والقسوة. (اليعبودي ، 2011، صفحة 120، 121)

بينما اتجه عدد كبير من المستشرقين الذين اشتغلوا على تاريخ الأندلس إلى اختلاق الروايات والأخبار المزيفة لتشويه صورة الإسلام في هذا الصقع كادعائهم بأن موسى بن نصير عندما جاز إلى الأندلس عمد إلى ذبح الناس بالسيف وقتل الشباب والرضع بالحراب ونشر الخراب والجوع في المنطقة (اليعبودي ، 2011، صفحة 117)

كما نفى المستشرقون الإبداع عن العلماء المسلمين بالأندلس في مختلف التخصصات وذهبوا إلى أنهم يرددون ما كتبه العلماء الغربيون فقد كادعائهم بأن البكري تأثر في كتابه " المسالك والممالك" بكتاب ايزودورو الإشبيلي " ايتيمولوجيا" (آنخل جونثالث، 1955، صفحة 311)

خامسا-دعوى الاصطفاء الإلهي والتفوق العرقي :

تخبرنا الوثائق التي أرخت للحركات الدينية عبر التاريخ بأن اليهود هم أول من اعتنق عقيدة الاصطفاء فهم كانوا ولا يزالون يعتقدون استنادا إلى نصوص توراتية أنهم شعب الله المختار وأن الشعوب الأخرى يجب أن تكون مسخّرة لخدمتهم ، وحتى وقت قريب من ظهور المسيح عليه السلام كانوا يقتلون الأمم باسم الرب ويسومونهم سوء العذاب، وحسب نصوصهم المقدسة فإن الشعوب التي تخالفهم في المعتقد لا تستحق أن تكون منبوذة وحسب بل يجب أن تستأصل لأنها شعوب وثنية كما جاءت في كتابهم المقدس، وقد علق القمص تادرس يعقوب ملطي على هذا الزعم بقوله: " لا شركة مع الوثنية، إذا دعي الشعب لعبادة الله خلال الدخول في عهد معه طلب الله منهم إبادة سكان هذه المنطقة. (الريس، 2008، صفحة 11)

وبعد ظهور المسيحية واشتداد عودها ومؤازرة الأباطرة لها تعرض اليهود للمصير نفسه وخاصة في زمن الإمبراطور قسطنطين يقول المؤرخ الكنسي جون لوريمر: (ولكن في القرن الرابع وبتأثير من الحجج

اللاهوتية للكنيسة اتخذت معاداة السامية مسلكا أكثر قسوة وقد انسحبت هذه السمة على الإمبراطورية، فقد كتب الامبراطور قسطنطين هجوما مريرا ضدهم..) (الريس، 2008، صفحة 121)،

في الحقيقة ليس لدي فرق بين اليهودية والمسيحية فالثانية ما هي في الحقيقة إلا امتداد للأولى وليس أدل على صحة هذا القول من اعتبار المسيحيين للتوراة جزءا مهما من كتابهم المقدس يطلقون عليه اسم العهد القديم، فالمسيحيون حسب رأيي المتواضع ورثو عن اليهود النصوص التي كانت سببا في اعتقادهم انهم شعب الله المختار الذي يجب أن تخضع له جميع شعوب العالم لذلك تسرب هذا الاعتقاد إلى قساوستهم ورهبانهم، وقد تقدمت معنا مقولة القمص تادرس يعقوب ملطي التي اعتبر فيها غير المسيحيين كفارا ووثنين لا يليق معهم سوى القتل والإبادة وهذا دليل واضح على الكراهية التي يكنها المسيحيون لليهود.

أما بخصوص التفوق على الأعراق الأخرى فيعتقد الغربيون عموما والأوروبيون على وجه الخصوص بأن الجنس الأبيض هو أرقى الأجناس لما يحمله من صفات نفسية وجسدية وعقلية تجعله في قمة هرم الأجناس وما سواهم من الشعوب منحط ورديء ومن ثم فهو لا يستحق الاحترام والتقدير، وهذا ما يجعل التعايش بينهم وبين الأجناس المختلفة صعبا إن لم نقل ممتنعا بسبب استعلائهم وعدوانيتهم اللامتناهية ضد من يسعى للعيش معهم في بيئة واحدة، وقد اتكأ الفلاسفة الغربيون على اختلاف مدارسهم الفكرية والفلسفية إلى جانب علم الأنثروبولوجيا وعلوم أخرى على نظرية التطور عند دارون لتأكيد هذا التفوق، فهم يعتقدون بأن الأعراق الأخرى ما زالت تحتفظ بخصائص الإنسان البدائي الأول أما العرق الأبيض فقد تتطور وتخلص من هذه الخصائص مكتسبا خصائص أرقى منها ولا يخفى علينا بأن هذا الزعم قد اصطنعه الغرب لإحكام قبضته على الأعراق الأخرى وأعني هنا حركة استعمار الشعوب التي قادها العرق الأبيض في مختلف أنحاء المعمورة.

وقد لعبت كل من النصوص الدينية وأكذوبة التفوق العرقي للعرق الأوروبي دورا كبيرا في احتقار المسلمين واعتبارهم جنسا منحطا خلق لخدمة الجنس الأبيض، وأن قتلهم واستباحة أموالهم وانتهاك أعراضهم أمر مطلوب لإتيانهم بدين مزيف وهذا بدوره قدم للإنسان الغربي صورة مشوهة عن الإسلام المسلمين.

سادسا-الوجود العثماني في البحر الأبيض المتوسط:

استشعر الأوروبيون الخطر بعد تمكن العثمانيين من فتح القسطنطينية عام 1453م، وتعاظم خوفها بعد وصول الدولة العثمانية إلى اقصى اتساع لها حيث امتدت من نهر الدانوب غربا حتى الخليج العربي شرقا ومن بحر أزوف شمالا حتى الحبشة جنوبا وقاموا باختراق أوروبا في الوسط حتى أصبحت روما وفيينا تحت التهديد وفرضوا الجزية على البندقية حتى قال قائلهم: إن زائرا من المريخ لو أطل على

الأرض لظن بأن العالم على وشك ان يصبح مسلما ...خاصة بعد ضم بيزنطة والهند والبشرية بعد مائة عام من النهضة بدت وكأنها محاصرة بالإسلام من كل الجهات، وقال **بوزورث** c Bosworth بأن الأتراك العثمانيون هم أول من زرعوا الرعب في قلب أوروبا المسيحية (دياب، 2016، صفحة 20)، هذه الأحداث والتطورات على الأرض أرعبت المسيحيين ودفعت بمفكريهم إلى الواجهة لتشويه صورة العثمانيين فأعادوا كتابة الأحداث بطريقة تثير مشاعر العداء والكراهية عند المسيحيين للعثمانيين وتصفهم بأنهم وحوش تجردوا من الإنسانية.

فاغلب المستشرقين الذين كتبوا عن سقوط مثلا القسطنطينية متفقون على أن ذلك قد تم بعد ارتكاب محمد الفاتح لمجزرة مروعة في شوارعها أعقبتها أعمال النهب والسلب وانتهاك الأعراض لمدة ثلاثة أيام كاملة (جعفر الغازي، 2012، صفحة 182)

وممن تحدث عن هذه المجزرة المستشرق **كارل بروكلمان** حيث سجل في كتابه بأن المجازر لم تتوقف حتى تدل محمد الفاتح بنفسه ثم دخل إلى كنيسة آيا صوفيا وقام بمصادرتها باسم الإسلام (بروكلمان، 1968، صفحة 431)، وكلام كارل هذا بشأن الكنيسة غير صحيح فالوثائق التاريخية تؤكد بأن محمدا قام بشرائها من النصارى من حر ماله ولا يزال عقد البيع موجودا في متحف إسطنبول وهذا ما يجعلك تشك في كتابات كارل حول المسلمين بصفة عامة.

أما المستشرق **روبير مانتران** الذي تحدث هو الآخر عن فتح العثمانيين للقسطنطينية فقد صرح بأن جنود محمد الفاتح قد مارسوا أعمال السلب والنهب في المدينة على نطاق واسع وجلبوا السكان الذين لاذوا بكنيسة آيا صوفيا فأمعنوا في قتلهم ومن قدر له ان يعيش صار عبدا عندهم. (مانتيران، 1993، الصفحات 122- 123)

وقريبا من هذه الرواية ما كتبه المستشرق **جون باتريك كينروس** من أن الجنود العثمانيين بعد دخولهم إلى المدينة تجولوا في أزقتها بين الأشلاء والدماء وأعملوا السلب والنهب فيها وطال ذلك دور العبادة المسيحية حيث تم اقتحام كنيسة آيا صوفيا الممتلئة بالمذعورين فقيّد المتعبدون فيها بينما مزقوا أثواب النساء وأخرجن عاريات إلى الجنود الذين تنافسوا على اقتسامهن مع الأولاد والشيوخ. (باتريك كينروس، 2002، صفحة 117)

وبالغ أحد المستشرقين في تشويه صورة **محمد الفاتح** فنسب إليه خطبة ألقاها على جنوده قبل الهجوم لا ليشحنهم بالحماسة ولكن ليخبرهم بأن كنوزا عظيمة ونساء جميلات تنتظرهم داخل المدينة وعليهم أن يمعنوا في القتل حتى يصلوا إلى هدفهم (جعفر الغازي، 2012، صفحة 184)، وهذه الخطبة طبعا ملفقة تردها آداب الإسلام في الحرب فالمسلم يقاتل لإعلاء كلمة الله وليس من اجل الغنيمة كما أن احكام الإسلام تحرم قتل العزّل والضعفاء ورجال الدين وهذا ما فعله محمد الفاتح فقد أرسل رسولا إلى

البيزنطيين يأمرهم بتسليم المدينة فرفضوا فقام بفتحها عنوة ولكنه لم ينكل بساكنيها بل أمّنهم على أنفسهم وأموالهم (آق كوندز و أوزتورك، 2008، صفحة 172)

ولا نريد أن نسترسل في إيراد روايات المستشرقين عن الفتوحات التي قامت بها الدولة العثمانية لأنها روايات متشابهة تتفق في وصف العثمانيين بأقذع الاوصاف وتصورهم في صور مرعبة واللافت للنظر أن المستشرقين قد تعاملوا مع التاريخ الإسلامي بنفس الطريقة فصوروه على أنه حقبة من الاعتداءات المليئة بالرعب والدماء والسلب والتوسع على حساب الآخر المسيحي وهذا ما جعل القارئ المسيحي يرسم في ذهنه صورة مرعبة للعثمانيين أو غيرهم من الشعوب الإسلامية.

سابعا-لاحتواء الثقافي:

شغف المسيحيون الإسبان الذي عاشوا مع المسلمين كرعايا يحظون بجميع حقوق المواطنة في الدولة الإسلامية بكل ما هو إسلامي وقد وصل الشغف بهم إلى تعلم اللغة العربية وإتقانها والتفنن في كتابة الأشعار بها وإهمال لغتهم الأم واحتقار ثقافتهم التي يرون انها لا تستحق الاهتمام (سوذرن، 2006، صفحة 58)، وعلى محور القيم أمعنت القيم الإسلامية في هدم القيم المسيحية ما جعل رجال الدين المسيحي يجزمون بضرورة وضع حد لهذا التأثير الإسلامي بشكل نهائي بواسطة ضربة عسكرية داخل الأراضي الإسلامية وإقناع المسلمين باعتناق المسيحية. (سوذرن، 2006، صفحة 59)

لقد خلق هذا الاحتواء حالة من التذمر والشعور بالاختناق لدى فئة واسعة من الاسبان وخاصة المتدينين منهم ليس من الإسلام وحسب ولكن أيضا من الإنسان الإسباني المنجذب نحو الحضارة الإسلامية وترجم ذلك إلى احتجاج تزعمه رجلان أحدهما كاهن يدعى **أويلوغيوس** والآخر نبيل اسمه **باول ألفاروس** وقد كتب هذا الأخير عملا جدليا ضد الإسلام، ومن شدة حنق الرجلين على الوجود الإسلامي في الأندلس ذهبا إلى أن هذا الوجود يعتبر مقدمة ضرورية لظهور السيد المسيح وأن الإشارات الدالة على ذلك موجودة في كتابهم المقدس. (سوذرن، 2006، الصفحات 59- 60)

إن هذا الشغف الذي تحول إلى احتواء ثقافي للإنسان المسيحي في الأندلس ما كان ليحدث برأي بعض المستشرقين لولا قيام السلطة الإسلامية بعزل مسيحيي هذا القطر عن غيره من مسيحيي العالم في المناطق المختلفة وهذا ما جعلهم يعيشون قطيعة معرفية مع مصادر الثقافة اللاتينية يشترك في هذه العزلة المثقفون والعوام. (سوذرن، 2006، الصفحات 57- 58)

إن هذه الإفتراءات يردها اعتراف الكثير من مؤرخيهم بأن الأوروبيين كانوا يعيشون جهلا مطبقا عندما كانت الحضارة الإسلامية ساطعة في إسبانيا، ولم يبدأ ميلهم إلى العلم إلا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين فاتجهول لطلبه عند المسلمين لأنهم بلغوا فيه مبلغا لم يبلغه غيرهم، كما تم إنشاء مكتب

للمترجمين في طليطلة سنة 1130م يشرف عليه رئيس الأساقفة المدعو ريمون تولى ترجمة كل ما توصل إليه المسلمون بالاندلس في هذه الفترة وفي الفترات اللاحقة. (غوستاف ، 2012، الصفحات 586- 587)

ورغم هذا الاعتراف الصريح من بعض المستشرقين بنبوغ المسلمين في مختلف العلوم إلا أن الكثيرين منهم ينفون أن تكون تلك العلوم من إبداعهم فالمسلم برأيهم لا يعدوا ان يكون مرددا لما كتبه اليونان لأنه ليس مؤهلا لذلك. (آنخل جونثالث، 1955، صفحة 311)

وعلى مستوى العادات والتقاليد يعترف الكثير من المستشرقين بأن المسيحيين في الأندلس انتقلت إليهم الكثير من عادات المسلمين، بل اكتسبوا تحت حكم المسلمين جميع مظاهر حكامهم باستثناء الدين، وإذا كان البلاط الصقلي الذي تفصله عن الأندلس مسافة هائلة قد تأثر بنمط الحياة السائد في قصور قرطبة خاصة في عهد الملكين روجر الثاني وفريديريك الثاني حيث كانا يرتديان اللباس العربي ويتصرفان كالعرب تماما (منغمري واط ، 2016، صفحة 55، 57، 59)، فإن تأثر المسيحيين الذين يعيشون مع المسلمين جنبا إلى جنب في الأندلس أمر مقطوع ، وقد جزم **واط** بان العرب قد نقلوا حياة الرفاهية إلى المسيحيين الإسبان.

إن هذا التحول الكبير الذي أحدثته الثقافة الإسلامية في نفوس مسيحيي الأندلس وطريقة عيشهم لم يرق للمتعصبين منهم لا سيما رجال الكنيسة وغيرهم من المشتغلين على التراث الإسلامي بالأندلس لذلك بذلوا وسعهم لنفي هذا التأثير وطمس معالمه فكانوا كمن تم ذكرهم من الستشرقين يصفون الإسلام والمسلمين بأوصاف مرت معنا عند حديثنا عن الوجود الإسلامي بالأندلس.

خاتمة :

ومجمل القول فإن كتابات الرحالة والمستشرقين الغربيين قد ساهمت وبشكل كبير في رسم الصورة البشعة والمخيفة للإسلام والمسلمين في أذهان الإنسان الغربي، والسبيل إلى تصحيح هذه الصورة هو مراجعة كتاباتهم ونقدها نقدا علميا وتقديمها للإنسان الغربي ليعيد قراءتها من جديد لتحل الصورة الصحيحة محل الصورة المزيفة ويتخلص الإنسان الغربي من الفوبيا التي لازمته منذ قرون.

القليل من الرحالة الذين هم في الأصل ينتمون إلى المؤسسة الدينية المسيحية والقليل من المستشرقين أنصفوا الإسلام والمسلمين ورسموا لهم صورة مشرقة إلى حد ما ولكن كتاباتهم قوبلت بالإهمال في الغرب ودورنا أن ندفع بها إلى واجهة المقروءات عند الإنسان الغربي لتساهم في تصحيح الصورة.

لقد سلم الإنسان الغربي مخياله للمستشرقين والرحالة الأوروبيين الذين زاروا بيت المقدس أيام الحروب الصليبية فعبثوا فيه بشكل فضيع حيث أنشأوا فيه صورا في منتهى الفضاعة للإسلام والمسلمين

دون أن يكلفوا أنفسهم عناء مناقشتها والنظر في مدى واقعيتها وهذا يدفعنا إلى القول بأن العقل الغربي عقل انفعالي لا علمي كما يدعي .

من أجل إنصاف الإسلام على الإنسان الغربي أن يقرأه من مصادره الأصيلة لا أن يقرأ عنه في كتب المستشرقين أو الرحالة أو غيرهم، وحتى يتعرف على المسلمين بشكل جيد عليه أن يحتك بهم ويعيش معهم في حيز واحد .

بسبب هذه الصورة الملفقة يعيش الإنسان المسلم اليوم التهميش والإزدراء داخل مجتمعات غربية ما تفتأ تتهجم على دينه وتطالب بغزو البلدان الإسلامية التي ترى أنها مصدر الإرهاب.

توصيات:

- أوصي بتكرار هكذا ملتقيات بعناوين مقاربة أو تتقاطع مع عنوان الملتقى محل البحث بشكل من الأشكال للإحاطة بالموضوع من زواياه المختلفة.
- ضرورة التنسيق مع الجالية المسلمة في البلدان الغربية وتنظيم ملتقيات تقدم الصورة الصحيحة للإسلام والمسلمين يضطلع فيها بهذا الدور الأكاديميون المتخصصون.
- على المؤسسات البحثية البارزة التي تشتغل على التراث الإسلامي أن تقوم بمراجعة ونقد التراث الاستشراقي الذي يحمل الكثير من المغالطات حول الإسلام والمسلمين.

- **قائمة المراجع :**

- أحمد آق كوندز، و سعيد أوزتورك. (2008). الدولة العثمانية المجهولة . istanbul: MAS Matbaaccilik A.S..
- اماني جعفر الغازي. (يناير, 2012). نظرية إسلامية لفتح القسطنطينية. مجلة كلية اللغات والترجمة، الصفحات 178- 213.
- بالنثيا آنخل جونثالث. (1955). تاريخ الفكر الأندلسي. بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية.
- جون باتريك كينروس. (2002). القرون العثمانية قيام وسقوك الإمبراطورية التركية. الإسكندرية: منشأة المعارف.
- خالد اليعبودي . (ديسمبر, 2011). تاريخ الأندلس في مرآة الاستشراق الإسباني بين العلمية والضدية (الموضوعية والنرجسية). الإنسان والمجتمع، الصفحات 109- 129.
- روبير مانتيران. (1993). تاريخ الدولة العثمانية، ج1 (المجلد 1). القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع.

- ريتشارد سوذرن. (2006). صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (المجلد 2). بيروت: دار المدار الإسلامي.
- سعد المرصفي. (1990). المستشرقون والسنة. الكويت-بيروت: مؤسسة المنار الإسلامية-مؤسسة الريان.
- علي الريس. (2008). الحروب الصليبية من عهد قسطنطين إلى اليوم وجذورها الدينية (المجلد 1). الجيزة: مكتبة النافذة.
- فوشيه الشارتري. (بلا تاريخ). تاريخ الحملة إلى القدس . عمان: دار الشروق.
- فيليب حتي. (1950). تاريخ سورية ولبنان وفلسطين. بيروت: دار الثقافة.
- كارل بروكلمان. (1968). تاريخ الشعوب الإسلامية (المجلد 5). بيروت: دار العلم للملايين.
- لوبون غوستاف . (2012). حضارة العرب. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- محمد حافظ دياب. (2016). ذاكرة الإسلام والغرب (المجلد 1). القاهرة: المجلس الاعلى للثقافة.
- محمد خليفة. (1994). الاستشراق والقرآن العظيم (المجلد 1). القاهرة: دار الاعتصام.
- محمد عوض مؤنس. (1992). الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية 1099-1187م (المجلد 1). القاهرة: مكتبة مدبولي.
- هاشم زكري زكريا. (1965). المستشرقون والإسلام. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- وليام منغمري واط . (2016). تأثير الإسلام في اوروبا العصور الوسطى (المجلد 1). بيروت: جسور للترجة والنشر.

معاناة المسلمين الأندلسيين في القرن السادس عشر

The suffering of andalusian muslims in the sixteenth century

د. مرقرية سهيلة ، جامعة مستغانم- الجزائر
markriasouhila@hotmail.com



في هذه المداخلة سنحاول عرض موضوع مأساة المسلمين الأندلسيين(الموركسيون) في القرن السادس عشر تحت عرش الامبراطور شارل الخامس وابنه فيليب الثاني، بحيث نستعرض أهم الأحداث التاريخية والوسائل القمعية التي اتبعها كل منهما من أجل تنصير المسلمين الأندلسيين المضطهدين، ثم التطرق إلى الانعكاسات ورد فعل المسلمين اتجاه هذه السياسة القمعية والأساليب الوحشية المستخدمة ضدهم من أجل التبشير وتطهير العرق المسيحي وإعتمدت هذه الورقة البحثية على مصادر أجنبية خاصة الإسبانية منها لأن موضوع رسالة الدكتوراه كان في نفس السياق وباللغة الإسبانية.

الكلمات الإفتتاحية: الموركيون، شارل الخامس، فليب الثاني، سياسة التبشير.

Abstract:

The article with the subject of the tragedy of the moriscos in the sixteenth century under the throne of Emperor Charles V and his son Philip II, as it reviews the most important historical events and the repressive means that each of them followed in order to Christianize the persecuted andalusian muslims, and then wz try to adress the repercussions and the reaction of muslims toward this repressive polycy and methods.

Keywords: Moriscos, Charles V, Philip II, methods, repressive.



مقدمة:

ظلت وما تزال القضية الموريسكية موضوع اهتمام الباحثين العرب والإسبان إلى درجة أصبحنا نجد معها تخصصات جزئية داخل التخصص العام لأنها تطرح وتذكرنا بتشرد ومأساة المسلمين بعد سقوط اخر معقل و سند لهم غرناطة عام (898هـ/1492م) والذي كانوا يعولون عليه في استرجاع الأراضي الإسلامية الخاضعة لهم. فمن المتعارف عليه عند جل المؤرخين أن إسبانيا المسلمة أو شبه الجزيرة الإيبرية كانت تعيش في بيئة مليئة بالتسامح والسلام، وكانت أيضا مركزا ثقافيا مبدعالم ولن يتكررعبر التاريخ، لكن ضاعت هذه الجوهرة الثمينة بعد ثمانمائة سنة من العطاء الثقافي والحضاري، واستطاع الملكان الكاثولكيان فرناندو و إيزابيلا الإسبان بعد استعاد آخر رحلة إسلامية أندلسية غرناطة أن يزرعوا جوا مليئا بالخوف والضغوطات والتعنيف والتشريد والقتل للمسلمين الذين أبو إلا أن يبقوا في أرض أجدادهم وحملوا لقب "الموركيون، أو المسيحيون الجدد" كما لقبهم الإسبان.

لقد تغير النظام السياسي الملكي بشكل جذري وأصبح كل الملوك الإسبان الحاقدين على المسلمين في القرنين السادس عشر والسابع عشر يضعون خطوطا حمراء وإستراتجية قمعاء ضد هذه الفئة المسلمة. إذا في هذه الورقة سنحاول تسليط الضوء على الحياة التعيسة التي عاشها المسلمون في الأندلس بعد نهاية دولة الإسلام بها وإعطاء صورة كاملة ودقيقة لسياسة كل من فيرناندو وايزابيلا وملوك ال هابسبورغ ضد المسلمين (شارل الخامس -فيليب الثاني). إنه قرن من الزمن تدفقت خلاله أنهار من الحبر والدراسات التاريخية المتنوعة حول التغيرات الجذرية في حياة المسلمين في إسبانيا. ولهذا سنحاول أولا تحليل محاولات التبشير والتنصير الإجباري والذي كان في عهد فيرناندو وإيزابيلا وثانيا الطرق والأساليب القمعية المستعملة في عهد شارل الخامس وفليب الثاني وأسباب فشلها.

لقد اعتمدت هذه الدراسة التاريخية على مصادر أجنبية خاصة الاسبانية منها لأن موضوع الرسالة في الدكتوراه كان في نفس السياق وباللغة الإسبانية. لكن هذا لا يعني أن الدراسات والمحاولات العربية كانت منعدمة، وبهذا يمكننا إتمام النقص لبعض الباحثين العرب، هذا ولأننا نعلم جيدا أن المصادر العربية الإسلامية قد تجنبت التطرق في مثل هذه المواضيع التأريخية بسبب موقفها السلبي من المسلمين المنصرين الذين فضلوا البقاء في أرض الكفر على العودة إلى أرض الإسلام. لقد ظهرت العديد من المحاولات والدراسات الناجحة أمثال عبد الجليل التميمي الذي اهتم بدراسة العلاقات الخارجية للموريسكيين بالعالم الاسلامي ومحمد عبد حتاملة الذي ركز في كتابه "الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة" على دراسة الأوضاع السياسية للموريسكيين في غرناطة وغيرهم من المؤرخين العرب كما سنرى في هذه الورقة البحثية.

أولا- سياسة فيرناندو و ايز ابيلا :

عندما استقر الملكان الكاثوليكيان ايزابيلا وفرديناندو في قشتالة وأراغون عام 1479 استخدموا سياسة جديدة مبنية على التميز العنصري والديني أو ما يعرف عندهم بالتطهير ونقاء الدم "سياسة إسبانيا الحديثة ضد المدجنين" La limpieza de sangre". أصبحت إسبانيا تؤمن أنه عليها واجب تطهير أرضها من المسلمين والإسلام والذي أصبحت تخشى منه ومن شبحه (Lynch,2013,p.17)، فهذه السياسة المتبعة تعني نهاية التعايش للعقائد الدينية الثلاثة (الإسلام، المسيحية واليهودية) ونقطة انطلاق لمسار التنصير والتطهير العرقي واندماج الأقلية المسلمة في المجتمع الإسباني وبالتالي القضاء على الديانة الإسلامية. إذا لم يكن سقوط غرناطة كما أشار الدكتور المتألق عنان مجرد تغيير النظام السياسي أو نهاية حكم قديم وقيام اخر بل هو نهاية وسحق الإسلام والمسلمين في الأندلس وإبادة تراثهم الذي بلغ سيطه زهاء ثمانية قرون من الزمن (عنان،1996، ص224). وقد أشار على ذلك أيضا الباحث مارمول كربخال في كتابه عن حرب غرناطة: " منذ أن استولى فرديناندو على غرناطة والأحبار يطلبون إليه بإلحاح أن يعمل على سحق طائفة محمد من إسبانيا" (Carvajal,2007,p.147).

فبعد المشاورات بين الملوك والقسسين و البابوات والسلطات النصرانية الإسبانية تم تشكيل لجنة قسيسية تسهر على تطبيق هذه السياسة وكان أول من بدأ بسياسة التبشير هو القسيس فراي إرناندو

دي تلافيرا بنظامه الخاص تقنية الكمال الديني « el perfeccionamiento religioso »، ثم انتهى الأمر بنظام الكاردينال خمينيث سيسنيروس،هذه الشخصية التي سيطرت على التاريخ الديني لإسبانيا في عهد الملكين الكاثولكين (Channau,1973,p.531) وهذا ما جعله ينفذ سياسته تابولا راسا أو الصبورة العرقية أي الصبورة البيضاء Tabula rasa التي يكتب فيها القسيس ما يشاء. كان الكاردينال تلافيرا وأتباعه يعتبرون التنصير عملية اختيارية والمهم هو الاقتراب من المسلمين وترغيبهم بالدين المسيحي (أي اتباع سياسة اللين والرفق بالمسلمين) عكس الكاردينال سيسنيروس الذي اتبع سياسة الترهيب والقمع والتهديد المستمر، أولا لفئة المثقفين والذين يتمتعون بامتيازات ومراكز مرموقة في المجتمع الإسباني، وثانيا تلك الفئة الفقيرة الهشة. يمكننا القول هنا أن الطريقتين المتبعتين من طرف تلافيرا حتى عام 1499 و سيسنروس ما بين 1499- 1502 متناقضتين تماما لكنهما يصبان في نهر واحد ألا وهو التنصير واستيعاب وادماج الطائفة المسلمة الذين غلبوا على أمرهم في غرناطة القديمة.

نرجع تاريخيا لإعطاء أمثلة ووقائع تاريخية سجلها التاريخ الإسباني والعربي على حد سواء، فلقد تم غلق و تحويل أكبر مسجد في حي البايزين إلى كنيسة سان سلفادور يوم 18 ديسمبر سنة 1499، وعلاوة على ذلك قام الكاردينال ثيسنيروس بالاستيلاء على الكتب العربية وأحرق المصاحف في ساحة بيبارمبلا (باب الرملة) بغرناطة حوالي خمسة آلاف مجلد وقيل أنه أحرق بعض المصاحف منها بيده Simonet,) (1885,p.29. واعتبر هذا الحدث كأفظع جريمة حضارية ارتكبت في حق المسلمين بغرناطة وفرضت عليهم ضرائب جديدة باهضة ولهذا نادت كل هذه الأحداث القمعية إلى حرب جديدة ما بين 1499 -1501 مع إنتفاضة أهل البايزين والمناطق الجبلية في منطقة البشرات للمملكة والتي انتهت بإنتصار مسيحي قشتالي جديد نتيجته هو إنشاء فئة مجتمع جديدة في غرناطة ثم باقي المقاطعات بعد سقوطها عرفت بإسم ***الموريسكيون أو المسيحيون الجدد***، والذين عاشوا أحداثا ومحنا تاريخية جد معقدة وأساليب غير انسانية ووحشية. وفي هذا السياق ذكر المؤرخ والباحث الانجليزي وليام بريسكوت أن " الكونت ليون نسف مسجدا مليئا بالنساء والأطفال وكان الإسبان يقترفون أبشع الجرائم وكانت تراق أنهار من الدماء وفي أثناء هذه الحروب الأهلية كان النصارى يبتعدون كل البعد عن شعورهم الديني لأن الأندلسيون في نظرهم مجرد عبيد وأتباع ورقيق"(Prescott, 1846,pp193-195) .

وحتى العثمانيون لم يسلموا من ألسنة المسيحيين جراء هذه الثورة. ففي احدى الرسالات الدبلوماسية التي أشار عنها المؤرخ الفرنسي برودال تم سب وشتم السلطان العثماني بايزيد الثاني " كل ما أرجوه أن يعاقب ثوار البشرات قبل أن يستطيع هذا الكلب أن يعبئ قواته "(Braudel, 1966,362)

والموريسكيون هي كلمة إسبانية ومعناها صغار الأندلس أو المسلمون الصغار وهذا للحط من شأنهم وتجريدهم من تسميتهم التي عرفوا بها لأكثر من 8 قرون منذ وصول الفاتح طارق بن زياد، وكلمة الموريسكيون أيضا أطلقت على المسلمين الذين بقوا وتعمدوا وتمسحوا رغما عنهم بعد استعادة إسبانيا أراضيها. وهذه التسمية أطلقت سنة 1499 واستعملت بصفة رسمية في محاكم التفتيش سنة 1520.

إذا حتى يتعمدوا ويتمسحوا كان من الضروري استخدام سياسة اللغة ولهذا تعلم مطران غرناطة الأب تلافيرا اللغة العربية وأصبح يلقب بالقسيس الفقيه وأرسل بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية حتى يتسنى للمسلمين معرفة الدين المسيحي وأصدر أيضا تعليمات إلى رجال الدين المسيحيين في غرناطة بضرورة دراسة الشريعة الإسلامية من أجل التحاور مع الفقهاء المسلمين بغية إقناعهم بالدخول إلى الديانة المسيحية، إلا أن هذه المحاولات كما أشار إليها الدكتور توفيق المدني باءت فاشلة وجاءت أيضا بآثار عكسية حيث دخل العديد من رجال الدين المسيحيين إلى الديانة الاسلامية(Ravaillard, 1982,pp.6-7). وفي تلك الأونة كان تلافيرا يساعد المسلمين بأمواله الخاصة وكان يجمع الصدقات بنفسه ويعطيها للفقراء المسلمين. هذا المشهد يعتبره البعض عاطفي مقارنة مع ما فعله سيسنروس بالمسلمين، فهذا الأخير قام أولا باستدعاء الفقهاء المسلمين من غرناطة لإقناعهم بالتجريد من الإسلام وإعطائهم مكافآت كبيرة وامتيازات.

لقد تجبر وسيطر رجال الدين على الحكم واستعملوا شتى السبل الممكنة للتنصير الإجباري كتنصير الذين يتمتعون بامتيازات اجتماعية عالية، وأيضا تبشير نخبة المثقفين والحكام وكمثال على ذلك لا ننسى قصة تنصير ذلك النبيل الذي تعود سلالته إلى الزغري أثاتور (المدني،1977،ص23-24) أحد أقارب ابن عمار وفارس جد مهم في عائلة حاكم غرناطة. انطلاقا من هذه المعطيات المكثفة نفهم بأن المسلمين كانوا يوم بعد يوم يتمسحون رغما عنهم (Cravajal, 2007, p.154) وتنصيرهم كان يقام بعيدا لتجنب الاحتكاك الغير المرغوب فيه. ولكن في حقيقة الأمر كان ذلك التنصير مزيفا ولم يقبلوا بالمسيحية كبديل للإسلام (قبول التنصير ظاهريا والمحافظة على دينهم الحنيف سرا). أي أن الكثيرين منهم استمروا في ممارسة شعائرهم الدينية في الخفاء " وأمام هذا الوضع الجديد وجد المورسكيون أنفسهم أمام ثلاثة خيارات:الأول اعتناق المسيحية بصدق والثاني رفض التنصير وقبول نتائج ذلك الرفض والثالث قبول التنصير ظاهريا والمحافظة على دينهم الحنيف سرا(Carvajal, 2007,p.13) .

وقد أشارت الباحثة الاسبانية مرسيدس كارسيا أرينال الى التربية الحقيقية للمسلمين ودور المرأة المسلمة في تعليم أبناءها الصغار تعاليم الإسلام والعادات وفي بعض الأحيان كانت تعقد اجتماعات سرية في بيتها لتعليم أحكام القران الكريم وقواعد الاسلام وعادات المسلمين (هارفي،1998،ص 326-330). فضلا عن ذلك، في 12 فبراير سنة 1502 قام الملكان الكاثوليكيان فرناندو وايزابيلا باتخاذ اجراءات بحق المسلمين المتواجدين بغرناطة وهذا بمقتضى مرسوم ملكي يخير بين الدخول في النصرانية ومغادرة البلاد مع مصادرة كل ممتلكاتهم، وأعطوا لذلك مهلة غايتها اخر أبريل من العام نفسه واستثنوا منهم الفتيان والفتيات دون السن الرابعة عشر والثانية عشر، وبذلك يكونوا قد خالفوا العهود التي قطعت للمسلمين في غرناطة والمتمثلة في حماية العقيدة الإسلامية والأنفس والأموال والحرية في ممارسة الشعائر الدينية (Arenal, 1987,p.25)، ومن ثم أخذت السياسية الإسبانية تكشر عن أنيابها و تكشف عن وجهها الحقيقي المتعصب اتجاه الاسلام والمسلمين. استمرت مخاوف المسلمين واستنجدوا بالفقهاء لإيجاد فتوى شرعية لمصيبتهم. وأول فتوى كانت للفقيه الونشريسي تحت عنوان " أنسى المتاجر فيمن غلب على دينه

النصارى ولم يهاجر". وفيها أوجب الونشريسي هجرة هذه الأرض لأنها أصبحت دار كفر ووجب مغادرتها فورا أي أن الهجرة من أرض الكفر إلى دار الاسلام واجب شرعي ولكن هذه الفتوى لم تعجب المورسكيين ولذلك أرسلوا رسالة أخرى إلى أحد المفتيين بوهران وهو أحمد بن بوجمعة المغراوي فأرسل هذا الأخير سنة 1504 فتوى تجيب عن كل تساؤلات المورسكيين ويوصي المسلمين بإتباع أسلوب التقية (الكتمان). " وتعني الاحتياط والكتمان والحذر والسرية. الفعل الذي بواسطته يمتنع المسلم الذي يعيش وسط بيئة اجتماعية عدائية عن ممارسة دينه متظاهرا باعتناق الدين الذي فرض عليه فرضا". (Cardaillac, 1979, pp.79-85) وأهم ما جاء فيها:يمكن استخدام اشارات بدل الجهر في الصلاة. يمكن تعاطي الربا شرط أن تنفق الفائدة على الفقراء.إذا طلب منهم أن ينكروا اتباعهم الاسلام فيقولوا ذلك ظاهرا أو ينكروه في قلوبهم. يمكن أن يقولوا أحمد إذا طلب منهم شتم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ويقصدون بذلك مهمادا اليهودي وهو لقب الكثير من اليهود.

إذا من هنا يمكننا القول أن تشبت المورسكيين في غرناطة بدينهم الحنيف ورفضهم للإندماج ومحاولات رجال الدين قمعم وقطعهم عن جذورهم وهويتهم الثقافية ومصادرة ممتلكاتهم يعتبر كصراع ديني يصعب حله وهو مدعوا لأن يستمر كما قال عنه المؤرخ الفرنسي فارنو برودال) (Braudel,1966,p.118، فعندما ضم فرناندو مقاطعة نفارا إلى مملكة قشتالة، فرض أيضا على المدجنين المتواجدين بها نفس المرسوم. فما كان عليهم إلا التنصير أو التوجه إلى فرنسا أو من ميناء فلنسية إلى شمال إفريقيا وبسبب هجرتهم أصبحت مئات المنازل مهجورة خاصة في مدينة توديلا:" باختصار احتل المدجنون في غرناطة المركز الأول بنسبة(59.6-515) نفارا بنسبة(8.68-75) قشتالة (5,79-50) وأخيرا غرناطة(3,36 -29)" (Markria, 2015,pp.557-563)

ثانيا- سياسة شارل الخامس:

وفاة فرديناند الكاثوليكي في أوائل عام 1516 وإصابة والدة شارل الخامس ذوق خوانا بالجنون منح للإمبراطور شارل حق الوصول إلى المملكة الاسبانية كملك. كان شارل الخامس يمثل دائما وإلى حد كبير لأوروبا عامة والإسبانيين خاصة اخر ممثل ومكافح للديانة المسيحية. كان كما قال عنه المؤرخ الفرنسي برودال(Barudel, 2005,p.28) ورقة رابحة، كان صديق الوحدة وعدو للضحك كما رسمه ألونسو دي سانتاكروث.فبعد صدور مرسوم 1502 ضد المدجنين الموجودين في قشتالة ذهب الكثير منهم إلى أراغون وفلنسية لأنهم لم يتعمدوا بعد. فما بقي على شارل الخامس إلا مواجهة هذه الشرذمة المسلمة التي هرب منها فرناندو وأيضا مراقبة التعميد والتنصير القسري بدقة شديدة. إذا في عام 1524 قام شارل الخامس والكاردينال ألونسو منريكي بوضع خطة محكمة للتبشير والتنصير. وأيضا تم تحويل كل المساجد إلى كنائس كرمز تحولهم إلى المسيحية."تم تكريس الأماكن لهم وفي بعض الاماكن أيضا تم تعليق صورة السيد المسيح أو السيدة مريم العذراء في أبوابهم" (Lea, 1984,p.139) . وهكذا باختصار تم تنصير مدجنين فلنسية وبعدها مباشرة أراغون. كان العصر الذهبي للكاثولكية كما لقبه الباحث برتلومي بن ناصر في كتابه(Bennassar,1984, p.65) .

لقد انتهى عصر تهدئة البابوات بالهدايا ليتنازلوا عن التعميد وزالت أيضا رأفة شارل الخامس التي أظهرها في بداية الأمر وخاصة بعد مساندة المسلمين له ضد التمرد المسيحي. وعلاوة على ذلك في 16 أكتوبر 1525 صدر مرسوم آخر بتعليمات جديدة أكثر تقييدا وتعنيفا كإحتقارهم وتجريدهم لبضائعهم وإغلاق كل الأماكن التي يمكن أن يمارسوا فيها معتقداتهم الدينية. وفي عام 1526 أمر الإمبراطور شارل الخامس بتأسيس مجلس عسكري يضم الفقهاء والمستشارين وعلماء الدين المعروفة بالجماعة الكاثولكية وهو معلم أساسي لتقديم الحلول المستعجلة حول ملف الموريسكية. وكانت نتيجة هذه الجلسات المكثفة هو إصدار قرار اخر في 7 ديسمبر 1526 أين تم إلغاء كل العادات والطقوس والمراسم الثقافية الإسلامية، اللباس التقليدي خاصة النساء وأجبر الموريسكي على حمل شارة زرقاء في قبعته (عنان،1966،ص 254)، استعمال اللغة العربية ، تأسيس محاكم التفتيش الجائرة في غرناطة (ديوان التفتيش كما لقبها الدكتور عنان) للتشديد عليهم ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم وبث الرعب فيهم وكلها تعتبر كأساليب التخويف والذعر وتقييد للباس والمأكل والمشرب والعمل وما إلى ذلك كما قال المؤرخ برتلومي بن ناصر.

ولقد تم اعطاءهم أيضا مهلة ثلاثة سنوات ليعترفوا بأخطائهم وبالمسيحية أيضا. وبعد ذلك تم تمديد المدة إلى أربعين سنة بسبب فشل شارل الخامس في حملته الأخيرة في الجزائر سنة 1541 ومشاكله مع ألمانيا، وبهذا أصبحت الهجرة إلى المغرب منفذ لكل موريسكي. إذا يمكننا القول أن التطهير العرقي في عهد شارل الخامس كان فاشلا وهذا راجع لجهل رجال الدين للغة العربية وأيضا بسبب إهانة وشتم الأساقفة للموريسكيين (المسلمون المنصرون) واستعمال كلمات جد رذيئة في مناداتهم لهم مثل الكلب، المورو الكافر " "كشف جيفارا في رسالة كتبها إلى صديقه في 22 مايو 1524 عن سوء المعاملة وتعنيف الأساقفة للموريسكيين وقت تعميدهم،"، ونذكر على سبيل المثال العالم الانساني الشهير أنطونيو دي جيفارا الذي أرسله شارل الخامس إلى المدجنين الموجودين في غرناطة لتنصيرهم وتبشيرهم.) ,Lea, 1984 (p.142 وكمثال اخر للازدراء والشتم نجده في قصة خوان تيمونيدا حيث يروي لنا قصة مورسكي في فلنسية والذي تم سرقته من طرف مسيحي وكلاهما تمثلا أمام المحكمة وقبل الشروع في المحاكمة نطق القاضي: ما خطبك أيها الكلب المورسكي لماذا تنبح " فأجاب ذلك المورسكي الضعيف لقد تم سرقتي من طرف هذا الرجل".

ثالثا - سياسة فيليب الثاني :

بعد وفاة الإمبراطور شارل الخامس ظلت مشكلة تبعية الموريسكيين داخل شبه الجزيرة الإيبرية غامضة وبدون حلول ناجعة رغم الإجراءات والمضايقات التي شنتها محاكم التفتيش ضدهم وهذا يرجع كما أشرنا سابقا إلى جهل اللغة العربية من قبل الأساقفة والبابوات وتشبث الموريسكيين بدينهم الحنيف وإصرارهم اليومي على عدم القبول بالتبعية والانسلاخ عن مقوماتهم واعتمادهم على الإمبراطورية العثمانية التي سيطرت على البحر المتوسط. لكن بعد استلام فليب الثاني العرش الملكي الإسباني سنة 1556، حاول اتباع نظام اخر من القمع والتعذيب ضد هذه الأقلية الدينية لكونه أكثر كاثولكية من البابا نفسه« Más papista que el propio papa » . وكل هذا راجع إلى تنشئته الروحية التي تكفل بها كبار

الأساقفة آنذاك كبيدرو وغونساليس مندوزا الذي كان من أشهر أسقف سلامنكا والباحث الاسباني خوان مارتينيز سيليسيو، فارس وقائد قشتالة ودون خوان دي ثونيغا وأفيلانيدا وغيرهم. لقد كان فليب الثاني ملكا لإمبراطورية لا تغرب فيها الشمس أبدا «Imperio que no se pone el sol» وهذا يرجع لجبروته وحذاقته السياسية. ولقد اختلفت فيه الأسماء، فمنهم من لقبه بالملك الثاني سليمان، شيطان الظهيرة، القاتل الذي قتل ابنه بيديه أو الملك الذي سجن نفسه في قصر محاط بجثث أسرته وزوجاته الأربعة. ولكن يمكننا تلخيص شخصيته في كلمة واحدة قالها عنه فيكتور هوغو كان شيئا "فظيعا".

عند صعوده للعرش سنة 1556 اتبع سياسة منعرج ضد الأقلية المسلمة لاكتشافه عدة مشاكل بدون حلول ناجعة مثل تنصير المورسكيين في أراغون وفلنسية والذي كان مستحيلا في عهد شارل الخامس. ففي تقرير أرسل إلى شارل الخامس يؤكد فيه أن كل المورسكيين رغم المحن لم يكن لهم من يدين بالنصرانية (Baroja, 1957, p.52). وزيادة على ذلك تغير المناخ الروحي لإسبانيا بسرعة كبيرة في منتصف القرن السادس عشر. يكفي أن نذكر أنه في عام 1559 قد وجهت ضربة قوية وقاتلة للمجتمعات الموريسكية في محاكم التفتيش في بلد الوليد "فايدوليد" وإشبيلية بعد تقديم عدة شكاوي من المسيحيين الذين كلفوا بالوشاية عن كل تصرف يقوم به جاره الموريسكي:" الموريسكيون يعيشون مثل مغاربة الجزائر" (Sanchez Blanco, 2009, pp.235-266). في ديسمبر سنة 1558 منع في مملكة أراغون تجمعات الموريسكيين، وبعد عام منع حمل السلاح .

وفي مملكة غرناطة أصبحت الكنيسة تمارس ضغطا كبيرا على الموريسكيين. ففي مجلس المحافظة المنعقد في العام نفسه تم وضع عقوبات وحشية وغير إنسانية ضد الذين لا يحضرون حصص تعليم العقيدة والديانة المسيحية وبالمثل قرر فليب الثاني توجيه ضربة قوية إلى أماكن تواجد المورسكيين بكثرة مثل غرناطة وأراغون وفلنسية. استخدام الأنظمة والمراسيم القديمة للتبشير والتنصير الصحيح أي التركيز على العادات والتقاليد والأعراف واللغة وأي شئ له صلة بالإسلام وبمعنى أصح انهاء الهوية الوطنية والروح المسلمة. في نوفمبر من عام 1566 وقع فليب الثاني والمحقق العام دييغوا دي إسبينوزا مرسوما يطبق العديد من المحظورات على المورسكيين وفي 01 يناير 1567 تم تنفيذ مرسوم جزائهم. في بادئ الأمر كانت سياسة لغوية يعني مشكلة اللغة التي بقيت عالقة أمام شارل الخامس وثانيا العادات والتقاليد أو بالأصح مسيحي حقيقي خارجيا وروحيا.ومن أهم هذه القرارات التي جاءت في هذا المرسوم نذكر:

منع العربية كلاما وكتابة سرا أو علانية. إرغام المسلمين على تعلم اللغة الإسبانية قراءة وكلاما ويفرض عليهم تسليم كل ما بأيديهم من نصوص أو وثائق باللغة العربية لرئيس المحكمة.وأيضا التأكيد على وجوب اجتناب المسلمين نهائيا عقائدهم وعباداتهم وثيابهم التقليدية وأسمائهم العربية. هدم الحمامات العامة جميعا. وجوب إبقاء بيوت الموريسكيين مفتوحة دائما.إلزام كل النساء الموريسكيات بالخروج سافرات دون خمار في أثناء سيرهن في الطريق (حتاملة،2000،ص770). هذه القرارات الصارمة أدت إلى إندلاع ثورة كبيرة في جبال البشرات تحت قيادة فرناندو دي فالور (مولاي

عبدالله محمد بن أميه) في سنة 1571 ونتج عن ذلك تهجير الموريسكيين من غرناطة إلى جبال قشتالة وشمالي اسبانيا (اورتيث وفانسون،2007،ص51-79). وتم تحويل أكثر من 800 موريسكي في غرناطة إلى محاكم التفتيش. إذا من خلال ما سبق يتبين لنا أن سياسة فليب الثاني وكل محاولاته التنصير وتبشير المسلمين باءت فاشلة.

خاتمة:

من خلال ما سبق تبين لدينا أن الموريسكيين الحقيقيين لم يتخلفوا يوما عن دينهم رغم الضغوطات والأساليب القمعية المستعملة من محاكم التفتيش والسلطات الإسبانية. لقد عرفت هذه الفئة قدرا مأساوي سطره التاريخ في بعض الكتب والمخطوطات لكن لم يكن يوما محطة انتباه واهتمام للمنظمات العالمية التي تعمل على حقوق الانسان بدون تمييز أو تحيز.

قائمة المراجع

- Bartolomé, Bennasar, *Los españoles, actitudes y mentalidades, (*1984), Madrid, Crítica.
- Braudel Fernand, *La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, (1966), Paris, Armand colin, 2ed, T2.
- Braudel, Fernand, El *mediterráneo y el mundo mediterráneo en la época de Felipe II*, (2005), México, Fondo de cultura económica.
- CARDAILLAC, Louis, *Moriscos y cristianos, un enfrentamiento político (1492-1640)*, (1979), Fondo de Cultura Económica, Madrid.
- Caro Baroja Julio, *los moriscos del reino de Granada,* (1957), Istmo, Madrid.
- Channau Pierre, *l'Espagne de Charles quint,* (1973),T1, Paris.
- Charles Lea, Henry, *Los moriscos españoles, su conversión y expulsión*, (1984), Alicante, UA .
- H. Prescott William, Historia *del reinado de los Reyes Católicos*: Don Fernando y Doña Isabel, (1846), Madrid, ed. rivadineyra y comp.
- Lynch John, *Los Austrias 1516-1700*, (2013), Barcelona, Critica.
- Mármol Carvajal Luis, del, *Historia de la rebelión y castigo de los moriscos del reino de Granada*, (2007), Madrid, SL.
- MARKRIA, Souhila, «Navarra entre mudéjares y moriscos»,(2015),*Príncipe de Viana*, 262, pp. 557-563.

- Mercedes García Arenal, *los moriscos y la inquisicion. Procesos del tribunal de Cuenca*, (1987), Madrid, siglo XXI de España editores.

- Ravaillard Martin, *Morisque bibliographie*, (1982), T2, Paris.

- SIMONET, Javier Francisco, El *cardenal Ximenez de Cisneros y los manuscritos arábigos granadinos*, (1885), Granada, Imprentad de Lealtad.

- Sánchez Blanco, Rafael Benítez, «Los moriscos en la política de la monarquía hispánica y su expulsión», (2009), *Nabla ediciones Historia*, Barcelona, pp.235-266.

- محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، (1966)، القاهرة.

- المدني، احمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492-1792)، (1977)، ط2 بيروت.

- هارفي، ليونارد باتريك، تاريخ الموريسكيون السياسي والاجتماعي والثقافي، ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، بحث ضمن كتاب الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، 1998، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ،ج 1.

- مؤلف مجهول، نبذة العصر في اخبارملوك بني نصر،تحقيق الفريد البستاني،مكتبة الثقافة الدينية، 2002،القاهرة.

- حتاملة محمد عبده، الاندلس التاريخ والحضارة والمحنة، (2000)، عمان.

- أنتونيو دومينغيث اورتيث وبرنارد فانسون،، تاريخ الموريسكيين حياة ومأساة أقلية،ترجمة عبد العال صالح،(2007)،المشروع القومي للترجمة،القاهرة.

صورة الجزائري المسلم في كتابات الرحالة الأوروبيين –بحث في المرجعيات-

The Image of the Algerian Muslim in the Writings of the European Travelers –a Research in the Feedbacks-

د.شفيق بوطرفة، جامعة عباس لغرور- خنشلة -الجزائر
chafik.boutarfa@univ-khenchela.dz



تسعى هذه المداخلة إلى الوقوف عند أهمية نص الرحلة الأوروبي في تمثيل صورة الآخر. انطلاقا من كون النص الرحلي منبعا للكثير من المشاهد التي رصدها الرحالة عن البلدان التي زارها. وقد جذبت المكانة التاريخية للجزائر وموقعها الاستراتيجي آلاف الرحالة الأوروبيين -الذين تنوعت مرجعياتهم الثقافية والإيديولوجية- باعتبار الجزائر من دول الشرق التي شكلت علامة استفهام بالنسبة للأنا الغربي، وبالتالي أسهم النص الرحلي الأوروبي في تصوير الحياة الدينية للآخر الجزائري من منظور أوروبي غربي؛ لذلك تسعى هذه المداخلة إلى محاولة الوقوف عند المرجعيات التي تبناها الرحالة الأوروبيون على اختلاف خلفياتهم الثقافية في تجسيد صورة الجزائري المسلم ومدى مطابقة هذه الصورة للواقع الجزائري من عدمه.

الكلمات المفتاحية: نص الرحلة الأوروبي، الصورولوجيا، الجزائري المسلم.

Abstract :

This study aims at revealing the importance of the European journey text in representing the image of the Other starting from being the journey text a fountain of many scenes which were seen by the traveler about the countries that he visited, in which the historical and the strategical location of Algeria attracted thousands of the European travelers, who had various cultural and Idiological feedbacks, since Algeria is from the eastern countries which constructed an interrogation for the western Ego, hence the European journey text contributed in constructing the religious life of Algerian Other through a European western perspective. Therefore, this study aims at standing on the feedbacks which were adapted by the European travelers with their cultural variety to actualise the image of the Algerian muslim and the extension of matching this image to the Algerian reality or non.

Keywords : The European journey text, Imagology, The Algerian muslim.



مقدمة:

أثار مصطلح الشرق فضول الكثير من الأوروبيين المولعين بحب استكشاف الآخر، والتعرف على ماهيته، ومن هنا بدأت قوافل الرحالة بالتوجه نحو الشرق الذي بدا لهم عالما ساحرا يختلف كثيرا عن العوالم الأوروبية الأرستقراطية، فقد أثار المشرق المكتنف بالغموض، والمحاط بجمال الصحراء، والطبيعة الفاتنة الدهشة في نفوس الرحالة الأوروبيين الذين كانوا يرون في الشرق ملجأ يريحهم من عناء

الحروب التي شهدتها أوروبا آنذاك خصوصا الحرب العالمية الأولى والثانية، « ليشكل الشرق وسيلة للهروب من المجتمع الغربي الذي لم يجلب للإنسان سوى الدمار»(حمود، 2003، صفحة 74).وينبغي الإشارة إلى أنّ دوافع هذه الرحلات لم تقتصر على الهروب من الواقع القاسي الذي كانت تعيشه أوروبا فقط، فالمتمعّن في هذه الرحلات سيدرك حتما أن ثمَّ أسبابا عدة كانت وراء تواجد هؤلاء الرحالة بالشرق، حيث نجد من بينهم العلماء ورجال الدين دون أن ننسى هواة السفر، والترحال والمغامرة، فضلا عن ذلك رواد الرومانسية الذين شغلهم مصطلح الشرق كثيرا بسبب ما رأوا فيه من اختلاف وخصوصية سوسيوثقافية تدعو إلى كشف النقاب عن هذه العوالم التي كثيرا ما وصفوها بالعجائبية.

فقد أضحى الشرق بالنسبة للأوروبيين أمرا عجيبا وغريبا في كثير من الأحيان، فليالي الصحراء تخلف كثيرا عن أجواء أوروبا الباردة نفس الشيء يقال عن العادات والتقاليد التي تميز المنطقة « في الواقع أن ما كان يبحث عنه الرحالة منذ القرن السابع عشر في البلاد البعيدة هو: صورة الإنسان الأبدي، وجذوره وصراعاته والنتائج التي اكتسبها، والإمكانية التي كانت بحوزته والتي تسمح له ببلوغ حياة أجمل وأفضل»(عبد الكريم محمود، 2003، صفحة 07) إن الرحالة الذين قرروا التوجه للشرق لم يأتوا صدفة أو هروبا من الرتابة المفروضة في المجتمعات الأوروبية فحسب، وإنما كانوا يطوفون لغرض معرفة الآخر عن قرب بكل تفاصيله وبالتالي الاقتراب كثيرا من المجاهل الشرقية وإدراك كل جزئياتها: الإثنوغرافية، الثقافية، الدينية، الاجتماعية السياسية، وغيرها.

ولما كانت الجزائر جزءا لا يتجزأ من الشرق، وكانت من البلدان التي تحظى بمكانة تاريخية وموقع جغرافي استراتيجي مهم، فقد توافد عليها وزاراها هي الأخرى الكثير من الرحالة الأوروبيين على اختلاف جنسياتهم وتخصصاتهم وتوجهاتهم الإيديولوجية، وأصدروا الكثير من الكتب، والرسائل والمذكرات التي كان موضوعها الجزائر. وقد ساهمت كتابات الرحالة الأوروبيين في تصوير الواقع الجزائر في مستوياته المختلفة اجتماعية وسياسية، واقتصادية، ودينية...

فقد أولى الرحالة الأوروبيون عناية بالغة بوصف وتصوير الحياة الدينية للجزائريين؛ نظرا لأهمية الدين والمعتقد بالنسبة للفرد والمجتمع باعتباره مكونا أساسيا من مكونات الهوية، حيث تمكن البعض من زيارة أماكن العبادة، ووصف مختلف الشعائر، والاحتفالات الدينية التي يقيمها المسلمون. لذلك يمكن اعتبار نصوص الرحلة من أكثر الأنواع (الأجناس) الأدبية قدرة على نقل صورة الآخر (الشرقي، الغربي) واستيعاب تفاصيله؛ نظرا لاحتكاك الرحالة (الأنا) المباشر بالآخر والتعرف عليه عن قرب، فالرحالة «يسجلون انطباعاتهم كل حسب مشربه وتكوينه، فمنهم من غلب على كتاباته الطابع الديني، ومنهم من اهتم بالعلم ورجاله، ومنهم من تحدث عن المدن ووصف "المسالك والممالك". ولكن أعمالهم جميعا لا غنى عنها للمؤرخين والجغرافيين والأدباء وعلماء الاجتماع.»(سعد الله، 1983، صفحة 203)إن شمولية هذه النصوص لكل مناحي الحياة ساعدت على تشكيل صورة مفعمة بالحياة عن الآخر المختلف الغامض الذي يستدعي التعرف عليه تنقيبا وتنقلا كثيرا.

وقد سمح الاحتكاك المباشر للرحالة الأوروبيين على اختلاف تخصصاتهم وأهدافهم الرحلية بتمثيل الحياة الدينية للجزائريين في العديد من الصور المتباينة بتباين المرجعيات الفكرية والثقافية والإيديولوجية للرحالة، وهذا ما يدفعنا إلى طرح جملة من التساؤلات أهمها:

- كيف تشكّلت صورة الإسلام والمسلمين في النص الرحلي الأوروبي؟

- ما هي أبرز المرجعيات التي تبناها الرحالة الأوروبيون في تشكيل صورة الجزائري المسلم؟

أولا- صورة الجزائري الملتزم دينيا:

خصصت "**إيزابيل إيبرهارت**" (**Isabelle Eberhardt**) -كونها مسلمة- جزءا معتبرا من رحلتها لتصوير الحياة الدينية في الجنوب الجزائري الكبير، فتحدثت عن أجواء الصلاة في المساجد، وعن الاحتفالات التي يقيمها الصوفيون في زواياهم كما تحدثت أيضا عن الأولياء الصالحين الذين كانوا يحظون باحترام السكان.إذ ترى الرحالة أن مدينة "وادي سوف" تمثل منارة للإسلام وشعلة للإيمان والتوحيد، فهناك في البعيد «خلف البحر الأزرق، وخلف التل الخصب، وخلف الأوراس الكثيب، والسبخات الكبرى، التي ستجف توجد الأرض المحروقة، أرض سوف، الأرض الصلبة واللامعة، حيث تتوقد شمعة الإيمان الملتهبة، وينتصب مع كل خطوة مسجد أو قبة أو مقام ولي، أو قبر خارق، وحيث الصوت الديني الوحيد هو الآذان الإسلامي الذي يردد خمس مرات، وحيث الصلاة وحيث الإيمان... هناك رجال ببرانس حمراء يلجون مع الضباب المنازل الكئيبة ذات القباب، أو يجتمعون على حصائر القصب في مقهى بلقاسم بيباشي. وهناك الزوايا المقدسة ورؤساؤها المبجلون.»(إيبرهارت، 2014، صفحة 86)لقد شعرت "**إيزابيل إيبرهارت**" بحلاوة الإسلام، وهي بين سكان "**وادي سوف**"، فكل شيء في هذه الأرض يشع بالإيمان ويوحي بتدين الآخر السوفي، كما أن تواجدها بالمنطقة سمح لها بالتعرف على الزاوية القادرية التي تلقت مبادئها وصارت واحدة من رواد وخدام الزوايا بعد استقرارها بالمدينة سنة 1900.

تستمر الرحالة في سرد مختلف الصور والمشاهد التي توحي بتدين "السوافة" وهي تشاركنا كيفية استجابة سكان "**الوادي**" لنداء المؤذن للصلاة كغيرهم من سكان الجنوب الذين تستهويهم الصلاة، فيلبون النداء دون تكاسل، فما إن يتردد «صوت جهوري بطيء من كل المساجد الكثيرة الله أكبر الله أكبر آه كم ترن غريبة هذه النداءات الأليفة للإسلام، كما لو أنها شوهت وأعتمت بفعل أصوات المؤذنين الفظة والخشنة ولكنتهم الصحراوية وينزل شعب بأكمله من كل الكثبان والأودية الصغيرة التي تبدو خالية وقد لبسوا لباسا أبيض موحدا في صمت وخشوع قاصدين الزوايا والمساجد.»(إيبرهارت، 2014، صفحة 49)يكفي أن نتأمل قول الرحالة (ينزل شعب بأكمله من الكثبان والأودية) حتى ندرك حجم تعلق الصحراوي ممثلا في السوفي بالصلاة التي تعد عماد الدين الإسلامي. فالمتأمل في وصف "**إيبرهارت**" لإقبال الجزائريين على الصلاة يؤكد على تمسكهم والتزامهم بتأدية العبادات المفروضة عليهم دون ملل ولا كسل.

بينما يعبر الأديب الفرنسي "**غي دو موبسان**" (**Guy de Maupassant**)، عن إعجابه واندهاشه في الوقت ذاته من طريقة تأدية الصلاة في جامع الجزائر الكبير -الذي دخل إليه وحضر أجواء الصلاة- والتي وصفها بقوله: «يدخل العرب بسرعة، وهم حفاة، يحملون أحذيتهم في أيديهم. يصطفون في صفوف طويلة

ومنظمة، متباعدة عن بعضها البعض يستقيمون كأنهم جنود يخضعون لتمرين... ويظلون بلا حراك كأنهم تماثيل، ويولون وجوههم اتجاه القبلة. صوت الإمام في هذا المسجد لطيف جدا يمتاز بنبرة حزينة لا تنسى، يغير الإمام نغمة التجويد من فترة إلى أخرى. يقوم المصلون بحركات موحدة أثناء السجود والركوع لا نسمع لهم ضجيجا... إنه جو رائع يمتزج فيه الخشوع والنظام وتتابع الحركات... لا يمكن لأي كان أن ينظم هؤلاء العرب المتعصبين بهذه الطريقة غير الدين الذي يشعرهم بالرهبة والخشوع والانتظام إنه منظمون كأنهم جنود بروسيون يستعدون للقيام بمناورة.»(Guy de Maupassant, 1925, p. 41)لا يخفي **"موبسان"** إعجابه الشديد بطريقة صلاة الجزائريين وخشوعهم، حتى أنه فضل وصف انضباطهم وتنظيمهم لصفوفهم بانتظام الجنود البروسيين الذين يستعدون للمعركة؛ بحكم أن **"موبسان"** قد شارك كجندي في الحرب الفرنسية البروسية. ولا تتضمن هذه الصورة جانبا إيجابيا فحسب، بل احتوت على موقف سلبي اتجاه العرب كونهم متعصبين، وإن كان التعصب موجودا في جميع الأمم عربية كانت أم غربية، إلا أن هذا الوصف الذي نقله الرحالة نبع من الصورة النمطية التي كرستها الثقافة حول العربي والعربي المسلم خاصة على أنه كائن متعصب ومتوحش وغيرها من الصور المسيئة إليه، وهي صور مندسة في اللاشعور الجمعي تجدد نفسها باستمرار لتظهر في الخطابات والسلوكات والمواقف بشكل عام.

وقد لفت انتباه "**موبسان**" دخول العرب غير المنقطع للمسجد هذا الصرح المقدس الذي يحوي جميع فئات المجتمع، فيدخله «المتواضع والغني، حمال الميناء والرئيس القديم. النبيل في لباسه الحريري الناصع، كلهم حفاة الأقدام ويؤدون الحركات نفسها، يعبدون الإله نفسه بالإيمان المتقد والبسيط عينه، دون راحة ولا تسلية... إنهم مستسلمون مأسورون بقدرة المولى.»(غي دو موبسان، 2007، صفحة 103) مما هو معروف عن الدين الإسلامي أن جميع الناس سواسية عند الله، فلا فرق بين أبيض وأسود أو غني وفقير إلا بالتقوى، فكل المصليين يتجهون إلى قبلة واحدة دون تمييز بين طبقة وأخرى متضرعين لله الواحد الصمد، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الصورة الواقعية نصادفها في كل البلدان المسلمة.

ويؤكد الإثنوغرافي الألماني **"موريس فاغنر" (Moritz Wagner)** ما أورده كل من "**إيبرهات**" و**"موبسان"** حول التزام الجزائريين بتأدية صلاة الجماعة قائلا: «ويقف المؤذن بثيابه الجميلة وسط أضواء المصابيح، ويرفع العلم الأبيض ثم يدعو المؤمنين إلى الصلاة. وليس هنا مسلم راشد لا يسرع إلى تلبية النداء فلا الشيخوخة ولا الثروة تحول بينه وبين المضي إلى بيت الله.»(دودو، 1975، صفحة 66)يصور "**فاغنر**" الجزائري في صورة المتدين والمحافظ على صلواته، فالجزائري حسب الرحالة لا يثنه عن عبادة الله تعالى شيء.

أما عن أجواء الخشوع والتواضع لله والسكينة التي تصاحب الصلاة، فيقول **"فاغنر"**: «يؤم الناس فيها شيخ الإسلام، فالمسلمون يصطفون خلف الإمام دون أن يقيموا وزنا للأصل والنسب، فهناك الحضر والأتراك والكراغلة والعرب والقبائل والبسكريين والزنوج، بحيث يكاد لكل ناحية من الجزائر من يمثلها. فيجلس التركي بثيابه الفاخرة إلى جانب البسكري المتسخ الثياب، والحضري الشاحب يبدو بجماله إلى

جانب الزنجي المشوه، وكلهم متجهون بمشاعرهم المتعبدة إلى ذلك الجوهر الذي انبعثت منه ألغاز الألوان والأشخاص.»(دودو، 1975، صفحة 67)لا شك أن هذه الصورة المنقولة عن المجتمع الجزائري موجودة في كل المجتمعات الإسلامية، فلا فرق بين أعربي ولا أعجمي إلا بالتقوى.

لكن **"فاغنر"** يقدم إلى جانب الصور الإيجابية صورة سلبية تسيء للجزائريين حين يصف طريقة انصراف المصليين بعد أداء الصلاة -التي تتم في خشوع ووقار- قائلا: «فيذهب الحضري إلى بيته حيث تستقبله زوجته مداعبة ومبتهجة، والعربي إلى باديته، والقبائلي إلى جباله. وفي طريقهم لا يتورع هؤلاء المصلون الأتقياء عن سلب إخوانهم في الدين أو قتل المسيحي الذي يجدونه وحيدا.» (دودو، 1975، صفحة 67) تتضمن الصور التي قدمها الرحالة عن الجزائري المسلم -الملتزم بدينه والمتعايش مع الآخر المختلف عنه دينيا– تناقضا، إذ تصف هذه الصورة الجزائري المسلم بما ليس من صفات المسلم من سلب ونهب وقتل المسيحيين التناقض، فالإسلام ينهى عن قتل أو التعرض للآخرين دون سبب مقنع مهما كان جنسهم أو دينهم، لذلك فالتعميم الذي اعتمده الرحالة في نقل صورة تسيء للإسلام لا يعد خطابا بريئا، لأن مثل هذه السلوكات منافية لمبادئ الإسلام وإن كان ما شاهده **"فاغنر"** صحيحا، فإنه استثناء لا يقاس عليه ولا يوصف به المسلم، ولعل السبب وراء ذلك ما تتعرض له الجزائر من حملات صليبية وما خلفته هذه الأخيرة في نفوس الجزائريين، فعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر مغادرة وتوجه الرحالة الألماني **"ج.أو.هابنستر ايت" (ErnstHebenstreit)** إلى تونس عقب تصاعد التوتر بين الجزائر وإسبانيا وهذا خوفا من ردة فعل الجزائريين.

كما يصور **"فاغنر"** مدى إلتزام الجزائريين في تطبيق الدين وخصوصا في أداء فريضة الصوم قائلا: «استخدمت أحد الجزائريين لاستعين به خلال بعض الرحلات التي كنت أقوم بها داخل البلاد، فوقعت لنا حادثة مؤلمة، أضعنا فيها كل ما كان معنا من مؤونة، فقضينا أربعا وعشرين ساعة في المناطق الشرقية من سهل متيجة بدون طعام، ووصلنا إلى مدينة الجزائر مع الفجر، فدفعت لمستخدمي البسكري أجرته وأسرعت لتناول فطوري. وبعد حوالي ساعة وجدته جالسا في الميناء فسألته ما إذا قد تناول طعامه، ولكنه أشار برأسه قائلا: (الله أمر بالصوم) وقضى يومه كله هكذا حتى المساء، مع أن الجوع كان قد أنهكه، وظهرت آثاره في ملامح وجهه النحيف، وما كان ليتناول شيئا ولو قدم له نظير ذلك ما قدم. وما إن سمع طلقة المدفع حتى أخرج الخبز من قلنسوته وراح يلتهمه بجشع كالمجنون.»(دودو، 1975، صفحة 68) لقد اختزل هذا المشهد صورة الالتزام الديني في أداء فريضة الصوم بالنسبة للجزائري، فشدة احترام الرجل البسكري لحرمة رمضان وتقديسه له دفعته إلى تحمل مشقة الصيام لأكثر من 24 ساعة !

في المقابل يرى **"موبسان"** أن شهر رمضان يفسد طباع العرب ويجعلهم متشددين بعد أن كانوا في نظر الفرنسيين «متحضرين ومتعاونين في الأيام الأخرى، ومستعدين لمشاركة أفكارنا وتقبل عاداتنا ومساندة تحركاتنا، تجدهم يصبحون فجأة في شهر رمضان متعصبين بوحشية وورعين بغباء. من السهل إدراك هذه الحماسة الجارفة الموجودة لدى العقول المحدودة والمتصلبة في تطبيق هذه الديانة الصارمة. يبتعد هؤلاء البؤساء طوال النهار وبطونهم فارغة، وهم يطالعون الروم الذين يأكلون ويشربون ويدخنون

أمامهم.»(غي دو موبسان، 2007، صفحة 32،31) يمثل هذا الخطاب صورة عدائية للإسلام يضمرها الكثير من الرحالة الغربيين للآخر الشرقي، فعوض أن يحترم **"موبسان"** دين الجزائري الذي يأمره بالصلاة والصيام... راح يعتبر صبر الجزائري عن الطعام والشراب نوعا من الحماقة والغباء. وتجدر الإشارة إلى أن مثل هذه الإساءة من شأنها أن تعمق الهوة بين الفرنسيين والجزائريين خاصة وأن الفرنسي يسعى دائما إلى الإساءة إلى الخصوصية العربية الإسلامية بحكم المرجعيات الاستعمارية.

كما يصور "**موبسان**" الجزائري الملتزم بتعاليم الإسلام في صورة سلبية إذ يلغي العقل العربي ويختزله فقط لأنه يمتثل لتعاليم الدين ويطبقها في مختلف مجالات الحياة، حيث يتبنى الرحالة أحكاما جاهزة وغير مؤسسة حين يقول: «الدين أكبر ملهم في تصرفاتهم وأرواحهم ومحاسنهم ومساوئهم، فبالدين نجدهم طيبين، شجعانا، حنونين، ومخلصين. ولا يمثلون شيئا في حد ذاتهم لو لم يلهموا أو يؤمروا بإيمانهم. قلما نكتشف الطبيعة العفوية أو الفطرية للعربي، أي بدون أن يوجه من قبل العقيدة والقرآن أو السنة.»(غي دو موبسان، 2007، صفحة 101) إن ما جاء به الرحالة يصب في خانة التشويه الممارس على الشخصية العربية، فهي «صورة تعكس قبل كل شيء إستيهامات المحتل وإرادة القوة ونزعة القتل وروح الإبادة. عمد المستعمر إلى رسم صورة فولكلورية ومقيتة عن الجزائري بصفته إنسانا بدائيا متوحشا تحكمه الغرائز والنزوات والذهنية الأسطورية. إنها صورة تعكس كل شيء رغبات المحتل الدفينة ومكبوتاته العنصرية.» (بودربالة، 2010، صفحة 08)وإلا كيف نفسر تغييب "**موبسان"** للعقل العربي أو الشخصية العربية التي يربطها **"موبسان**" بالدين الإسلامي الذي يعتبره الملهم الأساسي للفكر العربي. صحيح أن الدين الإسلامي منهج حياة لكنه لم يأت ليلغي العقل والفكر العربي والشخصية العربية بمحاسنها ومساوئها، فمن غير المنطقي اعتبار الدين الإسلامي الملهم الأول والأخير لكل تصرفاتهم وسلوكاتهم !

ويرى مُنظر "صراع الحضارات" **"صاموئيل هنتنغتون"(SamuelHuntington)** أن الدين هو المعيار الأول للتمييز بين الحضارات مشيرا إلى أن الأسباب الحقيقية لهذا النمط من الصراع تكمن في الخلافات الناتجة عن كون الإسلام «منهج يوحد الدين والسياسة ضد المفهوم الغربي المسيحي الذي يفصل الدين عن السياسة، ولكن الصراع أيضا ينشأ من التشابه بينهما كل منهما يؤمن بالله الواحد وفي ذلك يختلفان عن الأديان الأخرى التي تشرك بالله كل منهما يرى العالم بطريقة مزدوجة نحن، وهم، كل منهما عالميا يدعي بأنه الإيمان الحقيقي، والذي يجب أن تعتنقه كل الإنسانية...»(هنتنغتون، 1999، صفحة 372)ويبدو أن هذه الأسباب هي جذور الصراع بين الإسلام، والمسيحية إذا تكمن في التساؤلات الأساسية حول القوة، والهيمنة والتي آلت فيم بعد إلى صدام الحضارات.

ثانيا- صورة المرأة الجزائرية:

لا تخلو نصوص الرحلة الأوروبية من المقاطع التي تجسد صورة المرأة الشرقية هذه الأخيرة التي ساهمت الكتابات الاستشراقية في تنميط صورتها في نظر الأوروبيين، فاندست في الذهن الجمعي الأوروبي لعدة قرون؛ ونخص بالذكر كتابات المستشرقين الذين تأثروا بقصص "**ألف ليلة وليلة**" التي جسدت

الشرق في صورة عالم سحري وعجائبي... إذ يورد الرحالة الألماني **"ج. أو.هابنسترايت"**صورة عن المرأة الجزائرية تجلّت في قوله: «أغلب العادات التي يمارسها الجزائريون تستند في أساسها إلى قوانين، وليس فيها ما يفاجئ الأوروبي كغياب النساء عن الحياة العامة، واحتشامهن الشديد، فلا يسرن في الأزقة بدون حجاب وحتى منازلهن تكاد أشعة الشمس لا تصل إليها، وعندما يسافرن على ظهور البغال يكن مختبئات في ستائر غريبة وقد ترجاني أحد الأتراك من ذوي المكانة المتميزة أن أعالج زوجته، وعندما طلبت من أن أرى المريضة أجابني من الأفضل أن تموت على أن يراها أحد.»(هابنسترايت، صفحة 47)تبدو المرأة الجزائرية في هذا المقطع من النص الرحلي في صورة المتديّنة الملتزمة بضوابط الشريعة الإسلامية الداعية إلى العفة والحياء كما أنها تظهر بعيدة عن الحياة الاجتماعية والرحالة يقصد بذلك عدم تواجدها في الأسواق ومشاركتها في بقية مجالات الحياة من تجارة وعمل خارج الديار مقارنة مع المرأة الأوروبية غير أننا نرجع السبب إلى العادات والتقاليد التي تميز كل بلد.

في حين يصف **"سيمسون هيلتون" (H.Simson)**، المرأة الجزائرية المسلمة بالسجينة نظرا لغيابها عن الحياة العامة قائلا: «النساء يعشن عزلة تشبه السجون، فهن نادرا ما يغادرن منازلهن خاصة إذا كن جميلات، وفي ريعان شبابهن باستثناء القلة اللواتي يغادرن المنزل من أجل جلب قرب الماء أوغسل الملابس في الوديان.»(M.W.Hilton، 1921، صفحة 29)إن ما جاء به **"هليتون"** يمكن وصفه بالموضوعي، فالمجتمع الجزائري ظل متمسكا بالعادات والتقاليد التي تمنع مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية خارج بيتها. فشأن المرأة المسلمة فيه «اختلاط الحقيقة بالخيال، واختلاط الشرع بالعادات والتقاليد: خضم من الاعتقادات الراسخة، مبنية على تصورات وخيالات اختلط فيها الحق بالباطل، اختلاطا طغى فيه على الحق. الصعوبة تكمن في تلك الموروثات المدفونة في العقل الباطن. والتي تهيمن على تفكير الكثيرين من الرجال والنساء.»(محمد خليفة، 2014، صفحة 24)لعل المهيمن حقا هو الثقافة الذكورية التي تتحكم في سلوكات وممارسات المرأة الجزائرية والشرقية بصفة عامة، فالمجتمعات الأوروبية الحديثة تحررت من البطريركية فيما ظلت المجتمعات الشرقية خاضعة لثقافة الذكر التي تمارس الهيمنة والمنع والإقصاء والاختزال، مما كرس فوقية الذكر ودونية المرأة، فالثقافة الذكورية تبيح للمرأة ما لا تبيحه للرجل.

فقد اصطدم الرحالة الإنجليزي **"هليتون"** بصورة مغايرة لما كان متوقعا، فقد تأسست الصورة النمطية المترسخة في أذهان الأوروبيين -منذ العصور الوسطى- عن ثقافة الشرق والعرب والإسلام عن كتابات الرحالة والمستشرقين «فهؤلاء الرحالة وبخاصة من دعموا رؤى عصر الإمبريالية، اكتسبوا في بلادهم أبعادا أسطورية جعلت أي محاولة في الغرب لتكذيب رواياتهم عن الشرق وأهل الشرق إثما وخيانة وطنية.»(قباني، 1993، صفحة 11)فشكلت تلك الكتابات صورة الشرق الغرائبي وتجسدت المرأة في هذا العالم في صور كثيرة مضادة للقيم والنظم التي تمتثل لها المرأة في المجتمعات العربية كالفتنة والغواية والتحرر. وقد توارث الغرب هذه الأفكار جيلا بعد جيل، ولا يخفى علينا أن الاستعمار قد أسهم في تغذية الكثير من الأفكار والرؤى المشوهة للشرق.

أما **"غي دو موبسان"** فلا يخفي دهشته وذهوله من النساء اللواتي يجلسن حول ضريح الولي الصالح «ويحكين للولي همومهن ومشاكلهن مع أزواجهن. إنه اجتماع خاص وعائلي من الثرثرة حول رفات الولي. هذا المصلى مليء بهباتهن الغريبة: ساعات من كل الأحجام تتحرك تسمع دقات الثواني لتعلن الوقت، رايات مقدسة، ثريات من كل الأشكال من الجلد والكريستال. الثريات عديدة لدرجة أنه لا يمكن رؤية السقف، تعلق واحدة بجانب أخرى من أحجام مختلفة مثل محلات المصابيح. الجدران مزينة بزخارف أنيقة ورسوم لطيفة يطغى عليها اللون الأخضر والأحمر. البلاط مغطى بالسجاد.»(غي دو موبسان، 2007، صفحة 107)إن الصورة التي أوردها **"موبسان"** بقدر ما هي صورة سوداوية بقدر ما هي صورة واقعية، فالكثير من النساء تزرن قبور الأولياء الصالحين بغية التبرك بهم، والتضرع لهم من أجل مساعدتهن على قضاء حوائجهن، وهي ظاهرة غريبة لا تزال قائمة حتى في عصر العولمة. ومثل هذه السلوكيات جعلت من الشرق عالما يبعث على الغرابة، فإغراق الإنسان الشرقي في مثل هذه البدع والاعتقادات السخيفة جعله هشا وسخيفا وغبيا في نظر الأنا الأوروبي المتشبع بشتى العلوم والثقافات. أما نحن باعتبارنا مسلمين، فنغزو انتشار مثل هذه المشاهد إلى تفشي الجهل واللاوعي الديني الذي يهوي بهم إلى الشرك والإيمان بالأولياء الصالحين وتقديسهم، فيضعف إيمانهم بالله، فإذا كانت لهم حاجة اتجهوا مهرولين إلى ضريح الولي بدلا من الرجوع إلى الله والتقرب إليه، وكان من المفروض أن يكون الولي قدوة لهم في صلاح أعماله وورعه وإيمانه بالله بدلا من التبرك به أو جعله كواسطة بينهم وبين الله وبالتالي الوقوع في غياهب الكبائر والشرك بالله.

ثالثا- صورة الجزائري أخلاقيا:

يصور العالم الألماني **"ج.أو.هابنستر ايت"** أخلاق الجزائري بطريقة موضوعية منافية لتلك الصور النمطية التي عهد الغرب تصويرها والتي لا تخرج عن دائرة البرابرة المتوحشين الذين لا دين ولا أخلاق لهم في قوله: «وهذه البلاد " مملكة الجزائر" تعرف عادة لدى الكتاب الأوروبيين بربارية(**Barbarie**) أو البلاد المتوحشة، وحسب دلالة هذه الكلمة فإنها تعني أنها مأهولة بأشخاص متوحشين وشرسين وهذا ما نعتبره منافيا للحقيقة... فهم أفراد بعيدون عن التوحش ويقدرون الأجانب ولهم رغبة ملحة في التعاون معهم.» (هابنسترايت، صفحة 25)يبدو أن احتكاك الرحالة الألماني بالجزائريين قد كشف له صورة مغايرة ومنافية لصورة المتوحشين والتي كانت تُرَوّج لها الكثير من الكتابات التي ألصقت بهم جميع سمات التخلُّف والبدائية والوحشية، فالرحالة يقر بأن تواجده بالجزائر قد سمح له بالتعرف على سلوك وعادات الجزائريين الحقيقية التي تتنافى تماما مع ما جاءت به كتابات كل من **مارمول (Mármol) ودابيير(Dabir) ودو تاسي(De Tassy)** عن الجزائر هذه الكتابات التي يرى الرحالة أنها تتسم بالسطحية والعداء لشمال إفريقيا الذي كان خاضعا للسلطة العثمانية.

فقد استندت المركزية الغربية إلى مجموعة من الرؤى الثقافية التي أدّت إلى خلق ذلك التمايز بين الغرب والشرق، وبالرغم من إيجابية الصورة التي ينقلها الرحالة عن سكان الجزائر والتي نراها بعيدة عن التعصب العرقي فإنّ «هذا الانفتاح الفكري للغرب على الآخر لا يزال هشاً وحديث العهد أكثر من اللزوم،

وبالتالي يصعب عليه أن يغذي الأمل بالمستقبل، أقصد الأمل بمستقبل ينظر فيه إلى الآخر وكأنّه شخص محترم مثله في ذلك مثلنا أو كأنّه شعب له كافة الحقوق المادية والمعنوية تماما كشعوب الغرب... »(أركون، 2010، صفحة 339)من حق الشعوب الشرقية أن تحظى بالاحترام من قبل بقية الشعوب وخاصة الغرب هذا الأخير الذي نصب نفسه مركزا مقابل تهميش بقية الأقطار ومرد ذلك التشبع بأفكار صليبية معادية لكل ما هو إسلامي وعربي غير أن ما يبعث على الأسى هو ركوب الكثير من المثقفين الأوروبيين هذه الموجة التي نجدها في كثير من الأحيان مخالفة تماما للواقع الشرقي.

وينقل الرحالة صورة توحي بسمو أخلاق الآخر الجزائري الغيور على دينه، فالجزائريون حسبه «يقومون في الغالب بالحج إلى مكة... ويمتنع المسلمون الأتقياء عن شرب الخمر.»(هابنسترايت، صفحة 47)إن ما أورده الرحالة الألماني حول الآخر الجزائري ينم عن وعي الأنا الأوروبية بالخصوصية الدينية للمسلمين من احترام لمبادئ الدين الإسلامي ومقدسات المسلمين.

يستمر الرحالة في نقل الصور التي توحي بشهامة الجزائريين وأخلاقهم الفاضلة النابعة من الدين الإسلامي الذي يدعو إلى حسن المعاملات بين أبناء المجتمع الواحد وحتى مع الأسرى المسيحيين إذ يُبين أن عادات وتقاليد الجزائريين «تحددها ضوابط الشريعة الإسلامية، فالمسلم الصالح يتوجب عليه حسن معاملة أصدقائه، يطلب منه أن يكون شديدا مع أعدائه رحيما بالمنهزمين، وفي هذا الشأن قارنت بين حالة الشقاء التي عليها الجزائريون بمرسيليا مع وضعية الأسرى المسحيين بشمال إفريقيا فالأولون لا يستطيعون إلا بشق الجهد جر أغلالهم الثقيلة، بينما الآخرون وهم الأسرى المسيحيون في الجزائر يقضون نهارهم أحرارا مقابل دفعهم مبلغا ماليا كل شهر.... وفي هذا الجو يتمتع الكل في الجزائر بحرية المعتقد، فالأجانب يكرمون والكل في وضعية تمكنهم من القيام بما يرغبون.»(هابنسترايت، صفحة 46)إن المتمعن في ما نقله الرحالة الألماني **"ج.أو.هابنسترايت"** عن الآخر الجزائري سيدرك حتما الفرق الشاسع بين الجزائريين والفرنسيين انطلاقا من المعاملات الاجتماعية، وكذا في معاملة الأسرى التي كثيرا ما كان الرسول (ص) يوصي بحسن معاملتهم والامتناع عن إهانتهم مهما كانت جنسيتهم وديانتهم نفس الشيء بالنسبة لحرية المعتقد فإن سماحة الإنسان الجزائري وكرمه وتعايشه الديني مع الآخرين إنما هو نابع من تمسكه بتعاليم الدين الإسلامي الذي يحث على حسن معاشرة ومعاملة من يختلفون عنه في المعتقد.

في المقابل يصور الأديب الفرنسي "**موبسان**" الشيخ **"بوعمامة"** في صورة قاتل الأسرى مستشهدا بما رواه له الأسير الإسباني "**بلاس روجو بلاسيري**" الناجي الوحيد حسبه من معسكر **"بوعمامة"** قائلا: «... لكن مجموعة من العرب انقضت عليهم، سلم الإسبان أنفسهم كونهم لا يملكون إلا بندقية واحدة، رغم ذلك تم اغتيالهم باستثناء "بلاس روجو" الذي عفوا عنه، لا ريب بسبب صغر سنه وجمال هيئته. لا يخفى علينا أن العرب يهتمون بجمال الرجال.»(غي دو موبسان، 2007، صفحة 27) إن الصورة التي ينقلها **"موبسان"** عن الأسير الإسباني لا تتضمن مصداقية خاصة إذا تمعنا في سبب إطلاق سراحه، فمن غير الممكن أن يقتل جيش **"بوعمامة"** جميع الأسرى– إن صح كلام **"موبسان"**- بينما يتم استثناء هذا الأسير لجمال وجهه، وتهدف مثل هذه الكتابات إلى تشويه صورة المقاومة والمجاهد الذي يناضل من أجل قضية

كبرى وهي تحرير أرضه، «وبقدر ما كان الجهاد مبدأ مقررا في الإسلام، فأن الآلة الدعائية المسيحية أعطت لهذه المسألة بعدا دراميا لتصوير المسلم في صورة أكثر شيطانية وشراسة ووحشية.»(الجابري، 2009، صفحة 119)إن تصوير المسلم المدافع عن شرفه ووطنه في صورة إنسان متوحش يخضع لغريزته، هو نوع من الحرب الإعلامية التي نراها امتدادا للحروب الصليبية، فالكنسية لم تستوعب فكرة انتشار الإسلام في العالم، الأمر الذي دفعها إلى مباركة ودعم كل الحروب على المسلمين، وراحت تقدم الإسلام كديانة للعنف والهمجية.

إن محاولة "**موبسان**" لبث فكرة حب الغلمان في أوساط جند الشيخ "**بوعمامة**" تهدف إلى تجسيد فكرة الشرق الجنسي الذي تكثر فيه قصص حب الغلمان والوحشية وغيرها من الصور الزائفة. «ومن الطبيعي والحالة كهذه، أن تتنوع الكتابات الفرنسية والغربية عن الجزائر. ونادرا ما نجد أنفسنا أمام محاولة موضوعية عالمية، بل إن معظم الكتب التي غمرت السوق الفرنسية؛ هي كتابات متحيزة، متجنية، تتجاهل الواقع، وكذا مسارات ومدارات المقاومة الوطنية والانتفاضات الكبرى التي عرفتها الجزائر.»(بعلي، 2016، صفحة 12)انطلاقا مما سبق يمكن القول؛ إن مختلف الكتابات المتعلقة بتاريخ الجزائر يكتنفها الشك في ذكر الحقيقة التاريخية إلى حد ما. فالذاتية والتحيز للأفكار المسيحية ذات الطابع الاستعماري تهيمن على مختلف الكتابات الغربية خاصة بعض الكتابات الفرنسية المتشبعة بالقومية والعنصرية.

وينبغي الإشارة إلى أن صورة الرجل المسلم العنيف والبربري المتوحش، والمرأة المسلمة، والحسية السلبية يمثلان مجتمع الشرق في الفهم الغربي، إنهما يندمجان معا لينتجا صورة ملموسة للجنسية والاستبداد ومن ثم الدونية – على حد قول ضياء الدين ساردارا- إذ « يولد هذان المبدآن المتعارضان توقعات خاصة بالشرق لم يجر إشباعها أبدا معطية زخما داخليا لصور متجذرة تماما في الرغبات، والخيالات المنحرفة والمشوهة.»(ساردارا، 2012، صفحة 95)ولعل هذه النظرة الدونية هي ما تجسد في النص الرحلي الفرنسي على وجه الخصوص، فصورة المرأة المدنسة -على سبيل المثال لا الحصر- تمثل جانبا محظورا في المجتمع الشرقي لأن البغاء والشذوذ من الطابوهات التي لا يمكن النقاش فيها باعتبار أن المنظومة العقائدية والثقافية للإنسان الشرقي حرمت مثل هذه الممارسات؛ لذلك فنقل هذه الصور من طرف الذات الغربية لن نستطيع وسمه بالفعل البريء.

خاتمة:

أخيرا لابد من القول إن الرحالة الأوروبيين -نماذج الدراسة- كشفوا الستار على جوانب مهمة من الحياة الدينية للجزائريين في فترة مهمة من تاريخ الجزائر الكبير، فقد اتفق الرحالة نماذج الدراسة على تدين الجزائري وممارسته لعبادته بكل اجتهاد وإخلاص إلا أن هذه الصور لم تسلم من التشويه؛ ذلك أن الصور الذهنية للآخر تتشكل انطلاقا من سياق القيم الدينية والأخلاقية «...وليست المعرفة وحدها هي التي تضفي تقديرا على الآخر، ولا الجهل بذاته هو الذي يحبسه في نمط دوني، إنما الرغبة الواعية وغير الواعية في تحديد مكانة الآخر دون المكانة التي تكون عليها الذات، وتمثل هذه الرغبة ضربا من القوة

المتنامية داخل سياق ثقافي مشبع بالتمركز حول الذات... فتتركز مع الزمن للذات صورة نقية استعلائية شفافة، أما الآخر بفعل تلك القوة فيصبح مرمى للرذائل، والخصال الذميمة فصورته لا تغادر مستوى الدونية.»(إبراهيم، 2010، صفحة 153)ولعل هذه النظرة الغربية للآخر الجزائري ليست نظرة فردية تخص الرحالة لوحده وإنما هي صورة مندسة في اللاوعي الجمعي الغربي في موضعته للآخر موضع النقيض السلبي بالنسبة للأنا أو الذات الغربية.

إذ يظهر المسلمون دوما في الصور الأوروبية على أنهم لا إنسانيون غلاظ لا تحكمهم ديانة ولا قانون وهذه الصورة النمطية ظل الأوروبيون يتوارثونها جيلا بعد جيل. انطلاقا من «نفي الآخر وتنصيبه عدوّا يصبح ضرورة ليتعرّف الغرب على نفسه، فكلّ معرفة تمرّ من خلال الآخر، والآخر الآن هو الإسلام الذي يُضمّنه الغرب كل أنواع السلب ليجعل منه أضحية ممتازة ... بهدف تحديد هوية الغرب تحديدا إيجابيا... إنّ الإسلام كما تصوره أجهزة الإعلام الغربية هو مصدر لكلّ الشرور ولكلّ ما يخاف منه الغرب.»(ميلاد و الربيعو،، 2001، صفحة 35)إن المتمعن في النصوص الرحلية -نماذج الدراسة- سيدرك حتما أن الكثير من الصور تعكس ذلك العداء الذي خلفته الحروب الصليبية بين الإسلام، والمسيحية، فضلا عن هذا فإنها تبين أن المنظور الذي يتبناه الرحالة كان يهدف إلى الانتصار للذات الأوروبية المسيحية، ولو تطلب ذلك الإساءة للإسلام، فإحساس الغرب بتنامي الإسلام واتساع رقعته جعله « يرى في الشّرق مكاناً خطِراً يتنامى فيه الإسلام وتتكاثر الأجناس الشريرة وأمّا المسلمون فهم سُودٌ ذَوُو هيئات بشعة. وقد أدّت هذه البغضاء إلى خلق عداوة للإسلام أتاحت حماية عقول المسيحيين من الارتداد عن دينهم وحقنت المسيحية بشعورٍ من الاحترام للذات من خلال تعاملها مع مدنية أرقى منها في أَوْجُهٍ كثيرة»(قباني، 1993، صفحة 36) يتضح أن التفوق الذي حققه الإسلام بتعاليمه الدينية، وقيمه الأخلاقية التي كثيرا ما تتعارض مع ما جاء في الديانة المسيحية التي أصابها ما أصابها من التحريف والزيف. فقد أصيب المسيحيون-خاصة المبشرين- بخوف كبير من سرعة انتشار الإسلام وبالتالي ارتداد المسحيين عن الديانة المسحية وهذا ما استدعى تدخل المستشرقين والرحالة وكذا المبشرين من أجل ابتداع صور أخرى للشرق مخالفة لحقيقته. فالشرقي في نظر هؤلاء دوما لا يخرج عن صورة: المتخلف المتعصب العنيف المشعوذ، الغبي، الفذ وغيرها من الصفات الذميمة، لذلك يمكن القول إنّ مرجعيات الرحالة الدينية كان لها بالغ الأثر في تشكيل الصورة السلبية عن الإسلام.

قائمة المصادروالمراجع:

- Guy de Maupassant, G. d. (1925). *au soleil 1884.* france: Edition repoduite, Albin Michel.
- M.W.Hilton, S. (1921). *Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawía of the Aurès Mountains.* London: T. Fisher Unwin ltd.
- xxfghjkl. *lkjh.*

- أبو العيد دودو. (1975). *الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1855.1830)*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- أبو القاسم سعد الله. (1983). *تجارب في الأدب والرحلة.، الجزائر*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- الطيب بودربالة. (مارس, 2010). صورة الجزائر في الرواية الفرنسية. (02)، صفحة 08.
- إيزابيل إيبرهارت. (2014). *الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات)* (المجلد 01). (عبد السلام المودني، المترجمون) بغداد: منشورات الجمل.
- ج.أو. هابنسترايت. *رحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ - 1732)* (المجلد 01). (ناصر الدين سعيدوني، المترجمون) تونس: دار الغرب الإسلامي.
- جميل محمد خليفة. (2014). *المرأة المسلمة وأوهام الرجال السلطوية والجنسية. ، المغرب* (المجلد 01). المغرب: أفريقيا الشرق.
- حفناوي بعلي. (2016). *صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين*. الجزائر: دروب للنشر والتوزيع.
- رنا قباني. (1993). *أساطير أوروبا عن الشرق لفق تسد* (المجلد 02). (صباح قباني، المترجمون) دمشق: دار طلاس.
- زكي ميلاد، و تركي علي الربيعو.. (2001). *الإسلام والغرب: الحاضر والمستقبل* (المجلد 02). بيروت: دار الفكر المعاصر.
- صاموئيل هنتنغتون. (1999). *صدام الحضارات و إعادة بناء النظام العالمي* (المجلد 01). (مالك عديد أو شهيوة، و محمود محمد خلف، المترجمون) ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر و التوزيع و الإعلام.
- ضياء الدين سارادارا. (2012). *الاستشراق: صورة الشرق في الآداب و المعارف الغربية* (المجلد 01). (فخري صالح، المترجمون) الإمارات: هيئة أبوضبي للسياحة و الثقافة.
- عبد الله إبراهيم. (2010). *المركزية الإسلامية*. بيروت: الدار العربية للعلوم.
- غي دو موبسان غي دو موبسان. (2007). *رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس"* (المجلد 01). (نادية عمر صبري، المترجمون) دار ورد للطباعة والنشر.
- ماجدة حمود. (2003). صورة الشرق لدى هرمان هيسه. (المجلد 19(1+2))، صفحة 74.
- محمد أركون. (2010). *نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية* (المجلد 01). بيروت: دار الساقي.
- محمد عابد الجابري. (2009). *الإسلام والغرب (الأنا والآخر). الكتاب الأول،* (المجلد 01). بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- مي عبد الكريم محمود. (2003). *تائهون في صحراء الإسلام: صورة الصحراء العربية في كتابات الرحالة و المستشرقين الفرنسيين* (المجلد 01). سوريا: الأهالي.

تجسيد صورة المرأة الجزائرية عند الرسامين المستشرقين
-فرديناند أوجين ديلاكروا أنموذجا-
The Image of Algerian Women Portrayed by Oriental Painters -

د. رمادلية أمال، جامعةعلي لونيسي- البليدة 2 - الجزائر
Remadlia.amel@gmail.com



عرف القرن التاسع عشر تدفقاً معتبرا باتجاه الشرق بلغ درجة الهوس من خلال هجرة مئات الرحالة والأدباء والرسامين والباحثين عن الاكتشافات الجديدة، كانت هجراتهم تتزايد خصوصا باتجاه بلدان المغرب العربي، سميّت هذه الهجرات بـ"الإستشراق"، وعُرّفت في التاريخ المعاصر كظاهرة اقترنت في رؤيتها المباشرة بإشارات ومشاعر جمعت حب المعرفة والرومانسية والمغامرة وفي رؤيتها المقنّعة اختزنت رغبة في السيطرة والاحتلال، وقد اختلفت أجيال المستشرقين التي توافدت بحثا عن الصورة والفكرة والتقنية والألوان والأضواء والخيال المُزين بتفاصيل الغرابة والدهشة وبواقع غير مألوف في جغرافية الغرب.

ومن أشهر المستشرقين الذين قدموا الى الجزائر الفنان فرديناند أوجين ديلاكروا قائد المدرسة الرومانسية، كان الرسام الفرنسي ديلاكروا من أكبر المتأثرين بالشرق، وخاصة بالجزائر التي استوحى منها أشهر لوحاته، حيث بهرته الجزائر التي توقف فيها لمدة قصيرة، وظلت إيحاءات رحلته إلى الجزائر رغم قصرها عالقة بخياله طوال حياته، حيث خلدها في لوحات كثيرة وتعد لوحته نساء الجزائر في غرفهن من بين أشهر لوحات الفنانين الغربيين عن الشرق وعن الجزائر على وجه الخصوص.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الفن الاستشراقي، الجزائر، صورة المرأة، الرسامين المستشرقين، اوجين ديلاكروا.

Abstract:

In the 19th century, hundreds of nomads, writers, painters and people who studied new discoveries migrated to the east, and their migration especially increased, especially to Maghreb countries. They are called "outward migration". In contemporary history, this kind of migration is defined as a phenomenon. In the process of directly observing knowledge, romanticism and adventure, all the signs and feelings they see are combined, and what they see is the desire for control and occupation. Stolen generations came here to look for images, ideas, technology, skin color, lighting and imagination, all of which have strange and incredible details and reality.Among the famous explorers who came to Algeria, Ferdinand Delacroix, the leader of the Romantic School, was the most affected, especially his most famous paintings came from Algeria in the east, where his paintings were inspired by Algeria and he stayed there for a short time. The inspiration of his trip

to Algeria has always stayed in his imagination. His paintings are missed by many people, and his paintings are regarded by Algerian women in their rooms as one of the most famous paintings of the East and the West, especially Algeria.

Keywords : Orientalism, Orientalist art, Algeria, the image of women, Orientalist painters, Ferdinand Delacroix.



مقدمة:

تعتبر الصورة بمثابة اللغة التي تستحق التأمل والبحث بوصفها حقلا جديدا من الحقول البحثية الحديثة فقابليتها للإدراك والقراءة تؤثر تأثيرا عميقا في المتلقي، بحيث تترك بصمة واضحة في مخيلته وذاكرته، كما تلعب جمالية الصورة دورا كبيرا في جذب انتباه المتلقي. وقد استغل الفنان اللوحة الفنية منذ العصور القديمة، وفي مختلف الحضارات للتعبير عن أفكاره وانتمائه وحتى لتمرير أهدافه، وهي السياسة التي انتهجتها الحركة الاستشراقية لتصوير الشرق من خلال إرسال بعثات لزيارة الشرق واكتشاف عالم جديد يختلف كليا عن عالم الغرب من حيث اللغة والعادات والتقاليد.

حملت الأعمال الفنية الاستشراقية عدة دلالات وأبعاد في طياتها، واختلفت هاته الدلالات باختلاف مقاصد ورؤى الفنانين، إذ تعبر بعضها عن حقيقة أيديولوجية استعمارية كان نتاجها كتب ودراسات ومذكرات والعديد من اللوحات الفنية والصور الفوتوغرافية التي قدمت ملامح ذهنية وحسية لبت تصورات العالم الغربي عن العالم الشرقي. كما أثارت الظاهرة جدليات ومحاولات السيطرة باعتبار أن الثقافة والفنون تصورات إنسانية تحمل مخزونا بشريا شاهدا على حضارة وتراث إنساني متنوع ومتجدد ومختلف الرؤى، والزوايا التعبيرية والحسية التي تفاعلت معا وفق الواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي وأثرت على التداخلات الفكرية للفرد داخل منظومته الجغرافية، فالرسم والنحت والفن التشكيلي مرآة للشعوب وانعكاس لعاداتها وتقاليدها وموروثها.

ظهرت بوادر الفن الاستشراقي منذ العصور الوسطى وتجلى بشكل واضح في عصر النهضة، إلا أن أوج إزدهاره كان في القرن التاسع عشر، إذ رافق الحملة العسكرية على الجزائر العديد من الفنانين المستشرقين بعضهم أتى في مهمات عسكرية أو برفقة بعثات للتنقيب عن الآثار.

تعتبر الجزائر جزء من هذا العالم الإسلامي المحافظ في تقاليده و عاداته والذي استقطب فنانين مستشرقين منذ بداية القرن 19 عشر، ومن بين الفنانين المستشرقين الذين زاروا الجزائر الفنان أوجين ديلاكروا قائد المدرسة الرومانية الذي يعتبر من بين الفنانين المتأثرين بالشرق، وخاصة بالجزائر التي استوحى منها أشهر لوحاته، عند زيارته الجزائر التي توقف فيها لمدة قصيرة، وظلت إيحاءات رحلته إلى الجزائر رغم قصرها عالقة بخياله طوال حياته، وخلدها في لوحات كثرة وتعد لوحته نساء الجزائر من بين أشهر لوحات الفنانين الغربيين عن الشرق وعن الجزائر.

انطلاقا من المعطيات السابقة ونظرا للأهمية التاريخية والأيديولوجية التي كسبها الفن الاستشراقي وأثره في تشكيل صورة الشرق في عيون الغرب وجب البحث في ثنايا هذا البحث وتفاصيله باعتباره يتصل

مباشرة ببلاد الشرق عامة والجزائر خاصة،إذ شكلت هاته الأخيرة أرضية خصبة لإبداعات الفنانين المستشرقين لذا كانت انطلاقتنا من الإشكالية التالية:

-ما هي الأبعاد والأهداف الأيديولوجية والفنية التي ترمي إليها رسومات المستشرقين، وفيما تتمثل خصائصها الفنية؟ وهل تعكس الصورة فعلا حياة المرأة الجزائرية في تلك الفترة من الزمن؟

تهدف هذه الدراسة إلى استجلاء نظرة الفنان الغربي للفرد الشرقي التي انعكست بصورة مباشرة والتعرف على حقيقة الأفكار والأيديولوجيات التي ضمها في لوحاته، كما ترمي هذه الدراسة إلى استقراء المعاني والدلالات التي تنطوي عليها لوحات المستشرقين وابراز خصائص الفن الاستشراقي والعوامل التي ساعدت على تطوره.

أولا-مفهوم الاستشراق :

1-المفهوم اللغوي للاستشراق:الاستشراق من الفعل استشرق استشراقا فهو مستشرق، مصدرها استشرق ويعني العناية والاهتمام بشؤون الشرق وثقافاته ولغاته، وبمعنى آخر هو أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وإعادة بنائه وبسط النفوذ عليه، والمستشرق من يهتم بالشرق والدراسات الشرقية (أيمن مختار وآخرون،2008، ص1192).

وإذا رجعنا إلى القران الكريم نجد إن كلمة الشرق وردت في 17 موضع وبتصريفات و ألفاظ متعددة فنجد: مشرق ،المشرق ،مشرقين ،المشرقين ،شرقية ،الإشراق ،اشرقت ،وكان معناها دائما يدل على الجهة المعاكسة لاتجاه الغرب ،وعند الرجوع إلى المعاجم القديمة نجد أن هناك مجموعة كبيرة من التعاريف اللغوية للاستشراق في أولها: قاموس المحيط في تعريفه لكلمة الاستشراق هو مصدر من الفعل السداسي استشرق و أصله (ش ر ق)و الألف و التاء و السين إذا سبقت الفعل الثلاثي أفادت الطلب ،وعلى هذا فالاستشراق هو طلب الشرق (ابن المنظور،1988،ص124)، واستشرق تعني اندمج في مجتمعات الشرق وصار منهم (أحمد رضا،1959،ص311)، وفي معجم آخر نجد مصطلح الشرق يعني به جهة شروق الشمس و البلاد الإسلامية في شرقي الجزيرة العربية، المشارقة تعني سكان الشرق و بالمفرد مشرقي (المعجم الوسيط،2004،ص480).

كما تجدر الإشارة أن مصطلح الاستشراق لم يرد في المعاجم العربية القديمة غير أن هذا لا يمنع من الوصول إلى معناها الحقيقي، وهذا استنادا إلى قواعد الصرف وعلم الاشتقاق (محمد تاج قدور،2014، ص16-17). فمثلا لفظ الشرق تعني الجهة التي تشرق منها الشمس، وفي النسبة مشرقي بفتح الراء وكسرها، والشرقة والمشرقة موضع القعود في الشمس بالشتاء، وتشّرق أي جلس فيه، أشرق دخل وقت شروق الشمس واشرقت الشمس أي أضاءت (محمد بن اليعقوب مجد الدين الفيروز أبادي،2005، ص1158).

والاستشراق في معجم مختار الصحاح لغة مأخوذة من شرق فيقال شرقت الشمس إذا طلعت وهي أيضا تعني مشرق الشمس (محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي، بدون تاريخ، ص164)، والشرق خلاف الغرب، والشروق كالطلوع، وشرق يشرق شروقا (الخليل بن أحمد الفراهيدي،2003، ص38)

كما نجد في معجم لسان العرب مصطلح التشريق بمعنى الأخذ من ناحية الشرق، فيقال شتان بين مشرق ومغرب، وشرقوا أي ذهبوا إلى الشرق (جمال الدين أبو الفضل، بدون تاريخ، ص173)، أما في معجم أسماء المستشرقين فنجد كلمة الاستشراق orientalisme مشتقة من مصطلح orient أي جهة شروق الشمس فيقال: أشرقت الشمس شرقا وشروقا إذا طلعت (يحي مراد، بدون تاريخ، ص 6).

أما في معجم le petit Larousse فنجد كلمة الاستشراق باللغة الفرنسية orientتعني مجموعة من البلدان الأسيوية مقارنة بأوروبا أو ما يسمى بالمشرق الكبير، فيقال مشرقي، شرقي وجمعها شرقيون أو مشرقيون oriental / orientaux، وهي صفة لكل من يتواجد بالشرق (le petit Larousse,2006,P567).

وهناك من يرى أن كلمة استشراق لا ترتبط فقط بالمشرق الجغرافي، وإنما تعني أن الشرق هو مشرق الشمس، ولهذا دلالة معنوية بمعنى الشروق والنور وهو عكس الغروب (مازن بن صلاح مطبقاني، 1995، ص3).

كما يطلق على مصطلح orientفي اللغة اللاتينية على من يريد أن يتعلم أو يبحث عن شيء، كما تدل على فعل وجّه أو هدى أو رشد، أما مصطلح orientationبالإنجليزية تعني توجيه الحواس نحو اتجاه أو علاقة ما في مجال الاخلاق، أو الاجتماع أو الفكر أو الآداب، وبهذا يظهر أن مصطلح الاستشراق ليس مستمدا من المدلول اللغوي بل من المدلول المعنوي لشروق الشمس (عبد الله محمد الأمين،1997، ص16)، أي الاتجاه نحو الشرق بمعنى طلب علوم الشرق ومعارفها (احمد خالدي ومحمد يحياوي،2021، ص188).

استنادا الى قواعد الصرف وعلم الاشتقاق يمكن استخلاص معنى الكلمة من الفعل استشرق أي ادخل نفسه بين أهل الشرق وصار منهم (يحيى مراد، ص120)، أما مصطلح المستشرق orientaliste فهو من يهتم بدراسة ثقافة الشرقيين لغة ودينيا وتاريخيا (le petit larousse,2006,p567)، وهو تعبير أطلقه الأوروبيين على الدراسات المتعلقة بشعوب المشرق (بن التومي على ،2018، ص4).

هذا وقد عرّف قاموس أوكسفورد معنى مصطلح المستشرق بأنه من يتحر في لغات الشرق وآدابها، واستعملت كلمة الاستشراق لأول مرة في معجم الأكاديمية الفرنسية سنة 1838 بعد أن شاع استعمالها وأصبحت اللفظة دالة على تخصص في الثقافات الشرقية (محمد فاروق النبهان،2012، ص11).

2-المفهوم الاصطلاحي للاستشراق:

تعددت التعريفات و اختلفت حول مصطلح الاستشراق ،ومن الناحية الاصطلاحية ظهرت تعاريف مختلفة حول الاستشراق باعتباره منهجا و علما و أسلوبا في الفكر الغربي، فقد عرف بأنه منهج غربي في رؤية الأشياء والتعامل معها ،يفسر ذلك بوجود اختلاف جذري في الوجود و المعرفة بين الشرق و الغرب ،وأن الأول يتميز بالتفوق العنصري والثقافي على الثاني المتمثل في الشرق (سعدون محمود الساموك،2002،ص15)، فالاستشراق أسلوب غربي لمعرفة العالم الشرقي عن طريق البحث أو التخصص في العالم الشرقي بدراسة علوم و آداب و ديانات و تاريخ شعوب الشرق ،وهذا بهدف السيطرة عليه (محمد فتح الله الزيادي،2002،ص16).

كما عرفه بعض الباحثين على أنه علم يدرس لغات شعوب الشرق وتراثهم وحضاراتهم ومجتمعاتهم بالإضافة إلى ماضيهم وحاضرهم (فاروق عمر فوزي، مرجع سابق، ص29-30)، إذ يراد بالاستشراق دراسة علوم الشرق وأحواله وتاريخيه، ومعتقداته وبيئاته الطبيعية، والعمرانية والبشرية ودراسة لغاته ولهجاته، وطبائع الأمة الشخصية في كل مجتمع مشرقي فلكل أمة مشخصاتها (عبد المتعال محمد الجبري،1995، ص13)، حيث شكل الاستشراق نافذة جيدة على الشرق ،تم التعريف من خلالها بالعرب و الإسلام و حضارتهما (رضوان السيد،2007، ص 5) ،حيث يتبلور معنى الاستشراق في الدراسات التي يقوم بها الغربيون لقضايا الشرق بغرض التعرف على العالم الشرقي من خلال الدراسات اللغوية و الدينية و التاريخية و الاجتماعية و السياسية ،بالإضافة إلى العادات والتقاليد (محمود خليف الحياني ،2013،ص15).

وإذا نظرنا إلى مصطلح الاستشراق من منظور ديني، فيمكننا تعريفه اصطلاحا بكونه اتجاه فكري يعني بدراسة الإسلام والمسلمين، ويشمل ذلك كل ما يصدر عن الغربيين من دراسات تتناول قضايا الإسلام و المسلمين في العقيدة، و السنة والتاريخ، وغيرها من مجالات الدراسات الإسلامية (بن علي التومي،المرجع السابق،ص6) ،ويلحق به ما تبثه وسائل الإعلام الغربية من كتابات و برامج تتناول الإسلام و المسلمين و قضاياهم (احمد خالدي و محمد يحياوي، المرجع السابق،ص189).

أما الموسوعة الميسرة فتعرفه بأنه تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل ما يبحث في أمور الشرقيين، ثقافاتهم وتاريخهم (الموسوعة الميسرة، ص105)، والمقصود به هو ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء دراسات مختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي تشمل حضاراته ودياناته ولغاته وثقافته، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغريبة عن الشرق عامة، وعن العالم الإسلامي خاصة معبرا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري القائم بينهما (بركان بن يحي،2016، ص127).

وفي الحقيقة الاستشراق اهتمام ثقافي بالدرجة الأولى مصدره الغرب ومقصده الشرق، وهو دراسة لتاريخ وواقع الشرق باستعمال الوسائل والمناهج المعرفية التي نشأت وتطورت في الغرب (محمد وقيدي،1982، ص3)، وهذا من أجل تقديم دراساتهم ونصائحهم ووصاياهم للمبشرين بغية تحقيق أهداف التبشير للدوائر الاستعمارية لتحقيق أهداف الاستعمار (عبد الرحمان حسن، المرجع السابق، ص121).

كان أول استعمال لكلمة مستشرق سنة 1630م، بحيث أطلقت على أحد أعضاء الكنيسة اليونانية، وفي سنة 1691م نجد انتوري ورد anthony wood يصف صموئيل كلارك samuel clarke بأنه استشراقي، يعني بذلك أنه عرف بعض اللغات الشرقية (سعيد همام وآخرون، بدون تاريخ، ص 142).أما قاموس أوكس فورد فيحدد المستشرق بأنه من ضاع في لغات الشرق وآدابها (بربري، 1947، ص8)، علما أن كلمة الاستشراق ظهرت في اللغة الإنجليزية عام 1779م، وظهرت في فرنسا سنة 1838م (محمد يحي زقزوق،1984، ص10)، قبل أن تدرج رسميا في قاموس الأكاديمية الفرنسية سنة 1883م (الطيب بن

إبراهيم،2004، ص28)،وبذلك تجسدت فكرة نظام خاص مكرس لدراسة الشرق (يحي مراد، المرجع السابق، ص9)

ومن أبرز المستشرقين الأوروبيين الذين تناولوا مفهوم الاستشراق نجد المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون الذي أشار أن ظهور مصطلح الاستشراق بغرض الحاجة إلى إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق (مكسيم رودنسون ،1978، ص27).

أما رولان بارت فيرى أن الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة و هو اقرب شيئ إليه ،و على هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي (رولان بارت ، 1968،ص 11) ، و بخصوص ألبرت ديتريش فيرى أن المستشرق هو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق و فهمه ،ولن يصل إلى نتائج سليمة ما لم يتقن لغات الشرق (عبد الرحمان خرشي،2013 ، ص19) ،كما تعرض المستشرق الألماني هارتموت اوتوبوبتسين لمفهوم الاستشراق فعرفه كالتالي :"الاستشراق مفهوم شامل لنشاط الدراسات الاستشراقية في أوروبا ،وكلمة مستشرق تعني الذي يطلب العلم بالمشرق"(عمر لطفي العالم ،1990،ص14).

ومن جهة أخرى نجد تعريف اغناطيوس اينياتسيو جويدي لعلم الاستشراق بأنه الوسيلة لدرس كيفية النفوذ المتبادل بين الشرق والغرب، وصاحب هذا العلم هو الذي يكون على دراية جيدة ومعرفة لبعض اللغات المجهولة، ويستطيع أن يصف عادات بعض الشعوب (اغناطيوس اينياتسيو، ص11).

وفي تعريف آخر لأحمد سمايلوفيتش أن الاستشراق علم يحاول أصحابه دراسة الشرق وكل ما يتعلق به، وأنه ذو حدود واسعة وغير واضحة، وقائم بذاته له خصائصه التي تدل على استقلاله، كما يضيف أنه مر بأدوار مختلفة ليصل إلى ما هو عليه اليوم (عبد المنعم أبو الدنيا ،2008، ص6).

أما العلماء العرب فقد كانت لهم آراء مختلفة في فهمهم للاستشراق في مقدمتهم المفكر عبد المالك بن نبي الذي يرى أن الاستشراق يعني به المستشرقين الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية، ثم علينا أن نضف أسمائهم في شبه ما يسمى طبقات على صنفين:

1-من حيث زمن: طبقة القدماء مثل جرير، دوربياك، والقديس توما الاكويني، وطبقة المحدثين مثل كاردوفور جولد.

2-من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين في كتاباتهم، هناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية وطبقة المنتقدين لها والمشوهين لسمعتها، وعلى هذا الترتيب يجب أن تقوم كل دراسة شاملة لموضوع الاستشراق (مالك بن نبي،1969، ص5-6).

أما المفكر ادوارد سعيد فيرى أن الاستشراق أسلوب تفكير يقوم على التميز الوجودي والمعرفي مع بين ما يسمى بالشرق وبين ما يسمى الغرب (ادوارد سعيد،2006، ص45)، ويقول في سياق آخر، الاستشراق نمط من الاسقاط الغربي على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه، فكل من يقوم بتدريس الشرق أوالكتابة عنه فهو مستشرق وما يقوم به فهو استشراق (ادوارد سعيد،1995، ص36-38).

ومن بين التعريفات التي قدمت أيضا حول الاستشراق ما قدمها محمد عبد الغني حسن قائلا: "الاستشراق هو اشتغال غير الشرقيين بدراسة لغات الشرق وحضاراته وفلسفته وأديانه، وأثر ذلك في تطور البناء الحضاري للعالم كله (محمد عبد الغني حسن،1962، ص89).

كما يوضح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي هذا المفهوم فيقول: "الاستشراق هو التفرغ من بعض العلماء في أوروبا وأمريكا لدراسة الشرق في تراثه وثقافته، وتاريخ شعوبه ولغاته، وما لهذه الأمم من علوم وآداب وفنون وتقاليد من ماضيها وحاضرها (محمد عبد المنعم خفاجي،1984، ص65).

وفي تعريف للأستاذ أحمد عبد التواب الغراب الاستشراق فقال بخصوصه: "هو دراسات أكاديمية يقوم بها الغربيون الكافرون للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب، عقيدة وثقافة وحضارة بهدف تشويه الإسلام، ومحاولة تشكيك المسلمين فيه وتظليلهم وفرض التبعية للغرب، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي (محمد الغزالي، د.ت، ص 4)

أما الدكتور شكري النجار فيقدم كمفهوم الاستشراق ويحدده في ثلاث مفاهيم تعتبر كزوايا الاستشراق المتعددة، فهو يعبر عن أبعاده التاريخية والمنهجية يرد ظهورها إلى القرن 19م، وهو العصر الخصيب للاستشراق والاستعمار والتبشير وهي كالتالي:

- المفهوم الأول:يطلق على كل من يتخصص في أحد فروع المعرفة المتصلة بالشرق من بعيد أو من قريب، وتطلق على كل دارس للآداب أو اللغات الشرقية، المتخصص في تاريخ إحدى الدول الشرقية، أو في أنثروبولوجيا الشعوب الشرقية (أحمد الاسكندري، د.ت، ص148).
- المفهوم الثاني:وهو معنى أكاديمي باعتبار الاستشراق أسلوب للتفكير، يرتكز على التمييز الثقافي و العقلي والتاريخي و العرقي بين الشرق والغرب، وهذا التمييز يخلو من الموضوعية و الالتزام العلمي، فالعديد منها تحمل مغالطات عن الإسلام و بنيته، حيث كان مدخلا سهلا للاستعمار في استغلال الشعوب وإعلان الوصاية على الشرق تحت اسم التميز العرقي (يحى مراد، المرجع السابق،ص 149)
- المفهوم الثالث:يتمثل في المطلب الاستعماري لفهم الشرق ودراسته من أجل السيطرة عليه والتحكم فيه وجب دراسته سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وأيديولوجيا وعلميا، وهو ما يمثل البعد الثالث لرسالة الاستشراق (يحى مراد، المرجع السابق، ص 149)

ومن خلال ما سبق يمكن القول ان الاستشراق بصفة عامة هو دراسة علوم الشرق وأحواله وتاريخيه ومعتقداته وبيئاته الطبيعية، والعمرانية والبشرية، ودراسة لغاته ولهجاته وطبائع الأمة في كل مجتمع شرقي، وعليه فالاستشراق هو مدرسة فكرية ذات خصائص ودوافع وغايات، فهي وليدة صراع طويل بين الحضارة الإسلامية والمسيحية، وهي نتاج تجربة حية من تناقض وتباين بين حضارتين وعقيدتين، وثقافتين مختلفتين.

3-المفهوم الفني للاستشراق: الاستشراق الفني هو الفن الذي يختص به المستشرقون، سواء ما تعلق بإنتاجهم الفني، أو بدراستهم تلك التي تتعلق بذلك الإنتاج المرتبط نفسه بالفنون الشرقية كدراسة تاريخ الفن وعلم الجمال والآثار، وغيرها من الدراسات المتعلقة بالفنون (ايناس حسني،2012، ص49)

فالفن الاستشراقي يعتبر ظاهرة تاريخية فنية تمثلت في عملية تغلغل الصور و انعكاس موضوعاتها الشرقية في الفن الأوروبي (زينات بيطار،1992، ص29) ،و هنا فالاستشراق لا يمثل مدرسة فنية لأن الرابط الذي يجمع بين الفنانين المستشرقين موجود في الأيقونة أكثر من الأسلوب والتقنية،فمعالجة الضوء و اللون يتطور في كل عقد، ويلعب في كل ذلك خبرة الفنان واكتشافاته الفنية فكل فنان يرسم الموضوع الاستشراقي حسب المدرسة التي ينتمي إليها ،فقد برزت المؤثرات الشرقية في أغلب المدارس الفنية الأوروبية، وكانت في كل مرحلة من مراحل بروزها في تاريخ الفن الأوروبي تتشكل مع مقتضيات العصر الفنية، و تحمل السمات والمعايير الجمالية والمحلية السائدة في المدرسة أو المرحلة المميزة لها (زينات بيطار ،المرجع السابق ، ص 29)

وفي هذا الصدد نجد باترولد يعرف الاستشراق الفني على أنه ظاهرة فنية تقليدية في الفن الأوروبي وناتجة عن الانطباعات التي سجلتها حملة نابليون على العادات والتقاليد، والحياة اليومية الشرقية وكان التركيز على السمات والمعايير الجمالية المحلية السائدة، كالمؤشرات الفنية الإسلامية التي شهدها الفن الفرنسي منذ القرن 19م (عثمان الطيب ليليا،2022، ص 23)

أما الرسم الاستشراقي وهو موضوع دراستنا فيقصد به تلك الرسومات الزيتية التي اعتنت بتجسيد صورة الشرق بطبيعته وأهله وتقاليده من تلك التي انتهجها تيار من الفنانين ممن انبهروا وانجذبوا ليهتموا بكل ما هو غريب، الأمر الذي أفضى إلى تطوير الاستكشاف والرحلات بعد أن روج تيار هذا النوع من الاستشراق للرحلات، فاستقطب المهتمين منهم الرسامين الهواة للمناظر المثيرة والغريبة والمعبرة (قاسي فريدة وطرشون نادية ،2021، ص 288).

والاستشراق من مفهومه الفني أيضا هو تصوير الشرق في اللوحات الفنية الأوروبية والصور والأعمال من قبل الفنانين الأوروبيين من القرن 19 إلى أوائل القرن 20، أي تصوير العالم العربي باعتباره مكان غريب وغامض مليء بالحريم والراقصات، وروعة البيئة التي تعكس تاريخا طويلا من الأوهام الشرقية التي استمرت لتتخلل الثقافة الشعبية المعاصرة (بن التومي علي، 2019، ص 21)

ثانيا-أسباب ظهور الاستشراق وعوامل تطوره:

تعددت أسباب ظهور الاستشراق وتطوره عبر مراحله التاريخية فكانت أحيانا تمتزج بين الوسيلة والغاية فكان بعضها ذاتيا وبعضها الآخر سياسيا واقتصاديا وعلميا.

إن اللحظة التي ولد فيها الاستشراق هي نفسها اللحظة التي فكر فيها الغرب الدفاع عن نفسه، حيث كانت البداية مع هزيمة عبد الرحمان الغافقي على يد شارل مارتل سنة 110هـ/737م في المعركة المعروفة ب بلاط الشهداء، أين كانت هزيمة المسلمين وانتصار الغرب بزعامة فرنسا من المراحل الحاسمة في تاريخ المسلمين ، حيث توقفت الفتوحات الإسلامية، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ هنري دي شامبون:"لولا

انتصار شارل مارتل الهمجي على تقدم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى و لا نجت اسبانيا من محاكم التفتيش و لا ما تأخر سير المدينة ثمانية قرون (أنور الجندي،1972،ص292)

و يضيف لافيس قائلا :"كم من الأحزان و الآلام و الجنايات كان يمكن انقاذ البشرية منها لو لم يوقف شارل العرب عن السير في فتوحاتهم "(عمر فروج و مصطفى خالدي،1973،ص73)، كما مكنت هذه المعركة في الغرب من التصالح بين الساسة و رجال الدين ليصبحوا يد واحدة في مواجهة الإسلام ،حيث كان الإسلام في نظرهم عدو لدود يجب إيقاف زحفه ،وفي هذا الصدد يقول صاحب كتاب البحث عن الدين الحقيقي :"لقد برز في الشرق عدو جديد ذلك هو الإسلام الذي أسس على القوة و قام على أشد أنواع التعصب ...لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه و تساهل في أقدس القوانين و الأخلاق...ولكن انظر ها هي النصرانية تضع سيف شارل مارتل سدا في وجه سير الإسلام..." (عمر الفروج و مصطفى خالدي، المرجع السابق،ص92)

وبهذا الانتصار أصبح شارل مارتل قديسا مباركا وبطلا مقداما ومثالا يحتذى به منقذ اللدين وزعيما قوميا، وبهذا يكون قد أسس لفكرة الانتقام من المسلمين فكان من ثمارها محاكم التفتيش بالأندلس حيث حوّل الدفاع عن النفس الذي تبناه ومن ولاه من رجال الدين لفكرة المواجهة مع الإسلام وأهله لتتطور الفكرة وتلد مولودا جديدا سمي بالاستشراق (شايب الدور أحمد،2010، ص20-21)

إن التعصب للمسيحية واليهودية كان من العوامل الرئيسية لظهور الاستشراق بل من أشدها أثرا على هذه الحركة ولولا هذا الأثر ما كان لتكون بهذا الحقد وهذه الشراسة (سياطة سامي الحاج، 1997، ص12)، والمتتبعون لمسيرة الاستشراق يرجحون ميلاده كحركة فكرية وثقافية لها معالمها المميزة في القرن 18م، وفي هذا القرن أخذ ينمو ويترعرع في كنف الكنيسة التي كانت ترعاه وتوجهه وتستغله بكل وسائلها وإمكانياتها وقد اتسمت تلك العصور كلها بتعصبها الأعمى ضد الإسلام ورسوله (احمد اسماعيلوفيتش، د.ت، ص71)

الاستشراق بكل مراحله كان بسبب تفاعل الشرق والغرب حربا وسلما، فالمرحلة الأولى له كانت بفعل الفتوحات الإسلامية التي دفعت الغرب إلى محاولة معرفة المسلمين، والمرحلة الثانية كانت تمهيدا للحروب الصليبية، والمرحلة الثالثة كانت مواكبة لموجة الاستعمار الغربي للشرق المسلم ولقد اتسم الاستشراق في كل مراحله بالكره للشرق والإسلام والمسلمين (شايب الدور أحمد، المرجع السابق، ص23).

ثالثا-الاستشراق الفني بالجز ائروأهم مراحله:

تاريخ الاستشراق طويل ومراحله متعددة وأساليبه متنوعة، ووسائله مرتبطة بغاياته، ويتغير كلاهما بتغير الزمان والمكان، إلا أن هناك وفي كل الأحوال رابط يجمع الاستشراق متمثلا في قراءة الشرق عامة والشرق المسلم خاصة قراءة يطلع من خلالها على عقيدته، وتاريخه ولغته وثقافته وعاداته وتقاليده، والهدف هو البحث عن السبل الكفيلة بتطويقه وهزمه بمختلف الوسائل للتمكن من إضعافه واستغلال ثرواته ومقدساته.

وهو حال الاستعمار الفرنسي الذي لم يكن بالجزائر لمجرد جولة استكشافية للضفة الجنوبية من البحر المتوسط، إنما كان هدفا مخططا له ومشروع ذو أهمية كبرى لقادة فرنسا و جيوشها، حيث حرصت الإدارة الفرنسية على توظيف الرسامين المستشرقين و دفعتهم إلى السفر للجزائر عن طريق تسهيل الإقامة و التكفل بإيوائهم، كما عملت على تحسيسهم وتوعيتهم بالدور المنسوب اليهم والمنتظر منهم ،حيث تغلغلوا في المدن والقرى، واجتهدوا في تسويق القيم الحضارية الأوروبية بمختلف صورها وأنماطها وسط المجتمع الجزائري المحافظ ،حيث عملت السلطات الفرنسية على التظاهر بمظهر ذلك الجنس المتحضر الذي أتى إلى الجزائر من أجل إخراج هذا المجتمع من التخلف الذي ضرب عليه من لدن السلطة العثمانية والسياسة المتبعة في عزله عن العالم الخارجي ، فسخرت كل ما تملك لنجاح العملية، وفي جميع الميادين فقررت حجز أملاك الدولة العثمانية والأوقاف التي كانت تمول المدارس فحرمت بذلك التعليم من الدعم المالي فكانت بذلك خطوة لطمس و محاربة انتشار اللغة العربية.

مر الاستشراق الفرنسي بالجزائر على ثلاث مراحل تتمثل فيما يلي:

- **المرحلة الأولى (1830-1879):** كانت مرحلة عسكرية بحتة تزعمها عسكريون فرنسيون تميزت بالترجمة لمساعدتهم في التواصل مع الأهالي، فكانت مرحلة استكشاف للمجتمع الجزائري من خلال لهجاته و عاداته و تقاليده و تاريخيه و هي ما تعرف بمرحلة جس النبض ومعرفة التوجهات ليتم بعدها وضع المخطط لتنفيذه ، و من المترجمين الذين كانوا ضمن المهمة الرسامين المستشرقين والعسكر التابعين لسلطة الاحتلال ويهود الجزائر الذين كانوا على دراية باللغة العربية والفرنسية(يحياوي رزيقة،2014،ص47) ،و خلال هذه المرحلة بدأ اهتمام المستشرقين بمدرسة اللغات الشرقية (أبو القاسم سعد الله،1998،ص246)
- **المرحلة الثانية (1879-1930):**تميزت بتوسيع نشاط المستشرقين الفرنسيين سواء بإعادة تنظيم المدارس أو بإنشاء مدارس جديدة لتعليم اللغة العربية، وبعقد مؤتمرات حول الاستشراق، حيث ركزوا على دراسة تاريخ الزوايا والأولياء الصالحين واهتموا باللهجات الموجودة بالبلاد (حاج بنيرد،2020، ص96).
- **المرحلة الثالثة (1930-1962):**شهد فيها الاستشراق توسعا كبيرا وذلك عن طريق إنشاء معاهد متخصصة في الفنون التشكيلية وتحويل المدارس الشرعية إلى مدارس مزدوجة، ومنها إنشاء معهد البحوث الصحراوية في مختلف التخصصات، شارك فيه أطباء مستشرقون وضباط وعلماء في جيولوجيا، كما تم إنشاء معهد الدراسات الشرقية الذي ترأسه المستشرق جورج مرسي أين اهتم بالتاريخ الإسلامي على وجه الخصوص (أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 100-101).

كان لدخول المستشرقين الرسامين مع المستعمر الفرنسي وقع كبير على الحياة الفنية التشكيلية في الجزائر فرغم أن هؤلاء الرسامين كانت لهم أهداف ظاهرة وهي مرافقة الجيش الفرنسي أثناء مسيرته ومعاركه، إلا أن الأهداف الباطنية التي كان يهدف إلى تحقيقها هي إدخال مفاهيم وأفكار جمالية جديدة

على المجتمع الجزائري مصدرها المجتمع الأوروبي ومن خلالها تحضير هذا المجتمع لاحتلاله وضمه نهائيا إلى الدولة الفرنسية كما كان مخطط له سابقا.

رابعا-تجسيد المرأة في الفن الاستشراقي:

لقد شكل موضوع المرأة الشرقية في صورته المثلى تحديا بارزا بالنسبة للرؤية الاستشراقية الفنية التي سادت طيلة القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين (حسيني ايناس، المرجع السابق، ص09)، وقد تزامنت هذه الرؤية مع بداية التوسع الاستعماري الذي استعمل في محاولة تصفيته للذات الشرقية بالأساليب الترويضية (أعمر محمد الأمين، المرجع السابق، ص130).

ولفهم اللوحات التي جسدت فيها المرأة من المهم إعادة قراءة تصوير الحريم في اللوحات الاستشراقية لأن الفنانين المستشرقين في الغالب اعتمدوا على أسلوب الخيال أكثر من الحقيقة، وهذا المخيال ناتج عن الصورة المتكررة في لوحات المستشرقين للحريم، حيث كان تصوير الحريم في غرفهن من المواضيع الأكثر انتشارا في لوحات المستشرقين، وقد كان الحرملك تحديدا منطقة ممنوعة على الرجال الغرباء من دخولها ،وهذا ما أطلق العنان في مخيلة الفنانين المستشرقين ،فقد اختلف أسلوب تعاطيهم مع هذا الموضوع ، فمن جهة كان الأمر مثيرا للشهوات ،ومن جهة أخرى حاول البعض نقل الحياة العائلية المشهودة في التعامل الأوروبي إلى العالم الشرقي (لين ثورنتون،2007،ص21)،فكانت أغلب اللوحات تصور المرأة الشرقية متحررة من القيود الأخلاقية مقارنة بأوروبا المحافظة في ذلك الوقت، حسب ما ذكره الكاتب الهولندي"يان دو هوند" الذي يضيف: "بعض الفنانين كانوا يريدون الهروب من القيود الجنسية المتشددة، وكانوا يرفعون من شأن الشرق ويعتبرونه مكانا تتوفر فيه حرية جنسية لم تصبها بعد قيود المحرمات الاجتماعية، فصار الشرق بالنسبة لهم جنة للحب المتحرر، مما جعل بعضهم أسرى حلم من يرى نفسه سلطانا محاطا بعدد من الحسناوات، وكان لبعض هؤلاء الفنانين محاولات للتغلغل في عمق مكان الحريم، وتعرية هذا العالم، للوصول إلى الحقيقة، والبيوت المغلقة من الخارج" .

إن تقديم المرأة الشرقية بهذه الطريقة غير واقعي، ذلك لأن جسد المرأة لدى المسلمين له قدسية خاصة، فمن المستحيل أن تتعرى المسلمة أو تكون مودال للرسامين الغربيين، وحسب الوثائق والشهادات، فإن الرسامين المستشرقين لجأوا إلى بدائل أخرى، فاعتمدوا على موديلات نسائية غربية أو نماذج مزيفة، وبعضهم قام بتصويرها في مراسم غربية .حسب ماريون فيدال بوي Bué-Vidal Marion الذي يضيف:" كل رسامي الجزائر تأسفوا لصعوبة إيجاد إناث بين المسلمات، وكان رسم اليهوديات أهون عليهم بكثير في المجتمع الجزائري "، وتبعا لكريستال تارو :Taraud Christelle"فإن أغلب الصور المزعومة لنساء جزائريات، التي تحفل بها لوحات الفنانين المستشرقين، هي لنساء يهوديات قدمن من أوربا خلال الاحتلال الفرنسي، وانخرطن في ممارسة البغاء" (عثمان ليليا الطيب، المرجع السابق، ص 42)،فمثلا مشاهد الاستحمام الشهيرة التي رسمها الفنانون المستشرقون للحريم هي من وحي خيالهم، فقد أشارت الليدي مونتاغ Montage Lady زوجة السفير الانجليزي في إسطنبول سنة 1717م في رسائلها المشهورة التي وجهتها إلى الفنان آنغر Ingres الذي عرف برسمه لمشاهد الاستحمام، أن بعض النساء الغربيات في تلك

الفترة اللاتي سمحت لهن الفرصة بالدخول إلى حمامات المسلمات، كما أشارت إلى أن أعمالهم الفنية لا تتطابق مع الواقع، وأن النساء لم تكن عاريات تماما داخل الحمامات التي كانت تعج بالأطفال الصغار، لكن الفنانين لم يهتموا لتلك الملاحظات و أطلقوا العنان لخيالهم الماجن.(عثمان ليليا الطيب، المرجع السابق،ص 42)

وبعد مشاهد الاستحمام تأتي مشاهد استعراض الحريم في غرفهن يمارسن التدخين بالنارجيلة وهن مستلقيات، حالمات، وقد ارتدين أثوابا فاخرة شفافة، والمقصود من وراء ذلك هو ترسيخ فكرة خاطئة، هي أن عالم النساء الشرقيات هو عالم حسي يغمره السكون، والعزلة، والجمود والحقيقة خلافا للوصف السائد أن المرأة الشرقية تقضي حياتها وهي تدخن مستلقية على الأريكة ومرتدية الحلي الذهبية والأحجار الكريمة، تحيط بها الخادمات من كل جانب. (عثمان ليليا الطيب، المرجع السابق،ص 43)

وقد فسر ادوارد سعيد سبب الصورة المتخيلة التي أنتجها الفن الاستشراقي عن المرأة الشرقية وتمثيلها تمثيلا زائفا كونها تدخل ضمن استراتيجية الهيمنة الامبريالية على الشرق، فالمستشرقون استحوذوا على الحياة الخاصة للمرأة الشرقية ليصوروا الشرق في صورة المرأة التي يمكن السيطرة عليها، وهذا في مقابل الهيمنة الذكورية التي تشير إلى الغرب، وكل هذا لتبرير الاستعمار على المجتمعات الشرقية (جمال مفرج،2014، ص08)

خامسا-تحليل لوحة نساء الجز ائر داخل غرفتهم للفنان اوجين ديلاكروا:

1-نبذة تاريخية عن الفنان اوجين ديلاكروا:شهدت فرنسا في أواخر القرن 18عشر ثورة كبيرة في الفن التشكيلي الأمر الذي جعلها قبلة للفنانين الأوروبيين ما نتج عنه ميلاد مجموعة من الأساليب الفنية على غرار الأسلوب الكلاسيكي الذي تزعمه فنانون ايطاليون أمثال ليوناردو دافينشي ومايكل انجلو ،وبعد ظهور أكاديمية الفنون وانتقالها إلى فرنسا ظهرت مجموعة من الفنانين الفرنسيين الذين أصبحوا بعد ذلك زعماء لتيارات فنية لاقت رواجا وشهرة في عالم الفن، ومن بينها المدرسة الرومانسية التي كانت بزعامة الفنان اوجين ديلاكرا.

هو فريدنان فيكتور اوجين ديلاكرا frednand victor eugéne delacroix، ولد في 26 افريل 1798م بشارونتون سان مورس بفرنسا (صبحي الشاروني ،1994،ص82) ،في وسط عائلة برجوازية لها مكانتها السياسية في الحكم الفرنسي ،شغل والده منصب سفير فرنسا بهولندا ثم محافظا لمدينة مرسيليا ،توفي و هو يشغل منصب وزيرا للخارجية (Lynne horenton ,1983,p38).

توفي والده وهو يبلغ من العمر سبع سنوات، ولم يتجاوز سن 16عشر حتى توفيت أمه فكانت طفولته مليئة بالمعاناة مما جعله يصاب بعدة أمراض وأزمات نفسية حادة فكان لكل هذه الأحداث أثر كبير على شخصية الفنان ديلاكروا، لتبدأ مسيرة ديلاكروا بدراسة الفن مع المصور جيروم Gérômeأين تأثر بالمصور جيريكو Théodore Géricault ،و هنا ظهرت موهبته التي برزت في الرسم والموسيقى والأدب والتصوير (بن التومي علي ،2018،ص150)، حيث تأثر بأسلوب الفنانين المشهورين المعروضة أعمالهم بمتحف اللوفر أمثال روبتر وألتروسكوب، والعديد من الفنانين الإيطاليين و الإنجليز ، وهذا التأثر كان

واضحا من خلال أول لوحاته الفنية المسماة ب "قارب دانتي " المعروضة في صالون 1822 ،والتي جمعت بين التيار الكلاسيكي والتيار الرومانسي الجديد (حسيني ايناس ،د.ت، 228).

في بداية القرن التاسع عشر ظهرت النزعة الرومانسية التي نادت بالتخلي عن المعايير الكلاسيكية ودعت إلى المبالغة في الحركات والألوان بالإضافة إلى الموضوعات التاريخية، وهذا ما نلمحه في لوحات الفنان ديلاكروا حيث برع في رسم اللوحات الشخصية مثل لوحة بارون شقايتر سنة 1826م ،الأمر الذي جعله يتزعم المدرسة الرومانسية، ومن جهة أخرى كان للجانب الدبلوماسي الدور الكبير في تطوير هذه النزعة ،وهذا من خلال مشاركته في الحملات التوسعية الاستعمارية على الشرق ،ففي جانفي 1832م أرسل ملك فرنسا "لويس فليب" بعثة دبلوماسية لإحياء العلاقات الدبلوماسية مع السلطان المغربي "مولاي عبد الرحمان" و إقناعه بعدم دعم المقاومة و اتخاذ موقف الحياد من غزو الجيش الفرنسي للجزائر(مردوخ إبراهيم،د.ت،ص 61) ،فكان ديلاكروا ضمن الوفد الذي قدم من فرنسا إلى المغرب ، فكانت هذه الزيارة بمثابة بوابة له من أجل اكتشاف سحر وجمال الشرق ،والأمر الذي زاد من فضوله هو اكتشاف عالم جديد مختلف تماما من حيث العادات والتقاليد ،فقام بزيارة بعض المناطق في المغرب و الجزائر أثناء إقامته القصيرة أين انبهر بجمال الطبيعة الشرقية واختلاف وتنوع مظاهرها ،كما استطاع التعرف على المجتمعات الشرقية من حيث العادات والتقاليد ، مما أدى به إلى إنجاز مجموعة من الأعمال الفنية العاكسة لروح النزعة الرومانسية (بن التومي علي ،المرجع السابق،ص151).

حين أقام ديلاكروا في طنجة سعى إلى استغلال كل دقيقة لرسم كل ما تقع عليه عينه، حيث كتب لأحد أصدقائه من طنجة يقول :"...أنا الآن مثل ذلك الإنسان الذي راودته الأحلام طويلا وفي نهاية المطاف تحقق كل ما كان يحلم به..."(عبد العزيز زينب،1971،ص174)، حيث إنهمك طوال يومه في رسم مخططات لأفراد من مختلف الفئات العمرية، فاتسمت كل مخططاته بإبراز تفاصيل ومميزات الجمال الشرقي بصفة ملفتة للانتباه (بيطار زينات،1992،ص 228)، فكان الشرق بالنسبة في نظره بمثابة مأوى الحضارات الفنية والطبيعة العذراء،إذ كان لا يتوقف عن كتابه رسائل لأصدقائه واصفا سعادته بتحقيق حلمه ،وأنه يرى بأم عينه مظاهر الشعب و حيوية روحه قائلا:" هذه الأماكن خلقت للفن فقط ...تعال إلى هذه المناطق تشعر بطبيعة الأشياء ...يجب إرسال الفنانين في أقرب سفينة متجهة إلى المغرب ليتعلموا الأصول الكلاسيكية للرومانسية ".

أمضى ديلاكروا قرابة ستة أشهر بالمغرب وكانت بالنسبة له اكتشاف جديد لماهية الفن ومفهوم الجمال (منخرفيس يمينة،2011 ،ص 199)، كما ساعدته هذه الرحلة على تطويره لنظرية اللون فقد هيأ له الشرق فرصة واقعية لمراقبة الصلة بين الضوء واللون و التغيرات اللونية التي تولدت من انعكاس نور الشمس على الأشياء ،و هناك بالذات اكتشف بنفسه ماهية الألوان المائلة للاخضرار و البنفسجي و تدرجاته (بيطار زينات، مرجع سابق، ص229) ،بعد إقامته بطنجة توجه إلى مكناس و الأندلس ، لتكون محطته الأخيرة مدينة وهران وبعدها مدينة الجزائر أين كانت مدة إقامته وجيزة ،وهناك تعرف على المهندس بواريل poirel والمسؤول على ميناء الجزائر ، فقام هذا الأخير بتقديمه إلى أحد رياس البحر

،وبعد محادثات تم إقناعه بزيارة حرمه، يذكر أنه قضى أربع أمسيات في رسم لوحته المشهورة والتي تم اختيارها كنموذج للدراسة التي جاءت تحت عنوان نساء الجزائر في شققهن ، حيث تم رسمها عندما سمحت له الفرصة من الدخول حسب كلامه إلى بيت جزائري و رؤية الحريم بعدما افتتن بطراز المشهد الحميمي المملوء بالطراز الشرقي ،فقام برسم مخطط بالألوان المائية وقام بإعادة رسمه فور عودته لفرنسا بالألوان الزيتية ،وفي سنة 1834م عرضها في صالون الأبواب المفتوحة بباريس ، ليتم اقتنائها فيما بعد من طرف إدارة متحف اللوفر بباريس(سليم يتقة،2014،ص89)، وبخصوص حقيقة زيارة ديلاكروا إلى البيت الجزائري التمسها العديد من الغموض كما تعددت الروايات حولها، ومن بينها رواية "كورنول" المنشورة من طرف محافظ متحف نانسي السيد بورال والذي بدوره استقاها من نشرة وفاته مكتوب عليها مايلي:

" خلال تواجد السيد بورال في الجزائر سنة 1832 استقبل الفنان اوجين ديلاكروا القادم من المغرب الذي كان حريضا على زيارة منزل إسلامي أين يستطيع رسم نسائها ،والذي لم يستطع القيام به في طنجة، والتي لم ينفذها إلا لدى عائلات يهودية ،و ترجى منه أن يسهل له العملية ،وبعدها أحضر له شاويش من إدارة ميناء الجزائر و بعد مفاوضات طويلة وافق على قيادته إلى منزله الخاص سرا ،وقد أعلم النسوة مسبقا ،وأمرهن بارتداء أجمل ملابسهن ليتمكن بعدها ديلاكروا من رسمهن،و نفذ بذلك مخططات ليتذكرها فيما بعد و ليستعملها لرسم لوحته الشهيرة" (lambert elie,1973,p11)





2-البطاقة التقنية

رقم الجرد: INV3824

اسم الفنان: أوجين ديلاكروا

عنوان اللوحة: نساء الجزائر في شقتهن

تاريخ انجاز اللوحة: 1834م

شكل اللوحة: مستطيل

حجم اللوحة: 180X229

التقنية المستعملة: زيت على القماش

مكان تواجدها: متحف اللوفر بباريس

3-وصف اللوحة:تتمثل في لوحة زيتية تضم مجموعة من الأشكال البشرية والجامدة داخل غرفة صغيرة،فكان كل شكل يحمل كيان متكامل باعتبار أن الشكل هو بيان حركة الخط ويأخذ مساحة ،والمساحة لها طول و عرض ،محاطة بخطوط تحدد الحدود الخارجية ،فكل عنصر تشكيلي في هذه اللوحة مرتبط بالموضوع الذي أراد الفنان أن يعبر من خلاله عن نفسه، فنجد الأشكال الأكثر بروزا هي الأشكال البشرية متمثلة في أربعة نسوة ذات أحجام كبيرة تملئ كل الحيز المكاني للوحة موضوعة في أماكن مختلفة، في المقدمة وعلى اليسار نجد مرأة مستلقية يعكس عليها الضوء بشدة جالسة فوق سجادة مزخرفة بأشكال هندسية، تحمل العديد من الألوان التي تظهر بوضوح متمثلة في اللون الأخضر والبرتقالي، الأحمر والأبيض، متكئة على وسادتين مخططة بالألوان يغلب عليها اللون الذهبي والأحمر والأخضر، بالإضافة إلى الزخرفة النباتية.

تبدو نظرات المرأة متوجهة مباشرة نحو الأمام وكأنها تنظر مباشرة إلى الفنان حيث ركز على إظهارها بصفة المرأة الجميلة بإبراز ملامحها، فظهرت ذو بشرة بيضاء و خدود وردية، وعينين كبيرتين ذات اللون البني مزينة بالكحل، وحواجب سوداء مقوستين و فم أحمر، ما زادها جمالا هي الملابس التي ترتديها متمثلة في قميص أبيض شفاف مفتوح من الأمام متوسط الأكمام طويل ،بحيث يكشف عن رقبتها، ترتدي فوقه سترة تعرف باسم "الغليلة" كانت تلبها النساء في الفترة العثمانية برتقالية اللون مزينة بشرائط وكريات ذهبية على شكل أزهار، وفي أطرافه تظهر بعض الزخرفة باللون الذهبي، ليكتمل لباسها بسروال أخضر اللون فضفاض وقصير يصل إلى الركبتين ليظهر ساقها الأيسر،تضع فوق سروالها قطعة من القماش البني اللون مطرز باللون الذهبي، وهو لباس عثماني يسمى الفوطة ترتديه المرأة في المنزل ،كما تزينت بمجموعة من الحلي، رقبتها مزينة بستة عقود من الجوهر يتوسطه أحجار تحمل اللون البنفسجي و الأحمر، تضع في يديها ثلاث خواتم ذهبية تزينها أحجار ذات اللون الأخضر، كما زينت كلتا اليدين بإسوارة من الذهب، بالإضافة إلى الخلخال الذي تضعه في رجلها اليسرى، إذ يعتبر من الحلي الذي لا تتخلى عنه المرأة في الفترة العثمانية.

بالنسبة لتفاصيل الرأس فنلاحظ أن الفنان تعمد إخفاء شعر المرأة بمحرمة سوداء اللون يظهر فيها البريق الذهبي يخرج منها سلسة مسماة بخيط الروح ما يدل على أن المرأة متزوجة، بالإضافة إلى أقراط ذهبية تزين أذنها.

على مسافة قريبة من المرأة التي كنا بصدد وصفها تجلس المرأة الثانية التي تحمل نفس الملامح وسمات الجمال ، يمكن الاختلاف في إظهار جزء من جسمها ليبرز محاسنها، حيث ترتدي هي الأخرى قميص شفاف مطرز بخطوط فضية قصير الأكمام مفتوح من الأمام، وفوقه سترة قصيرة تشد الصدر ذات اللون الأخضر تحتوي على زخارف صغيرة، أما السروال فهو مخالف عن سروال المرأة الأولى نجده رمادي اللون يحمل زخارف نباتية فضفاض وقصير يصل إلى الركبتين يظهر الرجل اليمنى للمرأة ،ومن التفاصيل التي ركز الفنان على إظهارها هو الوشاح الذي تضعه في رقبتها ،والخيط المشدود الذي يحمل أحجار من المرجان، تضع فوق رأسها محرمة سوداء اللون تغطيه شعرها بالكامل مع إبراز أقراط ذهبية اللون في

أذنيها، أما عن وضعية جلوسها فهي مربعة الرجلين فوق سجادة متعددة الأشكال الهندسية والألوان الطاغية فيها هي الأحمر ،والأخضر ،والأبيض ،والبني ،والأصفر موجهة نظراتها نحو المرأة الجالسة بالقرب منها على الجهة اليمنى تفصل بينهما مساحة قريبة تظهرها في حالة الحوار.

تبرز المرأة الثالثة وهي تمسك بيدها اليمنى النرجيلة، ذو بشرة بيضاء وعيون كبيرة، نظراتها تتجه نحو الأرض، ذو حواجب مقوسة وخدود وردية، شعرها أسود مستدل على كتفها اليمنى، هي أيضا تضع محرمة سوداء اللون تغطي القليل من شعرها بالإضافة تزينها وردة وأقراط ذهبية تزين أذنها.

حاول الفنان إظهار هذه المرأة بكل جمالها من خلال إبراز ملامح وجهها والملابس التي ترتديها، فهي تضع قميصا طويلا أبيض اللون ذو أكمام شفافة تتكون زخارفه من أزهار وردية محاطة بأوراق خضراء، تم اختيار اللون الأخضر للسروال، يحتوي على أزهار صغيرة ذات اللون الذهبي، هو الآخر قصير يصل تحت الركبتين بحيث يكشف عن نصف ساقها، كما وضع سترة وردية فوق قميصها جالسة على سجادة تحمل زخارف هندسية بتدرجات اللون البني.

وبخصوص المرأة التي تظهر في اللوحة مستديرة نحو الوراء فتبقى غامضة بحيث جاءت مختلفة في لون بشرتها مخالفة للنسوة الثلاث، سوداء البشرة بحيث يظهر لنا ظهرها فقط وجانب من وجهها موجهة نظراتها نحو المرأة الثالثة، وهي واضعة فوق رأسها محرمة بطريقة مغايرة، يظهر في رقبتها عقد من اللون الأحمر والأسود، وفي أذنها أقراط من الفضة، كما تبرز بوضوح السوار الفضي في كفها الأيسر، وخاتم ما يجعلنا نرجح أنها تعمل كخادمة في ذلك المنزل، فهي ترتدي قميص أبيض مائل إلى الاصفرار قصير الأكمام تربطه بحزام من القماش يحمل اللون الأصفر والأحمر والبرتقالي، تضع فوق القميص سترة ذات اللون الأزرق القاتم تكاد لا تظهر الزخارف الموجودة عليها، نجدها مزينة بخيط ذهبي من الأطراف، وفي الأسفل تلبس فوطة طويلة تحمل اللونين الأحمر والأسود ،وفي رجلها تضع نعال تسمى البابوش ذات اللون الأحمر ، نجدها في حالة الحركة بتقديم رجلها اليسرى بينما بقيت الرجل اليمنى في الوراء مرفوعة قليلا.

أما عن الأشياء الجامدة التي وظفها الفنان في لوحته فتمثلت في سجاد و نعال ملقاة على الأرض، وستائر وزليج ونرجيلة (الشيشة)، ومجموعة من الأواني النحاسية التي تزين الخزانة والمشكاة وخزف يزين الحائط، ومرآة معلقة على الحائط ، بالإضافة إلى كانون مصنوع من الطين يحتوي على فحم يتوسطه احمرار النار وهي كلها أشياء مرتبطة بطبيعة الموضوع ،ولو أمعنا النظر في مختلف هذه الأشكال نرى أن الفنان ديلاكروا وزع هذه العناصر على ثلاث أبعاد :

البعد الأول: سيدة متكئة على وسادة وفي نفس المستوى نجد النرجيلة.

البعد الثاني: سيدتان تتبادلان أطراف الحديث أمامهم كانون وملقط.

البعد الثالث: يظهر عليه عمق اللوحة نرى فيه الخزانة وأواني ومدفأة تقليدية في الحائط.

وبخصوص الألوان نلاحظ أن الفنان استعمل مجموعة من الألوان، فتعدد الألوان وتنوعها راجع إلى براعة الفنان في توظيف خصائص أسلوبه الرومانسي، حيث اعتمد على مجموعة من الألوان فنجد (الأصفر، البرتقالي، الأحمر، الذهبي، البني، الأخضر، البنفسجي، الأبيض، الوردي، الرمادي) ما نتج عنه

مجموعة من التكاملات اللونية، فعند تحقيق قاعدة التكامل اللوني في العمل الفني فإن المتلقي يجد نفسه في أريحية تامة عند رؤيته للوحة.

ومن حيث المنظور المرئي نجد أن الفنان أتقن استعماله، حيث قام بتوظيف المنظور الخطي لإبراز الأرضية والخزف وكل الأشكال الهندسية الموجودة داخل الفضاء الفني، كما قام بتوظيف المنظور الهوائي من أجل إبراز الألوان الحارة وتدرجها ما أعطى للوحة عمر فني، ومن حيث الأشكال والأبعاد نلاحظ بروزها، وهذا يرجع إلى التوزيع المحكم للفراغات التي توحي بعمق الترابط بين العناصر التشكيلية من خطوط ومساحات شكلت من قيمة اللوحة شكلا ومضمونا.

4-الجانب التحليلي:يتمحور موضوع لوحة نساء الجزائر في شقتهن حول مجموعة نساء تعشن في إحدى بيوت القصبة حيث عمل الفنان على إيصال فكرة دقيقة عن الحياة اليومية التي تعيشها هؤلاء النسوة في بيوتهم، من خلال مجلسهن.

يتمثل البعد الأول في امرأة متكئة على وسادتين وترتدي ملابس فخمة مرصعة بالجواهر وعلى رأسها وشاح وأقراط تزين أذنها وعقد مرصع بالجواهر يلف كامل رقبتها لدرجة يكاد يغطيها، تتزين بمجموعة من الخواتم والأساور المصنوعة من الذهب، كما ترتدي حذاء خفيف في رجلها وخلخال تجلس على سجاد فاخر من الطراز العثماني مزركش بأشكال هندسية وهي في وضعية استلقاء واسترخاء وكأنها تغوص في تفكير واضح من خلال ملامحها وطريقة جلوسها.

نجد بالقرب بجانبها امرأة مستلقية في الجهة اليمنى من اللوحة وعلى البعد نجد الخادمة في وضعية حركة توحي وكأنها تقوم بمهام وخدمة السيدات، ترتدي ملابس قديمة ومختلفة تماما على التي ترتديها بقية النسوة، على رأسها وشاح من خلال لونه يظهر قدمه،يزين عنقها عقد من الفضة بعكس النساء الأخريات تتوسط المرأة الخادمة والمرأة المستلقية نرجيلة فوق الأرضية المزخرفة بأشكال هندسية وبالقرب منها كانون من الطين به فحم، وهذا يدل على أنهم في حالة تدخين.

يتمثل البعد الثاني في سيدتان تجلسان بطريقتين مختلفتين فالسيدة التي على اليمين تجلس على رجل و تضع يدها التي تحمل أنبوب النرجيلة على رجلها الثانية حيث تضع زهرة فوق أذنها و وشاح يغطي نصف رأسها، وفي أذنها أقراط و نصف شعرها يتدلى على صدرها من الجهة اليسرى، قميصها مزين بالزهور وسروالها قصير يكشف عن ساقها حالتها تعبر عن حالة تركيز وإصغاء تام إلى ما تقول لها المرأة ،أما بالنسبة للسيدة الثانية فهي تجلس جلسة عربية ترتدي ملابس فخمة تعكس الترف الذي تعيشه، نصف شعرها مغطى بوشاح، و النصف الآخر مضفور ومتدلي على جانبها الأيسر، تضع في أذنها أقراط ذهبية بالإضافة إلى الحلي والأساور والخواتم والخلخال الذي على رجلها اليسرى، يلف عنقها وشاح يكاد يغطي العقد الذي ترتديه، من طريقة جلوسها توحي وكأنها في حوار مع المرأة التي تقابلها ،على يسار السيدتين جدار يقابل المرأة الخادمة يزينه لوحة تحمل الخط العربي وعلى يمينهن مجموعة من الأفرشة والوسائط يعلوها ضوء متساقط من الجدار وكأنها نافذة تعتلي الجهة اليمنى للغرفة، ذلك الضور المتساقط من

الخارج يبرز ويوضح أن وقت رسم اللوحة كان في وضح النهار، نلاحظ أن الغرفة مكسوة بالخزف المزخرف تتوسط الجدار لوحة خزفية تتشكل من مزهرية، تعلو المزهرية مرآة من الطراز الفخم ذات إطار ذهبي.

أما البعد الثالث فيوضح ستار يقسم الغرفة تقابله خزانة مفتوحة يظهر بداخلها أواني نحاسية، نرى أيضا فوق الخزانة قبو به أواني زجاجية، كما نجد مدفأة في الحائط.

إن العنوان الذي تحمله هذه اللوحة يحمل العديد من المعاني وظفها الفنان على شكل رموز وأيقونات مرئية تملئ كل ركن داخل لوحته تعبر عن المرأة الجزائرية وانتمائها الشرقي الإسلامي، و أما عن صحة تنفيذها بالجزائر فهو غير مستحيل مادام هناك شهادات بسفره إلى الجزائر ، فقط يبقى الأشكال في ما إذا النساء الذين تم رسمهن هم نساء جزائريات فعلا أو يهوديات مع العلم هو كان يسمي النساء في لوحته باسم موني بن سلطان أو لالاموني علما أنها أسماء لعائلات مسلمة ، وربما استخدمها ليظهر أنه كان في استضافة عائلة مسلمة ذو أصول عثمانية.

من خلال اللوحة نستنتج أن الفنان ديلاكروا تأثر بروايات ودراسات المستشرقين الذين سبقوه فأثناء إنجازه للوحته قام ببحوث حول ماهية الشرق في أبحاث المستشرقين ،ولعل تأثيره بما كتب جعله يكثف في تدوين رموز وعناصر الشرق في لوحة واحدة مستغلا كل حيز مكاني فيها، فيمكن أن نستقرأ العديد من الدلالات التي أراد ديلاكروا أن يعبر بها عن ماهية الشرق بالنسبة له ولغيره من المستشرقين،حيث تم تصوير هذه اللوحة على شكل نافذة مفتوحة تكشف لنا سر الحرم الشرقي أو بالأحرى البيت الشرقي الذي يحرص الرجل الشرقي إخفائه عن أعين الغرباء، والتي سعى الفنانون المستشرقون برسمه على لوحاتهم ولطالما اعتادوا على وصف نساء الحرم أو الأسطورة الشرقية ذات العيون الواسعة والوجه البيضاوي والشعر الأسود والحاجبان المقوسان فوق الأعين والأجساد الممتلئة ،محاولا إظهار مفاتنها مستلقية على زرابي من الصوف وستائر من الحرير ترتدي أجمل الثياب الحريرية المزخرفة بالخطوط الذهبية والمجوهرات الثمينة يحوم حولها خادمات تحت إمارتها يجتمعن في جو من المرح و الموسيقى.

من خلال ما سبق من الدراسة التحليلية والفنية للوحة نستخلص جملة من النتائج وهي كالتالي:

-توظيف جميع السمات والخصائص الخاصة بالمدرسة الرومانسية.

-توظيف القواعد الأكاديمية في بنية العمل الفني وكل هذا ليعكس الحياة الاجتماعية والطبيعية وحضارة الشرق التي تأثر بها الفنان.

-تحمل اللوحة عدة دلالات وأبعاد في طياتها واختلفت هذه الدلالات باختلاف مقاصد ورؤى الفنان حيث يصور الشرق بموضوعية فيها شيء من الذاتية خاصة من حيث رسم الملابس الشفافة وطريقة ابراز مفاتن المرأة في اللوحة الفنية.

-استعمل لغة واضحة المعالم باستخدام لغة الألوان والضوء والخطوط والأشكال لإيصال فكرة واضحة عن الصورة المراد التعبير عنها.

خاتمة:

نستنتج أن ما يظهر من خلال لوحة نساء الجزائر في شقتهن للفنان اوجين ديلاكروا، لا يعكس إطلاقا الحياة التي كانت تعيشها المرأة الجزائرية في تلك الفترة من الزمن اعتمادا، وهو إلا إثبات للأسطورة الشرقية التي نسجها الغرب من خلال حكايات ألف ليلة وليلة بأن المرأة سجينة الحرم الشرقي، والضوء القليل المنبعث من الخارج في اللوحة هو رمز للنجاة القادم من طرف الرجل الغربي الذي صورته الأسطورة الشرقية على أنه الرجل الذي يأتي لينقذ المرأة من العنف الذي يمارسه الرجل الشرقي عليها.

وعليه يمكن القول أن الفن الاستشراقي يحمل جزءا مهما من ذاكرة الشعب من جهة، وينتابه اللبس والتزييف والاصطناع من جهة أخرى، فهو بمثابة إعادة بناء للآخر وفق التصور والمصلحة،إلا أننا نستطيع الاستفادة منه في كتابة التاريخ إذا أحسنا غربلته من الشوائب العالقة به، كما يمكن من خلاله دراسة الفكر الغربي، ولكي يحسن المتلقي تحليله، لابد أن يكون مجهزا بمجموعة من الأدوات أهمها العودة إلى العادات الشعبية، التراث والعادات والتقاليد باعتبارهما المنهل الذي نهل منه الرسامون موضوعاتهم، وكذا الاطلاع على الوقائع التاريخية حول سير الرسامين المستشرقين ودراسة أساليبهم الفنيةالمستخدمة.

-قائمة المصادروالمراجع:

1)الكتب:

-احمد عمر مختار وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، (2008) ، عالم الكتاب، ط1، (القاهرة)

-محمد فاتح الله الزيادي، الاستشراق أهدافه ووسائله، (2002) ، دار قتيبة للنشر، ط2، (دمشق)

-ابن المنظور، لسان العرب، (1988) ، دار احياء التراث، ط1، (لبنان)

-أحمد رضا، معجم متن اللغة، (1959) ، دار مكتبة الحياة للنشر والتوزيع، (بيروت)

-عثمان الطيب ليليا، صورة المرأة الجزائرية في لوحات الرسام الأمريكي المستشرق فريدريك أرثر بريجمان، (2022) ، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، ط1، (برلين-المانيا)

-مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط -مجمع اللغة العربية (2004) ، مكتبة الشروق الدولية، ط4، (مصر)

-قدور محمد تاج، الاستشراق، ماهيته، فلسفته ومناهجه، (2014) ، مكتبة المجتمع العربي، ط1، (الأردن)

-محمد بن اليعقوب مجد الدين الفيرزآبادي، قاموس المحيط، تحقيق : محمد نعيم العرقسوسي، (2005) ، مؤسسة الرسالة

-احمد بن محمد المقري، المصباح المنير، تحقيق : عبد العظيم الشناوي، (د.ت) ، دار المعارف، (القاهرة)

-محمد بن عبد القادر الرازي، مختار الصّحاح، (د.ت) ، مكتبة لبنان، (لبنان)

-الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق : عبد الحميد هنداوي، (2003) ، دار الكتب العلمية، (بيروت)

-أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، (د.ت) ، دار صادر، (بيروت)

-يحي مراد، معجم أسماء المستشرقين،

-مازن بن صلاح مطبقاني، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، (1995) ، منشورات مكتبة الملك فهد الوطنية، (الرياض)

-محمد الأمين عبد الله، الاستشراق في السيرة النبوية، (1997) ، المعهد العالي للفكر الإسلامي، (القاهرة)

-محمد فاروق النبهان، الاستشراق، تعريفه مدارسه وآثاره، (2012) ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة

-سعدون محمود الساموك، الوجيز في علم الاستشراق، (2002) ، دار المناهج، ط1، (الأردن)

-فوزي عمر فاروق، الاستشراق والتاريخ الإسلامي، (1998) ، الأهلية للنشر و التوزيع، (الأردن)

-محمد الجبري، الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، (1995) ، مكتبة وهبة، ط1، (القاهرة)

-رضوان السيد، المستشرقون الألمان، النشوء والتأثير، (2007) ، دار المدار الإسلامي، ط1، (لبنان)

-محمود خليف الحياني، الاستشراق والاستغراب، (2013) ، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط1، (الأردن)

-الطيب بن إبراهيم، الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه الخاصة في الجزائر، (2004) ، دار المنابع، (الجزائر)

-محمد حمدي زقزوق، الإسلام والاستشراق، (1984) ، دار التضامن للطباعة، ط1، (القاهرة)

-بربري، المستشرقون البريطانيون، ترجمة : محمد الدسوقي، (1947) ، (لندن)

-سعيد همام وآخرون، الوجيز في الثقافة الإسلامية، (د.ت) ، دار الفكر، (القاهرة)

-حسيني ايناس، الاستشراق وسحر حضارة الشرق، (2012) ، كتاب دبي للثقافة، (الامارات العربية المتحدة)

-بيطار زينات، الاستشراق في الفن الرومنسي الفرنسي، (1992) ، عالم المعرفة، (الكويت)

-ثروت عكاشة، مصر في عيون الغرباء، (1984) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1، (القاهرة)

-رولان بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة : مصطفى ماهر، (1968) ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، (القاهرة)

-عبد الرحمان خرشي، فليفة الاستشراق وأثرها في الصراع الحضاري، (2013) ، دار هومة، (الجزائر)

-مكائيل انجلو جويدي، عالم الشرق والتاريخ العمراني، (1930) ، دار الزهراء، (القاهرة)

-مكسيم رودنسون، الصورة الغربية و الدراسات الغربية الإسلامية في تراث الإسلام، ترجمة : محمد زهير السمهوري، (1978) ، سلسة عالم المعرفة، القسم1، (الكويت)

-مالك بن نبي، انتاج المستشرقين و أثره في الفكر الإسلامي الحديث، (1969) ، دار الرشاد، ط1، (بيروت)

-ادوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة : كمال أبو ديب، (1995) ، مؤسسة الأبحاث العربية، ط2، (بيروت)

-ادوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة : محمد عناني، (2006) ، دار رؤية للنشر والتوزيع، ط1، (القاهرة)

-محمد عبد الغني حسن عبدالله، سلسلة اعلام العرب، (1962) ، وزارة الثقافة ، (مصر)

-محمد عبد المنعم خفاجي، الاستشراق و أهدافه، (1984) ، جريدة الحضارة ، (القاهرة)
-عبد المنعم أبو دنيا، الاستشراق اليهودي أسبابه و أهدافه و طرق مواجهته، (2008) ، دار الجامعة الجديدة ، (مصر)
-محمد الغزالي، دفاع عن العقيدة و الشريعة ضد مطاعن المستشرقين، (د.ت) ، دار السلام للنشر والتوزيع، ط5، (الجزائر)
-أحمد الاسكندري، المفضل في تاريخ الادب العربي، (1936) ، المكتبة الأميرية، (القاهرة)
-أحمد اسماعيل وفيتش، فلسفة الاستشراق و اثرها في الأدب العربي المعاصر، (1979) ، دار الفكر العربي ، (القاهرة)
-سياطة سامي الحاج، الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، (1997) ، الجامعة المفتوحة، ج3، (طرابلس)
-أنور الجندي، الفكر الإسلامي مقدمات العلوم و المناهج، (1972) ، ط1، (القاهرة)
-عمر فروج ومصطفى خالدي، التبشير و الاستعمار في البلاد العربية، (1973) ، المكتبة العصرية، (لبنان)
-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (1998) ، دار الغرب الإسلامي، ج6، ط1، (بيروت)
-نجيب عقيقي، المستشرقون، (1964) ، دار المعارف، ج1، (القاهرة)
-صبحي الشاروني، مدارس و مذاهب الفن، (1994) ، الهيئة العامة للنشر،ط1، (مصر)
-نعمت إسماعيل علام، فنون الغرب في العصور الحديثة، (د.ت) ، دار المعارف للطباعة و النشر، ط5، (مصر)
-إبراهيم مردوخ، مسيرة الفن التشكيلي بالجزائر،
-زينب عبد العزيز، دولاكروا من خلال يومياته، (1971) ، دار المعارف، (القاهرة)
-لين تورنتون ،النساء في لوحات المستشرقين، ترجمة:مروان سعد الدين، (2007)، دار الهدى للثقافة والنشر،ط1، (دمشق)
-Brahim hadj Slimane, la réaction artistique en Algérie, histoire et environnement, Marsa Édition, Alger 2003.
-Lynne horenton,the orientalists printer travelers 1828-1908, ACR Édition, 1983
-Lambert Elie, Delacroix et les femmes d'Alger, Édition Renouard, paris,1973.

(2)المجلات:

-أحمد خالدي ومحمد يحياوي، "السينما في مواجهة التضليل الاستشراقي"، (2021) ، مجلة آفاق سينمائية، الجزائر ، المجلد 1، العدد 1
-بن يحي بركان، "الاستشراق الفرنسي و نشاطاته في الجزائر"، (2016) ، مجلة الدراسات و البحوث الاجتماعية، جامعة حمه لخضر -الوادي، العدد 17

-محمد وقيدي، "تطور الصياغة الأيديولوجية في الاستشراق"، (1982) ، مجلة دراسات عربية، بيروت، العدد7

-عمر لطفي العالم، "الاستشراق في الميزان"، (1990) ، مجلة الجهاد، العدد 7، (ليبيا)

-مفرج جمال، "جميلات الجزائر في اللوحة البصرية الاستشراقية"، (2014) ، مجلة جماليات ، جامعة مستغانم، العدد01.

-قاسي فريدة و طرشون نادية، "صورة الدولة العثمانية في الرسم الاستشراقي الأوروبي"، (2021) ، مجلة المحترف لعلوم الرياضة و العلوم الإنسانية و الاجتماعية، المجلد 8، العدد4، الجزائر

-حاج بنيرد،"جهود المستشرقين في دراسة اللهجات الجزائرية-مقاربة اثنوغرافية-"، (2020) ، مجلة دراسات استشراقية، العدد 22

-بتقة سليم ،"حوارية النص و الصورة ، آسيا جبار قارئة لدولاكروا " نساء الجزائر في مخدعهن"، (2014) ، مجلة المخبر ، أبحاث في اللغة و الادب الجزائري ،العدد 10، جامعة بسكرة ، الجزائر.

(3) الرسائل الجامعية:

-بن التومي علي، ظاهرة الاستشراق في الفن التشكيلي الجزائري (2019-2018) ، (أطروحة دكتوراه) ، جامعة احمد بن بلة ،وهران

-شايب الدور احمد، الاستشراق الفرنسي والتراث الشعبي في الجزائر (2009-2010) ، (أطروحة دكتوراه) ، جامعة وهران ، الجزائر

-يحياوي رزيقة، الاستشراق الفرنسي في الجزائر و جهوده في دراسة و نشر التراث الجزائري، (2015-2014) ، (أطروحة ماجستير) ، جامعة باتنة، الجزائر

-أعمر محمد الأمين، التصوير الاستشراقي في الجزائر خلال القرن التاسع عشر (2016-2017) ، (أطروحة دكتوراه) ، جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان

-منخرفيس يمينة ، صورة المرأة الجزائرية في الفن الاستشراقي -دراسة تحليلية سيميولوجية لعينة من لوحات الفنية للفنانين اوجين دولاكروا و ايتيان دينيه، (2012) ، (أطروحة ماجستير) ، جامعة الجزائر 3، كلية العلوم السياسية و الإعلام ، قسم علوم الإعلام و الاتصال، الجزائر.

لمحات من صورة المسلم والإسلام في رحلة الراهب فيليكس فابري(1483-1484م)
Glimpses of the Image of a Muslim and Islam on the Journey of Monk Felix Fabbri (1483-1484)

د. أحمد شربيتي، جامعة خميس مليانة- الجزائر
a.cherbiti@univ-dbkm.dz



تعد كتب الرحلة باختلاف أنواعها من أهم الكتب التي تسلط الضوء المجتمعات، من بين هذه الرحلات رحلة فيليكس فابري إلى فلسطين والأراضي المقدسة المسيحية وطرق معاملة الحجاج، التي تعدّ من الرحلات الدينية، فمن خلال هذه الدراسة التاريخية سنقف على أهم التصورات التي قدمها الراهب فيليكس فابري عن المجتمع المسلم في العصر المملوكي الأخير نهاية القرن 15م، وعن تصرفات المسلمين وردة الفعل اتجاههم، والغاية من وموقفه اتجاه المسلمين وشعائرهم الدينية، و نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام. إذ فسر نظرته للمقدسات والشرائع الإسلامية وفق منظوره الخاص، ووظف مجموعة من الأساطير اليونانية لتصوير عقيدة المسلمين على أنها عقيدة وثنية بناء على معلوماته المكتسبة التي نالها في مدينته أولم ومن مطالعاته لكبار العلماء المسيحيين مثل القديس أوغسطين، والإكويني. كما أن الغرض من تأليف الرحلة هو تعريف الفرد الأوروبي بالمجتمع المسلم من منظور كنسي.

الكلمات مفتاحية: الرحلة، الحج المسيحي، الإسلام، المسلم، المماليك

Abstract:

The journey books of all kinds are among the most important books that highlight societies, including Felix Fabbri's journey to Palestine and the Christian Holy Land, which is a religious journey, through this historical study we will stand on the most important perceptions presented by the monk Felix Fabbri about the Muslim Society in the last Mamluk era at the end of the 15th century, the actions of Muslims, the ways in which pilgrims are treated and reacted towards them, the purpose and attitude towards Muslims and their religious rituals, and the prophet of Islam Muhammad. He interpreted his view of Islamic sanctities and canons according to his own perspective, and employed a set of Greek mythology to portray the Muslim faith as pagan based on his acquired information in his home city of Ulm and from his readings of senior Christian scholars such as St. Augustine and the Aquinas. The purpose of the journey is to introduce the European individual to the Muslim community from a church perspective.

Keywords : Journey, Christian pilgrimage, Islam, Muslim, Mamluks.



مقدمة:

منذ قرون عديدة كانت الرحلة جسرا من جسور التواصل الحضاري بين الثقافات والشعوب على ضفاف المتوسط، وبين الشرق والغرب مع اختلاف ألسنتهم ودياناتهم، فلقد زودت التاريخ والمؤرخين بمعلومات هامة يمكن من خلالها فهم المجتمعات وكذا فهم أوجه الاتفاق والاختلاف بين الأمم بعيون المرتحل الذي يكتب نصوصا هامة مستقاة من ملاحظات ومشاهدات تمتزج فيها آراء الرحالة بالمشاعر بغض النظر عن موضوعيته أو ذاتيته، ولما كانت مثل هذه النصوص مفيدة ومصدرا هاما في معرفة طباع الشعوب وعاداتهم و وصف البلدان والوقوف على أبرز الوقائع، أولتها الدول عبر العصور أهمية كبيرة، ومن ذلك اهتمام الدولة الإسلامية في العصر الأموي وبعدها الدولة العباسية خلال القرن الثامن للميلاد، فكان لزاما على أمراءها وحكامها معرفة المسالك والبلدان الواقعة ضمن حدود دولتهم المترامية ليسهل إدارتها، ولا سبيل إلى جمع هذه المعارف إلا من خلال كتب الرحلة التي ألفت خصيصا لهذا الغرض، فتباينت الرحلة بين طابع رسمي سياسي في شكل وفود مرسلة بين الدول الإسلامية والدول الصديقة يقيد فيها الرحالة ملاحظاته وآراءه حول الشعوب والقبائل التي يمر بها، والظواهر التي يشاهدها لتكون أشبه بوصف يسجله في كتاب خدمة لسلطانه، وإمّا أن تكون رحلة ذات طابع فردي يسعى فيها الفرد إلى خوض غمار الاستكشاف والسياحة في الأرض يجمع خلالها معلومات جغرافية أو للتجارة، أو لطلب العلم، أو لغاية دينية كالحج وزيارة الأراضي المقدسة، ونحن بدورنا في هذه الدراسة سوف نسلط الضوء على رحلة من نوع آخر من الرحلات الدينية المسيحية التي ترسم صورة مسلم والإسلام، رحلة فيلكس فابري الراهب الألماني.

-فمن هو هذا الراهب، وكيف نظر إلى شخصية المسلم وإلى مقدسات المسلمين؟ وما موقفه منهم؟

أولا- الرحلة بين الشرق والغرب:

بداية من القرن الثالث للهجرة ظهرت عدد من التصانيف والمؤلفات التي تقسم البلدان وتصف مسالكها وتضاريسها وهي نتاج معلومات اجتمعت من الرحلة، ومن ذلك كتاب المسالك والممالك لأبي القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبه الذي وصف فيه أقاليم الأرض وضمنه معلومات استقاها من كتب الأولين ككتاب الجغرافيا (ابن خرداذبه، 1989، ص4) لكلاوديوس بطليموس المصري 127-148م الذي كان مصدرا هاما لصناع الخرائط من العرب(بطليموس، 2004، ص15)، وكتاب الرحالة أحمد ابن إسحاق اليعقوبي(ت سنة284هـ/897م) المسمى" البلدان" الذي جمع فيه أخبار الأمم وعاداتهم وأحوالهم أيام ارتحاله في شبابه(اليعقوبي، دت، ص1)، ورحلة أحمد ابن فضلان (877- 960م) سنة (309هـ/921م) إلى بلاد الصقالبة بتكليف من الخليفة العباسي المقتدر بالله جعفر ابن المعتضد إلى ملك الصقالبة ألمش بن يلطوار، وهذه الرحلة تعتبر مصدرا هاما زود المسلمين بكم هائل من ثقافات الأتراك والروس والصقالبة على حدّ سواء(ابن فضلان، 1996، ص67).

وإلى جانب هذه المؤلفات التي قيدت ما في الرحلات نجد عددا من الرحلات الأخرى ككتاب "صورة الأرض" لابن حوقل الذي ابتدأ رحلته من مدينة السلام بغداد في شهر رمضان سنة (331هـ/ 943م) (ابن حوقل، 1992، ص10)، وكذا رحلة الإصطخري، وعدد من الرحالة الذين عاصروا هؤلاء.

وإنّ كان المشرق الإسلامي قد سبق في هذا الميدان فإن المغاربة قد ألفوا في هذا المجال بحكم ارتباطهم الديني بالمشرق الإسلامي (الحج والعمرة) والعلمي في طلب العلم ولقاء العلماء، ولعل من بين أشهر الرحلات خلال القرن الرابع عشر ميلادي، رحلة محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة المسماة" تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" التي ابتدأها في الثاني من شهر رجب سنة (725هـ/ 1325م) قاصدا بيت الله الحرام، فطاف أصقاع الأرض وصولا ببلاد السند والهند، ومنها إلى الصين، فدامت رحلته 25 سنة (ابن بطوطة، 2020، ص 481)، وإلى جانب هذه الرحلة اشتهرت عدد من الرحلات الإسلامية كرحلة ابن جبير الأندلسي إلى الأراضي المقدسة خلال القرن السادس للهجرة.

ومما لا شك فيه أن مثل هذه الرحلات شجعت المستشرقين على خوض غمار الرحلة إلى الشرق بدافع الاستكشاف وفي الغالب لأسباب دينية ارتبطت بالمقدسات المسيحية في فلسطين وبلاد الشام، وقد تزايد هذا الاهتمام مع الحملات الصليبية خلال القرن 11م والتي كان لها الأثر الكبير في الصراع وتواجه الحضارتين، وبغض النظر عن المغريات والمكاسب التي سعى البعض إلى تحقيقها فإنّ بعض من الرحالة سعى إلى زيارة الأراضي المقدسة لدى المسيحيين والتعرف على الإسلام والمسلمين من زاوية قريبة تتيح لهم الحكم حكما صحيحا خال من التوجهات والمصالح، ولعل من بين أشهر الرحلات المسيحية نذكر على سبيل الإشارة لا الحصر رحلة الحاج "سايولف" إلى الأراضي المقدسة بين عامي(1102- 1103م)، ورحلة الحاج الراهب "دانيال" الروسي بين عامي 1106- 1107م خلال حكم الملك الإفرنجي بلدوين الأول (1100-1118م) الذي رافقه أثناء حملاته على دمشق، وخلال تلك الفترة تمكن من جمع عدد كبير من المعلومات الجغرافية حول فلسطين ولبنان، ورحلة الألماني "يوحنا قوزبورغ" بين سنتي (1118- 1130م) الذي كتب رحلته في سبعة عشر فصلا دوّن فيه أوصاف بيت المقدس والمدن الفلسطينية (قورزببورغ، 1997، ص 11-15).

ولم تتوقف الرحلات المسيحية نحو فلسطين بعد استرجاع بيت المقدس من طرف المسلمين في العصر الأيوبي والمملوكي بل استمر هؤلاء في التوافد تحت حماية السلاطين الذين كان لهم دور كبير في ضمان حرية العبادة والمقدسات المسيحية، فعلى سبيل المثال زار الرحالة السير "جون مانديفيل" الأراضي المقدسة سنة 1322م في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في عهدته الثالثة (708هـ/1309-741هـ/1341م) ووصف الطرق والمسالك والسكان، كما حاز على حماية السلطان فرخص له بزيارة بعض المزارات المقدسة التي لا يسمح لأي كان بزيارته من المسيحيين واليهود إلا بترخيص(ماندفيل، 2012، ص111)، وإن دلّ ذلك فإنما يدل على اهتمام المسلمين الفائق بهذه المقدسات قصد حمايتها.

ثانيا- نبذة عن الراهب فيلكس فابري ورحلته:

من بين الرحالة الأوروبيين الذين تصنف رحلاتهم من ضمن الرحلات الدينية رحلة الراهب الكاثوليكي الألماني فيليكس فابري Félix Fabri ، الذي زار فلسطين مرتين، أولها كانت قصيرة بسبب الظروف والصعوبات التي واجهته في سنة 1480م، والثانية حضر لها تحضيرا جيدا وحصل على الدعم الكافي وبحث فيها بحثا جادا عن المزارات المقدسة في كتب الرحالة الأوائل لمعرفة الأماكن المقدسة التي كان يجهلها في الرحلة الأولى لكي لا تتكرر الأخطاء التي وقع فيها، وكانت الثانية في سنة 1483م إلى بداية عام 1484م، ينتمي هذا الراهب إلى دير الدومينيكان في " أولم " الألمانية.

في الرحلة الأولى لم يتمكن هذا الراهب من استشعار معاني الحج وأحس بنقص رحلته، ولكن يبدو أنّ النقص كان متعلقا بقلة معرفته بالأراضي المقدسة لذلك عكف قبل الشروع في الرحلة الثانية على دراسة كتب من سبقه وحاول الاستفادة من تجاربهم، فلم يكن خبيرا بمثل هذه الأعمال والكتابات، ويضاف إلى ذلك ظروف الرحلة القاسية التي تعرض لها في طريقه البحري ذلك أن الدولة العثمانية في تلك الفترة كانت تخوض معارك جهاد بحري في شرق المتوسط وعلى أعتاب البحر الأدرياتيكي، وكان هذا كفيلا ببعث الرعب في نفوسهم خوفا من أسر الأتراك لهم، والسبب الثاني أنّه لم يتمكن من تقييد رحلته التي أنفق فيها أموالا كثيرة، ولعلها كانت من التجارب الفاشلة، لكنه في الرحلة الثانية حصل على دعم من عدد من النبلاء الذين عزموا على السفر برفقته، لكنه لم يسمح له إلا بعد حصوله على ترخيص من طرف البابا "سيكتوس الرابع"، وهذا يحيلنا إلى مدى سيطرة الكنيسة على الحجاج الكاثوليك وسلطتها عليهم (زكار، 2000، ص111، 150، 155).

ثالثا- أحوال الدولة المملوكية وأوروبا منتصف القرن الخامس عشر:

وبالنظر لما أوردته هذه الرحلة من تفاصيل هامة حول المجتمع العربي في فلسطين في العصر المملوكي، فإنّه من المهم أن نقف على الواقع السياسي في تلك الفترة التي وقعت فيها الرحلة لنضع التفاصيل الواردة في إطارها الزماني والمكاني، وبما أنّ الرحلة الثانية المهمة جرت في سنة 1483م، فإن دولة المماليك كانت تشهد نوعا من التدهور السياسي بسبب تحكم المماليك في تعيين السلاطين من خلال تدبيرهم للفتن والمؤامرات بسبب الضائقة المالية التي كانت تعيشها البلاد في تلك الفترة والتي انعكست على عامة الشعب مما دفع البدو لشن غارات النهب وقطع الطريق على القوافل، ومع تولية المماليك للسلطان قايتباي سنة 1468م، حرص على تحسين أمور البلاد واستتباب الأمن في سائر المدن التابعة لسلطته طوال فترة حكمه التي امتدت 29 عاما، كما قضى على التمردات الواقعة في الحدود المتاخمة للسلطنة العثمانية في آسيا الوسط وبلاد الشام لكن في آخر أيامه -وهو على فراش المرض عن عمر يناهز 86 سنة- شبت الخلافات بين الأمراء المماليك، وقد استطاع قانصوه أن يفرض ابن السلطان قايتباي محمد خليفة لوالده وهو لم يتجاوز سن 14سنة، وأن يكون وصيا عليه، لتدخل دولة المماليك في دوامة الخلافات بين الأمراء المتنازعين على السلطة، في عهد محمد الذي حكم في الفترة الممتدة بين عامي (1469م-1498م) عادت الخلافات والصراعات بين قانصوه وأكبر دي، أمّا السلطان الشاب فقد عاش حياة المجون والترف، وزاد من

الاستبداد على الرعية، فضجر الناس من سياسته وتجاوزات المماليك، واستمر الاضطراب السياسي حتى اغتياله سنة (1498م) (عبد الدايم، دت، ص150-159)، هذه الصراعات الداخلية انعكست على حياة المجتمع المملوكي في كل من مصر والشام.

وعلى الضفة الأخرى كانت أوروبا تعاني من الانقسامات الداخلية والصراعات بين القوميات والطوائف، كما كانت تخوض حروبا على جبهات متعددة في الجهة الشرقية ضد الدولة العثمانية التي أوغلت في شرق أوروبا وفتحت القسطنطينية -والتي كانت رمزا من رموز المسيحية في شرق أوروبا- وسيطرت على عدد من الجزر في البحر المتوسط حتى شارفت على تهديد روما، وفي الجهة الغربية كان الإسبان يشنون حملات الاسترداد في الأندلس باسم المسيحية في الوقت الذي أوشكت فيه غرناطة على السقوط.

أمّا من الناحية الفكرية فقد ظهرت خلال القرن 13م و14م حركة إنسانية تسعى للرقي بالإنسان من خلال البحث والتقصي وإعادة النظر في المعارف وإحياء العلوم القديمة (اليونانية، الرومانية) في مختلف المجالات بما في ذلك الفلسفة والأدب، والاهتمام بكل ما هو مرتبط بأمجاد الحضارة الرومانية، فحفز ذلك المفكرين للبحث في المكتبات ودور العلم، ففي الفلسفة مثلا لقي الفكر الأفلاطوني في القرن 14م انتشارا واسعا بعدما سبقه الفكر الأرسطي في القرن 13م.

هذه الحركة العلمية التي تسربت من إيطاليا نحو وسط أوروبا ألهمت المفكرين والأدباء والعلمانيين ورجال الدين إلى الانغماس في المعرفة والبحث، وبلغ بعضهم درجة متقدمة من خلال دراسة العلوم المشرقية وتعلم لغاتها(بيرنجيه وآخرون، 1995، ص 176، 177)، ولا شك أن اختراع الطباعة كان من بين العوامل المهمة التي دفعت بالنهضة الفكرية في أوروبا، وما قام به الراهب فيليكس فابري من بحث قبل شروعه في رحلته إنما هو انعكاس للمثقف المتدين الطامح لفهم ومعرفة كل ما ارتبط بديانته، والاطلاع على ما كتبه الأوائل عن ثقافات الشعوب المشرقية.

وبالنظر إلى مضمون ما كتبه نجد أن هذا الراهب يكتب بأسلوب أدبي لا يختلف عن من سبقه لكنه من منطلق ديني بصفته رجل دين، فيحاول من خلال ما طغى على كتاباته أن يربط ما ورد في كتابه المقدس وما ورد من آثر في المصادر المسيحية، وبين ما عاشه في أثناء رحلته وما وقع في تلك الأماكن التي كان يزورها فكأنه يعود بالزمن إلى الأحداث الدائرة في زمن المسيح عليه السلام ليعيد إحياء الأشخاص والوقائع في الأماكن التي كان يصفها بين سطور هذا الكتاب، ولا ينسى أن يقارن بين ما كانت عليه القدس في العصور المسيحية وما آلت إليه وهي تحت كنف الدولة الإسلامية المملوكية، ويصف تلك العلاقة بين المسيحي المتغرب عن وطنه لأجل غاية روحية، وبين المسلم المتغلب والمنتصر الذي يملك زمام هذه الأرض، فيصور شخصيته بين الثائر المتعجرف الخالي من الإنسانية من جهة، وبين النبيل العاقل المنضبط من جهة أخرى، لكنه لا يخفي انحيازه ونزوعه إلى الذاتية فيما تعلق بعقيدة الآخر ومقدساته فينقل عن من سبقه أخبارا تفتقد في كثير من المواقع إلى الأمانة والصحة ليصوغ منها داعما يبرر ذاتيته.

رابعا- نظرة الراهب فيلكس فابري إلى المسلمين:

ودون الحديث عن تفصيل الرحلة، فإن بدايتها كانت في 14 أفريل من سنة 1483م من أولم وصولا إلى البندقية ومنها إلى ميناء يافا في الثاني من شهر جوان (زكار، ص 324). ففي اليوم الأول من رحلته تحدث عن وصول السفينة(الغليون) التي كانت تنقلهم إلى البر فكان أول ما تطرق إليه- في أول لقاء بينه وبين المسلمين- تعامل المسلمين من جهة السلطة (الحكام)، والمحكومين (الشعب)، فهو يفرق بين المكلفين من قبل الإدارة المملوكية بسياسة الأمور الجمركية فيسميهم بالسادة المغاربة والمسلمين، وهذا دليل على قلة معلوماته عن الطبقات الاجتماعية في هذه المرحلة إلا من خلال ما تلقاه من خلال مطالعاته، ورأى هذا الراهب أنّهم بمثابة أسرى في يد هؤلاء السادة حين لم يسمحوا لهم بالنزول، وفي الحقيقة أن المسلمين لم يسمحوا لهم حتى يلحق بهم الحجاج الآخرين في السفينة الثانية ليتمكنوا من ضمهم إلى بعض وتوفير الحماية لهم، فلا يمكن لهم النزول إلى البر ما لم يحصلوا على ترخيص من قبل الحاكم الذي يتكلف بإرسال فرقة من الجند لتأمين عبورهم إلى المدن خوفا من هجمات البدو وردود الفعل المسلمين الانتقامية(المقريزي، 1936، ص503) اتجاه السفن الأوروبية والبندقية خاصة بعد التجاوزات التي قام بها القراصنة النصارى(محمود مصطفى،1996، ص 95، 97)، وكما لا يتسنى له الترخيص لهم إلا بإعلام المسؤول عن الطوائف المسيحية في دير صهيون فهم المخولين برعايتهم وإيوائهم(زكار، ص324).

فقد جرت القوانين في العصر المملوكي أن يتكفل بتوفير الحماية لهم مقابل دفع رسوم جمركية على كل رأس يقبضها عامل مكلف من طرف السلطان، فيقوم بعد نزولهم إلى البر بتعدادهم وتقييد أسماءهم في لائحة تضم إسم الحاج ووالده، فما يراه فيلكس على أنه معاملة سيئة إنما هي بمثابة إجراءات إدارية قبل الشروع في السفر مع المكاريين الذين يتكفلون بنقل الحجاج إلى الرملة على ظهر الحمير(زكار، ص351) بدل الخيول تنفيذا للمواثيق السلطانية القديمة التي يأمر فيه بإنفاذ العهد العمري، وقد صدر هذا القرار بعد طغيان النصارى في مصر وتسلط من اشتغل منهم في الدولة على ضعفاء المسلمين، وقد أقر السلطان قرارا يمنعهم من ركوب الخيول إذلالا لهم نظير تسلطهم على المسلمين(المقريزي، 1997، ص201)، وكرد فعل على الأفعال الشنيعة التي قام بها الإفرنجة والنصارى من الإغارة على الثغور وأسرهم للمسلين والتنكيل بهم في كثير من المرات.

وقد اشتكى فابري من سوء تعامل المكاريين مع الحجاج من إجبارهم على ركوب الحمير بسرعة، ويمكن ردّ ذلك إلى اختلاف الثقافات واللغة التي تعتبر جسرا من جسور التحاور، فهؤلاء الذين شرعوا في رحلة الحج لأول مرة لا يعلمون شيئا عن شخصية الرجل المشرقي مع تباين طبقته الاجتماعية إلاّ من خلال الكتابات الأدبية عن الرحلة التي لا تعبر بصدق عن الواقع ولا المخاطر التي تهدد حياتهم، من إرهاق وشدة الحر والعطش، بعكس ما روج له دعاة الحروب الصليبية من أمثال الباب "أوربان الثاني"(ت1099م) في دعوته للحرب الصليبية من خلال خطبته في منطقة كليرمون الفرنسية في 27 نوفمبر 1095م(السرجاني، 2008، ص 54، 55)، وما دعا إليه من خلال اعتماده على النصوص الدينية التي وردت على أن هذه الأرض

تفيض عسلا ولبنا (Baptiste, 1845, p271)، وبالإضافة إلى العوامل المناخية هنالك عامل أمني يرتبط بالتلصص وقطاع الطرق من البدو، لذلك يسعى هؤلاء إلى التحرك بسرعة لتجنب هجماتهم، وللحفاظ على حياة الحجاج من أخطار الجفاف(زكار، ص354).

فهو يرى المسلمين جفاة وماكرون لا يتورعون عن الكذب مقابل المال بينما يتناسى الحديث عن المخالفات التي صدرت من هم من طائفته وديانته، وقد ظهر جليا في تعبيره عن غضبه لما تعرض للخداع بعدما قام ربان السفينة باختلاق إشاعة على أن البدو دمروا دير سيناء بعد اتفاقه مع أحد مماليك لثنيه عن قراره. ويرى أيضا أن المسلمين كذبة ومحتالين في معاملاتهم يحبون مضايقة الحجاج المسيحيين، ويمكن تفسير هذا التصادم ورده إلى الظروف الاقتصادية الصعبة التي كان يمر بها رعايا الدولة المملوكية بسبب الضرائب الكثيرة التي كانت مفروضة عليهم وترهق كاهلهم، حتى بلغ الأمر من شدة فرض الضرائب بأن فرضت الضريبة على مواشي البدو والفلاحين لتشمل تقريبا كل ما له قيمة وينتج(غوانمة، 2019، ص138) وهذا ما يدفع بعضهم إلى الاحتيال، والراهب يعطينا مثالا عن تعرض الحجاج للابتزاز في المغارات مقابل حمايتهم من اللصوص، ويروي لنا كيف تم الاحتيال على أحد الحجاج الذي ابتاع جوهرة مزيفة من زجاج على أنها حجر ثمين لولا تدخل السلطات المملوكية لإنصافه وإعادة الخمس دوقيات(عملة إسبانية) للحاج وإنزال العقوبة بالتاجر(زكار، ص343)، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الراهب حينما يتحدث عن أصحاب المناصب في الدولة فإنه يتجنب الذاتية ويتحلى بالموضوعية.

أما العامل الثاني فهو انعكاس للصراع الطاحن منذ الحروب الصليبية الذي أورث أتباع الديانتين الكراهية ووحدة الشعور بين أفراد الطوائف الدينية فما يحدث من معاناة لمسلمي الأندلس يستشعره كل مسلم في المشرق، أضف إلى ذلك حدة الخطاب الديني من الجهتين الذي أدى إلى نشوب فتن عظيمة كانت سببا في إحراق المساجد وهدم الكنائس المحدثة من طرف العامة الذين فشلت السلطات المملوكية في احتوائهم إلا بالسيف وإراقة الدماء.

هذه المشاحنات كانت من ضمن الأسباب التي دفعت الدول الصليبية إلى التوسط لدى السلاطين لتوفير الحماية للمسيحيين وشملهم بالرعاية، ورغم توفر فرقة من المماليك لحماية الرهبان والحجاج، فإن الأمر استدعى دخول مدينة الرملة على الأقدام لتجنب الغوغاء بسبب منع النصارى من ركوب الدواب كما ذكر الراهب، ولعله هنا لا يدرك أن المنع يشمل الخيل والبغال فقط.

ومن الأمور التي تؤكد أن الخلاف والكراهية بين أتباع الديانتين قد بلغ أوجه هي الوصايا التي قدمها رئيس دير صهيون للحجاج في دار إيواء الحجاج في الرملة الذي يعد بمثابة نزل الذي اشتراه فليب الثالث دوق بورغندي(1396-1467م) ووهبه للحجاج المسيحيين وجعله تحت تصرف دير الفرنسيسكان (Michaud, 1834,p359)، ففي الوصية السابعة عشرة يرى أن المسلمين خونة لا يوثق فيهم (زكار، ص363) وهذا يذكي روح العداء.

وفي جولات الحجاج في مدينة الرملة لا يتورع هذا الراهب إلى الإساءة للمسلمين في كتابهم فيشبههم بالخنازير (زكار، ص376)، وإن كان انفعال هؤلاء إنما كان كرد فعل لضرب أحد الحجاج لطفل أو لانتهاكه

أعراف المسلمين، وبعيدا عن الإساءة لشخصية المسلم فهو يصف حال العامة والفوضى التي آل إليها المجتمع في أواخر العصر المملوكي، إذ في الغالب يتجاوز العامة سلطة القاضي وينزلون العقوبة بمن شاءوا وكيف ما أرادوا.

وإن كان يغلب على طابع فيليكس الشكوى من تجاوزات المسلمين، فهو لا يميز بين الأفعال الفردية والجماعية، ومرد ذلك إلى نزعته الدينية المشحونة التي تلقاها في موطنه والتي روجت لها الكنيسة على أن المسلمين مزيج من الشعوب التي اجتمعت فيهم صفات البرابرة، وهي الصورة النمطية التي رسمتها الكنيسة أو صورتها للأوروبي في العصور الوسطى، وإن كان هذا الراهب كونه أشبه بمبعوث من طرف الكنيسة فإنّه لا يستطيع أن يكتب إلاّ بالقدر الذي يرضي به الكنيسة عن شخصية المسلم، ذلك أن مصالح الكنيسة تقتضي أن يصور المسيحي في المشرق على أنّه يعيش القهر والذل بين شعوب وثنية لاستثارة وكسب عواطف المسيحيين وتوظيف حماسهم باسم الدين.

فهذا الراهب وإن كان يكتب بوجهة نظر كنسية مبنية على أحكام مسبقة في كثير من المواقف إتجاه الإسلام والمسلمين، تخللته أحيانا تعابير صادقة توحي بأن نظرة فيلكس في بداية رحلته قد اتسمت بالذاتية والتشدد، لكن سرعان ما غلبت عليها الموضوعية الناتجة عن التجربة المكتسبة في الميدان التي غيرت موقفه اتجاه المسلم، وإن كان يحاول تعمد إخفاءها فقد أبداها في مواضع متفرقة من رحلته، فعلى سبيل المثال نجد فابري يعجب بشخصية سائق حماره العبد الذي يسميه "قصة" وسيده "جلاله"، فيذكر في رحلته الثانية أنه قد عاد والتقى بنفس سائقه الأول في رحلته الأولى، وما إن رآه العبد حتى أقبل نحوه وقبله بحرارة شديدة، « وما أن رآني حتّى تذكرني وعرفني، وتذكرته أنا وعرفته وركض ليقبلني حسب طرائق المسلمين، وحياني بسرور عارم وبهجة، واندهش كثيرا لعودتي، وضحك وقال لي أشياء كثيرة لي، أنا لم أفهمها، وكنت قد جلبت معي من أولم ركابين معدنيين، قدمتهما له، وقد تقبلهما بشكر عظيم، واقتادني إلى حيث وقفت حميره بين القطيع، وأعطاني أحسن دابة لديه...» (زكار، ص352).

في مثل هذه المواقف يتبين للأوروبي أنّ الحقيقة لا تظهر إلاّ من خلال التواصل مع الآخر بعيدا عن طبول الحروب وقعقعات السيوف، وبعيدا عن صرخات التحريض التي ينادي بها الأباء.

خامسا- نظرته لمعتقدات ومقدسات المسلمين:

لا شك أن لانتماء هذا الراهب أثرٌ يحدد وجهة نظره في العقيدة الإسلامية ونبيها محمد صلى الله عليه وسلم، وإنه من المعروف موقف الكنيسة من الإسلام، ففابري الذي قدم حاجا إلى القبر المقدس في فلسطين تحت كنف البابوية سوف لن يخرج عن مسارها، وإن كان يهمنا نظرته لهذا الدين وشريعته، فإنّه يهمنا أيضا الزاوية التي نظر من خلالها.

ولتفسير نظرته للعقيدة الإسلامية لابد أن نشير إلى أن المسيحية التي ترى في إسلام خصما، هي نفسها التي تعرضت في بداياتها للاضطهاد وتعرضت لانتقادات من طرف الوثنيين، وتعتبر كتابات القديس أوغسطين(354-430م) بمثابة ردود على الانتقادات التي تعرضت لها خلال القرن الخامس للميلاد، إذ دافع عنها بعد اعتناقها واستعمل في ذلك الفلسفة الأفلاطونية ومزجها بالأفكار المسيحية ووظفها في

مجابهة الخصوم من الفلاسفة والوثنيين بما في ذلك كتابه "مدينة الله" (أوغسطينوس، 2006، ص7)، وقد وجدت آراؤه في اللاهوت والإيمان سبيلا إلى الفكر المسيحي الغربي في العصور الوسطى وتبنتها الكنيسة الكاثوليكية واعتمدتها(عويضة، 1993، ص ص32،33)، كما تأثرت المسيحية تأثرا كبيرا بآراء وكتابات عالم اللاهوت والفيلسوف توماس الأكويني(1225- 1274م) الذي حاول التوفيق بين المسيحية والفلسفة الأرسطية (Copleston, 2003, p262)فأصبحت تعاليم الأكويني هي تعاليم المسيحية بتصريح من البابوية (موقع الفاتيكان الإلكتروني)، ولعلّ من أبرز كتبه التي يعتمد عليها الرهبان في دحض العقائد المخالفة المسيحية كتاب" الخلاصة ضد الكفار".

فالأكويني نفسه كان ينتمي لطائفة الدومينيكان، فقد انضم لدير القديس دومينيك (1171-1221م) الإسباني الذي تلقى فيه علم اللاهوت المصبوغ بالفكر الفلسفي المسيحي في بلنسيا قبل أن ينبري لمحاربة الهرطقة في فرنسا بتوظيف أسس هذا الفكر، فأسس سنة 1216م طائفة من الرهبان تعرف باسمه في تولوز بفرنسا (مجموعة من المؤلفين، 2010، ص1553)، وبما أن فيلكس فابري ينتمي إلى طائفة الدومينكان فهو متأثر بالفكر الأوغسطيني والأكويني الذي ينحى منحى واحدا في مجادلة المخالفين الذين يراهم هراطقة وكفارا، فهو متشبع بهذا الفكر الممزوج بالفلسفة، فمن هذا المنطلق الذي بنيت عليه معرفته في الفكر اللاهوتي يتحدث عن العقائد المخالفة، وهذا لا يقتصر عليه بل يشمل الرهبان الكاثوليك الذين يتخذون من الفكر الأوغسطيني مستندا متأثرين بالروايات والأساطير الإغريقية التي يوظفونها توظيفا تاريخيا فيصورون عادات المسلمين على أنها عادات مقتبسة من عادات وثنية ولا يتورع هؤلاء في إلصاق التهم بالإسلام.

ففي دير الرملة من ضمن الوصايا التي قدمت للحجاج أن لا يلبس الحاج المسيحي على رأسه عمامة بيضاء على رأسه أمام أنظار المسلمين، وقد عدّها فابري نقيصة، وأن المسلم الوحيد من يملك الحق في لبسه، والحقيقة أن العمامة من الأمور المتوارثة من قبل الإسلام وهي لباس العرب وأهل الإسلام، وبعد فتح المسلمين للأمصار المحيطة أمر عمر ابن الخطاب الولاة بأن يأمروا النصارى بلبس الغيار لتمييزهم، وأن لا يلبسوا العمامة البيضاء لأنها لباس رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه، وإن لبسوها تكون عمائم المسيحيين زرقاء واليهود صفراء، وأن لا تكون لها ذؤابة (مجموعة مؤلفين، 1983م، ص303) ، وبهذا يميز الذمي من المسلم فلا يخاطب إلا بما يليق به وبدينه، فقول الراهب فابري أن المسلمين لا يحتملون رؤية النصراني يلبس عمامة بيضاء إنّما لمخالفته قوانين الشرع الإسلامي.

ففابري الذي لا يتورع عن مهاجمة العقيدة الإسلامية ونبي الإسلام عليه الصلاة والسلام على نهج سلفه توماس الأكويني، يشير إلى أن هذا لباس من عادات الوثنيين قديما، ويمنحه صبغة دينية بربطه بالأساطير الوثنية اليونانية القديمة، فيقول عن العمامة: « ومثل هذا كان من طرائق الكفار أن يلفوا رؤوسهم بالأقمشة، مثلما نقرأ بأن ذلك قد فعله دايونيسوس ابن سملي الذي كان مدمنا على الشارب والرفاهية» وحتى يكون في كلامه من المتانة والحبكة يقول مستأنفا :« حيث كان كلما أصيب بصداع بعد السكر اعتاد على ربط رأسه ولفه بالعمامة،..وقلد محمد دوما شارب الخمرة ذاك، بأن لف رأسه بعمامة،

ذلك بعدما حرم الخمرة»، فهو لا يستطيع أن يتمادى أكثر من ذلك في التشبيه ويصور المسلمين على أنهم متعاطين للخمور لعلم كل أوروبي أن الإسلام يحرم الخمر، فالقصد من ذلك أن يصور الديانة الإسلامية على أنها مزيج من العادات الوثنية المتناقلة ليوهم المسيحي المطالع لرحلته بوثنية ديانة المسلمين زورا وبهتانا، وعلى هذه الشاكلة من الحجج الواهية كان سلفه توماس الإكويني الذي اتهم هو الآخر نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام بأقبح الصفات، فيدعي أنه أغوى الشعوب من خلال وعوده لها بالمتع الشهوانية، كما اتهمه بتحريف الأدلة الواردة في التوراة والإنجيل من خلال الأساطير والخرافات(عمارة، 2003، ص141)، وهنا نوع من التشابه في كيفية تناولهم لأعراف المسلمين وشريعتهم.

ولا يقتصر الأمر عند هذا الحدّ بل ينسج فابري في رحلته قصة طويلة حول تاريخ الأصنام في مكة ويصور من خلالها المسلمين أنهم عباد أصنام ويقحم في ذلك الميثولوجيا الإغريقية ورالرومانية، فيزعم أن نبي الإسلام لما بعث وجد قومه عاكفين على عبادة صنمين أحدهما من رخام أبيض إسمه "ميركوري"، والآخر من رخام أسود إسمه "خيموش"، فعبدوا الصنم الأسود لتشريف ساترون(زحل)، والأبيض لتشريف مارس(المريخ) وذلك بحسب جريان الأبراج (زكار، ص1475) ومعلوم أن العرب كانت تعرف الأنواء وتهتدي بها لا البروج، ومن أين استجلب العرب الرخام ؟ ومعروف أن العرب في شبه الجزيرة العربية وإن تعددت آلهتهم واستوردوا بعضها من الشام قديما، فلم يعرفوا آلهة الرومان ك"ساترون" مثلا الذي يمثل إله الخصوبة والزراعة، ومعلوم أن وادي مكة وما حوله قفار قاحلة، فأي عطاء يرجوه العرب من هذه الآلهة الدخيلة.

وهو لا يقف عند هذا الإدعاء والافتراء على نبي الإسلام بل يصوره على أنّه مغير لطرائق عبادتهم، وأنّه نهاهم عن عبادة هذه الآلهة ظاهريا، فبنا لهم تمثال "ساترون" وبنا عليه البيت وأخفاه في زاويته ولم يظهر منه إلاّ ظهره، فهذه إشارة منه إلى الحجر الأسود فأراد بذلك أن يصور الحجر الأسود على أنه قطعة من ظهر التمثال (زكار، ص1476).

أمّا عن التمثال الثاني المصنوع بالرخام الأبيض فقد دفنه بحسب زعمه و وضع الحجارة عليه، والناس يقبلون تلك الحجارة ويلقون الحجارة عليه في إشارة منه إلى رمي الجمرات، ويبدو أن استهتار الراهب فيليكس بالمقدسات الإسلامية إمتد إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام فصوره على أنّه ضريح، وأنّه شبيه بتمثال(زكار، ص1476)، ففابري بقدر ما يسيء لمقدسات المسلمين فإنّه يرسل رسالة خفية لمن يقرأ رسالة أن ديانة المسلمين ديانة وثنية منقولة عن الرومان والإغريق، ولعل ما يسرده هذا الراهب من الأوهام إنّما هو انعكاس لثقافته اللاهوتية التي تقتضي معرفة أشكال الوثنية عند اليونان والرومان القدامى.

ولم يقتصر فابري على توظيف الأسطورة في تشويه الإسلام بل وظف الوقائع التاريخية وحرفها بطريقة تخدم ذاتيته وتلفيقه، فيتحدث عن الحادثة التي أصابت فيها صاعقة المسجد النبوي في سنة 886هـ/1481م المنارة في عهد السلطان المملوكي الأشرف قايتباي التي أحرقت السقف وهلك فيها عدد من الناس، ولم يكن هذا أول حريق شب في المسجد النبوي بل سبقه حريق عام 654هـ/1256م (السمهودي،

2001، ص 371، 413 -419)، فمن منظوره الذي لا يستند إلى مصدر تاريخي ولا يعزى إلى سند فقد أشار كما تقدم إلى أن الصاعقة أصابت المعبد(المسجد) وأحرقته، وجرفت الأمطار قبر النبي عليه الصلاة والسلام، وأنّ المسلمين حرموا من آثار جسد نبيهم وأنهم بزيارتهم لهذا القبر يبتغون خدمة الآلهة فينوس (زكار، ص1478) التي تعتبر عند الرومان آلهة الخصوبة والحب، ولك أن تتصور ما مقصوده إذا عدت لكلام توماس الإكويني في هذا المقال عن النبي محمد عليه الصلاة والسلام لترى أوجه الإتفاق بينه وبين الراهب فيليكس فابري، ولا ندي ما دخل هذه الآلهة في الحريق، والواضح أنه أفحش من إكثار الآلهة.

لقد ذكر نور السمهودي -الذي عايش تلك الفترة وكان شاهدا عليها- حقيقة ما وقع بالتفصيل في كتابه" وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى" فذكر حادثة الحريق بالتفصيل وإتيانها على المسجد النبوي وعظم لهيها، وأشار أنها أحرقت كل شي ولم تسلم منها إلا الحجرة الشريفة.

فهو لا يرى المسلمين على أنهم موحدين بقدر ما يراهم أتباعا لمحمد عليه الصلاة والسلام، والغرض من ذلك تصوير المسلمين على أنهم يقدسون النبي في المساجد بدل توحيد الإله، فهو يراهم أسوء من الوثنيين الحقيقيين (زكار، ص 1446).

ولم يقتصر ذلك على مقدسات المسلمين بل تعداه إلى شعائرهم، فهو يصف الآذان من على مآذن المساجد بالصراخ المزعج (زكار، ص519) رغم علمه بأن الأذان جزء من الشرائع الإسلامية، فهو يكتب بناء على أحكام مسبقة تشربها في دور الكنائس مطلقا بذلك أحكاما دون سعي منه لفهم حقيقة معاني هذه لشعائر إنّما يتعصب ويرى الحقيقة من زاوية ديانته المسيحية.

ويبدو أن هذا التعمد الصارخ في الإساءة لمقدسات المسلمين، قد برهن عليه كثير من المستشرقين، فقلما نجد دراسة جادة تنصف المسلمين، وعلى نفس الدرب سار الكثير من الرهبان، فالسويسري "يوحنا أوبورين" قام بترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية وأصدر منه طبعة سنة 1542م، أبدى الساسة عليها تحفظا، لكن "مارتن لوثر"(1483-1546م) أصر على نشرها ليكتشف المسيحيون فضائع الإسلام كما زعم، ولا يمكن أن يكون فاضحا إلا بالزيادات والتحريفات التي أضيفت وإخراج الآيات من سياقها، فهو يجهر بعداءه للإسلام بقوله:« لقد استيقنت أنه لا يمكن عمل شيء أكثر إزعاجا لمحمد أو الأتراك، ولا أشد ضررا، من ترجمة قرآنهم ونشره بين المسيحيين، عندئذ سيتضح لهم أي كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن، ملي بالأكاذيب والخرافات والفضائع...» (مجموعة من المؤلفين، 1999، ص21).

ورغم نظرته المتعصبة للإسلام فقد أبدى إعجابه في العديد من المواضع في كتابه بمساجد المسلمين ونظافتها وجودة عمرانها، وإن كان لم يربط ذلك بالنظافة والطهارة، كما أبدى إعجابه بالتزام المسلمين بصلاتهم وطريقة أداءها وهذا الإعجاب قد يبدو ظاهريا بريئا لكنه في الحقيقة إنّما لاستنهاض مشاعر المسيحيين الذين تساهلوا في أداء صلواتهم، ومثال ذلك أنّه رأى جماعة من المسلمين يؤدون صلاة الفجر بتناغم كأنهم رهبان طائفة واحدة، وبعد إيراده لهذه الصورة الفريدة يقارن بينها وبين الحجاج الذين استيقظوا على الضحك واللهو بدل الصلاة، لذلك يقول:«ولذلك جلست هنالك وقارنت بين ما قام به الفريق الأول وبين ما قام به الفريق الثاني، وأصبحت حزينا، ومنزعجا في قلبي برؤيتي أولئك الضالين

والأناس الضائعين تماما يقومون بأداء صلواتهم بجدية ومهابة...»(زكار، ص374)، فهو يقرر حالة الفتور الديني التي يعيشها المسيحي في أوروبا والأراضي المقدسة أمام الصورة الناصعة عن الخشوع والانضباط في الإسلام وهذا وجه من أوجه الحقيقة إذا ما استبعدنا التهم التي يلصقها المستشرقون بالإسلام.

فالإستشراق الغربي -منذ الحروب الصليبية- بقدر ما له من دوافع علمية من معرفة الآخر، بقدر ما له دوافع كامنة غايتها حجب الإسلام والمسلمين عن العالم بصفة عامة وعن المجتمعات الأوروبية بصفة خاصة، ومنهجهم في تشويه الإسلام قائم على (مجموعة مؤلفين، 2017، ص24):

-الاعتماد والقياس على تاريخ الديانات السابقة غير التوحيدية كالوثنية وربطها بالإسلام، كما رأينا أن فيليكس يقتبس من الأساطير الوثنية لتفسير سلوكيات المسلمين في اللباس مثلا.

-الاعتماد على الواقع التاريخي وليس على الأصول الحقيقية للدين، والقياس على الشاذ، فحين يفسر فابري سلوكيات بعضا من أفراد المجتمع المملوكي معتمدا على أحداث ووقائع ويربطها بالإسلام على أنها فعل من أفعال المسلمين، ولا يبين انحراف الفعل ومخالفته لأصول الإسلام، كما يقيس على انحراف فئة من الناس ويصوره على أنه جزء من عادات المسلمين، ومثال ذلك ما ورد أن بعض من يحسبون على المسلمين في العصر المملوكي كانوا يزورون القبر المقدس في كنيسة القيامة وينزلون إلى مغارة الصليب ليقطعوا منها شظايا من الصخر لتداوي بها من الآلام، ويقول:« وفي هذا أيضا كانوا يفعلون، عندما يعاني أحدهم من وجع في الأسنان، فوقتها يحلقون له ذقنه، ومن ثم يرسلون بالشعر إلى الكهف حتى يمكن أن يشفى...» ويشبّه ذلك الفعل بعادات الفراعنة القدامى من حلقهم لشعورهم وتقديمها للمكلفين بسدانة الأوثان طلبا للشفاء(زكار، ص485) - و إن لم تشر المصادر إلى ذلك- فإنّ الغاية من وراء ذلك تشويه المسلمين وتصويرهم على أنهم متبعين للخرافات.

-الاعتماد على مصطلحات ابتدعتها الكنيسة لغرض الإساءة للدين الإسلامي فيصورون الدين الإسلام على أنه محمديا وهذا ما يظهر في مواضع كثير فيصور المساجد على أنها هيكل من هياكل النبي محمد عليه الصلاة والسلام وليس دورا للعبادة والتوحيد.

خاتمة :

لقد حوت هذه الرحلة معلومات ومعطيات هامة عن الفترة الأخيرة من العصر المملوكي، وما يميزها أنها من زاوية أوروبية بخلاف المعتاد من المصادر العربية الإسلامية، ولم تقتصر هذه المعلومات على الحالة الاجتماعية بل شملت الأمور الدينية خاصة بالمسلمين، ففابري من خلالها قدم لنا حوصلة مشاهداته، لكن ما يأخذ عليها أنها لم ترق لمستوى الكتابات التاريخية، فهي بالفعل عمل أدبي يعكس صورة ما كانت عليه الرحلات الأوروبية في تلك الفترة.

إنّ كاتب هذه الرحلة لم يكن متنزها عن الذاتية في كثير من المواضع بل كان يكتب بخلفية دينية كونه رجل دين كاثوليكي من رعايا الكنيسة الغربية، وهذا ما أثر في كتاباته وأثّر في نظرته للمجتمع المسلم ورسم صورة مسبقة خالية في الواقع من التجارب الحقيقية المتنوعة الخارجة عن القيود الدينية، فهو إنّما

يكتب لفئة معينة ومجتمع معين لذلك الأوروبي الذي لم يرى الأراضي المقدسة، وهو بشكل أو بآخر يحقق مبتغى الكنيسة ويعزز موقفها اتجاه المسلمين لدى الفرد الأوروبي، وعلى هذا المسار سار من جاء بعده.

وإن كانت هذه الرحلة يستفاد منها في صياغة وكتابة التاريخ المشترك بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، فهي كما تصف حال المجتمعات، تصف حال الصراع والعداء، وإن كانت تحمل في طياتها إشارات لإمكانية التسامح الإنساني بعيدا عن قيود الكنيسة.

توصيات:

عالجت هذه الدراسة نظرة الراهب فابري للمسلم والإسلام، لكن من بين القضايا التي ينبغي أن يسلط عليها الباحث الضوء مستقبلا، تأثير المفكرين المسيحيين القدامى في نظرة مفكري العصر الوسيط والحديث والشعوب الأوروبية اتجاه المسلمين، فحتما هذه القضية من ضمن الحواجز الثقافية التي تساهم في تصادم الشعوب وتزيد من صراعها.

أن يكون مثل هذه الأعمال والدراسات مستقبلا فاتحة لمبادرات بحثية طامحة لإنصاف التاريخ الإسلامي قصد مواجهة حملات التشويه والتزييف التي يتعرض لها.

قائمة المصادروالمراجع:

1-الكتب:

أ- باللغة العربية:

-ابن بطوطة محمد بن عبيد الله، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (2020) ، (د ط) ، ج1، 2، مؤسسة الهنداوي (مصر).

-ابن حوقل محمد، صورة الأرض، (1992) ، (دط)، مكتبة الحياة (بيروت).

-ابن خرداذبه عبيد الله، المسالك والممالك، (1989) ، (دط)، دار صادر (بيروت).

-ابن فضلان أحمد، تح: سامي الدهان، رسالة ابن فضلان، (1996) ، (دط)، المطبعة الهاشمية(دمشق).

-إم ويلكنز، جون هيل، شون، تر: جمال الدين الفرماوي، الطعام في العالم القديم، (2017) ، (دط)، مؤسسة هنداوي (المملكة المتحدة).

-أوغسطينوس، تر: يوحنا الحلو، مدينة الله، (2006) ، (ط2). (ج1)، دار الشرق (بيروت).

-البعلبكي منير، قاموس المورد، (د.ت) ، (ط1) ، دار الملايين (بيروت).

-البعلبكي منير، معجم أعلام المورد، (1992) ، (ط1) ، دار الملايين (بيروت).

-بيرنجيه جان وآخرون، تر: وجيه البعيني، موسوعة تاريخ أوروبا العام، (1995) ، (ط1). (ج2)، منشورات عويدات (بيروت).

-زكار سهيل،الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، (2000) ، (دط)، (ج38) ، دار الفكر (دمشق).

-السرجاني راغب، قصة الحروب الصليبية، (2008) ، (ط1) ، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع (القاهرة).

-السمهودي نور الدين علي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، (2001) ، (ط1) ، (ج2) ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي (المدينة المنورة).

-عبد الدايم عبد العزيز محمود، مصر في عصري المماليك والعثمانيين، (دت)، (دط)، دار نهضة الشرق (القاهرة).

-عمارة محمد، في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، (2003) ، (ط1) ، مكتبة الشروق الدولية (القاهرة).

-عويضة كمال محمد، أوغسطين - فيلسوف العصور الوسطى، (1993) ، (ط1) ، دار الكتب (بيروت).

-غوانمة يوسف، دمشق والناس في عصر دولة المماليك، (2019) ، (ط1) ، الآن الناشرون والموزعون(عمّان).

-قورزبورغ يوحنا، تر: سعيد عبد الله البيشاوي، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين (1997) ،(د ط). دار الشروق (بيروت).

-كلاوديوس بطليموس، تر: محمد المبروك الدويب، جغرافية كلاوديوس بطليموس (2004) ، (ط، (ج4) ، جامعة قاريونس (ليبيا).

-ماندفيل جون، تر: أنس الذهبي ، رنا جزائري، أسفار السير جون ماندفيل ورحلته (2012) ، (د ط) ، دار الكتب الوطنية (أبو ظبي)

-مصطفى نادية محمود، العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية، (1996) ، (ط1) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي(القاهرة).

-المقريزي أحمد، السلوك لمعرفة دول الملوك، (1936) ، (دط)، (ج4) ، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة).

-المقريزي أحمد، تح: محمد عبد القادر، السلوك لمعرفة دول الملوك، (1997) ، (ط1). (ج4)، دار الكتب (لبنان).

-اليعقوبي أحمد، البلدان، (دت)، (دط)، المكتبة المرتضية ومطبعتها الحيدرية (العراق).

-مجموعة من المؤلفين، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، (1983، (ط1) ، (ج30) ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية (الكويت).

-مجموعة من المؤلفين، صورة الإسلام في الغرب بين التشويه وواجب التصحيح (2017) ، (دط)، مطبعة آنفو (فاس).

-مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية الميسرة، (2010) ، (ط1) ، المكتبة العصرية(بيروت).

-مجموعة من المؤلفين، تر: ثابت عيد، (دراساتألمانية) ، صورة الإسلام في التراث الغربي، (1999) ، (دط)، نهضة مصر للطابعة والنشر والتوزيع (مصر).

ب- باللغة الأجنبية:

-Baptiste Jean, Hugues Capet et la troisième race jusqu'à Philippe-Auguste (1845), V2, Wouters Frères, Imprimeurs-Libraires.

-Copleston Frederick, History of Philosophy Greece and Rome, (2003), v:1, Continuum (NEW YORK).

-Michaud Joseph, Correspondence d'Orient, 1830-31 (1834), v5, DUCOLLET LIBRAIRE ÉDITEUR (Paris).

2-المو اقع الإلكترونية:

- رسالة البابا بنديكتوس الخامس عشر ، بمناسبة الذكرى السابعة لوفاة القديس دومينيك، في 29 جوان 1921م، موقع الفاتيكان :

- https://www.vatican.va/content/benedict-xv/fr/encyclicals/documents/hf_ben-xv_enc_29061921_fausto-appetente-die.html

صورة الأنا المسلم في السرد العربي بين الواقع المأزوم والنموذج المأمول

The image of the Muslim ego in the Arab narrative between the dire reality and the hoped-for model

د.جنّان فاطمة الزّهراء ، جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان-الجزائر
Djennanefatima@hotmail.fr



إن أدب أية أمّةٍ هو وجهها المنعكس في مرآة الآخر، وإن معرفة طبيعة أي عصر من عصور الأمم يتطلب النظر في آدابها، والرواية باعتبارها أكثر الأجناس ملامسة للواقع، تعتبر العرض الحاسم على مسرح الحضارات المعاصرة، وفي مشرحة الباحثين على الضفتين سواء بسواء.. لذلك ينبغي على أدباء الضفة الإسلامية الانتباه إلى مدى أهمية هذا الدور، وحساسية المحتوى المعروض، في رسم صورة الأنا. ومنه وجب عليهم لعب دورهم التاريخي، وعرض صورة الشخصية الإسلامية كما ينبغي لها أن تكون لا كما هو كائن، عن طريق سن كل الأدوات السردية الفنية والتخيلية، في سبيل "دعوة أدبية" نبيلة، تُعرض على شاشة الحضارة الغربية السائدة و"المأزومة"!

الكلمات المفتاحية: رواية، أدب، أزمة حضارية، الأنا، الآخر.

Abstract :

The literature of any nation is its face reflected in the mirror of the other, and knowing the nature of any era of nations requires consideration of its literature؛ the novel as the most in touch with reality, is considered the decisive presentation on the stage of contemporary civilizations,as well as in the morgue of researchers. The writers of the Islamic area should pay attention to the importance of itss role, and the sensitivity of the displayed content, in drawing the image of the ego. Hence, they have to play their historical role, and present the image of the Islamic character as it should be, this is possible by enacting all artistic and imaginative narrative tools, for the sake of a noble “literary call”, the latter would be shown on the screen of the prevailing Western civilization which is in “crisis”!

Keywords: novel, literature, civilization crisis, the ego, the other.



مقدمة:

إن دور المسلم واسع ومتشعب، يشمل كافة نواحي الحياة، من أصغر منزلة في المجتمع إلى أعلى رتبة فيه.. وإن الأدباء والمثقفين بحسهم المرهم، وحساسيتهم العالية تجاه الواقع وقضاياه، يحملون في جعبتهم دورا حاسما ومفصليا، خاصة في مجال الحوار مع الآخر الغربي في ظل حضارته العالمية المتأزمة، وحاجة العالم

الماسة للبديل.. فماهي طبيعة تلك الأزمة؟ وما دور المثقف والمبدع تجاه الآخر؟ وكيف يجب أن تكون الصورة التي يتم عرضها أمامه؟

وفي سبيل الإجابة عن هذه الإشكاليات المتشابكة، سيتشعب البحث –بالاستعانة بمجموعة من المصادر والمراجع الهامة- للحديث عن طبيعة الأزمة الحضارية على مستوى كلٍّ من الأنا والآخر، ثم طبيعة الدور المناط بالذات المسلمة، ومختلف الاستجابات النابعة من المثقف والمبدع العربي سلبا وإيجابا.. ثم سيعرض للصورة الإيجابية عن قرب، وذلك بتناول الشخصية الروائية المطلوبة، في نماذج مختارة للروائي الرائد في مجال الأدب الإسلامي، نجيب الكيلاني.

أولا-مقدمة حول طبيعة الأزمة:

إن معرفة طبيعة دور المسلم تجاه الآخر اليوم، تستدعي معرفة طبيعة عصره، وطبيعة أزماته التي على المسلم - باعتباره حامل الرسالة الخاتمة- السعي لعلاجها.. وإن المتأمل في الحضارة الغربية اليوم، يجدها تعيش فراغا روحيا ناتجا عن فقدانها لمبرراتها الحضارية، بحسب مالك بن نبي الذي يذهب إلى أن الوجود الحضاري للأمم لا بد له من أن ينطلق من مجموعة من المبررات الثقافية/ الدينية، والغرب اليوم يفقد هذه المبررات أو الدوافع، ليذهب إثرها نحو عملية تعويض لتلك المبررات، إلا أن هذا التعويض جاء مبتورا موزعا على مجالات عدة : أدبية كالوجودية وساسية/اقتصادية كالاشتراكية أو الشيوعية.. (مالك بن نبي)إلا أن هذه المبررات أدت إلى تدهور أخلاقي رهيب، يعيشه الغرب" فالفكر الغربي لايزال يبحث عن نفسه في أدغال الفن والفلسفة وعلوم الإنسان وهو في حقيقة الأمر يبحث عن سلام الروح أي عن نظام روحيّ لطغيانه الماديّ" (كولن ولسن،35،1987-168)! وأكثر ما يتجسد فيه هذا التدهور وهذه المادية، هي النزعة الاستعمارية الامبريالية، وما تجره من طبقية مقيتة، يزداد فيها الأغنياء غنى ويزداد الفقراء فقرا، وتتكرس حينها نظرة استعلائية، ينظر من خلالها الغرب للآخر المسلم، ساعيا إلى تكريس دونيته، عن طريق حملات تشويهية يغيب فيها الإنصاف والبحث الموضوعي عن الحقائق إلا ما ندر نتيجة حنق على تاريخ حضاري إسلامي حافل ، لا زال المسلمون يدفعون ثمنه إلى اليوم عن طريق "اشتداد مشاكسة الآخر وشراسة هجماته وتواليها عبر الأزمنة المتعاقبة حتى العصر الحديث... قصد مغالبة الأنا العربي*الاسلامي و التقليل من شأنه ومحاصرته".(بشير بوبحيرة محمد ، 2007، ص11). كما يساهم في هذه الحملة التشويهية المسلمون أنفسهم عن طريق تبعية عمياء للآخر الغربي، فتمسخُ الأنا، ولا يظهر منها للآخر سوى صورة ناقصة عنه! حيث يعيش المسلم المعاصر، أزمة على مستوى الفكر، وإن أعتى صور الأزمة وأشرسها على الحضارة الإسلامية هي تلك التي تدهم فكرها و تصيب روحها، وتزرع الشك في هويتها، حضور هذه الأزمة المطروحة على مستوى الفكر العربي اشتد منذ بدايات "النهضة" حتى الآن.. (صالح إبراهيم، 2004، ص17)، ليعيش المسلم المعاصر "انفصاما وصراعا بين الأفكار الميتة التي نتجت عن إرثنا الاجتماعي والأفكار المميتة المستعارة من الغرب" (مالك بن نبي،2009، ص144)، بينما يتراجع الفكر الإسلامي السليم لتحل التبعية كبديل لعوامل القوة المتلاشية (عبد الله الفريجي، 2001،ص60)، والأزمة نشأت أساسا من صراع الحضارات، تحديدا من صراع حضارة الإسلام الروحية مع حضارة الغرب المادية، هذا

الصدام أدى لفعل و ردة فعل، كان الفاعل فيه استعمارا غربيا عسكريا في البدئ.. فكريا بدءا ومنتهى، وجاءت ردود الفعل من قبل العالم الإسلامي مختلفة ومتباينة لكنها في أساسها دفاعية وقائية بينما و"عند تأصيل النظرة القرآنية للأنا لا ينبغي الانطلاق من موقع الاعتذار والدفاع، وإنما من حقيقة وجود فراغ تعاني منه البشرية ناشئ عن الرؤية الكونية الكلية المهيمنة في عالم اليوم والقائمة على الثنائيات الغربية المفتعلة ذات الطابع الاستعلائي" (السيد عمر،2008، ص30-31) وإن شئنا تلخيص عوامل الأزمة ألفيناها تنحصر في عمودين اثنين، على حد قول مالك بن نبي، هما:" القابلية للاستعمار والاستعمار، مترجمين في تعبير ثقافي.. مع كون الأولى أشد فتكا" (مالك بن نبي ،مرجع سابق،ص148)،وهو ما نعيشه ونعانيه اليوم من استعمار فكري أو غزو فكري، مما خلفته "آلة الاستعمار" في عقول البشر.. فالأزمة مفتعلة وموجهة بانتظام للحضارة الإسلامية، كي تنتكس في روحها ويبطل بالتالي مفعولها في النفوس وتنتكس صورتها أمام الأنا والآخر، وهي (أي الأزمة) استعمارية في الأساس، فكرية الغاية إذ تستهدف العقل المسلم لتبث فيه السموم وتقعده عن الحركة.. والعقل المسلم يبدي في حقيقة الأمر ردود فعل متباينة، منها السلبية، المستسلمة والمتواطئة في كثير من الأحيان ومنها الإيجابية، التي تسعى بما أوتيت من قوة إلى التشبث بهويتها ومقاومة "العدوان الفكري". أما ردود الفعل السلبية فكانت بالدعوة إلى التلبس الثقافي والتماهي في الآخر "فنادى البعض بالنقل عن الشيوعية أو الماركسية أو الاشتراكية العلمية.. (أو).. سعى بعضهم للترقيع والتلفيق بالدعوة لعقيدة إسلامية ومنهج اشتراكي.." (علي عبد الحليم محمود و مجموعة من المؤلفين،1981،ص379)،وهنا يبرز مفهوم المثاقفة بمعناها الغربي الاستعماري الذي يرى أن الشعوب المغلوبة قد ترفض الحضارة الغالبة فتفنى، وقد تقبلها وتتكيف معها وقد لا تتكيف لأنها لا تطابق حاجاتها ومزاجها، وهذا مفهوم استعماري للتغير الحضاري قدمته الأنثروبولوجيا الحضارية الغربية" (جمال مباركي،2013،ص5).

ومثلما غدت وسائل الاستعمار غير تقليدية، مستبدلة الآلة بالفكر، والبندقية بالقلم.. فكذلك فعل أبناء الوطن العربي، لتحمل نخبته على عاتقها مسؤولية الدفاع والرد ولملا محاولة الفكاك والعلاج، وبناء علاقة متكافئة مع الآخر، أو على الأقل رسم تصور عن هذه العلاقة المتكافئة المنشودة.

ثانيا- المثقفون العرب والأزمة:

أمام أزمة الغزو الفكري، و اللقاء الغير متكافئ مع الثقافة الواردة، يقف المثقف العربي في العديد من المواقع متخذا عديدا من المواقف، باختلاف الانتماءات والمشارب الفكرية، ففئة اختارت الإصلاح ذي التوجه الاسلامي ما جعلها تقع في التعصب أحيانا، إلا أنها ما انفكت "تحذر من خطورة تقويم أنفسنا وتاريخنا ومجتمعاتنا من خلال نظرة الغرب إلينا، ومن شعورنا بالنقص تجاه كل ما هو غربي" (صالح إبراهيم، مرجع سابق، ص 288)، وفئة أخرى فضلت التوجه العلماني، الخاضع لإمبريالية ثقافية، مؤكدة في علاقتنا بالغرب بأنه "يقيم في أعماقنا، ونحن نتداول، على المستوى الفكري والحياتي، ما يأتينا منه، ونعيش بوسائل ابتكرها، ونفكر بلغته، عندما نتداول ما ابتكر من نظريات ومقومات ومناهج تفكير، و مذاهب أدبية.." ، (صالح إبراهيم، مرجع سابق، ص 288)ما جعل من هذه الفئة تقع في التكديس

"العلمي" للأفكار المستوردة دون القدرة على تدويرها لصالحها كما هو حال اليابان في نهضتها... (محمد جابر الأنصاري،1998، ص 132-133)هذا الأمر خلق قطبين إصلاحيين مختلفين بل ومتصادمين في العديد من الأحيان. وبطبيعة الحال تنبثق الطبقة السياسية من تلك النخبة، ويتكون عندها بالتالي وعي سياسي مبتور يرافقه "الوعي الغائب حيال الواقع –تاريخا وحاضرا- (و) إغفال متطاول لخصوصيات التركيبة المجتمعية السوسيولوجية العامة،في موروثها التاريخي وفي مستجداتها المعاصرة".(محمد جابر الأنصاري،1998، ص68)هذا الأمر جعل الفئات القيادية الفكرية والسياسية تتوجه دوما إلى إخضاع الأمة وعقلها إلى إرهاب مادي ونفسي جانح ما زاد من أعباء هذا العقل المسلم.(عبد الحميد أحمد أبو سليمان، بدون تاريخ، ص 72)كل ذلك نتج عن التعصب الإيديولوجي للأفكار المستوردة، ما أدى إلى سيادة "العقل المتدني" أي التحتي المنفعل بمركزية الأنا وصلابة العقائدية... وتبعا لهذا ظهرت تيارات فكرية انفعالية دعت إلى العبث واللا جدوى وانعدام القيمة والمعنى في الوجود...(ندرة البازجي،2010، ص10) ويمكن القول اختصارا إن الجو الفكري المشحون بالتيارات الإيديولوجية المحلية منها والمستوردة (التي تمثل الآخر) خلق طبقات ثقافية وسياسية متصارعة، يسعى كل منها لإثبات صحة ما لديه، ما أدى إلى التدهور الحضاري الحاصل.

وقد ساهم الكثير من المثقفين العرب في تكريس هذه الصورة المأزومة خاصة في مجال الرواية والأدب.. بينما ساهم فريق آخر في تكريس صورة بناءة مشرقة، عن حقيقة الإسلام، وما ينبغي أن يكون عليه المسلم لا ما هو كائن

ثالثا-"اللامنتمي" العربي وتسويق الصورة الإجابية:

إن نموذج الآخر الموضوعي، أو الباحث عن الحل لأزماته عرف عند كولن ولسن باللامنتمي "وهو القادر على توسيع مدى الإدراك، لأن البشر العادي قانع بمدى خبراته العادية" (. كولن ولسن، بدون تاريخ، ص9). أما اللامنتمي العربي بتعبير الجيلالي الطيبي هو صاحب الاعتقاد الراسخ "بانتصار الفكرة العربية والإسلامية...هو الإنسان المتكامل في شخصيته والإيجابي على مستويين أساسيين: مستوى المرجعية ومستوى الفعل، أو مستوى الإيمان ومستوى العمل.. والمرجعية المقصودة هي الرؤية الفكرية غير المنشقة على نفسها، أي الرؤية الخالية من أي تصور لائكي للحياة، وبشكل أوضح: عدم السقوط في فخ رؤية الغرب للحياة..".(الجيلالي الطيبي، 2005،ص29)وهنا تكمن البداية في لا منتم لعصره -الذي تصبغ وجهه الأزمة الحضارية- أي مثقف مدرك لواقعه، لكن في نفس الوقت منفصل عنه وساع نحو الأحسن أو نحو الصورة الأمثل، وهذا ما سيرجح لعب دور تعويضي للمبررات الغربية المفقودة، وهو ما ينص عليه مالك بن نبي في كتابه "دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين"، وعرض صورة أكثر إشراقا أمام الآخر الغربي، لا تشبه صورة "ألف ليلة وليلة" التي بنى الغرب عليها تصوره عن الآخر لسنوات طويلة ولا يزال يفعل.. فلقد"كانت هذه الليالي الحافز الأكبر لعناية الغرب بالشرق عناية تتعدى المناحي الاستعمارية والتجارية والسياسية.. لمعرفة الشعوب التي أنتجت هذا الأثر العظيم" (ميخائيل عواد،1962،ص27) رغم ضبابية مصدر هذا الأثر وكثرة الغث فيه.. لذلك على المثقف العربي وانطلاقا

من لا انتمائه لهذا "العرض التشويهي" أن يقدم صورة مشرقة عن حضارته الأصيلة. وأن يلتزم تجاه هذا المبدأ في ما يعرضه من أفكار، حيث إن "الإصلاح والتغيير وتحسين حال الشعوب وترقية شؤون الإنسان أشياء تصدر عن الأدب كما يصدر الضوء عن الشمس"(عبد القدوس أبو صالح، 2006،ص11)،هي إذن دعوة إلى الالتزام بعرض ما يجب أن يعرض، وقول ما يجب أن يُقال، و لقد ظهرت فكرة الالتزام نتيجة لاحتكاك الأديب بمجتمعه، و"الالتزام يعني أن يضع الأديب أو رجل الدين أو رجل السياسة جميع قواه المادية و المعنوية و جميع طاقاته العقلية والفنية في خدمة قضية معينة" (لخضر العرابي ،1984،ص 342)،كما عرفه نورمان مالر بأنه" نوع من التعاقد أو الارتباط بشيء خارج الذات(...) بهذا يمكننا أن ندين بالولاء لفكرة واحدة أو لحقيقة واحدة.." (نجيب الكيلاني،1987،ص38)، وها نحن نرى توفيق الحكيم يكررها في قوله: "هناك صلة في اعتقادي بين رجل الفن ورجل الدّين ذلك أن الدين والفن كلاهما (يضيء) من مشكاة واحدة هي ذلك القبس العلويّ الذي يملأ قلب الإنسان بالراحة والصفاء والإيمان.. وأن مصدر الجمال في الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذي يغمر نفس الإنسان عند اتصاله بالأثر الفني.. ومن أجل هذا كان لابدّ للفن أن يكون مثل الدين قائما على قواعد الأخلاق" (نجيب الكيلاني، المرجع السابق،ص38)،هذه الإضاءة يجب أن تُسلّط على الجانب الإيجابي من صورة الفرد والمجتمع، لا أن يعمل الأديب والمبدع على قص ولصق من نصوص وخطط الآخر.. كي نجد في النصوص المقدمة واقعية فجّة، وصورا مخلّة، قد تصل حدّ "الإباحية"، أو نقابل سلبية وسوداوية تتنافى مع الروح الإيجابي للإسلام وتذهب بالمبدع نحو حدود الآخر وساحته الفكرية، بدلا من أن تعرض أفكارها ضمن حدودها، في سياق انفتاح حذر تجاه الآخر يعرض عن التماهي ويحجم عن القطيعة.. وقد تباينت المواقف في الرواية العربية بين هاذين الحدين... فتجاه الحضارة الغربية، وما تخلقه من أزمات فكرية، تصرف بعض الأدباء "بجهل" كأنما غاب عنهم أمر الصراع الفكري (مالك بن نبي،2009،ص9)فنسخ صورة الآخر المأزومة، وعامل "الدين" والمتدينين في الإطار الذي رسمه الغربي لنفسه، فانتشرت غالبا صورة المتدين السلبي والانتهازي كما هو الحال في عدة روايات مصرية كرواية مواقيت الصمت لخليل الجيزاوي (خليل الجيزاوي،2015) وبدت لهم حضارة الآخر في صورة مثالية، كما دعوا إلى الاقتباس منها، ومن أوائل من دعوا إلى ذلك أصحاب الرواية التعليمية في مصر أمثال رفاعة الطهطاوي في التلخيص وعلي مبارك في روايته "علم الدين" التي دعا فيها لمسالمة الغرب والاقتباس عن الحضارة الغربية.. بالرغم من كون هذا التيار الروائي ظهر مع بداية الحملات الاستعمارية على مصر وسائر الوطن العربي.(شجاع مسلم العاني،1979، ص10-11) ومن الروائيين المتقدمين من تعامل مع الحضارة الغربية بمنطق التجنيس، فاختصر العلاقة بن الحضارتين في العلاقة بين الذكر الذي يمثل الشرق "الفحل" الحائر الحالم والأنثى التي تمثل الغرب "المغوي" والمتحكم.. كما هو الحال في رواية عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم أين يرسم الروائي لقاء الذات العربية بالآخر الغربي، وكذا رواية الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" (جورج طرابيشي، 1997،ص5-6-12). ومن الروائيين من نظر لتلك العلاقة "الاستعمارية أساسا" نظرة انتماء وهوية، في هذا الزمن العربي المتفتت، ليتناول بالتالي مكونات تلك الهوية ومسارات الانتماء، السياسي والاجتماعي

والثقافي، كمسألة المواطنة وعلاقة السلطة بالفرد والجلاد بالشعب، ليتم الانتقال –خاصة في روايات السجن السياسي- من البطولة المجيدة إلى الإنسان العادي الذي تتقاذفه تيارات الحياة العربية اليومية وتدميه مشاكلها وتعقيداتها (جمال شحيد، بدون تاريخ،ص 220)،إضافة إلى كل المؤامرات الخارجية التي تحاك ضده من قبل رواد الغزو الفكري. ساهمت في تدعيم هذا المسار تقنيات الرواية الجديدة كما عززت هدف الروائيين العرب في طرح اهتمامات الفرد وطرح الحلول والبدائل، و لملا الاستشراف لمستقبل أزهر، ذلك أن "الرواية العربية نص اتجه بوعيه الفني وإمكاناته البنيوية والمعنوية إلى استشكال ما فكرت فيه الذات العربية من موقعها الحضاري والثقافي، عبر زمنها المحكوم بالقادم، والمنعكس داخل النص على شكل استشرافات فنية سردية" (عبد الله بن صفية،2012-2013،ص أ)، وقد حملت العديد من الروايات العربية هذه الميزة الإيجابية، الاستشرافية، أو الوسطية فنحن حسب رأي الدكتور عماد الدين خليل يجب أن نرجع ثانية إلى قاعدتنا الأساسية ونستبدل بالمنهج الفكر(الغربي) الخاطئ القائم على إقصاء الآخر، نستبدله بمنهج الاسلام القائم على ثنائية الأنا والآخر في ظل تعايش سلمي متكافئ(عماد الدين خليل،2006،ص53)

رابعا-النموذج الروائي المشرق:

في باب عرض الشخصية الإسلامية كما ينبغي لها أن تكون، بكامل التزامها بمبادئها الدينية/الأخلاقية والوطنية.. مع ما يمكن أن يعتري الطبيعة البشرية من زلات وهنات، ونزاعات نفسية تعلوا تارة وتنخفض أخرى.. في هذا الباب يطرقنا نجم الكاتب المصري، الدكتور نجيب الكيلاني صاحب الروايات الثلاثين، تبرز فيها بجلاء الشخصية الإسلامية المتزنة، والمتوازنة ذات التوجه الوسط بين المادية والروحانية، البعيدة عن العبثية واللامبالاة التي تتسم بها شخصيات أغلب الروايات العربية.. كما في شخصية فاطمة في رواية عذراء جاكرتا والتي تمثل الشخصية الرئيسية الأولى في الرواية، كما تمثل الشخصية الاجتماعية المثقفة التي تحيل إلى مرجعية فكرية وإيديولوجية محددة (حسن بحراوي،2009،ص216-217)، هي هنا التيار الإسلامي.. وهي تجسد في الرواية الفعل ورد الفعل تجاه الغزو الفكري الممارس على العقول، فالبطلة في العمل الذي بين أيدينا تجاوزت الهم الفردي، وما والاه من سلطات ذكورية ما انفكت المرأة اليوم تنادي بالفكاك منها.. إن الهمة هنا أعلى ما دام الهم أكبر.. وتتجلى السمات الشخصية المميزة، في أبعاد ثلاثة هي أبعاد الشخصية نفسها: البعد الخارجي، البعد الاجتماعي وكذا النفسي أو الفكري (علي عبد الرحمان فتاح، بدون تاريخ، ص 149)

أ) البعد الخارجي أو التكويني:يلخص الكيلاني هذا البعد في أول ظهور لفاطمة على منصة الجامعة حيث" شقت الصفوف فتاة غريبة الشأن.. قاصدة المنصة التي يتكلم من فوقها الزعيم، كانت في حوالي العشرين من عمرها، أجمل ما فيها عيناها اللتان تشرقان حيوية وإيمانا وجلالا، وكانت طويلة الأكمام ترتدي على رأسها شالا أبيض يخفي شعرها، ويبرز وجهها المتألق النضر" (نجيب الكيلاني،مصدر سابق،ص16)، كما أن جمال فاطمة لا تخطئه عينا متصفح، فوجهها بالنسبة لأبي الحسن "يضيء بالأمل، ويعزف أحلى أغنية.. الطهر والجمال وأناشيد المتصوفين في عينيها.. الثقة والحنان، وأراجيز الرعاة

على شفتيها.. المستقبل النضر، والغد المترع بالأحلام الجميلة في طلعتها.."(نجيب الكيلاني، مصدر سابق، ص 121)

ب) **البعد النفسي:** فاطمة بلباسها الأبيض الذي يشد الأنظار إليه بقوة ويجعل منها قديسة، بل هو في نظر فتيات الحزب الشيوعي "زي ملائكة في عصر الشياطين" (نجيب الكيلاني، مصدر سابق، ص 21) هي رمز للطهارة والنقاء والصدق، وهي تمثل نعم في مقابل لا الموجودة في الأسود، فكأنها تقول بلباسها نعم للسلام، نعم للحرية، نعم للتعددية.. وهي بنهايتها تمثل في الرواية، البداية لحياة جديدة في مقابل نهاية "قوى الشر".. هي بلباسها تمثل الصفحة البيضاء التي ستكتب عليها القصة (أحمد مختار عمر، 1997، ص 185-186)، قصة الصراع والنصر في الأخير. هي فاطمة بكل الرقة والأشجان، ترسم مع خطيبها أبي الحسن صورة للحب الطاهر بما تكنه له من العواطف الجياشة التي توزعت بينه وبين حبها الجم لعائلتها وبالخصوص والدها، الذي طرقت كل الأبواب لأجل تحريره من سجنه، حيث تصل بها الأحوال لأقصى درجات الضعف البشري عندما توسلت إلى زوجة الزعيم، وناشدتها أن يتدخل زوجها لإنقاذ حياة والدها.. وهي مع رقتها تحمل بين جوانحها روح الثورة في وجه الأوضاع القائمة، "فما قيمة الحياة بالنسبة للمنهزمين- تقول فاطمة- إننا إذ نموت ونحن نناضل من أجل الحق ففي ذلك حياة.. ونعيم.." (نجيب الكيلاني، مصدر سابق، ص 191). كما تحمل فكرا نيرا ومعرفة غزيرة بالدين تبدو بجلاء في نقاشها العلني مع زعيم الحزب الشيوعي، وسنأتي على ذكره في وقت لاحق إن شاء الله.

ج) **البعد الاجتماعي:** نمت شخصية فاطمة وترعرعت في ظل بيئة اجتماعية متدينة ومنفتحة في آن بقيادة رب الأسرة حاجي.. لترث من أبيها العديد من الصفات، فهي الطالبة الجامعية النجيبة، والخطيبة المفوهة التي لا تخشى مواجهة الجماهير، لا في البيت ولا في الجامعة ولا في دور الصحافة التي تمتهنها في نهاية الرواية..

كل تلك المؤهلات جعلت من فاطمة شخصية جاذبة، حيث يمكنها التأثير في الجماهير فتنال من تعاطفهم وإعجابهم الكبير نتيجة ميزاتها المتعددة (حسن بحراوي، مرجع سابق، ص269) كمنظر الوقار الذي يعلوها وكذا منطقها السليم وحجتها، كتلك التي واجهت بها الزعيم في محفل الطلبة حتى ضجت القاعة لها بالتصفيق وأصبح الزعيم مصدر سخرية.(نجيب الكيلاني، مصدر سابق، ص 19). وليس في الأمر خرق للمألوف ولا لبس لقدرات كبيرة، بل هي شخصية نسوية مستمدة من الواقع المعيش، ويشير الدكتور الكيلاني إلى مصادر اختياره للشخصيات في كتابه لمحات من حياتي، مؤكدا أنه يستمدها من التجارب العادية في الحياة الواقعية. (حنان بنت جابر عبد الرحمان الحارثي، 2000، ص119)

وممّا لا شك فيه أن الروائي عبّر من خلال شخصية الفرد عن الواقع... وكذا من خلال علاقات عنصري الوجود البشري الرجل و المرأة، هاته الأخيرة التي تُعتبر أكثر استقطابا لحركة الواقع وأغنى دلالة لتحديد موقف الأديب منه (طه واحدي،1980،)، ما بالك إن كانت تحتل في النصوص الأدبية مركز الصدارة..؟ حيث تنعكس عليها ملامح أزماته بشكل جلي. من أزمة الحرية على المستوى الاجتماعي وصولا إلى الأزمات الذاتية على المستوى النفسي... زد على ذلك أن الرجل إذ يخترق أسوار الاستبداد يتعرض

للعنف المباشر ما يجعله أكثر عرضة للموت وأشرف على نهايته من المرأة، التي تكون مساحة تحركها أوسع والعنف الممارس ضدها أقل ضراوة، وإن بوسائل لا تقل دناءة! كالذي فعله الزعيم بفاطمة، حيث نشر حولها الإشاعات الغرامية وحاول التشهير بها و بسمعتها في الجامعة، لدرجة كادت معها أن تجن... (نجيب الكيلاني، مصدر سابق، ص38)

خلاصة القول بالنسبة لهذه الشخصية أن الروائي خولها مجموعة من الصفات والمؤهلات المادية والمعنوية، التي جعلت منها عنصرا فعالا ومقاوما لسلطات الغزو الفكري، فتوافرت لها الحرية في عائلة كريمة تحترم المبادئ وتقيم وزنا للحريات الفردية، وأبا متفتحا لا يقف حاجزا في وجه الفتاة.. فكانت الفتاة الجامعية المثقفة والمتدينة وصاحبة الصفات الوراثية الخطابية والجريئة.. فطوعت عناصر الزمان والمكان لصالحها واخترقت الحجب المستبدة.

كذلك تبرز ملامح الشخصية الإنسانية المتزنة بتوجهها الإسلامي السمح والمرن، في عثمان أمينو،الذي يمثل الشخصية الرئيسية في رواية عمالقة الشمال، كما يمثل الشخصية الاجتماعية المثقفة التي تحيل إلى مرجعية فكرية وإيديولوجية محددة (حسن بحراوي، مرجع سابق،ص 216-217)، هي هنا التيار الإسلامي.. فهو داعية إلى الله إضافة إلى كونه تاجرا ورث تجارة الغنم عن أبيه.. يتقن اللغة العربية ويبجلها، ويتحدث الإنجليزية بطلاقة، كما يتقن عديدا من اللهجات المحلية كلغة الهوسا وهي لغة التجارة، ولغة الإيبو وهي لغة قبائل الشرق ولغة اليوروبا قبائل الغرب، كما يصوره الروائي، واحدا من أتباع الصوفية، والطريقة القادرية تحديدا، ممثلة في شخص شيخه عبد الله. ومع كونه متدينا وورعا وتابعا لطريقة، إلا أن الروائي يغلب الجانب الإنساني فيه ويبسطه بسطا عن طريق عرضه لهواجسه النفسية، وصراعاته الداخلية التي كثيرا ما كان يدلي بها أمام شيخه، خاصة ما تعلق منها بجاماكا.. يقول: " رؤيتي لجاماكا أثارت في نفسي خواطر غريبة.. العيون المكحولة لم تفارقني حتى في منامي(...) كان طيف جاماكا يطاردني في إلحاح، وكنت أستريح لخيالها برغم خوفي الشديد" (نجيب الكيلاني، مصدر سابق، ص16)، يضيف في موضع آخر وقد استحضر ذكرى جماكا وكلماتها: "كلماتها المتخيلة ترن في أذني، صوتها العابث المثير يهز كياني.." (نجيب الكيلاني، مصدر سابق، ص 55) يدعم هذا التوجه تمسكه بصحبة نور، برغم معاقرته للخمر واللهو والمجون.. فهو قبل أن يكون تاجرا وداعية إلى الله، إنسان، يعتريه ما يعتري سائر البشر، إلا أن العلاج لما يضيق به صدره كان دوما حاضرا، حين يهرع نحو شيخه يتفيؤ ظلال حكمته وينهل من سعة إيمانه ورحابة صدره.. أو يمسك مصحفه "إنه الجرعة الشافية التي أشربها كلما تعبت الروح، وسقم القلب وراودتني الأحزان والأوهام، ونخر في فؤادي الوهن واستبدت بي الهموم.." (نجيب الكيلاني، مصدر سابق، ص56) فعثمان أمينو إنسان قبل أي شيء إلا أن الجانب القيمي يطغى عليه، فنجده في حديث النفس يحاسبها دائما.. كما كان بفضل تجواله المستمر وبفضل شيخه عبد الله، إنسانا ذا علم ومراس بأمور السياسة والحكم، مطلعا على سنن الصراع وحتمياته، وفيما يجريه الروائي على لسانه دلائل كثيرة على ذلك، خاصة بعدما صقلته تجربة السجن، التي تعلم منها الكثير، يقول: " كان السجن يغص بعدد كبير من الرجال أغلبهم من الضباط والعسكر وعلماء الدين وكتاب الصحف والمؤلفين.. يبدو

أن أية محنة يكون وقودها دائما من صنفين رئيسيين هما: الشباب وحملة الأقلام.." (نجيب الكيلاني، مصدر سابق، ص117)، هذا بالإضافة إلى مواقف عدة وأقوال متواترة سنأتي على ذكرها في محل الاستشهاد بها لاحقا. ما سبق ذكره كان اعتناء من الروائي بسرد الجانب النفسي والفكري من شخصية البطل، أما من الناحية الشكلية، فلم نعرف عنه سوى أنه ذو لحية سوداء صغيرة (نجيب الكيلاني، مصدر سابق، ص 28) ولعله إهمال متعمد للجانب الشكلي للبطل، حتى يرسم كل واحد منا صورته الخاصة، ويتمثله في كل إنسان داعية إلى الله، أبيض كان أم أسود.. لا فرق فالمقياس هو الإيمان وفقا للتصور الإسلامي، الذي يتجسد في أعمال الكيلاني، حيث تذوب الفوارق وتتلاشى الحدود.

خاتمة:

نخلص ممّا سبق، إلى القول بأن الأدب عامة، والرواية خاصة باعتبارهما لسان حال الأمة، وديوان الأنا في تحركه الاجتماعي، إن صح التعبير، يجب أن تنتقل من درك الاستنساخ عن الواقع، ومن مجرد العرض، إلى مجال الدعوة، وتسويق صورة أفضل أو صورة فُضلى.. لا مجرد نقل لواقع ممسوخ وصورة مشوهة بلوثة الحداثة وإن كانت تلك الأعمال الروائية هي التي يرضى عنها تيار الحداثة، والتي تكون في الحقيقة نوعا من الاستنساخ للأعمال الأوربية وتقليدا وتعبيرا عن مجتمع وقيم ومبادئ الغرب، في حين يرى الفريق الآخر (من دعاة الأصالة) ضرورة مقاربة الروائي العربي المسلم، لتقاليد هو مبادئه الحضارية واقعا وتاريخا... حيث يجب أن تكون الوجهة الأدبية أنبل، فيحمل الأديب المسلم لواء التبليغ عن صورة الإسلام الأصيلة والمشرقة.

قائمة المصادروالمراجع:

1-الكتب:

- أحمد مختار عمر، اللغة واللون، 1997، عالم الكتب، القاهرة، ط2.

- أسماء احمد معيكل، الأصالة والتغريب في الرواية العربية روايات حيدر حيدر نموذجا-دراسة تطبيقية، 2011، عالم الكتب الحديث، ط1.

- بشير بويجرة محمد، "الأنا الآخر ورهانات الهوية في المنظومة الأدبية الجزائرية،2007، منشورات دار الأديب، وهران.

- جورج طرابيشي، شرق وغرب ذكورة وأنوثة: دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، 1997، دار الطليعة، بيروت، ط4.

- حنان بنت جابر عبد الرحمن الحارثي، صورة المرأة في قصص نجيب الكيلاني دراسة نقدية تحليلية،2000، رسالة ماجستير إشراف عبد الله بن إبراهيم الزهراني، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.

- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، 2009،المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط2.

- السيد عمر: الأنا والآخر في المنظور القرآني، 2008، دار الفكر دمشق .

- شجاع مسلم العاني، الرواية العربية والحضارة الأوربية،1979، منشورات وزارة الثقافة والفنون، العراق.

- صالح إبراهيم، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف،2004، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء-المغرب، ط1.

.- طه واحدي، صورة المرأة في الرواية المعاصرة، 1980، دار المعارف، القاهرة، ط2.

- عبد الله بن صفية، الاستشراف في الرواية العربية المعاصرة، 2012^2013 رسالة ماجستير إشراف إسماعيل زردومي، جامعة الحاج لخضر.

- علي عبد الحليم محمود ومجموعة من المؤلفين، الغزو الفكري والتيارات المعادية للاسلام، 1981، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، الرياض.

-كولن ولسن، سقوط الحضارة، ترجمة أنيس زكي حسن، منشورات دار الآداب، بيروت.

-لخضر العرابي، الأدب الاسلامي ماهيته ومجالاته، دار الغرب للنشر والتوزيع.

- مالك بن نبي:- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة،2009، دار الفكر، دمشق، ط9.-"مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي"، 2009، دار الفكر المعاصر، سورية، دمشق، ط9.- دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين.2007، دار الفكر، دمشق،ط2.

-ميخائيل عواد، ألف ليلة وليلة مرآة الحضارة في العصر الإسلامي، مديرية الفنون والثقافة بوزارة الإرشاد.

- محمد جابر الأنصاري، المثقفون العرب والغرب، 1998، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط1.

-نجيب الكيلاني: - الاسلامية والمناهج الأدبية، 1987، مؤسسةالرسالة. - عمالقة الشمال، 2015، دار الصحوة، مصر، ط1.- عذراء جاكرتا،2010، دار الصحوة، مصر، ط1 للناشر.

-ندرة اليازجي، أزمة الانسان المعاصر، يوليو 2010، مقال مجلة الموقف الأدبي.

- محمد جابر الأنصاري، العرب والسياسة أين الخلل، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط1.

2- المجلات:

-جمال شحيد، صورة الآخر في الرواية العربية، مقال مجلة الآداب الأجنبية، عدد 118.

-جمال مباركي، المحمول الثقافي الغربي في الرواية العربية المعاصرة، مقال مجلة قراءات، جامعة بسكرة، العدد5، 2013

- الجيلالي الطيبي، سقوط وقيام الحضارة محاولة لقراءة اللامنتمي، مقال مجلة التبيين، العدد 24، 2005.

- خليل الجيزاوي، صورة المتدين في الرواية العربية، مقال بوابة الأهرام.

- عبد الله الفريجي، "مظاهر الأزمة الحضارية وضرورات استعادة الدور الحضاري، مقال مجلة النبأ، العدد 60، آب 2001

- علي عبد الرحمن فتاح، تقنيات بناء الشخصية في رواية ثرثرة فوق النيل، مقال مجلة كلية الآداب، جامعة صلاح الدين، العدد 102.

- عماد الدين خليل، ترشيد خطوات الأدب الاسلامي،2006، مقال مجلة الادب الاسلامي، العدد 53.
-عبد القدوس أبو صالح، "الأدب بين الالتزام والالزام" مقال مجلة الأدب الإسلامي،2006، العدد 50.

صورة الإسلام والمسلمين لدى اليهود من خلال رحلة بنيامين التطيلي(ت 569 هـ/ 1173م)

The Image of Islam and Muslims at The Jews through Benjamin of Tudela Journey (D569 AH/1173 AJ)

ط/د. نورالدين بوذينة، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة - الجزائر
boudinanour1986@gmail.com



تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن صورة الإسلام والمسلمين لدى اليهود من خلال رحلة بنيامين التيطلي الذي عاش في القرن السادس هجري/الثاني عشر ميلادي، دراسة وصفية تحليلية، بذكر المواضع التي تناول فيها الإسلام والمسلمين في رحلته، ثم القيام بتحليل هذه الصورة التي نقلها إلينا حول الإسلام والمسلمين، وطبيعة العلاقة بين المسلمين واليهود أثناء تدوين رحلته، ومن ثم تقييم كتاباته حول الإسلام والمسلمين، وفي الأخير نختم بذكر أهم النتائج التي المتحصل عليها. أما المنهج المستخدم فتنوع بين المنهج الاستقرائي والوصفي والتحليلي.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، المسلمين، اليهود، بنيامين التطيلي، صورة

Abstract:

this study aims to reveal the image of Islam and Muslims at The Jews through Benjamin of Tudela journey. Who lived in sixth century AH/ the twelfth century AJ.An analytical descriptive study. By mentioning the topics in which he mentioned Islam and Muslims on his journey. Analyzing this image and knowing the relationship between Muslims and Jews. using the inductive analytical and descriptive method evaluate it and state the related results.

Key words:Islam. Muslims.The Jews.Benjamin of Tudela.The image.



مقدمة:

انتشر الدين الإسلامي منذ ظهوره انتشارا واسعا شمل مختلف أرجاء المعمورة في فترة وجيزة، في ظاهرة مميّزة وفريدة لم يشهدها التاريخ من قبل، حيث لم يعرف البشر دينا أو ملة حقق مثل هذا التوسع والانتشار الذي حققه الإسلام والمسلمين معا، حتّى كاد يبلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار، ومعه تزايد عدد المسلمين من فئة قليلة مستضعفة إلى إمبراطورية مترامية الأطراف، هذا التوسع للإسلام عبر المكان وسير الزمان، مكّن لهذا الدين وأتباعه الاحتكاك بشعوب لها ثقافات وعادات متنوعة وعقائد وضعية وأخرى سماوية غير وضعية سبقته، كالديانة اليهودية التي دخل الإسلام في نزال مباشر معها لإنكارها لهذا الدين عند ظهور الدعوة المحمدية بالمدينة المنورة ،ونظرا للقرب الجغرافي والاختلاف العقدي بينهما، نتج عنها علاقة عقدية عدائية تاريخية متوترة ومتواترة من اليهود اتجاه الدين الإسلامي ومعتنقيه عبر التاريخ

إلى يومنا هذا، وفي إطار هذا الموضوع ارتأينا إلى البحث عن صورة الإسلام والمسلمين لدى اليهود من خلال كتب الرحلات، هذه الأخيرة التي تعتبر من المصادر التاريخية التي تحتوي على معلومات على قدر كبير من الأهمية وجب الاهتمام بها، ولعل من أبرز كتب الرحلات اليهودية التي لاقت رواجا واسعا لدى المؤرخ والباحث العربي والمسلم، رحلة بنيامين التيطلي، التي جاب فيها بعض أجزاء العالم الغربي والشرقي في منتصف القرن السادس هجري/ الثاني عشر ميلادي، ودوّن فيها ما شاهده غالبا، ولكن ما يهمنا في رحلته ما نقله عن واقع الإسلام والمسلمين في المناطق التي زارها في المشرق الإسلامي، حيث تعبّر كتابات اليهود عن الإسلام والمسلمين بفكرة الصراع الحضاري بين الأديان من جهة، ونظرتهم للإسلام والمسلمين من جهة أخرى، وما شاع في الغالب عن كتابات غير المسلمين خاصة اليهود بعدم التزامها بالحيادية والموضوعية، ونقلها عادة لصورة مخالفة لحقيقة الإسلام والمسلمين لتنفير الناس منه وتشويهه. وتحديد مدى انعكاس طبيعة هذا الصراع على كتابته حول الإسلام والمسلمين، لذا حاولت أن أتطرق في هذا الموضوع إلى صورة الإسلام والمسلمين لدى اليهود من خلال رحلة بنيامين التيطلي، دراسة وصفية تحليلية، بذكر المواضع التي تناول فيها الإسلام والمسلمين في رحلته، ثم القيام بتحليل هذه الصورة التي نقلها إلينا حول الإسلام والمسلمين، وطبيعة العلاقة بين المسلمين واليهود أثناء تدوين رحلته، ومن ثم تقييم كتاباته حول الإسلام والمسلمين، وفي الأخير نختم بذكر أهم النتائج التي المتحصل عليها.

الإشكالية الرئيسية: ما صورة الإسلام والمسلمين لدى اليهود من خلال رحلة بنيامين التيطلي؟

التساؤلات الفرعية:

- من هو بنيامين التيطلي؟ وما رحلته؟
- كيف وجد الإسلام والمسلمين؟
- هل أنصف الإسلام والمسلمين أم تحامل عليهم في رحلته؟
- ما طبيعة العلاقة بين المسلمين واليهود في هذه الرحلة؟

أما أهمية هذا الموضوع، تتمثّل في إبراز صورة الإسلام والمسلمين لدى اليهود، وسبب اختيار هذا الموضوع، لغياب دراسة من هذا النوع، فلم أر أحدا عالجه -حسب علمنا- وأما الهدف منه إبراز مكانة الإسلام والمسلمين لدى اليهود في زمن الرحلة.

لهذا عزمت على الكتابة في هذا الموضوع، فمن واجب الباحث المسلم إظهار مكانة الإسلام والمسلمين لدى معتنقي الديانات الأخرى عامة، وأهل الكتاب خاصة اليهود والنصارى، نظرا للعلاقة التاريخية والعقدية الملازمة لهما، وخدمة للإسلام والمسلمين، في ظل الهجمة الشرسة والمسعورة التي يتعرض لها الدين الإسلامي وأهله من طرف مؤسسات كرّست جهودها كلها لهذا الغرض لحسر انتشار الإسلام وظهوره، بل ربط الإسلام بالتخلف والفساد الذي ينخر جسد الأمة الإسلامية منذ أمد بعيد. أما المنهج المستخدم فتنوع بين المنهج الاستقرائي في استخراج صورة الإسلام والمسلمين لدى اليهود في هذه الرحلة، ثم المنهج التحليلي في مناقشة هذا الواقع الذي نقله إلينا صاحب الرحلة، وفي تقييم كتابته حولهم، واستخدمت المنهج الوصفي عند عرض هذا البحث وتحريره وذكر أهم النتائج المتوصل إليها.

أولا- التعريف باليهود والمؤلف ورحلته:

1-تعريف اليهود لغة واصطلاحا:

أ- لغة: قال الجوهري (ت 393هـ/1003م): "هود: هادَ يَهودُ هَوْداً: تابَ ورجع إلى الحق، فهو هائدٌ, وقومٌ هودٌ. قال أبو عبيدة: التَهَوُّدُ: التوبة والعمل الصالح. ويقال أيضا: هادَ وتَهَوَّدَ، إذا صار يهوديًّا. والهودُ: اليهودُ. وأرادوا باليهود اليهودِيّينَ، ولكنهم حذفوا ياء الإضافة كما قالوا زنْجِيٌّ وزِنْجٌ. والتهويدُ: المشي الرُوَيْدُ، مثل الدبيبِ. وأصله من الهوادَةِ. والتهويدُ: أن يصيَّرَ الإنسان يهودِيًّا. وفي الحديث النبوي: {فأبَواهُ يُهَوّدانِه}. (البخاري، 1894، صفحة 95 ، ج2)، والهَوادةُ: الصلحُ والميلُ. والمُهاوَدَةُ: المصالحةُ والممايلةُ" (الجوهري، 1987، صفحة 557،ج2)

ب-اصطلاحا: وقال الشهرستاني (ت 548 هـ/1153م) "هم أمة موسى - عليه السلام - وكتابهم التوراة، وهو أول كتاب نزل من السماء، أعني أن ما كان ينزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام ما كان يسمى كتاباً بل صحفا" (الشهرستاني، صفحة 15، ج2)

فاليهودية ديانة يبدو منسوبة إلى يهود كأمة. وهذه بدورها قد اختلف في أصلها، وقد تكون نسبة إلى يهوذا أحد أبناء يعقوب وعممت على الأمة اليهودية على سبيل التغليب. (الندوة العالمية, للشباب الإسلامي، 1999، صفحة 495،ج1)

فكلمة اليهودية إذن حينما تطلق عموما فيُقصد بها الديانة التي يدين بها اليهود، وكل من يدين بها، وينتسب إليها يدعى يهودي للذكر، ويهودية للأنثى. (هود، 2011، الصفحات 15- 16، ج2)

2- بنيامين التُطيلي Benjamin of Tudela(ت 569 هـ/ 1173م):ورد اسمه في مقدمة مترجم كتابه بأنه الرابي بنيامين بن الرابي يونة التطيلي ((ياقوت، 1995، صفحة 33،ج2) النباري عالم ورحّالة يهودي أسباني عاش في القرن السادس هجري / الثاني عشر ميلادي ، إنه كان تاجراً وإنه يجمع إلى إلمامه بالاقتصاد وفنون التجارة إلماما كافيا بالتوراة والتلمود، كما هو شأن الكثيرين من أمثاله في ذلك العصر الذي كانت العلوم الدينية وحدها تميز المتعلّم عن الأمي، واشتهر برحلته، فما هي رحلته؟

3- رحلته:بدأ بنيامين التطيلى رحلته في حدود سنة561 هـ/ 1165م، وانطلق من مدينة سرقسطة(الحميري، 1980، صفحة 317) الواقعة وقتئذ تحت حكم النصاربو استغرقت رحلته ما بين خمسة وثلاثة عشر عاماً، زار خلالها نحو 300 موضع من بينها: إيطاليا واليونان وفلسطين وبلاد الرافدين وإيران والهند، وعاد ماراً بعدن واليمن ومصر وصقلية.

وقد انصب اهتمامه على حضارات البلدان التي زارها وعلى الجماعات اليهودية فيها من حيث أسلوب حياتهم ووظائفهم الأساسية وتنظيماتهم الاجتماعية وحياتهم الدينية.

كما أورد إحصاءات عن عدد كل جماعة. ويُعَدُّ كتابه من المصادر الفريدة لعدد أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، وإن كانت بعض الأعداد التي يوردها تبدو غامضة أو مبالغاً فيها. وقد تُرجم كتابه إلى معظم اللغات الأوربية وضمنها اللاتينية (بنيامين، 2002، صفحة 7)،(المسيري، صفحة 120،ج3)، أما

الهدف من رحلته هو تقديم تقرير لزعماء اليهود في شبه جزيرة أيبيريا لتوضيح الأماكن التي يمكن أن يلجأ اليهود إليها هروبا من الاضطهاد المسيحي. (بنيامين، 2002، صفحة 11)

ثانيا- صور الإسلام والمسلمين في رحلة بنيامين التيطلي:

رغم هدف رحلة بنيامين التيطلي كان تقصي أحوال اليهود في المشرق الإسلام وجرد أو إحصاء لليهود في مدن وحواضر العالم الإسلامي خاصة، إلا أنّ رحلته تضمنت شواهد مهمة عن واقع الإسلام والمسلمين، حيث تنوعت الأخبار التي أوردها في رحلته عن الإسلام والمسلمين، وشملت مختلف جوانب الحياة، من جوانب دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية وحتى علمية، نورد نماذج عليها، وفق ما يلي:

1- الأوضاع الدينية:نقل لنا بنيامين التطيلي بعض مظاهر الحياة الدينية التي وجدها في بلاد المسلمين، حينما مرّ على لبنان أثناء رحلته، وفي أحد جبالها شاهد فرقة الحشاشين (الندوة العالمية, للشباب الإسلامي، 1999، صفحة 403، ج1)،وتحدّث عن معتقدهم، ووصفهم بأنهم زنادقة لا يؤمنون بدين محمد.

ولديهم طاعة عمياء لتعليم شيخهم "قرمط"((البغدادي، 1977، صفحة 266) تصل إلى درجة الحياة أو الموت دفاعا عنها، فحتّى سكان الجبل يأتمرون بأمره، وهم متضامنون مع بعضهم إذعانا لتعاليم شيخهم. ليضحّون بالنفس طوعا ويفتكون بالملوك والأمراء. (بنيامين، 2002، الصفحات 231-232)، ونظرا لعقائدهم المنافية والغريبة عن تعاليم الإسلام فهم في صراع دائم مستمر وأمير طرابلس الشام. بل وامتد هذا الصراع إلى النصارى من الإفرنج المجاورين للمنطقة (بنيامين، 2002، صفحة 232) وفي نفس البلد لبنان عاين بمنطقة جبيل طائفة الدروز بها(،(المسيري، صفحة 397،ج1)، وهؤلاء لا دين يعرف لهم. يعتصمون فوق قمم الجبال وشعاب الصخور ولا يمتون بطاعة لملك أو أمير، ووصفهم كذلك بأنهم إباحيون، حيث ينكح الرجل منهم ابنته. ولهم عيد يحتفلون به مرة في العام. يجتمعون به في صعيد واحد، يأكلون ويشربون، فيستبيح بعضهم نساء بعض. وهذا ما يتناسب مع المذهب المزدكي.(الطبري، 1967، صفحة 92،ج2)

ومن عقائدهم السقيمة التي ذكرها تناسخ الرواح أي أنّ الروح الزكية إذا فارقت الجسم عند الوفاة حلّت في جسم طفل آدمي يولد في تلك اللحظة أما الروح الشريرة فتحل في جسم كلب أو حمار وما شاكل ذلك. (بنيامين، 2002، الصفحات 232-236)

كما أنّ الخلافة العباسية كانت تقوم بحماية أوقاف المزارات والمعابد الدينية سواء ما تعلق منها بالدين الإسلامي أو غيره من الديانات الأخرى، كما حدث في زمن الخليفة العباسي محمد المقتفي، (الذهبي، 2003، الصفحات 97-98،ج12) حيث ذكر بنيامين أن هذا الخليفة أيد حق وقف أملاك واسعة من العقار والضياع لأحد المزارات الدينية في بغداد.(ياقوت، 1995، الصفحات 454-456،ج1)

2- الأوضاع السياسية: تحدث بنيامين أيضا في رحلته عن الجانب السياسي حينما دخل عاصمة الخلافة العباسية بغداد واصفا إياها بالمدينة الكبرى، وبيّن كذلك مكانة الخليفة عند المسلمين أنه أمير المؤمنين العباسي من آل بيت نبي المسلمين. وهو إمام الدين الإسلامي، يدين له بالطاعة ملوك المسلمين قاطبة. فهو عندهم بمقام البابا عند النصارى. (بنيامين، 2002، الصفحات 292-293)فالخليفة حسبه موصوف بالتقوى والصدق والاستقامة وطلب الخير لجميع رعيته، والمسلمون لا يشاهدونه إلا مرة في العام، عندما يتوافد الحجاج من كل فج بطريقهم إلى مكة. (بنيامين، 2002، صفحة 294)

وعندما وصل إلى مصر كانت تحت حكم الدولة الفاطمية(عبد الله، 1991، صفحة 55) وصفها بدولة الشيعة العلوية، ونسبها إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أما عن علاقتهم بالخلافة المركزية ببغداد، فهم خارجين على سلطة الخليفة العباسي على حدّ تعبيره. وهناك منافسة كبيرة بين خليفة الدولتين،كما أنّ السلطان الشيعي لا يخرج من قصره إلا مرتين في العام، الأولى في يوم العيد والثانية في يوم وفاء النيل. (بنيامين، 2002، صفحة 350)

3- الأوضاع الاقتصادية: أما فيما يخص الأوضاع الاقتصادية، فورد ذكرها عند دخوله مدينة السلام بغداد وصفها كما يلي:" وتمتد حولها الرياض والحقول وبساتين النخيل مما لا مثيل له في جميع العراق. ولها تجارة واسعة، يقصدها التجار من جميع أقطار العالم للبيع والشراء" (بنيامين، 2002، صفحة 304)، وكذلك وصف مدينة الإسكندرية (العمري، 2002، صفحة 490،ج3) على أنها بلدة تجارية فيها أسواق لجميع الأمم. يؤمها التجار من الممالك النصرانية كافة...والأندلس والمغرب والجزيرة العربية. (بنيامين، 2002، صفحة 358)

4- الأوضاع العلمية: ندرت الأخبار المتعلقة بالجانب العلمي لدى المسلمين في رحلة بنيامين، باستثناء ما ذكره حول المؤهلات العلمية للخليفة العباسي بأنه عليم بمختلف اللغات، عارف بتوراة موسى، يحسن اللغة العبرية قراءة وكتابة. (بنيامين، 2002، صفحة 294) وهذه الصفات التي ذكرها للخليفة العباسي يبدو مبالغ فيها نوعا ما من طرف الرحالة بنيامين التيطلي، فكتب التاريخ والتراجم التي لهذا الخليفة العباسي الذي عاصره في رحلته لم تذكر عنه هذه الصفات المتعلقة بإتقانه للغة اليهودية وعلمه بتوراة موسى عليه السلام.

وذكر أيضا أنّ بغداد حفلت بعدد كبير من العلماء الفلاسفة والمتفننين في جميع العلوم والمعارف والسحريات. (بنيامين، 2002، صفحة 304)ومعروف عن مدينة بغداد نشاط الحياة العلمية بها منذ ازدهارها، فلقد أضحت قبلة للعلماء في مختلف الفنون ومن مختلف الأمصار.

5- الأوضاع الاجتماعية: لم تخل رحلة بنيامين من الجوانب الاجتماعية التي سادت العالم الإسلامي أثناء رحلته، فلقد أعجب باهتمام الدولة العباسية بالجانب الصحي لرعاياها خاصة للمعوزين منهم، ما يوازي المستشفيات في عصرنا هذا أو يطلق عليه في ذلك العصر المارستان، حيث عرفه بنيامين التطيلي بأنه عبارة عن مجموعة من البنايات الواسعة يأوي إليها المعوزون من المرضى رغبة في الشفاء، كما يقوم

على هذا المارستان مجموعة من الأطباء يبلغ عددهم الستين طبيبا، يعالجون المرضى ويطبخون لهم الأدوية. وتحت رعاية الخليفة فيجهزهم بما يحتاجون إليه من بيت المال. وفيها أيضا بناية أخرى تدعى دار المارستان، وهي ما يشبه مستشفى الأمراض العقلية والعصبية في زمننا هذا، حيث يأوي إليها المجانين المغلوبون على عقولهم بتأثير حر القيظ الشديد! والأطباء يقيدونهم بالأغلال حتى يثوبوا إلى سابق رشدهم. ويعيشون مدة مكوثهم فيها بنفقة الخليفة. ويقوم أطباء الخليفة بتفقدهم مرة في كل شهر، فيسرحون من عاد إلى الصواب منهم ليعود إلى أهله. وتشمل خيرات الخليفة كل من أمّ بغداد من المرضى والمجاذيب. (بنيامين، 2002، صفحة 298)

6- الأوضاع الطبيعية: لم تخل رحلة بنيامين حتّى من المظاهر الطبيعية فوصف بلاد مصر بأنها كثيرة الجفاف، لا ينزل فيها مطر ولا تتساقط فيها ثلوج ومناخها شديد الحرّ. (بنيامين، 2002، صفحة 351)

وتحدث عن كالجوائح ما يسمى بالكوارث الطبيعية في أيامنا هذه التي صادفها في طريقه من زلازل وفيضانات وعاين آثارها، كالزلزال الذي أصاب طرابلس قبل رحلته بمدة وجيزة فهو زلزال شديد أدى إلى هلاك خلق ، انهارت على السكان الدور والحيطان فطمرتهم. (بنيامين، 2002، صفحة 232)وهلك في الزلزال الذي ضرب فلسطين حسبه ما يقارب العشرين ألف نسمة. (بنيامين، 2002، صفحة 232) وتحدث عن زمن فيضان نهر النيل فهو يفيض مرة في العام، قرابة شهر ، فتغمر مياهه من الأراضي، ما مسيرته 15 يوما. فتبقى المياه فوق الأرض شهري أيلول وتشرين لاسقائها وإروائها. (بنيامين، 2002، صفحة 351)

ثالثا- أوضاع اليهود في بلاد الإسلام:

نقل لنا بنيامين التطيلي في رحلته صورا رائعة وصفحات مشرقة تعبر عن طبيعة العلاقة بين المسلمين واليهود، وتعكس هذه الصورة بوضوح الإسلام الصافي وروح التسامح التي اتصف بها المسلمين اتجاه مخاليفهم في الملة والاعتقاد، وتنوعت مظاهر التسامح والتعايش مع الآخر ويغذيها الاحترام المتبادل بينهما تحت سلطة مدنية واحدة، وتبرز مظاهر هذا التسامح فيما يلي:

1- الجانب الديني: تمثل صورة جلية وواضحة لهذا التسامح، فخليفة المسلمين في بغداد لاحظ بنيامين التطيلي عليه حُسن المعاملة لليهود، بل وفي حاشيته عدد منهم (بنيامين، 2002، صفحة 294) فرغم النجاح الباهر للفتوحات الإسلامية، إلا أنّ الفاتحين المسلمين لم يقوموا بهدم أو تحويل أماكن العبادة لليهود أو النصارى أو غيرهم من معتنقي الديانات أو منعهم من ممارسة شعائرهم، ولكن وجد الرحالة بفلسطين كنيسة للنصارى كانت في أيام حكم المسلمين لها كنيسة لليهود، وأخذت منهم بعد استيلاء النصارى على البلاد. (بنيامين، 2002، صفحة 257)

فعاش اليهود في تسامح ورخاء وأمن حيث يقيم في ببغداد وحدها نحو أربعين ألف يهودي، وهم يعيشون بأمان وعز ورفاهة في ظل أمير المؤمنين الخليفة. (بنيامين، 2002، صفحة 299) بل الأمن لم يخل عنهم حتى في فترات انعدم فيها الأمن والاستقرار للمسلمين أنفسهم في ظل فرق أساءت للإسلام والمسلمين كطائفة الدروز في لبنان التي أشرنا إليها آنفا، فرغم تطرفهم مع مخاليفهم، إلا عاش بينهم بعض اليهود

كأرباب حرف وصباغين ولقوا معاملة حسنة من هذه الطائفة. (بنيامين، 2002، صفحة 236) بل وأعياد اليهود الدينية وتعيين رؤساء طوائفهم كان بإشراف الخليفة العباسي نفسه. (بنيامين، 2002، صفحة 303) والأبنية الدينية كلها محافظ عليها من اليهود والمسلمين. لا يمسها أحد بضرر حتى في أيام الحروب. (بنيامين، 2002، صفحة 312) كما أن سائر اليهود المقيمين في الديار الإسلامية حسبه، لمن بلغ منهم الخامسة عشرة من عمره يؤدي الجزية للمسلمين (بنيامين، 2002، صفحة 326)

2- الجانب الاقتصادي:رغم اشتهار اليهود بامتهان التجارة واحتراف المهن اليدوية، إلا أن بنيامين التيطلي، لم يحفل كتابه إلا بإشارات يسيرة حول هذا الجانب، فذكر بأن بيت المقدس بها معمل للصباغة يستأجره اليهود من ملك القدس سنويا. فتنحصر بهم هذه المهنة دون غيرهم. (بنيامين، 2002، صفحة 248) ونفس الأمر في لبنان حيث عاش هناك بعض اليهود كأرباب حرف وصباغين. (بنيامين، 2002، صفحة 236)

3- الجانب العسكري: ونظرا لهذه العلاقة الطيبة بينهما التي وصل مداها إلى الجانب الأمني والدفاعي، لقد حارب اليهود مع المسلمين جنبا إلى جنب تحت زعامة القائد نور الدين الزنكي (ابن كثير، 1986، الصفحات 277-283، ج12) ضد النصارى، (بنيامين، 2002، صفحة 277) ففرقة الحشاشين رغم بطشها وتنكيلها بالخارجين عنها، إلا أنه كان يقيم بين ظهرانيهم نحو أربعة آلاف يهودي، يسكنون الجبال مثلهم ويرافقونهم في غزواتهم وحروبهم. (بنيامين، 2002، صفحة 325)

4- الجانب التعليمي: أما من الناحية التعليمية فلقد كان لهم في عاصمة الخلافة العباسية بغداد عشر مدارس مهمة للتعليم اليهودي، (بنيامين، 2002، صفحة 299) وحفل رحلته بعدد كبير من اليهود الذين وصفهم بالعلماء.

رابعا-نقد وتقييم:رغم أهمية رحلة بنيامين التطيلي في تدوين جوانب من مختلف مظاهر الحياة السياسية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية وحتى المناخية والطبيعية، مع أن هذه الجوانب الحضارية رغم تنوعها وتشاركها بين المسلمين واليهود، إلا أن الأفكار الواردة حولها يسيرة جدا وتكاد تنعدم في بعض المجالات منها.

يحسب لبنيامين التطيلي قيمة المعلومات التي أوردها في رحلته، ولكن هذه الأخبار يعتريها النقص ونوع من السطحية، لعل ذلك يرجع إلى طبيعة هدفه من رحلته، والمتمثل في القيام بجرد شامل لأعداد اليهود في العالم.

طغت الأوضاع الدينية في رحلته على مختلف الجوانب التي ذكرها في رحلته، وسبب ذلك يرجع إلى تكوينه الديني، لهذا كان للحوادث الدينية النصيب الأكبر من دراسته.

رغم انتماء بنيامين التطيلي إلى الطائفة اليهودية واعتناقه الدين اليهودية، إلا أن كتاباته حول المسلمين جانبت الصواب في جل المواضع التي تحدث عن الإسلام والمسلمين في كتابه، وربما يعود ذلك إلى طبيعة هذا النوع من الكتابة أي كتب الرحلات التي غالبا ما يلتزم أصحابها بالحيادية والموضوعية، لأنهم

يكتبون ما عاينوه دون زيادة ونقصان، أو يرجع ذلك إلى معايشته لحسن معاملة المسلمين لليهود، فأحسن هو الآخر بدوره للمسلمين في رحلته.

خاتمة:

من خلال هذا البحث أمكن لنا الوصول إلى النتائج الآتية:

- تمثل رحلة بنيامين التطيلي صورة حية ومشرقة عن تسامح المسلمين مع مخاليفهم في العقيدة والهوية، وهي تعكس الصورة الحقيقية للإسلام الصافي والنموذج الرائع للمسلم السوي الممتثل لأمر دينه.
- حوت رحلة بنيامين التطيلي أخبار هامة عن الإسلام والمسلمين، رغم أن هدف رحلته كان تدوين أحوال اليهود في المشرق الإسلامي.
- قدم لنا بينيامين التطيلي صورة مشرقة وصادقة وناصعة عن حال الإسلام والمسلمين زمن رحلته.
- تنوعت المظاهر التي أوردها في رحلته حول الإسلام والمسلمين من مظاهر دينية وسياسية واقتصادية وعلمية واجتماعية وحتى مظاهر طبيعية.
- أخذت المظاهر الدينية الحظ الأوفر في رحلته بسبب ميوله الدينية وطبيعة العلاقة بين المسلمين واليهود حيث يسيطر عليها ويطغى الجانب الديني.
- التزم بنيامين بالحيادية والموضوعية والدقة عند وصفه لكل ما شاهده في العالم الإسلامي خاصة عند حديثه عن فرق الدروز والحشاشين، بل استنكر عقائدهما وبرّأ الإسلام والمسلمين منها، رغم العداء الديني لليهود اتجاه الإسلام. وبالغ في بعض المواضع عندما وصف العلوم التي يلم بها الخليفة العباسي.
- شُح الأخبار في رحلته حول الإسلام والمسلمين، وجاءت عرضا سببها لأن رحلته كان هدفها معرفة أوضاع اليهود في العالم خاصة المشرق الإسلامي.
- تندرج رحلة بنيامين فيما تعلق منها بالإسلام والمسلمين ضمن الكتابات الراقية والدقيقة لمفكر يهودي ينتمي إلى عالم غربي في صراع مع الإسلام وأهله.
- عاش اليهود في هدوء واطمئنان في بلاد العالم الإسلامي، ربما لم يجدها اليهود حتى في مجتمعات أخرى تدّعي احترام الإنسان وحرية المعتقد دون اعتبار لجنسه ولونه وهويته.
- عاش اليهود في كنف الخلافة الإسلامية مع ممارسة معتقداتهم بحرية مقابل احترامهم لنظام الخلافة ورعاياها.

توصيات:

في البداية أشكر جامعة البليدة 2 لونيسي على عامة على النشاط العلمي الذي تقوم به في الآونة الأخيرة رغم الظروف الوبائية التي تمر بها البلاد، والشكر موصول للقائمين على هذا الملتقى خاصة واختيارهم الرائع لهكذا موضوع تمس جوانب مهمة تربط بين الماضي والحاضر والمستقبل.

-من خلال دراستي لاحظت نقص كبير في البحث عن أحوال ونظرة الغرب للإسلام والمسلمين من خلال مصادرهم المكتوبة بمختلف تخصصاتها وفروعها، لذا وجب مضاعفة الجهود للكشف عن مكنونات هذه المصادر.

-توجيه طلبة المستقبل للبحث في هذا النوع من المواضيع في الدراسات الجامعية المستقبلة.

-ترجمة الكتابات الغربية حول الإسلام والمسلمين خاصة ما تعلق منها بالتراث الإسلامي وبالمسلمين.

قائمة المصادر والمراجع:

-أحمد بن يحيى العمري. (2002). *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*. أبو ظبي: المجمع الثقافي.

-اسماعيل بن حماد الجوهري. (1987). *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية* (المجلد 4). بيروت: دار العلم للملايين.

-اسماعيل بن عمر ابن كثير. (1986). *البداية والنهاية*. دار الفكر.

-التطيلي بنيامين. (2002). *رحلة بنيامين التطيلي* (المجلد 1). أبوظبي: المجمع الثقافي،.

-الحموي شهاب الدين ياقوت. (1995). معجم *البلدان* (المجلد 2). بيروت: دار صادر.

-شمس الدين محمد الذهبي. (2003). *تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام* (المجلد 1). دار الغرب الإسلامي.

-عبد القهار بن طاهر البغدادي. (1977). *الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية* (المجلد 2). بيروت: دار الآفاق الجديدة.

-عبد الوهاب المسيري. *موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية*.

-للشباب الإسلامي الندوة العالمية. (1999). *الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة*. دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع.

-محمد بن اسماعيل البخاري. (1894). *صحيح البخاري*. مصر: المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق.

-محمد بن جرير الطبري. (1967). *تاريخ الرسل والملوك* (المجلد 2). بيروت: دار التراث.

-محمد بن عبد الكريم الشهرستاني. *الملل والنحل*. مؤسسة الحلبي.

-محمد بن عبد المنعم الحميري. (1980). *الروض المعطار في خبر الأقطار* (المجلد 2). بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة.

-محمد جمال الدين عبد الله. (1991). *الدولة الفاطمية*. القاهرة: دار الثقافة.

-منصور محمد هود. (2011). *الخطاب القرآني لأهل الكتاب وموقفهم منه قديماً وحديثاً*. كوالمبور، ماليزيا: أكاديمية الدراسات الإسلامية جامعة ملايا.

الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي وتأثيره على صورة الإسلام والمسلمين

Western Colonization of the Islamic World and its Impact on the Image of Islam and Muslims

د. بطراوي مصطفى، جامعة علي لونيسي - البليدة 2

betraouimus@gmail.com



أردت من خلال هذه المداخلة العلمية معالجة موضوع صورة العرب والمسلمين لدى الغرب والتي تتعرض اليوم للتشويه، هذه الصورة التي تسجلها المخيلة الغربية كانت نتيجة تراكم تاريخي في سياق مواجهة حضارية، اختلط فيها السياسي بالديني، والصراع حول السيادة والنفوذ. ويدفعنا هذا الموضوع إلى طرح الكثير من التساؤلات حول حجم هذا التشويه، وآليات حدوثه، فقد تجاوز الأمر حدود الصورة، لينتقل إلى التأثير على وجودنا في هذا العالم. وعلى ضوء ذلك نطرح الإشكالية التالية: إلى أي حد شكل الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي منبعا خصبا لصياغة هذه الصور وبلورتها؟

إذا أردنا أن نعرف سبب هذا التصور السلبي عن الإسلام لدى الغرب اليوم، علينا أن نبحث في القرون السابقة وما رسخته من مواقف تجاه الإسلام والمسلمين، فالصور الراهنة للإسلام هي نتاج تراكمات ثقافية وحضارية، تكونت عبر قرون، أنتج الغرب خلالها قاموسا كاملا من الصور السلبية.لقد شكل الاستعمار الغربي للدول الإسلامية مرحلة حاسمة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ومحددًا حاسم لطبيعة هذه العلاقات، ومنبعًا خصبًا لصياغة صور نمطية عن الآخر الشرقي، وفي إطار استجلاء وتفسير الخلفيات التاريخية والمعرفية الغربية المتصلة بالسياقات الثقافية والسياسية، التي شكلت وعي وموقف الغرب تجاه الآخر، وانعكست على صورة الشرق والإسلام ، ، فمنذ عصر النهضة هيمنت الفلسفات العلمانية المادية على العقل الغربي، ،و لم تعد هناك غايات مطلقة للوجود الإنساني، فالخير هو مصلحة الدولة الكبرى وما يقتضيه ذلك من أساليب وسياسات متبعة تجاه العالم الإسلام الإسلامي على الخصوص .

الكلمات المفتاحية: الإسلام، الصورة، الحضارة، العالم الغربي، الاستعمار.

Abstract :

This topic prompts us to raise many questions about the extent of this distortion, and the mechanisms of its occurrence, as the matter has gone beyond the limits of the picture, to move on to affecting our existence in this world. In light of this, we raise the following problem : To what extent did Western colonization of the Islamic world form a fertile source for the formulation and crystallization of these images ?

If we want to know the reason for this negative perception of Islam in the West today, we must look at the previous centuries and the established attitudes towards Islam and Muslims. The current images of Islam are the product of cultural and civilizational accumulations formed over centuries, during which the West produced a complete dictionary of stereotypes.

Western colonialism of Islamic countries constituted a decisive stage in the history of relations between East and West, a decisive determinant of the nature of these relations, and a fertile source for the formulation of stereotyped images of the Eastern Other, and within the framework of elucidating and interpreting Western historical and cognitive backgrounds related to cultural and political contexts, which shaped theawareness andattitude of the West towards the other. And it was reflected on the image of the East and Islam. Since the Renaissance, materialistic secular philosophies have dominated the Western mind, and there are no longer absolute goals for human existence. Good is the great interest of the state and the methods and policies adopted towards the Islamic world in particular **?** Enter your abstract Enter your abstract Enter your abstract

Keywords : islam, picture,civilisation,westerne world,colonisation.



مقدمة:

يعتبر موضوع صورة الإسلام والمسلمين في الغرب من الموضوعات التي تثير الكثير من التساؤلات حول مدى التشويه الذي لحق بهذه الصورة، وآليات حدوثه ومسؤوليتنا تجاه تفاقمه، فقد تجاوز الأمر حدود الصورة، لينتقل إلى التأثير سلبا على وجودنا في هذا العالم .إذا أردنا أن نعرف سبب هذا التصور السلبي عن الإسلام لدى الغرب اليوم، علينا أن نبحث في المواقف السابقة التي ترسخت عبر القرون السابقة تجاه الإسلام والمسلمين، والتي لا زالت في أعماق الغربيين، تظهر في المناسبات بوعي أو بغير وعي، فالصور الراهنة للإسلام هي نتاج تراكمات ثقافية وحضارية، تكونت عبر قرون، أنتج الغرب خلالها قاموسًا كاملاً من الصور النمطية.

فإلى أي حد شكل الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي منبعًا خصبًا لصياغة هذه الصور والترويج لها؟

إن دراسة مرجعيات هذه الصور هي بحث في الخلفيات التي تستند عليها، وهي كذلك بحث في المحركات التي تأسست عليها، والمنطلقات القبلية التي سمحت لها بالظهور في ثقافة معينة، وفي حقبة تاريخية معينة. وقد قسمت هذه الورقة البحثية الى مجموعة محاور اشتملت على المقدمة خمسة محاور وخاتمة.

أولا- الخلفية التاريخية للعلاقات بين الشرق والغرب:

شكل الاستعمار الغربي للدول الإسلامية مرحلة حاسمة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، وكان محددًا حاسم لطبيعة هذه العلاقات، ومنبعًا خصبًا لصياغة صور نمطية عن الآخر الشرقي، وفي إطار استجلاء وتفسير الخلفيات التاريخية والمعرفية الغربية المتصلة بالسياقات الثقافية والسياسية، التي شكلت وعي وموقف الغرب تجاه الآخر، وانعكست على صورة الشرق والإسلام لدى الغرب، يرى عبد الوهاب المسيري أن الرؤية المعرفية الغربية ذات طبيعة إمبريالية كامنة في نظرتها للإنسان والطبيعة والمقدس، هذه الرؤية الإمبريالية ظهرت نتيجة لمجموعة من العوامل التاريخية والفكرية، فمنذ عصر النهضة هيمنت الفلسفات العلمانية المادية على العقل الغربي، فأعلن الإنسان الغربي موت الإله أو

تنحيته عن عمليات المعرفة والأخلاق، ترسخ ذلك مع هيمنة الفلسفات العقلية النفعية في القرن الثامن عشر، ومع علمنة الفكر السياسي الغربي، لم تعد هناك غايات مطلقة للوجود الإنساني، فالخير هو مصلحة الدولة العليا وخدمتها هي هدف الوجود الجماعي .(عبد الوهاب المسيري ،2002 .ص308)

وقد عمق الاقتصاد الرأسمالي فكرة أن توسيع الإنتاج هو الخير المطلق، فأصبحت جزءًا من التصور الأوروبي النهم عن الطبيعة البشرية، كما ظهرت عقيدة التقدم اللانهائي الصادرة عن اعتقاد بلا نهائية مصادر الطبيعة وقدرة الإنسان على السيطرة عليها وتسخيرها.

أدت هذه العوامل إلى ظهور رؤية معرفية إمبريالية تنطلق من تصور مادي للطبيعة والإنسان، وتتجه نحو السيطرة على العالم، وإخضاعه للإنسان الغربي بصفته مركزًا للكون. وقد أفرزت هذه الإمبريالية حسب المسيري" رؤية عنصرية قامت بتصنيف البشر على أساس صفات مادية كامنة فيهم: حجم الجمجمة، لون الجلد، شكل الشعر... إلخ، وأكدت التفاوت بين الشعوب، ونظرت إلى الشعوب غير الغربية وأراضيها ومواردها بصفتها مادة استعمالية، يمكن للسوبرمان الغربي أن يوظفها لحسابه، بوصفه أقوى الشعوب وأكثرها رقيًّا. (المسيري 2000.ص140) ومع زيادة حركة الاستعمار الغربي في أنحاء العالم، صيغت نظريات التبرير للحركة الاستعمارية وتغطية استمرارها، (غريغوار منصور مرشو،1996.) فظهر ما يسمى بالنظرية البيولوجية السياسية ومضمونها أن للدول الكبرى الحق في التهام الدول الصغرى، وهو ما أكده أرنست رينان عندما أعلن: "أن الأوروبي خلق للقيادة كما خلق الصيني للعمل في ورشة العبيد، وكل ميسر لما خلق له". ويكتب انطوان مون كريتيان الملقب برائد الاقتصاد السياسي في نهاية عصر النهضة الأوروبية: "إن الإنسان ولد ليعيش للعمل المستمر والاحتلال"، وبدأت هذه الإسقاطات الخيالية تنتشر خلال القرن الثامن عشر، وتتنقل من إطارها التاريخي إلى خطاب كوني تبناه العديد من مفكري الغرب ومنظريه، حتى صار تقسيم العمل بين الغرب والشرق أمرا طبيعيًا. «بموجب هذا التقسيم العالمي للعمل، صار نظام الآخر الغربي يتأسس على قاعدة تنصيب نفسه كحامل لرسالة حضارية لشعوب مصنفة بالمتوحشة والكسولة، أي العاجزة عن الإنتاج واستغلال الثروات الطبيعية، المسار الذي أثار، ولا يزال يثير، شهية التوسع والهيمنة عند الغزاة."(غريغوار منصور مرشو، 2001.ص22).

ثانيا-السياسة الاستعمارية الممارسة:

لم تتردد العلوم الإنسانية في توظيف أسطورة الإنسان المتوحش بما يخدم مصالح دولها، وقد كان الغرض من تكريس صفة الوحشية على إنسان ما وراء البحار بمثابة تأسيس لخطاب علمي يتم من خلاله تبرير المركزية العرقية الأوروبية، ويخدم توسعاتها وأطماعها الإمبريالية، "لقد ترسخت هذه المفاهيم الغريبة في الأذهان إلى حد بات الاستعمار يعد عملاً إنسانيًّا يسوغ غزو الشعوب المسماة بالمتوحشة."(غريغوار، 1996.ص84)

إن التأكيد على الهمجية كان أمرا مهما عند المؤسسات الاستعمارية، ففي أمريكا تم تصوير الهندي قاتلاً للأطفال، وخاطفًا للنساء، وجامعا للرؤوس البشرية، وذلك من أجل تبرير وحشية الرجل الأبيض ضد هذا الهندي،ومن هنا كتب ثيودور روزفلت سنة 1896 م "كان المستعمرون والرواد الأوائل يشعرون في

أعماقهم أن الحق هو إلى جانبهم، وأن هذه القارة العظيمة لا يمكن أن تترك لعبث الهنود المتوحشين(Theodore Roosevelt.1896.p9061)".

وقد كانت الحكومة الأمريكية . حتى منتصف القرن التاسع عشر . تدفع مبلغًا من المال لمن يأتي بفروة رأس هندي، "وخلال ثلاثة قرون من الزمن، استمرت التجارة في العبيد السود عبر الأطلنطي، جنبًا إلى جنب مع نمو الحضارة الأوروبية الأمريكية، وكجزء لا يتجزأ من هذه الحضارة. ولم تنته هذه التجارة قبل سنة 1865م، وقدر عدد الذين وقعوا في الأسر فريسة للصيد البشري (بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة) خلال هذه الحقبة بين 13 إلى 15 مليون إنسان حر (علمًا بأن العدد الحقيقي لن يعرف أبدًا)."(علي عزت بيغوفيتش. 1994.ص223).

يحاول" برتراند راسل" تفسير مثل هذه الجرائم الإنسانية بقوله: "ففي الطبيعة البشرية ميل نحو الانفعالات الوحشية، بلغ حدًّا جعل أولئك الذين يعارضونه معرضين دائمًا تقريبًا للحقد، كما أدى إلى ابتكار أنظمة أخلاقية ودينية كاملة، تجعل الناس يحسون أن الوحشية شيء نبيل. إن الانفعالات المدمرة لم تجلب على البشرية سعادة حقيقية، فأولئك الذين كانوا يملكون العبيد، عاشوا في رعب من ثورات العبيد (..) والشعوب المسلحة المتخاصمة تعيش في ظل الخوف من الهزيمة في الحرب."(برتراند راسل.ب.ت. ص139)

ومن أجل التغطية على مثل هذه الجرائم البشعة، وبهدف إضفاء الشرعية على عملية الاستعمار، يرى جوكينشلو في كتابه "التربية الخاطئة للغرب" أن هذه التبريرات التاريخية والأخلاقية، كانت مطلوبة لفرض الثقافة الأوروبية، كونها النموذج المهيمن الواجب اتباعه. وهكذا ابتكرت الأسطورة الهدامة "تمدين غير المتمدنين."(جوكينشلو وشتاينبورغ.2005.ص258)

لقد قامت الفوارق الثقافية بين المجموعات على فوارق بيولوجية تعكس الفوقية والدونية، وقد شكلت الانتصارات العسكرية، التي حققها الغرب أساسًا للشعور بالتميز لدى الغربيين، واعتقادهم بأنهم العرق الأسمى بين سائر الأعراق، "كما ساهم النهب الاستعماري في زيادة ثقة الإنسان الغربي في نفسه، وفي رؤيته لنفسه، لا كإنسان، وإنما كإرادة قوة لغزو العالم ونهبه وإخضاعه والتحكم فيه.» (عبد الوهاب المسيري 2002.ص210).

ثالثا-التنظير الفكري للفعل الاستعماري في البلاد الإسلامية:

انكبت العلوم الإنسانية على دراسة المجتمعات المستعمرة لإعانة الإدارة الاستعمارية على السيطرة على المستعمر، فـ"رينيه موني" صاحب المشروع الكبير لعلم الاجتماع الجزائري مثلا يقول: "إن لنا مصلحة نظرية وتطبيقية لنتعرف على حياة الشعوب الجزائرية، نظرية أولاً، لأنه من حقنا ومن واجبنا نحن الفرنسيين أن نعرف ونفهم جميع الشعوب، التي نحميها وندير شؤونها، ولا نتوقف أبدًا عن القيام بالواجب نحوها، ولما في تنظيم هذه الدراسات من غايات مادية تطبيقية، باعتبار أن العلم مصدر للنفوذ والحكم."(عبد الوهاب بوحديبة ، 1985.ص145)

كما يعد عالم الاجتماع" مارتان" أن علم الاجتماع الشمال الإفريقي، له وظيفة أساسية في تقديم المشورة للاستعمار الفرنسي، عبر دراسة الأطر التربوية، والحركات الاجتماعية، وخصائص الشخصية المحلية، من أجل التحكم في المنطقة وإنجاح المشروع الاستعماري. (محمد نجيب بوطالب، 1999.ص438)

ويوضح إدوارد سعيد ذلك بقوله: "ارتبطت الأطروحات حول التخلف والانحطاط الشرقيين، والتفاوت بين الشرق والغرب في أوائل القرن التاسع عشر بالأفكار السائدة حول الأسس الحيوية (علم الحياتية) للتفاوت العرقي، وهكذا وجدت التصنيفات العرقية القائمة في كتاب كوفييه "مملكة الحيوان" وكتاب غوبينو "مقالة في التفاوت بين العروق الإنسانية" وكتاب روبرت نوكس "عروق الإنسان السوداء" شريكا رغوبا في الاستشراق الكامن، وإلى هذه الأفكار أضيفت أفكار داروينية من الدرجة الثانية، بدا أنها تؤكد السريان العلمي لتقسيم العروق إلى متقدمة ومتخلفة، أو أوروبية . آريه، وشرقية. أفريقية"(ادوارد سعيد،1981.ص217). وبهذا التقسيم أمكن للغرب استهداف الأمم المستضعفة، "وضمن هذا المنظور العام ستغدو كل المسوغات العقلانية ناجزة لشن الحملات والحروب على هذه الأمم الموسومة "بغير المتحضرة"، وقد أصبحت لاحقًا، حقًّا قانونيًّا ومطلبًا حيويًّا للدولة . الأمة الغربية-(غريغوار منصور .ب ت.ص81) لقد وجدت الإمبريالية الأوروبية ضالتها في النظريات العنصرية العرقية عندما تحولت إلى استعمار ثلاثة أرباع العالم، ومع هذه التبريرات، لم تكن تجد حرجًا في عمليات القهر والاستبداد والتطهير العرقي والقتل الجماعي للملايين من البشر، كونهم أدنى مرتبة من البشر. وفي أحسن الأحوال تعامل الاستعمار مع الشعوب بصفتهم متخلفين ثقافيًّا، امتدادًا لتخلفهم البيولوجي" لقد صارت هذه المذاهب الإيديولوجية على اختلاف تلاوينها العرقية، التي تضمنت الخطاب العلمي المسيطر والمؤسس في القرن التاسع عشر، تعني تحديدًا، خطاب الإنسان الأبيض الحضاري والراشد، وريث عصر الأنوار وصانع المستقبل، وحامل رسالة التقدم والتطور شرعًا. وتحت قيادة هذا الخطاب تم تحالف الدولة المركزية الدستورية والعلم والجيش والصناعة والكنيسة لتوزيع الأدوار، وتقاسم المهمات ضمن استراتيجية منظمة."(غريغوار منصور، ب ت.ص110)

إن إلصاق صفة مشوهة بفئة مستضعفة، أو قليلة ضمن مجتمع ما، كان دائمًا طريقة مناسبة لإيجاد كبش فداء. وقد ركزت الروايات الأوروبية عن الشرق على تلك الصفات التي تجعل من هذا الشرق، ذلك الآخر المختلف عن الغرب، و"الغير" الذي لا صلاح له. " فقد أنتج الاستعمار عن الشرق المتوسطي، ما لا ينضب من كتب الحماقات التي لا تزال حتى اليوم، تستخدم بصفتها سجلاً مرجعيًّا لكثير من الغربيين كلما تعلق الأمر بوصف العالم العربي الإسلامي، ذلك أن أوروبا القرنين التاسع عشر والعشرين صنعت أسوأ سلسلة لصور الشرق التي لا نظير لها أبدًا. ("تييري هنش، 2005.ص284).

رابعا-الصراع الغربي على الشرق الاسلامي:

لقد اعتبرت منطقة الشرق الأوسط شريان الحياة الرئيسي بالنسبة للعالم الغربي، ولذا فقد لعبت دورًا بارزًا في الاستراتيجية الدولية عبر السنين (يسري الجوهري. 1993.ص361). وقد بدأ الاهتمام بالشرق بداية، بصفته موقعًا استراتيجيًّا، لما يتميز به من طرق مواصلات برية وبحرية، أهمها البحر الأحمر الذي

يعد ملتقى ثلاث قارات، ويستمد أهميته أيضًا كونه يوفر للقوى الدولية إمكانية الوصول إلى المحيطين الهندي والأطلسي والبحر المتوسط. وبحكم موقعه الجيوسياسي، فقد شكل عنصرًا مهمًّا ومؤثرًا في مسار تاريخ هذه المناطق ومستقبلها، وما من ممر مائي كان سببًا في الصراعات بين الأمم أكثر مما كان ولا يزال عليه البحر الأحمر، ذلك أن الخواص الاستراتيجية لهذا البحر ظلت تجذب اهتمام قوى مختلفة ومتصارعة.

وحاول البرتغاليون كما الرومان بسط سيطرتهم على البحر الأحمر، وكان من دوافعهم الواضحة "بسط احتكارهم على تجارة العالم بين الهند والغرب، عن طريق البحر الأحمر"(عبد الله عبد المحسن سلطان، 1988.ص49)بعد 1520م كانت شمس البرتغال تميل إلى المغيب، بسبب المشكلات الداخلية والحروب، ثم كان ارتفاع نجم انجلترا وهولندا بصفتها قوتين بحريتين جديدتين، مع ما رافق ذلك من طرد البرتغال من الخليج العربي على يد الإنجليز عام 1622م، فقد دخلت بريطانيا المحيط الهندي بين عامي 1577م و1580م وهمها الأساسي التجارة، ثم أرسلت الحملات البريطانية إلى عدن والبحر الأحمر في محاولة للنيل من المقاومة البرتغالية والهولندية. (عبد الله السلطان، 1988.ص50)

جاء غزو نابليون لمصر في القرن الثامن عشر بمثابة تهديد للمواصلات البريطانية مع الهند، "فعندما احتلت فرنسا مصر عام 1798م، أراد نابوليون وقتئذ تنشيط تجارة البحر الأحمر في غمار منافسته مع بريطانيا، التي كانت تتاجر مع الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، بيد أن بريطانيا عملت بالتعاون مع العثمانيين على هزيمة فرنسا في مصر عام 1801م."(اجيه يونان جرجس، 1979.ص51)

ظلت المنافسة محتدمة بين فرنسا وبريطانيا حول الوجود والنفوذ في البحر الأحمر، وفي عام 1862م استطاعت فرنسا شراء وجودها في اوبوك (جيبوتي حاليًّا) من رؤساء القبائل الصوماليين.

وخلال القرن الثامن عشر، قاتلت فرنسا وبريطانيا إحداهما الأخرى للسيطرة على الهند، من 1744م إلى 1769م، "تلك الحرب التي انتهت بسيطرة بريطانيا على شبه الجزيرة الهندية اقتصاديًّا وسياسيًّا، وقد كان قرنا أثر بالعلاقات البريطانية الشرقية، وشهد نقطة تحول في صورة العرب، فكون بريطانيا مدفوعة بحماية طرقها إلى الهند من جهة، ولمواجهة المضايقة والنفوذ المتزايدين من فرنسا أو محاولة إيقافه من جهة أخرى، أخذت بريطانيا تظهر مزيدًا من الاهتمام بالمشرق ولا سيما بمصر."(حلمي خضر ساري، 1988.ص32) .

كان لغزو نابليون مصر سنة 1798م وحملته في سوريا أكبر النتائج في التاريخ الحديث للمشرق، فقد أدرك البريطانيون في الهند، ونابليون في مصر، أهمية استخدام المستشرقين، والاستفادة منهم لبناء الإمبراطورية، فربطوا بين المعرفة الاستشراقية وبين التسلط السياسي الصريح، وهي ما عبر عنها إدوارد سعيد بربط المعرفة بالسلطة. "وفي عام 1882م، احتلت بريطانيا مصر مخالفة بذلك معاهدتها معها في عام 1877م، كما احتلت أيضًا مينائي الصومال، زيلع وبربرة في عام 1884م ثم السودان في عام 1899م."(عبد الله عبد المحسن، 1988.ص54). أما فرنسا، فقد رسخت أقدامها على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر وخليج عدن قرب باب المندب، بغية موازنة الوجود البريطاني في عدن.

وفي عام 1925م أكملت إيطاليا احتلال الصومال، ووقعت معاهدة مع بريطانيا في شأن الصومال البريطاني، والصومال الإيطالي، وقامت القوات البريطانية باحتلال إريتريا (1941م). "وإذ خسر الإيطاليون أريتيريا غادروا منطقة البحر الأحمر الذي قال عنه موسو ليني يومًا: إذا كان البحر الأحمر هو مجرد طريق لبريطانيا، فهو شريان الحياة لإيطاليا."(اجيه يونان جرجس، 2007.ص18) وظل البحر الأحمر تاريخيًّا بؤرة صراع.

إن قصة العلاقة بين القوى الاستعمارية الغربية وأمم الشرق ليست فقط قصة استكشاف ثقافي وفكري تنويري، بل كثيرًا ما كانت قصة تثير الخزي، استهدفت استغلال شعوب آسيا، وتجريدهم من ممتلكاتهم، والنظر إليهم بوصفهم العنصر الأحط شأنًا قياسًا إلى الغرب، وأنهم "الآخر" النقيض وحامل الخصال السلبية"(جي جي كلارك.2007 ص18).

استمرت هذه القوالب الذهنية بالتراكم حتى القرن العشرين، القرن الذي انصبت فيه أطماع بريطانيا على الوطن العربي، فكان للرحالة والعلماء والمبشرين والوكلاء تأثير كبير، فاستغلت وسائل الاتصال والإعلام الصور القديمة التي يحملها البريطانيون عن العرب وروجتها، وكان من أكثر الكتابات تأثير في مصادر الإعلام كتابات توماس إدوارد لورنس الملقب بلورنس العرب (1888م .1935م)، الذي يعد من أشهر شخصيات الربع الأول من القرن العشرين، أمضى سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى متجولاً في الوطن العربي، ليتعرف على عادات العرب ولغتهم وأعرافهم، وهو يرتدي ملابسهم ويدرس تاريخهم، ويتجسس على الأتراك والألمان في المنطقة. وقد تحدثت العديد من الأدبيات العربية والغربية على حد سواء عن إنجازاته وبطولاته ودوره في توحيد العرب وقيام الثورة العربية ضد السيطرة العثمانية، "على أن لورنس الذي بدا وكأنه يرمز إلى العلاقة المثالية بين بريطانيا والعرب لا يمكن أن يفهم أو يقوم بمعزل عن دوره بصفته وكيلاً إمبرياليّا."(حلمي خضر ساري .1999.ص56) ، فقد كشف في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" عن حقد وكراهية للعرب والمسلمين ولتاريخهم، ونظر إليهم بوصفهم متخلفين كسالى، فضلاً عن مقالاته المتعددة، وأخطائه التاريخية، وأبرز ما يؤكد ذلك قوله بالنص: "إنهم أناس ضيقوا ومحدودو التفكير، حيث إن ذكاءهم الجامد يرتاح باستسلام غير مبال وأن خيالاتهم نشيطة لكنها غير مبدعة."(توماس ادوارد لورانس.1998 ص29) كما ظهر دوره بصفته وكيلاً إمبرياليّا في قوله: "الحكومة البريطانية التي حثت العرب على القتال من أجلنا، كانت مقابل وعود محدودة لإنشاء دولة عربية مستقلة بعد انتهاء الحرب، والعرب يثقون بالأشخاص، وليس بالمؤسسات، فهم رأوا فيَّ عميلاً حرًّا للحكومة البريطانية، وطلبوا مني العمل على تطبيق تلك الوعود المكتوبة من قبل الحكومة، لذلك فقد كان عليَّ أن أنضم للمؤامرة، وأن أقوم بإعطاء تأكيدات كلامية للرجال بأنهم يستحقون مكافئتهم، وخلال سنتين من العمل المشترك في ظل المعارك المستمرة، فقد اعتادوا تصديقي (..) كان واضحًا منذ البداية أنه في حال كسبنا للحرب، فإن هذه الوعود ستكون عبارة عن ورقة ميتة (..) وأنه كان من الأفضل أن نكسب الحرب، وننقض تعهداتنا، بدلاً من أن نخسرها."(توماس ادوارد لورنس.1998.ص13)

خامسا-استراتيجية الاستعمار تجاه العالم الإسلامي خلال القرن20:

مع بداية القرن العشرين بدأ التحول إلى استخدام النفط بدل الفحم، وأصبح النفط سلعة استراتيجية للبريطانيين، واحتاجوا إليه لقوتهم البحرية، ولم يكن لديهم مصدر آخر، فالأمريكيون والروس كان لديهم مصادر النفط الخاصة بهم، لذا أصبح النفط للبريطانيين ومن بعدهم الفرنسيين موردًا استراتيجيا يجب الوصول إليه وحمايته.

خلال الحرب العالمية الأولى شكلت آبار النفط القوة الحقيقية للولايات المتحدة الأمريكية، كانت هي المنتج الأكبر للنفط في تلك الأثناء. مثل إنتاجها عونا كبيرا للحلفاء، في مقابل منعهم ألمانيا من الوصول إلى حقول النفط الرومانية، فبدأت الصناعة الألمانية تعاني نقصًا في الوقود وزيوت التشحيم.

في 11 نوفمبر 1918م، استسلمت ألمانيا عندما لم يعد لدى جيشها من الوقود ما يكفيهم ليوم واحد فقد "أدت الحرب العالمية الأولى إلى التركيز على أهمية النفط في العصر الجديد لوسائل المواصلات الآلية، وكثفت البحث عن المخزونات النفطية في الشرق الأوسط."(هاري سانت جون فيلبي.2001.ص15)

عندما اكتشف نفط الخليج عقب الحرب العالمية الأولى، عملت الحكومة البريطانية على توقيع اتفاقيات مع حكام الخليج بإعطاء حق امتياز التنقيب عن النفط في أراضيهم إلى شركة بريطانية، وهكذا أعطي للبريطانيين القدرة على التحكم في نفط الخليج" وكان لديهم امتياز التنقيب لستين عامًا. وفي عام 1909م كانوا يحفرون وينتجون ويصدرون، كما بدؤوا بعض عمليات التكرير.» (هاري سانت جون فيلبي.2001.ص32).

ساد الهلع لدى الأمريكيين عام 1919 م بسبب تقديرات حكومية أفادت بأن الاحتياطات النفطية الأمريكية قابلة للنفاذ خلال عشر سنوات، وواجهت إدارة الرئيس ويسلون الاتهام بأنها لم تضع أي سياسة نفطية قومية، فبدأت مشاحنات من نوع جديد. لم تهتم الشركة البريطانية كثيرا بالتنقيب عن النفط في البحرين، لذلك سمحوا للأمريكيين بالدخول إلى البحرين، ثم الكويت وأخيرا السعودية، وبذلك بدأ توطيد الأمريكيين في الشرق، "لقد كان النفط ولعقود من الزمن، وراء السياسة الخارجية والأمنية، لقد كان الباعث من وراء فكرة تقسيم الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى، والمحفز الذي دفع ألمانيا واليابان إلى التفكير بالتوسع خارج حدودهما، والدافع وراء حظر النفط العربي، ووراء الحرب العراقية الإيرانية، وحرب الخليج، هذا كله واضح." (ريتشارد هاينبرغ.2002.ص75)

ويعكس الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون في كتابه "اقتناص اللحظة "صورة بشعة عن العالم الإسلامي عندما يقول: "إن معظم الأمريكيين ينظرون نظرة موحدة إلى المسلمين على أنهم غير متحضرين، وسخين، برابرة، غير عقلانيين، لا يستوعبون انتباهنا إلا لأن الحظ حالف بعض قادتهم، وأصبحوا حكامًا على مناطق تحتوي على ثلثي الاحتياطي العالمي المعروف من النفط(Richard Nixon.1992.p194)".

وفي كتاب "تاريخ فارس"وهو أحد مؤلفات سير جون مالكولم الضابط البريطاني، وضع خطة لاستعمار منطقة الخليج العربي، تتلخص المبادئ الأساسية لهذه الخطة في النظر إلى إمارات الخليج، الدولة

العثمانية، وجزيرة العرب، لا بصفتها حكومات حقيقية، بل بصفتها بلدانًا يمكن لأي أمة أن تتعامل معها بما يخدم مصالحها وأهدافها.

وفي ذلك يرى المسيري أن الغرب "عرف مصلحته الاستراتيجية منذ بداية القرن التاسع عشر بطريقة تجعله ينظر للمنطقة العربية بصفتها مصدرًا هائلاً للمواد الخام (الرخيصة)، ومجالاً خصبًا للاستثمارات الهائلة (التي تعود عليه وحده بالربح)، وسوقًا عظيمة لسلعه (التي ينتجها ويصرفها فيزداد هو ثراء)، أو قاعدة استراتيجية شديدة الخطورة والأهمية (بالنسبة لأمنه هو)، إن لم يتحكم فيها قامت قوى معادية (مثل الاتحاد السوفييتي في الماضي) باستخدامها ضده. (عبد الوهاب المسيري.2005)

إن الخطاب الذي يجعل من الأخذ بيد الأمم المحرومة أو إسعافها واجبًا أخلاقيًّا، ويقوم بتصنيف البشر وتأكيد التفاوت بين الشعوب، لم يتبلور إلا انطلاقًا من أطماع اقتصادية ومصالح سياسية بحتة، بحثًا عن أسواق جديدة، وثروات طبيعية ومواقع استراتيجية. وسواء كان الغرض تبرير الدوافع الدينية، أو تسويغ الأطماع والمصالح السياسية، فقد اختزلت جميع العلاقات المعقدة في العالم العربي الإسلامي، وكل ما في حضارته من ثراء، إلى مجموعة جاهزة من القوالب الجاهزة والمشوهة لهذه الحضارة.

خاتمة:

توصلنا من خلال هذه الدراسة الى ان الغرب يتبنى صورا نمطية عن الإسلام والمسلمين بهدف تشويههم. ويعود ذلك الى صراع الحضارات والاختلافات الثقافية بين الشعوب والحروب التاريخية بين الغرب والعالم الإسلامي مما ولد النظرة الدونية للغرب تجاه المسلمين. ويمكن تسجيل النتائج التالية:

- أن الغرب يقدم صورا نمطية عن الإسلام والمسلمين لا تمت بصلة الى الواقع.
- يسعى الغرب جاهدا الى تشويه صورة الإسلام والمسلمين من خلال توظيف ترسانته الإعلامية والفكرية.
- يتأكد لنا الحقد التاريخي الدفين لدى الغرب تجاه كل ما هو إسلامي سواء من خلال الحروب الصليبية قديما او من خلال الحروب الإعلامية في الوقت الراهن.
- يتعين على جميع البلدان الإسلامية التجنيد لمجابهة هذه الحملة الشرسة القديمة والمتجددة بمختلف الوسائل وبخاصة على المستوى الفكري والإعلامي.
- ضرورة استنهاض همم نخبة العالم الإسلامي من علماء ومتخصصين للذود عن حمى الفكر الإسلامي وتخليصه من هذا التشويه الممنهج.

قائمة المصادروالمراجع:

- أجيه يونان جرجس، البحر الأحمر ومضايقة بين الحق العربي والصراع العالمي، (1979) القاهرة، مكتبة غريب.
- إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة الإنشاء السلطة.(1981) ترجمة كمال أبو ديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية.

- برتراند راسل، المجتمع البشري في الأخلاق السياسية، ترجمة عبد الكريم أحمد، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.
- تييري هنتش، الشرق المتخيل، رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي.(2005) ترجمة غازي برو.خليل أحمد خليل. القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ودار الفارابي.
- توماس إدوارد لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، (1998) ترجمة محمد نجار، الأهلية للنشر والتوزيع.
- جوكينشلو وشيرلي شتاينبرغ، التربية الخاطئة للغرب، كيف يشوه الإعلام الغربي صورة الإسلام، (2005) ترجمة حسان بستاني، دار الساقي.
- جي جي كلارك، التنوير الآتي من الشرق، ترجمة شوقي جلال، (2007) عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون
- ريتشارد هاينبرغ، سراب النفط، النفط والحرب ومصير المجتمعات الصناعية، (2005) ترجمة انطوان عبد الله، الدار العربية للعلوم.
- عبد الله عبد المحسن السلطان، البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي، (1988) مركز دراسات الوحدة العربية.
- عبد المتعال محمد الجبري، الاستشراق وجه للاستعمار الفكري. القاهرة. مكتبة الانجلو المصرية.
- عبد الوهاب بوحديبة، الحياة الاجتماعية الإسلامية كما صورها بعض المستشرقين، في: مناهج المستشرقين والدراسات العربية الإسلامية، (1985) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس
- عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، (2002) دار الشروق، ط1
- عبد الوهاب المسيري، العلمانية تحت المجهر، حوارات لقرن جديد، (2000) سورية. دار الفكر.
- عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية الموسوعة الموجزة، (2005) دار الشروق،
- علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، (1994) ترجمة محمد يوسف عدس، بيروت. مؤسسة العلم الحديث.
- غريغوار منصور مرشو. مقدمات الاستتباع الشرق موجود بغير لا بذاته، (1996) المعهد العالمي للفكر الإسلام
- غريغوار منصور مرشو، نحن والآخر، (2001) دار الفكر المعاصر، ط1
- غريغوار منصور مرشو، مقدمات الاستتباع، الشرق موجود بغيره لا بذاته، (1996) المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- محمد نجيب بوطالب، العلوم الاجتماعية والاستشراق، في: صورة الآخر العربي ناظر ومنظور إليه، (1999) مركز دراسات الوحدة العربية.

- هاري سانت جون فيلبي' مغامرات النفط العربي، (2001) ترجمة عرض البادي، الرياض. مكتبة العبيكان.
- يسري الجوهري، الجغرافيا السياسية والمشكلات العالمية، (1996) عمان. مؤسسة شباب الجامعة.
- -Richard Nixon, Zeize the Moment, American challenge in a one super power world (1992) (Simon Schuster), New-York.
- Theodore Roosevelt, the wining of the West(1896), New York..

ثقافة قبول الآخر وسبل العيش المشترك بين المسلمين والغير بصراعات الأنا والآخر

The Culture of Acceptance of the Other and Ways of Coexistence between Muslims and the West, The Ego and the Other's Battles

د. وسيلة بكيس، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر)

Bekkis.wassila@gmail.com



ارتبط تقسيم العالم على أسس متعددة أهمها: "الاختلاف الديني" حيث "الشرق" هم المسلمون والعرب و"الغرب" هم المسيحيون واليهود وغيرهم... من الديانات المختلفة، وتهدف هذه الدراسة إلى تبيان محددات هذا التقسيم بين الشرق والغرب، وتبيان درجات السلطة للغرب ومصالح القوى الاستعمارية على حساب الشعوب الإسلامية والعربية والضعيفة، والتركيز على الدين والفلسفة والقيم وأساليب المعيشة المختلفة بين عالم الأنا والعالم الآخر، فهل نمتلك ثقافة قبول هذا الأخر المختلف عنا؟ وهل يمكن لمفهوم "الآخر" أن يؤلف إطار الإحالة والأفق المعياري الذي يمتلك إمكانية أن نكون ذواتا قابلة للاعتراف بها من طرف الآخر؟

الجدل عميق ولقد أدى ذلك إلى انفصام في الوعي الأوروبي والغربي عموما، بين منطق السلطة والتيارات التي رافقت ذلك، كما شهد الوعي الغربي ميلا نحو التمركز حول "الأنا الحضارية" على حساب التضحية الحقيقية من أجل الآخر.

الكلمات المفتاحية: الآخر، الشرق، الغرب، الاختلاف، الدين

Abstract :

The world has been divided on several grounds, the most important of which is "religious difference," with "the East" consisting of Muslims and Arabs and "the West" consisting of Christians, Jews, and others... of various religions. The goal of this research is to identify the factors that influence the division between East and West, as well as to demonstrate the West's power levels. And, at the expense of Islamic, Arab, and weak peoples, colonial interests, and a focus on religion, philosophy, values, and different ways of living between the ego world and the other world, do we have a culture of accepting this other that is different from us? Can the concept of the "other" constitute the framework of reference and the normative horizon that has the possibility of being selves capable of being recognized by the other?

The debate is intense, and it has resulted in a schism in European and Western consciousness over the logic of power and the currents that accompany it. There was also a tendency in Western consciousness to focus on the "civilised ego" at the expense of genuine sacrifice for the sake of the other.

Keywords :the other, the East, the West, difference, religious.



مقدمة:

تكونت على مر الأزمنة صورة عالمين أو بعبارة أدق عالم مكون من "**جزئين**" مختلفين تاريخيا، دينيا، عرقيا، اجتماعيا وثقافيا، وهو تقسيم استأثر بمسميات مختلفة من بينها الدول العربية والإسلامية في مقابل الدول الغربية والأوروبية وغير المسلمة، ويرتبط هذا التقسيم بالاختلاف الديني، كما يرتبط ذلك تاريخيا بالتقسيم الثقافي والجغرافي بين الغرب والشرق، حيث الشرق هم المسلمون والغرب هم المسيحيون واليهود وغيرهم من الديانات المختلفة.

وتهدف هذه الدراسة إلى تبيان محددات هذا التقسيم بين الشرق والغرب، وتبيان درجات السلطة ومصالح القوى الاستعمارية على حساب الشعوب الضعيفة والتركيز على الدين والفلسفة والقيم وأساليب المعيشة المختلفة بين عالم الأنا والعالم الآخر، حيث الإشكالية التي يقوم على مدارها البحث كالتالي: هل نمتلك ثقافة قبول هذا الأخر المختلف عنا؟ وهل يمكن لمفهوم "الآخر" أن يؤلف إطار الإحالة والأفق المعياري الذي يمتلك إمكانية أن نكون ذواتا قابلة للاعتراف بها؟ فالجدل إذن عميق وأدى إلى انفصام في الوعي الأوروبي والغربي عموما بين منطق السلطة والتيارات النقدية التي رافقت ذلك، كما شهد الوعي الغربي ميلا نحو التمركز حول "الأنا الحضارية" على حساب التضحية الحقيقية من أجل الآخر.

أولا -من سؤال الذات إلى معضلة الاعتراف بالأخر:

احتل الآخر . خاصة الغربي . واجهة الطروحات المعرفية والفكرية والفلسفية لما لها من ضرورات في التأسيس لخطاب الأنا والذات، لتشكل هيمنة واعية، حيث الذات تتقدم كموضوع خاص بالنسبة للأنا. فما هي هذه القواعد التي تُصيِّرُ وجودنا الإسلامي من حصتها، وهل تمتلك القوة على تكريسنا بوصفنا ذاتا قابلة للاعتراف بالآخر الغربي؟ وهل يمكن لمفهوم الآخر أن يؤلف إطار الإحالة والأفق المعياري الذي يمتلك إمكانية أن نكون ذاتا قابلة للاعتراف بها؟

سننطلق القواعد التي أعترف بموجبها بالآخر، أو في الواقع بأنفسنا أولا، إنها تفعل فعلها بقدر ما هي اجتماعية تتجاوز أي تبادُل ثُنائي. سيجادل بعضهم دون شك، وأن لابد من أن توجد القواعد أولا لكي يصبح الاعتراف متاحا، وهناك بالتأكيد صحة في هذا الإطار، لكن من الصحيح أيضا أن بعض الأنواع المعينة من الاعتراف تؤشر موقع خروج عن أفق المعيارية وتستدعي إقامة قواعد جديدة ضمنيا. (بتلر، 2014، صفحة 68، 69)لأنه إذا كان من الضروري اللقاء بيني وبين الآخر فإن الإطار المعياري ضروري أيضا، ولذلك لن ينفع "أن نُسقط فكرة الآخر في اجتماعية القواعد وندّعي أن الآخر حاضر في القواعد التي بها يُمنح الاعتراف ببساطة. يثير تعذر الاعتراف بالآخر أزمة في القواعد التي تتحكم في الاعتراف، أو الحصول عليه إلى إخضاع الأفق المعياري الذي يقع الاعتراف داخله للتساؤل، فإن هذه المساءلة ستكون جزء من رغبتي في الاعتراف وهي رغبة لا تجد ما يشبعها ويؤسس تعذر اشباعها." (بتلر، 2014، صفحة 68)

إن كل مفهوم يحيل إلى مشكلة، وإلى مشكلات لن يكون لها معنى، والتي لا يمكن أن تُستخرج أو تُفهم إلا مع التقدم الحاصل في حلها. نحن هنا بصدد مشكلة متعلقة بكثرة الذوات، وبعلاقاتها ومثولها المتبادل. لكن كل شيء يتغير بطبيعة الحال إذا ما اعتقدنا أننا اكتشفنا مشكلة أخرى وهي: في أي شيء يكمن وضع هذا "الآخر" الذي تأتي الذات الأخرى "لشغله"؟ ذلك فقط عندما تظهر لي كموضوع خاص، والذي آتي أنا بدوري لشغله كموضوع خاص حينما أتبدَّى لها؟ ليس الآخر، من هذا المنظور شخصا ولا ذاتا ولا موضوعا. هنالك ذوات متعددة، لأن هناك الآخر وليس العكس. وهكذا يتطلب الغير مفهوما قبليا بحيث لابد للموضوع الخاص و"الذوات" الأخرى و"الأنا" أن تكون ناجمة عنه وليس العكس. (غتاري، 1997، صفحة 39، 40) ستظل العلاقة عبر القواعد مستورة لأبعد حد، ولا تتقدم إلى السطح بوضوح، إلا من خلال علاقة منتظمة مع الآخر، (موجه، معترف له، محلل) في صيغة حوار داخلي غير محدد وبصوت خافت "إن ما يقيني هي الاضطرابات التي تجتاحني والقلاقل التي تخترقني...كل ذلك متولد بافتراض عن رغبة مجهولة بإفراط، وسأنجح حقيقة في مساءلتها عبر بسطها داخل خطاب موجه إلى الآخر الذي يناسبه" (فوكو، 2015، صفحة 30) فالذات باعتبارها كائنا راغبا تتموقع تحت "التبعية والخضوع" باعتبار الرغبة في الاعتراف بالآخر تكون مرهونة بطلب اعترافي به، ومرهونة بالآخر المختلف الذي يعمل على إثارتها مثل مصباح يستهويني ويجذبني، حسب ما جاء على لسان ميشيل فوكو. (فوكو، 2015، صفحة 30)

سيصيب الذات إذن: العجز عن إدراك نفسها، أو أنها لن تستطيع أن تعترف بهذا الآخر إلا داخل إطار القواعد التي أتيحت وحددت لها سلفا، ويتغير السؤال الأنطولوجي ويتوقف البحث عن سؤال "من أنا؟" و"من تكون أنت؟" إلى سؤال أكثر عمقا وواقعية وهو: "كيف يجب عليّ أن أعاملك؟ فمادام هذا الغربي الآخر لا يظهر لي، ولا يشتغل بوصفه آخر بالنسبة لي، إلا ضمن إطار أستطيع ضمنه أن أراه وأفهمه في انفصاله وخارجيته. حتى لا نقع في قبضة المعيارية فحسب. ولكن في إشكالية "القوة" "كيف يتوجب عليّ أن أعاملك؟" إذا كان من اللازم أن تخرج "أناي" التي تمتلك سلفا قواعدها ومبادئها الإسلامية الرصينة، لمواجهة "هذا الآخر المختلف عنها، إلى حيز الوجود أولا، وإذا ما كان الإطار المعياري ضرورياً، لنشوئهما ولقائهما ثانيا، (بتلر، 2014، صفحة 69)إن القواعد لا تعمل على توجيه السلوك فحسب، ولكنها تقرر النشوء الممكن "للقاء" بين المسلمين والغرب، وفي غمرة اللقاء لو استطاعت الذات العربية المسلمة إدراك أنها هي من أن سيمنح الاعتراف للآخر، فإن "الاعتراف" سيصدر منها في اللحظة التي أدركت فيها أن القواعد أو الشروط التي ستمنح بموجبها الاعتراف تخصها وحدها.

نستنتج: فالذات تمنح الاعتراف للآخر حين تخضع لقاعدة اعتراف بدورها، لأننا معا نستهدف العالم كطبيعة مشتركة، وأننا معا أيضا نبني مجموعات أشخاص قادرة على أن تتصرف بدورها على مسرح التاريخ، كشخصيات مندرجة عُليا، هذه الفحوى للمعنى تسبق الاختزال الخاص، ثم إن افتراض وجود الآخر مسبقا موجود مرة ثانية، وإن بشكل مخفي أكثر، في تركيب المعنى عينه حلقة الخاص. في الفرضية التي أكون فيها أنا وحدي فإن هذه التجربة لا يمكن أن تصبح قادرة على الشمولية من دون معونة الآخر

الذي يساعدني على جمعي لذاتي وتثبيتي ومحافظتي على إبقائي داخل هويتي." (ريكور، 2005، صفحة 612)فالاعتراف هو قبل كل شيء «اعتراف متبادل» فهو بالأحرى (تعارف) يتجاوز المعرفة البسيطة حول الشرط الإنساني للآخر عندما تكتب مفردة "الاعتراف" بالفرنسية(Reconnaissance)فإننا نلاحظ عنصرين في المفردة: البادئة(Re)التي تفيد التكرار ومقولة(connaissance)وهي المعرفةفهل الاعتراف على الصعيد اللغوي والاشتقاقي هو معرفة تكرارية للآخر أو مكتملة حول الغيرية.؟

هذا السؤال الفلسفي الأول حول "الاعتراف" بوصفه معرفة ناقصة وغير مكتملة لأن «الآخر سر» والاعتراف به ممكن وهو المعرفة ولكن الإحاطة به مستحيلة. لأنه يتعذر الولوج في قصدياته المتعالية. الاعتراف هو قبول الغير كآخر يتعذر اختزاله. عندما أقول «أعترف» فإنني لا أؤكد فقط بأنني أعرف، ولكن أيضا بأنني أقبل الغير. (الزين، 2008، صفحة 126)فبقدر الاختلاف والتعارض، بقدر التماثل والانسجام، وبقدر ما يجعل كل منهما الآخر موضع معرفة وفكر متجدد في مواجهة غيره.

ثانيا-ثقافة قبول الآخر المختلف:

لقد أحدثت إذن "مشكلة الآخر" جدلا عميقا لم ينته بعد في الثقافتين العربية الإسلامية والغربية الحديثة، كما أدى ذلك إلى انفصام في الوعي الأوروبي والغربي عموما بين منطق السلطة والتيارات النقدية التي رافقت صعود "الموجات الاستعمارية" وعلى الرغم من ذلك فقد شهد الوعي الغربي ميلا نحو التمركز حول "الأنا الحضارية" على حساب التضحية الحقيقية من أجل الآخر؛ إذ ما فتئ "الغرب" يعلن عن نفسه بأنه واحد ووحيد في مواجهة باقي العالم المتميز. فحينما وثق من نفسه ولم يعد يبالي بما يَصِمُه به الآخر من همجية وتوحش، راح يبلور مشروع "هوية جديدة" يقوم على تمجيد الذات مع استحضار للآخر، لكن ليس كعامل مساهم في تأسيس هذه الذات وإنما كأبشع صورة سلبية يمكن أن يعكسها هذا الآخر بالنسبة لهذه الذات؛ فإذا كانت هذه الذات تنويرية فالآخر ظلامي، وإذا كانت عقلانية فالآخر أسطوري خرافي، وإذا كانت متقدمة فالآخر متخلف وهكذا دواليك. (غنيسة، 2012، صفحة 38) والحق أن العالم يشاهد بشكل متزايد، ولو كان ذلك ضمنيا فقط، كفدرالية من الأديان أو الحضارات، مما يؤدي إلى تجاهل كل طريقة أخرى يرى بها الناس أنفسهم. هذا الخط من التفكير يدعمه افتراض غريب يرى أن الناس في هذا العالم يمكن أن يصنفوا وفقا لنظام "فصل" انفرادي شامل. لأن التقسيم الحضاري أو الديني لسكان العالم يؤدي إلى مقاربة «انعزالية» للهوية الإنسانية، والتي ترى الكائنات البشرية كأعضاء في جماعة واحدة بالضبط. إننا في حياتنا العادية نرى أنفسنا أعضاء لعدد متنوع من الجماعات، ونحن ننتمي إلى كل هذه الجماعات، واعتبارا لهوياتنا المتعددة، بشكل لا مفر منه، فعلينا أن نقرر الأهمية النسبية لصِلاتنا وانتماءاتنا المختلفة في أي سياق بعينه. إن العنف ينمو عندما نعمق إحساسنا بالحتمية حول هوية يزعم أنها فريدة، وغالبا مقاتلة، من المفترض أنها "هويتنا" والتي يبدو أن لها متطلبات أخرى علينا الاستجابة لها أحيانا متطلبات نوعية (غير محببة إطلاقا). إن فرض هوية فريدة زعما هو غالبا أحد المكونات الحاسمة من «الفن القتالي» لإثارة المواجهات الطائفية (صن، 2008، صفحة 8، 9)لأن "الصراع الحضاري" يفترض مسبقا، وجود قوة متمركزة يذعن لها الولاء أو الاعتراف والتماهي، والحق أن أطروحة وجود صراع

حضاري هي مفهوميا فرضية متطفلة على القوى المسيطرة لتصنيف وحيد فريد قائم على ما يسمى الخطوط الحضارية أو الفروق الحضارية أو الثقافية، فالمواجهات المزعومة للخلافات الدينية أدمجت في رؤية تم اصطناعها بشكل حاد على صورة تقسيم فاصل واحد مهيمن ولا مرونة فيه. والحقيقة، طبعا، أن الناس في هذا العالم يمكن تصنيفهم وفقا للعديد من نظم التقسيم الأخرى، كل منها له بعض العلاقة - بعيدة الأثر غالبا – بحياتنا. (صن، 2008، صفحة 26)

لقد ازدادت حدة ثقافة "قبول الآخر" نفسها وطرحت نفسها بقوة على الحالة الإنسانية خلال العقود القليلة الماضية، ثم صعدت لواجهة المشهد خلال السنوات القليلة الماضية، غير أن ثقافة قبول الآخر ما كان لها أن تتجذر في غياب دراسات جادة من ثقافة /رفض الأخر، التي شاركت بنصيب وافر في تحريك التاريخ البشري خلال القرون الخمسة الماضية التي أعقبت اقتسام الأميركيتين وأستراليا بين القوى الاستعمارية الأوروبية الكبرى حيث بدأت البشرية فصلا ممتدًا من الصراع على الأرض والموارد وتدافعا لنشر القيم الثقافية لكل أمة بوصفها "**الحضارة**" وعندئذ كانت الثقافة التي تتعرض للاقتلاع والإبادة توصف بأنها حضارة "الآخر" وثم وصفها بكل ما هو سلبي وسعت كل أمة في الغرب إلى التمركز حول شارة مميزة: دين، مذهب، قومية، لغة... لتعرّف نفسها من خلالها معتبرة أنها مرتكز الهوية التي تعرف "الأنا" وبالتالي تعزل بها نفسها كل من لا يحمل شارتها وهو "الآخر". (الشيخ، 2008، صفحة 13) أي أن: صورة الآخر صارت جاهزة ونمطية ومألوفة صورة حاكم بمحكوم/ صورة غالب بمغلوب، مولع بتقليده وتتبع مساراته عله يضفر ببعض القوة والتقريب منه وهي مستويات كثيرا ما تتشابك قيمها؛ أي أننا لسنا دائما إزاء آخر نفسه، بل هناك جملة من الفرضيات السابقة تمنح للآخر حضورا خاصا متغيرا بوصف الأنا في هذه الثنائية الغرب "**المنتصر**" والآخر هو الشرق هو الضعيف أو "**المهزوم**" حضاريا. "لأن صورة الآخر من حيث هي مُتأتّية بالنتيجة في قوالب جاهزة ثقافية ودينية وعرقية مسبقا، وترمي بجذورها في أعماق التاريخ (النزاعات، الاتصالات المختلفة والمتعددة، التبادلات الحضارية الخ ...) وتترجم على العموم عن علاقات "القوة" وعن المرامي التوسعية وعن مشاعر المجافاة الضاربة في لا وعى الأفراد... إن هذه الصور تديمها وترعاها قوي اجتماعية بإمكانها أن تستقي منها ما يبدر مصالحها المادية كاستغلال الأقليات (الإثنية، الدينية الخ..) أو ما يمنح المشروعية لهيمنة اجتماعية سياسية أو الاستعمار شعب ما (علام، 2005، صفحة 14)

ثالثا-الأنا والآخر وصدام الحضارات:

إن إعادة صياغة العلاقة مع الآخر تجعلنا نجد أنفسنا مخيرين إياه بين: استلهام النموذج التنويري كشرط لولج عالم الحداثة أو المكوث في خانة التخلف والاستبداد والتطرف؛ هاذان الخياران يسران جنبا إلى جنب ويغذيان قراءات مختزلة لتاريخ حضاري معقد، وهي نقطة تتبدى لحظة إدراك مدى التنوع والثراء بين التفاعلات الثقافية والمادية معا، لكن مع تصاعد وتيرة التغيير الاجتماعي داخل الثقافة نفسها، تضمحل الهويات الراسخة، وتخلق هويات متميزة للأفراد واحتياجات جديدة غير مألوفة، من قبيل: لماذا أنتمي لهذه الثقافة أو الفئة دون غيرها؟ لقد زادت حدة هذه القضايا، وبخاصة في البلدان ذات الصدع التي يوجد بها جماعات كبيرة من البشر ينتمون إلى حضارات مختلفة، وصار ما يهم الأفراد هو عقيدتهم

وإيمانهم ولغتهم وهي عناصر كفيلة بصنع نظام هوياتي خاص لكل ثقافة، عبر مطالب "هوياتية " تدك حصون هذه الهوية مرة أخرى وتذكي صدامات وصراعات. فمن المؤكد أن مشكلة أطروحة صدام الحضارات تبدأ قبل أن تصل إلى قضية صدام حتمي؛ إنها تبدأ مع زعم مسبق بأن تصنيفا أوحد له أهمية بالغة. والحق أن السؤال «هل تتصارع الحضارات؟» مؤسس على الزعم المسبق بأن الإنسانية يمكن تصنيفها أولا وقبل كل شيء إلى حضارات متباينة ومنفصلة، وأن العلاقات بين الكائنات البشرية المختلفة يمكن بشكل ما رؤيتها، دون أن نفقد الفهم بشدة، على أساس العلاقات بين حضارات مختلفة. إن الخلل الأساسي في هذه الأطروحة يسبق كثيرا النقطة التي يمكن السؤال فيها عما لو كانت الحضارات لابد أن تتصارع. (صن، 2008، صفحة 27)وعلى كل حضارة أو ثقافة شرقية أم غربية أن تجد إجابات، هذه الإجابات هي التي ستحدد هويتها الثقافية، وهي التي تحدد مكان الدولة في السياسة العالمية، كما تحدد أصدقاءها وأعداءها.

هذا هو درس التاريخ الذي يُعلّم في الغرب، وأن الحضارة بدأت من هناك، وظلت وبقيت هناك، وأن العالم في رؤيتهم هو أوروبا وأمريكا، والشرق بما يضمنه من باقي شعوب العالم، فهذه الشعوب يجب عليها أن تتعلم الحضارة من الغرب ليكون لها تاريخ ويمكن تصنيف مقولة "صدام الحضارات" على هذا النسق من الدراسات، وأنها تجديد لها، وتصعيد خطير لوتيرتها، فقد ظل (هنتنغتون) يؤكد باستمرار في كتابه (صدام الحضارات) على فرادة الغرب وتميزه، وأنه ينفرد بخصائص لا تتوافر في غيره. ويدعو الغرب لأن يحافظ على هذه الفرادة والتميز، لكي يضمن تقدمه وتفوقه على بقية العالم، وحسب قوله (الغرب بكل وضوح يختلف عن الحضارات الأخرى التي وجدت.. كل الحضارات تدخل في عمليات مشابهة من الانبثاق والانهيار، والغرب يختلف عن الحضارات الأخرى، ليس بالطريقة التي تطور من خلالها، ولكن بالخصوصية المميزة بقيمه ومؤسساته، هذا يتضمن بكل وضوح مسيحيته، فرديته، وحكم القانون، الذي جعل للغرب إمكانية اختراع الحداثة، والتوسع في العالم (الميلاد، 2013، صفحة 199)

رابعا-ثقافة المابعد والما قبل ومأزق تشظي الهوية:

بعدما اكتمل بناء الهوية الغربية راحت تضع لنفسها صورة واقعها الجديد، في الخريطة العالمية كمصدر واحد ووحيد "للرقي والتقدم" وتعتمد في خطوطها الأساسية على المفاضلة على الآخر؛ هذا الآخر الذي لا بد منه لتكتمل صورة الأنا، وأن يبرز كعامل مزعج أعاق تشكل الهوية الأوروبية في مراحل تكوينها.

لقد ظهر في الوعي الأوروبي "كعامل سلبي حال دون اكتمال صورة الأنا عبر تواصل تاريخي بين حلقاتها الحضارية وللأسف وإلى اليوم، مازالت مثل هذه التصورات تسود بعض الأوساط الثقافية الغربية"(غنيسة، 2012، صفحة 39) لأن عجلة التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، سرعت وتيرة التغيرات على علاقة الأنا الغربية، بالآخر العربي المسلم، وما غزا العالم .بما يمثله من شرق وغرب وعرب وأجانب ومسلمين وغيرهم . من تطورات هائلة في التقنية والعلمية والاقتصادية، وظهور مصلحي "الحداثة" و"العولمة" حيث أصبحت النظرة بعدها إلى العالم نظرة تجزئة وتقسيم؛ "**عالم الما قبل وعالم المابعد**" فالعولمة جعلت العالم حاضرا ومؤثرا في حياة الناس، وقد تكون العامل الأكثر تأثيرا في

مجريات حياتهم الخاصة والعامة. وهي التي جاءت بالعالم إلى الناس، وانتصرت للزمان على المكان، وأصبح العالم وكأنه يعيش على إيقاع زمن واحد، وجعلت العلم ينتصر على الجغرافيا، من خلال ثورة المعلومات، والتطورات المذهلة في تكنولوجيا الاتصالات، وشبكات الإعلام، وتقنيات النظم الرقمية لهذا ينبغي أن نجدد في رؤيتنا إلى العالم لكي نحافظ على وجودنا وبقائنا، ونتغلب على ضعفنا وعجزنا وجهلنا وتخلفنا، ومن أجل أن نستفيد من تلك المنجزات والمكتسبات العلمية والحضارية، ونعرف ماذا نريد، وحتى نكتشف طريقنا إلى المستقبل. (الميلاد، 2013، صفحة 59)

كما يمكن اعتبار أحداث **11 سبتمبر 2001** بداية التغير والتأريخ لخريطة جديدة للعالم، حيث انقلبت الموازين مرة أخرى، وتغير مفهوم الأنا والآخر، وأخذ أبعادا أخرى من خلال ازداد الوعي بالأنا والآخر خلال "القرن العشرين" على إثر تنامي مظاهر الحقد والكراهية والتمييز العنصري بين الشعوب، فبينما كان يتجه العالم نحو "كونية مشتركة" لازالت مجتمعات عريقة غارقة في إرثها القديم، وعلينا التفكير الواعي في كيفية مواجهة هذا الخصم؛ وجدير بالذكر أن هذه المظاهر قد زادت من احتقان العلاقات والروابط بين الأمم والجماعات، مما نجم عنه اندلاع فتيل حروب أهلية، أزهقت بسببها أرواح كثيرة، ولم يكن ممكنا إيقاف شرارة الدماء لولا العودة من جديد إلى "نداء العقل" وهو نداء تبنته الفلسفة من أوله إلى آخره. وقد عاد الفلاسفة إلى تكثيف نقاشهم في المسألة "بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001" حيث اجمعوا على ضرورة صياغة تصور متكامل حول مفهوم "الإرهاب" من منطلق أن إطلاق الاسم بشكل عفوي وعبثي، قد يزيد من توتر العلاقات بين الدول، ولما لا الدخول في حرب كونية ثالثة، يصف البعض حرب العالم حول "الإرهاب" بـ: حرب كونية ثالثة (بهاوي، 2013، صفحة 6)

هي التحديات الراهنة في العالم، فأمام شخصيات الشر والإرهاب لا تنفع المثاليات والأخلاقيات.. لأن العالم لم يعد ينحصر بما فيه الكفاية، أو أنه لم يتحضر في كل مكان، وبالتالي فإن لغة القوة لا تزال ضرورية في هذا العالم الذي أصبح محكوما بذهنيات الإرهاب بأنماطها المختلفة، بين ذهنية من يمارسه، وذهنية من يكافحه، وذهنية من يناصره، وذهنية من يتضرر منه. هذه الذهنيات جعلت العالم مخيفا ومرعبا وكئيبا، ليس في الدول النامية الشرقية، بل حتى في الدول الغربية المتقدمة والمتحضرة التي لم تعد واحة للأمن والأمان كما كانت تصور حالها. لذلك فان الحقيقة التي يجب أن تترسخ هي أننا في عالم ينبغي أن يتغير، وينبغي أن يتحضر، وضرورة أن يصل هذا التحضر إلى كل العالم وليس إلى الغرب فحسب (الميلاد، 2013، صفحة 27) ولا يمكن فهم أطروحة صراع الحضارات التي تقدم بها السند لعلوم السياسية في جامعة هارفارد (صمويل هانجتون) عام 1993 إلا من خلال هذا السياق والاطار العدائي للإسلام والمسلمين الذي يحذر من أن الصراع القادم لن يكون أيديولوجيا أو اقتصاديا أو سياسيا بل "صراع حضارات" وزعم أن العالم الإسلامي سيشكل التحدي الرئيسي، والأهم للغرب في العقود المقبلة، والغريب في هذا الخطاب أن الغرب الأوربي - الأمريكي المسيحي أقنع العالم غير الإسلامي بأن الإرهاب قرين الدين الإسلامي، أنه يحض على كراهية الغرب المسيحي ويحرض على قتل غير المسلمين، بل إن الأكثر كرة

من كل ما سبق هو أن يقع علماء المسلمين في هذا الفخ، واخذوا يتسابقون الدفاع عن الإسلام وتأكيد براءته باعتباره متهما. (الداغر، 2009، صفحة 11)

هذه الأحداث المتعاقبة على العالم والتي حولته إلى "قرية" تستعر بنيران الحروب والمواجهات المسلحة دفعت مناصري نظرية "صدام الحضارات" إلى التبجح بمدى صدقية النظرة الاستشرافية لهنتنغتون بعدها حتمية تاريخية حكمت ماضي البشر وستحكم مستقبلهم، ولم يكن لمناوئي هذه النظرية من بُد سوى التصدي لمروجيها داعين إلى "**حوار الحضارات**" إلا أن خطاب هؤلاء قد توشح بنزعة خطابية حولته إلى شعارات تزيّن منابر الملتقيات وصفحات المجلات، مما حدا بالبعض ممن توجه توجها علميا إلى محاولة تناول هذا الخطاب من وجهة نظر علمية، (غنيسة، 2012، صفحة 153)ففي قراءة متأنية للخارطة الغربية من وجهة نظر هوياتية، ستحيل على حالة الارتجاج التي أصابت مفهوم (الوطن/الأمة) من خلال تصاعد المطالب الهوياتية في أوروبا، وما إن بدأ بالانتشار مفهوم "التعددية الثقافية والعرقية" التي تستند في دلالاتها على مفهوم الإثنية القائم على الشعور بالانتماء العرقي، كخاصية لا يمكن استئصالها من ذاكرة الفرد والجماعة، حتى بدأت الأقليات التي أطلق عليها سابقا الشرق ممثلة في (العرب المغاربة، السود الأفارقة، الأتراك، الصينيون...) تنظر إلى خصوصيتها نظرة تستدعي ليس فقط الاعتراف بها بل تحققها في أرض الواقع، كمعطي جديد من شأنه أن يعيد النظر في مفهوم المواطنة. ومن حينها شكل الاعتداد بالجذور التاريخية والثقافية للأقليات مشكلا جديدا ومهما في أوروبا، وإذا كانت أوروبا مؤسسة إلى وقت قريب على مواطنة نمطية تتجاوز الفروق العرقية، فهل هي اليوم تشهد تصدعا في وحدتها أم أنها بالعكس مقبلة على هوية جديدة؟ ولعل هذا ما أقض مضجع بعض من المثقفين الأوروبيين، فراحوا يسعون إلى محاولة رأب هذا الصدع، من خلال تبني تصور إقصائي لهذا الأخر، خاصة العربي المسلم، ليحفظ لهذه الهوية تماسكها الأسطوري. (غنيسة، 2012، صفحة 43)

خاتمة:

وختاما نصل إلى استخلاص النتائج التالية:

- لم يخفت وهج (الأنا والآخر) بين الغرب والمسلمين كمفهوم، لكن توسعت رقعته الدلالية، التي جعلت العالم ملتفا حول قيم علمية وفكرية متميزة.
- الاعتراف بالآخر هو قبول الغير كآخر يتعذر اختزاله، فعندما أعترف فإنني لا أؤكد فقط بأنني أعرف، ولكن أيضا بأنني أقبل هذا الآخر المختلف؛ فبقدر الاختلاف والتعارض، بقدر التماثل والانسجام، وبقدر ما يجعل كل منهما الآخر موضع معرفة وفكر متجدد في مواجهة غيره.
- صورة الآخر صارت جاهزة ونمطية ومألوفة صورة حاكم بمحكوم، صورة غالب بمغلوب؛ مولع بتقليده وتتبع مساراته، أي أننا لسنا دائما إزاء آخر نفسه، بل هناك جملة من الفرضيات السابقة تمنح للآخر حضورا خاصا متغيرا.

- الثغرة الأهم هي أن العدو صار مشتركا بين الغرب والعرب والمسلمين ومعظم العالم وهو: "الإرهاب والتقتيل والعنصرية " فصارت الذات الإنسانية تحمل معالمها معها، وتسعى لممارستها وعيشها على أرض الواقع، معالم هويتها الحضارية، شروط حريتها والعيش وسط عالم أكثر أمان.
- لابد من مد جسور التواصل والالتزام بمبادئ جديدة كالمساواة والديمقراطية، وهي التي رافقت صحوة الثقافات غير الغربية، وكلها مبشرات للانتقال من العالم نحو مرحلة جديدة، تتجاوز الإشكاليات السابقة وتدفع بالإنسانية نحو عالم جديد. مبني على أسس التفاهم والسلام.

توصيات:

أما جملة التوصيات التي الموصى بها في البحث فهي كالتالي:

إن موضوع قبول الآخر في الثقافتين الغربية والعربية الإسلامية موضوع متجذر في عمق الثقافتين، ويحتاج إلى مزيد من الاهتمام، خصوصا وأنه من قضايا الراهن المتجددة، ولابد من سن القواعد التي لا تعمل على توجيه السلوك فحسب، ولكنها تقرر اللقاء الممكن بين المسلمين والغرب، ومنح الاعتراف للآخر من كلا الطرفين، لأنهما معا يستهدفان العالم كطبيعة مشتركة، تنئ عن الصراع بين المسلمين والغرب، واستبطان ما يزخر به العالم من أفكار ورؤى والمزيد من التواصل البناء والانفتاح الحضاري وكلها كفيلة بتجديد الرؤية الحضارية للعالم وللعرب والمسلمين والغرب على حد سواء.

قائمةالمراجع:

- أمارتياصن .الهويةوالعنف) .(2008) .سحرتوفيق،المترجمون) (الكويت.(
- بول ريكور. الذات عينها كآخر. (2005). (جورج زناتي، المترجمون) مركز الوحدة العربية. (لبنان).
- جوديث بتلر. الذات تصف نفسها. (2014). (جامعة الكوفة، المحرر، وفلاح رحيم، المترجمون) بيروت، (لبنان).
- جيل دولوز وفلكس غتاري. ماهي الفلسفة. (1997). (مطاع الصفدي، المترجمون) الدار البيضاء، (المغرب).
- زكي الميلاد. نحن والعالم من أجل تجديد رؤيتنا للعالم. (2013). بيروت، مؤسسة الانتشار العربي. (لبنان).
- عمرو علام. الأنا والآخر الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلي في الفكر الإسرائيلي المعاصر. (2005). القاهرة، دار العلوم للنشر. (مصر).
- مجدي الداغر. الصراع الحضاري بين الشرق والغرب في ضوء التغيرات الدولية بعد أحداث 11 سبتمبر. (2009). المكتبة العصرية. (مصر).

- محمد بهاوي. فلسفة الغير. (2013). الدار البيضاء، أفريقيا الشرق. (المغرب).
- محمد شوقي الزين. الإزاحة والاحتمال. (2008). منشورات الاختلاف. (الجزائر).
- ممدوح الشيخ. ثقافة قبول الآخر. (2008). مكتبة الإيمان. (الجزائر).
- ميشيل فوكو. الانهمام بالذات وجمالية جرأة الوجود. (2015). (محمد أزويتة، المترجمون) أفريقيا الشرق. (المغرب).
- نصر الدين بن غنيسة. عن أزمة الهوية ورهانات الحداثة في عصر العولمة. (2012). منشورات الاختلاف. (الجزائر).

الصراع الإيديولوجي بين الحركات الإسلامية ومفهوم العلمانية في المجتمعات العربية

The Ideological Conflict between Islamic Movements and the Concept of Secularism in Arab Societies.

د. خيرة شالي، جامعة حسيبة بن بوعلي -الشلف-
chalikhayra2016@gmail.com



ما يشكل أهم الرموز السوسيولوجية للمجتمعات العربية، ظهور فكرة الحركات الإسلامية على شدة تمسكها بمنهج إحياء الخلافة الإسلامية، والتي تعود جذورها إلى ذلك الصراع القائم على المفهوم الاستفهامي في بحث من يخلف الحكم بعد الرسول عليه الصلاة والسلام، ويقع الإشكال ضمن هذا السياق في تلك الأزمات التي شهدتها المجتمعات العربية ومجتمعنا الجزائري على وجه الخصوص، فالحالة الاجتماعية التي تميز هذه المجتمعات مبنية على أسس إيديولوجية تتمحور حول فهم العلاقات بين طرفي الصراع في جملة من المفاهيم والعناصر والتي تتصل بالمرجعية الدينية وتجسيد معاني الإسلام في الحكم على أساس تنظيم الفرد والجماعات في المجتمع، فالمفهوم الإيديولوجي للحركات الإسلامية في مجتمعاتنا العربية تقوم على فكرة بناء المجتمع وفق مبادئ دينية بعيدا عن مفهوم العلمانية، والتي يرجعونها حسب منطلقاتهم للغرب، ورفض كل ما يتصل بثقافتهم التي ساهمت في تخلف المجتمع الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: الإسلام والمسلمين، العلمانية، الحركات الإسلامية، نظرة الغرب للإسلام، الصراع الإيديولوجي.

Abstract :

What constitutes the most important sociological symbols of Arab societies, the emergence of the idea of Islamic movements over their adherence to the approach of reviving the Islamic caliphate; Which is rooted in that conflict based on the conceptual concept of examining who succeeds the rule after the Prophet's prayer and peace In particular, in those crises in Arab societies and in Algerian society, The social situation that characterizes these societies is based on ideological foundations, centred on understanding the relations between the parties to the conflict in a number of concepts and elements that relate to religious authority and reflect the meaning of Islam in governance based on the organization of the individual and groups in society. The ideological concepts of Islamic movements in our Arab societies is based on the idea of building society according to religious principles away from the concept of secularism, Theyreferit back to the West and reject everything related to their culture that contributed to the underdevelopment of the Islamic community.

Keywords: Islam and Muslims, secularism Islamic movements, the West'sview of Islam, ideological struggle.



مقدمة :

لبناء الإشكاليات المتعلقة بالإسلام والمسلمين لا بد لنا أن نعود دائما إلى النظرة الغربية في توصيفها لما تتبناه من فكر حول مفهوم العرب والمسلمين، هذه النظرة تحمل في طياتها معاني عدة تتصل بالخصوصية الغربية ومدى شكوكها في الإسلام، لتضع بعض المتغيرات التي تَتْبع المسلمين باستمرار، فالغرب يتصورون دائما الأعمال العدوانية على أنها مصدر للنصوص الدينية التي ترتبط بالإسلام، فهم لا يفقهون المعاني الحقيقية لما شرعه الله تعالى، وما أتى به الإسلام من نصر للمسلمين والطمأنينة ومحاربة الفواحش الظاهرة والكامنة، وكل السلوكات التي تجعل المجتمع يعيش في تنظيم اجتماعي ويتفاعل الأفراد فيه بالتعاون والتفاهم والانسجام، ويحارب المعاصي والسيئات، وبالرجوع إلى الحياة الاجتماعية للغرب نجدها تفتقر لأدنى مستويات الأخلاق، فنجدهم يحللون ما حرم الله، ويسلكون سلوك غير أخلاقي في ممارساتهم اليومية وعلاقاتهم الأسرية، ومبادئهم المعيشية، وهم على اقتناع وترحيب بهذه السلوكات، واعتبارها الأصح مبررين ذلك بالحريات الشخصية وتجسيد معنى العلمانية، ويعيبون على المجتمعات الإسلامية بأنها لا تفصل الدين عن الحياة الشخصية أو العامة، ويضعونها دائما قيد الاتهام والمطاردة الفكرية، ومن بين أهم المشكلات التي أعاقت نمو الفكر الديني ما يتصل بظهور الحركات الإسلامية لتبني النظام الإسلامي وقيادة المجتمع لما يصلح شؤونه، وتعارض هذه الحركات مع كل ما يتم استراده من الغرب، ومنه العلمانية، وتهدف المجتمعات الغربية إلى التأثير على الأفراد المسلمين بالاستعمار الثقافي والتكنولوجي ومحاولة إبعادهم عن قيمهم الدينية التي نشأوا من أجلها، وفيما يخص الجرائم التي تقع على عادتها، في كافة المجتمعات فإنها تنسب للإسلام، وخاصة مفهوم الإرهاب الذي أصبح مصطلحاً عاما يرتبط ذهنيا لدى الجماعات الاجتماعية بالمسلمين وهي فكرة تكونت وترسبت نتيجة فقدان المسلمين لقوة الدفاع على الإسلام، وهذه النقطة بالذات هي كذلك من صنع الفكر الغربي الذي يحاول باستمرار إضعاف العرب والمسلمين وإقناعهم بذلك.

أولا-المرجعية التاريخية لمعنى الخلافة في الإسلام:

تتمحور الإشكالية التاريخية لمعنى الخلافة في الإسلام لدى الحركات الإسلامية،على ما يتصل بالوصول إلى الحكم بكل ما هو إسلامي، وهذا من خصوصية المجتمعات الإسلامية والعربية، ويتجلى ذلك من خلال الرجوع إلى التاريخ الإسلامي لرعاية الأفراد اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا، والابتعاد كامل البعد عن ما يتصل بالغرب وثقافتهم، واعتبار ذلك من أهم العناصر المسببة للتخلف، فالحركات الإسلامية هي نتاج لتطور الفكر الإسلاماوي الهادف إلى قيادة المجتمع العربي بالمشروعية الدينية، ويقع الإشكال في هذا الشأن حول تلك الصعوبة التي ساهمت في إقصاء هذه الحركات من الوصول إلى مبتغياتها في غالب الأمر، وهذا ما أعطى للصراع الإيديولوجي نصيبه في الوقوف على أساسيات الأزمة القائمة على من يحكم المجتمع الإسلامي، وبالتالي فإن الصراع لم يتأسس من عدمه وإنما للجذور التاريخية في الحكم دورها في إعطاء الصورة النموذجية لمفهوم الإسلام والمسلمين لدى الغرب، فالأصل في مضمون الأمر لا يرتبط بالانحراف والإجرام كما يتصور الغرب، وإنما المبدأ الأساسي من هذه الحالة هو كيفية إعطاء التوصيف

من طرف الغير، والممثلين في المجتمعات الغربية على تأكيد الاتهامات الموجهة للإسلام والمسلمين بحجة وجود الصراعات بين الحركات الإسلامية ومفهوم الخلافة السياسية، مع تدخلاتها المباشرة والغير مباشرة في التحكم في السياسات الاجتماعية للمجتمعات العربية الإسلامية، بفرض سلطتها التكنولوجية والثقافية كنوع جديد من الاستعمار الفكري، الذي لازم مجتمعاتنا العربية الإسلامية، والذي أصبح ضرورة يصعب التخلي عنها، وهنا يأتي دور العلمانية كمفهوم غربي يؤسس لسحب الإسلام عن شؤون الدولة وعن مفهوم السلطة حسب الفكر الحركي." من هذا كله نتبين أن هذه الظاهرة التي عمت المجتمعات العربية والإسلامية، باتت في حاجة ماسة إلى أن تُفهم فهما جيداً، وأن تُدرك جذورها من أجل التنبؤ بتطوراتها المستقبلية، فلم تولد الحركات الدينية المعاصرة من فراغ، فقد كانت بذرتها موجودة على الدوام، وسواء نظرنا إلى العالم العربي أو الإسلامي فسوف نكتشف أن الدين استُخدم مراراً كعامل استقطاب واجتذاب للجماهير، أو لمقاومة طغيان السلطات، أو للتصدي لعمليات الغزو والاحتلال، لا سيما في العصور الحديثة". (حيدر، 2003، الصفحات 1-2)

اتخذت السلطة السياسية في نموذجها التاريخي الإسلامي، شكل النظام المعروف بنظام الخلافة، ويسمى أيضا في المصادر الإسلامية ب "الإمامة"، والذي يمثل جوهر الظاهرة السياسية في الإسلام ومحورها، لذلك يقول عنه "الشهر ستاني" في كتابه "الملل والنحل"، "وأعظم خلاف بين الأمة، خلاف الإمامة. إذا سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان". موضحا أن الخلاف الأكبر في المجتمع الإسلامي كان خلافا سياسيا، لأن الإمامة هي الخلافة، والخلافة هي النظام السياسي الذي نشأ في هذا المجتمع، وكان سبب وقوع الخلاف فيه، بل أنه المنطلق والمصدر للخلافات الأخرى في التاريخ الاجتماعي والفكري للإسلام، وعلة كل ما شهده ذلك التاريخ من صراعات مسلحة، ولعله مازال كذلك حتى يومنا هذا.(فياض و مراد، 2011، الصفحات 454-455)، "والخلافة في الإسلام منصب سياسي، وظيفته الدينية لا تتعدى المحافظة على شرع الله، وقد نشأ باعتباره ضرورة فرضها واقع وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكان اجتماع "السقيفة" أشبه بجمعية تأسيسية أو وطنية منوط بها البحث في مصير أمة بعد وفاة موجهها وقائدها، وهذا انبثق عنها نظام الخلافة، هذا النظام الذي استمر – بشكل وبآخر – في العالم الإسلامي حتى القرن العشرين، ولم يغب عن مجتمعنا إلا بعد أن قام كمال أتاتورك بإلغائه سنة (1323هـ،1924م) عقب إنهيار الخلافة العثمانية. وينتهي إبن خلدون إلى توصيف الخلافة على هذا النحو: " والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الآخروية والدنيوية الراجعة إليها، وإذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا".(الشكعة، 1992، صفحة 91)

"ولقد عانت الأمة الإسلامية من أزمة حكم كبيرة، ما خلا عهد الخلفاء الراشدين، أدت إلى تقسيمها انقساما عميقا وصل في العديد من الأحيان لأن يكون داميا، جراء مواقف بعض الفرق الاسلامية من نظام الخلافة. ولقد تركت هذه الأزمة آثارا مدمرة على تكوين الأمة وتماسكها وعلى نمو الإسلام في العالم وحركته في بناء الحضارة، وقدرته التغييرية على مستوى العالم"(حسن، 2001، صفحة 350).

يُسْتَجدْ على معنى الخلافة في التاريخ الإسلامي بعض العناصر التي تجعل من إمكانيته أقل حضورا مقارنته بما سبق في عهد الخلفاء الراشدين، التباين الذي يمكن أن يلاحظ في هذا الأمر يتعلق بالطبيعة المجتمعية التي تخص كل عصر، ففي الوقت الراهن تشهد المجتمعات العربية الإسلامية مجموعة من التطورات في جميع المجالات، لا يعني هذا إلغاء القيم الدينية وإنما يرجح ذلك إلى تبني نظام يساير الأنظمة العالمية ويسير وفق مبادئ التطور والتغير السوسيولوجي والاقتصادي والسياسي والثقافي وحتى الديني كأحد أهم الأنساق المكونة للنظام الاجتماعي، ويقع الإشكال ضمن هذا السياق في محاولة الحركات الإسلامية أن تؤكد على ضرورة الالتزام بالقواعد الدينية للحكم، واعتبار الثقافة الحضارية أحد أهم العناصر التي ترتبط بالكفر والعصيان، وأن كل ما يأتي من الغرب يعتبر خرق للقوانين الدينية وبالتالي تعثر معنى العلمانية في الفكر الإسلامي إن صح التعبير.

ثانيا-العلمانية ومفهوم السلطة في المجتمع العربي:

المفهوم السوسيولوجي لمعنى السلطة في توظيف العلمانية،يرتكز على عملية تجسيد الفعل القائم على إبعاد القواعد الدينية عن ما يرتبط بالسلطة، هذا الأمر جعل مشروعية الخلاف قائمة بين طرفي الصراع، ممثلة في حركات الإسلام السياسي ومفهوم السلطة السياسية.

"التيار الإسلامي العريض على اختلافه، ينجذب إليه أو يتوافق معه على عدة عناوين، شرائح من التيار القومي العربي، أما التيار العلماني فتتوسع دائرته لتضم فصائل كثيرة تكاد أطرها المرجعية تفقد عناصر التقارب والانسجام، لكنها تتوحد على عنوان واحد هو تجسيد الدين عن حقل السياسة، وقد بقيت أغلبية نظم الحكم العربية التي" اختارت شيئاً من الانفتاح الديمقراطي" بلا مرجعية ثابتة، إلاّ ما تستدعيه الحاجة السياسية والضرورة التي تساعدها على تجديد عناصر سيطرتها وتحكمها في الوضع السياسي، ولكي تضمن نجاحها في هذا الدور، فقد حرصت دائما على أن تظهر بهويتها المزدوجة التي تتأسس على " الشرعية الدينية" حينا، وعلى " المشروعية الديمقراطية" والحداثية حينا آخر، وقد انعكس هذا التناقض في سلوكها، للتحكم في الحراك السياسي الداخلي من خلال توظيف الصراع السياسي العلماني، لإحداث التوازن السياسي المطلوب، وإبراز نموذج الحكم الديمقراطي الذي تقدمه... وإمعانا في هذا الدور، عمدت إلى تجاوز دور "الضبط والتحكم"ومن ثم إلى "تغذية" هذا الصراع وتفعيله، وإثارة هواجس سياسية وإيديولوجية وطائفية وأقلويةوإثنية هنا وهناك"(عبد الغني، 2013، الصفحات 53-54)

هنا يلعب الغرب لعبة التأثير فيما يمكن أن يعتبرونه من ضرورة حتمية لتبني أنظمة حكم مبنية على الأساس الفاصل بين الدين أو الدولة، وللمجتمعات العربية والإسلامية دور في انتقاء أهم العناصر التي ترمز للتغير الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي، وهذا الأمر بالنسبة للحركات الإسلامية نقطة ضعف تتخذها مجتمعاتنا، يجب رفضها وإعادة تصحيحها وفق مبادئ دينية، وهذا ما يؤسس للصراع الإيديولوجي بين الطرفين، يظهر من خلال هذا أن للمجتمعات الغربية دور في صناعة الصورة التي يرونها حول الإسلام والمسلمين.

"فالإسلام لا يمقت الحداثة ويرفضها، إذ بالعلم يرقى الإنسان ويغير وضعه الاجتماعي، الاقتصادي والسياسي في المجتمع، أما العلمنة فموقفها من الإسلام جلي، فهي ترفض أي دين لكونه غير قابل للتطور، وهي تقف اليوم عاجزة عن التصدي لانتشار الإسلام، رغم أن المجتمعات الإسلامية لم تتمكن من مواكبة الدول المتطورة، وهي تعيش اليوم على عتبة التخلف التكنولوجي، فإلغاء العلمانية للإسلام وإلغاء الإسلام للعلمانية يطرح سؤالاً آخر، هل الحداثة أنتجت الإرهاب؟ فمما لا شك فيه أن قيادات الحركات الإسلامية، قد تأثرت بالمفكرين الغربيين كتأثرهم بالمشايخ والعلماء المسلمين، وكما سبق أن الإسلام يقبل الحداثة، فإن الحداثة الغربية فقد أنتجت التطرف وساهمت في بروز حركات تدَّعي أنها حداثية، تتسمى بالإسلام لتحارب به الدين نفسه، من خلال تعطيل شرائعه واجتهاداته، واتهامه بأنه ضد الحداثة والتطور، وهي محاولة لسلخه وطمس معالمه".(موالي، 2007-2008، الصفحات 56-57)

ثالثا-العلمانية وإشكالية تداعيات القيم الإسلامية في المجتمع العربي:

كيف يمكن لنا أن نحدد مسألة الانفتاح مع العلمانين ممن ينكرون الدين في فلسفتهم، أو ممن لا ينكرونه من ناحية فلسفية ولكنهم لا يجعلونه أساساً للواقع؟

إن الجواب على ذلك ينطلق من دراسة المبدأ العام للمسألة وهو معرفة صلة أية قضية من قضايا الانفتاح بالمبادئ الإسلامية الكبيرة، أو بالقضايا الإسلامية المصيرية المتصلة بالواقع، على صعيد المرحلة، أو على صعيد الهدف النهائي، لأن الإسلام يريد لكل قيمة من قيمه أن تأخذ مكانها الطبيعي في حياة الناس، سواء بطريقة منفردة أو متصلة بالحل الإسلامي الشامل، بقطع النظر عن الأداة التي تشارك في ذلك كما يريد للمصير الإسلامي أن يقوى ويتأكد ويأخذ دوره الفاعل في صنع الواقع، سواء قام به المسلمون من خلال جهدهم الخاص أو شاركهم به غيرهم"(فضل الله، 2001، صفحة 36). ففي " الدولة الدينية " كان هناك " لاهوت وسماء " وحكومة تحكم بالحق الإلهي، وباسم السماء، ولا وجود لسلطة الأمة والشعب...وفي الدولة العلمانية أصبح هناك أمة وشعب، وحكومة تحكم باسم الأمة والشعب، ولا وجود لسلطان الحاكمية الإلهية والشريعة الدينية في تدبير سياسة هذه الدولة العلمانية ومجتمعاتها، ومن هنا جاء امتياز نظام الخلافة الإسلامية، وتمييز فلسفة الحكم فيه عن جميع تلك الدول التي سادت عبر التاريخ الذي سبق أو غاير تاريخ الإسلام".

"فالخلافة الإسلامية ليست دولة دينية، تلغي سلطة الأمة.. وإنما هي دولة مدنية، تختارها الأمة.. وتفرضها.. وتراقبها.. وتحاسبها وتعزلها عن الاقتضاء.. وهي دولة الخلافة – تضع سلطة الأمة في إطار سيادة الشريعة الإلهية، فتكون الأمة فيها مصدر السلطات، بشرط ألا تجاوز سلطات الأمة فيها حدود الحلال والحرام التي تقررت في شريعة الله، لأن الإنسان – والأمة في الرؤية الإسلامية الكونية، خليفة لله ونائب ووكيل، وليس سيد الكون، وإنما هوسيد فيه".(عمارة، 2005، صفحة 9) "فالعلماني ما ليس بديني، ومقابلة الديني، أو الكهنوتي، وكأن مدلول " العِلمانية " المتفق عليه يعني: عزل الدين عن الدولة وحياة المجتمع.

وهذا المعنى غير معروف في تراثنا الإسلامي، فتقسيم شؤون الحياة إلى ماهو ديني، وما هو غير ديني، تقسيم غير إسلامي، بل هو تقسيم مستورد، مأخوذ من الغرب النصراني، وما نراه اليوم في مجتمعاتنا العربية والإسلامية من تقسيمات للحياة وللناس، وللمؤسسات إلى ديني وغير ديني، ليس من الإسلام في شيئ، ولم يعرف الإسلام سلطتين: إحداهما دينية، والأخرى زمنية، أو دنيوية، ولم يعرف في تراث الإسلام دين لا سياسة فيه، ولا سياسة لا دين لها"(القرضاوي، 1997، الصفحات 45-46)

رابعًا-الصراع الإيديولوجي بين الحركات الإسلامية ومفهوم الديمقراطية في المجتمع العربي:

"يستعرض زكي أحمد تاريخ فكرة الديمقراطية في الخطاب الإسلامي الحديث والمعاصر، فيذكر أنها كانت حاضرة في أعمال الإسلاميين الفكرية، منذ حركة الإصلاح الإسلامي، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي إلى هذا الوقت، إلا أنه حضور محدود وعرضي ومتأثر بظرف الزمان والمكان.ويصنف زكي أحمد تلك الأعمال الفكرية في حقل الديمقراطية إلى مدارس أربع:

- **الأولى:** حاولت أن تبرز ديمقراطية الإسلام مقابل ديمقراطية الغرب.
- **الثانية:** حاولت أن تبرز نظرية الشورى في الإسلام مقابل الديمقراطية في الغرب.
- **الثالثة:** حاولت التشكيك بالهجوم على ديمقراطية الغرب.
- **الرابعة:** رفضت الديمقراطية واعتبرتها فكرة لا تمت للإسلام بصلة".(نويهض، 2009، صفحة 38)

في تسعينيات القرن العشرين أخذ الاهتمام يتجدد بفكرة الديمقراطية عند الإسلاميين وفي ساحة الفكر الإسلامي المعاصر، وظهرت قراءات جديدة تجاه هذه الفكرة، ومختلفة بصورة كبيرة عن القراءات السابقة، حيث تغيرت اتجاهات النظر وبات الموقف ينحاز إلى فكرة الديمقراطية، والتحول في الموقف اتجاه هذه الفكرة جاء على أساس تغيير زاوية النظر من الموقف الإطلاقي إلى الموقف النسبي، ومن النظر لها باعتبارها تمثل مذهبا اجتماعيا وفلسفيا كليا لا يقبل التجزئة أو التفكيك، إلى كونها تمثل مجموعة آليات وخبرات إنسانية محايدة ومفرغة من أية مضامين فكرية وأيديولوجية، وتسعى إلى تحقيق التعايش، والاعتراف بالتعددية السياسية وحق الاختلاف، والفصل بين السلطات في الدولة، وتداول السلطة بشكل سلمي، وإعطاء الأمة حق المشاركة السياسية العامة، والاحتكام إلى أصوات الناس عبر وسائل الانتخاب والاقتراع الشرعية والقانونية إلى غير ذلك من مكاسب ومنجزات أخرى".(الميلاد، 2012، الصفحات 174-175)

"ورفضت الدعوة السلفية الديمقراطية واعتبرتها كفراً، واعتبرت أن من يقبلها يضحي بعقيدة التوحيد لأنها تأتي برئيس ملحد أو كافر وترفض تطبيق الشريعة على الخيار الشعبي، ولكنها لم ترفض المشاركة السياسية والانتخابات من حيث المبدأ، وتعلل ابتعادها عن المشاركة السياسية بما يسميه منظرها الأول الشيخ ياسر براهي: " موازين القوى المنحرفة، التي لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً " وترفض على المشاركين التنازل عن عقائد ومبادئ لا يرضى أحد من أهل السنة بالتضحية بها، لذا اختارت الدعوة السلفية

الابتعاد عن المشاركة السياسية، حتى تتغير موازين القوى التي لن تتغير إلاّ بالإيمان والتربية"(نافع وآخرون، 2014، الصفحات 174-175)

خامسا-المرجعية الدينية والاحتلال الاستعماري للمجتمع العربي.

"يحتل المجتمع العربي مركزا استراتيجيا في خريطة العالم الجغرافية والحضارية، مما جعله مستهدفا بالعدوان وأطماع المستعمرين. ومنذ فجر الإسلام وحتى اليوم كانت ومازالت الأمة العربية هدفا للعداء الغربي ضد عروبة الإسلام، هذا الصراع الذي كانت له أبعاده الممتدة في عمق التاريخ، وصوره المختلفة التي ابتدأت بالغزوات والهجمات المسلحة وإثارة الفتن.

وتجلى هذا الصراع واضحاً في الهجمة الاستعمارية على الوطن العربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والتي عبرت عن رغبة الغرب في السيطرة على الشرق. ولم يكفي الاستعمار أن يسيطر على مقدرات الشعوب والإضرار بأمنها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، بل إنه سعى إلى وضع الإستراتيجيات والخطط التي تمكنه من الهيمنة الفكرية والتأثير في المقومات والمؤسسات الثقافية، ودأب على تحويل مسارات الثقافة وضبط مؤشراتها بما يخدم أهدافه الفكرية في قطع العرب عن جذورهم وقيمهم"(المشهداني، 2005، صفحة 122).

"وحينما زحف الاستعمار الغربي على الشرق والشرقيين، وزحفت معه أفكاره ومبادئه، ومثالياته ونظم حياته، وأخذ يروج لها بوسائل الدعاية النمظمة عن طريق البرامج الثقافية وغيرها من وسائل الاتصال المختلفة التي تكيف العقول حسب رغبته، وتوجه الميول حسب مشيئته، وحسبما تملي السياسة، والاقتصادية، والثقافية، على حد سواء، ومرت الأيام والسنين، وإذا في الشرق جيل كامل يؤمن بهذه المبادئ ويعتقدها، ويروج لها، بل ويتشبع ويتعصب لها، إذا أراد أحد أن يناقشه فيها أو يقنعه بخلافها وناقش السنهوري وانتقد التيارات المستغربة، التي تريد إحلال التشرذم الوطني والتعصب القومي – بمعناهما الغربي – محل رابطة الأخوة الإسلامية"(عمارة، صفحة 40).

"وفي العالم الإسلامي بالذات، فإن الصحوة الدينية ظلت عنوانا مشتركا لكل الدعوات، الجهادية، والتجديدية، التي واجهت الاستعمار الغربي للديار الإسلامية، منذ القرن التاسع عشر حتى خمسينيات هذا القرن، وقد واجهت الصحوة الإسلامية الشيوعية، حقبة من الزمن في مناطق من العالم، إلا أن الصحوة خرجت من عباءتها تيارات متطرفة تتخذ من التكفير مذهبا، ومن العنف وسيلة، وأوقعت أضراراً فادحة بالأصدقاء قبل الأعداء، فشوهت صورة الصحوة، وقدمت ذريعة مثالية لأعداء الإسلام، ليهاجموا الدين جملة وتفصيلاً، وليضربوه في الصميم"(المحفوظ بن بيه، 2007، صفحة 45).

وتاريخ الصراع الفكري بين الإسلام والغرب خصوصا في العصر الحديث يوضح أن الغرب قدّم عدة مصطلحات ولدت في بيئته، وتحمل معاني ومفاهيم خاصة بالغربيين لها خلفية تأريخية لديهم قدموها إلى المسلمين لتسقط على بعض جوانب حياتهم... ولعل من الأمثلة الواضحة على ذلك المصطلحات الآتية: الأصولية، المرجعية، القرون الوسطى. فكل هذه المصطلحات ترمز إلى مذهب أو حالة معينة، ولكن يأبى الغربيون إلاّ أن تنقل هذه المصطلحات إلى المسلمين، لأسباب تتعلق بفرض الهيمنة وترسيخ الاستعمار،

وفتح أبواب الغزو الفكري، ومحاربة الأفكار المقابلة، إن الخلفية التأريخية الموجودة في أذهان الغربيين تجعلهم إذا سمعوا عن الأصولية تمتلئ أذهانهم رعبا ونفرة بسبب المعاملات الهمجية التي اقترفها إخوانهم النصارى باسم الدين حيث حوربت الإنسانية والتقدم العلمي والتطور، فاختيار هذا المصطلح وإسقاطه على المسلمين(اللويحق، دس، صفحة 6).

سادسا- أثر التحولات السوسيو اقتصادية على تنامي الفكر الإسلامي في المجتمع العربي:

"على أنفاض القبيلة نشأ الدوار أو البلدية الأهلية ضاما لبقايا الأعراش المفككة، بسبب خلق الملكية الفردية وانفصال الفرد عن القبيلة، مما استلزم إعادة تجميع العدد الكبير من الأفراد المتحررين من الروابط الجماعية في إطار أرضي وإداري هو الدوار، وبذلك تحول المجتمع وبشكل عنيف من نمط الحياة الجماعية القائمة على الوحدة العشائرية ذات التضامن القرابي إلى الجماعية الاصطناعية القائمة على الفردانية، أي من ذلك الكل المبني إلى مجموع من الأفراد المتضافرين إلى بعضهم البعض. وبعد أن كان العرش وحدة اجتماعية وأنموذجا للتماسك والتضامن العضوي خصوصا أثناء الأزمات تحول إلى مجموعة من الدواوير المتباعدة والمستقلة عن بعضها البعض والضعيفة اقتصاديا". (الطاهر سعود، 2012، ص: 216)

"وحول الأسباب الاجتماعية التي عرقلت تطور العرب، وساعدت على تصاعد وتيرة العمل الإسلامي المسيس، بعض الأسباب منها ما يتعلق يضعف التمثيلية الاجتماعية لدى الدولة، فالقوى الاجتماعية التي تمثلها أو تستدمجها في كيانها السياسي محدودة، وعصبوية في الغالب، إذ تكاد تخرج عن كونها جماعات اجتماعية موصولة بخيوط القرابة مع النخب الحاكمة، وهذا كله رأسمالها الاجتماعي الذي تلقى عائدات سياسية عنه، لقاء أو حماية التوازن السياسي القائم، كما تعود الأسباب إلى هشاشة المجتمع نفسه، فكلما يكون المجتمع تكون الدولة، وعلى صورته تقوم، وإذا لا دولة حديثة نشأت أو تنشأ في مجتمع تقليدي عصبوي تماما مثل ما لا يمكن لدولة تقليدية، من النمط السلطاني أو الثيوقراطي، أن تنشأ في مجتمع"(مزوز، دس، صفحة 21).

وأما فيما يخص العوامل الاقتصادية فأدى ضرب البنية التقليدية للمجتمع وانتزاع الأرض كقاعدة مادية للنشاط في الريف إلى بروز احتياطي ضخم من اليد العاملة البطالة، فقد تحول الراعي والفلاح الجزائري كما وصفه مالك بن نبي إلى مترحل بلا مواش وفلاح بلا محراث ولا أرض، بل إن الصورة تبدو أكثر مأساوية عندما يطرد الأرض بعد مصادرتها شعاب الجبال، وقد ينزل منها إذا لم تسعفه الظروف ليصبح خماسا في الأرض التي كان يوما سيدا عليها، لقد تعرض قطاع الفلاحة في السهول والهضاب العليا لضغوط كثيرة من طرف المستعمر، وهو ما أنتج بحسب عبد الله العروي حالة ضياع وتشريد لقطاع واسع من الفلاحين الذين فقدوا أراضيهم واستمرو يعانون من فرض الضرائب الثقيلة". (سعود، مرجع سابق، صفحة 217)

" كان الانفتاح الاقتصادي هو العلاقة الأولى أي أنه بدلاً من القطع البنيوي مع الاحتكارات الأجنبية، أصبح الإندماج في الدورة الرأسمالية العالمية من موقع التخلف والفقر والضعف هو نظام الحكم الجديد

الذي استوجب تغيير اجتماعي واسعا لمصلحة الإثراء الطفيلي والنمط الإستهلاكي والإعتماد على التجارة الربوية بأشكالها المختلفة من استراد وتصدير وتهريب ورشوة واختلاس وتجارة في العملة وانتشار وبائي للمخدرات، وهي الأمور التي استتبعت نظاما جديداً للقيم بمقتضاه زادت معدلات الجريمة وولدت أنواع جديدة منها.

وفي ظل الأزمة الاقتصادية الصاخبة التي لا يبدوا لها في الأفق حلاً، وفي ظل الاستفزاز الاجتماعي الصارخ من جانب الشرائح المستفيدة، كان الاتجاه المتزايد نحو التعصب الديني ثم الإسلام السياسي أمراً طبيعياً "(شاكر، 1999، صفحة 34)

خاتمة:

نستخلص من خلال هذه الدراسة وجهات النظر الاجتماعية لدى الأفراد حول الإسلام والمسلمين، ولعل هذه الوجهة هي نتاج لتصورات الغرب الذي أكد على ضرورة ربط الأفعال الإجرامية بما يسيئ للإسلام، وخاصة العناصر التي تتعلق بالإرهاب والعنف والعدوان، ومجموع الأسباب الداعمة للوضع العربي ما يتصل بالتدهور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي ميز المجتمعات العربية خلال الآونة الأخيرة من الزمن، وهذه الأزمات التي مست العرب والمسلمين دعت إلى تنامي الحركات الإسلامية لتغيير المجتمع بالمشروعية الدينية، والتي استطاعت أن تحشد أكبر قدر من الشعوب في صفها، وذلك لما دعت إليه برامجها الإصلاحية، وأدى الصراع القائم بين هذه الحركات ومفهوم العلمانية إلى إلغاءها وعدم السماح لها بالوصول إلى السلطة، مما أدى إلى تغيير توجهاتها لفرض وجودها وتحديد أهدافها التي أنشئت من أجلها، وقد نتج عن هذا الأمر صراع دموي بين أطراف الصراع، هذا ما زاد من تكثيف الاتهام للإسلام ووصف المسلمين بالإرهاب، دون تحليل وتفسير المعطيات الحقيقية للوضع الذي آلت إليه المجتمعات العربية.

توصيات:

يدعوا البحث ضمن هذه الدراسة إلى مجموعة من التوصيات نذكر منها:

-ضرورة تقيد الأفراد والجماعات وكذا المؤسسات الاجتماعية على اختلاف أشكالها وأهدافها في التمسك بالمبادئ الدينية والقيم الإسلامية، والابتعاد الكامل عن كل التصورات التي تَرِدُنَا من الغرب وكل يتصل بالمفهومات والمعاني والرموز المسيئة للإسلام والمسلمين.

-العمل على تقوية الروابط الاجتماعية بين الأفراد في المجتمع وذلك من خلال التواصل الإيجابي، ودعم العلاقات في جميع المجالات، كذا العمل على توظيف الدور القيمي للإسلام ومحاربة الثقافة الغربية التي تمحي الأسس المبنية لتكامل المجتمعات العربية.

-ضرورة الاهتمام بالأسرة العربية كأهم وحدة من أجزاء المجتمع، والتي نستطيع من خلالها الحفاظ على التنشئة الاجتماعية للأبناء وفق مبادئ دينية ترفع من قيمة الإسلام والمسلمين في مفهوم الغرب لها.

-إعطاء نماذج واقعية لمفهوم الإسلام وما يحويه من ثقافة سلمية تدعوا إلى الحفاظ على أمن وإستقرار المجتمعات العربية، وإلغاء المفاهيم الخاطئة التي تربط الإسلام بالإرهاب والعنف والتطرف.

قائمة المراجع:

- أكرم عبد الرزاق المشهداني. (2005). واقع الجريمة واتجاهاتها في الوطن العربي (ط1). الرياض: جامعة نايف للعلوم الأمنية.
- بشير مومن نافع وآخرون نافع وآخرون. (2014). الظاهرة السلفية التعددية التنظيمية والسياسات، (ط1). الدوحة، قطر: مركز الجزيرة للدراسات.
- حسن إبراهيم حسن. (2001). تاريخ الإسلام السياسي الديني الثقافي الاجتماعي (ط15). القاهرة: دار الجيل بيروت بالاشتراك مع مكتبة النهضة المصرية.
- خليل علي حيدر. (2003). التصور السياسي لدولة الحركات الإسلامية. الإمارات العربية المتحدة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية.
- زكي الميلاد. (2012). الفكر الإسلامي قراءات ومراجعات (ط1). بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- سليمان موالي. (2007-2008). الارهاب: إشكالية المعنى والقيم والنظم الجزائر حالة، رسالة ماجستار في علم الاجتماع السياسي. جامعة الجزائر.
- عامر حسن فياض، و علي عباس مراد. (2011). مدخل إلى الفكر السياسي القديم والوسيط (ط1). المملكة الأردنية الهاشمية: دار زهران للنشر والتوزيع،.
- عبد الرحمن بن معلا اللويحق. (دس). الإرهاب والغلو دراسة في المصطلحات والمفاهيم. الرياض: جامعة الإمام بن سعود الإسلامية.
- عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيه. (2007). الإرهاب التشخيص والحلول (ط1). الرياض: مكتبة العبيكان.
- عماد عبد الغني. (2013). الإسلاميون بين الثورة والدولة: إشكالية إنتاج النموذج وبناء الخطاب. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- غالي شاكر. (1999). أقنعة الإرهاب البحث عن علمانية جديدة (ط1). القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتزيع.
- محمد حسين فضل الله. (2001). لحركة الإسلامية هموم وقضايا، . بيروت: دار الملاك.
- محمد عمارة. (2005). إحياء الخلافة الإسلامية حقيقة أم خرافة ، (ط1). القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.
- محمد مزوز. (دس). مفهوم الدولة في الفكر العربي- الإسلامي. الرباط: مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.
- مصطفى الشكعة. (1992). الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته (ط3). القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

- وليد نويهض. (2009). العقد السياسي الإسلاميون والدولة ومسألة الديمقراطية 1984/1996، (ط3). المنامة، مملكة البحرين: شركات دار الوسط للنشر والتوزيع.
- يوسف القرضاوي. (1997). الإسلام والعلمانية وجها لوجه. القاهرة: مكتبة وهبة.

انعكاسات السوسيولوجيا المثقلة بالعداء للدين في الغرب على الإسلام وعلماء الاجتماع العرب

The Repercussions of Sociology Burdened with Hostility to Religion in the West) on Islam and Arab Sociologists

ط/د. العايب كمال، جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة - الجزائر

makarov21000@gmail.com



أدى الفصل أو العداء بين التصور العلمي والتصور الديني للكون والإنسان والحياة والمجتمع لاعتبارات تاريخية عدة الى سقوط العديد من المدارس السوسيولوجية المعادية للدين عامة والإسلام خاصة في تصور ديني مشوه ومتناقض كالمادية التاريخية أو العقلانية الوضعية، إذ بالرغم من كونهما أشهر مدرستين يعترف العديد من السوسيولوجيين من الغرب والعرب بعقم نظرياتهما وقصور مناهجهما الكونية في فهم المجتمعات وتشخيص مشكلاتها أو حلها لا سيما في البيئة الإسلامية ذات الخصوصية التاريخية والأيديولوجية، ومن ثم فإن علم الاجتماع العربي أو الإسلامي وفي إطار علم الاجتماع العالمي مطالب بالانخراط في عملية إعادة نظر لتأسيس أو لتجديد بناءه التصوري النظري والمنهجي في ظل عالم يشهد نشاطا دؤوبا في كل المجالات المعرفية.

الكلمات المفتاحية: العقلانية، الدين، الوضعية، علم الاجتماع

Abstract :

The separation or hostility between the scientific perception and the religious perception of the universe, human, life and society for several historical considerations led to the downfall of many sociological schools hostile to religion in general and Islam in particular in a distorted and contradictory religious perception such as historical materialism or positivistic rationalism, as despite being the most famous two schools, many sociologists from the West admit And the Arabs with the sterility of their theories and the shortcomings of their universal approaches in understanding societies and diagnosing their problems or solving them, especially in the Islamic environment with historical and ideological privacy. And methodological in light of a world witnessing constant activity in all fields of knowledge

Keywords : rationality, religion, positivism, sociology



مقدمة

نشأت العَلمانيةSecularism التي عرفتها دائرة المعارف البريطانية بأنها حركة تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالدنيا- باعتبار هذه الأخيرة تمثل الوجود الحقيقي-بعد ثورة قد تكون مبررة على السلطة الدينية الفاسدة المتحالفة مع السلطة السياسية الأكثر فسادا، غير أنها تطورت لتصبح

حركة مثقلة بالعداء للدين بصفة عامة وللإسلام بصفة خاصة معتبرة الدين مجرد ظاهرة اجتماعية خاضعة للدراسة العلمية في إطار عقلانية العلوم الاجتماعية باعتبارها اقتراب فكري وضعي يرى العقل مركزيا في توليد المعرفة الصحيحة في حين الدين غير عقلي لاسيما في المجتمعات الغربية الحديثة التي تتميز بالعقلانية .

لقد صدر حديثا عن مطبعة جامعة كولومبيا الأميركية لعالم الاجتماع جوناث انليونز كتاب جد مهم بعنوان: الإسلام بعيون غربية من الحروب الصليبية إلى الحرب على الإرهاب، كشف مؤلفه النقاب عن من طق الغرب في التفكير والكتابة عن الإسلام من خلال إجرائه تحليلا دقيقا لمجموعة كبيرة جدا مما كتب في الغرب طوال فترة ألف عام، وانتهى الى ملاحظة الآثار المدمرة لعقلانية علم الاجتماع بصفته أحد ضروب المعرفة على الدين بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة. (بيرمناجي، 2012)

ومنه فطبيعة التفكير والكتابات الغربية لاسيما السوسيولوجية منها المعادية للدين وانعكاساتها على علمائنا وعالمنا العربي تبقى من الموضوعات الشائكة التي لا تزال تثير اهتمام الباحث ينو المتخصصين، كونها شكلت منعرجا خطيرا في العلاقة بي العالمين الإسلامي والغربي،وأثرت بشكل مباشر على صورة الإسلام والمسلمين لدى الآخر.

أولا- العقلانية وازدواجية المفهوم:

بدأت ملامح نشأة علم الاجتماع بعد ان تم التأليف بين تيارين كانا سائدين في أوروبا هما التيار العقلاني والتيار التجريبي وهما تياران يقدسان العقل ولا يثقان إلا في العقل والملاحظة والتجربة كوسائل لفهم ثم حل مشاكل الإنسان والمجتمع ويريان ان المجتمع يخضع لسنن وقوانين طبيعية لا إلى سنن وقوانين إلهية، وأنه يمكن حل مشكلات المجتمع بالكشف عن هذه القوانين لا بالرجوع الى الله خالق هذه القوانين. (خضر، 2000 ص45) على اعتبار أن القرن التاسع عشر هو قرن التخلص من الله حسب ما يرى مؤرخو علم الاجتماع.

من منظور الفكر الإسلامي العقلانية من الإسلام لأن الدين والعقل في الإسلام متساندان ومنسجمان، ولكن الحقيقة أن المراد بالعقلانية عند فيبر وغيره من العقلانيين أنها تعلى من قيمة العقل في مواجهة الإيمان وأنها حركة ضد الدين وضد الكتب المنزلة وذات نظرة نفعية تعطي وزنا كبيرا للمناقشات العلمية والتاريخية المضادة للدين بسبب التناقض القائم بين العقلانية وبين الحاجة الى الاعتقاد والايمان، هذا الأخير الذي اعتبره فيبر سحرا يجب أن يزال عن العالم وهنا يقول فيبر "إن الطبيعة كما يفسرها العلم وكما تعالجها التكنولوجيا ليس فيها متسع لسحر الدين وأساطيره القديمة " ويضيف "يجب أن ينسحب الإيمان ليعيش في عزلة مع الضمير".

ومن المعروف أن التراث العقلاني يرتبط بظهور الفكر العلماني الذي يقول بفصل الدين عن الحياة، وأن العقلانية تتناول الدين تناولا علميا بحتا فهي تخضع كل ما هو ديني وروحي وغيبي لأدوات تحليل عقلانية تنفي من المبدأ التصورات الغيبية على اعتبار أن العقلانية اقتراب فكري يعتبر العقل مركزيا في توليد المعرفة الصحيحة (الخشب محمد،2017) كما يعتبر أن مصادر المعرفة تتمثل في العقل

حصرا على اعتبار أن الوجود الحقيقي هو فقط الطبيعة القابلة للملاحظة والتجربة والمقارنة ...الخ أما ما عدا ذلك فهو ضرب من الميتافيزيقا التي لا يلتفت إليها علم الاجتماع الوضعي، وهذا ليس محل إجماع ولا من المسلمات وبالتالي لا يمكن البناء عليه، ورغم ذلك فالأمر الذي يكاد يجمع عليه في ميدان علم الاجتماع و الانثروبولوجيا هو أن الدين من صنع المجتمع والثقافة وتكاد تجمع معظم العلوم الاجتماعية على أن الدين نوع من التضليل الاجتماعي أو نوع من الأفعال الرمزية التي أسيء فهمها وأنه نوع من الوهم أو الخطأ الإنساني إنه أنين الكائن المضطهد وقلب العالم عديم الرحمة وحس الظروف القاسية ،الدين أفيون الشعوب، الدين أسلوب من الأساليب البدائية في التفكير الذي لا يزال يميز بعض الثقافات الدنيا في سلسلة التطور، وعليه فكل متدين هو بدائي ينتمي الى ثقافة دنيا لم تتطور بعد، الدين خطأ فكري ستؤدي العقلانية الى إضعافه و إخفاقه عند أفراد المجتمع ككل ، وفي المحصلة الدين بمعنى أو بآخر غير حقيقي وغير عقلي في المجتمعات الحديثة التي تتميز بالعقلانية، غير أن هذا المذهب يعارضه بشدة الفيلسوف الألماني العقلاني ليبنز الذي ذهب إلى وجود توافق تام بين الحقيقة الدينية والحقيقة العقلية، ولا مجال عنده لأي نوع من التنافر بين كنههما، فالحقيقتان منسجمتان لكن أسلوب التوصل إلى الحقيقة الدينية مغاير لأسلوب التوصل إلى الحقيقة العقلية فالأسلوب الأول هو الوحي الخارق للأساليب الطبيعية، بينما الأسلوب الثاني هو العقل المعتمد على طرق طبيعية، وهكذا ثمة طريقان أو أسلوبان، لكن الحقيقة واحدة تأخذ تارة اسم الحقيقة الدينية تبعا لمنهج التوصل إليها وتأخذ تارة أخرى اسم الحقيقة العقلية تبعا لمنهج التوصل إليها أيضا وانطلاقا من هذا التوافق بين الحقيقتين يؤسس ليبنتز الإيمان على العقل مع أنه في أحيان كثيرة يرفع الإيمان فوق العقل ويعتبر العقل عاجزا عن فهم العقائد الإيمانية مؤكدا بذلك ثنائية الوجود الحقيقي وثنائية مصادر الحقيقة.(الخشب محمد، 2017)

ثانيا- علم الاجتماع وإرهاصات الدين البديل :

نشأ علم الاجتماع نتيجة لتغيرات ثوريه عنيفة في البيئة الدينية و الفكرية والسياسية والاقتصادية للمجتمع الأوربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ويعكس مصطلح الثورة هنا هذه الطبيعة الدرامية للتغيرات التي حدثت في أوربا، وبالرغم من أن هذه التغيرات قد استغرقت عشرات السنين لكي تصبح واقعا فعليا فإنها لم تكن تحولات مفاجئة بقدر ما كانت عمليات تطورية غيرت طبيعة العالم الاجتماعي الاوربي بشدة.

والملاحظ هنا أن ثمة ثلاث ثورات كبرى نشأ في ظلها علم الاجتماع: ثورة اقتصادية قضت على بقايا نظام اقتصادي قديم وظهرت فيها الصناعات ذات الحجم الكبير، لكن أهم آثار هذه الثورة سقوط سلطة الدين واهتزاز بناء الأسرة، وثورة فكرية أطلق على أصحابها فلاسفة التنوير وهم رجال قدسوا العقل وسَحقوا الدين والأسرة لأنهما غير منطقيين في نظرهم ولا يتسقان مع العقل،لم ير هؤلاء العلماء أن فهم الإنسان والمجتمع ممكن بالرجوع إلى الدين وإنما بالرجوع إلى نموذج نيوتن فأدخلوا الإنسان و المجتمع تدريجبا إلى حقل العلم وكان ذلك نقطة البدء في الانقطاع عن الدين الذي كان يسيطر عليهما، كان جهد هؤلاء منصباً على مهاجمة الدين وتحرير الفكر من التأملات الدينية للكنيسة الكاثوليكية

بالأساس وإخضاع هذه التأملات لميدان العقل، أما الثورة الثالثة فهي الثورة السياسية ويُقصد بها هنا الثورة الفرنسية التي لا تزال تلقى التبجيل والاحترام إلى يومنا هذا، استمدت هذه الثورة فكرها من فلسفة التنوير، زعزعت كيان الأسرة من خلال تقويض سلطة الأب على أبنائه بعد البلوغ، كما حاربت الرابطة الأبدية للزواج وأعلنت العداء مع الأسرة ومع الدين ونادت بإلغائه أو إعادة تنظيمه وجعلته خاضعا لسلطة الدولة لا العكس. (خضر، 2000، ص 45)

كما تجدر الإشارة هنا أن كل فكرة من أفكار علم الاجتماع المثقل بالعداء للدين في عالمنا اليوم يمكن ردها الى ثلاثة اتجاهات رئيسية تضرب بجذورها في تاريخ علم الاجتماع، الاتجاه الأول هو الاتجاه الراديكالي المتأثر بفلسفة التنوير لم يكن هذا الاتجاه مقبولا في البداية لكنه انتهى الى فرض نفسه، يقول أصحابه إن إعادة بناء أوربا والإنسانية لا يجب أن يقوم على الدين ، وينادي أصحاب هذا الاتجاه بتغيير الأوضاع القائمة الغير صحيحة بالثورة عليه، الاتجاه الثاني هو الاتجاه الليبيرالي وهو اتجاه يقبل النظام القائم ولا يرى في الثورة مصدرا للحرية وينادي بتحرير الفكر من الدين ويرى أن التقدم لن يتحقق إلا إذا تحرر عقل الإنسان وروحه من الروابط الدينية، الاتجاه الثالث هو الاتجاه المحافظ تمثله الفلسفة الوضعية ترفع شعار إحلال الروح العلمية محل الروح الدينية التي استغرقت لبنائها إثني عشرة عاما يتزعمها أوجست كونت الذي خرج على العالم بدين جديد ونصب من نفسه بابا لهذا الدين الجديد الذي حل من خلاله مشكلات الأخلاق والدين بالفصل بينهما، فقد حاول صنع أخلاق وضعية جديدة بعيدة كل البعد عن أية فكرة دينية وخالية تماما عن أي صلة إلاهية ، حتى أنه دعا المسلمين إلى التخلي عن دينهم ودخول هذا الدين الجديد.

وهكذا فمنذ بزوغ الرُؤى الأولى لعلم الاجتماع أُعد له أن يحل مقام الدين، وليكون دينا بديلا أُعد علماء الاجتماع ليكونوا رسل هذا الدين الجديد وأنبياءه، هذا ما قاله تلامذة سان سيمون الثلاثة :بازار وأنفانتان و كونت في محاضراتهم التي القوها في باريس (Gouldner s 1975 p 69) وسرعان ما تناقل علماء الاجتماع الأمريكان هذه المقولات معتبرين أن معظم القضايا التي تدخل في ميدان علم الاجتماع لها ما يناضرها في الدين وأن المسألة ليست مسألة تشابه فقط في القضايا بل تشابها في الأدوار التي يضطلع بها علماء الاجتماع، ويقولون أيضا "ليس هناك من ينكر أن العالم الاجتماعي يمارس نفس الدور أو الوظيفة الاجتماعية التي يقوم بها رجل الدين الذي يقرأ المستقبل وان كان الفارق الوحيد أن البابا يقرؤها من تأويلات النص وعالم الاجتماع يقرؤها من الرسم البياني أو من بيانات الكمبيوتر" كما قالوا أنه يمكن النظر إلى علم الاجتماع على أنه احد الضرورات البديلة للأديان التقليدية وأن أحد الطرق التي يمكن التصرف بها بعد اختفاء الله هو خلق آلهة أخرى وتطوير وسائل جديدة لخلاص وإنقاذ البشرية، ووضع تصور جديد لبناء مملكة الإنسان على أنقاض مملكة الله التي تكون قد زالت ، ومن هنا أُريد لعلم الاجتماع أن يكون ديانة علمانية جديدة

(خضر، 2000، ص59)

نعم فقد نشأ علم الاجتماع في مناخ وظروف وأوضاع جد خاصة، دين أو كنيسة تدعو الى الرهبانية، حياة رجال الكنيسة مليئة بالفواحش والمنكرات،استحوذ عليهم الجشع وحب المال، انحطت أخلاقهم وأخلاق باباواتهم، يبيعون المناصب والوظائف كالسلع، يؤجرون الجنة ويصدرون صكوك الغفران - في إطار تحالف وجودي بين السلطة الدينية والسلطة السياسية الحاكمة آنذاك ممثلة في الملوك والأمراء - في الوقت الذي كانوا يأمرون الناس فيه بالحرمان باسم الدين، كنيسة أدخلت الكثير من الخرافات على الدين، فمن لم يؤمن بها يُطرد من رحمة الرب وينكل به، احتكرت تأويل وتفسير النص الديني ومنعت بل وحرمت الناس من البحث في فهم الكتاب المقدس وتفسيره، ادعت آراء ونظريات جغرافية وتاريخية وطبيعية مليئة بالخرافات والأخطاء عن الكون والإنسان والحياة وألبستها لباس القداسة بحيث لا تناقش ولا تصحح ولا تجرب، يُكَفر من لا يؤمن بها ويحاكم، وحينما انفجرت العقلية الأوروبية ضد هذه الأوضاع المقلوبة وحطم العلماء قيود الكنيسة ثارت الكنيسة عليهم وعاملتهم كملحدين وكزنادقة وأنشأت لهم محاكم تفتيش عاقبت ثلاثمائة مائة ألف منهم وأحرقت اثنين وثلاثين ألفا أحياء كان منهم العالم الطبيعي جوردانو برونو الذي قال بتعدد العوالم وحكمت عليه بالقتل دون أن تراق قطرة من دمه بمعنى حرقه، ونكلت بالعالم الإيطالي غاليلي الذي اضطر تحت التعذيب أن يعلن وهو راكع أمام البابا جحوده بدوران الأرض حول الشمس قائلا "أنا جاليليو وقد بلغت السبعين من عمري سجين راكع أمام فخامتك والكتاب المقدس أمامي ألمسه بيدي أرفض وألعن وأحتقر القول الإلحادي بدوران الأرض" (جلال الدين، 2014، ص221)

من المنطقي إذن والحال هكذا أن يثور الناس على الدين والكنيسة، وأن يفصلوا بين الدين والحياة وبين الدين والعلم، وبين الدين والعقل وكان منطقيا أيضا أن تصبح العقلانية العلمانية هي دينهم الجديد وأن يقيموا الحياة والعلم على أساسهما، ولكن في المقابل الدين والعلم في الإسلام متساندان والدين والعقل في الإسلام متساندان، الدين والحياة في الإسلام لا ينفصلان وأن أول آية تدعو للدين هي أول آية تدعو للعلم فالدين علم والعلم دين كما لا يخفى على أحد.

ثالثا- موقف رواد الوضعية من الدين:

نخص بالذكر هنا كل من أوغيست كونت وتلميذه إيميل دوركايم على اعتبار أن الأول تُنسب إليه السوسيولوجيا الوضعية والثاني يعود لإسهاماته الفضل في افتكاك الاعتراف الأكاديمي الرسمي بهذا العلم، وقبل الخوض في آرائهما عن الدين نسوق نموذجا عن توجه فلسفي لاهوتي معتدل عن الدين فقد عرف مؤسس اللاهوت البروتستانتيّ المعتدل الفيلسوف الألماني شلاير ماخر الدين بأنه "موضوع التجربة، وهو إحساسنا بالتعلق أو التبعية المطلقة وأن الشعور بالتناهي أمام اللامتناهي هو العنصر المعياري المشترك بين الأديان" (عبد الحسين، 2016، ص 153) كما صور روبرت سبنسر الدين تصويرا فلسفيا عميقا حيث قال في كتابه المبادئ الأولية" الدين هو الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانية " والملاحظ انهما تعريفان يمثلان الجانب النظري للدين من حيث كونه إيمانا بقوة مطلقة لا متناهية.

غير أن رواد المدرسة الوضعية اتخذوا في تعريفهم للدين منحى معاكسا للتعريفات المتقدمة التي ضمّنت في رؤيتها مبدأ الألوهية، حيث ارتأى أوغيست كونت أن يحذف من الدين ذلك التطلع نحو ذات عليا تقدسها النفوس البشرية وتخضع لها، فذهب كونت إلى نفي المطلق واعتبار التفكير اللاهوتي طورا بدائيا من أطوار التفكير البشري الذي كان متشوقا لليقين، فالدين في نظره حالة لاهوتية متجانسة مع إحدى مراحل تطور الإنسانية (دوز كريمة، 2019) في إطار قانون المراحل الثلاث، هذا القانون يفيد بانفصال الدين عن العلم بل وتعارضهما وعليه فان تفسير ما يجري في هذا الكون بالرجوع الى الله والدين ميتافيزيقا قد ولى ومضى الى لا رجعة لأنه عهد يمثل الإنسانية في طفولتها وأن المطلق لا وجود له في العالم وهو فكرة زائفة يرفضها المنطق الوضعي المحصور في المعرفة الحسية النسبية (الجندي، د.س، ص271) فالمطلق الوحيد عند كونت أن كل شيء نسبي وأن هذه الإنسانية قد تقدمت الآن وتخلت عن مثل هذه التفسيرات ولم تعد تؤمن إلا بالعلم ولا شيء غير العلم، وأما بخصوص مصير الأديان فأي دين- في نظر كونت– لا يزيد عن كونه تجميعا لتصورات إنسانية مختلفة عن المقدس مشكلا نمطا من أنماط الوعي التاريخي الإنساني وإسقاطا لأحاسيس الإنسان عن وجوده الخاص والتي يرى أنها ولدت من خزعبلات الطفولة البشرية وينبغي أن تبقى أشكالا دون موضوع و على الأكثر إخضاع مضامينها للتطوير، ولهذا انشغل كونت حتى أواخر حياته بصياغة دين عالمي انساني بلا إله أبقى فيه على الطقوسية وبدلا من أن يتجه الناس إلى إله غيبي غير مرئي غير قابل للملاحظة والقياس فإنهم يتجهون في إطار الفلسفة الوضعية الى الإنسانية لعبادتها وسماه دين الإنسانية وربط بدايته ببداية علاقة عشق آثمة عاشها مع زوجة سجين حيث أرسل لها رسالة يقول فيها" لقد بدأت الوضعية الدينية فعلا في اول لقاءنا يوم الجمعة 16 ماي 1845(خضر، 2000 ،ص 48)

وثمة اسم آخر أو قل صنما آخر ينسب إليه بفخر إرساء دعائم هذا العلم بسبقه في تحديد خصائص الظاهرة الاجتماعية وإبراز المنهج العلمي لدراستها إنه اميلدوركايم تلميذ كونت ذو الأصول اليهودية سليلا لأسرة من أحبار اليهود تعلم العبرية ودرس التوراة وبروتوكولات حكماء صهيون - نسبة علماء الاجتماع اليهود في أمريكا مثلا تعادل ستة مرات علماء الاجتماع من أصول أخرى -

أجرى دوركايم دراسة أُريد لها أن تكون مرجعية وشهيرة عن الدين في عشيرة دينية استرالية بدائية وخرج بنتائج قال إنها نظرية صالحة للتطبيق على مختلف المجتمعات وفي مختلف الأزمنة، كانت هذه العشيرة التي درسها دوركايم تعبد التوتم والتوتم هو إسم أو رمز أو شعار العشيرة يُعَبر عن شخصيتها ويميزها عن غيرها ويعتبر أفراد العشيرة أنفسهم مرتبطين بفضل هذا التوتم برباط قرابة قوي لا يقوم على صلات الدم أو المصاهرة وانما يقوم على اشتراكهم في تقديس إسم نوع نباتي أو حيواني هو التوتم، بعبارة أخرى الإله التوتمي هو القوة الغيبية والتوتم هو الصورة المادية لهذا الإله، وكما هو معروف فهذه الدراسة تعد من أشهر الدراسات التي تُدرس في مختلف الجامعات العالمية والعربية والإسلامية وفحواها أن التوتمية هي الصورة الأولى للحياة الدينية و هي أقدم أشكال الدين وأنها مظهر شامل يمثل و يفسر وجود الله والنفس والعالم من وجهة النظر الاجتماعية، فالألوهية إذا حسب النظرية الاجتماعية

ترجع الى أصل توتمي، وأن الألوهية فكرة متغيرة من حيث الزمان والمكان وأن فكرة الله في ذاتها في حاجة الى شروط الثبات والمعقولية، كما أن الله والمجتمع شيء واحد فالله هو المجتمع لأن الأخير يخلق الأول ومنه فالمجتمع هو الكائن المطلق الذي تتجلى فيه روح الله في روح الجماعة، ومن ثم فحقائق الدين تصدر من المجتمع على اعتبار أنها مسائل اجتماعية وأن الدين ليس نسقا من الأفكار المتعلقة بموضوع محدد، وأنه لا شيء اسمه اللا متناهي والخلود والقداسة فكل تلك أفكار وردت إلينا من المجتمع أو العالم الاجتماعي، وعلى هذا الأساس دعا دوركايم كأستاذه كونت الى قيام دين وضعي علماني يستوعب الحياة البشرية كلها وعند أول فرصة أتيحت له لوضع أفكاره موضع التطبيق ساهم في إصدار أول قانون فرنسي عام 1882 يحضر إمداد الأطفال في التعليم الأولي بتعليم ديني من سن السادسة إلى سن الرابعة عشر ة وطبق ذلك في المدرسة الفرنسية بالفعل (العبيدي ،2011)

ومن العجيب أن مناهج التعليم في كثير من الدول العربية نالها بشكل من الأشكال شيء قليل بل كبير من هذا المنطق الدوركايمي أو بالأحرى الوضعي المشوه، كانت وما تزال له انعكاسات خطيرة على مخرجات التعليم بمختلف مراحله ما أدى بدوره الى تغلغل هذا الفكر الغريب على المجتمع العربي والإسلامي في باقي الأبنية الاجتماعية في الأوطان العربية والإسلامية على وجه الخصوص،كما أن دوركايم بعدما نجح في تشويه الدين في عقول الناس انتقل ليدمر المنظومة القيمية أو الأخلاقية وكل تفكير صحيح في العقول عنها حيث قال دوركايم :" إن علينا أن نصنع أخلاقا لأنفسنا...إنه لكي نستطيع إصدار حكم سليم على الأخلاق ونعطيها حقها الواجب من الفهم فعلينا ان ننطلق من معطيات الحاضر...إن الحل الأخلاقي للمشكلة الاجتماعية إنما يكون من خلال التربية العلمانية ولكي تمارس هذه التربية دورها بكفاءة وفاعلية لا بد من وجود قوي ومتعالي مثل الله وهو المجتمع" (خضر، 2000 ص50) وقال في موضع آخر " إن إصلاح الأخلاق في المجتمع لا يتم إلا بالإلغاء التدريجي لنظام الميراث" وللأسف راح الكثير إن لم نقل الغالب الأعم من رواد علم الاجتماع في البلاد العربية يترجمون الى العربية ما كتبه دوركايم عن التربية الخلقية بكل أمانة وحيادية بلا أدنى كلمة اعتراض أو تعليق رغم أن دوركايم في هذا الكتاب ركز على تدمير الاخلاق من خلال تدمير القاعدة الأساسية التي ترتكز عليها وهي الدين، ولكون التربية أو التنشئة الأخلاقية تشكل القضية الأساسية في تشكيل شخصية الإنسان خاصة في السنوات الأولى من العمر - حيث يشير علماء النفس إلى أن الإنسان الراشد هو ابن ست سنوات وأن الملامح الأساسية لشخصية الإنسان تتشكل في الست سنوات الأولى من عمره - ولمزيد بيان نشير هنا إلى أهم الأفكار التي جاءت في هذا الكتاب في ما يلي:

- تلقين تلاميذ المدارس إن الأخلاق لا تعتمد بالضرورة على الدين وإنما على العقل حتى يتم تخليصها مما يسمى بالتحجر أو الثبات في عالم متغير وهنا يقول دوركايم " لقد استقر عزمنا على أن تكون التربية الخلقية التي نلقنها لأبنائنا في المدارس ذات صبغة دنيوية محضة ونعني بذلك التربية التي لا تستند الى المبادئ التي تقوم عليها الديانات المنزلة، وإنما ترتكز فقط على أفكار ومبادئ يبررها العقل وحده بمعنى تربية خلقية عقلية خالصة"

- بعد أن يتم فصل الأخلاق عن الدين يتم البحث عن وسيلة لإشعار الأطفال بعدم صحة الرموز الدينية وبعدم الرجوع إلى الدين وهنا يقول دوركايم " يجب أن لا ننسى أنه بالأمس فقط كان الدين والأخلاق يرتكزان على دعامة واحدة إذ أن الإله وهو محور الحياة الدينية كان أيضا الضمان الأعلى للنظام الخلقي يجب ان لا نكتفي بالفصل الظاهري بين الدين والأخلاق بل يجب أن نذهب بعيدا وأن نقصد رأسا الى لب المبادئ الدينية لكي نبحث بين ثناياها عن الحقائق الأخلاقية المخبأة لكي نعرف كنهها بلغة العقل" ويضيف قائلا " وخلاصة القول أنه يجب علينا الكشف عن الرموز العقلية لهذه الأفكار الدينية التي ظلت لفترة طويلة تجر في ركابها أهم الأفكار الخلقية وحين نشرع في إنشاء تربية أخلاقية غير قائمة على الدين يجب ان نكشف عن هذه القوى الأخلاقية التي لم يستطع الناس حتى الآن تصويرها الا في صورة رموز دينية يجب أن ننزع عنها هذه الرموز ونبرزها في حقيقتها العقلية العارية وأن نجد الوسيلة لإشعار الطفل بحقيقتها العقلية الصرفة دون الرجوع الى أي وسيط ديني"(يدوي، 2015، ص10)

- التأكيد في النظام التعليمي - بعد أعاده صهره – عن الاستعاضة عما يسمى وحي بالعقل وهنا يقول دوركايم بصفته الواجهة الناصعة للسوسيولوجيا الفرنسية خاصة والغربية وحتى الكونية عامة " يجب علينا أن نصهر نظامنا التعليمي في بوتقة حتى نستخلص منه شيئا جديدا ويجب أن نستعيض عن مصدر الوحي القديم الذي لم يعد يبعث في القلوب إلا صدى ضعيفا خافتا باهتا بمصدر آخر"

- اعتبار المجتمع هو غاية السلوك الأخلاقي بدلا من الله وهنا يقول دركايم " المجتمع هو غاية السلوك الأخلاقي ...إن الكائن الذي توجه الأخلاق إرادتنا نحوه وتجعل منه هدفا أسمى للسلوك لن يتعدى واحدا من اثنين إما الكائن الإلهي وإما الكائن الاجتماعي أما الفرض الأول فنستبعده على أساس أنه بعيد عن متناول العلم فلم يبق الا الثاني وهو يفي كل حاجاتنا ويحقق كل أمانينا، فالمجتمع إذا هو النموذج وهو المصدر لكل سلطة أخلاقية "(خضر، 2000، ص 53)

إن تأليه المجتمع وإحلاله مكان الله هو الغاية التي سعى إليها دوركايم بإصرار و كثير من الحرص حتى لكأنه مكلف بمهمة هدفها تقرير الآتي: الواجب الخلقي يصدر من المجتمع، الكائن الأخلاقي الأعظم هو المجتمع، السلطة الأخلاقية العظمى تصدر حصرا من المجتمع، المثل الأخلاقي الأرقى هو المجتمع.

أضف إلى ذلك أن الأخلاق تتسم بالنسبية وليست مطلقة فما هو أخلاقي في مجتمع ليس بالضرورة أخلاقي في مجتمع آخر كالعدل مثلا والصدق والنزاهة ...الخ فالأخلاق تختلف باختلاف الزمان والمكان ويبدو أن السيد دوركايم نجح في مهمته المشبوهة تلك فأُسند إليه أول منصب أكاديمي في فرنسا حيث عُين في جامعة بوردو ليقوم بتدريس العلوم الاجتماعية وعلم أصول التدريس لنجاحه في تطوير منظومة أخلاق علمانية على مستوى التعليم في المدرسة الفرنسية.

ما يمكن قوله بعد هذا العرض الموجز أن علم الاجتماع الدوركايمي في شقه التربوي نجح في تدمير الأخلاق والقيم القائمة على الدين كما نجح الى حد كبير في تسويق تلك الأفكار عبر الترجمات الحرفية الأمينة لها ثم تبنيها بامتياز في برامج الدراسات الاجتماعية والتربوية والتعليمية في العالمين العربي

والإسلامي رغم معارضتها من قبل العديد من الفلاسفة والمفكرين الغرب أنفسهم كالفيلسوف الألماني فيخته الذي اشتهرت مقولته" إن الدين من غير أخلاق عبث وأن الأخلاق بغير دين عبث (زعيم الخير الله، 2019) ،ومن التربويين الفرنسيين من اعتبر اعتماد أفكار دوركايم في التعليم الفرنسي أعظم تهديد لفرنسا جان إيزوليه يقول " إن تأثر علم الاجتماع الذي يدرس في المائتي معهد للمعلمين في فرنسا بآراء السيد دوركايم وحده من أعظم الأخطار القومية التي تهدد البلاد.
(خضر، 2000، ص54)

رابعا- علم الاجتماع الغربي في العالم العربي:

لقد كان علماء الاجتماع الغرب على تدينهم يرون أن الغرب كان يعبر عن نفسه يوما بالدين، أما اليوم فإن الدين عندهم مجرد معتقدات عتيقة، ولهذا استعان الغرب بالعلوم الاجتماعية كبديل عن هذه المعتقدات العتيقة وتحول الدين عندهم إلى موضوع للبحث الاجتماعي والتاريخي وإلى تراث يمكن إخضاعه للدراسة، وتجدر الإشارة هنا أن محاولات إخضاع عالم الغيب لعالم الشهادة تعدي على الموضوعية لأنه تعدي تعسفي على طبيعة عالم الغيب،المهم لقد خاض علم الاجتماع معركته ضد الدين-الكاثوليكية خاصة - ووصف علماؤه هذه المعركة بأنها بالغة القسوة والضراوة وكان النصر الحاسم حليفهم ولكن ليس لأنهم الأقوى بل لأن خصمهم كان الأضعف .

واستقر الأمر الآن الى أن البناء الحالي لعلم الاجتماع يرجع بصورة أو بأخرى إلى الأفكار التي صاغها رواد مبكرون مثل باريتو الإيطالي ودوركابم الفرنسي وماكس فيبر الألماني، الأول كاثوليكي والثاني يهودي والثالث بروتستانتي، ورغم أنهم منتمين الى ديانات سماوية فإن هذه الأخيرة ثار عليها الناس وعزلوها في دور العبادة فأراد هؤلاء سحب هذا الحال المزري التي آلت إليه الديانتين- المسيحية واليهودية - على الإسلام أيضا ومن هنا وجه العلماء الثلاثة النظر إلى علم الاجتماع كمفهوم لعلم الفعل الجمعي و رأوا أن الإنسان كمخلوق اجتماعي وديني هو خالق القيم والنظم وأن الدين أي دين لا يمكن أن يكون أساس النظام الاجتماعي مرة أخرى.

والحقيقة ان علماء الاجتماع الغربيون يعلمون جيدا بأن إخضاع الدين للدراسة العلمية من شأنه أن يحطم الإيمان الديني وهذا يعني نهاية الدين لأن الافتراض الأساسي الذي قامت عليه قضايا علم الاجتماع هو العالم المحسوس والخبرة الحياتية والدراسات الإنسانية بكاملها تقوم على مبدأ أن حل مشكلات الإنسان يكمن في داخله وفي فهمه لنفسه قبل أن يكون في خارجه ، الأمر الذي أدى الى حدوث انفصال واضح وطاغي بين الواقع والقيم في البحوث الاجتماعية تحت دعاوى الموضوعية والدقة المنهجية.

وهكذا يتجلى من خلال أدبيات علم الاجتماع أنه علم ليس بالمحايد فمن أهدافه إن لم نقل هدفه الأساس ضرب الدين والعقيدة بصفة عامة والإسلام وشريعته بصفة خاصة وتشجيع ملامح وقيم الحضارة الغربية بكل الوسائل، وقد ساهم علم الاجتماع الفرنسي بالخصوص في تحقيق الأهداف الاستعمارية الفرنسية الرامية الى تعميق الهوة بين العرب والبربر (خضر، 2000، ص15) والعمل على تطوير البربر في إطار تقريبهم من الحضارة الغربية وإبعادهم عن الإسلام،كما عمل على إعادة تر كيب

وتنظيم حياة المغرب العربي في ضوء الرؤى الاستعمارية ، ويمكن ملاحظة أن خطة الاستعمار في بعدها الديني في البلاد الإسلامية عموما ترمي الى أمرين أساسيين:

-إنشاء جيل متجانس معهم في ثقافتهم ليسهل عليهم الاتصال به والتفاهم معه،أحد أهم أدواته تلك الأفكار الوضعية المتضَمنة في نظريات ومناهج علم الاجتماع الغربي المعتمدة في أنظمة التعليم في العالم العربي.

- أن تضعف علاقة الأجيال المقبلة بالدين وبالثقافة الإسلامية ولكن في البداية ومن أجل عدم التصادم بين هذه الأفكار ومشاعر المسلمين سخر الاستعمار جيشا من الأنثروبولوجيين والمبشرين وعلماء الاجتماع لهذه المهمة (القذرة) (المصري، دس، ص 166)الهادفة بالأساس الى إدماج الجزائريين مثلا في البوتقة الفرنسية عن طريق فرض لغته وثقافته ومنظومة قوانينه ومناهج تعليمه، جنبا الى جنب مع محاربته دينهم ولغتهم وثقافتهم وطمس معالم هويتهم وتشويه تاريخهم ومقومات حضارتهم، وقد قضى المحتل 132 عاما في سبيل تحقيق ذلك دون جدوى، فما كان منه إلا أن ارتضى بما دون ذلك وهو التبعية بكل أشكالها سياسيا واقتصاديا والأهم ثقافيا ولغويا فعمد لزرع عملائه والتمكين لأتباعه لاختراق صفوف المجاهدين والقوى السياسية والنخب الفكرية والإعلامية في آخر سنواته ويؤكد ذلك المؤرخ الفرنسي أندري جوليان "إن فرنسا منذ 1958م لم تعد تقاتل من أجل منع استقلال الجزائر بل لمنح الاستقلال لفئة تحافظ على مصالح فرنسا في الجزائر" (أيمن عمار، 2020) ونفس الشيء ينسحب على كل مستعمراتها، وفي نفس هذا السياق اهتمت المؤسسات الأمريكية في بالأوطان الإسلامية عامة اهتماما خاصا بترجمة مراجع علم الإجماع الغربي التي تحتوي أفكارا مضادة للدين وللعقيدة، فقد تكفلت مؤسسة فرانكلين على سبيل المثال على طبع كتاب

(المجتمع) لمؤلفيه ما كيفر وبيج وقد لاقى هذا الكتاب رواجا مصطنعا كبيرا لأنه نظر إلى تفسيرات الدين على أنها تفسيرات جامحة لابد أن يتكفل العلم بتنقيتها، ودعا إلى دين عالمي جديد من صفاته أنه دين بلا جهاد ولا يقوم على مبدأ الإيمان أو الكفر (خضر، 2000، ص16)، فقد نظر المؤلفان إلى الدين على أنه يفرق الشعوب ويقطع أوصال الشعب الواحد ويعتبرانه عقيدة ضيقة الأفق غير متسامحة لا تستند إلى العقل، بمعنى يريد المؤلفان دينا بلا سلطة أخلاقية لا يحدد القواعد الأخلاقية للناس لا يمنع الاحتكار ولا الربا ولا الزنا ولا الاستغلال... يسعيان إلى أخلاق تحررية تنبثق من ضمير الفرد وحسب، كما روج المؤلفان للمذهب الإنساني الذي يعني التخلي عن أحكام ما فوق الطبيعة المتعلقة بالخلق والجنة والنار والمصير .. .الخ والمحصلة يجتمع الناس على قواعد الأخلاق الاجتماعية وليس على أساس الدين والمعتقدات.

وبحسب الكتاب دائما فإن الإنسان في علم الاجتماع هو خالق الواقع وناتج عنه في نفس الوقت فالإنسان يصنع المجتمع و المجتمع بدوره يصنع الإنسان.

نعم فدراسة المجتمع عند علماء الاجتماع تبدأ من الفرد وفي داخل الأفراد وليس في أي نطاق آخر على اعتبار أن الإنسان في تصورهم هو محور الكون ومنه فالحقيقة تنطلق من الإنسان وليس من الله هذه

هي النقطة المركزية في كل النظريات الاجتماعية الغربية، ذلك لأنهم يعتقدون أن المعنى الحقيقي لعلمية علم الاجتماع هو عدم إقراره بوجود قوة أوجدت العالم وسيرته وتحركه وفق إرادتها، إنه لا يرتبط مطلقا بما هو روحي وما هو ديني، الروحي والديني أحد موضوعات دراسته تخضع له ولا يخضع لها، إنه علم يخضع فقط لأسس المذهب الوضعي القائل أن لا سبيل إلى المعرفة إلا بالملاحظة والخبرة والتجربة . (مصطلحات اجتماعية، دس)

وبخصوص مسألة اختلاف الإسلام عن الديانات الأخرى يرى علماء الاجتماع أن الأديان كلها عندهم تخضع لمعاملة معرفية واحدة ولا يخرج الإسلام عن ذلك باستثناء بعض التفاصيل التي لا تشكل فارقا ذا بال، الإسلام في علم الاجتماع ظاهرة اجتماعية وتجربة وحركة دينية ويعنون بكونه ظاهرة اجتماعية أنه من صنع المجتمع ولا يخرج عن كونه تفسيرا لمعنى مجتمعي في فترة تاريخية معينة نتج عن أوضاع اقتصادية أو اجتماعية في مجتمع ما وزمن ما، وهو أيضا حركة دينية بمعنى أنه اعتمد على شخصية مؤسسه محمد الكاريزمية وما تمتع به من قدرة على التأثير والإقناع والتي جعلت الناس يلتفون حوله وأمكنه من تطبيق تعاليمه في نظام اجتماعي جديد، وقد مرت حركته هذه بنفس التطورات التي مرت به حركات دينية أخرى حتى صارت روتينا عاديا(خضر، 2000، ص 230) هذا بالإضافة الى أن دراسة الدين تتم في ضوء نظريات علم الاجتماع وعلم الاجتماع الديني أوسع من أن يكون إسلاميا أو يهوديا أو نصرانيا أو بوذيا فكل هذه الأديان هي مادة يستخدمها علم الاجتماع ليحللها ويقارنها ويتابع تطورها تاريخيا، وعن كتب أصول الدين والفقه يرى علماء الاجتماع أن ذلك يعد من تراث الدين الضخم مضافا إليه مؤلفات كونت ودوركايم وماركس وفيبر ...وعن موقفهم من بعض المحرمات كأكل لحم الخنزير مثلا يقولون إن امتناع المسلمين عن أكل لحم الخنزير لا يختلف عن امتناع الهندوس أكل لحم البقر ذلك لأن هذا الامتناع قيمة أخلاقية ارتبطت بمفهوم الناس للمقدس ليس إلا، (خضر، 2000، ص 232) وعن وضع الشباب وضرورة عودته للدين يفضل علماء الاجتماع توجيه الشباب نحو الآتي:

أولا: البحث عن بدائل دينية جديدة على حساب الدين العتيق المتوارث بشرط أن تركز هذه البدائل على الطابع الذاتي لا المجتمعي ولهذا يركز علم الاجتماع اهتمامه في هذا الشأن على الحركات الشبابية ويبرز أنها ثقافة مضادة لشباب حائر غير راض عن إجابات الدين التقليدية التي يرد بها على أسئلته التي يطرحها، ويفسرها بأنها حركات لشباب يبحث عن الحب والقبول والانتماء والحرية الذي افتقده في حياته الدينية وعلاقاته الأسرية ويساعد في ذلك جملة الخطوات التالية:

أ-إحالة مهمة التنشئة الاجتماعية بمجملها إلى المدارس والجماعات طبعا بعد تنقية هذه الأخيرة عن الدين

ب- اعتبار الدين ليس أكثر من مجرد مسألة شخصية وخاصة في علاقته بالسلوك السياسي والاقتصادي والاجتماعي

ج- زيادة الفجوة بين عالم الدين والشخص العادي مع العمل على تعميق الهوة بين الدين وممارسات الأفراد في حياتهم اليومية

د- تشجيع التسامح إزاء الاختلافات الدينية بل والانفتاح عليها باعتبارها تراثا إنسانيا مشتركا في ظل التركيز على سيطرة نسق القيم العلمانية.

ثانيا: التأكيد على أن الوصول إلى حقيقة هذا المتسامي الذي هو الله لا يحتاج الى نبي أو الى وحي إلاهي ويمكن لأي إنسان أن يبحث عنه بالطريقة التي تروق له (بيومي، 2017، ص236)

وهكذا بالنسبة لكل النظم الاجتماعية يجب أن تستمد من الفلسفات والبحوث في علم الاجتماع لا من الدين، بمعنى أن نُظما كالتعليم والقيم والأسرة والزواج والمعاملات في شكلها الديني لا مكان لها في العلمانية، قال مورو بيرجر أستاذ علم الاجتماع بجامعة برنستون الامريكية والمشرف على برنامج دراسات الشرق الأوسط في تلك الجامعة "في العالم العربي اليوم يجب أن يوضع في الحسبان نقطتان رئيستان الأولى أن يُعمل على تقليل سلطة الأب على أولاده ليسهل أن تحمل الأسرة العربية طبيعة الحياة الغربية و النقطة الثانية ضرورة تأسيس حكومات عسكرية في البلاد العربية للقيام بالإصلاح الاقتصادي والاجتماعي وتطبيق علم الاجتماع بنظرياته ومناهجه " (باحو،2011، ص56)

خامسا- علماء الاجتماع العرب بين الاغتراب والاعتراف:

للأسف قام غالبية رواد علم الاجتماع في بلادنا بنفس ما قام به علماء الغرب- مع الفرق الوحيد والجوهري أنهم لم يشاركوا البتة في صياغة تلك النظريات والأفكار - فطبقوا الفكر الوضعي المثقل بالإيديولوجيا الغربية على قضايا الإنسان والمجتمع والدين والحياة والتاريخ، ففهموا الإسلام في ضوء التراث الغربي الذي يكاد ينحصر بين نظريتي الصراع الماركسية والتوازن البنائية الوظيفية فخرجوا لنا بصياغات غريبة مشوهة عن الشكل الأولي للدين وقالوا إن الدين يجب أن يبدأ بتجربة حسية، وقالوا إن الدين بدأ من الواقع بأبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية، وبالتالي فالدين ظاهرة اجتماعية تخضع لمنطق الدراسة السوسيولوجية مثلها مثل باقي الظواهر، اعتبروا الله فكرة وحالة نفسية، أطلقوا نفس المصطلحات والمفاهيم الغربية على كل ما يتعلق بالدين مثل المتعالي، وما فوق الطبيعي، والطقوسية ... إلخ) تحول الإسلام عندهم إلى دين يكرس الطاعة لتقاليد جامدة ، والمؤمن عندهم مثقل بالتقاليد الدينية التي ترسخت في عصور التخلف، التفكير الغيبي عندهم تفكير سلفي رجعي مغرق في متاهات الماضي، وليس غريبا بعد ذلك وقد تشكل لديهم نفس الهوى أن يتخذوا نفس المواقف الغربية فقد أشاد العديد من رجال الاجتماع في البلاد العربية بما قام به أتاتورك فيما يسمونه بعملية تخليص الشؤون الدنيوية من المرجعية الدينية بمنع التربية الدينية في المدارس، واعتماد القانون الأوربي بعد إلغاء الشريعة الإسلامية، وتأميم الأوقاف، وتقليص مكانة علماء الإسلام، ومنع أي إشارة إلى الإسلام في الدستور، ورأوا في ذلك إنجازا كبيرا رسم لهم طريقا رائدا في تجريف النسيج الاجتماعي في عالمنا العربي والإسلامي (خضر، 2013)، كما لا يزال العديد من رواد الإجماع في الوطن العربي يأملون من علم الاجتماع أن يجيبهم عن كل ما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية والتنظيم والتشريع ومناهج التعليم وإعادة بناء وصياغة العلاقات والقيم والأخلاق والنظرة للحياة ومواجهة كل المعوقات والرواسب والمشاكل والتناقضات وتشكيل وعي الناس ...الخ هذه القائمة من الأماني التي لم ولن تتحقق، لأنها بكل بساطة في

الغالب الأعم لم تتحقق في الغرب بشهادة العديد من علماء الاجتماع سواء من الغرب أو من العرب ونخص بالذكر منهم (خضر، 2000، ص22) اعترافات العرب على سبيل المثال لا الحصر البعض منهم فقط وننقل ما كتبوه بأقلامهم بكل أمانة دون زيادة أو نقص تماما كما نقلوا إلينا على مر عقود تلك النظريات بكل أمانة ودون زيادة أو نقصان.

فالنظريات الغربية كما يقول عادل عبد الحسين نظريات عنصرية تقوم على الإحساس بالتفوق والهيمنة تبرز سيطرة الغرب الأقوى على النظام العالمي المستند إلى تقسيم دولي ينظر إلى التنظيمات الاجتماعية غير الغربية بأنها أدنى وغير قابلة للتجديد والتطور وأن على الغرب مهمة تاريخية هي العمل على تحديث العالم وتمدينه.

الحضارة عندهم احتكار للبيض الذين هم أرقى الأجناس أو هكذا يجب و الغرب هو الغاية الوحيدة للتقدم الإنساني في تصور دو ركايم وتفوق الغرب إحدى مسلمات ماكس فيبر.

صورت لنا العلوم الاجتماعية على أنها علوم عالمية أو كونية تقوم على الموضوعية وتعتمد على قاعدة بيانات عن سائر المجتمعات البشرية، وهذا تصور أو ادعاء غير صحيح لأنها تعتمد فقط على خبرة المجتمعات الغربية وحدها وأن البيانات المعتمد عليها جُمعت لأغراض احتواء الآخر، جمعها أنثروبولجيون وعلماء اجتماع ومستشرقون لأغراض في الغالب الأعم استعمارية، ومع ذلك فقد تم التعامل مع النظريات الغربية في بلادنا على أساس أنها علم كامل الأركان يعتمد على المنهج العلمي الذي يقوم على الاستقراء والملاحظة لا على الحدس والميتافيزيقا والقول المأثور. (الهرماسي وآخرون، 1990، ص66)

سوقت لنا النظريات الاجتماعية الغربية كما يقول جلال أمين على أساس أنها كونية تتجاوز حدود الزمان والمكان، وواقع الأمر أنها كانت تنقل لنا تحت ستار العلم قيم العالم الغربي العلماني وأفكاره ليس لصالح العلم وإنما لصالح تدويل النمط الحضاري الغربي.

كما نسجل اعتراف الدكتور علي الكنز أستاذ علم الاجتماع جامعة الجزائر عن تبعية علم الاجتماع في بلادنا لعلم الاجتماع الغربي والماركسي وعن الترديد الآلي في الجامعات ومراكز البحث للنظريات المستوردة من الغرب في إطار ما يعرف بمهزلة نقل المعرفة حيث يقول "إذا أردنا تقويم الممارسات السوسيولوجية الحالية في بلادنا أمكننا وصفها بتبعيتها الأساسية للسوسيولوجيا الغربية و يمكن أن نؤكد هذه الحقيقة دون خوف وقد انسحب هذا الحكم علينا سابقا، تأخذ هذه التبعية أشكال التكرار والتقليد أكان هذا التقليد واعيا أم غير واعي مما يؤدي إلى انعكاس أو بالأحرى انحراف قضايا وإشكاليات العالم الغربي داخل البنى الثقافية والاجتماعية لعالمنا" وفيما يتبدى تأثير النظريات الأنجلوساكسونية في المشرق نلاحظ أن السوسيولوجيا الفرنسية هي التي تسيطر على المغرب العربي علما بأن التقارب الجغرافي والثقافي للمغرب العربي مع العالم الغربي يسهل له إقامة علاقات مباشرة وعميقة مع النظريات التي تتطور هناك وتزدهر هنا في الجزائر وتونس كما في الرباط والسودان والقاهرة ... نظريات دخيلة من إنتاج غربي وغير معدة لتلائم البيئة الاجتماعية المحلية بكل ما تتميز به من خصوصية، وهكذا نرى نظريات الوظائفية والبنيوية ومختلف الماركسيات الصادرة عن باريس وموسكو وفرانكفورت والمنحى الثقافي وعلم الاجتماع البيولوجي

وغيرها من التيارات الفكرية التي ظهرت على الأرض الأوربية انطلاقا من إشكاليات لها خصوصيتها، نرى هذه النظريات قد نُقلت معلبة كما هي إلى الجامعات العربية لتردد فيها بشكل آلي، فيبدو كما لو أن الممارسات السوسيولوجية في بلادنا قد اقتصر دورها على أن تكون محطات وساطة للنظريات الغربية، أي أن تقوم بالدور السلبي الذي يعود للمقلد كما هو حال الأطفال مع الكبار هذا الدور الذي تقلده بلادنا في مجالات أخرى كمجالات نقل التكنولوجيا مثلا (خضر، 2000، ص30) ويضيف الكنز أن هذه النظريات لا يمكن بحال أن تؤدي الى النتائج التي توصلت إليها النظريات الغربية في الغرب فهي نتائج غير ملائمة لبيئتنا كونها جُردت من سياقاتها الاجتماعية والتاريخية وانفصلت عن مسار تكوينها الإبستمولوجي، كما يؤكد الكنز أن النظريات الغربية لم تعطنا الأدوات اللازمة لمعاجة قضايا واقعنا وأن البحوث الاجتماعية في بلادنا عقيمة يُعاد تركيبها في إشكاليات لا تلائم الواقع، فلقد برهنت التجربة أنه من الصعب استعمال أدوات تحليل مستوردة من حضارة أخرى في بحوث محلية، وهنا يضيف قائلا "يكمن الخطأ الفادح الذي يمكن اعتباره التباسا تاريخيا حقيقيا الذي اقترفه علماء الاجتماع العرب- في نظرنا- في اعتقادهم أنه من الممكن استيراد نظريات الغرب بغض النظر عن ارتباطها بخصوصية مجتمعاتها وقضاياها الاجتماعية من جهة والحقل المعرفي والأيديولوجي الذي نمت وتطورت فيه من جهة أخرى" والمؤسف حقا كما أشار الكنز أن علماؤنا وهم ينقلون المعرفة من الغرب يضطرون في بعض الأحيان الى تشويه الحقائق المحلية لتطويعها وفق الأفكار المقتبسة من المعرفة المعلبة المستوردة ،والأكثر من ذلك طبقوا بامتياز مقولة "مَلكي أكثر من الملك " فتجد كما يقول الكنز" ماركسيي القاهرة أكثر جدلية من نظرائهم الباريسيين وتجد أتباع النظرية الوظائفية في الرباط أكثر تشددا من صاحبها في نيويورك "ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى أن الكنز ماركسي التفكير يفهم الدين في ضوء نظرية الصراع الطبقي ولا يخفي عداءه للدين ينظر إليه على أنه انعكاس لبؤس العالم وشقائه ويعتبر الفكر العقلاني يعبر عن حيوية الوعي الجماعي الذي يعكس تطور العالم وازدهاره، من أشهر مقولاته المعادية للدين"علينا ترك الاعتقاد بالدين لأنه لم يُبرهن على أن الدين أصبح بمثابة رؤية للعالم أو كثقافة فهو وظيفة عكسية للتطور التاريخي والاجتماعي" (الهرماسي وآخرون، 1990، ص91) وقوله" كنا نعتقد ببساطة أن المشاكل الاقتصادية والاجتماعية المعروفة وأن المهام المعقدة للتنمية سوف تُقلص تدريجيا من مكانة الدين في الضمير الجمعي فيصبح في النهاية قضية شخصية بحتة تماما مثلما حدث في مجتمعات أخرى، وبخاصة الغرب البرجوازي، غير أننا ها نحن اليوم أمام هذا النموذج الكلياتي وهو يستعيد حيويته ويستهدف فرض هيمنته على جميع جوانب الحياة" (أحمد إبراهيم خضر، 2012)

ويعترف الأستاذ سالم ساري أستاذ علم الاجتماع بجامعة الإمارات العربية المتحدة أن إشكاليات علماء الاجتماع العرب في بحوثهم لا تمت بصلة إلى واقع المجتمع العربي كما أنهم يعانون من غموض الرؤية في النظرية وفي البحث المنهجي لتطابق مفاهيمهم مع مفاهيم النظرية الغربية من حيث المفاهيم والمسلمات والافتراضات والارتباطات.

وقريبا من هذه الاعترافات ذكرها محمد شقرون كلية الآداب بالرباط المغرب اعترافات كل من الطاهر لبيب سوسيولوجي من تونس وكذلك غالي شكري سوسيولوجي مصري ومحمود الذوادي جامعة الملك سعود واحمد حجازي سوسيولوجي مصري وعبد الباسط عبد المعطي هذا الأخير يعد من أبرز أعضاء حزب التجمع الشيوعي المصري ورئيس الجمعية العربية لعلم الاجتماع وأستاذ الاجتماع بكلية البنات جامعة عين شمس والذي يدافع بصوت عال عن تبعيته الشخصية للفكر الماركسي وللنظام الاشتراكي العالمي ورغم هذا التوجه يعترف بالآتي:

- أن شروط الإبداع عند رجال الاجتماع في بلادنا غير متوفرة
- سيطرة المكتبة الغربية على علم الاجتماع في بلادنا وخاصة الفرنسية والأمريكية والإنجليزية. يقول عبد المعطي " فأكثر من 90% من الترجمات في علم الاجتماع هي عن هذا المصدر.
- أن المؤسسات الأمريكية تقوم بتدعيم وجود الفكر الغربي في العالم العربي والإسلامي بالخصوص ومنها مؤسسة فرانكلين بصفة خاصة.
- أن هناك بحوثا مشتركة بين جامعاتنا وهيئات أجنبية تتم لصالح الأمريكيين واليهود، ويشارك فيها رجال الاجتماع في بلادنا وهم يعرفون أو لا يعرفون أولا يريدون أن يعرفوا (خضر، 2000، ص 37)

خاتمة :

ليس من أحد له صلة بعلم الاجتماع أو الفلسفة العقلانية إلا ويعرف أوجست كونت الذي ينسب إليه تأسيس هذا العلم، هذا الفيلسوف يؤمن بأن الأديان ولدت في مرحلة الطفولة البشرية بمعنى مرتبطة بمرحلة التخلف، وعليه لم تعد صالحة في العصر الحديث ولذلك يجب أن يبقى الدين مجرد شكل لكن محتواه لا بد أن يتغير لهذا نادى كونت ودوركايم وغيرهما من رواد المدرسة الوضعية العلمانية بتأسيس دين جديد هو علم الاجتماع، ولأن الدين لا بد له من أنبياء ورسل اقترحوا أن يكون أنبياء هذا الدين الجديد ورسله هم السادة علماء الاجتماع.

ليس غريبا على علماء الاجتماع فى بلاد الغرب أن يمارسوا دور الأنبياء والرسل وقد خرجوا منتصرين وزملائهم التنويريين من معركة حامية الوطيس مع كنيسة كاثوليكية فاسدة باعتبارها سلطة دينية فاسدة متحالفة مع سلطة سياسية أشد فسادا، لكن الغريب أن يصدق رجال الاجتماع في العالم العربي وبإنبهار ساذج ما قاله كونت و دوركايم وغيرهما أو يمارسونه عمليا وهم للأسف يعرفون أو لا يعرفون أو لا يريدون أن يعرفوا ما رسمته المدرسة الوضعية وعقلانيتها وعلمانيتها من مخططات لفصل الدين عن الحياة والإسلام عن المسلمين.

ورغم أن هذا المسعى طال أمده وكانت له نتائج وخيمة ألقت بظلالها على حياة المسلمين الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها لكنها لم تحقق أهدافها المبرمجة لسبب بسيط وهو أن الخصم الحقيقي للمدرسة الوضعية هو الإسلام العصي بعقيدته وشريعته وقيمه وليس المسلمين رغم المصير المشترك بينهما، فاتجهت جهود الدوائر الغربية إلى تحريك أطراف من الفضاء الإسلامي ذاته وأمدتها بالأساليب والأدوات والأفكار المختلفة على غرار الإعلام، التطرف الديني، الإرهاب، الإعلام،

سلطة القرار ...الخ تهدف كلها إلى ضرب الإسلام بالمسلمين أو بعبارة أخرى ضربه من الداخل بعدما فشلت لقرون في ضربه من الخارج.

"والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون "صدق الله العظيم .

أهم النتائج

- العداء للدين في سوسيولوجيا الغرب مبرر لاعتبارات تاريخية دينية وسياسية بالأساس
- الإسلام دين سماوي كالمسيحية واليهودية ولكنه بخلافهما لم يُحرف ولا يعادي العلم بل بالعكس تماما
- إسهام علماء الاجتماع العرب بقصد أو بدونه في التسويق للسوسيولوجيا الغربية المثقلة بالعداء للدين في أوطانهم
- نجاح نقل المعرفة لا سيما ما تعلق بنظريات ومناهج العلوم الاجتماعية والإنسانية إلى العالم الإسلامي في علمنة جوانب عدة من الحياة
- السوسيولوجية الكونية المتعالية على الخصوصية التاريخية وبداية الاعتراف بعقم نظرياتها وقصور مناهجها

توصيات:

1- البدء بالتمكين لديمقراطية حقيقية في البلاد الإسلامية تضمن مبدأ تكافؤ الفرص في كل القطاعات لا سيما السياسية والعلمية والإعلامية وتكرس وضع الشخص المناسب في المكان المناسب على أساس الكفاءة والأمانة لا على أساس التبعية والولاء

2- ضرورة بناء سوسيولوجيا إسلامية في إطار العلوم الاجتماعية والإنسانية الكونية .

قائمة المراجع:

- أحمد إبراهيم خضر، علماء الاجتماع والعداء للدين وللصحوة الإسلامية،(دس)https://www.alalam.ir/news شوهد 31/03/2022
- أحمد إبراهيم خضر، الصحوة الإسلامية ورجال الاجتماع، (2012)، https://www.alukah.net/web/khedr شوهد 31/03/2022
- أحمد خضر، اعترافات علماء الاجتماع- عقم النظرية وقصور المنهج (2000)، المنتدى الإسلامي، ط 1، (لندن)
- اميل دور كايم، التربية الأخلاقية اميل دور كايم، (1886) ترجمة محمد بدوي، (2015)، دار مصر للطباعة، المركز القومي للترجمة(القاهرة)
- أيمن عمار، 2020" الجزائر من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر https://tipyan.com/ شوهد 02/04/2022

- بيرم ناجي،الإسلام و علوم الاجتماع: محاولة في الدفاع عن العلم ضد المنظور الثقافي الإسلامي عند الدكتور محمود الذوادي 2012/07/27 https://www.ahewar.org/debat/ شوهد 31/03/2022
- جلال الدين محمد صالح، السياسة الإسلامية في الوقاية من الجريمة (2014)، مكتبة القانون والاقتصاد، ط1، (مصر)
- جميل عبد الله المصري، حاضر العالم الاسلامي وقضاياه المعاصرة (دس)، كلية الدعوة واصول الدين، الجزء الأول، (المدينة المنورة)
- الخشب محمد عثمان، العقلانية: جدل الفلسفة والدين، (دس) https://islamonline.net شوهد 24/03/2022
- دوز كريمة، الدين من منظور كُونْتِيّ – هل أخلص أب الوضعية لرؤيته العلمية؟ (2019) http://yaqenn.com شوهد 28/03/2022
- زعيم الخير الله، أخلاق بلا دين، (2019) https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/ شوهد 25/02/2022
- شبكة النبأ المعلوماتية، مصطلحات اجتماعية: الوضعية (دس)" http://annabaa.org/nbanews/m شوهد 28/03/2022
- عبد الباقي الهرماسي وآخرون، الدين والمجتمع العربي، (1990) مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 (بيروت)
- عبد الحسين خسروبناه، حقيقة الدين - تأصيل فلسفي، لاهوتي، كلامي، (2016) ترجمة، محمد حسين الواسطي
- عمر جاسم محمد العبيدي، نظام التعليم في فرنسا ظهور العلمانية واختفاء الدين، (2011) https://www.ahewar.org شوهد 20/03/2022
- مجلة الاستغراب، إيران، العدد 03
- محمد احمد بيومي، علم الاجتماع الديني ومشكلات العالم الإسلامي، (2017) دار المعرفة الجامعية، ط1، (مصر)
- Gouldner A for sociology penguin Books (1975) p 69

الهجرة المغاربية إلى أوروبا في النصف الأول من القرن العشرين ودورها في رسم صورة المسلمين لدى الغرب (الهجرة المغاربية إلى فرنسا أنموذجا)

Maghreb Immigration to Europe in the First Half of the Twentieth Century and its Role in Drawing the Image of Muslims in the West(Maghreb Immigration to France as a Model)

ط/د.قويرصان خالد، جامعة البليدة 2-الجز ائر

khaled47ehs@gmail.com



كانت طرق تعارف الشعوب ببعضها في السابق محدودة كالقراءة عنها في الصحف أو القصص وروايات الرحالة وغيرها...، وساد الاعتقاد بأن الشخص المهاجر في بلد خارج بلده الأصلي يعد بمثابة سفير عن أفراد بلده و صورة لهم، لكن قد تلعب الظروف السائدة في البلد الأصلي والظروف التي يعيشها المهاجر دورا في إعطاء صورة مخالفة للواقع، وهو ما يتجلى في الهجرة المغاربية إلى أوروبا في النصف الأول من القرن العشرين، حيث جاءت هجرة كثير من أبناء المغرب العربي لفرنسا كنتيجة لعدة أسباب وعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية صعبة، فرضتها سياسة الاحتلال الأجنبي المغتصب لأراضيهم، فوضعتهم هذه الهجرة في بيئة غير بيئتهم، وبين مجتمع فرنسي غربي مخالف لمجتمعاتهم التي جاؤوا منها جعلتهم يعانون في بلاد المهجر، وعملت ظروف المهاجرين الصعبة والمزرية في بلاد الغربة في إعطاء صورة سلبية عنهم لدى كثير من فئات المجتمع الفرنسي رغم كونهم ضحايا للسياسة الاستعمارية المنتهجة من فرنسا نفسها.

الكلمات المفتاحية: المهاجرون، المجتمع الفرنسي، مسلمي شمال إفريقيا، العنصرية، المغاربيين.

Abstract :

In the past, ways for peoples to get acquainted with each other were limited, such as reading about them in newspapers, stories, traveler novels, and others.... It was believed that the immigrant person in a country outside his country of origin is considered an ambassador for the members of his country and an image of them, but the prevailing circumstances in the country of origin and circumstances may play The immigrant’s experience played a role in giving a picture contrary to reality, which is reflected in the Maghreb migration to Europe in the first half of the twentieth century, when many Maghreb people migrated to France as a result of several difficult political, economic and social factors and factors, imposed by the policy of the usurping foreign occupation of their lands. This migration placed them in an environment other than theirs, and between a Western French society that was different from the societies from which they came, causing them to suffer in the diaspora. The difficult and miserable conditions of immigrants in foreign countries gave a negative image of them to many groups of French society, despite the fact that they were victims of the colonial policy adopted by France itself.

Keywords: Immigrants, French society, North African Muslims, racism, Maghreb.



مقدمة:

لطالما كان حوض البحر الأبيض المتوسط ملتقى الحضارات والشعوب، فهو يضم على ضفافه حضارتين رئيسيتين الأولى حضارة مسلمة في الضفة الجنوبية والثانية مسيحية غربية في الضفة الشمالية، وشهدت المنطقة صراعات طويلة عبر الزمن انتهت بهيمنة الدول الأوربية على شعوب الضفة الجنوبية المسلمة، وكانت دول المغرب العربي من بين الدول المسلمة التي وقعت تحت هيمنة واحتلال الدول الأوروبية بحجة نقل الحضارة الغربية المتطورة لهذه الشعوب المتخلفة على حد وصف قادة الدول الغربية لتبرير الاحتلال لشعوبها التي لم تكن تعرف عن المسلمين إلا ما كانت ترويه قصص الرحالة وشهادات المعمرين، لكن مع مطلع القرن العشرين برزت ظاهرة جديدة ساهمت في تعرف الأوروبيين على المسلمين عن قرب أكثر من أي وقت مضى، وهي الهجرة المغاربية إلى أوروبا، حيث فرضت جملة من الظروف والعوامل تنقل الكثير من أبناء البلدان المغاربية إلى الضفة الشمالية للبحر المتوسط، وقد كانت فرنسا من أكثر الدول التي قصدها المهاجرون، وأدى تواجد المهاجرين هناك إلى الاحتكاك مع الفرنسيين وغيرهم من الأوربيين والتعامل معهم مباشرة فاطلع الفرنسيون على الكثير من أبناء تلك البلدان المسلمة عن كثب، وبذلك تم رسم صورة أوضح عن المسلمين لدى الشعوب الغربية، فكيف أثرت الهجرة المغاربية نحو فرنسا في نظرة الغرب للمسلمين ؟

أولا-أسباب الهجرة المغاربية نحو فرنسا:

تعددت أسباب هجرة الأفراد والجماعات عبر التاريخ، فقد جاءت نتيجة لعوامل مختلفة ومتعددة تتقاطع وتتفاعل فيما بينها وتتعلق هذه العوامل على العموم بما يسمى عوامل الطرد والجذب، فعوامل الطرد تكون متعلقة بالبلد الأصلي للمهاجر وهي الظروف السائدة في البلد الأصلي والتي تدفع شخص ما لمغادرة بلده، أما عوامل الجذب فتكون متعلقة بالمكان المهاجر إليه وهي عوامل تغري المهاجر وتحفزه على الهجرة لذلك البلد.

وفي المغرب العربي طفت الهجرة كظاهرة بارزة لدى شعوب المنطقة في التاريخ المعاصر مباشرة بعد سقوطها تحت الاحتلال الأجنبي الذي اتبع سياسة تسلط واضطهاد على شعوب المنطقة ما جعلها تعيش ظروفا صعبة واضطر الكثير منهم للهجرة إما داخليا أو خارجيا إلى البلدان المجاورة أو إلى المشرق العربي والدولة العثمانية، إلا أنه ومع مطلع القرن العشرين تحولت الهجرة نحو وجهة جديدة وهي فرنسا، التي أصبحت الوجهة الأولى لهجرة أبناء المغرب العربي، فما هي أسباب هذه الهجرة؟

1-الأسباب الاقتصادية: لقد أدت السياسة الاستعمارية ومصادرة الأراضي واغتصابها من أصحابها لفقدان الكثير من الأهالي لمصدر قوتهم، ومن أجل إعالة أسرهم أجبر الكثيرين على العمل في مزارع المستوطنين لقاء أجور زهيدة لا تفي حتى بضروريات الحياة (بورنان، 2013، صفحة 29).

ولم تكن حال سكان المدن من التجار والحرفيين وأصحاب الصناعات الصغيرة أحسن حالا فقد عرف هو الآخر تدهورا كبيرا، حيث عمل الاستعمار على تهميش الحرفيين وفرضت على الفلاحين والتجار والحرفيين ضرائب مرتفعة كما قام الاستعمار بإدخال صناعات ثقيلة واستخراجية تخدم مصالحه الخاصة فقط مما أدى إلى تدهور الصناعة المحلية.

ورغم أن أجر العامل المغاربي في فرنسا كان أكبر مما كان يتقاضاه في بلده الأصلي، ما شكل حافزا مهما للهجرة لا يمكن نكرانه، إلا أن هذا الارتفاع يفقد قيمته إذا عرفنا بأن أجر العامل من شمال إفريقيا منخفض للغاية مقارنة بغيره من العمال في فرنسا، بل أنه يقع في أسفل سلم الأجور، كما أنه لا يتقاضى الكثير من المنح والحقوق كالمنح العائلية وغيرها، هذا دون إغفال ارتفاع تكلفة المعيشة في فرنسا مما جعل المهاجرين يعيشون في ظروف سيئة (ATOUF, Aux origines anticipatrices des migrations marocaines vers l'Algérie coloniale et la France colonisatrice (1830-1942), p. 88).

إضافة إلى هذا هناك عامل اقتصادي هام لا يجب إهماله وهو حاجة أصحاب المصانع في فرنسا لليد العاملة، ورغم أن العامل المغاربي لم يكن ذو تأهيل مثل العامل الأوروبي إلا أن الكثير من أصحاب المصانع التي تحتاج إلى مجهود بدني بالدرجة الأولى رأوا في العمال المغاربيين يد عاملة رخيصة، وبادروا إلى توظيف عمال جزائريين في معاملهم في باريس وهكذا استمر استقطاب العمال الجزائريين للعمل بفرنسا ليصل عددهم عشية الحرب العالمية الأول سنة1914 إلى 10.000 مهاجر حسب لجنة تحقيق جزائرية بينما قدرته الصحافة الفرنسية بـ15.000 مهاجر (أجيرون، 2007، صفحة 401)، وبعد الجزائريين التحق العمال المغاربة والتونسيين خصوصا خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها وانتشروا كعمال في المزارع أو المصانع والمناجم.

إضافة إلى ذلك فإن فرنسا خرجت منهكة من الحرب العالمية الأولى، وكانت بحاجة لمزيد من العمال لإعادة بناء اقتصادها وتعمير مدنها، وعليه أصبحت مستعمراتها وعلى رأسها بلدان المغرب العربي خزانا لليد العاملة ولم تتردد السلطات الفرنسية في فسح المجال أمام هجرة الشباب المغاربي خدمة للاقتصاد الفرنسي (أوعسو، 2017).

2- الأسباب العسكرية: تعد العوامل العسكرية من أهم أسباب هجرة المغاربيين إلى فرنسا، وأهم هذه العوامل قيام فرنسا بتجنيد محاربين من المغرب العربي في قواتها، خصوصا بعد قيام الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، حيث تم تجنيد الآلاف من الشباب ضمن القوات الفرنسية.

وقد شارك حوالي 270,000 شاب جزائري إلى جانب فرنسا في الحرب منهم 120,000 عامل في مصانع التجهيزات العسكرية والمواصلات والمناجم لفرنسا (زوزو، 2010، صفحة 12)

وفي المغرب تشير الوثائق إلى أن عدد الجنود المغاربة يقدر بحوالي 50,000 جندي مشارك في الحرب العالمية الأولى (ATOUF, L'histoire de l'émigration marocaine au bassin minier du Nord-Pas-de-Calais (1917-1987), 2009, p. 24).

أما تونس فقد غادرها الآلاف من الشباب المجندين للقتال حيث قدر عددهم بحوالي 80,000 جندي منهم 10,000 متطوع اختياري وذلك خلال الفترة ما بين 1914 و1919، ويضاف إلى هؤلاء حوالي 30,000 عامل تونسي في الفلاحة والصناعة بفرنسا، وإجمالا فقد غادر طيلة الحرب أكثر من مائة ألف شاب تونسي إلى فرنسا سواء للقتال في جبهات المعارك أو العمل في حقولها ومصانعها (المحجوبي، 1999، صفحة 192)

والملاحظ في هذه الهجرة أنها كانت إلزامية وإجبارية على أهالي المغرب العربي، فرضتها فرنسا بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى وحاجتها للقوة البشرية التي استعانت بها من مستعمراتها المختلفة.

3- الأسباب السياسية: وتتمثل في الاحتلال الأجنبي بحد ذاته الذي أخضع بلدان المغرب العربي لأنظمة خاصة وقوانين استثنائية، سلطت القهر والاضطهاد على شعوب المنطقة، أدت إلى غياب الحرية الفردية والجماعية كما تعرضوا للإقصاء من الساحة السياسية من قبل الأوروبيون فقد كان تمثيلهم شبه رمزي وناقص الصلاحية في المجالس النيابية سواء المجالس البلدية أو الولائية العامة رغم تشكيلهم غالبية السكان (بن فاطمة، 2018، صفحة 44).

وبعد تجربة الكثير من الجزائريين الهجرة إلى فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى وما حملوه من أخبار عن أحوال العمل هناك ونيلهم بعض الحريات والحقوق التي لم يكونوا يحلموا بها في وطنهم، أصبحت فرنسا مقصد الجزائريين للهجرة كيف لا و هي البلد الذي يخاله الجزائري أرض الحرية الموعودة(بوعزيز، 1995، صفحة 243).

ومن جهة أخرى استخدمت الهجرة كورقة سياسية في إطار عملية " التهدئة" التي اتبعتها سلطات الحماية الفرنسية في المغرب، حيث عمل مشروع التهدئة على تفادي استعمال القوة ما أمكن والموازنة بين الاحتياجات الفرنسية من جهة (الجيش والعمالة والمال) وضبط الأوضاع بالأراضي المغربية من جهة ثانية، وبناءا عليه وضعت سلطات الحماية خطة للهجرة أو التهجير ركزت على تشجيع هجرة الشباب من المناطق الريفية وأبناء القبائل المتمردة على وجه الخصوص، فانتقال رجل إلى فرنسا هو في الآن ذاته استجابة للمصالح الوطنية الفرنسية من جهة، وإزاحة لبندقية مقاومة من جهة أخرى (أوعسو، 2017، صفحة 105)، و بالتالي أصبح الجنوب المغربي يتلقى قسطا كبيرا من الأموال من أبناءه المهاجرين و التي تمكنه من العيش بصورة أحسن، وتم استدراج سكان المناطق المتمردة للتعامل مع سلطات الحماية لتحصيل الأموال المرسلة من أبنائها العاملين بفرنسا مما جعل تهدئتهم تتم في المعامل الفرنسية أكثر من مناطقهم (بياض، 2010، صفحة 385) .

4- الأسباب التعليمية أو الثقافية: لقد كان واقع التعليم في بلدان المغرب العربي متدهورا، وتم التضييق على المؤسسات التعليمية وعطلت الكثير منها، ولما كان الحصول على وظيفة محترمة يتطلب نيل شهادة فقد توجه الكثير من طلبة المغرب العربي فرنسا قصد الدراسة في جامعاتها، وشيئا فشيئا تضاعفت أعدادهم بمرور الوقت، فقد كان لدى الطلبة المهاجرون إلى فرنسا الرغبة في الاستيعاب الثقافي الحر، لأن جامعاتها وخاصة الباريسية منها اشتهرت بتقديم الثقافة الفرنسية دون قيد أو شرط للطلبة

الراغبين في اكتسابها من كل الأجناس، وكان طلبة الشمال إفريقيون يشعرون بانجذاب خاص نحو تلك الثقافة التي تمثل في نظرهم أسمى أشكال الحضارة الأوربية تطورا (بن فاطمة، 2018، صفحة 43).

ثانيا- مراحل الهجرة المغاربية إلى فرنسا:

على العموم يمكن تقسيم الهجرة المغاربية إلى فرنسا إلى المراحل التالية:

1- الهجرة المغاربية إلى فرنسا قبل الحرب العالمية الأولى: شهدت بداية القرن العشرين تنقل فئة محدودة من المهاجرين الجزائريين نحو فرنسا رغم قلة أعدادهم بفعل الإجراءات الإدارية، وتم إلغاء الترخيص بالسفر إلى فرنسا بموجب قانون 24 ديسمبر (أجيرون، 2007، صفحة 400)، وعليه بدأت أعداد المهاجرين الجزائريين بالتزايد واستعملوا كعمال في الأرصفة وفي البواخر والسفن و مصانع تكرير الزيت، وقدر عدد المهاجرين المغاربيين بفرنسا عام 1914 بحوالي 13000 جزائري و1400 مغربي دون ذكر للجانب التونسي (زغبي، 2008، صفحة 37).

2- الهجرة المغاربية إلى فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى: شكلت الحرب العالمية الأولى نقطة تحول بارزة في تاريخ الهجرة من شمال إفريقيا نحو فرنسا، حيث لجأت السلطات الفرنسية لعمال مستعمراتها خصوصا من أبناء شمال إفريقيا لتعويض العمال الفرنسيين المجندين في جهات القتال، فعملوا في مصانع الذخيرة و التجهيزات العسكرية والمواصلات والمناجم، وفي حفر الخنادق على جهات القتال، ولم تكتفي فرنسا بالعمال فقط بل لجأت إلى تجنيد عشرات الآلاف من شباب المنطقة واستعملتهم وقودا بشريا للحرب في ميادين المعارك، وتتضارب الأرقام حول تقدير عدد المهاجرين من شمال إفريقيا إلى فرنسا خلال الحرب، فيذهب البعض إلى تقدير عدد العمال الجزائريين بنحو 78.566 عاملا، بينما جعل **ميراكسيول** عددهم يتراوح بين 120.000 و130.000 عامل، أما في مجلة **E.T.I** لسنة 1936 فنجد عددهم 142.000 عامل (زوزو، 2010، صفحة 15).

وكذلك الأمر بالنسبة للعمال من المغرب فالبكراوي يذكر 8.225 عاملاء في عام 1916، بينما يشير أوغستان بيرنار Augustin Bernard إلى 40.390 عاملاإلى نحو نهاية عام1918، أما الكبير عطوف فيذكر 37.850 مجموعا يغطي الفترة الممتدة بين عامي 1915 و1918(أوعسو، 2017، صفحة 103)، وتم ذكر رقم 18.449 مهاجر تونسي (راجعي، 2018، صفحة 145) أضيفوا لغيرهم من العمال المهاجرين من شمال إفريقيا و الصين و الهند الشرقية و غيرها من المستعمرات الفرنسية، وعلى كل حال فإن هجرة العمال المغاربة إلى فرنسا خلال الحرب لم تكن هجرة طوعية، بل تم فرضها عليهم ضد إرادتهم.

3- الهجرة المغاربية إلى فرنسا فترة مابين الحربين: بعد الحرب العالمية الأولى عاد الكثير من المهاجرين المغاربة لبلدانهم ولم يتبقى إلا بضعة آلاف، لكن نظرا لاحتياجات إعادت بناء المناطق المهدمة وضرورة بناء الاقتصاد الفرنسي واحتياجات قطاع الصناعة والمناجم، وارتفاع الأجور، والصدى الطيب الذي نقله المهاجرين الأوائل عند عودتهم لبلدانهم، كلها عوامل جذبت عدد كبير من المهاجرين المغاربة نحو فرنسا بعد الحرب (قداش، 2017، صفحة 225)، فإقامة الكثير من المهاجرين بفرنسا وضعتهم في بيئة وفي ظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية مختلفة عن تلك التي تركوها في بلادهم، وبحكم وجودهم

في فرنسا صار باستطاعتهم أن يعيشوا أحداثا ويروا ويسمعوا أشياء ويشاركوا في أنشطة ما كان لأحد منهم أن يحلم بها ولا أن يصل إليها لو أنه بقي في القرية أو المدينة التي أتى منها، فهم الآن في فرنسا وفي فرنسا الحريات الفردية والجماعية والسياسية من حرية الكلام والاجتماع والصحافة وغيرها موجودة ومحترمة في حدود معينة، وعلى كل حال هي محترمة أكثر بكثير مما هو موجود في بلدانهم التي أتوا منها أين يسود التعسف والقهر وجور القياد والحكام المستعمرين (بلحاج، 2018، صفحة 380).

4- الهجرة المغاربية إلى فرنسا خلال فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها: مع بداية الحرب العالمية الثانية 1939-1945 يلاحظ توقف الهجرة الطوعية للعمال باعتبار أن الأراضي الفرنسية أصبحت ميدانا للحرب ووقعت تحت الاحتلال الألماني وتعطلت المصانع عن العمل، ورغم المحاولات التي قامت بها حكومة فيشي لاستقدام عمال مهاجرين لتعويض الفرنسيين المجندين في الحرب إلا أن محاولاتهم لم تنجح بالشكل المطلوب، في حين تمكنت المقاومة الفرنسية من تجنيد الكثير من أبناء المغرب العربي في جيش التحرير الفرنسي.

وبعد نهاية الحرب ألغت السلطات الفرنسية القيود المفروضة على الهجرة لحاجتها للعمال من أجل إعادة الإعمار فعادت أعداد المهاجرين للارتفاع من جديد (بن فاطمة، 2018، صفحة 26).

وعلى العموم يمكن القول بأن أعداد المهاجرين كانت ترتفع تارة وتنخفض تارة أخرى تبعا لعدة عوامل مثل قوانين تنظيم الهجرة والأزمة الاقتصادية العالمية وغيرها...

ثالثا- خصائص الهجرة المغاربية إلى فرنسا:

تميز المهاجرون المغاربة بفرنسا بجملة من الخصائص نذكر منها:

1- هجرة الذكور: طغى عنصر الذكور على الهجرة المغاربية بشكل واضح، وهو أمر يمكن تفسيره من خلال معرفة أهداف الهجرة وأسبابها، فتجنيد الشباب خلال الحرب العالمية الأولى اقتصر على الذكور، كما أن مجالات العمل المطلوبة في فرنسا كانت مخصصة للذكور، إضافة إلى هذا فإن ظروف المهاجرين كانت غير مستقرة ولم يتم تهيئها لهجرة النساء إلا بعد الحرب العالمية الثانية، حيث يذكر إحصاء بأن عدد المهاجرات الجزائريات على سبيل المثال لم يكن يتجاوز الأربعين امرأة عام 1939، بينما تم إحصاء 768 امرأة عام 1948، ليواصل الارتفاع شيئا فشيئا بعدها (بوعزيز، 1995، صفحة 233).

2- هجرة الشباب: إن المتمعن لتاريخ الهجرة المغاربية إلى فرنسا يجد بأن الفئة العمرية الغالبة لجموع المهاجرين هي فئة الشباب، ويمكن تفسير ذلك بالنظر إلى الخلفيات والدوافع الداعية للهجرة، فبالنسبة للهجرة المعسكرة خلال الحرب العالميةالأولى فقد تجلت في تجنيد الكثير من سكان المنطقة ضمن الجيش الفرنسي ومن الطبيعي أن يكون المعنيون بالتجنيد من فئة الشباب، أما بخصوص الهجرة ما بين الحربين فقد شكلت فئة الشباب بدورها الأغلبية الكبرى من المهاجرين، ومرد ذلك كون أغلب المهاجرين كانوا إما مجندين سابقين خلال فترة الحرب وعادوا مرة أخرى إلى فرنسا لما وجدوه هناك من ظروف أحسن من بلدانهم، وإما شبابا هاجروا بحثا عن عمل يوفر لهم أجرا ووضعا أفضل من أوطانهم.

3- الهجرة المؤقتة: لقد تميزت الهجرة المغاربية إلى فرنسا بأنها من النوع المؤقت، ذلك أن مدة إقامة المهاجرين كانت تتراوح بين ثمانية و ثمانية عشر شهرا (زوزو، 2010، صفحة 31)، يجمع فيها المهاجر ما يمكنه من أموال ويرسل البعض منها لعائلته في الوطن، ويرى البعض بأن واقع الهجرة المؤقتة قد أثر على ظروف معيشة المهاجرين، حيث كانت في حالة مزرية وعانى المهاجرون من سوء التغذية الدائم ومن انتشار الأمراض وعلى رأسها السل (بياض، 2010، صفحة 393).

4- الهجرة غير منظمة: نمت الهجرة بشكل تلقائي رغم المحاولات الكثيرة من السلطات الفرنسية لضبطها وتنظيمها أو منعها، فباستثناء سنوات الحرب العالمية أين قامت السلطات بتنظيم حركة الهجرة نحو فرنسا سواء هجرة الجنود أو العمال، فإن ما عداها كانت هجرة تلقائية يسافر فيها المهاجر من تلقاء نفسه و يتحمل أعباء ذلك منفردا.

رابعا- نظرة المجتمع الفرنسي للمهاجرين:

لقد شكلت هجرة المغاربيين إلى فرنسا خصوصا بعد الحرب العالمية الأولى ظاهرة لافتة للانتباه في المجتمع الفرنسي، وقد أطلق عليهم في ذلك الوقت مصطلح"الشمال أفارقة""les nord -africains " أو " مسلمي شمال إفريقيا" musulmans du nord-africains ويقصد به بالأساس مواطنو تونس والجزائر و المغرب، أما مصطلح "**المغاربيين**"les maghrébins فقد شاع استخدامه بعد استقلال الجزائر عام 1962وأطلق على مواطني بلدان المغربالعربي(عطوف، 2012، صفحة 116) .

وقد رسمت الظروف المعيشية المزرية التي كان يعيشها المهاجرون صورة سلبية عن مسلمي شمال إفريقيا وكانت أبرز ما شد انتباه المجتمع الفرنسي بعد أن انتشرت جموع المهاجرين في أغلب أنحاء البلد وكثرت أعدادهم في المناطق الصناعية والمدن الكبرى وضواحي باريس، فقد كانت ظروف سكن المهاجرين بفرنسا من أشد مظاهر البؤس المثيرة للشفقة نظرا للحالة المزرية التي يعيش فيها المهاجرون، فغالبيتهم لم تكن لهم الموارد الكافية للحصول على سكن لائق، والكثير منهم كانوا يقضون الليل في الساحات ومحطات القطار، والذين قد وفقوا للحصول على عمل مقابل أجر وضيع كانوا يتجمعون في المراقد والأقبية (Schor, 1977, p. 44)، وهي أماكن تحت المنازل مخصصة لتخزين الخمر و البضائع وقد كانت رطبة وتفتقد للتهوية ومتوسط من ينامون في كل قبو نحو خمسين شخصا، وقد افتقرت هذه الأماكن لأدنى الشروط الصحية (Schor, 1977, p. 44)، وبالتالي اقترنت صورة المهاجر المغاربي المسلم بالبؤس والشقاء والتشرد.

وسنحاول ذكر صورة المهاجرين المسلمين لدى بعض فئات المجتمع الفرنسي كالتالي:

1- الإدارة الفرنسية: بالنسبة للسلطات الفرنسية فقد كانت تنظر إلى المهاجرين من مسلمي شمال لإفريقيا في فرنسا على أنهم " مشكلة " رغم تشكيلهم لقوة عاملة لا يستهان بها في صناعات ثقيلة ويقومون بأعمال شاقة، ويعود ذلك بالدرجة الأول للظروف التي كانوا يعيشونها وعلى رأسها مشكلة البطالة، فلم تكن هذه الهجرة منظمة من قبل وكالات ومكاتب العمل وبالتالي كان على المهاجرين الاعتماد على أنفسهم والبحث عن عمل في مختلف أنحاء فرنسا مما جعل الكثير منهم عرضة للبطالة التي زادت من معاناتهم، و

عن انتشار المهاجرين في رحلة البحث عن عمل يقول عمدة **لونغوي** في رسالة بعث بها إلى وزير الحربية في 27 جانفي 1937: " قبل شهرين كان هناك 50 شخصًا في البلاد (يقصد المهاجرين المغاربة) ارتفع العدد في شهرين لعشرين ضعفًا، ويصل ألف مهاجر في اليوم دون أن يطلب ذلك أحد وحتى من دون أدنى حاجة لهم"، وكان عاقبة هذه الهجرة المضطربة وغير المنظمة الوقوع الحتمي في البطالة، ويؤكد عمدة **لونغوي: "** أنه من بين ألف من المهاجرين الذين يقيمون في مدينته هناك المئات بدون عمل، هناك تقارير عن 600 عاطل عن العمل في **مرسيليا**، و200 في **لاجارد** وفي **لالوار**، في مقاطعة **السين** يشكل العاطلين عن العمل حوالي 5/2 من العدد الإجمالي للمهاجرين، في مقاطعة **الرون** يوجد آلاف العاطلين عن العمل"، ولم يكن لدى المهاجرين فترة الإقامة اللازمة للاستفادة من إعانات البطالة حيث كانت القوانين لا تمنح التعويض عن البطالة إلا بعد 18 عامًا شهر من الإقامة (Sbaï, 2018, p. 123)

وانعكست حالة السكن وسوء التغذية وظروف العمل على الحالة الصحية للمهاجرين الذين سقطوا ضحية لداء السل الذي استشرى بشكل خطير في وسط العمال المغاربة(بياض، 2010، صفحة 393)، ولم يكن للمهاجرين إمكانيات للعلاج مما دفع بالسلطات الفرنسية إلى إنشاء مستشفى خاص بالمهاجرين بشارع لوكونت **(مستشفى بوبيني)** وذلك بعد مطالبات كثيرة من العمال والنقابات العمالية، أما بالنسبة للمهاجرين في باقي الدوائر فقد كانوا يتلقون العلاج في المستشفيات البلدية(Sbaï, 2018, p. 124).

أما حاكم منطقة **اللوار** فقد عبر صراحة عن استحالة التواصل بين الفرنسيين والمهاجرين من شمال إفريقيا فقال: "فالصراعات محتدمة وحادة، بيننا وبينهم هوة سحيقة يستحيل ردمها، أكثر من هذا لا نطيق الوجود المعنوي ولا الجسدي لهؤلاء الأغراب الذين لا يحملون إلا السل والسيفيليس، ولا يقدمون أبدا شيئا صالحا، إذ وحتى لو تعايشوا معنا فيقاسمونا عاهاتهم وليس مظاهر الحضارة"(بياض، 2010، صفحة 394).

وقد طالب العمال وقبلهم الجنود خلال الحرب العالمية الأولى بتخصيص بأماكن يمارسون فيها شعائرهم الدينية، واستجابت السلطات الفرنسية وقامت بتأسيس معهد إسلامي سنة 1920 تمهيدا لإنشاء **مسجد باريس** الذي افتتح سنة 1926 ونصب على رأسه **قدور بن غبريط**، وأصبح مسجد باريس منذ ذلك الوقت ممثل الإسلام الرسمي الفرنسي، وفي الحقيقة كانت السلطات الفرنسية تهدف من وراء إنشاء مسجد باريس إلى تحسين صورتها في العالم الإسلامي ومراقبة المسلمين بفرنسا والتحكم في ممارساتهم الدينية وليس خدمة المهاجرين كما ادعت، وهو الأمر الذي انتقده الكثير من الناشطين المغاربيين بفرنسا كمناضلي حزب نجم شمال إفريقيا في تجمعاتهم وحتى الفرنسيين أنفسهم الذين طالبوا سلطات بلادهم بتطبيق سياسة إسلامية بعيدة عن الممارسات الاستعمارية (2013، الصفحات 204-205).

ونظرا لأن السلطات الفرنسية كانت ترى في مسلمي شمال إفريقيا مصدر خطر على فرنسا فقد أسست هيئة بوليسية لمراقبتهم اختلف اسمها عبر السنوات مثل " La Brigade nord-africaine"أو **المكتب العربي**Le Bureau Arabe أو Brigade nord-africaine أو **مصلحة الشؤون الأهلية** le Service

des Affaires indigènesnord-africainesوكان الخطاب الرسمي يبرر وجود هذه الهيئة البوليسية بكونها عبارة عن مصلحة اجتماعية تؤدي خدمات إنسانية لمهاجري شمال إفريقيا تحت اسم service d'assistance aux indigènes nord-africains لكن التاريخ يثبت لنا عكس ذلك، إذ كان الهدف من ورائها مراقبة تحركات المهاجرين المنحدرين من مستعمرات شمال إفريقيا الذي بدأ تسييسهم يلوح في الأفق ما أخاف السلطات الفرنسية التي كانت تريد الحفاظ على مصالحها سواء في مستعمراتها أو في المهجر (عطوف، 2012، صفحة 139)، أما لدى مهاجري شمال إفريقيا فقد سميت بشرطة **"نهج لوكونت"** لأن مقرها الرئيسي كان هناك (زوزو، 2010، صفحة 163).

2- أرباب العمل: لقد عمل أرباب العمل الفرنسيين على استغلال المهاجرين أقصى استغلال، والتقط الرأسماليون هذه اليد العاملة الوافدة لفوائدها المتعددة، فقد كانت يد عاملة رخيصة ومحدودة التكاليف فقد كان المهاجرون يرضون بأي عمل يضمن لهم رغيف خبز منتظم، وسنتيمات قليلة ترسل إلى العائلة في فترات متباعدة، والأهم من هذا أنها سليمة من وباء النضال النقابي على حسب وصفهم (تفاسكا، 1980، صفحة 60)، وبالتالي استغلوا للعمل في الأعمال الشاقة والمرهقة التي لا تتطلب أي تأهيل متخصص ويتقاضون أجورا تقل عن تلك التي يتقاضاها زملاؤهم الفرنسيين في نفس المصنع، ومحرومون من المنح العائلية وغيرها من الامتيازات (بورنان، 2013، صفحة 41).

ورغم تشكيلهم لقوة عاملة لا يستهان بها في صناعات ثقيلة ويقومون بأعمال شاقة، إلا أن هذه القوة العاملة حظيت بتقدير أقل من غيرها من العمال الفرنسيين وحتى الأجانب، وقد تعددت في حقهم الأحكام السلبية، وفي أكتوبر 1937 ذكر مفتش في دائرة العمل أن هناك إجماع لأرباب العمل ورؤساء النقابات على كون عمال شمال إفريقيا متدني الكفاءة وغير مستقرين وأن مردود عملهم يمثل من 30 إلى % 85 مقارنة بغيرهم من العمال، والبعض منهم يصل حتى إلى الربع، واعتبروهم غير لائقين تمامًا (Schor, 1977, p. 42)

3- النقابات العمالية والأحزاب الفرنسية: جذبت ظروف العمال المغاربيين المزرية اهتمام بعض المنظمات النقابية والسياسية الفرنسية التي كانت في أغلبها تنظيمات يسارية، فاهتمت بشؤون عمال المستعمرات ورافعت من أجل تحسين أحوالهم ونظم اتحاد مابين المستعمرات عدة تجمعات لنصرة قضيتهم كان أبرزها في سنة 1924 والتي شارك فيها الأمير خالد وتركت هذه التجمعات صدى كبيرا في فرنسا وسلطت الضوء على قضية عمال ومهاجري شمال إفريقيا بفرنسا (قداش، 2017، صفحة 227).

وفتحت النقابات العمالية الفرنسية خاصة الكونفدرالية العامة للشغل CGT أبوابها أمام المهاجرين المغاربيين للانخراط فيها وشيئا فشيئا بدأ المغاربيون في اكتساب تجربة ووعي نقابي بعد احتكاكهم بالعمال الفرنسيين ورؤساء النقابات، وظهرت في أوساط العمال المغاربيين بفرنسا ثلة من المناضلين حملوا على عاتقهم النضال من أجل تحسين أحوال أبناء وطنهم (بياض، 2010، صفحة 395)، وليدافعوا عن حقوق العمال خاصة ساعات العمل والأجور والعطل ومقابل حوادث العمل والتقاعد، وليطالبوا بتسويتهم بزملائهم الفرنسيين في العمل (بوعزيز، 1995، صفحة 298).

إضافة إلى النقابات فقد أبدت الأحزاب اليسارية الفرنسية منها تعاطفا مع عمال المستعمرات، وسمحت لهم بالانخراط في صفوفها وشارك المهاجرون بقوة في تجمعات هذه الأحزاب ومن خلالها تعرفوا على مبادئ العمل الحزبي، وتدربوا على العمل السياسي المنظم وسعوا بعد ذلك إلى تكوين هيئات سياسية مستقلة (بوعزيز، 1995، صفحة 298).

كما جذبت شعارات الحزب الشيوعي الفرنسي كثيرا من المهاجرين إليه حيث تبنى شعار استقلال المستعمرات ونادى به، وفي عام 1922 قام الحزب بإنشاء " إتحاد ما بين المستعمرات" لتوحيد مناضلي المستعمرات في إطار ينبثق منه حركات ثورية، وكان لهذا الإتحاد أربع فروع أحدها سمي " فرع إفريقيا الشمالية "، وقام الإتحاد بعدة نشاطات وتجمعات للدفاع عن تحرير المستعمرات.

4- الصحافة و الرأي العام الفرنسي: لقد لفتت أحوال المهاجرين المغاربيين المزرية أنظار الفرنسيين وأثرت في نظرتهم لمسلمي شمال إفريقيا وانعكس هذا من خلال الصحافة والسينما التي غلبت عليها النظرة العنصرية في كثير من الأحيان والواقعية أحيانا أخرى، وقد أثار الوضع الصحي لمهاجري شمال إفريقيا مخاوف الفرنسيين الذين ادعوا بأن المهاجرين قد أحضروا معهم العديد من الأمراض الخطرة مثل التراخوما و الملاريا و الأمراض المعوية والتناسلية بشكل خاص، وقد كتبت صحيفة L'Ami du Peuple التابعة لليمين المتطرف بأن: "جميع سكان شمال إفريقيا تقريبًا يعانون من الزهري الوراثي (Schor, L'opinion française et les immigrés nord-africains : l'image d'un sous-prolétariat (1919-1939), 2010, p. 240)"

وعكست السينما وجهة نظر الكثير من الفرنسيين القاضية بصعوبة اندماج العربي في الحياة الأوروبية من خلال أفلام: " صليب الجنوب، La croix des Sud " و" الأميرة طام طام، La princesse tam-tam " و"الغرب L'occident ".

وعن الحالة المزرية التي كان يعيشها مسلمو شمال إفريقيا كتب أحد الصحفيين في جريدة لوفيقارو le figaro عام 1930 ما يلي: " في كل مكان من الضواحي كان هؤلاء السيديس sidis البؤساء يرتعدون من شدة البرد، إن هذا يمثل جريمة إنسانية، فكيف يمكن إيواء بشر في أماكن لا تليق حتى بالكلاب؟ إن من بين 80 إلى 100 ألف شمال إفريقي موجودين بفرنسا نتحكم نحن في مصائرهم بلا رحمة، ولذا يجب تقديم يد العون إليهم بدلا من قهرهم، كم كانوا يبكون حينما نذكرهم بقراهم التي قدموا منها، للأسف إنهم في حضارتنا لم يتعلموا سوى معنى الشرطة وملاحقاتها" (زناتي، 2016، صفحة 12).

أما الصحافة اليسارية فقد كانت منبرا لأبناء المستعمرات ووسيلة لبث أفكارهم التحررية والتنديد بالاستعمار وتحريض شعوب المستعمرات عليه (بلحاج، 2018، صفحة 383)، وأنشأ إتحاد مابين المستعمرات جريدة سماها "الباريا" " Le Paria " صدرت من أفريل 1922 إلى أفريل 1926 وقد شارك المغاربيون في تحريرها.

خامسا-محاولة المهاجرين المسلمين تصحيح نظرة الفرنسيين عنهم:

بعد العنصرية الكبيرة التي عانى منها الكثير من أبناء شمال إفريقيا حاول عدد من المهاجرين الدفاع عن أنفسهم وتصحيح الصورة التي رسمت عنهم في أذهان الكثير من الفرنسيين.

وجد المهاجرون في الأحزاب اليسارية خاصة الحزب الشيوعي فسحة للتعبير صراحة عن آمالهم التحررية وإبداء التضامن مع نضال شعوبهم كحرب الريف بالمغرب، وبالتالي شاركوا في تجمعات تلك الأحزاب بقوة وتجاوبوا معها ونادوا بتحرير أوطانهم وبدؤوا التفكير في إنشاء تنظيم سياسي خاص يدافع عن قضية مسلمي شمال إفريقيا، وبهذا نشأ في أوساط العمال المهاجرين في باريس أول جمعية سياسية تحت اسم " نجم شمال إفريقيا" ضمت أعضاء من البلدان المغاربية الثلاث تونس والجزائر والمغرب كان هدفها الصريح الدفاع عن المصالح المعنوية والمادية لمسلمي شمال إفريقيا وتشكل من العمال والجنود السابقين في الجيش الفرنسي وبعض الطلبة، وحظي النجم بتعاطف اليساريين الفرنسيين والأوروبيين والمنظمات المعادية للاستعمار (سعد الله، 1992، صفحة 373).

كما سعى بعض المثقفين من أبناء المهاجرين إلى الاتصال بالفاعلين في المجتمع الفرنسي والتعريف بقضية مسلمي شمال إفريقيا كبعض الطلبة و رجال الإصلاح الذين كان من بينهم الشيخ الفضيل الورتلاني الذي قام بدعوة الفرنسيين لحضور نشاط نواذي التهذيب التي أسسها بفرنسا وقام بمشاركة الفرنسيين في أعيادهم، من أجل إيصال انشغالات ومطالب وتطلّعات المهاجرين إلى كبار المسؤولين الفرنسيين في باريس وقد مكنه ذلك من الحصول على دعم ومساندة من طرف فئات واسعة من الشعب الفرنسي، ومن المناضلين والأحرار الذين أعجبوا بحركته، ووقفوا في وجه العنصريين والمتعصبين من المستعمرين الفرنسيين وأعوانهم من الأجانب وحلفائهم من اليهود وغيرهم من أعداء الحق والإنسانية (آيت بعزيز، 2016، صفحة 188).

خاتمة:

من خلال ما سبق يتضح لنا بأن الهجرة المضطربة لأبناء المغرب العربي لفرنسا خلفت لدى الفرنسيين شعورا بعدم الراحة اتجاه المهاجرين لعدة أسباب نوجزها كالتالي:

- ساهمت ظروف معيشة المهاجرين الصعبة في تكريس مظاهر البؤس والشقاء عليهم وفاقمت النظرة السلبية اتجاههم.

- تعدى الأمر لدى بعض فئات المجتمع الفرنسي إلى أكثر من شعور بعدم الراحة حيث وصفوا المهاجرين بأبشع الصفات التي تدل على الكراهية والعنصرية مثل "قوافل المشردين" و"الأغراب" و"حاملوا الأمراض".

- تصدى بعض المهاجرين لتصحيح هذه النظرة السلبية ووجدوا من الفرنسيين من يتعاطف معهم ويدافع عنهم وعن قضيتهم ويستنكر أساليب الاستعمار الذي سبب مأساتهم ومعاناتهم مثل الأحزاب اليسارية الفرنسية وبعض الفرنسيين والأوروبيين.

توصيات:

وجدير بالذكر بأن آثار الهجرة المغاربية في المجتمع الفرنسي و المجتمعات الأوروبية لا زالت باقية إلى اليوم و لا زال المهاجرون المسلمون يعانون من التمييز و من النظرة السلبية اتجاههم لذا وجب المسارعة إلى تصحيح هذه النظرة من خلال:

- القيام بحملات إعلامية و الاتصال بالفاعلين في المجتمعات الغربية لتصحيح الأفكار المسبقة و السلبية عن المسلمين.

- تبيين بأن سبب معاناة المسلمين في الماضي كان بسبب سياسات الدول الغربية نفسها عن طريق استعمار بعض البلدان المسلمة و نهب خيراتها و تركها تتخبط في المشاكل.

- معالجة المشاكل الداخلية للدول المسلمة خصوصا المغاربية للحد من ظاهرة الهجرة نحو أوروبا.

قائمة المراجع:

1- الكتب باللغة العربية:

- أحمد تفاسكا، تطور الحركة العمالية في المغرب (1919-1939)، (1980)، دار ابن خلدون، لبنان.

- الكبير عطوف، الهجرات العالمية و المغربي قضايا و نماذج – مقاربة سوسيو تاريخية - (1045-2011)، (2012)، منشورات جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب.

- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930 (الإصدار ط 4، المجلد 2) (1992)، دار الغرب الإسلامي، لبنان.

- سعيد بورنان، نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا 1936-1956، (2013)، دار هومة، الجزائر.

- شارل روبير أجيرون، الجزائريون المسلمون و فرنسا 1871-1919 (المجلد 2). (م حاج مسعود، وع بلعريبي، المترجمون)، (2007)، دار الرائد للكتاب، الجزائر.

- صادق سلام، فرنسا و مسلموها قرن من السياسة الإسلامية (1895-2005)، (زهيدة درويش جبور، المترجمون)، (2013)، هيئة أبو ظبي للثقافة و التراث (كلمة)، أبو ظبي.

- صالح بلحاج، الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1910-1939، (2018)، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر.

- عبد الحميد زوزو، الدور السياسي للهجرة إلى فرنسا بين الحربين (1914-1939) نجم شمال إفريقيا و حزب الشعب، (2010)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

- علي المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية (1904-1934)، (عبد الحميد الشابي، المترجمون) (1999)، المجمع التونسي للعلوم والآداب و الفنون "بيت الحكمة"، تونس.

- محفوظ قداش، تاريخ الحركة الوطنية 1919-1939 (المجلد الجزء الاول)، (2017)، دار الأمة، الجزائر.

- يحي بوعزيز، السياسة الإستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري (1830-1945)، (1995)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

2- المجلات:

- خالد أوعسو، الهجرة المغربية إلى فرنسا (1912-1974) أي موقع للشباب، (2017)، مجلة عمران، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، (6/22).

3- الملتقيات:

- بياض الطيب، وضعية العمال المغاربة بفرنسا خلال فترة مابين الحربين، (2010)،أعمال ندوة تكريم الأستاذ إدريس العمراني الحنشي- قضايا في تاريخ المغرب الفكري، جامعة الحسن الثاني كلية الآداب والعلوم الإنسانية والجمعية المغربية للبحث التاريخي، الدار البيضاء.

4- الرسائل الجامعية:

- سامية بن فاطمة، المهاجرون الجزائريون و الثورة التحريرة 1954-1962 - المهاجرون إلى فرنسا أنموذجا -، (2018)، (أطروحة دكتوراه)، كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية، جامعة العربي التبسي، تبسة.
- عبد العزيز راجعي، المسيرة النضالية للعمال الجزائريين (1924-1962)، (2018)، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2.
- عبد النور آيت بعزيز، الشيخ الفضيل الورتلاني جهوده الإصلاحية ودفاعه عن القضية الجزائرية وقضايا التحّرر في العالم العربي والإسلامي (1906 – 1959)، (2016)، (أطروحة دوكتوراه)، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الدكتور أبو القاسم سعد الله، الجزائر 2.
- فاتح زناتي، مساهمة فدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا في الثورة الجزائرية (1954-1962)، (2016)، (مذكرة ماجستير)، كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية، جامعة باتنة.
- وليد زغبي، صورة المهاجرين المغاربيين في الصحافة الفرنسية المكتوبة – دراسة تحليلية لمضمون جريدة LE FIGARO، (2008)، (مذكرة ماجستير)، كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة.

5- المراجع باللغة الأجنبية:

- ATOUF, E. Aux origines anticipatrices des migrations marocaines vers l'Algérie coloniale et la France colonisatrice (1830-1942) . (s.d.). (e.atouf@uiz.ac.ma). Agadir, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Ibn Zohr.
- ATOUF, E. L'histoire de l'émigration marocaine au bassin minier du Nord-Pas-de-Calais (1917-1987). (2009). (Kebir39@yahoo.fr). Agadir, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Ibn Zohr.
- Sbaï, J. Une mobilité sous haute surveillance: Les Nord-africains en France (Document inédit, 1937). (2018, Décembre 30).Hespéris-Tamuda , 53 (3), pp. 109-143.
- Schor, R. L'opinion française et les immigrés nord-africains : l'image d'un sous-prolétariat (1919-1939). (2010). Cahiers de la Méditerranée (80), pp. 237-248.

- Schor, R. Les conditions de vie des immigrés nord-africains dans la Meurthe-et-Moselle entre les deux guerres. (1977). Cahiers de la Méditerranée , 14 (1), pp. 41-51.

دور المسرح في رسم صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب

The Role of Theater in Drawing an Image of Islam and Muslims in the West

ط/د. لاطرش كريمة، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان- الجزائر
karima.latreche@univ-tlemcen.dz



شكلت أحداث 11 سبتمبر نقطة تحول خطيرة في العلاقة بين العالم الإسلامي والغربي، إذ لعبت وسائل الإعلام الغربية دورا رئيسيا في شن هجوم شرس على الإسلام والمسلمين، لذلك كان من الضروري البحث عن طرق مختلفة لتصحيح الصورة الزائفة للإسلام في الغرب لتحقيق السلام، التعايش والمحبة. تضافرت جهود الأمة الإسلامية الرامية إلى تصحيح صورة الإسلام لدى الغرب، فكان رواد المسرح من بين المساهمين في ذلك، من خلال المسرح الذي يؤثر على المتلقي بشكل أو بآخر، فمن خلال هاته الدراسة سنسلط الضوء على أهم المواضيع لمعالجة الحالة المرضية التي عُرفت **بالإسلاموفوبيا** والدور الذي لعبه المسرح في اختيار نصوص تتناول السمات الحميدة التي يدعون إليها الإسلام من محبة، تسامح وتعايش لتحسين صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، العداء، الصورة، المسرح.

Abstract :

The events of September 11 marked a dangerous turning point in the relationship between the Islamic and Western worlds, as the Western media played a major role in launching a fierce attack on Islam and Muslims, so it was necessary to search for different ways to correct the false image of Islam in the West to achieve peace, coexistence and love.
The Islamic nation made combined efforts to correct the image of Islam in the West, and theater pioneers were among the contributors to that, through theater that affects the recipient in one way or another. theater in selecting texts dealing with the benign features that Islam calls for, such as love, tolerance, and coexistence, to improve the image of Islam and Muslims in the West.

Keywords: Islam, hostility, image, theatre



مقدمة:

المسرح والدين عاملان أساسيان في حياة الإنسان، يعملان على توجيه المتلقي إلى الطريق الصحيح والسليم بالاهتمام بالعلاقة الروحية التي تربطه بالخالق ومع أخيه الإنسان، ليحقق الراحة النفسية، المحبة، الانسجام، التعايش والسلام مع أخيه الإنسان والابتعاد عن كل ما يفكك صلته بالله من المغريات الدنيوية ليحقق الفوز بالحياة الأخرى.

فقد أعلن المجتمع الغربي العداء للدين الإسلامي فشوهوا صورته، حيث شكلت أحداث11سبتمبر منعرجا خطيرا في العلاقة بين العالم الإسلامي والغربي، كما لعبت وسائل الإعلام الغربية دورا كبيرا في شن هجوم شرس على الإسلام والمسلمين، وأمام هذا الانطباع السيئ وجب على الأمة الإسلامية المساهمة في تصحيح صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب وتحمل المسؤولية في الدفاع عن الجالية المسلمة التي تتعرض للمضايقات باستمرار، وأمام هذا الوضع الراهن **الإسلاموفوبيا** ساهم الفنانون على رأسهم رواد المسرح في حملة التوعية لإبراز حقيقة الدين الإسلامي وتصحيح صورة الإسلام الذي يدعو إلى المحبة، التسامح والتعايش، والسؤال المطروح كيف ساهم المسرح في رسم صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب؟

أولا-مفهوم المسرح والدين:

1.تعريف المسرح ونشأته: يعد المسرح من أقدم وأعرق الفنون التي عرفها الإنسان والتي تؤثرفي المشاهد، ابتكره الإنسان اليوناني كطقس لاحتفال بقدسية آلهته وأنصاف الآلهة التيكانيمجدها وخاصة إله الخصب والنماء **ديونيسوس** فشهدت بلاد الإغريق على ميلاده في القرن السادس قبل الميلاد من خلال أعمال أعلام الدراما الأوائل الشعراء الثلاث: **إسخيلوس، سوفوكليس ويوربيدس**، برفقة المعلم الأول **أرسطو** الذي وضع قواعد هذا الفن في كتابه"فن الشعر"الذي لا يزال محافظا على قيمته المعرفية إلى يومنا هذا، حيث كانت البداية الأولى لهذا الفن عبارة عن طقوس تقام في مواسم محددة تتزامن مع فصول السنة وكل موسم له عيد خاص بأحد الآلهة، فهاته الطقوس عبارة عن حركات راقصة وتراتيل دينية غنائية وبطولية تقام في سفح الجبل في المذبح وهو مكان خُصص لتلك الطقوس التي كانت عبارة عن قصائد شعرية يلقيها الراوي الذي يتكفل بسرد أساطير الآلهة وبطولات أنصاف الآلهة مع مشاركة أفراد الجوقة التي تتكفل بترديد الأناشيد الشعرية التي كانت تسرُد تحت بركت الكاهن الذي يستعطف ويبعد اللعنة عنهم بإرضاء الآلهة بتقديم القرابين إليها. وتماشيا مع ما تم ذكره يؤكد **محمد زكي العشماوي** أن المسرح:"هو تاريخ حضارة اليونان والغرب ذلك التاريخ الحافل بثقافات وفلسفات وأفكار، لا تصور العقل البشري فحسب، بل تقدم لنا أرقى النماذج التي توصلا إليها الإنسان في هذا الفن الجديد"(زكي العشماوي محمد، 1980، ص:02)فخير دليل على الخبرة التي ابتكرها الإغريق في المسرح وحافظ عليها التاريخ عبر العصور هي ما وصل إلينا من النصوص المسرحية منها: مسرحية **أنتيجون**، **ميديا** ومسرحية الملك **أوديب** للكاتب **سوفوكليس**.

المسرح نشاط فني يعبر عن كل فترة زمنية منذ انطلاقته عند اليونانيين إلى يومنا هذا مستلهما مواضيعه من كل الأماكن والأزمنة مُتأثرا بالمذاهب السائدة خلال تلك الفترة، وهذا ما أكده الأستاذ **أحمد خضرة**:"المسرح لون من ألوان النشاط الفني، وهو انعكاس لعصره، فمنذ التراجيديا اليونانية وحتى عصر الكلاسيكية الجديدة ثم الرومانتيكية والواقعية والطبيعية والرمزية إلى أن تبلغ السنين الأخيرة"(أ.خضرة أحمد،2019، ص:178)كما استمر هذا الفن في الانتشار والتطور فظهر المسرح الروماني، العصور الوسطى، عصر النهضة، الإيطالي...إلخ، كما جاء في تعريف **جميل حمداوي** للمسرح على أن:"المسرح أو الفن الدرامي تأليف أدبي مكتوب بالنثر أو الشعر بطريقة حوارية، وهو موجه للقراءة أو العرض.

ويستعين المسرح الدرامي بمجموعة من العناصر الأساسية أثناء العرض مثل: الكتابة والإخراج والتأويل والديكور والملابس. وتشتق كلمة دراما من الفعل والصراع والتوتر. وقد يكون المسرح في تاريخه القديم ناتجا عن الرقص والغناء"(جميل حمداوي، فقرة1)حيث يقوم المسرح على قواعد تضبط شكله، وتتخلله عدة وظائف منها: التأليف، الإخراج ولكل وظيفة مميزاتها كما يتكون من مجموعة عناصر: النص، الممثلون، المؤثرات الصوتية، الإضاءة، الملابس...إلخ، كما يجمع بين طياته كل أنواع الفنون معتمدا بالدرجة الأولى على الحوار.

ثانيا-ماهية الدين:

1.تعريف الدين في اللغة والاصطلاح: الدين كمعتقد متأصل في النفس البشرية، فالإنسان بفطرته دائم الارتباط بالآلهة التي وجد ضالته في التقرب منها وعبادتها، فتعريف الدين قد يأخذ عدة معان منها:

أ)-تعريفه في اللغة والاصطلاح في الموسوعة العربية العالمية:"الدين لغة الملك والحكم والتدبير، من دانه دينا أي ملكه وحكمه وساسه ودبّره، وقهره، وحاسبه، وجازاه وكافأه. من ذلك:{مالك يوم الدين}الفاتحة:4. أي يوم الحساب والجزاء. وفي الحديث:(الكيّس من دان نفسه)أي حكمها وضبطها. ودان له أي أطاعه وخضع له، فالدين هنا هو الخضوع والطاعة.ودان الشيء أي اتخذه دينا ومذهبا، فالدين هو المذهب والعقيدة. أما في الاصطلاح كما عرفه **الإسلاميون** بأنه: وضع إلهي سابق لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال، والفلاح في المال. فالدين في هذا الاصطلاح هو وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات"(الموسوعة العربية العالمية، ص:584) فكلمة دين تأخذ عدة معان على حسب توظيفها.

ب)-ما ورد في معجم المعاني الجامع:"اسم لجميع ما يُعبد به الله"(معجم المعاني الجامع، فقرة:2)مرتبط بعبادة الله.

ت)- أما تعريفه في موسوعة الأديان لغة واصطلاحا:"الأديان:جمع دين والدين في اللغة بمعنى: الطاعة والانقياد. والدين في الاصطلاح العام: ما يعتنقه الإنسان ويعتقده ويدين به من أمور الغيب والشهادة وفي الاصطلاح الإسلامي: التسليم الله تعالى والانقياد له. والدين هو ملة الإسلام وعقيدة التوحيد التي هي دين جميع المرسلين من لدن آدم ونوح إلى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم"(موسوعة الأديان،فقرة:1)هو الديانة التي يعتنقه الإنسان.

ث)- تعريف د.بوالديار حسني لكلمة دين التي قد تستعمل في عدة معان:"وقد تكون بمعنى سلطان، علبة، حكم... إلخ، والدين في المفهوم الغربي(العلماني) يقصد به"مجموعة الشعائر والطقوس والعبادات التي يؤديها الفرد، ولا علاقة له بنظام الحكم"أما في المفهوم الإسلامي فيقصد بالدين الطريقة أو المنهاج، أي منهاج التفكير والعمل الشامل للحياة البشرية جميعها"(د.بوالديار حسني،2016،ص:124)كلمة دين تأخذ عدة معان على حسب توظيفها".

ج)- حسن محمد أحمد محمد:"يوم الدين يوم الجزاء، وفي المثل"كما تدين تدان"أي كما تجازي أي تجازى بفعلك وبحسب ما عملت...، ودانه دينا أي جزاه وقوله تعالى{أءنا لمدينون}أي مخزون محاسبين...،

والدين الحساب ومنه قوله تعالى؟{مالك يوم الدين} وقيل معناه مالك يوم الجزاء وقوله تعالى{ذلك الدين القيم}أي ذلك الحساب الصحيح والعدد

المستوي...، ودان بكذا ديانة وتدين به فهو دين ومتدين ودينت الرجل تديينا إذا وكلته إلى دينه والدين الإسلام وقد دنت به وفي حديث علي، عليه السلام،(محبة العلماء دين يدان به)...ومن أشهر تعريفات الغربيين ما قاله الفيلسوف **كانت**(Kant)في كتابه الدين في حدود العقل:"الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية"(حسن محمد أحمد محمد،2020،ص:60-61)كلمة دين تأخذ عدة معان في الإسلام على حسب موقعها في الجملة.

أهمية الدين تكمن في تنظيم حياة الشعوب وذلك من خلال القوة الجبارة التي يمتلكها في التأثير على الفرد بغض النظر عن مستواه الفكري أو الاجتماعي فهو يساوي بين طبقات المجتمع كما يؤثر في المعتقد، الفكر، السلوك الفرد، العلاقات...إلخ فيصبح الفرد مرتبطا بالإله لينال ثواب الآخرة وبالتزام بتعاليم الدين تتحسن علاقته بأخيه الإنسان.

2.تعريف الإسلام في اللغة والاصطلاح: إن عدنا بحديثنا إلى الدين الإسلامي وهو أخر الأديان السماوية التي نزلت على البشر، فقد حمل هاته الرسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وهو ثاني أكبر دين في العالم، فقد جاء تعريفه عند العلماء في اللغة وفي الاصطلاح كالآتي:

أ)-تعريف الإسلام في اللغة:

1.تعريف الإسلام في الموسوعة العربية العالمية:"الإسلام دين التوحيد الذي أنزله الله على رسوله محمد ابن عبد الله القرشي الهاشمي-صلى الله عليه وسلم- وكلفه بأن يبلغه البشر كافة، وقد انتشر في الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي. ثم انتشر عبر العصور في جميع أقطار المعمورة. والإسلام الرسالة السماوية الأخيرة للبشرية، وقد جاء بعد اليهودية والنصرانية مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل مبينا لكثير مما بدّل أهل الكتاب وحرّفوا مما أنزل عليهم، متضمنّا كل أسباب السعادة في الدنيا والآخرة. وهو خاتم الأديان السماوية جميعا وجوهرها وروحها"(الموسوعة العربية العالمية، ص:45)الإسلام هو آخر الأديان السماوية التي نزلت على البشر ولم يستطيعوا التلاعب بكتابه المقدس كالكتب السماوية التي سبقته. **2.الإسلام في معجم المعاني:** الدين الذي بعث الله به محمد صلّى الله عليه وسلم"(معجم المعاني الجامع، رقم:21)هو تلك الرسالة التي بعثها الله لسيدنا محمد عليه أفضل الصلوات.

3.تعريف الإسلام لغة حسب إيناس مسلم هو:"الخضوع والإذعان، والانقياد التام لأوامر الله-تعالى- في كل ما جاءت به الشريعة الإسلامية من أعمال ظاهرة أو باطنة"(إيناس مسلم، 2021، فقرة:01)هو الالتزام بتعاليم وأوامر الله في تطبيقها بالتسليم التام بها، هو دين يجازيك على أعمالك الظاهرة والخفية حتى ولو كانت مجرد نوايا.

ب)-تعريف الإسلام في الاصطلاح:

1.الإسلام في الاصطلاح الشرعي:"وهو استسلم العبد لله تعالى، وتوحيده والخضوع لأوامره، والابتعاد عن الشرك وأهله ...إظهار الاستسلام والانقياد لكلّ ما جاء في الشريعة محمد-صلى الله عليه

وسلم"(طقاطقة شرين،2021، فقرة02)هو الطاعة التامة لله-عز وجل- وإتباع تعاليمه والاقتداء بالسنة النبوية.

2.فحسب الكاتب الايرلندي برنارد شو:"إن الإسلام دين يستحق كل احترام وإجلال، لأنه أقوى دين هضم جميع الديانات، وهو خالد خلود الأبد"(حسن محمد أحمد محمد،2020،ص:62)إن الدين الإسلامي أثبت مصداقيته في كل الأزمنة وهو دين التوحيد، كتابه حفظه الله من التحريف، كما تميز بالخلود، فقد تمكن من عبور القارات الخمس، تاركا بصمة في نفوس أفرادها وهذا ما شكل العداء الدائم والمستمر من الغرب بحجة الحفاظ على دياناتهم التي لم تصمد أمام حجة الإسلام الذي ما زال صامدا أمام هذا الهجوم الشرس وهو دين يدعو إلى التسامح، التآخي والمحبة.

ثالثا-علاقة الدين بالمسرح:

بداية المسرح كانت عبارة عن طقوس احتفالية دينية ممجدة للآلهة في تلك الحقبة وهذا دليل على الصلة القائمة بين المسرح والدين، وهو عبارة عن عروض تقام في مواسم محددة بالمعبد على مستوى المذبح وهو:"هيكل في معابد غير المسلمين تُقام عنده الصلاة وتُقدم فيه القرابين ويقام فيه القُداس الإلهي"(معجم المعاني الجامع، فقرة:01)هذا المكان كان مخصصا لممارسة الطقوس الدينية حسب معتقداتهم وإيمانهم احتفالا بالآلهة وتقديم القرابين لها خاصة الإله **ديونيسوس** إله النماء والخصب وإلهة الحكمة **أثينا** فقد أبدع الشعراء الثلاثة **اسخلوس، سوفوكليس ويوربيدس** في كتابة قصائدهم الشعرية التي كانت تحكي عن أساطير الآلهة وبطولات أنصاف الآلهة، والتي تعرض في الأعياد الدينية في طقوس احتفالية، التي عرفت بالمسرح حيث كان الشاعر يقف أمام الجوقة وهم مجموعة من الأفراد تبقى بالمذبح من بداية الحدث إلى نهايته دورهم الغناء، الترديد خلف الشاعر، مدح الأفعال الطيبة، ذم الأفعال الشريرة، في بعض الأحيان تسأل وفي أخرى تجيب، غايتها التعبد والتدين وهذا ما أكده **ياسين أعطية**:"هنا تظهر الجوقة في شكلها البدائي في خضم حفل ديونيسوس مرتدية جلود الماعز، مؤدية قصيدة الديثرامب، والتي تقوم على التراتيل الدينية والرقصات الغنائية"(أعطية ياسين،2016، فقرة:05)وهي تسعى لخلق علاقة روحية بين كل من الإنسان، الدين والمسرح برعاية الكهنة الذين كانوا يقومون بالتوسط للأفراد عند ألهتهم لينالوا رضاها وإبعاد اللعنة عنهم بممارسة طقوس يتم فيها تقديم القرابين ضمن مواسم تتزامن مع فصول السنة.

تطورت علاقة الدين بالمسرح على مر العصور بعدما لقي استنكار في بادئ الأمر بحجة أنه وثني لا يخدم الأديان السماوية التي جاءت فيما بعد، ففي القرن العاشر ميلادي تغيرت نظرة الكنيسة للمسرح فتبنته وأصبحت تقدم عروضا تستمد مواضيعها من الكتاب المقدس مستخلصة لنصوص من مضمونه لتتمكن من التعليم والتبشير من خلال مراسيم القداس التي تقدم فيها عروض يسرد فيها قصص دينية عن المسيح.

أما بالنسبة للدين الإسلامي فإن المسرح رُفض تماما، نظرا لموقف الإسلام من الفنون بصفة عامة والمسرح بصورة خاصة وعليه:"فلقد اختلف الفقهاءُ والباحثون حول ذلك أيما اختلاف. فهناك من ينظر إلى فن

المسرح نظرة سلبية شائنة، قوامها الرفض والمنع والنبذ والتحريم والكراهية. وهناك من ينظر إليه نظرة إيجابية على أساس الإباحة والجواز والترخيص. وهناك من يقيد تلك الإباحة بعدم مجانبة الصواب أو التحلل من الأخلاق الإسلامية الفاضلة من جهة أولى، والابتعاد عن الإباحية والترف من جهة ثانية، وعدم التعارض مع العقيدة الإسلامية وثوابت الدين من جهة ثالثة"(حمداوي جميل،فقرة:02)فقد تعارضت الآراء بين مؤيد ورافض بمنع المسرح ونبذه وتحريمه، ولكن مع مرور الوقت وظهور صنف من الفقهاء يدعون لإنشاء مسرح لا يخالف القيم ومقاصد الشريعة الإسلامية.

المسرح عالج قضايا دينية كثيرة على مر العصور، كما بقي لفترة طويلة مصاحبا للدين، لكن مواضيع المسرح تعددت فأصبح يعالج قضايا تشغل المجتمع من أوضاع اجتماعية، ثقافية وسياسية وليدة التغيرات التي طرأت على المجتمع من نهضة فكرية، ثقافية، اجتماعية...إلخ، فتحولت علاقة المسرح بالدين إلى علاقة تتطلبها الضرورة نظرا لتعدد مواضيع المسرح.

رابعا-مفهوم المسرح الديني والإسلامي:

1.مفهوم المسرح الديني:المسرح ولد من رحم الدين في القرن السادس قبل الميلاد ببلاد الإغريق، تمجيدا للآلهة، فخلال مواسم محددة من السنة تقام طقوسا احتفالية بالمعبد أين يتكفل الكهنة بتمرير الرسائل والتعاليم الدينية التي يفرضها عليهم الإله من خلال تقديم القرابين لإرضائه في جو احتفالي راقص مصحوب بالأناشيد والأغاني الممجدة للآلهة خاصة الإله **ديونيسوس** وهذا ما أكده **حسن المنيعي**:"فالدراما الشعرية هي المقصود، وهي العنصر الثالث الذي خصصه القدر لبزوغ المسرح، أو لبزوغ نواة المسرح؛ فالمسرح: حركة (رقص)، وطقس(شعائر دينية، أسطورة)، وكلمة(دراما شعرية)، لكن تبقى هذه العناصر، مع ذلك، شكلًا بدائيًّا للمسرح، لكنّها مكّنت من ظهور طقس جديد يحتفل به في التظاهرات الدينية؛ فبزيادة العنصر الثالث، الكلمة، دخلت الأناشيد الجماعية المصحوبة بالرقص والحركات الإيمائية، والتي كانت تقوم على أساس ديني يكرم بها الآلهة، وخصوصا ديونيسوس إله الخصب والإثمار"(أعطية ياسين،2016، فقرة:04)فوظيفة المسرح خلال تلك الحقبة الزمنية دينية بحت، واستمر على ذلك النحو المسرح الروماني الذي اقتفى أثر المسرح اليوناني في تصوير قوة الآلهة بالمقارنة بقوة الإنسان المحدودة، أما المسرح في العصور الوسطى فوظيفته دينية تعليمية تجسد صراع الإنسان مع الشيطان وأهوائه، فالكنيسة هي الأخرى أصبحت تولي أهمية للمسرح بعدما حاربته، نظرا للدور الديني الذي يؤديه في التبشير، الدعوة للإيمان وتمرير رسالتها الدينية بسهولة لتيسير عملية التلقي لدى الإنسان الذي أصبح يشاهد تضحية المسيح وكأنه يعيش في تلك الفترة فيحدث المسرح التطهير في نفس المتلقي فيتأثر بالأحداث التي يشاهدها والتي تجسد معاناة المسيح في تبليغ رسالته السماوية فيزيد تمسكهم بالدين وهذا ما تهدف إليه الكنيسة أما وظيفة المسرح من خلال الدين الإسلامي فتمثلت في الدعوة إلى تحرير الإنسان وتخليصه من عالم الفتنة بتطهيره أخلاقيا، دينيا، روحيا والرفع من مكانته من أجل الظفر بسعادة الدنيا والآخرة.

2.مفهوم المسرح الإسلامي: يهدف المسرح الإسلامي لتحرير الإنسان وتخليصه من الفتنة والرذيلة بتطهيره أخلاقيا، روحيا ودينيا للرفع من مكانته وتأدية رسالته التي خُلق من أجلها في بناء الحضارة الإنسانية فلا بد من أن:"المسرح الإسلامي ذا رسالة هادفة ربانية تخدم الإنسان أينما حل وارتحل، وتسمو بعقله ووجدانه وجسده إنسانيا وأخلاقيا ومصيريا"(حمداوي جميل،2019، رقم:01) مع الابتعاد عن المعايير الزائفة محققا السعادة في الدنيا والآخرة، فحسب الباحث **جميل حمداوي** المسرح الإسلامي:"هو ذلك المسرح المتكامل شكلا ومضمونا ورؤية، ويحمل رؤية إسلامية ربانية شاملة ومنسجمة ومتناسقة في نظرتها إلى الكون والإنسان والحياة والقيم. وبالتالي، فهي رؤية إنسانية جامعة، ونظرة متوازنة تجمع بين المادة والروح، وتوفق بين الدنيا والآخرة، وتزاوج بين العقل والعاطفة، وبين العبادة والعمل، وبين الجسد والنفس"(حمداوي جميل،2019، رقم:01)فالمسرح الإسلامي يرتقي بالإنسان جسدا وروحا، مرسخا للقيم الأصيلة ومحققا العدل، الحق والحرية لتحرير المتلقي المسلم من العبثية، الفوضى والحيرة بدمجه في العمل المسرحي محققا التطهير ذهنيا، وجدانيا وأخلاقيا، حيث يرى الباحث العراقي **عماد الدين خليل** أن:"المسرح قبل كل شيء، هو فن جميل مركب وشامل وأب الفنون، يمكن الاستعانة به للتعبير عن مشاكلنا وقضايانا الذاتية والموضوعية والحضارية. ويمكن أن يتحول إلى أداة للتهذيب أو التعليم أو التوجيه أو الإرشاد من جهة، أو يصبح أداة للاحتجاج والإدانة وتغيير الواقع من جهة أخرى"(صباح محسن كاظم، 2017، فقرة04)فالباحث عماد الدين يعترض على تهميش المسرح الذي وجب استغلاله في معالجة قضايا المجتمع لتغيير الواقع نحو الأفضل، ويرى أيضا أنه من الممكن الاستفادة من التيارات والمدارس المسرحية العالمية في بناء المسرح الإسلامي:"نصا، وتمثيلا، وتأثيثا، وإخراجا. ولكن بشرط أن تصاغ المضامين وفق الرؤية الإسلامية المعتدلة بعيدا عن الأيديولوجيات المادية من جهة، وفلسفات الشك والإلحاد والعبث والفوضى والانعزالية من جهة أخرى(صباح محسن كاظم،2017، فقرة04)بالنظر لتاريخ المسرح العريق من الممكن استغلاله وفق أسس وتعاليم الدين الإسلامي بعيدا عن الوثنية ولهذا رفض المسرح الإسلامي:"كل الصراعات الوثنية والتطاحنات البشرية القائمة على الاستغلال والعدوان والكراهية، ويستبدل بكل ذلك صراعا مسرحيا أخلاقيا ودينيا عقديا بين الضلالة والهداية، بين الكفر والإيمان"(المجلة الإلكترونية، رقم:01) فبغض النظر عن الآراء المتعارضة حول إنشاء مسرح قائم على أُسس الدين الإسلامي نجد عبد الرحمن بن بشر زمن الخليفة المهدي أول من كتب في المسرح الإسلامي ثم توالت بعده الأعمال التي تصب في نفس المضمون وفق رؤية إسلامية تهدف إلى السمو بالعقل.

خامسا-دور المسرح في تصحيح صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب:

المسرح يحمل رسالة سامية يبعث بها للمتلقي لمعالجة إحدى القضايا التي تهم المجتمع إما مساندا لها أو رافضا للوضع السائد فيسلط الضوء على مكمن العطب بغية الإصلاح والإرشاد، وأمام الوضع الراهن حول الصورة النمطية التي تشكلت حول الإسلام والمسلمين والتي نتجت من مجموعة عوامل ذات أبعاد تاريخية، دينية، فكرية...إلخ، عقب تراكمات من الماضي البعيد وأحداث الحاضر التي تسببت في زيادة عداء الغرب للدين الإسلامي ولمن يعتنقه، فرسمت أحداث 11سبتمبر منعرجا خطيرا في العلاقة بين العالم الغربي والإسلامي،فشن الغرب حملة إعلامية شرسة ضد المسلمين بحجة

محاربة الفئة المتطرفة في إطار قانوني ضد كل ماله علاقة بالإسلام مُدعين أنه دين العنف، التطرف والإرهاب، في حين أن الدين الإسلامي هو دين التسامح، التآخي والمحبة.

فأصبح لدى المجتمع الغربي حالة مرضية من كل ما له علاقة بالإسلام من كبيرهم إلى صغيرهم أي **الإسلاموفوبيا** التي دفع ثمنها المسلم وبالأخص الجالية المسلمة في المهجر التي تعرضت لمضايقات وصلت في بعض الأحيان إلى التصفية الجسدية وانتهاك حرمة الكتاب المقدس(**القرآن الكريم**) لتمر الحادثة عندهم مرور الكرام وهو تصرف همجي لا أخلاقي.

ولتدارك الوضع الذي فُرض على العالم الإسلامي، وجب على كل مسلم ومسلمة العمل على إعادة رسم صورة الإسلام والمسلمين للكف من تلك المضايقات التي يتعرض لها المسلمون في جميع أنحاء العالم. ولتصحيح تلك الصورة المغلوطة عن الإسلام والمسلمين وجب علينا الاتحاد في مواجهة هاته الأزمة ، كل حسب مجال اختصاصه وقدرته لتقديم صورة أوضح عن الإسلام.

بادر الفنانون بالتعبير عن استنكارهم لانتهاك حرمت الإسلام والمسلمين من خلال الأعمال الدرامية الهادفة إلى صناعة صورة إيجابية للإسلام والمسلمين، فسُلط الضوء على قضية التطرف ومن يدعمه من العالم الغربي والإسلامي الذي لا يُحتسب على الجماعة وإنما تصرف يرجع لفئة معينة ينبذها العالم الإسلامي قبل الغربي، لأن الإسلام دين يُحرم قتل النفس بغير حق وهو دين يدعو إلى التآخي، السلام والمحبة.

إن المسرح هو الآخر عالج تلك القضية فأخذ على عاتقه مسؤولية التوعية التي وجهها بالدرجة الأولى لفئة الشباب كي لا ينجروا إلى ذلك الفكر المتطرف الذي لبس ثوب الإسلام في إباحة سفك الدماء. فقد ثار على الوضع السائد بصفة خاصة رواد المسرح الإسلامي الذي تحمل مسؤولية الدفاع عن الإسلام وهذا ما وضحه الأستاذ **يونس الوليدي** دور المسرح الإسلامي في تحقيق العدل وتصحيح صورة الإسلام الذي يُقيم العلاقات الإنسانية:"فهو مسرح يستند إلى الدين الإسلامي في تحقيق العدل... بالإضافة إلى التشبع بمبادئ وقيم الإسلام...وإنما المقصود هنا مسرح تنتجه وتستهلكه الأمة الإسلامية، ومن الممكن، بل ومن الضروري أن تصدره إلى باقي الأمم والحضارات، إنه مسرح نابع من رؤية الإسلام الصحيح إلى الإنسان وإلى دوره في الكون وإلى ما يقيمه من علاقات إنسانية واجتماعية"(يونس الوليدي،2013، فقرة:01)موضحا الصورة الفعلية لمبادئ الإسلام التي تدعو للتعايش، المحبة، الأخلاق الفاضلة، القيم الراقية والتآخي.

تعددت وتنوعت الأعمال المسرحية التي اهتمت بإعادة رسم صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب للكف من عدائهم المتوارث والحد من أذيتهم للمسلم المسالم، ومن بين أبرز أعمال المسرح التي لقيت تجاوبا المسرحية السويسرية **"صنع في الجنة"** التي حققت تأثيرا إيجابيا، والتي عمل على تأليفها مجموعة من الشباب العرب والأوروبيين الثائرين على الأفكار السلبية التي شوهت صورة الإسلام والمسلمين في الغرب وأثرت على المجتمع الغربي بالدرجة الأولى، فعُرضت هاته المسرحية أولا بسويسرا ثم قاموا بعرضها بعدة دول أوروبية، من خلالها توجهوا للغرب باللغة التي يستوعبها لإيصال رسالتهم إلى عقر داره، مُتصدون لوسائل الإعلام التي لم تتوان في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، فاتخذت المسرحية تلك الصورة كموضوع لها عقب الهجوم الشرس على الإسلام والمسلمين، فسلطت الضوء على الأفكار التي زُرعت لتشويه صورة الإسلام، كما عرضت طقوس الدين الإسلامي في العبادة كالصلاة، فتم ذلك بجمع الأحداث وفق تسلسل زمني يجمع بين الماضي والحاضر وفق تسلسل تاريخي للأحداث بأسلوب مشوق يدفع بالمشاهد إلى البحث عن الحقيقة، فأثناء عرض المسرحية تفاوتت ردود الفعل من بلد إلى آخر في استيعاب تأثير الدين في حياة المسلمين.



(https://www.aljazeera.netمشهد من المسرحية السويسرية "صنع في الجنة")

هذه الصورة التقطت من أحد مشاهد المسرحية والتي يظهر فيها ممثل من أصول عربية وآخر من أصول أوروبية، ووقوفهما جنبا إلى جنب تعبر عن التعايش فيما بينهم على الرغم من الاختلاف العرقي إلا أن هناك تواصل وانسجام فيما بينهما، فعلى المشاهد لهذا العمل أن يخرج بنتيجة مفادها أن ما يحمله من أفكار عن الإسلام مفادها أنها خاطئة أو غير كافية.

خاتمة:

تسببت الصورة الخاطئة التي رُسمت عن الدين الإسلامي في العقول والنفوس لدى الغرب الذي أصبح يعيش في حالة من الخوف، الذعر، عدم الأمان والطمأنينة التي تسببت في ظهور حالة مرضية لديهم(**الإسلاموفوبيا**)في حين كانوا في غنى عنها، هاته الأخيرة نتج عنها عداء شديد اتجاه كل ما له علاقة بالإسلام، فتأثرت الجالية المسلمة من تصرفاتهم وسلوكياتهم التي لا تمت للحضارة بشيء.

إن استمر المسلمون في الدفاع عن الدين الإسلامي بكل ثقة وثبات في تصحيح الوضع وتحسين صورة الإسلام الذي تعرض للتشويه ولا يزال يتلقى الهجمات بين الفينة والأخرى نتيجة التفكير المتعصب لدى الغرب وخوفهم من انتشاره، سيحققون يوما ما نتيجة إيجابية تكون ثمرت نجاحهم وإصرارهم على تصحيح صورة الإسلام لدى الغرب. فمساهمة رواد المسرح في تصحيح صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب من خلال الأعمال المسرحية، والتي كانت تحمل رسالة سامية مفادها:

- إبراز الصورة الحقيقية للإسلام الذي يدعو إلى التسامح، المحبة، التآخي والمساواة.
- التعايش في وسط يسوده السلم والسلام، بتصحيح تلك الصورة الخاطئة والمغلوطة عن الإسلام والمسلمين.
- التصدي لوسائل الإعلام في كل مرة تحاول فيها إشعال فتيل الفتنة بين العالم الإسلامي والغربي.
- تبرأت الإسلام من تبعات الجماعات المتطرفة التي لا تمت له بصلة.
-

قائمة المراجع:

- زكي العشماوي محمد، دراسات في النقد المسرحي ،1980 ، لبنان، دار النهضة العربية، ص:02.

- خضرة أحمد، قراءة في النقد المسرحي الإسلامي عند عماد الدين خليل ،2019 ، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، المجلد:11، العدد:02ص:178
- حمداوي جميل، تاريخ المسرح العالمي، تاريخ التصفح: 22.04.07، على الساعة:
- 18:20 http://www.diwanalarabi.com
- الموسوعة العربية العالمية، 1999، المملكة العربية السعودية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ص:584
- معجم المعاني الجامع، معجم عربي عربي، تاريخ التصفح: 22.04.07، على الساعة:
- 18:52http://www.almaany.com
- موسوعة الأديان، تعريف الأديان لغة واصطلاحا،22.04.07، على الساعة: 19:04 http://www.dorar.net
- بوالديار حسني، مفهوم الدين وأهميته في الدستور الجزائري، ديسمبر 2016 ، مجلة التواصل في الاقتصاد والإدارة والقانون، العدد48، ص:123
- حسن محمد أحمد محمد،الدين والتدين دلالات فكرية فلسفية،2020، مجلة متون، المجلد12،العدد02،ص:60-61
- م ن، الدين والتدين دلالات فكرية فلسفية، ص:62
- م س، الموسوعة العربية العالمية، تاريخ التصفح: 22.04.08، على الساعة: 07:11، ص:45
- م س، معجم المعاني الجامع، تاريخ التصفح:22.04.08، على الساعة: 08:11، رقم:21
- إيناس مسلم، ما هو تعريف الإسلام،2021، تاريخ النشر:3أكتوبر2021، على الساعة:14:54، تاريخ التصفح: 22.04.08، على الساعة: 08:11، فقرة:01
- http://www.mawdoo3.com
- طقاطقة شرين، تعريف الإسلام لغة واصطلاحا، تاريخ النشر:4أفريل2021، على الساعة:04:29، تاريخ التصفح:22.04.07، على الساعة:08:34
- http://www.mawdoo3.com
- م س، الدين والتدين دلالات فكرية فلسفية، ص:62
- م س، معجم المعاني الجامع، تاريخ التصفح: 22.04.08، على الساعة: 23:11، رقم:01
- أعطية ياسين، الطقسي الديني والشعري الدرامي في نشأة المسرح وامتداده،2016، تاريخ النشر:ديسمبر2016، تاريخ التصفح:22.04.09، على الساعة:07:18، فقرة:05https://www.mominoun.com
- حمداوي جميل، المسرح الإسلامي وفق النسق المقاصدي، 2019، تاريخ التصفح:22.04.08، على الساعة:01:04، فقرة:01
- http://al-furqan.com

- م ن، المسرح الإسلامي وفق النسق المقاصدي، تاريخ التصفح:22.04.09، على الساعة:11:52، فقرة:01
- صباح محسن كاظم، جميل حمداوي والمسرح الإسلامي، تاريخ النشر:10يناير2017، تاريخ التصفح:22.04.09، على الساعة:12:17، فقرة:04. https://www.azzaman.com
- م ن، جميل حمداوي والمسرح الإسلامي، تاريخ التصفح:22.04.09، على الساعة: 12:28، فقرة:04
- 21.مجلة إلكترونية، نحو نظرية إسلامية للمسرح ج(1)، العدد:34، تاريخ التصفح: 22.04.09، على الساعة:10:49، رقم:01
- https://mail.adabislami.org
- .يونس الوليدي، المسرح الإسلامي، 03نوفمبر2013، تاريخ التصفح:22.04.09، على
- https://m.al-sharq.com/opinionالساعة:11:15، فقرة:01
- صورة لمشهد من المسرحية السويسرية"صنع في الجنة"، 2009، تاريخ التصفح:22.04.09
- https://www.aljazeera.netعلى الساعة14:29.

المرأة بين إنصاف الشرع وإجحاف الغرب

Women Between Fairness of Sharia and Unfairness of The West

أ.د/ صفية ديب، المدرسة العليا للأساتذة -بوزريعة-

dib.safiaaya@gmail .com



تناولتْ هذه الدراسة المرأة المسلمة من المنظور الغربي والإسلامي، وتطرقت إلى رؤية الغربيين والمستشرقين للمرأة المسلمة، والتي جاءت متحيزة ومتجنية على الإسلام ونبيه محمد –صلى الله عليه وسلم -في تعامله مع المرأة في حين أنصفت هذه الدراسة أحوال المرأة من خلال بعض الغربيين المنصفين في كتاباتهم.

كما حاولت هذه الدراسة الرد على هؤلاء الغربيين المتعصبين، من خلال ما ورد في القرآن والسنة عن إنصاف المرأة.

الكلمات المفتاحية: المرأة المسلمة، المرأة الغربية، الغرب، الإسلام، الاستشراق.

Abstract :

This study dealt with the Muslim woman from the Western and Islamic perspective, in which it touched upon the Western and Orientalist vision of the Muslim woman, which was biased and denounced Islam and its Prophet in his dealings with women while this study did justice to the conditions of women through some Westerners in their writings

This study also tried to respond to these Westerners through what is mentioned in the Qur'an and Sunnah of fairness to women

Keywords: Muslim woman, western women, the west, Islam, Orientalism.



مقدمة :

اهتم الإسلام بالمرأة وأحاطها عن طريق تعاليمه السمحة برعاية كاملة، وعظم شأنها ورفع قدرها، ووضعها موضع التكريم، وتكفل لها بحفظ الحياة والتمتع بكامل الأهلية في جميع أطوارها العمرية، وقد كرم، رسول الله – صلى الله عليه وسلم - المرأة في نطاق أمومتها، فيقول في الحديث الموصول الإسناد: "الجنة تحت أقدام الأمهات ".. (ابن حبان ، د، ت)

لقد قضى الإسلام على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة في القيمة الإنسانية المشتركة، كما قضى على مبدأ التفرقة بينهما أمام القانون، وفي الحقوق العامة، وجعل المرأة مساوية للرجل في هذه الشؤون، يقول تعالى:{**والْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**} (سورة التوبة الآية 71).وقوله تعالى: { **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى**}. (سورة آل عمران الأية 195)

لقد كرم الإسلام إذن المرأة في كتابه العزيز، وقرنها بالرجل في كل مجالات الخير، وخصها معه بالذكر في كل ميادين العمل والتضحية والإيمان، والثواب والجنة، كل ذلك لإضفاء صفة الأهمية على شخصها الكريم والتكريم لمكانها ومكانتها.

في حين أن المرأة في المجتمعات الغربية، كانت تصنف فيها بمرتبة وسط ما بين الرجل والحيوان، وهي إلى الأخير أقرب، فلم تكن لها أي حقوق تذكر كالميراث والتعليم الخ،وهي تتساوى نظريا لا عمليا بالرجل في الغرب إلا قبل بضعة عقود (الزهاوي عبد القادر و عبد الستار عباس ، 2014، صفحة 549) .كما كانت تباع وتشترى، وهذا ما يؤكده الباحث ديب علي حسن في كتابه " أن المرأة في أنجلترا فيما بين القرن الخامس والقرن الحادي عشر كانت تباع " (ديب، 2007، صفحة 20) . وفي القرن الخامس انعقد مؤتمرا في مجمع ماكون للبحث في المسألة التالية " هل المرأة مجرد جسم لا روح فيه؟ أم لها روح؟ (السباعي م.، المرأة بين الفقه والقانون، 2010، صفحة 16).

وأخيرا قرروا أنها خلو من الروح الناجية من عذاب جهنم ما عدا أم المسيح (نفسه). وعندما دخلت أمم الغرب في المسيحية كانت آراء رجال الدين قد أثرت في نظرتهم إلى المرأة، فعقد الفرنسيون في عام 586م مؤتمرا للبحث هل تعد المرأة إنسانا أم غير إنسان؟ وأخيرا قرروا أنها إنسان خلقت لخدمة الرجل فحسب. (نفسه).

وهكذا أثبت الفرنسيون –كما يقول أحمد شلبي - في هذا التاريخ فقط إنسانية المرأة، تلك الإنسانية التي كان مشكوكا فيها من قبل وحتى عندما أثبتوها لم يثبتوها كاملة، وإنما جعلوا المرأة تابعا وخادما للرجل، ومن أجل هذا مرّ الزمن حتى عصرنا الحديث والمرأة الفرنسية محرومة من أبسط الحقوق التي مُنِحت للمرأة المسلمة منذ مئات السنين ، وقد صدر قانون في شباط سنة 1938م يلغي القوانين التي كانت تمنع المرأة من بعض التصرفات المالية (شلبي، 1986، صفحة 120)

وفي إنجلترا حرم هنري الثامن على المرأة الإنجليزية قراءة الكتاب المقدس، وظلت النساء حتى سنة 1850 غير معدودات من المواطنين ، وظللن حتى سنة 1882 ليس لهن حقوق شخصية، لا حق لهن في التملك الخالص، وإنما كانت المرأة ذائبة في أبيها أو زوجها (ديب، 2007، صفحة 38) .

وأمام إحاطة المرأة المسلمة بتعاليم الإسلامية السمحة، وبرعايته الكاملة وتأميناته لها، لم تسلم من انتقادات الغرب، فقد كان للغرب عامة وللمستشرقين خاصة آراء ودراسات غير منصفة في حقها، مفادها أنها مضطهدة بسبب الإسلام، وأن حريتها مسلوبة من قبل الرجل، وأنه آن لها أن تثور على واقعها هذا، متناسيين كل القرون التي كانت فيه المرأة عندهم تعاني فيه الأمرين، ولا تحظى بعشر معشار المرأة المسلمة. والهدف المعلن من هذا الضخ الغربي عن معاناة المرأة المسلمة هو تحريرها، أما الهدف المبطن هو شق النسيج الإسلامي المكون من الرجل والمرأة. فقد كانت لهم دراسات مجحفة وغير منصفة عن تعدد الزوجات، و كذا الحجاب والميراث، والقِوامة. وهذا ما سنتطرق إليه في هذه الورقة البحثية، محاولين الرد على هؤلاء ، من خلال ماورد في الكتاب والسنة .

أولا - تعدد الزوجات في نظر الغرب :

تعدد الزوجات، هو مصطلح فقهي يدل على الإباحة للرجل بالجمع بين أكثر من زوجة في عصمته، بشرط ألا يزيد عن أربعة. (الطيار، 2022، صفحة 10)

وقد ذكرت مشروعية التعدد في القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد بينها الله تعالى في قوله: { **فإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدةً}**. (سورة النساء الآية 03)..وفي السورة نفسها { **وَلَن تَسْتَطِعُوا أَن تعْدِلوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** }، (سورة النساء الآية 129).

وهنا تنتفي مسألة تعدد الزوجات بانتفاء العدالة وهي صعبة التحقيق بين الرجال لارتباطها بما تهوي القلوب (الستار، 2014، صفحة 555).

كما أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أمر من أسلم وفي عصمته أكثر من أربع نسوة، بإبقاء أربعة منهن فقط ومفارقة الباقي، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال " أسلم غيلان الثقفي وعنده عشر نسوة، فقال رسول الله أمسك أربعا وفارق . (حبان، (د،ت)) (رواه الترمذي وابن ماجة)

ويشترط في التعدد العدل، ويشمل العدل الجانب المادي والمعنوي، وقد حذر النبي –صلى الله عليه وسلم- الظلم عند التعدد فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال " من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل". (العسقلاني، د،ت ، صفحة 315).

وقد شن الغربيون المتعصبون حملة قاسية على الإسلام والمسلمين بسبب تعدد الزوجات، ويتخذون منه دليلا على اضطهاد الإسلام للمرأة واستغلال المسلمين لها في إرضاء شهواتهم ونزواتهم .ولم يسلم منهم الرسول – صلى الله عليه وسلم –في كتاباتهم، وقد تساءلوا كثيرا، كيف لنبي جاء لتطهير البشر من الذنوب يتزوج هذا العدد الكبير من النساء، وتارة جعلوا الرسول –صلى الله عليه وسلم – يتخذ نظام تعدد الزوجات وإباحته إغراء الناس حتى يدخلوا في الدين الجديد، وقالوا عنه تعدده هذا دليل على طغيان ميوله الجنسية، وإنه لو كان نبيا حقا لشغله أمر النبوة عن النساء، واستدل قولد زيهر على هذه الزعمة قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – " حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء ." وحذفه من الحديث ". وجعلت قرة عيني في الصلاة ". وزعمه بأنها من زيادات الصحابة ، لأنه يريد تلمس المعايب فقط للرسول – صلى الله عليه وسلم - (أحمد محمد جمال ، 1987، صفحة 33)

وتارة يصفون الرجل العربي بأوصاف سيئة كقلة ذكائه وانغماسه في الشهوات، وجاء الدين الإسلامي ليوافق ميوله وساعده النبي – صلى الله عليه وسلم - على ذلك. (حسين، 2004، صفحة 229)

فالإسلام لم يكن أول من شرع تعدد الزوجات، بل كان موجودا في الأمم القديمة كلها تقريبا عند الصينيين والهنود والبابليين والآشوريين والمصريين، ولم يكن له عند أكثر هذه الأمم حد محدود . وكان هذا النظام لا يخضع إلى ضوابط ولا إلى أحكام عادلة، لا من حيث العدد، ولا من حيث المعاملة وإعطاء الزوجات حقوقهن. (نفسه)

كما أن الإسلام لم يمنح الرجل حق تعدد الزوجات إلا بعدما أحاط المرأة برداء العدالة، وأجلسها منزلة الكرامة، فحتى وإن منح الزوج هذا الامتياز، أو أباحه له فهو ليس واجبا ولا مندوبا، وإنما مباح،

فإنه قيده بأربع لا أكثر من ذلك في عصمة واحدة. واشترط عليه العدل الظاهر المقدور عليه بينهن في السكن والطعام والكسوة والمبيت، وإلا فسوف يبقى مرتبطا بزوجة واحدة . (القرطبي أ.، 2006، صفحة 37). (ابن كثير ع.، 2000)

امتثالا لقوله تعالى : **{وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا}**. (سورة النساء الآية 03)

أي : لا تملوا عن الحق ، وقيل أن لا تجوروا . وقيل أن لا تضلوا . (النيسابوري، 2002، صفحة 558).

1-الحكمة من تعدد الزوجات:

والظاهر أن الشرع الحكيم ضبط تعدد الزوجات، بضابط مهم هو العدل، وقد قال الفقهاء في ذلك:

-**إن في التعدد مصلحة للمرأة** ، فلأن أعداد النساء تفوق أعداد الرجال في كل مكان وزمان ، اقتضت حكمة الله تعالى أن يشرع زواج الرجل بأكثر من امرأة حتى لا يبقى في المجتمع نساء عازبات، بالإضافة إلى أن التعدد يساوي بين النساء في الحقوق، فمن حق كل امرأة أن تكون زوجة وأم ، ولا يمكن تحقيق ذلك في ظل زيادة أعداد النساء على أعداد الرجال إلا بالتعدد.

-**رعاية الزوجة في مرضها**: يمكن أن تصاب المرأة بمرض لا شفاء منه، أو أن تكون عقيما، وفي مثل هده الحالات تفضل النساء زواج الرجل بأخرى على طلاقها منه إذ تفضل المتزوجة أن تظل في رعاية زوجها وفي كنف.

-**إعانة بعض الفئات من النساء**: يمكن أن تكون المرأة أرملة ولها أطفال أيتام، فعند ئذ يعد زواج الرجل منها إعانة لها فيتكفل بها مراعاة الاختلاف بين طبيعة الرجل والمرأة .

إن قدرة الرجل على الإنجاب تستمر حتى بعد بلوغه السبعين من العمر، في حين أن النساء يفقدن هذه القدرة ببلوغ الخمسين،أو أقل من العمر ٬ فشرع الإسلام تعدد الزوجات لما فيه من إكثار للنسل .

-**يمكن مراعاة ظروف عمل الرجل**: يمكن أن تكون طبيعة عمل الرجل قائمة على كثرة السفر والترحال، ويمكن أن تكون مدة السفر عدة شهور أو حتى سنوات، وقد لا يكون باستطاعته اصطحاب زوجته، ففي مثل هذه الحالات شرع الله تعالى تعدد الزوجات حفاظا على الرجل من الوقوع في الحرام (بوقاعدة ا.، 2020، صفحة 130).

يبدو أن بعض الغربيين عامة والمستشرقين خاصة، كتبوا كثيرا عن مسألة تعدد الزوجات بعيدا عن الموضوعية والتحري للحقيقة .للرجل فقد أساءوا فهم مسألة التعدد، واعتبروه من مظاهر الاضطهاد الإسلامي للمرأة، -كما مرّ بنا سابقا - وتحويلها إلى أمة وإهدار كرامتها، وهي نظرة مبنية على أساس من رؤية سطحية لوضع المرأة المسلمة ، متجاهلين في هذه الحالة فضائل التعدد ورذائل عدم السماح به، كما هو في المجتمع الغربي، فقد سمح للرجل بمعاشرة عشرات النساء دون أن يضع ضوابط دينية والذي أدى إلى انتشار الفساد الأخلاقي ، يضاف إلى مردوداته السلبية على الجانب الاجتماعي والصحي والنفسي على الرجل والمرأة والأولاد.

كما عدّ بعض المستشرقين أن تعدّد الزوجات مظهرا من مظاهر حياة الإماء والعبيد، أو البهائم تعيشها المسلمات –لأن الرجل يستطيع أن يتزوج أربعا، وأن يملك إلى جانبهن ما يشاء من الجواري بغير حساب ... وفي ذلك منقصة لحق المرأة، ومهانة لكرامتها الانسانية (جمال، مفتريات على الإسلام)

لقد أباحت الأديان السماوية تعدد الزوجات – كما أسلفنا - فقد كان لإبراهيم الخليل –عليه السلام – زوجتان وكل أنبياء التوراة كانت لهم زوجات كثيرات كيعقوب وداود وسليمان، ولم يأت الإنجيل بنص يحرم أو يدل على التحريم، وإنما ورد على سبيل الموعظة بأن الله خلق لكل رجل زوجته، وهذا لا يفيد على أبعد الاحتمالات إلا الترغيب بأن يقتصر الرجل في الأحوال العادية على زوجة واحدة . (نفسه)

إن الإسلام لم يشرع تعدد الزوجات ، وإنما وجده مشروعا، ووجده قائما بصورة غير إنسانية، فأبقى على جوازه، ولكنه حدده بأربع بعد أن كان مباحا بأكثر من ذلك، ودون حدود أو قيود .-كما مر بنا سابقا - يذكر أحمد محمد جمال نقلا عن وستر ماك : أن تعدد الزوجات – باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر الميلادي. وكان لشرلمان ملك فرنسا – زوجتان وكثير من السرايا . (جمال ، 1987، صفحة 69)

ويعتقد الغرب أنهم أهل إنصاف بالنسبة لحقوق المرأة، ونسوا أو تناسوا كيف كانت تعامل المرأة الغربية في تاريخهم المعاصر، وأسوء ماجاءوا به من ظاهرة التعدد – ظاهرة بيع الزوجات أو إعارتهن ...فقد أثبت المفكر الانجليزي هربرت سبنسر في كتابه علم الاجتماع أن الزوجة كانت تباع أو تعار لرجل آخر خلال القرن 11م ، وذلك بمقتضى قانون خاص شرعته الكنيسة . (السباعي م.، 2010، صفحة 141)

ويذكر مصطفى السباعي نقلا عن تعليق أحمد موسى سالم على المستشرقين الذين عابوا على المسلمين وجود نظام تعدد الزوجات بقوله : "حريما مفتوحا في المطاعم والفنادق، وعلى الأرصفة، وتحت أشجار الحدائق العامة وبجوار حوائط الليل المظلمة ، وفي ساحات المراقص اللعوب والأحفال الساهرة، فكل من شاء يفعل ماشاء، ومع من شاء ومن تشاء، إنه عنوان التحرر العجيب من الخلق هو العفاف وضوابط النسل وحدود الله في الأسرة". (نفسه)

2-التعدّد في نظر بعض المنصفين من المسيحين: ويرى بعض من المنصفين المسحين في مسألة التعدد منهم لوبون (1841-1931)يذهب إلى القول بأن نظام تعدد الزوجات ليس خاصا بالإسلام وحده فيقول : " أن نظام تعدد الزوجات ليس خاصا بالإسلام ، فقد عرفه اليهود والفرس والعرب، وغيرهم من أمم المشرق قبل ظهور محمد، ولم تر فيه الأمم التي اعتنقت الإسلام فيه غنما جديدا إذن ... ولا أرى سببا لجعل مبدأ تعدد الزوجات السرى عند الأوروبيين، وأبصر العكس فأرى ما يجعله أدنى منه، وبهذا يدرك مغزى تعجب الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبيرة . (لوبون، 1956 ، صفحة 398)

لقد صدق لوبون فمن تعدد الزوجات الشرعيات في الشرق، إلى تعدد الخليلات في الغرب، وشتان بين هذا وذاك ؟

وهذا الفرنسي ألفونس إيتان دينيه (1861- 1929) يرد بعد إسلامه على مبدأ تعدد الزوجات في رسالته القيمة ((أشعة خاصة بنور الإسلام))وقال : (على أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة وأن لا

يتمرد عليها، وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولاً وأسهل تطبيقاً في إصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور، حتى لقد سمي القرآن لذلك (بالهدى)، لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة، ولأنّه الدال على أحسن مقاصد الخير، والأمثلة العديدة لا تعوزنا، ولكنا للقصر نأخذ بأشهرها، وهو الشامل في سبيل تعدد الزوجات، وهو الموضوع الذي صادف النقد الواسع، والذي جلب للإسلام في نظر أهل الغرب مثالب جمة، ومطاعن كثيرة، ومما لاشك فيه أن التوحيد في الزوجة هو المثل الأعلى، ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق ...والذي فعله الإسلام أول كل شيء، أنه أنقص عدد الزوجات الشرعيات ، وقد كان عند العرب الأقدمين مباحاً دون قيد، ثم أشار بعد ذلك بالتوحيد في الزوجة بقوله تعالى : (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة)وأي رجل في الوجود يستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعددات ، ولذا كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ، ولكن أنظر كيف وضعه الإسلام وضعاً هو غاية في الرقة والدقة واللطف مع الحكمة .ثم أنظر هل حقيقي أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبري لفردية الزوجة والتوحيد فيها، وتشديدها في تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات ؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون ان يأخذ منه الضحك مآخذه ؟ وإلا فهؤلاء ملوك فرنسا، دع عندك الأفراد، الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات ، وفي الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام، إنّ تعدد الزوجات قانون طبيعي، وسيبقى ما بقي العالم ...على أن نظرية التوحيد في الزوجة ...وهي النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهراً تنطوي تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء، تلك هي الدعارة والعوانس من النساء، والأبناء غير الشرعيين). (حسين، 2004، صفحة 75)

هكذا يحلل دينيه بعد تغير اسمه الى ناصر الدين دينيه، نظام تعدد الزوجات في الإسلام بكثير من الموضوعية والدقة وتحري الحقائق، كما يبين أن المسيحيين لم يكونوا يطبقون نظام الاكتفاء بالزوجة الواحدة ، بل هناك الكثير منهم ملوكاً وعواماً كانت لهم أكثر من واحدة، وبعلم الكنيسة، ويذكر أن إبطال العمل بنظام تعدد الزوجات يؤدي إلى انتشار الدعارة والعلاقات المحرمة والعنوسة وكثرة الأطفال غير الشرعيين .

وهذه حقائق يؤكدها عقلاء الغرب، وهو أن نظام تعدد الزوجات حتى ولو كان غير مستساغ عندهم إلا أنهم يطبقونه بطرق أخرى.

يتضح لنا أن تعدد الزوجات موجود منذ العصور القديمة، وبين عدد من الديانات والشعوب الغابرة، لأنه ضرورة، أو هو رخصة لضرورة كعقم الزوجة – أو مرضها مرضا يمنع أداءها حق زوجها الفطري – أو قلة الرجال وكثرة النساء بسبب الحروب، أوحاجة بعض رجال القبائل إلى العدد الكبير من الأولاد ليكونوا عونا لآبائهم في الأعمال الزراعية، أو في حماية مصالح القبيلة ودفع الغزاة عنها.

كما أن الإسلام جاء فوجد التعدد قائما فنظمه وحدّده، ووضع له آدابا وأحكاما تحفظ للمرأة كرامتها. فهو لم يفرضه، ولم يحبذه، بل حذر من الظلم فيه، ولكنه راعى حين أبقى على جوازه ظروف الضرورات التي تضطر الرجل إلى التعدد أو تضطر المرأة إلى قبوله.

لقد اشترط الإسلام لإباحة التعدد الخوف من الظلم فيه، والعدل المطلوب في التعدد لقوله تعالى: {**فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**}. (سورة النساء الآية 03) فالآية صريحة في منع التعدد، إذا خاف الرجل ألا يعدل بين زوجاته، كما أن الإسلام مع تشديده في تحقيق العدل بين الزوجات أعطى الزوجة الحق في أن تشترط في عقد زواجها ألا يتزوج عليها بثانية .

وإذا أردنا أن نجري مقارنة بين تعدّد الزوجات في المجتمع الإسلامي، عن التعدّد في المجتمع الغربي، يتبين لنا مبادئ التعدد في الإسلام كالتالي :

- يقع تعدد في الاسلام باسم الزوجات ولكنه في المجتمع الغربي يعرف باسم الصديقات والخليلات .
- يتخذ تعدد الزوجات في الاسلام صفة العلانية ولكنه بالغرب يحدث بصفة سرية .
- يحصل في المجتمع الاسلامي بطريقة شرعية، بينما في المجتمع الغربي يحصل بطريقة محرمة وغير شرعية .
- ينحصر التعدد في الدين الاسلامي على أربع نساء فقط، ولكنه لا ينحصر بالمجتمع الغربي بعدد معين من النساء .

ثانيا-نظرة الغرب إلى الميراث :

يعد الدين الإسلامي أول الشرائع التي منحت المرأة حق التملك بشكل واضح وعادل لقوله تعالى: {**لِّلرجَالِ نَصِيبُ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ وَلِلنِساءِ نَصِيبُ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ مِّمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا**} . (النساء الآية 07).

كما أن الإسلام قد اعتبر المرأة مستقلة في نظر القانون، وجعلها مسؤولة عما تدخل فيه من الالتزامات، ونعلم نحن أن الحال ليست كذلك في نظر أوروبا المسيحية، ففي أغلب الممالك الأوربية تنتقل ملكية أملاك المرأة إلى زوجها عند الزواج، ففي إنجلترا تصبح المرأة في نظر القانون العام هي وزوجها شخصا واحدا، ليس لها الحق وحدها في التملك أو الدخول في الالتزامات، ثم جاء قانون 1882 لملكية النساء المتزوجات، فأعطهن الحق الذي لم يتمتعن به من قبل، فأصبحت المرأة مسؤولة عما تدخله من الالتزامات والتعهدات بقدر أملاكها الخاصة إلا أن هذا القانون لم يجعل الزوج خاليا من تبعة تصرفات زوجته ، فإن للمدعي حق الاختيار بين مقاضاة الزوجة بمفردها أو إشراك زوجها معها، وإذا لم يكن للزوجة مال خاص أمكن المدعي مقاضاة الزوج بصفته مسؤولا عن تصرفات زوجته . (السباعي ، 2010، صفحة 140)

ومن المبادئ القرآنية والنبوية في تكريم المرأة يقول تعالى : " **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةُ** " (البقرة الآية 228)، والثاني قوله تعالى " **أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** " (سورة الروم الآية 21) . فالتكريم الأول يقرر المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات، فلهن مثل الذي عليهن .ثم قال " وللرجال عليهن درجة " . وهي درجة القوامة، التي جاءت آية أخرى من القرآن توضحها وتعللها : { **الرِّجَلُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أنفقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**}. (سورة النساء الآية 34) .

إذن فهذه الدرجة هي المسؤولة التي وضعها التشريع الاسلامي على كاهل الرجل، ليكون راعيا أمينا لأسرته زوجة وأولادا، لا من حيث الانفاق المعيشي وحده، بل من حيث التربية والتعليم أيضا، مصداقا لقول الرسول : " والرجل راع في أهله " . ومسؤول عن رعيته" (جمال ، 1987، صفحة 70)

إن إيثار الرجل بضعف نصيب المرأة في الميراث فمرده إلى التبعية التي يضطلع بها الرجل في الحياة، فهو يتزوج امرأة يتكلف بإعالتها وإعالة أبناءها وبناء الأسرة، فمن حقه أن يكون مثل حظ الأنثيين لهذا، بينما هي مكفولة الرزق أن تزوجت بمن يعولها، ومكفولة الرزق إن عنست، أو ترملت بكفالة قرابتها من الرجال . (يوسفي زهيرة ، دت). ولا بد من وقفة عند أمرين بشأن حق الملكية والتصرف والانتفاع، فقد كانت شرائع أوروبا تحرم المرأة من كل هذه الحقوق على عهد قريب ولولا قيام الحربين العالمتين التي حصدت عشرات الملايين من الرجال، واضطرار المرأة أن تحل محل الرجل في المصانع والحقول بسبب الحاجة لليد العاملة ، لما صدرت مثل هذه التشريعات الخاصة بحقوق المرأة . (الستار، 2014، صفحة 101) لقد منح الدين الإسلامي دون غيره من سائر الديانات التي كانت سائدة قبله، الحق في الميراث معلوما بمقدار بحسب الحالة التي تناسبها، كما تفصح عنه الآيات البينات التالية: { **لِّلرِجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ وَلِلنِساءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ مِّمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا}**، (سورة النساء الآية 7).

وإن كانت هذه الآية تثبت الحق دون أن تفصل في مقداره، فإن النص القرآني الموالي يحدده وبطريقة بديعة ومعجزة ، وذلك في قوله العلي العظيم " يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين " . من خلال التفسير الذي ساقه ابن كثير بشأن الآية، نقف على طرح تأويلي جد هام يؤنس إلى حد بعيد مصداقية الطرح الذي نتبناه، ذلك أنه فسر قوله تعالى : " يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين بأنه أمر الله بالعدل فيهم " فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوت بين الصنفين فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق فناسب أن يعطي ضعفي ما تأخذه الأنثى (ابن كثير ، 2000، صفحة 338).

كما جعل نظام المواريث الحاجة : الحاجة أساس التفاضل في الميراث ، ومن هذا المنطلق كان نصيب الأنثى نصف نصيب أخيها الذكر ، لكون حاجته للمال تفوق احتياجاتها إليه ، بحكم أعباء المسؤولية المالية الملقاة على كاهله ،وثقل مطالب الحياة المنوطة به وتبعاتها ، ولكنها مكفولة المطالب والنفقة على امتداد المنحنى الزمني لحياتها سواء في بيت وليها بنتا أو بعلها زوجة ،فإن حازت من الميراث نصيبا فهو ماله المحفوظ لا يشاركها أحدفي حق التصرف فيه (بوقاعدة البشير، 2020، صفحة 145) .

والظاهر أن هناك الكثير من الحاقدين على الإسلام، الذين يسعون لتشويه مبادئه أذكر على سبيل المثال كلودي فو المستشرق الفرنسي الذي يقول " هضم الإسلام حق المرأة ، حيث أعطاها نصف نصيب الرجل في الميراث، وجعل الزوج يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ، وجعل الطلاق بيد الرجل، ومنح الرجل سلطة ليست للمرأة، فحرمها كثيرا من الحقوق التي يتمتع بها الرجل . (حسين، 2004، صفحة 232) ومع

ما حظيت به المرأة من تكريم رباني وانصاف تام مع شقيقها الرجل ، فإن هناك ألسن تظل تتطاول ، وأقلام لا تزال تسيل ظلال ، يسعى حاملوها إلى رسم صورة مغلوطة تكدر مياه بحر الحقيقة حين توحي – بزعمهم –بهضم الشرع لحق المرأة في الميراث، ومنح واسع الامتياز لصالح الذكر. (بوقاعدة البشير، صفحة 224)

في حين نجد من المنصفين من تأثر بالشرائع الإسلامية التي حافظت على حقوق المرأة وعنها يذكر لوبون " إن حقوق الزوجة ينص عليها القرآن ومفسروه أفضل كثيرا من حقوق الزوجة الأوروبية، فالزوجة المسلمة تتمتع بأموالها الخاصة فضلا عن مهرها، ولا يتطلب منها أن تشترك في الإنفاق على أمور المنزل وهي إذا أصبحت طالقا أخذت . (يوسفي، 2020، صفحة 102)نفقه، وإن إنفاق الرجل ملزم وقد جاء في المادة 35 البند 3 من لائحة حقوق الإنسان ما يتوافق منه بالمئة مع تعاليم الشريعة الإسلامية بهذا الخصوص انطلاقا من ضمان عيش كريم للزوجة. (نفسه)

ومن المنصفات أيضا بعدالة موقف الإسلام من قضية المرأة أنى بيزانت المتوفية سنة 1933 الهندية الأصل ، تقول في كتابها " حياة محمد وتعاليمه " : " إن المرأة في ظل الإسلام أكثر حرية منها في ظل المذاهب الأخرى ، فالإسلام يحمي حقوق المرأة أكثر من المسيحية التي تحظر تعدد الزوجات وتعاليم القرآن بالنسبة للمرأة أكثر عدالة وأضمن لحريتها، فبينما لم تنل المرأة في انجلترا حق الملكية إلا منذ عشرين سنة، فإن الاسلام قد أثبت لها حق التملك منذ اللحظة الاولى. ومن الافتراء أن يقال: إن الإسلام يعتبر النساء مجردات من الروح وكفى بهؤلاء النسوة الغربيات شاهدات صدق. (جمال أ.، 1987، صفحة 69)

إن الحريات الموهومة والمساوات المزعومة التي أعطيتا للمرأة الحديثة كانتا بسبب تخلى الرجل عنها، وإهماله لحقها عليه، وموت ضميره تجاه حرمة عرضها وشرفها. إضافة إلى هذا أن الآباء يتركون بناتهم بعد النشأة الأولى ليبحثن عن العمل والزوج في حرية تامة، وفي المقابل يهمل الأبناء والبنات آباءهم وأمهاتهم للملاجئ والشوارع لا يسألون عنهم، ولا ينفقون عليهم. (المرجع نفسه)

نستنتج أن تعاليم الإسلام سبقت كل ما أحدثه الغرب أمام القانون، ثم أننا نجد أن كل شخص ذكرا كان أم أنثى، له الحق في الميراث، ولا يمكن سلبه هذا الحق (أي في الشريعة الإسلامية) فإذا قارنا ذلك بالحرية المطلقة في الوصية في القانون الإنجليزي (بحيث يستطيع حرمان جميع ورثته).. (نفسه)

ثالثا- نظرة الغرب للحجاب :

الحجاب هو تبليغ من الله تعالى لحفظ المجتمع من الانحدار الخلقي، كما هو الضمانة التي تمنع هذا الانحدار، فالموضة العالمية الغربية وما فيها من خلاعة تنشر في أوساط جميع المجتمعات، وتعمل عملها في جميع المجتمعات، ولكن بشكل محدود في المجتمعات الإسلامية التي وضع فيها حد الحجاب الذي لا يعني غطاء الشعر وحسب، وإنما كامل الجسم عدا الوجه واليدين، وما يحدث في الغرب من فساد أخلاقي يعد أكبر رادع للمرأة المسلمة كي لا تنزلق نفس المنزلق الذي انزلقت فيه المرأة الغربية .

والحجاب من الثوابت التي نص عليها القرآن بآيات بينات ، قال تعالى : {**يَأَيُهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدنِينَ عَلَيْهِنَ مِن جَلبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنى أَن يُعْرَفْنَ فَلايُوذَيْنَ وكَانَ اللَّه غَفُرًا رَّحِيمًا**}. (سورة الأحزاب الآية 59).

إنها دعوة إلى صيانة المرأة عن التبذل والتكشف والتهتك، وحماية لها من أذى النظرات الآثمة، واللمسات الظالمة. لأن المرأة المتهتكة تغري الرجل الفاجر بالتعرض لها والطمع فيها، ولذلك جاء في القرآن توجيه آخر : (ولا تخضعن بالقول – أي لا ترققن الكلام – فيطمع الذي في قلبه مرض . (السباعي ، 2010، صفحة 55).

ورفع الحجاب الغرض منه عدم التحرج من الاختلاط وكانت هذه من أساليب الغرب والمستشرقين الخبيثة لاستدراج المرأة المسلمة .

فقد أثار الغرب حجاب المرأة المسلمة وحاولوا التأثير عليها فبدأت قضية تحرير المرأة من الحجاب والمطلوب هو السفور والتبرج فزعموا أن سرّ تأخر المسلمين وتخلفهم هو حجابها، لأنه يعقها عن الانطلاق والحركة، ولما أريد للمسلمة أن تسير سيرة المرأة الغربية، فلا بد من افتعال قضية للتحرر تمر بمراحل على النسق الأوروبي، فوقع الاختيار على الحجاب، فكان أول حاجز اخترقه الغربيون ومن أنصار تحرير المرأة، إذ عدوا ستر الرأس إهانة للمرأة ولكرامتها الانسانية، وعائقا يمنعها من مشاركة الرجل في نهضته . والذين نادوا بتحرير المرأة المسلمة أسوة بالغربية، لم يراعوا الفرق بين الاثنين، حيث لا تشابه بينهما فالغربية قضية تحرير من ظلم الرجل والمجتمع، ولكن الحجاب لا علاقة له بالرجل، فهو من الله لحساب الرجل والمرأة كليهما، وللمجتمع والقيم اللائقة بالإنسان. ودعاة التحرر لم يفهموا حرص الرجل على زوجته بل عدوا الحجاب عدم ثقة الرجل بالمرأة .

إن اهتمام الاعلام الغربي بالمرأة المسلمة ليس جديدا، ففي عام 1894 ظهر كتاب للكاتب الفرنسي كونت داركور حمل فيه على نساء مصر وهاجم الحجاب الاسلامي كما هاجم المثقفين على سكوتهم واستخدم المستشرقون وسائل لبث سمومهم منها الصحف والمجلات، حيث كانت الوسائل المرئية غير موجودة آنذاك وقامت الصحافة في مصر خاصة بدور خطير لأنها مركز التوجيه الروحي والثقافي للدول .ولازال إلى يومنا هذا الحجاب يحارب في الغرب، وخاصة في فرنسا التي تمنع منعا باتا ارتداء الحجاب في المؤسسات التعليمية وغيرها . (السباعي ، 2010، صفحة 56)

رابعا-نظرة الغرب إلى القِوامة:

إن الأسرة مؤسسة اجتماعية تضبط سيرورتها الطبيعية جملة قوانين شرعية، تحدد حقوق وواجبات كل طرف من طرفيها (الزوجة والزوج) . وقد منح الإسلام للرجل أو الزوج الإدارة العليا لشؤون الأسرة، فهو المدير العام الساهر على تنظيم شؤونها وفق المنهج الشرعي الذي تفصح عنه نصوص القرآن والسنة. (بوقاعدة البشير ، 2020، صفحة 135)

فمن عدل الاسلام، أن أعفى المرأة من الأعباء المالية لإدارة وشؤون الأسرة وجعل القوامة في عنق الرجل، سواء وليها قبل الزواج أو زوجها إذا عقد قرانها. يقول تعالى : { **الرِّجَلُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا**

فَضَلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أنفقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ }.(سورة النساء الآية 34)فهو من ينفق ويهيأ سكن أو المأوى .وعلى عاتقه يقع دفع الصداق لزوجه لقوله تعالى **" وَءَاتُوا النِسَاءَ صَدقَاتِهِنَّ نِحْلَةً "** (سورة النساء الآية 4) والخطاب في هذه الآية كما يذكر أهل التفسير للأزواج :ٍ أمرهم الله تعالى بأن يتبرعوا بإعطاء المهور نحلة منهم لأزواجهم " وقيل : الخطاب للأولياء : لأنهم كانوا في الجاهلية يأخذون الصداق ولا يعطون المرأة منه شيئا (أحكام القرآن.، 2003.، صفحة 413). (الجامع، 2006، صفحة 43)

إن القوامة معناها أن لكل من الرجل والمرأة درجة في سلم القيادة ودرجة الرجل هي أعلى درجة، لأنه مثل ربان السفينة هو الذي يقودها ويوجهها، ولا يمكن أن يكون لأية سفينة قائدان وإلا غرقت .

لم يلغ الإسلام مسؤولية القوامة على الرجل " ولهن مثل عليهن بالمعروف وللرجال عليهم درجة " وهذه الدرجة هي القوامة ، وقوامة الرجل لا تعني التسلط فهي تعني الحماية والصرف على الأسرة ، وليس أن يحل الرجل محل المرأة في اتخاذ قراراتها، بما يؤدي إلى تعسف ولي الأمر في فرض الزواج على البنت دون موافقتها ، وهو مخالف للشرع أو منعها من دخول المدرسة، فللمرأة أيضا أن تحصل على القوامة فهي باستطاعتها إدارة المنزل وأولادها، كما أن الطبيبة قادرة على القوامة في عملها، والمعلمة لها القوامة في عملها ، والمعلمة لها القوامة في توجيه طلبتها . (زهاوي، 2014، صفحة 554)

وتذكر أمل العصيمي نقلا عن الدكتورة الباحثة العشماوي أستاذة بجامعة جنيف بسويسرا أن الغرب هو الذي أثار موضوع القوامة عندما طالب بالمساواة الكاملة بينهما ،ومن هذا الباب دخل العلمانيون والمستشرقون بادعاء أن الرجل يتسلط على المرأة في المجتمعات الاسلامية تحت مسمى القوامة ، وهذا غير صحيح وفهم خاطئ للقرآن، ليصلوا إلى ما يريدون، ولكي يتشدقوا بأن الاسلام ظلم المرأة وروجوا لوجهة نظرهم تلك ، وبرروها حيث ادعوا إن الخطاب القرآني يقرر أن الرجل أفضل من المرأة، ولكنهم نسوا أو تناسوا أن القوامة لا تعني السيادة ولا الأفضلية ولا السيطرة ولا الهيمنة على المرأة، ولكن تعني درجة أعلى في القيادة وليس معناها الانفراد بالرأي والسيطرة . (العصيمي، 2010، صفحة 3)

خاتمة:

- إن منهج كتابة الغرب، لم يكن وليد يوم وليلة، وإنما كان تخطيطا مسبقا بمكر ودهاء، لبث سمومهم في الأمة الإسلامية .
- تركيز الغربيين المتعصبين والمستشرقين في كتابة موضوعاتهم على الشبهات حول المرأة، لإدراكهم بأن إفساد الأمة بإفساد المرأة المسلمة .
- اعتماد الغرب على وسائل الاعلام مثل الصحف والمجلات لإثارة شبهاتهم حول الإسلام والمرأة المسلمة.
- لوذهبنا نستعرض أو نعرض آيات أحكام الزواج والعشرة والطلاق ، وماجاء عن برّ الأمهات ، لما يتحملن من وهن الحمل والرضاعة والحضانة والاستئذان في الدخول على النساء والمخالعة ، والرجعة ووجوب غض البصر وحدود الزينة النسوية ومواضعها المحرمة والمباحة ، لطال بنا المقال أوسع. ولكننا نجترئ بما أسلفنا لنبرهن على أن القرآن وحده كان أرأف تشريع سماوي أنزل لإنصاف المرأة واثبات انسانيتها وإعلان كرامتها.

- وعن الزعمات والبواطل ، إنما تصدر عن جهلاء – أو حاقدين– جهلاء بحقائق الشريعة الاسلامية ، التي رفعت مكانة المرأة عالي، ومنحتها من الحقوق الانسانية مالم تظفر في غابرها بشيء منه. وحتى في حاضرها مازالت المرأة غير المسلمة محرومة من هذه الحقوق الكريمة التي صانت انسانية المرأة كبنت وزوجة وأم وجعلتها شقيقة الرجل .
- تنبع الحكمة من تعدد الزوجات في الدين الإسلامي رحمة من الله بعباده، وتحقيق المصالح التي تعود بالنفع والصلاح على الزوجين وعلى الأمة الإسلامية.
- إن النصوص القرآنية تزيل كل الشبه التي حاقت بحقوق المرأة في الإسلام، وتبطل كل التأويلات التي حبكت بشأنها، وتؤكد رفع الإسلام من شأنها ، وإعلائه مرتبتها ومنزلتها إلى أرقى درجات العدل بين بني البشر في الحق والواجب، فضلا على أنه الدين الذي خلصها من غياهب الظلم، وأوكار العبودية، وشباك القهر المجتمعي، وقيود الأعراف التي كانت ترزخ تحت وطأتها في العصر الجاهلي وتحت تشريعات الديانات الأخرى، منحها الاسلام حقوقا مادية كحقها في الميراث ، تتساوى فيه مع الرجل حينا، وتزيد عليه في أحايين أخرى، وتنقص عليه في حالات غيرها ، كل بحسب الحالة .
- إن القوامة ليس من شانها الغاء شخصية المرأة في البيت ولا في المجتمع النسائي ولا إلغاء وضعها المدني، وإنما هي وظيفة داخل كيان الاسرة لإدارة المؤسسة الخطيرة وصيانتها وحمايتها، ووجود القيم في مؤسسة ما لا يلغي وجود ولا شخصية ولا حقوق الشركاء فيها، والعاملين في وظائفها، فقد حدد الإسلام صفة قوامة الرجل، وما يصاحبها من عطف ورعاية وصيانة وتكاليف في نفسه وماله، وآداب في سلوكه مع زوجته وعياله .

قائمة المصادروالمراجع

- ابن حبان. ((د،ت)). *صحيح ابن حبان رقم الحديث 4175.*
- ابن كثير عماد الدين. (2000). *تفسير القرآن العظيم*. القاهرة.
- أبو الحجر العسقلاني. (د،ت). *بلوغ المرام* . مصر .
- أبو بكر بن . العربي. (2003.). *أحكام القرآن*. لبنان.
- أبو بكر محمد النيسابوري. (2002). *كتاب تفسير القرآن* . السعودية .
- أبو عبد الله القرطبي. (2006). *الجامع لأحكام القرآن*. لبنان.
- أحمد شلبي. (1986). *مقارنة الأديان*. القاهرة : مكتبة النهضة المصرية.
- أحمد محمد جمال . (1987). *مفتريات على الإسلام.*
- البشير بوقاعدة. (2020). *المرأة في الخطاب القرآني*. الجزائر.
- الزهاوي عبد القادر ، و عبد الستار عباس . (2014). *المرأة المسلمة بين الغرب والإسلام* (الإصدار مجلة كلية التربية للبنات قسم التاريخ ، المجلد 25). القاهرة.
- زهير يوسفي. (2020). *حقوق المرأة في الإسلام والقانون الدولي.*
- عباس عبد الستار و عبد القادر زهاوي. (2014). *المرأة المسلمة بين الغرب والإسلام*. القاهرة .

- عبد الله الطيار. (10 أفريل , 2022). العدل في التعدد . *2010* . القاهرة .
- عقيلة حسين. (2004). *المرأة المسلمة والفكر الإستشراقي*. الجزائر.
- علي ابراهيم حشيش. (2005). *دفاع عن السنة المطهرة*. القاهرة: دار العقيدة.
- علي حسن ديب. (2007). *المرأة اليهودية بين فضائح الثوراة وقبضة الحاخامات*. دمشق: صفحات للدراسات والنشر.
- غوستاف لوبون. (1956). *حضارة العرب* . (نقله إلى العربية عادل زعيتر، المؤدي) لبنان .
- مصطفى السباعي. (2010). *المرأة بين الفقه والقانون*. القاهرة: دار الوارق للنشر والتوزيع ،دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.
- مطر العصيمي. (2010). *مقتطفات عن المرأة المسلمة وموقف المستشرقين منها* . الأردن .

المستشرق إميل درمنغم والسيرة النبوية، خطوات أولى في البحث المنهجي.

Orientalist Emile Dermingham and the Biography of the Prophet, First Steps in Methodical Research.

د.مراد تجنانت، جامعة علي لونيسي- البليدة 2 -الجزائر
mourad.tadj@gmail.com



صنف الباحثون الفرنسي اميل درمنغم(1892-1971) من المستشرقين المعتدلين؛ تخرج من مدرسة شارتر(l'Ecole des chartes) للعلوم المساعدة للتاريخ بباريس سنة 1913م. اشتغل بوزارة الخارجية وتخصص في الصحافة وعلم المكتبات والدراسات اللاهوتيه؛ أقام بالجزائر من سنة 1942 الى سنة 1962، وكان من بين وظائفه في هذه المرحلة أن تولى منصب مدير مكتبة الحاكم العام. أصدر درمنغم كتابه الذي بين أيدينا، وقد حقق هذا الكتاب نجاحاً كبيرا فطبع عدة مرات بالفرنسية وترجم إلى الإنجليزية، وترجمه إلى العربية الباحث الفلسطيني عادل زعيتر سنة 1956. اجتهد في إبراز كثير من الحقائق حول السيرة النبوية التي سكت عنها غيره من المستشرقين، كما أظهر اعجابا بشخصية الرَّسولﷺ. سنحاول في هذه البحث إبراز أراء درمنغم ومنهجه في عرض الحياة الإسلامية في عهد النبوَّة، وسنقيِّم تحليلاته بعد مقارنتها بالمصادر الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: درمنغم، السيرة، الاستشراق، إسلام، زعيتر.

Abstract :

Some scholars have classified the French orientalist Emile Dermenghem among the moderate orientalists;Emile Dermenghem was born in Paris in 1892 and died in 1971, graduated in 1913 from the National School of Charters specializing in training in the auxiliary sciences of history, He majored in journalism, library science, and theological and philosophical studies.Emile Dermenghem published his book, "The Life of Mahomet" which was a great success and was published several times in French and English, it was translated into Arabic by the Palestinian researcher Adel Zaiter in 1956.While many Orientalists have always distorted the history of Muslim civilization by inducing their paralogisms in their studies, Emile Birmingham was one of the Orientalists who best presented the Biography of the Prophet.In this research, we will highlight the analyzes of this French orientalist and his method of presenting Islamic life in the era of the prophet.

Keywords: Dermenghem, Biography, orientalism, Islam, Zaiter.



مقدمة:

يعتبر المستشرق اميل درمنغم(Emile Dermenghem) في نظر الكثير من الباحثين من فئة المستشرقين المعتدلين، فقد جاءت كتاباته، ومنها كتابه " الشخصية المحمَّدية السيرة والمسيرة " الذي أصدره سنة 1929م

في ظروف تميزت بالهيمنة الغربية على البلدان الإسلامية ومن بينها الجزائر التي أقام بها درمنغم مدة عشرين سنة، وفي وقت لم يكن الفكر الأوروبي قد تخلَّص بعد من ذهنية التعصب والتحامل على الإسلام، والتمادي في ادعاء التفوق الحضاري، رغم بداية تبلور الكتابات الأوربية عامة والفرنسية خاصة في دراسة السيرة والحضارة الإسلامية، في سياق استشراقي جديد محتشم ظهرت بوادره منذ القرن الثامن عشر مع حركة التنوريين دعاة سيادة العقل ونبذ الفكر الكنسي(Roger, 27 déc 1968, pp . 167,168 171.)

سنحاول في هذه المداخلة إبراز أراء هذا المستشرق الفرنسي ومنهجه في عرض الحياة الإسلامية في عهد النبوَّة وسنقيِّم نظرته للسيرة النبوية، ونزنها بميزان النصوص الإسلامية رغم ما حوته من توجه إيجابي.

أولا-نشأته واهتماماته:

ولد اميل درمنغم في باريس عام 1892 م و توفي سنة 1971م، تخرج من مدرسة شارتر للعلوم المساعدة للتاريخ بباريس سنة 1913م و تخصص في الصحافة و علم المكتبات والدراسات اللاهوتية والفلسفية، كما أجرى بعض الدراسات في تاريخ المسيحية وحياة الرهبنة وهي الدراسات التي أثّرت على كتابته عن الحضارة الإسلامية خاصة السيرة النبوية و التصوف؛ تولى أثناء الحرب العالمية الأولى وظيفة ملحق صحفي بوزارة الخارجية الفرنسية، ثم التحق بجريدة الأخبار الصادرة بباريس؛ انتقل اميل درمنغم إلى الجزائر حيث عمل رئيس أرشيف الحاكم العام في الجزائر من عام 1942 إلى عام 1962 م (Wikipedia, Dermenghem 2 février 2022 à 18:49, https://fr.wikipedia.org/wiki/% C3%89mile.)

بدأ إميل درمنغم ينتج أعماله الأدبية والفكرية والاجتماعية والدراسات في تاريخ المسيحية وحياة الرهبنة سنة 1917، ثم اتسعت ثقافته لتشمل الحضارة الاسلامية، بمطالعة المصادر الاسلامية الأولى، فتنوع بذلك إنتاجه في المجال الاستشراقي (النمنم ،11 نوفمبر 2009 23:12)، https://www.alittihad.ae/article (/36451/2009/) .

أصدر المستشرق إميل درمنغم في إطار دراساته حول التاريخ الثقافي والدراسات الإسلامية عدة مؤلفات نذكر منها عام 1926 "قصص من فاس"، وفي عام 1949 "ذكريات الأمير عبدالقادر قائد المقاومة الجزائرية في حربه ضد الفرنسيين"، و في 1942 كتاب "حياة الصالحين المسلمين"، والروايات القبائلية، وأسطورة النفس في فلكلور إفريقيا الشمالية أصدرها في المجلة الافريقية و تأليف حول النواسك التعبدية للصوفية في الاسلام 1954، يضاف إليها مقالات كثيرة صدرت في مجلة الوثائق الجزائرية الأدبية التي تصدر بالجزائر(النمنم،11نوفمبر2009، https://www.alittihad.ae/article/36451/2009).

من أعماله كذلك ترجمته لديوان أشعار المتصوف المصري ابن الفارض شرف الدين عمر بن علي المعروف بسلطان العاشقين (576 -632هـ / 1181-1234م) (Lazul, 2008, p135 والزركلي،2002م، ج5 ص 55) وألف كتابا في التصوف بعنوان حياة المتصوفة المسلمين سنة1943 . (Wikipedia, Dermenghem 2février2022, https://fr.wikipedia.org/wiki/)

هذه الأعمال زيادة على مكوثه الطويل بالجزائر وقربه من المجتمع الجزائري جعلت إميل درمنغم أحد المختصين الذين يُستشارون في كل ما تعلق بالإسلام عامة والإسلام الصوفي خاصة (Boyer. 1971, pp. 523-527).

ثانيا-تعريف الكتاب:

أصدر المستشرق إميل درمنغم كتابه "الشخصية المحمَّدية السيرة والمسيرة" عام 1920م وقد حقق الكتاب نجاحاً كبيرا فطبع عدة مرات بالفرنسية وترجم الى لغات عديدة منها العربية، و قد قام بالترجمة الى اللغة العربية الكاتب الفلسطيني عَادِل بن عمر بن حسن زُعَيْتِر أو عادل زعيتر، ونشر بالقاهرة في طبعته الأولى عام 1956م (وكيبيديا،5 مارس2022، الساعة https://ar.wikipedia.org/wiki.13:29)؛ والكتاب الذي بين أيدنا ترجمة في طبعته الثالثة الصادرة سنة 2005 عن دار الشعاع للنشر والتوزيع بمصر.

ثالثا-أهداف درمنغم من دراسة السيرة و مصادره في البحث:

صرح المستشرق إميل درمنغم في مقدمة كتابه أنه يسعى من خلال عمله تقديم (صورة ناطقة) للنَّبي(ص) مستندا الى أقدم المصادر وفي مقدمتها القرآن الكريم وكتب السيرة الإسلامية وكتب الحديث لا سيما البخاري، وهي مصنفات يرى انها من أدق المصادر التي نقلت أقوال النَّبي(ص)، غفلت عنها الأبحاث الاستشراقية الحديثة في وقته؛ إلا القليل منها، يقول إميل درمنغم ((أردت أن أؤلف سيرة ناطقة صادقة للنَّبي مستندا إلى أقدم المصادر العربية غير غافل عما جاء في المؤلفات الحديثة، وقد شئت أن أرسم للنَّبي صورة مطابقة لما وُصف به في كتب السيرة ولما يجول في نفوس أتباعه)) (درمنغم ، 2005، ص 11).

من الأعمال القريبة من كتاب المستشرق إميل درمنغم نكتفي على سبيل المثال بذكر ما ألفه المستشرقان أوجين لاماريس (Lamairesse Eugène) وغاستون دوجاريكGaston Dujarric سنة 1887م "كتاب حياة محمَّد حسب الروايات"، لكن مقدمة الكتاب تؤكد أنهما عادوا إلى ما يسميانه بالأساطير (EugèneLamairesse et Gaston Dujarric , 1887 ,p7)، وأصدره الفنان الفرنسي نصردين إتيان ديني بعد إسلامه و صديقه الجزائري الحاج إبراهيم كتاب "حياة محمَّد (ص) رسول الله" سنة 1918م

رابعا-منهجية المستشرق إميل درمنغم في كتاب " الشخصية المحمَّدية السيرة والمسيرة :

أهم ما يميز كتاب إميل درمنغم كما سبق ذكره هو رجوعه الى المصادر الإسلامية، لكن يُلاحظ أنه لم يوثقها في هوامش كتابه رغم أن عرضه لتطورات وأحداث السيرة النبوية تظهر أنه عاد إليها مع اعترافه بصعوبة البحث في هذه المصادر (درمنغم ، 2005، ص 11) .

تبين أمثلة كثيرة في كتاب درمنغم رجوعه الى المصادر الإسلامية، نذكر منها مثلا عرضه لما كان يملكه النَّبي (ص) من خيول و نياق وبغال وحمير غيرها من المواشي (درمنغم،2005، ص 174) وخاض في ذكر أسماء الخيول والإبل والنياق والحمير كما وردت في مصادر السيرة والتاريخ والتراجم المصادر الإسلامية، منها ما جاء في السيرة النبوية المستخلص من كتاب البداية والنهاية لابن كثير الذي ذكر أفراسه ومراكبه (ص) (ابن كثير،1976، السيرة النبوية من البداية والنهاية،ج4، 713) وابن عساكر في تاريخ دمشق الذي قدَّم عرضا وافيا حول ما كان للرَّسول (ص) منها، ذاكرا أسماءها، مضيفا أنواع الكراع من الماعز والمواشي التي كانت تحت يده (ابن عساكر ،1995، تاريخ دمشق،ج4 ص 213 فما بعدها)؛ وتناول درمنغم زواجه(ص) من السيدة زينب بنت جحش معتمدا على الروايات الضعيفة التي تقدح في عصمة الأنبياء منها رواية للطبيري في كتابه تاريخ الأمم والملوك (الطبري ،1387، تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، ج 2، ص562، 563)، وقد

بيّن الباحثان محمَّد طاهر البرزنجي ومحمَّد حسن حلاق ضعف الروايات التي تقدح في عصمة النَّبي في هذا الموضوع وقدما الأحاديث الصحيحة الواردة في كتب الحديث الصحاح عن القصة طلاقها من الصحابي زيد بن الحارثة وزواج النَّبي (ص) بها (البرزنجي و حسن حلاق، 2007، مج2 ص ص162، 163 ومج 7 ص ص143، 144)

لا يخرج المستشرق إميل درمنغم عن المنهج الغربي الوضعي أو ما يسميه (النقد المنهجي الحديث)، فيؤكد تخليه عن الأحاديث التي تظهر له أنها منتحلة أو موضوعة، ولا يأخذ بما يُروَي عن المعجزات التي يعتقد أنها اخترعت بعد وفاة النَّبي بقرنين، ويقول أنه سيعتمد على العقل في تحقيق الروايات لإثباتها أو نفيها، وما هو قريب من الصدق عند مقارنته بمصادر أخرى كطبائع البلد وإن لم يكن الخبر صحيحا (صحة التدقيق الرياضي) حسب وجهة نظره (درمنغم،2005، ص ص12 ، 13 ،14) ؛ ويلخص إميل درمنغم منهجه الذي يراه وسطيا بقوله ((و أما أنا فقد سلكت طريقا وسطا بين رواية المتقدمين، كما يمثلها ميسيو ديني والسيد سليمان بن ابراهيم ومغالاة بعض المستشرقين المعاصرين في النقد، فعولت في كتابي هذا على المصادر القديمة و النقد الحديث)) (درمنغم،2005، ص 13)؛ وكان الفنان نصر الدين إتيان ديني و صديقه الجزائري سليمان بن براهيم قد ألفا حسب الباحث ريموند جانين Raymond Janin كتابا جاء في موجة من الكتابات حول الإسلام والمسلمين وحياة الرَّسول (ص) مع نهاية الحرب العالمية الأولى ليرد على المستشرقين ذوي النزعة المعادية للإسلام(Janin, 1937, pp. 367-368).

يذكر اميل درمنغم بعض المصادر التي اعتمدها في مؤلفه، منها سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق والمغازي للواقدي ومؤلفات ابن سعد الحلبي وأبي الفداء والطبري والمسعودي(درمنغم،2005،ص12)، ونلاحظ هذا الرجوع للمصادر من خلال سرده لبعض الاحداث كبيعتي العقبة الأولى والثانية التي اعتمد فيها على ما جاء في سيرة ابن هشام والطبري في كتاب تاريخ والملوك(ابن هشام ، ج1 ص442 والطبري، ج2ص362) .

يدعم درمنغم منهجه في التعامل بالعقل مع النصوص الإسلامية بما كتبه المؤرخ عبد الرَّحمن ابن خلدون في المقدمة وما ألفه المعاصرون مثل الشيخ محمَّد عبده في مصر وتلاميذه والمؤرخ الهندي سيد أمير علي(1265 -1347 هـ/ 1849-1928م) وكتابات المجلة الإسلامية في الهند (درمنغم، 2005، ص 12).

خامسا-انتقاد إميل درمنغم للمستشرقين الأوربيين:

ينتقد درمنغم مناهج المستشرقين الأوربيين وغلوهم في تشويه تاريخ وحضارة المسلمين، ويقول أن أوهامهم وأباطيلهم حالت دون درس أصول الإسلام ومبادئه زمناً طويلاً، ويضيف متفائلا أن بعض العلماء في القرن التاسع عشر جدّوا في البحث العلمي السليم.

يتأسف درمنغم أن غالى بعض المستشرقين المتخصصين في نقد الحضارة الاسلامية، فكانت مؤلفاتهم عامل هدم، والنتائج التي انتهوا إليها كانت سلبية ناقصة في نظره (درمنغم، 2005، ص 12)، ويهاجم المستشرق القس هنري لمنس Lammens Henri الذي عاش في لبنان فيراه رجل دين متعصباً، شوّه كتبه وأفسدها بكراهيته للإسلام والمسلمين بقوله ((و من دواعي الأسف أن كان الأب لامنس، الذي هو من أفضل المستشرقين المعاصرين، من أشدّهم تعصبا وأنه شوه كتبه الرائعة الدقيقة وأفسدها بكرهه للإسلام ونَّبي الإسلام))،

وينتقده في نظرته للحديث النبوي التي جاء فيها أنه إذا وافق الحديث القرآن فمعنى ذلك أن الحديث منقول من القرآن أي منتحل ؛ فيرد درمنغم ((فلا أدري كيف يمكن تأليف التاريخ إذا اقتضى تطابق الدليلين تهديمهما بحكم الضرورة بدلا من أن يؤيد أحدهما الآخر)) (درمنغم،2005، ص 13).

يستثني درمنغم بعض مستشرقي القرن 19 الذين كانوا أكثر جدية في البحث منهم أرماند بيير كوسان دي برسفال Armand-Pierre Caussin de Perceval (1795-1871 م) والألماني ثيودور نولدكه Theodor Nöldeke (1836- 1930) ولمؤرخ المحقق الهولندي رِنهارتدوزِي Reinhart Dozy. (1820-1883)(درمنغم ،2005،ص12)؛ ويستشهد درمنغم بقول المستشرق الهولندي كريستيان سنوك هرخرونيه Christiaan Snouck Hurgronje في نقد منهج المستشرقين الرافضين للأحاديث النبوية بحجة أنها وليدة أغراض الرواة ويستشهد بقوله ليدعم نقده للمستشرقين ((إن ما يناقض كل نهج قويم، دَحْضُ الحديث الذي يقدم دليلٌ على أنه وليد الغرض، والذي لم يوجد سبب تاريخي ينقضه)) (درمنغم ، 2005، ص12).

سادسا-الغربيون مسؤولون عن بداية الخلاف بين المسلمين والمسيحيين.

حمَّل المستشرق إميل درمنغم الكنيستين الأرثدوكسية في الشرق والكاثوليكية الغرب بالخصوص مسؤولية بداية الخلافات بين المسلمين والمسيحيين، لما استخف رجال الجدل من البيزنطيين بالإسلام في عهده الأول وازدروه من غير أن يكلفوا أنفسهم مؤونة دراسته، ويتهمهم بالسعي على تشويه صورة النَّبي محمَّد (ص) والمسلمين؛ ويلحق برجال الدين المسيحيين الشعراء (troubadours) المتجولين بين القرى والبلدات الأوربية الذين كانوا يلقون على عامة النَّاس أشعارا غنائية يصفون فيها الرَّسول (ص) للنَّاس كساحر أو رئيس عصابة من قطاع الطرق أو أسقف روماني غَضِب من عدم انتخابه بابا على المسيحيين؛ ومثلوه لهم على أنه إله زائف يُقرَب له عباده القرابين البشرية (درمنغم، 2005، ص 135)، و قد يُستثنى حسب رأيه القديس يوحنا منصور بن سرجون الدمشقي(676- 749م) في العهد الأموي (درمنغم،2005، ص 135) الذي كان يشارك في مناظرات بما فيها تلك التي تجري في قصر الخلفاء الأمويين ، وشُهد له أنه كان مطلعا على القرآن بشكل جيد(ويكيبيديا، آخر تعديل 20 فبراير 2022، / https://fr.wikipedia.org/wiki03:40 /) .

من التشويهات في الأدب التي يستدل بها درمنغم على ظلم الغربيين للإسلام ما ورد في أنشودة أنطاكية الحماسية التي جعلت للنَّبي (ص) صنمًا مصنوعا من الذهب و الفضة موضوعا فوق فيل جالس على كرسي من الفسيفساء (درمنغم،2005، ص 135)؛ وأسهب إميل درمنغم في سرد أسماء الأعلام المسيحية التي وضفت كل أنواع الافتراءات لضرب صورة الاسلام و المسلمين مثل بطرس المحترم Petrus Venerabilis (نحو 1092-1156 م) الذي ألف أول رسالة في الغرب ضد الإسلام وترجمة القرآن إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، و القس الإيطالي و المستشرق لويس مراتشي Marracci Louis (1612 – 1700)الذي ترجم القرآن الى اللغة اللاتينية مضيفا لترجمته تفسيرا انتقد وكذَّب محتواه ، وقد استعان مراتشي بالتفاسير الإسلامية التي اطلع عليها باللغة العربية (Lazul,2008,p135) ؛ ويستشهد درمنغم في انتقاده للكنيسة بإعلان البابا انوسانت الثالث Innocent III شخص الرَّسول (ص) عدوا للمسيح ؛ أما في عصر التنوير فيرى درمنغم أن فولتير بعد (خطئه الفاجع) في مسرحية "محمَّد أو التطرف" قام بعد ذلك بتصحيح موقفه في غير موضع من مؤلفاته؛ وفي

تقييم عام يرى درمنغم أن نظرة الغرب بقيت دوما تحمل الأحقاد و و تلفق الخرافات والأكاذيب التي حيكت لتشويه صورة محمَّد (ص) في المخيال الأوربي (درمنغم ، 2005، ص ص135، 136).

سابعا-بعض معالم تأثر درمنغم بأحداث السيرة النبوية:

سار درمنغم في سرد السيرة النبوية جامعا بين المنهج التاريخي الذي يقسم السيرة الى مرحلتين، العهد المكي ثم العهد المدني ، وفي كل مرحلة سلط الأضواء على الأحداث المفصلية في تاريخ الدعوة زمن النبوَّة، واختار في كل مرحلة أحداث تاريخية محددة، فقبل البعثة عرض فصولا خاصة بحادثة الفيل وحرب الفجار وشخصية السيدة خديجة رضي الله عنها و زواج النَّبي (ص) بها، وسلَّط الأضواء نحو شخصيات من الصحابة رضي الله عنهم فذكر سلمان الفارسي وعمّ النَّبي (ص) حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما.

سنقدم في هذه الأسطر أمثلة لفصول عرض فيها أحداثا رأى درمنغم أنها تحمل دلالات تاريخية معينة في تاريخ السيرة النبوية، ويظهر أنه أعطى أهمية بالغة في اختيار عناوين كان يراها مناسبة من وجهة نظره لكل فصل فيرفقها عادة بآيات من القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية .

بدأ الفصل الأول بقصة سلمان الفارسي وقدَّمه بقول " هذا العصر هو عصر الأنبياء" وهذه العبارة تبرز معانيها في تيه سليمان الفارسي رضي الله عنه بين نحل عصره و بحثه الحثيث عن العقيدة التي يطمئن لها قلبه حتى وقع في الأسر فبيع ليهودي، ولما انتشر خبر هجرة النَّبي (ص) زاد حماسه في اللحاق بالمسلمين حتى أوصله بالمدينة يهودي من بني قُريضة، وكان من قبل قد تخلى عن المجوسية واعتنق النصرانية (درمنغم،2005، ص19 ،21)؛ ويظهر بوضوح اعتماد درمنغم على المصادر الإسلامية منها طبقات إبن سعد (ابن سعد ، 1990، ج4 ص ص58 ،59)، ويستهل الفصل الثاني الذي عنوانه قصة الفيل بقول ينسب للجغرافي الاغريقي سترابون Strabon عن العرب جاء فيه((كل عربي تاجر و قد يكون مبتزا في بعض الأحيان)، هذه العبارة هي التي ارتسمت في المخيال الغربي عبر العصور رغم أن سترابون قصد بها البدو عامة ومنهم عرب البادية الذين كانوا يحلون في بلاد الشام و العراق للتجارة؛ ويروي في هذا الفصل قصة غزو أبرهة الحبشي لمكة تقريبا كما وردت في المصادر الاسلامية (درمنغم،2005، ص ص35،37)، وفي الفصل الرابع لفت انتباه درمنغم مدح النَّبي (ص) لزوجته خديجة بعد وفاتها أمام عائشة رضي الله عنهما في قوله ((آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ وَ صَدَقَتْنِي إِذْ كَذَبَنِيَ النَّاسُ، و آستني في مالها إذ حرمني النَّاس)) (درمنغم ، 2005، ص59)، وفي الفصل الخامس يوحي العنوان الذي اختاره درمنغم نيَّةً في إبراز صور الاعجاز في تناسق العجيب في نظره بين الأمية و النبوَّة لما أجاب النَّبي (ص) الملك جبريل عليه السلام في غار حراء بقوله " مَا أَنَا بقارئ " (درمنغم ، 2005، ص69)، وفي الفصل السادس يظهر صعوبة و ثقل المهمة التي كان على النَّبي وأصحابه حملها لنشر الاسلام بذكر آية نزلت على النَّبي (ص) بعد نزول الوحي بغار حراء قال فيها تعالى ﴿إِنَا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (سورة المزمل ، الآية 05)، ويربط ما تعرض له النَّبي و أصحابه الأولين من أذى و تعذيب بمكة بقول موسى عليه السلام لقومه في سفر الخروج الاصحاح الثالث:14 " «أَهْيَهِ الَّذي أَهْيَهْ»، و تفسيرها « هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَهْيَهْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ» و هو جواب الله عزّ و جلَّ لموسى لما سأله عما يقوله للإسرائيليين أهيه بمعنى الله (موقع الأنبا تكلا، 3: 140، 06أفريل2022م، https://st-takla.org/Bibles/ ، سفر الخروج)؛ وفي موضوع البعث يوم القيامة يقدم

الفصل السابع بالآيات الأولى من سورة القارعة، ربما لأثر وقع كلماتها الشديد على درمنغم، فهي تصور هول يوم القيامة في تناسق مع باقي كلمات السورة الصادمة المفزعة التي تطير لهما القلوب خوفا و هلعا؛ وفي الفصل التاسع : النصرانية والاسلام يستشهد بالآية ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (سورة المائدة الآية 82) في سعي منه لإبراز التقارب بين المسلمين منذ عهد النبوَّة و النَّصارى الأولين الموحدين من الحواريين ومن بقي من المسيحيين على عقيدة التوحيد(درمنغم،2005، ص119)، رغم أن درمنغم يخلط بعد ذلك بين أتباع عيسى عليه السلام الموحدين ومن خرجوا عن عقيدة التوحيد، فيدعو الى تحطيم الحواجز المصنوعة بين الإسلام و المسيحية بقوله((والنور يكفي لتبديد الأشباح و لنعلم أن القوة للعقل وأن النسبي لا ينقض المطلق، و أن الوحي الإلهي يجري على ألسنة الخلق و يتطور مع الزمان و المكان و ان الحقيقة لا تأتينا دفعة واحدة)) (درمنغم،2005، ص 137) .

يستهل درمنغم الباب الثاني بالفصل الحادي عشر بموضع الهجرة النبوية من مكة الى المدينة " عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» وهو من الأحاديث التي يدور حولها الدين وعقيدة المؤمن في إخلاص النِّية لله وحده في كل الأعمال، ويستشهد بقوله تعالى ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ. كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ. وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً. قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (سورة الانعام الآية 125) وقول بطرس وحواريين لعيسى عليه السلام:((هَا نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ)) فقال لهم عيسى عليه السلام:((الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَيْسَ أَحَدٌ تَرَكَ بَيْتًا أَوْ وَالِدَيْنِ أَوْ إِخْوَةً أَوِ امْرَأَةً أَوْ أَوْلاَدًا مِنْ أَجْلِ مَلَكُوتِ اللهِ، إِلاَّ وَيَأْخُذُ فِي هذَا الزَّمَانِ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، وَفِي الدَّهْرِ الآتِي الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ))، وقد ربط درمنغم بهذا المدخل بين إخلاص النِّية لله وحده عند الصحابة وإخلاص الحواريين (درمنغم، 200، ص153)، وفي الفصل الثاني عشر حول فضل المدينة (درمنغم،2005، ص165 يستشهد بحديث البخاري «إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى المَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا » (البخاري،1422، ج3 ص21) بمعنى أن الإيمان يرجع ويبقى متأصلا ثابتا في المدينة، كما أن الحيَّة إذا خرجت من جحرها رجعت إليه، وفي الفصل الخامس عشر عن اليهود في المدينة(درمنغم ، 2005، ص219) يستهل الفصل بخطاب لليهود مستفتحا بآيات من القرآن منها قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا . قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(سورة الجمعة الآيتين 05 ،06).

يواصل المستشرق درمنغم في عرض الآيات القرآنية في مقدمة فصله عن وقائع أحداث غزوات بدر وأحد وغزوة الأحزاب وفتح مكة، و حجَّة الوداع ، و يفتتح الفصل الثالث و العشرين بقول النَّبي (ص) في خطبة الوداع " اللَّهُمَ هَلْ بَلَّغْت؟ " (درمنغم ،2005، ص327) ، وينهي الفصل الرابع و العشرين بخطاب أبي بكر المشهور الوارد في كتب السير والتاريخ و مصنفات الحديث(درمنغم ، 2005، ص339) الذي أعلن فيه وفاة

النَّبي (ص) بقوله " أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ محمَّدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ محمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ " (البخاري ، 1422، ج5 ص6).

ثامنا-إشادة المستشرق درمنغام بكثير من أحداث السيرة النبوية:

شرح درمنغم مسار السيرة النبوية مخالفا في منهج تحليله المدارس الاستشراقية التقليدية التي كانت تثير الشكوك والشبهات والتأويلات، منها قضية العزلة بغار حراء التي يرى فيها مرحلة ضرورية للتكوين النفسي والوجداني، قبل تلقي الوحي وتحمّل النّبي أعباء الرسالة فيقول((وما كان له أن يستغني عن العزلة ، شأن أقوياء النفوس وذوي الجد من الرجال)) (درمنغم، 200، ص 71).

دافع درمنغم عن مبدأ الجهاد عند المسلمين، فيقول أن هناك أمورا يجب الجهاد في سبيلها والموت من أجلها أحيانا، لما اختل نظام هذا العالم وساده العنف؛ و يسترجع درمنغم ما كان يتعرض له الرُّسل والأنبياء وأتباعهم الموحدين عبر التاريخ، ويوظف حديث النَّبي (ص) لما اشتكى له أصحابه سوء أحوالهم بسبب الفتنة التي سلطها عليهم أهل قريش في مكة، (درمنغم،2005، ص183،184) ، وجاء في الحديث «كَانَ الرَّجُلُ فِي مَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» (البخاري،1422، ج 4 ص201).

يسجل درمنغم نزول الوحي على الرَّسول (ص) دون أن يسمي الملك جبريل عليه السلام، ويسرد ما تبع ذلك من أحواله ودعم زوجته خديجة له (درمنغم،2005، ص ص78 ،79، 80) ، وينوه بتمكنه من تنظيم شؤون العبادة في جزيرة العرب، وإقامة مجتمع مدني على اسس جديدة بعيدة عن العصبيات، و هو إنجاز لم يقم به مؤسسو الديانات إلا نادرا، وينوه بالتحالف الذي أنشأه بين المهاجرين والأنصار والقبائل اليهودية وحلفائها ومن بقي مشركا من الأوس والخزرج على التعاون والدفاع على المدينة وضمان حرية العبادة لأهل الكتاب من اليهود مع حقّ الحماية ومشاركتهم في نفقات الحرب، وألا يتحالفوا أو يحاربوا إلا بإذن الرَّسول(ص) ويتحاكموا إليه في المنازعات (درمنغم،2005، ص 167)، وأشاد بتحقيقه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كما سجلته المصادر الاسلامية (درمنغم،2005، ص ص167، 168).

نقل المستشرق درمنغم حادثة الإسراء والمعراج معتمدا على النصوص المصدرية التي تروي أن المعجزة حدثت بالجسد و الروح، و لم ينقل أراء بعض أهل العلم المسلمين من سنة وشيعة التي تقول أن الإسراء والمعراج كان بالروح دون الجسد، (درمنغم،2005،ص ص146 فما بعدها) ؛ ولم ينكر في سرده ملحمة هجرة الرَّسول (ص) روايات نسج خيوط العنكبوت على مدخل الغار وعشّ الحمامة ونماء الشجرة التي أقنعت قريش باستحالة وجود الرَّسول (ص) وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الغار ويعتبرها منها الخوارق(درمنغم،2005،ص 161).

ندرك من خلال رأي درمنغم في بعض أحداث الهجرة أنه رغم تأثره بالمنهج الاستشراقي منذ عصر التنويري في انكار أو التحفظ في تصديق الكرامات والمعجزات فإنه يظهر إيمانا بالمعجزات والكرامات التي يكون متأثرا

بتربيته المسيحية التي تثبت كرامات القدسين، وهو لا ينفيها عن المسلمين ربما لاحتكاكه وتأثره بهم خاصة رجال التصوف في الجزائر و هو يخالف بذلك ما صرح به في المقدمة .

عن عفوه وتسامحه مع قريش عند فتح مكة يقول درمنغم ،((وكان حبُّ العفو آخذ من نفس النَّبي الغالب كل مأخذ، فقد قرَّت عين النَّبي بفتح مسقط رأسه ، فصار لا يفكر في غير تأليف القلوب بالإحسان كما أمره القرآن)) (درمنغم،2005، ص 324)؛ وأشاد درمنغم بأخلاق الرَّسول (ص) مثل الصدق والأمانة والعفو وغيرها من أخلاق الأنبياء، مخالفا في ذلك كثير من المستشرقين المتعصبين، و يبدي إعجابا عندما يتكلم عن مواقفه ومعاملاته في السلم والحرب (درمنغم،2005، ص ص 167-179) ،فمما نقله عن أوصافه قوله((كان النّبي قوي الروح شديد الحزم مروع القامة)) ويضيف ((فيبدو تحت العمامة وضيئا جليلا حليما، وكان النَّاظر إليه يشعر بأنه، وهو الموهوب خُلق للقيادة وليُطاع طاعة عمياء، فوجد الأنصار فيه المولى)) (درمنغم،2005،ص 22).

تاسعا-العلاقة بين الإسلام والمسيحية في نظر إميل درمنغم:

يقر درمنغم بالفساد الذي كان عليه أغلب المسيحيين في القرن السابع من الميلاد ويصف فرقهم ومذاهبهم بالضلال، و يدعي أن النَّبي (ص) و المسلمين في صدر الاسلام لم يكونوا على معرفة إلا بهذه الفرق التي انحرفت بفعل ما دسه اليهود من قضايا عقدية منحرفة (درمنغم،2005، ص 133)، ويبدي توجها نحو التقريب بين المسلمين والمسيحيين الأولين أتباع عيسى عليه السلام الموحدين، فيتكلم عن تشابه مسار الفئتين المؤمنتين فكلاهما تعرض للاضطهاد والتعذيب، وأحب حياة الزهد واجتهد في القيام بنوافل الصلاة والصيام والصدقة، وكلاهما أحب نيل الشهادة في سبيل العقيدة (درمنغم،2005، ص 128)، لكنه في نفس الوقت يُدخل القارئ في التباس و نقاش جدلي فردي (monologue)، فيطرح القضايا العقدية الخلافية بين المسلمين ومن غيّروا وانحرفوا بعد النَّصارى الموحدين، خاصة ما تعلق بولادة المسيح عليه السلام وطبيعته وحقيقة صلبه، فيحاول أن يقنع نفسه وغيره بوجود بعض التطابق بين العقيدة الإسلامية والمسيحية في صدر الاسلام بعد انحراف هذه النحلة عن التوحيد الذي كان عليه الحواريون والأجيال الأولى من النصارى (درمنغم،2005، ص ص130، 131)، ويُحَمِّل القرآن تأويلا باطلا أن هناك تطابق بين الإسلام والمسيحية التي تؤمن بطبيعتين لعيسى عليه السلام فيقول ((والقرآن يكون بذلك قد عارض فرق النصرانية الضالة، لا النصرانية الصحيحة التي ترى طبيعتين في شخص واحد)) (درمنغم،2005، ص 132).

يفند القرآن اللبس الذي وقع فيه درمنغم في كم من آية أشادت بالنَّصارى الذين بقوا على التوحيد منذ عهد الرَّسول عيسى عليه السلام الى زمن نبوَّة محمَّد (ص)، نكتفي بقوله تعالى﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسول تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾(سورة المائدة الآيتين 82،83)، وسبب نزول الآيتين زيارة وفد من الرهبان والقساوسة الى النَّبي (ص) لفهم حقيقة الدعوة الإسلامية وقد وردت القصة في كثير من مصنفات السيرة والتفسير والحديث.

عاشرا-تقييم و نقد كتاب السيرة النبوية لإميل درمنغم:

يرى الشاعر الأديب والسياسي المصري محمَّد حسين هيكل في مقدمة كتابه "حياة محمَّد" أن درمنغم من المستشرقين الذين تعرضوا لحياة النَّبي (ص) بشيء من الانصاف(هيكل، د ت ط، ص 29)، واستشهد بآرائه التي وظفها للردَّ على بعض حملات التشويه التي طالت الإسلام والمسلمين وشخص النَّبي (ص)، ويرى الباحث عادل زعيتر في مقدمة ترجمته لكتاب "شخصية محمَّد السيرة والمسيرة أن تأليف درمنغم من أهم الكتب اعتدالا التي ألفها الغربيون عن الرَّسول (ص)، رغم أنه لم يخل من زلات كثيرة (درمنغم،2005،ص9)، ويقول الباحث حسين عزوزي أن درمنغم هو من فئة المستشرقين المستنيرين الذين صدحوا بالحقيقة حول أخلاق وسيرة الرَّسول (ص)، وأول من حاول التنصل من طابع الكتابات العدائية التي ألفها المستشرقون عن الرَّسول (ص) (عزوزي،2018، ص ص18، 34).

خاتمة:

كان اميل درمنغم حقيقة من فئة المستشرقين المستنيرين المعتدلين في سرد السيرة النبوية معتمدا على المصادر الإسلامية الأولى، رغم أنه لم يوثق الأحداث بدقة منهجية البحث العلمي التي تقتضي وضع الإحالات في هامش الصفحات، لهذا فإن الكتاب يحتاج بعد ترجمته إلى تحقيق رواياته التي تضم كثيرا من الروايات المشبوهة وغير الصحيحة .

يمكن تصنيف إميل درمنغم ضمن الباحثين المسلمين الذي اتخذوا طريق النقد العقلي منذ مطلع القرن العشرين خاصة مثل محمَّد عبده ومدرسته المتأثرة بالمناهج الغربية و كتاب نصر دين ديني.

أقرَّ درمنغم بالفساد والانحراف الذي كان عليه أغلب المسيحيين في زمن البعثة و صدر الإسلام ويصف فرقهم بالضلال، و ينسب هذا الانحراف في عقيدة التوحيد لدسائس اليهود.

يرى درمنغم في تقييم عام أن نظرة الغرب بقيت تحمل الأحقاد والخرافات التي حيكت في وصف الإسلام والمسلمين (ص) .

رغم ما كان يملكه درمنغم من ثقافة واطلاع على المصادر الإسلامية، فان جهله بالعلوم الشرعية في الأصول والحديث خاصة أوقعه في كثير من الزلات التي ألفنا قرأتها في كتب المستشرقين، منها قضايا المقارنات بين المسلمين و المسيحيين منذ بعثة النّبي (ص).

قائمة المصادروالمراجع:

- ابن سعد أبو عبد الله محمَّد بن سعد، (1990)، الطبقات الكبرى، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان.
- ابن عساكر علي بن الحسن ،(1995)، تاريخ دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق الجمهورية العربية السورية .
- ابن كثير، (1976م) ،السيرة النبوية من البداية والنهاية ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان

- ابن هشام عبد الملك ،(1955)، سيرة ابن هشام، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة مصر.
- الأنبا تكلا (موقع) ،06أفريل2022 م ، /https://st-takla.org/Bibles، سفر الخروج 3: 140 .
- البخاري محمَّد بن إسماعيل،(1422)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه ، دار طوق النجاة بيروت لبنان.
- البرزنجي محمَّد طاهر و حلاق محمَّد صبحي حسن، (2007)، صحيح و ضعيف تاريخ الطبري ، دار ابن كثير دمشق بيروت .
- إميل درمنغم ، ترجمة عادل زعيتر، (2005)،الشخصية المحمَّدية السيرة و المسيرة ،الشعاع للنشر و التوزيع، الجزائر.
- الزركلي خير الدين بن محمود ، (2002م) ، الأعلام ، دار العلم للملايين بيروت لبنان .
- الطبري محمَّد بن جرير ،(1387هـ)، تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، دار التراث، بيروت لبنان .
- عزوزي حسين ، (2018)، الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الفرنسية عرض و تحليل، سلسلة الندوات فريق البحث في السنة و السيرة و قضايا الاعجاز ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية سايس، ،شركة العبيكان للتعليم، فاس المملكة المغربية.
- النمنم حلمي ،(11 نوفمبر 200923:12)، إميل درمنغم. زلاّت المحب، مجلة الإتحاد، الإمارات العربية المتحدةhttps://www.alittihad.ae/article/36451/2009)
- هيكل محمَّد حسين ، حياة محمَّد ندار المعارف مصدر،(د ت ط)، حياة محمَّد، دار المعارف القاهرة مصر.
- وكيبيديا ، آخر تعديل يوم 5 مارس 2022، الساعة 13:29. /https://ar.wikipedia.org/wiki.
-

- Boyer Pierre, 1971),Émile Dermenghem (1892-1971) , Bibliothèque de l'école des chartes,Paris France.
- Eugène Lamairesse et Gaston Dujarric , (1887) , la vie de Mahomet d'après la tradition , librairie orientale et américaine Paris , France.
- Janin Raymond , (1937) ,Dinet (E.) et El Hadj Sliman ben Ibrahim, La vie de Mohammed, prophète d'Allah , Revue des études byzantines, Paris France.

- Roger jacques, (1968, n°20), La lumière et les lumières, Cahiers de l'Association internationale des études francaises, pérsée. ,https://www.persee.fr/doc/caief_0571-5865 , 27 déc 2021.
- Sylvestte Lazul , (2008) dictionnaire des orientalistes de langue francaise , Francois Pouyon, (éd),édition karthala Paris France .
- (Wikipedia ,Dermenghem,(2 février 2022 à 18:49), https://fr.wikipedia.org/wiki/.)

الإسلام والدراسات القرآنية من المنظور الإستشراقي - المستشرق جولدتسيهر أنموذجا-

Islam and Qur'anic Studies From an Orientalist Perspective Orientalist Goldzihe- Model-

د.محمد عيشوبة، جامعة عمار ثليجي بالأغواط-الجزائر

m.aichouba@lagh-univ.dz

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى بيان حقيقة الاستشراق وخطره على الإسلام، والعلوم الشرعية، وذلك من خلال تشويه صورة الدين الإسلامي، عن طريق الطعن فيه، وترويج الشبهات التي تهدم أصوله وقواعده، وتلفيق الحقيقة وتدليسها حول تراث المسلمين الشرعي، وذلك أن المستشرقين سلكوا مناهج عديدة في ذلك، وارتكز البحث على كتابات المستشرق جولدتسيهر الذي ذاعت شبهاته في العالم الغربي، وامتدت إلى العالم الشرقي، ليتلقّفها تيار الحداثة، فبيّنا منهجه العام، وكشفنا ما في كتاباته من ضرّ، انطلاقا من الموضوعية العلمية، ودفعا للحجة بالحجة، ومنوّهين بالخطر الذي يحدق بالأمة الإسلامية، لتكون الأمة على بصيره، فتعتبر وتستبصر.

وتوصّل الباحث إلى أنّ الإستشراق هو أحد الأسباب التي توسّع دائرة الكراهية بين الإنسانية، وإن اختلفت الديانات، فهو ضدّ التعايش السلمي.

الكلمات المفتاحية: الإستشراق،الإسلام،الدراسات القرآنية،جولدتسيهر،الشبهات .

Abstract :

This research aims at showing the reality of Orientalism and its threat to Islam and the Islamic sciences by distorting the image of the Islamic religion by challenging it, promoting suspicions that destroy its origins and rules, and fabricating and misleading the truth about the legitimate heritage of Muslims, because orientalists took many approaches to this, and the research was based on the writings of the Orientalist Goldziher, whose similarities spread to the Eastern world, and spread to the Eastern world, to be picked up by the current of modernity. We explained its general approach and revealed the harm in its writings, based on scientific objectivity, the argument, and the threat to the Islamic nation, so that it would be considered and seen.

The researcher found that orientalism is one of the reasons that widens the circle of hatred between humanity, even if different religions, is against peaceful coexistence

Keywords: orientalism. Islam. Quranic studies. Goldziher. suspicions



مقدمة :

الحمد لله منشئ الخلق من العدم، والمحي العظام بعد الرمم، المتفرد بالأولية والقدم، أنزل كتابه هاديا، وأظهر الحق نورا باديا، وأصلّي وأسلم على من أرسله الله لينفذ أمره، ويبيّن شرعه، محمد النبي الكريم، وعلى صحابته أنوار الهدى، وعلى آله ومن اقتفى الأثر إلى يوم الجمع الأكبر، أمّا بعد:

فإنّ الله خلق الخلق، وارتضى لهم الدّين الحق، فقال﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾ [آل عمران19]، وأرسل لهم رسلا دعاة لهذا الدين ، ومجدّدين لأصل الفطرة التي فطروا عليها، وكانت رسالتهم واحدة وهي :﴿ **أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[النحل36]، إلّا أنّهم بعثوا لأقوامهم خاصة، وجاءت الرسالة المحمدية عالمية، عنوانها الرحمة ، ولم يستسغ أهل الكتاب هذه الهيمنة التي وجدوها في كتبهم، فعلموا أنّها واقعة لا محالة، فجمعوا كيدهم لصدّ الطريق عنها بسبل شتى مذ ذلك الوقت وإلى يومنا هذا، إذ نبتت نابتة المستشرقين الذين ورثوا العداوة والحقد عن آبائهم، فحاولوا ضرب قواعد الإسلام بشبهاتهم لتشويهه، والطعن في مصادره الأصلية من قرآن وسنة، ورجم تراث المسلمين العلمي الذي أغنى مكتبات العالم بسمومهم، وكانوا أكبر مكرا وأشدّ دهاء في تغيير منهجهم في كلّ مرة، للوصول إلى أهدافهم.

وعليه، نودّ في هذا البحث أن نبيّن خطر الإستشراق والمستشرقين في تسويد صورة الإسلام لأبناء جلدتهم، ولأبناء الأمة الإسلامية، والخطر أكبر اليوم لما صارت البشرية قبلتها التكنولوجيا الحديثة، فقد آثرت الاختيار على المستشرق المجري جولدتسيهر الذي عرفت كتاباته ودراساته حول الإسلام وعلوم الشريعة رواجا في سوق الاستشراق، فهو كبيرهم الذي علمهم كيفية إلقاء الشبهات.

وتظهر أهمية البحث من خلال إبراز منهج المستشرقين العام حول الدراسات الإسلامية، وما نقّبوا عنه من شبهات بعد تتبعهم للعورات بزعمهم، تحت غطاء البحوث والدراسات العلمية، وارتكز البحث على جهود المستشرق جولدتسيهر ومنهجه في الطعن في الدراسات القرءانية عموما من خلال كتاباته، التي يسعى بها لهدم صرح الإسلام.

وانتظمت إشكالية البحث المعالجة في هذ الموضوع كالآتي:

ماهي أهم مناهج المستشرقين في تشويه صورة الإسلام من خلال الدراسات القرآنية عموما؟ ثم كيف وظّف المستشرق جولدتسيهر شبهاته للتأثير على المدارس الاستشراقية الأخرى؟

واقتضت طبيعة البحث في الموضوع استخدام منهجين أساسيين لمعالجة العناصر البحثية، وهما الاستنباط والتحليل، وذلك بالرجوع إلى كتابات المستشرقين حول الإسلام وعلوم الشريعة، واستخراج أهمّ الشبهات التي تثير الشك والارتياب، ثمّ تحليلها وذلك بالوصول إلى الأهداف المرجوة، ودحضها، والعمل على مقارعة الحجة بالحجة.

أولا- الاستشراق والإسلام، صراع المنهزم:

ونودكمدخل أن نشير إلى حقيقة الإسلام في نفوس هؤلاء المستشرقين، قبل أن نتحدّث عن تصوير الحقيقة حول الإسلام، فشتّان بين الأمرين، فإرجاع الإستشراق إلى حقيقته التاريخية يكشف لنا عن وجهه الحقيقي، ومن فصل بين الأمرين، التبس عليه الأمر، وذلك إمّا أن يزيّن أعمال المستشرقين، أو أن يرجم

أعمالهم بالغيب، وقد نبّه على هذا من عاش معهم وعرف زمرتهم الخبيثة التي ينقلونها لأتباعهم من الغربيين، أو حتى الحداثيين اليوم، وهو مالك بن نبي – رحمه الله- يقول:" قال:" إنّ الجيل المسلم الذي أنتسب إليه يدين إلى هؤلاء المسترقين الغربيين بالوسيلة التي كانت بين يديه لمواجهة مركب النّقص الذي اعترى الضمير الإسلامي أمام ظاهرة الحضارة الغربية، ولكنّنا إذا تصفحنا هذه القضية في ضوء خبرتنا الحديثة وفي ضوء تجاربنا القريبة نجد أنّ هذه الوسيلة لم تقتصر نتائجها على الأثر المحمود في تطور أفكارنا وثقافتنا...فلكي نتصوّر هذا الأثر على صورته الحقيقية في مجتمعنا الإسلامي، يجب أن نعيد هذا الاستشراق إلى مصادره التاريخية" (مالك، دت، صفحة 08).

وبالرجوع إلى النعرات الأولى للاستشراق كفكرة، أو على اعتباره حركة علمية، وجدنا أنّ حقيقة الصراع ديني بحت، أي: بين الإسلام الحق والديانات المحرفة، وهذا الصراع أزلي أبدي، لن ينتهي إلى قيام الساعة، وبهذا علمنا علم اليقين أنّ هؤلاء المستشرقين سيلبسون لباس الضباء، وأنيابهم أنياب الذئاب، فهم يتستّرون تحت غطاء العلم والدراسات الحضارية بين الشعوب، ولكن هدفهم غير ذلك، فهو ضرب الإسلام والمسلمين في دينهم وفي علومهم، وفي فكرهم، فهو يسعون لتشويه صورة الإسلام في نظر العالم لئلا ينتشر.

وعنونت هذا العنصر البحثي – بصراع المنهزم- لأنّنا نعلم علم اليقين، أنّ آخر العهد للإسلام كما أخبرنا رسولنا الكريم صلى وسلم عليه، ووعدنا الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾، [سورة الصف08]، إلّا أنّ أمّتنا ستغفل عن رسالتها في فترة من الزمن، وسيصيبها الوهن، فتتداعى عليها الأمم، وهم منهزمون في هذا الصراع- أعداء الإسلام- ، لأنّ الله ناصر دينه، والخيرية في هذه الأمة لا تنقطع أبدا، قال صلّى الله عليه وسلم عليه:" :" قَالَ: «**لاَ يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**» (البخاري محمد، 1422هـ، صفحة ص:101،رقم ح7311).

وهذه بعض أقوال المستشرقين حول الإسلام:

يصوّر دانيال نورمان الإسلام بأنّه" مزيج مشوّه مستقى من أصول مسيحية ويهودية تلقاها الرسول من أساتذته أحبار اليهود ورهبان النصارى وقسسهم، وصور الإسلام بصورة زندقة، بل ومنبع الزندقات، وفرقة منشقة عن الكنيسة" (عبد الحميد، 1969، صفحة 9)

والمستشرق نفسه صور المسلمين بأنّهم وحوش وأبناء شياطين (عبد الحميد، 1969، صفحة 10)، وما وصفوا به نبيّنا الكريم أشدّ من أن تراه الأعين قبل أن تكتبه الأنامل أو تسمعه الآذان.

ثانيا- العلوم الإسلامية والدراسات الإستشر اقية:

حرّكت الحركة الإستشراقية أقلامها لتسميم العقل الغربي حول المسلمين، وتشويه صورة الإسلام، لئلا يجد الإسلام من أبناء جلدتهم أيّ منفذ، وقد مكروا في تدليس الحقائق، واستعملوا مناهج فكرية دقيقة، ليصلوا إلى هدفهم المنشود، ولذا ركز الاستشراق المعاصر جهوده اليوم مستغلا وسائل الإعلام والتكنولوجيا لتوسيع الهوّة بين الغرب والشرق.

ثالثا- الإسلام المخيف أم الخوف من الإسلام:

وعرفت الحركة الإستشراقية مرحلتين، الأولى وهي الاستشراق القديم، والثانية وهي المعاصر، والمرحلة الأخيرة هي التي تعنينا أكثر، لأنّها الأخطر من حيث المنهج و" التكتيك" حيث جمعت صفوفها، لتواصل على نفس الهدف والغرض الذي سعى إليه آباؤهم وأجدادهم، إلاّ أنّ الاستشراق المعاصر حاول تليين الخطاب، ولذا وجب صدها وردّها وتركيز البحث عليها، لأنّ الفقيه والمفسر ينظر في جديد واقعه، وهذا من فقه الأولويات، يقول محمد حامد الأحمري:" كان الأولى بنا أن ندرس ظاهرة الاستشراق المعاصر، ونحدّدها في مستجداتها، وندرس أعمالها مباشرة، وأعمالها اليوم بخاصة دون إغراق في قديمها... بل تحوّل اليوم إلى عمل سياسي اجتماعي متخصّص يهتم بمراقبة ودراسة الأوضاع السياسية والأشخاص والأحزاب والأفكار السياسية والعوامل الاجتماعية في المجتمعات الإسلامية دراسة وافية، ووضع حلول لها! " (محمد حامد، دت، صفحة 100)

والمستشرقون اليوم يحشدون وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي؛ ليصوروا أنّ الإسلام دين دماء، ليرهب الناس منه، وهذا هو في نظر هؤلاء هو الإسلام المخيف، وفي الحقيقة ما هو إلّا خوف من انتشار الإسلام في الدول الغربية، فأصبح الإسلام يهدّد دياناتهم المحرفة، وانظر اليوم إلى الإحصائيات التي تحصي أنّ تزايد المسلمين من الغربيين يزداد في كلّ يوم، ولذا عملوا حيلا ليبعدوا الناس عنه، ومنها ما يحدثونه من هلع وخوف بسبب التفجيرات، وفي الواقع ما هو إلاّ افتراء، وينسبون كلّ فعل ولو كان من عند متطرّفيهم إلى الإسلام والإسلام منه بريء .

وقد كانت كتاباتهم الأولى توحي بهذا، حينما زعموا أنّ الإسلام انتشر بحدّ السيف (العاني، 1421، صفحة 34) ، وما هذا الافتراء الأخير إلاّ من ذاك.

رابعا- الإستشراق ضد التعايش:

والاستشراق هو المسئول عن كراهية غير المسلمين للمسلمين، وهو سبب لتوسيع الهوّة بين الإسلام وغيره من الديانات، وذلك بإثارته للطائفية، وإحياء نعراتها، ليوهموا أنّ الإسلام دين الاختلاف والتناحر والتقاتل، يقول مطران المبارك اللبناني سنة 1948م في باريس:" إنّ لبنان بلد كاثوليكي، ويحاول المسلمون أن يستعبدوه، كما يحاولون استعباد جميع المواطنين الذين يسكنون معهم في بلد واحد كاليهود في فلسطين، ويجب أن يكون لليهود بلد قومي كي يتمكنوا من العيش الهادئ" (العاني، 1421، صفحة 47) .

وأحسن ردّ على هؤلاء الناعقين، هو ما قاله الشاعر الإنجليزي" روديارد كيبلينغ":" الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان" (الندوي، حديث مع الغرب، 1967م/1387هـ، صفحة 15).

فنحن نرى أنّ الغربيين لا يحبون التعايش مع المسلمين، وهم من يوسّعون هذه الهوّة، ولذلك قال أبو الحسن الندوي:" إنّ هذه الكلمة وإن صدرت عن أديب مات في فجر القرن العشرين، ولكنّها فكرة تغلغلت في أحشاء الشرق والغرب قديما، وتأصّلت جذورها في أدبهما وفلسفتهما....ولا أعرف فكرة أو كلمة أدبية جنت على مصلحة الإنسانية ووحدتها، ومناهج فكرها مثل ما جنت هذه الفكرة – فكرة توزيع الأسرة الإنسانية الواحدة بين الفصيلة الشرقية والفصيلة الغربية" (الندوي، 1967م/1387هـ، صفحة 15).

وما يثبت هذه الفكرة هو ما يحدث للمسلمين في الديار الغربية، من تضييق عليهم، وجعلهم طبقة دون أبناء بلدهم الأصلي، في حين أنّك لو تتبعت التاريخ الإسلامي، لوجدت حقوق هؤلاء مكفولة كما أمر بها الشرع الحكيم.

خامسا- الكتابات العلمية للمستشرقين في ميزان النقد العلمي:

ولكي لا ننتهج نفس منهج المستشرقين في تدليس الحقائق، وتزييفها، ونكون منصفين، وموضوعيين من جانب النقد العلمي لمؤلفاتهم وكتاباتهم حول الإسلام، والعلوم الإسلامية، لنعرف هدفهم الأسمى من ذلك، يجب أن نضع هذه الأعمال في الميزان العلمي، ولكن قبل ذلك نبيّن أنّ مفكري المسلمين انقسموا ثلاث طوائف في موقفهم من الكتابات الإستشراقية، وهي:

المذهب الأول: وهو القبول المطلق، وهو التوجه نحو قبول إسهامات المستشرقين، ويتّسم هذا الموقف، بالتّأثر المباشر والقوي بالمعلومات الواردة عن المستشرقين (النملة، 1998م/1418هـ، الصفحات 205-206).

المذهب الثاني: وهو موقف الرفض: ويؤيّد هذا الموقف الرفض المطلق، فلم يقبلوا أيّ إسهام في الثقافة الإسلامية من أناس لا يدينون بالإسلام، لم يقبلوه على أنّه حجة، وعلى أنّه يقدّم جديدا في المفهوم (النملة، 1998م/1418هـ، الصفحات 210-211).

المذهب الثالث: موقف المواجهة: وهو الموقف القائم على الدراسة والبحث والغوص في إسهامات المستشرقين، والتعرف على مواطن الضعف في هذه الإسهامات، مع معرفة تامة بمواطن القوة في الإسلام (النملة، 1998م/1418هـ، صفحة 223).

وهذا الموقف الثالث هو الموقف الوسط في التعامل مع كتابات المستشرقين، فلا يحكم حكما مسبقا، إلّا ببيّنة ودليل، وهذا هو المطلوب شرعا، لأنّ الرجم بالغيب دون دليل، هو افتراء ولو مع الكفار، وكلّما كشفنا عوراتهم العلمية في كتاباتهم كان الحق معنا، مع العلم أنّ الإسلام حق، ولذا وجب تقسيم كتاباتهم إلى قسمين:

1-ما كان هدفها علمي نزيه:

وهذه فئة قليلة جدا، انطلقت من الدافع العلمي بغرض الوصول إلى الحقيقة العلمية، أو المقاربة العلمية، ولذلك اتّسمت بحوثهم بمقاربة الحقيقة، يقول الباحث حبنة الميداني:" ولذلك جاءت بحوث هؤلاء أقرب إلى الحق، وإلى المنهج العلمي السليم، من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين، بل منهم من اهتدى بدراسته إلى الإسلام، وآمن به، وانتمى إلى الأمة الإسلامية.

على أنّ هؤلاء قلّما يوجدون إلّا حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة ما يمكنهم من الانصراف إلى الدراسات الاستشراقية بأمانة وإخلاص، لأنّ أبحاثهم المجردة عن الهوى الجانح لا تلقى رواجاً لا عند رجال الدين، ولا عند رجال السياسة، ولا عند عامة الباحثين الغربيين" (حبنكة، 1420هـ/2000م، صفحة 132). وهذا الرأي مال إليه الباحث مصطفى السباعي (السباعي، 1399هـ/1997م، صفحة 19).

وهذا ما يوجبه البحث العلمي من الإنصاف، أن لا نسقط حكما واحدا على الجميع، وإن كنا نحذر من بعض المديح الذي يطلقونه، لأنّ غرضه الإيهام وصرف أذهان المسلمين عن هدفهم المنشود، ليصلوا إليه

بطريق آخر، ولكن نحكم على أعمالهم من خلال النّظر فيها، دون إدخال النّيات، لأنّ هذا الأصل فيه مرجعه إلى الذي يعلم ما تكنّ الصدور.

قال أبو الحسن الندوي:" لذلك أعترف بكلّ وضوح وصراحة أنّ عددا من المستشرقين وطاقتهم على دراسة العلوم الإسلامية، وتبنّوا موضوع الشرقيات والإسلاميات دون تأثير عوامل سياسية أو اقتصادية أو دينية، بل لمجرّد ذوقهم وشغفهم بالعلم، وبذلوا فيه جهودا ضخمة، ويكون من المكابرة والتقصير أن لا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها" (الندوي، مقالات وبحوث حول الاستشراق والمستشرقون، 1423هـ/2002م، صفحة 29).

2-محاكمة الأعمال العلمية للمستشرقين التي هدفها إثارة الشبهات أو هدفها علمي مشبوه:

وجلّ كتاباتهم العلمية، لا تمدّ بأيّ صلة للعلم، لأنّ من مبادئ العلم النزاهة والموضوعية، وأغلبها فاقد لهذا الشرط، ولذا غلب عليها التدليس، والتحريف والتصحيف، لأنّهم غلّبوا هدفهم على العلم، وهو الطعن في الإسلام، وعلوم الشريعة، فراحوا يتصيّدون الثغرات، ويتّبعون العورات، يقول أبو الحسن الندوي:" ورغم هذا الاعتراف بفضلهم وعلمهم لا يمنعني شيء من أن أصرّح بأنّ طائفة كبيرة من المستشرقين كان دأبها البحث عن مواضع الضعف في الشريعة الإسلامية، والحضارة والتاريخ الإسلامي، وإبرازها لأجل غاية دينية أو سياسية، فكان شأنهم في ذلك ، شأن من لايرى في مدينة ذات بهجة ونضارة، ونظام ونظافة، إلّا مزابل ومراحيض ومستنقعات، كما هو دأب مفتّش الأوساخ والمياه المصرفة، في البلديات وأمانات العواصم، فيرفع بذلك تقريرا إلى الجهات المختصة لا يجد فيه القارئ إلاّ الحديث عن العفونات والأوساخ، فنرى كثيرا من المستشرقين يركزون كلّ جهودهم ومساعيهم، على تعريف مواضع الضعف في تاريخ الإسلام، ومجتمعه ومدنيّته" (الندوي، مقالات وبحوث حول الاستشراق والمستشرقون، 1423هـ/2002م، صفحة 30) .

ويقول حبنكة الميداني:" إلّا أنّ أغلب هؤلاء المستشرقين يضعون في أذهانهم فكرة معينة يريدون تصيد الأدلة لإثباتها، وحين يبحثون عن هذه الأدلة، لا تهمهم صحتها بمقدار ما يهمّهم إمكان الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصية" (حبنكة، 1420هـ/2000م، صفحة 144).

سادسا-منهج المستشرقين العام في الدراسات الإسلامية :

وبعد المحاكمة العلمية لكتابات المستشرقين، والتي أسفرت عن نياتهم السيئة اتجاه الإسلام وعلوم الشريعة، نستطيع أن نبيّن منهجهم العام في تناولهم للدراسات الإسلامية، والذي يظهر من خلال التتبع لها، وعليه، فالمنهج العام الذي اتخذوه سبيلا، هو التركيز ابتداء على أصول الإسلام في التشكيك والطعن وإيراد الشبهات، ومن بعد يتدرجون في فروع الشريعة، ومنها:

-الطعن في الإسلام كدين مرتضى من عند الله، ختم الله به الرسالة الجامعة على لسان محمد صلى وسلم عليه.

-الطعن في نبوة محمد صلى وسلم عليه.

-التشكيك في مصدرية القرآن الكريم.

-الطعن في الحديث النبوي

-الطعن في اللسان العربي، وفي التاريخ الإسلامي وفي التراث الحضاري للمسلمين عموما.

وهذه أهمّ المرتكزات في إثارة الشبهات، والطعن في بعضها يستلزم الطعن في غيره، ولكن الأولويات لها اعتبارها، أمّا منهجهم في إثارة الشبهات فيها، فاعتمادهم على تحريف النصوص، وتشويه الحقيقة، والتصحيف، والتعويل على أقوال بعيدة، أحيانا موضوعة، يقول الباحث محمد أبو ليلة:" ومن هذه الطرق انتقادهم الأحاديث النبوية الصحيحة، واعتمادهم على الكثير من مادة أدب السيرة النبوية والمغازي غير صحيحة، واعتمادهم على الأحاديث الضعيفة، والحكايات التاريخية الملفّقة، والروايات المتعارضة في ظاهرها دون بذل أيّ جهد للتوفيق بينها في إطار الروايات الصحيحة والمسلمات الإسلامية، ونحو ذلك، وقد قادتهم أو ساعدتهم هذه الخطة المسبقة إلى نتائج غير صحيحة علميا، وأحيانا غير مقبولة عقليا، وليس لها أدنى ارتباط بمقدماتها" (أبو ليلة، 1423هـ/2002م، صفحة 401).

وتتبع نقاط الضعف في الدراسات الإسلامية هو مهمتهم وغايتهم، ولذا يقول المستشرق" مونتكومرى واط" :" جدّ الباحثون منذ القرن الثامن عشر في تعديل الصورة المشوهة التي تولّدت في أوربا عن الإسلام، وعلى الرغم من الجهد العلمي الذي بذل في هذا السبيل في أوربا لا تزال قائمة، فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتنابها" (سعدون، 1431هـ/2010م، صفحة 96).

سابعا- جولدتسيهر ومنهجه في الدراسات القرءانية:

وقد ركّزت في هذا البحث على المستشرق جولدتسيهر في دراسته للإسلام وعلوم الشريعة، نظرا لما وجدته في كتاباته التي تمتاز بالدقة في طرح الشبهات، وهذا ينمّ على أنّه سخّر حياته في دراسة العلوم الشرعية بهدف تتبع العورات، ومواطن الضعف في نظره، ولا نبخس الرجل إذا وصفناه أنّه يطّلع قبل أن يكتب، وهذا ليس مدحا له، بل تحذير من كتاباته؛ لأنّ المسلم ما لم يكن مطّلعا على علوم الشريعة، لا يحسُن به أن يقرأ له دون أن يحصّن نفسه من شرّ سمومه، وهذا ليس تخويفا منه، وإنّما طبيب القوم هو العليل، فمشكلتنا أنّ أبناء الأمة الإسلامية، تغرّبت عندهم العلوم الشرعية وقطعوا صلة الرحم بينها وبينهم.

1-جولدتسيهر ورضاعته للاستشراق- مستشرق برتبة قسيس: وهو مستشرق مجري ولد سنة 1850م- ودرس في برلين، كتب رسالة الدكتوراه عن شارح للتوراة يهودي الأصل يسمى" تنخوم أورشليمي"، زار بلاد المسلمين كمصر وسوريا (سعدون، 1431هـ/2010م، صفحة 173)، وهو من أسرة يهودية، درس الاستشراق على يد فليشر، ولمّا عاد من البلاد الإسلامية، زاد اهتمامه بدراسة العلوم الإسلامية، توفي ببودابيست سنة 1921م (النبهان، 1433هـ/2012م، صفحة 83).

ولا أدري لما بالغ في إطرائه الباحث عبد الرحمن بدوي حينما وصف منهجه، فقال:" أنّ منهجه منهج استدلالي لا استقرائي، وهو يعتمد على البصيرة والوجدان، ثم يقول: ومع أنّ جولدتسيهر مع استخدامه الوجدان والاستدلال فإنّه كان معتدلا.وهكذا كان منهج جولدتسيهر منهجا وسطا استطاع به أن يتجنّب خطرين: خطر الضيق والسطحية في المنهج العلمي بالمعنى الدقيق، وخطر الإفراط في السعة والتأويلات البعيدة الخيالية في المنهج الوجداني الاستدلالي.

والأمر الثاني، هو قوله: أنّه كان بارعا في كلّ ما يتصل بالمقارنات براعة عظيمة" (بدوي، 1993م، صفحة 199).

والحق أنّه لا يستحق ما قاله عنه عبد الرحمن بدوي، نعم كان له نوع من المكر والدهاء في إيراده للشبهات، وهذا كما ذكرنا سابقا ينمي عن سعة اطّلاعه على العلوم الشرعية والتدقيق فيها، ولكن الذي يقرأ له بتمعّن، وهو من أهل التخصص، فقد أعظم القول، وافترى أكاذيب من عنده، ومن شاء فليرجع لكتابيه" العقيدة والشريعة، ومذاهب التفسير الإسلامي".

2-منهجه في الطعن في القرآن والحديث:

أ/ منهج استعطاف العقل بإيهام التعارض:

والذي يرجع إلى كتاباته في الكتابين" العقيدة والشريعة، ومذاهب التفسير الإسلامي"، يجد أنّ جولدتسيهر يحاول الطعن والتشكيك في الوحيين، والعلوم الشرعية من فقه وتفسير وعقيدة عن طريق إيجاد التناقض العقلي، وهذا يثير غرابة القارئ، والباحث في الإسلام وعلومه، فيقول مثلا في مقدمة كتابه مذاهب التفسير:" فلا يوجد كتاب تشريعي، اعترفت به طائفة دينية اعترافا عقديا على أنّه نص منزل أو موحى به، يقدّم نصه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد في نص القرآن" (جولدتسيهر، 1374هـ/1955م، صفحة 4).

وهذا الرأي سار عليه في جميع شبهاته التي أوردها حول العلوم الشرعية، لأنّه ينطلق من إثبات التناقض والتضارب الذي وصف به القرآن الكريم، وهذا ليصل إلى غرض أنّ هذا القرآن ليس من عند الله، وإنّما لفقه محمد صلى وسلم عليه من عند أحبار ورهبان أهل الكتاب، وإلّا لما وجد فيه التضارب والاختلاف الحاصل بين أفراد الأمة علما ومنهجا.

ويركز على مبدأ التناقض بين الوحيين، فيرى أنّ القرآن لم يكمل موضوعاته، وإنّما كمّلتها السنة النبوية، وهذا يوهم به أنّ التشريع لم يغط احتياجات الأمة في كلّ عصر ولا سيما بعد توسع الرقعة الإسلامية، يقول :" والقرآن نفسه لم يعط من الأحكام إلّا القليل، ولا يمكن أن تكون أحكامه شاملة لهذه العلاقات غير المنتظرة كلّها ممّا جاء من الفتوح؛ فقد كان مقصورا على حالات العرب الساذجة، ومعنيا بها، بحيث لا يكفي لهذا الوضع الجديد" (جولدتسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، دت، صفحة 47).

وهو عين المبدأ في دراسته للفقه، فتجده يتصيّد الأقوال من مذهب إلى مذهب، ويوهم الاختلاف بين الأئمة، بأنّه اختلاف ناشئ عن هوى، أو اختلاف في أشياء ليس من ورائها كبير فائدة.

ب/منهج التأثر والتأثير (إبراهيم خليفة، 1435هـ/2014م، صفحة 73):

وهذا بزعمه أنّ الإسلام والعقيدة قد تأثّرت بفعل مؤثرات خارجية ساهمت في نشوئها واكتمالها، يقول عن الإسلام:" ومنهاج هذه الدراسة لا يدخل فيه بحث التفاصيل الخاصة المذهبية لهذا الدين، والذي علينا هو أن نلقي ضوءا على العوامل التي أسهمت في تكوينه التاريخي، ذلك أنّ الإسلام كما يبدو عند اكتمال نموه، هو نتيجة تأثيرات مختلفة تكوّن بعضها باعتباره فهما وتصورا أخلاقيا للعالم" (جولدتسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، دت، صفحة 10).

ويقول في موضع آخر:" والوحي الذي نشره محمد صلى وسلم عليه في أرض مكة لم يكن ليشير إلى دين جديد، فقد كان تعاليم واستعدادات دينية نمّاها في جماعة صغيرة، وقوى في أفراد هذه الجماعة فهما.." (جولدتسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، دت، صفحة 17).

وفي العقيدة هو الذي يرى بتأثر العقيدة وتطورها ونموها، فقد عقد بابا سماه: " نمو العقيدة وتطورها" (جولدتسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، دت، صفحة 77).

ج/منهج التأويل والقياس الفاسد

وفي الحديث يبرز أنّ الأحاديث معظمها من عند الصحابة، ولم يقلها النبي صلى وسلم عليه، ويعتمد في ذلك على تأويلات بعيدة يحمل عليها الأقوال المأثورة، فيقول مثلا:" وهكذا لعب وُضاع الحديث دورهم أمام الناس، وقد اعترف أنس بن مالك، الذي صاحب الرسول عن قرب عشرات السنين، عندما سئل عمّا يحدّث عن النبي صلى وسلم عليه، هل حدّث به فعلا؟، فقال: ليس كلّ ما حدّثنا به سمعناه عن النّبي، ولكنّنا لا نكذّب بعضنا...ويذكرنا هذا بما جاء في التلمود، من أنّ كلّ ما يقوله أحد التلامذة في العصور المتأخرة موافق بما أخبر به موسى في سينا" (جولدتسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، دت، صفحة 55).

والحقّ أنه يتعمّد أن يتصيّد الآثار التي تخدم تأويلاته، وقياساته الفاسدة، ويحاول أن يختارها بدقة، لتؤتي ثمرتها من التأثير، وهذا ما ينطبق على المثال السابق، إذ عضّد قوله بما قاله خادم رسول الله مدّة طويلة. وهو الأمر نفسه لما تحدّث عن الإسرائيليات ودخولها للحديث النبوي، قال:" ودخل الإسلام كنز كبير من القصص الدينية؛ حتى إذا ما نظرنا إلى المواد المعدودة في الحديث، ونظرنا إلى الأدب الديني اليهودي؛ فإنّنا نستطيع أن نعثر على قسم كبير دخل الأدب الديني الإسلامي من هذه المصادر اليهودية" (جولدتسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، دت، الصفحات 52-51).

د/الاعتماد على المصادر و المظانّ الموهومة لتدليس الحقيقة:

والمتأمّل الفاحص من أهل التخصص يدرك أنّ المستشرقين عموما يعتمدون على مصادر موهومة في دعم آرائهم، وممّا وقفت عليه أنّهم حال نقلهم يبترون الحقائق ولا ينقلونها كما هي، والمثال عن ذلك ، يقولون أنّ رسول لقي ورقة بن نوفل وبحيرا الراهب وأخذ عنهم، ولكن يقطعون الحديث ويوردون جزءا منه؛ لأنّهم لو نقلوه كاملا لوجدنا أنّ في كلامهما تأكيد لصحة النبوة، وهذا ما انطبق على جولدتسيهر في نقله للمعلومات، إمّا يعتمد على الروايات الواهية الضعيفة، أو ينقل من مصادر ليست موثوقة، أو يتصيّد الروايات في المذاهب الفقهية الشاذة ويخرجها على أنّها هي الأساس، لينقض خلاف الرحمة في الفروع على أساس أنّه خلاف هوى، وهكذا في التفسير يتتبع المرويات والآراء التفسيرية الشاذة، فهو يقول مثلا عن حَبر الأمة عبد الله بن عباس:" وكثيرا ما نجد مصادر العلم المفضّلة لدى ابن عباس، اليهوديين الذين اعتنقا الإسلام، كعب الأحبار وعبد الله بن سلام" (جولدتسيهر، 1374هـ/1955م، صفحة 86).

وما ذكره عن ابن عباس لم يشر إلى مصدره، وهل صرح ابن عباس بذلك؟ والمعلوم أنّ الصحابة يعرفون كيف يتعاملون مع الإسرائيليات لورود الحديث فيها، وهي على ثلاثة أقسام، أضف إلى ذلك أنّ ابن عباس ما فائدة الدعاء له في الحديث إذا كان يأخذ التفسير عن كعب الأحبار وعبد الله بن سلام، ثمّ كيف يحيط

بتفسير القرآن من كان على الكتابيين، والمعلوم أنّ القرآن مسيطر ومهيمن على الكتب السابقة، فهذا ضرب من التناقض.

وهذا نموذج من كتابات المستشرقين عن الإسلام، وهو نموذج لمستشرق يقال عنه أنّه التزم بالموضوعية في أفكاره، ومن القلائل الذين حظيت دراستهم بمكانة متميّزة، ومع هذا؛ فإنّ آراءه لا يمكن أن توصف بالموضوعية ولا الحياد (النبهان، 1433هـ/2012م، صفحة 91).

وهذا غيض من فيض شبهات المستشرق جولدتسيهر، حول ما أورده عن الإسلام، والعلوم الشرعية، تحت غطاء النقد العلمي، والباحث عن الحقيقة، والذي أساء إلى الدين الإسلامي وعلوم الشريعة بدافع الحقد والكراهية وسواد القلب، وإن كان الأمر قلبيا، ولكن سمومه ظهرت على سواد صفحاته المكتوبة.

ثامنا- مستقبل الإسلام وصورته مع الإستشراق المعاصر:

من حقّ المسلمين أن ينافحوا عن دينهم وعقيدتهم، لمّا رأوا تهجما كبيرا من قبل المستشرقين، وهذا ليس تحيّزا ولا دعوة للكراهية والعنف، وإنّما الجروح قصاص، وهذا من الجهاد المأمور به، وهو جهاد القلم والفكر، والإسلام يحترم الآخر- بمفهوم العقيدة- ويدعو للتعايش، قال تعالى : ﴿**وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [سورة يونس25].

ولا خوف على الإسلام من كيد هؤلاء المستشرقين والغربيين المتطرفين؛ لأنّ الله حافظ دينه، ولكنّ الخوف من أبناء الأمة أن تغلب عليهم الدنيا وشهواتها، وندعو أبناء الأمة الإسلامية في الديار الغربية، أن يقدموا أحسن صورة عن الإسلام بما فيه، وليس بالتكلّف، ولا بالفهم العقيم السقيم، وليعلموا أنّ الإسلام دين الرحمة والتسامح والتعايش، وإن اختلفنا معهم في المنهج والعقيدة، وليحذروا على أبنائهم وأنفسهم من المدارس الاستشراقية على اختلاف معتقداتها، فإنّ المناهج تجددت عندهم، والطرق توسعت ليصلوا إلى أهدافهم.

خاتمة:

بعد مناقشة العناصر البحثية التي حاولنا الإبانة فيها عن مدى خطورة الكتابات الإستشراقية على تشويه صورة الإسلام والمسلمين في أعين الغربيين، ومحاولة تشكيك المسلمين في دينهم وتراثهم العلمي، أثمرت هذه الدراسة البحثية بعض النتائج نجملها في النقاط التالية:

- الكتابات الغربية عن الإسلام والمسلمين، هي كتابات غرضها صراع ديني بحت، دعائمها الاستشراق ومدارسه.
- تحيّز الكتابات الإستشراقية عن الموضوعية العلمية في النقد للعلوم الإسلامية، ومنها كتابات جولدتسيهر.
- تلوّن المدارس الاستشراقية بتغيير مناهجها في الطعن في الإسلام عن طريق استخدام الإعلام ومواقع التواصل والتكنولوجيا للتأثير.
- توحيد جهود علماء الأمة هو سبيل أمثل للحدّ من خطورة الاستشراق المعاصر.

توصيات:

تخلص الدراسة إلى بعض التوصيات التي تراها جديرة بالنظر فيها آنا ومآلا ومنها:

- ضرورة تبصير أبناء الأمة الإسلامية في الغرب وفي أرض الإسلام بما تحيكه المخططات الإستشراقية لتعتبر وتستبصر.
- ضرورة إبراز الدور الفعال للمجمعات الفقهية ودور النشر والجمعيات والمؤسسات الفاعلة بعملها على أرض الواقع تطبيقا لا تنظيرا، ومنهم المسلمون في الديار الغربية لتقديم أحسن صورة عن الإسلام.
- تقصيد الجهد، وتنظيم الأعمال العلمية للردّ على الكتابات والإساءات الإستشراقية للإسلام لتؤتي أكلها وثمرتها.

قائمة المصادر والمراجع:

1) الكتب:

*القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

- أبو ليلة ,م .م1423) .هـ2002/م .(القرآن الكريم من المنظور الإستشراقي-دراسة نقدية تحليلية .-(ط .1 مصر :دار النشر للجامعات) .
- البخاري محمد ,ب .إ1422) .هـ .(صحيح البخاري) ط .(1ب .ن .تح:محمد زهير (.,دار طوق النجاة.) .
- السباعي ,م1399) .هـ1997/م .(الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم .ط .(2المكتب الإسلامي) .
- العاني ,ع .ا .(1421) .الاستشراق والدراسات الإسلامية .ط .(1دار الفرقان.)
- النبهان ,م .ف1433) .هـ2012/م .(الاستشراف -تعريفه -آثاره -مدارسه .-دط .(د :منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافية-إيسيسكو.)
- الندوي ,أ .ا1967) .م1387/هـ .(حديث مع الغرب ط .(1بيروت :دار الإرشاد.) .
- الندوي ,أ .ا1423) .هـ2002/م .(مقالات وبحوث حول الاستشراق والمستشرقون(.ط .1)ا .عبد الماجد (., دمشق :دار ابن كثير.)
- النملة ,ع .ب1998) .م1418/هـ .(الإستشراق والدراسات الإسلامية-الاستشراق والمستشرقين ومصدريتهم ط .(1الرياض-السعودية :مكتبة التوبة..)
- بدوي ,ع .ا1993) .م .(موسوعة المستشرقين .ط .(3بيروت -لبنان :دار العلم للملايين.)
- جولدتسيهر ,إ) .دت .(العقيدة والشريعة في الإسلام دط) .(م .محمد يوسف ,و .ع .القادر ,ع .ا .وعبد العزيز (.مصر -وبغداد :دار الكتب الحديثة-ومكتبة المثنى.) .
- جولدتسيهر ,إ1374) .هـ1955/م .(مذاهب التفسير الإسلامي .دط .(مصر -بغداد :مكتبة الخانجي ومكتبة المثنى) .
- حبنكة ,ا1420) .هـ2000/م .(أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها -التبشير -الاستشراق -الاستعمار -دراسة وتحليل وتوجيه .)ط .(8دمشق :دار القلم.

- سعدون ,ا1431) .هـ2010/م .(الإستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية. ط .(1عمان -الأردن :دار المناهج..)
- عبد الحميد ,ع .(1969) .المستشرقون والإسلام .جامعة كامبريج ,بغداد :مطبعة الإرشاد.
- مالك ,ب .ن) .دت .(إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث .دط.

2/المجلات

- محمد حامد ,ا) .دت .(مجلة البيان- المنتدى الإسلامي- 100 ,(87) 87 ,-.

3/ الرسائل الجامعية

- إبراهيم خليفة ,ع .ا .(موقف جولدتسيهر من العقيدة والفرق والدعوات الإصلاحية-1435) .-هـ2014/م ماجستير .جامعة أم القرى-.السعودية.

ظاهرة الاستشراق: قراءة في تجلياتها في الأدب العربي وتمظهراتها في الثقافة الإسلامية.

Orientalism Phenomenon: Reading in their Manifestations in Arabic Literature and .their Appearances in Islamic Culture

د.لامية طالة، جامعة الجزائر3، الجزائر
talla.lamia@univ-alger3.dz



مثّل الاستشراق تيارا فكريا، في الدراسات المختلفة عن بلاد الشرق والبحث عن علومه وعقائده وآدابه وثقافته فأسهم في صياغة التصورات الغربية، على العالم العربي الإسلامي واحتل حيزا مهما من تاريخ البشرية ومن الحياة العربية الإسلامية، فقد درس الاستشراق الثقافة العربية، من جميع جوانبها.

فقد اهتم المستشرقون بدراسة آدابنا العربية ورأوا فيها أمرا حتميا لفهم حياتنا ونشاطنا، وفنوننا ويمكن إرجاع هذا الاهتمام إلى أسباب عديدة أولها صلة هذا الأدب بالإسلام، وأثره على الآداب المختلفة فالأدب العربي متصل بالقرآن الكريم والفكر العربي الإسلامي عامة، ونظرا للأهمية البالغة للاستشراق وأبعاده الفكرية والتاريخية وتأثيره على حضارتنا، فقد تضاربت أراء المفكرين والأدباء العرب اتجاهه فانقسموا على أنفسهم بين الرافضين والمؤيدين له ولكل فريق مبرراته المنطقية.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الأدب العربي، الكتب الغربية، التغريب، الثقافة الإسلامية.

Abstract :

Orientalism is an intellectual stream, in various studies on the Eastern country and in the search for its science, beliefs, literature and culture. It has contributed to the formulation of Western perceptions of the Arab-Islamic world and has occupied an important place in the history of mankind and in Arab-Islamic life.

This interest can be traced to many reasons. First, the connection of this literature to Islam and its impact on different etiquette. Arab literature is related to the Holy Koran and Arab-Islamic thought in general.

Keywords :Orientalism, Arabic Literature, Western Books, Westernazation, Islamic culture .



مقدمة:

عندما أُسر لويس التاسع عشر (19) في دار ابن لقمان بالمنصورة بعد الهزيمة النكراء التي مني بها جيشه، قضى وقته في الحبس يفكر في السبب الذي جعل جيشا قويا، منظما كجيشه يلاقي مثل هذه النهاية المخزية...، ولقد توصّل إلى السبب... إنه العقيدة الإسلامية الراسخة التي تجعل من يقاتل في سبيلها يُقبل على الموت بكل شجاعة وحب، ومن هنا تبلورت في رأسه الكيفية التي يمكن بها تدمير هذه العقيدة كخطوة جوهرية في سبيل

القضاء على العرب واحتلال أراضيهم، ومن يومها بدأ دراسة الإسلام في الغرب بعمق، وأخذت الدراسات الاستشراقية تنتج الكتب عن تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية، متبعة - ظاهريا- المناهج العلمية في النقد، التحليل والاستنتاج... ولكن في الحقيقة تم تزييف صورة الإسلام، وحشو هذه الكتابات بالشبهات الباطلة حول الرسول، أصحابه، خلفاء الإسلام... وهي شبهات عديدة وخطيرة تم جلب الكثير منها من عقائد الجماعات والفرق الشاذة عن الإسلام، وطوال ثلاثة قرون تمت تربية هذه الجراثيم بصبر ودهاء في انتظار اللحظة المناسبة.

ولع الاستشراق بالأدب العربي ويمكن أن يرجع هذا الاهتمام إلى أسباب عديدة من أهمها صلة الأدب بالإسلام وكتابة القرآن الكريم باللغة العربية "فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد من بين الكتب المقدسة الذي ظل يقرأ بلغته الأصلية في كل مكان نزل فيه وهذا في حد ذاته، يضيف إلى معجزة القرآن بعدا آخر لذلك استهدفه المستشرقون في خططهم للقضاء علي الإسلام وذلك بتشويه والتشكيك فيه، باعتباره قاعدة الإسلام الكبرى الذي اجتمع العرب عليه".

وهنا يتضح أن لنا جليا أن الأدب العربي ينفرد أولا من بين الآداب الأخرى باتصاله المباشر بالقرآن الكريم الذي يحاول الكثير الباحثون في كل زمان ومكان الغوص في أسراره ومعرفة مكنوناته.

ثانيا: اهتموا بدراسة الشخصية العربية وفهمها لأن الهوية العربية متصلة بالأدب العربي فهو يمثل ديوانها ويبرز تاريخها وعقليتها، ويمثل انفتاحها وتقديمها "فإن الأدب العربي بالذات يعد صورة لحياة العرب قديما وحديثا، إذ يتبلور فيه ما هو بحياتهم من خصب وجدب وغني، وفقر وفرح وحزن، حتى يمكن القول بأنه يصور لنا بحق صورة صادقة للشخصية العربية، مما يزيد من أهمية دراستها".

ثالثا: تأثير الأدب العربي على الآداب المختلفة ومنها الآداب الأوروبية، كما وقد استسقى المستشرقون آدابهم وعلومهم من الأدب العربي كان ذلك شعرا ونثرا أو غير ذلك.

رابعا: منزلة الأدب العربي بين الآداب العالمية واستمرار تاريخه الأدب العربي شعره ونثره وعلمه وفلسفته، لا يمكن بحال من الأحوال، يقل عن الآداب الأربعة القديمة (اليونانية، الفارسية، اللاتينية، والهندية) بل من غير شك متقدم على اللاتينية والفارسية".

لقد كان للحضارة الإسلامية، دور رائد وهام على الساحة العالمية، "بفضل اكتمال مقومات وعناصر هذه الحضارة، بحيث قدمت للعالم أجمع دورا إنمائيا جديدا، لم يشهد العالم من قبل في كل مجالات والفكر والثقافة، وهذا بفضل اكتمال عناصرها المتمثلة في القرآن الكريم أصل هذه الحضارة، وسيرة الرسول (ص)، وأمة العرب واللغة العربية"؟.

أولا-الاستشراق: المساءلة النظرية للمفهوم:

يطلق مصطلح الاستشراق على الدراسات التي يقوم بها علماء الغرب، لدراسة علوم الشرق وتراثهم، وقد بدأت هذه الحركة بدراسة اللغة العربية والإسلام وانتهت بدراسة علوم الشرق كافة، وأديانهم، ولغتهم، وتاريخهم، وشعوبهم، وثقافتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، وأوضاعهم. وقد خصصت نفقات هائلة، ومعاهد ومدارس، وبرامج في الجامعات الكبرى، لدراسة دور الاستشراق وتطويره ومناقشته وتفعيله. يختلف الباحثون

والمؤرخون في معرفة أول من اهتم بالشرق ودراسته من الغربيين، إلا أنهم قسموا اهتمام الغرب بتاريخ الشرق الإسلامي إلى عدة مراحل تاريخية مهمة.

-مفهوم الاستشراق: أصبح موضوع الاستشراق والمستشرقين من المواضيع التي تشد انتباه علماء الإسلام والأدباء والنقاد العرب ذلك أن الإستشراق أصبح اليوم علما له كيانه ومنهجه، فاتسعت حدوده وتداخلت مفاهيمه وتنوعت أفكاره لذا وجب على كل دارس وباحث أن يحدد مفهوم الاستشراق ويبين دلالاته. تعددت التعريفات والمفاهيم المصطلح الاستشراق (Orientalisme) إلا أنها تظل متقاربة ويطلق مصطلح الاستشراق، عادة على اتجاه فكري يعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة، ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة.

يقول عبد المتعال محمد الجيري أن الاستشراق: "هو دراسة الشرق من حيث الأشخاص والهيئات والتيارات الفكرية والمذهبية في شتى صورها وأنواعها" (الجيري، 1995، ص 13).

وعرف ادوارد سعيد الاستشراق "أن لفظ الاستشراق لفظ أكاديمي صرف والمستشرق هو كل من يدرس أو يكتب عن الشرق أو يبحث فيه وكل ما يعلمه المستشرق يسمى استشراقا (بوزقاو، 2020، ص 06)، لذا أصبح الاستشراق اليوم علما له كيانه ومدارسه وفلسفته، ودراساته، ومؤلفاته، وأغراضه وأتباعه ومعاهده، فصار حقا على الباحث أن يعني بتحديد مفهومه والوقوف على معالمه البارزة وأفاقة ومظاهره وأطواره قبل البحث في أثاره وميادينه.

فالاستشراق بتعبير موجز: "دراسة يقوم بها الغربيون لتراث الشرق وبخاصة كل ما يتعلق بتاريخه ولغاته وآدابه وفنونه وعلومه وتقاليده وعاداته"(الصغير، 1986، ص 11)، لقد عرف الاستشراق بعدة تعاريف من طرف الباحثين العرب والمسلمين فعرفه حسن حنفي بقوله هو "تلك المحاولة التي قام بها ويقوم بها بعض مفكري الغرب للوقوف على معالم الفكر الإسلامي وحضارته وثقافته وعلومه، كما يطلق لفظ مستشرق على المفكرين المنشغلين بدارسة علوم الشرق وتاريخه وحضارته وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية"(حسن، 2004، ص 31).

وفي موضع آخر يقول أحمد غراب في تعريفه لهذا المصطلح "أن الاستشراق دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون كافرون من أهل الكتاب بوجه خاص، للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب عقيدة، وشريعة وثقافة وحضارة وتاريخ ونظما وثروات وإمكانيات بهدف تشويه الإسلام عليهم ومحاولة تشكيك المسلمين فيه وتضليلهم عنه وفرض التبعية للغرب عليهم ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي"(غراب، 1990، ص 07)، ومن هذا القول نستنتج أن الاستشراق من المصطلحات التي ارتبطت في أذهان وفكر ووجدان عموم العرب والمسلمين بأنه مظهر من مظاهر المكر والخداع ومؤازرة الاستعمار.

فالاستشراق "وسيلة لنقل حركة الفهم والفعل من الشرق إلى الغرب وقد ظهرت هذه الحركة الفكرية عن طريق ما يعرف بالمستعمرين الأوربيين الوافدين والمستعمرين بالأندلس بما لهم من ترجمة وشروح وتفسير

وتوليف وتنسيب " (عربي، 1991، ص 135)، لذا أصبح الاستشراق مصطلحا يطلق على الدراسات الغربية الأوروبية اتجاه العالم العربي الإسلامي.

فالاستشراق ظاهرة ثقافية غريبة نشأت في الغرب أوربا أولا اتسعت بعد عبور الأطلس إلى أمريكا، وهي تحمل قيم الغرب ونظامه ومكونات ثقافته جميعا (سخنيني، 2007، ص 21).

لقد اهتم الاستشراق بالعالم الإسلامي اهتماما بالغا وجعل قديمه وحديثه ركيزة بحوثه وعنايته، وسعى المستشرقون للانتفاع بعلوم العرب ومدنيته وحضارة الشرق من خلال كشف أثارهم وكنوزهم ودراسة الغاشم الحية والميتة، وإحياء تراثهم وطبعه وإظهاره والانتفاع منه في مختلف مجالات الحياة، وبذلك صار الاستشراق علما قائما بذاته له مرتكزاته ومعالمه الواضحة.

أما بالنسبة للتعريف الغربي للاستشراق تأخذ بعض الآراء، يقول مكسيم رودنسون Rodinson Maxime "إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق والحاجة ماسة لوجود متخصص للقيام على إنشاء المجلات والجمعيات والأقسام العلمية"، وفي موضع آخر يرى رودي بارت (Rudi Parte) "أن الاستشراق علم يخص بفقه اللغة خاصة وهو علم الشرق أو علم العالم الشرقي "(حسن، 2004، ص 33).

بالرغم من التباين في تحديد مفهوم الاستشراق بصورة ثابتة إلا أن المدلول الشامل لهذا المفهوم هو دراسة الشرق ومعرفته، وهو الجامع المشترك في كل الآراء التي تناقلت الاستشراق وتبينت معطياته ومجالاته.

غير أن مصطلح الاستشراق هذا أصبح فضفاضا نوعا ما، بعد دخول أوربا في العصر الحديث إثر الكشوفات الجغرافية والثورة الصناعية، إذ استولى الأوربيون مدفوعون بالنزعة الاستعمارية، على بلدان وراء البلدان العربية الإسلامية في كل من إفريقيا وأسيا، وادخلوا دراسات اللغات وحضارات شملت الهند والصين وغيرهم، ولهذا توسع مفهوم الاستشراق ليشمل كل لغات البلدان وحضاراتها (المقداد، 1992، ص 21)، فالاستشراق ليس مجرد بحوث أكاديمية أو دراسات بل إنه أبعد من ذلك، فهو نظرة إستراتجية الأهداف سياسية واقتصادية وثقافية ودينية.

ثانيا- اهتمام المستشرقين بالثقافة العربية:

بدأ اهتمام الغرب بالإسلام مع انتشاره، وامتداد حدوده وفتوحاته، حتى بداية وهن الدولة العثمانية في نهاية القرن السابع عشر، ونتيجة لهذه الفتوحات واتساعها أصاب الأوروبيين خوف وقلق تجاه المسلمين وديانتهم. وأدى ذلك إلى تشكل نظرة نمطية محملة بكم هائل من المعلومات المغلوطة والمضللة عنهم، والتي رسخت لديهم قناعات وتوجهات عدائية ومعارضة تجاه المسلمين، في سبيل استهدافهم والنيل من وجودهم (محمد، 2001، ص 08).

استمر هذا الاهتمام بالشرق الإسلامي وبدراسته مع انهيار الدولة العثمانية، وقيام الحركات السياسية الإسلامية التي تسعى لبناء دولة إسلامية راسخة وقوية، وكان أبرزها ما قام به محمد علي من حملات عسكرية توسعية، وخروجه بالحركة الإصلاحية الداخلية في مصر، كما اهتم الغرب بالإسلام مع بروز المسوغات التي توحي بنهضة جديدة للشرق الإسلامي (محمد، 2001، ص 13). فما كان على الغرب إلا أن يشكل قوة ردع وقمع ضدها، عن طريق إخراجها من التراث الإسلامي، في سبيل إخضاعها وضمان تبعيتها المطلقة للغرب.

استغل المستشرقون خوف الأوروبيين من الإسلام وأتباعه، فازداد حرصهم واهتمامهم بالشرق الإسلامي، إذ غدت الحضارة الإسلامية واللغة العربية، من أكثر ما اهتمت به الدراسات الاستشراقية. وقد كان للدوافع الدينية دور مهم وراء هذا الاهتمام، حيث سعت هذه الحركة غالبا للطعن بالإسلام والتنفير منه، وإبعاد المسلمين عنه، وقطع صلتهم بالله، والدفاع عن اليهودية والمسيحية ضد الإسلام، والتشكيك برسالة محمد ونبوته، وبالتراث الإسلامي، وبالقيم والعقائد الإسلامية، لتفريغ المسلمين وتدجينهم والسيطرة عليهم، والتسلط على بلادهم واحتلالها وتحويلها إلى بلاد مستهلكة وغير منتجة، وذلك من خلال الاستيلاء على الموارد والثروات الطبيعية، والأسواق التجارية، واستغلالهم اقتصاديا. وقد سهل الاستشراق للغرب هذه الدوافع الاقتصادية والسياسية الاستعمارية، من خلال دراساته التي عنيت بالحصول على كل المعلومات الخاصة بالبلاد (الميداني، 1975، ص 91).

ومع اختلاف الدوافع وترابطها إلا أنها تصب في هدف واحد، وهو تحويل المسلمين عن دينهم وتشتيتهم، لخدمة الأغراض السياسية، إذ يرى إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" أن الاستشراق نتاج لقوى ونشاطات سياسية معينة (سعيد، 1995، ص 215).

وقد عمل المستشرقون على تحقيق هذا الهدف بإثارة الشبهات والافتراءات حول الإسلام، في محاولة للنيل منه، فسعوا للطعن في عدة قضايا ومعتقدات مثل حقوق المرأة في الإسلام، والرق والوسائل التي اتخذها الإسلام لتحرير الرقيق، بالإضافة إلى الشبهات حول بعض العبادات، كالزكاة والحج، وحول العقوبات في الإسلام، وغيرها (يوسف، 2008، ص 216).

أسهمت أفكار المستشرقين وكتبهم ومؤلفاتهم في ثبات هذه الصور النمطية وما وقع عليها من تحريف أو إضافات، نتيجة للجهل بحقيقة الإسلام وأصوله، أو العداء والحقد تجاهه. ومن أشهر هذه المؤلفات، كتاب "النبي محمد (Mahomet)" لفولتير، و كتاب "الكوميديا الإلهية The Divine Comedy" لمؤلفه دانتي أليجيري Dante Alighieri، وقصص ألف ليلة وليلة" التي ترجمت إلى أغلب اللغات الأوروبية، وغيرها العديد من الموسوعات، والمجلات والمقالات، وحتى المؤتمرات التي تعكس صورة الحضارة الشرقية للعالم الغربي منذ عام 1783 إلى الآن (حجازي، 2005، ص 99).

كما وصف الإسلام زورا في العديد من الأطروحات بالتخلف والانحطاط، وأن أتباعه إرهابيون وشهوانيون وبدائيون، وأن الحضارة الإسلامية هي حضارة نقيضة للغرب الذي يمتلك السلطة والمركزية والتفوق. ومع هذا الاهتمام الكبير بالشرق وعلومه وثقافته وأديانه، لا يمكننا حصر مواقف الاستشراقيين وتوجهاتهم بأنها متعصبة وعدائية، فقد برزت بعض المؤلفات المستشرقين أنصفوا الإسلام بأقلام غربية، مثل المستشرق الفرنسي ناصر الدين دينييه في كتابه "أشعة خاصة بنور الإسلام"، والمستشرق هارديان ريلاند Adriaan Reland صاحب كتاب "الديانة المحمدية"(بن سعيد، 2013، ص 31).

ثالثا: مظاهر الاستشراق في الثقافة العربية:

إن الحضارة العربية نجحت في جميع شعوب قارات العالم وذلك في ظل كيان ثقافي واحد وتراث علمي وفكري مترابط فالحضارة العربية هي اسمى ما عرفت الإنسانية في تاريخها الطويل فهي التي حفظت ما وصل

إلينا من حضارات العالم القديم وأضافت إليه ما أسفرت من جهود أبنائها بعد ذلك قدمته إلى العالم فكان ما قدمته إلى العالم أساسا لقيام حضارة قديمة.

فأدركت الشعوب الأوروبية أن الثقافة العربية لها أهمية كبيرة والثقافة العربية في نظر الغرب "أنها تراث وفلسفة الإنسان والمجتمع"(بن نبي، 2009، ص 88)، إذن فالحضارة العربية هي المحور الأساسي والمحرك العقلي لتاريخ العالم ولذلك وجهت أوروبا أنظارها وصوبت أفكارها وعززت وسائلها لدراسة العالم العربي الإسلامي فركزوا في بداية الأمر على الثقافة العربية.

1- في الأدب العربي: وجد الأوروبيون في حضارة العرب، ما يناسب احتياجاتهم لسد الفراغ الموجود لديهم "وكان في الحضارة العربية من المرونة والواقعية ما يجعلها تناسب الشعوب الأوروبي على اختلاف بلادها وأبنائها وثقافتها"(سمايلوفيتش، 1998، ص70)، ومن هنا كان ميلاد الاستشراق حينما التقي الأوروبيون بالثقافة العربية الإسلامية، المتفوقة على حضارتهم وظلت حركة الاستشراق تنمو وتزدهر، حتى استطاعت تكوين صرحها العلمي.

وظف الاستشراق كل إمكانياته العلمية وطاقاته البشرية والبحثية "فأسس العديد من مراكز البحوث والأقسام العلمية، والمكتبات الضخمة وخصص لها دوريات والنشرات العلمية، وأقام المؤتمرات والندوات (مطبقاني، 2011، ص 13).

استطاع الاستشراق أن يجند، كل طاقاته ووسائله بغية تحقيق أهدافه والوصول إلى مراده إضافة إلى حب الاطلاع على الحضارة العربية الإسلامية، أيما اهتمام فانكبوا على العلوم الإسلامية والأدبية المختلفة، قرآن كريم، سيرة نبوية فقه وحديث، لأن الإسلام هو مادة العرب ومحورهم الأساسي إضافة إلى تطرقهم إلى اللغة العربية وآدابها شعرا ونثرا.

2- ترجمة التراث العربي الإسلامي: عنى الاستشراق عناية كبري بكل ما هو شرقي، وإسلامي وعربي، كل على حدا فركز علم الإسلام فقام بدراسة خصائصه العامة، ظهوره، انتشاره وأصالته، وفعاليته ونظامه وسياسيته، وفلسفته ومفهومة الكوني، واتجاهه الإيديولوجي لأنهم أدركوا أن الإسلام ليس تاريخا قوميا، إنما روحي، ودين لجميع الأمم، ومعتقد روحي سماوي ساهم في صناعة وتشكيل التاريخ العربي ما عنايتهم بالقرآن الكريم فقد درسوه من جميع نواحيه، فبحثوا في تاريخه، وترتيبه، ووحيه وجمعه، و نزوله وأصالته وأسلوب لغته، وفلسفته وفكره باعتباره مصدرا رئيسيا للشريعة ومعاملاتها ومقارنته، بالكتب السماوية الأخرى (مطبقاني، 2011، ص 154-155).

اهتم الاستشراق بالقرآن الكريم فسعى إلى ترجمته إلى عدة لغات، ومحاولة فهم معانيه فظهرت عدة ترجمات ومعاجم مثل المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

"وادعوا بأن القرآن الكريم من عند محمد صلي الله عليه وسلم وأنه نقله عن أحبار اليهود ورهبان النصارى"، سعى المستشرقون للتشكيك في صحة القرآن والطعن فيه حتى ينصرف المسلون عن الاتقاء على هدف واحد يجمعهم ويكون مصدر قوهم ولأنه المصدر الأساسي لهذا الدين (صالح، 1998، ص 95).

وأما عنايتهم بالحديث النبوي فركزوا جهودهم على دراسة تاريخه، وجمعه وتدوينه وحقيقته وكذا عنايتهم بالفقه الإسلامي والسيرة النبوية، فهي أول تطبيق عملي لدين الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا وهي أكثر السير خلودا وأما اهتمامهم بالفقه الإسلامي فكان لمعرفة حياة المسلمين وطبائعهم ومعاملاتهم اليومية (سمايلوفيتش، 1998، ص 165).

كتبوا حول التاريخ الإسلامي، في جميع عصوره لاسيما عصر الخلافة الراشدة، وقد طعنوا في الصحابة لأنهم الصورة النموذجية للمسلمين، فصبوا كل سهامهم ونقدهم للطعن والتشكيك في الدين الإسلامي.

كما قام المستشرقون بدراسات متعددة عن الإسلام والمجتمعات المسلمة ووظفوا خلفياتهم الثقافية لدراسة الحضارة الإسلامية والتعرف على خباياها لتحقيق أعراض الغرب الاستعمارية والتنصيرية، ومن هنا نستطيع الجزم بأن التيار الاستشراقي "تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي والتي شملت حضارته وأديانه وآدابه، ولغاته وثقافته "(النعيم، 2008، ص 21)، بحيث درس المستشرقون الإسلام عقيدة وشريعة ومهما افتروا على الإسلام، فلن ينالوا منه شيئا، إذن فالإستشراق هو حركة منظمة جاءت لدراسة العالم الإسلامي خاصة وثقافته بهدف معرفة عقلية المسلمين، وأفكارهم واتجاهاتهم وأسباب تفوقهم.

كما اهتموا بالحضارة العربية الإسلامية انطلاقا من نشأتها وتطورها وازدهارها وتأثيرها وتأثرها وفضلها على الغرب، في ميادين العلم والفلسفة واختصوا، كذلك بعلوم العرب الإنسانية سعيا منهم للنفاذ إلى أعماق المجتمع العربي، الإسلامي والبحث في منابعه وقضاياه إضافة لدراستهم لنظام الأسرة الإسلامية وغير ذلك من المسائل التي تخص العرب وعلومهم الإنسانية، وأن هذه العناية أسهمت في توجيه الحركة الثقافية في مختلف العلوم فقد درس المستشرقون التاريخ والثقافة والآداب العربية فكانت أعمالهم ثمينة واعتبرت مصادر المعرفة التاريخ العربي، فالاستشراق درس الثقافة العربية في حدودها الطبيعية، وتاريخها ومسارها ومصادرها، بداية وذروة وغاية وماضيها وحاضرها ومستقبلها.

اهتم المستشرقون بدراسة آدابها العربية ورأوا فيه أمرا حتميا لفهم حياتنا ونشاطنا وفنونا، ويمكن إرجاع هذا الاهتمام إلى أسباب عديدة "أولا صلة هذا الأدب العربي بالإسلام وأثره في الآداب المختلفة ومنزلته بين الآداب العالمية واستمرار تاريخه "(سمايلوفيتش، 1998، ص 491).

ولأن هذا الأدب العربي ينفرد أولا من بين الآداب الأخرى باتصاله المباشر بالقرآن الكريم، الذي يحاول الباحثون، في كل عصر أن ينفذوا إلى أسرار جماله وجلاله، إضافة لأنه أدب الشرق الهائل الذي يعبر عن مختلف ألوان الأدب ويتنوع بتنوع، عبقرياته في ميادين النشاط الإنساني المتعددة

فالأدب العربي يعد صورة لحياة العرب قديما وحديثا، إذ تتبلور فيه ما هو بحياتهم من خصب وجدب وغني وفقر، إذ يمكن القول بأنه يصور لنا بحق صورة صادقة، للشخصية العربية مما يزيد من أهمية ودراستها، فعنوا بالنشاط الأدبي عناية عظيمة فحملوا بكل ما كان لديهم من قوة أن يصلوا إلي خصائص، الأدب المميزة ويفهموا أنواع المختلفة ويضعوا المبادئ الأساسية للبحث فيه ويعالجوا المعضلات التي تنبثق منه على دراسة الأدب العربي شعره ونثره، والنثر القديم وبخاصة المقامات وقصص ألف ليلة وليلة، وفن الرسائل عند العرب

وبالتالي انصبت، اهتماماتهم العلمية في دراسة التراث العربي بعيدا عن السياسة والإيديولوجيات الفكرية والدينية"(درابسة، 2010، ص09).

لذا اهتم الباحثون الألمان بالدراسات العربية الإسلامية، منذ عهد مبكر وقد امتازت بالجدية والموضوعية بالبحث، كانوا يملكون مجموعات من المخطوطات يثريها باستمرار ما يتحصلون عليه من جديد إذ أنهم، توصلوا إلى تحقيق طبعات نقدية لا تزال تعتبر حجة ، فقد عكف المستشرقون على دراسة التراث العربي، فنبشوا كنوزه وكشفوا الغطاء عن مخطوطات، آدابنا وعلومها، فأغنوا تراثنا بعامة والأدبي منه خاصة فالتراث العربي هو ثمرة العقول العربية ولوح الدهر الحافل بذكريات العالم الإسلامي العربي، ذلك أن العرب خلفوا تراثا ضخما لا يضارعهم فيه أحد (بلا، 1997، ص 40).

فالاستشراق لعب دورا عظيما، في ترجمة التراث العربي الإسلامي، إلى لغات مختلفة وما اكتشفه من مخطوطات وما نشر منها محققا، وما ألف حوله قصد تعريف مواطنيه بهذا التراث الخلاق مما أدى إلى ازدياد معرفتهم الإنسانية، وتعميق تجربتهم البشرية واتساع رؤيتهم الكونية فقد أفاد الاستشراق أدبنا المعاصر إذ قام بتعريف الغرب بهذا التراث الخالد والكشف عن علومه وآدابه، ودراسته وإزالة الغبار عن كثير من آثاره المتعددة (سمايلوفيتش، 1998، ص 70).

ونظرا لأهميته البالغة في الدراسات العربية الإسلامية وآثاره الظاهرة والخفية في الساحة العربية، فقد جند كثير من الباحثين والنقاد العرب أقلامهم اتجاه هذه الظاهرة لأنها تخصصت في مختلف الجوانب الحضارية، وأثرت على الفكر العربي الإسلامي إضافة إلى علاقتها، بالدوائر الاستعمارية، كل هذه العوامل أدت إلى تضارب الآراء والمواقف النقدية العربية، حول هذه الظاهرة، فانقسم المفكرون العرب على أنفسهم بين الرافضين لهذه الظاهرة شكلا ومضمونا وبين المادحين المؤيدين لبحوث ومناهج، وأعمال المستشرقين.

رابعا- صورة العرب والإسلام في أدب الاستشراق:

يقول كليفورد: " إن خطر الانبعاث الإسلامي يتمثل في عاملين اثنين:

أولهما: التفكير الجاد على مستوى الدول العربية في الرجوع إلى الانضباط وينابيع الشريعة الإسلامية، لاسيما في نظام الروادع والعقوبات.

ثانيهما: القوة المادية الأولى التي يتمتع بها الشرق العربي متمثلة في النفط.

إن هذا الانبعاث الإسلامي، بالإضافة للقوة المادية كفيلان بقلب موازين الحضارة كلها، والقضاء على ما تبقى للغرب من هيبة ونفوذ ! "، ومن هنا وحسب ادوارد سعيد انطوى فهم الغرب للإسلام على محاولة تحويل تنوّعه إلى جوهر وجداني غير قابل للتطور وقلب أصالته إلى نسخة منحطة من الثقافة المسيحية، ومسخ شعوبه إلى كاريكاتيرات مثيرة للرعب...ومثل أي سلعة ناجحة، رائجة كان الشرق المصنّع ممنوعا من التبدل...وإذا حدث ودخل جزء من تاريخه في تناقض مع خصائص السلعة كما رسمها المستشرقون، فإن هذا الجزء سيُقمع، يُبطل ويُلغى!!.

كما طالب الغربيون بتشجيع مبدأ الاجتهاد في الإسلام باعتباره أداة مهمة بوسعها أن تضفي الصفة الإسلامية على ما تتطلب الحضارة الغربية ومصالح الغرب تنفيذه من النظم والاجتهادات والقوانين الحديثة... وهذا ما اجتهد رفاعة الطهطاوي، الأفغاني، محمد عبده، قاسم أمين ومن شاكلتهم في فعله منذ أمد لمحاولة تزييف الإسلام، ودفعنا لفهمه فهما مخالفا لأصوله... وما قضية تعدد الزوجات إلا شظية من شظايا أفكارهم المتأثرة بالغرب... فلمحمد عبده على سبيل المثال تفسيرات مذهلة حاول فيها إسقاط المعجزات على العلم... كأن تكون الطير الأبابيل في عام الفيل جرادا أو حشرات قتلت أبرهة وجنوده بالملاريا!!... أهم شيء ألا نبدو متخلفين فكريا أمام أسيادنا الغربيين!!.

وتفاقم الوضع إلى درجة الطعن بالإسلام ونبيه المصطفى (ص)، النيل من علماء الدين، الدعوة إلى تغريب ما تبقى من العبادات والأوامر الدينية الإلهية، كالدعوة إلى أن تصاحب الموسيقى ما في الصلوات من قراءة وأدعية لإضفاء أجواء... (روحانية) على تلك الطقوس كوضع الكراسي والمنصات في المساجد، تطويع الأدب ليكون أداة نشر الأفكار الإلحادية، الجنس والعهر فيما يسمى الأدب المكشوف، وكما يقول ادوارد سعيد: " فقد ساعدت نخبنا المثقفة الطافية على سطح المجتمع – كما يطفو السمك الميت والبيض الفاسد- في بلورة هذا الفكر التغريبي "(طالة، 2014، ص 198-199).

حيث انصرفت عناية الأدباء والكتاب في الأقطار العربية إلى ترجمة كتب الآداب وعلم الاجتماع والفلسفة والتاريخ والقصص والروايات وترجمة كتب عديدة عن دعاة الإلحاد والثورة والاضطراب الاجتماعي، وضعف شخصية الفكر العربي والأدب العربي أحدثت اصطراع الأفكار والمثل ومناهج الفكر (الندوي، 2006، ص 93).

حيث أنه منذ 1830 فقد بدأ المبتعثون العائدون من أوروبا بترجمة كتب (فولتير) و (روسو) و(مونتيسكيو) في محاولة منهم لنشر الفكر الأوروبي، حيث رجع الكثير من الجامعيين بروح الغرب، يتنفسون برئة الغرب ويفكرون بعقله ويرددون في بلدهم صدى أساتذتهم المستشرقين، وينشرون أفكارهم ونظرياتهم بإيمان عميق وحماسة زائدة مثل: بشرية القرآن، فصل الدين عن السياسة، أن الإسلام دين لا دولة، الدعوة إلى العلمانية، الشك في المصادر العربية الأولى، الشك في قيمة الحديث العلمية وإنكار مكانته وحجته ومكانة السنة في الإسلام، الدعوة إلى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل وإلى السفور، كون الفقه الإسلامي مقتبس من القانون الروماني ومتأثرا به في روحه وسبكه، الدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام وتمجيد العصر الفرعوني والتغني بحضارته وآدابه وأمجاده، الدعوة إلى العامية والتأليف فيها، اقتباس الحروف اللاتينية، التقنين المدني العربي على حساب القانون الغربي، الدعوة إلى القومية العربية الاشتراكية المادية - والشيوعية الماركسية أحيانا- في العصر الأخير (الندوي، 2006، ص 92-93). فمثلا:

كتاب " إلى أين يتجه الإسلام ؟ " لـ (هاملتون .أ.ر. جب H. A. R. Gibb) حيث نُشر بلبنان سنة 1932، وكان قد ألفه مع جماعة من المستشرقين، وهو يبحث في أسباب تعثر عملية التغريب في العالم الإسلامي، ووسائل تقدمها وتطورها، بالإضافة إلى الدعوة إلى التحررية، العلمانية وإلى فصل الدين عن الدولة.

كتاب " بروتوكولات حكماء صهيون " التي ظهرت في العالم كله عام 1902 ظلت ممنوعة من الدخول إلى الشرق الأوسط والعالم الإسلامي حتى عام 1952 تقريبا، ولاشك بأن منعها كان خدمة لحركة التغريب عموما.

كتاب " الغارة على العالم الإسلامي " لـ (آل شاتيلييه A. Le Chatelier) الذي يصف كيف وضع العالم الغربي العالم الإسلامي داخل أسلاكه، حيث أحكم حصاره كي يحول دون تحرك فعالياته الثقافية

من جهتهم قام حاملو لواء التغريب من المفكرين والكُتاب العرب والمسلمين بإصدار كتب تهاجم الإسلام، تنكر السنة وتشكك في القرآن، ويكفي أن نذكر إنكار (طه حسين) في كتابه " في الشعر الجاهلي" لقصة بناء سيدنا إبراهيم وإسماعيل للكعبة التي وردت في القرآن الكريم زاعما أن القرآن أورد هذه القصة مراعاة لحب العرب للفخر والمجد!!، أيضا علي عبد الرازق الذي نشر سنة 1925 كتابه الشهير: " الإسلام وأصول الحكم " الذي ترجم إلى الإنجليزية والأردية، حيث حاول فيه إقناع القارئ بأن الإسلام دين فقط وليس دينا ودولة، حيث قام الشيخ " علي " بالاستشهاد ببعض الآيات القرآنية والسنة النبوية لدعم بأن لا شيء في هذه المصادر التشريعية يظهر بوضوح بأن الإسلام هو نظام سوسيو سياسي أو يمثل حكما دينيا، حيث يقول في كتابه السالف الذكر: " إن محمد لم يُبعث إلا ليكمل رسالة دينية، دينية وفقط فهو لم يدعو لتأسيس دولة، لم يؤسس للحكم والإدارة المعاصرين، لم يشكل حكومة أو إمبراطورية... "، أي أن الرسول الكريم لا علاقة لرسالته بالسياسة، ثم أن سيدنا أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) كان رجل سياسة لا علاقة له بالشؤون الدينية، وهذا يعني أن الدولة الإسلامية عبر القرون الماضية كانت لا دينية، فولاية الرسول على قومه هي من طبيعة معنوية في حين أن إدارة الحكام المعاصرين هي من طبيعة مادية، الأول يشكل من الدين في حين أن الثاني ينتمي إلى أمور الحياة الدنيا، أي أن القرآن حسب علي عبد الرازق يؤكد وبوضوح أن رسالة الرسول تنتهي بمجرد انتهاء الوحي ولا تتضمن إنشاء دولة، حيث يقول: " إن زعامة النبي (ص) زعامة دينية جاءت عن طريق الرسالة لا غير، وقد انتهت الرسالة بموته فانتهت الزعامة أيضا ".

ويقول أيضا: " طبيعي ومعقول إلى درجة البداهة ألا توجد بعد النبي (ص) زعامة دينية... وإذا كانت الزعامة لا دينية وهي ليست شيئا لا أقل ولا أكثر من الزعامة الدينية أو السياسية، زعامة الحكومة والسلطان لا زعامة الدين... وإذا كان ولا بد من زعامة بين أتباع النبي (ص) بعد وفاته إنما تلك زعامة جديدة غير التي عرفناها لرسول الله (ص) (طالة، 2014، ص 200-201).

ومن الأمثلة التي أوردها في استشهاده هذه الآيات القرآنية وتفسيراتها العبقرية:

* " وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا " سورة النساء الآية 80.
* " وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ " سورة " قاف " الآية 45.
* " لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ " سورة " الغاشية" الآية 22.

وبالتالي فالقرآن – يضيف علي عبد الرازق- يؤكد أن الرسول لم يكن لا حفيظا ولا جبارا ولا مسيطرا على أمته (بناسي، 2004، ص 22).

وسبق أن قدم منصور فهمي كتابه الذي هاجم فيه نظام الزواج في الإسلام، والذي موضوعه حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوراتها، وفي هذا الكتاب يقول: »محمد يشرّع لجميع الناس ويستثني نفسه« ، ويقول : "...إلا أنه أعفى نفسه من المهر والشهود ".

بالإضافة إلى تصوير بعض الشخصيات الإسلامية في صور من الابتذال، العهر والمزاجية كما في كتب جورجي زيدان، وكذلك تلك الكتب التي تضيف الأساطير القديمة إلى التاريخ الإسلامي مثل: " على هامش السيرة " لـ (طه حسين)، والكتب التي تعتمد على المصادر غير الموثوقة مثل " محمد رسول الحرية " لـ (الشرقاوي)، وكتبه عن الخلفاء الراشدين والأئمة التسعة...

دون أن ننسى طبعا رواد مدرسة البحث في القمامة (... في إحدى المناسبات قال حسين أحمد أمين أنه يشعر بالفرح والغبطة عندما يعثر في كتب التاريخ على مثالب " هؤلاء " السلف الصالح، التي تدلل على أنهم بشر مثلنا لهم ضعفهم وأخطائهم، وأنهم ليسوا بالمثالية والنورانية التي يحاول البعض أن يحيطهم بها، فقفزت إلى ذهن " فهمي هويدي " فكرة البحث في القمامة، لكنه استحى أن يصرح بها أمام الآخرين فاكتفى بإشارة إلى المعنى وقال: " هكذا يفعل موظفو البلدية الذين يجوبون الشوارع والأزقة لا تقع أعينهم إلا على مخالفات النظافة "، ومن هنا أطلق فهمي هويدي هذا الإسم على هذه الشلة من الباحثين والمفكرين العرب...).كما أسماهم فهمي هويدي- والذين أصدروا بعض الكتب والمطبوعات التي تمثل هجوما مكثفا على الشريعة وعلى التيار الإسلامي كله، متذرعة ببعض الممارسات التي صدرت عن عدد من الفصائل وأفراد هذا التيار والتي هي محل إنكار وإدانة من الإسلاميين أنفسهم.

حيث نقرأ في هذه الأدبيات:

أن هدف التيار الإسلامي هو " الإسهام في تركيع الإنسان العربي وهزيمته وفرض الهيمنة الإمبريالية الصهيونية-في غيبة العقل والديمقراطية-على الوطن العربي.

إن الحركات الدينية القائمة الآن هي – في جوهرها- خاضعة للقطب الاستغلالي في عملية الصراع الطبقي.

إن تنامي التيار الديني (لا التعصب ولا التطرف) قد نشأ في غيبة العقل العربي وفي ظل عقمه.

إن الحركات الإسلامية لا تمثل هويتنا الحضارية، بل إن هذه " اللعبة " التي تساهم فيها قوى خارجية، هي عملية تهدف إلى إضاعة هويتنا الحضارية (هويدي، 1992، ص 22-23).

ومن بين هذه الكتب:

حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية " لـ حسين أحمد أمين حيث قال:

" أما شواغل النظام الإسلامي فلا علاقة لها بالعمل أو الإنتاج أو حل مشاكل الناس إذ أنه " ما من آية واحدة في القرآن الكريم، ولا حديث شريف واحد، قد أمر المسلمين فيها أو فيه بإصلاح المجاري، أو ضمان استمرار تدفق المياه، وسريان الكهرباء "، لكن شواغلهم الحقيقية تتراوح ما بين التحقيق من تأثير صبغة اليود على الوضوء، هل تنقضه أم لا؟ وما إذا كان ظاهر قدم المرأة عورة أم لا؟ وما إذا كان النقاب الصحيح يظهر العينين أم عينا واحدة ".

الكثير من أحكام القرآن والسنة كان القصد منها علاج شرور المجتمع الجاهلي في الجزيرة العربية، أي لا علاقة لها بالعصر الذي نعيشه ولا بما يتجاوز الجزيرة العربية.

كان الخلفاء الراشدون يرون أن من حقهم سن تشريعات جديدة، بصدد أمور مستجدة لم يرد بها نص، بل وتغيير أحكام أوردها القرآن والسنة.

في كتابه استنكر المؤلف على أمة المسلمين أن يكون لهم سلف صالح فأشار إليه بعبارة " السلف الذي ينعت بالصالح ".

أما رموز التاريخ الإسلامي فلهم نصيبهم من النقد والتجريح، فوصف الأئمة والفقهاء بقلة الأمانة واللؤم ثم صنفهم في مربع الجبناء، وعثمان بن عفان هو الصحابي الرأسمالي المجرح في ذمته، وسعد بن أبي وقاص لم يكن يحسن إقامة الصلاة، وعمر بن عبد العزيز جاهل بالإدارة، وابن تيمية – شيخ الإسلام- لا عقلاني وساذج وعدو للفكر الناضج، والغزالي – حجة الإسلام- سبب تأخر العالم العربي، وتحدث عن مجتمع المسلمين بحسبانه أرض النفاق في عنوان بارز.

حول اتهام عمر بن عبد العزيز بالجهل وإسناد إليه خراب الدولة الأموية يقول حسين أحمد أمين أن والي حمص كتب إليه يستأذنه في إصلاح حصن المدينة، فرد عليه قائلا: " حصنها بالعدل "، ثم علق الكاتب على الرواية قائلا أنها – رغم ما فيها من بلاغة تستهوي العرب- فهي تستوجب المؤاخذة البرلمانية في أي نظام حكم ديمقراطي.

أراد الكاتب أن يدلل على تهالك كتب الفقه وتنوع مادتها فقال أنها تحدد لنا الآلات الموسيقية المشروعة والمحرمة، حكم دية الكلب، رضاع الرجل الكبير، حكم من كسر عظام الميت، حكم من أتى بهيمة... وغيرها من العناوين الشاذة !.

وعندما أراد أن يدلل على خصب الفكر العربي لم يجد سوى كتابين اثنين يشهدان لذلك الخصب هما: " الإسلام وأصول الحكم " للشيخ علي عبد الرازق، و " في الشعر الجاهلي " لطه حسين (هويدي، 1992، ص 29-32 بتصرف).

المجتمع والشريعة والقانون (كتاب الهلال) " لـ محمد نور فرحات: بالنسبة إليه فهو يجاملنا في العقود الثلاثة الأولى من التاريخ الإسلامي ويقبل على مضض اعتبارها عصرا زاهيا، أما القرون التالية التي أعقبت القرن الهجري الأول فهي صفحات سوداء ينبغي أن نخجل منها وألا نشير إليها بطرف، فبالنسبة إليه ما أصاب الإمام أحمد بن حنبل (في عصر المأمون) خليق بأن يكون درسا لمن يتشدقون بعصور ازدهار الفكر الإسلامي في عصر الخلافة العباسية.

خلال القرون الثلاثة عشر (13) من عمر الإسلام لم تخاطب المعارضة إلا بالسيف، حتى أصبح حديث السياف والنطع جزءا لا يتجزأ من تراث التاريخ لسيرة تلك الدول.

قال عن عصر أبي بكر الصديق: " إن البعض في تلك المرحلة امتلأت خزائنهم بالأموال، وبيوتهم بالسبايا الفاتنات، يعيشون حياة باهرة من البطالة، الفتوة، الثراء والمتاع..."، ويلخص الحالة في عصر أول الخلفاء الراشدين في تلك العبارة: " أموال، ضياع، نساء... وشراب أيضا ".

إلى جانب أفكار وتساؤلات بعضها من قبيل الهزل في موضع الجد وبعضها يمثل ذلك الغمز في الشريعة، منها الفقرات التالية:

تطبيق الشريعة ليس قضية مطلقة، ولكنها قضية محددة بمشروعات قوانين معدة بالفعل... نجد منها مثلا قانون تطبيق حد الزنا بالعصا الرفيعة على من بلغ سبع سنوات!.

هل يقبل الإسلاميون وضع نص في قانون العقوبات مقتضاه: " إذا نطق المتهم قبل الحكم بالعقوبة بأبيات من الشعر الطويل أو السريع حازت إعجاب القاضي فله أن يوقف التنفيذ؟

إذا وقفنا عند ظاهر النصوص بغير اجتهاد فلربما خصصنا فرقة من السيافين تقف أمام مؤسسات السيرك القومي التي ترعاها الدولة لتضرب رؤوس مروّضي الوحوش والحواة والراقصين على ألسنة اللهب، استنادا إلى قول منسوب إلى النبي (ص) يقضي بأن حد الساحر ضربه بالسيف!.

ويلخص في الأخير إلى أن: " التغريب التشريعي أمر ألحت عليه الظروف الاجتماعية، الاقتصادية والحضارية، لذا فلا بد منه "(هويدي، 1992، ص 38-39).

الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة " لـ فؤاد زكريا:

انتقد فكرة " الإحسان " في الإسلام وقال إنها لا تصلح كقيمة في المجتمع المعاصر، وأراد أن يدلل بها على اتساع وترهل التعاليم.

التاريخ الإسلامي ما هو إلا صحيفة سوابق تشهد على أمة الإسلام بالعجز والإفلاس وسوء السمعة، كما أن التطبيق الإسلامي لم يكن إلا سلسلة طويلة من الفشل.

يتساءل ببراءة شديدة: " ماذا نفعل إذا كانت جميع حالات التطبيق التي نعرفها طوال التاريخ القديم والمعاصر باستثناء البداية الأولى التي كانت لها ظروف خاصة لن تتكرر، قد أخفقت في إقرار العدل وتبديد الظلم، وإقامة مجتمع يختفي فيه استغلال الإنسان واضطهاده لأخيه الإنسان.

إن الدعوة إلى تطبيق الشريعة ظاهرة جديدة ودخيلة على التدين العربي العاقل الهادئ.

حول مسألة صلاحية الشريعة الإسلامية في كل زمان ومكان... فليس هناك في أمور البشر ما يسمى قاعدة من هذا النوع، وتلك قضية علمية لأن البشر متغيرون وظروفهم متغيرة، ثم أن فكرة الصلاحية في حد ذاتها ينقدها أمران:

الأول: أن الإنسان كائن متغير ومن ثم ينبغي أن تكون الأحكام التي تنظم حياته متغيرة.

الثاني: أن الالتزام بالمبدأ يعني الحجر على الإنسان والحكم عليه بالجمود الأبدي (هويدي، 1992، ص 45-47 بتصرف).

ولأن الأدب يعتبر مرآة العصر الذي يعبّر عنه، ولأن لليهود أهمية ودور فعال في الولايات المتحدة الأمريكية في جميع المجالات، فمن الأهمية بما كان إلقاء الضوء قليلا على شكل الأدب الذي يكتبه اليهود هناك... فاليهود يميلون إلى فن الرواية أكثر من فنون الكتابة الأخرى لأنها الأكثر انتشارا وتأثيرا، بالنظر إلى امتلاك اليهود لأكبر وسائل الإعلام قوة وتأثيرا، الأمر الذي يساعد على تحويل هذه " الإبداعات " إلى أعمال ضخمة الإنتاج، مثل ضخامة إنتاج المسلسل التليفزيوني " هولوكوست " أو أفلام مثل : " يوميات آن فرانك "، " بن هوز "، " الوصايا العشر " أو غيرها، ولعل من أشهر الروائيين اليهود المتصهينين في الولايات المتحدة الأمريكية:

جيرالد غرين: صاحب رواية " هولوكوست " الشهيرة.

إيراليفين: الذي يصنف من أذكى الروائيين اليهود.

صول بيللو: صاحب العبارة الشهيرة: " كي تكون محبوبا من كل الناس، عليك ألا تجادل حول إسرائيل، فوجود إسرائيل لليهود لا جدال فيه ".

بن هينجت: أكثر الأدباء اليهود فخرا بيهوديتهم.

نثنائيل ويست: المتأثر بعقدة الجيتو اليهودية.

فرنسا: أو كما يسميها أحد الأدباء اليهود: "البلد اليهودي الأول "-فباريس كما صرح أحد الشعراء اليهود مدينة نصف يهودية-بدورها تبرز فيها قيمة الرواية اليهودية، ومن أبرز النماذج في الرواية اليهودية الفرنسية:

ألبرت كوهين: الصهيوني الذي يعلن صهيونيته ويهوديته بصراحة وفخر حيث يقول: " أؤمن ببساطة بأن أصبح ملكا لإسرائيل "، حيث ومن خلال رواياته تبدو الشخصية اليهودية كريهة تكره كل الأجناس من حولها خاصة العربية منها.

ميشيل تونييه: وجه يهودي آخر وعضو بارز في أكاديمية جونكور الأدبية (حوات، 2001، ص 145).

ناهيك عن الصورة السلبية للعرب في الأدب العبري، فالذي يتصفح القصص العبرية يجد أن كتابها يطلقون على العرب صفات لا تليق بالإنسان، فهو في نظرهم سارق، كاذب، منافق، ذو وجهين، مغتصب للنساء، معقد، يفتقد المبادئ، توجهه غريزته الجنسية، أضف إلى ذلك أنه لا يفي بوعده وحب للمال ومرتش، ولدينا نماذج كثيرة للتدليل على ذلك نذكر منها ما كتبه " ناتان شاحم " في قصته " غبار الطرق "، حيث يسوق حديثا عن العرب يدور بين يهوديين، فيقول أحدهما في تعريف العربي أثناء الحديث: "... العرب مثل الكلاب فإذا رأوا أنك مرتبك ولا تقوم برد فعل على تحرشاتهم يهجمون عليك، أما إذا قمت بضربهم فهم سيهربون كالكلاب..."، ويضيف الآخر في موضع آخر من القصة: " إن أفضل عربي هو العربي من دون نقود... الحقيقة أن العربي الجيد هو العربي الميت " (ذهبية، 2007، ص 161).

خامسا - المسلم في الكتب والمناهج المدرسية الغربية:

بقيت الصور المشوهة والمضطربة والعنيفة للمسلم الذي يهدد أمن المجتمعات الغربية واستقرارها، سواء على الصعيد الأمني والسياسي، الاقتصادي، أو الاجتماعي، تتراكم مع الوقت وتنتقل عبر الأجيال من خلال وسائل الإعلام بأشكالها المختلفة. ومع ذلك، فإن هذه الوسائل ليست المسئول الوحيد عن تعزيز هذه الصور وتوجيهها وخلقها. فبالتوازي مع وسائل الإعلام أولى الغرب اهتماما واضحا تجاه الكتب والمناهج المدرسية الغربية، لتعمل جميعها في محصلتها النهائية على تشكيل وعي الغربي وإدراكه وفهمه للآخر، بالتالي تحديد مدى تقبله وطريقة تفاعله معه. إذ تعتبر الكتب والمناهج التعليمية المدرسية الغربية من أهم المرجعيات الرسمية التي تؤثر بشكل كبير في مراحل مبكرة على تشكيل القيم والمثل، والمعتقدات تجاه الثقافات الأخرى (المقداد، 1992، ص 255).

ومع وجود بعض الصور المشرقة للحضارة الإسلامية في المقررات الغربية، إلا أن معظم المناهج المدرسية الغربية قد ملئت بالعديد من الأغلاط المقصودة وغير المقصودة. ففي الكتب المدرسية الألمانية اتهم الإسلام وأتباعه بأنهم بدائيون، وهمجيون، متجاهلين دورهم الحضاري على مر التاريخ (أحمد، 2006، ص 153).

ويبدو هذا التجاهل والتبخيس واضحا وجليا كذلك في المناهج البريطانية والأمريكية، وأما في الكتب الفرنسية فقد تبين أن صورة المسلم في كتب القراءة والتاريخ للمرحلة الابتدائية، والثانوية، طُمست على مر التاريخ، وتم التأكيد على دونية المسلم مقابل الغربي، فهم دائما ما يظهرون بصورة الفقراء والمتسولين، والبدو، والخدم، وعمال المصانع، واللاجئين، والرعاة. وفي المناهج الأسترالية اتهم المسلم بالعدائية والعنف وأنه ينتمي إلى ديانة انتشرت بحد السيف. أما في إسبانيا فقد حرم تعليم الإسلام لفترات طويلة من الزمن منذ طرد المسلمين من الأندلس وتولي الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية لأمور التعليم (نصر، 1995، ص 163).

من أهم الصور والقضايا التي أثارتها هذه الكتب وركزت عليها هي صورة الرسول محمد (ص)، الذي وصف تارة على أنه الرسول الفقير المعدم، وتارة أخرى بالرسول المستبد بطبعه، كما وصف بصفات كالدهاء والمكر والعنف، والسحر، والعداء. فعلى سبيل المثال ادعي كتاب التاريخ للصف الأول الثانوي في فرنسا الصادر عن مطبعة هاتييه، بأن محمدا (ص) هو الرسول الوحيد المهم بالنسبة للمسلمين، وأنه الوحيد الذي يجد فيه المسلمون الأسوة الحسنة، وأنه سم يعيث في الأرض الفساد ويشكل بذلك عدوا أساسيا للكنيسة الكاثوليكية (بن سعيد، 2013، ص 42).

كما استهدفت هذه الكتب الإسلام بطريقة منفرة، إذ تناولته كديانة تحث على أشكال العنف المختلفة، والدمار، والخراب، والقسوة، والإكراه وذلك في سبيل رسالتها، كما يتناول الكتاب في طياته الحديث عن سلمية المسيحية وعن النهضة الأوروبية بشيء من التفصيل، وفي المقابل يتحدث عن الحضارة الإسلامية وانهيارها بشكل غير منصف ليعزز من دونية الحضارة الإسلامية في عقول النشء. وكما يعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب المدرسية التي تجاهلت دور العرب والمسلمين وفضلهم على الحضارة الأوروبية وإسهاماتهم على الحضارة الإنسانية (بن سعيد، 2013، ص 42).

رصدت اللجنة العربية لمكافحة التمييز صورة الإسلام والمسلمين في الكتب والمناهج الأمريكية بعد أحداث (11 سبتمبر2001)، التي أظهرتهم بصور بدائية. فعادة ما يوصف المسلمون بأنهم راكبوا الجمال، وبالبدو، والرحل، وأنهم أهل الصحراء، كما اقترنت صورهم بالعنف والإرهاب والتطرف والاضطهاد. وفي المقابل، صورتهم بعض الكتب على أنهم رجال النفط الجشعين، وأنهم غير أمينين، ودكتاتوريون، وغيرها من الصور القاتمة والسلبية التي تمت في الكتب المدرسية الرسمية (بن سعيد، 2013، ص 50).

وتحول مثل هذه الصور دون تحكيم عقل الطالب غير المسلم، وفهمه للأمور والحقائق، وذلك بعد كل ما يتعرض له من مؤثرات ومواد مشبعة بالتدليس والتحريف والتحريض على مدار سنوات، والتي تعمل مجتمعة كأداة أساسية لبلورة عقل الفرد وقناعاته تجاه الآخر.

تشكلت هذه الصورة السلبية بكل ما تحمله من دلالات ومعان ضد الإسلام والمسلمين في الكتب والمناهج المدرسية الغربية، لعدة أسباب كان أهمها، صبغ الغربيين لكتبهم ومقرراتهم بقدر كبير من الأخطاء المسندة إلى مرجعيات سياسية دينية، وحركات تنصيرية وتبشيرية، غير منصفة للحضارة الإسلامية، التي عملت على تشويه تعاليمها وعقائدها الإسلامية. كما شكل اعتماد الغرب على أطره ورؤيته الخاصة في فهم الإسلام والمسلمين بعيدا عن رؤيتهم ومصادرهم الثابتة ومرجعياتهم إلى سد الطريق أمام الفهم والوعي الحقيقي بهذا

الدين وأتباعه. ولا شك أن الجهل والاستخفاف بالآخر وإقصائه، وعدم الاعتراف به، وعدم المبالاة، وتكريس مبدأ السيد والعبد، وامتلاك نزعة التفوق والهيمنة الثقافية والعرقية والحضارية للأخر، عوامل تدعو لتبني جرائم التحيز والتعصب والتحامل تجاه المسلمين ونبذهم وتشويه صورتهم وصورة ديانتهم، وتضعف احتمالية الاهتمام بهم وبقضاياهم، وتاريخهم (أحمد، 2006، ص 170).

وبذلك يرى المتتبع لصورة المسلم في الكتب والمناهج المدرسية الغربية، بأن الصورة العامة للإسلام وأتباعه في العقل الجمعي الغربي تأثرت على مر التاريخ بصور وإسقاطات رسمت نتيجة لسنوات من التعليم المبني على ما خلفته الحركات الاستشراقية، المرتبطة بنظم سياسية ودينية، والتي عززت دونية الشرق مقابل الغرب، وصورته عنصرا سلبيا وغير فاعل. وبذلك، شكلت هذه الكتب والمناهج مدخلا أساسيا لمواصلة الهيمنة الغربية من خلال تضليل الطلبة الغربيين عبر جرعات دسمة من التحريض تجاه الإسلام، وكذلك بإدخال معلومات مضللة، وتعديلات وإضافات خاطئة ومغلوطة، من شأنها أن تعمل على تدليس الوقائع وتزويرها، دون أدنى مراعاة للحقائق الدينية والتاريخية للحضارة الإسلامية.

سادسا: الرؤية العربية الرافضة للاستشراق:

لعل جل دراسات المستشرقين تقابل في العالم كالإسلامي بالأعم بالرفض بوصفها مبادرة عن أعداء الإسلام لأن هذه القضية أبعادا متعددة وجوانب متشعبة من أجل الوصول إلى إتخاذ المواقف الصحيحة وفي هذا الصدد يقول محمود زقزوق: أنها حركة فكرية هائلة وما نتجه يخصنا ويخص عقيدتنا ولغتنا وتاريخنا، ودينا فإن الأمر الأخطر من ذلك بكثير لأنه يتعلق بأعماقنا وعقيدتنا وفكرنا وحضارتنا وليس هناك أمنا سبل إلا المواجهة وقبول التحدي وإثبات الذات، وإلا فلسنا جديرين بالحياة (زقزوق، 1985، ص 129)، فموقفه معاد للاستشراق، وكل ما يصدر عنه ويأتي به حيث أن ممثلي هذا الموقف ينتسبون إلى المستشرقين مصالح وأهداف ونوايا خبيثة مشبوهة معادية للعرب.

وقف على هذه الشاكلة مجموعة من المفكرين المسلمين موقف الرد المطلق فلم يقبلوا أي إسهام في الثقافة الإسلامية، ويدعون إن الاستشراق دراسات أكاديمية في الجامعات والمراكز العلمية يقوم بها غربيون كافرون وغالبا تكون من أهل الكتاب وتوجه ضد الإسلام، والهدف من كل هذا تشويه الإسلام والتشكيك والتضليل وفرض التبعية للغرب.

وينظر هذا الفريق الرافض "إلى الاستشراق على أنه علم أوربي و هو صورة لما توصلت إليه أوربا في معرفة الشرق، وهو يعكس موقف أوربا وعقلية أوربية إن هذا الاستشراق غير نتاج خارجي كتبه خارجيون لا يكاد معظمهم يحسن اللغة التي يتكلم لها فكيف عندما يناقشون ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا وتاريخينا وثقافتنا وأدبها واقتصادنا (النملة، 1993، ص 20).

فالهدف الحقيقي للاستشراق هو تقويض الهوية الثقافية العربية الإسلامية وتسوية الحضارة العربية وخدمة الاستعمار والصهيونية ومؤامراتها المستمرة على العالمين العربي والإسلامي، فكتابات المستشرقين عن الإسلام لم تكن علمية ولا بحوثا تتوخى حقائق التاريخ وإنما كانت سلاحا من أسلحة الدعاية الحربية، لذلك حرص المستشرقون على ترويج الأكاذيب ومختلقات عن الإسلام وفي هذا يؤكد الكاتب "ومما لا ريب فيه أن

المستشرقين اليوم تغيروا تغيرا كبيرا عن موقفهم بالأمس، ولكن هذا التغيير يبدو في التخلي عن الأكاذيب والاختلافات، وليس ثمة تخل عن طعن الإسلام، ونلمس مواطن للهجوم عليه منها (شلبي، 1978، ص 30).

ذلك أن اهتمام مفكرين الغرب ينصب حول التكلم عن الدين الإسلامي ومحاولة التشكيك فيه والتركيز على جوانب الضعف، أما مفكري العرب الذين يحضرون المؤتمرات الغربية قلما يتحدثون عن أمور قسم الحضارة الإسلامية لعلها تغير تفكير العرب.

وقد أجاد الأستاذ أبو الحسن الندوي فيما اصطلح عليه بالإستراتيجية الاستشراقية الدقيقة حيث قال " ومن دأب كثير من المستشرقين أنهم يعينون لهم غاية ويقدرون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق ثم يقومون بجمع المعلومات لها من كل رطب ويابس ليس لها أي علاقة بالموضوع سواء من كتب الديانة والتاريخ والأدب والشعر أو الرواية والقصص أو المجون والفكاهة، إن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها يقدمونها بعد التمويه بكل جرأة ويبنون عليها نظرية لا يكون لها وجود في نفوسهم وآذاهم (الندوي، 2006، ص 87-88).

ولذلك نجد الكثير من المستشرقين من خاضوا في موضوعات القرآن الكريم والفقه والسيرة وقد وقعوا بأخطاء في تقديراتهم أو بالغوا في تصوراتهم إلى حد خرجوا فيه من الحقيقة خروجا تاما لا يتوافق مع منهجهم العلمي الدقيق.

الاستشراق شغل حيزا كبيرا لدى أدبائنا العرب فقد تميز فارس الشدياق بنقده الهزلي والجدي لهذه الظاهرة ومن أمثلة النقد الجدي نقده لبعض المستشرقين من أساتذة أروبا مبينا خبطهم في تأليفهم وأوهامهم مما عربوه ونشروه وفسروه (المقدسي، 1970، ص 164)، إذن ففارس الشدياق يقف موقفا عدائيا لكل ما يمت للاستشراق بصلة حيث قال لأحد من المستشرقين الفرنسيين "إن هؤلاء الأساتذة لم يأخذوا العلم عن شيوخه... وإنما تطفلوا عليه تطفلا... وكل منهم إذ درس في إحدى لغات الشرق أو ترجم شيئا منها تراه يخبط فيها خبط عشواء فما اشتبه عليه منها رقعه من عنده بما يشاء ومكان بين الشبهة واليقين حدس فيه"(الجندي، 1962، ص 200-201)، إذن فالموقف الرافض كان معاديا لحركة الاستشراق، فوقف منه موقف المشكك ورأى فيه تحاملا على الإسلام والمسلمين وتهجما على العربي وتراثهم وحضارتهم وهذا الفريق يمثل الأكثرية.

هذه جملة من الأسباب تدعو إلى تفنيد ورفض التيار الاستشراقي، ومن هذا المنطلق يتبين لنا "أن أعمال المستشرقين إنما هو ضرر كله ولا خير فيه، وهو جناح من أجنحة المكر الثلاث ويستوي في ذلك مع الاستعمار والتنصير بل هو مغذي للاستعمار والتنصير على حد سواء"، فما جاء به المستشرقون لا يعد كونه سموما زرعوها في العلوم الاجتماعية والفكر والثقافة.

اتخذ أصحاب هذا الرأي موقف معارض من الحركة الاستشراقية، فهاجم روادها، وطروحها المختلفة، وما توصلت إليها من دراسات ومفاهيم، وأشاروا في أكثر من حديث "إلى أن المستشرقين يتناولون الموضوعات المختلفة من منظور شخصي ومصلحي، ويتصرفون في فهم النصوص وترجمتها ونقلها إلى لغاتهم، حسب أمزجتهم وتصوراتهم الخاصة، ولعل ردود أفعال المثقفين العرب هي ناتجة عن تلك الإفرازات والآثار الذي

حققها المستشرقون على مستوى الساحة الفكرية والثقافية وحتى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، هذا ما أثار حفيظة علمائنا العرب والمسلمين.

خاتمة:

الاستشراق ظاهرة فكرية لعبت دورا كبيرا في الفكر والأدب العربيين قديما وحديثا، ثم أن الاستشراق في حد ذاته يحاول بكل ماله من وسائل وقوة وأفكار أن يفرض مفاهيمه على العالم العربي الإسلامي بأسره وقد رأينا جميعا أن كثيرا من علمائنا ومفكرينا وأدبائنا قد تعلمو على أيدي كبار علماء الاستشراق فتتبعوا أفكارهم ونظرياتهم وفي الجهة المقابلة هناك من رفض وتعصب لأفكارهم ونظرياتهم ومناهجهم.

فالاستشراق هو قضية الصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي فوجدت هذه الحركة نفسها بين الرفض والقبول من طرف علماء وأدباء العرب والمسلمين ذلك "أن الاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء في عالمنا الإسلامي فهناك من يؤيده ويتحمس له إلى أقصى حد وهناك من يرفضه جملة وتفصيلا ويلعن كل من يشتغل به، بوصفه عدوا لدودا للإسلام والمسلمين.

الاستشراق رسالة استعمار وهو يساهم مساهمة فعالة في تشويه الإسلام، وتقديمه إلى الأجيال ، وهو نتاج خليط مشوه من اليهودية والمسيحية والوثنية، الشيء الذي يؤدي إلى زعزعة أصالة الفكر والرافضين الإسلامي وتعريضه إلى خطر الانقسام والانهزام أمام العلمانية، ونجاح عملية تغريب الشخصية الإسلامية عن دينها ولغتها وثقافتها.

بعد هذه الجولة القصيرة في رحاب هذا البحث، نأتي إلى نهايته لنختمه، بمجموعة من التوصيات المتوصل إليها، والتي سنوردها في النقاط التالية:

أثار موضوع الاستشراق نقاشات كثيرة وردود فعل متباينة من طرف المفكرين العرب المسلمين فانقسموا إلى فريقين فريق مؤيد وقابل وآخر رافض للاستشراق.

كان لمالك بن نبي موقف معاد للاستشراق وكل ما يصدر عنه ، فهو يحذر من أن الفكر الاستشراقي في معظمه حركة فكرية غربية، مضادة للإسلام والمسلمين، وجب مواجهتها والتصدي لها.

الموقف المؤيد والداعم لهذه الحركة الاستشراقية فهو يتضح عند بعض كتابنا، الذين أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن أعراض المستشرقين وتبيان فضلهم في حركة النهضة العربية الحديثة ودورهم في إحياء تراثنا الحضاري، ومن أبرزهم نجيب العقيقي الذي يبين لنا دور المستشرقين الفعال في إحياء تراثنا العلمي والأدبي.

تتبع طه حسين آراء وأفكار المستشرقين فحذا حذوهم في الدراسة والتحليل وأسلوب الشك في صحة القرآن الكريم والأدب الجاهلي فهو الابن البار للاستشراق.

ومن هنا نستنتج أن مؤامرة التغريب للعالم الإسلامي، كانت ضمن مخططات وآليات الاستعمار الغربي فجيل كامل من الأدباء احتضنتهم المعاهد الغربية في أوربا وأهلت نخبة من الشباب لقيادة المشروع التغريبي يحملون ثقافة الغرب ومفاهيمه، وكما وقد اهتم بالأدب العربي والفكر والثقافة، والحياة الاجتماعية فهو قائد لواء التغريب الثقافي والأدبي.

قائمة المصادر و المراجع:

- القرآن الكريم
- أحمد وقيع الله محمد، الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة: عرض ونقد، 2006، الطبعة الأولى، بحث مقدم لنيل جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة.
- بلا شارل، تاريخ اللغة والآداب العربية، 1997، تعريب: ابن وناس صالح حزم، الطيب العشاش، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- بن سعيد المحجوب، الإسلام والإعلاموفوبيا: الإعلام الغربي والإسلام تشويه وتخويف، 2013، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق.
- بن نبي مالك، مشكلات الحضارة، 2009، ترجمة: عمر كامل سقاوي، عبد الصبور شاهين، شروط النهضة القدس، دار الفكر، سوريا.
- بناسي أحمد، دراسات في الإسلام واللغة العربية، 2004، تقديم: أبو عمران الشيخ، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر.
- بوزقاو مريم، الاستشراق بين الرفض والقبول في الثقافة العربية، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في الأدب العربي نظام ل.م.د، 2019/2020، تخصص: الأدب الأندلسي في ضوء الدراسات الاستشراقية، كليّة الآداب واللّغات والفنون، جامعة جيلالي يابس سيدي بلعباس.
- الجندي أنور، الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية، 1962، مطبعة الرسالة، بيروت.
- الجيري عبد المتعال، الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، 1995، الطبعة الأولى، مطبعة المدني، القاهرة.
- حجازي سمير، ثقافة العرب وثقافة الغرب في قراءة العصر، 2005، الطبعة الأولى، مؤسسة طيبة، القاهرة.
- حسن عقيلة، المرأة المسلمة والفكر الاستشراقي، 2004، الطبعة الأولى، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت.
- حوات محمد علي، الإعلام الصهيوني وأساليبه الدعائية، 2001، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى، مصر.
- درابسة محمود، الاستشراق الألماني المعاصر والنقد العربي القديم، 2010، الطبعة الأولى، دار جرير للنشر والتوزيع، الأردن.
- ذهبية محمد محمود، الإعلام المعاصر، 2007، دار أجنادين للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية.
- زقزوق حمدي محمود، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 1985، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- سخنيني عصام، المستشرقون ومصطلحات التاريخ الإسلامي، 2007، الطبعة الأولى، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان.
- سعيد إدوارد، الاستشراق: المعرفة السلطة الإنشاء، 1995، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.
- سمايلوفيتش أحمد، فلسفة الاستشراق وأثرها على الفكر العربي المعاصر، 1998، دار الفكر العربي، القاهرة.
- شلبي عبده عبد الجليل، صور إستشراقية، 1978، الكتاب الأول، سلسلة البحوث الإسلامية.
- صالح السيد سعد الدين، احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، 1998، مكتبة رحاب، الجزائر.
- الصغير محمد حسين علي، المستشرقون والدراسات القرآنية، 1986، الطبعة الثانية، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت.
- طالة لامية، الإعلام الفضائي والتغريب الثقافي، 2014، الطبعة الأولى، دار أسامة للنشر، الأردن.
- عريبي محمد ياسين، الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي، 1991، سلسلة الدراسات نقد العقل التاريخي، الطبعة الأولى، الرباط.
- غراب أحمد، الاستشراق (رؤية إسلامية)، 1990، المنتدى الإسلامي، مطابع أضواء البيان، الرياض.
- محمد عبد الله، مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين، 2001، الطبعة الأولى، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية.
- مطبقاني صالح مازن، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، 2011، مؤسسة عالم الأفكار، الجزائر.
- المقداد محمود، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، 1992، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، العدد 167، الكويت.
- المقدسي أنيس، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، 1970، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت.
- الميداني عبد الرحمن، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها التبشير-الاستشراق-الاستعمار: دراسة وتحليل وتوجيه، الطبعة الأولى، دار القلم، بيروت، 1975.
- الندوي علي أبو الحسن، الصراع الفكري بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، 2006، دار الهدى، الجزائر.
- نصر مارلين، صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية، 1995، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- النعيم عبد الله محمد الأمين، الاستشراق في السيرة النبوية: دراسة تاريخية، 2008، دار الفكر، دمشق.
- النملة بن إبراهيم علي، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين، 1993، استقراء المواقف، سلسلة 2، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.

- هويدي فهمي، تزييف الوعي، 1992، دار الشروق، الطبعة الثانية، مصر.
- يوسف أيمن، تنميط الإسلام في التصورات الغربية بين الأصولية والفوبيا: قراءة تحليلية نقدية، 2008، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية .

دراسة في كتاب الإسلام في العصر الحديث لـ ويلفريد كانتويل سميث، عرض ونقد

A Study in the Book Islam in the Modern Era by Wilfred Cantwell Smith, Review and Criticism

د.سفيان رضوان صالح، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر
redsofiane2014@gmail.com



يتناول البحث دراسة في كتاب "الإسلام في العصر الحديث" لويلفريد سميث، إذ خصّه مؤلفه بدراسة واقع الإسلام والمسلمين في العصر الحديث، والكتاب يحوي على سبعة فصول، بين مقدمة وخاتمة، إذ حثّ في مقدمته المسلمين على التوسع في الدراسة المقارنة للأديان، أمّا الفصلان الأول والثاني فيعالجان تاريخ المجتمعات الإسلامية بشكل عام، في حين الفصول الخمسة الأخرى فتعالج مشكلة من مشاكل المجتمع الإسلامي المعاصر، وهي: البلاد العربية، تركيا، باكستان، الهند، مناطق أخرى من العالم الإسلامي، أما الخاتمة: فحاول فيها المؤلف الخروج بنتيجة مفادها: تشكيك المسلمين في أنّ الإسلام نمط سلوكي واجتماعي ثابت، يتصف بالجمود الفكري، وتهدف هذه الدراسة إلى التعريف بأهم كتاب كتب حول الإسلام والمسلمين، وقد خلصت إلى أنّ هذا الكتاب يندرج ضمن كتب الاستشراق التي تسعى إلى خدمة الأهداف الاستعمارية، لا مجرد الاطلاع والمعرفة لواقع المجتمعات المسلمة، وأن الكتاب لم يرسم صورة حقيقية عن الإسلام والمسلمين، إذ خرج الكاتب في كثير من الأحيان عن الموضوعية في دراسته لواقع الإسلام والمسلمين.

الكلمات المفتاحية: ويلفريد سميث، الإسلام، المسلمين، مقارنة الأديان، الاستشراق

Abstract :

The research deals with a study in the book "Islam in the Modern Era" by Wilfred Smith, as its author devoted it to studying the reality of Islam and Muslims in the modern era. The book contains seven chapters, between an introduction and a conclusion. The second deals with the history of Islamic societies in general, while the other five chapters deal with one of the problems of the contemporary Islamic society, namely: the Arab countries, Turkey, Pakistan, India, and other regions of the Islamic world. In that Islam is a fixed behavioral and social pattern, characterized by intellectual stagnation, and this study aims to introduce the most important book written about Islam and Muslims, and I concluded that this book falls within the books of Orientalism that seek to serve colonial goals, not just awareness and knowledge of the reality of Muslim societies, and that The book did not paint a true picture of Islam and Muslims, as the writer often departed from objectivity in his study of the reality of Islam and Muslims.

Keywords: Wilfred Smith, Islam, Muslims, religion comparison, Orientalism.



مقدمة :

نهجت دول أوروبا وأمريكا الشمالية –الكاثوليكية- في العصر الحديث في تعاملها مع المسلمين مواقف مختلفة، كتبادل الخبرات والأساتذة والطلبة وغير ذلك، وقد أفرز الموقف الاستشراقي في العصور المتأخرة العديد من المفكرين، الذين اهتموا بالدراسات العربية والإسلامية، المخطوط منها والمطبوع؛ فأنشأوا لذلك المعاهد والمراكز العلمية، وقاموا بترجمة أمهات الكتب العربية والإسلامية، وألّفوا الكثير من الكتب والأبحاث ذات العلاقة بالإسلام والمسلمين، فأصدروا مثلا: دائرة المعارف الإسلامية، ومجلة العالم الإسلامي، وغيرهما، يُضاف إلى ذلك قيام هذه الدول بإيفاد العلماء والباحثين إلى الدول الإسلامية؛ إمّا بهدف تقديم دراسات عميقة، تكون نتائجها في خدمة الأهداف الاستعمارية، ووضع المطاعن في تراثهم الإسلامي، وتقديم دراسات ميدانية عن أوضاع الدول العربية والإسلامية، وإمّا مجرد الاهتمام بدراسة الشرق؛ بدافع المعرفة الخالصة، لاسيما التاريخ العربي الإسلامي، للاطلاع على ثقافة هذه الأمة وحضارتها.

وقد كتب المستشرقون وألّفوا في جميع العلوم الإسلامية، بدءا من القرآن الكريم والسنة النبوية، والفقه الإسلامي وعلوم اللغة العربية، وغيرها، كما اهتموا بعلم الاجتماع الإسلامي، محققين في ذلك تقدما كبيرا، تمثل في أعمال متعددة ومتنوعة، فمن هذه الأعمال -على سبيل المثال لا الحصر- كتاب "أين يتجه الإسلام" للمستشرق جيب، وكتاب "إظهار الإسلام" لـ روجيه دي باسكويه، وكتاب "الاسلام" لـ ألفرد جيوم، وغيرها.

ويأتي هذا البحث في إطار بيان ما قدّمه أحد أبرز المستشرقين من خدمات وإنتاج فكري يحلل واقع الإسلام والمسلمين، والذين تخصصوا في الدراسة المقارنة للأديان، وخاصة الإسلام، ألا وهو المستشرق الكندي ويلفريد كانتويل سميث، في كتابه: "تاريخ الإسلام في العصر الحديث"، فأردت أن أُعرّف القارئ بهذا الكتاب في هذه الوريقات البحثية، وقد سمّيت هذا البحث بـ "دراسة في كتاب الإسلام في العصر الحديث لـ ويلفريد كانتويل سميث، عرض ونقد".

وتأتي أهمية هذه الدراسة، في كونها تتعلق بعالم من أبرز المستشرقين، الذين درسوا الإسلام والمسلمين في أماكن مختلفة من العالم الإسلامي، وعصور مختلفة في العصر الحديث، ويكفي أنّه يُعد من أبرز تلاميذ المستشرق جيب، إضافة إلى أنّه يتناول جانبا مهما من هويتنا وشخصيتنا، ألا وهو ديننا الإسلامي الحنيف.

ويهدف البحث في الأساس إلى التعريف بأهم كتاب درس الإسلام والمسلمين، من حيث تصرفهم وعيشهم ومعاملتهم لغير المسلمين، وكيف يفكرون، وكذا الوقوف على بعض المغالطات –إن صحّ التعبير- التي أراد المؤلف تمريرها في هذا الكتاب، بأسلوب علمي رصين، مع بعض الأهداف الأخرى التي تظهر من هنا وهناك، من خلال تصفح هذه الوريقات.

وقد اتخذت المنهج الوصفي الاستقرائي دليلا لي في هذا البحث، إذ هو المعول عليه في مثل هذه الدراسات، مع تعقيبه بالمنهج النقدي.

وتكمن فرضية هذا البحث في كون الكاتب لا يُمكن بالأساس أن يستغني عن ما كتبه أبناء جلدته في هذه الدراسة؛ لذا فالمستشرقون الذين كتبوا حول الإسلام والمسلمين، إمّا هدفهم خدمة جهات ومؤسسات معينة

تعينهم على خدمة مصالحهم، وإمّا الكتابة حول الإسلام والمسلمين من أجل المعرفة والاطلاع على ثقافة هذه الأمم لا غير.

ومنه تأتي إشكالية هذا البحث: في أي طريق مشى ويلفريد سميث في كتابه من خلال ما خطه سابقوه من المستشرقين، في دراسة الإسلام والمسلمين؟ وهل هذا الكتاب رسم سورة حقيقية عن الإسلام والمسلمين؟ وهل اتصف الكاتب بالذاتية أو الموضوعية في الدراسة؟.

وقد جاء هذا البحث في أربعة مباحث، بين مقدمة وخاتمة متبوعة بأهم التوصيات، مع ذكر أهم المصادر والمراجع، التي اعتمدت عليها.

حيث نبّهت في المقدمة عن التبادل الحاصل بين المسلمين وغيرهم، وأنّ هذا الأمر ضرورة حتمية أفرزتها ظروف العصر، وذكرت فيها أهمية دراسة ما كتبه المستشرقون، وأهداف هذه الدراسة من خلال كتاب من كتبهم، بالإضافة إلى المنهج المتبع والفرضية وإشكالية البحث.

أمّا المباحث الأربعة: فجاء الأول منها في التعريف بالكاتب، إذ يُعد من أعلام المستشرقين في القرن الماضي، أمّا المبحث الثاني: فوصفت فيه الكتاب وصفا خارجيا، إذ تبلغ صفحاته ثمان وثلاثمائة صفحة، أمّا المبحث الثالث: فتحدثت فيه باقتضاب عن محتوى الكتاب، وذكرت بأنّه يحوي على سبعة فصول، أمّا المبحث الأخير: فأفردته بالبحث في أهداف هذا الكتاب.

وختمت البحث بخاتمة، ذكرت فيها أبرز النتائج التي توصلت لها، مع اردافها ببعض التوصيات، التي خلُصت إليها، مع ذكر أهم مراجع ومصادر البحث.

أولا- **مؤلف الكتاب:**

هو ولفريد كانتويل سميث، وُلد في 21 يوليو 1916م في تورونتو بكندا، ويُعدّ من أبرز المتخصِّصين في حقل الدراسات الدينية، وبالتحديد في فرعَي الأديان المقارنة والدراسات الإسلامية، وهو مدير معهد الدراسات الإسلامية وأستاذ الدين المقارن في جامعة (ماكجيل) بكندا، حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة برينستون، سنة 1948م، تحت إشراف المستشرق المعروف: هاملتون جب، وكان موضوع بحثه (مجلة الأزهر: عرض ونقد)، وقد اشتغل أستاذًا بجامعات عِدَّة أهمها: جامعتا هارفارد وماكجيل، وقد فرّغ سميث نفسه بعد ذلك للبحث في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، ورحل متنقلا بين معظم بلاد العالم الإسلامي في رحلات طويلة، حيث أقام زمنًا في مدينة لاهور بالباكستان، وساح في بلاد الشرق الأوسط وبعض البلاد الإسلامية في القارتين الآسيوية والأفريقية، وقد قامت بتمويل كل هذه الرحلات مؤسسة روكفلر؛ فكان ثمرتها كتابان، الأول: (الإسلام الحديث في الهند) والثاني: (الإسلام في العصر الحديث) وهذا الكتاب سنعالجه في هذه الوريقات، بالإضافة إلى كتب أخرى تم طبعها، مثل: (التوتر بين الإيمان والتاريخ في العالم الإسلامي 1957م) وكتاب: (نحو لاهوت عالمي: الإيمان وتاريخ الأديان المقارن 1989م) وكتاب: (ما هو النص المقدَّس: منظور مقارن 1993م) توفي بكندا، في 7 فيفري 2000م.

ثانيا- وصف خارجي للكتاب:

يقع هذا الكتاب في ثمان وثلاثمائة صفحة (308)، من الحجم الكبير، وينقسم إلى سبعة فصول، بين مقدمة، جاءت في خمس صفحات، وخاتمة جاءت في إحدى عشرة صفحة، ذكر فيها أهم نتائج بحثه، ولم أقف على ترجمة لهذا الكتاب ولا كتاب آخر من كتبه!، وقد جاء الفصلان الأول والثاني في الحديث عن تاريخ المجتمعات الإسلامية بشكل عام، أمّا الفصول الخمسة الأخرى، فيعالج كل فصل منها وجها من وجوه المجتمع الإسلامي المعاصر، أو مشكلة من مشاكله، ممثلة في بلد من البلدان الإسلامية، فاشتمل كتابه على فصول مسهبة عن الهند والباكستان وتركيا والبلاد العربية، وعرض لبعض الأمم الإسلامية الأخرى عرضًا موجزًا على قدر اتصاله بها وعلمه بأحوالها، وسنعرض عرضا مفصلا لكل فصل من هذه الفصول في المبحث التالي:

ثالثا- محتوى الكتاب:

إذا تتبعنا الأفكار الأساسية من خلال المنهج الذي اتبعه سميث في طرح موضوعات كتابه سنلاحظ الآتي:

مقدمة الكتاب: (من الصفحة 1 إلى الصفحة 5)

بدأ سميث في مقدمته بالحث على التوسع في الدراسة المقارنة للأديان، حيث يقول: "إنّ هناك عددا كبيرا من النصارى –والمؤلف واحد منهم- يتمنون لو أنّ مسلما تناول المسيحية المعاصرة بالدراسة المقارنة، إذ إنّ هذه الدراسة خليقة أن تكون خطوة إلى الأمام، لا إلى الوراء في التفاهم والعلاقات المتبادلة" (سميث، 1958، صفحة 6) وقد حثّ المسلمين على تطوير دينهم؛ وسيؤدي ذلك إلى حياة أفضل لهم.

التعليق: يريد بذلك أن يتوجه المسلمون إلى دراسة الأديان الأخرى؛ وذلك بهدف توطين أنفسهم إليها، واعتبار الدين الإسلامي واحدا منها، والذي يؤدي بدوره إلى إذابة الهوية الإسلامية عند المسلمين، واعتبار الدين الإسلامي مثله مثل غيره من الأديان الأخرى، يحتاج إلى تطوير وتحديث.

الفصل الأول: (من الصفحة 6 إلى الصفحة 40)

ركّز سميث على فكرة تدرج الأحكام الإسلامية، وهي أنّ حقيقة الدين شيء، وتقاليده وأشكاله الخارجية شيء آخر، وهو يحاول أن يُقنع القارئ بأن الأحكام الإسلامية تتغير بتغير الزمان، وهذا وفقا لما تقتضيه ظروف العصر؛ مما جعله يخلص إلى تقسيم الإسلام إلى ثلاثة أقسام:

- إسلام قديم: ينتهي بسقوط بغداد.
- إسلام وسيط: يصور العصر التركي.
- إسلام حديث: يبدأ منذ احتكاك المسلمين بأوروبا.

وحثّ المسلمين أيضا على تغيير أحكام الإسلام، حسب ظروف العصر الذي يعيشونه؛ ذلك أنّ الإسلام حسب زعمه قابل للتطور.

كما تضمن هذا الفصل الإشادة بالتصوف؛ ذلك أنّه –حسب زعمه- يُبعد الإنسان عن العمل الدنيوي، ويُشّبه ذلك برجال الكنيسة، الذين اهتموا بشؤون الكنيسية، وتركوا للساسة الفصل في الأحكام المدنية.

التعليق: يريد بهذا أن يقضي على ثوابت الشريعة الإسلامية، التي من خصائصها أنّها لا تتغير بتغير المكان أو الزمان، فمثلا: القصاص لا يمكن تطويره إلى إلغاءه، وأمّا بخصوص ترك الأحكام للساسة، فهو يسعى بهذه الرؤية، إلى تأكيد المذهب العلماني، القائم على فصل الدين عن الدولة.

الفصل الثاني: (من الصفحة 41 إلى الصفحة 92)

صوّر سميث المسلمين -في هذا الفصل- وكأنهم لا يستطيعون التوفيق في الإسلام بين ما أُنزل كوحي من الله تعالى، والتطورات الحديثة، كما نظر إلى بعض الحركات الإسلامية ووصفها بالتطويرية، وكأنها أتت بشيء جديد، إذ قسّمها إلى ثلاث أقسام:

- حركة محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية
- حركة ولي الله الدهلوي في الهند
- حركة جمال الدين الأفغاني في باقي البلدان الإسلامية (سميث، 1958، الصفحات 41-47)

ويرى بأنّ باقي الحركات الأخرى متفرعة من هذه الثلاثة، مثل: "الحركة السنوسية" في ليبيا، "الحركة الإيرانية" و"الحركة الأندونيسية"، إذ يسمها سميث بـ (تطورات متحركة) (سميث، 1958، صفحة 51).

كما تحدث الكاتب عن أربعة اتجاهات فكرية، تركت أثرها في الفكر الإسلامي المعاصر، التحررية (سميث، 1958، صفحة 55)، القومية (سميث، 1958، صفحة 73)، التبريرية (سميث، 1958، صفحة 85)، الحماسية (سميث، 1958، صفحة 89).

وقد ذكر سميث في هذا الفصل بأنّ المسلمين الذين تحرروا فكريا، كوّنوا مع أصحاب الديانات الأخرى علاقات جيدة، وتحرروا من بعض القيود التي فرضها الإسلام عليهم، ووصلوا في بلدانهم إلى أعلى المناصب.

التعليق: خلط سميث بين التطوير والتصحيح، فمثلا: وصف دعوة محمد بن عبد الوهاب بأنّها تطويرية، وهي في الحقيقة إصلاحية، تهدف إلى إعادة الناس إلى ما كان عليه الرسول –صلى الله عليه وسلم- وصحابته –رضي الله عنهم.

وأمّا الذين تحرروا فكريا فهم اليوم يتحملون ما وصل إليه الإسلام والمسلمين، إذ بتقلدهم أعلى المناصب وقع عليهم تطوير الإسلام، والذين بواسطتهم تحققت المطامع الاستعمارية في العالم الإسلامي.

الفصل الثالث: (من الصفحة 93 إلى الصفحة 160)

تحدث في هذا الفصل عن بعض المشاكل والظواهر في البلاد العربية، حيث اعتبر سميث أنّ هناك أزمة أسماها: الأزمة الإسلامية (Islamic crisis) وهي -حسب زعمه- أنّ الأحكام الإسلامية في العصر الحديث لا تتناسب مع أنظمة الحياة المعاصرة في الغرب الأوروبي؛ ويرى بأن المجتمع الإسلامي في حاجة إلى هذه النُظُم، وهو مضطر إلى ممارستها، وهذا ما أوقع المسلمين في حيرة من أمرهم –حسب زعمه- فإمّا المحافظة على هويتهم، أو الانصهار في الحضارة الغربية، واقترح بذلك على المسلمين الابتعاد عن العزلة وضرورة التواصل والتقارب مع الغربيين؛ لكي لا يكون هناك أي أثر للإسلام في تباعد الشعوب (سميث، 1958، صفحة 103).

التعليق: الإسلام لا يمنع المسلم من الاستفادة من تجارب وحضارة الأمم الأخرى، ولكن كل هذا موقوف على الحفاظ على مقومات حضارته وثوابت دينه، أمّا إذا تعدّى ذلك فالإسلام يمنعه.

ونقول أيضا: إنّ الإسلام جاء للناس كافة، وهو يدعوا إلى التآلف والتعاون والعمل الإنساني المشترك، ولم يكن يوما من الأيام سببا من أسباب العزلة والانفصال بين الشعوب، بل هو دين الحوار والمعاملة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

الفصل الرابع: (من الصفحة 161 إلى الصفحة 205)

أشاد سميث بالحركة الإصلاحية في تركيا، ويرى بأنّها تمثل الاصلاح الإسلامي (Islamic reformation) وهي التي حاولت الخروج من هذه الأزمة؛ التي ذكرها في الفصل السابق، وذلك بإيجاد تفسير جديد يلائم الحياة العصرية، يرى فيها تطويرا جديدا للإسلام، يتلاءم كثيرا مع حياة الغرب المعاصرة، وقد أشاد كثيرا في هذا الفصل بالتجربة الكمالية في المنهج الديني الجديد، الذي أدّى إلى فصل الدين عن الدولة، وتمنى أن تستمر ظاهرة تطوير الإسلام في تركيا، ويصبح لها إسلام خاص بها، حيث نقل سميث كلاما لأحد رجال الترك المناصرين للاتجاه الكمالي بقوله: "نريد أن نبني إسلاما تركيا يصبح ملكا لنا، و جزءا من مجتمعنا الجديد" (سميث، 1958، صفحة 193).

التعليق: وأي تطور حققته تركيا في زمن أتا تورك، فكفى به أنّه أبطل العمل بالشريعة الإسلامية، وألغى الوزارة التي كان اسمها "مشيخة الإسلام" وحذف من دستور تركيا المادة التي فيها "إنّ الإسلام هو دين الجمهورية التركية"، وجعل الكتابة بالحروف اللاتينية بدل العربية.

فهل من المعقول أن يكون تطوير الإسلام –حسب زعم سميث- على هذا النحو؟!؛ بأنّ تنزع أغلب ثوابت الهوية من أمة مسلمة، فتصبح لا تفرق بين مسلم وغير المسلم.

الفصل الخامس: (من الصفحة 206 إلى الصفحة 255)

تحدث في هذا الفصل عن الوضع في الباكستان، على أساس أنّ هذه الدولة لم يكن لها كيان مستقل قبل انفصالها عن الهند، وقد رأى أنّ انفصالها عن الهند هو الطريق الأمثل لإقامة كيان إسلامي مستقل، وهو ما يُمثل (Islamic state) وقد اعتبر أنّ زعماء حزب الرابطة الإسلامية غير مؤهلين لإقامة دولة إسلامية؛ وذلك لعدم تأثرهم بالحضارة الغربية، وكذلك اصطدامها بالواقع السياسي والدولي، الذي حال دون تحقيق هذا الحلم، فبدا سميث وكأنّه الناصح الأمين للباكستانيين بأن يتخذوا المنهج التركي مرشدا لهم، إذا ما أرادوا تطوير الإسلام، حيث يقول: "إنّ باكستان لا تنجح كدولة علمانية إلّا إذا اقتنع الناس بأنّ الدولة الإسلامية هي في حقيقتها دولة علمانية" (سميث، 1958، صفحة 253)، واستشهد في ذلك بما ورد في كتاب: "الإسلام وأصول الحكم" لصاحبه علي عبد الرازق.

وقد حوى الفصل على وصف سميث تمجيد المسلمين للفترة الأولى من الإسلام، تحت حكم الخلفاء الراشدين، بأنّه وَهْم يقوم على تصور رومانتيكي، يُجسم فيه الخيال مُثُله العلوية السماوية، ويحاول التقليل من هذه الفترة بقوله: "إنّ ثلاثة من الخلفاء الراشدين قد انتهت حياتهم بالقتل" (سميث، 1958، صفحة 246).

التعليق: يريد في هذا الفصل أن تنهج باكستان نهج الكماليين، فيكون للباكستانيين إسلامهم الخاص بهم؛ ذلك لما يرى فيه سميث من المنفعة التي قدمت خدمة جليلة للغربيين.

يحوي كتاب "الإسلام وأصول الحكم" أخطاء وأقاويل باطلة تمس الخلافة الإسلامية وسيرة الخلفاء الراشدين، وتُمجد في الوقت نفسه ما قام به مصطفى كمال.

يريد سميث أن يشكك المسلمين في أفضل فترة عاشها المسلمون بعد وفاة نبيهم –صلى الله عليه وسلم- والتقليل منها، ونحن نقول: إنّ من أسباب الشقاق هو دخول عِلْية القوم في أمور الحكم، كما حدث مع عثمان –رضي الله عنه- أو أنّ سفيها قام بغدر حاكمه، كما فُعل مع عمر –رضي الله عنه- ومع ذلك أغفل سميث - عمدا أو سهوا- ما حققه المسلمون في هذه الفترة من فتح البلاد والتوسع فيها، ونظر فقط إلى السلبيات!؛ وهذا ليس من البحث العلمي في شيء، إذ على الباحث أن يكون منصفا وعدلا في إطلاق الأحكام .

الفصل السادس: (من الصفحة 256 إلى 291)

بعد أن تحدث عن التجربة الباكستانية في الفصل السابق، ركّز في هذا الفصل على المسلمين في الهند، وهو ما يُطلق عليه (islamic Involvement) حيث وصفهم عل أنّهم أقلية تعيش وسط شريحة كبيرة من الهنود المتنوعي الثقافة، والمتعددي الأديان، ولكنهم مع ذلك يغلب عليهم صفة التسامح، التي سادت في تركيا بعد الثورة الكمالية، وبذلك يريد سميث أن يصل إلى أنّ مسلمي الهند قد ساروا في نفس الطريق التركي، وطوّروا إسلامهم، وأصبح لديهم إسلامهم الخاص، مثل: تركيا وباكستان، حيث يقول: "...فالإسلام الذي سيبقى في قلوب مسلمي الهند، سوف يكون إسلامهم الخاص، وسيكون شكله مختلفا عن شكل الدين الذي يُطوّره مسلمو باكستان اليوم" (سميث، 1958، صفحة 258).

التعليق: وهو بهذه الطريقة يحث باقي المسلمين على تتبع التجربتين التركية والهندية، والتي بها يتحقق حلم أعداء الإسلام بالغزو الفكري، وذلك بالسعي إلى ضياع اللحمة الإسلامية؛ فيصبح كل مجتمع وله دينه الخاص به حسب تطويره له.

الفصل السابع: (من الصفحة 292 إلى الصفحة 296)

عالج سميث في هذا الفصل أوضاع بعض الأقليات الإسلامية في بعض الدول الإسلامية، مثل: (أندونيسيا، إيران، أفغانسان، الصين...إلخ) وذلك بشكل -مقتضب جدا!- ثم نوّه إلى عدم اهتمام المسلمين بترجمة المؤلفات اليونانية واللاتينية المعاصرة إلى اللغة العربية؛ وهو الأمر الذي أسهم في تدني حرية التفكير وضعف الإبداع مقارنة بالأتراك، الذين اتجهوا إلى المذهب العلماني، وترجموا الكثير من المؤلفات الغربية والفارسية.

التعليق: الأمة الإسلامية تحتاج من العلوم ما يعود بالنفع على الإسلام والمسلمين، فتحتاج إلى ترجمتها إلى لغتها، مثل الطب والكيمياء وغيرها، أمّا ما يُفسد أخلاقها وهويتها فهي في غنية عنه، يكفيها ما في تراثها، وما استفاد الأتراك اليوم من ترجمة مؤلفاتهم؟!، سوى أن نقول عليهم: إنّهم لم يلحقوا بالحضارة الغربية في تطورها وازدهارها، ولا بقوا مع المسلمين في هويتهم وعاداتهم!.

أمّا الخاتمة: (من الصفحة 297 إلى الصفحة 308)حاول فيها المؤلف الخروج بنتيجة مفادها: تشكيك المسلمين في أنّ الإسلام نمط سلوكي واجتماعي ثابت، يتصف بالجمود الفكري، ويزعم أنّ تقديس المسلمين للإسلام يبدوا كأنه يفوق إيمانهم (سميث، 1958، صفحة 307).

كما قرر في خاتمته من أنّ العلمانية تشق طريقها إلى العالم الإسلامي في شكل مستمر، وأنّ من الممكن تطبيقها بقوة السلاح، أو تحت ضغط سياسي (سميث، 1958، صفحة 301).

التعليق: يحاول المؤلف أن يُزين ويزرع في المسلمين كل ما له انسلاخ من الشريعة ونظمها وأنماطها، لذلك رجع إلى فكرته الأولى التي سبق الإشارة إليها، وهي فصل الدين عن الدولة، لذلك فإشادته بالتصوف في أول الأمر لم يأتي عبثا، بل هو لخدمة غاية معينة.

رابعا- أهداف الكتاب:

يهدف الكتاب إلى تفتيت الإسلام عن طريق تطويره، وإفقاد الإسلام لطابعه وتميزه وأصوله التي تحول دون إرساء دعائم الاستعمار وتثبيت أقدامه، وكأن الكتاب يحاول الإجابة عن السؤال: ما هو الطريق الذي سوف يسلكه المسلمون في تطور الإسلام الذي هم مقبلون عليه؟!.

- يهدف كذلك إلى قطع صلة الإسلام في الوقت الراهن وفي المستقبل بالإسلام الماضي، أو بعبارة أصح، قطع التفكير والتشريع الإسلامي في الحال وفي المستقبل بمصدر الوحي.
- يهدف أيضا إلى تفكيك الوحدة الإسلامية، بأن يكون لكل منطقة إسلامها الخاص بها.
- يهدف الكتاب إلى تغريب المسلمين في العصر الحديث؛ وذلك بإعطائهم صبغة أوروبية في التفكير والهيئة واللباس، وكل ماله صلة بالإسلام.

خاتمة:

بعد إعطاء نظرة للقارئ على هذا الكتاب، خرجت بأهم النتائج مع بعض التوصيات.

- يُعتبر الكتاب ثمرة جهد طويل، في جمع الحقائق واستقصائها، من واقع المجتمعات الإسلامية، التي ظلّ المؤلف ينتقل بينها.
- الفصلان الأول والثاني يعالجان تاريخ المجتمعات الإسلامية بشكل عام، في حين الفصول الخمسة الأخرى فتعالج مشكلة من مشاكل المجتمع الإسلامي المعاصر، وهي: البلاد العربية، تركيا، باكستان، الهند، مناطق أخرى من العالم الإسلامي.
- يسعى هذا الكتاب إلى تقديم دراسات ميدانية عن أوضاع بعض الدول العربية والإسلامية إلى الساسة الغربيين.
- القارئ لهذا الكتاب سيكتشف أنّ الأفكار التي تبناها في حقيقتها ليست أفكار فردية لأشخاص بعينهم؛ وإنّما توجهات لدول ومؤسسات تعمل على محو الإسلام من حياة المسلمين بأي طريقة.
- يندرج كتاب سميث ضمن كتب الاستشراق، التي تسعى إلى خدمة الأهداف الاستعمارية، لا مجرد الاطلاع والمعرفة لواقع المجتمعات المسلمة .
- من خلال الاطلاع على هذا الكتاب، يُمكن اعتبار هيئة الاتحاد والترقي بزعامة مصطفى كمال، لها الدور البارز والتأثير الكبير على الإسلام والمسلمين، في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وهي التي فتحت المجال للغربيين والمستشرقين في الاطلاع على الحضارة الإسلامية، ولا أدلّ على ذلك الإشادة الكبيرة من سميث لهذه الهيئة في أكثر صفحات هذا الكتاب .

- يُمثل كتاب ويلفريد كانتويل سميث قمة الخطر في تغيير مفاهيم الجيل المسلم باتجاه التغريب وفق أسلوب ممنهج، حيث ركّز في موضوعات كتابه على أوضاع العالم الإسلامي في العصر الحديث، وضرورة تفسير الإسلام بما يتناسب مع التطورات الحديثة.
- يزعم صاحب الكتاب بأنّ التشريعات الإسلامية التي مصدرها الوحي تتعارض مع المفاهيم المتطورة، التي يعيشها العالم في العصر الحديث.
- يهدف هذا الكتاب إلى غرس فكرة واحدة، وهي تطوير الإسلام في أذهان الأجيال المسلمة؛ بما يتناسب مع المتغيرات الحديثة، التي يعيشها الغرب الأوروبي، وهو الأمر الذي يؤدي إلى جذب المسلمين نحو المدنية الحديثة، ويُبعدهم تدريجيا عن الدين الإسلامي الصحيح، ويحقق على المدى البعيد الكثير من الفرص الاستعمارية.
- لا يُعتبر الكتاب صالحا لكل أفراد المجتمع، وهذا لما فيه من أمور قد تشوش على العامي المسلم؛ لذا هو موجه فقد للباحثين المتمكنين من عقيدتهم الصحيحة، وتكون قراءتهم ودراستهم له في معرض الرد لا غير؛ وهذا شأن أغلب كتب المستشرقين.

توصيات:

- حواشي الكتاب غنية بالمراجع التي تفيد الباحثين، الذين يطلبون مزيدا من التفصيل فيما أجمله المؤلف.
- يحتاج الكتاب ترجمة إلى العربية، لكن بشرط أن يعقب الكتاب بالرد على المزاعم والمغالطات التي وقع فيها مؤلف الكتاب .
- من المهم أن يتنبه القارئ وهو يمضي في صفحات هذا الكتاب، إلى أنّه ليس كتابا علميا نزيها، فهو موجه في الأساس إلى خدمة هدف خاص، ألا وهو تفتيت الإسلام نفسه عن طريق تطويره.
- النقد العلمي للاستشراق يخدم المعرفة و جزءا من الحوار الحضاري، فالمستشرقون حجبوا نور الإسلام عن شعوبهم؛ لذا فدحض مزاعمهم ينير العقل الغربي.

قائمة المراجع:

- أسد طلال. (2020). *قراءة في كتاب كلاسيكي حديث :معنى الدين وغايته" لويلفريد كانتويل سميث.* (عثمان طارق، المترجمون) الكويت، الكويت: مركز نهوض للبحوث والدراسات .
- النعيمي أحمد نوري. (1415هـ). *يهود الدونمة -دراسة في الأصول والعقائد والمواقف-.* بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.
- حسين محمد. (د ت). *الإسلام والحضارة الغر بية.* القاهرة، مصر: دار الفرقان.
- ويلفريد كانتويل سميث. (1958). *الإسلام في العصر الحديث* (المجلد الأولى). نيو جارزي، الولايات المتحدة الأمريكية: جامعة برينستون.

الرؤية السياسية والاجتماعية للمغرب الأوسط في الكتابات الاوروبية خلال القرن 10هـ-16م (كتاب إفريقيا لمارمول كاربخال أنموذجا).

The Political and Social Vision of the Middle Maghreb in European Writings During the 10th Century AH-16AD (The Africa Book by Marmol Carvajal as a Model).

ط/د.قرمال عبد القادر، مخبر البحوث التاريخية والحضارية، جامعة البليدة 2 -الجزائر
ea.karmel@univ-blida2.dz



عرف المغرب الأوسط الكثير من الرحالة والمؤرخين الذين زاروا المنطقة لأغراض مختلفة، وأدرجوا في كتبهم أخبارا ومعلومات مصدرية، مست مختلف الجوانب السياسية، الاقتصادية، العلمية، والاجتماعية، حيث تعتبر مؤلفاتهم مهمة في الدراسة التاريخية للمغرب الأوسط. ومن بين هؤلاء الرحالة الإسباني مارمول كاربخال، حيث سنحاول في هذا العمل التعريف به، مع التركيز على كتابه (إفريقيا) من خلال الوقوف على آرائه في مجتمع المغرب الأوسط، ورصد مواقفه من أهم قضايا التي عاصرها خلال القرن 10هـ/16م، وتوضيح خلفيات كتاباته التاريخية.

بالرغم من كون مارمول كاربخال متعصبا في ولائه للكنيسة، ولا يخفي عداءه للإسلام والمسلمين في كثير من مواقفه باعتباره خادما وفيا للبلاط الملكي الاسباني، الاّ أنّ كتابه (إفريقيا) يبقى مصدرا مهما للباحثين في تاريخ المغرب الأوسط نهاية الفترة الوسيطة، خاصة أنّ ما يميزه هو رؤية الآخر لتاريخنا.

الكلمات المفتاحية: مارمول كربخال، كتاب إفريقيا، المصادر الأجنبية، المغرب الأوسط.

Abstract :

The Middle Maghreb knew many travelers and historians who visited the rigion region for different purposes, and included in their writings news and source information that touched on various political, economic, scientific, and social aspects. One of those travelers Marmol Karvajal, This work introduces him, with a focus on his book Africa by standing on his views on the Middle Maghreb society, and his positions on the most important issues he experienced durring the 10th AH/16th century AD, and clarifying the backgrounds of his historical writings.

Although Marmol Carvajal is fanatical in his loyalty to the Church, and does not hide his hostility to Islam and Muslims in many of his positions ; but his book Africa is an important source because it represents the vision of others for our history.

Keywords : Marmol Karvajal ; Africa book ; Foreign sources ; Middle Maghreb.



مقدمة:

يعتبر مارمول كاربخال من أشهر المؤرخين والرحالة الجغرافيين الذين عرفهم الغرب الإسلامي خلال القرن 10هـ/16م، وذلك لما تركه من إرث تاريخي وجغرافي نفيس؛ يتعلق بتاريخ الغرب الإسلامي، ولعلّ أحد

أبرز أعماله (كتاب إفريقيا)، الذي هو محل دراستنا، ومن خلال هذا نطرح الإشكالية التالية: من هو مارمول كاربخال؟ وما هي أهمية كتابه إفريقيا في دراستنا لتاريخ المغرب الأوسط؟ وماهي رؤية مارمول كاربخال للأحداث السياسية التي عاصرها بالمغرب الأوسط من خلال كتابه إفريقيا؟ وما خلفية ودواعي نزعته التاريخية تجاه المغرب الأوسط يا ترى؟

أولا- التعريف بمارمول كاربخال:

أ. مولده ونشأته: ولد مارمول كاربخال (Marmol Karvajal) في مدينة غرناطة (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 4)، وقد اختلفت الروايات والمصادر حول تاريخ ولادته، لكن الأرجح كما جاء في مقدمة المترجمين كان في سنة 1520م، وهو ما ذهب إليه كذلك الدكتور جعفر ابن الحاج السلمي استنادا على قول مارمول حين قال (خرجت من مسقط رأسي غرناطة وأنا ما أزال في ميعة الشباب؛ لأشارك في الحملة الحربية الكبرى التي قام بها شارل الخامس ضد مدينة تونس، فقد كان ابن خمسة عشر سنة، وقادر على حمل السلاح ومغادرة الوطن، فلا شك أنه يكون قد ولد عام 1520م، على الأقل (كاربخال، تاريخ ثورة وعقاب اندلسي مملكة غرناطة، 2013، صفحة 8).

ب.كان والدا مارمول إسبانيين نصرانيين، ممن وفد على غرناطة بعد سقوطها في يد الكاثوليكيين سنة 1492م، وقد كان والده بيدرو Pedro رجلا مرموقا ذو مكانة في غرناطة؛ معدودا من طبقة أعيانها والمتعلمين بها، إذ كان بها كاتبا في مجلسها، أمّا أمّه فلا ندري عنها شيئا، سوى أنها لم تكن زوجة شرعية لأبيه (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 8)، وهذا يعني أنه لم يعترف به أبوه إلى بعد أن كان عمر مارمول قد بلغ الثامنة، ولا شكّ في أن تنكر أبيه له كان من وراء تبكيره باختيار الخدمة في الجيش بدلا من الإقبال على العلم، إذ كانت خدمة تمكنه من الهجرة والتنقل والابتعاد عن غرناطة؛ حيث يعرف الناس جميعا أنه ابن سفاح بقدر ما تمكنه من المجد ورفعة المكانة (كاربخال، تاريخ ثورة وعقاب اندلسي مملكة غرناطة، 2013، صفحة 9).

التحق مارمول كاربخال يافعا بالجيش الإسباني حيث يقول عن نفسه (خرجت من مسقط رأسي غرناطة وأنا ما أزال في ميعة الشباب لأشارك في الحملة الحربية الكبرى التي قام بها شارل الخامس ضد مدينة تونس ولما سقطت هذه المدينة المحصنة بقيت أعمل تحت راية الإمبراطور في أقطار إفريقيا كلها مدة عشرين سنة متعرضا لكل ما جرى من أحداث عظيمة تستحق الذكر) (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 9).

اشتغل مارمول ضابطا في جيش الإمبراطور شارل الخامس وهو حديث السن، كما شارك في الحملة التي شنها شارل الخامس على تونس عام 1535م، وبعد مغادرة الأسطول الإمبراطوري لتونس بقي مارمول في شمال إفريقيا يقوم بمهمة كلفه بها شارلكان، وطال مقامه نحو إثنين وعشرين سنة (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 4)

تمّ أسر مارمول خلالها من طرف الشرفاء السعديين، وبقي عندهم أسيرا سبعة أعوام وثمانية أشهر؛ يسير في ركابهم أين ما ساروا في بلاد السوس الأقصى والصحراء، وفي منطقتي فاس وتلمسان، عاصر مارمول ثلاثة من ملوكهم هم: أحمد الأعرج(ت965هـ-1557م)، محمد المهدي الشيخ(ت964هـ-1557م)، عبد الله الغالب (ت982هـ-1574م) ووصف عن مشاهدته لهم وعلاقتهم مع الوطاسيين، ملوك فاس وأتراك الجزائر..؛ لذلك فإن أسره بالمغرب كان من سنة 959هـ-966هـ/ 1552م-1559م (بوتدارة ، 2016، صفحة 299)،حيث استغل مارمول هذه المدة من الأسر لتعلم اللغة العربية وجمع معلومات تاريخية وجغرافية عن بلاد المغرب الإسلامي.

ب. مهمته التجسسية:

يذكر المترجمون لكتاب " إفريقيا" أن مارمول كاربخال بقي جاسوسا يستطلع الأخبار والأحوال مدة بقائه في المغرب، للتعرف على مواطن الضعف فيها وتسهيل مأمورية جيش الإمبراطور، الذي كان يسعى للهجوم على سائر أقطار شمال إفريقيا، وإعادة ما قام به بتونس لتحقيق أمنية بطانته الكنسية في القضاء على الإسلام بالضفة الجنوبية للبحر المتوسط وإحلال النصرانية محله (كاربخال، تاريخ ثورة وعقاب اندلسي مملكة غرناطة، 2013، صفحة 14).

إنّ المهمة التي كلّف بها مارمول من قبل شارلكان في إفريقيا، وعلى الرغم من عدم الإفصاح عنها هي مهمة إستخباراتية تجسسية بالدرجة الأولى، نظير أسره وتعلمه اللسان العربي ومعرفته بالمنطقة، وهذا كله قصد تسهيل مأمورية جيش الإمبراطور شارل الخامس (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 5).

ج. علاقته بالكنيسة: كان مارمول كاربخال وفيّا جدا للكنيسة النصرانية الإسبانية، فمن خلال كتاباته يشيد بالعقيدة الكاثوليكية ويؤذي المسلمين والإسلام أذى شديدا، وهذا تقربا للكنيسة الإسبانية صاحبة النفوذ الأكبر في زمانه فهي التي ترفع وتخفض وتعز وتذل (كاربخال، تاريخ ثورة وعقاب اندلسي مملكة غرناطة، 2013، صفحة 8)؛ ولأجل عقيدته النصرانية ترجم كتاب (إلهام الجيش المقدس)، كما ذيل كتاب صلوات القسيسين الرومان (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 5).

وقد اتّسمت كتاباته بالعداء للإسلام؛ وهذا دليل منطقي على شدة تمسكه بالإيمان المسيحي، والتعصب للمسيحية، مليء بالحقد والتحامل على المسلمين وتاريخهم، فإلا وذكر المسلمين والهزيمة لا تكاد تنفك عنهم، والنصر غالبا في جانب النصارى ومتشبعا بالروح الملحمية الأسطورية (كاربخال، تاريخ ثورة وعقاب اندلسي مملكة غرناطة، 2013، صفحة 22).

إنّ مبالغة مارمول في إظهار العداء للإسلام والمسلمين؛ إنّما في الحقيقة حتى يدفع الشبهة عن نفسه ويحميها من شر الكنيسة، وشر محاكم التفتيش، فالويل له ثم الويل إن ثبت تخليه عن النصرانية، إذن المبالغة في العداء للإسلام هو قصد دفع الشبهة عن نفسه وتأكيد ولائه للكنيسة النصرانية الكاثوليكية (قطب، 1987، صفحة 16).

ت. عصره: عاش مارمول كاربخال في القرن 10هـ/ 16م، حيث كان عصره مليئا بالاضطرابات السياسية على بلاد المغرب الإسلامي.

كان الوضع العام بالمغرب الإسلامي تحديدا يشهد ضعفا وتفككا (حساني، 2009، صفحة 45)،خاصة ما تعرضت له المنطقة من الغزو البرتغالي والإسباني لشواطئ بلاد المغرب الإسلامي، والذي بدأ بمعاهدة ألكاثوفاس في 4سبتمبر 1479/ 874هـ، حيث تنازلت مملكة قشتالة عن حقها في غزو المغرب للبرتغال (بلالي ، 2017، صفحة 8)، أين اعترف فيها الإسبان بسيطرة البرتغاليين على الموانئ المغربية وبعض الجزر القريبة من الكناري، وقد تعززت هجمات الإسبان والبرتغاليين على المغرب الإسلامي؛ بعقد إتفاقية ثورديسلاس Tordesillasسنة 1494م/899هـ بين إسبانيا والبرتغال؛ أين قسّمت مناطق النفوذ في البحر المتوسط، وأطلقوا أيديهم على أراضي بلاد المغرب الإسلامي (فكاير، 2012، صفحة 25).

كما تميزت نهاية القرن الخامس عشر ميلادي بسقوط غرناطة سنة 1492م/ 897هـ آخر معاقل المسلمين بالأندلس بعد أن شنت إسبانيا حملات واسعة النطاق ضد المسلمين الأندلسيين (كارדياك، 1983، صفحة 27)، الذين هاجروا إلى سواحل المغرب الإسلامي إذ قامت إسبانيا بملاحقتهم (سبنسر، 1980، صفحة 27)، وفي المقابل كانت بلاد المغرب الإسلامي تعيش حالة من الضعف والتفكك والصراعات فيما بين إمارات بلاد المغرب، فانهارت الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط نتيجة الفتن (الوزان، 1983، صفحة 304)، وصراع القبائل المتمردة على الدولة (ابن خلدون، 1968، صفحة 920)، وكانت قد سقطت قبلها الدولة المرينية سنة 869هـ/ 1465م (ابن خلدون، 1968، صفحة 244)، وبعدها الدولة الحفصية 982هـ/ 1573م؛ فأصبحت بلاد المغرب عرضة للغزو الإيبيري.

إذن أهم ما ميّز الوضع العام الداخلي بالمغرب الإسلامي هو الضعف والاضطرابات والصراعات بينما، وما ميّز إسبانيا هو القوة وتوحد مملكة قشتالة وأراغون من خلال المصاهرة التي تمت بين فرديناند حاكم أراغون وإيزابيلا حاكمة قشتالة، فتوحدت إسبانيا سنة 1479م، وحملت على عاتقها مهمة نشر النصرانية بالمغرب الإسلامي (العسلي ، 1986، صفحة 44).

ث. مؤلفاته: اهتم مارمول بالتأليف والكتابة التاريخية الجغرافية، وأمور الدين النصراني (كاربخال، تاريخ ثورة وعقاب اندلسي مملكة غرناطة، 2013، صفحة 25)، كونه عايش عدة أحداث بالأندلس وشمال إفريقيا ونقل روايات نادرة ونفيسة، سمحت له بتسجيل هذه المصادر نذكر منها كتاب إفريقيا، كتاب وقائع الموريسكيين، وكتاب تاريخ ثورة وعقاب أندلسي، كما أنّ له كتابين آخرين أقل تداولا وشهرة من الثلاث الكتب السابقة الذكر، ذات طابع ديني، هما: (إلهام الجيش المقدس) و(صلوات القسيسين الرومان) (بوتدارة ، 2016، صفحة 300)، وهذان الكتابان ما زالا بلغتهما الأصلية لم يتم ترجمتهما إلى لغات أخرى.

ج. وفاته: ليس عندنا تاريخ مؤكد لوفاة مارمول كاربخال، وكل من يورد تاريخا لوفاته فإنما يستند إلى تاريخ نشر القسم الثاني من كتابه إفريقيا وكتاب تاريخ ثورة وعقاب أندلسي عام 1599م بغرناطة (بن جلون،

1996، صفحة 167)، وهناك رواية تنص على أنه توفي سنة 1600 م في (بلش) مالقة لا بغرناطة (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 24).

ثانيا- الأهمية التاريخية لكتاب إفريقيا لمارمول كربخال:

ألّف مارمول هذا الكتاب بعد اطلاعه على كتاب وصف إفريقيا (العربي، 1972، صفحة 72)، للحسن الوزان ونسج على منواله فصولا كثيرة حرفا بحرف، فنشر هذا الكتاب عام 1573م بغرناطة باللغة الإسبانية، ثم تمت ترجمته إلى الفرنسية من قبل الفرنسي دابلونكارت Dibloncart عام 1667م، ثم تمت ترجمته إلى العربية في ثلاثة أجزاء من قبل باحثين مغاربة، محمد حجي وآخرون سنة 1984م.

قدّم مارمول من خلال كتاب إفريقيا مادة معرفية غنية تشمل بالأخص الجانب الجغرافي، من خلال المعلومات التي تعرف جميع مناطق إفريقيا من النيجر ومصر إلى غاية الصحراء الكبرى، إلى جانب المادة التاريخية التي يقدمها الكتاب (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 25)، يعتبر كتاب إفريقيا لمارمول كاربخال من المصنفات الهامة في أوروبا خلال القرن 10هـ/ 16م، وذلك لمساهمته في التعريف بالكثير من المناطق الإفريقية المجهولة ومزج بين المعلومات الجغرافية والمعارف التاريخية، خاصة وأنّ في النصف الأول من القرن السادس عشر انشغلت عقول الناس بالأحداث المثيرة البعيدة انشغالا شديدا ولم تعد تهتم كثيرا بإفريقيا، وأنّه مع نهاية القرن السابق تم اكتشاف العالم الجديد من قبل كولومبوس1492م، ويذكر هاريت أنّ كتاب إفريقيا كان مصدرا غنيا بالمعلومات الجديدة التي كان يتطلع إليها الناس منذ زمن بعيد وظل على مدى قرنين ونصف القرن كتابا مهما لجميع المعنيين بشؤون إفريقيا (هارت، 1988، صفحة 256)، يعد الكتاب مصدرا يؤرخ للحياة الاقتصادية، الاجتماعية والبعد التاريخي للمجال الجغرافي بالمغرب الإسلامي.

اهتم مارمول بتقديم معلومات جغرافية ومعارف تاريخية عن المغرب الأوسط التي ذكر ممالكها وأقاليمها في الجزء الثاني حيث تطرق إلى مملكة تلمسان فوصف مدنها ومعرفا بجغرافيتها وتاريخها مثل وهران، مستغانم، تنس، شرشال، مليانة، المدية، المهدية، بجاية، جيجل والأوراس، مشيرا إلى الوضع الاجتماعي وحالة المهاجرين الأندلسيين.

تحدث مارمول أيضا عن الجانب السياسي للمغرب الأوسط في كتابه إفريقيا، حيث يذكر كل ما يعرفه عن المنطقة وما تعاقب عليها من حكام، ويوجز ما حدث في عصره وقبيل عصره سواء الصراع بين القبائل أو هجمات الإسبان والتواجد التركي.

أمّا الجانب الاقتصادي بالمغرب الأوسط، ذكر مارمول المجاعات التي حدثت بالمنطقة، وإلى حالة الزراعة وأنواع المزروعات والصنائع التي انتشرت به وطرق التجارة. كما بيّن مارمول الأحوال الاجتماعية بالمغرب الأوسط وجعلنا نتعرف على طبقات المجتمع والتوزيع السكاني والعادات وتقاليد أهل المغرب الأوسط، كما تطرق إلى الأحوال الثقافية بذكره للمساجد، المدارس والعلماء وبالمقابل المناطق التي كان يخيم عليها الجهل وعدم المعرفة.

إذن قيمة هذا الكتاب وأهميته في دراسة المغرب الأوسط تكمن في أنه يعد مصدرا رئيسيا لا يمكن لأي باحث ودارس لتاريخ وجغرافية المغرب الأوسط الاستغناء عنه، أو عدم التطرق لموضوعاته، كون مارمول

أمضى إثنين وعشرين سنة بالمغرب الإسلامي؛ منها ثماني (08) سنوات أسيرا، ما سمح له الإلمام بمدن المغرب الأوسط، ومتابعة تطورات الأحداث من هجرة المورسكيين والهجمات الإسبانية والاستنجاد بالعثمانيين، وكذلك تكمن أهميته في كونه مصدر أجنبي يثير الرغبة في معرفة ما كتبه الآخر عن الغرب الإسلامي عامة، والمغرب الأوسط خاصة، خاصة وأنّه ألّف في ظروف تميزت بالحقد الغربي الذي ترجم في شكل حركة استعمارية مسّت معظم قارة افريقيا.

ثالثا-الأوضاع السياسية للمغرب الأوسط مطلع القرن 16م من خلال كتاب إفريقيا لمارمول كاربخال:

أ. الغزو الاسباني لسواحل المغرب الأوسط: كان أبو حمو يقدم للملك الكاثوليكي فيرديناند شبه اعتراف وخضوع مقابل مساعدة جنود اسبانيا إياه ضد ابن أخيه (أبو زيان)، وكان رعاياه يكرهونه وكانوا يتمننون الإطاحة به والزج به في السجن ليعتلي العرش ابن أخيه؛ وقد استبشروا خيرا عند سماع خبر استيلاء بربروس على الجزائر، وتمنوا رؤيته بتلمسان ليطلق سراح الأمير الشاب، ونتيجة لهذا اضطر أبو حمو أن يلتمس من الكاردينال خيمينيس François Khimenis (العسلي ، 1986، صفحة 45)، حاكم إسبانيا أنذاك أن يجند أسطولا ضد بربروس وأن هذا الأمر سيؤمن سواحل إسبانيا من القراصنة الذين يريدون خلق التشويش، ولما أقبل ديكو دوفيرا أنزل نحو سبعة ألاف جندي تصدى له بربروس من جهة بينما هجم عليه الأعراب من جهة أخرى، فهزمه وأسر معظم رجاله (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 307).

وذكر مارمول التحرشات الاسبانية على أهم سواحل وموانئ المغرب الأوسط، ففي عام (1506م) قام الدون ديكو بمهاجمة المرسى الكبير بواسطة أسطول شارك فيه عدد كبير من النبلاء؛ وقد حاصر وقاتلها بشدة ودافع المسلمون عنها وردّوا على النصارى بمدفع من حديد، ولكنهم هزموا وقبلوا الاستسلام فخرجوا بنسائهم وأولادهم تاركين المدينة مفتوحة للنصارى، ولكن المسلمين عادوا للدفاع عن مدينتهم ورجعوا منتصرين إلى وهران (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 327).

وفي نص آخر يوضح مارمول أسباب حملة الإسبان على مدينة الجزائر؛ وهي من أشهر الحملات الاسبانية على سواحل المغرب الأوسط بحيث شارك فيها الملك الاسباني شارلكان بنفسه فيقول "بعد أن تمّ لشارلكان الاستيلاء على مدينة تونس؛ عزم على تطهير الساحل الإفريقي كله من القراصنة الأتراك ولا سيما أتراك مدينة الجزائر الذين كانوا يلحقون الأضرار بالمسيحية، تملكته كراهية مقدّسة لأنه يرى العدد الكبير من أسرى النصارى عند أولئك الكفار وأراد أن يحضر قتالهم بنفسهم (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 365)، وقبل وصول الحملة بيومين أي 18 أكتوبر 1541م، هبّت زوبعة شديدة على الساحل ولم يكن هيجان البحر قد سكت وإن كانت الرياح قد نقصت قوتها، إلاّ أنه كان سببا في عدم التمكن من النزول إلى البحر فورا، وكان سببا في فشل هذا الهجوم، الذي كان مضمون النجاح لولا ذلك الواقع (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 366)، واستنادا إلى توضيحات مارمول عن هذه الغزوة يمكننا لمس التحيز إلى سلطته الوصية فنراه يحصر فشل الحملة في الزوبعة وهيجان البحر، دون ذكر أية مقاومة من طرف من طرف الجزائريين، وهو بهذا الأمر يريد أن يظهر قوة ملكه وأسطوله الاسباني على حساب ضعف الجزائر وأسطولها.

ب. الاستنجاد بالإخوة بربروس:

إذا كانت إسبانيا قامت بدور لا يستهان به في تقليص نفوذ الدولة الزيانية أقوى كيان بالمغرب الأوسط، واحتلت أهم المدن الساحلية والموانئ، فإنّ الإخوة بربروس كان حلمهم إقامة دولة قوية، تمكنهم من مواجهة الخطر الصليبي الإسباني، الذي لا يتم إلا بالقضاء على التشتت الذي سهل مهمة الإسبان في السيطرة على موانئ المغرب الأوسط؛ ويقول مارمول في هذا الصدد "بعد مقتل عروج من قبل الإسبان، دخلت الدولة الزيانية مرحلة جديدة في علاقاتها بالعثمانيين في الجزائر وهو ما جعل خير الدين يربط مصير الجزائر (المغرب الأوسط) بالخلافة العثمانية" (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 307)، إذن يعتبر دخول الإخوة بربروس لتلمسان؛ أول سقوط للدولة الزّيانية في 10 هـ- 16 م.

وبتحليل رأي مارمول؛ فإنّه يعتبر الاستنجاد بالإخوة بربروس سببا في سقوط الدولة الزيانية، واضطراب الأوضاع بالمغرب الأوسط، في حين يرى المؤرخون عكس ذلك، فالاستنجاد بالإخوة بربروس كان نتيجة الضغط الذي مارسه الإسبان على الإمارات المستقلة من الدولة الزيانية كمدينة الجزائر (حساني، 2009، صفحة 131)، ، وأنّ الإخوة بربروس لم يأتوا لهذه البلاد كغزاة كما تصفهم الدراسات الغربية، بل وجودهم كان رغبة في الجهاد والقضاء على التفرقة ببلاد المغرب الأوسط (بوعزيز ، 2007، صفحة 82)، وهو ما يؤكده خير الدين بربروس في مذكراته "قتل أخي عروج" مائة إسباني قبل أن يسقط شهيدا، أما أخي الأكبر إسحاق فقد استشهد قبله ببضعة أشهر في قلعة من القلاع" (بربوس، 2010، صفحة 92)، ،فوصف خير الدين إخوته بالشهداء دليل على نواياهم الجهادية ضد النصارى بالمنطقة .

رابعا- صورة مجتمع المغرب الأوسط عند مارمول كاربخال في كتابه إفريقيا:

أ. عناصر المجتمع: من خلال ما كتبه مارمول يمكننا استنتاج تنوع في العناصر المشكلة للمجتمع بالمغرب الأوسط فنجد العنصر البربري، العرب، الأتراك، الأندلسيون ومجموعة من الجاليات الأجنبية اليهود والنصارى.

1-البربر: هي كلمة تطلق على شعوب شمال إفريقيا وكان أول من استعمل هذا الاسم هم الرومان وقد نعتوا كل الشعوب الخارجية عن حضارتهم (شبي، 2013، صفحة 5)، وحسب مارمول يعد البربر أهم عنصر سكاني داخل المغرب الأوسط وقد ضم قبائل متعددة منها قبيلة زناتة التي سكنت مملكة تلمسان (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 307)، ويصفهم مارمول فيقول (هم شجعان شرفاء) ويضيف (ومن عاداتهم الدخول في خصومات ونزاعات حول السلطة مما سبب التقاتل الشديد بينهم عندما لا يتهددهم عدو من الخارج، وإذا طرق بابهم عدو من غير أهلهم اجتمع شملهم واتحدوا لمقاومته) (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 351).

ويذكر مارمول زواوة الشرسين الذين سكنوا جبل بني عباس، وكانوا من أعظم المقاتلين الشجعان بإفريقيا، وكانت علاقتهم جد ودية مع الأتراك (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 385)، وقد ركّز مارمول عند ذكره للبربر على قبيلة زناتة بالدرجة الأولى؛ وهذا لاعتبارها قبيلة سياسية حكمت المغرب الأوسط خلال تلك الفترة.

2-العرب: لقد كان العرب من العناصر الأساسية المشكلة لمجتمع المغرب الأوسط بعد البربر السكان الأصليين حسب ما ذكره مارمول، قد وفد العرب إلى البلاد كفاتحين بهدف نشر الإسلام.

وقد ذكر مارمول أنّ العرب بالمغرب الأوسط استقروا على مراحل؛ وأول فروعهم هي المسماة قبيلة السكاكين أو أولاد حدّاج؛ وتضم مجموعة من العمارات (الفروع) منهم أولاد عمران، أولاد دلاج الذين ينتقلون بين الجزائر وبجاية وتلمسان، أولاد صبيح على حدود تلمسان إلى غاية الصحراء (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 102)، وقد تميز هذا الفرع بالميول للحرب، لكن هناك تعقيب من طرف المترجمين المغاربة للكتاب حول اسم سلالة السكاكين حيث قالوا أنه محرف ولا شك (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 100).

أما الفرع الثاني من عرب المغرب الأوسط هي عرب بني هلال، الذين قدموا إلى المغرب الإسلامي بتوجيه من الفاطميين في مصر (حساني، 2009، صفحة 47)، واستقروا في مناطق كثيرة بالمغرب (فيلالي ، 2002، صفحة 173)، وقد ضمت عرب بني هلال مجموعة من القبائل أبرزها بنو عامر القاطنة بين تلمسان ووهران وأولاد عروة القاطنون على حدود مستغانم، وأولاد عقبة على حدود مليانة الذين نعتهم باللصوص القساة (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 103).

إنّ ما غلب على ذكر بني هلال من قبل مارمول؛ هو الوصف بالشدّة وخوض الحروب وحمل السلاح واللصوصية وقطع الطرق والوحشية يقول (هم قوم متوحشون من كبار اللصوص القساة يعيشون في اضطراب دائم) (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 104)، وهذا ما أشار إليه الدكتور علاوة عمارة؛ أنّ دخول الهلالين إلى المغرب الأوسط كانت له نتائج تمثلت في إشاعة الفوضى وتعريب المنطقة واغتصاب الأراضي (عمارة، 2007، صفحة 13).

الفرع الثالث من قبائل العرب التي تطرق إليه مارمول في كتابه هي قبيلة المعقل التي استوطنت المغرب خاصة منطقة الصحراء (منصور، 1968، صفحة 414)، وتضم عدة بطون متفرعة منهم أولاد المنبهي بالصحراء وأولاد الثعالبة بإقليم الجزائر وسهول متيجة، وأولاد السويد بين مستغانم ونهر الشلف (منصور ، 1968، صفحة 415).

من خلال ما جاء في كتاب إفريقيا عن قبائل المعقل نلاحظ الفرق بين صفات بني هلال والمعقل الذين وصفهم مارمول بالشجاعة والنباهة والثراء، وهو ما ذهب إليه الدكتور عبد الوهاب منصور حين قال انّ عرب المعقل اشتهروا باحترام أنفسهم وعدم انتهاك حرمة الناس (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 104).

ما ميز العلاقة بين القبائل العربية والبربرية حسب مارمول؛ هو النّزاع والصراع الدّائم والتقاتل حول أقاليم المغرب الأوسط، وهو ما يؤكدّه بقوله: ما ميز زناتة وبني هلال هو الغارات والحروب (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 351).

3-الأندلسيون: عرف المغرب الأوسط توافد العديد من الأسر الأندلسية، خصوصا في فترة الأزمات السياسية للأندلس (فيلالي ، 2002، صفحة 173)، ،وبداية ضعف المسلمين في الأندلس وتوسع النصارى على حساب المراكز الإسلامية مثل قرطبة التي سقطت سنة 633هـ/ 1235م (حساني، 2009، صفحة 77)؛ وهو ما رجحه

القلقشندي في أنّ سبب هجرة الأندلسيين إلى تلمسان هو أن هذه الأخيرة تشبه مدن الأندلس في مياهها وبساتينها وصنائعها (القلقشندي ، 1922، صفحة 436).

ومن خلال الكتاب وصف مارمول الأندلسيين بالشهامة والحذق والعناية بالزراعة خاصة الكروم، الزيتون، التوت وقد أشار إلى أنهم استقروا بالمدن الساحلية حيث ذكر " قام بعضهم ببناء القلعة والدور بشرشال حتى إنك تجد اليوم بهذه المدينة أكثر من خمسة آلاف دار " (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 356)، كما كتب فصلا بعنوان: القل مدينة المهاجرين الأندلسيين؛ والتي استقبلت أكثر من ثلاثمائة من مسلمي قشتالة والأندلس وبلنسية وقد اهتموا بأشجار البرتقال والليمون ومختلف الفواكه (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 362).

4- الأتراك: إنّ أول إشارة عن الأتراك من قبل مارمول في كتاب إفريقيا هو تواجدهم بتلمسان إذ قال "احتلال بربروس لتلمسان"، وهذا لنظرته المقيتة للأتراك، ثم أضاف ذهب عروج يستولي على باقي المدن بعد أن استولى على تلمسان وارتكب فيها الأعمال الوحشية (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 300)، إلى أنه انهزم أمام القائد الإسباني مارتين داركوط ومات بتلمسان؛ لينصب أخوه خير الدين مكانه؛ والذي دانت له مملكة تلمسان وهزم الإسبان وبدأ عهد جديد للأتراك بالمغرب الأوسط.

كذلك من خلال الكتاب يذكر مارمول أنّ الأتراك غلب عليهم الاهتمام بالجانب العسكري، فكل إقليم يكون ضمن نفوذهم إلا وبه حامية تركية إضافة إلى الأهمية المقدمة للجيش الإنكشاري والاستعداد الدائم لخوض المعارك.

يشير مارمول إلى علاقة الأتراك بالعرب والبربر التي غلب عليها الصراع والنزاع حول الأقاليم فكل مدينة يستولي عليها الأتراك إلا ويقيمون عليها حامية تركية عسكرية ويكتفون بفرض الإتاوات، والتأكّد من ولاء هذه القبائل مثلما حدث مع جبل بني عباس الذي ثار على الأتراك (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 386).

إنّ ما يأخذ على مارمول في ذكره للأتراك، هو النظرة العدائية لهم ووصفهم بأصحاب الأعمال الوحشية والاستيلاء على المنطقة والنهب وافتعال المعارك؛ إذ قال: الأتراك طغاة مستبدين أكثر مما هم سادة مالكون (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 384)؛ وهذا كونه رجل عسكري إسباني معادي للأتراك ومحارب لهم يرى فيهم العدو الأول بالمنطقة.

5-الجاليات الأجنبية: وهي فئات اجتماعية استقرت بالمغرب الأوسط، وذكرها مارمول في كتاب إفريقيا، تصنف على أساس ديني سواء النصارى أو اليهود:

أ- النصارى: ارتبط ذكر النصارى عند مارمول باحتلال سواحل وهران والمرسى الكبير وتلمسان وبجاية؛ فالتواجد النصراني بالمغرب الأوسط مقرون بذكر الحصار معه مثل حصار دييكودي فيرا، والدون بيدري دي نابار، والصراع مع الإخوة بربروس (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 298).

ب- اليهود: لقد وجدت الطائفة اليهودية قبل الفتح الإسلامي منذ العهد القديم، فقد جاؤوا مع الفينيقيين في موجات متعاقبة، وكانت أبرز حركات هجرتهم من الأندلس هي تلك التي وقعت في سنة 633هـ/ 1236م؛ لما

سقطت قرطبة (سعد الله، 2010، صفحة 67)؛ وهذا ما يذكره مارمول عن اليهود، إذ أكّد على أنّهم نزحوا من الأندلس بعدما طردوا منها (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 163).

ج-طبقات مجتمع المغرب الأوسط: بعد تطرقنا إلى عناصر المجتمع التي ذكرها مارمول في كتاب إفريقيا نواصل دراسة البنية الاجتماعية بالمغرب الأوسط من خلال الكتاب لمعرفة طبقات المجتمع وطوائفه حيث قام بتقسيم مجتمع المغرب الأوسط إلى ثلاث طبقات ميزت المنطقة وهي:

1) طبقة التجار: وصفهم مارمول بأنهم أناس طيبون معتزون بالنظام وحسن التدبير (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 300)، وطبقة التجار بوهران وأرزيو التي تميزت بالتعامل مع الإسبان (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 349).

2) طبقة الصناع: ثاني طبقة ذكرها مارمول هي طبقة الصناع الذين وصفهم بالبساطة والإتقان (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 300)، تميزوا بالتنوع في الصناعة عبر مناطق المغرب الأوسط، فأشار لهم بتلمسان حيث قال عنهم أنهم يتميزون بالقناعة وإتقان صناعة الأقمصة والزرابي والمعاطف وطقوم الخيل، أمّا في وهران تميزوا بالصناعة النسيجية مثل طبقة الصناع بمستغانم (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 350).

3) طبقة النبلاء والمحاربين: يصفهم مارمول بالوجاهة والشجاعة وهم من يرافقون الملك، لهم عدة امتيازات وإعفاءات من الرواتب الحسنة التي تسمح لهم أن يعيشوا عيشة راضية، كما أنهم يتولون المهام الرئيسية في قصر وبلاط الملك، وقد ذكر مارمول أن هذه الطبقة قد بدأت تتلاشى في عهد الأتراك لأن الأتراك ليس لهم جهاز حكم ملكي ويقول أنهم عديمو الثقة بالسكان، فكل حرس الحاكم التركي من الأتراك، فاستبعدت هذه الطبقة أكثر من أيّ وقت مضى في عهد الأتراك، وبقيت بعض هذه الطبقة بالصحراء مثل منطقة توقرت وتيكورارين، التي مكثت فيها طبقة المحاربين والنبلاء (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 300).

د. عادات وتقاليد مجتمع المغرب الأوسط: ذكر مارمول كاربخال من خلال كتابه إفريقيا، بعض عادات وتقاليد سكان المغرب الأوسط فيما يتعلق بالاحتفالات والأفراح الولائم الألبسة والأعراف.

1)الأعياد والأعراس: ربط أعياد وأعراس وولائم المغرب الأوسط على شاكلة ما يقام بمملكة فاس (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 300)؛ وأهم ما ميز عادات مجتمع المغرب الأوسط حسب مارمول هو الاهتمام بالمناسبات الدينية؛ وخاصة صلاة الجمعة حيث يقول (كان ملوك تلمسان يعيشون بأبهة كبيرة ويظهرون يوم الجمعة للتوجه للجامع في موكب يضم كل موظفي الدولة) (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 301).

2) اللباس: تكلم مارمول عن لباس أهل المغرب الأوسط، وأول ما وصفه بأنه يتميز بالأناقة في المظهر، بل أضاف أنه كان أكثر جمالية من لباس أهل فاس...، كان لباسهم من الدرجة الأولى من المنسوجات الصوفية، القطنية، والحريرية خاصة بحواضر المغرب الأوسط، مثل تلمسان، مازونة، مستغانم، قسنطينة، عنابة، بجاية، إضافة إلى انتشار لباس الجلد بمدن مثل عنابة والمدية (كاربخال، كتاب إفريقيا، 1984، صفحة 300).

خاتمة:

- يتضح لنا من خلال التعريف بشخصية مارمول كاربخال أنّه يعد من بين المؤرخين والجغرافيين، الذين تركوا بصمتهم خلال القرن 10هـ / 16م؛ وذلك من خلال ما خلفه لنا من مصادر نفيسة تؤرخ لإفريقيا والمغرب الإسلامي والمغرب الأوسط خاصة، والتي من بينها كتاب إفريقيا، الذي يكتسي أهمية كبيرة لأي باحث، وركيزة في صياغة تاريخ المغرب الأوسط حيث لا يمكن الاستغناء عنه وعن محتوياته.
- كما أنّ كتاب إفريقيا يساهم في إثراء فترة مهمة من تاريخ المغرب الأوسط وتوصيل الحلقات التاريخية التي تغافلت عنها المصادر الأخرى.
- يجسد كتب افريقيا دور همزة الوصل لتاريخ منطقة المغرب الإسلامي وجغرافيته مما يسهل على الباحث فهم الأحداث التاريخية وإدراك تأثير جغرافية المكان عليها.
- يعكس الكتاب نظرة مختلفة عن نظرة أبناء المنطقة لتاريخهم، فهذه نظرة لمدرسة أجنبية متعصبة للأفكار البابوية جعلت منه نموذجا للغربيين والمصادر الأجنبية التي لها قيمتها العلمية والتاريخية.

التوصيات:

- أصبحت العناية بترجمة المصادر التاريخية والكتب الأجنبية ودراستها أمرا ضروريا؛ لمعرفة تاريخنا من وجهة رأي الآخر، وهذا ما يمكنّنا من استخلاص الدروس والعبر من تاريخنا حتى نتفادى الوقوع في نفس الزّلات والأخطاء السابقة.
- كما أنّه من واجب ومسؤولية كل باحث الرّد على الاتّهامات الباطلة والشبهات التي الحقها الأجانب بتاريخنا بهتانا وزورا على غرار الرحالة الأجانب والمستشرقين، وذلك من خلال التصدي لها ومعرفة خلفياتها التاريخية ونسفها بالأدلة من مصادرنا التاريخية.
- إنّ إقامة الملتقيات التاريخية والندوات العلمية بصفة دورية، تعتبر وسيلة ناجعة لبلورة الوعي التاريخي، والتحصين الفكري لمجتمعاتنا، كما تعطي فرصة للنخبة العلمية من أجل تدارس القضايا الفكرية والعلمية وتلاقح الأفكار في بوتقة علمية تخدم بالإيجاب أمتنا تاريخا، حاضرا ومستقبلا.

قائمة المصادروالمراجع:

- أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (1922)، دار الكتب المصرية، مصر.
- أحمد بن جلون، تطوان خلال القرنين 16م-17م، (1996)، منشورات مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي،المغرب.
- أسماء بلالي . (2017). التحرشات الإسبانية على سواحل الجزائر خلال القرن 16م،(2017)، مجلة روافد للبحوث والدراسات، 8.
- إسماعيل العربي، بجاية من خلال النصوص الغربية،(1972)، مجلة الاصالة، 74.
- الحسن الوزان، وصف إفريقيا،(1983)، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- بسام العسلي، خير الدين بربروس، (1986)، دار النفائس، بيروت.
- خير الدين بربوس، مذكرات خير الدين بربروس،(2010)،شركة الأصالة للنشر، الجزائر.
- روبين هارت، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، (1988)، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي.

- سالم بوتدارة، الصحراء الجزائرية في كتابات مارمول كاربخال،(2016)، مجلة الحوار المتوسطي،الجزائر، 7.
- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،(1968)، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- عبد العزيز شهبي، تاريخ المغرب الإسلامي،(2013)، كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر.
- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني،(2002)، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر.
- عبد المجيد قدور، الهجرة الاندلسية الى بلاد المغرب ونتائجها الاجتماعية والحضارية الجزائر كنموذج، (2003) مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة.
- عبد الوهاب منصور، قبائل المغرب،(1968)،المطبعة الملكية، الرباط.
- عبدالقادر فكاير، العلاقات الجزائرية البرتغالية خلال الفترة العثمانية، (ديسمبر 2012)، مجلة كان التاريخية، العدد 18.
- علاوة عمارة، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي(2007)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- علي محمد حمدي، الاكتشافات الجغرافية من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر، (1913)، المطبعة الجمالية،القاهرة.
- فوزي سعد الله، يهود الجزائر (مجالس الغناء والطرب)، (2010)، دار قرطبة، الجزائر.
- لوي كاردياك، الموريسكيون الأندلسوين والمسيحيون(1492-1640)، (1983)، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس.
- مارمول كاربخال، كتاب إفريقيا، (1984)،الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، الرباط.
- مارمول كاربخال، وقائع ثورة الموريسكيين،(2012)، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- مارمول كاربخال، تاريخ ثورة وعقاب اندلسي مملكة غرناطة،(2013)،جمعية تطوان اسمير، تطوان.
- محمد علي قطب، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، (1987)،دار القلم، بيروت.
- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية(الاحوال السياسية)، (2009)، منشورات الحضارة، الجزائر.
- ويليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، (1980)، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر.
- يحي بوعزيز، تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، (2007)، وزارة الثقافة، الجزائر.

القراءة الاستشر اقية الألمانية للإسلام بين الو اقع التاريخي والطرح الاستشراقي -دراسة تحليلية نقدية-

The German Orientalist Reading Of Islam Between The Historical Reality And The Orientalist Proposition-a Critical Analytical Study

ط/د.حزام لطفي، جامعة 8 ماي 1945 قالمة -الجز ائر
hazem41lotfi@gmail.com



تتناول هذه الورقة البحثية "القراءة الاستشراقية الألمانية للإسلام بين الواقع التاريخي والطرح الاستشراقي –دراسة تحليلية نقدية"، حيث انصب اهتمامنا في هذه الدراسة على محاولة معرفة الكتابات والدراسات الاستشراقية الألمانية التي تناولت الإسلام، ونظرة هؤلاء المستشرقين الألمان للإسلام من خلال مؤلفاتهم، بما وصل إليه الألمان من شبهات متعددة بالنسبة للقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والتشريع الإسلامي وانطلاقا من ذلك جاءت محاولتنا لمعالجة محاور هذه الورقة البحثية من مداخل متعددة، سأتطرق من خلالها إلى التعريف بالاستشراق الألماني ودور هؤلاء الألمان في دراسة الإسلام بطريقة تحليلية نقدية.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق الألماني، الإسلام، الو اقع التاريخي، الطرح الاستشراقي.

Abstract :

This research paper deals with "The German Orientalist reading of Islam between the historical reality and the Orientalist proposition - a critical analytical study". From multiple suspicions regarding the Holy Qur’an, the Noble Prophetic hadiths and Islamic legislation, and based on that, our attempt to address the axes of this research paper came from multiple approaches, through which I will address the definition of German Orientalism and the role of these Germans in the study of Islam in an analytical and critical way.

Keywords: German Orientalism, Islam, historical reality, Orientalist propositio



مقدمة :

يعتبر موضوع الإسلام والمسلمين من أهم المواضيع التي لاقت اهتماما كبيرا لدى المؤرخين والباحثين العرب بصفة عامة، والمستشرقين بصفة خاصة على اختلاف جنسياتهم وعقائدهم لاسيما الألمان منهم، وقد بذلوا في ذلك جهودا في دراسة الإسلام بمختلف جوانبه، وعلى الرغم من كل ذلك إلا أن مساهمتهم في التعريف

بالإسلام قد لاقت العديد من الانتقادات السلبية الموجهة إليهم في إطار مبدأ الاستشراق مؤسسة من مؤسسات الغزو الفكري العربي للعالم الإسلامي.

من هذا المنطلق برزت لنا أهمية البحث في هذا الموضوع "القراءة الاستشراقية الألمانية للإسلام بين الواقع التاريخي والطرح الاستشراقي –دراسة تحليلية نقدية"، وتطرح معالجة هذا الموضوع الإشكالية على النحو الآتي:

ماهي طبيعة الكتابات الاستشراقية الألمانية للإسلام؟ وإلى أي مدى تظهر تأويلاتهم غير منصفة اتجاه القرآن الكريم والأحاديث النبوية والتشريع الإسلامي؟، وماهي أهم الانتقادات التي وجهت لهم؟

أجزاء ومحتويات البحث: تجسدت في العناصر التالية:

-ماهية الاستشراق والمستشرقين

-بداية الاستشراق الألماني وسماته

-القراءة الاستشراقية الألمانية للإسلام بين الواقع التاريخي والطرح الاستشراقي

أولا- ماهية الاستشراق والمستشرقين:

1- تعريف الاستشراق:

1.1.لغة: اشتقت مفردة "الاستشراق" من كلمة "شرق" ثم أضيف إليها ثلاثة حروف هي الألف والسين والتاء، فأصبحت مصوغة على وزن استفعال أي " استشراق"، ومعناها طلب الشرق (ابن منظور أ.، د.س، صفحة 173، 174).

وجاء في "لسان العرب" (ابن منظور أ.، د.س، صفحة 173) و"المعجم الوسيط" (مجمع اللغة العربية، 2004، صفحة 480): شرقت الشمس شرقاً وشروقاً أي طلعت وأبانت، ويقال: الموضع الذي تشرق منه الشمس: يسمى المشرق، وكل ما طلع من المشرق فقد شرق وأنار، والتشريق: الأخذ في ناحية المشرق، يقال: شتان بين مشرّق ومغرّب، وشّرقوا أي ذهبوا إلى الشرق، وكل ما طلع من المشرق فقد شرق (الرَازي، 1986، صفحة 142).

وقد وردت في اللاتينية كلمة Orient بمعنى يتعلم أو يبحث عن شيء ما، وبالفرنسية Orienter أي وجّه أو هدى أو أرشد، وبالإنجليزية Orientation وOrientate تعني توجيه الحواس نحو اهتمامات شخصية في المجال الفكري والروحي، وفي الألمانية sichorientiern، أي جمع المعلومات (معرفة) عن شيء ما (مجموعة من الأكاديميين، 2015، صفحة 13).

2.1-اصطلاحا:حاول العديد من الباحثين المهتمين بظاهرة الاستشراق أن يضع كل واحد منهم تعريفا خاصا به مستمدا من رؤيته للموضوع ومن فهمه له ولوظيفته العلمية و الثقافية والحضارية والدينية والسياسية.

نذكر من أبرز هؤلاء الأستاذ ادوارد سعيد (ادوارد سعيد، 1990، صفحة 2،3) الذي اقترح تعريفا خاصا بالاستشراق عبر ثلاث مجالات أساسية: معرفية وسياسية وتاريخية.

فمن الناحية المعرفية: "الاستشراق هو كل من يدرس الشرق أو يكتب عنه أو يبحثه، سواء في جوانبه المحددة أم العامة، وسواء كان هذا الشخص انتروبولوجيا، أو عالم اجتماع، أم مؤرخا، أم فيلولوجيا إنما هو مستشرق، وما يفعله أو نفعله هو استشراق".

أما من الناحية السياسية: "الاستشراق هو أسلوب من الفكر قائم على تمييَز كياني (أنطولوجي) ومعرفي (ابستمولوجي) بين الشرق وفي معظم الأحيان الغرب".

ومن الناحية التاريخية: "ابتداء من القرن الثامن عشر أصبح الاستشراق أسلوب غربي يهدف للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه".

وجاء في تعريف أخر لمحمّد طاع الله (طاع الله، 2016، صفحة 13): الاستشراق دراسة لعلوم الشرق، وأحواله وتاريخه، ومعتقداته وبيئاته الطبيعية والعمرانية والبشرية، ودراسة للغاته ولهجاته، وطبائع الأمة بكل مجتمع شرقي، إلى جانب التيارات الفكرية والمذهبية بجميع صورها وأنواعها (الجبري، 1995، صفحة 13)، فبدأت بذلك الدَراسات تتسع وتستقل حتى أصبح لكل منطقة مجالا حدوديا لها من أجل البحث والدراسة، وأصبحت دراسة اللغة العربية وشؤون العرب تسمى "بالدراسات العربية"، والمستشرقين المتخصصين في العربية يسمون "بالمستعربين" (الساموك، 2010، صفحة 13).

ونورد هنا بعض التعريفات لبعض المستشرقين للاستشراق:

يقول المستشرق الألماني "رودي باريت" R. Paret بأن الاستشراق:

« علم يختص بفقه اللغة خاصةً، وأقرب شيء إليه أن الاستشراق مشتق من كلمة "شرق"، وعلى هذا يكون الاستشراق علم العالم الشرقي » (غلاب ن.، 2017، صفحة 21).

أما المستشرق الإيطالي "ميكائيل أنجلو جويدي" M.A Gwidi فقد جاء تعريفه للاستشراق: « هو الجمع بين الانقطاع إلى دراسة بعض أنحاء الشرق للوقوف على القوة الروحية والأدبية التي أثرت في تكوين الثقافة الإنسانية » (طاع الله، 2016، صفحة 14) ، وهذا ما عبَر عنه تشارلز دوتي بقوله: «أن الشمس جعلتني عربيًا، ولكنها ما شوهتني قط بالاستشراق » (قحطان، د.س، صفحة 1).

تعريف المستشرقين: استخدم مصطلح "المستشرق" باللغة الإنجليزية لأول مرة سنة 1779م، وبالفرنسية سنة 1799م (العنزي و الحساني، 2018، صفحة 75)، وكان يطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله: أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه (زقزوق، 1989، صفحة 24) (الزيادي، 1983، صفحة 59).

فالمستشرقون إذن هم: العلماء الغربيون الذين يهتمون بالدراسات الشرقية (الخربوطلي، 1988، صفحة 22)، سواء كانوا من المؤرخين أو علماء الآثار أو علماء الدَين الذي خصصوا جزءا من حياتهم لدراسة وتتبع المواضيع التراثية والتاريخية والدينية والاجتماعية للشرق (فاروق عمر، 1998، صفحة 30).

وقد وضع المستشرقون تعريفات لأنفسهم بما في ذلك المستشرق الألماني ديتريش حيث يقول: « المستشرق هو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه، ولن يتأتى له الوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار ما لم

يُتقن لغات الشرق » (قحطان، د.س، صفحة 36)، ويذهب المستشرق الإنجليزي آرثر جون آربري إلى تأكيد ذلك في قوله: "المستشرق من تبحر في دراسة لغات الشرق ومعرفة آدابه" (غانم، ديسمبر 2018، صفحة 36).

ويبدو أن أبعاد ومحددات الظاهرة الاستشراقية تتجاوز مصطلح الاستشراق بمفهومه الغربي (العنزي و الحساني، 2018، صفحة 74،75)، فليس كل من اهتم بالشرق في دراساته و يطلق عليه اسم مستشرق بالمفهوم العلمي له أهداف علمية محضة، فكثير من الخبراء المتخصصين في الشرق (سالم الحاج، 2002، صفحة 23)، يشتغلون كمستشرين لهيئات سياسية ودينية في الغرب، وفيهم من شغل حتى مناصب رسمية في وزارة الحربية والخارجية والاحتلال (النملة، 2014، صفحة 49)، فالمستشرق أيضا كان يحمل صفة المستكشف الذي يمهد الطريق للاستعمار، أو الحليف الاستراتيجي للمحتل الأوروبي، هذا إن لم يكن المسؤول الأول عن الجرائم التي تعرضت لها الشعوب الشرقية إبان الاستعمار (أركون و آخرون، 2016، صفحة 23).

ثانيا- بدايات الاستشراق الألماني وسماته:

1-بداية الاستشراق الألماني: تعود البدايات الأولى لاتصال ألمانيا بالشرق الإسلامي إلى فترة الحروب الصليبية على العالم الإسلامي (542- 544هـ/ 1147- 1149م)، أين كان الألمان حينها من المشاركين في الحج إلى الأراضي المقدسة، حيث قدموا وصفا لتلك البلاد ونقلوا شيئا من حضارتها بعد عودتهم إلى الديار (جبر، نوفمبر-ديسمبر 1994، صفحة 1).

وفي القرن الرابع عشر والخامس عشر للميلاد انعقدت النية على إنشاء كراسي لدراسة اللغات الشرقية في ألمانيا، وقد صاحب ذلك إنشاء الجامعات والمعاهد الألمانية التي تأخر تأسيسها عن بقية بلدان أوربا، إلا أن القرن السادس عشر الميلادي يعدّ مرحلة بارزة في تاريخ الاستشراق الألماني، وذلك من خلال المساعي العلمية التي قامت بها شخصيات ألمانية كان لها دور تأسيسي للدراسات الشرقية، من أجل تعليم اللغة العبرية لدارسي اللاهوت مع إعطاء محاضرات في تفسير التوراة، إضافة إلى تعليم العربية والسريانية وغيرها من اللغات السامية (المطوري، 2015، صفحة 193).

ازدهرت بعد ذلك الدراسات الشرقية بفضل إنشاء كراسٍ عديدة لتعليم العربية في ألمانيا، وازدياد المكتبات الشرقية التي اكتظت بالآلاف من المخطوطات والمؤلفات العربية والشرقية النادرة، وإنشاء المطابع وتأسيس الجمعيات الشرقية وإصدار المجلات المتخصصة كالمجلة الشرقية الألمانية، ومجلة الآداب الشرقية، ومجلة الإسلام ومجلة عالم الإسلام ومجلة إسلاميات، وغيرها من المطبوعات التي اهتمت بالدراسات الإسلامية والشرقية (سالم الحاج، 2002، صفحة 131)، ثم توالت بعد ذلك المؤتمرات الاستشراقية التي تلقى فيها البحوث والدراسات عن الشرق وأديانه وحضاراته (البازعي، 1999، صفحة 712).

استطاعت ألمانيا خلال القرنين السابع والثامن عشر للميلاد أن تخرج بالعلوم العربية والإسلامية، نظرا لما أسهم به الباحثون الألمان من جهود كبيرة في الدراسات العربية والإسلامية عن طريق التدريس والكتابة ونشر النصوص، أينما هيأت ظروفا ملائمة للاقتراب من حقيقة الإسلام (الولي، 1966، صفحة 28، 29)، فنشط الاستشراق بذلك في ألمانيا بسبب مجال فقه اللغة –تحقيق النصوص القديمة- الذي كانت ألمانيا السباقة إلى ابتكاره (خروبات، 2017، صفحة 185)، ومع بداية القرن التاسع عشر أصبحت المدن الألمانية

تقدم لعالم الاستشراق العديد من العلماء ممن أخذوا أنفسهم بالدراسات الإسلامية، من خلال العناية باللغة العربية بصورة خاصة، باعتبارها المفتاح المباشر والأساسي للإحاطة بهذه الدراسات بشكل صحيح وسليم (الولي، 1966، صفحة 29).

2-سمات الاستشراق الألماني: إن الدراسات الشرقية الألمانية لم تبدأ في وقت مبكر كسائر الدول الأوروبية، ولم تنشط إلا في القرن الثامن عشر، ولعل أبرز الصفات التي اتسم بها الاستشراق في ألمانيا ويكاد يتفرد بها عن سائر الدول الأوروبية (ميشال، مارس 1981، صفحة 186) هي أنه:

. لم يخضع لغايات سياسية أو استعمارية أو دينية كالاستشراق في بلدان أوروبية أخرى (فتح الله، 2014-2015، صفحة 78)، وبالتالي ابتعاد الألمان عن كل ألوان السيطرة صفَّى الجو ما بين الألمان والشرقيين، وأدى إلى تحول الدراسات الاستشراقية في ألمانيا إلى علم مجرّد عن الغرض تماما، وهكذا استمر الاهتمام بعالم الإسلام وبكل مظاهر النشاط فيه قويا (بارت، 2011، صفحة 85).

. كما تميَز دور الألمان في المجال الاستشراقي بجدية البحوث والتحقيقات، وبذلك يكون قد قدم خدمات تراثية جليلة للأمة العربية والعالم، وعلى الرغم من أن اهتمام الألمان بالتراث العربي الإسلامي قد زاد بعد الحرب العالمية الثانية إلا أنه يمكن عدّها ظاهرة ألمانية فريدة (الساموك، 2010، صفحة 120).

إن أهم ما ميَز عمل المستشرقين في هذا المجال هو قيامهم بجمع ونشر التراث العربي الإسلامي والنصوص القديمة، ويذكر دور البعض منهم أمثال: فلوجل، وبروكلمان وريتر، ووضع المعاجم العربية إضافة إلى قيامهم بالتدريس في الجامعات العربية (ميشال، مارس 1981، صفحة 186).

كما أن الاهتمام الذي أبداه المستشرقون الألمان نحو اللغة العربية وغيرها من اللغات الإسلامية، لم يكن غاية في ذاته وحسب، بل وسيلة لفهم القرآن الكريم وما تبعه من مؤلفات دينية ونظم مذهبية (الولي، 1966، صفحة 31).

غير أن هذه الجدية لا تعني عدم وجود أخطاء في البحث الاستشراقي الألماني تجاه الإسلام خاصة، إذ أن هناك العديد من المغالطات التي وقع فيها المستشرقون الألمان خلال دراساتهم في تاريخ الإسلام والقرآن والحديث والأدب وعلم الكلام وغيره من التراث العربي الإسلامي، وذلك راجع لعدم الإتقان المعرفي، وإن كانت تتخللها أهداف سياسية ودينية في الشرق عموما وفي الإسلام خصوصا (خروبات، 2017، صفحة 185).

ثالثا- القراءة الاستشر اقية الألمانية للإسلام:

القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة: أبدى المستشرقون الألمان اهتماماً واضحا بالدراسات العربية والإسلامية القرآنية والسيرة النبوية، إذ نجد الكثير منهم أفنى سنوات طويلة من عمره بين البحث والدراسة والتحليل خاصة فيما يتعلق بتاريخ القرآن الكريم وعلومه (مجموعة مؤلفين، 2014، صفحة 125)، حيث انطلقت أغلب دراساتهم هذه من أوائل القرن التاسع عشر إلى غاية النصف الثاني من القرن العشرين، وكان أشهرهم على الإطلاق المستشرق الألماني ثيودور نولدكه صاحب كتاب "تاريخ القرآن" (حسن و بني عامر، 2004، صفحة 307).

فلقد عمل المستشرقون الألمان على إثبات أن المصحف الذي بين أيدي المسلمين اليوم، ليس هو القرآن الذي قرأه النبي ونقله الصحابةُ من بعده، بل إنه مصحفٌ مزيف.

ومن هؤلاء المستشرقين الذين اعتقدوا هذا الرأي ودافعوا عنه المستشرق الألماني نولدكه الذي صرح بأن: "فواتح السور ليست من القرآن، وإنما هي رموز لمجموعات الصحف التي كانت عند المسلمين الأولين قبل أن يوجد المصحف العثماني، فمثلا حرف الميم كان رمزا لصحف المغيرة، والهاء لصحف أبي هريرة، والصاد لصحف سعد بن أبي وقاص، والنون لصحف عثمان، فهي إشارة لملكية الصحف وقد تركت في مواضعها سهواً، ثم ألحقها طول الزمن بالقرآن فصارت قرآنا" (غلاب م.، د.س، صفحة 85) (العاني، 2001) (اسكندرلو، 2018، صفحة 51)، وقد قال الحافظ السيوطي (السيوطي، د.س، صفحة 2139) في ذلك "بأن الجميع كلام الله".

ومصدر الخطورة عند المستشرقين الألمان يتمثل في التصريح بأن القرآن خاضع لحوادث التاريخ وترجمة عن شخصية محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو في اعتقادهم مؤلف القرآن الكريم وصاحبه (أبو ليلة، 2002، صفحة 249)، متجاهلين المنزلة العظيمة لكتاب الله كونه معجزا (الطريحي، 2012، صفحة 87).

كما قد انفرد المستشرق الألماني الشهير "جوستاف فلوجل" خلال دراسته للقرآن الكريم بتقديمه نصا للقرآن مخالفا في ترتيب سور وأرقام آياته للمصحف العثماني (المنيع، 2009، صفحة 401)، وهو ما يعد من الآراء الخاطئة والمفترية والمخالفة لآراء العرب والمسلمين، لما يظهر فيه من الطعن وإثارة الشبهات والتشكيك في مصداقية كتاب الله تعالى (المنجد، 1928، صفحة 127).

وهذا ما يفتح المجال أمام القول أنه خلال دراستهم للمخطوطات المتعلقة بالقرآن الكريم قاموا بتحريف القرآن والتنقيص منه، كما في فصل "الوحي الذي نزل على محمد ولم يحفظ في القرآن"، ونقل عنه في "دائرة المعارف الإسلامية" "إنه ممَا لا شك فيه أن هناك فقرات من القرآن قد ضاعت"، أو يقال: "القرآن غير كامل الأجزاء" (المنيع، 2009، صفحة 408).

والجدير بالذكر بأنه قد جاء بيانه في قوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» (سورة الحجر، الآية 9)، وغيرها من مزاعم المستشرقين الألمان بأن القرآن أخذ من التوراة والإنجيل وغيرها من الافتراءات والشبهات (الزاوي، 2008، صفحة 157)، وفي ذلك جاء قوله تعالى: «إِنَّا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْن عَلَيْنَا» (سورة فصلت، الآية 40).

كما عرفت مقومات الفكر الاستشراقي الألماني وأبعاده شبهات متعددة، وبخاصة تلك الشبهات والمطاعن التي ألصقوها بالأحاديث النبوية الشريفة وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم (حمدان، د.س، صفحة 76)، فلقد أخذت طابعا يمزج الخرافات بأحداث التاريخ، وأول ما يمكن ملاحظته في دراسة المستشرق الألماني "يوليوس ڤلهاوزن" للسيرة النبوية هو الحيَز الضيَق الذي أولاه لها في كتابه "تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية" ، ويعطي انطباعا بعدم قيمتها من وجهة نظره (المغناوي، 2011، صفحة 39،42).

كما شكك المستشرق الألماني "كارل بروكلمان" بجميع أصول الإسلام، بدءا بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم من لحظة ولادته حتى ينقض القول الشرعي فيه (جريش، 1993، الصفحات 17-19)، وقد ردَ الشيخ الغزالي على بروكلمان في افتراءاته على عدم صدقه للنبوة: "ونحن نتساءل هل هذا المستشرق ينكر الوحي جملة! وإن كان الأمر كذلك فلا نبوات البتة، وسقطت ديانته قبل أن تسقط الديانة التي يهاجمها، وإن كان يؤمن بالوحي ويصدق أنبياء اليهودية والنصرانية وحدهم، قلنا ما سرّ هذه التفرقة!" (جريش، 1993، صفحة 30،31).

فلقد تصور المستشرق الألماني "ڤلهاوزن" أن النبي صلى الله عليه وسلم صانع القرآن ومختلقه ومبدعه في أحسن الأحوال، وهو بذلك يرفض اعتبار القرآن الكريم موحى به من الله لنبيَه صلى الله عليه وسلم، ورأيه هذا متناقض بحسب ما يبيّنه ويؤسسه من أفكار في قراءته للسيرة النبوية (المغناوي، 2011، صفحة 42)، فقد جاء في قوله تعالى: «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (فصلت، الآية 41-42).

كما أنهم ربطوا دين الإسلام بجهود المسلمين وبالتالي أخفوا مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم في إبلاغ رسالته، وهو ما جاء واضحا في قول المستشرق الألماني الشهير "شاخت جوزيف" عن الأحاديث النبوية: "من الصعوبة اعتبار حديث من الأحاديث الفقهية صحيحا بالنسبة إلى النبي" (العاني، 2001، صفحة 146)، وبالتالي لم يتعرض مصدر من مصادر التشريع الإسلامي إلى النقد والتشويه مثلما تعرضت له السنة من قبل المستشرقين الألمان.

2-الفقه الإسلامي: لم ينج الفقه الإسلامي هو أيضا من هجمات المستشرقين، فقد تعرض هو الآخر للتشكيك والتشويه والطعن، ومحاولة نفي ما جاء به الفقهاء المسلمون، والرجوع في ذلك إلى مصادر غير موثوق بها من غير الإسلامية، كان في مقدمتها أن الفقه مستمد من القانون الروماني، هذا ما صرح به نجيب العقيقي قائلا: "وتأثر الفقه بالقانون اليوناني والروماني" (صبره، 1985، صفحة 74).

ومن كبار المستشرقين الألمان الذي تزعم القول بتأثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني المستشرق الألماني الشهير "جوزيف شاخت" الذي ألقى محاضرة أمام الأكاديمية الإيطالية للعلوم بعنوان: "القانون البيزنطي" جاء فيها أنه لم يكن للمسلمين كتب قانونية مترجمة (النملة، 2012، صفحة 39).

لقد آمن هؤلاء المستشرقون بأن الفقه الإسلامي بدأ مع النبي صلى الله عليه وسلم في شكل أقوال متناثرة ثم طوَرها من جاء بعده من الفقهاء، ولذلك نجدهم ينسبون دائما الفقه والتشريع الإسلامي إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا ما يعني ببشرية الفقه الإسلامي في نظرهم، وما كان فقهاء المسلمين في رأيَهم إلا أنهم قاموا بتلفيق أحاديث نبوية ووضعوها لترويج آرائهم، فشوهوا تاريخهم وألصقوا بهم ما ليس فيهم مع كبار الحفاظ وأئمة العدالة وأظهروا لهم صورة لا تليق بهم، وهو أمر مخالف لما كان عليه فقهاؤنا من العلم والورع والتقوى ممَا يخالف افتراءات المستشرقين (النشمي، 1984، صفحة 26،27) (الساموك، 2010، صفحة 61)، فقد جاء في قوله تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» (سورة الحاقة، الآية 44-46).

كما دخل المستشرق الألماني شاخت جوزيف في نقاش عميق حول مصادر التشريع الإسلامي غير القرآن الكريم والسنة النبوية، ويحاول أن يعيد جذورها إلى أصول رومانية (النملة، 2012، صفحة 40)، وذلك في كتابه "المدخل إلى الفقه الإسلامي" حيث قال: "الفقه الإسلامي في القرن الأول لم يكن له وجود في معناه الاصطلاحي كما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، والشريعة من حيث هي هكذا تقع خارجة عن نطاق الدَين..." (صابر و الرشيد، 1985، صفحة 69).

وليس جميع المستشرقين كانوا أعداء للأمة العربية الإسلامية، ومثال ذلك المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكه" وأحسن ما عبَرت به هو ما جاء في أطروحتها لنيل درجة الدكتوراه "أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية" أي فضل العرب على الحضارة الغربية خاصة، والحضارة الإنسانية عامة (زيغريد هونكه، 1993، صفحة 7)، هذا وقد تضمن كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب" معظم المنجزات الحضارية التي ظهرت في العالم الإسلامي في تفوقها العلمي والإنساني مقارنة بما يقابلها من الواقع الغربي في تخلفه العلمي وتدهوره الإنساني (البوطي، 1981، صفحة 141)، وهذا إن دلَ على شيء يدل على إنصافها لحقيقة الإسلام والرسالة المحمدية ، وأنه هناك من المستشرقين الألمان الذين درسوا الإسلام بما يليق بهم ويخدم أفكارهم.

فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، ويصححَون مثلا ما ينقله الدميري في كتاب الحيوان، ويكذبون ما يرويه مالك في الموطأ وهذا ما يوضح عدم إتباعهم الأسلوب الصحيح وإنما سلكوا أساليب غير علمية للوصول إلى هدفهم وهو الطعن في الدَين الإسلامي (سليمان و الصالح، 1996، صفحة 127،126).

خاتمة:

توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج يمكن تحديدها في النقاط الآتية:

- وجهت للمستشرقين الألمان العديد من الانتقادات فيما اقترفوه من أخطاء وهفوات في نظرتهم للدَين الإسلامي وهذا ما يظهر بشكل جلي في أبحاثهم ودراساتهم للقرآن الكريم محاولين إنكار المصدر الإلهي للنص القرآني وأن الوحي الخارجي لم يكن بواسطة ملك، وإنه من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم، وفي مقدمتهم نولدكه وكتابه "تاريخ القرآن" على حسب ما يخدم أهدافهم الاستشراقية، هذا بغض النظر عن بعض المستشرقين الألمان المنصفين للإسلام والمسلمين والمدافعين عنه أمثال المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكه".
- اتجه المستشرقون الألمان إلى علم التفسير منذ مطلع القرن العشرين، وتوسعت دائرة اهتماماتهم في منتصف القرن العشرين، وقد تحكمت في توجيه كتاباتهم في هذا العلم عدَة عوامل، تصورهم الخاطئ ببشرية القرآن الكريم، تعصبهم الدَيني، عدم إلمامهم الكامل بقواعد اللغة العربية وعلوم البلاغة والبيان والبديع، وهذا ما جعلهم يضعون أسس وقواعد غير منصفة وخاطئة اتبعوها في دراستهم للإسلام.
- تتسم مناهجهم في الدَراسات الإسلامية بالتشكيك دون التحقيق العلمي والاستدلال العقلي، فأغلب المستشرقين الألمان وهم يدرسون الإسلام من مختلف جوانبه، لا يلتزمون بقواعد العلم والمنطق، إنما يضعون لأنفسهم مقدمات خاطئة باطلة ويبنون عليها النتائج، هذا إلى جانب اعتمادهم على الأحاديث الضعيفة،

والحكايات التاريخية الملفقة والروايات المتعارضة فيظاهرها من دون بذل أي جهد للتوفيق بينها في نطاق الروايات الصحيحة والمسلمات الإسلامية.

توصيات:

تنشيط ملتقيات وطنية أو في مراكز الثقافة أو المدارس للتعريف بالاستشراق والمستشرقين الألمان ودورهم الطلائعي في دراسة التراث العربي الإسلامي، في إطار السعي لإعادة مراجعة ودراسة كتابات الألمان للإسلام والمسلمين وبالأخص المخطوطات الإسلامية التي قاموا بتحقيقها، حتى يتسنى لنا الوقوف على الثغرات والنقائص والتأويلات في حق القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والتشريع الإسلامي، وخاصة الأخطاء الفادحة الواردة في المخطوطات العربية الإسلامية، سواء المقصودة باعتبار الاستشراق مؤسسة من مؤسسات الغزو الفكري العربي للعالم الإسلامي، أو غير المقصودة والتي تعتبر من الأخطاء العظيمة ذلك أنها تغير المعنى الحقيقي لنص المخطوطة العربية الإسلامية، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر المستشرق الألماني "غوستاف فلوجل" ودراسته وتحقيقه للمخطوطات الإسلامية.

قائمة المراجع:

1)الكتب:

- أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، *الإتقان في علوم القرآن*، (د.س)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (السعودية)
- أحمد عمران الزاوي، *جولة في كتاب نولدكه "تاريخ القرآن"*، (2008)، دار طلاس (دمشق)
- ادوارد سعيد، *الاستشراق: المعرفة-السلطة-الإنشاء*، (1990)، مؤسسة الأبحاث العربية (بيروت)
- الرَازي، *مختار الصحاح*، (1986)، مكتبة لبنان (بيروت)
- الشيخ طه الولي، *الإسلام والمسلمون في ألمانيا بين الأمس واليوم*، (1966)، دار الفتح (بيروت)
- علي بن ابراهيم النملة، موقف المستشرقين من الحضارة الإسلامية بين الاستمداد والتأصيل، (2012)، دار الإمام (الرياض)
- جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور، *لسان العرب*، (د. س)، ج10، دار صادر (بيروت)
- رودي بارت، *الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه*، (2011)، المركز القومي للترجمة (ألقاهرة)
- زيغريد هونكه، *شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبة*، (1993)، دار الجيل (بيروت)
- ساسي سالم الحاج، *نقد الخطاب الاستشراقي الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية*، (2002)، دار المدار الإسلامي (بيروت)
- سعد بن عبد الرحمن البازعي، *الموسوعة العربية العالمية*، (1999)، مؤسسة أعمال الموسوعة (الرياض)
- سعدون الساموك، *الاستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية*، (2010)، دار المناهج (الأردن)

- سعيد المغناوي، *السيرة النبوية في الكتابات الألمانية*، (2011)، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيكو)
- صلاح الدين المنجد، *المستشرقون الألمان تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية*، (1928)، دار الكتاب الجديد (بيروت)
- عبد القهار داود عبد الله العاني، *الاستشراق والدراسات الإسلامية*، (2001)، دار الفرقان (عمان)
- عبد المتعال محمد الجبري، *الاستشراق وجه للاستعمار الفكري*، (1995)، مكتبة وهبة (القاهرة)
- عجيل جاسم النشمي، *المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي*، (1984)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت)
- عفاف صبره، *المستشرقون ومشكلات الحضارة*، (1985)، دار النهضة العربية (القاهرة)
- علي بن إبراهيم النملة، *مراجعات في نقد الفكر الاستشراقي حول الإسلام والقرآن والرسالة*، (2014)، د.ن (بيروت)
- علي حسن الخربوطلي، *المستشرقون والتاريخ الإسلامي*، (1988)، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة)
- غيثان علي جريش، *افتراءات المستشرق كارل بروكلمان على السيرة النبوية*، (1993)، د.ن (جدة)
- فوزي فاروق عمر، *الاستشراق والتاريخ الإسلامي (القرون الإسلامية الأولى)*، (1998)، الأهلية للنشر والتوزيع (عمان)
- مجمع اللغة العربية، *المعجم الوسيط*، (2004)، مكتبة الشروق الدولية (مصر)
- مجموعة من الأكاديميين، *موسوعة الاستشراق*، (2015)، دار الروافد الثقافية (بيروت)
- مجموعة مؤلفين، *المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الإسلامي*، (2014)، دارالكفيل للطباعة والنشر (د.م)
- محمد أركون، و آخرون، *الاستشراق بين دعاته ومعارضيه*، (2016)، دار الساقي (بيروت)
- محمد أمين حسن ومحمد بني عامر، *المستشرقون والقرآن الكريم*، (2004)، دار الأمل (الأردن)
- محمد خروبات، *الاستشراق والعلوم الإسلامية بين نقلانية التأصيل وعقلانية التأويل*، (2017)، المطبعة والوراقة الوطنية (مراكش)
- محمد سعيد رمضان البوطي، *منهج الحضارة الإنسانية في القرآن*، (1981)، دار الفكر (دمشق)
- محمد طاع الله، *خصومة الاستشراق في الخطابات والرَهانات*، (2016)، مجمع الأطرش للكتاب المختص (تونس)
- محمد غلاب، *نظرات استشراقية في الإسلام*، (د.س)، دار الكتاب العربي (القاهرة)
- محمد فتح الله الزيادي، *الاستشراق الخلفية الفكرية للصّراع الحضاري*، (1983)، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان (طرابلس)

- محمد محمد أبو ليلة، *القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية*، (2002)، دار النشر للجامعات (مصر)
- محمود حمدي زقزوق، *الاستشراق الخلفية الفكرية للصّراع الحضاري*، (1989)، دار المنار (القاهرة)
- محي الدين صابر ومحمد الأحمد الرشيد، *مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية*، (1985)، المنظمة العامة للتربية والثقافة والعلوم (تونس)
- نزير حمدان، *الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين*، (د.س)، مطبوعات رابطة العالم الإسلامي (د.م)
- نظيرة غلاب، *نظريات المستشرقين حول القرآن الكريم*، (2017)، مؤسسة نادي الكتاب (المغرب)
- نوح علي سليمان وسامي الصالح، *محاضرات في الثقافة الإسلامية*، (1996)، مديرية الإفتاء في القوات المسلحة الأردنية (الأردن)

2) المجلات:

- إسلام عبد الله عبد الغني غانم، "مناهج دراسة التراث عند المستشرقين: المنهج التاريخي المنهج الوصفي المنهج الأنثروبولوجي نموذجا،" (ديسمبر 2018)، *مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد4*، العدد2،
- جحا ميشال، "الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا،" (مارس 1981)، *مجلة الفكر العربي*، العدد31،
- حمدي محمد قحطان، "أدوار المستشرقين في تشويه معالم السنة النبوية،" (د.س)، *مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، المجلد3*، العدد10،
- طالب جاسم العنزي، و ساجدة الحساني، "أبعاد ومحددات الرؤية الاستشراقية في دراسة التراث والتاريخ الإسلامي،" (2018)، *مجلة دراسات استشراقية، العدد15*،
- محمد بن سعيد السرحاني، "الاتجاهات الحديثة للمستشرقين ومن تابعهم في تفسير القرآن الكريم،" (سبتمبر 2007)، *مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية*، (العدد70)،
- محمد جواد اسكندرلو، "الحروف المقطعة من وجهة نظر المستشرقين،" (2018)، *مجلة دراسات استشراقية*، (العدد15)،
- محمد سعدون المطوري، "الاستشراق الألماني ودوره في الدراسات الشرقية (تاريخ الاستشراق الألماني وملامح من أسسه المنهجية)،" (2015)، *مجلة دراسات استشراقية*، (العدد3)،
- ناصر محمد بن عثمان المنيع، "آثار مدرسة الاستشراق الألمانية في الدراسات القرآنية عرض وتحليل،" (2009)، *مجلة حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية*، (العدد6)،
- يحي عبد الرؤوف جبر، "الاستشراق في جامعة توبنجن الألمانية،" (نوفمبر-ديسمبر 1994)، *مجلة عالم الكتب، المجلد15*، العدد6،

3) الرسائل الجامعية:

- سحر جاسم عبد النعم الطريحي، الدراسات القرآنية في الاستشراق الألماني (2012)، *رسالة دكتوراه*، جامعة الكوفة، الكوفة
- محمد فتح الله، الترجمات الاستشراقية للقرآن الكريم دراسة لترجمتي ريجيس بلاشير وجاك بيرك لمعاني القرآن الكريم إلى الفرنسية (2014-2015)، *رسالة دكتوراه*، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس.

الاستشراق الألماني وموقفه من الحضارة العربية الاسلامية "زيغريد هونكة أنموذجا"

German Orientalism and its Position on the Arab-Islamic Civilization "Siegrid Hoenke as a Model"

ط/د. علي عباس حكيم، جامعة حسيبة بن بوعلي شلف (الجزائر)،
h.aliabbass@univ-chlef.dz



ساهم المستشرقون الأوربيين عامة والألمانيين خاصة بقسط كبير في التعريف بالحضارة العربية الإسلامية، وذلك من خلال انتاجهم العلمي الغزير الذي تمثل في أعمالهم ودراساتهم المتنوعة التي تم تحقيقها وترجمتها، وفي هذا الشأن فقد برزت نخبة من المستشرقين الذين أنصفوا التراث العربي الاسلامي فجاءت دراساتهم بعيدة عن الروح العدائية للعرب والاسلام التي طغت على بعض سابقيهم ومن هؤلاء المستشرقة الألمانية المعاصرة زيغريد هونكة التي جاءت في مجمل كتاباتها مدافعة عن الحضارة العربية الاسلام.

وعلى هذا أساس جاءت هذه المداخلة لتتطرق بالدراسة والتحليل لموقف المستشرقين الألمان من التراث العربي الإسلامي مقتصرين على أنموذجا ترك بصمات كبيرة في العالم بأسره تمثل في المستشرقة زيغريد هونكه، وذلك انطلاقا من بحوثها ودراساتها عن العرب والمسلمين ومن ثمت ابراز موقفها ومنهجها من تراثهم.

الكلمات مفتاحية: المستشرقون الألمان، الحضارة العربية الإسلامية، زيغريد هونكه، البحوث والدراسات، التراث العربي الاسلامي.

Abstract :

European orientalists in general and Germans in particular have contributed a great deal to the introduction of Arab-Islamic civilization, through their rich scientific output, represented by their various studies that have been achieved. In this regard, a group of Orientalists has emerged, and their studies are far from the hostile spirit of Arabs and Islam that has prevailed over some of their predecessors, including the contemporary German orientalist Sigrid Hunke, whose overall writings defend Arab-Islamic civilization.

This intervention came to study the position of German Orientalists towards the Arab-Islamic heritage, limiting it to a model that left a big imprint on the whole world, represented by the Orientalist Sigrid Hunke, based on her studies on Arabs and Muslims, and then highlighting her position and approach to their heritage.

Keywords:German Muslim, Arab Islamic civilization, Zigid Honke, Research and studies, Arab Islamic Heritage.



مقدمة :

تميز التراث العربي الإسلامي بالتنوع في مختلف مجالات المعرفة والفنون الانسانية، حيث ساهمت الدول العربية والاسلامية في بذل جهود جبارة في سبيل الحفاظ والاهتمام بذلك التراث والاعتزاز بموروثها الثقافي ولذلك عمدت إلى تحقيقه بهدف صونه والحفاظ عليه من الضياع والتلف واخراجه وتقديمه في صورة تليق به حتى يتسن للجميع الاطلاع عليه والاستفادة منه.

ورغم كل تلك الجهود المبذولة من قبلهم إلا أنهم لم يستطيعوا تغطية كل مجالاته وذلك نظرا لكثرتها وتنوعها، وفي هذا المجال برزت جهود المستشرقين الأوربيين الذين وجهوا اهتماماتهم منذ وقت مبكر صوب دراسة التراث العربي الإسلامي وذلك لعلمهم وادراكهم بقيمته وأهميته.

لقد تباينت أراء ووجهات نظر المستشرقين الغربين للتراث العربي الإسلامي فمنهم من نظر إليه نظرة إجحاف وافتراء وحقد وكراهية في العرب والمسلمين، في حين تجاوز أخرون تلك النظرة وعمدوا إلى إنصافه مستندين إلى منهج علمي موضوعي يهدف إلى البحث عن الحقيقة وكشف المغالطات واظهارها.

وقد كانت المدرسة الاستشراقية الألمانية ممثلة بأعلامها المميزين من بين المدارس الأوربية التي قدمت جهود جبارة في دراسة وإحياء التراث العربي الإسلامي، حيث أكد العديد من الدارسين والمختصين في الاستشراق بأن هذه المدرسة كانت أكثر نزاهة في توجهها وجديتها في دراساتها للتراث العربي الإسلامي وهو ما سمح لها بانفراد بالعديد من المميزات التي لم تتوفر في غيرها من المدارس الأخرى كالنزعة السياسية والروح العدائية ضد الاسلام والحضارة العربية الإسلامية بصفة عامة.

ونحن بصدد دراسة الاستشراق الألماني لا يمكننا تجاوز أو الاغفال عن أحد أعلامه البارزين في الفترة المعاصرة ألا وهي المستشرقة زيغريد هونكه(1913- 1999م) وذلك نظرا لما قدمته هذه أخيرة من دراسات وأبحاث وكذا تعمقها في دراسة الحضارة العربية الاسلامية اضافة إلى اطلاعها على أثار الاسلامية. فما هو موقفها إذن من التراث العربي الاسلامي؟ وما مدي إنصافه له؟

أولا- مفهوم الاستشراق:

أدى الاستشراق دورا مهما لا يمكن إنكاره في إحياء التراث العربي الاسلامي، وذلك من خلال جهود العلماء المستشرقين الذين ساهموا في وضع القواعد الأساسية للسير عليها في نشر المخطوطات وتحقيقها. ومن خلال هذه النقطة سنحاول الوقوف على تحديد مفهوم كلمة الاستشراق.

1. لغة: لقد تنوعت المفاهيم والتعاريف اللغوية لكلمة الاستشراق، وإن كانت هذه اللفظة لم ترد في المعاجم العربية القديمة إلا أن ذلك لم يمنع من الوصول إلى معناها وذلك من خلال إرجاع المصطلح إلى جذوره واشتقاقه والتطور اللغوي لمشتقات المادة وقواعد الصرف حيث يبدوا أن معنى الاستشراق قد أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم **(أحمد ع.، 1996، صفحة 10)**، وفي العصور المتأخرة تم استعمال هذا الجذر اللغوي في صيغة (استفعال) والتي تعني طلب ما هو شرقي **(مصطفى ، 2014، صفحة 20)**.

لقد ورد في لسان العرب لابن منظور أن أصل الاستشراق يعود إلى مادة (ش. ر. ق) أي شرقت الشمس شرقا وشروقا، أي طلعت... اسم الموضع المشرق والشريق: الأخذ من ناحية المشرق، وشرقوا: ذهبوا إلى الشرق

وأتوا الشرق والشرقي الموضع الذي تشرق فيه الشمس من الأرض، فقد أشرقت الشمس اشراقا: أضاءت وانبسطت على الأرض **(جمال الدين، 1990، صفحة 173)**.

وقد جاء في القاموس المحيط عن لفظة: " الشرق: الشمس، واسفارها، وحيث تشرق الشمس، والشق والمشرق... وشرقت الشمس شرقا وشروقا: طلعت" **(مجد الدين، 2005، صفحة 897)**.

أما في المنجد في اللغة العربية المعاصرة فقد جاءت لفظة الشرق بمعنى شرق وشرقات الشمس أي طلعت والمشرق والمشرق والمشرق جمع مشارق: مكان أو جهة شروق الشمس... والمشرقة والمشراق والمشريق: موضع القعود في الشمس في الشتاء. المستشرق: العالم باللغات والآداب والعلوم الشرقية، والاسم الاستشراق". **(لويس، 1957، صفحة 384)**.

2. اصطلاحا: لقد اختلفت وتباينت مفاهيم كلمة الاستشراق في الاصطلاح. ومن بين هذه التعاريف ما يقصد به "التبحر في لغات الشرق وآدابه" **(أحمد، 1998، صفحة 23)**.

في حين عرفه إدوارد سعيد بقوله: "كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو اجراء بحوث في موضوعات خاص بالشرق سواء كان ذلك في مجال الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان أو علم الاجتماع أو التاريخ أو فقه اللغة وسواء كان ذلك يتصل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة" **(إدوارد، 2006، صفحة 44)**.

ويعرفه أيضا أحمد سمايلوقتش مؤلف كتاب فلسفة الاستشراق بقوله: " هو علم الشرق أو علم عالم الشرقي، على وجه العموم فعلى هذا الأساس يشتمل كل ما يتعلق بمعارف الشرق من لغة وآدب، وتاريخ وأثار وفن وفلسفة وأديان وغيرها من العلوم والفنون" **(أحمد، 1998، الصفحات 25- 26)**.

وجاء في تعريف أخر:" أن الاستشراق خطاب أو إنشاء، لكنه خطاب لا يعكس حقائق أو وقائع بل يصور تمثلات أو ألوانا من التمثيل حيث تختفى القوة والمؤسسة والمصلحة". **(سالم، 1989، صفحة 8)**.

ويري أحد الدارسين أن مفهوم الاستشراق هو اشتغال علماء الغرب بعلوم الشرق **(عبد التواب، د. ت، صفحة 9)**، وهذا دليل على الاهتمام الكبير الذي منحه علماء الغرب لعلوم الشرق أو ما يعرف بأنه " أسلوبا غربيا للهيمنة على الشرق واعادة بناءه والتسلط عليه" **(إدوارد، 2006، صفحة 46)**.

ويعرف أيضا: "أنه كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله: أقصاه وسطه وأدناه في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه" **(محمود، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 1970، صفحة 18)**.

ثانيا- الاستشراق الألماني والتراث العربي الإسلامي:

يرجح أغلب مؤرخي الاستشراق الالماني على أن بداية الدراسات العربية في ألمانيا كانت في أواخر القرن السادس عشر ميلادي، حيث كانت في البداية متواضعة وغير مستقلة عن التأثير الديني **(عبد الحسن، 2010، صفحة 17)**، مستثنين بعض الدراسات مثل محاولات كريستمان (1554- 1613م) الجادة في تدريس اللغة العربية ونشرها **(رائد، 2014، صفحة 7)**، حيث قام بتأليف كتيب لتعليم كتابة الحروف العربية وأعد بنفسه الحروف العربية في قوالب من الخشب للمطبعة **(صلاح الدين، 1978، صفحة 7)**، وبعد قيام حركة لوثر (1483- 1546م) دعت ترجمة الكتاب المقدس بعهدين من اللغات الشرقية إلى اللاتينية إلى اقتناء

المخطوطات العربية **(اسماعيل، 2000، صفحة 30)** والعبرية ودراسة قواعد الشرق، وبوجود سياقات مثل التبشير أصبحت اللغة في أحضان كلية اللاهوت.

وكان مصدر المستشرقين الألمان لدراسة الشرق في القرن 16م مخطوطات مكتبة بوستل في مدينة فالس، وقد ارتكز جهدهم في هذه المرحلة على جمع المخطوطات الشرقية وتخصيص كراسي لتدريس اللغات السامية بألمانيا **(محمد س.، شتاء 2015، صفحة 194)**.

وقد ازدهرت الدراسات الألمانية في القرن 18م وذلك بعدما تعلم العديد من المستشرقين الألمان اللغات الشرقية في هولندا ولما رجعوا إلى ألمانيا علموها في جامعاتها وأخرجوها في نطاق التوراة إلى ميدان الثقافة العامة **(محمد س.، شتاء 2015، صفحة 196)**، ويعد القرن التاسع عشر والعشرين ميلاديين عصر الازدهار وانتاج خصب للاستشراق الألماني، فقد حفل بالتنوع والتقدم في الدراسات الشرقية والاهتمام بتاريخها ودور الاديان فيها، والاهتمام بالقديم والتركيز على التراث العربي **(صلاح الدين، 1978، ص7)**.

إن الميزة الأساسية للاستشراق الألماني تكمن في الرصيد العلمي الهائل الذي خلفه، فقد استطاعوا أن يجدوا لأنفسهم مكانة ضمن الدراسات الاستشراقية الأوربية رغم التأخر النسبي لانطلاقاتهم وهو ما يثبت سبقهم المعرفي وميولهم المنقطع النظير إلى كل ما كان له علاقة بالتراث العربي الإسلامي، وهكذا استطاع الاستشراق الألماني من فرض منطقه وقد تفوقوا على أقرانهم الأوربيين في الدقة المعرفية والانضباط والجود والتضحية **(بن علي، د. ت، صفحة 224)**.

لم تكن دراسات المستشرقين الألمان عن الحضارة العربية الإسلامية متصفة على الأغلب بروح عدائية للإسلام والعرب، ولم يتعمدوا الدس والتشويه في دراساتهم بل بالعكس رافقت دراساتهم روح واعجاب وتقدير وانصاف **(عبد الحافظ، 2015، صفحة 83)**، ولذلك فقد اعتبر الكثير من الباحثين أن المدرسة الاستشراقية الألمانية هي أكثر نزاهة في التوجه العلمي وجدية في فهم التراث والتاريخ الاسلامي إذ انفردت بمميزات لم تتوفر لدي الاستشراق في البلدان الغربية **(عبد الهادي، خريف2021، صفحة 120)**.

ثالثا- المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة وموقفها من التراث العربي الإسلامي:

لقد بذل المستشرقون الألمان جهودا جبارة في سبيل كتابة التاريخ الإسلامي وإضاءة النور عليه بالتنقيب عنه والتحقيق فيه والنشر له وذلك على الرغم من المواقف المجحفة والافتراءات وعدم الاعتراف بالعديد من الحقائق العلمية للحضارة الاسلامية، ومع ذلك فقد ساهم الاستشراق الألماني أكثر من غيره في دراسة التاريخ الاسلامي والبحث عن حقائقه وابراز معالمه **(علي، 1988، صفحة 124)**، وقد برز عدد كبير ممن اهتم بالبحث في ثقافة وتقاليد شعوب الشرق على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم ومن أولئك نذكر على سبيل المثال لا الحصر المستشرقة زيغريد هونكة التي ساهمت وبشكل كبير في دراسة التاريخ العربي والإسلامي من خلال كتاباتها.

1. التعريف بالمستشرقة زيغريد هونكة: زيغريد هونكه (Sigrid Hunke) أو زيجريد أو زيكريد هونكة، مستشرقة ألمانية معروفة بكتاباتها في مجال الدراسات الدينية، ولدت في مدينة كييل (Kiel) بألمانية في 26 أفريل 1913م، وهي ابنة الناشر هاينريش هونكه (Heirrich Hunke) درست علم أصول الأديان ومقارنة

الأديان والفلسفة وعلم النفس والصحافة واللغة الألمانية والتاريخ القروسطي، كما اهتمت بالفكر والأدب فلكونها ابنة ناشر وتاجر في مدينة كييل، نشأت بين الكتب ومعها وكان يتردد على بيتها شعراء وكتاب وناشرون معرفون **(أسامة، 2018- 2019، صفحة 86)**، وقد كانت هذه المستشرقة طائرة الشهرة أحبت العرب وصرفت وقتها كله باذلة جهد في الدفاع عن قضاياهم والوقوف إلى جانبهم، وهي زوجة الدكتور شولتزا المستشرق الألماني الكبير الذي اشتهر بصداقته للعرب وتعمقه في دراسة آدابهم والاطلاع على أثارهم ومآثرهم، عاشت المؤلفة مع زوجها عامين اثنين في مراكش كما قامت بالعديد من الزيارات للبلدان العربية دارسة فاحصة **(زيغريد، 1993، صفحة 7)**.

كانت هونكة في البداية تريد دراسة الموسيقى لكن قاعات المحاضرات في الجامعة جذبتها بشدة أكبر فتعمقت في دراسة الفلسفة والأدب الألماني وغيرها من العلوم على يد أساتذة وفلاسفة كبار في جامعة فرايبورغ (freiburg) ثم جامعة برلين (Berlin) كما تعمقت في دراسة الحضارة والفكر العربي الإسلامي إضافة إلى اطلاعها على أثار الاسلامية وقد صارت مساعدة للباحث العربية المتميز آنذاك لودفيك فرديناند كلاوس(Ludwig Ferdinand Clauss) (1883- 1974م) مما أتاح لها الاطلاع على الثقافة الشرقية والتعمق فيها، وقد شغلت منصب عضوة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر **(محمود، 2014، صفحة 534)**.

حصلت على الدكتوراه في جامعة برلين عن موضوع (أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية) وفي عام 1955م صدر مؤلفها الأول (الرجل والمرأة) وهو كتاب تاريخي أكدت فيه فضل العرب على الحضارة الغربية خاصة والحضارة الانسانية عامة، وكتابها شمس العرب تسطع على الغرب هو ثمرة سنين طويلة من الدراسة الموضوعية العميقة **(عبد الحافظ، 2015، صفحة 68)**.

وقد نالت الدكتور زيغريد هونكة الكثير من الجوائز والتكريمات واعترافات وتتويجات في ألمانيا وخارجها، كان منها جائزة "كانط" وجائزة "شيلو"، كما نالت أعلى مراتب التكريم خارج ألماني وأروبا ومن قبل رؤساء عرب وذلك في سنة 1988م حين قلدها الرئيس المصري محمد حسني مبارك وسام "النجمة الكبرى" **(http://elbassair.org/2706, 2022)**.

وكانت وفاتها في شهر نوفمبر 1999م بمدينة هامبورغ الألمانية عن عمر ناهز 86 سنة قضتها في البحث عن الحقيقة ونشر قيم التسامح والتقارب بين الحضارات والثقافات والاشادة بأثر العرب والمسلمين في تطور حركة الفكر والعلم، واعتنقت الاسلام في أخر حياتها وقبل وفاتها، ومن بين أبرز مؤلفاتها اضافة إلى كتاب شمس العرب تسطع على الغرب السالف الذكر، كتاب الله ليس كذلك وكتاب من أفول العرب إلى طلوع أوربا ... **(http://elbassair.org/2706, 2022)**.

2. **نظرة المستشرقة زيغريد هونكة للحضارة الإسلامية:** لقد أنكر المؤرخون الأوربيون فضل العرب على أوربا وتمدينهم لها وفي ذلك يقول المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون (g. lebon) مؤلف كتاب حضارة العرب: " وأصبح هذا الانكار من تقاليد مؤرخي أوربا وكتابها الذين لم يقروا لغير اليونان والرومان بتمدينها، وقد

ساعدهم على هذا ما انقلب عليه العرب والمسلمين من التأخر في الزمن الأخير **(غوستاف، 2012، صفحة 11)**.

ورغم هذا الجحود والانكار فقد ظهرت ثلة من المؤرخين أوربيين أنفسهم ممن أبو إنكار فضل العرب على أوروبا، وعملوا على إظهار هذه الحقيقة وكان من أشهرهم المستشرقة زيغريد هونكة (Sigrid hunke) **(عبد الحميد، د. ت، صفحة 2)**.

بعد الدراسات والابحاث التاريخية والحضارية التي قامت بها هذه الباحثة عن العالم العربي الإسلامي جعلها تكتشف أن العرب هم الذين وضعوا أساس تمدن أوربا خلال القرون الوسطى، وهذا ما دفعها إلى إظهار حقيقة فضل العرب على الغرب في العلوم والفنون والآداب مخالفة بذلك كل كلام راجع إلى أن منشأ الحضارة هي أوروبا **(أسامة، 2018- 2019، الصفحات 178- 179)**.

وقد تضمن كتابها هذا المعروف بشمس العرب تسطع على الغرب استعراضا جميلا لمعظم المنجزات الحضارية التي ظهرت في دنيا العالم الإسلامي، أيام كانت حضارته في تفوق واقبال وليس هذا فقط، بل الحقيقة أنها زادت إلى ذلك عقد مقارنة، أقل ما يقال فيها أنها موضوعية، بين تلك المظاهر الحضارية في تفوقها العلمي والانساني، وما يقابلها من الواقع الغربي في تخلفه العلمي وتدهوره الانساني **(محمد، 1981، صفحة 141)**.

وهكذا فقد مجدت هذه المستشرقة التراث العربي وأعطته أسبقية الحضارية العالمية، كما بينت أيضا من خلال كتاباتها أثر هذا التراث على أوربا مقارنة بين ما كان عليه العالم الإسلامي من تحضر وما كان عليه العالم الغربي من تخلف، ضاربة في ذلك العديد من الأدلة التاريخية **(أسامة، 2018- 2019، صفحة 218)**، وفي ذلك تقول: " لا يفوتنا أن نذكر أن وسط أوربا كان فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين مسرحا للأمية التي بلغت نسبتها خمسة وتسعين بالمئة" **(زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوروبة"، 1993، صفحة 302)**.

وقالت أيضا: " فقد كانت البلاد العربية من قري ومدن تحظى بألاف المدارس التي تضيق بالصبية ... كانوا يتعلمون القراءة والكتابة، ويتلون القرآن الكريم، ثم يتعلمون النحو، والصرف وغيرها من العلوم". **(زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوروبة"، 1993، صفحة 302).**

ونظر لموقف هذه المستشرقة المؤيد للعرب وحضارتهم وفضلهم على الغرب فقد تعرضت إلى هجوم لادعا في العالم عامة وأوروبا خاصة وذلك بعد اصدارها لكتابها المعنون ب" شمس العرب تسطع على الغرب" حيث أصبحت حديث مئات الصحف والمجلات التي هاجمت هذه المؤلفة وكتابها معا بل حتى أنهم اتهموها بالتعصب للعرب وحضاراتهم والتحيز لهم **(أنور محمود، 2006، صفحة 176)**.

غير أن هذا الامر لم ينقص من عزيمة هونكة في كتاباتها عن الشرق وتراثه حيث أضافت إلى ذلك الكتاب العديد من المؤلفات الاخرى التي تناولت فيها تأثيرات الحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الغربية **(أسامة مهلي نقلا عن سعد. ب، 2010، صفحة 52)** نذكر منها: مؤلف الرجل والمرآة، مؤلف الله ليس كذلك ...الكشف عن ألف فرية وفرية عن العرب، مؤلف جمال تزين معطف القيصر ...لقاءات ألمانية عربية منذ

كارل الأكبر، مؤلف أثر العقيدة والمعرفة الإسلامية في الحضارة الغربية، مؤلف الإبل على بلاط القيصر، التوجه الأوربي للعرب والإسلام ...حقيقة قادمة وقدر محتوم **(أسامة، 2018- 2019، صفحة 179)**.

تقول زيغريد في كتابها الله ليس كذلك معبرتا عن الاجحاف في حق الحضارة الإسلامي ما يلي: "لقد أصر الغرب اصرارا على دفن حقيقة العرب في مقبرة الأحكام المتعسفة والافتراءات الحماسية دفنا وأهال عليها ما أهال طمسا منه لمعالمها" **(زيغريد، الله ليس كذلك، 1995، صفحة 7)**، وهذا ما أكده الكثير من المستشرقين حينما ذهبوا إلى القول بأن الحضارة العربية الإسلامية ماهي إلا امتداد طفيف للحضارة اليونانية، متجاهلين ابتكارات المسلمين في شتى المجالات والتي لم يكن اليونان ولا الغربيين يعرفونها لولا العرب وهذا ما تؤكده هونكة بقولها: لكن من الخطأ قياس تراث العرب بمقياس مكتسب من الفكر اليوناني؛ ذلك أن العرب سلكوا سبلا أخرى مختلفة عن اليونان اختلافا جذريا **(زيغريد، أثر العقيدة والمعرفة الإسلامية في الحضارة الغربية، 2013، صفحة 111)**. وتقول زيغريد هونكة أيضا نافية العديد من أفكار التي روج لها الغربيين: " إن العرب قد قدموا مساهمة مهمة للحضارة والثقافة الأوربية، وأردت فيه أن أعيد الحق إلى نصابه لأن الرأي العام عندنا يعتبر مساهمة اليونان والرومان كأساس لحضارته، وأردت كذلك أن أبرز بأن العرب لم يكونوا فقط حاملي الحضارات القديمة مثلما تعلمنا - إنما كانوا ذوي حضارة- كما أنهم قاموا باختراعات وقدموا مساعدات للعالم في شتى المجالات **(أسامة مهملي نقلا عن سعد. ب، 2010، صفحة 53)**.

ولقد أسفرت تلك السبل والطرق التي أشارت إليها زيغريد إلى العديد من النتائج الجديدة في مختلف العلوم كالرياضيات والطب والفلك والفيزياء والكيمياء، ناهيك عما ابتكروه من علوم البصريات والصيدلة وغيرها من العلوم والفنون والآداب **(أسامة، 2018- 2019، صفحة 181)**.

وفي نفس السياق، فقد أشاده زيغريد هونكة كثير بإنجازات الحضارة العربية وفي ذلك تقول:" إن ما حققه العرب لم تستطع شعوب كثيرة أخرى تحقيقه كانت تملك من مقومات الحضارة ما يسمح لها بذلك على غرار بيزنطة وفارس" **(زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوروبة"، 1993، الصفحات 354- 355)**.

خاتمة :

نصل في نهاية هذا العرض الموجز والمختصر عن الاستشراق الألماني وموقفه من التراث العربي الإسلامي حيث اكتفينا بتقديم أنموذجا مميزا وفريدا عن تلك الدراسات الاستشرافية المتمثل في المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة وفيما يلي عرض لأهم الاستنتاجات والملاحظات التي توصلنا إليها:

أثبتت الدراسة بأن المدرسة الأوربية الاستشراقية عامة والألمانية خاصة قد قدمت مستشرقين كبار بذلوا جهود جبارة من خلال دراساتهم وبحوثهم عن التراث العربي الاسلامي، نذكر منهم على سبيل المثال يوهان ياكوب رايسكه (1716- 1774م) وكارل بروكلمان(1868- 1956م) وزيغريد هونكة.

كما أوضحت الدراسة أيضا بأن جل دراسات وبحوث المستشرقة زيغريد هونكه عن التراث العربي الإسلامي جاءت مساندة لحقائقه ولم يثبت عنها في جميع مواقفها معارضتها لتراث العربي الاسلامي، كما أن مجمل

دراساتها كانت عبارة عن رد فعل عن الأوربيين الذين حاولوا الإنقاص من شأن التراث العربي الإسلامي مساهمتا بذلك في التعريف بالحضارة العربية الاسلامية.

كما بيت الدراسة كذلك بأن الدراسات والبحوث التي قامت بها المستشرقة زيغريد هونكه جاءت كأدلة وبراهين أثبتت من خلالها بأن العرب لم يكونوا مجرد ناقلين من الحضارات الأوربية مفندتا بذلك كل الادعاءات السائدة في أوربا أنداك في هذا الشأن.

ومن الملاحظ عن كتابات زيغريد هونكه أنها تنم عن سعة اطلاعها عن التراث العربي الإسلامي، وهو ما يفسر بأن جل دراساتها كانت وفق منهج علمي موضوعي يراد به البحث عن الحقيقة وكشفها للعيان وتفنيد الاعتقادات المغلوطة عن الإرث العربي الإسلامي.

وعلى العموم فقد ساعد الاستشراق في تعريف الغرب بالإسلام وحضاراته وبالتراث العلمي للمسلمين من خلال ترجمة مئات الأعمال الاسلامية الهامة إلى اللغات الأوروبية.

توصيات:

لقد اهتم المستشرقين بالتراث العربي الاسلامي وأولوه عناية كبيرة وبذلوا جهود جبارة في سبيل دراسته وتحقيقه، غير أن اللافت لنظر أن جل دراساتهم كانت بعيدة عن الموضوعية وذلك راجع لعدة عوامل من أهم الحقد الكبير على الاسلام واللغة العربية.

ومن هنا وجب علينا التعامل بحذر مع دراساتهم وأبحاثهم وإعادة قراءتها ودراستها بتمعن لكشف أخطائها وتصويبها ومن ثمت الدفاع وصون الإرث العربي الإسلامي الذي لايزال يتعرض لتشويه والإجحاف من قبل هؤلاء المستشرقين، وهذا لا يتأتى إلا بتوحيد جهود الباحثين والمختصين في هذه الدراسات في سبيل الذود عن الحضارة العربية الاسلامية.

قائمة المصادروالمراجع:

- أحمد طه محمد عبد الحافظ، *حاجتنا إلى الموضوعية في الحكم على تيار الاستشراق، 2015*، كلية الدعوة الاسلامية، القاهرة.
- المنجد صلاح الدين، *المستشرقين الألمان. تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، 1978*، دار الكتاب الجديد، بيروت.
- أمير عبد الله رائد، المستشرقون الألمان وجهودهم تجاه المخطوطات العربية الإسلامية، 2014، مجلة كلية العلوم الانسانية، العدد*15* ، المجلد 8.
- بوفلاقة سعد، الاستشراق الألماني وأثره في الدراسات العربية، 14 ديسمبر 2011، مجلة بونة للبحوث والدراسات، جامعة عنابة، الجزائر، العدد (13).
- حسن الخربوطلي علي، *المستشرقون والتاريخ الإسلامي، 1988* ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
- حمدي زقزوق محمود، *الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 1970* ، دار المعارف، القاهرة.
- حمدي زقزوق محمود، *الإسلام والاستشراق، 2014*، دار الكتاب المصري، القاهرة.

- رمضان عبد التواب، *العربية الفصحى والقرآن الكريم أمام العلمانية والاستشراق، د.ت*، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.
- زناتي أنور محمود، *زيارة جديدة للاستشراق مع دراسات للرؤية الاستشراقية المنصفة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، 2006*، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- سعدون المطموري محمد، الاستشراق الألماني ودوره في الدراسات الشرقية، شتاء 2015، العدد3.
- سعيد إدوارد، *الاستشراق. المفاهيم الغربية للشرق، 2006*، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة.
- سعيد رمضان البوطي محمد، *منهج الحضارة الانسانية في القرآن، 1981*، دار الفكر، دمشق.
- سما يلوقتش أحمد، *فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، 1998*، دار الفكر العربي، القاهرة.
- شافع عبد الحميد، منهج المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة في الكتابة عن الحضارة الأندلسية من خلال كتاب "شمس العرب تسطع على الغرب"د.(ت. د. م).
- عباس حسن الجمل الزويني عبد الحسن، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان العربية أنموذجا، 2010، مجلس كلية الآداب في جامعة الكوفة.
- عبد الرحيم السايح أحمد، *الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي*، 1996، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.
- علي محمد اسماعيل، *الاستشراق بين الحقيقة والتضليل. مدخل علمي لدراسة الاستشراق، 2000*، الكلمة للنشر والتوزيع، كفر حماد الشرقية.
- لوبون غوستاف، *حضارة العرب، 2012*، تر. عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي، القاهرة.
- محمد بن مكرم ابن منظور جمال الدين، *لسان العرب، 1990*، دار صادر، بيروت.
- محمد بن يعقوب الفيروزآبادي مجد الدين، *القاموس المحيط، 2005*، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- محمد جمعة موسى عبد الهادي، سمة التعاون العلمي بين المستشرقين في نشر الدراسات التاريخية "تاريخ المغرب والأندلس نموذجا"، خريف 2012، *العدد28*.
- مسروة بن علي، الاستشراق الألماني بين الخصوصية والعالمية، د.ت، د. م.
- مطهري مصطفى، *المستشرق المعاصر ايتان كوهلبرغ وحديث الإمامية، 2014*، تر. أسعد مندي الكعبي، دار الكفيل.
- معلوف اليسوعي لويس، *المنجد في اللغة العربية والآداب والعلوم، 1957*، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
- مهملي أسامة، موقف الاستشراق الألماني من التراث العربي الإسلامي (زيغريد هونكه أنموذجا)، (2018-2019)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس، كلية الآداب واللغات والفنون قسم اللغة العربية.
- هونكة زيغريد، *شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوروبة"، 1993*، تر.بيضون فاروق، ودسوقي كمال، دار الجيل، بيروت، ط1.

- هونكة زيغريد، *أثر العقيدة والمعرفة الإسلامية في الحضارة الغربية، 2013*، تر. عمر لطفي العالم، دار قتيبة للنشر والتوزيع، دمشق.
- هونكة زيغريد، الله ليس كذلك، (1995)، تر. غريب محمد غريب، دار الشروق، بيروت، ط1.
- يفوت سالم، *حفريات الاستشراق في نقد العقل الاستشراقي*، (1989)، المركز الثقافي العربي، بيروت.

http://elbassair.org/2706. (2022, 02 11).

الدراسات الإستشراقيّة حول التصوف الإسلامي إريك جوفروا نموذجا

Orientalist Studies on Islamic Mysticism Eric Geoffroy as a Model

د.هارون غنيمة، جامعة حسيبة بن بوعلي، شلف- الجزائر
haroun_ghania@yahoo.fr

ملخص البحث

عندما اطلع الأوربيون على تراث العرب المسلمين فتأثروا بعلومهم وفنونهم وأولووها إهتمامهم ولد ما يسمى بعلم الإستشراق، والإستشراق ليس على صورة واحدة فهناك ألوان من الإهتمام تختلف تبعا للمدرسة الإستشراقيّة وتختلف بحسب الدارس وطبيعة المسألة التي يهتم بها، ومن بينها الدراسات الاستشراقيّة لفروع الإسلاميات التي تتناول بالتفاصيل ما يتصل بالإسلام تاريخا وبيئة وأفكارا، ويعتبر التصوف من أهم الفرق الإسلاميّة التي أثارت اهتمام اغلب الدراسات الاستشراقيّة نظرا للدور الفكري الذي يؤديه في مسيرة الإسلام، وهذا ما سنحاول تبيانه في هذه الورقة كيف إهتم بعض المستشرقين بالتصوف الإسلامي، وتعمقوا فيه وعن مسيرة تأريخه وعن أصوله واهم رموزه ودرسوها مستفيضة مما دفعهم أكثر إلى الإهتمام بالدين الإسلامي عامة وبالنبي (ص) وجعلهم ذلك يدخلون إلى الإسلام ليصبحوا أكثر المدافعين عنه، ووصفوا الإسلام أنه دين يبتعد عن القتل والعصبيّة مثل النموذج الذي سنسلّط الضوء عليه وهو الفرنسي إريك جوفروا.

الكلمات المفتاحية: الإستشراق، الإسلام، التصوف، الدين .

Abstract :

When the Europeans learned about the heritage of the Arab Muslims, they were influenced by their sciences and arts, and gave them their attention, so what is called the science of Orientalism was born. Orientalism is not in a single image, as there are colors of interest that differ according to the Orientalist school and differ according to the student and the nature of the issue he is interested in. Among them are Orientalist studies of the branches of Islamism that deal in detail with what is related to Islam, history, environment and ideas. Sufism is considered one of the most important Islamic groups that aroused the interest of most oriental studies due to the intellectual role it plays in the course of Islam. This is what we will try to show in this paper, how some orientalists paid attention to Islamic mysticism, delved into it, the course of its history, its origins, and its most important symbols, and studied them in depth, which prompted them more to pay attention to the Islamic religion in general and to the Prophet (PBUH) and made them enter Islam to become the most defenders of it , and they described Islam as a religion that shuns murder and fanaticism. Such as the model that we will highlight is the French Eric Geoffroy .

Keywords: Orientalism, Islam, mysticism (Sufism), religion .



مقدمة:

إذا كان اليوم العديد من الغربيين من خصوم الإسلام والمسلمين يتخذون من بعض القضايا والأحداث خاصة في العقود الأخيرة فرصة ملائمة لهجاء الإسلام وتسفيهه وتحميله مسؤوليّة الجرائم الإرهابيّة والتخريبيّة، ووصل الأمر ببعضهم إلى إتهام الإسلام وتشريعاته صراحة بالإرهاب وسبب تأخر المسلمين، ولكن من جهة أخرى فإن ذلك لا يسمح لنا من التسرع في تعميم الأحكام سلبا وأن الغربيين كلهم ضدّ الإسلام، فهناك العديد من الغربيين أو مستشرقين من علماء أكاديميين ومستشارين لهيئات سياسيّة ودينيّة في الغرب وشغل رهط منهم مناصب سياسيّة في وزارات الحربيّة والخارجيّة إبان وجود الإستعمار ووجود وزارات له...الذين عملوا على دراسة هذا الدين من جوانب متعددة دراسة جادّة، وإن كان هناك ايضا بعض من هؤلاء المستشرقين تتسم نظرتهم إلى الإسلام وإلى المجتمعات الإسلاميّة بالإستعلاء والتفوق وإنكار الأدوار التاريخيّة للحضارة العربيّة الإسلاميّة التي لعبتها في العصر الوسيط وما زال تلعبها في الحاضر، فلقد حاول هؤلاء وتحت يافطات أكاديميّة تزعم الجديّة والإجتهاد التأسيس لأطروحة أساسها شيطنة المسلمين أو العرب وتصويرهم على أنهم عدوّ ينبغي تطويقه ومحاصرته وربما القضاء عليه، ولكن لا بدّ أن تكون الإدانة محصورة على تلك الفئة من المستشرقين الذين يثبت أنهم أساؤوا لهذا الدين وللمسلمين إما بناء على نيّة مبيتة عند فئة منهم أوبناء على عدم إنتمائهم لهذا الدين عند فئة أخرى...إلخ، ولذلك للأسف فمن الملاحظ أنه من غير الشائع في الأعمال العربيّة عن الإستشراق في موقفه من الإسلام أن تقف على التركيز للبعد الحسن الإيجابي لخدماتهم وهذا يعني مأخذا على هذه الفئة من الذين كتبوا نقدا للإستشراق ربما بالإفتراض أن الإستشراق كان كله ضررا على الإسلام، فلم يكن كل المستشرقين كذلك بل كان منهم علماء خدموا التراث الإسلامي بالتحقيق والدراسة والترجمة والحفظ والفهرسة والتكشيف...إلخ.

فليس هناك استشراق على صورة واحدة فهناك ألوان من الاهتمام تختلف تبعا للمدرسة الإستشراقيّة وتختلف بحسب الدارس وطبيعة المسألة التي يهتم بها، ومن بينها الدراسات الإستشراقيّة لفروع الإسلاميات التي تتناول بالتفاصيل ما يتصل بالإسلام تاريخا وبيئة وأفكارا: فمن اللغة إلى القرآن ومن العقيدة إلى التصوف ومن السنة إلى التشيّع ومن الأشعريّة إلى الحنابلة يتخصص المستشرقون في درس كافة التفاصيل التي تحويها العلوم الإسلاميّة، وقد احتل التصوف منذ إحتكاك الغرب بالشرق مكانة بارزة في الدرس الإستشراقي وربما في الحاضر أوسع وأغنى مما كان بالأمس، وذلك لمكانته عند الغالبيّة العظمى من المسلمين فإقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وصحابته في الزهد ظهر التصوف الإسلامي كحركة زهديّة لجأ إليه جماعة من المسلمين تاركين ملذّات الدنيا سعيا للفوز بالجنة، ثم تطور واصبح نظاما له اتجاهات عقائديّة وعقليّة ونفسيّة وسلوكيّة.

ورغم ما يراه البعض من المسلمين بأن التصوف عدو الإسلام الذي يريد هز أركان الدين بالتواطؤ مع أعداء الإسلام فتحاملوا وشنوا حملة تشويهيّة عليه، واسهب الكثيرون في إبراز تفاصيل المؤامرة التي يحيكها التصوف ضد أمة القرآن، وهو تحامل قديم قدم التصوف إذ كان التصوف دائما موضع نقاش حاد سالت فيه مداد الأقلام حقا أوباطلا، ولكنه نشأ في كنف الإسلام وكما يذكر "ابن خلدون" فإن ظهور الصوفيّة راجع إلى انه قد تفشى اللهو والإنغماس في ملذات الدنيا في القرن الثاني الهجري وانقطع كثير من الناس عن امور

الدين فعكف الأتقياء على العبادة باسم الصوفيّة والمتصوفة(خلدون(1989)،ص467)، وتحول همّ المسلمين من إصلاح النفس وتحسين العلاقة مع ربّها إلى إصدار الأحكام بالتفسيق والتكفير والإخراج عن الملّة عن بيّنة أو جهل بأحوال القلوب، فجاء اتهام "غلاة المتصوفة" من الفقهاء أو حتى العامة أو من الحكام وأهل السياسة بالخروج عن سبيل الاعتدال ثم تعداه إلى وصف التصوف عامة بالدخيل على الدين، ونبذه البعض الآخرون من المسلمين خوفا على صفاء العقيدة وسيرة السلف الصالح لما اختلط به من التيارات الوافدة حيث جمع بعض المتصوفة بين الفلسفات اليونانيّة والفارسيّة والهنديّة والتصوف فانحرفوا به عن أصوله الإسلاميّة الأصيلة، ونتج عن ذلك أن تعرّض الكثير من المتصوفة للتضييق وحوكم البعض على أفكارهم الصوفيّة فعدت عليهم زندقة وخروج عن الدين، ودفع البعض حياتهم ثمنا لطريقتهم في التصوف، كما اصبح ينظر إلى هذه الطرق الصوفيّة من طرف خاصة "الحركة السلفيّة الوهابيّة" و"الحركات الإصلاحيّة" كعوامل لنشر الخنوع وتهميش القوميّة والقضاء عليها ومعتبرين أن التصوف هو العامل الأساسي وراء إنهاء العصر الذهبي للأمة الإسلاميّة، مما أدى إلى تراجع شعبيّة التصوف لدى النخب والعوام على السواء، مع أن كبار العلماء في العالم الإسلامي وحتى أولئك المتشددين مثل إبن تيميّة (1328-1263) كانوا متصوفة، ولكن تطورت الأحوال واستطاع أهل التصوف أن يكتسبوا الشرعيّة الدينيّة بالمناظرات والمحاججات بعد بروز علماء أفذاذ من صفوفهم أفحموا كبار الفقهاء والفلاسفة وعلماء الكلام، كالغزالي والسيّوطي والشاذلي والتجاني وغيرهم كثير...، واكتسب التصوف في هذه الفترة الشعبيّة وسط عموم الناس ونخبهم فصار الفقهاء وأهل السياسة يمشون في ركب الصوفيّة تيمنا عن صدق أو جلبا للبركة أو استمالة لقلوب الجماهير.

ويبقى أن التصوف الإسلامي يمثل عدة اتجاهات اتفقت جميعها على تمثيل الوجود الإسلامي والتعبير عن الأهداف الإسلاميّة العامة والابتعاد عن النزعة العنصريّة الضيّقة فجاء عربيا في تكوينه وتركيبه فهو يستقطب كل الأمة الإسلاميّة لأنه حمل همومها وعبر عن طموحاتها، فهو كما يقول ابن خلدون 'علم من العلوم الشرعيّة'، ويمثل عند الكثير من العلماء باعتباره قلب الدين الإسلامي، والتصوف الإسلامي السني كما قدمه علماءه مثل الغزالي هو ممارسة تعبديّة وممارسة تربويّة علاجيّة لأمراض النفس وانحرافات الأخلاق، لذلك كان يؤكد "على ضرورة الإرتواء من نبع الكتاب والسنة النبويّة والتزام ما فيهما من أوامر ونواهي، "(الغزالي(2003)، ص119).

ومع أن التصوف الإسلامي في الحقيقة موجود في كل الديانات وكل المجتمعات قديما وحديثا، فبمفهومه "كتيار متزهد" وتجربة إنسانيّة مثله مثل الفلسفة قد يتجاوز حدود الأديان والاعتقادات، إنه يعبر عن الحس الديني عند المتصوف، ولما كان الحس الديني يمثل غريزة التعلق بالكامل أو الكمال فإنه أمر موجود عند جميع البشر إنهم دوما يدركون نقصهم وتعلقهم بالمطلق حتى ولو اختلفوا في طبيعة هذا المطلق أو أنكروه في الظاهر إلاّ أنهم يؤمنون به في الباطن، وإذا كان البعض يحب تقسيم التصوف إلى أنواع هي: التصوف الفلسفي المتأثر بالأفلاطونيّة والتصوف الغنوصي القائل بالإتحاد والحلول والمتاثر بعقائد فارسيّة وهنديّة، و**التصوف السني** المبني على الزهد والتقشف الذي عرف عليه النبي (ص) وصحابته فإن التصوف الذي نقصده هنا في بحثنا هذا هو التصوف السني الذي يعمل على تحقيق الشريعة لدى المسلم تصديقا وعملا، وخاصة بالتأكيد على

الإيمان والتوحيد وإخلاص العبادة لله سرا وعلانيّة، والصوفيين الذين سلكوا طريق التصوف كانوا ملمين بالعلوم الدينيّة مما يمكنهم من الرد على إنتقادات خصومهم وحتى لا يتعرضوا للإنحراف إذا ما تصوفوا مع جهل، لذلك يحتل التصوف موضعا اساسيّا في دراسة الدين.

ولأن الإسلام يعتبر من اسرع الأديان نموا وإنتشارا في الغرب الأوربي بل في العالم كله، ولأن كذلك الغرب يمتلك صلات قديمة مع الشرق وفي القرون الوسطى اطلع الأوربيون على تراث العرب المسلمين فتأثروا بعلومهم وفنونهم، وكان مما تأثروا به التصوف الإسلامي الذي تتجلى مظاهره بوضوح في نصوص المدرسيين وغيرهم من الفلاسفة الأوربيين ولكن لأن تلك الصلات بمرور الزمن ولدت صدام ثقافي واضح كان هدفه منذ البداية ديني والذي يتمثل بدور الكنيسة ورجال الدين بالتثقيف ضدّ الإسلام، وبمرور الزمن اصبح أيضا سياسي استعماري يهدف إلى السيطرة على الأفكار وزرع التفرقة في وحدة الصف الإسلامي، وإذا كان هناك بعض المستشرقين أخذوا يدرسون الإسلام ويطعنون في الإسلام والفرق الإسلاميّة مستمدين ذلك من واقع الحقد والبغضاء للإسلام وفرقه ونظروا إلى المؤمنين وكأنهم اعداء يقفون على حدودها ويهددون ثقافتها، فإن البعض الآخر عنيوا بدراسة حضارة الشرق وثقافته وجمع المعلومات الواسعة عنه وبذلوا جهودا مضنيّة في ذلك ومن نواحي مختلفة، وآثروا أن يكونوا منصفين يصدعون بالحق مما اهتدوا إليه بالبحث والنقد والتنقيب، ولذلك فإن الإشكاليّة التي نريد طرحها في هذه الورقة: ما هو موقف المستشرقين من التصوف الإسلامي؟، وهل كلهم أدانوا وحطوا من قيمة التصوف أم هناك من تبناه ودافع عنه؟.

أولا- المعرفة الغربيّة بالتصوف:

إن الحديث عن تاريخ دخول التصوف في الغرب خاصة الغرب الأوربي وذلك بفعل عوامل داخليّة تتمثل في ديناميّة التصوف وليونته وسرعة تكيّفه مع الزمان وتقلبات الحياة وقدرته على الإصلاح والتجديد واستيعاب الحداثة بفعل حيويته الدائمة، وبحكم التقارب والاتصال الذي كان دائما ممتد الجسور بين العالم الإسلامي وأوربا خاصة الشرق والمغرب العربي فهو اهتمام يعود إلى زمن بعيد، فمنذ ان ظهرت نشاطاتهم وبدأت تهتم بالإسلام والفرق الإسلاميّة أخذ التصوف مجاله من ذلك الإهتمام، ورغم أن المعرفة الأوربيّة الأولى بالتصوف كان في شكل مبهم وترجع حسب الباحثة الألمانيّة "أنيماري شيميل Annemarie Schimmel "الاتصال الأوربي الأول مع الأفكار الصوفيّة إلى العصور الوسطى، فأعمال الزاهد والباحث الكاطلاني رامون لول (Raymond Lulle) حوالي (1232-1316) تظهر ملامح قويّة لتأثره بالأدب الصوفي"(Schimmel,A,(1975),p7)، وهو من المسيحيين القلّة الذين عرفوا الدين الإسلامي حيث تعلم اللغة العربيّة على يد عبد مسلم مدة تسع سنوات، ورغم عدم إيمانه بهذا الدين إلاّ أنه حاول أن يظهر التقارب بين الأديان ودعا إلى التحاور مع الآخر ولعل كتابه 'الكافر والعارفون الثلاثة" Le gentil et les trois sages لأبرز دليل عل ذلك(ريبيرا(1980)، ص168)، كما تأثر 'د.أليغيري (Dante Alighieri) (1265-1321م) أيضا في "الكوميديا الإلهيّة" و"الحياة الجديدة" بابن عربي ورحلة "الإسراء والمعراج" فالصور التي رسمها دانتي لتمثيل الجنة والنار والمطهر تتفق وما رسمه ابن عربي في كتاب "الفتوحات المكيّة" وأن كثيرا من الأوصاف والتعريفات التي جاءت في 'الكوميديا' اقتبسها دانتي من قصة "المعراج"، ولقد ثبت أن إحدى صور المعراج النبوي قد ترجمت من

العربيّة إلى القشتالية والفرنسيّة واللاتينيّة بأمر من الملك ألفونسو العاشر سنة (1260م)، كما وأن هذه "العناصر قد نقلها برونيتو لاتيني Brunetto Latini)) أستاذ دانتي وكان على علم تام بالثقافة العربيّة"(البديع(1969)، ص158).

وقد كانت الترجمة عاملا مهما أسهم في تعرّف الغربيين على التصوف الإسلامي إذ قام مثلا "المثقف فابريكوس (Fabricius) من جامعة روستوك (Rostock University) سنة 1638م بترجمة إحدى قصائد الصوفي المصري عمر ابن الفارض (ت 1238م) لأول مرة في الأدبيات الغربيّة، وكذلك ترجم غيره الكثير من الأشعار الصوفيّة مثل اشعار "شمس الدين حافز (1325-1389م) إلى الألمانيّة....، كما ولعب الرحالة الذين زاروا الشرق الأوسط والأدنى في القرنين السادس عشر والسابع عشر وحملوا معهم معلومات حول طقوس الدراويش سواء تعلق الأمر برقصة دروايش المولوية أو بالعروض أو بالعروض الغريبّة لدراويش الرفاعيّة"(Schimmel,A,(1975),p8) دورا كبيرا في نقل التصوف إلى الغرب، في حين تشير بعض الدراسات الغربيّة التي تحاول تأريخ ظاهرة التصوف الإسلامي في أوربا إلى أن أول اتصال غربي بالشاذليّة والذي سيكون له دور مؤثر في نشأة التصوف في الغرب وقع في مصر عن طريق الرسام السويدي Ivan Aguili إيفان أغيلي، الذي اعتنق الإسلام سنة (1907) تحت اسم الشيخ عبد الهادي عقيلي حيث أخذ النسبة الشاذليّة عن طريق الشيخ عبد الرحمان عليش الكبير وهو شيخ فرع غير معروف للطريقة الشاذليّة يسمى "العربيّة الشاذليّة" وقد عين هذا الشيخ إيفان اغيلي مقدما له بالغرب، بمعنى أنه اصبح يملك بعض السلطات لضم الغربيين إلى التصوف.

لكن كما يقال أن "نقطة انطلاق الحضور الصوفي المشرق في الغرب ستكون مع تحول المفكر الفرنسي (René Guénon) رينيه غينون إلى الإسلام وأخذه النسبة الشاذليّة بواسطة إيفان اغيلي في باريس سنة (1912)(إدريسي(2010)، ص116)، والذي "كان إسلامه ثورة كبيرة هزت ضمائر الكثيرين من ذوي البصائر الطاهرة فاقتدوا به واعتنقوا الإسلام..."(محمود(1999)، ص300)، لتتشكل "ومنذ سنة 1934 فرع غربي للشاذليّة الدرقاويّة أو بتعبير أدق العليوية الدرقاويّة ملهما من طرف الفرنسي غينون ومقادا من طرف السويسري الألماني شيون، وسيستقطب هذا الفرع بعد ذلك عددا من كبار المستشرقين أبرزهم "تيتوس بركهاردت" الذي دخل التصوف في المغرب سنة 1930 سالكا سبيل أحد فروع الدرقاويّة، وقد كانت مساهمته رائدة في مجال التأليف حيث خط كتابا هاما أسماه "مدخل إلى العقيدة الصوفيّة" Introduction to Sufi Doctrine كما ترجم 'الرسائل الدرقاويّة" للشيخ العربي الدرقاوي وكانت له إسهامات غنيّة في الفن والخط والعمارة الإسلاميّة، بالإضافة إلى مواظبته على نشر الفكر الصوفي التقليدي في مجلّة "دراسات تقليديّة Etudes traditionnelles" (إدريسي(2010)، ص153)، وقد إستطاع فريثجوف شيون وغينوا أن يستقطبوا حوالي مئة صوفي درقاوي مؤطرة فكريا بكتابات غينوا ومقادة روحيا بواسطة فرسثجوف شيون، بل واصل فريثجوف عمله في الولايات المتحدة واصبح له أتباع في الولايات المتحدة وسويسرا وأمريكا اللاتينيّة.

ولكن أيضا من جهة أخرى إذا حضر التصوف الإسلامي في الغرب الأوربي ولكن في الغرب الحديث – أوروبا الشرقيّة والولايات المتحدة- كما يؤكدون المهتمين بذلك لم يحضر بالإهتمام الكافي بل يكاد تعدم الأبحاث التي تغطي الأثر الصوفي الإسلامي ولا يعلم إلاّ النزر اليسير حول تطور الحركة الصوفيّة في هذه

الجهة من العالم، وكما يؤكد البعض أن "الطريقة الشاذليّة بفروعها المختلفة خاصة منها العلاوية كان لها قصب السبق في إدخال التصوف الإسلامي إلى أمريكا الذي حاول منذ بدايته التكيف مع المجتمع الأمريكي الذي كان يرفض مزج الروحانيّة بالدين"(إدريسي(2010)، ص107)، ولذلك يعتبر التصوف هو أحد البواعث الأساسيّة لأعتناق الإسلام بالولايات المتحدة.

ولكن يبقى أن حضور التصوف الإسلامي في مختلف مناطق العالم ليس ظاهرة جديدة لكنها قديمة وقد لقت الإهتمام بالدراسة من طرف الباحثين والأكاديميين بمقاربة هذه الظاهرة من مختلف الجوانب، فنجد على سبيل المثال من تخصص في دراسة الحضور الصوفي في الغرب الإسلامي وفي بلاد الأندلس، وهناك من إهتم بالشرق الأوسط وبلاد فارس، ومن تخصص في دراسة التصوف في إفريقيا جنوب الصحراء، ومؤخرا بدأت تظهر العديد من الأسماء في البلاد الأنجلو ساكسونيّة أو حتى الفرانكفوريّة التي تغطي الأثر الصوفي الإسلامي، وفي الحقيقة هناك أسماء عديدة إشتهرت في درس التصوف وبخاصة المستشرقون الإنجليز أمثال 'نيكلسون Reynold Nicholson، والفرنسيون أمثال 'ماسنيونL.Massignon) وهنري كوربان الذين عرفو بحضورهم في البلدان العربيّة من مصر إلى بيروت إلى الجزائر أو المغرب...وتتلمذ عليهم الكثيرين من الدارسين العرب، ونجد الأمريكي صاميول لويس Samuel Lewis، وارالف والدو إيمرسون Emerson Ralph Waldo وغيرهم كثير...وبعد ذلك غدت في القرن العشرين النصوص الصوفيّة متاحة بفعل تخريج المخطوطات المحققة وتطور الطباعة في الشرق والغرب مما مكّن الباحثين الغربيين من تشكيل أفكارهم الخاصة عن نشأة التصوف ومصادره، وإن كان من جهة أخرى هذا التأثير الصوفي الإسلامي في أوربا والولايات المتحدة أو الغرب عامة اقتصر بداية على جوانب فكريّة وفلسفيّة ولم يمتد إلى التأثير المباشر أي الممارسة الصوفيّة الطرقيّة التي لم تعرف طريقها إلى الغرب إلاّ مع أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كما ذهب إلى ذلك أغلب المؤرخين المعاصرين للحركات الصوفيّة المعاصرة في أوربا وأمريكا، إذ كان الغرب يمر في هذه الفترة من تاريخه بظروف سياسيّة وفكريّة ودينيّة خاصة جعلت لجوء الغربيين إلى الروحانيات الشرقيّة لا سيّما التصوف الإسلامي أمرا طبيعيا.

ثانيا- المستشرق الفررنسي إريك جوفروا ورؤيته الإسلاميّة الصوفيّة:

أنتجت دراسات الإستشراق ومنها خاصة المدرسة الاستشراقيّة الفرنسيّة باختلاف أنواعها جهودا كبيرة في مجال التصوف أسهمت في دراسته، ولقد ساعد هؤلاء الأشخاص على تقديم مفهوم التصوف إلى جمهور أوسع من خلال كتاباتهم ومناقشاتهم إلى جانب أساليب تأثير أخرى، ومن الذين اهتموا بالتصوف الإسلامي والذي يقال عنه أنه اليوم المتخصص الأول في بلاده عن الصوفيّة الإسلاميّة ويعتبر الميدان الكاديمي بالذّات هو الميدان الذي أهله أن يكون أحد المراجع العلميّة للصوفيّة لا في فرنسا فحسب بل في العديد من الجامعات الأوربيّة والأمريكيّة هو **إريك جوفروا Eric Geoffroy :**

1- حياته ومؤلفاته: والذي "إزداد سنة 1956 ببيلفور Belfort وتلقى تعليما وتربيّة مسيحيّة كاثوليكيّة وكان اثناء مرحلة مراهقته مثل باقي الشباب عضوا في فرقة موسيقيّة للروك، أصيب خلال إقامته في إفريقيا وهو في سن الثانيّة والعشرين بعدوى على مستوى جهازه الهضمي والتي اثّرت بشكل كبير على صحته وقد أول هذه

المعاناة التي أصابت داخله (البطن) بأنها أيقظت داخله صوتا خفيّا، وحينما شفي من مرضه مارس عدة طرق روحانيّة منها البوذيّة وقرأ كتاب "الميتافيزيقا" لـ (René Guénoun) الذي أصبح هو الآخر رجلا صوفيّا، وصرح أنه أعاد اكتشاف شخص المسيح داخل مركز تيبتي لتعلّم البوذيّة كما أكد أن الذي كان ينقصه في البوذيّة قد وجده في الإسلام ويتعلق الأمر بمبدأ الوحدانيّة الذي شكل بالنسبة له فتحا عظيما، تابع تعليمه لتعاليم الدين الإسلامي بالقاهرة بمصر قبل أن يعود إلى فرنسا التي يدرِّسُ الإسلامولوجيا في العديد من جامعاتها كجامعة ستراسبوغ وغيرها، وهو اليوم مؤلف للعديد من الكتابات والإنتاجات ترجم العديد منها إلى لغات مختلفة، ويعتبر عضوا في العديد من فرق البحث العالميّة ويتم الرجوع إليه غالبا في مواضيع محددة مثل الإسلام والتصوف، كما يقوم بتنشيط ندوات علميّة في أوروبا والعالم العربي وإفريقيا وآسيا والولايات المتحدة المريكيّة"(جيوفروا(ديسمبر 2016)، ص71).

وقد ألف إلى اليوم قرابة 15 كتابا أهمها: -الصوفيّة في مصر وسوريّة في أواخر المملوكي وبدايات العصر العثماني (1995) : وهو ليس سوى أطروحة الدكتوراه- ثم قدم مدونة بحثيّة ضخمة "الجهاد والتأمل الصوفيّة زمن الحروب الصليبيّة" 1997- و'حكمة اساتذة الصوفيّة' عام (1998)-و'اللحظة الصوفيّة''(2000)، إلى جانب - الشعر الصوفي: انبهار لا متناه- التصوف- مقدمة في التصوف- حكمةُ الشيوخ الصوفية- و'الإسلام سيكون روحانيا أو لن يكون' (2009): وترجمه هاشم صالح تحت عنوان 'المستقبل الروحاني للإسلام'- التصوف: الطريق الجوانية للإسلام، وربما من أجل تقديم وجه آخر عن هذا الإسلام المتصالح مع الحياة بعيدا عن الصور النمطية التي تربطه بالعنف والإرهاب أضاف جوفروا كتابا جديدا للمكتبة الفرنسية حول "الأسماء العربية الأكثر شهرة" جمع فيه 5500 اسم عربي مع ترجمة معانيها إلى اللغة الفرنسية وقد استعان جوفروا في ذلك بخبرته كأحد الأكاديميين القلائل الذي يحسنون التحدث والكتابة بالعربية - وآخر إصداراته " الله في صيغة المؤنث' عام (2020).

إذن هو من المفكرين الفرنسيين الذين دخلو الإسلام عبر بوابة التصوف وعمره سبعة وعشرون عام وأصبح متخصصا في حقل التصوف والروحانيات، ولذلك يعتبر أحد أهم سفراء التصوف الإسلامي في العالم حيث أسس لمنظمة "الوعي الصوفي" التي تقدم الإسلام لجمهور أوربا والعالم على أنه يختلف عما يسوق له السياسيون في الغرب بأنه عشق الدم والعنف والتشديد، ويركز جيوفروا على الروحانيّة كخاصيّة أساسيّة للتدين وبأنها يمكن أن تكون منطلقا لأرضيّة مشتركة بين الأديان ومن ثمة السلام العالمي، وعندما يتحدث جوفروا عن رحلة اعتناقه للإسلام فإنه يتطرق إليها من بوابة البحث الأكاديمي بالذات، عن طريق كتابات باحثين فرنسيين من أمثال " Eva Devitray-Meyerovitch (1909-1999)" التي ترجمت جلال الدين الرومي إلى اللغة الفرنسية، وكتابات "رينيه غينون" وغيرهم ممن ترجموا الأدب والفكر الإسلامي والصوفي بشكل عام إلى اللغة الفرنسيّة، وقد قام بإضافة اسم يونس إلى اسمه العائلي ليتحول إلى "يونس إريك جوفروا"، وقد تأثر كثيرا بالإسلام الذي منحه كما يقول الاستقرار النفسي والمعاني التي بحث عنها طويلا "فنحن في أعماقنا مسلمون ونعظم ونبجل انتماءنا للإسلام في معناه الكوني كما نجد أن القرآن وأحاديث الرسول تؤكد ذلك تماما"(جيوفروا،(ديسمبر 2016)،ص68)، كان يرى أن التعرّف الحقيقي على الدين الإسلامي والتمكّن من

دراسة القرآن الدراسة الوافيّة إنما أحسن عدّة لذلك هو التبحر في العلوم الصوفيّة والإلمام بأطرافها، فقام بالكثير من الرحلات إلى العديد من البلدان الإسلاميّة والتقى بالعديد من الأشخاص البارزين، هذا بجانب قراءاته لمفكرين كبار لهم أهميتهم في الدرس الصوفي أمثال ممن ذكرناهم وغيرهم كما سنرى لاحقا.

2- الإسلام كاجتهاد روحاني من منظور جوفروا: إن حاضرنا بطغيان المادية التقنيّة يفتقد كما يرى جوفروا إلى الروحانيّة التي يجدها هو في الصوفيّة، ولذلك نقرأ في التقديم لكتابه 'المستقبل الروحاني للإسلام' قائلا "أن المفكر الفرنسي الشهير توكفيل كان قد نبهنا إلى مخاطر التقدم قبل حدوثها، قد اخبرنا أن الأنظمة الديمقراطيّة بحاجة إلى الطاقة الروحانيّة كي تقاوم الميل الطبيعي للإنسان نحو المبالغة في الأنانيّة الفرديّة والنزعة الماديّة والعقلانيّة الضيّقة ينتج عن ذلك أن أشكالا جديدة من الروحانيات معروفة أو غير معروفة سوف تظهر حتما قريبا" (جيوفروا،(ديسمبر 2016)،ص10)، فهو بذلك يؤكد وفي جميع مؤلفاته بلغة مباشرة إيمانه بأن "الجوهر الروحاني" هو القادر على أن يخرجنا من الأزمات التي يعيشها الإنسان المعاصر، إنه الوحيد القادر أن يحررنا من استغلال الدين كمجرّد أداة سياسيّة ويتيح لنا في ذات الوقت أن نعيش بكل رصانة علاقتنا مع الحداثة.

وإذا كان الكثيرين من الغربيين وحتى من الليبراليين العرب عموما وخاصة بعد استفحال قضيّة الأصوليّة والتطرف منذ تفجيرات سبتمبر وحتى اليوم يؤكدون بالحلّ العقلاني والتنويري فإن جيوفروا يؤكد وخاصة في كتابه السابق أن هناك حلا آخر يمكن إستلهامه من مشروع كبار متصوفة الإسلام وعن طريق تنشيط 'الإجتهاد الروحاني' وليس فقط العقلاني، لأنه وعنده الحل العقلاني لا يناقض أبدا الحل الروحاني، ولكن ليتحقق ذلك لابدّ منا العودة إلى إسلام عصور المجد والإزدهار الذي كان كوني النزعة منفتحا على الكونيّة والعالميّة ويستوعب كل الثقافات والحضارات بأن نأخذ منها كل ما هو إيجابي وأفضل ونترك الرديء والسيّء.

وإذا كان اليوم اصبح الإسلام قد تقهقر وتقوقع على نفسه وانحصر في العرقيّة الضيّقة والكليشهات المتحنّطة بعد الدخول في عصر الانحطاط، ولذلك فقد حاول تشخيص المرض الذي أصاب الإسلام، وحاول أن يقدم الحل وهو كما يرى ضرورة الخروج من القراءة الحرفيّة الجامدة للقرآن الكريم والفقه وكل التراث الإسلامي، وينبغي أيضا الخروج من تلك القائمة الطويلة من الأوامر والنواهي أو المحظورات والممنوعات التي تشلّنا شللا و تخنقنا خنقا فنحن نتوهم أنها جوهر الدين في حين أنها قشوره السطحيّة فقط، ذلك أن جوهر الدين روحاني وأخلاقي وإنساني بالدرجة الأولى وليس قيودا وأصفادا فقهيّة تضبط كل شاردة وواردة من حياتنا، ولذلك يتساءل أين هو الجوهر الروحاني العظيم لرسالة محمد؟ وهل يمكن أن نتواصل معها من جديد إن لم نخرج من إمبرياليّة الفقه والفتاوى السطحيّة وحشو الحشو والتراكمات؟ ويجيب عن السؤال بأن يؤكد أنه قد آن الأوان للخروج من السلفيّة الإنغلاقيّة والأصوليّة الشكلانيّة الفارغة لقد آن الأوان للعودة إلى جوهر الإسلام المطموس منذ قرون وقرون.

إن جيوفروا يرى أن الحضارة العربية الإسلامية قد احتوت على أمثلة ممتازة على إمكانية وقوع التلاقي ما بين العقل والروحانيات ومن أهم تلك الأمثلة اللقاء الذي تم ما بين الفيلسوف الأشهر "أبي الوليد بن رشد"

والشيخ الصوفي الأكبر "محي الدين بن عربي" حيث يذكر ما وقع في ذلك اللقاء، ويركز على أن تسليم ابن رشد لإبن عربي في نهايته دليل قوي على هيمنة الروحانية على العقل، إنه يرى أن الرسالة الأصليّة للإسلام تحمل خطابا روحيّا مميّزا، وهذا الخطاب مستمد بشكل واضح من القرآن الكريم والحديث النبوي، ويمكن أن نتلمس تلك الآثار الناتجة عن هذا الخطاب الروحي في علم الكلام والتصوف والفقه والفلسفة، كما يؤكد أنه وبعد مرور سنوات طويلة قد حدث ما يمكن أن نسميه بقلب للقيم الإسلاميّة، وذلك عندما وقع الجمود الفكري والتحجر والدخول في عصر الانحطاط والتكرار وتوقف عن مسايرة التغيرات العالميّة، ويرى عمليّة قلب القيم الإسلاميّة قد ابتدأت في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع هجري) وأنها قد اكتملت بشكل نهائي في القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع هجري)، ويحاول أن يوضح ما يقصده بمصطلح قلب القيم عندما يذكر بعض المبادئ العليا التي ارتبطت بالإسلام في بدايته الأولى، مثل الاعتقاد بمركزية الإنسان والحرية والتعددية واحترام المرأة والتكافل وحب الآخر...وكيف أن جميع تلك المبادئ قد تتغيّر بعد ذلك لتتلاشى تلك القيم وتتبدل إلى العكس التام، "فالمبدا القرآني الذي يتحدث عن الحريّة والمسؤوليّة الفرديّة عن أعمال الإنسان، تحوّل إلى "تواكليّة وقدريّة"...وما كان في البداية القبول بالتعدديّة في التفاسير تحول إلى فرض الراي الواحد والمذهب الواحد للدولة(جيوفروا،(ديسمبر 2016)،ص23)، وهو ويؤكد أن ذلك التبدل هو أمر لم يقتصر حدوثه على الدين الإسلامي فحسب بل أنه سنة كونية تعرضت لها جميع الأديان والعقائد والأيديولوجيات الكبرى فهذا الشيء يحدث بشكل إجباري في كل دين عندما يترسخ وينتصر، إنه يمثل الصيرورة المعتادة لتجسيد الروح العليا في أي مؤسسة دينية أو كنيسة معينة، وتعتبر هذه الصيرورة أو العملية دائماً مؤلمة، وفي حالة الإسلام نلاحظ أن هذه الصيرورة كانت مرفقة بانكماشات أو تقلّصات متتالية لفكر أولئك الذين كُلفوا بمعاينة الرسالة ثم نقلها إلى الآفاق، وهذا الانكماش أو التقليص الذي لحق بالإسلام على مدار القرون المتتابعة هو الذي أدى إلى تشكّل "السياج الدوغمائي المغلق"، وهو أن الفقهاء المسلمين على مر العصور قد عملوا على تأسيس بنية محكمة من الأحكام والفتاوى التي أسبغوا عليها صفة الشرعية الإلهية وصاروا يضمون إليها كل ما يعرض ويستجد من أمور الحياة، فصارت الأحكام الأربعة (المحظور، المكروه، المباح، والواجب) جاهزة للتنزيل على كل مسألة، وهو ما يراه المؤلف متعارضاً مع مفهوم البراءة الأصلية التي قال بها أبو حامد الغزالي مع أن المصطلح يفتح أيضا تعددية المقاربات وذلك طبقا لكلام النبي (المنقول في القرن التاسع بواسطة الطبراني) والذي يقول:"إن شريعتي جاءت على ثلاثمائة طريقة وليست منها طريقة يلقى العبد بها ربه إلا دخل الجنة"، هكذا نجد أن الشريعة هي أكثر بكثير من لائحة طويلة بالأوامر والنواهي كما يحاول أن يوهمنا الفقهاء إنها بالدرجة الأولى تحتوي على المبادئ الفكرية التي تحدد المعرفة الصحيحة والأساليب العملية لإكمال "الصفات الحميدة" للإنسان (جيوفروا،(ديسمبر 2016)، ص173).

إن روحانيّة التصوف بالنسبة لجيوفروا هو الحل لعالم اليوم المأزوم وليس للعالم الإسلامي فحسب باعتبار أن المشكل واحد، فـ"غياب المعنى 'أي العدمية' أصبح يصيب الآن الغرب كما الشرق وذلك عن طريق إظهار أعراض متعاكسة في كلا الجانبين لكنها متضامنة في الواقع، في الغرب ولّد غياب المعنى هذا التيهان الأخلاقي أما في الشرق فقد ولد عقدة التواضع الذليل تجاه الغرب وثقافة المرارة والحقد على هذا الغرب

بالذات في آن معا، وهكذا إذا كان في إعتقاد الكثيرين من المسلمين والكثير أيضا من المفكرين الغربيين يرون في التصوف تشويه لحقيقة الإسلام فإن جيوفروا وفي حوار له لمجلة "عالم الأديان الفرنسيّة" وكما في جميع مؤلفاته يقترح التصوف كتجربة روحيّة وملاذ لإنسان القرن الحادي والعشرين لملأ الفراغ الروحي الذي يؤرقه، كما يرى في هذا التوجه حلاّ لمشكلات الاندماج للمسلمين في مختلف الدول الأوربيّة باعتبار أن التصوف "هو ميل للسلم والسلام والتعايش بين الأجناس والشعوب، وهو تجربة روحيّة لا تخص الإسلام وحده بل نجدها في اليهوديّة والبوذيّة... فهو إذن أرضيّة مشتركة بين هذه العقائد يمكن تطويرها لبلوغ السلام بين الشعوب والأديان"(جيوفروا،(ديسمبر 2016)، ص68).

وإذا كان كما يرى قد عانى 'الإسلام الصوفي' والمتصوفة عامة من هجمات عنيفة خاصة من قبل السلفيين كما أيضا 'العصرانيين' من الإطاحة به في عالم الخزي كما وبالرغم من المرحلة الدقيقة التي مرّ بها التصوّف فقد حافظ على تجذّره في الثقافة الإسلاميّة، وبسبب ما طال تسييس الحياة الإسلاميّة الأوساط الصوفيّة ابتداء من ثمانيات القرن العشرين، ومواجهة تنامي الحركات الإسلاميّة فهمت بعض الدول الفائدة التي يمكن أن تجنيها من الإرتكاز إلى الأوساط الصوفيّة، وهو الخط الذي اعتمده السادات في مصر ثم خلفه في ذلك مبارك وكذا فعل القذافي الذي بحث عن الاقتراب من مشايخ الطرق، وفطنت جزائر بن جديد مؤخرا إلى ذلك فظهرت الطرق من جديد إلى السطح بشكل من الأشكال "فإسلام الهدوء والانفتاح الذي ينادي به أغلب مشايخ التصوّف هو بلا شك أفضل ترياق للمفاهيم الضيّقة التي تسوّقها الحركات الإسلاميّة"(جيوفروا،(ديسمبر 2016)،ص134).

وإذا كانت الحداثة والعولمة –كما يؤكد جوفروا- تقودان إلى تنميط الثقافات البشرية من أجل أن تستطيعا فرض رؤيتهما التجارية (المبتذلة) على العالم، ولكنها ولدتا الخيبة وخواء العالم وجعلت من الإنسان نشالا نهابا تجاه ممالك الخلق الأخرى وتجاه نفسه...إلخ، فـ"الجهاد" ومشكلة العولمة وفضيحة التعامل مع قضيّة اللاجئين والمهاجرين وكذلك أزمة الفراغ واللايقين في مجتمعات ما بعد الحداثة، ومشكلة وصول إنسان 'الحداثة والتقنيّة' و'التطور' ... وغيرها من بين جراح عديدة غير معالجة يعاني منها الحاضر وهي في طريق تدمير الإنسان وهذا الكوكب كله فإن حلولها نجدها في الصوفيّة ذلك لأن "الصيغ الدينية المفرغة من الروحانيات مرشحة للموت والإنقراض...فجميعها تحتكر الحقيقة الإلهية المطلقة وحدها دون سواها وهذا لم يعد مقبولا بعد الآن في عصرنا..."(جيوفروا،(ديسمبر 2016)، ص189)، ولذلك كما يؤكد يعرف التصوف حاليا حيويّة متجددة في البلاد الإسلاميّة رغم أن التطلعات الروحانيّة أصبحت ثانويّة بسبب إنشغال الأذهان بالمشاكل الماديّة والقلق المعيشي... بينما يلاقي اهتماما متزايدا به في الغرب، ولذلك يؤكد من جهة أخرى أن ما يحتاجه العالم كله اليوم هو إيجاد "ثورة في المعنى" وهذه الثورة تتطلب التحول من الماضي واعتناق فكر جديد، هذه الثورة لا بدّ أن تعيد الإنسان إلى جوّانيته وبساطته الأولى وتتيح له تأمل معاني وآيات الله في الخلق والكون وفهمها، إنها ثورة تعوّل على الإجتهاد الصوفي، وزهده وعلى تفسير النص الديني والتاريخ بما فيه خير لحاضر الكائن (باختلاف ثقافته وعرقه ودينه) ولحاضر كونه وبذلك يمكن بعث المنهجيّة الإسلاميّة من سباتها ونفض الغبار عنها وتجديدها، ولذلك فهو يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى إحياء المعنى في الإسلام من أجل

إكتشاف بعض الأسس الأصليّة التي طمستها تراكمات الحياة اليوميّة وكذا الجمود الفكري والتحجر والدخول في عصر الإنحطاط والتكرار والإجترار.

وهو يثني على الإصلاح الديني في الإسلام والذي لا يتماثل مع شبيهه الذي تم في أوروبا في عصر النهضة والعقل، فالمصلحون المسلمون –بحسب ما يرى جوفروا- يعتقدون بإمكانية التوفيق ما بين العقل والنقل، وما بين تجلّيات التحديث والتقدم من جهة والروحانيات المنبثقة من الأفكار الدينية من جهة أخرى، ولذلك فإن هؤلاء المصلحين الذين أشار إلى بعضهم مثل محمد عبده وجمال الدين الأفغاني لم يسارعوا إلى نبذ ما في الإسلام من روحانيات بل ركزوا على تلك الروحانيات في خطابهم الدعوي، إلى الدرجة التي يؤكد معها جوفروا أن معظم المصلحين الذين ظهروا في القرون السابقة كانوا يرتبطون بشكل ما بالحراك الصوفي في مجتمعاتهم، وأنهم كانوا يستمدون من معين الأفكار الروحانية والصوفية المدد الذي يساعدهم في إذكاء حركتهم ودعوتهم الإصلاحية، ولذلك فهو يدعوا المسلمين جميعا إلى الإنخراط في ممارسة الاجتهاد الروحاني في الواقع الإجتماعي وذلك عن طريق خاصة في محاولة إدخال الروح النقديّة إلى ساحة المجتمعات الإسلاميّة، والضرورة الحتميّة لتغيير الضغط الإجتماعي الممارس على التصرفات الدينيّة كي يصبح المرء حرا في علاقته مع المقدس الإلهي ويعني بذلك أن تصبح علاقته بالدين فرديّة حرة لا مملاة عليه بالقسر من قبل المجتمع أو الإمتثاليّة الاجتماعيّة، وكذلك بإيقاظ الوعي الأخلاقي والبيئوي لدى المسلم كي يتحسس مشاكل البيئة.

إن العالم اليوم يبحث عن بدائل روحانيّة تخفف معاناته من الماديّة الطاغيّة التي يعيش فيها والتوجه العالمي منصب الآن على الروحانيات القادمة من منطقة آسيا مثل البوذيّة، الهندوسيّة، وغيرهما من الفلسفات الشرقيّة وتطبيقاتها من تأمل من اجل الوصول إلى تغذيّة الروح... لكن الدين الإسلامي لديه من عمق التجربة الروحانيّة من خلال الذّكر والفكر وما قد يحقّق الإحتياجات الروحانيّة العالميّة أكثر من غيره، حيث ترتبط فكرة الرؤيا عند الصوفيّة بين الصفاء الروحي والعلو أو الإرتفاع والتي دعمتها الصوفيّة إلى أقصى حد من خلال فكرة المعراج الروحي ويقصد به عروج روح الولي إلى العالم العلوي والتنقل في ملكوت السماء كيفما أراد لتحصيل شتى العلوم والأسرار.

ثالثا- إريك جوفروا في الميزان :

إن الكثيرين اليوم يدركون أن هناك طاقة اصيلة وتراث روحي عتيق في الإسلام ولابدّ من إظهاره لخدمة العالم الجديد، وخاصة الجانب الصوفي منه الذي يوفر رأفة وروحانيّة ورحابة آفاق الغفران فيه فرصة امام العديد من الغربيين لإعتناقه خاصة المظلومين والمسجونين، وإن كان الدين لا يعني شيئا في الحياة الغربيّة الحديثة والمعاصرة، فالدين قد فصل عن الحياة منذ تبني معظم الدول الغربيّة للعلمانيّة كمنهج سياسة ومعاملات وإذا ذكر الدين فمن أجل تحقيق مصالح معينة، لكن الفراغ الروحي الذي يعيشه المجتمع الغربي عامة الواقع تحت هيمنة الماديات وإقصاء البعد الروحي مما أفقد الإنسان الغربي السعادة والتوازن، لذلك كان إقبال الكثيرين من المريدين للإشعاع الصوفي ذو القيم الروحيّة العاليّة والأخلاق العالية، ولذلك غدى المساهمة النظريّة والعمليّة للتصوف في الغرب من أجل إيجاد حلول للمشاكل المتعلقة بمعنى الحياة والأخلاق والبيئة خصوصا هي مواضيع المستقبل، ويرجح الكثيرون أن التصوف الإسلامي في الغرب بفضل ميراثه

الروحي قادر على إقتراح حلول منقذة للبشريّة "لأنه هو الدين الوحيد الذي يمحو من المجتمع مشكل العنصريّة..."(مالكوم إكس(2013)، ص421)، وإذا كان هناك الكثيرون في المعسكر الغربي يتوجسون "ومتخوفون من الإسلام لأنه في نظرهم بمثابة فيروس "حصان طروادة" الذي يتيح لهذا الدين أن ينفذ بمكر إلى أوربا، لأنه وفي الحقيقة وواقع الأمر –كما يرى البعض ويعتقد- إن كانت الصوفيّة تستقطب الكثير من الغربيين إلى الإسلام بفعل انفتاحيتها وكونيتها، غير أنها أيضا تخفي ضمن طياتها ذلك الإسلام العقائدي والشعائري (الملتزم عقديا وشعائريا) والذي يتوجس منه الغربيون.

إن الكثير اليوم من المفكرين والمهتمين بالتصوف من المسلمين يتفقون مع ما قدمه بعض المستشرقون من مبررات ودواعي الإهتمام بالتصوف بل وممارسته واعتناق الإسلام من حيث هو مصدر للتصوف، فالتصوف بممارساته وبآرائه في المعرفة والمحبّة وبفنائه في الألوهيّة وتوخيه الكمال وهي أمور دعت لها الديانات السماويّة كلها ولكن لم تتجسّد بعيدا عن الأنبياء إلاّ مع الصوفيّة، لذلك فعند الكثير من المستشرقين مثل إريك جوفروا الأنموذج الكامل لوحدة الأديان، وأكثر من هذا المعتنق للإسلام منهم لا يرى نفسه قد تخلى عن دينه بل اكمل مشواره في التدين وجمع الأديان السماويّة كلها (حتى الوثنيّة قد تأخذ مصيبها أحيانا)، ولذلك يؤكد بصدد حديثه عن المعتنقين للإسلام منهم فيقول عن "كلمة Converti غير ملائمة لأن الشخص القادم من اليهوديّة، المسيحيّة أو من ديانات أخرى لم يقم سوى بمد طريقه إلى الإسلام لقد توج عمله ولم يفارق أي شيء" (Eric Geoffroy (2002),p366).

إن بعض علماء الغرب الأكفاء الذين عزبتهم الرغبة في البحث في العلوم الصوفيّة اليوم يعملون إلى إعادة قراءة تراثهم بمنظور جديد للبحث في هويتهم الدينيّة من جهة، ولتجديد تواصلهم مع العالم الإسلامي برؤيّة أرحب من جهة ثانيّة، وهم بذلك بلا شك ذللوا الكثير من الصعاب التي لا تزال بحاجة إلى من يكشف عنها النقاب وأظهروا الإسلام في ثوب جميل والروحانيّة الكامنة فيه، بل لم يكن يعرف من الدارسين العرب عن مثلا الحلاج أو البسطامي أو رابعة... وغيرهم قبل ان ينشر عنهم عبد الرحمن بدوي في كتابه "شطحات صوفيّة" كلمة إلاّ بفضل عمل المستشرقين الذين ترجموا الأعمال الصوفيّة من الفارسيّة أو غيرها من اللغات وإن اختلفت من حيث الدقة والفهم والإتقان، وقد يكون صحيحا أن أخطاء وقعت فيها تلك الترجمات ففهمت بعض كلمات على نحو خاطئ، أو كانت الترجمة حرفيّة في مواطن كثيرة، ونصوص مثل هذه تحتاج إلى معايشة وتدقيق بشكل أكثر، لكن لا يمكن أن نكون مجحفين في حقّ من قدموا وعرّفوا لنا بهذه المعارف، "ولعل مما في قراءة الاستشراق المعاصر من فوائد ما يمكنّنا المتلقي من تصويبه، وإلى 'غربلة' ما يرجّه إلى ديننا الإسلام، وتفسير ما يراه الآخر –تبعا لضلال رؤيته- خللاً في تاريخ هذا الدين أو واقعه، وإلى توضيح صورة نبيّنا محمد –عليه الصلاة والسلام- كما هي حقيقتها دون إساءة"(فرانسوا دوبلوا (2015)،ص53)، وإذا كان بعض المستشرقون قد أخذوا فكرة سيّئة عن الإسلام والمسلمين فإن البعض يعملون على تصحيح النظرة الغربيّة التي اخذوها عن الإسلام وبنو عليها أرائهم وطعوناتهم، ولذلك يقول خالد محمد عبده "حينما يشتغل الأعجمي بتراث الإسلام يخرج لنا من حدائقه ما نعجز نحن المؤمنين عن استخراجه"(خالد محمد عبده(2016)،

ص10)، وخاصة أن البعض منهم إطلع على النقد العربي واكتشفوا مصادر إسلاميّة تراثيّة لم تكن متاحة من قبل.

ولذلك يقال لقد إستطاع إريك جيوفروا كواحد من هؤلاء المستشرقين وكمفكر يخاطب ليس فقط مسلمي فرنسا بل هناك شرائح أوسع تتحسّس كل خطاب يقدّم بدائل للنزعة الماديّة الطاغيّة في العالم أجمع اليوم أن يقدم خطابات مغايرة عن الإسلام غير تلك التي يروج لها السياسيون، خاصة في الدول الغربيّة سواء على شكل محاضرات ودروس داخل السجون باسم جمعيته أو ندوات وملتقيات للتحسيس بأهميّة الروحانيّة، وهي موجهة أساسا للشباب والمراهقين خاصة في الأحياء الهامشيّة التي هي في أشدّ الحاجة إليها، كما أن لديه العديد من الشركات مع متدخلين هي في أطوارها الأخيرة للتوقيع، ولذلك يرى البعض أن ما يقدمه جوفروا أو غيره من المستشرقين صورة جديدة وحقيقيّة للإسلام "دين السماحة" وسط جحيم الأصوليات المتشددة التي يشهدها العالم.

ولكن أيضا هناك من يرى أن الترويج للصوفيّة السلبيّة كما يدعونها عبارة عن مؤامرة من أجل ضرب الإسلام الحركي الفعال وإحلال الصوفيّة الحلوليّة بديلا للتعليم الديني، ومواجهة الصحوة الإسلاميّة وتجلياتها الإجتماعيّة والسياسيّة مثل إريك يونس جوفروا في كتابه عن "المستقبل للإسلام الروحاني) وخاصة أنه يوافق "على ما يقال عن ولادة سوق دينيّة جديدة أو بالأحرى سوق "لترقيع العقائد" بتعبير منتقديه، عبر الأخذ من كل دين ما يعجبنا أو يناسبنا وتشكيل توليفة من كل الأديان وهو ما يعني تذرية الإيمان وتأكيد البحث الفردي عنه، كما يرى أن الميل إلى السلفيّة هو ميل مؤقت (شهقة المحتضر) وأن الحياة الجديدة أخذت تفرض علينا العودة إلى النزعة الروحيّة (أو الصوفيّة التي يرى أنها كلمة باتت مبتذلة في الوقت الراهن من كثرة الإستخدام)، وهو بذلك يؤكد على ضرورة الاستغناء واستبعاد التراث المتمثل في السنة والسلف الصالح واستبداله بالتصوف فقط.

ولذلك فهناك من يرى إن إهتمام الغرب بالتصوف ودراسته ودعمه ليس إلاّ لأنه يحقق لهم عدة مكاسب ابرزها تمرير فكرة وحدة الأديان وهذا ما نسمعه اليوم من ترويج "للدين الإبراهيمي" والتي بموجبها تقتل التمايز لدى المسلمين وتذيب عقيدتهم في العقائد الأخرى، كما أن عقيدة وحدة الوجود هذه التي ينادون بها والتي ترى الوجود شيئا واحدا وهو الله تعالى وكل ما في الوجود إنما هو صور له وتعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا، فلا فرق بين خالق ومخلوق ولا بين إيمان وكفر فالأديان إذا عندهم شيء واحد، وبالتالي فإن احتضان الغرب للفكر الصوفي خاصة بعد احداث سبتمبر ودعمه عوض عن المواجهة الصريحة مع الإسلاميين هو أقوى الأسلحة لوقف المدّ الأصولي الإسلامي فكان الإتجاه نحو إبراز التصوف حتى يكون ممثلا عن المسلمين بما يحمله من نزعة توافقيّة مع الغرب بغض النظر عن كونها تنسف أصولا عقديّة.

ولكن أيضا من جهة أخرى هناك من يلتمس لهم العذر فيؤكدون أنه لا بدّ أن نعي أن المستشرق وحتى وإن أسلم وأصبح مسلما فهو مرتبط إرتباطا وثيقا بما يدور حوله من حركات علميّة، ولعل هذا ما يفسر الدهشة والإستغراب اللذين يرتسمان على وجه المسلم وهو يقرأ كتابات المستشرقين، فهم يقيسون الأمور بموازين مختلفة إلى حد كبير عن مقاييسنا بل إن اختلاف المقاييس هو الذي أوقع كثيرا من المستشرقين في

الخطأ وهم يَزِنُون بها ثقافة أخرى مختلفة كما أوقعنا ذلك في خطأ مقابل حين أقدموا على تقويم أعمالهم دون معرفة كافية بطبيعة مناهجهم ومستلزماتها والاستنتاجات المترتبة عليه، ولذلك فإن الكثيرين من الدارسين للفكر الاستشراقي بالمقابل يؤكدون أنه "هناك محاولة جادة في الغرب في التعامل مع التصوف والمتصوفين المسلمين وهم يجمعون بين النظر والعمل بين الدراسة والفهم والتأويل والممارسة، والذي نفتقده اليوم كثيرا إذ اليوم يفترق المهتمين بالتصوف إلى فئتين: فئة الباحثين الدارسين وفئة الممارسين، فالممارس عندنا تنقصه الدراسات النظرية والمناهج العلمية التي يتعامل فيها مع النص، والدارس تنقصه أهم شرط لفهم التصوف على حقيقته وهو التجربة الذوقية، فالحاجة ملحة اليوم إلى ضرورة ووجوب التكامل بين الفئتين ريثما تجتمع الخصلتان في الشخص الواحد"(خميسي ساعد(2010)،ص62-63) .

خاتمة :

وفي كل الأحوال يمكننا القول:

- إن أهميّة بعض المستشرقين أنهم كفانا بعضهم الرد على بعضهم الآخر ممن أخطأ الحكم في الإسلام وإن لم يكن النقد لذاته أو لأجلنا بل هو خدمة الحقيقة التي أرادوها، لقد بذلو جهودا في إيصال أعمال كبار الصوفيّة المسلمين للتعريف بهم في الغرب وترجمة أجزاء كبيرة من أعمالهم مثل أعمال إبن عربي، الحلاج، الغزالي...، مما أدى إلى تطور هذه الدراسات والتأويلات بالشكل الذي جعلها تحيا في أيامنا هذه ويراد لها الانتشار والسيادة في السنوات القادمة، بفعل الجهود المبذولة في هذا الصدد وبفعل المناخ العام الفكري والعقدي السائد في عالم يتجاذبه تيار ما بعد الحداثة بكل ما يحمل من معاني الدعوة إلى نقد العقل والعودة إلى الروح وإلى القيم الأخلاقيّة والجماليّة لذاتها من جهة، وحبال العولمة المحكومة بنتائج صراع المصالح والسالكة لنهج البرغماتيّة المتجددة من جهة أخرى.
- أن التصوف كتجربة وكعلم إنساني لما له من هذا الطابع ولما يوجد فيه من أفكار ومن مناهج تتماشى وما يصطلح عليه اليوم بما 'بعد الحداثة'، ضف إلى ذلك ما يوجد في التصوف من أفكار ومن تجارب روحيّة تعلى من شأن الإنسان تبتغي اليقين وتنشد الكمال حيث السعادة المطلقة.
- إن التصوف اليوم تشجعه الظروف الدوليّة الفكريّة المعاصرة (ما بعد الحداثة، ظاهرة العنف، وظاهرة الغلو، الإرهاب...)، وإذا كان بعض المستشرقين وجدوا ضالتهم في التصوف لما فيه من فكرة المحبة ومطلب الحقيقة المطلقة ومركزيّة الإنسان في الكون وتحقيق السعادة المطلقة والإنسان الكامل...إلخ، فإن هذه المطالب مشروعة وممكن البحث فيها في أي مكان وزمان وكمسلمين أولى بها من غيرنا لأنها ضالّتنا فما التصوف في جوهره وحقيقته إلاّ الأخلاق كما جاء في جلّ تعريفات التصوف خاصة إذا ما تم الإتفاق على أن أزمتنا في الوقت الحالي هي أزمة قيم أخلاقيّة.
- أن هناك الكثير من الغربيين المسلمين يساهمون مساهمة فعالة في تجديد الرؤيّة عن الإسلام والمسلمين من خلال التصدي للأحكام الجاهزة عنهما في وسائل الإعلام، ومن خلال الأبحاث والدراسات الأكاديميّة التي يقومون بها لا سيما وأن صوتهم قد اصبح مسموعا بفعل الانجازات والنجاحات التي حققها هؤلاء المسلمون الغربيون على المستويات الشخصيّة والعامة، ولعلّ أكثر المسلمين الذين

يحظون اليوم بتعاطف الراي العام الغربي هم الصوفيّة بفعل مرونتهم الفكريّة التي استطاعت أن تتكيّف مع الخصوصيات الثقافيّة والإجتماعيّة الأوربيّة والغربيّة عامة.

- ولا بدّ من الإشارة إلى أن الباحثين العرب أو المسلمين الذين راكموا مثل المؤلفات الغربيّة حول الصوفيّة بأدوات بحثيّة معرفيّة رصينة تتناول مجالا فاعلا في الحياة الإجتماعيّة والروحيّة العربيّة هم قليلون، ولذلك نقول وحتى وإن كان تعاطف الغربيين مع التصوف حاليا هو تعاطف مصلحي آني فرضته ظروف اضطرار الغربيين للبحث عن شريك محاور في العالم الإسلامي لا يشكل خطرا على منظوماتهم الاقتصاديّة والاجتماعيّة، فذلك لا يطعن بأي حال في أصالة التصوف ولا يزيل عنه شرعيته الدينيّة من جهة، كما لا يعني تآمره على أمة الإسلام أو الاستقواء على أيّ طائفة إسلاميّة من جهة أخرى.

توصيات:

- دعوة أصحاب القرار الحكومي ومراقبي الحياة الإجتماعيّة والباحثين والعلماء الإهتمام بهذا الجانب المهم من الدين الإسلامي وهو التصوف، لا بدّ في بلد يمثّل الإسلام الدين الرسمي للدولة من إقتراح تأطير وإهتمام أكثر دقة للطرق الصوفيّة.
- وإن ما نحتاج إليه اليوم هو مسألة تجريد الإسلام وخاصة التصوف من التوظيف السياسي كضرورة لممارسة الدين الحقيقي الصحيح.
- الاهتمام بالبعد الحسن الإيجابي من الكتابات الاستشراقيّة على التصوف الإسلامي وإظهاره من أجل نشر روح السلام والتعاون، ولا نقف فقط عند تلك الجوانب السلبية التي تزيد من الكره والبغضاء بين الشعوب.

قائمة المراجع:

(1) الكتب:

- إريك جوفروا، التصوف طريق الإسلام الجوانيّة، تر عبد الحق الزموري، (2010)، ط1 ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) ، اوبو ظبي.
- إريك يونس جوفروا، *المستقبل للإسلام الروحاني*، (2016)، تر هاشم واسامة نبيل، ط1، المركز القومي القومي، القاهرة.
- أبو محمد بن محمد الغزالي، *القواعد العشرة*، (2003)، ط1، ، المكتبة العصريّة صيدا، بيروت.
- حلمى محمد القاعود، *حكايات الجواري والعبيد* لرواية المضادة، (2019)، ط1، القاهرة ، دار البشري للثقافة والعلوم.
- خالد محمد عبده، *المستشرقون والتصوف الإسلامي*، (2016)، ط1 ، القاهرة المحروسة للنشر الخدمات الصحفيّة والمعلومات، القاهرة.
- خميسي ساعد، ابن العربي المسافر العائد، (2010)،ط1 ، الدار العربيّة ناشرون، ومنشورات الإختلاف الجزائر، بيروت لبنان.

- خوليان ريبيرا، *الأصول العربيّة لفلسفة رايموندو لوليو*، (1980)، ماخوذ عن كتاب دراسات أندلسيّة للطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة.
- عزيز الكبيطي إدريسي، *التصوف الإسلامي في الولايات المتحدّة الأمريكيّة مظاهر حضور التصوف المغربي وتأثيراته*، (2013)، ج1- 2، ط1 ، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان.
- عبد الحليم محمود، *قضيّة التصوف*، (1999)، (د، ط)، دار المعارف، القاهرة.
- عبد الرحمن ابن خلدون، *المقدمة*، (1989)، ط7 ، مؤسسة الإعلامي، بيروت.
- لطفي عبد البديع، *الإسلام في إسبانيا*،(1969)، ط2، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة.
- مالكوم إكس، *رسالة من مكة المكرمة*(2013)، ترجمة عزيز الكبيطي إدريسي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدّة الأمريكيّة مظاهر حضور التصوف المغربي وتأثيراته، ط1،ج 2-1 ، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان.
- Eric Geoffroy, Le Rayonnement Spirituel du Cheikh Al Alawi en Occident, (2002), dans *Al-tarbiya wa l-ma'rifa fî maâthir al-shaykh Ahmad ben Mustafâ al-'Alâwî*, Mostaganem (Algérie),.
- Schimmel,A, , Mystical Dimensions of Islam, (1975), Chapel Hill, Univ of North Carolina.

(2) المجلات:

- إريك جوفروا ، *التصوف كخيار للإسلام الأوربي*، (ديسمبر 2016)، تر لحسن الصديق، *مجلة أفكار*، المجموعة الإعلاميّة أخر ساعة، شارع فرنسا أكدال الرباط ، العدد11، ص 98- 71.
- عزيز الكبيطي إدريسي، ظاهرة التصوف الإسلامي في الغرب الحديث، (2010)، *مجلة حوليات التراث*، جامعة مستغانم الجزائر، العدد 10، ص 107- 116.
- عبد الحكيم خليل سيد أحمد، الدلالات اللغويّة في الثقافة الصوفيّة، (سبتمبر 2014)، *مجلة حوليات التراث*، جامعة مستغانم ، العدد14، ص 149-169.
- فرانسوا دوبلوا ، دراسة المستشرق فرانسوا دي بلويس 'الإسلام في سياقه العربي، (2015)، تر عبد الله محمود عياش، *مجلة أفكار*، وزارة الثقافة، المملكة الأردنيّة الهاشميّة، العدد 312، ص 52-62.
- Geoffroy Erik, Le Soufisme d'Occidnt dans le Miroir du Soufisme d'Orient, (Septembre 2005), *Revue ANNALES DU PATRIMOINE*, Université de Mostaganem, N 04 ,.

صورة المرأة المسلمة لدى الغرب: أي دور للمستشرقين فيها؟

The Image of Muslim Women in the West: What is the Role of the Orientalists?

د. لخضر بن بوزيد، جامعة بسكرة، الجزائر
l.benbouzid@univ-biskra.dz



من خلال النظرة العامة للإنتاج الثقافي للمستشرقين سواء كانوا فنانين أو أدباء نلاحظ بشكل عام تركيزا كبيرا على المرأة والجنس، ولا شك أن ذلك لم يكن بمحض الصدفة بل هو جزء من مشروع عام لخدمة أغراض استعمارية من خلال تصوير المرأة المسلمة بشكل خاص.

إذا أن اللوحات الفنية للفنانين كانت دائما تصور المرأة في وضعية محرجة ومسيئة وتعبر عن صورة نمطية سيئة وضعوها للمرأة، نفس الصورة نجدها في الأدب الغربي، وهذا يؤكد أن المجتمعات الغربية تعتبر الشرق أدنى درجة وتصنف ثقافته في مرتبة دنيا مقارنة مع الثقافة الغربية.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، المرأة، الإسلام، الفن، الادب .

Abstract :

The Orientalist cultural production through an overview of the Literature on Orientalist paintings produced by European artists in the nineteenth century. There is a particular emphasis on gender and sexuality, and the use of depictions of gender and sexuality to undergird the political project of colonialism

The image of Muslim women in the eyes of western artists seem too embarrassing, offensive, or stereotyped. The same image we find in western literature. That confirms that the main thought about Islam in western societies is as defining and classifying and expressing the cultural inferiority of the Islamic orient compared to western culture.

Keywords: Orientalism, Woman, Islam, Art, Literature.



مقدمة:

بعد الثورة الفرنسية وما صاحبها وتلاها من حركة استعمارية اتجهت أنظار الأوربيين نحو الشرق الساحر، ذلك الشرق الذي كانوا يحفظون في مخيلتهم عنه صور غامضة رسمها الصراع القديم الموروث من الحروب الصليبية وما صاحبه من افتتان وعداء واحتقار وازدراء وتوجس، بدأ الاحتكاك مع الشرق منذ

الحملة الفرنسية، وربما ذهب بعضهم لزيارة الشرق قبل ذلك، ربما وصل بعضهم أو سمع عن قصور السلاطين والولاة والامراء وعن الحريم، فراحوا يرسمون في مخيلتهم عن الشرق صورة مغايرة للواقع .وحتى في خضم الحركة الاستعمارية ورغم أن الكثير من البلاد الإسلامية قد خضعت لهم ومنها الجزائر فلم تزل تلك الصورة التي تحمل رواسب الحروب الصليبية موجودة في أذهانهم فجسدتها رسوماتهم، وبما أن المجتمعات الإسلامية هي مجتمعات محافظة وفي معظمها تحيط المرأة بسياج من العفة والطهارة والحماية، مجسدة في لباسها المحافظ ومجسدة أيضا في العادات والتقاليد التي تمنع الاختلاط وتضع الحقوق والواجبات في إطار الشريعة الإسلامية، فإن ذلك ما كان ليروق للمستشرقين سواء كانوا أدباء أو فنانين.

لذلك فقد قاموا بتغيير صورتها المحافظة والمحتشمة فنزعوا عنها ثيابها وصوروها في صورة المرأة اللعوب المحبة للمرح والرقص، والتي تحب ممارسة الجنس وتلبي رغبات الرجل الجنسية، كما اتهموا المجتمعات المسلمة باضطهاد المرأة واستعبادها وإذلالها وأن دورها هو إشباع رغبات الرجل فقط، وركزوا على بعض النقاط مثل تعدد الزوجات وحقوق الإرث والحق في العمل وغيرها من الحقوق التي يرون أنها تظلم المرأة وتسلبها حريتها .

والملاحظ أن الفنانين المستشرقين قد جسدوا المرأة بهذا الشكل في رسوماتهم، كما حذا الأدباء والمفكرين الأوربيين حذوهم في اتهامهم للإسلام في اضطهاد المرأة وسلبها حقوقها، حتى جعلوا منها صورة نمطية تصور نظرة الإسلام إلى المرأة، ومن هنا نتساءل عن السر في وصفهم ورسمهم للمرأة بشكل مغاير لحقيقتها ودورها في حياة المسلمين؟ وهل لهم أهداف تتمشى مع الأفكار الاستعمارية؟ وفيما تمثل دورهم في صورة المرأة لدى الغرب اليوم؟

أولا-المرأة المسلمة في نظر المستشرقين :

يُشير الكاتب المصري ممدوح الشيخ إلى أن المرأة الشرقية غالباً ما كانت تظهر وتُصَوَّر في أعين وكتب وروايات الكثير من المفكرين والرحالة والمثقفين الغربيين، باعتبارها كائناً تكمن وظيفته الأساسية في تقديم المتعة، فالمستشرقين، فنانين كانوا أو أدباء، قد استلهموا خيالاتهم عن المرأة الشرقية والعربية من "ألف ليلة وليلة"، لكن بنحو يميل إلى المبالغة دون أي مراعاة للدقة ولا الصحة، فنظروا إلى نساء الشرق على أنهن فاسقات، ولو تتبعنا عدداً من لوحات المستشرقين لوجدنا نسبةً كبيرةً منها تركز على النساء وتصورهن بطريقةٍ معينة ونظرةٍ خاصة غالباً ما تكون ضيقة وموجهة نحو اتجاه واحد يجعل من المرأة الشرقية موضوعاً للرغبة والقبول بعبوديتها للرجل وتلبية رغباته الجنسية.

من أكثر الامور التي لفتت انتباه المستشرقين هي الدور الذي لعبته المرأة في المجتمعات الإسلامية لذلك ألف الكثير من المستشرقين عن المرأة، فقد كتبت المستشرقة " جواشون " كتابا عن " حياة المرأة في الميزاب " تمَّ نشره سنة 1927، وأشار المستشرقون إلى قهر النساء ومنعهم من حقوقهم الاجتماعية، بحسب ما كانت تردد أسماء كولونيالية مثل اللورد كرومر، الذي حاول الجمع بين الدورين السياسي والثقافي، تعمد الدراسات ذاتها في سياقات أخرى إلى إظهار نساء بأزياء غربية زاعمة أن هذا الزي المثير والكاشف هو الزي التقليدي والأصيل الذي يعبر عن الهوية المنسية لبلدان شمال افريقيا أو غيرها من المستعمرات.

ومن جهة ثانية يتم التركيز على الحجاب دائما كرمز للإسلام، وهو في رأيهم يحد من حركة المرأة وتطور المجتمع، كما يتم التركيز على نقاط أخرى مكررة، كتعدد الزوجات أو مسائل الإرث أو غيرها، ونلاحظ تناقض آخر فعندما يكون السياق التعريف بالرسالة التنويرية للحملات الاستعمارية، فإنه يتم تصوير المجموعات الإسلامية على أساس أنها مجرد مجموعات بدائية لا تهتم نساؤها بتغطية كامل أجسادهن، وأنهم يمارسون الجنس مع أي غريب بشكل لا ضابط له .

ولعل هذا الموقف هدفه هو شحذ الهمم من أجل تقديم دعم مالي أو معنوي للمشاريع الاستعمارية، بسبب التشويق الذي تحمله مثل هذه القصص، التي تشجع مزيداً من المغامرين على الانخراط ضمن الجيوش الغازية، خاصة الذين يمنون النفس بخوض مغامرات جسدية باعتبار أن تلك المجتمعات هي منحلة بطبعها ولا تحتكم إلى القواعد الأخلاقية السائدة في بلادهم .

كما يصف بعضهم الحجاب أنه قد حل محل الأزياء التقليدية التي كانت منتشرة في المجتمعات العربية، تلك الأزياء التي صوروها في رسوماتهم على أنها تميز المسلمات بأنهن سافرات، وأن الحجاب قد حل محل تلك الازياء التقليدية بشكل قصري على غير الرغبات الشعبية، وأن الحملات الاستعمارية إنما جاءت لاستعادة الثقافات التقليدية التي طمسها الإسلام، وقد شهدت مسارح باريس المفتوحة كثيراً من العروض التي تظهر فيها نساء محجبات وهو يستبدلن في سعادة حجابهن بملابس هي خليط من خيال مصمميها ومن بعض الأزياء الإفريقي، وكان المستشرقون والسلطات الاستعمارية ينشرون صور للنساء الشرقيات على طوابع البريد وكذلك في اللوحات الفنيات على أنهم متدنيات الأخلاق غالبا ما كانت صور لراقصات شبه عاريات.

كما روج المستشرقون لفكرة أن المجتمعات الإسلامية هي مجتمعات ذكورية وأنها تفرض سيطرة على المرأة وتخشي دائما من انفلاتها، ففي رأي بعض المستشرقين العرب ينظرون إلى المرأة ليس على كونها عربية بل لكونها مشروع " امرأة غربية " إذا ترك لها الحرية، وفي رأيهم انه لا يوجد إجماع حول الأسلوب المناسب لتصرف المرأة العربية وما يفترض أن تكون عليه، ويقولون إن الزعماء الدنيين يلومون الدولة ومؤسساتها التي سمحت بدخول الثقافة الغربية التي تسعى للتأثير على النساء، وهو ما يثير عقلية الحصار المفروضة على المرأة العربية كتصرف وقائي.

وقد كان المستشرقين الألمان أقل المستشرقين تعصب حول مسألة تحرر المرأة ودورها في الإسلام فكل من أدم ميتر وكارل بروكلمان كان يستدلون بالقرآن عند الحديث عن مكانة المرأة، ومن الامور التي تعرضوا لها: مسألة تعدد الزوجات في الإسلام، وأصول الزواج والطلاق ووضعية الطفل بعد الطلاق، نشير إلى أن كلا الباحثين أشاروا إلى أن الإسلام أعطى حلول مرضية في زمانها، ورأى بروكلمان أن الطلاق ميسور في الإسلام، ولا نعلم السبب في ادعائه ذلك مع أن الإسلام يصفه بأنه أبغض الحلال إلى الله ، ويقول بأن الإسلام يحث على إبقاء النساء في البيوت وأن لا تكثرن الخروج منه، ويقول أن هذه العادات قد تأثر بها الأوربيون الذين احتكوا بالمسلمين مثل الإسبان والايطاليين، فيقول بأنك تكاد لا ترى امرأة في شوارع إيطاليا في منتصف القرن السابع عشر (مطير، 2014، ص 74).

ثانيا- السياق التاريخي لنظرة الغرب الى المرأة المسلمة:

لقد أصبحت نظرة الأوربيين للمرأة المسلمة تأخذ شكل صورة نمطية منذ العصور الوسطى والحروب الصليبية كانت أهم روافدها، فقد كانت روايات انتصار المسيحة على الاسلام ممزوجة بخيالات عن قتل المسلم العملاق على يد البطل المسيحي الشجاع ، كذلك صورة الأمير المسلم المهزوم ، وصورة الأميرة المسلمة التي تعشق الفارس المسيحي البطل والتي هي مستعدة لخيانة قومها من أجله، ومن جهة ثانية كانت تلك الروايات تصف المرأة المسلمة بذلك الجمال الأخاذ والشبقية والسذاجة وأنها سهلة المنال...، تلك هي الصورة النمطية التي ورثها الأوربيون منذ العصور الوسطى (مجناح، 2016، ص09) .

ولا شك أن المستشرقين قد شربوا من الثقافة الأوربية التي كانت تنظر إلى الشرق منذ أمد بعيد أنه أقل شأن وأنه "مكانا للفسق والملذات" وأنه "عالم العنف المتأصل"، وكان لهاتين المقولتين وقعهما في فكر العصور الوسطى التي شربت منه أوروبا الحديثة والمعاصرة (قباني، 1993، ص19-20) .

ألف ليلة وليلة: رواية مثلت للأوربيين صورة عن الشرق الساحر والمليء بالملذات، حيث يعد كتاب ألف ليلة وليلة من أبرز المؤثرات التي ألهبت خيالات الادباء والفنانين في الغرب فوضعوا العديد من الاعمال الأدبية والفنية عن الشرق، كلها تكرس نظرة سلبية عن الشرق وأساطيره وحكامه، وقد شكلت تلك العجائب والغرائب الموجودة في الشرق خيالات الأوربيين وأوحت إليهم بإنتاج أدبيا وفنيا الفنون التشكيلية والأدب والمسرح والموسيقى والسينما، ومعظم هذه الأعمال كانت متحيزة ضد الشرق، وقد تمت ترجمة هذا الكتاب سنة 1741 على يد "جالند" وترجم الى الفرنسية وإلى لغات أخرى، ويذكر أن الكتاب في أصله مترجم عن الفارسية ، ويذكر المسعودي أن الأدباء في عهده تناولوا هذه الحكايات بالتنميق والتهذيب، وصنفوا في معناها ما يشبهها (نبيل، 2013، ص61-62) .

والكثير من الكتاب يعتبرون «ألف ليلة وليلة»، بمثابة بدايات الطريق إلى الاستشراق وانتشار حركته في الغرب، وفي هذا السياق، يذهب الدكتور ثروة عكاشة، إلى اعتبار أن مصدر إلهام أكثر الرسامين الأوروبيين وعالمهم الخيالي كان مستمد من «ألف ليلة وليلة»، إذ رسم المستشرقون بعيونهم وألوانهم، حال النساء في برك الماء، وأيضا في جلسات الصفاء والخدور.

ويذكر في هذا السياق ثروت عكاشة عن أعمال المستشرقين التّي تصوّر المرأة: " أنّ صور النّساء والجواري التّي رسمها المستشرق على الرّغم من سحرهن وفتنتهنّ الشّرقية، لم تأت سماتهن شرقية، وإنّما كن أقرب في ملامحهنّ إلى حسناوات لندن، وقد ضمهنّ حفل تنكرّي يتمتعن فيه بأزياء الشرق وزخارفه، فقد تجاوز الأوربيين تلك الرؤية الواقعية لتصبح مجرّد تصوّرات خيالية أحيانا وتخيّلية أحيانا أخرى ذات منحى غرائبي، فأصبحوا يصوّرن جسد المرأة كأنّه جسدا حيوانيا يخضع إلى ما تفرضه الشهوة والغريزة مشكلين تصوّرا هجينا ومتخيليّن عالما سرياليا لا يمتّ للواقع بصلة. وهكذا، أفضى فنّهم انعكاسا لرؤية غربية مسقطة على الواقع العربي والشّرقي، من وحي خيال المستشرق دون اللجوء إلى إدراكه أو فهمه (مراد، 2022).

وتتجسد صورة المرأة المسلمة عند المستشرقين في الروايات الأوربية عن الشرق التي كثيرا ما أعادت أمثلة معينة بطرق مختلفة، حيث تظهر في الروايات دائما "الأميرة المسلمة العاشقة"، فهي على أتم استعداد لتخدم فارسها المسيحي بخنوع وإخلاص وحتى لتترك دينها من أجل حب الفارس الأوروبي، وتظهر النساء المسلمات في

مشاهد الإغواء في الروايات الاوروبية فهن يحاولن اقتحام مخدعه بينما هو الذي يتعفف ويرفض، في حين تصور المرأة الاوروبية كامرأة عفيفة تضحي بنفسها عن طيب خاطر لترضى بالزواج من ملك مسلم أسود وهمجي في سبيل أن تنقض قومها من الهلاك (قباني، 1993، ص 37-38).

وفي الجزائر مع بداية القرن التاسع عشر أراد بعض الفنانين (الرسامين) ومن باب الدعاية لدعم الإمبراطورية الفرنسية في احتلالها لبعض مناطق الشرق، تصوير الشرق كمنطقة برابرة تزخر بالتخلف، فهدف الفرنسيون من سيطرتهم عليها العمل على تنويرها وتطويرها، وعليه فهذا التصوير يبرر الاستعمار والسيطرة الأوروبية على العالم الإسلامي العربي ضمنيا، وهذا ما ذهب إليه مؤرخ الفن "تود بورترفيلد" حيث شرح الأفكار الموجودة في لوحات المستشرقين هذه وقال عنها إنها جزء لا يتجزأ من الأساليب الغربية الاستعمارية لسلب الأرض عبر اختراق قداسة الحريم بطريقة أظهروا فيها رغباتهم الجنسية نحو المرأة الشرقية (الأمين، 2016، ص 127-128).

وكانت النساء الشرقيات يُصوَّرن مرات «ضحايا للجنس» و«مرات ساحرات ماكرات». وقد رأى الرحالة والكاتب الفرنسي جان شاردانJean Chardin في روايته Voyages de monsieur le chevalier Chardin en Perse et autres lieux de l'Orientفي الشرقيات «أكثر نساء الأرض مكرًا، وأنهن متعجرفات، وغادرات، ومخادعات، وشريرات، وفاجرات، وأنهن يقضين كل حياتهن في الإعداد للجنس وحبك المكايد الجنسية (...) ويلخص صفاتهن بقوله: «إن الشرقيات يقضين عمرهن باللامبالاة والكسل، ولا عمل لهن إلّا الاستلقاء طيلة النهار على الأسرّة، حيث يتلذذن بمرور أيدي الجاريات على أجسادهن تمسيدًا ودعكًا، أو أنهن يمضين وقتًا في التدخين«. (قباني، 1993، ص52).

ثالثا-المرأة في الاستشراق الفني :

كان الفنانون الأوربيون ينقلون معلومات وافرة عن الشرق في لوحاتهم التي كانت تعرض بدقة متناهية للجغرافيا والسياسية والاقتصاد والأوضاع الاجتماعية والثقافية والعادات والكثير من المعلومات المتعددة عن الشرق (علي، 2002، ص 60) ، وتلك اللوحات كانت صورة عن الواقع وهي تماثل الصور الفتوغرافية اليوم فكانت تلك اللوحات تكشف أسرار القوة والضعف، ولا شك أن الدول الاستعمارية قد استفادت من تلك المعلومات وربما كان هؤلاء الفنانين بمثابة الجواسيس ولعلهم كانوا كذلك وكانوا يستترون بحبهم للشرق وللتجوال واعجابهم بالطبيعة.

وكان هؤلاء الرسّامين يجوبون البلاد ويقيمون فيها لفترات طويلة يتسنّى لهم خلالها معاشرة الأهالي والتعرّف عليهم عن قرب، والولوج إلى ذهنياتهم ثمّ يعودون برصيد من المعلومات المطلوبة، ومن بين الفنانين الذين رسموا صورة للجزائريين في الفترة القديمة الفنان الفرنسي "أوجين دي لاكروا" الذي رسم لوحة " نساء الجزائر" التي تعود إلى سنة 1834.

وقد كانت تلك العمال الفنية على جانب كبير من القيمة الفنية والجمالية برغم الموضوعات التي تتناولها والتي كانت تنقل صورة سيئة ومنافية للواقع عن الشرق، ونظرا لقيمتها الكبيرة فهي إلى اليوم تثير الاعجاب والانبهار حتى من الفنانين العرب، فقد تأثر المفكرون العرب بتلك التراث الفني الذي تركه المستشرقون، حيث

وصف "ثروت عكاشة" اللوحات الفنية التي تركها الفنانون بأن: "المشرق تحول إلى وحي وملهم للتشكيليين الأوروبيين الذين وصلوا عند تناولهم له في فنهم إلى تقنية عالية من حيث تصوير الواقع بتفاصيله إلى حد الإعجاز. "

لقد احتل مفهوم «الغواية» للمرأة الشرقية موقعًا هاما في أدب الرحلات الأوربية إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتجلى ذلك أيضًا في الرسومات التي تصف الحمامات وما يجري فيها، مثل لوحة (الحمام) لجان ليون جيروم (Jean-Leon Gerome) وهو من أشهر الفنانين المستشرقين، درس اللاتينية والإغريقية والتاريخ. قام بأربع رحلات إلى الشرق أولها لمصر، ورسم لوحات عديدة تضمنت صور العاريات في الحمامات، وأسواق الجواري، والراقصات (قباني، 1993، ص 51).

ولا شك أن الفنانين الأوربيين قد ساهموا في خدمة الاغراض الاستعمارية وتشويه المجتمعات الإسلامية، ومحاولة خلق ذوق فني جديد لدى المسلمين، ومن صور ذلك وضع السلطات الفرنسية لتمثال امرأة عارية مقابل المسجد في وسط مدينة سطيف، حيث لا تزال موجودة إلى اليوم، وهو ما يدل على أنهم نجحوا في مسعاهم بخلق واقع يرضى به الجزائريين ويقاومون تغييره.

وقد نجحت السلطات الاستعمارية في توظيف المستشرقين لخدمة أغراضها، وقد كان الفنانون يسجلون وقائع الانتصارات الفرنسية على المقاومة ويتغلغلون بين الأهالي، مع العلم أن بعضهم إنما جاء في إطار الخدمة العسكرية، وكانت السلطات تحثهم على تجسيد الانتصارات وتقدم لهم التسهيلات الكاملة، وهم بدورهم لم يخيبوا ضنها فقد كانوا يرسمون الجزائريين كجمعات فوضوية همجية مسلحة بأسلحة بدائية في مواجهة جيش منظم ومحترف .

وقد رسم الفنان التشكيلي "هنري ماتيس" صورة تمثل جسد امرأة بين أشجار النخيل وهي تصور الجزائريات، على نفس النمط الذي يرسم بقية الفنانين النساء العربيات اللواتي يصورهن على أنهم ماجنات، وهذه اللوحة اكتسبت شهرة واسعة، وهي محفوظة في متحف بالتيمور بالولايات المتحدة الامريكية، وهناك لوحات أخرى مماثلة لفنانين آخرين منهم اتيان ديني الذي كان يرسم صور لنساء عاريات في بداية أمره لكنه تحول عن ذلك بعد دخوله في الإسلام.

ويصور النساء غالبا وهن عاريات مهما كان موضوع اللوحة الفنية، فرغم أن الفنان "أوجين فرمونتان" رسم لوحة عنونها ب "لصوص الليل "، وهي تصور هجمات لفرسان إلا أن النساء اللواتي يظهرن في اللوحة هن عاريات تماما، وكأن الفنان أراد تجريد النساء من لباسهن ليظهر أن هذه هي حقيقتهن دائما، وهذا عكس الواقع، فالنساء في الجزائر كان لا يظهر منهن إلا عيونهن (رفاف و سياب، 2020، ص 144) ونشير هنا إلى أن المستشرق "أدريان باربروجر" أكد على دعم الحركة الاستعمارية من خلال الإنجازات الفنية والفكرية، وقال إننا نريد أن نعمل أن نطور العواطف الجنسية في المستعمرة...، ونسعى لخلق شعب جديد وتسوية مشاكل اجتماعية خطيرة (خالدي، 2012، ص 175-176) .

وفي الجزائر نشط الفنانون الفرنسيون وكذلك الأوربيون فقد أصبحت البلد الوجهة المفضلة للفانين المستشرقين، حتى أن "ثيوفيل غوتيي" أحد أعمدة الاستشراق الفرنسي قال عن مكانة الجزائر: إن السفر إلى

الجزائر يضاهي الحج إلى إيطاليا، وقد أنجز العديد من الفنانين لوحات تشكيلية كان تبرز في معظمها النساء بطريقة مخلة بالحياء، ومن تلك اللوحات لوحة الفنان "أوجين ديلاكروا Delacroix Eugène "بعنوان "جميلات الجزائر" ، التي وصفها الفنان المشهور "أوغست رينوار": إنه لا يوجد في العالم بأسره لوحة أجمل منها" (مفرج، 2014، ص 12).

وغالبا ما مثلت أعمال بعض الفنانين الفرنسيين إيديولوجية المستعمر الغالب مثل لوحة" العرب يحملون موتاهم" للفنان " شاصيريو" سنة 1856 ومن أبرز الموضوعات نجد المرأة والجمال والطبيعة والبادية، ومن روادها الأوائل نجد الفنان "ماكسيم نواره " Noiré.Mالملقب بالفنان الجزائري في لوحاته "ولادة في الصحراء" و"أغنية الناي" و"ياسمين الساحل"، والفنان " ليون كوفيا Cauvy ، والفنان("ليون كاري carré "رفاف و سياب، 2020، ص139.)

والجدير بالذكر أن المعلومات التي تتحدث عن معاملة النساء هي معلومات مغلوطة حيث ذكر روبرت ديفيس وجوزيف مورغان، المرأة بمجرد أن يتم أسرها تأخذ إلى قصر الداي لتصبح من حريم الباشا، حيث أنها كثيرا ما تحول إلى الإسلام وتبقى هناك مع أبنائها، ويتم وصف المسؤولين الجزائرية وصفا خاطئا حيث نقل الأب "دان" وصفا للقاضي بأنه يملك إحدى عشر زوجة وثلاثين خليلة، وبالطبع هذا غير صحيح فالإسلام لا يجيز أكثر من أربع زوجات، كما تحدثت مصادر أخرى عن تعذيب الأسرى، والهدف هو تشويه صورة الجزائر، وتوفير التبرير لغزوها لتخليص المسيحين من العذاب، ولا شك أن هذه الأخبار المغرضة التي نقلها المؤرخون الغربيون عن الجزائر العثمانية كانت تحضي بدعم الكنيسة ومباركتها (قرباش، 2014، ص120-121).

خاتمة:

من خلال ما سبق يمكن القول إن المستشرقين قد ساهموا بشكل كبير في رسم صورة المرأة لدى الغرب اليوم، والتي جسدها الاعلام أيضا، والملاحظ أن تأثير ذلك لم يقتصر على الاوربيين في نظرتهم للمرأة بل تعداه الى المفكرين العرب وكذلك وسائل الاعلام العربية ورجال السياسة والحكم الذي باتوا يدعون الى تحرير المرأة ونشر التغريب، حتى أصبح من يدعوا إلى الفضيلة رجعيا ومتشددا، وأصبح سفور المرأة وتبرجها تطورا وتحررا وتماشيا مع تطورات العصر.

قائمة المراجع:

(1) الكتب :

- رنا قباني، أساطير أوروبا عن الشرق، (1993)، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر (دمشق)، ط3

(2) المجلات :

- جمال مجناح، " الموضوعية النسائية في كتابات إيبرهارت بين الواقع وإسقاطات الذات والواقع الاستشراقي"، (2016)، دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، الجزائر، المجلد 01، العدد 02.

- حويلي نبيل، " حكايات ألف ليلة وليلة بعيون غربية دراسة نقدية أناسية "، (2013)، مجلة إشكالات في اللغة والآدب، العدد الثاني.

- خالدي محمد، " المستشرقين وأثرهم الفني والفكري في الجزائر"، (2012)، مجلة الأثر، المجلد 11، العدد 13.

- رفاف شهرزاد، سياب خولة، " صورة مجتمع أولاد نائل في القرن التاسع عشر الميلادي من خلال رحلة صيف في الصحراء للرحالة أوجين فرومنتان"، (2020). مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد السابع، العدد 67.

- عرفة عبده علي، " من سحر الشرق إلى دهشة الاكتشاف"، (2002). مجلة العربي، العدد 508.

- قرباش بلقاسم، " الكتابات الغربية ودورها في تشويه تاريخ الجزائر "، (2014)، دورية كان التاريخية، المجلد 07 العدد 23.

- مفرج، جمال،" جميلات الجزائر في اللوحة البصرية الاستشراقية "، (2014)، مجلة جماليات، المجلد 01، العدد 01.

- ناهضة مطير، " توصيف مدرسة الاستشراق الألمانية لموقف الإسلام من المرأة -دراسة مقارنة بين نظرة الرجل المستشرق والمرأة المستشرقة"، (2014)، مجلة ابحاث ميسان، المجلد العاشر، العدد 19.

(3) الرسائل الجامعية:

- أعمر محمد الأمين، التصوير الإستشراقي في الجزائر خلال القرن التاسع عشر دراسة تحليلية نقدية لنماذج من أعمال الفنان "أو جين دوالكروا ، (2016)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الفنون: جامعة تلمسان، الجزائر.

الصراع مع الإسلام في نظر الغرب (صامويل هنتغتون نموذجا)

The Conflict with Islam in the West (Samuel Hintigton Model)

د.عبد الله مصطفى، جامعة البليدة 2 لونيسي علي- الجزائر
musabdellah53@gmail.com



لقد عبر صمويل هنتغتون في كتابه " صراع الحضارات وإعادة بناء النظام الدولي الجديد " عن إعادة بعث الصراع التاريخي في إطار عودة الديني و المقدس في الفترة المعاصرة لينقل بؤرة الصراع إلى الإسلام كرد فعل عن فكرة إمكانية التعايش السلمي بين الحضارات والثقافات فالصراع الراهن والمستقبلي ليس صراعا اقتصاديا توجهه المصالح المادية بل صراع ديني عقدي يُحدد طرفه الأول الغرب المسيحي واليهودي وطرفه الثاني الإسلام من المغرب إلى باكستان دون أدنى تحديد أو تخصيص، فبعد تصفية الوجود الشيوعي طفت إلى السطح فكرة البحث عن طرف آخر للصراع لتحديد موازين القوى . لذلك وجب إعادة ترتيب الأجندة السياسية في ظل النظام الدولي الجديد خاصة مع الخطر المحدق على الغرب وهو الإسلام. لذلك ركزنا في هذه الدراسة النظرية على موقف الغرب من الاسلام من وجهة نظر النخبة السياسية الأمريكية.

الكلمات المفتاحية: الصراع، الحضارة، الإسلام، الغرب، هتنغتون.

Abstract :

In his book 'civilization conflict and rebuilding the new international order,' re-sending the historical conflict within the framework of religious and sacred returns in the contemporary period to transfer the focus of conflict to Islam as a response to the idea of peaceful coexistence between civilizations and cultures, the current and future conflict is not a conflict Economically directed by physical interests, but a religious conflict is determined by his first one-party Christian and Jewish and its second party Islam from Morocco to Pakistan without the lowest or allocation. Therefore, the political agenda must be rearranged under the new international regime, especially with the threat to the West and is Islam. We therefore focused on this theoretical study on the West's position of Islam from the point of view of the US political elite.

Keywords:Conflict, civilization, Islam, West, Htengton



مقدمة :

في الوقت الذي تدعو فيه الدول العربية والإسلامية إلى حوار الحضارات والتعايش مع الآخر في ظل نظام دولي موحد تغيب فيه النزاعات خاصة بعد سقوط جدار برلين ونهاية الصراعات الإيديولوجية بين المعسكرين وإعلان فوكوياما في "كتابه نهاية التاريخ وخاتم البشر" تفوق الليبرالية الرأسمالية وظهور الأحادية القطبية، ينقل صامويل هنتغتون في كتابه صدام الحضارات وإعادة بناء النظام الدولي الجديد " إلى البحث عن طرف ثاني يحل محل الاتحاد السوفيتي كطرف للصراع وهو الإسلام. فلماذا تقوم النظرة الاستشرافية لواقع العلاقات الحضارية والثقافية خاصة مع المسلمين على الصراع والصدام وليس الحوار والتعايش بسلام ؟ ولماذا نقل الصراع من الجانب الاقتصادي الذي تحركه المادة إلى الصراع الثقافي الذي يحركه الدين ؟

أولا-مفهوم الصراع الحضاري:

إن الحديث عن صراع الحضارات الذي أثار ضجة في الوسط الإعلامي والسياسي يقتضي منا فحص دلالة كل من الصراع والحضارة لكي لا يحدث خلط في المفاهيم بين الحضارة والثقافة والأمة وبين مفهوم الاختلاف والمغايرة والتمايز ومفهوم الصراع .

أ-مفهوم الصراع : كثيرا ما يساء فهم دلالة الصراع مع مفاهيم الاختلاف والتوتر والأزمة والتمايز بين أمرين فالمختلف عني في الجنس أو اللغة أو الدين أو العرق أو اللون أو الثقافة لا يعني أبدا أنني معه في حالة صراع فالصراع في لسان العرب : الصرع أي الطرح بالأرض، وخصه في التهذيب بالإنسان، صارعه صرعا و صرعا، فهو مصروع وصريع، والجمع صرعى، والمصارعة والصراع معالجتهما أيهما يصرع صاحبه ..." (منظور، صفحة باب الصاد) وبهذا يأخذ الصراع دليل التنافس على الغلبة والتفوق انطلاقا من العنف وبهذا فهو ليس مرادفا لمفهوم الاختلاف وليس نتيجة حتمية عنه. فالصراع هو حالة سببها تعارض حقيقي أو متخيل للاحتياجات والقيم والمصالح ومن الناحية النفسية قد يشير الصراع إلى التعارض بين دافعين أو رغبتين أو أكثر يحبذ كل جانب من شخصية الفرد أحدهما، أما في علم الاجتماع فقد وظف كارل ماركس المصطلح في نظريته الصراعية أي الصراع الطبقي بين الطبقات داخل المجتمع الواحد والتي تطورت عبر حلقات التاريخ بين السادة والعبيد وبين الأرستقراطيين والعمال الكادحين وبين البورجوازيين الرأسماليين والطبقة البروليتارية وهذه النظرية جاءت في الخمسينات والستينات من القرن الماضي،كرد فعل على النظرية الوظيفية التي تزعم بوجود نسق اجتماعي ثقافي يعمل على حفظ توازن المجتمع. أما من الناحية السياسية فالصراع هو نتيجة لتعارض المصالح بناء على ثلاثة عوامل رئيسية هي: قلة الموارد وتعارض الأهداف والإحباط، كما يشير مفهوم الصراع إلى موقف تنافسي خاص، يكون طرفاه أو أطرافه على دراية بعدم التوافق في المواقف المستقبلية المحتملة والتي تكون فيها الأطراف مضطرة إلى تبني أو اتخاذ موقف لا يتوافق مع المصالح المحتملة للطرف أو الأطراف الأخرى. كما ينطوي على نضال مرتبط بالقيم، ويرتبط بالأهداف غير المتوافقة وبنظريات القوة وصنع القرار في المجتمع الدولي، ويقود غالبا إلى إلحاق الضرر المادي أو المعنوي بالآخرين حين (السيد، 2001، صفحة 17)

ب-مفهوم الحضارة: عرفها ابن منظور في معجمه لسان العرب على أنها الإقامة في الحضر وهي خلاف البداوة يعني العيش في مكان ما وفق طرق ومعطيات تختلف عن تلك المعهودة في البداوة (منظور، صفحة 148) فالحضارة بهذا المعنى ترتبط بالإقامة في الحضر وما يلحق ذلك من تعاون وتبادل في الفكر والآراء والعمران والعمل، وهو ما وصلت إليه أمة من الأمم من نشاط فكري ومعرفي وفني وسياسي ويعتبر ابن خلدون من الأوائل الذين ميزوا بين الحضر والبدو وجعل لفظ حصر وحضارة مقابل بدو وبداوة، وفي القرن الثامن عشر والتاسع عشر تطور المفهوم ليعبر التحضر على جملة الصفات المكتسبة و التي تتجاوز الجانب الطبيعي وهي تستعمل كمقابل لمعنى الهمجية والبربرية والتوحش والخشونة . أما مالك بن نبي فتعريفه يجمع بين الإنسان والتراب والوقت، وهذه العناصر لا يمكن أن تنتج لنا حضارة إلا إذا كانت مجتمعة وما يجمعها هو الدين وهو مركب القيم الاجتماعية الذي يجمل أفكارا ويعبر عنها وينشرها . والحضارة من الناحية الاصطلاحية هي جملة المفاهيم والقيم والتصورات والعقائد والقوانين والمبادئ والعادات التي تشكل سلوكا معينا ومحددا عند الإنسان، وتحدد له طريقة معينة في الحكم والعيش والحياة والتعامل مع الآخرين (بزارة، 2021، صفحة 246)

فالصراع أو الصدام بين الحضارات يشير إلى ذلك الحوار القائم على عدد من الثقافات المختلفة فيما بينها نظرا لسعي كل منها إلى فرض خصوصياتها الثقافية على بقية الحضارات، وبالتالي يهيمن الصراع الرهيب والطغيان الإنساني على هذه الحضارات، وقد ظهر هذا المصطلح عقب الحرب الباردة بين المعسكرين وزوال الثنائية القطبية وظهور النظام الدولي الجديد القائم على هيمنة القطب الأوحد، وإعادة جمع شمل الدول الغربية لتنتقل بؤرة الصراع بين الحضارة الغربية مع الحضارات غير الغربية، فالصراع لم ينته بل يبقى مستمرا باعتباره ضرورة لسير التاريخ بالنسبة لهنتغتون، وقد ظهر مصطلح صراع الحضارات مع صمويل هنتغتون من خلال كتابه "صدام الحضارات وإعادة بناء النظام الدولي " وفرانسيس فوكوياما من خلال كتابه" نهاية التاريخ وخاتم البشر " ليتم نقل موازين القوة من الجانب الاقتصادي المادي والإيديولوجي والسياسي إلى صراع ثقافي يجمع بين القوة والثقافة، لتصبح الهوية الثقافية والدينية على وجه الخصوص هي التي تشكل نموذج التماسك والقارب أو الصراع والصدام بين الدول والحضارات .

ثانيا-أطراف الصراع الحضاري:

لقد قامت فكرة إعادة بناء نظام دولي جديد على أساس سلبي روج له هنتغتون مفاده أن واقع العلاقات الدولية سيحكمه التغير الراديكالي في الطريقة التي تترابط أو تتفكك بها الدول و بهذا سيكون الصراع عالميا والقائم أساسا على الهوية الثقافية والدينية بدلا من المصالح المادية " وفي عالم ما بعد الحرب الباردة لم تعد الفروق بين الشعوب إيديولوجية أو سياسية أو اقتصادية ... وإنما هي فروق ثقافية ... فالناس يعرفون أنفسهم من خلال النسب والدين واللغة والتاريخ والقيم والعادات والمؤسسات الاجتماعية ويتطابقون مع الجماعات الثقافية (قبائل –جماعات إثنية – مجتمعات دينية –أمم) "

(هتنغتون، 1999، صفحة 39) فالنزاع القادم سيتخذ شكلا مختلفا ويكون بين الحضارات المحتملة التالية :

- الحضارة الغربية والتي تجمع كل من أوربا وأمريكا الشمالية
- الحضارة اللاتينية وشمل دول أمريكا الوسطى والجنوبية وغالبية هذه الدول كاثوليكية
- الحضارة اليابانية وتختلف عن باقي الثقافات الأخرى في دول آسيا
- الحضارة الصينية فالثقافة المشتركة للصين والمجتمعات الصينية في جنوب شرق آسيا بما في ذلك كوريا والفيتنام .
- الحضارة الهندوسية وهي جوهر الثقافة الموجودة في الهند
- الحضارة الإسلامية والتي تتواجد في شبه الجزيرة العربية وهي منتشرة في شمال إفريقيا وشبه الجزيرة العربية ووسط آسيا وتظم قوميات العرب والأتراك والفرس ...
- الحضارة الأرثوذكسية وتتمركز في روسيا وهي منفصلة عن العالم الغربي المسيحي
- الحضارة الإفريقية على الرغم من افتقارها إلى الإحساس بالهوية الإفريقية يدعي هتنغتون أنها تتطور بشكل متزايد .

فالخصائص الثقافية المشتركة هي التي ستشكل بؤرة الصراع المستقبلي وليست الإيديولوجية وذلك أن الخصائص الثقافية غير قابلة للتغيير فبإمكان الفرد أن يتحول من شيوعي إلى ليبرالي أو العكس لكن لا يمكن أن يتحول الروسي مثلا إلى فارسي ويمكن للإنسان أن يحمل جنسيتين لكن لا يستطيع أن يكون مسلما وبوذيا أو نصرانيا في نفس الوقت. وبالتالي ستكون الصراعات العرقية والإثنية حاضرة بقوة في تحديد موازين القوة في المرحلة اللاحقة. وبهذا ستهيمن الصراعات الحضارية على السياسة العالمية وستكون ساحتها الأساسية خطوط التماس بين هذه الحضارات، فبعد الصراع الإيديولوجي بين المعسكرين في ظل الثنائية القطبية وبروز الأحادية القطبية زالت الصراعات بين دول العالم الغربي ليتحول الصراع إلى بين الحضارة الغربية وحضارات غير غربية باعتباره ضرورة حتمية فالعدو أو الخصم يصلح كمرآة تتأمل فيها الولايات المتحدة قوتها و مكانتها " ... فنحن لا نعرف من نكون إلا عندما نعرف من ليس نحن وذلك يتم غالبا عندما نعرف "نحن ضد من ؟" " (هتنغتون، 1999، صفحة 39) وهذا ما أكده أيضا هنري كيسنجر الذي يصرح أن " في هذا العالم الجديد تكون السياسة المحلية هي السياسة العرقية والسياسية الكونية هي سياسة الحضارات وحل المنافسة بين القوى الكبرى يحل صدام الحضارات" (هتنغتون، 1999، صفحة 46) ويقر هنتغتون بكل ثقة الإعلان عن تفوق الحضارة الغربية على بقية الحضارات والذي سيواجه خطرا من الحضارات الأخرى وتزايد احتمال تدهور موقعه الحضاري " الغرب حاليا هو أقوى الحضارات وسيظل كذلك لسنوات قادمة، إلا أن قوته تتدهور بالنسبة للحضارات الأخرى" (هتنغتون، 1999، صفحة 49) مزاعم الغرب في العالمية وأمركة العالم تجعله في بشكل متزايد في حالة صراع مع الحضارات الأخرى وأخطرها الإسلام والصين .

ثالثا-لماذا يشكل الإسلام تهديدا للحضارة الغربية؟ :

يقدم هتنغتون في كتابه "صدام الحضارات " سلسلة من الإحصائيات التي توضح صورة الإسلام من منظور غربي في جملة من الحروب، فالمسلمين دمويين بطبعهم ولا يمكن أن يتخلوا عن العنف " الميل الإسلامي إلى القتال والعنف من حقائق القرن العشرين التي لا يستطيع أن ينكرها المسلمون أو غير المسلمين " (هتنغتون، 1999، صفحة 420) ويضيف في حديثه عن الصراعات الراهنة الحاصلة في العالم " شارك المسلمون في 26 صراعا من إجمالي 50 صراع عرقي سياسي في 1993-1994 ... عشرون من هذه الصراعات كانت بين جماعات تنتمي لحضارات مختلفة وعشرون بين المسلمين وغير المسلمين ... كما كانت هناك صراعات بين المسلمين كثيرة وأكثر مما كانت داخل أي حضارة أخرى ... الغرب على عكس من الإسلام لم يتورط إلا في صراعين داخل حضارات بعينها ...من بين ثلثي إلى ثلاث أرباع عدد الصراعات بين الحضارات كانت بين المسلمين وغير المسلمين، حدود الإسلام دموية " (هتنغتون، 1999، الصفحات 416-418) فنهاية الحرب الباردة والإعلان عن الأحادية القطبية ليس مجرد وهم في نظر هنتغتون فالصراع قد بدأ وأهم أطرافه المسلمين والعداء الذي يحملونه للحضارة الغربية ويتضح تشنج الغرب من كل ما هو إسلامي من خلال تصريح رئيس البرلمان الأوربي في المنتدى الاقتصادي الدولي في 2003 بأن مشكلة ضم تركيا إلى الاتحاد الأوربي ليست مشكلة سياسية بل هي مشكلة قيم ويمكن تلخيص أطروحة هنتغتون في العبارة التالية :" إن المستقبل سوف يشهد صراعات حضارية وثقافية وأن القوتين المؤهلتين لهذه المواجهة الحتمية هما الغرب والإسلام ".

هاجس تحالف الحضارتين الإسلامية والكنفيشيوسية ضد الغرب أصبح بمثابة تهديد فبعد تواطؤ الحضارة الإسلامية مع الشيوعية ضد الليبرالية وسقوط الشيوعية يعني البحث عن البديل عن الشيوعية وهي الكنفيشيوسية بالنسبة للمسلمين فيما يعتقد هنتغتون .

الصراع التاريخي الدموي بين الحضارة الإسلامية والغرب المسيحي والذي يعيد تجديد نفسه في ظل توفر ظروف تاريخية وهذا ما أكدته أحداث 11سيبتمبر وهنتغتون لا يميز بين الدين كعقيدة والممارسات الدينية المتطرفة والإرهابية وهو الموقف الذي تتبناه النخبة السياسية حيث نادى جورج بوش الابن إلى حرب صليبية ضد الإسلام عقب هذه الأحداث، ويستشهد هنتغتون بأفكار المستشرق برنارد لويس، حيث يقول هنتغتون " يعتبر التفاعل بين الإسلام والغرب صدام حضارات ... إن الصراع سيبدأ من أجل نظام دولي جديد انطلاقا من طغيان المواجهة الكاسحة التي تمتد عبر الأمم الإسلامية من المغرب إلى باكستان، وقد توصل برنارد لويس إلى نتيجة مماثلة – إننا نواجه مزاجا وحركة يتجاوزان كثيرا مستوى القضايا والسياسات الحكومية التي تنتجها ولا يقل هذا عن كونه صداما بين الحضارات ... وربما غير عقلاني لكن لا شك في أنه رد فعل تاريخي لخصم قديم لتراثنا اليهودي- المسيحي وحاضرنا العلماني والتوسع العالمي لهما معا " (هتنغتون، 1999، صفحة 26) فالعداء للإسلام متجذر في كنه طبيعة الرجل الأبيض وهذا ما عبر عنه هنتغتون في قوله " ما دام الإسلام سيبقى إسلاما و ليس هنالك أدنى شك في ذلك، ومادام الغرب سيبقى غربا و لا يتوقع أحدا أن يصبح الغرب شرقا، فإن الصراع سيظل قائما بينهما كما ظل قائما لـ 14 قرنا " (حوات، 2002، صفحة 134) فمخلفات التاريخ وما لحق عنها من إبادة واستدمار للشعوب

الإسلامية في ظل الاستعمار التقليدي والحروب الصليبية والفتوحات الإسلامية كلها تولد نوعا من المخاوف وعدم الشعور بالأمان لكل الجانبين، كما أن أي صراع مع أي طائفة أو دولة مسلمة يعني الصراع مع الإسلام، وبهذا لعب الدين دورا جوهريا في تحديد موازين القوى ورسم خطوط التقسيم الحضاري بين الدول و الأمم ... و لكن لأن الهويات في العالم الإسلامي أقرب إلى الشكل " U" فإن الصراع كلما استمر يلجأ المشاركون المسلمون لتوسيع هويتهم إلى " كل الإسلام " ... و يلاحظ أحد المراقبين الغربيين أن حكومة أذربيجان بنفس الطريقة تلعب بالورقة الإسلامية في طاجيكستان وفي الحرب بدأت كصراع ديني داخلي راح المتمردون يعرفون قضيتهم وبشكل متزايد على أنها قضية الإسلام " وفي هذا تزايد للخطر على الحضارة الغربية من قبل المسلمين .

يتم بعد الحرب الباردة إعادة تشكيل امتداد الخطوط الثقافية للشعوب المتشابهة والتي تتقارب بصورة جلية و تباعد غير المتشابهة، وإعادة تشكيل الحدود السياسية بمنظور ثقافي يشكل العرق والدين فيه الرابط الأساسي وهذا يعني اتساع نطاق الحضارة الإسلامية حتى داخل العالم الغربي لتحل محل الحدود الفاصلة بين العالم الغربي والشرقي في ظل الثنائية القطبية .

ثقافة الإسلام المغلقة في نظر هنتغتون، وسعيه الدائم لأن يكون مختلفا فسماته غير الغربية تقف كحاجز يحول دون إمكان تحقيق الديمقراطية التي يسعى الغرب على تعميمها على كل دول العالم، فالآفاق الديمقراطية في الحضارة الإسلامية تكتنفها الضبابية و خطوط المواجهة تقف ضد تحقيق الديمقراطية، وليس الديمقراطية فحب بل يسعى إلى نشر ثقافته المغلقة على دول العالم الغربي على تخلفها ورجعيتها فليست الأصولية الإسلامية وحدها التي تشكل تهديدا فقط بل الإسلام ككل يقف بكل كيانه ومبادئه وثقافة شعبه وجها لوجه أمام الحضارة الغربية يقول هتنغتون في هذا السياق عن الإسلام " فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته وهاجسه ضالة قوته ... المشكلة المهمة بالنسبة للإسلام ليست المخابرات المركزية ولا وزارة الدفاع، المشكلة هي الغرب: حضارة مختلفة شعبها مقتنع بعالمية ثقافته، ويعتقد أن قوته المتفوقة وإن كانت متدهورة فإنها تفرض عليه التزاما بنشر هذه الثقافة في العالم، هذه المكونات الأساسية التي تغذي الصراع بين الإسلام والغرب ...لا يمكن للإسلام والمسيحية أن يتعايشا على هذا الكوكب " (هتنغتون، 1999، صفحة 352)

وقد أكد هنتغتون أن الصراع مع الإسلام لا يرجع إلى أسباب تاريخية محضة بل تشكل التغيرات في التوازن الديموغرافي أحد أهم الأسباب، فالزيادة السكانية المرتفعة هي التي تؤدي إلى زيادة مستوى العنف ويقدم إحصائيات وتقارير عن أعمار الأطفال المسلمين الذين شاركوا في التمرد على السلطة في انهيار النظام الدستوري في لبنان والذي كان عمره ثلاثون عاما، كما قدم إحصائيات لنسبة الخصوبة عند النساء في الاتحاد الفيدرالي الروسي في بداية التسعينيات و الذي قدر ب1.4 نما في الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي السابق في آسيا الوسطى فقد قدر ب4.4" وفي أواخر الثمانينات كان أكثر مما هو في روسيا بخمس أو ست مرات...معدلات الزيادة العالية تنتج مهاجرين و مقاتلين " هنتغتون 422 فالزيادة السكانية تطرح مشكلات جدية للعالم الغربي خاصة أمام الهجرة إلى القارة العجوز من قبل الشبان

اليافعين العاطلين عن العمل وتدهور أحوالهم المعيشية خاصة في ظل الصحوة الدينية في أغلب دول العالم ولا يسما منها الإسلامي وما ينقله هؤلاء الشباب من وعي ديني متشبع بقيم الإسلام إلى الحضارة الغربية والتبشير بالإسلام على الرغم من أحداث 11 سبتمبر وما خلفته من فوبيا الإسلام هذا من جهة، ويرى هنتغتون أن الاحتكاك المتزايد بين المسلمين والغربيين يوسع الهوة بينهما من جهة ثانية وذلك أن لكل منهما هويته الخاصة وعدم تماهيه مع الآخر من شأنه أن يولد الصراع .

سقوط الشيوعية كعدو مشترك للإسلام والغرب بعد سقوط جدار برلين كشف الغطاء عن العداء التاريخي وعن التمايز الراديكالي عن الحضارة المسيحية والتي تضم اليهودية أيضا مع الحضارة الإسلامية التي تقف كل منهما أمام الأخرى وجها لوجه .وسعي كل منهما إلى العالمية وفرض الخصوصية على الكل، فعودة الديني بعد إزالة السحر عن العالم على حد تعبير فيبر أصبحت تشكل هاجسا مشتركا لكلا الحضارتين.

-الميل إلى العنف من قبل المسلمين يشكل تهديدا حقيقيا للحضارة الغربية على حسب هنتغتون وهذا منذ نشأته في الجزيرة العربية وتوسعه في ظل الفتوحات الإسلامية "...الإسلام عقيدة أكثر استبدادية حتى من المسيحية . الإسلام يمزج بين الدين والسياسة ويضع فاصلا حادا بين أولئك في " دار الإسلام " وأولئك في " دار الحرب"... وبالعكس فإن أعمال الشغب أو العنف قد وقعت في أندونيسيا المسلمة وماليزيا المسلمة ...ويضيف النزعة القتالية، عدم القابلية للهضم ولفكرة القرب من جماعات غير إسلامية ...كل ذلك ملامح مستمرة للإسلام ويمكن أن تفسر الميل الإسلامي للصراع عبر التاريخ " (هتنغتون، 1999، الصفحات 428-429)

رابعا-موقف الغرب من أطروحة هتنغتون في الحضارة الإسلامية :

لقد تباينت وجهات النظر الغربية من الطرح الذي قدمه هنتغتون لفكرة صراع الحضارات عموما ولموقفه من الحضارة الإسلامية بصفة خاصة فهناك من بارك الفكرة واعتبر أطروحته كمنطلق حاسم لتشويه صورة الإسلام والمسلمين وإعلان الحرب على المسلمين استكمالا لحلقات التاريخ الدموية التي لا ينبغي أن تتوقف تحت مسمى الإسلاموفوبيا، وهناك من رفض فكرة الصراع القائم على أسس ثقافية يشكل الدين فيها بؤرة التوتر ويحدد فيها موازين القوة في المرحلة الراهنة .

أ-المؤيدين لطرح هتنغتون و الصراع مع الإسلام : لقد عبر هنتغتون في كتابه " صدام الحضارات " عما يختلج الكثير من أعداء الإسلام والذين عبروا استغلوا الفرصة لنشر أفكارهم المسمومة بصورة معلنة أو مبطّنة لإدانة الإسلام ووضعه وجها لوجه أم الحضارة الغربية في وقت تعاني فيه الكثير من الدول الإسلامية جور الحكام وتردي مستواهم المعيشي لتتداعى عليهم الأمم لاسيما منها الغربية .

فقد استغل الكثير من السياسيين الأوربيين الذين ينتمون إلى اليمين المتطرف إلى التهجم على الإسلام والمسلمين كسبا للرأي العام المتطرف عبر مختلف وسائل الإعلام السمعية والبصرية والسمعية البصرية والمقروءة خاصة بعد أحداث 11سبتمبر وما نتج عنها من خلخلة الثقة في المسلمين وأزّمت الوضع في الكثير من الدول المسلمة وهذا ما حدث في النمسا وإيطاليا وهذا ما يتجلى في تصريحات بيرلسكوني رئيس الوزراء

الايطالي المعادية للعرب والمسلمين وفوز جون ماري لوبان في الانتخابات الرئاسية في دورها الأول في فرنسا و وصوله للدور الثاني نتيجة لمواقفه المعادية للعرب و المسلمين .

فقد أكد إدوارد سعيد في كتابه " الاستشراق " وكتاب " الثقافة والامبريالية " أن المستشرقين قد صنعوا صورة مشوهة في المخيال الغربي عن الإسلام و المسلمين ، فالإسلام رمز خطر وتهديد للعالم و للغرب على وجه التحديد و هو المنافس الرهيب للديانة المسيحية في حقل المقدس و بالتالي للعالم الغربي " ثم أنه ينظر إليه بنوع متميز جدا من العداء والخوف (الإسلامفوبيا)" (لويس، 1994، صفحة 35) وقد كتب إدوارد سعيد كتاب " تغطية الإسلام" أو بالتعبير الدقيق للعنوان التغطية الإعلامية للإسلام والذي يصف فيه مواقف الإعلاميين الأمريكيين وتعاملهم مع حدث احتلال السفارة الأمريكية في طهران عام 1979 واحتجاز الرهائن والتحاملات التي أبداها هؤلاء الإعلاميين على الإسلام الشيعي والتعميمات الإعلامية المغرضة في تعاطيها مع الإسلام والتي فضحت الذهنية الأمريكية وصناع القرار وتصوراتهم للعالم الإسلامي في ظل اختزالات مضغوطة واستقراءات تنم عن قصر في النظر فمن الحادثة القائمة في السفارة تم الحكم على إيران ومن إيران تم الحكم على الإسلام الشيعي ومن الإسلام الشيعي إلى الإسلام بعامة " ولكن ردود الفعل على أحداث إيران لم تقع في فراغ، فوراء تخوم الوعي الثقافي للجمهور كان يكمن الموقف الذي طال أمده تجاه الإسلام والعرب والشرق بصفة عامة وهو الذي كنت ولا أزال أطلق عليه صفة الاستشراق ... ومن هنا جاءت الصورة الكاريكاتورية المتواترة للمسلمين باعتبارهم موردين للنفط، وإرهابيين، وأخيرا باعتبارهم جماهير غوغائية متعطشة للدم " (سعيد ا.، 2005، صفحة 74)

فقد تم توجيه الاعلام بما يتعارض تماما مع الموضوعية، ويبدو التطرف والتحيز في الإعلام الغربي ففي فرنسا مثلا تخصص كل قناة تلفزيونية مالا يقل عن ربع ساعة يوميا للحديث عن العنف والجرئم والتفجيرات التي تنسب عادة للجاليات الأجنبية خاصة العربية الاسلامية، ذلك أن فرنسا تضم ما لا يقل عن خمسة ملايين عربي ويعد الاسلام ثاني ديانة فيها (سلاطنية، 2002، صفحة 142)

ب-المعارضين لفكرة الصراع مع الإسلام : إذا وجد بعض المفكرين والسياسيين ملاذا لهم لشحذ أقلامهم و تصويب رماحهم حول الإسلام فقد لقت أطروحة هتنغتون ومواقفه المعادية للإسلام والمسلمين استهجانا واسعا في الحضارة الغربية واتهم فكره بالذاتية القائمة على رفض الآخر المسلم باعتباره الشر المحدق على الغرب، وهذا ما يطلق عليه مصطلح الزينوفوبيا أو الرهاب الشديد من كل ما هو أجنبي، فلماذا سيكون حال العلاقات بين الحضارات الصراع والصدام والحرب وليس التسامح والحوار والتواصل فقد أراد الرجل إعادة إشعال فتيل الحرب على الإسلام في إطار عودة الديني وهذا ما يظهر في معارضة نخبة من الفلاسفة ورجال السياسية .

فقد عارض هابرماس أطروحة هنتغتون القائمة على الصراع بين الأديان والثقافات ،فحرب الآلهة وصراع القيم الذي كرسته العقلانية الأداتية في ظل الممارسات التقنية وما انطوت عليه من انبهار بنتائج العلم الذي يغذي منابع الكراهية والعنف ليس حتمية إذ يمكن تجنبها إذا استندنا على " المعقولية التواصلية " أي الاستعداد الخاص بذوات قادرة على الكلام والفعل القابل للترجمة إلى سلوك عملي قائم

على الحجاج تبدأ مع الألفية الثالثة، فلم يصبح الدين خاصا بالفرد بل هو شأن عمومي يدخل في مأسسة مجتمع ما بعد العلمانية حيث يأخذ الدين مكانته في الفضاء السياسي العمومي . حيث ينبغي الاعتراف بدور الدين في الفضاء العمومي السياسي يلتقي فيه العلماني والملحد والمؤمن بشكل متساوي. فبعد مقولة ماكس فيبر " فك السحر عن العالم " التي عبرت عن مرحلة معينة ستظهر مقولة تتماشى مع روح العصر الراهن وهي "العودة إلى الديني " وبذلك يدعو هابرماس إلى التقارب والحوار الفعال والنقاش البناء بين العلمانيين والمؤمنين وسار هابرماس وفق التقليد الكانطي من منظور تواصلي عقلاني كوسمولوجي يعزز آليات التواصل بين البشر على مستوى كوني في ظل الديمقراطية التشاورية أو التشاركية تسمح من دون أي إقصاء ولا تهميش من إعطاء الكلمة للمتدينين بمختلف طوائفهم ومن جهة أخرى للعلمانيين بمختلف مشاربهم. لذا طالب هابرماس بنشر قيم التسامح بين العلمانيين والمتدينين فعلى الأول احترام قناعات المتدينين والعكس، كما ينبغي تمديد جسور التواصل والحوار بين الأديان والطوائف الدينية تجفيفا لمنابع العنف. كما يجب على الجماعات الدينية أن تنسجم مع النظام القائم وتتفق مع طريقة الحياة السائدة وتقبل قوانين الدولة كمنطلق ديني .ويتحفظ هابرماس عن أصحاب المناصب العليا في الدولة المتدينين أن يكونوا علمانيين لحساسيتة مواقعهم الاجتماعية القادرة على بعث الشقاق وخلق الفتن وبث خطاب التحريض. فعلى السياسي أن يكون حياديا . فكلما اتسعت حرية التدين في الفضاء العمومي تقلصت داخل الفضاء السياسي لأن الدولة تقوم على قواعد غير دينية فمثلا حين تدخل الادعاءات التي يقدمها العلم وتلك التي يقدمها الإيمان في صراع، فإن الدولة بحيادها تجاه رؤى العالم لا تقرر موقفا مؤيدا إطلاقا لهذه الفئة أو تلك وإنما تلتزم الحياد الإيجابي .يتحقق بذلك تخفيف العدوانية وتحقيق الاعتراف المتبادل وتبقى الدولة حيادية لكن بشكل فعال وايجابي مع الاحتكام إلى مبدأ الحوار .وبدلا من الصراع بين الحضارات التي يشكل فيها الدين بؤرة التوتر ينبغي تحقيق التواصل من خلال لغة الحوار والحجاج ونشر ثقافة قبول الآخر على أسس عقلانية تواصلية تذيب كل أشكال الصراع والصدام في إطار "عقل تواصلي يتجاوز الذات الضيقة ليكون نسيجا من الذوات المتواصلة التي تتجاوز ذاتيتها " (هابرماس، 1995، صفحة 552).

-و قد ألقى روبن كوك وزير خارجية بريطانيا الأسبق محاضرة بالمركز الإسماعيلي في لندن في 8 أكتوبر 1998 أشار فيه إلى أن الجذور الغربية ليست يونانية أو رومانية الأصل فحسب، بل هي إسلامية أيضا كما رفض مقولة صدام الحضارات وتقديم الإسلام على أنه العدو القديم الذي عاود الرجوع إلى ساحة الصراع مع الغرب " إن البعض يقول: إن الغرب بحاجة إلى عدو وبما أن الحرب الباردة قد ولت إلى غير رجعة، فإن الإسلام سيأخذ مكان الاتحاد السوفيتي سابقا كعدو، و يقولون إن صراع الحضارات قادم لا مفر منه، وأنا أقول: أنهم مخطئون خطأً فادحا فنحن لسنا في حاجة إلى الإسلام كعدو بل نحن في حاجة للإسلام كصديق . ويضيف: اليوم أريد أن أقترح بأن نبدأ حوارا جديدا جديا بين أوربا والعالم الإسلامي فقد حان الوقت لكي يبدأ الاتحاد الأوربي ومنظمة المؤتمر الإسلامي بالتكلم مع بعضهما البعض على أعلى مستوى ممكن " (بزارة، 2021، صفحة 251)

- كما رفض الباحث الإرلندي هاليداي الطرح الذي قدمه هنتغتون و تباه الكثير من المستشرقين الذين سعوا إلى تشويه صورة الإسلام ففي كتابه " الإسلام و خرافة المواجهة " يقول : " قليلة –إن وجدت – هي قضايا العلاقات الدولية التي ولدت من الخرافات قدر ما ولدت قضية الخطر الإسلامي المزعوم " (هاليداي، 1997، صفحة 128) ويضيف " إن مفهوم الخطر الإسلامي على الغرب مجرد خرافة و ربط الإسلام بالإرهاب كما يروج الكثير من الغربيين ووسائل الإعلام الغربية ليس صحيحا فليس هناك علاقة ضرورية أو تاريخية بين السياسة الإرهابية والهويات الإسلامية، فحين ظهر الإرهاب بمعناه المعاصر - في القرن التاسع عشر-لم يكن المسلمون هم الذين شقوا الطريق" (هاليداي، 1997، صفحة 134)

- وقد أبدى الرئيس الألماني السابق رومان هيرتزوج استيائه من فكرة صدام الحضارات في كتابه "الحيلولة دون صدام الحضارات، إستراتيجية السلام للقرن الحادي والعشرين " وقد تضمن هذا الكتاب آراء الرئيس الألماني في الفترة من 1995 حتى 1999 كما تضمن تعقيبات لمجموعة من المفكرين ويؤكد الرئيس الألماني رفضه المطلق للزعم بأن الشرق والغرب يستعدان لمواجهة بين الإسلام والمسيحية، ويحذر من خطورة الترويج لمثل هذه الأفكار، ويؤكد على ضرورة التركيز على القواسم المشتركة بين الحضارات ... ويرى أن الحوار بين الحضارات والأديان تعد أهم الواجبات الملقاة على عصرنا، وبصفة خاصة الحوار بين الإسلام والمسيحية (بزارة، 2021، صفحة 251).

خاتمة

- الصورة النمطية التي يرسمها بعض المسشرقين للإسلام والمسلمين لا تعدو أن تعبر عن موقف ذاتي ينم عن حقد دفين ترجع أصوله إلى جذور تمتد في التاريخ.
- كما تعبر عن عقدة التفوق التي رسمها الغرب في مخياله عن نفسه والتي لا تحقق ذاتها إلى من خلال تحقير الآخر والبحث عن صراع الأضداد وهذا ليس بالجديد في التقليد الغربي الذي يبعث عن النقيض في سبيل تحقيق الذات وهذا ما نجد له مشربا في المنهج الجدلي عند هيجل والصراع الطبقي عند كارل ماركس ي نظريته الصراعية ...
- ليخرج لنا هتنغتون بفكرة الصراع الحضاري استكمالا للتقليد القديم والبحث عن عدو وخصم جديد بعد سقوط المعسكر الشرقي والذي يتخذ من الإسلام خصما تاريخيا يوازي في قوته وإصراره الغرب المسيحي .
- فكرة الصراع الثقافي والديني التي يتحدث عنها هتنغتون مجرد مخاوف لا مبرر لها فهي ليست أكثر من ذريعة لشن الهجمات مع الاسلام فلماذا لا يكون الصراع بين اليهود والمسيحيين ما دام صراعا دينيا ثقافيا على الرغم من التباين الجذري بين الديانتين .
- الصورة النمطية التي يرسمها الغربي الاستشراقي في مخياله عن الإسلام قد ساعد في تكريسها وتثبيتها المسلمين وقابليتهم للاستعباد وتقليدهم للغالب الإمبريالي وانصياع حكامهم لمخططات الغرب والبحث عن حوار الحضارات في الوقت الذي يعبر فيه الأخر عن الصراع والنظرة التحقيرية لكل ما هو إسلامي .

توصيات:

- النظرة الاستشراقية الضيقة للإسلام من قبل العالم الغربي اليهودي والمسيحي والتي تفرض إعادة ترتيب البيت العربي من جديد ليكون قادرا على مواجهة التحديات الجديدة التي تفرضها العولمة من خلال لم الشمل .
- الاستثمار في الرأسمال البشري الذي أصبح يخطط له من قبل منظمات عالمية مثل اليونسكو للعرب في رسم خطط إستراتيجية للإطاحة بالنظام التعليمي الذي يهدد الهوية الإسلامية
- التعبير عن الخصوصية الفردية للمجتمعات الإسلامية ومقاطعة السلع الأجنبية التي تمس بالمقدسات الإسلامية واستنهاض همم الشعوب الإسلامية والحكومات في الذود عن الدين.
- تحقيق التنمية الشاملة لا سيما في الميدان الغذائي لتجاوز التبعية للغرب واعتماد سياسة الصاع بصاعين ومواجهة الصراع بالمثل بدلا من البحث عن آليات الحوار والتعايش بسلام وتقبل الآخر المستبد.

قائمة المصادر و المراجع

- ابن منظور. *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.
- ادوارد سعيد. (2005). *تغطية الاسلام*. القاهرة: روية للنشر و التوزيع.
- برنار لويس. (1994). *إدوارد سعيد. الاسلام الأصولي في وسائل الاعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية*. بيروت: دار جيل.
- حسين عدنان السيد. (2001). *العرب في دائرة النزاعات الدولية*. بيروت: مطبعة سيكو.
- صامويل هتنغتون. (1999). *صدام الحضارات إعادة بناء النظام الدولي الجديد* .
- عبد العالي دبلة ،بلقاسم سلاطنية. (2002). من حوار الثقافات إلى صدام الحضارات. *مجلة الإحياء* (العدد السادس)، 142.
- عمر خروبي بزارة. (2021). صدام الحصارات أم حوار الحضارات -دراسة مقارنة في جدلية الفكر الغربي و الفكر الاسلامي. *الأكاديمية للدراسات الاجتماعيةو الانسانية ، المجلد13* (العدد 2)، 246.
- فريد هاليداي. (1997). *الإسلام وخرافة المواجهة*.
- محمد علي حوات. (2002). *العرب والعولمة*. مصر: مكتبة مدبولي.
- هاليداي فريد. (1997). *الاسلام وخرافة المواجهة*.
- يورغن هابرماس. (1995). *القول الفلسفي للحداثة*. (فاطمة الجيوش، المترجمون) دمشق: منشورات وزارة الثقافة.

التصوّف الإسلامي من منظور استشراقي "آنّا ماري شميل" اختيارا قراءة في كتابها (الأبعاد الصّوفية في الإسلام وتاريخ التّصوف).

Islamic Mysticism from an Orientalist Perspective, "Anna Marie Schmel" Optionally. Reading in her Book (The Sufi Dimensions in Islam and the History of Sufism).

د. طاهير محمد أمين، جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم –الجزائر
mohamedaminetah@gmail.com



التّصوف الإسلامي من أهمّ القضايا التي شغلت الفكر الغربي وأثارت فضولهم لمعرفة حقيقة أشكال التّأمل الرّوحي ومظاهر الممارسات تأريخا وتفسيرا وتأثّرا بالمتصوفة المسلمين والعرب وجميع العلاقات الموجودة بين أفراده، ومن بين المهتمين المستشرقة الألمانية "آنّا ماري شميل"، التي عكفت على دراسة هذا العلم عند المسلمين وحاولت الإحاطة به، فكتبت في هذا المجال كتبا أهمّها كتابها -موضوع الدّراسة- "الأبعاد الصّوفية في الإسلام وتاريخ التّصوف"، ومن هنا نتساءل عن طبيعة الرّؤية الغربية ممثلة في هذه المستشرقة للتصوّف الإسلامي؟ وما هي خصوصية دراستها الاجتماعية في هذا الكتاب؟.

الكلمات مفتاحية: التّصوف- الغرب – الاستشراق – الممارسة – المجتمع.

Abstract :

Islamic mysticism is one of the most important issues of Western thought and has elicited their curiosity to learn the truth about spiritual forms of meditation and manifestations of practice, history, interpretation and influence on the Muslim and Arab mysticism and all the relations that exist between its members, and among other interested German scholars. Anna Marie Sechmel, who has been studying this science among Muslims and has tried to take note of it, has written books in this area, the most important of which is her book - the subject of the study. "The Sufi Dimensions of Islam and the History of Mysticism," hence the nature of the Western vision represented by this recitation of Islamic mysticism? And what's the specificity of her social study?.

Keywords: mysticism , West , Orientalism, practice, society .



مقدّمة:

إنّ موضوع التصوّف من الموضوعات الهامّة التي تتطلّب جهدا كبيرا للفصل بين كلّ ما فيه من مصطلحات ومفاهيم باعتبار حقيقته إيثار وتضحية(عبد المنعم خفاجي، د.ت، ص33) ، فالتضحية بزخرف الحياة ومتاعها ومغرياتها وملذّاتها، والايثار بما هو باق على ما هو فان، يعني الطّمع في جزاء الآخرة وما هو مؤجّل على ما هو معجّل في الدّنيا.

وقد عرّفه الأمير عبد القادر الجزائري بأنّه: "جهاد النّفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله، وإخال النّفس تحت الأوامر الإلهية والاطمئنان والإذعان لأحكام الرّبوبية لا شيء آخر في سبيل معرفة الله"(فؤاد صلاح السيد، 1985، ص155) ، فهو أن يكون الفرد في جهاد مع نفسه في سبيل الله ومرضاته، فلبّ العبادة أن تنصاع النّفس لأمر الله.

كما نجد تعريفا آخر لمحمد مرتاض حيث يقول فيه: "التصوّف هو الوصول إلى الله الحقّ وليس مجرّد الوصول إلى مقام ما"(محمد مرتاض، 2009، ص12) ، فالعبرة في الإخلاص العبادة لله دون سواه أو ابتغاء شيء آخر دون مرضاته وثوابه.

وقد عرفه أحد علماء التصوف معروف الكرخي حين يقول: "التّصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس ممّا في أيدي الخلائق"(أمين يوسف عودة، د.ت، ص12) ، فالقصد هنا هو الزّهد والتّخلي عمّا هو بين يدي البشر والاقتناع بما هو حقيقي من عند ربّ البشر.

يتّفق دارسو التصوف الإسلامي على أنّ التصوف فكر وعلم خاصّ، عميق وبالغ التّعقيد، ولا يمكن فتح شفراته إلاّ لمن كان يمتلك مفاتيحه، وأنّ خطابه هو من أعقد الخطابات باعتباره خطابا يقوم دائما على مستويين: ظاهر وباطن، وهو أمر تفرضه طبيعة التّصوف وخصوصا في جانبه الإبستيمولوجي، المعتمد على ما يسمّى في اصطلاحاتهم بالكشف أو الذّوق، الذي يعدّ مسلكا عرفانيا بالغ التّعقيد يصل بواسطة الصّوفي إلى معارف وأسرار وجدانية وروحانية وكونية، تشكّل لديه نسقا معرفيا يصعب نقله إلى الآخر عن طريق اللّغة، التي درج المتصوفون على وصفها ب(العبارة)، قناة تعجز عن تمرير تلك المحصّلات نظرا لتعقيد الحمولة المعرفية(محمد بكادي، 2010، ص54). فمن هم أبرز المستشرقون الألمان الذين درسوا العلوم الإسلامية؟ وما هي أهمّ أعمالهم في هذا المجال؟ وما هو طبيعة العمل الذي أنتجته الخبرة الألمانية ممثلة في "آنا ماري شميل" وكتابها الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التّصوف؟

أولا- التصوّف عند المستشرقين الألمان:

انتشر الاهتمام بالتصوّف في العصر الحالي بشكل لافت خاصّة في البحوث العلمية والأكاديمية والمجلات وغيرها، وكانت هناك مؤلفات عن التصوف القديم والحديث ويمكن الإشارة هنا إلى الكثير من الكتابات الاستشراقية التي اهتمت بالتصوف والشعر الصوفي العربي ولا تزال، وتختلف ألوان هذا الاهتمام تبعا للمدرسة الاستشراقية وتختلف بحسب الدّراسة وطبيعة المسألة التي تهتم بها.

يحتلّ التّصوف اليوم مكانة جد بارزة في الدّرس الاستشراقي الألماني، فأصبح أوسع وأغنى ممّا كان عليه بالأمس، فظهر بذلك مستشرقون ألمان اهتموا بالمتصوفة العرب وأشعارهم الرّوحانية وما تعكسه من أحاسيس وتتضمنه من معاني، وظهرت أسماء أعلام صوفية أخذت الحظّ الوافر والقسط الكبير في هذه الدّراسات أمثال الحلاّج، ورابعة العدوية والغزالي والهروي والجيلاني وابن عربي وابن فارض وغيرهم من مشاهير الصوفية.

الخطاب الصّوفي يتأسّس على التّجاوز واختراق الأطر بين مكونات العالم، أو مكوّنات المجتمع أو بنية اللّغة، فإذا كانت الصّوفية في أساسها ثورة ضدّ الثّبات فإنّ تحقّقها في النّص الشّعري العربي يمدّها بمنطلقات متحرّرة، ومن ثمّة فإن التّجربة الصّوفية تمثل نقدا للخطاب العربي من داخله، واستشراف عوالم الشّعر، وفتح أبواب التّساؤل حول الجمالي والدّيني (عبد الحميد هيمة، 2012، ص277).

المدرسة الألمانية في التّصوف يتزعّمها المستشرق جولد زيهر، وهي تحاول الكشف عن مصدر التّصوف في تاريخ الفكر الإسلامي وحصر ما دخل فيه من مؤثرات بسبب اتّصال العرب بوثنيات الهند وفارس، ثمّ اليهود والنّصارى، وجولد زيهر له مصنفات مشهورة في الإسلام، وله في التّصوف رسالة الحسين بن منصور الحلاّج، ودراسة في الزّهد الصّوفي وعن الصّوفية، ويقال عنه أنّه متحامل كثيرا على المسلمين (بشير جلطي، 2012، ص45). اهتمّ جولد زيهر بالتّصوف وقدّم بعض الدّراسات ترجمها عبد الرّحمن بدوي ومباحث صغيرة جاءت في ترجمات عبد الهادي أبوريدة .

الميول الاستشراقي للشّعر الصوفي لم يكن صدفة، وإنّما كان امتداد للشّعر الجاهلي الذي كان أصل التأثّر والتّأثير محلّ دراسات المستشرقين الألمان، فهذه الرّوابط الفنيّة والموضوعاتية بينهما دعت إلى اهتمام هؤلاء بالشّعر الصّوفي والانصراف إلى التأثّر به ولقد جاءت جهود بعض المستشرقين الألمان في دائرة التّصوف من أفضل ما كتب، إذ أنّ معظمهم أجاد عدّة لغات، بجانب العربية كالفارسية والأردية وبعض لغات الهنود والترّكية وبعض لغات الأقليات الإسلامية في ربوع الأرض مع إجادتهم للّغات القديمة ومعظم اللّغات الحديثة الحيّة مما جعل نظراتهم في الأدب المقارنة تبدو أشمل وأكثر عمقا .

نسخ الشّاعر الصّوفي قصائده على منوال الشّعراء العذريين أفراد وأشعارهم مستخدما لغة الحبّ ورموز المحبّين بالطّريقة نفسها التي يستخدمها شعراء بني عذرة في تغزلهم بمحبوباتهم، بحيث لا نستطيع التّمييز بين ما يتغنّى فيه الشّاعر الغزالي بالحبّ الإنساني وما يتغنّى فيه الشّاعر الصّوفي بالحبّ الإلهي، وقد فضّلوا مذهب العذريين لأنّهم وجدوا فيه الوسيلة المثلى التي من خلالها يمكنهم التّعبير عن أشواقهم وأحوالهم ولأنّهم يقدسون الحبّ أيضا (محمد عباسة، 2010، ص9).

توالت الدّراسات الاستشراقية الألمانية في هذا الفنّ الرّوحي، حيث ظهر كل من هارتمان وهورتن كمهتمين بالتّصوف والشّعر الصّوفي العربي حيث قالا: "أنّ الفيدانتا البراهمية هي أصل التّصوف في الإسلام جاءت إلى المسلمين من الهند عن طريق الفرس، وقد لعبت هذه النّظرية دورا خطيرا في الفلسفات اليونانية والنّصرانية وفي التّصوف الإسلامي خاصّة، حيث ظهرت في فكرة إلغاء التّمايز ومحو الإشارة عند الأصول والتي قاد لواءها الحسين بن منصور الحلاّج بقوله: "حصول الاستعداد في تلك الصّور المساواة لقبول فيض التّجلي الدّائم لم يزال ولا يزال وما يبقى إلاّ القابل لا يكون إلاّ من فيض الأقداس" (بشير جلطي، 2012، ص56.57).

ولم يكن الأثر الصّوفي وشعره وروحانيته تمتد من الشّرق إلى الغرب فقط، بل امتدّت في الغرب وعلى محيط المستشرقين الألمان أنفسهم، حيث تأثّر جملة منهم ببعضهم البعض وعرّف بعضهم الآخر بالشّعر

الصوفي العربي وبشعراء متصوفة عرب، حيث تأثر جوته ب هامر و روكرت كما أثّر هذا الأخير وفتح الباب أمام المستشرقة شميل وعرّفها بالتّصوف وكان دليلها وهاديها إلى هذا الدّرب.

اهتمت أنا ماري شميل بالأشعار الشّرقية التي ترجمها روكرت إلى الألمانية وبمناسبة مرور 175عاما على ميلاد الشّاعر اعتنت بهذه الأشعار وأصدرته في كتاب في دار "كارل شينان" بمدينة بريمن عام 1963م، وقدّمت للكتاب مقدمة ضافية، وبعد ثلاثة أعوام خصّت شميل في يناير 1966م، في مجلة فكر وفن روكرت بدراسة حملت عنوان (ورقة من تاريخ الاستشراق في ألمانيا) وفي يناير 1988م، احتفت به مرّة أخرى في هذه المجلة وكتبت عنه ورقة بعنوان "مرور مائتي عام ميلاد أب الاستشراق الألماني" (خلد محمد عبده، 2016، ص33).

هذا التأثّر العرضي الذي دفع مستشرقين ألمان كثر من الاهتمام بالشّعر الصوفي العربي والإسلامي والاهتمام به أكثر، بنفس منهجية الأدب العربي كلّه، ممّا ساهم في إثراء الدّرس الصّوفي العربي واكتشافه بشكل أكبر وبصورة واضحة لدى الآخر.

ومن المستشرقين الألمان الذين ساهموا وبالشّكل الملفت في دراسة التّصوف نذكر هنا هورتن، الذي كتب (نصوص صوفية في الإسلام)، وهذا الكتاب في أصلية ثلاث قصائد لابن عربي ترجمها من العربية وشرحها، وله أيضا (المذهب الفلسفي للشيرازي)، وهناك أعمال أخرى قامت بترجمة بعض القصائد الصوفية منها ما كتبه ماكس مايرهف وكتابه (في الصوفية الفارسية والتركية)، وجورج جاكوب وكتابه في الوحدة الصوفية عام 1922م.

وما كتبه هلموت ريتر "الذي ظهرت له ترجمة ممتازة للنشيد الأوّل من القصيدة الصوفية لجلال الدين الرّومي وكذلك كلمات ليزيد البسطامي، ولعل أهم أعمال ريتر هو كتابه الصوفي (بحر الروح الإنسان والدنيا والله) في حكايات فريد الدّين العطّار عام1955 ذلك الكتاب الذي يعدّ بحق معينا لا ينضب للأفكار الصّوفية" (رودي بارث، 1967، ص47).

هلموت ريتر من المستشرقين الألمان البارزين في دراسة التصوف والشّعر الصوفي العربي حيث "كان مهتما بالتّعاليم الصوفية خاّصة الى جانب تحقيق الكتب ونشر كتابا كبير بالألمانية عن أفكار فريد الدين العطار" وكتابه هذا يسمى "بحر الرّوح" الذي يقول عنه رضوان السيد: "أراد به منافسة حلاّج ماسينيون دون أن ينجح في ذلك" (رضوان السيد، 2016، ص47.

كان المستشرق إيكهارت يشترك مع الحلاّج في المكانة المرموقة التي حازها في الوسط الذي منه بُثت أفكارهما في عالم التّصوف، والمعارضة الشّديدة التي جوبهت به أفكارهما فالحلاّج كان قد اقتحم المعقل الرئيس لما يعرف بالتّصوف المعتدل، ذلك التّصوف الذي اتّسمت به مدرسة بغداد بزعامة الجنيد البغدادي... فضلا عن المركز الذي بالإمكان أن يناله هذا الشّاب الوافد من الشّرق، وبالتالي إزاحة باقي رواد هذه المدرسة...فذات الشيء كان يقال عن ايكهارت حيث لم يكن فيلسوفا نسقيا أو مذهبيا ولم يفكر أبدا تفكيرا نسقيا من خلال الأفكار والجمل التي وجدها عند المؤلفين مختلفين، وهذا ما ينعكس على

الطّرح الصّوفي لكلا الشّخصين من الجهة البساطة التي يعالج فيها الاثنان علاقة الإنسان بالله (فريديريش كوبلستون، 2013، ص268).

ثانيا-التّصوف عند آنا ماري شميل وكتابها "الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوّف":

لعلّنا نصل إلى أبرز المستشرقين في التّصوف الإسلامي والعربي وهي المستشرقة الألمانية "آنا ماري شميل" التي تعدّ من تلك الأسماء التي تعاملت مع التّراث الإسلامي والعربي بجدية ومصداقية، وخصوصا في زاوية بحثها في التّصوف الذي تأثّرت به كثيرا ودعت من خلاله إلى الحوار بين الدّيانات والحضارات.

لا ينكر أحد فضل آنا ماري شميل في دراسة التّصوف والتراث الرّوحي للإسلام وعلاقته بالمسيحية وتقديم الأدب الإسلامي بلغاته إلى القارئ الأوروبي مع تقديم شرح وتبسيط لأعمق معاني التّصوف في سهولة ويسر ولعلّها قد نجحت في ذلك من خلال المقاربات المستمرة التي تعقدها بين الإرث الرّوحي الإسلامي والإرث الرّوحي المسيحي الغربي (آنا ماري شميل، 2016، ص7).

تعلّمت اللّغة العربية و أتقنتها وتقلّدت بذلك كراسي عدّة، لقد درّستها في جامعات أوروبية وأمريكية وآسيوية وبذلك ساهمت في التّعريف باللّسان العربي عبر أقطار العالم شرقه وغربه، كما كانت لها بحوث عدّة في مجال التصوف الإسلامي ومؤلفات ساهمت بها بإثراء الدّرس الصوفي العربي لعلّ أشهرها مؤلفها "الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف"، كما ساهمت بتعليم الدبلوماسيين الألماني، وكانت محرّرة نشيطة في مجلة (فكر وفن)، هذه المجلة التي كانت تنشر باللّغة العربية كما ساهمت أيضا في شرح بعض المفردات والعبارات وإعطائها مفهومها ومدلولها الصّحيح الذي يؤدّي المعنى الحقيقي لها، وخاصّة في الشّعر الصّوفي الذي يستعمل فيه الشّاعر الصّوفي مفردات روحانية تجسّد إحساسية باعتباره مريد قبل أن يكون شاعرا، وهذا ما كشفت عن المستشرقة الألمانية.

قدّمت عدّة تعريفات للتصوف التي تصبّ في وعاء واحد حيث عرّفته على أنّه: " أكبر تيار روحي يسري في الأديان جميعها" (آنا ماري شميل، 2006، ص7) وكذلك على أنّه: "إدراك الحقيقة المطلقة سواء سميت هذه الحقيقة "حكمة " أو" نور" أو " عشق" أو "عدم" (آنا ماري شميل، 2006، ص7).

وكذلك قدّمت تعريف آخر حيث تقول: "فالتّصوف يمكن أن يُعرّف بأنّه: "حبّ المطلق"، فبذلك الحبّ يميّز التّصوف الحقيقي عن طقوس الزّهد الأخرى، وحبّ الآلة يجعل المريد يتحمّل كلّ الآلام والمصائب التي يبتليه الله بها ليختبر حبّه ويظهره، بل ويجعله يتلذّذ بها، وذلك الحبّ يمكن قلب المحبّ من الاتّصال بالحضرة الإلهية، كالصّقر يحمل صيده بعيدا، ويجعله يغيب عن حاضره" (آنا ماري شميل، 2006، ص8).

عشقها للّغة العربية، وحبّها الكبير للتّصوف الإسلامي والشّعراء المتصوفة العرب وغير العرب، ولعلّ ابن عربي الملقب في الأوساط الصوفية ب" الشيخ الأكبر " هو أوفر المتصوفة حظّا من هذه الدراسات، فحسبنا الإشارة إلى أن عكوف المستشرقين على ترجمة آثاره ودراسة تصوفه يعادل اهتمام الدّارسين المسلمين والعرب به أو يزيد، ممّا حمل بعضهم على الحديث عن نهضة أكبرية في ذلك.

أقرّت شميل بصعوبة تحليل أفكار الشّاعر الصّوفي ابن عربي ولا يمكن الوقوف عند تحليل شاف لاستعارة لأنّه يمثل مذهب وحدة الوجود أو الوحدانية، أفردت له جزء مهما في كتابها "الأبعاد الصوفية في الإسلام" وقدّمت مساره وحياته ومجموعة من أشعاره وحتى معجبيه أمثال الجامي حيث يقول فيه:

لو أن مؤلف " الفصوص" رأى شفتيك

لكتب مائة صف في حكمة المسيح (آنا ماري شميل، 2006، ص299).

أكّدت على "وحدة الوجود" التي يمتاز بها شعر ابن عربي وهو مجسد في أشعاره من خلال أبيات له تقول:

فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبده

فأني بالغنى وأنا أساعده، فأسعده

لذلك الحق أوجدني فأعلمه فأوجده(آنا ماري شميل، 2006،ص 301).

كانت شميل من أبرز المستشرقين الذين دعوا إلى وحدة الأديان وحوار الحضارات ولابن عربي في وحدة الأديان مذهب لا يختلف كثيرا عن مذهب الحلاّج، وهي تأثّرت بالاثنين، وذهب إلى أنّ العبادة هي أن ينظر العبد إلى جميع الصّور على أنّها حقيقة الإله، غير أنّ وحدة الأديان عنده لها تأويلات ورموز ولا تغني خروجه عن الشّريعة، فهو يرى أنّ الصّوفي يجد الله في كلّ الأديان:

ألا حمامات الأراكة والبان ترفقن لا تضغفن بالشجو أشجاني

لقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى الغزلان ودير الرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف ألواح نوارة ومصحف قرآن

أدين بدين الحبّ أنّى توجهت ركائبه فالحبّ ديني و إيماني(محمد عباسة، 2010، 13).

حاول محي الدين ابن عربي إقامة علاقة بين الخيال والشّعر، فجعله السّبيل الأنجح للسّفر في عالم الخيال الذي تنتقل فيه الحقائق المعنوية والتي تبقى بطبيعتها فوق الأشكال" (خالد بلقاسم، 200، ص150).

تحدّثت عن فكرة التّسامح الدّيني والعقائدي التي نادت به ونادى بها بن عربي في أشعاره التي جسّدت فكره وتوجهه حين ينشد في أبيات قائلا:

وجاءت من الشوق المبّرح والجوى ومن طرف البلوى إلى بأفنان

فمن لي بجمع والمحصّب من مني ومن لي بذات الأثل من لي بنعمان

تطوف بقلبي ساعة بعد ساعة لوجد وتبريح وتلثم أركاني

كما طاف خير الرّسل بالكعبة التي يقول دليل العقل فيها بنقصان (آنا ماري شميل، 2006،ص315).

كان لشميل أراء خاصّة تعبّر عن نظرتها تجاه الصّوفية والمتصوفة حيث عقبت على رأي المستشرق أ.هـ بالمر في كتابه (التصوف في المشرق الذي نشره عام 1868م)، ذكر أنّ التّصوف هو نتاج تطور دين المغول لدى الجنس الآري، فلم يكن لهذا الطّرح أن يروقها واستهجنته لدى بعض العلماء الألمان، وكذلك كان لها رأى حول التصوف الصيني وتوصلت إلى إمكانية إثبات ما إذا كان للشّرق الأقصى له تأثير على الإسلام، وقد كان عمر فروخ أوّل من أراد أن يثبت الآثار الطّاوية عن البناء الفكري للعقيدة الطّاوية ونظام ابن عربي، وكذلك مسألة التأثير اليهودي في التّصوف الإسلامي، فلم يكن في رأيها إلاّ موسيقى شعبية، حيث كانت لهم علاقة بمجموعات من الصوفية، وكانوا ينشدون أشعار صوفية في لقاءاتهم فكلهما مسائل حسّاسة وقفت فيها شميل مدافعة تارة ومصحّحة تارة أخرى ومذلّلة للمفهوم أحايين أخرى (طالب جاسم حسن العنزي، 2014، ص63.58.47).

لم تكن شميل لوحدها من اهتمت بابن عربي وأعماله – كما سبق الذكر – حيث اعترف بروكلمان بمكانة الشّاعر الصّوفي الكبيرة وغزارة إنتاجية الأدبي في مجال التّصوف بقوله: "هو من أخصب المؤلفين عقلا وأوسعهم خيلاً، وإذا قيس بسواه من كبار الفلاسفة والمؤلفين في الإسلام كابن سينا والغزالي، فإنّه يفوقهم جميعًا في هذا الميدان من ناحيتي لكمّ والنّوع معًا" (كارل بروكلمان، 1962، ص441).

إنّ مجي الدين ابن عربي وإن كان مفكرًا ذا منهج مختلف، فإنه كذلك كان شاعرًا مختلفا وتظهر أهمية الشّعر عنده في تصديره بالشّعر أغلب ما يكتبه خاصّة في الفتوحات المكية وكأنه يجد ملاذه ومتعته وافقه الخيالي في الشّعر الذي وصل إلى العربي والمسلم والأوروبي وأثّر فيهم التأثير البالغ.

لم يكن ابن عربي وحده من أثر في شميل بل معاصره ابن الفارض، نال من اهتمامها القسط المناسب والاهتمام اللاّئق واعتبرته شخصية مرموقة وشاعر صوفي له مكانته وما يميز أشعاره من حيث تأثره بالأدب العربي القديم، وانعكاس بعض القوالب الفنية في أشعاره الصوفية، حيث تقول شميل: "وقد صبّ ابن الفارض خبراته الصّوفية في قليل من الأشعار العربية رائعة الجمال على غرار أساليب الشّعر العربي الكلاسيكي، إلاّ أنّه لم يكتب نثرا" (آنا ماري شميل، 2006، ص309.308).

كما أقرّت بصعوبة أشعار ابن الفارض وجود صياغتها، فلا يمكن لأحد أن يقرئها إلاّ إذا كان متمرسًا دراسًا ملمًّا بهذا المجال، فهي تقول: "ومن قرأ فأشعار عربية خالصة، شكلا ومضمونًا، وحي توحي بهجة العرب بالتّلاعب بالألفاظ والاشتقاقات وأساليب التّصغير، وتعبّر عن حبّ الإطلاق تعبيرا صوره مأخوذة

من تقاليد ما قبل الإسلام، ويخاطب فيها المحبوب بأسمائه المؤنثة مأخوذة من الشعر العربي القديم، مثل ليلى وسلمى" (آنا ماري شميل، 2006، ص309).

وتذكر شميل أنّ فون هامر قد أقدم على ترجمة (التائية) أكبر قصائد ابن الفارض لكنّ الترجمة لم تكن قد أصابت المعنى الحقيقي لأنّ شعر ابن الفارض – كما ذكرنا – سهل ممتنع، وهذا ما أغضب نيكلسون ورفض هذه الترجمة.

وهناك قصيدتان من ديوان ابن الفارض قد أصبحتا لهما شهرة خاصّة، منها قصيدة الخمرية التي تصف تخمر الحبّ الإلهي الذي يفعل المعجزات حيث يقول فيها:

ومن بين أحشاء الدنان تصاعدت ولم يبق منها في الحقيقة ولا اسم

وإنّ خطرت يومًا على خاطر امرئ أقامت به الأفراح وارتحل الهمّ

ولو نظر الندمان ختم إنائها لأسكرهم من دونها ذلك الختم

ولو عبقت في الشّرق أنفاس طيبها وفي الغرب مزكوم لعادله الشمّ

ولو جليت سرا على أكمه غدا بصيرا ومن رواقها تسمع الصمّ(آنا ماري شميل، 2006،ص310).

زيادة على تأثّر الشاعر بالشّعر العربي الكلاسيكي في ألفاظه ونسيجه نجده هنا متأثرا بأغراضه أيضا وموظفها في التّصوف، فهو متأثر بالشاعر الخمري أبو نواس، لكنه طرح ذلك في حبّ الإله، وشبهه بالمختمر في حضرته، فقد جمع ابن الفارض في تصوفه بين ثلاثة خصائص هي:

- الشّاعرية ذات الحسّ الدّقيق والشّعور الرّقيق (الرّومانسية الكلاسيكية).
- الصّوفية ذات الحركة والتذوّق الفنّي الرّاقي الصّعب والمعقّد.
- "المحبّة ذات العواطف الشّرقية والانفعالات العفيفة تستبد بها النّزعة الرّوحية"(مجدي كامل، 1997، ص129).

اعتبرت شميل ابن الفارض الشّاعر الصّوفي الثّابت في أشعاره، "فهو يبقى كحاله في جميع شعره وفيّا للغة التّصوف الرمزية في إسلام القرون الوسطى، كان شعره يفهم دائما على أنّه شاهدا على التّفسير القائم على وحدة الوجود في الإسلام، غير أنّنا علينا ألاّ ننسى أنّ الشّعر لا يمكن مساواته بالنقاشات النظرية حول المسائل العقيدية...وعلاقة حبّه لله المكني عنها بالصور الجميلة لليلى وسلمى وإنّما هي علاقة شخصية، وإنّ روح هذا الصّوفي الذي يرمي بإرادته الشّخصية وراء ظهره تصل إلى توحّدها بإرادة الله، فتكون كما قال نيكلسون محبوبة لله" (آنا ماري شميل، 2006، ص313).

لا ننسى الحسين بن منصور الحلاّج الشّاعر العراقي العبّاسي من أعلام التّصوف في العالم العربي والإسلامي، تأثّر به مستشرقون كثر ممّن اهتموا بمجال التّصوف وبالأخصّ شميل، حيث "اهتمت بالحلاّج

وجعلته ابنا للبيئة العربية بكتابها الخالد (القران)، فهناك من رأى الحلاّج ابنا للمسيحية"(خالد محمد عبده، 2016، ص72) ، وحاولت أن تكون لها دراسة متميزة عن أشعاره وأعماله الصوفيّة في مقابل الدّراسات الاستشراقية الّتي درسته أمثال لويس ماسينيون، الذي اعتبره من الشّخصيات القلقة في الإسلام وكان رأيها عكس ذلك.

دافعت عنه بشراسة خاصّة في مسألة عدم إيمانه وتوحيده حين تقول: "ومن بين الأحاديث التي أقرّبها الحلاج كان قوله: " إنّ الله لم يخلق أحبّ إليه من محمد وآله"، ولو كان هنالك شكّ في أن الحلاّج كان مسلمًا صالحًا، فما على المرء وصفه لمحمد في "طاسين السراج" في كتابه (الطواسين) "(آنا ماري شميل، 2006، ص82) ، واستدلت عن هذا الكلام والإقرار الصّرخ عن إسلامه واستقامته في حبّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم، بأبيات له يمدح فيها سيد الخلق حين يقول:

أنوار النبوّة من نوره برزت،

وأنوارهم من نوره ظهرت...

همته سبقت كل الهمم،...

ووجوده سبق العدم،

واسمه سبق القلم،

قبل أن يخلق القلم،

لأنّه كان قبل الأمم، (آنا ماري شميل، 2006، ص82).

فهي بهذه الأبيات تؤكد حبّ الحلاّج للنّبي – صلّى الله عليه وسلّم – وتنفي في نفس الوقت كل ما راج عنه من اتهامات من العرب والمستشرقين الذين درسوه.

خاتمة:

- التّصوف نشأ في كنف الإسلام ولم يكن وليدا لمصادر أجنبية كما يزعم بعض المستشرقين، أمّا التأثّر ببعض التّيارات الخارجية فقد ظهر في مرحلة من مراحل تطوّر التّصوف الإسلامي.
- كانت "آنا ماري شميل" كما يرى أحد الألمان وكما يستشعر القارئ العربي تنظر إلى الشّرق من منظور متحمّس، بعين المحبّ الهائم.
- عُرف عن "شميل" أنّها من أكثر المستشرقين الألمان دراية بالإسلام والمتصوفة، فضلا عن كونها قد ساهمت دون مبالغة في حدوث نقلة نوعية في مدرسة الاستشراق الألمانية خاصّة في التطلّع إلى التّصوف كجسر بين الأديان والحضارات، فحياتها الزّاخرة بالكتب والمقالات والترجمات، يكشف عن

نشاط لا ينتمي إلى عالمها الغربي، فكانت استثناء من بين المستشرقين بأنّها لم تقرأ عن الشّرق فحسب، بل قرأت وتأثّرت واندمجت في ثقافة الشّرق.

- لا تزال الأشعار الصّوفية وشخصياتها تشغل مكانة مهمة في أغلب دراسات المستشرقين وخاصّة الألمان، لم تتمتع هذه الأخيرة باللّغة الجزلة المعبرة إحساسها المرهف، والرّوح المحبّة العاطفية الموجودة فيها المتجلية في العناصر الغزالية عند الشّعراء المتصوفة والمتجدّدة في الحبّ الإلهي.
- كتابها "الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف" كان مرجعا هامّا وإضافة قيّمة للمكتبة العربية والغربية في موضوع التّصوف التي كتبت في مضمار الدّراسات الموضوعية العلمية البعيدة عن أي مرجعيات أو خلفيات أيديولوجية، كما كانت لها كتب أخرى في نفس المجال ككتاب "مولانا جلال الدّين الرّومي"، "روحي أنثى"، الذي تتحدّث فيه عن المتصوفات المسلمات من جنس الأنثى وكتاب "الشّمس المنتصرة".
- اكتشفت "شميل" المجتمعات العربية عن قرب وعاشرتها وتأثّرت بإرثها الإسلامي والثّقافي، على عكس بعض المستشرقين الذين درسوا وتأثّروا بالشّرق من خلال أدب الرّحلات أو الكتب حوله على غرار "غوته".

قائمة المصادروالمراجع:

- آنا ماري شميل، (2006)، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، ترجمة: محمد إسماعيل السيد ورضا قطب، (ط1)، بغداد، منشورات الجمل.
- آنا ماري شميل، (2016)، روحي أنثى، ترجمة: لميس فايدة، (ط1)، القاهرة، خان الكتب للنشر والتوزيع.
- عبد المنعم خفاجي، الأدب، (د.ت)، في التراث الصّوفي، (ط1)، القاهرة، دار غريب للطباعة.
- فؤاد صالح السيد، (1985)، الأمير عبد القدر الجزائري متصوفا وشاعرا، (د.ط)، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- محمد مرتاض، (2009)، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون.
- أمين يوسف عودة، (د.ت)، تأويل الشّعر وفلسفته عند الصوفية، جامعة آل البيت، الأردن، جدار للكتاب العلمي للنشر والتوزيع.
- محمد بكادي، (2010)، أثر الفكر الديني في روايات باولو كويلو، بيروت، لبنان، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع.
- بشير جلطي،(2012)، حقيقة التصوف بين التأصيل والتأثير، (ط1)، بيروت لبنان، دار الكتاب العلمية.
- خالد محمد عبده، (2016)، المستشرقون والتصوف الإسلامي، (ط1)، القاهرة، المحروسة للنشر والخدمات.

- بارت رودي، (1967)، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية والمستشرقين الألمان منذ تيودور نولدكه، الترجمة : مصطفى ماهر، القاهرة، دار الكتاب العربي للنشر والطباعة.
- رضوان السيد، (2016)، المستشرقون الألمان، النشوء التأثير والمصائر، (ط2)، بيروت، دار المدار الإسلامي.
- فريدريك كوبلستون، (2013)، تاريخ الفلسفة ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام ومحمود السيد أحمد تقديم: إمام عبد الفتاح أمام (المجلد 3، ط1)، القاهرة، المركز القومي للنشر والترجمة.
- خالد بلقاسم، (2000)، الكتابة والتصوف، (ط1)، الدار البيضاء، المغرب، دار تو بقال.
- كارل بروكلمان،(1962)، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية، عبد الحليم النجار، (المجلد1، ط5)، القاهرة، دار المعارف.
- مجدي كامل، (1997)، أحلى قصائد الصوفية، (ط1)، دمشق، سوريا، دار الكتاب العربي.

المجلّات والدّوريات:

- عبد الحميد هيمة، (2012)، الخطاب الصوفي في الشعر المغاربي المعاصر، مجلة التبيين، فصلية تصدر عن الجمعية الثقافية الجاحظية، العدد 37.
- محمد عباسة، (2010)، التصوف الإسلامي بين التأثير والتأثر، مجلة حوليات التراث، العدد10، مستغانم، الجزائر.
- طالب جاسم حسن العنزي، (2014)، المؤثرات الأجنبية في التصوف الإسلامي من منظور الشرقي، دراسات استشراقية، العدد 1.

صورة الاسلام في كتابات الإسبان - حادثة الإسراء والمعراج أنموذجا

The Image of Islam in the Writings of the Spaniards - the Incident of Al-Isra and Al-Miraj as a Model

د. إكرام بن عيسى، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط - الجزائر

benaissaikram070@gmail.com



أنتج المستشرقون الأوربيون عن الحضارة العربية الاسلامية إنتاجا فكريا يحتاج إلى بحوث جادة من أجل بيان أهميتها فيما تضيفه في مجال البحث العلمي العربي، وإدراك مدى موضوعيتها من خلال التعرف على منهج المستشرقين في الكتابة، والدافع من ذلك.بوقد وجب علينا كباحثين ومهتمين بالتراث الاسلامي النظر في كتابات المستشرقين الأوائل في الكتابة عن التاريخ الاسلامي، ومن ذلك نجد الكتابات الاسبانية حول الإسلام والمسلمين وبالخصوص الكتابة عن سيرة الرسول الله صلى الله عليه وسلم.

تهتم هذه الدراسة برصد نماذج عن أهم تلك الكتابات الاسبانية في سيرته صلى الله عليه وسلم حول حادثة الاسراء والمعراج من خلال التركيز على بعض الكتّاب الاسبان الذين كتبوا عن هذه الحادثة منهم: الكاتب مونتيرو فايدال (*Motero Vidal*)، وسانطوطوماس دي أكينو،

يشتمل موضوع المشاركة على العناصر التالية:

- مصنفات إسبانية في السيرة النبوية الشريفة – عرض نماذج
- حادثة الإسراء والمعراج في الكتابات الاسبانية
- حادثة الإسراء والمعراج في القرآن الكريم

تطمح هذه الدراسة في تفسير هذه الحادثة من وجهة نظر الكتاب المستشرقين في السياق العام للاستشراق، وفي ضوء خصائص الدراسات الأندلسية في أوربا، وبيان ما فيها من جوانب سلبية، واستعنت في سبيل تحقيق الهدف من هذه الدراسة تدوين السيرة النبوية الشريفة من منظور القيم الروحية الاسلامية باستشهادات من القرآن الكريم حول حادثة الإسراء والمعراج.

الكلمات المفتاحية: الإسلام - الرسول الكريم – حادثة الإسراء والمعراج – الاستشراق – الكتابات الإسبانية.

Abstract :

The European Orientalists produced an intellectual production on the Arab Islamic civilization that needs serious research in order to clarify its importance in what it adds in the field of Arab scientific research, and to realize the extent of its objectivity by identifying the Orientalists' approach to writing, and the motive behind that. As researchers and those interested in Islamic heritage, we have to look at the writings of the early orientalists in writing about Islamic history, and

from this we find the Spanish writings about Islam and Muslims, especially writing about the biography of the Messenger of God, may God's prayers and peace be upon him.

This study is concerned with monitoring examples of the most important Spanish writings in his biography, may God's prayers and peace be upon him, about the incident of the Isra and Mi'raj by focusing on some of the Spanish writers who wrote about this incident, including: the writer Montero Vidal, and Santo Thomas de Aquino.

The topic of the post includes the following elements:

- Spanish Compilations in the Biography of the Noble Prophet - Showcase Models
- The Incident of Isra and Mi'raj in Spanish Writings
- The Incident of Al-Isra and Al-Miraj in the Holy Qur'an

This study aspires to explain this incident from the point of view of orientalist writers in the general context of Orientalism, and in the light of the characteristics of Andalusian studies in Europe, and to clarify its negative aspects. From the Holy Qur'an about the incident of Al-Isra and Al-Miraj.

Keywords: Islam - Holy Prophet - The Incident of Al-Isra and Al-Miraj - Orientalism - Spanish writings



مقدمة :

ظهر الاهتمام الغربي بالإسلام والسيرة النبوية الشريفة منذ وقت مبكر، فكان اهتمام الغربيين بتدوين سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبترجمتها يرتكز أساسا من خلال تحقيق التراث الإسلامي للمسلمين وغير المسلمين حسب التصور الغربي.

كما يعتبر العرب والمسلمون هم المركز الذي تدور حوله الدراسات الاستشراقية، وهذه الأخيرة تناولت تاريخ الاسلام والسيرة النبوية بصورة مختلفة عن تلك التي تتعلق بتاريخ الأمم والشعوب الأخرى، ومن ذلك نجد الكتابات الاستشراقية الإسبانية حول السيرة النبوية.

والمتتبع لكتابات المستشرقين في السيرة يجد نقصا في مجال هذه الدراسات، وقلما نجد مؤلفات جامعة لسيرته صلى الله عليه وسلم إلا ما كتب من قبل مؤلفين عرب وترجم إلى لغات أجنبية.

من خلال هذه الدراسة سنحاول التركيز على موضوع جاء في سيرة الرسول الكريم يتعلق بحادثة الإسراء والمعراج، وبيان ما فيها من جوانب سلبية من خلال كتاب **محمد حياته والقرآن** للكاتب الاسباني **مونتيرو فايدال** (***Motero Vidal***) وهو مؤلف تناول فيه سيرته عليه الصلاة والسلام، وتحدث عن القرآن الكريم، يقع ضمن جزئين، طبع سنة 1926م بمدريد.

أولا- مصنفات إسبانية في السيرة النبوية الشريفة – عرض نماذج:

يتبين من خلال دراسة حركة الاستشراق أن مفهومه وخصائصه ومنهجه تدلّ على مواقف عقائدية وفكرية معادية للإسلام، ويكتسب أبعادا خطيرة في جوانبه السياسية والثقافية منذ نشأته.

ويعتبر الهدف الأساسي للمشتغلين على الحركة الاستشراقية هو إنكار رسالة الاسلام والتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إثارة الشبهات حوله عليه الصلاة والسلام، حيث بدأت رؤية هؤلاء المستشرقين تجاهه ودعوته منذ احتكاك المسلمين بالمسيحيين في الأندلس، ثمّ بدأت تتطور عبر العصور (عصام فخري برتو، 2015م، ص44).

يرجع اهتمام الباحثين الإسبان بالسيرة النبوية إلى حدود القرن التاسع عشر ميلادي، فالباحث عن المصادر الاسبانية التي تؤرخ لشخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجد القدر الذي يتصوره (*PastoretCompendio. Madrid. P11*) من منظور استشراقي، وذلك مقارنة مع ما يجد من كتابات فرنسية وألمانية...، وقد نجد في فترة من فترات التاريخ الاسلامي بالأندلس (محمد برادة (د.ت)،ص10) بعض المشاركات لأندلسيين في تدوين السيرة النبوية الشريفة، أمثال (آسية الصاوي، (د.ت)، ص358) الفقيه عبد الملك بن حبيب الإلبيري (**عبد الملك بن حبيب الالبيري:** هو أبو مروان أو أبو هارون، عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جاهمة بن العباس بن مرداس السلمي الالبيري القرطبي الأندلس المالكي. ولد سنة (174هـ / 790م)، في **جمهرة تراجم الفقهاء المالكية**: "قيل: من أنفسهم، وقيل: من مواليهم، أصله من طليطلة وانتقل جده سليمان إلى قرطبة وانتقل أبوه حبيب وإخوته في فتنة الرّبض إلى البيرة، ثم انتقل عبد الملك إلى قرطبة نقله إليها الأمير عبد الرحمن بن الحكم، مؤلفات السلمي، كان ابن حبيب غزير الإنتاج الفكري، وقيل إن عدد مؤلفاته يزيد على الألف، قال القاضي عياض: "قال بعضهم: قلت لعبد الملك كم كتبك التي ألفت؟ قال: ألف كتابٍ وخمسون كتابًا"، وأشهرها كتاب "الواضحة" في السنن والفقه المالكي، وهو من أكبر مؤلفاته و"غريب الحديث" و"حروب الإسلام" و"طبقات المحدثين"، توفي سنة (238هـ/853م)، (قاسم علي سعد، 2002م، ص 230)، وأبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي البلنسي (**أبو الربيع بن سالم الكلاعي البلنسي**: هو أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميري الكلاعي البلنسي، الأديب البليغ شيخ الحديث والبلاغة، ولد سنة 565هـ كان إماما في صناعة الحديث ، بصيرا به ، حافظا حافل، عارفا بالجرح والتعديل ، ذاكرا للمواليد والوفيات ، يتقدم أهل زمانه في ذلك ، وفي حفظ أسماء الرجال، توفي في العشرين من ذي الحجة سنة 634هـ. ينظر ترجمته (أبو عبد الله شمس الدين، 2004م، ص 134).

إنّ محاولة إلقاء الرؤى الثقافية المعاصرة على السيرة النبوية، وهو منهج خطير من الناحية العلمية لا يمكن قبوله، لأنّه مجرد إسقاط تاريخي لرؤية ثقافية حديثة، فمناهج البحث الاستشراقي لا يمكنها في الغالب أن تقدم تفسيرا موضوعيا للمراحل والخبرات ذات الجذور العقيدة من تاريخنا الاسلامي، ذلك أنها

لا تقوم على أساس متوازن ينظر إلى القيم الروحية والمادية كعوامل فعالة مشتركة في صنع الواقعة التاريخية للسيرة النبوية، بل إنه يسعى إلى ترجيح الدافع المادي، وتقليص مساحة الدوافع الروحية في حركة التاريخ، وربما طمسها وأنكارها أساسا.

وهنا نسوق الحديث على ذكر نماذج من هؤلاء المستشرقين الإسبان الذين كتبوا حول سيرة الرسول الكريم منهم:

1-شبرنجر: (*Sprenger*): (1813-1893م): ولد في التيرول، وتعلم في الانسبروك وفيينا وباريس، تجنس بالجنسية الإيطالية 1838م، ونال الدكتوراه في الطب من ليدن سنة1841م، أرسل إلى الهند الشرقية طبيبا سنة 1842م، ثم ولته الحكومة رئاسة الكلية الاسلامية في دلهي ثم مدرسة كلكتا، وعينته مترجما للغة الفارسية، فأصدر أول صحيفة أسبوعية بالهندوستانية في دلهي، ثمّ عين أستاذا للغات الشرقية في جامعة برن السويسرية، وبعدها اعتزل التعليم إلى التأليف في هايدبرج.

من آثاره: أصول الطب العربي على عهد الخلفاء، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (كلكتا 1856م)، **سيرة محمد** في ثلاثة أجزاء (نجيب العقيق، 1964م، ص ص 631-632).

2-باسكوال دي جاينجوس: (*Paucul de Gayangos*): مستشرق إسباني، ولد في إشبيلية، تلقى العربية على يد دي ساسي في باريس، ثمّ عين مترجما في وزارة الخارجية عام 1813م ثم أمينا للمخطوطات العربية في المكتبة الملكية ، عين أول أستاذ للغة العربية في جامعة مدريد عام 1843م.

من آثاره: تاريخ المسلمين في إسبانيا، وله في السيرة النبوية قصيدة: مديح محمد، وهي من الشعر الإسباني في القرن الرابع عشر (عبد العزيز شاكر حمدان الكبيسي، 2008م، ص54).

3-**لافو انتي إي القنطرا ميجيل (*Lafucente Y Alcntr*):** مستشرق إسباني، ولد عام 1817م، وتعلم في المعهد الديني في ليون وسانتاجو، وله في السيرة النبوية تأليف بعنوان: **حياة محمد، طبع سنة 1963م.**

4-كستريو ماركيت: (*Castrillo Marguez*): مستشرق إسباني، ولد في مدريد سنة 1931م، اشتغل مدرسا للغة العربية بجامعة كومبلوتنس عام 1959م.

من آثاره في تاريخ السيرة النبوية: السيرة النبوية ملاحظات عن تاريخها في العصر الوسيط.

ثانيا-حادثة الإسراء والمعراج في الكتابات الاسبانية:

1-الدلالة اللغوية لمصطلح السيرة: هناك وجهات نظر متعددة تتعلق بالمضمون المعرفي لمصطلح السيرة، فأي تسمية هي الأوفق: السيرة أم الترجمة؟

جاء في كتاب إحسان عباس عن فن السيرة: "ففي أحضان التاريخ إذن نشأت السيرة وترعرعت، واتخذت سمتا واضحا، وتأثرت بمفهومات الناس عنه على مر العصور، وتشكلت بحسب تلك المفهومات، فكانت تسجيلا للأعمال والأحداث والحروب المتصلة بالملوك عند الصينيين والمصريين والآشوريين" (إحسان عباس ، 1956م، ص09).

وفي هذا الصدد أيضا يقول محمد بيومي بهران: "ولا ريب في أن الدراسات التي تبحث في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومغازيه، إنّما هي من أعلى الكتابات منزلة وأكرمها موضوعا..." (محمد بيومي بهران ، 1990م، ص09) ، فالطابع الغالب على السيرة النبوية هو ذلك الفضاء التاريخي الذي يعرض للفرد في نطاق المجتمع، غايتها تعليمية وأخلاقية.

وقد كان محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (**محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب:** الإمام العلم، حافظ زمانه، نزيل الشام. قال علي بن المديني :له نحو من ألفي حديث، وقال أبو داود : حديثه ألفان ومائتا حديث ، النصف منها مسند. (شمس الدين الذهبي ، 2004م، ص327) أول من استعمل كلمة **"سيرة"**، وقصد بها حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم (محمد برادة، مرجع سابق، ص07).

2-حادثة الإسراء والمعراج: اهتم الإسبان بحادثة الإسراء والمعراج، ويعود هذا الاهتمام لأسباب تعود إلى:

- القرب الجغرافي من المسلمين
- الصراع التاريخي بين الإسبان والمسلمين.
- التاريخ المشترك بين الإسبان والمسلمين
- تواجد المستشرقين على الأراضي المغاربية في فترة الاستعمار واشتغالهم بالترجمة (التاريخ الاسلامي) (محمد برادة، مرجع سابق، ص07).

إنّ حادثة الإسراء والمعراج الذي جعل منه الغرب كتابا، وصوروا لبعض قرائه أنّه **"كتاب مقدس"** للمسلمين هو حدث أراد به المستشرقين النيل من الدين الاسلامي، بل إنّ هذه الحادثة قد أثرت على بعض لمؤلفات الأدبية والشعرية في إسبانيا، كما تعددت المؤلفات في العصر الوسيط وعصر النهضة.

وقد ورد الكثير من المؤلفين ممن كان لهم اهتمام بالكتابة في السيرة النبوية وبالخصوص في حادثة الاسراء والمعراج نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: سانطو طوماس دي أكينو الذي ألف كتاب:

VERDADERO CARÁCTER DE MAHOMA Y DE SU RELIGION. Justa idea de este falso profeta sin alabarle con exceso, ni deprimirle con odio. (محمد برادة، مرجع سابق، ص07)

ورد في هذا الكثير من المغالطات والأكاذيب في شخصه صلى الله عليه وسلم، وخلط الافتراء بالحقيقة، ومن ذلك نجد عناوين البحوث صارخة من خلل مفاتيحها (*falso profecto*) "النبي المكذوب- المدعي – غير الحقيقي"، وهو حكم يهدف إلى إبعاد النبي صلى الله عليه وسلم عن الحق، وكذا إبعاد الفكرة الدينية الاسلامية عن الواقع المسيحي وخاصة ما تعلق بإسبانيا.

في الصفحة الأولى لهذا الكتاب نقرأ مايلي: "ذلك الانسان المشهور بسلاحه وبسرعة فتوحاته...والذي لا يسقط السلاح الأبيض من يديه قد وجدو أقلام كتاب تدافع عنه بالرغم من أنهم لم يعصبوا له عمامته"(محمد برادة، مرجع سابق، ص14) ، فالكاتب هنا قد انغاض لوجود أقلام منصفة من الاسبانيين يدافعون عن النبي الكريم.

يعتبر إلغاء الآخر عند المستشرقين ناتجا من الخوف الكبير الذي يجده الانسان في النقص، فالكاتب يرى سرعة انتشار الاسلام، وكثرة أتباعه، وعلى الرغم من ذلك يقول: "إنّ قانون محمد فيه أكاذيب كثيرة ومعتقدات ضد القانون الطبيعي بالرغم من كل هذا يتمسك المورو – يعني المسلم- بها... إنّ هذا المورو بليد، لأنّ جمال الدين لا يُرى من خلال ملاحظات أساتذته ولكن من خلال قداسة قانون (*Manuel de Santo Tomás ,p213*)

وعموما فإنّ الغرب كانوا في صراع مع الذات، وقد حاول رجال الدين إرجاع الناس إلى تدينهم بعد القطيعة التي عرفوها في معتقداتهم، فكان جلّهم هو الهجوم على الدين والسيرة النبوية الشريفة، وحادثة الإسراء والمعراج لم تعطى من مصدرها، وإنما فسرت من منظور استشراقي وصل إلينا عن طريق مخطوطات باريس واكسفورد، وكلها مخطوطات مترجمة من اللاتينية ، ومما جاء في هذا الكتاب نورد هنا بعضا من ملاحظاته :

- أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان في بيت أم هانئ ليلة الإسراء.
- تحفظت الترجمات في مسألة رفعه النبي عليه الصلاة والسلام إلى سدرة المنتهى وقربه من الله تعالى.
- الاطناب في مسألة وصف جهنم.

كما لم ترد جملة من الحقائق نذكر منها:

- الصلاة التي صلاها محمد صلّى الله عليه وسلم.
- إمامته للرسل عليهم الصلاة والسلام.
- الحوار الذي دار بينه وبين الله تعالى (محمد برادة، مرجع سابق، ص07).

وكل ما قلناه لا يلغي مشاركة بعض المستشرقين في تدوين السيرة العطرة، سنتكلم عنه بشيء من التفصيل في ملتقيات لاحقة بحول الله تعالى.

ثالثا- حادثة الإسراء والمعراج من خلال كتاب "محمد حياته والقرآن":

تناول الكاتب سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، والقرآن الكريم، ورد فيه مجموعة من الأفكار الخاطئة والكاذبة والطعن في سيرته عليه الصلاة والسلام، حيث تطرق الكاتب في الجزء الأول للحديث عن حادثة الإسراء والمعراج يقول فيه: "كاد حدث الإسراء والمعراج يقضي على دعوة الرسول فكان أبو بكر هو المنقذ للرسول من صخب قريش واستهوائها"(*Montero Vidal, 1962, p255*) .

ويضيف في هذا الصدد: "بفضل أبي بكر كما قلنا وتعقل الرسول عندما حذف هذه القصة من القرآن وقد عدّها رؤيا رآها بفضل هذا كله استطاع تفادي الخطر" (*Manuel de Santo Tomás ,p213*) ، يعتبر هذا الاتهام باطلا، وهي أتفه من أن يردّ عليها.

رابعا-حادثة الإسراء والمعراج في القرآن الكريم:

1- الإسراء والمعراج: المفهوم والدلالة: خصّ الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالكثير من الخصائص والفضائل، ومن هذه المعجزات الإسراء والمعراج، فأمّا **الإسراء**: فهي رحلةٌ أرضيّةٌ من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، وقد ذكر الله هذه المعجزة بسورةٍ سُميت باسمها، قال الله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ 1** ﴾ (**سورة الإسراء**، الآية رقم 01).

وأمّا **المعراج** فهو رحلةٌ سماويّةٌ تتمثل في صعود النبي عليه الصلاة والسلام من بيت المقدس إلى السموات العلى، وبعدها إلى سدرة المنتهى.

2-الإسراء والمعراج في القرآن الكريم: لم يذكر القرآن الكريم أنّ حادثة الإسراء والمعراج رؤيا منامية، بل هي رحلة حقيقية في اليقظة، فالإسراء ثابت في كتاب الله عز وجل، وهي سورة **الإسراء** (محمد متولي الشعرواي: ، 2003م، ص ص 45-50)، حيث صدّرها الله بقوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** (1)﴾، (**سورة الإسراء**، الآية رقم 01) ، هذا النص القرآني هو عمدتنا في توثيق هذا الحدث، وحين يجيئ النص القرآني بحدث، فليس لنا إلا أن نؤمن به، لأنه ورد من الله سبحانه وتعالى (محمد متولي الشعرواي، مرجع سابق، ص18)، فقد أُسري برسول الله صلى الله عليه وسلم بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكبا على البراق صحبة جبريل عليه السلام، فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إماما،

وربط البراق بحلقة باب المسجد (شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن قيم الجوزية ، (د.ت)، ص ص11-12).

قال ابن باز رحمه الله تعالى: آية عظيمة، وإسراء عظيم لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم هذا من خصائصه عليه الصلاة والسلام، هي معجزة عظيمة أنّ الله أسرى به من المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السماء حتى جاوز السبع ، وصار إلى محل رفيع يسمع فيه صريف الأقلام، وكلمه مولاه عز وجل، وفرض عليه الصلوات الخمس، وأحيا له الأنبياء بصورهم، قابلوه وسلموا عليه بصورهم التي كانت معروفة، كلهم يقولون مرحبا بالنبي الصالح، والأخ الصالح، ماعدا آدم وإبراهيم، فقالا: مرحبا بالابن الصالح والأخ.

فقد ذكر الله بعض المشاهد التي رآها النبي في المعراج في بداية سورة النجم، لقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)**﴾، (**سورة النجم**، الآية رقم 18)، وكانت هذه المعجزة للنبي، بروحه وجسده، وبدأت هذه الرحلة حين كان النبي نائماً فأتاه آتٍ فشقّ صدره، واستخرج قلبه وملأه إيماناً وحكمةً، ثمّ جاء جبريل بالبراق.

(*Ibn Abbas et Abou Ishaq Mhammad Ben Ibrahim Al-Namani,2006,P09*)

فحمل النبي من مكة إلى بيت المقدس، فجمع الله له الأنبياء، فصلّى بهم ركعتين، ثمّ صعد به جبريل إلى السماوات العلى، التقى في السماء السابعة إبراهيم، وفي السادسة موسى، وفي الخامسة هارون، وفي الرابعة إدريس، وفي الثالثة يوسف، وفي الثانية يحي وعيسى، وفي الأولى آدم عليهم السلام، هذا هو ترتيبهم في الأحاديث الصحيحة (شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن قيم الجوزية، مصدر سابق، ص11).

وأما معراجه عليه الصلاة والسلام إلى السموات بروحه وجسده، ووصوله عند سدرة المنتهى فقد ثبت ذلك في سورة النجم لقوله تعالى: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)**﴾، (**سورة النجم**، الآية رقم 1- 18).

جاء الإسراء والرسول صلى الله عليه وسلم يواجه أعتى صورة التكذيب بدعوته والاستهزاء بشخصه، والإيذاء له ولأصحابه، وكان من فضائله وخصائصه صلى الله عليه وسلم هذه الرحلة العظيمة **"الإسراء والمعراج"**، فأما الإسراء فهي رحلة أرضية في لمح البصر من مكة إلى بيت المقدس، وأمّا المعراج فهو رحلة سماوية من بيت المقدس إلى السماء السابعة إلى سدرة المنتهى من خلالها أراه الله تعالى الجنة والنار، ورأى فيها أصنافاً من المعذبين والمنعمين.

خاتمة:

وقفت في هذه الدراسة على موضوع موسوم بـ: كتابات الإسبان في السيرة النبوية: حادثة الإسراء والمعراج أنموذجا، وبعد دراستي له، وتطلعي على المادة المصدرية التي اعتمدتها خلصت إلى ما يلي:

- إنّ الله سبحانه وتعالى هيّأ للنبي صلى الله عليه وسلم مراحل لنجاحه في الدعوة الاسلامية، وخلق الله في عرف البشر أسبابا ، ومسببات تكوّن نتائج، وهذه الأسباب كان الله في غنى عنها، وكان من الممكن جدّا أن ينصر الله دينه بدون أن يجعل من أسباب البشر ولا من ماديات الحياة مقدمات، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء أسوة لأمته المؤمنة، ليصل إلى منطلقه فيما يريده الله تعالى من تبليغ الدعوة والثبات عليها، فيما نجد كتابات استشراقية فيها من السلبيات وإساءة إلى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يدفع للكتابة في السيرة النبوية، والردّ عليهم بما يتناسب معهم، وبما يتطلبه الدفاع عن سيرة نبينا، وإسلامنا الحنيف، فالإسلام دين يحترم الديانات ولا يطعن فيها.

- تتعرض هذه الدراسة إلى حادثة الإسراء والمعراج بقضاء الله سبحانه وتعالى، وقدرته وحكمته في هذا الأمر، طرحتها من منظور فكر إسلامي، واستدلالات منطقية واضحة ضمن سور القرآن الكريم، وذلك ردّا على بعض الكتابات الاستشراقية الإسبانية والتي تتمثل في بعض المؤلفات التي تبث الأكاذيب والمغالطات حول سيرته صلى الله عليه وسلم.

توصيات:

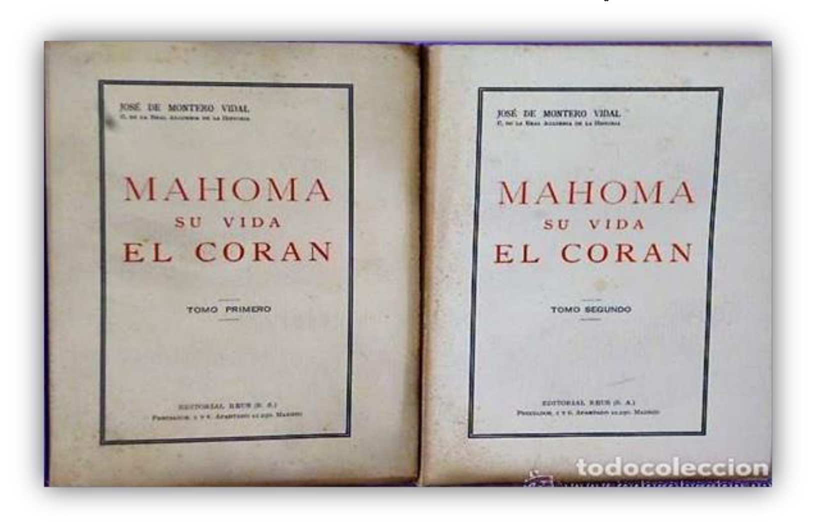
وأختم هذه الدراسة بجملة من التوصيات:

- ضرورة تشجيع طلاب الدراسات العليا لتبني مثل هذه المواضيع في مشاريعهم العلمية.
- التعرف على مناهج البحث الاستشراقي في كتابة التاريخ الاسلامي، والتعريف بحقيقة الإسلام والمسلمين من خلال إقامة ندوات وملتقيات وطنية ودولية.
- إقامة اتفاقيات دولية من أجل التعرف أكثر على الانتاج الفكري الاستشراقي حول الإسلام، وجديد التحقيق في التراث الاسلامي.

الملاحق:

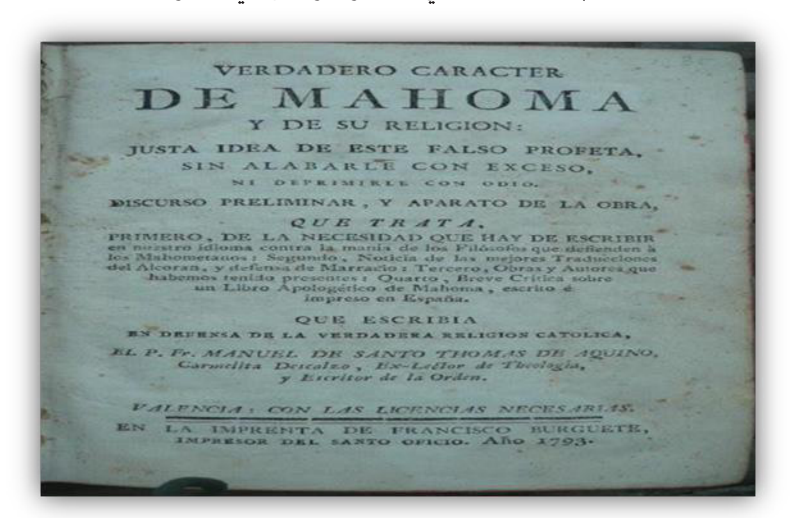
الملحق رقم 01:

واجهة كتاب: **محمد حياته والقرآن** لمؤلفه الإسباني مونتيرو فايدال



الملحق رقم 02

واجهة كتاب الإسباني سانطو طوماس دي أكينو



VERDADERO CARACTER
DE MAHOMA
Y DE SU RELIGION:
JUSTA IDEA DE ESTE FALSO PROFETA,
SIN ALABARLE CON EXCESO,
NI DEPRIMIRLE CON ODIO.
DISCURSO PRELIMINAR, Y APARATO DE LA OBRA,
QUE TRATA,
PRIMERO, DE LA NECESIDAD QUE HAY DE ESCRIBIR en nuestro idioma contra la manía de los Filósofos que defienden á los Mahometanos: Segundo, Noticia de las mejores Traducciones del Alcoran, y defensa de Marracio: Tercero, Obras y Autores que habemos tenido presentes: Quarto, Breve Crítica sobre un Libro Apologético de Mahoma, escrito é impreso en España.
QUE ESCRIBIA
EN DEFENSA DE LA VERDADERA RELIGION CATOLICA,
EL P. Fr. MANUEL DE SANTO THOMAS DE AQUINO, Carmelita Descalzo, Ex-Lector de Theologia, y Escritor de la Orden.
VALENCIA: CON LAS LICENCIAS NECESARIAS.
EN LA IMPRENTA DE FRANCISCO BURGUETE, IMPRESOR DEL SANTO OFICIO. Año 1793.

مصادر البحث ومراجعه:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

1- **المصادر:**

- الذهبي أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، (2004م)، **سير أعلام النبلاء**، ج23، بيت الأفكار الدولية، لبنان.
- الجوزية شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن قيم (ت751هـ)، (د.ت). **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ج3، دار الآثار للنشر والتوزيع، القاهرة.

2- المصادر بالأجنبية:

- Manuel de Santo Tomás :Verdadero caracter de Mahoma y de su religión : justa idea de este falso profeta, sin alabarle Valencia : En la Imprenta de Francisco Burguete, Impresor del Santo Oficio, 1793-1795.
- Ibn Abbas et Abou Ishaq Mhammad Ben Ibrahim(2006) Al-:Le Voiyage nocturne et L'Ascension (al-Isra' Et Al-Mi'Raj), Dar Al- Kotob Al- Ilmiyah, Byrouth,.
- Montero Vidal, José de, Mahoma su vida y el Corán, Madrid, Reus, 1926. Pastoret.Compendio :Historico de la vida del falso profecta Mahoma. Madrid.

3- المراجع:

- الكبيسي عبد العزيز شاكر حمدان، (2008م)، **السيرة النبوية في الكتابات الإسبانية**، بحث مقدم لندوة السيرة النبوية في الكتابات الإسبانية التي انعقدت في رحاب كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المملكة المغربية.
- عباس إحسان، (1956م)، **فن السيرة**، دار الثقافة، بيروت.
- الشعراوي محمد متولي، (2003م)، **الإسراء والمعراج**، دار الجيل، بيروت،.
- بهران محمد بيومي، (1990م)، **السيرة النبوية الشريفة**، دار النهضة العربية، بيروت.
- برتو عصام فخري، (2015م)، **الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين،** الاستشراق البريطاني أنموذجا، مجلة دراسات استشراقية، العدد الخامس.
- برادة محمد (د.ت)، **دراسات إسبانية للسيرة النبوية**، بحث مقدم لندوة العناية بالسنة والسيرة التي نظمها مجمع طباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، (د.ن).
- الصاوي آسية وآخرون، (د.ت). **السيرة النبوية والإعلام الإسلامي**، مكتبة مصر.
- سعد قاسم علي،(2002م)، **جمهرة تراجم الفقهاء المالكية**، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، ط1، دبي.
- العقيق نجيب، **(1964م)، المستشرقون**، موسوعة في تراث العرب مع أعلام المستشرقين ودراساتهم عنه منذ ألف عام حتى يومنا هذا،ج1، دار المعارف، بمصر، القاهرة.

القرآن الكريم في ضوء دراسات المستشرقين

The Noble Qur'an in the Light of Orientalist Studies

د. امحمد ربة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة -الجزائر

rebbamhamed@gmail.com

مُلَخَّصُ البَحْثِ

يسعى البحث إلى إماطة اللثام وكشف الحجاب عن موقف المستشرقين ازاء القرآن الكريم وتسجيل بعض آرائهم حول بعض قضاياه ومسائله، واتخذت في بلوغ هذا المرام منهجية قد اشتملت على: أولا: منزلة القرآن الكريم، ثانيا: التعريف بالاستشراق من الناحية اللغوية والاصطلاحية، وأهدافه، ووسائله، ثالثا: موقف المستشرقين من القرآن الكريم، وقد تضمن: 1. التشكيك في مصدر القرآن الكريم ونفي قَداسته. 2 تعطيل قراءات القرآن الكريم وابطال روايته (الأحرف السبعة). 3 الطعن في الجمع العثماني للقرآن الكريم.

وقد جاء البحث في مجموعه، مشيرا ومؤكدا - بلا أدنى شك - على ثبوت اللاموضوعية وانعدام المنهج العلمي الصحيح لدى المستشرقين؛ وخواء جعبتهم من الحجج والبراهين في دراستهم للقرآن الكريم وعلومه، وكذا قضاياه المطروحة للنقاش على الساحة العلمية المعاصرة.

الكلمات مفتاحية: الكتاب، الدراسات، البحوث، المستشرق، الأهداف.

Abstract :

The research seeks to unmask and unveil the veil on the position of Orientalists towards the Holy Qur'an and to record some of their opinions about it. In achieving this goal, a methodology was taken that included: First: the status of the Holy Qur'an, Second: Defining Orientalism from a linguistic and idiomatic point of view, its objectives, and its means, Third: the position of Orientalists From the Holy Qur'an, it included: 1 Questioning the source of the Holy Qur'an and denying its sanctity. 2 Disrupting the readings of the Noble Qur'an and nullifying its narration (the Seven Letters). 3 Challenge the Ottoman collection of the Holy Quran.

The research came as a whole; Pointing out and emphasizing - without any doubt - the evidence of subjectivity and the lack of the correct scientific method among the Orientalists; And their empty pockets of arguments and proofs in their study of the Holy Qur'an and its sciences, as well as the issues raised for discussion in the contemporary scientific arena.

Keywords: Book, studies, research, orientalist, goals.



مقدمة:

لقد بدأ العِداء على الإسلام وأهله منذ بِعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن العظيم على قلبه ليكون من المنذِرين، فسعى الحاقدون على هذا الدين الحنيف والمتهوّكون فيه منذ زمن بعيد إلى تشويهه وتلفيق التهم له والافتراءات؛ بُغية صدّ الناس عن اتّباع سبيله وصرفهم عن الإيمان به والتمسك به، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز مصوِّرا لنا هذا الحقد الدفين والقصد المشِين: ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39)**﴾ [يونس: 39].

إلا أن الله تعالى بحكمته وعدله فقد كتب النصر والعزة لرسله وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51)**﴾ [غافر: 51].

وكما قيل: لكل قوم وارث ولكل سلف خلف..؛ فقد تلقّى أقوام في زماننا الحاضر عن أعداء الإسلام قديما شبهات وأكاذيبَ في حق القرآن الكريم والسنة المطهرة، والتي هي أوهى من بيت العنكبوت لو كانوا يعلمون، وأقصد بهؤلاء من يُلقّبون بـ: المستشرقون.

وموضوع حديثنا في هذه الورقة عن الاستشراق: ما يعني الحديث عن تيار فكريٍّ دخيل على ديننا وأجنبي عن أمتنا، يرمي إلى هدم الإسلام وتقْويض أركانه وزرع الشك والبَلبة في أوساط المسلمين سواء المتعلمين منهم وغير المتعلمين.

ومن هنا تفطّن علماء الشريعة إلى ضرورة الوقوف في وجه هذا المشروع الخطير وبيان زيفه ودحض شبهاته، وكشف اللثام عن حقيقة المستشرقين من وراء الستار العلمي المزعوم والموضوعية المدّعاة المكذوبة.

وكما لا يخفى على الباحثين في الدراسات الإسلامية المعاصرة؛ فإن المستشرقين قد تناولوا الإسلام من جوانب عديدة وبحثوا مصادره وأصوله، غير أن المُلفت للنظر والمحيّر للفِكَر هو تركيز جهودهم بصفة حثيثة على القرآن والسنة أكثر مما سواهما، ولذا سأقتصر في هذه الورقة البحثية على تسليط الضوء عن موقف هؤلاء من القرآن الكريم؛ وذلك باعتباره أول مصادر التشريع وأقْدس كتاب عند المسلمين. وقد أسميتها:

" القرآن الكريم في ضوء دراسات المستشرقين ".

ويرتكز البحث في أصله ويقوم على إشكالية كبرى يمكن صياغتها كما يأتي: ما موقف المستشرقين من القرآن الكريم دراسة وبحثا ؟

ويتفرّع عنها بعض التساؤلات الوجيه كما يلي: ماذا نقصد بالاستشراق ؟ وما هي أهدافه ووسائله ؟

ويهدف البحث ويرمي البلوغ إلى عدة مقاصد مهمة وغايات لازمة أذكر منها:

- بيان عظمة كلام الله عز وجل وتبْرئته من طعونات المستشرقين.
- الوقوف على شيء من جدالات الباحثين المستشرقين حول القرآن وعلومه.
- تنوير القارئين والباحثين بحقيقة منهج المستشرقين وكذا بيان أغراضه الخفيّة.

وأما عن خطة البحث: فقد تجسّدت في عناصر معلومة محدودة كانت كافية للإجابة عن رأس الإشكال وما تفرّع عنه، وذلك كما يأتي:

- منزلة القرآن الكريم.

- الاستشراق: المفهوم، الأهداف، الوسائل.
- موقف المستشرقين من القرآن الكريم.

أولا- منزلة القرآن الكريم :

إن القرآن الكريم هو: "كلام الله المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلّم المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المعجز ولو بسورة منه" (الحلبي، 1414هـ، 1993م، صفحة 10).

وقد وصف الله كتابه العزيز بأجلِّ الأوصاف وأكمل النعوت، كقوله تعالى: ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ(1)**﴾ [هود: 1].

ولا يشك عاقل من أهل الإيمان على عظمة هذا الكتاب وتنزُّهه عن التناقض والاضطراب، وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42)**﴾ [فصلت: 42].

وكذلك تباعده عن الشك والارتياب كما قال ربّ العالمين عن آياته: ﴿**الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2)**﴾ [البقرة: 1- 2]. فهو الفصل لا هزل فيه واليقين لا امتراء يعتريه.

وهو السراج المنير والنور المبين كما قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174)**﴾ [النساءك 174]. وقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِوَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (9)**﴾ [الحديد: 9].

وقد أجمع علماء المسلمين قاطبة على أن القرآن العظيم هو أساس الدين العظيم وركنه المكين، كما أنه أول الأدلة وأجمع مصدر في تشريع الأحكام سواء: عقيدة أوعبادات أومعاملات..، والناظر في كتب أصول الفقه يدرك هذا الأمر، فما من كتاب من كتب الأحكام إلا وتذكر في باب الأدلة الشرعية: القرآن ثم السنة ثم الإجماع ثم القياس (الهادي، 1433هـ، 2012م، صفحة 64) و (المقدسي، 1420هـ، 1999م، صفحة 306/1) و(الطوسي، 1413هـ، 1993م، صفحة 308)، فنال كتاب الله تعالى الصَّدارة في تشريع الأحكام كما في تقرير العقائد وتهذيب السلوك.

ويقول ابن تيمية في بيان فضل القرآن وكبير مقامه وعلو شأنه: "وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن الذي هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يَخْلَق عن كثرة الترديد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل" (تيمية، 1490هـ، 1980م، صفحة 7).

ولو ذهبنا إلى تِعْداد فضائل القرآن الكريم لاحتاج منا ذلك إلى مؤلفات عديدة، ولهذا صنّف علمائنا قديما كتبا كثيرة في هذا الباب تحت مسمى: فضائل القرآن.

حيث اشتملت مصنفات فضائل القرآن على بيان منزلة هذا الكتاب العزيز وما أوْدعه الله تعالى فيه من الخيرات والبركات التي أكثر من أن تُحصر وأشهر من أن تُذكر...

ثانيا- الاستشراق: المفهوم، الأهداف، الوسائل:

سأتطرق في البداية إلى نبذة تعريفية بالاستشراق من خلال: بيان مفهومه؛ وذكر أهدافه ومقاصده؛ بالإضافة إلى تحديد وسائله الذي يسير عليه في دراساته للإسلام والمسلمين.

1. مفهوم الاستشراق في اللغة والاصطلاح:

أ. في اللغة: إذا بحثنا عن المعنى اللغوي للفظ: (استشرق) في معاجم اللغة فإنه لا نجد له معنى محدّدا في لسان العرب، وهذا ما يعني أنه لفظ محدَث ومولّد وليس أصيلا في اللغة العربية، والسين في الفعل للطلب كما هو معلوم، والاستشراق والمستشرق، أي: هو طلَب جهة الشرق.

وإذا أمعنا النظر في مصدر الاستشراق لغة؛ فيظهر لنا أنها قريبة من ناحية الاشتقاق إلى مادة شرق وراجعة إليها بشكل عام أكثر من أي مادة أخرى.

ويطلق لفظ شَرَق - بالفتح - في اللغة ويراد به جملة من المعاني المختلفة:

قال ابن دريد: "والشرق ضد الغرب، والمشرق ضد المغرب، والمشرقان: مطلع الشتاء ومطلع الصيف، والمشارق: مطالع الشمس كل يوم حتى تعود إلى المطلع الأول في الحول. وشرقت الشمس، إذا طلعت، وأشرقت، إذا امتد ضوءها" (الأزدي، 1987م، الصفحات 370/2-371).

"وأَشْرَقَ الرجل أي دخَل في شُروقِ الشمس. وأَشْرَقَ وجهُهُ، أي ضاء وتلالا حسنا" (الجوهري، 1407هـ، 1987م، صفحة 1501/4).

إذن: الشين والراء والقاف أصل واحد يدل على الإضاءة والنور والوضوح والطلوع. ومن ذلك شرقت الشمس، إذا طلعت وأشرقت وأضاءت. والشروق: طلوعها كما قال ابن فارس (القزويني، 1399هـ، 1979م، صفحة 264/3).

ب.في الاصطلاح: ذكر صاحب معجم متن اللغة تعريفا وجيزا سهلا لمعنى الاستشراق

قائلا: "استشرق: طلبَ علوم أهل الشرق ولغاتهم "مولدة عصرية"، يقال لمن يُعنى بذلك من علماء الفِرنجة" (رضا، 1377هـ، 1380هـ، صفحة 301/3).

وهو في معجم اللغة العربية المعاصرة: "عناية واهتمام بشؤون الشرق وثقافاته ولغاته".

أي: من طرف الأروبيين والأجانب عموما من غير المسلمين العرب (عمر، 1429هـ، 2008م، صفحة 1192/2).

وأما بالنسبة للمستشرق - اسم فاعل من لـ: استشرَق- وهو: "من يهتمّ من الأوربيّين بالدراسات الشرقيّة" (عمر، 1429هـ، 2008م، صفحة 1193/2).

الاسشتراق هو: الدرسات الأروبية التي تخصّ كل ما له علاقة بمنطقة الشرق، أي بلاد المسلمين، وذلك من كل المناحي: الدينية - بشكل أساسي – واللغوية؛ والتاريخية؛ والاجتماعية؛ والثقافية، بهدف التعرف عليها وتحقيق جملة من الأهداف الخفيّة بعد ذلك.

كما يمكن تعريفه بأنه: تيار فكريّ جديد ومذهب أجنبيّ وافد يهدف إلى التطلع والمعرفة لما عند المسلمين من علوم ومعارف.

والمستشرق: هو كل شخص غربيّ يهتم بالدراسات الشرقية - العربية الإسلامية – عقدية كانت أو تاريخية أو اجتماعية أو غير ذلك...

2. أهداف الاستشراق: لاشك أن للاستشرق عدةَ أغراض يرمي إليها ويسعى إلى تحقيقها وفق أساليب وطرق متنهَجة من طرف الباحثين المستشرقين، وقد تفطّن - ولله الحمد - أغلب المسلمين سيما العلماء منهم والمصلحين لهذا الأمر الدّاهم لديار أهل الاسلام، فظهرت مقاصدهم جليّة لكل ذي لبٍّ وبصيرة؛ ولم ينْطل أمرهُم إلا من أحسن الظن بهم وارتضى توجُّههم وأفكارهم دون تمييزٍ لِصحيح القول من سقيمه.

ولعلنا في هذه الجزئية من البحث نتطرق إلى ذكر أبرز مقاصد الفكر الاستشراقي الدارس لدين الإسلام وحياة المسلمين بصفة عامة مختصرة؛ وإلا فإن دراسة أغراض المستشرقين الحقيقية للإسلام وأهله لا يكفي لذكرها ورقة بحثية وجيزة كهذه، ولهذا سأقتصر على ذكر أبرزها وأخطرها في الآن نفسه.

فمن أهم أهداف المستشرقين- غير الظاهرة - في دراسة الدين الإسلامي ما يلي: (حنبكة، 1420هـ، 2000م، صفحة 127 وما بعدها).

- تشويه الإسلام والافتراء على المسلمين وتقديم صورة معكوسة لهما، وكل ذلك من أجل بعث الكراهية في قلوب النصارى تجاه الإسلام وأهله؛ خشية دخولهم واعتناقهم هذا الدين الخالد.
- العمل على تنْصير المسلمين وإبعادهم عن دين الله تعالى بكل الوسائل والطرق، ولو بالشبهات التي لا أساس لها من الصحة نقلا وعقلا.
- خلق النزاعات وايجاد الاختلافات في أوساط المجتمعات الإسلامية وإدخال علماء المسلمين وباحثيهم في دوامة من الصراعات الفكرية والانشقاقات المذهبية، تطبيقا لسياسة: فرِّق تسد، ولئلا تقومَ للمسلمين بعد ذلك دولة ولا ترتفع لهم راية.
- نهب خيرات المسلمين ومقدَّراتهم العلمية والحضارية، والعمل على الاستفادة من الموروث الإسلامي لصالح الغرب والأروبيين.
- الطمع في استعمار البلدان الإسلامية والسيطرة على أراضيهم وأقاليمهم، وذلك بالغزو العلمي والثقافي لأبنائهم والحرب العقائدية والأخلاقية عليهم في عقر ديارهم.
- نشر النصرانية في العالم وتحقيق التوسع الجغرافي للبلاد الأروبية على حساب البلاد الإسلامية والعربية.

ويمكن القول بأن من أبرز أهداف هذا التيار الوافد: زرع الشكوك في القرآن والسنة عند كل مسلم على وجه المعمورة، لأن الدين الإسلامي قائم على كتاب الله تعالى وعلى حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإذا سقط هذان الأصلان سهُل بعد ذلك سقوط غيرهما من الأحكام الشرعية؛ بل وما بني عليهما جميعا. (عميرة، دت، صفحة 117).

إذن: فالمستشرقون لهم مقاصد كثيرة وأطماع عديدة يبتغون تحقيقها من وراء بحوثهم ودراساتهم للعالم الإسلامي: دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية..

يقول المستشرق الفرنسي: "لم نبحث في الشرق إلا عن منفعتنا، لقد دمّرنا كل ما هو خاص بهم ولا رغبة لنا إلا أن نبعثهم ضعفاء" (فؤاد، 1422هـ، 2001م، صفحة 33).

3. وسائل الاستشراق: (رضوان، 1413هـ، 1992م، صفحة 49/2) و (زقزوق، دت، صفحة 62) و (حنبكة، 1420هـ، 2000م، صفحة 134).

انتهج المستشرقون جملة من الطرق والوسائل لبلوغ الأهداف الدينية والاجتماعية والسياسية المذكورة آنفا، ومن هذه الأدوات المستعمَلة من طرف الباحثين المستشرقين ما يأتي:

- تأليف كتب الاستشراق ونشرها.
- تحقيق كتب التراث الإسلامي وترجمتها إلى اللغات الأجنبية لدراستها والصاق الثغرات بها والهفوات.
- ترجمة كتب الاستشراق إلى اللغة العربية وتوزيعها.
- إصدار الموسوعات العلمية الخاصة بهم.
- إصدار الدوريات والصحف.
- تأسيس المؤسسات العلمية وانشاء المراكز: مدارس، معاهد، جامعات..
- إنشاء المجامع العلمية وعقد المؤتمرات والندوات والقاء المحاضرات والدروس.
- إنشاء المكتبات والمتاحف الخاصة بهم وبأفكارهم.
- دعم الحملات التنصيرية وارسال البعثات التبشيرية للديار الإسلامية والفقيرة منها على وجه الخصوص.

ومن هنا يُفهم أن التيار الاستشراقي والباحثين في هذا الفَلَك لم يَأليا جُهدا في زعزعة واستقرار البلدان الإسلامية والعربية، وذلك ببثّ مذاهبهم الفكرية وعقائدهم الدينية على حساب الهوية الإسلامية وهزّ الثوابت والمسلَّمات لدى كل فرد مسلم، ولهذا تراهم قد سخّروا أقلامهم كتابة وترجمة ونشرا، وعقدوا الندوات وأسسوا المراكز والجامعات؛ وذلك من أجل التعريف بأفكارهم الهدّامة والترويج لها عند المسلمين لاسيما الطلاب وفئة الشباب منهم.

بالإضافة إلى كسب واسْتِمالة بعض الرموز العربية والشخصيات الإسلامية الموالية لهم والمؤثِّرة في المجتمع الإسلامي؛ وذلك باتخاذهم جِسرا وجعلهم مُتكئا لتمرير رؤيتهم الاستشراقية ولو بطمس معالم الإسلام وشرائع الدين، من خلال القاء المحاضرات وعقد المحاورات بين الطلاب والأساتذة الحاملين لواء الاستشراق والمدافعين عنه.

ثالثا- موقف المستشرقين من القرآن الكريم:

لم يسلمِ الكتاب العزيز من دراسات المستشرقين وبحوثهم المقروءة والمسموعة..، والغريب في الأمر عند هؤلاء الذين يدّعون الإنصاف والموضوعية هو بُعْدُهم عن هذين الوصفين مع القرآن الكريم بشكل فاضح لا يمكن تجاهله، والأدلة على غياب تحرِّي الحقيقة عند المستشرقين وسلوك سبيل الظلم مع كلام الله تعالى كثيرة لا تحصى...

لقد رمى المستشرقون القرآن العزيز بتُهم شنيعة لم يسبقهم إليها أحد قبلهم، فكم تطاولوا على أصْدق حديث وخير كتاب؛ الذي أُنزل رحمة للعالمين وهداية للبشرية أجمعين.

وموقف هؤلاء مع القرآن في كثير من جوانبه معلوم لا يخفى؛ وطعوناتهم وانتقاصهم للكتاب لا تُنسى، ولذا سأقتصر على أخطر ثلاثة آراء زيّف فيها المسشترقون الحقائق وأساؤا فيها الأدب مع خاتم الكتب السماوية، وذلك بالرجوع إلى كتبهم ومؤلفاتهم ونقل نصوص كلامهم دون زيادة أو نقصان ما أمكن ذلك، وإليك طرفا منها:

1- موقف المستشرقين من القرآن الكريم:

- التشكيك في مصدر القرآن الكريم ونفي قَداسته:

تعامل المستشرقون مع كلام الله تعالى كأيِّ كتاب بشري آخر أو دونه بكثير، أي: على أنه ليس وحيا معصوما وقرآنا منزّلا على رسوله المصطفى صلى عليه وآله وسلم، بل أجمعوا في بحوثهم ودراساتهم على تقرير هذه العقيدة وتناقلوها لاحقا عن سابق.

فالقرآن في منظور الباحثين المستشرقين هو مزيج ونسيج من عقائد اليهودية والنصرانية التي تلقّاها الرسول عنهم في رحلاته التجارية ومُستمدة منهم ومُستقاة، حيث إن النبي عليه الصلاة والسلام تأثّر بها تأثرا عميقا في نظرهم، ليتشكّل لديه بعد ذلك ما يسمى بظاهرة الوحي. (زيهر، دت، الصفحات 12-22).

نعم هذا هو موقف الفكر الاستشراقي من القرآن العزيز بكل جرأة، وَلَيْتهم توقَّفوا عند هذا الحدِّ وصمتوا دونه، بل وهو أيضا: "في مجموعه مزيج من الطوابع المختلفة اختلافا جوهريًّا، والتي طبعت كلا من العصرين الأولين من عهد طفولة الإسلام". (زيهر، دت، صفحة 22).

والمصيبة في أقوال جولد زيهر في كتابه: (العقيدة والشريعة): اضطرابه في وصفه للقرآن وحكمه عليه مرة باليهودية؛ ومرة بأنه عادات مجتمعية، وأحيانا أنه أَثَر من آثار الأدب العالمي..، فيا ليته ثبت على قول واحد ولم يُكثر على القارئ ويترُكه في حيرة بسبب كلامه المتناقض ! ؟

وقد شبّه هذا الأخير - وهو أحد أقطاب التيار ومنظِّروه - القرآن بالمسيحية قائلا: "وكذلك بعض عناصر القرآن المسيحية نعرف أنها وصلت إلى محمد عن طريق التقاليد أو الروايات المتواترة المحرّفة، وعن ابتداعات المسيحية الشرقية القديمة.." (زيهر، دت، صفحة 25).

كما عدّ إبراهيم لبان أيضا أن القرآن من صنع محمد واختراعه، وقد نقل عنه علي النملة ذلك القول بما نصّه: "أما أن محمدا كان في الحقيقة مؤلِّف القرآن المخترع الرئيسي له فأمر لا يقبل الجدل" (النملة، 1431هـ، 2010م، صفحة 30).

وهذا يعني رمي النبي عليه الصلاة والسلام بالكذب على الله تعالى وذلك بنسبة هذا القرآن إليه سبحانه.

تعقيب:

القول بأن القرآن الكريم ليس كلام الله تعالى ووحي أوحاه إلى رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإنما من قول البشر ونسيج بقايا اليهودية والنصرانية..؛ ادِّعاء يفتقر إلى الحجّة العلمية والبرهان الصحيح، ويرُد قول المستشرقين هذا عدة أمور، ويكفي في بيان وَهَاء زعمهم حجة عقلية واقعية واحدة لا غير؛ ألا وهي: أُميَّة الرسول عليه الصلاة والسلام، فإن عدم علمه بالكتابة والقراءة لهي من أعظم دلائل النبوة وصدق هذا القرآن الكريم، إذ كيف يُعقل برجل لا يقرأ ولا يكتب أن يعلم تفاصيل الشرائع وأحكام الديانات السابقة له بزمن، ومن أين له أن يُنشأ هذا القرآن المعجز بألفاظه ومعانيه ؟ !، وهو لا يعلم شيئا من تصاريف العرب ولا طُرُق بلاغتهم في البيان. مما حيّر العرب البلغاء عند سماعهم هذا القرآن؛ ولم يَسَعْهم حينئذ سوى التسليم والإذعان.

- تعطيل قراءات القرآن الكريم وابطال روايته (الأحرف السبعة):

بعد أن عرفنا - بشكل مختصر - نظرة المستشرقين إلى القرآن الكريم واعتباره مزيجا من الأفكار والعادات وصورة أو نسخة من الملل السالفة والديانات، فلا شك أن هذا الرأي الحائد عن الصواب لابد وأن تكون له تَبِعات غير مرضيّة وأقوال غير سويّة لدى المستشرقين في باقي علوم القرآن الكريم، مثل: التفسير والقراءات والرسم القرآني والإعجاز وغير ذلك.. وسوف نأخذ طرفا من آراء الباحثين المستشرقين في علم القراءات القرآنية ورواياته اعتمادا على مصادرهم المعتمَدة وأقوال مفكِّريهم المدوّنة.

والقصد من خوض هؤلاء في قراءات القرآن هو سعيهم إلى إثبات عدم صحة هذه الأوجه المختلفة في قراءة الآيات القرآنية، ومن ثَمَّ ابطالها ورميها على الهامش.

لقد جنى جولد زيهر كثيرا في حديثه عن أوجه القراءات القرآنية برؤية مضطربة تفتقر إلى الموضوعية وتقتضي منه الدقة وتحرِّي الصواب، حيث نجده يقول في معرض حديثه عن علم القراءات: "ويمكننا أن نستخلص من التجارب في هذه المرحلة أنه فيما يتعلق بإقامة النص المقدّس - أي القرآن - في الإسلام الأول، كانت تسود حرية مطردة إلى حد الحرية الفردية، كأنما كان سواء لدى الناس أن يرْوُوا النص على وجه لا يتفق بالكلية مع صورته الأصلية". (زيهر، مذاهب التفسير الإسلامي، 1374هـ، 1995م، صفحة 48).

فعِلم القراءات في نظر هذا المستشرق هو مجرد حرية فكرية وآراء شخصية، وهذا ليس بغريب منه تماما، حيث سبق وأن علمنا موقفهم القاضي بِبَشريَّة القرآن الكريم من حيث مصدره. فلا غرابة إذن إذا قيل في القراءات ما قيل في القرآن الكريم ذاته !

كما يلاحظ على كتاب: "مذاهب التفسير الإسلامي" لزيهر: الكمّ الهائل من الطعون والشكوك التي رمى بها قراءات القرآن المتواترة، واضعاف ثبوتها والتشكيك في صحتها من ناحية اللغة والإعراب.

وفي حقيقة الأمر ليس مثل جولد زيهر ولا غيره من المستشرقين من يتكلم في اللغة العربية خصوصا النحو العربي والبلاغة والصرف..، لأنه ببساطة ليسوا أهلا لِفهم اللسان العربي وهم أعاجم لم يدرسوها ولم يحيطوا بها علما أصلا، ولهذا حين تكلَّموا في غير فنّهم أتوا بالعجائب والغرائب ؟! وخير جواب لهم في مثل هذا المقام؛ هو المثال العربي القائل: ليس هذا بعشِّك فادْرجي... (القزويني، 1399هـ، 1979م، صفحة 64/4).

تعقيب: القول عن القراءات القرآنية المتواترة بأنها حرية فردية وآراء شخصية، هو قول بعيد عن الصواب وعارٍ عن الدليل. ويقال جوابا عن مثل هذا: إن تلقِّي القراءات كان بادئ الأمر من فمِ الرسول عليه الصلاة والسلام أول مرة، وهي وحي من الله تعالى وقرآن يُتلى بها في الصلاة ويُتعبّد، ولا يوجد قراءة ثابتة صحيحة منقولة إلينا إلا بسند متصل، بل بالتواتر الذي يستحيل معه أي شبهة أو كذب.

أما عن قول المستشرقين بوجود أخطاء لغوية في أوجه القراءات القرآنية، فهذا ما لم يقُل به أهل القراءات وعلماء التجويد وأئمة اللغة ولا ذكروه في كتبهم أبدا، سيما في كتب توجيه القراءات التي عَنَت بمنتهى الإتقان في الإبانة عن: علل القراءات اللغوية؛ وتعداد معانيها؛ ووجوه إعرابها.

- الطعن في الجمع العثماني للقرآن الكريم: من المسائل المبحوثة في دراسات المستشرقين ذات الارتباط بالقرآن الكريم هو: تاريخ جمع القرآن في مصحف واحد، الذي كان سببا في جمع كلمة المسلمين في تلاوتهم

لكتاب ربهم سبحانه، والذي هو من أفضل النعم التي حَباهم الله تعالى بها على سائر الأمم وفضَّلهم بذلك تفضيلا.

إلا أن نظرة الباحثين المستشرقين إلى جمع المصحف الشريف بخلاف ذلك كلِّه، حيث نجدهم يحملون هذا الجمع على محاملَ سيئة للغاية ويذهبون إلى الطعن في النوايا والتشكيك في الأفعال.

يقول بلاشير طاعنا في الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه لما جمع القرآن في المصحف الإمام: "وتم أخيرا إخراج مصحف رسمي قصد الخليفة احلاله محل جميع المصاحف الخاصة " (بلاشير، دت، صفحة 31). فهنا اتهم عثمان بن عفان رضي الله عنه بمحاولة اسقاط الجمع الأول الذي حصل على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ويزيد في اتهامه وتطاوله على الجمع العثماني قائلا: "على أن هذه الرغبة في إحلال نص ثابت ظهرت بتدبير كاد يكون هتكا للقدسيات، وهو اتلاف جميع المصاحف التي سجل عليها الأتقياء المُوحيات التي جمعت عن لسان محمد نفسه وفي حياته" (بلاشير، دت، صفحة 31). ويختم كلامه السابق بزعمه أن مصحف عثمان غير مكتمل في كثير من الجوانب، والذي تسبب في ظهور الخلافات اللهجية والاختلافات اللفظية... (بلاشير، دت، صفحة 31).

تعقيب: نلمس كثيرا من التعسُّف في محاولة يائسة من المستشرقين الذين تكلّموا عن الجمع العثماني للمصحف الشريف. فجمْع عثمان رضي الله عنه هو اتمام وامتداد للجمع البكري الأول الذي كان على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وذكر أبو عمرو الداني في كتابه "المقنع": "عن عروة عن أبيه إن أبا بكر الصديق أول من جمع القرآن في المصاحف حين قتل أصحاب اليمامة، وعثمان الذي جمع المصاحف على مصحف واحد" (الداني، دت، صفحة 18).

وأما عن إحراق عثمان للصحف فليس فيه هتك للقدسيات أبدا؛ بل إنما هو من أجل توحيد الأمة وسد الاختلاف في باب التلاوة، فجَمعهم على مصحف واحد بموافقة جميع الصحابة الكرام رضي الله عنهم؛ الذي هو بمثابة إجماع منهم واتفاق. (السيوطي، 1394هـ، 1974م، صفحة 210/1). فالقصد إذن من صنيع عثمان هو جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإلغاء ما ليس كذلك. (السيوطي، 1394هـ، 1974م، صفحة 210/1).

وكما أن القِبلة واحدة موحّدة والصلاة والحج وغيرهما من العبادات..، فكذلك الأمر بالنبسة للكتاب العزيز؛ بل هو من باب أولى وأحرى أن يحصل فيه الاجتماع والائتلاف ويُترك النزاع والاختلاف.

يقول ابن كثير عن جمع الصحابة للمصحف: "فاتفق الأئمة الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، على أن ذلك من مصالح الدين, وهم الخلفاء الذين قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي». (القرشي، 1416هـ، صفحة 69).

خاتمة:

من خلال ما سبق تم الخلوص إلى أهم النقاط الجوهرية أسردها كالآتي:

- شدّة اهتمام المستشرقين بالقرآن الكريم طمعا في اسقاطه والنيل من شرفه.

- خطورة الوسائل الاستشراقية المنتهَجة لبثِّ أفكارهم والانتصار لها.
- وَهاء حجج المستشرقين في باب الدراسات القرآنية وبُعدهم عن الدليل.
- العداء الأزلي على القرآن كان ولا زال عبر تطاول الأزمان.

العناية الإلهية بالقرآن الكريم وحفظه من أيدي العابثين مصدقا لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)**﴾ [الحجر: 9].

توصيات:

- بيان عظمة القرآن الكريم واظهار إعجازه للعالمين اقامة للحجة وبيانا للمحجة.
- دراسة بحوث المستشرقين بموضوعية وتجرُّد واتِّباعا للدليل، أي: دراسة ناقد لا دراسة حاقد.
- الحذَر من شبهات المستشرقين وترك الاغترار بأساليبهم الناعمة.
- مواجهة المدِّ الاستشراقي لا يكون إلا بالعلم الصحيح والحجة والبرهان، لا بالتباكي والتحسُّر على القرآن.

قائمة المصادر المراجع:

القرآن الكريم

- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني. (1399هـ، 1979م). معجم مقاييس اللغة (دط). (تحقيق: عبد السلام محمد هارون) بيروت: دار الفكر.

- أبو الفداء أسماعيل بن عمر بن كثير القرشي. (1416هـ). فضائل القرآن (ط 1). السعودية: مكتبة ابن تيمية.

- أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي. (1987م). جمهرة اللغة (ط 1). (تحقيق: رمزي منير بعلبكي) بيروت: دار العلم للملايين.

- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. (1413هـ، 1993م). المستصفى (ط 1). (تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي) بيروت: دار الكتب العلمية.

- أبو عبد الله شمس الدين محمد بن مفلح المقدسي. (1420هـ، 1999م). أصول الفقه (ط 1). (تحقيق: فهد بن محمد السدحان) السعودية: مكتبة العبيكان.

- أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني. (دت). المقنع في رسم مصاحف الأمصار (دط). (تحقيق: محمد الصادق قمحاوي) القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية.

- أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري. (1407هـ، 1987م). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (ط 4). (تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار) بيروت: دار العلم للملايين.

- اجناس جولد زيهر. (دت). العقيدة والشريعة في الإسلام (ط 2). القاهرة: دار الكتب الحديثة.

- اجناس جولد زيهر. (1374هـ، 1995م). مذاهب التفسير الإسلامي (دط). بغداد: مكتبة المثنى.

- أحمد رضا. (1377هـ، 1380هـ). معجم متن اللغة (دط). بيروت: دار مكتبة الحياة.

- أحمد مختار عبد الحميد عمر. (1429هـ، 2008م). معجم اللغة العربية المعاصرة (ط 1). بيروت: عالم الكتب.

- بلاشير. (دت). القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره (دط). (تحقيق وترجمة: رضا سعادة وآخرون) بيروت: دار الكتاب اللبناني.

- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. (1490هـ، 1980م). مقدمة في أصول التفسير (دط). بيروت: دار مكتبة الحياة.

- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. (1394هـ، 1974م). الإتقان في علوم القرآن (دط). (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- جمال الدين يوسف بن حسن ابن عبد الهادي. (1433هـ، 2012م). غاية السول إلى علم الأصول (ط 1). (تحقيق: بدر بن ناصر بن مشرع السبيعي) الكويت: غراس للنشر والتوزيع والإعلان.

- عبد الرحمن حسن حنبكة. (1420هـ، 2000م). أجنحة المكر الثلاثة (ط 8). دمشق: دار القلم.

- عبد الرحمن عميرة. (دت). الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق. بيروت: دار الجيل.

- عبد المنعم فؤاد. (1422هـ، 2001م). من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام عرض ونقد (ط 1). السعودية: مكتبة العبيكان.

- علي بن إبراهيم النملة. (1431هـ، 2010م). المستشرقون والقرآن الكريم في المراجع العربية (ط 1). السعودية: مكتبة الملك فهد الوطنية.

- عمر بن إبراهيم رضوان. (1413هـ، 1992م). آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد (ط 1). السعودية: دار طيبة.

- محمود حمدي زقزوق. (دت). والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (دط). القاهرة: دار المعارف.

- نور الدين محمد عتر الحلبي. (1414هـ، 1993م). علوم القرآن الكريم (ط 1). دمشق: مطبعة المصباح.

مناهج المستشرقين في دراسة القرآن الكريم
-عرض وتحليل لنماذج مختارة من آراء المستشرقين -

Orientalists' Approaches to Studying the Holy Qur'an
Presentation and Analysis of Selected Models of Orientalist Opinions

ط/د.شويرب هنية، جامعة عمار ثليجي بالأغواط، الجزائر
h.chouireb@lagh-univ.dz



تعتبر ظاهرة الاستشراق حركة فكرية وثقافية ولدت من صراع حضاري بين الحضارة الغربية والحضارة الشرقية، وبين العقيدة الإسلامية والديانة المسيحية، كما تعد أيضًا حركة فريدة في الفكر الإنساني، إذ لها وسائل متعددة وأساليب خاصة، لها دوافع وأهداف تسعى للوصول إليها، ومن هنا تركز هذه الورقة البحثية على الكشف عن أهم المناهج التي استخدمها المستشرقون في دراسة القرآن الكريم بمختلف قضاياه وعلومه، كون أن القرآن الكريم هو الركن الأساسي للدين الإسلامي، والمصدر الأول للعقيدة الإسلامية، إذ يرغب المستشرقون في تحديها وتقويضها بهدف تشويه صورة الإسلام والمسلمين مقابل ترسيخ الديانة المسيحية وجعلها دينًا عالميًا يشمل العالم بأكمله، وقد توصلت في هاته الدراسة أن الدراسات الاستشراقية للدين الإسلامي عامة، وللقرآن الكريم خاصة كان دافعها واحد ألآ وهو إنكار نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم والطعن فيه.

الكلمات المفتاحية: الإستشراق، المستشرقون، المنهج، القرآن الكريم.

Abstract :

The phenomenon of Orientalism is an intellectual and cultural movement born of a civilized conflict between Western civilization and Eastern civilization, and between the Islamic faith and the Christian religio,Orientalism is also a unique mouvement in humane thought, as it has multiple means and special methods, with motives and goals that it seeks to reach,Hence, this research paper focuses on revealing the most important approaches used by orientalists in studying the Holy Qur'an in its various issues and sciences, since the Holy Qur'an is the main pillar of the Islamic religion, and the first source of the Islamic faith,The orientalists desire to challenge it and undermine it with the aim of di storting the image of Islam and Muslims in return for the consolidation of Christianity and making it a global religion that includes the entire world.

Keywords: Orientalism - Orientalists - Méthode - the Holy Quran

مقدمة :

لقد اتبع الغرب أساليب وغايات عديدة لتدمير العالم الإسلامي، ولفرض ثقافته الخاصة على الواقع العربي الإسلامي، سواء باستخدام سياسة الاستعمار المباشر، أو عن طريق الاستشراق الذي آثار دعوات مسمومة باطلة للتشكيك في الإسلام، والطعن في مصادره ومبادئه وتشويه صورته أمام أبناء الأمة الإسلامية، حيث كانت لحركة الاستشراق جملة من الأهداف والدوافع أخذت بوضعها لكي يتم الوصول إلى تحقيقها وهاته الأهداف نجدها كثيرة ومتفاوتة فيما بينهم من حيث الأهمية لكن الغاية الأخيرة والحقيقية لهم هي محاولة إنكار الدين الإسلامي والطعن فيه وبمصادره مقابلة بذلك تثبيت الديانة المسيحية واعتبارها ديانة عالمية، فالمستشرقون أخذوا بدراسة قضايا الإسلام من شتى جوانبه بروح غير علمية، تقوم إما على سوء الفهم أو سوء النية، وقد تبين من الدراسات الواعية مدى خطر ظاهرة الاستشراق في سياقة أفكاره ونظرياته وفلسفته على العالم الإسلامي ولا ريب في ذلك أن الاستشراق في بداياته الأولى يسعى على إيجاد حصيلة واسعة من مفاهيم الإسلام بدأ أولها بالتشكيك بالقرآن الكريم – الذي موضوع دراستنا – والذي يعد المصدر الجوهري للعقيدة الإسلامية وإثارة الشبهات حوله، وذلك من خلال ادعائهم بأنه مزيجا منتخبا من الأديان السابقة كالنصرانية واليهودية محاولين في ذلك إنكار المصدر الرباني في القرآن الكريم.

إشكالية الدراسة:

ومن هذا المنطلق طرحنا في دراستنا الإشكالية التالية:

- ماهي الشبهات التي آثارها المستشرقين في دراستهم للقرآن الكريم؟
- فيما تمثلت مناهج الدراسات الإستشراقية للقرآن الكريم؟ وماهي دوافعهم في ذلك؟

أهداف الدراسة:

- تهدف هاته الدراسة للتعرف على موضوع الاستشراق عن قرب ومحاولة الإحاطة به.
- التعرف على الأسباب والدوافع التي جعلت المستشرقون يتجهون صوب القرآن الكريم خاصة.
- المرور على أهم الشبهات المستشرقون الساذجة حول القرآن الكريم.

أهمية الدراسة:

- تبرز أهمية البحث في فتح المجال للمهتمين بموضوع الاستشراق عامة، والتعرف على أهم الآراء والشبهات الاستشراقية عن القرآن الكريم خاصة.
- كما تأتي هاته الدراسة للتعرف على أهم المناهج والوسائل التي اتبعها هؤلاء المستشرقون في دراسة القرآن الكريم.

المناهج المستخدمة: واعتمدنا في انجاز دراستنا هاته على المناهج التالية:

- المنهج التاريخي: حيث وظف هذا المنهج في تتبع بداية حركة الاستشراق وإبراز الظروف التي نشأ فيها عبر فترات من الزمن، والذي تطورت فيه العلاقات الغربية مع المسلمين وصولا إلى مدى تأثير الاستشراق عبر التاريخ في فهم الإسلام.

- المنهج التحليلي: كونه أنسب المناهج في إعداد البحوث العلمية حيث تم عرض وتحليل الشبهات التي تناولها المستشرقون في دراستهم للقرآن الكريم، ومناهجهم المستخدمة للطعن في القرآن الكريم.

أولا- في تحديد مفهوم الاستشراق:

الاستشراق في المفهوم اللغوي: لفظة الاستشراق كما وردت في القاموس المحيط ترجمة للكلمة اللاتينية orientalisme، مشتقة من مادة شرق يقال: "شرقت الشمس شروقا، أي طلعت، وهي تعني مشرق الشمس وترمز إلى الحيز المكاني من الكون ألا وهو الشرق (بن حماد الجوهري، 1975، ص 542).

ولو أرجعنا هذه الكلمة – الاستشراق – إلى أصولها لوجدناها مأخوذة من كلمة (إشراق) ثم أضيف إليها ثلاثة حروف هي الألف والسين والتاء والتي تعني طلب دراسة الشرق أو دراسة العالم الشرقي.

وقد توصل الباحث " أحمد سمايلوفيتش " بناءا على قواعد الصرف و علم النحو إلى التالي " يبدو أن معنى الاستشراق أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم (سمايلوفيتش، 1980، ص 24).

الاستشراق اصطلاحا: ليس يقدرنا إعطاء تعريفا محددا ودقيقا لمفهوم الاستشراق، بل يوجد العديد من التعريفات التي تتناول مفهوم الاستشراق:

مفهوم مصطلح الاستشراق من الغرب: ويمكن أن نبدأ بتعريفات المستشرقين أنفسهم لهذا المصطلح – كونهم دعاة هذا المصطلح -ومن بين الغربيين الذين تناولوا هذا المصطلح نجد:

المستشرق الفرنسي " مكسيم رودنسون " الذي أشار إلى أن مصطلح الاستشراق بحدّ ذاته إنما ظهر للحاجة إلى "إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق" (جوزيف، 1978، ص 271)، ويضيف بأن الحاجة كانت ماسة لوجود متخصص للقيام على إنشاء المجلات والجمعيات والأقسام العلمية.

أما المستشرف الألماني "رودي بارت" يرى أن الاستشراق هو علم يختص بفقه اللغة الخاصة وأقرب شيء إليه اذن أن نفكر في الاسم الذي أطلق عليه كلمة إستشراق مشتقة من كلمة " شرق " وكلمة شرق يقصد بها مشرق الشمس وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو دراسة العالم الشرقي.

والاستشراق في قاموس أكسفورد يعرف بأنه من تبحر في لغات الشرق وآدابه، ويعرف "جويدي" علم الشرق بأنه "علم من علوم الروح يتعمق في دراسة الأحوال الشرقية ولغاتها وتاريخها وحضاراتها.

مفهوم مصطلح الاستشراق عند العرب: لو انتقلنا الى العرب و المسلمين الذين تناولوا هذا المصطلح نجد أن لـ " إدوارد سعيد" العديد من تعريفات للإستشراق من بينها نجد " كل من يقوم بدراسة الشرق أو الكتابة عنه أو البحث فيه "، وأيضا يعرف بأنه " نوع من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة حكم الغرب للشرق (إدوارد، 1979، ص 38).

أما " أحمد عبد الحميد غراب " فيعرف الاستشراق بأنه دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون كافرون للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب، عقيدة وشريعة وثقافة وحضارة ، بهدف تشويه الإسلام ومحاولة

تشكيك المسلمين فيه وتظليلهم عنه وفرض التبعية للغرب عليهم ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية وتزعم التفوق العنصري للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي.

ويأتي الدكتور " محمود حمدي زقزوق " ليقدم تعريفا للاستشراق بأنه " الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام"، (حمدي زقزوق، 2008، ص 22).

ويعرف الدكتور " محمد البهي " الاستشراق بأنه مجموعة بحوث ودراسات في قضايا التراث الإسلامي في العقيدة، وفي الفقه وفي الشريعة، وفي التاريخ السياسي، وفي الفلسفة وفي الاجتماع، قام بها قساوسة ولاهوتيون بتكليف من الكنيسة أو من وزارات الخارجية للدول الغربية، مشيرا إلى أن الاستشراق في بدايته عبارة عن دراسات وأبحاث قام بها القساوسة لتعلم اللغة العربية ودراسة الإسلام في العديد من جوانبه (البهي، 1981، ص 30).

ومن خلال هاته التعريفات يمكن القول بأن الاستشراق هو اتجاه فكري يعنى بدراسة حضارة الأمم الشرقية بصفة عامة وحضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة، وقد كان مقتصرا في بداية ظهوره على دراسة الإسلام واللغة العربية ثم اتسع ليشمل دراسة الشرق كله بجميع مجالاته بلغاته وتقاليده وآدابه من طرف مستشرقين يقومون بهذا.

ثانيا: الجذور التاريخية للاستشراق:

من الصعوبة تحديد زمن محدد لبداية الاستشراق، حيث نجد هناك تباينات واختلافات بين المفكرين والعلماء في تحديد الحقبة الزمنية الذي ظهر فيها مصطلح الاستشراق، وربما كان هذا الاختلاف والتباين بسبب مفهوم الباحثين للاستشراق، فهناك العديد من الآراء تتباين في مذهبها نحو تحديد الإطار الزماني لبداية الاستشراق منها:

يرجع البعض أن نشأة الاستشراق تعود الى بدايات البعثة المحمدية صلى الله عليه وسلم مما دفع الغرب الى توجيه اهتمامه إلى هذا الدين الجديد وأصحابه، وهناك اتجاه آخر يرى أن البداية الأولى للاستشراق ترجع الى بداية الغزوات و الفتوحات الإسلامية خاصة مع غزوة " مؤتة " شمال جزيرة العرب في السنة الثامنة للهجرة (جلال الدين إدريس، 1995، ص 17-18).

في حين هناك تيار آخر يرى أن الاستشراق بدأ في أوروبا وتحديدا في العصور الوسطى الإسلامية إبان الحكم الإسلامي في شبه جزيرة إيبيريا " الأندلس" حيث نعل الأوروبيون الذين كانوا يعيشون في ظلمات الجهل من ينابيع العلوم الإسلامية والعربية بعد ما أتموا دراسة محتواها كاملا.

وهناك تيار آخر ربط بداية الحروب الصليبية ببداية الاستشراق، إذ كان من الطبيعي فهم الغزاة الأوربيون ذلك العالم الذي جردوا جيوشهم لمواجهته واحتلاله (حنيكة الميداني، 2000، ص 125).

وأدق تحديد زمني لبداية الاستشراق وأكثره قبولا هو أن تقوم بعملية الربط بين نشأة الاستشراق –بمعنى الإهتمام بدراسة العرب والمسلمين- بذلك الإختلاط الذي وقع في الأندلس منذ القرن الثامن ميلادي، بين

المسلمين الفاتحين لأوروبا وغيرهم من الأوربيين، هذا الخلط العلمي الذي وجد القوة الدافعة له متمثلة في دور العلم والمعاهد في الأندلس، والذي تمثل في البعثات الأوربية لهذه المراكز (حنيكة الميداني، 2000، ص 126).

كما نجد مصطلح مستشرق ظهر لأول مرة في اللغة الإنجليزية سنة 1779م، وفي الأكاديمية الفرنسية نجد أول ظهور لمصطلح المستشرق سنة 1838م.

ثالثا- الشبهات الاستشر اقية حول القرآن الكريم:

لفظة القرآن عند المستشرقين: لفظ "القرآن" عند المستشرقين مأخوذة من فعل "قرأ" حيث يرون أن المعنى الحقيقي لهاته الكلمة "قرآن" يجب أن نبحث عنها في استعمال القرآن نفسه، وقد لا تعني بالضرورة أي نص مكتوب، كما يرون بأن أصل كلمة "قرآن" بحدّ ذاتها دخيلة عن اللغة العربية، وإنها مأخوذة من اللغة السريانية واللغة العبرية، حيث نجد المستشرق الفرنسي ريجس بلاشير يقول عن كلمة القرآن كما يلي:

إن السور المنزلة الأولى التي إفتتحت دعوة محمد، تشتمل على الأصل اللغوي لإسم "القرآن" الذي كتب بالصورة خاطئة حتى القرن الثامن عشر إنه:Alkrom elkoram كما وردت كلمة "قرآن" بمعنى التلاوة ويمكن أن تكون هذه الكلمة مأخوذة من اللغة السريانية التي يرد فيها لفظ مشابه جدا لهذا المعنى (نصري، 2009، ص 125).

وحسب هذا التعريف نجد أن المعنى الاصيل لكلمة "قرآن" هو التلاوة على أن تكون هاته التلاوة بصوة مرتفع، كما جاء عن بلاشير، وأن هذه الكلمة -أي قرآن- حددت من خلال بعض المقاطع القرآنية التي وردت في السورة الاولى من القرآن الكريم والتي نزلت على نبيينا محمد عليه الصلاة والسلام.

وحسب هذا التعريف نجد أن كلمة "قرآن" مأخوذة من اللغة القديسة كاللغة السريانية واللغة العبرية وليس لها صلة باللغة العربية على الاطلاق، لذلك نجد المستشرق هنري ماسيه يستخدم كلمة الكتاب المقدس بدلا من كلمة القرآن (بن ناصر حميد، د س، ص 16).

مصدر القرآن الكريم عند المستشرقين:

أ. القرآن من صنع محمد صلى الله عليه وسلم: نجد عدد كبير من المستشرقين يقولون ببشرية القرآن الكريم: أن القرآن ليس من عند الإله وإنما هو من صنع محمد صلى الله عليه وسلم وتأليفه، وأنه تأثر بالبيئة التي عاش فيها، كما يرون هؤلاء المستشرقون أن القرآن الكريم يشمل ثمرة معاناة محمد صلى الله عليه وسلم النفسية، ويعكس الصراع والتطور النفسي له (السيد راضي جبريل، 2004، ص 38)، كما يدعون هؤلاء المستشرقون بأن محمد صلى الله عليه وسلم في تأليف للقرآن استفاد من عادات الجاهلية وأخذ من عباداتها ومزجها في الاسلام وأنه سرق من شعر إمرؤ القيس مثل قوله تعالى: " اقْتَرَبَتِ السَاعَةُ وَانَشَقَ القَمَرُ". سورة القمر الآية رقم 01، وقوله تعالى: " قُتِلَ الإنْسَانَ مَا أَكْفَرٌ" سورة عبس الآية رقم 17، فهذان الشرطان من القرآن الكريم ينسبان إلى الشاعر أمرؤ القيس، وأن محمد صلى الله عليه وسلم قد اقتبس منه في تأليفه للقرآن، ومن المستشرقين الذين يزعمون بأن القرآن من صنع محمد صلى الله عليه وسلم أو يدعون ببشرية القرآن الكريم نجد:

- قال المستشرق الانجليزي سنكليز نسدل: "إذا اتفق المسلمون على أن القرآن من تأليف محمد، وكتب بالوحي، وليس كما يقولون: إنه أملاه عليه جبريل لكانت حجتهم أقوى ".

- كما نجد المستشرق جورج سيل في كتابه: "مقالة في الاسلام" يقول: "ومما لا شك فيه ولا ينبغي أن يختلف فيه اثنان أن محمدا هو في الحقيقة مصنف القرآن وأول واضعيه" .

فمن الملاحظ نجد أن كل هاته الآراء تزعم أن القرآن الكريم ينابيع مصدره من محمد صلى الله عليه وسلم وأنه من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم وكما يزعمون بأن محمد صلى الله عليه وسلم في تأليفه للقرآن الكريم استعان بالشعر الجاهلي، هذا الأمر نجده في مبدأ حظ الذكر في الميزان مثل حظ الأنثيين (السيد راضي جبريل، 2004، ص 42).

ب.مصدر القرآن هم الحنفاء: لقد كان في الحجاز قبيل الإسلام حنفاء يؤمنون بالديانة الإبراهيمية نسبة إلى ديانة إبراهيم -عليه السلام- وينتظرون نبيا يجئُ هذا الدين من جديد ويصلح احوال العرب لكونهم لا يعبدون الأصنام ولد يظلمون الضعفاء، لذلك زعم المستشرقون أن النبي صلى الله عليه وسلم عنهم الوحي وكانوا مصدرا فيما جاء من القرآن ودليلهم في ذلك خطابهم المتمثل فيما يلي: (يا معشر الناس اجتمعوا فاسمعوا، وإذ سمعتم فعلموا، وإذا وعيتم فانتفعوا، وقولوا وإذا قلتم فصدقوا، من عاش مات، ومن مات مات)، هاته الخطبة جعلت الكثير من المستشرقين يعتقدون أن محمد صلى الله عليه وسلم جلس مع هؤلاء وتعلم منهم في أمور دينهم وبنيَ رسالته واقتبس منهم (كومش، د-س، ص 17).

ج.مصدر القرآن التوراة والإنجيل: يزعم المستشرقون أن مصدر القرآن الكريم هو الدين اليهودية والنصرانية، أي أن القرآن صياغة جديدة لما وردة في التوراة أو العهد القديم، ولما ورد في الإنجيل أو العهد الجديد، ومعنى هذا أن القرآن في نظرهم ليس مصدر سماوي وإنما هو مزيج منتخبا من الديانتين السابقتين هو الديانة اليهودية و النصرانية كما ذكرنا سابقا، حيث يقولون إن محمد صلى الله عليه وسلم جلس مع هؤلاء قد أخذ فكرة القرآن من أهل الكتاب يهودي ونصراني حيث يعتقدون هؤلاء المستشرقون أن النبي صلى الله عليه وسلم في بعض من رحلاته إلى الشام إتصل ببعض من اليهود والنصارى، وتعرف على أمور دينهم وأخذ بها واقتبسها في وضعه لدينه أو للقرآن (عبد العظيم، 1992، ص 13-14)، هذا الرأي نجده عند العديد من المستشرقين من بينهم نجد :

كارل بروكلمان حيث نجده يقول: " وأغلب الظن أن محمد صلى الله عليه وسلم قد انصرف إلى التفكير في المسائل الدينية في فترة مبكرة، وهو أمر لم يكن مستغربا عند أصحاب النفوس الصافية من معاصريه "، حجته في ذلك أن محمد صلى الله عليه وسلم في مكة تعرف على بعض من النصارى كانت معرفتهم بالتورات والإنجيل هزيلة الى حد بعيد.

جولدتسهير: الذي يسرح في كتابه العقيدة والشريعة في الإسلام: "لكي نقدر عمل محمد من الجهة التاريخية ليس من الضروري أن نتساءل عما إذا تبشيره ابتكارا وطريقا من كل الوجوه ناشئا عن روحه، وعما إذا كان يقتحم طريقا جديدا بحثا، فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيج منتخبا من آراء ومعارف دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثرا عميقا (غثيان، 1998، ص25)،

ودليله في ذلك ما نصته الآية القرآنية في الحديث الذي دار حول غضب موسى عليه السلام حين علم بصنع نبي إسرائيل عجلا ذهب وعبادتهم إياه، قال تعالى : " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عند بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ "، سورة البقرة الآية رقم 54، أي فليقتل بعضكم بعضا أو يقتلوا أنفسهم بأنفسهم.

كما نجدهم يزعمون أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه للقرآن الكريم اعتمد على الكتاب المقدس وخاصة في قسم القصص من قصص القرآن اعتمد على الكتاب المقدس وخاصة في قسم القصص القرآن الكريم حيث نجد المستشرق ريتشارديل في هذا الصدد يقول : " أن النبي قد اعتمد في كتابته للقرآن على الكتاب المقدس وبخاصة العهد القديم في قسم القصص كقصص عاد وثمود مستمد من المصادر العربية، لكن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمدت من مصادر يهودية ومصادر نصرانية (زقزوق، 2008، ص 102).

كل تؤكد هاته الآراء المذكورة سابقا أن القرآن الكريم هو في حقيقة الأمر مزيجا مختلطا من الرسالتين السماويتين السابقتين هما اليهودية والنصرانية، أخذ بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم ليكمل أمور الدين الإسلام، وأنه اقتبس من اليهود كثيرا من الأحكام والقواعد ووظفها في الدين الإسلامي.

رابعا- مناهج المستشرقون في دراستهم للقرآن الكريم:

كما هو المعلوم أن المسترقين في دراستهم للقرآن الكريم يصدقون ما هو أقرب للكذب ودعي القرآن الكريم بأنه أكبر ضالة للمستشرقين لذلك استخدموا العديد من المناهج لطعنهم في القرآن الكريم.

منهج التشكيك فيما هو قطعي : لقد أنساق المستشرقين في إتباع منهج الشك والمبالغة في إثارة الشكوك حول الوقائع التاريخية الثابتة المرتبطة بتاريخ القرآن، واعتمدوا في ذلك على عملية انتقاء المعلومات بطريقة مفرضة هدفها إنكار النص القرآني، فالمستشرقين زعموا إلى التشكيك بالقرآن وقالوا لأنه ليس من عند الإله وإنما هو من عند محمد صلى الله عليه وسلم معتمدين في ذلك أن القرآن يوجد فيه نوعان من الزيادة والنقصان وإنه تعرض للتحريف، كما شككوا بطريقة جمع القرآن وتدوينه ونزوله، كما زعموا في التشكيك بطبيعة القرآن الكريم، بحسب الروايات وأنه كتب بأيدي الصحابة رضوان الله عليهم، وهدفهم في ذلك التشكيك في العقيدة الاسلامية ومصادرها (عزوزي، 1997، ص 9-10).

ومن الملاحظ أن المستشرقين لم يطرقوا جانبا من جوانب القرآن إلا وهاجموه بالتشكيك والطعن محاولين طمس كل معالم الخير فيه.

وقد جمع المستشرق آرثر جفري الاختلافات المنسوبة إلى المصاحف الفردية لبعض الصحابة مثل ابن مسعود، وأبي بن كعب، وعلي ابن أبي طالب، كما جمع الاختلافات المنسوبة إلى بعض مصاحف التابعين، كما جمع ذلك من مختلف المصادر القديمة التي احتفظت بالروايات المنسوبة خاصة تفسير الإمام الطبري هذا الأخير الذي اعتمد عليه المستشرق آرثر جفري كثيرا، (عزوزي، آليات المنهج الإستشراقي في الدراسات الإسلامية، 2000، ص 30-32).

إن ميل آرثر جفري لهذا المنهج هدفه الوحيد هو التشكيك بصحة القرآن الكريم والطعن فيه حيث نجده حاول جاهدا إثارة الشبهات والمطاعن حول القرآن الكريم حيث أخذ بالتشكيك حول مصدر القرآن الكريم وجمعه وطريقة تدوينه، ونزوله وترتيب سوره وآياته وحتى أخذ في التشكيك في الكثير من القضايا المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه.

كما لجأ المستشرق (ولش) في دائرة المعارف الإسلامية إلى أحد أبواب الشك في إنفراد خاص بمصحف لابن مسعود يخلو من المعوذتين، للتشكيك في مدى تواتر السورتين (لبيب، 1978، ص 324)، مستندا على ما يقول بأدلة ضعيفة إستلها من كتاب المصاحف لابن أبي داود وغيره من الكتب الموضوعة.

وقد تناول المستشرق الألماني كارل بروكلمان في كتابه (تاريخ الأدب العربي) مسألة الوحي، فأعتبر الوحي محمد صلى الله عليه وسلم نوبات صرع، ولما تناول التفسير عده علما لا أصل له، ولقد سجل المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير في كتابه (القرآن نزوله تدوينه) العديد من الافتراءات والطعون، منها أن القرآن منقول عن راهب من رهبان الكنيسة وأما ما فيه من قصص هو أساطير معروفة في الجزيرة العربية.

منهج الأثر و التأثير : يقصد بهذا المنهج الاخذ بالنزعة التأثيرية وهي نزعة دراسية يأخذ بها معظم المستشرقين الذين شرعوا في ردّ كل مصادر الإسلام إلى الديانتين النصرانية واليهودية، إهتم المستشرقون القدامى بهذا المنهج كثيرا حيث نجد المستشرق اليهودي أبرهام غايغر أصدر كتاب سنة 1833 بعنوان :"ماذا أخذ القرآن عن اليهودية"، فالمستشرقين من خلال هذا المنهج – الأثر والتأثير- يزعمون أن الكثير من العبارات القرآنية موجود سابقا في الإنجيل والتوراة دليلهم في ذلك نجد المستشرق فرجيس بلاشير يقول :"إن التأثير النصراني كان واضح في السور المكية الأولى" (عزوزي، مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، 1997، ص 21).

ويذهب المستشرق الفرنسي أندري شوراكي إلى أن كثيرا من الأعلام الواردة في القرآن ذات أصل عبراني، ولقد أصدر ترجمة لمعاني القرآن، وقام بنقدها المستشرقون قبل غيرهم" وقد إحتفظ فيها بالأصول العربية لبعض الألفاظ من غير ترجمة إمعانا منه في بيان أصلها العبراني كما زعم"، والمتأمل في كلامه يجده يريد أن يصل إلى نتيجة مهمة مفادها: أن معظم الألفاظ القرآنية لها ما يقابلها في اللغة العبرانية، وبالتالي فإن مصدر القرآن الكريم الرئيسي هو التوراة، وهذا كلام غير صحيح ولا يستند إلى برهان، وبطلانه جلي لذوي العقول الرشيدة.

كما نجد المستشرق إجناس جولدزهير يحاول النفاذ إلى القرآن بحثا عن عناصر أجنبية يشده بها إلى أصولها المدعاة حيث يقول القرآن مصدق لما سبق من الرسالات الدينية، وقد استقصى منها بعد فترة من الرسل ما هو من جوهر الدين، كما زعم التشكيك في أركان الإسلام حيث نجده يقول هذا المستشرق عن الصلاة :(إن شعيرة الصلاة التي كانت بصورتها الأولى من قيام وقراءة وبما فيها من ركوع وسجود وبما يسبقها من الوضوء تتصل بالنصرانية الشرقية)، والصوم الذي جعل أولا في يوم عاشوراء محاكاة للصوم اليهودي الأكبر، وهكذا يكون القرآن الكريم حسب رأي هذا المستشرق مقتبسا من الديانات الشرقية الديانة النصرانية والديانة اليهودية وأفكاره وأصوله اقتبست من الإنجيل والتوراة (عزوزي، آليات المنهج الإستشراقي

في الدراسات الإسلامية، 2000، ص 33)، وبالتالي يحاول هذا المنهج نفي ربانية المصدر القرآني وإثبات النصرانية واليهودية على وجه الخصوص للقرآن وتعاليمه.

المنهج الافتراضي: كما ذكرنا سابقا ان المستشرقين يصدقون ما هو أدنى وأقرب للكذب، ولعلّ أبرز حقل قرآني مارس فيه المستشرقون هذا المنهج ما تعلق بترتيب الآيات القرآنية حيث نجد أغلب المستشرقين قد اهتموا بقضية ترتيب الآيات القرآنية انطلاقا من منهجهم التاريخي الذي يفترض ترتيبا يقبله العقل البشري لذلك حاولوا افتراض ترتيبات جديدة للآيات القرآن تتوافق مع ميولتهم وتتناسب مع منهجهم التاريخي الذي ركز عليه هؤلاء المستشرقين للطعن في صحة القرآن وتضارب أحكامه وخصومه للظروف الزمنية والمكانية (عزوزي، آليات المنهج الإستشراقي في الدراسات الإسلامية، 2000، ص 35)، ومن أمثلة المنهج الافتراضي نجد المستشرق روديل يزعم بأن الآيات التي نزلت مع أول الوحي تتسم بالقصر فقد حاول هذا المستشرق أن يضع على أساسها ترتيبا جديد للسور المختلفة، فنراه مثلا يعلق على سورة الملك بقوله:(من الواضح أن الآيات من الآية رقم 8 إلى الآية رقم 11 قد نزلت متأخرة عن بقية السورة، ثم ألحقت بها، لأن كلا منها أطول من بقية آيات السورة.

المنهج الإسقاطي: تفسير الوقائع والنصوص بالإسقاط أمر الذي ركز عليه هؤلاء المستشرقين في دراستهم للقرآن الكريم، ويقصد بالمنهج الإسقاطي إسقاط الواقع المعيشة على الحوادث والوقائع الزمنية، فالمستشرق عندما يضع في ذهنه صورة معينة يحاول إسقاطها على صور ووقائع معينة يخضعها الى ما ارتضته مخيلته وانطباعاته (عزوزي، آليات المنهج الإستشراقي في الدراسات الإسلامية، 2000، ص 37)، ومن أمثلة المنهج الإسقاط لدى المستشرقين ما أورده بلاشير في سياق البحث عن أسباب عدم جمع القرآن في المصحف في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من أنه وأصحابه كانوا يميلون إلى ترك الأمور على ماهي عليه، كون العرب لا يهتمون ولا يفكرون إلا في الحاضر وبالتالي عدم اهتمام والتفكير في المستقبل، وهذا الميل يقف وراء عزوف المسلمين عن جمع القرآن في عهده صلى الله عليه وسلم، ومن أمثلة هذا المنهج الإسقاط أيضا ما ذهب إليه بعضهم من أن تمايز أسلوب القرآن المكي عن الأسلوب المدني يرجع إلى بيئة قريش المنحطة وبيئة المدينة المتقدمة والمتحضرة، فإذا كانت الآيات المكية قصيرة فذلك أن معظم أهالي مكة أميون جاهلون، وإذا كانت الآيات المدنية طويلة وواضحة فذلك لأن البيئة المدنية مثقفة واعية ومتأثرة بالنفود اليهودي المهيمن عليها.

إن المتتبع لهاته الآراء التي تناولها المستشرقين من خلال هذا المنهج ينتج أن القرآن الكريم وأسلوبه وعلومه حسب وجهات نظرهم قد تأثر بالبيئة التي نزل فيها، وبالتالي فإن القرآن الكريم كلام من صنع محمد صلى الله عليه وسلم، لا كلام الله تعالى.

المنهج الانتقائية: من رواد هذا المنهج المستشرق الفرنسي لا منس وقد وظف هذا المنهج في معالجته لبعض القضايا التاريخية عارضا لها على أفكاره ومعتقداته الخاصة دون النظر إلى الموضوعية في الطرح، ومن أمثلة هذا المنهج نجد:

1- الانتقائية في اختيار مصنفات محددة في علوم القرآن: الطابع العام للمستشرقين فرض عليهم سمة معينة في دراستهم لعلوم القرآن وقضاياه، وهي أن لا يمكن على جميع المصنفات في علوم القرآن الكريم، بل

الاعتماد على عدد معين ومحدد من كتب التي تناسبهم وتتوافق مع ميولتهم، من جهة أخرى فهم لا يعتمدون على الروايات الصحيحة الواردة في الكتب الصحاح الخالية من الدخيل والموضوعات، أو في مقدمات المفسرين، أو علوم القرآن المعتمدة.

2- الانتقائية في اختيار الروايات الضعيفة: وهذا طابعهم في البحث والدراسة وخاصة ما يتعلق بالقضايا القرآنية بقصد بناء أحكامهم عليها والتدليل بها على أغراض معينة، وهدفهم لا يخفى على عاقل، وهو التشكيك في مصداقية وموثوقية النص القرآني ولنضرب مثالا على ذلك:

إن كاتب مادة القرآن في دائرة المعارف وجد فيما أورده السيوطي في الإتقان، روايات مختلفة عن أول من جمع القرآن، بابا يلجه لكي يدلل على جملة من الروايات الضعيفة في جمع القرآن، وينقل عن ابن أبي داود رواية مفادها أن أبا بكر رضي الله عنه بدأ بجمع القرآن ثم أتمه عمر رضي الله عنه، وينقل رواية ابن سعد في الطبقات التي تقول بأن عمر توفي ولم يكمل جمع القرآن الكريم.

خامسا-أهداف المستشرقين في الدراسات القرآنية:

ليس بالسهل أن نشير إلى عامل واحد أو عاملين في تفسيرنا لدوافع الاستشراق، التي حفزت المستشرقين إلى دراسة تاريخ الإسلام و حضارته، ذلك لأن الاستشراق ظاهرة تاريخية تنوعت دوافعها غبر القرون وتباينت حسب المراحل التاريخية، وربما غلب عامل واحد أو أكثر في مرحلة معينة على غيره من العوامل، ولكن الحقيقة تبقى واضحة وهي أن جملة من العوامل اشتركت في تحديد معالم الاستشراق، ومن الدوافع البارزة في تحفيز المستشرقين لدراسة الإسلام عامة ولدراسة القرآن الكريم خاصة نجد:

- بدأ الاستشراق بالرهبان النصارى الذين في نفوسهم حقد وكراهية شديدة للإسلام وأهله، وهؤلاء كان هدفهم أن يطعنوا في الإسلام ويشوهوا محاسنه ويحرفوا عقيدته ليثبتوا لجماهيرهم أن الإسلام دين لا يستحق الانتشار، وأن المسلمين قوم همج لصوص وسفاكو دماء يحثهم دينهم على الملذات الجسدية ويحثهم عن كل سمو روحي وخلقي (السايح، 1996، ص 52-53).
- التشكيك في الدين الاسلامي، وتشويه صورة الاسلام في نفوس شعوبه وحثهم على كراهيته والابتعاد عنه بغية إثبات الدين المسيحي.
- إثارة الشبهات في مصادر التشريع الإسلامي، والزعم بأن أصوله ومبادئه مقتبسة عن الديانتين السابقتين عنه، الديانة اليهودية والنصرانية.

خاتمة:

وفي الأخير توصلنا من خلال هاته الدراسة إلى النتائج التالية مفادها:

- يعد الاستشراق أسلوب فكري غربي يقوم على أن يوجد هناك اختلافا جذريا في الوجود والمعرفة بين الغرب والشرق عامة، وبوجه خاص يعرف الاستشراق بأنه عبارة عن دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون من آهل الكتاب للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وفرض التبعية للغرب عليهم.
- إن الاستشراق ذو علاقة وطيدة بالاستعمار، فلا استعمار بدون استشراق.

- لقد كانت الدراسات الإستشراقية موظفة لأغراض محددة تمثلت في خدمة الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي، كما أنها جلبت مناهج جديدة في دراسة القرآن الكريم، كما نجد أن من أهم الموضوعات التي ركز عليها هؤلاء المستشرقون في أبحاثهم ودراستهم للقرآن الكريم وبذلوا جهودا عظيما في محاولتهم انكار المصدر الإلهي للقرآن الكريم، وإنه من عند محمد ﷺ ، وقد اقتبس عن الديانات السابقة القديمة، وهدفهم من ذلك إنكار نبوة محمد ﷺ واعتبره مجرد مصلحا اجتماعيا للأمة الإسلامية في القديم.
- سعى المستشرقون لتحقيق أهدافهم بوسائل متعددة كثيرة، فهم لم يتركوا أية وسيلة لنشر أبحاثهم أهدافهم وبث آرائهم إلا سلوكها ومن بين هاته الوسائل نجد: تأليف الكتب، وإصدار المجلات العلمية الخاصة ببحوثهم حول الإسلام وبلاده وشعوبه، إضافة لذلك العمل على إلقاء المحاضرات في العديد من الجامعات والجمعيات العلمية ، وعقد المؤتمرات والندوات التي تحتضن دراسة الإسلام والمسلمين.
- تعددت مناهج المستشرقين في دراسة القرآن الكريم وعلومه، وقد جاء إهتمام المستشرقين بهذه العلوم خاصة، كونها تخدم القرآن الكريم، والتشكيك في هذه العلوم بعني التشكيك في صحة القرآن الكريم، ومحاولة التشويش على عقيدة المسلمين من جهة، ومن جهة أخرى تشويه صورة الإسلام لدى الأخر، لذلك نجد مناهجهم تعددت وتنوعت منها: منهج النزعة التأثيرية، ومنهج الإسقاط ....إلخ.
- كما توصلنا من خلال هاته الدراسة أن المستشرقين في أبحاثهم يعتمدون على البحوث والمصادر الضعيفة زد على ذلك عدم احترامهم للموضوعية في إنجاز الأبحاث العلمية.

توصيات:

من التوصيات المنصوص عليها في نهاية المطاف نجد:

- العمل على إعداد معاهد والجامعات تتضمن دراسة الإسلام والمسلمين من جميع النواحي لكي تتشكل صورة العقيدة الاسلامية للآخر.
- السعي نحو توسيع دائرة المعارف الإسلامية وذلك عن طريق تنظيم العديد من الندوات والملتقيات وإلقاء المحاضرات التي تدور حول الحضارة الإسلامية بمختلف جوانبها، الهدف من ذلك الردّ على الشبهات الحاقدين على الإسلام ودفاع عنه وعن المسلمين.
- يجب على الحركات الاستشراقية في دراسة الحضارة الإسلامية عامة، وفي دراسة القرآن الكريم خاصة تبني المصادر والمناهج الصحيحة، وإلا بقيت محاولاتهم في الفشل والنقصان.

قائمة المصادروالمراجع:

القرآن الكريم

- احمد سمايلوفيتش. 1980. *فلسفة الإستشراق وأثرها في الأدب المعاصر*، دار المعارف للنشر وللتوزيع، د-ط، مصر.
- أحمد عبد الرحيم السايح. 1996. *الإستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي*، الدار المصرية اللبنانية للنشر وللتوزيع،. ط 1، مصر.

- أحمد نصري. 2009. *آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم*.، دار القلم للطباعة وللنشر، ط 1، المغرب.
- اسماعيل بن حماد الجوهري. 1975. *معجم الصحاح*، دار الحضارة العربية، ط1، لبنان.
- السعيد لبيب. 1978. *الجمع الصوتي الأول للقرآن*، دار المعارف للنشر وللتوزيع، ط 1، مصر.
- حسن عزوزي. 2000. *آليات المنهج الإستشراقي في الدراسات الإسلامي*، مطبعة آنفو للطبع وللتوزيع، ط 2، سوريا.
- حسن عزوزي 1997. *مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم*، دار المعرفة المصرية للنشر وللتوزيع، 1997 ط 2، مصر.
- حميد بن ناصر حميد. د س. *القرآن الكريم في دائرة المعارف الإسلامية*. لبنان : دار الصومعة العربية للنشر وللتوزيع، ط 1، لبنان.
- سعيد إدوارد. 1979. *الإستشراق*. تر: كمال أبو الديب، دار المسيرة للنشر وللتوزيع، ط 2، لبنان.
- شاخت جوزيف. 1978. *في تراث الإسلام*.تر: زوهير محمد السمهوري. الكويت : سلسلة عالم المعرفة للنشر وللتوزيع، ط 1، الكويت.
- صدر الدين كومش. د-س. *مصادر القرآن الكريم عند المستشرقين*، دائرة المعارف الإسلامية للنشر وللتوزيع، د-ط، مصر.
- عبد الرحمن حنيكة الميداني. 2000.أجنحة *المكر الثلاث وخوافيها*، دار القلم للنشر وللتوزيع، د-ط، سوريا.
- علي غثيان. 1998. *إفتراء المستشرق كارل بروكلمان على السيرة النبوية*، دار القلم للنشر وللتوزيع، ط 1، مصر.
- محمد جلال الدين إدريس. 1995. *الإستشراق الإسرائيبي في المصادر العبرية*،دار الربى للنشر وللتوزيع، د-ط، مصر.
- محمد البهي. 1981. *الإسلام ومواجهة المذاهب الهدامة*، منشورات مكتبة وهبة، ط 1، مصر.
- محمد السيد راضي جبريل. 2004. *مصدر القرآن الكريم في رأي المستشرقين*، دار الفكر العربي للنشر وللتوزيع، ط 1، لبنان.
- محمود حمدي زقزوق. 2008. *الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري*، مكتبة الشروق الدولية للنشر وللتوزيع، د-ط، مصر.
- محمد عبد العظيم. 1992. *إفتراء المستشرقين على الإسلام*، مكتبة وهبة للنشر وللتوزيع، د-ط ،مصر.

صورة الإسلام والمسلمين في مرايا الاستشراق والمستشرقين

Islam and Muslims Image in Orientalist Mirrors

ط/د.معاشو نصرالدين، جامعة الجزائر2- الجزائر

nasreddine.maachou@univ-alger2.dz

ملخص البحث

نهدف من خلال ورقتنا البحثية هذه محاولة توضيح رؤى الاستشراق والمستشرقين في دراساتهم للإسلام والمسلمين، وكذا تعرضهم إلى الدين الإسلامي وتراثه، والهدف من وراء كل تلك الدراسات التي قام بها المستشرقون تجاه العالم الإسلامي وعلاقة ذلك كله بالاستعمار الغربي للعالم الإسلامي، مع ذكر الدوافع التي دفعته في دراسة الشرق الإسلامي وديانته، وتعدد هذه الدوافع من دينية وسياسية واقتصادية وعلمية، وكل دافع من هذه الدوافع كان له هدف بغيض تجاه العالم العربي والإسلامي.

لنخلص في نهاية هذا البحث إلى بعض النتائج التي تتوضح لنا من خلال ثنايا أوراقه إلى المكائد والنوايا السيئة التي خططتها وتخططها الدراسات الاستشراقية وهي تتعرض للإسلام وتراثه وكذا عالمه، وأيضا تلك العلاقة الوطيدة الكامنة بين كل من المستشرقين والملوك المستعمرِين.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، المسلمين، الاستشراق، المستشرقين، الاستعمار.

Abstract:

We aim through this research to clarify the image of Orientalism in its approach to the Islamic religion and its heritage, As well as its relations to colonialism with mentioning the motives that prompted him ti study the islamic East and its religion, and the multiplicity of these motives from religious, Political, Economic and scientific, And each of these motives had a hateful goal towards the world islamic.

To conclude at the end of this research some results that clarify to us through the folds of its papers the machinations and bad intentions that were planned and planned by Orientalist studies while they are exposed to islam and its heritage as well as its world, As well as the close relationship inherent between both the Orientalists and the colonial kings.

Keywords: Islam, Muslims, Orientalism, Orientalists, Colonialism.



مقدمة:

من بين الإنتاجات التي قامت بدراسات ضخمة للإسلام والمسلمين والتراث الإسلامي الدراسات الاستشراقية، فلا يخفى على أحد من المشتغلين بالمؤلفات التي تطرقت للدين الإسلامي تلك المنتجات الضخمة التي قام بها ثلة من المستشرقين وهم يتعرضون للإسلام، ولكن الإشكالية التي تنتابنا هنا هي: كيف كان تطرق أولئك المستشرقون للإسلام وتراثه؟ هل كان تطرقا موضوعيا علميا؟ أم أن للدراسات الاستشراقية أهداف ودوافع ما ورائية دفعت بأولئك المستشرقين إلى دراسة الإسلام والشرق الإسلامي؟

فمن خلال هذه الاشكاليات التي انتابتنا حاولنا في ورقتنا البحثية هذه [المقدمة إلى الملتقى الدولي المندرج تحت عنوان (صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب: صراعات الماضي، مستجدات الحاضر وتحديات المستقبل) والمنظم من طرف كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة البليدة 2- علي لونيسي، وبالتعاون مع فرقة بحث PRFU: الخطاب الرقمي وصناعة القيم]، التطرق إلى بعض من النوايا والأحقاد التي كان يتصف بها المستشرقون، والتي كانت تحت عنوان: "صورة الإسلام والمسلمين في مرايا الاستشراق والمستشرقين" زاعمين من وراء دراساتهم أنهم يريدون التعرف على الإسلام والمسلمين بكل حياد وموضوعية، ويتضح لنا ذلك في مدى اعتماد الاستعمار والمستعمرين على المستشرقين ودراساتهم في احتلالاتهم للعالم الشرقي العربي منه والإسلامي، لذلك ومحاولة منا الإجابة على الإشكاليات التي قمنا بطرحها سابقا تطرقنا إلى بعض النقاط التي بدت لنا أنها ستكون كفيلة في توضيح الصورة العامة لبعض الأهداف والدوافع التي اتّسم بها الاستشراق والمستشرقون وهم يدرسون الشرق الإسلامي، فكانت نقطتنا الأولى وهي محاولة توضيح تلك العلاقة الوطيدة بين كل من الاستشراق والاستعمار وكيف يقوم هذا الأخير في توطيد مستعمراته وإنجاحها في الاعتماد على الدراسات الاستشراقية وأصحابها، لننتقل بعد ذلك إلى الدوافع الاستشراقية في دراسة الإسلام والشرق الإسلامي وذكرنا كل من الدوافع الدينية ثم الدوافع السياسية وكذا الدوافع الاقتصادية ومن ثمّ العلمية، وكانت آخر نقطة ارتأينا الخروج بها في بحثنا هذا وهي التعرض إلى بعض المستشرقين الذين كانوا موضوعيين ونزهاء إلى حد ما وهم يدرسون الإسلام والمسلمين وعالمهم الشرقي، وهذا من أجل أن نكون موضوعيين إلى حد ما حيال الاستشراق والمستشرقين، فلا نضعهم في كفة واحدة، لنخرج في الأخير بخاتمة حاولنا من خلالها إبراز بعض وأهم النتائج التي توصلنا إليها ونحن نحضر لهذا البحث.

أولا- الاستشراق والاستعمار:

بعد ضُعف العالم الشرقي وبلوغ العالم الغربي أوجّ قوته خصوصا مع العصر الحديث، لم يتوان هذا الأخير لحظة في الانقضاض على العالم العربي والإسلامي، فلقد شهِد هذا العصر العديد من الاستعمارات لبلدان العالم الإسلامي وخصوصا بلدان الشمال الإفريقي، وكان هذا الاستعمار يشمل مجالات متعددة، من عسكرية، واقتصادية، وسياسية، وحتى ثقافية وفكرية، لكن، إن هذا الاستعمار لم يكن أو أتى من فراغ، بل جاء تحت دراسة وتمحيص للعالم الشرقي، وبالخصوص دراسة ديانته وتراثه فهو الأساس للعالم الإسلامي.

فالغربيون ومنهم المستشرقون "راحوا يدرسون هذه البلاد في كل شؤونها: من عقيدة ولغة وحضارة، وعادات وتقاليد وأخلاق؛ ليتعرفوا على مواطن القوة فيضعفوها، وإلى مواطن الضعف فيغتنموها؛ أي أن الاستشراق قد أدى دورا كبيرا في التهيئة والتمهيد لاستعمار العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر الميلادي" (الشرقاوي، 2016، صفحة 108).

فالاستعمار لم يقم بمخططاته واحتلالاته دون سابق معرفة، بل كان يعتمد على الاستشراق في ذلك، لذلك تجده دائما يسعى "لتشويه الإسلام باستحداث مفاهيم خاوية تماما من مضمون علمي لكنها ذات طنين إعلامي مثل: الأصولية الإسلامية-الإرهاب الإسلامي-وتلك المفاهيم ضبابية، واستثمار الخلاف المذهبي بين الشيعة والسنة، أو الخلاف القومي بين الأقوام المختلفة كالكردي والعربي والفارسي، يركز الاستعمار على تأجيج هذه الخلافات كي تصبح مانعا عن نجاح مشروع التضامن الإسلامي أو الوحدة الإسلامية" (الفيومي، 1993، صفحة 109)؛ فما تقوم به المستعمرات أمر لا مراء فيه، من تأجيج وزرع للفتن داخل أوساط مستعمراتها كي تضعفها وتدمرها وليسهل عليها إحكام قبضتها عليها، أما المصطلحات والمفاهيم التي تزيد من ذلك التأجيج وزرع الفتن، فهي مستمدة من الاستشراق باعتباره الباحث والدارس للعالم الشرقي، وهذه نقطة توضح لنا تلك العلاقة القائمة بين الاستشراق والاستعمار، وكيف يعتمد حكّام الغرب على دراسات المستشرقين لفهم العالم الشرقي من أجل استعماره.

ثم إن العلاقة القائمة بين الاستشراق والاستعمار توضّح أن هناك مطلب استعماري وراء الاستشراق هو أيضا، "وهو الأسلوب لفهم الشرق من أجل السيطرة عليه، ومحاولة إعادة تنظيمه وتوجيهه والتحكم فيه (...) فمن أجل ذلك الهدف الاستعماري درس الشرق سياسيا، واقتصاديا واجتماعيا وأيديولوجيا وعلميا بل وخياليا كذلك.. ومن أجل تلك الرسالة الاستعمارية أصبح الاستشراق يحتل مكانة هامة بين مختلف مجالات العلم والمعرفة لدى الاستعمار وميول الغرب الاستغلالية" (الفيومي، 1993، صفحة 149). وبهذا فقد حظي الاستشراق باهتمام الاستعمار ووفّر له ما يحتاجه من أجل أن يقوم له بتلك الدراسات التدقيقية للعالم الشرقي لمعرفته جيدا وتسهل عليه عملية استعماره، وبهذا "قام المستشرقون بخدمات عدة لهذا الغرض، من هذه الخدمات: تزويدهم الاستعمار بما يحتاجه من دراسات استشراقية عن مناطق نفوذه مما يسهل له مهمته ويمكنه من رقاب الشعوب الإسلامية وذلك بتعريفه بنقاط القوة في العالم الإسلامي لهدمها ومواطن الضعف للتسلل من خلالها، فمن أجل هذه المهمة فتح المستشرقون في المنطقة جامعات وزودوها بالأساتذة الفاهمين لدورهم، وزودوا الحملات الاستعمارية بأصحاب اختصاص ومعرفة بالشرق وأحواله من المستشرقين" (رضوان، 1992، صفحة 44).

بعد فشل الاستعمار عسكريا في الاستحواذ على العالم الشرقي وخيراته حاول التغيير من نمط استعماره، فلجأ إلى طرقٍ أخرى تتمثل في الاستعمار الفكري والثقافي وحتى الديني. ولقد حاول الاستشراق في دراسته للعالم الشرقي أن يضرب هذا العالم في أسسه، وذلك بدراسته لتراثه ودينه، وهذا الأمر كان يخدم الاستعمار. وتطرُق الاستشراق لما يحمله تراث ودين المجتمع الإسلامي من معتقدات كان يؤمن بها إيمانا مطلقا ولا يحيد عنها بالقيام بدراسات للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والتي كانت نتيجتها التشكيك في صحتهما، فهم

يعلمون أن للمسلمين بعدًا روحيا يتمثل في الدين الإسلامي، ويعلمون كذلك مدى تمسّك هذا المجتمع بدينه وكيف هي علاقته به، فذهب "الاستشراق المتعاون مع الاستعمار-بعد الاستيلاء العسكري والسياسي على بلاد المسلمين- إلى إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوس المسلمين وتشكيك المسلمين في معتقداتهم وتراثهم، حتى يتم للاستعمار في النهاية إخضاع المسلمين إخضاعا تاما للحضارة والثقافة الغربية" (زقزوق، صفحة 51)، مما يجعل من العالم الإسلامي يذوب ذوبانا تاما داخل أحضان العالم الغربي، ويكون بذلك تابعا خاضعا خضوعا تاما بين أيديه، لا يملك أدنى حرية لا في التفكير ولا حتى في تقرير مصيره ومصير مجتمعاته.

لقد نشأت هناك علاقة وطيدة بين الاستشراق والاستعمار، ولقد قام الاستعمار بتجنيد ثلة من المستشرقين بتوظيفهم في خدمة أغراضه، وكانت كلما توسعت الدراسات الاستشراقية توسع معها الاستعمار داخل مستعمراته، والاستعمار لا نقصد به هنا الاستعمار العسكري والمسلح فقط، فهناك أنواعا أخرى من الاستعمارات التي تتمثل في الاستعمار الاقتصادي والسياسي والثقافي والفكري والديني وغيرها، والتي تحتاج هي الأخرى أعمالا ضخمة من البحوث والدراسات لتحقيقها، وهنا تكمن وظيفة الاستشراق في خدمته للاستعمار.

وفي إطار حديثنا عن الاستشراق وخدمته للاستعمار نذكر هنا على سبيل المثال نابليون بونابرت الذي قام بحملته الاستعمارية على مصر، ولقد تحدث عنه مطولا الفلسطيني ادوارد سعيد في كتابه الاستشراق، شارحا مدى اعتماد هذا الشخص على دراسات المستشرقين، يقول إدوارد في هذا الصدد ما نصه: "وقيام نابليون بتجنيد عشرات العلماء في حملته المصرية أشهر من أن يحتاج إلى تفصيلات هنا، إذ كان يريد إعداد ما يشبه الأرشيف الحي للحملة في صورة الدراسات التي يضطلع بها وفي جميع الموضوعات، أعضاء المعهد المصري الذي أنشأه" (سعيد، 2006، صفحة 153). ويرى أحد الباحثين أن نابليون بونابرت كان يعتمد على جهود المستشرقين ويصطحبهم معه ويأخذ بمشورتهم وتوجيههم، ويستخدم معرفتهم وخبرتهم بالإسلام والمسلمين في الأغراض الاستعمارية. ومن المستشرقين الذين سخروا أعمالهم للاستعمار نذكر: المستشرق كارل هينريش بيكر مؤسس مجلة الإسلام الألمانية الذي قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في إفريقيا. المستشرق مونج ورجاله وفنتورا ومارسيل وسولكوفسكي والبارون دتوت وغيرهم. المستشرق النمساوي Alfrid Von Kramer الذي كان مستشارا للامبراطورية النمساوية وخدمها مدة ثلاثين سنة في مصر ولبنان ومناطق أخرى. المستشرق بارتولد الذي كلّف بالقيام ببحوث عن الإسلام والمسلمين تخدم مصالح السياسة الروسية في آسيا الوسطى. وهناك أيضا المستشرق الهولندي كريستيان سنوك هورجرونيه الذي تسلل إلى مكة المكرمة باسم عبد الغفار، وبالإضافة إلى مكة المكرمة أيضا ذهب إلى أندونيسيا ووطّد العلاقات مع المسلمين ومنحوه الحب إلا أنه خانهم وكان ذلك كلّه في خدمة الاستعمار الغربي (الشرقاوي، 2016، الصفحات 110-113).

وفي فرنسا البلد الذي احتل الجزائر، نجد أن هناك العديد من المستشرقين ممّن كانوا يملكون مناصب حساسة في الدولة الفرنسية، فلقد "كان هناك عدد من المستشرقين يعملون مستشارين لوزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال إفريقيا. وعلى سبيل المثال كان المستشرق الكبير دي ساسي هو الذي ترجم البيان الموجه للجزائريين، وكان يُستشار بانتظام في جميع المسائل المتعلقة بالشرق من قبل وزارة الخارجية، وفي

حالات معينة من قبل وزير الحربية أيضا. وإلى عهد قريب كان «ماسينيون» مستشارا للإدارة الاستعمارية الفرنسية في الشؤون الإسلامية" (زقزوق، صفحة 49).

كان هذا عرض لبعض المستشرقين الذين استُعمِلوا كأدوات في توطين الاستعمار داخل مناطق الشعوب الإسلامية، وهذا يُظهِر مدى الأهداف والدوافع التي كانت تسعى إليها أعمال المستشرقين ودراساتهم للشرق الإسلامي، وكيف اعتمد ويعتمد عليها الاستعمار في خدمة أغراضه وتحقيق مصالحه داخل العالم الإسلامي.

ثانيا- دوافع المستشرقين:

تتعدد دوافع المستشرقين وتختلف من مستشرق لآخر، كل حسب تخصصه ومجال بحثه، وتعتبر الدوافع هي الأهداف التي كان يريد الاستشراق الوصول إليها من خلال دراسته للعالم الشرقي، ومحاولته اكتشاف ومعرفة المجتمعات الشرقية والإسلامية معرفة تمحيصية تدقيقة؛ وقد نجد أن هناك تداخلا نوعا ما بين بعض الدوافع عند المستشرقين، كالدافع الاقتصادي مثلا نجد أنه يتداخل مع الدافع التجاري، والدافع السياسي نجده يتداخل مع الدافع الاستعماري، فأردنا أن نتطرق لهذه الدوافع مُركزين على البعض منها، أما البعض الآخر فإنه يُستنتج من داخلها، فالدافع التجاري يُستنتج من الاقتصادي، والاستعماري من السياسي، وتجنبا لتكرار الكلام فإننا تجاوزنا الدافع الاستعماري باعتبار أننا تطرقنا للاستشراق وعلاقته بالاستعمار وركزنا فقط على الدافع السياسي منه، بالإضافة إلى دوافع أخرى كالدافع الثقافي. ويمكننا أن نبدأ في ذِكر الدوافع بالدافع الديني الذي يرى الكثير أن الاستشراق بدأ معه، وكان ذلك داخل الكنيسة.

1- الدافع الديني: يذهب العديد من الباحثين في دراستهم للدوافع الاستشراقية أن الدافع الديني يقع "في مقدمة الدوافع التي حفزت حركة الاستشراق الذي ظهر أول ما ظهر بين الرهبان في العصور الوسطى. واستمر بعض المبشرين عيونا لبلادهم التي تعمل بشتى الطرق لإثارة الفتن والاضطرابات من أجل تمكين دولهم الأوروبية من السيطرة على العالم العربي الإسلامي سياسيا واقتصاديا" (فوزي، 1998، صفحة 32).

ثم إن الدافع الديني كان "قد بدأ بالرهبان واستمر كذلك حتى عصرنا الحاضر وهؤلاء كان يهمهم أن يطعنوا في الإسلام ويشوّهوا محاسنه ويحرّفوا حقائقه ليثبتوا لجماهيرهم التي تخضع لزعامتهم الدينية أن الإسلام دين لا يستحق الانتشار، وأن المسلمين قوم همج لصوص وسفاكو دماء، يحثهم دينهم على الملذات الجسدية، ويبعدهم عن كل سمو روحي وخلقي" (السباعي، صفحة 20).

ولما نتحدث عن الدافع الديني، فإنه لا يخفى علينا الجانب الديني للعالم الغربي الذي تمثّله الكنيسة ورجالاتها اللاهوتيين، فآباء الكنائس كانوا يخافون ويخشون أن يُنشر الإسلام وينتشر في أوساط مجتمعاتهم، وخوفهم ذلك أدى بهم إلى محاولة تشويه الإسلام والتكلّم عنه دائما بإبراز أشياء سلبية عليه بُغية التعريف به بتلك الطريقة لمجتمعاتهم حتى يُنفر منه فلا يُعتنق، ويُعتبر هذا الأمر أمرا أيديولوجيا مكائديا للإسلام، ولا علاقة له بتاتا بالبحث العلمي في دراسة الإسلام والتراث الإسلامي، "وقد برز الدافع الديني للاستشراق أكثر ما برز في اتجاه خطير، ألا وهو التبشير، حيث رغب النصارى في تنصير المسلمين، والقيام بأعمال وأنشطة تبشيرية بينهم، وبذل كل ما في وسعهم لحمل المسلمين على ترك الإسلام، أو ترك تعاليمه، والتخلي عن اتخاذها منهج حياة لهم، ودستورا يحكم جميع شؤونهم" (محمد، 2000، صفحة 33).

وبالإضافة إلى ما يقوم به الكهنة المسيحيون هناك كذلك من المستشرقين اليهود الذين كانوا يخيطون المكائد للإسلام والمسلمين، فلا "ننسى ونحن نتحدث عن الدافع الديني للاستشراق هنا المستشرقون اليهود، خاصة، فإنهم (...) أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية-وهي محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمه لإثبات فضل اليهودية على الإسلام: بادعاء أن اليهودية في نظرهم هي مصدر الإسلام الأول" (محمد، 2000، صفحة 37).

إن الانتشار الواسع للإسلام، ودخول الناس فيه أفواجا، وقبولهم له ولحقائقه وعقائده أفزع الغربيين وزرع في قلوبهم الرعب والخوف، خصوصا القساوسة والرهبان منهم، فبدأوا بدراسته ودراسة عقائده، محاولين بذلك "تشويه صورة الإسلام أمام الغرب؛ حتى لا يعتنقه أحد من بني جلدتهم، وتشكيك عوام المسلمين وأنصاف المثقفين، ووضع علماء الإسلام في موقف الدفاع دائما؛ حتى لا ينشغلوا بنقد كتاباتهم وعقائدهم المحرّفة والباطلة" (سرى، 2006، صفحة 30).

2- الدافع السياسي: يحتل الجانب السياسي المكانة البالغة للعالم الغربي في سيطرته على الشرق الإسلامي، وما يعيشه العالم الشرقي العربي والإسلامي اليوم من تبعية للغرب لدليل واضح على سيطرة الغربيين على هذا العالم، ورجال السياسة في العالم الغربي يعتمدون كثيرا على المستشرقين في إحكام قبضتهم على العالم الشرقي باعتبار أن المستشرقين مطّلعين وعارفين بهذا العالم فيبرزون لهم نقاط ضعفه، فلقد "عنى الملوك بتقديم يد العون والمساعدة للمستشرقين وتقريبهم، وذلك لأنهم يخدمون مخططهم في الهيمنة السياسية على الدول الشرقية، وبالأخص المخطط الاستعماري الذي بدء بعد أن ضعف المسلمون" (سرى، 2006، صفحة 44).

فبعد استقلال الدول العربية خصوصا من الاستعمار الحديث، وُضِع في كل دولة سفير من سفراء الدول الغربية، وهذا أمر تعتمد عليه الدول في علاقاتها الدبلوماسية مع بعضها البعض، ولكن منهم من يُستخدم لأغراض أخرى، أغراض استعمارية تحكُمية في سياسات الدول الإسلامية، "ولا يزالون في بعض البلاد العربية والإسلامية يبثّون الدسائس للتفرقة بين الدول العربية بعضها مع بعض، وبين الدول العربية والدول الإسلامية، بحجة توجيه النصح وإسداء المعونة بعد أن درسوا تماما نفسية كثيرين من المسؤولين في تلك البلاد، وعرفوا نواحي الضعف في سياساتهم العامة، كما عرفوا الاتجاهات الشعبية الخطيرة على مصالحهم واستعمارهم" (السباعي، صفحة 24).

وعليه تقوم الدول الغربية بتعيين متخصصين في الدول الشرقية في مناصب حساسة كالسفارات وغيرها من أجل التعرّف على بلاد الشرق وإحكام السيطرة عليه، فالمتخصصون في الدراسات الشرقية يساعدونهم في معرفة كل شاردة وواردة، وكل كبيرة وصغيرة تخدمهم وتخدم مصالحهم التي يسعون وراءها داخل العالم الشرقي، "والدول الغربية تظل دائما بحاجة إلى مشورة المستشرقين والاسترشاد بآرائهم ونصحهم، عند رسم سياساتها الخارجية في بلاد الشرق الإسلامي، كما أنها تحتاج إلى من يرصد لها باستمرار واقع تلك البلاد، وما تموج به من تيارات أو حركات مناوئة أو مماثلة لها ولمصالحها، ونحو ذلك من الأمور، ولا يتم ذلك ونحوه إلا بإيجاد متخصصين في دراسة الشرق دراسة دقيقة، ومنحهم الرعاية الشاملة والدعم اللاّزم، ماديا ومعنويا،

حفاظا على مصالح الغرب في منطقة الشرق الإسلامي، تلك المصالح التي يتشبث بها ولا يمكن أن يستغني عنها أبداً" (محمد، 2000، صفحة 70).

ويبقى دائما العالم الغربي و"لا يزال يتبنى بقوة إشاعة الأفكار والتوجهات التي تضعف من تماسك المسلمين مثل الدعوة إلى القوميات، وإحلال اللهجات العامية محل الفصحى، والترويج للعلمانية في البلاد الإسلامية وتزيينها لحكام العالم العربي، ليسهروا على حمايتها ويفسحوا المجال لدعاتها، وهذا وأمثاله من شأنه أن يفسح المجال للهيمنة الغربية على الشرق الإسلامي، ويبقى على تبعية هذا الشرق للغرب الأوربي" (محمد، 2000، صفحة 72).

نجد أن هناك تحولات وتغيرات طرأت على الاستشراق، فبعد أن ظهر مع الكنيسة وكان يهتم بالديانة الإسلامية وبتراثها، بدأ يتطور ليشمل مجالات أخرى عديدة ومتعددة، وطرأت تحولات على الإنتاجات الاستشراقية وارتبطت بالدوافع السياسية، وكوّنت علاقة وطيدة بالاستعمار، ففي "المرحلة العصرية والاستعمارية فإنها (أي الإنتاجات الاستشراقية) تكتشف الفكر الإسلامي مرة أخرى لا من أجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه هذه السياسات في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها" (نبي، 1969، صفحة 9).

3- الدافع الاقتصادي: إن من بين ما كان يسعى له ملوك الغرب هو نهب ثروات الشرق، وذلك لا يكون إلا بمعرفة، أولا: عقلية مجتمع العالم الشرقي وطريقة تفكيره، ثانيا: التعرّف كذلك على ما يحتويه هذا العالم من ثروات وممتلكات، وهذا يتوفر بواسطة الاطّلاع على جغرافية الشرق وما يحتويه من خيرات، والتعرّف على جغرافية هذا العالم هو واحد من بين الأمور التي درسها واهتم بها المستشرقون، وهذا بطبيعة الحال يساعد ويخدم ملوك العالم الغربي في تحقيق مصالحه داخل العالم الشرقي، "فقد كان هدفهم نهب الثروات من البلاد العربية وجعلها تتوقف عن الإنتاج وجعلها سوقا مستهلكة لمنتجاتهم. يقول (إيرون دوفيلافوس) في المؤتمر الرابع عشر في الجزائر سنة 1905-1323هـ عن رينان: بأنه يرى أن غزو فرنسا للجزائر سيكون مجدًا لفرنسا لما للجزائر من ثروات معدنية وأثرية. ويقول الوزير (بيانفوني مارتن): لقد جعلتكم تطلعون على الجهود الفرنسية المتواصلة والمبذولة منذ نصف قرن؛ كي تبرر الثروات الطبيعية القيمة التي تحويها الجزائر. وتم دراسة الشرق لمعرفة ثرواته ومعرفة كيف يتم الاستيلاء عليها" (سرى، 2006، صفحة 46).

إنه ومن بين ما يساعد على استعمار البلدان المتوفر فيها الثروات، معرفة تلك البلدان وما تحتويه من خيرات، وذلك بمعرفة جغرافيتها والأماكن التي تتوفر فيها، فالجزائر مثلا نجد أن معظم خيراتها تقع في الجنوب، أي في الصحراء، فالصحراء الجزائرية تحتوي أراضيها وجغرافيتها على البترول والغاز وهذا أمر معروف، وهذا الأمر زاد من أطماع الاحتلال الفرنسي لما كان مستعمرا للجزائر، بل وصل به الأمر إلى محاولة تقسيم الجزائر فرنسية إبان الاستعمار بمحاولة إيهام الجزائريين بأنها سوف تعطيهم استقلالهم وذلك بإعطائهم المنطقة الشمالية، أما الجنوبية منها فإنها تبقى فرنسية، وكان هذا في إثر اكتشاف النفط بها سنة 1956، وكانت مساعي التقسيم قد بدأت سنة 1957؛ ولكن هذا لا ينفي ما تحتويه الجزائر كذلك من أراض

خصبة في المناطق الداخلية والتي كانت هي أيضا مصدر طمع للاحتلال الفرنسي؛ وعليه فإن دراسة جغرافية بلد ما من طرف العالم الغربي للعالم الشرقي وُكِّلت مهمته للمستشرقين للتعرف عليها والكشف عنها، فهذه واحدة من بين "الدوافع التي جعلت الغرب يهتم بالشرق ويحب التعرف على كل شيء فيه خاصة جغرافيته، ومكان الخيرات فيه مما جعل هؤلاء الطامعين يشجعون الباحثين والمفكرين في تقديم دراسات وافية عن الشرق وقد نالت هذه الدراسات الرضا والقبول وأصبحت تدر على أهلها ودور النشر التي تتولى نشرها أرباحا هائلة" (رضوان، 1992، صفحة 30).

وليس هذا فقط، بل هناك من المستشرقين من دخل ميدان الاستشراق بدافع الاسترزاق، فبدأ بالقيام بدراسات حول العالم الشرقي تكون بحسب ميولات عالمهم، فكان بهذا محاولة الوصول إلى هدفٍ اقتصادي، وذلك بدخول "بعض رجال الدين ميدان الاستشراق من باب البحث عن الرزق، عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية، فلجأ هؤلاء إلى إشباع رغبة قرائهم في الغرب بنقلهم صورا خرافية عن البلاد الشرقية توافق ما تخيلوه من أطواره وأعاجيبه" (سرى، 2006، صفحة 47). ومنهم من بدأ بترجمة بعض الروايات والقصص، حيث وحسب ما يرى بعض الباحثين "بأن الدوافع الاقتصادية التجارية للاستشراق انشغال بعض المستشرقين بإبراز بعض الجوانب الخرافية المنسوبة إلى الشرق في القصص والروايات المختلفة، فلجأ إلى الإتّجار بهذه الجوانب والاسترزاق من ورائها فترجموا قصص مثل: (ألف ليلة وليلة) و(رباعيات الخيام) و(رسائل إخوان الصفا) وكتاب (كليلة ودمنة) وحللوا هذه الروايات والكتب وزادوا في السرد العجيب وإبراز المناظر السحرية والأسطورية التي رأوها عندما ارتادوا الشرق" (فؤاد، 2001، صفحة 31).

وهناك من المستشرقين أيضا ممّن "لجؤوا إلى الاستشراق عندما قعدت بهم إمكانياتهم الفكرية عن الوصول إلى مستوى العلماء في العلوم الأخرى، فدخلوه تغطية لعجزهم الفكري وطرق أبواب الرزق عن طريق الاستشراق" (فؤاد، 2001، صفحة 31).

ومن الدوافع كذلك للعالم الغربي في الاستيلاء على العالم الشرقي اقتصاديا، هي محاولة جعل هذا العالم خاضعا له دائما، سواء في منتجاته التي يمتلكها ويريد تسويقها أو فيما يملكه العالم الشرقي من خيرات والعالم الغربي يتلهف في الاستيلاء عليها، وهذا يعتبر كواحد "من الدوافع التي كان لها الأثر في تنشيط حركة الاستشراق، [وهي] رغبة الغربيين في التعامل مع الشرق لترويج بضائعهم في أسواقه والاستيلاء على موارده الطبيعية الخام بأبخس الأثمان؛ لذا حرصوا على فتح أسواق تجارية لصناعاتهم في منطقتنا، وحرصوا كذلك على قتل النشاط الصناعي والتجاري في شرقنا حتى يبقى متخلفا، شاعرا بالنقص والحاجة لهم، منهزما نفسيا أمام تقدمهم مما يسهل خضوعه وخنوعه وانقياده لهم" (رضوان، 1992، صفحة 30).

"فالدراسات الاستشراقية عملت على كشف العقلية الشرقية، من جميع جوانبها؛ الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسية، وأبانت عن كل ما يحتاج إليه الشرقي وما يفضّله، وكان ذلك سببا في إغراق الأسواق الشرقية بالمنتجات الغربية المصنعة خصيصا لها، وهذا أدى إلى الاعتماد دائما على المستورد الغربي دون التفكير في استغلال الموارد والتصنيع المحلي، وهكذا تستمر السيطرة الاقتصادية الغربية على شعوب العالم الشرقي، ويستمر استنزاف خيراته وفق دراسات متجددة يقوم بها مستشرقون في مختلف دول العالم

الغربي" (الزيادي، 1998، صفحة 45)، فلقد أصبح العالم الشرقي يستورد فقط، كل ما يحتاجه من وسائل وخدمات وآلات، وحتى الدواء وما هو خاص بالصحة من مستلزمات، بل حتى السيارات والطائرات، أما هو (أي العالم الشرقي) فإنه لا ينتج شيئا بيده، وعدم الإنتاج هذا يعني أنه لا يُصدّر شيئا خارج عالمه مما يعود بالنفع عليه وعلى بني جِلدَته، ما عدا ما رزقه به الله سبحانه وتعالى من خيرات تحت الأراضي.

4- الدافع العلمي: تجب الإشارة في الحديث عن الدافع العلمي إلى الحضارة العربية والإسلامية التي كانت في أوج ازدهارها إبان العصور الوسطي، بينما كان في المقابل العالم الغربي يعيش تحت الظلمة القاتمة، لكن بعد أن فتح أعينه لم يتوان لحظة في الأخذ من علوم العرب والمسلمين، "فحرص على أن ينهل من علوم الشرق الإسلامي، ويقتبس من حضارته لينهض مثل المسلمين. فكان لابد من تعلّم اللغة العربية، والتّتلمذ على أيدي علماء المسلمين، والرحلة إلى حيث يقيمون، وانكب الغربيون على علوم الشرق الإسلامي ينهلون من معينها الصافي" (محمد، 2000، صفحة 39).

ثم إننا لما نتحدث عن الدافع العلمي فإننا سنجد هنا بعض من المستشرقين ممّن انهلوا في دراسة العالم الشرقي من أجل التعرّف عليه وتكوين معرفة علمية حول هذا العالم وما يمتلكه من علوم وحضارة وثقافة، وتجد أن الجانب السلبي هنا الذي تميّز به العديد من المستشرقين أقل وأخف ضررا مقارنة بالدوافع الأخرى التي كان يهدف من ورائها المستشرقون في دراسة الشرق الإسلامي، ففي الدافع العلمي ستجد "العديد من الدراسات القيّمة والتي تقدّم فائدة علمية في تفسير التاريخ الإسلامي، ولكنها وبنفس الوقت لا تخلوا من شطحات أو تخريفات أو تشويهات لها ما يبررها بسبب جهل أو تقصير في فهم النصوص العربية (...) ولهذا نلاحظ أن المستشرق الواحد يختلف في موقفه من بحث لآخر.. وقد يغيّر في تفسيراته ويبدّل في آرائه من كتاب إلى آخر تبعا لاستزادة معلوماته أو نضجه أو اطّلاعه على أبحاث أخرى في مجال التاريخ الإسلامي أضافت إلى معلوماته معلومات جديدة" (فوزي، 1998، صفحة 37).

وعليه فإن الدافع العلمي لا يقتصر على الجانب السلبي التدبيري لدى المستشرقين فقط، فهناك البعض منهم من كان "القصد منه البحث العلمي الخالص، ودراسة الإسلام وعلومه، بتجرد عن الهوى ونزاهة عن التعصب، دراسة تجلّى لهم بعض الحقائق التي خفيت عنهم" (محمد، 2000، صفحة 42).

فبعد اطّلاع المستشرقين وانبهارهم بما قام به المسلمون من حضارة وتطور ورقي، بدؤوا "ينشؤون المدارس والجامعات، ويأتون بالعلماء المسلمين والمتتلمذين على أيديهم ليدرسوا في تلك المدارس والجامعات، وبعد أن وصلوا إلى حد معقول في التقارب العلمي تحول هدفهم إلى هدم الحضارة الإسلامية بشتى الصور" (سرى، 2006، صفحة 43).

إن الدافع العلمي يُخفي العديد من السلبيات على المستشرقين وعلى أهدافهم التي كانوا يسعون إليها من وراء دراستهم للشرق الإسلامي، ففي هذا الدافع كان هناك من المستشرقين من كان بحثه موضوعيا يهدف من ورائه التعرّف على عالم الشرق، حتى إنه هناك من المستشرقين من أصابه الأسف والحسرى على البحوث الأخرى التي كانت مشوهة للإسلام والتراث الإسلامي، وهذا يتعلق بتلك البحوث التي كانت مسيئة إلى نبي

الإسلام محمد ﷺ أو مشككة في القرآن الكريم، أو متهمة الإسلام بأنه دين شهوات وهمج وقتل وغير ذلك من التهم الباطلة التي أُلصِقت بالدين الإسلامي وبتراثه.

وبسبب هذا الدافع ظهر العديد من المستشرقين الذين كانوا أقرب للحق والصواب في دراساتهم للتراث الإسلامي، حتى إن منهم "من أدى به بحثه الخالص لوجه الحق إلى اعتناق الإسلام كما حصل ذلك مع المستشرق الفرنسي الفنان ‹‹دينيه›› والذي سمى نفسه ‹‹ناصرالدين دينيه›› وألف بعد ذلك مع عالم جزائري كتابا عن سيرة الرسول ﷺ. ولـ‹‹دينيه›› كتاب آخر بعنوان (أشعة خاصة بنور الإسلام) بيّن فيه تحامل قومه على الإسلام ورسوله" (رضوان، 1992، صفحة 37).

ويمكننا أن نذكر في نفس المناسبة مع هذا المستشرق "المستشرق المجري ‹‹عبد الكريم جرمانوس›› الذي أسلم في الهند سنة 1930م والذي ألف أكثر من 150 كتابا عن الإسلام ومنهم الطبيب الفرنسي ‹‹موريس بوكاي›› صاحب كتاب ‹‹دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة›› الذي أثبت فيه موافقة القرآن لأحدث الحقائق العلمية التي توصل إليها الناس بوسائلهم المختلفة اليوم وغير هؤلاء كثير" (رضوان، 1992، صفحة 37).

خاتمة:

وفي الختام نقول: إن الدراسات الاستشراقية تحتاج الكثير من التحليل والتدقيق والتمحيص من أجل الكشف عن السموم المدسوسة من قبل المستشرقين والمكائد التي نصّبوها ويُنصّبوها دائما ضد الإسلام والمسلمين بُغية تشويه صورته للرأي العام سواء في العالم الغربي أو حتى في العالم المشرقي، وهذا لا ينبع إلا من حاقد على دين ارتضاه رب العزة دينا للعالمين أجمع، وما يدل على ذلك الحقد الدفين للمستشرقين على الإسلام والمسلمين هو دعمهم للمستعمرات الغربية التي تمثل أوطانهم وتزويدهم بما يستحقونه من معلومات من أجل السيطرة على العالم الإسلامي، وهذا الأمر لا يمثّل بتاتا الروح العلمية والدقة الموضوعية التي يتوجب على الباحث الحقيقي الاتّصاف بها؛ لذلك يتوجب على الباحث الحقيقي فعلا أن يتحرى الدقة في تطرقه للدراسات والإنتاجات الاستشراقية وهي تتعرض للإسلام والمسلمين بالدراسة.

كما أن الإسلام الحقيقي ليس ذلك الإسلام الذي يصوره لنا أولئك المستشرقون في كتبهم ومؤلفاتهم، وإنما الإسلام الحقيقي هو ذلك الدين الذي يُستَقى ويُعرَف من خلال رجاله وعلمائه الكبار، لذلك نقول: إن من يريد الاطّلاع الحقيقي على الإسلام ومعرفته على حقيقته فليذهب لينهل من مصادره الأصلية، لا من قراءات خارجية عليه تجعله يتيه ويضيع في الطريق أو يأخذ صورة مشوهة حول الدين الإسلامي والمسلمين، لذلك فالإسلام الحق هو ذلك الدين الذي يؤخذ من منابعه الأساسية الأصلية الأصيلة، لا من قراءات غربية غريبة عليه قد لا تفهمه جيدا أو قد تكون قراءات تخيط المكائد له ولبني جلدته، وهذا ما يدفعنا إلى البحث داخل تراثِنا بما ألّفه تراثُنا لفهمه بأنفسنا، لا محاولة قراءة ديننا بعيون غيرنا، فللإسلام والمسلمين تراث عريق وتاريخ طويل كبير لمن يريد الاطّلاع عليه، ألّف فيه ما لا يعد ولا يحصى من المؤلفات والكتب والمجلدات مما يجعلنا في غنى عن أي دراسة إسلامية خارج أطر ديانتنا الإسلامية.

توصيات:

ومما يمكننا أن نورده هنا كتوصيات لهذا الملتقى الدولي، والذي يحمل في حقيقته موضوعا هاما جدا، خصوصا وما يعيشه اليوم العالم والمجتمع الإسلامي وديانته من خلط وتضليل وتشويه، هو إيصال فكرة مهمة للجمع والحضور تقول بمحاولة قراءة وفهم الدين الإسلامي من منابعه وكتبه ومصادره الأصلية الأساسية، وكذا تعريف هذا الدين على حقيقته وبحقيقته، لا كما يصوره الغير، ولا حتى كما يصوره من يدّعون التدين به، وهم في حقيقتهم لا علاقة لهم بهذا الدين الحنيف بتاتا، ويكون ذلك بمحاولة تعريف الإسلام وما فرضه من شعائر وأحكام وقوانين وأخلاق تجب على الإنسان الاتّصاف بها والتقيد بها والاحتكام إليها في شؤون حياته، مع الإشارة إلى الحكمة من ورائها أيضا، ومحاولة كذلك تمثيل الإسلام أحسن تمثيل باعتباره الدين الذي ارتضاه رب العالمين للعالمين جميعا.

قائمة المراجع:

- الزيادي محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، (1998)، دار قتيبة.
- السباعي مصطفى، الاستشراق والمستشرقون، (s.d)، دار الورق.
- الشرقاوي محمد عبد الله، الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام، (2016)، دار البشير للثقافة والعلوم، مصر.
- الفيومي محمد إبراهيم، الاستشراق رسالة استعمار، (1993)، دار الفكر العربي، القاهرة.
- بن نبي مالك، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، (1969)، دار الإرشاد، بيروت.
- حسين محمد بهاء الدين، المستشرقون والقرآن الكريم، (2014)، دار النفائس، الأردن.
- رضوان عمر بن ابراهيم، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، (1992)، دار طيبة، الرياض.
- زقزوق محمود حمدي، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، (s.d)، دار المعارف، القاهرة.
- سرى طارق، المستشرقون ومنهج التزوير والتلفيق في التراث الإسلامي، (2006)، مكتبة النافذة.
- سعيد إدوارد، الإستشراق، (2006)، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة.
- فؤاد عبد المنعم، من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام، (2001)، مكتبة العبيكان، الرياض.
- فوزي فاروق عمر، الاستشراق والتاريخ الإسلامي، (1998)، منشورات الأهلية، لبنان.
- محمد اسماعيل علي، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل (مدخل علمي لدراسة الاستشراق)، (2000)، الكلمة للنشر والتوزيع.

ترجمة المستشرقين للقرآن ودورها في تقديم صورة سلبية عن الإسلام لدى الغرب .

The Orientalist's Translation of the Holy Qur'an and its Role in Presenting a Negative Image of Islam in the West.

ط/د. نهى مقيدش، جامعة باتنة ، الجزائر
mekidechenouha@gmail.com



تضمّن موضوع هذه الدراسة أحد أهم العوامل التي ساهمت في تقديم صورة مشوهة و سلبية عن الإسلام والمتمثلة في ترجمات المستشرقين للقرآن الكريم ، فهذه الدراسة تهدف لإبراز الدور السلبي الذي لعبته ترجماتهم في تشويه صورة الإسلام وقيمه لدى الغرب. فقد ساهمت بشكل كبير في نشر أفكار مغلوطة عن الإسلام فهي تعد من أبرز الأسباب التي تمخض عنها ظاهرة الإسلاموفوبيا، فتكون بذلك قد نجحت في جعل الغرب ينفرون من كل ما له علاقة بالإسلام و المسلمين من خلال تشويه جمال القرآن الكريم باسم الترجمة وأكملوا ذلك بالمقدمات والحواشي المغرضة، فكانت عائقا أمام وصول الإسلام و تعاليمه على نحو صحيح لأنّ المقصد منها هو إبعاد بني جلدتهم عن الإسلام.

الكلمات المفتاحية :الترجمة، المستشرقون، الغرب، الإسلام ، القرآن .

Abstract :

The main subject of this study includs one of the most important factors which contributed to the presentation of a somewhat distorted as well as negative image of Islam, which is represented in the orientalist's translation of the Qur'an and its role in presenting a negative image of Islam. This study aims to highlight the negative role played by their translations in distorting the image and values of Islam in the West. It has contributed greatly to spreading false ideas about Islam, as it is one of the main causes for perpetuating the phenomenon of Islamophobia.

Thus, it has succeeded in persuading the west to alienate everything related to Islam by distorting the beauty of Qur'an in the name of translation.

Keywords: translation, orientalists, the West, Islam, the Qur'an.



مقدمة :

شعر المستشرقين بمدى خطورة انتشار الإسلام وتوسعه ، فبحثوا في سبل تقويضه والحد من انتشاره فلم يجدوا سبيل لذلك أفضل من ضرب المسلمين بكتابهم المقدّس ، فاهتموا أيّما اهتمام بالقرآن الكريم باعتبار أنّه المصدر

الذي يستقي منه المسلمين سائر أحكامهم عقيدة وشريعة وأخلاق ، فسعوا للتشكيك فيه ونزع الثقة عنه باستخدام شتى الطرق فإذا نجحوا في تشويه القرآن يكونوا بذلك قد نجحوا في إعطاء صورة خاطئة عن الإسلام، وأحد أهم الطق التي اعتمد عليها المستشرقين لتحقيق هذا الغرض هو ترجمة القرآن الكريم فجاءت هذه الدراسة بعنوان :**ترجمة المستشرقين للقرآن ودورها في تقديم صورة سلبية عن الإسلام لدى الغرب.**

الإشكالية : من خلال ما سبق ذكره نطرح الإشكال التالي :

كيف ساهمت ترجمات المستشرقين للقرآن الكريم في تقديم صورة مشوهة عن الإسلام ؟

أهداف الموضوع: تهدف هذه الدراسة إلى :

-إظهار الدور السلبي الذي لعبته هذه الترجمات في تشويه صورة الإسلام من خلال عرض نتائج الترجمات وآثارها، و دحض شبهاتهم.

-إبراز الأهداف الرئيسية التي دفعت المستشرقين لترجمة القرآن الكريم مما يوضح افتقاد مثل تلك الترجمات إلى الموضوعية و بالتالي التشكيك في مصداقية الأفكار التي ساهمت في طرحها عن الإسلام.

أولا- أهداف ترجمة المستشرقين للقرآن:

إنّ المتتبع لتاريخ حركة الترجمة يلاحظ أنّها نشأت في خضم الصراع بين الإسلام والنصرانية فكانت أحد أهم العوامل التي ساهمت في تغذية ذلك الصراع ، فكانت بمثابة السلاح الذي يُعتمد عليه لتحقيق مجموعة من الأغراض بعضها معلنة والبعض الآخر منها سري ، وعليه لم يجد المستشرقين سبيل أنجع وأكثر فاعلية لتحقيق أهدافهم من ترجمة القرآن وتتلخص هذه الأهداف في هدفين رئيسيين هما : **التبشير، التشويه .**

1. التبشير: ذكر الألماني يوهان فوك أنّ فكرة التبشير هي الدافع الحقيقي خلف اشتغال الكنيسة بترجمة القرآن الكريم فكلّما تلاشى الأمل في تحقيق نصر نهائي بقوة السلاح لاحتلال البقاع المقدسة لم يؤد إلى ثني المسلمين عن دينهم بقدر ما أدّى إلى عكسه وذلك من خلال تأثر الصليبيين بحضارة المسلمين، وفي سنة 1143 ظهرت أول ترجمة لاتينية للقرآن ونسبت للأب بطرس الذي كان له رحلة احتك فيها بالمسلمين و خرج مِن ذلك بقناعة أنّه لا سبيل للخروج من هرطقة محمد بقوة السلاح بل إنّ ذلك يكون بقوة الكلمة، ولتحقيق هذا المطلب لا بدّ من معرفة الخصم أولا فعمد إلى وضع خطة عمل لترجمة القرآن إلى اللاتينية .(فوك، 2006، الصفحات 74-75).

وبذلك جاءت أول ترجمة للقرآن الكريم للحد من انتشار الإسلام في العالم وفي مقابل ذلك توسيع نطاق انتشار المسيحية في العالم بإبراز جوانب النقص في الإسلام ، وأفضل انطلاقة بالنسبة إليهم لتحقيق هذا الغرض يكون بالاعتماد على القرآن الكريم الذي يستقي منه المسلمين تعاليمهم، فإذا نجحوا في ضرب هذا المصدر يكونوا بذلك قد نجحوا في القضاء على الإسلام .

فأكّد رودي بارت على أنّ التبشير هو أحد أهم أسباب ترجمة القرآن قائلا : "وإذا نظر المرء إلى تاريخ تطور الاستشراق يستطيع القول أنّ بداية الدراسات العربية والسلامية ترجع إلى القرن الثاني عشر وأنهم سعوا لترجمة القرآن وإنشاء قاموس لاتيني عربي وإنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية وكان الهدف من هذه الجهود في ذلك العصر التبشير و إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين المسيحي ." (بارت، 2011، الصفحات 14-15).

فيتضح من خلال قول يوهان فوك و رودي بارت أنّ أحد أهم أسباب اضطلاع المستشرقيين بترجمة القرآن الكريم هو تنصير المسلمين وإخراجهم من دائرة الإسلام إلى المسيحية ، نظرا لكون القرآن هو عماد هذا الدين فإذا أبعدوهم عن القران ومعانيه من خلال تشويه معانيه وأحكامه يكونوا بذلك قد نجحوا في إبعادهم عن الإسلام ، وبمفهوم المخالفة يكونوا قد نجحوا أيضا في إبعاد بني جلدتهم عن الإسلام الذي يستقي تعاليمه من القرآن الكريم فكانت ترجماتهم بمثابة السلاح الرئيسي لهم في مهمة التبشير .

فقد أيقن الغرب وفي مقدمتهم المستشرقين أن بقاء القرآن مصدر قوّة و توجيه للمسلمين فيه حكم صارم بفشل جهودهم و نشاطاتهم ومطامعهم لذلك توجه عزمهم إلى هدف رئيسي هو إلحاق هزيمة روحية بالمسلمين من خلال ضرب المصدر الأول لهم ،وإلحاق هزيمة فكرية بهم من خلال القضاء على روح الاستعلاء الإيماني وإذابة شخصية المسلم عن طريق إذابة شخصية المسلم عن طريق ترجمات توحي بأنّ الإسلام دين مقتبس من المسيحية وهو ما سيتضح من خلال إبراز خصائص ترجماتهم . (العظيم، 1394/1974، الصفحات 146-147).

ومن خلال ماسبق ذكره يمكن القول أن ترجمة معاني القرآن الكريم ترجع أهدافها بدرجة كبيرة إلى أهداف تبشيرية بالأساس، فذكر ساسي سالم الحاج :" أنالغرض الذي هدف إليه بطرس وراء ترجمة القرآن الكريم هو هداية المسلمين حسب اعتقاده إلى المسيحية وهو هدف تبشيري بالدرجة الأولى (الحاج، 2002، صفحة 40).

2.التشويه: سعى المستشرقين من خلال ترجمة القرآن الكريم إلى تحقيق هدف آخر يعتبر في غاية الأهمية بالنسبة إليهم إلى حد يمكن القول أنّه أكثر أهمية من الهدف الأول ، ويتمثل هذا الهدف في تشويه صورة الإسلام كل ذلك من أجل تحقيق النصر في حربهم ضد الإسلام.

فقد سعوا من خلال ترجمة القرآن الكريم إلى تشويه صورة الإسلام من خلال ضرب المصدر الأول لهذا الدين ،كل ذلك كان للحد من تأثير القرآن بما يشمله من أصول إيمانية وتشريعية أخلاقية تلائم الفطرة الإنسانية و تخاطب العقل والوجدان خطابا عقليا واقعيا مقنعا ، مما لا يجدي تجاهه إلا عدم التخلية بين القرآن وبين لعقل والوجدان الغربي وذلك بخلق حاجز نفسي عميق بين القرآن والغرب بواسطة الترجمات . (المحسن، 1427هـ /2006، الصفحات 39-40) .

فالمستشرقون لم يجدوا أفضل من ترجمة القرآن الكريم وسيلة لتشويه نصّه وتعاليمه ولما استشعروا عدم كفاية تشويه النص أكملوا ما يريدونه بالملاحظات و الحواشي (الندوي، 1417، صفحة 36).

فعمد المستشرقون من خلال ترجماتهم لبناء حاجز نفسي عميق حائل بين القرآن الكريم وغير المسلمين بالإضافة إلى إبعاد المسلمين عنه و هذه الحواجز تتمثل فيمايلي :

أ.عنونة الترجمات:

فقد وضع المترجمون على أغلفة ترجماتهم بعناوين تشكل بذاتها مادة في الجدل ضد القرآن حاولوا من خلالها الابتعاد قدر الإمكان عن إعطاء أي صلة بين القرآن و الوحي وجعلت منه كتابا طائفيا مؤلف عربي (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 41) ، ومن هذه العناوين نذكر :

- قوانين المسلمين : ترجمة فريديريش ايبرهارد بوسين .
- قوانين الأتراك: ترجمة يوهان لانج .
- مسامرات محمد : ترجمة لين بول .
- قرآن محمد : ترجمة دي ريور .
- محمّد و مؤلّفه : ترجمة فريدرش داومر .

فعند النظر لهذه العناوين نلاحظ أنّها تنسب القرآن إلى الرسول صلى الله عليه و سلّم وتنفي عنه أي قداسة وهو ما يجعل القارئ ينظر إليه على أنه مجرد كتاب عادي فيكون المترجم قد نجح في فرض حاجز نفسي يحول بين القرآن و قارئه .

ب. المقدمات و الملاحق: فالمترجمون أضافوا إلى نصوص ترجماتهم للقرآن الكريم مقدمات تفسيرية وملاحق شارحة أغلبها عبارة عن طعون في أصالة القرآن الكريم و سخرية من محتواه ومحاولة للحط من قدره . (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 42).

ج. المحاكاة والتقليد: يهدف الغرب من خلال محاولة محاكاتهم سور القرآن الكريم إلى تكريس فكرة بشرية النص القرآني وهو ما يجعل منه نصا قابلا للمشاكلة ممّا يجعل الناس يشككون في قداسته. (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 50) ، وهو الأمر الذي جعل القس رايموندس مارتيني يعمد إلى تقليد هجومي لإحدى سور القرآن الكريم . (فوك، 2006، صفحة 91)

د. التلاعب بالترجمات: بدأ التلاعب في الترجمة من خلال تصدي غير المؤهلين للترجمة ومعاملتهم للقرآن الكريم معاملة المؤلفات البشرية كان الهدف من وراء ذلك ليّ النص وتمزيقه حتى يكون مشوها وملائما للمهمة التي نصبوا أنفسهم لها ومن ثمّ فإنهم يترجمون القرآن الكريم على النحو الذي يرضي أهدافهم نحو الإسلام . (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 48).

وقد عدّد صالح البنداق أوجه التلاعب في الترجمة ذاكرا :" إزاحة الآيات من أماكنها التوقيفية لتضليل القارئ وإبعاده عن الإحاطة بحقيقة النص القرآني ، بالإضافة إلى عرض النص كما يراه المترجم لا كما تقتضيه الآيات القرآنية ممّا يرتب تحريف المعاني وتبديلها (البنداق، 1983/1403، الصفحات 101-106).

ولا بدّ من الاعتراف أن المستشرقين قد أصابوا أهدافهم بإبعاد خلق كثير عن القرآن ونجحوا في إدخال الريبة و الشك في قلوب البعض من الجهلة من المسلمين . (الندوي، 1417، صفحة 38).

ثانيا- أساليب المستشرقين في ترجمة القرآن الكريم:

خصص هذا المطلب للتعريف بأهم الأساليب التي اعتمد عليها المستشرقين عندما شرعوا في مهمة ترجمة القرآن الكريم وهو ما سيساعدنا في معرفة كيف ساهمت هذه الترجمات تقديم صورة مغلوطة عن الإسلام.

1. ترجمة النص و ليس المعنى: فيبدوا التزام المترجمين بهذه القاعدة واضحا وذلك من خلال استعراض أسماء الترجمات التي حملتها طبعاتها و باستثناء ترجمة آربري التي حملت اسم القرآن مفسّرا تكاد الترجمات الغربية تجتمع عنونتها بعناوين توحي بأنّها هي القرآن ولا يقتصر الأمر على عنوان الترجمة بل يمتد ذلك بذكر بعضهم في مقدمات ترجماتهم أنّهم يترجمون النص القرآني وليس المعنى . (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 52).

ولكنّ هذا الأسلوب الذي اعتمد عليه المترجمون يخالف ثوابت عقدية وفكرية ولغوية فالمفكر المسلم يرى عدم إمكانية محاكاة النص القرآني ، فالعقيدة الإسلامية تقوم على أساس الإيمان بأنّ القرآن كتابا معجزا في جميع جوانبه و لجميع البشر وثبت من الناحية التاريخية عجز العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة عن محاكاة القرآن والإتيان بمثله . (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 53) ، فإذا كان العرب عاجزون عن مجاراة أسلوب نظم القرآن فمن باب أولى عجز غيرهم عن ذلك وهم أقل منهم فصاحة ودراية بلغة القرآن .

ومن أسباب عجز غير العرب عن مجاراة ومحاكاة أسلوب القرآن والذي يؤدي إلى استحالة الدقة في ترجمة النص دون المعنى نذكر : "غني اللغة العربية بالمفردات و المترادفات ممّا ليس له مثيل في اللّغات الأخرى ، واختلاف بناء الجملة في اللغة العربية عن تركيب الجملة في اللغات الأجنبية ناهيك عن الأساليب البلاغية والنظام الصوتي والصرفي في اللغة العربية الذي يسمح لبعض التراكيب ببعض الخصائص التعبيرية التي تتجاوز المعاني المعجمية . (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 53).

ونجد أنّ خصوصيات اللسان العربي لا تكمن في جانب التركيب والبلاغة وحدهما بل قد يتطرق ذلك إلى عالم المفردات فانّ كثيرا من مفردات عربية القرآن قد لا نجد ما يوازيها في اللغات الإنسانية الأخرى، وثمّة نوع آخر من المصطلحات لها فوق معناها المعجمي اللغوي معنى اصطلاحي إسلامي خاص مثل : الصلاة ، الزكاة ، نسك ، وممّا لا شك فيه أنّ لهذه المفردات لها مقابلات في اللغات الأخرى و ما دام للناطقين بهذه اللغات دين له شعائر و طقوس وعبادات وهو ما يجعل القارئ بالإضافة إلى المترجم نفسه يتبادر إلى ذهنه أنّ هذه الشعائر الواردة في النص القرآني

هي مثل شعائر دينه ، لذا نجد أنّه من الأفضل للمترجم أن يثبت المفردة باللفظ العربي ويضع بجانبها الكلمة المستعملة في لغته ثم يضع حاشية يشرح فيها خصوصية المعنى العربي الإسلامي. (عزب، الصفحات 23-27).

2. إغفال النص العربي في الترجمة: ويشكل هذا النهج أكبر عائق أمام استحقاق مثل هذه الترجمات اسم ترجمة فالترجمة تعني الانطلاق من الأصل المترجم لكنّ فكرة التبشير التي كانت وراء ترجمة القرآن الكريم وكذلك الحرب ضد الإسلام و المسلمين لم تر أصل المصدر ضروري واكتفت بالترجمات الأوروبية السابقة في انجاز ترجماتهم الجديدة . (فوك، 2006، صفحة 76)

وذكر فوك أنّ في ترجمة روبرتوس كتننيسيس عيوب خطيرة فقليلا ما حافظ على تكوين الجملة الأصل فقد تخلى عن الأمانة اللفظية فكانت أقرب من الجمل المفسّرة بدل الجمل المترجمة ، ونادرا ما وضع في الاعتبار الخصائص الأسلوبية للقرآن بل انّه اجتهد في أن يجرد مضمون الفكرة من أجزاء المعنى المتفرقة لسورة ما ويقدمها منطقية في تشكيلها . (فوك، 2006، صفحة 80).

فكانت الترجمات الأولى للقرآن لكريم عبارة عن ترجمة لترجمة دير كلوني فأصبحت محاكاة لبعضها البعض فكان النص القرآني مغفلا بشكل كلي طيلة سبع قرون . (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 54).

3. إعادة ترتيب سور القرآن الكريم: رغم أن أبجديات الترجمة تقتضي التزام المترجم في نقل نظام المادة المترجمة وترتيبها كما جاءت في الأصل في النص الإنساني ناهيك عن النص المقدس، لكن عند النظر إلى ترجماتهم نجدهم قد تجاوزوا هذا الالتزام وراحوا يعيدون الترتيب القرآني للسور ،فنزعوا عدّة نزعات و مسالك أثمرت هياكل مختلفة لترتيب السور القرآنية فأصبح القرآن عبارة عن كتب مختلفة و ليس كتاب واحدا . (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 54). وقد سلكوا مسالك مختلفة في ترتيب سور القرآن وهي :

أ. الترتيب المصحفي المأثور: التزم به : جورج سال ، آرثر آربري.

ب. ترتيب السور وفق النزول: التزم به : ادوارد بالمر ، جون رادويل ، ريتشارد بيل .

ج. الترتيب التاريخي وفق تاريخ الدعوة.: التزم به : نولدكه ، شيفالي .

د. الترتيب الشاعري.

وهو أبرز علامات الانفلات المنهجي في الترجمات الغربية وهذا الترتيب يعتمد مداره على أمرين : أحدهما قصر السور و طولها و الثاني شاعرية السور، فيبدأ الترجمة بالسور القصار الأكثر شاعرية ثمّ الأطول والأقل شاعرية، وسوّغوا لأنفسهم أن سبب اعتماد هذا الترتيب هو عدم صدمة القارئ بالسور الطويلة ورغبة في تهيئة القارئ تدريجيا . (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 57)

وقد افتعلوا مشكلة أمام النص القرآني لم يعرفها علوم القرآن من قبل وهي أنّ ترتيب النزول للسور القرآنية مخالف لترتيب المصحف التوقيفي، لكن ترتيب النزول لم يكن يوما باعثا للتناقض بسبب مخالفته الترتيب المصحفي التوقيفي الذي كان بتوجيهات النبي صلة الله عليه وسلم بوضع الآية في محلها من السورة ،فقد رتب سور القرآن مشافهة في حياته . (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 57).

فترتيب النزول كان أشبه بما يكون إمداد الهداية البشرية لمن يطلبونها في الوقت الذي يحتاجونه . (العلا، 1991، صفحة 29)

ثالثا- خصائص ترجماتهم للقرآن و نتائجها:

من خلال ما سبق ذكره من أهداف سعى المستشرقون لتحقيقها من خلال ترجمة القرآن الكريم ومن خلال ذكر أساليب الترجمة التي اعتمدوا عليها اتسمت ترجماتهم للقرآن الكريم بمجموعة من السمات والخصائص سنبرزها في هذا المطلب، فمن خلال ذكرنا لخصائص ترجماتهم سنبرز كيف كان تأثير مثل هذه الترجمات على القرآن والإسلام والمسلمين .

1. سمات ترجمات المستشرقين للقرآن الكريم: تتسم ترجمة المستشرقين للقرآن الكريم في أغلبها بمجموعة من السمات نذكر منها :

أ. ضعف الترجمات وأحد أهم أسباب ضعف الترجمات هو الجهل باللغة العربية فقد ذكر يوهان فوك أن سائر المهتمين بالعربية ومنهم المهتمين بالقرآن في بداية القرن الثامن عشر لم يكونوا يتقنون العربية . (فوك، 2006، صفحة 100). والعربية لغة القرآن الكريم فكيف لمن لا يتقن لغة القرآن أن يترجم معانيه وإذا أقدم على ذلك كيف يمكننا الثقة في ترجمته وهو جاهل بأسرار لغة القرآن وفي ذلك دليل على قصور الترجمة.

ويظهر أثر جهلهم باللغة العربية من خلال الأخطاء التي وقعوا فيها والتي نذكر منها :

"الأخطاء المعجمية : ومثال ذلك : ترجمة قوله تعالى : {إنّ الصفا و المروة من شعائر الله }البقرة 158 ترجمها جاك بيرك إلى : {Cafa et Marwa font Portie des Reperages de Dieu }، ومعناها إنّ الصفا و المرة تمثل جزء من العلامات التي يصنعها الله .

ومن أسباب ضعف الترجمة أيضا نذكر اختلاف طبيعة اللغات فكل لغة ولها خصائصها، فمدلول كلمة معينة في لغة ما يختلف عن مدلولها في لغة أخرى ، بالإضافة إلى أنّ كل لغة لها خصائصها فخصائص اللغة العربية من حيث العدد وعلامات الإعراب و الجنس والصيغ الصرفية تمكِّن العربية من أداء المعاني على نحو دقيق تفتقر إليه العديد من اللغات، ممّا يضطر معه المترجم الغربي إلى استخدم أكثر من لفظة لترجمة معنى القرآنية الواحدة، ومن

المشكلات الناجمة عن اختلاف اللغات التي لا نجد لها حلا علميا مرضيا : غياب الترادف ، دلالات الأسماء الغير معروفة في اللغة الأوروبية (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 74) .

ب. "كانت ترجمات عشوائية حرّة بحيث كانت مثالا بارزا للعشوائية المدفوعة بالأهداف الإيديولوجية فجاءت بعض الترجمات حرّة دون قيد أو التزام منهجي و قد تجسدت هذه العشوائية في النقاط التالية:

- الحذف : فقد عمدوا إلى تقديم مضمون إجمالي للآية المترجمة دون مراعاة ترجمة بقية المفردات بما تضفيه الى المعنى من تفصيلات ومثال ذلك إسقاط حرف النون عند ترجمة سورة القلم.

- الزيادة مثل زيادة لفظ قل لهم في قوله تعالى :{ وإذا سألك عبادي عني فاني قريب} فجاءت :{ When my servants question you about me tell them I am near }.

- تجاهل خاصية النظم القرآني : فلم يعيروا اهتماما لخاصية النظم القرآني وذلك بسبب محاربة القرآن من جهة و بسبب جهلهم باللغة العربية من جهة أخرى فكيف لم عجز عن فهم لفظ حافين في قوله تعالى : { و ترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبّحون بحمد ربّهم }الزمر 75 ، فترجمة تلك اللفظة على أنّها حفاة بغير نعال . وأدّى تجاهل خاصية النظم القرآني إلى خروج النص مشوها وترتب عليه معاملة النص القرآني في الترجمة معاملة ألفاظ معجمية مفردة تتطلب ترجمة حرفية.

- تعدد نظام ترجمة أسماء السور: فبعضهم اعتمد على أوائل الآيات فترجمة أسماء السور على النحو التالي : الطور : Le mont بمعنى الجبل ، الملك : Le royaute بمعنى الملكية ". (المحسن، 1427هـ /2006، الصفحات 80-82).

ومن خصائص ترجماتهم للقرآن نذكر أيضا :

- عدم التعمق و الالتزام بالمعاني المعجمية للقرآن الكريم واحتواء بعضها على مغالطات كثيرة

-استعمال الترجمة باعتبار المعاني المفردة دون النظر إلى المعنى التركيبي للآيات القرآنية ولا سياقها مما يؤدي إلى تشويه المعنى وقلب الحقائق .

-عدم الاعتناء بما في الآيات من معاني بديعية ومجازية مما أبعد عن القارئ عنصر الجذب والتأثير.

-عدم الاعتناء بأسباب النزول ولا بعدّ الآيات فقد تدمج آيات أو تقطع الآي وكذلك اتبع بعض المستشرقين طرقا خاصا بهم في ترتيب السور فرتبها بعضهم حسب الإيقاع الموسيقي على حد تعبيرهم

-ظهور أثر ديانة المترجم المترجم ومستواه المعرفي و الثقافي على الترجمة مما يجعلها تتصف بعدم الإنصاف والحيادية ومثال ذلك التلاعب بالآيات التي تدين عقيدة التثليث ." (الرحيم، الصفحات 17-18)

2. النتائج المترتبة على ترجمات المستشرقين :

عند النظر للترجمات التي قدمها المستشرقين للقرآن يمكن القول أنّ الأمر المشترك العام في هذه الترجمات أنّهم لم يحاولوا فهم معاني القرآن الكريم ولم يعتمدوا على البحث العلمي للوصول إلى الحقيقة لكن الأمر الذي أرادوه من

وراء أعمالهم هو إبعاد بني جلدتهم عن القرآن وسوره خشية منهم أنّ الإنسان الناشئ على الفطرة إن اطلع على معاني القرآن سيستحسن تعاليمه فلم يكن أمامهم سبيل لمنع الغرب من الاقتراب من القرآن إلا أن يقوموا بتشويه جمال القرآن الكريم باسم الترجمة والشرح و عندما لم يجدوا مجالا أوسع للدس والافتراء باسم الترجمة أكملوا ما يريدونه بالمقدمات و الحواشي . (الندوي، 1417، صفحة 36)

فالترجمات ذات النصوص المشوهة والحواشي المغرضة والمقدمات الجدلية ترتب عليها مجموعة من النتائج كانت بمثابة الجسر الذي سيصل به المستشرقين لأهدافهم وتتمثل هذه النتائج في :

- إبعاد الناس عن المعاني العظيمة والقيم السامية للقرآن الكريم: فالقرآن الكريم جاء بتشريع متكامل منظم للحياة البشرية في جميع جوانبها الفردية والاجتماعية وهناك مسألتان تبرزان مخاطر الترجمة الغربية في مجال إبعاد الناس عن المعاني العظيمة للقرآن وهما : الأخلاق القرآنية من خلال حرصهم في الترجمة على نفي المضمون الأخلاقي للقرآن الكريم والحط من شأنه لأنّ المعيار الأخلاقي أحد أهم معايير الحكم على قيمة الأديان فقاموا بالطعن في قيمة النظام الأخلاقي في القرآن ووصفوه بأنه نظام قاصر لا يمكن مقارنته بالنصرانية و اليهودية ،كما و قاموا بتوجيه ترجمة الآيات التي تتحدث عن الأخلاق توجيها يبعدها عن مراميها و مثال ذلك ترجمة قوله تعالى: { و انّك لعلى خلق عظيم } القلم 4 .ترجمها هينينج إلى :{ Und seihe du bist wahrliche von edler natur}بمعنى و انتبه أنت حقا من طبيعة نبيلة . (المحسن، 1427هـ /2006، الصفحات 84-86)

-وتتمثل المسألة الثانية في الإشارات العلمية في القرآن الكريم فقد تفطن المستشرقين لخطورة الآيات التي تشير إلى ظواهر كونية و حقائق علمية لم يكن يتسنى لبشر معرفتها خاصة ممن عرف عنه أنّه أمّي لا يعرف القراءة و لا الكتابة ممّا يؤكد أنّ القرآن مصدره سماوي ،ومن ثمّ فانّ ترجمة هذه الآيات ترجمة صحيحة سيلفت النظر إلى القرآن و الإسلام و للتعمية على هذه الإشارات العلمية و تضليل غير المسلم عنها ،فعمد المترجمون إلى بدائل لغوية لتغطية المعنى الاعجازي في الآية . (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 88).

تكريس المفاهيم المغلوطة عن القرآن و الإسلام والمسلمين ومن تلك المفاهيم نذكر:

- القرآن وتعاليمه ليست إلا تحريف للنصرانية و اليهودية : وذلك من خلال ترجمتهم للآيات التي تتضمن الشعائر والمعتقدات والأحكام القرآنية إلى معاني وألفاظ ذات دلالات يهودية ونصرانية مألوفة لدى القارئ الغربي مما يوحي له عدم أصالة النص القرآني ومن ذلك ترجمة هينج لقوله تعالى : { صبغة الله و من أحسن من الله صبغة } البقرة 138ترجمة إلى { Der taufe Allah habenwir und was ist besser als Allah taufe} ومعناها تعميد الله وما أحسن من تعميد الله ، و لفظ تعميد له خصوصية في الديانة المسيحية وهو ما حور الآية ويوحي إلى القارئ بأن القرآن مقتبس عن الإنجيل و المسيحية (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 103)

نفي العالمية عن الإسلام والقرآن من خلال تحوير دلالات الآيات التي تدل على ذلك.

- من نتائج هذه الترجمات أيضا أنها قدمت الإسلام بصورة أنّه عبارة عن أكذوبة وتشويه متعمد للحقيقة المسيحية، وأنّه دين عنف وسلاح وهو نقيض للمسيحية التي تدعوا إلى السلام. (الشرقاوي، 1437/2016، الصفحات 30-32).

-ساهمت مثل هذه الترجمات في تعزيز آراء القائلين ببشرية القرآن الكريم وذلك من خلال العناوين التي وضعوها لترجماتهم والمقدمات و الملاحق ،وفنجد أنّ المترجمون لخصوا في مقدماتهم رؤاهم حول النبي صلى الله عليه و سلّم ،وكانت تلك الرؤى بمثابة المرشد الهادي لكل من يريد قراءة القرآن الكريم لأنها صادرة بحسب زعمهم ممن هم بمثابة الخبراء والعارفين بالإسلام و كتابه وبه تشكلت المواقف والقناعات حول الإسلام و القرآن من قبل الاطلاع عليه . (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 95)

فالقرآن بحسب زعمهم جاء صدى لآمال و آلام محمد الرسول خلال صراعاته السياسية مع خصوم دعوته و كذلك صدى للمشكلات التي واجهته والحلول التي طرقها لحلها والرؤى السياسية والدينية التي كان يحاول إثباتها في مواجهة المشركين وأهل الكتاب . (الحاج، 2002، الصفحات 426-428).

وعندما قاموا بالترجمة عمليا كرست تلك الترجمات مفاهيم مغلوطة عن الإسلام وذلك من خلال تحوير ترجمة النص القرآني بما يلائم الرؤية الغربية التي تم التمهيد لها من خلال المقدمات والعناوين، فعمدوا إلى تحوير صفات النبي صلى الله عليه وسلم على نحو يساعدهم في تأكيد مزاعمهم ببشرية النص القرآن وأنّه مقتبس من اليهودية والنصرانية، و من ذلك تحوير صفة الأمي في قوله تعالى : {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة و الإنجيل }الأعراف 157 ، فهذه الصفة تبطل دعواهم حول بشرية القرآن وأنّه مقتبس عن التوراة و الإنجيل ، فكيف لأميّ لا يحسن القراءة و الكتابة أن يطالع كتب اليهود و النصارى ويقتبس منها ما يشكل مذهبا متكاملا استطاع أن يعلوا على سائر الأديان ، فبات لزاما عليهم نفي هذه الصفة عن النبي صلى الله عليه و سلّم وذلك بتحريف ترجمتها إلى Prophete des gentils.

عند بلاشير بمعنى نبي الوثنية و هو نفس المعنى الذي ترجمه هلينيج لها Dem heidnisch propheten . (المحسن، 1427هـ /2006، صفحة 99).

خاتمة:

من خلال ما سبق ذكره نستنتج ما يلي :

-تعتبر الترجمة من أخطر الأسلحة للغزو الثقافي أو لنشر فكرة معينة أو لتشويه صورة معينة ، وهو الأمر الذي تفطن إليه الغرب عموما و المستشرقين خصوصا ، فكانت ترجماتهم للقرآن الكريم من أخطر الأسلحة التي اعتمد عليها للحد من انتشار الإسلام وتقديم صورة مشوّهة عن الإسلام و تعاليمه ، لما قامت به أغلب الترجمات من إيصال معاني غير مقصودة من النص القرآني .

- بشرية القرآن الكريم ونفي مصدره الإلهي من بين المفاهيم التي سعت أغلب الترجمات لتكريسها ، وذلك من خلال توظيف كلمات ذات دلالات مرتبطة بالفكر اليهودي والمسيحي للإيحاء بأن القرآن الكريم مقتبس من الديانتين، ممّا يجعل البعض يشككون في أصالته و التقليل من سلطانه على النفوس إذا ما ثبت أنّ مصدره ليس الوحي بل النبي صلى الله عليه وسلم .

- ساهمت أغلب هذه الترجمات في تقديم الإسلام على أنّه أكذوبة وتشويه متعمد للحقيقة المسيحية، وأنّه دين عنف و سلاح في مقابل المسيحية التي تدعوا إلى السلام من خلال تسليطهم الضوء على الآيات التي تدعوا إلى الجهاد لكن مع إغفال مقاصدها وضوابطها .

- تعد الترجمات التي ساهمت في نشر أفكار مغلوطة عن الإسلام أحد أهم العوامل التي ساهمت في تكريس ظاهرة الاسلاموفوبيا.

توصيات :

وفي الأخير نوصي الباحثين بما يلي :

ضرورة الاهتمام بالدراسات التي تنوه بالأخطاء التي وقع فيها المستشرقين أثناء ترجمتهم للقرآن الكريم سواءا التي وقعوا فيها بقصد أو دون قصد، لما في ذلك من مساهمة في دحض العديد من الشبهات عن الإسلام والمسلمين،وتوسيع دائرة الترجمة حتى يتم ترجمته لجميع لغات العالم على نحو يتلائم مع طبيعة القرآن ولغته المنزل بها حتى تصل صورة الإسلام لجميع أنحاء العالم بطريقة سليمة تبرز تعاليم الإسلام و لا تخالف ثوابت عقدية وفكرية ولغوية.

قائمة المصادرو المراجع:

القرآن الكريم.

- أبو مجاهد عبد العزيز بن عبد الرحيم بن الملا محمد العظيم. (1974/1394). *المستشرقون في الميزان* . الجامعة الاسلامية بالمينة المنورة .
- ايمان بن محمد. (2018). البعد الايديولوجي في ترجمة معاني القرآن عند المستشرقين ترجمات ريجيس بلاشير و جاك بيرك و محمد حميد الله الفرنية أنموذجا. *مجلة معالم ، العدد العاشر*.
- رودي بارت. (2011). *الدراسات العربية و الاسلامية في الجامعات الألمانية*. (مصطفى ماهر، المترجمون) القاهرة، مصر : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- سامي سال الحاج. (2002). *نقد الخطاب الاستشراقي الظاهرة الاستشراقية و أثرها في الدراسات الاسلامية* (الطبعة الاولى). بيروت، لبنان: دار المدار الاسلامي .
- عبد الراضي محمد عبد المحسن. (1427هـ /2006). *ماذا يريد الغرب من القرأن* (الطبعة الأولى). الرياض : مجلة البيان .
عبد الله عباس الندوي. (1417). *ترجمات معاني القرآن الكريم و تطور فهمه عند الغرب* (العدد174). مكة المكرمة : دعوة الحق .
- علاء ابراهيم عبد الرحيم. *مكر المستشرقين في ترجمة الكتاب المبين* . مركز سلف للبحوث و الدراسات .
- محمد حسين أبو العلا. (1991). *القرآن و أوهام مستشرق* (الطبعة الاولى). الاسماعيلية ، مصر : المكتب العربي للمعارف.

- محمد صالح البنداق. (1983/1403). *المستشرقون و ترجمة القرآن الكريم* (الطبعة الثانية). بيروت، لبنان: دار الآفاق الجديدة .

- محمد عبد الله الشرقاوي. (2016/1437). *الاستشراق و تشكيل نظرة الغرب للاسلام*. دار البشير للثقافة.

- محمود بن عبد السلام عزب. *اشكاليات ترجمة معاني القرآن الكريم .*

- يوهان فوك. (2006). *الدراسات العربية في أوروبا حتى مطلع القرن العشرين* (الطبعة الأولى). (سعيد حسن بحيري ، محسن الدمرداش، المترجمون) القاهرة ، جمهورية مصر العربية : زهراء الشرق .

الإسلام المعاصر من منظور غربي قراءة نقديّة في نماذج

The Contemporary Islam From a Western Perspective: Critical Reading of Models

أ.د / سليمة لوكام، جامعة محمد الشريف مساعديّة سوق أهراس-الجزائر
salima.loukam@univ-soukahras.dz



من بين أهم المرجعيات التي شكلت صورة الإسلام المعاصر في الغرب كتب المفكرين، وهي في مجملها دراسات تناولت إمّا إحاطة بالإسلام من حيث تاريخه وانتشاره، وإمّا تعريفا بالنبيّ محمّد -صلى الله عليه وسلم- وبرسالته وبأتباعه.

وقد اتّخذ هؤلاء الدارسون زوايا للنظر مختلفة في التعاطي مع الإسلام ونبيه، وقد انتقينا للغرض كتابين أحدهما عكف على تقديم الإسلام للغربييّن من خلال الإلمام بتاريخه وأهمّ مرتكزاته العقدية، و ما طرأ عليه منذ ظهوره إلى تاريخ صدور الكتاب (1949)، وأمّا الثاني فوجّه اهتمامه إلى شخصيّة النبيّ محمّد متتبعا تاريخ تمثل الغربيين لها منذ القرون الوسطى إلى تاريخ صدور الكتاب (2018) معتمدا مدوّنة أوربية ثرية في هذا الشأن.

اختلف السياق، وتباينت الرؤى، ولكن تحصلت رؤية بلا ريب، ورسخ تصوّر تسعى هذه المداخلة إلى إضاءتهما وتبين ملامحهما.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، الغرب، التمثّلات، النّبي صلى الله عليه وسلم، الكتب.

Abstract :

The Western scholars' books are among the main references that have depicted the image of modern Islam. They constitute, in all, studies that are concerned with not only the history and spread of Islam but Prophet Mohamed's (PBUH) life, message, and followers as well.

Those researchers tackled from different angles Islam and its prophet. In this piece of reflection two books have been selected. The first dealt with the history of Islam and its doctrinal foundations from its emergence till the book's publication in 1949. The second, however, was based on a rich blog and was devoted to the prophet Mohamed from the Middle Ages till the book's publication in 2018.

Although the context and viewpoints are different, the present communication undoubtedly intends to shed light on such vision ans its features.

Key words: Islam , occident, representations , prophet , books.



مقدمة :

تعمد هذه المداخلة إلى تقديم عملين فكريين يتداخلان مع التاريخ والثقافة والأدب، انتقيناهما منالمدوّنة الغربية الثرية بالأعمال التي تناولت الإسلام ونبيه وتعاليمه وتاريخه وثقافته بالدراسة والتمحيص والاستقصاء، معملة في ذلك أدوات شتّى، وراغبة بذلك بلوغ أهداف متباينة، وسالكة استتباعا لذلك مناهج تتفاوت في دقتها وصرامتها، وفي موضوعيتها وتحيّزها، وفي نجاعة ما تصطنعه من أدوات وأهمّ من ذلك ما تتكئ عليه من مرجعيات.

ينتمي هذا العملان إلى فترة زمنيّة متباعدة نسبيّا، إذ ظهرا في ظرفين متميزين، فقد صدر كتاب « L'Islam»"الإسلام" لدومينيك سوردالDominique Sourdel للمرّة الأولى سنة 1949، بينما كانت سنة 2018 تاريخ صدور كتاب "محمّد الأوربيّ- تاريخ تمثّلات الغرب للنبي محمّد لجون طولان" Faces of Muhammad -Western Perceptions of The Prophet of Islam From The Middle ages to Today.، لـ John Tolan، الصادر في ترجمته الفرنسيّة عن دار غاليمارGallimard بعنوان:

« Mahomet l'Européen. Histoire des représentations du prophète en occident».

أولاً-قراءة في السياق:

ليس في وكدنا البحث في خصوصيّة تاريخ نشر الكتابين ولا زمن صدورهما، وإنّما في الأثر الذي تركاه في المتلقّي الغربيّ، والصّورة التي أسهما في تشكيلها، فما كان يعرفه أو يتمثله جمهور القراء في فرنسا عن الإسلام وعن النبي محمد صلى الله عليه وسلم في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات لا يكاد يُذكر بالنّظر إلى ما هو حاصل اليوم، سواء أتعلّق الأمر بحجم هذه المعرفة وعمقها واتساعها، أو بصيغ تكونها ومصادرها والأطر التي تحتويها.

عرفت هذه الفترة إثمار جهد المستشرقين، فترة ما يزال فيها جزء غير قليل من العالم الإسلامي، جغرافيّا وسياسيّا، واقعا تحت السيطرة الاستعمارية الغربية، كانت صورة العرب والمسلمين فيها لا تبتعد كثيرا عمّا خّطته أيادي الكتّاب القروسطيّين، ومن بعدهم من المستشرقين والمستعربين الذين قويت شوكة أفكارهم، وأمدّت الكثير من أعمالهم الآلة الاستعماريّة بمسوّغات باطلة وأدلّة من الإسلام والقرآن واهية ومضلّلة تسعى لأن تقيم الدليل على أنّ فكرة السيطرة على العرب و المسلمين بالاستعمار بكل أشكاله ووجوهه (حماية وانتدابا واستيطانا...) مبرّرة إن لم تكن ضرورية.

طبعا لا يدفعنا هذا إلى تبنّي صيغة تعميميّة في الحكم على الاستشراق برمّته، ذلك أنّ "الاستشراق ظاهرة معقّدة ومتنوّعة حدّ التناقض، ولا يمكن تبسيطها بحيث يمكن أن نشملها بوصف واحد تهجينا أو إطراء.(دوبولانفلييه، 2013، ص 51).

أمّا سياق صدور الكتاب الثاني "محمّد الأوربي"، فمختلف ومحفوف بكثير من الحيثيات، أهمّها ما طبع الألفية الثالثة من حوادث كبرى و أحداث فارقة في التاريخ المعاصر شرق وغربا، كانت لها آصرة متينة بتشكيل صورة عن الإسلام والمسلمين، عن النبي محمد وعن ديانته.

لم يعُدْ للاستشراق ذلك الأثر الذي كان، بل غدت بحوث الدارسين اليوم موجهة أكثر نحو الإسلام، وصار هؤلاء يعرفون بأنّهم "متخصّصون في الإسلام" Islamologues ، كما انصرف بعضهم، وهم أقلّ عددا و تأثيرا، إلى العالم العربي يستكملون ما مضى فيه الأوائل من بحث وتقص في الثقافة العربيّة ماضيا وحاضرا، فكرا وأدبا وتاريخا وسياسة وثقافة، وتناولوها بالدّرس والتمحيص، وكان أن نُعت هؤلاء بأنّهم Arabisants"متخّصون في اللغة العربية وثقافتها وحضارتها" وهم ممن يتقنون العربيّة بطبيعة الحال .

ولعلّ السؤال المنهجيّ الصّارم الذي ينتصب الآن هو: لماذا انصبّ اهتمام الباحثين الآن أكثر على الإسلام والمسلمين أكثر من الاهتمام بالعرب والعالم العربيّ؟

للإجابة عن هذا السؤال، لعلّنا نجد أنفسنا في البدء، في حاجة لاختصار ذلك في خلاصة كانت من بين ما استصفاه "غوستاف لوبون" Gustave LeBon في خاتمة كتابه "حضارة العرب"، وأُفضّل أن أنقلها كما هي في لغتها لإفصاحها أكثر وتبيّن دلالتها بشكل أوضح: " « Partout où un musulman a passé on est certain de voir sa religion rester. » (Le Bon, 2009, p564)."كلّما حلّ مسلم في مكان، فنحن على يقين بأنّه دينه قد بقي فيه."

وللإحاطة بهذا الجانب يحسن بنا الوقوف على معطيين هامّين:

1/ المعطى التاريخي السياسي: يخصّ الغرب، ويمكن الحديث فيه عن الفترات التي سبقت الفترة المعاصرة، والتي اتّسمت بغياب واضح لمعرفة حاصلة عند الغربيين فيما يتعلّق بالإسلام والمسلمين جراء عدم إيلائهم اهتماما للأديان الأخرى والإسلام تحديدا، يقول "موريس بو_كاي" Maurice Bucaille: " الأجدر بنا أن نسلّم بأن ما سبق من معطيات مرتبطة بالإسلام كانت مجهولة في بلداننا الغربيّة، وليس لنا أن نتعجب من ذلك لمّا نتذكّر الطريقة التي تم بها توجيه تعليم أجيال عديدة في مسائل دينية تخصّ الإنسانية، ومدى الجهل الذي أُحيط به هؤلاء في كل ما هو موصول بالإسلام." (Bucaille, 1978, p6).

لذلك دعت الحاجة الباحثين والأكاديميين إلى توجيه جهودهم إلى معرفة الإسلام والتعريف به في ظلّ ظروف سياسيّة وحضاريّة غاية في التعقيد بفعل عوامل عديدة منها:

-تواجد جالية مسلمة معتبرة في البلدان الغربيّة، وقد اختارت الإقامة فيها لدواعي كانت في البدء سياسيّة اجتماعيّة ثقافية، أهمها وقوع الدول التي تنتمي إليها هذه الجالية تحت سيطرة الاستعمار، فكان البحث عن فرص للعمل والدراسة والتعليم، ليتحوّل الأمر إلى حركة انتقال وتنقّل كان القرن العشرين وخاصّة النّصف الثاني منه مسرحا لها، حيث توافد المسلمون على أوربا وأميركا، وتزايد عددهم يوما بعد يوم: " كانت العنصريّة إحدى المشكلات التي أفرزتها نتائج الاستعمار في نهاية القرن العشرين، وقد دفعت الطريقة القذرة التي تمّ بها نزع الاستعمار بأولئك الذين كانوا مستعمَرين، إلى الهجرة نحو القوّة

الاستعمارية التي كانت أو السعي إليها بعد أن أنهكهم البؤس في أوطانهم ماديا ومعنويا." (Chitour, 2008, p393).

- في الوقت الذي بات الحديث عن جيل أوّل وثانٍ من المسلمين في الغرب، طرأت أحداث نتجت عن الممارسات اليوميّة ذات الصّلة بالمعتقد، كالحاجة إلى إنشاء أماكن للصّلاة صُنّفت فيما بعد على أنّها محاضن لإيواء الأصوليّين والإرهابيين، إضافة إلى ظهور المرأة المسلمة بزيّ خاص عُدَّ انتهاكا للحريّات، وعلامة على التخلّف والرجعيّة تهدّد المجتمعات الغربيّة في لائكيّتها وانفتاحها، ذلك أنّ الدين بالنسبة إلى هذه المجتمعات هو الذي "يقف حجرة عثرة أمام أبسط الحريّات خاصّة بالنسبة للمرأة المسلمة والمُلزمة ارتداء لباس معيّن يحرمها الكثير من الحرّية في حياتها اليوميّة..."(حاج عيسى، ورمضان، 2008، ص 21).

- الخوف من الظاهرة الدينية "الإسلاميّة" الذي تشكّل بفعل ما تسرّبه وسائل الإعلام السّمعية والبصرية والمكتوبة من تقارير صحفيّة وأشرطة سينمائية وبرامج تلفزيّة، وعن طريق مواقع الانترنيت التي تظهر، في الأعمّ الأغلب منها، المسلمين و دينهم في أشدّ الصّور قتامة، وأقواها بشاعة مستندة في ذلك إلى كليشيهات موروثة وتأويلات مغلوطة، تحذّر جميعها من خطر الإسلام وقسوة تعاليمه، ناعتة أتباعه بالإرهاب والدمويّة، خاصّة بعد أحداث 11سبتمبر وما تلاها من حين لآخر من ردود فعل على ما يصدر من هيئات رسميّة، أو شخصيات معروفة من مواقف أو تصريحات، كانبراء بعض الكتّاب والصحفيين و المثقفين والفنّانين إلى السخرية من نبيّ الإسلام، مبرزين إياه في وضعيّات ورسوم مخجلة فاقت في إسفافها وابتذالها ما ورد عن الكتابات القروسطيّة المشحونة بحقد صليبيّ وتعصّب أرعن إزاء كلّ ما متّ إلى الإسلام والمسلمين بصلة. والغرب في مثل هذه المواقف يجد الدليل ويقيمه على ما يذهب إليه بمسألة اعتبار الجهاد "الحرب المقدّسة" في الإسلام ركيزة وركنا ركينا، وأنّ كلّ مسلم يقتدي في هذا بالنبيّ محمّد.

2/ المعطى الفكري الثقافي:وهو مشترك بين العرب و المسلمين والغربيين المسيحيين، ففي مقابل ما يسود الغرب من استبعاد للدّيانات السماوية لصالح ما يسمّيه "روجيه جارودي"

Roger Garaudy "ديانة الوسائل، والتي تعنى إبداع آلهة مزيّفة من مثل: علم، تقنية، أمّة، مال، جنس، نموّ، وقد نتج عن ذلك تعدّد أديان وإيمان بمعتقدات خرافية صيّرت العلم علمويّةScientisme والتقنية تكنوقراطيّة والسياسة ميكافيليّة." (Garaudy, 1986, p23).

فإنّنا نلاحظ أنّ ما طبع فهم الإسلام من جمود في الفكر وتكلّس في الذهنيات على امتداد قرون عديدة، بفعل تعطّل إعمال العقل، والاكتفاء باجتهاد الأوائل، قد أدّى إلى تخلّف كبير عن ركب الحضارة، وألقى ذلك بظلاله على جميع مناحي الحياة، وأوصد من ثمّ كلّ باب للفكر المبدع الخلّاق بحجة "ما ترك الأوّل للآخر شيئا" يبحث في مسائله، و يدلي برأيه فيه.

إزاء هذا الانغلاق على الذّات المؤسس على فكرة الاعتقاد بامتلاك الإجابات لكل الأسئلة منذ ما يزيد عن الألف عام، فليس بخاف على الدارس الحصيف ما أحدثه الانفتاح أيضاً على الآخر منذ عصر النّهضة، من تهافت على كلّ ما يصدر من الغربيين، وإقبال على تبني أفكارهم دون مراعاة لخصوصيّة، أو اعتبار لمعايير الاستعارة والمثاقفة، بل إنّ بعضاً من المفكرين العرب المسلمين ممّن تلقّوا تكوينهم العلميّ

الفكريّ الجامعيّ في قلاع الاستشراق الغربية الحصينة، وتشربوا فلسفتها، وتعاطوا مقولاتها كانوا أكثر قسوةً على الإسلام وتعاليمه من الغربييّن أنفسهم، وعرضوا طروحات غاية في التجنّي على تعاليم الإسلام، ومنحوا أوربا والعالم صورة عنه مختلفة متكئة على مرجعيّة فكريّة إيديولوجية موجَهة، ومتسلحة بأدوات منهجية صُهرتْ بمهارة فائقة في ورشات عقلانية جادة، هؤلاء المثقفون هم الذين قدمهم المستعرب الفرنسي "ألان روسيون" Alain Roussillonعلى أنهم: "صنف جديد من المفكرين المختصين في الدين، يوصفون بأنهم في مجموعهم "مثقّفون مسلمون"، يُعْرَفون بمعارضتهم للعلماء وللـ"مثقّفين العلمانييّن."(Roussillon, 2007, p7).

ثانيا- كتاب "الإسلام" لـ"سوردال" معرفة بالإسلام وتعريف بالمسلمين؟ :

في خضمّ صراع استعر واشتد في منتصف القرن العشرين، زمن الهجمة الاستعماريّة الشرسة على العالم العربي الإسلامي من طرف الغرب الأوربي، قام جدل كبير حول طبيعة العلاقة التي تحكم نظرة كلّ منهما إلى الآخر، عن الصورة التي تشكّلت لدى كلّ طرف عن الآخر؛ على الرّغم ممّا يباعد بينهما تاريخيّا ودينيّا وحضاريّا، وما ينبغي علينا التأكيد عليه في هذا الموضع تحديداً أنّ ما كتبه المسلمون من تقارير وبحوث ودراسات عن الغرب لا يكاد يُذكر في مقابل ما تنطوي عليه المدوّنة الغربيّة في هذا الجانب، ولا يتسع المقام هنا لبسط القول في الدوافع والأسباب مجتمعة، ولكن تكفي الإشارة إلى أنّ ذلك قد يرتدّ في الأعمّ الأغلب إلى تعدّد الصروح العلميّة والبحثية هناك وغيابها أو ندرتها هنا ، وإتاحة فرص التعلّم والبحث والتحصيل لكلّ راغب بل والتشجيع عليه بعكس ما هو حاصل في دار الإسلام بسبب العوز وقلّة ذات اليد، فضلاً عن الحاجة الملحّة لدى النّخب في الضّفة الأخرى تحت ضغط حساسيّة المرحلة وخصوصيتها لمعرفة الإسلام والمنتسبين إليه، وتقديمه لمن يجهله، أو يحرص على معرفته في الوقت الذي كان فيه المسلمون قد عرفوا هذا الغربيّ، عن قرب، وخبروه لما جاءهم غازياً مستعمراً.

من بين هذه الأعمال إذن، كتاب " الإسلام" لـ "سوردال" الصادر سنة 1949 في سلسلة – « que sais je, ? » الشهيرة، التي عملت على نشر المعرفة وإشاعتها وتبسيطها لدى الجماهير في فرنسا في فترة بعينها.

إنّ إمعان النّظر في إيجاز الكتاب ودقة محتوياته ودسامة مراجعه يجرنا بلا ريب إلى طرح السؤال: لم كتب "سوردال" هذا الكتاب في هذا التوقيت بالذات، وما الإضافة التي يمكن أن يسهم بها في تناوله الإسلام والمسلمين بالدّراسة و التمحيص؟

يتوزّع الكتاب على سبعة فصول: محمّد والقرآن، تاريخ العالم الإسلامي إلى غاية القرن 19، الشريعة الإسلامية، الحركات المذهبيّة، التصوّف والفلسفة، النشاط الثقافي والفنّي، الإسلام المعاصر، وقد ذُيل بفهرس للمراجع التي عاد إليها، وتضمّ مؤلّفات لأعلام في الاستشراق يُشهد لهم بالتبحّر في العلم بغض النّظر عن توجّهاتهم وأفكارهم، ومن بينهم: الفرنسيّون لويس ماسينيون L. Massignon،وريجيسبلاشيرR.Blachèreوجورج ألفريد مارسيه G.A Marçais وشارل بيلاCh.Pellat، والألماني كارل بروكلمانK.Brockelmann، والإيطالي دافيد سنتياناD.Santillana،والبريطاني ألكسندر هاملتون جب A.HGibbوغيرهم كثير.

ليس للكتاب مقدّمة ولا تمهيد، وأوّل ما يفتتح به في الفصل الأوّل "محمد و القرآن" ما يلي: " تعني كلمة "إسلام" حرفيّا: سلوك دينيّ من الخضوع لله يميّز الوحي السماوي الذي دعا إليه محمّد في الجزيرة العربية في القرن 7، وقد انتشر على مر الأزمان في جزء كبير من الأراضي الآهلة بالسكّان. وينطبق هذا المفهوم على المجموعة التي كوّنها أتباع هذه الديانة، وكذا على الحضارة التي نتجت عنها." (Sourdel, 1956, p.5).

من الجليّ أنّ مثل هذا التعريف يقترب كثيرا ممّا نؤمن به ونرتضيه للإسلام تعريفاً ومفهوماً، وعلى هذا النّحو مضى الكتاب يقدّم الإسلام والنبي محمدا –صلّى الله عليه وسلّم- بالارتكاز على عبارة "كما ورد في السنّة" ، وإن استعان بالمستشرقين فإنّه يمحّص ويدقق و يستقصي ، حتّى إنّه يتحدّث أحيانا عمّا يسمّيه "روايات يشوبها الشك، كأن يقول مثلا: "على العكس، يبدو أن محمدا لم يكن يعرف عن المسيحية إلا فكرة بعيدة عن الحقيقة"(Sourdel, 1956, p10)، رادّا بذلك عمّن يرى أنّ النبيّ قد تلقّى أصول المسيحيّة عن الرهبان المسيحيين في أثناء سفراته للتجارة بالشام، بل إنّه يذهب بعيدا في نفيه هذا الزّعم لدى الكثير من المستشرقين حين يقول: " وعلى كل، فمحمّد يختلف عن المسيحيين في تصوره للحياة الآخرة..."(Sourdel, 1956, p12).

على هذا النّحو راح صاحب الكتاب يقدّم الإسلام للفرنسيين وغيرهم، ديناً سعى إلى تبسيط تاريخ ظهوره ونشأته، والتعريف بالقرآن الكريم ومنزلته، موضّحاً علاقته بالنبيّ محمّد، مع الإشارة إلى حيثيّات انتشار دعوته في العالم وتوزّعها مذاهب وشيعاً على أطراف الأرض، ليفيض الحديث في مبادئ الشريعة الإسلاميّة، ويفصّل القول في تناول أركان الإسلام الخمسة، والأسس الشرعية التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية والسياسية والفكريّة فيه، صادراً في ذلك عن معرفة واسعة وإلمام كبير بتاريخ الحضارة الإسلاميّة من مهدها إلى تاريخ صدور الكتاب (1949)، عارضا من حين لآخر آراء بعض المستشرقين الذين ارتضى طروحاتهم في جانب من الجوانب ملتزماً ما أمكن حياداً علمياً، ومنصتاً في جلّ ما عرضه وقرّره إلى العقل والمنطق والرواية التاريخيّة التي تتحرّى في عمومها الحقيقة العلمية.

مع تسليمنا بأنّ ما يحويه هذا الكتاب من آراء وأفكار تبدي حاجة إلى إعادة النظر فيها ومناقشتها، فإنه حريّ بنا أن نشير إلى أنّ قراءته في حينه كانت كفيلة بأن تغير نطرة الغربيين عن الإسلام، أو على الأقل أن تصحّح بعض المفاهيم التي تشكلت لديهم من تصوّرات موروثة عن الإسلام أكثر ممّا هي مؤسّسة عن معرفة به "فقد اعتبر الغرب أوربا مركز الإنسانية، والمسيحيّة دينا كونيّا، والإنسان حيوانا ينتصب واقفا يمشي على رجلين، ذا بشرة بيضاء، وشعر أشقر وعيون زرقاء...إنهم يعتبرون الشرق أرضاً للأساطير، عالما مخيفاً مروّعاً."(Shariati, 2007, p.22) ؛ لكنّ الذي حدث، أنّ مثل هذه الكتابات لا تلقى ذلك الرّواج الذي تحظى به أعمال أخرى تكرّس تلك المفاهيم المغلوطة، وهي في عمومها مدعومة من دوائر علميّة ووحدات بحثية تديرها آلة سياسية مؤدلجة نابعة من نعرة استعماريّة متعالية آلت على نفسها، من منطلق مركزيّة حضاريّة ودينيّة أن تعمّق الهوّة بين المسلمين والمسيحيين، بين العرب والأوربيين، بين الشرق والغرب ، وأن تقدّم لأوروبا ومن ورائها الغرب برمّته قربانا تبريريا لمعاداة الإسلام والمسلمين، وكلّ ما من شأنه أن ينصفهما، أو أن يبدي تعاطفا موضوعيا معهما؛ فعلى الرغم من أنّ منشئ هذا الكتاب قامة

علميّة معروفة في الأوساط البحثية الأكاديميّة الفرنسيّة، فقد تخصص مع زوجته في التاريخ والحضارة والفن في الإسلام، وهو من الأساتذة البارزين في جامعة السوربون 4 بباريس، كما أنّه أثرى المكتبة الفرنسيّة بمجموعة من الكتب القيّمة عن الإسلام والعرب، فإنّ ما كتبه لم يُعتمد مرجعا في كثير من البحوث والدراسات التي عكفت على دراسة الإسلام ونبيّه وكتابه وتعاليمه، وقد وجدنا أنّ مستشرقا معروفا مثل "أندريه ميكال" André Miquel مثلا ، وفي معرض حديثه عن علاقة العرب بالإسلام أحال في المتن و الهامش على عنوان هذا الكتاب لأنّ فيها توضيحا وتفصيلا لهذه المسألة.(Miquel, 1981, p10).

بل إنّه ليس أدل على ذلك من تجاهل الكتاب الثاني "محمّد الأوربيّ" الذي أدرجناه في مداخلتنا هذه الإشارة إلى أحد أعمال "سوردال" التي عُنيت بشكل دقيق بتاريخ الإسلام، وبسيرة النبي محمد، وبكل ما يمت إلى الإسلام بنسب صريح أو خفيّ، مع العلم أنّ أغلب كتبه عن الإسلام والعرب قد تجاوزت الطبعة الواحدة، خاصّة تلك التي صدرت في مجموعة "ماذا أعرف؟" Que sais-je ? الصادرة عن ديوان المطبوعات الجامعيّة الفرنسيّة، مثل كتاب"الإسلام" محل الدراسة (ط19سنة 1997)، وكتاب" تاريخ العرب"Histoire des Arabes (ط9سنة 2013) ، وكتاب" المعجم التاريخي للإسلام" Dictionnaire historique de l'Islam...

لعل سؤالا ههنا يلح حول الغاية من تتبعنا لهذه الحيثيّة، ونراه وجيها بالنظر إلى خصوصية الطرح، والحقيقة أن ما جرّنا إلى هذا الحديث أمران هامان:

- أمّا الأول فيتعلق بفعل حضاري فرض نفسه منذ زمن غير قريب، بحكم ظروف كثيرة متضافرة، وهو فعل ميّز حياة الفرد بأوربا، وفي الغرب عموما، ويتمثّل في القراءة بوصفها ممارسة ثقافية وضرورة اجتماعية، وهذا يستلزم بلا شك تشكل المتخيل والمدركات والأفكار من خلال هذا الفعل، ومن هنا يمكن القول: إنّ كلّ ما تمّ التوصّل إليه في أوربا عن الإسلام والمسلمين من نتائج بحوث أكاديمية وتقارير عن رحلات واستطلاعات استكشافيّة، ومقالات صحفية، كان قد تسرب إلى الإنسان الأوربي عن طريق فعل القراءة أوّلا، هذا دون أن نغفل الصورة المرئيّة أو المسموعة في كل أشكالها و تجلّياتها.

- و أمّا الثّاني فيتفرّع عن الأول، ويرتبط بما يُقرأ، والسّياق الذي أُنتج فيه، فالكتب التي يُقبل الجمهور على قراءتها ليست الأبحاث الأكاديميّة الرصينة الضخمة التي عكفت عليها دوائر البحث، وأشرف عليها كبار الباحثين وأساتذة الجامعات من المستشرقين وغيرهم و التي تبقى في الغالب متداولة في الأوساط العلميّة المتخصّصة، وإنّما هي تلك السلاسل التي تقدّم المعرفة مبسّطة ميسورة في شكل كتب صغيرة الحجم، ونضرب المثال من فرنسا بسلسلة "ماذا أعرف؟" Que sais-jeالتي تصدر منذ ما يزيد عن القرن ونصف القرن، لتتبنّى بعد ذلك المطبوعات الجامعيّة الفرنسيّة هذا المشروع وتحتويه، وقد حملت على عاتقها مهمة إشاعة المعرفة وتنوير المجتمع، من خلال إطلاع المواطن على المنجز البحثيّ في كلّ المناحي العلميّة، ضمن رؤية شموليّة تهدف إلى ربط الإنسان الفرنسي بالمنظومة العامّة للدولة في أبعادها السياسية والحضارية والفكرية والاجتماعيّة، وهكذا، كان من بين ما قدّمته هذه السلسلة جهود أعمال كثير من الباحثين في شكل كتيبات صغيرة الحجم، واضحة الهدف عن الأديان - ومنها الإسلام (مثل أعمال

ريجيسبلاشير "ترجمة القرآن الكريم" وأعمال أندريه ميكال "الأدب العربي" وغيرهما) ديناً وثقافةً وفكراً وعلوماً- و عن العرب أو الشرق حضارةً و أدباً...

صفوة ما نصل إليه ممّا طرحناه، أنّ كثيراً من الأحكام والتصّورات لدى الفرنسيين قد استندت إلى هذه الجهود التي تكرّست كتبا، ثمّ تشكلت مخيالاً، فترجمت مواقف وأحكاماً.

ثالثا-كتاب محمّد الأوربي: الإسلام و نبيّ الإسلام :

لا نريد في هذا الموضع أن نصدر حكماً، ولا أن نقيم حجّةً بقدر ما نتغيا إثارة السؤال عن هذا الكتاب الذي صدر حديثاً (أكتوبر 2018)، وأثار جدلاً في الأوساط الثقافية والإعلامية، وظهر مؤلّفه في أكثر من منبر إعلاميّ، محاوراً وشارحاً وموضّحا التصّور الذي حملته أوربا عن الإسلام ونبيه منذ أزمنته الأولى إلى يومنا هذا، محاولاً قدر ما تتيحه الموضوعية العلميّة في هذه الطروحات الشائكة أن يتّخذ له موضعا إن لم يستطع أن يكون فيه منصفاً أن يكون فيه محايداً، فيقول: " لا تُشكل تمثّلات النبي التي أعالجها في هذا الكتاب إلّا عيّنة عن غنى وتنوّع الصّور التي قدمها الكتاب والفنانون الأوربيون، وما يجب أن يبدو واضحا من قراءة هذا العمل هو أنّ صورة الإسلام و صورة النبيّ في أوربا لا يمكن أن تكون إلّا متجانسة، و أبعد من أن تكون عدائيّة بشكل منظّم." (Tolan, 2018, p31).

اشتغل "طولان" في حقيقة الأمر بشكل جادّ، وجديد في هذا الجانب، وحرص على بلوغ إقامة الحجّة على هذه الفرضيّة التي عرضها في أول دراسته، حين افتتح كتابه بحديث ممتع جمع في بداية القرن التاسع عشر (1808) بين مفكّر و شاعر ألمانيا الكبير " غوته" Ghoethe، وإمبراطور فرنسا الأكثر شهرة و قوّة "نابليون بونابرت" حول مسرحيّة "التعصّب أو النبيّ محمّد" التي ألفّها فيلسوف الأنوار الفرنسي " فولتير" Voltaire في هجاء النبيّ وإخراجه في صورة بشعة (حاشاه ذلك).

أنشأ المؤلّف، وهو المؤرّخ، مشهداً حوارياً طريفاً وقوياً ودالّاً دلف من خلاله إلى الموضوع المراد إثارته، حين كتب: " بالنّسبة إلى هؤلاء الرّجال الثّلاثة، وبالنّسبة إلى كثير من الأوربيّين لا يمكن أن يكون محمّد هو فقط تلك الشخصية التاريخية التي عاشت في فترة بعيدة عنّا، ولا ذلك النّبيّ صاحب الدين الغريب فحسب، وإنّما هو ذلك الرمز الذي بقي حياً على الدوام بمساره وإرثه، وظل موضوعاً مثيراً للفضول والقلق والاعجاب.وبطبيعة الحال، لم يُظهِر كلّ الكتّاب الأوربيين الذين تحدّثوا عن محمّد الإعجابَ و الاحترامَ ذاتَهما اللذين وجدناهما عند كلّ من "نابليون" و "غوته".(Tolan, 2018, p9-10).

هكذا، نجد المؤلّف بعد أن أكّد إعجاب "غوته" و بونابرت" بالنبي محمد، وفق الزاوية التي أطلّ منها كلّ واحد منهما، فإنّه جعل ممّا كتبه فولتير موضوعاً للنّقاش، وكأنّه يريد أن يذكر بالطرف الثالث، أو ما سمّاه هو الرجل الثالث الذي ينبغي أن يُحتكم إليه في النّظر إلى النبيّ محمّد.

قد يتساءل القارئ هنا: ما علاقة هذا الكلام بصورة الإسلام؟ ونجيب بما أدلى به الباحث نفسه حين قال: " كان الحديث عن "محمّد" دائما وعلى مرّ العصور، في قلب الخطابات التي أقامها الأوربيّون عن الإسلام." (Tolan, 2018, p10)، وهذا يرتّب بلا شكّ تشكّل التصوّر الذي حكم الذهنيّة الأوربيّة في هذا الجانب، ويفسّر كثرة تهجّم هؤلاء الأوربيّن على شخص الرسول، عليه الصلاة والسلام، ماضياً وحاضراً،

كلّما أُريد النيل من الإسلام وتعاليمه، أو التعريض بأتباعه من المسلمين، ولم يتحرّج "طولان" في التصريح بذلك: "إنّ الأعمّ الأغلب من الكتابات التي خُصّصت للحديث عن محمّد عدائيّة، وقد كان من اليسير أن أقوم برصد زمنيّ لهذه العدائية، وأقدّم ثَبَتا بتلك الأحكام المهينة والمخاوف والشتائم التي أُثيرت ضدّه، والتي ظهرت منذ ظهور النصوص المسيحية الأولى المثيرة للجدل والموجّهة ضدّ الإسلام، وصولا إلى التصريحات النّاريّة التي أدلى بها سياسيّون أمثال "جيت ويلدرز" النائب عن حزب "فور فيرجهيد" (من اليمين المتطرّف في نيوايرلندة) الذي أراد الانتقاص من الإسلام بالنَّيْل من نبيّه، ونعته بالإرهابيّ والمريض النّفسي الذي يتحرش جنسيّا بالأطفال.

وفي سنة 2005، أبان الجدل الذي احتدم بعد نشر الكاريكاتور في الجريدة الدانماركية "جيلاندز بوسطن" عن الطابع القويّ لتمثّلات النبيّ في العالم الغربيّ، والأمر ذاته ينسحب على حادثة قتل رسامي جريدة "شارلي إيبدو" في جانفي 2015." (Tolan, 2018, p10).

على الرّغم من اجتهاد الباحث التزام العرض العلميّ غير المتحيّز، فإنّنا نلحظ طغيان النبرة التبريرية المتخفّية التي أوقعته في التناقض في كثير من المواضع، ودفعته أحياناً إلى الدفاع عن موقف أوربا من الإسلام، فها هو يردّ بشكل جازم على الباحثة الأميركية المتخصّصة في الأديان قائلا: " تتعقّد المسائل المتعلّقة بالمفردات بسبب تراكب التصنيفات وعدم استقرار الحدود فيها، وقد انتشر الغلط المتمثّل في إجراء مقابلة بين "أوربا" و"الإسلام"، ووصل إلى الأوساط الجامعيّة، وقد كتبت "طوموكوماسوازا": "جعلت أوربا للإسلام صورة متجانسة بشكل غريب، وهي في عمومها سلبية ولا تتغيّر. في الواقع، سنلاحظ في هذا العمل أنّ الصورة التي كوّنها الأوربيّون عن الإسلام على مرّ التاريخ لم تكن قطّ متجانسة، بل كانت إيجابيّة في أغلب الحالات." (Tolan, 2018, p22)؛ بل إنّه يذهب أبعد من ذلك، فيرجع سبب تحامل أوربا على الإسلام إلى: " ذلك الجدل الذي وصم الماضي الاستعماريّ والاستشراقي لأوروبّا، وكذا الإرهاب الذي غلب على الإسلام في تدفّق موجة من العنف، ومن الخطابات المستعرة ضدّه." (Tolan, 2018, p10)، ومن ثمّ فليست أوربا هي السبب في الصراع بين أوربا والإسلام، كما أنّها ليست المسؤولة عن الاستعمار والاستشراق، وإنّما الجدل الذي أثير حول هذا "الماضي" ، يضاف إليه بشكل قويّ "الإرهاب الذي غلب على الإسلام"، و كأنّ كلّ ما ذكر آنفا عن العداء الذي تحمله أوربا للإسلام ونبيّه وأتباعه، وما أبرزه هذا الكتاب الضخم على مرّ العصور لا يد لأوربا فيه، ويعود الأمر فيه برمّته إلى ما طبع الإسلام من عنف ودمويّة، وقد كان الباحث ذكيّا في المنهجيّة التي اعتمدها إذ آثر أن يُدرج كلّ هذه الطّروحات في المقدّمة المطوّلة التي استهلّ بها كتابه حتّى يتبيّن القارىء طريقه في قراءته.

خاتمة:

غاية ما نستصفيه أنّ صورة الإسلام في أوربّا في الغالب تمرّ عبر شخصيّة الرسول –صلى الله عليه وسلّم- و تُسرّب أغلب الأفكار والآراء من خلال التعرّض إلى حياته ودعوته بالاتّكاء على رواسب ما زالت تحكم المخيال الغربيّ عموما، وليس أدلّ على ذلك من العنوان الذي وضعه الباحث لكتابه، فبعد عبارة "محمّد الأوربيّ" نجده يختار في العنوان الفرعي مصطلح "الغرب" Occident الذي يحمل في طياته العديد

من التصوّرات أهمّها فكرة "الصراع"، وهو إن كان قد بدأ الحديث عن محمّد فإنّه انتهى إلى الحديث عن الإسلام، فإن كان كما قال سابقا: "الحديث عن "محمّد" دائما وعلى مرّ العصور، في قلب الخطابات التي أقامها الأوربيّون عن الإسلام" ، فإنّه يمكننا فهم دلالة قوله: "وعلى الدّوام، لم يكن محمّد في نظر المسلمين نبيّا ورسولا جاء بكلام الله فحسب، بل كان أيضا نموذجا يُحتذى."(Tolan, 2018, p.20).

ومهما يكن من أمر، فإنّ ما نختم به كلمة حقّ لا نسعى إلى معرفة ما أُريد بها، قالها المفكّر الفرنسيّ ذو الأصول اليهودية "جاك أتالي" Jacques Attali خلص فيها إلى أنّ أصل الحكاية أنّ "الغرب لا يمكن أن يتحقق له السلام مع الإسلام والشرق إلّا إذا أبدى انفتاحا على ثقافاتهم، وعلى شتاتهم."(Attali, 2002, p715).

توصيات:

- دعوة أصحاب القرار الحكومي ومراقبي الحياة الاجتماعيّة والباحثين والعلماء الاهتمام بهذا الجانب المهم من الدين الإسلامي وهو التصوف، لا بدّ في بلد يمثّل الإسلام الدين الرسمي للدولة من اقتراح تأطير واهتمام أكثر دقة للطرق الصوفيّة.
- وإن ما نحتاج إليه اليوم هو مسألة تجريد الإسلام وخاصة التصوف من التوظيف السياسي كضرورة لممارسة الدين الحقيقي الصحيح.
- الاهتمام بالبعد الحسن الإيجابي من الكتابات الاستشراقية على التصوف الإسلامي وإظهاره من أجل نشر روح السلام والتعاون، ولا نقف فقط عند تلك الجوانب السلبيّة التي تزيد من الكره والبغضاء بين الشعوب.
- بشير جلطي، (2012)، حقيقة التصوف بين التأصيل والتأثير، (ط1)، بيروت لبنان، دار الكتاب العلمية، ص 45.
- رضوان السيد، (2016)، المستشرقون الألمان، النشوء التأثير والمصائر، (ط2)، بيروت، دار المدار الإسلامي، ص 47.

قائمةالمراجع:

- حاج عيسى كوزي، رمضان طارق، احترام الحضارات، (2008)، دار الغرب للنشر والتوزيع.
- دوبولانفلييه الكونت،تاريخ العرب وحياة محمّد، (2013)،منشورات كارم الشريف (تونس).
- Attali Jacques, Les Juifs, le Monde et l'Argent, Histoire économique du peuple juif,(2002), Editions Fayard (Paris).
- BucailleMaurice, La Bible, Le coran et la science, Les Ecritures saintes examinées à la lumière des connaissances modernes,(1978),Sned(Alger).
- ChitourChems Eddine, L'islam et l'occident Chrétien- pour une quête de la tolérance, (2008), Casbah Editions, (Alger).
- GaraudyRoger, L'Islam vivant, (1986), Maison des Livres (Alger).

- Le BonGustave, La civilisations des Arabes, (2009) Casbah Editions ,(Alger).
- MiquelAndré, La littérature Arabe, (1981), Que sais-je ? PUF (Paris).
- RoussillonAlain, La Pensée Islamique Contemporaine, in D'ISLAM et D'AILLEURS, (2007), Cérès Editions.
- ShariatiAli, Muhammad de l'hégire à la mort, (2007), Editions Albourak (Liban).
- SourdelDominique, l'Islam,(1956),Coll, que sais-je ? Presses Universitaires de France (Paris).
- TolanJohn, Mahomet L'Européen, Histoire des représentations du Prophète en Occident, (2018), Editions Albin Michel (Paris).

صورة الإسلام في الفكر الغربي المعاصر (أطروحة صامويل هنتغتون نموذجا)

The Image of Islam in Contemporary Western Thought (Samuel Huntington's (Thesis as a Model

د. شبين شفيعة، جامعة علي- لونيسي البليدة 02- الجزائر
wafasarah2016@gmail.com



تتناول هذه الورقة البحثية موقف الخبير في العلوم السياسية "صامويل هنتغتون "من الإسلام كمتغير حضاري في عالم ما بعد الحرب الباردة عبر أطروحته "صدام الحضارات"، ففي سياق تفنيده ورفضه لفكرة التعايش السلمي بين الحضارات والثقافات والأديان، يؤكد أن صراعات ما بعد الحرب الباردة لن تكون بين الدول القومية واختلافاتها السياسية والاقتصادية، بل ستكون الاختلافات الثقافية أو الحضارية المحرك الرئيسي للنزاعات بين البشر في السنين القادمة. وكنتيجة للقلق الذي انتاب العالم الإيديولوجي جراء الفراغ الإيديولوجي الذي خلفته الحرب الباردة، كان من الضروري البحث عن عدو آخر لضمان الهيمنة الغربية على العالم ، وهنا يبرز اهتمام "هنتغتون " بالعالم الإسلامي كمجال حضاري استراتيجي له موقع مركزي في العلاقات الدولية المستقبلية، وفي سياق هذا الطرح، ينقل لنا صورة سلبية عن الاسلام كعنوان للإرهاب والأصولية ، وأنه العدو المهدد للحضارة الغربية لأمر الذي يستدعي مواجهته، من أجل ضمان قوتها وهيمنتها .

الكلمات المفتاحية: الصراع الحضاري، الإسلام ، الحضارة الغربية، الحضارة الإسلامية.

Abstract :

This paper addresses the position of the expert in political science "Samuel Huntgton" from Islam as a cultural variable in the post-Cold War world through his thesis "Clash of Civilizations", in refuting and rejecting the idea of peaceful coexistence among civilizations, cultures and religions, affirms that post-cold-war conflicts will not be between nation States and their political and economic differences, but will be the main driver of human disputes in the years to come. As a result of the concern of the ideological world over the ideological vacuum left by the Cold War, it was necessary to look for another enemy to ensure Western dominance of the world, and this highlights interest "Huntgton" in the Islamic world as a strategic civilization area has a central position in future international relations. In the context of this proposition, it conveys to us a negative image of Islam as the title of terrorism and fundamentalism, and that it is the enemy that threatens Western civilization for the purpose of confronting it, in order to ensure its strength and dominance.

Keywords: Civilization conflict, Islam, Western civilization, Islamic civilization.



مقدمة :

في عام 1993، أشعل "صامويل هنتنغتون" نقاشا مستعرا حول مستقبل العلاقات الدولية بعد الحرب الباردة بنشره مقالا شديد الأهمية والتأثير في مجلة الشؤون الخارجية بعنوان "صراع الحضارات"، هذه المقالة التي تناقضت مع نظرية سياسية أخرى متعلقة بديناميكية السياسة الجغرافية بعد الحرب الباردة لصاحبها " فرانسيس فوكوياما " نهاية التاريخ . لاحقا قام "هنتنجتون " بتوسيع مقالته إلى كتاب صدر عام 1996 بعنوان " صدام الحضارات وإعادة صناعة النظام العالمي"، عرض فيه وجهة نظره المتمثلة في أن صراعات ما بعد الحرب الباردة ستكون أكثر عنفا لاستنادها على أسس ثقافية وقيم دينية، بدلا من المصالح الاقتصادية المشتركة . لكن الشيء البارز للعيان هو وصفه للإسلام بالخطر الأخضر، بعد الخطر الأحمر " الشيوعية" الذي اعتبر العدو رقم واحد للعالم في الفترة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى غاية انهيار الاتحاد السوفيتي. وبما أن الطبيعة تأبى الفراغ كان من الجدير البحث عن طرف آخر للصراع من أجل تحديد موزاين القوى، وبناء العلاقات الدولية في ظل النظام الدولي الجديد، وفق للترتيب الجديد الذي ستشهده الأجندة السياسية، وهنا بدأت فكرة اعتبار الإسلام كأبرز الأطراف التي تهدد الحضارة الغربية، أي بالأحرى المرآة التي يتأمل فيها العالم الغربي نفسه، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية وهذا في سبيل ضمان مكانتها وقوتها ليتم تكييف ما حملة هذا الطرح من مواقف تجاه الإسلام وحضارته مع الاستراتيجية التي رسمتها الولايات المتحدة الأمريكية، خصوصا بعد أحداث 11 سبتمبر 2001م.

ومن هنا نطرح السؤال التالي: ماهي الصور النمطية التي حاول " صامويل هنتغتون" تقديمها عن الإسلام بعد الحرب الباردة في أطروحة " صدام الحضارات " ؟ وماهي الانتقادات التي وجهت له ؟

أولا-مفهوم الصراع الحضاري من وجهة نظر"صمويل هنتغتون":

تتلخص أطروحة "صامويل هنتنغتون " "صدام الحضارات"، في أن الصراع في عالم ما بعد نهاية حقبة الحرب الباردة أي بعد 1992، لن يكون أيديولوجيا واقتصاديا، والمصدر الغالب للصراع العالمي سيكون ثقافيا و حضاريا. ولكي يشرح رؤيته تلك وضع "هنتنغتون" تسلسلا لمراحل الصراع في التاريخ، فكان قديما بين الملوك والأباطرة، ثم بين الشعوب ويقصد الدول القومية، ثم بين الإيديولوجيات. (هنتنغتون، 1999، صفحة 11) . ولكن بعد انتهاء الحرب الباردة ، سينشب الصراع بين الحضارات مع حلول النظام العالمي الجديد ، فما يهم الناس ليس هو الإيديولوجيا أو المصالح الاقتصادية، بل بالإيمان والأسرة والدم والعقيدة، فذلك هو ما يجمع الناس وما يحاربون من أجله ويموتون في سبيله . كما أعلن أن الدين محوري في العالم الحديث وربما كان القوة المركزية التي تحرك البشر وتحشدهم، والحضارة عنده هي الكيان الثقافي الأوسع الذي يضم الجماعات الثقافية مثل القبائل والجماعات العرقية والدينية، والأمم والعادات والمؤسسات الاجتماعية بدرجات متفاوتة ، وفقا للجماعات الثقافية الداخلة تحت

حضارة واحدة . والحضارات كما يقول هي القبائل الإنسانية الكبرى، وصدام الحضارات صراع قبائلي على نطاق عالمي . والفروق الثقافية هي التي تحتل الأساس والمركز في التصنيف والتمييز بين البشر اليوم. وتتحدد الهوية الثقافية عنده بالتضاد مع الآخرين، وفي الحروب ترسخ الهوية ويتحقق التماسك الاجتماعي بدلا من الانقسام الذي يتطلب زواله عدوا مشتركا. (هنتنغتون، 1999، صفحة 10) . والزعم بالحضارة العامية إنما هو في نظره إيديولوجية الغرب في مواجهة الثقافات أو الحضارات غير غربية . والخلاصة أن عالم ما بعد الحرب الباردة هو عالم مكون من سبع أو ثماني حضارات العوامل الثقافية المشتركة والاختلافات هي التي تشكل المصالح والخصومات وتقاربات الدول. ويعتقد أن أهم دول العالم جاءت من حضارات مختلفة والصراعات الأكثر ترجيحا أن تمتد لحروب أوسع هي الصراعات القائمة بين جماعات ودول من حضارات مختلفة ،وأشكال التطور السياسي والاقتصادي السائدة تختلف من حضارة لأخرى القضايا الرئيسية على أجندة العالم تتضمن الاختلافات بين الحضارات ، فالقوة تنتقل من الغرب الذي كانت له السيطرة طويلا إلى الحضارات غير الغربية، إذن السياسة الكونية أصبحت متعددة الأقطاب ، متعددة الحضارات . ويحدد " هنتنغتون " الحضارات السبع أو الثمانية في : الصينية ، الهندية، الإسلامية ، الغربية الأمريكية اللاتينية ، الأفريقية ، اليابانية ، الروسية الأرثوذوكسية، ويمكن اعتبار أفريقيا حضارة أيضا.

وحسب "هنغتنتون"، فان الحضارة الغربية في أوج قوتها بالمقارنة مع باقي الحضارات الأخرى، كما أن القيم الغربية قد تغلغلت إلى باقي الحضارات الأخرى، وأن الصراع هو عبارة عن ردة فعل للحضارات غير الغربية على القوة والقيم الغربية، وهو ما يعني أن الحضارة الغربية ستدخل في صراع مع الحضارات الأخرى، إن الإشكال الأساسي ليس في التمسك بالقيم أو تركها وتبني قيم الحضارة الغربية، بل في ظهور ممارسات مشوهة لتلك القيم ، خاصة مع وجود تناقض بين مضمونها وخصوصية كل حضارة من جهة، وحدوث انقلاب قيمي على المستوى العالمي في التعامل مع القضايا الدولية (ازدواجية التعامل) من جهة أخرى . كما أنه حسب "هنغتنتون" فأكثر الحضارات تحد للحضارة الغربية هما كل من الحضارة الصينية، وكذا الحضارة الإسلامية التي ستعرف انفجارا سكانيا متزايدا، وهي النقطة الحساسة التي تتخوف منها الحضارة الغربية، حيث يقدر عدد المسلمين بمليار و600مليون نسمة، وهذا العدد مرشح للارتفاع خلال السنوات القادمة، والحضارة الكونفوشيوسية التي ستعرف قوة اقتصادية وعسكرية متزايدة هي الأخرى، ستتقارب مع الحضارة الإسلامية في مواجهة الحضارة الغربية، خاصة في المجال العسكري. (مدني، جوان 2016، صفحة 15).

وفي سياق حديثه عن إعادة بناء النظام العالمي الذي أصبح ضرورة فرضه الصراع بين الحضارات السالفة الذكر، يقترح " هنتنغتون " توزيع القوى في مجلس الأمن والمنظمات الدولية الرئيسية على أساس ثقافي حضاري، فمعظم المؤسسات أو المنظمات الدولية نشأت بعد الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة ، وتم تشكيلها وفق المصالح والقيم والممارسات الغربية ، وحيث أن الحضارة الغربية في حالة انهيار مقارنة

بالحضارات الغربية، فإن الضغوط سوف تتميز لإعادة تشكيل هذه المؤسسات لكي تتكيف مع مصالح تلك الحضارات. إن القضية الأكثر وضوحا والأكثر إثارة للجدل تتعلق بالعضوية الدائمة في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. هذه العضوية مكونة من قوى رئيسية خرجت من الحرب العالمية الثانية منتصرة، وتحمل حقيقة متناقضة بحقيقة القوة في العالم، وعبر المسار بعيد المدى ، فإما أن تحدث تغيرات في عضوية المجلس، أو أن تستحدث أساليب أخرى أقل رسمية من أجل التعامل مع القضايا الاقتصادية العالمية في عالم متعدد الحضارات، الوضع المثالي هو أن يكون لكل حضارة من الحضارات الرئيسية مقعد واحد دائم على الأقل في مجلس الأمن، في الوقت الحاضر ثلاث حضارات فقط لها مقاعد دائمة ، الولايات المتحدة الأمريكية وافقت على عضوية اليابان وألمانيا ، ولكن من الواضح أنهما لن تكونا عضوين دائمين إلا إذا تحقق ذلك بالنسبة للدول الأخرى، البرازيل اقترحت خمس أعضاء دائمين جدد بدون حق الفيتو وهي : ألمانيا، الهند، نيجيريا، البرازيل ومعنى ذلك أن يظل بليون مسلم بدون تمثيل، إلا إذا حملت نيجيريا هذه المسؤولية، ومن وجهة نظر حضارية واضح أن اليابان والهند لابد أن تكونا عضوين دائمين، كما أن أفريقيا وأمريكا اللاتينية والعالم الإسلامي لابد أن يكون لهم مقاعد دائمة يمكن شغلها بشكل دوري بواسطة الدول الرئيسية في تلك الحضارات . ويكون الاختيار عن طريق منظمة المؤتمر الإسلامي ومنظمة الوحدة الإفريقية، ومنظمة الدول الأمريكية (دون الولايات المتحدة الأمريكية) . كما سيكون من الملائم كذلك دمج المقعدين البريطاني والفرنسي في مقعد واحد للإتحاد الأوروبي. سبع حضارات سيكون لكل منها مقعد واحد، وللغرب اثنان ، وهذه الحصص تمثل توزع البشر والثروة والقوة في العالم بشكل عام (هنتنغتون، 1999)

ثانيا - الحضارة الإسلامية المهدد الخطير للحضارة الغربية:

بعد تحليله العميق ووصفه للحضارات القائمة يختار " صمويل هنتنغتون " الإسلام أو بالأحرى الحضارة الإسلامية كأحد ابرز الأعداء المحتملين للغرب، هذا الأخير الذي يعتبر حسب الخبير نفسه لا نظيرله، وأنه يختلف عن جميع الحضارات التي وجدت، وذلك بالتأثير الأساسي فيها جميعا منذ 1500 سنة، حيث يعتبر أن الطابع الفريد والغلبة للغرب مبني على ثماني قيم مشتركة وهي: الإرث الكلاسيكي، الدين المسيحي، تعدد اللغات الأوروبية، الفردانية دولة القانون، التعدد الاجتماعي، الكتل الواسطة و الفصل بين السلطات بين الروحي والزمني. (طالة، 2020، صفحة 15). و بالوقوف على علاقة الغرب بالإسلام، يصف حدود العالم الإسلامي مع حدود دول العالم أنها حدود دموية ، وحدود للحرب مع العالم وحضاراته ويوضح احتمال الصدام الشامل والمتواصل بين العالم الغربي والإسلام بقوله " أنه رغم تأكيد الرئيس السابق " بيل كلينتون " أن الغرب ليس بينه وبين الإسلام أية مشكلة ، وإنما المشكلات موجودة مع بعض المتطرفين "، فإن أربعة عشر قرنا من التاريخ تقول عكس ذلك ، فالعلاقات بين الإسلام والمسيحية كانت عاصفة غالبا وكلاهما كان الآخر بالنسبة للآخر على مر الزمان. (هنتنغتون، 1999، صفحة 339). وفي هذا الصدد يرى "صامويل هنتغنتون" أن جذور العداء بين الإسلام والغرب لا يرتبط بتطورات

تاريخية حديثة، وإنما ببغض جوهري تفصح عنه عرون من العداوة والكراهية، التي اعتبر مصدرها الإسلام الذي كان منتشرا في بدايته بالسيف، كما أكد أن صراع القرن العشرين بين الديموقراطية الليبيرالية والماركسية اللينينية ليس سوى ظاهرة سطحية وزائلة، إذا ما قورنت بعلاقة الصراع المستمر والعميق بين الإسلام والمسيحية، الذي ينبع من طبيعة الديانتين والحضاريتين المؤسستين عليهما، فالصراع كان من ناحية نتيجة الاختلاف، خاصة مفهوم المسلمين للإسلام كأسلوب حياة متجاوز ويربط بين الدين والسياسة، ضد المفهوم المسيحي الغربي الذي يفصل بين مملكة الرب ومملكة قيصر، كما كان الصراع متدفقا أيضا من أوجه التشابه بينهما ، فكلاهما دين توحيد ويختلف عن الديانات الأخرى التي تؤمن بتعدد الآلهة وكلاهما ينظر للعالم نظرة ثنائية نحن وهم . (هنتنغتون، 1999، صفحة 340) .

ويتفق "هنتغتون" في طرحه هذا، مع ما دونته الباحثة "كارين أرمسترونج" من توصيف لكراهية الغرب وعدائه للإسلام والمسلمين في كتابها "سيرة النبي محمد"، "وظل الإسلام يمثل تحدياً لا يتوقف للغرب حتى القرن الثامن عشر، أما الآن فيبدو أن حرباً باردة ضد الإسلام توشك أن تحل محل الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي. (أرميسترونج، 1998، صفحة 36) وتقول في موضع آخر " لدينا في الغرب تاريخ طويل من العداء للإسلام، ويبدو أنه راسخ الجذور مثل عدائنا للسامية، وهو العداء الذي شهد صحوة تدعو للقلق في أوربا على مدى السنوات الأخيرة .. ولكن الكراهية القديمة للإسلام تواصل ازدهارها على جانبي المحيط الأطلسي، ولم يعد يمنع الناس أي وازع عن مهاجمة ذلك الدين حتى ولو كانوا لا يعرفون عنه إلا القليل. ولهذا العداء أسبابه المفهومة؛ لأنه لم يحدث قبل ظهور الاتحاد السوفيتي في القرن الحالي أن واجه الغرب تحدياً مستمراً من دولة أو من منهج فكري يوازي التحدي الذي واجهه من الإسلام (العزاوي، 2019)

وفي السياق نفسه،يؤكد "هنتنغتون"، أن الحرب الباردة الجديدة ستكون بين الإسلام والغرب ذلك أن التقاليد الثقافية والفكرية للتراث اليهودي والمسيحي يمثل التقدم والتنوير والعقلانية، على عكس العالم الإسلامي الذي يمثل الشر والظلمات واللاّعقلانية والتعصب، حيث يقول " المشكل الأساسي بالنسبة إلى الغرب ليس هو الأصولية الإسلامية بل هو الإسلام كحضارة مختلفة معتنقوها مقتنعون بتفوق ثقافتهم ومهووسون بضعف قوتهم. المشكل بالنسبة إلى الإسلام ليس هو مركز المخابرات الأمريكية أو وزارة الدفاع، بل هو الغرب، كحضارة مختلفة ممثّلوها مقتنعون بكونية ثقافتهم، ويعتقدون أن قوتهم وهيمنتهم تمنحهم واجب نشر ثقافتهم عبر العالم (زروخي، 2016، صفحة 304)

ويعتقد الأستاذ في العلوم السياسية بجامعة هارفارد إلى أن مستوى الصراع بين الإسلام والمسيحية عبر الزمن كان يتأثر دائما بالنمو الديموغرافي وهبوطه، وكذلك بالتطورات الاقتصادية والتحول التقني وشدة الالتزام الديني. والملاحظ حاليا أن أوروبا تنكمش سكانيا أو تتجمد بينما تتزايد أعداد المسلمين بصورة مطردة، فالحروب التي تكاثرت في دول العالم الإسلامي والتي كان للغرب دور واضح فيها، أدت إلى

موجات هجرة كبيرة إلى الدول الأوربية، وقد اعتبر كثير من السياسيين والمفكرين ورجال الدين المسيحيين، أن ذلك بمثابة الخطر الأعظم الذي يهدد الحضارة المسيحية. (فهمي، 2019) . ورجح "هنتنغتون" أن تكون العوامل التالية سببا في توسع دائرة من الصراع بين الإسلام والغرب : (رسول، 1999).

- خلق النمو السكاني أعدادا كبيرة من الشباب العاطلين عن العمل والساخطين الذين أصبحوا مجندين للقضايا الإسلامية ويشكلون ضغطا على المجتمعات المجاورة ويهاجرون إلى الغرب .
- أعطت الصحوة الإسلامية ثقة متجددة للمسلمين في طبيعة وقدرة حضارتهم وقيمهم المتميزة مقارنة بتلك التي لدى الغرب .
- جهود الغرب المستمرة لتعميم قيمه ومؤسساته من أجل الحفاظ على تفوقه العسكري والاقتصادي والتدخل في الصراعات الداخلية في العالم الإسلامي ، ولد استياء شديد لدى المسلمين .
- سقوط الشيوعية أزال عدوا مشتركا للغرب والإسلام وترك كلا منهما ليصبح الخطر المتصور بالنسبة للآخر .
- الاحتكاك والامتزاج المتزايد بين المسلمين والغربيين، يثير في كل من الجانبين إحساسا بهويته الخاصة ، وكيف أنها مختلفة عن هوية الآخر .

وقد انتقد هنتنغتون بشدة الشعوب التي تتخذ الإسلام معتقدا لها، وأيد إلى فكرة ضرورة وضع حد لإنتشار هذا الدين المهدد للعديد من الثقافات عبر العالم، والتي على رأسها الثقافة الغربية قائلا " إن المسلمين ينظرون إلى الثقافة الغربية على أنها ثقافة مادية فاسدة متفسخة ولا أخلاقية ، كما أنها مغوية ومن هنا يؤكدون أكثر فأكثر على الحاجة لمقاومة تأثيرها على أسلوب حياتهم ، ويهاجم المسلمون الغرب بدرجة متزايدة لا لأن الغرب دينا غير كامل أو بالأحرى خاطئ رغم أنه دين كتابي، بل يهاجمونه لأنه لا يتبع أي دين على الإطلاق، في الحرب الباردة ، كان الغرب يصف خصمه" بالشيوعية الكافرة "، وفي صراع الحضارات ما بعد الحرب الباردة ، فإن المسلمين يرون خصومهم " الغرب الكافر ". هذه الانطباعات عن الغرب كمتغطرس ، مادي ، قمعي ، متوحش ، ومتفسخ ، لا توجد عند أئمة الأصوليين فقط ، بل أيضا عند أولئك الذين يعتبرهم كثيرون من الغرب مواليهم وحلفاؤهم . (هنتنغتون، 1999، صفحة 346). ويصف "هنتنغتون" المسلمين بأنهم عنيفون بالفطرة ملاحظاً أنه حيثما نظر الواحد على امتداد حدود الإسلام يجد أن المسلمين لديهم مشكلات في العيش بسلام مع جيرانهم فقد نشبت حروب وصراعات بينهم وبين شعوب الحضارات الأخرى من الكاثوليك والبروتستانت، والأرثوذوكس، والهندوس، والصينيين والبوذيين، واليهود. وقد اعتمد "هنتنغتون" طروحات العديد من الباحثين والمفكرين الغربيين الذين استشرفوا رؤية التصادم القادم بين الغرب والإسلام، لتعزيز تفسيره للصراع الحضاري القادم، وإثبات صحة طرحه، فعلى سبيل الذكر استشهد، بدراسة إحصائية قام بها "تيد روبرت جور" المتعلقة بمشاركة المسلمين في 26 صراعاً من أصل 50 صراعاً عرقياً – سياسياً في فترة التسعينيات . فالصراعات

التي انخرط فيها المسلون مع أطراف أخرى ثلاثة أمثال ما كان بين جميع الحضارات غير الإسلامية، كما كانت الصراعات داخل الإسلام نفسه كثيرة، تفوق الصراعات التي حصلت داخل أي حضارة أخرى. أما الغرب فلم يتورط إلا في صراعين بين حضارات مختلفة وصراعين داخل حضارات بعينها. وينقل "هنتنغتون "عن نيويورك تايمز إحصائيات أخرى، حيث ذكرت 48 موقعاً كان يجري فيه 59 صراعاً عرقياً في 1993. في نصف هذه المواقع خاض المسلمون اشتباكات مع مسلمين آخرين أو مع غير مسلمين. (بكور، 2017)

ثالثا- الانتقادات المقدمة لموقف صامويل هنتغتون من الإسلام والحضارة الإسلامية :

لقد كانت نظرة صامويل "هنتغتون" لبناء النظام الدولي بعد الحرب الباردة، والتي تقوم على فرضية الصراع الحضاري محل نقاش وجدل وانتقاد من قبل العديد من الباحثين، الذين رأوا أن مقاربة "صدام الحضارات" لم تستطع تحديد الرابط بين حضارة ما والسياسة الخارجية للدول المنتمية إليها، وهو ما لا يمكن أن يقدم لنا تفسيرا واضحا لهذا الصراع على أرض الواقع لأن الموجود ضمن البيئة الدولية هي دول قومية ما يهمها هو مصالحها القطرية وليست مصالحها ضمن مجموع الدول التي يجمعها بها نفس الدين والتاريخ، والثقافة...وغيرها من القيم المشتركة. كما لم يعتمد "صمويل هنغتنتون" علي معيار واحد في تقسيم الحضارات، على أساس جغرافي أو ديني أو عقيدي وغيرها، كالحضارة الغربية والحضارة الإسلامية والحضارة الكنفشيوسية وهو ما يمثل خللا معرفيا. (مدني، 2016، صفحة 12)

كما نجد أن طرحه المعادي للإسلام والحضارة الإسلامية قد لقي نقدا لاذعا من طرف العديد من الباحثين خاصة الغربيين منهم، حيث حاول كل من الباحثين " ستيك هانسن" و "أتلي ميسوي" وكذلك " "وتنكي كاردس"، في كتابهم الذي حمل عنوان "حدود الإسلام: تفحُّصِ خُطوطِ الصَّدْعِ التي ذكرها صموئل هنتنغتون، من الأندلس إلى الأمة الواقعية "، تحدي مزاعم "هنتنغتون" بأن الإسلام هو الدافع والمحرض للحروب القائمة على حدوده، وذلك بإعطائهم أمثلة عن مختلف الصراعات التي شهدها العالم، ولم يكن الاسلام ولا المسلمين المحرك الرئيسي لها، ومن بين ما دون " في الفصل الثالث عشر من الكتاب بعنوان " البوسنة، الدين والهوية"، أن الحرب في البوسنة من 1992 حتى1995 إنما وقعت بسبب قوى خارجية.. ويضيف بأن البوسنيين مسلمون أوروبيون وأهل سنة ليبراليون. وقد كانوا بمنأى عن الأفكار الإسلامية المتطرفة. وكباقي يوغوسلافيا، نصف قرن من الحكم الشيوعي والضغط العلماني تركا أثرهما على المسلمين البوسنيين. وعندما بدأت الحرب كان هناك جيل كامل شدّت عليه العلمانية قبضتها. (بكور، 2017).

ومن جانب آخر، نجد و جود قيادة للعالم الإسلامي في إطار ما طرحه "صمويل هنغتنتون" حول الحضارة الإسلامية وإن تنازعتها في فترات سابقة دول إسلامية كبرى كالخلافة العباسية أو الدولة الأموية

في الأندلس أو حتى الدولة العثمانية أو الدولة الصفوية، فان الدول الإسلامية في الوقت الراهن لم تعد تتنازع لقيادة العالم الإسلامي، لأن هذا المستوى من التحرك لم يعد يحوز على نفس الأولوية التي كان عليها في الفترات السابقة، بل سقط تماما لدى أغلبية الدول الإسلامية ، باعتبار أن صراع المصالح هو المحرك الأساسي لهذه الدول "، وهذا ما يفند ما قدمه "صموئيل هنغتنتون " حول تهديد الحضارة الإسلامية للحضارة الغربية (إن الدول العربية مشتتة نتيجة النزاعات الأهلية والحروب الإقليمية والتنافس فيما بينها حول مناطق تتولى إدارتها أطراف غير إسلامية، واللجوء الدائم للأطراف الخارجية في حل أزماتها، كالحرب العراقية الإيرانية والحرب على العراق1991 والصراع في أفغانستان والصومال والبوسنة والهرسك والشيشان وغيرها، أين تتضح محدودية وعدم فعالية دور الدول الإسلامية بل لجوئها إلى أطراف خارجية حتى لتحقيق مصالحها...بل اليوم تتنافس فيما بينها مما أدى إلى تدهور العلاقات بين عدد من الدول الإسلامية فيما بينها بسبب اختلاف مصالحها حول بعض القضايا. (مدني، صفحة 13)

ونجد أيضا أن الباحث الإرلندي " فريد هاليداي"، قد أبدى رفضه التام لطرح " هتنتغتون " بشأن الإسلام حيث حاول في كتابه" الإسلام وخرافة المواجهة : الدين والسياسة في الشرق الأوسط " أن يبرئ الإسلام من العنف والارهاب والأصولية، في الجزء الثاني من كتابه الذي حمل عنوان " خرافات المواجهة"، فيقول " ولعل أن أشيع تهام ضد الإسلام، هو أنه يصوغ للإرهاب، وردا على ذلك يجب أن نذكر أنه ليست هناك علاقة ضرورية أو تاريخية بين السياسة الإرهابية والهويات الإسلامية، فحين ظهر الإرهاب بمعناه المعاصر في القرن التاسع عشر، لم يكن المسلمون هم الذين شقوا الطريق. ويضيف قائلا "وفي الأونة الأخيرة كان هناك الكثير من الإرهاب، ولا إسلام في إيرلندا الشمالية،أو ايوز كادى أو سريلانكا......... وإن كان العالم الإسلامي مسؤولا عن الكثير من الجرائم في الماضي والحاضر، فهو ليس وحده على كل حال (هاليدي، 1997، صفحة 134) . وقد استشهد " هاليدي" في كتابه بالعديد من الجرائم التي لم يتورط فيها المسلمون على غرار مذبحة اليهود في الحرب العالية الثانية، وطرد السيفارديم من إسبانيا، كما حاول أن ينقل واقع القمع والارهاب الذي يعاني منه العديد من المسلمين في بورما وكشمير وفلسطين وكذلك البوسنة، ونفى أن يكون المسلمون طرفا في هذه الجرائم.

ولم يقتصر رفض ما طرحه "هنتغتون" من أفكار بخصوص صدام الحضارات والإسلام على المفكرين فقط، بل كان للشخصيات السياسية نصيبها في تفنيد مقولته، ومن الأمثلة نجد ما صرح به الأمير "تشارلز" ولي عهد بريطانيا في محاضرة هامة في 27 أكتوبر 1998. في مسرح "شيلدونيان " بأكسفورد، بمناسبة زيارته إلى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية حيث أكد أن الذي يربط العالمين الغربي والإسلامي أقوى بكثير مما يبعدهما، المسلمين والمسيحيين واليهود جميعهم أصحاب كتاب، فالإسلام والمسيحية يشتركان في النظرة الوحدانية، الإيمان بإله واحد ... ، وأشار أن حكم الغرب على الإسلام قد عان من التحريف الجسيم نتيجة الاعتبار بأن التطرف هو القاعدة، وقال أن هذا الأخير ليس حكراً على

الإسلام بل ينسحب إلى ديانات أخرى بما فيها الديانة المسيحية ، والغالبية العظمى من المسلمين يتسمون بالاعتدال. (بزارة، 2021، صفحة 250)

كما نجد أن وزير خارجية بريطانيا الأسبق "روبن كوك"، قد عارض بتاتا طرح "هنتغتون" بشأن الإسلام والحضارة الاسلامية، وهذا من خلال محاضرته بالمركز الإسماعيلي بلندن في 08 أكتوبر1998، والتي اعتبر فيها أن جذور الثقافة الغربية ليست يونانية أو رومانية الأصل فحسب، بل هي إسلامية أيضاً "، ويشير أن الغرب مدين للإسلام بالشيء الكثير ، فالإسلام قد وضع الأسس الفكرية لمجالات عديدة مهمة وكبيرة في الحضارة الغربية "ويرفض مقولة صدام الحضارات ، وأن الإسلام هو العدو الجديد للغرب، قائلا :"إن البعض يقول إن الغرب بحاجة إلى عدو، بما أن الحرب الباردة قد ولت إلى غير رجعة، فإن الإسلام سيأخذ مكان الاتحاد السوفييتي سابقا كعدو، ويقولون إن صراع الحضارات ولا مفر منه وأنا أقول:أنهم مخطئون خطأ فادحا فنحن لسنا بحاجة إلى الإسلام كعدو بل حنن بحاجة إليه كصديق " (بزارة، 2021، صفحة 251).

ودعا الرئيس الإيراني على هامش أعمال المؤتمر الدولي للحوار بين الحضارات والثقافات والشعوب، بتعزيز من اليونيسكو عام 2005 "محمد خاتمي"، والذي كان أول من أطلق "الحركة السياسية والفكرية التي أعادت إدراج الحوار بوصفه مفهوما مركزيا لإدارة شؤون العالم" إلى تفعيل الحوار بين الحضارات الذي أضحى حاجة سياسية واقتصادية ملحة، وأكد أن جمال الدين ينبع من العدالة، وأن أي فهم للدين يمر عن طريق التبرير بشكل أو بآخر للظلم والإجحاف إنما يناقض المعنى الحقيقي للدين

بالإضافة إلى هذا، صرح الرئيس الجزائري المتوفى عبد العزيز بوتفليقة أن الإرهاب لا يشكل جزءا من الحضارة الإسلامية وما من شئ يمكن أن يبرره، وأكد أن الحوار لكي يحل محل العزلة الثقافية ويصبح عامل استقرار وأمن دولي، يجب على النصف الجنوبي من الكرة الأرضية وبالأخص المنطقة العربية والإسلامية أن تشرع في الإصلاحات الضرورية لمواكبة العالم . (المتحدة، 2005)

خاتمة:

إن مسألة الصراع الحضاري الذي أعاد "صامويل هنتغتون" إحياءه بعد الحرب الباردة له مرجعية تاريخية تعود إلى الأفكار التي تناولت متغير الصراع مع من أجل تحقيق الذات، كما هو الحال عند "كارل ماركس "، عند تجديده لمفهوم الصراع الطبقي. وبخصوص الصور النمطية التي رسمها في أطروحته والمتعلقة بدموية الإسلام وتهديده للعالم عامة، والعالم الغربي على وجه الخصوص ، فنجد أنه استمد هذا الطرح من فكر المستشرق ومنظر الإسلاموفوبيا، الأمريكي ذو الأصول البريطانية " برنارد لويس" الذي يعتبر المؤصل الحقيقي "لنظرية صدام الحضارات "، في مؤلفاته التي سبقت طرح "صامويل هنتغتون" بسنين معدودة، والتي أشار فيها إلى ضرورة إيجاد عدو بديل ونقيض يقوم على أساس ثقافي

حضاري، يمكن الغرب من خلاله من التعرف على نفسه، ألا وهو الإسلام، الذي يعتبر كمنافس قديم ضد التراث اليهودي والمسيحي. ومن هنا نقول أن رأي "صامويل هنتغتون" التعسفي تجاه الإسلام يمكن صبه في وعاء المفكرين والمستشرقين الذين يدعون أن كراهية الحريات الغربية هي التي تلهم المسلمين لمهاجمة العالم الغربي.

قائمة المراجع:

1. الكتب:

- أرميسترونج كارين، تر: فاطمة نصر، محمد عناني (1998). *سيرة النبي محمد، سطور ، مصر*
- فريد، هاليدي، تر. محمد مستجير (1997). *الاسلام وسياسة المواجهة: الدين والسياسة في الشرق الأوسط.* ،مكتبة مدبولي، مصر
- هنتنغتون صامويل، تر. طلعت الشايب (1999). *صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي.* سطور، مصر .

2. المجلات:

- بزارة عمر خروبي. (2021). صدام الحضارات أم حوار الحضارات : جدلية الفكر الغربي والفكر الإسلامي. *الأكاديمية للدراسات الإجتماعية والانسانية ، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف المجلد 13 ، العدد 06.*
- شهيدة لعموري ، زروخي إسماعيل. الصدام الحضاري وصناعة الأعداء: صامويل هنتغتون نموذجا (24 جوان, 2016).. *مجلة العلوم الإجتماعية والانسانية، العدد 24 .*

- طالة لامية. حوار ثقافات أم صراع حضارات: دراسة تحليلية لكتاب صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي لصامويل هنتنغتون ونهاية التاريخ وخاتم البشر لفرانسيس فوكوياما (2020).. *مجلة مقاربات، معهد زيان عاشور، الجلفة المجلد 06، العدد 02.*

- رسول محمد رسول، (1999). من صدام الحضارات إلى حوار الحضارات: قراءة نقدية في مقولة هنتنغتون. *مجلة الكلمة*، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، لبنان، العدد 24.
- فهمي أحمد(2019)، الموجة الإسلامية الثالثة الخطر الذي يخشاه الغرب، مجلة البيان، شركة وسائل الإعلام بالرياض، المملكة العربية السعودية.
- مدني ليلى، (2016)، نقد أطروحة صدام الحضارات وواقع تحليلها بين مفهومي الأصولية ومفارقة الإرهاب. *دفاتر السياسة والقانون، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، المجلد 08،* العدد 15

3. الويبوغر افيا :

- بشار بكور. (2017)، *صمويل عنتغتون وحدود الإسلام الدموية.* https://www.alukah.net/sharia/0/116057

- فارس العزاوي. (, 2019)، *رؤيل للبحوث والدراسات* ، http://ruya.cc
- أخبار الأمم المتحدة. (2005)، *الرئيسان الإيراني والجزائري يدعوان في اليونسكو لحوار بين الحضارات*، https://news.un.org/ar/story/2005/04/36722

رؤية سوسيو تحليلية لمشاكل وأمراض العالم الإسلامي من منظور المفكر مالك بن نبي

Susio's Analytical Vision of the Problems and Diseases of the Islamic World From the Perspective of The Thinker Malik Bin Nabi

د.ميلود حسين أحمد، المركز الجامعي مرسلي عبد الله- تيبازة- الجزائر
ahmedmiloudhocine@gmail.com



قام مالك بن نبي بدراسة الواقع الذي تعيشه المجتمعات الإسلامية منذ أن خرجت من عصر الحضارة، وأهتم بمشكلات المجتمع الجزائري والإسلامي الذي طغت على ثقافته وسلوكه أعراض مرضية واضطرابات فكرية تعكس التخلف والانحطاط الذي تعيشه، وقد أرجعها إلى سلبيات عصر ما بعد الموحدين الذي تراجع فيها التمسك بالدين، في حين يملك هذا المجتمع كل مقومات الإقلاع الحضاري.

لقد جاءت هذه الدراسة للبحث في التفكير السوسيولوجي عند مالك بن نبي، وفهم ركائزه وخصوصياته من خلال ما كتبه من مواضيع ذات صلة بالحضارة، ومنها الأمراض الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: دلالات الأمراض الاجتماعية، أعراض الأمراض الاجتماعية، العالم الاسلامي، مالك بن نبي.

Abstract :

Malik Ben Nabi studied the reality that Muslim societies have been living since they emerged from the era of civilization, and I care about the problems of Algerian and Islamic society, which has dominated its culture and behavior satisfactory symptoms and intellectual disorders reflecting the backwardness and decadence that it is experiencing, and has attributed it to the negatives of the post-Almohad era in which adherence to religion declined, while this society has all the elements of civilized take-off.

This study was to research the sociological thinking of Malik Ibn Nabi, and to understand his pillars and peculiarities through his topics related to civilization, including social diseases.

Keywords: Signs of social diseases, symptoms of social diseases, Islamic world, Malik bin Nabi.



مقدمة :

تناول المفكر الإسلامي مالك بن نبي تشخيص المرض الاجتماعي الذي يصيب المجتمعات الإنسانية، والذي أصبح مرض عضال تعاني منه الأمة، فالأمراض الاجتماعية بطبيعتها داء في ضمير المجتمع قبل أن تكون في محيطه، ويبدو أن المفكر الإسلامي مالك بن نبي قد تنبأ لهذه الظاهرة، بحيث يرى أن فساد العلاقات الاجتماعية يبدأ من الذوات فيقول "إنّ العلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب

الذوات بالتضخم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعباً، أو مستحيلاً إذ أن المجتمع يدور فيه النقاش حينئذ لإيجاد المشكلات بدلاً من محاولة إيجاد علاج فعال لهذه المشكلات"، وفي حقيقة الأمر ما نراه في مجتمعنا أن فساد الذوات كفيل بأن يفسد أمة لأن الفرد يعتبر سلسلة، وحلقة متصلة، وجسم مركب في جسد هذه الأمة، ولهذا نجد أن معظم الإصلاحات الاجتماعية تنطلق في بدايتها من ذات المجتمع وينتهي مفعولها من المجتمع، وهذه الحالة المرضية قد تستمر قليلاً أو كثيراً قبل أن تبلغ نهايتها في صورة انحلال تام، وتلك هي مرحلة التحلل البطيء الذي يسري في الجسد الاجتماعي.

ويعلل مالك بن نبي رحمه الله بقوله "بيد أن جميع أسباب التحلل كامنةً في شبكة العلاقات فلقد يبدو المجتمع في ظاهره ميسورا نامياً بينما شبكات علاقاته مريضة، ويتجلى هذا المرض الاجتماعي في ظاهرة العلاقات بين الأفراد؛ وأكبر دليل على ذلك يتمثل في "الأنا" عند الفرد من تضخم ينهي الجسد الاجتماعي لمصلحة فردية عندما يختفي الشخص، أو خاصة عندما يسترد الفرد استقلاله وسلطته في داخل الجسد الاجتماعي"، وهذا ما يفسر أحقية تحول الإنسان وانكماشه من مرحلة التفاعل في المجتمع إلى مرحلة التفاعل الشخصي، حيث تبدأ المصالح الفردية تزيد وتبحث النفس البشرية لها داخل المجتمع عن موطن للتغلغل وللانحلال المجتمعي، لأن الصلة الاجتماعية بين أفراده كانت صلة حياة يزيد فيها تفاعل إنسان المجتمع، وتدخل كل هذه الأمراض والأعراض لتصيب الفرد والمجتمع الإسلامي خاصة، لذا سنحاول من خلال هذه الدراسة العلمية تقديم رؤية سوسيو تحليلية لمشاكل وأمراض العالم الإسلامي من منظور المفكر مالك بن نبي.

أولا- ماهية المرض الاجتماعي في فكر مالك بن نبي :

لقد انشغل مالك بن نبي بأمراض المجتمع الإسلامي ومحاولة تشخيصها تشخيصا سوسيولوجيا، وبين ظهوره في المجتمع " فلقد يبدو المجتمع في ظاهره ميسورا ناميا، بينما شبكة علاقاته مريضة، ويتجلّى هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الأفراد..."

وانتقد ذاتية المصلحين من رجال سياسة أو رجال دين عند تشخيصهم لواقع المجتمع لأنّ كل مصلح قد وصف الوضع الراهن تبعا لرأيه أو مزاجه أو مهنته، " على حين أن كل هذا التّشخيص لا يتناول في الحقيقة المرض بل يتحدث عن أعراضه " (مالك بن نبي، 1986، ص43- 55).

فمشكلة هؤلاء المصلحين ركزوا جهودهم في كيفية معالجة أعراض المرض، متجاهلين حقيقة المرض ذاته، والمريض يريد أن يبرأ من آلام الاستعمار، الأميّة، الكساح العقلي..، ولا يعرف حقيقة مرضه ولم يحاول معرفته، وإنّما شعر بألم فسارع بالجري نحو الصيدلي، ويتساءل عن مبتغى دخول المريض غير المدرك لطبيعة مرضه بالتحديد الصيدلية، هل ذهب بمحض الصدفة لكي يقضي على المرض، أو هل يقضي على نفسه؟ ويسقط هذه الواقعة على حالة العالم الإسلامي ليؤكد " هذا شأن العالم الإسلامي كأنه دخل إلى صيدلية الحضارة الغربية طالبا الشفاء، ولكن من أي مرض؟ وبأي دواء ؟

إن مجتمعات العالم الإسلامي تشترك في أمراض اجتماعية ويرجع ذلك إلى الظروف التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية المشتركة التي عاشتها وتعيشها الآن فالجماعة التي أصيبت بالمرض

صارت ناقلة له للجماعات الأخرى وللأجيال الأخرى بالتداول وبدل من محاربته صار التفنن في ابتكار وإيجاد أوجه أخرى له، من ذلك ما نشاهده في الخصوصيات الاجتماعية الموجودة في مجتمعات معينة بحكم النزوح الذي تشهده المدن عمت هذه الخصوصيات، وكذلك ما يعيشه الشباب والفئة المثقّفة من حالة تهميش واغتراب وهذا ما يفسره ارتفاع حالات الإدمان والانتحار والهجرة السرية والاضطرابات السلوكية والعنف وحالات المرض النفسي الناجم عن الضغوط اليومية مما سبب أيضا أمراض فيزيولوجية منها الأمراض المزمنة كارتفاع ضغط الدم والسكري والأورام الخبيثة، ومما نعيشه اليوم أن الفرد الأمي لم يعد يخجل بأميته وعدم علمه بالشيء بل صار يفاخر ويتحدى المتعلم بل صار يشارك في المواعيد السياسية والانتخابية ويتدخّل في تسيير أمور العامة بقرارات ارتجالية تحكمها أمواله وأموال من وراءه، وما ينجر عنه من سوء للتسيير وهدر لأموال عامة سببها التظاهر بالعلم بالشيء إنه التعالم، ثم لا يتوان أصحاب الأموال من دخول الهيئات والمؤسسات الإدارية وإقناع الآخر بالاستعداد بدفع ما يلزم من اجل قضاء حاجته، وهذا ما دعم البيروقراطية وانتشار الرشوة، في حين نجد فئات أخرى إذا ما تحدثت فهي تفاخر بما صنعت أجيالها السابقة وحب الاقتداء بها والتحسر على انقضاء تلك الأيام.

ثانيا - أسباب الأمراض الاجتماعية في المجتمع الإسلامي عند مالك بن نبي

1- انعدام الفعالية الاجتماعية: كانت طبيعة العلاقة السلبية التي تربط الإنسان كفرد بالدين، وبالعمل وبالأشياء، وبالأفكار التي تعبر عن واقع اجتماعي عام مشخص أصيبت شبكة علاقاته بالتحلل واللافعالية.

ما أراد مالك بن نبي أن يبينه عن انعدام الفعالية هو أن المجتمع في فترات انحلاله وتراجع حضارته تتلاشى بداخل الفرد وحتى في حياته اليومية، روح المبادرة والتقدم ومجابهة المشاكل والعراقيل فهو خامل يعيش الروتين وعدم الاكتراث بالغير وهذا ما يشاهد على المجتمع، فانغلاق الفرد على ذاته وانغلاق الأسر على ذاتها وكذا عدم الاكتراث بما يحصل داخل المجتمع من آفات وظواهر، كما أن النزعة الفردانية والأنانية جعلت الفعالية الاجتماعية تتفتت وانتشرت الجهوية والقبلية وأصبح يتكون المجتمع من جماعات لا تربط بينهم إلا الهوية، وتراجع التضامن والتكافل الاجتماعي (محمد بغدادي باي، 2006، ص 109).

ويرى أن انعدام الفعالية الاجتماعية في المجتمع مرتبطة بمدى تأثير الفكرة في الواقع، إذ أن المجتمع الجزائري يحمل بعض الأفكار لا تمت بصلة للواقع كاللجوء للسحر والشعوذة والقيام بالطقوس اعتقادا أنها تطرد العين والحسد، كما نلمس انعدام الفعالية الاجتماعية من الثغرة الموجودة بين الأثرياء والفقراء، ذلك أنهم إذ كانوا يلتقون كل جمعة في المساجد، ودعوة الإمام لهم بمساعدة الفقراء ودفع الزكاة الواجبة والوقوف بجانب المحتاج والتفريج عليه الكرب والمصائب ومساعدة المريض وكفالة الأيتام غير أنه بعد الخروج من المسجد يبقى الكلام حبيس جدرانه.

2- تفكك العلاقات الاجتماعية : شبه بن نبي مجموعة العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع بالشبكة إذ ربط تطور أي مجتمع بتطور هذه العلاقات، فإذا ما تطور مجتمع ما على أية صورة، فإن هذا التطور مسجل كما وكيفا في شبكة علاقاته.

وعندما تضعف فعالية هذه الشبكة " ... فذلك أمارة على أن المجتمع حينئذ لا يبق منه غير ذكرى مدفونة في كتب التاريخ ..." (مالك بن نبي، 1986، ص42).

وهذا ما أطلق عليه حالة التحلل والتمزق ويستدل بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لابل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل: وما الوهن يا رسول الله ؟ قال:حب الدنيا وكراهية الموت".ويوضح أن حالة اليأس والإحباط وتفتت العلاقات الاجتماعية التي تصيب الأمة هي التي سببت انهيار الحضارة ومن يسعى إلى الإقلاع الحضاري ثانية، لابد من تغيير نفسيته المهزومة أولا إلى نفسية إنسان حضاري يملك رسالة ومشروعا لإنقاذ الآخرين، وهذا ما أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة إذ قال الله تعالى" إن الله لا يغَير ما بقَوم حتى يغَيروا ما بأَنْفسهم." (سورة الرعد، الآية 11).

ويعقد مالك بن نبي الصلة بين تفكك العلاقات الاجتماعية والاختلالات والتناقضات التي تمس مجموعة الأفكار لدى أي مجتمع،"... إن كل روابط الأفكار فيما بينها أو فيما بينها وبين عالمي الأشخاص والأشياء لابد أن ينتج عنه اضطراب في الحياة الاجتماعية، والسبب الأصلي في ذلك كله هو انفصام الأفكار عن نماذجها المثالية، فعندما تختفي من نفوسنا أفكارنا المطبوعة، وتصبح أفكارنا الموضوعة لا شكل لها ولا نسق ولا نفع، نكون قد دخلنا مرحلة تموت فيها الأفكار، وتصبح العقول فيها خاوية، واللغات عاجزة، ويعود المجتمع إلى الطفولة، وتظهر في هذا المجتمع ظواهر غريبة يستند إليها ليتمكن من تعويض قصوره في الأفكار ببدائل، لا تغني عن عدم تماسك الأفكار شيئا... " (عمار طالبي، ص465، 466).

3- المطالبة بالحق فبل أداء الواجب: يرى مالك بن نبي " ... إن العلاقة الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام مبنية على مبدأ قيام كل فرد بواجبه، وفي المذاهب العلمانية مبنية على مبدأ مطالبة الفرد لحقه، ولهذا فإن الحق في هذه الحالة هو ما يأخذه الفرد من المجتمع وهو عمل سلبي، أما الواجب فهو ما يقدمه إلى المجتمع وهو عمل إيجابي

وفي هذا الصدد يقول: الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف: " اليد العليا خير من اليد السفلى، إن هذا الحديث يبرز لنا حقيقة أن الواجب أهم من الحق، وأن الإنتاج أشرف من الاستهلاك ويذهب بن نبي إلى أن" العلاقات المبنية على مفهوم الحق تستلزم المطالبة أي المناضلة بنية الأخذ والوصول إلى الحقوق ، ولذلك فهي تنتهي بالصراع ".

فالعلاقة بين الحق والواجب من أساسيات التطور الاجتماعي، وكلاهما ملازم للآخر عكس ما يعتقده العامة "الشعب هو الذي يخلق ميثاقه ونظامه الاجتماعي والسياسي الجديد عندما يغير ما في نفسه

فالحق مثله مثل الاستهلاك فهو في هذا المنظور يأخذ اتجاها سلبيا، في حين أن الواجب هو كل ما يوفره المجتمع لأفراده في اتجاهه إيجابي".

فتظهر في شكل عملية أخذ وعطاء " ... وهكذا يؤدي القيام بالواجبات إلى كسب الحقوق" (قادة بحيري، 2005، ص117).

فالعلاقة بين الحق والواجب هي التي ترسي القواعد الأساسية لجميع ميادين التطور في المجتمع والمعروف في العالم الإسلامي أن الفرد يطالب بحقوقه ويؤدي بعد ذلك واجباته، في حين هذه الفكرة مفقودة في العالم المتطور، لأن الأفراد هناك يؤدون واجباتهم ثم يطالبون بحقوقهم طبقا لما تمليه عليهم ثقافتهم وسلوكهم، ظلت هذه الذهنيات راسخة وصار الشباب حاليا ينتظرون من الآخرين الحصول على طلباتهم وحاجاتهم واعتبارها من حقوقهم غير القابلة للتنازل في حين أنهم لا يقدمون ما يطلب منهم، إنما يعلقون إخفاقاتهم إلى أوليائهم أو المدرسة أو الشركات أو الدولة.

ثالثا- أعراض الأمراض الاجتماعية وكيفية معالجتها عند مالك بن نبي:

1- الاضطراب الفكري والسلوكي: إن الاضطراب الفكري والسلوكي عنده هو عدم الاستقرار على فكرة أو موقف بل الانتقال منه إلى نقيضه بدون مبررات، هذا الناقض يرده إلى اتصال المسلم المعاصر بالحضارة الغربية المهيمنة، وإلى موقفه غير المحدد منها : فهو إما متشبث بتراثه، وإما منسلخ عنه ومتعلق بالثقافة الغربية وما أنتجت، واتخاذها مقياسا لا بديل عنه للتقدم، هذان الموقفان المتعارضان في المجتمع يعبران عن حالة اضطراب أخلاقي وسلوكي (محمد بغدادي باي، مرجع سابق، ص123، 124).

" ... وخلاصة القول أن المجتمع الإسلامي من نصف قرن مطلع القرن العشرين اقتبس أشياء من الغرب دون أدنى نقد، يحمله أحيانا كنوع من الإكراه أو غالبا من السذج وفراغ العقل، وكل ما يسوده من اختلاط وفوضى في الميادين الفكرية إنما هو نتيجة ذلك الاختلاط من الأفكار الميتة..." (عبد اللطيف عبادة، 2006، ص86).

2- **التعالم:** مصطلح يطلقه بن نبي على النّخبة في المجتمعين العربي والإسلامي، وهو عنده صفة مرضية تعني الحرفية في الثقافة، وادعاء العلم والمعرفة، وهؤلاء المتعالمون، كما يقول مالك بن نبي، لم يتقنوا العلم ليصيروا ضميرا فعالا، بل ليجعلوه كآلة للعيش، وسلما يصعدون به.

وتعتبر ظاهرة التعالم علم زائف لا ينتفع به، فيصبح الفرد حبيس الحروف والكلمات لا المعاني فلا يسعى إلى التحليل والنقد والربط والاستنتاج، وحسب بن نبي، فإن ظاهرة التعالم هذه ينجر عنها فقدان المجتمع لحاسة النقد والتقدم في العلم (مالك بن نبي، 1987، ص91).

3- **القابلية للاستعمار:** المقصود بالقابلية للاستعمار هو حالة الخضوع للطرف الأقوى وإن كان الاستعمار الحقيقي هو الذي احتل الشعوب بأسلحته، بينما صار اليوم الاستعمار يحتل الشعوب تحت غطاء اقتصادي أو سياسي أو ثقافي وزادت التبعية لسياسات الدول واقتصادياتها وثقافتها، واليوم صار مفهوم العولمة جزء من هذه التبعية والقابلية للاستعمار.

"... إن المرض الحقيقي لم يكن الاستعمار القادم إلينا من خارج استعدادنا لاستقباله، بل هو في مكونات ذلك الاستعداد، والدليل على ذلك يقدمه لنا الواقع المؤلم اليوم، وهو أن الاستعمار غادر هذه الأوطان، ولكن هل نحن نشعر أن الأوضاع الاجتماعية أو الخلقية أو الثقافية أو الإنسانية قد تغيرت بطريقة جوهري ؟ " (مالك بن نبي، 2006، ص 52).

"... إن الاستعمار يسعى إلى أن يجعل من الفرد خائنا ضد المجتمع الذي يعيش فيه فإن لم يستطع فإنه يحاول أن يحقّق خيانة هذا المجتمع وهذا على يد بعض الأشرار...".

وباختصار فان القابلية للاستعمار هي التي قدمت الشعوب المغلوبة على أمرها غنيمة للاستعمار (مالك بن نبي، 2006، ص 125).

4- التكديس:تبرز ظاهرة التكديس عند مالك بن نبي كإحدى سمات مجتمع خرج من حضارته، فانحصر تفكيره في عالم الأشياء، فأخذ في استيرادها وجمعها ظنا أنه بذلك يضع حضارة، في حين أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها لا العكس، حتى إذا انهالت منتجات الحضارة الأوربية على بلاده اكتفى بمعرفة فائدته دون أن يفكر في نقدها، وإذا كانت الأشياء قابلة للاستعمال، فإن قيم هذه الأشياء قابلة للمناقشة، ومن ثم وجدنا المسلم لا يكترث بمعرفة كيف تم إبداع هذه الأشياء بل قنع بمعرفة طرق الحصول عليها، فليس من الواجب لكي ننشئ حضارة أن نشتري كل منتجاتها.. " (إبراهيم عاصي، د.ت، ص 65).

ولا يزال العالم الإسلامي يعمل منذ نصف قرن على جمع أكوام من منتجات الحضارة أكثر من أن يهدف إلى بناء حضارة، فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن تكدس المنتجات ، وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها.(ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت) (مالك بن نبي ، شروط النّهضة، مرجع سابق، ص 50).

وعليه فعلاقة الإنسان بالأشياء هي علاقة إنتاج واستهلاك، غير أن نزعة الشيئية " تتمثل في الولع بالأشياء وتكديسها عوض الرقي إلى عالم الأفكار لصنعها "

ونتيجة لهذه الشيئية صار المسلم في مرحلة ما بعد الموحدين في حالة اللهث الدائم عن الشيء وتكديسه " ... وأولى هذه الحقائق المرة اعتماد المسلم اليوم على الاستهلاك دون الإنتاج، والأمر من ذلك هو أن استهلاكه هذا لا يتقيد بحدود الحاجة، بل إنه يعم مجالات الحياة كلها حتى الزراعية منها، ويتجاوزها إلى أشياء غير ضرورية، والتي غالبا ما تتنافى وقيم المجتمع الثقافية والأخلاقية، تتجاوزها إلى الكماليات والموضة التي أصبحت تتخذ كمقياس يدل على تحضر صاحبه، كشراء السيارات الفخمة... " (عبد اللطيف عبادة، 2006، ص 85).

5- الفخر والمديح: يعتبر مالك بن نبي أن المجتمع يصاب بهذا العرض المرضي عندما تصبح هذه النزعة كآلية دفاعية تحركها عقدة الدونية ضد ثقافة الآخر المهيمن، كما يرى أن النخبة المثقفة في مجتمع ما بعد الموحدين قد أصيبت بهذا المرض العضال الذي أفقدها فعاليتها وأبعدها عن مواجهة المشاكل

الحقيقة، ذلك أنها ذهبت إلى التنقيب في مآثر السلف دون محاولة إصلاح ومعالجة سلبيات المجتمع الآنية وظواهره المرضية "

ويتجاوز الفخر والمديح الحدود الموضوعية خاصة في طبقة المثقفين فيقول"... حين اتجهت الثقافة إلى امتداح الماضي أصبحت ثقافة أثرية ولا يتجه العمل الفكري فيها إلى الأمام، بل ينتكس إلى الوراء وكأن هذا الاتّجاه سببا في انطباع التعليم كله بطابع دارس لا يتفق ومقتضيات الحاضر والمستقبل، وبذلك أصيبت الأفكار بظاهرة التشبث بالماضي، كأنما قد أصبحت متنفسا له (مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 60).

ويرى" بأن المغالاة في مدح الماضي، والفخر بالأمجاد هي عبارة عن عملية تسلية للفكر وتخدير للضمير تبعدهما عن الشعور بالمتاعب الحقيقة، كما تعبر في نفس الوقت عن الضعف الفكري، والإفلاس الأخلاقي ، في مجابهة الحاض" .

6- الجدلية والتبرير:يقصد بالجدال" الكلام الكثير السفسطائي الذي لا يقود لشيء ذي قيمة يحتاج إليه هذا المجتمع كي ينهض، ويقصد بالتبرير محاولة البحث المضني عن الحجج والبراهين لغرض إقحام الغير".

ويصنفها مالك بن نبي من الآليات الدفاعية التي تميز ثقافة مجتمع ما بعد الموحدين وخاصة النخبة العربية المثقفة باختلاف توجهاتها الإيديولوجية.

هذا ما سجله من مآخذ على أغلب الكتابات حيث تمثل بالنسبة له، وسائل دفاعية لا تخلو من أساليب الجدال والتّبرير".... إ ن شيوع مثل هذه الأساليب في أوساط النخبة المثقفة قد حال دون تحقيق لمشروع نهضوي ثقافي فعلي" (محمد بغدادي باي، مرجع سابق، ص 117 - 119).

7- الرومانسية: لقد عدد مالك بن نبي الرومانسية من بين السمات المرضية في ثقافة مجتمع ما بعد الموحدين والتي جعل مردها الخيال وطغيان الخرافة وألوان البديع في الأعمال الفكرية فأحدث قطيعة بين الواقع المعاش والمشاكل التي يواجهها أفراد هذا المجتمع، " وهو الأمر الذي يبطل دور الثقافة الايجابي ويفقدها فاعليتها في الفرد وبناء المجتمع " (علي القريشي، 1989، ص176).

وانتشار النزعة الرومانسية في الثقافة العربية، إنما يعود حسب بن نبي إلى عجز هذه الثقافة عن مواجهة الواقع، وعلى هذا الأساس يرى بأن الرومانسية في الثقافة هي عبارة عن وسيلة تخفي مواطن النقص والاختلال فيها، وخير ما يستشهد به بن نبي في هذا المقام لقصة ألف ليلة وليلة عبر الأجيال، الذي يعرب في نظر بن نبي، على حالة اللامبالاة السلبية في الجو الخلقي والاجتماعي لمجتمع ما بعد الموحدين. (محمد بغدادي باي، مرجع سابق، ص 115)

8- اللفظية: هذه الظاهرة المرضية هي السمة التي يراها مالك بن نبي" تطبع ثقافة مجتمع ما بعد الموحدين اليوم وتعبير اللفظية يدل على استخدام الألفاظ الأدبية الرنانة ، وعلى الثرثرة في الحديث وذلك على حساب الكلمة الدالة المعبرة التي تربط الفكرة ، التي تترجمها الألفاظ اللغوية بالواقع العملي وبالسلوك.

ومن نتائج الظاهرة اللفظية أصبحت أحكام الإنسان على الأشياء أحكاما سطحية أضعفت قدرته على التقدير الصحيح للأمور " (محمد بغدادي باي، مرجع سابق، ص 112- 115).

ويذكر مالك بن نبي أعراض هذا الداء فيمايلي:

– إجادة الكلام والهيام بالألفاظ.

- وجود فجوة بين الكلام والعمل.

- ثقافتنا استعبدتها الألفاظ فلم تعد تعبر عن اهتمام بالعمل بل عن مجرد الشهوة إلى الكلام.

- إن استبداد الألفاظ والصيغ يخلع على أي تفسير للنهضة طابعا سطحيا.

- المثل الأعلى منذ عصر الانحطاط هو أن يكون الإنسان بحر علم مع الافتقار لدوره الاجتماعي". (عبد اللطيف عبادة، مرجع سابق، ص 83، 84).

ويورد مالك بن نبي في هذا الصدد أمثلة متعددة عاينها شخصيا في مختلف المؤسسات الإعلامية والدينية والتعليمية المتواجدة بالمجتمع ، فعلى صعيد الصحافة مثلا، فانه قد لاحظ بأنها تغالي في تمجيد القادة والزعماء بما يفوق طبيعة البشر، أما على مستوى المؤسسات التعليمية، فلطالما طغى جانب الحقائق النظرية المكتسبة من الكتب على الجانب التطبيقي، وهذا حتى في المواد الطبيعية، وأما فيما يخص الدين، فانه إلى جانب بعد الفقه عن المشكلات الواقعية وانكبابه على حالات خيالية محضة كالبحث في جنس الملائكة ، أو التوضؤ.

وعليه فقد ظل الهدف الأسمى من العلم هو بلوغ بحر العلم وإجادة استعمال مثل هذه الكلمات المنمقة والجمل الرنانة، وهكذا فقد العلم دوره الاجتماعي الفاعل.

خاتمة:

لقد لاحظ مالك بن نبي أن المجتمعات الإسلامية عامة والمجتمع الجزائري خاصة يعيش أشكالا من التخلف الذي يمس الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية الفنية والدينية، وحاول أن يبحث عن الجذور الاجتماعية للفوضى التي تسود العالم الإسلامي، وسبب ذلك الابتعاد عن الفكرة الدينية وعدم توظيفها التوظيف الإيجابي في الحياة الاجتماعية، وكذا عدم وجود تخطيط مدروس للنهضة، والامراض الاجتماعية تعكس هذه الفوضى والاختلال في المجتمع.

توصيات:

- يقترح مالك بن نبي ان الحلول ينبغي أن تتكيف مع نفسية البلد الذي تطبق فيه ومع مرحلة تطوره، لأن كل علاقة فاسدة بين الأفراد تولد بينهم عقدا كفيلة بأن تحبط أعمالهم الجماعية إمّا بتصعيبها أو بإحالتها، فالعلاقة الفاسدة في عالم الأشخاص لها نتائجها السريعة في عالم الأفكار.
- يؤكد على انه ينبغي إصلاح ذات الفرد، والأنا التي بداخله، وهذا شعار رُفع عند كثير من علماء الدين، ومن المثقفين ومن أهل الفكر، وتم إستهلاك هذه الفكرة التي خرجت عن نطاق التطبيق إلى نطاق التنظيم.

- يقر مالك بن نبي على ان القضاء على جل الامراض الاجتماعية في عالمنا الاسلامي عموما يتوقف على رجال الاصلاح في كل القطاعات، وما يجب أن نعتمد عليه في ذلك هو أن يكون صاحب الدعوة إلى إصلاح الأنا للغير هو قد بدأ الإصلاح لنفسه أولاً لأن الكثير من الناس يتطّبع بالجانب السلوكي أكثر من النظري، وهذه تحتاج إلى أكبر قدرٍ من المجاهدة التطبيقية أكثر مما هي نظرية.
- السعي باستمرار للتغيير ولا يكون ذالك حسب المفكر مالك بن نبي الا بالرجوع إلى المنبع الأساسي للمسلمين المتمثل في الأصالة الإسلامية والدين الاسلامي والقرآن والسنة، فالعالم الإسلامي -في النهاية- بقي في نظره غير قادر على الاهتداء خارج حدوده، بل لا يمكنه في كل حال أن يلتمسه في العالم الغربي الذي اقتربت قيامته، ولكن عليه في ذات الوقت ألا يقطع علاقته بحضارة تمثل إحدى التجارب الإنسانية الكبرى، بل أن ينظم العلاقة معها، ويأخذ منها ما ينفعه ويعتزل ويتجنب ما لا ينفعه ويضره والتي تعد من جانبه امراض تؤثر على حياة الفرد والمجتمع.

قائمة المراجع:

- إبراهيم عاصي، الحقيقة والمآل أخر حوار مع مالك بن نبي، (د.س)، عالم الأفكار، الجزائر.
- عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن بني، (2006) عالم الأفكار، طبعة1، الجزائر.
- علي القريشي، التغير الاجتماعي عند مالك بن نبي من منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم، (1989)، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة1، القاهرة.
- عمار طالبي، "فكر مالك بن نبي والمجتمع الإسلامي المعاصر"، مجلة حولية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، العدد التاسع.
- قادة بحيري، محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي، (2005)، دار العرب للنّشر والتّوزيع، وهران.
- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية -، تر عبد الصبور شاهين، (1986)، دار الفكر، طبعة 3، سوريا.
- مالك بن نبي، شروط النّهضة، تر عمر كآمل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، (1987)، دار الفكر، طبعة 6، سوريا.
- مالك بن نبي، مجالس دمشق، (2006)، دار الفكر، طبعة 3، دمشق، سوريا.
- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تر عبد الصبور شاهين،(2005)، منشورات ANEP، الجزائر.
- مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، (2006)، دار الفكر، طبعة 7، دمشق، سوريا.
- محمد بغدادي باي، التّربية والحضارة - بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي، (2006)، عالم الأفكار.

التصرف سبيلا لتكريس الفكر الاستشراقي في ترجمة آي القول الثقيل إلى الفرنسية

Adaptation as a Manifestation of Orientalist Ideology in the French Translation of the Holy Qur'an

د. أسمـاء سليماني، جامعة امحمد بوقرة، بومرداس- الجزائر
as.slimani@univ-boumerdes.dz



شغل القرآن الكريم ألباب المفكرين منذ نزوله، وما كان منهم إلا أن اجتهدوا على اختلاف أجناسهم وحتى معتقداتهم في دراسته ونقله إلى لغاتهم، كلّ على شاكلته ولهم في ذلك سبل عديدة. والمستشرقون الفرنسيون شأنهم شأن نظرائهم في دول أخرى اختصوا آخر الكتب السماوية بالبحث والتمحيص والترجمة وفق ما تنص عليه مناهجهم الفكرية، فغدا إنتاجهم غزيرا يتقدمهم في ذلك **ريجيس بلاشير** Régis Blachère وترجمته *Le coran, al-Qor'ân* (1966)موضوع هذه الدراسة التحليلية المقارنة التي تفضي إلى أن المنهج الذيينتهجه هذا المترجميغلب عليه طابع الفكر الاستشراقي غدت إثره الترجمة موئلا لما يطلق عليه **جون رينيه لدميرال** Jean-Réné Ladmiral(2014) 'الغائية المطلقة'« ultraciblisme » التي تتجلى في كثير من المواضع وفق ضروب مائزة من التصرف، صنّفها **محمدفرغل** (2015) في سياق التصرف الإديولوجي.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، ترجمة، فكر استشراقي، غائية مطلقة، تصرف.

Abstract :

Since the revelation, the Holy Qur'an has been the focus of thinkers of all races and creeds who, in addition to its study and examination, translate it into their languages following their own way and according to various methods. French Orientalists have devoted themselves body and soul, like their peers across the world, studying and translating the last sacred book according to their ideological standards. Thus, they became prolific, and **Régis Blachère** is at the forefront with his translation entitled: *Le coran, al-Qor'ân* (1966).

In fact, this study aims to analyze and compare the French version of the Holy Quran by this translator with the original, which leads to an orientalist tendency that **Jean-Réné Ladmiral** (2014) calls: "Ultra-ciblisme", manifesting itself in a variety of instances and at several levels classified by **Mohammed Farghal** (2015) in the category of ideological adaptation.

Keywords: Holy Qur'an, translation, Orientalist Ideology, ultra-ciblisme, adaptation.



مقدمة :

أشعّ نبراس الحق وهاجا بنزول القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، حاملاً للبشرية جمعاء أملاً لا يخبو، وسيفاً لا ينبو لدحر الجهل والطغيان. فلمعت الأحداق واشرأبت الأعناق متسابقة نحو آخر الكتب السماوية. وحاول أساطين البيان على أن يأتوا كمثله فعجزوا، ثم كبعض سوره فنكصوا، ثم كآية منه فانقطعوا، برهاناً على قوله تعالى:﴿ **قُلْ لَئِنْ اِجْتَمَعَتْ الْإِنْس وَالْجِنّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآن لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضهمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [الإسراء:88].

وعكف الغرب منذ انبلاج البواكير الأولى للحركة الاستشراقية على دراسته وترجمته في أقسام معاهدهم المخصصة للعناية بالفكر الإسلامي، وكانت ولا تزال أعمالهم مجال لغط بين مؤيد ومعارض، وبين ما أنصفه الاستشراق من حقائق قرآنية وما أجحف في حقه من معجزة إلهية. ويشير السياق التاريخي أن ظهور أول ترجمة للقرآن الكريم مرتبط بالتبشير المسيحي، حيث حشدت الكنيسة مواهب فذة في سبيل ذلك مدعية أن مثل هذه الترجمات كانت ترمي إلى إقامة الحواجز الوجدانية حماية للمسيحيين من تعاليم الإسلام.وقد أقر الكثير منهم بصعوبة نقل معانيه لعجز اللغات الأخرى عن مجاراة لغة الفرقان؛ لأن البيان المعجز يتلاشى في أكثر الترجمات دقة.

ومن نافلة القول إن ترجمة النص الديني من أعسر أنواع الترجمة على الإطلاق، حيث يتصدى الذي يخوض غماره إلى عدة إشكالات، بفعل تدخل عدة عوامل في عملية الترجمة، على غرار الخلفية الفكرية والدينية للمترجم،والغرض من الترجمة والمستوى الاجتماعي والثقافي للمتلقي، فإلى أي مدى تتحكم الخلفية الفكرية في تحديد مناهج المستشرقين في ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية؟ وكيف تتجلى هذه النزعة في ترجمة ريجيس بلاشير ؟وما وقع ذلك على دلالات آي القول الثقيل وأثره في توجيه القراءة والفهم لدى المتلقي الغربي؟

في هذا الشأن، وسعيا منا إلى الإجابة عن هذه التساؤلات، ارتأينا إنجاز دراسة تحليلية مقارنة للترجمة الفرنسية للقرآن الكريم لصاحبها **ريجيس بلاشير** (1966)، كونه من أعلام الفكر الاستشراقي الفرنسي الذين شُهد له بالاحتكاك العميق بالثقافة العربية الإسلامية، فضلا عن ما حققته ترجمته من استحسان في الغرب والشرق على حد سواء، وذلك في سبيل رصد الآليات التي انتهجها في ضوء ما توصلت إليه الأبحاث الحديثة بشأن التصرف وتدخل النزعة الفكرية في الترجمة، لاسيما دراسات كل من **جون رينيه لدميرال**(2014) و**محمد فرغل** (2015)، حيث نعتمد تحليل أثر هذا النمط من التصرف على المتلقي الفرنسي، وتقييم مدى نقله لدلالات آي الذكر الحكيم، وفق خطة بحث نستهلها باستقراء تاريخ ترجمة القرآن الكريم مبرزين أوجه فرادته، فإماطة اللثام عن علاقة الفكر الاستشراقي بترجمة القرآن الكريم، لنعرج على التصرف وضروبه المتباينة كمنهج قارّ في الترجمة الغائية المطلقة، فنعرض بعد ذلك دراستنا التحليلية المقارنة لنماذج من المدونة، يعقبها تحليل النتائج، فالاستنتاج.

أولا-فرادة القول الثقيل والترجمة:

إن فرادة القرآن الكريم من فردانية الله عز وجلّ الذي يقول: ﴿**وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم**﴾[النمل:6]، فهو وحي من الله الواحد الأحد الفرد الصمد منزلا على خاتم الرسل، محمد الأمين صلى الله عليه وسلم باللغة العربية التي لطالما تغنى العرب بفضائلها. فجاء القول الثقيل بجنس ما نبغ فيه فطاحلة البلاغة بعد أن زعموا أنهم بلغوا فيه شأواً عظيماً، فبهرهم ضياؤه وملكت أزمّة خواطرهم أحكامه. ولغة القرآن أغنى اللغات بالمفردات وأقدرها على التوليد بالاشتقاق وأحلاها جرسا وأجلاها بيانا (سليماني، 2017، ص 216)، حيث أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الموجود في لغته الأصلية دون تبديل أو تحوير. ويؤكد أعلام الفكر الإسلامي أن ترجمة القرآن لا تتحقق إلا ضمن حدود معينة، حيث يشدد ابن قتيبة (1973، ص15)على استحالة هذه الترجمة بالنظر إلى خصائص لغة البيان من مجاز واستعارة وقلب وتقديم وتأخير، وغيرها من فنون الكلام في قوله:"وبكل هذه المذاهب نزل القرآن، لذلك لا يقدر أحد من المترجمين على أن ينقله إلى شيء من الألسنة". تبعا لذلك، فإن نسبية الترجمة تحول دون إنتاج نص مطابق للفرقان ويحل في مرتبة دونه.

والبون شاسع بين الفكر الغربي والإسلامي في تناول مسألة ترجمة القول الثقيل. فالمسلمون يقولون بثانوية ترجمة النص المقدس، غير أن رجال الكنيسة يؤكدون على ضرورة اعتبار ترجمة الإنجيل مقدسة، فقد أشار والس Walls في معرض حديثهإلى أن العقيدة المسيحية تؤمن بقدسية العمل المترجم (Walls, 1992 , p.24). ولعل أول من أدلى بدلوه في شأن عواقب ترجمة النصوص المقدسة وما يلحقها من نصوص دينية هو الجاحظ في كتابه الحيوان، حيث يذكر قائلا:« وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق، والعلماء به أقل، كان أشد على المترجم وأجدر أن يخطئ فيه، ولن تجد البتة مترجما يفي بواحد من هؤلاء العلماء. هذا قولنا في كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون، فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله بما يجوز عليه مما لا يجوز(...) والخطأ في الدين أضر من الخطأ في الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم» (الجاحظ، 1955، ص ص 75-79).

وفي ذات السياق يوجز الفيلسوف طه عبد الرحمان (2009)مسألة ترجمة القرآن الكريم قائلا: « إن القول الثقيل متعال، لامتناه وكوني، أما الترجمة التي يقدمها المعترض فلا يمكن إلا أن تكون قولا خفيفا، والقول الخفيف هو ما كان قائله غير متعال ومضمونه متناهيا ومتلقيه غير كوني » (ص ص 15-16).

يتجلى مما ذكر آنفا أنه لا يتأتى لمترجم النصوص الدينية الإسلامية لاسيما المقدسة منها الإتيان بما يكافئ الأصل دلالة وخطابا مهما اتسع علمه ومهما تمكن من ناصية اللغة المنقولة والمنقول إليها، إلا أن بوسع هذا الوسيط أن يقترح ترجمة تقترب من دلالات النص القرآني في سبيل التعريف به لغير الناطقين باللغة العربية. ويشهد تاريخ ترجمة القول الثقيل محاولات عديدة لنقله إلى باقي اللغات فهو يحصي أكثر من 51 ترجمة انجليزية و47 ألمانية و36 لاتينية و31 فرنسية و15 إيطالية و11 روسية إلى جانب ترجمات عبرية وأردية ومالوية وأفغانية وصينية ويابانية وبنغالية وغيرها (نجدة، 1998).

ومرت ترجمة معاني القرآن الكريم بمحطات تاريخية مختلفة، ففي العهد النبوي تمت لأول مرة ترجمة القرآن الكريم إلى لغة أجنبية، فورد في "النفحة القدسية" للشرنبلاني (د.ت)أن سلمان الفارسي نقل سورة

الفاتحة إلى اللغة الفارسية، وبادر أيضا جعفر بن أبي طالب إلى نقل آي من الذكر الحكيم نزلت في قصة مريم بنت آل عمران ونبي الله عيسى عليه السلام في بلاط ملك الحبشة. وترجم أحد علماء العراق قصار سور القرآن الكريم باللغة السندية بطلب من الراجا مهروق Mahrook Rajah أمير البنجاب والكشمير في ولاية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز سنة 270هـ/883م.وعقب العهد النبوي، يذكر أكمل الدين إحسان أوغلو (1981) أنه يرجح وجود تراجم سريانية قام بها غير المسلمين في عهد الحجاج بن يوسف في النصف الثاني من القرن الهجري الأول.أما عن الخلافات الإسلامية المتعاقبة، فبالرغم من اتساع نطاق الإسلام وازدهار حركة الترجمة أيما ازدهار إلا أنه لم يثبت أحد نقل القرآن الكريم إلى لغة أخرى،فقد أحاطت به هالة من القداسة فضلا عن توفر علوم ذات صلة كالتفسير والإعجاز القرآني والكلام وغيرها (نجدة، 1998، ص 115).

وتشير الدراسات التاريخية (نجدة، 1998، ص 130) أن أقدم ترجمة تركية للقرآن الكريم يعود تاريخها إلى عصر السلاجقة والعثمانيين أنجزها محمد بن الحاج دولة شه الشيرازي سنة 134هـ الموافق لـ1333 ميلادي، وتقبع حاليا في متحف ترك إسلام. كما يؤكد التاريخ أن معظم الترجمات التركية للقرآن الكريم كانت في مدن الأناضول بعيدا عن اسطنبول التي انتشرت فيها اللغة العربية.

ثانيا-الاستشراق الفرنسي وترجمة القرآن الكريم: قراءة تاريخية:

شغل القرآن الكريم المستشرقين من رجال الدين، فهرعوا إلى دراسته ونقله في مدارس خاصة أهمها: المدرسة الفرنسية والألمانية والإنجليزية. وكانت تتم الترجمات تحت أنظار الكنيسة التي حددت الأساليب الواجب انتهاجها بغية ذلك.

ويشير السياق التاريخي وفق ما جاء به البنداق (1980، ص ص 171-173) أن باكورة الترجمات الاستشراقية للقرآن الكريم وردت باللغة اللاتينيّة بإشراف رئيس ديركلوني Clugny، الرّاهب بطرس المبجل Pierre le vénérable بجنوب فرنسا سنة 1143معلبيدالراهب الإنجليزي روبرتدو كتون Robert de Kettonوالألماني دالماتاهرمان Herman.Dalmataوتعد هذه الترجمة اللبنة الأولى للترجمات الأوروبية، إلا أن الكنيسة منعت تداولها إلى غاية إعادة طبعها سنة 1543 في سويسرا بفضل ثيودور بيبليباندرTheodor Bibliander، ونقلت على إثر ذلك إلى عديد اللغات على غرار الإيطالية والألمانية والهولندية والفرنسية والإنجليزية والروسية.

وبرزت إلى الوجودأوّلترجمةفرنسيةسنة1647عليدأندريدورير André Du Ryerموسومة "بقرآن محمد" Alcoran de Mohamet ،وظلت تطبع خلال قرن من الزمن حتى سنة 1775، فضلا على أنها معينهل منه كثير من المترجمين طوال السنوات التالية، حيث استند إليها ألكسندر روس Ross Alexandreفي ترجمته الإنجليزية بين عامي 1648 و1649، والأمر سيان بالنسبة إلىجان هندريك غلازماكرJan Hendrik Glazemaker وترجمته الهولندية الصادرة سنة 1657. وأنجز يوهان لانغ Lange Johann بدوره ترجمة ألمانيةللقول الثقيل اعتمادا على هذه الترجمة الهولندية الصادرة سنة 1688.

وظهرت عقب ذلك أول ترجمة روسية للقرآن الكريم سنة 1716 في عهد القيصر بطرس الأكبر على يد بيير بوستنيكوف BostnikovPierre نقلاً عن الترجمة الفرنسية، التي قام بها دو ريير. وأسهم كلود إتيان سفاري SavaryClaude-Étienne بترجمته سنة1751 في إثراء الترجمات الفرنسية، حيث طبعت إحدى عشرة مرة. وظهرت ترجمات أخرى باللغة الفرنسية، منها ترجمة ألبير كازمرسكيAlbert Kasimirski التي لاتزال تُطبع منذ 1840، وترجمة إدوارد مونتيه MontetEdouard سنة 1925، تلتها ترجمة جوزيف شارل ماردروس MardrusJoseph-Charles سنة 1926.

أما ريجيسبلاشير Régis Blachèreفقد أصدر أولى ترجماته سنة1946م، وصدرت لهنري مرسييه Henry Mercierنسخة فرنسية سنة 1956. وتوالت الترجمات الفرنسية،حيث كان لدينيس ماسونDenise Masson نصيب بارز فيها بإصداره سنة 1958. وظهرتترجمةكل من جاكبيرك Jacques Berqueورينيه خوام René Khawamوأندريه شوراكيAndré Chouraquiسنة 1990.

يتجلى مما ذكر آنفا أن القرآن الكريم كان ولردح من الزمن محط اهتمام المستشرقين لاسيما الفرنسيين منهم. وأفنى نفر من هؤلاء حياتهم يترجمون أكثر من مرة وينقحون في أكثر من صورة كلما كان ذلك متاحا من أمثال مونتيه (1925، 1929، 1963) وبلاشير (1946، 1957، 1966) وماسون (1958، 1967). وإننا نعزو هذا الأمر إلى مدى اطلاع المترجمين الفرنسيين على أمهات المؤلفات الدينية الإسلامية واحتكاكهم بأهل لغة الضاد عامة والقرآن خاصة.

ثالثا-النزعة الفكرية في الترجمة:

ساد فيما مضى الاعتقاد أن الترجمة لا ترقى إلى الأصل، ولا تنفك أن تكون نسخة وتقليدا، والمترجم لا يعدو كونه مسلوب الإرادة والذاتية في أدائه مهامه. واعتبر أنصار هذا التيار على غرار كاتفورد(1965Catford)، ونايدا(Nida 1975)، ونيومارك Newmark (1982) أن في الأصل شيء من القداسة تحول دون الإتيان بمثله مهما تكبد المترجم في ذلك من عناء وجهد. وورد عن نيومارك (1982، ص 389) أن على المترجم نقل النص الأصل مع تحري كامل الموضوعية، كابتا مشاعره ومتعاملا مع نص يتفق معه اتفاقا تاما، تماما كما يتعامل مع نص يختلف معه اختلافا تاما.

انحسر هذا التفكير ليتم تجاوزه بفضل ما جاءت به الأبحاث الترجمية الحديثة بريادةكل من لوفيفر Lefevere (1992)،وفينوتي Venuti (1995)، وشيفنر Schäffner (1998) التي خلصت إلى أن عمل المترجم لايخلو من اللمسة الإبداعية. ويعتقد شيفنر (1998، ص 283) أن المترجم بمثابة مؤلف تحرر من القيود التي يفرضها المنظور الضيق لمفهوم الأمانة للنص الأصل. أما باسنت Bassnett (1996، ص 22)فترى أن الترجمة كانت في الماضي تخدم النص الأصل وهي انعكاسها لشفاف، إلا أنها اليوم عملية يعد التدخل فيها أمرا لا مناص منه.

ويتجلى تبعا لذلك أن النص المترجم هو نتيجة تفاعل عدة عوامل أهمها الخلفية الفكرية للمترجم التي تصطبغ بها الترجمة بنسب تتفاوت وطبيعة النص والغرض منه والمتلقي والقائم على ترجمته من هيئات ومؤسسات. ويستبعد لوفيفر (1992) في ذات السياق، فكرة أن تكون الترجمة خالصة بمنأى عن ذاتية

المترجم بما أن له معايير فكرية ودينية خاصة في عمله تحول دون ذلك، مما يؤكد أنه بوسعه تعديل قوالب النص الأصل وحتى سياسته وثقافته، بل من شأنه أن يوجه دلالات الأصل كيفما يحلو له وفق مشيئة عدة أطراف كالناشر والمتلقي. وقد تبرز الخلفية الفكرية عن وعي من المترجم أو دون ذلك؛فإن كان التدخل عفويا غير مقصود، فنعوز ذلك إلى مشاكل في الفهم والاستيعاب، أو الاستدلال المغلوط، أما إن كان مقصودا فهو نابع من فكر معين أو نهج خاص أو عقيدة قد تهوي بالمترجم إلى هوة الخيانة العلمية والمهنية مما يخل بالمبادئ الأخلاقية لعملية الترجمة. فينسج كما وضحت بيكر (Baker, 2006) المترجم عالما فكريا مغايرا عن فضاء النص الأصل على درجة من التفاوت، وتغدو ذاتيته استراتيجية لتحقيق مآرب معينة.

ويشير فاوست Fawcet(1998، ص107) في هذا الصدد إلى أنه إذا ما سلمنا بأن النزعة الفكرية هي مجموع المعتقدات التي تؤدي إلى فعل معين، وأنها سياسية حتى لو بدت شعرية أو دينية، حينئذ نتأكد أنه خلال العصور الخالية قام أفراد ومؤسسات بتطبيق معتقداتهم الشخصية على إحداث تأثيرات معينة من خلال الترجمة.

وتطرح مسألة إقحام النزعة الفكرية في الترجمة دور المتلقي في توجيه الترجمة، حيث يعلق هاوسن Hewson في هذا الشأن قائلا: « Le traducteur travaille nécessairement avec une image, consciente ou inconsciente, de son lecteur à lui : il traduit à l'intention de ce lecteur, il se met à sa place, il crée et recrée ce lecteur au fil de son travail » (1995, p. 55).

" من الضروري أن يعمل المترجم وفي ذهنه صورة لقارئه، عن وعي منه أو دون ذلك: فيترجم لهذا القارئ، ويتقمص دوره، ويظل يتصوره طول عمله." (ترجمتنا)

وتتحكم بالتالي، صورة المتلقي في اختيارات المترجم على مستوى بنى النص الكبرى macrostructure والصغرى microstructure. فيعمل المترجم على تأويل الفحوى التداولي والدلالي للنص الأصل وعلى تقييم ترجمته من وجهة نظر المتلقي، من حيث التفاوت الثقافي بين متلقي النص الأصل ومتلقي الترجمة، وجرد الصعوبات المترتبة عن ذلك مع تبني حلول تتماشى والقدرات الإدراكية وتطلعات المتلقي المفترض لهذه الترجمة، والتي تصب كلها في باب التصرف. ومن أجل ذلك كله يتسنى للمترجم من خلال معاينة عناصر النص الأصل الاحتفاظ بما يراه ضروريا وتغيير ما يجب تغييره، أو حذف ما دون ذلك، دونما إخلال بالترجمة.

وللمنظر الفرنسي لدميرال Ladmiral (2014) رأي في هذه القضية مفاده أن المترجم إما ينحاز في عمله إلى النص الأصل بكل ما يميزه من خصائص لغوية وثقافية وفكرية أو إلى النص المترجم ولغته ومتلقيه، ليتوصل إلى المصطلحين المتناقضين: أهل المصدر Sourciers وأهل الغاية Ciblistes. كما ويفند احتمال أن يتوسط المترجم بأي شكل من الأشكال هذين الاتجاهين في الترجمة، بمعنى إما أن يتخذ منحى أهل المصدر أو أهل الغاية. ويحرص هذا المنظّر على تحذير المترجم من نمطين درج عليهما سابقوه من المترجمين فيما مضى، يعتبرهما من التشدد في الترجمة ويمثلان أقصى مدى قد يصل إليه أهل المصدر وأهل الغاية،

أطلق عليهما: المصدرية المطلقة Ultra-sourcière والغائية المطلقة Ultra-cibliste التي تبتعد كل البعد عن الأصل، بعدا لا رجعة فيه. وفي هذا الباب، يقرّ لدميرال بحتمية اللجوء في الترجمة إلى التصرف، الذي يعد منهجا قارّا لدى أصحاب الترجمة الغائية المطلقة.

والتصرف في الترجمة وجهان داخلي في شكل تطويع النص بهدف إنتاج ترجمة سلسة تحافظ على دلالات النص الأصل، وخارجي من خلال تدخل المترجم أو الجهة التي أوكلت إليه الترجمة سعيا لتحقيق مآرب تتوافق ونزعاتهم التي لا يعكسها النص الأصل، مما قد يؤدي إلى تحريف فكري كلي وشامل لمحتواه (فرغل،2015، ص 146).

ويتجلى التصرف في الترجمة في صورة تغييرات تلحق بالنص الأصل على مستوياته المختلفة؛ موضعيا من خلال مستويات لغوية متباينة كالمعجمي والتركيبي وكليا على المستوى الخطابي والثقافي، لا ليناسب لغة وثقافة المتلقي، بل لحاجة في نفس يعقوب. وإنه لمن العسير إماطة اللثام عن تجليات هذا التصرف في الترجمة لارتباطه بالخلفية الفكرية والعقائدية للمترجم بعيدا عن ما تقتضيه قواعد اللغة المنقول إليها. وعليه، نلفت الانتباه في هذا المقام إلى البعد الأخلاقي للترجمة، حيث لا يجوز للمترجم التدخل في معنى النص الأصل دونما اقتضاء، إلا أنه بوسعه التصرف فيه إجابة لما تطلبه الرقابة الذاتية أو الاجتماعية، فيحذف ويستبدل كلمات وعبارات لا يستسيغها المتلقي أو المترجم نفسه، لكن يجب أن يشير في الهامش إلى ما قام به من تغييرات. ونوجز ما فصلناه آنفا في الجدول التالي بيانه:

جدول (1): مستويات التصرف الفكري

التصرف في بنى النص الصغرى		التصرف في بنى النص الكبرى	
المستوى المعجمي	المستوىالتركيبي	المستوىالخطابي	المستوىالثقافي
إضافة أو حذف أو تغيير لفظة بغيرها،دلالتها مغايرة للأصل.	تغيير تركيب الجمل والفقرات كالتقديم والتأخير، والحذف والحشو.	تحوير المعلومات والأخبار التي يكتنفها الأصل.	تطويع ثقافة اللغة المنقولة بأن ينسب إليها ما لا يمت لها بصلة.

رابعا-دراسة تحليلية مقارنة لنماذج من ترجمة بلاشير الفرنسية لآي القول الثقيل:

يمثل هذا الجزء الشّق العملي من بحثنا، والذي نعرض فيه دراستنا التحليلية لنماذج مستقاة من مدونة البحث التي تتمثل في ترجمة بلاشير الفرنسية (1966)، حيث نصنفها في جداول وفق مستويات التصرف الفكري الأربع بغية مقارنتها مع آي القول الثقيل. فنعرض أولا تفسير الآي قبل إبراز الأساليب الموظفة على سبيل التصرف في ترجمتها، ليتسنى لنا في نهاية المطاف بعد تمحيص وتدقيق تبيان مدى حفاظ المترجم على دلالات الأصل وأثر ذلك على المتلقي.

1. **التصرف المعجمي**

الآيـة	الترجمـة

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7]	7. Si tu exprimes hautement ta parole...car il sait le secret même bien caché. (p. 337)

ورد في تفسير الطبري لهذه الآية أن الله عز وجل يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام قائلا: "وإن تجهر يا محمد بالقول، أو تخف به، فالأمر سواء عند الله. وعن ابن عباس، قوله (يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) قال: السرّ: ما أسرّ ابن آدم في نفسه، وأخفى: قال: ما أخفى ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعمله، فالله يعلم ذلك، فعلمه فيما مضى من ذلك، وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة، وهو قوله: مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ" (2000، ج18، ص ص 271-272).

نلاحظ أن المترجم قد فهم ﴿وأخفى﴾ بمعنى الشيء المخفي، وتوصل بالتالي إلى ترجمة مفادها:" أن الله يعلم السرّ مهما يخف" :(même bien caché).فجانب المترجم الصواب بالرغم من أن دلالة الآية ظاهرة يزيدها اللجوء إلى التفسير جلاء بأن الله سبحانه وتعالى يعلم كل ما استتره ابن آدم وأخفاه.

ولنا أن نؤكد بناء عليه، أن بلاشير قد تصرف في معنى لفظة (أخفى) التي وردت في هذا السياق القرآني على صيغة أفعل، كونها اسم تفضيل من خفي يخفى.

ومن الجدير بالذكر من ناحية أخرى، أن المترجم قد أغفل أن الآية وردت في صيغة جملة شرط، قد يبدو للوهلة الأولى أنه تفطن إليها بتوظيفه أداة الشرط (si) غير أنه نقل الشطر الأول الذي يعتبر جملة الشرط فقط، لتليه نقاط (...)، ليوحي أن الآية مبتورة أو ناقصة. والواقع غير ذلك،فالأصل ورد كاملا تام البناء والمعنى،ولكن أبى المترجم إلا أن يواصل تصرفه في الآية مستبدلا جواب الشرط في الأصل بجملة سببية استهلها بالأداة (car) مفسرا أو معللا دلالة ما،لتظل الترجمة الفرنسية مبهمة!

2. التصرف التركيبي

الآية	الترجمة
﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80)وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81)﴾آل عمران.	80. [Allah] ne saurait vous ordonner de prendre les Anges et les Prophètes comme « Seigneurs ». Allah vous ordonnerait-Il l'infidélité après que vous êtes [devenus] soumis (muslim), 81. et [après] qu'Il a fait alliance avec les Prophètes ? Ensuite est venu à vous un Apôtre marquant la véracité des messages que vous détenez, [ô fils d'Israël !]. Croyez en lui et secourez-le ! [Cet apôtre] a dit : « Avez-vous reconnu ce que je vous ai apporté d'Ecriture et de Sagesse ? Je prends cela à ma charge. » Ils ont répondu : « Nous avons reconnu [cela]. »_ « Soyez témoins ! », a déclaré [cet

	apôtre]. « Moi aussi je suis avec vous, parmi les témoins ! ». (p. 86)

نسرد أولا تفسير الآيتين كما جاء عن الطبري (2000، ج6، ص ص 547-561) كالتالي: القول في تأويل الآية (80) هو أن ما كان لبشر أن يؤتيه الله النبوة، ثم يأمر الناس أن يكونوا عبادًا له أو أنْ يأمرهم أن يعبدوا الملائكة من دون الله، لأن سبب نزول هذه الآية هو ما قاله القوم لرسول الله صلى الله عليه وسلم " : أتريد أن نعبدك" ؟ فأخبرهم الله جل ثناؤه أنه ليس لنبيّه صلى الله عليه وسلم أن يدعو الناسَ إلى عبادة نفسه، ولا إلى اتخاذ الملائكة والنبيين آلهة.

أما تفسير الآية (81) فجاء بيانه كالآتي: يعني جل ثناؤه: واذكروا، يا أهل الكتاب حين أخذ الله ميثاق النبيين وما وثقوا به على أنفسهم طاعةَ الله فيما أمرهم ونهاهم، أن يصدق بعضهم بعضًا، وأن يبلغوا كتابَ الله ورسالتَه إلى عباده، فبلَّغت الأنبياء كتابَ الله ورسالاته إلى قومهم، وأخذوا مواثيقَ أهل الكتاب - في كتابهم، فيما بلَّغتهم رسلهم -: أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويصدّقوه وينصروه.

والقول في تأويل قوله جل ثناؤه: "قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا "، فقال تعالى ذكره مخاطبا إياهم: أأقررتم بالميثاق الذي واثقتموني عليه، من أنكم مهما أتاكم رسولٌ من عندي مصدق لما معكم لتؤمنن به وقبلتم في ذلك منّي ورضيتموه. ويرد النبيون الذين أخذ الله ميثاقهم بما ذكر في هذه الآية، أقرَرْنا بما ألزمتنا من الإيمان برسلك الذين ترسلهم مصدّقين لما معنا من كتبك، وبنصرتهم، فيشهد الله عز وجل النبيين في أنفسهم والله تعالى من الشاهدين عليهم بذلك.

يتجلى لنا بعد تفحص وإمعان أن بلاشير قد جزّء الآيات ليغير موضعها. فنجده اقتطع ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ من الآية (81) ليتم بها الاستفهام الوارد في الآية (80) ويختمه بعلامة استفهام دالة على ذلك (؟). فيفهم القارئ الدلالة التالية: أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ؟، وهذا لا صلة له لا بالتركيب النحوي للآية ولا بتفسيرها.

ونتلمس تصرفا آخر حين اقتطع المترجم قوله عز وجل:﴿لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ من الآية (81) أيضا، عقب الاستفهام الوارد في قوله: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ ﴾. وبناء عليه، يصبح المعنى الذي تحمله الترجمة: أَأَقْرَرْتُمْ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ؟ والأمر أنه من الناحية التركيبية لم يرد عن العرب قول: أقر فلان لكذا قط.

فضلا عن ذلك، نلفت الانتباه إلى أن ماورد بين معقوفتين إضافة من المترجم توضيحا منه للضمائر التي التبس عليه الأمر على من تعود، الله عز وجل أم رسوله الكريم. فزاد الترجمة غموضا وأحفها بالأخطاء مع تصرف في انتقاء الألفاظ على غرار (apôtre) مقابل لفظة رسول والتي تدل على التبشير المسيحي.

3.التصرف الخطابي

الآيـة	الترجمة
﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاّتَ والعزى(19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (20)﴾النجم.	19. Avez-vous considéré al-Lât et al-Ozzâ. 20. etManât,cette troisième autre? 20-Bis.Ce sont les Sublimes Déesses 20-ter. et leurintercession est certes souhaitée. (p. 561)

الترجمة الفرنسية للآيتين (19) و(20) من سورة النّجم مثال شاهد على التصرف في الخطاب القرآني والتي نجد تفسيرهما عند الطبري (2000،ج22، ص ص 523-525) على النحو التالي: أن الله عز وجل يخاطب أهل الكفر داعيا إياهم بأن يمعنوا النظر في الأصنام التي يعكفون على عبادتها، ومنها اللات، وهي من الله ألحقت فيه التاء فأنثت.والعزى شجرة في وادي نخلة بين الطائف ومكة يعبدها قريش وبنو كنانة. أما مناةُ فكانت بقُدَيد يتضرع إليها خزاعة والأوس والخزرج.

أقحم بلاشير في سورة النجم عبارتين ألقى بهما الشيطان على مسامع الرسول عليه الصلاة والسلام حين كان يصلي بهاته السورة وفق بعض القصص والروايات (عوض، 1997) وهما: "إنهن الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى"، على أنهما الآية 20 مكررة مرتين. ويتجلى بذلك أن بلاشير بالرغم من أنه قد صرح في مقدمة ترجمته بالقول أنه قد اطلع على تفاسير القرآن الكريم واعتمد عليها في ترجمته وأضافها في قائمة المراجع في آخر كتابه، إلا أنه قد نسب للذكر الحكيم ما لا يمت له بصلة. فضمّت ترجمته الفرنسية بين دفتيها كثيرا من المزالق ما تؤدي إلى مغالطة القارىء الفرنسي.

4. التصرف الثقافي:

الآيـة	الترجمة

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 37]	37. Le mois intercalaire n'est qu'un surcroît dans l'infidélité par quoi sont égarés ceux qui sont infidèles. Ceux-ci le déclarent non sacré une année et le déclarent sacré une autre, afin d'être en accord avec le nombre de mois qu'Allah a déclarés sacrés, en sorte qu'ils déclarent non sacré ce qu'Allah a déclaré sacré ! Allah pour eux, a paré la méchanceté de leurs actions [de fausses apparences]. Allah ne dirige pas le peuple des Infidèles. (p. 218) **Note 37. *Nasi'* « mois intercalaire ». De même que le calendrier hébraïque le mois intercalaire est destiné à rectifier le calendrier lunaire, afin de faire retomber la pâque au printemps ...**

ورد في تأويل الآية المذكورة أعلاه في كتاب الطبري (2000، ج14، ص ص 243-250) أن الله تعالى يؤكد أن النّسيء زيادة في الكفر. والنسيء هو المحرَّم، كان يحرَّم عامًا، وصفرُ عامًا، وزيد صفرٌ آخر في الأشهر الحُرُم، وهذا ما دأبت عليه هوازن وغطفان وبنو سُلَيْم فحرموا صفرا مرة، وأحلوه مرة، فحرم الله ذلك وأضل به المشركين الذين سعوا ليوافقوا بتحليلهم ما حلَّلوا من الشهور، وتحريمهم ما حرموا منها، فاستحسنوا بذلك سيء أعمالهم، والله لا يوفق لمحاسن الأفعال، القوم الكفرة، بل يخذلهم ويخزيهم.

تختلف الترجمة الفرنسية عن الأصل، بل تبتعد عن معناه لاسيما في شأن إيجاد مكافئ أو على الأقل مقابل للفظة " النَّسِيءُ" التي تدل بوضوح كما جاءت في التفاسير على أنها حرمة الشهر إلى شهر آخر. وبالرغم من أن المترجم ذيل ترجمةهذه اللفظة : "le mois intercalaire" بحاشية قارن فيها مفهوم النسيء بما جرت عليه العادة والتقليد لدى اليهود الذين يضيفون أياما في آخر السنة ليحل عيد الفصح في الربيع، إلا أنها لم تنم إلا عن عدم استيعاب السياق القرآني للآية. ومن المهم التنويه في هذا الصدد إلى أن التفاسير لم تأت بشيء مما ذكره بلاشير في ترجمته أو حاشيته المقارنة.

خامسا-عرض النتائج والمناقشة:

نستشف من هذه الدراسة المقارنة أن التصرف هو منهج بلاشير في ترجمة آي القول الثقيل إلى اللغة الفرنسية. ولنا أن نقول بناء على ما حللناه في الدراسة العملية، أن هذا المترجم قد بلغ في التصرف حدّا تجاوز معه البنى اللغوية ليصل إلى المستوى الإخباري الخطابي للقرآن الكريم دون مسوغ يدعوه إلى ذلكم الفعل لا في الأصل ولا في اللغة المنقول إليها.

ولجأ المترجم من باب التصرف إلى توظيف أساليب خاصة بالرسم كالقوسين () والمعقوفتين[ ] والكتابة المائلة للفت انتباه القارئ. ونجده أيضا قد استخدم أساليب لغوية من أجل تقوية المعنى ورفع اللبس عنه عبر اقتراح أكثر من لفظة وأسلوب، والاسترسال في الشرح مما أدى به إلى الإسهاب والإطناب. ودعّم كل ما سبق بأدوات غير لغوية (métalinguistique)على غرار التناص في النموذج الثالث أو العبارة الشارحة (glose) أو تذييل الترجمة بحواشي (note de bas de page) في النموذج الرابع لا تزيد المتلقي إلا استفهاما واستغرابا.

خاتمة:

تتحكم الخلفية الفكرية في توجيه الترجمة الاستشراقية للقرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية لتنحو منحى الغائية المطلقة من خلال إطلاق العنان للتصرف غير المشروط بسبب استغلاق الفهم والإدراك، مما ينجم عنه تكبد القارئ الإبهام والغموض في النسخة الفرنسية التي يطال فيها التفسير والتأويل الذكر الحكيم بنية ونصا وخطابا بعيدا عن ما ورد في أمهات كتب التفسير عبر توظيف أدوات لغوية وغير لغوية، من شأنها أن تلحق التحوير والتغيير والقلب والحشو والإبدال والبتر بالآيات القرآنية التي تتهاوى بنيتها فتضيع دلالاتها، لينأى المترجم بالمتلقي الفرنسي عن الأصل.

وموجز القول إن هذا البحث غيض من فيض نتوخى من خلاله التوصل إلى إجابة شافية لإشكالية ترجمة القرآن الكريم التي لا يزال البحث النظري في حقل الترجمة يتلمس فيها النوربغية التوصل إلى مناهج ناجعة ملمة بسماته المائزة. ولعل الدراسات العملية على الترجمة الاستشراقية للقرآن الكريم على ما تنطوي عليه من مزالق، فيها قبس يهتدي به سالك هذا النهج من أجل تلكم الغاية.

قائمة المصادروالمراجع :

1-باللغة العربية:

- **القرآن الكريم**، رواية حفص عن عاصم.
- ابن قتيبة، عبد الله بن م. (1973). **تأويل مشكل القرآن.** القاهرة : دار التراث.
- أوغلو،أ.الدينإ. (1981).ترجمة القرآن الكريم. في: **ملتقى القرآن الكريم: محاضرات مناقشات ملتقى الفكرالإسلامي الخامس عشر**، الجزائر: وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي، 1401هـ، ص ص 203-219.
- البنداق، م.ص. (1980). **المستشرقون وترجمة القرآن الكريم.** الطبعة الأولى، بيروت: دار الآفاق الجديدة.
- الجاحظ، أبو ع. ب. (1955). **الحيوان**. تحقيق محمد عبد السلام هارون، الجزء الأول، بيروت: دار الجيل.
- سليماني، أ.(2017). المطبات الثقافية على درب ترجمة الألفاظ الإسلامية: الترجمة الفرنسية لمعاني القرآن الكريم نموذجا. **جسور المعرفة: للتعليمية والدراسات اللغوية والأدبية،** المجلد 3، العدد 12، مخبر تعليمية اللغات وتحليل الخطاب ، ص ص 215-222.

- الشرنبلاوي، ح. (د.ت.).**النفحة القدسية في أحكام القرآن وكتابته بالفارسية وما يتعلق بها من باقي الأحكام.** الطبعة الأولى، مصر: مطبعة الرحمانية.
- الطبري، أبو ج. (2000). **جامع البيان في تأويل القرآن.** ج 14، الطبعة: الأولى، لبنان: مؤسسة الرسالة.
- الطبري، أبو ج. (2000). **جامع البيان في تأويل القرآن.** ج 18، الطبعة: الأولى، لبنان: مؤسسة الرسالة.
- الطبري، أبو ج. (2000). **جامع البيان في تأويل القرآن.** ج 22، الطبعة: الأولى، لبنان: مؤسسة الرسالة.
- الطبري، أبو ج. (2000). **جامع البيان في تأويل القرآن.** ج 6، الطبعة: الأولى، لبنان: مؤسسة الرسالة.
- عبد الرحمان، ط. (2009).**القول الثقيل والترجمة التأصيلية : آفاق وحدود.** الطبعة الأولى، مراكش: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- عوض، إ. (1997).**مصدر القرآن: دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي**. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
- فرغل، م. (2015). التصرف الأديولوجيفي الترجمة: مصطحا ومفهوما. **نقد وتنوير**، 3، مركز نقد وتنوير للدراسات الإنسانية، ص ص 143-169.
- نجدة، ر. (1998).**ترجمة القرآن الكريم و آثارها في معانيه**. دمشق: دار المحبة.

2- الأجنبية:

- Baker, M. (2006). *Translation and Conflict: A Narrative Account*. London and New York: Routledge.
- Bassnett, S. (1996). The Meek or the Mighty: Reappraising the Role of the Translator. In R. Alvarez and M. Vidal (eds.), *Translation, Power, Subversion*. Philadelphia: Multilingual Matters, pp. 10-24.
- Blachère, R. (1966). *Le Coran, (al-Qor'ân).* Paris : Ed. G.-P. Maisonneuve & Larose.
- Catford, J. c. (1965). *Linguistic Theory of Translation*. U.K.: Oxford University Press.
- Fawcett, P. (1998). *Ideology and transaltion. In M. Baker (Ed.) Routledge Encyclopedia of translation studies*, London: Routledge, pp. 106-111.
- Hewson, L. (1995). Images du lecteur. *Palimpsestes*, n°9, pp. 151-164.
- Ladmiral, J.-R. (2014). *Sourcier ou cibliste*. Paris : Les Belles Lettres, coll. Traductologiques.

- Lefevere, A. (1992). *Translation, Rewriting and the manipulation of Literary Fame*. London and New York: Routledge.
- Newmark, P. (1982). The Translation of Authoritative Statements: a discussion. *Meta* 27(4), Montréal: Les Presses de l'université de Montréal, pp. 375-391.
- Nida, E. (1975). *Language structure and translation*. California: Stanford University Press.
- Schäffner, C. (1998). *Skopos Theory. In M. Baker (ed.), Routledge Encyclopedia of Translation Studies*. London: Routledge, pp. 235-238.
- Venuti, L. (1995). *The translator's Invisibility: A history of Translation*. London and New York: Routledge.
- Walls, A. F. (1992). *The Translation Principle in Christian History.* London: Philip C. Stine edition.

الأدب العربي بعيون استشراقية

Arabic Literature Through Orientalist Eyes

د. ماجدة بن عميرة، جامعة الطارف - الجزائر

benmagda999@gmail.com



شكل الأدب العربي وعلى مر عصوره محور اهتمام الدراسات الاستشراقية نظر الأهمية هذا الأدب الذي يعكس صورة المجتمع العربي وثقافته من جهة،وثراء هو تميزه من جهة أخرى، فكان مؤثرا ومتأثرا، على الرغم من ادعاءات بعض المستشرقين ومحاولاتهم الانتقاص منه . ومع ذلك، أسهمت العديد من جهودهم فيكشف النقاب عن هذا الأدب وتحقيق نصوصه (شعرا ونثرا) وبفعل أدواتهم الإجرائية ومناهجهم العلمية، فكان الشعر الجاهلي أكثر الأنواع الأدبية تعرضا للدراسة والتشكيك من جهة، والإعجاب والتقدير من جهة أخرى.

لقد سعت هذه المداخلة إلى الوقوف عند أهم الطروحات الأساسية التي تناولتها الحركة الاستشراقية والمتعلقة بالتأريخ للأدب العربي قديمه وحديثه، شعره ونثره، ومعالجة كل قضاياه على تعددها وتنوعها.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، المستشرقون، تأريخ الأدب، الشعر الجاهلي، الأدب العربي.

Abstract:

Arabic literature has formed the core of Orientalist studies' attention due to the importance of this literature throughout its eras, which reflects the image of Arab society and its culture on the one hand, and its richness and distinction on the other hand. Arabic literature was influential and influenced, despite the claims of some orientalists and their attempts to detract it. However, many of their efforts contributed to the unveiling of this literature and the realization of its texts (poetry and prose) and by virtue of their procedural tools and scientific methods. Pre-Islamic poetry was the most studied literary genre and contested on the one hand, and admired and appreciated on the other.

This intervention sought to stand at the most important basic propositions addressed by the orientalist movement related to the history of Arabic literature, ancient and modern, its poetry and prose, and to address all its issues despite their plurality and diversity.

Keywords: Orientalism, Orientalists, Literature history, Pre-Islamic literature, Arabic literature.



مقدمة:

تعالج هذه المداخلة المعنونة بـ"الأدب العربي بعيون استشراقية" قضية مهمة تتعلق بدراسة الأدب العربي عبر فتراته الزمنية المتعاقبة، التي تناولتها الحركة الاستشراقية منذ ظهورها إلى اليوم، ذلك لأن هذا الأدب بمفهومه الخاص يعكس مختلف مظاهر الحياة ويصورّها تصويرا دقيقا تجلى بقوة في إبداعات أدباءنا، وهذا ما لمسه المستشرقون في دراستهم له، باعتباره وسيطا ثقافيا، ساعدهم على اكتشاف جوانب كثيرة عن الشرق، وتحديد أطر دقيقة لاستجلاء صورة المجتمعات الشرقية.

وانطلاقا من هنا، يمكننا طرح إشكالات مهمة حول ماهية الاستشراق: ما هو الاستشراق ودوافعه، وما هي أراء المستشرقين في أدبنا العربي قديمه وحديثه، شعره ونثره؟

إن الهدف الأساس من محاولة الإجابة عن هذه الطروحات هو الوقوف عند جهود المستشرقين الذين استطاعوا دراسة الأدب العربي بمناهجهم الحديثة و إعادة بعث روح البحث و الاكتشاف في أهله، واهتمامهم به، لأن الأدب مرآة عاكسة لثقافة أصحابه و هويتهم.

إن هذه المداخلة ستقف عند العناصر الأساسية التالية:

- نشأة الحركة الاستشراقية وتطورها، والأدب العربي في الدراسات الاستشراقية خاصة في مجالي الشعر والنثر، و سنبدؤها ب.

أولا- مفهوم الحركة الاستشر اقية ودو افعها:

لقد أُطلقت كلمة مستشرق لأول مرة سنة 1630م على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية، ليتطور المعنى الدلالي للفظة بعد ذلك إلى الشخص الذي عرف لغات الشرق، وهذا ما أشار إليه قاموس أوكسفورد الجديد، إذ «... ظهرت كلمة « Orientalist » (مستشرق) في إنجلترا حوالي 1779 وكلمة « Orientaliste » في فرنسا عام 1799، وأدرجت كلمة « Orientalisme » (الاستشراق) في قاموس الأكاديمية الفرنسية .dic. (De l'Académie Française عام 1838» (شاخت وآخرون، 1988، ص64) للدلالة على الشغف والافتتان بأمور الشرق اللذين انتشرا أثناء الفترة الرومانسية، مما أسهم في بلورة تصورات الغرب عن الشرق عامة والعالم الإسلامي خاصة، مجسدة خلفية الصراع الحضاري بين القطبين.

فالاستشراق كخطوة أولى هو محاولة لمعرفة الآخر، وهذا الآخر يبحث هو الآخر عن نقيضه وخصمه، ففي هذا التناقض القطبي يكمن التكامل، فالشرق غنيّ بالحضارات والديانات والثقافات المتنوعة، وهذا ما أشار إليه إدوارد سعيد في مؤلفاته، وخاصة مؤلفه الشهير "الاستشراق" الذي حاول من خلاله تبيين العلاقة بين الشرق والغرب، على اعتبار أن الحركة الاستشراقية هي حركة علمية غربية لها مقابل في عالم السياسة تنزع من خلالها إلى السيطرة على الشرق والاستحواذ عليه فالغرب «الذي مكّن الثقافة الأوربية من تدبر أمور الشرق بل ابتداعه في مجال السياسة، وعلم الاجتماع، وفي المجالات العسكرية والأيديولوجية والعلمية والحياتية في الفترة التالية لعصر التنوير» (سعيد، 2006، ص49) ، شكلّت

خطابا غير بريء في هذه العلاقة، لاسيّما وأن الخطاب الاستشراقي القائم بين القطبين في دراسة الأفكار والعادات وثقافات الآخر (الشرقي) مبنية في الأساس على الهيمنة.

ومن هنا، فالخطاب الاستشراقي الإدواردي جاء بعد قراءة للواقع الأوربي الذي أنتجته الحداثة وما بعد الحداثة، في تمثيل الشرق في تصوراته ونظرته إليه نظرة ليست حقيقية، بل تحمل في طياتها تصورا مشوها بعيدا عن الحقيقة. من هذه النقطة بالذات، تطفو دوافع الاستشراق إلى السطح. ويتداخل الدافع الديني المتمثل في الإسلام الذي وحّد المسلمين ودفعهم إلى الرقي محور الدراسات الاستشراقية التي أدلته عناية كبيرة ولما شكله من خطر يهدد وجود حضارتهم، مع الدافع السياسي الذي شكلت فيه هذه الحركة جهاز استخباراتي يسعى إلى تحقيق أهداف استراتيجية وأطماع اقتصادية، بتزويد الدول الغربية بكل المخططات الجغرافية والسكانية والثقافية والعرقية وكل مكامن القوة والضعف فيها.

أما الدافع العلمي، فأسباب تطور الشرق بكل تشكيلاته الجغرافية وتعددها الفكري واللغوي والحضاري، أثار جملة من التساؤلات لدى الغرب، فنشأت علاقة أخذ وعطاء بين القطبين انتهت بتكوين مدينة غربية حديثة على أنقاض حضارات الشرق.

ثانيا-نشأة حركة الاستشراق وتطورها:

إن تاريخ الحركة الاستشراقية هو تاريخ الذات الغربية وأفكارها وأفعالها واهتماماتها، وهو موجود بجميع الأشكال إما بصورة صريحة أو ضمنية. فتاريخ الغرب بدأ بجمع تراث اليونان وروما القديمة. ولهذا ينبغي أن يبدأ الاستشراق من نقص معرفة اليونان والرومان بالشرق، أي من الاستشراق القديم.

فكانت العلاقات بين الشرق والغرب تعود إلى أيام نهوض الإمبراطورية الفارسية ودخولها في صراعات مع اليونان، وانتصارها في البداية لتعود الغلبة بعد ذلك إلى اليونان بزعامة حاكم شاب هو الإسكندر المقدوني في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، ليكتسح الفرس وكل دول الشرق حتى حدود بلاد الصين، لتبدأ العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب تمارس التأثير والتأثر بينهما، ولتواصل روما بعدها عجلة اكتشاف الشرق والسيطرة عليه.

في المرحلة الأخيرة من التلاقي وبداية الاستشراق الحديث الذي يمكن تحديده بالقرن 16م و17م، ازدادت وتيرة الغرب في الاهتمام الدقيق بكل ما يتعلق بقضايا الثقافة العربية الإسلامية، وأخذ بإنشاء مراكز وكراسي بجامعاته للاهتمام بالمصادر العربية والتحقيق عن كنوزها وبسط نفوذه عليها «وينقلونها إلى بلادهم ومكتباتهم، وإذا بأعداد هائلة من نوادر المخطوطات العربية تنتقل إلى مكتبات أوربا وقد بلغت في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلدا، ومازال هذا العدد يتزايد حتى اليوم» (السباعي، د. ت.، ص19) بفعل الاستعمار الحديث.

وما يمكن ملاحظته ، أن الجزء الأكبر من المستشرقين قد خدم الثقافة العربية إيجابا، وشَجَّع على سبيل البحث والنقد والتعريف بتراثنا الزاخر لديهم، وأن يكوّنوا صورة عنّا، على الرغم من العداء الذي يُكنِّه البعض لهذه الثقافة، كما لا يمكننا أن ننكر أن هذه الجهود قد بعثت الحماسة فينا وأيقظت في نفوسنا الاهتمام بثقافاتهم أكثر .

ثالثا-تطور الفكر الاستشراقي (المؤسسة الاستشراقية):

لعل الكلمة التي قالها فيكتور هيجو في كتابه "الشرقيات" دليل واضح على فكرة الاستشراق وأهميته لدى الغرب إذ يقول: «نهتم اليوم كثيرا بالشرق بصفة لم نعرفها من قبل أبدا، إن الدراسات الشرقية لم تتقدم إلى الأمام أبدا بالصورة التي تقدمت بمثلها اليوم. كنا في عصر لويس الرابع عشر إغريقيين، واليوم نحن مستشرقون، لم يشتغل هذا الكم الهائل من العقول في وقت واحد في اكتشاف هوة آسيا السحيقة. لدينا اليوم عالم انصرف إلى دراسة لغات الشرق من الصين إلى مصر. (Hugo, 1829, p. 5, 6) «

وما إن جاء القرن التاسع عشر حتى «تزايد عدد الموسيقيين والفنانين التشكيليين والرسامين والشعراء والكُتّاب، الذين أُطلقت عليهم صفة "المستشرقين"» (ريغ، 2008، ص20) لتأليفهم آثارا حملت عنوان: "شرقيات" (عبارة عن معلومات عامة دون دراسة معمقة للشرق، في الصالونات الأدبية)، وفي هذا العصر أيضا أصبح الشرق «...مكانا مفضلا لدى الأوربيين للترحال فيه والكتابة عنه. وإضافة، فقد ازدهر قدر كبير من الأدب الأوربي ذي الأسلوب الشرقي الذي كان في الغالب مبنيا على التجربة الشخصية في الشرق. ويحضر فلوبير إلى الذهن فورا بوصفه مصدرا بارزا لمثل هذا الأدب. ويقدم ذزرائيلي ومارك توين، وكينغلَيْك ثلاثة أمثلة أخرى واضحة» (فلوبير، 2005، ص12).

ولعل سلفستر دوساسي الذي نقل الاستشراق من مجال الخيال والإبداع إلى المكتبات هو الذي طبعه بالطابع العلمي وفرضه على عصره. وشيئا فشيئا رأى ضرورة أن تنشر الأعمال حول هذه المؤسسة في مجلة بصفة دورية «فظهرت إلى الوجود سنة 1822م الشركة الآسيوية، وقامت إثر ذلك بقليل بنشر دورية: الجريدة الآسيوية» (ريغ، 2008، ص22)، حيث كانت تُنشر فيها أعمال المستشرقين من دارسين وأدباء... وكان من أبرزهم: زعيم الاستشراق الأوربي دوساسي والدوق دو ريشيليو (وزير الحربية)، والأديب الشهير شاتوبريان وغيرهم. وفتحت المجال أمام المستشرقين من مختلف الأقطار الأوربية لمحاولة النشر في هذه المجلة كما يطمحون إلى مراسلة الشركة وإلقاء محاضرات بها.

5-الأدب العربي في الدراسات الاستشراقية:

أطلقت الظاهرة الاستشراقية العنان للدارسين الغربيين، لتناول الأدب العربي منذ بداياته الأولى إلى حدود القرن العشرين، وذلك لتكوين صورة بانورامية شاملة عن الذهنية العربية وفهمها انطلاقا من إبداعها والتأريخ لها.

يبدو أن مشكلة التأريخ للأدب العربي، قد صادفت المستشرقين أثناء عملية اهتمامهم به، وعلى مدار سنوات طويلة، كان الجزء المهم من هذا الأدب وهو الأدب الجاهلي، وخصوصا الشعر منه قد أسال حبرا كثيرا حول هويته ومصداقيته...الخ. فلا ريب أن كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي، اعترف صراحة أن الغربيين كان لهم دور فعال في هذا المجال حينما قال: «ومنذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي أخذت مؤثرات الثقافة الأوربية تباشر عملها باطراد في العالم الإسلامي، حتّى غيّرت الأدب العربي من أساسه في القرن العشرين« (بروكلمان، 1993).

صحيح أن كتب تواريخ الأدب العربي على غرار ما كتبه حنا الفاخوري، وجورجي زيدان ومصطفى صادق الرافعي وأحمد الحسن الزيات وغيرهم من العرب، لم يتعرضوا إلى إشكالية التأريخ الأدبي، إلا بعد أن جاء الاستشراق وتأثروا بحركته وتخرج العديد من الدارسين العرب على أيدي الغربيين «فالمستشرقون هم الذين حلّوا مشكلة التحقيب في الأدب العربي الحديث، وتأثر بهم علماء العرب المحدثون كل التأثر» (اسمايلوفتش، 1998، ص564)، فما كتبه مارجليوت و بلاشير وغيرهما حول الأدب العربي أدت كثيرا من الفائدة والنفع منذ ظهورها إلى اليوم، إلا أنه لا يوجد كتاب استطاع أن يُلّم بتاريخ هذا الأدب ويسبط الحديث عنه، وعن أدبائه على مر التاريخ من الجاهلية إلى العصر الحديث كما فعل بروكلمان في كتابه، إذ يُعد دائرة معارف شاملة تجاوزت الإلمام بالأدباء والشعراء إلى الحديث عن الفلاسفة والعلماء العرب من كل صنف مع تتبع آثارهم المخطوطة والمطبوعة في الشرق والغرب على حدّ سواء قديما وحديثا، كما يعرض أيضا الحياة الأدبية والعقلية وتطورها عبر العصور.

ومن هنا، نجده يقسم كتابه إلى خمسة عصور رئيسية هي:

- عصر ما قبل الإسلام.
- عصر ظهور الإسلام حتى نهاية الأمويين سنة 750م.
- عصر الدولة العباسية حتى نهايتها على يد المغول سنة 1258م.
- عصر ما بعد سقوط بغداد حتى مجيء نابليون إلى مصر سنة 1798م.
- عصر البعث الجديد من القرن التاسع عشر إلى العصر الحاضر. (بروكلمان، 1993).

معتمدا المعيار السياسي في عملية التحقيب الزمني للأدب العربي، ذلك لأن المحطات التاريخية والسياسية البارزة هي التي أثرت –سلبا أو إيجابيا- على الأدب، وصبغته بصبغتها العامة. فضلا على أن الادب انعكاس حتمي لكل ما هو موجود في المجتمع بكل تفاصيله الدقيقة السياسية والاجتماعية الاقتصادية والفكرية وغيرها .

والملاحظ أن جلّ الباحثين الغربيين في تواريخهم الأدبية على غرار نيكولسون الإنجليزي ونللينو الإيطالي وغيرهما تبنوا المنهج ذاته في التقسيم ولم يحيدوا عنه، فالتحولات السياسية الحاصلة التي مرت بها الدولة العربية منذ بدايتها إلى القرن العشرين هي التي جعلتهم يتفقوا جميعا حول هذا المرتكز وتبنيه في عملية التأريخ الأدبي من جهة، وتمهيد الطريق أمام الدارسين العرب لتبني هذا الطرح أيضا. إذ نجد كل من الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب، وزيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية وتاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري...، وغيرهم، قد ساروا على النهج ذاته في تقسيمات كتبهم وتناول موضوعاتها، فمروا بالعصور ذاتها بدءا من العصر الجاهلي، ووصولا إلى العصر الحديث بكل ما تمخضت عنه هذه العصور من اختلافات وتناقضات وصراعات وإبداعات جعلت منه أحد أغنى الآداب في العالم وأهمها وأكثرها ثراء وتنوعا.

من جهة أخرى، سيطرت العلوم التجريبية في أوربا خلال القرن 19م، لدرجة أن نادى بعض مؤرخي الأدب هناك بوجوب تطبيق مناهجها وقواعدها على الدراسات الأدبية، وحاول البعض منهم أن يضع

للأدب قوانين كقوانين الطبيعة، فتقدم سانت بوف إلى العناية بشخصية الأدباء وتعقب حياتهم الأدبية والمعنوية ومؤثراتها، حتى يبيّن ما ينفرد به هذا الأديب عن غيره وما يشترك فيه مع سواه، فإذا توصلّوا إلى ذلك وضعوهم في مجموعات على غرار ما يفعله علماء النبات، فيُصنَّف الأدباء والشعراء في طبقات وفصائل على أساس ما يقوم به كل أديب وفصيلته من تشابه.

كما لجأ آخرون إلى إيجاد منهج آخر لتناول ظاهرة التأريخ الأدبي وهذا ما أوجده برونتيير الذي كان متأثرا بشارل داروين ونظرية النشوء والارتقاء، فالأجناس الأدبية والآداب بصورتها العامة كغيرها «من الفنون والكائنات لا تشذ عن طبائع الأشياء التي تتقلب من ضعف إلى قوة، ومن خمول إلى ازدهار، فقد مرت (بالأدب العربي) به عوامل التقدم والارتقاء وكان للمستشرقين في هذا فضل كبير»(المسلوت، 1963، ص1)، لاسيّما إذا اعتمدنا عاملا مهما في الدراسة هو تفاعل الأدب والمجتمع، إذ يتوقف على فهمه فهما حقيقيا غوصنا في فهم تركيبة المجتمع وبنيته الداخلية، خاصة وأنه ينعكس في الأدب، لأن هذا الأخير ينبع منه ومتولد عنه، وهذا ما أقرّه هيبوليت تين في قوانينه الثلاث، الجنس والعصر والمكان.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تجاوزه في القرن العشرين إلى لجوء مؤرخي الأدب ونقاده إلى تطبيق نظريات اللاشعور الفردي وعقد الجنس ومكبوتاته ورواسب الحياة الإنسانية التي تتجلّى في الأساطير وما يتصل بها والعلاقات الاجتماعية وغيرها.

وبمقتضى كل ما قيل، فإن الأدب العربي عرف نقلة نوعية في طريقة دراسته والتأريخ له من قبل المستشرقين، إذ جُوبه بالتشكيك والإعجاب تارة، والتحقير والتعاطف تارة أخرى، على حسب اتجاه كل مستشرق ومدى موضوعيته.

-أ-**في الشعر**:وما من شك أن الشعر الجاهلي كان يروى شفاهة طوال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وتحفظه الذاكرة من الضياع جيلا بعد جيل في الأسواق والمحافل. وكما أشار بروكلمان إلى مسألة الظهور، «فأغلب الظن أن الشعر عند العرب قد ارتبط، منذ نشأته الأولى بالدين، وليس من شك في أنه وجد حافزه الأول في غريزة اللّهو، وفي المتعة التي كان يجدها الإنسان البدائي في الصوت والإيقاع، فتساعده على احتمال أعباء الحياة... وفي أوقات الحرب خاصة، كانت مهمة لعن العدو تقع على عاتق الرجل القادر على أن يقول الكلمة المناسبة...» (بروكلمان، 2012/2011، ص28). فالشاعر، كان لسان حال قبيلته يخلد تاريخها ويمجده، ولهذا كانت مكانته بين قومه مُبجلّة، وقد كان للبعض منهم راوية لشعره يحفظ عنه ويتعلّم منه فن الصنعة حتى يصبح بدوره شاعرا.

أما المستشرقون الأوربيون، فقد وجدوا صعوبة في التصنيف، وارتكزوا على التصنيف الجغرافي كما فعل كارلو نللينو في كتابه "تاريخ الأدب العربي: منذ البداية حتى العصر الأموي" فأشار إلى 27 شاعرا من شعراء المعلقات، وشعراء الوثنية، وشعراء نصرانيين، وشعراء الخضر والبدو...الخ. في حين كان ريجيس بلاشير في كتابه "تاريخ الأدب العربي-العصر الجاهلي" قد قسّم الشعراء الـ122 المختارين إلى قسمين كبيرين هما: شعراء بدو وشعراء حضر. وغيرهما من الدراسين المستشرقين الذين أولوا عناية كبيرة بدراسة عن المجتمع العربي بكل مقوماته التاريخية والنفسية والاجتماعية والدينية...الخ من جهة، وصورة الإنسان

العربي في بنية تركيبته النفسية لمعرفة طريقة تفكيره ومنطقه في الحياة ومدى تأثيره في الفكر الإنساني من جهة أخرى.

وعلى هذا الأساس، ثمة قضية أساسية في الشعر الجاهلي تركت أكثر من علامة استفهام عند المستشرقين، تمثلت في "الانتحال"، على اعتبار أن هذا الموضوع في معناه الواسع هو نظم الشعر ونسبته إلى الآخرين. ولا ريب أن هذه الإشكالية قد طرحها النقاد العرب الأوائل الذين يتقدمهم ابن سلام الجمحي في كتابه الشهير "طبقات الشعراء" منذ القرن الثالث الهجري. وبالتالي، كان سباقا بقرون عديدة جمهور المستشرقين، إذ أورد فيه الأسباب الموضوعية لعملية الانتحال وهي العصبية القبلية وعبث الرواة «فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار...» (الجمحي، 2001، ص39). ويضرب مثالا عنهم بحماد الرواية الذي كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها «وكان غير موثوق به كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار» (الجمحي، 2001، ص40.)

أما في العصر الحديث، فقد أثير موضوع الشعر الجاهلي من جديد مع المستشرقين، إذ تناولوه بكثرة وعلى أكثر من صعيد، بدءا من جهود شيخ المستشرقين الألمان ثيودور نلدكه حول الشعر الجاهلي سنة 1861، إذ يعد أوّل من أشار إليه، وعرّج إلى مسببات الانتحال كالترادف (أي الثراء اللغوي الذي تتميّز به اللغة العربية) أو إلى الزيادة والنقصان والتحوير والتغيير الذي يلحق بالشعر الجاهلي جرّاء بعض ممارسات الرواة الذين «سلكوا مسلكا يتسّمُ بالاستهتار وعدم المسؤولية. صحيح لأنه لا ينبغي لنا أن نطالب رجلا مثل حمّاد الراوية... أن يدقق في آلاف القصائد التي كان يحفظها تدقيقا علميا فيلولوجيا وأن يرويها للخلف كما هي في نصها الأصلي دون أدنى تغيير» (نلدكه، 1979،ص22)، ذلك لأن الأدب المنقول بالرواية الشفوية يختلف كلية عن خاصية الأدب المكتوب (سمات الأدب الشعبي المروي)، وأيضا انتزاع القصائد أو المقطوعات الشعرية من سياقاتها مما يؤدي إلى التحوير فيها.

في حين ذهب ديفيد مارجوليوث المبالغ في آرائه والرافض للشعر الجاهلي كلية إلى تناول هذا الموضوع في بحثه "نشأة الشعر العربي" الذي نشره في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية، عدد جويلية 1925. وأوصلته دراسته وقراءته لهذا الشعر أنه يستحيل أن يكون من تلك الفترة الجاهلية التي نُسب إليها، وإنما هو متأخر في عصر الإسلام حيث وُضع فيه ونسب إليه، ويُعلل رؤيته تلك إلى جملة من الأسباب والأدلة الداخلية والخارجية أهمها:

- يشير مارجوليوث إلى الآثار الهائلة المكتشفة في شبه الجزيرة العربية التي ترجع إلى ما قبل الإسلام والتي نملكها الآن مكتوبة بعدة لهجات ليس فيها من الشعر.
- ينفي مارجوليوث أن وسيلة نقل هذا الشعر هي الرواية الشفوية، وإنما هي الكتابة، مستندا إلى مقولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه بعد ظهور الإسلام لم يهتم أحد بالشعر، وأن حفظة هذا الشعر إما ماتوا أو قُتلوا، ليعود ليؤكد أن الكتابة التي حفظت الشعر كانت بعد الإسلام.

- يسرد مارجوليوث سلسلة من الرواة: حماد الراوية، المفضل الضبي، خلف الأحمر، أبو عمرو بن العلاء، والأصمعي وغيرهم، ليشير إلى تضارب الآراء حولهم في حفظ الشعر وأن الأمر مستمر.
- أن مضمون هذا الشعر لا يعكس وثنية الجاهليين ولا المتنصرين منهم وإنما يعكس معتقد المسلمين والتوحيد والقصص الديني ومفردات دينية كيوم الحساب والقيامة وصفات الله...الخ (الإشارة إلى قصيدة ورقة بن نوفل)، وموضوعاته موحدة ومكررة فتخيل إلى أنها نظمت في العصر الإسلامي لا قبله .
- أما فيما يخص لغة هذا الشعر، فهي لغة القرآن وأسلوبه، وليست لغة ولهجات القبائل في الشمال (العدنانيون) أو الجنوب (الحميريون) (مرجوليوث، د. ت.، ص90-100 وما يليها.)
- وعلى غرار المستشرقين، سار أعمدة الأدب العربي المحدثين على هذا الشق في وضع تساؤلات حول هذا الشعر، ويرجع مصطفى صادق الرافعي في كتابه "تاريخ آداب العرب" خلفيات الانتحال إلى جملة من المسببات من بينها:
  - أن القبائل تسعى إلى التعويض عما فقدته من امتياز بالتأليف والاختلاق.
  - سعى الرواة والقصاص في سردهم للروايات والسير بوضع أشعار على لسان الشعراء.
  - عمد بعض رواد رواية الشعر إلى الوضع والانتحال بسبب قطف قصب السبق والريادة في مجال روايته .

وما نلاحظه على ما أورده صاحب "وحي القلم"، فإنه لم يخالف السابقين من النقاد في مجال هوية الشعر المنحول، بل سار في دربهم، دون أن يقع في مطب المغالاة والمبالغة، وكانت طروحاته موضوعية، لأنها مبنية أساسا على التساؤل العلمي والمعرفي.

وبخلافه، كان طه حسين قد بالغ في تشكيكه من خلال كتابه "في الشعر الجاهلي"، الذي نشره سنة 1926، ووصل به الأمر حد الجزم باستحالة النسب إلى الفترة الجاهلية، وإنما هو وليد الفترة الإسلامية في قوله: «إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منتحلة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين وأكاد لا أشك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي» (حسين، د. ت).

وقد جوبه طه حسين بالنقد والتشكيك، حتى في عقيدته، لا لشيء لأنه سار على نهج أساتذته المستشرقين المغالين في تمثيل الأدب العربي ورد عليه الكثير من النقاد والدارسين بهذا الخصوص، إذ يقول بروكلمان «ومن ثَمَّ يُعد خطأ من مرجليوث وطه حسين أن أنكرا استعمال الكتابة في شمالي الجزيرة العربية قبل الإسلام بالكلية، ورتبا على ذلك ما ذهبا إليه من أن جميع الأشعار المروية لشعراء جاهليين مصنوعة عليهم، ومنحولة لأسمائهم« (بروكلمان، 1983، ص64).

وبغض النظر عما قيل بخصوص الشعر الجاهلي، فالمؤكد فيه أن تكون هنالك فعلا أشعار مدسوسة في شعر الجاهليين، الذين وصلت أشعارهم إلينا في مجملها عن طريق الرواية الشفوية، والقليل منه عن

طريق الكتابة بفعل التجارة والاحتكاك مع الشعوب المجاورة والمتاخمة للعرب، وهذا الإرث الذي وصلنا، استطعنا من خلاله أن نكوّن صورة عامة عن حياة العرب بكل مكوناتها في الفترة الجاهلية .

-ب-في النثر: من المعلوم أن تأثير الأدب العربي في الآداب الأوربية كان بالغ الأثر منذ أن أطّل أنطوان جالان بترجمة لكتاب ألف ليلة وليلة (1704-1717) على اعتبار أنه أكثر الكتب العربية استحواذا على مخيلة الأدباء والشعراء والفنانين الغربيين، فراحوا يستقون منه مادتهم الإبداعية ويتناقلون موضوعاته وشخصياته في كل مجالات الأدب والفن. لقد زرع جالان فيهم الفضول والرغبة عندما قال في مقدمة ترجمته لهذا العمل-الأيقونة، بأن مضمونه يعبّر عن الشرق بكل عاداته وتقاليده وأخلاقه وأديانه وشعوبه الأغنياء منهم والفقراء، الرجال منه والنساء، وأن من قرأ هذا العمل فكأنما ارتحل إلى الشرق وعاين كل تلك الأمور.

فانكب المبدعون على استلهام موضوعاته وأماكنه وشخصياته، وتوظيفها في أعمالهم الأدبية والفنية، لاسيّما وأن هذه الترجمة التي أسهمت في انتشار الكتاب في أوربا، هي التي أعادت إليه الاعتبار وأعادته إلى الشرق، بعدما كان الكتاب مرفوضا لدى الخاصة ومنبوذا أخلاقيا.

وبعد مطلع النهضة العربية التي فتح تاريخها الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي دخلت البلاد العربية في مرحلة جديدة من البعث الأدبي والعلمي بعد قرون الركود والانحطاط تحت الحكم العثماني، وانفتح مبدعونا على أجناس أدبية جديدة لم يعرفوها من قبل فنقلوها وأبدعوا على منوالها .

وإذا كان الأدب العربي القديم، قد أسال حبرا كثيرا في كتابات المستشرقين وأُنتجت أعمال غزيرة حوله، فإن الإشكال يقع حول التأثير الذي أحدثه الأدب العربي المعاصر عند الآخر، وكيف تلقى المستشرقون هذا الأدب بالدراسة، خاصة وأن الفرنسي شارل بيلا، لا يعترف بهذا الأدب الحديث ويعتبره أدبا غربيا بحروف عربية، وهذا في حدّ ذاته ما يطرح تساؤلا آخر بخصوص هويّة الآداب العربية والشرقية المكتوبة باللغات الأجنبية (الأوربية).

لقد ارتبط الاستشراق منذ بداياته الأولى بعملية الترجمة، ولا يزال إلى اليوم يستمد تلك الشحنة الإيجابية التي تدفعه إلى البقاء، وحتى إن سلّمنا أن هذه الحركة قد تغيّرت معالمها في الوقت الراهن إلّا أن روّادها قد حملوا لقب خبير أو مختص بشؤون العالم الإسلامي في جميع ميادينه، خاصة أموره الثقافية والأدبية على وجه الخصوص، فالسمة التي يتميّز بها مترجمي الأدب العربي المعروفين حاليا أمثال: روجي آلان أو دونيس جونسون ديفيس وغيرهما توحي لنا بطبيعة هؤلاء المختصين ومدى اطلاعهم على الأدب العربي الحديث والمعاصر، ليس بنصوصه فحسب، وإنما أيضا بكل خارجيات هذه النصوص ونفسيات أصحابها وارتباطهم بعلاقات صداقة معهم مثل علاقة دونيس جونسون بنجيب محفوظ ومصر بصورة عامة، أو علاقة مارسيل بوا بالروائيين الجزائريين عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار... وغيرهم. والملفت للانتباه، أن الاستشراق الروسي، قد أولى هو الآخر عناية كبيرة بالأدب الجزائري وخاصة المكتوب باللغة الفرنسية بفعل حركة الترجمة ولأنه كان الأسبق في الظهور والبروز من الأدب المكتوب باللغة العربية لتأخر ظهور الرواية بالعربية في الجزائر إلى السبعينات.

وقد جمع الناقد عبد العزيز بوباكير في كتابه الأدب الجزائري في مرآة استشراقية كما من دراسات روسية منشورة في العديد من المصادر المختلفة وترجمتها إلى العربية لكل من: مولود فرعون ومولود معمري ومالك حداد والطاهر وطار ومحمد ديب وكاتب ياسين وعبد الحميد بن هدوقة ورشيد بوجدرة ليؤكد لنا بدوره بأن «البحوث الروسية في الأدب الجزائري مستمرة إلى يومنا هذا. وقد اتخذت في الآونة الأخيرة طابع التخصص والتعمق أكثر في مسائل جوهرية في سيرورة تطور هذا الأدب مثل: التناسب بين التقليد والتجديد والتأريخ لهذا الأدب، ودراسته من الناحية التصنيفية، ومقارنته بآداب أخرى (الآداب المغاربية والإفريقية)، وتحليله كأدب موجه للنخبة وأدب موجه للجماهير. كما بدأت تظهر المحاولات الأولى لوضع تاريخ عام للأدب الجزائري« (بوباكير، 2002، ص11).

من جهة أخرى يعد المستشرق الألماني "هارتموث فندريش" الذي كان مولعا بترجمة الأدب العربي، اعتمادا على ذوقه الشخصي في عملية اختيار النصوص إذ يقول: «بحكم كوني مستعربا أزور كثيرا العالم العربي... ولي أصدقاء كثر من الأكاديميين والكتّاب العرب وكلما التقينا أطرح عليهم سؤالي المتكرر: ما هي الكتب الجديدة التي صدرت حديثا لديكم؟... وعندما أسمع من أكثر من صديق اسما ما أنتبه وأشتري الكتاب وأقرأه وإذا أعجبني أقترحه لدار النشر التي أترجم لها« (فندريش، 2004، ص29).

يستند هارتموث في ترجمته للنصوص على جملة من المعطيات، تتعلّق بالدرجة الأولى بلغة وأسلوب الكاتب والموضوع المطروح في العمل، لاسيّما تركيزه على موضوعات معينة مثل: القمع الفردي والعائلي والديني والسياسي الموجود في الحياة اليومية للمجتمعات العربية. وهي بلا ريب موضوعات حساسة وشائكة تخدم المصالح الأوربية بالدرجة الأولى في الوقت المناسب.

وما يمكن ملاحظته في الأخير، أن المترجمين الأوربيين الحاليين يعتمدون في ترجمة النصوص الأدبية العربية على دوافع مختلفة كل حسب رؤيته الشخصية، فمنهم من يجعله دافعا علميا محضا يحركه حب الاطلاع والانفتاح على الثقافات الأخرى، ومنهم من تحركه النعرات الاستعمارية والنظرة الاستعلائية لمعرفة أدق خصوصيات المجتمعات العربية ومحاولة تشريح واقعها تحت طائل تقرير الحقائق ونقلها للعالم.

خاتمة:

في الأخير يمكننا استنتاج جملة من النقاط التي حصرناها فيمايلي:

- أن الدراسات الاستشراقية قد أحيت تراث العرب وبعثت في أهله دفعا جديدا للاهتمام بموروثاتهم الإبداعية.
- أنهذه الدراسات، قد أعادت اكتشاف الإنتاج الأدبي العربي منذ عصور الجاهلية إلى النصوص الأكثر حداثة ومعاصرة، فقاربته بالمناهج والآليات، واستنبطت منه صورة حياة المجتمع العربي قديما وحديثا، وأبانت دراستهم عن فهم عميق للإنسان العربي وطريقة تفكيره.
- -أن اهتمام المستشرقين بالأدب العربي يدخل في خانة انفتاحهم على الشعوب الأخرى التي تختلف عنهم فكرا و توجها و ثقافة، مما ينبغي الاستفادة من تجاربهم الشخصية.

- استطاع الغرب أن يستفيد من إبداعات العرب و يستلهم منهم أجناسا أدبية استحدثوها، فكان تأثيرها واضحا على الآداب الأوربية كالشعر الجاهلي، و شعر الموشحات و نص ألف ليلة و ليلة..الخ
- أن المستشرقين إلى اليوم، مازالوا ينظرون إلى الأدب العربي بعين الإعجاب و التقدير، على الرغم من وجود آخرين نفوا نفيا قاطعا فضله على آداب العالم، واستنقصوا من قيمته و شككوا فيه و في مضامين.
- و مع ذلك، يبقى الأدب العربي أدبا فريدا و مميزا بين آداب العالم، يؤثر تارة، و يتأثر تارة أخرى، و يعكس بحق مستوى ثقافة الشعب الذي أبدعه.

توصيات :

- أن يقام مؤتمر صورة الإسلام و المسلمين سنويا، على أن يخصص محور محدد في كل مرة.
- ضرورة التنسيق مع جامعات أخرى وطنية و عربية ، و حتى أجنبية لتصحيح نظرة الآخر إلى العرب و المسلمين و تغيير نظرة الانتقاص من تراثنا.
- التشجيع على البحوث و الدراسات التي تسعى لخدمة ثقافتنا و لغتنا و ديننا، في مقابل غربلة انتاج الآخر الغربي حولنا، خاصة في مجال الدراسات الاستشراقية.

قائمة المصادرو المراجع:

أ- المراجع العربية:

- اسمايلوفتش، أحمد. (1998). فلسفة الاستشراق "وأثرها في الأدب العربي المعاصر"، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.
- بوباكير، عبد العزيز. (2002). الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، دار القصبة للنشر، الجزائر.
- الجمحي، ابن السلام. (2001). طبقات الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- حسين، طه. (د. ت.). في الشعر الجاهلي (تقديم ودراسة وتحليل سامح كريّم)، الدار المصرية اللبنانية.
- السباعي، مصطفى. (د. ت.). الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، دار الورّاق للنشر والتوزيع، المكتب الإسلامي، عمان، الأردن.
- المسلوت، عبد الحميد. (1963). محاضرات في الأدب العربي بين القدماء والمحدثين "العصر الجاهلي"، دار الطباعة المحمدية، القاهرة.

ب- المراجع المترجمة:

- بروكلمان، كارل. (1983). تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، ج. م. العربية، ج1.
- بروكلمان، كارل. (2012/2011). تاريخ الشعوب الإسلامية، تر. أمين فارس، دار الأنيس للنشر والطباعة، وهران-الجزائر.

- ريغ، دانيال. (2008). رجل الاستشراق "مسارات اللغة العربية في فرنسا"، ترجمة إبراهيم صحراوي، دار التنوير، حسين داي، الجزائر.
- سعيد، إدوارد. (2006). الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ط1، ترجمة أحمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة.
- شاخت، جوزيف، وآخرون. (1988). تراث الإسلام، ترجمة حسين مؤنس، سلسلة كتب عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 233.
- فلوبير، غوستاف. (2005). فلوبير في مصر 1849، ط1، ترجمة صلاح صلاح، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات، دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، (من المدخل النقدي بقلم إدوارد سعيد).
- فندريش، هارتموث. (2004). عبور النص إلى الضفة الأخرى، مجلة فكر وفن عدد 79.
- مرجوليوث، ديفيد صموئيل. (1979). نشأة الشعر العربي، ترجمه عن الانجليزية عبد الرحمن بدوي، ضمن كتاب: "دراسات المستشرقين –حول صحة الشعر العربي-".
- نيلدكه، تيودور. (1979). من تاريخ ونقد الشعر العربي القديم، ط1، ترجمه عن الألمانية عبد الرحمن بدوي ضمن كتاب "دراسات المستشرقين –حول صحة الشعر الجاهلي-"، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

ج- المراجع الأجنبية:

- Hugo,Victor. (1829). Les Orientales. (Recueil numérisé et mis en ligne par Jacques Lemaire pour poètes.com), Textes à télécharger..Paris.

الإسلام والغرب في منظور تزيفتان تودوروف

Islam and the West in the Perspective of Tzvetan Todorov

د. سعيدة حمداوي، جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي - الجزائر
ssaidahamdaoui@gmail.com



أصبح الإسلام موضوعا مهيمنا على مجالات المعرفة الإنسانية الغربية، وزاد الاهتمام به من طرف الدوائر السياسية والاقتصادية والفلسفية والدينية بعد أن كان مستهدفا في دراسات المستشرقين الأوائل بالتشويه والتدليس والتدنيس لأغراض استعمارية جند لها المبشرون المسيحيون كل الوسائل لاستعادة مجد الحروب الصليبية، وتعزيز حضورهم في الشرق، فعكفوا على ترجمة القرآن الكريم والأحاديث النبوية وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وحياة بعض الصحابة والتابعين؛ للتأكيد على همجية المسلمين وتراثهم الداعي إلى القتل والحروب. فتصدى لهذه المحاولات المفكرون المسلمون، وكذا المعتدلون من الفلاسفة والنقاد الغربيين أيضا، ومن بين هؤلاء الناقد الفرنسي تزيفتان تودوروف.

الكلمات المفتاحية:الإسلام، الغرب، صورة، الدراسات الثقافية، تزيفتان تودوروف.

Abstract :

Interest in Islam increased from political, economic, philosophical, and religious circles after it was targeted in the studies of the early Orientalists with distortion, fraud and desecration. They emphasized that Muslims and their religious heritage calls for killing and wars. These attempts were met by Muslim thinkers, as well as moderate Western philosophers and critics.Among them is the French critic Tzvetan Todorov.

Keywords: Islam, West, Image, Cultural Studies, Tzvetan Todorov.



مقدمة :

مر مسار **تزيفتانتودروف** بمجموعة من المراحل انطلق فيها ناقدا أدبيا وانتهى ناقدا ثقافيا طرح تساؤلات "تتعلق أكثر فأكثر بقضايا مثل التقاء الثقافات، الشمولية، حاجة الإنسان للاجتماع"(تودوروف، 2004، ص: 161)، وعالج الكثير من القضايا السياسية والأخلاقية في معرفة الإنسان والعالم، وناقش بمنظور العقل "إشكالية وحدة النوع الإنساني وتعدد الثقافات، الإشكالية التي أعيشها أنا في بلد له ثقافة تختلف بقدر كاف عن ثقافة البلد الذي نشأت فيه"(تودوروف، 2004، ص: 167). هذا الانتقال كان بسبب انزلاق الغرب، ومأزق كاد يصل "بهم إلى العنصرية، واضحة أو مقنعة، مما يرفضه بعنف تودوروف الذي يتحرك في مساحة متميزة بين ثقافتين، بعين ناقدة ثمرة تاريخ شخصي عرف

العبور، مرة، لا مرتين"(تودوروف، 1990، ص: 79). وبالنظر إلى معطيات كثيرة جعلته يحتك بالمسلمين ويتلمس مشاكلهم في فرنسا التي استقر فيها قادما من بلغاريا، البلد الذي يجعلك تحس "بالدونية بالمقارنة مع أوروبا الغربية أو أمريكا الشمالية- شعور يمكنه أن يولد خليطا من الحسد والغيرة ومن الضغينة"(تودوروف، 2004، ص: 86). فرنسا البلد الذي يشكل فيه المهاجرون المغاربة نسبة معتبرة من مجمل السكان، وتعد فيه الديانة الإسلامية الثانية في البلاد، وما لاحظه في الولايات المتحدة الأمريكية من مشاعر عداء تزداد حدة على المسلمين خاصة بعد أحداث تفجير البرجين التوأمين، والتجنيد الإعلامي والسياسي والعسكري الذي عقب هذه الأحداث، وبداية الحرب على الإرهاب والذي استهدفت فيها بلدان الشرق الأوسط المسلمة على وجه التحديد.

من هنا، سنحاول الاقتراب أكثر من منظور **تودوروف** للإسلام والذي يتضح أكثر في كتابه "الخوف من البرابرة: ما وراء صراع الحضارات"، وبقية دراساته ذات الصلة بالموضوع والتي لا تخرج عن تتبع صراع الحضارات والاستعمار وقضايا حقوق الإنسان في العالم. وعليه، نطرح هذا السؤال: كيف كانت نظرة **تزيفتان تودوروف** للإسلام؟ وما الطرح الذي قدمه لنصرة المسلمين في الغرب؟

أولا- الإسلام بين الخوف والحقد:

قدم **تزيفتان تودوروف** في كتابه "الخوف من البرابرة" منظوره حول الإسلام وفق منطلقاته النقدية والفكرية والثقافية بدءا بالعنوان الذي نجده من كلمتين الخوف ويخص به البلدان الغربية (المسيحية)، ويشمل المجموعة الثالثة وخوفها ناتج عن وجود المجموعة الثانية مجموعة الحقد وهي الدول المسلمة، يقول واصفا المجموعتين: "إني أقيم في فرنسا، داخل الاتحاد الأوروبي، أي ضمن المجموعة التي وصفت بأنها خاضعة للخوف، أو بكل الأحوال تتسم بالخوف؛ إنها كذلك المجموعة الوحيدة التي أعرفها من الداخل، أحصر موضوعي أكثر لأقصر الكلام على واحدة من العلاقات التي تلحظها ضمن هذه المجموعة، وهي تلك التي تربطنا بالبلدان وبالشعوب التي تتسم بالحقد"(تودوروف، 2009، ص: 11)؛ ما يعني موقفا حياديا اتخذه **تودوروف** حيال المجموعات السابقة، والمجموعتين محل الصراع باعتباره بعيدا عنهما ثقافيا وجغرافيا.

ينتقل الخوف من مجرد شعور "إلى خطر على الذين يعانون منه، لذلك لا يجب أن ندعه يتحول إلى شعور جامع مسيطر، إن الخوف هو بالذات التبرير الأساسي للتصرفات التي غالباً ما نصفها بـ "اللا إنسانية"، إن الخوف من الموت الذي يتهددني، أو أسوأ من ذلك، يتهدد أشخاص أحباء على قلبي، يجعلني قادرا على القتل والتشويه والتعذيب"(تودوروف، 2009، ص: 12)؛ ما يعني أن الخوف على الجماعة وحماية الغرب مبرر للقتل والوحشية التي تعرض لها الآخر المسلم.

إن المسلمين والإسلام وما يسمون "بلدان الخوف" يشكلون عند الغرب ما يسمون بالبرابرة، وهو المصطلح المفتاحي الثاني في عنوان الكتاب، ويعني بهم "أولئك الذين لا يعترفون بأن الآخرين هم كائنات بشرية مثلهم...الذين ينكرون الإنسانية الكاملة للآخرين"(تودوروف، 2009، ص: 22). إذن هم الآخر الذي

لا يحق له التفكير ولا العيش حرا. وخوفنا من البرابرة حسب **تودوروف** هو من سيحولنا إلى برابرة، وسينقلنا من سئ إلى أسوأ؛ أي أن ردة الفعل المفرطة وغير المحسوبة تغري باستعمال القوة وتبرر الاعتداءات العسكرية العنيفة، والولايات المتحدة خير مثال بعد اعتداءات 11 سبتمبر 2001، وتدخلها المباشر أو غير المباشر في بلدان مثل أفغانستان والعراق ولبنان، وتلحق بها مجبرة بلدان الاتحاد الأوروبي.

إن تبرير الخوف والحقديشرعن ما أطلق عليه اسم "الحرب ضد الإرهاب" التي تتسبب في الكثير من التجاوزات غير شرعية وأعمال تعذيب بشعة، وهو ما ترمز إليه اليوم أسماء غوانتنامو وأبو غريب وباغرام. هذه الحرب على الإسلام التي يقودها الجيش الأميركي وحلفائه تؤدي إلى "تغذية حقد السكان، وهو المصدر الأساسي للاعتداءات التي حصلت في أساس المشكلة، بدورها عمليات التعذيب التي تحصل تغذي الرغبة في الانتقام. إن لدى الأفراد المسؤولين عن التفجيرات المعادية للغرب إحساسا بأن مشاعرهم الجامحة محقة وبأن أفكارهم صحيحة"(تودوروف، 2009، ص: 13). وهكذا ستستمر الحروب وتتأجج أكثر فأكثر.

إن انتماء أغلب البلدان الحاقدة للإسلام يجعلها مهددة في بلدان الخوف الأوروبية خاصة أن غالبية المهاجرين الحاليين في أوروبا من أصول إسلامية، "ولأن هذه الأقلية تنتمي إلى دين هو الإسلام، الذي يختلف عن دين الأكثرية؛ وهي توليه بشكل خاص في تنظيم حياتها الاجتماعية أهمية لا توازي الأهمية التي توليها الديمقراطيات الليبرالية المعاصرة إلى الدين، أيا كان هذا الدين. ينجم عن ذلك في مجموعة من المسائل التي ترتبط بالحياة اليومية خلافات بين مختلف شرائح السكان"(تودوروف، 2009، ص: 14)؛ هذا الوضع يظهر ردود فعل متشددة وعدم متسامحة مع الأقلية الإسلامية والعكس صحيح أيضا بسبب الظلم الذي يتعرض له المسلمون.

ثانيا-الإسلام والهوية الوطنية:

لاحظ **تودوروف** ترافق حملات الكزينوفوبيا (كره الأجانب)- وهو الوتر الذي تلعب عليه أحزاب اليمين المتطرف- مع الإسلاموفوبيا (معاداة الإسلام)، مع أن هذين النوعين من الرفض لا يتقاطعان إلا جزئيا، لكنهما يحققان معا أهداف متقاطعة، لهذا يشير **تودوروف** إلى ازدواجية مفارقة بين من ينظر إلى أن مهاجمة المهاجرين عمل غير صائب من الناحية السياسية، وبين الشجاعة حين يتم انتقاد الإسلام، فكيف إذا كان هؤلاء المهاجرين مسلمين، ومن يبحث عن سبب رفض الإسلام فسيجده ضاربا إلى أزمنة غابرة، ذلك أن الإسلام اعتبر منافسا للمسيحية، "وهو اليوم يجسد شكلا من الحماس الديني الذي أمضى الأوروبيون ردحا طويلا من الزمن للتحرر منه؛ فالعلمانيون يرفضون الإسلام إذن بطريقة أشد عنفا من المسيحيين"(تودوروف، 2009، ص: 15).

يؤكد **تودوروف** على أن "الصراع من أجل حرية الاعتقاد، الذي يترك لكل إنسان الحق في اختيار دينه، ليس جديدا، لكنه ينبغي أن يستأنف ويواصل على الدوام، وهو يجد امتداده بحرية الرأي والتعبير والنشر"(تودوروف، 2008، ص: 103-104.). لهذا تبرر الأعمال الإجرامية التي يقوم بها بعض المسلمين من خلال هويتهم الإيمانية، وتوعز إلى جملة من الأسباب منها تعرض البلدان الإسلامية من القوى الأوروبية

على مدى القرون السابقة، وما حملوه معهم بعد طردهم من "مشاعر التفوق والحسرة. واليوم يأتي المستعمرون السابقون للإقامة عندهم، وإن لم يكن على شكل مستوطنين، فكيف لا يحقدون عليهم؟ إلى ذلك يضاف الحقد الذي يشعر به هؤلاء المستعمرون السابقون والمهاجرون الجدد، أو المتحدرون منهم الذين أصبحوا أوروبيين، والذي يدفعهم الى توجيه قنابلهم إلى لندن ومدريد، وإلى برلين وباريس"(تودوروف، 2009، ص: 15)، دون تجاوز البعد الجغرافي الذي جعل أغلب احتياطات الطاقة عند البلدان المسلمة، والإحساس المزعج لدى المستعمرين الغربيين بالتبعية، وفي المقابل شعور بالنبذ والعداء لمن ينتمون إلى الهوية الإسلامية، وتمسكا بمقوماتها أكثر فأكثر.

لاحظ **تودوروف** تشدد السكان الأصليين في البلدان الأوروبية مع المهاجرين، خاصة المسلمين، مع أن "البشر في حاجة إلى الأمن والتسلية بدرجة لا تقل عن حاجتهم إلى الحرية والحقيقة. وهم يفضلون الدفاع عن أعضاء المجموعة التي ينتمون إليها على تبني القيم الكونية"(تودوروف، 2007، ص: 142). في خضم هذا الجو يزداد خوف السكان الأوروبيين من أعمال عنف غذاها القمع والتمييز وحركتها مشاعر الحقد. خاصة في بعض البلدان التي نما فيها اليمين المتطرف الكاره للأجانب أين أصبحت محاربة الإسلام أولوية وضرورة؛ ما يعني أنهم "يقابلون كلماتنا بالعنف والقتل. ولذلك نحن ننسى بأنه يمكن لكلماتنا هي أيضاً أن تكون لها عواقب وخيمة"(تودوروف، 2009، ص: 153). وإن كان **تودوروف** يقترح أن درس الأنوار يدعو إلى "أن التعددية يمكن أن تفضي إلى وحدة جديدة وذلك بثلاث طرق على الأقل: فهي تحث على التسامح ضمن المنافسة، وهي تنمي وتحمي الفكر النقدي الحر وهي تساعد على التجرد عن الذات بما يؤدي في مستوى أرقى إلى اندماجها مع الآخر"(تودوروف، 2007، ص: 138).

يدعو **تودوروف** إلى الاعتراف بالمهاجرين الذين يسكنون في أوروبا بإزاء تمتعهم بالحقوق القانونية، واحترام معتقداتهم الدينية، "ليس تجاه النبي محمد بقدر ما هو تجاه أولئك العمال المهاجرين البسطاء الذين يكون اسمهم عبدالله أو مصطفى... لا يعود كافيا التمسك بقناعاتنا وبالحق في التعبير عنها، إذ يضاف إليه إلزامية القيام بذلك كفرد مسؤول يأخذ في الحسبان النتائج المتوقعة لأفعاله"(تودوروف، 2009، ص: 155).ويقترح علاوة على ذلك إجراءات رمزية تساهم في تدعيم المساواة والكرامة الاجتماعية، ويقدم فرنسا بوصفها نموذجا حيث يمكن أن يضاف يوم عطلة ترتبط بالديانة الإسلامية إلى ستة أيام عطلة ترتبط بالأعياد الكاثوليكية، وإدراج تعلم العربية بصورة أوسع في المدارس لتكون لغة مثل سائر اللغات، وتخصيص أوقات غير مختلطة للنساء في أحواض السباحة.

يبين**تودوروف** أهمية "التحلي بالتسامح مع الآخر وإزاء الأقليات التي تعيش داخل الغرب، من خلال الدعوة إلى التعايش مع الثقافات المختلفة لإرساء أسس التعايش والحوار مع الآخر. ويهاجم، بعين حصيفة ورؤية ثاقبة، الشعبوية اليمينية المتطرفة...حيث تنسب علل المجتمع الغربي إلى الأجنبي المسلم"(تودوروف، 2014، ص: 09)؛ ما يعني "أن التفاعل المستمر للثقافات يؤدي إلى تكوين ثقافات

مهجنة، وذلك على المستويات كافة: ابتداء من الكتاب ذوي اللغتين، مرورا بالعواصم المتسمة بالدولية الثقافية وحتى الدول المتعددة الثقافات"(تودوروف، 1993، ص: 228).

ثالثا- الإسلام وصراع الحضارات:

يشكك **تودوروف** في أطروحة **هنتنغتون** وغيرهم ممن يرون أن النزاعات الدولية الحالية هي ذات طبيعة حضارية أو ثقافية، وتكمن في الفروقات الدينية، وأن الإسلام دخل في حرب مع الغرب. وهي أطروحة الحكومة الأميركية التي نفت أن السبب مطالب الخصوم بل يرجع السبب إلى كونه إيديولوجي راديكالي معادي، ذلك أن تاريخ الحروب العالمية لم تكن مسبباتها دينية، بل سياسية أو اقتصادية أو إقليمية أو ديمغرافية، والمثال على ذلك "شن هتلر الحرب العالمية الثانية ليؤمن سيطرته على أوروبا ومواردها، وليس من أجل كبح إيديولوجيا معادية؛ والأمر ينطبق كذلك على اليابان التي هاجمت الصين واحتلتها، وتبدو الصورة أوضح كذلك فيما يتعلق بالحرب العالمية الأولى، أو لو عدنا في الزمن إلى الوراء، إلى الحرب الفرنسية-البروسية، أو حروب نابليون، أو حرب الثلاثين عاما... وحتى الحروب الصليبية التي تتخذ كرمز للحرب الدينية، فإن محركها الحصري أبعد من أن يكون تحرير القدس... وأن ما كان يجتذبها هو ثروات الشرق التي كان ينظر إليها على أنها أسطورية"(تودوروف، 2009، ص: 94)؛ ما يعني أن الحرب العسكرية على الإسلام ما هو إلا غطاء لاستعادة مناطق تم الاستيلاء عليها سابقا.

تلقى مقولة صراع الحضارات والحرب الشاملة بين الإسلام والغرب تأييدا لها من طرف المتشديين من الطرفين، والتاريخ يؤكد أن المناوشات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي كانت امبريالية وليست دينية؛ ما يعني "إن نظرية صدام الحضارات تعتمد من كل أولئك الذين لهم مصلحة في ترجمة تعقيد العالم من خلال مصطلحات المواجهة بين كيانات بسيطة ومتجانسة: الشرق والغرب، "العالم الحر" والإسلام"(تودوروف، 2009، ص: 95). وهنا ينفي **تودوروف** أن يكون الدين محرك هذه النزاعات، وأن السبب في الأغلب دوافع ظرفية هي في الأغلب ثأر أفراد يعيشون الفقر والبؤس من الحكومات التي تدعمها أمريكا وحلفاؤها في المنطقة، "فهم يعبرون عن تعاطفهم مع السكان الذين يعانون من البؤس، إن التعطش للانتقام لم ينتظر الإسلام لكي يظهر في العالم، فشريعة الأخذ بالثأر منتشرة في العالم بأسره"(تودوروف، 2009، ص: 96).

إن توظيف الدين لمنح تلك الصبغة الدينية على الحروب ليس حكرا على المسلمين بل حتى الحروب الصليبية حركتها دوافع عديدة لم تكن تعلن حسب **تودوروف** إذ اتخذته المسيحية الغازية لتجسيد أجندتها الخاصة، ويصرح في هذا الصدد قائلا: "ألم يستخدم بوش نفسه عبارة "حرب صليبية" ليصف مشروع تدخله ثم ألم يخبرنا في الوقت نفسه بأنه يصلي كل يوم ويحفز معاونيه على ممارسة نفس الشيء؟...لم توافق أية سلطة رسمية في الكنيسة المسيحية على الحرب، بل على العكس، عديدة هي الشخصيات - بدءا بالبابا- التي أدانتها وحاربتها. وقد تراجع جورج بوش نفسه في خطاباته عن عبارة "حرب

صليبية""(تودوروف، 2006، ص: 23- 24)؛ ما يعني أن "كل هذا التدخل لم يتم إعداده إلا للاستئثار بمدخرات النفط العراقية وتمكين الشركات الأمريكية من الاستفادة منه وهي شركات يديرها أصدقاء للحكام الحاليين؟ وهناك أسباب أخرى غير معلنة تعزى كذلك إلى الإدارة الأمريكية. من المؤكد مثلا أن الشعوب تحب الزعماء الذين يقودون بلدانهم نحو الانتصار العسكري. ألم يغز بوش العراق ليضمن إعادة انتخابه؟"(تودوروف، 2006، 25- 26).

يتوقف **تودوروف** عند ملاحظة الروائي التركي **أورهان باموك** حول ابتهاج سكان مدينة اسطنبول العاديين والهادئين إزاء انهيار البرجين. واستبعاده أن يكون الإسلام أو الفقر هو من جعلهم داعمين بل هو الإذلال المهين الذي أصاب بلدان العالم الثالث، ويتساءل **تودوروف**: "لماذا إذن لدينا في أغلب الأحيان هذا الانطباع بأن الأمر يتعلق بحروب دينية أو ثقافية؟...، إن الهدف الحقيقي ليس الدفاع عن الإسلام، وإنما عن الشرف الذي يعتبر بأنه أهين منذ سنوات طويلة من قبل القوى الغربية"(تودوروف، 2009، ص: 97). دون استبعاد توظيف الدين لأغراض أخرى؛ما يعني أن الظروف الاجتماعية والقرارات السياسية هي من يحرك النزاعات في أوروبا. لهذا يستغرب **تودوروف** من الحتمية الدينية المتشددة التي تطال بشكل خاص مواطني البلدان ذات الغالبية المسلمة، في حين أن الآخرين دوافعهم سياسية، اجتماعية، اقتصادية، نفسية، وحتى فيزيولوجية.

رابعا- أعداء الإسلام:

يورد **تودوروف** نموذجا يسعى لتأجيج الحقد على الإسلام ومهاجمته بشكل مباشر، وهي هيرسي علي ومساعيها الحثيثة في البرلمان الهولندي "من أجل مكافحة تأثير الإسلام المؤذي،... وهناك تدابير أخرى تتعلق بعادات ترتبط بالدين: لا بد من وضع حد للتعددية الثقافية، ووقف تقديم المساعدات للمدافن المنفصلة، والمسالخ المعدة للذبح الحلال، أو كما ينص عليه القانون الهولندي بناء المساجد وصيانة المدارس الطائفية. اقترحت أن يتخذ الليبراليون موقفاً مطالباً بإغلاق ومنع المدارس الإسلامية"(تودوروف، 2009، ص: 136). ولم تتوقف عند هذا الحد بل أنجزت فيلما مع فان غوغ، حيث نرى ظهرا عاريا لامرأة عليه آثار السياط، وقد كتبت عليه الآيات القرآنية التي تبرر معاقبة النساء، والذي تعرض بسببه المخرج للاغتيال.

إن خطورة هذه المرأة الصومالية وتشنجها وعدائيتها حسب **تودوروف** تأتى في اتهامها الإسلام بأنه وراء تخلف العالم الإسلامي، وعذاب النساء أيضا، لكن ليس الحل في الهجوم على الإسلام وشن حرب صليبية لإجبار المسلمين على الاندماج في الديمقراطية، لهذا اعتبر **تودوروف** ما أقدمت عليه خطوة استفزازية في حين كان يمكنها "تسهيل عملية التأقلم؛... ويبدو أن ردات الفعل المعادية لأقوالها دفعتها للتشدد في المسار الذي سلكته، كما لو أن هدفها هو الحرب الأهلية"(تودوروف، 2009، ص: 138). وقد جعل رفض مسلمي هولندا لها كمصلحة، تنتقل للعمل ضمن "مجموعة تفكير" في المعهد الأميركي للأعمال، وهي مؤسسة قريبة من أوساط المحافظين الجدد الذين دفعوا بالحكومة الأميركية إلى الحرب على العراق، وهذا يعني مرحلة أعلى مستوى في تحركات هذه المرأة الصومالية المعادية للإسلام.

لم يمر خطاب البابا بنديكتوس السادس عشر في 12 سبتمبر 2006 في جامعة راتيسبون الألمانية حول علاقة الإيمان بالعقل وهجومه على الإسلام حينربطه بالعنف مستشهدا بكاتبين قديمين، واحد من القرن الحادي عشر هو ابن حزم، والثاني من القرن الرابع عشر وهو الإمبراطور البيزنطي عمانوئيل الثاني والذي أعقبه ردات فعل قوية في العالم الإسلامي خاصة، وقد كان بإمكان البابا حسب **تودوروف** أن يقدم نماذج عن "العنف أو اللاعنف لدى المسيحيين كما لدى المسلمين على حد سواء. فالخياران يتشابهان على الصعيد التاريخي، ولكنهما لا يكونان كذلك لو نظرنا إليهما من الوجهة الأخلاقية -لأن البابا شخصيا هو مسيحي"(تودوروف، 2009، ص: 160). وما زاد الأمر تعقيدا أن خطابه تعدى مدرجات الجامعة إلى العالم بأسره.

من هذا المنطلق، لا ينكر **تودوروف** على خطاب البابا رفضه العنف لكن الأولى به التوقف عند العنف المسيحي بدل الإسلامي، لهذا كان ما أقدم عليه غلطة وتصرفا غير موفق، "لكن ردات الفعل التي أثارها تخطت عتبة الجرم، إن الخطوة الأولى لا تبرر ما أتى من بعدها، حتى وإن كان الخطاب يبين مرة جديدة أن التصريح الجازم بأن الآخرين هم لاعقلانيون وعنيفون لا يعتبر الوسيلة الفضلى لدفعهم باتجاه قدر أكبر من التعقل وقدر أقل من العنف"(تودوروف، 2009، ص: 162).

خامسا- حرية التعبير والإسلام:

توقف **تودوروف** عند الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول عليه الصلاة والسلام المنشورة في 30 سبتمبر 2005 في صحيفة "يولاند بوستن" الدانماركية، وقد جاءت على خلفية مقتل فان غوغ، وأدت إلى ردود فعل من بعض ممثلي المجموعة الإسلامية على هذه الصور واستنجادهم بوسائل الإعلام، كما بالسلطات الدينية والسياسية في البلدان الإسلامية، وازدياد الاحتجاجات والتظاهرات المعادية للدانمارك. ولفهم هذه القضية يعود بنا **تودوروف** إلى طبيعة المجتمع الدانماركي الذي لم يعرف الكثير من الأجانب، إذ كان الجيل الأول منهم ""عمالا مدعوين". وقد أثار ازدياد عددهم بشكل بسيط أحزاب اليمين المتطرف التي وصفت المهاجرين بأنهم محتلون جدد (بعد الاحتلال الألماني إبان الحرب العالمية الثانية)، وكأنهم تهديد لـ "القيم الدانماركية"...، والمهاجرون المسلمون هم الذين يلاحظ وجودهم بشكل خاص، لذا فهم يثيرون الرفض الأقوى، من هنا أنشأت الإدارة فئة خاصة أسمتها "المتحدرون" لتدرج فيها أولاد المهاجرين، حتى الذين ولدوا على الأراضي الدانماركية"(تودوروف، 2009، ص: 141)؛ وهذا ما يعني أن حزب الشعب الدانماركي ودعايتها الانتخابية عزز الكراهية ضد المهاجرين والمسلمين خاصة برفع شعارات صريحة معادية للإسلام، ووجدت هذه المواقف المتشددة من يقف معها في البرلمان.

شكلت إدانة الإسلام ومهاجمته واجهة لتمرير رفض المهاجرين في أغلب الأحيان، و"كان الهدف المباشر يتلخص في إثبات أنه يمكننا أن نقول كلاما مسيئا عن الإسلام دون الخوف من أن تلقى مصير فان غوغ. وقد قدم رئيس تحرير الجريدة الموضوع في افتتاحية بعنوان "التهديد الآتي من الظلمات"، يأسف فيها لـ "الحساسية المفرطة للمسلمين"(تودوروف، 2009، ص: 142). ورغم أن الرسومات بحد ذاتها ليست شديدة العدائية حسب **تودوروف** إلا أن ما يمنحها الطبيعة الاستفزازية "هو الإطار الذي نشرت فيه: إنها

لا تعبر عن الحق في حرية القول بقدر ما هي تهجم على الإسلام والاستهزاء بالنبي الذي هو شخص مقدس لدى المسلمين"(تودوروف، 2009، ص: 142)؛ ما يعني أن تبرير هذه الرسوم الساخرة المتهكمة هو حرية التعبير المستغربة على حد قول **تودوروف**.

إن الدفاع عن حرية التعبير من خلال انتقاد الإسلام أو التهكم عليه أمر مشروع على خلاف لو طلب رئيس التحرير أن تتم السخرية من الرجال السود أو النساء السمينات، هنا سيتحول الأمر إلى إخلال باللياقة بشكل عام. فالهدف الأساس إذن "التشكيك بمشروعية التعاليم الإسلامية، وفي آخر المطاف إظهار المسلمين بأنهم غير متسامحين"(تودوروف، 2009، ص: 143).في المقابل يذكرنا **تودوروف** بالكثير من المواقف التي توهمنا بحدود تسيج حرية التعبير التي لا ينبغي أن نتخطاها، ومنها "حكم صدر على المؤرخ الإنكليزي دايفيد إيرفنغ في النمسا المشكك في وجود مجازر جماعية ألمانية بحق اليهود بالسجن لثلاث سنوات، وتمكن الأساقفة الفرنسيون عبر القضاء من منع دعاية منسوخة عن لوحة "العشاء السري" لليوناردو دي فينشي لأنها اعتبرت مسيئة لمشاعر المسيحيين، وطلب رئيس الاتحاد المسيحي الاجتماعي الألماني إدموند ستويبر إلغاء الفيلم التركي وادي الذئاب من البرنامج المقرر لأنه فيلم حاقد وعنصري ومعادي للغرب"(تودوروف، 2009، ص: 144).

إن مواجهة رئيس الوزراء الدانماركي طلب ممثلي منظمة المؤتمر الإسلامي برفض قاطع متذرعا بمبدأ حرية التعبير هو تصرف غير لائق في حق مجموعة تشعر بالإهانة، إذ كان يمكن التخفيف من وطأة هذه الحادثة "باستقبالهم، وإظهار الاحترام لهم والاهتمام بهم، والتفسير لهم لماذا لا يريد المس بحرية الصحافة، وإرشادهم إلى الصيغة القانونية التي يمكن أن يتخذها احتجاجهم... إن عدم تصوير الرسول هو من المقتضيات الفقهية البحتة (تحريم التصوير في الإسلام)، ويمكن لوسائل الإعلام الأوروبية ألا تأخذه بعين الاعتبار؛ في المقابل، ... يمكن أن يسيء لا للفقه، وإنما للمسلمين أنفسهم، لأننا بذلك نلمح إلى أنهم جميعاً إرهابيون أو أن بث الرعب يتأتى من الإسلام"(تودوروف، 2009، ص: 147)؛ ما يعني أن حدود حرية التعبير كان بإمكانها أن تقنن حين يتعلق الأمر بمراعاة مشاعر جماعة ثقافية، واحترام موروثهم الديني، ومعاملة المسلمون كما هو الشأن بالنسبة لليهود حيث يعد أي انتقاد لهم معاداة للسامية.

إن التحفظات التي صاغها **تودوروف** حول قضية الرسوم الكاريكاتورية لا تعني إلغاء المبادىء المؤسسة للديمقراطية الليبرالية، لكن بشرط مراعاة "الأمور الفقهية [التي] لا يجب أن تتضارب مع الأمور السياسية، ويجب حماية الحرية وتعدد وسائل الإعلام، ... إن التسامح مع الآخرين يتم بسهولة أكبر حين يستند إلى قاعدة التشدد إزاء كل ما لا يمكن التسامح فيه، ... لكن في المقابل لا بد من التذكر أن أفعالنا المعلنة لا تتم في حيز مجرد، وإنما بالضرورة في إطار تاريخي واجتماعي"(تودوروف، 2009، ص: 155)؛ ما يعني الأخذ بعين الاعتبار ما يعزز مبادئ التسامح بين المهاجرين في أوروبا وسكانها الأصليين بما يبني لبنات الاحترام بين الجميع، والاعتراف بكرامة متساوية لمختلف أعضاء المجتمع؛ لأن "الحرية اللامحدودة تقتل الحرية"(تودوروف، 2009، ص: 156).

خاتمة:

نخلص من خلال ما سبق إلى مجموعة من الملاحظات والنتائج نجملها في الآتي:

- لامس **تزيفتان تودوروف** مسألة الإسلام من كل الجوانب وفق معرفته المحدودة بهذا الدين، فكان متحفظا في بعض القضايا برفضه لأشكال القتل وأعمال العنف الجماعية، وشجاعا في بعضها خاصة حين اعتبر الرسم الكاريكاتوري في الصحافة ليس لوحة معلقة في صالة عرض.
- ميز **تودوروف** بين انتقاد شجاع لإيديولوجيا يتبناها عدد كبير من الناس، وتمييز حاقد يستهدف مجموعة مهمشة، وبين ضوابط تحكم تهكمنا من ذواتنا وتصرفاتنا، وبين عادات وتقاليد وثوابت تحكم الآخرين بكل خصوصياتهم وحساسياتهم.
- اقترح **تودوروف** على حكام بلدان العالم الإسلامي الغنية أن يستعملوا عائدات بلدانهم من الموارد الطبيعية كالغاز والنفط، في تحسين الوضع الاجتماعي والتعليمي بدل توظيفها فقط في الدفاع عن الإسلام ونشر رسالته، أي في التأكيد على الهوية الثقافية التقليدية.
- انتقد **تودوروف** الهجمة الشرسة على الإسلاميين والمسلمين في أوروبا واستهدافهم، واقترح إيجاد حلول لمحاولة اندماجهم دون المساس بعقيدتهم الدينية الراسخة، ذلك أن شعور المرء بأنه محترم ضمن ما يعتبره هويته الجماعية يقوده إلى الانفتاح على الآخرين، وليس إلى الانغلاق الدفاعي داخل جماعته.
- دعا **تودوروف** إلى وضع حد فاصل بين الإسلام بوصفه دينا والانتماء الإسلامي داخل حزب، فالصورة النمطية عن الإسلام لا تؤكد صحتها وإن تواترت، خاصة أن أئمة المساجد ليسوا قدوة للشباب حاليا، وليس القرآن هو من يغذي تفكيرهم بل الصور التلفزيونية هي من تبرز الثراء والتفاوت الطبقي في العالم.
- رفض **تودوروف** صبغ الحركة الإسلامية بصيغتها الدينية بل السياسية، وتجنب الخلط بين الحركات الإسلامية والإرهاب، فالانتماء إلى حركة إسلامية هو إيديولوجيا لا تقود إلى أعمال عنف إلا في بعض الظروف الخاصة، أما الإرهاب المعاصر نشاط لا يرتبط بالدين لا في أصوله ولا في أهدافه.

توصيات:

من خلال قراءتنا لأعمال الناقد **تزيفتان تودوروف** الذي لم تنل دراساته عن الإسلام والشرق اهتماما من لدن الباحثين العرب نوصي بالالتفات أكثر إلى هذه الدعوات الإنسانية النبيلة من أقلام غربية تم طمس منجزاتها الجريئة، والاهتمام بإبراز دور مثل هذه الأصوات في دحض مقولة صراع الحضارات وتبرير الهجمات الشرسة على المسلمين أينما كانوا، والذين يتعرضون في بعض البلدان كالصين والهند وبورما للتصفية العرقية والتعذيب بكل أشكاله.

قائمة المصادر والمراجع:

- تزيفتان تودوروف، اللانظام العالمي الجديد (2006)، دار الحوار للنشر والتوزيع (اللاذقية)
- تزيفتان تودوروف، روح الأنوار، (2007)، دار محمد علي للنشر (تونس)

- تزيفتان تودوروف، الخوف من البرابرة، ما وراء صدام الحضارات، (2009)، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، (أبوظبي)

- تزيفتان تودوروف، تأملات في الحضارة والديقراطية والغيرية، (2014)، وزارة الثقافة والفنون والتراث (قطر)

- تزيفتان تودوروف،"حين نصير جزءا من الشر"، (1 أكتوبر، 1990)، الكرمل، قبرص، ع38 .

- تزيفتان تودوروف،"تفاعل الثقافات"، (1 أبريل، 1993)، فصول، القاهرة، ع2.

- تزفتان تودوروف،"في لقاء الآخر حديث مع تزفتان تودوروف"، (1 مارس، 2004)، نوافذ، السعودية، ع27.

- تزيفتان تودوروف،"بورتريه منحاز"، (1 يوليو، 2004)، أوان، البحرين، ع6،

- تزيفتان تودوروف،"مشروع الأنوار؟"، (1 أبريل، 2008)، الأزمنة الحديثة، المغرب،ع1.

الفكر الاستشراقي عند الكُتَّاب العرب بين التبني والتخلّي.
_دراسة مقارنة-مالك بن نبي وطه حسين أنموذجا _

The Orientalist Thought of Arab Writers Between Adoption and Abandonment.
_ Comparative Study - Malik Bin Nabi and Taha Hussein Model

ط/د. مسعودي فتيحة، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف- الجزائر
f.messaoudi91@univ-chlef.dz



لقي موضوع الاستشراق اهتماما واسعا لدى العديد من العلماء والباحثين العرب والمسلمين،باعتباره حركة تناقضت حولها وجهات النظرتجاه ما يحمله الفكر الاستشراقي للثقافة العربية الاسلامية،ليجد الاستشراق ككل نفسه بين القبول أوالرفض لدّى المفكرين العرب ليتضح لنا أن هناك من سلّم بأن تأثيراته كانت بالإيجاب على الحضارة العربية أمثال طه حسين ومنهم من رأى عكس ذلك كمالك بن نبي الذي يرى أنه يحمل في طياته سموما تنخر بالأمة الاسلامية، مشيرين لقول العقاد:**"فالعداء بين الاستعماروالاسلام عداوة تاريخية،جغرافية،نفسية وتلك هي من أصعب العداوات وأعمقها وأعصاها على التوفيق والنسيان"**؛أما هدفنا من هذه الدراسة هو تأكيد ان الفكر الاستشراقي كان ولا يزال جزءا لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الاسلامي والغربي عدم التقليل من شأنه، من اهم النتائج انها تسعى لتحريف هويتنا والتشكيك في ديننا.

الكلمات المفتاحية: الفكر الاستشراقي، مالك بني نبي، طه حسين.

Abstract :

The issue of Orientalism has received wide attention among many Arab and Muslim scholars and researchers, as it is a movement around which there are contradictory views towards what the Orientalist thought carries in the Arab Islamic culture, so that Orientalism as a whole finds itself between acceptance or rejection among Arab thinkers. Arab civilization, such as Taha Hussein, and some of them saw the opposite, such as Malik bin Nabi, who believed that he carried in his folds poisons that devour the Islamic nation, pointing to what Al-Akkad said: “The enmity between colonialism and Islam is a historical, geographical, and psychological enmity, and this is one of the most difficult, deepest, and most disobedient hostilities to reconciliation and oblivion.” Our goal in this study is to confirm that Orientalist thought was and still is an integral part of the issue of civilizational conflict between the Islamic and Western world, not to underestimate it, one of the most important results is that it seeks to distort our identity and question our religion.

Keywords: Orientalist thought, Malik Bani Nabi, Taha Hussein.



مقدمة :

شكل موضوع الاستشراق هاجسا لدى الباحثين والنقّاد العرب،بحيث تضاربت الآراء فيه حول الأهداف الحقيقية التّي يتستّر وراءها،لهذا نجد أنهم أولوه عناية كبيرة في الدّراسة والأبحاث،باعتباره من أهمّ المسائل التّي تواجه عالمنا الإسلامي والتّي أثرت ولازالت تؤثر الى يومنا هذا،ففي نظر البعض منهم أنّ له علاقة بالدوائر الاستعمارية والتبشير والتوجهات الحضارية ككلّ،وذلك بما حمل في طيّاته من أهداف وأخطار على المجتمع العربي و الإسلامي،وباعتبار أنّ الدّراسات والأبحاث التي اعتمد عليها علماء الاستشراق ما هي الاّ تعميق لروح العداء الصليبي للإسلام ،فقد حاول الكاتب أنور الجندي أن يصوّر لنا الخطر الأكبر الذّي يواجه فكر وعقيدة المسلمين،ولكن كانت هناك ردة فعل ووجهات نظر مختلفة بين الأدباء المسلمين فمنهم من كان له الرفض المطلق لجهودهم وأفكارهم ويراهم شرّا على المجتمعات الإسلامية ونبّه على ضرورة أخذ الحيطة والحذر منهم،ومنهم من رأى عكس ذلك فسلّم بآرائهم وأيدّ نظرياتهم ومن هذا الطرح ستكون إشكالية بحثنا على النحو التالي:**ماهو موقف أدباء العرب المسلمين وردّة فعلهم من الفكر الاستشراقي؟**

ونظرا لأهمية الموضوع قد خصصنا في دراستنا التركيز على عيّنة من موقفين مختلفين تجاه الفكر الاستشراقي،وهنا يتحدّد لنا موقف العلامة مالك بن نبيّ الذّي ينسب للمستشرقين أهدافا ونوايا خبيثة مشبوهة معادية للعرب والمسلمين،وموقف الأديب المصري طه حسين الذّي يرى عكس ذلك تماما بل اجتهد للتعريف بأفكارهم والسير على مناهجهم والدعوى للانقياد وراءهم متناسيا بذلك هويته العربية الاسلامية.

أولاّ-الفئة الر افضة بالتسليم للفكر الاستشراقي والمتعصّبة لحركة الاستشراق ككلّ.

1/المفكّر الجز ائري مالك بن نبيّ (أنموذجا).

أ/مولده ونشأته:اسمه مالك بن الحاج عمربن لخضر بن مصطفى بن نبيّ ولقد اشتهر باسم**"مالك بن نبيّ"**.(العقبي، مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة(رسالة ماجيستر)، 2005م، صفحة 28)ولد مالك بن نبيّ بمدينة قسنطينة إحدى مدن الشرق الجزائري في 05 ذو القعدة 1323هـ الموافق ل:01 يناير 1905م،وهو الابن الوحيد في أسرته الفقيرة بالإضافة الى ثلاثة بنات توفيت إحداهن وهو صغير،عمل أبوه موظفا بسيطا في الإدارة الحكومية بتبسة برتبة خوجة، بينما كانت أمّه السيدة"زهيرة " تساعد والده في تحسين دخل البيت عن طريق العمل في الخياطة.(العقبي، مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة، 2005م، صفحة 28).

ولقد نشأ مالك في أسرة متدينة لها اطلاع على مجريات الأحداث متأثرا بالواقع الأليم الذي أصاب الجزائر.(صالح، 2015م، صفحة 03)تلقى تعليمه الابتدائي والمتوسط وأكمل دراسته الثانوية في قسنطينة عام 1925م، في هذه المرحلة من الشباب القريبة من مرحلة النضج بدأ يتكون وعيه متأثرا في

ذلك بالحركة الإسلامية التّي كان يقودها عبد الحميد بن باديس في قسنطينة، والتّي تنّم عن صحوة فكرية بالدّرجة الأولى،ومالك بن نبيّ شخصية فذّة دخلت التاريخ من بابه الواسع وعرفت كيف تربط وتتناغم بين العناصر الحيوية في الحياة (التربة، الإنسان والثقافة)، وتمزج بين هذه العناصر بالثقافة ليعطي بن نبيّ بذلك مفهوما للحضارة،فهو يسعى من خلال أفكاره وتوجهاته الى صناعة رجال الحضارة،والتميز بشخصياتهم وثقافتهم عن الحضارة الغربية.(مسعودان، د.ت، صفحة 128). ولمالك بن نبيّ عدّة مؤلفات من بينها"**إنتاج المستشرقين و أثره في الفكر الإسلامي الحديث"** موضّحا فيه ماهية الاستشراق وأثره في الفكر الاسلامي(نبي، انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الاسلامي الجديث، 1969م، صفحة 25)وبما أنّ موضوعنا نتحدّث فيه عن رؤية الكتّاب العرب للفكر الاستشراقي سنشير الى موقف المفكر مالك بن نبيّ من حركة الاستشراق ككلّ،في حين يعتبر بن نبيّ من أوائل المحدثين في معالجة مشكلات الحضارة بمنهجية علمية دقيقة وهو على وجه الخصوص أو من المفكرّين المسلمين ممن غاصوا حديثا عن أعماق الحضارتين الغربية والإسلامية .

2/ موقفه من الفكر الاستشراقي:

تتضّح رؤية مالك بن نبيّ اتجاه حركة الاستشراق والمستشرقين من خلال ما جاء فيكتابه"**انتاج المستشرقين و أثره في الفكر الإسلامي الحديث" قائلا:**...يتبين لنا أنّ الإنتاج الاستشراقي كان شرّا على المجتمع الاسلامي،لأنّه ركب في تطوره العقلي عقدة حرمان سواء في صورة المديح والإطراء التّي حولت تأملاتنا عن واقعنا الحاضر وأغمستنا في النعيم الوهمي الذّي نجده في ماضينا،أو في صورة التفنيد والإقلال من شأننا بحيث صيرتنا حماة الضيم عن مجتمع منهار،مجتمع ما بعد الموحدّين بينما كان من واجبنا أن نقف منه عن بصيرة طبعا ولكن دون هوادة، لا نراعي في ذلك سوى مراعاة الحقيقة الإسلامية غير المستسلمة لأيّ ظرف في التاريخ دون أن مسلم لغيرنا حق الصداع بها والدفاع عنها لحاجة في نفس يعقوب".(زقزوق، 1997م، صفحة 11).

ويشير أيضا في نفس الكتاب قائلا:..."عندما يعلن الاستشراق أنّه لا نصيب للعرب من تشييد صرح العلوم،وربما يؤدي بنا هذا الموقف المتطرف الى تلافيه بعلمانية سطحية"،فنلتمس وبصدق من خلال هذا القول الكمّ الهائل من الاحتقار والضغينة والحقد الذي يكنّه المسيحي للمسلم فهو لا يتجردّ من بيئته التّي ترعرع فيها بأنّ الإسلام ونبيّ الإسلام مرتبطان بكل ما يمدّ بصلة للعنف والكراهية والحقد وغيرها .

ويضيف في هذا الصدّد محمود زقزوق :" هذا أمر ليس بمستغرب،ذلك أنّ الاستشراق في حقيقة الأمر كان ولا يزال جزءا لا يتجزأ من قضية الصّراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي"،بل يمكن أن نذهب الى أبعد ذلك ونقول :"أنّ الاستشراق يمثّل الخلفية الفكرية لهذا الصّراع،ولهذا فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر على أنّه قضية منفصلة عن باقي دوائر الصّراع الحضاري,فقد كان الاستشراق من غير شكّ أكبر الأثر في صياغة التصورات الأوربية عن الإسلام، وفي تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام

عن مدى قرون عديدة(بوزقاو، الاستشراق بين الرفض والقبول في الثقافة العربية (أطروحة دكتوراه)، 2019/ 2020م ، صفحة 89)فالملاحظ هنا أن رؤية الكاتب تتجّه بنفس اتجاه وتفكير بن نبيّ في تحليل الفكر الاستشراقي.

فمالك بن نبيّ ظاهرة فكريّة ظهرت في العالم العربي المعاصر،درس الفكر العربي عن طريق الفكر العربي الاستشراقي وواجه الاستشراق .(نبي، انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الاسلامي الحديث، 1969م، الصفحات 6- 8)من خلال دراسته لأفكار وخبايا علماء الاستشراق التي في نظره أنّها حركة وليدة النهضة الأوربية المعادية للنهضة الإسلامية وليست مجرد دراسة من العدم يكتفي فيها بنقد أفكارهم ونظرياتهم كونه من العرق العربي،وقد تميزت كتاباته بالنظر والبحث والنقد،وفي كتابه هذا صنّف المستشرقين الى طبقات وبيّن لنا أنّ أفكار المستشرقين لها أثر بالغ في المجتمع العربي فيذكر في كتابه:"...فمن الواضح أنّ المستشرقين القدماء أثروا ولا يزالون يؤثرون عن مجرى الأفكار في العالم العربي دون أبحاث تأثر على أفكارنا نحن معشر المسلمين"ويشير أيضا:" أنّ ما كتبوا كان قطعا المحور الذّي تحركت حوله الأفكار التّي نشأت عنها حركة النهضة في أوربا،بينما لا نرى لهم أي أثر فيما نسميه النهضة الإسلامية اليوم".(شاكر، رسالة في الطريق الى ثقافتنا ، 1407هـ، الصفحات 48- 49).

وقد تساوت وجهات النظر بين مالك بن نبيّ ومحمود محمد شاكر لحدّ ما بالنسبة لنظرتهم للمستشرقين،فقد ورد كتاب هذا الأخير **"رسالة في الطريق إلى ثقافتنا"**: ...أنّ المستشرقين هم أهمّ طبقة تمخضت عنها اليقظة الأوربية لأنّهم جند المسيحية الشّمالية والذّين وهبوا أنفسهم للجهاد الأكبر،ورضوا لأنفسهم بين الجدران المختفية وراء أكداس من الكتب بلسان غير لسان أممهم التي.(شاكر، رسالة في الطريق الى ثقافتنا ، 1407هـ، صفحة 53) وعلى علمهم وخبرتهم وتجاربهم رسّت دعائم **الاستعمار** ورسّخت قواعد **التبشير**.(شاكر، رسالة في الطريق الى ثقافتنا ، 1407هـ، صفحة 51) فمع اليقضة ازدادت الأهداف وضوحا وجلاء،وازدادت الوسائل دقة وتحديدا وشمولا (بوزقاو، الاستشراق بين الرفض والقبول في الثقافة العربية (أطروحة دكتوراه)، 2019/ 2020م، صفحة 89).

كما واجه مالك بن نبيّ في كتابه المنهج الدّيكارتي بالمنهج الرّباني "القرآن الكريم" فهو يرى أنّ المنهج القرآني أول عمل للفكر الإسلامي بل أول عمل علمي للفكر البشري من نوعه ويقول بن نبيّ: أنّ القرآن الكريم لم يأت قطعا،وبصورة مباشرة ولا بالحساب العشري ولا بالجرّ ولكنّه أتى بالمناخ العقلي الجديد الذّي يتيح للعالم أن يتطور.(نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الاسلامي الحديث، 1969م، صفحة 48).

إذن فالقرآن الكريم أعظم معجزة خالدة لحدّ اليوم وأنّ القرآن الكريم منهج المجتمع،وهو أساس قيام العلم والفكر في هذا العالم،وليس مبني على ما كتبته أقلام المستشرقين، فنحن الآن في معركة فكريّة ويجب أن نحددّ موقفنا إمّا أن نواجههم أو نتبعهم ويدعو المفكر مالك بن نبيّ لعدم الاستسلام مشيرا في

ذلك إلى القول:" ...**علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية واستغلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادي والسياسي"**،(نبي، انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الاسلامي الجديث، 1969م، صفحة 48)موضحالنا كيفية التخلصّ من التبعية في قوله هذا**"يجب أن نضيف له أنّ المجتمع الذّي لا يصنع أفكاره الرئيسية لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه ولن يمكن للمجتمع في عهد التشييد أن يشيدّ بأفكار المستوردة أو المسّلطة عليه من الخارج سواء كانت منتمية إلى الاستشراق أو الشيوعية.**(عللوه، الغزو الفكري والرد على افتراءات المستشرقين ، 2002م، صفحة 94)وقد ورد أيضا في كتاب محمد عللوه مشيرا فيه لقول بن نبيّ: **إنّ استدراك العقل المسلم لتخلّفه التاريخي لن يكون ممكنا إذا كانت الإرادة مصفدّة بأغلال التخلّف،والتغريب ولذا يجب تصفية هذه العوامل من إطار الممارسة الحضارية حتى تصفو الشخصّية الإسلامية الحضارية المسلمة من عوامل الإعاقة وتنطلق نحو مقوماتها العقدية التّي صاغت إنسان الحضارة الإسلامية الذّي غيّر حركة التاريخ"**،وقد تمّ ذلك كلّه للمستعمر بالغزو الفكري المتمثل بالمدارس والجامعات والمرأة ،والهدف من ذلك هو تدمير العالم الإسلامي وتشتيت أبناء المسلمين وتنشئتهم على حب الغريب والتسبيح بحمده وثقافته وعلومه وتقاليده ولباسه وطعامه وشرابه.(عللوه، الغزو الفكري والرد على افتراءات المستشرقين، 2002م، صفحة 94) تماما كما ذكر **رسول الله صلّى الله عليه وسلم:**

" لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا وذراعا بذراع ولو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم".(عللوه، الغزو الفكري والرد على افتراءات المستشرقين ، 2002م، صفحة 95).

وجاء قول توينبي مؤكدا لرأي ونظرة مالك بن نبيّ حول الفكر الاستشراقي و تحليله قائلا: ولقد مكنّ هذا الغزو الثقافي والفكري _وهو الحرب الباردة_لأولئك الغربيين السيطرة على الأرض بالاستعمار،وعلى الفكر بتشويه حقائق الإسلام والدّين والقرآن والنبوة... وذلك بعدما غيّروا مخططاتهم السّابقة واستهدفوا قتل الإنسان المسلم وتسميم عقله وتشويه ثقافته ودينه عبر ذلك،وقد تركز الغزو الفكري بعد أن طعنوا بلغة القرآن وحاولوا القضاء عليه وطعنوا بنبيّ الإسلام وبالإسلام نفسه كمنافس للنصرانية،ثم التركيز على تشويه التّاريخ والحضارة والتراث الإسلامي".(الجندي، خصائص الأدب العربي في مواجهات نظريات النقد الأدبي الحديث، 1985م، الصفحات 244- 245).

فالدّارس لكتاب مالك بن نبيّ الذّي اعتمدنا عليه بشكل كبير**"إنتاج المستشرقين و أثره في الفكر الإسلامي الحديث** "يستخلص أنّ **موقفه** كان واضحا وهو **الرفض والمعارضة للفكر الاستشراقي**، وذلك من خلال ما يستنهض به شباب المسلم للقضاء على هذا الخطر الذّي يداهمنا في عقر دارنا،ويدعوهم من خلال كتاباته اخذ الحيطة والحذر بما يدّعيه المستشرقون وبما جاؤا من أجله متنكرين بذلك في لباس

الاكتشافات، وتحت غطاء البحث والتعلّم وغيرها من الأقنعة متنكرين بها،حاملين في كيانهم سهاما وسموما لطمس هويتنا وحضارتنا العربية الإسلامية .

ثانيا- الفئة المؤيدة والمسلّمة بالفكر الاستشراقي .

لا تزال طلائع الاستشراق تحاول أن تحفر في الأدب العربي والحضارة الإسلامية مجرى زائفا تعلي بعض التابعين من أدباء الرّفض والحاقدين على العرب والإسلام،وقد جمعهم (جاك بيرك)في كتابه **مختارات من الأدب العربي** الذّي أصدره عام 1964م،حين تجاهل عمدا كل أصحاب الأصالة والنتاج المتحرّر من شبهات التغريب وتبعية الانحراف نحو مناهج الاستشراق والتغريب،وهو في كتابه يجري مع منطلق **نيكلسون**(**Nikilson**) وغيره فيعلّي شأن ما وصف بأنّه النهضة التّي قامت بها الإرساليات في بيروت،ويتجاهل ما سبقها من أصول اليقظة الإسلامية الحقيقية برجالها ودعواتها،ويركز كعادة الاستشراق على البستاني،اليازجي، جرجي زيدان والذّين أوفدتهم الإرساليات،ثم ينتقل الى جيل المهجر،جبران ونعيمة ثم يصل إلى **طه حسين :الذّي وصفه بأنّه قام بدور البطل وحمل لواء الشرعية العقلية في أدب البحر المتوسط**.(الجندي، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، 1975م، صفحة 255)فقد أثر الاستشراق في الكثير من أدباء العرب والباحثين والدّارسين من خلال دراستهم على أيدي أساتذة غربيين،ومن خلال البعثات العلمية والدّراسية بغية التماس مناهج جديدة في النقد،وحتى في ميادين أخرى،وقد ظهرت نتائجه بوضوح على ما قام بتطبيقه كل من أحمد ضيف وعميد الأدب العربي طه حسين،إضافة إلى اتصالهم بالمستشرقين خارج المعاهد مثل أمين خولي.(فوزي، 1998م، صفحة 01).

فيقول فاروق عمر فوزي فيه: "**طه حسين أصدر كتابه في الشعر الجاهلي،وجاء فيه بأراء شكك فيها بنصوص دينية وكذلك بروايات من الشعر الجاهلي،متأثرا بنظرية ديكارت وهذا قليل من كثير وغيض من فيض في بعض مؤلفات و أبحاث طه حسين**"،(بوزقاو، الاستشراق بين الرفض والقبول في الثقافة العربية (أطروحة دكتوراه)، 2019/ 2020م، صفحة 117)،فقد أثر المستشرقون ونظرياتهم على أدبائنا لاسيما"**طه حسين**" الذّي يعد عميلا بارزا من عملاء الغرب،فقد أعلن تبعيته الواضحة لأراء المستشرقين ومناهجهم فهو مزيج لحضارتين حديثتين(الغرب،الشرق).(الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الاسلام ، 1977م، صفحة 21).

1/الأديب المصري طه حسين (أنموذجا):

1/1المولد والنشأة:ولد طه حسين في قرية الكليو(إقليم المينا)عام 1889م،ودخل كتّاب القرية شأن أترابه في ذلك العهد،حتى حفظ القرآن وكان قد كفّ بصره في العام الخامس على اثر مرض لم يعالج علاجا حاسما،ثم قصد القاهرة وكان شقيقه محمد قدّ سبقه إليها فدخل الأزهر عام 1902م وبقي بها حتى

عام 1905،عندما التحق بالجامعة المصرية في أوّل نشأتها وكانت تضم عددا من المستشرقين الفرنسيين والايطاليين **(جويدي_ليتمان_نلبينو_سانتلانا_ملبوني_ماسنيون)**،وبذلك عرف بيئة المستشرقين الذّين وجدوا فيه شابا طموحا ناقما على الأزهر،فعملوا على إشباع نفسه بالآمال في بيئة الغرب وتأريث الكراهية لبيئة الأزهر ثم الإسلام نفسه، وقد أشار في مذكراته أنّه اصطحب سانتلانا إلى الأزهر فحضر معه درسا في التفسير كان يلقيه الشيخ سليم البشرى،وكان يفسّر آية **"ولو أنّنا نزلنا عليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلاّ أن شاء الله** "فاعترض طه على تفسير الشيخ قائلا:هذه جبرية مطلقة فأجاب الشيخ البشرى من أين تعلمت هذا الكفر من أساتذتك الافرنج؟.(حسين، الأيام، 1992م، الصفحات 36- 37).

فتعرف طه حسين على طلائع المستشرقين أكثر في الجامعة المصرية القديمة عندما تلقى تدريسه على أيدي أساتذة أجانب،ولقد أعجب طه حسين بذلك،ويقول في كتابه الأيام "هذا الأستاذ **كارلو نالينو** المستشرق الايطالي يدرس باللغة العربية تاريخ الأدب والشعر الأموي،وهذا الأستاذ **سانتلانا** يدرس بالعربية تاريخ الفلسفة الإسلامية وتاريخ الترجمة بخاصة، ...وإذا الفتى يخرج من حياته الأولى خروجا يوشك أن يكون تاما لكن عقله قد نأى عن بيئته هذه نأيا تاما واتصل بأساتذتها أولئك اتصالا متينا(بوزقاو، الاستشراق بين الرفض والقبول في الثقافة العربية (أطروحة دكتوراه)، 2019/ 2020م ، صفحة 117).

2/موقفه من الفكر الاستشراقي والثقافة الغربية:بعد احتكاك طه حسين بالمستشرقين انفتحت شهيته للتعرّف على الغرب ومناهجه وثقافته،وقد دعا لطفي السيدّ وعبد العزيز جاويش،للانفتاح على الحضارة الغربية وقال له هذا الأخير:"لابدّ من أن نصنع شيئا لإرسالك إلى فرنسا،عامين أو ثلاثة أعوام،وبهذه الخطوات انتقل طه حسين الى فرنسا وألقى بنفسه في أحضانها فسافر الى فرنسا للدّراسة به في الفترة (1914_1919م) وتتلمذ على يد أساتذتها(بوزقاو، الاستشراق بين الرفض والقبول في الثقافة العربية (أطروحة دكتوراه)، 2019/ 2020م، صفحة 117)أعجب طه حسين بطريقة المستشرقين،وتأثر بها وخضع لها بل ودافع عنها بعد ذلك دفاعا واسعا في كل كتاباته،فتلقى مفاهيم الفكر الإسلامي من خلال منهج المستشرقين،وخاصة فيما يتعلق بالقرآن ودراساته والشريعة والتّاريخ،قد اعترض عن ذلك في الأزهر،ثم انتقل إلى حلقة الشعر والأدب،ليعلن بعدها التقدير لتاريخ الرّومان وأدب اليونان على نحو أقنعه بأنّ هذا التراث هو مصدر الفكر البشري وأنّ الفكر الإسلامي تأثر به.(الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الاسلام ، 1977م، صفحة 58).

أثارت أفكار طه حسين جدلا كبيرا ومعارك فكرية بين علماء عصره وحتى المستشرقون أنفسهم،فقد نقل إلينا أفكار الغرب وفق أسلوب الاستشراق في إثارة الشكوك وهو في نفس الوقت يكشف لنا عن أعماقه التّي آمنت بالفكر الغربي في أشدّ أحواله عنفا وشكا واختلاطا واضطرابا،فيتكلم عن الحضارة

الإغريقية "أنا مفتون بأثينا وفلسفتها،وفلاسفتها وحريتها وزعمائها".(الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الاسلام ، 1977م، صفحة 119).

وفي عام1932م قد تغيرت الحكومات والأحزاب،أخرج من الجامعة وأعيدت مناقشة أحاديث الشعر الجاهلي،وضجّ مجلس النواب بالثورة التّي ألهبها الدكتور عبد الحميد سعيد والتّي كشفت الأسلوب الذّي كان يتعامل به طه حسين مع الطلاب في دعوته إياهم إلى نقد القرآن بوصفه كتابا أدبيا،وفي الجامعة عمل أيضا على فرض اللغتين اليونانية واللاتينية بغير حاجة إليهما وأنشأ القسم الفرنسي واستقدم المستشرقين الأجانب،وثارت من أجل ذلك تأثرات لم تهدأ،دافع فيها عن هذا الاتجاه التغربي الذّي أنشأه ودعمّه وعزّزه خلال حياته الجامعية والحكومية كلها .(الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الاسلام ، 1977م، صفحة 58).

وكان طه حسين حريصا على أن يفتح الطريق لخططه في الدراسة بالإشارة إلى استقلال الجامعة،إلى أنّها أدخلت مفاهيم البحث الحرّ عن حقائق العلم والأدب لأول مرة في تاريخ مصر الحديث، وسرعان ما تكشفت أولى ثمار هذا المنهج الذّي استقدمه الدكتور من الغرب وفرضه على التعليم الجامعي،عندما طبع مجموعات محاضراته عن الشّعر الجاهلي،وتبين منها كيف أباح طه حسين لنفسه التعريض بكثير من القيم الأساسية للإسلام بالنقد والسخرية والتحريف،وخاصة ما يتصل بالقرآن ومن ذلك إنكار الشخصيتين الكريمتين "إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام"وتكذيب حادث بنائهما الكعبة الثابت في القرآن الكريم.(الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الاسلام ، 1977م، الصفحات 59- 60)،فتابع طه حسين المستشرقين في آرائهم "إنكار الشعر الجاهلي،ووحدة اللغة العربية قبل الإسلام، فذهب المستشرقون إلى أنّه كان للعرب شعر ديني على مثال قصائد الهند والفرس والأساطير اليونانية،وثبتوا على إنكار الشعر العربي المنسوب إلى الجاهلية لأنه خالي من التعبير عن العبادات والشعائر وما إليها.(الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الاسلام ، 1977م، صفحة 53).

برز طه حسين إلى النّاس في الثوب من الضجيج عندما نشر كتابه في الشعر الجاهلي،ثم أقسى ما كتب طه حسين :تكذيب القرآن وإنكار نبوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام،ثم صمت طه حسين صمتا شديدا إزاء الزوبعة والعاصفة التّي قامت وأسرع فغادر البلاد حتى تهدأ،ولم تكد تمر شهور حتى كان حديث طه حسين عن تأثير الوثنية واليهودية والنصرانية في الشعر العربي،وادعاؤه أنّ لليهود أثرا في الأدب العربي وهو محاولة خطيرة لها دلالتها متصلة بإنكار إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام،ولم يمض وقت طويلا حتى كتب مقاله عن الدّين:"عام أو بعض عام"،ثم كان في نفس العام بحثه عن الضمائر في القرآن الذّي ألقاه في مؤتمر المستشرقين،وفيه حاول تفسير القرآن تفسيرا خاطئا. (الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الاسلام ، 1977م، صفحة 08).

فطه حسين لم يتوقف لحظة،ولا يستحي مرّة أن يعلن تبعيته الواضحة لآراء المستشرقين،وتتبع مذاهبهم المختلفة،فهو خاضع تارة للمذهب الاجتماعي الذّي يؤمن بجبرية الإنسان إضافة لخضوعه الكامل للبيئة والعمر،فقد تبع بلاشير(**blachir**) في دراسته للمتنبي وخضوعه لدور كايم(**D.Kayme**) في دراسته عن ابن خلدون.(بوزقاو، الاستشراق بين الرفض والقبول في الثقافة العربية (أطروحة دكتوراه)، 2019/ 2020م ، صفحة 118).

واصل طه حسين إثارة الشكوك والشبهات التّي اختارها له الاستشراق ولاسيما في أخطر القضايا التّي تمس جوهر الإسلام لتقويضه وتهوينه،انسجاما مع تطلعات أعداء الإسلام وقد كانت قضية نظام الحكم في الإسلام في السلم وأولويات طه حسين وكشف عنها أنور الجندي:اتهام نظام الحكم في الإسلام بالإخفاق.(حسين، الفتنة الكبرى، 2007م، صفحة 08)كما عمد إلى إخراج كل من له رأى أو أصالة من كلية الأداب، وكان أيضا من خططه إنشاء معهد التمثيل والرقص ودعوة الطالبات للاختلاط وتحريضهن على ذلك ومعارضة الجبهة المسلمة التّي حاولت أن تدعو إلى الدّين والأخلاق،ولما ثار علماء الأزهر بشأن ذلك قال طه حسين قولته الماكرة:" لا أعلم نصّا في كتاب الله أو سنّة نبيّه يمنع اختلاط الشبّان بالشّابات لطلب العلم"(الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الاسلام ، 1977م، صفحة 62)، بالإضافة إلى محاولته رفقة عبد العزيز فهمي ولويس عوض (المجتمعون في مجمع اللغة العربية) أن يوافقوا على قضية استبدال الحرف العربي باللاتيني لولا تدخل الدكتور المرحوم عمر فرّوخ،الذّي عارض بشدّة هذه الدعوة،وعندما استنكل الأمر على طه حسين والذّي قال:" إذا لم نفعل ذلك فكيف يمكننا كتابة فكتور هوغو" ؛غريب رأي طه حسين هذا وكأنّ فكتور هوغو لا يفهم إلاّ إذا كتبنا أدبنا بالحرف اللاتيني.(عللوه، الغزو الفكري والرد على افتراءات المستشرقين، 2002م، صفحة 329).

وتتابعت في كلية الآداب خطوات طه حسين فأقام حفلا لتكريم **رينان" RINAN"**الفيلسوف الفرنسي"الذّي هاجم الإسلام أعنف هجوم، ورمى المسلمين والعرب بكل نقيصة في أدبهم وفكرهم ،كذلك جعل الشّعار الفرعوني هو شعار الجامعة وقد لقى من ذلك كله معارضة وخصومة واسعة وصلت إلى كل البلاد العربية وأرسل الأستاذ توفيق الفكيكي من العراق إلى طه حسين برقية خطيرة:"إنّ شعاركم الفرعوني سيكسبكم الشنار وستبقى أرض الكتابة وطن الإسلام والعروبة برغم الفرعونية المندحرة" وكان طه حسين يصّر على القول بأنّ مصر فرعونية،وأنّها تابعة لليونان في الفكر وتابعة للبحر المتوسط والغرب في السياسة وأنّ ما يصلها بالإسلام ليس شيئا له أهمية ولكنّ أشبه بما يصل الغرب بالمسيحية.(عللوه، الغزو الفكري والرد على افتراءات المستشرقين ، 2002م، الصفحات 64- 65).

ومن هنا تتضح لنا الرؤية بتبعية طه حسين لأفكار المستشرقين والانقياد وراء الثقافة الغربية متجردا من حضارته الإسلامية ومؤيدا للفكر الاستشراقي بامتياز،متبعا فيها منهجهم ورؤيتهم التّي حذا فيها بحذوهم مسلّما فيها كل تفكيره للثقافة الغربية،وفي حقيقة الأمر أن طه حسين ينطبق عليه ما قاله اللورد

كرومر يصف متغربة المصريين"إنّهم مسلمون وليس فيهم خواص المسلمين،وأوربيون وليس فيهم خواص أوربية".(الفيومي، 1993م، صفحة 07).

خاتمة:

من خلال دراستنا لموضوع دور الكتّاب العرب في مواجهة الفكر الاستشراقي نخلص لمجموعة من النقاط وهي:

- أنّ لحركة الاستشراق ككل دراسات وبحوث في قضايا عدّة من بينها ما يمس جوهر عقيدتنا وسيرة نبيّنا وتاريخنا وغيرها من الدراسات،التّي لم تكن في حقيقة الأمر مجرد فضول لعلماء الاستشراق للتعرف على حضارتنا،وإنّما تتعدّى ذلك وهي التشكيك فيها وتحريفها بالتّالي هي تهدف لطمس الهوية والحضارة الإسلامية.

- للعلاّمة مالك بن نبيّ موقف معاد للاستشراق وكل ما يصدر عنه،ففي معظمه هو حركة فكرية غربية أو في إطار ما نسميه بالصراع الفكري،فقد نبّه العلامة مالك بن نبيّ الأمة الإسلامية بذلك من خلال دعوته للشباب بتجنب الانقياد وراءه وحذّر بشدّة الاعتماد على دراستهم ونظرياتهم،كما ينصح بالاعتماد على المصادر المحلية والعربية الإسلامية تجنبا لأي تلاعبات وتحريف في حضارة الأمة الإسلامية.
- يدعو العلامة مالك بن نبي من استيعاب التيّار الاستشراقي وكل ما يصدر عنه، موافقا الرأي للكاتب ادوارد سعيد الذّي يقول " أنّ الفكر الاستشراقي متنكر في ثوب المعرفة والاكتشاف" ،تماما كما أوضح بن نبيّ أنّها وليدة النهضة الأوربية وامتداد لعملية التبشير الدّيني، أو تحت أي غطاء كان سواء تنكر فيها كطالب علم أو تاجر أو مستكشف مختبئين في زيّ المعرفة وراء نيتهم الخبيثة.
- أمّا بالنسبة للموقف المؤيد والداعم لهذه الحركة الاستشراقية هم من رموا بأنفسهم في أحضان البعثات الغربية حاملو لواء التغريب للعالم الإسلامي ومن أبرزهم طه حسين ومنصور فهمي وعلي عبد الرازق.
- قيل عن طه حسين "انّه مستشرق من أصل عربي" هذه المقولة جاءت بعد أن أخذ طه حسين على عاتقه الدّفاع عن أعراض المستشرقين مسطرا لهم ذلك بأقلامه ومنصبه من أجل تبيان فضلهم في حركة النهضة .
- يعتبر طه حسين الابن البار للاستشراق والمستشرقين الذّي حذا بحذوهم وسار بدربهم ،متناسيا بذلك هويته الإسلامية منتقدا كلام الله متبعا سياسة التشكيك في العقيدة الإسلامية.

توصيات:

- الإكثار من الملتقيات والندوات الوطنية والعلمية التي تخدم هذا الموضوع لأجل تصحيح صورة الإسلام والمسلمين.
- الاعتماد على المصادر العربية في كتابة تاريخ حضارتنا والحذر من كتابة بعض المستشرقين التي لطالما سطروا كتاباتهم فيما يخدم رغباتهم ونظراتهم.
- تنظيم دورات علمية في هذا الموضوع من أجل الدفاع عن تشويه صورة الإسلام من خلال البحوث والكتابات الأكاديمية وإدراج أهل الاختصاص للإشراف على ذلك.
- **قائمة المراجع:**

- أنور الجندي. (1985م). *خصائص الأدب العربي في مواجهات نظريات النقد الأدبي الحديث*. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- أنور الجندي. (1975م). *خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث*. القاهرة: دار الاعتصام.
- أنور الجندي. (1977م). *طه حسين حياته وفكره في ميزان الاسلام* . دار النصر للطباعة.
- بوعزة صالح. (01 جوان, 2015م). قراءة تحليلية لمقاربة مالك بن نبي في بناء الأفراد واصلاح المجتمعات في ظل العولمة الحديثة. *مجلة تنمية الموارد البشرية، 10* (30)، صفحة 03.
- حسن موسى محمد العقبي. (2005م). *مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة*. غزة.
- حسن موسى محمد العقبي. (2005م). *مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة(رسالة ماجيستر)*. غزة: كلية أصول الدين ،الجامعة الاسلامية.
- طه حسين. (1992م). *الأيام*. القاهرة: مؤسسة الأهرام.
- طه حسين. (2007م). *الفتنة الكبرى*. القاهرة: مؤسسة هنداوي .
- فاروق عمر فوزي. (1998م). *الاستشراق والتاريخ الاسلامي في القرون الاسلامية الأولى* . عمان: الأهلية للنشر والتوزيع.
- مالك بن نبي. (1969م). *انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الاسلامي الجديث*. بيروت: دار الارشاد.
- مالك بن نبي. (1969م). *انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الاسلامي الحديث*. بيروت: دار الارشاد للطباعة.

- مالك بن نبي. (1969م). *إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الاسلامي الحديث*. بيروت: دار الارشاد للطباعة.

- محمد ابراهيم الفيومي. (1993م). *الاستشراق رسالة استعمار -تطور الصراع العربي مع الاسلام* . القاهرة: الفكر العربي .

- محمد حمدي زقزوق. (1997م). *الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري* . القاهرة: دار المعارف.

- محمد عللوه. (2002م). *الغزو الفكري والرد على افتراءات المستشرقين* . دمشق: دار الأقصى للطباعة والنشر .

- محمد عللوه. (2002م). *الغزو الفكري والرد على افتراءات المستشرقين*. دار الأقى للطباعة والنشر.

- محمود محمد شاكر. (1407ه). *رسالة في الطريق الى ثقافتنا* . جدة: دار المدني.

- محمود محمد شاكر. (1407ه). *رسالة في الطريق الى ثقافتنا* . جدة: دار المدني.

- مريم بوزقاو. (2019/ 2020م). *الاستشراق بين الرفض والقبول في الثقافة العربية (أطروحة دكتوراه)*. بلعباس: جامعة جيلالي يابس.

- مريم بوزقاو. (2019/ 2020م). *الاستشراق بين الرفض والقبول في الثقافة العربية (أطروحة دكتوراه)*. بلعباس : كلية الأداب واللغات والفنون.

- نور الدين مسعودان. (د.ت). *مالك بن نبي،حياته وآثاره؛شهادات ومواقف*. الجزائر : دار النور.

صورة الإسلام من وجهة نظر استشر اقية معتدلة منصفة ،

The Image of Islam from a Moderate and Equitable Oriental Point of View

ط/د.موسى قروني، جامعة الجيلالي بونعامة- خميس مليانة –الجز ائر
m.grouni@univ-dbkm.dz



يهدف هذا المقال إلى إبراز صورة الإسلام في فكر وخيال المستشرقين المعتدلين الّذين أنصفوا الإسلام والمسلمين في كتاباتهم وأحكامهم، ذلك راجع إلى تسلحهم بالموضوعية في دراستهم للإسلام، وكذا تحررهم من الأحكام المسبقة وتخلصهم من الصورة المشينة التي رسمتها الكنيسة والمتعصبين المعادين للإسلام.

اعترف المستشرقون المعتدلون بأصالة القرآن الكريم وبصحة أحكامه وتعاليمه، كما اعترفوا بصدق نبوءة النبي الكريم، بالإضافة إلى إقرارهم بفضل المسلمين على الحضارة الغربية في شتى الميادين والمجالات، كالطب والفلسفة والأدب والكيمياء والفيزياء وغيرها، من شأن هذه الاعترافات أن تصحح تلك النظرة المغلوطة والأحكام الخاطئة التي غذت بها الكنيسة عقول الغربيين، كما من شأنها أن تزين تلك الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين، فمن واجبنا اليوم أن نثمن هاته الكتب ونعتز بها.

الكلمات المفتاحية: الإسلام،الاستشراق،القرآن،الموضوعية، التسامح.

Abstract :

This article aims to highlight the image of Islam in the thoughts and imagination of the moderate orientalists who have done justice to Islam and Muslims in their writings and rulings. This is because they are armed with objectivity in their study of Islam, as well as freeing them from prejudices and rid them of the disgraceful picture painted by the Church and anti-Islfanatics.

The moderate orientalists recognized the authenticity of the Holy Koran and the validity of its provisions and teachings, as well as the sincerity of the prophecy of the Holy Prophet, In addition, Muslims recognize Western civilization in various fields and fields. confessions, such as medicine, philosophy, literature, chemistry, physics, etc., would correct that misperception and the erroneous provisions that the Church fueled Western minds. Our duty today is to value and cherish these books.

Keywords: Islam, Orientalism, The Quran, Objectivity, Tolerance.



مقدمة:

كان العالم يعيش في ظلام الكفر وعبادة الأصنام والأوثان، فأنار الله ذلك بنور الإسلام حين أرسل رسوله سيّدنا محمّد صلى عليه وسلم ليضيء ظلام الكفر بنور الهدي والتقى والإيمان بنور الإسلام، أرسل نبيّه مبشرا ونذيرا وسراجا منيرا، فانتشر الإسلام بسرعة لبساطة عقائده وسلامة تعاليمه وصدقها واحتوائه على كل ما يحتاجه الإنسان، حيث وجد فيه البشر جوابا لكل أسئلتهم، خاصة تلك الأسئلة الوجودية المتعلقة بالخلق والكون، رغم هذا لم يحظى الإسلام بالقبول الفوري فقد لجأ الكفار لكل الطرق والوسائل لمعارضة ورفض تعاليم الإسلام، لكن حجة الإسلام ودلائله كانت أقوى من كل تلك النعرات، لأنه من لدّن العزيز الحكيم.

بعد انتشار الإسلام وازدهار الحضارة الإسلامية في كل المجالات، حظي الإسلام والحضارة الإسلامية باهتمام الكثير من الشغوفين من الحضارات الغربية، فظهر ما يعرف بالاستشراق ذلك العلم الّذي يهتم بدراسة الشرق الإسلامي بكل مظاهره وتجلياته وانجازاته، تميزت الكثير من الدراسات الاستشراقية بالتعصب والتطرف حيث لجأت إلى تشويه الدين الإسلامي معتبرة إياه دينا وثنيا عنيفا وغيرها من الأوصاف، كما حَقَّرت وصغرت الحضارة الإسلامية والمسلمين وأنكرت فضلهم ودورهم في بناء النهضة الغربية، ولكن في المقابل هناك دراسات استشراقية ردت الاعتبار للإسلام والمسلمين وأنصفتهم واعترفت بفضائلهما على العالم أجمع، ستناول في هذا المداخلة شهادات واعترافات بعض المستشرقين المعتدلين المنصفين في حق الإسلام والمسلمين، من خلال إبراز رؤيتهم للإسلام والمسلمين، عن طريق الإجابة عن السؤال التالي: ما هي ملامح وصور الإسلام والمسلمين من وجهة نظر المستشرقين المعتدلين؟

أولا- إقرار المستشرقين المعتدلين بصدق القرآن وأصالته:

يعّد القرآن الكريم مصدر التشريع الأساسي في الدين الإسلامي، إذ يحتوي على جميع تفاصيل حياة الإنسان من بداية تكونه حتى مماته، بل حتى مآله بعد الممات، لذا يعد حجة دامغة في وجه المشككين والمرتابين، كما أنه معجزة النّبي صلى الله عليه وسلم، التي سخرها الله له لإقناع الكافرين ودحض أكاذيبهم، وعليه بقي القرآن الكريم محصنًا من الشكوك والارتياب، حيث "تطرق الشّك والإنكار إلى المعجزات الماديّة ولم يتطرق إلى القرآن لأنه معجزة معنوية. وقد كان للنّبي محمّد صّلى الله عليه وسلم أيضا معجزات ماديّة كثيرة ولكن الإسلام لا يعتمد عليها في إثبات رسالته، وإنّما يعتمد على القرآن وحده لأنه معجزة خالدة نشهدها نحن الآن كما شهدها الّذين أنزل فيهم القرآن لم تغب منه كلمة ولم تُضم إليه أخرى" (شلبي، دت، ص 67). حافظ القرآن الكريم على ثبات نصوصه وأحكامه وكل ما جاء فيه منذ أن نزل أول مرة على سيّدنا محمّد صّلى الله عليه وسلم إلى يومنا، وسيبقى محافظا على ذلك إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، فهو محفوظ من كل تحريف وتغيير عكس ما حدث مع الكتب السّماويّة الأخرى كالتوراة والإنجيل التي تعرضت نصوصها إلى التحريف والتغيير، ذلك أن القرآن معجزة نبينا محمّد عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم الدالة على صدق رسالة الإسلام لما فيه من إعجاز لغوي وعلمي يتحدى كل محاولة للتكذيب والتحريف ويبطلها، والدليل على عجز كل المحاولات التي حاولت تقليد القرآن الكريم،

وفشلت كل محاولات تحريفه وتكذيبه، فهو معجزة معنوية ظاهرة للعيان لا يمكن إبطالها أو تكذيبها أو تحريفها، على رغم محاولات الكثير من الكفار والزنادقة والملحدين والمستشرقين المتعصبين الّذين حاولوا تشويه الإسلام وتكذيب القرآن، وفي المقابل هناك الكثير من المستشرقين المنصفين الّذين أنصفوا القرآن واعترفوا بصدقه وأصالته، كما اعترفوا بقيم الإسلام وعدله وأحكامه.

يعّد الدين الإسلامي دين دعوة بامتياز، فهو يدعو الكفار إلى اعتناقه والاهتداء بتعاليمه، فالقرآن مليء بالنصوص التي تدعو الكفار إلى اعتناق الإسلام بواسطة سبل سلمية مبنية الإقناع والحجاج والبرهان، يقول المستشرق البريطاني "توماس ووكر أرنولد،" في هذا الصدد: " وهكذا كان الإسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة، من الناحية النظرية أو الناحية التطبيقية ... على ألا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية في قسوة المضطهد، أو عسف التعصب، ولا حتى في مآثر المحارب المسلم ... وإنما نلتمسها في تلك الأعمال الوديعة، التي قام بها الدعاة وأصحاب المهن، الّذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع من الأرض. على أن هؤلاء الدعاة لم يلجئوا إلى اتخاذ مثل هذه الأساليب السلمية في نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والإقناع ... فلقد جاء القرآن مشددًا في الحض على الطرق السليمة، في غير آية منه" (أرنولد، 1970، ص 28، 29).فالقرآن الكريم يدعو إلى اعتناق الإسلام، وطريق الدعوة في الإسلام مبنية على قوة الحجة والدليل والبراعة في الإقناع من طرف الدعاة، مما يجعل طرق الدعوة في الإسلام طرقا سلمية بعيدة عن القوة والعنف والاضطهاد، وهذا دليل على سماحة الإسلام مما أدى إلى سرعة انتشاره ووصوله إلى كل بقاع العالم، فالقرآن الكريم عامر بالآيات التي تدعو الدعاة والمسلمين بضرورة اتباع الطرق السلمية والسليمة في الدعوة إلى دخول الإسلام، والابتعاد على القوة والعنف لأنها تنفر الناس من دخولهم في الإسلام، لذا كان الدين الإسلامي منذ ظهوره دين دعوة من جميع النواحي سواء من الناحية النظرية المتمثلة في وجود العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعو المسلمين والدعاة بضرورة التزام الطرق السلمية في الدعوة إلى الإسلام، أو من الناحية التطبيقية المتمثلة في التزام المسلمين والدعاة بالقيم الأخلاقية العالية والتسامح وانتهاج الطرق السلمية في دعوتهم إلى الدين الإسلامي، تنفيذا لما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية.

يُقر المستشرق الفرنسي موريس بوكاي بوجود توافق كبير بين القرآن الكريم والمكتشفات العلمية الحديثة، مما يدل على أصالة القرآن الكريم وصدق تعاليمه، حيث يقول: " لقد أدهشتني في البداية هذه الصورة العلمية الخاصة بالقرآن إلى حد بعيد، لأني لم أكن أظن أبدا أنه يمكن حتى هذا الزمن أن نكتشف في نص مكتوب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، عددا من اليقينيات المتصلة في بموضوعات شديدة التنوع ومتفقة تمامًا مع المعارف العلمية الحديثة. ولم يكن لدي في البدء أي إيمان بالإسلام. وقد بدأت هذا الاختبار للنصوص بموضوعية كاملة وبفكر متحرر من كل حكم مسبق." (بوكاي، 1990، ص 147، 148). هذا إقرار صريح وجلي من مستشرق غربي فرنسي الأصل بأصالة القرآن الكريم وصدق تعاليمه وكل ما جاء فيه، فهو قرآن صالح لكل زمان ومكان، والدليل توافق تعاليمه مع المكتشفات والبحوث العلمية الحديثة، ففي القرآن الكريم الكثير من الآيات القرآنية التي تتكلم علي العديد من الأمور العلمية الحديثة

التي لم تكن موجود في عصر نزوله وفي عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وهي متفقة تمام الاتفاق معها، فالدين الإسلامي دين علم يحث على طلبه ويحتوي في نصوصه على العديد من الأبحاث العلمية إذا تم دراسته بموضوعية وبفكر متحرر من الأحكام المسبقة ومن المغالطات والشبهات التي تنسب إلية من طرف الغرب، دون أن نسى سوء الترجمة والفهم الذي يمارس على النصوص القرآنية من طرف الغرب، فموريس بوكاي يؤكد على هذا التوافق بين القرآن الكريم والمعطيات العلمية الحديثة بعدما تنصل من الصورة الخاطئة التي رسمها الغرب على الإسلام والقرآن، ودرس القرآن بموضوعية ودون أحكام مسبقة، فوصل إلى ما وصل إليه من عظمة القرآن وأصالته وصدق تعاليمه.

تطرق القرآن الكريم في نصوصه إلى العديد من المواضيع العلميّة الحديثة، مثل مسألة الخلق، وكذا مسألة التكاثر البشري، يقول موريس بوكاي في هذا الشأن: " إنّ أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه هذا النّص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق وعلم الفلك، وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض، وعالم الحيوان، وعالم النبات، والتناسل الإنساني. وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علميّة ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ. وقد دفعني ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنسانا، كيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلميّة الحديثة؟ ليس هناك أي مجال للشّك، فنص القرآن الّذي نملك اليوم هو فعلا نفس النص الأول" (بوكاي، 2004، ص 151، 152). إذا يعالج القرآن الكريم العديد من المواضيع العلميّة الحديثة والمكتشفات المعرفية المستجدة، فهو يتكلم على الكيفية التي حدث بها الخلق، كما يتطرق إلى العديد من المعارف الفلكية التي توصل لها علماء الفلك اليوم، بالإضافة إلى احتواء نصوصه الكثير من المعارف بشأن الأرض وبنيتها وشكلها وكل ما يحدث فيها من ظواهر، كما احتوت النصوص القرآنية على الكثير من الآيات التي تطرقت إلى علم الحيوان والنبات، والأهم من هذا كله لقد فصل القرآن الطريقة التي يتكاثر بها الإنسان، كل هذه المعارف الموجودة في القرآن منذ أكثر من أربعة عسر قرنًا تتوافق تماما مع المكتشفات والبحوث العلميّة الحديثة، مما يدل على أصالة القرآن، لأنه ثبت خلو القرآن من الأخطاء ومن التحريف كما حدث في التوراة، فلقد تم التأكيد على وجود العديد من الأخطاء العلميّة في النصوص التوراتية، وعليه يؤكد بوكاي على أصالة القرآن لأنه من غير الممكن أن يكون القرآن من كتابة البشر لما يحتويه من معارف علميّة دقيقة ويقينية يعجز إيجاده ذلك العصر، لأنها سبقت حدوثها بأكثر من عشرة قرون، وعليه فالقرآن الكريم ذو مصدر إلهي أصيل لا يشوبه الشّك، ولا يعتريه التعديل والتحريف.

يؤكد بوكاي على أصالة القرآن الكريم، وعدم تعرضه لخطر التعديل والتحريف، ذلك راجع لتوفر عناصر الأصالة للقرآن الكريم عكس الديانات السابقة، تتمثل عناصر الأصالة في الحفظ والكتابة، إذ يقول: "أما وضع القرآن، فإنه يختلف عن ذلك كثيرًا. لأن الرسول والمؤمنين كانوا يحفظونه مع تتابع الوحي، ثم يكتبه في نفس الوقت الكتبة الّذين كانوا حوله. وهكذا فقد توفر للقرآن عنصرا الأصالة اللذان لم يكونا أبدا متوفرين للأناجيل. وقد ظل الأمر كذلك حتى وفاة الرسول. وقد كان للترتيل ميزة عظيمة في العصر الّذي لم يكن فيه كل الناس يكتبون بل يحفظون غيبًا، وبتنوع الرقابة الممكنة في تثبيت النّص

نهائيًا." (بوكاي، 1990، ص 158). حفظ الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم من التحريف والتعديل في نصوصه وآياته، إذ أوحى للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يقوم هو والمؤمنون بحفظ القرآن الكريم أثناء نزوله، ومن ثمة القيام بتدوينه وكتابته وتثبيته، وعليه فقد توفر للقرآن الكريم عناصر الأصالة من حفظ وكتابة، بالإضافة إلى دور الترتيل الّذي كان له دور كبير في تثبيت النصوص القرآنية، حيث كان المؤمنون يحفظون القرآن ومن ثم يثبتونه.

تعّد هذه الشهادات القيمة في حق القرآن من طرف المستشرقين بمثابة دعوة إلى ضرورة إعادة النظر في الدين والإسلامي، وتعديل تلك النظرة المقيتة التي رسمها الغرب على الإسلام، وفي الوقت نفسه هي دعوة إلى ضرورة دراسة الإسلام دراسة موضوعية متحررة من كل الأفكار والأحكام المسبقة التي رسمها الفكر الغربي على الدين الإسلامي، فهي محاولة لرسم صورة جميلة عن الدين الإسلامي في الفكر الغربي ونزع تلك الصورة المسيئة التي ترسخت في أذهان الغربيين.

ثانيا- اعترافهم بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم:

تعرض سيرة النبي صلى الله عليه وسلم للتشويه والتكذيب من طرف الكثير من المستشرقين المتعصبين، حيث عمدوا إلى تكذيب نبوته وتشويه سيرته وشخصيته وأخلاقه الكريمة، لكن هناك الكثير من المستشرقين المنصفين الّذين اعترفوا بصدق نبوة الرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، كما اعترفوا بأخلاقه الحميدة وسيرته العطرة، يقول توماس كارلايل في النبي صلى الله عليه وسلم: "مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلا أصليا صافي الجوهر، كريم العنصر، فهو رسول مبعوث من الأبديّة المجهولة برسالة إلينا ... وعلى ذلك فلسنا نعد محمّدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعا يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية، أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان، أو غير ذلك من الحقائر والصغائر. وما الرسالة التي أداها إلا حق صراح، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول. كلا، ما محمّد بالكاذب ولا الملفق، وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع. ذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين" (كارلايل، 2017، ص 60، 61). في هذا القول الكثير من الشهادات على صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وصدق أقواله، فهو رسول الله المبعوث من الأبدية المجهولة برسالة إلينا تنير قلوبنا وأبصارنا بنور الهدى، وتملأ قلوبنا يقينا وتقوى، وتضيء عالمنا بنور الإسلام والإيمان، وهو رسول الله أصيل النسب وصافي الجوهر ونقي السرير الصادق الأمين، الصادق في أقواله وأفعاله وتعاملاته، جاء لينير القلوب بنور الإسلام فقط فهو لا يهدف إلى جاه أو مال أو سلطان وإنما لتأدية رسالة سماوية ربانية تنير البشريّة، رسالة صحيحة صريحة وحقيقية لا شك فيها، تفيض نورا ويقينا، وأقواله صادقة لا نقاش فيها، كل هذه الشهادات والصفات هي حجج دامغة في وجه المشككين، وأدلة قاطعة بينّة وواضحة في وجه الكافرين المكذبين.

يواصل توماس كارلايل دفاعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من خلال تأكيده على صدق الرسالة التي أداها نبينا الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، إذ يقول: "لقد أصبح من أكبر العار، على أي فردٍ

متمدين من أبناء هذا العصر، أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمّدًا خَدَّاع مُزَوِر، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإنّ الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير، مدة اثني عشر قرنًا، لنحو مائتي مليون من الناس مثلنا، خلقهم الله الّذي خلقنا. أفكان أحدكم يظن: أن هذه الرسالة التي عاش بها، ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والإحصار. أكذوبة وخدعة؟ أما أنا، فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدا" (كارلايل، 2008، ص 37). يقف توماس كارلايل في وجه المشككين والمكذبين من الكفار والمستشرقين الّذين يدَّعون بأن الدين الإسلامي دين كاذب غير صحيح، وكذا ادعائهم الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم، فهو يدعو كل الناس الغربيين المكذبين والمشككين إلى ضرورة التوقف على مثل هاته الادعاءات الباطلة الكاذبة، لأنها مجرد سخافات وخزعبلات نسجها العقل الغربي وآمن بها لا أساس لها من الصحة، وهي وصمة عار في جبين الإنسان الغربي المتعصب، فالدين الإسلامي دين صادق، والنبي الكريم صلى الله عليه وسلم صادق في أقواله وأفعاله أدى رسالته بكل صدق وأمانة فهو الصادق الأمين والسراج المنير الّذي أضاء ظلمات القلوب والعقول، وكشف الغمة ونصح الأمة، التي قدمت النفس والنفيس في سبيل إعلاء هذا الدين والحفاظ عليه، والدليل أن تعاليم هذا الدين محفوظة منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، وأعداد المسلمين في تزايد كل يوم من مختلف أقطار العالم، وعليه فرسالة النبي صلى الله عليه وسلم لا تزال السراج المنير وستبقى إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا، مما يدل وبصفة قطعية على صدق الرسالة وصدق نبوة محّمد صلى الله عليه وسلم .

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كريم الخُلِق فطنًا راجح العقل، يدعو إلى الدين الإسلامي بالموعظة والحكمة الحسنة، ويدعو الناس إلى التأمل في الكون والمخلوقات للتأكد والتقين من صدق أقواله وصدق تعاليم الإسلام وإقناعهم بها، يقول توماس كارلايل في هذا الشأن: "وكان محمّد إذا سئل أن يأتي بمعجزة قال: حسبكم بالكون معجزة. أنظروا إلى هذه الأرض، أليست من عجائب صنع الله، وآية على وجوده وعظمته؟ هذه الأرض التي خلق الله لكم، ونهج لكم فيها سبلا، تسعون في مناكبها، وتأكلون من رزقه. وهذا السحاب المسير في الآفاق، لا يدري من أين جاء، وهو مسخّر في السماء، كل سحابة كمارد أسود. ثم يسحّ بمائه، ويهضب ليحيي أرضا مواتا، ويخرج منها نباتا، ونخيلا وأعنابا، أليس ذلك آية؟ ... هذه من محمّد نظرة نافذة إلى لباب الحقيقة. وكذلك أرى في محمّد دلائل شاعرية كبيرة، وآيات على أشرف المحامد، وأكرم الخصال. وأتبين فيه عقلا راجحًا عظيمًا، وعينًا بصيرة، وفؤادًا صادقًا، ورجلًا قويًا عبقريًا." (كارلايل، 2008، ص 108، 109). كان النبي صلى الله عليه وسلم قدوة في أخلاقه وأقواله وأفعاله، فكان يخاطب العقول والقلوب ويقنعها بالأدلة والحجج القاطعة بطريقة سلمية بعيدا عن التعنيف، فكان يعظها بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان يدعو الناس إلى التأمل في الكون وفي المخلوقات وفي كيفية خلقها وصنعها، والتدبر في بنيتها وتنظيمها ونظامها، متخذا من الكون معجزة على وجود الله سبحانه وتعالى، وحث الناس على اعتبار الكون وكل ما فيه معجزة لاعتناق الإسلام وتصديقه وإتباع هديه، وتصديق الرسالة التي بعث لتبليغها، فقد خلق الله الأرض لنا نعيش على سطحها ونأكل من رزقها، فهي معجزة في شكلها ونظامها وتنظيمها وتعدد أشكالها وألوانها والخيرات التي تخرج منها، وخلق السحاب المتراكم في

السماء الّذي يفيض ماءً ليسقي الأرض، وغيرها من المعجزات التي يحتوي عليها الكون، والتي تدّل على وجود الله وصدق رسالة نبيّه، فرسولنا صلى الله عليه وسلم أصيل النسب، كريم الأخلاق، صادق الأقوال فهو الصادق الأمين، نقي السريرة، فطن العقل، راجح الرأي، واسع البصيرة، منشرح القلب ...

كل هذه الاعترافات والشهادات في حق نبيّنا صلى الله عليه وسلم من شأنها أن تزين تلك الصورة المشينة التي رسمها أعداء الإسلام على نبيّنا صلوات الله وسلامه عليه، فنبينا الكريم اجتمعت فيه كل الصفات الحميدة والأخلاق الكريم، جاء هاديا وسراجا منيرا، ومبلغًا لرسالة ربه، فهو الصادق الأمين، وبالتالي فكل إدعاءات الكفار وأعداء الإسلام باطلة في حق نبيّنا صلى الله وسلم، وقد أبطلها ثلة من المفكرين المستشرقين الغربيين من أبناء هؤلاء المدّعين المكذبين.

ثالثا-اعتر افهم بسماحة الدين الإسلامي وبالأخلاق الفاضلة المسلمين:

الدين الإسلامي دين معاملة، دين التسامح والأخلاق الكريمة والفاضلة، إلا أن بعض الكافرين والمتعصبين ادعوا عكس ذلك، ليأتي الرد عليهم من طرف أبناء جلدتهم من المستشرقين المنصفين الّذين اعترفوا بسماحة الدين الإسلامي وبقيمه الأخلاقية الكريمة والحميدة، تؤكد المستشرقة الإيطالية لورا فيشيا فاغليري على هاته القيم في قولها: "فالفضائل نفسها التي تقدمها اليهودية والنصرانية بوصفها الغاية القصوى لحياة الإنسان الأخلاقية لا يقدمها الإسلام كمثل عليا فحسب، بل يأمر بها كمثل عليا أيضا. ومن هذه المثل العليا الإشفاق على المخلوقات جميعا، وحسن التفهم، والصفح، والبساطة، واللياقة في العلاقات الاجتماعية، وتقبل الرزايا وما إلى ما ذلك" (فاغليري، 1981، ص 76). يختلف الإسلام عن الديانات السماوية الأخرى كاليهودية والنصرانية في كونه يأمر الناس بالاتصاف بالأخلاق الحميدة الفاضلة، والتحلي بالقيم والمكارم الأخلاقية العليا والمثل الراقية، فهي لا تعتبر غاية يسعى الإنسان إلى وصولها، بل هي مكون أساسي في تربية المسلم وفي أخلاقه ومعاملاته، فالإسلام يأمر الإنسان بأن يكون رحيما مع جميع المخلوقات وأن يكون لينا ومتعاطفا ومشفقا معها، فمن وصايا الإسلام "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"، كما يأمر الإسلام الإنسان بالعفو عند المقدرة وكظم الغيظ، وتجاوز بعض المظالم وسوء الفهم من باب التفهم، كما يدعو ديننا الحنيف إلى التواضع وعدم التكبر لأنه من شيم الكفار والعصاة والطغاة، فمن تواضع لله رفعه، كم يحثنا الإسلام إلى اللين والرفق في علاقتنا ومعاملاتنا الأسرية والاجتماعية، بل جعل الله رضى الوالدين من رضاه، وطاعتهما من طاعته، فديننا دين أخلاق ومعاملة.

يحث الدين الإسلامي على التحلي بالرحمة والإخاء بين الناس، فهو دين رحمة وشفقة، تقول لورا فيشيا فاغليري: " إنّ الإسلام يشدد على أهمية العمل الصالح الّذي هو نتيجة شفقة الإنسان على الإنسان، كما يشدد على رحمة الله. فاليتيم، والفقير، والمسكين، والبائس محوطون برعاية وحماية بالغيتين. والإسلام يعلن أن الإخاء والرحمة هما حجرا الزاوية في المجتمع الإسلامي." (فاغليري، 1981، ص 78، 79). الدين الإسلامي دين المعاملات، دين العدل والرحمة والشفقة، فهو يأمر بالعدل بين جميع البشر، ويحرم الظلم والطغيان والاستبداد، كما يحث على الشفقة على اليتامى وأوصى بهم حسنى، وأمر

بالإحسان والاعتناء بهم، كما أمر بالتصدق على الفقراء وشرع الزكاة وجعلها ركنا من أركان الإسلام ليستفيد الفقراء والمحتاجون والمساكين من أموالها، فديننا الحنيف دين إخاء ورحمة وأخلاق يحث على ضرورة التراحم والإخاء بين الناس والتعاون بينهم، فمن كان في عون أخيه كان الله في عونه، هذا الإخاء والتراحم هو ما يجعل المجتمع متماسكا، فالرحمة والشفقة والمودة والإخاء من أسس الإسلام وأركانه، فلا يسمى مسلم مسلما حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه... فديننا ثري وعامر بالقيم الأخلاقية السامية التي نالت إعجاب أعداء الإسلام ونالت اعترافهم بها .

إنّ القيم الأخلاقية والمكارم والفضائل التي يدعو الإسلام سهلة بسيطة في المتناول، وليست إعجازية، بل هي الضامن لحياة مستقيمة، وفي هذا تقول لورا فيشيا فاغليري: "إنّه يقيم بدلا من ذلك قواعد لحياة سليمة تثبت عند وضعها موضع التطبيق أنها قواعد عملية أصيلة رائعة. إذ يقدم إلى المؤمنين نموذجا من التماسك والاستقامة لا ينحرف عن ناموس الحياة، بل يَلْزَمُ عمود الطبيعة الإنسانية ويدخل في حسابه مطمح المرء الحق إلى سعادة قويمة. ليس هذا فحسب، بل إنه – وهو البعيد عن إحداث أيما اختلاف بين حياة الفرد الدينية وسلوكه في الحياة- يتطلع أيضا إلى خلق مجتمع يكون الإنسان عضوا فيه وخادما مخلصا من خدم الله في وقت معا" (فاغليري، 1981، ص 86، 87). تهدف دعوة الإسلام إلى التحلي بمكارم الأخلاق والاتصاف بالفضائل والمثل العليا إلى تقويم حياة الإنسان، والتأسيس لقواعد حياة سليمة سعيدة، تقود الإنسان إلى الفوز في الدارين والنجاة من النار، فأوامر الإسلام ونواهيه هي قواعد عملية أصيلة لحياة مستقيمة فاضلة، فهي تقدم للمسلمين نموذجا للاستقامة والتماسك والفوز برضوان الله وجناته، كما أن أوامر الإسلام ونواهيه لا تعارض الحياة بل تجملها وتكملها بغية تحقيق سعادة الإنسان في الدارين، فالإسلام يهدف إلى بناء مجتمع متماسك ومتراحم يكون الإنسان فيه عضوا فاعلا بتنفيذ أوامر الله وتجنب نواهيه، وفي الوقت نفسه يكون خادما مطيعا لخالقه ورازقه، لكي ينال رضوانه وثوابه ويفوز بجوائزه.

كرس الإسلام المساواة والعدل بين الناس، فلا فرق بين عربي، وأعجمي ولا بين أبيض وأسود، فكانت المساواة من أهم المثل العليا والقيم الأخلاقية السامية في الإسلام، وعليه: "كذلك كانت المساواة بين المؤمنين في الإسلام وما ساد بينهم جميعًا من إخوة مشتركة لا تسمح بوجود فوارق بين عربي وأعجمي أو بين حر وعبد ممن اعتنقوا الإسلام ... وهكذا حمل الإسلام منذ البداية طابع الدين الّذي يقوم على الدعوة ويسعى لجذب قلوب الناس لتحويلهم إليهم وحثهم على الدخول في زمرة المؤمنين." (أرنولد، 1970، ص 61، 62). حطم الإسلام الأوثان وحرّر الإنسان من العبودية، وساوى بين جميع المؤمنين، فلا فرق بين عربي ولا أعجمي، ولا بين حر وعبد، فكل الناس أحرار في الإسلام، ولا فرق بين أبيض ولا أسود، فقد حرم الإسلام على المؤمنين الظلم والبغي والطغيان والاستعباد، وساوى بين جميع المؤمنين، فكانت المساواة والعدل من أكثر القيم التي يحث عليها الإسلام ويأمر بهما، وعليه قضى الإسلام على مظاهر التفاخر بالأنساب والحروب بين القبائل والظلم، فلقد كان الإسلام دين دعوة إلى الهدى والمساواة والعدل، فهو يخاطب العقول ويستميل القلوب والجوارح، لكي يخلص الإنسان من الأوثان والجهل والظلم، فكانت

قيمه الأخلاقية السامية ومثله العليا وعدله ومساواته بين الجميع خير وسيلة لإقناع الناس بدخول الناس في الإسلام واستمالة قلوبهم وجوارحهم.

تعد الصّدقة من بين القيم السامية في الإسلام، فهي دليل على الإخاء والتعاطف والتعاون مع الفقراء والمحتاجين، يقول توماس كارلايل في هذا الشأن: " والإسلام لا يكتفي بجعل الصّدقة سنّة محبوبة، بل يجعلها فرضًا حتمًا على كل مسلم، وقاعدة من قواعد الإسلام، ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل، فتكون جزءًا من أربعين الثروة. تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين. جميل – والله – كل هذا وما هو إلا صوت الإنسانية. صوت الرحمة والإخاء والمساواة، يصيح من فؤاد ذلك الرجل – ابن القفار والصحراء." (كارلايل، 2008، ص 121، 122). تعّد الزكاة من أهم أركان الإسلام، ففيها بركة وزكاة للنفس والمال، ورضوان من الله، وتفريج لكربة الفقراء والمحتاجين والمساكين، وتطهير للنفوس، فهي فرض وواجب على كل مسلم وصلت أمواله مقدار الزكاة، ينالها الفقراء والمحتاجون والمساكين ينتفعون بها، بالإضافة إلى فوائد أخرى كثيرة، فهي تعمق الصلات بين المسلمين وتزيد من توادهم وتراحمهم، فالزكاة دليل على الرحمة والإخاء والتعاطف والتعاون بين المؤمنين، والأمر نفسه بالنسبة للصَّدَقات التي يتبادلها المؤمنون فيما بينهم، فهي دليل على تراحمهم وتوادهم، وهي خير دليل على الإنسانية والإخاء.

هذا الاعتراف بفضائل وقيم الإسلام السامية من طرف هؤلاء المستشرقين من شأنه أن يصحح تلك الأحكام الخاطئة التي أصدرها بعض أعداء الإسلام والكفار المتعصبين، وعليه بمثل هاته الاعترافات والشهادات يمكن أن نصحح تلك الصورة المشينة التي رسمها المكذبون والمضللون حول الإسلام وتعاليمه وقيمه، فديننا دين رحمة وإخاء ومساواة وعدل وإنسانية.

رابعا- اعترافهم بفضل الإسلام والمسلمين:

كان فضل الإسلام والمسلمين كبيرا على العالم أجمع ومزال، فلقد أسهم الإسلام في تأسيس الحضارات المختلفة بعلومهم واكتشافاتهم وأعمالهم، التي نالت اعتراف الكثير من المنصفين من الغربيين، فلقد ساهم الإسلام في تحريك الجمود والركود التي عانت منه أوربا، تقول المستشرقة زيغريد هونكه: "ولعلّ أكبر دليل على هذا هو أن الغرب بقي في تأخره ثقافيا واقتصاديا طوال الفترة التي عزل فيها نفسه عن الإسلام ولم يواجهه. ولم يبدأ ازدهار الغرب ونهضته إلا حين بدأ احتكاكه بالعرب سياسيا وعلميا وتجاريا. واستيقظ الفكر الأوربي على قدوم العلوم والآداب والفنون العربية من سباته الّذي دام قرونا ليصبح أكثر غنًى وجمالا وأوفر صحة وسعادة" (هونكه، 1993، ص 541). كانت العصور الوسطى عصور الظلام والركود العلمي والفكري في أوربا، بينما كانت عصور العلم والفكر والازدهار بالنسبة للعالم الإسلامي، وما زاد في ظلامية وركود أوربا هو عداؤها للإسلام وعزلتها عنه، فبعد أن خرجت أوربا من قوقعتها واحتكت بالإسلام ونهلت من علوم المسلمين وآدابهم وفنونهم، حينها فقط بدأت نهضة أوربا، وبدأت في الخروج من الظلام والركود، وعليه كان فضل الإسلام والمسلمين كبيرا على أوربا، فما كان للفكر الأوربي أن يستيقظ لولا علوم العرب وفنونهم وآدابهم، فقد زودتهم بالأسس الأولى لبناء الحضارة وتحقيق النهضة العلمية والفكرية.

يعترف الكثير من الغربيين بفضل المسلمين في نقل علوم القدامى من الحضارات القديمة كاليونانية إلى الحضارة الغربية، فلولا العرب لما سمع الغربيون بجالينوس وأفلاطون وأرسطو وغيرهم، يقول غوستاف لوبون في هذا الصدد: "والحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمّد، وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على كتب اليونان التي ضاع أصلها ككتاب أبلُّونيوس في المخروطات، وشروح جالينوس في الأمراض السارية، ورسالة أرسطو في الحجارة ...إلخ، وأنه إذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمان القديم فالعرب هم تلك الأمة ... فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافا أبديا" (لوبون، 2018، ص 848). لم يكتفي المسلمون بالعلوم التي أبدعتها عقولهم، بل راحوا يترجمون علوم الآخرين من الحضارات المختلفة، وخاصة كتب اليونانيين، فنقلوا تلك الكتب إلى العربية بمختلف تخصصاتها وتعدد مجالاتها، فحفظوها من الضياع ونقلوها للأجيال القادمة، فاستفادت منها الحضارات الموالية، فلولا المسلمون لما كان الغربيون اليوم يعرفون شيئا على علوم قدامى اليونانيين من أمثال أبلُّونيوس وأبقراط وجالينوس وأفلاطون وأرسطو وغيرهم، فلقد كان للمسلمين فضل كبير في نقلها إليهم عن طريق ترجمتها إلى العربية، لينقلها الغربيون إلى لغاتهم المختلفة ويتعرفوا على علوم وإبداعات القدامى، من بين أشهر الّذين ترجموا كتب اليونان نذكر على سبيل المثال الفارابي وابن سينا وابن رشد والرازي وغيرهم، فعلى العالم أن يعترف بفضل المسلمين في نقل هاته العلوم التي تأسست عليها الحضارات المختلفة.

أسهم العرب في إبداع طرق البحث العلمي وفي تطوير العلوم والمعارف، فهم لم يكتفوا بما وجدوه في الحضارات القديمة، بل طوروا تلك العلوم والمعارف ونقلوها إلى غيرهم، تقول زيغريد هونكه: "لقد طور العرب، بتجاربهم وأبحاثهم العلمية، ما أخذوه من مادة خام عن الإغريق، وشكلوه تشكيلا جديدا. فالعرب، في الواقع، هم الّذين ابتدعوا طريقة البحث العلمي الحق القائم على التجربة ... إنّ العرب لم ينقذوا الحضارة الإغريقية من الزوال ونظموها ورتبوها ثم أهدوها إلى الغرب فحسب، إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب، والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع. وبالإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم والتي سرق أغلبها ونسب لآخرين، قدم العرب أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت أمام الغرب طريقة لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم." (هونكه، 1993، ص 401، 402). في هذا القول اعتراف صريح جلي وواضح للعيان بفضل الإسلام والمسلمين على العالم أجمع وعلى الحضارة الغربية خاصة، حيث يعود الفضل في ابتكار طريقة البحث العلمي المعروفة باسم المنهج التجريبي إلى المسلمين، المعتمد على الملاحظة والفروض والتجربة والتدقيق في الجزئيات، كان هذا قبل أن يصوغها فرانسيس بيكون بقرون، فالمسلمين هم المؤسسون الحقيقيون للمنهج التجريبي وللبحث العلمي المنظم والدقيق، لم يكتفي المسلمون بهذا، بل كان لهم الفضل في نقل معارف اليونانيين القدامى وحفظها من الضياع، فهم ترجموا تلك المعارف وطوروها وشروحها وأضافوا إليها معارف جديدة، فإنجازات وإبداعات المسلمين متعددة ورائدة فلقد برعوا في الطب والكيمياء والرياضيات والفنون والعمارة والهندسة، فكانت علومهم

وإبداعاتهم تدرس في المدراس والجامعات الغربية لوقت طويل ومزال جامعات ليومنا هذا تدرس تلك العلوم والمعارف لطلابها، وعليه يتضح الفضل الكبير للمسلمين على الحضارة الغربية.

يعترف الكثير من الغربيون المنصفون بفضل العرب على حضارتهم ومعارفهم، فها هي المستشرقة الألمانية "هونكه" بفضل الطبيب "الرازي" حيث تقول: "قبل 600 عام كان لكلية الطب الباريسية أصغر مكتبة في العالم، لا تحتوي إلا على مؤلف واحد، وهذا المؤلف كان لعربيّ كبير. وكان هذا الأثر ذا قيمة كبيرة، بدليل أن ملك المسيحية الشهير، لويس الحادي عشر، اضطر إلى دفع اثني عشر ماركا من الفضة ومئة تالر (Taler) من الذهب الخالص لقاء استعارته هذا الكنز الغالي، رغبة منه في أن ينسخ أطباؤه نسخة، يرجعون إليها إذا ما هدد مرض أو داء صحته وصحة عائلته ... ولقد اعترف الباريسيون بقيمة هذا الكنز العظيم وبفضل صاحبه عليهم وعلى الطب إجمالا. فأقاموا له نصبا في باحة القاعة الكبيرة في مدرسة الطب لديهم، وعلقوا صورته وصورة عربي آخر قاعة أخرى كبيرة تقع في سان جرمان، حتى إذا ما تجمع فيه اليوم طلاب الطب وقعت أبصارهم عليها ورجعوا بذاكرتهم للوراء يسترجعون تاريخه .. فمن هو؟ إنه الرازي أو رازاس (Rhases) كما سمته بلاد الغرب" (هونكه، 1993، ص 243، 244). يوضح هذا القول فضل المسلمين والعرب على الحضارة الغربية في ميدان من أهم الميادين المعرفية، يتعلق الأمر بفضل الأطباء المسلمين على الغرب، فالطب الإسلامي شهد طفرة تطورية في القرون الوسطى لم يشهدها من قبل في الوقت الّذي كانت فيه أوربا تعيش تخلفا طبيا كبيرا، إذا كان المرض يعتبر لعنة أو مس شيطاني وغيرها من الاعتقادات والخرافات التي مارستها الكنيسة على الفرد الغربي، حيث برز الأطباء المسلمين بتشخيصاتهم العلمية الواقعية المستندة إلى الملاحظة والتجارب، وعلاجاتهم وأديتهم المستخلصة من الأعشاب ومن تطور الكيمياء، فبرز أكثر من طبيب مسلم بإبداعاته التي هزت العالم، ولعلّ الطبيب الرازي كان أبرزهم على الإطلاق إذ كان له الأثر البالغ في الطب الغربي، حيث قام الأطباء الغربيون بترجمة أعماله الطبية للاستفادة من تشخيصاته وعلاجاته وتجاربه الطبية، والدليل على ذلك ما قام به لويس الحادي عشر حين قام باستعارة كتاب الرازي الطبي، وأمر أطباؤه بنسخه وترجمته تحسبا لأي مرض قد يصيبه أو يصيب عائلته، فكان كتاب الرازي هو الكتاب الوحيد الّذي يزين رفوف مكتبة كلية الطب الفرنسية لمدة طويلة لم يزاحمه فيها أي مؤلف آخر، لأنه كان كتاب شامل لكل المعارف الطبية، دون أن ننسى إسهامات الأطباء الآخرين كابن سيناء إذ ألف كتابا أسماه القانون في الطب، وكذا إسهامات ابن الهيثم وغيرهم من الأطباء الّذين خلدهم التاريخ واعترف الكثير من الغربيين بفضلهم، حيث شيدت لهم التماثيل وعلقت صورهم وترجمت كتبهم.

يعترف غوستاف لوبون بفضل الفلاسفة العرب على الفكر الفلسفي الغربي، فالمسلمون هم أول من نادوا بحرية الفكر، إذ يقول: "والحق يقضي بالاعتراف للعرب بأنهم أول من أغضى عما نسميه بحرية الفكر في الوقت الحاضر ... وأبعد فلاسفة العرب صيتا هو الفيلسوف الشهير ابن رشد الّذي كان له أعظم الأثر في أوربة، أجل، يعد ابن رشد، عادة، شارحا لفلسفة أرسطو فقط، ولكنني أرى أن هذا الشارح سبق أستاذه في بعض الأحيان سبقا يثير العجب، وأن فلسفته مقبولة في كثير من الأمور أكثر من تلك."

(لوبون، 2018، ص 666، 668). شهدت القرون الوسطى الإسلامية حركة فلسفية وفكرية كبيرة كانت حديث العالم أجمع، في الوقت الّذي كانت فيه أوربا تعيش ظلاما فكريا بسبب تسلط الكنيسة على كل مظاهر العلم والفكر، حيث كان المسلمون هم أول من أشاعوا حرية التفكير، لعلّ أبرز إسهام قدمه الفلاسفة المسلمون للغرب هو تلك الترجمات والشروحات التي قدمها الفلاسفة العرب لأعمال الفلاسفة السابقين وخاصة الفلاسفة اليونانيين وفي مقدمتهم أفلاطون وأرسطو، كان فيلسوف قرطبة ابن رشد أبرز هؤلاء الفلاسفة حيث كان له تأثير بالغ في الفكر الفلسفي الأوربي فهو من نقل الفكر اليوناني إلى الغرب، فلولا ترجماته وشروحاته لكتب أرسطو لما تعرف الأوربيون على هذا الفيلسوف، لم يكن ابن رشد مجرد مترجم وشارح بل كان مبدعا حيث فاق أستاذه أرسطو في الكثير من المسائل الفلسفية، حيث تزينت المكتبات الأوربية بكتب ابن رشد، دون أن نغفل فضل الفلاسفة الآخرين كالفارابي والغزالي وابن سينا وغيرهم.

خاتمة:

في الأخير، يتضح جليا أن هناك دراسات استشراقية تسلحت بالموضوعية نهجا ومنهجا لها لدراسة الإسلام، بعيدا عن التعصب الديني والفكري، فكانت أحكامهم موضوعية ومنصفة في حق الإسلام والمسلمين، وبذلك أزاحت هذه الدراسات تلك الأحكام الكاذبة والمغلوطة في حق الإسلام والمسلمين التي غذت بها الكنيسة ودراسات المتعصبين بها عقول الغربيين مشوهة صورة الإسلام والمسلمين في أذهانهم، ففي هذا الدراسات المعتدلة شهادات واعترافات بفضل الإسلام والمسلمين على العالم أجمع، وبالخصوص على الحضارة الغربية، فلولا الإسلام والمسلمين لما كانت هناك حضارة غربية، ولما كان هناك تطور علمي كما هو اليوم، ولما كان الغرب يعرف شيئا عن حضارة وعلوم وآداب اليونانيين القدامى، فالفضل يرجع إلى المسلمين في نقل وحفظ تلك العلوم والآداب، كما يعود الفضل للمسلمين في تطوير البحث العلمي وضبطه حين اكتشفوا طريقة البحث العلمي، هذا مجرد فيض من غيض لإسهامات الإسلام والمسلمين في بناء الحضارة الغربية، وفي إبراز فضل الإسلام والمسلمين على العالم أجمع، فما أحوجنا اليوم لمثل هذه الدراسات لرفع راية الإسلام ومسح تلك الصورة المغلوطة عنه، وما أحوجنا أكثر إلى أن نعود إلى سالف عهدنا حين كنا نقود العالم بإنجازاتنا واكتشافاتنا في مختلف الميادين، لكي نقود الأمم كما قدناها في الماضي حين كانت تعاني الجهل والتخلف والركود، لعله وعسى في المستقبل القريب ننفض الغبار ونرفع التحدي ونعيد بناء مجدنا القديم.

قائمة المراجع:

- توماس كارلايل. محمّد صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى.(2008). مكتبة النافذة. الجيزة، مصر.
- توماس كارلايل. الأبطال. (2017). دار الكاتب العربي للتأليف والترجمة والنشر .بيروت، لبنان.
- توماس. و. أرنولد. الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية. (1970). ملتزمة للطباعة والنشر والتوزيع مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.

- زيغريد هونكه. شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربية على أوروبة (المجلد 8). (1993). دار الآفاق الجديدة. بيروت.
- عبد الجليل شلبي. الإسلام والمستشرقون. (دت). مطابع دار الشعب. القاهرة.
- غوستاف لوبون. حضارة العرب. (2018). وكالة الصحافة العربية. الجيزة، مصر.
- لورا فيشيا فاغليري. دفاع عن الإسلام (المجلد 5). (1981). دار العلم للملايين. بيروت.
- موريس بوكاي. التوراة والإنجيل والقرآن والعلم (المجلد 3). (1990). المكتب الإسلامي. بيروت.
- موريس بوكاي. القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة (المجلد 2). (2004). مكتبة مدبولي. القاهرة.

تداعيات الدراسات الاستشر اقية لتفعيل الإسلاموفوبيا
-نحو التخطيط لاستر اتيجيات مضادة وترسيخ الإسلاموفوبيا-

The Implications of Oriental Studies to Activate Islamophobia

Towards Planning Counter Strategies and Consolidating Islamophobia

ط/د.كوثر بوقرة، جامعة 08 ماي 1945 قالمة - الجز ائر

bouguerra.kaouther@univ-guelma.dz



تهدف هذه الدّراسة إلى الكشف عن الاستراتيجيات الغربية المسطّرة لنشر الإسلاموفوبيا، وتبيان مدى نمطيّة الأفكار التي تضمنتها الدراسات الاستشراقية داخل متونها، محاولين في ذلك التنقيب عن العوامل التي ساعدت في تكريس النظرة الاحتقاريّة للإسلام لدى الغرب وتفعيلها، كما حاولت هذه الورقة البحثية البحث عن سبل تساهم في تعزيز الروح السّلميّة بين المسلمين والغرب.

أما بالنسبة للنتائج المتوصل إليها فإننا توصلنا إلى:

- حاولت الكتابات الاستشراقية في معظمها تلويث الفكر الغربي ومن ثم الفكر العربي بدونية الإسلام وعدميته.
- إن ارتباط الفكر الكنسي بالاستشراق يجعله إيديولوجيا بامتياز، وما الكتابات الاستشراقية المنافية للإسلام إلا دليلا قطعيا على ذلك.
- ينبغي على الفكر العربي الإسلامي أن يحاول فهم ثقافته وإمكاناتها، وحدودها حتى لا يتعداها في مثاقفته مع الآخر، و التخطيط جديا لآليات عربية إسلامية تسهم في تفعيل الإسلاموفوليا.

الكلمات المفتاحية: الدراسات الاستشر اقية، الإسلاموفوبيا، التخطيط، استر اتيجيات، الإسلاموفوليا

Abstract

This study aims to reveal the established Western strategies for spreading Islamophobia, and to show the extent of the stereotypical ideas included in Orientalist studies within its body, trying to explore the factors that helped perpetuate and activate the contemptuous view of Islam in the West, and this research paper tried to search for ways that contribute to Promoting the spirit of peace between Muslims and the West.

As for the results we have reached:

Most of the Orientalist writings tried to pollute Western thought and then Arab thought by the inferiority and nihilism of Islam.

- The Arab-Islamic thought should try to understand its culture, its capabilities, and its limits so as not to transgress them in its culture with the other, and to plan

seriously for Arab-Islamic mechanisms that contribute to activating Islamophobia.
Keywords: Oriental studies, Islamophobia, planning, strategies, Islamophobia.



مقدمة :

إنّ الفجوات التّكنولوجية الكبرى الّتي تفصل بيننا وبين الآخر لم تكن كافية لمداواة تلك التّخيلات المرهبة من الأنا المسلمة، فقد كان هذا الأخير ولا يزال يواجه مشكلات نفسيّة- فكريّة. تتأسس على فوبيا التوافق مع الإسلام والتحاور معه،فدائما ما كانت تلك الروح المتغطرسة المتعالية، دافعا في أن يحاول هذا الأخير تدنيس تاريخ العرب، وأن يجعل كلا من الإسلام والمسلمين في قائمة المحظورات، الأمر الذي جعله (الآخر) كثير الاهتمام بكل ما يزيد من علو نرجسيته شغوف بجميع التفاصيل التي يتيح له الحط من قيمة الإسلام، والحد من نزوحه. ونجد أن محاولات الآخر في تدنيس معالم الهوية الإسلاميّة، ومبادئها، لم تقتصر على مجتمعها الغربي فقط، بل امتدت إلى الوعي العربي وعملت على تشتيته وتلويثه من خلال الحرب الباردة التي تمخضت في رحاب حداثتهم الاستيلابيّة التي سلطت على العرب، والحقيقة أن ما نراه في عصرنا الحالي من استيلاب فكري يثبت نجاعة هذه الآليات وحنكة الآخر، ومدى وعيه، وتتحكّمه بزمام هويته الثقافية والدينية...وإلخ، كل ما يتعلّق بمبادئه التي تمثّل فكره، وعلى هذا فإننا في هذه الدراسة نؤسس لبعض الفرضيات التي من شأنها أن تسهم في إعادة حوسبة الأفكار الإسلاميّة لفهم ماهية هذه التحوّلات المخيفة التي نعيشها اليوم، وتحديد منابعها الأولى، علّنا نستطع نتدارك أنفسنا في خضم هاته الهبّات الدائيّة المخيفة التي أصابت العرب أيضا بمرض الإسلاموفوبيا المفروض أنه سطر لحجز التتبع الأخري للإسلام؛ خوفا من تنامي الإسلامي، لكن استراتيجيات الآخر كانت أنجع من أن تنحصر في دائرة الآخر، فقد أثبتت هذه الأخيرة مركزيتها حتى مع الأنا، وهذا ما يدفعنا إلى طرح **الإشكالية الرئيسية** الآتية:

_ ما هي الاستراتيجيات المسطّرة من طرف الآخر لتعميم فكرة التخوّف من الإسلام درجة الهوس والهلع المفضي إلى داء الإسلاموفوبيا؟ كيف تمكّن الآخر من قلب موازين الفكر العربي، وزعزعة قيمه حتى يكون تبعيا لمجتمع مصاب بالإسلاموفوبيا ليصبح هو الآخر متخوفا من حضارة نشأ وترعرع بين أحضانها؟

والتي **تفرعت منها إشكاليات** أخرى والمتمثلة في:

ما درجة وعي المسلمون بإسلاميتهم؟ هل يمكن اعتبارهم طرفا مساهما في رسم تلك الصور المشينة عن الإسلام؟ما هي السبل التي تمكننا من التصالح مع الآخر وتحقيق التعايش السلمي؟

أولا- الاستراتيجيات الآخرية في تهيئة الفكر الغربي لتمثل الإسلاموفوبيا:

لم تكن الصورة الوحشية التي رسمها الغرب عنا وليدة الراهن، بل ساهمت في رسمها تراكمات قرون من الكبت والبغض اتجاه الأنا المسلمة، كما أسهمت في إنمائها نرجسية الآخر التي ترمي إلى الانتصار على الأنا العربية في ساحة المعارك الهوياتية، كون الآخر يسهم في معرفة فاعلية الأنا وقدرتها على تحقيق ذاتها أمام نقيضها (الآخر)، فدائما ما كانت الأنا العربية تشكل خصما كريها ينبغي ردعه، وفي ذلك يقول "**تييري هنتش " (Thierry Hinch): " لقد شكل الثنائي شرق- غرب القائم على التضاد والتجاوز المزمنين ثابتة في التاريخ المتوسطي، إنها إشكالية نابعة من ماهيتين أساسيتين متبادلتي التأثير والاختلاط، في السلم كما في الحرب دون أن تمتزجا بصورة مستدامة". (فلاك، 2020،ص 56)** والحديث عن تلك التحولات الجذريّة التي طرأت على العالم والتي كان فيها الآخر سيّدا يتربّع على عرش الحكم يحيلنا إلى براعة استراتيجية غربيّة محكمة في رسم الخطط، وإهمال عربي إسلامي درجة اللاوعي.

وللإشارة فإن **وأول من استعمل مصطلح الإسلاموفوبيا في فرنسا كان الكاتب ماليه إيميل(MAllih Imil) بمقالة كتبها تحت عنوان "ثقافة وحشية" منوها في ذلك إلى أن هذه الكراهيّة ترسبات ماضوية، ناهيك عن الرهاب الكبير من التفشي الإسلامي بين أرجاء العالم، وأن أحداث 11 سبتمبر إلا سببا في إثارة تلك النعرات بين الإسلام والغرب كما قال: " لا بد من وقفة صريحة مع أنفسنا، حيث إن بعض تصرفات المسلمين التي لا تتفق مع مبادئ الإسلام أسهمت في تكريس هذه الظواهر، وهي تعزز فكرة أن المسلمين عدائيون ومتخلفون، وهو جهل من أولائك الأشخاص وسوء استقبال من الأشخاص الآخرين". (زاهر، 2013، الإسلاموفوبيا صناعة غربية بأخطاء عربية)**، ومن جملة الآليات التي حاول الآخر من خلالها المساس بخصوصيّة هويتنا الإسلاميّة نجد:

1_ الاستشراق:

1-1 مفهومه:

أ/ لغة: ويمكن أن نستشهد في هذا الجانب المفاهيمي بما جاء به ابن المنظور في معجمه المميّز الموسوم ب:**"لسان العرب"** وبالتحديد في -**مادة شرق**-: " **أن لفظة الاستشراق تولّدت من الفعل الثلاثي شرق إذ نقول: أشرقت الأرض إذا أنارت بإشراق الشّمس".(منظور،2005، ص914)**، ونواصل مسيرتنا المفاهيمية اللّغويّة بما ورد في المعجم الوسيط والذي جاء فيه: **"إن كلمة شرق أخذ بناحية الشرق، تقابل الشّمس شرقا وشروقا، إذا طلعت من الشّرق".(مصطفى، وآخرون، د.ت، ص469)**ومفردة استشراق تعني تبني الأدب والسلوكيات الشرقية ودراسة الشرق والبحث فيه.**(داود، 2007، 120)**وعليه فإننا ومن خلال ما سبق نخلص إلى أن الاستشراق في مدلوله اللغوي يمثل ذلك المجهر الرّاصد لكل ما يتعلق بالعالم الشرقي، قصد التمحيص والتدقيق في مكنوناته.

ب/ اصطلاحا:أما حديثنا عن الجانب الاصطلاحي لهذه المفردة يحيلنا إلى أنها حركة فكرية واسعة النطاق، متعددة الجوانب **تعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمة الشرقيّة بصفة عامّة، ودراسة حضارة الإسلام بصفة خاصّة. (سعيد، 1995، ص 80، 81)** وفي ذلك لا بدّ من التنويه إلى أن جهود هذا الأخير كانت منصبّة في بادئ الأمر على دراسة الحضارة الإسلامية، واللغة العربية وآدابها، ليوسّع بعد ذلك دائرته البحثيّة إلى أبعد من ذلك بكثير محاولا تطعيم حقوله المعرفية؛ من خلال العمل على استيعاب وهضم كل ما يتعلق بالشرق ككل، بما في ذلك العادات، والتقاليد، والأعراف، والسّلوكات، واللّغات، والأدب،ولا ننسى في ذلك الدراسات الإسلامية والتي نالت قسطا كبيرا من الاهتمام والاحتفاء.وبهذا فقد أطلقت مفردة مستشرق **على كل من يختص في الآداب الشرقية أو اللغات الشرقية، أو المطلع على تاريخ إحدى الدول الشرقيّة، أو حتى الدّارس لسوسيولوجية أو أنثروبولوجية هذه الشعوب.(بخوش، 2004، ص 402)**

وبالرجوع إلى الولادة الزّمنيّة لهذا المصطلح فقد كانت بدايتها من اللغة الإنجليزية عام 1779م، وقد اندرج هذا المصطلح ضمن مصطلحات القاموس الفرنسي " استشراق" Orientalism، عام1837 م **(جوارفيسكي، 1996، ص 103، 104)**. ويجمع الباحثون على أن هذا الأخير قد ولد في كنف الكنائس، وبذلك فكان بذلك الدافع الديني ممهدا لنشأته، وتغذيته،وهو الطّرح الّذي أكده **محمد عبد الله الشرقاوي** بقوله: **"ملاك القول إذا، أن الاستشراق ولد في سراديب الأديرة والكنائس، ووظفه المستشرقون من رجال الدين في الغرب لتحقيق هدفهم في محاربة الإسلام بالافتراء الحاقد عليه، والدس الرّخيص والكذب في محاولة لطمس وتسوية حقائقه، ووضع الحواجز والسدود بين الشعب الأوروبي وتفهم الإسلام الصحيح، وقد نجح هؤلاء في تحقيق أغراضهم وحرموا العالم الغربي من نعمة الإسلام وهديه". (بخوش، 2004، ص 403)**. وعليه فإننا نتوافق و نظرة **حسن حنفي** للاستشراق والذي يعتبره:**" نتاج ثقافة غربيّة استعماريّة ذات صبغة إيديولوجية بحتة، وهو تعبير عن الإثنية الأوروبية حيث تسود التسلطية و حب الهيمنة". (عدار، د.ت، ص18)**. فالولادة الكنسية لهذه الحركة تفضي مباشرة وبلا شك إلى مصالح ، وأهداف هيمناتية تسلّطيّة انتهازيّة، وينبئنا بخطورة تلوح في الأفق.وفي مقابل ذلك يعتر ف بارت اعترافا صريحا عن غاية المستشرق بقوله: **"لايعيش المستشرقون في الفراغ، شأنهم في ذلك شأن ممثلي الأفرع الأخرى في الدراسات، بل يضعون أنفسهم -وإن بدا عملهم شبيها بعمل العلماء الخاصة شبها كبيرا- في خدمة المجتمع الذي ينتمون إليه، والذي يموّلهم ويشجّعهم".(بخوش، 2004، 402)** فقد عمل المستعمر على التعزيز من شأن الدراسات الاستشراقية كدافع لفهم ما يجوب في عقول المسلمين، ومحاولة إخضاعهم بشكل كلي، متخذين في ذلك آليات مسطّرة بحنكة من خلال المساس بمعالم ثقافتهم من تراث وقيم وعقيدة، والتفاخر بثقافة الغرب وما تتيحه هذه الحضارة من ماديات، وثقافة قصد استمالة المسلمين إليها والأخطر من ذلك أنهم حاولوا المساس باللغة العربية التي تعد ركيزة من ركائز الهوية العربية في الكثير من البقاع العربية كالجزائر في العهد الفرنسي...وغيرها، وفي الوقت الحاضر أتجه المستشرقون في دراساتهم العليا إلى دراسة الفصحى والعامية، ومحاولة التعمق في مكامن

اللهجات المحليّة أمثال المستشرق ويلكوكس وويلمور، وتابعهم في ذلك بعض الباحثين العرب مثل سلامة موسى ولطفي السيد.(**أنور، 1970، ص30**) ومن ذلك نستشف خطورة الفعل الاستشراقي على الجوانب الآتية:

_ تحريف اليقينيات الفكريّة العربية وتراثهم.

_ استمالة العقول العربية، ومحاولة تلويث كل ما يتعلق بهويتها من لغة...إلخ، من خلال الحوار المباشر مع الأمة التي حل عليها المستشرق...وغيرها من الحيثيات الخطيرة المنساقة جرّاء هذه العمليّة الإيديولوجية.

1_2 صورة الثقافة العربية الإسلامية في مر ايا الدراسات الاستشر اقية(القديمة):

ويمكن أن نستشفّ ذلك من حقيقة أن المستشرقين جندوا أساسا لخدمة المصالح المنافية لتجذر الإسلام، فقد عملت تلك المصالح على إظهار فكرة الاستشراق كحاجز منيع أمام الاكتساح الجغرافي للإسلام، وبالتالي فإنّه يصعب علينا تحديد مستويات هاته العلاقة المتلاحمة،وحصر مداها وقد عبّر عما أشرت إليه سابقا الدكتور **محمد فتح الله الزيادي** في قوله: **إن الاستشراق هو دراسة الشرق عموما ودراسة الإسلام والمسلمين خصوصا بقصد التشويه والتشكيك". (الزيادي، ص61، 62)** وهو نفس ما ذهب إليه دوارد سعيد في تطرّقه إلى العملية الاستشراقية ومراميها إلا أن تعريفه كان يوضّح أيديولوجية هذا الأخير وسعيه إلى التمركز والتسلط والسيادة عليه. **(سعيد، 1995 ص232)** والمؤسف في حديثنا عن هذا التغاضي عنه تلك البصمة الكبيرة التي تركها الاستشراق في العالم العربي والشرخ الكبير الذي أحدثه بينه وبين الإسلام، فقد احتضن الغرب كل ما هو ورد الشرق من خلال البحث الاستشراقي وانكبوا على تمحيصه، وهذا يجسّد وعيهم التام لما يدّره هذا الأخير عليهم من فوائد كان من بينها تلك الثروات العلمية الهائلة التي لا تُفوّت، باعتبارها ورقة رابحة قادرة على قلب موازين الثقافة العربية الإسلاميّة وزعزعة كيانها، وإقصائها إلى عوالم التهميش ،كما فعل هذا الأخير تماما مع الأدب الشعبي الذي أدرجه ضمن القوائم المحضورة كونه لا يخدم مصالحه ويفضح نرجسيته التي تأبى الدنو إلى مستوياتها الطبيعيّة. ولما كانت الثقافة الإسلاميّة حائلا كبيرا أمام مركزيّة الآخر فقد عمل هذا الأخير جاهدا على الحط من قيمتها هي الأخرى، ونفيها من قوائم الحضارات الراقية.

وبالنظر إلى ما سطّر عن الإسلام والمسلمين في مضامين الدراسات الاستشراقية، فإننا نتأكد حقيقة من انعدام النوايا العلمية لدى أصحابها، فقد كانت خطابات الكراهية للإسلام تتوالى من خلال تلك المؤلفات الاستشراقية المشحونة بالأفكار المعادية للأنا الإسلامية، والمطعّمة بأفكار رسمتها أنساق خفية تراكمت عبر تلك جرعات الكره التي تعاطاها الآخر تدريجيا منذ بداية وعيه؛والتي مفادها أن الأنا المسلمة دائما وأبدا معادية للآخر، فهي تمثل القبح، والتشرد والإرهاب، والوحشية، وهي الرؤى التي عملت على

غسل أدمغة الآخر، ليتمثل ويتقبل تلك الأحكام الجاهزة، والمسبقة المنفوثة من سموم الاستشراق، ويجسدها فيمن تلاه من النشئ. كما عملت هذه الكتابات على تلويث المعرفة الصحيحة للأنا، بوصفها أكبر مدنّس للعلاقات بيننا وبين الغرب من خلال العمل على ذبذبة الصورة الواضحة للعرب وتشويهها.وقد كانت الأدبيات الاستشراقية بمثابة النافذة التي يطل منها الآخر على الأنا العربيّة، والحديث عن دراسات المستشرقين الأول يوصلنا إلى أن هذه الأخيرة بمثابة رد فعل لما جسده الفكر الكنسي فيهم من رؤى معادية للإسلام والمسلمين وهي فكرة يقينية ترجمتها آراؤهم الاستشراقية اللامنهجيّة، فقد حاولت المركزيات الآخرية غلغلة فكرة وحشية الإسلام داخل الأوساط الفكرية الغربية، ،فهو في نظر أتباعها دين وحشي يشجع على القتل، ويمكن أن نستشهد في ذلك بقول صامويل هنتنغتون: **إن هنالك محاجة أن الإسلام كان دينا للسيف منذ البداية وأنه يمجد فضائله القتالية، فالإسلام نشأ بين قبائل بدوية رحل متناحرة وهذه النشأة العنيفة مطبوعة في أساس الإسلام، فيذكر عن "محمد" أنه كان مقاتلا عنيفا وقائدا عسكريا ماهرا، ولا أحد يستطيع أن يقول ذلك عن "المسيح" أو عن "بوذا". (هنتنغتون، 1999، ص426، 427).** ولما كان العنف منبوذ لدى البشر عامة، فقد عمل الآخر على المساس بأكبر نقطة ضعف إنسانيّة تسهم في تفعيل عملية الترهيب من الإسلام من خلال العمل على دس المقولات المغلّطة عن أحكامه وتجسيده بصور وحشية، مخيفة، ترهب أتباعهم من الغرب، وتتعدى ذلك إلى تمرير هذه الأفكار إلى المسلمين لتضمهم تحت مضلّتها كأتباع دونيين.

ومن المقولات الاستشراقية الأخرى التي عملت على تدنيس الثقافة الإسلاميّة هي دونية الفكر العربي وجهله، فقد عملت هذه الأخيرة على تجريد العقل العربي من ألوان الابتكار: **فالفلسفة الإسلامية في إلا ترديدا لأفكار اليونان والتصوف الإسلامي مبني على جذور غير إسلامية، والشريعة الإسلامية مأخوذة من القانون الروماني وهكذا...إخ. (الحلاق، دت، ص5).** وقد تعدّت الجرأة الاستشراقية حدودها درجة المساس بالرسول صلى الله عليه وسلّم، والتهكّم عليه بكل معاني الهجاء، والذم، وقد مثلت ذلك كتابات " مونتيسكو"، ناهيك عن إنكار المستشرقين لظاهرة الوحي لدى الرسول صلى الله عليه وسلم والمستشرق نولدكه يرجع ذلك إلى **نوبات الصرع تعتري على النبي صلى الله عليه وسلم من حين لآخر". (السباعي، 1979، ص23، 24)** وقد حاول هذا المستشرق البغيض أن ينطلق في فكرته من مسلّمات علمية تعمل على تقويض اليقين وزرع فتنة التشكيك من خلال أن المصاب بالصرع عندما تنتابه تنتابه النوبات يفقد الوعي درجة أن يقول أشياءا لا تأخذ على محمل الجد، فتكون بذلك مقولاته لاشعورية غير يقينيّة. وهو ما يتوافق تقريبا الأفكار التي حاول الكفار في عهد النبي صلى الله عليه وسلم تمريرها عن وحيه والتي مفادها أن الوحي ما هو إلا شعر من صنع الرّسول، وهو ما يشير إلى أن حملة العداء ضد الإسلام لم تخمد نارها على مر السنين، ويؤكّد استبدادية الاستشراق وقد أتاح الاستشراق لأصحابه الولوج إلى عوالم المخطوطات العربية وأقبلوا عليها تحقيقا ونشرا، وكان لهم بالغ الدور في الانتقال بالمخطوطات من رحاب العالم العربي إلى أوروبا، والعكوف على قراءتها وهو ما يفسر وعيهم التام بما

تحمله هذه المخطوطات من درر ثقافية وحضارية.(**الألوسي، 2007، ص17**) ويحيلنا هذا يحيلنا إلى خطورة كبيرة هبّت على الثقافة العربية من خلال التلاعب بالتاريخ وتحريفه، ونشر المغالطات، وتدنيس الثقافة فمعظم هذه الدراسات لم يكن مراعيا للمنهجيّة الأدبيّة والنقديّة، بل كان خادما وفيا لمصالح إيديولوجيّة هيمناتيّة غربيّة خالية من النزاهة. وبناءا على فإن تسمية الباحث لا تتواءم مع المستشرق وهو حكم مستوحى من أساسيات البحث العلمي وهي النزاهة العلميّة وعليه فإن سمات الباحث لا تنطبق صفات المستشرق، فالأول صاحب أمانة علمية أما الثاني فهدفه استعماري يغزو لإشباع رغباته النفسية التي تجسّد الأنا الطاغية المتعالية، فالمستشرق هنا كان بمثابة جندي خفي يفتقر لروح المواجهة ويتقن تمثّل دور الباحث بامتياز، ذلك المحارب الذي يتخذ من معالم الهوية الإسلاميّة ومبادئها سلاح للصمود في وجه الأنا، والحقيقة أن الإسلاموفوبيا قد تأسست نظريا في فكر مؤطّريها الأوائل حدّ الهلوسة، ومن ثم حاول أصحابها تحويل هذه الفكرة النظريّة إلى واقع من خلال العمل على إقحامها في عقول مجتمعاتهم في بادئ الأمر، وإيهامهم بواقعيتها إلى أن تحوّلت إلى نفور كلّي حتى لدى العرب من كل ما هو إسلامي، والنظر إليه على أنه تعصّب، وخشونة، و تقهقر، والعدول عن كل ماهو إسلامي والإيمان حد الثمالة بحداثة وتكنوقراطيّة ما يقدّمه الآخر المتحرّر.

1_3الإسلام وتداعيات الخطابات الغربيّة المعاصرة (الاستشراق بصورته المعاصرة):

وإننا في هذا نحاول التعريج على ما أملته الخطابات الفلسفية الغربيّة المعاصرة التي تمثل الاستشراق في مراحلة المعاصر، فقد عملت هذه الأخيرة على استكمال مسيرة ما ابتدأته الدراسات الاستشراقية في مراحلها الأولى والحمولات الفكريّة المشحونة بالبغض التي حاولوا ترسيخها اتجاه كل ما هو إسلامي ويمكن أن نورد في ذلك الانتروبولوجية الفرنسية جوسلين داخلية تقول عن الإسلام بأنه **ينظر إليه على أنه دين استبدادي وشمولي، غير قابل لاستيعاب أي شكل من أشكال التجزئة و أنه لن يكون متعارضا وخاليا من المعنى اتجاه كل أنواع الحرية. سواءا على مستوى الممارسات الفردية. أو التعبير الجماعي. وعلى الصعيد الفردي، يقع النظر إليه بأنه ديانة الخضوع والإذعان بالمعنى الحرفي. هذا هو معناه الاشتقاقي، بل كنهه ومكمن روحه."(جوسلين، 2019، ص 197)**.ومن المحاولات الأخرى التي حاولت صعلكة الإسلام والمسلمين **بييربايل** والذي افترى على الدّعوة الاسلاميّة بقوله:**" لقد لجأ محمد و أتباعها حمل الأسلحة لفرض ديانته، وهكذا يجب البحث عن أسباب تقدم هذا الدّين، والتي تختصر في انقسامات الكنيسة الإغريقية وتشتت الطوائف المسيحية والحالة السيئة لإمبراطورية الشرق وفساد الأخلاق، ولكن السبب الرئيسي لهذا الانتشار الإسلامي يمن في القرآن، والذي اعتمد أساسا على كتابات يهودية ومسيحية".(ثابت، 2020، ص331)**. من الواضح أن بايل يحاول أن يؤسس لفكرة أن الإسلام قد وجد أرضية خصبة للانتشار في ظل تشتت المسيحيين وتهاونهم، وأن الدين الإسلامي قد ذاع صيته لأنه دين دموي يعتمد على العنف وبذلك فإن جميع من اتبعو هذا الدين قد دفعوا لذلك عنوة، فالحروب حسبه هي من أعلت من مرتبة المسلمين وجعلتهم أصحاب تاريخ، فبذلك فإنه يترتب إلى ذهن

القارئ أن المسلمين بمثابة صعاليك دمووين بعيدين مل البعد عن العلم على خلاف المسيحيين المسالمين المثقفين.

ونظرا للتحولات الجذرية التي اجتاحت العالم برمته انبثقت في عالمنا الكثير من المستجدات المعرفية والثقافية كان من بينها العولمة التي مسّت الكثير من الجوانب وأضحت الحاكم المتحكم في زمامها، وقد نالت هذه الأخيرة حظها من الاهتمام في الفكر الإسلامي كونها مؤشر خطير لتحولات تاريخية ومعرفية ثقافية محاولا أن يقف صامدا أمامها كونها تختزن في مكامنها أنساق خفية سلبية في مجملها تهدف للتحكم في الثقافة العالمية وقيمها **وهو أمر طبيعي باعتبار أن الأديان التقليدية بما فيه المسيحية في الغرب تؤكد على معاني الهدوء والاتزان ولا تشجع كثيرا على التغيير بينما ثقافة العولمة وما بعد الحداثة ثقافة مؤسسة على الشباب والتغير والسلوك الاستهلاكي." (حسام الدّين، 2002، ص 233).** وهو ما يؤكد شدة احتدام الحرب الهوياتية في صورها العصريّة بين كلا من الإسلام والغرب، تلك الحرب التي تأبى الخمود، فكان فيها الغرب خصما حقودا يريد افتكاك المركزيّة دون حق، وأن يعتلي عرش السلطة بمقولات ظالمة، وهو أشد يقينا أنها كذلك، وأن الثقافة الإسلاميّة أسمى من الثقافة التي يتمثلها بكثير.

وفي مجال حديثنا عن المعضلات الثقافية التي تحول بين التصالح بين العرب المسلمين والغرب لا يمكننا أن تغاضى الحديث عن مقولتي: **"صدام الحضارات" و"نهاية التاريخ"** في توسيع هوة التضاد بين الإسلام والغرب، لاسيما أنهما مقولتنان تصرحيتان للقوانين والنظم الدولية الجديدة فكتاب المفكر الأمريكي فرانسيس فوكومايا الحامل لعنوان: **التبشير بنهاية التاريخ** بمثابة إعلان صريح عن حرب عدوانية عنيفة لكل ماهو خارج عن الغرب **فهو يرى: أن الولايات المتحدة الأمريكية مدعوة إلى استبدال البندقية من الكتف اليسرى إلى الكتف اليمنى وأن تظل على أهبة الاستعداد من موقع قيادتها للعالم لمواجهة الصراعات الحضارية المحتملة، وحجة فوكوياما في ذلك أنه إذا كانت الليبرالية بقيادة أمريكا قد تخلصت من عدوها التقليدي ممثلا في الشيوعية فإن الخطر كل الخطر في أن تخلد أمريكا حلفاؤها إلى نوع من الاسترخاء الذي يولد الفراغ ومن ثم فإن هذا الفراغ ينبغي ملؤه ببديل للعدو الشيوعي الزائل إذا ما أريد للتاريخ أن يظل مملوءا وفعالا فالتاريخ كالطبيعة يموت بالفراغ". (قسوم، 1996، ص31).** وبالنظر إلى مقالة صدام الحضارات فهي الأخرى تنفث سمومها على العلاقة بين الإسلام والغرب، فهنتنغتون يعمل من خلال مقولته غرس فكرة الصراع بين الحضارات كضرورة حتمية، ففي نظره أن الصراع الثقافي بين الحضارات هو من سيفرض نفسه في ساحة المعارك وحاول هذا الأخير تدعيم مقولته بأن النظام العالمي الجديد **"لا يركز على الأيديولوجيا أو المصالح الاقتصادية. بل الايمان والأسرة والدم والعقيدة فذلك هو ما يجتمع عليه الناس. وما يحاربون من أجله، ويموتون في سبيله، كما يعلن أن الدين محوري في العالم الحديث، وربما كان القوة المركزية التي تحرك البشر وتحشدهم". (هنتنغتون، 1999، ص10).**

وفي جانب آخر يمكننا أن نورد طرح الفيلسوف الفرنسي دانييل ليندبرغ(**D. Lindberg**) الذي يرى بأن أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 أوضحت أكثر مكانة الإسلام ضمن قائمة التصنيف العالمي والحقيقة المؤسفة أن هذا الأخير لم يكن مصنفا أصلا، فقد كان يتبوأ مكانة في الهامش، وقد كانت هذه الحادثة سببا كافيا في أن تلصق به اتهامات وافتراءات لم تكن له يد فيها من ضمنها أنه دين السّفاحين، والشيء المؤكد أن الفتنة الإعلاميّة كانت أول مروج لهذه الافتراء اتفقد تعالت من خلالها الهتافات المطالبة بمراقبة المسلمين، وهذا الأمر كان فرصة ذهبية للكاثوليكيين المعادين للمسلمين، وعلى هذا نستذكر **ألانيسانسون**، والفيلسوف **بيير مانيه(p.Manent)** صاحب النظرة المتعالية التي ترى أن الكنيسة تستطيع التحاور مع الإسلام، أو حتى الاشتراك معه في القيم وتفاهمات إضافة إلى تحفظهم من الوجود الإسلامي في الأرض المسيحية." **(ثابت، 2020، ص 333)**.وبذلك فقد كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 الوقود الكافي لإشعال لهيب الفتنة بين الأنا والآخر، ورسم تلك الصور المشوهة عن الأنا المسلمة، ومنذ ذلك الحين ألصقت بالمسلمين مسميات لا تنطبق عليهم كمصطلح الإرهاب والتطرف والوحشية، وأحيل كل ما يصدر منهم إلى هوامش التصنيف، والحقيقة أن هاته المسميات قد بقيت مقتصرة على الإسلام والمسلمين إلى حد الساعة الراهنة على الرغم من الجدل الواسع المحتدم دوليا في وضع مفهوم واضح الإحداثيات لمصطلح الإرهاب، إلا أنه بات اسما رديفا للإسلام وأصحابه.

وإذا جئنا للحديث عن فرضية التعايش الأخرى مع الإسلام نجد ريمي براغ (**R.Brague, 1947**)في نظره أنها فرضية عبثيّة لا معنى لها، فهو يرى أن الإسلام ينظر لديانة الآخر على أنها محرّفة، فالإسلام ينظر إلى الكتب اليهودية والمسيحيّة على أنها ليست أصليّة، وأن القرآن لا يحتاج للعهد القديم ولا الجديد. وعمليا لا تقرأ هذه الكتب. وفي الكثير من الأحيان تمنع قراءتهما."**(ثابت، 2020، 330)**،وهو تشخيص يحمل في طياته الكثير من النفاق والغل المراد به تفحيل الثقافة الغربية ودحض الإسلام. وقد تفاقمت الأزمات العدائية اتجاه الأنا المسلمة إلى أن بلغت مستويات خطيرة لاسيما في ظل وسائل الإعلام والتكنولوجيات الحديثة التي حاولت أن تنثر المقولات الزائفة عن الإسلام بوصفه دين متخلّف، بعيد كل البعد عن التحولات الحضارية التي عرفته المجتمعات الغربيّة. فحسبهم أن الإرث اللاهوتي التاريخي الإسلامي معيق لحركة النزوح نحو الديموقراطية، فهي منعدمة حسب الكتابات الفلسفية الفرنسية، وغير قادرة على التفكير في مصائر الأفراد خارج المصير الجماعي، وما يعيقها متعلق بالثقافة السياسية والدينية السائدة، واقتران حقوق الإنسان بالقرآن. وعليه فإن الثقافتين السياسية والدينية لا تتواءمان مع احترام حقوق الإنسان الغربية. **(ثابت، 220،ص 340)** ومن المحاولات الاستبداديّة الأخرى التي تحاول تعميق النظرة السوداويّة اتجاه الأنا المسلمة نجد ما يسلم به الفيلسوف **ميشال أنفريه** أيضا والذي يعتقد أيضا بوجود تناقضات في القرآن "**وذلك أن الله لا يعرف الرحمة، كما يمكنه بالفعل ممارسة مروءته وكرمه، لكن متى؟ و أين؟ ومع من؟ في أعمال النبي و أقواله. كما في نص الكتاب المقدّس يتم المرورعلى حد السّيف والإذلال بالرق والتعذيب والحرق والنهب أكثر مما نرى ممارسة محبة القريب. فالنظرية الإسلامية**

والممارسة المسلمة لا تتآلفان في الرحمة".(ميشيل، 2012، ص191، 192) وكأن الهمّ الوحيد لهذا الأخير هو خلق علاقة موضوعية بين الإسلام و الإرهاب. وهو بذلك يتوافق كليا مع الطرح التعسفي المضلل الذي جاء به **برنارد لويس**" في دراسة له حديثة والذي مفاده:**" أنّ الارهاب يكمن في صميم العقيدة الإسلاميّة". (الجابري 2004)**وبالتالي فقد كان إرهابية الإسلام فكرة ملائمة لفتح المجال أمام المرامي الغربية الهادفة إلى اعتلاء السلطة، ومسخ الإسلام والمسلمين من الوجود. وهو ما أكّدته مساعيهم الدؤوبة لتحديث الخطاب الديني ولعل ذلك يكون أكبر مصيبة تحط على رؤوس المسلمين، وذلك لما تشتمل عليه هذه الدعوة من أهداف منافية للكينونة الإسلاميّة، من خلال محو كل ما هو مسيء للديانة اليهوديّة، واستبعاد الدين عن الحياة والسياسة...وقد ورد ذلك كله في الكتاب الذي صدر حديثا في الولايات المتحدة الأمريكيّة المعنون ب: **" الفرقان الحق" (عدار، د.ت، ص27)**. الذي يحمل أنساق التشتيت والتشكيك لما جاء في القرآن الكريم، ويروج لتصورات تحريفية للديانة الإسلاميّة.

2- زعزعة الصورة العربية في المناهج الدّراسيّة الغربيّة:

نظرا لمركزيّة الكتاب في تغذية الروح الفكرية للمتعلم، ناهيك عن قاعدية المراحل العيمية الأولى في تكوين البنية العقليّة لدى المتعلم، والتأثير على سلوكاته، وتفعيل تقنيات التحاور الاجتماعي لديه، وصناعة توجهاته، فقد عمل الآخر على تطعيم مناهجه الدّراسية بخطابات تكرس مبدأ الكراهيّة للإسلام، وتعميق الهوّة بين الإسلام والآخر، فالتصوّرات الذّهنيّة التي يعمل التعليم الأخرى على دسّها في فكرية الطفل والشاب تحاول دائما شيطنة الأنا المسلمة، وتهيئة النشء بشكل قائم على الحظر المباشر لكل ماهو مسلم، رفض التعايش مع العرب المسلمين. ومن ذلك أن المناهج الإسبانية تعتبر أن المسلمين حاربوا الفرنسيين، كما ورد في كتبهم فكرة امتلاكهم للقدس وأن العرب سلبوهم إياها عنوة ولعل ما يثير انتباهنا أكثر **هو ذلك الكتاب الاسباني الذي صدر عام 2010 والذي تطرق إلى تاريخ الأندلس بشكل مغاير للدراسات السابقة التي حاولت هي الأخرى في معظمها الحط من قيمة الإسلام وتلطيخ سمعته، واعتبار الإسلام احتلال عدواني وحشي، فقد اخترق هذا المؤلف حدودا أبعد من ذلك فاعتبر الفتح العربي للأندلس مجرد«هجرة شعبية» لجماعة بشرية ، من مكان إلى مكان آخر، مثلها مثل هجرات جماعية كثيرة حدثت في التاريخ (إيكرت، 2012).**

ومن التصورات المشينة الأخرى التي حاولت المناهج التعليمية الغربيّة دمغها في ذهنيّة تلاميذها فكرة " العنف ضد المرأة" ، ودونية الفرد العربي وبدويته وهو ما اتضح من خلال الدراسة التي قام بها **الدكتور" اياد القريز والتي أقامها من خلال قراءته التمحيصية للأنساق الممرة في 36 كتاب مدرسي موجه للاستهلاك التعليمي سنة 1975،1974. (خاضر، د.ت، ص91)**.وفي موضع آخر نجد مؤلف **"مارتن بارنال** " الموسوم ب: **أثينا السوداء**" يقر بتلاعب كبير في أحداث التاريخ العربي**" فقد أنكر الغرب فضل كل من الحضارتين المصريّة والفينيقيّة في ظاهرة الغزو الآري من الشمال لتصبح حضارة اليونان بذلك**

أوروبية المنزع" (ينظر: مجموعة باحثين، 2003، ص61).والأخطر من ذلك أنهم يريدون في مقرراتهم عدميّة الفكر العربي وتبعيته لهم منذ القدم ويستبعدون إسهامات هذا الأخير في تكوين وبلورة حضارتهم ف"فقد أثبتت دراسات بريطانية أن الدور العربي الإسلامي في تكوين الحضارة الغربية بدءا من عصر النهضة في أوروبا ، قد استبعد من حسابات المؤرخين كأعمال ابن سينا وابن رشد"**(ينظر: مجموعة باحثين، 2003، ص71).**

أما بالنسبة للمقرّرات الدراسية المسطّرة للإخضاع التداولي التعليمي الثانوي في فرنسا فإنها تتعمد التهكّم هي الأخرى على الدين الإسلامي وسنة نبيه وسمعته، وتعتبر الإسلام دين مسخ، ابتكره محمد وادعى النبوة"**(ينظر:مجموعة باحثين، 2003، ص81، 82، 83)**.ناهيك عن أنها تحاول غلغلة فكرة دونية الأدب العربي وتهميشه ليتحول التهميش بذلك من التهميش الاجتماعي للمسلمين إلى آخر أدبي يتعلق بإبداعاتهم الأدبيّة، وهو اجحاف كبير في حق الأدبيّات العربيّة التي انبهر بها الآخر قديما وكانت لها الأفضليّة على كتاباته الأدبيّة.

وإننا نخلص من خلال ما سبق إلى فرط الذكاء الأخرى، و ودهائه اللاّحدود في اختيار المطبّات المشكّلة للصروح الفكريّة والتي كان بينها التعليم، فقد اتخذ الآخر من التعليم سلاحا فتاكا لإبادة الإسلام والتحصين من انتشاره، الأمر الذي يفضي إلى أن الحروب الدامية بين الإسلام والمسلمين لم تخمد نارها، ولم تهدأ، فلطالما كان الغرب يعتبرون الإسلام عدوا لدودا، وهي النظرة التي بقيت لصيقة مخيلاتهم، ورؤاهم المضلّلة.ولعل ما سبق يلفت انتباهنا إلى نقطة مهمة كان لا بدّ من الإشارة إليها وهي أن المناهج الدّراسية الغربيّة على اختلافها تحاول دائما إظهار الأنا العربي بشكل انهزامي ومشين أمام انجازاتها الغربية الحداثية، وأن الفكر العربي فكر رجعي، اتباعي، يستلهم جميع أفكاره، ورؤاه من الثقافة العربيّة، وفي المقابل نجد أن المقرّرات الدّراسيّة العربيّة قد أهملت الجوانب المستفزة للآخر، إذ أننا بالكاد نجد نصوصا تحاول الإشارة إلى خطر الآخر، وهمجيّته الثائرة التي حاولت افتكاك السلطة العربية بطرق شتى عسكريّة في بدايتها، ومتخفيّة في عباءة الجمالي والحداثي في عصرنا الحالي، حتى أننا في نصوص اللغة العربية المفترض أنها موجهة لسلوكات التلاميذ، ومغذية لأفكارهم، نجد نصوصا تتحدث عن اختراعات غربيّة، وإسهامات الغرب في المجال العولمي، حتى وإن وجدنا نصوصا تتحدث عن الفايسبوك...إلخ، فإننا لا نجد في سلبياتها ما يشير إلى خطر الآخر في تحطيم هياكل الهويّة العربيّة، والاستيلاب اللّغوي من خلال لغة العبريزي أو اللغة العربية الهجينة التي اعتاد شبابنا تداولها في مواقع التّواصل الاجتماعي والأخطر من ذلك أن مؤسساتنا العربية تخاطب تلاميذها بلغة الآخر، وتستعملها حتى في وثائقها الإداريّة، الأمر الذي يفضي لا إراديا إلى تصديق العرب للافتراءات الآخرية على ثقافتهم، ودراساتهم وعلومهم، وكأن المناهج التعليمية العربية تحاول التأصيل لثقافة الآخر هي الأخرى وترسيخها، كما نجد أن الأولياء المسلمين يشجّعون أبنائهم على احتذاء المناهج التعليميّة الغربيّة، عوض أن يستنهضوا مستنفرين لنواقص تعليمهم، المفترض إعادة تهيئتها تهيئة شاملة قائمة على التمثل الأصيل للثقافة الإسلاميّة، إلا أن هولاء

تبرّأوا من إسلاميتهم وثقافتها ليخضعوا بذلك إلى ثقافة الآخر على الرغم من عدائيتها لإسلاميتهم، فقد أباحوا ذلك بكل بساطة وتناسوه !!! وما يزيدنا مرارة وتأسفا أن هذه المناهج تمرّر حمولات فكرية احتقارية وعدائية للأمة الإسلاميّة، فهي قادرة بذلك على مسخ الفكرية العربية الإسلامية لدى المتعلم العربي ؛ليصير نسخة مستنسخة عن الآخر في طروحاته، وأفكاره من خلال تلك الخطابات المسوقة إلى الأدمغة الإسلامية الراغبة في التعلم. الأمر الذي يقودنا إلى القول بأن الآخر على وشك أن يفوز في ساحة المعارك الهوياتية مع الإسلام والمسلمين، الحرب الباردة التي انخدع العرب بوجهها اللاّمع ولم يعط بالا لأنساقها الممرّرة إلى فكره والتي ولّدت لديه هو أيضا نظرة ناقصة لدينه، وتصوّرات منافية لثقافته، ليصاب هو الآخر بداء الإسلاموفوبيا، داء الثقافة الذي احتوته وجعلت له هويّة، ويصبح أسيرا هو الآخر لخزعبلات وهميّة وثقافة دخيلة عن مبادئه.

ثانيا/ الإسلاموفوبيا تخطيط غربي بأخطاء عربية:

لقد عمل الفكر الغربي بحفاوة على تدنيس الواجهة الإسلامية في منظورات أتباعه، ولم تبقى هذه النظرة السوداوية للإسلام حبيسة الغرب فقط، فقد تعدت الحدود الجغرافية للغرب لتجتاح بذلك الإحداثيات الفكرية العربية وتتمكن من أصحابها ،كان ذلك من خلال العمل على تشتيت الوعي العربي وتلويثه في إطار ما يعرف بالحرب الباردة وهي سبل حداثية انتهجها الغرب بعد فشل الحروب المواجهتية، وإننا في هذا المبحث نسعى إلى محاولة تسليط الضوء على الزلاّت العربية التي أسهمت في التباعد الفجواتي بين الأنا والآخر، وتلطيخ السمعة العربية لديه، فالواقع المتردي الذي تحياه المجتمعات العربية يؤكد للآخر حتما صحّة المقولات المروّجة عن الإسلام ونحن في ذلك نحمل كامل المسؤوليّة للعرب المسلمين وذلك لإهمالهم لحضارتهم، الأمر الذي يقودنا إلى ضرورة إعادة حوسبة أنفسنا من جديد لفهم ماهية هذه التحوّلات المخيفة التي نعيشها اليوم ،ومنابعها الأولى علّنا نستطيع تدارك أنفسنا في خضم هاته الهبّات الدائية المخيفة التي أصابت العرب أيضا بمرض الإسلاموفوبيا لنجد أنفسنا أمام الإشكاليات التالية: **ما هي حدود الثقافة العربية؟ هل كان في الثقافة العربية ما يستجلب الآخر ويفعّل المثاقفة المعكوسة (أخذ الآخر من الأنا العربية)؟ هل استطاع المسلمون إظهار الإسلام للآخر بصورة علمية ممنهجة وفعالة؟**

وللإجابة عن الفرضيات السابقة كان لا بد من التطرق إلى:

1_العرب و افتتانهم بالحداثة الغربية:لطالما كان ديننا الاسلامي دين عادل، متحرّر، حداثي بكل تجلياته، إلا أن إعراض بعض أصحابه عنه جعلهم يغفلون عن ما يحمله هذا الأخير من قيم وخامات، ولعل داء التبعيّة الذي أصاب العرب كان سببا في ذلك الإعراض والاشتغال عن الدين الإسلامي، فقد افتتن العرب بحداثة الآخر على الرغم من أن هذه الأخيرة تولّدت لخدمة المصالح الغربية لا غير،

فظاهريتها توحي بالديموقراطية العالمية وتنادي بمبدأ المساواة، والانفتاح، والحواريّة...وغيرها من المقولات اللامعة التي حاولت من خلال تضليل الأنا العربية المسلمة، إلا أن نسقيتها المبطنة تختزن مصالحا فرديّة غربيّة، وخير دليل على ذلك أن الصورة المدنّسة للمسلمين بقيت على حالها ، والنظرة المتعجرفة التي لم تتزحزح حمولاتها اتجاه ما يتعلق بالإسلام والمسلمين ، ومن هنا يتضح أن الفكر الكنسي لا يزال يهيمن على الفكر الغربي، وأنّ الحريّة التي جاءت بها الحداثة حريّة نسبيّة فقط، ويمكن أن نطلق عليها حرية مزاجية عنصريّة إن صح التعبير، فقد انتفض الغرب اتجاه الممارسات القمعية للكنيسة عليهم في حين أنهم ارتضوا هذا الظلم والعنصرية على المسلمين، وهو ما يوحي بفكرة أن الغرب أنفسهم كانوا يكنون الكره للعرب وتمثلوا ذلك، وصدّقوه بشكل جعلنا نحس أن الفكر الكنسي الداعي لتهميش المسلمين كان سببا فقط في هاته الأفكار، فكان من الممكن أن يتخلص الآخر من هاته الأفكار مثلما أزاح العديد العديد مما فرضه عليه الفكر الكنسي.

كما أن الحداثة الغربيّة التي تبعها العرب كانت رد فعل على وقائع خصوصياتية هوياتية غربية، وبالتالي فإن الخصوصيّة الثقافيّة لكل أمّة تفرض عليها التعامل بما يحفظ حدود هذه الخصوصيّة، وبالتالي ليس بالضرورة أن ينطبق الآخر ينطبق علينا نحن المسلمين. فمجتمعاتنا العربية هي مجتمعات نصية فكرية، ودليلنا في ذلك أن عقيدتنا اكتملت من خلال ذلك القرآن المنزّل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم، ومن ثمّ فقد كان القرآن وما زال غذاء لعقولنا ومداو لوعينا ، أما المجتمعات الغربية فهي مجتمعات رأسمالية، فهي بذلك حصيلة تربويّة للفكر الكنسي وما التطورات التكنولوجية إلا دليل قطعي على تمكن الرأسماليّة من الفكر الغربي وتغلبها على النصيّة الحاوية للفكر العربي، حتى أن الفكر العربي الإسلامي أصبح فكرا رأسماليا بامتياز، ناهيك عن أنه انصرف عن كل ما يثبت ثقافته الإسلامية إلى الانبهار بثقافة الآخر التي أصبحت تمثل الحداثة والعصرية والرقي في نظره، وهو ما يجعل هويتنا الإسلامية على المحكّ. والحقيقة أن ما نراه في عصرنا الحالي من استيلاب فكري يثبت حقيقة نجاعة حنكة الآخر ومدى وعيه بحدود هويته الثقافية والدينية...وكل ما يتعلّق بمبادئه التي تمثّل فكره ، وهو ما نفتقده حقيقة في مجتمعنا الإسلامي، فنحن مسلمون لكننا نفتقر حقيقة للوعي بحدود إسلاميتنا، مصابون بداء اللاوعي، فعلى الرّغم من إسلاميتنا إلا أننا نجهل حقيقة أصولها ونفتقد لتلك النرجسية التي تجعلنا نكافح من أجل حضارتنا الإسلاميّة، ونتمحص في مكنوناتها التي نجهلها أصلا !!! والمخجل في ذلك أن الآخر على دراية بمحاور حضارتنا وتاريخنا الإسلامي وقيمه ويتتبع شؤونها أكثر منا، وهو إجحاف كبير في حق إسلاميتنا والأكثر من ذلك أننا في تطوّر كبير لنمارس التبعيّة للآخر بامتياز. إن لا وعي الفكر العربي الإسلامي جعل الآخر أكثر تصديقا لتلك الوهميات الفوبيا التي حاول أصحاب السلطة الغربية ترسيخها في ذهنيات أتباعهم، من ذلك أن الفكر العربي فكر متذبذب غير واع....إخ، وبالتالي هذا يولّد النفّور من الأنا العربية، ومما تصنعه على الرّغم من ريادتها في العديد من المجالات، و فضلها على الغرب في شتى الميادين.

2 -الاستنساخ العربي في مجال الأدب والنقد: لما كانت الخطابات الأدبية والنقدية مرتبطة بأواصر الثقافة، فقد نالت المناهج النقدية العربية نصيبها هي الأخرى من هذا التتبع والانبهار من خلال استثمار الإجراءات الآخرية، وتماشيا مع ما تم ذكره فقد أدت صدمة الحداثة إلى عدول الخطاب النقدي العربي عن مساراته التقليدية، وكان هذا التجاوز منطلقا للعبور إلى آليات نقدية جديدة مختلفة عن السائد من منظور حداثي يسعى إلى خلق استراتيجيات نقدية جديدة في مقاربة الظواهر الخطابية فاستثمرت بذلك الإجراءات الآخرية، وأضحت سارية المفعول آليا عند العرب كشكل من أشكال المثاقفة مع الآخر. فامتثال العرب لمسارات النقد الغربي، يجعلنا أمام مشاكل خطيرة مرتبطة بنجاعة هذه الإستراتيجيات في معالجة ظواهر النصوص الأدبية العربية خصوصا واتساع الهوة بيننا وبين الغرب، إضافة إلى سعة الفجوات التي تفصلنا أخلاقيا عنهم كون الأخلاق هي الموجه الأول للفكر في غالب الأحيان، وبالتالي فإنّ هذه المقاربات إن طبقت على نماذج غربية وكللت بالنجاح، فإن هذا لا يعني بالضرورة أنها تتواءم مع الأنموذج النصي العربي، خاصة وأنها نشأت في بيئة غربية لها رؤاها، وتطلعاتها التي تفردها عن غيرها.ونظرا لهذا التباين التفكيري الذي يحمل قيما، وأفكارا قد تتنافى تماما مع الفكر العربي، فإننا جديا بحاجة إلى رؤى جديدة تعيد حوسبة الأفكار العربية، والنظريات المنتهجة في تعرية الخطابات الأدبية.ومن الجوانب الأخرى التي أثبت فيها العرب نجاعتهم التبعية نجد: تلك الأحكام المجحفة في حق الأدب الشعبي، الذي ركن في حواف التهميش ردحا من الزّمن على الرغم من الحمولات الفكرية، والثقافية الكبرى التي يتستر عليها هذا الأدب بين مكامنه، والأنساق الثقافية المشحونة التي يحملها هذا الأخير بين مكنوناته، فهامشيّة هذا الأدب كانت هامشيّة وهميّة دسّها الغرب في ثنايا الفكر العربي، وما يثبت هذه الرأي هو ذلك التهافت الآخري لدراسة التراث العربي الإسلامي ، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الأخير كان مفتاحا للهيمنة على كثير من الشعوب، استعماريا في السابق، وفكريا في عصرنا الحالي، فقد كرّس الآخر جهودا جبارة لدراسة تراثنا والعكوف عليها وهو ما يؤكد غنى ثقافتنا، وكنزيتها بالنسبة للآخر. وإذا جئنا للخطابين الحديث و المعاصر نجد فيهما نية مواكبة الراهن والتكيف مع معطيات الآخر، والبحث عن حداثة شعرية مغايرة لكن آثار ثقافة الغرب واضحة جلية فيهما، وفي حديثنا عن خطابات العصر الحديث نجد ميخائيل نعيمة في هذا الصدد يقول: **إن ما تعود بعضهم أن يدعوه نهضة أدبية عندنا ليس سوى نفحة هبت على بعض شعر ائنا وكتابنا من حدائق الآداب الغربية..."(قصيدة النثر العربية والاستيلاب الثقافي، 2007)** ونجد كذلك منيف موسى يقول:"**أن أصحاب المدرسة التجريدية قد انصبوا على آداب الغرب بدءا من أواخر الربع الأول من القرن العشرين وأنهم أخذوا هذه الآداب بحذافيرها وبكل ما فيها وخصوصا أدب المدرستين الرومانسية والرمزية.** أما الناقد **سعد البازعي** فيقول :"**أن القصيدة النثرية اتخذت مفهوما وتقنية كتابية من الغرب وتحديدا من فرنسا وأنها ضلت طوال تاريخ تناميها تتغذى على موارد غربية".(قصيدة النثر العربية والاستيلاب الثقافي، 2007)**. أما أدونيس فيعترف صراحة أنه أخذ بثقافة الغرب. كما يعترف بأنه عرف الحداثة الشعرية العربية من خلال قراءة بودلير... وبالتالي فقد امتثل العرب للثقافة

الغربية وأصحابها خصوصا بودلير، رامبو، فاليري...وغيرهم ونجد في ذلك رفعت سلام يعترف بسبق رامبو له في قوله:

حينمااستيقظت...كان منتصف الليل، هكذا سبقني رامبو... **(قصيدة النثر العربية والاستيلاب الثقافي، 2007).**

انطلاقا مما سبق يظهر أن الحداثة الشعرية التي عرفها عصرنا الحديث كانت شديدة التأثر بفكر الآخر. الأمر الذي ينفي نجاعة الفكر العربي ويجعله عرضة أكثر لافتراءات الآخر المشينة التي تنفي عنه كل تقدم وتلصق به كل تقهقر لتجسد لمراميها الساعية دائما إلى تحطيم المعالم الإسلامية، والترهيب من دونية أصحابها. وبالتالي كان على كل من الأدب والنقد الإسلاميين أن يمثلا الثقافة الإسلامية بشكل متحرّر لا تبعي، وذلك من خلال العمل على استحداث آليات جديدة أدبية ونقدية ننافس بها الثقافة الآخرية، ونؤسس بها لفكر عصري عربي إسلامي، وأن نعمل على أن تكون هذه الاستراتيجيات متماثلة مع خصوصيتنا الهوية الإسلاميّة بالدرجة الأولى، وبالتالي فإن ذلك يحتاج إلى وعي بالإمكانات العربية، وما تحمله ثقافتها الإسلامية من شحنات فكريّة قادرة على قلب موازين الثقافة العالميّة وتحقيق الريادة، وافتكاك المركزيّة التي يزعم الآخر أنه ملك له دون غيره. هذه المركزيّة التي جعلته يحيك المكائد ويصنع الأقاويل، وينثر التصورات المغلطة، وينفق أموالا في سبيل الإطاحة بالثقافة الإسلاميّة، تلك الثقافة المهولة التي عجز عن تفكيك تيماتها والتغلب على قوتها. وبالتالي يكون من المؤسف علينا أن نسلّم بزمام ثقافتنا اتي بقيت شامخة على مدار السنين إلى الآخر.

3 -**التلوّث اللّغوي العربي**:والحديث عن هذا المجال يستوقفنا لا محالة أمام معضلة كبرى وهي:مشكلة الاستيلاب الهوياتي كون اللغة تمثل مكونا أساسا من مكوّنات الهويّة، ونحن اليوم نعيش حالة رهيبة من الاغتراب اللّغوي، الأمر الذي فسح المجال أمام الآخر لامتلاك السلطة، والحق أن ثقافة الآخر اللغوية سيطرت وبشكل كبير على السّاحة اللغوية العربية ما أدى إلى تنامي أزمة الهوية وبشكل كبير.فالجمل المركبة لغويا التي اعتاد مجتمعنا العربي التواصل بها تشكل تهديدا للهوية والخصوصية العربية. كما تولّد أجيالا يجهلون لغتهم، وينفرون منها، وهو ما يؤدي بالضرورة إلى الابتعاد عن الدين الإسلامي ومقوّماته من قرآن كريم...، فنحن كما أشرنا سابقا أمم نصيّة وبالتالي فإن التلويث اللّغوي يجعل الفرد المسلم يجهل لغته بالدرجة الأولى، ويسد المسالك الإدراكيّة لهاته اللغة لديه ومن ثم تتولد لديه فجوات فكريّة كبرى تحول دون إدراكه لما تحاول ثقافته الإسلامية إيصاله، عبر خطاباتها المجسدة في اللغة العربية، وبالتالي فإن هذا التذبذب اللغوي يساهم في استبعاد الفرد العربي عن ثقاته الإسلامية ليتحول إلى نسخة ممسوخة عن الآخر الغربي، ولعل هذا النزوح العربي إلى الثقافة الغربيّة يرسّخ أكثر فكرة عدمية الدين الإسلامي ودونيته، ويجعلهم أكثر تصديقا لفرضيّة أن الثقافة الإسلامية لو كانت متحرّرة ومتحضّرة لما انزاح أصحابها إلى ثقافة الآخر وتغنى بها.

4 - العرب والترجمة: إن انغماس العرب بنقل المعارف الآخرية إلى لغته، جعله يتمرّس هذا الدّور ويتعوّد عليه لينتقل هذا الأخير من صاحب حضارة علميّة راقية إلى مجرّد ناقل تبعي بامتياز، وهو أمر مؤسف حقيقة، فالمثاقفة الواعية تستوجب التطلع على المعارف الآخرية وترجمة متونها بغية فهم ما تنص عليه على سبيل الاستزادة المعرفيّة والإضافة الذّاتية، لا ترجمة هذه المعارف والانغلاق عليها. فنحن بحاجة إلى مصطلحات جديدة تعيد الاعتبار للثقافة العربية لدى الآخر، ومساهمات تثري الخزانة الترجمية العربية، فثقاتنا بحاجة إلى جهود عربية جبّارة في مجال الترجمة العربيّة ونحن في هذا لا نقصد الترجمة من العربيّة إلى لغات أخرى عالمية. حتى نعيد التوازن والمجد للثقافة العربية كما كانت في سابق عهدها.فلماذا لا نتولى نحن مسؤولية البحث عن ديننا وحضارتنا؟ لما لا يكون لدينا دراساتنا الخاصة وأبحاثنا التي ننشرها في العالم الغربي لنعرف نحن عن ديننا بدلا من أن يقوم بذلك آخر ليس من اختصاصه؟

5- المسلمون والمرأة:وهي قضية محورية كان لا بد مت التطرق إليها وذلك لأهميتها، فعلى اعتبار المرأة عماد المجتمع كان لابد من التنويه إلى أننا في مجتمعاتنا العربيّة أهملنا الاهتمام بالمرأة وهو ما يرجعنا إلى نقاط كثيرة أشرنا إليها في الاستشراق سابقا، فقد كان هذا الأخير دقيقا في ملامسته لنقاط ضعف المجتمعات الإسلاميّة من منظور انتقائي واعي، فالفكرية العربيّة الإسلاميّة في معظمها لم تعمل جديا على فهم دينها كما ينبغي، فقد قوّم الإسلام الرجل على المرأة لكنّه لم يدعو إلى إهمالها وتهميشها واستبعادها، فالفهم المغلط للدين الإسلامي جعل المجتمعات الإسلامية تتعامل مع المرأة بنوع من الاستخفاف والاستنقاص من قيمتها الأمر الذي جعلها تحس بالدّونيّة وتحاول التمسّك بأي جانب يعطيها حقوقها المسلوبة، وهو الأمر الذي أخذه الآخر في ميزان اعتباراته، فعمل على استحداث آليات حداثية تستنهض بكينونة المرأة ، وتعيد لها اعتباراتها، تلك الاعتبارات الوهمية المفضية إلى التشتت والانحلال الأخلاقي، وبالتالي فإننا نحمل العرب المسؤولية الكبرى في ذلك كوننا بعيدين كل البعد عن إسلاميتنا التي أباحت لنا الكثير من الحريات بما يحفظ ماء وجهنا الأخلاقي.

ثالثا-الاسلاموفوليا وسبل تفعيلها في الوعيين الغربي والعربي:

إنه وبالنظر إلى التطورات المرهبة التي يعيشها عصرنا الحالي فإننا نراهن بأن إمكانية الحوار مع الآخر تبقى مستبعدة إلى حد كبير وتبقى حلما صعب المنال، وذلك كون فكرة أننا نمثل الغريم المضاد لهم، الفكرة التي ترسخت في جوارحهم ومن الصعب الانحراف بها إلى مساراتها الصحيحة، فعلى الرغم من أننا نسمع الكثير من الهتافات الداعية إلى كسر حواجز العداوة بين الأنا المسلمة والآخر الغربي إلا أنها تبدو منافقة في كثير من جوانبها لأن الآخر نرجسي الفكر متعالي الثقافة حتى لو صرح بمبدأ الصلح إلا أن هذا التصريح يبقى ضمنيا يخفي الكثير من، الأنساق المضمرة الداعية إلى نسف الإسلام، والمسلمين، وبالتالي يبقى هذا الأمل المرجو ينتظر دوره في طوابير الهامش أملا في التحقق، **وخير دليل على ذلك ما كان قائما في**

حضارة الأندلس الإسلامية وغيرها من الحضارات التي شهدت تعايشا بين الأديان التوحيدية الثلاثة وغيرها من الملل والنحل. ثم إنه طالما أننا فشلنا من خلال سياسة العنف والعنف المضاد. (رابح، وبن عومر، 2019، ص26، 27) وبغض النظر هذا عن ذاك يكون من الإجحاف أن نشير إلى تلك الفئة القليلة ذات التفكير الواعي والنوايا الإنسانية الصادقة التي تحاول فتح باب التعايش والتسامح مع الإسلام والمسلمين من خلال المؤلفات والمؤتمرات، والمركز العلمية الدينية، وبالتالي من واجبنا الوقوف مع هاته الفئة والتكاتف معها تحقيقا للهدف المنشود.

إن المشكلة العويصة تكمن في انعدام الوعي بما هو حاصل في عوالم العلاقة مع الغرب بعيدا عن تلك المصالحات البسيطة، كون السلام والغرب يفضيان إلا حمولات ثقافية وحضارية متشابكة، فالإسلام في بنيته التكوينية ليس كتلة واحدة متجانسة فهو منقسم إلى عدة فرق فعلى مستوى المفهوم هناك أنواع من الإسلام ونجد الأمر نفسه بالنسبة للغرب. والتالي فهما بحاجة أكثر إلى الوعي بحقيقة أناهما (أنا العرب/ أنا الغرب) ومن ثم تفعيل الوعي العكسي (فهم الأنا للآخر وفهم الغرب للأنا) وذلك خارج نطاق الإعلام وحقائقه المزيفة و الخطابات السياسية والإيديولوجية لكلاهما . والتخلص من هيمنة الأفكار الاستعمارية الموروثة تاريخيا لدى العرب والغرب وإعادة كتابة التاريخ بأساليب منهجية بعيدا عن الحقائق المزيفة وهو ما دعا إليه محمد أركون في كتابه الإسلام، أوروبا، الغرب بقوله:**" ينبغي علينا أن نزحزح أولا ثم نتجاوز ثانيا كل الأجهزة المفهومية والمقولات القطعية والتحديدات الراسخة الموروثة عن الماضي، سواء أكان هذا الماضي ينتمي إل جهة التراث الإسلامي، أم إلى جهة التراث الأوروبي. الغربي، فهذه الرواسب والتصورات الماضوية شائعة جدا لدى كلا الطرفين وتشكل أحكاما مسبقة تمنعنا من رؤية الأمور بوضوح، أي من تشكيل نظرة تاريخية حقيقية، كما وتمنع من أي لقاء حقيقي بين الطرفين". (أركون، 2001، ص9).** وبذلك فإنه ينبغي علينا سد الفجوات داخل الثقافة الإسلامية في بادئ الأمر بشكل يعكس استبدادية الخطابات الغربية المجحفة في حق هذه الأخيرة.

كما يتوجب علينا الاطلاع على ثقافة الآخر ومحاولة الاعتراف بها في نطاق التعايش السلمي مع الحضارات الأخرى والمبادلات الحضارية، دون التأثر بهذه الحضارة والانسلاخ من ثقافة الأنا وهو ما يحيلنا إلى المثاقفة الواعية التي تهدف إلى التعاون المشترك للارتقاء بالعالم أسره (التصالح الثقافي) وعليه يقع على الآخر أيضا الاعتراف بثقافة الأنا والتعايش معها وتقبل فكرة الاختلاف الثقافي، وإعادة هيكلة الدراسات الاستشراقية وتهيئتها بما يتواءم وشروط المعرفة بدلا من الإيديولوجيات التي لا زالت سارية المفعول إلى يومنا هذا. ناهيك عن أنه يقع على عاتقنا العمل على خدمة المصالح وتذليل الصعوبات المشتركة بين العرب والغرب**" فهناك العديد من القضايا الدولية الراهنة التي يتفق الجميع على الاهتمام بها أو على مقاومتها خصوصا في الجانبين الأمني والقيمي". (مسرحي،2006، ص179)** وذلك من خلال تكثيف جهود الهيئات المؤسساتية الثقافية والسياسية والاقتصادية وجمعها تحت مظلة واحد وإسهام جميع

الدول في ذلك دون عنصرية، ومراعاة الخصوصية الثقافية لكل أمة، وتحرير هيئة الأمم المتحدة من سلطة بعض الدول، وهيمنتها خدمة لمصالح القطب الواحد وإعادة المصداقية لها.

خاتمة:

ومن خلال ما سبق فإننا نخلص إلى النتائج التالية:

- حاول الغرب تدنيس الهوية الإسلامية لدى أتباع واعتمد في ذلك استراتيجيات عدّة كان من بينها الاستشراق، وما أملته الحرب الباردة من آليات عصريّة مسطّرة بأحكام.

- يشير مفهوم الاستشراق إلى تلك العملية البحثيّة الموسعة التي تعنى بدراسة أدق التفاصيل المتعلقة بالشرق من عادات وتقاليد... وقد كانت الكنيسة المهد الحاضن لهذه العملية والمشجع الأول لها.

- إن ارتباط الفكر الكنسي بالاستشراق يجعله إيديولوجيا بامتياز، وما الكتابات الاستشراقية المنافية للإسلام إلا دليلا قطعيا على ذلك.

- حاولت الكتابات الاستشراقية في معظمها تلويث الفكر الغربي ومن ثم الفكر العربي بدونية الإسلام، وعدميته وهمجيته.

- أثبت الآخر حنكته اللا محدودة ووعيه في اختيار نقاط ضعف أتباعه والأرضيات الأساسيّة المشكّلة لفكره والتي كان من بينها المناهج الدراسية خاصة المقرّرات الموجهة للمراحل التعليمية الأولى والتي حاول من خلالها ترسيخ أفكار البغض والكره اتجاه الإسلام ومتمثليه.

- -إن التبعية المفرطة للآخر أدت إلى خلخلة موازين الثقافة لدى العرب المسلمين، وأفضت بهم إلى أن يصيروا صورة مستنسخة عن الآخر.

- ينبغي على الفكر العربي الإسلامي أن يعيد حوسبة أفكاره بما يتوافق والثقافة العربية الإسلامية، والأهم أن يحاول فهم ثقافته وإمكاناتها، حتى يعرف حدود ثقافته ولا يتعداها في مثاقفته مع الآخر لتكون ثقافة واعية بعيدة عن الاستيلاب.

توصيات:

- ينبغي على أصحاب الثقافة العربية التحرك الفوري ووضع استراتيجيات تخطيطية محكمة تسهم في توضيح صورة الإسلام وتلميعها أمام الآخر.

- محاولة فهم حدود الثقافة العربية، وإمكاناتها، والعمل مداواة الفكرية الإسلامية من داء الاستنساخ الذي أصابها والتكاتف من أجل خلق أنموذج إسلامي يسهم في تفعيل التتبع العكسي (تتبع الآخر الغربي للأنا المسلمة)، لأن ثقافتنا الإسلامية بها من التخوم، ما يجعلنا نفوق الآخر، ونفتك المركزية العالمية، ولعل هذا غير خاف عن الآخر الغربي، الأمر الذي جعله يسعى جاهدا لتلويث الثقافة الإسلامية وصورة أصحابها حتى لا تستطيع هذه الأخيرة التفوق عليه.

قائمة المصادروالمراجع:

1_ الكتب:

- ابن المنظور، لسان العرب، (2005)، دار الكتب العلمية، بيروت.

- إبراهيم مصطفى، وآخرون، المعجم الوسيط، ج1 (د.ت)، دار الدعوة.

- داود، محمد، المعجم الوسيط واستدراكات المستدركين، (2007)، الغريب للطباعة والنّشر، القاهرة،

- سعيد، إدوارد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الانشاء، (1995)، ط4، مؤسسة الأبحاثالعلمية، بيروت.

- محمد عدار، الإسلاموفوبيا: تحليل نظري معرفي،(د.ت)، المركز الديموقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية،برلين، ألمانيا.

- الجندي، أنور،الإسلام في وجه التغريب ، (1970)، دار الاعتصام، القاهرة.

- الزيادي، محمد فتح الله، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها، (1984)، ط1، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس.

- هنتنغتون، صامويل، صدام الحضارات ، تر: طلعت الشايب، (1999)، ، طبعة سطور، العراق.

- ثائر الحلاق، (د.ت)، مناهج المستشرقين في دراسة الإسلام، دراسة تحليلية وصفيّة، قسم العقائد والأديان، جامعة دمشق.

-السباعي، مصطفى، الاستشراق والمستشرقون، (1979)، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت.

- ينظر: الألوسي، عادل،التراث العربي والمستشرقون_ دراسة عن ظهور الكتاب العربي، ونفائس الكتب العربية التي طبعت في الغرب، (2007)، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة.

- جوسلين، داخلية، الإسلام والغرب من إيديولوحية الصدام إلى جدليّة النزاع، تر: خالد بن الصغير (2019)، ط1، منشورات عكاظ، دار البيضاء، المغرب.

- ثابت، عبد النور، نقد الإسلام في الأدبيات الفلسفية الفرنسية المعاصرة، (2020)، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد 10، العدد 1.
- حسام الدين، محمد، العولمة وصورة الإسلام، (2002)، ط1، المدينة بيرس،مصر.
- أونفراي ميشيل، كتاب نفي اللاهوت، فيزياء الميتافيزيقا، (2012) ، منشورات الجمل، ألمانيا.
- أركون، محمد، الإسلام أوروبا الغرب، ترجمة: هشام صالح ، (2001)، ط2، دار الساقي.
- مسرحي فارح، الحداثة في فكر محمد أركون، (2006)، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر.
- ينظر:حاضر الساري، حلمي، صورة العرب في الصحافة البريطانية، (د.ت)، مركز الوجدة العربية، بيروت.

2_ المجلات والصحف:

-فلاك فريدة، "مصادر الصورة الذهنية والنمطية للإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية، (2020) مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعيّة.

- آليس جوارفيسكي، الإسلام والمسيحية، (1996)، سلسلة كتب عالم المعرفة، الكويت، عدد 215.

- بخوش، عبد القادر، دور الاستشراق في تأزم العلاقة بين الإسلام والغرب، (2004)، مجلة الإحياء، العدد الثامن.

- محمد عابد الجابري، في نقد الحاجة إلى الإصلاح، (2004)، جريدة الاتحاد، أبو ظبي.

-ينظر:مجموعة باحثين، صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية حول العالم، (2003)، مجلة المعرفة الرياض، ط1، العدد 12.

- عبد الرزاق قسوم، (1996)، مجلة دراسات فلسفية، الجزائر، عدد 1.

- رابح، رزيق ، بن عومر رزقي، معوقات الحوار بين الإسلام والغرب وآليات تجاوزها،(2019)، مجلة متون، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة، المجلد 11، ع02.

- **المو اقع الالكترونية:**

-محمد، زاهر، الإسلاموفوبيا صناعة غربية بأخطاء عربية، (2013)، **www. Albayan.ae**.

- معهد جورج إيكرت للأبحاث الدولي،صورة الإسلام والمسلمين في الكتب المدرسية الأوروبية الجمود الفكري واختلاف الهويات(2012).www.almarefh.net/show_content_sub.php

-ينظر: قصيدة النثر العربية والاستيلاب الثقافي،2007، صحفي www. Sahafi.jo

الإسلام والمسلمون بين مطرقة الاستشراق وسندان الحداثة

Islam and Muslims between the hammer of orientalism and the anvil of modernity

ط/د. مدني سيسي، جامعة الجزائر-1- الجزائر
sissimadani@gmail.com



الإسلام هو دين الله الذي بعث به جميع الرسل والأنبياء، وكانت صورة الإسلام في القديم نموذجا للأمم الأخرى والملل، وفي الوقت الحاضر أصبحت صورته مشوبة بالعديد من المغالطات والافتراءات. ينبع هذا البحث من مشكلة تغيير صورة الإسلام من صورة إيجابية إلى صورة سلبية، وما يترتب على ذلك من آثار وأسباب ونتائج. ويهدف إلى إبراز مكانة الإسلام بين الأديان وقيمته العالمية ومدى صلاحيته لكل زمان ومكان وإنسان، وقد توصلت من خلال هذا البحث أن الإسلام دين الله تعالى الوحيد الذي رضي ليعبد ربه، وأن كل ما ألصق بالإسلام من مطاع نسبها إما الحقد أو سوء الفهم والتصور.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، المسلمين، الغرب، الاستشراق، الحداثة.

Abstract:

Islam is the religion of God with which he sent all the messengers and prophets, and the image of Islam in the past was a model for other nations and religions, and nowadays its image has become tainted with many fallacies and fabrications. This research stems from the problem of changing the image of Islam from a positive image to a negative image, and the consequent effects, reasons and results. It aims to highlight the status of Islam among religions, its universal value, and its suitability for every time, place, and person. Through this research, I have concluded that Islam is the only religion of God Almighty, who is pleased to worship his Lord, and that everything that sticks to Islam of obedience is caused by either hatred or misunderstanding and perception.

Keywords: Islam, Muslims, the West, Orientalism, Modernity



مقدمة:

عاشت الأمة الإسلامية صراعا ثقافيا وحضاريا مع الأمم التي سبقته، وقد شهت هذا الصراع تفوق الإسلام والمسلمين على الغرب في جميع مجالات الحياة، وذلك لما كان الإسلام يمثله رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فنشروا الإسلام في جميع بقاع العالم، وأوصلوا هذه الرسالة إلى عقر ديار اليهود والنصارى، وأسلم على يدهم خلق عظيم.

ولما رضي المسلمون بالحياة الدنيا وآثروها على الآخرة انقلبت الموازين، وأصبح العالم الغربي يعيش في بحبوحة من التطور والتخلف، وأضحى المسلمون يترنحون بين غياهب الجهل والظلام حتى انتهى الأمر بأن استعمروا بلدانهم وأخرجوهم من ديارهم صاغرين.

لقد أصبحت صورة الإسلام والمسلمين من صورة يضرب بها المثل في الرقي والتطور، إلى صورة يزدريها أهلها قبل الأعداء، وأمسى من كانوا بالأمس في الأندلس يبهرون الغرب بعلومهم وفنونهم وحضارتهم، أصبحوا يضرب بهم المثل في التخلف والجهل والرجعية.

إن الحديث عن حال الإسلام والمسلمين اليوم وما ألصق بهم من أشنع الصفات يجعلنا نقف عن **ما هي الأسباب التي أدت بهم إلى التخلف عن حضارتهم؟ وكيف السبيل إلى استرجاع هذه الأمجاد الخالدة؟ وما هي التحديات التي تعيشها الأمة الإسلامية اليوم في ظل سعيها إلى النهوض واللحاق بركب الأمم المتقدمة؟**

وحتى أجيب عن هذه الإشكالية، أحببت أن أعالج هذا الموضوع وفق الخطة التالية:

أولا- ضبط مصطلحات وحدود البحث:

هذا المبحث يتناول تحديد مصطلحات البحث والوقوف على حدودها حتى يسهل على القارئ التعامل مع ما جاء في طيات البحث وتكون الصورة مرسومة وواضحة في ذهنه.

1.مفهوم الإسلام في اللغة والاصطلاح:

1.1مفهوم الإسلام لغة: جاء في الصحاح أن: ((السلم: الصلح، يفتح ويكسر، ويذكر ويؤنث. والسلم: المسالم. تقول: أنا سلم لمن سالمني. والسلام: السلامة. والسلام: الاستسلام. والسلام: الاسم من التسليم. والسلام: اسم من أسماء الله تعالى... وأسلم أمره إلى الله، أي سلم. وأسلم، أي دخل في السلم، وهو الاستسلام. وأسلم من الإسلام)) (الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، 1987، الصفحات 1951-1952)

وإلى هذا التعريف نحا ابن فارس في معجمه فقال: ((السين واللام والميم معظم بابه من الصحة والعافية ; ويكون فيه ما يشذ، والشاذ عنه قليل، فالسلامة: أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى. قال أهل العلم: الله جل ثناؤه هو السلام ; لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء. قال الله جل جلاله: {والله يدعو إلى دار السلام} [يونس: 25] ، فالسلام الله جل ثناؤه، وداره الجنة. ومن الباب أيضا الإسلام، وهو الانقياد ; لأنه يسلم من الإباء والامتناع. والسلام: المسالمة)) (الرازي أ.، 1979، صفحة 90)

وعليه فإن الإسلام مأخوذ ومشتق في اللغة من السلم و معناه: السلام، الاستسلام، الصحة، العافية، الانقياد، والسلامة من جميع العاهات والعيوب والآفات.

2.1.مفهوم الإسلام اصطلاحا: بناء على التعريف اللغوي للإسلام يمكن القول أن مفهوم الإسلام اصطلاحا هو: الانقياد والخضوع والاستسلام لجميع ما أمر به الله تعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. (الجرجاني، 1983، صفحة 23)(البركتي، 2003، صفحة 9)

ويعرف الإسلام أيضا انطلاقا من حديث جبريل الشهير، عندما طلب جبريل عليه السلام من النبي صلى الله عليه وسلم أن يخبره عن الإسلام فقال: هو أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج بيت الله الحرام إن استطعت إليه سبيلا.(النيسابوري، 1954، صفحة 36/1)

فالإسلام هو الانقياد لله تعالى والنبي صلى الله عليه وسلم بتحقيق الشهادتين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام، وهو الدين الذي رضيه الله تعالى لعباده جميعا المهيمن على من سبقه من الأديان، قال تعالى: ﭽ **إن الدين عند الله الإسلام** ﭼ [آل عمران، 19]، ولا يقبل من أحد كان أن يتخذ غير الإسلام دينا

وشريعة، قال تعالى: ﭽ**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه** ﭼ[آل عمران، 58]

2. مفهوم الغرب في اللغة والاصطلاح:

إن مفهوم الغرب في اللغة والاصطلاح قد ينطلق ن جوانب عديدة كل على حسب الغرض منها والغاية التي من أجلها يصلح التعريف، ولأن البحث يتناول نظرة الغرب اتجاه الإسلام والمسلمين، فإن مصطلح الغرب يُعرَّف وفق ضابط الدين، والمتبادر إلى الأذهان من الأديان الغربية غير الإسلام ثلاثة أنواع، الأول والثاني شريعتان سماويتان منزلتان من قبل الله تعالى قبل الشريعة الإسلامية ثم حرفتا، فأما الشريعتان السماويتان المحرفتان فهما اليهودية والنصرانية و أما الثالث فهو ما سواهما من الأديان الوضعية والإلحادية التي تتنوع بتنوع الثقافات والجماعات والمعتقدات.

((تنقسم الأديان التي يدين بها البشر باعتبار النظر في المعبود إلى قسمين:القسم الأول: أديان تدعو إلى عبادة الله، وهي في الدرجة الأولى الإسلام، ثم يليه اليهودية، أما النصرانية فإن واقعها وحقيقتها الشرك، وهو عبادة المسيح عليه السلام والروح القدس مع الله تعالى، إلا أن أصحابها يزعمون أنهم يعبدون الله الواحد ذو الثلاثة أقانيم- كما سيأتي تفصيل ذلك، القسم الثاني: أديان وثنية شركية تدعو إلى عبادة غير الله عز وجل، وهي: الهندوكية والبوذية وغيرها من الشركيات القديمة والحديثة. والنصرانية يمكن اعتبارها من هذا القسم على اعتبار عبادتهم للمسيح والروح القدس)) (الخلف، 2004، صفحة 12)

ولأن اليهودية والنصرانية هما الأقرب في الاعتبار نظرا لمشاركتهما للإسلام في كثير من القواسم أبرزها المصدرية، ولهذا فإن الوقوف على مفهومهما أوفى للغرض من التعريف المجرد لمصطلح "الغرب".

3. مفهوم النصرانية في اللغة والاصطلاح

1.3مفهوم النصرانية لغة:النصرانية في اللغة مشتق من الفعل نصر والذي يعني العانة والإنجاء والتخليص، ومنه قول الله تعالى: **يا أيها اللذين آمنوا كونوا أنصارا لله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله** [الصف، 14]، والنصرانية نسبة إلى نصرانة بالشام، ويقال لها أيضا ناصرة ونصورية، والنصرانية والنصرانة مفرد للنصارى، والنصرانية أيضا: دينهم، ويقال: نصراني وأنصار، وتنصر: دخل في دينهم، ونصره تنصيرا: جعله نصرانيا.(الفيروزآبادي م.، 2005، الصفحات 482-483)

2.3مفهوم النصرانية اصطلاحا :انطلاقا من المفهوم اللغوي للنصرانية يمكن استخلاص تعريف اصطلاحي لها فنقول أن النصرانية هي الدين المحرف للشريعة السماوية المنزلة على بني إسرائيل جاء بها نبي الله عيس عليه السلام، وسميت نصرانية نسبة إلى نصرانة بالشام.

أو من النصر لقول الحواريين لعيسى عليه السلام "نحن أنصار الله".

4. مفهوم اليهودية في اللغة والاصطلاح

1.4 مفهوم اليهودية في اللغة: جاء في تاج العروس أن: ((الهود: التوبة والرجوع إلى الحق هاد يهود هودا، وتهود، فهو هائد وقوم هود، مثل حائك وحوك وبازل وبزل قال أعرابي:إني امرء من مدحه هائد... والهود، بالضم: اليهود، اسم قبيلة، وقيل: إنما اسم هذه القبيلة يهوذ، فعرب بقلب الذال دالا... وجمع اليهودي يهود، كما يقال في المجوسي مجوس، وفي العجمي والعربي عجم وعرب، وسميت اليهود اشتقاقا من هادوا، أي تابوا، وأرادوا باليهود اليهوديين)) (الزبيبدي، 1993، الصفحات 339-340)

2.4. مفهوم اليهودية في الاصطلاح: جاء في الموسوعة الميسرة للأديان أن اليهودية: ((هي ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم عليه السلام والمعروفين بالأسباط من بني إسرائيل الذي أرسل الله إليهم موسى عليه السلام مؤيداً بالتوراة، ليكون لهم نبيًّا، واليهودية ديانة يبدو أنها منسوبة إلى يهود الشعب، وهذه بدورها قد اختلف في أصلها، وقد تكون نسبة إلى يهوذا أحد أبناء يعقوب وعممت على الشعب على سبيل التغليب)) (الندوة العالمية للشباب الإسلامي، 1999، صفحة 495/1)

ملاحظة:

1-تجدر الإشارة إلى أن كلا من اليهودية والنصرانية إنما هما مجرد تسمية للديانة المحرفة عن الدين الذي جاء به كل من موسى وعيسى عليهما السلام وهذا الدين هو الإسلام، والذي بعث به جميع الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: { **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**}، [البقرة،131-132]،

{وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ }، [يونس،84]، **{ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ}** [المائدة، 111].

2- قمت بتقديم النصرانية على اليهودية في البحث نظرا لكونها: أقرب زمانا بالإسلام من اليهودية، فناسب الترتيب أن يكون عكسيا، وكذلك لكون موضوع البحث الذي يعالج صورة الإسلام والمسلمين لدى النصارى واليهود وغيرهم، ولأن النصارى أقرب مودة للذين آمنوا واليهود أشد عداوة لهم، قدمت النصرانية في التعريف على اليهودية مع أن الثانية أسبق وأقدم من الأولى.

5. مفهوم الاستشراق في اللغة والاصطلاح:

1.5.مفهوم الاستشراق في اللغة: الاستشراق مشتق من الشرق والمشرق وهو مكان طلوع الشمس، (الرازي م.، 1995، صفحة 354)، و((شرقت الشمس شرقا وشروقا، طلعت،وقوله تعالى: شرقية لا غربية، أي هذه الشجرة لا تطلع عليها الشمس عند شروقها فقط أو وقت غروبها فقط، ولكنها شرقية غربية تصيبها الشمس بالغداة والعشي، فهو أنضر لها وأجود لزيتونها))(الزبيدي، 1993، صفحة 238)

فالاستشراق إذا مأخوذ من الشرق والمشرق وهو جهة شروق الشمس،والشرق والمشرق يقابلان الغرب والمغرب وهو جهة غروب الشمس.

2.5.مفهوم الاستشراق في الاصطلاح: الاستشراق كلمة مولدة تقال لمن طلب علوم أهل الشرق ولسانهم من علماء الفرنجة الغربيين(رضا، 1959، صفحة 310/3)، ويعرفه عبد المنعم محمد حسنين بأنه: ((حركة ظهرت في العصر الحديث، وتبدو هذه الحركة علمية في ظاهرها؛ فهي تحاول دراسة التراث الشرقي، ولكنها في الحقيقة تبغي من وراء هذه الدراسة التعرّف على منابع تراثنا الشرقي، ثم تحاول صرف أهله عنه، وليجرفهم تيار الحضارة الغربية الضالّة المضلّلة، والمستشرقون جماعة من علماء الغرب - من مسيحيين ويهود وملحدين - درسوا اللغات الشرقية من عربية وفارسية وعبرية وسريانية وغيرها، وتوفر كثير منهم على دراسة اللغة العربية والإطلاع الواسع على علومها ومعارفها؛ لاتخاذ هذه الدراسة وسيلة للقاء كثير من المفتريات والأباطيل في محيط الإسلام للتهوين من شأن الدعوة الإسلامية والتقليل من أثرها في الحياة، وفي الارتفاع بالمستوى الإنساني، وبدورها في إنقاذ الإنسانية وتحريرها من العبودية، وإخراجها من الظلمات إلى النور)) (حسنين، 1977، صفحة 79).

وعليه فإن الاستشراق هو أحد العلوم التي تعنى بطلب باستقراء وتتبع كل ماله علاقة بأهل الشرق من علوم ولغات وعادات ومعتقدات من طرف علماء الفرنجة الغربيين.

6.مفهوم الحداثة في اللغة والاصطلاح

1.6. مفهوم الحداثة في اللغة: قال صاحب اللسان: ((الحديث نقيض القديم والحدوث نقيض القدمة حدث الشيء يحدث حدوثا وحداثة وأحدثه هو فهو محدث وحديث وكذلك استحدثه وأخذني من ذلك ما قدم وحدث ولا يقال حدث بالضم إلا مع قدم كأنه إتباع ومثله كثير)) (ابن منظور، 1993، صفحة 131/2)

وقال الفيروز آبادي: ((حدث حدوثا وحداثة: نقيض قدم، وتضم داله إذا ذكر مع قدم، وحدثان الأمر، بالكسر: أوله وابتداؤه، كحداثته،ومن الدهر: نوبه، كحوادثه وأحداثه، والأحداث: أمطار أول السنة، ورجل حدث السن وحديثها، بين الحداثة والحدوثة: فتي، والحديث: الجديد)) (الفيروزآبادي م.، 2005، صفحة 167).

2.6. مفهوم الحداثة في الاصطلاح: إن مصطلح الحداثة يوهم بأن الغرض منه التجديد وإعادة الإحياء، لكنه في الحقيقة ليست إلا مصطلحا مراوغا يضم تحت ردائة نخبة من المفكرين وأصحاب الأدب، الذين يتفقون فيما بينهم على قطع صلة العربي المعاصر بماضيه تماما، سواء كان هذا الماضي عقيدة أو تاريخا أو تراثا إلا ما اتفق مع مناهجهم الباطلة من أصحاب العقائد الفاسدة في الماضي. (القاعود، 1998)

والحداثة في أصلها ونشأتها، مذهب فكري غربي، ولد ونشأ في الغرب، ثم انتقل منه إلى بلاد المسلمين.(القرني، 1988، صفحة 17)

من هنا يتجلى لنا أن الحداثة هي نتاج لأفكار الغرب الرامية لمحاربة كل ما له صلة بالإسلام والمسلمين، والتي أعيد طرحها من بعض المتأثرين بفكرهم وثقافتهم وحاولوا جعلها في قالب موهم بالتجديد والإصلاح وإعادة الإحياء.

ثانيا- نظرة المستشرقين إلى الإسلام والمسلمين:

إن الحديث عن المستشرقين ونظرتهم للإسلام والمسلمين يجعلنا نقف عند أقسامهم وأصنافهم، ولأن العدل وقول الحق من صفات المسلمين فإن الواجب أن نذكر بأن المستشرقين قسمان: قسم أنصف الإسلام ونظر إليه نظر أقل ما يقال عنها أنها نظرة إنصاف وإعجاب أدت بالكثير منهم إلى اعتناق هذا الدين وترك ما كانوا عليه من الضلال المبين، وأما القسم الثاني فقد سعى جاهدا لإلى محاربة الإسلام وتشويه صورة المسلمين، والطعن في الثوابت والقيم الإسلامية بشتى الطرق ومختلف السبل.

وقد أشار إلى هذين النوعين شاعر ثورتنا مفدي زكريا وأخبر عنهم في إلياذته فقال:

ومستشرقون، أحبوا الجـَلَالا*ومُستَشرقون، أشاعـوا الضَّلالا**

فمن أنصفـونا وقالـوا صَـو ابًا*وشَدُّوا إلى ملتقـانا الرِّحَـالا**

ولم ينقصـوا قَدْرأمجَـادنا*تخذنـاهمو قـدوةً ومثـالا**

وأكبرَ إنصَـافَهم شعبُـنا*ولم يُنـكِرالعلم فيهم خـصالا**

ومَن ألبسوا الحقَّ حقدًا دفيـنًا*وألقى الصليبُ عليهم ظلالا**

وكانـوا طو ابيرَمستعـمرينا*وكـانوا مخاضَ الليالي الحُبـالى**

دَعوناهمو للجـدال النزيـهِ*وقلنا لهم لا نَهـاب الجـدالا**

فإن أنصفوا العلمَ والحقَّ قلنا ***نفوسُ الرِّجالِ تُجلُّ الرِّجالا

وإن طَمسَ الحقدُ أبصَارَهم*نبذناهمو، وسَحبنا السؤالا**

وبالدم نكتبُ تاريخنا*ونبلغ — بالعدل فيه — الكمَالا**(مفدي، 2009، صفحة 89)

فالمستشرقون إذن نوعان، والذي سنسلط عليه الضوء في هذا المبحث هو النوع الحاقد والطاعن في الإسلام نظرا لكونه قد أضر بصورة الإسلام والمسلمين ولطبيعة البحث التي تقتضي ذلك أيضا.

ولكي يكون الحديث عن هذا النوع متسلسلا ومنطقيا، سنقوم بتقسيم نظرتهم إلى الإسلام والمسلمين إلى مرحلتين، مرحلة تفوق الحضارة الإسلامية وتطور المسلمين على الغرب الحاقد، ومرحلة ما بعد انحطاط المسلمين وتراجعهم في ظل تقدم الأمم الأخرى، وهذه المرحلة لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا، ولأن مصطلح الاستشراق حديث النشأة فإنني أضع مكانه مصطلح الغرب الذي سبق وأن أشرنا إلى معناه، وسأقتصر على هذا الاستبدال عند الحديث عن نظرة الغرب للإسلام في عصر الحضارة الإسلامية فقط، أما في العصر الحاضر فسأثبت مصطلح الاستشراق كونه لم يظهر إلى في هذه المرحلة، فناسب ان يكون مصطلح الغرب مقترنا بالعصر الذهبي للإسلام، ومصطلح الاستشراق لعصر انحطاط المسلمين.

1. نظرة الغرب إلى الإسلام في عصر الحضارة والتقدم :لقد كان الغرب ينظر إلى الإسلام في عصر نهضته نظرة إعجاب وانبهار يتخللها الحقد والمكر والتربص بالمسلمين، كيف لا وقد بسط المسلمون في القديم سيطرتهم على العالم واتسعت رقعت بلادهم لتزاحم بلاد الغرب، وأصبح الإسلام منتشرا في زمن قصير جدا بشكل لم تنتشر في اليهودية ولا النصرانية بهذا الشكل رغم مرور القرون عليهما، هذا وقد عمل المسلمون الأولون على تطبيق تعاليم الدين الحنيف واتبعها بالحرف، ففتح الله عليهم وأيدهم بنصر منه مبين، فبرعوا في شتى العلوم، وبحثوا في علم النجوم، وترجموا وفهموا مختلف الفنون في زمن كان المجتمع الغربي يرى الاستحمام جريمة يعاقب عليها الدين.

ولما احتك الغربيون بالمسلمين من خلال الفتوحات الإسلامية، أدرك الغرب حجم الهوة التي تفصلهم عن المسلمين، ومدى بعدهم عن مقومات الحضارة وقوانين الإنسانية السوية، بعد أن أدركوا هذه الأمور حاولوا تقليد المسلمين والأخذ من علومهم وحضارتهم، فساروا هم أيضا في طريق التقدم والتطور بتقليدهم هذا.

لم تخل نظرة الإعجاب والانبهار هذا بالحضارة الإسلامية والمسلمين من نظرات الحقد والحسد الدفين، فلم يهضم الغرب انتشار الإسلام على حساب دياناتهم، ولم يستسيغوا فتوحات المسلمين واتساع رقعتهم بعد أن كانوا يتقاتلون فيما بينهم في صحراء قاحلة، ولم يفرحوا بعمرانهم وقصورهم المشيدة بعد أن كانوا ينامون في خيم من الشعر.

وهذا القسم يبرز فيه جملة من المستشرقين الذين درسوا تاريخ الإسلام دراسة موضوعية منصفة، وعرفوا حقيقة القيم والمبادئ الراقية التي جاء بها هذا الدين الحنيف، فأبرزوا الصورة المشرقة للإسلام،

ودافعوا عن حضارة المسلمين حتى لاقوا العداء من أبناء جنسهم الحاقدين ممن لم يقبلوا بمثل هذه الشهادات والاعترافات الصادقة.

ومن الأمثلة الدالة على اعتراف بعض هؤلاء بالقيم السامية التي كانت الأمة العربية والإسلامية تتسم بها، ما ذكره المستشرق "مونتغمري" قائلا: ((ولقد كان الكرم والضيافة يحتلان مكانة سامية في الصحراء ولا يزالان فضيلتين رئيسيتين عند العرب...، ولكن ربما كانت الضيافة أكبر من ذلك، فقد كانت موضع إعجاب حتى ولو كانت نوعا

من الإسراف، كانت امرأة فقيرة تقتل الجمل الذي هو وسيلتها الوحيدة للعيش، لتقدم الطعام إلى عابر سبيل غريب...)) (مونتغمري، 1952، صفحة 48)

2. **نظرة المستشرقين للإسلام والمسلمين:** لقد أعطى المسلمون الأولون صورة ناصعة البياض عن الإسلام، وأثبتوا أنهم أهل لحمل هذه الرسالة وتبليغها للناس جميعا، فخدموا الإسلام وخدمهم الإسلام، ورسموا للحضارة الإسلامية معالمها وأسسها وتركوا الرسالة للأجيال
اللاحقة ليكملوا على دربهم ويسيروا على خطاهم، لكن العكس هو ما حصل، فأصبح التخلف والانحطاط من صفات المسلمين بعد أن كانت كل معالم الحضارة تحيط بهم، فضيعوا الرسالة، وخانوا الأمانة وأصبحوا في ذيل الأمم وفي درك التقدم والتحضر.

ساهم الاستعمار الغربي للبلدان الإسلامية في رسم صورة سيئة وسوداء عن المسلمين الذين أصبحت الأمم المختلفة تتداعى عليهم من كل أفق كما تتداعى الأكلة على قصعتها، فاستغل المستشرقون الحاقدون هذه الحالة المزرية للمسلمين وجندوا لمحاربة الإسلام جميع الوسائل والسبل، فبدؤوا البحث عن تاريخ الإسلام والتأليف في علوم القرآن رغبة منهم في تحريف النصوص، ومسخ القيم، وتزييف الحقائق ونشر الشبه.

تحولت الدراسات الغربية إلى البحث في الإسلام وعلومه ومحاولة الطعن فيها، وقد تنوعت هذه الدراسات بتنوع المواضيع التي عالجتها كل على حسب علاقتها بالإسلام، فمثلا هناك دراسات تناولت التاريخ الإسلامي، وهناك أبحاث تفرغت للغة العربية، وأخرى للكتابة في القرآن الكريم وعلوم والحديث النبوي الشريف ومباحثه.

ومن المزاعم التي ذكرها المستشرقون لتشويه صورة الإسلام طعنهم في النبي صلى الله عليه وسلم الانتقاص منه ومن شمائله، وكذلك التشكيك في عدالة الصحابة وصدقهم، "فنولدكه" مثلا عندما يتحدث عن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم يصفها بالجبن والضعف والخوف والنقصان وغيرها من الصفات القبيحة التي لا تليق إلا بأمثاله، يقول في هذا السياق: ((...يضاف إلى ذلك أمر يود المسلمون بالطبع أن يخفوه، ألا وهو أن محمدا كان بطبعه ضعيف العزم، أجا، لقد كان يخاف إلى درجة أنه لم يتجرأ في البدء في المجاهرة برسالته،...لقد وجب عليه أن يتشجع من حين لآخر كلما خانته الشجاعة،... غير أن روح محمد كان

يشوبه نقصان نقصان كبيران يؤثران على سموه)) (نولدكه، 2004، صفحة 5)، لكن الذي حفظته لنا سيرته صلى الله عليه وسلم أنه كان ذا شجاعة وإقدام ليس لهما نظير، وأنه كان على درجة من الفضائل والمكارم ما أقرت له بها الأعداء فهو الصادق الأمين، وأما أخلاقه فقد وصفها بالعظمة من خلقه فقال: { **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**} [القلم/4].

أما ما تعلق بجانب الصحابة وسيرتهم فقد حالوا التركيز على مسألة الخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وجعلها قضية سياسية خالصة تنازع فيها الصحابة اختلفوا إلى حد الاقتتال بينهم، يقول برنارد لويس: ((وواجهت وفاة محمد المجتمع الإسلامي الناشئ بأزمة ذات طابع دستوري، ذلك أن الرسول لم يترك نصا على كيفية الخلافة)) (لويس، 1954، صفحة 67)، والأمثلة في هذا كثيرة ومتنوعة لا يسع حصرها، لكن مردها وغايتها واحدة وهي الطعن في صورة الإسلام و المسلمين، فيكفي هذين المثالين لتعرف بقية الأمثلة.

يتبين لنا من خلال ما سبق أن الغرب المستشرقين قد حاولوا جاهدين لإعطاء صورة سيئة عن الإسلام والمسلمين، وقد كانت نظرتهم اتجاه الدين في الأول نظرة إعجاب وانبهار يتخللها الحقد والغيظ والانتقام، وقد استغلوا ضعف المسلمين لاحتلال بلدانهم، وسعوا بعد ذلك إلى التشكيك في مقدساتهم وثوابتهم وقيمهم من خلال الأبحاث

والكتابات التي تتناول كل ما له علاقة بالإسلام.

ثالثا- نظرة الحداثيين إلى الإسلام والمسلمين:

لم تختلف نظرة هؤلاء الحداثيين وحقدهم عن الإسلام والمسلمين عن نظرة المستشرقين، وهذا لأن الحداثيين إنما هم مجرد امتداد للمستشرقين، الذين ربوهم وفق منظورهم وخدمة لأغراضهم، فواصلوا نهج أسيادتهم وتكبدوا العناء عنهم

بعد أن تفطن كثير من المسلمين لمكائد وحيل هؤلاء المستشرقين وعدم ثقتهم واطمئنانهم لهم.

يقول الدكتور حلمي محمد القاعود: ((لقد أوهمونا – أي أصحاب المغالطة أو الحداثة- أن الإسلام ضد التطور والتجديد والإبداع ولابتكار.. وتفننوا في إبلاغ هذا الوهم للناس، وبخاصة للناشئة السذج والذين لم يتعرفوا على الإسلام من[المسلمين!].. ولكنهم تناسوا أن سر عظمة الإسلام، بل إعجازه، أنه الدين الكامل، الصالح لكل زمان ومكان، سواء فيما يتعلق بثوابته الراسخة المتفق عليها، أو بمتغيراته التي قننها وأقام على مواجهتها فريق في الذروة من أهل العم والفقه...)) (القاعود، الحداثة العربية، المصطلح-المفهوم، 1998، صفحة 6)

ولعل هذا الكلام يلخص الهدف الحقيقي للحداثة والغاية الأسمى لرواد هذا الفكر المنحرف، وهو تصوير الإسلام بصورة التخلف ومحاربة التطور، وأن لا سبيل للأمة العربية لتطورها وتقدمها إلا بترك الإسلام وإقصائه من كثير من جوانب الحياة إن لم تكن جميعها، وهذا ما يبرز الوجه العلماني للحداثة.

يعتبر الضرر الذي ألحقته الحداثة بالإسلام أشد وقعا من ضرر الاستشراق، ذلك ان الناس قد يشكون أولا في المستشرقين كونهم لا يدعون الإسلام وحبه ابتداء، فيكون خطرهم ظاهرا، أما هؤلاء الحداثيون فقد استغلوا سذاجة بعض المسلمين واتبعاهم لكل ناعق دون التحري، لإيصال سموم الغرب إلى ضعاف النفوس هؤلاء، وأصبحوا طريق المستشرقين لبث أفكارهم الملوثة في نفوس المسلمين.

ومن هؤلاء المعاصرين الذين خدموا مصالح الغرب في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، عدنان إبراهيم وعلي منصور الكيالي، اللذان ما تركا ثابتا من ثوابت الأمة الإسلامية وقيمة من قيمها إلا وتعرضا لها بالنقص، موظفين في ذلك براعتهم في الطرح وادعاء الموضوعية والتجديد والحياد، ومتكلفين للفصاحة والبيان واللغة التي سحرا بها آذان الناس كما سحر سحرة فرعون أعين الناس واسترهبوهم.

إن من بين مطاعن الحداثيين في الإسلام ومحاولة تشويهه دراستهم للأحاديث النبوية وإعادة تصحيحها وفق ما يوافق عقلهم القاصر، فلم يراعوا في ذلك حرمة لصحابي ولا لتابعي، بل تعدى الأمر ببعضهم إلى التصريح بكفره ببعض الأحاديث التي تخالف عقله، وأن مثل هذه الأحاديث والأفكار هي من تسببت في إعطاء صورة سيئة للإسلام لدى الغرب، ودعوا الناس إلى إسلام جديد و "كيوت" يقبله الغرب منا، كما أحدثوا مصطلحات جديدة ودعوا إلى تبنيها كوحدة الأديان والدين الإبراهيمي.

إن من الأدلة الدامغة على عظمة الإسلام وصدق الرسالة الربانية أن يتحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن أمثال هؤلاء قبل 14 قرنا من الآن، ويصفهم وصفا دقيقا قد يعجز عنه من عاصرهم وسمع كلامهم، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنهم أخوف ما يخاف على أمته هؤلاء فقال: ((أخوف ما أخاف عليكم جدال منافق عليم اللسان))(ابن حنبل، 1995، صفحة 227/1)

من خلال ما سبق عرضه يمكننا القول بأن الحداثيين هم الأبناء الشرعيون للمستشرقين، وقد ساروا على طريق أسيادهم لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، وجندوا لذلك ملكاتهم اللغوية، وقنواتهم الفضائية، وقد أدوا دورهم على أكمل وجه، متفوقين في ذلك على أساتذتهم الغربيين الذين علموهم مبادئ الانسلاخ من الإسلام وتعاليمه، فنشروا الشبه وضللوا أتباعهم، وأحدثوا في الإسلام المحدثات والبدع التي مايزال أثرها يسري في كثير من ضعاف النفوس من المسلمين إلى يومنا هذا.

رابعا- العوامل المؤثرة في تراجع صورة الإسلام والمسلمين:

تتعد العوامل والأسباب التي أدت إلى تراجع الحضارة الإسلامية وصورة المسلمين وعدم قدرتهم على مواكبة ركب الأمم الأخرى، وتجدر الإشارة إلى أن الدين الإسلامي بريء من هذا التخلف والتقهقر، ولا ينبغي لنا أن ننسب ذلك له، لأنه دين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، ليحيوا حياة طيبة في الدنيا والآخرة، وإنما ينسب التخلف إلى مسببه وهم المسلمون أنفسهم، الذين تسببوا في كثير من الأمور التي أدت إلى تخلفهم.

ويمكننا حصر هذه الأسباب معتمدين في ذلك على نصوص الوحي في النقاط التالية:

1- خلود المسلمين للدنيا وركونهم إليها ورضاهم بزخرفها وغرورها، بعد أن مكنهم الله منها وأورثهم إياها، حتى آثروها على الآخرة، وقد حذر الله عباده من هذا الأمر فقال:{ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**}، [النور،55]، وقال: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**}، [التوبة،38]، وفي الحديث: ((يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها" فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: "بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن". فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت)) (السجستاني، 2009، صفحة 355/6)

2- ظهور الخلافات والنزاعات وكثرة الطوائف، مما عجل بزوال الملك وتسلط الأعداء، قال تعالى: { **وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ** }، [الأنفال، 46]، وقد أرشدنا الله تعالى إلى التمسك بحبله المتين ودينه القويم، وحذرنا من التفرق والتشيع فقال: {**وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ**}، [آل عمران، 103].

3- ترك تعاليم القرآن والسنة، وكثرة المعاصي وارتكاب الكبائر والمحرمات التي نهى الشارع الحكيم عنها، قال النبي صلى اله عليه وسلم: ((إذا تبايعتم بالعينة , وأخذتم أذناب البقر ورضيتم , بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم))(البيهقي، 2003، صفحة 516/5)

4- الفهم الخاطئ للدين، وظهور الفرق الغالية والمتشددة التكفيرية، وجهلها بالأحكام الشرعية وكيفية تطبيقها، والتي أعطت صورة سيئة عن الإسلام والمسلمين، حيث أصبح الإسلام يوصف بدين الإرهاب والتطرف، ولأن هؤلاء الجهلة بأفعالهم هذه قد شوهوا الإسلام والمسلمين، حيث أسسوا الجماعات التكفيرية التي تزعم الجهاد، وقاموا بالعمليات التفجيرية والانتحارية في بلاد الغرب وقتلت الأبرياء، فأصبح الغربيون يتحسسون من كل ما له علاقة بالإسلام ظاهرا أو باطنا، وإن كان الغرب غير بريء من هذه التنظيمات الإرهابية، إلا أن من يحملون مثل هذه الأفكار هم من مهدوا الطريق للغرب لطعن الإسلام من هذا الجانب، ومن أمثلة هذه الجماعات ما يسمى: "تنظيم داعش" الذي يدعي زورا وبهتانا إقامته للخلافة الإسلامية في كل من العراق والشام.

خامسا- سبيل الرفعة وطريق النهضة بصورة الإسلام والمسلمين:

إذا عرفنا أسباب الضعف ومكامن الوهن، فإنه يمكننا استنتاج أساليب العلاج والحلول التي من شأنها أن تعيد للإسلام بريقه ورفعته، وللمسلمين مكانتهم بين الأمم، ومن سبل النهضة بالإسلام والمسلمين وتحسين صورتهم ما يلي:

1- الرجوع إلى تعاليم الدين الصحيح والاستسلام لأحكامه وفق ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، ومن تبعهم بإحسان من السلف الصالح الذين ضربوا لنا الأمثال في كيفية النهوض بهذه الأمة، ولا سبيل لذلك إلا بالرجوع إلى الله أولا وآخرا، قال تعالى: **{ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ(58) }**، [النجم، 57/58]، فال كاشف لما تمر به الأمة الإسلامية اليوم إلا الله تعالى.

2- الابتعاد عن مسببات التفرق والتشتت والنزاعات، والتمسك بهدي النبي صلى الله عليه وسلم، فقد قال عليه الصلاة و السلام: ((تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله , وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم))(الأصبحي، 1991، صفحة 70/2)

3- محاربة الجماعات المتطرفة التي أخطأت فهم الدين، ومحاولة إعادة نشر التعاليم الصحيحة للدين بعيدا عن تأويلات المعطلين وتحريفات المحرفين، وتمكين أهل العلم الربانيين من تبليغ الصورة الناصعة للإسلام كما فعل الصحابة الكرام.

خلاصة:

- من خلال ما سبق نستخلص أن صورة الإسلام قد اثر عليها المسلمون أنفسهم من خلال الابتعاد عن تعاليم

- دينهم واغترارهم بما فتح الله عليهم من الحياة الدنيا، وأن لا سبيل لاستعادة الأمجاد إلا بالرجوع إلى نهج القرون

- المفضلة والاقتباس من سيرهم وكيفية فهمهم للدين وتطبيقه في حياتهم، حتى يتسنى لنا ما تسنى لهم.

خاتمة:

في ختام هذا البحث الذي حاولنا فيه معالجة الأسباب والمسببات التي جعلت من صورة الإسلام والمسلمين تتراجع وتتشوه، وقد خلصت فيه إلى النتائج التالية:

- الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وهو الذي أرسل به وبلغه جميع الأنبياء المرسلين.
- اليهودية والنصرانية ما هما إلا الإسلام الذي جاء به موسى وعيسى عليهما السلام قبل أن يحرفه أتباعهما.
- ينقسم الاستسراق إلى نوعين: نوع أنصف الإسلام والمسلمين وأعطاهم حقهم، وهم الموضوعيون، ونوع حاقد على الدين والقيم الإسلامية، قد حاول الانتقاص من الإسلام بشتى الطرق.
- الحداثة هي الوجه الجديد للاستشراق والابن الشرعي له.
- الحداثة أضر على الإسلام والمسلمين من الاستشراق.
- لقد حذر الإسلام المسلمين من أسباب التخلف والتأخر، وفي المقابل أعطاهم الحل لتفادي ذلك وعلاجه إن هم وقعوا فيما حذرهم منه.

- الإسلام دين القيم والحضارة والأخلاق الفاضلة، ولا يستشعر عظمة هذا الدين وكماله إلا من خضع لتعاليمه وأخذ بأوامره واجتنب نواهيه.

توصيات:

- إن معالجتي لهذا الموضوع المعاصر جعلني أخرج بجملة من التوصيات ألخصها في النقاط التالية:
- عقد الندوات والمؤتمرات التي من شانها التنبيه لخطر الاستشراق والحداثة والوقوف في وجههما للحد من خطورتها.
- إعطاء المجال لأهل الاختصاص والثقاة من أجل تصحيح صورة الإسلام والمسلمين، والرد على شبهات المستشرقين والحداثيين.
- تشجيع البحث والتأليف في التراث الإسلامي الصحيح قصد إحياء الأنفس وبعث الهمم من خلال الاطلاع على سير سلفنا الصالح.
- إقامة البرامج التلفزيونية والإذاعية التي تسلط الضوء على تاريخ الأمة الإسلامية وجوانبها المشرقة.
- محاربة جميع أشكال الأفكار المتطرفة والمنحرفة عن منهج الإسلام والتي حادت عن الصراط المستقيم.
- التضييق على كل المشوشين وجميع الحاقدين على الإسلام الذين ينشرون سمومهم بين المسلمين وفي بلاد الإسلام.
- الرجوع إلى الله والتزام شرعه واجتناب نواهيه، والعمل على تطبيق الإسلام تطبيقا سليما وفهمه فهما صحيحا.

قائمة المصادروالمراجع:

- أحمد ابن حنبل. (1995). *مسند الإمام أحمد بن حنبل* (المجلد 1). (أحمد شاكر، المحرر) القاهرة، مصر: دار الحديث.
- أحمد بن الحسين البيهقي. (2003). *السنن الكبرى* (المجلد 3). (محمد عبد القادر عطا، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- أحمد بن فارس الرازي. (1979). معجم *مقاييس اللغة*. (عبد السلام محمد هارون، المحرر) دار الفكر.
- أحمد رضا. (1959). معجم *متن اللغة*. بيروت، لبنان: دار مكتبة الحياة.
- إسماعيل بن حماد الجوهري. (1987). *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية* (المجلد 4). بيروت: دار العلم للملايين.
- الندوة العالمية للشباب الإسلامي. (1999). *الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة* (المجلد 4). (مانع بن حماد الجهني، المحرر) دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع.

- برنارد لويس. (1954). *العرب في التاريخ* (المجلد 1). بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

- ثيودور نولدكه. (2004). *تاريخ القرآن*. بيروت، لبنان: كونراد أدناور.

- حلمي محمد القاعود. (1998). *الحداثة العربية، المصطلح-المفهوم*. دار الاعتصام.

- زكريا مفدي. (2009). *إلياذة الجزائر تاريخ أمة وقصة شعب*. (الطاهر مريبعي، المحرر) الجزائر: دار المختار للطباعة والنشر والتوزيع.

- سعود بن عبد العزيز الخلف. (2004). *دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية* (المجلد 4). الرياض، المملكة العربية السعودية: مكتبة أضواء السلف.

- سليمان بن الاشعث أبو داود السجستاني. (2009). *سنن أبي داود* (المجلد 1). (شعيب الأرناؤوط، و محمد كامل قرة بللي، المحررون) دار الرسالة العالمية.

- عبد المنعم محمد حسنين. (1977). *الإستشراق وجهوده وأهدافه في محاربة الإسلام والتشويش على دعوته* (المجلد 10). المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

- علي بن محمد الجرجاني. (1983). *كتاب التعريفات*. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

- عوض بن عبد الله القرني. (1988). *الحداثة في ميزان الإسلام نظرات إسلامية في أدب الحداثة* (المجلد 1). المملكة العربية السعودية: هجر .

- مالك ابن أنس الأصبحي. (1991). *الموطأ*. (بشار عواد معروف، و محمود خليل، المحررون) مؤسسة الرسالة.

- محمد بن أبي بكر الرازي. (1995). *مختار الصحاح*. (محمود خاطر، المحرر) بيروت، لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.

- محمد بن محمد الزبيدي. (1993). *تاج العروس من جواهر القاموس* (المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الفكر.

- محمد بن مكرم ابن منظور. (1993). *لسان العرب* (المجلد 3). بيروت، لبنان: دار صادر.

- محمد بن يعقوب مجد الدين الفيروزآبادي. (2005). *القاموس المحيط* (المجلد 3). (محمد نعيم العرقسوسي، المحرر) بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

- محمد عميم الإحسان البركتي. (2003). *التعريفات الفقهية* (المجلد 1). دار الكتب العلمية.

- محمد مجد الدين الفيروزآبادي. (2005). *القاموس المحيط* (المجلد 8). (مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، المحرر) بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.

- مسلم ابن الحجاج النيسابوري. (1954). *المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم*. (محمد فؤاد عبد الباقي، المحرر) بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.

- وات مونتغمري. (1952). *محمد في مكة*. (شعبان بركات، المحرر) صيدا، بيروت، لبنان: منشورات المكتبة العصرية.

جهود إدوارد سعيد النقدية في تعرية خطاب الاستشراق ومحاولات صناعة الآخر الشّرقي واستلابه

Edward Said's Efforts to Expose the Discourse of Orientalism and Attempts to Create and Alienate the Eastern Other

ط/د.عبد العزيز شعبان، جامعة مولود معمري تيزي وزو-الجزائر
azizdjermouna@gmail.com



حاولنا في هذه الورقة البحثية أن نبرز الدور الكبير الذي لعبه إدوارد سعيد -وخاصة في كتابه الاستشراق-في تعرية الخطاب الاستشراقي والخطاب الاستعماري، من خلال تحليل الخطابات الغربية التي تمّ إنتاجها حول الشرق، وكشف آلية عمل هذه المنظومة الخطابية التي توسّلت بالصور النمطية والتمثيلية والقوالب الجاهزة المشوّهة حول الشرق والشرقيين، بغية تغليف الآخر بهذه المعرفة الغربية التي ستلعب دورا هاما في صناعة شرق على المقاسات الغربية، ومن ثمّ السيطرة والهيمنة عليه. بالتالي اشتغلنا على استنطاق كتاب 'الاستشراق' وبيان الجهود النقدية السعيدية في التعامل مع هذا النوع من الخطابات الرامية إلى اجتثاث واستلاب الآخر من أصل وجوده وتكوينه، إلى الزجّ به في كيان آخر مبتدع ومختلق ومشوّه. بالإضافة إلى إبراز أهمّ إسهامات سعيد في ميدان نقد الخطاب الاستعماري وما بعد الاستعماري، الذي يحاول فيه تجاوز كلّ الثنائيات المبتدعة، وكسر المركزية الغربية.

الكلمات المفتاحية: إدوارد سعيد. الاستشراق. صناعة الآخر. التمثيل. نقد الخطاب الاستعماري.

Abstract :

In this research article, we have tried to highlight the great role that Edward Said played - in particular in his book Orientalism - in the exposition of Orientalist and colonial discourse. By analyzing, the Western discourses that produced on the East, and by revealing the mechanism of action of this rhetorical system, which appealed to stereotyped and representative images and to ready-made templates. The distorted on the Orient and the Orientals, in order to encapsulate the other with this Western knowledge which will play an important role in the making of an Orient with Western dimensions, and then to control and dominate it. Thus, we worked on the book "Orientalism" to explain the Saidian critical efforts in the face of this type of discourse aimed at eradicating and alienating the other from the origin of his existence and his formation, in order to plunge him into an other inventiveness, fabricated and distorted entity. In addition To highlight Said's most important contributions in the field of the critique of colonial and post-colonial discourse, in which he tries to break down Western centralism.

Keywords: Edward Said, Orientalism, Fabrication of the other, Representation, Critique of colonial discourse.



مقدمة:

يعتبر كتاب "**الاستشراق**" لإدوارد سعيد من أهمّ الكتب الأكاديمية التي تعرّضت بالنّقد لخطاب الاستشراق، من خلال الكشف عن آليات اشتغاله العميقة خطابيا، وكيف يسعى من خلال استراتيجيات التمثيل والتنميط إلى تغليف الشرق والشرقيين بمعرفة غربية هدفها الرئيسي الوصول إلى التحكم والسيطرة والهيمنة على هذا العالم الجديد. وهو من الكتب المُؤَسِّسة حسب العديد من الباحثين والنقاد لما يعرف بالنقد الثقافي والدراسات الثقافية، وكذا الدراسات ما بعد الاستعمارية، والذي أحدث سجالا نقديا عارما أوان صدوره. الاستشراق هو " النّص الأصلي للدراسات ما بعد الكولونيالية، تعمّم في البدء الموضوع الذي كان خاصا بالدراسات الاستشراقية؛ ليصبح قضية جيوسياسية شاسعة، تمعن النظر في علاقات القوى في العالم المعاصر والطريقة التي درست ومثّلت بها الثقافات غير الغربية". (إيف كلفارون، 2017، ص 134.) ما يؤكّد من جهة أهميّة الكتاب في التأسيس لهذا المجال المعرفي وأنّه من النصّوص الأصلية التي لا يُستغنى عنها، وكذا مجال دراسته وخوضه في مسألة الاستشراق، وكيف يتعامل الغرب مع الشرق انطلاقا من الصور النمطية والتمثيلية التي تصوّره على أنّه آخر وغريب ودونيّ، مع محاولات تفهّم علاقات القوى التي تشغل ذلك الحيّز المكاني الذي يجمع الطرفين. والأهمّ من ذلك هو البحث ودراسة الطرق التي مُثّلت بها الثقافات الأخرى غير الغربية من خلال تلك السّرود والمرويات المختلفة السّاعية إلى صناعة شرق على المقاسات الغربية. ولعلّ مسألة صراع الأنا والآخر تعتبر أساسية في هذا الكتاب الذي نحاول تتبعه واستنطاقه للكشف عن الآليات التي تتبعها الغرب في سبيل صناعة الآخر عن طريق الصور المشوّهة. فـ"مفهوم الآخر رئيسي في الدراسات ما بعد الاستعمارية، وفي كتاب الاستشراق يعتبر المفهوم إحدى طروحاته من خلال إبراز دور المستشرقين على مرّ العصور في تمثيل الإنسان العربي والإسلام باعتبارهما آخر غريبا ومهدِّدا. (إيف كلفارون، 2017، ص 136.) ما يبرز أهمية أطروحة الأنا والآخر في الدراسات ما بعد الاستعمارية وتحليل الخطاب الاستعماري، من خلال تعرية كتابات المستشرقين التي عملت على تمثيل المختلف على أنّه العدو والخطر الذي يتهدّد الحضارة الغربية.

أولا-نقد خطاب الاستشراق:

إنّ أوّل شيء يمكن ملاحظته أثناء قراءة كتاب الاستشراق هو محاولة إدوارد سعيد فكّ الخطاب الاستشراقي وآليات اشتغاله، على أنّه معرفة تمّ إنتاجها من خلال سيرورة إيديولوجية غربية بهدف السيطرة على الشّرق والشرقيين، أو ما اصطلح عليه بـ'شرقنة الشرق' الذي يعني إضفاء الصفات الشرقية على هذا الفضاء المكاني والزماني، انطلاقا من تلك المعرفة المُنتجة خصيصا لهذا الغرض. وعليه فإنّ خطاب الاستشراق-حسب سعيد-بمثابة عملية تشويه لجوهر الشرق، ومحاولة لتغليفه بمجموعة من الصور النمطية المشوّهة والتي لا تعكس في الواقع حقيقة هذا العالم، بل إنّ هذا الخطاب قائم على التصوير الأسطوري لتلك الجغرافيات على أنّها موطن للكائنات الغريبة وللغرابة نفسها، ومكانا

للرومانسية وقصص الحب والمغامرات والعجائب، التي ينبغي استكشافها عن كثب. "فلقد كان الشرق شبه اختراع أوروبي، وكان منذ الزمن الغابر مكانا للرومانس أو قصص الحب والمغامرات والكائنات الغريبة والذكريات والمشاهد التي لا تنسى والخبرات الفريدة الرائعة".(إدوارد سعيد، 2006، ص 42.). وبالتالي القول بأنّ الشرق مجرد اختراع أوروبي يجعلنا لا محالة نفكر في عالمين مختلفين متناقضين؛ العالم الواقعي الذي يمثّله الشرق بكلّ تفاصيله وحياته اليومية، وثقافته وعاداته ولغاته المختلفة. وذلك العالم الموازي المزيّف والمُخترع من طرف الأوروبيين تحت تأثيرات الإيديولوجية الإمبريالية والاستعمارية، التي تعتمد على التصوير المشوّه للعالم الحقيقي والواقعي بغية إعادة تغليفه بهذه المعرفة الغربية المنتجة لهذا الغرض وأغراض الإخضاع والسيطرة والتوسع خارج حدود الجغرافيا التقليدية للمتروبول. وعلى هذا الأساس اشتغل إدوارد سعيد في سبيل تعرية الخطابات الاستشراقية وكشف ما تحمله من حمولات استلابية همّها الوحيد إلغاء الآخر، والتنكّر لآدميته، وإلحاقه بعوالم الحيوانات والتشيؤ.

لقد وجدنا إدوارد سعيد يميّز بين ثلاثة مفاهيم للاستشراق "وأمّا أيسر التعريفات المقبولة للاستشراق فهو مبحث أكاديمي .. فالمستشرق كلّ من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء لبحوث في موضوعات خاصة بالشرق".(إدوارد سعيد، 2006، ص 44.) وهذا تعريف بسيط عام؛ إذ تمّ إلصاق صفة الأكاديمية بالاستشراق في دلالة واضحة على أنّه ميدان مرتبط بالعلم وبالبحث العلمي الأكاديمي والجامعي وعلى أنّ المستشرق هو كلّ من يبحث ويدرس ويكتب في موضوعات خاصة بالشرق، وربّما صفة الأكاديمية تصعّب مأمورية تعرية وكشف آليات الخطابات الاستشراقية، لأنّها تعمل على المخاتلة؛ فالاستشراق كخطاب أكاديمي يتسّم بالموضوعية والحياد إزاء موضوع الدراسة، ما يفتح له أبواب البحث في كلّ الموضوعات المتعلقة بالشرق تحت ذريعة الأكاديمية وبعدها تمرير ما يُراد تمريره من أنساق ثقافية مضمرة مهيمنة لها سلطة التحكم والسيطرة على المتلقين. ثانيا الاستشراق ".. أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى 'الشرق' وبين ما يسمى (في معظم الأحيان) 'الغرب'".(إدوارد سعيد، 2006، ص 45.) يشير التعريف إلى أنّ خطاب الاستشراق يقوم على التقسيم الأنطولوجي والمعرفي بين ما اصطلح عليه بـ'الشرق' و'الغرب'، وهذا التقسيم قائم على التمييز التعسفي بين عالمين متناقضين متضادين ومتصارعين، بحيث تكون الغلبة والتمركز للغرب والهامشية والانهزامية للشرق، ومن أجل هذا المسعى ستعمل الآلة المعرفية الغربية على إنتاج مجموعة من الصّور النمطية والتمثيلية والقوالب الجاهزة التي تكرّس هذا التقسيم وهذا التمايز بين العالمين حتى تصبح حقائق ومسلمات لا مفرّ منها.

أمّا المفهوم الثالث "وهو معنى يستند في تعريفه إلى عناصر تاريخية ومادية أكثر ممّا يستند المعنيان الآخران، فإذا اعتبرنا أواخر القرن الثامن عشر نقطة انطلاق عامة إلى حدّ بعيد، استطعنا أن نناقش ونحلل الاستشراق بصفته المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق –والتعامل معه معناه التحدّث عنه واعتماد آراء معينة عنه ووصفه، وتدريسه للطلاب وتسوية الأوضاع فيه، والسيطرة عليه وباختصار بصفة الاستشراق أسلوبا غربيا للهيمنة على الشرق وإعادة بنائه والتسلط عليه". (إدوارد سعيد، 2006، ص 45-46.) فالاستشراق بهذا الشكل يجعلنا نقرّ بالعمل الجماعي المتناغم بين كلّ الأطياف والشرائح

الغربية، فالشركات والأموال والهيئات الفكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية تعمل من أجل شرقنة الشرق، وتمثيله؛ والتمثيل يكون بأخذ مكانه والكلام نيابة عنه وجعله موضوعا للدراسة قصد القبض عليه معرفيا ومن ثمّ الوصول إليه واقعيا، وهذا ما تشير إليه جملة "الاستشراق أسلوبا غربيا للهيمنة على الشرق وإعادة بنائه والتسلط عليه". وهذا هو الخطر الكامن الذي يشير إليه إدوارد سعيد في خطاب الاستشراق، فليس الهدف أكاديميا أو حبّا في التعرّف على الآخر المختلف والتقرّب منه، للوصول إلى أرضية للعيش المشترك والعيش معا وسويا، وإنّما الهدف هو إشباع تلك النزعة الاستعمارية بالهيمنة والسيطرة على الآخر الشرقي، من خلال إعادة بنائه من جديد وفق ما تمليه المعرفة الغربية المُنتجة حول الشرق ومن خلال القوّة الخطابية الرمزية والتصويرية للاستشراق في صناعة **'آخر'** على المقاسات الغربية. وهذا ما يؤكده إدوارد سعيد في أنّ النزعة الاستعمارية "لا تقتصر .. فقط على جهاز عسكري اقتصادي، بل تستفيد من دعم بنية تحتية خطابية، اقتصاد رمزي، جهاز كامل من المعارف التي تحدد شروط الإنسان المستعمَر". (إيف كلفارون، 2017، ص153.) ما يؤكد الأهمية البالغة للخطابات الغربية المنتجة وتلك المعرفة التي يجري العمل عليها للوصول إلى الشرق. ما يتوّج الاستشراق كخطاب رمزي بنزعات استعمارية توسعية استلابية، بعيدا عن أساطير العلمية والأكاديمية التي تتوارى من ورائهما لتحقيق مآربه. وعلى هذا الأساس جاءت دعوة إدوارد سعيد للتعامل مع الاستشراق كخطاب من أجل تفهّم كيفية تمكّن الثقافة الأوروبية من تدبير أمور الشرق بل وابتداعه في كلّ المجالات. (ينظر: إدوارد سعيد، 2006، ص 46.).

ويعود الفضل في تحديد مجال الدراسات الاستشراقية إلى "الرحالة والمشروعات التجارية، والحكومات والحملات العسكرية، وقراء الروايات، ومسارد المغامرات الغربية المدهشة والمؤرخون الطبيعيون والحجاج الذين يمثل الشرق لهم نمطا مخصصا من المعرفة حول أماكن وشعوب وحضارات معينة". (تركي بن خالد الظفيري، 2015، ص 103.) فالمعرفة الغربية الخاصة بالشرق قد جرى الاشتغال حولها وعليها من خلال هؤلاء، الذين تعاملوا مع الشرق كخطاب يعتمد على إنتاج المعرفة وإعادة إنتاجها وفق ما يتماشى وإيديولوجية الاستشراق والمشاريع الاستعمارية التوسعية فاكتساب المعرفة يفتح أبواب السيطرة والهيمنة على الآخر. وعليه فـ "إنّ الشرق الذي يتجلى في الاستشراق، إذن هو نظام من التمثيلات مؤطّر بطقم كامل من القوى التي قادت الشرق إلى مجال المعرفة الغربية والوعي الغربي، وفي مرحلة تالية الإمبراطورية الغربية. وإذا كان التحديد للاستشراق يبدو سياسيا أكثر من أي شيء آخر، فذلك ببساطة لأنني أؤمن بأنّ الاستشراق كان هو نفسه نتاجا لقوى ونشاطات سياسية معينة". (تركي بن خالد الظفيري، 2015، ص 102.) يتحدّد مجال الاستشراق من خلال المقطع في التمثيلات والصور النمطية التي يتمّ إنتاجها حول الشرق والشرقيين، وعلى مجموعة من الأوصاف التي يحاول الغربيون ترسيخها في الأذهان، ليضعوا الشرق داخل إطار مغلق تغلفه تلك الصور والأوصاف والقوالب الجاهزة، وهذه الأخيرة هي من يحدد ماهية وجوهر الشرق في الأخير وليس حقيقته وواقعه. فالاستشراق-إذن-يعمل على الصورة المشوهة للشرق ويعمل على آلية إعادة بنائه انطلاقا من تلك الصورة المشوهة والقول بأنّها الكينونة الحقيقية والماهية الوجودية للشرق وهذا العمل ليس وليد اللحظة وإنّما هو وليد اعتكاف لقرون من

الزمن في بناء وإنتاج تلك المعرفة الغربية بالشرق على وقع الصراعات الجيوسياسية بين العالمين بهدف السيطرة.

يؤكّد إدوارد سعيد "أنّ القيمة الكبرى للاستشراق تكمن في كونه دليلا على السيطرة الأوروبية الأمريكية على الشرق أكثر من كونه خطابا صادقا حول الشرق". (إدوارد سعيد، 2006، ص 50.) فهو إذ يعري الصورة الحقيقية للاستشراق، فإنّه يؤكد على النزعة الاستعمارية والتوسعية المنغرسة في الخطاب الاستشراقي الرامي إلى استلاب الشرق من خلال منظومة خطابية رمزية محكمة البناء والصنع، قائمة على التمثيل الرمزي والصورة النمطية والقوالب الجاهزة التي تمهد الطريق للسيطرة على الشرق. وحسب سعيد فالاستشراق ليس مجرّد خيال أوروبي متوهّم عن الشرق وإنّما هو كيان له وجوده النظري والعملي، استثمرت فيه استثمارات مادية كبيرة جدا على مرّ الأجيال المتلاحقة، ما يدفع بفكرة العلاقة التي تربط بين الإمبريالية السياسية وبين الاستشراق كمنظومة خطابية ومعرفية وأكاديمية. هذا ما جعل مهمّة إدوارد سعيد تنصبّ في دراسة هذا التفاعل أو التبادل بين المؤلفين كأفراد وبين ما سمّاه 'المشاغل السياسية الكبرى' التي شكّلت الإمبراطوريات الغربية. (ينظر: إدوارد سعيد، 2006، ص 50. ص 60. ص 61.) وبالتالي هنالك تأثير كبير للسياسة وللإيديولوجية الإمبراطورية الغربية في تشكيل وعي المؤلفين الذي نسجوا مروياتهم وسردياتهم التاريخية والإبداعية حول الشرق على خطى المشروع الإمبريالي القائم على ثنائية المعرفة والسلطة، وعلى إنتاج المعرفة وإعادة إنتاجها، وعلى البناء وإعادة البناء. فأصبحوا ينتجون ويعيدون إنتاج تلك الصور والتمثيلات الرمزية في خطاباتهم، ويعملون على ترسيخها من حيث يعلمون أو لا يعلمون.

يذهب إدوارد سعيد إلى أنّ العلاقة القائمة بين المعرفة والسلطة هي من شكّلت الشرق والشرقي وشوّهته، "إنّ الرابطة ما بين المعرفة والسلطة، وهي التي أوجدت صورة الشرقي وطمست من زاوية ما وجوده باعتباره إنسانا، ليست مسألة أكاديمية محضة في نظري، ومع ذلك فهي مسألة فكرية ذات أهمية واضحة إلى حدّ بعيد". (إدوارد سعيد، 2006، ص 79.) فالمعرفة والسلطة تعملان معا، فالمزيد من المعرفة يقتضي وجود سلطة تفتح أبواب البحث والدراسة وجمع المعلومات والمعرفة اللازمة من خلال صفة الأكاديمية مثلا أو الاستعمار وإدارته الاستعمارية. وللمزيد من السلطة يتوجب توفر كمّ هائل من المعرفة لتسهيل السيطرة والهيمنة على هذا الكائن الذي تمّ اختراعه وابتداعه بواسطة الصور النمطية والتمثيلات الرمزية المشوّهة لحقيقته وكيانه. وهذا الابتداع والخلق ليس له هدف إلاّ السيطرة واستلاب الشرق. ولهذا راح إدوارد سعيد "يحلل نمط عمل والملامح المفصلة للهيمنة الثقافية الخاصة بالعلم الأكاديمي الذي يقول إنّه ليس سوى علم من علوم الإمبريالية". (روبرت يونغ، 2003، ص 270.) ما يكشف العلاقة الوثيقة بين الاستشراق وبين الإمبريالية، وما الأوّل إلاّ جزء من المشروع الإيديولوجي الضخم للثانية.

ومن أجل تفهّم آلية عمل خطاب الاستشراق استعار سعيد ثنائية 'المعرفة والسلطة' من الفرنسي ميشيل فوكو، من منطلق أنّ الآلة الاستعمارية والاستشراقية ترتكز على هاتين الركيزتين في عمليات

التوسع خارج حدودها التقليدية وفي تعاملاتها أثناء الاحتكاك المباشر بالآخر، أو أثناء عمليات احتواء الشرقي من خلال القبض عليه معرفيا. ولفهم عمل هذه الثنائية وجدنا إدوارد سعيد يستعيد خطابات شخصية تاريخية بريطانية ممثلة في 'بلور' أمام أعضاء البرلمان، الذي يرى أنّ المعرفة هي عملية تتبع مسار حضارة ما في مختلف مراحل تطورها من النشأة إلى الذبول، وتعني "الارتفاع عن اللحظة الحاضرة، وتجاوز الذات إلى الأجنبي والبعيد، وموضوع هذه المعرفة، أي الشرق معرّض للفحص الدقيق لضعف في طبيعته، وهذا الموضوع يعتبر حقيقة ثابتة وحتى ولو تطور وتغيّر، أو حوّل نفسه بنفسه على نحو ما تفعل الحضارات في أحيان كثيرة". (إدوارد سعيد، 2006، ص 86.) فالمعرفة تتبّعٌ وجمعٌ وإلمامٌ بجميع جوانب الموضوع المدروس ومحاولة لتلمس حقيقة وماهية هذا الموضوع قيد الدراسة-الشرق-فكلما كانت المعرفة دقيقة وشاملة لكلّ التفاصيل كلّما كانت عملية التسلط والتحكم فيه أسهل. فالشرق موضوع دراسة وفحص دقيق لوجود ضعف في طبيعته، وهو موضوع ثابت وقار يبقى كما هو حتى وإن تطور فعليا وغيّر من نفسه. وهذا المقطع يلخّص مفهومي المعرفة والسلطة من وجهة نظر بلفور خاصة والغرب بصفة عامة في أنّ "إنجلترا تعرف مصر، ومصر هي ما تعرفه إنجلترا، وإنجلترا تعرف أنّ مصر لا تستطيع أن تحكم نفسها، وإنجلترا تؤكّد ذلك باحتلال مصر، وأمّا بالنسبة للمصريين فإنّ مصر هي البلد الذي احتلته إنجلترا وتحكمه الآن". (المصدر نفسه، ص 88.) فالبداية كانت بمعرفة كلّ طرف للآخر انطلاقا من المعرفة التي أنتجها الغرب حول الأنا والآخر، وعلى هذا الأساس سيتم تحديد المواقع بينهما فالقوة والتمركز للغرب والضعف والهامشية للشرق، وبعد التسليم بكلّ هذا يتمّ الانتقال من المعرفة إلى السلطة والسيطرة الفعلية والميدانية للشرق في تأكيد تطبيقي لتلك المعرفة؛ أي الانتقال من مجرد مجموعة من المرويات والسرديات الخاصة بالشرق -والتي كتبها المستشرقون والرحالة، والأدباء والرواة، والمؤرخون، والجغرافيون-إلى السيطرة العملية الواقعية عليه. ومن هنا " تجبرنا تحليلات كتاب الاستشراق على الاعتراف بأنّ المعرفة كافة قد تكون ملوثة، بل ومتورطة في بناها الشكلية أو الموضوعية نفسها". (روبرت يونغ، 2003، ص 270.) وما يجعل هذه المعرفة ملوثة ومتورطة مع السلطة، أنها تشرعن لعمليات التوسع والاستعمار والاستلاب والاحتواء التي ستطال الشرق والشرقيين، فمن جهة تعمل على تصوير الأنا الغربية في كامل تفوقها وعنجهية انتمائها وتمركزها حول الذات، ومن جهة أخرى تقدم تلك الصورة الشمطاء والشوهاء للآخر، على أنّه متخلف وضعيف وهامشي وانهزامي. وفي هذا تكريس للتمايز على أساس عرقي وعنصري، فالمختلف دائما ما يكون في عرف هذه المعرفة-التي وصفها روبرت يونغ بالملوثة-متّهما ينبغي التخلّص منه. ما سيسهّل عمل السلطة الفعلية على أرض الواقع: استعمارا وإزاحة ومزاحمة واستحواذا وتملّكا للشّرق، فكلّما زادت المعرفة زادت السلطة والعكس.

ثانيا-الجغر افيا الخيالية حول الشرق:

ينّص تعريف الاستشراق على التقسيم الأنطولوجي والمعرفي بين الشرق والغرب، فمن خلاله يتحدّد الوجود الغربي، فلا شرق من دون غرب ولا غرب من دون شرق، وما الأخير إلاّ المقابل الموضوعي للغرب، وسمة هذا التقسيم أنّه تعسفي قائم على اختلاق وابتداع الآخر خطابيا ومعرفيا وصوريا، "فالاستشراق

هو مجال من المجالات العلمية يقوم على دراسة وحدة جغرافية وثقافية ولغوية وعرقية تسمّى الشّرق". (إدوارد سعيد، 2006، ص 110.) فحدود المجال مثلما هو موضّح تتمثّل في الدراسة الجغرافية والثقافية واللغوية والعرقية لهذا الذي تمّ تسميته 'بالشرق' وعلى هذا فقد أصبح موضوعا للدراسة والفحص والمساءلة ليس رغبة في التقرّب منه وإثراء المعارف الإنسانية بخبرات هؤلاء الشرقيين، وإنما بهدف تصويره على أنّه المقابل الوجودي الدونيّ والهامشي، ووجه العملة القبيح للغرب قصد توسيع الهوّة أكثر بين العالمين، ومن ثمّ اسقاط لك المعرفة المختلقة على الجغرافيات أو ما يصطلح عليه إدوارد سعيد بالجغرافيا الخيالية؛ فالذي يقف في الجغرافيا الخاصة بالشرق ستُسقط عليه معرفة تعمل على تقزيمه واختزاله وتشييئه، وسيحمل صفات الكسل واللصوصية والحيوانية، وعلى أنهم نمل يدبّ على الأرض، وكتل من اللحم بلا نفع،... إلخ. وهذا النوع من التصوير والتمثيل للآخر يقوم على التخييل لا على الحقائق أو الواقع، ما يفتح المجال لعمليات اكتشافه عن قرب كحجة لشدّ الرحال إلى تلك الجغرافيات المترامية على الهامش والأطراف.

ويسعى الخطاب الاستشراقي بكلّ ما أوتي من قوّة إلى تأكيد الحدود المرسومة حتى من الناحية الخطابية بين 'أرضنا' و'أرضهم'، إذ أصبح المقابل الخطابي للحدود بين العالمين هو هذه الـ 'نا' والـ 'هم'. ويوضّح إدوارد سعيد ذلك بقوله:" نرى أنّ الاتجاه الشائع عالميا بأن يطلق الناس على مكان يألفونه تعبير 'أرضنا نحن' وعلى المكان الذي لا يألفونه ويتجاوز أرضهم المألوفة تعبير 'أرضهم هم'، أسلوب لوضع حدود جغرافية مميزة قد تكون تعسفية تماما. وأنا أستعمل كلمة تعسفية هنا لأن الجغرافيا الخيالية من نوع أرضنا وأرضهم لا تحتاج إلى افتراض اعتراف الهمجيين بذلك التمييز، بل يكفي لنا نحن أن نقيم هذه الحدود في أذهاننا فهذا من شأنه أن يجعلهم يصبحون 'هم'". (المصدر نفسه، ص 116.) يظهر أنّ التقسيم الجغرافي يقوم على الألفة فالفضاء المكاني المألوف للأنا سيصبح فضاءها وأرضها، والجغرافيات غير المألوفة ستصير أرض الآخر ومكانه وحسب سعيد فإنّ هذا الأسلوب في وضع الحدود يتسم 'بالتعسفية' من منطلق أنّه يُفرض فرضا دون معرفة رأي الآخر في ذلك، بل تكتفي الأنا بإقامة الحدود ذهنيا حتى يكون لها وجودها الفعلي واقعيا، وميزة التقسيم أنّه ذهني، فبمجرد أن تضع المعرفة الغربية الخاصة بالشرق حدودها وتشرعن لها انطلاقا من كتابات الرحالة والمستشرقين والكتاب والمؤرخين، حتى ترتسم في الأذهان وتترسّخ وتصبح سارية المفعول.

"فلا شكّ أنّ الجغرافيا الخيالية والتاريخ الخيالي يساعدان الذهن في تكثيف وتعميق إحساسه بذاته بتهويل المسافة والاختلاف بين ما هو قريب منه وما هو بعيد عنه". (المصدر نفسه، ص 116-117.) إنّ هذا الاختلاق الجغرافي والتاريخي أقيم لتوسيع الشرخ وحجم الهوة فيما بين العالمين المخترعين، ذهنيا وواقعيا، بإعلاء ما يُراد إعلاؤه وتبخيس ما يُراد تبخيسه، بتمكين الصور التمثيلية والنمطية والقوالب الجاهزة بأخذ موقعها جغرافيا. فقد أضحى مجرد سماع **'الإنسان الأسود'** بالنسبة للغربي يجعله يفكّر آليا في صور كثيرة ومتزاحمة منها: اللّص، والكسول، وآكل لحوم البشر. وفي المقابل ما أن يسمع بالإسلام حتى تتبادر إلى

ذهنه صوّر: العنف، والإرهاب، والرعب والخراب والهمجية. ما يزيد من حجم الاختلاف والتمايز بين البشر، وتثبيت الحدود الذهنية وتأكيدها.

ثالثا-التاريخ الخيالي حول الشرق:

وفيما يخصّ التاريخ الخيالي، فقد أشار إدوارد سعيد إلى حملة نابليون بونابارت على مصر، وتعامله النّصي مع الموضوع؛ فمصر بالنسبة لنابليون أصبحت كتابا مفتوحا ينتظر القراءة والمدارسة والتحليل والتعليق والنقد والإضافة، فمطالعاته لكتابات الثقات من الرحالة والمستشرقين والكتّاب الأوروبيين القدامى والمعاصرين ممن كان لهم احتكاك مباشر بمصر شكّلت معرفته بمصر، فهو "يعرفها من الجوانب التكتيكية والاستراتيجية والتاريخية ومن جانب آخر لا ينبغي بخس قدره وهو النصوص-أي باعتبار مصر موضوعا عرفه وقرأ عنه ما قرأ في كتابات الثقات الأوروبيين". (المصدر نفسه، ص 152.) فالمنظار الذي سيستخدمه نابليون في رؤية مصر سيكون من خلال تلك المعرفة التي ترسبت في ذهنه والتي استقاها من كتابات هؤلاء. فالصورة الذهنية التي ستتشكل في ذهنه ستحددها تلك الكتابات وستتلوّن بألوانها. فمصر بالنسبة له هي ما صوّره هؤلاء الذين احتكوا معها مباشرة وليس من خلال الخبرة الشخصية لنابليون. وبالتالي التعامل مع الموضوع قيد الدراسة سيكون وفق ما كتبه هؤلاء.

ومن أجل ذلك، فقد قام نابليون بإنزال عشرات العلماء من كلّ التخصصات قصد إعداد أرشيف عن الحملة ودراسة مصر كنصّ. وكان العمل منصبا على تسجيل كلّ شاردة وواردة. وتوّجت جهود الأكاديمية بكتاب من ثلاثة وعشرين مجلدا بعنوان '**وصف مصر**' في الفترة الممتدة بين 1809-1828. "إنّه استيلاء بلد على بلد آخر". (إدوارد سعيد، 2006، ص 157.) لأنّ هذا الكتاب حسب سعيد هو كتاب تاريخي متخيّل عن مصر وتاريخها العريق، إذ تمّ فيه استبدال تاريخها الحقيقي بتاريخ آخر خيالي، في عملية اجتثاث مصر ممّا هي عليه وجوديا ومعرفيا وثقافيا إلى '**وصف مصر**' المشوهة والمتخيّلة. "وهكذا فإنّ 'وصف مصر' يحلّ محلّ التاريخ المصري أو الشرقي، باعتباره تاريخا يتمتع بتماسكه وهويته ومعناه، بل إنّ التاريخ المسجل في هذا الكتاب يغتصب مكان التاريخ المصري أو الشرقي، ما دام التاريخ يحدّد نسبَه تحديدا صريحا ومباشرا باعتباره تاريخ العالم، وهذا للطف في التعبير أو كناية عن التاريخ الأوروبي". (المصدر نفسه، ص 160-161.) إذن، يعمل الخطاب الاستشراقي على إزاحة التاريخ الحقيقي لمصر واستبداله بآخر مختلق ومبتدع، ليحل ويتكلّم مكانه، بحيث لا تعرف مصر إلا من خلال هذا التاريخ المزيّف والمتخيّل ومن خلال ما كتبته أكاديمية نابليون في أكبر عملية اغتصاب وإزاحة تاريخية.

لقد حدّد إدوارد سعيد أربعة أبنية فكرية للاستشراق الحديث وهي: التوسّع، والمواجهة التاريخية، والتعاطف، والتصنيف. فالأوّل: وبعد عملية التقسيم التي طالت العالم إلى شرق وغرب، أصبح من الضروري التوسّع في مفهوم الشرق وإعطائه امتدادات أخرى أوسع، ومجرد سماع كلمة 'التوسع' يتبادر إلى الذهن مباشرة ما يقابل الكلمة في الواقع وهو الاستعمار؛ فهدف الاستعمار الأول هو التوسّع إلى أبعد حدّ ممكن في هذه الجغرافيا الخيالية التي تمّ استحداثها واختلاقها لهذا الغرض وامتلاك إمبراطورية فيما وراء البحار، وهذا الذي حدث فعلا في القرنين التاسع عشر والعشرين لمّا توسّعت بريطانيا وفرنسا وأمريكا

خارج حدودها التقليدية. وأمّا الثاني: فبتدعيم القدرة على التعامل التاريخي مع الثقافات غير الأوروبية وغير اليهودية وغير المسيحية دون اختزال وبعيدا عن النمطية التي كانت في السابق في محاولة لفهم الشرق وربطه بالغرب. أمّا العنصر الثالث: أي بالتوحد وجدانيا مع بعض المناطق والثقافات الشرقية الذي قهر عناد الذات والهوية بمعنى الاستقطاب المتمثل في تصور وجود مجتمع من المؤمنين المتهيئين للقتال ضد جحافل الهمجيين. وأمّا العنصر الأخير فهو التصنيف الذي يعني التصنيف الدائم للجنس البشري حسب الألوان والأجناس والأصول والأمزجة والطبائع والأنماط. (إدوارد سعيد، 2006، ص 207-209.)

خامسا-إدوارد سعيد وإرساء معالم نقد الخطاب الاستعماري ودراسات ما بعد الاستعمار:

يعود الفضل في إرساء معالم نقد الخطاب الاستعماري إلى كتابات إدوارد سعيد وبخاصة كتابي **"الاستشراق والثقافة والإمبريالية"**، إذ يعتبران حسب العديد من النقاد والباحثين من أهمّ ما كتب في التنظير لما سميّ فيما بعد بالدراسات ما بعد الاستعمارية. تعترف غاياتري سبيفاك (C. Gayatri Spivak) بدور سعيد الريادي في هذا الخصوص معتبرة إيّاه من أبرز شخصيات هذا الحقل المستجد، وأنّ كتاب الاستشراق "الكتاب المصدر في هذا حقل". (ينظر: فاليري كينيدي، 2016، ص 231.) وهذا عائد لقيمته المعرفية والعلمية، وإلى فتحه جبهات نقاش جديدة وابتكار آليات حديثة لدراسة وتحليل وتأويل الخطابات الاستعمارية، لكن هذه المرة القراءة ستكون من وجهة نظر المستعمَر.

أمّا روبرت يونغ فيشير إلى أنّ قيمة الكتاب التأسيسية لهذا الحقل "لم تكن .. مسألة تأسيس نقد الكولونيالية في مواجهة الثقافة الأوروبية، بل هي بالأحرى مسألة بيان مدى عمق تورط كلّ منهما في الأخرى. فقد لا يكون من الممكن تخيّل الفكر الأوروبي منذ عصر النهضة بدون أثر الكولونيالية مثلما أنّه قد لا يكون من الممكن تخيّل تاريخ العالم منذ عصر النهضة بدون تأثيرات الأوربة". (روبرت يونغ، 2003، ص 259.) بمعنى أنّ ما يسعى إليه سعيد من خلال كتابه الاستشراق ليس الوقوف في مواجهة الثقافة الأوروبية انطلاقا من نقد خطاباتها الاستعمارية، وإنّما الغاية لهذا النقد هو تكشّف آثار الاستعمار في كلا طرفي الشرط الاستعماري؛ إذ لا يمكن الحديث عن ثقافة أو فكر أحدهما من دون التعريج على التأثيرات المتبادلة بينهما، في إشارة من يونغ إلى تورط كلّ طرف في الآخر، ما يعني استحالة عزل هذا الجانب المهمّ أثناء دراسة ونقد هذه الخطابات الاستعمارية. ومن هنا يتبيّن لنا أنّ هدف الدراسات ما بعد الاستعمارية هو تعرية هذا التورط الحاصل بين المستعمَر والمستعمِر، وكشف ملابسات العلاقة بينهما، وتأثيرات ذلك في مرحلة ما بعد الاستقلال. لأنّ الاستعمار قد ترك آثارا عميقة في المستعمرات يصعب تجاوزها بسهولة، ما يجعل مهمّة النقد هو التحرّك في هذا الجانب. ولهذا فإنّ كتاب 'الاستشراق' هو "النّص الأصلي للدراسات ما بعد الكولونيالية. تعمّم في البدء الموضوع الذي كان خاصا بالدراسات الاستشراقية؛ ليصبح قضية جيوسياسية شاسعة، تمعن النظر في علاقات القوى في العالم المعاصر والطريقة التي درست ومثّلت بها الثقافات الغربية". (إيف كلفارون، 2017، ص 134.) وهنا تظهر أهميّة الكتاب في أنّه نصّ أسّس لحقل جديد بدأ من تفكيك خطاب الاستشراق وأليات اشتغاله على الصور النمطية والقوالب الجاهزة، وكذا التمثيلات الرمزية للشرق، إلى الوصول لتحليل علاقات القوى في العالم المعاصر وخاصة

العلاقة بين المستعمرات القديمة التي نالت استقلالها مع المستعمِر، جاعلا منه قضية جيوسياسية يشتغل على تفهّم هذا الجانب القائم على الصراع في تحديد المواقع، بهدف مركزة الغرب وتهميش الآخر غير الغربي.

ومن الجدير التنويه إلى مجموعة من المفاهيم الرئيسية التي ظهرت في كتابات إدوارد سعيد، والتي تعتبر ركائز هامة في الدراسات ما بعد الاستعمارية وفي تحليل الخطاب الاستعماري، منها مفهوم **الآخر** الذي ظهر في كتاب 'الاستشراق' وإحدى أطروحاته المركزية من خلال إبراز كيفية تمثيل العرب والمسلمين على مرّ العصور من طرف المستشرقين على أنّهم خطر وتهديد للغرب. إضافة إلى استخدام إدوارد سعيد لمصطلح **المقاومة** ضدّ الإمبراطورية الاستعمارية وكذا مفهوم **'الهيمنة'** الذي استعاره من الإيطالي أنطونيو غرامشي والذي يشير إلى "قدرة النخبة المهيمنة على المحافظة على السلطة بواسطة التلاعب بالرأي العام، بهدف نيل الرضا المنتظم للكتل الجماهيرية. تتحقق الهيمنة بالكامل حين تعتنق الكتل الجماهيرية الأفكار والقيم التي تخدم في الواقع مصالح النخبة التي تحكمهم". (إيف كلفارون، 2017، ص 136-137.) أضف إلى ذلك مفهوم **الرحلة إلى الداخل (voyage in)** إذ "يسمي... الرحلة إلى الداخل (رحلة الاختراق) المجهود الواعي لاختراق خطاب أوروبا الغربية والامتزاج معه، وتحويله بجعله يتعرف على الحكايات المهمّشة والمقموعة والمنسية". (المرجع نفسه، ص 146.) وهذه الرحلة إلى الداخل تقع على عاتق المثقف المستعمَر الذي تكوّن في المدارس الاستعمارية، والمنخرط في تيار المقاومة الثقافية، إذ مهمّته ستكون بإنتاج سرود ومرويات مضادة للسرد الاستعماري، تعريه وتكشف استراتيجياته ومن ثمّ تفككه بالآليات والممارسات النقدية نفسها التي كانت حكرا على الإنسان المستعمِر فيعملون على إسماع صوتهم وإسماع قضيتهم لكسب التعاطف الدولي. إنّ "رحلة الاختراق هذه هي حصيلة عمل كتّاب من البلدان المستعمَرة والهامشية، خاضوا غمار المقاومة ضدّ الإمبراطورية وكتبوا بلغة الإمبريالية وأخذوا على عاتقهم مجابهة الثقافة الحواضرية لإخضاعها للنقد الحاسم والمراجعة التنقيحية، مستخدمين تقنيات وإنشاءات وخطابات وأسئلة للبحث والنقد كانت فيما مضى بالكامل محصورة حصرا على الإنسان الأوروبي". (إدوارد سعيد، 2014، ص 300-301.)

ومفهوم **التمثيل** من المفاهيم الرئيسية أيضا، حيث ظهر جليا في كتاب الاستشراق، حين اعتمد الخطاب الاستشراقي على الصورة النمطية والتمثيلية في تغليف الآخر غير الغربي، بهدف تمثيله والكلام مكانه من منطلق أنّه لا يستطيع تمثيل نفسه، والتمثيل "هي فكرة مسرحية؛ الشرق Orient هو الخشبة التي يُحجز فيها كلّ الشرق East". (بيل أشكروفت، بال أهلواليا، 2002، ص 84.) مثلما احتجز 'وصف مصر' كتاريخ آخر مختلق ومبتدع مصر وتاريخها العريق وأخذ مكانه، بحيث لا تُعرف مصر إلاّ من خلال ما كتبته أكاديمية نابليون.

أمّا في مفهوم **الدنيوية** فيقول سعيد:" فموقفي بأنّ النصوص دنيوية، وهي أحداث إلى حدّ ما، وهي فوق كلّ هذا وذاك قسط من العالم الاجتماعي والحياة البشرية، وقسط بالتأكيد من اللحظات التاريخية التي احتلت مكانها فيها وفسّرتها حتى حين يبدو عليها التنكر لذلك كلّه". (إدوارد سعيد، 2000، ص 8.) أي

أنّها وليدة بيئتها، وسياقاتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والتاريخية المختلفة، فالنّص نتاج الواقع ليعبّر عن الواقع المعاش. ولهذا دعا إدوارد سعيد إلى النقد الدنيوي والانخراط في العالم والحديث منه وإليه "إنّ قدرة المثقف في أن يقول أي شيء ينتمي إلى مجتمعه أو مجتمعها لا يمكن أن تغنيه عن مفهوم الدنيوية، إذ دون الدنيوية لن يكون للمثقف دنيا أو عالم يتكلم من وإليه". (بيل أشكروفت، بال أهلواليا، 2002، ص 43.) وفي هذا المفهوم دعوة إلى دنيوية النّص، ودنيوية النّقد، ودنيوية الناقد. أي علاقة النّص والنقد والناقد بالعالم.

ويعتبر مفهوم **النسق المضمر** مركز اشتغال كتاب 'الاستشراق' إلى جانب المفاهيم الأخرى سالفة الذكر لكن مع أفضلية طفيفة لهذا المفهوم، وهذا راجع إلى طبيعة مهمته التي تقضي بالكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة المتوارية في الخطاب الاستشراقي، والتي تمّ تمريرها من خلال تلك الصور النمطية والتمثيلات الرمزية والقوالب الجاهزة. و"يتحدد النسق عبر وظيفته وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة النسقية لا تحدث إلاّ في وضع محدد ومقيّد وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمر، ويكون المضمر ناقضا وناسخا للظاهر. ويكون ذلك في نص واحد، أو فيما هو في حكم النص الواحد، ويشترط في النّص أن يكون جماليا وأن يكون جماهيريا". (عبد الله الغذامي، 2005، ص 77.) وبالتالي هناك نسقان: ظاهر ومضمر، والمضمر مناقض للظاهر. فالأكاديمية والعلمية والبحث في موضوعات خاصة بالشرق قصد إثراء المعرفة الإنسانية بخبرات هذه العوالم الجديدة، نسق ظاهر. وأمّا ما اعتبره سعيد معرفة مشوهة عن الشرق وقام بالكشف عنها وتعريتها، والهادفة للسيطرة والتحكم في الشرق فنسق مضمر. وهما نسقان متعارضان متضادان، والقناع الذي تخفّى من ورائه النسق المضمر هو قناع **التعمية الثقافية** التي مارسها وأظهرها مصطلح الأكاديمية. وفي المقطع الموالي يظهر تعارض نسقين "إنّ المرء بعد أن قرأ روضة مانسفيلد كجزء من بنية مشروع إمبريالي متوسع، أن يعيدها ببساطة إلى موقعها ضمن التراث المكنون من الروائع الأدبية العظيمة-الذي تنتمي إليه بكلّ تأكيد-وأن يكتفي بذلك". (إدوارد سعيد، 2014، ص 161-162.) المعروف أنّ سعيد قد حلل مجموعة من الأعمال الفنية والأدبية الكنسيّة المكرسة، قصد الوصول إلى هذه الأنساق المضمرة تحت أنسجة الخطابات السردية والمرويات التاريخية، في كتابه 'الثقافة والإمبريالية'، وقد سعى إلى الكشف عنها دون المساس بالقيمة الجمالية لهذه الإبداعات الأدبية الإنسانية. وهذا المقطع يظهر نسقان: الظاهر متمثل في القيمة الجمالية والفنية لروضة مانسفيلد. والنسق المضمر: متمثل في تواطؤ الرواية والثقافة مع الإمبريالية، وشرعنتها للمشروع الإمبريالي.

وأمّا **القراءة الطباقية** فتنظر "إلى التجارب المختلفة نظرة طباقية ومحاولة تفهمها من إقحام التجارب في معترك واحد لتتبارى فيما بينها حتى تفهم من خلال التشابهات والعلائق والاختلافات الموجودة فيما بينها". (إدوارد سعيد، 2014، ص 101.) بمعنى لكي نفهم الظاهرة الاستعمارية علينا أن تفهّم التجارب المختلفة لكلا قطبي الشرط الاستعماري، إذ ينبغي المقارنة بينها لكشف العلاقة الموجودة فيما بينها. فـ"في قراءة نص ما ينبغي على المرء أن يفتحه لما اندرج فيه ولما أقصاه مؤلفه عنه أيضا. إنّ كلّ عمل ثقافي هو

رؤيا للحظة ما، وعلينا أن نقحم هذه الرؤيا تجاوريا مع الرؤى التنقيحية المتنوعة التي استثارتها فيما بعد في هذه الحالة". (المصدر نفسه، ص 135.) وبالتالي فالقراءة الطباقية تعيد النظر في الذي تمّ إقصاؤه والسكوت عنه وتقتضي مقارنة هذا الذي همّش من طرف المؤلف مع الذي تمّت مركزته من أجل الإلمام بكلّ تفاصيل القضية.

ويظهر مفهوم **الهجنة** عند إدوارد سعيد في تقاطعه في كثير من المرات بمفهوم آخر وهو الدنيوية، فدنيوية النّص يمثّل علاقته بالخارج؛ بالظروف الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية التي أنتجته والتي سينتج عنها نصّا هجينا أيضا. ودنيوية الثقافة ودنيوية الكاتب ستنتجان شكلا آخر هجينا. "يتحدّث سعيد عن الحاجة إلى إعادة ضمّ 'العوالم الثقافية والجمالية' مع 'المجال الدنيوي'، تبدو الهجونة عند هذه النقطة أنّها تعني دنيوية النصوص، أي انخراطها في التعقيدات الاجتماعية والسياسية الخاصة بلحظتها التاريخية". (فاليري كينيدي، 2016، ص 201.) ويؤكد إدوارد سعيد أنّ "تاريخ الثقافات جميعا إنما هو تاريخ من الاستعارات(...) إنّ الثقافة ليست أبدا مسألة ملكية وحسب واستعارة وإعارة بين دائنين ومدينين مطلقين، بل هي بالأحرى مصادرات وتجارب مشتركة واعتمادات متبادلة متداخلة من جميع الأنماط بين ثقافات مختلفة". (إدوارد سعيد، 2014، ص275.) بالتالي لا وجود لثقافة أصلية نقيّة بل كلّ الثقافات هجينة قائمة على مبدأ الاستعارية من الثقافات الأخرى. فالهجنة نتاج هذه التجارب المشتركة والتداخلات بين الثقافات ما يقتضي التفاعل والتشارك والتبادل.

خاتمة:

نخلص في نهاية هذه الورقة البحثية إلى ما يلي:

- لا يمكن تجاوز جهود إدوارد سعيد النقدية في تعرية الخطاب الاستشراقي وسياساته القائمة على إنتاج معرفة غربية خاصة بالشرق، والتي تتعكز في الأساس على الصور النمطية والتمثيلات الرمزية والقوالب الجاهزة التي تعمل على **تذويت الآخر** على ترددات تلك المعرفة، وبعدها اجتثاثه وسلخه من أصله وملئه بهذه الكينونة الجديدة في محاولة لصناعة آخر على المقاسات الغربية أو يسميه سعيد "بشرقنة الشرق"؛ أي بإضفاء الصفات الشرقية على الشرق.
- كتاب الاستشراق يكشف استراتيجيات الخطاب الاستشراقي في تمثيل الآخر، والتنكّر لآدميته وإنسانيته من خلال عمليات الاختزال في صور وتمثيلات تعمل الاستلاب ونشر عقد الدونية والنقص في الآخر غير الغربي.
- خطاب الاستشراق يعمل على إنتاج المعرفة وإعادة إنتاجها، وعلى البناء وإعادة بناء الشرق وفق تلك المعرفة التي تهدف إلى تغليف الآخر غير الغربي بها، حتى يصبح ما يُراد له أن يكون وليس ما هو كائن واقعيا. بحيث يعمل على إسقاط هذه المعرفة على الأشخاص والجغرافيات والتاريخ، فبمجرد أن نذكر إقليما جغرافيا معينا حتى تنهمر هذه المعرفة الغربية المُنتجة حوله في العقول.
- خطاب الاستشراق محاولة لابتداع واختراع الآخر الشرقي، من خلال التمثيل والتاريخ والجغرافيا الخياليين ومحاولة لصناعة الشرق والشرقيين على المقاسات الغربية.

- إدوارد سعيد رائد نقد الخطاب الاستشراقي الاستعماري، والمنظّر لحقل الدراسات ما بعد الاستعمارية.

قائمة المصادر والمراجع:

- إدوارد سعيد، تر: عبد الكريم محفوض، العالم النص والناقد، 2000، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- إدوارد سعيد، تر: محمد عناني، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، 2006، ط 1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة.
- إدوارد سعيد، تر: كمال أبو ديب، الثقافة والإمبريالية، 2004، ط 4،دار الآداب، لبنان.
- إيف كلفارون، تر: محمد الجرطي، إدوارد سعيد الانتفاضة الثقافية، 2017، صفحات للدراسة والنشر والتوزيع، ط 1، سوريا.
- بيل أشكروفت، بال أهلواليا، تر: سهيل نجم، مرا: حيدر سعيد، إدوارد سعيد مفارقة الهوية، 2002، نينوى، ط 1، سوريا.
- تركي بن خالد الظفيري، الاستشراق عند إدوارد سعيد وجهة نظر إسلامية، 2015، ط 2، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، السعودية.
- روبرت يونغ، تر: أحمد محمود، أساطير بيضاء كتابة التاريخ والغرب، 2003، ط 1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- عبد الله الغذامي،النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، 2005، ط 3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت.
- فاليري كينيدي، تر: ناهد تاج هاشم، إدوارد سعيد: مقدمة نقدية، 2016، ط 1، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

صورة ابن رشد في الدراسات الاستشراقية المعاصرة

The image of Ibn Rushd in contemporary orientalist studies

ط.د/ صديدق بحري، جامعة عبد الحميد ابن باديس مستغانم- الجزائر
bahri16sadik@gmail.com _bahri27sadik @gmail .com



نسعى في بحثنا إلى تقديم صورة ابن رشد في دراسات المستشرقين المعاصرين، و دورهم في التعريف بابن رشد للعالم وفهم فلسفته، ونخص بذلك المستشرقين من الفلاسفة والمفكرين اليهود واللاتينيون ، خاصة ما تعلق فيها بفلسفته العلمية والسياسية وبأصل العالم ووجود الله وكذا علاقة الفلسفة بالدين وغيرها من القضايا الابستيمولوجية،التي شغلت حيزا واسعا من الجدل ،فبعد أن أصيبت مؤلفات ابن رشد بالضياع والتنكيل عادت مجددا بفعل الترجمة فيما بعد وبقوة فكرا منيرا للعقول تتباهى بدراسته أكبر الجامعات العالمية ، فقد أرست ترجمة شروحه على أرسطو الى اللاتينية لعدة عقود لتصبح جزءا من التراث الأرسطوطاليسي في أوروبا كلها، ولكن رغم ذلك فإنهم لم يوفوا بترجمة فلسفته وفكره الأصيل، سواء جهلا منهم بمبادئ الترجمة الفلسفية أم عمدا وذلك لما كان يضمره الغرب للشرق من حقد ،حيث شوّهت أفكاره وطمست مبادئه الأساسية .

الكلمات المفتاحية: ابن رشد،الاستشراق، العالمية ، العلوم،الإبداع،الحوار،الحضارة.

Abstract :

In our research, we seek to present the image of ibn Rushd reception in the study of contemporary orientalists, and their role in introducing ibn Rushd's to the world and understanding his philosophy, especially the orientalist from and the Jewish and Latin philosophers and thinkers, especially what relates to his scientific philosophy and the origin of the world and the existence of God as well as the relationship of philosophy to religion and other epistemological issues, which occupied a wide area of controversy, after ibn Rushd's writings were lost and abused again by translation later and strongly a enlightened thought of the minds boasting of studying the largest universities in the world, The translation of his commentaries on Aristotle into Latin was established for several decades to become part of the Aristotlesian heritage in all of Europe, but nevertheless they did not live up to the translation of his philosophy and original idea, whether ignorant of the principles of philosophical translation or deliberately and that of the hatred that the West had in the East, where his ideas were distorted and his basic principles were obliterated.

Keywords: Ibn Rushd, orientalism , creativity, dialogue, civilization, morality , universality.



مقدمة :

تعتبر فترة أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر هي الفترة التي تطور فيها مفهوم **"الاستشراق"**، حيث ظهر فجأة لدى المفكرين والأساتذة والسياسيين والفنانين أن وعيا جديدا ظهر بالشرق يمتد من الصين إلى البحر المتوسط ، وكان هذا الوعي من ثمار اكتشاف وترجمة النصوص الشرقية القديمة المكتوبة بالغات السنسكريتية ، والزندية ، والعربية، وقد يكون أيضا نتيجة الرؤية الجديدة للعلاقة بين الشرق والغرب ، هذا و ارتفعت مكانة الاستشراق ارتفاعا واضحا في بداية القرن التاسع عشر للميلاد ، حيث ذاع صيت هذا الأخير .الاستشراق. تماما مثلما ذاع صيت بعض المؤسسات والجمعيات الأسيوية الفرنسية والألمانية والأمريكية ، مما أدى إلى مضاعفة كمية المعرفة وكذا عدد التخصصات الفرعية ، فضلا عن نشر مجلات الاستشراق التي كانت بدايتها مع مجلة ألمانية سنة 1809م، المعنونة بـ" استكشاف الشرق" (ادوارد سعيد، 1994)، وقد شهد هذا القرن كذلك بداية ظهور المؤتمرات الدولية للمستشرقين ، اذّ عقد أول مؤتمر دولي للمستشرقين بفرنسا عام 1873م (محمود حمدي زقزوق، 1997).وربما هي أرضية أخرى لبداية نشأة ما يعرف بالاستشراق وانتشاره وتطوره أبعاده، وفي نفس السياق يرى " ابراهيم مذكور " أن الاستشراق بالمعنى الكامل لم يبدأ إلا في منصف القرن التاسع عشر، وفي هذا يقول :" .. ولم يتجه المستشرقون في عناية نحوى الدراسات الإسلامية إلا في النصف الأخير من القرن الماضي ، فإليهم يرجع الفضل في اختراق هذا الطريق ، وقد نشطت حركة الاستشراق في الربع الأول من القرن التاسع عشر نشاطا عظيما، فرحل بعض العلماء الغربيين إلى الشرق (ابراهيم مذكور، 2015) لقد تباينت مواقف المستشرقين ونظرتهم للفلسفة الإسلامية أو العربية إلى وجهات نظر متضاربة، فمعظم المستشرقين الغربيين قد تعاملوا مع فلسفة المسلمين بإنكار أصالتها وصحتها، وكذا الحكم على الفلاسفة المسلمون أنهم أخذوا الفلسفة اليونانية كما هي بأحرف عربية دون إضفاء عليها أي نوع من الإبداع الفكري، كوّن العرب المسلمون لم يعرفون الفلسفة ولم يتعاطوا التفلسف، لذلك فندوا كل ما هو تفكير شرقي أصيل، ونخص بالذكر فلسفة الشارح أبي الوليد ابن رشد ، الذي أحدث ضجة فلسفية في أوساط الأوروبيين، وأسال الحديث عن فلسفته الكثير من الحبر، فالفلسفة الرشدية بكل ما تحمله من تصورات وأفكار وموضوعات أضحت محل دراسة ونقاش عند غالبية المستشرقين، فقد نالت الفلسفة الرشدية باهتمام قلّ نظيره من طرف المستشرقين في بحوثهم الاستشراقية العلمية، فكانت قراءاتهم ، وتفسيراتهم واتجاهاتهم متعددة ومختلفة عن المنهجية التي يدرس بها الباحثون المسلمون تراثهم العربي بصفة عامة وفلسفة ابن رشد بصفة خاصة، فالعقل العربي يفهم من الفلسفة الإسلامية أنها جزء لا يتجزأ من تراثه الديني ولا شك في أصالتها، وهذه الحقيقة اليقينية المطلقة بحث فيها المستشرقون وعمقوا فيها بحوثهم مسلطين الضوء على فلسفة الشارح ابي الوليد ابن رشد. فهل المنطلقات التي بني عليها الفلاسفة المعاصرون المستشرقون موقفهم اتجاه فلسفة ابن رشد

منطلقات موضوعية أبستمولوجية أم هي منطلقات ذاتية تحمل بذور العنصرية ؟و كيف تلقى الفلاسفة الغربيون المعاصرون نصوص ابن رشد؟

أولًا -الفلسفة :

بعد ما ظهرت بحوث" مونك "المنشغلة بفلسفة العرب خاصة فلسفة ابن رشد، حتى انكب على دراسة هذه البحوث الكثير من المعاصرين، فعادت كتب المسلمين من جديد وعاد ابن رشد الفيلسوف، الطبيب، الفلكي، الرياضي، العالم، اللغوي ..الخ الى واجهة البحث في أوروبا، وبات يشغل تلك الدراسات المعاصرة على الرغم من الصورة السيئة التى رسمها بعض الغربيون عنه والاثر السلبي الذي تركته سموم المحدثين من الفلاسفة الأوروبيين الذين حملوا في قلوبهم الحقد والغل على كل ما يرمز للعربية و الإسلام،" و قد نبه مونك المستشرقين الى أهمية البحث عن **فلسفة ابن رشد** العبري واللاتيني باعتباره مصدراً **للفلسفة** اليهودية الوسيطية و**الفلسفة** المسيحية الوسيطية، إضافة الى مكانته البارزة في تاريخ الفكر العربي أو **الفلسفة** العربية (عبد الامير الاعسم ، 1998)، وقد طور هذا البحث فيما بعد الى كتاب مهم حول منوعات الفلسفة اليهودية والعربية التي نشرها في باريس .

كما نجد وليام جيمس أحد أبرز فلاسفة المذهب النفعي، إمام مذهب البرجماتية الذي يقول في مبادئ علم النفس :"..أعترف بأنني في اللحظة التي أتحول فيها الى باحث ما وراء الطبيعة وأحاول أزيد من التعريف أرى أن القول يضرب من العقل العام، يفكر فينا جميعاً هو رأي مأمول على الرغم من صعوباته خير من القول بجملة من النفوس الفردية المنقسمة تمام الانقسام ..لابل عندنا في العصر الحاضر من علماء النفس المشغولين بدراسات النفس الإنسانية وعللها وطباباتها رجل مثل " مايرسون صاحب كتاب " متحدث عن الانسان " يدير كتابه هذا الذي صدر سنة :1952م، على الدراسات في الشخصية الفردية وفي العقل والنفس والجسم، يُخيل اليك، لو لا المصطلحات العصرية، أنها **منسوخة من بعض شروح ابن رشد** أو **المعقبين عليه** " (عباس محمود العقاد، 1981).

ومن أشهر الفلسفات العصرية الفلسفة الوجودية التي يكثر فيها الكلام عن الوجود والماهية ، وعما يسميه بعضهم وجوداً " صادقاً " تميزاً له من مطلق الوجود فيسبق الى خاطر المأخوذ بهذه المصطلحات لأول وهلة أنها بدعة من بدع أوربا الحديثة، وماهي في الحقيقة إلا تكرار لمصطلحات قديمة وضعت في غير موضعها ، وهذا مثال لما جاء منها في كتاب تهافت التهافت لابن رشد حيث يقول :"....ان لفظ الوجود يقال عن معنين ، أحدهما ما يدل عليه الصادق مثل قولنا هل الشيء موجود أم ليس موجود ، والثاني ما يتنزل من الموجودات منزلة الجنس ...وأما هذا الرجل . اي الغزالي . فإنما بنى القول على مذهب ابن سينا وهو مذهب خاطئ، وذلك أنه يعتقد أن الآنية .كون الشيء موجوداً . شيء زائد عن الماهية خارج النفس وكأنه عرض فيها ....وأن اسم الموجود يقال على معنييّن أحدهما على الصادق والآخر على الذي يقابله العدم ،

وهذا هو الذي ينقسم الى الأجناس العشرة ، وهو كالجنس لها ...والموجود الذي بالمعنى الصادق هو معنى في الأذهان ، وهو كون الشيء خارج النفس على ما هو عليه في النفس، وهذا العلم يتقدم العلم بماهية الشيء، أعني أنه ليس يُطلب معرفة ماهية الشيء حتى يعلم أنه موجود وأما الماهية التي تتقدم علم الموجود في أذهاننا فليست في الحقيقة كاهية ، وإنما هي شرح معنى أسم من الأسماء، فإذا علم أنم ذلك المعنى موجود خارج النفس علم أنها ماهية وحد، وبهذا المعنى قيا في كتاب المقولات إن كليات الأشياء المعقولة، إنما صارت موجودة بأشخاصها وأشخاصها معقولة بكلياتها ، وقيل في كتاب النفس إن القوة التي بها يدرك أن الشيء مشار اليه وموجود غير القوة التي بها ماهية الشيء المشار اليه، وبهذا المعنى قيل إن الاشخاص موجودة في الأعيان والكليات في الأذهان، فلا فرق في معنى الصادق في الموجودات الهيولانية والمفارقة ..."(عباس محمود العقاد، 1981، صفحة 54)

أن ما يمكن ملاحظته من خلال مراجعة هذا النص هو أن المصطلحات التي جاءت فيه كلها متداولة في الفلسفات المعاصرة على حد اختلاف مبادئها، خاصة الوجودية، فقد لا يستغرب العارف بفلسفة القرون الوسطى والحديثة خاصة دارس الفلسفة الرشدية بهذه المصطلحات وهو يدرس في الفلسفة الوجودية لأنها وبكل بساطة مصطلحات ألفها سالفا، فهذه الاخيرة وان اختلفت فإنها تختلف في مدلولها كاختلاف معنى " الصادق" من زيادة المفهوم في الكليات الى المعنى الصادق كما يريدونه حديثاً وينعتون به الموجود الذي يدرك الماهيات والكليات ، ولكن القول في الوجود والماهية وأن معرفة الموجود لا تتوقف على العلم بماهيته قول أقدم ما كتب في معاني هذه المصطلحات، هذا وقد يتساءل الدارس لشرحنا هذا وهوينعتنا بالتشيع لحزب ابن رشد والمبالغة في مدحه، والحقيقة هي أننا لانُرجع كل تلك المصطلحات والآراء التي قالت بها الفلسفات المعاصرة خاصة الوجودية الى ابن رشد، ولا نعني بصفة مطلقة أن هذه الأراء كلها وليدة الاطلاع على شروح فيلسوف قرطبة بنصوصها أو تراجيمها ".. ولكننا نعني أن الفيلسوف الجدير باسم الفيلسوف في العصر الحديث لا يخلوا أن يكون قد اطلع على مذاهب القرون الوسطى أو على التعقيبات التي أوحدتها إلى الحالفين وابتعثها في عقول المفكرين، وليس في **العصر المعاصر** من اشتغل بالفلسفة ولم يطلع على أطوار المذاهب الفلسفية وسوابق الآراء حول أصول المسائل الكبرى فيما وراء الطبيعة، ويكفي أن يكون قد اطلع على خلاصة هذه الأطوار لتنعقد الرابطة بينه وبين السلف الذي لا فكاك منه، ولاسيما السلف الذي وضع الأساس ثم تعاقبت بعده أدوار البناء (عباس محمود العقاد، 1981) .

ثانياً-الثقافة:

ومن جامعة بومبيو فابرا ببرشلونة يذهب الباحث الاسباني " رافائيل أرغوليون " أستاذ علم الجمال ونظرية الفن من خلال بحثه " حوار الثقافات على خطى ابن رشد" الى وصف التحولات الكبرى التي جاء بها القرن العشرون والتي طغى عليها طابع التأملي الشعري ، كما قد شهد هذا العصر حوار الثقافات ، أي

كأننا نعيش الدور إذ أن الزمن فيها أصبح يعيد نفسه في كل مرة ، فالمآسي الإغريقية ستتعايش وفلسفة الفدى الهندية..الخ، وربما سيشعر القُراء في سنوات الأخيرة أنهم ينتقلون من واحدة الى أخرى بسهولة ، وفي هذا السياق نستطيع أن نحصل على خيط غني باتجاه الماضي وبالضبط عند تاريخ ابن رشد الذي أبحر بين شطآن الحضارات دون تحفظ فكان همزة وسط بينها جميعا (أصر ونوس)، فحسب رافائيل " أن ابي الوليد قد كان شرقيا بالنسة إلى الغربيين وغربيا بالنسبة الى الشرقيين، فقد دافع ابن رشد عن استقلالية التفكير عندما لجأ الى الفلاسفة الاغريق خاصة فلسفة المعلم الاول أرسطو وأستاذه أفلاطون ، كما يمثل في نفس الوقت أوج الفلسفة العربية الاسلامية الكلاسيكية، التي أثر بها على ثقافات القرون الوسطى، وعلى ثقافات عصر النهضة .

وفي هذا الصدد يقول " رافائيل أرغوليون ": لقد وضع ابن رشد قواعد ترسم الشكل الأساسي للمفكر العصري بروحه الحرة وقدرته التفسيرية، في كتابه " تهافت التهافت"، حيث أعاد من خلاله الاعتبار لمعايير حديثة تماما الى الاستقلال الفكري والأخلاقي للفيلسوف ضد كل التدخلات الخارجية من النوع السياسي والديني، وفي عمل أخر من أعماله الحية في المكتبة الغربية وهو الكتاب الأكثر شهرة " جمهورية أفلاطون" ، انتقد ابن رشد التسلط وحكم أقلية النخبة، وكذلك درس فكر أرسطو عن الإنسان كحيوان سياسي والمتطلبات الأفلاطونية التي تؤدي الى تطور المجتمعات نحوى حكومة الحكماء..." (أصر ونوس، صفحة 210) يبدو "رافائيل " متأثرا بابن رشد ليس من جانبه الثقافي فقط و إنما أثنى عليه ككل ، معتبرا إياه فيلسوفا متكاملا ملما بكل علوم و ثقافات الحضارات الأخرى ، خاصة الثقافة اليونانية التي يعتبرها مرجعية أساسية لبناء كل صرح علمي أو ثقافي، كما أن ابن رشد قد أثبت للعالم استقلاله الفكري والثقافي رغم محيطه المتعصب، قد أخذ الثقافة العلمية عن أرسطو والثقافة السياسية عن أفلاطون، وبذلك نعتبر ابن رشد سابق لزمانه ، ففلسفته جعلت العالم قرية صغيرة وكأن فلسفته القديمة كانت وقتها بمكانة العولمة اليوم ، بل هو كذالك، فلقد كانت فلسفته ولا زالت تدرس بكل لغات العالم وما اختلف مفكران عن فلسفة اليونان والفلسفة الإسلامية إلا وشمل جدلهم فلسفة قاضي القضاة أبي الوليد ابن رشد، فالأوجه المتعدد في فكر ابن رشد اضحت ثورة فكرية بامتياز، حيث انتقلت مبادئ فلسفته بقوة الى الثقافات الغربية مساهمة في الانتقال من الحضارة الإقطاعية بالعصور الوسطى الى حضارة عصر الثورة الفكرية بأوروبا أو بالأحرى حضارة عصر النهضة، فلقد كان لفلسفته بل ثقافته العقلية، العلمية والدينية بالجامعات الاوروبية احدى أهم القوى الفكرية التي غيرت مجرى التفكير الغربي، بل غيرت اتجاه الفلسفة المدرسية بدءاً من فلسفة توما الاكويني . كما اتفق الكثير من الباحثين الإسبان في الفترة المعاصرة خاصة دارسي ابن رشد على أن افيرواس قد نجح في ربط التيارات النقدية بالتيارات التنويرية التي قادت الفكر الغربي الى الحداثة من خلال بعد قدرتها التحليلية ، وكذلك من خلال تطور مواقفها من الحريات الشخصية، ومنه فثقافة ابن رشد الإسلامية والعربية الأرسطية قد وصل صداه كل أرجاء أوروبا إن لم نقل العالم كله، وفي هذا الصدد يقول " رافائيل أرغوليون ": " وليس

من الشك أننا في هذه القوة النقدية في التفكير نستطيع ايجاد أصل الصعوبات في محيط ابن رشد الإسلامي وخلال حياته، وكذلك الإدانات والشكوك على أقل تقدير التي استطاع نهج ابن رشد أن يثيرها في الغرب المسيحي وهي إدانات ستتحول الى امتنان وعرفان في حالة أو أخرى " (أصر ونوس)ومعناه أن ابن رشد لم يوصل فلسفته الى العالم الغربي بالسهولة التي يراه الكثير من منتقدي فلسفته ، فلم يفرض ابن رشد ثقافة فلسفته على العالم عنوة بل فرضت نفسها بنمطها وبنائها على محك العقل والمنطق والواقع، ولازال الفكر الغربي و الاسلامي لم يوفي حق هذا العقلاني بثقافته الانسانية وجرأته الفكرية إذ أن هناك العديد من الرؤى لفيلسوفنا تنتظر أن نكتشفها في عصرنا المعاصر: فما هي هذه الرؤى وكيف السبيل لاكتشافها.؟

ثالثا-السياسة :

إن التفكير السياسي، هو إرادة يقوم بها الفلاسفة لدراسة العلاقة الموجودة بين الحاكم ورعيته، أو هو نظر يقوم به المفكرون لمعالجة المشكلات السياسية، تماما مثلما فعل أفلاطون وأرسطو وأبو نصر الفارابي وابن رشد وعبد الرحمن إبن خلدون (808هـ، 1406 هـ)، وتوماس هوبز (1588م- 1679م)، وجون لوك(1632م-1704م)، وجورج فريدريك هيغل(1770م-1881م)..وغيرهم(P.H.Parttridge, 1961)، وهذا التعدد والاختلاف والتتبع والتوافق، إنما هو من طبيعة فلسفية ، لأن التفكير الفلسفي عبارة عن تراكمات ، كل مفكر أو فيلسوف يبدأ في بنائه الفكري والفلسفي حيث انتهى اليه من قبله، سواء تعلق الأمر بتلك القضايا العقلية أو الدينية أو الاجتماعية، كما نجد القضايا السياسية أو التنظيم السياسي هو الأخر نظام فلسفي أوسع وعلى عقائد أعم، فهو الأمر الذي يبين لنا حقيقة الواقع في أن كل مجالات الحياة ، بما فيها المجال السياسي الذي قد يتشابه التفسير فيه وتشترك فيه الملامح، وربما هذا أحد أهم الاسباب التي جعلت بعض الفلاسفة والمفكرون المهتمون بمجال السياسية يقعون في الخلط انطلاقا من الترجمة أو التأثر الفكري أو عمدا لغاية سياسية أو دينية ، وهو نفسه ما وقع مع فيلسوفنا العربي ابن رشد : فما حقيقة ذلك ؟

لاريب أن ابن رشد هو أحد أهم الفلاسفة الذين كانوا أقرب الى التفسير السياسي، فقد اشتهرت فلسفته السياسية بأوروبا والعالم تماما مثل فلسفاته الأخرى، وذلك لأنها كانت مبنية على فلسفة أفلاطون التي بسطها في شروحه "الجمهورية"، وقد اطلع من خلال هذا الكتاب، وكذا من خلال تلخيصه لكتاب أرسطو " الخطابة " على تصنيف النظم السياسية، ولكن هناك من رأى أن فلسفة ابن رشد السياسية لم تكن فلسفة أفلاطونية محضة بل أضفى عليها الطابع الاسلامي، ومن هذا نتساءل :

هل يمكن حقاً أن نعتبر ماجاء به ابن رشد في هذا الشأن مخالف لما قال به أفلاطون في الجمهورية؟

و اذا كان ابن رشد لم يعتمد كليا في طرحه السياسي على أفلاطون كما جاء في كتاب الجمهورية فما هو رد فعل الفلاسفة الغرب المعاصرون من المستشرقين والسياسيين حيال ذلك ؟ وكيف تلقى المعاصرون من الفلاسفة السياسيين نصوص ابن رشد في هذا المحور ؟

1 . يذهب الفيلسوف الامريكي المعاصر "**ميشال والزر Michael Walzer** " إلى القول أن ابن رشد لم يذكر الترجمة التي اعتمد علها في شرحه لكتاب الجمهورية ، وإنما اعتمد في ذلك على شرح مماثل تماما لما جاء به أبو نصر الفارابي ، وهو نفس الطرح الذي جاء به كل من: (أرنست رينانE.Renan ،مونك Munk،دي بور De Boer)وهذا من خلال اعتمادهم المباشر على تحليل وقراءة ماجاء به ابن رشد نفسه في عدة مواضيع في كتابه " جوامع سياسة أفلاطون "، بل أجمع هؤلاء في مقدمتهم ميشال والزر Michael Walzer على أن كتاب السياسة لأرسطو لم يترجمه العرب، واذا لم يترجمه العرب فإنه من البديهي القول أنه لم يصل إلى ابن رشد حتى، وهذا طبعاً ما جعله يتجه الى تلخيص جمهورية أفلاطون، ودليلهم في ذلك هو ما أشار اليه ابن رشد في بداية تلخيصه.

2 . يذهب كذلك الفيلسوف السياسي الأمريكي "**رالف ليونر Ralph Lerner** " الى القول بأن ابن رشد قد رفض ضمنياً القول بمجتمع عالمي واحد قائم على قانون ديني واحد، وهذا حسب "رالف ليونر" أن ابن رشد قد ذكر في شروحه لجمهورية أفلاطون هذه المدينة بصيغة الجمع Cities، (عمار الطالبي، 1998) رغم أن هذا الأخير كان قد أشار الى نقطة جوهرية في هذا السياق، ذكر فيها أن ابن رشد لم يأخذ بما جاء به أفلاطون حرفياً بل عارضه لأنه رفض المجتمع العالمي، وهذا التعارض جاء من وحي الحقيقة الاسلامية التي يعتقد بها ابن رشد ، كما قد أشار "رالف ليونر" إلى أن الاسلام أو الشريعة الاسلامية هي الحقيقة التي لاشك فيها بالنسبة لابن رشد وأن هذه الحقيقة قد جاءت في أحاديث و آيات كثيرة تؤكد فيها أنه لا فرق بين أبيض ولا أسود ولا عربي ولا أعجمي، وأن الاسلام بتعاليمه جاء للناس كافة، يساوي بين الأجناس على حد اختلافهم وتعدد ألوانهم وألسنتهم وينتهي "رالف " الى القول :" بالنسبة للمؤمن الحقيقي أن المجتمع العالمي أمر ممكن ومرغوب فيه"(Ralph Lemer) لكن ما شد انتباهنا في طرح هذا الفيلسوف هو تناقضه الواضح، فمن الغريب أن يذهب الى القول في نفس السياق : أنه عند مراجعته للنصوص الأفلاطونية من تلك التلاخيص الرشدية للجمهورية، قد وصل الى أن ابن رشد رغم اختلافه عن أفلاطون فإنه قد تبنى شيوعية أفلاطون، وهي شيوعية الأموال والنساء والأطفال في أنها ضرورية واضحة بذاتها averroson) plato's(وهذا الامر يجعل المتتبع لرأيه يشير إليه بأصبع الاتهام والتناقض فكيف لمؤمن بعقيدة الاسلام وكيف لعقلاني نزيه ومعتدل كابن رشد أن يأخذ بهذه المسألة الافلاطونية التي انتقده فيها معاصره من الوثنين قبل المسيحين والمسلمين.

3 . هذا ويذهب الفيلسوف الاسرائيلي " **شلومو بينس ShloMO Pinès** " (1908م . 1990م) إلى رأي مخالف لما جاء به " رالف" في فكرة رفض ’ابن رشد القول بمجتمع عالمي واحد قائم على قانون ديني واحد

، حيث رأى في ابن رشد وسياسته التي خالف فيها أفلاطون خاصة وما ورد في كتاب" تهافت التهافت" إنما هو الأصح والأقرب الى المنطق الذي ليعارض الفطرة السليمة، كما رأى أن الشريعة الاسلامية هي أفضل الشرائع في تحقيق السلوك الأخلاقي الفاضل، (ابن رشد، 1967) وقد لمح في ذلك وهو يقصد ابن رشد وما جاء به مخالفاً لأفلاطون .

4 . ويرى العالم والمؤرخ البريطاني "**ويليام وودثورب تارن Tarn William Woodthorpe**(1869م . 1957م) أن أفلاطون قد أظهر في كثير من كتبه نوع من العنصرية والتفاضل، وقد ذكر أنه قال :"ان البربر كلهم أعداء لنا " وفي مقولة أخرة اشتهرت عن أفلاطون في نفس السياق وهي قوله " أحمد الإله لأني رجل ولست امرأة، وأحمد الاله لأني يونانياً ولست بربرياً، ولأني حرٌ ولست عبداً "، كما قد أعتبر تلميذه أسطو هو الأخر قد ذكر ذلك بقوله :" قد كان البربر كلهم عبيداً" (karl Popper, 1974) وكل هذه المعتقدات والقناعات قد تجاوزها ابي الوليد ابن رشد وخالف فيها أفلاطون وأعطى لها مدلولاً مغايراً تماماً، فإن كان ذا الأخير يخاف ما جاء به أفلاطون فهو يوافق ما جاءت به السنة أو الاسلام بمفهومه الأوسع ، فعلى غرار المساواة بين البشر عند ابي الوليد، نجد مسألة المرأة مثلاً تأخذ نفس المنحى، إذّ أنها عند فيلسوفنا كما أشرنا سابقاً تشترك مع الرجل في كل شيء، فقد جاء في كتابه "بداية المجتهد " قوله :" ..وقد كان سبب اختلافهم هو اختلافهم في تشبيه المرأة بالرجل في كونها اذا غزت لها تأثير في الحرب أم لا، فإنهم أتفقوا على أن النساء مباح لهن الغزو فمن شبههن بالرجال أوجب لهن نصيباً في الغنيمة .." (ابن رشد، 2015) وهنا نجد أن ابن رشد قد أخذ في هذه المسألة مايمليه عليه ضميره الديني وعقيدته الإسلامية وقناعاته العقلية في شروحه اليونانية خاصة كتب أفلاطون، فدفاعه عن المرأة هو إعراب رائع عن تلك الثورة الإسلامية التي منحت لها، فالإسلام دين أنصف الجميع بما فيهم المرأة فأعطاها حقها كاملاً غير منقوص، فهي في الاسلام مخلوق راقي لدرجة التقديس ، انسان كريم كامل الإنسانية، على عكس ما يراه الغرب اليوم، فضلاً عن اتهاماتهم الباطلة والخطيرة، وربما هذا الدافع لاستعمالنا مصطلح .الثورة الاسلامية . فهي ثورة لها خصومها في الساحة المعاصرة أشهرهم المفكرة الفرنسية "**جيرمين تيليون** " التي أشارت في كتابها " الحريم وأبناء العم و الأخوال" أن المسلمين لم يحترموا مبادئ المرأة وأن مهمتها ككاتبة أو عالمة هي تحرير المرأة من قيود الاسلام (Germaine Tillon, 1966)

5. والواقع أن مصدر فكر ابن رشد السياسي هو الاسلام وهذا أمر لا يحتاج الى برهان " (فرح أنطوان قدم له الدكتور طيب تيزيني) فهو يعتقد أن الدولة المثالية هي الدولة القائمة على الدين، والرجل المثالي الذي يحكم الناس هو الحاكم الذي يبني سياسته على أصول الدين(E.Rosenthl) فالدين أو الشرع انما هو تعبير عن حكم الله أو ارادته بواسطة الوحي أو نبيه صلى الله عليه وسلم ، كون هذه الارادة عامة في تعاليمها ومسعدة للناس كلها (ابن رشد، 1964) كما إعتبر ابن رشد في هذا السياق أن جمهورية أفلاطون هي الجزء العملي من العلم السياسي، بينما الجزء النظري منه فإن موضوعه هو نفسه موضوع كتاب "الأخلاق الى نيقو ماخوس" لأرسطو (averroson plato's، 1974) فلقد بدأ ابن رشد شرحه

لجمهورية أفلاطون بمقدمة بيّن فيها معنى العلم السياسي، وأجزاؤه والغرض منه، فالسياسة عند ابن رشد إنما هي علم قائم بذاته موضوعها هو " الأشياء الارادية " ومما يدخل في نطاق قدرتنا ، ومبدأ هذا العلم هو الإرادة والاختيار، كما أن موضوع العلم الطبيعي هو الأشياء الطبيعية ومبدؤه هو الطبيعة، وكذلك القول في العلم الالهي الذي موضوعه الأشياء الإلهية ومبدؤه الله تعالى، أما غايته فهي العمل وحده باعتباره علمًا عملياً وبالرغم من أن جزئيّه يختلفان من حيث قربهما من الغاية على عكس العلوم النظرية فإن الغاية منها المعرفة وحدها، وإذا كان هناك أي عمل فإنما هو بالغرض، فمثله في ذلك مثل صناعة الطب ، فالأطباء يسمون الجزء الأول منه الجزء العلمي، والجزء الثاني العملي (عمار الطالبي ، ديسمبر 1998) وربما هذا ما دفع الكثير من الفلاسفة المستشرقين المعاصرين وغيرهم للوقوف على فلسفة ابن رشد، والذي ينبغي أن نشير إليه هو : أن ابن رشد جعل الفلسفة الخلقية أساساً تقوم عليه الفلسفة السياسية، ولذلك فإنه بين وجهة نظره في الأصول الأخلاقية التي تبنى عليها الفلسفة السياسية " ومن ثمة فإن القيم الخلقية وما تقوم عليه من النظرة إلى الإنسان وإلى الغاية من وجوده، وإلى مكانته في الوجود هو ما ينبغي أن تخدمه السياسة، بل السياسة خادمة للقيمة الخلقية وللغاية من وجود الإنسان ، وبما أن الإنسان هو أحد الموجودات الطبيعية فمن الضروري أن يكون لوجوده غاية لأن كل موجود طبيعي له غاية، فكيف بالإنسان الذي هو أفضل هذه الموجودات قاطبة، وبما أن المدنية أو المجتمع ضروري للإنسان فإنه لايستطيع أن يحصل على كماله إلا باعتباره جزءاً منها (عمار الطالبي، ديسمبر 1998).

6 . وفي الاتجاه نفسه يذهب المفكر الإنجليزي المعاصر "**توماس ويلتون Tomas Welton ، 1964م**". الذي كان من الرشدية الجذرية الساسية . إلى تبني فلسفة تلامذة سيجر البرابنتي وهما الفرنسي "جاندون" ورفيقه " مرسيليوس" صاحب كتاب " المدافع عن السلام" ، والذي جاء فيه بفلسفة سياسية رشدية محضة، حيث تمسك بنظرية العقل كتعبير نظري عن البرجوازية، كما تناول موضوع الكنيسة في بحثه عن السياسة والدولة، وهو يعلن بكل ثقة بأنه لا يجوز أن تخضع قوانين الدولة لمطالب الكنيسة، بل إنه على رجال الكنيسة الخضوع للدولة (بلوز، صفحة 62) ، وأن تخضع القرارات السياسية للشعب الحاكم، ويرى " ويلتون " على طريقة الفيلسوفين أن العقل هو لدى الانسان الحاجة المكوّنة للتفاعل الاجتماعي، والانسان ليس حيواناً مدنياً فحسب، بل كائن يخضع أياضاً للمؤثرات الفلسفية والاجتماعية.

كما يذهب "ويلتون" للإشارة إلى أنه ينبغي تجريد الكنيسة من صلاحياتها، كما يجب أن يبث مجتمع المؤمنين في ممتلكات وأرزاق الكنيسة، وبالتالي يكون لنظام الجماعة استكمالاً لنشاط الافراد، وهو طرح مطابق لما جاء به كتاب مرسيليوس " المدافع عن السلام " وعن كتاب يقول:" ..ان هذا الكتاب يقدم برنامج دولة دنيوية قومية علمانية تقضي على البعثرة الاقطاعية، يتغلغل فيها الاقتصاد المالي، وتخضع الكنيسة للسلطة السياسية، والمجال الأخير المفتوح هو مجال جمهورية تبرز فيها مصالح المدنية والمجتمع المدني " (بلوز، صفحة 63) ومنه يتضح لنا أن الرشدية لم تعرف أية قطعة ، بل استمرت بنفس القوة

والتأثير حتى الفلسفة المعاصرة، كما لم يقتصر مفهوم **العلّمنة** المستمدة جذورها من الفكر الرشدي، على جاندون ومارسيليوس اللذان كانا ابرز مفكرين اتجها بكل عزيمة وإيمان إلى العلمنة أو تأسيس الدولة العلمانية ولا على " توماس ويلتون " بل شمل اتجاهات معاصرة مختلفة.

7. ومنه نجد أن الرشدية السياسية قامت بتوسيع تلك الرؤى الرشدية السالفة بتحليل عمل العقل ، بالانتقال من مجال البحث في العلم الطبيعة الى فعليات الانسان المختلفة والعلوم الانسانية، ولقد كان ابن رشد رجل النظر العقلي في جميع المجالات، فقد قاد التفكير في الرشدية اللاتينية إلى إقامة سياسة مدنية تستند إلى مقدرة العقل الإنساني والعلم، واستخدام الأساس النظري لمعرفة الطبيعة في تدبير شؤون الحياة وتنظيمها، وهذا ما منح أوروبا في فترة الإعداد للنهضة القدرة على الاطاحة بالامتيازات الاقطاعية والكنيسة كما سبقنا ذكرذلك، وتموين بناء دولة مركزية قومية علمانية ديمقراطية (بلوز، صفحة 65)،إذّ أضحى الموقف المناصر للسلطة المدنية يتصاعد في درجات انتصاره بوتيرة سريعة على الموقف المؤيد للدين ، منذ أن عرف الأوربيون فلسفة ابن رشد، أو بالأحرى نقول منذ أن ظهرت الرشدانية في الغرب المسيحي، ولقد تحقق هذا بشكل واضح في وقتنا الراهن خاصة مع ظهور مدونة حقوق الإنسان، والذي جاء في بندها الثالث قائلاً:"..مبدأ كل سيادة (أو سلطة) يكمن فقط في الأمة (أو الوطن) ، ولايمكن لأي انسان أن يمارس سلطة تخرج عن اختصاصه .." (عبد السلام بن ميس، ديسمبر 1998) فضلاً على ذلك نجد أن مدونة حقوق الإنسان قد سعت جاهدة الى إبدال اشكالية العلاقة بين الديني والدنيوي بإشكالية الدين المدني، وربما كان هذا أخذا عن "جون جاك روسو" الذي كان يحاول الدفاع بحماس عن فكرة التسامح الديني وحرية التدين وهي فكرة رشدية محضة، فعالم رسو حسب قول " لانسون " مدخلاً لكل طرقات العالم الحاضر (موريس شربل ، ميشال ابي الفضل، 1978)، وقد نجحت الولايات المتحدة الأمريكية في فصل الدين عن الدولة وكذا حرية المعتقد ، بينما فرنسا لم تستطع أن تخلق جواً ملائماً لحرية التدين ولهذا اخترعت فكرة اللائكية ،ومنه يمكن اعتبار حركة حقوق الانسان والنزعة اللائيكية في العصر الحديث والمعاصر وكذلك حركة الأنوار امتدادا للرشدانية السياسية القروسطوية ، " فلاشك أن إبن رشد فيلسوف من العيار الثقيل في المسائل الفكرية والعقدية، اذّ **تناول مسألة العلاقة بين النظر والايمان بذهن ية لائكية كان لها الأثر الكبير كل الأثرعلى فلاسفة وساسة أوروبا في الفترة المعاصرة "** (بناصر البعزاتي، 1998)، بمعنى أنه ساهم في في تقوية الآراء النقدية اللائكية التي تطورت في العالم الغربي خاصة أوروبا، والتي تدعوا الى الفصل بين الموقف الديني والموقف العلمي وكذا الرأي السياسي، فيكون ابن رشد بذلك قد ساهم في تطور الفكر العلمي والثقافي بطريقة غير مباشرة.

وعليه: اذا كان ابن رشد يؤثر الاعتدال في معالجة القضايا المدنية أو الشؤون الاجتماعية ويعقل القضايا السياسية ، فهل يمكن أن يتجسد هذا الأمر في عصرنا على نحو مُشَابِه لانتقال فلسفة ابن رشد الى الرشدية السياسية في أوروبا ؟.

خاتمة :

من كل ما سلفنا ذكره عن تلك الاتجاهات الغربية المعاصرة بصفة عامة ،ومن خلال محاور تلقي ابن رشد في الفلسفة الغربية بصفة خاصة ، نخلص الى القول أن :

- محاور الاستشراق التي تناولت موضوعات ابن رشد وشخصيته ومؤلفاته وفكره ومبادئه ومنهجه، كلها عمدت بنية مُبيّنَة الى أن تجعل منه فيلسوفاً غربياً خالصاً، بطمس هويته العربية و الإسلامية عن طريق صبغه بالصفة اليونانية أو الاغريقية، وذلك بإغراق فكره بالهوية الأوروبية واللاتينية بل في أحيان كثيرة باليهودية، حتى يوهموا دارسيه بغربيته أو مسيحيته أو يهوديته، فمرة يجعلونه فرنسيا ومرة أخرى إسبانياً، بل إيطاليا، إنجليزيا، ألمانيا ..."

- وكأن القطيعة قد حصلت فعلاً بين ابن رشد العربي الذي وصلت الينا مؤلفاته بالعربية ، وبين ابن رشد (أفيرواس Averroes)كما تداولته الدوائر الفلسفية في الغرب في مؤلفات ودراسات وأبحاث انتشرت، وفسّرت، وأوّلت، وعلّق عليها على نحوا أضاع على الباحثين الجادين من المستشرقين المعاصرين ما يجب عليهم أن يدرسوه في ابن رشد العربي على مدى ثمانية قرون وما يزيد عن ذلك، وبوجه خاص القرن التاسع عشر والقرن العشرين "

- ومن هذا وانطلاقا من تلك البيانات التي ذكرناها يمكن أن نعبر بكل وضوح، أن الفيلسوف العربي إبن رشد لم ينل ما يستحقه من البحث الفلسفي الحيادي و الموضوعي الذي يبتعد عن التشيع والتعصب العرقي والديني ، فعلى الرغم مما بذله العديد من المستشرقين ودوائر الاستشراق من جهود، الا أن ابن رشد لازال يحتاج منا كباحثين عرب تقويمه بدقة، من خلال إعادة البحث من جديد في نتائج دراسة المستشرقين، حتى نتمكن من الوصول إلى رفع كل مايشوب فلسفة فيلسوفنا من أفكار دخيلة عن مبادئنا وعقيدتنا ونكون بذلك قد حسمنا بين الفيلسوفين أو بين ابن رشد الزائف وابن رشد الحقيقي .

ولكن السؤال الذي يبقى مطروحاً: هل سيكون بمقدورنا نحن اليوم كمجتمع عربي مسلم الاقتداء بفلسفة ابن رشد في اعتدالها، ورفع التحدي لتجاوز كل تلك الأفكار الدخيلة ،السلبية والمحبطة التي باتت تحيط بنا، أم سنبقى نبكي على الأطلال كعادتنا، أم سنلجأ الى ترديد عبارة " كان أجدادنا"؟

قائمة المصادروالمراجع :

1.باللغة العربية:

- عبد الامير الأعسم :دراسة في الاستشراق ، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع ، م1، 1 ديسمبر 2011، ص 29 .

- ابراهيم مذكور:**في الفلسفة الاسلامية** (ت ق) منى أحمد أبوزيدة، دار الكتاب المصري ، ط1،2015، القاهرة ، مصر، ص 33

- إدوار جونو: الفلسفة الوسيطية ، دار الاندلس للطباعة ، بيروت ، لبنان (بدون تاريخ) ص 54

- ناصر ونوس : ابن رشد وعصره من زاوية متعدد ، في ندوة دولية بمناسبة مرور ثمانمائة عام على وفاته، ص 200.
- P,64-66 -74,
- ابن رشد : تلخيص الخطابة ، تحقيق محمد سليم سالم ، القاهرة1967،ص21 (مأخوذ من الهامش).
- ابن رشد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، تحقيق محمد بن ناصر بن سلطان السحيباني ، دار الخضيري ج1، ط1 ، 2015ص 379.
- فرح أنطون : ابن رشد وفلسفته ، قدم له : الطيب تيزيني ، دار المعارف للنشر والتوزيع ، ص 134 - 135

- 12ـ نايف بلوز :ابن رشد بين العقلانية والايديولوجيا ، مجلة عالم الفكر ، العدد الرابع ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب ، دولة الكويت ، ص 62

- موريس شربل، ميشال ابي الفضل : روسو حياته ومؤلفاته وأثره، سلسلة أعلام الفكر العالمي ، المؤسسة العربية لدراسات والنشر ، بيروت ، ط1، أغسطس 1978، ص 188.
- عبد الأمير الأعسم ، دراسة ابن رشد عند المستشرقين ، مرجع سابق ، ص344.
- ادوارد سعيد : **الاستشراق والمفاهيم الغربية للشرق** ،(ت ر) هاشم صالح ، دار الساقي للنشر ،ط1، 1994، بيروت ، لبنان ، ص101
- محمود حمدي زقزوق : **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري** ،دارالمعارف للنشر والتوزيع ، ب، ط، 1997، القاهرة ، مصر ص44.

- **باللغة الأجنبية:**

- Germaine Tillon .Le Harem et les cousins ,Ed.Le Seil.Paris ,1966,PP.179
- Karl Popper the opens society and its enemies london , 1974 , vol .I , P.70

- Averroes on plato's "Republic"Cornel University pressm , ItaKa and London.
- Badawi, A ,Histoire de la philosophie en islam, Paris , 1972, T.II ,p737.

أثر التوظيف السياسي لفكرة "الإرهاب الإسلامي" في السياسة الخارجية الأمريكية في مرحلة المحافظين الجدد على صورة الإسلام في الغرب

The Impact of Political Employment of the Edea of "Islamic Terrorism" on US Foreign Policy for the Neo-Conservative on the Image of Islam in the West

د. حمياز سمير، جامعة بومرداس –الجزائر-
samirhamiaz@hotmail.com



تهدف هذه الورقة، إلى البحث في أثر التوظيف السياسي لفكرة "الإرهاب الإسلامي" في السياسة الخارجية الأمريكية للمحافظين الجدد في رسم صورة نمطية عن الإسلام في الغرب، خاصة مع لجوء الدوائر السياسية والإعلامية الأمريكية بعد أحداث 11 سبتمبر لأغراض استراتيجية إلى إقامة نوع من التماهي بين الإسلام والإرهاب، الأمر الذي عمق من الفجوة بين الإسلام والغرب. وقد توصلت الورقة البحثية، إلى أنه بقدر ما ساهم التوظيف السياسي لفكرة "الإرهاب الإسلامي" في رسم صورة نمطية عن الإسلام في الغرب، بقدر ما أدى إلى دفع شرائح كبيرة في المجتمعات الغربية للبحث عن حقيقة الإسلام، وما ينطوي عليه من قيم، كما جعل من مسألة حوار الحضارات والأديان مسألة حتمية لتلافي العداء والصراع بين العالمين الإسلامي والغربي.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، الغرب، المحافظين الجدد، السياسة الخارجية ، الولايات المتحدة الأمريكية.

Abstract :

This research paper aims to analyze the impact of the political employment of the idea of “Islamic terrorism” in the American foreign policy of the neo-conservatives in drawing a negative image of Islam in the West, especially with the American political and media circles after the events of September 11 for strategic purposes to establish a kind of link between Islam and terrorism , which deepened the gap between Islam and the West. The research paper concluded that the political use of the idea of “Islamic terrorism” is true that it contributed to drawing a negative image of Islam in the West, but it also prompted Western societies to search for the truth of Islam, and its values, and made the issue of dialogue among civilizations and religions an inevitable issue to avoid hostility.The conflict between the Islamic and Western worlds.

Keywords: Islam, the West, the neo-conservatives, foreign policy, United States of America.



مقدمة:

شهدت المرحلة التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، توظيف واسع النطاق لفكرة "الإرهاب الإسلامي"، في السياسة الخارجية الأمريكية في مرحلة المحافظين الجدد، والحقيقة أن هذه

الطروحات الساعية إلى إقامة تماهي بين الإسلام والإرهاب والمتجسدة أساسا في الخطاب السياسي الأمريكي وفي الدوائر الاستراتيجية للولايات المتحدة، ترجع أصولها الفكرية إلى مجموعة من الكتاب والمنظرين الأمريكيين من أمثال، **"صامويل هنتنغنون"** **وأطروحة "صدام الحضارات"**، بالإضافة إلى كتابات **"برنارد لويس"**.

والملاحظ أن هذه الطروحات الفكرية الساعية للتأصيل لفكرة "الإرهاب الإسلامي"، "الأصولية الإسلامية"..، احتلت حيزا هاما ليس فقط في السياسة الخارجية لإدارة المحافظين الجدد، وإنما أيضا في الكثير من وسائل الإعلام الأمريكية وفي الخطاب الإعلامي الغربي عموما، الأمر الذي ساهم في رسم صورة نمطية عن الإسلام في الغرب من حيث ربطه بالعنف والتطرف والإرهاب.

تأسيسا على ما سبق، تحاول هذه الورقة البحثية معالجة الإشكالية التالية:

إلى أي مدى ساهم التوظيف السياسي لفكرة "الإرهاب الإسلامي" في السياسة الخارجية الأمريكية في مرحلة المحافظين الجدد في رسم صورة نمطية عن الإسلام في الغرب عموما؟.

ولمعالجة الموضوع، تم الاستعانة **بالمنهج الوصفي التحليلي**، ليس فقط **لتوصيف** صورة الإسلام في الغرب بعد أحداث 11 سبتمبر، وإنما أيضا **لتحليل وتفسير** دور التوظيف السياسي لفكرة "الإرهاب الإسلامي" في السياسة الخارجية الأمريكية في مرحلة المحافظين الجدد في رسم صورة نمطية عن الإسلام في الغرب بصفة عامة.

سعيا للإجابة عن الإشكالية، تم تقسيم هذه الورقة البحثية إلى هيكلة منهجية تتضمن المحاور التالية:

- البنية المعرفية للمحافظين الجدد.
- أثر التركيبة الإيديولوجية للمحافظين الجدد على توجهات السياسة الخارجية الأمريكية.
- توظيف فكرة "الإرهاب الإسلامي" في السياسة الأمريكية وتداعياته على صورة الإسلام في الغرب.

أولا- البنية المعرفية للمحافظين الجدد:

لقد عرفت الولايات المتحدة في الربع الأخير من القرن العشرين مجموعة متنوعة من التيارات الفكرية بشكل لم تشهده دولة من قبل بهذه القوة والنفوذ، ويعتبر تيار المحافظين الجدد من أبرز هذه المجموعات التي كانت ولا تزال تؤثر وتتحكم في السياسة الخارجية الأمريكية خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر (baudouin, 2004, p.55).

إن المنطلقات والأصول الفكرية والإيديولوجية لتيار المحافظين الجدد ترجع إلى الإسهامات الفكرية للفيلسوف اليهودي-الألماني "ليوشتراوس" "leo straus" الذي يمثل الأب الروحي لهذا التيار، حيث كانت أفكاره بمثابة البوصلة التي توجه السلوكيات والسياسات العملية للمحافظين الجدد، ويمكن إجمال أفكاره في النقاط التالية:

- التأكيد على دور النخبة: يعتقد شتراوس أن الحقيقة الأساسية للمجتمع والتاريخ يجب أن تتبناها النخبة أو الصفوة "elite"، ذلك أن الآخرين "العوام" لا يملكون القدرة على التعامل مع الحقيقة.

- إن رجل الدولة الجيد ينبغي له أن يعتمد على بطانة خاصة، ويرى المحافظين الجدد أنهم يجسدون هذه البطانة.
- استخدام الدين للسيطرة على الجموع، وفرضه على الجماهير وإبعاده عن الحكام.
- سياسة الخداع والتكتم وإطلاق الأكاذيب "النبيلة" من أجل حماية الحقيقة، فالخداع هو أساس الحياة السياسية عند المحافظين الجدد، وقد بلغت سياسة الخداع ذروتها في فضيحة "إيران كونترا" ولعل الكذبة الكبرى تكمن في الحرب العدوانية التي شُنت على العراق بذريعة امتلاكه لأسلحة الدمار الشامل.
- يرى ليوشتراوس أنه على الولايات المتحدة أن تلجأ إلى أسلوب افتعال الخطر الخارجي الذي يوفر لها الغطاء الاستراتيجي للسيطرة ، ويضمن لها الفعالية الهجومية.
- كان شتراوس في فترة السبعينات إبان مرحلة الحرب الباردة يدعو إلى "عسكرة الديمقراطية" بحيث يقول: "إن الديمقراطية لا تكون قادرة إلا إذا كانت قوة عسكرية باطشة"، كما كان يدعو إلى زيادة التسلح ذلك أن الحروب في منظور "شتراوس" تكسب بالردع قبل أن تبدأ المعارك والعمليات العسكرية.
- يعتبر يوشتراوس أن الحكم يجب أن يكون في أيدي النخبة المثقفة، وعلى الحاكم الاعتماد على النخبة، وأن يعمل على جعلها من خاصته لكي تساعده في شؤون الحكم والقرار(الشاهر، 2009، ص11).

لقد تأسس تيار المحافظين الجدد على يد الفيلسوف اليهودي-الألماني ليوشتراوس الذي هاجر إلى الولايات المتحدة عام 1938 وعمل كأستاذ جامعي في جامعة شيكاغو وأسس ما عُرف بالشتراوسية الليبرالية التي مثلت الجذور الأولى للمحافظين الجدد.

فالمحافظين الجدد هم جماعة "عصبة" من المفكرين وصانعي السياسات الذين ينتمون إلى أقصى اليمين في الحزب الجمهورية، ويعتبر المكون اليهودي من العناصر الجوهرية والنافذة في تركيبة المحافظين الجدد، التي باتت تكتسب قوة ونفوذ واسعين في النظام السياسي الأمريكي خاصة في عهد جورج بوش الابن.

وتجدر الإشارة إلى أن التيار المحافظ يحمل بداخله اتجاهان أساسيان:

- الاتجاه المحافظ التقليدي الذي تبلور في الستينات من القرن العشرين، بحيث جاءت أفكاره كردة فعل للظروف الدولية، والتحديات التي واجهت السياسة الأمريكية.
- لقد صعد الجيل الأول من المحافظين الجدد في مرحلة خيم فيها على الرأي العام الأمريكي شعور بعدم الثقة في السياسة الخارجية الأمريكية خاصة في ظل تورطها في حرب فيتنام الأمر الذي جعل من التيار المحافظ "التقليدي" يتجه نحو المسلك الانعزالي.
- أما الاتجاه الثاني فقد ظهر بشكل لافت في تسعينات القرن الماضي، وهم ينحدرون في الغالب من اليسار الراديكالي، وينطلقون من الرؤية الريغانية القائمة على الإيمان بالاستثناء الأمريكي

(الولايات المتحدة بصفتها إمبراطورية الخير المسؤولة عن اجتثاث الشر في العالم). إن التيار المحافظ الجديد ذي الرؤية الثورية هيمن في نهاية المطاف على توجهات السياسة الخارجية الأمريكية بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر (ولد أباه، 2004، ص41).

ومنذ منتصف التسعينات، شرع المحافظون الجدد بنسج شبكة واسعة لتعميم ونشر أفكارهم، من بين مكوناتها الأساسية مراكز تفكير ومؤسسات بحثية مثل معهد أمريكان انتربرايز، ومشروع القرن الأمريكي الجديد، ومعهد هيدستون، ومجلات فكرية واسعة الانتشار مثل ناشيونال رفيو وكومنتري وصحف شعبية رائجة مثل وول ستريت جورنال.

يعتبر رجل الأعمال الأمريكي الشهير "جورج سوروس" أن الخلفية الإيديولوجية للمحافظين الجدد تقوم على ثلاثة ركائز أساسية:

1) التفوق العسكري، 2) الأصولية الدينية، 3) أصولية السوق.

وفي السياق يذهب إفرينغ كريستول "Ivring Kristol" إلى تحديد الأسس الفكرية للمحافظين الجدد في المبادئ التالية:

- تشجيع الولاء القومي باعتباره شعورا طبيعيا ومقدسا.
- رفض مفهوم الحكومة العالمية التي تؤدي إلى نمط من الاستبداد العالمي.
- يجب أن يتمتع رجال الدولة بأهلية التمييز بين الأصدقاء والأعداء.
- لا تتحدد المصلحة القومية لدولة عظمى بالمعايير الجغرافية (ولد أباه، 2004، ص42).

ثانيا- أثر التركيبة الإيديولوجية للمحافظين الجدد على توجهات السياسة الخارجية الأمريكية:

لقد ساهمت أحداث الحادي عشر من سبتمبر في طرح مجموعة من الفرص الكفيلة بنقل المنطلقات الفكرية والإيديولوجية للمحافظين الجدد من الجانب النظري إلى الجانب التطبيقي والعملي المجسد على مستوى السياسة الدولية، و بالخصوص في ظل تبوء عدد غير قليل من الشخصيات البارزة التي تنتمي إلى تيار المحافظين الجدد مناصب حساسة في وزارة الخارجية ووزارة الدفاع "البنتاجون".

يرتكز تصور المحافظين الجدد للسياسة الخارجية الأمريكية على منطق أحادي يقوم على تغليب لغة السيف بدلا من الدبلوماسية وعلى النزوع المفرط إلى الاستخدام الانفرادي للقوة بعيدا عن الشرعية الدولية، وفي هذا السياق يذهب "بول وولفوفيتز" إلى الترويج لفكرة أساسية مفادها أنه يتعين على الولايات المتحدة إعادة النظر في التزاماتها الدولية في إطار القانون الدولي والمنظمات الدولية متعددة الأطراف مثل الأمم المتحدة، وذلك من أجل بناء إمبراطورية أمريكية جديدة لا يمكن التطاول عليها.

إنّ هذا التيار الراديكالي يعتبر أن نهاية الحرب الباردة وإزاحة الدب الروسي هي فرصة ليست لتقليص الآلة العسكرية ولكنها من أجل تعزيز المنظومة التسليحية الأمريكية هدفا في التحكم في الرهان الاستراتيجي العالمي والسيطرة الشاملة على النظام الدولي.

وفي السياق الاستراتيجي الذي أعقب نهاية الحرب الباردة طُلب من "وولفوفيتز" كتابة إستراتيجية جديدة الأمن القومي الأمريكي "1992" تحت عنوان "الخطوط العريضة للتخطيط الدفاعي" " Defense Planning Guidence"، وتضمنت هذه الاستراتيجية العناصر التالية:

- زيادة الإنفاق على الدفاع.
- التحرك الوقائي واستخدام القوة بشكل أحادي مع الحلفاء أو من دونهم.
- الاعتماد على القوة من أجل منع بروز منافسين محتملين لمستقبل القوة والهيمنة الأمريكية.
- ضمان الوصول إلى الموارد الأساسية خاصة نفط الخليج العربي (باربر، 2005، ص 95).

وبالرجوع إلى البرنامج الاستراتيجي الأساسي لإدارة الجمهورين عند وصولهم إلى السلطة والذي صاغته مستشارة الأمن القومي "كوندوليزا رايس"، نلمس الدور المؤثر لمنظورات المحافظين الجدد على توجهات السياسة الخارجية الأمريكية، وتنطلق هذه السياسة من مرجعية "المصلحة القومية الأمريكية" وذلك بالاعتماد على المبادئ التالية:

- بناء قوة عسكرية مؤهلة لضمان استمرارية التفوق الأمريكي.
- إطلاق يد الرئيس في اتخاذ القرارات التي يقتضيها الدور الريادي والهيمني للولايات المتحدة الأمريكية في النظام العالمي.
- الحسم مع الأنظمة المارقة.
- الدفاع عن حقوق الإنسان والتبشير بالديمقراطية.
- بناء رؤية واضحة للمصلحة القومية الأمريكية وحماية أمن إسرائيل (الحليف الاستراتيجي).
- بناء علاقة مقبولة وحذرة مع بكين والصين (زهير الدين، 2004، ص ص 10-11).

ترى رايس أن الإدارة الديمقراطية السابقة قد استبدلت معيار المصلحة القومية بمقولة المصالح الإنسانية أو مصالح المجموعة الدولية، في حين يتعين إعطاء الأولية للمصالح الأمريكية، بل إن تركيز الولايات المتحدة على مصالحها الذاتية سيؤدي عمليا لتعزيز الحرية والسلم والرفاهية الاقتصادية في العالم.

إن السياسة الخارجية الأمريكية من منظار المحافظين الجدد تقوم على ضرورة توظيف وتكريس التفوق العسكري الكاسح بالشكل الذي يضمن حماية المصالح العليا للولايات المتحدة التي تتماشى مع انتشار وتحقق قيمها الحضارية الاجتماعية(ولد أباه، 2004، ص42).

لقد تميز الخطاب الأمني والاستراتيجي للمحافظين الجدد بتغليب الأدوات الحربية، وإحداث القطيعة مع الأنظمة المارقة، ضف إلى ذلك الوضوح الأخلاقي والرهان على الهيمنة الأمريكية كمسلك لضمان أمن العالم ورفاهيته.

ومن آخر إصدارات هذا الاتجاه المهيمن على دوائر القرار في الولايات المتحدة، كتاب الزعيم السياسي للمحافظين الجدد "ريشارد بيرل" "Richard Perl" "نهاية الشر" الذي كتبه بالتعاون مع "دافيد فروم" "David Frum" بعد حرب العراق الأخيرة، وفيه يخلصان إلى القول "أن العالم الآمن الذي يركن إلى الحرية وحكم القانون لم يتحقق بعد، وأن الجيش الأمريكي هو الذي سيحمي ويحقق هذا الحلم، ويظهر هذا

الكتاب نزعة عدائية للدول الراعية للإرهاب، والدول المناهضة والمتمردة على السياسة الأمريكية، كما يؤكد هذا الكتاب على ضرورة إنهاء دور الأمم المتحدة في النظام الدولي وإطلاق يد الولايات المتحدة لتحقيق مصالحها الحيوية والاستراتيجية (Richard, 2003, p.279) .

وفي السياق ذاته يرى روبرت كاغان ووليام كريستول اللذان اعترفا بتحول الولايات المتحدة إلى إمبراطورية وجهرا بالقول: "نعم، أمريكا إمبراطورية، ويجب أن تتصرف على هذا الأساس مستفيدة من تفوقها الكاسح".

أما زبيغنيو بريجنسكي، فقد ذهب في كتابه "رقعة الشطرنج الكبرى" إلى القول "إن حلفاء أمريكا أتباع وخدم، وعليهم أن يدفعوا الجزية"(تود، 2003، ص 21).

على الرغم من كون الخطاب السياسي والاستراتيجي للمحافظين الجدد تطبعه الغطرسة والمنطق الأحادي، إلا أنه يعبر عن الرؤية الإستراتيجية الأمريكية التي تتبناها إدارة الرئيس بوش بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وبما أن هذه النزعة التي يتبناها التيار المحافظ تبدو متطرفة للغاية فقد واجهت حملة واسعة من الرفض في الولايات المتحدة الأمريكية خاصة من طرف المناوئون الذين يمثلهم نعوم تشومسكي "Noam Chomasky" الذي يعتبر أن "تيار المحافظين الجدد يشكل عصبة خطرة من الرجعيين الذين لا يؤمنون بحكم القانون ويسعون إلى عسكرة المجتمع والسياسة الخارجية الأمريكية."(Chomsky,2000).

ثالثا- توظيف فكرة "الإرهاب الإسلامي" في السياسة الأمريكية وتداعياته على صورة الإسلام في الغرب:

بعد اندثار الاتحاد السوفياتي وانهيار المعسكر الشيوعي، ذهب "فرانسيس فوكوياما" "F. Fukuyama" في نشوة الانتصار إلى طرح فكرة نهاية التاريخ كدلالة ساطعة على انتصار الإيديولوجية الليبرالية، التي تشكل الطور النهائي للصراعات المذهبية في العالم. ولكن بالمقابل ثمة طروحات أخرى تقر بأن العامل الحضاري سيلعب دورا محوريا في تحريك الصراع الدولي في مرحلة ما بعد الحرب الباردة (سعدي، 2006، ص250)، وهو ما يتجلى بالأساس في نظرية صدام الحضارات لصامويل هانتغتون "S. Huntigton" التي رأى فيها بأن للإسلام "حدودا دموية" وبالتالي فهو يشكل خطرا استراتيجيا على الحضارة الغربية، خاصة وأن المسلمون يمتلكون تراثهم الروحي المستقل ويتمتعون بحضارة ذات أصالة، وعليه فهم جديرون أن يقيموا بها قواعد عالم جديد دون الحاجة إلى الاستغراب، وذلك بحكم قوة وحيوية الدين الإسلامي وقدرته على الإحياء والنهوض والدافعية والصمود (العليان، 2005، ص18).

على الرغم من أن الإرهاصات والبوادر الأولى للتأصيل الأمريكي لفكرة الإرهاب الإسلامي ظهرت على السطح في أعقاب الحرب الباردة، إلا أنها أصبحت أكثر وضوحا بعد "غزوة مانهاتن" في الحادي عشر من أيلول سبتمبر 2001. التي ضُربت على إثرها رمز الرأسمالية العالمية المتمثلة في مركز التجارة العالمي، ومبنى البنتاجون الذي يرمز إلى الجبروت العسكري الأمريكي، ومباشرة بعد زلزال الحادي عشر من سبتمبر أصبحت مفاهيم الإرهاب الإسلامي، الفاشية الإسلامية، حرب الأديان، الصراع الأنتولوجي بين الغرب

والإسلام الحرب بين الخير والشر وبين العقلانية والقرون الوسطى، البرابرة الجدد، زمن حروب المسلمين (الجاسور، 2006، ص112) ، وغيرها من المفاهيم الأخرى التي باتت محل تداول واستهلال على نطاق واسع في وسائل الإعلام وفي الدوائر الفكرية والسياسية الغربية، الأمر الذي ينذر بتحقق نبوءة صراع الحضارات، التي باتت محل توظيف على نطاق واسع من طرف إدارة المحافظين الجدد لتعبئة الرأي العام الأمريكي، وكسب أكبر عدد ممكن من التأييد للحملة لأمريكية على "الإرهاب الإسلامي "الذي تم تصويره في الدوائر الاستراتيجية الأمريكية وكأنه الوريث الشرعي للشيوعية.

كما ابتعدت الآليات الإعلامية عن التحليل الموضوعي للحدث، واتجهت إلى أسلوب الإثارة والتهويل وتقديم صورة نمطية عن الإسلام الذي تم تسويقه "كدين ظلامي ودموي "يحث على العنف والتطرف، ولذلك دعى "هانتغتون" في مقابلة مع القناة الألمانية ز.د.ف (ZDF) في بداية تشرين الأول/أكتوبر 2001 إلى ضرورة احتواء الحركات الإسلامية التي باتت تشكل تهديدا حقيقيا للمصالح الاستراتيجية الأمريكية (سعدي، 2006، ص345).

ويستخلص إدوارد لوتواك "Edward Lutwac" المستشار السابق للشؤون العسكرية بالولايات المتحدة "بأنه في الواقع أصبحنا أمام ظاهرة الإسلام ضد العالم بأكمله" أما ألكسندر دفال يرى في الكلانية الإسلامية التحدي الشرس الذي يواجه الديمقراطيات الغربية".

وفي إطار التحالف الاستراتيجي الأمريكي الصهيوني الذي تعززت دعائمه أكثر بعد أحداث أيلول/سبتمبر، وارتفعت العديد من الأصوات الصهيونية لترويج لفكرة مفادها "أن الإسلام هو العدو الأكبر بعد 11 سبتمبر، وأن هناك صراعا حضاريا بين الإسلام والإرث اليهودي المسيحي".

وفي السياق ذاته ذهب كل من ريشاردبرل ودانيال بايبس وغيرهما من أركان تيار المحافظين الجدد الماسكين بدائرة القرار في واشنطن، الذين لا يخفون عداءهم للإسلام والتحذير منه "كإمبراطورية شر جديدة" وكخطر استراتيجي يواجه العالم الغربي في قيمه ومصالحه الحيوية.

ومن خلال رصد وتتبع مسار المحاولات الأمريكية للتأصيل لفكرة الإرهاب الإسلامي ولتقديم صورة نمطية وعدائية عن الإسلام في الثقافة الغربية بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 يتضح أن هذه الصورة تتحدد وفقا لثلاثة نماذج نظرية متشابكة وإن تمايزت خلفياتها الفكرية والمنهجية وهي:

1-**النموذج الأول: الإسلام ضمن التقليد الكتابي:** إن هذا المنظور يستند إلى الأحكام الإستشراقية القديمة التي تعتبر الإسلام ديانة جامدة وعاجزة عن التجدد وعصية عن الإصلاح، وفي هذا الصدد يعتبر "موريس يورمان" أن ظاهرة العنف الأصولي التي تحولت إلى إرهاب مدمر باسم الإسلام، الذي تؤكد وتحرض عقيدته وتشريعاته على العنف والتطرف، فشعار المسلمين هو السيف والسلم لديهم مفهوم أخروي لا مكان له في الدنيا إلا بالنسبة للمسلمين نفسهم (دار السلم، مقابل دار الحرب) (ولد أباه، 2004، ص141).

على الرغم من أن الأحكام والمقولات الإستشراقية تهاوت علميا، إلا أنها أصبحت توظف على نطاق واسع في حقل الدراسات الاستراتيجية والسياسية خصوصا بعد أحداث 11 سبتمبر 2001.

2-النموذج الثاني: الإسلام من منظور الحداثة: ويتعلق هذا النموذج بعلاقة الإسلام بالحداثة فكرا وقيما التي يحكم عليها في الغالب أنها منقطعة ومستحيلة، ومن هذا المنطلق يكون الإسلام دين مغلق محصن ضد التحديث والتطوير وقد ردّد هذا الحكم المتهافت المستشرق العجوز "برنارد لويس" في كتابه "أزمة الإسلام" الذي صدر بعد الحادي عشر من سبتمبر، واعتبر فيه أن "الإرهاب الإسلامي" يُفسر بكونه موقف عصابي حاد "حداثة مستحيلة" تقتضي في العمق الانفصال عن المرجعية الإسلامية.

3-النموذج الثالث: يبحث بالأساس في الخلفيات الاستراتيجية الكامنة من وراء التشهير الغربي، الأمريكي بفكرة الإرهاب الإسلامي:

إن الهدف الكامن من وراء نزوع الدوائر الغربية إلى افتعال العدو الإسلامي يجد تفسيراته في الفراغ الإيديولوجية والاستراتيجي الذي خلفه اندثار التهديد السوفياتي الذي كان يوفر نوع من التعبئة والانسجام الداخلي للعالم الغربي، ولذلك فقد صرح مستشار الرئيس السوفياتي غورباتشوف جيورجي أرباتوف "Georgiy Arbatov" في أواخر الثمانيات وهو يوجه كلامه للغربيين: "إننا نقوم بشيء مرعب حقا لكم فنحن نحرمكم من عدو" وعليه فالسؤال الأكثر عمقا الذي يهم الدور الأمريكي في عالم ما بعد الحرب الباردة يتلخص فيما يلي: فمن دون الحرب الباردة ما الغاية من أن تكون أمريكا؟(ولد أباه، 2004، ص144).

بيد أن النزوع الأمريكي لإفتعال العدو الإسلامي ليس بالظاهرة الجديدة، بل هي عملية قديمة راسخة في الدراسات الأنثروبولوجية والسيكولوجية والاجتماعية كما يؤكد ذلك كل من ريني جيرار "R. Girard" وإيميل دوركايم "E. Durkeheim" وجوزيف جوف "J. Joff"، الذي تساءل عن مدى وجود حياة بعد الانتصار؟. إن هذه الطروحات النظرية تقوم على فكرة أساسية مفادها "إن المجتمعات والأمم دائما في حاجة إلى افتعال عدو خارجي لتحقيق الوحدة والتماسك الداخلي"، ولقد لاحظ جون بودان "أن الحرب تساهم في الوحدة الداخلية للدول". كما أكد ميكيافلي"أن الطريقة المثلى للحفاظ على الدولة وتجنب الثورات الداخلية هو خلق عدو خارجي يحفز التعبئة والتلاحم الداخلي" أما هولستي K.J. Holsti" فذهب إلى القول: "بأن العدو المشترك يساعد على تحقيق التضامن، فالحروب كانت على مر التاريخ هي المحرض الأكثر فعالية لانسجام الدول"، وفي السياق ذاته يقول المفكر المغربي (الراحل) محمد عابد الجابري: "إن الغرب لم يعد قادرا على التعرف على نفسه بعد انهيار خصمة الشيوعي، إلا من خلال تنصيب الإسلام كآخر جديد... يضمن له جميع أنواع السلب والنفي التي تمكنه من تحديد هويته إيجابيا"(سعدي، 2006، ص189-192).

فبالإضافة إلى هذه المبررات التي تفسر لجوء الدوائر الغربية إلى شيطنة الآخر الإسلامي، ثمة عوامل أخرى يمكن من خلالها فهم النزوع الأمريكي للتأصيل لفكرة الإرهاب الإسلامي ليحل محل "العدو الضائع" الذي خلفه اندثار المعسكر الشيوعي وتتجلى بالأساس في:

- الإبقاء على المركب الصناعي العسكري الأمريكي وتفادي مشاكل تحويل الصناعات العسكرية إلى صناعات مدنية، فصناعة الأسلحة هي مسألة حيوية بالنسبة للولايات المتحدة، والتضيع الأمريكي

للأسلحة يريد ديمومة السوق وهذا لا يكون إلا بافتعال الإرهاب الإسلامي وتغذية النزاعات والحروب في العالم الإسلامي ليس فقط من أجل تجارة السلاح ،ولكن أيضا لتجب بقاء الجيوش في حالة بطالة أمنية (بن عنتر، 2003، ص94).

- ضف إلى ذلك تبرير سياسات التدخل والعدوان في شؤون العالم الإسلامي لشفط واستنزاف ثرواته الطبيعية بالخصوص الطاقوية منها.
- أما العامل الثالث يتعلق بالبعد الاستراتيجي لعلاقة الغرب كمفهوم جيوسياسي بالإسلام من حيث هو فضاء إقليمي وبشري له عناصر قوة كثيفة ومؤهلات تسمح له بأن يشكل التحدي المستقبلي للريادة الغربية، وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن أرنولد توينى أكد على أن الحضارة الإسلامية تتمتع بخاصية التجدد والقدرة الإحياء وإعادة النهوض (ولد أباه، 2004، ص148).

خاتمة:

على ضوء ما سبق، ومن خلال معالجة الموضوع محل الدراسة، توصلت الورقة البحثية إلى مجموعة من النتائج ومن ذلك:

- أن التوظيف السياسي الواسع النطاق لفكرة "الإرهاب الإسلامي" في الدوائر السياسية والاستراتيجية الأمريكية، وفي الخطاب الإعلامي الغربي أسهم بشكل كبير في رسم صورة نمطية عن الإسلام والمسلمين في الغرب عموما.
- كما أن هذه المحاولات المتهافتة والساعية على نحو جائر إلى ربط الإسلام بالعنف، التطرف والإرهاب، ومفاهيم أخرى كالأصولية الإسلامية، الظلامية..، كان لها بالغ الأثر في تعميق الفجوة والعداء بين الإسلام والغرب، كما أدت تغذية أطروحة الصدام الحضاري والإسلاموفوبيا وخيارات الصدام والمواجهة بين العالمين الغربي والإسلامي.
- وقد توصلت الورقة، إلى أن أحداث 11سبتمبر أفضت إلى تصاعد هذه الطروحات الساعية لتشويه "وشيطنة" الإسلام، قصد تبرير الحرب الأمريكية على الإرهاب، وعليه، فتوظيف فكرة "الإرهاب الإسلامي" في السياسة الخارجية الأمريكية، ارتبط أساسا بمجموعة من الرهانات الاستراتيجية، ولعل أهمها معالجة الفراغ الإيديولوجي والاستراتيجي الذي خلفه اندثار التهديد السوفياتي الذي كان يوفر نوع من التعبئة والانسجام الداخلي للعالم الغربي، بالإضافة إلى إيجاد غطاء ومبرر للتدخلات العسكرية في العالم الإسلامي ومن ثم السيطرة على ثرواته الطبيعية والطاقوية.
- وفي الأخير، يمكن القول أنه بقدر ما ساهم التوظيف السياسي لفكرة "الإرهاب الإسلامي" في رسم صورة نمطية عن الإسلام في الغرب، بقدر ما أدى إلى دفع شرائح كبيرة في المجتمعات الغربية للبحث عن حقيقة الإسلام وما ينطوي عليه من قيم.
- ولتلافي هذه الصورة النمطية عن الإسلام في الغرب تقترح هذه الورقة **التوصيات التالية:**
- ضرورة تفعيل حوار الحضارات والأديان قصد إبراز الصورة الحقيقية للإسلام في الغرب، وأيضا من أجل تلافي فكرة العداء والصراع بين العالمين الإسلامي والغربي.

- التأكيد على أطروحة أن الإرهاب ليس مقترن بالإسلام بل هو ظاهرة عالمية بلا دين ولا وطن ولا هوية يهدد الأمن الإنساني والمصالح الحيوية للمجتمع الدولي ككل.
- ضرورة تفعيل دور الإعلام العربي والإسلامي وتحرك الجهات الرسمية والمدنية ذلك أن التصدي للحملات الساعية لتشويه الإسلام وربطه بالإرهاب، هي مسؤولية جماعية ليست مرتبطة بجهة بعينها.

قائمة المراجع:

أولا: باللغة العربية:

1.الكتب:

- تود إيمانويل. (2003). ما بعد الإمبراطورية: دراسة في تفكك النظام الأمريكي. ترجمة: محمد إسماعيل إسماعيل. بيروت: دار الساقي.
- باربر بنجامين. (2005). إمبراطورية الخوف، الحرب والإرهاب والديمقراطية. ترجمة: عمر الأيوبي، بيروت: دار الكتاب العربي.
- زهير الدين صالح. (2004). المحافظون الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية. بيروت: المركز الثقافي اللبناني.
- ولد أباه السيد. (2004). عالم ما بعد 11 سبتمبر 2001، الإشكاليات الفكرية والإستراتيجية. بيروت: الدار العربية للعلوم.
- العليان عبد الله. (2005). الإسلام والغرب ما بعد 11 سبتمبر 2001. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2005، ص 18.
- سعدي محمد. (2006). مستقبل العلاقات الدولية من صراع الحضارات إلى أنسنة الحضارة وثقافة السلام. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- الجاسور ناظم عبد الواحد. (2006) . المرجعية الفكرية للخطاب السياسي والاستراتيجي الأمريكي ما بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001. بيروت: دار النهضة العربية.
- الشاهر شاهر إسماعيل، أولويات السياسة الخارجية الأمريكية بعد أحداث 11 أيلول 2001، دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2009.

2.المجلات:

- بن عنتر عبد النور.(2003). "الأطلسية الجديدة في المتوسط وانعكاساتها على الأمن العربي"، شؤون الأوسط، العدد 66.

ثانيا: باللغة الانجليزية:

1.الكتب:

- Chomsky Noam. (2000). The rule of force in world affairs. Londres : Pluto press.

- Richard Perl., David Frum. (2003). An end to evil, How to win the war on terror. RandonHaose.

دور الجالية الجزائرية في تحسين صورة الإسلام في المجتمعات الغربية
-دراسة ميدانية على عينة من المهاجرين الجزائريين بفرنسا-

The Role of the Algerian Community in Improving the Image of Islam in Western Societies
Field Study on a Sample of Algerian Immigrants in France -

د.عبد الرحمان خروبي، جامعة حسيبة بن بوعلي (الجزائر)
ab.kharroubi@univ-chlef.dz



يعرف تموقع الإسلام في الغرب عدة تجاذبات في ظل الصراعات السياسية التي تحدث في العالم، التي زادت معها حدة الهجرة الى أوروبا، .ومع ارتفاع عدد المهاجرين المسلمين، زاد نشاط الحركات والكيانات المناهضة للإسلام والمسلمين وقد جاءت هذه الدراسة لتكشف دور الجالية المسلمة في تحسين صورة الإسلام في المجتمعات الغربية، وأسباب هذه النظرة للإسلام من طرف الأوروبيين، من خلال دراسة ميدانية على عينة قصدية من 41 مهاجرا مسلما يقيمون بفرنسا، ، 65.9 % منهم ذكورا، و51.22 % منهم مستواهم جامعي، ومن بين نتائج الدراسة تبين أن أكبر نسبة من أفراد العينة والمتمثلة في 46.34 % يرون أن العامل الأول المؤثر في نظرة الأوروبيين للإسلام هو تصرفات المسلمين في حد ذاتهم، في حين أن 41.46 % منهم يرون أن عامل الاعلام ووسائل التواصل هو الذي يؤثر في هذه النظرة.

الكلمات المفتاحية: الجالية الجزائرية، صورة الإسلام، المجتمعات الغربية.

Abstract :

This study reveals the role of the Muslim community in improving the image of Islam in Western societies, and the reasons for this view of Islam by Europeans, through a field study on a sample of Muslim immigrants in France, using a form prepared for this purpose and distributed electronically to a sample of 41 immigrants, 65.9% of whom are male, and 51.22% of them are university-level, and among the results of the study show that the largest percentage of the sample of 46.34% believe that the first factor affecting Europeans view Islam as the actions of Muslims in their own right, while 41.46% believe that it is the media and media factor that influences this view.

Keywords: Algerian community, image of Islam, Western societies.



مقدمة:

يعتبر الاهتمام بوضع الإسلام والمسلمين في المجتمعات الغربية، من أولى الأولويات لدى الدارسين والباحثين، وخاصة في العلوم الاجتماعية، وهذا لعدة عوامل أهمها تعداد الجالية المسلمة بصفة عامة والجالية الجزائرية بصفة خاصة الذي يزداد يوما بعد يوم، وكذا وضع الجالية بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة، ففي السنوات الأخيرة ومع انتشار الهجمات على الإسلام والمسلمين، من خلال الاعتداءات اللفظية والجسدية والوصول الى درجة الإساءة الى رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام، أصبح لزاما على الجالية المسلمة، وخاصة الجزائرية التي تعتبر الأكبر من حيث العدد، أن تدافع عن الإسلام بالطرق الحضارية والسلمية، التي أوجبها الإسلام، ولن يتأتى هذا الا بتبيان الصورة الحقيقية لهذا الدين، وقد جاءت هذه الدراسة لتبين النظرة الحقيقية لغير المسلمين في المجتمع الفرنسي للإسلام والمسلمين، ولتظهر مدى التزام المسلمين بمبادئهم الإسلامية، فالمجتمع الغربي لن يأخذ الصورة الحقيقية للإسلام الا من خلال البحث والتحري والتقصي، وهذا ليس متاحا للجميع، أو من خلال التعايش مع المسلمين وأخذ العبرة من تصرفاتهم وسلوكياتهم ، ولعل مقولة الفيلسوف والكاتب الفرنسي **روجييه غارودي لما** هداه الله للإسلام وعرف حقيقته، وعاشر المسلمين وعرفهم: "الحمد لله أني عرفت الإسلام قبل أن أعرف المسلمين" لخير دليل على ذلك.

بما أن مسؤولية الجالية المسلمة وخاصة الجزائرية منها في المجتمع الفرنسي تزداد يوما بعد يوم، وخاصة في ظل الظروف التي تمر بها المجتمعات الإسلامية من صراعات سياسية، وأزمات اقتصادية واجتماعية مختلفة، وزيادة التحرش الغربي بالإسلام خاصة على المستوى الرسمي، من خلال المؤسسات السياسية أو الإعلامية، (في ظل ما يتم تداوله أن المجتمعات الغربية هي مجتمعات مسالمة، وأن المسلمين هم المتسبب الأول فيما يحدث لهم، سواء على مستوى مجتمعاتهم أو أثناء عيشهم بالمجتمعات الغربية، وخاصة المجتمع الفرنسي)، ولهذا جاءت هذه الدراسة لتجيب على الأسئلة التالية:

كيف يتعامل الفرنسيون مع الجالية الجزائرية المقيمة بفرنسا؟ وماهي العوامل المؤثرة في نظرتهم الى الإسلام والمسلمين؟ وهل يسعى المسلمون لإعطاء الصورة الصحيحة للإسلام أثناء تعاملاتهم مع غير المسلمين المقيمين في فرنسا؟

وقد هدفت الدراسة الى التأكد من صحة الفرضيات التالية:

- الفرنسيون يتعاملون مع الجالية الجزائرية بصفة طبيعة ودون تمييز.
- تعتبر تصرفات وسلوكيات المسلمين المحدد الأبرز لنظرة الغربيين الى الإسلام.
- لا تلي الجالية المسلمة المقيمة بفرنسا أهمية لتوضيح الصورة الحقيقية للإسلام لغير المسلمين في فرنسا.

أولا- مفاهيم الدراسة:

1.مفهوم الجالية: جاء في المعجم الوسيط: الجالية جمعها جاليات وجوال، من الفعل جال: الذين جلوا عن أوطانهم، والجالية جماعة من الناس تعيش في وطن غير وطنهم الأصلي، والجالية أهل الذمة، والجالية كل من لزمتهم الجزية من أهل الكتاب وإن لم يجلوا عن أوطانهم. (مجمع اللغة العربية، 2004)، فمفهوم الجالية لا يخرج عن دائرة الناس الذين يقيمون في البلد الذي أطلق عليهم فيه اسم الجالية. (السيحاني، 2016)، فهم جماعة من الناس لديها انتماء واحد تعيش في وطن جديد غير وطنهم الأصلي. وتتفق أغلبية الدول على ضرورة توفر عدة عوامل في الجالية حتى يمكن تسميتها بهذا الاسم، تتمثل في مغادرة هؤلاء الأفراد أوطانهم بغية الاستقرار في وطن آخر، الإقامة في البلد المهاجر اليه من أجل العيش والعمل، وأن يكون لديهم انتماء واحد (وطني، عرقي، ديني،...). (بولمهار و ناجي، 2022). والمقصود بالجالية في هذه الدراسة الجزائريون المقيمون في فرنسا سواء بصفة قانونية أو غير ذلك، والذين غادروا الجزائر سواء بهدف الاستقرار الدائم أو الاستقرار المؤقت، وهدفهم من التواجد بفرنسا تحسين الوضعية الاجتماعية لهم ولأسرهم.

2.صورة الإسلام في الغرب: يقول المستشرق الهولندي رودلف بيترز:" إن اللغة الإعلامية اليومية للغرب تكرس الصورة المشوهة للإسلام، ويساهم في التشويه بعض الفئات المتعلمة والصحافيون...، إن نقد صحافتنا أمر واجب لأنها تمضي بعيدا في تسويق مفهوم خاطئ، وهي تعيد ما قامت به أثناء الحرب الباردة من حماسة زائدة ضد العدو المفترض، وتسم الاخر الذي يختلف عنا بالعنف والإرهاب، يمكن أن تكون نيات بعضنا طيبة لكن لا ننكر وجود هؤلاء المقربين من الدوائر السياسية والحزبية التي من مصلحتها التلاعب بالرأي العام وتوجيهه، وحتى الصحفي الموضوعي يواجه عوائق مهنية في تغطية الموضوع الإسلامي" (هاليداي، 1997، صفحة 195). حيث أن صورة الإسلام في الغرب تخضع لعدة عوامل أهمها الكراهية التاريخية للإسلام من الدوائر الدينية والسياسية الغربية له واستعمالها كل المنابر الإعلامية والعلمية والثقافية لتشويه صورته ووصفه بالعنف والإرهاب والتشدد والكراهية للغرب وغيرها، والعامل الثاني تصرفات وسلوكيات المسلمين سواء في مجتمعاتهم أو أثناء اقامتهم بالبلدان الغربية وقد ظهرت عدة سلوكيات غريبة وانتشرت بشدة، حيث أصبح يحصر بعض المهاجرين المسلمين اسلامهم في إقامة شعائر الصلاة والصوم، وعدم أكل لحم الخنزير فقط.

3.تاريخ هجرة الجزائريين الى فرنسا: ورد في بعض المصادر التاريخية، أن بدايات الهجرة الجزائرية نحو فرنسا في أصولها التاريخية، لم تكن وليدة مرحلة الاستعمار الفرنسي للجزائر، حيث تم الاشارة الى الرواد الأوائل من منطقة القبائل التي بدأت طلائعهم الأولى تظهر على شواطئ البحر، كتجار يبيعون الزرابي، والصناعات التقليدية ولقب هؤلاء التجار "بالتوركوس (Turcos). (لقريعي و بن يحي، 2021). وكأي ظاهرة هجرة ارتبط حضور الجزائريين في فرنسا بمعطيين أساسين، نسمي الأول عوامل الطرد، ونقصد به السياسات الفرنسية التي أوجدت العوز والمجاعة في ريف الجزائر المستعمرة منذ بداية الاحتلال الفرنسي، ونسمي الثاني عوامل الجذب، ونقصد به الأوضاع الاقتصادية المغرية التي كانت

تمنحها فرنسا للمهاجرين الجزائريين في ظل حاجتها لليد العاملة خدمة لمتطلبات اقتصادها. (Blanchard, 2018, p. 128)، الا أن الطرد في الفترة الاستعمارية كان يقوم به المستعمر، أما بعد الاستقلال فقد ساهمت الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للجزائر وغيرها من البلدان الإسلامية في هجرة مواطني هذه البلدان الى أوروبا خاصة، ونظرا للعلاقة التاريخية بين الجزائر وفرنسا غالبا ما يختار الجزائريون الهجرة الى هذا البلد، حيث تعتبر عوامل الاقتصاد الفرنسي وما يوفره من فرص عمل وكذا تثمين العمل، بالإضافة الى عامل اللغة، وكذا قدرة الفرنسيين على التعايش مع الأجانب من أهم العوامل التي تساعد الجزائريين على تفضيل الوجهة الفرنسية للهجرة.

ثانيا- الجانب الميداني للدراسة:

1.مجالات الدراسة:

المجال المكاني: أجريت الدراسة بفرنسا.

المجال الزماني: أجريت الدراسة في الفترة الممتدة من 22 مارس 2022 الى غاية 04 أفريل 2022.

2.منهج الدراسة:

من أجل تحقيق أهداف الدراسة تم استخدام المنهج الوصفي التحليلي وهو أحد أشكال التحليل والتفسير العلمي المنظم لوصف ظاهرة أو مشكلة محددة وتصويرها كميا عن طريق جمع بيانات ومعلومات مقننة عن الظاهرة أو المشكلة وتصنيفها وتحليلها واخضاعها للدراسات الدقيقة. (محمد، 2000، صفحة 324).

3.أداة الدراسة:

تم الاعتماد على استمارة استبيان مكونة من 13 فقرة بالإضافة للمعلومات الشخصية أعدت وفق غرض الدراسة، وتم توزيعها الكترونيا، باستعمال وسائل التواصل الاجتماعي.

4.عينة الدراسة:

تم اختيار عينة قصدية متكونة من 41 من المهاجرين المسلمين في فرنسا وكانت خصائص العينة كالتالي:

1.4.خصائص العينة:

الجدول رقم (01): توزيع أراد العينة حسب الجنس

الجنس	العدد	النسبة (%)
ذكر	27	65.9
أنثى	14	34.1

الجدول رقم (02): توزيع أفراد العينة حسب السن

الفئة	27-20	35-28	41-36	49-42	57-50	61-85	المجموع
العدد	04	09	10	10	06	02	41
النسبة%	9.75	21.95	24.39	24.39	14.63	4.89	100

من خلال الجدول نلاحظ أن 80.48 % من أفراد العينة سنهم أقل من 49 سنة، والفئتان الأكثر تكرارا هما فئة 36-41 وفئة 42-49 بنسبة 24.39 % لكل منهما.

الجدول رقم (03): توزيع أفراد العينة حسب المستوى التعليمي:

المستوى	ابتدائي	متوسط	ثانوي	جامعي	المجموع
العدد	03	04	13	21	41
(%)	7.31	09.76	31.71	51.22	100

نلاحظ من خلال الجدول أن 51.22 %من أفراد العينة يحملون المستوى الجامعي و31.71 % يحملون المستوى الثانوي وهذا ما يدل على أن تركيبة الهاجرين تغيرت مقارنة بعشريات ماضية، حيث يمكن المستوى التعليمي للمهاجر بالدفاع عن الصورة الحقيقية للإسلام.

الجدول رقم (04): توزيع أفراد العينة حسب الوضعية القانونية للإقامة

الوضعية القانونية	بدون وثائق	متحصل على الاقامة	متحصل على الجنسية	المجموع
العدد	09	16	16	41
النسبة (%)	21.96	39.02	39.02	100

نلاحظ من خلال الجدول رقم (04) أن ما يقارب 80 % يعيشون بصفة قانونية ومنهم 39.02 % متحصلين على الجنسية الفرنسية.

الجدول رقم (05): توزيع أفراد العينة حسب مدة الإقامة

مدة الاقامة (سنة)	8-2	15-9	22-16	29-23	36-30	المجموع
العدد	16	13	06	04	02	41
النسبة (%)	39.02	31.71	14.63	9.76	4.88	100

من خلال الجدول رقم (05) الذي يمثل توزيع أفراد العينة حسب مدة الإقامة نلاحظ أن 39.02 % منهم تقل مدة إقامتهم عن 09 سنوات في حين 31.71 % **من** أفراد العينة يقيمون منذ أكثر من 09 سنوات، وإذا تمت المقارنة بين هذا الجدول والجدول السابق نلاحظ أن مدة الإقامة ليست شرطا لتسوية الوضعية القانونية أو حتى الحصول على الجنسية، بل الأمر يخضع لمجموعة من المعايير منها الزواج بفرنسا أو لم شمل العائلة الذي يسمح بتسوية الوضعية القانونية.

الجدول رقم (06): توزيع أفراد العينة حسب بلد الإقامة الأصلي

البلد	الجزائر	تونس	المغرب	مالي	غير محدد	المجموع
العدد	32	02	02	02	03	41
النسبة %	78.05	4.88	4.88	4.88	7.31	100

5.تحليل نتائج الدراســـة

الجدول رقم (07): العامل المؤثر في نظرة الاوربيين للإسلام حسب المستوى التعليمي لأفراد العينة

المستوى التعليمي	ابتدائي		متوسط		ثانوي		جامعي		المجموع	
العامل المؤثر	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%
الاعلام ووسائل التواصل	-	-	02	50	08	61.54	07	33.33	17	41.46
تصرفات المسلمين	03	100	01	25	04	30.77	11	52.38	19	46.34
أسباب أخرى	-	-	01	25	01	07.69	03	14.29	05	12.20
المجموع	03	100	04	100	13	100	21	100	41	100

نلاحظ من خلال الجدول رقم (07) أن 46.34 % من أفراد العينة يرون أن العامل المؤثر في نظرة الأوروبيين للإسلام هو تصرفات المسلمين وفي المرتبة الثانية في درجة التأثير تأتي وسائل الاعلام والاتصال المختلفة بنسبة 41.46 %، أما ثالثا وبنسبة 12.20 % هناك أسباب أخرى حسب أفراد العينة ومنها الأحكام المسبقة للأوروبيين في حد ذاتهم. أما فيما يخص المستوى التعليمي لأفراد العينة فنجد أن 100 % من أصحاب مستوى التعليم الابتدائي يرون أن تصرفات المسلمين هي التي تؤثر في نظرة الأوروبيين للإسلام، في حين نجد أن أكبر نسبة عند أصحاب مستوى التعليم الثانوي والمتمثلة في 61.54 % ، وأكبر نسبة من أصحاب التعليم المتوسط والتي هي 50 % يرون أن المحدد والمؤثر الرئيسي في نظرة الأوروبيين للإسلام هي وسائل الاعلام، في حين أن أكبر نسبة من أصحاب المستوى الجامعي وهي الفئة الأكثر تكرارا

من أفراد العينة نجد أن 52.38 % منهم يرون أن تصرفات المسلمين ي التي تؤثر في نظرة الأوروبيين للإسلام. أي أن تصرفات المسلمين هي العامل الأكثر تأثيرا في تحديد وجهة نظر الغربيين للإسلام، حيث أن وسائل الاعلام المناهضة للإسلام في الغرب تستثمر في التصرفات السلبية للمسلمين لتحاول أن توجه الرأي العام الغربي أن هذه التصرفات هي الصورة الحقيقية للإسلام، وأن أفضل طريقة لمحاربة هذا النوع من التوجه هو تمسك الجالية المسلمة بمبادئ الإسلام في معاملاتهم المختلفة مع غير المسلمين في المجتمعات الغربية.

وقد ساهم الاعلام الغربي بدوره الأساسي والفاعل في معاضدة القادة والسياسيين في تشويه صورة الإسلام، بتقديمه بأبشع الصور الراديكالية والوحشية والتخلف والعنف، وتلاعب بالرأي العام الغربي بغية حشده خلف هذه السياسات العدائية ضد كل ما هو إسلامي. (حداد و عاشوري، 2019)

الجدول رقم (08): العامل المؤثر في نظرة الأوروبيين للإسلام حسب الوضعية القانونية لإقامة أفراد العينة

الوضعية القانونية للإقامة	بدون وثائق		متحصل على الاقامة		متحصل على الجنسية		المجموع	
العامل المؤثر	**العدد**	**%**	**العدد**	**%**	**العدد**	**%**	**العدد**	**%**
الاعلام ووسائل التواصل	04	44.45	07	43.75	06	37.50	17	41.46
تصرفات المسلمين	03	33.33	07	43.75	09	56.25	19	46.34
أسباب أخرى	02	22.22	02	12.5	01	06.25	05	12.20
المجموع	09	100	16	100	16	100	41	100

من خلال الجدول رقم (08) نلاحظ أن 44.45 % من الذين يقيمون بطريقة غير قانونية يرون أن الذي يؤثر في نظرة الأوربيين للإسلام هو الاعلام وهي أكبر نسبة بالنسبة لهذه الفئة ثم تليها تصرفات المسلمين حسبها، في حين أن تصرفات المسلمين وتأثير وسائل الاعلام تتساوى في النسبة بالنسبة لفئة المتحصلين على الإقامة وهذا بنسبة 43.75 %،في حين أن 56.25 %من فئة المتحصلين على الجنسية وهي أكبر نسبة بالنسبة لهذه الفئة يرون أن الموجة الرئيسي لنظرة الأوروبيين للإسلام هي تصرفات المسلمين، حيث نستنتج أنه كلما تطورت الوضعية القانونية للإقامة لأفراد العينة تتجه نظرتهم الى أن تصرفات المسلمين هي المؤثر الأول في توجيه نظرة الأوروبيين للإسلام. حيث يمكن تفسير هذا التوجه بأن الجالية المسلمة في فرنسا كلما استقرت وضعيتها القانونية وتعايشت مع المجتمع الغربي كلما أيقنت أن الصورة النمطية للاستلام لدى الغربيين ماهي الا انعكاس لتصرفاتهم، وأن بإمكانهم تغيير هذه الصورة بتحسين السلوكيات وجعلها انعكاسا حقيقيا لمبادئ الإسلام.

الجدول رقم (09): نظرة الفرنسيين لشعائر الإسلام حسب أفراد العينة

نظرة الفرنسيين لشعائر الاسلام	العدد	النسبة %
باحترام	20	48.78
بدون احترام	04	09.76
غير مهتمين	17	41.46
المجموع	41	100

نلاحظ من خلال الجدول رقم (09) أن 48.78 % من أفراد العينة يرون أن الفرنسيين ينظرون الى شعائر الإسلام باحترام في حين أن 41.46 م% ن أفراد العينة يرون أن الفرنسيين غير مهتمين بشعائر الإسلام وأن 09.76 % يرون أنهم ينزرون اليها بدون احترام، والجدول التالي يحدد مدى تأثر الوضعية القانونية لإقامة أفراد العينة في هذا الاختيار.

الجدول رقم (10): نظرة الفرنسيين لشعائر الإسلام حسب الوضعية القانونية لأفراد العينة

وضعية الاقامة	بدون وثائق		الاقامة		الجنسية		المجموع	
النظرة الى الشعائر	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%
باحترام	02	22.22	09	56.25	09	56.25	20	48.78
بدون احترام	02	22.22	-	-	02	12.50	04	09.76
غير مهتمين	05	55.56	07	43.75	05	31.25	17	41.46
المجموع	09	100	16	100	16	100	41	100

نلاحظ من خلال الجدول رقم (10) أن 48.76 % من أفراد العينة يرون أن الفرنسيين ينظرون الى شعائر الإسلام باحترام في حين أن 41.46 % منهم ليس لهم اهتمام بالأمر كما نلاحظ أن 09.76 % من أفراد العينة يرون أن الفرنسيين لا يحترمون الشعائر الدينية للمسلمين، أما إذا تم مقارنة النتائج حسب الوضعية القانونية لإقامة أفراد العينة فإننا نجد أن 56.25 % من حاملي الجنسية الفرنسية يرون أن الفرنسيين ينظرون الى شعائر الإسلام باحترام في حين أن 31.25 % منهم يرون أنهم غير مهتمين، أما بالنسبة لحاملي الإقامة فإننا نلاحظ أن 56.25 % منهم يرون أن الفرنسيين ينظرون الى الشعائر الإسلامية باحترام والنسبة الباقية منهم والمقدرة بـ 43.76 % يرونهم غير مهتمين أما بالنسبة لأفراد العينة الذين ليس لديهم وضعية قانونية من ناحية الإقامة فان 55.56 % منهم يرون أن الفرنسيين غير مهتمين بالشعائر الإسلامية. وبالتالي فان الوضعية القانونية للإقامة تساهم في تغيير وجهة نظر أفراد الجالية لنظرة الفرنسيين لشعائر الإسلام.

الجدول رقم (11): مدى تطبيق المسلمين لمبادئهم حسب أفراد العينة

تطبيق المبادئ	نعم	لا	أحيانا	المجموع
العدد	16	08	17	41
النسبة	39.02	19.52	41.46	100

نلاحظ من خلال الجدول رقم (11) الذي يعبر عن مدى تطبيق المسلمين المقيمين في فرنسا لمبادئهم الإسلامية فنرى أن أكبر نسبة والتي هي 41.46 من أفراد العينة يرون أنه أحيانا ما يطبق المسلمين مبادئهم في حين أن 19.52 منهم يرون أنهم لا يطبقونها اطلاقا، وتبقى نسبة 39.02 ترى أن يطبقون مبادئهم، حيث أن ما يقارب 70 من أفراد العينة يرون أن المسلمين لا يطبقون مبادئهم بشكل كامل وهذه الصورة تعبر عن حالة الإسلام بين المسلمين، حيث أن الإسلام يجب أن يظهر في تصرفات المسلمين وسلوكياتهم. والجدول التالي يمثل نظرة أفراد العينة لمدى تطبيق هذه المبادئ حسب المستوى التعليمي لأفراد العينة لأنه غالبا ما يكون هذا المتغير عاملا في القدرة على إعطاء الصورة الحقيقية، والقدرة على الدفاع عن المبادئ وإقناع الاخرين بصورته الحقيقية.

الجدول رقم (12): مدى تطبيق المسلمين لمبادئهم الإسلامية في المهجر حسب المستوى التعليمي لأفراد العينة

المستوى التعلمي	ابتدائي		متوسط		ثانوي		جامعي		المجموع	
تطبيق المبادئ	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%
نعم	02	66.67	03	75	06	46.15	05	23.81	16	39.02
لا	01	33.33	-	-	01	7.70	06	28.57	08	19.52
أحيانا	-	-	01	25	06	46.15	10	47.62	17	41.46
المجموع	03	100	04	100	13	100	21	100	41	100

نلاحظ من خلال الجدول رقم (12) الذي يمثل مدى تطبيق المهاجرين المسلمين لمبادئهم في المهجر حسب المستوى التعليمي لأفراد العينة أن أكبر نسبة نجدها عند أصحاب مستوى التعليم المتوسط والتي تمثل 75 % ثم أصحاب مستوى التعليم الابتدائي والتي تمثل 66.67 % منهم يرون أن المسلمين المهاجرين يطبقون مبادئهم، أما أصحاب مستوى التعليم الثانوي فنجد أن نسبة 46.15 % من هذه الفئة ترى أن المسلمين المهاجرين يطبقون فعلا مبادئهم، ونفس النسبة من هذه الفئة ترى أنه أحيانا ما يفعلون، لنجد أن نسبة 47.62 % من فئة الجامعيين يرون أنه أحيانا ما يطبق المسلمين في المهجر مبادئهم، لتليها نسبة 28.57 % من هذه الفئة ترى أن المسلمين المهاجرين لا يطبقون مبادئهم الإسلامية وأن 23.81 % من هذه الفئة ترى أن المسلمين المهاجرين يطبقون مبادئهم الإسلامية في المهجر، حيث نلاحظ أنه كلما ارتفع المستوى التعليمي لأفراد العينة فكلما زادت النظرة السلبية لدرجة تطبيق المسلمين المهاجرين لمبادئهم في حياتهم اليومية بالمهجر. أي ان أصحاب مستوى التعليم العالي أعلم بواقع الإسلام في أوروبا.

الجدول رقم (13): مدى اضطرار المسلمين لإخفاء اسلامهم أثناء تعاملهم مع غير المسلمين حسب أفراد العينة

	نعم	لا	أحيانا	المجموع
العدد	03	34	04	41
النسبة %	7.31	82.93	9.76	100

نلاحظ من خلال الجدول رقم (13) أن 82.93 % من أفراد العينة يرون أن المسلمين ليسوا مضطرين لإخفاء اسلامهم أثناء تعاملهم مع غير المسلمين الموجودين في فرنسا، وبالتالي هناك تعايش بين المسلمين وغير المسلمين في هذا البلد.

الجدول رقم (14): مدى حدوث مشاكل للمهاجرين المسلمين بسبب اسلامهم حسب أفراد العينة

	نعم	لا	أحيانا	المجموع
العدد	04	33	04	41
النسبة %	9.75	80.50	9.75	100

من خلال الجدول رقم (14) يتضح أن 80.50 % من أفراد العينة يرون أنه لا يحدث للمهاجرين المسلمين مشاكل بسبب اسلامهم، وهذا ما يؤكد نتائج الجدول (13). والجدول التالي يوضح مدى عنصرية الاوروبيين في تعاملهم مع المسلمين المقيمين في فرنسا.

الجدول رقم (15): مدى عنصرية الأوروبيين في تعاملهم مع المسلمين حسب أفراد العينة

	نعم	لا	أحيانا	المجموع
العدد	09	10	22	41
النسبة %	21.95	24.39	53.66	100

نلاحظ من خلال الجدول رقم (15) أن 53.66 % من أفراد العينة يرون أنه أحيانا ما يتعرض المسلمين لتصرفات عنصرية من طرف الأوروبيين، في حين أن 24.39 % منهم يرون أنه لا يتعرض المسلمين لأي تصرفات عنصرية، و21.95 % منهم يرون أن المسلمين فعلا يتعرضون لتصرفات عنصرية من طرف الأوروبيين في فرنسا.

الجدول رقم (16): محاولة أفراد العينة تعليم غير المسلمين مبادئ الإسلام حسب أفراد العينة

	نعم	لا	أحيانا	المجموع
العدد	20	14	07	41
النسبة	48.78	34.15	17.07	100

نلاحظ من خلال الجدول رقم (16) أن النسبة الأكبر من أفراد العينة والمقدرة بـ 48.78 % يرون أنهم يحاولون تعليم غير المسلمين مبادئ الإسلام في حين أن 33.15 % منهم لا يحاولون اطلاقا، أي أنهم لا

يمارسون عملا دعويا، في حين أن 17.07 % منهم يرون أنهم أحيانا ما يحاولون تعليم غير المسلمين مبادئ الإسلام في فرنسا. والجدول التالي يوضح مدى تعليم مبادئ الإسلام لغير المسلمين من طرف الجالية المقيمة بفرنسا حسب المستوى التعليمي لأفراد العينة.

الجدول رقم (17): مدى تعليم مبادئ الإسلام لغير المسلمين من طرف أفراد العينة حسب مستواهم التعليمي

المستوى التعلمي	ابتدائي		متوسط		ثانوي		جامعي		المجموع	
تطبيق المبادئ	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%
نعم	-	-	02	50	06	46.15	12	57.14	20	48.78
لا	02	66.67	02	50	03	23.08	07	33.33	14	34.15
أحيانا	01	33.33	-	-	04	30.77	02	09.53	07	17.07
المجموع	03	100	04	100	13	100	21	100	41	100

نلاحظ من خلال الجدول أن أكبر نسبة من أفراد العينة الذين يعلمون غير المسلمين مبادئ الإسلام في المهجر نجدها عند الجامعيين بنسبة 57.14 % ليليها أصحاب مستوى التعليم الثانوي بنسبة 46.15 %، في حين نجد أن أكبر نسبة من الذين لا يعلمون غير المسلمين مبادئ الإسلام عند المهاجرين أصحاب مستوى التعليم الابتدائي بنسبة 66.67 % ثم أصحاب التعليم المتوسط بنسبة 50 %. أي لأن المستوى التعليمي لأفراد الجالية يلعب دورا في ممارسة الدور الدعوي للإسلام. ويمكن أن تكون الدعوة بالقدوة فالدين الإسلامي هو دين معاملة، وأن اتباع الجالية لمنهج المعاملة الصحيحة والسليمة وفق تعاليم الإسلام يجعل الغربيين يتعلقون بهذا الدين، وأن الدفاع عن الدين من الأفكار المتطرفة والغربية يحتاج الى معرفة حقيقية به، والتمكن من تعاليمه بالحجة والبرهان، وليس بالعنف. حيث أن الجالية الجزائرية هي سفيرة لدينها قبل أن تكون سفيرة لوطنها.

وفي سؤال لأفراد العينة حول مستقبل الإسلام في فرنسا أجاب أحد أفراد العينة والذي يقيم بفرنسا بصفة قانونية ويعيش رفقة عائلته بها، أن الإسلام والمسلمون يواجهون ضغوطا وتحديات كبيرة، الا أن الاسلام سيبقى الأقوى وسيزداد انتشاره، أما فرد اخر يقيم بفرنسا رفقة زوجته وأولاده ويحمل الجنسية الفرنسية ومستواه التعليمي جامعي فيرى أن الإسلام سيزداد انتشاره أكثر فأكثر على المدى الطويل شريطة أن يكون المسلمون صادقين مع أنفسهم ومبادئهم لكي يعطوا النظرة الصحيحة عن الإسلام، فسلوكيات المسلمين الصحيحة والنابعة من دينهم هي أحسن صورة لهذا الدين، أما فرد اخر من أفراد العينة فيرى أن الإسلام في فرنسا ينتشر بوتيرة ضعيفة جدا وهذا راجع إلى عدم اهتمام المسلمين بنشر الرسالة والتغاضي عن مبادئ الإسلام والمسلمين. حيث أن معظم افراد العينة يرون أن الإسلام سينتشر بصورة أكبر. حيث تؤكد مختلف الدراسات أن الإسلام هو الدين الأكثر انتشار في أوروبا وقد يرجع هذا الى

تزايد عدد الجالية المسلمة وتعايشهم مع الأوروبيين ونقلهم لبعض مبادئ وعادات المسلمين بطريقة دعوية أو عن طريق الممارسة.

خاتمـــــة:

لقد توصلت الدراسة الى أن:

- أكبر نسبة من أفراد العينة والمقدرة بـ 48.78 % يرون أن الفرنسيين ينظرون الى شعائر الإسلام باحترام، وأن النسبة القليلة من أفراد العينة يرون عكس ذلك. وبالتالي هذه النتيجة تؤكد صحة الفرضية الأولى
- أكبر نسبة من عينة الدراسة والمقدرة بـ 80.56 % ترى أن المهاجرين لا يتعرضون لمشاكل بسبب اسلامهم، وأن 82.93 % لا يضطرون لإخفاء اسلامهم أثناء حياتهم اليومية ومعاملاتهم مع غير المسلمين. وهذه النتيجة تزيد من تأكيد الفرضية الأولى.
- لقد توصلت الدراسة الى أن أكبر نسبة من أفراد العينة والمقدرة بـ 46.34 % يرون أت تصرفات وسلوكيات المسلمين هي المحدد الرئيسي لنظرة غير المسلمين للإسلام. وبالتالي هذه النتيجة تؤكد صحة الفرضية الثانية.
- أكبر نسبة من عينة الدراسة والمقدرة بـ 48.78 % تحاول تعليم مبادئ الإسلام لغير المسلمين بصفة مباشرة. وهذه النتيجة تؤكد عدم صحة الفرضية الثالثة.

وبناء على هذه النتائج فإن صورة الإسلام في المجتمعات الغربية مرتبطة بعاملين أساسيين الأول يتعلق بالمسلمين في حد ذاتهم، حيث يعتبر هذا العامل مهم جدا خاصة مع الارتفاع الكبير لعدد الجالية المسلمة في المجتمعات الغربية، اذ من الضروري أن تلعب هذه الجالية دور السفير للإسلام في هذه المجتمعات، وأن تنال هذه المهمة التأطير والعناية اللازمة من طرف المؤسسات الرسمية والدينية على مستوى المجتمعات الأصلية لهذه الجالية، وحتى من خلال الجمعيات والمؤسسات الرسمية التي ينشئها المهاجرون في أماكن تواجدهم، والعامل الثاني هو عامل الدعاية لضرب الإسلام الذي تمارسه مؤسسات الاعلام والمؤسسات الدينية والسياسية والثقافية وهذا للحد من انتشار الإسلام في أوروبا بصفة خاصة والمجتمعات الغربية بصفة عامة، وبالتالي فان تكاتف الجهود بين المهاجرين ومؤسساتهم الرسمية يعد أمرا ضروريا، وأن هذا التكاتف يجب أن يكون موجها للدعوة للإسلام وإعطاء صورته الحقيقية أما م غير المسلمين وتوظيف الاليات الثقافية والإعلامية لهذا الغرض، دون الاكتفاء بالبحث عن طرق التعايش والاندماج في المجتمعات الغربية.

توصيات:

بناء على ما ورد في الدراسات النظرية التي اطلع عليها الباحث، وكذلك النتائج التي توصلت اليها الدراسة فأنه يمكن حصر التوصيات فيما يلي:

- ربط الجالية بمجتمعاتها الأصلية من خلال انشاء جمعيات وتجمعات، حيث تهتم هذه الجمعيات بزيادة وعي المهاجرين بضرورة المحافظة على صورة الإسلام في الخارج.
- تنشيط عمل المراكز الثقافية الإسلامية بالخارج.
- تعليم مبادئ الإسلام لأبناء المهاجرين الولودين بالخارج، وتسهيل السياحة وخاصة الدينية منها لهؤلاء، ولغير المسلمين.
- انشاء قنوات ومواقع الكترونية دينية وثقافية وتوعوية موجهة للجالية المهاجرة.
- إقامة الملتقيات العلمية على مستوى الدول الغربية، التي يقيمها بها المهاجرون، والتي تتناول قيم وعادات ومبادئ المسلمين.

قائمة المراجع

- أبوبكر بولمهار، و عواطي ناجي، (2022)، استخدمات الجالية الجزائرية في فرنسا لوسائل الاعلام الوطنية والاشباعات المحققة، *مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة 2، الجزائر ، المجلد 08، العدد 04.*

- شفيعة حداد، و نبيل عاشوري، (2019)، الاساءة لصورة الاسلام والمسلمين في الاعلام الغربي، *مجلة الباحث للدراسات الأكاديمية، جامعة باتنة 1 ، الجزائر، المجلد06، العدد 02.*

- علي أحمد حسين السيحاني، (2016). *حقيقة معنى الجالية*. تم الاسترداد من وكالة أنباء الروهنجيا: http://www.rna-press.com

- فريد هاليداي، (1997)، *الاسلام والغرب: خرافة المواجهة*، مكتبة مدبولي (مصر).

- مجمع اللغة العربية، (2004)، *المعجم الوسيط (الاصدار 04)*، مكتبة الشروق الدولية (مصر).

- ملحم سامي محمد، (2000)، *مناهج البحث في التربية وعلم النفس*، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة (الأردن).

- هشام لقريعي، و نبيلة بن يحي، (2021). موقف اليمين المتطرف الفرنسي من الجالية الجزائرية في فرنسا دراسة حالة: حزب الجبهة الوطنية - التجمع الوطني- (2001-2018). *مجلة أبحاث قانونية وسياسية، جامعة جيجل، الجزائر، المجلد 06، العدد 02.*

- Emmanuel Blanchard, (2018), *Histoire de L'immigration algérienne en France (1900-1990), Paris: La Découverte* .

From 'Islam and the West' to 'Islam in the West': The New Visibility of Western Muslims Post-9/11 and the Myth of Islamization

من 'الإسلام والغرب' إلى 'الإسلام في الغرب': المرئية الجديدة للمسلمين في الغرب بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001 و أسطورة 'الأسلمة'

د. محفوظ على زوي، جامعة 8 ماي 1945 قالمة- الجزائر
Email: mahfoud_alizoui@yahoo.com

Abstract:

Muslims in Western Europe and North America acquired unprecedented visibility in the aftermath of the September 11, 2001 watershed events. This historic transformation in the Muslim presence in the West has brought about tremendous implications for both the Muslim communities and the host societies. The present paper argues that while this new visibility has had negative effects as it nurtured myths about an imminent Muslim takeover of the West, it also opened up new windows of opportunity for Muslims to challenge the authenticity of these myths and to clear the misconceptions associated with their religion

Keywords: Western Muslims, 9/11, visibility, Islam, Islamization.



اكتسب المسلمون في دول غرب أوروبا و أمريكا الشمالية مرئية غير مسبوقة عقب هجمات الحادي عشر من سبتمبر سنة 2001 , وقد كان لهذا التحول التاريخي للتواجد الإسلامي في الغرب انعكاسات كبيرة على الجاليات المسلمة و المجتمعات الغربية على حد سواء . تحاجج هذه الورقة البحثية بأنه بالرغم مما لهذه المرئية الجديدة من آثار سلبية مرتبطة أساسا بتغذية مجموعة من الأساطير حول السيطرة الوشيكة للمسلمين على الغرب, إلا أنها فتحت نوافذ جديدة لمسلمي الغرب من أجل دحض تلك الأساطير وتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام

الكلمات المفتاحية: المسلمون الغربيون ، 11 سبتمبر، الرؤية ، الإسلام ، الأسلمة.



Introduction:

Despite the centuries-long presence of Islam in the West, the Muslim communities in Europe and North America had remained relatively invisible prior to the twentieth century. Due to the historical rivalry between Christendom and Islam and the negative perception of the new religion, these communities have often faced hostility and discrimination and Islam is not yet fully recognized as a

'Western religion'. As curiosity about Islam and its rising international profile mounted in Europe and the USA in the aftermath of 9/11 and 7/7, these Muslim communities were suddenly brought to the spotlight of public, political, media and academic attention.

Hence, their status has been transformed from a largely marginalized and relatively invisible minority during most of the previous century, to hyper-visible "suspect communities" by the turn of the twenty first century (Pantazis & Simon, 2009). Due to this new visibility, Muslims have no longer been perceived as a security threat only but also as a cultural threat. Moreover, the far-right and sections of the media propagated the myth of 'the Muslim tide '--a hypothesis which holds that the Muslim demography is growing so fast that Muslims will become a majority in the West in the space of few decades and will subsequently overwhelm the fast-shrinking host population with their alien values (Saunders, 2012).

Nonetheless, this paper argues that the burst of public and scholarly interest in Islam within Western countries in the aftermath of 9/11 has also some potential positive implications for the image of Islam as the light shed on Muslims at the dawn of the new century gave them a historic opportunity to present their own narrative to the Western publics countering the anti-Muslim propaganda, refute the myths about their communities, and correct the misconceptions about their faith.

1-A New Presence of Islam in the West:

Encounters between Islam and the Christian West go back to the eighth century. The centuries-long rule of Muslims in the Iberian Peninsula in particular had a lasting impact on Western civilization. Since the collapse of Muslim rule there at the end of the 15th century, the Islam-West relationship has often been depicted in terms of suspicion, rivalry and confrontation. Muslims have lived as minority groups in most of the countries of Western Europe and north America, but their presence has remained relatively invisible during much of the time period prior to the 21st century, and hence their experiences attracted little interest at both academic and policy levels.

It was the watershed events of September 11, 2001 in America and the subsequent “global war on terror” that brought Muslims living in the West under unprecedented scrutiny (Cesari, 2010). Since then, mainstream societies, academics, and decision makers in Western countries started devoting a great deal of attention to the increasing sociopolitical visibility of Muslim communities. The rising public profile of the Islamic faith in Europe and the United States contributed to this unprecedented interest in Islam and Muslims living the West.

Hence, debates on Islam, its association with terrorism and its compatibility with democracy and the Western way of life have taken centre stage in media, popular, and scholarly discourses in the USA and many Western European countries and kept intensifying with every major event relevant to Muslims. Meanwhile, Western Muslims have become an important factor in any debate

involving the Islam-West dichotomy, interfaith dialogue, and the future coexistence between Islam and the Western world.

Complex dynamics contributed to the new prominence of Islam and Muslims in the Western public space and in media and political debates as well. The increasing curiosity about the faith of the perpetrators of terrorist attacks on major Western capitals among the general public and scholars in the USA and Europe led to more willingness to learn about the 'foreign religion' and to get to know its adherents. The increased interest in Islam both locally and internationally and the explosion of research into the experiences of Muslim communities in the West were also the result of constructing Islam as a 'violent religion' and Western Muslims as a security and cultural threat. Hence, issues and events involving Muslims have come to the fore in Western news agenda and academia across various disciplines.

News reporting controversial incidents and violence associated with Western Muslims such as France's ban on full-face veils and the *Burkini*, Switzerland's ban on mosque minarets' construction, controversies over the Danish cartoons of the prophet Muhammad (peace be upon him), the proposal to build a mosque at Ground Zero in New York and the attacks on the French magazine *Charlie Hebdo* have captured media headlines and international news stories in the period following 9/11.

At the political level, the fear of radicalization led some governments in Europe and North America to perceive Muslims through security lenses. New laws, programmes and policies have been adopted with the aim of combating terrorism and halting radicalization within Western Muslim communities. The new anti-terror legislation constituted a legal backlash as it brought Muslims under scrutiny and made them feel under surveillance.

Muslims also become more visible to mainstream populations. One of the consequences of this visibility is that the general public in Europe largely overestimate the size of the Muslim demography and its proportion to the total population. The Ipsos Perils of Perception Survey 2016 found that out of the list of all 20 countries where respondents overestimated the Muslim population by more than 10%, 12 were European. When asked about their estimation about the proportion of Muslims in 2020, the top 20 countries where respondents overestimated the Muslim population again were in majority European. The average guess in France was that 40% of the population would be Muslim in 2020 when the actual projection was 8.3%. Italy came third with 26% overestimation, and Belgium and Germany fourth with 24% overestimation (Bayrakli and Hafez, 2017, pp. 6-7).

A similar survey revealed that Britons largely overestimate the proportion of Muslims in the population thinking the Muslim community form up to 21 per cent of the population, while they actually form around 5 per cent only (Ghani, 2015). It can be argued that this overestimation is connected to growing concerns over Muslims' visibility and unfavorable views towards them. It is also a testimony that the 'Muslim Tide' hypothesis has gained increasing acceptance among the general public in Europe.

The association of Islam with the terrorist attacks that targeted the USA and subsequently other European countries led to a violent anti-Muslim backlash in these countries. As a matter of fact, perceptions of Islam and attitudes towards its adherents had never been much favorable in the West. For the most part of their presence in the West, Muslims had been perceived as the 'Other' based on the *Orientalist* paradigm (Said, 2003). In the post 9/11 era, Islamophobia has dangerously become mainstream in many instances within the terror-panic climate. The immensity of hostility and hate crimes against Muslim individuals, their mosques and community centers since 9/11 remain unprecedented

The anti-Muslim backlash triggered a kind of identity reassertion among many Muslims living in the West. Targeting Muslims on the basis of their religious affiliation contributed to the strengthening of their sense of religious identity. There is evidence that the sense of victimhood brought upon by increased Islamophobia and discrimination against Muslims all but encouraged the strengthening of communal sentiments and solidarities among them. As a matter of fact, the rise of religion as the primary means of identification clearly becomes a defining characteristic of Western Muslims in the post9/11 era (Nagra, 2011).

The feeling of being besieged brought upon by increased Islamophobia and discrimination strengthened the communal sentiments and increased the sense of belonging to one *Umma* among Muslims living in the West. It is well-established that the anti-Muslim backlash encouraged the forging of a stronger Muslim identity. Several studies confirm that "Muslim" identity has clearly taken precedence over ethnic and other minority allegiances in the post-9/11 era in countries like Britain. This may give credit to the suggestion that Muslims in some Western countries have undergone reactive identity formation in the era that followed 9/11 in many Western countries (Nagra, 2011).

Research on ethnic minorities suggests that reactive identity formation occurs because it enables youth from ethnic groups to cope with discrimination (Portes & Rumbaut, 2001). People, however, may develop reactive identities when any one of the various dimensions of their identity is highlighted and challenged, be it gender, race, class or religion. As Nagra illustrated: "in response to discrimination, religious identity may become reactive in the same manner as ethnic identity" (429). Hence, in order to cope with the discrimination and to resist the negative images of Islam perpetuated after 9/11, many Muslims have strengthened their Muslim identity through a reassertion of faith and active participation in the Muslim community (Nagra, 2011, p. 433).

This reassertion of Muslim identity has taken different forms. There is a kind of consensus among scholars that, for example, (although there are no statistics to hand) increasing numbers of women from Muslim communities in Britain took up wearing Islamic dress (mainly the headscarf/ *hijab* and to a lesser extent the full face veil/ *niqab*) after 9/11 as an assertion and banner of their religion in the face of rising hostility and Islamophobia (Wadia, 2015, p. 85)

A study by Khursheed Wadia found that "a significant number of British Muslim women who wear *hijab* do so because it allowed them to assert their

Muslim identity and the politics which flowed from it." One respondent in Wadia's study noted: " Back in those days [before 9/11] when people saw a girl wearing the *hijab* , everybody used to think 'poor her, her parents must be very strict '… now it's almost a political statement for these girls to wear the *hijab*" (Wadia, 2015,p.86).

There is also evidence that mosque attendance and participation in activities of Islamic centers among Muslims have increased considerably in the era following the 9/11 attacks. Data from a 2011 comprehensive study of mosques in the USA indicates that both the number of mosques and mosque participants grew significantly since the previous count in 2000. A total of 2,106 mosques were identified in 2011—representing a 74% increase from 2000 when a total of 1,209 mosques were counted and the number of mosque participants or "mosqued Muslims" has increased from 2 million in 2000 to over 2.6 million Muslims in 2011 (Bagby,2011,p.7).

2-The Muslim Tide

'By now, the whole question of the Muslim presence in Europe has assumed a new aspect. Thanks to migration and demography on the one hand and a dwindling European birthrate on the other, the Muslim proportion of the population is increasing steadily. The Syrian scholar Sadiq AL-Azm remarked in an essay that the only question that remains regarding the future of Europe is, "Will it be an Islamized Europe or Europeanized Islam?" This question is very close to be answered.' (Lewis & Churchill, 2012, p. 91)

This quote summarizes the stance of a group of Western intellectuals and sections of the media promoting the claim that the Muslim population in Western Europe and the USA has been growing in an extraordinary rate that would eventually make them a majority in the space of few decades. The 'Muslim-Tide' hypothesis promotes the idea that Islam will threaten the core values of the West and its adherents will subsequently overwhelm the fast-shrinking European population with their alien values and *sharia* law (Saunders, 2012).

Bernard Lewis is one of the most prominent Western scholars who have been propagating, through their scholarship, the myth that the West is about to be swept away by a "Muslim tide". Theorizing that Islam is inherently incompatible with Western secular values and that a clash of values is unavoidable, Lewis is among the leading intellectuals who laid the foundations for anti-Muslim fear in the contemporary Western world. In many of his works, he warned of an imminent Muslim takeover of the European continent. This 'propaganda' intensified amid the security climate that resulted from the 'war on terror' and had a profound impact on public attitudes about Muslims and Islam. It has arguably contributed to the mainstreaming of Islamophobia in the period following the 9/11 attacks (Saunders, 2012).

The 'myth of Islamization' constitutes another dimension of the post-9/11 anti-Muslim backlash--the campaign which propagates that Muslims do not pose a problem just because of the danger of radicalization but also because their new visibility in the public space post-9/11 is transforming the cultural and religious

landscape of many Western countries. It represents a vision of the future of the West that becomes propaganda of some right-wing groups and media outlets in the post-9/11 era. This discourse about a mysterious future of Europe and the West threatened by an alien religion, hatful of the West has worryingly gone mainstream and represents a fundamental source of fear and concern across the West.

The warnings of politicians, intellectuals, and journalists, who make part of this propaganda campaign, focus mainly on three elements: the security threat posed by radical Muslims; the threat to Western culture and identity due to a failure of integration; and the demographic growth of the Muslim population with high fertility rates. This propaganda helped creating a general climate of fear that was exploited by the extreme right to make some gains and advance their agendas contributing to the erosion of the civil rights and freedoms of millions of Muslims. The fact that hostility towards Islam and Muslims in the West is not the product of 9/11 as it has deep roots in Western history has facilitated their task (Abbas, 2004, p. 28) .

Discourses based on the myth of an imminent Islamization of the West, which becomes so popular in the media, academia, and even political circles, have been gaining increasing acceptance among the general public. In 2017, Charles Gave, an economist and political commentator, published projections about the Muslim population within the space of two generations, which he claimed were drawn from a demographic study. He came to the conclusion that within 40 years, given current demographic trends, the white population in France and the rest of old Europe will recede, creating a Muslim majority (Scarborough, 2017).

While associating Islam with terrorism is apparently the main reason behind the sharp rise in Islamophobia since the dawn of the new century, it can be argued that the new demographic and cultural visibility of Muslims in the West due to immigration, high birth rates and big numbers of converts have also contributed to growing concerns among the mainstream populations (Vertovec, 2002, pp. 32-33). Particularly the way large sections of the media and rightwing political groups played on the revealed figures and projections about the size of the Muslim populations in Europe helped creating a sociopolitical climate antagonistic to Islam and Muslims.

There is evidence that many Europeans, for instance, conceive of the growth of the Muslim population as a threat to their security and national identity. A study showed that a majority of Britons, for instance, would be concerned if a mosque were built in their area, while only fifteen per cent expressed similar qualms about the opening of a church (Britain Divided, 2010).

Academic and media discussions showed interest in understanding the new dynamics brought about by the new presence of Islam and Muslims in Europe and America post-9/11.The specificities of each Western country gave prominence and priority to particular issues. While in France, for instance, the Muslim veil issue took the lion’s share, the British initiated a large debate to reassess the policy of multiculturalism and its relevance to the new context. The security issue, however, has been a common challenge for almost every nation in the Western hemisphere.

3- New 'Suspect Communities'

The introduction of a series of anti-terror legislation and programmes such as the PATRIOT Act in the USA and the Prevent agenda in Britain nurtured the anti-Muslim backlash and led to the construction of Muslim communities in the West as a security threat. In Britain, for example, 7 major counter-terror laws were introduced between 2001 and 2014 (The Muslim Concil of Britain, 2016). These laws along with the new political rhetoric have identified Muslims as the ‘new suspect community' (Pantazis & Pemberton, 2009).

The new laws, passed urgently to halt terrorism, and the increased police repression left a profoundly damaging impact on the Muslim communities, organizations, and charities. While hostility towards Islam and Muslims has deep roots in Western history, 9/11 marked the beginning of a new era in the history of Muslim presence in the West, characterized mainly by an anti-Muslim backlash unprecedented in scope and immensity. In the new century, Muslim minorities in the West are often perceived to be not only the ‘most problematic’ but also the ‘enemy within’. As a consequence of securitizing the debate on Muslims, a not insignificant section of Western societies connect Islam to terrorism and perceive Muslims to be hatful of the West and potentially violent.

However, research revealed that in everyday life, Muslims’ interactions with their fellow citizens have been quite ordinary. The fear of Islam, therefore, seems to be much more abstract than related to concrete experiences. This is underlined by the fact that in areas and cities where very few Muslims live, rejection of Muslims is considerably more widespread than in regions of dense Muslim population where Muslims have more interaction with the mainstream population in a daily basis (Rohe, 2010, p. 232).

In the years following the attacks of 9/11 and the subsequent bombings in Madrid and London, Muslims' security and life conditions have been deteriorating steadily due to the abridgement of their civil liberties. Islamophobia has become a real everyday live experience for Muslims as they become the subject of abuse in the workplace, on the street, and at school. They have been subject to violence and increasing hate crimes ranging from verbal abuse to arson, death threats and even murder. Becoming the subject of violence and unfair discrimination, Muslim individuals and communities felt more exclusion and alienation.

In Germany, the inclusion of Islamophobia as a subcategory of “hate crimes” in the official police statistics of “politically motivated criminal acts;” helped providing a clearer image about the state of this phenomenon which is missing in most Western countries. In the year 2017 alone, around 71 attacks on mosques and 908 crimes against German Muslims ranging from verbal to physical attacks and murder attempts were registered (Bayrakli and Hafez, 2018, p. 8).

The country reports of the *European Islamophobia Report* (*EIR) 2016*, which covered almost all the European continent from Russia to Portugal and from Greece to Latvia, found that the level of Islamophobia in fields such as education, employment, media, politics, the justice system and the Internet is on the rise. The report noted that: “Islamophobia has become a real danger to the foundations of

democratic order and the values of the European Union. It has also become the main challenge to the social peace and coexistence of different cultures, religions and ethnicities in Europe" (Bayrakli and Hafez, 2017, p. 5).

Public opinion on Islam and Muslims gets more and more negative with each new survey and hate crimes against Muslims and their mosques have also been increasing. Polls showed increasing willingness among many Europeans to state their unfavorable views of Muslims openly especially after the rise of ISIS and the reinvigoration of some far right groups. Many of the hate crimes committed against Muslims are also motivated by the media's Islamophobic portrayal of Muslims as terrorists and subversives. A 2010 study in London, for instance, revealed that the rise in hate crimes targeting Muslims is encouraged by mainstream politicians and sections of the media, which frequently portrays Muslim London as 'Londonistan' (Dodd, 2010).

This climate was suitable to the rise of a new kind of extreme right, anti-Muslim bodies. As a matter of fact, European far-right parties had begun to poll well by focusing on public anxiety over immigration, integration, and law and order even prior to 9/11. The events of 2001 provided them the impetus to expand their agenda and connect with larger number of citizens concerned about security and national identity. The likes of the Party for Freedom in the Netherlands, the National Front in France, PEGIDA in Germany and the English Defence League based their agenda on presenting Islam and Muslims as a threat to national security and social cohesion.

Research showed that public opposition among Europeans to any further migration from predominantly Muslim countries is not much different from that in America. In a survey of more than 10,000 people from 10 different European countries carried out by the Chatham House Royal Institute of International Affairs, the majority of respondents agreed to the statement 'All further migration from mainly Muslim countries should be stopped'. The rates ranged from 71% in Poland, 65% in Austria, 53% in Germany and 51% in Italy to 47% in the United Kingdom and 41% in Spain. In no country did the percentage that disagreed with the statement surpass 32%" (Goodwin et al.,2017).

The anti-Muslim backlash post-9/11 and the high levels of Islamophobia might be the worst in the history of Western Muslims as it caused them a lasting damage. Yet, it seems that the new visibility of Islam and Muslims accompanying the attack on Muslims, and the feeling of being victimized provided them a catalyst for cultural, social, and political empowerment. The backlash against Muslims and the new visibility their acquired stimulated them to push back defending their communities and their religion and provided a new drive to make Muslim attitudes and positions clear regarding stereotypes, misunderstandings, and misjudgments pertaining to democracy, radicalization, loyalty, and citizenship.

4- Windows of Opportunity

Given the immensity of the backlash against Western Muslims and their representative organizations in the post-9/11 era, it was expected that they would

opt for hiding and isolation. On the contrary, in America and many countries of Western Europe, Muslims stood up to push back forcefully against hatred and discrimination and to make their voices heard. It is true that in the immediate aftermath of 9/11, which took Muslims by surprise, they had first gone through a period of extreme fear, which pushed them to the defensive and paralyzed their action for a while. Nevertheless, the attack on Muslims and the ensuing visibility they acquired provided a significant driving force for them to change their status from marginalized minorities to strong and organized claimants of civil rights and freedoms.

There are indications that the new visibility of Western Muslims raised the potential of favorable changes in the status of the underprivileged Muslim minority groups and to public perceptions of their faith and culture. Muslim organizations recognized that they could invest in this visibility and the new interest of governments in their communities to have a stronger voice, give a better image of Islam and Muslims and refute the stereotypes about them.

The big increase in hate crimes that targeted members of the Muslim population or their places of worship and gathering made them realize they are a vulnerable community. This feeling of fear and anxiety brought Muslims from different ethnic and national origins together seeking support from within their communities. Targeting Muslims on the basis of their religious affiliation helped strengthening their sense of identity. They showed more willingness to identify as 'Muslim' tending to demonstrate religious symbols, attend mosques more regularly, and participate in activities in Islamic centers. A possible reason behind this identity reassertion is that “intolerance of cultural difference anywhere leads to reaction, sometimes to the embrace of Islam partly as a form of rebellion or as self defense” (Raja, 2012).

For Western governments, while the new visibility of Muslims and Islam put the long established principles of freedom, tolerance, human rights, and multiculturalism to the test, it also increased curiosity and provided an opportunity to understand the faith of a minority, which becomes an essential part in the fabric of many Western societies. The rise of terrorism and the fear of radicalization among Muslim youth have induced some governments to reconsider the importance of more involvement with the Muslim communities and trying to understand them better. They started reaching out to Muslim communities to look for ‘moderate’ Muslim leaders to act as interlocutors.

Some of these governments have already made good progress in building bridges with Muslim communities and their representative bodies. Others need to acknowledge the fact that Islam should no longer be looked at as an alien religion of immigrants, but a growing Western religion whose adherents are citizens with equal rights and responsibilities. The various projections about the considerable growth in the size of their population in the coming decades should rather be perceived positively especially that Muslims today form an undeniable part in the fabric of Western societies and their contribution to the building of the future of the host countries will be crucial.

Moreover, Muslim minorities in the West can contribute to the promotion of the cause of peaceful coexistence worldwide. The British sociologist and expert in European Islam, Professor Tariq Modood argued that Muslim communities: "can be a crucial source for dialogue and bridge-building. Muslims in the West can be part of transcultural dialogues, domestic and global, that might make our societies live up to their promise of diversity and democracy" (Modood, 2002, p. 125).

The post-9/11 visibility of Muslims has also become a tool to promote the Muslim faith by giving a better image of it. Due to this new visibility, Millions in Europe and American have been introduced to Islam for the first time, and many of them chose to convert to Islam. Despite the lack of precise data on conversion to Islam in the West in the post 9/11 era, there are indicators suggesting the number of converts has increased, and it is generally recognized that Islam is the fastest growing religion in Europe (Hobbs, 2009, p.84). The situation does not seem different in the USA. In a Pew research survey conducted in 2017, nearly half of US-born Muslim population surveyed said they are converts (Pew, 2017, p. 119)

In *Western Muslims and the Future of Islam*, Tariq Ramadan who firmly established himself as one of Europe's leading Muslim thinkers went further anticipating that: "Western Muslims will play a decisive role in the evolution of Islam worldwide because of the nature and complexity of the challenges they face, and in this, their responsibility is doubly essential" (Ramadan, 2004, p. 225).

Muslims, however, need to manage their visibility in a way that benefits their struggle to empower their communities. One leader of Muslims in a European country expressed his vision about the future role Muslims should play and the strategies they should adopt:

It seems that one strategic choice is for Muslims to be doing much more for the moral and social upliftment of society as a whole, rather than just for their own communities. It will mean replacing an inward-looking approach with greater engagement as individuals in the civil society around us.. However the change also needs a greater level of self-confidence .We should overcome the fear of disappearance and cultural dilution and be more willing to mix and befriend. (Sacranie, 2006)

The new visibility of Western Muslims, therefore, opened up for them a new window of opportunity to present their own narrative to the general public in the West and to defend themselves and their religion. It also turned them into main actors in the Islam-West debate. With the increase in the international profile of Islam, their responsibility to give a better image of Islam and Muslims and to play the role of bridge building between the two civilizations also increased**.**

Conclusion

Drastic changes have affected the lives of Muslims in the West as they have been brought to the forefront of public attention in the era following 9/11 and the subsequent rise in terrorist attacks. Becoming more visible than ever before, they found themselves in an odd situation. While their new visibility triggered increased Islamophobia and caused very negative reactions at state and public levels, it also

helped them acquire a stronger voice and increased their potential to play the role of a bridge between the Muslim world and the West.

Having become visible demographically, culturally, and even politically, Muslim communities felt a responsibility to invest properly in their visibility. It allowed them to voice their concerns and attract more attention to their grievances which is a necessary step towards empowering their disadvantaged communities. It also gave them strength to defend themselves against the charge of terrorism, separatism and disloyalty to their Western governments and to contribute to the building of a better future of their host countries.

Muslims in the West should give up their reluctance to engage the civic and political arena especially that they are going through a tense but crucial stage in their quest for social and cultural empowerment. They are undergoing a period of hard transition, where their success in developing a positive, participatory presence in the social, economic, and political life of the host Western countries they live in, and presenting a better image of their faith becomes vital to their future, the future of the West, and even for the evolution of Islam worldwide.

Empowering the Muslim communities in the West is a necessary step to overcome the mounting anti-Muslim wave in the West --the biggest challenge facing Muslims today. It is hence imperative for Western governments to review policies and initiatives that proved counterproductive; policies that aimed at fostering security but led instead to more distrust, insecurity and social disharmony. A visible Islam in the West should in no way be perceived as a threat. Indeed, it can be an asset to interreligious peaceful coexistence, and political stability in pluralistic societies. Deepening the values of human rights, peaceful coexistence and religious pluralism and restricting the spread of Islamophobia or at least preventing its institutionalization remains a vexing challenge.

Works Cited

Abbas, T. (2004). After 9/11: British South Asian Muslims,Islamophobia, Multiculturalism,and the State. *The American Journal of Islamic Social Sciences , 21* (3), 26–38.

Bagby, I. (2012). *The American Mosque 2011 Report Number 1 from the US Mosque Study 2011: Basic Characteristics of the American Mosque, Attitudes of Mosque Leaders,* Council on American-Islamic Relations (CAIR).

Bayrakli, E. & Hafez F., (eds) (2017). *Eoropean Islamophobia Report 2016.* Istanbul: SETA.

Bayrakli, E. & Hafez F., (eds) (2018). *Eoropean Islamophobia Report 2017.* Istanbul: SETA.

Britain Divided by Islam, Survey Finds. (2010, Jan 11). Retrieved Feb 6, 2011, from The Telegraph, www.telegraph.co.uk/news/religion/6965276/Britain-divided-by-Islamsurvey-finds.html.

Cesari, J. (2010). *Muslims in the West after 9/11: Religion, Politics, and Law.* New York: Routledge.

Dodd, F. (2010, January 28). *Media and politicians 'fuel rise in hate crimes against Muslims*. Retrieved February 10, 2011, from The Guardian, http://www.guardian.co.uk/uk/2010/jan/28/hate-crimes-muslims-media-politicians.

Ghani, A. (2015, February 11). *Muslim population in England and Wales Nearly Doubles in 10 Years*. Retrieved June 3, 2015, from The Guardian, www.theguardian.com/world/2015/feb/11/muslim-population-england-wales-nearly-doubles-10-years

Goodwin, M. et al., (2017, Feb7). What Do Europeans Think About Muslim Immigration? Retrieved may 8, 2019, from https://www.chathamhouse.org/2017/02/what-do-europeans-think-about-muslim-immigration

Hobbs J.(2009). *Fundamentals of World Regional Geography.* London: Brooks

Lewis, B., & Churchill, B. E. (2012). *Notes on a Century: Reflections of A Middle East Historian.* London: Penguin Group.

The Muslim Council of Britain. (2016, March 9). *MCB Response to the Counter-Terrorism and Security Bill January 2011*. Retrieved May 22, 2017, from The Muslim Council of Britain, www.mcb.org.uk/wp-content/uploads/2015/01/Response-to-the-Counter-Terrorism-and-Security-Bill.pdf

Modood, T. (2002). British Muslims: Within and between Islam and the West. *Global Dialogue , 4* (2), 116 - 126.

Nagra, B. (2011). 'Our Faith Was Also Hijacked by Those People': Reclaiming Muslim Identity in Canada in a Post-9/11 Era. *Journal of Ethnic and Migration Studies , 37* (3), 425-441.

Pantazis, C., & Pemberton, S. (2009). From the Old to the New Suspect Community: Examining the Impacts of Recent UK Counter-Terrorist Legislation. *British Journal of Criminology , 49* (5), 646–666.

Pew Research Center (2017,July 26).*US Muslims Concerned about Their Place in Society, but Continue to Believe in the American Dream*.

Portes, A., & Rumbaut, R. (2001). *Legacies: The Story of the Immigrant Second Generation.* NewYork: Russell Sage Foundation.

Raja, R.(2012). Muslims in Europe :A Shared Citizenship Transcending the Imposition of Cultural Homogeneity.*Policy Perspectives, 9* (2),109-141.

Ramadan, T. (2004). *Western Muslims and the Future of Islam.* Oxford : Oxford University Press.

Rohe, M. (2010). Country Reports: Germany . In J. S.Nielsen, A. Alibašić, & M. Brigitte, *Yearbook of Muslims in Europe.* Leiden: Brill.

Sacranie, I. (2006, June 4). *Secretary General's Speech The Muslim Council of Britain Annual General Meeting*. Retrieved July 10, 2011, from The Muslim Council of Britain , www.mcb.org.uk/uploads/SECGEN.pdf.

Said, E. W. (2003). *Orientalism.* London: Penguin.

Saunders, D. (2012). *The Myth of the Muslim Tide: Do Immigrants Threaten the West?* . New York: Vintage Books.

Scarborough, R. (2017, September 26). *New World Order: Muslims to be Majority in Europe within two Generations*. Retrieved January 22, 2018, from The Washington Times, https://www.washingtontimes.com/news/2017/sep/26/muslim-majority-in-france-projected-in-40

Vertovec, S. (2002). "Islamophobia and Muslim Recognotion in Britain . . Dans Y. Y. Haddad, *Muslims in the West: From Sojourners to Citizens* (pp. 19-35). Oxford: Oxford University Press.

Wadia, K. (2015). *Women from Muslim Communities in Britain: Political and Civic Activism in the 9/11 Era* . (T. Peace, Ed.) London: Routledge.

احتكاك المسلمين بغير المسلمين و أثره في اعتناقهم للإسلام -دراسة ميدانية-

The contact of Muslims with non-Muslims and its impact on their conversion to Islam - a field study-

ط.د/ محمد خرباش، جامعة تلمسان - الجزائر
mhdkharbeche@gmail.com



سعى هذا البحث إلى بيان واقع الجالية المسلمة التي تعيش في بلاد الغرب، فيما يخص علاقتها بغير المسلمين ومدى تأثيرها فيهم حتى يقتنعوا بالإسلام، كما عرّج على المسؤولية العظيمة الواقعة على عاتق مسلمي الغرب في تمثيل الإسلام أحسن تمثيل، وكذا خطورة تشويه الإسلام بأفعالهم، مما يعيق مسيرة الدعوة الإسلامية ويكونون بذلك حاجزا يمنع الناس من التنعم بنعمة الإسلام.

الكلمات المفتاحية: احتكاك، المسلمين، غير المسلمين، اعتناق الإسلام، دراسة ميدانية

Abstract:

This research sought to reflect the reality of the Muslim community living in the Countries of the West, in terms of its relationship with non-Muslims and the extent to which it affects them in order to believe in Islam, as well as the great responsibility of the Muslims of the West to better represent Islam, as well as the risk of distorting Islam by their actions, which hinders the march of Islamic da'wa and thus be a barrier preventing people from enjoying the grace of Islam.

Keywords: contact, Muslims, Non-Muslims, Converting to Islam, Field study.



مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فقد كنت أتساءل منذ أن عُيِّنتُ إماما في مسجد الرحمة بمدينة Vesoul الواقعة بشمال شرق فرنسا، عن السبيل إلى دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، علما أنّ الأئمة المنتدبين من طرف وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائرية إلى مسجد باريس الكبير، ومن ثَم يُوزَّعون على مساجد فرنسا، يقتصر غالب عملهم داخل المساجد ومع الجاليات المسلمة من مختلف الجنسيات، ومهامهم في المساجد التي يؤمنون الناس فيها بفرنسا، لا تختلف كثيرا عن مهامهم في مساجدهم التي كانوا يؤمون الناس فيها في الجزائر، من

إقامة الصلوات الخمس، وخطبة الجمعة -باللغتين- والأعياد، والدروس اليومية والأسبوعية، وتحفيظ القرآن الكريم، والصلاة على الجنائز، وعقود القران، ومجالس الصلح...إلخ.

ولا يكون اللقاء مع غير المسلمين إلا في الأماكن العامة غالبا كالأسواق التجارية، أو المؤسسات الإدارية، أو الأندية الرياضية ... **ولا يسمح بممارسة الدعوة في هذه الأماكن**، وأحيانا في بعض المجالس الخاصة كالدعوات العائلية، أو اللقاءات بين الزملاء، أو ولائم الزواج، والتي تكتسي أحيانا ببعض النقاشات ومحاولة إيقاظ الضمير.

ما يجعل دعوة الإمام المبتعَث محصورةً غالبا في أهل المسجد، وإن توسّعت شيئا ما فستشمل أحيانا أفراد الجاليات المسلمة ممن لا يرتادون المسجد، وهذا الذي جعل السؤال التالي يتردّد في خاطري، وربما أفصحتُ عنه في بعض المجالس التشاورية الخاصة وهو: **ما السبيل إلى إيصال نعمة الإسلام إلى هؤلاء الذين حُرموا منها؟** خاصة في ظل التشويه الممنهج لصورة الإسلام، والتخويف المتزايد منه في بلاد الغرب.

ومع مرور الأيام والشهور بدأت خيوط الإجابة عن السؤال تتبين، وإذا بسحُب الإشكال تكاد تنقشع، وذلك بعد الطلبات وأخذ المواعيد، من طرف غير المسلمين (أغلبهم فرنسيون) لاعتناق الإسلام ونطق الشهادتين، وذلك ما يحصل بمعدل شخص واحد شهريا، وهذا بطبيعة الحال على مستوى المسجد الذي أؤم فيه المصلين فحسب.

وكنت أبحث في كل مرة عن سبب رغبة كل واحد من هؤلاء في اعتناق الإسلام، فأجد أحدهم له زميل في الدراسة، وآخر له صديق في العمل، وأخرى تعرّفت على شاب مسلم أرادها زوجة فأقبلت على دين زوجها المستقبلي والعكس ... وهكذا، إنها إذن الممارسات الاجتماعية، والعلاقات الأسرية، وبعبارة أخرى: **هو احتكاك المسلمين بغير المسلمين.**

أولا- مدخل تمهيدي:

قبل الولوج إلى موضوع البحث أحببت أن أقدم بين يديه بمسألة عيش المسلم في بلد غير إسلامي؛ لأنّ موضوع البحث يرتكز أساسا عليها، وقد نصّ الفقيه أبو العبّاس أحمد بن يحيى الونشريسي -رحمه الله تعالى- على أنّ المسألة التي بحثها الفقهاء القدامى هي حكم من أسلم في بلاد الكفر ولم يهاجر إلى بلاد الإسلام، أمّا مسألة مسلمٍ ينتقل من بلاد الإسلام للعيش في بلاد الكفر، فقد كانت مفقودة في صدر الإسلام وعزّته، ولم تحدث على ما قيل إلا بعد مضيّ مئين من السنين، وبعد انقراض أئمة الأمصار المجتهدين، فلذلك لا شكّ لم يتعرّض لأحكامها الفقهية أحد منهم (أ. الونشريسي 1996، ص32).

وإن كان الشيخ أبو الوليد بن رشد الجدّ قد بنى حكم المسألة الثانية قياسا على الأولى بالأولوية فقال:" فإذا وجب بالكتاب والسنة وإجماع الأمة على من أسلم ببلد الحرب أن يهاجر ويلحق بدار المسلمين، ولا يثوي بين المشركين ويقيم بين أظهرهم، لئلا تجري عليه أحكامهم، فكيف يباح لأحد الدخول إلى بلادهم؛

حيث تجرى عليه أحكامهم في تجارة أو غيرها، وقد كره مالك - رحمه الله تعالى - أن يسكن أحد ببلد يُسَبُّ فيه السلف، فكيف ببلد يُكفر فيه بالرحمن وتعبد فيه من دونه الأوثان، لا تستقر نفس أحد على هذا إلا وهو مسلمُ سوءٍ مريضُ الإيمان" (ابن رشد 1988، 153/2).

وهذا الرأي الذي ذهب إليه جمهور الفقهاء، لكن ما جنحت إليه بعض المجامع الفقهية في هذا العصر هو تفصيل المسألة إلى ثلاثة أحكام، وذلك ك:

1-الموسوعة الفقهية الكويتية: التي فصّلت في أحكام الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام على ثلاثة أنحاء:

أ - من تجب عليه الهجرة: وهو من يقدر عليها، ولا يمكنه إظهار دينه مع المقام في دار الحرب، وإن كانت أنثى لا تجد محرما، إن كانت تأمن على نفسها في الطريق، أو كان خوف الطريق أقل من خوف المقام في دار الحرب، لقوله -تعالى-: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا** ٩٧﴾ [سورة النساء: 97] ، وفي الآية وعيد شديد، والوعيد الشديد لا يكون إلا في ارتكاب المحرم وترك الواجب.

ب - من لا هجرة عليه: وهو من يعجز عنها، إما لمرض، أو إكراه على الإقامة في دار الكفر، أو ضعف كالنساء، والولدان .لقوله تعالى: ﴿ **إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا** ٩٨﴾ [سورة النساء: 98].

ج - من تستحب له الهجرة: ولا تجب عليه، وهو من يقدر على الهجرة ويتمكن من إظهار دينه في دار الحرب، فهذا يستحب له الهجرة ليتمكن من الجهاد، وتكثير المسلمين.

د - وزاد الشافعية قسما رابعا: وهو من يقدر على إظهار دينه في دار الحرب، ويقدر على الاعتزال في مكان خاص، والامتناع من الكفار، فهذا تحرم عليه الهجرة، لأنّ مكان اعتزاله صار دار إسلام بامتناعه، فيعود بهجرته إلى حوزة الكفار، وهو أمر لا يجوز، لأنّ كل محل قدَر أهله على الامتناع من الكفار صار دار إسلام (الموسوعة الفقهية الكويتية 1983، 206/20-207).

2- المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث: قرّر تقريبا مثلما جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية:

- متى وُجد الأمن للمسلم في نفسه ودينه في بقعة من الأرض، ينال فيها حقوقه التي تمكّنه من ممارسة شعائر دينه، دون إضرار به، فإقامته في تلك البقعة تتردد بين أحكام ثلاثة حسب مقتضيات الحال:

أ- الجواز، وذلك في حالة تساوي إقامته فيها مع إقامته في غيرها.

ب- الاستحباب، وذلك في حالة تمكنه من المشاركة الإيجابية في المجتمع والتعريف بمحاسن دينه ومكارم الأخلاق والقيم الفاضلة، بأكثر مما يكون في غيرها.

ج- الوجوب، وذلك في حالة ما إذا ترتب على هجرته ضرر أو فساد محقق، وكان قادرًا على رفعه وردّه، أو كان في بقائه تحصيل مصلحة لا تتحقق إلا بذلك.

- إنّ الهجرة من مكان إلى آخر بحسب مفهومها الشرعي ليست مطلوبة شرعًا إلا إذا خاف المسلم على دينه، وأوذي بسبب ممارسة شعائر دينه، وتضرر بذلك في نفسه أو أهله أو ماله (قرارات الدورة السادسة عشرة 13-7 جمادى الآخرة 1437هـ/ 3-9 يوليو 2006م، 3/16).

ثانيا-المسلمون في المجتمع الغربي وتأثيرهم في غير المسلمين:

إنّ احتكاك المسلمين بغير المسلمين في بلاد الغرب، يكون في الأحياء الشعبية والمدن الكبرى، أما المدن الصغرى والأرياف تحديدا، فيقل فيها الاحتكاك وتجد في أهلها غالبا انزواءا وانغلاقا على بعضهم، إن لم نقُل نظرةً سلبية عن الأجانب عموما ولو للأوروبيين من غير أهل بلدهم.

والغالب أنّ المسلمين هم الذين يتأثرون بغير المسلمين بحكم أنهم الأغلبية وهم السكان الأصليون ... لكن قد يحصل العكس، فيتأثر غير المسلمين بالمسلمين.

وبعد تفكير عميق في سبل ترشيد هذا التأثير وجعله إيجابيا في صالح الدعوة الإسلامية، تولّدت لديّ قناعة مفادها: أنّ أبناء المسلمين الذين يعيشون في بلاد الغرب، هم من يجب أن يقوموا بإيصال نور الإسلام إلى الذين يحتكون بهم من غير المسلمين، لذلك لابد أن يحظَوْا بعناية خاصة، وأن يكون السعي حثيثا على رفع ثقافتهم الدينية، وتطوير مهاراتهم التواصلية، ليكونوا سفراء للإسلام في مختلف مواقعهم المستقبلية، فيُرغِّبوا الناس في اعتناق الإسلام بأفعالهم قبل أقوالهم، ولا يشترط أن يبلغوا مقاما رفيعا في العلم الشرعي، بل إنّ أقلّ قدر من المعرفة الدينية قد يكون سببا في هداية شخص، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-:**"بلغوا عني ولو آية"** (البخاري، صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم 3461 2002)، وفي هذ الأمر النبوي: تكليف وتشريف وتخفيف، تكليف بقوله -صلى الله عليه وسلم: **"بلغوا"**، وتشريف بقوله: **"عني"**، وتخفيف بقوله: **"ولو آية"**.

وأرى أنّ تحميل أبنائنا هذه الأمانة الدعوية، وإشغال تفكيرهم بهذا الهم الرسالي، سيكون -بإذن الله- سببا مباشرا في تحصينهم هم أولا ضدّ ما يخشى عليهم من الانسلاخ من تعاليم دينهم، والاندماج الكامل في المجتمعات الغربية، دون تفريق بين الحسَن والقبيح، خاصة أنهم درسوا في مدارسهم، ويتقنون لغتهم، وتشبعوا بثقافاتهم، وهذا ما يرفع التحدي الذي نخوضه، فعِوض أن نبقى في خطّ الدفاع عن مقوماتنا، وتحصين هوية أبنائنا؛ أي: تطعيمهم ضدّ التأثر، نحاول أن نقوّي عزائمهم، ونرفع هممهم حتى يكونوا مؤثرين لا متأثرين.

وبعد هذا الإجمال يحسن بنا أن ندقّق شيئا ما في أنواع الاحتكاك بين المسلمين وغير المسلمين، التي رأيتُ أنها في الغالب أسبابٌ لرغبة غير المسلمين في اعتناق الإسلام وذلك فيما يلي:

1-الزمالة: سواء في الدراسة أو في العمل أو حتى في الأندية الرياضية وغيرها؛ فإنّ القرب الحاصل بين الزملاء في هذه المواقع، وأيضا طول الساعات التي يمكثونها مع بعضهم تربو أحيانا على الأوقات التي يقضيها كل واحد منهم مع أفراد عائلته، ولهذا فإنّ طول الملازمة يكشف عن الأخلاق الحقيقية لكل أحد، لأنّ تشبّع الإنسان بما ليس فيه، وتصنّعه بأخلاق لا يتصف بها سرعان ما ينكشف، لكن إذا كانت تلك الأخلاق سجيةً فيه؛ فإنّ ذلك سيجعله يكبُر في عين من يلازمه.

ومن أعظم الأخلاق التي تؤثّر في الناس عموما وفي زملاء العمل خصوصا: الانضباط في العمل من حضور ومغادرة في الوقت، وإتقان للعمل، وبشاشة عند لقاء الزملاء، وتغاضٍ عما يصدر منهم من أخطاء، وكرمٍ وبذل وسخاء، وصدق في الحديث، ووفاء بالوعد ... وترفّعٍ عن الأخلاق الدنيئة التي تنتشر في الأوساط الإدارية بالذات كالوشاية ونقل الأخبار، والتملّق للمسؤولين، والسخرية والاستهزاء بالمخطئ أو العاجز والضعيف، والتشفّي في المعاقَب، والحسدِ للمتميز والناجح ... إلخ.

فإذا كان المسلم متحليا بجميل الأوصاف سالفةِ الذكر، مترفّعا عن دنيئها، فلا بد أن يكون متميزا بين أقرانه، يحظى باحترام الجميع، ويفرض عليهم توقيره، إما حبا ومودة، أو إكبارا ومهابة.

وإذا حاز المسلم الذي له زملاء من غير المسلمين هذه المنزلة، **فما عليه إلا أن يبدي ويعيد في التأكيد على أنّ السمت الذي هو عليه، نابعٌ من تعاليم دينه،** وأنه لا يفعل ذلك رغبة في محبة أحد، ولا رهبة من عقوبة آخر، وإنما يلتزم ما ألزمته به شريعته، ويُعدّ هذا أعظم ما يقدمه من إظهار الأخلاق الإسلامية العالية، وتجسيدها على أرض الواقع، ولهذا لما سئلت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- عن خلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قالت للسائل: **ألست تقرأ القرآن؟: قال: بلى، قالت:" فإنّ خلق النبي -صلى الله عليه وسلم-كان القرآن"** (مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم 746 2006)، ومعناه:" العمل به، والوقوف عند حدوده، والتأدب بآدابه، والاعتبار بأمثاله وقصصه، وتدبره، وحسن تلاوته" (النووي 1983، 26/3)، ولو أنّ المسلم حاول أن يقتدي بالنبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا، فسيمحو بلا شكٍّ الصورة النمطية البشعة التي رسمتها وسائل الإعلام الغربية عن الإسلام والمسلمين، بإيعاز من الساسة المعادين للإسلام.

وأقل أحوال الزميل غير المسلم أن يكفّ شرّه عن المسلمين؛ لأنّه رأى نموذجا مغايرا عما سمعه، فما راءٍ كمن سمع، وليس الخبر كالمعاينة، وقد يحمله الفضول إلى إرادة التعرّف على الإسلام بنفسه، وذلك ما قد ينتهي به إلى أن يأتي إلى الإسلام راغبا.

لكن كيف سيكون الحال لو عكسنا القضية: تخيلوا زميلا في الدراسة أو في العمل أو في ناد رياضي، وأخلاقه على الضدّ مما ذكرناه فلا شكّ أنّ هذا مما سيعمّق الهوة بين غير المسلمين والإسلام؛ لأنّ هذا المسلم في نظرهم يمثّل الإسلام، وقد يجهلون أو يتجاهلون أنّه لا يمثل إلا نفسه، وأن الإسلام بريء من أفعاله براءة الذئب من دم يوسف، ف: ﴿ **لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ** ﴾ [سورة الأنعام: 164] ، لكن في الحقيقة: هذا الشخص ساهم في عرقلة الدعوة الإسلامية، وصدّ الناس عن الدخول في الإسلام بأفعاله، ولهذا يخشى عليه أن يكون من أهل هذه الآية: ﴿ **وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ** ﴾ [سورة الأعراف: 86] ؛ أي: يكون حاجزا بين الصراط المستقيم ومن:" أراد الاهتداء به، ﴿**وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ** ﴾: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعا لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لنصرتها والدعوة إليها والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها، الصادين الناسَ عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله ومحادة لله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها" (السعدي 2000، ص249).

ويا للأسف فكثير من أبناء المسلمين في بلاد الغرب من هذا الصنف الذي لا يجني على نفسه فحسب، بل يساهم بقدر كبير في عزوف كثير من الناس عن الدخول في الإسلام، وأحيانا تكون أفعاله محفّزا للبعض لمعاداة الإسلام ومحاربته.

وفي ختام الحديث عن الزمالة أشير إلى أنّ الفئة الغالبة من المسلمين في البلدان الغربية، تنتهي علاقتهم بزملائهم من غير المسلمين بمجرد مغادرة أسوار مكان العمل أو الدراسة (محل الزمالة)، ومع ذلك قد تتطور علاقة الزمالة وتتكون بين الزميلين صداقة وصحبة، وهو موضوع الحديث في العنصر الموالي.

2-الصداقة: كثيرا ما تبنى الصداقات على المصالح، فإن تحقق النفع فالصداقة قائمة، ومتى غاب النفع تقطعت أواصرها، وهذا عامّ في صداقة المسلم للمسلم، أو في صداقة غير المسلم لغير المسلم، لذلك فإنّ من كرائم الشيم ألا تكون الصحبة مبنية على المصالح، وبغضّ النظر عن هذا؛ فإنّ صداقة المسلم لغير المسلم تكتنفها بعض الخطورة وهي أن يميل قلبه إليه ويرضى بدينه، أو يتأثر بأخلاقه وسلوكه، لذلك جاء الأمر النبوي صريحا بمصاحبة المؤمن دون غيره، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-:"**لا تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِنًا ، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ** " (أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم 4832 2009) (الترمذي، سنن الترمذي، أبواب الزهد، باب في صحبة المؤمن، رقم 2395، تح: بشار عواد معروف 1996).

وقوله -صلى الله عليه وسلم-:" **لا تصاحب إلا مؤمناً** "؛ أي:" كاملاً، بل مكملاً، أو المراد منه النهي عن مصاحبة الكفار والمنافقين، لأن مصاحبتهم مضرة في الدين، فالمراد بالمؤمن من جنس المؤمنين" (م. المباركفوري بلا تاريخ، 76/7)، وقال -صلى الله عليه وسلم: "**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ**

يُخَالِلُ" (أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم 4833، وهو في السلسلة الصحيحة للألباني، رقم927 1995).

وهذا مما لا شك فيه؛ لأنّ الصاحب ساحب: "فصحبة الأخيار تورث الفلاح والنجاح، ومجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحاً، والنظر إلى الصور يؤثر أخلاقاً وعقائد مناسبة لخلق المنظور وعقيدته، كدوام النظر إلى المحزون يحزن وإلى المسرور يسر والجمل الشرود يصير ذلولاً بمقارنة الذلول، فالمقارنة لها تأثير في الحيوان بل في النبات والجماد؛ ففي النفوس أولى، وإنما سمي الإنسان إنساناً لأنه يأنس بما يراه من خير وشر" (المناوي بلا تاريخ، 194/2-195).

وحرصا من النبي -صلى الله عليه وسلم- على المسلم أن يسلم له إيمانه، ولا تتردّى أخلاقه: "حذّر من صحبة من ليس بتقي، وزجر عن مخالطته ومؤاكلته؛ فإنّ المطاعمة توقع الألفة والمودّة في القلوب، يقول: لا تؤالف من ليس من أهل التقوى والورع، ولا تتّخذه جليسا تطاعمه وتنادمه" (الخطابي 1934، 115/4).

وتأسيسا على ما سبق فإنّ مصاحبة المسلم لغير المسلم محفوفة بالمخاطر، اللهم إلا أن يكون ذلك على سبيل دعوته والتأثير فيه، ويتحتّم أن يكون لدى المسلم حينئذ حصانة علمية كافية، حتى يغربل ما يتلقاه منه من شبهات الباطل، ومناعة إيمانية واقية من أن يستدرجه الآخر، حتى يقع في حبال الشهوات المحرمة التي يدمن عليها أغلب غير المسلمين، مع كرهِ ما هو عليه من المنكر العظيم، وهو الإشراك بالله رب العالمين، وكذا مقارفة الفواحش وعدم الاستقامة على الدين القويم.

وهذا الذي قرّره أهل العلم فاستثنوا من هذا النهي: "ما إذا كانت مصاحبتهم لأجل النصيحة والدعوة إلى الخير، مع أمْن التضرر والتأثر بهم والانجرار إلى المعاصي بسببهم، فهذا مما يندب وقد يجِب بحسب طمع العبد في هداهم" (موقع إسلام ويب 1432)، فمَنْع صداقة غير المسلم لا يعني مقاطعته مقاطعة تامَّة - إذا كان غيرَ محاربٍ أو معروف بالعداء للمسلمين -، خاصَّة إذا كان جارًا في السكن أو في العمل، ولا تعني المنْع من بِرِّهِ والإحسان إليه، وقبول هديَّته وعيادته، ومعاملته ماليًّا؛ بل كلُّ هذا جائز إذا لم يُخشَ الوقوعُ في الحرام – من غير مودَّة قلبيَّة، ولا مُشاركة في محرَّم أو معاونة عليه -، خاصَّة إذا كان بنيَّة الدَّعْوَة إلى الإسلام والترغيب في الدِّين (الإسلام سؤال وجواب 2014).

وقد مرّت بي نماذج عديدة من معتنقي الإسلام، كان سبب إسلامهم بالدرجة الأولى مصاحبتهم لمسلم، وبعضهم تحفّزه تلك الصحبة على البحث والمطالعة عن دين الإسلام أو بعض مسائله، لما قد يُثار من نقاش بينه وبين صديقه المسلم حول بعض المواضيع التي يناقض فيها دينُ الإسلام سائرَ الأديان، وتنتهي رحلة البحث تلك بالاقتناع بالإسلام ولله الحمد.

3-الزواج: يعتبر الزواج رابطة روحية قوية بين الزوج والزوجة؛ لأنّ الغالب فيه أن يكون مبنيا على المودة والرحمة، ولقد رغّب الشرع في اختيار الزوج لزوجته، وأن يكون الدين على رأس قائمة الرغبات التي

من أجلها تُقصد المرأة، وذلك في قوله -صلى الله عليه وسلم-:**"تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك"** (البخاري، صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب: تزويج الأكفاء في الدين وقوله تعالى: :﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ٥٤ ﴾، ، رقم5090 بلا تاريخ) (مسلم، صحيح مسلم، كتاب الرضاع، رقم 1466 بلا تاريخ) ؛ إذ معنى هذا الحديث:" أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر بما يفعله الناس في العادة فإنهم يقصدون هذه الخصال الأربع، وآخرها عندهم ذات الدين، فاظفر أنت أيها المسترشد بذات الدين ... وفي هذا الحديث الحث على مصاحبة أهل الدين في كل شيء لأن صاحبهم يستفيد من أخلاقهم وحسن طرائقهم ويأمن المفسدة من جهتهم" (النووي 1983، 51/5-52).

ولما كان من عادة الناس أن يرغبوا في النساء ويختاروها لإحدى هذه الخصال؛ فاللائق بذوي المروءات وأرباب الديانات أن يكون الدين مطمَح نظرهم فيما يأتون ويذرون، لا سيما فيما يدوم أمره ويعظم خطره (م. المباركفوري بلا تاريخ، 206/4).

وهذا الاختيار ليس خاصا بالرجل بل للمرأة أيضا الحق في اختيار زوجها، وأن يكون تديّنه وحسن خلقه أهم مطلب يؤهّله لينال شرف الزواج منها، وجعل الشرع قبول الزواج من رجلٍ رضائيا تشاوريا بين المرأة ووليّها، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-:**" إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تفْعَلُوا تَكُنْ فِتنَةٌ فِي الأَرْضِ، وَفَسَادٌ عَرِيضٌ"** (الترمذي، سنن الترمذي، باب ما جاء فيمن ترضون دينه فزوجوه، رقم 1090، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي 2000)، ومعناه: من:" طلب منكم أن تزوجوه امرأة من أولادكم وأقاربكم، **"من ترضون"**، أي: تستحسنون، **"دينه"**؛ أي: ديانته، **"وخلقه"**؛ أي: معاشرته، **"فزوجوه"**؛ أي: إياها"، **"إن لا تفعلوه"**؛ أي: لا تزوجوه، **"تكن"**؛ أي: تقع، **" فتنة في الأرض وفساد عريض"**؛ أي: ذو عرض أي كثير؛ لأنكم إن لم تزوجوها إلا من ذي مال أو جاه، ربما يبقى أكثر نسائكم بلا أزواج وأكثر رجالكم بلا نساء، فيكثر الافتتان بالزنا، وربما يلحق الأولياء عار فتهيج الفتن والفساد، ويترتب عليه قطع النسب وقلة الصلاح والعفة" (القاري 1994، 271/6).

وليس للولي أن يرغم مولّيته على الزواج ممن لا ترضاه، كما ورد في السنة النبوية أنّ فتاةً جاءت إلى رسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- فقالت:" يا رسولَ اللهِ ، إنَّ أبي زوَّجَني ابنَ أخيهِ يرفَعُ بي خَسيسَتَه، فجعَلَ الأمرَ إليها، قالت: فإنِّي قد أجَزْتُ ما صنَعَ أبي، ولكنْ أردْتُ أنْ تَعلَمَ النِّساءُ أنْ ليس للآباءِ منَ الأمرِ شيءٌ" (الإمام أحمد 2001) (النسائي 2015) (ابن ماجه بلا تاريخ)، وقد أفاد هذا الحديث أنّ وليا أراد تزويج ابنته من ابن أخيه ليرفع بها؛ أي ليزيل عنه بإنكاحها إياه "خسيسته"؛ أي: دناءته فأراد أن يجعله بها عزيزا، فجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- الأمر إليها؛ أي: إنّ النكاح منعقد إلا أنه يعاد إلى أمرها، ومتوقّف على إجازتها (السندي 2007).

ومع أنّ الإسلام رغّب في اختيار الزوجة على أساس دينها؛ فإنّه أباح نكاح نساء أهل الكتاب فقال -سبحانه-:﴿**ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥**﴾ [سورة المائدة: 5].

وانطلاقا من هذه الآية وغيرها من الأدلة أجاز العلماء الزواج من الكتابية بضوابط معيّنة، كما هو مثبت في كتب الفقهاء قديما وحديثا، وقد أخذ المجلس الأوربي للبحوث والإفتاء بهذا الرأي فقرّر مايلي:

أ- الكتابية، هي: من تؤمن بدين سماويّ الأصلِ كاليهودية والنصرانية، فهي مؤمنة – في الجملة – بالله ورسالاته والدار الآخرة، وليست ملحدة أو مرتدة عن دينها، ولا مؤمنة بدين ليس له نسب معروف إلى السماء.

وقد ذهب جمهور علماء المسلمين إلى إباحة الزواج من الكتابية، وذهب بعض السلف إلى كراهة أو منع الزواج من الكتابية كعبد الله بن عمر من الصحابة، والصواب رأي الجمهور لصراحة الآية.

ب- ضوابط يجب مراعاتها عند الزواج من الكتابية :

- الاستيثاق من كونها كتابية على المعنى المتقدم ذكره، ومن المعلوم في الغرب الآن أنه ليست كل فتاة تولد من أبوين مسيحيين مثلًا مسيحية، ولا كل من نشأت في بيئة مسيحية تكون مسيحية بالضرورة؛ فقد تكون شيوعية مادية، وقد تكون على نِحلة مرفوضة أساسًا في نظر الإسلام كالبهائية ونحوها.

- أن تكون عفيفة محصَنة، فإن الله لم يبح كل كتابية، بل قيد في آياته الإباحة نفسها بالإحصان. والإحصان هو العفة عن الزنى كان ذلك أصالة أو بتوبة.

- ألا تكون من قوم معادين للإسلام وأهله ما لم يثبت أنها ليست على موقف قومها. قال -تعالى-:

﴿**لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ**﴾ [سورة المجادلة: 22] والزواج يوجب المودة كما قال -تعالى-: ﴿**وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ**﴾ [سورة الروم: 21].

- ألا يكون من وراء الزواج من الكتابية فتنة ولا ضرر محقق أو مرجح، فإن استعمال المباحات كلها مقيد بعدم الضرر، فإذا تبين أن في إطلاق استعمالها ضررًا عامًا منعت منعًا عامًا، أو ضررًا خاصًا منعت منعًا خاصًا، وكلما عظم الضرر تأكد المنع والتحريم.

والضرر المخوف بزواج غير المسلمة يتحقق في صور كثيرة منها: أن ينتشر الزواج من غير المسلمات، بحيث يؤثر على الفتيات المسلمات الصالحات للزواج.

ومنها: أن يتساهل بعض الناس في مراعاة شرط الإحصان – العفاف – الذي قيد به القرآن حل الزواج منهن. ومنها: الخوف على الذرية من الانحراف، وما يلحق من عواقب في حق الزوج في حياته بتأثره بما عليه زوجته غير المسلمة، والتصرف ببدنه وتركته بعد موته (المجلس الأوروبي للبحوث والإفتاء 14-18 محرم 1426هـ/ 23-27 فبراير 2005).

أما المسألة العكسية فالمسلمون مجمعون على عدم حِلّ وعدم صحة زواج المسلمة بغير مسلم، وأنه إن حدث فهو زنا (القرضاوي، زواج المسلمة بغير مسلم بلا تاريخ).

إذن: هناك عقبات تقف في وجه من يتزوج بالأجنبية؛ حيث إنّه يصعب تحقيق أهمّ شرطي جوازه (كتابية عفيفة) لانتشار الإلحاد في المجتمعات الغربية، ولو تحقق الشرط الأول فمن النادر تحقق الثاني لفشو الفاحشة وانتشار الرذيلة، ولو تحقّق الشرطان معا فأمامه عائق آخر وهو الرواسب التربوية السابقة التي يطول زمن التخلّص منها، وقد ينتقل إليه أو إلى أبنائه منها شيء، كقلّة الحياء، وغياب معنى طاعة الزوج، وأسلوب المعيشة المختلف، إضافة إلى انتشار الطلاق بشكل رهيب، وإعطاء المرأة الحق في إيقاعه، مما يجعل المرأة قد ترغب في فراق زوجها عند أدنى إساءة إليها، وكم من بيوت انهدمت بأتفه الأسباب، ولو سلم من كلّ هذه العقبات فهناك علة أخرى نظر إليها الفقهاء، وهي أنّ ذلك يفضي إلى انتشار العنوسة في النساء المسلمات.

ومن جانب آخر لو نظرنا إلى الحكمة التي من أجلها أبيح الزواج من الكتابيات لوجدنا أنّ المرأة الكتابية: " إذا عاشت في ظل زوج مسلم ملتزم بالإسلام، وتحت سلطان مجتمع مسلم مستمسك بشرائع الإسلام – تصبح في دور المتأثر لا المؤثر والقابل لا الفاعل – فالمتوقع منها والمرجو لها أن تدخل في الإسلام اعتقادًا وعملاً. فإذا لم تدخل في عقيدة الإسلام – وهذا حقها إذ لا إكراه في الدين – اعتقادًا وعملاً. فإنها تدخل في الإسلام من حيث هو تقاليد وآداب اجتماعية. ومعنى هذا أنها تذوب داخل المجتمع الإسلامي سلوكيًا، إن لم تذب فيه عقائديًا. وبهذا لا يخشى منها أن تؤثر على الزوج أو على الأولاد، لأنّ سلطان المجتمع الإسلامي من حولها أقوى وأعظم من أي محاولة منها لو حدثت. كما أن قوة الزوج عادة في تلك الأعصار، وغيرته على دينه، واعتزازه به اعتزازًا لا حد له، وحرصه على حسن تنشئة أولاده، وسلامة عقيدتهم، يفقد الزوجة القدرة على أن تؤثر في الأولاد تأثيرًا يتنافى مع خط الإسلام. أما في عصرنا، فيجب أن نعترف بشجاعة وصراحة: إن سلطان الرجل على المرأة المثقفة قد ضعف، وإن شخصية المرأة قد قويت، وبخاصة المرأة الغربية" (القرضاوي، زواج المسلم من الكتابيات..حقائق وضوابط بلا تاريخ).

كما أنه ينبغي الإشارة إلى أنّ نسبة كثيرة من الزيجات إنما الغرض منها المصلحة، وهي تسوية الوضعية الإدارية تحديدا، وهو ما يعرف بالزواج الأبيض، ويندى الجبين من القصص المخزية في هذا

الشأن، كمن يتزوج بامرأة طاعنة في السن في سنّ جدّته من أجل الحصول على بطاقة الإقامة، وآخر يدفع مالا لامرأة مقابل زواج صوري ليس الغرض منه الاستمرار والديمومة وإنما هو مؤقت، شبيه إلى حدّ بعيد بزواج المتعة، وأحسنهم حالا من يتزوّج بنية الطلاق، وفي هذا من الغدر والخيانة للمرأة، وشبهة التأقيت ما فيه.

كلّ هذه الفضائح وغيرها أدّت إلى سنّ قانون يجرّم الزواج بالعقد العرفي (الشرعي) قبل العقد المدني، ويعاقب القانون الفرنسي على ذلك بستة أشهر سجنا وغرامة مالية قدرها 7500 أورو.

433-21 du code pénal : interdit à « tout ministre du culte de procèder à une cèrèmonie religieuse de mariage avant que le mariage civil ait été préalablement intériné ». le Ministère de la Justice publiée dans le JO Sénat du 04/10/2007 - page 1782 :« tout ministre d'un culte qui procédera, de manière habituelle, aux cérémonies religieuses de mariage sans que ne lui ait été justifié l'acte de mariage préalablement reçu par les officiers de l'état civil sera puni de six mois d'emprisonnement et de 7 500 euros d'amende »
Modifié par LOI n°2021-1109 du 24 août 2021 - art. 83

"Tout ministre d'un culte qui procédera, de manière habituelle, aux cérémonies religieuses de mariage sans que ne lui ait été justifié l'acte de mariage préalablement reçu par les officiers de l'état civil sera puni d'un an d'emprisonnement et de 7 500 euros d'amende". https://www.legifrance.gouv.fr/codes/article. (433-21 du code pénal s.d.).

كما لا يخفى أنّ الأجانب يكاد يغيب عندهم مفهوم الزواج، فحياتهم مبنية على العلاقات والارتباطات، وقد يعيش الرجل مع المرأة السنوات ذوات العدد، وتنجب معه الأبناء في ظل تلك العلاقة التي لا يقرّها الدين ولا عقول أسوياء البشر؛ وإنما هي الفاحشة والانحلال، والمضحك المبكي أنهم بعد تلك السنوات من العيش معا يعلنون أنّ كل واحد منهما اقتنع بالآخر زوجا، فيحدّدون يوم زفافهم، ويدعون الناس لحضوره، وممن يكون حاضرا عدد من أولادهم!؟ ومما يحكى عن كثير منهم أنّهم وبعد إعلان الزواج، لا تفتؤ العلاقة بينهما أن تتوتر حتى تصل إلى الطلاق.

هذا الجو القاتم في العلاقات بين الرجل والمرأة، يشجّع بعض الأجنبيات على الزواج من عربي مسلم، لعلّهن يجدن معه الاستقرار والوفاء فرارا مما عليه أبناء جلدتهن من الخيانة والتخلّي عن المسؤولية، فإذا بها تقع فريسة بين يدي بعض الانتهازيين من المسلمين الذين لا يثنيهم عن الحصول على الوثائق دين ولا خلق، ويستبيحون كل سبيل يمكّنهم من تسوية وضعيتهم الإدارية.

فانظروا كم هو الضرر العميق الذي خلّفته هذه الممارسات على الدعوة الإسلامية، ولا شكّ أنّها تناقض مناقضة تامة المقصود الشرعي من إباحة الزواج من الكتابيات، ومن الواجب أن نعترف بأنّ بعض الحالات القليلة للزواج المختلط كانت ناجحة بامتياز، حيث تسلم المرأة ويحسُن إسلامها، وتطاوع زوجها، وتعينه على إقامة دينه، وتكون مذعنة لأحكام الإسلام وتعاليمه.

ومن هنا نعلم أن الزواج من غير المسلمات في عصرنا ينبغي أن يمنع سدًا للذريعة إلى ألوان شتى من الضرر والفساد، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، ولا يسوغ القول بجوازه إلا لضرورة قاهرة أو حاجة ملحة، ولا ننسى هنا أن نذكر أنه مهما ترخص المترخصون في الزواج من غير المسلمة، فإنّ مما لا خلاف عليه، أن الزواج من المسلمة أولى وأفضل من جهات عديدة، فلا شك أنّ توافق الزوجين من الناحية الدينية أعون على الحياة السعيدة؛ بل كلما توافقا فكريًا ومذهبيًا كان أفضل، وأكثر من ذلك أن الإسلام لا يكتفي بمجرد الزواج من أية مسلمة، بل يرغب كل الترغيب في الزواج من المسلمة المتدينة، فهي أحرص على مرضاة الله، وأرعى لحق الزوج، وأقدر على حفظ نفسها وماله وولده (القرضاوي، زواج المسلم من الكتابيات..حقائق وضوابط بلا تاريخ).

ومما يزيد من أهمية هذه القضية الدورُ الرسالي للأسرة المسلمة في الغرب ، خاصة مع ما تمر به الأسرة الغربية على وجه العموم من أزمة متمثّلة في تقلّص حجمها وفي وهن العلاقة بين أفرادها، بل توشك هذه الأزمة أن تضرب في أصل وجودها، فلو أنّ الأسرة المسلمة مثّلت الإسلام حقّ التمثيل في ظلّ هذا الواقع واستمسكت بقيمها الأسرية، فستكون منارة هادية يجد فيها المراقبون الحلّ العملي لأزمتهم الأسرية، ويدركون أنّ هذا النموذج هو السبيل إلى تحقيق السعادة داخل الأسرة، ومن ثمّ ينطلق البحث في العوامل التي رشّحتها لتكون كذلك، وقد ينتهي هذا البحث بالاقتناع الإسلام دينا صالحا ومصلحا لكل زمان ومكان في كل المجالات، وبهذا تحقق الأسرة المسلمة هدفا رساليّا دعويا، وهذه خاصية يجدر أخذها بعين الاعتبار عند الاجتهاد واستنباط الأحكام (النجار بلا تاريخ، ص218).

وأختم الحديث في هذا العنصر بأمر يثير الانتباه، وهو كثرة المعتنقات للإسلام من النساء مقارنة بمعتنقيه من الرجال، سواء بغرض الزواج من مسلم أم لا، وهي ظاهرة تحتاج إلى دراسة مستقلة للبحث عن أسبابها وغير ذلك، ومن العجب أنّ إحداهن بمجرد نطق الشهادتين خاصة باللغة العربية، لا تتمالك نفسها فتنفجر باكية، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على الفراغ الروحي الرهيب الذي يعيشه غير المسلمين، لأنّ غذاء الأرواح هو ذكر الله -تعالى- لا غير: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨**﴾ [سورة الرعد: 28].

4-الجِوار: يعتبر الجوار منذ القديم من أوثق عرى العلاقات الاجتماعية، لكن طرأ في هذا العصر نوع من التنافر والتباعد، واهتمام كل صاحب بيت ببيته، حتى انفصمت تلك العرى، وتبدّلت أخلاق الناس، مع أنّه لا يمكن التعميم، فهناك من لا تزال فيهم مكارم الأخلاق، كإكرام الضيف، ونجدة الملهوف، ومواساة الفقير، والإحسان إلى الجار، واحتمال أذاه ... هذا يقال في المجتمعات المسلمة، فكيف إذا وجّهنا الكلام صوب الجوار في البلدان غير الإسلامية، لا شكّ أنّ الأمر أعقد؛ فكل ساكن يغلق عليه باب بيته، ولا يدري أيَّ شيء عن جاره، بل كثيرا ما يموت أحدهم ولا يُدرى بموته إلا بعد تعفّن جثته وانبعاث رائحته، وقبل أيام قليلة عثر رجال الحماية المدنية في إيطاليا على جثة سيدة تبلغ من العمر سبعين عاما، متحللة على كرسي في بيتها **بعد عامين من وفاتها** (الشرق الأوسط أون لاين الخميس 9 رجب 1443هـ/ 10 فيفري

2022م)، لكن من باب الإنصاف هذا التباعد ليس عاما، بل هو الغالب في المدن، أما القرى والأرياف والمدن الصغيرة فقد بقي فيها شيء من حقوق الجوار.

وإنّ نظرة خاطفة في موروثنا الإسلامي الزاخر، يجعلنا نقف منبهرين من المكانة العظيمة التي أولاها الشرع للجار، وذلك ما نراه ماثلا أمام أعيننا في قوله -صلى الله عليه وسلم-: **" مَا زَالَ جبريل يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيوَرِّثُهُ "** (البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار وقول الله -تعالى-:-:﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ إلى قوله: ﴿مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾، برقم 6014، بلا تاريخ) (مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلّة والآداب، رقم 2624 بلا تاريخ)، كما نجد أنّ الله -تعالى- أوصى بالإحسان إليه مع الوصية بعبادته والإحسان إلى الوالدين وذوي القربى وذلك في قوله -جلّ شأنه: ﴿ **۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦**﴾ **[سورة النساء: 36]** ، ﴿ **وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ**﴾ هو: الجار القريب الذي له حق الجوار وحق القرابة، ﴿ **وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ**﴾ هو: الذي ليس بقريب، فعلى العبد القيام بحق جاره مطلقا **مسلماً كان أو كافراً**، قريباً أو بعيداً، بكف أذاه عنه ... وبذل ما يهون عليه ويستطيعه من الإحسان ... وتقديم الإحسان إليه على الإحسان على من ليس بجار، وكلما كان الجار أقرب باباً كان آكدَ لحقه، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره: بالصدقة والهدية والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال؛ تقربا إلى الله وإحسانا إلى أخيه صاحب الحق (بن ناصر السعدي 2001، ص57).

وضرب النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الكرام أروع الأمثلة في التطبيق العملي للإحسان إلى الجار حتى ولو كان غير مسلم، ومن الإحسان إليه إرادة إيصال أعظم خير إليه، وهو الهداية إلى الإسلام، وقد ورد أنّ غلاما يهوديا كان يَخْدُمُ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ-، فَمَرِضَ، فأتَاهُ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- يعُودُهُ، فقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقالَ له: أسْلِمْ، فنَظَرَ إلى أبِيهِ وهو عِنْدَهُ فَقالَ له: أطِعْ أبَا القَاسِمِ -صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ-، فأسْلَمَ، فَخَرَجَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- وهو يقولُ:**" الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أنقَذَهُ مِنَ النَّار"** (البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلّى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام؟، برقم 1356. بلا تاريخ).

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما- أنه ذبحت له شاة في أهله، فجعل يقول لغلامه: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يقول: **"ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"** (الترمذي، سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حق الجوار، برقم 1943. بلا تاريخ).

وكما أوصت الشريعة ببعث الهدايا للجيران ولو كانوا يهوداً أو نصارى، فقد أباحت قبول هدايا غير المسلمين وقبول دعوتهم للطعام في بيوتهم -إذا لم يكن ذلك متعلقا بأمر من أمور دينهم-، وقد ثبت في

صحيح السنَّة قبول النبي -صلى الله عليه وسلم- لدعوة يهودي في بيته على طعام (الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، مسند أنس بن مالك -رضي الله عنه-، برقم 13201، بلا تاريخ).

وعند الإساءة إليه كان حليما صبورا، فقد روت كتب السير أنّ أبا لهب وهو عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وجاره -كان بيته ملتصقا ببيته-، كما كان غيره من جيران رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يؤذونه وهو في بيته، فكان أحدهم يطرح عليه -صلى الله عليه وسلم- رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حجرًا ليستتر به منهم إذا صلى وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف به على بابه، ثم يقول:" **يا بني عبد مناف، أيُّ جوارٍ هذا** "؟ ثم يلقيه في الطريق (المباركفوري 2010)، ولا يقابل الإساءة بمثلها بل يعفو ويغفر (عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بلا تاريخ).

فلو أنّ المسلمين في بلاد الغرب التزموا هذه الأخلاق النبوية في التعامل مع جيرانهم من غير المسلمين، فلا شكّ أنّ ذلك سيكون له عظيم الأثر في نفوسهم، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **"إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسْطُ الوجه وحُسن الخلق"** (الألباني 2000)، فالقلوب مجبولة على محبة من أحسن إليها.

5-المعاملة التجارية: تعتبر التجارة أساس التعاملات بين بني الإنسان، لحصول كل شخص على ما يكون بيد غيره بطريق مشروع، ويعتبر خلقا الصدق والأمانة أهم الأخلاق التي ينبغي على المتعامل بالتجارة أن يتصف بها، ولهذا وعد النبي -صلى الله عليه وسلم- من التزمهما في تعامله بأن يبارك الله له في تجارته، فقال -صلى الله عليه وسلم-:**"البيعان بالخيار ما لم يتفرّقا – أو قال: حتى يتفرّقا-. فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما "** (البخاري، كتاب البيوع، باب إذا بيّن البيّعان ولم يكتما ونصحا، برقم 2079، بلا تاريخ) (مسلم، كتاب البيوع، برقم 1532. بلا تاريخ)، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فله ثواب عظيم، وهو أنّ منزلته مع النبيين والصديقين والشهداء، قال -صلى الله عليه وسلم-:**"التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء"** (الترمذي، أبواب البيوع، باب ما جاء في التجار وتسمية النبي -صلى الله عليه وسلم- إياهم، برقم: 1209 بلا تاريخ). ولأنّ دين الإسلامي دين شموليٌّ لا يدع مجالا من مجالات الحياة إلا وشرع للناس فيه أحكاما؛ فإنّه قد ضبط التجارة ببعض الضوابط التي تجعل المعاملة التجارية غير مفضية إلى التنازع بين طرفيها ولا عائدة بالضرر على أحدهما، ومن ذلك أنّه منع بيع ما يضرّ الناس في دينهم أو دنياهم، ومن أشهر التجارات المنتشرة في زماننا، والتي تنطبق عليها قاعدة المنع الشرعي: المخدرات سواء في البلدان الإسلامية أو غير الإسلامية.

ومن المخجل أنّ أغلب المتعاملين في الممنوعات من المخدرات بشتى أشكالها في بلاد الغرب هم من المسلمين، والقاصي والداني يعلم ذلك، والإسلام لا يبيح لهم تلك التعاملات لأنّ الله -تعالى- إذا حرّم شيئا حرّم ثمنه كما ورد بذلك الحديث النبوي (الألباني، صحيح الجامع برقم 5107. بلا تاريخ)، لكن من يُقنع

الناس أنّ هؤلاء مخالفون لشرعهم، غير مستقيمين على دينهم، لقد مثّلوا دينهم -وللأسف- أسوء تمثيل، وأغروا القوم بازدراء المسلمين وتعميم نظرة الاتهام بمخالفة القانون، والمتاجرة في الممنوعات على كل المسلمين، فيا لله كم بلغ ضررهم على الدين قبل أن يكون على أنفسهم أو على من كانوا معهم متعاملين.

ثالثا: عوائق تحجب أو تعرقل غير المسلمين عن اعتناق الإسلام:

كثيرة هي الحواجز التي بين غير المسلمين والدخول في الإسلام، فإضافة إلى التشويه الإعلامي، وأخلاق بعض المسلمين المشينة، وعناد بعض غير المسلمين وعنصريّتهم، هناك:

-الخوف من معارضة الوالدين: ولذلك يخفي معظم المعتنقين للإسلام الأمر عن والديهم، ولا يخبرونهم إلا بعد حين، ومما يستذكر هنا أيضا هو أنّ أغلب المسلمين الجدد في سنّ الشباب، نعم سمعت عن كثيرين اعتنقوا الإسلام وهم في سن الشيخوخة، بل أسلم رجل بعد أن جاوز التسعين ولله الحمد على نعمته.

-المتابعة المخابراتية: فالغرب فقد إيمانه بالمسيحية لكنّه لم يفقد عداءه للإسلام، نعم فمع رفعهم لشعار اللائكية وحرية الإيمان أو عدم الإيمان، إلا أنّ هذه الشعارات التي قد تخدم المسلمين في أحد شقيها، لا تطبق بالشكل اللائق الذي تتضمّنه عباراتها، ولأجل هذا تجد باب الحريات عندهم مفتوحا على مصراعيه، لكن إذا تعلّق الأمر بالإسلام أو بأحد أهمّ شعائره، فإنك تجد ذلك الباب موصدا، ويخشى المسلمون الجدد من مضايقات الأجهزة الأمنية، ودونكم مسألة الحجاب التي تعتبر أحسن مثال على ذلك، فللمرأة الحرية الكاملة بل إنّ حقوقها مصونة محفوظة، ويا ويل من تسول له نفسه إهانة المرأة أو التعدّي عليها -وهو شيء محمود-، لكن لو أنّ هذه المرأة اختارت لبس الحجاب، فإنّ تلك القداسة تنزع عنها، بل إنها تصير منبوذة غير مرغوب في تواجدها على التراب الفرنسي، لا لشيء إلا لأنّها حرمتهم من التفرّج إلى جسد آخر معروضٍ للناظرين.

وأختم الحديث بأمر في غاية الأهمية، وهو متابعة المسلمين الجدد بعد اعتناقهم الإسلام، وهي معضلة تحتاج إلى دراسة مستقلة؛ لأنّ بعض التجارب كانت مؤسفة، حيث لا يجد بعضهم التوجيه والنصح، فيقعون ضحايا لبعض الأفكار المنحرفة فيتلقونها على أنها الإسلام الصحيح، ويدخلون بطريقة غير مباشرة في حملة التشويه للإسلام، ويكونون من أعظم دعاتها من غير أن يشعروا.

خاتمة:

تعتبر المخالطة بين الناس أساس انتقال العقائد والقيم والأخلاق من قوم إلى آخرين، ولأنّ المسلمين على إرث ديني عظيم فهم في غنى عن الأخذ من غيرهم في هذه المجالات، سواء كانوا يعيشون في بلدانهم الإسلامية، أو حتى في البلدان الغربية؛ لكنّ المسلمين الذين يعيشون في بلدان غير إسلامية في تحدّ كبير، للمحافظة على عقائدهم وقيمهم وأخلاقهم أولا، وتوريثها لأبنائهم ثانيا، ودعوة غير المسلمين إلى التحلّي بها

ثالثا، ولتحقيق هذه الأهداف لا بدّ عليهم أن يستشعروا ثِقَلَ المسؤولية؛ فهم سفراء الإسلام عند الآخرين، لذلك يتوجّب عليهم تمثيله أحسن تمثيل، وأن يحرصوا كل الحرص على توصيل الإسلام لغير المسلمين في صورته الناصعة، دون زيادة ولا نقصان، كلٌّ في موقعه، ليساهموا في استمرار الدعوة الإسلامية، ولا يُحرَمَ من نعمة الإسلام إلا من أبى، وإن لم يمكنهم ذلك فأضعف الإيمان ألا يُؤتى الإسلام من قِبَلهم، ولا يكونوا معولَ هدمٍ ينخرُ فيه من داخله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

- ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربي، فيصل عيسى البابي الحلبي، مصر، د ت.
- أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتّب عليه من العقوبات والزواجر، تح: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1996.
- أبو الوليد ابن رشد، المقدمات الممهدات، تح: سعيد أحمد أعراب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1988.
- أبو داود، سنن أبي داود، تح شعيب الأرناؤوط وآخرين، دار الرسالة العالمية، بيروت، ط 1، 2009
- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، تح: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 2001.
- الألباني، السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، 1995.
- الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف، الرياض، ط 1، 2000.
- الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 3، 1988.
- الألباني، صحيح سنن الترمذي، مكتبة المعارف، الرياض، ط 1، 2000.
- البخاري، صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت، ط 1، 2002.
- الترمذي، سنن الترمذي، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1996.
- الخطابي، معالم السنن، مطبعة محمد راغب الطباخ، حلب، ط 1، 1934.
- السندي، حاشية السندي على سنن ابن ماجه، ضمن شروح سنن ابن ماجه، جمعه: رائد بن صبري بن أبي علفة، بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن، ط1، 2007.
- الشرق الأوسط أون لاين، عدد: الخميس 9 رجب 1443هـ/ 10 فيفري 2022م.
- عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط 1، 2000.

- عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير اللطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط 1، 2001.
- عبد المجيد النجار، فقه المواطنة للمسلمين في أوروبا، إصدارات المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث، د ط، د ت.
- قرارات الدورة الرابعة عشرة للمجلس الأوربي للبحوث والإفتاء، المنعقدة ب: دبلن -إيرلندا-، بتاريخ: 14-18 محرم 1426 هـ، الموافق ل: 23 – 27 فبراير 2005م، القرار رقم 50 (6/14).
- قرارات الدورة السادسة عشرة للمجلس الأوربي للبحوث والإفتاء، المنعقدة باستانبول - تركيا-، يوم 13-7جمادى الآخرة 1427هـ، الموافق لـ 3-9 تموز (يوليو) 2006م، القرار 63 (3/16) .
- المباركفوري محمد عبد الرحمان أبو العلا، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، تح: عبد الرحمان محمد عثمان، دار الفكر، د ت.
- المباركفوري، الرحيق المختوم، دار الوفاء، مصر، ط 21، 2010.
- مسلم، صحيح مسلم، دار طيبة، الرياض، ط 1، 2006.
- الملا علي القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تح: صدقي محمد جميل العطار، دار الفكر، بيروت، 1994.
- المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، ط الخديوي، د ت.
- الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، أوقاف الكويت، ط 2، 1983.
- موقع إسلام ويب، توضيح حول حديث (لا تصاحب إلا مؤمنا...)، نشر يوم: السبت 6 جمادى الأولى 1432 هـ / 9-4-2011 م.
- موقع: الإسلام سؤال وجواب، حكم صداقة غير المسلمين ومساعدتهم عند الحاجة، نشر يوم: 3-8-2014 م.
- النسائي، سنن النسائي، تح: رائد أبي علفة، دار الحضارة، الرياض، ط 2، 2015.
- النووي، شرح صحيح مسلم، دار الفكر، دمشق، 1983.
- يوسف القرضاوي، زواج المسلم من الكتابيات.. حقائق وضوابط، https://islamonline.net/archive
- يوسف القرضاوي، زواج المسلمة بغير مسلم، https://islamonline.net/archive
- https://www.legifrance.gouv.fr/codes/article.

أثر الاسلاموفوبيا على الجالية المسلمة في فرنسا

The Impact of Islamophobia on the Muslim Community in France

ط/د. برناوي أسماء، جامعة وهران 2 محمد بن أحمد- الجزائر
bernaoui.asmaa@univ-oran2.dz



تشهد أوروبا اليوم تنامي النزعة العنصرية ضد الجالية المسلمة في المجتمعات الأوروبية خاصة في فرنسا أين تتمركز أعلى نسبة من المهاجرين المسلمين. وأمام تنامي كراهية المسلمين في فرنسا يهدف هذا المقال إلى تناول واقع ظاهرة الاسلاموفوبيا في فرنسا من خلال التطرق إلى أهم أسباب هذه الظاهرة وتداعياتها على الجالية المسلمة في فرنسا. ومن أهم النتائج المتوصل إليها أن ظاهرة الاسلاموفوبيا تشكل تهديدا للجالية المسلمة في فرنسا وانتهاك لحقوق الإنسان.

الكلمات المفتاحية: الاسلاموفوبيا ، فرنسا، الجالية المسلمة، تهديد، حقوق الإنسان.

Abstract :

Today, Europe is witnessing a growing racism tendency against the Muslim community in European societies especially in France where the highest percentage of Muslim immigrants is concentrated. And in front of the rising of hatred of Muslims in France, this article aims to address the reality of the Islamophobia’s phenomenon in France by addressing the most important causes of this phenomenon and its repercussions on the Muslim community in France.

And among the most important findings is that the Islamophobia’s phenomenon constitutes a threat to the Muslim community in France and a violation of Human rights.

Keywords: Islamophobia, France, the Muslim community, threat, Humman rights.



مقدمة:

يعيش داخل الاتحاد الأوربي ما يزيد عن 20 مليون مسلم أين تضم فرنسا أكبر جالية إسلامية، ومع تصاعد الخوف من الإسلام وكراهية المسلمين مع تنامي الهجمات الإرهابية في أوروبا وبروز اليمين المتطرف ظهر التمييز ضد المهاجرين المسلمين، مقابل تنامي العديد من الحركات المتطرفة في أوروبا والتي تمارس العنف ضد الجالية المسلمة.

ومن هنا تطرح الإشكالية التالية :

- كيف أثرت ظاهرة الإسلاموفوبيا على حقوق الجالية المسلمة في فرنسا؟
- وتندرج تحت هذه الإشكالية سؤالين فرعين :
- ما هي أسباب تنامي ظاهرة الإسلاموفوبيا ؟
- ما هي الانتهاكات التي تتعرض لها الجالية المسلمة في فرنسا ؟

و للإجابة على هذه الأسئلة تم وضع الفريضتين التاليتين:

- ساهمت أحداث 11 سبتمبر والهجمات الإرهابية التي استهدفت بعض العواصم الأوروبية كأحداث باريس 2015، تفجيرات مدريد في 11 مارس 2004، تفجيرات لندن في 07 جويلية 2005 في تشويه صورة الإسلام وتنامي الكراهية ضد الجالية المسلمة، مع صعود التيار اليمني المتطرف.
- تعاني الجالية المسلمة في فرنسا من عنف سياسي وديني، وتمييز عنصري وتقييد لحرية ممارسة عقيدتها الدينية.

تعود أهمية هذا الموضوع إلى تنامي النزعة العنصرية ضد الجالية المسلمة في المجتمعات الأوروبية خاصة في فرنسا أين تستند الأحزاب اليمنية المتطرفة على خطاب الكراهية ضد المسلمين، من خلال ربطها الهجمات الإرهابية في بعض الدول الأوروبية بتواجد الجالية المسلمة وتهديدها لأمن واستقرار أوروبا.

نظرا لطبيعة الموضوع فقد احتاجت الدراسة توظيف نوع من التكامل المنهجي الذي يقوم على استعمال أكثر من منهج واحد، فقد تم توظيف المنهج التاريخي من خلال رصد مختلف التطورات التي ساهمت في تنامي ظاهرة الاسلاموفوبيا، وقد تم استخدام المنهج الإحصائي من خلال الاعتماد على المعطيات الرقمية حول واقع هذه الظاهرة في فرنسا. كما اعتمدت الدراسة على توظيف منهج تحليل مضمون من خلال تحليل مضامين التصريحات السياسية حول الإسلام وقضايا المسلمين والقوانين التشريعية المتعلقة بالجالية المسلمة في فرنسا.

تهدف الدراسة إلى تناول وتحليل أحد أكبر الظواهر تحديا وتعقيدا، وتتعلق بظاهرة الإسلاموفوبيا في أوروبا (دراسة حالة فرنسا) ودور الإعلام الغربي والأحزاب اليمينية المتطرفة في تكريسها وتعميمها في الوعي الغربي، ورصد تداعياتها على الجالية المسلمة المتواجدة في فرنسا.

أولا -ظاهرة الاسلاموفوبيا في فرنسا:

تشهد أوروبا تنامي لظاهرة الاسلاموفوبيا وفي مقدمتها فرنسا التي تضم أكبر عدد من المهاجرين المسلمين من شمال إفريقيا.

1- تعريف الاسلاموفوبيا: ظهر مفهوم الاسلاموفوبيا أول مرة في تقرير لجنة المسلمين البريطانيين والاسلاموفوبيا الموسوم ب" الاسلاموفوبيا تتحدانا جميعا" عام 1997. (https://bit.ly/3hNW5EH, p. 5) وبرز مفهوم الاسلاموفوبيا في مطلع العقد الأول من الألفية الثالثة عقب هجمات الإرهابية لتنظيم القاعدة بالولايات المتحدة الأمريكية في 11 سبتمبر 2001. (https://bit.ly/3Ksu8i4)

يقصد بكلمة الاسلاموفوبيا Islamophobie :« الخوف من الإسلام وكراهية المسلمين»، وهي اشتقاق من مصطلح Xénophobie و الذي يعني : «الخوف من الأجانب أو كل ما هو غريب» (برش، قارش، 2018، صفحة 195).

من جهته عرف المعجم الفرنسي Le Petit Robert : « الاسلاموفوبيا تعني شكل خاص من الحقد موجه ضد المسلمين، يتجلى بفرنسا في أعمال عدائية وتمييز عنصري ضد المهاجرين المنحدرين من أصول مغاربية». (عطوات، 2020، صفحة 203) وتعرف الاسلاموفوبيا حسب قاموس أكسفورد الانجليزي على أنها : « الخوف والكراهية الموجهة ضد الإسلام، كقوة سياسية تحديدا، والتحامل والتمييز ضد المسلمين». (أفروجن، 2017، صفحة 275)

جاء في تقرير المجلس الأوروبي لعام 2005 حول الاسلاموفوبيا وتأثيرها على الشبيبة :«الاسلاموفوبيا هي التخوف أو الأحكام المسبقة اتجاه الإسلام والمسلمين وما يتعلق بهم، سواء تم التعبير عنه بالأشكال اليومية العنصرية أو التمييز أو في أشكاله الأكثر عنفا». (عطوات، صفحة 203)

كما عرف التقرير الثاني لمنظمة التعاون الإسلامي حول الاسلاموفوبيا لعام 2009 ظاهرة الاسلاموفوبيا بأنها : « الانتشار المعاصر للتمييز ضد المسلمين ولحملات تشويه الإسلام، التي تعود في جزء منها لسوء فهم الإسلام في الغرب، والأحكام الخاطئة التي تربطه بالإرهاب، وعدم التسماح مع المعتقدات الأخرى، وعدم ديمقراطية قيمه وممارساته، وقمعه لحرية التعبير، وتقويضه لحقوق الإنسان». (https://bit.ly/3pNyeJQ)

وعليه يقصد بالاسلاموفوبيا التخوف من المسلمين ومن كل ما له علاقة بالإسلام بسبب الفهم الخاطئ لتعاليم الدين الإسلامي، وتتجسد الاسلاموفوبيا من خلال قمع الحريات والتمييز والعنصرية ضد الجالية المسلمة في المهجر.

2- أسباب تنامي ظاهرة الاسلاموفوبيا في فرنسا: تتعدد الأسباب التي أدت إلى تصاعد موجة الإسلاموفوبيا في فرنسا، والتي يمكن اجمالها فيمايلي :

أ.صعود اليمين المتطرف : تبنت الأحزاب اليمنية المتطرفة الخطاب الاسلاموفوبي في أوروبا، ودعت إلى حماية الهوية الوطنية مما أسمته " أسلمة أوروبا" بسبب تخوف اليمين المتطرف من ارتفاع عدد

المسلمين مقابل تزايد عدد المدارس والمساجد الإسلامية، وهو ما يهدد الهوية والحضارة الأوروبية، حيث تشير التقديرات إلى أنه بحلول 2050 ستبلغ نسبة المسلمين في أوروبا حوالي 20%. (عطوات، الصفحات 199-206)

شهدت سنوات الثمانينيات والتسعينيات صعود اليمين المتطرف الجديد الذي يسعى إلى تمثيل الهوية والثقافة الفرنسية والدفاع عنها، وقد نجح اليمين المتطرف في حصد المزيد من الأصوات المؤيدة له داخل فرنسا من خلال وعده بإيجاد حلول لقضايا الهجرة والأزمة الاقتصادية. (https://bit.ly/35C37Ky, pp. 19-20)

تصدرت قضية الهجرة البرامج الانتخابية لليمين المتطرف في فرنسا، فخلال عام 2015 أعلن الاتحاد الأوروبي عن وجود أزمة بسبب ارتفاع عدد المهاجرين داخل الدول الأوروبية، أين تم التعامل معها من خلال تبني سياسات تركز على الأمن ولا تتسق مع حقوق الإنسان من خلال إغلاق الحدود وفرض القيود. (https://bit.ly/3vQap8b, p. 8)

في المقابل تم توظيف قضية المهاجرين المسلمين في أوروبا من أجل توجيه الرأي العام الداخلي إلى صراعات وهمية مع الجالية المسلمة وتحميلها مسؤولية ارتفاع معدلات البطالة والجريمة المنظمة، وأن الحل الوحيد لتجاوز تلك المشاكل هو ترحيل المهاجرين المسلمين.(https://bit.ly/3hNW5EH, p. 9)

ب. تزايد الإرهاب الجهادي في أوروبا: قدمت نصوص كبار الفلاسفة والمفكرين الغربيين صورة مشبوهة عن الإسلام فربطوه بالإرهاب واعتبروا الإسلام دين عنف، ومن تلك النصوص يوجد برنارد لويس الذي وصف الإسلام بالديانة العنصرية التي لا تنسجم مع الديانة المسيحية. من جهته دعا صامويل هنتنجتون إلى رفض التعايش مع الحضارات الأخرى على غرار الحضارة العربية الإسلامية، والتي تختلف عن حضارات المجتمعات الغربية. (الغنجة، سرنيح، 2019، الصفحات 79-80)

أدت الهجمات الإرهابية في 11 سبتمبر 2001 والأحداث اللاحقة التي استهدفت بعض العواصم الأوروبية كأحداث باريس 2015، تفجيرات مدريد في 11 مارس 2004، تفجيرات لندن في 07 جويلية 2005 إلى توتر العلاقات الإسلامية الغربية، أين أصبح العالم الغربي ينظر بنظرة سلبية للمهاجرين المسلمين، خصوصا بعد تورط أشخاص من أصول إسلامية في تلك الهجمات. (يوسف، 2017، صفحة 260)

فقد تسبب الإرهاب الجهادي في فرنسا منذ يناير 2015 في قتل 239 شخص، وفي 2015/01/07 قام مسلحان ينتميان إلى تنظيم القاعدة بإطلاق النار داخل مكتب مجلة شارلي ايبدو، بعد قيام هذه الأخيرة بنشر كاريكاتير مسيء للنبي محمد (ص) ، مما تسبب في مقتل 11 شخص. (https://bit.ly/3vQap8b, pp. 1-7)

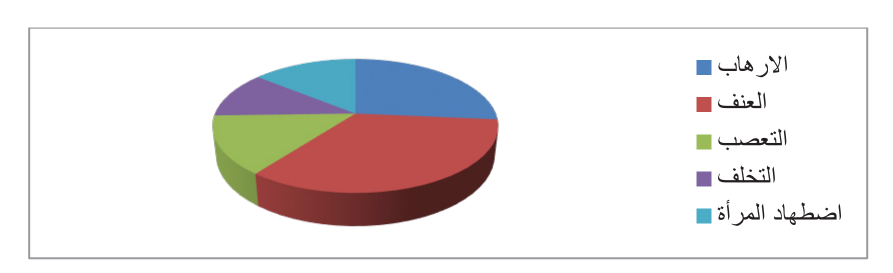
ومع صعود اليمين المتطرف في أوروبا، وتنامي النزعة المعادية للمسلمين في أوروبا وانضمام الدول الأوروبية للجهود الدولية لمكافحة الإرهاب، تم التضييق على الجالية المسلمة في الدول الأوروبية. (يوسف، صفحة 260) فقد استغلت الأحزاب اليمنية المتطرفة تلك الهجمات الإرهابية من خلال توجيه الاتهامات للمهاجرين واللاجئين، أين حذرت رئيسة حزب الجبهة الوطنية اليمينية المتطرفة مارين لوبان خلال الانتخابات الرئاسية الفرنسية لعام 2017 من خطر الأصولية الإسلامية، ودعت إلى فرض قيود أكثر على المسلمين.(https://bit.ly/3vQap8b, p. 7)

في المقابل برزت العديد من الحركات المتطرفة في أوروبا والتي تمارس عنف مشابه لذلك الذي تقوم به الجماعات الإسلامية المتطرفة، حيث تسببت الهجمات الإرهابية باسم الإسلام في تنامي ظاهرة الاسلاموفوبيا وبروز "إرهاب مضاد" في الغرب، فقد صرح الأمين العام السابق لمنظمة التعاون الإسلامي يوسف بن أحمد في تقرير حول الاسلاموفوبيا : « إن ما تقوم به الجماعات الراديكالية والمتطرفة من أعمال باسم الإسلام، قدم مبررات لمن يكرهون الأجانب لكي يعززوا أجنداتهم، الأمر الذي يعرض الصورة الايجابية للإسلام للخطر، ويعزز الاسلاموفوبيا بكل أنحاء العالم». (الغنجة، سرنيح، الصفحات 85-86)

ج.دوروسائل الإعلام والدعاية : قامت وسائل الإعلام الفرنسية وفي مقدمتها اليمينية المتطرفة بحملة شرسة ضد العرب والمسلمين، أين نشرت بعض الجرائد والمجلات مقالات معادية للمهاجرين العرب المسلمين، مثل : مجلة ماريان، مجلة نوفال أو بسير فاتور، مجلة لوبوان، جريدة لومند، جريدة شارلي ايبدو. (بن زروال، 2019، الصفحات 162-163)

من جهة أخرى نشرت وسائل الإعلام الغربية حوادث وتهديدات ضد الغرب، مثل اختطاف الرهائن الغربيين، تفجير الطائرات دون تمييزها بين التطرف والإسلام. (زريق، غربي، 2017، صفحة 42) إلى جانب الصورة النمطية حول المهاجر المسلم والإسلام التي روجت لها وسائل الإعلام الغربية بما فيها الفرنسية منذ أحداث 11 سبتمبر 2001، وقيامها بحملات ضد المسلمين مثل حملة الصور الكاريكاتورية المسيئة للرسول (ص)، حادثة شارلي ايبدو عام 2015.(https://bit.ly/3hNW5EH, p. 8)

شكل رقم (1) : النسب الإجمالية لفئة المفاهيم المتضمنة في مقالات حول الإسلام لصحيفة لوموند ديبلوماتيك



المصدر : من إعداد الباحثة اعتمادا على (بن عايشة، 2015، صفحة 228)

يوضح شكل رقم (1) النسب الاجمالية لفئة المفاهيم المتضمنة في مقالات حول الإسلام لصحيفة لوموند ديبلوماتيك الفرنسية أين تم ربط الإسلام بمفاهيم كالإرهاب، العنف، التعصب، التخلف، اضطهاد المرأة وهو ما يروج لصورة مسيئة ومغلوطة عن الإسلام.

وعليه تتمثل أهم أسباب تنامي الكراهية ضد المسلمين في فرنسا في ترويج كبار الفلاسفة والمفكرين الغربيين لصورة مسيئة عن الإسلام، بالإضافة إلى صعود اليمين المتطرف في أوروبا وتركيزه على قضية الهجرة من خلال ربطها بمسألة الهوية والاندماج وتبنيه للخطابات المعادية للمسلمين واستغلاله للهجمات الإرهابية التي نفذتها الجماعات الإسلامية المتطرفة في بعض الدول الغربية منها فرنسا، إلى جانب شن وسائل الإعلام الغربية وفي مقدمتها الفرنسية لحملة إعلامية معادية للمهاجرين العرب المسلمين.

ثانيا- انتهاك حقوق الجالية المسلمة في فرنسا:

مع صعود اليمين المتطرف في أوروبا، وتنامي النزعة المعادية للمسلمين في فرنسا، باتت الجاليات المسلمة محل اتهام ضمني.

1- الخطابات المعادية للإسلام: استخدمت حملات الاسلاموفوبية بعض الخطابات بهدف تشويه صورة الإسلام والمسلمين، منها : "الهجرة الإسلامية تحتل الغرب"، "فرنسا تعاني من مشكلة الإسلام يجب وقف بناء المساجد"، "القران الموضوع على الطاولة أمامكم كتيب الإرهابيين"، "المسلمون طفيليات"، "لا حرية مع الإسلام لقد استوردنا وحشا وهذا الوحش اسمه الإسلام"، وغيرها من الشعارات المسيئة للإسلام والمسلمين عموما. (لغرس، 2019، صفحة 40)

صرح الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا هولاند "فرنسا تعاني من مشكلة الإسلام"، حيث جاء في تصريحه : «صحيح أن هناك مشكلة مع الإسلام، لا أحد يشك في ذلك. الإسلام لا يشكل مشكلة بمعنى أنه دين خطير، لكن بقدر ما يريد أن يتحول إلى دين للجمهورية».(https://bit.ly/3MP9zyA, p. 32)

كما نقلت صحيفة تيليجراف البريطانية تصريحا لمارين لوبان جاء فيه: «المسلمون في فرنسا كالاحتلال النازي.. هؤلاء الذين يتحدثون كثيرًا عن الحرب العالمية الثانية، إذا كان الأمر عن الاحتلال، لذا فيمكننا أن نتساءل عن ذلك أيضًا (قاصدة صلاة المسلمين في الشوارع)، لأن هذا احتلال للأرض». وخلال حديثها لراديو RTL رفضت مارين لوبان تخصيص وجبات بديلة للطلاب المسلمين في المدارس : «كل لحم الخنزير أو ابق جائعًا، لن نقبل أي طلبات دينية في قوائم طعام المدارس». (https://bit.ly/3HP66Mx)

من جهته أعلن الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون خلال خطاب ألقاه في أكتوبر 2020 : « الإسلام يعيش أزمة اليوم في جميع أنحاء العالم»، كما صرح : «ثمة في تلك النزعة الإسلامية الراديكالية عزم معلن على إحلال هيكلية منهجية للالتفاف على قوانين الجمهورية وإقامة نظام مواز يقوم على قيم مغايرة،

وتطوير تنظيم مختلف للمجتمع».(https://bit.ly/3MJcf0C) وقال الرئيس إيمانويل ماكرون أن بلاده لن تتخلى عن الرسوم الكاريكاتورية، مما تسبب في موجة غضب لدى المسلمين عبر العالم. (https://bit.ly/3hRtmPo).

يلاحظ من التصريحات السياسية تنامي النزعة المعادية للإسلام والمسلمين في فرنسا خاصة مع صعود اليمين المتطرف وتسييسه لقضية الهجرة، واعتبار المهاجرين المسلمين تهديد للأمن في فرنسا.

2- القوانين التشريعية الفرنسية: أصدر الرئيس الفرنسي السابق نيكولا ساركوزي خلال فترة رئاسته مجموعة من القوانين ضد الجاليات المهاجرة خاصة العربية المسلمة كإسقاط الجنسية الفرنسية على الفرنسيين المنحدرين من أصول أجنبية ممن يتطاولون على أعوان الدولة، وقيادته لحملة ضد ظاهرة النقاب في فرنسا، ووضع حد لمطالب اللجوء السياسي والالتحاق العائلي، التحول من الهجرة المفروضة إلى الهجرة المنتقاة بجلب النخبة المثقفة. (بن زروال، صفحة 165)

من جهة أخرى أصدرت الحكومة الفرنسية مجموعة من القوانين ضد الجالية المسلمة في فرنسا منها :

- قانون الرموز الدينية في المدارس العامة (2004) Law on religions symbols in public والذي ينص على : " في المدارس الابتدائية و الثانوية العامة، يحظر ارتداء الرموز أو الملابس التي يظهر الطلاب بموجبها انتماءا دينيا ".(https://bit.ly/3MXcMw4)

من جهتها بررت فرنسا اعتمادها لقانون حظر الرموز الدينية على استنادها على مبدأ العلمانية المنصوص عليه في الدستور الفرنسي، وأن حظر الرموز الدينية يهدف إلى تكريس المساواة بين كل الطلاب، كما اعتبرت الحجاب رمز للجماعات السلفية المتشددة وهو صورة من صور اضطهاد المرأة. (بلخير، 2019، الصفحات 195-197)

- قانون يحظر إخفاء الوجه في الأماكن العامة (2010) Law prohibiting concealment of the face in public، ينص على : «لا يجوز لأي شخص، في أي مكان عام، ارتداء ملابس مصممة لإخفاء الوجه». (https://bit.ly/3qyDYaX)

وعليه تعد هذه القوانين التشريعية تعسفية تقيد الجالية المسلمة من حرية ممارسة عقيدتها الدينية المكفولة في الاتفاقيات الدولية الخاصة بحقوق الإنسان وهو ما لا يتسق مع المعايير الدولية وهو ما يعد انتهاك لمنظومة حقوق الإنسان.

3- العنف ضد الجالية المسلمة: شهدت فرنسا عنف ديني ضد الجاليات المسلمة منها إعداد رسومات وشعارات استفزازية كفرنسا للفرنسيين والعرب خارجا، تعرض النساء المحجبات للاهانة والاستفزاز

بعبارات عنصرية ودينية عرقية في الأماكن العامة، منع المسلمين من ممارسة شعائرهم الدينية، اتهام بعض المسلمين بالتطرف والقيام بعمليات إرهابية في فرنسا وتصفيتهم جسديا، نشر الأفكار العلمانية والتنصيرية بين الشباب العربي المسلم. (بن زروال، الصفحات 166-167)

من جهته سجل بيان جمعية مكافحة الاسلاموفوبيا في فرنسا لعام 2016 تعرض الجالية المسلمة في فرنسا للعنف أين وقعت 419 جريمة تمييز، 39 جريمة مضايقة، 25 هجوما، 98 حادثة خطاب يحرض على الكراهية والاعتداء على المساجد.(https://bit.ly/3Ksu8i4)

شكل رقم (2) : تصنيف الأفعال المعادية للمسلمين حسب الجنس

طبيعة الفعل / الجنس	التميز	العنف	الاعتداء الجسدي
المرأة	%88	%81.5	%82
الرجل	%12	%18.5	%18

المصدر : من إعداد الباحثة اعتمادا على (https://bit.ly/3551nZX, p. 25)

يوضح شكل رقم (2) تصنيف الأفعال المعادية للمسلمين حسب الجنس في فرنسا وتشمل تلك الأفعال التمييز، العنف، الاعتداء الجسدي، أين تصدرت المرأة قائمة ضحايا الاسلاموفوبيا، مما يدل على وجود اضطهاد للمرأة المسلمة في فرنسا وانتهاك لحقوقها.

وعليه تشكل القوانين الصادرة ضد الجاليات المهاجرة المسلمة في فرنسا انتهاك لحقوق الإنسان، كما يعد تعرض الجالية المسلمة للعنف السياسي والديني تهديدا لأمن وسلامة المهاجرين المسلمين المتواجدين في فرنسا.

خاتمة :

شهدت فرنسا تنامي ظاهرة الاسلاموفوبيا، مع صعود التيار اليمني المتطرف واستغلاله للهجمات الإرهابية في بعض الدول الأوروبية من خلال ربطها بتواجد الجالية المسلمة وتهديدها لأمن واستقرار أوروبا.

وعليه توصلت الدراسة إلى النتائج التالية :

- ساهمت أحداث 11 سبتمبر2001 والهجمات الإرهابية اللاحقة التي استهدفت بعض العواصم الأوروبية في تشويه صورة الإسلام، وتعزيز موقف الأحزاب اليمينية وحصولها على مصداقية أكبر في الانتخابات.
- تعاني الجالية المسلمة في فرنسا من تمييز عنصري متمثل في القوانين التشريعية التعسفية وتقييد لحرية ممارسة عقيدتها الدينية، بالإضافة إلى تعرضها إلى العنف والاعتداءات من قبل الحركات المتطرفة في فرنسا، وهو ما يعد انتهاك لحقوق الإنسان.
- تشكل " الإسلاموفوبيا " تهديدا للأمن المجتمعي الأوروبي وكذلك التعايش بين الثقافات المختلفة داخل أوروبا.
- تعتبر الأحزاب اليمينية المتطرفة في فرنسا وفي مقدمتها حزب التجمع الوطني الفرنسي المهاجرين المسلمين تهديدا للأمن المجتمعي في فرنسا، بسبب الاختلاف بين الديانة المسيحية والدين الإسلامي، مما يطرح إشكالية الاندماج.

توصيات:

في الأخير تقترح هذه الدراسة جملة من التوصيات المتمثلة في :

- يجب تجريم الإسلاموفوبيا باعتبارها ظاهرة معقدة لها انعكاسات سلبية خطيرة على حقوق الإنسان، ما يدعو إلى تكثيف الجهود للتعامل معها.
- يجب وضع حد لانتهاكات حقوق الإنسان التي تمر بها الجالية المسلمة منها منع المرأة المسلمة من ارتداءها للحجاب، من خلال تبني تعزيز المنظومة القانونية.
- تصحيح صورة الإسلام لدى الغرب من خلال عقد لقاءات علمية تحسيسية تعرف بمبادئ الإسلام الحقيقية القائمة على التسامح ونبذ العنف ومحاربة التطرف، وتعزيز ثقافة التعايش السلمي بين مختلف الثقافات.
- فرض الرقابة على وسائل الإعلام الغربية فيما يتعلق بالنشر وبث المعايير من أجل منع استخدام الخطابات العنصرية اتجاه المسلمين.

قائمة المراجع:

أولا. المراجع باللغة العربية

I. كتب :

- بلخير آسيا، قضية الحجاب في فرنسا بين حماية العلمانية وتقنين الاسلاموفوبيا، في : الاسلاموفوبيا في أوروبا –الخطاب والممارسة-، (2019) ، المركز الديمقراطي العربي (برلين)، ط.1.
- الغنجة هشام داود، سرنيح جميلة، الاسلاموفوبيا والإرهاب، في : الاسلاموفوبيا في أوروبا –الخطاب والممارسة- ، (2019) ، المركز الديمقراطي العربي (برلين)، ط.1.

II. مقالات :

- أفروجن كهينة، "الاسلاموفوبيا في الإعلام المكتوب الغربي: بحث في مصادر الصورة النمطية المعادية للإسلام"، (2017) ، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجزائر، مجلد12، العدد 12، ص ص. 296-273
- برش بشرى، قارش محمد، "ظاهرة الاسلاموفوبيا في الفضائيات الإخبارية بين التناول الموضوعي والتضخيم الإعلامي في ضوء الأحداث الراهنة "، (2018) ، مجلة العلوم الاجتماعية، الجزائر، المجلد12، العدد 3، ص ص.193-204
- بن زروال جمعة، "الجالية المغاربية المعاصرة في فرنسا وظاهرة العنف السياسي والديني"، (2019) ، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجزائر، المجلد 12، العدد 1، ص ص. 157-173
- بن عيشة عبد الكريم، "صورة الإسلام في الصحافة الغربية : صحيفة Le monde diplomatique الفرنسية نموذجا"، (2015)، مجلة الحوار الثقافي، الجزائر، المجلد 4، العدد 1، ص ص. 221-233
- زريق نفيسة، غربي عزوز، "الخطاب الإعلامي والسياسي الغربي وتنامي ظاهرة الاسلاموفوبيا : ملامح التأثير ومستوياته"، (2017) ، المجلة الجزائرية للأمن والتنمية، الجزائر، المجلد 6، العدد 2، ص ص. 46-30
- يوسف كريم، "المهاجرون المسلمون في أوروبا بين قضايا الهوية والإرهاب"، (2017)، مجلة العلوم السياسية والقانون، برلين، العدد 3 ، ص ص. 253-265
- لغرس سوهيلة، "الاسلاموفوبيا : مقاربة بين الفكر والواقع"، (2019) ، مجلة قضايا التطرف والجماعات المسلحة، برلين، العدد 2، ص ص. 26-43
- عطوات عبد الحكيم، "تأثير ظاهرة الاسلاموفوبيا على اندماج المهاجرين المسلمين في الدول الأوروبية"، (2020) ، دفاتر السياسة والقانون، الجزائر، المجلد 12، العدد 1، ص ص. 198-216

III .مو اقع الإنترنت :

- أحمدحمدي، 5 تصريحات صادمة لسياسية معادية للإسلام استقبلها شيخ الأزهر، المصري اليوم، 2015/05/30، https://bit.ly/3HP66Mx ، تاريخ التصفح : 2022/03/08
- بن تمسك مصطفى، الاسلاموفوبيا : مقاربة جيوسياسية، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2017، https://bit.ly/3hNW5EH، تاريخ التصفح : 2022/03/01
- دندان عبد القادر، الاسلاموفوبيا وحوار الهوية الوطنية في فرنسا : أبعاد ودلالات، https://bit.ly/3pNyeJQ، تاريخ التصفح : 2022/03/08
- يمنى عاطف محمد، صعود أحزاب اليمين المتطرف في أوروبا : دراسة حالة فرنسا في الفترة 1984-2017، 2019/08/19،https://bit.ly/35C37Ky، تاريخ التصفح : 2022/03/01
- الجزيرة نت، الاسلاموفوبيا... معاناة المسلمين في ديمقراطيات الغرب، 2016/04/19، https://bit.ly/3Ksu8i4، تاريخ التصفح : 2022/03/08

- المرصد الأورومتوسطي لحقوق الإنسان، رهاب الأجانب والتفرقة العنصرية ضد اللاجئين والمهاجرين في أوروبا، 2018، https://bit.ly/3vQap8b، تاريخ التصفح : 2022/02/28
- د.م، تواصل الاحتجاجات ضد تصريحات ماكرون المعادية للإسلام في اندونيسيا وجنوب إفريقيا ونيجيريا، 2020/10/30، https://bit.ly/3hRtmPo، تاريخ التصفح : 2022/03/08
- د.م، تصريحات ماكرون عن الإسلام تثير ردود أفعال غاضبة، 2020/10/03، https://bit.ly/3MJcf0C، تاريخ التصفح : 2022/03/08

ثانيا- مراجع باللغة الأجنبية :

-Internet :

- Collective against Islamophobia in France, Report 2016, https://bit.ly/3551nZX, accessed 23/03/2022.
- Tenth OIC observatory, report on Islamphobie, 10-11 july 2017, https://bit.ly/3MP9zyA accessed 10/03/2022.
- Rosemary Salomone, Sghould the « veil » be banned in higher education ?, 31/08/2013, https://bit.ly/3MXcMw4, accessed 16/03/2022.
- United Nations, France: Banning the niqab violated two Muslim women's freedom of religion - UN experts, 23/10/2018, https://bit.ly/3qyDYaX, accessed 17/03/2022.

صورة الإسلام في الدول الاسكندنافية

The Image of Islam in the Scandinavian countries –Finland as a model-

ط/د. صافية شنين، جامعة الجزائر01، الجزائر
s.chenine@mail.univ-alger.dz ;safiaa.ch@hotmail.fr



تحاول هذه الورقة دراسة موضوع صورة الإسلام في الدول الاسكندنافية، وتحديدا في دولة فنلندا، والهدف من ذلك إبراز هذه الصورة والكشف عنها، ومعرفة طبيعة الأفكار والأوصاف والصّور النّمطية السلبية أو الإيجابية عن الإسلام من خلال بعض كتابات ومؤلفات الفنلنديين وكذا من خلال الإعلام الفنلندي بمختلف أنواعه.
ولتحقيق ذلك، تناولت الورقة موضوعها في محاور أربع:
- تعريف الصورة، ومنها الصورة الذّهنية والنمطية.
- الدول الاسكندنافية؛ تعريفها باختصار، ثم تعريف بدولة فنلندا.
- التطرق إلى الإسلام في فنلندا وكيف انتشرت هناك.
- صورة الإسلام في فنلندا، وهي مقسّمة إلى قسمين: الأولى وفيها الصورة الموضوعية للإسلام؛ والثانية وفيها - الصورة النمطية السلبية عن الإسلام من خلال مختلف وسائل الإعلام الفنلندية.
وخَلُصت هذه الورقة إلى نتائج من بينها أنّ صور ة الإسلام في فنلندا مُتباينة.

الكلمات المفتاحية: الصورة، الإسلام، الدول الإسكندنافية، فيلندا.

Abstract :

This study aims to introduce the image of Islam in the Scandinavian countries, in Finland in particular, by firstly, introducing the meaning of the image, and the stereotype. Then, secondly I took a brief introduction about Scandinavian countries, and about Finland, and the spread of Islam there.
Thereafter, I touched on the image of Islam in Finland -which is the subject of this study- and divided into two sections: the first one is about the positive image of Islam which was represented in books, literature and studies that dealt with the religion of Islam in an objective way and a positive manner.
As for the second one, it dealt with the stereotype image of Islam, which was a negative image, and that appeared in the Finnish media, which described Islam and Muslims –generally- in the worst forms.
Keywords:Image, Islam, Scandinavian countries, Finland.



مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

أصبح الإسلام خلال العقد الأخير يحتلّ أهمية كبرى في حياة المجتمعات الغربية، فكثرت الدراسات والمؤلفات حول الدين الإسلامي ومعتنقيه. واهتمّ الإعلام -بشكل رئيسي- في نشر الصورة النّمطية للمجتمع الغربي، وتعدّدت الدراسات في الغرب في أمريكا وفرنسا وانجلترا ولم تحظَ الدّول الاسكندنافية ذلك الاهتمام الواسع، لذلك تمّ اختيار في هذه الدّراسة دولة من الدول الاسكندنافية وهي دولة فنلندا. وانطلاقا ممّا سبق تنبع أهمية إشكالية الدراسة والتي تتمثّل في السّؤال المحوري الآتي: ما هي طبيعة الصّورة النّمطيّة عن الإسلام المُتداولة في فنلندا؟ وتتفرّع من هذه الإشكالية المحوريّة، تساؤلات فرعية، وهي: ما هو تاريخ وجود المسلمين في دولة فنلندا؟ وما دور الإعلام الفنلندي في نشر صورة الإسلام؟

يهدف هذا البحث إلى إبراز هذه الصورة والكشف عنها، ومعرفة طبيعة الأفكار والأوصاف والصّور النّمطية السلبية أو الإيجابية عن الإسلام من خلال بعض كتابات ومؤلفات الفنلنديين وكذا من خلال الإعلام الفنلندي بمختلف أنواعه، مع إبراز أهمّ مظاهر تلك الصور النمطية. بالإضافة إلى تحديد مصطلح الصّورة النّمطيّة، ودور وسائل الإعلام في تكوينها وإنتاجها.

أولا- تعريف الصّورة:

لِمصُطلح الصّورة عدّة مفاهيم ودلالات عند مختلف الباحثين، وتحديد المصطلح صعب وتعود هذه الصّعوبة إلى أسباب متنوّعة منها: تَدَاول المصطلح في علوم متباينة، واختلاف المذاهب والحركات والمناهج النّقديّة التي تدرسه، واتّساع الصّورة لتُعبّر عن كثير من جوانب الإبداع الإنسانيّ، وكل ذلك يُؤدّي إلى صعوبة وضع تعريف مُحدّد. (صلا، 2006، الصفحات 19, 20)

فالصّورة في اللّغة هي بمعنى النّوع والصفة، يُقال صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته. والجمع: صُور. (منظور) فالصّورة في المعنى اللّغويّ تدور حول مفهوم الشّكل، والهيئة، والصّفة، والنّوع.

أمّا مصطلح الصورة في اللّغات الأجنبية، فهي باللّغة اللاّتينيّة: Imago، وباللّغة الانجليزية: Image، وباللّغة الفرنسية: Image، وهي كلّها تدور أيضا حول مفهوم الصفة والنوع والشكل.
(Webster's, 1963)

أمّا في الاصطلاح، فجاء في معجم التّعريفات في التّعريف بصورة الشّيء "هو ما يُؤخذ منه عند حذف المشخّصات، ويُقال: صورة الشّيء ما به يحصل الشّيء بالفعل". (الجرجاني، 2004، صفحة 116)

لقد تنوّعت مظاهر الصورة وأنماطها، فمنها الصورة العَيَانيّة، والصّورة المعبّرة عن التّمثيل العقلي، والصور الذهنية الموجودة في الدّماغ، وكذا الصور الخاصة بالمؤسسات أو الأفراد كصورة الذّات والآخر في الدراسات الاجتماعية، وهناك أيضا صور الذّاكرة والصور الرقمية والفوتوغرافية والتلفزيونية وغيرها من أنواع الصّور المستجدّة. (الحميد، 2008، الصفحات 10- 24) فالصّورة إذن تُطلق ويُراد بها إحدى المعاني

السّابقة وقد تُطلق أيضا ويُراد بها: الصورة الدّيناميكية، والصورة القومية، والصورة العامة والشعبية، والصورة الذّهنية، والصورة النّمطية، والصورة السيمولوجية وغيرها. والمصطلح أو التّركيب الذي يخصّ بحثنا هذا هو الصورة الذّهنية بشكلٍ عام، ويدخل ضمنيّا في البحث مصطلح الصّورة النّمطية، فالمقصود بالصّورة (The Image) بمعناه الذّهني والفكري، وليس بمفهومه المادي.

فالصّورة الذهنية إذن هي عودة الإحساسات في الذّهن بعد غياب الأشياء التي تُثيرها (الفلسفي، 1983، صفحة 107)، فهي النّاتج النّهائي للانطباعات الذّاتيّة التي تتكوّن عند الأفراد أو الجماعات إزاء شخص معيّن أو نظام ما، أو شعب أو جنس بعينه أو أيّ شيء آخر يمكن أن يكون له تأثير على حياة الإنسان (طاش، 1993، صفحة 21). وذكر الفيلسوف Kenneth E. Boulding (1910- 1993م) في كتابه " The Image " المبدأ الأساسي للصورة الذّهنيّة هو المعرفة الذّاتيّة، إذِ الصّورة عنده هي النّتيجة النّهائية للتّجارب السّابقة في بناء الصّورة، وعليه فالجزء من الصورة هو تاريخ الصورة نفسها. (Jenkins, 2013, p. 30)

فالصّورة الذّهنيّة إذن مكوّنة ومكتسبة بطريقة ما في عقل وذهن الإنسان، وقد يُشكّل موقفا معيّنا – سواءً كان إيجابيّا أو سلبيّا- اتجّاه شخص أو قضّية أو دين أو شعب بأكمله. أمّا الصّورة النّمطية، فهي جزء من الصورة الذّهنيّة، فهذه الأخيرة هي أوسع وأشمل من النّمطيّة (Streotype)، والصّورة الذّهنيّة بمثابة الكلّ إزاء الجزء، "إنّها أيضا الحالة التي تسبق الصّورة النّمطيّة اعتماداً على ما إذا كانت ذات بناء مغلق أم مفتوح، وغالبا ما تُعدّ النّمطية مرحلة لاحقة من مراحل تكوّن الصورة الذّهنية لدى الإنسان عن الأشخاص والأقوام والأشياء. الصّورة النّمطيّة (Stereotype Image) مشتقّة من النّمط الذي يعني الشيء المكرّر على نحوٍ لا يَتغيّر، أو الشّيء المتّفق عليه مع نمط ثابت أو عام، وتعوّزه السّمات الفردية المميّزة، أو الصورة العقلية التي يشترك في حملها أفراد جماعة ما، وتمثّل رأياً مبسّطا إلى حدّ الإفراط المشوّه أو موقفاً عاطفياً من شخص أو قضيّة أو حادثة ما. (طاش، 1993، صفحة 21)

يُستخدم مصطلح الصورة النّمطية في العصر الحالي غالبا عند دراسة التّحيّزات أو المجموعة الاجتماعية تجاه مجموعة أخرى مختلفة، والمصطلح نشأ في بدايته في صناعة النّشر، ويُشير إلى كتلة الطّباعة، حيث يتمّ إنتاج مطبوعات مُتطابقة بشكل متكرّر دون تغيير. إنّ ما يرتبط به الناس مع المجموعة النّمطية عادة ما يستمدّ من مجتمعهم والتّأثيرات داخل المجموعة بدلاً من التّجارب الحقيقيّة مع المجموعة الخارجية عن طريق استخدام الخصائص التي يعتقد أن جميع الأعضاء يُشاركونها في ذلك، وتصنيفها على أنها خارجية ومختلفة، وبذلك تبقى تلك الصّور راسخة دون تغيير. إن الصور النمطية هي ما أطلق عليها Walter Lippmann خرائط للعالم؛ تجسّد الميل الإنساني العالمي لتصنيف الناس إلى مجموعات، يليها فرض الخصائص المدركة للمجموعة على هؤلاء الأفراد. (Lippmann, 1998, pp. 65, 66)

فالصّورة النّمطية إذن هي شكل من أشكال الحكم المسبق، وهي جزء من الطّبيعة الإنسانية، فإن الإنسان يسعى دائما إلى تصنيف الأشخاص والأشياء من حوله ومن ثَمَّ تكوين صور نمطيّة عنهم.

ثانيا- الدّول الاسكندنافية:

فيما يلي تعريف مختصر للدول الاسكندنافية، تليها تعريف بدولة فنلندا والتي هي محلّ هذه الدراسة.

1- تعريفها: اختلف المؤرّخون في أصل ومعنى مصطلح "الاسكندنافية" Scandinavia، فمنهم من ذكر أنّ أصل المصطلح يعود إلى الكلمة الجرمانية Skaðin-aujo وتعني: الأرض على الماء" أو "الجزيرة على الماء". في حين ذكر آخرون بأنّ أصل Scandinavia يعود إلى الكلمة الجرمانية Skaðan والتي تعني الخطر والضّرر. وعليه فالمعنى العام لمصطلح الاسكندنافية هو "الأرض الخطرة على الماء. (Helle, 2008, p. 232)

تتكوّن الدول الاسكندنافية من الممالك التالية: الدّانمارك، والنّرويج، والسّويد. لكنّها تشمل أيضا دولة فنلندا لتقارب الموقع الجغرافي، وآيسلندا للتّقارب التاريخي والحضاري والعلاقات الثقافيّة التي تربط بين هذه الدّول جميعا. إلاّ أنّ هناك مَن يُصنّفها باعتبار اللّغة فلا يدخل فيها إلاّ تلك الممالك الثلاث؛ أما من الحيثيّة التّاريخيّة والثّقافيّة فإنّ مسمّى الدول الاسكندنافية يشمل الدّول الخمسة كلّها: السويد، والدّانمارك، والنرويج، وفنلندا، وآيسلندا. وهذا ما تعتمده الكتب التاريخية لتلك الدّول. (Lavery, 2006, pp. 2, 3)

2- التعريف بدولة فنلندا: تقع فنلندا شمال شرق أوروبا، حيث تحدّها السويد غرباً، والنّرويج شمالاً، وروسيا شرقاً، وبحر البلطيق جنوباً. عاصمة فنلندا هي هلسنكي(Helsinki). (Lavery, 2006, pp. 2, 3) وبالرّغم من التّقارب والتّرابط الثّقافي المتين بين الدول الاسكندنافية الخمسة، إلاّ أنّ الشّعب الفنلندي ينحدر من مجموعات عِرقيّة ولُغويّة مختلفة تماماً عن جيرانه الاسكندنافيين الأساسيين، فاللّغة الفنلندية (Suomi) تختلف من حيث أصولها عن باقي اللّغات الإسكندنافية فهي تعود إلى أصول فينّو أوغرية (Finno- Ugric) وهي لغة ذات أصول مختلفة عن تلك اللّغات الاسكندنافية، ويتكلّمها أكثر الفنلنديين حوالي 93% تليها اللغة السويدية بحوالي 6%. (Lavery, 2006, pp. 2, 3) إضافةً إلى لغة السّامي (Sàmi) التي تنتشر شمال البلاد، وهي اللّغة المنتشرة في أربع دول، ثلاث منها دول اسكندنافية وهي: فنلندا، النرويج والسويد، بالإضافة إلى دولة روسيا، حيث تنتشر اللغة السّامية في أقصى الشّمال الغربيّ. وفي لغة السّامي نجد مجموعة واسعة من اللّهجات تختلف حسب كل بلد من البلدان آنفة الذّكر، لكن جميعها تنحدر من اللّغات الأورالية. (Hvodhaugen, 2000, p. 34)

يبلغ عدد السكان الفنلنديّن حوالي 5,2 مليون نسمة، أغلبهم يعيشون في جنوب البلاد، بسبب طول فصل الشّتاء في الشمال والبرودة القاسية التي تصل إلى -40°.

(Lavery, 2006, pp. 2, 3)

في منتصف القرن الثّاني عشر بدأ السّويديّون في استعمار المناطق الفنلنديّة السّاحلية ضمن حروبهم الصّليبيّة الشّمالية، حتى ضُمّت فنلندا إلى مملكة السّويد وبقيت تحت حكمها إلى غاية القرن الثّامن عشر، هذه الفترة الاستعمارية أثّرت على الدّين في فنلندا حيث انتشرت المسيحية البروتستانتية اللّوثريّة وأصبحت الدّيانة الرّسميّة للبلاد. (Helle, 2008, p. 232).

ثالثا- الإسلام في فنلندا:

إنّ أوّل ظهور للإسلام والمسلمين في فنلندا كان مع بداية القرن التاسع عشر (1800م)، حيث قَدِم التّتار الأتراك من روسيا، وهم يُصنّفون كمسلمين سُنّيين حنفيّي المذهب. (Sakaranaho, 2006, p. 2)

وقد انتقل المسلمون -المنتمون إلى الجيوش الروسية- إلى فنلندا بسبب تبعيّتها لروسيا من سنة 1809م إلى غاية سنة 1917م. (Hadi, 2015, s. 17) وبعد استقلال فنلندا سنة 1917م وبعد الحرب العالمية الأولى والثانية، عرفت موجة من الهجرة القادمة إليها من وسط أوروبا بما في ذلك دول البلقان ذات الأغلبية المسلمة، كالبوسنة والهرسك، وكوسوفو (يوغسلافيا سابقا). تَلَت هذه الهجرات الكبيرة هجرات صغيرة ومحدودة ما بين 1960 و 1980 من وسط أوروبا، وبجنسيات مختلفة -من طلبة وغيرهم- وقد كان عدد المسلمين حينئذ لا يتجاوز الألفين مسلم (2000). لكن مع بداية عام 1990م ظهرت هجرات أخرى من قِبَل اللاّجئين الصّوماليّين .(Heikkinen, 2014, ss. 36, 37) حيث استلمت فنلندا آنذاك أعداد كبيرة منهم بسبب التزاماتها بمبادئ ومقررات الإتّحاد الأوروبي في إطار اتّفاقية خاصّة باللاّجئين. (Hadi, 2015, s. 17) بلغ عدد المسلمين سنة 2002م 30ألف (Sakaranaho, 2006, p. 206) وفي سنة 2013م حوالي 50 ألف مسلم، أي بنسبة 1 % من العدد الإجمالي لسّكان فنلندا . وقد استمرت الهجرات بعد ذلك لكن بنِسبٍ ضئيلة جدّا مقارنة بالتي حدثت سنة 1990م. إنّ المسلمين في فنلندا من جنسيات مختلفة ومتنوّعة، حيث يأتي على رأسها الصومالية، تليها بلدان آسيا الوسطى، والبلدان العربية الإسلامية، ثمّ مسلمي يوغوسلافيا سابقا والتّتار الأتراك. أكثرهم يرتكزون في جنوب فنلندا في العاصمة هلسنكي (Helsinki) والمدن الكبرى كمدينة توركو (Turku) ومدينة تامبِره (Tampere) وبنسبة أقلّ مدينة أولو (Oulu) الواقعة في شمال فنلندا.

توجد فئة أخرى من المسلمين، وهم الفنلنديّون الذين اعتنقوا الإسلام، وقد بلغ عددهم سنة 2008م حوالي 1000مسلم ومسلمة بحسب إحصائية الباحثة الفنلندية إسراء ليهتينين Lehtinen Isra .
وبناءً على ما سبق، يُمكن تقسيم المسلمين في فنلندا إلى أربعة مجموعات :

1. الأتراك.
2. الفنلنديين الذين اعتنقوا الإسلام.
3. اللاّجئين والمهاجرين.
4. أبناء اللاّجئين والمهاجرين.

إنّ أغلب المسلمين الموجودين في فنلندا هم مِن طالبي اللّجوء بسبب الحروب في بلادهم الأصلية، وكذلك المهاجرين الذين رحلوا من أوطانهم بُغية تحسين معيشتهم، وينتمي أغلبهم إلى الطّبقة المتوسّطة أو الفقيرة. (Heikkinen, 2014, ss. 36, 37)

وتجدر الإشارة إلى أن كل هذه الإحصائيات تبقى نسبية، فالكثير من المسلمين لا يُصرّحون بأنّهم ينتمون إلى دين الإسلام عند القيام بالأبحاث الخاصة في الإحصاء الدّيني، ما أدّى إلى صعوبة تحديد عدد المسلمين

بدقّة. (شنين، 2020، الصفحات 517- 538).

رابعا- صورة الإسلام في فنلندا:

إنّ فنلندا كدولة صغيرة ونائية ومُحايدة إلى حدّ كبير، لا تملك شغفا كبيرا بالسّياسة الخارجية تجاه الدّول الإسلامية، ولكونها أيضا –تاريخيّا- لم تستعمر أي دولة في العالم وليس لديها أي علاقة بالاستعمار الأوروبي كفرنسا وبريطانيا وغيرها من الدول الاوروبية المُستعمرة. وهذا هو السّبب في أنّ العلاقات الفنلنديّة مع الإسلام والمسلمين أقلّ بروزا لكراهية الأجانب بالعديد من البلدان الغربية الأخرى، لاسيما في البلدان متعدّدة الثّقافات ذات خلفية المُهاجرين ككندا وأستراليا، حيث هناك جدل مُستمرّ حول القوالب النّمطيّة المُرتبطة بالمسلمين. لكنّها في المُقابل تأثّرت بسياسات الدّول الغربية الكبرى اتّجاه البلدان الإسلامية والدّين الإسلامي تحديداً. ونتطرّق فيما يلي إلى نموذجين من صورة الإسلام في فنلندا؛ الأولى الصورة الموضوعية، والثانية الصورة النمطية المشوّهة عن الإسلام.

1- الصورة الموضوعية: تتمثّل الصورة الموضوعية والإيجابية –إلى حدّ كبير- في المؤلفات والكتب والدّراسات الأكاديمية، من بين أهم المؤلفين الأكاديميّن في فنلندا نذكر بعضهم: الدكتورة والباحثة تولا ساكاراناهو Tuula Sakaranaho في كتابها باللغة الانجليزية: " Religious Freedom, Multiculturalism, Islam: Cross-reeading Finland and Ireland" ، والدكتور الباحث توماس مارتكاينن Tuomas Martikainen في كتابه باللّغة الفنلندية: " Mitä muslimit tarkoittavat? Keskustelua islamilaisista virtauksista Suomessa ja Euroopassa"، حيث تناولا الباحثان في كتابيهما موضوع الإسلام والمسلمين بصفة موضوعية وإيجابية إلى حدّ كبير.

والبروفيسور والمستشرق الفنلندي الكبير ياكّو هامين آنتيلا Jaakko Hämeen Anttila ، صاحب تفسير معاني القرآن الكريم، تمّ إصدار من قِبله أوّل كتاب مرجعي قصير للتعريف عن الإسلام وأهم مصطلحاته سنة 2001م وهو باحث وأستاذ الدّراسات العربية والإسلاميّة بجامعة إدنبرة. ولد عام 1963م، حصل على شهادة الدّكتوراه من جامعة هلسنكي (فنلندا) عام 1994م. قبل مجيئه إلى إدنبرة، اسكتلندا في جوان 2016م عمل كباحث أوّل في الأكاديمية الفنلندية 1997- 2000م وأستاذ الدّراسات العربية والإسلامية في جامعة هلسنكي 2000- 2016م. (Anttila)

وكان سبب تأليفه للكتيّب لسدّ الفراغ حول إشكالات المصطلحات الإسلامية خاصة بعد أحداث سبتمبر 2001م. يحوي الكتيّب –وهو عبارة عن قاموس للجيب- على شرح موجز لِ 37 مصطلحا إسلاميا، ومن بين هذه المصطلحات: الله، العرب، الدعوة، الفقه، الفتوى، القرآن، المسلم، القِبلة، محمّد، الأمة. إضافة إلى هذه المصطلحات، أضاف المؤلف في كتيّبه 11 مقالا حول المواضيع الرئيسية في الإسلام، من بينها على سبيل المثال: العالم الإسلامي، السنة والشيعة، الصوفية، الإسلام وأوروبا وأمريكا، الإسلام والمسيحية، مُعتمدا على مصادر ومراجع إسلامية بالعودة إلى القرآن الكريم وتفاسيره والسنة النبوية كما ذكر ذلك في المقدمة. (Anttila, Islam: Taskukirja, 2001)

ثم أصدر المؤلف نفسه طبعة ثانية للكتاب عام 2004م وهي إعادة للطبعة السابقة مع تغييرات

طفيفة.(Jaakko, 2004) بعدها، في عام 2017 ألّف المستشرق نفسه كتابا ثالثا تُعتبر كطبعة ثالثة منقّحة للكتابين السابقين من دليل الإسلام الجديد، وهو كتاب مهم فيه أحدث الدراسات حول المفاهيم الأساسية للإسلام والإجابة على مختلف الإشكالات التي حصلت في الأحداث الأخيرة. وينقسم هذا الدليل إلى ثلاثة أبواب: تاريخ الإسلام؛ ومذاهب الإسلام؛ وقسم خاص بالإجابات حول الأسئلة والإشكالات المتعلّقة بالوضع في الشرق الأوسط.(Anttila, Uusi Islamin käsikirja, 2017) وقد أجاب عنها بكل حيادية وموضوعية، بعيدا عن التخويف وتضخيم الأحداث. ونال هذا الكتاب شهرة واسعة في فنلندا وهذا ما ساعد على نشر الصورة الموضوعية والإيجابية للإسلام في تلك البلاد.

2- الصورة النّمطية السلبية: تتلخّص الصورة النّمطية للإسلام في فنلندا في وسائل الإعلام الفنلندية بمختلف أنواعها، حيث تنشر الصورة المشوّهة والمغلوطة عن الدّين الإسلامي، إضافة إلى انتشار ظاهرة ما يُسمّى بالاسلاموفوبيا. فالصّورة النّمطيّة عن المسلمين الذين يعيشون في فنلندا في نظر الإعلام الفنلندي، يُعتبرون وكأنّهم من كوكب آخر مُقارنة ببقيّة العالم، مُتحيّزون ولا يُشاركون الفنلنديّين في أيّ شيء، فنادرا ما يتمّ تصوّرهم أو الكتابة عنهم وكأنّهم أُناس عاديون مثلهم مثل أي فنلندي. إنّ الإعلام الفنلندي لم يجد أيّ دليل على أن المسلمين في فنلندا مُرتبطون بالعنف والإرهاب والصّراع ومع ذلك فإنّه يُعطي صورة نمطيّة مُشوّهة عن الدّين الإسلامي ومُعتنقيه. (Raastila;Rahkonen;& Raittila, 2008, ss. 62, 63)وبحسب الدّراستين التي أُجريت على وسائل الإعلام الفنلندية؛ وهما: الأولى من كليّة اللاّهوت بجامعة شرق فنلندا، تناولت الدّراسة الدّين المسيحي والدّين الإسلامي في الصّحف الفنلنديّة الكبرى وذلك بين سنة 1989م، وسنة 1994م (Pohjonen, 2018). وأمّا عن الدّراسة الثانية فقد قام بها مجموعة من الأساتذة الجامعيّين والباحثين من كلية الإعلام من جامعة Tampere(تامبره)، تناولت الدّراسة موضوع الإسلام في وسائل الإعلام الفنلندية وذلك في فترة شهر فيفري من سنة 2007م . (Raastila;Rahkonen;& Raittila, 2008, ss. 62, 63)ومن خلال هاتين الدراستين فإنّ أهمّ صورة نمطيّة التي طرحها الإعلام الفنلندي عن الإسلام والمسلمين هي علاقة الدّين الإسلامي بأعمال العنف والصّراع والحروب، فالإسلام والعنف مصطلحان لا يفترقان، حيث تُظهر وسائل الإعلام الفنلندية المسلمين في حالة دائمة من النّزاعات والصّراعات، وتُغطّي الأخبار –غالبا- رؤساء وقادة البلدان الإسلامية، ولا يظهر عامّة النّاس إلاّ في المُظاهرات، أو حالات فرديّة التي لها علاقة بأحداث العنف.

إنّ المفردات التي استعملت من طرف وسائل الإعلام الفنلنديّة للتّعبير عن الأحداث الدّامية التي حدثت في مختلف الدّول الإسلامية توحي كلّها بأنّ الإسلام له علاقة مباشرة بالعنف وأنّه هو السّبب الرّئيسي لكلّ تلك الأحداث الدّامية، وبذلك تُعطي وسائل الإعلام تلك الصّورة النّمطيّة السّلبية حول الدّين الإسلامي ومُعتنقيه. أهمّ تلك المفردات التي تمّ حصرها هي: إسلامي مُتطرّف (Ääri islamisti)؛ الأصوليّة (Fundamentalismi)؛ متطرّف (Ekstremisti)؛ مُتمرّد (Kapinallinen)؛ انفصالي (Separatisti)؛ المسلم الرّاديكالي –المتطرّف- (Muslimi radikaali). (Raastila;Rahkonen;& Raittila, 2008)

هذه المصطلحات تمّ توظيفها عند عرض الأخبار على القنوات الفنلنديّة، وفي المقالات في الصّحف والمجلاّت الفنلنديّة، وهي مُصطلحات وُظّفت لتأسيس رؤية اختزاليّة للآخر وهذا يُؤدّي إلى إبعاد القارئ الفنلنديّ عن أي احتكام للعقل، ويسهم في تضييق المعنى وفي تسهيل إيصال تلك التّصوّرات والأحكام، ثمّ هناك إشارة ثانية في مسألة الاختزال تلك، حيث تصبح بمثابة القاعدة، ومنبعا بين أيدي القارئ الذي يعفي نفسه من التّفكير وتأسيس رؤاه الخاصّة به انطلاقا من قواعد معرفيّة موضوعيّة. إنّ تحليل الخطاب الإعلاميّ المروّج في هذه الفترة يُوضّح بلا أدنى شكّ، أنّنا أمام استراتيجيّة مُخطّط لها تُروّج للهلع والخوف، من أجل تفعيل العديد من الصّور النّمطيّة اتّجاه الإسلام والمسلمين. فاستعمال تلك المفردات لم يكن عبثا، بل هدفها مقصود ومدروس بدقّة لترك انطباع وصورة نمطيّة سلبيّة عن الإسلام والمسلمين لدى الرّأي العام الفنلنديّ. (شنين، صورة الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الفنلندية، 2019) .

ومن مظاهر الاسلاموفوبيا المنتشرة في فنلندا، تقرير نشرته الصحيفة الوطنية الفنلندية Iltalehti عن استطلاع في المجتمع الفنلندي –طال 1008 مشارك - حول المهاجرين القادمين من البلدان ذات الخلفية الثقافية الإسلامية هل يمكن لهم أن يندمجوا في المجتمع الفنلندي. أظهرت النتائج أن 57% من المشاركين في الاستطلاع أجابوا بالسِّلب، 95% من الإجابات السلبية هم من الأشخاص الّذين ينتمون إلى حزب اليمين المتطرف الفنلندي والذي يُساهم في نشر الكراهية نحو الإسلام ويرفض رفضا تاما سياسة التّهجير، بينما أجاب فقط 11% بالإيجاب. (Ristamäki, 2016)

تجدر الإشارة إلى أن وسائل الإعلام الرئيسية الفنلندية لا تركّز في تقاريرها على الإسلام والمسلمين بطريقة مُعادية للإسلام بشكل صريح، وإنّما تعرضها بطريقة غير مباشرة. مع ذلك تظهر بين الحين والآخر تقارير متحيّزة عن الإسلام، والتي تؤكّد على أحداث وظواهر معيّنة، بطريقة سلبية، وتخلق صورة مشوّهة للدّين والّذي يتناسب مع الخطاب المعادي للإسلام. (Linda Hyökki, Hafez, & Creutz, 2016, p. 174) فيُركّز الإعلام على طرح موضوع الإسلام بطريقة غير مباشرة من خلال أخبار العنف والصّراع وذكره عرضا. وبذلك يُكوّن الإعلام صورا نمطية عن الإسلام بشكل غير صريح، لإقحام الدّين الإسلامي في كلّ خبر أو حادثة تحدث في البلاد الإسلامية، وتستعمل أسلوب التّكرار، حيث إن خبر العنف وعلاقته بالإسلام أو بأحد رموزه كالأسماء الإسلامية ونِسبتهم إلى البلدان العربية الإسلامية يتكرّر بشكل كبير، مِمّا يُساعد على ترسيخ الصورة المشوّهة عن الإسلام والمسلمين، ويزرع الخوف لدى المتتبّعين الفنلنديّين. (شنين، صورة الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الفنلندية، 2019)

ومن خلال ما سبق، يتمّ نشر الصورة السلبية للإسلام في المجتمع الفنلندي عن طريق وسائل الإعلام المختلفة من صحافة مكتوبة ومرئية وعبر شبكة الانترنت، ممّا يُساهم في تفاقم ظاهرة الاسلاموفوبيا.

خاتمة:

خلصت الدّراسة إلى النتائج الآتية:

- إنّ مصطلح الصّورة التي نعنيها في هذه الدّراسة هي الصّورة النّمطيّة، وهي جزء من الصّورة الذّهنيّة والتي تعني عودة الإحساسات في الذّهن بعد غياب الأشياء التي تُثيرها. أما عن الصّورة النّمطيّة Streotype

فهي مرحلة لاحقة من مراحل تكوّن الصّورة الذّهنية لدى الإنسان عن عدّة أشياء في هذا الكون.

- إنّ الدّول الاسكندنافية من حيث تاريخها وأيضا من الناحية الثقافية تشمل الدول الخمسة في شمال أوروبا وهي: النرويج، والسويد، والدانمارك، وفنلندا، وآيسلندا.

- إن فنلندا كدولة صغيرة ونائية في شمال أوروبا قد سكنها المسلمون منذ بداية القرن التاسع عشر من قِبل التّتار الأتراك الذين قَدِموا من روسيا، حيث كان ذلك أوّل ظهور للمسلمين في فنلندا. لكن مع تطوّر الأحداث العالميّة قَدم اللاّجئون الصّوماليّون وغيرهم من الدّول المسلمة إلى الشّمال، وبلغ عدد المسلمين في فنلندا حوالي خمسين ألف مسلم (سنة 2013م).

- الصّورة النمطية الموضوعية والإيجابية للإسلام في فنلندا تمثّلت في الكتب والمؤلفات لباحثين ودكاترة فنلديّين، وتمّ التطرق في هذه الدّراسة إلى مستشرق فنلندي هو Jaakko Hämeen Anttila حيث أصدر عدّة مؤلفات حول الدّين الإسلامي، منها: التعريف بالإسلام وأهمّ مصطلحاته، وتفسير معاني القرآن الكريم. وقد تبنّى صورة موضوعية أقرب إلى الصحة.

- إنّ من أهمّ مظاهر الصورة النّمطيّة للإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الفنلنديّة، حيث في مُجملها صورة نمطيّة مشوّهة عن الإسلام وربطها بالعنف والصّراعات، فلا أثر لعرض الإسلام كدين بحدّ ذاته، أو ذكر للحضارة الإسلامية، أو لمقالات وتقارير حول المسلمين الموجودين في فنلندا كعناصر فاعلين في المجتمع من طلبة جامعيّين، أو عُمّال ومهنيّين، أو أطبّاء وصحفيّين وغيرهم. فمن خلال تتبّع مظاهر الصورة النّمطية لبعض وسائل الإعلام الفنلندية عن الإسلام والمسلمين، نقف على ملامح عدّة -من صراع وعنف وغيرهما- تُبرز مدى دور هذه الأخيرة في تنميط صورة الإسلام، وغرس قيم العداء والحقد في نفس الإنسان الغربي الفنلندي اتّجاه كلّ ما هو إسلامي أو عربي وذلك عن طريق إبراز الأحداث الشّاذّة التي تقع في الدّول الإسلامية أو الغربية، وقد تكون أحيانا حقيقة، لكنّ الرأي العام يبني منها أحكاما ومواقف عامّة عن الدّين الإسلامي ومُعتنقيه، وهذا ما يُسهم في صنع الصّورة النّمطيّة المشوّهة، ويُؤثّر كذلك في تعامل المجتمعات الغربية مع الجاليات الإسلامية المقيمة في تلك المجتمعات، وكذا في تصوّرهم الخاطئ للدّين الإسلامي.

- إنّ للصورة النمطية المشوّهة للإسلام في الإعلام الفنلندي آثارا سلبية في واقع الحياة على رأسها الأثر المتمثّل في صدّ المجتمع الفنلندي عن الفهم الحقيقي للإسلام؛ عقيدةً وحضارةً، وإنّ الترويج لهذه الصورة السلبية يُعد حاجزا يصرف الناس عن الاهتمام بمبادئ الإسلام السّمحة والتّعرّف على الدّين الحقّ.

- إنّ تزايد ظاهرة الاسلاموفوبيا في الغرب، وفي فنلندا أيضا هو راجع إلى تعامل الإعلام الفنلندي مع الدّين الإسلامي وتشويه صورته، ونقل تلك الصورة إلى الوعي الجمعي في المجتمع.

- إنّ تلك الصّورة النّمطيّة المشوّهة عن الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الفنلندية ما هي إلاّ امتداد لتلك الصّورة التي صنعها اللاّهوتيّون المسيحيّون المُتعصّبون في العصور الوسطى والصّليبيّون، ورسّخها في العقل الغربي المستشرقون والمُنصّرون، من خلال أبحاثهم ودراساتهم وجهودهم العملية لتثبيتها في اللاّوعي الغربي. وتسعى وسائل الإعلام المختلفة جاهدةً لإبقاء تلك الصورة النّمطية كما كانت، وهي تقوم –شعوريا

أو لا شعوريّا- بعملية استدعاء مُستمرّ لذلك المخزون النّفسي والثّقافي والتّاريخي من تُراث العداء الصّليبيّ للإسلام والعرب منذ بداية العلاقة بين الغرب والإسلام. وإن وسائل الإعلام الغربية الكبرى تعمل عن كثب للتّرويج لتلك الصّورة المسيئة للإسلام والمسلمين والعرب عموما، والإعلام الفنلندي يحذو حذو تلك الدّول الغربية الكبرى.

قائمة المراجع:

- Anttila, J. H. (2001). *Islam: Taskukirja.* Helsinki: Basam Books.
- Anttila, J. H. (n.d.). *Jaakko Hämeen Anttila Profile*. Retrieved 4 09, 2022, from site Web The University of Edinburgh: www.ed.ac.uk/profile/jaakko-hameen-anttila
- Anttila, J. H. (2017). *Uusi Islamin käsikirja.* Helsinki: Otava.
- Hadi, N. (2015). *Islamin Uskonnon Opettajien Kokemat Haasteet Suomalaisessa Uskonnonopetuksessa.* Turku, Finland: Turun Yliopisto Kasvatustiedeteiden laitos.
- Heikkinen, M. (2014). *Teologinen tunnustuksellisuus Islamin uskonnon oppikirjoissa.* Helsinki: Helsinkin Yliopisto.
- Helle, K. (2008). *The Cambridge History of Scandinavia* (Vol. 1). Cambridge, UK: University Press.
- Hvodhaugen, E. (2000). *The History of Linguistics in the Nordic Countries.* Helsinki, Finland: Finnish Academy of Science & Letters.
- Jaakko, H. A. (2004). *Islamin käsikirja.* Helsinki: Otava.
- Jenkins, T. (2013). Reflection on Kenneth E.Boulding's The Image. *Journal of Peace, Eduation, and Social Justice , 7* (1), 30.
- Lavery, J. (2006). *The History of Finland.* London, UK: Greenwood Press.
- Linda Hyökki, B. E., Hafez, F., & Creutz, K. (2016). *European Islamophobia Report: Islamophobia in Finland.* Istanbul: Seta.
- Lippmann, W. (1998). *Public Opinion* (2 ed.). USA: Transaction publishers.
- Pohjonen, J. (2018). *Sanasodista uskonsotin: Kristinusko ja Islam Helsingin Sanomien pääkirjoituksissa vuosina 1989- 1994.* Itä Suomi: Teologia osasto.
- Raastila, M.;Rahkonen, J.;& Raittila, P. (2008). *Islam Suomalaisissa Joukkoviestimissä.* Tampere: Tamperen Yliopisto tiedotusopin maitos.

- Ristamäki, J. (2016, 10 10). *IL-kysely: Suomalaiset epäilevät islamilaisten sopeutumista*. Consulté le 04 10, 2022, sur Iltalehti: https://www.iltalehti.fi/uutiset/a/2016100922439779
- Sakaranaho, T. (2006). *Religion Freedom, Multiculturalism, Islam cross-reading Finland & Ireland*. Netherlands: Koninklijke Brill.
- Webster's. (1963). *Webster's Seventh new collegiate dictionary* (4th ed.). (M. CO, Ed.) USA.

- **باللغة العربية:**

ابن منظور. *لسان العرب*. (دار المعارف، المحرر، و عبد الله علي الكبير وآخرون، المترجمون) القاهرة، مصر.

- الشريف الجرجاني. (2004). معجم *التعريفات*. (دار الفضيلة، المحرر، و محمد صديق المنشاوي، المترجمون) القاهرة، مصر .
- المعجم الفلسفي. (1983). مجموعة *من المؤلفين*. القاهرة، مصر: مجمع اللغة العربية الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- حنفي صلا. (2006). *في الصورة الشعرية -دراسة تطبيقية على شعر الحبس في تراث المشرق العربي-* (الإصدار ط2). (دار العلوم، المحرر) الفيوم، مصر.
- شاكر عبد الحميد. (2008). *عصر الصورة السلبيات والإيجابيات*. (عالم المعرفة، المحرر) الكويت.
- صفية شنين. (2020). السيرة النبوية في المنهج التعليمي الفنلندي (الإسلام، معتقدنا المشترك). *حوليات جامعة الجزائر 1 ، 34* (3)، 517- 538.
- صفية شنين. (2019). صورة الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الفنلندية. *الإعلام وقضايا الساعة: الصورة النمطية للعرب والمسلمين لدى الآخر*. خميس مليانة.
- عبد القادر طاش. (1993). *صورة الإسلام في الإعلام الغربي* (الإصدار 2). القاهرة، مصر: الزهراء للإعلام الغربي.

الأقليات المسلمة في الغرب (الأصول والخصائص- التحديات -والواجب نحوها)

Muslim minorities in the Western countries

(Origins, characteristics, Challenges and what to be done for them)

أ.د/ النذير بولمعالي، جامعة يحي فارس- المدية- الجزائر

boulmali.nadir@gmail.com



تتطرق دراستنا هذه لموضوع الأقليات المسلمة في الغرب والتي نهدف من خلال ما سنطرحه إلى توعية هذه الفئة من المسلمين بالدور الحضاري الواقع على عاتقها كقوة فاعله في الغرب؛ وكذا بالسير نحو تحقيق المواطنة الكاملة في دول إقامتها؛ مع الحرص على نشر الصورة الحقيقية للإسلام؛ مع وجوب تقديم المساعدة لها لأجل تحقيق هذا المقصد.

وعليه فإشكالية البحث هي محاولة للتنبه على الظروف الصعبة التي تعيشها الأقلية المسلمة في الغرب وتمر بها بين الفينة والأخرى مع محاولة معالجتها حتى تكون مصدر إشعاع حضاري وفكري أينما كانت وهي ملتزمة بدينها في تلك البلاد، رغم وجود من لا يسمح بشيء من الإسلام في بعض تلك البلاد.

وقد أفضى البحث لجملة من التوصيات أهمها:

- أن الأقليات المسلمة في الغرب لا يجب إهمالها حضاريا.
- تقديم الدعم المادي لهذه الفئة من المسلمين في أماكن تواجدها.
- التقعيد الفقهي للأقليات المسلمة مع الأخذ في الاعتبار تغيرات الواقع.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، المسلمون في الغرب، الأقليات المسلمة، الجاليات المسلمة.

Abstract :

There are five hundred million Muslim people living in the western world today, a minority which constitutes two thirds of the Muslim population and one of the significant components of the Muslim community.

However, this category has not obtained attention compared with the Christian and Jewish minorities who are supported morally and financially except some efforts provided by a few Muslim countries such as the Saudi Arabia and world organization like Muslim World League.

Despite the difficulties they face, Muslim minorities have to be a cultural and intellectual source wherever they are and adhere to their religion in those countries whatever the circumstances are.

Keywords: Islam, Muslims in the West, Muslim Minorities, Muslim Communities.



مقدمة:

لا تكاد توجد اليوم دولة من دول العالم تخلو من أقلية مسلمة على اختلاف أهميتها وتعدادها وتنظيمها، والتي يمكن تحديد ثلاثة أصول مختلفة لها وهي:

- إما عن طريق اعتناق سكان تلك البلاد للإسلام.
- وإما عن طريق هجرة المسلمين إلى أراضي غير إسلامية.
- وإما عن طريق احتلال أراضي إسلامية من طرف دول غير إسلامية وإدماجها فيها.

إن تعداد الأقليات الإسلامية اليوم في العالم تشكل ثلث المسلمين، وبعملية حسابية بسيطة فهذه النسبة تساوي تقريبا خمسمائة مليون مسلم، أي نصف مليار مسلم وهذا عدد لا يستهان به ولابد من أخذه في الحسبان فهو واحد من أهم مكونات الأمة الإسلامية وعليه فلا يمكن أن يغفل المسلمون عن هذه الفئة من أبناء الأمة الإسلامية.

لكن واقع هذه الفئة محزن في الكثير من الأحيان لأنها لم تحض بما يجب من الاهتمام من العالم الإسلامي- مقارنة مع ما تحضى به الأقليات المسيحية واليهودية من مساندة مادية ومعنوية-، باستثناء بعض الجهود لبعض الدول الإسلامية وعلى رأسها المملكة العربية السعودية وبعض المؤسسات الإسلامية العالمية الكبرى كرابطة العالم الإسلامي.

المطلوب من الأقليات المسلمة اليوم أينما كانت وبالنظر إلى الظروف الصعبة التي تمر بها والتي تعيشها في أن تكون مصدر إشعاع حضاري وفكري أينما كانت وأن تلتزم بدينها في تلك البلاد، رغم وجود من لا يسمح بشيء من الإسلام في بعض تلك البلاد.

إن الفرق بين المسلم الذي يعيش في بلاد إسلامية وبين المسلم الذي يعيش في بلاد غير مسلمة، كالفرق بين الإنسان الذي يعيش في بيئة غير ملوثة فيستطيع التنفس طبيعيا، وبين الإنسان الذي يعيش في بيئة ملوثة يحتاج فيها لإتمام عملية التنفس بشكل طبيعي إلى أنبوبة أكسجين، هذه الأنبوبة هي العالم الإسلامي؛ والذي تعتبر مساندة الأقليات المسلمة في الغرب من اوجب الواجبات التي تقع على عاتقه، وهذه المساندة لا يشترط أن تتم في اتجاه واحد فقط، بل يمكن أن تصب في كل الاتجاهات التي تخدم هذه الفئة من المسلمين، كمساعدتها على تنظيم نفسها وبالتالي إنشاء كيان لها يسمح لها هذا الكيان بنقل خصائص الإسلام من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة، وهذه المساعدة تكون في الدعم المادي مثلما تكون في الدعم المعنوي لأفراد الأقلية لأجل بناء المساجد والمراكز الثقافية والتي تعتبر من أبرز المحاور التي يمكن

أن يلتف حولها أبناء الأقليات الإسلامية، وبالتالي تضمن بقاءها واستمراريتها؛ وعليه وجب أن نسأل عن واجب المسلمين نحو الأقليات المسلمة في العالم؛ وكذا واجبها هي نحو نفسها.

أولا- أصول الأقليات المسلمة في العالم:

يمكننا تحديد ثلاثة أصول مختلفة للأقليات الإسلامية وهي:

- إما عن طريق اعتناق سكان تلك البلاد للإسلام.
- وإما عن طريق هجرة المسلمين إلى أراضي غير إسلامية.
- وإما عن طريق احتلال أراضي إسلامية من طرف دول غير إسلامية وإدماجها فيها.

1-الحالة الأولى: فلها نماذج كثيرة قديما وحديثا، فمثالها البارز قديما قلّة المسلمين الأوائل عند بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ومثالها حديثا كل الأقليات المسلمة الناشئة عند دخول أبناء تلك الدول غير المسلمة في الإسلام كما هو الحال في كل بلدان العالم، فنجد الفرنسي الأصل المسلم ونجد الأمريكي الأصل المسلم، الفنلندي والغابوني وهكذا... فهذه أقليات مسلمة نشأت ابتداء باعتناق أبناء هذه الدول الدين الإسلامي وهذه الحالة تكاد تكون منتشرة في كل شبر من الكرة الأرضية لأن الإسلام امتد نوره إلى كل أرجاء الأرض وهذا بفضل الدعوة للإسلام بالتي هي أحسن في غالب الأحيان (ضناوي، 1992، صفحة 7)، فهم من أبناء البلاد الأصليين الذين اتبعوا دين آبائهم الذين أسلموا في هذه البلاد منذ القديم أو من الذين أسلموا حديثا (القرضاوي، في فقه الأقليات المسلمة، 2001، صفحة 17).

2- الحالة الثانية: فهي الأقليات الإسلامية الناتجة عن سفر وانتقال أبناء الدولة المسلمة إلى بلاد غير إسلامية لأسباب عديدة منها الاجتماعية كحال انتقال أبناء الزواج المختلط إلى بلدان أمهاتهم إذا كن من غير مسلمات وفضلن البقاء والعيش في بلدانهن الأصلية، وقد تكون لأسباب اقتصادية كطلب العمل في هذه الدول والتعاملات التجارية، وقد تكون لأسباب سياسية كممثلي الدول الإسلامية في السفارات والقنصليات في الدول غير الإسلامية، وقد تكون لأسباب سياسية أخرى كما هو الحال لطالبي اللجوء السياسي في هذه البلدان غير الإسلامية، وهذا ما يكثر عند حدوث اضطرابات داخلية واختلافات سياسية من أجل الحكم وفي وجهات النظر السياسية داخل بعض الدول الإسلامية، وقد تكون لأسباب إنسانية كما يحدث في الغالب في حالات النزوح للطبقات المحرومة من أبناء المسلمين والهجرة إلى الضفة الأخرى لتحسين ظروفهم الإنسانية فهم أشبه بطالبي اللجوء السياسي، فهم طالبي اللجوء الإنساني أو الاجتماعي، ومن الأمثلة على هذه الأقلية نجد الأقليات الإسلامية التي تكونت وتشكلت في أستراليا وزيلندا الجديدة وكندا فهؤلاء جاؤوا إلى هذه البلاد غير الإسلامية لأسباب مختلفة، واستطاعوا الحصول على الإقامة القانونية على أراضيها وربما الحصول على جنسيتها، فهم بهذا مواطنون كاملو الحقوق، يترشحون

وينتخبون ويعارضون سياسيا ويساهمون في الحياة الاقتصادية والثقافية وما إلى ذلك مما تقره دساتير تلك البلاد غير الإسلامية (ضناوي، 1992، صفحة 17).

3- الحالة الثالثة: فهي التي لا يمكن أن ينساها المسلمون، والأمثلة كثيرة جدا هنا، منها الأقليات الإسلامية التي نشأت في شرق أوربا عندما تدهورت حالة الدولة العثمانية وضعفت وقسمت تركتها بين الدول الكبرى آنذاك، وما كان من الأقلية الإسلامية في الهند الناشئة على خلفية انهيار الدولة المغولية، والأقليات المسلمة في الاتحاد السوفيتي سابقا والتي كانت دولا إسلامية ضمت قسرا وبالقوة إليه، فقد كانت تلك أراضي إسلامية بحتة وتحولت لأسباب عديدة إلى ديار غير إسلامية لظهور العدو فيها على المسلمين بتعبير فقهاء المسلمين، ولكن يبقى على المسلمين العمل على استردادها والوسائل المتاحة لذلك كثيرة، كما أن هناك دولا تعتبر إسلامية إذا أخذنا التعداد السكاني في الحسبان، فمثلا تشاد وإثيوبيا واريتريا هي دول إسلامية لأنها ذات أكثرية سكانية مسلمة ولكنها مصنفة على أنها مسيحية من طرف الدول الغربية (ضناوي، 1992، صفحة 20).

وبالحديث عن بعض الدول الإفريقية، فإن هذه القارة في حدِّ ذاتها هي قارة مسلمة بالنظر إلى ديانة أغلبية سكانها، إذ تصل نسبة المسلمين فيها إلى أكثر من60%، فهي بحق وبالنظر إلى هذه النسبة قارة إسلامية كما نجد75 مليون مسلما يعيش في الأقطار الإفريقية غير المسلمة (العراقي، 1997، صفحة 182).

إن الحالات الثلاث يمكن أن تجتمع بشكل ثنائي أو بشكل ثلاثي لتجسد لنا حالة أخرى، فقد نجد في الكثير من الأحيان أقليات مسلمة تشكلت من أكثر من مصدر واحد، فنجد الأقلية المسلمة في أمريكا تشكلت من المهاجرين المسلمين من مختلف البلاد الإسلامية للأسباب التي رأيناها سابقا وكذلك من ذوي الأصول الأمريكية الذين اعتنقوا الإسلام، والأمر كذلك ينطبق على العديد من دول العالم، في أمريكا الجنوبية، وفي أوربا... وقد تنتج أقلية مسلمة من خلال اعتناق أهالي البلاد غير الإسلامية ومن احتلال الأراضي الإسلامية مثلما هو الشأن في الفيليبين وتايلندا.

إن هذه الأقليات قد تغير مجريات الحياة لصالحها إذا استثمرت جميع جهود أفرادها بما يخدم مصالحها في البلاد غير الإسلامية من حسن ودقة تنظيم وتمثل الإسلام الصحيح والدعوة للإسلام بالتي هي أحسن مثلما حدث في إندونيسيا، فقد كان المسلمون أقلية عددية إلى غاية القرن العاشر الهجري، ومثالها كذلك ماليزيا، وقد يحدث لا قدر الله العكس، فقد تصبح الأكثرية المسلمة أقلية وما الأندلس عنا ببعيدة ولكن متى حدث هذا؟ لقد حدث لما ضعف أهلها وأصبحوا أشتاتا وطوائف عدة وأحيوا النعرات الدفينة التي يبغضها الإسلام الحنيف، لما استهوتهم الدنيا وابتعدوا عن النبع الصافي للإسلام، فلم يبق منه سوى ذكرى ولمسلمي الحاضر عبرة (ضناوي، 1992، صفحة 8).

ثانيا- و اقع الأقليات المسلمة في العالم:

إن تعداد الأقليات الإسلامية اليوم في العالم تشكل ثلث المسلمين، وبعملية حسابية بسيطة فهذه النسبة تساوي تقريبا خمسمائة مليون مسلم، أي نصف مليار مسلم وهذا عدد لا يستهان به ولابد من أخذه في الحسبان فهو واحد من أهم مكونات الأمة الإسلامية وعليه فلا يمكن أن يغفل المسلمون عن هذه الفئة من أبناء الأمة الإسلامية (المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، 2003، صفحة 5).

لكن واقع هذه الفئة محزن في الكثير من الأحيان لأنها لم تحض بما يجب من الاهتمام من العالم الإسلامي- مقارنة مع ما تحض به الأقليات المسيحية واليهودية من مساندة مادية ومعنوية-، باستثناء بعض الجهود لبعض الدول الإسلامية وعلى رأسها المملكة العربية السعودية وبعض المؤسسات الإسلامية العالمية الكبرى كرابطة العالم الإسلامي (ضناوي، 1992، صفحة 9).

إن تزايد عدد المسلمين من أبناء الأقلية المسلمة في العالم نتيجة عوامل الهجرة والتناسل أصبح يقلق الدول المستقبلة لهم، ذلك أن التزايد الطبيعي لدى المسلمين يزيد بكثير عن التزايد الطبيعي عند غيرهم، فتعرضت بذلك الأقلية المسلمة لبعض المضايقات الإعلامية التي تحث المسلمين على تقليل نسلهم أحيانا وإلى تحديده نهائيا في أحيان أخرى ووصلت هذه المضايقات حتى إلى عقر دار المسلمين ولم تتوقف في البلاد غير الإسلامية، لقد أصبح أفراد الأقلية المسلمة اليوم عرضة للانصهار والذوبان في بوتقة المجتمعات التي يعيشون فيها وهذا بدعوة من بعض أبناء الأقلية الذين يمثلون قوى انصهارية مغلوبة على أمرها تعمل بكل ما أوتيت من قوة وحيلة لإدماج أبناء الأقلية المسلمة في المجتمعات الغربية التي يعيشون فيها بتخطيط وبأوامر من القوى الغالبة، هذا في أحسن الظروف، أما في أسوئها فقد تلجأ الدول الغربية إلى تطبيق سياسة مخطط لها للقضاء نهائيا على خصائص الأقلية الإسلامية والدليل كان ولا يزال قائما في بعض الدول في أوربا الشرقية (ضناوي، 1992، صفحة 9)، وأحيانا نجدها تهمش في مجتمعات غربية كثيرة رغم ما تؤديه من دور حاري بارز فيه (Sanneh, 1989, p. 88).

إن أطفال الأقلية المسلمة في الغرب اليوم يواجهون مشكل عدم تدعيم من قبل الدول الغربية-كأمريكا مثلا- للاهتمام ودراسة تراثهم الديني والثقافي بينما يقابله الكثير مما هو معاد له وفي المقابل تطلب هي . الولايات المتحدة الأمريكية- من دول العالم أن تفتح أبواب تعلم لغات ولهجات وتراث وثقافة الأقليات الموجودة فيها، وهذا ما يجعل هؤلاء الأطفال مشدودون بين عالمين منفصلين ومتناقضين وبالتالي ما يولد حاجزا بينهم وبين تطوير هوية متكاملة متينة، ولقد وصف أحد الكتاب هذه المحنة بقوله: "أهلا بكم في عالم يتحول فيه محمد إلى مايك، وفاطمة إلى تينا، وحسن إلى صوني، وإمام إلى آمي، وخليل إلى كان، وعلياء إلى إلن، وحمد لله إلى هنري، وقد تبدو هذه الألقاب تسويات بريئة لغويا، إلا أن الحياة المزدوجة

التي يعيشها معظم الأطفال المسلمين هنا(أي: في أمريكا) هي أمر خطير..." (زين العابدين، 1998، صفحة 212).

إن أفراد الأقليات المسلمة في الغرب اليوم يواجهون مشاكل ما بعد11 سبتمبر 2001م، فنظرة الغرب للمسلمين عموما تغيرت تماما على ما كانت عليه قبل هذا التاريخ وإلى الحال الأسوأ طبعا، ووضع المسلم في تلك البلاد أصبح متدهورا جدا، فكل يوم تطلعنا وسائل الإعلام والفضائيات العربية والأجنبية بهذا التدهور من تعرض المساجد للحرق والضرب بالرصاص، وعدم السماح للمحجبات بمزاولة التعليم والتضييق على كل ما له علاقة ومن له علاقة بالإسلام، فأصبحت الأقليات اليوم تواجه صراعا كبيرا متعدد الجوانب يبدأ بالصراع الأمني والسياسي مرورا بالصراع العقدي والثقافي والصراع الاقتصادي وصولا إلى صراع اجتماعي، عنصري وحقد حضاري وفي الوقت ذاته لا بد من مواجهته، وقد يصل الأمر في بعض الأحيان إلى حد الخطورة، فإلى جانب التمييز الديني فإنهم يواجهون حملات شتى وعلى أكثر من صعيد، هدفها طمس الشخصية الإسلامية وإذابة المسلمين في المجتمعات غير الإسلامية التي يعيشون فيها وترويضهم شيئا فشيئا بعد ما باءت محاولة سلخهم عن هويتهم وحضارتهم بالفشل (الحصين، 2002، صفحة 21).

ثالثا- واجب الأقليات المسلمة في العالم نحو نفسها:

المطلوب من الأقليات المسلمة اليوم أينما كانت وبالنظر إلى الظروف الصعبة التي تمر بها والتي تعيشها في أن تكون مصدر إشعاع حضاري وفكري أينما كانت وأن تلتزم بدينها في تلك البلاد، رغم وجود من لا يسمح بشيء من الإسلام في بعض تلك البلاد (الحصين، 2002، صفحة 10).

يقول الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى: "ومما ينبغي التنبيه عليه فيما يتعلق بالأقليات الإسلامية، أن من أهم الأمور في حقها هو الالتزام بدين الله وأن تتفقه فيه وتلتزم به على أي حال كانت... حتى يكونوا نموذجا صالحا لغيرهم من الناس ممن حولهم من الأعداء، وحتى يكونوا مثالا حيا يمثلون الإسلام في أخلاقهم وأقوالهم وأعمالهم، فيراهم أعداؤهم فيعرفون من أخلاقهم عظمة الإسلام وفضل الإسلام... وعلى إخوانهم في كل مكان أن يساعدوهم وأن يعاونوهم دولا وأفرادا، وجماعات وجمعيات... هكذا تكون الأقليات، يرحمون أقاربهم الضعفاء، وإن كانوا على الكفر يرحمونهم ويعطفون عليهم ويخاطبونهم بالتي هي أحسن إلا من آذى وظلم فله حكم آخر" (ابن باز، 1406هـ، الصفحات 338-346).

ومن أوجب الواجبات التي تقع على عاتق الأقليات المسلمة نحو نفسها أن تنظم نفسها وتهيكل أفرادها بما يضمن استمراريتها، هذا التنظيم الذي يأخذ أشكالا عدَّة كبناء المساجد والمراكز الثقافية الإسلامية، وإنشاء جمعيات باهتمامات متعددة وتشكل الرابطات بين هذه الجمعيات، كما لا ننسى تأسيس المدارس لأبنائها وقبلها الروضات لمرحلة ما قبل المدرسة وبهذا تسد كل الثغرات التي قد تؤتى منها، ويبقى السر في

النجاح أو في الفشل هو التنظيم، فإن كان جيدا ومحكما كتب لها النجاح وإن كان العكس فالفشل حليفها (ضناوي، 1992، صفحة 12).

وهذا ما قد يؤدي بها إلى الزوال والاندثار كما هو الحال للأقليات الإسلامية في بعض دول أمريكا الجنوبية كالمكسيك وكولومبيا (ضناوي، 1992، صفحة 13).

إن دقَّة التنظيم وإحكامه في أوساط الأقليات المسلمة وبين أفرادها قد يمنع عنها مشاكل عديدة وكثيرة منها أن تقع في أيدي قوى خفية معادية لفكرها فتحتويها وتستعملها ضد نفسها وهذا ما يقودنا إلى التنبيه والتشديد على حسن التنظيم والتدبير بين أبناء الأقلية الإسلامية عند اختيار ممثليهم وقياداتهم.

يضاف إلى هذا، أن تتجه الأقليات المسلمة ممثلة في قياداتها إلى الاستثمار في مجالات يقدر عليها وهذا لامتصاص اليد العاملة من أبناء الأقلية، وتحقيق اكتفائها الذاتي لأجل تمويل مؤسساتها المنشأة (المساجد، رياض الأطفال، المراكز الثقافية، المستشفيات)، ومما يمكن أن يساعدها، بل ويضمن لها هذا إلى حد ما هو إحياء فريضة الزكاة بين ميسوري الحال من أفراد الأقلية المسلمة.

ولكي لا تصبح هذه الأقلية هوية ضائعة لابد لها من ربط صلتها بدول العالم الإسلامي على الدوام وتوثيق هذه الصلة.

خامسا- واجب المسلمين نحو الأقليات المسلمة في العالم:

إن الفرق بين المسلم الذي يعيش في بلاد إسلامية وبين المسلم الذي يعيش في بلاد غير مسلمة، كالفرق بين الإنسان الذي يعيش في بيئة غير ملوثة فيستطيع التنفس طبيعيا، وبين الإنسان الذي يعيش في بيئة ملوثة يحتاج فيها لإتمام عملية التنفس بشكل طبيعي إلى أنبوبة أكسجين، هذه الأنبوبة هي العالم الإسلامي الذي تعتبر مساندة الأقليات المسلمة في الغرب من اوجب الواجبات التي تقع على عاتقه، وهذه المساندة لا يشترط أن تتم في اتجاه واحد فقط، بل يمكن أن تصب في كل الاتجاهات التي تخدم هذه الفئة من المسلمين، كمساعدتها على تنظيم نفسها وبالتالي إنشاء كيان لها يسمح لها هذا الكيان بنقل خصائص الإسلام من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة، وهذه المساعدة تكون في الدعم المادي مثلما تكون في الدعم المعنوي لأفراد الأقلية لأجل بناء المساجد والمراكز الثقافية والتي تعتبر من أبرز المحاور التي يمكن أن يلتف حولها أبناء الأقليات الإسلامية، وبالتالي تضمن بقاءها واستمراريتها.

وعموما لابد للعالم الإسلامي ومن مصلحة المسلمين جميعا أن تبقى روابط الصلة الدينية والثقافية قائمة بين الأقليات الإسلامية والعالم الإسلامي وتقوى، ولا يتأتي هذا بصورة ناجحة إلا بمد يد العون لهذه الأقليات (القرضاوي، الحل الإسلامي فريضة وضرورة، 1983، صفحة 80)، ولو بإنشاء بعض النشاطات

والفعاليات التي توصل إلى هذه النتائج بين الحين والآخر مع مراعاة خصوصيات كل أقلية والظروف المحيطة بها.

إن أهم ما يمكن أن يقدم للأقليات المسلمة هو عدم التدخل في شؤونها الداخلية لأجل احتوائها واستعمالها في حسابات سياسية ضيقة، كما يجب أن تمر الإعانات المادية الموجهة لها عبر قنوات تنظيمية معروفة بنزاهتها وبتوجهها نحو تقديم المساعدة للأقليات الإسلامية في العالم دون حسابات أو خلفيات إنما الدافع لهذه المساعدة هو الشعور بإحساس الأخوة نحوها لا غير، ومن هذه القنوات نجد: رابطة العالم الإسلامي، هذه الأخيرة عليها أن تحاول على الدوام تحسين علاقاتها مع الدول التي توجد بها أقلية مسلمة كي تسهل عليها عملية المساعدة إذا حان وقتها.

وفي الأخير أقول: إن الواجب الشرعي يأمرنا بمساعدة ومساندة الأقليات المسلمة في العالم اليوم للحفاظ على هويتها الإسلامية ومساعدتها على فهم مبادئ الدين الإسلامي فهما سليما ونشرها بين أفرادها بشتى الوسائل، كالكتب والأشرطة والدوريات والإذاعات المحلية والتلفزة، خاصة إذا علمنا أن إسلام بعض أفراد الأقلية لا يعدو أن يكون إسلاما وراثيا، وبالنظر لما تعانيه هذه الأقليات المسلمة اليوم من مضايقات بسبب انتمائها الديني بالأساس يزداد هذا الواجب الشرعي ويكبر، كما يوجب علينا الإسلام أن نذكر بوضع المسلمين اليوم من اللاجئين، فإن ثلثي لاجئي العالم هم من المسلمين وهذا واجب آخر يضاف إلى الواجبات الأخرى للمسلمين نحو إخوانهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم (ضناوي، 1992، صفحة 16).

كما يمكنني القول بأن مساندة الأقليات المسلمة في العالم اليوم هو واجب من أوجب الواجبات التي تقع على عاتق المسلمين اليوم وفي كل الاتجاهات التي تخدم مصالح هذه الفئة من المسلمين في العالم بداية من مساعدتها على تنظيم نفسها باعتبار التنظيم هو العامل الأساسي والحاسم لوجود هذه الأقلية وبدونه فهي أقلية متفرقة لا تأثير لها في الحياة المحيطة بها، فهي بذلك مجمعة متفرقة من المسلمين في البلاد الأخرى وبالتالي تضيع عليها إمكانية إنشاء كيان مسلم (أقلية مسلمة) في البلاد التي يعيشون فيها وبالتالي لا يمكنها تحقيق نقل الخصائص الإسلامية للأجيال اللاحقة، ويمكن أن يكون هذا التنظيم في أشكال متعددة منها: بناء المساجد والمراكز الإسلامية التي تسمح باستقطاب أفراد الجالية المسلمة ومن ثم هيكلتها وبث روح الانتماء لهذه الأقلية لديها فتتمكن بذلك من البقاء والاستمرار، كما يمكنها إنشاء الجمعيات مختلفة الأنشطة من رياضية وثقافية واجتماعية وخيرية والتي قد تجمع فيما بعد في شكل رابطة تربط وتنسق أعمال كل هذه الجمعيات المختلفة الأنشطة والمتعددة الاهتمامات من حيث تقديم المساعدة للمسلمين في هذه البلاد على تنظيم شؤونهم، ولا يمكن أن يتحقق كل هذا للأقليات المسلمة في مختلف بلدان العالم بدون انتهاجها لمبدأ التنظيم الذي يعتبر سر دوامها واستمرارها ومن ثم توريث

خصائصها للأجيال المقبلة في تلك البلاد، مع وجوب رضا الأقليات الإسلامية في شتى أرجاء العالم وحسب ما تسمح به ظروفها الخاصة بالمشاركة في الحكم وبالتمتع بالحقوق الممنوحة والمطالبة بالباقي الذي لم يتحقق منها دون اللجوء إلى المطالبة بقيام دولة خاصة على الأراضي المقيمين فيها (عمارة، 2003، صفحة 52).

خاتمة:

وخلاصة القول: أن تعداد الأقليات الإسلامية اليوم في العالم تشكل ثلث المسلمين، وبعملية حسابية بسيطة فهذه النسبة تساوي تقريبا خمسمائة مليون مسلم، أي نصف مليار مسلم وهذا عدد لا يستهان به ولابد من أخذه في الحسبان فهو واحد من أهم مكونات الأمة الإسلامية وعليه فلا يمكن أن يغفل المسلمون عن هذه الفئة من أبناء الأمة الإسلامية.

لكن واقع هذه الفئة محزن في الكثير من الأحيان لأنها لم تحض بما يجب من الاهتمام من العالم الإسلامي- مقارنة مع ما تحضى به الأقليات المسيحية واليهودية من مساندة مادية ومعنوية-، باستثناء بعض الجهود لبعض الدول الإسلامية كالمملكة العربية السعودية والكويت؛ وبعض المؤسسات الإسلامية العالمية الكبرى كرابطة العالم الإسلامي.

والمطلوب من الأقليات المسلمة اليوم أينما كانت وبالنظر إلى الظروف الصعبة التي تمر بها والتي تعيشها في أن تكون مصدر إشعاع حضاري وفكري أينما كانت وأن تلتزم بدينها، رغم وجود من لا يسمح بشيء من الإسلام فيبعض تلك البلاد التي يعيشون فيها.

توصيات:

وعليه يمكن أن نوصي بالآتي:

- الأقليات المسلمة في الغرب كم هائل؛ لا يجب إهماله؛ بل وجب الاهتمام به ومن طرف الجميع.
- تقديم الدعم المادي لهذه الفئة من المسلمين في أماكن تواجدها.
- تدعيم وبناء المراكز الإسلامية عبر العالم.
- تفعيل الدبلوماسية الدينية خاصة من قبل الدول الإسلامية ذات التأثير الجيوستراتيجي.
- التقعيد الفقهي للأقليات المسلمة مع الاخذ في الاعتبار تغيرات الواقع؛ مع ما يتماشى مع كليات الاسلام.

قائمة المصادر والمراجع:

باللغة العربية:

- أحمد عبد العزيز الحصين. (2002). الحصين، أحمد عبد العزيز. الأقليات المسلمة في مواجهة التحديات وواجب المسلمين نحوهم. (الرياض: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 1423هـ/2002م). . الرياض: دار عالم الكتب.
- المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية. (2003). الأقليات الإسلامية وعلاقاتها بمجتمعاتها. طهران: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.
- سيد أحمد العراقي. (1997). تاريخ الأقليات في العالم [ج1: إفريقيا]. أبها: نادي أبها الأدبي.
- سيد زين زين العابدين. (1998). الأقليات المسلمة في الغرب. دار طلاس: دار طلاس.
- عبد العزيز ابن باز. (1406هـ). الأقليات المسلمة. الرياض: دار الوطن.
- محمد علي ضناوي. (1992). ضناوي، محمد علي. الأقليات الإسلامية في العالم اليوم. بيروت-لبنان: مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع.
- محمد عمارة. (2003). الإسلام والأقليات" الماضي والحاضر والمستقبل". القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.
- يوسف القرضاوي. (1983). الحل الإسلامي فريضة وضرورة. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- يوسف القرضاوي. (2001). في فقه الأقليات المسلمة. القاهرة: دار الشروق.
-

باللغة الأجنبية:

- Sanneh, L. (1989). *Religious Minority in History Pathway or False Trail?*. London: Journal Institute Of Muslim Minority Affairs.

الأقلية المسلمة داخل المجتمع الأوروبي بين الاندماج والتباعد في ظل المتغيرات العربية والإسلامية -"بريطانيا أنموذجاً"

The Muslim Minority Within the European Community Between Integration and Separation in The Light of The Recent Arab and Islamic Changes "Britain as a Model"

د. بهاء الدين عبد ربه خلف الله، جامعة فلسطين
Bahaaeldeenkh71@gmail.com



تُعاني الأقليات في العالم من عدم الاهتمام داخل الدول التي تتواجد فيها، سواء أكانت من سكان البلد الاصلية أو من المهاجرين، ومن ضمن هذه الأقليات المسلمة التي تواجه مشكلات كبيرة في المجتمعات الغير اسلامية لاسيما في أوروبا، ونُعرج في هذه الدراسة على المجتمع البريطاني والاقلية المسلمة داخل المجتمع البريطاني، حيث يتهم الغرب الإسلام بالتطرف والعنف ومحاربة الديمقراطية ويحث على الخوف من الإسلام "الاسلاموفوبيا" في حين أنه لا يعرف طبيعة الإسلام وأحكامه، ولتوضيح هذه الصورة للغرب، تهدف الدراسة لتبين دور المجتمع الاوروبي عموماً، والمجتمع البريطاني خصوصاً في دمج هذه الاقليات داخلها، لتوضيح وإبراز الصورة الحقيقة للإسلام، سيما في ظل المتغيرات العربية والاسلامية التي يشهدها الشرق الأوسط منذ نهاية عام 2010. وتوصلت الدراسة الى اهم النتائج بأن الأقلية المسلمة حاضرة بقوة في المجتمعات الأوروبية سيما بريطانيا، ومقبولة في كثير منها رغم انتشار ظاهرة الاسلاموفوبيا.

الكلمات المفتاحية: الأقليات المسلمة، المجتمع الأوروبي، بريطانيا، المتغيرات العربية.

Abstract:

Minorities in the world suffer from a lack of interest within the countries in which they are located, whether they are residents of the country of origin or immigrants, and among these Muslim minorities are facing major problems in non-Islamic societies, especially in Europe, and we focus in this study on British society and the Muslim minority within British society, where the West accuses Islam of extremism, violence and fighting democracy and urges fear of Islam "Islamophobia" while it does not know the nature and provisions of Islam, and to clarify this picture of the West, the study aims to show the role of European society in general, and British society in particular, in integrating these minorities within it, To clarify and highlight the true picture of Islam, especially in light of the Arab and Islamic changes that the Middle East has witnessed since the end of 2010. The study reached the most important results that the Muslim minority is strongly present in European societies, especially Britain, and is accepted in many of them despite the spread of Islamophobia .

Keywords: Muslim minorities, European society, Britain, Arab variables.

مقدمة:

يعيش ملايين المسلمين في المجتمعات الأوروبية منذ زمن بعيد، حتى في ظل الحكم العثماني بين ظهراني المجتمعات سيما المجتمع البريطاني، وعلى إثر ذلك تنشأ علاقات بين الجابين من خلال الممارسات اليومية، سواء أكانت في العمل أو الأماكن العامة أو في السكن، ونتيجة لهذه اللقاءات والاحتكاكات تنتج علاقات وحوارات بين الطرفين تتعلق بالقضايا الاجتماعية والثقافية، كما أن عادات وتقاليد المسلمين تمارس داخل مجتمع أوروبي وتكون على مرئ منه، وبالتالي تعكس الصورة الاسلامية لتلك الأقلية من كافة الثقافات العربية وغير العربية على حد سواء، وهذا الانطباع حول تلك الثقافات والعادات بين الاندماج والتباعد داخل المجتمع الأوروبي سيما البريطاني.

كما يعتبر الغرب تكوين جمعيات وجماعات إسلامية تهديداً له، وغالباً ما تدعم هذه الدول الغربية جهات معينة لافتعال إشكاليات داخل هذه التجمعات، حتى تصل إلى نتيجة بأن المسلمين عنوان للإرهاب، ولا يتماشون مع الديمقراطية، ولا توجد لديهم أدني أشكال المرونة والعدل والمساواة، بل يوجد القمع والتطرف داخل تلك التجمعات، حتى أصبحت هناك مواجهة بين الاقليات المسلمة والمجتمعات الغربية وفي بعض الأحيان، فإن المسلمين أنفسهم يحاربون الإسلام -كدين وسياسة-ويسعى الغرب بشكل حثيث لاستثمار ما يحدث داخل المجتمع الأوروبي سيما داخل الاقلية المسلمة في المجتمع الأوروبي للحيلولة دون الاندماج داخله، سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الطائفية، سيما في ظل المتغيرات العربية والإسلامية التي يشهدها الشرق الوسط .

تشكل الأقلية المسلمة شريحة كبيرة في المجتمع البريطاني ولها حضورها، وتعتبر من أكبر الشرائح داخله، حيث تمتاز بتنوع الثقافات، وتتأثر به كباقي الأقليات على المستويات الداخلية والخارجية كافة، سواء بقبول الاندماج أو التباعد داخله، كما أن مواقف الجهات الرسمية البريطانية تؤثر على القضايا والمتغيرات، سيما التي تحدث في العالم العربي والاسلامي.

مشكلة الدراسة

نظراً لأهمية الدور التي تقوم به الأقليات داخل المجتمع البريطاني سيما الأقلية المسلمة، وخصوصاً في ظل المتغيرات العربية والاسلامية، وسلوكيات الأقلية المسلمة داخله، ونظرة الغرب إلى الإسلام على أنه دين تطرف وعنف، بسبب بعض سلوكيات الحركات الدينية المتطرفة والراديكالية، كان لابد من توضيح المشكلة التي تواجه الأقلية المسلمة داخل المجتمع الأوروبي سيما البريطاني، وتداعياته الاجتماعية والسياسية على الأقلية المسلمة، حيث تم بلورة المشكلة على شكل السؤال التالي:

ما دور الأقلية المسلمة داخل المجتمع الأوروبي ما بين الاندماج والتباعد في ظل المتغيرات العربية والاسلامية، سيما في المجتمع البريطاني؟

ومن هذا السؤال تنبثق أسئلة فرعية منها:

-ما مدى قبول المجتمع الاوروبي عموماً والمجتمع البريطاني خصوصاً من اندماج الأقلية المسلمة داخله، سيما في ظل المتغيرات العربية والاسلامية؟

-ما هي التحديات التي تواجه الأقلية المسلمة من الاندماج داخل المجتمع البريطاني؟

-ما مدى مساهمة الجهات الرسمية البريطانية في الاندماج والتباعد للأقلية المسلمة داخله؟

فرضية الدراسة: من أجل الإحاطة بجوانب المشكلة البحثية التي تتعلق بالدراسة يمكن صياغة الفرضية على الشكل التالي:

تدور فرضية الدراسة حول الإجابة على التساؤل الذي يتناول **ما دور الأقلية المسلمة في الاندماج والتباعد داخل المجتمع البريطاني في ظل المتغيرات العربية والاسلامية؟**

1-تفرض الدراسة أن غياب دور الأقلية المسلمة والمؤسسات الأهلية والخيرية المتعلقة بها من خلال تحسين صورة المسلمين، ينعكس على الأقلية المسلمة بالتباعد عن المجتمع الأوروبي سيما المجتمع البريطاني.

2- تسببت المتغيرات والأحداث العربية والإسلامية منذ نهاية 2010، في ضعف اندماج الأقلية المسلمة داخل المجتمع البريطاني، سيما مع تزايد نسبة الهجرة الى أوروبا.

أهمية الدراسة: تكمن أهمية الدراسة من خلال التالي:

1-استفادة الأقلية المسلمة داخل المجتمع البريطاني من هامش الحرية والديمقراطية سيما الجيل الجديد في الاندماج داخل المجتمع البريطاني.

2-مشاركة البعض من الأقلية المسلمة في بعض النقابات والمؤسسات البريطانية من اجل المساهمة في دمجهم داخلها.

3-استثمار المؤسسات الإسلامية وجماعات الضغط والمصالح، لمواجه التحديات التي تواجه الأقلية المسلمة داخل المجتمعات الأوروبية.

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى:

- تبيان دور الاقلية المسلمة داخل المجتمع البريطاني في الاندماج أو التباعد.
- الوصول إلى توضيح العلاقة بين الاقلية المسلمة والمجتمع البريطاني من خلال التأثير على أصحاب القرار والمسؤولون في الغرب.
- تبيان أبرز التحديات التي تواجه الأقلية المسلمة من الاندماج داخل المجتمع البريطاني.

منهجية الدراسة: سوف تعتمد الدراسة على المناهج التالية:

1.المنهج التاريخي: الذي يهتم بالأحداث السابقة التي تساهم في فهم الحاضر وتفسيره، كما أنه يحاول استشراف المستقبل والتخطيط له، من خلال أحداث ووقائع الماضي التي تدرس بشكل علمي، ويهدف إلى البحث عن الحقيقة العلمية بكل صورها، كما أنه يدرس الماضي وتفسيره من أجل الوصول للحقائق لتحديد المشكلة حتى يتم معالجتها بشكل علمي.

2.المنهج الوصفي التحليلي: يدرس هذا المنهج البحث في الظواهر الطبيعية والاجتماعية والسياسية، والحصول على معلومات حول الحالة الظاهرة وطبيعتها من حيث تكوينها والعلاقة بين عناصرها، ويمكن من خلاله وضع تنبؤات عن الأحداث المقبلة، وغالباً ما يأتي المنهج الوصفي التحليلي معاكساً للمنهج التاريخي الذي يخبر عن الماضي ، بينما المنهج الوصفي التحليلي يخبر عما سيجري في المستقبل، وعما هو موجود في الوقت الحالي، بمعنى أنه يدرس الواقع الذي نعيشه.

3.منهج دراسة الحالة: يقوم هذا المنهج على جمع البيانات بشكل متعمق عن أي وحدة اجتماعية سواء كانت هذه الوحدة فرد أو جماعة أو مؤسسة تسمح بتعميم نتائجها على الحالات المتشابهة، وتفيد دراسة الحالة في الحصول على معلومات حول الفئة او الأفراد موضوع الدراسة.

أدوات الدراسة: تكمن أهمية أدوات الدراسة في البحث العلمي من خلال الوسيلة التي يجب الوصول الى المعلومات المباشرة والتي يتم من خلالها جمع البيانات المتعلقة بالبحث، والتي تساهم في دراسة وتحليل مشكلته، وبعد ذلك التوصل إلى النتائج. ونظراً لعدم تمكن الباحث من العيش داخل المجتمع البريطاني، وإشكالية الانخراط المباشر مع المجتمع تم اللجوء إلى استخدام أداة المقابلة الشخصية، من خلال طرح بعض التساؤلات على بعض العينات العشوائية المختلفة المستويات داخل المجتمع البريطاني، من اجل إثراء البحث والاطلاع على أوضاع الأقلية المسلمة المباشرة داخل المجتمع البريطاني.

مصطلحات الدراسة:

- **الأقلية:** مجموعة من الأشخاص يقيمون في مجتمعات أخرى غير مجتمعاتهم الاصلية، حيث تكون تابعة للمجتمعات التي تكون فيها وتقبل التعايش بحيث تكون هذه المجتمعات أكثر سيطرة ونفوذ على الأقلية.
- **التباعد:** التباعد الاجتماعي وهو الدرجات المتباينة والمتفاوتة للبعد بين الأفراد او المجتمعات، او الانفصال او القرب أو التحرك الاجتماعي الذي يحدث أو يسمح به داخل المجتمع بين السر أو الأفراد أو الطبقات الاجتماعية المختلفة.
- **الاندماج:** الحالة التي تعيشها أي جماعة خارجة عن نطاق المشاركة الرسمية، سواء كانت سياسية أو اقتصادية او غيرها، أم الأفراد المغتربين الذين لا ينتمون إلى ثقافة المجتمع، او الأقليات التي تعيش منفصلة داخل المجتمع، او القصاء بين شرائح المجتمع، وهنا يعتبر استيعاب الأفراد داخل المجتمع سياسياً واقتصاديا واجتماعيا، بغرض تحسين الأوضاع وابعاد التفرقة وحالات التمييز، وتقع المسؤولية على الطرفين المجتمع والأفراد.

أولا- تباعد الأقلية المسلمة عن المجتمع البريطاني.. الأسباب والتداعيات:

يتوافد الكثير من المهاجرين والأقليات إلى أوروبا وغيرها من قارات العالم، لا سيما بريطانيا لكبر مساحتها وهامش الحرية -الموجود داخلها- سيما الحرية الدينية الممنوحة للأقليات المتواجدة فيها، فمنهم من يقصدها للعمل وآخرون للدراسة وغيرهم للهرب من ظلم حكامهم وآخرين لأغراض متباينة، فاختلفت

الأسباب والأهداف لهذه الأقليات، ومن ضمنها الأقلية المسلمة التي تتمتع بعدد كبير في أوروبا ومنها في بريطانيا، وذلك يعود للأسباب سابقة الذكر حيث زادت أعدادهم مع مرور الوقت سيما في ظل المتغيرات العربية والإسلامية مع الحركات الجماهيرية التي اجتاحت الوطن العربي منذ نهاية العام 2010.

بالرغم من كثرة عدد المسلمين في بريطانيا إلا أنهم يعيشون في تكتلات طائفية وانقسامات جهوية، تفضل الانتماء إلى تلك الخلفيات بدلاً من الانطواء موحدة تحت لواء الإسلام الأمر الذي سبب عائقاً كبيراً دون توحدهم، ومن ثم مدعاة للسلطات المحلية بعدم العناية بحاجاتهم ومطالبهم، ولذلك فالغالبية من جملة الجالية المسلمة يعيشون مهملين في فقر ومستوى متدن من التعليم مقارنة بالجاليات والاثنيات العرقية الأخرى خاصة إذا قارناهم بالجاليات الأخرى كالجالية اليهودية مثلاً التي لا يتجاوز عددها المليون شخص، ومع ذلك يتمتعون بالنفوذ الكبير داخل المجتمع البريطاني(عز الدين، 2007).

وعليه، فالتعايش بين حرية اختيار الاندماج والتباعد في دولة تتمتع بالديمقراطية كبريطانيا يتمثل ذلك في حرية الدولة ذاتها وعدم تبعتها لأي نظام خارجي يؤثر عليها، وبالتالي الحرية المتروكة للدولة ليست حرية مطلقة وهذا ينعكس أيضاً على المواطن وحقوقه في الدولة، وكما يحق للأقلية المسلمة الموجودة في بريطانيا الحرية في الاندماج أو التباعد، وهذا له تداعياته على المجتمع البريطاني ومدى قبول هذه الحرية. كما أن كل المعاهدات والاتفاقيات تضمن للأقلية الاندماج والتعايش في المجتمع مع الحفاظ على القانون وبالتالي الدولة المضيفة للأقلية تضمن لها حقوق الانسان وحق المواطنة. كما تواجه الاقلية المسلمة المقيمة خارج البلاد الاسلامية تحديات تمس الهوية والوجود الثقافي والوجداني، وغالبًا وضعهم المالي والاقتصادي يتم حسب المعاملات الإسلامية، التي قد تواجه صعوبات وتحديات من قبل النظام المالي في البلد المضيفة سيما بريطانيا الت يتضع جميع الجالية المسلمة تحت الرقابة في كافة المجالات.

1- العوائق التي تواجه الاقلية المسلمة من الاندماج داخل المجتمع البريطاني:

- التشتت وعدم وحدة الأقلية المسلمة.
- التمييز العنصري والديني والثقافي.
- قلة التعليم والفقر وارتفاع نسبة العاطلين عن العمل كنوع من أنواع الاندماج في المجتمع البريطاني.
- الافتقار لقانون يختص بالأحوال المدنية فيما يتعلق بالزواج والتقارب الاجتماعي بين الاقلية المسلمة.
- انتشار فرق اسلامية متباينة غير موحدة على نهج وسلوك موحد.

- الخوف والقلق من قبل الحكومات الأوربية سيما الحكومة البريطانية من تداعيات نشر الدين الاسلامي على النسيج الاجتماعي الاوروبي.
- الهجمة الإعلامية الأوروبية على الأقلية المسلمة والإسلام والخوف منه "الاسلاموفوبيا"(عز الدين، 2007)

وعلى ضوء ما سبق، من تحديات وعوائق تواجه الأقلية المسلمة داخل المجتمع الأوروبي سيما المجتمع البريطاني، وتبقى سياسة التميز والمعيقات تواجه الأقلية المسلمة وينسب لها كل أعمال العنف والتطرف بغض النظر من قام بها، وهذا له تداعيات على الاقلية المسلمة من تأجيج مشاعر الكراهية تجاههم وها يهدف الى وقف النمو الاسلامي داخل المجتمع البريطاني بشكل خاص والمجتمع الاوروبي على وجه عام، وهذا الشيء تسبب ببعض المضايقات اليومية لدى الاقلية المسلمة، وهذا بالتالي ينعكس على الهوية الإسلامية، والديموغرافيا الإسلامية داخل المجتمع البريطاني.

ثانيا- أصناف الاقلية المسلمة في بريطانيا:

- شريحة العمال، وتشكل قطاعاً واسعاً من مسلمي اوروبا بشكل عام ومسلمي بريطانيا بشكل خاص، ومن المتوقع ان تصبح في مرتبة متأخرة مقارنة بالأجيال الجديدة.
- شريحة الكفاءات العلمية والاقتصادية والطلبة الدارسين: - وهي الشريحة الفاعلة والمؤثرة في الأقلية المسلمة وصاحبة الفضل في انشاء الاتحادات الطلابية والمراكز الاسلامية والمؤسسات الاجتماعية والثقافية.
- شريحة الاجيال الجديدة، وهي الاجيال التي ولدت وترعرعت وتشربت الثقافة الاوروبية، وتكاد تمثل مستقبل الاسلام والمسلمين في اوروبا.
- المسلمون من سكان البلاد الاصليين، وهم الذين اعتنقوا الاسلام حديثاً او من ذرياتهم، اوعن طريق المطبوعات المترجمة التي تدعوا الى الاسلام.
- شريحة اللاجئين السياسيين من ابناء الدولة الاسلامية: - لجأوا الى بريطانيا لخلافاتهم مع انظمة دولهم سياسياً وهم يعانون كما تعانيه الاقلية المسلمة (العبيدي، الجبوري، 2004، ص 388).

من الممكن والمفيد الحفاظ على الروابط الاجتماعية والثقافية المهمة مع الحفاظ على اللغة والدين والبلد الاصلي، في حين ان عملية الدماج والتكامل في نفس الوقت مع الجيل الجديد الذي لديهم ثقافة مختلفة عن ابائهم وفي نفس الوقت لا ينتمي الى البلد والثقافة الاصلية لاسيما التقاليد الدينية واصبحت الاجيال الشابة بدون هوية ولا ذاكرة فيما يتعلق بالماضي وبالتالي لا منصة للمستقبل، ولكن الهوية في المجتمعات المعاصرة تخضع لعملية التعددية الثقافية والفكرية، حيث ان المسلمين في اوروبا تشكل اقلية حيث غالبيتها مجتمعات علمانية وتعددية (Allievi,2003, p12).

وعلى ضوء ما سبق، يشعر البعض من الاقلية المسلمة بالتهميش والتمييز واخرين سيما الجيل الجديد يشعر بالاندماج ويعود ذلك لنشأته داخل المجتمع الاوروبي سيما المجتمع البريطاني ومروره بمراحل النمو ودورة الحياة، فيتأثر بالثقافة والتقاليد والسلوك حيث من السهل الاندماج بالمجتمع الاوروبي لا التباعد كما يحدث مع البعض الآخر لسبب أو لآخر وذلك يعود لطبيعة العلاقة بين الأقلية المسلمة والمجتمع الأوروبي من حيث العمل والاندماج الاجتماعي.

إن الانتاج الاسلامي في اوروبا مهم الى حد ما، ويتراوح ما بين الصحف والتلفزيون والراديو والكتب الاسلامية، وما يقرا عن الاسلام من خلال الادب والثقافة والتعامل من خلال السلوكيات اليومية من خلال العمل او المؤسسات التعليمية، وينطبق هذا على المهاجرين الحدد من المسلمين الى اوروبا في غياب الكثير من اماكن الانتاج الثقافي(Allievi,2003, p15).

وأصبحت هناك مخاوف في المجتمع الاوروبي بسبب ما يحدث داخل المجتمعات المسلمة حتى لا ينعكس ذلك على المجتمعات الاوروبية سيما البريطاني التي تحتضن الكثير من المعارضين الاسلاميين لحكوماتهم.

ثالثا- السياسية البريطانية تجاه الاقليات الدينية:

حاولت الدول الاوروبية وفي مقدمتهم بريطانيا، ومن خلال تحريض الأقليات غير المسلمة ضد الأكثرية واثارة مخاوفها من جهة واغرائها بتغذية اطماعها والانفصال من جهة اخرى، واضعاف الانتماء والولاء الوطني لديها، لتفتيت المجتمع وخلخلة تماسكه ليكون الصراع ذريعة للتدخل الاجنبي وبسط نفوذ الدولة المستفيدة والمغذية للصراع لتحقيق أهدافها ومصالحها (الصانع، 2012، ص23).

ويتضح مما سبق، أن سياسة بريطانيا تجاه الاقليات بسط النفوذ وتأجيج الصرعات حتى تبرير لنفسها السيطرة على الشعوب المتنازعة وظهور ضعف بعضها اما الاخرى يجعل من بريطانيا المنقذ لها، وصاحبة الحريات الدينية والليبرالية في العالم، لاسيما مع الاقاليم الأكثر ثروات كالشرق الاوسط وخصوصا الوطن العربي في ظل التغيرات التي شهدتها المنطقة العربية منذ نهاية العام 2010، وللسيطرة على هذه الشعوب المتنازعة وعلى ثرواتها البحرية والبرية، كما أن عدم اهتمام وتغافل الدول عن وجود الاقليات المسلمة بحجة الفتن الطائفية والدينية وانتساب الكثير من اشكال العنف والتوترات الى الجالية المسلمة وهي الحلقة الاضعف داخل اوروبا، ومع ذلك وبعد مرور وقت طويل على لجوء الاقليات المسلمة بكافة اشكالها الى أوروبا حيث انتقلت من مرحلة المكوث المؤقت الى مرجلة الاستقرار الدائم مع منح الكثير منها لجنسيات البلد المضيف لهذه الاقلية، ومع بناء جيل جديد تربى على الثقافة الاوروبية سيما البريطانية حيث تأثر بها واندمج في بعض المجالات سيما مجال العمل والتعليم.

وعلى الرغم من هذا الاندماج لكن مازالت الاقلية المسلمة محافظة على الهوية الاسلامية والدينية في بيئية تعتبر غريبة عن الثقافة الاسلامية واحياناً معادية ومحاربة للأقلية المسلمة داخل بلدانها وخارجها.

إن ملايين المسلمين عاشوا تحت حكومات غير إسلامية فمن الضروري إيجاد ما نسميه " فقه التعايش" بين المسلمين وغيرهم، وتأصيله تأصيلاً علمياً شرعياً، وهذا التأصيل يهدف إلى مساعدة الأقليات للمحافظة على هويتهم، حتى لا تشعر بأنها امة تعيش في ظل إطار الضروريات والأمة " المستثناة"؛ ومعاونتها على المرونة والانفتاح ومساعدتها على أداء واجباتها المختلفة مع معالجة مشكلاتها المتجددة (أرتاليم، 2017، ص194).

وعليه، تهدف سياسة الادماج وتوجيه سلوك الأقلية المسلمة ومواقفها داخل المجتمعات الأوروبية، وهذا الادماج ينسج وحدة فكرية وعقائدية تلقى قبول من المجتمع المضيف والمتلقي لهذه السلوكيات، وبهذا يتقبل المجتمع المتلقي الالتزام والدعم للأقلية المسلمة من خلال الفعل والممارسة والانجاز الذي تقوم به داخل المجتمع الأوروبي.

ثانيا-أهم التحديات التي تواجه الأقلية المسلمة من الاندماج داخل المجتمع البريطاني:

دور المسلمون السياسي في بريطانيا : يلعب المسلمون دوراً مهماً في الحياة السياسية في بريطانيا، إذ يوجد ثمانية نواب في البرلمان من أصول اسلامية وينتمي معظمهم الى حزب العمال، حيث كانت السيدة سعيدة وارسي اول مسلمة تخدم في الحكومة البريطانية بعدما عينت من قبل ديفيد كامرون عام 2010 في منصب وزير بدون حقيبة، واستقالت من الحكومة عام 2014 بعد صراع على نهج الحكومة تجاه اسرائيل وغزة. على الرغم من ان الشريعة ليست جزء من النظام القانوني البريطاني الا انها دعمت شخصيات بارزة في المؤسسة البريطانية حيث قام في عام 2008 روان ويليامز رئيس كنسية انجلترا بشرح كيفية استخدام الشريعة في بعض الظروف واصدرت جمعية القانون عام 2014 توجيهات بشأن كيفية صياغة الوصايا المتوافقة مع الشريعة الإسلامية (العقلة، 2016).

1- **أبرز التحديات التي تواجه المسلمين في بريطانيا:** تواجه الاقلية المسلمة في بريطانيا العديد من التحديات فمن أبرزها:
   - العنصرية والتعصب والعنف والاجرام والمشاكل الدينية والجهل بالمجتمع البريطاني.
   - كثرة الجمعيات والهيئات وعدم توحيدها في هيئة واحدة وتحت صوت واحد.
   - افتقار الارشاد الديني لدى الطبقة العاملة من الاقلية المسلمة في بريطانيا.
   - الزواج المختلط وتأثيره على الاطفال المسلمين.
   - جهود التنصير ونشاط المنظمات اليهودية (الالوكة، 2011).

وعليه، فالتحديات السابقة التي تم عرضها تعتبر تحديات كبيرة وخطيرة يجب على الأقلية المسلمة العمل عليها والحفاظ على هويتها الاسلامية داخل المجتمعات الأوروبية لا سيما بريطانيا، ونقل الصورة الصحيحة للإسلام لقبولها، من أجل الاستمرار في الحفاظ على الأجيال القادمة التي قد تواجه مشكلة ترثها من اسلافهم، مع المتغيرات الإقليمية والعالمية التي يشهدها العالم تباعاً.

يرتبط تحديد الهوية مع البلد المضيفة بعوامل رئيسية:

- تحسين الوضع الاجتماعي والاقتصادي
- بزيادة المشاركة الاجتماعية مع التيارات الثقافية المتنوعة
- المشاركة السياسية والمدنية
- ومن خلال تلك العوامل السابقة يتم تحسين الوضع الاجتماعي والاقتصادي حيث تصبح الحياة أفضل، في الدولة المضيفة من خلال المشاركة الاجتماعية والاندماج بالمجتمع وهذا يؤدي الى تماسك في المجتمع من خلال المشاركة والاستثمار في المجتمع (Sundas,2013,p18).

1. **التحديات السياسية:** تواجه الأقلية المسلمة في بريطانيا جملة من التحديات السياسية، والتي تؤثر بشكل مباشر على الواقع التعليمي للأقلية العربية المسلمة في بريطانيا، ومن أبرز الامثلة على ذلك؛ ما أثارته صحيفة(ديلي اكسبرس) حول التعليم في أكاديمية الملك فهد بلندن، حيث نشرت الصحيفة مواد مسيئة للأكاديمية واتهمتها بأنها مخترقة من جانب المتعصبين والمتطرفين من خلال مناهجها، وقدمت الاكاديمية دعوة ضد الصحيفة انتهت باعتذار الصحيفة للأكاديمية لثبوت عدم صحة ما جاءت به الصحيفة، وان هذا التوجه السياسي واستغلال وسائل الاعلام البريطانية لتشوية صورة المدارس العربية في بريطانيا يتم بطريقة ممنهجة ومقصودة مما سحب الثقة بالمدارس العربية وجعلها تعمل تحت الضغوط السياسية المختلفة، مما يؤدي الى عزوف كثير من المسلمين الحاق ابنائهم بالمدارس البريطانية حتى لا يتهموا بالتطرف والعنصرية(السناني، 2012).

ليس هناك شك في ان هذا النوع من التعايش مبني على أساس كبير من تفاهمات مختلفة للحكم السياسي والنظام القانوني والعلاقات الاجتماعية والهوية الجماعية، وتمييز للموارد وكذلك طريقة مختلفة للتفاوض على العنف والصراع في السراء والضراء وهو نوع من التعايش الذي انتهى مع الحداثة، واستلزم التحول والانقسام في الحياة السياسية مع زيادة المسافة المفاهيمية بين العرب واليهود والمسلمين (Hajji, 2006,p18).

وعبى ضوء ما سبق، فيما يتعلق بالاندماج للأقلية المسلمة في المجتمع الأوروبي لا سيما بريطانيا فكانت هناك بعض الآراء من قبل من يعيشون في بريطانيا حول اندماج الأقلية المسلمة في المجتمع الأوروبي، لا توجد حريات واحترام لجميع الأديان:

- العنصرية في مختلف المجالات.

- العنف ضد الإسلام والمسلمين.
- تشويه صورة الإسلام.
- وصف المسلمين بالإرهاب.

بالمقابل هناك مؤشرات متعددة تفيد أن الجهات الرسمية البريطانية تعمل على إنصاف القلية المسلمة وتحسين أوضاعهم ودمجهم مع المجتمع الأوروبي من خلال خلق قوانيين تعتبر التميز ضد المسلمين مخالفة يعاقب عليها القانون، وتعمل كذلك على تعزيز التعاون مع المسلمين المعتدلين لمواجهة ظاهرة الإرهاب الإسلامي- حسب قولها- وهنا بعض المؤشرات تقول بان الحكومات أصبحت تهتم بهم لكسب أصواتهم في الانتخابات.

حاولت الأقلية المسلمة من الاندماج داخل المجتمع البريطاني، خاصة الجيل الثاني من المسلمين الذين ولدوا في بريطانيا، وشكلوا وحدة وترابط إسلامي، وأصبحوا يطالبون بحقوقهم ويسعون إلى تحقيقها كما تمكنوا من تحقيق إنجازات عدة منها إنشاء مراكز إسلامية كبناء المساجد وتحويل كثير من الكنائس إلى مساجد بعد شراء مبانيها وغير ذلك...

والتعايش الأقلية المسلمة مع المجتمعات الأوروبية لاسيما البريطانية، لا يعني الذوبان في معتقدات وأفكار غير المسلمين؛ بل تبادل المعرفة والثقافة والإفادة في كافة المجالات الإنسانية والعلمية ما لا يقدح في المعتقدات والثوابت والخصوصية والقوانيين المجتمع المضيف.

على الرغم من ذلك كله، ما زالت الأقلية المسلمة حاضرة في بريطانيا بقوة، ومقبولة من طرف المجتمع البريطاني رغم انتشار ظاهرة الخوف من الإسلام " الاسلاموفوبيا ".

2. التحديات التي تواجه المسلمين في الغرب وسبل النهوض بأوضاعهم:

يواجه المسلمون في المجتمعات الأوروبية تحديات أخرى منها:

- صعوبة الاندماج، فرغم تمتع الأقلية المسلمة في المجتمعات الأوروبية بالعديد من الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية إلا أنها تواجه العديد من الصعوبات التي تعرقل بشكل أو آخر اندماج افرادها في المجتمعات الأوروبية، وذلك في ضوء أمرين:
- تصاعد شعار الدمج القسري للأجانب، نتيجة الخوف من افتقاد تجانسهم العرقي والديني، المر الذي يهدد بإلغاء خصوصية المسلمين المقيمين في تلك المجتمعات.
- ظهور نزعات التطرف العنصري في المجتمعات الأوروبية بشكل كبير في الفترة الخيرة، وصعود أحزاب اليمين التي ترفض الاعتراف بالمجموعات العرقية، ومن بينها الأقلية المسلمة، وتصر على ضرورة ان يتشرب المهاجرون الثقافة الغربية، بل غنها وفي أحيان كثيرة تهدد بطردها من دولها. (مركز الخليج للدراسات الاستراتيجية، 2004، ص 28)

وفي نفس الإطار تعاني الأقلية المسلمة في المجتمعات الأوروبية من ظواهر أخرى لا تساعد على تعزيز دورها في المجتمع وتمثل عائقاً بارزاً امام اندماج أفرادها في المجتمع، أهمها:

- تطرف أفكار بعض أفرادها واصطدام بالمبادئ الأساسية الخاصة بحقوق الإنسان والمرأة والديمقراطية، الأمر الذي يسئ كثيراً للإسلام، ويؤدي إلى التحريض ضد الأقلية المسلمة.
- أن عملية اندماج أقلية في مجتمع هي عملية تاريخية طويلة المدي تعتمد على الكثير من العوامل المتصلة بالمهاجر او المجتمع الوافد إليه.
- انتماء معظم أعضاء القلية المسلمة في الغرب إلى مجتمعات إسلامية فقيرة وريفية يحاولون في الغالب أن يعيدوا تكوين هذه المجتمعات المنغلقة عليهم في الدول الغربية التي هاجروا إليها (مركز الخليج للدراسات الاستراتيجية، 2004، ص 28-29)

وعليه، يري كثير من الساسة الغرب ان الأقلية المسلمة تشكل خطر على الغرب والنسيج الاجتماعي في تلك المجتمعات، في حين ان هناك تباين بين بعضهم من خلال دمج الأقلية المسلمة في تلك المجتمعات، لكن الأصوات التي تعادي الأقلية المسلمة تعلو على تلك التي تسمح لها بالاندماج وعى هذا تتضح صورة عداء الغرب للإسلام في الصور التالية:

3. **آليات عداء الغرب للأقلية المسلمة:** يستخدم الغرب في عدائه للأقلية المسلمة عدة آليات أبرزها:

- التفتيت والتشتت، يرى المستشرق " برناد لويس" ان الإمبراطورية العثمانية كانت منذ تأسيسها وحتى زمن سقوطها تكرس قواها في سبيل تقدم وتقوية شوكة الإسلام والمسلمين، وحمايته ضد أي اعتداء خارجي، لذلك كله كان هدف الغرب دحر وانهاء الإمبراطورية العثمانية وتدميرها، لان الجميع في الغرب كان متفق على إضعاف بل إنهاء الإمبراطورية العثمانية ذات التوجه الإسلامي وتفكيكها وبالتالي إزالتها من الوجود.
- التغريب، عمل الغرب على تصفية الإسلام وقتل عوامل نهضته من داخل الانسان والمجتمع، وضرب عوامل المقاومة في النفس الإسلامية، والقضاء على الهوية التاريخية والإسلامية.
- الاستيطان، لقد أوصى مؤتمر "كامبل بنرمان" (المنعقد سرا في لندن عام 1905-1907) ومن اجل ضمان مصالح الغرب في منطقتنا بعد إسقاط الإمبراطورية العثمانية بما يلي:
- على الدول ذات المصالح المشتركة ان تعمل على استمرار تجزئة هذه المنطقة وتأخرها، وإلقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وجهل وتأخر.
- ضرورة العمل على فصل الجزء الافريقي في هذه المنطقة على الجزء الاسيوي، ويقترح المؤتمر لذلك حاجز بشري، قوي وغريب، يحتل الجسر البري الذي يربط أوروبا بالعالم القديم ويربطهما بالبحر المتوسط (توفيق وآخرين، 2019، ص 25-26).

وعليه، فإن إحساس المجتمعات الأوربية - سيما البريطانية – بتوحيد الامة الإسلامية وتماسكها يشكل عامل خطر على الأوروبيين سيما بعد موجات الهجرة التي تجتاح المجتمعات الأوروبية، وهذا يشكل هاجس كبير للأوروبيين والبريطانيين على حد سواء، وعلى الرغم من تفوقهم في كثير من المجالات على نظرائهم من الأقليات الأخرى، إلا أنها تخشى الأقلية المسلمة وهذا يعيق نجاح المسلمين في كثير من المجالات، هناك نماذج إسلامية مبدعة كما ذكرنا خلال دراستنا كالطالبة المبدعة سلامة التي اخذت براءة اختراع لقمر صناعي صغير غزى الفضاء، الا ان الصور النمطية السلبية عن المسلمين ما تزال قائمة بسبب سلوكيات بعض الجماعات الراديكالية التي هي صناعة بعض أجهزة المخابرات العالمية لتشوبه صورة الإسلام والمسلمين، ولم تلق الدعم المطلوب من زعماء الدول العربية والإسلامية ولا من الأقلية المسلمة نفسها.

ثالثا-مخاوف من اندماج الأقلية المسلمة في المجتمعات الاوروبية مع ازدياد الهجرة إليها:

1. **القلق الاوروبي من الأقلية المسلمة:** سمحت أوروبا لكثير من المسلمين ان يقيموا فيها، لأسباب ثقافية واقتصادية وسياسية واجتماعية ولم يكن الخوف من انتشار الإسلام في أوروبا وارداً، سيما مع نشوة النصر والإحساس بتبعية وانبهار المسلمين بالحضارة الغربية، وسادت اوروبا اجواء الحرية التي استفاد منها المسلمون، لتجد أوروبا نفسها أمام خطر الأسلمة الذي بات يؤرقها، ومن جانب اخر فإن نمو واتساع حجم الجالية الاسلامية فضلاً عن الذين تحولوا من المسيحية الى الاسلام كشف النقاب عن الاختلاف في الجوانب الثقافية سيما في مجالات حياتية تتعارض مع الثقافة الاوروبية، وان الرفض الذي تبديه الاوساط السياسية والشعبية لبناء المساجد حيث تعد رمزاً ودالة على المدن الاسلامية وهي رموز للإسلام في المشاهد الحضرية اذ تجاهر بهوية السكان بوصفهم مسلمين(علي، 2014، ص 13).

وعلى ضوء ما سبق ذكره، يتضح ان العلاقة بين الاسلام والاوروبيين علاقة قديمة فالنظرة الأوروبية الى المجتمعات الاسلامية دائماً ترتبط بالجذور التاريخية لتلك العلاقة التي تنبثق من التباين العقائدي والحالة التعصبية من قبل القادة الذين خاضوا الحروب الصليبية والتي بقيت مترسخة في عقولهم جيل تلو الاخر.

في الواقع الاسلام موجود وان كانت صور وحقائق الاسلام والمسلمين متعددة ومتنوعة دينياً وثقافياً واقتصادياً وسياسياً فهم يمثلون العديد من الجنسيات واللغات والجماعات العرقية والقبلية والعادات (Esposito,2010,p11)

وعليه, يمكن للبشر تجاوز حدودهم الجغرافية واتباع مصالحهم وقيادة لحياتهم والعمل على خلق مجتمع عادل يسوده القانون والحكم الرشيد وفي نفس السياق فان الاسلام مثل كل الديانات مصدرا

للرحمة والاخلاق ومحاربة العنف والتطرف والظلم والقمع وايضاً محاربة الارهاب ونبذه، من اجل بناء مجتمع قوي يسوده العدل والمساواة، لكن مع كل ذلك فان الاقلية المسلمة في العالم سيما في الدولة الغير مسلمة تتعرض للإهانة والاساءة له على انه دين عنف وايضا يتعرض من قبل بعض المسلمين للإساءة بالدين الاسلامي من خال سلوكياتهم وثقافاتهم المختلفة المسيئة للإسلام وبالتالي تنعكس على الجالية المسلمة في العالم الاوروبي سيما المجتمع البريطاني بالسلب والتعرض للانتقادات ومحاربة الدين الاسلامي من خلال تلك السلوكيات المسيئة.

تجد الاقلية المسلمة في اوروبا سيما بريطانيا التركيز على الاشياء المشتركة بينهم والتي فصلتهم الخلافات السياسية والاقتصادية عنها، على سبيل المثال لا الحصر ما حدث بين الباكستان وبنغلادش، ومن خلال الخطوط الوطنية بين الباكستانيين والبنغلادشيتين هذه القواسم المشتركة تبشر بالتضامن فيما يتعلق بالضغوط الخارجية، وفي الوقت نفسه يمكن أن يؤدي التعرف على الدين بدلاً من الثقافة الى تمكين أفراد معينين من هذه المجتمعات في علاقاتهم مع بعضهم البعض وانهم قادرون على اتخاذ وتبرير خيارات الحياة التي يتعارض بعضها مع التقاليد الثقافية(narkowicz , Phillips,2018, p11).

وعلي ضوء ما سبق ذكره، فإن التحول في الزيادة الديموغرافية للمسلمين في اوروبا سيما بريطانيا يودي الى اضطرابات سياسية وربما اجتماعية وثقافية، وخاصة بعد المتغيرات السياسية التي وقعت في الشرق الاوسط وخصوصاً في الدول العربية من حراكات شعبية تطالب بالتغيير في الحياة السياسية وتحسين المعيشة للمواطن، وفي حالة عدم انتظام واستقرار شكل الهجرة باتجاه اوروبا فان عدد السكان المسلمين سوف يزداد وذلك يعود الى سبب مهم الحالة العربية المتردية التي تشهدها الدول العربية والهجرة للبحث عن حياة جديدة ربما تكون مفيدة للمهاجر الذي يتجه الى اوروبا وبريطانيا خاصة، كما ان نسبة الشباب هي الاكثر للهجرة وهذا مما يجعل اوروبا تقبل بهذا الجيل لقدرته على العمل وزيادة عجلة الانتاج.

4. أسباب العداء والخوف من الأقلية المسلمة " الاسلاموفوبيا"

يقول "غراهم فولر" وأيان ليسر" في كتابهما " الإسلام والغرب.. بين الشرق والغرب"، وفي مجال عرضهما لأصل المشكلة بين الغرب والإسلام، أنه بعد انتهاء الحرب الباردة بين الشرق والغرب، شاع بين الناس اعتقاد بان الصراع الإيديولوجي العالمي القادم بين الإسلام والغرب، ويرصد "إبراهيم نافع" التهم التي ترتكز عليها آلة الدعاية في الغرب لتشويه الإسلام ضمن نطاق الحرب ضد الخطر الخضر " الإسلام" ويبرز منها التهم التالية:

- يقوم على القهر والغلبة، ويفرض نفسه غصباً على جميع الجناس والديان، وتوسع بحد السيف وغزا البلاد الأخرى.
- يحرم حرية الرأي والعقيدة، ويحجر على أبناء الديانات الأخرى في ممارسة عقائدهم.

- يذهبون إلى الحرب ضد الشعوب من اجل العقيدة الإسلامية، في سبيل نشر دعوتهم.
- إن الإسلام لا يرعى العهد ولا يحترم المواثيق والمعاهدات، ويكثر حديثهم عن الجهاد باعتباره إعلاناً للحرب كسياسة ثابتة للمسلمين تجاه الغير.
- إن الحرب هي وسيلة تعامل المسلمين مع الغير، وانهم لا يجنحون على السلم أبداً، إلا إذا تم قهرهم (توفيق، وآخرين، 2019، ص22-23).

وعلى ضوء ما سبق، تسود في الغرب صورة معتمة للأقلية المسلمة تساهم في التضييق عليها ومحاربتها، وتجعل منها أقلية مخيفة ومعادية، حيث هناك تناقض بين القيم التي يشكلها الإسلام والقيم التي يشكلها الغرب، فالإسلام تسوده قيم العدالة والاخلاق والمحبة بين الإنسانية ومن نتاجها المساواة والاخوة، بالإضافة يسود العرب النزعة العنصرية للأقلية المسلمة، حيث تتمثل في الغرب ثقافة العداء تجاه الإسلام والسياسة المعادية التي ينتهجها الغرب تجاه هذه القلية المسلمة بناء على المعايير والعوامل آنفة الذكر.

يرى الأوروبيين المسلمين غرباء قدموا من الخارج، وأنهم " جسم غريب"، وأن وجودهم وبقاءهم لمدة طويلة على أرض أوروبا يمثل مشكلاً اجتماعياً وديمغرافياً رئيسياً للاتحاد الأوروبي وللبلدان الأعضاء فيه على حد سواء، وتقود الاستراتيجية في مواجهة ذلك التواجد للمسلمين في أوروبا إلى نشر الاسلاموفوبيا، أو التخويف من الإسلام، مع التركيز على ما يُدعى من نفيٍ لأوروبية هوية الإسلام كدين، ونفيِ لأوروبية المسلمين من سكان أوروبا (موهيتش، 2016، ص 94).

بالرغم من وجود المسلمون في أوروبا منذ عصور سيما في بريطانيا ونشر الإسلام والمسلمون في ارجاءها، ووصولهم الى العديد من المؤسسات الصحية والتعليمية والصناعية والشركات الخاصة وجماعات ضغط داخل مراكز ومؤسسات مهمة في أوروبا سيما في بريطانيا، وحتى وصولهم إلى الاعمال الشاقة واليدوية وساهموا في بناء المملكة المتحدة منذ عقود، حتى وصولهم للدرجات العلمية العالية كالعلماء، رغم كل ذلك ما زالت المجتمعات الأوروبية وكذلك وبريطانيا تخشى الأقلية المسلمة ليس لشيء إلا لأنهم مسلمون ونظرتهم للإسلام دين التطرف والعنف " الاسلاموفوبيا" رغم كل الصور الحسنة التي تُظهر الصورة الحقيقة العادلة للإسلام والمسلمين ومنهم من يقبل بتلك الصورة والكثير لا ينظر اليها بالشكل السليم والصحيح.

خاتمة:

لقد مرت أوضاع الأقلية المسلمة في المجتمعات الأوروبية لاسيما بريطانيا؛ بمراحل عديدة ومتقاربة احياناً ومتباينة أحياناً أخرى، اتسمت بسلوكيات عكست ثقافة الأقلية المسلمة من خلال المراحل والتطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية التي طرأت عليها، في البداية كانت تهتم

الأقلية المسلمة في نشر الوعي الديني من خلال بناء المساجد، ثم تطورت الى بناء المؤسسات الإسلامية بكافة اشكالها، لنشر الثقافة الإسلامية وتوضيح صورة الإسلام الحقيقة للغرب، من خلال المؤسسات الصحية والتعليمية والثقافية والاجتماعية، وكانت تارب التطرف والتعصب الديني وان الإسلام دين التسامح والمحبة، والحفاظ على الهوية الإسلامية، رغم مرور احداث عالمية كبيرة حاربت الأقلية المسلمة في كافة المجتمعات الاوربية ومنها بريطانيا، وانتشار ظاهرة الاسلاموفوبيا، وقابلت تحديات سيما في بريطانيا بسبب وجود اللوب الصهيوني ونفوذه في المجتمعات الأوروبية وسيطرته على غالبية المؤسسات الإعلامية وبعض المؤسسات صاحبة النفوذ والسيطرة، على الرغم من ذلك الا ان هناك مواقف إيجابية للجالية استطاعت تدعيم التعاون بين المنظمات الإسلامية في بريطانيا لدعم الأقلية المسلمة، مع الحفاظ على الالتزام بالقوانين ونشر الثقافة الإسلامية والانفتاح على المجتمعات الأوروبية.

النتائج :توصلت الدراسة الى عدة نتائج منها:

- الأقلية المسلمة حاضرة بقوة في المجتمعات الأوروبية سيما بريطانيا، ومقبولة في كثير منها رغم انتشار ظاهرة الاسلاموفوبيا.
- وجود مؤشرات تفيد بالعمل على انصاف المجتمع البريطاني للأقلية المسلمة وتحسين أوضاعهم ودمجهم في المجتمع من خلال خلق قوانين تخدم الأقلية المسلمة. لكسب أصواتهم في الانتخابات.
- حضور المؤسسات الاهلية والخيرية والإسلامية يساهم في تعزيز اندماج الأقلية المسلمة في المجتمع الأوروبي والبريطاني.
- مخاوف وقلق أوروبي وبريطاني من زيادة الأقلية المسلمة وتمددها في جميع انحاء أوروبا وصولاً الى مؤسسات ضاغطة ومهمة في دولها.
- تواجه الأقلية المسلمة العنصرية داخل المجتمعات الأوروبية في مختلف المجالات وتشويه صورة الإسلام والمسلمين ونعتهم بالإرهاب سيما من قبل اللوب الصهيوني.
- ظهور نزعات التطرف العنصري في المجتمعات الأوروبية بشكل كبير في الفترة الأخيرة، وصعود أحزاب اليمين التي ترفض الاعتراف بالمجموعات العرقية، سيما الأقلية المسلمة.
- تشتت الأقلية المسلمة الى فرق اسلامية متباينة غير موحدة على نهج وسلوك واحد، من أجل تمثيل قوة ضغط تخدم أفرادها.
- تعيش الأقلية المسلمة في تكتلات طائفية وانقسامات جهوية، تفضل الانتماء إلى تلك الخلفيات بدلاً من الانطواء تحت تجمع موحد، الأمر الذي سبب عائقاً كبيراً دون توحدهم، ومن ثم مدعاة للسلطات المحلية بعدم العناية باحتياجاتهم.

توصيات:

- توسيع دائرة الأقلية المسلمة في وسط المجتمعات الأوروبية وخوصا بريطانيا، من خلال انشاء المؤسسات الدينية والثقافية والاجتماعية لتوضيح صورة الإسلام الحقيقة من اجل المساهمة في دمجها في المجتمع.
- استثمار المؤسسات والشخصيات الاعتبارية المهمة وجماعات الضغط، القريبة من الأقلية المسلمة لمواجهة تحديات الابعاد سيما التصدي إلى اللوب الصهيوني في بريطانيا.
- دعم الشخصيات المسلمة التي تصل الى مناصب حساسة وقريبة من مراكز صنع القرار، لتوفير الدعم والحماية للأقلية المسلمة داخل المجتمعات الأوروبية.
- توحيد الخطاب الإسلامي للأقلية المسلمة في كافة المجالات لدعم الصورة الحقيقة للإسلام والأقلية المسلمة داخل المجتمعات الأوروبية.
- محاولة عدم انخراط الأقلية المسلمة في المشاكل الداخلية للمجتمعات الأوروبية، والوقوف على مسافة واحدة من الجميع.
- التجديد في الخطاب الديني، لتوضيح المعاملات الاجتماعية وفهم كيفية بناء الاسرة والحفاظ عليها، من اجل مواجهة التعصب والعنصرية، ومواجهة العنصرين والمتشددين الأوروبيين.
- تعزيز الشعور بالهوية الإسلامية الأوروبية في كافة شرائح المجتمع، دون تمييز او تهميش للأقلية المسلمة في أي مذهب او تقليد ثقافي او اجتماعي.
- إيقاف الاستغلال واللعب بالهوية الدينية أو العرقية او الثقافية لتحقيق اهداف سياسية أو أيديولوجية.
- منع التمييز والشتائم واقوال الكراهية على أسس دينية سيما من شخصيات سياسية ضاغطة ومؤثرة.

قائمة المراجع:

أولاً: المصادروالمراجع العربية

المجلات والدوريات:

- الصانع، بيان. (2012). "سياسية بريطانيا تجاه النصارى واليهود في الدولة العثمانية (1839-1914) دراسة تاريخية". مجلة التربية والعلم: 19(5): 23.
- آمنة، علي. (2014). " أوروبا والإسلام.. اختلاف الرؤى والمفاهيم العقائدية وانعكاسه على الموقف الأوروبي من الإسلام". مجلة السياسة الدولية: 19: 13.
- العبيدي، مثنى، الجبوري، زياد. "الأقلية المسلمة في بريطانيا وموقفها من حرب احتلال العراق". مجلة جامعة تكريت للعلوم القانونية والسياسة: 4(16): 388.

- ارتاليم، منتهى. (2017). "قضايا التعايش بين المسلمين وغيرهم في الواقع الاجتماعي والسياسي المعاصر". مجلة التجديد:21(41).
- توفيق، وآخرون. (2019). " الاسلاموفوبيا في أوروبا بين الخطاب والممارسة". مجلة المركز الديمقراطي العربي للدراسات: 22-23
- موهيتش، فريد. (2016). " المكونات الإسلامية لهوية أوروبا". مجلة الدار العربية للعلوم ناشرون.

المواقع الالكترونية

- العقلة، إحسان. (2016). " الإسلام في بريطانيا". https://mawdoo3.com
- عبد الباسط، عز الدين. (2007). "واقع الأقلية المسلمة في بريطانيا".
- http://midad.com/article/217301
- السناني، طلال. (2012). " الواقع التعليمي للأقلية العربية المسلمة في بريطانيا".
- https://loomeer.blogspot.com/2012/10/blog-post.html

ثانياً: المراجع الجنبية

- Sundas Ali, (2013). "Identities And Sense of Belonging of Muslims in Britain".Nuffield college, Thesis submitted requirement for the Doctor in Philosophy(D.Phil.),Department of sociology University of Oxford, hilary term,18.
- Stefano Allievi,(2003)." Muslim networks and Transnational Communities in and across Europem". (university of Birmingham), Jorgen Nielsen (university of Leisen padua), Boston: Brill, 1,: 12..
- Kasia narkowicz, Richard Phillips. (2018). "After or against secularism: Muslims in Europe", university of Gloucestershire research repository, routledge,uk ,:11.
- Khalid Hajji, (2006). "Islam and the West for abetter world". arab scientifcat publishers, inc, :18
- Jobn L.Esposito,(2010). "The Future of Islam". Oxford University press, New York, :11.

Les pratiques des musulmans et la construction de l'image de l'islam en France
Cas d'une cohorte d'immigrés algériens installée à Lyon

ممارسات المسلمين وبناء صورة الإسلام في فرنسا
حالة مجموعة من المهاجرين الجزائريين استقرت في ليون

Dr. Athmane Fouil, Ecole Polytechnique d'Architecture et d'urbanisme. Algerie
a.fouil@epau-alger.edu.dz



إن كثيرا من مظاهر العيش عند المسلمين في الغرب ما يصنف بالغريب ومنها بالمستنكر في حين أن الكثير منها يعد مقبولا إذا لم يكن مستحسنا ومبجلا. إلا ان البيئة الإعلامية بتعاطفها المريب مع كل ما تراه ضار في المجتمع وتغذيتها على نوع من الخطاب السياسي المعادي للإسلام، تضخم مجموعة من المظاهر دون غيرها. وما يمكن ملاحظته أن كل هذه الوسائط ، على الرغم من قوتها لا تشكل سوى عنصرًا من عناصر تكوين الراي العام، ذلك أن الفرنسي مثلا, وبعيدا عن الأعمال الإرهابية المتطرفة والتي يدينها الجميع، تراه أكثر تأثرا مما يصادفه في يومياته من ممارسات من زملائه في العمل أو الدراسة وخاصة من جيرانه المسلمين من تأثره مما يسمع.

من خلال متابعة لمجموعة من مهاجرين جزائريين تجمعوا في إحدى ضواحي مدينة "ليون" جنوب فرنسا، والذين تم متابعتهم في إطار إعداد رسالة دكتوراه, سأحاول استعراض مجموعة ممارسات مجالية يتميزون بها خاصة في محيط سكناهم وفي حيهم عموما. سلوكات قد تكون مصدر إزعاج ومضايقة كبيرة للفرنسي في حين يراها المسلم طبيعية إن لم تكن مصدر فخر له. وفي المقابل قد تكون سلوكات اخرى عادية و بسيطة عند المسلم و يراها غيره نموذجا للممارسات الراقية.

الكلمات المفتاحية: الإسلام- الهجرة- استغلال المجال.

Résumé

Vue par un français, l'islam dans la société française a des multiples facettes. Des plus étranges, voire nuisibles aux plus communs, voire appréciées. Le milieu médiatique avec sa douteuse sympathie à tous ce qui néfaste dans la société et en s'alimentant d'un type de discours politiqueanti Islam affirmé, amplifié un ensemble d'aspects sans d'autres. Mais ces médias aussi puissants qu'ils soient, ne constituent qu'un élément du champ perçu par le français. En effet, à part les actes terroristes commis par des marginaux entre les islamistes, condamnés par tous,une partie plus importante des musulmans peuvent êtres sources d'autres nuisances auxquels les français sont confrontés au quotidien, comme ils peuvent être aussi et dans une moindre mesure, source d'intérêt ou de curiosité.

Avec une cohorte d'immigrés algériens installés dans la banlieue sud de

Lyon, que j'ai pu suivre dans le cadre de préparation d'une thèse de doctorat, je vais essayer de revenir sur un ensemble de leurs pratiques spatiales, en particulier dans les espaces limitrophes de leur habitation en particulier et dans leur quartier en général. Des pratiques qui peuvent être banales pour un musulman, voir sources de sa fierté, alors qu'ils sont incompréhensibles pour les français et surtout sources de nuisances.

Mots clés: Islam, Immigrés, usage des espaces publics

1.Présentation de la population

La population qui fait l'objet de ma recherche est composée d'immigrés, originaires de la ville d'Ouled Djellal(Une ville de 70 000 habitants située à 400 km au sud d'Alger, promue Wilaya dans le dernier découpage administratif), qui se sont installés dans la banlieue sud de Lyon, en particulier dans les communes de Pierre Bénite et Oullins. Alors que d'autres groupements, de moindre importance,et plus ou moins anciens, sont connus soit à Lyon, comme ceux de Vénissieux ou de la Mulatière ou plus au nord de la France comme ceux de la ville de Roubaix. Les enquêtes portent sur deux grandes catégories: la première est celle des premières générations, constituée des retraités. La seconde est constituée des générations qui ont succédé, jusqu'aux plus récentes des années 2000. Une troisième catégorie s'est invitée, elle se compose des originaires d'Ouled Djellal mais nés en France. Ils sont inséparables de la seconde catégorie, pour la simple raison qu'ils étaient mariés avec des Djellalis nées et grandies au bled.

En parallèle à l'observation des pratiques diverses de cette population, d'un côté et l'organisation de plusieurs entretiens individuels et collectifs avec un bon nombre d'entre eux de l'autre, d'autres entretiens ont été réalisés avec des français en relation avec eux dont les élus de la commune(Serge Tarrassieux, en sa qualité de premier adjoint maire, chargé de l'urbanisme, avant qu'il soit élu maire de la commune), des fonctionnaires dans le service technique de la mairie ou le service contrat de ville comme Melle Bénédicte, l'agent social, chargée de suivi dans le service du contrat de ville. J'ai également assisté à quelques réunions de travail des associations, ainsi qu'à l'organisation des cours d'enseignement culturel. Un entretien a été réalisé avec le consul général de l'Algérie à Lyon.

2.Les espaces de quartier par catégories d'usages:

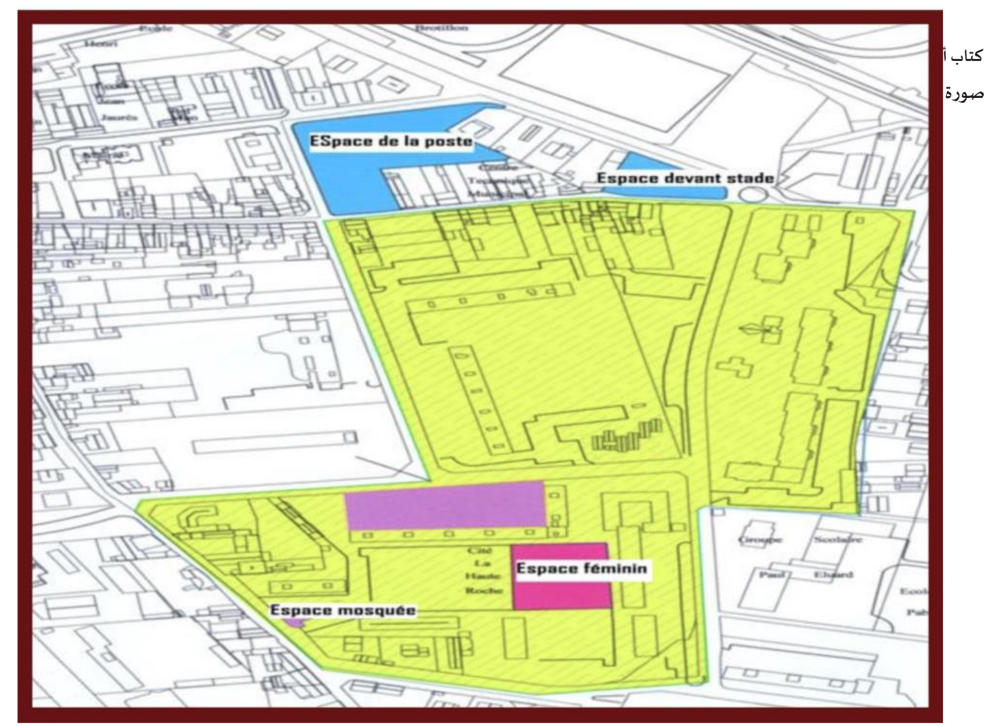
Les pratiques de l'espace dépendent en premier lieu, de l'emploi qui

implique souvent les déplacements les plus réguliers aussi bien que durables, ensuite les déplacements plus ou moins aléatoires qui concernent l'accomplissement des services, ou pour les loisirs et aussi les visites familiales ou entre amis, des déplacements qui engendrent une identification à l'espace peu ou prou forte, toujours en relation avec l'intensité des relations sociales associées aux différents lieux. Les manières de faire avec l'espace et de vivre l'espace sont donc très dépendantes du rôle social que l'individu joue à l'instant, d'où le rôle central des temporalités et des rythmes

sociaux, en y associant de nombreux modes de vie et de déplacement. Ainsi, le même lieu peut être intégré dans l'habiter d'un individu, alors qu'il reste insignifiant pour quelqu'un d'autre

Cette variabilité culturelle de l'usage de l'espace public est amplement mise en lumière par les observations des groupements spatiaux de population immigrée, capable de manifester leur autonomie et leur spécificité culturelle, en créant des espaces qui reproduisent des configurations des lieux d'origine. Cela se manifeste par une distribution traditionnelle des aires de circulation et de rassemblement respectif des hommes et des femmes. L'organisation spatiale des rapports sociaux de ces immigrés est généralement amenée à évoluer d'une génération à une autre. La transformation est généralement moins imputable aux contraintes spatiales physiques ou institutionnelles, qu'à la transformation même des dispositions culturelles que détermine l'immersion prolongée dans l'organisation sociale globale d'accueil, inductrice d'un nouveau modèle.

Le quartier Haute Roche, classé sensible, fait l'objet d'un suivi particulier dans le cadre de contrat de ville, avec un service permanent sur le site, qui a comme mission prioritaire l'assurance d'un meilleur fonctionnement des espaces. Ainsi, après des années de suivi des usages des espaces du quartier, des transformations importantes ont été opérées, allant jusqu'à le réaménagement de certains espaces; comme la suppression de certains passages qui étaient assez isolés pour servir de lieux de groupement de jeunes, qui se livraient à des actes de délinquance, nuisibles aux habitants comme aux usagers (Bénédicte, Entretien). Pour réussir cette mission, des sorties hebdomadaires étaient organisées, auxquelles participaient les représentants d'autres services de la mairie, des membres d'associations actives dans le quartier ainsi qu'un élu. Ces sorties étaient l'occasion de confirmer tel ou tel fait objet de réclamation, émanant des membres de l'association ou de quelconque habitant durant la semaine. C'était également l'opportunité de faire l'évaluation des opérations



précédentes, la vérification de l'étatdu mobilier urbain, et éventuellement la proposition de solutions à tel ou tel problème. Mes entretiens avec les membres de la cellule m'ont permis, à la fois, de confirmer certaines de mes observations concernant les usages des espaces, et d'en enrichir d'autres, sans pour autant avoir la même lecture de ces pratiques. Ma présence dans le service a accompagné le déroulement d'une étude de réaménagement des espaces, confiée à un bureau d'études local. La recommandation principale concernait l'emplacement des bancs publics, car ils présentaient une disparité dans leur usage. En effet, l'occupation de certains espaces était complètement ritualisée, même s'ils ne disposaient pas toujours de bancs, alors que d'autres espaces mieux aménagés se trouvaient plus ou moins désertés. Parmi ces espaces se trouvent l'espace de la

poste du parking du stade, et des espaces aux centres des habitations qui ont fait l'objet de mesprincipales observations.

Les différents espaces du quartier
Source : Fouil 2007

Ainsi le quartier Haute Roche se trouve partagé en plusieurs zones, marquées par des usages réguliers de groupes distincts au sein des Djellalis. Une première zone, exclusivement masculine, est composée de deux espaces, marqués par leur isolement relatif au centre du quartier. Le premier espace se situe à côté des anciens bureaux de poste, quant au

second, il est à 150 m plus loin, occupant une partie du parking du stade municipal. Les deux espaces ne sont occupés que par les Djellalis. Un simple trottoir longeant les bureaux de poste et une partie du parking du stade municipal, ni l'un ni l'autre n'a été conçu comme placette. Or, le premier, aussi ancien que le quartier, n'a été réaménagé (emplacement de deux bancs) qu'à la suite d'une

occupation régulière par un groupe de Djellalis, qui a duré des années. Alors que le second, relativement plus récent (En termes d'usage régulier, par un second groupe de Djellalis) n'a pas fait encore l'objet de réaménagement.

La seconde zone est située au centre du quartier, un espace aménagé, souvent occupé par les femmes et leurs enfants, non pas que des Djellalis. Entre les deux, des esplanades où les bancs ne servent qu'occasionnellement à un public divers, la plupart du temps des adolescents du quartier. Le quartier renferme d'autres espaces à usage hebdomadaire, qui sont aussi marqués par une occupation régulière, où les Djellalis sont majoritaires, s'ils ne sont pas les seuls occupants. Il s'agit de l'espace près du marché, où tous les dimanches matin, en hiver comme en été, un nombre plus ou moins important des Djellalis venant de tout Lyon, se retrouvent entre eux pendant toute la matinée. Alors qu'au centre, devant la mosquée, se trouve le secondespace. Toutes les semaines après la prière du vendredi, des Djellalis avec d'autres fidèles se retrouvent pendant plusieurs minutes, des fois jusqu'à l'heure de prière qui suit.

Les espaces aux alentours des mosquées peuvent servir aussi comme lieux de prière, pour les retardataires lors de la prière du vendredi ou celle des fêtes religieuses (l'Aïd Elfitr et l'Aïd Elkebir) là où la fréquentation des fidèles dépassent largement les capacités des salles intérieures. En effet, il suffit d'avoir son tapie que le fidèle l'étale là où il peut sur le trottoir ou même sur la chaussée mécanique. Des moments aussi riches spirituellement que celles passéesauprès de l'Imam, pour tous musulmans. Alors que le regard d'un passant non musulman est un acte condamnable à plus d'un titre. Plus que l'entrave à la circulation et l'occupation abusive d'un espace public, le fait de s'asseoir à même le sol et pire encore mettre le front par terre restent des actes incompréhensibles. Des contradictions dans la représentation de l'espace qui trouvent leur origine dans le sens donné à l'espace au sol, à la proximité et à la distance avec l'autre, des questions qui restent d'ordre culturel.

La présence des Djellalis dans le quartier Haute Roche se traduit aussi par des usages spatiaux plus durables. Il s'agit de constructions qui ne se

limitent pas seulement à leur habitation, mais aussi de commerce, de siège d'associations et en particulier la mosquée. La maison d'un Djellali, surtout dans l'habitat individuel, a une importance sociale particulière. En effet, avec le dicton connu au Maghreb : « la maison qui ne reçoit pas d'invités, n'est pas une maison.», la traduction à Pierre Bénite sera: La maison qui n'entre pas en résonance avec l'espace extérieur,ne sera pas une maison. Ainsi, les maisons, en particulier dans l'habitat individuel, et proportionnellement à leur proximité avec les lieux de regroupement des Djellalis, seront fortement sollicitées, non pas forcément pour recevoir des invités, mais pour laisser des colis

ou des lettres ou même un refuge d'urgence d'un nouvel arrivé. De même les commerces joueront aussi le même rôle. Alors que la mosquée considérée, au même titre que le quartier, comme la leur, pour les Algériens et même pour les Maghrébins résidant à Lyon, reste un espace public par excellence, dans le sens où son rôle social, pour les Djellalis en particulier, dominelargement sa mission spirituelle.

3.Le caractère éphémère des usages de l'espace :

Sans transformation physique de ces lieux, ni aménagement spécifique, on ne parle que d'une appropriation éphémère ou symbolique. En effet, les stratégies d'appropriation de l'espace public par les Djellalis peuvent être qualifiées de douces, car elles ne modifient pas laphysionomie de l'espace. Mais la pratique des lieux et la régularité avec laquelle ils sont occupés, jour après jour, font appropriation. Tout se passe comme si ces lieux ne pouvaient êtreoccupés par d'autres. Sans avoir une vision substantialiste de l'espace, on peut tout de même affirmer que les espaces occupés par les Djellalis ont des caractéristiques qui en font des espaces repoussants, pour ceux qui n'y voient pas une fonction précise. En effet, ils ne sont d'aucun usage pour les habitants, qu'ils soient citadins ou passagers. Ainsi, ils sont invisibles aux yeux des non Djellalis, des espaces résiduels en langage professionnel. Ils sont devenus « Djellalis car occupés par les Djellalis. Ils sont pour eux des espaces de repli et de familiarité plus pérennes, sur lesquels ils peuvent compter. Ce sont des lieux d'intimité où les Djellalis se retrouvent entre eux. Ils permettent la reconstitution et le maintien du groupe, et portent en eux des valeurs identitaires fortes. La dimension exclusive de l'appropriation prend de l'importance, surtout quand l'intimité prend le pas sur l'étrangeté. En migration, la familiarisation, qui rend possible la pérennité des séjours, est un processus d'appropriation de l'espace aux composantes à la fois sociales et spatiales. Elle se construit dans la fréquentation répétée des mêmes lieux, où sont réunis les mêmes

acteurs. Elle correspond à un besoin des migrants de se « sentir bien
», ou le moins mal possible. Ainsi, avoir des repères dans la ville et savoir qu'il existe des lieux à soi, permettent d'atténuer le sentiment d'insécurité qui pèse ailleurs. Les lieux ainsi constitués sont des refuges où l'entre soi, que l'on pourrait appeler la -Djellali été– prend le pas sur l'étrangeté.

Contrairement à ce qu'on peut penser, il n'y a pas d'enjeux de possession du quartier ou même d'une partie, ou d'être suffisamment voyant pour se repérer et marquer sa différence. Il n'empêche que l'importance numérique permet de se manifester, d'être présent, de se conforter entre soi. Ainsi, la présence du groupe dans des endroits précis dans des moments précis de la

journée, avec une certaine assiduité, a marqué ces espaces comme des instruments de repérage et des jalons de reconnaissance pour les membres du groupe. Ce sont des éléments dispersés qui contribuent à structurer le champ de perception du quartier, pour ces habitats en général, et le groupe en particulier. Une situation qui ne serait pas envisageable dans des situations où le nombre d'habitants de même origine serait faible.

A l'image des quartiers de la ville natale, Haute Roche est un espace idéal parce qu'il assure une proximité spatiale, tout en préservant l'autonomie de chacun. Voie moyenne entre une vie réellement communautaire et l'individualisme absolu, il permet de cumuler les avantages tout en limitant les contraintes. Il permet de transcender les cloisonnements imposés et offre les conditions d'une intensification des échanges de sociabilité amicale.

4.La mosquée dans la mosaïque des espaces :

Une autre forme d'appropriation des espaces publics par les Djellalis se distingue par sa forme comme par son contenu; elle est plus durable par rapport aux groupements éphémères, car il s'agit d'un bâti, et plus réglementée comme pratique car il s'agit de la religion. Comme ils ont fait à Oullins, lieu de leur premier groupement, à Pierre Bénite, le groupe s'est investi dans la construction puis dans la gestion d'une mosquée. Une forme de présence aussi importante qui peut être qualifiée de compétence des immigrés. L'hypothèse retenue tend à considérer les espaces religieux musulmans (mosquées, associations religieuses), qui se déploient sur les routes migratoires, comme des «espaces ressources», voire des supports de réseaux pour les migrations maghrébines.

L'esquisse de l'insertion spatiale des Djellalis, dans la ville de Pierre Bénite, ne saurait cependant se limiter à une description d'une répartition de l'habitat, ou des pratiques de sociabilité. Car comprendre comment une communauté occupe un espace nécessite aussi de comprendre la façon dont elle l'investit de repères symboliques, et l'intègre dans sa mémoire et son imaginaire identitaire. Le rapport qu'entretien un groupe avec l'espace se révèle réciproque, tout autant que le groupe marque, et donc, construit l'espace. L'espace marqué détermine en retour la construction de l'identité et de la sociabilité des individus. Cette vérité générale à tout processus communautaire prend dans notre contexte un enjeu d'importance, car le marquage identitaire est par ailleurs extrêmement ténu, en dehors du quartier, loin des siens,

Djellali se fond dans la masse. Or, dans son territoire, la mosquée prend une importance particulière. L'intense fréquentation de ces lieux ne peut toutefois se résumer à une démarche religieuse. S'y mêlent, de façon extrêmement imbriquée, parfois insensible, voire inconsciente, des motifs plus émotionnels et affectifs comme le désir de jouir là d'une sociabilité privilégiéecar strictement communautaire.

D'ailleurs, plusieurs mosquées qui se voient aujourd'hui adjointes d'un petit espace ouvert, cour intérieure souvent agrémentée d'arbres, dans laquelle se trouvent immanquablement une petite buvette, quelques bancs et des tables. Cependant, l'absence d'espace buvette, à la mosquée n'a pas empêché le fait, qu'après l'accomplissement des stricts devoirs religieux, les fidèles de passage, comme les habitants du quartier, passent parfois plus de temps à discuter et à échanger quelques nouvelles, que le temps nécessaire à la prière. L'aspect religieux de la fréquentation est même parfois second, mais jamais absent. D'autres se réunissent dans l'un des bureaux, connu pour recevoir le président de l'association ARCAD, pour discuter en général des activités de cette dernière, où il y a souvent des nouveaux, vu l'accroissement de la population vieillissante dans ses adhérents. Or, cette association dispose d'un bureau plus granddans le local des associations, qui ne sera occupé que lors des assemblées générales. La mosquéedispose aussi d'une librairie qui est un espace de rencontre, où ses locataires ont plus de liberté,soit dans le ton soit dans les sujets. Malgré la volonté apparente de lui donner un caractère commercial, il est un lieu de rendez-vous pour plusieurs habitués.

Dans ce sens, la mosquée constitue un espace qui prolonge les autres espaces publics du quartier. En effet, les plus jeunes des Djellalis qui ont

échappé, dans leur enfance, aux cours d'apprentissage du Coran dans les zaouïas, ont forcément suivi ceux des mosquées près de leur maison au bled. La mosquée constitua ainsi, dans l'imaginaire de ses habitants, un élément de dispositif urbain irremplaçable qui fait partie du paysage du quartier. La mobilisation était générale et sans répit, dès la décision d'achat du terrain, jusqu'à sa réception. « On peut discuter de tout, mais pas du financement d'une mosquée, on participe par tout ce qu'on peut.» un habitant qui fait rarement la prière.

5.Le seuil d'une rive à une autre :

La notion de seuil paraît essentielle pour comprendre la logique d'appropriation des différents espaces. C'est le lieu marquant le passage d'un espace à un autre, un lieu où on change de comportement. Loin d'être spécifique à une culture, la notion du seuil se traduit par diverses pratiques indissociables d'un ensemble de préceptes et de pratiques, qui ne trouvent sens que dans leur contexte culturel spécifique. En France, par exemple, le souci de marquage des territoires des habitations est assez puissant, dont les diverses clôtures, les panneaux dissuasifs et les multiples espaces de transitions sont le meilleur témoin. Alors qu'aux États-Unis, avec leur culture d'ouverture, une continuité est observable entre la rue et les espaces intérieurs de la maison.

Cependant, pour les maghrébins en général, et pour la population originaire d'Ouled Djellal en particulier, le caractère sacré de l'intimité familiale donne à l'espace de proximité une importance particulière. C'est le seuil par excellence qui matérialise les limites de deux univers marqués du sceau du licite et de l'illicite (halal/hâram). Ainsi, l'appartement aura toujours la charge symbolique du mot « bayt » qui signifie à la fois maison, pièce et l'ensemble de la famille, particulièrement la femme et les enfants. Cette sacralisation de l'espace intérieur va servir de protection en pays d'émigration.

C'était un après-midi du mois de mars, vers 17h, lors d'un entretien avec Elhadj Houcine ; un habitant des logements individuels au centre du quartier, que je lui ai fait la proposition de s'asseoir sur un banc devant chez lui. Alors qu'il ne cessait de me répéter, dans d'autres occasions d'entretiens informels, qu'il était très satisfait de l'aménagement des espaces devant chez lui et qu'il profitait bien de la situation, vu qu'il est dans l'individuel, embarrassé de cette situation, il m'expliquait que c'était impossible de s'asseoir ici, en me montrant le bâtiment à 8 étages d'en

face, distant d'une centaine de mètres : « On ne peut pas s'asseoir ici, tu vois, nous sommes devant les balcons des gens, on voit l'intérieur de leur appartement, on doit respecter les voisins. » Alors qu'il y avait un terrain de jeux qui nous séparait de ses voisines dans leur appartement. Or, de l'autre côté de l'aire de jeux (voir plan, espace femme), l'espace est occupé par des enfants accompagnés de leur mère, dont la majorité est originaire d'Ouled Djellal. Ainsi, l'espace devant la mosquée, où certains s'arrêtent quelques minutes avant ou après les prières, est considéré comme féminin, en particulier pour les habitants de la cité. « … avant la construction de la mosquée, on ne venait jamais ici, ce n'est pas un endroit très confortable, au milieu des bâtiments, on avait rien à faire » Un des habitants du quartier habitant de l'autre côté, qui se sentait gêné et devait justifier sa présence dans cet espace.

6.Le regroupement familial et le maintien des traditions

Le phénomène de regroupement familial spécifique à la population maghrébine et spécialement algérienne a largement contribué à la réflexion sur les usages sexués de l'espace. Selon Khalifa Messemah, l'immigré vivant seul entretenait, par l'intermédiaire de sa famille restée au pays d'origine et sa communauté, des relations fortes qui lui permettaient d'éviter l'acculturation. Le regroupement familial opère une rupture qui a pour conséquence immédiate l'accès des femmes à des espaces nouveaux, et à une reconsidération des rapports de hiérarchie et de domination à l'intérieur de la famille. Elle considère que « le rapprochement spatial et sociologique de l'immigré avec sa femme et ses enfants n'a pas maintenu l'ordre traditionnel, il a créé un ordre nouveau perturbé ; une conception ancienne de l'immigration. » (Villanova, Bekkar et Nicolino. 1994, p 95)

Or, mes observations font état d'une forte identification des femmes, à l'espace domestique où la maison reste leur espace privilégié. Alors que l'espace public est celui des hommes. Cette division des univers, bipartition essentielle dans leur ville natale, va sous-tendre les pratiques des femmes dans la vie quotidienne. Ce qui n'est pas en soi une rupture avec leur passé. Mais ce qui est valable pour des cas isolés, peut-être nuancés lorsqu'il s'agit d'un regroupement des familles regroupées. En effet, si les hommes célibataires ont tendance à se rassembler, surtout au début de leur installation, la présence de la femme, comme on a pu le constater, n'a fait qu'accentuer le phénomène. Ainsi, le choix de lieu de résidence se trouve largement marqué par la volonté de la femme, objet de regroupement, d'être avec les siens.

Ce schéma n'est pas seulement valable pour les cas classiques de la

première génération, les groupements des années 1970, où après avoir passé plusieurs années seuls, les hommes ont décidé de ramener leur femme et enfants, même si c'est cette catégorie qui reste le noyau dur sur lequel s'est constitué le groupement. En effet, les nouveaux cas de mariage, où l'un du couple, souvent un membre de la famille, est natif à Ouled Djellal, en particulier si c'est l'épouse, elle fera en sorte de rester le plus près possible de ses proches.

Un regroupement qui va les confronter assez vite à une nouvelle facette de cette bipartition entre ce qui est privé et ce qui est public, où les espaces du quartier seront le principal théâtre. Ainsi, ce qui est en apparence une liberté de la femme, par son accession à l'espace public devant chez elle, ce qui relève de l'interdit au bled, elle n'est, en réalité, que son enfermement dans un nouveau espace plus grand, dans lequel elle sera entourée par les siens. Ainsi, les hommes souvent conscients qu'il y a des espaces publics plus déstabilisants pour leur épouse, ils admettent cette option et se trouvent même amener à l'encourager. « En moyenne, je passerai 2 à 3 fois par semaine à Pierre Bénite car ma femme s'ennuie toute seule, alors qu'elle a de la famille à Pierre Bénite. Nous habitons à Brignais, juste à côté, ça ne me dérange pas de venir, elle est avec sa famille, en plus, l'ambiance dans le quartier lui permet de rencontrer les siens.»

Un Djellali de naissance en France, qui s'est marié avec une Djellalie de naissance, et il n'est pas le seul, car pendant les années 1990, encouragés par des parents sûrs qu'il n'y a que des filles ou des garçons du bled qui peuvent garantir la préservation des valeurs culturelles pour leur descendance, des jeunes ont fait le choix de se lancer dans cette aventure.

Malgré les quelques cas de divorce, qui servent souvent d'argument pour refuser la demande d'un cousin (collant !), le groupement des Djellalis constitue le cadre d'accompagnement idéal de ces jeunes couples. En effet, l'entourage des parents, cousins et anciennes connaissances du bled, qui étaient des modèles de référence en termes de réussite, restent, pour une durée plus ou moins longue, des guides pour cette nouvelle expérience. Ainsi, le quartier Pierre Bénite, avec ses espaces, aura une importance particulière pour ces nouveaux arrivés, non seulement comme espace de transition entre leur mode de vie au bled et le monde nouveau, mais aussi comme un cadre refuge, pour la jeune femme comme le jeune homme, un soutien moral et surtout matériel autant qu'ils auront besoin, ce qui les laissent, en contrepartie, plus attentifs aux sensibilités et aux

respects des valeurs jugées importantes pour le collectif.

7.Les cas de mariages mixtes et les nouveaux défis

Le groupe des Djellalis, avec son organisation apparente, donne l'impression d'une étanchéité de ses frontières (Fredrik Barth). Or, l'analyse de près des comportements de ses membres comme individus, montre une autre facette qui en apparence reste inconciliable avec l'image d'un groupe soudé et organisé. Dès la première génération, usant des espaces sociaux qui leur sont accessibles, en particulier les lieux de travail et les espaces de rencontre que la ville leur aura offerts, les Djellalis tissent des relations multiples avec l'autre, qu'on peut qualifier de sans limites. En effet, ni la race, ni la religion et moins encore l'origine géographique n'ont constitué des obstacles pour qu'ils fondent les plus fortes des relations. Il y a eu plusieurs cas de mariage avec d'autres communautés, des originaires d'autres villes algériennes, des Arabes comme des Kabyles, des Tunisiennes ou des Marocaines aussi bien que des Françaises.

Les femmes françaises, comme leurs enfants, étaient acceptées, plus encore pour ceux qui avaient déjà des enfants dans un premier mariage au bled, après leur regroupement, ils ont constitué, contre toute attente, des familles recomposées plutôt réussies. L'histoire d'Elhadj Belgacem en est la parfaite illustration. Alors qu'il y a au moins deux cas d'épouses françaises de souche qui ont décidé de rentrer avec leur mari pour vivre à Ouled Djellal.

Les trois cas de la dernière génération que j'ai pu interviewer ne montrent pas que leur vie de mixité soit un exercice facile, ni que ce fut leur premier choix. D'un côté, ils se sentent obligés de se justifier. L'argument le plus cité : « je n'avais pas le choix, j'ai fait plusieurs demandes de mariage auprès de mes proches, sans succès », de l'autre, en parlant de leur vie au quotidien, ils fuient les sujets les plus délicats, par exemple la relation avec la famille et l'entourage de l'épouse, avec tout ce que cela implique en termes de confrontation entre les cultures.

Or, le cas d'Elhadj Belkacem est révélateur de ce qu'était la mixité pour la première génération. Comme c'était le cas de mon grand-père avant lui à Oullins. Il est parmi les plus assidus aux prières dans le premier rang, non pas à la Saulaie, mais à Pierre Bénite. Comme s'il voulait récompenser l'écart qu'il avait vis-à-vis des normes, dans leurs pratiques quotidiennes. J'ai réalisé avec lui deux entretiens enregistrés, plus des rencontres fortuites. La première fois où je lui ai posé mes questions concernant sa vie, dès son enfance à sa date d'arrivée en France, les conditions de son

installation, en s'arrêtant sur les détails les plus insignifiants pour lui : chez qui était-il hébergé? Avec qui ? Pendant combien de temps ? Comment passaient-ils leurs après- midis et leurs week-ends ?... à un moment donné, il n'a pas pu résister à mettre fin à l'interview en me disant avec un ton aigu « Vous voulez entrer dans mon intimité ? ». Il fallait plusieurs jours avant que la confiance ne se réinstalle, le temps de s'assurer qu'il n'était pas le seul que je veux « entrer dans son intimité ! ».

Elhadj Belkacem fait partie de ceux qui ont laissé leur femme et enfants au bled. En arrivant à la Saulaie, comme tous, il a facilement trouvé un travail. Alors, comment passait-il ses journées, ses après-midis, ses soirées et ses weekends? Un sujet sur lequel plusieurs de ceux que j'ai interviewés essayaient de ne pas s'attarder. Il me connaissait assez bien pour savoir que je n'allais pas le juger, bien au contraire, que je trouvais son parcours intéressant; la richesse de sa jeunesse à la française comme sa vie de retraité « dans la peau d'un hadj ! » comme je ne manquais pas de le lui dire.

Ainsi, il se lance «...lors des premières années de notre séjour en arrivant en France, la religion n'était pas vraiment notre fort, peu d'entre nous faisaient la prière. Le weekend, comme d'autres, nous allons passer les soirées aux bars. Un samedi soir, j'étais à Perrache, c'est là que j'ai fait la rencontre de Juliette, ma femme. Elle était en visite chez sa famille, elle habitait loin de Lyon. Après quelque temps, on s'est marié. Je suis resté avec elle à Oullins. Elle a trouvé un travail à l'usine Danone, où travaillaient quelques Djellalis. Ce n'est qu'après des années, que j'ai décidé de ramener ma première femme du bled. Le premier temps, ça était difficile pour tous, une question de jalousie entre femmes. Je me souviens qu'un soir, j'ai jeté dehors Juliette.

Elle a passé la nuit dans la voiture. Ce que je regrette jusqu'à aujourd'hui. Elle aurait pu aller voir la police et porter plainte, elle n'a rien fait… Elle est toujours avec nous, mes enfants la préfèrent à leur propre mère. Elle est allée s'installer avec mon enfant aîné, il travaille à Toulouse. Certains Djellalis la connaissent, on passait chez eux régulièrement. » Elhadj Belkacem.

Le fait que mon grand-père fasse partie de cette catégorie m'a certainement aidé à voir mieux. Je ne vais pas aborder ici les questions de la vie en mixité, qui est certainement intéressante, mais peu importe la façon dont les uns et les autres mènent leur vie de couple et le degré de réussite, ce qu'on peut noter c'est qu'ils restent très attachés à leur

communauté d'origine. On ne les trouve pas tous les après-midis à Pierre Bénite, ou toutes les semaines à son marché, mais ils restent présents dans les occasions et fêtes diverses. Comme ils sont en majorité adhérents à l'association ARCAD (Association de Rapatriement des Corps Algériens à Ouled Djellal), constituant, sans doute, l'une des activités sociales les plus explicites, qui nous informe sur l'importance qu'éprouvent les membres du groupe à garder le lien entre eux, d'un côté, et de l'autre, avec la ville natale.

7.La vie associative, un levier d'intégration

Dans son essai de typologie, Abdel Hammouche nous fait part d'un état des lieux des associations des immigrés algériens résidant dans la région Rhône Alpes, où on trouve certainement la majorité des activités associatives de notre population. Avec leur dynamique

« interne », elles assurent une gamme variée de fonctions sociales et culturelles. Ces associations permettent de valoriser la culture d'origine, et avec elle, l'identité du groupe. Des associations formelles comme celles de la mosquée, ou de rapatriement des corps des défunts Djellalis ARCAD, ou moins formelles comme l'équipe de football, formée par des Djellalis, qui occupe le stade municipal chaque weekend, pour organiser des matchs entre eux ou même des tournois entre quartiers. Il y a aussi le groupe de jeunes qui animent occasionnellement des journées culturelles organisées par les services de la mairie. La dernière était inaugurée à l'occasion de l'année algérienne à Lyon, où un groupe de jeunes Djellalis a organisé une journée dédiée à la ville d'Ouled Djellal, lors de laquelle, d'un côté, des photos, des objets et des habits traditionnels ont été exposés tout au long de la journée, et de l'autre, des plats traditionnels ont été préparés et présentés aux visiteurs pour finir par un défilé de filles portant des robes traditionnelles. La visite de madame le maire à cette journée était l'occasion pour ces jeunes de l'inviter à visiter la ville d'Ouled Djellal, déclenchant ainsi un long processus de jumelage entre les deux villes, comme on le verra.

La présence de ces associations permet de mieux endurer ce qui est considéré ou vécu comme un processus de « déculturation ». S'entourer de ses pairs permet de « se tenir au chaud » et de revivre ensemble, tant bien que mal, ce qui rappelle les pratiques vécues dans le pays d'origine. Par conséquent, loin de relever d'un dysfonctionnement social, le décryptage et l'analyse des fonctions sociales des associations ethniques permettent de les considérer comme des atouts pour la vie du quartier. Ces associations

montrent une autre forme de participation à la vie du quartier, au sens plus politique de participation à la vie de la cité. Elles participent ainsi aux évènements culturels, encouragées par une volonté politique locale exprimée par M. Serge Tarrassiaux, premier adjoint au maire chargé de l'urbanisme qui, dans un entretien, répondait à une question sur l'adéquation entre les aménagements des espaces et leur occupation : « … Si les aménagements des espaces du quartier ont effectivement une importance comme support de certaines activités, nous comptons beaucoup plus sur les initiatives des habitants, pour toutes formes d'animations collectives, et nous ferons tout pour leur faciliter la tâche. » La constitution de ce type d'associations permet une forme de reconnaissance sur la scène locale et montre comment peuvent être utilisés les espaces du quartier pour affirmer une identité culturelle.

Or, Abdel Hammouche, en parlant des associations dans les quartiers sensibles, disait : «…il est vrai que s'associer équivaut à une mise en commun et à une visibilité sociale ; autrement dit, à prendre position dans l'espace public, tout en demandant une reconnaissance. Mais plutôt que de conclure à un repli, il serait plus judicieux d'analyser l'association en considérant les conditions dans lesquelles naissent l'idée de s'associer et la perspective dans laquelle s'inscrivent ses membres. » (Hammouche, 2004, p.32).

Constituant une sorte de famille élargie, les associations Djellali prolongent et complètent souvent la famille en tant que lieu de socialisation et d'acculturation. Il n'en reste pas moins que les associations ont une importance considérable dans l'aménagement des rapports entre les générations. « Par sa date de création, ARCAD doit faire partie des associations qui prolongent les amicales algériennes des années 60, les relais de l'État » Le Consul général de l'Algérie à Lyon, lors d'un entretien, en répondant à une question concernant le rôle de ces associations et leurs relations avec les services consulaires. Néanmoins, si l'observation du fonctionnement au quotidien des associations des Djellali à Pierre Bénite confirme peu ou prou ces analyses, elle révèle des spécificités à cette population.

Conclusion

Des extraits de mes observations ethnographiques lors de ma recherche, dans le cadre d'une thèse, permettent de voir comment les traditions, la culture dont la religion peut servir de moyen de maintien du groupe et de son identité, comme il peut être le moyen de communiquer avec l'autre. Une communication souvent indirecte mais qui est à la base des

interactions avec la société d'accueil. Une manière de vivre qui fait tantôt l'objet de mauvaises interprétations comme elle peut être objet de curiosité à l'origine de création de liens, passant de l'affectif au politique en passant par l'économique.

Dans notre cas la mosquée, par exemple, apparait pour un observateur extérieur, comme une structure religieuse fondée pour un but de prosélytisme, alors qu'elle ne représente pour les migrants à l'origine de sa création qu'une structure socio-spatiale qui joue des rôles diversifiés dont le spirituel. Un équipement qui fait partie intégrante des quartiers de leur enfance. Un élément de toute une culture qui trouve diverses concrétisations plus ou moins étranges à la culture d'accueil, comme l'usage occasionnel des espaces de proximité comme lieu de prière ou le partage sexué des espaces du quartier.

Alors que l'espace associatif, lieu d'engagement de ce groupe sur divers fronts suscite un intérêt particulier pour les différents acteurs, que ce soit les élus de la commune, le corps administratif ou les autres associations. En effet, l'efficacité de ces associations, leur pérennité à travers l'adhésion des nouvelles générations et leur rajeunissement périodiques montrent, d'un côté, la capacité du groupe à s'adapter aux nouvelles exigences. Car, dans leur passé, ni la construction et la gestion des mosquées ne nécessitent la création d'association et moins encore l'enterrement de leurs morts en dignité ce sont des nouveaux règlements auxquels ils se sont adaptés. De l'autre, ces structures sociales n'émanent pas d'un besoin de faire de nouvelles choses, comme c'est souvent la cas3, mais ce sont des associations pour assurer la pérennité de ce qui est considéré comme vital pour le groupe, que ce soit en termes de pratiques religieuses ou de solidarité entre ses membres. Des formes d'engagement associatives, bien vues par la société d'accueil, suscitant leur intérêt pour être à l'origine d'un projet de jumelage entre la commune de résidence et leur commune d'origine. Un projet concrétisé dans une cérémonie officielle, en présence du consul général de Lyon le 15 juin 2013, après des échanges de visites des deux maires et leur délégation. Un jumelage qui émane (d'en bas) se ne sont pas les autorités qui l'on décidé, comme c'est souvent le cas.

Ainsi, les formes de confrontation de l'Islam aux sociétés occidentales se fait au quotidien, à travers les pratiques, des uns et des autres, souvent loin des procédures formels et des discours politiques. Entre une présence associative, vue et encouragée comme engagement citoyenne et des pratiques et de manière d'être dans l'espace, peu ou prou comprises, il y a des pratiques individuels dans les entreprises qui suscite de l'intérêt, en

particulier où le migrant tenant à sa religion se trouve très bien vue dans son entreprise. Ça peut être une générosité, son esprit de solidarité, ou même des fois, dans certains métiers, la pratique rigoureuse de la religion en particulier la prohibition de l'alcool, les classes comme les plus avantagés.

Bibliographie

- Baccaini, B. (1993), Comportements migratoires individuels dans l'espace français », in L'Espace Géographique n° 2, pp. 133-145.
- Basenier. A, et Dasseto. F, (1995), Immigration et espace public, la controverse de l'intégration, Paris, éd. L'Harmattan. 318 p.
- Battegay. A, (1999), Approche urbaine de l'immigration, la question des territoires ethniques dans les villes françaises, in Revue européenne des migrations internationales, vol 8, n° 2, pp. 83-100.
- Bekkar. R, Boumaz. N, (1999), Familles maghrébines en France, l'épreuve de la ville, Paris, Presses Universitaires de France, 291 p.
- Belbahri. A, (1999), Générations issues de l'immigration et espace public : la citoyenneté paradoxale, in Ecarts d'identité, n° 89, juin, pp.18-23.
- Berry-Chikhaoui. I et Deboulet. A (dir.), (2000), Les compétences des citadins dans le Monde arabe. Penser, faire et transformer la ville, Paris, éd. Karthala, coll. Hommes et sociétés, 406 p.
- Boudimbou. G, (1992), Habitat et mode de vie des immigrés en France, collection Habitat et sociétés, éd, L'Harmattan, 269 p.
- Boukhobza. N, (2005), Jeux et enjeux d'appropriation des espaces collectifs par une population d'origine maghrébine, in Bernard Haumont, Alain Morel, La Société des voisins MSH, pp. 303-317.
- Bruneau. M, (1994), Espace et territoires de diasporas, in L'espace géographique, n°1, pp. 5-17.
- Camilleri. C, (1996), Stigmatisation et stratégies identitaires, in Haumont Nicole, (dir.), La ville, agrégation et ségrégation sociale, éd. L'Harmattan, pp. 85-94.
- Cesari. J, (1992), Etre musulman en France, Paris, 384 p.
- Devillanova. R, (1994), Immigration et espaces habités, Paris, éd.

L’Harmattan, 212p.

- Fouil. A, (2016), Les usages des espaces de proximité, entre dispositions sociales et dispositifs spatiaux. Le cas d’un groupe d’immigrés algériens installé à Lyon. Thèse de doctorat en sociologie et anthropologie politique, sous la direction de Michel Rautenberg, université Jean Monnet à Saint Etienne en France.
- Haegele. F, (1998), Une lecture spatiale des identités , in Haumont N. (dir.), L'urbain dans tous ses états. Faire, vivre, dire la ville, éd. L’Harmattan, pp. 203-220.
- Hammouche. A, (2001), Visibilité sociale et appropriation des espaces, in J.Y. Toussaint et M. Zimmermann, User, observer, programmer et fabriquer l'espace public, Lausanne, Presses polytechniques et universitaires romandes, pp.115-124.
- Kaufmann.P, (1999), L'Expérience émotionnelle de l'espace, Paris, 352 p.
- Raymond.A, (1989), Espaces publics et espaces privés dans les villes arabes traditionnelles, in Maghreb Machrek, 123, pp. 194-201.
- Raymond. H, (1988), Urbain, convivialité, culture, Les annales de la recherche urbaine, n°37, pp. 3-8.
- Rosental. P.A, (2001), Les sentiers invisibles. Espace, familles et migrations dans la France du 19e siècle. In Annales. Histoire, Sciences Sociales, Volume 56, n°2 pp. 437-440.

انعكاس التهديدات اللاتماثلية على المنطقة المغاربية : قراءة ابستمولوجية في الصورة الذهنية

The Reflection of Asymmetric Threats on the Maghreb : an Epistemological Reading in the Mental Image.

د.مبارك شريف خليل، جامعة علي لونيسي- البليدة 2 -الجزائر
khalilos1984@gmail.com



يعتبر التسارع في الأحداث العالمية بداية من هجومات 11 سبتمبر2001، والأزمة العالمية الاقتصادية سنة 2008 إلى غاية أزمات الربيع العربي سنة 2011 وبداية الثورات، مُحددا هاما انعكس على طبيعة إدارة الأزمات بصفة عامة والأزمات الأمنية بصفة خاصة، والتي عاشتها المنطقة المغاربية بعدما عرفت غيابا أمنيا وسياسيا، في ظل هاجس العولمة والغزو الثقافي المتحرر، وغرس القيم الدينية المنحرفة والمتطرفة، المندرجة في الأجندات الغربية وِفق تخطيط استراتيجي محكم، الأمر الذي جعل من المنطقة المغاربية مسرحا للعديد من التهديدات اللاتماثلية، في زمن فقدان السيادة والمناعة والتميز بالهشاشة، والفشل الدولاتي للدول العربية والافريقية.

إنّ انتشار التهديدات وغياب الأمن في المنطقة، مع تنامي بعض المؤشرات الأخرى: كالفقر، والتخلف، والتفكك المجتمعي، والصراعات الاثنية، بالإضافة إلى ظاهرة الإرهاب، والجريمة المنظمة، التي أضحت فعليا ترسم صورة ذهنية تؤثر على مسار الاسلام والمسلمين.

الكلمات المفتاحية: التهديدات اللاتماثلية، الأزمات، المنطقة المغاربية، الجريمة المنظمة، الفشل الدولاتي.

Abstract :

The Acceleration in global events, beginning with the attacks of September 11, 2001, and the global economic crisis in 2008 until the crises of the Arab Spring in 2011 and the beginning of the revolutions, is an important determinant that was reflected on the nature of crisis management in general and security crises in particular, which the Maghreb region experienced after it knew the absence of security And politically.

The instillation and extremist religious values, , which made the Maghreb region the scene of many asymmetric threats.Insecurity in the region, with the growth of some other indicators: such as poverty, underdevelopment, societal disintegration, and ethnic conflicts, terrorism and organized crime, which has actually become a mental picture that affects the course of Islam and Muslims

Keywords: Asymmetric Threats, Crises, The Maghreb, Organized Crime, State Failure.



مقدمة :

لقد أصبح من الصعب الحديث عن المقاربة الأمنية نظرا للتحولات الرهيبة التي يشهدها العالم يوما بعد يوم، خاصة بعد الحرب الباردة في جملة من الدراسات والسيناريوهات الأكاديمية محتكمة بدورها إلى عدة تصورات واقعية، كون قضية الإسهام الواقعي والتنبؤ لمستقبل السياسة الدولية أدى إلى طرح إشكالية نظريات العلاقات الدولية ومؤسساتها الفاعلة في أدائها الجوهري لتحقيق معادلة الأمن الدولي، وحتى تعزيز الأمن الداخلي للدول والأقاليم، إنّ تسارع الأحداث في العالم أدى إلى التغير المستمر في المفاهيم التقليدية وأعطت الفرصة لظهور مدارس ومقاربات جديدة تُعنَى بمفهوم الأمن وإخراجه من مفهومه التقليدي إلى المفهوم الشامل في مقاربة الأمن الإنساني منتمية بذلك إلى ما وراء المنظور التأملي في العلاقات الدولية، وكون المنطقة المغاربية طرف ضمن هاته المعادلة نظرا لجيوسياسيتها باعتبارها نقطة تقاطع لثلاث مجالات جغرافية حيوية متمثلة في إفريقيا، المنطقة العربية، منطقة المتوسط وهمزة وصل استراتيجية بين ما هو شمالي أوربي (حوض المتوسط) ، لذا أضحت المنطقة تهتم بالمقاربة الأمنية باعتبارها صمام الأمان للمواطن (الإنسان) والدولة معا في ظل التحولات والتهديدات الجديدة التي أفرزتها الاضطرابات الأمنية والفراغ السياسي المشهود خاصة بعد الفشل الدولاتي بعد ما يسمى بالربيع العربي أو الثورة العربية، الذي أدى إلى خلق أزمات أمنية في معرفة حقيقية لاستهداف عميق لمختلف المصادر التي يمكن أن تهدد قدراتها وإمكاناتها التي تعتبر ركائز السياسة الأمنية والدفاعية للمنطقة نتيجة لمجموعة من العوامل التاريخية والأيديولوجية والجغرافية والاستراتيجية المشتركة التي ساهمت بطريقة أو أخرى في رسم المشهد الاجتماعية السياسي والاقتصادي الذي يمنع فشلها، إلا أن التحولات الجيوسياسية للمنطقة ساهمت في استحداث جهات الانكشاف أمام التهديدات اللاتماثلية على غرار الجريمة المنظمة وتناميها بصورة غير مسبوقة مما انعكس على إصرار بعض الجهات جعلها منطقة خطر ومحظورة ومنطقة نزاع وتوتر بغية منها رسم صورة ذهنية سلبية تعيق مسارات وجهود التنمية الشاملة والاستقرار الأمني الذي تزدهر به الأوطان وتتكتل . وعليه نطرح الإشكالية التالية : **ماهو انعكاس التهديدات اللاتماثلية في المنطقة المغاربية على رسم الصورة الذهنية للإسلام والمسلمين ؟**

وللإجابة على هذه الإشكالية نطرح مجموعة من الأسئلة تساعدنا في تحليل هذه الورقة البحثية :

- ماهو المقصود بالتهديدات اللاتماثلية؟
- ماهي طبيعة هذه التهديدات؟
- ماهو أثر تلك التهديدات على صورة الاسلام والمسلمين في المنطقة محل الدراسة؟

أهمية الدراسة : تكمن أهمية الدراسة في الآتي :

-حداثة موضوع الدراسة والأهمية الدولية له خصوصا بعد أحداث سبتمبر 2001 وثورات الربيع العربي أي بعد 2011 .

- توضيح ومعالجة الجوانب المختلفة لمفاهيم متغيرات الدراسة .
- إظهار حجم تأثير التهديدات اللاتماثلية وانعكاسها على سياسة الفواعل الدولية وتداخل المصالح ؟

أهداف الدراسة : تهدف الدراسة إلى :

- ابراز الأهمية الجيوسياسية للمنطقة محل الدراسة وتأثرها بمختلف مؤشرات التهديدات اللاتماثلية.
- معرفة واقع ومؤشرات التهديدات والأزمات الأمنية المتواجدة في المنطقة وانعكاسها على تكوين عتمة الصورة الذهنية لقاطنيها .
- تحليل وفهم الأبعاد الاستراتيجية للظاهرة محل الدراسة ومكانتها في خريطة السيناريوهات العالمية في ظل عالم يتميز بالتنافس الإقليمي للقوى الكبرى في المنطقة .

وعلى إثر ذلك تم تقسيم الدراسة إلى :

أولا -مدخل مفاهيمي لمتغيرات الدراسة :

قبل التطرق إلى معالجة مفاهيم متغيرات الدراسة المقترحة لا يمكننا ان نمر مرور الكرام دون الإشارة إلى أهم المفاهيم ذات الصلة المباشرة بمفهوم التهديدات اللاتماثلية والتي تلعب أيضا دورا مهما في صناعة البناء الفعلي للصورة الحقيقية للمسلمين والاسلام في المنطقة، من أهمها:

1/ مفهوم التهديدات والمفاهيم ذات الصلة :

مفهوم الأمن : حيث عرفه باري بزان (Barry Bouzan) "أنه العمل باستمرار على التحرر من التهديد (Batistella, 2006, p. 26)، وفي سياق النظام الدولي فإن الأمن "هو قدرة الدول والمجتمعات على الحفاظ على كيانها المستقل وتماسكها الوظيفي ضد قوى التغيير التي تعتبرها معادية، لأن الدول في سعيها للأمن تكون في انسجام مع المجتمع، كما أنهما قد يتعارضان أحيانا فأساس الأمن هو البقاء ولكنه يحتوي أيضا على جملة من الاهتمامات الجوهرية حول شروط الوجود" (عنتر، البعد المتوسطي للأمن الجزائري، 2005، صفحة 22) .

2- مفهوم الإرهاب : ويحمل عدة وجوه ونكتفي بوجهين في هاته الدراسة :

-الإرهاب : هو محاولة نشر الرعب والفزع لتحقيق أغراض سياسية وهو وسيلة تستخدمها بعض الحكومات الاستبدادية لإرغام الشعوب على الخضوع، أو تستخدمه جماعة لترويع المدنيين لتحقيق أطماعها (يوسف، 2011، صفحة 18) .

- الإرهاب الدولي : كما يعرفه الأستاذ نبيل حلمي أنه الاستخدام غير المشروع للعنف أو التهديد به بواسطة فرد أو مجموعة أو دولة، ضد فرد أو جماعة أو دولة ينتج عنه رعب يعرض للخطر أرواحا بشرية أو يحدد حريات أساسية، ويكون هدفه الضغط على الجماعة أو الدولة لتغيير سلوكها اتجاه موضوع معين (رحموني، 2016، صفحة 16).

3- مفهوم التهديدات: إن تحليل مفهوم التهديدات ينطلق من إدراك حقيقة التحولات الدولية والإقليمية وانعكاساتها على صعيد الأمن، فقد تؤدي إلى تحولات مماثلة على مستوى مصادر التهديد خاصة بعدما صارت كامل الدول مهتمة بمستويات الأمن الإنساني وصولا إلى التهديد العالمي ، وإلى غاية هذا الوقت لا يوجد تعريف صريح يزيل غموض إشكالية التدقيق في الضبط التعريفي للمصطلحات المتعلقة بالتهديدات حيث يعتبر البعض صفة التهديد عن كل مالا يفترض المواجهة العسكرية ، كما توجد

مفاهيم ومصطلحات ذات صلة على غرار التحدي الذي يعتبر مجموعة معقدة من المشاكل والظروف التي ننتجها في الواقع والمستقبل بإرادتنا ورغباتنا الواعية وغير الواعية (شلبي، 2012، صفحة 45)، كما توجد تحديات الأمن الناعمة التي تحدث من غير عنف مثل الهجرة غير الشرعية، المخدرات ، الاتجار بالبشر، ولكنها غالبا ما تكون التحديات مرتبطة بالتنافس الحاد بين الدول لبسط نفوذها وتحقيق أجنداتها، أما الخطر فيراه تيري ديبيل(Terry Debel) هو محصلة التهديد مضافا إليها قابلية التعرض للخطر وبالتالي التعرض للخسارة أو الأذى أو الفقدان (الزبيدي، 2015، صفحة 15) أين يمكن لها أن تشكل أزمة والمتمثلة في معادلة رهيبة: الأزمة = المخاطرة + القابلية للتهديد .

ومن أهم الفروقات بين التهديدات والمصطلحات ذات الصلة تم الإشارة إليها في الجدول أدناه كالآتي :

جدول رقم (01) يوضح الاختلاف بين التهديدات والمفاهيم الأخرى

	التحديات الأمنية Challenges	التهديدات الأمنية Threats	المخاطر الأمنية Risks
من حيث الطبيعة	المشكلات الداخلية للدولة وأهدافها العليا، أو مناقشتها من قبل دول أخرى، أو المواجهة مع دولة أخرى .	إعلان صريح أو ضمني لوجود نية لإيذاء دولة أخرى أو أشخاص أو إلحاق الضرر بها.	التهديد يكون على وشك الحدوث أو حدث فعلا.
من حيث الهدف	اختبار قوة الدولة على إدارة شؤونها ومنافسة الآخرين.	ايصال رسالة سياسية لدولة أو أطراف أخرى بهدف تغيير سلوكها .	إلحاق الضرر والأذى بالدولة أو الأطراف الأخرى .
من حيث المصدر	دول أخرى أو منظمات أو مشكلات داخلية .	دولة أخرى أو منظمات أو جماعات داخلية أو كوارث طبيعية .	دول أخرى أو منظمات أو جماعات أو كوارث طبيعية .

المصدر: فوزي حسن الزبيدي، 2015 ، ص 22

4-أنواع التهديدات الأمنية :

تحتكم مفاهيم التهديدات الأمنية في تصنيف طبيعتها إلى عدة معايير حسب جهة نظر الباحثين والمواضيع محل الدراسة :

1-من حيث المجال : وتشمل التهديدات السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية بالإضافة إلى التهديدات البيئية .

2-من حيث درجة الخطورة : وتنقسم أيضا إلى :

أ-التهديدات الفعلية: أين تتعرض الدول لخطر داهم نتيجة استخدام القوة العسكرية بالفعل أو التهديد الجاد باستخدامها .

ب-التهديدات المحتملة : وتعود للأسباب الحقيقية لتعرض الدولة إلى تهديدات دون الوصول إلى مرحلة استخدام القوة العسكرية لحل النزاع .

ج-التهديدات الكامنة : وتتمثل في وجود أسباب للخلاف بين دولتين أو أكثر دون وجود أي مظاهر مرئية لها .

د- التهديدات المتصورة: وهي تلك التهديدات التي لا وجود لأي مظهر لها في المرحلة الآنية، بيد أن النظرة المستقبلية لشكل وطبيعة التحولات والمستجدات الدولية والاقليمية قد تشير إلى احتمالات ظهورها على سطح الأحداث بدرجات متفاوتة .

3- من حيث درجة التماثل : وتكون حسب درجة تشابه الفواعل وتنقسم إلى :

أ-التهديدات التماثلية : وهي تطلق على النمط التقليدي للتهديدات التي تتميز بالطابع العسكري والبيني وتشابه فيه الفواعل من حيث الخصائص، كالتهديد العسكري بين الدولة (أ) والدولة (ب)، مثل التهديدات المتبادلة بين الكورتين باستخدام القوة بينهما وهو أشهر مثال على ذلك .

ب-التهديدات اللاتماثلية: والمرتبطة بمشاكل الجريمة المنظمة والإرهاب الدولي والنزاعات الداخلية والصراعات الاثنية والتي تجد فيها الدول غير المسؤولة أو الفاشلة مكانا مثاليا لها، وتكون غير متكافئة أي بين فاعلين غير متكافئين من حيث القوة ويعتمد هذا النمط وسيلة للتعويض عن نقص الموارد للطرف الضعيف الذي يلجأ ويستخدم فيها التهديد من خلال الاعتماد على الأساليب المتعددة بغرض المساس بنقاط الضعف للطرف الأقوى، ومن أمثلة تلك التهديدات حرب الدولة ضد الإرهاب وعصابات الجريمة المنظمة (رسولي، 2018، صفحة 22).

4- مفهوم الصورة الذهنية : لقد عرفت على الأقل العقود الثلاثة السابقة اهتماما منقطع النظير لمفهوم الصورة الذهنية (Mental Image) ، في انتظار أن يكون علما قائما بحد ذاته حيث تطرق الكاتب سلمان صالح في كتابه "وسائل الإعلام وصناعة الصورة الذهنية" أنه مجموعة من السمات والملامح التي يدركها الجمهور، ويبني على أساسها مواقفه واتجاهاته نحو المنظمة أو الشركة أو الدولة أو الجماعة وتتكون تلك الصورة عن طريق الخبرة الشخصية للجمهور القائمة على الاتصال المباشر، أو عن طريق العمليات الاتصالية للجمهور (قروشي، 2016، صفحة 30).

وفي تعريف آخر لها هي المعاني والمواقف والمعارف والآراء المشتركة لأصحاب المصالح وقد تتأثر بالاتصالات الاستراتيجية . ويقصد بها أكثر في تكوين الصورة الذهنية لجمهور معين عن طريق العمل المؤسسي (بوقرة، 2020، صفحة 27).

وفي نظرنا نحن يمكن القول إجرائيا أن الصورة الدهنية هي إعطاء معلومات وتكديسها بشتى الطرق والأساليب والوسائل لمدة معينة حتى تترسخ وتكون خبرة يتم من خلالها ترك انطباع أو إعطاء حكم أو اتخاذ موقف معين ضد فرد أو مؤسسة أو كيان .

ثانيا - التهديدات اللاتماثلية والمنطقة المغاربية: خريطة لبناء الصورة الذهنية أم انعكاس لإشكالية تفعيل الدور الحقيقي للإسلام والمسلمين؟.

1- طبيعة التهديدات اللاتماثلية في المنطقة المغاربية : تتميز خريطة التهديدات الأمنية في العالم بتغيرها المستمر من نمطها التقليدي أي من التهديدات اللاتماثلية (Asymetric Threats) إلى صورة أحدث منها، ما يصطلح عليها بالتهديدات الهجينة التي لم تعد تفرق بين الدفاع والهجوم والردع في إطار السياسات المتزامنة لتحقيق الغايات الثلاث، ومواجهة تلك التهديدات التي لم تعد أيضا تقتصر على صور

الغزو الخارجي أو السيطرة على المناطق الطرفية للدولة متضمنة بذلك تهديدات غير تقليدية، مثل الحروب بالوكالة اعتمادا على الميليشيات والحركات الانفصالية وعصابات الجريمة المنظمة، والتنظيمات الإرهابية، إضافة إلى الضغوطات الاقتصادية واستنزاف القدرات العسكرية للدولة وإضعافها من الداخل (يونس، 2017، صفحة 3) في صورة تعبيرية لزيادة التعقيد والحركية والتطور، الذي يمس الظاهرة الأمنية في حقل العلاقات الدولية وتفاعلها على أرض الواقع خاصة مع التطور التكنولوجي والمعرفي الرهيب، متجاوزة بذلك التفكير الضيق للأمن والتهديدات الأمنية المنحصرة حول أمن الدولة والأمن العسكري، وتوسيعه من خلال التفكير في الفواعل الجديدة المهددة للأمن والتهديدات الأمنية الجديدة.

إن بروز التحديات والتهديدات الأمنية وانتشار الجريمة المنظمة المتمثلة في الهجرة السرية، الإرهاب، تجارة الأسلحة والمخدرات، الاتجار بالبشر في ظل عدم الحرص من قبل هاته الأقاليم على ضبط الأمن داخل حدودها وأقاليمها من جهة وإسداء التعاون المحتوم لإنهاء مثل هكذا أزمات، كون اللاأمن يعتبر من المعيقات الأولى لمقومات النهوض الاقتصادي لأي دولة كانت إضافة إلى التوزيع غير العادل للثروات (crola, 2019, p. 42) والجهود للقضاء على الفقر ومحاربة كل أنواع التهميش والاقصاء الذي يعتبر بدوره محرك أساسي لاستتباب الأمن الإنساني في المنطقة.

ونظرا لعدم الاستقرار المتنامي في الإقليم المغاربي بفعل التهديدات الأمنية الجديدة والمتجددة التي تطال عمق المنطقة خاصة الجنوبية منها وإقليم الساحل واختراقها من قبل الفاعلين الكبار. إذ أنّ الجدل حول هاته النتائج في المنطقة بات واضحا أين رأى القائمون على تسيير المناطق إقليميا، سياسيا وأمنيا في المنطقة أصبح يقودها يوما بعد يوم إلى مراجعة خياراتها الأمنية الاستراتيجية التي تؤكد صواب تصوراتها في ما يسمى بالعقيدة الاستباقية (حادثة تقنتورين) في الجزائر على سبيل المثال.

كما أن تكاثر التهديدات اللاتماثلية في المنطقة وجوارها والتهلهل الكبير لدول الجوار الأخرى على غرار ليبيا، مالي والنيجر، أصبح يؤرق الدول المحورية والفاعلة في المنطقة مع بداية تشكيل الصورة أنها مناطق ذات خطر كبير من الدرجة الحمراء وعلى الأقل في التصنيف البرتقالي الأمر الذي حفز بعض الدول وجرها إلى أخذ سياق التحديثات العسكرية ولم يمنعها أيضا من تجديد الهندسة الأمنية باعتبارها محلية وشأن داخلي يقوي من ثقلها الدولي والديبلوماسي في تعاملها مع مختلف القضايا الأمنية وإعطاء صورة قوية على كل الأصعدة تتميز بالرشد والخبرة الكبيرة في تسيير الأزمات الأمنية والضغوطات البيئية والتحديات الإقليمية ومواجهتها (عنتر، عقيدة الجزائر الأمنية: ضغوطات البيئة الإقليمية ومقتضيات المصالح الأمنية، 2018، الصفحات 5-7) .

ولعل من أبرز التهديدات اللاتماثلية :

أ-ظاهرة الإرهاب : تسعى هذه الظاهرة إلى تحقيق أهداف سياسية من وراء الجرائم المرتكبة وقد عرفت دول غرب إفريقيا ودول الساحل الإفريقي سلسلة من العمليات الإرهابية بقيادة الجماعات الإرهابية على رأسها تنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلامي في كل من ليبيا والنيجر ومالي التي أصبحت معقلا لها ، كما عرف انتشار تنظيم داعش أيضا خاصة بعد سنة 2015 في ليبيا وتونس خاصة في المناطق الحدودية

(خليف، 2016، صفحة 29)، ومن مميزاتها المرونة والقدرة على التكيف والاحترافية باستعمال الطرق التقليدية والهجينة لتنفيذ الهجمات على غرار شبكات التواصل الاجتماعي والمواقع الالكترونية والشيفرة والقرصنة والمواد الكيمياوية المتفجرة.

ب-الجريمة المنظمة : إنها من أهم التهديدات العابرة للحدود التي تهدد الكيانات والدول بصفة عامة ودول المنطقة المغاربية بصفة خاصة فإن كان الإرهاب يرمي إلى أهداف سياسية فهذه التهديدات تسعى لتحقيق الأهداف الاقتصادية والمالية من خلال ممارسة الأنشطة غير القانونية وغير المشروعة، حيث يعمل أعضاؤها في بناء تنظيم دقيق ومعقد يتسم بالسرية الكبيرة ومن شبه المستحيل الوصول إلى صانعيه كونه يعمل في إطار شبكات دولية متخصصة ومجهولة في جرائم السرقات والتهريب والمخدرات والتزوير والاحتيال والمتاجرة بالبشر والغش الصناعي (صالح، 2009، صفحة 12) . إلا أن للجريمة المنظمة يمكن أن تلتقي مع الظاهرة الإرهابية في معامل التنظيم والعمل غير المشروع قانونيا.

ج-الهجرة غير الشرعية : أو ما يطلق عليها الهجرة السرية، فالمنطقة المغاربية تعاني منها كثيرا سواء من ناحية الانتشار أو الحجم أو تعدد الأشكال، ويكمن سببها الحقيقي في الهروب من الأنظمة الديكتاتورية، والحروب الأهلية والتصفيات العرقية الداخلة في إطار الصراع الاثني ، الأمر الذي أرق القائمين على المنطقة واعتبره تهديد لا تماثلي فعلي عندما أصبحت تتخذ منها منطقة عبور نحو شمال الكرة الأرضية (عكروم، 2013، صفحة 37)، وبين هذا وذاك يتخذها أصحاب المصالح الضيقة ويتم تجنيدهم وتكوينهم بأفكار متطرفة تدعوا إلى العنف اللفظي والجسدي الذي يصل إلى حد التمرد والانضمام إلى الجماعات الانفصالية وهذا ما يلتقي مع عنصر الإرهاب من جهة والمساهمة في رسم الصورة الذهنية الخاطئة عن الإسلام والمسلمين من جهة أخرى كون الإعلام الغربي يقوم بتوجيه الرأي العام العالمي وصناعة الفكرة قبل الصورة وهنا يكمن خطر تلك التهديدات .

2- و اقع التهديدات اللاتماثلية بين الأطماع الدينية و إثبات الهوية في المنطقة المغاربية :

إن أهم الأزمات الأمنية والسياسة الدفاعية للتهديدات اللاتماثلية في المنطقة المغاربية لها علاقة وطيدة وتنتمي إلى مقاربة التنافس الدولي من خلق بؤر التوتر ومناطق النزاع، التي ستؤثر حتما على جملة من القطاعات الحساسة، لا سيما الحفاظ على سيادة ترابها في ظل صراع قوي بين ما هو مبدأ في العقيدة الأمنية وفي السياسة الخارجية لها وفق جدلية الاستمرار أو التكيف. ومن أهم الأزمات التي تشكل تهديدا صريحا في المنطقة الغربية الجنوبية:

أ-الأزمة الليبية وانعكاساتها على الأمن القومي في المنطقة : إنّ تمدد الدولة الإسلامية غرب دولة ليبيا جعل من المنطقة أكثر عرضة للتهديد ومعارضة لصناع القرار لأي تدخل عسكري في ليبيا دوليا كان أم عربيا (القشاط، 2017، صفحة 19)، مما جعل دول المنطقة تعيش بين تقوية المناعة في مجابهة تسلل عناصر الدولة الإسلامية (الإرهاب الدولي)، وهشاشة الدولة الفاشلة في السيطرة على الأوضاع الأمنية والسقوط الحر لأنظمتها السياسية، حتى وإن كانت هناك اتفاقيات تعاون وشراكة عسكرية بين مالي والنيجر، موريطانيا والجزائر، إلا أنها أثبتت فشلها وأدركت أنها مجابهة الأزمات والتهديدات اللاتماثلية لا

يمكن أن يتحقق بتأمين الحدود الجغرافية بل أصبح ضرورة قصوى تتعدى الفضاءات الجيوسياسية المحاذية وحتى البعيدة بسبب تنامي التهديدات والفواعل غير الدولاتية إقليميا ومحليا، إضافة إلى ضعف المنظومة المؤسساتية أمام محدودية القدرات المالية والأمنية (العسكرية) لدولة ليبيا وحتى دول الساحل الافريقي بصفة عامة، الأمر الذي ساهم أيضا في استفحال ظاهرة الجريمة المنظمة والاستثمار في الصراع الاثني والقبلي والديني لافتعال مختلف الأزمات أمنيا (غريب، 2020) في صورة بنائية تدل على عمق التهديد وتغلغله في الوسط المجتمعي الذي يصعب مواجهته .

إن ضرب العمق الاجتماعي والهوية السوسيوثقافية للمنطقة التي تتميز بالتلاحم والتآزر وقوة نسيجها الاجتماعي جعل منها بؤرة توتر ونزاع لأقليات عرقية ومذهبية سواء في ليبيا أو حتى دول الجوار بغية في صناعة الصورة التي يريدها الغرب والمندسين على أنها مطالب جهوية تدعوا إلى الانفصالية والتمرد في شكل مليشيات وأقليات مسلحة بداعي الاسلام ومحاربة كل ما هو بدعة وتابع للغرب بفكرة التحرر من الكفر والكفار ، وهذا من أشد وأخطر التهديدات التي تحدث الأزمات ذات البعد الاستراتيجي كونها مناطق محافظة تتميز بالقبلية ومنغلقة على نفسها قبل أن ترى ما يسمى بالربيع العربي وثوراته غير المحمودة إلى أن تشكلت تلك الصورة المغلوطة أو المستهدفة من قبل علب تفكير العالم في المنطقة وتحقيق أهدافهم من خلال ذلك .

ب-الحرب ضد الإرهاب في المنطقة : إن أحداث سبتمبر 2001 جعلت العديد من الدول إلى تبني تدابير وتشريعات لمواجهة ظاهرة الإرهاب التي أصبحت ظاهرة عالمية، والسؤال المطروح هنا لماذا يتم التركيز عليها في الدول العربية والاسلامية فقط ؟ فيما سميت في الغرب بالحرب ضد الإرهاب والتي تحولت في الحقيقة حرب على حقوق الانسان وتهديد الأمن الانساني لكل من هو مسلم عربي ، الأمر الذي أباح لأمريكا إحياء حكمة سان جاست (Sant Just) المؤسس لنظرية الرعب "لا حرية لأعداء الحرية" وفي عبارة أخرى لوزير خارجية فرنسي سابق حيث قال "سأرهب الإرهابيين".

وتكملة لسيناريو أحداث سبتمبر 2001 جاءت موجة استهداف الأجانب في الدول الغربية مثل بريطانيا وفرنسا وأمريكا علما أن الجنسية ليست معيارا للانتساب للجماعات الإرهابية، فلقد وجدت بعض الممارسات في ترسيخ صورة جديدة في بعض الدول وبنائها على أسس دينية عرقية اتخذت ضد جماعات محددة من غير مواطني هذه الدول (زروقي، 2021، الصفحات 323-324)، أما فيما يخص المنطقة المغاربية ودول الساحل الإفريقي فقد تعود هذه الظاهرة في أصولها إلى الجماعات المسلحة (GIA) والتي تحولت بدورها إلى الجماعة السلفية للدعوة والقتال(GSPC) قبل أن يتحول إلى تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي وبعده إلى تنظيم داعش الذي كان فعالا في المنطقة لسببين اثنين الأول ويتمثل في عدم وجود طبيعة واضحة للهيكل التنظيمي للإرهاب أو المنظمة مما يصعب تحديده والذي في الأصل يقوم على القبلية والولاء إلى الزعيم، والثاني لخصوبة المنطقة واتساع رقعتها التي تعتبر أكثر من 80% منها صحراء قاحل الذي انتعش عمله من خلال تلقيها لحملات تمويل لأنشطتها من جهات مجهولة إضافة إلى عمليات الاختطاف وطلب الفدية بالعملة الصعبة ، كما كانت تتلقى التموين بأسلحة جديدة من ليبيا بعد

2011 وإسقاط النظام الليبي الأمر الذي شجع الجماعات على الانشقاق وإعطائهم ألقاب أخرى وتوزيع إمارة الصحراء والأدوار القيادية لتوفير وتجنيد المزيد من المقاتلين (بشكيط، 2018، الصفحات 218-222).

3-انعكاس التهديدات اللاتماثلية بين إشكالية تفعيل الدوروترسيخ الصورة الصحيحة :

إن الظروف الإقليمية المحيطة بالمنطقة والحالة المستمرة من الشك وعدم اليقين في المدركات الأمنية للدول تجعل من الانفاق وسيلة للدفاع بغض النظر عن أي طرف يراها هجوما ومصدر تهديد رسمي لأمنه القومي، كون أكبر تبرير للتسلح الذي باشرته الدول في المنطقة لاستدراك الأوضاع الأمنية والسياسية، الاجتماعية والاقتصادية غير المستقرة التي تشهدها، أنها وجدت نفسها محاطة بسياج من الأزمات الأمنية عبر كل حدودها تقريبا، وما أدراك ما حدود المنطقة، على غرار الحدود الشرقية وهو ما جعلها في وضعية صعبة جدا لتأمين هاته الحدود الصحراوية التي تعرف نشاطا إرهابيا كثيفا، إضافة إلى الحدود البرية التونسية التي تشهد اضطرابا سياسيا منذ سنة 2011، دون نسيان مناطق الدفع من الحدود الجنوبية الأخرى التي تعتبر امتدادا لمنطقة الساحل الافريقي بالإشارة إلى جماعة الأزواد الانفصالية وأزمة أقلية الطوارق الرامية في عمقها إلى استراتيجية التجزئة وإعادة مشروع فصل الصحراء الجزائرية، إضافة إلى موريطانيا وقضية الصحراء الغربية مع تنامي التصعيدات بين كل من الجزائر والمغرب.

هل يساعد ذلك دول المناطق المغاربية؟! في تكتلها ومواجهة التهديدات اللاتماثلية، طبعا لا ولا يمكن ذلك في مساعدتها والخروج من عمق تلك التهديدات والأزمات الأمنية، وهل يدخل ذلك في عمق الاجندة الغربية الرامية إلى استراتيجية زعزعة استقرار المنطقة ؟ نعم وبكل تأكيد نعم، كون حيوية المنطقة الجيوسياسية والاقتصادية الغنية بالثروات النادرة وغير المستغلة جعل في تفكير الغرب استحداث تهديدات وأزمات تجعل من المنطقة هشة لا تتمتع بأي مناعة أمنية وسيادة مستقلة يمكن أن تتصدى لأي تهديد، ولعل أشهر نموذج على ذلك مشروع الثورات العربية الناجح بتميز خططه واستراتيجيته، وما بالنا بالأزمات والمواجهات المباشرة المسلحة ونقصد هنا بالتهديدات التماثلية وما يحدث الآن في العالم بين أوكرانيا وروسيا ومن قبل بين الاتحاد السوفياتي وإقليم الشيشان ، بل ذهبت إلى أخطر من ذلك وسمحت لنفسها بتواطؤ بعض الدول بسماحها لدخول الدسيس الأمني وترسيمه زعيما مصدّرا لكل ما يفرق ويقسم الوحدة المجتمعية ويدعوا إلى التطرف والنبذ عن طريق غرس تلك الأفكار وفي حقيقة الأمر ذلك هو فن صناعة الصورة الذهنية للمسلمين المتطرفين في المنطقة من أجل إضعافها، ناهيك أيضا عن تجنيد بعض المرتزقة بدافع حمية الإسلام وخدمة المصالح الأجنبية في دول المنطقة على غرار تجنيد بعض المرتزقة في ليبيا من قبل تركيا سنة 2021 (غانمي، 2021) .

وفي خضم انعكاسات دول المنطقة في إطار مواجهة تلك التهديدات اللاتماثلية على غرار الجزائر والمغرب اللتان تضمان فضاءات حيوية محورية تمكنهم من فتح آفاق التبادل على المستويين الإفريقي والمغاربي وحتى المتوسطي في تصور أمني له ثقله التاريخي والجغرافي والسياسي والاقتصادي خاصة الجزائر مستندة على خبرتها والدروس المستخلصة من عقد دموي محتقن (بلقاسمي، 2018، صفحة

877) حيث نرى مستوى التسلح والتحديثات العسكرية في تصاعد كبير حيث وصل في الجزائر إلى ما يفوق 10 مليار دولار وبلغ في المغرب إلى 05 مليار دولار سنويا (معهد ستوكهولم، 2019) ، وهذا دلالة على ارتفاع مستوى التهديدات التي تتلاقاها هاتين الدولتين القويتين في المنطقة وحقيقة تواجدها نظرا لضعف دور باقي دول المنطقة وهشاشتها التي أصبحت فضاء مصدراً ولاداً وملاذاً نوعياً لعدة ظواهر سلبية وتهديدات حقيقية يمكن أن تُعجِزَ الآلة العسكرية والحلول السياسية التي تثبت في كل مرة محدوديتها على أرض الواقع عبر كل الأصعدة خاصة اجتماعيا، والتي يمكن لها أن تتحول صيدا سهلا لمختلف الإغراءات الخارجية والتهديدات اللاتماثلية العابرة للحدود كون الامتداد الجغرافي عادة ما يكون مستقطبا لجحافل الشبكات الدولية للمهاجرين غير الشرعيين الفارين من مناطقهم التي دمرتها الصراعات والحروب الأهلية، الاثنية والعرقية واتساع دائرة العنف الدولية، مع تأمين المناطق الصحراوية ذات الحدود الكبيرة والمنكشفة بما يستجيب للاستحقاقات الأمنية الأكثر ديناميكية لتبني استراتيجية معينة والحد من التداعيات الأمنية المتصاعدة في طريق فضها عن طريق الشراكات الأمنية لتكوين المسارات الثنائية والمتعددة الأطراف. وبدمج تلك الفضاءات الجيوسياسية التي أصبحت مصدر اكتفاء استراتيجي لمختلف الشبكات النائمة خاصة الجهة الشرقية منها (علاق، 2019، الصفحات 214-216).كحل قوي يدفع بعجلة الدور الحقيقي للدول العربية والإسلامية مع إيجاد حلول لمشكلة الصورة وتصحيحها وهذا هو الأهم بالنسبة للدول الفاعلة في المنطقة بشتى السبل والطرق السلمية بالرغم من قوة بعضها وامتلاكها لسلاح قوي عالميا على شاكلة S400 .

خاتمة:

بالرغم من مختلف التحولات السياسية والأمنية التي شهدتها المنطقة المغاربية وجملة التهديدات التي عرفتها ولاتزال تعاني منها البيئة الإقليمية نظرا لمساحتها الشاسعة وحدودها الطويلة المترابطة مع بعضها البعض والتي تعرف أيضا اضطرابات أمنية تسعى إلى تفكيك أمنها وفقدها لمناعتها ، إلا أن المنطقة دائما ما تعتمد على المواجهة المباشرة مع تلك الجماعات المتطرفة ونقصد به الإرهاب في ضربات دفاعية أو استباقية وهذا ما حدث بالضبط في حادثة تقنتورين بعين أمناس، لكن غالبا ما تعتمد على الآليات والأساليب الديبلوماسية والقانونية التي تكبح هذه الظاهرة في إطار التعاون الدولي مع الإشارة دائما إلى الدور الحقيقي التي تقوم به هذه الدول الأعضاء وتصحيح الصورة المنمقة لها عبر المحافل الدولية واتخاذها نموذجا ايجابيا ناجحا في محاربة تلك التهديدات على غرار اتخاذ الجزائر مرجعية في مجال مكافحة الإرهاب الدولي .

ومن أهم النتائج المتوصل إليها في هاته الدراسة :

- هشاشة المنطقة مما جعل التهديدات اللاتماثلية تزداد صلابة وقوة مما أنهك قوى الدول الأعضاء .
- خلق بؤر توتر مقصودة في المنطقة من خلال حزمة التهديدات اللاتماثلية التي تتنامى بشكل رهيب.

- العمل على وتر بنائية الدول وضرب المجتمعات في عمقها الديني والاجتماعي والهوياتي، الأمر الذي سهل في طرح الأفكار المتطرفة أن تصبح مبدأ عرقيا اثنيا لا يمكن التنازل عنه بأي وسيلة وهذا ما حدث بالضبط في ثورات الربيع العربي بعد 2011 .

- الانفلات الأمني للدول وسقوط الأنظمة الحاكمة سهل من نجاح الشبكات الدولية المجهولة والخطيرة في اعتمادها في المنطقة .

- التنظيم المحكم للتهديدات اللاتماثلية وكأنها تطبق وفق سيناريو واستراتيجية مدروسة .

- وجود نية بعض الدول في استعمال كل آليات وأساليب مواجهة التهديدات التي تحد من قوة التهديدات وهذا ما تعمل عليه بعض الدول وعلى رأسهم الجزائر وتونس.

توصيات :

- تعزيز التواجد الأمني والعسكري وتدعيم المناطق المتضررة في دول الأعضاء أمنيا وعسكريا واقتصاديا واجتماعيا.
- العمل على تبني مقاربة قوية من قبل دول المنطقة مبنية على ثنائية الأمن والتنمية لملأ الفراغ الأمني والسياسي المتواجد.
- تشجيع الاستثمارات الداخلية والأجنبية مع منح الحوافز اللازمة وتوفير مناخ للاستثمار المثالي .
- استحداث مناطق حرة للتجارة خاصة في المناطق الحدودية لتفادي استفحال ظاهرة التهريب، الهجرة غير الشرعية،..
- تعزيز التواجد الديبلوماسي لممثلي المنطقة المغاربية في المحافل الدولية لأجل إيجاد حلول تقضي على تلك التهديدات .
- دعم مشاريع الزراعة والفلاحة الصحراوية لتحسين المستوى المعيشي للساكنة مما يمنعهم من الانخراط تحت لواء الجماعات المتطرفة والتفكير في الربح السريع.
- العمل على تنمية قيم الوطنية والمواطنة وترسيخ الولاء مع منح التسهيلات اللازمة خاصة للقبائل المتواجدة في العمق الصحراوي مما يمكنهم من توفير الأمن في المنطقة.
- العمل على تعزيز الإعلام المغاربي وإدراك أهميته الراسخة في تصحيح وتحسين صورة الذهنية للمنطقة ومعتقداتها كرد على الإعلام الغربي المتطرف .
- تبني مقاربة المجتمع المدني ودوره الفعال في الحد من تلك التهديدات من خلال نشر الوعي والتماسك المجتمعي في المنطقة.

قائمة المراجع:

1)الكتب:

- Batistella, D, Theories des relations internationales, (2006), presse des sciences po (Paris)

- Crola, J. d, Sahel : lutter contre les inégalités pour répondre aux défis du developement et de la securité, (2019), Oxfam house (Royaume-uni)

-الزبيدي فوزي حسن، منهجية تقييم مخاطر الأمن القومي ، رؤى استراتيجية، (2015)، أبو ظبي للنشر والتوزيع (الإمارات)

- القشاط، محمد سعيد، ليبيا والعلاقات التاريخية مع دول الجوار، (2017)، مكتبة جزيرة الورد (القاهرة)

- بن خليف عبد الوهاب، جيوسياسة العلاقات الدولية المتغيرات، القواعد ، (2016)، دار قرطبة، (الجزائر)

- شلبي سعد شاكر وأمين المشافية، التحديات الأمنية للسياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، (2012)، دار ومكتبة حامد للنشر والتوزيع، (الجزائر)

- بن عنتر عبد النور، البعد المتوسطي للأمن الجزائري، (2005)، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، (الجزائر)

- يوسف أمير فرج، مكافحة الإرهاب، (2011)، مكتبة الوفاء القانونية، (مصر)

(2) المجلات:

- علاق جميلة، " المناطق الحدودية للجزائر بين متطلبات التنمية المحلية وتعزيز مقدرات السياحة الوطنية" (2019)، المجلة الجزائرية للأمن الإنساني، المجلد 4، العدد2
- بشكيط خالد، " التهديدات اللاتماثلية في منطقة الساحل الإفريقي : الإرهاب والجريمة المنظمة دراسة في حدود العلاقة"، (2018)، مجلة أبحاث قانونية وسياسية، المجلد03 ، العدد 01
- عدنان زروقي.، " الأمن مجال للتنافس في ظل التهديدات اللاتماثلية : تغليب أمن الدولة على حساب أمن الأفراد" (2021)، مجلة السياسة العالمية،المجلد 05، العدد 03
- همال فاطمة ، بوقرة كمال، " العلاقات العامة الذكية والصورة الذهنية للمؤسسة في زمن الرقمنة - رهانات التشبيك عبر شبكات التواصل الاجتماعي"، (2020)، مجلة الإحياء، المجلد 20، العدد27
- محمد يونس، " الاتجاه نحو الاستراتيجيات المركبة في رسم السياسات الدفاعية"،(2017)، مجلة اتجاهات الأحداث"، المجلد (19)، بدون عدد
- مريم قروشي، "صورة الاسلام والمسلمين في وسائل الإعلام في ظل المتغيرات الراهنة سياقات التناول الإعلامي الغربي لصورة الإسلام والمسلمين"، (2016)، مجلة المقدمة ،المجلد04، العدد04
- بلقاسمي. مولود، " الإدراك الاستراتيجي كمدخل لفهم الأمن الوطني والاستراتيجية الدفاعية للجزائر"، (2018)، مجلة القانون،المجلد04، العدد 02
- أديبة محمد صالح.، "الجريمة المنظمة دراسة مقارنة قانونية"، (2009) مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية، دون مجلد، دون عدد
- بن عنتر عبد النور ، "عقيدة الجزائر الأمنية: ضغوطات البيئة الإقليمية ومقتضيات المصالح الأمنية"، (2018)، مركز الجزيرة للدراسات، دون مجلد، دون عدد

(4) الرسائل الجامعية :

- الطالب الباحث، عنوان الرسالة (سنة المناقشة)، (طبيعة الرسالة: ماجستير – ماستر- دكتوراه)، الجامعة، البلد
- رحموني فاتح النور، تأثير الإرهاب على الحوارات الأمنية في منطقة المتوسط منذ نهاية الحرب الباردة (2016)، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة1، الجزائر
- رسولي أسماء، التهديدات الأمنية في الساحل الافريقي بين أدوار الدول الاقليمية والقوى الكبرى بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، (2018)، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة1، الجزائر

(5) التقارير:

- معهد ستوكهولم، الجزائر الأولى إلإريقيا في الانفاق العسكري، تاريخ النشر 01 جويلية2020، تاريخ الإطلاع 10 مارس 2022، من arabi21.com/story/1177470.
- غانمي منية، (02 نوفمبر, 2021). ضخ المرتزقة مستمر .. تركيا ترسل 150 مقاتلا إلى ليبيا. تاريخ الإطلاع 09 مارس 2022، من alarabiya.net.
- غريب حكيم، الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية. تاريخ النشر 2020، تاريخ الاطلاع 02 مارس2020، من politics-dz.com.

الخطاب الإعلامي الغربي وعلاقته بصورة الإسلام والمسلمين من وجهة نظر الجاليات الإسلامية دراسة استطلاعية لآراء عينة من المغتربين

Western Media Discourse and its Relationship to theImage of Islam and Muslims from the View of Islamic Communities- An Exploratory Study of the Opinions of a Sample of Immigrants

د.شهرزاد لمجد، جامعة البليدة2- لونيسي علي- الجزائر
lamchahra10@gmail.com



هدفت هذه الدراسة إلى استطلاع آراء الجالية الإسلامية في الدول الغربية حول طبيعة الخطاب الإعلامي الغربي وعلاقته بصورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب، والتعرف على أفضل آليات تصحيح هذه الصورة من منظور المستجوبين انطلاقا من مبدأ أن الصورة السائدة في المجتمعات الغربية حول الإسلام والمسلمين، لا تخرج عن كونها قوالب نمطية سلبية ومشوهة، وهذا وفقا لما جاء في نتائج كافة الأدبيات النظرية الأجنبية والعربية المتاحة حول الموضوع. تم جمع البيانات باستخدام استبيان إلكتروني وزع وفق إجراءات عينة كرة الثلج على 58 مفردة تعيش في الدول الغربية. وتوصلت الدراسة إلى نتائج تؤكد أن وسائل الإعلام الغربية تتبنى خطاب التحريض والكراهية ضد الإسلام والمسلمين وتوظف استمالات التخويف ضدهم، وأن الخطاب الإعلامي الغربي هو في عمومه متحيز ويطلق تعميمات مجحفة مما ساهم في تشويه صورة الإسلام والمسلمين وانتشار ظاهرة الإسلاموفوبيا وتهديد حرية الممارسة الدينية للمسلمين في الغرب.

الكلمات المفتاحية: الصورة السلبية، صورة الإسلام والمسلمين، الجالية الإسلامية، القوالب النمطية، الخطاب الإعلامي.

Abstract:

This study aimed to explore the views of the Islamic community in Western countries on the nature of western media discourse and its relationship to the image of Islam and Muslims in the West. Moreover, to identify the best mechanisms for correcting this image from the perspective of the interviewees based on the principle that the prevailing image in Western societies about Islam and Muslims is negative and distorted stereotypes, and this is according to the results of all available foreign and Arab theoretical literature on the subject. The data wascollected using an electronic questionnaire distributed according to snowball sample procedures to 58 Muslims living in Western countries. The study reached results confirming that the Western media discourse is generally biased and releases unfair generalizations, which contributed to distorting the image of Islam

and Muslims, spreading Islamophobia and threatening the freedom of religious practice of Muslims in the West.

Keywords: negative image, the image of Islam and Muslims, the Islamic community, stereotypes, media discourse.



مقدمة:

فتح والتر ليبمان بكتابه "الرأي العام" الصادر عام 1922، الباب أمام ظهور دراسات مستفيضة حول علاقة وسائل الإعلام بتشكيل الصورة النمطية stereotype. واكتسبت هذه العلاقة أهميتها مما ينسب إلى الصورة الذهنية، بشكل عام، من قدرة على تحديد وتوجيه سلوكيات الأفراد وضبط أدوارهم كفاعلين في إنتاج المعنى إزاء واقع قد لا يتقاطع بالضرورة مع تصوراتهم عنه. أي أن استجابة الأشخاص نحو الآخرين ونحو الأحداث والوقائع والأشياء هي نتاج هذه الصور التي استقرت في أذهانهم كتثملات للحقيقة لا الحقيقة نفسها، وذلك بفعل عوامل عديدة ساهمت في بنائها وترسيخها حتى أصبح الفرد يرى العالم من خلالها.

إن ما يمكن أن يختبره المرء عن طريق التجربة المباشرة يبقى متواضعا وضئيلا مقارنة بما يظل بعيدا عن حدود خبرته وهو ما يفسح المجال أمام مصادر أخرى تتدخل للمساهمة في تشكيل الصور عما تقصر التجربة عنه. ومن هذه المصادر تبرز وسائل الإعلام بوصفها أدوات لمخاطبة الجماهير ومجال لصناعة ونشر المضامين المختلفة: الإخبارية، والترفيهية، والتثقيفية وغيرها. وهو ما أدركه ليبمان وباحثون آخرون منذ توظيف هذه الوسائل وبشكل مفرط في الدعاية لتعبئة وتوجيه الرأي العام أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية، فنشطوا في دراسة علاقتها بالصورة الذهنية وتفسير الظواهر المرتبطة بها.

ومنذ ذلك الحين، لم تلبث هذه العلاقة أن أكدت حضورها في التراث النظري، واكتسبت مزيدا من الأهمية في راهن لم نعد نعيش فيه مع الميديا ولا الميديا تعيش معنا في حدود فارق من المسافة يفصلنا، بل أصبح الإنسان يعيش ويمارس حياته داخل فضائها: يفكر ويتواصل ويتفاعل ويغضب ويضحك ويحب ويكره ويسبغ المعاني في هذا الحيز المهيمن على الحياة المعاصرة. وتحول هذا الفضاء إلى ساحة لممارسة علاقات القوة وبناء الأنساق الفكرية وإعادة تشكيل القيم والدلالات والنظرة إلى الذات وإلى الآخر.

وهذا ما جعل بالإمكان فهم وتفسير العديد من الظواهر في إطار هذه العلاقة، منها ما يتعلق بنظرة المجتمعات الغربية للإسلام والمسلمين كموضوع يتردد صداه في الخطاب الإعلامي الغربي، في وقت نشهد فيه انتشار ظاهرة الإسلاموفوبيا ونلمس تصاعد النزعة العدائية إزاء الإسلام والمسلمين في البلدان الغربية وفي بلاد أخرى من العالم.

هناك تساؤلات عديدة تثار حول أسباب الظاهرة والعوامل المؤثرة فيها وطرق الرد عليها والحلول الممكنة لتجاوزها، وعلاقتها بالخطاب الإعلامي كرافد من روافد تشكيل الصورة الذهنية. وتأتي هذه الدراسة، في هذا الإطار، للإجابة عن بعض هذه التساؤلات من خلال استطلاع وتحليل آراء عينة من أفراد الجالية الإسلامية بالدول الغربية. وتنطلق من السؤال الرئيسي التالي:

ما علاقة الخطاب الإعلامي الغربي بصورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب من وجهة نظر الجاليات الإسلامية؟

تساؤلات الدراسة:

يمكن تفكيك هذا السؤال الرئيسي إلى التساؤلات الفرعية التالية:

-ما هي طبيعة الخطاب الإعلامي الغربي إزاء الإسلام والمسلمين من وجهة نظر الجاليات الإسلامية؟

-هل ساهم الخطاب الإعلامي الغربي في تشكيل صورة نمطية سلبية عن الإسلام والمسلمين في مجتمعاته من وجهة نظر الجاليات الإسلامية؟

-ما هي آليات تصحيح صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب من وجهة نظر الجاليات الإسلامية؟

أولا- الإجراءات المنهجية:

- نوع الدراسة ومنهجها: تنتمي هذه الدراسة إلى مجال الدراسات الاستطلاعية بهدف استكشاف آراء الجالية الإسلامية في الغرب حول موضوع البحث.

- مجتمع البحث وعينته: يتمثل مجتمع البحث في الجالية الإسلامية بالدول الغربية. وقد تم توظيف عينة كرة الثلج لاختيار مفردات الدراسة.

- أداة جمع البيانات: اعتمدت الدراسة على استبيان إلكتروني يراعي أهداف الدراسة ويرد على تساؤلاتها.

- خطوات إعداد وتوزيع استمارة الاستبيان:

1. تم بناء استمارة استبيان أولية يراعى فيها قدرتها على جمع البيانات المطلوبة للإجابة على تساؤلات الدراسة.
2. إعداد استمارة الاستبيان الإلكتروني، باستخدام تطبيق غوغل درايف.
3.إجراء اختبار أولي بإرسال الاستبيان الالكتروني إلى عدد من أفراد العينة للتأكد من قدرتها على القياس.

4.ضبط الاستمارة في شكلها النهائي، وإرسالها لأفراد العينة. وهي تتكون من أربعة محاور: 1-محور البيانات الشخصية، و2-محور طبيعة الخطاب الإعلامي الغربي إزاء الإسلام والمسلمين من وجهة نظر الجاليات الإسلامية، 3-محور مساهمة الخطاب الإعلامي الغربي في تشويه صورة الإسلام والمسلمين من وجهة نظر الجاليات الإسلامية، و4-محور آليات تحسين صورة الإسلام والمسلمين في الغرب من وجهة نظر الجاليات الإسلامية.

5.بلغ عدد الاستمارات المسترجعة 59. وبعد فحصها، تم إلغاء استمارة واحدة لعدم التزامها بضوابط الإجابة. فأصبح مجمل الاستمارات السليمة المسترجعة 58 استمارة جمعت من عدد من الدول الغربية وهي: الولايات المتحدة الأمريكية، كندا، فرنسا، اسبانيا، سويسرا، وإنجلترا.

ثانيا- صورة الإسلام والمسلمين في الغرب:

لا يكاد المرء يعثر ضمن التراث النظري الغزير المتاح حول الموضوع على أي بحث أو دراسة لا تتفق مع كون صورة الإسلام والمسلمين السائدة في الغرب هي في عمومها نمطية وسلبية، ومشوهة"(M. Mostafa, 2007)، بل إن الأبحاث من مختلف البلدان تظهر زيادة في الآراء المعادية للمسلمين(Fangen, 2021). تقول الباحثة فيشي جينيفياف Vischi Geneviève إنه نادرا ما أسيء فهم دين وتشويهه مثل الإسلام، ونادرا، ما وجدت أحكام مسبقة وعنيفة وبشعة قدرا من القبول لدى الأوروبيين كتلك التي انتشرت حول محمد وتعاليمه، وكتلك التي ترسخت حول الإسلام وحضارته(Geneviève, 1985, p 84)، ورغم أن جذور هذه المواقف تعود إلى قرون خلت، إلا أن العداء للإسلام ومعتنقيه أصبح أكثر انتشارا في أوروبا خلال الثلاثين عاما الماضية، وتحديدا بعد الحرب الباردة، وأظهر بحث في أستراليا والمملكة المتحدة ارتفاعا في الآراء المعادية للمسلمين في أعقاب حرب الخليج الأولى. وتصاعدت هذه النزعة العدائية في الغرب بشكل لافت بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، لتتبنى الحرب على ما يسمى بـ"الإرهاب" خطابا معمما وموقفا متشككا تجاه المسلمين عامة(Fangen, 2021).

ففي الولايات المتحدة عندما تسمع كلمة "إرهابي" تحيلك مخيلتك مباشرة على الرواية الأكثر شيوعا وتداولا في هذا البلد، وهي أن جميع الإرهابيين مسلمون والتي تتحول في بعض الأحيان إلى أن جميع المسلمين إرهابيون. وهذه الفكرة منتشرة في الولايات المتحدة حتى قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ويمكن القول إن هذا التصور قد هيمن على المخيلة العامة(Corbin, 2017, p455)، فالموقف الأمريكي العام تجاه العقيدة وأبنائها كان وما زال موقف استنكار، وعدم احترام(لانغ، 2008، ص19). وبالمثل في أوروبا، كانت الآراء السلبية عن المسلمين شائعة بالفعل قبل 2001(Amnesty international, 2012, p12). وهذا التشويه هو نتاج قوالب نمطية وصور تشكلت لدى الناس ليس بفعل الحقيقة وإنما بفعل ما يعتبرون أنه حقيقة، كالنظر إلى تزييف الواقع، أو البيئة المزيفة على أنهما حقائق(Lippmann, 1998, pp xvi-xvii). وبمجرد أن يكون لدى الناس مثل هذه القوالب النمطية يبدأ التحيز(Corbin, 2017, p464).

ترجع الدراسات جذور الصورة النمطية السلبية الرائجة عن الإسلام والمسلمين في المجتمعات الغربية إلى عوامل عديدة يمكن تصنيفها في عدد من النماذج أو السياقات التفسيرية: 1-نموذج علاقة القوة المتغيرة بين العالمين الإسلامي والغربي والأصول التاريخية للتنافس بينهما، 2-نموذج صدام الحضارات والعدو الذي لا غنى عنه، 3-نموذج الإسلام السياسي، 4-نموذج الإفراط في تبسيط المعلومات عن الدين الإسلامي وأتباعه خاصة عن طريق وسائل الإعلام، و5-نموذج الهجرة الإسلامية المتزايدة إلى العالم الغربي(Shadid & Koningsveld, 2002, p177).

ويميز هالداي Halliday بين نوعين من معاداة المسلمين: يرتبط الأول بمتغير استراتيجي والثاني بمتغير شعبوي. يشيع الأول، في الولايات المتحدة الأمريكية ويتغذى على قضايا من قبيل إمدادات النفط والأسلحة النووية والإرهاب، ويعود تاريخه إلى سبعينيات القرن الماضي. ويرتبط النوع الثاني أكثر بأوروبا الغربية، وظهر كرد فعل عن القضايا المتعلقة بوجود المسلمين في المجتمعات الغربية مثل الاندماج، والعرق، والحجاب وما إلى ذلك. وأصبحت هذه النزعة المعادية للمسلمين، منذ الثمانينيات، جزءا من الموقف العام المناهض للمهاجرين في أوروبا الغربية (Shadid & Koningsveld, 2002, pp175-176).

يذكر تقرير لمنظمة العفو الدولية أن استطلاعات الرأي في عدد من الدول الأوروبية تعكس الخوف والشك والآراء السلبية عن المسلمين والثقافة الإسلامية، ويتم الجمع بين هذه الأفكار المعادية للإسلام والمواقف العنصرية الموجهة ضد المسلمين. ويرجع التقرير هذه النزعة التمييزية ضد المسلمين في أوروبا إلى الآراء النمطية والسلبية التي تعززها رسائل بعض الأحزاب السياسية ووسائل الإعلام (Amnesty international. 2012, pp4-5).

ومن هنا يظهر أن تاريخا من التشويه قد طال الإسلام والمسلمين وربطهم بقوالب نمطية سلبية استقرت في الذهنية الغربية كالنظر إلى المسلم على أنه مستقيل ومتراخ وقادر على الاستسلام لفكرة الأقدار غير المحددة(Geneviève, 1985, p87) وغريب وغير متحضر وخطر، وأن الإسلام بطبيعته عنيف وغريب ولا يمكن استيعابه(Corbin, 2017, p458)، وهو عبارة عن أيديولوجية متجانسة وشمولية تهدد الحضارة الغربية(Fangen, 2021). وينظر له أيضا كدين جامد يُبقي أتباعه سجيني العصور الوسطى، مما يجعلهم غير قادرين على التكيف مع التطورات التكنولوجية وشروط الحياة الحديثة، وإذا ليس بإمكانه إلا أن يفرز مجتمعات متأخرة ومغلقة(Geneviève, 1985, p90).

إن سيطرة مثل هذه الصور الاختزالية لا يمكن إلا أن يؤدي إلى نوع من الاصطفاف ضد الآخر، وهو ما يفسر الكثير من المواقف والسلوكيات والأفكار المناهضة للإسلام والمسلمين في الغرب والتي يتساوى فيها أحيانا المتطرفون والمعتدلون كدعم تلك النظرية التي تتحدث عن أن للمسلمين في أوروبا أجندة خفية للاستيلاء تدريجيا على السلطة وأسلمة أوروبا. وهي نظرية قدمتها الكاتبة المصرية اليهودية بات يور Bat Ye'Or في كتاب تحت عنوان EURABIA. وقد أظهر استطلاع للرأي في النرويج أن 31 % من النرويجيين

يتفقون مع عبارة "المسلمون يريدون السيطرة على أوروبا"، وأن ثلث السكان أعربوا عن رغبتهم في النأي بأنفسهم اجتماعيا عن المسلمين (Fangen, 2021). ويفسر أيضا تزايد النزعة العنصرية والعدائية ضد المهاجرين واللاجئين المسلمين في البلدان الغربية، وضد الرموز الإسلامية بشكل عام كرفض الحجاب وتأسيس المساجد والمدارس الإسلامية(Shadid & Koningsveld, 2002, p176). ولم يسلم حتى الأطفال المسلمين الذين يمارسون شعائرهم من التحيز والتحامل(لانغ، 2008، ص20).

اغتنت هذه الصور السلبية ولا تزال من المرويات والكتب والدراسات الاستشراقية ووسائل الإعلام على مدار حقب تاريخية مختلفة، وتآلفت فيها المصالح السياسية والأغراض الدينية والتدافع الثقافي والهوياتي والنزعات الإنسانية المختلفة. وعلى الرغم من أن التعليم والتنشئة الاجتماعية بشكل عام مهمان للغاية في نقل الصور النمطية والأحكام المسبقة من جيل إلى جيل، فإن وسائل الإعلام تلعب دورًا مهمًا في إنشاء أشكال جديدة من هذه الصور النمطية، وتظهر العديد من الدراسات التحيز الواضح في تناول الإعلام الغربي لقضايا الإسلام والمسلمين، ونشر صور سلبية عنهم(Shadid & Koningsveld, 2002, p176). وسنستعرض في العناصر الموالية من هذه الدراسة آراء الجالية الإسلامية في الغرب واتجاهاتهم حول علاقة الخطاب الإعلامي الغربي بتشكيل هذه الصور النمطية السلبية عن الإسلام والمسلمين.

علاقة الخطاب الإعلام الغربي بصورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب من وجهة نظر الجاليات الإسلامية

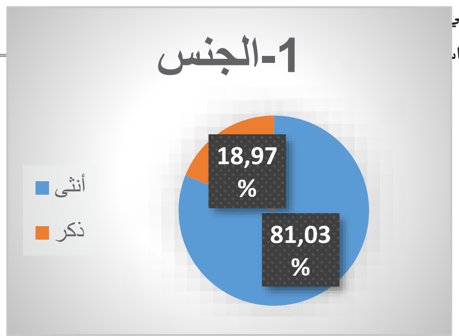
ثالثا- نتائج الدراسة الميدانية:

يؤكد عدد متزايد من الأبحاث بأن الصور والتمثيلات والخطابات المتعلقة بالإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية السائدة تميل إلى أن تكون سلبية وعدائية(Saeed, 2008). وسنحاول من خلال تحليل البيانات التي تم جمعها، الوقوف على مدى توافق هذه الدراسات مع آراء أفراد العينة من أعضاء الجالية الإسلامية في عدد من الدول الغربية.

المحور الأول: البيانات الشخصية

الجدول رقم(1): يوضح توزيع عينة البحث حسب متغير الجنس

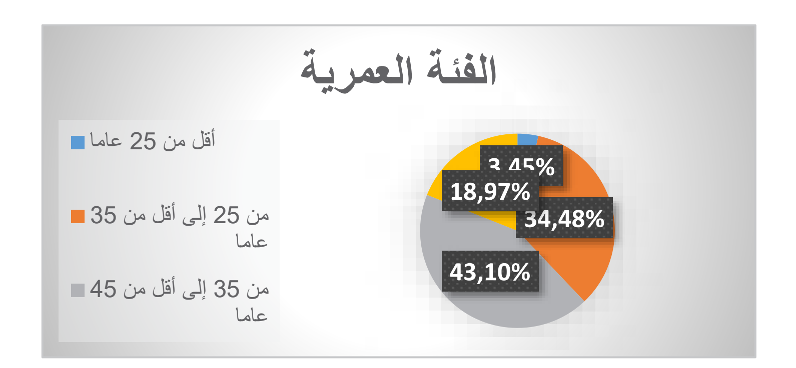
الجنس	التكرارات	النسبة المئوية
أنثى	47	%81.03
ذكر	11	%18.97
المجموع	58	%100.00



الشكل رقم (1): دائرة نسبية تمثل توزيع العينة حسب متغير الجنس

الجدول رقم(2): يوضح توزيع عينة البحث حسب متغير السن

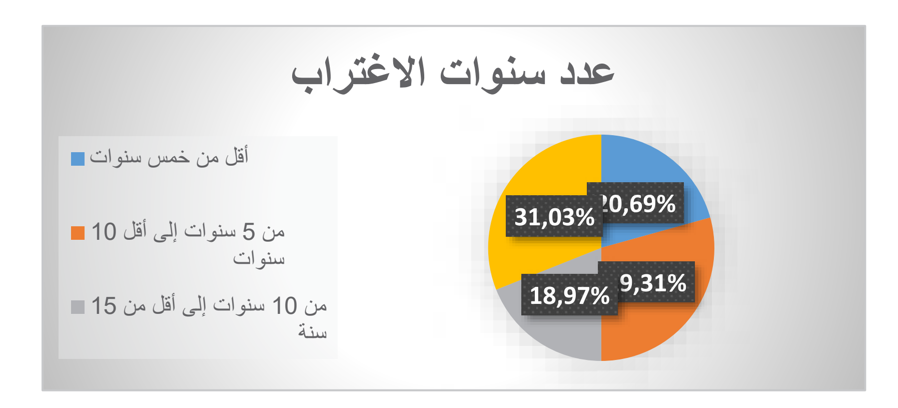
الفئة العمرية	التكرارات	النسبة المئوية
أقل من 25 عاما	2	%3.45
من 25 إلى أقل من 35 عاما	20	%34.48
من 35 إلى أقل من 45 عاما	25	%43.10
45 عاما فأكثر	11	%18.97
المجموع	58	%100.00



الشكل رقم (2): دائرة نسبية تمثل توزيع أفراد العينة حسب الفئة العمرية

الجدول رقم(3): يوضح توزيع عينة البحث حسب متغير عدد سنوات الاغتراب

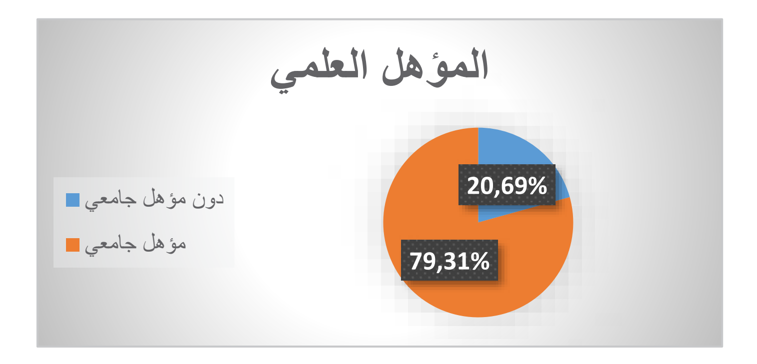
عدد سنوات الاغتراب	التكرارات	النسبة المئوية
أقل من خمس سنوات	12	%20.69
من 5 سنوات إلى أقل 10 سنوات	17	%29.31
من 10 سنوات إلى أقل من 15 سنة	11	%18.97
15 سنة فأكثر	18	%31.03
المجموع	58	%100.00



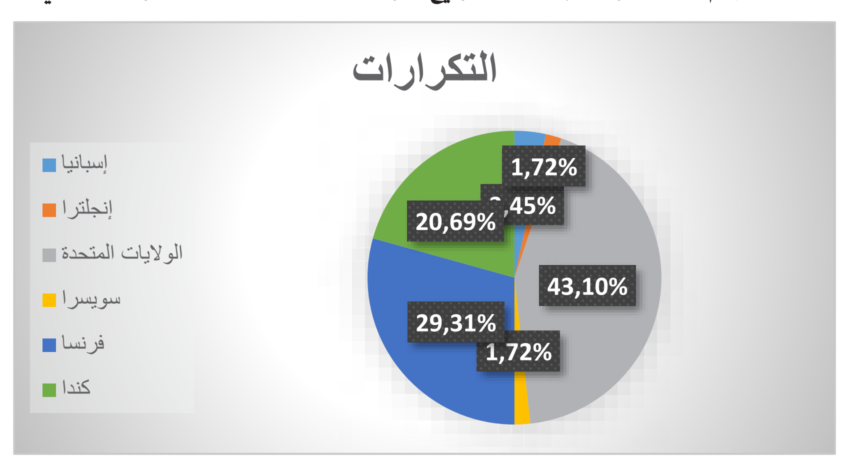
الشكل رقم (3): دائرة نسبية تمثل توزيع أفراد العينة حسب متغير عدد سنوات الاغتراب

الجدول رقم(4): يوضح توزيع عينة البحث حسب متغير المؤهل العلمي

المؤهل العلمي	التكرارات	النسبة المئوية
دون مؤهل جامعي	12	%20.69
مؤهل جامعي	46	%79.31
المجموع	58	%100.00



الشكل رقم (4): دائرة نسبية تمثل توزيع أفراد العينة حسب متغير المؤهل العلمي



الشكل رقم (5): دائرة نسبية تمثل توزيع أفراد العينة حسب مكان الإقامة

الجدول رقم(5): يوضح توزيع عينة البحث حسب متغير مكان الإقامة

مكان الإقامة الحالي	التكرارات	النسبة المئوية
إسبانيا	2	%3.45
إنجلترا	1	%1.72
الولايات المتحدة	25	%43.1
سويسرا	1	%1.72
فرنسا	17	%29.31
كندا	12	%20.69
المجموع	58	%100.00

المحور الثاني: طبيعة الخطاب الإعلامي الغربي إزاء الإسلام والمسلمين من وجهة نظر الجاليات الإسلامية

تشير نتائج الجدول رقم (6) إلى وجود توافق كبير بين آراء أفراد عينة البحث حول طبيعة الخطاب الإعلامي الغربي إزاء الإسلام والمسلمين. وتترجم النسب الموضحة في الجدول والتي يتقاسم أعلى النسب فيها خيارا "موافق" و"موافق بشدة"، هذا التوافق حول تحيز وسائل الإعلام الغربية وتبنيها لخطاب التخويف والتحريض والكراهية ضد الإسلام والمسلمين واتسام مضامينها بنزعة عنصرية وتعميمية مخلة. وتزداد عدائية هذا الخطاب كلما ازداد قربه من اليمين المتطرف. مع تسجيل تفاوت في حدة هذه العدائية بين مضامين وسائل الإعلام التقليدية كالتلفزيون والصحف والسينما، والمضامين المتداولة في مواقع التواصل الاجتماعي حيث عبر نحو 34.48% بخيار "موافق" بينما تقاسمت بقية الخيارات نسبة 20.69% لكل منها. وإذا ما أخذنا بالاعتبار نسبتي "موافق" و"موافق بشدة" فإن ناتج الجمع يرجح النسبة لصالح تناقص حدة العدائية في مواقع التواصل الاجتماعي مقارنة ببقية وسائل الإعلام.

قراءة الاتجاه العام للنسب لا يظهر أي آراء فارقة أو جانحة بل تؤكد في معظمها نتائج الدراسات السابقة التي أجمعت على أن الخطاب الإعلامي الغربي متحيز في تناوله لقضايا الإسلام والمسلمين، وكشفت دراسة أجرت تحليلا للتغطية الإخبارية لثلاث شبكات رئيسية أن 75 % من التركيز على المسلمين شمل الجماعات المسلحة كالدولة الإسلامية بالعراق وسوريا (تنظيم داعش) وقضايا الإرهاب(Corbin, 2017, p460).

الجدول رقم (6): يمثل طبيعة الخطاب الإعلامي الغربي إزاء الإسلام والمسلمين من وجهة نظر أفراد العينة

طبيعة الخطاب الإعلامي الغربي إزاء الإسلام والمسلمين	غير موافق		غير موافق أبدا		محايد		موافق بشدة		موافق	
	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%
تتبنى وسائل الإعلام الغربية خطاب التحريض والكراهية ضد الإسلام والمسلمين	13	%22.41	2	%3.45	11	%18.97	11	%18.97	21	%36.21
تتسم مضامين وسائل الإعلام الغربية بنزعة عنصرية ضد الإسلام والمسلمين	12	%20.69	2	%3.45	7	%12.07	9	%15.52	28	%48.28
تعمل وسائل الإعلام الغربية على تشويه الرموز الإسلامية (النبي محمد، القرآن...)	15	%25.86	2	%3.45	12	%20.69	12	%20.69	17	%29.31
تتبنى وسائل الإعلام الغربية خطاب التخويف من الإسلام والمسلمين وتعتبرهم مصدر تهديد	12	%20.69	2	%3.45	6	%10.34	15	%25.86	23	%39.66
تحاول وسائل الإعلام الغربية تعميم أفعال معزولة على كافة المسلمين	11	%18.97	2	%3.45	10	%17.24	16	%27.59	19	%32.76
تنسب وسائل الإعلام الغربية إلى الإسلام والمسلمين تهم وصفات غير صحيحة	9	%15.52	2	%3.45	14	%24.14	13	%22.41	20	%34.48
يوجد تحيز في تناول وسائل الإعلام الغربية لقضايا الإسلام والمسلمين	5	%8.62	3	%5.17	13	%22.41	22	%37.93	15	%25.86
هناك توازن في طرح المضامين الإعلامية الغربية لقضايا الإسلام والمسلمين	18	%31.03	4	%6.90	16	%27.59	4	%6.90	16	%27.59
تزداد عدائية الخطاب الإعلامي الغربي إزاء الإسلام والمسلمين كلما ازداد قربه من اليمين المتطرف	2	%3.45	1	%1.72	8	%13.79	27	%46.55	20	%34.48
تداول الخطاب حول الإسلام والمسلمين في مواقع التواصل الاجتماعي هو أقل عدائية منه في باقي وسائل الإعلام (التلفزيون، السينما، الصحف...)	12	%20.69	2	%3.45	12	%20.69	12	%20.69	20	%34.48

المحور الثالث: مساهمة الخطاب الإعلامي الغربي في تشويه صورة الإسلام والمسلمين من وجهة نظر الجاليات الإسلامية

تشير بيانات الجدول رقم (7) إلى أن أكثر من ثلث آراء عينة البحث ترى أن هناك توافق أو تطابق بين الآراء السائدة في المجتمع الغربي والخطاب الإعلامي حول الإسلام والمسلمين، ولا نتحدث هنا عن نسبة هامشية، إذا ما علمنا أن أغلب النسب تظهر تأييد أفراد العينة للعبارات الواردة في الجدول. فأكثر من 43% منهم يرون أن الخطاب الإعلامي الغربي ساهم في انتشار ظاهرة الإسلاموفوبيا في المجتمعات الغربية، ويوافق نحو 40 % بشدة مع هذا الطرح. ويرى نحو 40 % على أن الإسلام والمسلمين يقرنون بصور نمطية سلبية كالإرهاب والتطرف والتخلف والهمجية والعنف، ويوافق أكثر من 36% بشدة على هذا الطرح.

كما أن 50% من المستجوبين ترى أن النظرة إلى الإسلام تقرن بكونه ضد القيم الغربية كالحرية والديمقراطية، ويتفق أكثر من 31 % من المبحوثين مع هذا الطرح بشدة.

ويذهب نحو 45% من أفراد العينة إلى أن الغرب ينظر إلى الإسلام على أنه في صراع مع الديانات الأخرى وخاصة المسيحية، ويتفق نحو 21 % من المستجوبين مع هذا الطرح بشدة. وفيما يخص الموقف من المرأة فإن نحو 45 % من المستجوبين يرون أن النظرة السائدة في الغرب عن الإسلام هي أنه يضطهد المرأة، ويوافق 38 % من أفراد عينة البحث مع هذا الطرح بشدة.

ويتفق أكثر من 43% مع كون الخطاب الإعلامي الغربي قد ساهم في انتشار مشاعر العدائية إزاء الإسلام والمسلمين، ويوافق بشدة أكثر من 29 % من المستجوبين مع هذا الطرح. ومع ذلك فإن آراء أفراد العينة حول تعرضهم لسلوكيات ذات نزعة عنصرية تقاربا فيها خيارا "غير موافق" بـ29.31 %، و"موافق" بـ27.59%، وذهبت نسبة بـ20.69% إلى تبني خيار "محايد"، وقد يعود تأرجح الآراء هنا لارتباطه بالتجربة الذاتية التي تختلف من شخص إلى آخر.

وقد ذهبت دراسات أجنبية إلى أن وسائل الإعلام تساهم بالفعل في إنتاج وإعادة إنتاج العنصرية ضد الإسلام والمسلمين(Shadid & Koningsveld, 2002, p188) وانعكس ذلك على السلوكيات ضد المسلمين المقيمين في البلدان الغربية بل أصبح أطفال المسلمين ضحية لهذه النزعة العنصرية التي تغذيها وسائل الإعلام، وهو ما يؤكده جيفري لانغ فرغم أنه غربي الجذور إلا أن اعتناقه الإسلام جعل أطفاله يواجهون أشكال من العنصرية في المدارس، وعلى غرارهم كثيرون فقد تحدث لانغ عن رسائل مسلمين ترده باستمرار من جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية يشتكون من مدرسين يحقرون الإسلام في الصف(لانغ، 2008، ص19).

الجدول رقم (7): يمثل مساهمة الخطاب الإعلامي الغربي في تشويه صورة الإسلام والمسلمين لدى المجتمعات الغربية من وجهة نظر أفراد العينة

مساهمة الخطاب الإعلامي الغربي في تشويه صورة الإسلام والمسلمين لدى المجتمعات الغربية	غير موافق		غير موافق أبدا		محايد		موافق بشدة		موافق	
	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%
هناك توافق أو تطابق بين الآراء السائدة في المجتمع الغربي والخطاب الإعلامي حول الإسلام والمسلمين	15	%25.86	3	%5.17	14	%24.14	7	%12.07	19	%32.76
ساهم الخطاب الإعلامي الغربي في انتشار ظاهرة الإسلاموفوبيا في المجتمعات الغربية	4	%6.90	1	%1.72	5	%8.62	23	%39.66	25	%43.10
يقرن الإسلام والمسلمون بصور نمطية سلبية كالإرهاب والتطرف والتخلف والهمجية والعنف	5	%8.62	2	%3.45	7	%12.07	21	%36.21	23	%39.66
ينظر للمسلمين على أنهم مصدرا للشر	12	%20.69	3	%5.17	14	%24.14	7	%12.07	22	%37.93
ينظر للإسلام على أنه في صراع مع الديانات الأخرى وخاصة المسيحية	9	%15.52	2	%3.45	9	%15.52	12	%20.69	26	%44.83
ينظر للإسلام على أنه ضد القيم الغربية كالحرية والديمقراطية	3	%5.17	3	%5.17	5	%8.62	18	%31.03	29	%50.00
ينظر للإسلام كدين يضطهد المرأة	4	%6.90	2	%3.45	4	%6.90	22	%37.93	26	%44.83
ينظر للمسلم كزير نساء ومحب للشهوات	10	%17.24	3	%5.17	15	%25.86	11	%18.97	19	%32.76
ساهم الخطاب الإعلامي الغربي في انتشار مشاعر العدائية إزاء الإسلام والمسلمين	5	%8.62	2	%3.45	9	%15.52	17	%29.31	25	%43.10

تشعر بأن حريتك الدينية مهددة بسبب طبيعة الخطاب الإعلامي الغربي	11	%18.97	6	%10.34	12	%20.69	9	%15.52	20	%34.48
تتعرض لسلوكيات عنصرية	17	%29.31	9	%15.52	12	%20.69	4	%6.90	16	%27.59
تشعر بأن وجودك مهدد نتيجة تحامل الخطاب الإعلامي الغربي، وانتشار جرائم الكراهية	10	%17.24	10	%17.24	14	%24.14	4	%6.90	20	%34.48
يتزايد رفض وجود المسلمين بالغرب	13	%22.41	7	%12.07	7	%12.07	8	%13.79	23	%39.66

وتظهر القراءة الشاملة للبيانات التي يوفرها الجدول رقم (7) أن آراء المبحوثين تتفق بشكل عام مع الاستنتاج العام الذي توصل إليه W. Shadid & P.S. van Koningsveld (2002) من أن الإعلام الغربي يلعب بشكل مباشر وغير مباشر دورًا مركزيًا في نشر والحفاظ على الصور السلبية للإسلام وأتباعه.

المحور الرابع: آليات تحسين صورة الإسلام والمسلمين في الغرب من وجهة نظر الجاليات الإسلامية

يوضح الجدول رقم (08) أن أغلب أفراد العينة يتجه نحو "الموافقة" أو "الموافقة بشدة" على الآليات المقترحة لتصحيح صورة الإسلام والمسلمين في الغرب. ووضع المبحوثون "تطوير المجتمعات الإسلامية" في مقدمة آليات تصحيح الصورة بنسبة 60.34% ممن أبدوا موافقتهم بشدة. وتأتي هذه الآراء لتظهر أن توجيه الأولوية نحو إخراج المجتمعات الإسلامية من دائرة التخلف من شأنه المساهمة آليا في تسويق صورة سليمة عن الذات، كما سيتيح ذلك امتلاك أدوات التأثير إيجابيا في الآخر سواء من خلال المنظومات والاستراتيجيات المختلفة أو من خلال التكنولوجيا ومزاياها. ومما يراه أفراد العينة ضمن أهم سبل ترميم وتعزيز صورة الإسلام والمسلمين هو ضرورة انخراط الجاليات الإسلامية في الحياة السياسية للدول التي تقيم بها، وهو ما يبرز اهتمام الجالية الإسلامية بتدارك عزوفها عن المشاركة في الحياة السياسية في بلدان إقامتها والذي طبع وجودها طويلا بهذه المجتمعات وأبعدها عن دائرة التأثير في الرأي العام الغربي، ويظهر هنا تطور وعيها بأهمية النشاط في المجال السياسي لإتاحة مواقع لها للتعبير عن نفسها وتصحيح الصورة السائدة عنها. وأما الخيار الذي جاء في المرتبة الثالثة بنسبة 48.28 % من الآراء التي أبدت "موافقتها بشدة" فهو ضرورة "تجديد الخطاب الديني"، وهنا يظهر استشعار الحاجة إلى تطوير لغة الخطاب الديني وأدواته واستراتيجيات الإقناع لتتوافق مع سياق وجودها الزمكاني، والتكيف مع ضرورات العصر المتغيرة، ولتسهيل عملية التواصل ليس مع الآخر فحسب، ولكن مع أي جمهور مستهدف

بما في ذلك فئات معينة من المسلمين أنفسهم مراعاة لاختلاف الذهنيات وطرائق التفكير من حقبة تاريخية إلى أخرى ومن حيز جغرافي إلى آخر.

الجدول رقم (8): يمثل آليات تحسين صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب من وجهة نظر أفراد العينة

آليات تحسين صورة الإسلام والمسم لمين لدى الغرب	غير موافق		غير موافق أبدا		محايد		موافق بشدة		موافق	
	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%
إنشاء قنوات تلفزيونية موجهة للغرب	2	%3.45	0	%0.00	8	%13.79	21	%36.21	27	%46.55
المشاركة في رأس مال المؤسسات الإعلامية الغربية الكبرى	7	%12.07	1	%1.72	6	%10.34	21	%36.21	23	%39.66
توظيف الوسائط الجديدة ومواقع التواصل الاجتماعي	1	%1.72	0	%0.00	7	%12.07	25	%43.10	25	%43.10
الاستثمار في الصناعات الثقافية والسينمائية الغربية	5	%8.62	1	%1.72	10	%17.24	23	%39.66	19	%32.76
تفعيل دور المؤسسات والمنظمات الإسلامية في المجتمعات الغربية	1	%1.72	0	%0.00	8	%13.79	26	%44.83	23	%39.66
تنظيم الجاليات المسلمة في جمعيات وهيئات لتفعيل دورها	2	%3.45	0	%0.00	6	%10.34	26	%44.83	24	%41.38
انخراط الجاليات الإسلامية في الحياة السياسية للدول التي تقيم بها	6	%10.34	1	%1.72	2	%3.45	29	%50.00	20	%34.48
تطوير المجتمعات الإسلامية	2	%3.45	0	%0.00	1	%1.72	35	%60.34	20	%34.48
تجديد الخطاب الديني الإسلامي	3	%5.17	0	%0.00	4	%6.90	28	%48.28	23	%39.66

وللاعتبارات المذكورة سالفا، والتي أكدت دور الإعلام الغربي في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، فإن آراء عينة البحث توافقت حول ضرورة استثمار وسائل الإعلام لتحسين صورة الإسلام والمسلمين، فتبنت نسبة 46.55% منها خيار "موافق بشدة"، و36.21% خيار "موافق" على "إنشاء قنوات تلفزيونية موجهة إلى الغرب"، كما تعادل خيارا "موافق بشدة" و"موافق" بنسبة 43.10% لكل منهما حول ضرورة توظيف الوسائط الجديدة ومواقع التواصل الاجتماعي في المهمة. وبالمثل أولى أفراد العينة اهتماما لضرورة "انتظام الجاليات المسلمة في جمعيات وهيئات لتفعيل دورها"، و"تفعيل دور المؤسسات والمنظمات الإسلامية في المجتمعات الغربية" فتعادلا في نسبة خيار "موافق بشدة" بـ44.83% لكل منهما.

تؤكد هذه النتائج وجود توافق بين آراء المبحوثين حول الحاجة إلى عمل منتظم يضم استراتيجيات متنوعة تتكامل فيها جهود المسلمين سواء الموجودين في البلدان الغربية أو في بلدانهم الأصلية لتصحيح صورة الإسلام والمسلمين.

النتائج العامة للدراسة

أظهر تحليل البيانات أن هناك توافق بوجه عام بين الدراسات التي تناولت الموضوع وآراء أفراد العينة من الجالية الإسلامية في المجتمعات الغربية حول مساهمة الخطاب الإعلامي الغربي في تشكيل صورة سلبية نمطية حول الإسلام والمسلمين لدى الغرب.

ففيما يخص طبيعة الخطاب الإعلامي الغربي:

أظهرت أعلى النسب المسجلة تبني أفراد العينة من الجاليات الإسلامية بالبلدان الغربية لآراء تتفق مع كون الخطاب الإعلامي الغربي يتسم بالتحيز وبنزعة عنصرية وتعميمية مخلة ويتبنى لغة التخويف والتحريض والكراهية ضد الإسلام والمسلمين.

وفيما يخص مساهمة الخطاب الإعلامي الغربي في تشويه صورة الإسلام والمسلمين لدى المجتمعات الغربية:

عكست أعلى النسب التي تقاسمها خيارا "موافق" و"موافق بشدة"، توجه أفراد عينة البحث من الجالية الإسلامية في الغرب إلى الاتفاق مع كون الخطاب الإعلامي الغربي قد ساهم بالفعل في تشويه صورة الإسلام والمسلمين وانتشار ظاهرة الإسلاموفوبيا في المجتمعات الغربية نتيجة تقديم الدين الإسلامي ومعتنقيه ضمن قوالب نمطية سلبية كالإرهاب والتطرف والتخلف والهمجية والعنف واضطهاد المرأة، والتسويق لفكرة أن الدين الإسلامي يقف ضد قيم المجتمعات الغربية كالحرية والديمقراطية وأنه في صراع مع الديانات الأخرى.

وفيما يخص آليات تصحيح صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب:

لم يظهر تحليل البيانات تباينا بين مفردات العينة حول تبني الآليات المقترحة، فقد اتجهت الأغلبية إلى تبني خياري "موافق" أو "موافق بشدة". وأولى المبحوثون اهتماما خاصا لضرورة تطوير المجتمعات الإسلامية لتقديم صورة إيجابية عن نفسها، ولتجديد الخطاب الديني لاكتساب القدرة على مخاطبة الذهنيات وفقا لمعطيات العصر الذي تعيش فيه. كما اهتم أفراد العينة بتفعيل دور الجاليات الإسلامية في المجتمعات الغربية من خلال الممارسة السياسية والنشاط التنظيمي. ونظرا لأهمية وسائل الإعلام في تشكيل الصورة الذهنية، فقد اتفق المبحوثون بنسبة عالية على أهمية إنشاء قنوات تلفزيونية موجهة للجمهور الغربي لتحسين صورة الإسلام والمسلمين.

خاتمة

تعد وسائل الإعلام الغربية جزءا من منظومة متكاملة تساهم في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، ولكنها جزءا أصيلا ورئيسيا يكتسب فاعليته من مكانة وأهمية هذه الوسائل في الحياة اليومية للأفراد. وتلعب هذه الوسائل من خلال مضامينها المحملة بأنماط من الأحكام المسبقة والمعاني المجتزأة والمتداخلة والتصنيف العنصري والاصطفاف العرقي، كما أظهرت الدراسة، دورها في تشكيل صور سلبية عن الدين الإسلامي وأتباعه. الأمر الذي أدى إلى بروز ظاهرة "الإسلاموفوبيا" وانتشار مشاعر العدائية ضد الإسلام والمسلمين في المجتمعات الغربية.

وسواء كانت نزعة الخطاب الإعلامي الغربي إزاء الإسلام والمسلمين متعمدة أو غير متعمدة، فإن تأثيرها السلبي على التصورات الذهنية قائم وهو في تزايد، ويقتضي ذلك عملا استراتيجيا لتصحيح الصورة المشوهة في الذهنية الغربية، وإعادة صياغة المعاني التي يضفيها الآخر علينا كمجتمعات إسلامية.

قائمة المراجع:

1-الكتب

- جيفري لانغ، **ضياع ديني: صرخة المسلمين في الغرب**، 2008، ترجمة: إبراهيم يحي الشهابي، ط1، دمشق: دار الفكر آفاق معرفة متجددة.
- Walter Lippmann, Public Opinion. Second printing, 1998, New Brunswick (U.S.A) and London (U.K) Transaction Publishers.
- W. Shadid & P.S. van Koningsveld, the Negative Image of Islam and Muslims in the West: Causes and Solutions. In Shadid, W & P.S. van. Koningsveld, 2002, Religious

Freedom and the Neutrality of the state: the Position of Islam in the European Union. Leuven, Peeters, pp.174-196.

2-الدوريات

- Amir saeed, Teaching and learning guid for: media, racism and islamophobia: the representation of Islam and Muslims in the media, November 2008, *Sociologie Compass.* Volume2, issue 6, pp. 2041-2047.
- Caroline Mala Corbin, Terrorists Are Always Muslim but Never White: At the Intersection of Critical Race Theory and Propaganda, 2017, 86 Fordham L. Rev. 455, Retrieved 01. 12. 2021, Available at: https://ir.lawnet.fordham.edu/flr/vol86/iss2/5
- Vischi Geneviève, L'image de l'Islam Médiéval à travers les Manuels Scolaires d'Histoire Français de 1945 à 1971, 1985, In: *Horizons Maghrébins - Le droit à la mémoire*, N°3-4. Méthodes et recherches en Sciences humaines et sociales au Maghreb. pp. 84-93, Retrieved 01. 12.2021, available at: https://doi.org/10.3406/horma.1985.1417
- Gamal M. M. Mostafa, Correcting the Image of Islam and Muslims in the West: Challenges and Opportunities for Islamic Universities and Organizations, 2007, Journal of Muslim Minority Affairs, 27:3, 371-386, DOI: 10.1080/13602000701737210

3-التقارير

- AMNESTY International, Choice and Prejudic: Discrimination Against Muslims in Europe, 2012, AMNESTY InternationalLtd, London.

4-المواقع الإلكترونية

- Katrine fangen, Why did Muslims become the New Enemy in Norway and Europe? July 9, 2021, Retrieved 19. 11. 2021, available at https://blogs.prio.org/2021/07/why-did-muslims-become-the-new-enemy-in-norway-and-europe/

تأثير الاعلام الغربي عن الشرف وتحول مراتب الرجولة، في نقد بعض سرديات أزمة الذكورة

The influence of the Western Media on Honor and the Transformation of the Ranks of Manhood, in Critiquing some Narratives of the Crisis of Masculinity

د.بن علي نصيرة، جامعة معسكر، الجزائر
n.benali@univ-mascara.dz



تهدف هذه الدراسة الميدانية حسب تصورات الشباب في الجامعة الجزائرية الى محاولة ابراز أهم المتغيرات المساهمة في تحول جملة من المعاني كالشرف وضبابية قيم الذكورة، ولعل خرافة أزمة الذكورة من السرديات الأكثر انتشارا في مجتمعنا الذي يعيش في عصر ما بعد الحداثة والمرتبط بتجليات العولمة والاعلام الجديد، مع الأخذ بعين الاعتبار أن السيرورة التاريخية للمجتمعات الاسلامية ما زالت تابعة عند كل منعرج تاريخي للنظام العالمي الجديد الذي يمثله الغرب وحداثته. فقد ساهمت المفاهيم الفلسفية الحديثة (حقوق الانسان، فلسفة النوع الاجتماعي، الانفجار المعرفي والاعلام الغربي) في تصدع الرجولة المهيمنة التقليدية التي تعتبر بمثابة بناء في المخيال الشعبي

الكلمات المفتاحية: الرجولة المهيمنة؛ الشرف؛ الاسلام والغرب؛ الحداثة.

Abstract:

This field study aims at the perceptions of Algerian University youth, to try to show the most important variables that contribute to the transformation of a set of definitions like honor and foggy values of masculinity, perhaps the myth of the masculinity crisis is one of the most prevalent stories in our post modernity society and associated with manifestations of globalization. And taking in to consideration the dependence of the historical continuity of Islamic societies at every tain in new world order represented by the west and it modernity. The new philosophical concepts chuman nights gender theory, cognitive explosion. I fiave contributed to weakening the classical patriarchy considered as a construction in the popular imagination

Keywords: dominant masculinity, honor, Islam and west, modernity.



مقدمة:

تهدف دراستنا الراهنة الى التركيز على دور الاعلام الغربي في انتاج ونسج صور جديدة عن الرجولة في العالم الاسلامي، وجراء التحولات المجتمعية الكبرى كالتطور الحضري، تطور وسائل الاعلام الجماهيرية

الحديثة وبروز المدن وبدون أن نهمل دور الفاعل السياسي العربي بعد الهزائم السياسية الكبرى (حرب الخليج 1-2). كلها أثرت سياسيا واجتماعيا ونفسيا على ذهنية صورة الاسلام والمسلمين وعلى منظومتنا القيمية خصوصا مسألة مفهوم الرجولة والشرف موضوع دراستي.

لذلك ارتأينا في هذه الدراسة وهي دراسة ميدانية، البحث في علاقة تحولات الذكورة بالشرف انطلاقا من إطار الفضاء العام، والأسرة، وبالتحديد من خلال تصورات الشبان الجامعي وتم اختيار هذه الفئة العمرية من مجتمع البحث لاعتبار أنها قوة مجتمعية هامة، ومن جهة أخرى لسبب تبادل الأدوار والمسؤوليات بين الرجل والمرأة في العصر الحداثي. ومن هذا المنطلق نحاول دراسة علاقة الشرف بتحول الذكورة وكان عنوان "تأثير الاعلام الغربي عن الشرف وتحول مراتب الرجولة". وحاولنا معرفة العوامل المساهمة في تبديل وتكسير بنيان الأسرة الجزائرية.

تدور إشكالية البحث حول السؤال: ***كيف يتصور المجتمع الذكوري معنى الشرف وما علاقته بأزمة الذكورة؟***

وكانت فرضيات البحث كالتالي:

تختلف التصورات الاجتماعية لمفهوم الشرف عند الذكورة المهيمنة حسب محدد القوة والسلطة مع ثبات التصورات المرتبطة بالمرأة

1-يرتبط الشرف بالكلمة ومقدار الهيمنة على الآخر.

2-يحدث تحول في مفهوم الشرف جراء تبدل أحوال وأوضاع الرجولة، فيتقلص الفضاء مما يجعله يربط الشرف بالمرأة كوظيفة دفاعية عن أزمة الذكورة.

وتندرج دراستنا الميدانية في المقاربة الكيفية بغية الوصول إلى فهم عمق المعاني المتواجدة في ميدان البحث لذلك قمنا بإتباع المنهج السوسيو أنتروبولوجي لدراسة الموضوع، وقد حاولنا الحصول قدر الإمكان على نوعين من المعطيات، تتمحور أولها في الصورة التي كان عليها المجتمع الجزائري، وكيف يتم التعامل مع المنظومة القيمية المرتبطة بتراتبية النوع لمعرفة التحولات الحاصلة، وثانيها في تعرف على معالم الثبات والتحول لهذه المنظومة حاليا خصوصا أنها مست بعض المؤسسات التنشئة الاجتماعية وصولا بالفضاء العمومي.

ومن المهم الاشارة الى الإطار الجغرافي ومجتمع البحث، حيث تم اختيارنا بناء على عدة اعتبارات منهجية، فالدافع الموضوعي من اختيار فئة الشباب لأنه حسب ما أدلت عليه الدراسات السابقة، اتضح أنّ التصورات الاجتماعية تتأثّر بالعديد من العوامل المستقلّة، مثل المستوى التعلّيميّ، الانتماء الجغرافيّ، السن والجنس، ومن جهة أخرى كدافع ذاتي يعتبر الحرم الجامعي مجال تجمع الشباب، وهو مجال ينشطون فيه ويساعدهم على السير نحو النضج والتطور الفكري والاجتماعي والشخصي بالتحديد.

ويتكون مجتمع البحث من 31 مبحوثا، 14 طالب و17 طالبة، مقسمة على ثلاثة كليات من جامعة وهران 2 (الآداب واللغات، العلوم الاجتماعية والحقوق).

وينبغي لنا الاشارة الى أدوات جمع البيانات، فقد اعتمدنا على الملاحظة المباشرة، بينما كانت الملاحظة بالمشاركة هي التقنية المفضلة في مرحلة الاستطلاع حيث ساهمت في رسم منحى بحثنا، وساعدتنا في فهم العديد من المعاني والوضعيات التي تطلبت المزيد من التدقيق أثناء مقابلات مرحلة التحقيق. وتم استعمال المقابلات الحرة كتقنية استطلاعية من أجل فهم منطق علاقات بين النساء والرجال في تصورات الطلاب. كما اعتمدنا على تقنية المقابلة نصف موجهة.

أولا-المفاهيم والقضايا النظرية الأساسية:

لكي نستطيع قراءة التحديات والعلاقات القائمة، يجب الإشارة إلى بعض المفاهيم والقضايا التي تحدد المكان الاجتماعي للملاحظات والوصف والتحليل ...الخ، ركزنا على الأساسي أما المفاهيم الثانوية سترد في ثنايا التحليلات التالية.

1-التصورات الاجتماعية: ارتبط مفهوم التصورات الجماعية بصورة عامة إلى الأساطير والطقوس وأنواع التفكير التي تميز مجتمع ما، ونظرا لعموميته وتضمنه لكل أشكال التفكير الاجتماعي لم يعد من الممكن تمييز التصورات عن الذهنيات الأيدلوجيا، فأصبح هذا المفهوم ظاهرة ولكنها غير إجرائية (Ferrol Gills, 1995. P.249).

وتعرف التصورات الاجتماعية عند **SergeMoscovici** بأنها عملية ديناميكية تعمل على تفسير وإعادة الواقع الذي يعكس ويشمل جملة من المبادئ والأفكار والقيم الموجودة والمشتركة بين أفراد المجموعة، ويؤكد **Serge Moscovici** على ازدواجية ميزاتها سواء من ناحية إنتاج اللفظي الذي يشير إلى المحتويات التي تنظم في مواضيع وخطابات حول الواقع ونشاط عقلي بمثابة نظام يتمثل في استيعاب كل ما هو جديد" (Moscovici Serge, 1976 ; p. 47-48).

وترى دينيز جودلي ليس من الممكن التمييز ما بين التصورات والذهميات والايديولوجيات، مما جعل من مفهوم التصور كظاهرة، لكنه غير اجرائي (Jodelet.D. 1995, p. 249)

2-النوع الاجتماعي: النوع الاجتماعي هو مفهوم جديد ولكنه واسع الاستخدام في العلوم الاجتماعية، وهو كمفهوم أساسي ومركزي في علم الاجتماع العام يستخدم في عدة تخصصات كعلم الاجتماع التربية، علم الاجتماع العمل وعلم الاجتماع الأسرة، ويشير نجاح البنات في التعليم إلى الاختلافات في التنشئة الاجتماعية وليس في الاختلافات البيولوجية(Lebaron. F, 2009, P.63)

3-الشرف: ورد في مختار الصحاح أنه "العلو والمكان العالي وجبل مشرف أي عال" ويرتبط بالشرف شعور شخصي قوي بالكرامة المقبولة اجتماعيا أو السلوك المقبول. ويقصد بالشرف أيضا حالة من الاستقامة غير الملموسة وهو مجموعة القواعد الأخلاقية لكل من الرجل والمرأة وهو أساس للمقياس الأخلاقي للفرد، وبالأخص المرأة (علياء.ش، 1998، 258).

ثانيا-معالم التحول والتغير:

ساهمت الحركات الاسلامية التي نتجت وظهرت بكثرة مع سقوط الاتحاد السوفياتي الى ظهور جملة من المخاطر العالمية القائمة على أساس الصراع الأبدي بين الاسلام والغرب، ومن أهم رواد مثل هذه الدراسات نجد **Fred Halliday** الذي أشار الى طبيعة العلاقة ما بين المجتمعين في كتابه **Islam and the Myth of confrontation** الصادر سنة 1995وأكد على عدم وجود مواجهة بينهما واعتبرها بأنها مجرد خرافة صنعها الغرب، غير أن الحركات الاسلامية ساهمت في تأكيدها، وهكذا أصبح لهذه الخرافة قوة وتحولت الى حقيقة ثابتة في معتقدات وتصورات معظم أفراد المجتمعات الاسلامية خصوصا بعد نهاية الحرب الباردة والتي ترافقت وراءها صراعات متتالية كحرب الخليج الأولى والثانية ثم حرب أفغانستان وظهور الارهاب المرتبط بالإسلام السياسي، ومن تجليات هذا الطرح تكرر معنا في ميدان البحث مع الفئة الشبانية المثقفة "ما زلنا تحت الاستعمار" " الشيء الذي لم تستطيع فعله فرنسا لعدة عقود من الزمن، فقد نجحت وسائل الاعلام الجماهيرية الحديثة في التدخل في العلاقات ما بين الرجل والمرأة من خلال تعديل قوانين الأسرة، وهنا تم المس بشرف وهويتنا".

ومن المهم الاشارة الى أحداث 5 أكتوبر 1988 كحلقة فصل بين نظامين وضعيتين مختلفتين على كل الأصعدة وكيف تم اعادة كتابة الدستور (1965الى غاية 2012) ، كل هذه التحولات المجتمعية والسياسية تضمنت مفاهيم جديدة مع الآخر، فساهمت هذه المرحلة في انتاج أفكار الديمقراطية والحريات الفردية وكذلك سياسة تمكين النساء والنوع الاجتماعي مما أدى الى تغيير بنيات مجتمعية سياسية واقتصادية وقانونية وخصوصا التعليمية والأسرية، لذلك تحولت المناهج التعليمية لتعكس التفكير ما بعد الحداثي في مجتمعاتنا وفي العالم الاسلامي بصفة عامة، أما شأن الأسرة فقد شعرت النساء بالتحرر خصوصا مع تعديل قانون الأسرة الجزائري 2005. لذلك يرجع أغلبية المجتمع الذكوري هذه التحولات الى مؤامرة غربية لنيل من أنموذج الرجولي الاسلامي. أشار الباحث **Abderrahim lamchichi** إلى "الأجيال الجديدة من الشباب التي تعاني من مشكلة تفكك منظومة القيم والأخلاق جرّاء عدم تكافؤ الفرص ونقص في حقوقهم وقلة حظوظهم كل هذا بسبب خطة اقتصادية غير حكيمة"(lamchichi. A, 1999, p.195).

وننوه الى وجود عناصر أساسية أخرى ساهمت في التحولات، فقد أدى الانفجار المعرفي وبتحديد تعليم المرأة الى سياسة تمكينها من خلال التحاقها بمجالات العمل، فتبنت المرأة مجموعة من القيم كالاستقلالية وتحقيق الذات في المقابل بقي الرجل في كثير من الحالات محافظا على ايديولوجيا الذكورة التقليدية (قرامي. أ، 2007، 111) مما أفرز تخلخل في بنية النوع من خلال تغير الأدوار والعلاقات فلم يعد الرجل المنفق والمعيل الوحيد للأسرة، بل أضحت المرأة شريكا أساسيا في تحمل أعباء الحياة والاضطلاع بمختلف المسؤوليات ومن ثمة صارت الزوجة تصمم على ابداء الرأي في عدد من القرارات العائلية التي تتخذها.

ومما تقدم نستنتج سبب تأرجح بعض المعاني بين السلب والايجاب، فمسألة الاسلام والغرب كثنائية مضادة أثرت في المنظومة القيمية للمجتمعات الاسلامية مما أدى الى تحولات كبرى في معاني الرجل والرجولة والشرف.

1-اعتبار الرجل النواة المركزية لنظام الكونية ونقد خر افة أزمة الذكورة: نريد التحدث عن الرجل والرجولة في المجتمع العربي بصفة عامة والمجتمع الجزائري بصفة خاصة الذي يعيش ويتعايش في عصر ما بعد الحداثة المرتبط بالعولمة، وما زالت السيرورة التاريخية تابعة عند كل منعرج تاريخي للنظام العالمي الجديد والممثل في المركز الأول الغرب وحداثته. وحسب **James Hillman** "فان الرجل منذ الثورة الصناعية، ابتعد أكثر فأكثر عن الذكورة العميقة **masculin profond** لعدة أسباب منها ثقافية ومنها يتعلق بالمحيط، ومنها يتعلق بثقل المهام التربوية ومنها مرتبط بهواجسه، ومحاولة استعادة هذه الذكورة بالذات باتت، حسب **James Hillman** "السيرورة الاجتماعية الأولى لما بعد حداثية" (شاوول.م، 2007، 94).

ومما تقدم هناك علاقة ترابطية ما بين مفهوم الشرف والرجولة، فمثلما تتبدل أوضاع وأحوال الرجال في مجتمع ما وفي مرحلة ما، يحدث تغير في معاني الشرف التي كانت مرتبطة بالثقافة الأبوية، وعليه يصبح المفهوم قابل للتغيير حسب عدة متغيرات. والرجولة كمفهوم هو في حد ذاته يشكل "قيمة مجتمعية ثقافية قابلة للتغيير عبر الزمن وهو وثيق الصلة بالذكورة المهيمنة التي تمثل الحلم الذي يغذي متخيل الجماعة ويسكن أعماقها" (قرامي. أ، 2007، 104).

ومما تقدم ينبغي لنا الاشارة أن هذا المفهوم حدث فيه بعض التحولات خصوصا مع ظهور مفهوم الجندر أو النوع الاجتماعي كمفهوم يركز على علاقات القوة والفروقات بين المرأة والرجل، وتأثير ذلك على الأدوار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، علما أن هذه الأدوار ديناميكية تتغير دوما، طبقا للزمان والمكان ومستوى الثقافة السائدة، وأن الأدوار البيولوجية هي الوحيدة الثابتة وتتمثل مع الدور الإنجابي للمرأة الذي يختلف عنه عند الرجل (يوسف نور الدين سعاد، 2006، 25).

وعليه يتبين لنا اختلاف ما بين النوع الاجتماعي والجنس انطلاقا من أن النوع الاجتماعي ليس مقصورا على المرأة فحسب ولا مضادا للرجل، ومن الأخطاء التي وقع فيها الكثيرون هو فهْم النوع الاجتماعي على أنه يمثل المرأة فقط، وفي الواقع مصطلح النوع الاجتماعي يشمل المرأة والرجل معا والعلاقات فيما بينهما، والأدوار والمهام الموكلة اجتماعيا لكل منهما (دباغ.م، رمضان.أ، 2014، 375). ورغم تغير أدوارهما الاجتماعية طبقا للزمان والمكان ومستوى الثقافة السائدة، فان الاختلاف بين الجنسين من ناحيتين النظرية والعملية، "لا يمثل أي إلغاء للكونية، بل يسمح على العكس بالتعرف على المضمون الملموس والمتميز لما هو كوني" (أجاسينسكي. س، 2011، 68). وننوه الى أن هذه الأدوار ديناميكية تتغير دوما طبقا للزمان والمكان ومستوى الثقافة السائدة، وأن الأدوار البيولوجية هي الوحيدة الثابتة وتتمثل مع الدور الإنجابي للمرأة الذي يختلف عنه عند الرجل(يوسف نور الدين سعاد، 2006، 25).

بناء على ذلك، نحن بصدد دراسة محددات وسمات الذكورة والأنوثة من خلال المقاربة الجندرية، فقد نجد نوع من المصالحة ما بين المفهومين من خلال تبادل هذه السمات ما بين الجنسين. ولذلك لم تعد بعض هذه المعاني صلبة في النسق القيمي العالمي مقارنة بالسياق التاريخي. هذه التحولات في المعاني ترافقت في الحديث عن أزمة الذكورة ومن تجلياتها شعور رجال اليوم بالإحباط والقلق الذكوري والخوف من المستقبل الخفي بسبب بطالة الرجل في ظل عمل المرأة، خصوصا أن دور المؤسسات الاجتماعية كالأسرة ما زالت محافظة على ديمومتها وثباتها، ومن خلال عملية التنشئة الاجتماعية يصر الرجال على الاعتزاز بالقيم الرجولية حيث ما زالت هذه المؤسسات خصوصا التقليدية والغير الرسمية تعيد انتاج المفاضلة الجندرية لغاية بناء أنموذج الرجل والرجولة وذلك بفعل التحولات المجتمعية كالنمو الحضري والانفجار المعرفي وتطور وسائل الاعلام الجماهيرية كلها مجتمعة ساهمت في تحول معاني الشرف وقيم الرجولة، فالتحول لم يقتصر على الهوية الداخلية فقط وانما على الهوية الخارجية مثلا في المظهر والزي والعنف في الفضاء العمومي.

لقد كان الرجل يتحكم في أتباعه من باب الشرف من خلال تحكم في حركة المرأة ولباسها ولكن حدث تحول جذري بفعل متغير السياسي والاعلامي، ويجب التنويه الى التحولات المجتمعية والاقتصادية والاجتماعية التي ساهمت في تحطيم كل العلاقات التقليدية بتحديد الأسرة الأبوية فأثرت على عدة معاني ومفاهيم كالسلطة ومفهوم الأمومة والأبوة والشرف وفي المقابل أنتجت معاني ترافقت بعد عصر الحداثي مثل حرية المرأة والتحكم في الجسد، وكذلك تبدل الأدوار الجندرية والشراكة الأسرية، بالإضافة الى دور تحول دور الآباء في الاهتمام بتعليم البنات ونجاحهن الدراسي لبناتهم الذي يظهر في اقترابه من سلوك الأم كالاعتناء بالمولود حديث الولادة في الغذاء والنظافة...الخ.

2-سلطة الرجل والذكورة المهيمنة: يمثل الرجل النواة المركزية التي انبنى عليها المجتمع حسب النظرة المجتمعية، كما أنه اعتبر ممثل النظام، سن المعايير وميز بين عالمه وعالم النساء، وخص نفسه

بالامتيازات (قرامي.أ، 2007، 908)، فالعالم كله يدور حوله، فهناك صفوة ومراتب من الرجال، حسب دوره في الفضاء العام، أما البقية المتبقية فتلعب دورها المركزي داخل الأسرة.

عند الحديث عن الرجل ومسألة الرجولة حسب المخيال الشعبي، فان أول شيء يستحضر في اعتقادهم، علاقات الرجال فيما بينهم، إذ هناك ثنائية مضادة مهيمن ومهيمن عليه، فهناك نوع من العنف بكل أشكاله، وهو ما يعرف ***بالحڤرة*** ولكن تبقى المنظومة القيمية للأخلاق هي التي تحكم بينهم، فالرجل الحقيقي في المجتمع الجزائري حسب رؤية الشبانية لا تتمثل فيمن يملك القوة ومصادر القوة كالمال، ولكن من يتحمل القوى الخارجية وصعوبات الحياة.

وهذا ما أشار إليه المبحوث **رضوان**: "***الراجل، (بعد صمت وتفكير)، الراجل الصحيح، ... مش أي راجل يسمى راجل، راجل الصحيح ما يحقرش، رانا نشوفوا الأغنياء كيف يتعاملوا مع القلاليل*** (يقصد بهم الفقراء، ڤليل هو الفقير قليل الشأن)، ***الحقرة راهي بزاف في البلاد، عندك الدراهم تسوى، ما عندكش الدراهم ما تسواش، وباه الواحد يقول ما كانش الرجال نقولك راهم كاينيين، وموجودين، الليل ماراهمش يرقدوه، هما رافدين البلاد وحافظينها، صحيح تلقيهم أشداء وخشان لكن عندهم دور كبير في حماية البلاد***" (المبحوث رضوان، المقابلة رقم 11، 25 سنة).

ومن خلال خطاب الشبان يتجلى لنا شعور بالخيبة وفقدان الأمل حول الواقع المعاش من خلال تغيرات التي مست مفاهيم الرجولة في مجتمعنا الذي كثر فيه العنف والظلم الاجتماعي "***الحُڤرة راهي بزاف في البلاد***"، مما أدى إلى تبدل سمات الرجولة التي ارتبطت بالمال، فأصبح المال كقيمة مادية هي مقياس لبناء الرجولة من الناحية الرمزية. هذا ما أكد عليه المبحوث "***عندك الدراهم تسوى***" وعند نفي القضية تستلزم نفي القضية في الجانب الآخر "***ما عندكش الدراهم ما تسواش***".

ومن الملاحظ كما سبق الذكر بوجود ارتباط متين بين الرجل وتمسكه بالمنظومة القيمية لمفهوم الرجولة، فقد عرف الرجل بأنه الأقوى بنيانا والأكثر غلظة وقسوة وعقلانية (عبد الرشيد بدران. م، 2000. 58). لذلك شدد معظم الطلاب شبان وحتى بعض الشابات "***مشي أي راجل يسمى راجل***"، والمقصود من تصوراتهم بوجود فرق واضح وصريح بين مفهوم الذكر والرجل، مما يستلزم بنا إعادة النظر في سمات الذكورة والرجولة، ولقد وصل التهكم والسخرية حول النماذج الذكورية في المجتمع الذكوري بنفسه، عندما أشار إلى فكرة ليس كل من يرتدي سروالا، فهو بالضرورة رجل، "***مشي قاع الذي يلبس السروال ينعد راجل***"، مثل هذا الكلام له عدة دلالات رمزية، أهمها أساس بناء الرجولة هي المبادئ والقيم الحسنة.

بينما علاقة الرجل بالمرأة فهذا الموضوع مفروغ منه، على أساس أفضلية الرجل على المرأة حسب النص القرآني وثقافتنا العربية الإسلامية. وما زال يتمرس العديد من الرجال على إظهار ذكورتهم من خلال

العنف الكلامي أو الجسدي اتجاه النساء في أغلب الأحيان، وأيضا اتجاه الذكور الآخرين، وقد نلاحظ أن العنف مرتبط بالذكورة (شاوول. م، 2006، 88).

وفي نفس السياق أشارت لنا **Michelle pérrot** مدى معاناة الرجال من الهيمنة والعنف، فموضوع الهيمنة الذكورية مرتبط أيضا بعالم الرجل، وبالتالي ليس كل النساء ضحايا حسب ما أضافته **Elisabeth Badinter** دائما هناك الأفضل والأسوأ في النساء المهيمنات (Mounir.H, 2013, 52)، لأنها في الواقع هي مجرد طعم لضرب الرجل في شرفه ما دام أنها تمثل شرف الرجل.

ولا نغفل أيضا كيف توظف هذه الذكورة مصادر لتعزيز وجودها الاجتماعي، ويتضح لنا ذلك من خلال ارتباطهم الوثيق بالموروث الاجتماعي والثقافي الخاص بهذا المجتمع، كمصدر قوي لإعلاء من مكانة الرجولة وحماية امتيازاتهم، والمتمثل في الثقافة الأبوية، الأمثال الشعبية الأعراف والعادات والتقاليد. فالرجل لن يكون رجلا إلا من خلال الحفاظ على مكانته الاجتماعية، باعتبار دوره ثابت ومعترف به عبر الأجيال وفي كل المجتمعات الإنسانية جمعاء، وحاليا مع "اندماج ودخول الرجال تحت راية العالمية، تبقى النساء تعيش حالة المفرد، والتفرد" .(Jalley.E, 2015, P. 30-31)

ويمكن الإشارة في البداية إلى مكانة الذكورة المهيمنة في ظل النظام الأبوي، فهي "الأنموذج **archétype** الذي تحوم حوله عديد التصورات والتمثلات الاجتماعية فتجعله يحتل المركز في حين توضع بقية الذكورات في الهامش، إنها مركبا علائقيا إذ أنها لا تعرف إلا من خلال الآخر المختلف، ونعني بذلك باقي الذكورات وكذلك الأنوثات. فهي بحاجة إلى الآخر حتى تبرز تفوقها وتعاليمها وتميزها واستحقاقها أن تكون في مرتبة الصدارة، وفي هذا الصدد يشير لنا المبحوث **سفيان:** ***"الراجل يبقى ديما راجل".***

بينما إذا رجعنا إلى تصورات الشابات، فقد اتفق معظمهن وارتكزت مواقفهن حول ثبات وصمود مكانة الرجولة في المجتمعات الإنسانية جمعاء بالمقارنة مع مكانة المرأة القابلة للخدش والتغيير، لذلك أبسط شيء أو كلمة تؤثر في المرأة وتغيرها وتألمها وتمس كرامتها وشرفها بل حتى شرف أسرتها، بينما راجل يقعد راجل، كما يقولون " ***الراجل يسكر***(يشرب الخمر) ***وينام في رصيف الطرقات ويبقى راجل***" هذا ما ركزت عليه الشابات في تصوراتهن.

قد لا نتساءل عن ما فرض على الرجولة، ولكن تبقى الذكورة قيمة ثابتة ونموذج يقتدى به" (Grégoire.M, 1965, P.07)، وهذا الحكم الثابت والصارم يؤكد ثبات سمات الذكورة من أجل بناء الرجولة على أكمل وجه، فتصور **سفيان** يحمل معاني قوية مرتبطة بالبيولوجيا التي تخدم توجهات ذكورية باعتبار الرجل أقوى من المرأة من عدة جوانب، ومن جهة أخرى تشير إلى تحدي لكل الظروف والعوامل التي تعمل جاهدة لتغيير أوضاع وأحوال العلاقات ما بين الرجال والنساء.

وبالتالي سلطة الرجل لا ترتبط بالقوة فحسب، ولكنها هبة ربانية في تصرف الرجل، ونلتمس ذلك من خلال توظيف الطلاب للنص القرآني لتبيان مسألة أفضلية الرجل على المرأة من خلال "**الدرجة**" (Pruvost. L, 2002, P. 55).

ثالثا-الرجولة المختفية وأزمة الرجولة

إن مركزية السلطة في المجتمع الذكوري تتمحور وتدور حول مفهوم الرجل والرجولة من خلال دوره داخل الأسرة في الإعالة واتخاذ القرار والمراقبة والمعاقبة، وقد تتوسع هذه السلطة على مستوى الأسرة الممتدة، الجوار خصوصا عند غياب بعض الرجال، فيتحمل الجار أو العم من باب الشهامة والنخوة مسؤولية الغائب حتى يعود في النفقة وحماية الأتباع وحفظ العرض والشرف، مما يستلزم احترام كبير وخضوع لهم.

ويمكن عموما القول بارتباط ظاهرة العنف بالرجولة، إذ أنه "يدافع عن امتيازات ذكورية، العنف هو ذكوري لأن الذكور يضعون قواعده" (شاوول. م، 2007، 88)، ومن جهة أخرى العنف مرتبط بالمجتمع البطريركي، لأن هذا المجتمع هو الذي وضع العنف في صميم توجهاته، الذكورة البطريركية وهي الذكورة المهيمنة.

ولكن ينبغي الإشارة إلى العنف اللفظي، المرتبط بأبشع وأبخس أشكال العنف والسيطرة، والتي من خلالها يحاول الرجل بناء نموذج الذكورة المهيمنة، التي فشلت في تحقيق أهدافها، والمتمثلة بالتحديد من خلال توظيف الرجل في خطابه بصفة خاصة حمايته لأتباعه من باب الشرف في المقابل يحاول التطاول بالكلمة العنيفة على أتباع الآخرين. وكلما كان هذا الآخر الرجل أكثر غبنا في وضعيته ومكانته الاجتماعية، مارس قهرا أكبر ومضاعف على المرأة، من خلال متابعتها ومراقبة من باب حماية شرفه.

ولذلك كثيرا ما يكثر الكلام وتعليق عن عرض وشرف بعض النساء بالكلمة كنوع من العنف اللفظي، وهو يدل كيف يتم ضرب وتعدي على بعض الرجال، وليست المرأة هي المعنية بالتحديد وانما جماعة الرجال التي تنتمي لها وكذلك المرأة التي تدخل في تحدي وتقاوم من أجل نجاحها الدراسي والعملي ارتبط بها هذا العنف ويتخذ عدة أشكال لسبب خروجها للفضاء العمومي. ولقد تكرر معنا كثيرا هذا التساؤل والذي يفيد ويعلن عن أزمة وتخوف ذكوري جراء المكتسبات التي توصلت إليها المرأة الجزائرية الحالية من نجاحات في كل الميادين الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية.

حافظت لنا الذاكرة الجماعية، من خلال هذا المثل، الذي استشهد به أحد مبحوثينا **علي** ليعطينا تعريفا موجزا عن الرجل الذي ارتبط بمراتب وطبقات الرجال، حيث يقول: "***الراجل طبقات، كاين تراس، وكاين تريريس، وكاين تريريسة***"، ويقصد ***بالتراس*** نموذج الرجل الحقيقي حسب المخيال الشعبي، الذي

يجب أن يقتدى به حسب تصورات المجتمع التقليدي، يتميز بجملة من المواصفات كالشجاعة، المسؤولية، قوة الكلمة، الشهامة، الكرم، وكثيرا ما تربط به كلمة: ***"التراس داريازالرقبة"*** ، ومع تراجع دور الرجولة ظهرت أسماء تبين وتفسح على ذلك مثلا رجل يتمنظر، نظريكو، ومؤخرا يفريمي راجل تع لافريم **La frime**، غير أن هذه التسمية ارتبطت بكلا الجنسين فأصبحت المرأة أيضا تفريمي وتتباهى بنجاحاتها وانجازاتها.

فكلمة ***رجل اليوم*** أصبحت مرتبطة بالتباهي، ***"أنا ندير، أنا، أنا نقضي، أنا نعرف أنا نعرف فلان، نقضي لك لافار*** **l'affaire** "، والمعرفة لا تقترن بالعلم ولكن بمعرفة الأشخاص المرتبطين بالسلطة والشخصيات المهيمنة، فالرجل الذي كان يستخدم هذا الفعل يدعى بنظريكو، وقد سادت مثل هذه التسميات في السبعينات وحتى الثمانينات من القرن العشرين. فكثيرا ما كان يتباهى الرجل برجولته من خلال الشارب **Moustache** وعمله، خصوصا إذا كانت وظيفته مرتبطة بالأمن العسكري. ومع نهاية التسعينات إلى غاية يومنا الحاضر، ظهرت باسم جديد "يفريمي" **la frime** التباهي من خلال الذكورة، وحتى الأنوثة. وقد ارتبط بالرجل عدة تسميات مهينة بسبب تراجع دوره والمتمثل في الإعالة والنفقة على أتباعه وحمايتهم مع مراقبة النساء وحركتهن، ومن بين هذه الألقاب أستسمحكم أن نشير إليها مع احتراماتنا للقراء مثلا ***الامعة، رجالة أخر زمان، مشي أولاد الفاميليا*** هذا ما أشار اليه الشبان، بينما ***الفحل. الراجل الرقبة***، فهذه الكلمات تجمع بين الشجاعة والمروءة، ومزيج من الفحولة وشخصية متمرسة وضبط النفس، فقد أقترنت برجال الزمن الماضي ***بكري***، وهي مازالت موجودة ومستمرة ولكنها شخصيات نادرة الوجود، فمعدن الرجل الجزائري الحقيقي يقاس بالمواقف والأخلاق الحسنة.

اتفق معظم الطلاب بعدم وجود نموذج الرجل الحقيقي، "***رجالة كانوا بكري***"، "***رجالة تع اليوم ما راهم رجالة***"، "***خلاص رجال ما بقاوش، راه انقرض***"، وهناك بعض الشبان، من يحمل الدولة المسؤولية الكبيرة في تراجع دور الرجولة، حيث يرون: " ***الدولة والقوانين تع امريكا ذلت الرجل، الآن، المرا تهدر معاها ولا غيرتشوف فيها تبهدلك ولا تشكي بك***".

ومن تجليات التباهي أو ما يعرف في مجتمع الجزائري بظاهرة ***لافريم***، تحول لغة وكلمات الرجل، اذ أصبح يستخدم كلمات رقيقة وبنبرة صوت هادئة غير عالية انعكاس لصورة الاعلام والسينما الغربية، بالإضافة إلى تباهي بأحدث ماركات السيارات التي ركبها، قصة شعره، والعطور الفرنسية، والأماكن التي زارها.

وتجدر الإشارة هنا إلى النموذج الأبوي السلطوي السائد في غالبية المجتمعات العربية اليوم، الذي يقوم على مجموعة صفات لعلى أهمها:

-أن الرجل الحقيقي هو الذي يفعل وليس موضوعا للفعل، بمعنى أنه يفرض شروطه على الآخرين، ويكون عنيفا في التعبير عن رغباته وحاجاته، وفي السعي لتحقيق أهدافه.

-أن الرجل الحقيقي هو رب العائلة، هو المعيل لأهله ولبيته، وله كامل الحق في استعمال موارده حسب ما يراه لائقا وما يحلو له (العياشي. ع، 2008، 312).

لذلك الكثير من الرجال يستعملون العنف لفرض الأدوار النمطية التقليدية على النساء، ولمنعهن من حرية الحركة وحرية التصرف في أجسادهن (بن سلامة. ر، 2005، 87).

-أن الرجل الحقيقي قوي لا يعترف بأخطائه وقد لا يعترف بها إطلاقا، ولا يساوره الشك والتردد لأنها من صفات الإنسان الضعيف.

-أن الرجل الحقيقي يعير اهتماما قليلا جدا لمشاعر وأحاسيس شريكته في الحياة (العياشي. ع، 2008، 311).

إذن كما سبق لنا الإشارة لقد اقترنت الذكورة بالعنف لتثبت أسسها في النظام المجتمعي ككل، فربط المجتمع الجزائري بين دور الحقيقي للرجولة وارتباطه بالسيطرة والعنف ***"الراجل حار وينسف النار"*** وكذلك ***"الراجل هيبة لو كان راهو ذيبة (بمعنى الذئب)"*** فمثل هذه المصادر المنتجة من طرف الثقافة الأبوية، قد ساهمت في خضوع المرأة للرجل من باب القوامة وحماية الأتباع.

ولا نغفل هنا أيضا، الغاية وما قصدنا من الوقوف عند هذه الأمثال الشعبية حسب ما أشار إليها مجتمع البحث من خلال سجلاتنا قصدا لنبين كيف سعى المجتمع إلى ترسيخ معايير تحدد الذكورة بالعلو والرفعة والقوة العقل والكمال...الخ، في مقابل معايير مضادة نسبت للأنوثة كالضعف، الخضوع، النقصان...الخ، فالذكورة هي بناء إيديولوجيا (قرامي. أ، 2007، 913) في خدمة النظام الاجتماعي فما كان بالإمكان القبول بالتمكين والمساواة لأنها تهدد التمييز بين الجنسين بالزوال، فتغدو الأنوثة متفاعلة مع الذكورة، "وهو أمر مرفوض لأن النظام أنبنى على التضاد والمقابلة بين عالم الرجال وعالم النساء" (قرامي. أ، 2006، 913).

خاتمة:

لقد استطاعت الدول الغربية في عصر العولمة ممارسة هيمنتها الاقتصادية والثقافية وحتى السياسية على دول النامية خصوصا الدول العربية والإسلامية من خلال ما تبثه في النشاط الإعلامي، وهنا يتبين لنا بوجود ترابط ما بين الإعلام والعولمة. وهذا الحال يقاس على مجتمعنا الجزائري، فقد أشار لنا الشبان سابقا (بتحديد مقابلة رقم 06 ورقم 13) من جامعة وهران على وجود قوى دخيلة وخفية ساهمت في تصدع العلاقات بين النساء والرجال، من خلال تغيير الأدوار ومن بين ضغوطات النظام العالمي الجديد في عصر العولمة على مجتمعات الإسلامية قضية تعديل قانون الأسرة الجزائري، حيث يتفق كل الشبان على

رفض هذا التعديل وبقوة، وهم يرون أن الدولة تهدد للتفوق الذكوري التقليدي وتخدم مصالح الامبريالية من خلال سياسة تمكين النساء.

وفي هذا المقام اتفقت تصورات الشبانية حول دور العولمة ووسائل الإعلام في تبدل بنية الأسرة والعلاقات الجندرية، إن الشعور بالخيبة يؤدي إلى تراجع وتقهقر في مسألة المبادئ والقيم، وعدم ثقة الشباب بالدولة مما ينتج عدم الثقة في المؤسسات الدولة وكل من يتعامل مع هذه الأخيرة، ليصل الغبن الاجتماعي بالمرأة، كل هذا أحدث نوع من التصدع في معظم علاقات بين النساء والرجال بسبب عدم الثقة، مما أنتج تحول وتبدل في يعض المعاني الحساسة كالشرف والحشمة والحياء والحق والباطل.

باختصار فان نتائج البحث أشارت بوجود صراع بين الغرب والمسلمين، وكيف يتصور العالم الغربي وماهي مخططاته، ومن خلال تصورات الطالب الجامعي فقد ربط مفهوم الرجولة برباط جدلي مع الشرف.

قائمة المراجع:

1-الكتب:

- أجاسينسكي سيلفيان، 2011، سياسة الجنسين، (ترجمة: عز الدين الخطابي وزهور حوتي)، بيروت، روافد للنشر والتوزيع.
- أمل قرامي أمل، 2007، الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية، بيروت، دار المدار الإسلامي.
- يوسف نور الدين سعاد، 2006، المرأة العربية في البرلمان، التمكين الجنساني، دار النهضة العربية، بيروت.
- عبد الرشيد بدران محمود، 2000، علم الاجتماع ودراسات المرأة، تحليل استطلاعي، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية.
- شكري علياء وآخرون، 1998، المرأة والمجتمع، وجهة نظر علم الاجتماع، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
- بن سلامة رجاء، 2005، بنيان الفحولة، دمشق، دار البترا، الطبعة الأولى.

2-المجلات:

- العياشي عنصر، 2008، الأسرة في الوطن العربي، من الأبوة إلى الشراكة، من عالم الفكر، العدد3، المجلد 36.
- شاوول ملحم، الذكورة، 2007، السلطة والنفي النسوي والتيه، مقاربة سوسيولوجية، ص ص(79-99)، من باحثات، الرجولة، والأبوة اليوم، عدد12، بيروت، لبنان، المركز الثقافي العربي.

- مي الدباغ، أسماء رمضان، 2014، النوع الاجتماعي في الوطن العربي: نحو تأصيل المفهوم واستخدامه في صياغة سياسات عامة فعالة، ص.ص371-394، من مجلة مستقبل العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، بيروت- لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.

3-المراجع الأجنبية:

- Ferreol Gilles, 1995, Dictionnaire de Sociologie, 2ème édition, Armand Colin, Paris.
- Serge Moscovici, 1976, La psychanalyse son image et son publique, édition PUF.
- lebaron Frédéric, 2009, la sociologie 250 mots pour comprendre, Dunod, paris.
- lamchichi Abderrahim, 1999, Islam et musulmans de France, Paris, Ed l'Harmattan.
- Mounir Hakima, 2013, entre ici et là-bas, le pouvoir des femmes dans les familles maghrébines, presse universitaires de Rennes.
- Jalley Emile, 2015, la théorie du genre dans le débat français, paris, éditions l'harmattan.
- Jodelet Denise, 1995, Les processus de formation des representations rendent compte, Paris, PUF.
- Ménie Grégoire, 1965, Le métier de femme, librairie Plon, France.
- Pruvost Lucie, 2002, Femmes d'Algérie société, famille et citoyenneté, Alger, Ed Casbah.

الطرح السينمائي الفرنسي لانعكاسات حالة الطوارئ لسنة 2015 على المسلمين في فرنسا - دراسة سيميولوجية للفيلم السينمائي–SOUMAYA

French Cinematic Presentation of the Repercussions of the State of Emergency of 2015 on Muslims in France - A semiological study of the film Soumaya -

د. إيمان فوال، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر
imanfoual@gmail.com

ملخص البحث

تعد هذه الدراسة تحليلية سيميولوجية، تنتمي إلى الدراسات الكيفية. هدفها العام التعرف على الطريقة التي عالجت بها السينما الفرنسية انعكاسات حالة الطوارئ لسنة 2015 على المسلمين في فرنسا من خلال تحليل فيلم Soumaya. توصلنا في الأخير إلى مجموعة من النتائج أهمها أنّ الفيلم يتناول ظاهرة الإسلاموفوبيا ويُظهر المعاناة المختلفة التي تعرض لها المسلمون بعد حالة الطوارئ التي أعلن عنها الرئيس السابق فرانسوا هولاند، حيث ركز الفيلم بشكل كبير على الإسلاموفوبيا المؤسساتية التي تجلّت في فصل سمية عن العمل لأنّها ترتدي الحجاب وتشارك في النشاطات الخيرية في المسجد وتم اتهامها أيضا بالتواطؤ مع الجماعات الإرهابية. استنتجنا أيضا أنّ رجال الأمن استغلوا سلطتهم بطريقة تعسفية اتجاه المسلمين وذلك بمداهمة وتفتيش المساجد وبيوت المسلمين والاعتداء عليهم وتعنيفهم ...

الكلمات المفتاحية: السينما الفرنسية، حالة طوارئ 2015، تحليل سيميولوجي.

Abstract:

This study is considered a semiological analysis, and it belongs to the qualitative studies. Its general goal is to identify the way French cinema presented the repercussions of the state of emergency on Muslims in France, through the analysis of the film Soumaya, and the study relied on the semiological approach. Finally, we concluded that the film deals with the phenomenon of Islamophobia, and shows the various sufferings that Muslims experienced in France after the declaration of the state of emergency in 2015 by François Hollande. The mosque, accused of collusion with terrorist groups. Security men abused their authority during the state of emergency (for 2015 in France) in an arbitrary manner towards Muslims. Raid and search by the security apparatus of places of worship such as mosques, as well as Muslim homes…

Keywords : French cinema, Emergency 2015, Semiological analysis.



مقدمة:

يرى **إدوارد سعيد** "أنّ مفردة الإسلاموفوبيا تنتمي إلى سجل ثقافة الكراهية والتّميز العنصري والعداء للسّامية الذّي كرّسته الدراسات الاستشراقية عن الإسلام والمسلمين عبر تاريخ الصراع الطويل بين الإسلام وتقليد اليهودي -المسيحي"(بن تمسك، 2017، صفحة 06) فهي ليست وليدة اليوم؛ إلّا أنّ هناك وقائع ومستجدات أسهمت في تفاقم الظاهرة وتناميها في المجتمعات المعاصرة على غرار هجمات شارلي إيبدو في 7 جانفي 2015 ثم هجمات 13 نوفمبر من السنة نفسها بباريس، والتّي أعلن إثرها الرئيس الفرنسي آنذاك حالة الطوارئ. وهذه الهجمات وغيرها نسبت إلى الإسلام والمسلمين ما جعلهم العدو الأول للغرب، ولم يعد الحديث عن المسلم والإسلام إلّا مقرونا بالإرهاب والتطرف. وقد تجلّى هذا الفكر المتطرف الغربي في المضامين الإعلامية إذ يذهب **ليونيل أرنو** إلى أنّ الإعلام الفرنسي "قد لعب كثيرا على المصطلحات في فترة الهجمات، فكان يستعمل مصطلح الإرهاب Terrorism مرادفا لمصطلحي الإسلام والإسلاموي Islamism، وكان ينتقل من مصطلح إلى آخر دون إشعار القارئ بأي تغيير في المجال التّداولي والدّلالي لهذه الكلمات، ممّا يوحي للمتلقي بأنّه أمام مصطلحات مترادفة فعلا: مختلفة لفظاً ومتّحدة معناً"(المنصوري، 2014، صفحة 282). وقد أثبتت نظريات التّأثير في الإعلام أنّ استهلاك المتلقي لمضامين إعلامية من خلال ذلك التّدفق المعلوماتي، كالأخبار والرسائل الضمنية والصريحة يؤثر في توجهاته ومواقفه وسلوكياته وكذا في تشكيل الرأي العام.

ولأنّ السّينما "وسيلة إعلامية جماهيرية للتوجيه والإقناع والتثقيف والتعليم، ويمكن أن تكون وسيلة هدم جماهيري أو فساد شعبي لو أسيء استخدامها وفسد مضمونها"(شعبان صبطي، 2012، صفحة 97)، فهي من أقوى الوسائل التي يتم من خلالها تشكيل الصورة الذهنية لدى الجماهير، كونها قادرة على تخطي الحدود الجغرافية لتخاطب كل الأجناس البشرية بمختلف ألسنتهم وثقافاتهم، فهي لغة عالمية ولهذا يقال أنّ "السينما تذهب إلى كل مكان"(حدو، 2016، صفحة 178) ككناية عن قدرتها على الوصول إلى أذهان كل الشعوب. وعليه نطرح السؤال الرئيس التالي:

كيف تمثّلت انعكاسات حالة الطوارئ في فرنسا على المسلمين في الفيلم السينمائي الفرنسي Soumaya؟

ومن هذا التساؤل، تتفرع الأسئلة الجوهرية الآتية:

- فيما تمثلت المعاني الضمنية والدلالية التي نقلها الفيلم السينمائي سمية للمشاهد عن انعكاسات حالة الطوارئ على المسلمين في فرنسا؟
- كيف عبّرت الرسائل الأيقونية والرسائل الألسنية عن انعكاسات حالة الطوارئ على المسلمين في فرنسا في الفيلم عينة الدراسة؟
- ماهي النماذج التي أبرزها فيلم سمية عن المسلمين في فرنسا في مواجهة حالة الطوارئ؟
- كيف تجلّت الإسلاموفوبيا في فرنسا بعد حالة الطوارئ في الفيلم؟

أولا-التعريف الإجرائي لمفاهيم الدراسة:

أ-حالة الطوارئ في فرنسا: تلك التي أعلن عنها الرئيس فرانسوا هولاند ليلة 13 نوفمبر 2015 بسبب سلسلة من الهجمات الدموية والمتزامنة في ستة مواقع مختلفة، أسفرت عن مقتل 132 شخصًا على الأقل وإصابة قرابة 350 جريحا، وعليه دعا الرئيس الفرنسي جيشه للنزول إلى الشارع للمساهمة في الحفاظ على أمن البلاد، معتبرا الهجمات تهديدًا ليس لفرنسا فقط وإنّما لكامل دول الاتحاد الأوروبي. كما وصفت الصحافة الفرنسية هذه الهجمات بأنّها الأكثر دموية في أوروبا خلال الأربعين سنوات الماضية بعد الهجمات التي ارتكبت في مدريد في 11 مارس 2004.

ب-الفيلم السينمائي: هو تقنية التصوير وعروض الصور المتحركة عن قصة بالصوت أو بدونه وكذا الخدع البصرية والمؤثرات الصوتية وكذا الإضاءة، الديكور، الألوان والشخصيات وفق تتابع زمكاني للأحداث في إطار عام يجمع ويكثف ويبرز الأحاسيس والأفكار المراد التعبير عنها وغيرها في الفيلم السينمائي "Soumaya" من السينما الفرنسية عينة الدراسة والتي تصنّف ضمن الأفلام السينمائية الدرامية.

ثانيا-منهج الدراسة:

اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج السيميولوجي باعتباره يقوم على الوصف والتحليل بل يتعدى الوصف الظاهر ليشمل المعنى المعمق وذلك بالكشف عن الدلالات اللغوية وغير اللغوية، بمعنى آخر تفكيك الرموز وتركيب الدوال اللغوية النصية أو البصرية لكشف المعنى أو المعاني واستخراج دلالتها. ومن ثم فالهدف من دراسة المحتوى سيميولوجيا وتطبيقيا، هو البحث عن المعنى والدلالة واستخلاص البنية المولدة للمحتوى منطقيا ودلاليا. (تمار، 2017، صفحة 17)

كما وظّفنا في هذه الدراسة **مقاربة رولان بارت السيميولوجية** التي تقوم على تفكيك مختلف الدلالات المتضمنة في الفيلم السينمائي "Soumaya" باعتبارها من أكثر المقاربات اختيارا في توجهات بحوث الإعلام والاتصال التي تُعنى بتحليل المضامين السمعية البصرية خاصة منها الأفلام السينمائية لأنّها مشبعة بالدلالات الظاهرة والباطنة، شأنها شأن المضامين الإعلامية المختلفة التي تنتج رسائل ذات معاني مركبة ومعقدة. كما استخدمنا **مقاربة جاك أومون وماري ميشيل** التي تعتمد على **التحليل النصي للغة السينمائية** كأداة نقدية لسبر أغوار الفيلم واكتشاف الشكل أو الدال الفيلمي للوسيط السردي. (يخلف، 2012، صفحة 164).

ثالثا-مجتمع البحث وعينة الدراسة:

يتكون **مجتمع البحث** لدراستنا من الأفلام السينمائية الفرنسية التي قاربت موضوع الدراسة. وفيما يخص عينة الدراسة فقد اعتمدنا على **العينة القصدية**، فبعد الاطلاع على الإنتاجات السينمائية، قمنا باختيار فيلم "Soumaya" وذلك للاعتبارات الآتية:

- للفيلم علاقة مباشرة بالموضوع، وهو أول انتاج سينمائي يقارب موضوع المسلمين في فرنسا من منظور يختلف عمّا هو متداول في الأفلام الفرنسية، حيث استعرض الأضرار التي لحقت المسلمون الناتجة عن حالة الطوارئ.
- الفيلم مقتبس من قصة حقيقية.
- امتناع وسائل الإعلام الفرنسية الحديث عن الفيلم وتجاهلها له بالرغم من تناوله قضية تشغل الرأي العام في فرنسا.
- منع الرقابة الفرنسية من عرض الفيلم لما تناوله من معاناة المسلمين في فرنسا، حيث تراجع عرضه من طرف قاعة السينما le Grand Rex بعدما وافق مديرها على ذلك، بحجة أنّ الفيلم يتناول قضية حساسة وآنية تمس المجتمع الفرنسي.
- الموقف اليميني المعارض للفيلم ودعوته لقاعات السينما الفرنسية لمقاطعته.

رابعا-بيانات أولية حول الفيلم:

1-بطاقة فنية عن الفيلم

عنوان الفيلم	**SOUMAYA**
الجنسية	فرنسية
المدة الزمنية	ساعة و42دو45ثا
نوع الفيلم	دراما تراجيدية (مستوحاة من أحداث واقعية)
المخرج	Waheed Khan et Ubaydah abu-Usaïd
سنة الانتاج	2019
سنة العرض في دور السينما	فيفري 2020 بباريس
مكان التصوير	فرنسا والمغرب
ميزانية الفيلم	27000 يورو
الإنتاج	Le Cerceau بالشراكة مع ANKII Production ، بدعم من CCIF (Collectif Contre l'Islamophobie en France)
الممثلون	صورية هاشومي، صونية ملاح، خالد بركوز، إسلام صحيلي، آسيا أيت عبد المالك وآخرون ...

2-ملخص الفيلم:

سمية بطلة الفيلم تشتغل كإطار في فيسكو (FESCO) شركة أمن المطارات، كانت تعمل لمدة أربعة عشر (14) عامًا في هذه الشركة، ثم تم طردها دون سابق إنذار. وتكتشف خلال وسائل الإعلام أنها طردت

بتهمة التواطؤ مع الجماعات الإرهابية؛ بعدها تشرع سمية في إجراءات قانونية بسبب الإجراء التعسفي في حقها.

1.التحليل التعييني والتضميني للمقاطع المختارة من الفيلم

المقطع الأول: جينيريك بداية الفيلم (مداهمة الشرطة لبيت سمية)

أ.التحليل التعييني: يفتتح فيلم سمية بصورة سوداء تصاحبها بيانات كتابية عن المؤسسات التّي أسهمت في انتاج الفيلم السينمائي والمتمثلة في **ANKII PRODUCTION** وهي مؤسسة فرنسية لإنتاج الأفلام السنيمائية و**Collectif contre de l'islamophobie en France** (CCIF) يصاحبها إيقاع موسيقي، ثم نشاهد في **فضاء داخلي** بلقطة قريبة جدا شرطيين ملثمين الوجه يرتديان لباس أسود، بيد أحدهما مطرقة، ثم نشاهد بلقطات بطيئة فرقة من رجال الشرطة ملثمين الوجه يرتدون زي رجال الأمن بالأسود بيدهم أسلحة في طابق أحد البنايات يقتربون ببطء من بيت سمية ونرى واحد من الشرطيين يتحدث بجهاز اتصال لا سلكي ثم نشاهد بلقطة صدرية (من الخلف) أربعة شرطيين أحدهم يطرق الباب بقوة ونرى مكتوب على ظهره POLICE. كما صاحبت هذه الصور أسماء الممثلين، ثم تنتقل الكاميرا لنشاهد **جيهان** بنت سمية بلقطة مقربة واقفة عيناها تدمعان لا تتحرك ومرعوبة من مداهمة الشرطة للبيت في ساعة متأخرة من الليل ويظهر ذلك من نظرتها الفارغة. بعدها يظهر **عنوان الفيلم SOUMAYA** مكتوب باللّون الأبيض باللغة الفرنسية على خلفية سوداء، يُختَم الفيلم بالجينيريك وذلك بذكر أسماء المخرجان باللّون الأبيض على خلفية سوداء.

ب.التحليل التضميني: ينطلق جينيريك الفيلم بظهور كادر سينمائي ثابت، هذا الجزء من السرد يطلق عليه "**اسم ما قبل العنوان**" وهو الفاصل الزمني، يقع بين بداية العرض لشريط الفيلم وظهور عنوان الفيلم. إنّ الغرض من مثل هذه اللقطة في بداية الفيلم يسمح للمشاهد بفهم الموضوع المطروح على مستوى السرد وبالتالي أدت هنا اللقطة ذات الخلفية السوداء **وظيفة إيضاحية** حول الشخصيات التي ستتمحور حولها أحداث الفيلم. كما استهل المخرجان الجينيريك بأسماء المؤسسات التي أسهمت في انتاج الفيلم مثل Collectif contre l'Islamophobie en France (CCIF) (الجمعية ضد الإسلاموفوبيا في فرنسا) وهو اسم جمعية فرنسية ناشطة تأسّست سنة 2000 تهدف إلى مكافحة التميز والأحكام المسبقة عن المسلمين بسبب انتمائهم الحقيقي أو المفترض إلى الدّيانة الإسلامية، كما تقدم إلى الضّحايا مساعدة قانونية ونفسية، وتعمل كذلك على إحصاء حالات التّمييز ضد المسلمين وتصنيفها وتتبعها. يعتبر CCIF أول جمعية يتم اللّجوء إليها من طرف المسلمين المستهدفين من حالة الطوارئ في فرنسا. يشرح المخرجان أنّه تمّ التّعامل معها في إطار تعاون، فقد اعتمدا في البناء السردي لفيلم لسمية على ملف تم معالجته من طرف CCIF، وكان شرط هذه الأخيرة، احترام الوقائع المذكورة في الملف ونقل المشاعر والأحاسيس التي عاشتها المرأة (صاحبة القصة الحقيقية) وابنتها من خلال الفن السابع كما أسهم CCIF في تمويل الفيلم. تراجعت هذه الجمعية عن مواصلة نشاطاتها وحلّت نفسها في فرنسا يوم 27 أكتوبر 2020 بسبب تهديد السلطات الفرنسية بحل الجمعية على رأسها وزير

الداخلية جيرالد دارمانين Gérald Darmanin واتهامه على أنّها على تواطؤ بالإسلام السياسي وعدائها للدولة الفرنسية وجاء ذلك بعد وفاة أستاذ التاريخ ساموبل باتي Samuel Paty ...

يبدأ الفيلم بهدوء تام في المشهد قبل العناوين، كتقنية يتحايل بها المخرج كي يجذب انتباه جمهوره. وقد يختار صانع الفيلم مشهدا قبل العناوين ليجعل الجمهور يخمن حقيقة الشخصيات أو طبيعة الحادث المحوري الذي يجري معالجته دراميا، كما أنّ هناك سببا آخر لاختيار مشهد ما قبل العناوين وهو الإمساك بتلابيب المتفرج على أمل السيطرة عليه طوال العرض، ولذلك فإن بعض صناع الأفلام يحاولون بشكل متعمد جذب المتفرج إلى الحدث منذ البداية (ديك، صفحة 51) كما هو الحال في فيلم سمية.

خلال الثّواني الأولى من انطلاق الفيلم نظن أنّنا نشاهد لصوص أو مجرمين مقنعين بلباس أسود وسترات مضادة للرصاص؛ إلّا أنّ بعد ظهور شعار **POLICE** على لباسهم نفهم أنّهم رجال الأمن. وتعتبر هذه اللّقطات بمثابة مقدمة لبداية أحداث الفيلم: **الشرطة تداهم بيت سمية** (انظر الفوتوغرام رقم 01). بعدها نشاهد مباشرة بصورة مقربة، جيهان ثابتة في مكانها وعيناها تدمعان، (انظر الفوتوغرام رقم 02) وهذا **يدل** على أنّها مرعوبة من طريقة قدوم الشرطة إلى بيتها، فيمكنها أن تفكر في هذا الموقف أنّ البيت تم مداهمته من طرف لصوص أو مجرمين خاصة وأن ذلك حدث ليلا، وبعد هذه اللقطة يظهر عنوان الفيلم **SOUMAYA**.

المقطع الثاني: طرد سمية من العمل

أ.التحليل التعييني: ظهرت سمية في هذا المقطع بلقطة مقربة، تمشي بيدها خمار أرزق سماوي، تدخل المؤسسة وبلقطة مقربة جدا نشاهد وجهها ثم تصور عدسة الكاميرا بلقطة بعيدة طائرة في السماء. تنتقل الكاميرا من الفضاء الخارجي إلى الفضاء الداخلي لنشاهد سمية تتوجه إلى مكتبها، ثم تخرج منه لتذهب إلى مكتب أوريلي مديرة الموارد البشرية. بلقطة حتى الخصر وزاوية عادية من الخلف تصور الكاميرا سمية تَعبُر رواق يوصل بين مكتبها ومكتب أوريلي. كما نشاهد شخصين يخرجان من مكتب آخر بيد أحدهما حامل كاميرا. فتجلس أوريلي مقابلة سمية التي تستفسر عن سبب استدعائها، كما تحاول أن تشتكي من زميلها غييوم، فتسلمها أوريلي رسالة الإقالة من العمل بتاريخ 09 ديسمبر 2015، رواسي Roissy، الرسالة تحمل عنوان: **إقالة من العمل، استدعاء لمقابلة أوّلية.**

بلقطة مقربة نشاهد سمية مصدومة بطردها من العمل بسبب "اهمال كبير"، فتطلب من أوريلي الاتصال بالمدير، تجيبها أنّه غائب، فترد سمية أنّها رأت شخصان يخرجان من مكتبه، فتسأل كيف يمكن طردها بهذه البساطة بعد 14 سنة من توظيفها في المؤسسة، فترد أوريلي بعدم عِلمها وأنّها غير مسؤولة عمّا ورد في الرسالة. تُصرّ سمية مرة أخرى حتى تجيبها أوريلي أنّ المسؤولون عَلِموا بمداهمة الشرطة لبيتها فتستفسر سمية مرة أخرى عن الخطأ الفادح الوارد في رسالة الإقالة، ترد أوريلي أنّها لا تعلم شيئا وأنّها مأمورة فقط، ثم تطلب من سمية تسليم بطاقة العمل وتخاطبها بطريقة رسمية. فتغادر سمية المكان غاضبة وتقول لمديرة الموارد البشرية أنّ الأمور لن تتوقف هنا!

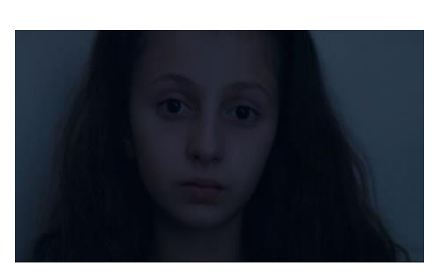
أ.التحليل التضميني: دلالات الرسالة الضمنية للمقطع

في هذا المشهد نتعرف على سمية، بطلة الفيلم في مكتب زميلتها أوريلي، المسؤولة عن الموظفين. تم توظيف الفضاء المكاني المتمثل في المؤسسة **كدلالة توضيحية** لمهنة سمية المتمثلة في كونها إطار بمؤسسة لتأمين المطارات تدعى **فيسكو**. تم تصوير سمية أولا وهي تمشي اتجاه المؤسسة لنشاهد خلفها طائرة تحلق في السماء كإشارة إلى طبيعة عملها، وقبل أن تدخل إلى المؤسسة تنزع خمارها، وهذا **دلالة** على أنّ فيسكو تمنع الرموز الدينية.

اعتذار سمية من زميلتها مديرة الموارد البشرية عن تأخرها عن العمل، بسبب ابنتها التي لم ترد الذهاب للمدرسة **يدل** على أنّ جيهان لازالت مرعوبة ممّا حدث ولا تريد أن تفارق أمّها. تحاول سمية أن تشتكي من زميلها غييوم الذي يزعجها بتعليقاته السلبية عن حجابها وهذه أول إشارة إليه في الفيلم، فهو شخصية خيالية والمتسببة في الأحداث الدرامية التي ستعيشها سمية في الفيلم؛ إلّا أنّ أوريلي تقاطعها وتسلمها رسالة الإقالة من العمل (انظر الفوتوغرام رقم 03). نفهم من خلال تاريخ هذه الرسالة أنّ تم تفتيش بيت سمية، من طرف الشرطة وإقالتها من العمل تقريبا شهر بعد إعلان حالة الطوارئ في فرنسا.

الفوتوغرام رقم (03)





نشاهد سمية بلقطة مقربة، مصدومة من الخبر

(انظر الفوتوغرام رقم 04)، تطلب من زميلتها موعد مع المدير عمّا يحدث، فترد عليها أنّه غير موجود لتغطي عليه وتتفادى اللقاء وهذا **دلالة** على أنّ أوريلي تكذب وتتستر على أمر ما. تلح سمية على زميلتها كي تشرح "الخطأ الفادح" الوارد في الرسالة، فتخبرها أنّ المدير والمحافظ (préfet) على علم بمداهمة الشرطة لبيتها وتفتيشه؛ إلّا أنّ سمية لا تفهم علاقة المداهمة بالإقالة من عملها.

تذكر سمية أنّها موظفة في المؤسسة منذ 14 سنة، ولم يتم توبيخها ولا مرة؛ إلّا أنّ هذه السيرة الذاتية لم تشفع لها، وتم طردها بين عشية وضحاها بسبب غير معلوم لحد الآن. التفسير الوحيد الذي قدمته أوريلي هو أنّ سمية تغيّرت، ومخاطبة أوريلي لسمية بلغة رسمية له **دلالة** على أنّها أصبحت غريبة عن المؤسسة وأنّ قرار الفصل حاسم لا رجوع فيه، ويمكن لسمية أن تعتبر نفسها دون عمل منذ تلك اللّحظة.

الفوتوغرام رقم (04)



تنتقل الكاميرا لتصور سمية خارج المؤسسة، تسمع صوت طائرة فتلتف لترها تحلق في السماء ثم تمشي لتبتعد شيئا فشيئا عن مكان المؤسسة كأنها تودع هذا المكان، فلم يعد باستطاعتها قول أنا ذاهبة للعمل، وهذا **دلالة رمزية** عن انهيار حياتها المهنية. في المقطع الذي سبق صوّرت سمية أنّها في خطر؛ إلّا أنّ في هذا المقطع يتبين أنّ سمية هي الخطر نفسه الذي يهدد أمن الدولة الفرنسية.

تعمّد المخرجان اختيار سمية (امرأة) كشخصية رئيسية ومحورية لسببين؛ أوّلهما أنّ قصة الفيلم مستوحاة من أحداث واقعية والضحية فيها هي امرأة مسلمة. ثانيا، المرأة المسلمة في فرنسا أكثر تعرضا للسلوكيات الاسلاموفوبية لأنها متحجبة وحجابها ظاهر للعيان. فوفقا لبيانات التقرير السنوي لـ CCIF لسنة 2015، تم تسجيل ارتفاع الأفعال الإسلاموفوبيا إلى (18.50) بالمائة مقارنة بسنة 2014، أمّا في 2019 نسبة الممارسات السلوكية الاسلاموفوبية ازدادت بنسبة (77) بالمائة، مقارنة بسنة 2017 حيث سجّل المركز (446) ممارسة سلوكية اسلاموفوبية سنة 2017، بينما ارتفع عددها إلى (789) سنة 2019، ونسبة 70 بالمائة من هذه الضحايا هم نساء.(ccif, 2019) كما هَدَفَ المخرجان من خلال شخصية سمية إلى الحديث عن مكانة المرأة المسلمة في المجتمع الفرنسي، فهي قادرة على شغل مناصب حساسة ومهمة مثل ضمان أمن المطارات الفرنسية، وبهذا يلغي المخرجان الصورة النمطية السلبية المتداولة في الأفلام الغربية عموما عن المرأة العربية أو المسلمة المتمثلة في كونها امرأة أميّة.



المقطع الثالث: مداهمة الشرطة لبيت الشيخ (إمام المسجد)

أ.التحليل التعييني: نشاهد في هذا المقطع بلقطة متوسطة سمية وأخاها سنان واقفان أمام بيت الشيخ يطرق سنان الباب فتلاحظ سمية أن الباب مكسور، فتقوم بالطرق مرّة أخرى، وبينما يهمان

بالرجوع يفتح الشيخ الباب ببطء ويطلب منهما أن يسرعا بالدخول. نلاحظ ضمادة في الكتف الأيسر للشيخ وهو يرتدي قميص أزرق، يطلب من سمية الجلوس. تقوم سمية بفتح الستائر قليلا، ليدخل ضوء النهار لقاعة المعيشة. وبينما يُعدّ سنان الشاي في المطبخ تجلس سمية على الأريكة والشيخ بجانبها على كرسي صغير يكتب على ورقة فوق الطاولة فتسأله سمية عن تاريخ المداهمة، فيجيبها:



الفوتوغرام رقم (05)

"السبت". تسأل سمية الشيخ إن كانت عائلته حاضرة يومها فينهار نفسيا، ويصرخ راجيا منها التوقف عن مناداته بـ "الشيخ" لأنّه ليس كذلك. فتندهش سمية، من ردّة فعله، فيقول لها باكيا: "أنا لا شيء، أنا جبان".

يواصل المخرجان تصوير الشيخ بلقطة مقربة حتى الصدر، وهو واقف يبكي ويروي أحداث المداهمة فيقول لسمية أنّ أمّه كانت جالسة في غرفة المعيشة وزوجته وأبنائه بجانبها. يستحضر الشيخ صور تكبيله من طرف الشرطة وهو جالس على الأرض ويداه وراء ظهره بزاوية غطسية. يقول الشيخ لسمية أنّه كان متفهما لعمل الشرطة إلى أن أخبروه أنّهم يبحثون عن سلاح في بيته، عندها انهار باكيا فيضع يده على رأسه، ويقول أنّه لم ينسَ الشرطي الذي كان يقول له: "اغلق فمك، اغلق فمك..." يواصل الشيخ سرد الأحداث فيقول لسمية أنّه تحمّل كل ذلك إلّا عندما قال ذلك الشرطي لأمه: "اغلقي فمك يا فاسقة"، فنشاهد سمية مصدومة ممّا تسمعه، وتضع يدها على فمها، فيردّد الشيخ بصوت مرتفع "أتقبّل كل شيء إلّا هذا الأمر"، ثم يضيف أنّه لم يتمكن من منع ما حدث، حيث حاول النهوض إلّا أنّ الشرطي ضربه على كتفه، ثم يردد باكيا: "لم أتمكن من فعل أي شيء أقسم أنّني لم أتمكن من فعل أي شيء... إنّها أمي يا سنان... أفضل الموت ألف مرة بدل عيش هذه اللحظات".

ب.التحليل التضميني: الدلالات الرمزية للون في المقطع

نشاهد الشيخ يرتدي قميص **يعكس** حالته النفسية، فاللون الأزرق يحمل دلالات عن الكآبة والحزن العميق ويقترن بالخيبة والهلاك، **ويتجلى** ذلك في شدّة التعب والحزن والارتباك الذي يظهر على وجهه.

الدلالات الضمنية للمقطع: يدل تردد الشيخ على فتح الباب على خوفه من عودة الشرطة، أمّا تكميد كتفه الأيسر فيدل على ضربه أو تعنيفه من طرف رجال الأمن. نشاهد سمية تقوم بفتح الستائر ليدخل ضوء النهار إلى قاعة المعيشة ولهذا **دلالة** على كآبة وانهيار الشيخ نفسيا، فهو يعيش في الظلام رغم ضوء النهار، يفضل البقاء في عزلته بعيدا عن نظرات الجيران له. يؤكد الشيخ أنّ مداهمة بيته تمت يوم السبت أي في اللية نفسها التي داهمت فيها الشرطة بيت سمية، وهذا **يدل** على أنّ المداهمتين تمت للسبب نفسه، أي أنّه هو أيضا متهم بالتطرف والتواطؤ مع الجماعات الإرهابية. يذكر في هذا الصدد الـ CCIF أنّه في 10 ديسمبر 2015، تم مداهمة شخص معروف لأقواله الإسلاموفوبية على شبكة التواصل الاجتماعي

الفايسبوك ووجدت الشرطة (17) سلاحا وأكثر من (3500) رصاصة و(4.9) كلغ من مسحوق أسود (poudre noire) في بيته ولم يتم فرض إقامة جبرية عليه. (ccif, 2015)

يستحضر الشيخ صور تكبيله من طرف رجال الأمن، (انظر الفوتوغرام رقم 05) وتصويره بزاوية غطسية **يحمل دلالة** على شعوره بالضعف والانكسار والتحكم فيه والسيطرة عليه في تلك اللحظة. إضافة إلى الرعب الذّي عاشته العائلة عند اقتحام بيتها ليلا، يتم شتم أم الشيخ ونعتها بالفاسقة، وضرب ابنها عند محاولته التّدخل للدفاع عنها، وهذا **دلالة** على تعنيف الأم معنويا، وشعور الابن بالقصور وتأنيب الضمير لما حدث مع أمّه، وهذا ما أزّم حالته النفسية، إضافة إلى العنف المادي الذي تعرض له. **تحمل** سلوكات الشرطة **دلالات ضمنية** مفادها أنّها تتمتع بصلاحيات واسعة عند المداهمات فتتجرأ على التعنيف بأنواعه، ثم تغادر كأن شيئا لم يحدث، ويبدو أنّ الشرطة لم تجد الأسلحة التي جاءت لتبحث عنها، فغادرت بيت الشيخ تاركة وراءها آثار وتداعيات طويلة المدى على العائلة دون الاعتذار منها.

تنتقل الكاميرا لتصور الشيخ وسمية وسنان داخل السيارة، نشاهد سمية بلقطة مقربة حتى الصدر تسأل إن كان ما وقع للشيخ حالة خاصة، فيرد عليها: **"لا يمكنك تخيل الوسائل التي يمتلكونها سيفعلون كل شيء ... سوف يبحثون في كل مكان لوضعك في مشكلة"**، نفهم من هذه **الرسالة الألسنية** أنّ مداهمة بيت الشيخ ليست حالة خاصة، وإنّما حالة واحدة من بين العديد، حيث يذكر الموقع الالكتروني للقناة الاخبارية France 24 أنّه تم مداهمة وتفتيش(4457) بيت خلال حالة الطوارئ، وقد تم تسجيل حوالي (2000) مداهمة في شهر واحد بعد الإعلان عن حالة الطوارئ. وقد دعت أصوات عديدة إلى إيقاف المداهمات وعمليات التفتيش بعد أن أثبتت فشلها مقارنة بعددها المفرط، ويشهد على هذا الانحراف الأمني الذي أدانه القضاة أنفسهم. ويتساءل مجلس الدولة وهو أعلى محكمة إدارية، عن جدية تطبيق **المادة (66) من الدستور الفرنسي** التي تؤكد أنّ "السلطة القضائية تتكفل بحماية الحرية الفردية"(https://www.france24.com/ar/20160715) ، وذلك بسبب الاستغناء عن موافقة القاضي في الأمر بعملية المداهمة والاكتفاء فقط بالمحافظ، خاصة وأنّ التبليغ يكون من طرف شخص مجهول الهوية، يقوم بإبلاغ الأمن عبر أرضية مكافحة التطرف (La Plateforme Agir pour le Vivre-Ensemble Égalitaire ou PAVEE) عن شخص شكك فيه دون اثبات ذلك، فتقوم الشرطة بمداهمة بيته ليلا. وقد عانت (4000) أسرة معظمها من العائلات المسلمة العديد من المداهمات ليلا والفصل عن العمل والإقامة الجبرية، وهذا ما أثار قلق بعض الجمعيات المدافعة عن حقوق الإنسان بما في ذلك CCIF، التي حذرت في تقريرها لسنة 2015، من خطورة منطق الإبلاغ هذا الذي يخلط بين الإسلام والإسلام الراديكالي والجهاد والذي يخلق عدوًا داخليًا، ويهدف إلى انفصال وانقسام داخل المجتمع الفرنسي.

الدلالات الضمنية للرسالة الألسنية لسنان في المقطع: تنتقل الكاميرا إلى فضاء آخر، فنشاهد سنان في السيارة يقترح على الشيخ إيصاله إلى المسجد؛ إلّا أنّه يرفض تماما ويطلب منه التوجه مباشرة إلى مركز الشرطة. وبعد نزول الشيخ من السيارة يعلق سنان: **"سأجن، لو فرض عليّ الذهاب إلى مركز المؤسسة ثلاث مرات في اليوم"**، نفهم من خلال **الشريط الصوتي** لسنان أنّ هناك تداعيات أخرى

للمداهمة على الشيخ، فقد تم فرض عليه إقامة جبرية تمنعه من الخروج من بيته، وإجبارية الذهاب إلى مركز الشرطة عدّة مرات في اليوم، لتُختصر حياة الشيخ منذ المداهمة في المكوث في البيت والذهاب إلى مركز الشرطة، وهذا يعني أنّه لم يعد يملك حياة اجتماعية، فهو منفصل عن عائلته التي انتقلت إلى جنوب فرنسا للابتعاد عن أجواء التوتر في البيت، كما مُنع من حق مزاولة منهته كإمام، ومُنع من حق الصّلاة في المسجد كمواطن فرنسي مسلم.

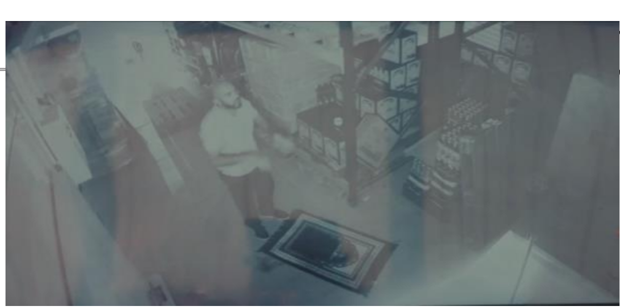
المقطع الرابع: زيارة سمية والمحامي قيس لبشير في بيته

أ.التحليل التعييني: نشاهد في هذا المقطع سمية مع المحامي قيس جالسان رفقة بشير، عامل في المطار الذي اتُّهِمَت سمية بتسليمها له شارة العمل الخاصة بها. فنشاهد بشير يخاطب سمية بلقطة مقربة حتى الصدر أنّ طرده من العمل أمر طبيعي وينبغي تفهم النظام الفرنسي الذي اعتاد أن يبني ثروته على ظهر البلدان المستعمرة في افريقيا، وها هم اليوم سكانها يفجرون هذا البلد (إشارة إلى الهجمات الإرهابية)؛ فتنصدم سمية من تفكير بشير، وكيف يفصل نفسه عنهم، "هم الفرنسيين وهو المسلم" علما أنّه فرنسي مثل باقي المواطنين، فهو ولد وكبر في فرنسا أيضا. كما يتحدث أيضا عن حالة سوريا، فلسطين والعراق، وأنّه من الطبيعي أن يكون هناك مسلمون يريدون الانتقام لإخوانهم بتفجير البلد. فيتدخل المحامي قيس (رفيق سمية) غاضبا من تفكير بشير ويخبره أنّ أمثاله لا مكان لهم في فرنسا، وكل ما يقوله مجرد تفاهات. ثم يضيف بشير أن طرده من العمل بسبب صلاته أثناء فترة الاستراحة يشرّفه، لأنّ الرسول ﷺ والأوّلون من المسلمين طُرّدوا واضطهدوا لأنّهم يصلّون، فتسأله سمية إن كان يعتقد أنّ الإسلاموفوبيا أمر عادي؟ فيرد عليها بشير أنّه لا يعني ذلك، وإنّما تطبيق تعاليم الدين الإسلامي في فرنسا يزعج النظام خاصة في السياق السياسي الحالي أين يمكن لأي مسلم "غير متزن" أن يوصلهم إلى وضع مأساوي، ثم يصف الوضع بالحرب المضادة. نشاهد المحامي قيس بلقطة مقربة حتى الصدر منزعج جدا من كلام بشير. وفي الأخير، يخبر بشير سمية أنّه لم يستخدم شارة عملها.

ب.التحليل التضميني: الدلالات الضمنية لصورة بشير وهو يصلي في المقطع

في هذا المقطع، نتعرف على شخصية بشير الذي كان هو أيضا ضحية لإقالة تعسفية بسبب صلاته وقت الاستراحة. تُظهر الصورة (انظر الفوتوغرام رقم 06) أنّ بشير يُصلّي بحذائه وهذا يدل على أنّه على استعداد لمزاولة عمله إذا حدث طارئ أو تم استدعائه، وعليه فإنّ صلاته لا تُخلّ بعمله ولا بالصالح العام للمؤسسة كما يدّعي أربابها.

الفوتوغرام رقم (06)



الدلالات الضمنية للرسالة اللفظية لبشير في المقطع: نشاهد بشير يعبر عن وجهة نظره المتمثلة في كونه لم يعد يثق بمؤسسات بلده، ولا يؤمن كثيرا بالعدالة، ولا بقيم المساواة والحرية التي يُفترض أن تعتز بها الجمهورية الفرنسية. تكمن خصوصية شخصية بشير في أنه لا يرفع دعوة قضائية عن اقالته التعسفية، وهو بذلك لا يريد محاربة هذا الظلم حتى أنّه يجد ذلك طبيعيا بالنظر إلى تاريخ فرنسا الاستعماري. كما يعتبر أنّ الهجمات الإرهابية التي تعيشها فرنسا ماهي إلّا رد فعل على التّدخل العنيف للدول الغربية في الشرق الأوسط على سبيل المثال، فبالنسبة له، هي حرب مضادة؛ فيتهمه قيس بالترويج وتبرير العمليات الإرهابية التي شهدتها فرنسا.

ركز المخرجان على عمق الإشكال -إشكالية مقاربة وتفسير ظاهرة الإرهاب في فرنسا- وذلك بمقاربة الموضوع برؤيتين مختلفتين، فهناك من السياسيين والمحلّلين الفرنسيين الذين قدّموا نفس تحليل بشير، ولم يتهموا بالترويج للإرهاب، وهذا ما حدث في البرنامج الفرنسي "On n’est pas couché " أين يشرح المفكر والكاتب Michel Onfray مواجهاً الكاتب والمخرج Yann Moix ، فيقول أنّ ما يحدث في فرنسا اليوم هو نتيجة لاستعمار حديث تمارسه فرنسا من خلال سياستها الخارجية المضادة للإسلام، وذلك بقتل المسلمين في أرجاء العالم، ولم يُتّهم بالترويج الإرهاب، بينما عندما يقدّم أي مسلم التفسير نفسه، فيتهم بذلك (كما فعل المحامي قيس مع بشير).

الرسالة الضمنية للمقطع: هدف المخرجان من خلال هذا المقطع إلى تمرير رسالة ذات **دلالة ضمنية** مفادها أنّ نسب الهجمات الإرهابية إلى الإسلام ما هو إلّا تفسير سطحي يتناسى ويتغاضى عن العوامل الاجتماعية والجيوسياسية؛ فالنظر إلى الإسلام على أنّه سبب الإرهاب في فرنسا هو تفسير أسهل من الأخذ بعين الاعتبار القضايا السياسية الجوهرية والمظالم التي تعصف بالكثير من بلدان العالم الإسلامي، أي فشل الكثير من المجتمعات والحكومات في العالم الإسلامي بسبب السياسة الخارجية لفرنسا اتجاهها والمتمثلة في التدخل والسيطرة على هذه البلدان ودعمها للأنظمة الاستبدادية ودعم غزو العراق وأفغانستان... ودعم الحروب الإسرائيلية في فلسطين ومساندة الأنظمة الدكتاتورية العربية وغيرها من القضايا، فالإرهاب في فرنسا ما هو إلّا انعكاس للسياسة الخارجية لها، وهذه هي الرسالة الضمنية التي أرادا إيصالها المخرجان من خلال شخصية بشير الذي يقول: **" أسّست فرنسا حضارتها باستعمار وهلاك واستنزاف ثروات البلدان الإفريقية وتفجير البلدان الإسلامية منذ عشرات السنين كي تبقيهم في حالة ضعف ومسلمو فرنسا يشاهدون ما تفعله بإخوانهم في سوريا، فلسطين والعراق**". ويعد الجيش

العسكري الفرنسي من أكثر الجيوش العسكرية الغربية انخراطا في محاربة الحركات المتطرفة الإسلامية في إفريقيا بشكل مباشر، ويمكن الاستشهاد في هذا الصدد بقول الرئيس الفرنسي السابق **فرانسوا هولند في 11 جانفي 2015**: "**لقد انخرطت القوات المسلحة الفرنسية في هذا المساء إلى جانب القوات المالية لمقاومة العناصر الإرهابية القادمة من الشمال**". ويقول في هذا الصدد ناشط فرنسي في الإرهاب العالمي "**لا غموض في هذه المسألة، يجب مهاجمة الكفار في كل مكان أينما وجدناهم، ومن الأفضل تنفيذ ذلك في بلدانهم، لأنّهم لم يعتادوا رؤية الموت ورؤية الدم ولا خوض الحرب، هم موافقون على الموت عندما لا يرونه، وهم لا ينصدمون بموت الأطفال في كل الأيام، لأنّهم لا يَرَونهم**."(الزايدي 2017، صفحة 88)

كما أشار المخرجان إلى عامل آخر أسهم في ارتفاع العمليات الإرهابية في فرنسا، وهو إقصاء الشباب الفرنسي المسلم من الحياة الاجتماعية ومنعه من الاندماج فيها، حيث غالبا ما تُوَلّد هذه الإجراءات المتطرفة اتجاه المسلمين في فرنسا التطرف نفسه. أكّدت دراسة ميدانية أنجزها مركز دراسة الإرهاب CAT (Center for the Analysis of Terrorism) في عام 2017، أنّ أكثر المنخرطين الفرنسيين في الإرهاب هم أولئك العائدين من سوريا من أصول مهاجرة فرانكفونية، وما يؤكد ذلك أيضا، بروز ما سمي في فرنسا بـ "الإرهاب المحلي" local terrorism، فإنّ (67) بالمائة من الذين قاموا بعمليات إرهابية في فرنسا هم من حاملون الجنسية الفرنسية، فعملية 13 نوفمبر 2015 مثلا نفّذها سبعة (7) عناصر انتحارية، منهم أربعة (4) شباب فرنسيين من الجيل الثاني، وهذا ما يُبرهن أيضا صحة هذه الفرضية؛ فالشباب الفرنسي من أكثر الملتحقين بداعش مقارنة ببقية الدول الأوروبية."(https://www.france24.com/ar/20160715)

ربما يكون الشباب المسلم في أوروبا الأكثر معاناة من البطالة التي تدفع بهم إلى الانحرافات والجريمة، بل إنّ نسبة من الأحداث المتورطين في الخروج عن القانون في فرنسا هم من المسلمين لذا لعلّ عدم التزام الحكومات الفرنسية المتعاقبة بالوعد الذي قطعته للقضاء على مشكلات البطالة ومعالجة التسرب المدرسي... وغيرها في مناطق الضواحي المهمشة أدى إلى فشل النموذج السياسي في معالجة اندماج المهاجرين في المجتمع الفرنسي. وكل هذه الأسباب دفعت هذه الفئة إلى البحث عن هوية أخرى مناقضة للهوية الفرنسية، لتكون صيداً سهلا لجماعات التطرف. (الزايدي، المرجع السابق، ص 90) وعليه، فإنّ مؤسسات الدولة الفرنسية أسهمت في خلق التعصب والتطرف لدى الشباب الفرنسي بسبب سياسة التعامل العنصري والتهميش التي خلفت ظروف اجتماعية مزرية يتم استغلالها من طرف حركات غير قانونية، نتج عنها ظاهرة الإرهاب باسم الإسلام في تلك الدول، حيث صرّح الرئيس الفرنسي الحالي **إيمانويل ماكرون** في خطابه يوم **02 أكتوبر 2020**، أنّ الحكومة الفرنسية أسهت في ظهور الجماعات المتطرفة في فرنسا، وهذا ما يخلّف ظاهرة أخرى أكثر تعقيدا وهي الإسلاموفوبيا.

المقطع الخامس: مداهمة الشرطة للمسجد

أ.**التحليل التعييني**: صوّر المخرجان في هذا المقطع مداهمة الشرطة للمسجد الذي يتواجد فيه سنان برفقة جيهان، تتصل سمية بأخيها لتخبره أنّها قادمة لتأخذ ابنتها. وحين وصولها للمسجد نشاهد بترافليغ خلفي فرقة من الشرطة تتأهب لمداهمة المسجد، فتسرع سمية لتسألهم عمّا يحدث فيطلب منها قائد

فرقة الشرطة التراجع. تتجه سمية نحو سيارتها بسرعة لجلب مفتاح الباب الخلفي للمسجد، وتخبر القائد أنّها تملك المفتاح فلا داعي لكسر الباب؛ إلّا أنّه لا يأخذ كلامها بعين الاعتبار رغم إلحاحها، ويرد عليها: "**أسمعك جدا، لكن وجّهت إلينا أوامر، هل تفهمين علي؟**" نشاهد سنان يطلب من جيهان البقاء داخل إحدى قاعات المسجد، ثم يأخذ كاميرا ليصور ما يحدث في الخارج. نشاهد أحد الشرطيين يلتفت إلى سمية ويصرخ طالبا منها التراجع ثم يجري اتجاهها ليدفعها بكل قواه، فتتراجع سمية بسرعة فيسقط هو أرضا، تنظر سمية إليه مصدومة من سلوكه. يقوم سنان بتصوير ما حدث حتى ينتبه له شرطي ويخبر زملائه أنّ أحدهم يصور من الداخل فتقتحم الشرطة الباب الخلفي للمسجد وتقبض على سنان. يقوم أحدهم برمي الكاميرا فتتكسر. يسقط سنان أرضا فيضربه أحد الشرطيين برجله إلى بطنه ويطلب منه النهوض ثم يتم تكبيل يداه خلف ظهره ورأسه باتجاه الحائط، في هذه الأثناء تحاول سمية الدخول وتخبر الشرطة أنّ ابنتها هناك، فيتم إخراجها بالقوة، ونشاهدها بلقطة مقربة حتى الصدر تبكي وتنادي أخاها. نشاهد بعدها بلقطة مقربة حتى الصدر جيهان واقفة ثابتة مرعوبة ممّا تراه. تنتقل الكاميرا إلى فضاء آخر، لنشاهد سمية رفقة سنان وابنتها جيهان في السيارة يستمعون إلى تلاوة القرآن والصمت سائد.

ب-التحليل التضميني: يحمل هذا المقطع دلالات عميقة على أنّ الشرطة تقوم باستعراض قوتها كجهاز من أجهزة الحكومة الفرنسية وقت هذه الأزمة، وذلك بتدمير المساجد، تحطيم الأبواب المفتوحة تكبيل المسلمين وإهانتهم أمام أسرهم وأطفالهم، فعملية المداهمة هي نفسها: الاندفاع، الخوف الصدمة، وإظهار من هو "القوي". وفي هذا الصدد عبرّت CCIF، حينها عن قلقها بشأن حالة الطوارئ، حيث جاء في تقريرها لسنة 2015، عن النتائج المترتبة على أولئك المستهدفين ظلماً من خلال عمليات التفتيش بعد المداهمات "الوقائية"، ويتم تنفيذ ذلك أحيانًا باستخدام أساليب مشكوك فيها للغاية كالعنف اللفظي والعنف الجسدي، حيث **تجلّى** العنف اللفظي في الشريط الصوتي للشرطي: "**تبًا لك، ألا تفهمين أنّنا طلبنا منك التّراجع**"، أمّا العنف الجسدي فقد **تجلّى** في محاولة الشرطي ضرب سمية والتّهجم على سنان وطرحه أرضا وتكبيله وكسر الكاميرا التي تعتبر إثبات يُدين الشرطة في المحكمة، لذا قام الجهاز الأمني بتكسير آلة التصوير لحذف كل دليل يثبت تورطهم أمام العدالة. ويعد هذا الاستخدام السيء للسلطة مقلق جدا، خاصة وأنّ مركز العلوم للبحوث السياسية، كشف أن أكثر من نصف سلك الشرطة والجيش (51.5٪) صوتوا خلال الانتخابات المحلية لعام 2015 للجبهة الوطنية national front وهو حزب إسلاموفوبي بامتياز. كما سجل CCIF في هذا الصدد، في غضون ثلاثة أسابيع أعقاب هجمات شارلي إيبدو (120) فعل إسلاموفوبي، من بينهم (30) هجومًا على أماكن العبادة، (ccif, 2015) وهذا ما يفسر التصرفات العدائية لرجال الأمن في هذا المقطع.

كما نقل إلينا المخرجان من خلال المشهد الأخير لهذا المقطع، جوّ من الاستقرار والسكينة كأنّ شيئا لم يحدث، ويحمل هذا المشهد **دلالة ضمنية** على أنّ القرآن مصدر للطمأنينة والسلم يلجأ إليه المسلمون لمواجهة الأوقات الصعبة، وبهذا يفنّد المخرجان الصورة النمطية السلبية حول الفكرة المترسخة في أذهان الغربيين عن أنّ القرآن مصدراً للعنف والتطرف.

خاتمة:

بينما يقوم معظم الأفلام السينمائية الغربية بالترويج لصورة نمطية سلبية عن الإسلام والمسلمين حتى أصبح هذا الفكر مترسخا في ذهن الغرب؛ استغل مخرجا الفيلم السينمائي الفرنسي سمية السينما كوسيلة لتسليط الضوء على انعكاسات حالة الطوارئ لسنة 2015 في فرنسا على المسلمين، ومن خلال تحليلنا السيميولوجي للمقاطع المختارة، توصلنا إلى هذه النتائج:

- خلّفت حالة الطوارئ في فرنسا **الإسلاموفوبيا المؤسساتية** التي تجلّت في أولا: مداهمة بيت سمية وفصلها من العمل تعسفاً ودون اخبارها عن سبب الإقالة، ثم اتهامها بالتواطؤ مع الجماعات الإرهابية بسبب ارتدائها الحجاب والمشاركة في نشاطات خيرية في المسجد. كما تم فصل بشير عن العمل لأنّه يصلي في أوقات الاستراحة. ثانيا: مداهمة بيت الشيخ (إمام المسجد) بحثا عن سلاح في بيته بتهمة التواطؤ مع الجماعات الإرهابية دون دليل يدينه ومداهمة وتفتيش الجهاز الأمني للمساجد، وهذا يدل على أنّ رجال الأمن في فرنسا يستغلون سلطتهم خلال حالة الطوارئ بطريقة تعسفية اتجاه المسلمين.

- للفيلم ميزة أساسية تمثلت في كونه لا يكتفي فقط بإدانة أخلاقية بسيطة للعنصرية ولا يختزلها في تحيز غير عقلاني وخطأ فردي، ولكنّه يظهر إلى أي مدى الإسلاموفوبيا متوغلة في فرنسا كعنصرية دولة، تحفزها بانتظام السياسات العامة وإضفاء الشرعية عليها من قبل خطابات الدولة (يلقيها أفراد يشغلون مناصب في أعلى الدولة)، أي مساهمة مؤسسات الدولة الفرنسية في خلق التعصب والتطرف لدي الشباب الفرنسي بسبب سياسة التعامل العنصري والتهميش.

- وصف الفيلم المسلمون بالتعقيد (complexity) وسلّط الضوء على فروقاتهم الفردية وذلك لإلغاء الصورة النمطية السلبية والأحادية عن المسلمين والتي يتم ربطها بثقافتهم أو بعقيدتهم، فهم أيضًا أشخاص عالقون في واقع اجتماعي ونفسي وروابط عائلية.

- سعى المخرجان إلى التعريف بظاهرة الإسلاموفوبيا كما يعيشها المسلمون في الواقع حقيقة، فهي تتعدى الخوف من المسلمين، هي أكبر من مجرد مشاعر سلبية اتجاه هذا "الآخر المختلف" فالإسلاموفوبيا سلوكيات إجرامية يعاقب عليها القانون، لذا على كل مسلم وقع ضحية لها التوجه إلى العدالة وعدم الرضوخ والاستسلام، فهذا الفيلم جاء كتشجيع لتغيير الوضع الراهن للمسلمين في فرنسا. ومن ناحية أخرى هدف الفيلم لوضع هجمات 13 نوفمبر2015 بفرنسا في سياق تاريخي وجيو-سياسي أوسع.

- روّج الفيلم إلى أنّ سبب الهجمات الإرهابية هو سبب سياسي وليس ديني، حيث جاءت كردة فعل على السياسة الخارجية لفرنسا اتجاه قضايا العالم العربي والعالم الإسلامي.

توصيات:

- الاهتمام بالمحتويات السينمائية التي تسلط الضوء على انعكاسات الإسلاموفوبيا على المسلمين في الدول الغربية.

- دعوة واشراك المخرجين السينمائيين في المحافل العلمية لمناقشة قضايا المسلمين في الدول الغربية بهدف انتاج أفلام سينمائية تخدم وتدافع عن المسلمين من أجل تصحيح الصورة النمطية السلبية السائدة في الفكر الغربي، بدل اقتباس سيناريوهات هوليوود وتطبيقها في الأفلام العربية.

قائمة المراجع:

- بن تمسك مصطفى، **الإسلاموفوبيا مقاربة جيو-سياسية**، (2017)، مجلة مومنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط.
- تمار يوسف، **مناهج وتقنيات البحث في الدراسات الإعلامية –الاتصالية**، (2017)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- حدو نور الدين عبد الواحد، (جوان 2016): **اللغة السينمائية -الأسس النظرية وإشكالية المفهوم**، مجلة آفاق سينمائية، المجلد 03، العدد 03، جامعة أحمد بن بلة (وهران)، الجزائر.
- ديك برناردف، **تشريح الفيلم**، ترجمة مصطفى محرم، (2015)، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- شعبان فؤاد، صبطي عبيدة: **تاريخ وسائل الاتصال وتكنولوجياته الحديثة**، (2012)، دار الخلدونية الجزائر.
- **فرنسا: ماذا تعني حالة الطوارئ وما هي الإجراءات المرافقة لها؟** موقع France 24 متاح على الرابط: *https://www.france24.com/ar/20160715*.
- كاصد الزايدي وليد، **الإسلاموية المتطرفة في أوروبا دراسة حالة الجهاديين الفرنسيين في الشرق الأوسط**، (2017)، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، قطر.
- المنصوري المبروك الشيباني، **صناعة الآخر المسلم في الفكر الغربي المعاصر من الاستشراق إلى الإسلاموفوبيا**، (2014)، مركز نماء للبحوث والدراسات، سلسلة الاختلاف والحوار والتعايش، الرياض.
- يخلف فايزة، **مناهج التحليل السيميائي**، (2012): دار الخلدونية، الجزائر.
- *Collectif Contre l'Islamophobie en France (CCIF), rapport de l'isalamophobie en France, années 2015-2019.*

محاسبة الميراث في الإسلام بين العدالة الإلهية و انتقادات وسائل الإعلام حول نصيب المرأة – قراءة نظرية –

Inheritance Accounting in Islam between Divine Justice and Media Criticism about Women's Share -Reading Theory–

د.سفيان بن قديدح، جامعة الشاذلي بن جديد، الطارف (الجزائر)
benkedidah-soufyane@univ-eltarf.dz



نهدف من خلال هذه الورقة البحثية إلى تبيان العدالة الإلهية في تحديد أنصبة الميراث بين الذكور والإناث، والرد على انتقادات وسائل الإعلام المتواصلة لنصيب المرأة، وذلك من خلال تفصيلات نظرية لحقوق المرأة في الميراث ومعايير تقسيم التركة بين الذكور والإناث وضوابطها، وكذا عرض بعض الحالات التي تثبت أنصبة المرأة المحدّدة شرعًا ومقارنتها بأنصبة الرجل.

وخلصت الدّراسة إلى أنّ التفاضل في الميراث لا تحكمه الذكورة والأنوثة، وإنما هو محكوم بمعايير ثلاثة، وهي: درجة القرابة بين الوارث – ذكرا كان أو أنثى - وبين المورث المتوفي، موقع الجيل الوارث، والعبئ المالي.كما توصّلت الدراسة إلى أنّ المرأة في الإسلام حقها في الميراث مصان أكثر من حق الرجل، وهي أوفر حظّا منه، فالحالات التي ترث فيها المرأة نصف الرجل ستة حالات فقط، أمّا الحالات المتبقية فهي إمّا أن يكون نصيب المرأة مساويًا لنصيب الرجل، أو نصيب المرأة أكثر من نصيب الرجل، وأحيانًا أخرى ترث المرأة ولا يكون للرجل أي حظ في الميراث.

الكلمات المفتاحية: الميراث، المرأة، العدالة الإلهية، وسائل الإعلام.

Abstract:

The aim of thispaperis to identify the divine justice in determininginheritancesharesbetween males and females, and to respond to the media'scontinuouscriticism of the share of women, throughtheoreticaldetails of women'srights to inheritance and the criteria for dividing the inheritancebetween males and females and theircontrols, as well as presentingsome cases thatprove The shares of womendetermined by Sharia and comparingthemwith the shares of men.

The studyconcludedthat the differential in inheritanceis not governed by masculinity and femininity, but isgoverned by threecriteria, namely: the degree of kinshipbetween the heir - male or female - and the deceasedinheritor, the position of the inheritinggeneration, and the financialburden. The studyalsoconcludedthat the woman in Islam has the right to inherit more protectedthan the right of the man, and sheis more fortunatethanhim. The cases in which the womaninheritshalf of the man in only six cases. As for the remaining cases, either the woman'sshareisequal to that of the man, or the woman's shareis more it belongs to the man, and

sometimes the womaninherits, and the man does not have any part in the inheritance.

Keywords: inheritance, women, divine justice, media.



مقدمة:

من يتدبر أحكام القرآن الكريم سيجد أنّ التشريعات المتعلقة بالميراث تعالج قضية مهمة في الواقع الإنساني، حيث إنها تعالج قضية مالية، والمال تشتدّ المنافسة في طلبه والحرص عليه، وكثيراً ما تقع فيه الخصومة. وإنّ الورثة هم أقرب الناس لبعضهم البعض، والشريعة تحرص في مجمل أحكامها على دعم العلاقة الاجتماعية في حياة المجتمع المسلم لاسيما بين الأقارب، وتحرص على عدم الخصومة والعداوة والشحناء بينهم. ولما كان الأمر كذلك؛ فإن الله سبحانه وتعالى قد تولى بيانه بنفسه، فجاءت معظم أحكام الميراث الأساسية في سورة النساء ثم فصل سبحانه وتعالى هذه الأنصبة ولم يترك المسألة للاجتهاد، فبعد أن ذكر في الآية الأولى أنّ لكلٍّ نصيبًا من الميراث سواءً كان ذكرًا أم أنثى، جاء التفصيل في آيات ثلاث محكمات من سورة النساء، اثنتان متّصلتان في بداية السورة، وآية ختمت بها السورة.

ومن أشهر الاعتراضات على نظام الإرث في الإسلام، ادّعاء البعض أنّ المرأة مظلومة؛ لأنّ للذّكر مثل حظ الأنثيين، وهذا الادّعاء باطل، وينبئ عن جهل صاحبه، فنظام الإرث في الإسلام نظام مثالي، لأن الذي شرع هذا النظام هو رب العالمين الذي خلق الرجل والمرأة، وهو العليم الخبير بما يصلح شأنهم من تشريعات، وليس لله مصلحة في تمييز الرجل على المرأة أو المرأة على الرجل، وقد جاء الميراث بتفصيل على خلاف المعهود من المنهج القرآني الذي يتناول الأحكام كثيرًا بالإجمال ويترك للسنة البيان والتفصيل، فأحكام الصلاة لا نجدها مفصلة في كتاب الله كما فصلت أحكام المواريث، وكل ذلك يشعر بمدى اهتمام التشريع الإسلامي بأحكام المواريث، فكانت هذه الأحكام متصفة بالعدالة والدقة والواقعية والتوازن والانسجام والتكامل بين أحكامها بما يشير إلى ربانيتها، ويجعل المتوارثين راضين قانعين بما قسم الله لهم من نصيب.

ومن خلال ما تقدّم يمكن طرح التساؤل التالي:

ما هي أسس محاسبة ميراث المرأة في الإسلام في ظل تهجمات وسائل الإعلام المنادية بالعدل والمساواة؟

وينبثق من التساؤل الرئيسي عدّة أسئلة فرعية نوجزها في الآتي:

- ماهي أسس توزيع الميراث في الإسلام؟
- ما هو نصيب المرأة من الميراث والحالات الخاصّة بها؟
- فيما تتمثل أهم الفروقات في الأنصبة بين الذكور والإناث في الميراث؟
- فيما تتجلّى العدالة الإلهية في تقسيم الميراث، والتي غفل عنها المنتقدين من وسائل الإعلام المختلفة؟

أهمية الدّراسة

يكتسي موضوع الدراسة أهمية بالغة في وقتنا الحاضر كونه يعالج إحدى القضايا التي لاقت انتقادات واسعة عبر وسائل الإعلام، ألا وهي الميراث في الإسلام، ونصيب المرأة منه، والذي لم يعجب الكثير من المنتقدين ظنّا منهم أنّه ظلم لها، وتمييزٌ لها عن الرجل. وتبيّن الدّراسة من خلال ذلك العدالة الإلهية في تقسيم الميراث وتبيان أسسه السليمة التي لا تنبني عن الذكورة والأنوثة، وإنّما تحكمها معايير دقيقة لا تصدر إلّا من لدن حكيم خبير.

أهداف الدراسة:

نهدف من خلال هاته الدراسة إلى الوصول إلى النقاط التالية:

- تبيان أسس توزيع الميراث على الورثة؛
- معرفة نصيب المرأة من الميراث والحالات الخاصّة بها؛
- تسليط الضوء على الفروقات في الأنصبة بين الذكور والإناث؛
- التأكيد على العدالة الإلهية في تقسيم الميراث والردّ على المنتقدين من وسائل الإعلام المختلفة.

منهج الدراسة:

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج الوصفي، وحاولنا الإجابة على التساؤل المطروح من خلال المحاور الرئيسية التالية:

- مفاهيم نظرية حول الميراث؛
- انتقادات وسائل الإعلام لنصيب المرأة في الميراث؛
- تجسيد مبدأ العدل في تقسيم الميراث بين الرجل والمرأة وحالاته.

أولًا-مفاهيم نظرية حول الميراث:

الإسلام هو الرسالة الخاتمة، والشريعة الربانية، ونصوص هذه الشريعة محفوظة بأصلها الكتاب والسنة، وشريعة الإسلام شاملة لجوانب الحياة، وما يحتاجه البشر إلى يوم القيامة، ومن جوانب هذا الشمول نظام الميراث الذي يُحَدَدُ فيه الورثة، ويحدد فيه نصيب كل منهم، وروعي في هذا النظام عوامل القرابة والحاجة والنصرة والصلة والخلطة، كما روعي فيه دواعي الفطرة، وتحقيق المصلحة.

وأصل الميراث في اللغة، من ورث يرث إرثًا وميراثًا، يقال ورث فلان قريبه وورث أباه، وهو انتقال الشيءمن شخص إلى شخص، أومنقوم إلى قوم. وهو في الاصطلاح: انتقال الملكية من الميت إلى ورثته الأحياء، أو هو ما تركه الميت من أموال وحقوق يستحقها بموته الوارث الشرعي (الأحمد، 2020، صفحة 83). ومن أسماء الله تعالى: الوارث، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ ﴾ (الأية 23، سورة الحجر)، ومعنى الوارث هو الباقي بعد فناء خلقه.(الفيروز آبادي، 2005، صفحة 227)

وأما علم الميراث: فهو قواعد فقهية وحسابية يعرف بها نصيب كل وارث من التركة، ويسمى علم الميراث بعلم الفرائض، وهو فقه المواريث وحسابها، من خلال قواعد يُتوصَّل بها إلى معرفة الحقوق المتعلقة بالتركة، وبيان نصيب كل وارث منها. وسمي علم الفرائض بهذا الاسم لاشتماله على الحقوق المفروضة،

أخذًا من قوله تعالى: ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ (الأية 07، سورة النساء)، وتغليبًا للحقوق المفروضة على الحقوق المستحقّة بالتعصيب. (الأحمد، 2020، الصفحات 83-84)

وقد وردت في القرآن الكريم أربع آيات فصلت علم المواريث، وكل هاته الآيات وردت في سورة النساء، أولاها قوله تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾. (الأية 07، سورة النساء)

وهذه الآية قررت أنّ للذكور من أولاد الرجل الميت حصّة من ميراثه، وللإناث منهم حصّة ممّا قلّ منه أو كثر، حصة مفروضة واجبة معلومة مؤقتة، وذلك بعدما كانت المرأة تحرم من الميراث كما سيتقدم بيانه لاحقًا.

ثم جاءت بعدها آيتين متتاليتين، في قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ۚ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(الأية 11، سورة النساء)

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ (الأية 12، سورة النساء)

وجاء في هاتين الآيتين بعض أنصبة الوارثين، وأنّ القسمة لا تتم إلا بعد إخراج الديون التي للناس على الميت، وإنفاذ الوصية فيما لا يتجاوز الثلث. (ناصري، 2012، صفحة 212)

ثم أتت الآية الرابعة والأخيرة في نهاية سورة النساء، وبينت هذه الآية حالة الكلالة إن مات شخص وكان له إخوة أشقاء، أي إخوة من أبيه وأمه، فإنّ الميراث يؤول إليهم. وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأية 176، سورة النساء).

أمّا في السنة فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم بخصوص الميراث: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر» (رواه البخاري 6/ 2477، ورواه مسلم 3/ 1233)

والمتتبع لمختلف الأمم التي اهتمت بالميراث، يلاحظ اختلاف أنظمتهم عبر العصور في كيفية توزيع تركة المتوفى، وفيما يخص المرأة من هذا الحق نجد بعض التشريعات قد حرمت المرأة من الميراث، ومن الأمم من أعطاها ولكن بصورة لا تخلو من الظلم والإجحاف، ويهمنا هنا أن نعرض لنماذج من قوانين بعض الأمم وتشريعاتها فيما يخص ميراث المرأة باختصار: (الأحمد، 2020، الصفحات 87-92)

- **الميراث عند اليهود:** يهتم اليهود بألا يذهب شيء من مال الميت منهم إلى غير أسرته "فروعه وأصوله"، فمتى وجد أحد منهم مهما بعدت درجته في القرابة كان أحق بالمال، وذلك حتى تحتفظ

الأسرة بأموالها فيما بينها، ولذلك فقد حاولوا حصر الثروة في دائرة الأسرة وحرموا أطرافاً عديدة من الميراث.

- **الميراث في المسيحية:** المسيحية تعنى بالجانب الروحي والأخلاقي، ولذلك لم تضع قوانين مالية، إنما وضعت مبادئ روحية في ظلها يمكن حل المشاكل المالية وغيرها، وينطبق هذا على موضوع الميراث، ولذا اتبع المسيحيون القدامى في تنظيم مواريثهم ما كان يجري عليه العمل في شريعة اليهود وبعض ما جاء في القانون الروماني والشرائع الأخرى، وفي البلاد الإسلامية يسير المسيحيون في قسمة الميراث حسب قانون الدولة فيه.
- **الميراث عند العرب في الجاهلية:** كان نظام الميراث معروفًا عند العرب في الجاهلية، ولكنه كان يسير على أسس وأوضاع لا تتفق مع الفطرة وتحيد عن مقتضى العقول السليمة، فهم كانوا لا يورثون من الرجال إلا من اشتدّ عوده، وقوي على مقاتلة العدو، ولذلك كانوا لا يورثون المستضعفين من النساء والولدان فيحرمون البنات والزوجات والأمهات وغيرهن من النساء، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك حيث كانوا يرثون النساء كرها.

وهناك الكثير من الأمم الأخرى التي أجحفت المرأة في الميراث لا يسعنا المقام لذكرها. كما تجدر الإشارة إلى أنّه مازال الأمر على حاله في الفكر اليهودي المعاصر، من حرمان البنت من الميراث إذا كان للميت ولد ذكر أو ابن ولد، والأم ليس لها الحق من ميراث أبنائها سواء كانوا ذكورًا أم إناثًا، وليس للزوجة أي حق في ميراث زوجها. (صابر، 2003، صفحة 179).

أمّا الاسلام فقد أضفى عدالة إلهية في الميراث، وأقرّ بأنّ التفاضل في الميراث لا تحكمه الذكورة والأنوثة، وإنما هو محكوم بمعايير ثلاثة، نوجزها في الآتي: (دهينة، 2010، صفحة 121).

1- درجة القرابة بين الوارث – ذكرا كان أو أنثى - وبين المورث المتوفي: فكلما اقتربت الصلة زاد النصيب، وكلما ابتعدت الصلة قل النصيب في الميراث دونما اعتبار لجنس الوارثين.

2- موقع الجيل الوارث: فالأجيال التي تستقبل الحياة، وتستعد لتحمل أعبائها، عادة يكون نصيبها في الميراث أكبر من نصيب الأحيال التي تستدبر الحياة وتتخفف من أعبائها.

3- العبء المالي: والذي يوجب الشرع على الوارث القيام به حيال الآخرين، وهذا هو المعيار الوحيد الذي يثمر تفاوتًا بين الذكر والأنثى، لكنه تفاوت لا يفضي إلى أي ظلم للأنثى أو انتقاص من إنصافها، بل ربما كان العكس هو الصحيح.

ثانيًا: انتقادات وسائل الإعلام لنصيب المرأة في الميراث

من أبرز الانتقادات التقليدية التي تتكرر في نطاق الحديث عن المساواة وضرورتها بين الرجل والمرأة، الوقوف عند قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾(الأية 11، سورة النساء)، والنظر إليه على أنّه إدانة للشريعة السلامية، التي ضبطت من خلال هذا الكلام متلبسة بتهمة التفريق بين الرجل والمرأة في أبرز ما ينبغي أن تناله من حقوق، ألا وهو حق الميراث، وركزت على ذلك عدة وسائل إعلام بمختلف أنواعها.

ومع ذلك، فإنّ المعترضين على أحكام الإرث والمشككين في عدالتها، ما فتئوا يدعون إلى تغيير أو تعديل أحكام الميراث بحجج واهية، تنتهي حتمًا في اتجاه تغريب أحكام الأسرة خصوصًا. واليوم، تسعى الأمم المتحدة إلى اقحام بنودها وتوصياتها في قوانين الأحوال الشخصية للبلدان العربية والإسلامية –ومنها الجزائر –باعتبار أنّ قوانين هذه البلدان تمييزية ضد المرأة، ينبغي تغييرها أو الغاؤها، ومنها مسألة اللّامساواة في بعض أحكام الميراث التي ينبغي إلغاؤها، لأنّها في رأيهم ضرب من الظلم، وهذا على غرار سعيهم، في السياق نفسه إلى إلغاء القوامة، وإلغاء طاعة الزوجة لزوجها، وإلغاء رب الأسرة، وإلغاء ولاية الأب على البنت في الزواج، وغيرها من التعديلات التي من شأنها إلغاء كافة الفوارق بين الرجل والمرأة. (حمداوي، 2021، صفحة 93)

ولا يفوتنا -في هذا المقام- أن نسجل، بكل أسف، تنازل بعض الدول العربية والإسلامية عن بعض الأحكام الأسرية التي تميزها عمّا يسمى بالمرجعية الدولية، التي تعتمد أساسًا على الفلسفة الغربية في هذا المجال، وذلك بانحرافها البين عن الشريعة الإسلامية، متأثرة في ذلك بالغزو القانوني الغربي، الذي تبلور بسهولة في بعض الدول الإسلامية، لظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية. (حمداوي، 2021، صفحة 94).

ولا يزال موضوع ميراث المرأة في الإسلام يثير حفيظة الداعين إلى المساواة بين الرجل والمرأة، حيث يرون أنّ إعطاء المرأة نصف نصيب الرجل في الميراث إجحاف في حقّها وانتقاص لمكانتها، ويدعون إلى التسوية المطلقة بين الرجل والمرأة في الميراث. ولعل هذا الموقف صادر عن قراءة قاصرة لمسألة ميراث المرأة، حيث تركز على حالة واحدة جعلت فيها الشريعة الأفضلية للرجل على المرأة، وتغفل معه عن إدراك الأحكام العامة المنظمة للميراث من كل جوانبه، والتي تسمح بالفهم الدقيق لمنظومة الأحكام الشرعية الخاصة بالميراث والأساس الذي تقوم عليه. لذلك يمكن تناول مسألة ميراث المرأة مقارنة بميراث الرجل من عدة جوانب، نذكر منها: (تبينات، 2015، الصفحات 367-374)

1- استحقاق الميراث: إذا وقفنا عند الأسباب التي يثبت بها الميراث وشروطه وموانعه فلا فرق بين الرجل والمرأة فيها،فالأسباب التي يثبت بها الميراث للرجل هي نفسها التي تطبق على المرأة، فالقرابة الموجبة للإرث توجد في الابن كما توجد في البنت، وتوجد في الأب كما توجد في الأم، وتوجد في الأخ كما توجد في الأخت، والعقد الصحيح مثبت للإرث بالزوجية في حق الزوج والزوجة معًا، فالسبب موجب للإرث لمن وجد فيه سواء كان رجلًا أم امرأة. وبالنسبة لما يشترط من شروط للميراث، فإنها تطبق على الطرفين على السواء، فتحقق وفاة المورث يشترط في حق الرجل والمرأة، وتحقق حياة المورث يشترط في الطرفين أيضا، والعلم بالجهة والدرجة التي اجتمع فيها الوارث والمورث يشترط فيهما على السواء، لا فرق بين الرجل والمرأة. كما أنّ ما يكون مانعًا للميراث في حق الرجل يكون مانعًا للميراث في حق المرأة.

2- طرق استحقاق الميراث: تتعدّد الطرق الشرعية لثبوت الميراث للوارث، وتختلف أحكامها بين الرجل والمرأة، ونجد فيها المرأة أحسن حالًا من الرجل، فالأنصبة المقدّرة شرعًا للوارث في التركة، وعدد الوارثين بالفرض من الرجال والنساء اثنا عشر وارثًا: أربعة من الرجال وثمانية من النساء، فيكون لهن

الفرض الذي جعله الشرع لهن إذا لم يكن معهن من يساويهن من الذكور. وبالمقارنة بين الفروض التي تكون للرجال والفروض التي تكون للنساء، فإننا نجد أنّ النساء يستأثرن بأعلى الفروض المقدرة والمستحقة لأصحاب الفروض؛ فالفروض المقدرة في كتاب الله ستة وهي: السدس، الثلث، الثلثان، الثمن، الربع، النصف. ويرث النساء بكل هذه الفروض المقدرة، وتبلغ حالات ميراث النساء بالفرض سبعة عشر حالة، بينما يرث الرجال بالفرض في ست حالات فقط، كما أنّ أعلى الفروض وهو الثلثان لا يكون إلّا من نصيب النساء، ولا يستحقه إلا البنتان والأختان الشقيقتان أو لأب، بخلاف أصحاب الفروض من الرجال فليس لهم الثلثان.

3- الميراث بالتعصيب مع الغير: التعصيب مع الغير خاص بالنساء دون الرجال، ويكون النساء عصبة مع الغير في حال اجتماع الأخوات مع البنات، فالأخت الشقيقة ترث بالتعصيب عند وجودها مع البنت أو بنت الابن، والأخت لأب ترث بالتعصيب عند وجودها مع البنت أو بنت الابن. وفي هذه الحالة تصير الأخت الشقيقة كالأخ الشقيق تحجب الإخوة لأب ذكورًا كانوا أو إناثًا، ومن بعدهم من العصبة، وكذلك تصير الأخت لأب في قوة الأخ لأب، فتحجب بني الإخوة ومن بعدهم من العصبة كالعم وابن العم، فالمرأة مقدمة في هذه الحالة وتحجب الرجل.

والمنتبه لما سبق يجد الفرق الواضح بين الانتقادات الموجّهة لحق المرأة في الميراث وبين العدالة الإلهية التي أعطت المرأة حقها من التركة كما هي من غير حيف أو مطالبة أو مَنٍّ؛ وذلك لأنّ المرأة تساوي الرجل في كثير من الحقوق والتكاليف، وحيث اختلفت المرأة عن الرجل في بعض الأحكام كان ذلك مراعاة لبعض الفوارق الجسدية أو النفسية أو الوظيفية أو غيرها، وسوف نفصل ذلك في المحور الموالي.

ثالثًا: تجسيد مبدأ العدل في تقسيم الميراث بين الرجل والمرأة وحالاته

المتتبع للشريعة الاسلامية يجد أنّ مبدأ المساواة مجسدًافي كثير من أحكامها كما هو واضح في المساواة في الكرامةالإنسانية، قالتعالى:﴿وَلَقَدْ كَرمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الأية 70، سورة الإسراء)، وهذا التكريم الذي لم يخص به المرأة أو الرجل،وإنّماالجنسين معا.كمانجدهم جسدًا في حرية الاختيار للجنسين، كما في قوله تعالى:﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْن ﴾ (الأية 10، سورة البلد)،كما نجد مبدأ المساواة مجسّدا بإحكام في الميراث في قوله تعالى:﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾. (الأية 07، سورة النساء)

أمّا الأمور التي لم تكن فيها مساواة بين الرجال والنساء فقد تميزت بالعدل والحكمة كونها صادرة من لدن حكيم عليم، فالعدل عبارة عن الاستقامة على طريق الحق بالاجتناب عما هو محظور دينه، أو هو الأمر المتوسط بين طرفي الافراط والتفريط، فقد تولى الله عز وجل بنفسه تقسيم الميراث وجعل للمرأة والأولاد نصيب منه كما جعل للرجال نصيب، وجعل العدل قائمًا في حال تفاوت الأنصبة.

وباستقراء حالات ومسائل الميراث انكشفت حقائق رادعة لكل الانتقادات الغربية لحق المرأة في الميراث، حيث تبين أنّ أكثر من ثلاثين حالة تأخذ فيها المرأة مثل الرجل أو أكثر منه، أو ترث هي ولا يرث

نظيرها من الرجال، في مقابلة أربع حالات محدّدة (أو 06 على اختلاف) ترث فيها المرأة نصف الرجل، وسنعرض هذه الحالات على النحو التالي:(دهينة، 2010، صفحة 123)

- هناك أربع حالات فقط (أو 06 على اختلاف) ترث المرأة نصف الرجل؛
- أضعاف هذه الحالات ترث المرأة مثل الرجل؛
- هناك حالات كثيرة جدّا ترث المرأة أكثر من الرجل؛
- هناك حالات ترث المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال.

وسنتناول باختصار أمثلة عن هاته الحالات الأربع:

1- الحالات التي تأخذ فيها المرأة نصف ما يأخذه الرجل : وهي الحالات التي يكون فيها الورثة ذكورًا وإناثًا من نفس الدرجة وهي ستة حالات: (جلاب، 2019، صفحة 357)

- الأبناء والبنات الصلبيات؛
- أبناء الابن مع بنات الابن؛
- الأخوة الأشقاء مع أخواتهم؛
- الإخوة لأب مع أخواتهن؛
- ميراث الأب والأم وعدم وجود الفرع الوارث وعدم وجود الزوجة؛
- ميراث الزوجين.

وفي هذه المسائل وزّع الله عز وجل الميراث على مستحقيه على أساس الحاجة، بحيث نظر إلى الورثة من هم أشد حاجة إلى المال وهو الرجل، فقد أخذ كل من الذكر والأنثى نصيبه من الميراث ولم يحرم أحد، لكن ضاعف للرجل أكثر من المرأة لأنّ الرجل كلّفه الشارع الحكيم بتكاليفلم تكلف بها المرأة، فالرجل مكلّف بالنفقة على المرأة في كل مراحل حياتها سواء كانت بنتًا أو أختًا أو أمّا أو زوجة، فالمال الذي يأخذه ينفقه عليها بينما المرأة لا تنفق شيئا، فهي تحتفظ بالمال الذي تأخذه، وربما تستثمره فيزيد، بينما مال الرجل ينقص بالتكاليف.

2- الحالات التي يتساوى فيها نصيب المرأة مع نصيب الرجل في الميراث: من بين حالات تساوي ميراث المرأة مع ميراث الرجل علىسبيلالمثاللاعلىسبيلالحصر نجد:

- ميراث الأب والأم مع وجود الفرع الوارث فكل منهما يأخذ السدس؛
- ميراث الإخوة لأم عند اجتماعهم فيرثون الثلث ويقتسمونه بالتساوي ذكورًا وإناثًا؛
- ميراث الأب مع الجدة أم الأم مع وجود فرع وارث فيأخذ كل من الأب والجدة السدس فرضًا والباقي يأخذه الإبنتعصيبًا؛
- ميراث الزوج مع الأخت الشقيقة أو الأخت لأب، فهؤلاء النسوة إن وجدن مع الزوج يأخذ الزوج النصف وتأخذ الأخت الشقيقة أو الأخت لأب النصف.

3- حالات تأخذ المرأة أكثر من الرجل: توجد حالات متعددة يكون فيها نصيب المرأة أكثر نصيب من الرجل، وأول ما نبتدأ به هو ما جاء في القران الكريم، في قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴾(الأية 11، سورة النساء)

فهذه الآية فيها إقرار واضح لنصيب المرأة التي تأخذ أكثر من نصيب الرجل بصريح الآية،فإن كانتا بنتان فأكثر أو أختان فأكثر أو أختان لأب فأكثر يأخذن الثلثان من الميراث،أما إذا انفرد توحدها دون ذكرمن درجتها تأخذ النصف وحدها،بينما الأب والأم يأخذ كل واحد منهما السدس،فها هوالأب بالرغم من فضله على ابنه إلّا أنّه لايرث إلا السّدس مع الفرع الوارث،بينما تأخذ ابنة الهالكال نصف إن انفردت، إذ إنّ هذه الآيةوزعت حقوق الورثةعلى أساس القرابةوعلى أساس الحاجة،بحيث أعطى الشارع الحكيم للوارث الأقرب درجة أكثر منغيره،فأعطى للورثة الأبناء الصغار أكثر من الأصول الكبار لأن الأبناء مقبلين على الدنيا فهم في أمس الحاجة الى المال،بينما الآباء الكبار مدبرين عنها، ولو وزّع الميراث في هذه الحالةعلى أساس المساواة لظلمت المرأة.(جلاب، 2019، صفحة 358)

4- الحالات التي ترث فيها المرأة ولا يرث الرجل: هناك حالات ترث فيها المرأة بفرضها ولا يرث فيها الرجل، وهي: (جلاب، 2019، صفحة 359)

- إذا هلك رجل وترك خلفه أم وبنتين وأختين لأب وأخ لأم؛
- إذا توفي زوج وترك زوجته وبنت وأخت شقيقة وأخ لأب؛
- إذا وجد في الورثة زوج وأم وأب وبنت، وابن ابن؛
- اجتماع الجدّة الصحيحة مع الجد غير الصحيح.

ومن خلال هذه الحقائق يتبين لنا أن المرأة في الإسلام حقها مصان أكثر من حق الرجل، وهي أوفر حظًّا منه، وأعطى لها حقها بالرغم من ضعفها أو صغر سنها، بل حافظ على حقها حتى ولو كانت جنينًا في بطن أمها، وبالرغم من وجود الضمانات القانونية والقضائية التي تحول دون حرمان المرأة في حقها من الميراث إلّا أنّ الواقع الذي تعيشه المرأة داخل المجتمع يكشف عن حالات الظلم والانتهاك لميراثها من التركة الإسلام منه بريء، ونؤكّد على أنّ الذي ظلم المرأة وحرمها من ميراثها هو الرجل وليس الإسلام لأسباب مصطنعة أهمها:

- الجهل بأحكام الميراث، إذ اعتبروا أن عاداتهم وتقاليدهم لا تورث المرأة فلا يجوز تعديلها بأحكام الشرع؛
- قلة التركة، حيث بزعمهم أنّ المتوفى لم يترك إلا القليل الذي لا يمكن تقسيمه؛
- حياء وخجل النساء من مطالبة أهاليهن بالميراث؛
- ظهور زعيم جديد في الأسرة بعد موت الوالد الذي يستولي على كل شيء ويحرم حتى بقية الذكور

- عدم مطالبة المرأة بحقها في الميراث خوفًا من معاقبتها بالهجران بعد موت أبيها كرشوة تقدمها إلى بقية الورثة.
- عند بعض الأسر ترث من كل شيء إلا العقار ليس لها نصيب فيه، وأحيانا أخرى تعوض بثمن زهيد.
- هذه جملة من الأسباب على سبيل المثال لا الحصر التي تحرم المرأة في حقّها من الميراث الإسلام منها بريء.

خاتمة:

مما سبق نستنتج أنّ الميراث في الإسلام عدالة إلهية، وأنّ المرأة غمرت برحمة الإسلام وفضله فوق ما كانت تتصور، فبالرغم من أنّ الإسلام أعطى الذكر ضعف الأنثى في بعض الحالات، إلّا أنّها تبقى منعمة أكثر من الرجل؛ لأنها تشاركه في الإرث دون أن تتحمل تبعات، فهي تأخذ ولا تعطي وتغنم ولا تغرم، وتدخر المال دون أن تدفع شيئاً من النفقات أو تشارك الرجل في تكاليف العيش ومتطلبات الحياة. والحكمة من أخذ المرأة نصف ما يأخذه الرجل في الحالات الستة كما أوردها الفقهاء أنّ الرجل ماله ينقص بسبب النفقة بينما المرأة ليس عليها نفقة.

كما أن نصيب المرأة ليس دائما نصف الرجل بل في حالات معدودة، بل في كثير من الحالات تكون الأنصبة بين الرجل والمرأة إما متساوية أو تأخذ المرأة أكثر مما يأخذه الرجل، أو تأخذ المرأة دون الرجل، ثم أن هناك حقيقة أخرى، وهي أن العاصب وهو الرجل الذي حقه في الميراث مهدّد دائما، لأنه ينتظر حتى يأخذ أصحاب الفروض فروضهم فإن بقي له شيء أخذه، أما إذا لم يبق شيء واستغرق أصحاب الفروض الميراث خرج صفر اليدين من الميراث، بينما أصحاب الفروض ومنهم المرأة حقوقهم غير مهددة يمكن أن تنقص في بعض الحالات ولكن لا يمكن أن تخرج المرأة فارغة الوفاض من الميراث.

ومن خلال هذه الحقائق يتبين لنا أن المرأة في الإسلام حقها مصان أكثر من حق الرجل، وهي أوفر حظًّا منه في الميراث، وأعطى لها حقها بالرغم من ضعفها أو صغر سنها، بل حافظ على حقها حتى ولو كانت جنينا في بطن أمها، لأنها نصف المجتمع، فهي الأم، والزوجة، والبنت، والأخت، وقد أخذت حقها من الميراث في مواقعها المختلفة، أمًّا، أو بنتًا، أو زوجةً، أو أختًا، أو جدةً، أو غير ذلك، وجوانب العدالة في أحكام هذه الشريعة لا يحاط بها، ولا مجال للمنتقدين من وسائل إعلام ومنظمات حقوقية بعد أن علموا هذه العدالة الإلهية.

ويمكن من خلال ما تقدّم الوصول إلى النتائج التالية:

- إنّ الشريعة الإسلامية وضعت أحكامًا غاية في الدقة والتوازن وتحقيق العدالة بين الورثة، مما جعل المتمعن فيها يقطع الشك باليقين أنها من لدن حكيم عليم، وليس من صنع البشر؛
- لا يزال موضوع ميراث المرأة في الإسلام يثير حفيظة الداعين إلى المساواة بين الرجل والمرأة، من وسائل إعلام ومنظمات حقوقية؛

- التفاضل في الميراث لا تحكمه الذكورة والأنوثة، وإنما هو محكوم بمعايير ثلاثة، وهي: درجة القرابة بين الوارث – ذكرا كان أو أنثى - وبين المورث المتوفي، موقع الجيل الوارث، والعبئ المالي.
- المرأة في الإسلام حقها في الميراث مصان أكثر من حق الرجل، وأعطى لها حقها بالرغم من ضعفها أو صغر سنها، بل حافظ على حقها حتى ولو كانت جنينا في بطن أمّها؛
- أن الحالات التي ترث فيها المرأة نصف الرجل أربعة أو ستة حالات فقط على اختلاف، أما الحالات المتبقية فهي إمّا أن يكون نصيب المرأة مساويًا لنصيب الرجل، أو نصيب المرأة أكثر من نصيب الرجل، وأحيانا أخرى لا يكون للرجل أي حظ في الميراث بينما المرأة يكون لها حظ أوفر منه.
- إنّ الواقع الذي تعيشه المرأة داخل المجتمع يكشف عن حالات الظلم والانتهاك لميراثها من التركة، فالإسلام منه بريء، فمن ظلم المرأة وحرمها من ميراثها هو الرجل، وليس الإسلام، وعلى المنتقدين والطاعنين في عدالة الميراث أن يعوا ذلك.

ويمكننا في الأخير الخروج بالتوصيات التالية:

- زيادة الوعي بعلم الفرائض (الميراث) لدى عوام الناس عن طريق الخطب ومنابر الإعلام؛
- فرض الأنصبة الشرعية المحدّدة بدل التوزيع العشوائي وفق العادات والتقاليد عند بعض الورثة.
- سن قوانين تجرم من يحرم المرأة من الميراث الشرعي الذي كتبه الله لها.
- توضيح ونشر العدالة الإلهية في الميراث لكي تصل للمشككين والمنتقدين.
- الالتزام بتطبيق قانون الأسرة الجزائري الموافق لأحكام الشريعة الإسلامية في الميراث، وعدم الاستجابة لنداءات التغيير المزعومة.

قائمة المراجع:

- الأحمد سهيل، "تكريم الإنسان في الميراث الشرعي الإسلامي دراسة مقارنة"، (2020)، مجلة قبس للدراسات الانسانية والاجتماعية، جامعة المدية –الجزائر-، 04، 01.
- تبينات ساعد، "ميراث المرأة مقارنة بميراث الرجل – دراسة فقهية –"، (2015)، مجلة الشريعة والاقتصاد، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – الجزائر-، 04، 08.
- جلاب عبد القادر، "حق المرأة من الميراث بين العدل والمساواة"، (2019)، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، جامعة الجلفة –الجزائر-، 04، 03.
- حمداوي علي، "العدل أساس تشريع الميراث في قانون الأسرة الجزائري"، (2021)، مجلة البحوث الأسرية، جامعة الجزائر 01- الجزائر-، 01، 02.
- دهينة نصيرة، "التفاضل في الميراث بين الذكور والإناث"، (2010)، مجلة الثقافة الإسلامية، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف – الجزائر-، 07، 02.
- صابر أحمد طه، نظام الأسرة في اليهودية والنّصرانية والإسلام، (2003)، دار نهضة مصر للنشر والطباعة والتوزيع (مصر).

- الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، (2005)، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان).
- ناصري عبد العزيز، "الاعجاز التشريعي في الميراث"، (2012)، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية –الجزائر-، 05، 02.

دور الاعلام الغربي في صناعة الصّورة النمطية للإسلام والمسلمين

The Role of Western Media in Creating a Stereotyped Image of Islam and Muslims

د. باشا نائلة، جامعة البليدة 2 - لونيسي علي

bachanaila18@live.fr



إن وسائل الإعلام تعد من أخطر المؤسسات المساهمة في خلق روح العداء لدى الإنسان الغربي تجاه الإسلام، وإن كان هذا العداء يرتكز على ما أفرزته مصادر ومؤسسات أخرى، فالمؤسسات الإعلامية بما تمتلكه من قدرات وإمكانات وقدرة على التأثير تعمل على توجيه الخطاب الإعلامي، وجعله مادة جماهيرية، يتفاعل معها المشاهد والمتلقي الغربي، فيتأثر بها، مما يخلق لديه انطباعا سلبيا وتصورا خاطئا عن الإسلام والمسلمين، ولهذا فلم يعد خافيا على أحد أن هنالك حملة إعلامية كبيرة تستهدف الإسلام والمسلمين وتشويه صورتهم، تقوم بها معظم وسائل الإعلام الغربية، مدفوعة بأسباب تاريخية ودينية، ومن نتائج هذه الحملات أن المسلمين أصبحوا يعانون من تشكل صورة نمطية مشوهة عنهم لدى الرأي العام العالمي، حيث يوصف المسلمون بأنهم إرهابيون لا يقبلون بالآخر، ودينهم الإسلام دين دموي يدعو للعنف ولا يصلح أن يكون دينا للإنسانية في العصر الحديث.

الكلمات المفتاحية: **الإعلام الغربي – الصورة النمطية –الإسلام –المسلمين.**

Abstract:

The media is one of the mostdangerous institutions thatcontribute to create a spirit of hostility in Western people toward Islam. Although this hostility is based on whatwasproduced and showed by other sources and institutions.

The Western viewer and receiver are interacted and affected by whatisshowedfrom the media, whichcreates a negative impression and a misperception of Islam and Muslims.

Therefore, it is no longer a secret to anyonethatthereis a large media campaignthat are targeting Islam and Muslims in order to destroy their image, whichisled out by most Western media outlets, motivated by historical and religiousreasons.

Keywords: Western media; Stereotype; Islam ; Muslims.



مقدمة:

يشهد العالم في عصرنا الحالي تطوّراً رهيباً في وسائل الإعلام، حيث هيمنت هذه الأخيرة على مجالات الحياة السياسيّة، الاجتماعيّة، الفكرية والثّقافيّة، وأدّت أدوارًا هامّة في تغيير بعض المفاهيم، أو ترسيخ مفاهيم أخرى قد تكون صائبة أو خاطئة.

فوسائل الإعلام تعدّ من أهمّ القنوات الفاعلة في تقديم الأخبار وتشكيل الصّور بطريقة مبهرة ومثيرة ومبالغ فيها، حيث تؤدّي أدوارًا هامّة في المجتمعات الإنسانيّة، وتؤثّر في جوانب الحياة المختلفة، حيث تمدّ الإنسان بمختلف المعلومات والأفكار، الانطباعات والتّصوّرات المختلفة، وهو ما يُسهم في تشكيل مختلف الصّور، ونلحظ أنّ هذه الوسائل عادةً تقوم بتقديم هذه المعلومات وِفق سيّاسة إيديولوجيّة تهدف إلى خدمة مصالحها وأغراضها وسيّاساتها والأشخاص الذّين يمتلكونها ويسيّرونها.

تعتبر صناعة الصور النمطية المسيئة للإسلام والمسلمين، وترسيخها في العقل الغربي ظاهرة ليست بالجديدة، حيث أن الإسلام من أكثر الأديان تعرضا للإساءة والتشويه من طرف الغرب فبعد سقوط المعسكر الشرقي بقيادة الاتحاد السوفيتي سابقا، وجدت المنظومة الغربية نفسها بلا عدو من أجل استمرار سياساتها لتحقيق الأمن والمصلحة، مستندة في ذلك على مجموعة من النظريات لعل أبرزها نظرية صدام الحضارات لصامويل هنتغتون، حيث وجد الغرب في الإسلام والمسلمين صفة العدو المناسب لتمرير سياساتهم المنشود،وبعد أحداث 11من سبتمبر 2001 زادت الحملات الغربية من تشويه صورة الإسلام والمسلمين وذلك من خلال تركيز وسائل الإعلام الغربي على صناعة صورة مغلوطة عنهم مستخدمين في ذلك مختلف وسائل الإعلام (سمعية، سمعية بصرية، مكتوبة، أفلام، سينما...).

وتزداد صورة الإسلام والمسلمين تشويها وتحريفا في وسائل الإعلام الغربية في عصر تزداد فيه القوة التأثيرية لوسائل الإعلام وقدرتها على تشكيل الصور النمطية عن الأفراد والشعوب، باعتبارها المصدر الأساسي لاستقاء وتلقي المعلومات وتشكيل الصور عن المجتمعات الأخرى، فقد انشغل الإعلام الغربي بتناول كل ما يتعلق بالعالم الإسلامي وقضاياه وما يتعلق بالمسلمين والربط بينهم وبين العديد من الصور النمطية السلبية، والتي وإن انتشرت اليوم عبر وسائل الإعلام، فهذا لا ينفي وجود جذورا لها ضاربة في التاريخ وإن اختلفت العوامل والأدوات والأساليب، فالتاريخ يحفل بالعديد من مصادر الصور النمطية السلبية للإسلام والمسلمين منذ المواجهات الأولى بين الإسلام والغرب ولكن توظيف الوسائل الإعلامية جعل الصورة أكثر انتشارا وسلبية ما بات يستدعي ضرورة العمل على دراسة وتشخيص هذه الصورة والعمل على بحث مختلف السبل والأدوات والاستراتيجيات من أجل التغيير والتصحيح.

وهذا ما دفعنا إلى طرح التساؤلات التالية: **ما مدى مساهمة الإعلام الغربي في تشويه صورة العرب والمسلمين؟**

وللإجابة على الإشكالية الرئيسية نطرح الأسئلة الفرعية التالية:

- ماهي المراحل التاريخية لتشكيل الصورة النمطية للإسلام والمسلمين عند الغرب؟
- ما هي الوسائل الإعلامية التي يستخدمها الغرب لتشويه صورة العرب والمسلمين؟ وفيما تتمثل مخاطر حملة التشويه المنظمة التي يمارسها الإعلام الغربي ضد المسلمين؟
- ما هي الصورة النمطية التي يصنعها الإعلام في تناوله لفئات أو جماعات معينة؟
- ما الآليات الممكنة التي تمكن الإعلام العربي من تحسين صورة العرب والمسلمين لدى الغرب؟

وتهدف الدراسة إلى التعرف على الصورة النمطية لواقع الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي، واستخدمنا في هذه الدراسة المنهج الوصفي، وقد بينا كيف يقوم الإعلام الغربي بتغيرالحقيقة في سبيل تشويه صورتهم، وهذا من خلال ما يقدمه من صورا نمطية لواقع الإسلام والمسلمين عن طريق الإعلانات والأفلام التي توضح عدائية للإسلام والمسلمين وتوضح سعي الإعلام الغربي لتقديم صورة نمطية سلبية للإسلام والمسلمين. وأن مسؤولية التخلص من حملات التشويهوالتحريف للإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي تقع على عاتق جميع الدول الإسلامية، ورجال الدين، والعلماء والمفكرين، وعلى الإعلام العربي والإسلامي الذي لابد من أن ينشر رسالة الإسلام الحقيقة بلغات مختلفة لتصل لجميع دول العالم، كما ولا بد للتصدي من قبل المنظمات الإسلامية لكل ما ينشر عن الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي.

أولا- المراحل التاريخية لتشكيل الصورة النمطية للإسلام والمسلمين عند الغرب (من الحروب الصليبية إلى العصر الحديث):

إن جذور رؤية الغرب الراهنة للإسلام والمسلمين تعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي الّذي شهد بداية الحروب الصّليبية والمراحل الأولى لنشأة الهوية الغربية الحديثة والأوربيين في تلك الفترة كانوا محاصرين بحضارة أكثر قوة وتقدما وهي الإسلام. وأنهم فشلوا في هزيمة هذه الحضارة خلال الحروب الصليبية كما رفضوا فهمها، لكنهم شعروا دائما بتهديدها الحضاري والديني لهم، لذا لعب الإسلام دورا أساسيا في تشكيل الهوية الأوربية ومن ثم الغربية الحديثة. وعمد الأوروبيين إلى تشويه صورة منافسيهم (المسلمين) كأسلوب لتقوية صورتهم الذّاتية عن أنفسهم وبناء ثقتهم في مواجهة عدوا أكثر قوة وتحضرا (قانة، 2019).

إنّ صنع وتشكيل الصّور النمطية المسيئة للإسلام والمسلمين والسعي لترسيخها في الوعي الجمعي الغربي أو حتى الوعي الإسلامي الداخلي ليس بالأمر الجديد، بل ممتد تاريخا وله جذور(بودهان، تشكيل الصورة النمطية عن الاسلام والمسلمين في الاعلام الغربي، 2006) .وقد مر الحديث عن الإسلام والمسلمين في الغرب بمراحل على امتداد الزمان .وإن هذه المراحل ليست منفصلة بعضها عن بعض، بل هي متداخلة ومتشابكة، إذ لا نستطيع وضع حدود زمنية دقيقة تفصل بينها ولكننا نعتقد أنّ لكل مرحلة من هذه المراحل بعض المعالم الرئيسية التي تميّزها عن غير ها سواء في طبيعة الصورة النمطية التي تكوّنت فيها، أو في الأساليب التي صيغت أو الوسائل التي سخرت لنشرها والترويج لها(طاش، 1414/1993م).

ويمكن تقسيم أهم مراحل تشويه صورة الإسلام في الغرب أساسا إلى ما قبل ومابعد سقوط الاتحادالسوفيتي، لكن هناك من يعود بالدراسة والبحث في هذه المسألة إلى بدايات الدعوة الإسلامية وبالعودةإلى أهم المحطات في تاريخ المواجهة بين الغرب والمسلمين ويلخص الكاتب حسن عزوزي أهم هذهالمحطات فيما يلي (بوعنان، 2017):

1-مرحلة الخطاب القرسطوي: استمد فيها الغرب صورته الذّهنية عن الإسلام والمسلمين من خلال المواجهة الفعلية بين الإسلاموالنّصرانية خلال القرون الوسطى وإلى نهاية الحروب الصليبية، وتعتبر هذه الفترة التي درسها بشيءمن التفصيل نورمان دانييل في كتابه-الإسلام والغرب-مشحونة بالتصورات

والأوصاف السلبية التي تنسجها في حق الإسلام والمسلمين حيث اعتبر الدين الجديد هرطقة وسوطا من سياط العقاب الإلهي. وتم تصوير المسلمين وثنيين يعبدون ثالوثا مكون من: أولين، تيرفاجونت ومحمد، والإسلام حسبهم دينجنس وملذات في إشارة إلى تعدد الزوجات(عزوزي، 2012)، واعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم غير قادر على أن يكون نبيا حقيقيا أو أن يأتي بعقيدة صحيحة، وبالتالي فانه لا يمكن إلا أن يكون شخصا مرتدا أو نبيا مزيفا لا يملك سوى الادعاءات والأضاليل بل إن الخيال المسيحي جعل منه ساحرا ومعاديا للمسيح عليه السلام، ويجسد صورة الشيطان كذلك. وخلاصة القول أن الوعي أو بالأحرى المتخيل المسيحي في الزمن الوسيط بلور صورة عن الإسلام: إنه عقيدة ابتدعها محمد وهي تتسم بالكذب والتشويه المتعمدللحقائق، إنها دين الجبر والانحلال الخلقي والتساهل مع الملذات والشهوات الحسية، إنها ديانة العنف والقسوة.(العابد، 2009)

2- **مرحلة خطاب عصر الأنوار:** بالرغم من فضل عصر الأنوار في إخراج الغرب من قبضة الكنيسة وتحجرها إلا أنه لم يستطع التخلص منها نهائيا، وبقدر ما كان خطاب هذا العصر بحق الإسلام والمسلمين خطابا لاهوتيا كان أيضاخطابا توفيقيا يطبعه التردد والتذبذب بين المدح والإعجاب من جهة والذم والسخرية من جهة أخرى،حتى إنه أصبح من غير الممكن الحكم على أي كان من فلاسفة عصر النهضة والأنوار بأنه متعاطف معالإسلام كلية أو أنه متعصب ضده تعصبا تاما، وبقدر ما يتم الاستشهاد بواحد منهم بأنه مدح الإسلام وأشاد به يتم الاستشهاد به مرة أخرى كواحد ممن أساء إلى الإسلام ووصفه بأقبح الأوصاف.(بوعنان، 2017)

3-مرحلة الاستدماروالخطاب الاستشراقي: وفي هذا السياق يمكن التأكيد أيضا على أن واقع الاستدمار الغربي للدول الإسلامية كان منبعاأصيلا لكثير من الصّور الزائفة الّتي صنعها الغرب وهي الصّور النّمطية الّتي عادت لتزكي وتبرر في المخيلة الغربية نزعة الاستعمار والاستعلاء، ومرحلة الغزو الاستدماري للمنطقة الإسلامية قد تميزخلالها التحدي الغربي عن الحقبة الصّليبية بالغزو الفكري الاستشراقي المصاحب لاحتلال الأرض، وذلك بصناعة الصّور الغربية للإسلام وحضارته تلك الصّورة التي نمت مكوناتها لتبرر للغرب نفيا للآخرالإسلامي من جهة... ولكي تخيف شعوبها من الإسلام فتجرها إلى التّضحية في معاركها الفكرية والقتالية ضد العالم الإسلامي من جهة أخرى. وتبقى الصورة التي صيغت عن الشرق والإسلام سواء من طرف المستشرقين القدامى أوالمحدثين هي صورة مشوهة قائمة على تعميمات خاطئة وتشويهات متعمدة وافتراءات باطلة... فكل مناقتحم ميدان الاستشراق من الغربيين وأراد أن يتخصص فيه يصبح مقيدا بذلكم الجهاز الهائل من الأحكامالمسبقة، وعلى الرغم من أن الاستشراق الحديث والمعاصر قد شهد ظهور وتطور اتجاه علميموضوعي في دراسة الأديان والحضارات الأخرى، نجد المستشرقين لا يتأثرون كثيرا بهذا الاتجاه في تناولهم الإسلام وحياة المسلمين وهناك استمرار في تمرير وتكريس الصور النمطية القديمة عن الإسلام والإصرار على التبرير لها بدراسات وأبحاث قد تبدو علمية في ظاهرها لكنها غير موضوعية.(المنصور، 2014)

ثانيا- دور الإعلام الغربي في تشويه وتكريس صورة الإسلام والمسلمين:

إن نظرة الغرب الحديثة للإسلام ولدت في فترة كانت علاقة أوروبا بالإسلام فيها هي علاقة خوف وقلق، مما دفع الأوروبيين لتعريف الإسلام تعريفا "ضيقا كاريكاتوريا" كدين يملئه "العنف والشهوة" يقوم على "الجهاد العنيف" في الحياة الدنيا و"الملذات الحسية الموعودة" في الآخرة، كما نظروا لرسول محمد (ص) على أحسن تقدير على أنه واحد من اثنين، إما " قس كاثوليكي فشل في الترقي في سلم البابوية " فقرر الثورة ضد المسيحية وأنه راعي جمال فقير تلقى تعليمه على يد راهب سوري" ليشكل دينا جديدا من "قشور العقيدتين المسيحية واليهودية". (قانة، صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي عبر الدّراسات العربية والغربية، 2019، صفحة 202)

وبعد الحقبة الاستدمارية التقليدية واستقلال معظم الدول العربية والإسلامية وتوظيف الولايات المتحدة وحلفائها للإسلاميين في حربها ضد الاتحاد السوفيتي أصبح التركيز على تشويه صورة العربي، دون الإشارة للبعد الديني في شخصيته لتعود بعد تحقيق هدفها بسقوط الاتحاد السوفيتي لتجنيد ترسانتهاالإعلامية لمحاربة الإسلام العدو الجديد ومصدر الخطر القادم من الشرق إلى الغرب، وبدايات الظهورالإسلامي في الإعلام الغربي كان مركبا أساسيا في البناء المفاهيمي للصورة النمطية للإسلام في أجهزة الإعلام البريطانية حيث تم تصوير المسلمين وكأنهم يمثلون كل ما هو معاكس للغرب، وبالفعل فإن بعض الكتابات الغربية وحتى الإسلامية في بعض الأحيان أدت إلى التركيز المطلق على أبنية مفاهيمية وقيم ثقافية لكل من الجانبين حينما تبنت النسق الغربي على أنه الإطار المفاهيمي الوحيد الذي يمكن من خلاله فهم الوجود الإسلامي والإخبار عنه إذا أضحى الإعلام الغربي هو المصدر الإعلامي لفهمالإسلام.(بوعنان، 2017، صفحة 283)

ولهذا فقد أعطى انهيار الاتحاد السوفيتي في الربع الأخير من القرن الماضي وانتهاء الحرب الباردة بين القطبين العالميين الفرصة السائحة للولايات المتحدة الأمريكية لأن تنفرد بالعالم وتسعى لفرض هيمنتها فيما يسمى بالنظام العالمي الجديد، والترويج لمفهوم وفكر العولمة (البشري، 2003)، ومنذ ذلك الحين وهي تسعى جاهدة لفرض الأيديولوجية الأمريكية والطابع الأمريكي في التّفكير والاقتصاد والسّياسة والحياة الاجتماعية والأخلاق والقيم والثّقافة والإعلام ، بحيث يتم تعميمها على العالم، بالإغراق أو الإغراء أو الإلحاح، أو الضغط الناعم أو التسلسل السريع. (نافع، 2002)

ومنه إن جميع وسائل الإعلام الغربي قد اشتركت في صنع وترويج الصورة النمطية المسيئة للمسلمين، لا فرق في ذلك بين الصحافة المكتوبة، والإذاعة المسموعة، والتلفزيون والسينما والإنترنت...

1. في الصناعة السينمائية: تمتاز وسائل الإعلام المرئية بقدرة فائقة على بلورة الرؤى وتشكيل القناعات، وإذا كانت هذه الوسائل -عمومًا- لها فاعليتها في التأثير على المتلقي؛ فإن السينما تبقى إحدى أهم المنابر الترفيهية إسهامًا في صنع الوعي الجماعي والجماهيري في عصرنا الراهن.

إن السينما تحتل مكانة بارزة في التأثير على الرأي العام الغربي، وتشكيل المعايير والقيم السلوكية تجاه الظواهر المختلفة؛ على الرغم من أن أغلب ما يعرض فيها مجرد افتراء ادِّعائي، تخيُّلي، وتضليل إعلامي يخدم مصالح الغرب الثقافية والأيديولوجية.

وهذا ما أكدته دراسة أعدها الباحث والناقد الفني أحمد رأفت بهجت ان السينما الامريكية عمدت إلى تشويه صورة الإسلام والعرب منذ عام 1915م، وشملت الدراسة أكثر من مائة فيلم بداية ببساط بغداد الذي أنتج عام 1915م في الولايات المتحدة الأمريكية إلى أوائل الثمانينات، وقد تناول بهجت بعض أفلام المخرج سيسل دي ميل التي كانت تهدف إلى تشويه صورة الإسلام والعرب في العقل الغربي ومن هذه الأفلام «لا تستطيع امتلاك كل شيء» والذي يصور فيه أحد خلفاء المسلمين كزير نساء، وفيلم الصليبيين الذي يستخف فيه من القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي عندما يجعله يقع في الغرام تحت تأثير الجاذبية المكتسحة لزوجة ريتشارد قلب الأسد المسيحية.

ومن الملاحظ أن كل الأفلام التي تناولت الصحراء كانت تهدف إلى النيل من الشخصية العربية فالشاب جميل في فيلم «العرب» الذي أنتج عام 1915م يكرس كل وقته في سرقة القوافل، بينما يظهر فيلم «في ظلال الحريم» الذي أنتج عام 1928م رجلا عربياً يقوم بخطف أطفال صديقه، بيد ان المرشد المتطفل على سيدته البيضاء في فيلم «الهمجي» الذي أنتج عام 1933م لم يكن سوى عربي جاء من الصحراء .

يقول د.عبد القادر طاش متحدثاً عن التأثير السلبي الذي تحدثه السينما في الغرب " لقد بدأت السينما منذ مراحلها الأولى في تشويه الشخصية العربية عندما ظهرت في العشرينيات، من أفلام سينمائية تصور العربي في صورة شيخ شبق جنسيا، لا يعرف سوى النساء، وكانت صورة العربي مقترنة دائما بالجمل والصحراء والبداوة، وبعد قيام الكيان الصهيوني في فلسطين، حفلت فترة الأربعينيات والخمسينيات بعدد من الأفلام السينمائية، التي تصور العربي بأنه رجعي، متعصب، ماكر، كاذب، لا ذمة له، نهم جنسيا وكسول. ومن أهم أفلام هذه المرحلة" لص بغداد "و" كابتن سندباد "و" الصليبيون الجبابرة "و" هجوم الصحراء "و" وطيران العنقاء ". (طاش، 1414/1993م، صفحة 98.97)

ولعل الدراسة التي قام بها الكاتب الأمريكي جاك شاهين، هي أوسع الدراسات في هذا الباب، حيث أخضع أكثرمن1000 فيلم أمريكي للدراسة، وخلص إلى أن صورة العرب في السينما الأمريكية لا تخرج عن كونهم: " شيوخ مترفون، ذووا كوفيات وقمصان تظهر جليا علامات الترف، والبذخ، وانتفاخ البطن، والسمنة المفرطة، وهم إرهابيون عديموا الضمائر، ذووا لحى طويلة، قاذفو قنابل، قتلة، ولا يتورعون عن قتل الأبرياء، وقد ترسخت هذه الصورة أعمق بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2011م(بودهان، تشكيل الصورة النمطية عن الاسلام والمسلمين في الاعلام الغربي، 2006)

2- في الإذاعة والتلفزيون: لا شك أن المتتبع لبعض القنوات الإذاعية والتلفزيونية يجد أن الصورة لا تختلف كثيرًا عما هي عليه في السينما، ومع أن الصحوة الإسلامية في العقود الأخيرة استطاعت أن تلفت إليها نظر الدوائر الغربية بكل مكوناتها، فقد أدى هذا الوضع إلى ازدياد تركيز الإعلام الغربي على الحركات الإسلامية في البلاد العربية، خاصة منها الجماعات التي تستخدم الأعمال المادية، فقد كان هذا الإعلام حريصًا في نشراته بالإيحاء أن أعمال القتل والتدمير والتخريب تدخل في إطار التعاليم الإسلامية(بودهان، مجلة الوسيط للدراسات للدراسة الإعلامية، 2006).

وفي دراسة قام بها أستاذان بجامعة " أرفورت " الألمانية، حول " صورة الإسلام في الإعلام الألماني " من خلال متابعتهما ورصدهما للبرامج التي تطرقت للإسلام في قناتي " ZDF" :و" ARD" ، وقد بلغ عدد البرامج التي تناولتها الدراسة بالبحث 22 برنامجا في قناة" ARD" ، و15 برنامجا آخر في قناة" ZDF " ، ووصل عدد الحلقات المتعلقة بالإسلام إلى 133 حلقة.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى:"أن تناول الإسلام في المجلات الإذاعية، والبرامج الحوارية والوثائقية، والتقارير التي تبثها قناتا " تست ديه إف " و " أه إر ده " يتم بصورة سلبية، تظهر الإسلام بصفته خطرا داهما، ويسبب العديد من المشاكل في المجتمع والسياسة فيما يزيد عن نسبة 80%من المواد الإذاعية .

إن الإسلام من خلال قناتي" ZDF " و "ARD " يبدو وكأنه قمة العنف والصراع، مما يعطي للمشاهدين الألمان انطباعا بأن الإسلام لا يعتبر دينا وشريعة، بقدر اعتباره فكرا وأيديولوجية سياسية مجتمعية، تتعارض وتتصادم مع القيم والآداب الغربية". (الأجهوري، 2007)

وفي 1 نوفمبر 2010 م، بثت قناة FRANCE 24 برنامجا تحت عنوان الإسلام والمسيحية: الحوار إلى أين. حيث استهزأ أحد الضيوف بالإسلام، وذكر بأن الدين الإسلامي لا يقر بالمساواة بين البشر، وأنه دين الجهاد والقتل، كما تعمد أيضا تحريف بعض الآيات القرآنية.

و" في تموز 2005 أدلى " مايكل جرام" أحد مقدمي البرامج الحوارية، في إذاعة " دبليو أم إه إل " الأمريكية، في أحد برامجه بتصريحات قال فيها: إن الإسلام "منظمة إرهابية" و"الإسلام في حرب مع أمريكا "و" المشكلة ليست في التطرف.. الإسلام هو المشكلة " وأضاف:" نحن في حرب مع منظمة إرهابية تدعى الإسلام " .(فتحي، 2013)

3- في الصحف والمجلات: ليست فقط الإذاعة والتلفزيون والسينما هي التي تمارس خطاب الكراهية ضد المسلمين فالصحافة المكتوبة الغربية أيضا مارست خطابا تحريضيا كبيراً ،حيث وجد بعض الباحثين أن الصحافة البريطانية كمثال تصنع صورة الإسلام والمسلمين بطريقة تختلف عن باقي الدول الأوروبية والتي تصف الدين الإسلامي بالدين البدائي والإرهابي ويتعارض مع الحضارة أيضا ،كما يصفوه بأنه البديل عن الشيوعية وايدولوجياتها خاصة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي ،وعادة ما تستخدم الصحف الأوروبية والأمريكية عناوين مضللة تغرس في عقلية المشاهد الغربي صورة مغلوطة عن الإسلام والمسلمين مثال على ذلك (المسلمون قادمون ،الحروب الصليبية مستمرة ، سيف الإسلام يعود من جديد) وغير ذلك من الألفاظ ومن صورة التشويه التي تمارسه الصحافة الغربية ضد المسلمين ما جاء في مقال نشرته صحيفة صنداي تايمز البريطانية عام 1991م (بيرجرين دور تون) "بعنوان الوجه القبيح الإسلام " والذي "قال فيه أن الإسلام الذي كان حضارة عظيمة تستحق الحوار معها ،قد انحط وأصبح عددا بدائيا يستحق الإخضاع، كما نشرت صحيفة فاينشال تايمز" أنه يجب على الولايات المتحدة الأمريكية أن تشجع الاتجاهات الديمقراطية في العالم الإسلامي أنها تدفع بذلك دون أن تدري بالأصوليين الذين يمكن أن يصلوا الى السلطة هناك.

ونعرض عناوين بعض الأغلفة والمقالات في الصحف والمجلات الغربية للتدليل على هذا التوجه "الإسلاموفوبي" مثل:

- "جذور الغضب الإسلامي".
- "قنبلة الإسلام الموقوتة".
- "الصين أيضًا قلقة من الإسلام" (جاك، 1994).

وفي دراسة نشرها عبد الكريم بوفرة، تتبع فيها أنواع الإساءات التي ألصقت بالإسلام والمسلمين في الصحافة الفرنسية، وذلك من خلال عناوين أغلفة بعض الجرائد والمجلات، وقد جاءت هذه الدراسة طافحة بكل أشكال الطعن والتشويه والازدراء لكل ما هو إسلامي.

ومن هذه العناوين:

♦ **" تونس - الرباط - الجزائر - دكار - أبيدجان - ياو اندي...هل يجب إصلاح رمضان؟ تحقيقات حول شهر مقدس"** (Jeune afrique, du25/01 au 01/02/1995)

♦ **" العنكبوت الإسلامية تنسج خيوطها في أوربا: فرنسا- بريطانيا- تركيا- ألمانيا "** (L'E événement du heudi, Du 22 au 28/09/1994)

♦ " الإسلام مقاومة التطرف تسليمة نصرين تحاور ثلاث نساء محجبات." (Le Nouvel Observateue، Du 08 au 14/12/1994)

♦ " الحجاب المؤامرة: كيف يتغلغل الإسلاميون في فرنسا؟". (L'Express، 1994)

أما مجلة التايمز الأمريكية، وفي عددها الصادر بتاريخ: 1979/04/16م كانت صورة وموضوع الغلاف: "عبارة عن مؤذن وكأنه يدعو إلى الصلاة، وقد كتب عنوان بخط لافت: "عودة المجاهد" وقد تناول المقال بالداخل ظاهرة المد الإسلامي، والصحوة التي تدب في العالم الإسلامي، ووصف المقال هذه الظاهرة بأنها تمثل روح التعصب والعودة إلى همجية القرون الوسطى." (فتحي، 2013، صفحة 134)

وفي تاريخ 1990/6/15م نشرت صحيفة الصنداي تلغراف البريطانية مقالها الرئيس بعنوان: **هل يقبرنا الإسلام؟**

♦ وفي نفس التاريخ، نشرت صحيفة الصنداي تايمز افتتاحيتها عن التهديد الأصولي المسلم، الذي يمتد من شواطئ البحر المتوسط في شمال أفريقيا، إلي آسيا الوسطى وحدود الصين.

وليس من شك في أن القارئ الغربي - في الغالب الأعم - يقع تحت أسر هذه العناوين أو الشعارات المغرضة، فينظر إليها باعتبارها مسلمات غير قابلة للشك أو الطعن، ومما ينبغي التنبيه إليه أن خطورة هذا الأمر لا تنحصر فقط في من اقتنى أو تصفح هذه الجرائد أو المجلات، بل تتعدى كل من يقف أمام الأكشاك أو المكتبات التي تبيعها إذ غالبا ما يأخذ الزائر فكرة عن مضمونها من خلال عناوين أغلفتها التي تلفت النظر، بخطها العريض، وصورها الفنية المعبرة.

4- في الدعاية والإعلان: إن الذي يغفل عنه الكثير من المسلمين؛ أن تقديم الإعلام الغربي للصورة السلبية عن العالم الإسلامي، ليس قاصرًا على ما يكتب في الجرائد والمجلات فحسب، وإنما يمتد ليشمل مجال الإشهار أو الإعلان؛ حيث يتم الترويج للسلع والخدمات بطرق مليئة بالسخرية من المسلمين ومعتقداتهم، وهو ما يعني أن حملة الإعلام الغربي على الإسلام والمسلمين ليست عفوية، بل مدروسة بعناية فائقة، ولعل الإعلان ليس أقل تأثيرًا من أفلام السينما، وبرامج التلفزيون، ومواد التحريرالصحفية.(القاضي، 2020)

إذ تسعى المؤسسات الغربية إلى نشر الكراهية للإسلام والتضيق على العرب المسلمين حيث يسعى القائمون على كتابة النصوص الإعلانية وتصميمها إلى تقديم صورة سلبية عن العرب والمسلمين، بهدف إثارة مخاوف المواطن الغربي تجاههم، وهذا من خلال تقديم العرب والمسلمين في صورة الشخص الذي يقوم بارتكاب الأعمال الإرهابية، مع ربط هذه الأعمال بالعقيدة الإسلامية.

وهذا بلا شك راجع إلى أسباب عدة منها:

- أن الرسالة الإعلانية غالبا ما تخضع لمنطق الإيجاز والتركيز، كما تتميز أيضا بعرضها المتكرر، مما ييسر أمر غرسها في ذاكرة المتلقي فلا ينساها.
- إن المواد الإشهارية غالبا ما تشق طريقها اتجاه المؤسسات الإعلامية ذات الوزن القوي، وهو ما يعني أن عدد المتفاعلين مع تلك المواد يكون كبيرا.
- وعلى الرغم من الإساءات المتكررة التي يتعرض لها المسلمون في الإعلانات التجارية في الإعلام الغربي، إلا أن الدراسات في هذا الباب تكاد تكون منعدمة، وهو ما يفرض على الدارسين المتخصصين أن يولوا هذا الموضوع ما يستحق من عناية، حتى نتمكن من تشخيص هذه الظاهرة، والتعامل معها بشكل شمولي ومتكامل.
- ولعل المتتبع لما يعرض في بعض وسائل الإعلام الغربي، يقف على كثير من المشاهد الدعائية، التي تعكس نظرة الغرب العدائية للإسلام والمسلمين.

5- في الصور والرسوم الكاريكاتورية: ساد الاعتقاد عند كثير من الناس؛ بأن الإساءة إلى الإسلام باستخدام الرسومات الكاريكاتورية لم تبدأ إلا مع الصحيفة الدانمركية: «يولاندس بوسطن» سنة 2005م، وهذا اعتقاد خاطئ. فالرسم الكاريكاتوري وُظِّف في عملية تشويه الإسلام والمسلمين في الغرب قبل ذلك بسنوات طويلة، والمتتبع لهذا الموضوع – خاصة في الآونة الأخيرة – يلمس إصرارًا كبيرًا من قبل بعض المنابر الإعلامية الغربية على استفزاز مشاعر المسلمين والطعن في مقدساتهم.

وقد " أطلق رسامو الكاريكاتير العنان لمخيلاتهم من أجل تصوير العرب والمسلمين في الصحف والمطبوعات الإعلامية بأشكال وهيئات وحالات مقززة ... لقد كانت ملامح الشخصية العربية والإسلامية في تلك الرسوم نمطية، تعبر عن بناء فكري مركب، نما وتكون عبر تاريخ الاحتكاك العنيف بين الغرب والشرق، فالأنوف معقوفة، والعيون ذات نظرات شرهة تطفح بالشر، واللباس دائما عبارة عن عباءة خليجية، وشماغ أحمر، وهو- أي العربي- بطبيعة الحال حافي القدمين، لأنه بدوي ليس متحضراً، أما وطنه فهو عبارة عن

صحراء جرداء، تختزن في باطنها بحرا ممتداً إلى ما لا نهاية من البترول ...وقد يتم أحيانا الربط بين العربي وديانته الإسلامية، كما حصل إبان أزمة النفط عندما أراد بعض رسامي الكاريكاتير التعبير عن الارتفاع المهول في أسعار النفط لمصلحة المصدرين والمنتجين، فعمدوا إلى تصوير المؤذنين للصلاة واقفين على المآذن، وهم يتلون آخر أنباء انهيارات أسعار الأسهم في البورصات العالمية، بدلا من كلمات الأذان"(كارلسون، 2003).

ثالثا: سبل تصحيح صورة الإسلام والمسلمين عند الغرب

إن مسؤولية تصحيح صورة الإسلام والمسلمين تقع على عاتق المسلمين جميعا ويمكن وصف ذلك بضرورة وضع مشروع برنامج للرد على حملات التشويه الإعلامي الإسلامي والحضارة الإسلامية وكذا تصحيح بعض الصور المغلوطة في العديد من المستويات ونذكر منها:

1-على مستوى الدول الإسلامية: حيث يقتضي تحسين صورة الإسلام والمسلمين وجود تحرك عربي إسلامي منظم داخل المجتمعات الغربية ودعم المنظمات الإسلامية للتأثير على مجتمعاتها بدلا من الاكتفاء داخل هذه البلدان باقتناء سياساتها، كما يجب على الدول الإسلامية مواجهة ما يعرف بصدام الحضارات، مما يعني إبدال التصادم مع الغرب بما يعرف حوار الحضارات، مما يعني عدم المواجهة والتصادم وإنما التحاور مع الآخرين . وقبول خصوصياته الثقافية والدينية ومحاولة إقناعه بقبول خصوصيات وثقافات الآخرين (شحاتة، 1998)، كما يجب على الدول العربية والإسلامية وضع استراتيجية موحدة بالتنسيق مع الغرب لإيجاد تعريف موحد للإرهاب الذي لا دين ولا وطن له، وإزاحة الفكرة القائلة بأن الإرهاب نابع من الإسلام وأن الإرهابي هو المسلم في حد ذاته.

2-على مستوى الإعلام الإسلامي: مما يعني ضرورة وضع خطة إعلامية إسلامية موحدة للرد على حملات التشويه تقتضي ما يلي:

-ضرورة إنشاء قناة فضائية إسلامية لبث برامجها بمختلف اللغات الأجنبية وتعمل الدول الإسلامية على تمويلها ماديا وبشريا، استثمار الفضاء الإعلامي في الغرب من خلال عرض قضايا العالم الإسلامي واستئجار ساعات من البث الإذاعي والتلفزيوني في بعض القنوات الغربية المستقلة ومحاولة تعريف المجتمعات الغربية بالحضارة والثقافة العربية والإسلامية، تشجيع قادة العمل الإسلامي في الغرب وربط قنوات على إنشاء صحف ومجلات باللغات والأساتذة الجامعيين المتعاطفين مع الإسلام والمسلمين(المحجوب، 2010). وكذا استغلال الإنترنت من خلال إنشاء مواقع خاصة بالإسلام والمسلمين من أجل تصحيح الأفكار والمعلومات والمفاهيم الخاطئة التي تروج ضد الإسلام.

3-على مستوى الجاليات المسلمة المقيمين بالخارج: من خلال استخدام المسلمين المقيمين بالخارج أسلوب التواصل والاندماج مع المجتمعات الغربية الأصلية ومحاولة التنسيق مع المنظمات الإسلامية للتأثير في الرأي العام وكذا الدعوة إلى إنشاء الاتحادات والجمعيات التي تعمل على التعاون والتواصل وتبادل الخبرات والمعلومات مع اتحادات وجمعيات غربية أخرى، مما يوطد علاقات سلمية إلى وتعاونية بين المسلمين وغير المسلمين(عوض، 2002)، ضف إلى ذلك ضرورة التخلص من بعض العادات

والتصرفات التافهة والتي أن تشوه صورة الإسلام والمسلمين في المجتمعات الغربية مع محاولة إعطاء صورة مثالية تليق بالحضارة والدين الإسلامي.

خاتمة:

لم يتعرض دين من الأديان ولا عقيدة من العقائد للتشويه مثلما تعرض له الدّين الإسلامي وتعرضت له العقيدة الإسلامية في القديم والحديث على حد سواء، فلم يترك أعداء هذا الدين وسيلة اتصالية إلا واستغلوها في محاربته وتشويه صورته وصورة معتنقيه كأروع وأبشع ما يكون الاستغلال.

ويواجه المسلمون عامة والعرب خاصة حملة إعلامية كبيرة مقصودة وموجهه من قبل الإعلام الغربي وبمختلف وسائله الصحفية والإذاعية والتلفزيونية والسينمائية الأمر الذي يتطلب جهود كبيرة من قبل الغرب والمسلمين وخاصة المؤسسات العربية والإسلامية والتي يجب ان تنتج مواد إعلامية سواء كانت كتب ،أو عن طريق انشاء محطات اذاعية أو تلفزيونية تخاطب الغرب وتحسن صورة المسلمين، ولا شك أن الصورة النمطية التي يعمل الإعلام الصهيوني على تمريرها للمواطن الغربي عن طريق تكرار الرسائل الإعلامية المشبوهة عن المسلمين تتناقض أساسا مع تاريخ عريق يدل على تسامح العرب مع الأمم الأخرى ولا يمكن مقارنته مع تسامح الأوروبيين الذي كانت محاكم التفتيش نموذجا بشعا له، أو تجارب التحضر والتحديث التي تعرض لها سكان أمريكا الصلبيين وكانت نتيجتها أن ذهب ماليين البشر الذين تعرضت معالم حضارتهم وثقافتهم الى الإزالة من الوجود، وفرض عليهم التخلي عن معتقداتهم لصالح دين المبشرين الجدد.

ويمكننا القول إنه يكفي أن حضارة العرب لم تنتج عنصرية أو فاشية أو نازية أو استعمارا ولم تعرف الإبادة الجماعية التي مارسها الغرب على مدى التاريخ. ولمواجهة الصورة السلبية عن الإسلام والمسلمين في العالم الغربي يجب القيام بعدة أمور يمكن أن تساعد في تحسين الصورة السلبية ومن أهمها إنتاج الأفلام الوثائقية التي توضح فضل الحضارة العربية والإسلامية في إنارة وتقدم العالم أجمع، وذلك بهدف نفي صفة التخلف التي التصقت بكل ما هو عربي أو إسلامي، وإثبات أن الدين الإسلامي بتعاليمه السمحة دين صالح لكل العصور. وكذا إعداد المضامين الإعلامية التي تبرز الصورة الحقيقية للعالم العربي وتبين الصورة الحقيقية للبلدان العربية وأنها ليست مجرد بلدان صحراوية جرداء كما تُظهرها الدراما السينمائية الغربية.

كما يجب أيضا تكوين لجان من علماء عرب ومسلمين من المشهود لهم بالكفاءة العلمية والغيرة على المصلحة العربية الإسلامية تتولى مهمة الدفاع عن الإسلام والعرب داخل المجتمعات الغربية نفسها، وعقد الندوات والمؤتمرات داخل هذه المجتمعات، وبالتالي نكون قد استفدنا من مناخ حرية الرأي والتعبير الذي يتحه الغرب لكل التيارات الإيديولوجية؛ للعمل على تكوين صورة مضادة تعبر بوضوح وصدق عن حقيقة العالم العربي والإسلامي مما يحقق لنا ميزة المبادرة وليس الانتظار للرد.

ومما سبق يمكن أن نستنتج العديد من النتائج أبرزها:

- يقدم الإعلام الغربي صورا نمطية لواقع الإسلام والمسلمين غير حقيقة وهذا بهدف تشويه صورته في العالم.
- يعتمدالجمهور على وسائل الاعلام كمصدر مع نظرية الاعتماد على وسائل الإعلام. وهذا نتيجة قدرة وسائل الإعلام الغربية على تحقيق قدر أكبر من التأثير المعرفي والعاطفي والسلوكي.
- عرض الإعلام الغربي العديد من الإعلانات والأفلام التي توضح عدائية للإسلام والمسلمين وتوضح سعي الإعلام الغربي لتقديم صورة نمطية سلبية للإسلام والمسلمين.
- تقع مسؤولية التخلص من حملات التشويه والتحريف للإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي على عاتق جميع الدول الإسلامية وعلى عاتق جميعالمسلمين، وتتفق هذه النتيجةمع نظريةالمسؤوليةالاجتماعية .
- أثرت الأحداث السياسة والصراعات الطائفية وما شاهدت المنطقة العربية من ثورات شعبية أو ما يسمى بالربيع العربي على الصورة النمطية للإسلام والمسلمين عند الغرب.
- تعود الصورة النمطيةالسلبية التي يقدمها الإعلام الغربي عن الإسلام والمسلمين للعديد من الأسباب أهمها صراع الحضارات، وخدمة المعلومات غير المرصودة، والعداء للإسلام، والمصالح الاقتصادية والسياسة، والقضيةالفلسطينية وموقف الغرب منها.

توصيات :

- ضرورة استخدام أسلوب الحوار العقلاني الهادف، للقضاء على الصورة السلبية عن الإسلام والمسلمين في الدول الغربية.
- طرح برامج إعلامية هادفة وتوجه دعوات للمسؤولين في الإعلام الغربي من شتى الدول، ومحاورتهم عن الإعلانات والأفلام التي يطرحونها والتي تسيء للإسلام والمسلمين.
- على المنظمات الإسلامية والأحزاب والجماعات الإسلامية أيضا نشر حملات توعية خارج البلاد الإسلامية للتعريف بالصورة الحقيقة والواقعية للإسلام والمسلمين.
- إنشاء قناة إعلامية بروح الشباب تهدف لإيصال رسالة الإسلام السمحة وتبين الصورة الحقيقة لأنبياء الله رضي الله عنهم، وأن يكون تردد هذه القناة الإعلامية على أقمار الدول الغربية، وأن تطرح بلغات أجنبية كما من الضروري توحيد صف البلاد الإسلامية، وتوحيد كلمتها، واسترجاع قوتها أمام الدول الغربية.
- العمل على حل النزاعات السياسة، والصراعات الأهلية التي تعاني منها الدول العربية والإسلامية دون الحاجة للتدخل الخارجي.

قائمة المراجع:

أ.المراجع باللغة الأجنبية:

- *Eléments of Research*New York. (1946) F Whitney.
- *N*1777).*(* 25/01 au 01/02/1995).*Jeune Afrique*(Jeune Afriquedu

- .(516)Du 22 au 28/09/1994).*L'E événement du jeudi*) L'E événement du jeudi.
- .(1570) au 14/12/1994 08 Le Nouvel Observateur
-)(1570 Le Nouvel Observateur.Du 08 au 14/12/1994
- .(2263) .(1994 ,11 24) L'Express.
- .*The SimplestWays to ImproveYourProblemSolvingSkills"*.(2018 ,05 26) Lynn Silva. تم الاسترداد من .www.lifehack.org, Retrieved
- nd).Boston: Houghton 2 الإصدار) *Lntroduction to Research* .(1964) TyrusHillway. MifflinCompany.

ب.المراجع باللغة العربية:

- ابراهيم نافع، *انفجار سبتمبر العولمة والأمركة(2002).* القاهرة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- أبو زيد الرشد يشحاتة، مسؤولية *الإعلام والإسلام في ظل النظام العالمي الجديد*(1998)، (الإصدار ط3). مكتبة القصد.
- أحمد كاظم، وجابر جابر، *مناهج البحث في التربية وعلم النفس(1985)،* القاهرة: دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع.
- أسماء بوعنان، صورة الإسلام والمسلم الآخر في الإعلام الغربي عوامل التشكيل وسبل التغيير. (جوان، 2017)، (كلية الإعلام والاتصال والسمعي البصري، المحرر) *مجلة العلوم الإنسانية*(47).
- اسماعيل سيبوكر، ونجلاء جناحي، أهميةالمنهج الوصفي للبحث في العلوم الإنسانية، (جوان، 2019). *مقاليد*(16).
- الجابري محمد العابد، *الإسلام والغرب الأنا والآخر*، (2009)، (الإصدار الطبعة الأولى). بيروت: الشبكة العربية للحث والأنقاد، سلسة الفكر والنقد.
- المبروك الشيباني المنصور، *صناعة الآخر المسلم في الفكر الغربي المعاصر من الاستشراف إلى الإسلاموفوبيا، (2014)،* (الإصدار الطبعة الأولى). بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات.
- *المنارة للاستشارات،* تاريخ الاسترداد 30 ,11 ،2021 من https://www.manaraa.com/post/6504/أدوات جمع البيانات في البحث العلمي.
- الوشي عطية فتحي، الخواف الإسلامي بين الحقيقة والتضليل، (2013)، *سلسلة دعوة الحق.*
- انجمار كارلسون، *الإسلام وأوروبا تعايش أم مجابهة*، (2003) القاهرة، مصر: مكتبة الشروق.
- بشير الرشدي، *مناهج البحث التربوي رؤية تطبيقية مبسطة، (2000)*، الكويت: دار الكتاب الحديث.
- بن سعيد المحجوب، *الإسلام والإعلام فوبيا*، (2010). دمشق، سوريا: دار الفكر.
- بوعنان أسماء. (بلا تاريخ).
- جمال أحمد ظاهر، *البحث العلمي الحديث، (1983)* عمان: دار محلاوي للنشر والتوزيع.

- حسينة قانة، صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي عبر الدّراسات العربية والغربية، (15 .01. 2019)، *مجلة الاتصال والصحافة*.
- خلود محمد الشواف، *مفهوم البحث العلميّ والبحث التربويّ، (1435/1434هـ)*. السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة.
- رانيا عوض، *صورة العرب والإسلام في الغرب، كيف يعاد تشكيلها؟ (2002)*، (الإصدار ط1). القاهرة، مصر: مكتبة المطبوع.
- ربحي عليان، وعثمان غنيم، *مناهج وأساليب البحث العلمي - النظرية والتطبيق*، (2000)، (الإصدار الطبعة الأولى). عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع.
- زينب الأشوح، *طرق وأساليب البحث العلمي وأهم ركائزه*، (2014). القاهرة: المجموعة العربية للتدريب والنشر.
- سامية محمد جابر، *منهجيات البحث الاجتماعي والإعلامي، (2000)* القاهرة: دار المعرفة.
- سعيد سالم الحنكي، *مجالات البحث العلميّ الأمنيّ في ظلّ إدارة الجودة الشاملة*، (2006). الشارقة: جامعة الشارقة.
- سعيدي بن شهرة، أحمد دروم، طارق هزرشي، وآخرون، (13-14 11, 2019). الفرضيات العلمية وبناء الأهداف وعلاقتها بالنتائج البحثية. *مجلة الباحث للعلوم الرياضية والاجتماعية*،
- شاهين جاك، المصلحة من تشويه صورة العربي والمسلم في إعلامهم، (12 12, 1994)، *الحياة اللندنية*، 132.
- صالح بلعيد، *في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث*، (2005). الجزائر: دار هومة.
- طارق البشري. *العرب في مواجهة العدوان، (2003)* القاهرة، مصر: دار الشروق.
- عبد الرشيد بن عبد العزيز حافظ، *أساسيات البحث العلمي، (2012)*، جدة، السعودية: مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز.
- عبد القادر طاش، *صورة الإسلام في الإعلام الغربي*، (1414/1993م)، (الإصدار الطبعة 2). القاهرة: الزهراء للإعلام الغربي.
- عبد الله القاضي، دور الإعلام الغربي في تشويه صورةالحضارة الإسلامية، والخلافةوحدها من سيوقف هذا التشويه، (جويلية، 2020)، مجلة *الوعي*.
- عودة ملكاوي، وحسن أحمد سليمان، *أساسيَّاتُ البحث العلميِّ في التربية والعلوم الإنسانيَّة: عناصر البحث ومناهجه والتحليل الإحصائيُّ لبيانات، (1992)*. هـ (الإصدار الطبعة الثالثة). إربد.
- محمد جلاء إدريس، *مناهج البحث العلمي: نظريا وتطبيقيا*. (1998). الجامعة العامة الإسلامية.
- محمد عبد الحميد، *البحث العلمي في الدراسات الإعلامية. (2000)*. القاهرة: عالم الكتب.
- محمد عبيدات، وآخرون. *منهجية البحث العلمي، القواعد والمراحل، والتطبيقات*، (1997). (الإصدار الطبعة الأولى). عمان الأردن: دار وائل.

- محمد عزوزي، *الإسلام والغرب قراءات معاصرة، (2012).* فاس: مطبعة أميمة.
- محمد محمود الذبينات، وعمار بوحوش، *مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث*، (2007)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- نوال مجدوب، وخيرة مجدوب، مزايا طرق جمع البيانات المختلفة وعيوبها ومتى يتم استخدام كل منها. *جملة السراج في التربية وقضايا المجتمع*، (مارس، 2007). (العدد الأول).
- وائل الأجهوري. *جريدة السبل المغربية*، (10 مارس، 2007).
- يامين بودهان، *مجلة الوسيط للدراسات للدراسة الإعلامية*، (2006).
- يامين بودهان. تشكيل الصورة النمطية عن الاسلام والمسلمين في الاعلام الغربي، (2006). (قسم علوم الاعلام والاتصال سطيف، المحرر) *مجلة الوسيط للدراسات الإعلامية* (12).
- يحي سعد، *شركة دراسة للاستشارات والدراسة والترجمة*. (30 11, 2021). تم الاسترداد من https://www.drasah.com/Description.aspx?i

صورة الإسلام بأعين الإعلام الغربي

The Image of Islam in the Eyes of the Western Media

د. بن سعيدي سهام، جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي- الجزائر
sihbensaidi@gmail.com



أصبحت تثار تساؤلات حقيقية حول تنامي كراهية الآخر للإسلام و المسلمين و حول الأبعاد الحقيقية لهذه الصورة ضبابية التي أصبحت تلف العالم عقب أحداث 11 سبتمبر 2011 ودور وسائل الإعلام الغربية في تأجيج هذه الحملة، وكأن هناك تحالفا عالميا حول تشويه صورة الإسلام سواء في العالم الإسلامي ممن يتلاعبون بنصوصه الشرعية لتغيير قيمه السامية والنبيلة فنجد شيوخ و أئمة في مختلف وسائل الإعلام يأخذون من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ما يخدم مأربهم و ما يوافق هواهم، وقد حاولنا في هذه الدراسة البحث في طبيعة صورة الإسلام لدى الإعلام الغربي وكذا جذور وأبعاد التشويه الغربي لصورة الإسلام والمسلمين لاقتراح جملة من السبل لتصحيح هذه الصورة وإبراز وسطية واعتدال الدين الإسلامي الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء.

الكلمات مفتاحية: الصورة الذهنية، وسائل الإعلام، الأسباب، السبل.

Abstract

Real questions are being raised about the growing hatred of the other against Islam and Muslims, and about the real dimensions of this blurry image that has enveloped the world after the events of September 11, 2011 and the role of the Western media in fueling this campaign, as if there is a global alliance about distorting the image of Islam, both in the Islamic world, who are manipulating With its legal texts to change its lofty and noble values. We find sheikhs and imams in various media outlets who take from the Qur'anic texts and Prophetic hadiths what serves their purpose and what matches their whims. A number of ways to correct this image and to highlight the moderation of the Islamic religion, which God has accepted for all mankind.

Keywords: psychological image, media, reason method.



مقدمة:

تعد وسائل الإعلام من أهم القنوات الفاعلة في تشكيل الصور والتأثير المبهر في المجتمعات الإنسانية حيث تترك انطباعات وتصورات لدى الجمهور المتلقي عادة ما تكون مخططة ومدروسة ووفق سياسة أيديولوجية تخدم مالكيها، وقد ساهمت وسائل الإعلام الغربية في تشويه صورة الإسلام والمسلمين فشكلت صورا عنصرية خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر 2011، التي حولت العالم الإسلامي إلى متهم وبرأت العالم الغربي من كل تهمة ودأبت وسائل الإعلام الغربية بوصف المسلمين بالإرهاب، حيث تكمن أهمية

هذه الدراسة في كونها تبحث في جذور وأسباب محاولة الإعلام الغربي تشويه صورة الإسلام وكذا اقتراح سبل لتصحيح هذه الصورة المغلوطة.

الإشكالية: إن الصورة النمطية التي تبلورت عبر وسائل الإعلام عقب أحداث 11 سبتمبر 2011 تستوجب ضرورة الوقوف على أبعاد وسبل إصلاحها ورصد أهم الآليات التي يجب إتباعها، فما هي الأسباب التي أدت إلى تبلور هذه الصورة وهل الصراع بين الشرق والغرب لعب دورا في تكوين هذه الصورة، أم أن سلوكيات المسلمين هي التي ساهمت في ذلك؟

أولا- مدخل مفاهيمي:

لتتضح الصورة أكثر لابد من الوقوف على أهم مصطلحات البحث وإلقاء الضوء عليها:

أ/ تعريف الصورة الذهنية: تعني: "مجموعة السمات والملامح التي يدركها الجمهور، ويبني على أساسها مواقفه واتجاهاته نحو المنظمة أو الشركة أو الدولة أو الجماعة وتتكون تلك الصورة عن طريق الخبرة الشخصية للجمهور القائمة على الاتصال المباشر أو عن طريق العمليات الاتصالية الجماهيرية" (مريم قروشي: ص 30.

ويقصد بها:" محصلة الانطباعات التي يكونها المرء عن شعب ما..." (عصام سليمان الموسى: ص94)كما تعرفها الموسوعة الإعلامية بأنها ذلك الانطباع الذي يخلد في الذهن..".(محمد منير حجاب:2003، ص155). ونعني بها في هذه الدراسة الصورة السلبية التي كرسها الإعلام الغربي عن الإسلام والمسلمين، فتكوين انطباعات نفسية تبنى على إدراكات عقلية وأسس سليمة وتتحول الصور الذهنية إلى نمطية عندما تتكرر بشكل ثابت ولعل هذا ما تجسد في صورة الإسلام لدى الإعلام الغربي.

ب/ تعريف وسائل الإعلام: يقصد بها: "تلك الوسائل التي يتم بها الاتصال الجماهيري المتميزة بالقدرة على توصيل الرسائل وفي نفس اللحظة وبسرعة فائقة إلى جمهور عريض مع قدرتها على نقل الأخبار والمعلومات والآراء والقيم القادرة على خلق رأي عام وتنمية الاتجاهات وأنماط السلوك غير الموجودة لدى الجمهور." (ليلى فيلالي ومجموعة من الباحثين: 2008، ص26.).

نقصد بها في هذه الدراسة كل وسائل الإعلام الجماهيرية التي تبث إلى قطاعات عريضة من الجمهور وتنقسم إلى:

- وسائل إعلام مكتوبة كالصحف والمجلات والصحف.
- وسائل إعلام سمعية كالراديو وأشرطة التسجيل.
- وسائل إعلام بصرية كالسينما والتلفزيون والراديو.
- وسائل إعلام ثابتة كالمعارض والمسارح والندوات والمؤتمرات.(صالح ذياب هندي:2008، ص23).
- وسائل إعلام تفاعلية والتي تعرف بالتكنولوجيات الحديثة كالهاتف النقال والانترنيت.(لعرباوي نصير:2016، ص262)

لوسائل الإعلام بمختلف أنواعها، دور في تغذية وسائل الاتصال الجماهيرية بالكثير من المواد التي تشكل الصور المختلفة فهي التي تلاحق الخبر وتقدم التقارير وتصنع الصور.

ج/ مفهوم الإعلام الغربي: هو مختلف الوسائل الإعلامية الغربية التي تشتغل وفق منظومة متكاملة لخدمة أهداف مجتمعاتها بالدرجة الأولى، وخدمة سياساتها، هذا على الرغم من اختلاف سياساتها الإعلامية، واختلاف تصنيفاتها، واختلاف اللغات الناطقة بها (تلفزيون، إذاعة، صحف، مجلات، سينما...)(عذراء عيواج، نرهة حنون:ص 148،149).

ثانيا - طبيعة الصورة النمطية للإسلام في الإعلام الغربي و أسباب تكوينها:

من خلال ما تبثه وسائل الإعلام عموما تسهم في تشكيل الصور النمطية عن الشعوب، وذلك بالانتشار الواسع لمختلف مضامينها وقدرتها الفائقة على الاستقطاب بانشغال الأفراد بها طوال وقتهم مما يجعلهم فريسة سهلة لمضامينها خاصة في ضل العصر الحالي، وهذا ما عملت عليه وسائل الإعلام الغربي بترسيخ مفاهيم خاطئة عن العالم الإسلامي وتضليل العالم عموما والمواطن الغربي خصوصا، في ضل جهله بالعالم الإسلامي ومكتفيا بما تبثه وسائل الإعلام الغربي عنه فقط، وقد ركزت وسائل الإعلام الغربي بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2011 على توظيف مصطلح الإرهاب وما تبعه من مصطلحات توظيفا دقيقا ومدروسا ومن بين هذه الدراسات : (مريم قروشي: المرجع نفسه، ص32):

- دراسة تناولت عاما من التغطية الإعلامية قام بهام عمدة لندن بين ماي 2006 وأفريل 2007 حيث أصدرت تقريرا مكون من 180 صفحة كانت سلبية عن المسلمين.
- دراسة أصدرتها كلية كرديف للصحافة والإعلام والدراسات الثقافية حيث شملت تحليلا لمحتوى 974 مقالة تناولت مسلمي بريطانيا في 1412 سياقا مختلفا ووجد الباحثون أن التغطية للمسلمين زادت خلال فترة البحث ارتبطت بشكل واضح بالإرهاب وما يتعلق به.

فقد وظف مصطلح الإرهاب توظيفا مأساويا من طرف الخطاب الغربي عموما والأمريكي خصوصا لوسم أي نوع من أنواع النضال المسلح حتى لو كان هدفه التحرير من الاستعمار أو العنصرية أو من الأنظمة التابعة الاستبدادية.

حسب استطلاع قامت به CNN في 2001/11/13 وجدت أن 51 بالمائة ممن تم استطلاع أرائهم يشعرون باستياء تجاه الأفغان و41 بالمائة لديهم نفس الشعور لدى الفلسطينيين.

إن صورة الإسلام نمطية و هي صناعة فردية وجماعية لدى كل الوسائل وهي غير متغيرة فالغرب صنع صورة سلبية عن الإسلام والمسلمين من خلال الآلة الإعلامية و احتكاره لها، مما أسفر على نمطية المعلومة المقدمة للجمهور، ولعل أهم مظاهر التشويه للعالم الإسلامي تمثل في المساس بالرموز الإسلامية فقد عملت وسائل الإعلام بمختلف أنواعها على تشويه صورة النبي صلى الله عليه وسلم من خلال تصويره

في صور كاريكاتورية مضحكة ومثيرة للسخرية، كما عملوا على إثارة الاحتقار والاستهزاء بشخصيته العظيمة من خلال نشر معلومات مغلوطة عنه للتقليل من شأنه ومكانته العظيمة (محمد عمارة: 2005، ص137-138)، كما عملت وسائل الإعلام الغربي على تشويه دور العبادة بإدعائهم أن خطابهم المسجدي يحرض على الجهاد والحرب و العنف ضد الآخر ويرفض التعايش السلمي مع الآخر (ادموند غريب:2000، ص67).

ومن بين العوامل التي أدت إلى تشويه صورة الإسلام والمسلمين مايلي:

أ/ أبعاد تاريخية: هذه الظاهرة ممتدة في التاريخ وهناك جملة من العوامل والأسباب أهمها ما هو تاريخي بدءا من أول احتكاك بين الحضارتين وهذه الصورة من الصعب اختزالها في فرد بل هي أعمق وتمتد إلى جذور تاريخية والإعلام مجرد وسيلة يشارك في إعادة الترويج للصورة وهي موجودة من قبل بدءا من الكتب المقدسة لدى المسيحيين إلى الدراسات الاستشراقية إلى الكتب المدرسية والقصص والروايات والأغاني الشعبية وحتى الفكاهة استخدمت وسيلة لتشويه صورة العرب والمسلمين من خلال كتاب قدم نماذج للفكاهة المتداولة في المجتمع الفرنسي فهي ظاهرة ثقافية لها أبعادها وامتدادها التاريخي ولها دوائرها التي أسهمت في ذلك وتستمر، فقد كان للرحالة الغربيين للعالم الإسلامي دور كبير في اختلاق الأكاذيب حول ما شاهدوه فساهمت كتاباتهم في ترسيخ الصورة النمطية المشوهة حيث تنص أغلب كتاباتهم على أن المسلمين إتكاليين كسالى بسبب ايمانهم بعقيدة القضاء والقدر، وأن المسلمين متوحشون ومتعصبون، حيث يقول المفكر الفرنسي " رينان" عام 1892: " إن الإسلام هو التعصب والإسلام هو احتقار العلم، و الإسلام يمحو المجتمع المتمدن ... والإسلام هو البساطة المفزعة للفكر السامي الذي يحجب عن الفكر الإسلامي كل فكرة طيبة وكل مشاعر رقيقة وكل بحث عقلاني" (علي خليل شقرة:2015، ص49). وقد تطورت هذه الصورة واتسعت في المدة الأخيرة والفضل في ذلك لوسائل الإعلام التي نقلت هذه الصورة من النطاق الضيق للدراسات الاستشراقية إلى وسائل الإعلام الأكثر شعبية لتكوين مواقف ضد المسلمين والإسلام، فالظاهرة لها امتداد تاريخي وجذورها بدءا بالمرحلة الأولى التي بدأ فيها الاحتكاك مع الغرب سواء بالصدام المسلح أو قبل ذلك حتى من خلال الديون وأصحاب الكنائس خوفا من زحف الإسلام خاصة في القرون الوسطى فكان لابد من إيقافه عن طريق تشويهه وبعدها جاءت الصليبية، فمنذ القرن الحادي عشر ميلادي أعلن الغرب المسيحي عن رغبته بعدم السماح للدين الآخر بالبقاء في أوروبا، فتساقطت المدن الأندلسية واحدة تلو الأخرى على أيدي الصليبيين ونجح الأوربيون في القضاء على المسلمون في أوربا، وتعالت الأصوات للسيطرة على بيت المقدس، (محمد زين العابدين: 1987، ص61) التي زرعت هذه الصورة النمطية ورغم مرور القرون إلا أن أثر الحروب الصليبية لا يزال دفينا في النفسية الغربية وضلت مشحونة، وكان عاملا حيا ويقضا في العقلية الغربية حتى في تلك المجتمعات التي لم تشارك في الحروب الصليبية كالمجتمع الأمريكي فمعالم هذا العداء المتراكم على الإسلامي مازال موجودا.

ب/ **الخوف من الإسلام والرغبة في الانتقام**: إن الصورة تكاد تكون واحدة في جميع الوسائل وذلك وفقا للعلاقات والمصالح مع العالم الإسلامي لكن هناك صورة نمطية واحدة متداولة من خلال مختلف الدراسات يظهر أن صناعة الصورة المشوهة ليست إعلامية محضة وإنما ثقافية تشترك فيها عديد الوسائل، ومصطلح الإسلاموفوبيا دليل كاف على عمليات التشويه لصورة الإسلام وتصويره بأنه دين مخيف، فقد سعى الغربيين منذ قرون إلى تجريد الإسلام من خصائصه وقيمه والمسلمين من إنسانيتهم، (حسن نيازي الصيفي: 2011،ص164) فقد أصدرت الكاتبة الإيطالية "أوريا فلاسي" كتابا يحمل عنوان " غضب وكبرياء" تصف فيه تطرف المسلمين وتسخر منهم ومن صلاتهم ومن القرآن الكريم إذ تقول: "إن القرآن يتيح الكذب والافتراء من أجل الدفاع عن العقيدة الإسلامية.."وقد وصفت الأئمة بالجزارين والمسلمين بالدمويين . (عبيدة صبطي: ص116).

ليس الغرب فحسب يل حتى اليهود تخوفوا منه حال ظهوره وبدأت دولة الإسلام تشق طريقها نحو الأفق فعملوا على إسقاطه مما أدى إلى التصادم بينهم، ونفس النظرة نجدها بالنسبة للمسيحيين خصوصا وأنه في انتشار متزايد وسريع (لعرباوي نصير: المرجع السابق، ص 263)، و حماية المسيحية في نظر الغرب لا تتأتى إلا بالقضاء على الإسلام واستعمار بلدانه والاستيلاء على خيراته وإقناع معتنقيه باتخاذ المسيحية دينا لها، (حسن نيازي الصيفي: المرجع نفسه، ص 179)خاصة وأن العالم الإسلامي يتمتع بخيرات وثروات وموقع استراتيجي كما أنه يتوسط قارات العالم مما يجعله ذا أهمية جيوسياسية حساسة للتجارة العالمية مما يزيد من تخوف العالم الغربي منه وفي المقابل يزيد من الرغبة في الانتقام منه ومن الفترات التي أذاق فيها المسلمون الأوربيون مرارة الهزيمة، وبعد أحداث 11 سبتمبر 2011 زاد التكالب على العالم الإسلامي فأصبح مصطلح الإرهاب لصيقا به متهما بزرع الرعب في نفوس الأبرياء واصفين المسلمين بالهمج الذين لا يعرفون شيئا سوى التدمير هذا ما ورد على لسان الرئيس الأمريكي بوش الذي تنازل عن تصريحاته فيما بعد معتبرا إياها زلة لسان وكان ذلك ناتج عن جهله بالغير (حسن نيازي الصيفي المرجع السابق، ص 191).

ج/ **دور الصهيونية العالمية في العداء للإسلام:** إن سيطرة و نفوذ الصهيونية على وسائل الإعلام ساهم كثيرا في نشر العداء على الإسلام وتشويه صورته عالميا حيث بسط نفوذه نحو وسائل الإعلام الغربية لتنميط الصورة السلبية حول المسلمين حيث مارسوا جميع أنواع أساليب التشويه لخلق قوالب إعلامية تسيء للمسلمين والإسلام، وإظهارهم بأنهم الخطر الأخضر بعد أن قضوا على الخطر الأحمر (عبد القادر طاش: 1993، ص67) لكون هذه الظاهرة حضارية عبر التاريخ لا يمكن القول أنها مرتبطة بعلم وبقصد فقط، لكن هناك جهل لدى الفرد العادي فقد لا تكون عنده خلفية كافية فتتكون هذه الصورة دون قصد لكن الذي يصنع الصورة على قصد فالمعلومات إما تبنى على جهل آو مغلوطة و تأخذ من مصادر مغرضة وهنا يأتي دور اللوبي الصهيوني في تغذية وسائل الإعلام الغربية بكثير من المعلومات التي تشوه الإسلام وحجم تأثيره لا يمكن إهماله فهم مستفيدون من تشويه صورة الإسلام والترويج لهذه

الصورة فالمؤسسات الغربية هي التي أسهمت بالترويج للخطر الإسلامي فكان لهم دورا يلعبونه بذكاء شديد وهذه النقطة التي يقصر فيها المسلمون من خلال عدم حصولهم على المعلومات.

د/ الاستعلاء الحضاري: إن المسألة ليست مسألة جهل بالإسلام وحقيقته ولكن هناك نمط من المعرفة تراكم لقرون، وعداء ديني وعرقي فالغربيون يؤمنون بتفوقهم واستعلائهم الحضاري فينظرون نظرة ازدراء وسخرية لأي حضارة لا تتوافق معهم وقد استطاعت الحضارة الإسلامية أن تقف ندا لها وبقدر ذلك كان العداء أشد فإذا ذكر العرب والمسلمون في الغرب تذكر كل العيوب، فالإسلام بالنسبة للغرب على حد تعبير ادوارد سعيد:" يعني نهاية الحضارة الغربية باعتباره دينا غير إنساني وغير ديموقراطي وغير عقلاني." حيث يوصف الدين الإسلامي بدين التخلف وهو السبب في تخلف المجتمعات الإسلامية، حيث تبرز رجعيته وتخلفه في نظر الإعلام الغربي أنه يدعو إلى تحريم الخمر والميسر والرقص والربا وغيرها وهذا ما يقيد الحريات الفردية على حد تعبير وسائل الإعلام الغربية ومعرقلا للتقدم والازدهار ومناقضا لمبادئ الحداثة والعلمانية التي تعني فصل الجانب الديني عن الدولة. (انظر: لعرباوي نصير: ص 266)

وقد عرضت تيري لمجموعة من قصص الجاسوسية مثل قصة" الهدف الفاتيكاني" لmall fishman وقصة" الجهاد" لـ ISSER HOREL وفي كل هذه الروايات كان الإسرائيليين والأمريكيين هم الأبطال، أما العرب و الروس فهم الجبناء السذج، حيث تشير جميع هذه الروايات إلى أن جميع مؤلفيها لهم دراية بإسرائيل وينتمون إليها، ومن ثم فهم يظهرون تفوق إسرائيل وفي المقابل وضاعة العرب. (عبيدة صبطي : المرجع السابق، ص 115).

إن الصورة النمطية تختلف من مجتمع إلى آخر، لا يوجد فرق كبير، ربما يكون هناك تنوع في مدى الحدة والروح العدائية، لكن عموما معالم الصورة متشابهة في كل البلدان الغربية، كما أن المسلمون أيضا يشاركون في صناعة هذه الصورة لكن المسئول الأساسي هو الغرب من خلال صناعته لهذه الصورة، أما نحن فمسئولون على عدم القدرة على مواجهة هذه الصورة وتغييرها وهذا التقصير في تغيير هذه الصورة وتصحيح ما فيها من أخطاء مسؤولية إسلامية لا زلنا نعاني منها.

ثالثا-نماذج لمصادر صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب:

لقد ساهمت العديد من المصادر في ترسيخ الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين ولعل أهمها(انظر: عذراء عيواج، نرهة حنون: المرجع السابق، ص 149-150):

أ- الرحلات الغربية للعالم الإسلامي، والتي تم من خلالها الاحتكاك بالمسلمين في كل المجالات فتعرفوا على العالم الإسلامي بعاداته وأعرافه وتقاليده ، فكانوا مصدرا من مصادر الإعلام الغربي من خلال كتبهم ورواياتهم الملفقة والمشوهة والمغلوطة.

ب- الدراسات الإستشراقية وهي الدراسات الأكاديمية التي تدرس تراث وتاريخ العالم الإسلامي لتحقيق أهداف معينة، ومن بين المستشرقين : مرجريت سيميث، فيليبي، جورج رنس...

ج- الموروث الثقافي كالشعر والنثر والقصة والمسرح التي كان لها دور كبير في صناعة الصورة النمطية للمسلم لدى الغربي.

د- وسائل الإعلام المحتلفة من صحف ومجلات مثل : نيويورك تايمز، لايف، ذي ناشيونال ريجيستر. وكذا التلفزيون الذي صور المسلمون على أنهم ملتحين ويحملون الخناجر، كما أساء للمرأة المسلمة كثيرا، كما استغلت الرسوم المتحركة المقدمة للأطفال في تشويه المسلمين والسخرية منهم.كما أن هناك أفلام سينمائية كثيرة مهينة للإسلام وهذا ما أشار إليه البروفيسور جاك شاهين في كتبه: "العرب الأشرار في السينما الأمريكية".

هـ- ساهمت أحداث 11 سبتمبر 2011 كثيرا في تعميق الصورة النمطية عن السلام لدى الغرب، حيث تم تفجير طائرتين ببرجي مركز التجارة العالمي بنيويورك واصطدام طائرة بمبنى وزارة الدفاع الأمريكية، حيث ساهم ذلك فيما يعرف بالإسلاموفوبيا حيث صرح أحدهم أن الإسلام أسوأ من النازية.

لقد ساهمت العديد من المصادر في تعزيز الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين لدى الغربي لتحقيق أهداف وغايات تخدم مصالح الغرب.

رابعا- سبل تصحيح صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب:

في السنوات الأخيرة بدأنا نرى نوعا من التفاعل وتغيير الصورة الموجودة في المجتمعات الغربية من خلال خروج المسلمين من العزلة والمؤسسات بدأت تقوم بدور فاعل والمبادرة للاهتمام بالموضوع وملاحقة التشويهات التي تصدر من الوسائل الغربية ونجحت كثيرا في ذلك.

تبقى مسؤولية تصحيح صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب مسؤولية المسلمين جميعا، وضرورة الإسراع في وضع مشاريع وبرامج للرد على هذه الحملات الغربية ضد الإسلام، وذلك من خلال:

أ-تغيير سياسة التصادم الحضاري إلى الحوار الحضاري من خلال تقبل الآخر بكل قيمه وأعرافه ومعتقداته والتعايش معه سواء داخل المجتمعات الإسلامية أو خارجها، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي استطاع أن يآخي بين مختلف الشعوب تحت لواء الدولة الإسلامية من خلال ما يعرف بصحيفة المدينة.

ب- العمل على تصحيح المعلومات المغلوطة والمصطلحات الخاطئة كمصطلح الإرهاب الذي أصبح لصيقا بالمسلمين، وهنا يكمن دور علماء الإسلام والمفكرين من خلال الجدل بالتي هي أحسن واعتماد الحجة والبرهان أساسا للحوار مع الآخر.

ج- وضع برامج وخطط محكمة اعتمادا على وسائل الإعلام للرد على حملات التشويش بإعداد قائمين متمكنين ومتقنين للغة الآخر لمواجهة الشبهات والرد عليها.

د- محاولة اقتحام وسائل الإعلام الغربية من طرف المسلمين للعمل فيها مما يسهل عليهم تصحيح صورة المسلمين .

هـ- على الدول الإسلامية تخصيص مبالغ مالية لتمويل القنوات الإعلامية والإعلاميين الذين يهتمون بهذا الجانب والتشجيع على توضيح معالم الاعتدال والوسطية في الدين الإسلامي .

و-استغلال شبكات التواصل الاجتماعي للاحتكاك بالغربيين والرد على شبهاتهم وتصحيح مفاهيمهم الخاطئة.

ي-دور المرأة المسلمة في إبراز المكانة التي حضيت بها في الإسلام للرد على شبهات الغرب التي اعتبرتها متخلفة رجعية تعيق تقدم الإسلام.

دور المسلمين المتواجدين في البلدان الغربية يكمن في القدوة الحسنة العملية على إعطاء صورة حسنة عن الإسلام، واعتماد أسلوب التواصل والاندماج مع الغير لتعريفهم بصور الإسلام والدعوة إليه بدل تشويهه.

خاتمة:

نخلص قي الأخير إلى اعتصار جملة من النتائج أهمها:

- المسؤولية في صناعة الصورة المشوهة للإسلام صناعة غربية وضعف عربي.
- دور العالم العربي الذي يشوه صورة الإسلام من خلال استخدام الإعلام في الإساءة لبعضنا البعض بدل أن نسهم في تقديم صورة ايجابية.
- إن هناك آليات ومحاولات بدأت في تقديم الصورة الحقيقية للإسلام بدلا من أن نستمر في مجرد الشكوى.
- من بين الحلول المقترحة:
- الحفاظ على الهوية والدين ومقوماته من خلال التمسك بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.
- تصحيح ما يرد من تشويه غربي للمسلمين من خلال الاعتماد على الإعلام بمختلف وسائله لتوعية الجماهير.
- دور المسلمين في بلاد الغرب بتقديم صورة عملية تبين حقيقة الدين الإسلامي.

قائمة المصادروالمراجع:

- ادموند غريب: الإعلام الأمريكي والعرب المستقبل العربي، اكتوبر2000، عدد 260، ص 67.
- حسن نيازي الصيفي: الإعلام الغربي وصورة الإسلام والمسلمين، 2011، ط/1، القاهرة، اتراك للطباعة والنشر.
- صالح ذياب هندي: أثر وسائل الإعلام على الطفل،2008، ط/4، عمان دار الفكر.
- عبد القادر طاش: صورة الإسلام في الإعلام الغربي،1993، ط/2، القاهرة، دار السلام للإعلام العربي.
- عبيدة صبطي: صورة الإسلام والمسلمين، مجلة دراسات إسلامية، جامعة محمد خيضر، بسكرة.
- عذراء عيواج، نرهة حنون، مجلة المقدمة، العدد الأول.
- عصام سليمان الموسى: مدى توظيف الإعلام العربي لوسائل الاتصال الحديثة لتعديل صورة العرب والمسلمين كي تتوافق مع الواقع في الإعلام والتواصل الثقافي بين العرب والغرب.
- علي خليل شقرة: الإعلام والصورة النمطية صورة العرب والمسلمين نمو ذجا، 2015ط/1، دار أسامة للنشر والتوزيع، نبلاء ناشرون وموزعون، عمان.
- لعرباوي نصير: صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي، جوان 2016، مجلة العلوم الاجتماعية العدد 22.
- ليلى فيلالي ومجموعة من الباحثين: مدخل إلى علوم الإعلام والاتصال، الجزائر،2008، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.
- محمد زين العابدين: التبشير في العالم الإسلامي أبعاده وآثاره، 1987، القاهرة، جامعة الأزهر.
- محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية افتراء العلماء وإنصاف الجهلاء، 2005، ط/1، مصر، دار الشروق.
- محمد منير حجاب: الموسوعة الإعلامية، مجلد 4، 2003 القاهرة، دار الفجر للنشر والتوزيع.
- مريم قروشي: صورة الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام في ضل المتغيرات الراهنة سياقات التناول الإعلامي الغربي لصورة الإسلام والمسلمين، مجلة المقدمة، العدد الأول.

الصورة النمطية للمرأة المسلمة المتحجبة في القنوات التلفزيونية الغربية

Stereotypical Image of theVeiled Muslim Woman in Western TV Channels

ط/د. إيمان بومعيزة، جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة -الجز ائر
Imenboumaiza23@gmail.com



جاءت هذه الورقة البحثية لتكشف عن معايير وصفات الصورة النمطية للمرأة المسلمة المتحجبة في القنوات التلفزيونية الغربية، وذلك من خلال التعريف بالمفاهيم الأساسية لهذا الموضوع، وبحث أهم ملامح صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب، وصولا إلى تحديد أهم معايير وسمات الصورة النمطية للمرأة المسلمة المتحجبة في القنوات التلفزيونية الغربية. وقد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى عدة نتائج أهمها: أن العرب المسلمين هم أكثر شعوب الأرض حظا من التشويه والتجريح في تاريخ المجتمعات الغربية، كما أضحت المرأة المسلمة من القضايا المثارة في صحافة الإعلام التلفزيوني الغربي، من خلال إعطاء انطباع سلبي عنها بأنها مضطهدة من طرف الشريعة الإسلامية، بالإضافة إلى أن الإعلام والقنوات التلفزيونية الغربية تطلق على المرأة المحجبة ألقابا عنصرية ساخرة ونابية مثل: الشبح الأسود، أو النينجا ... وغيرها.

الكلمات المفتاحية: الصورة النمطية، المرأة المسلمة المتحجبة، القنوات التلفزيونية.

Abstract:

This research paper came to reveal the standards and characteristics of the stereotyped image of the veiled Muslim woman in Western television channels, by introducing the basic concepts of this subject, and examining the most important features of the image of Islam and Muslims in the West, in order to determine the most important criteria and characteristics of the stereotyped image of the veiled Muslim woman in television channels. Western. Through this study, we have reached several results, the most important of which are: that the Muslim Arabs are the most fortunate people on earth from distortion and insult in the history of Western societies. Islamic law, in addition to the fact that the media and Western television channels call the veiled woman racist, sarcastic and obscene titles such as: the black ghost, or the ninja ... and others.

Keywords: stereotyped image, veiled Muslim woman, TV channels.



مقدمة:

يشهد عالمنا اليوم تطورا ملحوظا ورهيبا في وسائل الاتصال والإعلام، حيث هيمنت هذه الأخيرة على مجالات عديدة في الحياة الإنسانية وأدت أدوار فعالة، كما مدت الانسان بمختلف المعلومات، الأفكار، الانطباعات، والتصورات المختلفة، وشكلت له صورا ذهنية بخلفيات فكرية وأيديولوجية، وأجندات سياسية، حيث أن تهدف هذه الوسائل في الغالب إلى خدمة مصالحها وأغراضها المتعددة، وهذا ما يتجسد في الكثير من وسائل الاعلام الغربية التي فرضت حضورها وسلطتها عبر العالم.

فقد أدت العديد من وسائل الإعلام الغربية دورا سلبيا في تشكيل بعض الصور الذهنية التي تفوح منها العنصرية والكراهية، لا سيما اتجاه صورة الإسلام والمسلمين وخاصة المرأة المسلمة المتحجبة.

إن موضوع المرأة المسلمة المتحجبة في وسائل الإعلام الغربية قد لقي صدى كبيرا، وترسخ في أذهان الناس على أن المسلمة الملتزمة بلباسها الشرعي هي رمز ونموذج سيئ للتخلف والجهل والبدائية، ذلك أن المرأة المثالية عندهم هي التي تكشف عن جمال جسدها للفت الانتباه والأنظار، حيث أقرت بعض محتويات الاعلام الفرنسي أن الأمة التي ترتدي نساؤها الحجاب هي سبب في نشر ظاهرة الإرهاب الإسلامي أي الإسلاموفوبيا (Islamophobia)، هذه الأخيرة التي تقوم على سياسة الترهيب والذعر والتخويف، فالمرأة المسلمة باتت عندهم وسيلة مهمة في شن حرب على كل ما هو إسلامي تحت مسميات العولمة والانفتاح والحداثة وغيرها، فلم يتوقف الإعلام الغربي والتلفزيوني منه على وحه الخصوص، عن محاولة تشويه الإسلام وإضعاف القيم الإسلامية، مستهدفا عدة موضيع تخص المسلمين، ومن أهمها قضية الحجاب الشرعي لدى المرأة المسلمة، وهو ما شكل لنا إشكالية تقتضي البحث والتقصي، مما دفعنا من خلال هذه الورقة البحثية إلى إلقاء الضوء على ملامح الصورة النمطية للمرأة المسلمة المتحجبة في الإعلام الغربي التلفزيوني، وذلك بطرح الإشكال الرئيسي التالي:

ماهي معايير ومميزات الصورة النمطية للمرأة المسلمة المتحجبة في القنوات التلفزيونية الغربية؟

وقد قسمت المداخلة إلى محورين أساسيين كما يلي: المحور الأول يتطرق الى أهم مفاهيم المداخلة، والمحور الثاني والأخير يتحدث عن معايير الصورة النمطية للمرأة المسلمة المتحجبة في القنوات التلفزيونية الغربية، في محاولة منا لتحقيق الأهداف التالية:

- التعرف على أهم المفاهيم الموجودة بالمداخلة.
- معرفة صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب.
- تحديد أهم معايير الصورة النمطية للمرأة المسلمة المتحجبة في القنوات التلفزيونية الغربية.

أولا- مفاهيم المداخلة:

تأسيسا على طبيعة الموضوع، وبهدف التعرف أكثر على أهم المتغيرات الموجودة فيه، حاولنا في هذا المحور شرح مجموعة من أهم المفاهيم والمصطلحات التي لها علاقة مع دراستنا ومن بينها ما يلي:

1- تعريف الصورة النمطية:

- هي تصور يوصف بالتصلب والتبسيط المفرط لجماعة ما، يتم على ضوئه وصف الأشخاص الآخرين الذين ينتمون إلى هذه الجماعة وتصنيفهم استنادا إلى مجموعة من الخصائص والسمات لتلك الجماعة (السعد، 2008، ص 11).
- هي الأفكار، المعتقدات، المشاعر والأحاسيس التي تتكون في عقول ووجدان الجماهير تجاه قضية، منظمة، فكرة، أو شخص، وهي تتبادر إلى الأذهان عند ذكر اسمها لتعطي فكرة معينة، أو مفهوما عاما عنها قد يكون طيبا أو سيئا، وتتكون هذه الصورة مما يستقيه الفرد من وسائل الإعلام، وما اكتسبه من معلومات حول هذه القضايا أو الأفكار أو المنظمات أو الافراد (الخالدي، 2017، ص2608).
- كما تعرف أيضا على أنها منتج ثقافي لجماعة معينة تقوم على مجموعة من الأحكام المقبولة بشكل مشترك التي تحدد كل أشكال الاتصال لجماعة من الناس خلال فترة زمنية معينة، فالناس يشكلون اتجاهاتهم عن الآخرين من داخل وخارج ثقافتهم من خلال التجربة المباشرة والتفاعل مع الأفراد والعائلة ووسائل الاعلام (صالح، 2005، ص 02).

2- تعريف القنوات التلفزيونية:

ا-هي وسيلة لإرسال البرامج التلفزيونية عبر الأقمار الصناعية، بشكل اتصال أرضية ترسل وتستقبل من أحد الأقمار الصناعية، أي أنها وسيلة لبث البرامج من محطة أرضية إلى الأقمار الصناعية، لتم استقبالها من خلال الأطباق اللاقطة المنتشرة على سطوح المنازل او الأماكن المرتفعة (آل عطية، 2005، ص 08).

ب- عرض تلفزيوني مرئي يبث عبر شبكة الأقمار الصناعية تدور حول الأرض في مسارات محددة معروفة، وتتحدد بالزاوية والاتجاه على البوصلة لتحديد اتجاه النقاط كل مجموعة منها (السيد، 2005، ص12).

ج -كما يمكن أن تعرف أيضا على أنها: محطة تبث إشارات الصوت والفيديو إلى أجهزة استقبال التلفزيون داخل منطقة جغرافية معينة، يمكن أن تكون قنوات التلفزيون مملوكة للدولة، على سبيل المثال إداريا وفنيا من قبل الحكومة في المكتب، أو يمكن أن تدار من قبل شركات خاصة (https://ar.facts-news.org).

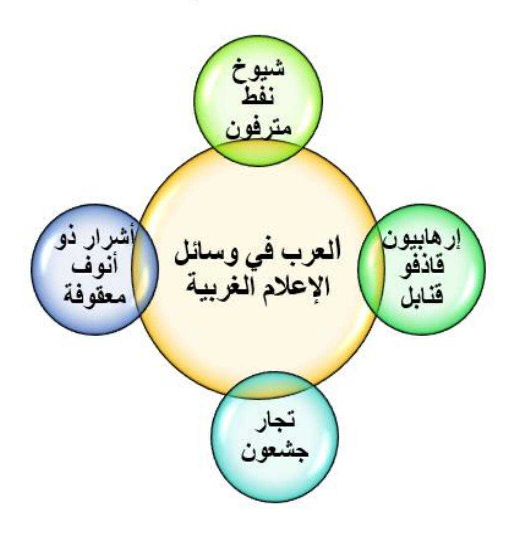
ثانيا- معايير الصورة النمطية للمرأة المسلمة المتحجبة في القنوات التلفزيونية الغربية

نجحت وسائل الإعلام الغربي في تشويه صورة الإسلام والمسلمين حيث كان لها دورا كبيرا في التأثير على المتلقين، وبناء وترسيخ صور مشوهة أشد التشويه عليهم، ما جعل العالم الغربي مشحون بالعواطف السلبية ضدهم بفعل هذه الأكاذيب المروجة من طرف الإعلام والفضائيات الغربية، مما يدفعنا إلى أن نتطرق في هذا المحور إلى ما يلي:

1.صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب:

- إن الإسلام كان وما زال أكثر الأديان تعرضا للإساءة في الغرب، والعرب المسلمين هم أكثر شعوب الأرض حظا من التشويه والتجريح في تاريخ المجتمعات الغربية، من خلال اتهامه بالتعصب والعنف.
- لاتزال الصحف الغربية السائدة تحمل عقدة الإسلام وتتوجس منه، لاسيما حينما يدخل الإسلام في قضية أو نقاش، كالحجاب في فرنسا، والوجود الإسلامي في أوروبا ككل (السعد، 2008، ص 08).
- تُرسم للعرب والمسلمين في وسائل الإعلام الغربي من خلال أفلام سينمائية ورسوم كاريكاتيرية وصور متحركة ... صورا نمطية متحيزة وغير منصفة، وتروج في شكل حملات إعلامية، ويتعرض لها ملايين من الناس في وقت واحد تقريبا، فيتأثرون بها ويتلقفونها وترسخ في عقول غالبيتهم، فتكوّن بذلك ثقافة جمعية تعادي المسلمين والإسلام بصورة خاصة.
- يُصنف المسلمون حسب الكاتب الأمريكي "جاك شاهين" في كتابه "المخادعون" على أن العرب في الوسائل الإعلام الغربية مقسمة إلى أربعة تقسيمات، شيوخ نفط مترفون، إرهابيون قاذفو قنابل، تجار جشعون، أشرار ذو أنوف معقوفة (بودهان، 2006، ص05).
- ربط الإعلام الغربي عن عمد بين الإسلام كدين وبين التيارات المتطرفة، ولم يفرق بين المسلم المعتدل وبين المتطرف الإرهابي، وقد استغلت بعض الأحداث، ووُظفت توظيفا سيئا في إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام، فهناك لوبيات غربية تريد أن تنتشر هذه الآراء المغلوطة وتنتشر بين الناس، حتى يظهر لهم مدى صدق إدعاءاتهم فيما يروجون، بكون الإسلام دين إرهاب وقسوة.

الشكل رقم (01): أشكال العرب في وسائل الإعلام الغربية حسب جاك شاهين.



المصدر: الباحثة.

يقول "نيكسون"، لا توجد لأية أمة في العالم ولا حتى في الصين صورة سلبية في الضمير الأمريكي مثل صورة العالم الإسلامي، كل ذلك بسبب الإعلام الصهيوني المضلل في كثير من الأحيان، فالغرب يروج عبر وسائل إعلامه أن المسلمين لا يملكون ثقافة سلام وهم المسؤولون عن زعزعة واستقرار منطقة الشرق الأوسط (المرزوقي، 2017، ص ص 10-11).

انتشر في الغرب مصطلح الإسلاموفوبيا أو الخوف من الإسلام والذي أصبح له تأثير على التغطية الغربية ومنها حادث "أوكلاهوما"، وتصوير العرب بصورة وحشية وما يتبعها من صور سلبية، فهو يرمز إلى كافة المعايير المتميزة والممارسات والتشويه لصورة العرب والإسلام في الغرب، وكذلك مناخ الكراهية والعنف المسيطر إزاء كل من يعتنق الإسلام داخل المجتمعات الغربية، الذي يولد عددا كبيرا من الجرائم يوميا للدرجة التي سميت بها هذه الجرائم باسم جرائم الكراهية فلا يزال هناك ما يسمى بالهستيريا ضد الإسلام (https://www.politics-dz.com).

2- صورة المرأة المسلمة في الإعلام الغربي: إن أكثر ما استغل في الترويج الإعلام الغربي هي صورة المرأة العربية المسلمة، خاصة في الدعايات الإشهارية والفيديو كليبات، حيث منذ القرن 19 بدأت صورتها تظهر بشكل أوسع في الإعلام الغربي في إعلانات مصورة ولأول مرة، وكان حينها الأمر يبدو مستهجنا، خاصة حينما قامت إحدى الشركات بإظهار إعلان لامرأة تروج الخمر، هذا الأمر أصبح صورة نمطية ترسم في مخيلة المتلقي أي المستهلك صورة مزيفة عنها (دريم و شماخي، 2018، ص 84).

أضحت المرأة المسلمة من القضايا المثارة في صحافة الإعلام الغربي، حيث أن الموضوعات التي تثار حولها كلها تصب في بوتقة واحدة وهي محاولة إعطاء انطباع بظلم المرأة المسلمة ومطالبة دائمة برفع وصاية الدين عنها وتكريس النموذج الغربي وجعله الأساس لقياس المرأة المسلمة عليهم، تقول الباحثة "أرزو ميرالي" رئيسة هيئة الأبحاث لحقوق المرأة المسلمة المشهورة ضمن صحيفة " The Guardian" بأن: "المرأة المسلمة بالنسبة للصحافيات الغربيات نموذج للتخلف والاضطهاد"، واستشهدت ببعض الكاتبات الغربيات وهجومهن المكثف على المرأة المسلمة، وتؤكد أن هذه الهجمة تتسم بالمبالغة والطرح المتشدد الذي يفتقد الموضوعية بتصويره تلك المرأة ضحية لما يسمى بالإرهاب الإسلامي، وتستطرد بقولها: " المرأة المسلمة في نظر هؤلاء الصحافيين يجب أن تتخلص من هذا الدين وعندما تتخلص منه فسوف تتخلص من الحجاب الذي يغطيها من رأسها إلى قدمها" (رداوي وعامر، د.ت، ص 62).

الإعلام الغربي يصور المرأة المسلمة على أنها امرأة مغطاة بعباءة لا يظهر منها إلا عينان براقتان ينمان عن المعاناة والقهر والتسلط من طرف الرجل، الذي سلبها إرادتها، فهي لا تشارك الرجل اجتماعيا ولا تشغل وظائف ذات أهمية، بل حريم قابعة في البيت، ومن المحرم عليها عرفا واجتماعيا مخالطة الرجال، فصوتها عورة، وألصقت بها كل الأوصاف المرتبطة بالعجز والسلبية والاتكالية المطلقة على الرجل، فهو الذي ينفق عليها والذي يحدد خياراتها وحاجاتها، فهو لا يرسمها في صورة المرأة المتعلمة المثقفة أو الناجحة إلا في حالة ما إذا كانت مصنفة ضمن النساء الحاملات لإيديولوجية الفكر الغربي، أو تشبعن

من الثقافة الغربية سواء الفرانكفونية أو الأنجلوسكسونية، فتجدهن متمردات على قيمهن الاجتماعية سيما المبادئ الإسلامية كالحجاب مثلا (بودهان، 2006، ص 05).

إن جميع وسائل الاعلام الغربي قد اشتركت في صنع وترويج الصورة النمطية السيئة للعرب المسلمين والمرأة المسلمة خاصة، لا فرق في ذلك بين الصحافة المكتوبة، الإذاعة المسموعة، التلفزيون، السينما أو حتى ما نلحظه في شبكة الإنترنيت...إلخ.

3- معايير الصورة النمطية للمرأة المسلمة المتحجبة في القنوات التلفزيونية الغربية:

أ- معيار الاحتقار والنظرة الدونية: نجد أن الإعلام والقنوات التلفزيونية الغربية لا يريدان أن يعرفان عن المرأة المسلمة سوى عباءتها السوداء، من وصفها بالشبح الأسود إلى إطلاق لقب النينجا، وغيرها من المواصفات والمشاعر المملوءة بالاستخفاف بثقافة الآخر واحتقار قيمه واتهامه بالانغلاق والتحجر والجمود، هذا الأسلوب في مناقشة وضع المرأة المسلمة المحجبة هو استمرار لحملات الطعن والتشكيك في حقها وفي حق الإسلام.

ب- معيار تكريس النموذج الغربي للمرأة: نقل الإعلام والقنوات التلفزيونية الغربية أن المرأة المسلمة ترتدي الحجاب بحد السيف عليها، ووصفهن بالممتهنات من قبل هذه الوسائل الغربية، في حين أكدت "نيكول كريستوف" في مقابلة صحفية في صحيفة "New York Times" أن: السعوديات يرفضن بشدة الصورة النمطية التي تعرض بها المرأة السعودية في الإعلام الغربي، في حين تقول إحدى الأكاديميات: " أنا لست ممتهنة وسعيدة بكوني فتاة متحجبة مطيعة لأوامر ربها "، وتستطرد أخرى: " إنك لا تستطيع أن تسأل الغربية لماذا ترتدي القصير، ولا هندية لماذا ترتدي الساري، إذن هي عباءة وحجاب جزء من ثقافتنا وديننا ولم تكن مصدر إزعاج للنساء المسلمات على الإطلاق" (السعد، 2008، ص ص 32، 33، 34).

ج- معيار عدم الموضوعية في عرض قضايا المرأة المسلمة المتحجبة عبر القنوات التلفزيونية الغربية: سلطت كل من قناة BBC New، و CNN الضوء حول معاملة طالبان للمرأة في أفغانستان، حيث احتفلت بالمرأة المحررة من الحجاب بعد ذهاب طالبان، وعلى الرغم من المعاناة المريرة للنساء الأفغانيات والحياة القاسية أثناء الحرب من جوع ومرض... إلا أنها لم تشكل محور اهتمام لوسائل الإعلام الغربية، حيث تناولت أخبار تلك القضايا الهامة بصورة سريعة وعابرة، أي أن الوسائل الإعلامية الغربية تنتقي وتختار ما تريد، بغرض تزييف الشريعة الإسلامية، وتشويه صورة المرأة المسلمة المحجبة (رداوي وعامر، د.ت، ص ص 63، 64).

وقد عرضت قناة M6 السادسة الفرنسية روبورتاجا تلفزيونيا، جاء ضمن تعليقه أن: " النساء في الجزائر قاصرات للأبد" لأن المجتمع محافظ، ويظهر ذلك الروبورتاج أن المرأة الجزائرية المسلمة مضطهدة ليس من الرجل فحسب، بل حتى من الإسلام، وذلك بسبب سترها وارتدائها للحجاب (الشروق أونلاين، 2020).

فهكذا أصبحت المرأة المسلمة المحجبة فريسة القنوات التلفزيونية الغربية، حيث قال عنها الكثير في مقولة شهيرة (محجبة غير محجبة)، وأنها أيضا مجرد امرأة فاتنة ممتهنة ومضطهدة من قبل الإسلام لا غير.

كما أنها باتت طرفا مهما في المعركة الدائرة بين الإسلام والغرب، لأن أطرافا في المجتمع الغربي سلبتها حريتها في ارتداء الحجاب، كما أعطت صورة مشوهة عنها من خلال بث برامج ومسلسلات تسيئ لها، وترسخ في أذهان المجتمعات بأنها مجرد امرأة مضطهدة من الرجال العرب المسلمين لا غير، وأن هذا الحجاب ليس فرضا عليها من الشريعة الإسلامية، بل سلب لحقها ومنعها من التمتع وإبراز مفاتنها.

وبذلك يتم تصوير المرأة المسلمة في الفضائيات الغربية بصور مشوهة، كأن تخضع للرجل الذي يجبرها على الاختفاء وراء الحجاب، كما تروج له الكثير من القنوات التلفزيونية الغربية.

خاتمـــة:

نستنتج من خلال ما تم ذكره أن العديد من وسائل الإعلام والقنوات التلفزيونية الغربية قدمت صورة نمطية غير حقيقية عن المرأة المتحجبة المسلمة، في سبيل تشويه صورتها وصورة الشريعة الإسلامية، حيث يروجون إلى أن الإسلام جعل المرأة المسلمة ممتهنة ومضطهدة، وسلب حريتها وحرمها من التمتع بإظهار مفاتنها، كما روجت بعض القنوات التلفزيونية الغربية إلى أن المرأة المسلمة قاصرة للأبد، لأنها لا تعيش تحت قيود الرجال فحسب، بل تحت قيود دينها الإسلامي كذلك.

وقد توصلت دراستنا هذه إلى عدة نتائج، يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

- نجحت العديد من وسائل الإعلام الغربي في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، من خلال ما تبثه من محتويات في هذا السياق.
- الإسلام كان وما زال أكثر الأديان تعرضا للإساءة في الغرب.
- العرب المسلمون هم أكثر شعوب الأرض حظا من التشويه والتجريح في تاريخ المجتمعات الغربية.
- تُرسم للعرب والمسلمين في العديد من وسائل الإعلام الغربي من أفلام سينمائية وغيرها، صورة نمطية متحيزة غير منصفة عن المرأة المسلمة المحجبة، فترسخ في عقول الجماهير، وتكون بذلك ثقافة جمعية واتجاهات تعادي المسلمين والإسلام بصورة خاصة.
- ربطت العديد من وسائل الإعلام الغربي عن عمد بين الإسلام كدين وبين التيارات المتطرفة، ولم تفرق بين المسلم المعتدل وبين المتطرف الإرهابي، لتبين للعالم بأن الإسلام دين إرهاب وقسوة.
- أصبح مصطلح الإسلاموفوبيا له تأثير على التغطية الغربية ومنها حادث "أوكلاهوما"، وتصوير العرب بصورة وحشية وما يتبعها من صور سلبية.
- أضحت المرأة المسلمة من القضايا المثارة في صحافة الإعلام الغربي، لإعطاء انطباع سلبي حولها بأنها مضطهدة من طرف الشريعة الإسلامية.

- العديد من وسائل الإعلام الغربي تصور المرأة المسلمة على أنها امرأة مغطاة بعباءة لا يظهر منها إلا عينان براقتان ينمان عن المعاناة والقهر والتسلط من طرف الإسلام.

- لم تتحدث غالبية وسائل الإعلام والقنوات التلفزيونية الغربية عن المرأة المسلمة المتعلمة المثقفة أو الناجحة، إلا في حالة ما إذا كانت مصنفة ضمن النساء الحاملات لإيديولوجية الفكر الغربي، أو ممن تشبعن من الثقافة الغربية سواء الفرانكفونية أو الأنجلوسكسونية، فتجدهن متمردات على قيمهن الاجتماعية لاسيما المبادئ الإسلامية كالحجاب على سبيل المثال.

- تطلق العديد من وسائل الإعلام والقنوات التلفزيونية الغربية على المرأة المحجبة ألقابا عنصرية ساخرة مثل: لقب الشبح الأسود، أو النينجا... وغير ذلك.

التوصيات:

- يجب على القنوات التلفزيونية العربية المسلمة وضع برامج دينية تتحدث عن قيمة المرأة وشروط الحجاب في الشريعة الإسلامية.
- ضرورة وضع حواجز وقوانين تمنع بمساس الإسلام وكذا تصحيح الصور النمطية في حق المرأة المحجبة .
- على الدول الإسلامية مواجهة هذه الحملات الإعلامية الغربية والرد عليها، ومحاولة إقناعهم بقبول خصوصيات وثقافة الآخرين، في إطار التعايش السلمي واحترم حقوق الإنسان.
- على الدول العربية المسلمة وضع استراتيجية موحدة مع الغرب لتصحيح الفكرة الخاطئة القائلة أن"الإسلام هو الإرهاب."
- ضرورة إنشاء قنوات تلفزيونية إسلامية تبث برامج بمختلف اللغات الأجنبية، للتعريف بالحضارة العربية والثقافة الإسلامية.

قائمة المراجع:

- الخالدي إبراهيم خلف سليمان، وعلي العمري رائقة. (2017). الصورة النمطية لواقع الاسلام والمسلمين في الاعلام الغربي. مجلة كلية الشريعة والقانون، 01(19).
- آل عطية علي سعد. (2005). تأثير برامج القنوات الفضائية على اكتساب السلوك الجانح لدى الأطفال. 08. المملكة العربية السعودية، قسم العلوم الإجتماعية: جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية.
- التواصل. (20، 02، 2022). تاريخ الاسترداد 2022، من.https://ar.facts-news.org
- السيد هناء. (2005). الفضائيات وقادة الرأي. القاهرة: دار الفكر العربي للنشر والتوزيع.
- الشروق أونلاين (2020, 2 25). Consultee le 2022, sur . https://www.echoroukonline.com.
- المرزوقي علي الهادي. (2017). صورة الاسلام في الاعلام الغربي. مجلة كليات التربية (07).

- بودهان يامين. (2006). تشكيل الصورة النمطية عن الاسلام والمسلمين في الاعلام الغربي. مجلة الوسيط للدراسات الاعلامية (12).
- السعد نورة خالد. (2008). صورة المراة المسلمة في الاعلام الغربي رؤية تحليلية. مجلة جامعة عبد العزيز، 12(02).
- دريم فاطمة الزهراء، وشماخي موسى اسماعيل. (2018). نظرة المجتمع الجزائري لصورة المرأة في الإعلام المجتمع المستغانمي أنموذجا. مجلة روافد، 02(02).
- رداوي منال، وعامر أمال. (د.ت). الصورة النمطية للمرأة المسلمة في الإعلام الغربي تجارب رؤى. مجلة المقدمة، 01(01).
- صالح سليمان. (2005). وسائل الإعلام وصناعة الصورة الذهنية. (ط 01، المحرر) بيروت: مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع.
- محمد، ص. (2020). الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية Récupéré sur . https://www.politics-dz.com).

صانعات المحتوى على أنستغرام وتشكيلهن لصورة المرأة العربية المسلمة
دراسة مسحية على عينة من المتابعات الجزائريات على أنستغرام
Content Creators on Instagram and Shaping the Image Arab Women Muslim
A Survey Study on a Sample of Algerian Followers on Instagram

ط/د.حسنى هلالة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة (الجزائر)
h.hellala@univ-emir.dz



حاولت هذه الدراسة تسليط الضوء على صانعات المحتوى الناشطات على منصة التواصل الاجتماعي أنستغرام ومدى قدرتهن على تشكيل صورة المرأة المسلمة من خلال منشوراتهن، وتم إجراءها على عينة من المتابعات الجزائريات على المنصة الإلكترونية أنستغرام.

تقوم الفكرة الأساسية للدراسة على مدى قدرة صانعات المحتوى على اختلاف هوياتهن من رسم صورة المرأة المسلمة وتجسيدهن لها بشكل إيجابي يوحي بقيمة المرأة ودورها في الإسلام أو بشكل سلبي نمطي تقليدي. تم الاعتماد على المنهج المسحي الذي يسعى لكشف الظواهر وذلك عبر استمارة استبيانية مكنتنا من الوصول لمجموعة من النتائج من أهمها، تساهم فئة من صانعات المحتوى على منصة أنستغرام في تشكيل صورة إيجابية حول المرأة المسلمة وهويتها، كما تساهم فئة أخرى في تشكيل صورة سلبية نمطية عن المرأة وهويتها.

الكلمات المفتاحية: صانعات المحتوى، صورة المرأة، أنستغرام.

Abstract:

This study attempted to highlight the active content creators on Instagram and their ability to shape the image of Muslim women through what has been published. This study was conducted on a sample of Algerian followers on the platform Instagram.

The basic idea of this study is the extent to which women creators of different identities are able to paint and improve the image of Muslim women in a positive way that suggests the value and role of women in Islam or a traditional negative stereotype.The scanning approach that seeks to detect phenomena was based on a questionnaire that enabled us to reach a set of key results. A group of Instagram - based women creators are contributing to a positive image about Muslim women and their identity. Another group contributes to a negative stereotype of women and their identity.

Key words: content creators, portrayal of women, Instagram.



مقدمة:

إن المرأة العربية وفي ظل غياب إحصائيات جادة تنافس منافسة شرسة في عالم social media والعالم المنفتح المتفاعل اذ تشهد منصة انستغرام وبشكل لافت إنشاء قنوات ذات متابعات مليونية لنساء جزائريات منهن من يشاركن حياتهن اليومية وتجاربهن وماتمتلكن من مهارات خاصة ومنهن من تسعى لصناعة الأفكار عبر ماتحمله من معرفة في عالم اليوم عالم مايعرف بصناعة المحتوى على الشبكة، ومنهن من قد لا تمتلك محتوى معين سوى عرض حياتها الخاصة على الآخرين لأغراض قد تكون مادية بحتة أو من أجل نيل نصيب من الشهرة، ومهما اختلفت أهدافهن يطلق عليهن جميعا اسم صانعات المحتوى أو المؤثرات، وبذلك هن يصنعن بطريقة مقصودة أو غير مقصودة تمثلات وصور سلبية قد لاتتوافق مع الحقيقة اذ أتثبت معظم الدراسات العربية أن الغرب رسم للإسلام والمسلمين صورة نمطية سلبية(بولكعيبات، 2018، ص 45)، وكذا فإن الصور التي سوقت عن المرأة عموما هي صور مفرطة في النمطية خاصة منها ماتعلق بالمرأة العربية المسلمة، بل إن المسألة أعقد بكثير من الوصول لفكرة قدرة وسائل الإعلام المختلفة على بلورة تلك الصورة الذهنية النمطية التي يحملها الناس عن المرأة، بل إن ما يراه الفرد عبر هذه الوسائل هو جزء من العالم الذي يدركه ويترسخ في ذهنه وجزء مما تدركه المرأة في مجتمعاتنا وتؤمن به تجاه ذاتها خاصة أن هذه المضامين تأتي في شكل علب مصنعة من الغرب يستهلكها العرب.

ربطت وسائل الإعلام الغربية صورة المرأة مع مفهوم الجمال والموضة والجنس وأخدت الوسائل الإعلامية العربية منها نفس الصورة وجسدتها في محتوياتها عن قصد أو عن غير قصد، حتى ترسخت شيئا فشيء صورة يمكن القول عنها أنها غير صحيحة، ومع ظهور التقنيات الحديثة زادت الخشية من الصورة التي تقدم عن المرأة ففي وسائل الإعلام الجماهيرية ربما يمكن مراقبتها والضغط على بعضها لتقديم صور متوازنة أما اليوم في عالم الشبكات أصبح من المستحيل على أي كان أن يراقب بصفة تامة الرسائل والصور التي تنشر كل ثانية في المجال العام. منصة أنستغرام عبر خصائصها العديدة تفتح الباب الواسع لنشاط المرأة فنرى فيديوهات وصور من يعرفن بصانعات المحتوى تركز على نفس المواضيع: طريقة لبسهن وسفرهن ومايطبخن وديكور منازلهن وحياتهن الخاصة التي قد لاتعكس صورة المرأة المسلمة وقد تؤثر على هويها وقيمها ولاتمثل أحيانا الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين، والدور الحقيقي للمرأة في المجتمع الاسلامي، من هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة لمحاولة معرفة مدى قدرة صانعات المحتوى من تشكيل صورة المرأة العربية المسلمة وكيفية التأثير السلبي أو الإيجابي في الصورة النمطية التي لطالما رسمتها وسائل الإعلام الغربية واتبعتها العربية وذلك انطلاقا من التساؤل التالي: **إلى**

أي مدى يمكن لصانعات المحتوى تشكيل صورة المرأة العربية المسلمة عبر منصة انستغرام؟

أولا-أهداف الدراسة:

- معرفة عادات تعرض متابعات صانعات المحتوى لمنصة أنستغرام؟
- التعرف على الصورة النمطية للمرأة المسلمة التي تجسدها صانعات المحتوى من خلال منشوراتهن على أنستغرام؟
- معرفة اتجاهات المرأة العربية الجزائرية الإيجابية والسلبية نحو الصورة التي ترسمها صانعات المحتوى عن المرأة المسلمة؟

ثانيا-أهمية الدراسة:

تنبع أهمية الدراسة من كونها تأخد موضوع صورة المرأة بطريقة حيادية من ناحية فكرتي الإيجابية والسلبية، فتحاول دراسة الصورة النمطية العامة للمرأة ثم فكرة الصورة الايجابية والسلبية التي ترسمها صانعات المحتوى، وذلك عكس النهج الذي سلكته معظم البحوث العربية في انطلاقها من وضع فرضيات توحي بالنظرة المسبقة لصورة المرأة السلبية في الإعلام حيث خلصت معظم البحوث العربية التي تناولت صورة المرأة العربية في الإعلام وهي 23 بحثا أحصته فرقة بحث مركز المرأة العربية للتدريب والبحوث على أنها صورة سلبية تقليدية اذ خمس ماتنشره وسائل الإعلام يعلي من شأن المرأة في حين أربعة أخماس ماتنشره يحط من شأن المرأة (شلبي، 2008، ص 132).

ومن جهة أخرى تتناول الدراسة متغير مهم وهو منصة أنستغرام باعتباره أحد أهم وسائط الإعلام الجديد من جهة، ومن جهة أخرى فإن دراسة صورة المرأة المسلمة على هذه المنصة موضوع حديث اذ دارت معظم الدراسات التي توصلت إليها الباحثة حول فكرة التسويق والترويج والإشهار، ومن جهة ثالثة بروز مصطلح مايعرف بصانعي المحتوى أو المؤثرين على منصات التواصل الاجتماعي وحداثته كمجال بحثي.

ثالثا- مفاهيم الدراسة:

1-المؤثر وصانع المحتوى: إذا كان الأثر هو تلك العلاقة التفاعلية بين الجمهور ووسائط الإعلام وتكييفها حسب ذوق الجمهور واستمالته فبطبيعة الحال يجب أن نفهم أن كل صانع محتوى هو مؤثر، influencer أو أن أمامه الإمكانية ليصبح مستقبلا مؤثرا حسب الخدمات التي يقدمها للجمهور لنفس الغرض الاستمالة والتفاعل (سلامة،2021، ص190). **وعليه فالمؤثر الرقمي** بشكل عام هو شخص له طابع وصفات نشطة على وسائل التواصل ولكي يتم اعتباره كذلك، يجب على الأقل أن يكون لديه عدد مهم من المتابعين، وكذلك عدد جيد جدا من المنشورات والتفاعلات.

وبناء على ماسبق يمكننا تعريفهم على أنهم الأشخاص اللذين تتم متابعتهم من طرف عدد كبير من الناس عبر وسائط اجتماعية مختلفة بناء على مشاركة منشورات نصية وصوتية وصور وفيديو حول مجموعة من الموضوعات وهم يقومون بتقديم محتوى بعناية شديدة يعمل على بناء علاقة جيدة مع

متابعيهم وينالوا إعجابهم، وتسلط المشاركات التي يقومون بها الضوء على جوانب من حياتهم تتراوح بين الأزياء التي يرتدونها هم وأطفالهم، وأثاثهم، والنظام الغذائي والصحي لهم ونمط حياتهم، وغير ذلك من الموضوعات.

أ/ صانع المحتوى: يعد صانع المحتوى بمثابة العقل المدبر لجذب الزوار والمتابعين عبر صناعة محتوى مميز، حيث يشارك صانع المحتوى المعلومات المرئية أو المكتوبة سواء بغرض التعليم أو الترفيه لعرضها على الوسائل الإعلامية المختلفة. وتشمل مهامه المتنوعة كتابة المقالات والتدوينات والفيديوهات، الإعلانات ومحتوى المواقع، منشورات مواقع التواصل الاجتماعي.(عيساوي وآخرون، 2021، ص 244)

ب /التعريف الإجرائي لصانعات المحتوى: بناء على ماسبق يقصد بصانعات المحتوى في هذه الدراسة كل الناشطات على منصة أنستغرام ممن لديهن نسبة متابعة عالية ويتمتعن بصفة النشاط الدائم على المنصة ويعملن على تقديم محتوى تعليمي أو ثقافي أو فني أو ترفيهي أو غيرها من النشاطات التي تحظى بالاهتمام المشترك من قبل المتابعات، عبر فيديوهات وصور ومنشورات وقصص تنشر عبر حساباتهن ويحظين بقدر من الاهتمام واثارة الجدل بين المتابعين.

2/صورة المرأة العربية المسلمة: إن الدارس للصورة بشكل عام وصورة المرأة بشكل خاص يجب عليه الوقوف عند مفهوم الصورة كي يتسنى لنا إيجاد رؤية واضحة لدلالة الكلمة.

أ/ لغة: جاء في لسان العرب الصورة ترد في كلام العرب وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته ويقال صورة الشيء كذا وكذا هيئته وصور الأمر كذا أي وصفه. (عبد الحليم، 2010، ص 15)

ب/ اصطلاحا: تتعدد التعريف المقدمة للصورة ووقع اختيارنا على تعريف **جوديت لازار** حيث تقول إنها وسيلة اتصال تحمل حقيقة يمكنها أن تدهش من يراها كما يمكن أن تزعجه وهي أيضا قادرة على خلق علاقة مع الشخص الذي يفك رموزها (تيماجر، 2011، ص 21) وتقدر الباحثة تعريف الصورة على أنها مجموعة دلالات تحمل بعض القضايا والايحاءات في طياتها وتتخد شكل مادي له بعد اتصالي وتستطيع خلق أبعاد فكرية يريد المتصل ايصالها للمتلقي.

ج/ صورة المرأة: تتعدد التعاريف المقدمة لصورة المرأة وكل دراسة تتطرق لها حسب الأهداف المتوخاة من البحث ونتفق مع التعريف القائل بأنها : القضايا والصور المتعارضة الوصف من المرأة ومن دورها الاجتماعي والانساني والتفاعلي مع الآخر أو العلاقة معها والتعامل مع وجودها وطبيعة دورها سلبا أو إيجابا.(تيماجر، 2011، ص 22).

وبناء على ماسبق نقصد **بصورة المرأة العربية المسلمة** أنها كل تفاعل أو نشاط اتصالي يحمله حامل تكنولوجي يتطرق بقصد أو بدون قصد بطريقة إيجابية أو سلبية للمرأة وصورتها، وكل مايمس وجودها ونشاطها وتوجهاتها وقيمها وهويتها وثقافتها ودينها وشخصيتها وأفكارها وتصرفاتها ومايدخل في نطاق

اهتماماتها سيدخل في متناول بحثنا وكذا مقاصد استخدام صورة المرأة العربية من قبل صانعات المحتوى على منصة إنستغرام التفاعلية تحديدا.

3/ مفاهيم الإعلام الجديد و أنستغرام: قبل التطرق لمفهوم **الأنستغرام** ينبغي لنا التعريج على مفهوم الإعلام الجديد على اعتبار أن منصة أنستغرام جزء من الإعلام الجديد. و"**يعرف الإعلام الجديد new media** أو الإعلام الرقمي digital media على أنه مجموعة من الأساليب والأنشطة الرقمية الجديدة التي تمكننا من إنتاج ونشر واستهلاك المحتوى الإعلامي، بمختلف أشكاله من خلال الأجهزة الإلكترونية المتصلة أو غير المتصلة بالإنترنت".(البياتي، 2014، ص 313) كما يعتمد **الإعلام الإلكتروني** على وسيلة جديدة من وسائل الإعلام الحديثة وهي الدمج بين كل وسائل الإعلام التقليدي المكتوب والسمعي والسمعي البصري وبين الوسائط المتعددة، وهذا بهدف إيصال المضامين المطلوبة بأشكال متمايزة ومؤثرة، (الشمايلية و آخرون ، 2014، ص 18) ونقدر أن الإعلام الجديد هو اندماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة مع الوسائط المتعددة في عصر الويب (0-2) يتميز بالتفاعلية والآنية والكونية، وتوجد نفس هذه الخصائص على **منصة أنستغرام** ونعرفه على أنه موقع حديث النشأة شهد نموا لافتا تتنوع استخداماته بين التسويق والترويج للمنتجات المادية منها والفكرية ويعتمد على الصورة بشكل رئيسي، وانطلاقا على ذلك تركز الدراسة على هذا الوسيط الإعلامي الجديد ويعرفه الباحثون على أنه الشبكة الاجتماعية الأكثر شيوعا في استخدام الصورة وتحميلها وفلترتها ومشاركتها مع المستخدمين الآخرين وهو أحد أهم مواقع التواصل الاجتماعي عبارة عن تطبيق يسمح للمستخدمين بأخذ الصور وإجراء التعديلات الرقمية والفلاتر عليها ثم مشاركتها مع الأصدقاء عبر المنصة.(عبد الغني، 2019، ص 71)

التعريف الإجرائي لأنستغرام: هو تطبيق تفاعلي يستند إلى الويب (0-2) يتيح إمكانية تداول المحتوى الذي ينشأه المستخدم كالنصوص والتعليقات والصور والفيديوهات كما يتيح لهم إمكانية إنشاء بروفايلات تقدم خدمات خاصة وتسمح بتطويها ومتابعها ونقصد به في هذه الدراسة تلك المنصة الرقمية التفاعلية التي تستعملها صانعات المحتوى لوضع أفكارهن عن طريق نشر صور وفيديوهات وقصص ومنشورات حول المجال الذي ينشطن فيه.

رابعا-المنهج المستخدم في الدراسة:

يعرف المنهج Method بأنه الطريق المؤذي إلى الكشف عن الحقيقة (المشهداني، 2017، ص 159) وعليه فهو القواعد العلمية المستعملة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم. ومن أجل الوصول إلى الحقيقة العلمية في هذه الدراسة تم **استخدام منهج المسح** هو المنهج الذي يدرس موضوع البحث ويضم عددا من المفردات المكونة لمجتع البحث ولمدة زمينة توصف بالكافية بغرض الوصول إلى تكوين القاعدة الأساسية من البيانات اللازمة لحل إشكالية الدراسة(المشهداني، 2017، ص 163)، إضافة إلى أنه يهتم

بوصف سلوكيات وأنماط وسمات الجمهور وبهذا يعد المنهج المسحي الأكثر ملائمة للواقع وفهم الظواهر واستخلاص النتائج.

خامسا-الأداة المستخدمة في الدراسة:

تم استخدام **أداة الاستبيان في هذا البحث** نظرا لما تتميز به عن الأدوات الأخرى إذ تعتبر من أكثر الأدوات استخداما في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وكذلك من مبدأ دراسة الظواهر بمختلف الأدوات اذ بعد الاطلاع نجد أن عدد كبير من البحوث العربية تفرط في استخدام تحليل المضمون لمعالجة مسائل يصعب اخضاعها غالبا لتلك الأداة، والذي يصعب كثيرا تطويع أداواته لبيان صورة المرأة في وسائل الاعلام لأنها أدوات جعلت لتحليل الخطب والنصوص وليس لاستخلاص الصور(شلبي وآخرون، 2008، ص 131) وعليه ارتأينا أن الأداة المناسبة للموضوع هي **أداة الإستبيان أو الاستمارة الاستبيانية** فبينت دراسة مركز المرأة العربية للتدريب والبحوث أن معظم دراسات المرأة التي تحدثت عن الجمهور كانت دون العمل على إجراء مسوح ميدانية (شلبي وآخرون،2008، ص 163)

إن البحوث التي تأخد بعين الاعتبار دراسات الجمهور تكون أقرب إلى واقع قضية المرأة والإعلام فسؤال الجمهور يمكن الباحث من إنشاء مدونة بحثه انطلاقا من جمع البيانات(شلبي وآخرون، 2008، ص 166) وحتى نتفادى التعليلات الخاطئة أو التفسير الذاتي تم اعتماد الاستبيان بإعطاء الكلمة للجمهور للتعبير عن رأيه عبر أسئلة مقننة تخدم تسؤلات علمية تحاول الإجابة عن إشكالية الدراسة.

تم تقسيم الاستبيان الإلكتروني إلى 04 محاور محور خاص بالبيانات الشخصية وثلاث محاور متمثلة في أهداف الدراسة يضم كل محور مجموعة من الأسئلة مابين المغلقة والمفتوحة تهدف جميعها إلى محاولة الإجابة عن الإشكالية المطروحة.

سابعا- مجتمع وعينة الدراسة:

يقتضي المنهج وطبيعة الدراسة وموضوعها اللجوء إلى العينات الغير الاحتمالية خاصة في ظل ضخامة المجتمع المدروس جمهور متابعات صانعات المحتوى على المنصة التفاعلية انستغرام و استحالة مسحه مسحا شاملا ويتمثل مجتمع البحث في هذه الدراسة في المرأة العربية الجزائرية المسلمة التي يتجاوز عمرها 16 التي تمتلك حساب على منصة أنستغرام وتتابع صانعات المحتوى، وبالتالي طبيعة الموضوع واختيار المفردات تقتضي استعمال عينة **الكرة الثلجية snowball** غير الاحتمالية، حيث يقوم فيها الباحث بالاتصال عشوائيا ببضعة أفراد مؤهلين ثم يسأل هؤلاء الأفراد عن أسماء أصدقائهم أو معارفهم ممن يعرفون أيضا أنهم يملكون مؤهلات المشاركة في الدراسة (أبو اصبع ، 2013، ص 178)، تم توزيع الاستبيان على مجموعة مفردات ممن تدرك الباحثة أنهن من متابعات صانعات المحتوى بشكل مستمر وبدورهن عملن على إيصال الباحثة لمفردات أخرى وكل مفردة أوصلت الباحثة لمفردة أخرى لمدة 10 أيام وتم غلق إجابات الاستبان وتحصلت الباحثة على **37 إجابة**، ويرجع سبب اختيار هذا النوع من العينة إلى قيود الوقت ولخصوصية المجتمع الخاص وهو (المجتمع الافتراضي للمرأة) يقول **صالح أبو اصبع يعمل**

الباحثون في أحوال كثيرة تحت قيود الوقت وحيث أن العينة الاحتمالية هي المستهلكة في الغالب ، تمدنا العينة الغير احتمالية براحة في البحث.(أبو اصبع، 2013، ص 171)

ثامنا- الجانب التطبيقي للدراسة:

المحور الأول: البيانات الشخصية للمبحوثات

الجدول رقم 1/ 2: يبينان السن والمستوى التعليمي لأفراد العينة

السن	التكرار	النسبة	المستوى التعليمي	التكرار	النسبة
من 15إلى 20 سنة	6	16	متوسط	1	3
من 20 إلى 25 سنة	16	43	ثانوي	3	8
من 25 إلى 30 سنة	13	35	جامعي	25	68
أزيد من 30 سنة	2	6	مابعد التدرج	8	21
المجموع	37	%100	المجموع	37	%100

المصدر: إعداد الباحثة

يتبين لنا من خلال الجدول أعلاه أن أغلب مفردات العينة تنتمي للفئة العمرية **من 20 إلى 25 سنة** وذلك بنسبة قدرت ب 43 %، أما مستواهن التعليمي فأغلبهن **مستوى جامعي** بنسبة قدرت ب 68 %، ويمكن تفسير سبب ظهور هذه النتائج بمقابلة الجدولين، باعتبار أن معظم مفردات العينة شابات بالتالي لاتزلن في مرحلة التعليم العالي والبحث العلمي. بالإضافة إلى أن جيل اليوم هو جيل الإنترنت الذي تسيطر على حياته الوسائل الرقمية، والتي جعلت العالم كله في متناول ايديهم. اذ أن دماغ الجيل الرقمي مختلف فيزيائياً وكيميائياً عن دماغ الجيل السابق، وعقولهم مستمرة في التغير بسبب زيادة المحفزات الإلكترونية، ولا سيما تطبيقات الهواتف الذكية. والدماغ الإنساني وبشكل متواصل يعمل على إعادة تشكيل نفسه اعتماداً على المثيرات التي يتعرض لها(جمال إسماعيل، 2020، ص 30)، ويتميز الانستغرام بوفرة هذه المثيرات.

الجدول رقم 3: يبين الحالة المهنية لمفردات العينة

الحالة المهنية	التكرار	النسبة
عاملة	8	22
بطالة	29	78
المجموع	37	%100

المصدر: إعداد الباحثة

يتبين لنا من خلال الجدول أعلاه أن معظم مفردات العينة **غير عاملات** بنسبة 78% بمعدل 29 مفردة من أصل 37 مفردة مقابل 8 مفردات **تعملن**، ويمكن تفسير هذه النتائج بأن معظم مفردات العينة كما جاء في الجدول 1 – 2 طالبات جامعيات وشابات وبالتالي غير عاملات بسبب مزاولتهن للدراسة.

المحور الثاني: عادات تعرض متابعات صانعات المحتوى لمنصة أنستغرام

الجدول رقم 04: يبين مدة امتلاك أفراد العينة لحساب على منصة أنستغرام

مدة استعمال أنستغرام	نسبة	تكرار
أقل من سنة	5	13،5
من سنة إلى 3 سنوات	9	24،5
أزيد من 3 سنوات	23	62
المجموع	37	%100

المصدر: إعداد الباحثة

يتضح من خلال الجدول السابق أن أغلبية النساء الجزائريات يمتلكن حساب على منصة أنستغرام منذ **أزيد من 3 سنوات** بنسبة قدرت ب 62 %بمعدل 23 مفردة من أصل 37 مفردة، ويعود سبب تسجيل هذه النتائج إلى أن أغلب أفراد العينة يستعملون وسائط الإعلام الجديد مع بداية ظهورها اذ معظمهن طالبات ولديهن أغراض بحثية وعلمية وترفيهية منها، بالإضافة إلى أن هذا الموقع(أنستغرام) ظهر منذ أكثر من10 سنوات وهو مجاني متاح الاستعمال لجميع الشرائح.

الجدول رقم 05: يبين المدة الزمنية التي تقضيها مفردات العينة في تصفح منصة أنستغرام

المدة الزمنية	التكرار	النسب
أقل من ساعة	15	40،5
من ساعة إلى 3 ساعات	20	54
أزيد من 3 ساعات	2	5،4
المجموع	37	%100

المصدر: إعداد الباحثة

يظهر لنا الجدول أعلاه المدة الزمنية التي تقضيها مفردات العينة في تصفح منصة أنستغرام حيث يتبين أن معظمهم يتصفحونه **من ساعة إلى 3 ساعات** وذلك بنسبة قدرت بـ 54% بمعدل 20 مفردة من أصل 37 ثم تليها مباشرة **فئة أقل من ساعة** وذلك بنسبة قدرت **بـ** 37 % ، ويعود سبب تسجيل هذه النتائج إلى كثافة نشر صانعات المحتوى لمختلف المنشورات والقصص والفيديوهات عبر حساباتهن الشخصية بالإضافة إلى دخول التقنية لحياة الفرد واستحواذها على معظم وقته وتفكيره واهتمامته حتى باتت نمط حياة وعالم افتراضي يعيش الشباب داخله ويشحنون أفكارهم ومعتقداتهم وحتى قيمهم مما يشاهدونه ويسمعونه ويقرأونه .

الجدول رقم 06: يبين خصائص منصة أنستغرام المفضلة لدى مفردات العينة

ماهي الخاصية المفضلة لديك على أنستغرام؟	نوع الخاصية	التكرار	النسبة
	متابعة المنشورات	4	12
	مشاهدة الصور	1	3
	مشاهدة القصص story	11	29
	مشاهدة الفيديوهات Reels	21	56
	المجموع	37	%100

المصدر: إعداد الباحثة

يتبين من خلال الجدول أعلاه أن غالبية أفراد العينة يفضلون مشاهدة **الفيديوهات** أو مايسمى بالريلز **Reels** وذلك بنسبة مرتفعة قدرت نسبيا بـ 56% تليها الفئة التي تفضل مشاهدة **القصصstory** وهما خاصيتين متقاربتين وقدرت نسبة القصص سطوري بـ 29 %فيما جاءت نسبة متابعة المنشورات والصور ضعيفة، ويعود سبب تسجيل النتائج السابقة إلى المميزات التي تحتويها المنصة من إمكانية نشر ومشاركة الصور والفيديوهات واستعمال الفلاتر المتعددة وكذا الكتابة على الصور وتعديلها من حيث الحجم والأبعاد ومن ثم نشرها وبالتالي مقاطع الفيديوهات تظهر للمتابعات حسب عدد الاعجابات التي حصلت عليها وهذا مايجعل صانعات المحتوى في جهود دائمة وسباق مستمر للظهور في هذه الخاصية بالإضافة لميزة القصص التي تختفي كل 24 ساعة تظهر فيها صانعات المحتوى مقاطع من نشاطاتهن وحياتهن الشخصية.

الجدول رقم 7: يبين عدد الحسابات التي تتابعها مفردات العينة

كم عدد الحسابات التي تتابعينها على أنستغرام؟	عدد الحسابات المتابعة	التكرار	النسبة
	أقل من 100	15	41
	من 100 إلى 200	12	32
	أزيد من 200 حساب	10	27
	المجموع	37	%100

المصدر: إعداد الباحثة

يبين الجدول الموضح أعلاه أن جل أفراد العينة يتابعون **أقل من مئة حساب** على منصة أنستغرام وذلك بنسبة قدرت بـ 41 %، تليها مباشرة الفئة التي تتابع **من 100 إلى 200** حساب، ويعود سبب تسجل هذه النتائج إلى العدد الضخم للناشطات على هذه المنصة من مختلف أنحاء العالم وفي كل المجالات وقد استطاعت أعداد كبيرة من صانعات المحتوى خلق قاعدة واسعة من المتابعات، عن طريق نشر محتوى نال إعجاب الكثيرات. فهن يعرضن حياتهن الشخصية وما يرتدين من ملابس، وسفرهن وتسوقهم وايضاً المطاعم والمكياج ونواحي حياتهن الأسرية وهذا يشبه إلى حد بعيد تلفزيون الواقع لكن بشكل افتراضي متطور عمل على خلق قاعدة جماهيرية عريضة للمؤثرات.

الجدول رقم 08: يبين هوية صانعات المحتوى التي تتابعها مفردات العينة

ماهي هوية صانعات المحتوى التي تتابعينها(يمكن اختيار اكثر من إجابة)؟	الاختيارات	التكرار	النسبة
	طبيبة	11	13
	صحفية	12	15
	ممثلة	15	18
	مغنية	6	7
	عارضة أزياء	7	9
	أخصائية ماكياج	15	18
	تنمية بشرية	13	16
	طباخة	3	4
	المجموع	82	%100

المصدر: إعداد الباحثة

يظهر لنا الجدول أعلاه هوية صانعات المحتوى وطبيعة نشاطهن على المنصة فأظهرت النتائج أن نسبة 18% مقابل 18 % أخرى أي بمعدل 15 مفردة لكل فئة يتابعن **الممثلات** تقابلها بنفس العدد **أخصائيات الماكياج**، ثم تليها الفئة التي تتابع **أخصائيات التنمية البشرية** بمعدل 13 مفردة ثم تليها مباشرة فئتي **صحفية** و**طبيبة** ثم **مغنية** و**عارضة أزياء** فـ**طباخة**، يمكننا تفسير النتائج السابقة عبر

تحليل طبيعة نشاط صانعات المحتوى على المنصة في حد ذاته، فنجد الفئة الأولى ممثلات اذ لدين نشاط في الحياة الواقعية ويستخدمن المنصة من أجل رفع نسبة شهرتهن أما المتابعات لديهن فضول متابعة الحياة الشخصية للمثلة بعيدا عن الأضواء والأدوار التمثيلية لهن، ثم فئة أخصائيات الماكياج التي تركز بصورة مباشرة على الجمال المعلب والمنمط للمرأة لون البشرة الفاتح والعيون الواسعة والماكياج المبالغ وعمليات التجميل الرهيبة وبهذا يستهدفن غريزة المرأة في البحث عن الجمال وتحقيق نسب من المشاهدة ومنه دخل مادي تتيحه شركة "مجموعة ميتا" لهن وكذا مداخيل الترويج والإعلان لبعض المنتجات التجميلية للشركات المصنعة، ثم تأتي الفئة التي تتابع أخصائيات التنمية البشرية اللذين يدعون المرأة إلى الرقي والتحرر الروحي والاجتماعي وتحقيق الطموحات والأحلام والأهداف التي قد تكون في بعض الأحيان ليست في خدمة المرأة بل تدعوها للتحرر الزائد، ثم تأتي الفئة التي تتابع الصحفيات والطبيبات وتعبر هذه الفئة أكثر قربا للحياة الاجتماعية الواقعية وتريد محتوى له قيمة مضافة لشخيصتها وثقافتها الاجتماعية وكذا الصحية وكيانها كامرأة، ثم فئة عارضات الأزياء والمغنيات ومحتويات الطبخ. وعلى سبيل الفضول كالحياة الشخصية للمغنيات وجديدهن والاقتداء بالعارضات في اللباس والموضة وتقليدهن والمعرفة بالطبخ وفنونه.

الجدول رقم 09: يبين جنسية صانعات المحتوى التي تتابعها مفردات العينة

ماهي جنسيات صانعات المحتوى التي تتابيعينها(يمكن اختيار أكثر من إجابة)	جنسيتهن	التكرار	النسبة
	عربية	27	39
	جزائرية	14	20
	أجنبية	28	41
	المجموع	69	%100

المصدر: إعداد الباحثة

يظهر من خلال الجدول أعلاه أن غالبية مفردات العينة يتابعن صانعات المحتوى من **الجنسية الأجنبية** وذلك بنسبة قدرت بـ 41 %، تلها مباشرة الفئة التي تتابع صانعات المحتوى **العربيات** بنسبة قدرت بـ39 %، واخر فئة هي التي تتابع صانعات المحتوى **الجزائريات**، يعود سبب تسجيل هذه النتائج إلى كون التقنية غربية مصنعة في الغرب وهم أول من استعملها بالإضافة لتطورهم في مجال الصورة وجودتها التي يرتكز علها انستغرام خاصة الفلاتر والمؤثرات التي تستهوي معظم النساء، ثم الجنسية العربية فالجزائرية على اعتبار أن صانعات المحتوى في الجزائر قليلات في السنوات الماضية مقارنة بدول غربية أو عربية نظرا لثقافة وخصوصية المجتمع الجزائري غير أنهن أصبحن نشطات وبدأت موجة صناعة المحتوى تجتاح المرأة الجزائرية.

الجدول رقم 10: يبين أكثر الموضوعات التي تتطرق إليها صانعات المحتوى من خلال منشوراتهن

	الاختيارات	التكرار	النسبة
ماهي أكثر الموضوعات التي تتناولها صانعات المحتوى على صفحاتهن على أنستغرام؟ (سؤال مفتوح لإجابات أخرى)	حياتهن الشخصية	24	66
	مواضيع دينية	3	9
	مواضيع اجتماعية	7	19
	مواضيع صحية	1	2
	مواضيع الموضة والجمال	1	2
	دروس في اللغات	1	2
	المجموع	37	%100

المصدر: إعداد الباحثة

يتبين جليا من خلال نتائج الجدول أن أكثر الموضوعات التي تتطرق لها صانعات المحتوى هي **حياتهن الشخصية** بنسبة مرتفعة قدرت إحصائيا بـ 66 %مع 24 مفردة من أصل 37 ثم **المواضيع الاجتماعية** 19% ثم **الدينية** 9 % ثم **الصحة والموضة والجمال** واللغات، ويعود سبب تسجل النتائج المذكورة إلى أن معظم صانعات المحتوى يتناولن حياتهن الشخصية في منشوراتهن بل إن المتابعة تعيش معها حياتها وظروفها ويومياتها وعلاقتها مع زوجها وتربية أبنائها وأكلها وملابسها وديكور منزلها والمطاعم التي تذهب إليها والكتب التي تقرأها وعلاقاتها مع الناس وكل الأماكن التي تذهب إليها لغرض تحقيق الشهرة، متناسين أن هؤلاء الأطفال لديهم حياتهم الخاصة، ولا بد من الانتباه إلى أنه ينبغي احترام خصوصياتهم. كما يحاولون إظهار أنفسهم بصورة إيجابية، أو على مستوى عال من الترف، ويحاولون لفت الانتباه، مستغلين أن متابعيهم قد اتخذوهم في مواقف عدة قدوات لهم، وهذا مايؤثر حتى على الجانب الديني للمرأة المتابعة لهن، كما أنهم يعتمدون بشكل مباشر على الأمور المادية للشهرة. ومتجاهلين بهذه المقاطع الأخلاق العامة والعادات، وقد يكون تجاهلهم هذا بداية لمرحلة جديدة من التغيير الاجتماعي على هذه المواقع.

المحور الثالث: الصورة النمطية للمرأة على أنستغرام

الجدول رقم 11: يبين الصورة التي تظهرها صانعات المحتوى حول المرأة العربية المسلمة

ماهي الصورة التي تظهرها صانعات المحتوى حول المرأة العربية المسلمة؟	الاختيارات	التكرار	النسبة
	صورة المرأة المتحررة المنفتحة	20	54
	صورة المرأة المسلمة المعاصرة	16	43
	صورة المرأة المسلمة المتشددة	1	3
	المجموع	37	%100

المصدر: إعداد الباحثة

يظهر الجدول أعلاه أن معظم متابعات الأنستغرام يرون أن الصورة التي تظهرها صانعات المحتوى عن المرأة المسلمة هي **صورة المرأة المتحررة المنفتحة** وذلك بنسبة قدرها 54% أي بمعدل 20 مفردة من أصل 37 مفردة، تليها مباشرة الفئة التي ترى بأنهن **يقدمن صورة المرأة المسلمة المعاصرة** وذلك بنسبة قدرت بـ43%، ويعود سبب تسجيل هذه النتائج إلى الانفتاح الثقافي الذي تدعو له صانعات المحتوى تحت مسمى التحرر فنجد أنهن يعشن حياة تختلف عن الواقع الذي يعيشه المجتمع الاسلامي في طرق التفكير ونمط اللباس والتواجد الدائم خارج المنزل وممارسة بعض السلوكيات التي لاتمثل في غالب الأحيان حياة المرأة المسلمة العربية وبالتالي المجتمع الذي ينشطن فيه ومنشوراتهن موجهة إليه مما شكل نوع من الخروج عن العادات والتقاليد وأسس الدين الصحيحة وهن يصرحن في منشوراتهن بأن هذه الصورة تعكس المرأة المسلمة المعاصرة والشكل الذي يجب أن تكون عليه في القرن الواحد والعشرين كرمز للتطور والعصرنة .

الجدول رقم 12: يبين مدى تعرض المتابعات لمنشورات تنتقد المرأة على صفحات الأنستغرام

هل صادفتي منشورات على أنستغرام تنتقد المرأة المسلمة ؟	الاختيارات	التكرار	المجموع
	نعم	15	40،5
	لا	22	59،5
	المجموع	37	%100

المصدر: إعداد الباحثة

يتبين من خلال الجدول أعلاه أن أغلبية متابعات منصة أنستغرام **لايتعرضن** لمنشورات تنتقد صورة المرأة وذلك بنسبة تقدر بـ 59،5% في حين نسبة 40،5 % **تتعرضن** لمنشورات تنتقد المرأة المسلمة وصورتها ويعود سبب تسجيل هذه النتائج إلى أن غالبية المنشورات الموجودة على صفحات التواصل الاجتماعي يتم غربلتها من قبل المسؤولين عن الصفحات خاصة منها المنشورات العنصرية التي تثير الرأي العام الافتراضي وكذا قضايا المرأة المسلمة وصورتها التي تعد من أهم القضايا العنصرية تجاه صورة الإسلام والمسلمين.

الجدول رقم 13: يبين كيفية تناول منشورات أنستغرام لصورة المرأة

إذا كانت إجابتك نعم كيف كانت صورة المرأة المسلمة في هذه المنشورات؟	الاختيارات	التكرار	النسبة
	الاحتقار والنظرة الدونية	3	16
	الدعوة لفصل الدين وتعاليمه عن المرأة العربية	6	34
	محاولة اسقاط صورة المرأة الغربية على المرأة العربية	9	50
	المجموع	18	100%

المصدر: إعداد الباحثة

يبين لنا الجدول أعلاه إجابات المتابعات حول نوعية المنشورات التي تنتقد صورة المرأة المسلمة فنجد معظم المنشورات **تحاول اسقاط صورة المرأة الغربية على المرأة العربية** وذلك بنسبة 50%، في حين فئة أخرى ترى أن هذه المنشورات تدعو **لفصل الدين وتعاليمه عن المرأة العربية المسلمة** وذلك بنسبة 34%، ويعود سبب تسجيل هذه النتائج إلى النموذج المعياري لجمال المرأة الذي خلقته مواقع التواصل الاجتماعي في محاولة إسقاط صورة المرأة الغربية وشكلها وتصرفها وسلوكياتها وقيمها ومدى تحررها على المرأة العربية المسلمة وقيمها الاسلامية ودينها ولباسها والتزامها بتعاليم الدين الاسلامي ومحاولة خلق خطأ ونقص في المرأة المسلمة على اعتبار أن المرأة الغربية هي النموذج الصحيح لصورة المرأة الحقيقية وأنه يجب دائما فصل الدين وتعاليمه عن المرأة .كما عمل الغرب على استغلال أقلام مسلمات توهمن بأن ثقافة الغرب هي معيار عام لتقدم الأمم على اختلاف عقيدتها ومرجعيتها ونظامها الاجتماعي(درداوي و عامر ، ص 65).

الجدول رقم 13: يبين مدى تأثيرصانعات المحتوى على صورة المرأة من الناحية الدينية

مامدى تأثير صانعات المحتوى على صورة المرأة المسلمة على منصة أنستغرام من الناحية الدينية؟	الاختيارات	التكرار	النسب
	تحسين وتعديل صورة المرأة المحجبة	24	65
	تحسين صورة الإسلام والمسلمات	10	27
	الإخلال بصورة المسلمة الحقة	2	5
	الابتعاد عن الدين وإبعاد المرأة عن كل مايربطها به	1	3
	المجموع	37	%100

المصدر: إعداد الباحثة

يظهر الجدول أعلاه مدى تأثير صانعات المحتوى على صورة المرأة المسلمة فنجد أن معظم أفراد العينة يرون أنهن **يعملن على تحسين وتعديل صورة المرأة المحجبة** وذلك بنسبة 65 %، تليها الفئة التي ترى أنهن **يعملن على تحسين صورة الإسلام والمسلمات** بنسبة 27 %، ويعود سبب تسجيل النتائج السابقة إلى أن بعض المؤثرات على أنستغرام يقدمن صورة حسنة عن المرأة المحجبة عبر الالتزام بالحجاب وتعاليمه وقيم الاسلام وهو تيار ايجابي مضاد نحو الحضور الفاعل والمنظم للحركة النسوية الغربية للقضاء على الحجاب وتغيير قوانين الأحوال الشخصية(درداوي و عامر، ص 65).

الجدول رقم 14: يبين مدى تأثير صانعات المحتوى على صورة المرأة المسلمة من الناحية الثقافية

مامدى تأثير صانعات المحتوى على صورة المرأة المسلمة من خلال منصة أنستغرام من الناحية الثقافية؟	الاختيارات	التكرار	النسبة
	الحفاظ على ثقافة المجتمع (اللباس التقليدي، الثقافة الشعبية، الأكل التقليدي..)	25	67
	الحفاظ على اللغة الأم العربية	7	20
	الانبهار باللغة والثقافة الغربية	2	5
	محاولة دمج الثقافة العربية مع الثقافة الغربية	3	8
	المجموع	37	%100

المصدر: إعداد الباحثة

يتبين من خلال الجدول أعلاه أن جل أفراد العينة يرون أن صانعات المحتوى **يساهمن في الحفاظ على ثقافة المجتمع** من خلال منشوراتهن وذلك بنسبة قدرت بـ 67 %في حين فئة أخرى ترى أنهن **يعملن على الحفاظ على اللغة العربية** اللغة الأم وذلك بنسبة قدرت بـ 20 %، ويعود سبب تسجيل النتائج السابقة إلى الجهود الواضحة لصانعات المحتوى الجزائريات في محاولتهن المتكررة للحفاظ على الموروث الجزائري مثل اللباس التقليدي الأكل التقليدي والثقافة الشعبية والأعياد الوطنية وتاريخ البلد وكل مايمد بصلة للثقافة الجزائرية عبر استغلال خصائص منصة انستغرام مثل خاصة الهاشتاغ Hachtags أو الوسم فتوضع علامة الهاشتاغ قبل كلمة معينة مثلا "إلبس جزائري في العيد" لتصبح موضوع نقاش مفتوح بين الناس وتصبح أيقونة تظهر لملايين المستخدمين .

المحور الرابع: الاتجاهات السلبية والايجابية نحو صورة المرأة

الجدول رقم 15: يبين اتجاهات المرأة الجزائرية نحو الصورة السلبية التي ترسمها صانعات المحتوى حول المرأة المسلمة

العبارات	موافقة		معارضة		محايدة	
	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة
صورة المرأة على أنستغرام مثيرة جنسيا	20	54	10	27	7	19
فاسدة الأخلاق والطباع	16	43	14	38	7	19
زوجة وربة بيت لاتعمل	16	43	16	43	5	14
جميلة لايعنيها إلا مظهرها	20	54	9	24	8	22
مادية وانتهازية	22	59	8	22	7	19
كائن ضعيف وحساس قابل للإنجراح	22	59	8	22	7	19
عاشقة للطبخ والعطور والرشاقة	28	76	1	3	8	22
درامية وهشة	20	54	7	19	10	27
المجموع	37	%100	37	%100	37	%100

المصدر: إعداد الباحثة

يبين الجدول أعلاه اتجاهات المرأة الجزائرية نحو الصورة السلبية التي ترسمها صانعات المحتوى حول المرأة المسلمة فيظهر أن غالبية أفراد العينة يوافقون على أن صورة المرأة على أنستغرام **مثيرة جنسيا** وذلك بنسبة قدرت بـ 54% ، كما أن معظمهم يوافقون على أنها **فاسدة الأخلاق والطباع** بنسبة 43% ، مقابل ذلك فهم يرون أن صورة المرأة هي **زوجة وربة بيت لا تعمل** بنسبة 43% ، كما أنهم يوافقون على أن المرأة **ترمز للجمال ولايعنيها إلا مظهرها** بنسبة 54%، وهي **انتهازية ومادية** بنسبة 59%، ويوافقون على أنها **كائن ضعيف وحساس قابل للإنجراح** بنسبة قدرت بـ 59%، ويوافقون على أنها **عاشقة للطبخ والعطور والرشاقة** بنسبة 76% ، ويوافقون كذلك على أنها **درامية وهشة** بنسبة 54%، نلاحظ أن الإجابات كانت موافقة في المقياس السلبي أي أن المتابعات يرون أن الصورة المقدمة هي صورة سلبية وهي الأنوثة المعيارية والجمال المثالي الذي يقتصر على المعايير الصارمة للمرأة الشابة البيضاء التي تبدو مغايرة المظهر جذابة بشكل مقصود ومتواصل (caleira et van bauwel.2018. p 25). ويعود سبب ذلك لوجود فراغ ثقافي حول الهوية الحقيقية للمرأة التي كفلها لها الإسلام وهذا مايجعلها تحاول تكوين صور خاصة بها ومحاولة صناعة الموضة والجمال وصورة المرأة الهشة التي تحتاج المساعدة من الآخرين ضيقة الأفق المحبة للمال وعاشقة الطبخ والعطور والرشاقة وهذا ماعززته صانعات المحتوى على مواقع التواصل الاجتماعي عبر تدعيم هذه الصورة بشكل قد يكون غير مقصود، وحتى الدراسات الأجنبية في نفس الموضوع توصلت إلى أن أنستغرام يستمر في تعزيز المفاهيم الضيقة عن المرأة مثل الجاذبية والجنس

والأنوثة والمثالية وتؤدي المرأة عن غير قصد النسخة المبسطة عن هذه القوالب النمطية (caleira et van bauwel.2018. p 25)

الجدول رقم 16: يبين اتجاهات المرأة الجزائرية نحو الصورة الإيجابية التي ترسمها صانعات المحتوى حول المرأة المسلمة

العبارات	موافقة		معارضة		محايدة	
	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة
أم ذات أدوار فعالة وإبنة بارة	28	76	1	3	8	21
فنانة مبدعة	29	78	2	6	6	16
مجتهدة قادرة على القيادة	28	76	3	8	6	16
مشاركة في قضايا الشأن العام	24	65	3	8	10	27
عاملة عصرية	32	86	3	8	2	6
محجبة ومتدينة	8	21	14	38	15	41
مواطنة صالحة	15	41	12	32	10	27
مكافحة وقوية الشخصية	27	73	2	6	8	21
المجموع	37	%100	37	%100	37	%100

المصدر: إعداد الباحثة

يبين الجدول أعلاه اتجاهات المرأة الجزائرية نحو الصورة الإيجابية التي ترسمها صانعات المحتوى حول المرأة المسلمة فيظهر أن غالبية أفراد العينة يوافقون على أن المرأة **أم ذات أدوار فعالة و إبنة بارة** وذلك بنسبة 76 % كما أنهم يوافقون على أنها **فنانة مبدعة** بنسبة 78% وهم متفقون على أنها **مجتهدة قادرة على القيادة** بنسبة 76% وهي **مشاركة في قضايا الشأن العام** بنسبة قدرت بـ 65% ، ويوافقون بنسبة كبيرة على أن المرأة **عاملة وعصرية** 86%غير أنهم يعارضون كونها **متحجبة ومتدينة** بنسبة 41% ويوفقون أنها **مواطنة صالحة** بنسبة 41% و**مكافحة قوية الشخصية** بنسبة 73 %، ويمكن تفسير النتائج السابقة بأن منصة أنستغرام فتحت هامش من الحرية للمرأة وفتحت لها فضاءات للتعبير عن هويتها بشكل إيجابي فأثبتت النساء عن جدارة استحقاقهن مشاركة الرجال في المجتمع من جهة ومن جهة أخرى التوفيق بين الواجبات العائلية والمشاركة في الحياة السياسية وقضايا الشأن العام وهي صفات المرأة العصرية التي تجسدها فئة من صانعات المحتوى عبر منشوراتهن على منصات التواصل الاجتماعي ومشاركة حياتهن ونشطاتهن فاستطعن حسب أفراد العينة تجسيد صورة إيجابية عن المرأة من ناحية

الثقافة والرأي المستقل وقوة الشخصية التعبير عن الذات كل هذا عبر فضاءات افتراضية أصبحت دالا ومؤشرا حيويا على هوية المرأة في سياقات الواقع الاجتماعي المعاش اليوم (بن عمرة، 2018، ص 187)

تاسعا: نتائج الدراسة

1 /نتائج البيانات الشخصية للمبحوثات:

تتباين مفردات العينة المتابعات لمنصة أنستغرام تبعا لمتغير السن والمستوى التعليمي والحالة المهنية، ومنه يتبين لنا أن هناك فروق نسبية بين المستخدمات للمنصة المتابعات لصانعات المحتوى.

2 /نتائج عادات و أنماط التعرض:

تمتلك معظم مفردات العينة حساب على منصة أنستغرام منذ أزيد من 3 سنوات ويقضين في تصفحها من ساعة إلى 3 ساعات وذلك في مشاهدة الفيديوهات أو Reels بنسبة 56 % وهن يتابعن من 100 إلى 200 حساب على المنصة الافتراضية أنستغرام، كما تفضل معظم مفردات العينة متابعة الممثلات وأخصائيات الماكياج على اعتبار معظم العينة شابات.

غالبية صانعات المحتوى من الجنسية الأجنبية التي تستهوي في الأغلب المتابعات العربيات الجزائريات بنسبة 41% وهن يفضلن متابعة حياتهن الشخصية التي يعرضنها عبر خاصيتي الفيديوهات والقصص وذلك بنسبة 66 %.

3/ نتائج الصورة النمطية للمرأة المسلمة التي تجسدها صانعات المحتوى من خلال منشوراتهن على أنستغرام

ترى غالبية مفردات العينة أن الصورة التي تظهرها صانعات المحتوى حول المرأة المسلمة هي صورة المرأة المنفتحة والمتحررة وذلك بنسبة 54 % ولا تصادف معظمهن منشورات تنتقد صورة المرأة المسلمة، أما من يصادفن تلك المنشورات فمعظمها تحاول إسقاط صورة المرأة الغربية على المرأة العربية وقيمتها وهويتها الاسلامية وذلك بنسبة 65 % وهذا من الناحية الدينية، أما من الناحية الثقافية فإنهن يحافظن على ثقافة المجتمع الجزائري لباس وثقافة وأكل وهوية وعليه فإنهن استطعن تعديل الصورة النمطية السلبية للمرأة التي طالما جسدتها وعززتها الوسائل الإعلامية التقليدية عكس المنصات الإلكترونية التي تسهل النشر على هذه المواقع وتتمتع بالحيوية والتفاعلية.

4/ نتائج اتجاهات المرأة العربية الجزائرية الإيجابية والسلبية نحو الصورة التي ترسمها صانعات المحتوى عن المرأة المسلمة

توافق غالبية المتابعات لصانعات المحتوى أن صورة المرأة على المنصة هي صورة سلبية فهي مثيرة جنسيا، فاسدة الأخلاق والطباع، زوجة وربة بيت، جميلة لايعنيها إلا مظهرها مادية وانتهازية قابلة للانجراح وغيرها من الصفات وذلك بنسب تترواح مابين 43 %إلى 76 %.

كما توافق معظم المتابعات أن صورة المرأة التي تقدمها صانعات المحتوى هي صورة إيجابية فهي أم لها أدوار فعالة وفنانة مجتهدة وقيادية وعاملة عصرية ومواطنة صالحة وذلك بنسبة عالية مابين 41 % إلى 78%.

ومنه نستنتج اختلاف أراء أفراد العينة تبعا لنوع المحتوى الذي تنشرة صانعات المحتوى المؤثرات على المنصة الافتراضية أنستغرام ويختلف توجهن نحو صورة المرأة وعليه تختلف كيفية تشكيل صورة المرأة من صانعة محتوى لأخرى.

توصيات:

1. على صانعات المحتوى المسلمات العربيات المشاركة الجادة في تصحيح المفاهيم والتصورات المنسوجة حول الصورة النمطية للمرأة وكذا تصحيح الصورة المغلوطة المشوهة عن موقف الإسلام من المرأة، إذ أن موقفه يعد الأكثر إنصافا وعدلا وشمولا.
2. تأسيس هيئات وجمعيات تعنى بتحسين صورة المرأة المسلمة وتمكينها من مواجهة التطورات التكنولوجية المتزايدة يوميا في العالم وتوعية الناشطات عبر المنصات الإلكترونية من أجل المساهمة في جعل المرأة عنصر فاعل سياسيا، اجتماعيا، اقتصاديا، فكريا وثقافيا.
3. ضرورة تعديل وتصحيح الموروث الثقافي والتقاليد الوافدة التي تنمط صورة المرأة المسلمة وتجسدها في النموذج الغربي القائم الجمال والموضة بل وضع المرأة في مكانها الحقيقي الذي كفله لها الإسلام.

قائمة المراجع:

- أبو اصبع، صالح. (2013). مناهج البحث الإعلامي. دار الفكر المعاصر. دمشق.
- البياتي، ياس خضير. (2014). الإعلام الجديد والدولة الافتراضية الجديدة. ط 1. دار البداية. لبنان.
- المشهداني، سعد سلمان. (2017). مناهج البحث الإعلامي. ط 1. دار الكتاب الجامعي. لبنان.
- بن عمرة، بلقاسم أمين. (2018). " دور الوسائط الاتصالية الجديدة في تشكيل الفضاءات العمومية الهامشية النسائية داخل الحيز الافتراضي". أطروحة دكتوراه. كلية العلوم الاجتماعية. جامعة عبد الحميد بن باديس. الجزائر.
- بولكعيبات، إدريس، وبولكعيبات، ليلى. (2018). "الصورة النمطية السلبية عن المسلمين في الإعلام الغربي". مجلة الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية. المجلد 2: العدد 8: 62.43.
- جمال إسماعيل، بشرى. (2020)." آثر الفاشينيستا في صورة الجسد لدى الأنثى". مجلة الباحث الإعلامي. 12: العدد 47: 35.7.
- تيماجر، ناريمان. (2011). "صورة المرأة في البرامج التلفزيونية العربية"، رسالة ماجستير. كلية العلوم السياسية والإعلام والاتصال، جامعة الجزائر 3، الجزائر.

- رادي، منال، وعامر، أمال. د ت. "الصورة النمطية للمرأة المسلمة في الإعلام الغربي تجارب ورؤى". مجلة المقدمة: العدد 1: 72.53.
- سلامة، حسام علي. (2021). "العوامل المؤثرة في متابعة الجمهور العربي لحسابات المؤثرين على أنستغرام ". المجلة المصرية لبحوث الإعلام: العدد 77: 246.186.
- شلبي، محمد. (2008). المرأة العربية والإعلام. ط 1. مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. لبنان.
- الشمايلية، ماهر وآخرون. (2014). الإعلام الرقمي الجديد. ط 1. دار الإعصار العلمي للنشر والتوزيع. الأردن.
- عبد الغني، مي. (2019). " الصورة الإعلامية الفلسطينية في موقع إنستغرام". مجلة العربي للدراسات الإعلامية: العدد 2: 97.68.
- عيساوي، عطية وآخرون. (2021). "تأثير صناع المحتوى على الطلبة عبر وسائط التواصل الاجتماعي". مجلة التكامل في بحوث العلوم الاجتماعية والرياضية: المجلد 5: العدد 2: 264.242.
- Caleira, sofia. Ridder, Sandra. (2018). Exploring the politics of representation Instagram. Journal of diversity and gender, vol 5: 23.42.

صورة صلاح الدين الأيوبي في الفيلم الأمريكي" مملكة الجنة Kingdom of Heaven"

The Image of Salah al-Din al-Ayyubi in the American Movie "Kingdom of Heaven"

ط/د.مريم بوستة، جامعة عباس لغرور خنشلة- الجزائر
mimi4066@yahoo.com



تهدف المداخلة إلى تسليط الضوء على أنماط صناعة الصور المقولبة وسياستها وسبل تشكيلها والخطر الحقيقي الناتج عن تشويهها بشكل متعمد؛ وذلك من خلال الكشف عن الصور النمطية للمسلم في السينما الأمريكية؛ التي تعود إلى دوافع فكرية وسياسية وتاريخية دينية منصاعة للصورة الاستشراقية للمسلم، إذ تناولت هذه الدراسة الموسومة بـ " صورة صلاح الدين الأيوبي في الفيلم الأمريكي" مملكة الجنة **Kingdom of Heaven"** أهم آليات التضليل والتشويه المتبعة إعلاميا في الغرب من خلال التطرق للصور النمطية المشوهة للمسلم وغير النمطية في السينما الهوليوودية، وتظهر أهمية هذه الدراسة من أهمية موضوعها كمحاولة لتفكيك وفحص صورة القائد المسلم "صلاح الدين الأيوبي" كما قدمتها السينما الأمريكية التي تعتبر من أهم المنابر المؤثرة في الوعي الجمعي العالمي.

الكلمات المفتاحية: صورة المسلم، الإسلام، صلاح الدين الأيوبي، الفيلم الأمريكي.

Abstract:

The intervention aims to shed light on the patterns of creating stereotyped images, its policies, ways of forming them, and the real danger of deliberately distorting them. And that is by exposing the stereotyped images of Muslims in American cinema; Which goes back to intellectual, political, historical and religious motives that are submissive to the orientalist image of the Muslim, as this study, tagged with "The Image of Salah al-Din in the American film "Kingdom of Heaven", deals with the most important mechanisms of disinformation and distortion used in the media in the West by addressing distorted stereotypes of Muslims and non-Muslims. Stereotypes in Hollywood cinema, and the importance of this study appears from the importance of its subject as an attempt to dismantle and examine the image of the Muslim leader "Salah al-Din al-Ayyubi" as presented by American cinema, which is considered one of the most important platforms affecting global collective consciousness.

Keywords: The image of the Muslim, Islam, Salah al-Din al-Ayyubi, the American film.



مقدمة:

تعد السينما بشكل عام والسينما الأمريكية على وجه التخصيص إحدى أهم وسائل الترفيه والإعلام والتوجيه المؤثرة التي تحظى بنسبة مشاهدة عالية جدا في معظم دول العالم، إذ تتابعها جميع الشرائح العمرية باختلاف أجناسهم وأعمارهم واهتماماتهم وميولهم نظرا لتنوّعها واختلافها وجودتها العالية فنيا وتقنيا، وتأتي هذه الأهمية والشعبية نتيجة للتطور التكنولوجي في القرن الراهن؛ الذي صير المجتمعات إلى مجتمعات بصرية تعتمد على الصورة أكثر من الكلمات، وكما تعتبر السينما الأمريكية قوة جماهيرية عالمية؛ فهي تشكل أساسا مهما في بلورة الوعي الجمعي لدى العامة، وأسلوبا دعائيا بارزا لنقل وتشكيل الأفكار والمعتقدات التي تُوظّفُ لخدمة الأيديولوجيا المسيسة أو المسيطر عليها اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا.

بناء على هذا، فقد كان للولايات المتحدة الأمريكية النصيب الأوفر في تشكيل هذه الصورة النمطية للعديد من القوميات والفئات؛ وخاصة الصور المشوهة عن الإسلام والمسلمين؛ إذ قامت باستغلال شعبية السينما والاستفادة من قوة تأثيرها بتوظيفها في صناعة العديد من الأفلام التي تتناول العربي والمسلم؛ جاعلة منه خصماً واضحاً من أجل تحقيق مصالح سياسية أو اقتصادية تخدم سياسات الإعلام الأمريكي والمسيطرين عليه،"وكما تزداد خطورة هذه الأفلام بزيادة المكانة التي تحظى بها لدى المشاهد وبالقيم التي تبثها وتزرعها على مر العقود. وبالرغم من وجود بعض الأفلام التي تناولت الإسلام والمسلمين بشكل جيد إلا أنها قلة قليلة مقارنة بغيرها من الأفلام التي تناولت المسلم بالصورة الهمجية والرجعية والمتخلفة.

إشكالية البحث: كيف تجلت صورة المسلم صلاح الدين الأيوبي في الفيلم الأمريكي" مملكة الجنة"؟

أولا- صورة المسلم في الخطاب السينمائي الأمريكي:

إن الأفلام السينمائية الأمريكية بتقنياتها ورسائلها وصيغها الأسطورية؛ شكلت قوة فعالة لنسج الصور المزيفة وتسويقهاء فقد سخرت هوليوود كل إمكانياتها من أجل خدمة مصالحها الغربية، لشيطنة المسلمين؛ وتشويه صورهم وإلصاق التهم بهم؛ وسعت جاهدة لتركيزها في أذهان الجماهير، إذ احتل الإسلام والمسلمون حيزا كبيرا في الإعلام الغربي وفي السينما الأمريكية خاصة؛ فقد اختير المسلم عدوا إعلاميًا تقدمه هوليوود بصورة منمطة في أفلامها السينمائية؛ وذلك في سبيل مسخ الصورة العربية الأصيلة، واستبدالها برؤية شديدة العدائية؛ من شأنها أن تخدم مصالح الغرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية (شاهين، دت، صفحة 18).

وعلى الرغم من تعدد الصور النمطية المشوهة لمختلف الأجناس والمجتمعات والهويات, إلا أنها باتت تتلاشى وتختفي مع تغير السياسات الأمريكية والغربية؛ وبدأت بالتحسن بعد حقبة معينة من الزمن، ولكن؛ لا تنطبق هذه الحالة على صورة الإنسان العربي المسلم التي بقيت متجذرة حتى الآن؛ والتي تصدرت منتجات هوليوود المسيئة والمهمشة للمجتمعات كما وكيفا، وقد يعود ذلك لما هو أبعد من مجرد تمييز أو

تصرف عنصري ضد هويات أو فئات معينة؛ فصورة المجتمع العربي الإسلامي المشوهة والمنقوصة تشكلت نتيجة لصراع سياسي ثقافي ديني بين الشرق والغرب عبر فترات طويلة من التاريخ؛ بالتالي لا يمكن مقارنتها بالصور العنصرية المنسوجة تجاه الروس والإيطاليين واليهود والأفارقة وغيرها من الهويات والأقليات (دعدوش، 2011، صفحة 236).

يذهب الكاتب جاك شاهين في كتابه "الصورة الشريرة للعرب في السينما الأمريكية" إلى أن هوليوود ليست أول من أوجد الصور النمطية المسيئة للإسلام والمسلمين وإنما ورثتها من الصور الكاريكاتورية الأسطورية التي رسمها الأوروبيون للعرب من قبلهم، وقد أسهم في تعزيزها وصياغتها الكتاب والفنانون من خلال الحكايات والأساطير النمطية التي قدمت العربي المسلم على أنه إنسان همجي وبدائي وكسول وأن نساءه ضعيفات وراقصات وذليلات وهم يعيشون في بيئة صحراوية ويركبون الجمال ويفتقدون كل معالم التحضر (شاهين، دت، صفحة 23).

استمر تناقل هذه الصور النمطية المشوهة وغير المنصفة للمسلم في وسائل الإعلام الغربية؛ وظلت تتردد كهدف سهل في العديد من الأفلام السينمائية الأمريكية التي يفوق عدد مشاهديها الملايين. فبعد دراسة وتحليل الباحث جاك شاهين لأكثر من 900 فيلم أمريكي عرضت في الفترة ما بين (1896 -2001م، استنتج الكاتب أن أغلبية هذه الأفلام بالغت وأسرفت في نقل الصور المتحيزة والنمطية للمسلم (الرجل، المرأة، الطفل)؛ وأن 12 فيلما فقط من أصل هذه الأفلام صوّرت العرب والمسلمين بصورة منصفة غير نمطية (شاهين، دت، صفحة 12).

ومنه، فمن الواضح أن هوليوود صممت بأفلامها السينمائية على إلحاق الأذى والإساءة بالعرب والمسلمين، وممارسة الظلم تجاههم بهدف تجريدهم وتحقيرهم وتهميشهم، إذ يمكن للمشاهد أن يرى في فيلم الرسوم المتحركة "علاء الدين /1992 الذي أنتجته والت ديزني؛ بأن المسلمين يظهرون بصورة البدائيين والبرابرة والجهلة؛ وأنهم يعتنقون دينا وحشيًا في حدوده وعقوباته؛ وأنهم شيوخ شهوانيون مولوعون بالنساء العاريات (شاهين، دت، صفحة 108)، وظهر في فيلم آخر بعنوان "أرابيسك /1966 للمخرج الأمريكي ستائلي دونين العربي والمسلم على أنه إنسان متآمر استغلالي جشع؛ يطمح وراء السلطة والقوة؛ ويسعى وراء مصلحته الخاصة ولا تهمه خدمة الشعب ومطالبه (بشاري، 2004، صفحة 138).

ولم تقتصر صورة المسلم في هوليوود على الصور النمطية الرجعية؛ فنتيجة للتغيرات السياسية الغربية اتهم المسلم في العديد من الصور السينمائية بأنه متعصب وينتمي إلى جماعات إرهابية؛ وأنه خال من المشاعر الإنسانية؛ ويقتل بدم بارد، ففي فيلم "الأحد الأسود/1970 من إخراج الصهيوني جون فرائكين هايمر ألصق المخرج صفات الوحشية والتطرف بالشخصية العربية، وترسخت هذه الصورة غير الموضوعية في بداية التسعينيات في العديد من الأفلام السينمائية الأمريكية التي تعمل مباشرة على إظهاره على أنه إنسان سيء وشرير وإرهابي (بشاري، 2004، صفحة 139)،ومن الأمثلة الواضحة على ذلك:

- فيلم "أكاذيب حقيقية (1994م) الذي يصور فيه المخرج جيمس كاميرون المسلم على أنه إرهابي يشكل تهديدا لهجوم نووي قد يصيب العديد من المدن الأمريكية. كما يحكي لنا فيلم /1995م للمخرج ستيوارت بايرد قصة العربي المسلم الفاقد للإنسانية بتفجيره نفسه وتبنيه للعمليات الاستشهادية أو الانتحارية كما يصفونها كسبيل للنضال وغيرها العديد من الأفلام (بشاري، 2004، صفحة 139).

عرّضت هوليوود صورة العربي والمسلم للتشويه على مر التاريخ متناسية دورهم في إنعاش العلوم الأدبية والعلمية والفلسفية ونحوها متجاهلة إنجازاتهم العظيمة في مجالات كثيرة كالطب والجبر واختراع مبدأ الصفر والفلك ورسم خرائط النجوم والكون والجغرافيا واستخدم خطوط الطول والعرض والزراعة (اللاوندي، 2006، صفحة 157).

فساهمت هوليوود كأداة في يد المضطهد بطمس هذا التاريخ الإسلامي وتحريفه وتزويره؛ من خلال اختزال حياة الإنسان المسلم في سلوكيات همجية تخرج رجالها ونساءها بصورة سلبية؛ وتظهرهم على أنهم أصحاب ثروات وأموال عاجزون عن إدارتها بعقولهم الرجعية المتخلفة. وأنهم قاصرون عن تحصيل العلوم بأنواعها والإلمام بها، فلا يكتفي المستعير الظالم عادة بإخضاع الشعوب وإفراغها من كل مضمون؛ وإنما يسعى دائما لتشويه الحقائق التاريخية الراسخة للشعب المحتل والمضطهّد ويعمل على تزويرها (فانون، 2014، صفحة 170).

كما لجأت الأفلام السينمائية الأمريكية إلى تشويه الإسلام بربطه بعدة مصطلحات عنصرية سياسية، متحيزة؛ كالإرهاب والتعصب والتطرف والأصولية؛ ولم تفرق في اضطهادها ونقل صورها بين مسلم وعربي فكلهم أعداء للغرب وكلهم سواء، فظهر ذلك واضحا في فيلم "الحصار /1998م)؛ وفي فيلم "أنديانا جونز والحملة الأخيرة /1989؛ الذي جرد المسلمين من إنسانيتهم، ولم تكتف هوليوود بتجريد الإنسان المسلم وتهميشه؛ بل عملت كذلك بالتزامن مع الإعلام الغربي بشكل عام على إظهارهم بأنهم جماعة معادية للأديان، وأن الإسلام ديانة لا تؤمن بحرية الاعتقاد وحقوق الإنسان وأنها ضد العمل والإنتاج، وأنها انتشرت بحد السيف عن طريق الفتوحات الإسلامية التي اتخذت بنظرهم طابعا اقتصاديا استعماريا تحركها المصالح الشخصية لا الدينية، وبذلك؛ يرى الغرب أن الإسلام ديانة تعادي الحضارات الأخرى، وأن المسلمين منغلقون على أنفسهم وعلى تاريخهم وذواتهم (بوخطالة، صفحة 245).

كما لم تسلم قضية المرأة المسلمة كذلك من الصورة المنمطة والسلبية لها في الأفلام السينمائية؛ التي غالبا ما تكون صورا منقوصة لا تنسجم مع الواقع. ولم تهدأ الانتقادات حولها من قبل العديد من المثقفين والكتاب والإعلاميين. فذكر جاك شاهين أن النساء المسلمات لا يظهرن بإطلالة طبيعية مشرقة، فنادرا ما تظهر المرأة كأم ناجحة، أو طبيبة؛ أو كاتبة؛ أو صاحبة أعمال؛ أو مهندسة؛ أو متعلمة؛ أو مثقفة؛ أو داعية، أومصلحة، بل العكس تماما حيث عادة ما تظهر بصور منفرة وسلبية. فالمرأة بنظرهم هي ذلك الكائن الضعيف المغطى بعباءة سوداء ولا حول له ولا قوة؛ تسير خلف زوجها بصمت وخنوع (شاهين،

دت، صفحة 52)، ودورها يقتصر على الأعمال والهموم المنزلية والسعي وراء رضى زوجها لا أكثر وأن لا دور لها في المجتمع؛ ولا في العمل السياسي والثقافي فهي مسلوبة الحرية أمام الرجال الذين يحتكرون السيادة والقيادة.

وقد برز ذلك في فيلم "ليس من دون ابنتي /1990، إخراج براين جيابرت؛ المبني على قصة حقيقة لعائلة مكونة من أم أمريكية وأب إيراني وطفلة؛ يصطحبهما الأب من الولايات المتحدة الأمريكية إلى إيران؛ ويقرر بشكل مخادع أن لا تعود العائلة إلى أمريكا وأن تستفر في طهران، لتشهد الأم أمريكية الأصل مجتمعا خائقا بمعتقدات بدائية؛ وغير منطقية؛ وعنيفة؛ لا بد من اتباعها واحترامها ولا بد من الخضوع لها وتقبلهاء فتتعرض الزوجة هناك للتنكيل والإهمال والتجهيل والضرب والاعتداء من قبل زوجها المستبد كما هو حال كل نساء المجتمع في هذا الفيلم، فالتقليل من شأنهن وإقصائهن هو أمر روتيني تتعرض له المرأة المسلمة هناك (بوخطالة، صفحة 272)، ولم تقتصر الصور المغلوطة عن المرأة العربية والمسلمة على ذلك فقد ظهرت في العديد من أفلام هوليوود على أنها قصة تكشف جسدها لإرضاء الرجال وسحرهم أو أنها امرأة مغطاة بقطع سوداء لا يمكن لأحد أن يراها.

يرجع البعض -أمثال جاك شاهين- إلى أن أسباب استمرارية هذه الصور النمطية للمجتمع المسلم وصعوبة إمكانية مواجهتها تعود إلى عدة عوامل سياسية وإعلامية واقتصادية واجتماعية، فتعتبر هذه الصور من ضمن الحملات التي تشنها الأنظمة السياسية المعادية للإسلام والمسلمين. والتي تعمل على رسم استراتيجيات سياسية بإشاعتها ونقلها لصور بمضامين معادية. لذلك؛ تفتقر وسائلها الإعلامية بشكل عام إلى المصداقية والموضوعية والدقة في نقل الصور التي تتضاعف وتتدفق بشكل كبير ومتكرر كونها تشكل كذلك مشاريع اقتصادية ناجحة تعود على أصحابها بأرباح مادية طائلة (بوخطالة، صفحة 61).

فضلا عن غياب النقد السينمائي الفعال والنشط لكشف الأخطاء والإشكاليات حيال صورة المسلم والعربي، أو نتيجة لجهلهم ولامبالاتهم (بوخطالة، صفحة 61)، ويذكر كذلك جاك شاهين في كتابه المخادعون: العرب في وسائل الإعلام الأمريكية؛ أن استمرارية هذه الصور النمطية إلى وقتنا هذا تتوقف فقط على الإعلام الغربي وإنما يلعب الجهلة أو المتجاهلون من الإعلاميين العرب والمسلمين دور في ترسيخ هذه الصور وتفشيها (بودهان، 2013، صفحة 51).

كما يعتبر الاستسلام والعجز العربي من أهم العوامل المساهمة في استمرارية الصور النمطية للمسلم، وفي التأثير على الواقع السينمائي والتعامل مع مشاكله؛ وكما أن غياب دور المسلم الإيجابي الفعال والملحوظ عن الساحة السينمائية، لافتقاره للإمكانات والقدرات المادية والتقنية اللازمة لمنافسة الغرب؛ وتحقيق الإنجازات العظيمة في ذات المجال.

1. **صورة صلاح الدين الأيوبي في فيلم مملكة الجنة:**

1.2. **البطاقة التقنية للفيلم:**

- عنوان الفيلم: مملكة الجنة Kingdom of HEAVEN
- إخراج: ريدلي سكوت
- سيناريو: وليام موناهان
- ديكور: آرثر ماكس
- تصوير: جون ماثيوكس
- سنة العرض: 2005
- مدة العرض: 144 د
- البلد: أمريكا
- موقع التصوير: زرارات/ المغرب
- الطاقم التمثيلي: غسان مسعود، أورلاندو بلوم، إيفا غرين .



2.2.موضوع الفيلم: مملكة الجنة عمل سينمائي تضافرت فيه جهود هائلة لتقدم للمشاهد لوحة فنية مركّبة، إذ يغطي المدة الزمنية ما بين 1184 - 1187 م، وهي الفترة التي استردَّ فيها صلاح الدين مدينة القدس من الصليبيين، وأعاد سلطة المسلمين عليها وعلى مقدساتها. وهو كغيره من الأفلام الأميركيّة لا

يهدف إلى تناول شخصيّة صلاح الدين بحد ذاتها بقدر ما يهدف إلى تناول فترة زمنيّة محددة من تاريخ القرون الوسطى، من خلال شخصيّة **الحدّاد باليان** الابن غير الشرعي لأحد الأمراء الصليبيين.

"مملكة السماء" يؤدى فيه النجم البريطانى الشاب «أورلاندو بلوم» الدور الرئيس فى الفيلم وهو دور الفارس «باليان» الذى يقود جيوش الصليب فى القدس ضد الرمز الإسلامى الأشهر صلاح الدين الأيوبى، فيما يؤدى النجمان «جيرمى آيرونز» وَ «ليام نيسون» قادة مسيحيين فى القدس، ولعب النجم السورى «غسان مسعود» دور البطل المسلم صلاح الدين الأيوبى، بينما أوكل لـ «خالد النبوى» مهمة القيام بدور مستشار صلاح الدين (فؤاد، 2020).

تبدأ أحداث الفيلم في قرية فرنسية، حيث يحيط قساوسةٌ وشمامسةٌ بجثة **زوج باليان** المنتحرة حزنًا على موت ابنها ويقطع أحدهم رأسها لأنّها ماتت كافرة، ويسرق الصليب المعلق على عنقها ويطلب هذا القسيس السارق من باليان الرحيل إلى القدس، عله يكفر عن الذنب الذي اقترفته زوجّه بانتحارها ويبني باليان حواره مع القسيس الفاسد بقتله وإحراق محل الحدادة، ويلتحق باليان بمجموعة الفرسان التي يقودها أبوه، ويُقتل الأب ويرث اسمه وثرواته ولقبه، وينضم إلى جيوش الصليبيين ليدافع عن القدس، ويغدو بسرعة أحد أهم فرسان ملكها **بلدوين الر ابع** ويقود في ما بعد صليبيي القدس في الدفاع عنها عندما حاصرتها جيوش صلاح الدين التي سحقت الجيش الصلي بقيادة **زوج الملكة** المتطرف **جي دي لوسينيان.**

3.2.ثيمات الفيلم المركزية: يحاول الفيلم تقديم رسائل متعددة في اتجاهات مختلفة؛ تتجلى أولها في هز الصورة المثاليّة الي تكونت لدى الغرب عن أجدادهم الصليبيين. وذلك بمعالجة واقعهم وحياتهم في أوروبا وداخل القدس وإلقاء الضوء على الصراعات التي كانت تستعر فيما بينهم فيكشف عن فساد رجال الدين المسيحيين بمختلف مستوياهم اللاهوتيّة. وبدءاً ذلك من اللحظات الأول عندما يرينا القمنّ بصفته لصا حقيرًا يسرق صليبًا ذهبيًا من عنق المرأة المنتحرة، بل يكشف عن مدى همجيَّة الصليبيين ودمويتهم بعبارة واحدة على لسان أحد الفرسان: **((البابا يقول: قتل الكافر ليس خطيئة، إنه الطريق إلى الجنة)).**

كما يكشف على أن الكثيرين منهم لم يأتوا إلى القدس إِلَّا طلبا للمال ونهب الخيرات والثروات، خلافًا لادعاءاتهم عن نصرة المسيح والصليب، وتؤكّد ذلك عتبة الفيلم الأولى حيث يظهر على الشاشة نص يقول: **((بعد مئة عام من استيلاء الجيوش الصليبيّة على القدس. كانت أوروبا تردح في فقر متقع... وأصبح فيها السادة والفلاحون على حد سواء يسعون إلى الذهاب إلى الأراضي المقدّسة بحثًا عن الثروة والخلاص)).**

أمّا الثانية فتتمثل في الحث على التسامح والتعايش بين الأديان، والتبشير بالقيم الإنسانيّة العلياء والتأكيد على أنَّ مدينة القدس تميّل روح الإنسانيّة والمكان الأنسب لقيم التسامح والإخاء، لأنّها المدينة التي تتعايش فيها الأديان السماويّة الثلاثة، أمّا الشرور والبلايا فمصدرها هو التشدّد والتعصب: **((أنا لا**

أعوّل على الإيمان... فكل أعمال الدمار الجنونيّة التي يقوم بها المتعصبون توضع تحت إرادة الرب... لقد رأيت إيمانًا شديدًا في أعين كثيرين من القتلة)).

بينما الثالثة التي ما فتئ المخرج يؤكّدها في كلّ مشهد من مشاهد الفيلم وفي كلٍّ حدث من أحداثه في قدسيّة الإنسان ومركزيّته وأولويته في الكون خلاقًا للموروث الديني الذي يذهب إلى أنَّ الإنسان في هذه الدنيا مجرد عابرٍ. عليه العمل لدار الخلود، وكي يعزّز هذه المقولة إلى الحدد الاقصى. فإنه يجعلها رسالة "باليان" الأولى والأهم من أيّ رسالة، ويجعل صلاح الدين متفقًا معه حولها في مجمل وقائع الفيلم، ويعبّر باليان عن هذه الرسالة بدقة أثناء مخاطبته حشود المدافعين عن المدينة بقوله: ((ما هي أورشليم؟ إنَ أماكنكم المقدّسة قد بُنِيت فوق المعبد اليهودي الذي هدمه الرومان، وأماكن عبادة المسلمين تقبع فوق أماكنكم، أيّها أكثر قداسةً؟ الحائط أم المسجد أم القبر؟ من يمتلك حقّ المطالبة؟ لا أحد. نحن ندافع عن هذه المدينة لا لنحمي هذه الأحجار، ولكن لنحمي الناس الذين يعيشون بين جدرانها)).

بينما الرسالة الرابعة ذات المغزى الكبير بالنسبة للمسلمين والعرب، فتتجلى بكثرة الإشارات الإيجابيّة نحوهم، حتى إننا نكاد لا نجد فيه أيّة إشارة سلبيّة إليهم، إلا إذا انطلقنا من تأويل ينطوي على شططٍ وتفسير يقرأ خارج السطور. في حين تكثر الإشارات السلبيّة إلى الصليبيين الذين يصورهم الفيلم همجًا برابرةً متوحشين قذرين، معتمدًا في إبراز ذلك على الحوارات الصريحة تارة. وعلى التلميحات واللقطات الخاطفة تارة أخرى؛ ففي جزءٍ من ثانية، تلتقط الكاميرا حركة فارس صليبيّ يمسح بقايا الطعام عن فمه بخصلة شعره المتدلية. لتعبّر عن مدى قذارة الأوروبيين وعن البون الشاسع الذي يفصلهم عن نظافة المسلمين.

ومنه نلحظ كيف يظهر سلطان المسلمين في الفيلم قائدًا محنكًا هادئًا متزنًا وفارسًا نبيلًا صادقًا. بل إنَّ بعض ملامحه تبدو أقرب إلى الخياليّة، ففي اللحظة الأولى لظهوره في مسرح أحداث الفيلم، نراه واقفًا ومن خلفه جيش جرّارء تكشف الكاميرا عن طليعته دون نهايته، وليس في هذا الأمر ما هو استثنائي. أمّا الاستثنائي فهو أنْ يوقف صلاح الدين الجيش بإشارة من يده، وينطلق بمفرده إلى معسكر الصليبيين. ليفاوض ملكهم المريض وسرعان ما يتفقان على ضرورة إحلال السلام، وينتهي اللقاء بينهما بقول صلاح الدين: ((سوف أرسل لك أطبائي))، وبعدها بثوان قليلة يظهر صلاح الدين، وهو يبكي بخشوع قتلى المسلمين الذين غدر بهم الصليبيُّون قبل ذلك.



يبدو **القائد صلاح الدين** هنا رجلًا حكيمًا حليمًا لا يأخذه الغضب والرغبة بالانتقام؛ ولا يدفعه جبروت جيشه إلى الصلف والغرور، بل يتحكم بتصرفاته عقلّه الرصين، وتسوس قراراته أخلاقه الرفيعة التي تأبى إراقة الدماء وتترفع عن الأذى (مرتضى، 2019، الصفحات 25-27).



وهناك من سيقرأ المشهدّ بصورة مختلفة، فيرى أنَّ الفيلم قدّم صلاح الدين قائدًا متخاذلًا، يقبل بالسلام مع ملك القدس الصليبيّ على الرغم من استطاعته أخذ القدس بالقوة، وفي مثل هذه الحالة تكون السينما الغربيّة قد شوهت صورة صلاح الدين فعليًا، إذ يحاصر صلاح الدين بجيشه الجرّار القدس، ويحاول اقتحام أسوارها عنوةً، ويوظّف المخرج والمصورون الكاميرات بطرائق إبداعيّة تكشفُ عن مخيلات مهمة، لتظهر عمليات عسكريّة هائلة تشارك فيها مجاميع بشريّة بالآلاف، وآليات ضخمة مخيفة، وخيول لا تعد ولا تحصى... ويُضطر باليان تحت الضغط الحربيّ للتفاوض، لكنّه يفاجأ بشروط الصلح التي يعرضها صلاح الدين والتي تكشف عن فروسيّة ونبل لا مثيل لهما:

- باليان: سوف أحرقها وأقتل كلّ من فيها قبل أن أفعل ذلك، أدمر جميع المقدسات الخاصة بكم وبنا... ماهي شروطك؟

- صلاح الدين: أنا أضمن السلامة لكل روح كي تخرج إلى أيّ بلد مسيحيّ... النساء والأطفال والجنود والفرسان والملكة، ولن يُؤْذَى أي شخص منكم، أقسم بالله.

- باليان: لقد قتل المسيحيون جميع المسلمين، عندما أخذوا منكم تلك المدينة؟

- صلاح الدين: أنا لست مثلهم!! أنا صلاح الدين.

لقد نجح سكوت في إيصال جميع رسائله الفكريّة كما نجح باحترافيّة عالية في توظيف الإمكانات البشريّة والفنيّة والتقنيّة الهائلة توظيفًا مثاليًّا. فقدّم بذلك واحدًا من روائع السينما الأميركيَّة الحديثة.

أمّا شخصية صلاح الدين الأيوبيّ في الفيلم لم تكن الشخصيّة المركزية إذ لم يأت ذكره إلّا في السياق التاريخيّ الذي لا يمكن تجاهله، لكنَّ صورته لم تكن واقعية صادقةً فقط بل كانت منحازة إلى المسلمين، وإلّا ما معنى أن يموت ملوك الصليبيين عطشًا معفري الوجوه بالتراب، ويظهر صلاح الدين نظيفا جميلًا أنيقًا وهو يتناول الماء القراح المثلج... وما معنى أن تتسامح وأنت القويُّ المنتصر؟ وما معنى أن ترسل أطباءك ليعالجوا عدوّك من المرض؟ أليس في ذلك النبل عينه والفروسيَّة ذاتها؟

خاتمة:

كانت الخاتمة موضع رصد النتائج، نستنتج جملة من الخلاصات المعرفية والنتائج العلمية التي أدركها البحث واطمأن إليها، وهي كمايلي:

- إنَّ السينما وهي خلاصة الفنون مجتمعة لها استطاعة كبيرة على تكوين الأراء والقناعات وتوجيهها، كما يمكنها أن تروّج لتصورات ملتبسة وأفكار مشبوهة، لكنٌ قناعتنا بأنّها لا تفعل غير ذلك يحرمنا أولًا وقبل كل شيء من المتعة والجمال واللذة.
- ينبغي على النقد السينمائي الصورولوجي أن يسمو على القناعات المُسبقة الجامدة والمنغلقة. وأن يتخلى عن القوالب السلبيّة الجاهزة، كي يصحح انحرافاته، وينحو نحو سكّة الفن والجمال والآفاق المتحررة.
- رأى الفيلم أن الدين وسيلة لإسكات الشعوب وتخدير الأذهان.
- عمل صانع الفيلم على تعزيز فكرة أن القدس مهد الحضارات وموطن الأديان الثلاثة وليس الإسلام فحسب.
- أثبت الفيلم أن الأشخاص الناضجين يتمردون على الدين وينسلخون من تعاليمه.
- حاكى الممثل العربي السوري غسان مسعود شخصية صلاح الدين بدور حكيم متزن وسمح وشخصية محكنة تتمتع بالشجاعة والذكاء والشهامة والحزم.

قائمة المراجع:

- إبراهيم أبو خلاطة(دت). *الغول الجديد، التربية الخاطئة للغرب.*
- أحمد دعدوش. (2011). *ضريبة هوليوود، ماذا يدفع العرب والمسلمون للظهور في الشاشات العالمية.* -دمشق: دار الفكر.
- باسم فؤاد. (4 مارس, 2020). كيف تناولت السينما الأمريكية شخصية صلاح الدين الأيوبى ؟
- جاك شاهين. (دت). *الصورة الشريرة للعرب في السينما الأمريكية.* القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- سعيد اللاوندي. (2006). *فوبيا الإسلام في الغرب.* القاهرى: دار أخبار اليوم.
- غسان مرتضى. (2019). صورة صلاح الدين بين السينما العربية والأمريكية. مركز حرمون *للدراسات المعاصرة* ، 25-27.
- فرانس فانون. (2014). *معذبو الأرض.* القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر.
- محمد بشاري. (2004). *صورة الإسلام في الإعلام الغربي.* دمشق: دار الفكر .
- يامن بودهان. (2013). *تحولات الإعلام المعاصر.* الأردن: دار اليازوري.

الخطاب العنصري ضد المسلمين من خلال تغطية وسائل الإعلام الغربية للحرب الروسية- الأوكرانية 2022- دراسة تحليلية لعينة من مضامين الفيديوهات المتداولة عبر مواقع التواصل الاجتماعي

Racist Discourse against Muslims through Western Media Coverage of the Russian-Ukrainian War 2022-

د. إلهام بوثلجي، جامعة لونيسي علي البليدة2- الجزائر
ilhamebouteldji@gmail.com



تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الخطاب العنصري ضد المسلمين من خلال تغطية وسائل الإعلام الغربية للحرب الروسية- الأوكرانية، التي اندلعت بتاريخ 24 فبراير 2022، وكشفت في أيامها الأولى عن ازدواجية الخطاب الذي تبنته وسائل الإعلام الغربية ولاسيما في الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا في التعامل مع اللاجئين الأوكرانيين من جهة، أو من خلال محاولة إقحام المسلمين من العراق واليمن وسوريا... في تغطية تطورات الأحداث بعد القصف الروسي على أوكرانيا.

واستعنا بتحليل الخطاب لمضامين الفيديوهات المتداولة للتغطيات الإعلامية عبر عدة قنوات على غرار شبكة الأخبار الأمريكية CBS News وقناة BBC News البريطانية، وقناة (BFM) **الفرنسية**، للإجابة على إشكالية الدراسة المتمحورة حول: ماهي أشكال الخطاب العنصري ضد المسلمين من خلال تغطية وسائل الإعلام الغربية للحرب الأوكرانية-الروسية سنة 2022؟

الكلمات المفتاحية: الخطاب العنصري، تغطية وسائل الإعلام الغربية، الحرب الروسية- الأوكرانية.

Abstract:

This study aims to shed light on the racist discourse against Muslims through Western media coverage of the Russian-Ukrainian war, which erupted on February 24, 2022, and revealed in its early days the duplicity of discourse adopted by Western media, especially in the United States of America and European countries in dealing With the Ukrainian refugees on the one hand, or by trying to involve Muslims from Iraq, Yemen and Syria in covering the developments of events after the Russian bombing of Ukraine.

We used the discourse analysis of the contents of the videos circulated for media coverage through several channels such as the American news network CBS News, the British BBC News channel and the French channel (BFM), to answer the problem of the study centered on: What are the forms of racist discourse against Muslims through Western media coverage of the Ukrainian-Russian war year 2022?

Keywords: racist discourse, Western media coverage, Russian-Ukrainian war.



مقدمة:

لطالما ارتبطت وسائل الإعلام منذ نشأتها في العشرينيات من القرن الماضي بالدعاية وتوجيه الرأي العام، وما عزز ذلك أكثر كان استغلالها في الحرب العالمية الثانية بشكل كبير، وبعدها الحرب الباردة وغيرها من الحروب والصراعات على مر السنين، ومنها الحروب في العراق واليمن وسوريا وتغطية مستجدات الاحتلال الصهيوني لأرض المقدس، إذ انتبهت الحكومات لأهمية وسائل الإعلام وتأثيرها على الجمهور، وكون أن الإعلام سلاح قوي للتأثير على الرأي العام، وفعال في تحديد مسار الحروب التي أضحت إعلامية بامتياز ولا سيما بعد التطور الحاصل في تقنيات البث ووسائل الإعلام والاتصال.

ومع التطور الهائل الذي عرفته وسائل الإعلام والاتصال وانتشار الإعلام الرقمي ووسائل التواصل الاجتماعي التي كسرت القيود، وقربت المسافات، والتغييرات التي ألقت بظلالها على الممارسة الإعلامية في فترة الصراعات والحروب، برزت للوجود معايير مهنية خاصة وتقاليد تم توظيفها في ما يعرف بحروب الجيل الخامس، إذ عادت الدعاية لتبرز من جديد ضمن وسائل الإعلام، خاصة بعدما أعادت الدول المتحكمة في أقوى وسائل التواصل الاجتماعي "فيسبوك، تويتر، إنستغرام..." إحكام قبضتها عليها لتصبح أداة لنشر مخططاتها وتوجهاتها تحت غطاء "الحرية" التي كانت سمة لانطلاق هذه الأخيرة قبل أن تتحول لحرية زائفة تستخدم لصالح طرف دون آخر، لاسيما عندما يتعلق الأمر بالمسلمين.

وبالموازاة مع ذلك، أعادت الحرب الأوكرانية- الروسية التي اندلعت بتاريخ 24 فبراير 2022 الحديث من جديد عن معايير التغطية الإعلامية للحروب والصراعات، وكشفت عن ازدواجية الخطاب وانفصام في شخصية الصحفيين الذين سبق وأن غطوا مختلف الصراعات والحروب في المنطقة العربية والإسلامية، إذ بدا التحيز للطرف الأوكراني ظاهرا مع أول أيام الحرب، فضلا عن بروز خطاب عنصري ضد الإسلام والمسلمين من خلال تغطية الحرب الأوكرانية-الروسية بعيدا عن أخلاقيات المهنة والأعراف والتقاليد التي تنص عليها مواثيق وقوانين ممارسة الإعلام، والتي لطالما كان يتغنى بها الإعلام الغربي في تغطيته للحرب في اليمن والعراق وسوريا وأفغانستان ...

ففي مقال نشره الصحفي "يوجين روبنس" بواشنطن بوست يوم 14 مارس 2022 عن التغطية "الحميمة والصريحة والدموية للغاية" خلال الاجتياح الروسي لأوكرانيا، تساءل: "هل يعود ذلك إلى الإمكانات التي منحتنا إياها الثورة التقنية؛ كالبث المباشر وتقنيات التصوير والتوثيق، أم أن هناك أشياء أخرى تتصل بالانتماءات والتحيزات لوسائل الإعلام في تغطيتها الخبرية؟." وأعطى روبنسون أمثلةً من سورية واليمن، مشيراً إلى أنّ "الحرب في اليمن تدخل الآن عامها الثامن، وقد كانت وحشية في كل شيء، كما أن الحرب في سورية هي أكثر دموية، واستُخدمت فيها أسلحة كيميائية، ولكن في كل مراحل هذه الحروب وغيرها من الصراعات، لم تعرض للمشاهد الغربي مثل هذه الصور الأولية والفورية للضحايا" (داود، 2022).

فالحرب الأوكرانية- الروسية كشفت بأن سمة "الموضوعية" التي ينبغي أن تتسم بها وسائل الإعلام هي مجرد معيار فضفاض يمكن استخدامه وفقا للانتماءات والمعتقدات والرؤى التي تناسب الصحفيين وبلدانهم، حتى يلائم ضحايا معينين وتغييبه عن ضحايا آخرين، فلم يعد الانحياز والتعاطف "عيبا" في التغطيات الإعلامية مثلما كان يوصف به مراسلو الحروب في المناطق العربية والإسلامية، وهو ما بينته تغطية قنوات عالمية للحرب الأوكرانية الروسية والتعاطف مع الضحايا الأوكرانيين عن طريق استخدام ألفاظ عنصرية ضد اللاجئين في العراق وسوريا واليمن.

وبناء على ذلك، سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على الخطاب العنصري ضد المسلمين من خلال تغطية وسائل الإعلام الغربية للحرب الأوكرانية- الروسية، وهذا بالاستعانة بمقاربة الباحث" فان دايك" لتحليل الخطاب الإخباري لمضامين الفيديوهات المتداولة عبر وسائل التواصل الاجتماعي للتغطية الإعلامية للحرب الروسية الأوكرانية عبر عدة قنوات أجنبية على غرار شبكة الأخبار الأمريكية CBS News وقناةBBC News البريطانية، وقناة (BFM) الفرنسية للإجابة على إشكالية الدراسة التي تتمحور حول: ماهي أشكال الخطاب العنصري ضد المسلمين من خلال تغطية وسائل الإعلام الغربية للحرب الأوكرانية-الروسية سنة 2022؟

وتتفرع هذه الإشكالية للتساؤلات التالية:

- ماهي العبارات العنصرية التي تم استخدامها من قبل الفاعلين في تغطية الحرب الروسية-الأوكرانية؟
- ما هو المستوى الدلالي للخطاب المروج له من قبل وسائل الإعلام الغربية؟

أولا- مقاربة مفاهيمية:

1.تعريف الخطاب الإعلامي: قبل التطرق لمفهوم الخطاب الإعلامي ينبغي أولا تقديم تعريف للخطاب ومدلوله اللغوي، الذي انعكس على استعمالاته في عدة ميادين على سبيل المثال: الخطاب السياسي، الخطاب الإعلامي، الخطاب الديني، الخطاب التاريخي...

1.1تعريف الخطاب: في اللغة العربية الفصحى يشير معنى "خطاب" إلى توجيه الكلام نحو الآخرين بقصد الإفهام، بالإضافة إلى معنى ثانوي وهو المراجعة في الكلام، وتختلف هذه المراجعة عن الحوار والمحادثة العادية في كونها مراجعة ذات هيئة مخصوصة تقوم على الحجاج بين طرفين في قضية، ومن ثم فالخطاب هو الحوار أو المحادثة حين تصبح في شكل حجاجي وهذا هو المعنى المعجمي الذي يحوي الصيغة الأولية للخطاب. (الكريم، 2016،ص 104).

وفي معجم "أكسفورد" المختصر للسانيات يعرف الخطاب بأنه: "أي انسجام بين سلسلة متوالية من الجمل المتكلمة أو في أغلب الاستعمالات المكتوبة... وفي الغالب يكون مرادفا للنص، وهو بذلك يستعمل كنمط أو أسلوب لغوي، ويمكن لأي موضوع أن يصبح واقعا تحت تحليل الخطاب كطريقة الكلام والاعتقاد والممارسة يمكن أن تدخل ضمن مصطلح الخطاب".(Matthews, 2007,p107)

ويورد الباحثان "Ruth"و"Michal" تعريفا للخطاب على أساس أنه:"حدث لغوي يكون مكتوبا ومحسوسا أو اتصالا شفهيا، لفظيا أو غير لفظي يتم بواسطة فاعل اجتماعي في وضع خاص محدد عن طريق القواعد الاجتماعية والأنساق والاتفاقيات".(Krzyzanowski, 2008, pp4-5) .

أما "فوكو" فيقدم تعريفا للخطاب كالتالي: "هو مجموع الممارسات التي تنتظم من الموضوعات التي يتحدث بها." وذلك يشمل مجموعات المعاني والاستعارات والعروض والصور والقصص والأخبار. (الكريم، 2016، ص 108).

2.1. الخطاب الإعلامي:

ارتبط تطور مفهوم الخطاب ببروز وسائل الإعلام المختلفة وتطورها، فهو يعني: " كلمة مكتوبة تلقى من فرد نحو مجموعة من الناس بواسطة وسائل الإعلام (إذاعة، تلفاز) تحوي تعليمات وأوامر أو بيان لمسألة ما، وقد يكون ذلك الخطاب مكتوبا منقولا بواسطة وسائل الإعلام المكتوبة على غرار الصحافة، وكالات الأنباء". (الكريم، 2016، ص105)

ويعرفه باحثون آخرون بأنه مزيج من الرسائل اللسانية والجانب الأيقوني، ويعتبر خطابا بصريا كذلك يتم إدراكه وتلقيه بواسطة حاسة البصر. (كاتب، 2020).

وفي تعريف آخر هو: "مجموع الأنشطة الإعلامية التواصلية الجماهيرية: التقارير الإخبارية، الافتتاحيات، البرامج التلفزيونية، المواد الإذاعية، وغيرها من الخطابات النوعية". (Matthews، 2007).

ويمكن تعريف الخطاب الإعلامي على أنه منتوج لغوي إخباري متنوع في إطار بنية اجتماعية –ثقافي "socioculturelle" محددة، وهو شكل من أشكال التواصل الفعالة في المجتمع، له قدرة كبيرة على التأثير في المتلقي، وإعادة تشكيل وعيه ورسم رؤاه المستقبلية، وبلورة رأيه بحسب الوسائط التقنية التي يستعملها والمرتكزات المعرفية التي يصدر عنها. (أبرير، 2008، ص92).

ويرى بسام مشاقبة أن الخطاب الإعلامي: "هو الذي يهدف إلى الإخبار عن الحوداث بهدف التأثير في اتجاهات القراء والمستمعين والمشاهدين وتوجيههم في اتجاه خاص بكيفية الخبر والاعلام وصياغته وإلى الهدف الرئيسي للإعلام". (المشاقبة، 2014، ص 117)

1. **تعريف الخطاب العنصري:** للإلمام بمفهوم الخطاب العنصري أو مصطلح "العنصرية" ينبغي أولا تقديم مفهوم خطاب الكراهية باعتباره الأشمل ويتضمن فعل التميز والعنصرية الممارسة في الواقع، وحتى عبر وسائل الإعلام وخاصة الرقمية ووسائل التواصل الاجتماعي لكونها الأكثر انتشارا وتأثيرا.

2.1. خطاب الكراهية: هو الخطاب الذي يحض على الكراهية، وهو فعل يعبر عن الكراهية تجاه الناس أو يحرض عليها على أساس بعض جوانب هويتهم. (hate-speech،2019)

ويعرف بأنه الخطاب الذي يحث على الكراهية عن طريق كلام أو كتابة أو سلوك أو نص أو تعليق يهاجم أو يستخدم لغة ازدراء أو تمييزية تجاه شخص أو مجموعة على أساس هويتهم، قد يعتمد على دينهم أو أصلهم العرقي أو جنسيتهم أو ثقافتهم أو لونهم أو أسلافهم أو طبقتهم أو جنسهم أو جنسهم أو عوامل الهوية الأخرى. (hate-speech، 2019).

ويشير باحثون آخرون إلى أن الكراهية هي كل خطاب مبني على العنف اللفظي، يهدف إلى القتل المعنوي للآخر وإقصائه من خلال الشتم والسب والقذف والإهانة والتعصب الفكري والاستعلاء، وصولا إلى العنف المادي والقتل، ويشكل خطاب الكراهية أداة مهمة لتحفيز المشاعر وإثارتها وتوجيهها في اتجاه معين، بما ينشأ عنه من سلوك وثقافة مبنية على العنصرية ضد من وُجه الخطاب ضدهم، ومن هنا تكمن خطورة هذا الخطاب، خاصة إذا توافرت منصات إعلامية مهيأة لهذا النوع. (مبارك، 2021، ص 115).

2.2. **الخطاب العنصري:** يتجلى الخطاب العنصري في عدة أشكال منها التمييز على أساس العرق والدين والاختلافات الجسمانية، وغيرها من العوامل التي تدخل ضمن ازدراء الآخر والانتقاص منه.

ويمكن القول إن الخطاب العنصري هو تعبير مشحون بالحقد والضغينة والاحتقار، موجه إلى جماعة من الأفراد المختلفة بسبب الدين أو العرق أو الجنس، يهدف إلى الانتقاص من حقوقهم وكرامتهم مما يغذي روح الكراهية والعنف تجاه الآخر. (قارة، 2020، ص360)

وفي قاموس "Merriam Webster" تلفت إلى أن العنصرية والتمييز العنصري هي كلمات من أصل حديث، وتشير إلى المعاملة غير العادلة لأشخاص من جنس معين في مجتمع ما لصالح أفراد من عرق آخر، أو الاعتقاد بأن أعراق معينة من الناس أسمى من غيرها، على أساس أن العرق هو محدد أساسي لسمات وقدرات الإنسان وأن الاختلافات العرقية تنتج تفوقًا متأصلًا لعرق معين(Webster, 1982).

ويورد الموقع الرسمي للأمم المتحدة بأنه في عام 1965، اعتمد المجتمع الدَّوْليّ الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري، التي التزم بموجبها بالقضاء على كافة أشكال التمييز العنصري.

ثانيا-الخطاب العنصري ضد المسلمين... الوجه الآخر لظاهرة الإسلاموفوبيا:

1.العنصرية ضد المسلمين...البدايات والجذور: لا يختلف اثنان في كون العنصرية لطالما ارتبطت بالعرق والانتماء بين البشر في مختلف الثقافات وخاصة بين ذوي البشرة البيضاء والسوداء، إلا أن ارتباطها بالتمييز الديني جعل منها ظاهرة ما فتئت تتمدد يوما بعد وتتغذى عن طريق "البروباغندا" التي تمارسها وسائل الإعلام ليطلق عليها تسمية" الإسلاموفوبيا"باعتبارها أشمل وأوسع، إذ تبنى بالأساس على خطاب العنصرية ومعاداة المسلمين ووصفهم بالإرهاب وغيرها من الأوصاف.

وبالرغم من كون ظاهرة العداء للمسلمين والإسلام تعود للقرون الوسطى ولفترة الحروب الصليبية إلا أن جل الدراسات والأبحاث تشير إلى أن أحداث 11 سبتمبر 2001 كانت المحرك الرئيسي للإسلاموفوبيا، وجلبت معها توصيفا جديدًا للإسلام والمسلمين، كالسلبية والضرر، وهو ما كرس نوعا جديدا من التمييز والعنصرية. (قايا، 2016، ص12).

وهذا الوضع الذي سمّاه هانس كوتشلر "معضلة التعددية الثقافية" يبين كذلك التناقض بين المثالية والعملية، ويضعه للعيان، فهو من ناحية يدعو الغرب إلى إيجاد سياساتٍ متنوعةِ الثقافات، ومن ناحيةٍ أخرى يدعو إلى سياساتٍ لإقصاء المسلمين من أوربا،كما أن الهجمات التي حدثت في لندن عام 2005

كانت سببًا في اندلاع مناقشات حول التنوع الثقافي في بريطانيا، وهذا الوضع الذي سُمِّي بأزمة التنوع الثقافي؛ وصفه كريس ألن بأنه "بيان الإسلاموفوبيا" المخفَّف، وأعرب عن ظهور خطاب موازٍ لذلك البيان مفعم بالكراهية ضد الإسلام والمسلمين. (قايا،2016،ص 13)

ويشير الباحث كمال سيد قادر إلى أن التمييز العنصري ضد المسلمين اشتد في الغرب بعد أحداث 11سبتمبر2001، إلى درجة أصبحت الرموز الإسلامية كالحجاب واللحى رمزا للإرهاب التطرف، وينظر إليها كمصدر للتهديد من قبل أكثرية سكان الدول الغربية، حيث أن ظاهرة التمييز العنصري ضد المسلمين في أماكن العمل والتعليم وحتى الأماكن العامة أصبح أمرا مألوفا، مما يشكل عائقا كبيرا أمام الحياة العادية للإنسان المسلم في الغرب، بحيث يشعر أنه شخص غير مرغوب فيه، وشبه منعزل عن المجتمع الذي عليه أن يعيش فيه وحتى ولو ولد وترعرع فيه، والسبب هو الانتماء للدين الإسلامي. (قادر، 2005)

وهذا الوضع اضطر المقرر الخاص للأمم المتحدة حول العنصرية للاعتراف في مؤتمر المنظمة الأوروبية للأمن والتعاون التي تضم أمريكا وكندا في 2003 بأن المعاداة للإسلام أضحت التحدي الرئيسي للدول الأوروبية في ميدان التمييز العنصري بحيث ينظر للمسلمين في هذه الدول كأعداء في الداخل. (قادر، 2005)

وانتشرت الظاهرة بقوة خلال العشرية الأخيرة، فأضحت صفة الإرهاب لصيقة بالمسلمين مع أي اعتداء يحصل في أي دولة غربية في العالم، كما لم يسلم المسلمون من كل الجنسيات من العنصرية في أماكن العمل والشوارع، وما زاد من حدة التمييز والعنصرية اتجاهات التغطية الإعلامية للحروب والصراعات في عدة دول مثل أفغانستان والعراق، ومنح شرعية للتدخلات الأمريكية تحت غطاء محاربة الإرهاب، وغيرها من التطورات، وازداد مستوى الخطاب العنصري حدة بعد الهجمات التي وقعت في باريس بتاريخ 13 نوفمبر/تشرين الأول 2015.

ما استدعى فتح حوار معمق حول ظاهرة" الإسلاموفوبيا" من أجل محاربتها كما قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 2022 بالإجماع الموافقة على اقتراح باكستان لجعل 15 مارس/آذار يوما سنويا لمكافحة الإسلاموفوبيا. ويدعو النص غير الملزم إلى "تعزيز الجهود الدولية لتشجيع حوار عالمي بشأن تعزيز ثقافة التسامح والسلام على جميع المستويات على أساس احترام حقوق الإنسان وتنوع الأديان والمعتقدات." كذلك، يعبر القرار عن "الأسف الشديد لجميع أعمال العنف ضد الأشخاص على أساس دينهم أو معتقداتهم والأفعال الموجهة ضد أماكن عبادتهم وكذلك كل الاعتداءات على الأماكن والمواقع والمزارات الدينية وفي داخلها، التي تشكل انتهاكًا للقانون الدولي." (فرانس24/ أ ف ب، 2022)

2.الخطاب العنصري ضد المسلمين عبر وسائل الإعلام الغربية:

تنامت ظاهرة التمييز العنصري ضد المسلمين خلال السنوات الأخيرة وخاصة عبر وسائل الإعلام الغربية، هذه الأخيرة أدت دورا سلبيًّا في تشكيل بعض الصّور الذهنيّة عن العرب والمسلمين، وتعزيز نظرة الاحتقار والازدراء اتجاه الإسلام والمسلمين، فوسائل الإعلام الغربيّة خاصة الأمريكية والفرنسية قد

شكلت عديد الصور التي تفوح منها العنصرية والكراهية، لاسيما بعد حادثة 11 سبتمبر 2001 والتي لا تزال صورتها مشكلّة في أذهان المجتمعات الغربيّة حول أنّ الإسلام والمسلمين هما مصدرَا الإرهاب والذّعر والعنف في العالم. (غشير، 2017)

ويلفت إدوار سعيد في دراسته تحت عنوان" تغطية الإسلام" بأن الإعلام يشكّل أهم الوسائل المؤثّرة في الترويج للمواقف التمييزية والخطاب العنصري وتحويلها إلى أمر اعتيادي، حيث تناول موضوع التمثيل الإعلامي السلبي للإسلام والمسلمين بصورة ملموسة في سياق الثورة الإسلامية الإيرانية، فعند السؤال عن معنى كلمة إسلام لدى الغرب نجدها تعني: الإرهابيون، المسلحون، المتعصبون، أصحاب اللحى الذين يسعون لإلحاق الضرر بعدوهم الرئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وبذلك يعرض أسطورة المسلم التي شكلها الإعلام في الغرب بصورة ملموسة على الصعيد الاجتماعي. (ألاطلي، 2000، ص 23)

ويرى باحثون آخرون أن الحقيقة المصنعة التي ينتجها الإعلام تشكّل ضاغطًا أكبر من الحقيقة الموجودة على أرض الواقع، فالتوصل إلى نتيجةٍ خاطئةٍ عن المسلمين والحكم عليهم انطلاقًا من هذه النتيجة هو التمييز المزدوج، وموضوع التمثيل الإعلامي للإسلام والمسلمين الذي شكل في الآونة الأخيرة الأدبيات بشكل فعلي، يؤيد الجانب السلبي للخطاب والصورة المتعلقة بالمسلمين في وسائل الإعلام الرئيسة الغربية. (قايا، 2016، ص 14)

وتقدم الدراسة التي تقارن بين الخطاب الصحفي قبل 11 سبمتبر 2001 وبعده بعض العبارات التي تؤكّد مزاعم تجريم المسلمين، مثل عبارات الأصولية الإسلامية والتطرف الإسلامي والتشدد الإسلامي. (قايا، 2016، ص14)

فقد كرّست وسائل الإعلام الصّورة النّمطيّة عن العلاقة الوطيدة بين الإسلام والإرهاب، وبأنّ المسلمين سبب نشوء ظاهرة الإرهاب في العالم، حيث تشكلّت هذه الصّورة في أذهان الناس منذ أحداث 11 سبتمبر، وامتدّت هذه الحادثة واستفحلت أكثر خاصّة بعد حدوث عديد الهجمات الإرهابيّة في العالم، وآخرها الهجوم الإرهابي على جريدة "شارل إيبدو" الفرنسيّة ومخلفاته. (غشير، 2017)

نظرا لقوة تأثير وسائل الإعلام ودورها الكبير في تشكيل الصور الذهنية والنمطية، وزرع خطاب الكراهية والعنصرية فقد استثمرها الغرب في تشكيل صور نمطية للعرب والمسلمين، حيث ترسم لهم في وسائل الإعلام الغربية من أفلام سينمائية؛ ورسوم كارتونية وصور متحركة صورا نمطية متحيزة وغير منصفة، وتروج في صور حملات إعلامية ويتعرض لها ملايين من الناس في وقت واحد تقريبا، فيتأثرون بها ويتلقفونها بينهم، وترسخ في عقولهم جميعا فتتكون ثقافة جمعية تعادي المسلمين والإسلام بصورة خاصة. (جفافلة، 2020، ص62)

ثالثا: الخطاب العنصري ضد المسلمين من خلال التغطية الإعلامية للحرب الروسية- الأوكرانية:

1. الحرب الروسية- الأوكرانية الخلفيات والأسباب:

اندلعت الحرب بين روسيا وأوكرانيا في 24 شباط/فبراير 2022، بعد ثماني سنوات من انطلاق أولى شرارات النزاع في أوكرانيا وتحديدًا في شبه جزيرة القرم وفي إقليم دونباس في عام 2014، (فرانس24،

2022) وفيما يعتبرها الطرف الروسي تحريرا لمدينة "كييف" يصفها الحلف الأطلسي بالغزو الروسي على أوكرانيا.

وتاريخيا بالرغم من دخول أوكرانيا في رابطة الدول المستقلة منذ 1991، فقد كانت النزعة فيها للتقارب مع الغرب قوية، وهذا ما كان يثير حفيظة روسيا، فوقعت أوكرانيا بذلك في حالة من التنافس الغربي الروسي، صار كل طرف فيه يسعى لاستمالتها إلى صفه، ويدعم أنصاره فيها للسيطرة على مراكز اتخاذ القرار فيها. (عامر، 2022) وفي عام 2017، صادق البرلمان الأوكراني على طلب موجه إلى حلف الناتو لبدء إجراءات الانضمام الفوري، وأعلن بعدها قبول الناتو ببدء المشاورات، ثم اتخذت، في فبراير 2019، تعديلات دستورية تؤكد تمسّك أوكرانيا بسياسة الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي والناتو. (عامر، 2022) وفي فبراير 2022، أعاد الرئيس الأوكراني الحالي فولوديمير زيلينسكي تأكيد نية أوكرانيا في الانضمام إلى الناتو، وهو ما رفضته روسيا.

فبعد أسبوع من دخول روسيا لأوكرانيا في 24 فبراير/ شباط 2022 جرى تصويت في الأمم المتحدة على قرار يدين الغزو الروسي وصوتت لصالح القرار 141 دولة من أصل 193 دولة عضو في الأمم المتحدة لصالح القرار. لكن عددا من الدول الكبرى اختارت الامتناع عن التصويت بما في ذلك الصين والهند وجنوب إفريقيا. (غاردنز، 2022)

2.التغطية الإعلامية للحرب الروسية- الأوكر انية:

1.2.منهج الدراسة: سنعتمد على المنهج الوصفي التحليلي باستخدام أسلوب تحليل الخطاب باعتباره المنهجية المناسبة والملائمة للدراسات الكيفية ولتحليل الخطاب الإعلامي في فترة اندلاع الحرب الروسية-الأوكرانية، لأن التحليل النقدي للخطاب يسعى دائما إلى إظهار علاقات السلطة والهيمنة التي يتم غالبًا تعتيمها أو إخفاؤها. (العلي،2014،ص30)كما تهتم دراسات الخطاب النقدية بشكل عام بالدراسة النقدية للقضايا الاجتماعية والمشكلات الناتجة من عدم المساواة الاجتماعية، وظواهر الهيمنة والتمييز والكراهية ... وبشكل خاص دور الخطاب واللغة المستعملة، والتواصل في مثل هذه الظواهر. (العلي،2014، ص31).

2.2. مقاربة الدراسة وعينتها: سنستعين في دراستنا هذه بمقاربة تحليل الخطاب للعالم الهولندي "توين فان دايك" الخاصة بتحليل الأخبار، إذ قدم على مدار سنوات نموذجًا متكاملًا لتحليل الأخبار، يتكون من قسمين رئيسين: الأول البنى الكلية (ماكرو)، والثاني البنى الجزئية (مايكرو). (جبارة، 2012، ص455).

وتنقسم البنى الكلية إلى مستويين: الأول البنيات الكلية الموضوعية، والثاني البنيات الفوقية التخطيطية (الشكلية)، تهتم البنى الموضوعية بالدلالات الكلية والشاملة لقضايا الأخبار، ويقوم فيها فان دايك بتلخيص أهم موضوعات وقضايا الخطاب الخبري، وتعبر عنها في العادة بشكل سريع ومركز العناوين والمقدمات، أما البنى الفوقية التخطيطية فتُعَدّ معايير شكلية تنظم نصوص الأخبار بواسطة محتواها الموضوعي وفاعليها الرئيسين. (العلي، 2014).

وتتكون هذه البنى التخطيطية من جسمين رئيسين: الأول الملخّص وتعبّر عنه دائما العناوين ومقدّمات الأخبار، والجسم الثاني هو القصة الخبرية، وتحتوي القصة الخبرية بشكل أساسي على الأحداث الرئيسة والتعليقات عليها، وتتفرع عن هذه المكونات الحدث الرئيس وخلفياته من حيث السياق والأحداث التاريخية المرتبطة به، إضافة إلى الفاعلين والمشاركين في الأخبار وتعليقاتهم وتقييماتهم للأحداث. (جبارة، 2012،ص 490)

وسنستعين بنموذج "فان دايك" لتحليل التغطية الخبرية لكل من قنوات CBS الأميركية و**قناة** (BFM) **الفرنسية** وBBC News اللندنية، والتي تمثلت في فيديوهات ومراسلات خاصة مباشرة تم بثها عبر هذه القنوات في الأيام الأولى للحرب الروسية -الأوكرانية، وتم تداولها عبر مواقع التواصل الاجتماعي على نطاق واسع، كما أحدثت جدلا كبيرا بشأن التزام الحيادية في التغطيات الإخبارية، ومن هذا المنطلق فالعينة المستخدمة هي قصدية تتمثل في اختيار التغطيات الإخبارية للقنوات السالفة الذكر الأكثر انتشارا والتي أحدثت ضجة بخصوص الخطاب العنصري الذي انطوت عليه، وسيتم التركيز على المستوى الدلالي للخطاب من خلال ردود الأفعال اللفظية للفاعلين في الأخبار وخلفيات القصة الخبرية السياق وفقا لمقاربة "فان دايك".

3.2. تحليل الخطاب لتغطية الحرب الروسية- الأوكر انية:

3.1. نموذج مدونة قناة CBS الأميركية:

الأطراف الفاعلة في التغطية: شارلي داغاتا الموفد الخاص لقناة (سي بي إسي نيوز) لأوكرانيا / المذيعين في الحصة المباشرة لقناة "سي بي أس نيوز" الأمريكية.

السياق التاريخي: تم بث التغطية المباشرة يوم 25 فيفري 2022 بالتزامن مع ثاني يوم للحرب الروسية – الأوكرانية التي انطلقت فجر 24 فيفري من ذات السنة، وسط تكهنات إعلامية ودعاية لقيام حرب عالمية ثالثة نووية، وغلق المجال أمام القنوات الروسية للتغطية من خلال حجبها في كل الدول.

المستوى الدلالي للخطاب:

شارلي داغتا المراسل الصحفي بأوكرانيا استخدم بعض العبارات التي تنم عن تغطية متحيزة لفائدة الطرف الأوكراني وعنصرية ضد المسلمين عموما والعرب خصوصا.

استخدام صياغات مثل: مع خالص احترامي، كييف ليست مثل العراق وأفغانستان اللذين عرفتا عقودا من الحرب، إنها مدينة متحضرة نسبيا، أوروبية نسبيا، لا ننتظر حصول أمر مماثل.

وهي صياغات تحمل في طياتها دلالات عنصرية إذ حاول المراسل الصحفي استغلال ما حصل في العراق وأفغانستان في مقاربة لإظهار للعالم بأن شعب أوكرانيا يستحق الشفقة والتضامن فهم ليسوا مثل العراقيين والأفغان.

واستخدم الصحفي لفظ "مدينة متحضرة" و"أوروبية" للدلالة على أن سكان أوكرانيا من عرق نبيل ومتحضر وليسوا مثل المسلمين الذين يرتبط ذكرهم بصفات "الإرهاب" و"التخلف".

الأفعال: تم استخدام فعل: "لا ننتظر، ليست" وكلها تدل على تحيز وذاتية في التغطية لصالح الطرف الأوكراني وعنصرية في مقارنة ما يحصل مع ما حدث من حروب في العراق، أفغانستان.

2.3.نموذج مدونة قناة (BFM)الفرنسية:

الأطراف الفاعلة في التغطية: الصحفي "فيليب كورب" قام بتنشيط عدد خاص بتطورات الحرب في أوكرانيا من خلال أستوديو تحليلي عبر قناة "BFM" التي تعتبر من أكثر القنوات مشاهدة في فرنسا، ومشاركته النقاش مع صحفي آخر حول مستجدات الوضع في العاصمة "كييف".

السياق التاريخي: تم بث الحصة المباشرة للتغطية حول مستجدات الحرب الروسية- الأوكرانية بتاريخ 26 فبراير 2022.

المستوى الدلالي للخطاب: حاول الصحفي"فيليب كورب" إقحام سوريا في تعليقه على دخول القوات الروسية لكييف وهروب اللاجئين للحدود مع بولوندا.

العبارات المستخدمة: " نحن لا نتحدث هنا عن فرار السوريين من قصف النظام السوري المدعوم من بوتين" و"نحن نتحدث عن الأوروبيين الذين يغادرون في سيارات تشبه سياراتنا."

فمن خلال استخدام هذه العبارات حاول الصحفي خلق مقارنة بين ما يحدث في سوريا وفي أوكرانيا مع التشديد على أن الوضع مختلف لأن الأوكرانيين هم أوروبيون وليسوا مثل باقي الأجناس، وهو ما ينم عن ازدواجية الخطاب في التعامل مع الوضع في سوريا وذلك الذي حدث في أوكرانيا.

وقدم الصحفي خلال حديثه عن تطورات الوضع تلميحات عن دعم بوتين للنظام السوري وهو نفسه الذي يتسبب اليوم في تهجير الأوكرانيين الذين لا يشبهون السوريين بل هم أوربيون يغادرون في سيارات تشبه سياراتهم"، فالاستعانة بكلمة السيارات تعكس بالنسبة للصحفي تحضر ورفاهية الأوكرانيين مقارنة بالسوريين.

الأفعال المستخدمة: لا نتحدث / نتحدث، ففعل التحدث هنا بصيغة الجمع، ويلفت إلى وضع معين، ويشير إلى حديث الصحفي عما يجري ومحاولته الإيحاء بالنفي على أن الأمر لا يتعلق بما حدث سابقا للاجئين السوريين وإنما هو مختلف لأن الحديث اليوم هو عن انتماء آخر وعرق آخر وكل هذه تعتبر عنصرية وتحيز في التغطية.

3.3.نموذج مدونة BBC News البريطانية:

الأطراف الفاعلة: المدعي العام الأوكراني السابق "ديفيد ساكفاريليدزي" شارك في النقاش من أوكرانيا عبر شبكة "بي بي سي" البريطانية.

السياق التاريخي: التغطية كانت مباشرة لتطور الوضع في أوكرانيا في اليوم الثالث بتاريخ 26 فيفري 2022، حيث استضافت قناة"بي بي سي" الناطقة بالانجليزية المدعي العام الأوكراني السابق للحديث عن تطورا الوضع وما يحدث في أوكرانيا بعد دخول القوات الروسية لكييف وانطلاق القصف بالصواريخ.

المستوى الدلالي للخطاب: المدعي العام الأوكراني السابق وفي إجابته حول سؤال الصحفي عن تطورات الوضع واجتياح روسيا لكييف؟ رد قائلا: " أنا آسف إنه أمر مؤثر للغاية بالنسبة لي لأنني أرى

الأوربيين ذوي الشعر الأشقر وعيونهم الزرقاء يُقتلون كل يوم بصواريخ بوتين وطائراته الهليكوبتر" فكان رد الصحفي المقدم من الأستوديو" أحترم شعورك وأتفهم مشاعرك ما يحدث ليس بالأمر الهين".

العبارات المستخدمة: " إنه أمر مؤثر للغاية بالنسبة لي لأنني أرى الأوربيين ذوي الشعر الأشقر وعيونهم الزرقاء يقتلون كل يوم بصواريخ بوتين... فالمدعي العام من خلال استخدامه للأوصاف: ذوي الشعر الأشقر، وعيونهم زرقاء استدل بتمييز على أساس اللون والعرق وهو دلالة لغوية تستخدم للتباهي بين الأجناس وتنم عن عنصرية راسخة لدى الأوروبيين واحتقارهم لذوي البشرة السوداء على مر العصور.

إنه أمر مؤثر بالنسبة لي / أنا آسف، هي عبارات وأوصاف تدل على حالة التأثر وشعور الشخص الذي كان يتكلم ويتحسر على حال الأوروبيين لأنهم جنس نبيل -على حد تعبيره- عيونهم زرقاء وذوي شعر أبيض وليسوا مثل باقي الشعوب التي تضطهد وتهجر وتشرد وتقتل يوميا بأيدي من يدعون الحرية.

توصيات:

بناء على النتائج المحصل عليها من الدراسة، يمكننا تقديم التوصيات التالية:

- ينبغي العمل على مكافحة الخطاب العنصري وفضحه عبر وسائل التواصل الاجتماعي الأكثر انتشارا.
- ما حدث خلال التغطية الإعلامية لحرب روسيا –أوكرانيا يدعو لإعادة النظر في مفاهيم مثل: التغطية الإنسانية، الذاتية للتعامل مع الحروب والصراعات.
- وجود قناة دولية عربية ناطقة باللغة الإنجليزية وتنافس القنوات الأجنبية أصبح ضرورة لمجابهة الترسانة الإعلامية والدعائية للإعلام الغربي ضد المسلمين.
- الصورة النمطية للإسلام تدعو لتكثيف البحوث الميدانية والدراسات لمجابهة الظاهرة والتصدي لها.

خاتمة:

حاولنا من خلال هذه الدراسة الكشف عن خصوصية التغطية الإعلامية للحرب الروسية- الأوكرانية التي انطلقت يوم 24 فيفري 2022 ولا تزال تداعيتها قائمة إلى غاية كتابة هذه المداخلة- والتي اتسمت باستخدام خطاب عنصري وعدم موضوعية الصحفيين وحتى الأطراف الفاعلة في التغطية لعدد من القنوات الأجنبية، لا سيما القنوات الثلاثة محل الدراسة" قنوات CBS الأميركية وقناة (BFM) الفرنسية وBBC News اللندنية، إذ حاول الإعلاميون من خلال تغطيتهم لتطورات الأحداث بين روسيا وأوكرانيا إقحام اللاجئين في سوريا والعراق و حتى أفغانستان.

ومن خلال تحليل الخطاب لمضامين الفيديوهات المنتشرة عبر وسائل التواصل الاجتماعي في الأيام الأولى لاندلاع الصراع بين روسيا وأوكرانيا تم التوصل لعدة نتائج نذكر أهمها:

- استخدم الصحفيون في التغطيات التي تمت مشاركتها عبر مواقع التواصل الاجتماعي كلمات خرجت في سياقها عن المواثيق الأخلاقية الضابطة للعمل الصحفي حول العالم، وكل هذا بهدف استعطاف المشاهد الغربي، الأمر الذي رصده المشاهدون حول العالم، وتسبب بموجة انتقادات واسعة وخصوصا في العالم العربي.

- التغطية الإعلامية للحرب الروسية- الأوكرانية سبقتها بروباغندا من قبل السياسيين والمسؤولين الروس وفي الولايات المتحدة الأمريكية ودول حلف الناتو، أثرت بشكل كبير على الخطاب الإعلامي السائد في التغطيات، وتأطير معالجات وسائل الإعلام بشكل كبير، والتهويل وبروز مصطلح الحرب العالمية الثالثة، وهو مصطلح دعائي استخدمته الولايات المتحدة الأمريكية لوصف التحركات الروسية نحو الحدود الأوكرانية وخطر السلاح النووي المدمر.

وجدير بالذكر أن هذه الدراسة ماهي إلا محاولة منا لتحليل الخطاب الإعلامي السائد في فترة الحرب الروسية- الأوكرانية 2022 وقد تكون مرتكزا لعدة دراسات معمقة أخرى للكشف عن طريقة تناول وسائل الإعلام الغربية للصراع بين روسيا أوكرانيا ومختلف جوانبه.

قائمة المراجع:

مراجع باللغة العربية:

1) الكتب:

- إدوارد سعيد، ترجمة ألو ألاطلي. (2000). الإسلام في شبكة الإعلام. إسطنبول: منشورات بابل.
- بسام المشاقبة. (2014). مناهج البحث الإعلامي وتحليل الخطاب (الإصدار ط2). عمان: دار أسامة للنشر.
- توين فان دايك، ترجمة غيداء العلي. (2014). الخطاب والسلطة. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- جمعان بن عبد الكريم. (2016). من تحليل الخطاب إلى تحليل الخطاب النقدي، مناهج ونظريات. عمان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- صفاء جبارة. (2012). الخطاب الإعلامي بين النظرية والتحليل. (الإصدار ط1). الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع.

2) المجلات:

- المؤلف، "عنوان المقال،" (سنة النشر)، اسم المجلة، مكان الصدور، المجلد، العدد،
- بشير أبرير. (بدون سنة نشر). استثمار علوم اللغة في تحليل الخطاب الإعلامي. مجلة اللغة العربية. المجلد1 (23)، 87-133.
- طورغاي يزلي قايا. (04 ماي، 2016). الإسلاموفوبيا والإعلام: المظاهر المعاصرة لمعاداة الإسلام. رؤيا تركية، 9-23.
- فريدة فلاك، دواد جفافلة. (15 09, 2020). مصادر الصورة الذهنية والنمطية للإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية. مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، الصفحات 55-66.
- نبيل ابن عودة، عائشة مصطفى ابن قارة. (10جوان, 2020). التعاون القضائي بين الدول ودوره في مكافحة الجرائم المتعلقة بالتميز وخطاب الكراهية في التشريع الجزائري. مجلة المفكر للدراسات القانونية والسياسية، صفحة 367360.

- وريدة جندلي بنت مبارك. (01 جوان, 2021). التصدي لخطاب الكراهية في القانون الدولي والتشريع الجزائري: التكريس القانوني وسبل الوقاية. المجلة العربية للدراسات الأمنية، الصفحات 113-124.

3)مو اقع إلكترونية:

- رسلان عامر. (07 أبريل, 2022). الحرب الروسية على أوكرانيا بين الخلفيات التاريخية والأسباب الراهنة. تاريخ الاسترداد 31 ماي, 2022، من مركز حرمون للدراسات المعاصرة : https://www.harmoon.org/reports
- سامية غشير. (30 أفريل, 2017). الصور الذهنية للإسلام في وسائل الإعلام الغربية. تاريخ الاسترداد 22 ماي , 2022، من معهد الجزيرة للدراسات الإعلامية : https://www.aljazeera.net/blogs/2017/4/30
- فرانك غاردنز. (01 ماي, 2022). روسيا وأوكرانيا لمذا لا يقف العالم في صف الغرب في الأزمة الأوكرانية. تاريخ الاسترداد 31 ماي, 2022، من بي بي سي عربي : https://www.bbc.com/arabic/world-61285733
- قانا كمال سيد قادر. (01 أكتوبر, 2005). الحملات العنصرية ضد المسلمين وأهدافها الاستعمارية. تاريخ الاسترداد 30 ماي , 2022، من مجلة آراء حول الخليج : https://araa.sahttps://araa.sa/index.php?view=articl
- بدون كاتب. (06 سبتمبر, 2020). الخطاب الإعلامي وأثره على الهوية الثقافية الوطنية. تاريخ الاسترداد 30 ماي, 2022، من شبكة النبأ للمعلومات : https://m.annabaa.org/arabic/authorsarticles/24425
- سمية اليعقوبي. (10 مارس, 2022). معهد الجزيرة للإعلام. تاريخ الاسترداد 30 ماي, 2022، من https://institute.aljazeera.net/ar/ajr/article/1836
- فرانس 24/أ ف ب. (16 مارس, 2022). الأمم المتحدة تعتمد 15 مارس يوما سنويا لمكافحة الإسلاموفوبيا. تاريخ الاسترداد 31 ماي, 2022، من فرانس 24 https://www.france24.com/ar/24 :
- دجى داود. (18 مارس, 2022). الإعلام الغربي في أوكرانيا الصراحة الدموية والانحياز الكامن. تاريخ الاسترداد 30 ماي ,2022 https://www.alaraby.co.uk/entertainment_media

مراجع باللغة الأجنبية:

- Hate-Speech. (02 06, 2019). Racismnoway. تاريخ الاسترداد 30 05, 2022، من https://racismnoway.com.au/about-racism/hate-speech/
- Merriam Webster. (1982). Merriam Webster. تاريخ الاسترداد 2022، من https://www.merriam-webster.com/dictionary/racism: https://www.merriam-webster.com/dictionary/racism

- P.H .Matthews. (2007). The Concise Oxford Dictionary of Linguistics (01 الإصدار). Oxford: Oxford University press.
- Ruth Wodak and Michal Krzyzanowski. (2008). Qualitative Discourse Analysis in the Social Sciences. UK: Houndmills.

صورة العربي المسلم بين السلبي والايجابي في سينما الآخر

The Image of the Muslim Arab between Negative and Positive in the Cinema Of the Other

د.بغالية أحمد، جامعة سعيدة-الجزائر
beghaliaahmed7@gmail.com



بعد الطابع القانوني الذي أخذته الحرب على الإرهاب، تشكلت علاقة في معظمها متنافرة بين العالمين الغربي والإسلامي أثر بشكل مباشر على صورة هذا الأخير في العالم، حيث ظهرت نظرة دونية استهدفته، وأدى هذا إلى فرض صورة نمطية مشوهة بالعنف والتطرف لدى الرأي العام العالمي .

كانت السينما الغربية وخاصة هوليوود الوسيط الأساسي الذي تسبب في تغذية هذه الصورة بأفلام معادية لكل ما هو عربي ومسلم، ولو أن هناك وجود لبعض الاستثناءات التي سيتطرق لها المقال أثناء العرض، قصد تبيين الصورة كما هي دون المبالغة، ويمكن القول إن أهم نتيجة توصل إليها البحث هي الصورة البشعة التي تقدم عبر وسيط السينما، والتي عززت السلبية في ذهن العالم، أدى هذا إلى انتشار هذه الصورة، فيقدم العربي المسلم في الغالب بصورة غير محبذة تماما.

الكلمات المفتاحية: الفيلم، سينما الآخر، هوليوود، الصورة النمطية، صناعة السينما.

Abstract:

After the legal nature of the war on terrorism, a mostly discordant relationship was formed between the Western and Islamic worlds, which directly affected the image of the latter in the world, as an inferior view appeared that targeted him, and this led to the imposition of a distorted stereotype of violence and extremism in world public opinion.

Hollywood cinema was hostile to everything that is Arab and Muslim, and it can be said that the most important result of the research is the ugly image presented through the medium of cinema, which reinforced negativity in the mind of the world, this led to the spread of this image in all countries of the world, so that it presented the Arab Muslim in Mostly completely unfavorable.

Keywords: Film, Other Cinema, Hollywood, Stereotype, Film Industry



مقدمة:

تعد صورة العربي المسلم محصلة لتراكمات تاريخية، واجتماعية، وإعلامية ساهمت بقسط كبير في تبلورها منذ لحظة ظهور الإسلام وتصدر العرب المسلمين للمشهد الحضاري، خاصة إذا علمنا أن بعض

الأقطاب المهمة في الساحة العالمية ليس لها تاريخ حضاري مهم، ومع سلسلة الأحداث التي تراكمت في العصر الحديث والاستيطان الذي طال العالم العربي والإسلامي والانهيار التام لهذا العالم، بالموازاة مع النهضة العالمية الغربية الصناعية، التي نتج عنها تطورات تكنولوجية مهمة جدا، غذتها خاصة التراكمات الثقافية المتطورة، وبالأخص ظهور السينما، وتمركزها في هوليوود معقل العداء لكل ما هو عربي ومسلم، طبعا القول بهوليوود ليس بالضرورة معناه الولايات المتحدة الأمريكية، بل يجب أن نعلم أن صناعة السينما في هوليوود تتحكم فيها رؤوس الأموال اليهودية، بالإضافة إلى هذا التحكم في عملية الإنتاج فإن أهم المخرجين والممثلين وكتاب السيناريو إن لم يكونوا من أصول صهيونية فلهم مصالح ونفوذ ولوبي في صناعة هذه سينما، بالتأكيد هناك بعض الاستثناءات التي تعد على الأصابع لكنها لا تفي بالغرض خاصة في ظل عدم وجود لهذا الوسيط-صناعة السينما- في العالم الإسلامي والعربي وإن وجد فلا يعد مجرد ممارسة لا أبعاد إستراتيجية لها.

يمكن القول أيضا أن الصورة البشعة التي تقدم عبر وسيط السينما، تعزز من الصورة السلبية في ذهن الإنسان الغربي، وكل من يتزود من تلك المصادر من شعوب الأرض، يؤدي هذا إلى انتشار الصورة العربية المسلمة السلبية بكل انعكاساتها في مشارق الأرض ومغاربها. فيقدم العرب والإسلام في الغالب بصورة غير محبذة، وبما أن أغلب سكان العالم لا يميزون بين العرب والمسلمين، ويظنون أن المصطلحين مترادفين، فإن النشر السلبي عن الإسلام يشوه الصورة.

من خلال هذا الطرح يبدو لنا جليا أن الصورة النمطية للإسلام والمسلمين تشكلت من جملة عوامل أريد لها أن تكون ووجب علينا تصحيحها خاصة إذا علمنا مثلا أن السينما إبان ثورة الجزائر صححت الكثير من المفاهيم كانت مغلوطة للعالم آنذاك.

وأمام هذا الواقع المر تبلورت إشكالية البحث ما هي الصورة التي قدمها الآخر عن المسلم والعربي بالأمس واليوم، وقد تفرعت عنها مجموعة من الأسئلة:

- لماذا تختلط الأوراق الآن، فلا يميز بين العربي والمسلم؟ ولماذا طمس الهوية القومية، وتجاهل الثقافات الفرعية التي تتعايش ضمن الثقافة العربية الإسلامية؟ وهل هذه الصورة بعيدة عما بشر به (صمويل هانتنغتون-Samuel Huntingto) عن صراع بين الحضارات عموما؟

-كيف يمكن للسينما المضادة تصحيح هذه الصورة المغلوطة والعمل معا على صناعة صورة إيجابية للمسلم والعربي في فكر الآخر؟

وعلى هذا الأساس تسعى الدراسة إلى تفكيك المُتخيَّل الأميركي الراهن عن المسلمين بدلًا من اجترار الصورة النمطية التقليدية؛ التي نسجتها هوليود وتوارثتها على مرّ تاريخ السينما.

أولا-الصورة السلبية للعرب المسلمين في الغرب:

بعد أحداث سبتمبر عملت وسائل الإعلام الغربية وخاصة الأمريكية على الدمج بين صورة العرب بالمسلمين وذلك بهدف تحديد العدو بدقة، كانت البداية مع مطلع التسعينيات وانهيار المعسكر الاشتراكي وظهور نظام القطبية الواحدة وازدادت حدة الهجوم على هذا التكوين الجديد بعد أحداث سبتمبر، ومهد ذلك لضرب أفغانستان، ثم غزو العراق بحجة وجود أسلحة الدمار الشامل لدى نضام صدام حسين، فالتخطيط للثورات العربية، وانهيار أنظمة بشعوبها بإيعاز من الغرب.

إن التعرف على المراحل التي تطورت فيها الصورة العربية المسلمة، في غياب خطة عربية إعلامية واضحة للتعامل مع الآخر، يظل واجبا قوميا قويما، لا بهدف تغذية الحقد أو الكراهية، وإنما لأن الإعلامي نفسه، خاصة العامل في مجال الإذاعة والتلفاز والسينما بحاجة للتعرف على موقف الآخر منه، ليستطيع التعامل مع هذا الموقف، خاصة في المرحلة الحالية، ومن هذا المنطلق نقدم العرض التالي لتطور الصورة العربية المسلمة في الغرب.

تتعرض الصورة العربية المسلمة منذ مطلع القرن الثاني عشر للميلاد إلى تجريح ينال من كمال الشخصية العربية المسلمة التراثية والمعاصرة، وقد عملت وسائل الاتصال الجماهيري الحديثة وخاصة التلفاز والسينما على تعزيز هذه الصورة بما ينال من قدرات العربي المسلم وإمكاناته مصورة إياه بالعجز والإرهاب، وبما ينال من ثرواته الطبيعية واصفة إياه بالاستغلال والابتزاز، وبما ينال من تراثه التاريخي والديني وتسمية حضارته بالتطرف والإفلاس، وتركز هذه الوسائل باستمرار على شخصية العربي المسلم العاجز والجشع والمهزوم والجبان والمريض جنسيا، وأصل البلاء والتوتر في هذه المنطقة والعالم.

ثانيا- الصورة بين النمطية والانفتاح:

نتيجة لتعزيز السيمات السلبية في الصورة العربية المسلمة على مدار قرون طويلة، نجد أنها صارت عالميا تميل إلى الثبات، فأصبحت صورة جامدة مغلقة، ضيقة أقرب ما تكون إلى النمطية، وقد نجحت وسائل الاتصال الغربية والعادية في زرع هذه الصورة الحادة في أذهان البشر في كافة أرجاء المعمورة، بفضل ما تنتجه من برامج ومسلسلات وأفلام، تبث على الشاشات والأجهزة، وتورد إلى كل من يشتري تلك البرامج، فتنتشر الصورة في أرجاء المعمورة الأربع، وتترك آثارا نفسية سلبية في نفوس متلقيها إزاء العرب والمسلمين، وإذا كان مقص الرقيب في البلاد العربية قد نجح حتى وقت قريب دون أن يرى الشعب العربي ملامح هذه الصورة التي صنعها الغرب، فإن قدوم المحطات الفضائية وطريق المعلومات السريع قد أحبط من فعالية ذلك المقص نوعا ما.

هذه الصورة النمطية هي بمثابة تعميمات تعامل على أنها حقائق مطلقة مسلم بها، ويعرفها الباحثون بأنها شكل من أشكال الاتجاه أو الاعتقاد، ذات المضمون البسيط الذي يؤدي إلى إخفاء السمات المميزة

للآخر بصورة لا ينتبه إليها المتلقي، فتصبح مقاومة للتغيير مع الزمن، وهي تتحول إذا لم تواجه وتحلل وتحارب. إلى صورة متطرفة جامدة مقولبة لا تقبل التغيير أو التعديل.

في المجال العرقي للشعوب، فإن الصورة النمطية هي تعميمات، قد تأخذ شكل تسميات تؤدي إلى طمس السمات والفروق والاختلافات التي تميز شعبا عن شعب ولدى التعرف على شخص يصنف بأنه ينتمي إلى شعب من الشعوب، فإن سمات ذلك الشعب وخصائصه، كما رسمتها الصورة النمطية، تنسب فورا إلى ذلك الشخص الذي ينظر إليه عندها من ذلك المنظور، وهكذا تصبح الصورة النمطية الاعتقاد الراسخ الذي يمثل سمات وخصائص شعب أو مجموعة من الناس وغالبا ما تكون الصورة النمطية العرقية سلبية.

على الصعيد الدولي فإن صور الشعوب الأجنبية الأخرى تكون من نوعين الصورة المنفتحة، والصورة الجامدة المغلقة، وفي حين أن الصورة المنفتحة تسمح بإضافة سمات جديدة للسمات المختزنة في الدماغ، فإن الصورة الجامدة على العكس من ذلك، تكون صورة ثابتة الصفات تماما مثل الصورة النمطية، وإذا ما كانت الصورة المنفتحة تسمح بأن يكون رد الفعل عند المتلقي مرنا يستوعب تطلعات الشعب الذي تمثله وتمثل تطوره نحو الأحسن، فإن الصورة الجامدة لا تسمح بأن يكون رد الفعل للشعب الذي تصوره موحدا أو متشابها لجميع أفراد ذلك الشعب، فإذا ما وصفت الصورة النمطية شعبا ما بأنه إرهابي، فكل فرد ينتمي إلى ذلك الشعب، يصبح في نظر من يحملون تلك الصورة إرهابيا مثل شعبه، يتوجب أخذ الحيطة والحذر منه وعدم الثقة فيه.

رغم القول الشائع بأن الصورة النمطية أو الجامدة أو المنفتحة إنما هي صور تنشرها وسائل الاتصال وتعززها، إلا أن البحوث كشفت عن تداول هذه الصور يبدأ في العادة في محيط الأسرة، فيتعلمها الأطفال من الصغر، وأظهرت هذه البحوث أن الصورة النمطية تحتل مكانها في ذاكرة الأطفال، قبل أن يطوروا المقدرة العقلية النقدية لكي يستفسروا عنها، أو يستوضحوا بشأنها أو يقيموا مدى صحتها أو صدقها.

والأخطر من هذا فأن الصور العقلية تلعب دورا مهما في تشكيل السياسة الخارجية، فهذه الصور توجه سلوكيات صناع القرار، لأنها تكون بمثابة البديهيات التي تقوم عليها سياسة دولة إزاء دولة أخرى، ما بالك إذن حيث تنطبع صور معينة في أذهان صناع القرار وخاصة إذا ما كانت تلك الصور خاطئة ومسيئة.

يتضح مما سبق أن الصور النمطية السلبية تظهر في محيط الطفل الذي يتعلمها من أسرته، وتعمل وسائل الاتصال على تعزيزها، وكذلك المدرسة، ولا يجد صناع القرار بدلا من الانصياع إليها في السياسة الخارجية وتعمل الصورة النمطية على تعميق النفور والكراهية بين الشعوب عموما.

ثالثا- الخلفية التاريخية للصورة السلبية وتطوّرها:

يرى الإنسان العربي المسلم بشكل عام أن الغرب معاديا له، وقد يكون هذا الشعور بسبب الموقف المعادي للإسلام، الذي ظهر في وقت مبكر من التاريخ، وتعمق نتيجة لخضوع العرب للاستعمار الغربي في العصر الحديث، وتعزز في الأذهان نتيجة للصورة السلبية التي تقدم بها وسائل الاتصال الشخصية العربية.

يعتقد أحد الباحثين الغربيين بأن المشاعر المضادة للإسلام قد أخذت تتشكل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وهكذا كانت بداية الانحياز ضد العرب دينية، وعمل كتاب ومفكرين من أمثال (دانتي أليغري-Dante Alighieri) و(فولتير-Voltaire) و(إدواردجيبون-Edward Gibbon) على تعزيز هذه الصورة السلبية، واستمر الوضع في دولة مثل بريطانيا حتى مجيء (توماس كارليل-thomas carlyle) في القرن التاسع عشر.

في القرن العشرين خضعت البلاد العربية للاستعمار الغربي، ولم يحترم البريطانيون على وجه التحديد اتفاقاتهم التي قطعوها للشريف الحسين بن علي-شريف مكة- فتقاسموا المشرق العربي مع الفرنسيين بينهم، وعملوا على إنشاء دولة إسرائيل ودعمها، وتأخر مجيء الأمريكيين إلى المنطقة حتى عام ستة وخمسون تسعمائة وألف، حين سقط النفوذ الأنجلو فرنسي في المنطقة إثر هجومهم مع إسرائيل ذلك العام.

قد بينت الدراسات أن الأمريكيين قد تبنوا بعض الصور النمطية التي صاغها الأوروبيون عن العرب، واستخدموها في صحفهم، إن تحليل مضمون جريدة "نييورك تايمز-The New York Times " كممثلة للصحافة الأمريكية الجادة بين عام ستة عشر تسعمائة وألف العام الذي ظهرت فيه الشخصية العربية الحديثة مستقلة بعد أن كانت جزءا من الصورة العثمانية التركية، وعام ثمانية وأربعون تسعمائة وألف حين ظهر الكيان الصهيوني، إلى حيز الوجود بعد تشريد الشعب الفلسطيني من وطنه، قد أظهر استخدام المصادر الأوروبية في هذه الصحيفة الأمريكية بصورة عملت على تقديم السمات السلبية، أكثر من السمات الايجابية أو المحايدة، وجاء في طليعتها المصادر الفرنسية واليهودية التي نقلت سيمات سلبية للأمريكي.

بل إن البحث بين أن هذه الصحيفة الأمريكية قد اعتمدت على المصادر الفرنسية والبريطانية واليهودية للفترة التي سبقت عام أربعة وأربعون تسعمائة وألف، أكثر من الفترة التي تلتها هذا يؤكد بصورة ناصعة على أن الصورة النمطية العربية في أمريكا قد تلونت بوجهة النظر الأوروبية الفرنسية والبريطانية واليهودية.

تتضح الصورة أكثر حين نرى كيف غطت هذه الصحيفة الأمريكية أخبار فلسطين قبل عام ثمانية وأربعون تسعمائة وألف، لقد أسمت هذه الصحيفة المناضلين الفلسطينيين الذين قاتلوا من أجل تحرير وطنهم إرهابيين عرب ومخربين، وفي الواقع فإن هذه التسمية قد صاغها الانجليز في الثلاثينيات والأربعينيات، لكنها تستمر حتى وقتنا الحالي لتصف نضال الشعب الفلسطيني من أجل تحقيق تقرير مصيره وإنشاء دولته.

وأكثر من هذا فإن التغطية الصحفية للفترة نفسها قد جردت الفلسطينيين من هويتهم الوطنية، ففي تغطية الفترة الممتدة طيلة ثلاثين عاما (1916-1948) لم يرد ذكر الفلسطيني العربي إلا مرة واحدة، لقد سمي الفلسطينيين بدل ذلك بتسميات مختلفة، منها المسلمون، المسيحيون، العرب، العرب الفلاحون، البدو، المخربون العرب، المعادون للصهيونية واليهودية، عصابة مسلحة من العرب، العرب الشرقيون، العرب الأدنى مرتبة من اليهود، أما العرب من الأقطار العربية المجاورة الذين احتجوا على قرار الكونجرس الأمريكي فقد أشير إليهم كفئة من العرب الأثرياء الخاضعين لسلطان بريطانيا أو العرب الأقلية أو العرب الأذناب.

رابعا-الصورة من منظور الأيقون السينمائي الغربي:

1-من منظور الانجليز: تعد الصورة التي صنعها البريطانيون ذات جذور عميقة، وقد ميز أحد الباحثين بين اتجاهين بريطانيين اتجاه العرب.

الأول السياسي: تمثل مشاعر لا مودة فيها اتجاه العرب المسلمون، خاصة نحو سكان المدن بالمقابل، كانت مشاعر المودة أقوى إزاء البدو سكان الصحراء، وتناقلت هذه المشاعر السلبية المعاجم والرحالة والجنود، إلى درجة أن المعاجم عرفت العربي بأنه مستغل وأغدقت عليه لقب اليهودي البخيل (شايلوك- Shylock)،بطل تاجر البندقية لشكسبير، وكان اهتمام خاص بالبعد الجنسي للعرب والمسلمين، فصوروهم منشغلون باللذات الحسية والشهوات وبالحريم والحجاب وقصص الخصيان النابعة من قصص ألف ليلة وليلة، التي سميت بالليالي العربية (عصام، 2002، صص45-46).

قد تختلف الآراء فيما يتعلق بالمشاهد الجنسية، فمنهم من يرى عدم جدواها ككل في الأفلام كلّها، حيث لا ضرورة لها إطلاقا، سواء كان ذلك بالنسبة لثقافة المتفرج، لكن ذلك لا يمنع من وجود مبررات لبعض هذه المشاهد من حيث أن لا مبرر لغيرها ووجود المبرر لا يعني ضرورته، لكن طيف ذلك؟؟

قد يرى البعض أن احتواء الأفلام على المشاهد الجنسية يكون تبريرها له وجه كبير من الواقعية، بل قد يكون لها أحيانا الأثر الكبير لتوصيل رسالة الفيلم للمشاهد، قد يزيد من تفاعل المتلقي مع القضية إذا تعلق الأمر مثلا مع الفساد الأخلاقي وخصوصا الفساد الجنسي أو الشذوذ الجنسي، فلا ضرر حينها

باستغلالها كوسيلة مساعدة، لا سيّما في قضية رئيسية، مع تحديد عدد المشاهد، وطولها أو قصرها وخدمتها للفيلم.

قد يجد المخرج نفسه أحيانا مضطرا لعمل المشهد الجنسي لتوضيح أمر مهم، يغيب عن أذهان الكثير من المتفرجين بالمقابل من هذا النوع من الأفلام، هناك أفلام كان محتوى الجنس فيه غير مبرر إطلاقا، والأمثلة كثيرة جدا، قد يكون الفيلم جميلا ورائعا، لكن كثرة المشاهد الجنسية فيه القبيحة، التي لا يكون لوجودها أصلا (عبدو، 2006-2007، ص42).

الثاني الرومنسي: إذ مثل المشرق العربي ملاذا رومانسيا بعيد عن ضغوط المجتمع الأوروبي، ويعزز هذا البعد لقصص ألف ليلة وليلة، والأفلام السينمائية والقصص العديدة التي حيكت بتأثير من هذه الروايات الخيالية، واكتشف الانجليزي أن في الصحراء بدويا نقيا اشتهر بالكبرياء والكرم وعزة النفس، لقد كانت الصحراء لهؤلاء نقية نظيفة بريئة، وقد حدد أبعاد هذه الصورة على أفضل وجه المعروف بلورانس العرب من خلال مؤلفاته وأشهرها على الإطلاق أعمدة الحكمة السبعة.

2- من منظور الامريكان (هوليوود): على الساحة الأمريكية ينظر للعرب المسلمون بأنهم شعب غني، وفي الوقت عينه متأخر، بدائي ، غير متحضر، شعب ملبسه غريب، ويسيء معاملة المرأة، ويبدو مولعا بالحروب، متعطشا للدماء، غدارا، ماكرا، قويا، شديدا، وبربريا قاسيا، هذه الصورة لم تأت من فراغ، بل مهدت لها السينما قبل ذلك، وفي الحقيقة أن السينما الأمريكية أظهرت منذ بدايتها بالشخصية العربية، فقدمت الأفلام الأولى للعرب كمهجرين يرتبط عملهم بالسحر والبارود، أما في العشرينيات فقدمت السينما العرب بأدوار رومانسية كما في فيلمي الشيخ وابن الشيخ، وشهدت الفترة نفسها بداية مرحلة جديدة، قدمت العرب كأشرار يواجهون الجنود الفرنسيين والانجليز الشجعان، وشهدت الثلاثينيات أفلاما قدمتهم في موضوعات مرتبطة بالسياسة والدين، حيث أبرزت الإسلام في مواجهة المسيحية، وأثناء الحرب العالمية الثانية قدم العرب كجواسيس للنازي، يقومون بأعمال الاختطاف والابتزاز، وشهدت نهاية الأربعينيات تقديمهم في أدوار سياسية فيها تهديد للدولة اليهودية الوليدة.

إذا أردت أن تطلّ على السينما الأمريكية لترى كيف تصوِّر العرب ثمّ المسلمين في أفلامها، يمكنك قراءة كتاب العرب الأشرار في السينما، الذي ألفه الناقد السينمائي جاك شاهين الأمريكي ذو الأصل اللبناني. قام (جاك شاهين-Jack Shaheen) بدراسة أكثر من ألف فيلم أمريكي على مدار القرن الماضي كله ليخرج بنتائج مذهلة تريك كيف تنظر هوليوود إلى العرب عبر منظار ضيق وصغير. من ألف فيلم لم يضع جاك شاهين على قائمة الأفلام الإيجابية عن العرب سوى 12 فيلمًا. من بينهم فيلم (ثلاثة ملوك- Three Kings وفيلم (المحارب الثالث عشر- 13^{th} Warrior The) .

أ-الصورة السلبية عن العرب والمسلمين في أفلام السينما الأمريكية: في هذا التقرير سبعة صور نمطية للسينما الأمريكية تكرسها عن العرب، الأغلب منها سلبيّ والبعض القليل إيجابيّ. وخلال الحديث عن هذه الصور النمطية ستجد ترشيحات للكثير من الأفلام التي تدلل على هذه الصور النمطية

1-البدوي الشرير في الصحراء القاحلة: «لقد أتيتُ من بلاد، من بلاد بعيدة جدًا حيث تتجول قافلات الجمال حيث يقطعون أذنك إن لم يعجبهم وجهك هذا وحشي لكن هذه هي بلادي».

هذه هي الأغنية الافتتاحية لفيلم الرسوم المتحركة(علاء الدين- Aladdin) ربما لا يبدو الأمر مقصُودًا، لكنَّها تظلّ صورة متمثلة في العقلية الغربية للعرب باعتبارهم بدوًا يعيشون في صحراء قاحلة، والأمير هو المتحكم فيهم. فيلم علاء الدين إنتاج سنة واحد وتسعون تسعمائة وألف، ربما تشعر أنّ التاريخ بعيد قليلًا، لكنَّك ستتعجب حين تعلم أنّ التاريخ البعيد كثيرًا يحمل نفس الصورة النمطية. في فيلم (العربي- The Arab) المنتج عام خمسة عشر تسعمائة وألف يحكي قصة شاب يسرق القوافل بصورة دائمة دون أن يستطيع أحد إيقافه، ثم ستكتشف بعد ذلك أن هذا الشاب هو ابن زعيم القبيلة العربية. في فيلم (البربري-The Barbarian) المنتج عام ثلاثة وثلاثون تسعمائة وألف يخبرك أنّ مرشد القافلة الذي يحاول دائمًا أن يتطفل على السيدة البيضاء الجميلة هو أمير لإحدى القبائل العربية.

1-الشيخ العربي المحاط بالنساء والذي يعشق الأوروبيات: الشيخ العربي شهواني يحب النساء الأوروبيات، ينفق أمواله أو يقوم بعمل مواقف لا أخلاقية وخبيثة للفوز بامرأة أوروبية تنضمّ إلى نسائه الكثيرات. هذه الصورة كانت موجودة منذ القدم في السينما الأمريكية، وتمّ تطويرها فيما بعد للشيخ الثري التافه (بعد اكتشاف النفط). يمكنك ملاحظة هذه الصورة النمطية بوضوح كامل في فيلم (الشيخ- The sheik) الذي خرج للسينما عام واحد وعشرون تسعمائة وألف وفيلم (إبن الشيخ- The Son of the Sheik) الذي تم إنتاجه عام ستة وعشرون تسعمائة وألف.

الأستاذ بجامعة إلينوي، جاك شاهين، يقول إنه من بين الألف فيلم التي شاهدها هناك ثلاثمائة فيلم تكرس لهذه الصورة النمطية عن العرب وشيوخ العرب الذي يحاولون جذب النساء الأوروبيات والالتفاف عليهنّ.

3- **لذلك يمكن قتله بسهولة:** العربي إنسانٌ سيء وغبي وليس صالحًا، ويمكن قتلهُ بسهولة. الأمريكيون هم الأقوياء الذين يمتلكون التكنولوجيا والسلاح. أما العرب فلا. يمكنك أن تستوضح هذه الصورة من خلال فيلم (True Lies) والذي يصور المقاومة الفلسطينية كمجموعة من الحمقى. الفيلم من أفلام الحركة مع بعض الكوميديا ولكنه يخرج بصورة مفادها أنّ البطل الأمريكي (أرنولد شوارزنيجر- Arnold Schwarzenegger) سيستطيع القضاء على الحمقى العرب ببساطة لأنهم إرهابيون.

فيلم (قواعد الاشتباك- Rules of Engagement) يظهر العرب كإرهابيين وغوغائيين، حتَّى الأطفال. يحاول المحامي الأمريكي الذي أرسل للتحقيق حول «جريمة» ارتكبتها البحريَّة الأمريكية في اليمنيين العُزَّل؛ يحاول المحامي أن يتعاطف مع القتلى النساء والأطفال والمشوهين ولكنَّه يعثر على أحد الشرائط المسجلة والتي يقول فيها المتحدث أنه يجب أن نقتل الأمريكيين كلهم المدنيين والعسكريين. هذه الصورة التي تطورت من شيخ القبيلة الشبق صاحب الأفكار الخبيثة والمغتصب والسارق تطورت للعربي الإرهابي الذي سيفجر العالم لأنه يكرهه.

آخر هذه الأفلام التي تؤكد هذه الصورة فيلم (قناص أمريكي- American Sniper) سنة أربعة عشر وألفين الذي يعتمد على كتاب الجُندي الأمريكي (كريس كايل-Chris Kyle) والذي خدم في العراق وقتل أكثر من ستون ومائة شخصًا ووضعه هذا الرقم في مرتبة أحد أكثر القناصين فتكًا في التاريخ الأمريكي. الجندي يعتبر أن ضحاياه متوحشون وأنه غير نادم على قتلهم. أثار الفيلم موجه من الاستياء حتى في الداخل الأمريكي باعتباره فيلمًا يغير في الحقائق التاريخية الخاصة بحرب العراق كما أنه يعزز من سياسات العنف تجاه العرب والمسلمين.

4-**الأثرياء التافهون والشهوانيون:** بعد ثورة النفط في الخليج تحولت صُورة العربي الأمير الذي يسعى وراء الشقراوات الأوروبيات إلى العربي التافه المثير للضحك والثري ثراءً فاحشًا في آنٍ واحد. يمكنك أن تلمس هذه الصورة في العديد من الأفلام، (والد العروس- Father of the Bride) الثري العربي (الذي لا يترك زوجته تتحدث ويعاملها بسوء) يذهب لشراء البيت الذي يعجبه بأموال كثيرة للغاية وبطريقة مضحكة. الصورة تتكرر عن العربي الغني الشرير والتافه في فيلم (مدفع تشغيل 2- Cannonball Run II) الذي يصور الأمير بشكلٍ كوميدي، وفي فيلم (بروتوكول- Protocol) لسنة أربعة وثمانون تسعمائة وألف، وحتى في بعض أفلام جيمس بوند، تجد فيلم (لا تقل أبدا مرة أخرى- Never Say Never Again) لسنة ثلاثة وثمانون تسعمائة وألف، الذي يصور الشخص العربي كشهواني خسيس يركض وراء الشقراوات ويحاول أن يوقعهنّ في حوزته.

5-**المرأة العربية من راقصة إلى إرهابية:** كما تطورت صورة الأمير العربي المحاط بالنساء إلى الأمير العربي الثري التافه، تطورت كذلك صورة المرأة العربية التي غالبًا ما كانت تظهر كـ(حريم) لزعيم القبيلة أو للأمير أو للثري العربي، أو كراقصة من ضمن حاشيته. بدأت تظهر في الثمانينيات وما بعدها باعتبارها أيضًا تهديدًا إرهابيًا يمكنها أن تقتل وتفجر المدنيين ببساطة، يمكنك مشاهدة فيلم (الموت قبل العار- Death Before Dishonor) لترى كيف تظهر المرأة العربية كقاتلة محترفة، وكذلك فيلم (لا تقل أبدا مرة أخرى- Never Say Never Again) وفيلم (المريض الانجليزي-The English Patient).

6-**العربي الذي يحاول أن يصلح نفسه يصبح عميلًا لأمريكا!** كعربي أنتَ لستَ إنسانًا جيدًا أو صالحًا، ستصبح صالحًا فقط حين تصبح عميلًا لأمريكا تساعدها في القضاء على النظام الديكتاتوري الذي تعيشُ فيه أيضًا. هذا ما يعرضه فيلم (الحصار- The Siege).

7- **الفلسطينيون إرهابيون ضد إسرائيل:** الصورة النمطية التي تتكرر كثيرًا في السينما الأمريكية هي صورة الفلسطينيين كإرهابيين فقط يحاولون دومًا قتل الإسرائيليين المضطهدين بعنفٍ شامل، يمكنك مشاهدة فيلم (ألق بظلالها العملاقة- Cast a Giant Shadow) لترى كيف يتم تكريس هذه الصورة منذ زمن بعيد. مؤخرًا ظهر للوجود فيلم (ميونيخ- Munish) لسنة خمسة وألفين الذي يحكي قصة اختطاف إسرائيليين في ألمانيا من قبل فلسطينيين، حاول المخرج أن يقدم رؤية إنسانية للصراع ما أدى إلى انتقاده بشدة، رغم أنه أحد المخرجين المتعاطفين مع إسرائيل.

استطاع (ستيفن سبيلبرج-Steven Spielberg) أن يوظف حدثا مهما كعملية(ميونيخ) دون أن يقع في فرز تبني صوت واحد أو رؤية واحدة، وهو الأمر الذي كان سيوقعه أي استقطاب إيديولوجي يدفعه بعيدا عن موقع المخرج الفنان ذو الحساسية المستقلة نحو موقع المتعصب بوظائفه الدعائية، فأتقذ الفيلم من التورط ي أسباب الصراع لصالح تفحص ما يحدثه من شروخ ي الأخلاقيات حين يتم استخدام أي مبررات ينتجها لشرعنة القتل (بغالية، 2016، ص78).

يشير إدوارد سعيد في كتابه الشهير الاستشراف، إلى دور وسائل الاتصال الالكترونية في تعميق الصورة السلبية للعرب والمسلمين، ويحدد ثلاثة عوامل وهي:

أولا: تاريخ التحيز الشعبي ضد العرب وضد الإسلام في الغرب.

ثانيا: الصراع بين العرب والصهيونية الإسرائيلية، وتأثير هذا الصراع على اليهود الأمريكيين، بالإضافة إلى تأثيره على كل من الثقافة التحررية والسكان عامة،

ثالثا: الغياب الشبه كل لأي موقع ثقافي يجعل من الممكن ما توحد الهوية مع العرب أو الإسلام، أو مناقشتها دون عاطفة.

وعملت وسائل الإعلام في الثمانينيات والتسعينيات على تعميق هذه الصورة السالبة، ففي مقالة بعنوان إرهابيو التلفاز يوجد وصف لمحتوى عدد من الأفلام في موقفها المضاد للعرب المسلمون...يقدمهم كأناس يتسببون في وقوع العنف، وليسوا كضحايا له...كما لا تظهر فيها مناظر تكسر فيها أذرع عربية، أو تنسف فيها منازل عربية، أو يطلق رصاص على متظاهرين عرب، أو أم عربية تغني لطفلها...أو معلم يدرس الجبر، أو مبرمج يعمل على حاسوبه، أو زوج يضم زوجته إلى صدره، أو عائلات تجتمع لتذهب معا إلى المسجد.

يفتتح المقال بالمقولة التالية: إن واحدا من الافتراضات الإيديولوجية الأساسية التي تقوم عليها صناعة الفيلم التلفزيوني في أمريكا هي أن العربي المسلم إرهابي...وفي مقال آخر بعنوان: العرب المسلمون في الأفلام دائما الشخصية الرديئة، تقول كاتبته ديما حمدان أن هوليوود لم تتبن موقفا بمثل هذه القسوة إزاء أية مجموعة عرقية كما تفعل إزاء العرب المسلمون، وتضيف أنه ظهر خلال العقدين الماضيين نمط واضح يربط بين تقلبات السياسة الخارجية في الولايات المتحدة وبين الصور النمطية العرقية التي تقدمها أفلام هوليوود، وهي ترى بأن الملف السينمائي للعرب المسلمون قد تغير بصورة موازية للتغيرات التي تحدث في المحيط السياسي، وقاد هذا الأمر في تقديم صور نمطية تتناسب والصورة المرغوبة...ففي عقد الثمانينيات كانت الصور السائدة النمطية هي لشيوخ النفط الأثرياء السمان، ولرجال ذوي طاقة جنسية هائلة يطاردون نساء غربيات وللوطيين، أما الآن فإن الصورة النمطية العربية لم تتغير إلى صورة مسلم إرهابي فحسب، بل أصبحت معيارا مقبولا.(عصام، 2002، صص47-48)

لقد لعبت صناعة السينما الأمريكية دورا عالميا في الترويج لثقافة العنف في موضوعات المغامرة والإرهاب والجاسوسية والجنس والجريمة المنظمة، وكذلك الترويج للكسب السهل والانحلال وتفكيك الأسرة فضلا عن الترويج للإنسان الأمريكي المتفوق.

فقد نمت بهذه الثقافة على مدى عقود من الزمن في واقع الحياة الاجتماعية في المجتمع الأمريكي كما أصبح من غير الممكن نجاح أي صناعة دون محاكاة أسلوب الإنتاج الأمريكي وتقاليده الهوليودية، وبهذا أصبت السينما مهما كانت جنسيتها مغلوبة على أمرها في هذا العصر خارج المعادلة، وبما لدى هذه السينما من قدرة على التأثر والإقناع والإبهار. (عبدو، 2006-2007، ص70).

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا أن أخلطت الأوراق، وكان أن ظهر اتجاه متنام في العالم الغربي، وربما في العالم أجمع، يعتبر المسائل المتعلقة بالعالم العربي مسائل إسلامية، بما يؤدي إليه هذا التجاهل للتنوع العرقي والديني الموجود في المنطقة العربية من استسلام لما يمكن أن يطلق عليه التصوير النمطي المقصود.

وصار الغرب يغتنم كل حادثة تقع في البلاد العربية أو الإسلامية فيعمل على إحياء هذه الصورة، مثلا حين وقعت جريمة الأقصر في مصر في نوفمبر سبعة وتسعون تسعمائة وألف على عدد من السياح الأجانب، خرجت مجلة (الباري ماتش-Alpari match) الفرنسية بعنوان صارخ عن (مجانين الله) كما أن مجلة (التايم-time) الأمريكية أشارت إلى الحادث نفسه تحت عنوان "الإرهابي الإسلامي".

وحيثما تتوجه الآن خاصة في بلاد الغرب تجد أصداء واضحة للصورة الجديدة في إسبانيا الحديثة مثلا، فإن العرب الذين يعيشون الآن يعتبرون في مرتبة أدنى من غيرهم ويعاملون في العمل والمجتمع على هذا الأساس، أما بالنسبة للعرب خارج إسبانيا،فإن الصورة بائسة أيضا الآن، لأن العربي يصبح عادة المسلم المتطرف، وغالبا ما تقدمه الأخبار بهذه الصفة مقرونة بإحدى الكلمات التالية، مذبحة، الأصولية،

اغتيال، جهاد، قنبلة، الله، الخ...ولا تتضمن مفردات تشتمل على أي من الألفاظ التالية: حب، أسرة، تقدم، فرح، صداقة، أو أمل، العنف غالبا ما يقترن بالثقافة والديانة الإسلامية.

وفي مجال الأثر الذي تخلفه الصورة العربية السلبية على صانع القرار الأمريكي ترى الباحثة (جانيس تيري-Janice Terry) بأن المناخ الإيجابي للرأي العام إزاء إسرائيل قد شجع على وجود سياسة خارجية مؤيدة لتلك الدولة بالمقابل فإن المناخ الغير المتعاطف مع العرب عموما قد شجع المواقف المضادة للعرب...بالاضافة لذلك فإن هذه المواقف السلبية كثيرا ما عرقلت الوصول لسياسات مؤيدة للعرب.

ب- الصورة الإيجابية عن العرب والمسلمين في السينما الأمريكية: بالمجمل كانت الصورة السائدة ليست جيدة عن العرب، فهم كما سبق إرهابيون وليسوا مقاومين للاستعمار الإسرائيلي، وأثرياء تافهون يركضون وراء الشقراوات الأوروبيات، وغيرها من الأنماط السائدة في السينما الأمريكية عن العرب. لكنّ البعض الآخر قرر أن تكون أفلامه تعطي الصورة الحقيقية (لا أخيار ولا أشرار) مثلهم مثل كل البشر. في فيلم (مملكة الجنة- Kingdom of Heaven) يبدو صلاح الدين رجلًا رحيمًا طيبًا، ويعيش المسيحيون في سلام بعدما تقع مدينة القدس تحت قبضته.

يمكنك كذلك مشاهدة صورة العربي الذي يستطيع أن يتمتع بمشاعر حبّ، مع (كيت وينسلت- Kate Winslet) البريطانية ويساعدها وهي في المغرب في العودة إلى موطنها هي وابنتها في فيلم (غريب شنيع- Hideous Kinky)كذلك يمكنك مشاهدة فيلم (توقيت القاهرة- CairoTime) وفيلم (أميرة وسام- Amira & Sam) لتجد هذه الصورة الجيدة.، لكن إذا كانت هذه ملامح الصورة العربية المسلمة في الغرب، فكيف حال الصورة الغربية بالمقابل عند العرب المسلمون؟

في الحقيقة لم ير العرب المسلمون في الغرب، خاصة بعد تطبيق اتفاقية (سايس بيكو-Sais Pico) ووعد بلفور إلا دولا متغطرسة تمثل نظاما متحايلا لا يحترم المواعيد والمواثيق، صحيح أنه كان هناك انبهار بتقدم الغرب الثقافي، لكن هذا لم يلغ من الأذهان صورة ازدواجية المعايير التي يتعاملون معها في القضايا المصيرية، وخاصة قضية فلسطين وفي أحايين كثيرة يشار إلى الغرب في المنظور الديني بأنه كافر، وإذا كانت هذه الصورة من فعل وسائل الاتصال الغربية، فالمؤسف أن وسائل الاتصال العربية أعجز من أن تستطيع الرد بالمثل، لتنشر صورة للغرب بهذه السمات، وتبقى الهيمنة لوسائل الاتصال الغربية، التي تعمل دون كلل على تشويه الصورة العربية باستمرار، بما يعتبر أحد بنود أجندتهم الإعلامية عامة والسينمائية خاصة. (عصام، 2002، صص49-50)

هذه كانت أبرز صور للعرب في عيون سينما هوليوود، بسلبياتها وإيجابياتها، والملاحظ في هذه الدراسة أن الجانب السلبي يطغى على معظم الأفلام ذلك بفعل أن المهيمن والمسيطر على السينما الأمريكية هو الجانب المعادي للعرب والمسلمين وخاصة اللوبي اليهودي.

خاتمة:

خلاصة القول إن هذه الصورة البشعة التي تقدم عبر السينما.

1-تعزز من الصورة السلبية في ذهن الإنسان الغربي، وكل من يتزود من تلك المصادر من شعوب الأرض.

2- يؤدي هذا إلى انتشار الصورة العربية السلبية بكل انعكاساتها في مشارق الأرض ومغاربها. فيقدم العرب والإسلام في الغالب بصورة غير محبذة، وبما أن أغلب الأمريكيين لا يميزون بين العرب والمسلمين، ويظنون أن المصطلحين مترادفين.

3- النشر السلبي عن الإسلام يشوه صورة العرب أوتوماتيكيا.

هذه كانت أبرز صور للعرب في عيون سينما هوليوود، بسلبياتها وإيجابياتها، والملاحظ في هذه الدراسة أن الجانب السلبي يطغى على معظم الأفلام ذلك بفعل أن المهيمن والمسيطر على السينما الأمريكية هو الجانب المعادي للعرب والمسلمين وخاصة اللوبي اليهودي.

توصيات:

- الاهتمام بالصناعة السينمائية بما يخدم الموروث الثقافي المادي واللامادي.
- توظيف التاريخ والاهتمام بالهوية العربية والإسلامية في الأيقون السينمائي.
- يجب تصحيح وإبراز صورة العرب والمسلمين، عن طريق الوسيط نفسه-السينما-بإنتاج أفلام تفي بالغرض مثل ما كان مع فيلم الرسالة بنسختيه العربية والانجليزية مثلا.
- كباحثين وأكاديميين مهتمين بالسينما يجب إيجاد السبيل الذي يمكننا من تصحيح هذه الصورة المغلوطة والعمل معا على صناعة صورة إيجابية للمسلمين والعرب في فكر الآخر عن طريق النقد السينمائي الهادف الذي يخدم تطوير هذا الفن في مجتمعاتنا.

قائمة المراجع:

- عصام سليمان الموسى، صورة العربي في الاعلام الغربي، 2002، الاذاعات العربية عدد2، لبنان.
- عبدو نادية، العنف في سينما سكورسيز، فيلم عصابات نيويورك-نموذجا-، 2006-2007، رسالة ماجستير، إشراف: الشيخ لوقربة، جامعة وهران، الجزائر.
- بغالية أحمد، ميونيخ...سبيلبرغ...والصراع الفلسطيني الاسرائيلي هل الفيلم يرسم السياسة...أم الساسة يرسمون الأفلام؟، 2016، مجلة آفاق سينمائية، مختبر فهرس الأفلام الثورية في السينما الجزائرية، جامعة وهران أحمد بن بلة-1-، العدد 3.
- عصام سليمان الموسى، صورة العربي في الاعلام الغربي، م س.

- عبدو نادية، العنف في سينما سكورسيز، فيلم عصابات نيويورك-نموذجا، م س.
- عصام سليمان الموسى، صورة العربي في الاعلام الغربي، م س.

أسباب وخلفيات اعتماد الرسوم المسيئة للمسلمين في الصحافة الغربية

Reasons and Backgrounds for Adopting Cartoons Offensive to Muslims in Western Newspapers

د.مهدي تواتي، جامعة البليدة2 -لونيسي علي، الجزائر
m.touati@univ-blida2.dz



انتشرت في الآونة الأخيرة ظاهرة الرسوم المسيئة للمسلمين في المجلات الغربية، وذلك باستهداف شخص الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بشكل خاص، واكتست طابعا استفزازيا أحيانا، وطابعا أيديولوجيا في أحيان أخرى مبررة أفعالها بحرية التعبير والممارسة الإعلامية، متناسية أن حرية الأشخاص والمؤسسات تتوقف عند حرية الآخرين، في تحدّ صارخ لقواعد الحرية الإعلامية المتعارف عليها عالميا.

الكلمات المفتاحية: الأسباب والخلفيات، الرسوم المسيئة، المسلمين، الصحف الغربية.

Abstract:

Recently, the phenomenon of cartoons of Muslims has spread in Western magazines, targeting the person of the Prophet Muhammad, may God bless him and grant him peace in particular. It has acquired a provocative character at times, and an ideological character at other times, justifying its actions with freedom of expression and media practice, forgetting that the freedom of persons and institutions depends on the freedom of others, in flagrant defiance of the internationally recognized rules of media freedom.

Keywords: reasons and backgrounds, cartoons, Muslims, Western newspapers.



مقدمة:

تحتل المساحات الهزلية في الصحافة المكتوبة أهمية بالغة في مجال الاعلام والاتصال وهذا على العكس مما يعتقده كثير من الناس، بحكم ما تحمله من رسائل وغايات ومرامي ذات تأثير مباشر أو غير مباشر على جماهير واسعة، ويختلف هذا التأثير باختلاف مستويات الوعي والقدرة الادراكية لمضامين الرسائل الإعلامية لدى مختلف فئات الجمهور، كما يهدف القائمون على هذه الرسائل والمضامين إلى تحقيق عدة غايات، كالعمل على تصدير ثقافة معينة أو محاولة تشكيل صورة ذهنية وترسيخها عند الجمهور أو تمجيد وذم قيم أخرى، من أجل تحقيق التأثير المطلوب والأهداف المسطرة سلفا.

يعتبر الكاريكاتير أهم مظاهر الأسلوب الهزلي في الصحافة المكتوبة، لكنه في مقابل ذلك يتضمن رسائل ومضامين ذات دلالات عميقة قد يكون من الصعب على القارئ العادي فك رموزها، إلا أنه في كل الأحوال تعتبر تقليدا صحفيا راسخا في الصحافة المكتوبة وقد تحتل مساحة ثابتة لدى كثير من الصحف، خاصة

التي تهتم بالتحليل أو ما تعرف بصحافة الرأي، مما جعلها تستخدم هذه الذريعة لأدراج أعمالها الهزلية ضمن حرية الرأي، وهذا من أجل ضمان تمرير رسائلها دون عناء.

إن الرسم الكاريكاتوري يسهم بدور بالغ الأهمية في رسم الصور الذهنية وترسيخها لدى القراء وفقا لأهداف القائمين عليها، فالرسم من الفنون التي عرفتها البشرية قبل ظهور الاعلام أصلا، لكن بظهور هذا الأخير زادت استعمالاتها وشاع انتشارها وذاع صيتها عبر العالم الذي أصبح بفضل هذه الوسائل عبارة عن قرية صغيرة.

تأتي هذه المداخلة كمحاولة لإبراز أهم مظاهر استخدام هذا الأسلوب من التعبير في مختلف الصحف العالمية والوقوف على الأسباب والخلفيات والدوافع التي تقف وراء تعمد نشر واستخدام الرسوم المسيئة بادّعاء حرية التعبير.

أولا-الإشكالية:

نركز في إشكالية هذا المقال على قضية أساسية وظاهرة عالمية انتشرت بصفة خاصة في السنوات الأخيرة وما فتئت تتزايد يوما بعد يوم في الصحف الغربية، وهي الرسومات المسيئة للمسلمين باستهداف النبي محمد صلى الله عليه وسلم في شخصه وفي رسالته من أجل الإساءة للمسلمين واحتقارهم واستفزازهم والتقليل من شأنهم بالإساءة لنبيهم وتشويه رسالته التي جاء بها ليس لفئة معينة وإنما للعالم أجمع، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم في عدة مواضع مثل قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. (الأعراف، آية 158).

وقوله تعالى أيضا في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(سبأ، آية 28).

هذا ما يعني أن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ليس رسولا للمسلمين أو العرب فقط وإنما رسول الإنسانية جمعاء.

وتهدف هذه الإشكالية بشكل أساسي إلى معرفة الأسباب والدوافع التي أدّت إلى انتشار وذيوع مثل هذه الرسومات التي تسيء لأصحابها قبل من يمعنون في الإساءة إليهم، وهذا باعتبار المسلمين يحترمون جميع الرسل ويؤمنون بهم ولا يتجرؤون على الإساءة إليهم، وهذا عكس الغربيين الذي يختارون نبيا واحدا يسيئون له دون الأنبياء الآخرين وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا ما يجعلنا نمعن التساؤل حول مدى مصداقيتهم، بل وفي أسباب وخلفيات ودوافع التي تجعلهم يقدمون على هذه الأفعال المنبوذة في كل الأديان.

من هذا المنطلق وبناء على ما تم ذكره ومن أجل فهم طبيعة الموضوع والوقوف على حقيقة ما يجري في هذا الشأن قمنا ببلورة تساؤل هذه الإشكالية على النحو التالي:

ما هي أهم أسباب اعتماد الرسوم المسيئة للمسلمين في الصحف الغربية وما الخلفيات الكامنة وراء ذلك؟

ثانيا-تحديد المفاهيم:

المفاهيم الإجرائية:

1-مفهوم الأسباب والخلفيات:

أ.الأسباب: نقصد في هذا الموضوع بالأسباب على أنها مجموع الدواعي والذرائع والبواعث التي تحرك شخصا أو جهة ما للقيام بفعل أو تصرف معين. وهذا ما نقصده بالضبط في أسباب نشر الرسوم المسيئة للمسلمين ونبيهم محمد عليه السلام، رغم أنه ليس نبيا أو رسولا لهم لوحدهم، بل هو نبي ورسول إلى العالم أجمع كما سبق توضيحه من خلال الآيات الواردة آنفا.

ب.الخلفيات: المقصود في هذه الدراسة بالخلفيات هي تلك الغايات والمقاصد الخفية من فعل ما، إضافة إلى الملابسات الاجتماعية والمرجعيات الفكرية والثقافية والأيديولوجية المتبناة أو التي تم الاستناد عليها من أجل القيام بهذا الفعل.

2-مفهوم الرسوم المسيئة:

نقصد بالرسوم المسيئة للمسلمين تلك الرسوم التي نشرت عبر بعض الصحف الغربية والتي تضمنت إساءة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وتناقلتها بعض الصحف الأخرى بطريقة استفزازية بعيدة عن الموضوعية وروح وسالة الاعلام النبيلة المبنية على الاحترام وعدم الإساءة للآخر بأي شكل من الأشكال، مستغلة في ذلك شعار حرية التعبير، رغم أنها لا تستطيع تطبيق هذه الحرية إلا مع المسلمين والرسول محمد عليه الصلاة والسلام بنيّة الإساءة لا غير، فلا يمكن تصور هذه الصحف تنتقد أو تسيء لشخص موسى أو عيسى أو إبراهيم عليهم السلام، رغم علمهم بأن المسلمين لا يمكنهم الإساءة للرسل، بل يحترمونهم ويؤمنون بهم جميعا كما جاءت بذلك عقيدة الاسلام.

3-المسلمين: الذي نقصده بالمسلمين هنا هم الناس المصدقين برسالة الإسلام التي جاء بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، والذين يتبعون منهجه في حياتهم الخاصة والعامة، ويظهرون قبولهم وخضوعهم لشريعة الاسلام.

4-الصحف الغربية: إذا كانت الصحف في مفهومها العام تعني المؤسسات الإعلامية التي تهتم بجمع المعلومات ونشرها وإبلاغها للناس، فإن ما نقصده بالصحف الغربية هو الصحف الصادرة في الغرب (أوربا وأمريكا على وجه الخصوص)، وتشمل كل النشريات والمطبوعات والدوريات التي تهتم بنقل الأخبار والتعليقات والملاحظات والانتقادات التي تعبر عن مشاعر الرأي العام، وتباع في مواعيد محدد (يومية أو أسبوعية أو نصف شهرية... إلخ)، وتعرض على الجمهور عن طريق الاشتراك أو الشراء.

ثالثا-أسباب وخلفيات نشر الرسوم المسيئة للمسلمين:

1-الأسباب: هناك العديد من الأسباب التي جعلت المسلمين عرضة للإساءة من طرف الاعلام الغربي، ولعل من أهمها:

- الجهل بتعاليم الإسلام وقيمه السمحة، وهذا بسبب البعد عن الدراسة الموضوعية للإسلام كدين سماوي وكشريعة ربانية يمكن اعتباره على الأقل كباقي الشرائع والأديان السماوية الأخرى.
- النظرة الدونية المسبقة للإسلام، والتي تجعل من إنصافه وإنصاف أهله ضربا من ضروب الخيال، حيث ترسخت لدى الغرب هذه النظرة نتيجة تراكمات تاريخية وحضارية سابقة بقيت آثارها إلى اليوم.
- الخوف المبالغ فيه من الإسلام (الإسلاموفوبيا)، والتي جعلت منه هدفا لسهام الاعلام الغربي بصفة عامة والصحف والدوريات باعتبارها أحد مكونات المنظومة الإعلامية الغربية.
- المبالغة في تجاهل التراث الحضاري والديني الإسلامي الذي يركز على التعايش السلمي والدعوة بالحسنى والأخلاق والتعاملات الراقية، والتركيز مقابل ذلك على الجانب العنيف الذي سوقه بعض المتشددين من المسلمين عن الإسلام، وهذا ما جعل النظرة للإسلام والمسلمين على أنهم إرهابيون ويمارسون العنف، رغم أن العنف والإرهاب ليس له دين أو عرق، فهناك منظمات وجماعات تمارس العنف ولا علاقة لها بالإسلام والمسلمين.
- العنصرية والحقد على كل ما هو أجنبي، حيث يرى كثير من الإعلاميين الغربيين أن تعاليم وقيم دينهم راقية ومميزة عن تعاليم وقيم باقي الديانات، وأن حضارتهم هي الأسمى والأرقى عن باقي الحضارات وبالتالي لا يجب ترك هذه الحضارات تزاحم حضارتهم خاصة لما يتعلق الأمر بالإسلام والمسلمين.
- هذه العوامل خلقت نوعا من التضاد والصراع المزمنين بين الشرق والغرب، (فلاك، جفافلة، 2020، ص 56)، أي صراع بين الإسلام والمسيحية.

2-الخلفيات: تختلف الخلفيات عن الأسباب في كونها تتسم بنوع من السرية والاحتيال والمكر، فالخلفيات كما سبق الإشارة إليه هي في أغلب الأحيان غايات ومقاصد خفية مخطط لها بدقة ومدروسة من جوانب متعددة. ويمكن تمييز هذه الخلفيات إلى:

أ.خلفيات دينية: وهي ناتجة عن التهديد المحتمل للمسيحية بسبب الخوف من الانتشار المتزايد للإسلام نتيجة الاقبال على دراسته من طرف فئات واسعة من طرف الأفراد أو من طرف النخب الغربية في حد ذاتها.

تعبر هذه الخلفيات عن الاستمرار في عقلية محاربة الإسلام وعقيدة الحروب الصليبية، وبسبب علمهم بغيرة المسلمين عن دينهم واستماتتهم في الدفاع عنه تم اللجوء لمثل هذا النوع من الحروب (الإساءة الإعلامية)، بغرض زعزعة المثل العليا للإسلام في نفوس أبنائه من ناحية، وإثبات تفوق الحضارة الغربية وعظمتها من ناحية أخرى. (حسن، بني عامر، 2004، ص 32).

ب.خلفيات اجتماعية: هذه الخلفيات ناتجة هي الأخرى عن التخوف من تغير ملامح المجتمع الغربي خاصة من الناحية الديمغرافية نتيجة تزايد عدد المسلمين في المجتمعات الغربية سواء بسبب الهجرة أو بسبب المعتنقين الجدد للإسلام.

المراد من هذه الخلفية هو خلق صورة تتضمن تصنيفا وتقييما مرتبط بالأساس بتمثيل الجماعات الاجتماعية. (زكريا أحمد، 2009، ص 299)، وهذا بغرض جعل فئة المسلمين فئة ضعيفة وغير مؤثرة ومنبوذة في المجتمعات الغربية.

هناك أيضا ما يتعلق ببعد القيم في المجتمع، فإذا ما ارتفعت تلك القيم الاجتماعية وحلت محلها قيم أخرى قد تكون أقل مستوى منها. تبدأ القيم الأولى في الانحدار والتدني حتى تصل إلى مستوى اللاّقيم، (بالروين، 1994، ص 33)، وهذا ما يخشاه الغربيون من أن تحل في مجتمعهم قيم الإسلام وتضمحل قيم حضارتهم التي شيدوها لعشرات السنين.

فالقيم كما نعرف جميعا ضرورية في المجتمع، و"ضرورة القيمة تكمن في التمييز وإصدار الحكم على الأشياء، ولولا وجود معيار للتقييم لاختلطت الأمور فيما بينها، وصعب تمييز الخير والشر، ويتوقف تبعا لذلك إصدار أحكام تتعلق بالجزاء والمدح والعقاب والاستهجان" (بالروين، 1994، ص 33)، فالقيم كما نلاحظ هي بمثابة "معايير للسلوك" (أبو النيل، 1986، ص 5).

القيم إذن تعتبر نظاما منيعا لحماية النسيج الاجتماعي، والوطني، والقومي، تحمي من خلاله الدول والشعوب نظمها القيمية الداخلية من الغزو والاختراق الثقافي والحضاري الوافد من الخارج، وخاصة مع ظهور وسائل الاتصال الحديثة، وظهور ما سمّي بالصراع الثقافي والحضاري بين الغرب والشرق، وكذا العولمة التي تسعى إلى زرع القيم الثقافية والحضارية التي تنادي بها الدول العظمى الغربية على وجه الخصوص.

ج.خلفيات سياسية: الخلفيات السياسية في الغالب يكون محركها ودافعها الأطماع والطموحات السياسية لبعض السياسيين، حيث يلجأ الكثير من المترشحين للاستحقاقات السياسية إلى الإمعان في التهجم على الإسلام والمسلمين بغرض تحقيق مكاسب سياسية وجلب المتعاطفين من مختلف الفئات المناهضة للإسلام والمسلمين.

د.**خلفيات حضارية:** تتمحور هذه الخلفيات حول تعظيم الحضارة الغربية والعمل على توسيع انتشارها، واحتقار الحضارة الإسلامية وتحجيم مكانتها لدى المجتمعات الغربية، وهذا برسم صور ذهنية لدى جمهورها باستثمار وسائل الاعلام، حيث يتم استغلال الأعمال الفنية من رسوم وأفلام وحملات وصور متحركة ورسومات كاريكاتورية بغرض تشكيل ثقافة جماعية تعادي الإسلام والمسلمين بصورة خاصة(بودهان، 2006، ص28).

ه.خلفيات دعائية كاذبة: يقوم هذا الفكر بشكل أساسي على الدعاية بهدف الإقناع وشرح الأحداث لإقناع الجماهير باتخاذ موقف ينطبق مع الدعاية، ويعتمد على نشر أجزاء من المعلومة وإقامة نقاش لإطلاع الجماهير عليها، ودعوتهم لتأييدها أو رفضها من أجل توجيهها حسب الخطة التي وضعتها الدعاية

وهذا باستخدام الكشف السياسي ونشر الشعارات، فالكشف السياسي ينطوي على منطق يتمثل في وقوع حدث حتى ولو كان تافها، والكشف عن الحقائق والنوايا التي ينطوي عليها الحدث، والغاية هي القضاء على المنافس السياسي، وقد استخدم هذه الطريقة الحزب الماركسي الروسي للقضاء على منافسه المتمثل في الرأسمالية العالمية، أما نشر الشعارات فتتمثل في التعبيرات اللفظية عن مطلب أو مطالب في مرحلة معينة لتحقيق هدف معين تم التخطيط له من قبل. (إحدادن، 2007، ص 13).

رابعا: كيف حولت أوربا الإسلاموفوبيا إلى أسطورة خطيرة؟ (موقع الجزيرة، 18-04-2022).

اعتبر باحثان في جامعة جورج تاون الأميركية أن السنوات الأخيرة شهدت "حربا ثقافية" ضد دراسات الإسلاموفوبيا في دول أوروبية مثل فرنسا، وألمانيا، والنمسا، حيث أنكرت الحكومات وجل الأحزاب السياسية والمفكرون في هذه البلدان وجود مشكلة رهاب الإسلام لديهم أو في تعامل مجتمعاتهم مع الأقليات المسلمة.

وذكر الباحثان في الدراسات الإسلامية والعلوم السياسية جون إسبوزيتو وفريد حافظ -في مقال لهما بموقع "ميدل إيست آي (Middle East Eye) "الإخباري البريطاني- أنه على مدى العقدين الماضيين برزت دراسات الإسلاموفوبيا بشكل متزايد كمجال أكاديمي فرعي يوثق ويتحدى العنصرية والتمييز وخطاب الكراهية والعنف ضد المسلمين في جميع أنحاء العالم.

وقد تناولت كتب ومجلات ومنتديات وتقارير إعلامية واستطلاعات رأي رئيسية أسباب وتأثيرات الإسلاموفوبيا، ومع ذلك ما زالت حكومات أوروبية عدة تحاول جاهدة إنكار وجوده هذه الظاهرة من الأساس، ففي فرنسا مثلا لا تقبل الحكومة ومؤيدوها الدراسة النقدية والنقاش في إطار مجال دراسات الإسلاموفوبيا الناشئ، معتبرين أن هذا الإطار الفكري مسؤول عن خلق والترويج لفجوة اجتماعية خطيرة داخل المجتمع.

خامسا: عنصرية خيالية: (موقع الجزيرة، 18-04-2022).

يرى الفيلسوف الفرنسي المعاصر باسكال بروكنر -في كتابه "عنصرية خيالية... الإسلاموفوبيا والشعور بالذنب"- أن الإسلاموفوبيا محض افتراء يستخدمه الإسلاميون كسلاح للترهيب الجماعي، ويخلص إلى أن مناهضي العنصرية أصبحوا هم أنفسهم عنصريين، داعيا للدفاع عن "القيم الغربية" في وجه هؤلاء.

يعتقد كاتبا المقال أن هذا النوع من الخطاب المعادي للإسلام تم توظيفه واستغلاله من قبل حكومات أوروبية وساسة آخرين لإسكات أي صوت معارض أو ناقد لسياساتهم الاستيعابية ضد الجاليات المسلمة.

في ألمانيا، أصدر الحزبان المسيحيان المحافظان الحاكمان (حزبا الاتحاد الديمقراطي المسيحي والاتحاد الاجتماعي المسيحي) مؤخرا بيانا أشار إلى تصريح لعميد معهد الدراسات الإسلامية في جامعة مونستر الألمانية مهند خورشيد الذي قال إن "مصطلحات مثل الإسلاموفوبيا والعنصرية ضد المسلمين أصبحت مصطلحات قتالية للإسلام السياسي"، وأكدت رسالة مفتوحة سبقت البيان على أهمية "عدم الخضوع لاتهامات لا أساس لها بالإسلاموفوبيا."

وذكر الكاتبان أنه انطلاقا من هذا الموقف المناهض لدراسة الإسلاموفوبيا والوعي بوجودها يعتبر السياسيون في النمسا وألمانيا وفرنسا "الإسلام السياسي" أو "الانفصالية الإسلامية" أو "الإسلاموية" أكبر تهديد يواجه المجتمع الأوروبي، مما سمح للزعماء السياسيين بتبرير إجراءات صارمة على بعض المواطنين بزعم أنهم يشكلون خطرا على المجتمع.

أمام هذا الواقع الجديد الذي أقضَّ مضاجع الكنيسة، وأمام الزحف الثابت للإسلام، لم تجد الكنيسة ورجالها من وسيلة لوضع حد لهذا الزحف سوى تسويق صورة مشوهة عن الإسلام، يعلم أصحابها قبل غيرهم بأنها صورة مختلقة، ولا تمت إلى الواقع بأدنى صلة. وقد تولى كبر هذا المخطط رجال الكنيسة "المتمرسون أصلا على الجدل والشجار، فشعروا آنذاك بانطلاق مواهبهم وقواهم في الطعن في الإسلام؛ حيث اتفقوا جميعا على وصفه بأنه كنيف الزندقة". (هيركومر، 1999، ص 23).

شكلت الكنيسة إذا بداية لمرحلة جديدة في التعامل مع المسلمين، وهي مرحلة امتازت بالمكر والخداع القائمين على الكذب والبهتان، حينما ادعى بعضهم أن "...رسول الإسلام كان في الأصل كاردينالا كاثوليكيا، تجاهلته الكنيسة في انتخابات البابا، فقام بتأسيس طائفة ملحدة في الشرق انتقاما من الكنيسة. واعتبرت أوربا المسيحية في القرون الوسطى محمدا صلى الله عليه وسلم المرتد الأكبر عن المسحية، الذي يتحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية". (هيركومر، 1999، ص 23-24).

خاتمة:

إننا في خاتمة هذا البحث ننبه للمغالطات والأكاذيب التي يروجها الاعلام الغربي مستغلا هشاشة منظوماتنا الإعلامية وعجزها عن التصدي عالميا لهذه الدعايات الكاذبة التي تستغل حرية التعبير كغطاء للتخفي وراءه وتبرير عدوانها وتهجمها وإساءاتها، وعدم احترامها للغير وتجاوزها حدود اللباقة، وكذا بعدها عن رسالة الاعلام النبيلة.

ومن خلال وقوفنا على هذه التجاوزات التي دأبت عليها الصحف الغربية فإننا نلتمس من إعلامنا مراعات النقاط التالية:

- الانتباه إلى المغالطات التي ترد في الرسوم والمحتويات الإعلامية وعدم نقلها أو نشرها ولو على سبيل التوضيح.
- ضرورة تجند القائمين على الاعلام عندنا بانتقاد تلك الادعاءات الباطلة والعمل على نشر الصورة الصحيحة عن الإسلام والمسلمين بالحجة والدليل القرآني.
- تخصيص مساحات إعلامية دورية أو ثابتة لمواجهة هذه التهجمات والتحيزات العنصرية وإبراز بطلان ادعاءاتها وزيف مقاصدها وضعف وسخافة موضوعاتها.
- عدم الانجرار وراء هذه الاستفزازات ومواجهتها بحكمة ورزانة وتريث، لعدم منح الفرصة للحاقدين.
- مناقشة أصحاب هذه الأفكار ودعوتهم للإقلاع عن هذه التصرفات التي تسيء إليهم وإلى حضارتهم الزائفة التي تدعي زورا ديمقراطيتها وحريتها.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر

1-القرآن الكريم.

ثانيا: المراجع:

- فلاك فريدة وداود جفافلة، (2020)، **مصادر الصورة الذهنية والنمطية للإسلام والمسلمين في وسائل الاعلام الغربية**، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 12، العدد 05، ص 56.
- محمد أمين حسن ومحمد بني عامر، (2004)، **المستشرقون والقرآن الكريم**، دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن، ص 32.
- أحمد زكريا أحمد، (2009)، **نظريات الاعلام (مدخل لاهتمامات وسائل الاعلام وجمهورها)**، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع، مصر، ص 299.
- محمد بالروين، (1994)، **الإنسان بين القيمة والنمطية**، دار النهضة العربية، بيروت، ص33.
- محمد السيد أبو النيل، (1986)، **القيم والإنتاج**، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، ص5.
- يامين بودهان، (2006)، **تشكيل الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين في الاعلام الغربي**، مجلة الوسيط للدراسات الإعلامية، عدد 12، جامعة سطيف، الجزائر، ص 28.
- زهير إحدّادن، (2007)، **مدخل لعلوم الإعلام والاتصال**، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ص 13.
- موقع إلكتروني، الجزيرة، **(https://www.aljazeera.net/news/politics)**، تاريخ الاطلاع: 18-04-2022، سا 11.15.
- أهوبرت هيركومر، (1999)، **صورة الإسلام في التراث الغربي**، ترجمة ثابت عيد، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص 23-24.

المعالجة الإعلامية لظاهرة الإسلاموفوبيا في برنامج تحقيقات الجزيرة -حلقة صناعة الإسلاموفوبيا نموذجا-

Media Treatment of Islamophobia in Al-Jazeera's Investigation Program -Islamophobia Industry as a Model -

د.نوال بومشطة، جامعة أم البواقي -الجزائر
naouel.boumechta@univ-oeb.dz



مع تنامي موجة الإسلاموفوبيا في الغرب، وانعكاساتها السلبية على المسلمين عبر العالم، جاءت هذه الدراسة لتبحث في كيفية التناول الإعلامي لتحقيقات قناة الجزيرة الإخبارية لظاهرة الإسلاموفوبيا، باعتبار التحقيق من الأنواع الصحفية التي تكشف عن الحقائق والخفايا، ولها دور كبير في تقصي الأخبار.

تعتمد الدراسة على المنهج الوصفي وأداة تحليل المحتوى، التي صممت ضمن فئات تم من خلالها استخراج البيانات اللازمة لتحليل حلقة "صناعة الإسلاموفوبيا"، وقد خلصت الدراسة إلى عدة نتائج أبرزها أن تحقيق الجزيرة حول صناعة الإسلاموفوبيا في أمريكا، كشف عن الكثير من الحقائق الخفية التي ساعدت في انتشار هذه الظاهرة وتفاقمها في الدول الغربية، كما تناول الظاهرة من جوانب متعددة وكشف عن أسرار للرأي العام العالمي تفسر حقيقة انتشار ظاهرة الخوف من الإسلام.

الكلمات المفتاحية: الإسلاموفوبيا، التحقيق التلفزيوني، قناة الجزيرة، المعالجة الإعلامية.

Abstract:

As the wave of Islamophobia in the West grows and its negative repercussions on Muslims around the world grow, this study looks at how al-Jazeera's investigations into Islamophobia are a journalistic genre that reveals facts and concealment.

The study is based on the descriptive approach and content analysis tool, designed in categories through which the data needed to analyze the "Islamophobic industry" episode was extracted, and the study concluded several findings, most notably that al-Jazeera's investigation into the Islamophobia industry in America revealed many hidden facts that helped spread and exacerbate this phenomenon in Western countries, and addressed the phenomenon in many respects and revealed secrets to world public opinion explaining the reality of the spread of Islamophobia.

Keywords: Islamophobia - TV Investigation - Al Jazeera channel - Media Processing



مقدمة:

لقد ساهمت وسائل الإعلام في تشكيل صور نمطية عن العرب والمسلمين لدى المجتمعات الغربية، أدت إلى تفاقم ظاهرة الخوف من الإسلام أو الإسلاموفوبيا التي ألقت بظلالها على المجتمعات الإسلامية، حيث شوهت صورة الإسلام والمسلمين لدى الآخر خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر، التي شكلت سببا قويا لشن حملة كبيرة باستخدام كل الوسائل والأدوات المتاحة.

ولعل وسائل الإعلام كانت الأداة الرئيسية لرسم صورة نمطية مشوهة جعلت من الغرب يضعون أجندات سياسية واقتصادية وحتى دينية للقضاء على هذه الظاهرة ومواجهة اعتداءات المسلمين الذين تم وصفهم بالإرهابيين.

ومن جهة أخرى كان لوسائل الإعلام الدور الأساسي في إبراز البعد الحقيقي لهذه الظاهرة من خلال تحليل وتفسير أسبابها ودوافعها عبر مختلف البرامج التلفزيونية والأفلام السينمائية ومختلف المنتجات الإعلامية، وفي هذا الإطار عملت قناة الجزيرة الإخبارية على إجراء تحقيقات موسعة حول الظاهرة من خلال تصوير فيلم وثائقي استقصائي بعنوان "صناعة الإسلاموفوبيا" ضمن برنامج "تحقيقات الجزيرة" والذي يندرج تحت فئة التحقيقات التلفزيونية، التي تهدف إلى البحث والتقصي عن الحقائق الكامنة وراء الأحداث والظواهر التي تميز المجتمعات، وتعتمد على مصداقية المعلومة وموضوعية الطرح لتكوين الصورة الحقيقية عن ذلك.

وعليه من خلال هذه الدراسة سنبحث عن مضمون هذا التحقيق الاستقصائي وكيفية تناوله لظاهرة الإسلاموفوبيا عن طريق طرح التساؤل الآتي: كيف عالج برنامج تحقيقات الجزيرة ظاهرة الإسلاموفوبيا؟

وتندرج تحته عدة أسئلة فرعية وهي:

- ما هي المواضيع المرتبطة بالإسلاموفوبيا والتي تناولها هذا البرنامج؟
- ما هي مصادر المعلومة التي اعتمد عليها؟
- من هم الفاعلون في هذا البرنامج؟
- ماذا قدم الفاعلون في هذا البرنامج؟
- ما هي الدعامات البصرية التي وظفها في ذلك؟
- ما هي الكلمات والعبارات الدالة على الإسلاموفوبيا والتي تعرض لها البرنامج؟

- ما هي أشكال إبراز الكراهية والعداء للإسلام التي أبرزها هذا التحقيق؟

تكمن أهمية الدراسة في كونها تسلط الضوء على البحث في معالجة وسائل الإعلام لظاهرة الإسلاموفوبيا وبالضبط عن طريق التحقيقات التلفزيونية، خاصة وأن هذه الأخيرة تبحث في الأسباب الخفية للظواهر الاجتماعية، عن طريق البحث وتقصي الحقائق ونقلها للجمهور، وعليه يمكن فك خيوط هذه الظاهرة وأبعادها المختلفة عن طريق مثل هذه البرامج الاستقصائية التي لها أهمية بالغة في وقتنا الحالي.

تسعى الدراسة إلى تحقيق ما يلي:

- التعرف على كيفية معالجة برنامج تحقيقات الجزيرة لظاهرة الإسلاموفوبيا.
- الكشف عن المواضيع المرتبطة بالإسلاموفوبيا والتي تناولها هذا البرنامج.
- التعرف على مصادر المعلومة التي اعتمد عليها البرنامج في معالجة هذه الظاهرة.
- تبيان الفاعلين في هذا البرنامج.
- التعرف على نوع المعلومات التي يقدمها الفاعلون في هذا البرنامج.
- الكشف عن الدعامات البصرية التي وظفها البرنامج في معالجته لظاهرة الإسلاموفوبيا.
- التعرف على أشكال إبراز الكراهية والعداء للإسلام من خلال هذا التحقيق.

تعد هذه الدراسة من الدراسات الوصفية التي ترتكز على وصف الظواهر عن طريق جمع وتحليل وتفسير البيانات، وتعتمد الدراسة في ذلك على منهج مسح المادة الإعلامية باستخدام أسلوب تحليل المحتوى، باعتبار أنه بصدد البحث في محتوى برنامج "تحقيقات الجزيرة " بقناة الجزيرة الفضائية وكيفية معالجته لظاهرة الإسلاموفوبيا.

ولجمع البيانات اللازمة، تعتمد الدراسة على أداة تحليل المحتوى، التي تتكون من فئات الشكل والمضمون، والتي سيتم تحديدها وفقا لما تتطلبه أهداف الدراسة، كما استخدمت وحدة التحليل المتمثلة في الفكرة والموضوع لاستخراج البيانات من عينة الدراسة.

يتمثل مجتمع البحث في مجموع حلقات برنامج "تحقيقات الجزيرة" التي تم بثها على قناة الجزيرة الإخبارية، وقد تم اختيار العدد عينة الدراسة بأسلوب قصدي حتى تتماشى مع مضمون الدراسة وهو البحث في معالجة هذا البرنامج لظاهرة الإسلاموفوبيا، حيث تم اختيار حلقة بعنوان "صناعة الإسلاموفوبيا" الذي تم بثه بتاريخ 13-05-2018، على الساعة العاشرة بتوقيت مكة المكرمة، ومدته 48:29 دقيقة.

– التعريف ببرنامج " تحقيقات الجزيرة":

يمكن تعريف برنامج "تحقيقات الجزيرة " حسب ما ورد في الموقع الالكتروني لقناة الجزيرة الفضائية (https://www.aljazeera.net/program/investigation)، على أنه "برنامج وثائقي يختص بأفلام ذات طبيعة تحقيقية استقصائية تنتجها وحدة التحقيقات الاستقصائية في شبكة الجزيرة، وتتنوع طبيعة المواضيع التي يحقق فيها البرنامج بين السياسية والاقتصادية والإنسانية. وتتسع تحقيقات البرنامج لتشمل أي دولة أو إقليم في العالم.

أولا-مفاهيم الدراسة:

ترتكز الدراسة على عدة مفاهيم، سنبرز تعريفاتها وفق ما يتناسب مع طبيعة وأهداف الدراسة.

1-المعالجة الإعلامية: هي "عملية كشف اتجاهات وماديات وإستراتيجيات التغطية الإعلامية من قبل جهة ما باتجاه قضية معينة".(باسي، 2015، ص6)

أما **التعريف الإجرائي** للمعالجة الإعلامي نقصد به: التناول الإعلامي وطرق معالجة المواضيع والأحداث في مختلف وسائل الإعلام، وفق أطر خبرية معينة، عن طريق تقديم أفكار وآراء حول قضايا معينة في قوالب متنوعة بما يتماشى والسياسة التحريرية للوسيلة الإعلامية.

2-التحقيق التلفزيوني: يعرف التحقيق الصحفي على أنه ذلك النوع الصحفي الذي " يقوم على خبر أو فكرة أو مشكلة أو قضية يلتقطها الصحفي من المجتمع الذي يعيش فيه ثم يجمع المادة اللازمة من البيانات والمعلومات والآراء للوصول إلى الحل الذي يراه صالحا لعلاج المشكلة أو القضية أو الفكرة التي يطرحها التحقيق." (السنجري، 2015، ص 32).

أما التحقيق التلفزيوني فهو ذلك المضمون الذي يقدم ضمن شكل سردي يتناسب مع الأنواع التلفزيونية المتعددة، ويمكن أن يترجم عبر برنامج مستقل أو عبر جزء من برنامج أو ضمن النشرات الإخبارية، أو أي نوع برامجي بحيث له خصوصية تتلاءم مع المضامين التي يقدمها التلفزيون (المصري، 2020، ص 188).

وعليه يمكن تعريف التحقيق التلفزيوني إجرائيا أنه ذلك النوع الصحفي الذي يسعى إلى جمع الأدلة والمعلومات والبيانات لتبيان حقائق معينة حول مشكلة أو قضية أو فكرة معينة.

3-الإسلاموفوبيا:حسب ما ورد في التقرير الثامن لمرصد منظمة التعاون الإسلامي، فإن ظاهرة الإسلاموفوبيا تتفاقم ، ويتضح ذلك من خلال العدد الكبير جدا من الأشخاص غير المسلمين في المجتمع الغربي الذين بدءوا ينظرون للإسلام على أنه دين عنف حقيقي وأن انتشاره عبر العالم سيؤدي لا محالة إلى إلحاق الضرر والأذى بسائر أتباع الديانات الأخرى، وهكذا ذهب بعض الأشخاص من غير المسلمين إلى مساواة الإرهابيين الذين يزعمون تمثيل الإسلام بتلك الأغلبية من المسلمين الذين يروجون دائما لقيم السلام والتسامح، إذ يرون أن الأفعال الشنيعة إنما ترتكب من قبل الفئة الأولى لأن الإسلام يحث على

ذلك، بالإضافة إلى ذلك، اكتسبت الخطابات المعادية للإسلام والتي تهدف إلى تشويه صورته المزيد من الشعبية لدى الكثير من الناس.(2015، ص7).

مصطلح غير متفق عليه، غالبا ما يستخدم ليعني الخوف الذي لا أساس له أو الكراهية أو التحيز ضد الإسلام والمسلمين، وانتقاء مصطلح" الإسلاموفوبيا "بدلا من" العداء للإسلام والمسلمين" يهدف إلى تبرير هذا العداء بمرض نفسي هو" الفوبيا"، وهو تبرير لممارسة العداوة ضد الإسلام، وشيوع المصطلح هو في حقيقته انعكاس لتنامي ظاهرة بحث لها الغرب عن تسمية (مرزوق وشابونية، 2017، ص12).

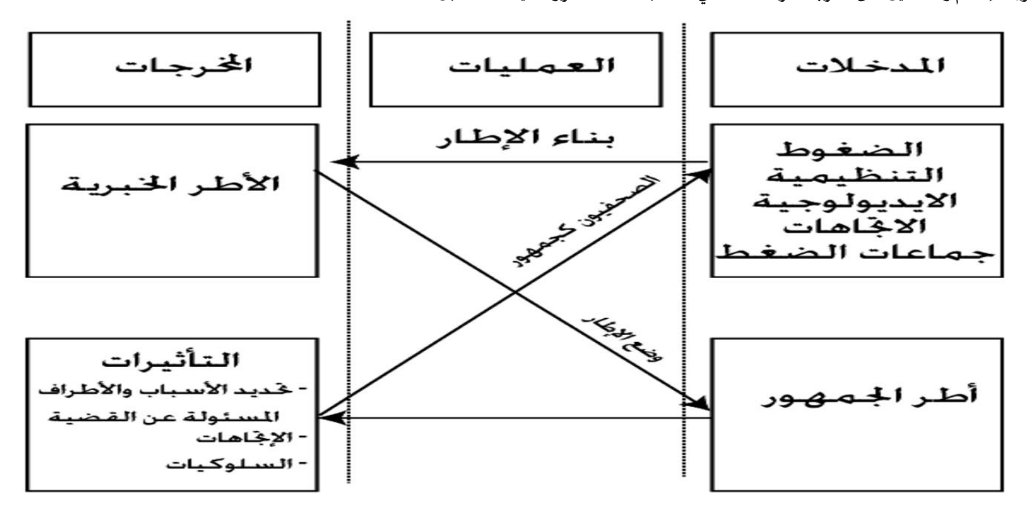
وعليه يمكن تعريف ظاهرة الإسلاموفوبيا إجرائيا على أنها' ذلك الخوف الذي يتولد لدى الآخر نتيجة الكراهية والعداء غير المبرر للإسلام والمسلمين، وهي ظاهرة انتشرت في الغرب خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر وساهم في انتشارها وسائل الإعلام المختلفة.

ثانيا-نظرية الدراسة:

تعتمد الدراسة على نظرية التأطير الإعلامي أو الأطر الخبرية، " وتبلورت نظرية الأطر الإعلامية على يد عالم الاجتماع (Erving Goffman) في 1974، الذي طور مفهوم البناء الاجتماعي والتفاعل الرمزي من خلال مناقشته لقدرة الأفراد على تكوين مخزون من الخبرات يُحرك مدركاتهم ويحثهم على حسن استخدام خبراتهم الشخصية وذلك عن طريق أطر إعلامية مناسبة تضفي على المضمون معنى ومغزى (حسونة، 2015).

ويرجع استخدام تطبيق نظرية الأطر الخبرية في المجال الإعلامي إلى كل من العالمين توشمان وجلتين، حيث استمدا المفهوم من (Goffman) الذي أكد على أن الأطر تساعد على تحديد القضايا في الدراسات الإعلامية وتعريفها وإطلاق المسميات عليها، وتساهم نظرية الأطر الخبرية في تحليل أطر التغطية الإخبارية والمقارنة بينها في القضايا ووسائل الإعلام المختلفة (عيسى ومنصور، 2018، ص161).

وتفترض هذه النظرية أن الأحداث لا تنطوي في حد ذاتها على مغزى معين، وإنما تكتسب مغزاها من خلال وضعها في إطار يحددها وينظمها ويضفي عليها قدرا من الاتساق من خلال التركيز على بعض جوانب الموضوع وإغفال جوانب أخرى، فالإطار الإعلامي هو تلك الفكرة المحورية التي تنتظم حولها الأحداث، كما يوضحها الشكل الآتي:



شكل رقم 1: يبين فروض نظرية الأطر الإعلامي (المصدر: اطبيقة، 2020، ص 168)

ثالثا-التحقيقات الاستقصائية في التلفزيون

1-أهمية الصحافة الاستقصائية: تنبع أهمية الصحافة الاستقصائية في المجتمع من الأدوار التي تقوم بأدائها كالمطالبة بالتغييرات والإصلاحات السياسية وتشجيع الشفافية والمساءلة القانونية في الوظيفة العمومية وزيادة مصداقية وسائل الإعلام لدى المجتمع لنشرها الظلم الواقع على المجتمع كما أنها تعزز دور وسائل الإعلام كوكيل عن المجتمع .

وتعمل الصحافة الاستقصائية على زيادة المنافسة بين وسائل الإعلام مما يحقق زيادة في المبيعات والأرباح التي تتبع هذا الأسلوب نتيجة إقبال المعلنين عليها، وتعمل الصحافة الاستقصائية على توسيع نطاق حرية الصحافة باستكشاف مختلف المناطق والبحث عن الحقائق فيها. كما تعزز مهارات الصحفيين وصقل مواهبهم وزيادة ثقة الجمهور بوسائل الإعلام.(حمام، 2019، ص18)

ومن هذا المنظور تعتبر تقارير تقصي الحقائق من أهم المساهمات التي تقدمها الصحافة الاستقصائية لتثبيت الديمقراطية فهي ترتبط بمنطق الضوابط والتوازنات في الأنظمة الديمقراطية وتوفر آلية ثمينة لمراقبة أداء المؤسسات وتثبيت الديمقراطية من خلال إطلاع المواطنين ومعرفتهم بالمعلومات اللازمة.(الحمداني، 2012، ص23-24).

وتكتسي الصحافة الاستقصائية أهميتها من الوظيفة التي تؤديها فهي تعد(حرفوش، 2016، ص50):

- جزء من العمل الرقابي التخصصي الذي يمكن أن يصنع رأي عام بين الجمهور خاصة إذا تبنى نتائجه الجهات السياسية ووسائل الإعلام.
- أداة للوصول إلى الحقيقة من مصدرها الأصيل فهي أداة تعمق فهم الحدث.
- تعتبر بوابة مهمة للدولة من أجل فتح التحقيقات في مختلف الجرائم.

- تشكل مركز معلومات المؤسسة وقاعدة بياناته.

2-خصائص التحقيق التلفزيوني الاستقصائي: يتميز التحقيق الصحفي عموما بعدة سمات نذكر منها (المصري، 2020، ص196):

- يستغرق وقتا طويلا للإعداد ويتطلب موارد مالية.
- يتضمن عادة معالجة خاصة تجعل منه تحقيقا جذابا.
- يكتب التحقيق بقصد إحداث تغيير في الواقع وإصلاح ما يجب.
- يستند إنجازه إلى محررين وصحفيين ذوو خبرة في مجال الصحافة الاستقصائية.

أما التحقيق التلفزيوني فله العديد من الخصائص التي أبرزها (السنجري، 2015، ص37-38) في النقاط الآتية:

- البحث في عمق المسائل الخطيرة والتي تؤثر على المصلحة العامة، لذا يتطلب تكثيف المعلومات وتبسيطها وتوضيحها.
- يحتوي التحقيق على المادة المرئية بأشكالها المختلفة من الحديث إلى الحوار والموسيقى لجذب الجمهور.
- يحتاج إلى التخطيط والبحث والتنقيب في المعلومات والتأكد من صحتها عن طريق المصادر المختلفة، والكشف عن بعض الحقائق الخفية.
- يستخدم مهارات البحث العلمي والاستجواب مع المصادر المختلفة للوصول إلى عمق الحقيقة.
- يعد آلية لنشر المعلومات وتوضيحها للجمهور.

رابعا-تحليل وتفسير البيانات

بعد تصميم أداة تحليل المحتوى تم تطبيقها على عينة الدراسة واستخراج البيانات الموضحة في الجداول الآتية:

جدول رقم 1: يبين المواضيع التي تطرق لها تحقيق " صناعة الإسلاموفوبيا"

الموضوع	التكرار	النسبة (%)
الشريعة الإسلامية تهدد أمريكا	11	22
الاعتداء على مسلمي أمريكا بسبب الإسلاموفوبيا	09	18
الإسلام دين إرهاب وعنف والتحذير من المسلمين	10	20
دعم وتمويل منظمات نشر الإسلاموفوبيا	05	10
تنظيم حملات لمعاداة وكراهية المسلمين	10	20
توظيف مواقع التواصل الاجتماعي لنشر الإسلاموفوبيا	05	10
المجموع	50	100

من خلال هذا الجدول نلاحظ أن أكثر المواضيع التي عالجها تحقيق "صناعة الإسلاموفوبيا" هو موضوع الشريعة الإسلامية تهدد أمريكا الذي ظهر بنسبة 22 %، يليها موضوع الإسلام دين إرهاب وعنف والتحذير من المسلمين بنسبة 20% ، وكذلك تنظيم حملات لمعاداة وكراهية المسلمين بنفس النسبة، كذلك نجد أن المواضيع الأخرى جاءت بنسب متقاربة مما يؤكد أن هذا التحقيق تناول صناعة الإسلاموفوبيا من عدة جوانب وأبرزها أن الشريعة الإسلامية تهدد الأمريكيين وأن الدين الإسلامي دين إرهاب مما جعل المناهضين والمعادين له ينظمون حملات للمعاداة والكراهية تجاه المسلمين في أمريكا والعالم، ونلاحظ أن سبب صناعة الخوف من الإسلام جاء نتيجة خوف الأمريكيين من تطبيق تعاليم الشرعة الإسلامية في مجتمعهم، خاصة الجهاد وهو النقطة التي أثارت مخاوفهم جراء الترويج والتضليل لدى الرأي العام بأن الإسلام دين عنف وإرهاب وجاء ليقتل غير المسلمين تحت شعار الجهاد، وهذا أدى إلى شن اعتداءات على المسلمين وتنظيم حملات للمعاداة والكراهية من قبل منظمات متخصصة في هذا المجال وهو ما يعكس تزايد وتفاقم ظاهرة صناعة الإسلاموفوبيا لدى الغرب.

جدول رقم 2: يبين المصادر التي يعتمد عليها تحقيق " صناعة الإسلاموفوبيا"

المصادر	التكرار	النسبة (%)
وسائل الإعلام	08	34.78
مواقع الانترنت	05	21.73
المصادر الرسمية	06	26.08
الهيئات الأمنية والقضائية	04	17.39
المجموع	23	100

يبين هذا الجدول أن تحقيق "صناعة الإسلاموفوبيا اعتمد على عدة مصادر لجمع المعلومات، أبرزها وسائل الإعلام، بمختلف أنواعها بنسبة 34.78 %، يليها المصادر الرسمية في الولايات المتحدة الأمريكية من هيئات ومؤسسات في السلطة كالكونغرس الأمريكي بنسبة 26.08 %، إضافة إلى مواقع الانترنت بنسبة 21.73%، ومنه يمكن القول أن التحقيق استعان بالمعلومات التي تبثها وسائل الإعلام حول ظاهرة الإسلاموفوبيا وكيفية صناعتها وتفاقمها في المجتمعات الغربية خاصة من خلال الأخبار والتصريحات عبر التلفزيون والتي كانت مصدرا أساسيا في هذا التحقيق، كذلك المصادر الرسمية كان لها نسبة معتبرة في هذا التحقيق وهو ما يعكس المصداقية وصدق المعلومات التي يتم الاستدلال بها من مصدرها المباشر، مما يؤكد حقيقة صناعة الإسلاموفوبيا في أمريكا وأنها أصبحت صناعة قائمة بحد ذاتها يتم تمويلها عبر قنوات عديدة ويروج لها منظمات متخصصة في نشر المعاداة وتضليل الرأي العام تجاه حقيقة الإسلام والمسلمين.

جدول رقم 3: يبين الشخصيات الفاعلة في تحقيق " صناعة الإسلاموفوبيا"

الشخصيات الفاعلة	التكرار	النسبة (%)
إعلاميون	04	8.33
شهود عيان	10	20.83
كتاب ومؤلفون	04	8.33
باحثون ومتخصصون	06	12.5
شخصيات أمنية	04	8.33
أعضاء منظمات وهيئات إسلامية في أمريكا	05	10.41
أعضاء منظمات وهيئات أمريكية	07	14.58
أعضاء المنظمات المعادية للإسلام	08	16.66
المجموع	48	100

يتضح من خلال هذا الجدول أن الشخصيات الفاعلة في هذا التحقيق متعددة التوجهات والتخصصات، وقد ارتكز بشكل كبير على الشهود العيان بنسبة 20.83 %، بالإضافة إلى أعضاء المنظمات المعادية للإسلام بنسبة 16.66 %، وأعضاء منظمات وهيئات أمريكية بنسبة 14.58%، وكذا الباحثون والمتخصصون بنسبة 12.5 %، ومنه يمكن القول أن التحقيق وفي تركيزه على الشهود العيان أراد أن ينقل الحقيقة من مصدرها، وهؤلاء هم الذين يصنعون المظاهرات والخطابات المعادية للإسلام في أمريكا، حيث أبرز التحقيق نيتهم وإصرارهم على طرد المسلمين وذمهم بكل أشكال الإهانة، كذلك اعتمد التحقيق على أعضاء بعض المنظمات المعادية للإسلام والتي تسهم بشكل كبير في صناعة الإسلاموفوبيا في المجتمع الأمريكي، وهذا لتكون الحقيقة على المباشر ويكشف بذلك للرأي العام العربي والعالمي عن خفايا انتشار هذه الظاهرة والفاعلين فيها، كذلك نلاحظ التنوع الكبير في شخصيات الفاعلين في هذا التحقيق التي تعكس الأطراف ذات الصلة في صناعة الخوف من الإسلام.

جدول رقم 4: يبين نوع المعلومات التي قدمتها الشخصيات الفاعلة في تحقيق " صناعة الإسلاموفوبيا"

نوع المعلومات	التكرار	النسبة (%)
عرض آراء ووجهات نظر	10	20.84
شرح وتفسير وعرض الحقائق	20	41.66
التزويد بالمعلومات	18	37.5
المجموع	48	100

يوضح هذا الجدول نوع المعلومات التي قدمها الأشخاص الفاعلون في هذا التحقيق، حيث ظهر الشرح والتفسير وعرض الحقائق بنسبة 41.66 %، يليها عرض الآراء ووجهات النظر بنسبة 20.48% ، أما التزويد بالمعلومات فكانت بنسبة 37.5% ، ومنه يمكن القول أن التحقيق محل الدراسة نجح في تحقيق الأهداف العامة للتحقيقات التلفزيونية وهي الشرح والتفسير وعرض الحقائق فهو بمثابة تحقيق بحث وتحري وتقصي الحقيقة وراء صناعة الإسلاموفوبيا وذلك بغرض شرح وتفسير الأسباب والخلفيات وراء الترويج لهذه الظاهرة لتنوير الرأي العام، كذلك تناول التحقيق عرض آراء ووجهات نظر بعض الأطراف من متخصصين وباحثين حول هذه الظاهرة من أجل زيادة قوة الإقناع والعلم بكل الأسرار التي تقف وراء انتشار هذه الظاهرة.

جدول رقم 5: يبين الدعامات البصرية التي يوظفها تحقيق " صناعة الإسلاموفوبيا"

نوع الدعامة	التكرار	النسبة (%)
الصور والغرافيكس	10	34.48
الوثائق والمخطوطات	08	27.58
الخرائط والرسوم البيانية	05	17.26
تغريدات ومنشورات مواقع التواصل الاجتماعي	06	20.68
المجموع	29	100

من خلال هذا الجدول نجد أن تحقيق "صناعة الإسلاموفوبيا" وظف العديد من الدعامات البصرية التي تزيد من قوة الجذب والإقناع وعلى رأسها الصور والغرافيكس بنسبة 34.48%، تليها الوثائق والمخطوطات بنسبة 27.58%، وتغريدات ومنشورات مواقع التواصل الاجتماعي بنسبة 20.68%، ومنه يمكن القول أن التحقيق ركز على الصورة التي تعطي قوة أكبر للتحقيق وتدعم الحقيقة التي يريد الوصول إليها، بالإضافة إلى الوثائق والمخطوطات وهي لب البحث عن الحقيقة والتي تكشف أسرار الجماعات والمنظمات التي تقف وراء صناعة الإسلاموفوبيا، مما يعكس جهود قناة الجزيرة في البحث وتقصي الحقائق التي يجهلها الكثير وأصبحت تدار من قبل جهات متخصصة في صناعة هذه الظاهرة، بالإضافة إلى الكشف عن مصادر تمويلها وتوظيفها للمنصات الاجتماعية من أجل الترويج والتضليل بشكل أكبر.

جدول رقم 6: يبين أشكال إبراز الكراهية ضد الإسلام والمسلمين في تحقيق " صناعة الإسلاموفوبيا"

الشكل	التكرار	النسبة (%)
الشعارات المعادية للإسلام	12	27.27
الخطابات السياسية	05	11.36
التجمعات الشعبية	10	22.72
المظاهرات في شوارع أمريكا	09	20.45
الكتابات الحائطية	02	4.54
منشورات مواقع التواصل الاجتماعي	06	13.66
المجموع	44	100

من خلال الجدول يتبين أن التحقيق كشف عن سلوكيات وأشكال متعددة لصناعة الإسلاموفوبيا في المجتمع الأمريكي، وكان أبرزها الشعارات المعادية للإسلام بنسبة 27.27 %، تليها التجمعات الشعبية بنسبة 22.72 %، والمظاهرات في شوارع أمريكا بنسبة 20.45 ، بالإضافة إلى منشورات مواقع التواصل الاجتماعي بنسبة 13.66%، ومنه يمكن القول أن تعدد هذه الأشكال يعكس الحقد والمعاداة والكراهية للدين الإسلامي والمسلمين في أمريكا والعالم عموما، خاصة الشعارات واللافتات التي يرفعها الأمريكيون في وجه المسلمين تضم عبارات الشتم والسب والعنف، كذلك التجمعات الشعبية التي يقومون من خلالها بزرع الكراهية ونبذ المسلمين وضرورة مغادرتهم لأنهم يشكلون خطرا على الأمريكيين، بالإضافة إلى المظاهرات اليومية التي زادت من ارتفاع موجة الإسلاموفوبيا، واستغلال مواقع التواصل الاجتماعي لرفع حدة ذلك وتضليل الرأي العام حول قضية الإسلام والمسلمين في الغرب.

خاتمة:

في الأخير يمكن القول إن تحقيق الجزيرة حول صناعة الإسلاموفوبيا في أمريكا، كشف عن الكثير من الحقائق الخفية التي ساعدت في انتشار هذه الظاهرة وتفاقمها في الدول الغربية، وفي هذا الصدد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج وهي:

- تحقيق "صناعة الإسلاموفوبيا" تناول الظاهرة من جوانب متعددة وكشف عن أسرار للرأي العام العالمي تفسر حقيقة انتشار ظاهرة الخوف من الإسلام.
- أبرز المواضيع التي تطرق لها تحقيق "صناعة الإسلاموفوبيا" هو الخوف من الشريعة الإسلامية في أمريكا والتحذير من الإسلام والمسلمين باعتباره دين عنف وإرهاب بالإضافة إلى الحملات المعادية للإسلام من تنظيم جهات متخصصة.

- مصادر المعلومات التي اعتمد عليها التحقيق متعددة بين وسائل الإعلام والمصادر الرسمية التي تعزز صحة ومصداقية المعلومات التي يقدمها ويكشف عنها.

- الشخصيات الفاعلة في التحقيق متنوعة ومتعدد التخصصات والانتماءات الدينية، وذلك من أجل الإحاطة بمختلف جوانب صناعة الإسلاموفوبيا في أمريكا والتعرف على الأطراف ذات العلاقة وتقديم الشرح والتفسير الوافي لذلك.

- نوع المعلومات التي تقدمها الشخصيات الفاعلة عبارة عن شرح وتفسير لأسباب الظاهرة وأبعادها المتعددة، بالإضافة إلى تقديم آراء المتخصصين والباحثين.

- التحقيق يوظف دعامات بصرية متعددة أبرزها الصورة بأنواعها وكذا الوثائق السرية التي تكشف عن بشاعة الغرب في صناعة الخوف من الإسلام.

- أشكال صناعة الإسلاموفوبيا التي يبرزها التحقيق تنوعت بين الشعارات والمظاهرات والتجمعات الشعبية التي تعكس حقد الغرب وقدرته على حشد الجماهير المعادية للدين الإسلامي وبالتالي التأثير على أكبر عدد منهم، خاصة مع توظيف مواقع التواصل الاجتماعي لتضخيم الظاهرة ونشر المعلومات المضللة.

توصيات:

انطلاقا مما تم تناوله في هذه الدراسة وما توصلنا له من نتائج، يمكن اقتراح التوصيات الآتية:

- إعطاء أهمية للصحافة الاستقصائية في وسائل الإعلام العربية والإسلامية، من أجل كشف الحقائق المرتبطة بنشر الإسلاموفوبيا في الدول الغربية.

- ضرورة الأخذ بعين الاعتبار أخلاقيات المهنة الإعلامية في تغطية الأحداث المرتبطة بالخوف من الإعلام.

- القضاء على الصورة النمطية السلبية عن الإسلام والمسلمين من خلال تقصي الحقائق وإعطاء الصورة الحقيقية عبر وسائل الإعلام.

قائمة المراجع:

- أطبيقة، عبد الله محمد عبد الله (2020)، الأطر الخبرية للتناول الإعلامي لجائحة كورونا "دراسة تطبيقية على الموقع الإلكتروني لقناة روسيا اليوم الفضائية الإخبارية، مجلة كلية الفنون والإعلام، السنة الخامسة، العدد 9.

- باسي نجاة (2015)، المعالجة الإعلامية لقضايا الأسرة في الإذاعة الجزائرية.مذكرة ماستر في العلوم الإسلامية، جامعة الوادي، الجزائر.

- الحداني، بشرى حسني (2012)، التغطية الصحفية الاستقصائية تحقيقات عابرة للحدود، دار أسامة، الأردن.

- حرفوش، إيمان (2016)، واقع ممارسة الصحافة الاستقصائية في القنوات التلفزيونية الجزائرية العامة والخاصة-دراسة ميدانية-، أطروحة دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال، جامعة مستغانم.

- حسونة، نسرين محمد عبده (2015)، نظريات الإعلام والاتصال، شبكة الألوكة www.alukah.net

- حمام، روان عماد (2019)، دور الصحافة الاستقصائية في كشف قضايا الفساد من وجهة نظر الصحفيين الأردنيين، رسالة ماجستير في الإعلام، جامعة الشرق الأوسط، الأردن.

- السنجري، بشرى داود(2015). صناعة التحقيقات التلفزيونية الاستقصائية. دار الكتاب الجامعي. لبنان.

- ظاهرة الإسلاموفوبيا، التقرير الثامن لمرصد منظمة التعاون الإسلامي، الدورة الثانية والأربعين لمجلس وزراء الخارجية، الكويت، 27-28 ماي 2015.

- عيسى، طلعت عبد الحميد ومنصور، محمد حسام (2018)، الأطر الخبرية لقضية حصار غزة في المواقع الإلكترونية للصحف الأمريكية-دراسة تحليلية مقارنة، مجلة جامعة الأزهر –غزة المجلد 20، العدد 1.

- مرزوق، ريمة وشابونية، ابتسام(2017)، دور الجالية المغاربية في مواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا في فرنسا، مذكرة ماستر في العلوم السياسية، جامعة جيجل، الجزائر.

- المصري، عربي (2020)، الحديث والتحقيق التلفزيوني، منشورات الجامعة الافتراضية السورية، سوريا.

صورة الاسلام في التصورات الفلسفية الفرنسية من خلال الصحافة المكتوبة

The Image of Islam in French Philosophical Perceptions Through the Written Press

د.عبد النورنابت، جامعة البويرة -الجزائر
abdenour031974@gmail.com



يعد الإسلام موضوعا انتخابيا فرنسيا، ولهذا السبب تتم دراسة كل ما تعلق بأحوال الجالية المسلمة، ففي السابق كان موضوع المهاجرين في أجندة برامج الأحزاب السياسية الفرنسية، لكن تحديات مرحلة انهيار الشيوعية حوّلت الأنظار نحو الإسلام في النقاشات السياسية.

تروم مداخلتي إلى فهم الادراكات الفلسفية الفرنسية لصورة الإسلام، وهذا من خلال تتبع ما كتب في الصحف والمجلات الفرنسية، وهذا بمعاينة اراء الفلاسفة الفرنسيين في مواضيع العنف والمرأة والعلمانية، وعلاقة الإسلام بالحضارة الغربية، وتصل هذه الدراسة إلى أن اختيار الفلاسفة مقصود، فهم يمثلون ايدلوجيا النخب الحاكمة وخط الدفاع عن القيم الحضارية ولهذا السبب تعتبر تصوراتهم استمرارية للنظرات الاستشراقية والتنويرية الحديثة، ومتماهية مع الخط الافتتاحي للحافة الفرنسية المكتوبة.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، الإعلام، العنف، اللائيكية، الفلاسفة.

Abstract:

Islam is a French electoral topic, and for this reason everything related to the conditions of the Muslim community is studied. In the past, the issue of immigrants was on the agenda of the French political parties' programmes, but the challenges of the collapse stage of communism turned the attention towards Islam in political discussions. My intervention aims to understand the French philosophical perceptions of the image of Islam, and this is by following what was written in French newspapers and magazines, and this is by examining the views of French philosophers on the issues of violence, women, secularism, and the relationship of Islam with Western civilization. The ruler and the line of defense of civilized values, and for this reason their perceptions are considered a continuity of the modern Orientalist and Enlightenment theories. It is identical to the opening line of the French written edge.

Keywords: Islam, media, violence, secularism.



مقدمة:

تعتبر الصحف والمجلات الفرنسية مادة مهمة لفهم التصورات الفكرية الغربية عن الاسلام والمسلمين، ولما كان الموضوع مهما في أولويات النخب السياسية في هذا البلد العريق في كاثوليكيته، ومواجهاته الحضارية مع الاسلام، ركزت مداخلتنا هذه على فهم خلفية استدعاء الفلاسفة في وسائل الاعلام الفرنسية المكتوبة لفهم الاسلام والمسلمين، فهل هذا الحضور الاعلامي لهؤلاء الفلاسفة والمفكرين يكرس النمطية الاعلامية السلبية السائدة عن الاسلام؟ أم تحاول فهم الظاهرة الاسلامية بطريقة موضوعية بعيدا عن الأكليشيهات الإعلامية؟

ولفهم أوضح لهذه الاشكالية، سنحاول فهم مواقف الفلاسفة الفرنسيين من الظاهرة الإسلامية من بعض المواضيع المرتبطة بالمسلمين، كالحجاب والارهاب والرسوم الكاريكاتورية والعلمانية والعيش المشترك، وهذا انطلاقا من مقالات ولقاءات اعلامية وردت في الصحف والمجلات الفرنسية.

أولا- الاعلام الفرنسي والفلاسفة:

من التقاليد الثابتة في الاعلام الفرنسي المكتوب (la presse écrite) وجود انقسامات حزبية وايديولوجية على مستوى الصحف والمجلات متماهية مع الانقسامات السياسية الحزبية(يمين، يسار، وسط)، ضف الى ذلك الصحف الدينية(الكاثوليكية، البروتستانتية).

إن حضور الفلاسفة في وسائط الاعلام المكتوبة خاصة يطرح أكثر من سؤال:

- هل هو حضور تسويقي لتوجهات حزبية معينة؟
- هل هو تأكيد لمقولة أفلاطون" يجب أن يكون الفيلسوف حاكما".
- هل يملك الفيلسوف الاستقلالية الفكرية في عرض تصوراته؟ أم أنه يبرر تصورات نخبوية أو ايديولوجية؟ أم أن وظيفته تنحصر في شرعنة سياسات الدولة أو اللوبيات المتنفذة؟

هناك حضور لافت للفلاسفة في افتتاحيات الصحف والمجلات الفرنسية، نلخص أسماء فلسفية في الصحف اليمينية مثلا(عمود لوك فيري في لوفيقارو، جون فرانسوا ريفيل (1924-2006)، في لبوان، والعمود الأسبوعي لبرنار هنري ليفي في ذات المجلة، ومقالات ألان فيكينكروت في مجلة كوزور(causeur)، اليمينية الشهرية، وحوارات غوشيه وريمي براغ في مجلات يمينية مثل(valeurs actuelles). وتعمد جريدة ليبيراسيون إلى تلقي مقالات فلسفية أسبوعية (ساندرا لوجيه، ميكاييل فوسيل، ايمانويل كوتشيا) ثابتة تتناول مواضيع راهنية، ولا يمكن أن ننسى أن هذه الجريدة أسسها الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر.

يمكن أن نضبف مجلات (l'obs) و(marianne , (politis) ذات التوجه اليساري التي تستضيف فلاسفة ذووا توجهات يسارية، أو مفكرين مستقلين "باحثين بالدرجة الاولى" وهنا يمكن أن نذكر فلاسفة أمثال ايتيانباليبار، عبد النور بيدار، رفاييل ليوجييه".

تملك المؤسسات المسيحية جرائدها ومجلاتها، وهنا تبرز جريدة لاكروا (la croix) ومجلتها الأسبوعية (la croix hebdo)، ويمكن أن نضيف مجلة العائلة المسيحية (famille chrétienne).

تحاول جريدة لوموند المعروفة بحياديتها وعدم تحيزها لأي طرف سياسي استدعاء جميع الأطياف لمحاولة فهم أسئلة الراهن.

لقد تحوّل الفلاسفة عموما إلى مسوقي الانتاج الفكري، فعوض تأسيس مدرسة فلسفية اتبعوا مجموعة من التقنيات أهمها:

1- الحديث عن الكتاب بطريقة انتقائية في الجرائد والحوارات والملتقيات والحصص الإذاعية والتلفزيونية التي تؤدي الى تعويض الكتاب نفسه.

2- يجب أن يحمل الكتاب عدة اخراجات للسماح بظهور عدة أدوار تناسب أذواق القراء والمستمعين.(Deleuze,2003,129).

لقد نجح هؤلاء الفلاسفة والذين يطلق عليهم تسميات مثقفي الاعلام الرجعيون الجدد... الخ، إلى فرض أنفسهم على الساحة الثقافية الفرنسية لعدة أسباب:

- انقلاب موازين القوة بين الصحافيين والمثقفين، فالكتاب أضحى أقل قيمة من المقال الصحفي أو المقابلة الاعلامية.

- ظهور نمط جديد من التفكير أسماه دولوز بنمط التفكير الحر، تفكير المقابلة الصحفية، تفكير الدقيقة(Deleuze, 2003, 130).

- هيمنة هؤلاء الفلاسفة الجدد على المجال السياسي وتوجيه النقاش السياسي خلال الحملات الانتخابية بعرض مواضيع جديدة تتناسب مع قناعاتهم الايديولوجية(ماي68، الماوية، الثورة، الصراع بين اليمين واليسار.(Deleuze,2003,131).

يمكن اضافة مواضيع الحجاب والارهاب وتجديف الاديان والبوركيني ومحلات الحلال وهي مواضيع جدالية في المجتمع الفرنسي.

ثانيا- الحجاب الإسلامي بين الرفض والتسامح:

عندما طرحت قضية الحجاب في اطار السجال المدرسي نتيجة رفض الفتيات المسلمات نزع أحجبتهن داخل الفضاء المدرسي، نشر خمس فلاسفة فرنسيين رسالة موجهة لوزير التربية الفرنسي ليونيل جوسبان في مجلة نوفيل أوبسرفاتور(N.O , 2-8 novembre 1989)، مضمونها التركيز على المعنى الرمزي للحجاب الاسلامي معتبرين إياه علامة على خضوع المرأة، مع التأكيد على ضرورة حماية الفتيات من قانون الاباء والاخوة، لدحض فكرة أن ارتداء الحجاب يمثل حرية شخصية وذكر هؤلاء أنّ اللائيكية لا يجب أن تفهم على أساس حيادية أعوان الخدمة العمومية، ولكنها تساهم في تحضير الأطفال للدخول في عالم الفكر العقلاني والمواطنة الجمهورية.

تتفق جميع اراء الفلاسفة على الاجراءات القانونية التي اتخذتها الدولة الفرنسية، وهذا من خلال قانون حظر الرموز الدينية في المدارس، وفي حقيقة الأمر فإن المستهدف هو الاسلام وليس الأديان الأخرى لأن حجم الالتزام بالزي الإسلامي أوسع من التزام المسيحين واليهود.

إن الموقف من الحجاب الإسلامي الذي يرمز الى العفة والحياء ينم عن رفض قيم مغايرة للقيم الغربية، ذلك أن الصورة شيماء حضارية بتعبير الدكتور فريد الأنصاري، ومن الخطأ الظن أن الصورة بما تحمله من ألبسة وعلامات محايدة لا انتماء لها، بل هي رمز خطير من أهم رموز الانتماء الحضاري، إنّها تعبر عن تصورها للحياة والوجود والمصير بصورة واعية أو غير واضحة ولهذا السبب فإن العري في الغرب اليوم، عرى الرجل والمرأة كليهما صورة تعبر عن فلسفة حضارية، فأوروبا وسليلتها أمريكا وأستراليا تختزن مضمونا وثنيا قديما، يرجع الى العهد اليوناني القديم "(الأنصاري،49،2003).

من هذه الخلفية، فإن حركة العري الجنسية في الغرب ماهي إلا امتداد طبيعي للانتماء الحضاري اليوناني القديم، فهي تحمل في طياتها تقديس الشهوات وعبادة الملذات، وبذلك صار للجسم الصورة سلطة كبرى في بناء التصورات وصناعة القرارات في السياسة والتجارة والإعلام، وتلك هي الوثنية في صورتها الجديدة.(الأنصاري، 50،2003).إن التشديد على زيّ المرأة المسلمة لم يتوقف في حدود المدرسة، بل ان هناك تشديد من كافة تيارات الفكر الفرنسي اليساري منها واليميني مع استثناءات تحاول الدفاع عن حرية الاعتقاد المكفولة دستوريا، لكن الحساسية المفرطة ظاهرة من الحجاب، حتى أن فيلسوفا ونائبا برلمانيا اكزافي بلامي رفض صورة امرأة محجبة في اعلان المجلس الأوروبي للتعايش المشترك داعيا الى حجب هذه الصورة (Bellamy2021,20) .

هذه الحساسية من قضية الحجاب تثير عدة مسائل، أهمها مسألة العلمانية وامكانية اندماج المسلم في المنظومة القانونية الغربية. وقبل ذلك وجب فهم ماهية الإسلام في الفلسفة الفرنسية المعاصرة ولنأخذ تصور ريمي براغ الخبير بالفلسفة الوسيطية.

ثالثا- مفهوم الاسلام في الفلسفة الفرنسية المعاصرة:

يعتقد ريمي براغ الفيلسوف المتخصص في الفلسفة الاسلامية واليهودية الوسيطية، أنه يصعب معرفة أصول الإسلام لأنه يصعب الوصول إلى ذلك، نحن نعلم بوجود شخص اسمه محمد"، "ولكن هل هو الشخص الذي تتحدث عنه السيرة التي تم تأليفها مائة وخمسون سنة بعد الوقائع التاريخية لا أحد كان يسمى بهذا الاسم قبله، أما عن القرآن فنحن أمام نص لم يتعرض للدراسة النقدية".(Brague ,2018,28)

إن ما يهمنا يضيف براغ هي العقيدة الاسلامية التي اتضحت في حدود القرن التاسع ميلادي، ومن هذا التاريخ يعتبر المسلمون القرآن كلام الله ومصدر التشريع وملهم قبلة الصلاة نحو مكة، إن الصعوبة اليوم تكمن أن الكل يحاول تقديم جوهر للإسلام بالقول: "الإسلام الحقيقي هو هذا، أو أن هذا الأمر لا علاقة له بالإسلام " (Brague,2018,30).

يرى براغ أن هناك انفصام بين الاسلام النظري والجماعات الاسلامية، ويضيف كذلك أن المعاناة بادية على المسلمين، ذلك أنه لمدة قرون عاش المسلمون مع يقين بأن ديانتهم هي كمال الديانتين السابقتين اليهودية والمسيحية وأن الاسلام هي اخر صيحة، وقد عزز هذا الاعتقاد التقدم الثقافي في مجالات

الرياضيات والطب والفلسفة للبلدان الاسلامية خلال العهد الذهبي، والذي لا يمكن اغفاله تقريبا نحو القرن الثاني عشر.

أما اليوم فالتمزق ميزة المسلمين، إنهم يعتقدون أن ديانتهم هي الأحدث ولكن احساسهم يصطدم بواقع مر، وفي المجال الاجتماعي والسياسي، أما في الاقتصاد فعلى الرغم من أن الله حاباهم بالبترول، لكن الغنى دون عمل خلق عادات كارثية.

هناك بعض الأطروحات الدعائية التي تخلق توافقات بين العلم والاسلام، وترى أن كل ما اكتشفه الغرب موجود في القرآن، وأنّ النبي محمدصلى الله عليه وسلم أوجد الديمقراطية، انطلاقا من كل ما ذكر يجب التوقف عند حدود هذه المعاناة لنفهم الميلاد المتأخر للسلفية كانتقام للغرب.

ولكن ما هو الإسلام الحقيقي بالنسبة لبراغ؟ الشخصية الأكثر حضورا في الصحافة المكتوبة ذات التوجهات اليمينية الذي يقول: "هناك ما هو ديني (تقوى، صلوات...الخ، وما يبقى فهو خارج مجالات الحياة، نحن نطلب من المسلمين تقطيع الحياة الانسانية الى قسمين، ما هو ديني وما هو خارج الدين، لكنهم لا يقسمون دينهم كما نفعل نحن المسيحين. إن المسلمون يؤمنون بسيادة استثنائية للإله الحقيقي على جميع أبعاد الحياة الانسانية المترجمة عن طريق القانون، وعندما تتوفر الشروط يتم تأسيس نظام يسهر على احترام التشريعات الالهية."(Brague, 2014,33)

من هذه الخلفية، يؤمن براغ بأن الانسان المسلم انسان متدين، إنّه لا يملك إيمانا لاهوتيا بداهة، ولكن يطبق فضيلة الدين، ويريد أن يكون الاسلام ديانة طبيعية بامتياز، وما يثير اعجاب الغربيين في المسلمين ليس ايمانهم، ولكن طقوسهم، وهذا ما وقف عليه شارل دي فوكو في المغرب. غير أن هذه الفضيلة العملية الدينية هي عرضة دائما للإفراط والأخطاء، وهذا ما لا نجده في الفضائل اللاهوتية المسيحية، في حالة الإسلام نفتقد الايمان والأمل والرحمة الزائدة.(Brague,2018,31)

تنتمي تصورات براغ إلى الاستشراق الغربي الذي حاول دراسة الإسلام من منطلق التشكيك في مصادره التاريخية بعرض نصوصه للنقد بغية اكتشاف الاخطاء وبيان قصور الفكرة الاسلامية، وهذا كله في تناغم مع الطرح المسيحي الكنسي، الذي جندا الرجال والمال لمحاربة الاسلام والمسلمين عسكريا وثقافيا.

هذا النقد الذي وجهه براغ للإسلام والمسلمين يتكرر مع فلاسفة أخرين(مثل مارسيل غوشيه، بروكنر باسكال، برنار هنري ليفي، واخرون...) لكن السؤال المطروح هل ينحصر النقد في مسائل تاريخية وتشخيصية لواقع التخلف الحضاري لامة الاسلام؟ وهل أتباع هذا الدين المستقرين في الغرب لا يمكنهم الاندماج في المجتمع الغربي كمواطنين مسؤولين؟ وهل هناك ما يمنع وبشكل مباشر أن يكون الاسلام متماثلا مع الديمقراطية العلمانية؟

رابعا- الاسلام واللائيكية:

هناك عدة مسائل أثارت هذا التقابل بين الإسلام واللائيكية (نستخدم هذا المصطلح عوض العلمانية لأنه الأكثر ورودا في الصحافة المكتوبة) أهمها العمليات الارهابية بفرنسا(عدة مرات) وأزمة الرسوم

الكاريكاتورية، والتكتلات الطائفية للمسلمين(في الأكل، المدارس الخاصة، اللباس) والتي تثير حفيظة النخب الفكرية الفرنسية، وتعتبرها مانعة للاندماج الكلي في الثقافة الفرنسية.

يطرح الفيلسوف ألان فينكينلكروت (عضو الأكاديمية الفرنسية) فكرة ادماج المسلمين مع تنامي المد الاسلامي بفرنسا، ويعتبر ذلك أخطر مشكلة وجب حلها، ولكن هل يمكن أن نطبق نفس القواعد القانونية عند تأسيس اللائيكية على الإسلام مثل ما فعلت الدولة الفرنسية مع الكاثوليكية؟

أمام هذا السؤال المحوري يرى فينكيلكروت أن اللائيكية ترتكز على التمييزات الباسكالية بين نظام الأجساد ونظام الأرواح وكذا نظام الحكمة، إن ما يجعلنا لائيكين ليس الفصل بين الزمني والروحي ولكن الفصل بين الروحي والديني. (Finkielkraut, 2015,18)

لقد انتهت الكنيسة الكاثوليكية باعترافها باستقلالية نظامها الروحي والعيش معه، ولكن هل يمكن أن نطلب أقل من ذلك من الإسلام، لكن التقارير التربوية التي تظهر حذر التلاميذ من الغذاء غير المناسب مع التقاليد الدينية، وانتقاء المعلمين للمعارف العلمية المتناسقة مع النصوص الدينية يعني محاولة وضع حياة الفكر تحت وصاية الدين، وهذا أمر يتعارض مع استقلالية الفكر التي لا يمكن التفاوض بشأنها. (Finkielkraut,2015 ,18).

إن مشكلة الاسلام في نظر مارسيل غوشيه تكمن في أنه يوجهنا مع نمط من التدين تمّ هجره منذ مدة في الغرب، ذلك أن الدين بالنسبة إلينا عبارة عن اعتقادات فردية، بالنسبة لأي مسلم هو طريق لبناء مجتمع. إن الاسام سار بعيدا أو أكثر مقارن باليهودية أو المسيحية في الربط بين الايمان والتقاليد، وهذا ما يجعل من المرور الى الحداثة تحديا عنيفا.(Gauchet,2015,19)

بالنسبة لمارسيل غوشيه مسار الخروج من الدين بدأ الآن في المجتمعات المسلمة، وهذا ما يثير حفيظة الإسلاميين، وإن تغريب العالم أو العولمة كسبت رهانها في العالم الاسلامي. إن الغرب عميت بصيرته عن النظر إلى واقع انهيار ثقافات المجتمعات التي مسها التغريب الذي أثر في طريقة حياة هذه الشعوب.(Gauchet, 2015,20)

تتخذ هذه الشعوب في سبيل الدفاع عما بقي لها من مقومات الثقافة أسلوب العنف أو المقاومة يطلق عليها الغرب اسم الارهاب ومن ضحايا العولمة أو التغريب نجد العالم الاسلامي، وهنا نطرح سؤالا مفاده، هل الاسلام في جوهره دين عنيف؟ يأمر أتباعه بالتوسع وقتل الأبرياء؟ وكيف ينظر الفلاسفة الى هذه المسألة؟

خامسا- العلاقة بين الاسلام و العنف:

فتحت الصحف والمجلات الفرنسية صفحاتها للأقلام الفلسفية، واللافت للنظر أن الكتابة الفلسفية في هذا الموضوع تزامنت مع الاعتداءات المسلحة ضد صحفي شارلي ايبدو، وهنا تطرح إشكاليتين رئيسيتين: هل الاسلام دين عنيف في جوهره ولا يقبل بحرية الفكر ومن ثم لا يمكنه أن يندمج في الحضارة الغربية؟ كل التحليلات حملت التعبئة الإيديولوجية من ميشيل أنفراي إلى برنارد هنري ليفي

مرورا بجان لوك ماريون وروبير ريدكر، أندري غلوكسمان، وهذا في محاولة التذكير بفلسفة التنوير التي حملت معها مبادئ الحرية.

وهنا نقف أمام ثلاثة تصورات مهمة حول العنف وعلاقته بالإسلام:

أولا- تصور ميشال أونفري، الذي يرى أن العمليات الإرهابية من تدبير الإسلام السياسي السلفي الذي يملك أفراده أسلحة بدائية وإيديولوجيا حربية تختلف عن ترسانة الحربية لدى الغرب(Onfray,2015,114).

إذن هناك عنف مبرره السياسات العدوانية للغرب اتجاه العالم الاسلامي، ولا بد من ثمن يجب أن تدفعه فرنسا. لكن أونفراي في سياقات أخرى يرى أن العنف ميزة الديانات التوحيدية، يقول في حوار له في مجلة لوبوان:" عندما تدعو ديانة ما الى قتل المخالفين، فإنها تستهدف كل البشر"(المسيحية قديما والاسلام اليوم)، سياسيا الأمر خطير عندما تدعي جماعة ما بناء ديانة وطنية على أرض الأجداد (اليهودية اليوم).(Onfray,2006,73)

-**ثانيا**- التصور الثاني يقوده براغ الذي يدافع عن أطروحة مفادها أن العنف بذرة أصيلة في الإسلام، وأن اللاتسامح ميزة وراثية تعود الى سيرة النبي محمد، وهنا يستشهد بقصة قتل الصحابة لبعض الشعراء ككعب بن أشرف، أبو عفاق، ومباركة النبي محمد لهذه الأفعال(Brague, 2015, 66) .

-**ثالثا**- التصور الثالث يفصل بين الاسلام وممارسات الحركات الجهادية، وتصنف أفعالها الى جانب الحركات الشمولية (النازية، الفاشية والشيوعية)، وهي مقاربة برنار ليفي ودوبري يوغلوكسمان، ويرون أن ما يميز هذه الحركات التوافق على التدمير ورفض الحياة وكراهية النساء، ونفي فكرة الحرية(Glauksman, 2015, 52).

فقد كرّست هذه الأعمال الارهابية مخاوف عديدة في الغرب، ساهمت في ظهور ما يسمى بالاسلاموفوبيا، لكن ما يمكن قوله هنا أن هناك مبالغة في الأمر، لكن على العموم تطرح اشكالية تصنيف الاسلام كعدو للحضارة الغربية.

سادسا- الإسلام عدو الحضارة الغربية:

لقد خلق الاعلام الغربي عموما والفرنسي خاصة حالة من التوتر بين الاسلام والحضارة الغربية، وهذا كله من خلال استقراء المشكلات التي تثيرها الكتابات الصحفية المصحوبة بالقراءات السياسية والفلسفية لواقع المسلمين بالغرب، والتي تتفق عموما على تشخيص درجة العداوة بين الاسلام والغرب على الرغم من التفاعل الايجابي بين نظرية صدام الحضارات والاوساط الفكرية والسياسية الغربية وبخاصة القوى اليمينية، يقول مؤرخ الافكار الفرنسي دانييل ليندبرغ (1940-2018): أنه منذ أحداث الحادي عشر سبتمبر من عام 2001 نرى بوضوح ولأول مرة، ومنذ زمن طويل بزوغ الاسلام كدين عالمي في دكة المتهمين، وهذا بسبب التعاطف الغربي المشروع الناتج عن جرائم تنظيم القاعدة، وبعد الشحن

الاعلامي تنادت أصوات تدعو الى وضع الاسلام والمسلمين تحت الرقابة، وهذا الأمر أوجد فرصة لا تعوض بالنسبة للأصوات الكاثوليكية المعادية للحوار مع أتباع النبي محمد، وهنا نذكر المؤرخ ألان بيسانسون والفيلسوف بيير مانونت الذي لا يعتبر الاسلام دينا يمكن أن تتحاور معه الكنيسة أو تشترك معه في قيم وتفاهمات, والأدهى والأمر أن مانونت يظهر تحفظه من الوجود الاسلامي في الأرض المسيحية. (Lindenberg, 2002,37)

بداية من هو العدو؟ وهل يمكن اعتبار الاسلام عدو حقيقي للحضارة الغربية؟ سؤالين مشروعين لفهم التحديات الحقيقية للجالية المسلمة في الغرب، والسؤال المطروح هنا، كيف ينظر فلاسفة فرنسا لهذه المسألة؟ والتي ستوضح الجوهر الحقيقي لصورة الاسلام في الادراكات الفلسفية الفرنسية.

يقول الفيلسوف ريجيه دوبريه:" من هو العدو؟ سؤال اليوم، والبذي يفترض سؤالا اخر من هو العدو الحقيقي؟... لو عدنا الى الفيلسوف توينبي في نظريته التحدي والاستجابة الذي فتح مائة باب مقارنة بنظرية صدام الحضارات لهيننقتون، يتأكد أن الإمبراطورية الفارسية تفسر المعجزة الإغريقية، كما كان شارلمان نتاجا لمحمد، وكان ستالين نتاجا للمجتمع الأوروبي الرأسمالي. نستذكر كلام الروسي أرباتوف في سياق انهيار الاتحاد السوفياتي عندما قال:" سنؤدي لعبة قذرة عندما نحرمكم من عدو، غير أن حلف الناتو وجد أعداء آخرين في العالم الإسلامي والصيني والمسيحي." (Debray, 2015, 85)

يفهم من كلام دوبريه أن قيام الحضارات يخضع لتحديات، وهنا يقدم أمثلة للصراع بين الفرس والاغريق وبين المسلمين والفرنجة. وبين الكتلة الرأسمالية والكتلة الشيوعية، غير أن الكتلة الرأسمالية ومن أجل استمراريتها ونهضتها يجب أن توجد عدوا معارضا لها.

وتوضيحا لهذه الفكرة يقول دوبريه: "هناك محاولات كثيرة لشيطنة الإسلام، ويمكن تفصيل ذلك بالنظر الى صدمة الجهالات وثقل الاكليشيهات الاعلامية، وكذا الصراع التاريخي القديم بين المسيحية والاسلام، ولكن في العمق كل نسيج اجتماعي يحتاج إلى فزاعة، وليكون النحن يجب أن يكون الأخر من جهة أخرى. والأخر الاسلامي وجد دون خيار، فبعد أن ماتت الشيوعية كان لابد من ملئ الفراغ بالإسلام، الذي يعتبر الطرف الأسهل ادماجا من الأخر مكان الشيوعية.'(Debray, 2009, 913)

يعتبر كلام دوبريه ظرفيا مرتبطا بسياق نهاية الحرب الباردة، وأوهام انتصار الليبيرالية، لكن باسكال بروكنر وعل هامش حواره مع بيير مانونت يرى أن نبوءات السلم الأبدي والديمقراطية الكونية التي بشر بها الغرب بعد سقوط جدار برلين قد تهاوت الأن مع بقاء الشيوعية في كوبا وكوريا الشمالية والصين، ومع انتصارات الحركات الجهادية في أسيا الوسطى وفي افريقيا واعتداءات روسيا ضد جيرانها."(Bruckner, 2021,08)

يعتقد بوكنر أن العدو الحقيقي للغرب هو الغرب ذاته، من خلال الحقد الذي يغذيه اتجاه ما حققه، حتى أمريكا مرشحة بسرعة لوقوع حرب أهلية بسبب تعدد ثقافاتها، وهناك نظرة سوداوية تجاه الانسان الأبيض الذي هو عنوان للقتل والتدمير والنهب، على الرغم من أن إلغاء العبودية تشريع أوروبي.(Bruckner, 2021, 08)

إن الاسلام في نظر بروكنر ليس كتلة حضارية موحدة، إنه متعدد ومنقسم، والمواجهة ليست بين الغرب والاسلام، وإنما هي مواجهة داخل الاسلام بين المحافظين والاصلاحيين.(Brukner,2021,09)

يؤمن دوبريه بأن الغرب يملك مشروعا كونيا منذ أن أصبح مسيحيا، بعد ذلك جاء دين جديد ذو طابع كوني وهو الاسلام. تملك الديانة الأولى حدودا لها، هنا يمكن الاشارة ال أن مصطلح الجهاد الشامل حاليا هو وهم، بالنظر إلى أن الحركات الجهادية تقف في حدود الدفاع عن أقاليمها، وبهذا المعنى لا توجد عالمية اسلامية، ولكن توجد عالمية غربية.(Debray, 2014,19)

من المواقف الايجابية عن الاسلام نجد موقف بيير مانونت، الذي يعتبر تشخيصه تطورا في مواقفه، فهو يرى أن التدخلات الانسانية في العالم الاسلامي تبين بوضوح أننا نتصرف من منطلق التفوق الساحق، معتقدين أن الغرب يتصرف باسم الانسانية، ونستغرب من المقاومة التي نتلقاها من لدن هذه الشعوب.(Manent, 2021, 09)

إن الإسلام منذ تأسيسه، يضيف مانونت مثّل المجموعة البشرية الأكثر ثباتا ومعارضة لأوروبا، ولهذا السبب يعتبر موضع اهتمام في قارة لا تريد أن تجتمع وأن تعترف. إن خطاب صدام الحضارات وهم مصطنع، ذلك أن الاسلام ليس حضارة أوديانة أخرى، لقد بني الاسلام كبديل لليهودية والمسيحية، وكان ضد الكتابات اليهودية والمسيحية، ساعيا الى اعادة تأسيس الحقيقة الموحاة لإبراهيم، والتي حرّفها وخانها اليهود والنصارى. بالنسبة للإسلام يولد الانسان مسلما بالفطرة، أما في المسيحية، فأن تكون مسيحيا فهو نتيجة للاختيار الحر بين أوروبا والاسلام لا يختصر الخلاف في الديمقراطية واللائيكية، إنما المسألة العميقة تكمن في تمايز العلاقة بين التقاليد وبين حياة الروح.(Manent, 2021, 09)

هنا يعيد مانونت التصورات الاستشراقية والتصور الهيجيلي الذي يرى أن المسيحية أكثر قبولا لفكرة الحرية الانسانية مقارنة بالإسلام، الذي ينظر اليه على أساس أنه دين العبودية.

خاتمة:

يبدو أن الرسالة الاعلامية الفرنسية تخشى من انتشار نمط حياة اسلامية متناقض مع نموذج الحياة الفرنسية، ولهذا تمّ الاستعانة بالفلاسفة لما يحملونه من تصورات حضارية غربية مؤسسّة.

إن تصورات الفلاسفة الفرنسيين المعبر عنها في الصحافة المكتوبة تسير وفق التوجهات السياسية السائدة القائمة على فكرة وجود صراع حضاري بين الغرب والاسلام .

من الملاحظ أن نمو الخطاب الشعبوي في الغرب ساهم في تثبيت هذه الأفكار التي نرى بوادرها في نتائج الانتخابات. والملفت للنظر أنّه لفهم الحاضر يستحضر الفلاسفة الصراع التاريخي بين الإسلام والمسيحية الذي اتخذ أبعادا عسكرية وثقافية لكن درجة الصراع خفتت لوجود المسلمين في وضعية ضعف حضاري، حتى الحركة الإسلامية التي يتم ادانتها وتصويرها بأبشع الصفات لا تمثل تهديدا فكريا وهذا بالرجوع لتحليلات دوبريه وبروكنر. وما يمكن استنتاجه كذلك وجود تنسيق بين لوبيات المال والاعلام والنخب الفكرية، أو ما يسمي بالتيار الهوياتي اللائيكي الممثل في أسماء فلسفية تدافع بكل حماس عن

القيم الجمهورية الفرنسية، ولهذا السبب يمكن القول إننا أمام تكريس لنمطية إعلامية سلبية في الادراكات الفلسفية الفرنسية مع استثناءات قليلة لا تؤثر في التصور العام.

قائمة المراجع:

- الأنصاري فريد(2003)، سيمياء المرأة في الاسلام بين النفس والصورة (المغرب)، ألوان مغربية.
- Boniface pascale(2009), entretien avec régis Debray, revue international et stratégique, n'3-75.
- Brague (Remi), Adien Candiard (février, 2018), penser l'islam au delà des clichées, famille chrétienne.
- Brague(Remi) ,15janvier 2015), Dans les gènes de l'islam, l'intolérance, le point2209.
- Debray (Régis), (11-12 septembre 2021), De la cohésion a l'arrogance, les forces et faiblesses du monde de l'ouest, le monde.
- Debray (Régis) ,3 Décembre 2015, Qu'est qu'un ennemi ? le point 2256.
- Finkielkraut (Alain), Manent (pierre) (2015), la France au défi de l'islam, le figaro.
- François-(Xavier Bellamy), (novembre 2021) le conseil de l'Europe promeut le hijab, le figaro.
- Gauchet (Marcel), fevrier2015, Entretien, Causeur numero21.
- Gilles Deleuze, (2003), Deux régimes de fous, éditions minuit, paris.
- Glucksmann (André) ,15janvier 2015), Il faut oser nommer le mal, le Point 2209.
- Lindesberg, (Daniel), (2002), le rappel à l'ordre, le Seuil, France.
- Manent (Pierre), Bruckner (Pascal), (2021), Le pire ennemi de l'occident, c'est l'occident lui-même » le Figaro.
- Onfray (Michel), (10 février 2005), En guerre contre les monothéismes, le point 1691.
- Onfray(Michel), (19novembre 2015), la France doit cesser sa politique islamophobe. le Point 2254.
- Régis (Debray), Alain Finkielkraut, Elisabeth de Fontenay, Catherine kintzler, (1989) Profs ne capitulont pas, nouvelle observateur.

- Brague (Remi) (2014), l'islam est-il une religion comme les autres? le monde des religions.

التخيل الغربي للمرأة المسلمة في خطابات وسائل الاعلام
دراسة تحليلية نقدية لتصورات المرأة في قناة فرانس 24

Western Imagination of Muslim Women in Media Speeches
Critical Analysis of Women's Preceptions on France 24

د.راجعي عيشوش جامعة البليدة-2-لونيسي علي- الجزائر
aichoucheu@gmail.com



تهدف هذه الدراسة إلى تحليل نقدي للتخيل الذي تصنعه وسائل الإعلام الغربية عن المرأة المسلمة وتمثلاتها الإعلامية، عن طريق تورية صورة الإسلام الحقيقية و بناء تلك الصورة النمطية، التي يعود أساسها إلى ذلك التخيل الذي تحمله الثقافة الغربية كتصورات عن الإسلام. و هي دراسة تقوم على الرصد الإعلامي لحصة في فلك الممنوع التي تبثها قناة فرانس 24، حيث تم رصد جميع الحصص التي تناولت موضوع المرأة المسلمة لمدة 12شهر، ما مكننا من تحليل تخيلات وسائل الإعلام الغربية بناء على مجموعة من المفاهيم النقدية التي طرحها مجموعة من المفكرين في العلوم الإنسانية و الاجتماعية.

مكننا البحث من تفسير الأسباب والنتائج التي جعلت وسائل الإعلام الغربية تربط الهيمنة الذكورية، الإقصاء الرمزي، العنف الرمزي... اللامحسوس بالدين الإسلامي، متجاهلة تاريخية وعالمية إشكاليات تقسيم الأدوار بين الجنسين، والخلط بين الدور البيولوجي والاجتماعي الذي يعود في أساسه للتنشئة الاجتماعية ليس إلى الأديان بمختلف أنواعها.

الكلمات المفتاحية: التخيل، العنف الرمزي، الإقصاء الرمزي، تورية الإسلام.

Abstract:

This study is critical analysis of the imagination made by the Western media about the Muslim woman and her media representations. It is based on the media monitoring of a share in the forbidden astronomy broadcast by France 24 channel, which enabled us to analyze the imaginations of the Western media based on a set of critical concepts.

The research enabled us to analyze the causes and results that made the Western media link male domination, symbolic exclusion, and symbolic violence imperceptible to the Islamic religion, ignoring the historical and global problems of dividing roles between the sexes, and confusing the biological and social role.

Keywords: Imagination, symbolic violence, symbolic exclusion, Islamic revolution



مقدمة:

لقد أصبح الإسلام حسب التخيل الغربي الذي تعمل عدة مؤسسات متواصلة فيما بينها على بنائه وصناعته على رأسها وسائل الإعلام ...إلخ، العلة الصانعة لمعظم المشاكل الرمزية و المادية بين الغرب والمسلمين في العالم المعاصر، حيث تنقل وسائل الإعلام الفرنسية على سبيل المثال التخيل الاسلامي المعاصر دون أي مداخلة نقدية كما يؤكد ذلك المفكر محمد أركون (أركون ، 1996).

وبينما يسعى العديد من المفكرين أمثال محمد أركون جان فريدمان، بياربورديو ...إلخ إلى تأكيد عالمية إشكالية الهيمنة الذكورية والإقصاء الرمزي الذي تعاني منه المرأة في مختلف المجتمعات، والذي يعيد إنتاج نفسه في مختلف أنساق المجتمع ومؤسساته، تعمل وسائل الإعلام الغربية على إنتاج صورة نمطية للمرأة المسلمة مرجعة سبب ذلك إلى الدين الإسلامي.

ورغم تأكيد العديد من الباحثين في النسوية الإسلامية مثل أسماء المرابط(lamrabet, 2015)، و زهراء علي(Ali, 2012) إلى التفسير الذكوري للقرآن الذي يعد سببا في العديد من الإشكاليات التي تعاني منها المرأة في السياق الاجتماعي العربي، و إشارة المفكر محمد أركون إلى أن التواطئ الإيديولوجي و الوظيفي في آن واحد بين وسائل الإعلام الغربية التي تعرض أحداث الساعة الزاخرة و المأساوية في البلدان المسلمة(أركون ، 1996)، و بين أدب الدراسات السياسية الإسلامية الصحفية التي تمارس اختزالات خطرة، إلا أن وسائل الإعلام الفرنسية قلما تنجر إلى تطبيق المقاربة الاناسية الانتروبولوجية على الإسلام، و تستمر في بناء صورة إعلامية على أساس اللعنات السياسية أو رفض الموروث الماضي، و خصوصا عن فترة الحروب الاستعمارية.

وتعد صورة المرأة المسلمة من بين أهم المغالطات الإعلامية الغربية التي تنتج عن تخيل غربي خاطئ، لا يفرق بين الإسلام التاريخي والإسلام كدين، وبينهما تضيع الكثير من المفاهيم الغير مفكر فيها من طرف الغرب، والتي تعيد المرأة المسلمة إلى دورها البيولوجي ومحاولة إقصائها من الفضاءات العامة والعمومية، ويعد ذلك حسب بيار بورديو نوع من العنف الرمزي اللامرئي واللامحسوس، الذي يمارسه التلفزيون بالإخفاء عن طريق الإظهار (بورديو، التلفزيون و آليات التلاعب بالعقول، 2004).

فوسائل الإعلام الغربية تقوم بتعمية صورة الإسلام عن طريق تغطية الإسلام تغطية إعلامية زاخرة بالمغالطات، على شكل كليشيهات جعلت مستهلكي هذه المواد الإعلامية "يشعرون أنهم باتوا يفهمون الإسلام دون أن تشعرهم في الوقت نفسه بأن القسط الكبير من هذه التغطية الناشطة إنما يقوم على

ضمادة هي أبعد ما تكون عن الموضوعية" على حد قول إدوارد سعيد في كتابه تغطية الإسلام. (سعيد، تغطية الاسلام، 2011)

وبناء على هذه المعطيات انتقد بعض الباحثين صورة الإسلام في الإعلام الغربي متحدثين عن الصور النمطية للمرأة دون أن يتعرضوا لمختلف المفاهيم التي أنتجها مفكري العقل العربي على غرار محمد اركون الذي انتقد في عدة مرات مفهوم الإسلام الخاطئ لدى وسائل الإعلام الفرنسية.(أركون ، 1996).

والذي دعا الباحثين إلى دراسة ما تقوم به وسائل الإعلام الغربية عن الإسلام، و القيام بعملية نقدية تتأسس انطلاقا من مناهج علوم الإنسان والمجتمع، على غرار ما دعى إليه إدوارد سعيد (سعيد، تغطية الاسلام، 2011)، و على نحو آخر عالم الاجتماع بيار بورديو(بورديو، الهيمنة الذكورية، 2009).

حيث يعتبر تجاهلنا لما تقوم به وسائل الإعلام الغربية اتجاه قضايا ومشاكل اجتماعية تنسب في كل مرة للإسلام، والاكتفاء فقط بالتحليل الفوري في بلاطوهات وسائل الإعلام المضادة هو استهلاك فوري عاطفي في أغلبه، وبسيط يؤدي إلى توفير مسافات فورية حوله، وجعله معروفا في شكل مجهول معرفيا، ويعد موضوع المرأة من الإشكاليات المطروحة بشكل مبسط جدا في وسائل الإعلام الفرنسية.

وهو ما دفعنا إلى طرح الإشكالية التالية:

ماهو التخيل الذي تقوم وسائل الإعلام الفرنسية بتشكيله عن المرأة المسلمة؟ وما علاقة هذه التصورات بالخطاب الإيديولوجي؟ التاريخ والسياسة؟

أولا-التخيل الغربي للإسلام: التاريخ والمفهوم

يعد مفهوم التخيل الغربي من المفاهيم التي طرحها المفكر محمد أركون في كتابه نافذة على الإسلام (أركون ، 1996)، و هو الكتاب الذي كان يهدف من خلاله إلى توضيح الموقف الإيديولوجي الناشئ في الغرب كله، وكذلك في البلدان المسلمة حول ما يسمى على نحو شديد الاختلاط حول مفهوم الإسلام، والتي تساهم وسائل الإعلام حسبه بشكل كبير في تعميق الأفكار الخاطئة عن الإسلام، حيث تحدث بإسهاب عن الأفاق التاريخية والثقافية واللاهوتية والفلسفية من أجل تجاوز الاختزالات الخطيرة، التي سببها بعض الصحفيين والجمهور المرتبط بهم عن الإسلام كدين.

ويقصد به المفكر ذلك المفهوم الواسع لوظائف وحواشي ملكة الخيال ومستويات تحقيقها، مثل تخيل فرد أو فئة اجتماعية أو أمة، كمجموع من التصورات التي نقلتها ثقافة أصبحت شعبية فيما مضى عن طريق الملاحم والشعر والخطاب الديني، المدرسة وعن طريق وسائل الإعلام بشكل خاص، حيث يصبح يملك كل جماعة وفرد بلا شك، تخيلهما المرتبط باللغة المشتركة، حيث هناك تخيلا فرنسي وإنكليزي، وألماني...إلخ عن الإسلام.

ويرى أن هذا التخيل يتغذى منذ الخمسينيات، بكل القوة والحضور الكلي لوسائل الإعلام التي تحرضها كل يوم أحداث الساعة، من حركات التحرر والتنازع والتمرد في الكثير من مختلف المجتمعات المسلمة.

ولقد ربطنا في هذه الدراسة وحاولنا أن نربط هذا المفهوم بالتصورات التي يقدمها التلفزيون الفرنسي كواحد من التلفزيونات الغربية عن المرأة، من منطلق أن محمد أركون أشار في هذا المفهوم أن هذا التصورات عن الإسلام لا تتناول فقط أحداث الساعة بقدر ما تتناول مشكلات المجتمعات الإسلامية التي ترتبط بعضها ببعض، والتي تكاثرت منذ بروز الدول القومية في الخمسينيات والستينيات.

وكان قد أشار المفكر مالك بن نبي في كتابه مشكلات الحضارة في الإسلام إلى مشكل نظرة المجتمع للمرأة في العالم الإسلامي(نبي، 2012)، والتي اعتبرها إحدى المشكلات الأساسية في بناء الحضارة الإسلامية، فالظاهرة الدينية إذا عليها أن تخرج من السياق الاجتماعي إلى السياق العلمي حتى يمكن للآخر أن يمتلك تصورا صحيحا عن الدين كظاهرة و ليس كسياق تاريخي.

ويرى محمد أركون(أركون ، 1996)، أن تصورات الغرب عن الإسلام تقابلها في نفس الوقت تصورات الإسلام عن الغرب مشكلا تحفضا كبيرا لتسميتي الإسلام والغرب، الخطيرة التي تختزل العديد من الحقائق المختلفة وشديدة الخطر.

ثانيا-مشكل المرأة بين تصور الإسلام كدين والإسلام كإطار تاريخي :

إن الإقصاء الرمزي الذي تتعرض له المرأة في وسائل الإعلام ليس شيئا جديدا بالنسبة لمختلف السياقات الاجتماعية، سواء كان ذلك بشكل تاريخي أو بشكل عالمي تاريخي، غير أن وسائل الإعلام الغربية وعلى رأسها التلفزيون يقوم بإرجاع مشكلة المرأة في السياقات الاجتماعية للدول العربية إلى الإسلام.

رغم أن أول الدراسات التي أقيمت حول الهيمنة الذكورية في المجتمعات والتي قام بها بيار بورديو(بورديو، الهيمنة الذكورية، 2009)، في ستينيات القرن الماضي بمنطقة القبائل الجزائرية، أشار من خلالها أن تاريخية و عالمية مشكل المرأة أمر لا يمكن نفيه في المجتمعات التي تضع نفسها في خانة المجتمعات المتقدمة، مشيرا في كتابه آليات التلاعب بالعقول أن التلفزيون في غالب الأحيان يعيد إنتاج ذات المعاني والمعتقدات الموجودة في لا وعي المجتمع حيث أنشأت تلك التاريخية المسماة بناء الجسد وتقسيم الأدوار(بورديو، التلفزيون و آليات التلاعب بالعقول، 2004).

وقد عرف ظهور الحركات النسوية النضالية انطلاقا غربيا عرفته المجتمعات الغربية منذ سبعينيات القرن الماضي في الولايات المتحدة الأمريكية، على شكل حركات تحررية، لتتمأسس بعدها في الإطار الأكاديمي أي تبحث داخل الجامعات في بداية الثمانينات في الولايات المتحدة الأمريكية، و في بداية التسعينات في أوربا تحت عنوانgender studies، دراسات النوع الاجتماعي، (chaubaud-rychter, 2010)أما في العالم العربي والإسلامي انقسمت إلى نوعين الحركات النسوية التحررية، والنسوية الإسلامية، التي عرفت تأسيسها في التسعينيات وهي ذات الفترة التي تمأسس فيها الجندر في الجامعات الأروبية.

ما يعني بشكل صريح أن الإقصاء المادي والمعنوي الذي تعرضت له المرأة هو إشكال عالمي لا يرتبط أبدا بالظاهرة الدينية، فلماذا تقوم وسائل الإعلام الغربية بربط مشكلة المرأة في المجتمعات المسلمة بالظاهرة الدينية بالإسلام عكس المجتمعات الغربية؟ وهل هناك مفهوم خاطئ ومسبق عن الإسلام في

المخيال الاجتماعي الغربي؟ وهل يعني ذلك أن التخيل الغربي عن الإسلام هو يخضع لذلك الإرث التاريخي الماضي مثل ما حدث بين فرنسا ومستعمراتها المسلمة مثل الجزائر مثلا؟

يعتقد المفكرين محمد اركون، وإدوارد سعيد أن المشكل الأساسي في الصورة التي يصنعها الغرب عن الإسلام في وسائل الإعلام، تعود في أساسها إلى تلك الخلافات السياسية والاجتماعية، والاقتصادية والثقافية، قد ربطت على نسق واحد بالإسلام بإعتباره السبب والعلة الصانعة لكل التاريخ المعاصر لعالم يمتد من الفيلبين إلى المغرب، ومن إسكندنافيا، إذا أخذنا بالحسبان الأقليات المسلمة المتواجدة في أوروبا إلى إفريقيا الجنوبية

ثالثا-العنف الرمزي والإيديولوجي ضد المرأة المسلمة :

إن مفهوم العنف الرمزي الذي طرحه بيار بورديو منذ السبعينيات في كتابه آليات التلاعب بالعقولsur la télévsion، (بورديو، التلفزيون و آليات التلاعب بالعقول، 2004)يعد من المفاهيم التي لا يمكننا التغاضي عنها عندما نطرح موضوع المرأة و تلك الصورة التي يقوم ببنائها التلفزيون في لا وعينا و إعادة إنتاجها في شكل أحكام مطلقة وكليشيهات مختزلة إقصائية، لأنه بالأساس موضوع مهيكل على أساس بناء الجسد و الأدوار البيولوجية التي بنيت وقسمت على أساسها الأدوار الاجتماعية المختلفة تماما عن ما نسميه بالإنجاب والإرضاع، إنها من دون شك تلك الهيمنة الذكورية التاريخية التي صنعت العالم وهيأت فيه المرأة لتقصي نفسها تلقائيا أو لاشعوريا قبل أن يقصيها الآخر من كل الأدوار والفضاءات العامة والعمومية.

وإن الحديث عن ظاهرة العنف الرمزي التي يمارسها التلفزيون الغربي ضد المرأة المسلمة هو ذات المفهوم الذي نضيف إليه ذلك العنف الرمزي الإيديولوجي الناعم الذي تحدث عنه بيار بورديو، فالصور التي يحاول التلفزيون الغربي تمريرها في خطاباته بقدر ما هي إيديولوجية بقدر ما هي تحمل معنى العنف الرمزي الذي يتأزر فيه المسيطر عليهم مع السيطرة وذلك لأنهم ضحايا أنظمة الإدراك والتقدير الإيديولوجية.

فمادام الباحثين في السياق الأكاديمي الإسلامي أيضا لا يبحثون عن إخراج مفهوم الإسلام من صورته الدينية و السياسية إلى ميدان علوم الإنسان والمجتمع بالشكل العلمي المنهجي، سيساهم هؤلاء بتواطئ لا واعي في إبقاء التخيل الغربي قيد الإيديولوجية ذاتها التي يعملون من خلالها في عرضهم الوضعي للإسلام، بصورة مستهلكة و مقتضبة في بلاتوهات إعلامية لا تحاول هي الأخرى تشغيل الآلة النقدية، الأنثروبولوجية، و الإناسية في فهم الإسلام، أو حتى محاولة القضاء على الخلط الحاصل بين الإسلام كدين و الإسلام كتاريخ من أجل إنارة الموقف الإيديولوجي الناشئ في وسائل الإعلام الغربية. ففكرة العنف الرمزي تعتمد على نظرية الاعتقاد، أو نظرية انتاج الاعتقادات، في سعي للإستشراك الضروري من أجل إنتاج الاعتقادات في سعي نحو إنتاج فاعلين ممنوحين بأنظمة تقدير وإدراك تتيح لهم فهم الإيعازات المسجلة في وضعية أو في خطاب، ثم أن يخضعوا لها، فهو عنف يكون أصناف الخضوع غير المدرك كما هو، بل يبدو منعما بالشرعية وبالمسلمات، ضمن النظام الاجتماعي للأشياء، وذلك بفضل الضبط

اللاواعي للبنيات الذاتية والموضوعية التي تجعل ترسيخ الاعتقادات في الأذهان وإدماج التصنيفات الاجتماعية شيئا ممكنا.

وقد أكد المفكر محمد أركون أن الخطابات الإعلامية الفرنسية مثلا تستند إلى التحليلات العنيفة والسياسية عن الإسلام، التي تعود في الأساس إلى الماضي الموروث نتاج علاقتها مع تجربتها الكولونيالية، وأنها لم تمارس قط الدراسات الأنتروبولوجية لهذه المجتمعات المسلمة بالقدر الكافي في الاتجاه الذي ذهب إليه مثلا بيار بورديو، و جورج بالاندييه، بينما غالبا ما تدرس هذه المجتمعات بنظرة عراقية(إثنوغرافية تبحث في خصائص الشعوب) (أركون ، 1996)

رابعا-الخضوع مفهوم فرنسي خاطئ عن الإسلام:

تحيط وسائل الإعلام الغربية الإسلام بتحليلات خاطئة تعود في الأساس إلى الترجمة الخاطئة لمفهوم الإسلام كدين، و الإسلام كإطار تاريخي لإعداد ثقافة وحضارة، قد تعقد في أيامنا هذه، ففي اللغة الفرنسية تترجم كلمة الإسلام بكلمة خضوع لله، أو استسلام، و هي ترجمة في غير موضعها، كما يشير إلى ذلك المفكر محمد أركون(أركون ، 1996)

فعندما نقول مسلم في الثقافة الشعبية الفرنسية، (التخيل الغربي)، فإننا إذا نستدعي جميع المعاني الإضافية السلبية المتراكمة في التخيل الغربي الذي وصفته آنفا، في حين أن كلمة مسلم في القرآن الكريم، تحيل إلى تلك الطاعة الملأى بالحب، فكلمة إسلام تعني الاندفاع نحو حب الله، لأن الله يرفع الانسان إليه بالوحي، فإذا هي علاقة طاعة ملأى بالحب والاعتراف بالجميل تقوم بين الخالق والمخلوق.

وحتى كلمة إسلام في اللغة العربية تعني " تسليم شيء إلى أحدهم"، و المقصود أن يسلم المرء شخصه بكليته إلى الله، كما يشير مؤرخو اللغة العربية إلى أنها تعني أيضا تحدي الموت، ببذل النفس أي الحياة من أجل قضية نبيلة، مثلا عند القتال في سبيل الله، ما يعني إظهار ذلك الاندفاع إلى أقصى حد، ويفسر ذلك المفكر محمد أركون بأن النبي إبراهيم يقدم نفسه كمسلم في العديد من آيات القرآن الكريم، والتي كانت مبادرته بأنه استجاب لطلب الله بالتضحية بإبنه، وعندما يقول القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾(آل عمران، آية 67).

وإن كانت وسائل الإعلام الغربية أو الفرنسية مثلا لا تفرق بين الإسلام كدين والإسلام كإطار تاريخي، يعني أنها أيضا لا تفرق بين المسلم و الإسلام ، و هو مايستلزم أنها أيضا تعمل على وصف علاقة المرأة المسلمة بالخضوع والإستسلام ذاته الذي تترجم به كلمة إسلام، خاصة في ظل المشكلات المعقدة التي تعيشها المجتمعات الإسلامية والتي يجري تنميطها وتعميمها بين المجتمعات المسلمة ككل وإلصاقها بالإسلام، دون أن تمارس أي دراسات نقدية، أو أنتثروبولوجية بعيدة عن العمل السياسي والقرار الاقتصادي، والحركات الاجتماعية الكبرى.

خامسا-الصور النمطية للمرأة المسلمة تخيل منمط للإسلام :

إن العالم والفضاء المادي والسياسي الرأس المالي الذي يسير وسائل الإعلام العالمية اليوم هو ذاته الذي سيفرض تلك الصورة النمطية عن إسلام معاصر يغص بالمشاكل والعقد اللاهوتية الدوقمائية التي

حتى وإن أشارت من جهة إلى انغلاق المسلمين على الآخر، فإنها تعني أيضا تجاهل الغرب لدراسة الإسلام بعيدا عن الإيديولوجيا وعن تلك الرؤية المتفتحة التي يدرسون بها الثقافات الأخرى غير الثقافة الإسلامية.

إن النظر إلى الإسلام بالاكتفاء بتلك الصور الشعبية، التي تنظر إلى الإسلام على أنه تطرف إنساني وعنف إقصائي للآخر، ونقلة بربرية متخلفة، هو مسؤولية الإعلام الغربي بقدر ما هو أيضا مسؤولية الإعلام العربي أو الإسلامي، فحتى وسائل الإعلام العربية لازالت تفرط في جلب أولئك المحللين الذين يستهلكون الموضوع العقائدي بصفة سطحية جدا، دون أية منهجية تحمي ذلك الفكر الإنساني المنفتح على علوم الإنسان و المجتمع، وفي غالب الأحيان يصبح الجمهور يرتبط بتلك الأفكار النمطية عن اسلام إقصائي، ومسلمين خاضعين وشديدي الانغلاق. لذلك فبقدر ما تتدخل الإيديولوجية الغربية في صنع تلك الكليشيهات المبالغ في تنميطها وتعميمها على العالم الإسلامي المعاصر، تعمل تلك الإيديولوجية المتعالية المعاكسة على ترسيخ فكرة ذلك الإسلام الذي أتى لينقد الغرب من جاهليته وإنه ما يجعل العلاقة بين الأديان صراعية بدل أن تكون منفتحة إناسية، كي تتشكل تلك المجتمعات المفتوحة بمفهوم كارل بوبر.(مذبوح، 2009)

سادسا-المقاربة المنهجية لعملية رصد خطابات التخيل الغربي في التلفزيون:

لقد تم رصد خطابات تلفزيون فرانس 24، وبالتحديد حصة في فلك الممنوع التي تبث كل يوم خميس وذلك خلال 12 عشر شهرا أي سنة من عرض الحصة.حيث تم رصد جميع الحلقات التي تناولت موضوع المرأة.

وقد قامت عملية الرصد على إحصاء عدد التكرارت التي تم فيها التخيل بأن قضية المرأة مرتبطة بالإسلام، معناه تم رصد عدد مرات تكرار فكرة ربط مشكلات المرأة بالإسلام، وقد تم قياس عملية الرصد الكمي والنوعي:

1-الرصد الكمي :يستخدم الرصد الكمي لمتابعة المادة الإعلامية التي تبثها قناة فرانس 24 في حصة في فلك الممنوع، أولا تم إختيار فقط الحلقات التي تحدثت عن المرأة، ثم متابعة عدد مرات التي تم فيها تخيل إشكالات المرأة بأنها مرتبطة بالإسلام.

2-الرصد النوعي: والذي يقوم بتسجيل ما لا يمكن رصده وقياسه بالأدوات الكمية، وهذا النوع من الرصد يعتبر استكمالا لجهود الرصد الكمي وتحليله. ذلك أن الرصد الكمي يقيس عدد التكرارات فقط، أما الرصد النوعي فيقوم بتحليل مضمون المادة التي يصعب قياسها إمبريقيا.

3-**المادة الإعلامية المرصودة :**

تتمثل عدد الحصص المرصودة في 13 عدد من حصة في فلك الممنوع التي تبث كل يوم خميس، والتي تم رصدها خلال 12 عشر شهر، الحصة تعرض كل يوم خميس أي تم عرض 48 حصة، رصدنا منها 13 حصة فقط تناولت موضوع المرأة المسلمة، حيث تم رصد فقط الحصص التي تناولت موضوع المرأة من أجل معرفة، التخيل الغربي للمرأة المسلمة وتصوراته حولها، ومدى ربط هذه التصورات بالإسلام.

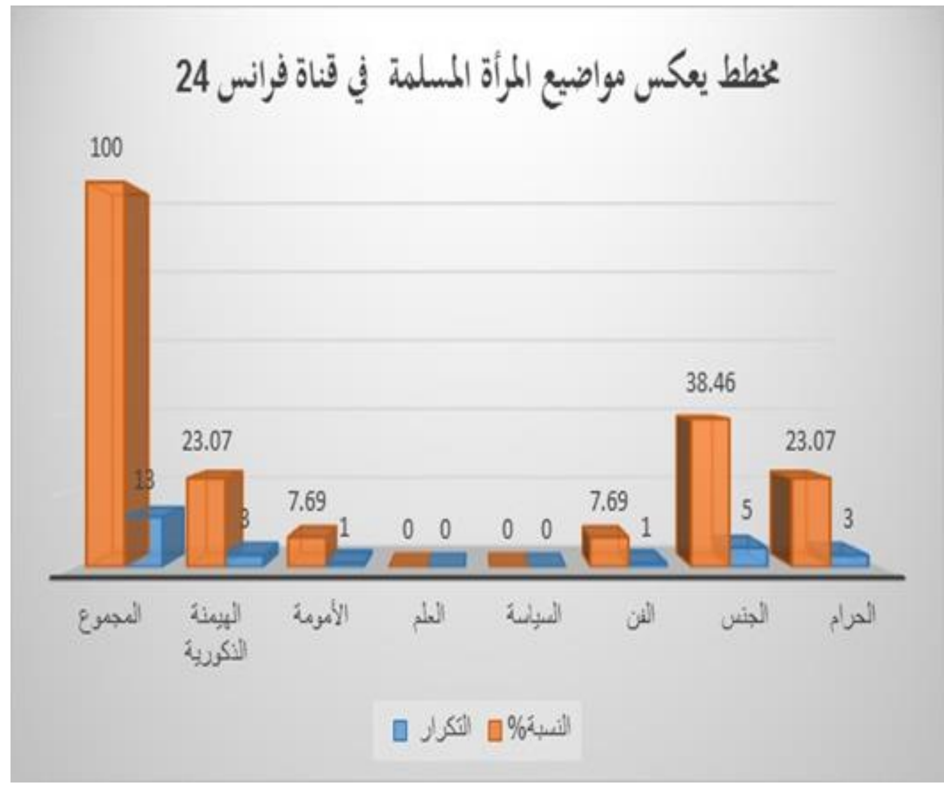
الجدول (1): عينة الحصص المرصودة (عينة موضوع الرصد)

عدد الحصة	عنوان الحصة (موضوع الرصد)	تاريخ البث	زمن البث
الحصة رقم 1	نساء تحدين الثالوث المحرم	2018/02/10	47د/ 01ث
الحصة رقم 2	انقطاع الدورة الشهرية شهادة وفاة	2018/11/10	43د/30ث
الحصة رقم 3	ثدي المرأة سيد المحرمات	2021/07/10	43د/23ث
الحصة رقم 04	ترويج القاصرات	2021/03/06	43د/28ث
الحصة رقم 05	زواج المتعة	2021/04/30	44د 26ث
الحصة رقم06	المتعة الجنسية للمرأة	2021/02/06	48د
الحصة رقم 07	النساء في حياة النبي	2020/08/04 2020/08/11	ج1 ، 43د02ث ج2، 43د13ث
الحصة رقم 08	الرقص الشرقي فن بسمعة سيئة	2020/10/13	42د/23ث
الحصة رقم 09	عن التحرش في مصر	2020/07/14	42 د 54ث
الحصة رقم 10	قصص لا تروى عن التحرش بالمرأة	2020/04/04	41د54ث
الحصة رقم 11	الحجاب هل المرأة عوررة كي نغطيها	2016/11/26	26د54ث
الحصة رقم 12	العنوسة الأمان ليس رجل	2019/11/22	46د 07ث
الحصة رقم 13	الأمهات العازبات	2018/02/10	25د/58ث

سابعا-نتائج الرصد :

توضح القراءة المتأنية للجدول رقم1، أن موضوع المرأة في الدين الإسلامي كانت أطول حصة بجزئين، التي جاءت بعنوان النساء في حياة النبي، والتي تم إعطائها أكبر مساحة زمنية، وبجزئين، ج1، 43د02ث، ج2، 43د13ث، بمعنى أنه تصور ربط رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كدين، بإشكاليات المرأة، كما جاء الموضوع الثاني الجنس والمتعة في المرتبة الثانية وهو ما يعني تنميط صورة المرأة المسلمة بالجنس والمحرم في الدين الإسلامي بمساحة زمنية تقدر بـ 48دقيقة، و47 دقيقة .

بينما جاءت جميع المواضيع المتبقية تتحدث عن الحتمية البيولوجية التي تعد من إشكاليات المرأة في العالم، وجاء موضوع الحجاب االأخير في ترتيب الحصص، حيث زمن منح له الزمن الأقل بالمقارنة مع الحصص الأخرى ، والمقدر بـ17 دقيقة و بعض الثواني، وتم **محاولة** إظهار أنه لا يتم مناقشة الحجاب كظاهرة دينية بل كظاهرة اجتماعية تدخل في سياق إرهاب المرأة و إخضاعها لضرورة ارتدائه لكن التحليل أظهر غير ذلك ، و قد يعود سبب ذلك إلى اعتبار الحجاب مشكل إيديولوجي تم رفضه وعدم قبوله في فرنسا، حيث أن الحصة كلها تناولته كمشكل ديني ي مرتبط بالإسلام دون الحديث عن عدم السماح به في فرنسا، والذي يعتبر أيضا حرية، وهو عنف رمزي صريح ضد المرأة المسلمة، والإسلام بصفة خاصة.



الشكل رقم(1) نوع المواضيع التي تناولت المرأة المسلمة

الجدول 02:يمثل تصورات المرأة المسلمة في فرانس24 حسب المواضيع

المواضيع	التكرار	النسبة%
الحرام	03	23.07
الجنس	05	38.46
الفن	01	7.69
السياسة	00	00
العلم	00	00
الأمومة	01	7.69
الهيمنة الذكورية	03	23.07
المجموع	13	100

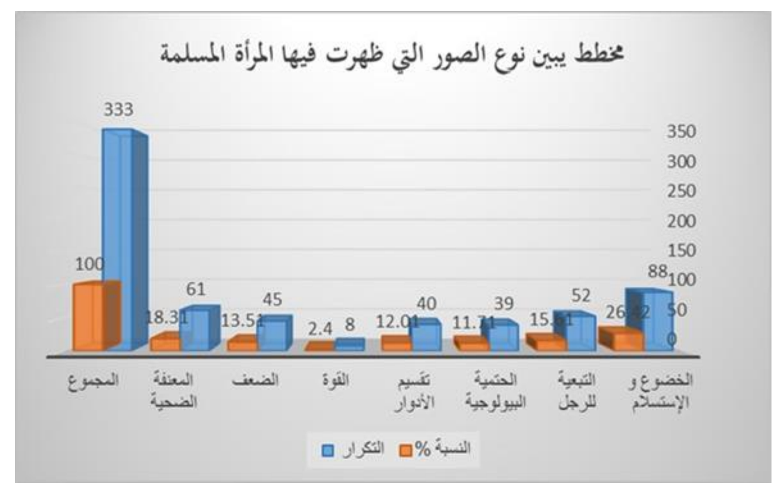
أكثر من 80%، من مواضيع المرأة المسلمة كانت تتعلق بالجنس و الهيمنة الذكورية و الحرام

توضح بيانات المخطط أعلاه أن مواضيع المرأة المسلمة انحصرت في الحنس والهيمنة الذكورية، والحرام حيث تعلقت النسبة الكبيرة بالجنس بنسبة 38.07، ثم الهيمنة الذكورية والحرام ب23.07، و هو ما يشير إلى التخيل المنمط لصورة المرأة المسلمة. يعد هذا إشارة إلى تنميط صورة المرأة وإعادة إنتاج للحتمية البيولوجية التي تصورها قناة فرانس 24 الفرنسية عن المرأة المسلمة، وهو نوع من العنف الرمزي الإعلامي، بينما جاء موضوع الأمومة والفن في ذيل الترتيب بتكرار 1فقط ، وهو ما يؤكد تصور المرأة بعيدا عن الفضاءات الثقافية أيضا.

و قد انعدمت المواضيع التي تتعلق بالمرأة المسلمة حول السياسة و العلم، و هو إشارة صريحة و بناء إعلامي لخطابات إعلامية إقصائية، فهو نوع من الإقصاء الرمزي للمرأة المسلمة من الفضاءات العامة والعمومية.

نوع الصور النمطية	التكرار	النسبة %
الخضوع و الإستسلام	88	26.42
التبعية للرجل	52	15.61
الحتمية البيولوجية	39	11.71
تقسيم الأدوار	40	12.01
القوة	08	2.40
الضعف	45	13.51
المعنفة الضحية	61	18.31
المجموع	333	100

جدول رقم03: يمثل نسب و تكرارات الصور النمطية للمرأة المسلمة في فر انس 24



الشكل (2): صور المرأة المسلمة و صفاتها

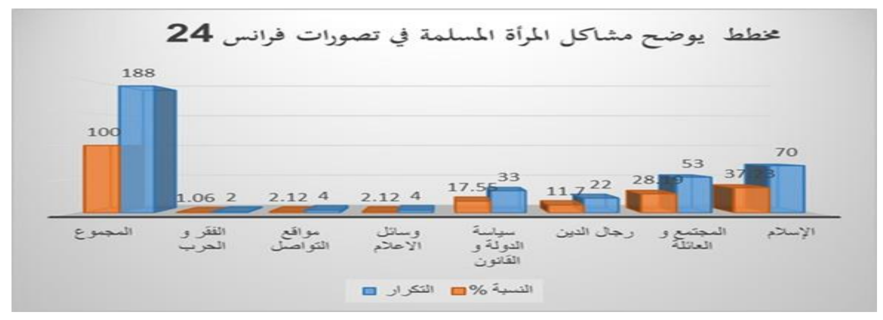
يبين المخطط أعلاه أن المرأة المسلمة يجري حصرها في مجموعة من الصور النمطية، والتي جاءت فيها صورة المرأة الخاضعة والمستسلمة في أول الترتيب بتكرار 88، ونسبة 26.42%، بينما تذيلت صفة المرأة

المتحدية لضروفها (القوة) بتكرار 8 و نسبة 2.4%، وجاءت صورة المرأة المعنفة في المرتبة الثانية بنسبة18.31%، وتكرار 61، و المرتبة الثالثة لصورة المرأة اضحية و المعنفة بنسبة 18.31%، تليها مباشرة صورة المرأة التابعة للرجل بنسبة 15.61%، والضعف بنسبة 13.51%، وتقسيم الأدوار بنسبة12.01%،لتأتي بعدهما مباشرة إرجاعها إلى حتميتها البيولوجية بنسبة11.71.% وتعود صورة المرأة

الإشكاليات	التكرار	النسبة %
الإسلام	70	37.23
المجتمع و العائلة	53	28.19
رجال الدين	22	11.70
سياسة الدولة و القانون	33	17.55
وسائل الاعلام	04	2.12
مواقع التواصل	04	2.12
الفقر و الحرب	02	1.06
المجموع	188	100

المستسلمة إلى المفهوم الخاطئ للاسلام في فرنسا.

جدول رقم 04: يمثل مشاكل المرأة المسلمة حسب تصورات قناة فرانس 24

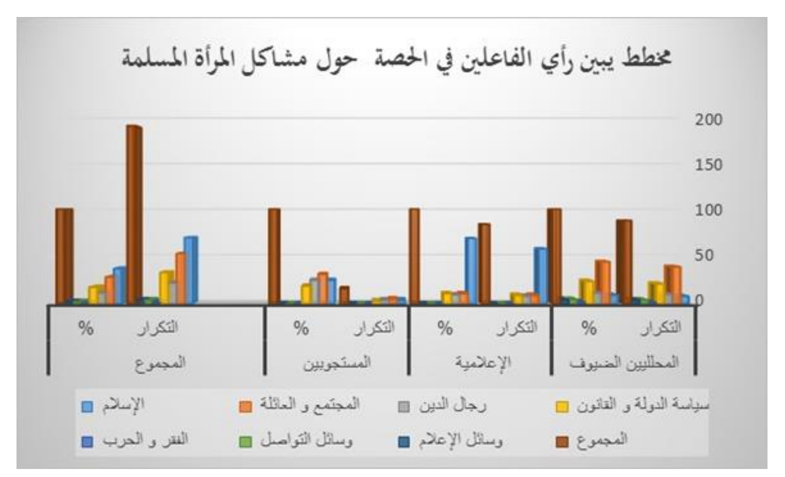


الشكل(3): تصورات فرانس 24حول مشاكل المرأة المسلمة

يبدو من خلال الجدول والمخطط أعلاه أن قناة فرانس 24 تربط مشكلات المرأة بالإسلام بنسبة تفوق النصف والمقدرة بـ 70بالمائة، بينما تتجاهل ربط مشكلات المرأة في العالم الإسلامي بوسائل الإعلام، الفقر والحروب.

جد ول رقم 05: يعكس راي الفاعلين في الحصة حول أسباب مشاكل المرأة

الفاعلين / المشاكل	المحللين الضيوف		الإعلامية		المستجوبين		المجموع	
	التكرار	%	التكرار	%	التكرار	%	التكرار	%
الإسلام	08	9.09	58	69.04	04	25	70	37.23
المجتمع و العائلة	39	44.31	09	10.71	05	31.25	53	28.19
رجال الدين	10	11.36	08	9.52	04	25	22	11.70
سياسة الدولة و القانون	21	23.86	09	10.71	03	18.75	33	17.55
الفقر و الحرب	02	2.27	00	00	00	00	02	1.06
وسائل التواصل	04	4.54	00	00	00	00	04	2.12
وسائل الإعلام	04	4.45	00	00	00	00	04	2.12
المجموع	88	100	84	100	16	100	188	100



الشكل (4): راي الفاعلين في الحصة حول أسباب مشاكل المرأة المسلمة

يبين المخطط أعلاه أن الإعلامية منشطة الحصة تربط مشاكل المرأة بالإسلام بنسبة تفوق ال نصف69.04 بالمائة، بينما ربط المحللين مشكل المرأة بالعائلة والمجتمع، أما المستجوبين فيربطون مشكل المرأة بنسب متقاربة بـ المجتمع والعائلة، ثم رجال الدين، وسياسة الدولة والقوانين.

ثامنا- أهم نتائج الرصد:

أفرزت نتائج الرصد أن موضوع المرأة في الدين الإسلامي كان أطول حصة بجزئين، التي جاءت بعنوان النساء في حياة النبي، والتي تم إعطائها أكبر مساحة زمنية، وجزئين، ج1، 43د02ث، ج2، 43د13ث، المرأة، كما جاء الموضوع الثاني الجنس و المتعة في المرتبة الثانية و هو ما يعني تنميط صورة المرأة المسلمة بالجنس والمحرم في الدين الإسلامي بمساحة زمنية تقدر ب48دقيقة، و 47 دقيقة. بينما جاءت جميع المواضيع المتبقية تتحدث عن الحتمية البيولوجية التي تعد من إشكاليات المرأة في العالم.

-و جاء موضوع الحجاب الأخير في ترتيب الحصص بأقل مدة زمنية، بسبب إرتباطه بمشكل حرمان المسلمين من ممارسة حرياتهم الدينية في فرنسا، وتم التطرق إليه كمشكل من مشاكل المرأة في الإسلام.

-إنحصرت مواضيع المرأة المسلمة في الحنس و الهيمنة الذكورية، والحرام حيث تعلقت النسبة الكبيرة بالجنس بنسبة 38.07، ثم الهيمنة الذكورية والحرام ب23.07، و هو ما يشير إلى التخيل المنمط لصورة المرأة المسلمة، بينما جاء موضوع الأمومة والفن في ذيل الترتيب، وهو ما يؤكد تصور المرأة بعيدا عن الفضاءات الثقافية أيضا.

-انعدمت المواضيع التي تتعلق بالمرأة المسلمة حول مشاركتها في الحياة السياسة و الفكرية، وهو إشارة صريحة و بناء إعلامي لخطابات إعلامية إقصائية، ونوع من الإقصاء الرمزي للمرأة المسلمة من الفضاءات العامةوالعمومية.

- تم حصرالمرأة المسلمة في مجموعة من الصور النمطية، والتي جاءت فيها صورة المرأة الخاضعة والمستسلمة في أول الترتيب بنسبة 26.42%، بينما تذيلت صفة المرأة المتحدية لظروفهاالقوية بتكرار 8 ونسبة 2.4%، بينما تقاسمت النسب الأخرى ترتيبيا، صورة المرأة المعنفة، لصورة المرأة الضحية والمعنفة، صورة المرأة التابعة للرجل الضعيفة، وتقسيم الأدوار، إرجاعها إلى حتميتها البيولوجة.

تاسعا-الخلاصة:

يمكننا التأكيد في نهاية هذا البحث أن التخيل الغربي للمرأة المسلمة في وسائل الإعلام وتحديدا في قناة فرانس 24، يعد ظاهرة من ظواهر الإقصاء الرمزي والعنف الرمزي الذي تمارسه وسائل الإعلام الغربية على الدين الإسلامي، من خلال إلصاق مختلف الصور النمطية بالمرأة المسلمة وإرجاع كل اساب مشاكل المرأة بالدين الإسلامي. فما تمارسه وسائل الإعلام الغربية هو تواطئ إيديولوجي ووظيفي في ان واحد بين عرضها لتلك الأحداث الزاخرة والمأساوية في البلدان المسلمة، وبين ادب الدراسات السياسية الإسلامية المتشددة والمتطرفة.

فرصدنا لصورة المرأة المسلمة في وسائل الإعلام الغربية يشير إلى وجود مؤشرات واضحة عن صورة عن أزمة إعلامية تعرقل انتشار الفكر المستنير نحو الأخر، والبقاء في صراعات تاريخية دينية تعيد إنتاج عنف رمزي تحول في كثير من الأحيان إلى عنف حقيقي ملموس على أرض الواقع، وهو خطر سيظل يتشكل مادامت وسائل الإعلام الغربية تشارك في إعادة إنتاج تلك الكليشيهات البسيطة والمعتمة عن دين لا يختلف في مفهومه عن مفاهيم الأديان الأخرى الداعية للخير والسلام في العالم، والذي على المسلمين

الذين يشرفون على الرأي العام أن يحاولوا إخراج خطاباتهم الإعلامية أيضا من الإيديولوجية، والصراعية التاريخية، والدوقمائية، من أجل البحث على وعي سليم لخلق تخيل قوي عن الإسلام.

فقد تأكد من خلال رصدنا إلى الخطر الذي تشكله وسائل الإعلام الغربية من خلال استخدامها لتخيل عاطفي وحاد ومبني على تجربة الإسلام التاريخية والفكرية، لا على الإسلام كتجربة وحي وهي الإشكالية الموجودة في كلا الطرفين الغرب والمسلمين، فحتى تخيل المسلمين لصورة الغرب مبنية على أن الحركات الإسلامية التحررية تعمل على إنقاد العالم من النموذج الإمبريالي والمادي، المسيحي أواليا هودي المخالف لدين الإسلام، وكان الأجدر بالطرفين أن يدرسوا ظاهرة الوحي بدل رفض الأخر وإقصائه دون إخضاع التجارب إلى النقد و البحث العلمي.

قائمة المراجع:

- Ali, Z. (2012). *féminismes islamique .* paris france: la fabrique édition.
- Asma lamrabet .(2015) .*les femmes et l'islam : une version reformiste.*fondation pour l'innovation.
- virginie descoutures,Anne Marie devreux, Eleni Varikas chaubaud-rychter .(2010) .paris: la découverte.
- إدوارد سعيد. (2011). *تغطية الاسلام* (المجلد الثانية). (سميرة نعيم الخوري، المترجمون) لبنان، بيروت .
- بيار بورديو. (2004). *التلفزيون و آليات التلاعب بالعقول* (المجلد الأولى). (درويش حلوجي، المترجمون) سوريا، دمشق: دار كنعان.
- بيار بورديو. (2009). *الهيمنة الذكورية* (المجلد الأولى). (سلمان القعفراني، المترجمون) لبنان ، بيروت : المنظمة العربية للترجمة .
- لخضر مذبوح. (2009). *فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر* (المجلد الأولى). بيروت ، لبنان : منشورات الاختلاف .
- مالك بن نبي. (2012). *مشكلات الحضارة، شروط النهضة.* (كامل مسقاوي، المترجمون) لبنان، بيروت : دار الكتاب .
- محمد أركون . (1996). *نافذة على الاسلام* (المجلد الأولى). (صياح الجهيم، المترجمون) لبنا ن، بيروت: دار عطية للنشر.

توظيف التوصيف الاستشراقي في رسم الصورة النمطية للعربي المسلم من خلال السينما الأمريكية- دراسة تحليلية سيميائية للفيلم السينمائي الكارتوني "علاء الدين"

Employing Orientalist Description in Drawing the Stereotyped Image of the Arab Muslim through American Cinema.-A Semiotic Analysis of the Cartoon Movie Aladdin.

د.إيمان عفان، جامعة يحيى فارس بالمدية، الجزائر

imanaffane76@gmail.com



نهدف في هذه الدراسة إلى محاولة إماطة اللثام عن مدى توظيف السينما الأمريكية لتوصيف المستشرقين للمنطقة العربية بإنسانها وبيئتها وثقافتها في صناعتها للصورة النمطية المشوهة والعنصرية للعربي المسلم، وذلك من خلال تحليل الفيلم الكارتوني الشهير " علاء الدين" المنتج من قبل شركة ديزني عام 1992، والذي لا يزال يعاد بثه مرارا وتكرارا عبر شاشات التلفزيونات العالمية وموقع اليوتيوب. وقد توصلت الدراسة إلى نتائج أهما ان السينما الأمريكية تعمل على الترويج لصورة نمطية مشينة للعربي المسلم تتصف بخصائص فيزيولوجية ونفسية وسلوكية مثيرة للشك والريبة، وترسخ لدى المتلقي تلك الصورة اللصيقة بالمخيال الغربي عن ذلك الآخر: المسلم، العدو، المنتمي للعرق السامي، الشرير والمتوحش الذي يجب مواجهته أو على الأقل أخذ الحيطة منه. وهذا في الحقيقة ما يشكل تناصا صارخا بين الصورتين في كلا من الخطابين الاستشراقي والسينمائي.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الصورة النمطية، العربي المسلم، السينما الأمريكية، التحليل السيميائي.

Abstract:

We aim in this study to try to lay bare the limits the American movie industry is making use of orientalists' description of the Arabic area included: human being, environment and its culture, in its making of a distorted and racist stereotype of the Arabic and muslin person, through the analyzation of the famous movie "ALADDIN" produced by "Disney" company in 1993, which is still being played again and again on TV screens and Youtube.

The study reaches to some conclusions; the most important of them is that the American movie industry is working on the popularization of a certain Arabic and Muslim stereotype characterized by some physiological, psychological and behavioral specifications that is stirring up doubts, and establishing in the mind of the receiver that previous, well conglutinate, stereotype of the other in the western imagination: that other one, muslin, enemy, who is belonging to villain and savage semiotic race that needs to be fought or at least to be vigilant of it. And this is what it's a showy intertextuality between the two images in both speeches; the orientalist and the cinematic.

Keywords: Orientalisme, stereotype, Arabic Muslim, American movie industry, cinematic analyzation.



مقدمة:

تتخذ الكثير من الدراسات أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 كتاريخ لإعلان الحرب الإعلامية على الإسلام والمسلمين من قبل وسائل الإعلام الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية تحت مسمى محاربة الإرهاب والتطرف، غير أن الحقيقة بخلاف ذلك، فهذا التاريخ لا يعدو أن يكون واحدا من المحطات لتاريخ مديد من الحملات الدعائية المشوهة للفكر وللحضارة الإسلامية بكل أبعادهما بما فيها الإنسان الذي ينتمي لهذه الحضارة. ذلك أنه قد قدر على الحضارتين العربية الإسلامية والحضارة الغربية أن يتجاورا جغرافيا، وكانت نتيجة هذا التجاور سجال طويل من الصراعات على الأرض والثروات والذي سرعان ما تحول إلى سجال من نوع آخر، يتخذ من العقيدة الدينية محورا يدور في فلكه مع بروز شأن الإسلام وانتشاره. فقد رأى الغرب في هذا الدين الجديد خطرا يداهم وجودهم وقيامهم كحضارة -وقد كان فعلا- فجيوش المسلمين وصلت أوروبا بعد أن افتكت من الرومان مستعمراتها في جنوب المتوسط، وأصبح الغرب منكمشا على نفسه ينتظر في ذل الضعيف افتكاك هذه الجيوش الزاحفة لمزيد من أراضيه. ومن هنا، ومن عقدة المنهزم هذه بدأت تتشكل تلك الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين كوحوش دمويين وأشرار يجب محاربتهم من أجل إعلاء كلمة "الرب" ومن أجل الدود عن المسيحية، فكان أن تولت الكنيسة زمام قيادة الحروب الصليبية في فلسطين وما جاورها من البلاد الإسلامية، ورأت من الضرورة بعد قرون من الصراع أن تدرس علميا طبيعة الفكر والثقافة والعقيدة الإسلامية من أجل كشف ثغراتها ومواطن ضعفها، فتأتيها منها، وبالنتيجة تم استحداث كرسي الأستاذية في الاستشراق كتخصص علمي غربي هدفه إبراز مواطن ضعف العدو وتضخيم عيوبه من أجل إذكاء نار البغض له لدى عامة الأوروبيين من جهة – وبالتالي تجنيدهم في الحروب القائمة- وفتح سبيل الجيوش الأوروبية الغازية بتنوير عقول قادتها بمكمن ثغرات العدو، حتى يسهل عليها إخضاعه مع ضمان استمرارية هذا الإخضاع، من جهة أخرى. والنتيجة كانت بالفعل نجاح المهمة الاستشراقية في إخضاع المنطقة العربية والاسلامية شيئا فشيئا وقد كان تتويج منجزاتها بالنجاح في استعمار أغلب بلدان المنطقة إبان القرن التاسع عشر. غير أن مقاومة الشعوب العربية والمسلمة للاحتلال ونجاحهم في طرد قواته من أراضيهم، وفرضهم على الدول الغربية طي صفحة الحملات الاستعمارية التوسعية مرغمة، لم يكن كافيا من أجل أن تصرف هذه الدول عن أطماعها في المنطقة، إذ أنها كانت لا تزال بحاجة إلى نهب ثرواتها. فلجأت بالموازاة مع الحروب الاقتصادية إلى الحروب الإعلامية مستغلة بذلك التطورات العلمية والتكنلوجية التي حققتها في القرن العشرين، ونقلت بذلك

المهمة الاستشراقية من صفحات الكتب إلى شاشات العرض التلفزيوني والسينمائي وما تبعها من شاشات الوسائط الجديدة.

وقد كان للسينما الأمريكية حصة الأسد في إنجاح هذه المهمة المتجددة من خلال إنتاج كم هائل من الأفلام على مدى عشرات السنين بحيث لا تقدم فيه صورة العربي المسلم إلاّ كما كانت توصف قبل قرون: الهمجي، الدموي، الشرير، البدائي، المتخلف...إنها تماما الصورة النمطية القديمة الجديدة، لذلك الذي كان ولا يزال عدوا.

إننا من خلال هذه الورقة البحثية سنحاول كشف ذلك التناص بين ما يقدمه الخطاب السينمائي الأمريكي وما قدمته الخطابات الاستشراقية من خلال دراسة سيميائية للفيلم الكرتوني الشهير " علاء الدين" الذي أنتج عام 1992 من قبل شركة "والت ديزني"، أي قبل أحداث 11 سبتمبر 2001. وسبيلنا في ذلك هو توظيف مقاربة "رولان بارت" على عينة قصدية من متتاليات الفيلم التي نجدها تخدم موضوعنا وتجيب عن التساؤل المحوري التالي: **كيف تم توظيف التوصيف الاستشراقي في رسم الصورة النمطية للعربي المسلم في الفيلم السينمائي الكارتوني الأمريكي "علاء الدين"؟**

أولا- توصيف العرب والمسلمين من خلال كتابات المستشرقين :

لم تكن الصورة النمطية للعربي (الآخر) وليدة العصر الحديث، فلطالما وقفت الحضارة الغربية – حتى قبل الإسلام-من هذا الآخر موقف التعالي والعنصرية. والأدب اليوناني خير دليل على ذلك، حيث صورت الأشعار اليونانية حسب إدوارد سعيد (إدوارد سعيد، 2006، ص119) أوروبا في صورة المنتصر على آسيا، ذلك (الآخر) العالم المعادي فيما وراء البحار الذي تنسب إليه مشاعر الخواء والضياع والإحساس بالكارثة. ففي مسرحية "عابدات باخوس" (وهي من أقدم المسرحيات اليونانية التي وصل إلينا نصها) يصور الشاعر (الرب المزعوم) ديونيسيوس تصويرا صريحا يربطه بأصوله الآسيوية وبضروب التطرف التي تتسم بها الأسرار الشرقية، فهو يتصف بالعنف والسلطة الرهيبة وغرابة الأطوار.

هذا التوصيف السلبي، سيزداد شراسة وحدة مع تبني الإمبراطورية الرومانية الديانة المسيحية، وسيأخذ في النمو والتضخم وصولا إلى العصر الوسيط، أين لعبت فيه الكنيسة الدور الأبرز في رسم صورة شديدة القبح والتشويه عن الإسلام والمسلمين. وقد تضافرت عوامل عدة في تقوية العداء المستحكم من الكنيسة في العصر الوسيط اتجاه الإسلام، ويعزو الباحثين ذلك إلى عوامل أهمها:

- تخوف رجال الدين المسيحيين من فقدان امتيازاتهم وسلطتهم على شعوب أوروبا مع استمرار الفتوحات الإسلامية.

- الحروب الصليبية التي بدأت حوالي 1096 والتي نقلت النظرة الرافضة للشرق إلى عمل عسكري مبرر دينيا من طرف البابا بأنه من أجل تخليص قبر المسيح، مناقضة في ذلك كل أصول الدين المسيحي التي لم يشرع فيه قتال. وطيلة هذه الحروب بقي اهتمام الجماهير بالشرق الحقيقي وتاريخه معدوما أو يكاد، إلا ما تصوره الكنيسة لهم.
- حروب الاسترداد الاسبانية التي انطلقت في عام 1031 والمدبرة أساسا من قبل الكنيسة التي كانت تجمع لها الدعم في كل الأقطار الأوروبية.

وفي هذه المرحلة، كانت النظرة الغربية إلى الإسلام والعرب لا تزال ضبابية تقريبا وغير متحررة من هيمنة الكنيسة أي الجهة الرسمية التي كانت تصور العالم الإسلامي دائما في صورة المتوحش الكاسر الذي يأتي على الأخضر واليابس.

ويقول تييري هنتش" إن صورة الآخر المنتقصة موجودة لا جدال في الأمر آخذة بادئ ذي بدء شكل الهرطقة تكونت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر في العالم المسيحي الغربي صورة شعبية عن الديانة الإسلامية ستترسخ وتستمر في الوجدان الجمعي، ثم في اللاشعور الجمعي. (عبد الرزاق وورقية، 2006، ص21).

وفي هذا المناخ الثقافي المسيحي الذي يجهل ويتجاهل الصورة الحقيقية للإسلام سوف يتأسس الاستشراق بوصفه أول مؤسسة تعنى بمعرفة الشرق ومن ضمنه الإسلام، ومن هنا سوف يتطور موقف الكنيسة من رفض الاطلاع على ثقافة الإسلام إلى اتخاذ موقف غير مسبوق في مجمع فيينا عام 1312 بإحداث كراسي الأستاذية في أبرز جامعات أوروبا لتدريس العربية واليونانية والعبرية والسريانية. ويذهب أغلب الباحثين إلى أن هذا القرار كان بداية الاستشراق بوصفه معرفة للشرق ومن بينه الإسلام. وعليه فالصورة التي سيصيغها الاستشراق عن الإسلام سوف تعكس بالدرجة الأولى الموقف الكنسي التقليدي وتصوره عن الإسلام. (عبد الرزاق وورقية، 2006، ص22)

يقول إدوارد سعيد (إدوارد سعيد، 2006، ص 101) في هذا الشأن" كان الاستشراق في نهاية الأمر رؤية سياسية للواقع، وكان بناء هذه الرؤية هو الذي يعزز الفرق بين المألوف (أوروبا أو الغرب "نحن") وبين الغريب (الشرق "هم") ومن زاوية معينة أدت هذه الرؤية إلى خلق هذين العالمين بهذه الصورة ثم عملت على ترسيخها.

وبالفعل فقد عملت كتابات غالبية المستشرقين –باستثناء قلة من المنصفين الذين درسوا الشرق بموضوعية علمية متجردة- على رسم خارطة الطريق للجيوش الاستعمارية الأوروبية على الشرق الإسلامي، وكان ذلك بدراسة طبيعة المجتمعات العربية وأبرز عيوبها ونقاط ضعفها مع تشويه كبير لصورة هذه المجتمعات ينم عن عداء وحقد شديدين واحتقار لكل ما هو غير غربي.

ويذكر الغوري (سيد عبد الماجد الغوري ،2002، ص30) أن كتابات المستشرقين كانت تركز على أهداف معينة يمكن إجمالها فيما يلي:

- البحث عن مواضع الضعف في الشريعة الإسلامية والحضارة والتاريخ والإسلام وتمثيلها في صورة مروعة مضخمة، وإبرازها لأجل غاية سياسية أو دينية.
- إضعاف مثل الإسلام مقابل تفوق المثل الغربية، وإظهاره على أنه لا يتفق وطبيعة الحياة الحاضرة وحاجات العصر.
- اثارة الشك في قلوب وعقول المثقفين العرب الذين درسوا في مراكز الغرب الثقافية الكبرى، أو درسوا الإسلام بلغات الغرب، مما يحدث في دواخلهم يأسا من الإسلام، ومقتا على حاضره، وسوء ظن بماضيه، حتى يتركز نشاطهم وحماسهم في رفع هتاف "تطوير الدين".
- تصوير بيئة الدعوة المحمدية وتاريخها وعواملها الطبيعية على انها تحصيل حاصل لمنعرج تاريخي كان لمحمد صلى الله عليه وسلم دور بارز فيه كشخصية قيادية، مع إنكار لعظمة دعوته واتصالها بالوحي الإلهي.
- العمل على تصوير لغة القرآن العربية الفصحى بوصفها لغة بالية لا تساير مقتضيات العصر، لذلك يجب أن تعمم اللغات العامية حتى تصبح لغة الجرائد والمؤلفات، ولو نجحت هذه الفكرة لأنتجت توزع اللغة العربية بين لغات شتى وانقطاع صلة العرب بالقرآن.

ومن خلال هذه الأهداف المسطرة نستطيع أن نستشف ملامح تلك الصورة النمطية للعربي والمسلم، والتي عمل غالبية المستشرقين على جعلها قبيحة ومنفرة في مخيال الفرد الغربي، وباعثة للشك وعدم الثقة بالذات في مخيال أولئك الذين ينتمون إلى البيئة والثقافة الإسلامية أنفسهم. ولعل رصد بعض الاقتباسات مما كتب في هذا الشأن كفيل بإلقاء الضوء على ما نود الوصول إليه:

يقول لورانس براون في كتابه " الإسلام والإرساليات" واصفا الإسلام: "...ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قوته على التوسع والاخضاع، وفي حيويته، أنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي... ويقول إنه إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا، وأمكن أن يصبحوا نعمة أيضا، وأما إذا بقوا متفرقين فإنهم يضلون بلا قوة ولا تأثير." (محمد محمد الدهان، 1988، ص21).

أمّا " اللورد كرومر" في كتابه "مصر الحديثة" فيصف فيه العقل العربي بقوله: الأوروبي يحكّم الاستدلال الدقيق، وذكره للحقائق لا يشوبه أي غموض، فهو منطقي بالفطرة... وذكاؤه المدرب يعمل عمل الآلة المنضبطة. أما عقل الشرقي فهو يشبه شوارعه (الخلابة المظهر)، أي يفتقر إلى أي تناسق، والاستدلال لديه أبعد ما يكون عن الاتقان، وعلى الرغم من أن العرب القدماء ارتقوا درجات عالية من

العلوم الجدلية، فإن أحفادهم يفتقرون إلى ملكة المنطق افتقارا فريدا، وكثيرا ما يعجزون عن التوصل إلى أوضح النتائج من أية مقدمات بسيطة قد يعترفون بصدقها.(إدوارد سعيد، 2006، ص 94)

ويضيف كرومر" إن الشرقيين (العرب) يفتقرون إلى النشاط وروح المبادرة وأنهم كسالى ويستريبون بغيرهم، وفي كل شيء يمثلون عكس صفات الوضوح والمباشرة والنبل التي يتحلى بها الجنس الأنجلو سكسوني".(ادوراد سعيد، 2006،ص95)

أمّا " ارنست رينان" في محاضرته التي ألقاها في جامعة السربون عام 1883 بعنوان " الإسلام والعلم" فيعتبر العقل "السامي" غير منتج للحضارة، وأن العلوم والفنون الحضارية مقصورة على الجنس الآري الأوروبي. (عبد الرزاق وورقية، 2007، ص26). وهو يصرح " أخطأ المؤرخون في قولهم علوم وفنون العرب وتمدن العرب وفلسفة العرب، مع أن هذه الأشياء نتاج الأمم غير العربية أكثر ماهي للأمة العربية، فالتمدن معظمه من نتاج الفرس، والفلسفة أغلبها من نتاج النصارى النسطوريين والوثنيين الحرانيين. وبالتالي فنسبة الحضارة والمدنية والعلم والفلسفة إلى العرب خطأ وعدم دقة في التعبير." وهو يضيف " إن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر، بل هو عائق لذلك، لما فيه من اعتقاد بالغيبيات وخوارق العادات والإيمان التام بالقضاء والقدر." (بنسالم حميش ،2010، ص87)

نفس التوجه نلقاه عند الإنجليزي، الأمريكي " دونك بلاك ماكندونالد" والذي بشكل متطرف يخدم أغراضا تبشيرية، إذ يعتقد أن مشكلة الإسلام تكمن: في العجز عن تمثل الحياة بعزم ككل متكامل وفهم أن أي نظرية للحياة ينبغي أن تنسحب على كل الوقائع، كما تكمن في القدرة على التحمس لفكرة واحدة والتعامي عما سواها. وهنا في اعتقادي يقوم الفرق بين الشرق والغرب". (بنسالم حميش، 2010، ص89).

يرى "كارل هينرش بيكر" في كتابه " تراث الأوائل في الشرق والغرب" أن حضارة العرب أسطورة، وأن الإسلام كوسيط ورسول ينقل التراث القديم فقط، وأن الشريعة الإسلامية كشريعة متأثرة بالقانون الروماني، وحتى الأدب الإسلامي كحلقة مكملة للعصور القديمة المتأخرة. وتظل قابلية الشرق للتأثر بالغرب – وبالتالي قلة قدرته على التأثير فيه- قائمة حتى في أزمنتنا هذه. لذلك فهو يرى أن مستقبل الإسلام لا يقوم إلاّ في تكيفه مع حياة الروح الأوروبية، وإلاّ فإن أيامه معدودة. (بنسالم حميش، 2010، ص 68).

وعليه، إذا أردنا حصر ملامح الصورة النمطية للعربي والمسلم في كتابات المستشرقين استنادا إلى ما سبق عرضه، أمكننا تحديد عدد من التوصيفات التي من أبرزها وأكثرها تكرارا وتداولا نذكر ما يلي:

- أن العربي لا يتمتع بعقل منتج لأنه ينتمي إلى العرق السامي، وهذا عكس الغربي الذي يتميز بعقل منتج لأنه ينتمي إلى العرق الأنجلو سكسوني.
- العربي ليس له الفضل في بناء الحضارة الإسلامية التي تصدرت الأمم لقرون مديدة بل الفضل يعود لأجناس أخرى انضوت تحت راية هذه الحضارة وليس شرطا أن يكونوا مسلمين. فعلى أكتاف هؤلاء ازدهرت المدنية والعلوم والفنون، فالعربي قاصر على الإبداع والتحليل.

- محمد عليه الصلاة والسلام (العربي) مجرد طفرة تاريخية صنعتها ظروف معينة، ومع ذلك فهو لم يأت بجديد، فكل ما نادى إليه هو تشويه للمسيحية وتحريف وكفر وزندقة.
- العربي كسول وغير مبادر ونفسه مريضة مليئة بالشك، وهو في كل شيء يمثل عكس صفات النبل والنقاء والوضوح التي يمثلها الجنس الأنجلو سكسوني.
- المسلم بانتمائه للإسلام التقليدي عاجز عن فهم وقائع الحياة وإيجاد حلول لها فنظرته محدودة تتصف بالبؤرية.
- العربي المسلم هو مجرد ناقل للقوانين الرومانية وللعلم والأدب اليوناني، وبالتالي فهو مجرد متأثر ولم يكن صاحب تأثير قط، ولايزال كذلك.
- المسلم لا يتمتع بالتفكير الحر لأن دينه يمنعه من ذلك، فهو حبيس الإيمان بالغيبيات وسلطة القضاء والقدر.
- المسلم متوحش ودموي، ذلك أن دينه انتشر بحد السيف كونه دين يدعو إلى القتال (الجهاد).

كل هذه التوصيفات سنجد توظيفا لها في رسم الصورة النمطية للعربي المسلم في الإعلام الغربي المعاصر وفي السينما الأمريكية كما سنرى ذلك لاحقا، مما سيمكننا من إماطة اللثام عن تلك الحلقات التي تربط الماضي الاستشراقي ذو النزعة الدينية المسيحية المحضة والغايات الإمبريالية الاستعمارية، مع الحاضر الإعلامي التي تتجسد فيه الهيمنة الغربية بصورتها العنصرية الاستعلائية.

ثانيا- ملامح الصورة النمطية للعربي المسلم في الإعلام الغربي والسينما الأمريكية:

مع التطور المتسارع لتكنولوجيا الإعلام والاتصال، والسلطة المتزايدة لأجهزة الإعلام، التي تخضع للهيمنة الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، لم يبدو أن الصورة النمطية للعربي والمسلم التي خلّفتها كتابات المستشرقين في المخيال الغربي قد تزعزعت، بل على العكس من ذلك تماما، لقد تم توظيفها بشكل أكثر احترافية وخبثا من أي وقت مضى، كما تم نشرها على نطاق واسع إلى درجة أنها غدت جزءا لا يتجزأ من ثقافة الصورة في الغرب، فقد أصبح العداء للإسلام ولكل ما هو عربي صريح لا يقبل أي شكل من أشكال التورية. إنها الحرب الإعلامية المعاصرة التي جاءت لمواصلة ما بدأته الجيوش الصليبية في القرون الوسطى، ثم جيوش القوى الاستعمارية في العصر الحديث، وكل ذلك -وخلال كل هذه المراحل – تحت غطاء علمي أكاديمي لا يمكن أن يمت للموضوعية بصلة، بما أنه جاء أصلا لخدمة المصالح السياسية والإيديولوجية والاقتصادية لهذه الدول.

يقول إدوارد سعيد (إدوارد سعيد، 2005، ص42) أنه بالنسبة للغرب بصفة عامة والولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة، فإن تلاقي القوى ذات العلاقة "بالإسلام" واضح وجلي، سواء فيما يتعلق بالجماعات التي تمثل هذه القوى (الحياة الأكاديمية، والشركات الاقتصادية، وأجهزة الإعلام، والحكومة)

أو الغياب النسبي للمنشقين عن الطريق الذي جعلته هذه القوى "الطريق الصحيح" أو المعتمد. وكانت النتيجة هي التبسيط الشديد والمخل "للإسلام" الذي يتيح التلاعب به لتحقيق عدة أهداف معا: من إثارة حرب باردة جديدة، إلى إثارة الكراهية العنصرية، إلى تعبئة الرأي العام لإمكان القيام بغزوة جديدة، إلى استمرار تحقير المسلمين والعرب.

وهو يضيف في موضع آخر (إدوارد سعيد، 2005، ص70) إنه منذ أواخر القرن الثامن عشر على الأقل، وحتى يومنا هذا، وردود الأفعال الغربية الحديثة إزاء الإسلام يسيطر عليها نمط تفكير نستطيع أن نطلق عليه التفكير الاستشراقي. والأساس العام للفكر الاستشراقي يقوم على هيكل جغرافي يتسم بالاستقطاب الجوهري، إذ يقسم العالم إلى قسمين غير متساويين، أما القسم الأكبر "المختلف" فاسمه "الشرق"، وأما القسم الآخر فهو "الغرب". ولما كان الإسلام ينتمي في نظرهم دائما إلى الشرق، أصبح مصيره الخاص داخل هيكل الاستشراق العام هو أن ينظروا إليه بعد ذلك بمشاعر بالغة الخصوصية من العداء والخوف معا. ولا شك أن لذلك أسبابه الدينية والنفسية والسياسية الكثيرة، ولكن كل هذه الأسباب ترجع إلى إحساس الغرب بأن الإسلام لا يقتصر على كونه منافسا قويا، بل يمثل كذلك تحديا حديث العهد للمسيحية... فقد أدت مجاورته لأوروبا في ذاتها إثارة ذكريات غزواته لها، وتذكيرها دائما بقدرته الكامنة على إزعاج الغرب. أما حضارات الشرق الكبرى (الصين والهند) فيمكن اعتبارها منهزمة نائية. وبدا لهم أن الإسلام وحده هو الذي لم يستسلم تماما في يوم للغرب، وعندما بدا أن العالم الإسلامي يوشك أن يكرر انتصاراته القديمة من جديد في أعقاب الارتفاع الكبير في أسعار النفط في أوائل السبعينيات، سرى في جسد الغرب كله ما يشبه رجفة الرعب.

وإن كان "إدوارد سعيد" يعيدنا بهذا إلى أصول نشأة الصورة النمطية للعرب والمسلمين في الإعلام الغربي والأمريكي على وجه الخصوص وربطه مباشرة بالفكر الاستشراقي، الذي يرى في الإسلام تهديدا قائما للغرب على الرغم من كل محاولات الإضعاف والتشويه الذي تطاله هو والمنتسبين إليه، فإن "عبد الوهاب المسيري" يذهب أبعد من ذلك، حيث يرى أن الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية ينظر للإسلام كفكر وكإيديولوجية يتعارض والنظام العالمي القائم، بل ويهدد بقاءه، لذلك وجب محاربته.

يقول المسيري (عبد الوهاب المسيري،2007، ص178) "أن في مقابل هذا الفكر الغربي العنصري المبني على المادية المطلقة نجد فكرا آخر يدعو إلى إحداث التوازن بين الروح والمادة ويطرح –وهذا هو الأهم- نظرة شمولية للكون ويقدم حلولا للمشاكل الإنسانية. فالإسلام كرؤية للكون يرفض هذه الرؤية المادية، فهو يدعو للتوازن بين الإنسان والكون وينمي في الإنسان إحساسه بذاته الإنسانية ومنظومته الأخلاقية التي تخلق مسافة بينه وبين الطبيعة والمادة وتزوده برؤية تمكنه من رفض هذه الاستهلاكية التافهة الشرسة. وهذا هو سر عداء النظام للإسلام، فلو أن الإسلام يدور حول بعض الشعائر لقام النظام العالمي الجديد بتشجيعه وتمويله. ولكن النظام العالمي الجديد يعلم تمام العلم أن ثمة رؤية إسلامية

شاملة، أساسها الإيمان بالعدل، وأن هناك خطابا إسلاميا جديدا يطرح رؤية مركبة للعدل الاجتماعي وللعلاقات الدولية، ويجند جماهيره ضد الاستهلاكية اللعينة".

إذن وبناء على ما سبق، أصبح بإمكاننا فهم الدوافع الحقيقية للصورة النمطية التي ترسمها وسائل الإعلام الغربية والسينما الأمريكية للعربي المسلم، وبالتالي فهم ما تصبو إليه. إنها صورة تستمد مادتها من موقف فكري وإيديولوجي وديني قديم وإن اختلفت أشكالها وتقنيات إنتاجها فإنها تبقى دون تغيير جوهري، فهي دائما الصورة نفسها لذلك العربي المسلم المتخلف، الرجعي والأصولي، المتعطش للدم والجنس، الكسول والبليد وغير المنتج.

وفي هذا السياق، قامت الباحثة الأمريكية "تيري" ما بين عامي 1982و1985 بدراسة الصور النمطية للعرب والمسلمين في السيناريوهات السينمائية بتقسيم العقدة التي تركز على منطقة الشرق الأوسط إلى ثلاثة أنواع رئيسية هي:

- يمثل النوع الأول من العقد المغامرات البسيطة، فيظهر العرب في أدوار الخصم أو الشرير ويظهر الإسرائيليون في دور البطولة أو أدوار الخير.

- يمثل القسم الثاني قصص الجاسوسية، في هذا الشق يظهر الأمريكيون والإسرائيليون كجواسيس متفوقين في عملهم وهم يحاربون قوى الشر، ويظهر العرب كنوع من البشر يتوق عن طيب خاطر إلى استخدام أي طريقة دموية أو وحشية من أجل تحقيق غاياتهم، وفي الوقت ذاته لا تثار أسئلة أخلاقية حول حق الإسرائيليين لاستخدام أي طريقة من أجل الفوز.

- يشمل الشق الثالث الفكرة الأساسية المدّعية بأن الولايات المتحدة الأمريكية وبقية الدول الغربية تعتمد كليا على البترول العربي، وفي هذا السياق يبرز العرب وكأنهم أشرار يتحملون تبعات نقص البترول في السوق أو زيادة الأسعار، والغرب تحت هذا الشق يتحمل ضمنيا تبرير أي عمل عدواني ضد العرب ودولهم من أجل السيطرة على النفط، وتهيئة ذلك الاحتياطي النفطي للدول الغربية.

وتختتم "تيري" ملاحظاتها بأن العرب هم أسهل كبش فداء، فوجود الصور النمطية السلبية سواء عرقيا أم دينيا والتي لم تعد تطبق على الإيطاليين أو البولنديين أو الزنوج، هي بدون أدنى شك تستخدم عند الحديث عن العرب. (محمد غزيول، 2006، ص55)

ويذكر الخبير الفرنسي في الشؤون الاسلامية "جيل كبيل " أنه خلال مواجهة العالم الغربي للشيوعية، كان الهجوم يطال الحكومات ويتفادى الهجوم على الشعوب، أما فيما يرتبط بالإسلام، فإن الهجوم موجه للدين الذي تؤمن به الجماهير." فالعداء للإسلام أصبح جزء من ثقافة الصورة في الغرب، فصورة العربي والمسلم المقرنة بمفهوم الأصولي شحنت بأقصى طاقة عدائية، ولذلك نجد أن من يتكفل بنقل صورة الإسلام للأمريكيين والأوروبيين بصورة عامة هي شبكات التلفزيون والراديو والصحف والمجلات والسينما. هذه الصورة التي تتيح رؤية الإسلام واقعا مجسدا ولكنها رؤية مستمدة من صور

(لأفلام ومسلسلات ورسوم كاريكاتورية) يخيل للغربي أنها هي الواقع الفعلي للإسلام. ولذلك فإنه يتصف بالظلال واللاعقلانية والإرهاب، ولا يفرق فيه بين المعتدل والمتطرف (من معتنقيه)، فالكل سواء في الصورة النمطية عن الإسلام.(صلاح عبد الحميد،2015، ص228)

ثالثا- توظيف التوصيف الاستشراقي في رسم الصورة النمطية للعربي المسلم من خلال الفيلم السينمائي الكارتوني " علاء الدين"، دراسة سيميائية:

1-بطاقة فنية عن الفيلم:

الصنف: فيلم رسوم متحركة.

تاريخ الصدور: 1992.

مدة العرض: 91 دقيقة

اللغة الأصلية: الإنجليزية.

البلد المنتج: الولايات المتحدة الأمريكية.

المخرج وكاتب السيناريو: جون مسكر ورون كليمنتس.

الأداء الصوتي: سكوت وينجر، روبن وليامز، بروس أدلر، جونثان فريمان، ليندا لاركن.

الموسيقى: ألان مينكين (جائزة أوسكار لأحسن موسيقى تصويرية).

إنتاج: شركة والت ديزني.

2-ملخص قصة الفيلم: والفيلم مبني على قصة من التراث العربي وهي قصة "علاء الدين والمصباح السحري" من "ألف ليلة وليلة" غير أنه تم تغيير الكثير من عناصر القصة الأصلية. علاء الدين هو شاب فقير جداً ويتيم الأب. يجده ساحر، ويزعم بأنه عمه وشقيق والده الراحل ويُظهر حسن نيته لعلاء الدين حيث يتعهد بأن يساعد علاء الدين لكي يصبح تاجراً ثرياً. ولكن الدافع الحقيقي وراء طيبة الساحر كان اقناع الشاب علاء الدين ليستخرج المصباح السحري من كهف العجائب المليء بالمخاطر. بعد أن يخدع الساحر علاء الدين ويحاول السطو على المصباح السحري وإبقاء علاء الدين في الكهف، يرفض علاء الدين تسليم المصباح السحري فيقوم الساحر بإغلاق فتحة الكهف ويجد علاء الدين نفسه محاصراً في الكهف. عندها قام علاء الدين بفرك المصباح السحري ليخرج منه جني يعرض على علاء الدين ثلاثة أمنيات ويقوم بمساعدته ليخرج من الكهف.

يحقق الجني أمنية علاء الدين في أن يصبح غنيا وقويا ليمثل دور "الأمير علي" ويتزوج من الأميرة "ياسمين"، غير أن الساحر (الوزير جعفر) سرعان ما يتمكن من سرقة المصباح وينفي علاء الدين بعيدا ويحاول إجبار الأميرة على الزواج منه. غير أن علاء الدين يستطيع العودة باستعمال بساطه السحري، فيحرر الأميرة ووالدها ويتغلب على جعفر الذي يسجن في مصباح سحري أسود يرسله الجني إلى كهف العجائب. يتمنى علاء الدين للجني الحرية باستعمال أمنيته الثالثة، فيسعد ويرحل لاستكشاف العالم،

بينما يغير السلطان القانون من أجل أن تتمكن ابنته من الزواج من علاء الدين كونه مجرد رجل من العامة.

1- المتتالية الأولى/ متتالية افتتاحية الفيلم من قبل الراوي:



الشكل (1) صورة التاجر العربي الذي يمثل راوي قصة الفيلم

أ-المستوى التعييني: مدتها 3.16 دقيقة وبدأت مع انطلاقة جينريك الفيلم مصحوبة بأغنية البداية التي تم تغيير كماتها بعد الضجة الإعلامية التي أحدثتها في أوساط العرب والمسلمين والتي تقول " أنا جئت من أرض من مكان بعيد حيث تتجول قوافل الإبل حيث يقطعون أذنك إن لم يعجبهم شكلك، إنه تصرف بربري ولكنه الوطن "، وتظهر اللقطة الأولى من المتتالية، وهي لقطة عامة، رجلا يسير على جمله وحيدا لا صاحب له إلاّ ظله، في صحراء ممتدة الأطراف ذات رمال ذهبية وشمس ساطعة، لتطل عليه، بعد مسيره الطويل مدينة ذات عمائر بصوامع وقباب. يصل وينيخ جمله في إحدى ساحاتها التي كانت فارغة ثم ينزل من عليه مترجلا. يلتفت إلى الشاشة محدثا المتفرجين بادئا كلامه بالسلام عليكم، مرحبا بهم في مدينة "أغربة" بلد العجائب الساحرة، ودون سابق إنذار يضع طاولته الخشبية وورائها رفوف سلع بها آنية ويدعو مشاهديه إلى التقرب لاقتناء معروضاته التي تبدو غير صالحة للاستعمال، فهي سرعان ما تنكسر في يده فيقذفها وراء ظهره ويخرج أخرى، ولكنها سرعان ما تلقى نفس المصير. ثم تخطر على باله فكرة عرض مغرية فيخرج من كم ثيابه المنسدلة الفضفاضة ذات الحزام فانوسا. وهنا يتم توظيف اللقطة المقربة للفانوس، بينما يقول الرجل للمتفرج " أنه لا يهمك شكله من الخارج، وإن بدى عاديا إلا أنه ليس كذلك، المهم ما هو موجود بداخله مثله مثل الكثير من الأشياء. ويشرع في رواية قصة هذا المصباح مع الشاب الذي تغيرت حياته بالكامل بعد أن صادفه. شاب كان مثل هذا المصباح قيمته لا تظهر عليه، تماما مثل جوهرة في الوحل.

ب - **الجانب التضميني:** يبدو من خلال خطاب هذه المتتالية ومع انطلاقة جينيرك الفيلم، ذلك الموقف العنصري ضد كل ما يمت للبيئة والإنسان العربي من صلة. فأغنية الجنيريك " ليالي عربية" سواء بكلماتها المحذوفة في نسخ (دي في دي) " أنا جئت من أرض من مكان بعيد حيث تتجول قوافل الإبل، حيث يقطعون أذنك إن لم يعجبهم شكلك، إنه تصرف بربري ولكنه الوطن" أو الكلمات المستبدلة " حيث الأرض

مسطحة وكبيرة والحرارة شديدة، إنه تصرف بربري ولكنه الوطن" لا تخفي ربط دلالات صحراء الجزيرة العربية كجغرافيا وكحيز مكاني بدلالات الفراغ والوحشة بصريا ودلالات الهمجية الوحشية والبربرية لسانيا.

لتتوالى الإيحاءات السلبية تباعا، مع اتضاح صورة الرجل السائر في الصحراء بعد وصوله إلى ساحة المدينة، فهو عربي قحّ من خلال ثيابه الطويلة المنسدلة ذات الأكمام العريضة، والقسمات السامية: الأنف المعقوف الذي تم تضخيمه بشكل هزلي كاريكاتوري، وسمرة البشرة، وتعمد جعله قصير القامة من أجل أن تكتمل هزلية الهيئة.

ثم هو فوق قبح مظهره تاجر مخادع غشاش، إذ سرعان ما شرع في عرض بضاعته التالفة التي لا تصلح لشيء، وفور إحساسه أن المشتري المحتمل (المتفرج) – في محاولة لإقحام المشاهد وجدانيا في أحداث الفيلم وجعله طرفا فيه- يقوم بعرض بضاعته الثمينة التي كان يخفيها بمكر في كم ثيابه ويعرضها بكثير من الخبث -كما تدل على ذلك ملامح وجهه ونظرات عينيه وحركات جسمه-، ليعلن أنها ليست بالشيء العادي وإن بدت غير ذلك كما هي الكثير من الأشياء في الواقع، فالفانوس هو تماما كذلك الشاب الذي اقتناه ذات يوم، إنهما كالجوهرة في الوحل. وملفوظ الجوهرة في الوحل، يحيل إلى مدلول ذلك الشيء الثمين الذي تخفي الأدران العالقة به قيمته الحقيقية. وهو في مستوى لاحق من الانسياب الدلالي قد يتحمل الإيحاء إلى ثروات البلاد العربية التي لا يستحقها أصحابها لأنهم في المخيال الغربي ليسوا أهلا لها. وهي فكرة قد سبق وأن أشار إليها غارودي (روجي غارودي، 1999، ص34) حين قال "إن المجتمع الغربي الذي يزعم أنه يتخذ هذا الإنسان التقني مقياس الأشياء كلها ومركز المبادهة التاريخية الوحيد، ومبدع القيمة الوحيد، ومن ثم ينكر أو يهدم جميع الثقافات اللاغربية. ومن هذا المنطلق تأصلت العنصرية في هذا المجتمع الذي يرى أن الإنسان الأبيض هو الوحيد الذي يحق له أن يسيطر على الثروة ليتمتع بالرخاء اللامحدود واللامتناهي."

ووفق هذه الرؤية، لا أحقية للعربي في الجوهرة (البترول والثروات الباطنية والسطحية) لأنه وحل... وحل بالمعنى الفيزيولوجي (قبيح المنظر) ووحل بالمعنى الأخلاقي (كسول) –نذكر أن التاجر الراوي تزحلق من على ظهر جمله مرورا برقبة الحيوان وصولا إلى الأرض- وهو فوق ذلك مخادع ولئيم. وهي ذاتها التوصيفات التي جاءت في كتابات المستشرق "كرومر" حين قال " إن الشرقيين (العرب) يفتقرون إلى النشاط وروح المبادرة وأنهم كسالى ويسترِيبون بغيرهم، وفي كل شيء يمثلون عكس صفات الوضوح والمباشرة والنبل التي يتحلى بها الجنس الأنجلو سكسوني".(ادوراد سعيد،2006 ص95).

4 - المتتالية الثانية/ متتالية محاولة قطع يد الأميرة ياسمين:



الشكل (2) التاجر يحاول إقامة حد السرقة بقطع يد الأميرة ياسمين

أ- **المستوى التعييني:** تبدأ المتتالية من الدقيقة 17.40 من زمن بداية الفيلم وتستمر الى غاية الدقيقة 19.40 أي استغرقت دقيقتين. وفيها تبدو الأميرة الرقيقة ياسمين وهي تتنكر بزي فتاة من عامة الشعب -بعد أن هربت من خطابها الذين تركتهم وراءها في القصر- متجولة في سوق المدينة، فيعرض عليها الباعة بضائعهم وهم مشدوهين بجمالها. غير أن ياسمين تبصر طفلا صغيرا فتسأله إن كان جائعا، ودون أن تنتظر رده أخذت تفاحة كانت معروضة على طاولة بيع أحدهم وقدمتها له وهمت منصرفة دون دفع ثمنها، لينتبه البائع إلى تصرفها ويطالبها بالثمن الذي لم تكن تملكه، فيعمد الرجل الغليظ صاحب الملامح القاسية على سحبها من يدها مستلا سيفه سائلا إياها "هل تعرفين عقوبة السرقة؟ " ويهمّ بقطع يدها لولا تدخل الفتى "علاء الدين " الذي يدّعي أنها أخته، وأنها مصابة بالجنون، وينقذها من بطش الرجل.

ب-**المستوى التضميني:** في هذه المتتالية امتدت سلبية توصيف العربي لتطال زيادة على انتمائه العرقي انتماءه الديني، وعملت الإيحاءات على تجسيد أحكام الشريعة الإسلامية في صورة شريعة متوحشة دموية ضاغطة إياها في أحد أحكامها، وهو حكم السرقة الذي يقضي بقطع يد السارق مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة المائدة، الآية38).

فالفيلم يقدم هذا الحكم بشكله المطلق بعيدا عن شروط تنفيذه التي وردت في السنة النبوية الشريفة وسيرة الخلفاء الراشدين. وما زاد من شدة سلبية الدلالة هو أن الحكم سينفذه رجل غليظ مفتول العضلات قاسي الملامح في حق فتاة رقيقة جميلة يكاد معصمها أن يسحق في قبضة يده.

وبناء على هذه الصورة يغدو الإسلام كدين لهؤلاء السمر قباح الوجوه، دين بشع يتناغم مع بشاعة أصحابه وبشاعة بيئتهم الجرداء. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن منتجي الفيلم يرسخون صورة نمطية عن العرب وعن المسلمين بوصفهم همج ودمويون خارج الحضارة بل، خارج إنسانية الإنسان.

وهذا تحديدا، ما أشار إليه المستشرق "ارنست رينان" في وصفه للعرب بقوله:" العقل "السامي" غير منتج للحضارة، وأن العلوم والفنون الحضارية مقصورة على الجنس الآري الأوروبي. (عبد الرزاق وورقية، 2006، ص26)

وقد رأينا في موضع سابق من هذه الورقة البحثية كيف أن الكتابات الاستشراقية في غالبيتها ركزت على ما يدّعون أنها مواطن (ضعف) في الشريعة الإسلامية ويمثلونها في صورة مروعة مضخمة. (سيد عبد الماجد الغوري،2002، ص30)



5-المتتالية الثالثة/ المارد يعقد اتفاقا مع علاء الدين بشرط تخليه عن أفكاره السابقة:



الشكل (3) صورة الجني وهو يخرج لفافة ورقية من أذن علاء الدين

أ-**المستوى التعييني:** تبدأ المتتالية من الدقيقة 36.50 من زمن بداية الفيلم إلى الدقيقة 39.56، أي على امتداد ما يقرب من 3 دقائق. وقد شغلتها أغنية على إيقاع راقص تظهر فيه نساء صغيرات جميلات نصف كاسيات يغرين علاء الدين بالتحلق حوله وإرسال القبلات إليه عبر الأثير وهو يبادلهن الإعجاب والمغازلة. في حين يعمل الجني على إيضاح شروط خدمته له ليعقدا في الأخير اتفاقا بناء على إمضاء علاء الدين على وثيقة تعدد تلك الشروط. والملفت للانتباه في هذه المتتالية هو اقتراب الجني من رأس علاء الدين في محاولة على ما يبدو لسماع أفكاره، ثم يحرك شفتيه امتعاضا ويخرج لفافة ورقية طويلة مكتوبة بخط عربي، ونقرأ بعد تبطيء الصورة "وان كنتم مرضى أو على..." بعدها يمسك اللفافة بكلتا يديه، ودون اكتراث لما كتب عليها يمسح بها مؤخرته.

ب- **الجانب التضميني:** السيرورة الدلالية لهذه المتتالية تقودنا مرة أخرى إلى ملمح آخر من الصورة النمطية القبيحة للعربي المسلم، إنها صورة زير النساء الشهواني من جهة، وصورة رجل عربي قد حشي رأسه بأفكار لا تنفعه من جهة أخرى، مما دفع الجني إلى سحب هذه الأفكار السقيمة (دال اللفافة الورقية المكتوبة بالأحرف العربية) من رأس علاء الدين والتخلص منها عبر جعلها مجرد ممسحة لمؤخرته. وأفكار علاء الدين نابعة من بيئته، وكتبت بالعربية، بل أبعد من ذلك، فهي على ما يبدو جزء من آية كريمة: ﴿وَإِنْ كُنْتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ (سورة النساء، الآية 43). وهذا إيحاء أقل ما يقال عنه امتهان للإسلام وعنصرية شرسة ضد اتباعه. فهذه اللقطة تحديدا شحذت كل طاقاتها الإيحائية من أجل أن تقدم الإسلام على أنه دين عبثي لا جدوى من اتباع تعاليمه ولا طائل من الالتزام بشريعته وبالتالي فالتخلص منه يعني التحرر من قيود الرجعية التي يفرضها حسب منتجي الفيلم.

وهو ذاته الخطاب الاستشراقي الذي أورده " ارنست رينان" في محاضرته عن الإسلام والعلم التي ألقاها في جامعة السربون عام 1883 حيث صرح "إن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر، بل هو عائق لذلك، لما فيه من اعتقاد بالغيبيات وخوارق العادات والإيمان التام بالقضاء والقدر." (بنسالم حميش، 2010، ص87).

إنها ذات النظرة المتعالية المتعجرفة المتوارثة جيلا عن جيل في المخيال الغربي، والتي ترى في الآخر كانتماء عرقي وثقافي وعقائدي، ضرب من ضروب التخلف والرجعية والهرطقة.

نتائج الدراسة:

من خلال تحليلنا السيميائي للمتتاليات المختارة من الفيلم الكارتوني " علاء الدين" توصلنا إلى النتائج التالية:

-لقد عمل الفيلم الكرتوني السينمائي " علاء الدين" على التقليل من شأن العربي من حيث هو ينتمي لعرقية مغايرة للعرق الأنجلو سكسوني (العرق السامي) وذلك بإظهاره بمظهر فيزيولوجي قبيح بشكل قريب من الهزلية الكاريكاتورية خاصة فيما يتعلق بحجم الأنف فيما يوحي بالعنصرية العرقية.

-عمل الفيلم الكارتوني "علاء الدين" على رسم الصورة النمطية للعربي والمسلم من زواياها المختلفة سواء تلك الثقافية، أو العقائدية أو العرقية، ليقدمها كصورة مجسدة مكتملة الملامح للعقل الغربي وترسيخها لديه كما هي بكل ذلك القبح.

-لم يخرج الفيلم الكرتوني " علاء الدين" عن تلك الصورة النمطية الاستشراقية التي توارثها المخيال الغربي طيلة قرون من الزمن، وقد رأينا أن التوصيف هو نفسه، لم يتغير منه شيء، فهو لا يعدو أن يكون امتدادا لخطابات المستشرقين التي خدمت طويلا جحافل الجيوش الأوربية الغازية للأرض العربية والإسلامية. والتي رأت في العرب والمسلمين العدو الأول الذي وجب امتهانه وإخضاعه.

-توصيفات العربي المسلم في فيلم "علاء الدين" هي ذاتها توصيفات العربي المسلم في الكتابات الاستشراقية وهي عادة ما تركز على كونه: متخلف، ومتوحش وماكر ومخادع وشهواني وكسول، وصاحب عقل متحجر بحاجة إلى من يغير أفكاره ويحرره من عبوديته التي يفرضها عليه دينه الإسلام.

خاتمة:

لقد اجتهدت السينما الأمريكية في ترسيخ تلك الصورة النمطية التي توارثها الوجدان الغربي منذ الحروب الصليبية، وصولا إلى الحملات الاستعمارية، مرورا بدراسات المستشرقين التي خدمت هذه وتلك. وبالتالي فهي لا تعدو أن تكون حرب بأسلحة جديدة تكمل مهمة ما سبق وتعمل على ترسيخه من أجل ضمان استمرارية الوضع القائم بما يخدم مصالح الغرب وهيمنته على باقي شعوب العالم وخيراتها، ومن

هنا يتجلى حسب "المسيري" (عبد الوهاب المسيري،2007، ص180) مقدار تشبع الفكر الغربي بالعنصرية إلى حد النخاع، فهو يقسم الجنس البشري إلى "جنس أبيض" له الأحقية في الحياة والتطور والازدهار والتمتع بخيرات الطبيعة وملذات العيش، وبقية الأجناس الذين يعتبرهم جزء من الطبيعة التي له الحق الكامل في استغلالها.

توصيات:

- إن من واجب وسائل الإعلام العربية والإسلامية أن تتحرر أولا وقبل كل شيء من الهيمنة الغربية والأمريكية حتى تستطيع الذود عن هوية الأمة، وإلا فلا جدوى من الحديث عن إيجاد حلول لدحض ادعاءات وسائل الإعلام والسينما الأمريكية فيما يخص نشر تلك الصورة النمطية الزائفة عن العرب والمسلمين.

- على الشركات الإعلامية أن تقاطع كل منتج سينمائي أو غيره فيه شبهة إساءة لهوية الأمة ومقوماتها، فهذا كفيل بالضغط اقتصاديا على الشركات الغربية والأمريكية المنتجة، حيث أنها بمثل هذه المقاطعة تخسر جزءا كبيرا من السوق الاستهلاكية، وهذا ما لا يخدم بأي حال من الأحوال مصالحها فيرغمها على إعادة حساباتها وتقييمها لزبائنها من العرب المسلمين.

- إن إنتاج أفلام سينمائية بمواصفات عالمية تحمل خطابا مواجهيا للخطاب العنصري الذي ينفث سمه من خلال أفلام سينما هوليود، يستلزم إرادة سياسية قبل شيء، فهو من واجب الحكومات قبل المؤسسات الإعلامية والسينمائية لأنه يحتاج إلى ميزانيات ضخمة، كما يحتاج إلى تحرير العقول المبدعة من القيود التي تفرضها المصالح الضيقة للهيئات والأفراد.

- على الأفلام السينمائية العربية والإسلامية أن تعيد ربط الناشئة بقيمها وتاريخها المجيد، بهذا تستطيع الأمة أن تستجمع شتاتها وتسترد ثقتها بهويتها، فتحمي حماها. ويجب على الجميع أن يعي أننا في حرب حقيقة نواجه فيها عدوا حاقدا يسعى إلى إزالتنا من الوجود بجعلنا مجرد أشباه بشر لا هوية ولا تاريخ لهم.

- يجب على وسائل الإعلام والشركات السينمائية أن تعمل على نشر خطاب الأمل وتعزز الشعور بفخر الانتماء إلى أمة الإسلام، وذلك بنشر حقيقة أن الغرب ما كان لينشغل بتشويه صورتنا لولا خوفه من قوتنا الكامنة فينا؛ قوة الإسلام الذي يعتبر بشهادة المنصفين من الغربيين أنفسهم أنه الحل الوحيد لكل مشاكل البشرية.

قائمة المصادروالمراجع:

- القرآن الكريم

(1) الكتب:

- ادوارد سعيد، **تغطية الإسلام، كيف تتحكم أجهزة الإعلام ويتحكم الخبراء في رؤيتنا لسائر بلدان العالم**، (2005)، تر : محمد عناني، ط1، رؤية للنشر والتوزيع (مصر).
- إدوارد سعيد، **الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق**، (2006)، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع (القاهرة).
- بنسالم حميش، **العرب والإسلام في مر ايا الاستشراق**، (2010)، ط1، دار الشروق (القاهرة).
- روجي غارودي، **في سبيل حوار الحضارات**، (1999)، تر، عادل العوا، عويدات للنشر(بيروت).
- سيد عبد الماجد الغوري، **مقالات وبحوث حول الاستشراق والمستشرقين للعلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي**، (2002)، ط1، دار ابن كثير (دمشق).
- صلاح عبد الحميد، **الإعلام وثقافة الصورة**، (2015)، ط1، أطفالنا للنشر والتوزيع (الجزائر).
- عبد الوهاب المسيري، **الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان** (2007)، دار الفكر(سورية).
- محمد محمد الدهان، **قوى الشر المتحالفة، استشراق تبشير. استعمار، وموقفها من الإسلام والمسلمين**، (1988)، ط2، دار الوفاء للطباعة والنشر (مصر).
- **(2) الملتقيات:**
- عبد الرزاق وورقية، **أثر الاستشراق في تشكيل الصورة النمطية للإسلام عند الغرب**، (2006)، الملتقى الدولي: **الإسلام في الغرب بين التشويه وواجب التصحيح**، (فاس، المغرب).
- محمد غزيول، **الصورة النمطية للإسلام والعرب من خلال الصناعة السينمائية**، (2006)، الملتقى الدولي: **الإسلام في الغرب بين التشويه وواجب التصحيح**، (فاس، المغرب).

صورة المرأة المسلمة في الإعلام الغربي

The Image of Muslim Women in Western Media

د. فوزية ساحي، جامعة -البليدة 02-لونيسي علي- الجزائر
sahifouzia@yahoo.fr/f.sahi@univ-blida2.dz



تغيرت صورة المرأة تدريجياً في الإعلام الغربي لتتحول من أداء الوظائف المنزلية إلى امرأة أكثر استقلالية مع زيادة وسائل الاتصال سواء في الإعلام الخاص أو على شبكات التواصل الاجتماعي.

توجد عدة عوامل ساهمت في تغيير الصورة التي تكونت عن المرأة العربية في الاعلام الغربي، والتي تطورت بتطور مكانة المراة ومساهمتها.

هذه المداخلة تساهم في الكشف عن الكيفية التي تصور بها وسائل الإعلام الغربية المرأة المسلمة، ودور هذه الأخيرة في تشكيل صور عن الإسلام والمسلمين والتي تقدمها وسائل الإعلام الغربية.

الكلمات المفتاحية: الصورة، المرأة المسلمة، الإسلام.

Abstract:

The image of women gradually changed in the Western media to shift from performing domestic jobs to a more independent woman with the increase of the means of communication, whether in the private media or on social networks.

There are several factors that contributed to changing the image that formed of Arab women in the Western media, which developed with the development of the status and contribution of women.

This intervention contributes to revealing how the Western media portrays Muslim women, and the role of the latter in shaping images of Islam and Muslims presented by Western media.

Keywords :Image, Muslim woman, Islam



مقدمة:

إن وضع المرأة في العالم الإسلامي من بين أهم القضايا التي كانت ولا تزال محل جدل منذ مرحلة الاحتلال الغربي على عدد من مجتمعاتنا الإسلامية. وقد واكب هذه المرحلة وما تلاها مخالفة كثير من المسلمين لتعاليم الدين الإسلامي، وخصوصا ما يتعلق بالنساء وقضاياهن، أدت

إلى عدم إيفائهن حقوقهن كاملة وفق ما نصت عليه التشريعات الإسلامية، كما أن إعلاء ثقافة الأعراف، وبعض التقاليد التي تسهم في هذا الجانب أدت إلى مزيد من التراجع لدور المرأة المسلمة في المجتمع بما يتفق والمظلة التشريعية الإسلامية، هذا المناخ تم توظيفه من قبل الإعلام الغربي في تعميم الصورة النمطية السلبية لمكانة المرأة المسلمة في المجتمع متزامنا مع ما تحمله الذاكرة التاريخية في الغرب من معتقدات متميزة وعدائية تجاه الإسلام والمسلمين بشكل عام، وللمرأة المسلمة على وجه الخصوص، والذي تمثل في مهاجمة الإسلام والتشكيك في تشريعاته واتهامه بأنه لم ينصف المرأة بل مارس عليها القهر والتخلف. ولم تتوقف الآلة الإعلامية الغربية عن تعميم هذه الصورة النمطية عن المرأة وعززها ما شهدته العقود الأخيرة من القرن العشرين الميلادي من اهتمام متزايد بقضية حقوق المرأة في العالم وعقد المؤتمرات والاتفاقيات التي تتعارض في بعض بنودها مع التشريعات الإسلامية وتشكل خطرا على المنظومة الأسرية في المجتمع المسلم، مما يستدعي إلقاء الضوء على ملامح هذه الصورة النمطية للمرأة المسلمة في الإعلام الغربي، خصوصا في هذه المرحلة من تاريخنا المعاصر بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م ومعاييرها ومسبباتها ومدى مقاربتها للواقع الاجتماعي للمرأة المسلمة، وما الذي ينبغي على المجتمعات الإسلامية اتخاذه حيال هذه الهيمنة الثقافية الغربية؟خصوصا أن ما يقدمه الإعلام الغربي هو محاولة دحض الإسلام وإضعاف القيم الإسلامية تحت مسميات كثيرة، منها: العولمة والانفتاح والحداثة، ووسيلته في ذلك المرأة المسلمة فهي الأساس في أي تغيير ثقافي أو اجتماعي في أي مجتمع.

أهداف الدراسة: بما أن موضوع المرأة المسلمة هو موضوع الساعة، وحديث المرحلة خاصة بعد أن أصبحت هدفا للتيارات الفكرية الهدامة التي تريد أن تشككها في دينها وقيمها بإثارة الشبهات حول حقوقها وواجباتها، وذلك من خلال عدد من الوسائل منها تأطير وضعها الاجتماعي في الإعلام الغربي والصحافة على وجه الخصوص وفق صورة نمطية تسلبها من إنسانيتها ودورها الأمومي والأسري والاجتماعي. فإن أهداف الدراسة ستناقش الآتي:

- معرفة معايير الصورة النمطية للمرأة المسلمة في الإعلام الغربي.
- تحديد العوامل التي أسهمت في صياغة هذه الصورة للمرأة المسلمة.
- معرفة مدى مقاربة هذه الصورة للواقع الاجتماعي للمرأة المسلمة.
- ما الذي يجب علينا اتخاذه تجاه تصحيح هذا الواقع ثم الصورة النمطية.

أولا-المرأة في المجتمعات غير العربية:

"إن أقل ما يقال عن المرأة في المجتمعات القديمة أنها كانت تحتل مرتبة دونية أمام الرجل الذي كان الآمر والناهي وهي الخاضعة المستجيبة والعامل الذي حدد لها هذه المكانة هو كونها أنثى"(البهي، 1984، صفحة 13)، فعند اليونان مثلا كانت المرأة عبارة عن متاع يباع ويشترى متى رغب الرجل في ذلك "فالمرأة عند اليونان كانت تحكمها القاعدة القائلة بكونها تدخل ضمن ممتلكات زوجها بعد الزواج" (البهنساوي، صفحة 12).

"وفي آثينا كانوا يفرحون إذا كان المولود ذكرا، ويعلقون –تعبيرا عن ذلك– أكاليل الزيتون على مداخل المنازل، أما إذا كان المولود أنثى فسرعان ما تغشاهم الغمة، ويخيم عليهم الحزن " (بيهم، 1980، صفحة 58).

" أما في إسبرطة فكان الآباء يقتلون سبع بنات من عشر يولدن لهم " (جميل، 1980، صفحة 58).

وقد لخص الفيلسوف **"ديموستين** " مكانة المرأة عند اليونان بقوله " إننا نتخذ العاهرات للذة ونتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية ونتخذ الزوجات ليكون لنا أبناء شرعيون"(البهنساوي، صفحة 12).

وفي شريعة **حمورابي** كانت المرأة تحسب في عداد الماشية المملوكة حتى أنه كان جزاء من قتل بنتا لرجل ما عليه إلا أن يسلمه بنته ليقتلها أو يمتلكها.

"أما عند الهنود فقد جاء في شرائع الهندوس أنه ليس الصبر المقدر والريح والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار أسوأ من المرأة "(القطان، 1989، صفحة 7).

وقد حدد قانون**مانو**وضع المرأة في عدة نصوص نكتفي منها بالمادتين 147 و148.

فنصت المادة 147 على ما يلي: " لا يحق للمرأة في أي مرحلة من مراحل حياتها أن تجري أي أمر وفق مشيئتها ورغبتها حتى ولو كان ذلك الأمر من الأمور الداخلية لمنزلها " (البهنساوي، صفحة 13). أما المادة 148 فنصت على أن " المرأة في مراحل طفولتها تتبع والدها وفي مراحل شبابها تتبع زوجها فإذا مات تنتقل الولاية إلى أبناءه أو عشيرته الأقربين فإن لم يكن له أقرباء تنتقل الولاية إلى عمومتها فإذا لم يوجد لها أعمام تنتقل إلى الحاكم " (البهنساوي، صفحة 13). والسبب في ذلك أن تشريعات مانو تعتبر النساء دنسات وظلت عادات الهندوس حتى القرن 17 هي حرق الزوجة إذا مات زوجها لتصبح رمادا مع جثته التي تقضي شرائعهم بحرقها. أما عن مكانة المرأة عند الرومان فقد كانت المراة عندهم تعامل كمعاملة الأطفال والمجانين لكونها في نظرهم فاقدة الأهليةفقانون

الألـواح الإثني عشـر نـص على أن أسـباب إنعـدام الأهليـة ثلاثـة: صـغر السـن، الجنـون، والأنوثـة "(البهنساوي، صفحة 14).

"وكانـت العـادة عنـد الرومـان أن لايعترفـوا بـالولود قبـل أن يرفعـه والـده عـن الأرض عقـب ولادتهوغالبا ما كان الآباء يعرضـون عـن مولـودهم ويتخلـون عنـه إذا تبين لهـم أنـه أنثى " (القطان، 1989، صفحة 59).

"ومن الثابت لدى المؤرخين أن شرائع الهند والصين واليونان والرومان واليهود والعرب أجمعت كلها على تقديم الأب (الرجل) على الأم (المرأة) في توصية الأبناء. فشريعة البراهمة وإن قالت: احترم أبـاك وأمك غير أنها تضيف إلى ذلك أن إحترام الوالد هو وحده الذي يفتح لك أبواب السماء ومثلها شريعة بوذا وكذلك شريعة اليونان والرومان فإنهما وإن كانتا تفتحان للمرأة بالأمومة باب الخلاص من العبودية إلا أنهما كانتا تقدمان الأب عليها في الإكرام والاحترام ... وهكذا الفرس وعرب الجاهلية" (بيهم، 1980، صفحة 113).

أما عند اليهود فإن المرأة تعتبر عندهم لعنة لأنها أغوت آدم وكانت بعض طوائف إليهود تعتبر مكانة المرأة لاتتجاوز مرتبة الخادم وتعطي لأبيها الحق في بيعها قاصرة، وقد كان للمسرحي الكبير **"وليام شكسبير** "دور كبير في فضح المعاناة التي كانت تعانيها المرأة في المجتمع اليهودي من خلال مسرحياته وأشهرها مسرحية "تاجر البندقية ".

"والأصل في الشرائع اليهودية أن لا ترث المرأة سواء كانت بنتا أو أما أو زوجة طالما كان للميت ذرية من الذكور كما جاء في الإصحاح 21 من سفر التكوين " (بيهم، 1980، صفحة 15).

فـالمرأة عنـد اليهـود لهـا تبعيـة مطلقـة للرجـل وتلخـص ذلـك المـادة 36 مـن قـانون الأحـوال الشخصية للإسـرائيليين بمصـر التي تـنص " أنـه إذا تـوفي الـزوج ولا ذكـور لـه تصـبح أرملتـه زوجـة لشقيق زوجها أو لأخيه من أبيه ولا تحل لغيره إلا إذا تبرأ منها " (بيهم، 1980، صفحة 15).

وإذا رجعنا إلى نظرة النصارى للمراة فنجدها نظرة إحتقاروإزدراء لكون المرأة في نظرهم هي المسؤولة عن خطيئة آدم وكل المآسي الواقعة في الحياة سببها المرأة.

"وقد حدث أن إجتمع في القرن الماضي مجمع مسكوني للبحث في مسألة المرأة هل هي مجرد جسم لا روح فيه؟ أم لها روح؟ ولآخيرا قرروا أنها خالية من الروح الناجية من عذاب جهنم.

كما عقد الفرنسيون عام 586 م مؤتمرا للبحث فيما إذا كانت المرأة من البشر أم من غيرهم؟ فقرروا في نهاية المطاف أنها إنسان خلقت لخدمة الرجل فحسب "(القطان، 1989، صفحة 08). وقد ظل القـانون الإنجليزي حتى عـام 1805 م يبيح للرجل بيع زوجتـه بسـتة بنسـات ... ولما قامت

الثورة الفرنسية لم تشمل المراة بقوانينها الثورية وإعتبرتها قاصرة ولا يجوز لهاالتعاقد بدون رضا وليها " (القطان، 1989، صفحة 08).

ثانيا- المرأة في المجتمعات العربية قبل الإسلام :

وهي المرحلة التي عرفت بالمرحلة الجاهلية أو العصر الجاهلي ولم تكن مكانة المرأة لتختلف كثيرا عن مكانة المراة في المجتمعات غير العربية.

في تلك المرحلة وفي "تلك المناطق الصحراوية المأهولة بقبائل البدو والرحل وعابدي الأصنام كانت المرأة محرومة من أي حق إذ كانت البنت الوليدة في العائلات الفقيرة توأد أحيانا لحظة ولادتها بغية تفادي المصير المشؤوم الذي يكنه المجتمع للنساء أو لتفادي المصائب التي يمكن أن تلوث بها الفتاة اسم العائلة " (لمين، 2005، صفحة 68).

لقد كان العرب في جاهليتهم يبغضون البنات ويربطون العار بالبنت ويخشون الفقر بها لذلك شاع عندهم قتل البنات ووأدهن ووصف القرآن هذا لوضع المأساوي بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [1] سورة النحل الآيتين 58-59.

وكانت المرأة تعد من ممتلكات وأثاث الرجل يتصرف فيه كيف يشاء وكانت المرأة تحرم من الميراث لكونها لا تشارك في الحروب.

وكانت المرأة في القبائل العربية من حيث العموم تابعة في كل أدوار حياتها للرجل، فقد كانت تخضع لسلطة أبيها ولزوجها خضوعا مطلقا، فقد كانت تعاني من وطأة القيود الثقيلة التي كانت تفرضها بعض التقاليد والعادات الهمجية، فإذا مات زوجها ورثه إبنه فإن شاء تزوجها وإن شاء زوجها غيره وإستولى على مهرها "(الشواربي، 1987، صفحة 43).

"ولم يكن للمرأة ميراثا، كما لم تكن قرابة الأم ذات اعتبار، بل كان الاعتبار كله لقرابة الأب، ولم يكن لدى العرب نظام للزواج ولا قانون للطلاق، فيتزوج الرجل منهم ما شاء من النساء ويطلق مايشاءوكان العرب يجمعون بين الأختين ويكرهون جواريهم على البغاء" (الشواربي، 1987، صفحة 43). "وكانت المرأة بعض الملك المشاع، فكانت زوجا أو خليلة لأفراد الأسرة جميعا، وكانت إذا مات زوجها يفرض عليها حداد سنة كاملة لا تخرج من بيتها، وكانت كثيرا ما تتعرض للتهمة والظن فيحل بها البلاء عن غير إستحقاق " (الشواربي، 1987، صفحة 43.44).

ثالثا-مكانة المرأة في الإسلام:

لقد جاء الإسلام لإحداث ثورة وإنقلاب في عالم القيم التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي ولم يستثن في ذلك تغيير نظرة المجتمع السلبية للمرأة وإعادة الاعتبار لها باعتبارها كائن بشري يتمتع بكامل الحقوق وشعاره في ذلك قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [1] سورة الحجرات الآية 13، وأعلن الإسلام بموجب هذا مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة إنطلاقا من قوله تعالى:هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها [1] سورة الأعراف الآية 189.

وبدأ الإسلام بتحريم وأد البنات وأعطى المرأة الحق في الإرث: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [1] سورة النساء الآية 32 وقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [1] سورة النساء الآية 7.

كما قرر الإسلام للمرأة حق معاشرتها بالحسنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي " وقال أيضا " أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا وخياركم خياركم لنسائهم " كما قيد الإسلام نزوة وحرية الرجال المتعلقة بتعدد الزوجات فقيدها بأربع بشرط العدل: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ سورة النساء الآية 3.

"وهذه أم سلمة تزود الرسول صلى الله عليه وسلم برأي أنجى المسلمين جميعا ففي صلح الحديبية أمر الرسول (ص) الصحابة بالحلق تحللا من الإحرام فرفض بعض الصحابة الإستجابة له فقال النبي (ص) لزوجته ام سلمة: هلك المسلمون أمرتهم أن يحلقوا وينحروا ولم يفعلوا فأشارت إليه أن يخرج عليهم ويحلق وينحر ولا يكلم أحدا ففعل فتبعه الصحابة فقال لها: حبذا أنت أم سلمة لقد نجى الله بك المسلمين من عذاب أليم " (البهنساوي، صفحة 61).

وقد تطورت مكانةالمرأة في الإسلام فأصبحت تكفل الرجال وتعطيهم الآمان وتلزم المسلمين بهاته العهود فقد أجارت " ام هانيء بنت أبي طالب" رجلين من المشركين وكانا أسيرين عند المسلمين فاحترم النبي (ص) عهد الآمان التي أعطته لهما وقال لها " أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت يا أم هانيء".

وإن أروع صورة تبرز لنا المكانة المرموقة التي أصبحت المرأة تتمتع بها في الإسلام أن آخر وصايا النبي (ص) لأمته في حجة الوداع كانت " أوصيكم بالنساء خيرا ".

وعلى العموم فإن " الإسلام اعترف بآدمية المرأة وإعترفبإستقلالها الإقتصادي وحررها من ولاية الرجل في البيعوالشراء والعمل والتعليم ". (البهنساوي، صفحة 65). " فالإسلام مزق حجب الفوارق بين النساء كما مزقها بين الرجال، فجاء الإسلام بتحريم وأد البنات، ومنع الإسلام إرث نكاح النساء، وأمر بمعاشرة الزوجات بالمعروف وجعل الإسلام المرأة راعية على بيت زوجها " (عمر، 1982، صفحة 207)

لما جعل الإسلام شهادة المرأة نصف شهادة الرجل لا يعني ذلك أنه أنقص من كرامتها بل هناك مراعاة لطبيعتها التي لخصها قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى﴾ سورة البقرة الآية 282، فوضعية المرأة تغيرت بمجيء الإسلام، حيث وبعدما كانت تعتبر آلة أو حاجة مادية في خدمة الرجل وشيئا جنسيا، وأداة لإنجاب الذكور خاصة (Toualb, 1984, p. 13)

جاء الإسلام ولقيت المرأة التقدير اللائق وإستردت اعتبارها فقد رفع الإسلام من شأنها وقرر لها حقوقا كاملة نظريا وعمليا (الأنصاري، 2000، صفحة 7)

فأتاح الإسلام بذلك للمرأة أن تتعلم العلم والأدب، بل إنه يوجب عليها تعلم ما يتصل بأمور الدين لتقف على معرفة الأحكام ولتحسن القيام بالعبادات وسائر الوظائف في الحياة (طاحون، 2000، صفحة 72). بل أن الإسلام أعطى للمرأة ليس فقط حق التعلم بل حتى حق العمل وهذا مايؤكده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [1] سورة النساء الآية 32 ، وقرر الإسلام إشراك المرأة في المسؤولية إلى جانب الرجل في قوله تعالى: " وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " [1] سورة التوبة الآية 71.

رابعا- مكانة المرأة في المجتمع الجزائري:

يرى أغلب الملاحظين أن المرأة الجزائرية إلى غاية 1954 كانت تعيش وضعية خضوع لسلطة الأب والإخوة وبعدها لسلطة الزوج ودورها لم يكن ليتعدى الإنجاب، وهذا ما لمسناها في مبحث تنشئة الفتاة في الأسر الجزائري.

وبالتالي فإن المرأة قبل عام 1954 لم تكن تعاني من ويلات الإستعمار فحسب بل كانت تعاني أيضا من التهميش والقهر الإجتماعي وهو ما جعلها منطوية على نفسها تعيش العزلة والجهل.

ولما ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أعيد الإعتبار لبعض حقوق المرأة وعلى رأسها حقها في التعلم، فإبن باديس كان دوما ينادي بتعليم المرأة ويحث عليه لأنه الشرط الوحيد الذي

يرفع من مستواها الفكري ويحقق التكافؤ بينها وبين الرجل لكن مع ذلك كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تتحفظ من التحرر اللامشروطللمرأة لكونها صمام آمان الهوية الوطنية.

ولما جاءت ثورة التحرير تغيرت وضعية المرأة الجزائرية بشكل كبير إذ إزدادت مسؤولية المرأة بسبب غياب العنصر الررجالي عن البيت ومشاركته المباشرة في ثورة التحرير وأصبحت مسؤوليتها مزدوجة فهي مسؤولة عن إعالة بيتها من جهة إضافة إلى إلتحاقها الاختياري أو الإضطراري بالعمل المسلحوقد برزت عدة نساء من خلال نضالهن ومشاركتهن الفعالة في الثورة.

أما فيما يخص الأدوار التي قامت بها المرأة الجزائرية أثناءثورة التحرير " فإنها لم تكن ضابطة فقط أو ممرضة بل كانت أيضا مكافحة في صفوف الجيش وواضعة للقنابل في الأحياء، كما يجب ألا ننسى أن نضيف بأنها كانت تعد وتحضر أطنان الكسرة والكسكسي للمجاهدين من أجل مواصلة المعركةالشرسة " .(Megherbi, 1986, p. 129)

ونظرا لمشاركة المرأة الفعالة في ثورة التحرير فإن جبهة التحرير الوطني إعترفت لها بكافة حقوقوإلتزامات المواطنة فجاء في مقدمة تشريعياتها " توجه جبهة التحرير الوطني الكفاح المسلح بفضل جيش التحرير الوطني الذي يستمد قوته من الشعب مجاهدين ومجاهدات يقودون الكفاح الذي يهدف إلى تحطيم قوة العدو " (Vandevelde, 1980, p. 02).

فمشاركة المرأة الجزائرية في حرب التحرير لم تكن حدثا عاديا أو أمرا بسيطا مثلما يعتقدالبعض نظرا لطبيعةالقيم التي كانت تحكم المجتمع الجزائري في تلك الحقبة إضافة إلى الأدوار التقليدية المنوطة بالمرأة.

ونظرا للدور الريادي والبطولي الذي قامت به المرأة أثناء حرب التحرير فإن منظري مؤتمر الصومام المنعقد بتاريخ 1956/08/20قد وضعوا مقررات في موضوع الحركة النسويةأهم ما جاء فيها: " توجد في الحركة النسوية إمكانيات واسعة تتزايد وتكثر بصورة مستمرة وإننا لنحيي بإعجاب وتقدير ذلك المثل الباهر الذي تضربه في الشجاعة الثورية الفتيات والنساء المتزوجات والأمهات، ذلك المثل الذي تضربه جميع أخواتنا المجاهدات اللائي يشاركن بنشاط كبير وبالسلاح أحيانا "(العسلي، 1986، صفحة 223). وتعقب " أنيسة بركات " على إسهامات المرأة الجزائرية في حرب التحرير بقولها: "كم من فتاة واجهت بعنف وقوة عداوة ذويها وتغلبت على الضغط الإجتماعي لكي تنضم في سلك المجاهدين وكم من فتاة آخرى تغلبت في صراع نفسي عنيف وهي تشعر بتيار إيجابي تشكله تلك القوة التي تحس بها من أعماقها تدفعها إلى الأمام ثم بتيار معاكس سلبي تمثله هذه الثورة التي تحرضها على البقاء في البيت وسط الأهل والأقارب " (آنيسة، 1985، صفحة 31)

إن هذا الوضع الجديد المتعلق بوضعية المرأة يمثل تغيرا هاما في الوضعية الإجتماعية للمرأة الجزائرية فقد أصبحت المرأة الجزائرية ومن خلال مشاركتها في الثورة تبيت خارج بيت أهلها وفي الغابات وتقوم بأعمال فدائية متقمصة مختلف الأدوار والشخصيات التي يفرضها تنفيذ مثل هاته العملياتوهو الأمر الذي أدى بالضرورة إلى تغير نظرة العائلة الجزائرية للمرأة.

لكن خيبة المرأة الجزائرية بعد افستقلال كانت كبيرة لكونها لم تشعر بالإنصاف بسبب إستحواذ الرجل على كل شيء بالرغم من أهنا عانت ويلات الحرب مثله ولهذا " كانت مرارة النساء كبيرة عندما دفعت مناضلات حرب التحرير غداة إعلان نتائج الحرب إلى المركز الثانيمن الحياة العامة وأقصيت من أغلب الإنتصارات الجديدة للحرية " (غارودي، 1982، صفحة 55)

فكثير من السلوكات قبلتها وسمحت بها العائلة الجزائرية إبان ثورة التحرير الوطني لكنها أصبحت ترفضها مباشرة بعد الإستقلال كمبيت المراة خارج البيت وهو ما يؤكده مصطفى بوتفنوشت بقوله:" إن العائلة الجزائرية لم تتبن مثل هذه القيم والسلوكات إلا للضرورة التي فرضتها الثورة والواجب الوطني " (Mostefa, 1982, p. 24)

كما لم تتمكن المرأة الجزائرية من الظهور أو فرض ذاتها على المستوى السياسي بعد الإستقلال فلم تتقلد أية مسؤولية وهو ماجعلها تشعر بالتهميش من جديد والشعور بالقهر وهو ما جعلها تخوض معركة جديدة للتعبير عن ذاتها من خلال إنشائها للجمعيات النسوية للمطالبة بالمشاركة السياسية وبدأيتحقق لها ذلك تدريجيا وذلك من خلال تقلدها لعدة مسؤوليات في الدولة على مستوى المجالس المحلية أو الحكومة أو البرلمان.

فقد جاء في إحدى فقرات ديباجة دستور 28 نوفمبر 1996 "إن الشعب الجزائري ناضل ويناضل دوما في سبيل الحرية والديمقراطية ويعتزم ان يبني بهذا الدستور مؤسسات دستورية، أساسها مشاركة كل جزائري وجزائرية في تسيير الشؤون العمومية، والقدرة على تحقيق العدالة الإجتماعية، والمساواة وضمان الحرية لكل فرد " (ديدان، 2006، صفحة 04)

كما نصت المادة 29 من نفس الدستور على مايلي: "كل المواطنين سواسية أمام القانون. ولا يمكن أن يتذرع بأي تمييز يعود سببه إلى المولد أو العرق أو الجنس أو الرأي أو أي شرط أو ظرف آخر، شخصي أو إجتماعي " (ديدان، 2006، صفحة 12). لكن بالرجوع إلى الواقع نجد أن النظام السياسي في الجزائر قام بظام المرأة وسلب حقوقها، حيث ان نشاط المرأة الجزائرية محدود في إطار معين ومجبرة في الإبتعاد عن ممارسة العمل السياسي نحيث أن وجودها في هذا المجال هو تقريبا شبه معدوم ولا ثقل لها في هذا الحقل فبعد الإستقلال مباشرة والقفزة الثورية التي ساهمت فيها مع أخيها الرجل من أجل تحرير البلاد لم تحض المرأة الجزائرية فيما بعد بالمكانة اللآئقة بها بل إنعدم تقريبا نشاطها في المجال السياسي (Saadi, 1991, p. 15)

كل هذا يجعل المرأة تشعر أنها مجرد خادم للرجال وهذا ما يدفع بها لإنتهاج السلوك الإجرامي مثل القتل للإنتقام من الرجل أو الخيانة الزوجية، فبالرغم من أن النساء يمثلن نسبة 53% من المجتمع الكلي إلا أنهن مبعدات عن النشاط السياسي الذي يعتبر ملكا وإحتكارا للرجال (جمال، 1991-1992، صفحة 97).

خامسا- صورة الإسلام في الإعلام الغربي:

يقول الدكتور شاهين في كتابه عرب التلفزيون - (منال رداوي، أمال عامر، صفحة 60) أن تكون عربيا فإنك عرضة اللازدراء والسخرية في التلفزيون تحت معنى الاستماع، وأرى الصورة المعادية للعرب تكشف عن نفسها في السياسة الأمريكية، وبالرغم من أن أكثر العرب يعيشون في مدن بعيدة عن الصحراء الرباط والجزائر وتونس وطرابلس والقاهرة ودمشق وبيروت والقدس وبغداد إلا أن الصورة التي رسختها مؤسسات الإعلام المختلفة من صحافة وإذاعة وتلفزيون، تظهر العرب بدوا همجا يعيشون في قلب الصحراء حيث الرمال المترامية الأطراف وحيث الإبل والخيام ومن عجيب أثر التشويه على الساسة أن السواد الأعظم من الأمريكيين يظنون أن منظمة أوبك العالمية لتصدير النفط منظمة عربية يقودها شيوخ النفط العرب بالرغم من أن ستة فقط من ثلاثة عشر عضوا من أعضاء المنظمة هم من العرب.

كما أشار الدكتور جاك شاهين (منال رداوي، أمال عامر، صفحة 61)،لإحدى الدراسات التي أجريت لحوالي 1000 فيلم سينمائي من إنتاج الصناعة الهوليودية، أنها تبث الصورة النمطية للعرب والمسلمين بأنهم يثيرون البغض، أشرار، وحوش وفاسقون، ويعشون في الصحراء أو الحديقة المشؤومة، كما جاء ذلك في فيلم "sahara"، وأضاف أن حوالي300 ألف فيلم" بنسبة 25% تعكس صورة العرب النمطية والتي اختصرت كمصدر للفكاهة الرخيصة، واستعمال الصور الخرافية التي تعزز السياسة كما تعزز السياسة تلك الصور، ويقول جاك فلونتي" Jack Valenti" وهو رئيس شركة أمريكية تدعى "Motion Picture Assosiation of America" إن واشنطن وهوليود تنبعان من المصدر ذاته، وأخذت الأفلام السينمائية أشكالا عدة خاصة بعد الحرب العالمية الثانية حينما تغيرت صورة العرب وذلك لثلاثة عوامل أساسية، منها الصراع العربي الإسرائيلي وحصار النفط العربي في السبعينيات بموجب ارتفاع أسعار النفط، والثورة الإيرانية، كل هذه العوامل ساهمت في قلب الموازين والتأثير على العلاقات مع أمريكا، وبدأت السياسة الهوليودية تتركز على أنماط أخرى كالسياسة العنصرية، والإرهاب حتى أصبحت المرأة العربية تمثل على أنها إرهابية وعنيفة، كماجاء ذلك في فيلم الأحد الأسود "Black Sunday" إضافة إلى سياسة الترفيه باستعمالها في القوالب الكوميدية و غيرها. (الأشرار، 12_01_2013)

وقد اختلف الباحثون والدارسون في الغرب في تحديد الأسباب التي تجعل الغربين يواصلون إعادة إنتاج تلك الصورة، كما تختلف تفسيراتهم لهذه الظاهرة فبعضهم يرى أن التراث الغربي الحافل بالعداء للإسلام والذي تراكم عبر العصور لازال يدفع بالغربيين إلى اتخاذ مواقف سلبية من الإسلام والمسلمين، أما هشام الشرابي فيحدد أن مصدر التشويه في الصورة للعرب والمسلمين في الغرب ليس مجرد جهل ولكنه نمط محدد من المعرفة تمتد جذورها إلى عداء ديني و عرقي تجاه العرب ولهذا هو يرى بأن الإكثار من المعلومات عن العرب والإسلام وتحسين نوعيتها غير كافيين لحل هذه المشكلات، فالحقائق في النتيجة النهاية تذوب في نمط التفكير السائد لدى مستقبليها وهذا النمط هو الذي يصعب تغييره.(منال رداوي، أمال عامر، صفحة 61)

سادسا- صورة المرأة المسلمة في الإعلام الغربي:

أضحت المرأة المسلمة والقضايا المثارة حولها مادة خصبة في صحافة الإعلام الغربي وأضحت الموضوعات التي تثار حولها كلها تصب في بوتقة واحدة وهي محاولة إثارة قضايا المرأة دوما لإعطاء انطباع بظلم المرأة المسلمة ومطالبة دائمة برفع وصاية الدين عنها وتكريس النموذج الغربي للمرأة وجعله الأساس لقياس المرأة المسلمة عليهم.

تبرز المرأة المسلمة في الإعلام الغربي كأداة توظف في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، وقد عزز ذلك إجماع مصالح الآلة الإعلامية الضخمة التي يسيرها النفوذ الصهيوني مع أهداف المنتميات للحركة النسوية الغربية في تقديم صور نمطية مشوهة للمرأة المسلمة. ولذا كان مهما أن نتعرف على منطلقات تلك الصورة ودلالتها الثقافية ومدى مصداقيتها وماهي المعايير التي ينطلق منها الإعلام في تقديم هذه الصورة.

في هذا السياق حول مصداقية الصورة والمعايير التي تستند إليها يمكن التمعن في مقال أوردته الباحثة أرزوميرالي" رئيسة هيئة الأبحاث لحقوق المرأة المسلمة المشهور في صحيفة Guardine حيث تقول "أضحت المرأة المسلمة بالنسبة للصحافيات الغربيات نموذج التخلف ونموذج الاضطهاد واستشهدت ببعض الكاتبات الغربيات وهجومهن المكثف على المرأة المسلمة، وتؤكد أن هذه الهجمة تتسم بالمبالغة والطرح المتشدد الذي يفتقد الموضوعية بتصويره تلك المرأة ضحية لما يسمى بالإرهاب الإسلامي، وتستطرد بقولها "إن المرأة المسلمة في نظر هؤلاء الصحفيين يجب أن تخلص من هذا الحين و عندما تتخلص منه فسوف تتخلص من الحجاب الذي يغطيها من رأسها إلى قدميها.(السعد، صفحة 26_27)

1-المعايير التي ينطلق منها الإعلام الغربي عند تناوله لقضايا المرأة المسلمة (منال رداوي، أمال عامر، صفحة 63.65):

الدعوة إلى رفع وصاية الدين عن المرأة نيصور الغرب الدين الإسلامي على أنه حجر عثرة في طريق تقدم المرأة، تزامن هذا مع الحملة التي تنامت بعد 11 سبتمبر ضد القرآن الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام وضد شعائر الإسلام والشواهد على ذلك كثيرة منها إنتقاد إدوارد بكنغتونفي صحيفة Guardine أحكام الشريعة ووصفها بالمتشددة حيث تتيح للرجل الزواج أكثر من أربع في حين لا يتاح ذلك للمرأة، وانتقد حد الزنا وأشار إلى أن منع الاختلاط وارتداء الحجاب يعبر عن الممارسات الخاطئة للعقيدة وذلك لين من الإسلام وتسلط من الرجال هذه الأمثلة تكشف لنا الدعوة الصريحة لهذا الإعلام في معظم أدبياته إلى إلغاء الدين من حياة المرأة المسلمة".(Pilington, 2002)

هذه الدعوة تستمد جذورها من العلاقة التاريخية بين الإسلام والغرب منذ القدم والنظر إليه على أنه شكل وكيان ذو صبغة واحدة ونظام صارم لا يعرف المرونة.(هوفمان، 1424، صفحة 09)تبلغ الإدعاءات ذروتها بإلحاح وسائل الإعلام على ذكر الإسلام مصحوبا دائما بصفات مثل "الإستبداد الشرقي" وقمع النساء المخالف الحقوق الإنسان وأن المسلمين يتمسكون بأخلاق بالية مثل العفة قبل الزواج، الخيانة الزوجية، الحجاب وبما أن موقف الإسلام يخالف موقف الغرب تماما وإذا أضفنا إلى هذه الإدعاءات اتفاقية القضاء على جميع أشكال التميز ضد المرأة من إلزام الدول التي وقعت عليها كل العقبات الثقافية والفكرية والقانونية التي تعترض تنفيذها بما في ذلك الدين والثقافة والهوية الخاصة.

-عدم الموضوعية في عرض قضايا المرأة المسلمة: فما يقدم من تحقيقات ومقالات حول قضايا المرأة المسلمة لا يتجاوز التركيز فيها على التبعية الثقافية ومحاربة القيم الإسلامية ولعلنا جميعا لاحظنا قنواتCNN, BBC New عندما سلطت الأضواء حول معاملة طالبان للمرأة في أفغانستان حيث أحتفلت بالمرأة المحررة من الحجاب بعد ذهاب طالبان وعلى الرغم من المعاناة المريرة للنساء والأفغانيات والحياة القاسية أثناء الحرب من جوع ومرض... إلا أنها لم تشكل محور اهتمام لوسائل الإعلام الغربية ومن ثم تناولته الأخبار بصورة سريعة وعابرة وفي هذا الشأن يظهر الارتباط الواضح بين هذا المعيار عدم الموضوعية والمعيار الأول. ومن دلالات عدم الموضوعية استخدام المنهج الانتقائي في تحرير المقالات والتحقيقات فهؤلاء الإعلاميون في الغالب يعتمدون المنهج الإنتقائي في اختيار وتوثيق ما يتفق وأطروحاتهم الشخصية وفي حالة إثبات الآراء المخالفة تختمالمقالة أو التحقيق برأي من هو مؤيد للنموذج الغربي.

- **أسلوب الاحتقار والنظرة الدونية:** تنعكس مظاهر الاحتقار والنظرة الدولية للقيم الإسلامية المحافظة في بعض ما يحرر، وفي هذا السياق نجد المرأة تعت بأسماء غير لائقة بها فيطلق عليها لقب الأشباح السوداء والأثرية المغطاة بالسواد، فيرد عند الغرب أنهم يريدون تحرير النسوة فنجد أن الإعلام الغربي لا يريد أن يعرف عن المرأة المسلمة سويعباعتها السوداء فمن وصف بالأشباح السوداء إلى إطلاق لقب النينجا وغيرها من الأوصاف والمشاعر المملوءة بالاستخفاف بثقافة الأخر واحتقار قيمه واتهامه بالانغلاق والتحجر والجمود.

هذا الأسلوب في مناقشة وضع المرأة المسلمة المحجبة هو استمرار الحملات الطعن والتشكيك، والمقالات المهاجمة للإسلام التي تنتشر في الغرب بصورة مستمرة وخاصة في الصحف اليومية والمطبوعات الشعبية.(السعد، صفحة 27.30)

- **تكريس النموذج الغربي للمرأة و أنه النموذج الذي يحتكم إليه:** يعتبر هذا المعيار من أهم المعايير وأبرزها ارتباطا بالمعايير الثلاثة فقد لا تخلو منه مقالة أو تحقيق أن المرأة في عالمنا الإسلامي ممتهنة ومهضومة الحقوق ومسلوبة الحرية لكن السؤال الذي يطرح نفسه إذا كان هذا هو حال المرأة المسلمة فهل نموذج المرأة الغربية هو الجدير بالإحتذاء بها؟

وإن ما يؤسف له أن يوظف الإعلام الغربي أقلام مسلمات توهمن بان ثقافة الغرب هي معيار عام التقدم الأمم مهما اختلفت عقيدتها ومرجعيتها ونظامها الاجتماعي.

-**المرجعية المستمدة من منهجية وفكر الحركة النسوية الغربية:** نستطيع أن نرصد الحضور الفاعل والمنظم لأقلام المنتميات للحركة النسوية في دفع الأجندة النسوية الغربية للقضاء على الحجاب، وتغيير قوانين الأحوال الشخصية الإسلامية وربط مسألة الحصول على حقوقها بالراع بين المرأة والرجل.

ولا شك أن النساء المسلمات عامة اتجهن لرفض المسار التغريبي، فلم تعد إشكالية المرأة بالزي فحجابها أصبح عنوانا لكرامتها وتعليمها أصبح طريقا لرفض مناهج التغريب.

-**إزدواجية المعايير في التعامل مع القضية الواحدة:** تعدد ازدواجية المعايير من الأمور المعروفة على نطاق واسع في وسائل الإعلام الغربية في تعامله مع قضايا المسلمين بصفة عامة وفي شأن المرأة المسلمة على وجه الخصوص.

2- عوامل أسهمت في صياغة الرؤية الغربية لو اقع المرأة المسلمة: (منال رداوي، أمال عامر، صفحة 66.67).

-**البعد التاريخي:** شكلت الصورة غير الصحيحة عن الإسلام منذ الفتوحات الإسلامية لأوروبا قبل الحروب الصليبية وبعدها، استخدمت فيها أساليب الإبادة والتهجير والتنصير هذه الأخيرة أبقت آثارها على عقلية وأفكار الإنسان الغربي سواء من حيث فهمه الخاطئ للإسلام والمسلمين أو من ناحية العداء له لدى البعض مما أدى إلى تغلغل الصورة التقليدية المشوهة للمسلمين العرب سواء في الأفلام أو القصص وفي القواميس التي نجد فيها صورة مشوهة للمعاني المترادفة للفظ "عربي" (بيت، 1993، صفحة 44_45).

يقول إدوارد سعيد "إن المسألة الرئيسية بالنسبة للمستشرقين هي أن يبقوا الشرق والإسلام تحت سيطرة الرجل الأبيض ويؤكد أنه يمكن اعتبار المستشرق العميل الخاص للقوة الغربية في محاولتهم لرسم السياسية تجاه الشرق... ويوضح على التلازم الواضح والمتبادل بين الطبقة المفكرة والإمبريالية الجديدة التي كانت نتيجة الانتصارات الخاصة للاستشراق، فالعالم العربي اليوم كوكب تابع فكريا وسياسيا وثقافيا للولايات المتحدة". (السعد، صفحة 43)

-**البعد السياسي:** كان الاستعمار الغربي لمعظم الدول العربية والإسلامية سببا في الإطاحة بالخلافة العثمانية وتجزئة العالم الإسلامي وإخضاعه للاستعمار تحت عمليات التغريب والتنصير وامتد هذا إلى مناهج التعليم وأساليب التربية والتثقيف وإلى الحياة الاجتماعية والثقافية، والعالم الإسلامي في هذه المرحلة لم يكن يملك أدنى أدوات المقاومة فخلت المساجد من أرباب الصلوات وكثر عدد الأدعياء الجهلاء (عويس، 1992، صفحة 28.25)..وهذه هي مرحلة التخلف التي انعكس أثرها على مرافق الحياة الإسلامية فانتابها الجمود وأغلق باب الاجتهاد فانتشرت الخرافات والبدع.

والجدير بالذكر في هذه المرحلة من الاستعمار العسكري هو أنه ولأول مرة في تاريخ الأمة الإسلامية تصبح مولعة بتقليد الغالب مما يسمح بظهور تيارات دينية وعلمانية في النسيج الثقافي في المجتمعات الإسلامية الذين أسهموا في تسويق النموذج الغربي لتحرير المرأة الغربية مما شكل وباءا على مكانة المرأة المسلمة ودورها الأسري والمجتمعي وأيضا أسهم في مزيد من التجهيل بحقوق المرأة في الإسلام(منال رداوي، أمال عامر، صفحة 67).

-**البعد الثقافي والاجتماعي:** يظهر هذا البعد من خلال المرجعية الدينية الأسرة كنسق اجتماعي، المؤتمرات الدولية.

من ناحية المرجعية الدينية يظهر جليا العداء للإسلام فهم يرون فيه ليس بالدين الذي يسمح بوجوده من باب حرية الفرد وحرية استقلاليته في المجتمع بل هو دين سماوي.

أما من ناحية أخرى فينظر للمرأة خارج السياق الاجتماعي لها كفرد مادي وحيد- وليس عضوا في أسرة، وما يترتب على ذلك من مسؤوليات و تبعات تتعلق بوظائفها البيولوجية وإنكار النظر إلى قضية المرأة وحل مشكلاتها من خلال دورها الفعال في المجتمع كزوجة وأم لها دور في الأسرة مقدر ومحترم وفي السياق نفسه يناقشون قضية المرأة بعيدا عن المنطلقات الدينية والأخلاقية وخاصة في تعارضها مع قيم وضوابط الشريعة الإسلامية واعتبار الكثير من قوانين الأحوال الشخصية مناهض للمساواة ومجحف لحقوق المرأة.(منال رداوي، أمال عامر، صفحة 67)

خاتمة:

نظرا للاختلافات الثقافية والدينية خاصة، فإن صورة الإعلام الغربي عن المرأة المسلمة تختلف وتسيطر عليها القيم الغربية. بهدف تحقيق أهداف المجتمعات الغربية باستخدام المرأة في ذلك.

قائمة المراجع:

- Megherbi. (1986). , *Culture et Personnalité Algérienne de Massinissa a Nos Jours.* Alger: Ed, ENAL, OPU.
- Mostefa, B. (1982). *La famille Algérienne, évolution et caractéristiques récentes* (2eme édition ed.). Alger: SNED.
- Pilington, E. (2002). *the women that time forgot.* guardin: unlimited.
- Saadi. (1991). *La Femme et la loi en Algérie, Coll dirigée par Fatima Mernissi.* Alger: Ed, Bouchene.
- Toualb, R. (1984). *Les Attitudes et Les représentations chez la jeune fille Algérienne.* Alger: ENAL.
- Vandevelde. (1980). *Dailliere (Hélène), Femmes Algériennes a travers la condition féminine dans le Constantinois depuis l'indépendance.*Alger: OPU.
- أحمد القطان. (1989). *مكانة المرأة في الإسلام* (ط1). الجزائر: مكتبة رحاب.
- الخولي البهي. (1984). *الإسلام وقضايا المرأة* . الكويت : دار العلم .
- بركات آنيسة. (1985). *نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية* . الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- بسام العسلي. (1986). *المجاهدة الجزائرية والإرهاب الإستعماري.* بيروت: دار النفائس.
- بيهم محمد جميل. (1980). *المرأة في الإسلام وفي الحضارة الغربية* (ط1). بيروت: دار الطليعة.

- رتو بيت. (1993). ، *صورة العرب في أمريكا*. (ترجمة وتعليق ثابت عيد) منشورات في التنوير الاسلامي، نهضة مصر للنشر والطباعة والتوزيع.
- روجيه غارودي. (1982). *في سبيل إرتقاء المرأة* (ط1). (ترجمة جيلالي مطرحي) بيروت: دار الآداب.
- سالم البهنساوي. (بلا تاريخ). *مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية*. الحامة الجزائر: مطبعة طيباوي.
- عبد الحليم عويس. (1992). موقف الفكر الاسلامي المعاصر من الحضارة الحديثة. *مجلة المنهل*.
- عبد الحميد الشواربي. (1987). *الحقوق السياسية للمرأة في الإسلام مع مقارنة بالنظم الدستورية الحديثة* . الإسكندرية : منشأة المعارف.
- عبد المجيد إسماعيل الأنصاري. (2000). *قضايا المرأة بين تعاليم الإسلام وتقاليد المجتمع* (ط1). جامعة القاهرة: دار الفكر العربي.
- عدلي علي أبو طاحون. (2000). *حقوق المرأة : دراسات دينية وسوسيولوجية*. الإسكندرية : المكتب الجامعي الحديث ، الأزاريطة.
- كحالة رضا عمر. (1982). *المرأة في القديم والحديث* (ط2). بيروت: سلسلة بحوث إجتماعية ، مؤسسة الرسالة.
- كيف تحط هوليوود من قدر الشعوب، العرب الأشرار (ملحن). (12_01_2013). كيف تحط هوليوود من قدر الشعوب، العرب الأشرار، ، موقع: على الساعة 17:0 مساءا. [حصة تلفزيونية، الجزيرة الوثائقية، المدير]
- لوعيل محمد لمين. (2005). *المركز القانوني للمرأة في قانون الأسرة الجزائري* (ط4). الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.
- محمد جميل بيهم. (1980). *المرأة في الإسلام وفي الحضارة الغربية* (ط1). بيروت: دار الطليعة.
- مراد هوفمان. (1424). *الاسلام في الالفية الثالثة*. مكتبة العبيكان.
- معتوق جمال. (1991-1992.). وجوه من العنف ضد النساء خارج بيوتهن . *دراسة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع الثقافي*. معهد علم الاجتماع ، جامعة الجزائر.
- منال رداوي، أمال عامر. (بلا تاريخ). الصورة النمطية للمرأة المسلمة في الاعلام الغربي: تجارب ورؤى. *مجلة المقدمة للدراسات الانسانية والاجتماعية*(ع1).
- مولود ديدان. (2006). *دستور 28 نوفمبر 1996 مع تعديل 2002 مرفق بفهرس المصطلحات الدستورية* (الإصدار ط1). دارالنجاح للكتاب.

- نورة خالد السعد. (بلا تاريخ). صورة المرأة في الاعلام الغربي، رؤية تحليلية. *مجلة جامعة عبد الملك عزيز*(ع2).

تجليات المعنى لصورة المرأة في الإسلام من خلال السلسلة الكارتونية التاريخية
-قراءة سيميولوجية للفيلم الكارتوني "قصص النساء في الإسلام"-

The Significance of Islamic Female Images from the Perspective of Historical Cartoon Series -Symbolic Interpretation of the Cartoon "Islamic Women's Story"

د. نبيل شايب، جامعة يحي فارس المدية - الجزائر
chaib.nabil@univ-medea.dz



تهدف هذه المداخلة العلمية إلى استقراء الاستدلال الدلالي لأفلام الكارتون المعالجة لصورة الإسلام والمسلمين بوصفها صنفا فيلميا يحمل العديد من التمثلات الأيقونية لمخاطبة الطفل المتلقي قصد تحقيق متعة المشاهدة مع ضرورة ضمان احترام النسق القيمي لصورة المسلمين عامة والمرأة في الإسلام خاصة. وتستمد هذه الورقة البحثية أهميتها من خلال تجليات الصورة المرئية في أفلام الكرتون، معتمدة في ذلك على الفنيات الرقمية والمؤثرات الخاصة والبصرية، التي تحول الفكرة في ذهنه إلى حقيقة مرئية تلامس دواخله، وتحرك فكره، وتهذب ذوقه من خلال إرساء معالم صورة المرأة في الإسلام.

توصلنا من خلال هذه الدراسة القائمة على أدوات التحليل السيميولوجي والتكامل المقارباتي للباحثين رولان بارث وكريستيان ميتز لعينة من السلسلة الكارتونية قصص النساء في الإسلام إلى أن الدلالة المضمرة للعلاقات في الأنساق الخاصة بالسلسلة التاريخية محل الدراسة إلى عدم الإفراطُ في استخدامِ الخيالِ في القصص الدينية مع تجنبُ المبالغةِ في القِصَصِ الخياليةِ رغمَ أهميتها في اتساعِ خيالِ الطفلِ وخصوبةِ تفكيرِهِ حتى لا يؤدي ذلكَ إلى تشويهِ الحقائق المحيطة به وتقوية نموه العقلي

كلمات مفتاحية: أفلام الكارتون ، القيم الدينية، السيميولوجيا، الدلالة، الإسلام .

Abstract:

The purpose of this scientific research is to summarize the semantic reasoning of cartoon films dealing with Islamic and Muslim images. As a film category, it holds many icon statues to speak to the recipient's children, so as to realize the fun and necessity of watching. Ensure respect for his religious values. The research significance of this paper comes from the visual image expression in cartoon films. It deliberately captures and moves children's vision on the basis of digital art and special visual effects. He turned this idea into a visible reality, touched his heart and thought, and cultivated his taste by shaping the image of Islamic woman.

This study takes Roland Barth and Christine Metz as the research objects, uses the analysis tools of semiotics, and draws the following conclusions through the study of the series of comics of women in Islam The History Series in the study

recommends not to overuse fiction in religious stories and avoid exaggerating fictional stories, although they are important for the breadth of children's imagination and the richness of thinking, so as not to lead to distortion. The surrounding facts strengthened his mental development.

Keywords: Cartoon film, religious values, semiotics, connotation, Islam



مقدمة:

تشير المنطلقات الفكرية إلى أن أفلام الكرتون تعتبر مادة فيلمية موجهة بالدرجة الأولى إلى الطفل، على الرغم من أن هذا النوع الفني يقدم إلى جميع الفئات العمرية بدون استثناء، إلا أنه يخاطب بالدرجة الأولى عقل الطفل ووعيه، مما يستدعي وجوب اهتمام المختصين والفنيين في هذا المجال – من المخرجين ومركبي الأفلام – بهذا الجانب الذي يوحد بين البعد الجمالي الفني والبعد المعرفي الهادف في صناعة الصورة في أفلام الكرتون

لهذا تعد الرسوم المتحركة النوع الأقرب للطفل، كونها تحمل عناصر وعوامل جذب، فمن جانب تحاكي الأشكال والألوان التي يشاهدها الطفل يوميا في حياته، ومن جانب آخر تعرض له تركيبة صور جديدة وكأنها تقترح عليه موضوعا فكريا وجماليا جديدا، يغلفه الخيال، معتمدة الرسوم المتحركة في هذا على قواعد لغتها التي تجعل كل شيء قابل للتحقيق بفضل الخداع البصري ووهم الصور. وهذا ما يتيح لها بفضل الرسوم والحركة فرصة الانتقال بالطفل عبر قصصها إلى عوالم ساحرة وواقع خيالي يخدم الجانب الفني للصورة ويثري ثقافة الطفل ويؤثر في نموه وسلوكه. (المرابط، 2000: 54)

اعتمادا على كل ما سبق بيانه، يمكن القول أن التغيير والتطور الذي عرفته الصورة بصفة عامة والصورة في الرسوم المتحركة بصفة خاصة، قد كان له تأثير كبير على الصورة المرئية والمتحركة، والصورة الفيلمية التي قد مسها هذا التأثير، لذا تعتبر أفلام الكرتون من أهم الأفلام التي تمنح السينما فرصة التعبير عن لغتها بدون قيود، لتتحول الفكرة المجردة إلى حقيقة مرئية يمكن مشاهدتها والاستمتاع بجماليتها.

وبما أن الصورة المتحركة هي عالم إيقاعي يعتمد على الإشارات واسع الحدود فتنظيمه الذي يخضع لقواعد وقوالب جمالية فنية في بناءه وتكوينه بل يخضع إلى عوامل هي مزيج من الثقافة والتجربة والخبرة، فهي بقدر نسبية شكلها بقدر ثوابت قراءتها" خاصة من المنظور الديني وهذا ما سنعالجه لإبراز تمثلات صورة المرأة في الإسلام من خلال السلسلة التاريخية الكارتونية قصص النساء في الإسلام من منظور سيميولوجي من خلال الاعتماد على مقاربتين للتحليل حسب رواد المدرسة الفرنسية.

مما سبق نطرح الإشكالية على النحو التالي:

كيف تساهم السلسلة التاريخية الكارتونية "قصص النساء في الإسلام" في تحقيق الإشباع البصري للقيم الدينية حول صورة المرأة في الإسلام لدى الطفل الجز ائري؟

أولا- الإجراءات المنهجية لموضوع الدراسة:

1.تساؤلات الدراسة:

-كيف توظف الصورة في سلسلة قصص النساء في الإسلام كوسيلة تعبير فنية تثري الخطاب المرئي لإرساء صورة المرأة في الإسلام لدى الطفل؟

- ما هي القيمة الفنية والرمزية للصور المرافقة للسلسلة التاريخية قصص النساء في القرءان؟

- كيف تتجلى الاستعارة والمجاز المرئي في السلسلة الكارتونية قصص النساء في الإسلام؟

-ماهي الأبعاد الدلالية والضمنية للسلسلة التاريخية محل الدراسة؟

-كيف تساهم السلسلة الكارتونية في تحقيق التكامل بين النظامين البصري والالسوني لتحقيق صورة الإسلام والمسلمين لدى الطفل المتلقي؟

2.أهمية الدراسة:

تسلط هذه الدراسة الضوء على أهمية التمثل الدلالي للسلسة التاريخية الكارتونية في شقها الديني، وكذلك أبعاد ارتباطه بتوجهات وتيارات فكرية جديدة سواء في إنتاج المعنى آو ضبط الممارسات الدلالية والتأويلية لدى الطفل المتلقي، خصوصا فيما يتعلق بإشكالات المحتوى الفني التي أظهرت مجموعة من القيم الثقافية التي يمثلها محتوى الخطاب الديني في مواقع التواصل الاجتماعي اليوتوب نموذجا.

كما تكمن أهمية الدراسة في مساءلة مقاربات سيميولوجية تجمع بين التعيين والتضمين وكذا الشفرات الاجتماعية المنطقية في إطار ما يعرف بالتكامل المقارباتي للتعرف على دلالات السلسلة التاريخية الكارتونية محل الدراسة المعبرة عن تمثلات صورة المرأة في الإسلام في قالب فني إبداعي في بيئة تكنولوجية بصرية باعتبارها وعاء حاويا للرموز والدوال الثقافية.

3.مجتمع البحث وعينة الدراسة:

إن الباحث لا يمكنه أن يشرع في انجاز دراسته قبل أن يتعرف بصورة جيدة على مجتمع البحث والذي يعرف على انه "جميع مفردات الظاهرة التي يدرسها الباحث" (عمر، 1983: 138).

نظرا لصعوبة القيام بدراسة شاملة لجميع مفردات البحث، قمنا باختيار أسلوب العينة، ونظرا لاقتصار عينتنا على مستخدمي الفايسبوك، تم الاعتماد على العينة القصدية التي يقوم فيها الباحث باختيار مفرداتها بطريقة تحكمية، لا مجال لها للصدفة، وهذا لإدراكه المسبق لمجتمع البحث والعناصر الهامة التي تمثله تمثيلا صحيحا لذلك لا يجد صعوبة في سحب مفرداتها بطريقة مباشرة .(بن مرسلي ، 2005: 198)

حددنا مجتمع البحث في السلسلة التاريخية الكارتونية أما عن عينة الدراسة فهي الحلقة الأولى من قصة السيدة حواء أم البشر وزوجة آدم عليهما السلام اللذان أخرجهما الشيطان من الجنة وسكنا الأرض.

4.منهج الدراسة ومقاربات التحليل:

يستند كل بحث علمي على منهج منتظم وواضح يحدد مسار و نتائج الدراسة التحليلية السيميولوجية بشكل يجيب عن الإشكالية والتساؤلات المطروحة، هذا الوضع يستدعي أن يكون الباحث على علم كبير بأهمية الجوانب المنهجية في إقامة التحليل الذي يهتم أساسا بالكشف عن العلاقات الداخلية لعناصر الخطاب الديني، وبإعادة تشكيل نظام الدلالة بأسلوب يتيح فهما أفضل لوظيفة الخطاب داخل نسق سوسيو ثقافي، وذلك بتسليط الضوء على الآليات التي تنتج من خلالها المعاني في الأنساق الدلالية.) barth,1964 :81)

وبما أننا بصدد البحث عن الدلالة المضمرة للعلاقات في الأنساق الخاصة بالسلسلة التاريخية الكارتونية فإننا ملزمين بتطبيق منهج تكاملي مبني على العديد من المقاربات السيميولوجية التي ستساعدنا حتما لتقفي جميع المعاني الضمنية و الدلالات التعبيرية.

وظفنا في تحليلنا تحليلا سيميولوجيا ليس بنيويا محضا، بل قمنا بتكييفه مع العديد من المقاربات ويتعلق الأمر بمقاربة الفرنسي رولان بارث R. Barthes بجانبها التعييني والتضميني والالسوني كمقاربة أساسية كونها ترقى إلى المنهج في الدراسات السيميولوجية و قاربة ثانوية للباحث كريستيان ميتز اللذان سمحا بتحديد مختلف الشفرات الدينية وأبعادها الدلالية والجمالية للنسق السمعي البصري محل الدراسة . (شايب، 2018: 08)

ثانيا-التحليل وفقاً لمقاربتي رولان بارث R Barth وكريستيان ميتز C. Metz

1. بطاقة تقنية للسلسلة الكارتونية " قصص النساء في الاسلام "



المسلسل الكارتوني قصص النساء في القرآن يحكي عدة قصص للنساء اللواتي ذكرهن القرآن الكريم لتوضيح أهمية المرأة وذلك من خلال القاضي الذي يقوم بدوره يحي الفخراني والذي يقنع ابنته سلمي بأهمية المرأة وتقوم بدورها ريهام عبد الغفور وهي شخصية ترى أن المرأة ليس لها دور مهم لذا تتمنى لو كانت رجلا الأمر الذي يدفع والدها القاضي بإقناعها بدور المرأة في الإسلام حيث يروي لها في كل حلقة قصة واحدة من أعظم النساء.(قصص النساء في القرءان ، 2022)

2. التحليل السيميولوجي للسلسلة التاريخية الكارتونية وفقا لمقاربة كريستيان ميتز C. Metz

شريط الصورة						شريط الصوت		
رقم اللقطة	مدة اللقطة	سلم اللقطات	زوايا التصوير	حركة الكاميرا	مضمون الصورة	الموسقى الموظفة	صوت وحوار	المؤثرات الصوتية الاخرى
01	2 د	p.d.E	بانورامية	متحركة	مرور السيد صفي الدين قاضي القضاة من خلال ركوبه لخيل أبيض داخل سوق	كلام المتسوقين مرفقة بموسيقى هادئة	أفسحوا الطريق لقاضي القضاة السيد صفي الدين	صوت المتسوقين والبائعين داخل السوق الشعبي

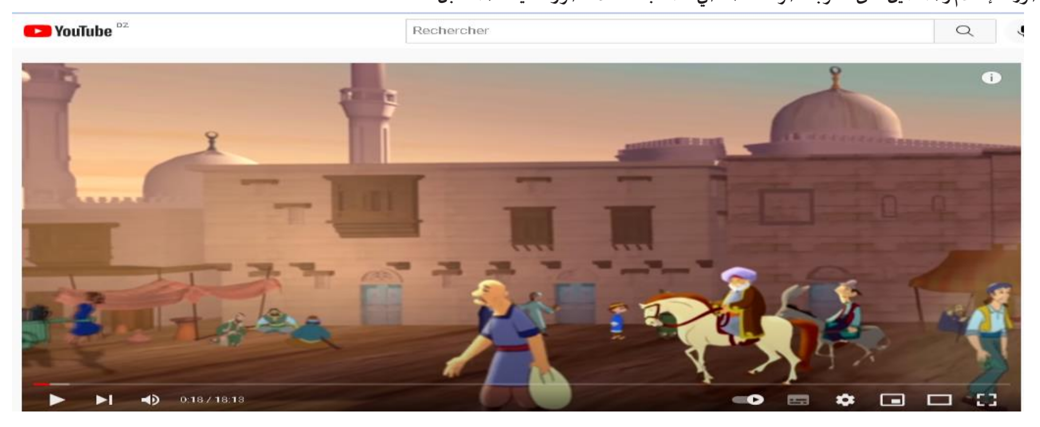
					شعبي		افسحوا الطريق القاضي على عجل ...	
02	04 د	P.d.E	من الاسفل الى الأعلى	غير ثابتة	السيد القاضي فوق حصان أبيض ناصع اللون ويرتدي لباس الملوك	موسيقى هادئة	القاضي: اياك أن تضرب الناس والا حبستك	غياب المؤثرات الصوتية
شريط الصورة					شريط الصوت			
رقم اللقطة	مدة اللقطة	سلم اللقطات	زوايا التصوير	حركة الكاميرا	مضمون الصورة	الموسيقى الموظفة	صوت وحوار	المؤثرات الصوتية الاخرى
03	3 د	p.d.E	بانورامية	ثابتة	حضور القاضي والمشتبه به في مجلس القضاء لمحاكمة المتهم	توظيف آلة العود الموسيقية	حوار	ضحك هستيري من طرف الحاضرين على اجابات المتهم
شريط الصورة					شريط الصوت			
رقم اللقطة	مدة اللقطة	سلم اللقطات	زوايا التصوير	حركة الكاميرا	مضمون الصورة	الموسيقى الموظفة	صوت وحوار	المؤثرات الصوتية الاخرى
04	22ثا	p.d.E	بانورامية	متحركة	تقمص سلمى لشخصية الجندي في مظهر رجل ومغادرتها القصر الملكي بكل هدوء ولكن	موسيقى بألات موسيقية مختلفة	الطائر: النجدة النجدة رجل رجل سلمى: انا سلمى بنت القاضي	مؤثرات صوتية تظهر خوف الطائر

					كشف أمرها من طرف الطائر المدعو حمص		الرجال ليس أفضل مني وأثبت لهم ذلك	
05	2 د	p.g	بانورامية مجموعة من الصور في ساحة التدريب	غير ثابتة	زيارة سلمى ابنة القاضي لساحة التدريب	موسيقى حماسية	حوارين المتدربين في ساحة التدريب	لا يوجد مؤثرات صوتية فقط اعتمد على الصورة
06	3 د	P.d.E	صورة القاضي وابنته سلمى	ثابتة	سلمى رفقة والدها القاضي	القاضي: لماذا ارتديت لباس الرجال ووضعت شارب مصطنع	حوار بين القاضي وسلمى حول موعظة حكاية حواء	لا يوجد مؤثرات صوتية فقط اعتمد على الصورة

3. التحليل السيميولوجي للسلسلة التاريخية الكارتونية وفقا لمقاربة رولان بارث R Barth

المستوى التعيني للقطات محل الدراسة: يبدأ مخرج السلسلة الكارتونية المشهد الأول بلقطة شاملة، من خلال زاوية تصوير بانورامية وحركة كاميرا متحركة، يبرز من خلال دخول السيد صفي الدين قاضي القضاة ، في حوار متبادل مع حارسه" زرزور "و ذلك في وسط السوق الشعبي متوجهين إلى دار القضاء للقيام بجلسة علنية حضر فيها العديد من المدعوين بلباس رسمي رفقة المتهم بلباس شرطي .

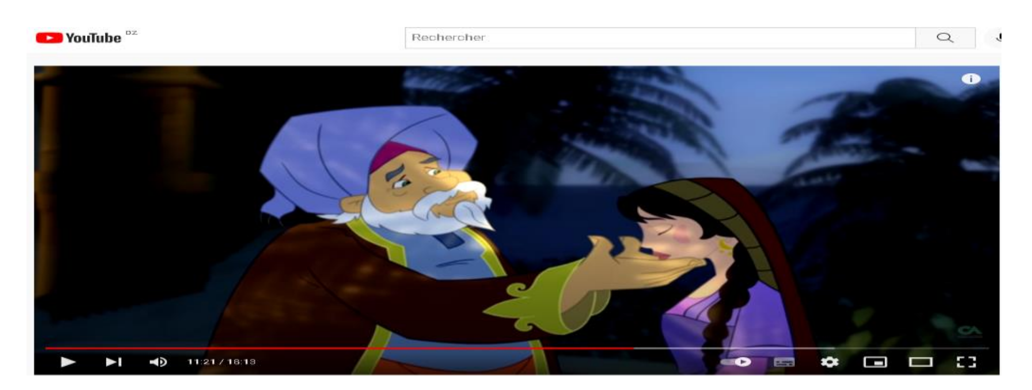
لينتقل المخرج في لقطة مغايرة من خلال الاعتماد على زاوية التصوير من الأسفل إلى الأعلى بلقطة بانورامية، أبرز من خلالها محاكمة المتهم حول سرقته للدجاجة منتحلا شخصية الشرطي في زي أمني رسمي. .



الصورة رقم 01: تمثل النسق البصري المحلل سيميولوجيا

ليواصل المخرج مشاهده التصويرية بزاوية تصوير بانورامية ثابتة يظهر من خلالها أجواء المحاكمة بحضور السيد القاضي والمتهم، المشهد صور من خلال الاعتماد على رسائل ألسونية جمعت الطرفين.

تتواصل أحداث الحلقة الأولى للسلسلة قصص النساء في القرءان من خلال مشاهد تصويرية لسلمى وهي تنتحل شخصية الجندي ومغادرتها للقصر الملكي لينتقل المخرج بزاوية تصوير مماثلة في المشهد الخامس يصور من خلاله سلمى ترتدي زي الجنود وتنزل لميدان التدريب وفي اخر مشهد تصويري بزاوية تصوير بانورامية تضمنت العديد من الصور جمعت الابنة بوالدها القاضي مشيرا الى أحداث قصة السيدة حواء وأدم.



الصورة رقم 02: تمثل نصيحة القاضي لابنته

القراءة التضمينية للمشاهد المختارة وفق السيميائي رولان بارث

تضمنت السلسلة الكارتونية العديد من التضمينات الدلالية واستنادا إلى كون التحليل التضميني لأي نسق سيميولوجي استقراء لما تم وصفه في القراءة التعيينية واستنطاق مختلف العلامات والرموز الأيقونية والرمزية إضافة إلى تلك العلامات الموسيقية المصاحبة للمقاطع المصورة. حيث خلصنا في قراءتنا التعيينية للمقاطع الستة فبما تعلق بالحلقة الأولى المتعلقة بقصة السيدة حواء كون أن المخرج اعتمد في المشهد الأول الأسلوب التشويقي والقالب الدرامي مع تقديم الأشياء الغريبة والمغامرات الشيقة، مبرزا عدة خصائص تستدعي اهتمام الطفل وهما الحركة والخيال، وقد اعتمدت السلسلة في مضامينها على الاقتباس من الحكايات والقصص الإسلامية لتوضيح تمثلات صورة المسلمين والإسلام.

كشفت لنا القراءة الدلالية والضمنية للسلسة التاريخية قصص النساء في القرءان أن ما يكتسبه الطفل من قيم وعقائد له أثر عظيم في تكوين شخصيته بحيث لا يمكن إغفاله. لذا العقيدة التي ترتبط بفكر الطفل عن الله تعالى في طفولته ستبقى وتعلق وترسخ وسيقوم عليها بناء عقدي سليم. تتنوع وتتعدد المواضيع التي تستند إليها الرسوم المتحركة المستوحاة من سلسلة قصص النساء في القرءان في تقديم أعمال فنية تؤثر في الطفل وتوجهه نحو قيم اجتماعية وثقافية وتربوية في قالب من المتعة والتشويق والإثارة.

حاول المخرج في المشهد الثالث والرابع على التوالي إبراز شجاعة الشخصية سلمى ابنة القاضي في النزول إلى الميدان وارتداءها للزي الرسمي وخضوعها للتدريبات في مشاهد متتالية قصد إشباع الفضول لدى الطّفل والرّغبة بالاكتشاف والتعلّم ومعرفة عوالم وتفاصيل كثيرة من حوله تتحقق من خلال مشاهدة الأطفال لأفلام الكرتون المخصّصة لهم؛ لذلك فإنها تزيد من معرفتهم ووعيهم وإدراكهم لتفاصيل قد يكونوا لم يروها من قبل، كعالم الحيوانات والأماكن الأثريّة والتاريخيّة وأنماط الحياة المختلفة باختلاف الشّعوب والحضارات.

تضمنت المشاهد التصويرية العديد من الدلالات الألسنية والأيقونية من خلال إبراز القاضي لابنته سلمى أن الدين الإسلامي يسر وليس عسر، مشيرا إلى إصرار إبليس على عصيان ربه، فلعنه الله وطرده من رحمته، عند ذلك قرر إبليس أن ينتقم من آدم وذريته، وأن يوسوس إليهم ويغويهم حتى يعصوا الله، فيصبح مصيرهم مثل مصيره لكنه لن يستطيع أن يغوى عباد الله المخلصين.

حاول المخرج من خلال مشاهد تصويرية إبراز الدروس والعبر المستفادة من قصة حواء مع سيدنا آدم -عليه السلام- تكمنُ في أنّ الابتعاد عن أوامر الله تعالى سببٌ في زوال النعمة عن الإنسان، فالطاعة تجلب رحمة الله تعالى والرزق من عنده، أما معصية الله في أوامره وإتيان ما نهى الله تعالى عنه فهو سبب في جلب السخط والغضب من الله تعالى على الإنسان، كما يُستفاد من هذه القصة أنه يجب على الإنسان أن

يكون حذرًا من وساوس الشياطين. سيميولوجيا دائما، اعتمد المخرج على جماليات التعبير الشفهي، مبرزا في مشاهده أهمية التشكيل البصري لإرساء المواعظ المستخلصة من قصة السيدة حواء. من أجل ترخيص التربية الإيمانية للطفل المتلقي من خلال غرس روح مراقبة الله في السر والعلن في نفوس الأطفال: مراقبة الله عز وجل هي من أهم المعالم الإيمانية التي يستقيم بها قلب الطفل ومن ثم جميع جوارحه، وهي الأساس الذي يبعد الطفل عن كل المعاصي والمخالفات
كشفت المشاهدة التصويرية تمثلات صورة الإسلام من خلال غرس روح الاستعانة بالله عز وجل: الأطفال الصغار ضعاف البنية قليلو الحيلة، وقد تعرض لهم مشكلاتهم الخاصة بهم: نفسية واجتماعية ومدرسية وتختلف هذه المشكلات قوة وضعفًا وتخفيف آلام الأطفال لا يكون إلا بترسيخ روح الاستعانة بالله، وأن الله قادر على حل كل المشاكل
وفي المقابل احتوت المشاهد على دلالات أيقونية ضمنية دلالة على غرس روح الاعتزاز بالإسلام لذا ينبغي على الوالدين أن يغرسا في نفوس الأطفال منذ الصغر شعور العزة بالإسلام، وأنهم يجب أن يتميزوا عن الكفار في كل أمر، في المظهر والمخبر والغاية وفي الآمال، وأن يستشعروا أنهم ينتسبون إلى أمة موصولة بالله، وهي تسير على هدي الله، وتملك ما لا تملكه سائر البشرية وهو كتاب الله.

4. الاستنتاجات العامة للدراسة:

-قدم الفيلم الكارتوني العديد من الدلالات الأيقونية والألسنية أنْ لا يكونَ العملُ بمنأى عن الطفلِ رغمَ أنه مُوَجَّهٌ له، فمن الضروريّ أنْ يكونَ العملُ نتاجَ دراسةٍ فاحصةٍ لخصائصِ الطفلِ النفسيةِ وخصائصِ نموه وعناصرِ التأثيرِ عليه سواء بالصوتِ أو الصورةِ وما فيها مِن لونٍ وخلفياتٍ وغيرِه، حَتَّى تكونَ هذهِ البرامجُ حصيلةَ دراساتٍ عميقةٍ للجوانبِ المختلفةِ؛ لتكونَ النتائجُ المتوقعةُ بإذنِ اللَّه محسوبةً؛ فالطفلُ كُلٌّ يكملُ بعضه البعض.

-تبين لنا من خلال الاعتماد على التكامل المقارباتي أن السلسلة اعتمدت على الإفراطُ في استخدامِ الخيالِ وهو أمرٌ في غايةِ الخطورةِ على تكوينِ مُدْرَكَاتِ أطفالنا فينبغي أنْ يكونَ إدراجه بصورةٍ قليلة؛ إذْ هو على الطفلِ أعظمُ خطرًا منه على الكبير " فينبغي عدمُ الإفراط فيما هو تَخَيُّلِيٌّ بل يجبُ أنْ ترتبطَ الرسوم المتحركة بالحياةِ الواقعيةِ حتى يتمكنَ أنْ ينمي الأطفالُ ميولهم نحو أشياءَ حقيقيةٍ في المجتمعِ الذي يعيشونَ فيه "وأيضاً ينبغي تجنبُ المبالغةِ في القِصَصِ الخياليةِ رغمَ أهميتها في اتساعِ خيالِ الطفلِ وخصوبةِ تفكيرِهِ حتى لا يؤدي ذلكَ إلى تشويهِ الحقائق المحيطة به وتقوية نموه العقلي.

-كشفت لنا القراءة الدلالية و الضمنية للسلسة التاريخية قصص النساء في القرءان أن ما يكتسبه الطفل من قيم و عقائد له أثر عظيم في تكوين شخصيته بحيث لا يمكن إغفاله. لذا العقيدة التي ترتبط بفكر الطفل عن الله تعالى في طفولته ستبقى وتعلق وترسخ وسيقوم عليها بناء عقدي سليم.

- تتنوع وتتعدد المواضيع التي تستند إليها الرسوم المتحركة المستوحاة من سلسلة قصص النساء في القرءان في تقديم أعمال فنية تؤثر في الطفل وتوجهه نحو قيم اجتماعية وثقافية وتربوية في قالب من المتعة والتشويق والإثارة لتبيان صورة ايجابية للإسلام و المسلمين .

-تبين لنا من خلال التحليل السيميولوجي أن إشباع الفضول لدى الطّفل والرّغبة بالاكتشاف والتعلّم ومعرفة عوالم وتفاصيل كثيرة من حوله تتحقق من خلال مشاهدة الأطفال لأفلام الكرتون المخصّصة لهم.

- يتضح لنا ضمنيا أن السلسلة التاريخية الكارتونية تحمل قيماً أخلاقيةً حميدةً تساهم في تربية الأطفال وتهذيبهم وتعليمهم المهارات والعادات الاجتماعيّة المفيدة بطريقة عرض المشاهد، وإشراكهم في تقييم الجيّد من السيئ. لذلك ساهم فيلم الكرتون محل الدراسة في تعزيز القيم والأخلاق عند الطفل.

خاتمة:

قدم الفيلم الكارتوني محل الدراسة صورة ايجابية عن الإسلام والمسلمات وكذا جملة من القيم الضمنية فمن إيجابياته عملها على توسيع أفق الطفل وتحفيز الخيال والإبداع لديه وتعليمه الرّبط بين الأحداث والشخصيات وتوقّع الأحداث القادمة اعتماداً على فهم الأحداث التي شاهدها في الحلقات السابقة، ورؤية شخصيات وعناصر وأصوات وأفكار متنوعة تنمي لديه ملكة الإبداع والتفكير. وطبعاً فائدة الضّحك والتّسلية والمتعة وقضاء أوقات مسليّة.

استخلصنا من خلال التحليل السيميولوجي أن الفيلم الكارتوني محل الدراسة ساهم تحقيق التكامل بين النظامين البصري والألسوني خاصة وأن الفيلم الكارتوني قدم العديد من الدلالات الأيقوني بلغة عربية فصحى . غالباً، لا يجدها في محيطه الأسري، مما ييسر له تصحيح النطق وتقويم اللسان وتجويد اللغة، وبما أن اللغة هي الأداة الأولى للنمو المعرفي فيمكن القول بأن الرسوم المتحركة . من هذا الجانب . تسهم إسهاماً مقدراً غير مباشر في نمو الطفل المعرفي.

قائمة المراجع:

باللغة العربية:

- عبد الواحد المرابط، (2000)، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، ط1، مطبعة الأنفو برانت، المغرب،2000، ص54
- محمد زيان عمر، (1983)، البحث العلمي، مناهجه وتقنياته، ط1، دار الشروق، السعودية، ص138.

- أحمد بن مرسلي، (2005)، مناهج البحث العلمي في علوم الإعلام والاتصال، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص198.

باللغة الفرنسية:

- Roland Barthes , (1964) , Eléments de la sémiologie, Revue communication n°04,Edition Paris, p133, P81. Seuil.

المو اقع الالكترونية:

- قصص النساء في القرءان، نقلا عن الموقع الالكتروني، https://www.youtube.com/watch?v=hV42DbzZzx4 ، بتاريخ 2022/03/31 ، 15 سا.

أطر تغطية مواقع القنوات الإخبارية لاعتداء كرايستشرش
دراسة وصفية تحليلية لموقع France 24 بالعربي في الفترة الممتدة ما بين 15 -30 مارس 2019

Frames for Covering News Channels to Attack the Craysters
An Analytical Descriptive Study of France 24 in Arabic in the Period between 15-30 March 2019

د. نزيهة وهابي، جامعة - البليدة2 - علي لونيسي - الجزائر
n.ouahabi@univ-blida2.dz



شهدت مدينة كرايستشيرش بنيوزيلندا في 15 مارس 2019 هجمات على مساجد في حادثتين متتاليتين لإطلاق النار خلال صلاة الجمعة. وقد قام مسلح واحد بالاعتداء على مسجدين وهما مسجد النور بضاحية ريكارتون، واستمر في مركز لينوود الإسلامي ليصل عدد الضحايا إلى 50 قتيلا وإصابة 40 آخرين.

هدف بحثنا إلى رصد أطر تغطية مواقع القنوات الإخبارية لاعتداء كرايستشرش (دراسة وصفية تحليلية لموقع France 24 بالعربي)، وتنتمي دراستنا إلى الدراسات الوصفية التحليلية، وقد تم استخدام المنهج المسحي بتوظيف أداة تحليل المضمون المبني على نظرية الأطر الخبرية، واختارت الباحثة الحصر الشامل لفترة الدراسة، والتي تم نشرها في موقع France 24 بالعربي خلال فترة الدراسة الممتدة من 15 -30 مارس 2019.

وقد أسفرت الدراسة عن نتائج أهمها:

- تنوع الأطر الخبرية التي اعتمد عليها موقع France 24 في تغطيته لاعتداء كرايستشرش وقد وظف الموقع الأطر وفق طبيعة الأحداث.
- لم يتجاهل موقع قناة France24 بالعربي مذبحة كرايسترش ولم يقلل منه، وتم إبراز الضحايا بشكل إنساني وسلط الضوء على قصصهم"، ما يعكس مدى التحول في التغطية مقارنة بهجمات أخرى ضد المسلمين وغير المسلمين.

الكلمات المفتاحية: الأطر الخبرية، التغطية الإخبارية، اعتداء كرايستشرش.

Abstract:

On March 15, 2019, the city of Cristchurch attacks on mosques in two consecutive shooting incidents during Friday prayers. One gunman assaulted two mosques, the Al -Nour Mosque in the Riccarton suburb, and continued at the Lenwood Islamic Center, bringing the number of victims to 50 dead and wounding 40 others. The goal of our research to monitor the frameworks of covering the news channels of the Craysters' assault (an analytical descriptive study of France 24 in Arabic), and our study belongs to the descriptive analytical studies, and the survey approach was used by employing the content analysis tool based on the theory of news frameworks, and the researcher chose the comprehensive waist for the study period, It was published on France 24 in Arabic during the study period from

15-30 March 2019.

The study resulted in the most important results:

- The diversity of the news frameworks on which France 24 relied on its coverage of the Kriastech attack, and the site has employed the frameworks according to the nature of the events.
- The France24 channel in Arabic did not ignore the Christchurch massacre and did not reduce it, and the victims were highlighted in a humanitarian manner and highlighted their stories', which reflects the extent of the shift in coverage compared to other attacks against Muslims and non -Muslims
Keywords: news coverage, news frameworks, the christchurch attack.



مقدمة:

يُعد حادث إطلاق النار على مسجدين في مدينة "كرايست تشيرش" في نيوزيلاندا، في 15 مارس 2019، واحدًا من بين أكثر الحوادث الإرهابية فتكا على مستوى العالم، وأخطر هجوم إرهابي وقع في تاريخ نيوزيلندا، وهي الدولة التي لم تشهد أي عمل إرهابي بمثل هذا التعقيد وهذه الضخامة من قبل؛ حيث أسفر عن مقتل 50 مصليا، وإصابة مثلهم. وقد نشر الإرهابي"برينتون ترانت" Brenton Tarrant المقبوض عليه بيانا من 74 صفحة، يتحدث فيه عن دوافعه لتنفيذ الهجوم. وأطلق صفحة على فيسبوك لنشر بث حي للعملية أثناء ارتكابها، واستخدم "كاميرا خوذة" معلقة على رأسه لتصوير الحادث. وبث 17 دقيقة منها عبر مواقع التواصل الاجتماعي، قبل أن يتم حذفها لاحقا.

تعتبر توصيفات جاسيندا أردرن رئيسة وزراء نيوزيلندا الصريحة للهجوم والمهاجم بالإرهاب والإجرام والتطرف من المرات القليلة التي تستخدم فيها شخصية سياسية مثل هذه الكلمات لوصف هجوم على مسلمين، في وقت راقب فيه الكثيرون طريقة تناول الإعلام الغربي للهجوم، حيث طالما تعالت أصوات تنتقد التغطية الإعلامية الغربية غير المتكافئة ازدواجية المعايير للهجمات التي ينفذها مسلمون، في تغطية الهجمات التي يكون أحد أطرافها من المسلمين.

بالنظر إلى تغطية هجمات نيوزيلندا التي جاءت مفاجئة إلى حد ما، ضجت وسائل الإعلام الغربية بموضوعات عن الضحايا، وقصصهم، ومظاهر الدعم التي قدمها الساسة والأفراد للضحايا وأسرهم التغطية. فبشكل عام، حيث لوحظ أن وسائل إعلام غربية مرموقة على غرار قناة France 24 وموقعها بالعربي تناولت الهجوم في إطار كونه عملاً إرهابياً، وسلطت الضوء على قصص الضحايا وتأثير اليمين المتطرف. وهو أمر يختلف عما أثبتته الدراسات من قبل، بقصر استخدام وصف الإرهاب على المهاجمين المسلمين.

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل الأطر الخبرية والمقارنة بينها باعتبارها سمات تميز النص الإعلامي أو تمثل محور اهتمامه، بناء على ذلك تستند الدراسة إلى نظرية تحليل الأطر الخبرية من منطلق أن الإطار هو اختيار بعض جوانب من الواقع وجعلها أكثر بروزا في المحتوى الإعلامي، ومن ثم تدعيم تصور معين لمشكلة ما وتقديم تفسير سببي لها كذلك، وهو ما تمارسه وسائل الإعلام فيما يتعلق بقضية أو حدث ما.

من هنا تنبثق الإشكالية التالية:

ما أطر التغطية الخبرية لاعتداء كرايستشرش من خلال موقع France 24 بالعربي في الفترة الممتدة ما بين 15 -30 مارس 2019؟

- تساؤلات الدراسة:

وقد تفرعت عن الإشكالية مجموعة من التساؤلات:

1- ما أبرز الأطر الخبرية المستخدمة في عرض قضية اعتداء كرايستشرش في عينة الدراسة؟

2- ما أطر الأسباب وأطر الحلول التي طرحت فيما يخص المواد الخبرية التي تناولت اعتداء كرايستشرش في عينة الدراسة؟

3- ما أطر الشخصيات الفاعلة وسماتها التي برزت في معالجة اعتداء كرايستشرش في موقع France 24 بالعربي؟

أولا- تحديد المفاهيم الأساسية للدراسة:

1- التغطية الإخبارية: ونعني بها احتواء الخبر والإحاطة به من كل الجوانب، وذلك بجمع أكبر كم ممكن من المعلومات التي تتعمق بمكان وقوعه، وعموما هي الإجابة على الأسئلة الستة، فإذا أجبنا على كافة الأسئلة الهامة في الحدث فقد قمنا بتغطيته، وبالتالي فقد أصبح الخبر جاهزا للكتابة والنشر، إن الحدث لن يتحول إلى خبر إلا إذا نشرت تفاصيله بدقة ودون ذلك يبقى مجرد حدث وفقط، إذن نستنتج أن التغطية الإعلامية هي جمع أكبر عدد من المعلومات والتفاصيل عن الحدث: ماذا حدث؟، من هو الشخص أو الشخصيات التي اشتركت في هذا الحدث؟ أين وقع الحدث؟ متى وقع هذا الحدث؟ كيف وقع هذا الحدث؟(نوار باهي، 2006. ص 31)

2- الأطر الخبرية: يعرف انتمان الإطار الخبري بأنه العملية التي يتم من خلالها إبراز أو إهمال بعض عناصر الحدث مما يجعله ذو معنى معين، ويمكن للأشخاص فهم وتحديد الأحداث والمعلومات التي تعرضها عليهم وسائل الإعلام(Robert M. Entman,2003,P400)

3- اعتداء كرايستشرش: هو هجوم إرهابي على مسجدين بمدينة كرايستشرش بجنوب نيوزيلندا ونفذ الاعتداء الاسترالي برينتون هاريسون تارانت، متطرف يميني على مصلين في صلاة الجمعة وكان عدد الضحايا 51 قتيلا والعديد من الجرحى والمصابين.

ثانيا- المقاربة الموظفة في الدراسة:

سوف نستعرض فيما يلي التراث النظري للمقاربة التي تم استخدامها في تحليل وتفسير نتائج التغطية الخبرية لاعتداء كرايستشرش بنيوزيلندا.

1-تعريف نظرية الأطر الخبرية:

لقد أصبح مصطلح الأطر Frames خلال العقود الأخيرة من المصطلحات الأكثر شيوعا في الدراسات العلمية في مجالات بحثية عديدة مثل الإعلام، علم الاجتماع، العلوم السياسية، والحركات الاجتماعية، والإطار في أحد تعريفاته هو "القالب أو البناء الذي يتم من خلاله عرض وتنسيق البيانات المختلفة "(Adam Simon,, 2000, P 366)، وأشارت Tushman إلى أن الأطر الخبرية هي التي تنظم واقع الحياة اليومية، وأنها جزء لا يتجزأ من هذا الواقع، وفي مجال الصحافة تعد الأطر بمثابة روتين يومي للصحفيين يسمح لهم بسرعة تحديد المعلومات وتصنيفها. (Dietram A. Scheufele , P 103)

كما قدم ستيفان رايس Stephen D. Reese تعريفا للإطار بأنه "ترتيب لمعلومات الرسالة الإعلامية وفقا لأهميتها بهدف إضفاء معنى على الموضوع الإعلامي، حيث يتم من خلاله تقديم الموضوع في قالب فكري يتسم بأنه قالب فكري مشترك يعبر عن توجهات الوسيلة الإعلامية ويراد نقله إلى الرأي العام، كما يتسم بالثبات ويستخدم الرموز لتقديم أحد أبعاد الموضوع للرأي العام في بناء معرفي محدد" .(عيسى عبد الباقي موسى،2008، ص 59)

أما الإطار من المنظور الإعلامي فعرف بأنه: "الحديث عن موضوع أو قضية ما من خلال طرق وأساليب تحدد أو تبرز مجالا معيناً أو أفكارا بعينها في هذا الموضوع، وفي الوقت ذاته تتجاهل مجالات وأفكار أخرى".(جمال أحمد، 2009، ص 54)

2- فروض النظرية:

تنطلق الفرضية الأساسية لنظرية الأطر من أن الأحداث في حد ذاتها لا تنطوي على مغزى معين وإنما تكتسب مغزاها من خلال وضعها في إطار يحددها وينظمها ويضفي عليها قدرا من الاتساق خلال اختيار بعض النواحي في الواقع المدرك، والتركيز عليها وجعل أكثر بروًزا في النص الإعلامي، ليثير أو يروج لتعريف مشكلة معينة، والتفسير السببي لها، والتقييم العقلي، ومعالجة الاقتراحات الخاصة بالموضوع المطروح, ويمكن تفسير ذلك في عدد من الفرضيات الفرعية أن معلومات الجمهور واتجاهاته نحو الأحداث والقضايا المختلفة تتشكل في ضوء تأثرها بالأطر التي تعالج من خلالها وسائل الإعلام تلك الأحداث.(فاطمة شعبان محمد حسن صالح، 2010، ص 59)

1-الاستعانة بالأطر المرجعية المختلفة في الرسائل الإعلامية يؤدي بدوره إلى اختلاف الأحكام التي يصدرها الرأي العام تجاه الأحداث أو القضايا المختلفة(Shanto Lyngar, 1981, p816)

2 -تؤثر فترة تغطية الحدث على طبيعة الأطر التي يكونها الجمهور وقوتها، حيث يتباين إدراك الجمهور للقضية بتباين فترة التغطية سواء قبل الحدث أو أثناء الحدث أو في نهايته أو بعد نهايته.

ثالثا-هجوم كر ايستشيرش: خلفية نظرية

استغرق هجوم كرايستشيرش حوالي 40 دقيقة ونُفذ في مسجدين على بعد 5 كيلومترات عن بعضهما البعض. وقد قام بالاعتداء برينتون هاريسون تارانت، ناشط يميني يبلغ من العمر 28 عامًا بدون سجل

جنائي سابق، ارتكب الهجوم الذي استخدم خلاله بشكل عشوائي أسلحة متعددة وكميات وفيرة الذخيرة ضد المصلين ومن حضر المساجد في ذلك الوقت. ونشر بيانًا من 74 صفحة بعنوان "الاستبدال العظيم"(Boaz Ganor , 2020, p 05)

أما فيما يخص التسلسل الزمني للهجوم فكان كالتالي:

في الساعة 1:34 مساءً، أثناء صلاة الجمعة في المساجد، قام تارانت بتنشيط كاميرا GoPro التي كان قد ثبتها على خوذته، انتقل إلى Facebook Live، وأعلن "فلنبدأ هذه الحفلة"، وتوجه نحو مسجد النور في سيارته. كانت سيارته محملة بخمسة أسلحة نارية (سلاحان نصف آليان وبندقيتان وواحد سلاح ناري ذو حركة رافعة). أوقف تارانت سيارته بالقرب من المسجد، وأخذ أحد أسلحته واقتحمه وهو يطلق النار بشكل عشوائي، حيث قتل 42 ضحية في حوالي ست دقائق وأصاب كثيرين آخرين. لكن عندما وصلت الشرطة إلى مكان الحادث بعد ست دقائق كان تارانت في طريقه إلى هدفه الثاني، وصل إلى مركز لينوود الإسلامي، في الساعة 1:55 مساءً، بدأ في إطلاق النار على الأشخاص الواقفين خارج المبنى وتم قتل سبعة ضحايا وجرح آخرين، لتعترض سيارة شرطة نيوزيلندا سيارته وتم القبض عليه واعتقاله. (Boaz Ganor , 2020, p 07)

رابعا- الإطار المنهجي للدراسة:

1- نوع الدراسة: تنتمي هذه الدراسة إلى الدراسات الوصفية التحليلية حيث يصف الباحث مجموعة من مكونات ومتغيرات الظاهرة، والمقصود هنا هو التعرف على العناصر المكونة لها والعلاقات السائدة داخلها، أي اختبار علاقات التأثير والتأثر بين تلك المتغيرات والمكونات(يوسف تمار، 2017، ص11)، كما تهتم بدراسة الحقائق الراهنة المتعلقة بطبيعة ظاهرة أو موقف أو مجموعة من الأوضاع أو الأحداث، مما يؤدي إلى وجود بيانات قابلة للقياس الكمي، وتسمح بإمكانية خضوع البيانات للاستدلال والتعميم.(Roger D. Wimmer, Joseph R. Dominick, 1997, P113,114)

2- منهج الدراسة: نظرا لطبيعة هذه الدراسة ارتأت الباحثة استخدام منهج المسح الإعلامي بشقيه الوصفي والتحليلي من خلال مسح الموضوعات المتعلقة بقضية اعتداء كرايستشرش في الموقع عينة الدراسة من جوانب متعددة، حيث يعتبر منهج المسح جهدا علميا منظما للحصول على بيانات ومعلومات بأوصاف الظاهرة موضوع البحث (سمير محمد حسين، 2006، ص147)، كما يعرف بأنه الطريقة العملية التي تمكن الباحث من التعرف على الظاهرة المدروسة من حيث العوامل المكونة لها والعلاقات السائدة داخلها كما هي في الحيز الواقعي، وضمن ظروفها الطبيعية غير المصطنعة من خلال جمع المعلومات والبيانات المحققة لذلك. (أحمد بن مرسلي، ص ص 286، 287)

3- أدوات الدراسة: اعتمدنا في دراستنا على أداة تحليل المضمون كأداة رئيسية لأنها الأنسب لجمع وتحليل الأشكال الصحفية التي تناولت قضية اعتداء كرايستشرش، ويعرف لورانس باردن Laurence Bardin تحليل المضمون بأنه " أسلوب للبحث العلمي يسعى إلى وصف المحتوى الظاهر والمضمون الصريح

للمادة الإعلامية المراد تحليلها من حيث الشكل والمضمون تلبية للاحتياجات البحثية المصاغة في تساؤلات البحث أو فروضه. (حسين، 2006)

4- مجتمع الدراسة وعينته:

مجتمع البحث: يعرف مجتمع البحث "بأنه جميع المشاهدات موضع الدراسة، أو هي كافة مفردات مجتمع الدراسة، هو جميع العناصر ذات العلاقة بمشكلة الدراسة التي يسعى الباحث إلى أن يعمم عليها نتائج الدراسة. (أحمد بن مرسلي، 2003، ص 125.) وفي دراستنا حول قضية اعتداء كرايستشرش يتمثل مجتمع البحث في جميع المقالات التي نشرت في موقع France24 خلال فترة الدراسة الممتدة من 15 إلى 30 مارس 2019.

المسح الشامل فترة الدراسة من يوم وقوع الاعتداء ولفترة 15 يوما حيث كانت التغطية يومية ومستمرة إلى غاية 30 مارس.

خامسا- أطر تغطية موقع France 24 بالعربي لاعتداء كر ايستشرش:

ظلت الدراسات الإعلامية لسنوات طويلة تهتم بدراسة المحتوى الصريح للرسالة الإعلامية فقط وتجاهلت المحتوى الضمني تأثرا بتعريف هولستي لتحليل المضمون بأنه تحليل المحتوى الظاهر للاتصال تحليلا موضوعيا كميا (محمد عبد الحميد أحمد عبد الحميد،2011، ص 148) ، ويلقي تحليل الأطر الخبرية الضوء على الطريقة التي يتم بها تقديم الخبر أو الموضوع عبر الوسيلة الإعلامية، حيث يكشف عن الجوانب التي تم التركيز عليها والأخرى التي أهملت، فمن خلال اختيار جوانب معينة في الخبر، وجعلها أكثر بروزا يكشف عن السياق الذي يحتويه النص الاتصالي، وذلك لتعزيز مشكلة معينة، أو تفسير متفق عليه، أو تقييم أخلاقي، أو معالجة معينة للموضوع، وبالتالي هذه الدراسة تهتم بتطبيق هذه النظرية للكشف عن المحتوى غير الصريح للمادة الإعلامية المتعلقة بقضية اعتداء كرايستشرش في الفترة الممتدة ما بين 15 -30 مارس 2019

نريد فقط الإشارة هنا أن التحليل الكيفي يختلف عن التحليل الكمي في أن الأول لا يعتمد في استخلاصاته على الأساليب الحسابية والأرقام أو طرق التحليل الإحصائي، بل يعني أساسا بخصائص المضمون(Thomas R. Lindlof, 1995, P21) .

يرتبط التحليل الكيفي ارتباطا وثيقا بالبحوث التي تجرى في إطار تفسيري يعنى أساسا بمسألة إنتاج المعنى وبناؤه Production of meaning، ويعد بذلك جوهر دراسات تحليل الأطر الخبرية، ومن ناحية أخرى يعد التحليل الكيفي ملائما لحد بعيد لإبراز جوانب الاختلاف في التغطية الخبرية للقضايا المثارة في وسائل الإعلام. (خالد صلاح الدين حسن علي، 2001، ص44)

يستعرض هذا الجزء بشكل تفصيلي نتائج التحليل الكيفي لأطر تغطية موقع France 24 مستفيدا من الإطار النظري (نظرية تحليل الأطر الخبرية) والدراسات السابقة وبما يتناسب مع طبيعة الدراسة الحالية من خلال:

استخدمت الباحثة تحليل الأطر الخبرية News Frames للكشف عن المحتوى غير الصريح للمادة الصحفية محل الدراسة من خلال التحليل الكيفي وذلك لاستخلاص أطر تغطية اعتداء كرايستشرش في موقع قناة France24، وقد تم الاعتماد على نموذج روبرت إنتمان Robert M. Entaman سنة 1993 لتحديد تعريف المشكلة أو القضية والأسباب الكامنة وراءها وكذلك عرض وتبرير معالجات القضية وتوقع آثارها المحتملة، وبان كوسكي "Pan & Kosicki" سنة 1993 لرصد الأفكار الرئيسية والفرعية التي يتضمنها النص الخبري.

1- محددات التحليل الكيفي للأطر الخبرية: سوف نتناول أطر التغطية الخبرية لقضية اعتداء كرايستشرش وفق ما سنذكره، وسنحاول تطبيق هذه المراحل على قضية اعتداء كرايستشرش بنيوزيلندا.

أ-الأطر الرئيسية: تتكون من

- نوع الإطار المستخدم في القضية.
- الكلمات المحورية والعبارات البنائية الموظفة في القضية.
- الأفكار الرئيسية في القضية.

ب- الأطر الفرعية: تتمثل في

- أطر أسباب القضية.
- أطر حلول القضية.
- أطر الأطراف الفاعلة في القضية وسماتها البارزة.

تناول قضية اعتداء كرايستشرش باستخدام أطر التغطية الخبرية على النحو التالي:

تمت التغطية الخبرية بالمسح الشامل في الفترة الممتدة من 15 إلى 31 مارس كالتالي:

2019/03/15

غضب في البلدان الإسلامية بعد اعتداء نيوزيلندا

ما هي دوافع منفذ الهجوم الإرهابي في نيوزيلندا؟

نيوزيلندا: أحد منفذي اعتداء كرايستشيرش بث فيديو عبر "فيس بوك لايف"

اعتداء كرايستشيرش: زعماء العالم يندون بالهجوم على مسجدين ويتضامنون مع مسلمي نيوزيلاندا

2019/03/16

ما الذي نعرفه عن منفذ هجوم نيوزيلندا؟

أربعة مصريين و4 أردنيين من بين قتلى اعتداء كرايستشيرش الإرهابي بنيوزيلندا

أنقرة تجري تحقيقا لتتبع أنشطة منفذ اعتداء كرايستشيرش خلال رحلاته إلى تركيا

2019/03/17

رئيسة وزراء نيوزيلندا تلقت بيان منفذ اعتداء كرايستشيرش قبل تسع دقائق من بدء الهجوم

نيوزيلندا: تكريم ضحايا اعتداء كرايستشيرش وكشف قائمة بالخمسين ضحية

نيوزيلندا: إقفال مطار دنيدن بسبب العثور على "طرد مشبوه"

2019/03/18

الشرطة الأسترالية تفتش منزلين على صلة بمنفذ اعتداء كرايستشيرش

رئيس الوزراء الأسترالي يعلن تخصيص تمويل إضافي لحماية أماكن عبادة بعد اعتداء نيوزيلندا

هجوم كرايستشيرش... الوجوه المتعددة للإرهاب

المسلمون في نيوزيلندا...ما هي أصولهم وهل يشكلون هدفا للاعتداءات العنصرية؟

2019/03/19

اعتداء كرايستشيرش: رئيسة الوزراء النيوزيلندية تعد بمحاسبة المنفذ بكل حزم وبقوة القانون

2019/03/20

اعتداء كرايستشيرش: أردوغان يذكر الأستراليين بـ"معركة غاليبولي" وكانبيرا ترد باستدعاء السفير التركي لديها

الجمهورية التشيكية: مسلمو براغ يرفضون دعوة إمام لحمل السلاح على خلفية اعتداء كرايستشيرش

ريبورتاج: تضامن واسع مع مسلمي نيوزيلندا إثر اعتداء كرايستشيرش

الإمارات ترحل مقيما أجنبيا أشاد باعتداء كرايستشيرش على فيس بوك

لماذا تأخر فيس بوك في حذف فيديو اعتداء كرايستشيرش بنيوزيلندا؟

2019/03/21

نيوزيلندا: حظر بيع البنادق الهجومية والشرطة تنتهي من تحديد هويات ضحايا هجوم كرايستشيرش

اعتداء كرايستشيرش: أردوغان يخفف من لهجته ويثني على "شجاعة" رئيسة وزراء نيوزيلندا

فيس بوك يقول إنه يتصدى لأكثر من 200 منظمة تؤمن بتميز العرق الأبيض حول العالم

نيوزيلندا: جاسيندا أردين... رئيسة حكومة من "فولاذ" تسحر وسائل الإعلام

2019/03/22

الآذان يرفع استثنائيا في أنحاء نيوزيلندا خلال مراسم تكريم ضحايا اعتداء كرايستشيرش

هجمات نيوزيلندا: الإعلام في قفص الاتهام؟

مصلون يعودون تدريجيا إلى مسجد النور في كرايستشيرش في نيوزيلندا

2019/03/25

مجزرة كرايستشيرش: بدء إعادة جثامين الضحايا إلى بلادهم وأردين تأمر بتحقيق قضائي مستقل

المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية يقاضي فيس بوك ويوتيوب لبثهما فيديو اعتداء كرايستشيرش

2019/03/28

فيس بوك يحظر منشورات التعصب القومي للبيض بعد اعتداء نيوزيلندا

2019/03/29

نيوزلندا: آلاف الأشخاص يحضرون مراسم تكريم ضحايا اعتداء كرايستشيرش

الجدول 1: الأطر المستخدمة في تغطية اعتداء كر ايستشرش

الأطر المستخدمة في التغطية الخبرية	موقع France 24	
	التكرار	النسبة المئوية (%)
إطار الاعتداء	39	22.15
إطار الاهتمامات الإنسانية	24	13.63
إطار التعاطف والتضامن	31	17.61
إطار محاربة التعصب	39	22.15
إطار الاتهام (إسناد المسؤولية)	16	9.09
إطار اللوم والتقصير	12	6.81
إطار الإدانة	15	8.52
المجموع	**176**	**100**

تناول موقع فرانس 24 قضية اعتداء كرايستشرش بنيوزيلندا باستخدام أطر المعالجة الخبرية على النحو التالي:

أ- الأطر الرئيسية: تتكون من

- نوع الإطار المستخدم في. قضية اعتداء كرايستشرش.
- الكلمات المحورية والعبارات البنائية الموظفة في قضية اعتداء كرايستشرش.
- الأفكار الرئيسية في قضية اعتداء كرايستشرش.

1- إطار محاربة التعصب: احتل إطار محاربة التعصب **المرتبة الأولى** بالتساوي مع إطار الاعتداء في قضية اعتداء كرايستشرش بنسبة بلغت22.15 %، من خلال إبراز مختلف مظاهر محاربة التطرف والدعوة إلى السلام واحترام الأديان، وقد ظهر ذلك في تبني الموقع لكلمات محورية وعبارات بنائية وتصريحات واصفة للقضية **بشكل إيجابي.**

-**أطر الكلمات المفتاحية والعبارات البنائية**: على سبيل المثال:

نيوزيلندا: توجيه تهمة القتل إلى منفذ اعتداء كر ايستشيرش وبدء الاستعدادات لدفن الضحايا وأعلنت بريطانيا الجمعة تعزيز الرقابة على المساجد في البلاد.

حذرت السلطات بأن من ينشر تلك المقاطع قد يعاقب بالسجن إلى ما يصل لـ10 سنوات.

- رئيس الوزراء الأسترالي يعلن تخصيص تمويل إضافي لحماية أماكن عبادة بعد اعتداء نيوزيلندا ....خصصت الحكومة الأسترالية مبلغ 55 مليون دولار أسترالي كتمويل إضافي لحماية المؤسسات وأماكن العبادة في أستراليا، عقب الاعتداء الذي استهدف مسجدين في نيوزيلندا المجاورة، وأودى بحياة 50 شخصا. وسيخصص التمويل لاقتناء "كاميرات مر اقبة وإضاءة ونصب أسيجة وأجهزة إنذار و أنظمة أمن"...

- الجمهورية التشيكية: مسلمو براغ يرفضون دعوة إمام لحمل السلاح على خلفية اعتداء كرايستشيرش

رفضت "المجموعة الإسلامية" في براغ دعوة أطلقها إمام مسجد العاصمة التشيكية، ليونيد كوشنارنكو، لمسلمي المدينة بحيازة الأسلحة للدفاع عن أنفسهم، إذ اعتبرتها رأيا شخصيا ولا تمثل المسلمين في الجمهورية التشيكية.

- فيس بوك يحظر منشورات التعصب القومي للبيض بعد اعتداء نيوزيلندا

قررت شركة فيس بوك الأربعاء حظر دعم وتمثيل التعصب القومي والنزعة الانفصالية للبيض على منصاتها للتواصل الاجتماعي، في خطوة لقت قبولا متحفظا من جانب نيوزيلندا التي نددت ببث اعتداء راح ضحيته 50 شخصا بمسجدين على الهواء مباشرة عبر فيس بوك في وقت سابق من هذا الشهر

2- إطارالاعتداء: احتل إطار الاعتداء المرتبة الأولى في قضية اعتداء كرايستشرش بنسبة بلغت22.15 %، من خلال وصف وقائع ومجريات مذبحة كرايستشرش التي وقعت في مسجدي النور ولينود في نيوزيلندا وراح ضحيتها 50 قتيلا أثناء صلاة الجمعة في 15 مارس 2019 من جنسيات مختلفة مختلف مظاهر محاربة التطرف والدعوة إلى السلام واحترام الأديان، وقد ظهر ذلك في تبني الموقع لكلمات محورية وعبارات بنائية وتصريحات واصفة للقضية **بشكل سلبي**.

-أطر الكلمات المفتاحية والعبارات البنائية: على سبيل المثال:

نيوزيلندا: أحد منفذي اعتداء كرايستشيرش بث فيديو عبر"فيس بوك لايف"

بث أحد مهاجمي المسجدين في كرايستشيرش، جنوب نيوزيلندا، الجمعة مقاطع مباشرة من الاعتداء بواسطة خدمة "فيس بوك لايف"......

3-إطار التعاطف: احتل إطار التعاطف **المرتبة الثانية** في قضية اعتداء كرايستشرش بنسبة بلغت17.61%، من خلال إبراز مظاهر التضامن والمواساة لضحايا الاعتداء وتكريم عائلاتهم من الحكومة النيوزيلندية والمجتمع النيوزيلندي، وقد ظهر ذلك في تبني الموقع لكلمات محورية وعبارات بنائية وتصريحات واصفة للقضية **بشكل إيجابي**.

- أطر الكلمات المفتاحية والعبارات البنائية: على سبيل المثال:

اعتداء كرايستشيرش: زعماء العالم يندون بالهجوم على مسجدين ويتضامنون مع مسلمي نيوزيلاندا

اعتداء كرايستشيرش: رئيسة الوزراء النيوزيلندية تعد بمحاسبة المنفذ بكل حزم وبقوة القانون

أثناء جلسة طارئة عقدها البرلمان وافتتحتها أرديرن بتحية "السلام عليكم" التي نطقتها باللغة العربية، قائلة إن منفذ الاعتداء "سيواجه كل قوة القانون في نيوزيلندا". وقالت أرديرن التي حضرت إلى البرلمان مرتدية ملابس سوداء "أناشدكم أن تلفظوا أسماء الذي قضوا وليس اسم الرجل الذي قتلهم".

-الآذان يرفع استثنائيا في أنحاء نيوزيلندا خلال مراسم تكريم ضحايا اعتداء كرايستشيرش

لكن النيوزيلنديين تفاعلوا مع الاعتداء بالتعبير عن المحبة والتضامن مع أعضاء الطائفة المسلمة الصغيرة، واحتضن الكثير جيرانهم المسلمين الجمعة في مشاهد مؤثرة في عدد من مدن البلد الواقع في جنوب المحيط الهادئ.

وفي أستراليا المجاورة، وقف الناس في الشوارع والمحال تكريما لضحايا الاعتداء.

وارتدت العديد من النساء في أرجاء البلاد غطاء للرأس تضامنا مع المسلمات.

4- إطار الاهتمامات الإنسانية: احتل إطار الاهتمامات الإنسانية **المرتبة الثالثة** في قضية اعتداء كرايستشرش بنسبة بلغت 13.63%، ويفسر ذلك أنه تم التركيز من جانب الموقع على الجانب الإنساني لقضية الاعتداء وتم التركيز فيها على الخوف من تنامي مشاعر الخوف والقلق لدى المسلمين اتجاه العداء وتنامي تيار الإسلاموفوبيا، فالضحايا تم استهدافهم في صلاة الجمعة وهم عزل، الذي طرحت في هذه القضية هي مشاكل يومية للمواطن يعاني منها ويسعى لوجود حل لها، وهذا الإطار يزود الحدث أو القضية المطروحة بالصبغة الإنسانية أو العاطفية أو الشخصية أحيانا، وقد تبين ذلك في تبني الصحيفة لكلمات محورية وعبارات بنائية وتصريحات واصفة للقضية **بشكل إيجابي**.

- **أطر الكلمات المفتاحية والعبارات البنائية:** كما ورد في المثال التالي:

اعتداء كر ايستشيرش: زعماء العالم يندّدون بالهجوم على مسجدين ويتضامنون مع مسلمي نيوزيلاندا

توفي 49 شخصا بريئا بشكل عبثي للغاية وتعرض كثيرون لإصابات بالغة."

نيوزيلندا: توجيه تهمة القتل إلى منفذ اعتداء كر ايستشيرش وبدء الاستعدادات لدفن الضحايا

كافح سكان كرايستشيرش للتعامل مع التأثيرات الناجمة عما يعتقد أنه أسوأ عمل إرهابي يستهدف المسلمين في الغرب.

وعلى مقربة منهم، كانت حفارات تحضر مساحة واسعة من الأرض تكفي لدفن جثث الضحايا، رغم أن الشرطة لم تسلم الأهالي الجثامين بعد.

أربعة مصريين و4 أردنيين من بين قتلى اعتداء كر ايستشيرش الإرهابي بنيوزيلندا

5- إطار الإدانة: احتل إطار الإدانة المرتبة الرابعة في قضية اعتداء كرايستشرش بنسبة بلغت 8.52 %، من خلال رفض وشجب الهجوم الإرهابي الذي حدث في مسجدي النور ولينود في نيوزيلندا وراح ضحيتها 50 قتيلا أثناء صلاة الجمعة في 15 مارس 2019 من طرف يميني متطرف من جنسية استرالية من أتباع تفوق العرق الأبيض، وقد ظهر ذلك في تبني الموقع لكلمات محورية وعبارات بنائية وتصريحات واصفة للقضية بشكل سلبي.

- **غضب في البلدان الإسلامية بعد اعتداء نيوزيلندا**

توالت الإدانات وردود الأفعال الدولية، ولا سيما في العالم الإسلامي، بعد الهجومين الإرهابيين الجمعة على مسجدين في مدينة كر ايستشيرش، بجنوب نيوزيلندا ووسقوط ما لا يقل عن 49 قتيلا على أثرهما...

اعتداء كر ايستشيرش: زعماء العالم يندّدون بالهجوم على مسجدين ويتضامنون مع مسلمي نيوزيلاندا

استنكر العديد من قادة العالم الجمعة الاعتداء الدموي الذي استهدف مسجدين بنيوزيلاندا وخلف 49 قتيلا، معربين عن تضامنهم مع مسلمي البلد الو اقع أقصى جنوب شرق الكرة الأرضية...

-المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية يقاضي فيس بوك ويوتيوب لبثهما فيديو اعتداء كر ايستشيرش:

أعلن المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية الاثنين أنه رفع دعوى قضائية ضد يوتيوب وفيس بوك في فرنسا، لقيامهما ببث مقطع فيديو صوره منفذ الاعتداء على مسجدين بمدينة كرايستشرش النيوزيلندية...

يحمل هاتين الشبكتين للتواصل الاجتماعي مسؤوليتهما الجزائية بسبب خطورة الجريمة وآثارها النفسية على اليافعين. ولا تضمن الإجراءات المتخذة من هاتين الشبكتين الاستحالة المادية لاطلاع قاصرين على" الفيديو.

6- **إطار الاتهام (إسناد المسؤولية):** جاء في المرتبة الخامسة بنسبة بلغت 9,09% ويظهر إطار الاتهام (إسناد المسؤولية) الذي يعكس توجيه تهمة القتل للمعتدي اليميني المتطرف على مسجدي النور ولينود بمدينة كرايستشرش جنوب غرب نيوزيلندا، أو أي جهة ساهمت في تفاقم الأزمة كتوجيه الاتهام إلى منصة فايسبوك التي عرض من خلالها المتهم الاعتداء عن طريق البث الحي Live، حيث تناول الموقع الإخباري الحدث أو القضية أو الأزمة بأسلوب يربط بين مسؤولية تلك القضية أو الحدث وبين أي فرد أو جهة، وقد تبين ذلك في تبني الصحيفة لكلمات محورية وعبارات بنائية وتصريحات واصفة للقضية بشكل سلبي.

- **أطر الكلمات المفتاحية والعبارات البنائية:** وظف موقع فرانس 24 كلمات مفتاحية وعبارات بنائية خاصة بقضية اعتداء كرايستشرش نذكرها في المثال التالي:

نيوزيلندا: توجيه تهمة القتل إلى منفذ اعتداء كر ايستشيرش وبدء الاستعدادات لدفن الضحايا

وجه القضاء النيوزيلندي تهمة القتل إلى رجل أسترالي يبلغ من العمر 28 عاما، على خلفية الاعتداء على مسجدين في مدينة كر ايستشيرش بنيوزيلندا

.....يبلغ من العمر28 عاما يشتبه بكونه منفذ الاعتداء على مسجدين في كر ايستشيرش بنيوزيلندا، السبت أمام محكمة بالمدينة حيث وجهت إليه تهمة القتل...

واستمع الرجل، وهو مدرب لياقة بدنية سابق وناشط يميني، إلى التهمة الموجهة إليه وهو مكبل اليدين ويرتدي قميصا أبيض يلبسه المعتقلون. ولم يتقدم المتهم بطلب للإفراج عنه بكفالة،

هجمات نيوزيلندا: الإعلام في قفص الاتهام؟

..... لم تتوقف الانتقادات للإعلام بشقيه التقليدي والجديد. إذ وجهت فورا مآخذ حادة لمنصات التواصل الاجتماعي وعلى رأسها شبكة فيس بوك لأن الإرهابي استطاع بث وقائع جرائمه بثا حيا علها. ولأن المنصة ذاتها استخدمت لاحقا لنشر تسجيل مصور للمذبحة....

7- **إطار اللوم:** جاء في المرتبة **السادسة** بنسبة بلغت6.81 % ويظهر إطار اللوم من خلال إرجاع بعض تداعيات نشر المذبحة عبر شبكات التواصل الاجتماعي لإهمال وتخاذل من طرف الفايسبوك واليوتيوب،

بالإضافة إلى وجود قصور في التعامل مع الأزمة وعدم العمل بجدية تتناسب مع خطورتها ، وقد ظهر ذلك في تبني الصحيفة لكلمات محورية وعبارات بنائية وتصريحات واصفة للقضية **بشكل سلبي**.

- **أطر الكلمات المفتاحية والعبارات البنائية:** على سبيل المثال:

لماذا تأخر فيس بوك في حذف فيديو اعتداء كر ايستشيرش بنيوزيلندا؟

...انتقد بعض المسؤولين السياسيين، بينهم رئيسة وزراء نيوزيلندا ووزير الداخلية البريطاني وجمعيات حقوقية فيس بوك الذي تباطأ في إزالة محتوى الفيديو الدامي، الذي نشره على المباشر الأسترالي الذي أطلق النار على مصلين بمسجدين في مدينة كر ايستشيرش. وتساءل هؤلاء حول أسباب تأخر إدارة فيس بوك في حذف الفيديو الذي استغرق 17 دقيقة...، وقد تبين ذلك في تبني الصحيفة لكلمات محورية وعبارات بنائية وتصريحات واصفة للقضية بشكل سلبي.

- **أطر الكلمات المفتاحية والعبارات البنائية:** وظف موقع فرانس 24 كلمات مفتاحية وعبارات بنائية خاصة بقضية اعتداء كرايستشرش نذكرها في المثال التالي:

وأضاف "أن عدم مسارعة فيس بوك إلى حذف الفيديو المثير للخلاف كان من نتيجته نشره على يوتيوب بعد قليل من بثه مباشرة" ما أتاح "بالتالي بثه على التراب الوطني من خلال هاتين المنصتين".

المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية يقاضي فيس بوك ويوتيوب لبثهما فيديو اعتداء كرايستشيرش

- **أطر الأفكار الرئيسية:**

- أطلق المهاجم "اليميني المتطرف" برينتون تارانت الذي كان مزودا بأسلحة نصف آلية النار عشوائيا على مصلين داخل مسجدين في كرايستشيرش(هما مسجد النور ومركز لينود الإسلامي) في جنوب نيوزيلندا في يوم الجمعة 15 مارس 2019، وكانت حصيلة الاعتداء 50 قتيلا، بحسب ما أعلنت الشرطة.

- تم البث المباشر لمقاطع من مجريات الاعتداء بواسطة خدمة "فيس بوك لايف"، على صفحة المتطرف على فيس بوك باستخدام كاميرا صغيرة ملتصقة بصدره، حيث أمكن رؤيته يتنقل من ضحية إلى أخرى ويطلق النار عشوائيا على المصلين ولا يتردد في العودة للإجهاز على من بقي حيا، وذلك لمدة 17 دقيقة، واستمر تداول نسخ من الفيديو على وسائل التواصل الاجتماعي لساعات بعد ذلك.

- نُشر "بيان" يشرح دوافع الهجوم صباح الجمعة على حساب عبر تويتر يحمل نفس الاسم والصورة الشخصية لحساب فيس بوك الذي نقل الهجوم بالبث المباشر.

قبل تنفيذ الاعتداء، نشر الرجل الذي يعرف عن نفسه بأنه رجل أبيض من الطبقة العمالية ومن ذوي الدخل المتدني، "بيانا" عنصريا من 74 صفحة على تويتر بعنوان "الاستبدال الكبير"، في إشارة إلى إحدى نظريات المؤامرة المنتشرة في أوساط اليمين المتطرف، تقول إن "الشعوب الأوروبية" سوف "تستبدل" بشعوب غير أوروبية من المهاجرين.

- حملت الأسلحة التي استخدمها مطلق النار بعض الكلمات المشابهة لتلك التي ظهرت في صور منشورة في وقت سابق على حساب تويتر الذي نشر عبره الإعلان. ونشرت صور الأسلحة على ذلك الحساب في 13

مارس 2019، وكتب على مخازن أسلحته، كما ظهر في صور نشرها على تويتر، تواريخ الهزائم العسكرية للسلطنة العثمانية.

- استنكر العديد من قادة العالم ولا سيما في العالم الإسلامي الاعتداء الدموي الذي استهدف مسجدي بنيوزيلاندا وخلف 50 قتيلا(تتراوح أعمارهم بين ثلاث سنوات و77 سنة.)، معربين عن تضامنهم مع مسلمي البلد الواقع أقصى جنوب شرق الكرة الأرضية.

- توجيه تهمة القتل إلى منفذ اعتداء كرايستشيرش برينتون تارانت الذي لم يبد أي رد فعل عند توجيه التهمة إليه، لكنه جمع إبهامه وسبابته في رمز يستخدمه أنصار نظرية تفوق العرق الأبيض عبر العالم.

- أشارت رئيسة وزراء نيوزيلندا جاسيندا أرديرن أنها كانت بين أكثر من ثلاثين شخصا تلقوا بيانا أرسله منفذ الاعتداء الجمعة، قبل بدء الهجوم بتسع دقائق، وأنه خلا تماما من إشارات لموقع الهجوم، وأنه قد تم إرساله للأجهزة الأمنية بعد دقيقتين من استلامه.

- المشتبه به تمكن من زيارة دول أخرى (انطلاقا من تركيا) في أوروبا وآسيا وإفريقيا قبل الاعتداء.

- شددت بعض الدول الإجراءات الأمنية في محيط المساجد عقب الهجومين.

-فرضت قوات الأمن النيوزيلندية طوقا أمنيا في كرايستشيرش. وطلبت من المسلمين تفادي المساجد "في كل أنحاء نيوزيلندا". ورفعت البلاد مستوى الإنذار فيها إلى "عال"، كما حذرت من نشر تلك المقاطع التي يعاقب عليها بالسجن إلى ما يصل لـ10 سنوات.

- زارت رئيسة الوزراء النيوزيلندية جاسيندا أرديرن السبت مرتدية غطاء للرأس أسود اللون، المدينة حيث التقت ناجين وعائلات الضحايا.

- بدء مراسم دفن ضحايا اعتداء كرايستشيرش يوم الأربعاء وسط إجراءات أمنية مشددة.

- أكدت شركة فيس بوك إنها حذفت 1,5 مليون فيديو للاعتداء خلال 24 ساعة، وأنها مستمرة في مكافحة خطاب الكراهية على منصتها، مضيفة أنها تتصدى لأكثر من 200 منظمة على مستوى العالم تؤمن بتميز العرق الأبيض وأنها تعمل على إزالة ما تنشره هذه المنظمات من محتوى من خلال تكنولوجيا الرصد الآلي.

- اتخاذ إجراءات مشددة من طرف الدول لمحاربة مختلف أنواع التعصب، كترحيل السلطات الإماراتية لموظف أجنبي، بعد إشادته على صفحته عبر فيس بوك بالاعتداء الذي نفذه اليميني المتطرف، ورفض "المجموعة الإسلامية" في براغ دعوة أطلقها إمام مسجد العاصمة التشيكية لمسلمي المدينة بحيازة الأسلحة للدفاع عن أنفسهم بعد اعتداء نيوزيلندا.

- انتقد سياسيون وجمعيات حقوقية فيس بوك الذي تباطأ في إزالة محتوى الفيديو الدامي الذي استغرق 17 دقيقة كما قام المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية بمقاضاة فيس بوك ويوتيوب لبثهما الفيديو ، واعترفت شركة فايسبوك بأن أنظمة الرصد الآلي لم تعمل تلقائيا عند نشر الفيديو المباشر الذي يصور الهجوم.

- في ذكرى مرور أسبوع على اعتداء كرايستشيرش، رفع الآذان في أرجاء نيوزيلندا الجمعة في إجراء استثنائي أعقبه الوقوف دقيقتي صمت، ومصلون يعودون تدريجيا إلى مسجد النور، كما حظرت السلطات النيوزيلندية بيع الأسلحة نصف الآلية والبنادق الهجومية.

- بدء إعادة جثامين الضحايا إلى بلادهم.

ب- الأطر الفرعية: تتمثل في

- أطر أسباب قضية اعتداء كرايستشرش.
- أطر حلول قضية اعتداء كرايستشرش.
- أطر الأطراف الفاعلة وسماتها البارزة في قضية اعتداء كرايستشرش.

- أطر الأسباب:

- حسب رئيسة الوزراء النيوزيلندية جاسيندا أرديرن سعى المعتدي من عمله الإرهابي إلى الحصول على أشياء كثيرة، أحدها الشهرة، ولهذا السبب لن تسمعوني أبدا أذكر اسمه.

- حسب البيان "مانيفستو" (الاستبدال الكبير) الذي نشره المعتدي في تويتر الواقع في 74 صفحة والذي برر فيه أسباب المجزرة التي ارتكبها ودفعته إلى التطرف كانت هزيمة زعيمة اليمين المتطرف الفرنسي مارين لوبن في انتخابات 2017 الرئاسي، وهجوم بشاحنة في ستوكهولم في أبريل 2017 قتل فيه 5 أشخاص بينهم طفلة في الحادية عشر من العمر.

- عنوان البيان مستوحى من نظرية للكاتب الفرنسي رونو كامو بشأن اندثار "الشعوب الأوروبية" التي "تستَبدَل" بشعوب غير أوروبية مهاجرة. وباتت هذه النظرية منتشرة بشدة في أوساط اليمين المتطرف.

- أطر الحلول:

- تعهدت رئيسة الوزراء النيوزيلندية بتشديد قوانين حمل الأسلحة غداة الاعتداء.

- تخصيص تمويل إضافي لحماية أماكن عبادة بعد اعتداء نيوزيلندا كاقتناء كاميرات مراقبة وإضاءة ونصب أسيجة وأجهزة إنذار وأنظمة أمن.

-قرار فايسبوك تشديد قواعد البث الحي بعد بث فيديو مذبحة كرايستشرش لمدة 17دقيقة في صفحة الفايسبوك عن طريق البث الحي.

- اقترح المختصون في مواقع التواصل الاجتماعي للحد من انتشار مثل الفيديوهات العنيفة، والتي غالبا ما تنتشر على طريقة "الفيروس" على جميع مواقع التواصل الاجتماعية الأخرى، مضاعفة عدد المراقبين لهذه المواقع، ما يعرف تقنيا بـ"الموديرتور"، لعلهم سيقلصون من عدد الفيديوهات العنيفة التي تنشر.

- الشخصيات الفاعلة وسماتها البارزة:

فيما يلي سنذكر أهم الشخصيات الفاعلة في قضية اعتداء كرايستشرش في موقع France 24 بالعربي وهي كالتالي:

1-المعتدي: أبرز موقع France 24 بالعربي في تغطيته قضية اعتداء كرايستشرش **بصفة السلبية** حيث تمت الإشارة إلى التطرف الذي يتميز به الأسترالي برينتون تارانت، حيث نشر بيانا عبر تويتر يخبر فيه أنه مولود في أستراليا من عائلة عادية ويبلغ من العمر 28 عاما كان يعمل مدربا للياقة البدنية، والمتهم الذي جاهر بكونه فاشيا لم يبد أي رد فعل عند توجيه التهمة إليه، لكنه جمع إبهامه وسبابته في رمز يستخدمه أنصار نظرية تفوق العرق الأبيض عبر العالم. ووُجهت إليه تهمة قتل 50 شخصا بعدما أطلق الجمعة النار داخل مسجدين في كرايستشيرش.

2-جاسيندا أرديرن: أبرز موقع France 24 بالعربي رئيسة الوزراء النيوزيلندية **جاسيندا أرديرن** في تغطيته قضية اعتداء كرايستشرش **بصفة الإيجابية** حيث سحرت وسائل الإعلام وتم تسليط الضوء عليها أكثر من الضحايا المسلمين، وكانت رمزا لمحاربة التعصب، حيث زارت السبت مرتدية غطاء للرأس أسود اللون، المدينة حيث التقت ناجين وعائلات الضحايا في جامعة أقيم فيها مركز استعلام، كما تم وصفها بأنها كانت مثالا للحكمة والتواضع والهدوء والتعاطف والتماسك الفولاذي في تعاملها مع هذه الأزمة، التي هزت نيوزيلندا والعالم.

3- القادة السياسيون:

- **في العالم الإسلامي:** أبرز موقع France 24 بالعربي في تغطيته قضية اعتداء كرايستشرش **بصفة الإيجابية**

حيث أدان قادة سياسيون ودينيون في العالم الإسلامي الهجومين الإرهابيين على مسجدين في مدينة كرايستشيرش بنيوزيلندا الجمعة 15 مارس2019، وفيما يلي موقف الدول العربية من الاعتداء على المسجدين:

- **في مصر:** ندد الأزهر في القاهرة بالاعتداء ووصفه بأنه "هجوم إرهابي مروع"، وأن ما حدث "يشكل مؤشرا خطيرا على النتائج الوخيمة التي قد تترتب على تصاعد خطاب الكراهية ومعاداة الأجانب وانتشار ظاهرة الإسلاموفوبيا في العديد من بلدان أوروبا."

- **الأردن:** أدان العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني في تغريده عبر موقع تويتر الجمعة "المذبحة البشعة"، مؤكدا "هي جريمة إرهابية صادمة ومؤلمة توحدنا للاستمرار في محاربة التطرف والكراهية والإرهاب الذي لا دين له".

- **إندونيسيا:** قالت وزيرة الخارجية ريتنو مرسودي في بيان: "تدين إندونيسيا بشدة عملية إطلاق النار، خاصة في مكان للعبادة وأثناء صلاة الجمعة".

- **ماليزيا**، قال أنور إبراهيم زعيم أكبر حزب في الائتلاف الحاكم إن مواطنا ماليزيا أصيب في الهجوم الذي وصفه بأنه "مأساة سوداء تواجه الإنسانية والسلام العالمي".

- **الهند:** قال كمال فاروقي مؤسس رابطة مسلمي عموم الهند، إن "الفيروس المعادي للمسلمين ينتشر في أرجاء العالم... ".

- **باكستان:** ندد المتحدث باسم وزارة الخارجية الباكستانية محمد فيصل بالحادث على وسائل التواصل الاجتماعي واستخدم وسم #باكستان_ضد_الإرهاب.

د- العالم الغربي:

أبرز أبرز موقع France 24 بالعربي في تغطيته قضية اعتداء كرايستشرش ردود الأفعال من الرئيس الأمريكي دونالد ترامب والروسي فلاديمير بوتين والفرنسي إيمانويل ماكرون، وبابا الفاتيكان، والمستشارة الألمانية أنغيلا ميركل ورئيسة وزراء بريطانيا تيريزا ماي، **بصفة الإيجابية** حيث أدانوا الاعتداء بشدة، وأعربوا عن أحر مشاعر المواساة وتضامنهم مع أهالي نيوزيلندا وحكومتهم ضد فعل الشر والكراهية هذا".

4- الضحايا:

- أكد سفير مصر لدى نيوزيلندا طارق الوسيمي أنه "تم إبلاغه أن الضحايا (القتلى) المصريين في الحادث الإرهابي بلغ عددهم أربعة، وتم نقل جثامينهم للمستشفى". وأكد الوسيمي أنه "لم يتم التأكد بعد من جنسية المصابين".

- أكدت وزارة الخارجية الأردنية في بيان أنّ "عدد الشهداء الأردنيين الذين استشهدوا جراء الحادث الإرهابي في نيوزلندا قد ارتفع إلى أربعة شهداء بعد وفاة أحد المصابين وأنه تم إبلاغ ذويه".

5- المجتمع النيوزيلندي:

- توافد مواطنون في نيوزيلندا أمام موقع الاعتداء للتعبير عن احترامهم وإظهار تضامنهم ورافقت باقات الزهور رسائل مكتوبة تعبر عن الصدمة والتعاطف، كتب على إحداها "آسف أنكم لم تكونوا آمنين هنا. قلوبنا حزينة لخسارتكم".

- تفاعل المواطنون مع دعوات التضامن العابرة للديانات، إذ تم جمع ملايين الدولارات، والتبرع بالطعام الحلال، بل وحتى تطوع البعض بمرافقة المسلمين الخائفين الآن من السير بمفردهم في الشوارع.

- تجمع الأنغليكانيون في كرايستشيرش للصلاة الأحد عن نفس الضحايا في كنيستهم التي يطلقون عليها اسم "كاتدرائية الكرتون" والتي شيدت بعد الزلزال عام2011.

6- شهود عيان:

- نشر موقع "ستاف.كو.إن.زد" الإخباري شهادة عبد العزيز الأفغاني الأصل الذي وصفه بأنه "بطل" بعدما جازف بحياته لطرد القاتل. وروى المسلم البالغ من العمر 48 عاما أنه عند سماع إطلاق نار، هرع إلى خارج مسجد لينوود تاركا فيه ابنيه البالغين من العمر 5 و11 عاما.

- قام بمطاردة مطلق النار الذي كان يتوجه إلى سيارته لجلب قطعة سلاح جديدة، وعندما عاود المهاجم إطلاق النار، اقترب عزيز منه متسللا خلف سيارات مركونة، فرأى سلاحا تركه المسلح لنفاد ذخيرته، فاستولى على السلاح المتروك بلا ذخيرة ورماه كالسهم لتحطيم زجاج السيارة. وقال "هذا ما أخافه"، مشيرا إلى أن المهاجم غادر عندها المكان.

- عبر مواطنون عاديون عن فزعهم عبر مواقع التواصل الاجتماعي من الفيديو الذي انتشر على نطاق واسع لرجل يطلق النار عشوائيا، على ما يبدو، من بندقية هجومية على مصلين داخل مسجد.

- روى شاهد لموقع الأخبار النيوزيلندي "ستاف" أنه كان يؤدي الصلاة في مسجد النور عندما سمع إطلاق نار. ولدى محاولته الهرب، شاهد جثة زوجته صريعة أمام المسجد.

- قال رجل آخر إنه شاهد أطفالا يقتلون وإن "الجثث كانت في كل مكان".

7- وسائل الإعلام:

- تحققت وكالة الأنباء الفرنسية من صحة الفيديو المباشر الذي بث عبر فيس بوك من خلال التأكد من عناصر في المسجد موجودة في صور على الإنترنت، من بينها صندوق بريد وباب المدخل وسجادة.

- أفادت وسائل إعلام تركية عدة بأن المهاجم أطلق تهديدات ضدّ تركيا في "بيان" نشره على مواقع التواصل، وكتب على مخازن أسلحته، كما ظهر في صور نشرها على تويتر، تواريخ الهزائم العسكرية للسلطنة العثمانية. وفي "بيانه"، تحدّث خصوصاً عن كاتدرائية آيا صوفيا في إسطنبول، التي حولها العثمانيون مسجدا بعد سيطرتهم على مدينة القسطنطينية عام 1453، وتحولت بعد ذلك متحفا. وقال إنها "ستتحرر من مآذنها".

- الصحف النيوزيلاندية أبدت تضامنها مع عائلات الضحايا وأوردت مقالات تدرس الحلول للحد من انتشار الأسلحة

- اتهمت جريدة "واشنطن بوست" الأمريكية، مواقع اجتماعية أخرى على غرار يوتيوب وتويتر و"روديت" بنشر وقائع الهجوم على المسجدين. وكتبت الصحيفة أن "كل هذه المواقع لها مسؤولية في نشر العنف وإيديولوجية الكراهية".

- ورد في صحيفة الرأي الأردنية أن هذا الهجوم يعكس الأوجه المتعددة للإرهاب ويبدد الصورة النمطية التي سادت منذ الحادي عشر من سبتمبر باعتبار الإرهاب صناعة إسلامية بامتياز. هذه الجريمة الإرهابية المروعة ألقت مزيدا من الضوء على ظاهرة الإرهاب الأبيض وهي صورة طالما جرى طمسها حين الحديث عن تاريخ الإرهاب وهوية مرتكبيه، ويستند إلى خطاب يدعي تفوق الإنسان الأبيض. هذا الخطاب زاد انتشاره بصعود إيديولوجية اليمين المتطرف والشعبوية في الغرب التي تصل إلى مقام الفاشية.

- في صحيفة القدس العربي رسم لأسامة حجاج يصور فيه مرتكب الهجوم على أنه يحمل مشاعر الحقد والإسلاموفوبيا والوحشية والإرهاب والتطرف، وغيرها من الأفكار البغيضة والمعادية للآخر.

8- المسلمون في نيوزيلندا:

- يبلغ عدد المسلمين في نيوزيلندا 47 ألف شخص، أي واحدا بالمئة من عدد السكان.

- على الرغم من ضآلة تعداد الأقلية المسلمة فإنها تعد واحدة من أكثر الأقليات نشاطا، كما أن أعضاءها من أكثر المهاجرين اندماجا في المجتمع وطلبا للعمل

وقدم المسلمون الأوائل إلى نيوزيلندا من دول جنوب شرق آسيا وشرق أوروبا بداية القرن العشرين، ويوجد عدد كبير من الجمعيات الإسلامية في البلاد خاصة في العاصمة أوكلاند ومدن أخرى كويلينغتون وبلمرستون وكرايستشرش. وتأسس أول مركز إسلامي في البلاد عام 1959، كما أن البلاد بها عدد لا بأس به من المساجد ومدرستان إسلاميتان.

9- مو اقع التواصل الاجتماعي:

أكدت شركة فيس بوك إنها حذفت 1,5 مليون فيديو للاعتداء خلال 24 ساعة. منها أكثر من 1,2 مليون تم حجبها عند التحميل".

10- التيار المتطرف:

- هناك تيار قوميا متشدد معادي للهجرة وقدوم الأجانب. وهذا التيار يعد امتدادا لمثيله في أستراليا المجاورة التي ينتشر فيها الخوف من الغرباء.

-هناك أكثر من 70 جماعة تنطبق عليها تعريفات اليمين المتطرف، ويتمركز أغلبها في مدينة كرايستشرش، التي وقع فيها الهجوم الدموي على مسجدين للمسلمين كما أنها تؤمن بتفوق العنصر الأبيض.

- بعد حوادث الحادي عشر من سبتمبر 2001، تنامت ظاهرة "الإسلاموفوبيا". وتتابعت الهجمات ضد المسلمين بشكل فردي كما حدث في الهجوم على سيدة مسلمة ترتدي الحجاب في فبراير 2017 في هانتلي، حيث هاجمها شخص قائلا: "ليس لك الحق في الوجود هنا أيتها المسلمة" قبل أن يقذفها بزجاجات خمر فارغ. أما التصريحات المعادية العلنية ضد المسلمين.

نتائج الدراسة:

- حرصت المادة الخبرية بموقع قناة France24 بالعربي على إعطاء تفسيرات أكثر للخبر من خلال المقابلات المباشرة أو المسجلة مع المحللين والخبراء أو بالاتصال المباشر بالخبراء والمحللين وبالمراسلين. كما اعتمدت عل تصريحات المسئولين (رؤساء، وزراء خارجية، سفراء، مواطنين...)، وتعكس هذه النتيجة أيضاً تنوع القوالب والأشكال الإخبارية في بمواقع قناة France24 واحترافيتها والجهد الذي تبذله في خدمة الخبر بما تمتلكه من مقدرات تكنولوجية واقتصادية وإمكانات بشرية وفنية بهدف إقناع المشاهد العربي وجذب انتباهه.

- تنوعت الأطر الخبرية التي تم اعتمادها من طرف موقع قناة France24 بالعربي في تغطية قضية اعتداء كرايستشرش حيث تصدرت الأطر المدينة للاعتداء مجمل الأطر حيث تم اعتبار المعتدي مجرما، ولم يتردد الموقع في إطلاق صفة إرهابي على سفاح المسجدين وجريمته، حيث تشير دراسة نشرتها جامعة ولاية جورجيا الأمريكية عام 2017 إلى أن الصياغة والتفاصيل وطريقة سرد الأحداث تختلف حسب دين منفذ الهجوم. فغالبا تُستخدم كلمة "إرهابي" بشكل حصري لوصف العمليات التي ينفذها مسلمون، على سبيل المثال، كما ذكرت الدراسة أن "المهاجم غير المسلم يجب أن يقتل سبعة أشخاص أكثر من نظيره المسلم ليحظى بنفس التغطية الإعلامية، إذ تحظى الهجمات التي ينفذها مسلمون بخمسة أضعاف التغطية التي تكرس للهجمات التي ينفذها غير المسلمين". بيد أن أداء الموقع اتسم بالقدر الكافي من الموضوعية والمسؤولية في تغطية لاعتداء كرايستشرش بعد أن لقي أداء وسائل الإعلام الغربية انتقادات لاذعة مما جعلها تعمل على بمراجعة آليات عملها وتعديلها.

- تسليط الضوء في التغطية الإعلامية على رئيسة الوزراء النيوزيلندية جاسيندا أردين مقارنة بضحايا الاعتداء المسلمين حيث تم إظهارها بأنها رمز في التعبير عن الهدوء والتعاطف الذي أظهرته في

أعقاب أسوأ حادث قتل جماعي في تاريخ بلادها. فشكلت وفدا من شخصيات من مختلف الأحزاب وقادته من العاصمة ويلينغتون إلى مدينة كرايستشيرش، مرتدية حجابا أسود لإظهار حزنها وتعاطفها وحدادا على أرواح الضحايا الذين سقطوا في الهجوم وتعزية لأقاربهم. كما أعلنت تغطية الدولة لكافة مصاريف وكلفة جنازات ودفن جميع الضحايا، حيث تم اعتبار أدائها استثنائيا بكل المقاييس، وتم الإشادة بها من المراقبين والمتابعين. وتخطت جهود جاسيندا مجرد التعاطف إلى التنديد بالأيديولوجية القومية وأفكار تفوق العنصر الأبيض، تلك الأفكار التي كانت الدافع وراء ارتكاب المذبحة.

- لم يتجاهل موقع قناة France24 بالعربي مذبحة كرايستشرش ولم يقلل منه، وتم إبراز الضحايا بشكل إنساني وسلط الضوء على قصصهم"، ما يعكس مدى التحول في التغطية مقارنة بهجمات أخرى ضد المسلمين وغير المسلمين، فالإعلام الغربي عادة ما يبحث عن ذريعة تسوّغ للمهاجم غير المسلم تصرفه "الإرهابي"، على عكس المهاجم المسلم الذي يظهر في سياق أن الشر جزء من تكوينه الفكري. وفي حالة هجوم نيوزيلندا، كانت هذه الذريعة هي القوانين الخاصة بالسلاح. فالمهاجم المسلم عادة ما يظهر في صورة الخطر الذي تجلبه الثقافات الأجنبية. أما الإرهابي الأبيض دائما ما يحتاج إلى سبب ليكون مجرما وإرهابيا. ويعكس هذا الأمر ثقافة المجتمع ككل، الذي يشمل العاملين في الإعلام".

خاتمة:

تعتبرُ تغطية الهجمات الإرهابية من أهمّ أنواع العمل الإعلامي وأصعبها، لأنها تضع المؤسسة الإعلاميّة أمام تحدياتٍ شتى، تتواجه فيها قضايا عديدة، مثل حريّة الصحافة وضرورة إعلام الجمهور بالحدث وتطوراته ومدى خطورته بالسرعة القصوى، مقابل أهميّة التحقّق من المعلومة والتروّي في نشرها، هذا ما يتفق من الناحية النظرية مع أخلاقيات العمل الإعلامي المهني والمسؤول؛ إلا أنَّ الأمر يختلف كثيراً على أرض الواقع، حيث اعتادت وسائل الإعلام الغربيّة ممارسة انتقائية فاضحة في تغطيتها الإرهاب، بدءاً من اختيار المصطلحات والتعابير، وليس انتهاءً بالخلط بين مهمة إعلام الجمهور ومساعدته على الفهم وبين التغوّل في إثارته وتحريضه. وقد عرف الهجوم الذي طال مسجدي نيوزيلندا تغيرا واضحا في اتجاه التغطية حيث تم وضع الاعتداء في خانة الطابع الإنساني وأدين بشكل كبير من طرف القادة السياسيين ووسائل الإعلام، والمأمول أن تتحوّل العقلانيّة والمهنيّة التي أبدتها بعض وسائل الإعلام العالميّة في تغطيتها لمذبحة نيوزيلندا إلى منهج عمل يُعتمد في تناول أي هجمات إرهابية، مهما كان مصدرها.

قائمة المراجع:

أولا- المراجع باللغة العربية:

1-الكتب:

- يوسف تمار، مناهج وتقنيات البحث في الدراسات الإعلامية –الاتصالية، (2017)، ديوان المطبوعات الجامعية(الجزائر).

- سمير محمد حسين، دراسات في مناهج البحث العلمي بحوث الإعلام، (2006)، عالم الكتب (القاهرة).

- أحمد بن مرسلي، مناهج البحث العلمي في علوم الإعلام والاتصال، (2003)، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر).

- أحمد بن مرسلي، مناهج البحث العلمي في علوم الإعلام والاتصال، (2010)، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر).

- نوار باهي، المراسل الصحفي المحترف للإذاعة والتلفزيون والصحف (2006)، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع (الجزائر).

2- المجلات:

- جمال أحمد، "أطر إنتاج الخطاب الخبري في المواقع الالكترونية في الأزمات الدولية دراسة حالة لموقعي BBC والعالم"، (2009)، المجلة المصرية لبحوث الإعلام، مصر، العدد 34.

3-الرسائل الجامعية:

- عيسى عبد الباقي موسى، انعكاسات الخطاب الصحفي على تشكيل اتجاهات الجمهور العام والنخبة في مصر نحو قضايا الإصلاح السياسي دراسة مسحية (2008)، (أطروحة دكتوراه)، جامعة جنوب الوادي، مصر،

- محمد عبد الحميد أحمد عبد الحميد، المعالجة الصحفية لموقف جامعة الدول العربية من القضايا القومية دراسة تحليلية لعينة من الصحف في الفترة من 2000/01/01 إلى 2007/12/31 (2011)، (مذكرة ماجستير)، جامعة الأزهر، مصر.

- خالد صلاح الدين حسن علي، دور التلفزيون والصحف في تشكيل معلومات واتجاهات الجمهور نحو القضايا الخارجية (2001)، (أطروحة دكتوراه)، جامعة القاهرة، مصر.

- فاطمة شعبان محمد حسن صالح المعالجة الإخبارية لقضايا الشرق الأوسط السياسية والأمنية دراسة مقارنة بين قنوات الحرة الأمريكية والعالم الإيرانية والنيل للأخبار المصرية وانعكاساتها على الجمهور المصري، (2010)، (أطروحة دكتوراه)، جامعة القاهرة، مصر.

ثانيا- المراجع باللغة الانجليزية:

1- الكتب:

-Roger D. Wimmer, Joseph R. Dominick, Mass Media Research-An Introduction,(1997), Wadsworth Publishing Company (New York).

-Thomas R. Lindlof, Qualitative Communication Research Methods, (1995), Sage publications (California)

2- المجلات:

- Adam Simon, Michael Xenos, "Media Framing and Effective Public deliberation",(2000), Political Communication, England, Vol 17, N° 4.

- Boaz Ganor, Special report, terrorism is terrorism the Christchurch terror from an Israeli CT perspective, Australia, 2020

- Dietram A. Scheufele, 'Framing as a Theory of Media Effects",(1999), Journal of Communication, England, Vol. 49, N°1.

- Robert M. Entman, "Cascading Activation Contesting The White House's After 11/9",(2003), Political Communication Journal, England, Vol. 20, N°4.

- Shanto Lyngar," Television News and Citizens Explanations of National Affairs",(1981), American Political Science Review, USA,Vol,81,N°3.

الإعلام الجديد وسؤال الهوية العربية الإسلامية- (قراءة في إشكالية القولبة والتنميط)

New Media and Question of Arab-Islamic Identity-(Reading at the Problem of Stereotyping and Profiling)

د. عبد القادر طالب، جامعة أمحمّد بوقرّة – بومرداس -الجز ائر
amineboutaleb87@yahoo.fr



يسعى هذا البحث إلى مناقشة موضوع الهوية الثقافية العربية في ضوء لغة الإعلام الجديد، وفي سياق مشروع العولمة الغربية، الذي سعى إلى استثمار وسائط الإعلام الجديد وتطبيقاته المتطورة، كأداة فاعلة في تشكيل حياة الأفراد والمجتمعات العربية؛ من خلال التأثير العميق في بنائها الفكري والثقافي، وترسيخه لمنظومة من القيم التي تختلف عن قيم وثوابت هوية الأمة العربية والإسلامية.

وخلص البحث إلى أنّ للإعلام الجديد تأثيرا خطيرا، عميقا على الهويات الثقافية للأمم، وفي مقدّمتها هوية الأمّة العربية الإسلامية، غير أنّه يمكن استثمار هذه التقنية المتطورة في مواجهة مخاطر هذه العولمة وتحدّياتها على مختلف الأصعدة الحيوية؛ بالوعي المعرفي لهذه الأمم وإحاطتها بالتطور التكنولوجي، ثم تكتّلها على الصعيد الفكري والوجداني، تحصينا لكياناتها من مظاهر الاختراق الثقافي.

الكلمات المفتاحية: الهوية، العربية، الإعلام الجديد، التنميط.

Abstract:

This research seeks to discuss Arab cultural identity in the light of the new media language and in the context of the Western Globalization Project, which sought to invest the new media and its evolving applications as an effective tool in shaping the lives of Arab individuals and communities; Through profound influence in its intellectual and cultural construction, and consolidation of a system of values that differ from those of the Arab and Islamic nation.

The research found that the new media have a serious and profound impact on the cultural identities of the countries, and mainly on the Arab and Islamic identity, but this advanced technology can be invested to face the risks and challenges of this globalization on various vital levels. ; With the knowledge, awareness of the peoples and their awareness of technological development, then their conglomeration at the intellectual and emotional levels, in order to protect their entities from the manifestations of cultural penetration.

Keywords: Identity, Arabic, new media, Profiling.



مقدمة:

لئن كانت وسائل الاتصال التقليدية، قد أدّت تحت غطائها الإعلامي وظيفة العولمة بشكل من الأشكال ولردح من الزمن، فإنه مع بدايات القرن العشرين، احتلت وسائط ما ينعت بـ(الإعلام الجديد) مركز

الصدارة في تمرير مشروع هذه العولمة، بمختلف توجهاتها وأبعادها، الفكرية والثقافية؛ فـ "تكنولوجيا الاتصال قد تمّ إدراكها وتطويرها وتشبعها بمصالح الرأسمالية الأمريكية ومواصفاتها منذ الحرب العالمية الثانية بوجه اليقين ومازالت كذلك حتى الآن"(هربرت شيلر،2007، ص80)، متجاوزة بذلك أدوارها الإيجابية، التي تعود منـافعها على أيّ أمة تستثمر في المعلومة وتسعى إلى امتلاكها وتدفقها الحر بينها وبين الآخر، إلى آلية قولبة وتنميط مبتكرة، ممنهجة، الغاية منها فرض هيمنة القوى الغربية الفاعلة وبسط نفوذها على الأمم المستضعفة وفي مقدّمتها الأمة العربية والإسلامية، وهذا ما تسعى إليه هذه الورقة البحثية بوقوفها عند تجليات أبعاده وتأثيراتها على الهوية الثقافية العربية والإسلامية:

فما المقصود بالإعلام الجديد؟ ما أشكال القولبة والتنميط التي تنتهجها القوى الغربية المتحكّمة في وسائطه الحديثة والمتطوّرة؟ وفيم يتجلى أثرها على الهوية الثقافية للأمة العربية والإسلامية؟ وما المقترحات والإجراءات الكفيلة بالوقوف أمام هذا المدّ الإعلامي المعولم، الجارف لقيم وثوابت الأمم المستهدفة؟

أولا- مفاهيم ومصطلحات:

1.**في ماهية الإعلام الجديد:** تعددت مفاهيم الإعلام الجديد أو التفاعلي أو الرقمي بين الباحثين، غير أنها تشترك جميعا في اعتباره، الإعلام الذي يعتمد التقنية الرقمية وتطبيقاتها الحديثة في إدارة وتفعيل عملية الاتصال الجماهيري، حيث يعرّفه سعد بن محارب بأنه "كل أنواع الإعلام الرقمي الذي يقدّم في شكل تفاعلي. ويتميز عن الإعلام التقليدي بحالتين؛ هما الكيفية التي يتمّ بها بثّ المادة الإعلامية، والكيفية التي يتم بها الوصول إليها. وينقسم إلى أربعة أقسام:

القسم الأوّل: شبكة الانترنيت (online)

القسم الثاني: الحاسب الآلي (offline)

القسم الثالث: الأجهزة النقالة

القسم الرابع: وسائل الإعلام التقليدية بعد إضافة الرقمية والتفاعلية إليها"(سعد بن محارب المحارب،2011، ص28).

ويحدد حسنين شفيق مفهومه في تلك الوسائل الحديثة للاتصال؛ كالفيس بوك وتويتر ويوتيوب، التي تكمل الإعلام التقليدي وتطوّره، كونها تفتحه على التقنية الرقمية التي تجعله أكثر قربا من الحدث ثم من جماهير الاتصال. (حسنين شفيق،2014، ص93)، أمّا إبراهيم إسماعيل فيعرّفه بالإعلام" الذي يقوم على استخدام التكنولوجيا الرقمية وتطبيقات النشر والبث الإلكتروني متيحا المشاركة للجميع كمنتجين وكمتلقين للمادة الإعلامية ووسطاء لتداولها والتفاعل معها بحرية ومرونة"(إبراهيم إسماعيل، 2014، ص22).

ونستنبط من هذه المفاهيم، جملة من الميزات انفردت بها وسائط الإعلام الجديد عن الإعلام التقليدي، أكسبتها حظوة نخبوية كبيرة ضمن المجتمعات، لاسيما فئة الشباب؛ الأكثر تفاعلا مع تطبيقاتها المتطورة، وأبرزها:(إبراهيم إسماعيل، 2014، ص23-29).

2- **التفاعلية** Interactivity: تبادل الأدوار الاتصالية بين المرسل والمتلقي؛ بشكل تزامني كما يتجسّد مع تطبيقات الدردشة والتخاطب (فيس بوك وسكايب) أو بشكل لا تزامني مثل التواصل عبر البريد الالكتروني، وهي خاصية لم تكن موجودة قبل توفّر وانتشار الشبكة العنكبوتية (الانترنيت) عبر العالم.

3- **المرونة** Flexibility: تمكين المتلقي من المعلومة الواحدة في قوالب (نصّية وصور فوتوغرافية ومقاطع فيديو)، وتيسير رصدها عبر وسائل اتصالية متعددة (الحاسوب المكتبي والمحمول، الهاتف الجوال...)، بشكل مغاير لما ساد مع وسائل الاتصال القديمة، التي تقيّدت بقالب واحد في إيصال المعلومة للمتلقي (مكتوبة أو سمعية أو مرئية).

4- **العالمية** Universalism: عمليات التواصل بين المتفاعلين في الإعلام الجديد، ليست محلية، وإنما لها صبغة عالمية دولية، ومضامين هذا التواصل التفاعلي ليست مركزية، وإنما لها إمكانية الانتشار، فهي تتجاوز الحدود السياسية والإقليمية، وتخترق حاجزي الزمن والجغرافيا.

5- **حرية التلقي:** فالمتفاعلون أحرار في تبادل المعلومات، سواء كانوا فرادى أو جماعات ودون ضوابط معيقة لذلك...

ولئن كانت هذه الميزات، قد مكّنت الإعلام الجديد من لعب أدوار إيجابية في حياة الشعوب والأمم، أهمها:

- القضاء على العزلة الثقافية، والحصار المعرفي المفروض على الشعوب
- تبادل المعلومات والخبرات بين الأفراد والمجتمعات
- الإسهام في تعليم وتثقيف مختلف الفئات البشرية، لاسيما المهمشة اجتماعيا.
- تنمية العلاقات الإنسانية والاجتماعية بين الأفراد
- إعطاء التواصل الإنساني صبغة كونية شمولية؛ للجمع بين مختلف الأجناس والثقافات

فإنّ له سلبيات تفوق ايجابياته، أشدّها خطرا على الشعوب ما يتعلق بهوياتها الثقافية؛ فقد ساهم في خلخلة العديد من القيم والثوابت لدى المجتمعات وعمّق الغزو الثقافي بداخلها.

6- **في معنى الهوية:** الهوية بفتح الهاء تعني لغة: الكوّة أو المهواة بين جبلين، وقيل: بئر أو حفرة بعيدة المهواة وعرشها سقفها المُغمّى عليه بالتراب، الذي يغترّ به واطئه فيهوى ويهلك...(ابن منظور، 1999، ص1002)، أما الهوية بضم الهاء وكسر الواو وتشديد الياء فتشتق من الضمير (هو)، وتشير إلى المبدأ الدائم الذي يسمح للفرد أن يبقى (هو هو) وأن يستمرّ في كائنه عبر وجوده (سعيد علوش،1985، ص255)، وورد بكتاب (التعليقات) للفارابي بأنّ: "هوية الشيء عينيته ووحدته وتشخصه و وجوده المنفرد له، الذي لا يقع فيه اشتراك، والهو هو معناه الوحدة والوجود؛ فإذا قلنا زيد هو كاتب معناه زيد موجود كاتب" (الفارابي، 1436،ص21).

ويعدّها الجرجاني في كتابه (التعريفات):"الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق، اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلقة."(الجرجاني،1988، ص257).

أمّا اصطلاحا فتعدّدت تعاريف الهويّة (Identity) بتعدد العلوم؛ وإن حافظت على معناها الجوهري؛ ففي الفلسفة تعرّف بأنّها: "حقيقة الشيء من حيث تميّزه عن غيره وتسمى أيضا وحدة الذات"(المعجم الفلسفي، 1979، ص208)، وتطلق في علم النفس، على "الشيء نفسه أو مثيله من كل الوجوه، الاستمرار والثبات وعدم التغيّر"(فاخر عاقل، 1985، ص55)، أمّا في علم الاجتماع فيُقصد بها كلّ ما يميّز الفرد عن غيره ويحدد حالته الشخصية. (أحمد زكي بدوي، 1977، ص185)، وما ينطبق على الفرد ينسحب على الجماعة أيضا.

بيد أنّ هذا المعنى الماهوي للهوية (أن يبقى الشيء هو هو) لا يعني ثباتها المطلق، ففي حيّز الهوية "يتساكن ما هو خاص وما هو مشترك، ويتفاعل الذاتي والغيري وتتقاطب عناصر الثبات وعناصر التغيّر...إنّها نسيج علائقي متفاعل متحوّل بتحول الظروف والسياقات المؤسسة على مفهوم التطوّر وحركة التاريخ"(وفيق سليطين، دط، ص02).

وبناء على هذا، فالهوية ليست معطى ثابتا، وإنما هي شيء يخلق، لا يعيها الإنسان ولا يشعر بها مباشرة، بحكم أن الهوية هي الماهية والوجود يسبق الماهية؛ فالإنسان يوجد ويعيش أولا ثم يعي ذاته ثانيا، ولحظة يبدأ وعيه بالعالم المحيط به، ينشأ التساؤل عن هويته: من هو؟ ولماذا هو في هذا الوضع الاجتماعي؟ (حسن حنفي، 2012، ص23).

وكما يمكن للهوية التحقق، يمكن أن تتحوّل "إلى اغتراب؛ تنقسم الذات على نفسها وتتحول مما ينبغي أن يكون إلى ما هو كائن، من إمكانية الحرّية الداخلية إلى ضرورة الخضوع للظروف الخارجية، بعد أن يُصاب الإنسان بالإحباط، والإحباط عكس التحقق، وضعف الإرادة، وخيبة الأمل وتخلّ عن الحرّية"(حسن حنفي، 2012، ص24)، وذلك هو منطق الأشياء؛ فإذا كانت الهوية حقيقة وجودية، فإنها تنضج وتكتمل لأنها تتضمن عوامل وجودها ومعطيات نموها، وقد تتعرض إلى الانشطار والانكسار والتشوية، لأنها تنطوي على بذور فنائها، بفعل عوامل متعددة؛ تربوية واجتماعية وثقافية.(اليكس ميكشيللي، 1993، ص08).

7- **في ماهية الثقافة والهوية الثقافية:** الثقافة كما يعرّفها (إدوارد تايلور) هي ذلك الكل المعقد "الذي يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف وغير ذلك من الإمكانيات أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع" (ميشيل تومبسون وآخرون،1997، ص09)، ويعرّفها عالم الاجتماع (روبرت بيرستد) بأنّها "الكل المركّب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه أو نقوم بعمله أو نمتلكه كأعضاء في المجتمع" (ميشيل تومبسون وآخرون،1997، ص09)، وهي بذلك منفذ الإنسان إلى إدراك ذاته ووسيلته في التعبير عنها.

ويطلق **مفهوم الهوية الثقافية** على نسق من المكونات والثوابت، التي تشمل ما أشرنا إليه في مفهوم الثقافة، من خلالها يتحدد انتماء الإنسان الأصلي لأمة أو حضارة ما، كما يتميّز عن غيره في أمم أو حضارات أخرى.

ثانيا- الإعلام الجديد وهيمنة العولمة الثقافية الغربية:

إذا كان الهدف من العولمة، في بدايات ظهورها- الذي تزامن مع بداية تشكل وتبلور نظام دولي جديد، عقب انتهاء الحرب الباردة-، هو إيجاد صيغة للتعامل على المستوى العالمي تقضي بإخضاع العلاقات الدولية في مجالات التجارة والاقتصاد والعلوم والتكنولوجيا إلى نظام ذي طابع عالمي أو إكساب العلاقات الدولية الطابع العالمي (عبد العزيز بن عثمان التويجري، 2015، ص12)، تعزيزا لمبدأ التبادل وتفاديا للنزاعات الحاصلة بين الدول التي أنهكتها الحروب، فإنّ ما طرأ على الحياة البشرية من تطورات جذرية، لاسيما على المستوى التكنولوجي، مطلع القرن العشرين، قد قلب الموازين وغير الكثير من المفاهيم والتصورات السائدة؛ منها مفهوم العولمة، التي لم تبق حكرا على المجال الاقتصادي، وإنما طالت ميادين عديدة أبرزها الجانب الثقافي، الذي تخلت فيه العولمة عمّا "نصّت عليه المواثيق والمعاهدات الدولية، بأنّ لكل ثقافة كرامة وقيمة يجب احترامهما والمحافظة عليهما، وأن إضفاء طابع العالمية على العلاقات الدولية لا يتعارض في أصله مع المصالح المشتركة بين الأمم والشعوب وبين تنوّع هوياتها وتعدد خصوصياتها"(عبد العزيز بن عثمان التويجري، 2015، ص17) ونهجت نهجا مغايرا، يتجاوز مفهوم العالمية إلى إعلاء ثقافة المهيمن وتمركزها، مقابل إقصاء ثقافات الآخر وتغييبها، وقد نبع هذا التوجه الجديد، من إحساس الغرب بالخطر الذي قد ينجر عن عولمة التحديث الاقتصادي؛ من حيث وعي الشعوب غير الغربية بخصوصياتها واستيعابها لهوياتها الثقافية؛ إذ "بارتفاع معدّل التحديث ينخفض معدل التغريب بالمجتمع غير الغربي وتمر ثقافته المحلية بمرحلة إحياء؛ وتزداد صلته بها" (صامويل هنتنجتون، 1999،ص124) الأمر الذي يهدد الهيمنة الثقافية، الحضارية التي يهدف الغرب إلى بسط نفودها على العالم برمته، وهذا ما نلمسه من تصريحات بعض مفكري الغرب، كمؤلّف (صدام الحضارات) المفكر الأمريكي"صامويل فيليبس هنتنجتون" (1927-2008) بقوله: "إن التحديث والنمو الاقتصادي لا يمكن أن يحققا التغريب الثقافي في المجتمعات غير الغربية، بل على العكس يؤديان إلى مزيد من التمسّك بالثقافات الأصلية لتلك الشعوب. ولذلك فإنّ الوقت قد حان لكي يتخلى الغربُ عن وهم العولمة، وأن ينمّي قوة حضارته وانسجامها وحيويتها في مواجهة حضارات العالم".

ويقودنا الحديث عن العولمة الغربية وأساليبها، إلى الحديث عن الهيمنة التكنولوجية الاتصالية، التي لم يدّخر الغرب جهدا ولم يوفّر وقتا في تطويرها، لإدراكه بفاعليتها في العملية التفاعلية مع الآخر ومدى فعاليتها في نشر المعلومة وترويجها بسرعة تتجاوز الحدود الزمنية وتخترق الحواجز الجغرافية، فـ "تكنولوجيا الاتصال قد تمّ إدراكها وتطويرها وتشبعها بمصالح الرأسمالية الأمريكية ومواصفاتها منذ الحرب العالميـة الثانيـة بوجه اليقين ومازالت كذلك حتى الآن ... والتكنولوجيا الغربية لا تعد جزءا لا يتجزأ من النظام الاستغلالي فحسب، وإنما تعمل على توسيع وتعميق ذلك الاستغلال" (هربرت شيلر،2007، ص80)

ولئن كانت وسائل الاتصال التقليدية؛ المسموعة منها والمرئية، قد أدّت وظيفة العولمة الغربية ردحا من الزمن، فإنه مع بدايات القرن العشرين احتل الإعلام الجديد بوسائطه المتعددة، مركز الصدارة في تمرير مشروعها، وبحكم أنه أحدث ما توصلت إليه الثورة التكنولوجية الغربية، فقد تم تزويده بكل أساليب

المتعة والرفاهية الاجتماعية، من أجل استمالة العقول وإغوائها، الأمر الذي غيّب عن وعي مستخدميه حقيقة أهدافه؛ إذ يبدو ظاهريا مجرد وسائط اتصالية إلكترونية، بريئة تعود منافعها على أيّ أمة؛ تستثمر في المعلومة وتسعى إلى امتلاكها وتدفقها الحر بينها وبين الآخر، بيد أن حقيقته نقيض ذلك؛ فهو فضاء تقني معلوماتي دقيق، من أخطر الأسلحة التكنولوجية فتكا، التي تتكئ عليها العولمة الغربية في بسط نفوذها على المجتمعات المستضعفة، وفي مقدمتها المجتمعات العربية والإسلامية.

- فما التحديات التي تواجه المجتمعات العربية في ظل هيمنة الإعلام الجديد؟

ثالثا-الإعلام الجديد والهوية الثقافية العربية الإسلامية:

إنّ الاعتقاد في كل وافد من الغرب اعتقادا ايجابيا، وإعفائه من المساءلة، له أثر خطير على الأمّة وحصانة هويّتها؛ فليس كل ما يكرّس الغرب تصديره، يُحمل بمحمل النوايا الحسنة، التي لا مآرب لها ولا خلفيات من ورائها، فقد يدسّ بالعسل قليل من السمّ، ومن المفيد أن نُذَكّرَ هنا، بأن زعامة الغرب للعالم وحرصه على تحقيق "المزيد من التمركز الذاتي الغربي وعدم التسليم بتعدد الحضارات ومواقعها"(محمد محفوظ، 2000، ص109)، كلّها غايات محورية قام عليها النظام الدولي الجديد وما فتئ يسعى إلى الظفر بها، بأي شكل من الأشكال.

ومن ثمّ، فإن الحديث عن التحديات التي تواجه الأمة العربية اليوم، كثيرة، اقتصادية كانت أو سياسية، بيد أن أخطر أشكالها -وهو أمر لا يختلف بشأنه اثنان- ما يتعلّق بهويتها، وكل ما له صلة بثوابت بنيتها الثقافية الحضارية التي تتعرض منذ مطلع القرن العشرين، إلى ارتدادات خطيرة و هزات عنيفة من قبل الآخر، وقد ازدادت حدّتها موازاة مع الثورة التي شهدها العالم في مجال الإعلام والاتصال وتطبيقات التقنية الرقمية، عالية الدقّة من حيث البرمجة والمنهجية المعلوماتية، فقد نالت تطبيقات الإعلام الجديد بوسائطه المتعددة، حظوة كبيرة، لا مثيل لها لدى مختلف شرائح المجتمعات العربية؛ كونها حققت لزبائنها سبل التواصل السريع، ووفرت لهم أجواء الحرية التفاعلية المطلقة، بعيدا عن القيود والاكراهات المتعددة، التي سادت مجتمعاتهم ونظمها، الشيء الذي جعل الثقافة الغربية في ظل حرية تطبيقات الإعلام الجديد، مفهوما هلاميا، اكتسحت بما تحمله من قيم وأخلاقيات بلدان الأمة العربية بسرعة فائقة وكان لها تأثيراتها الجلية على أفراد هذه الأمة من كلا الجنسين و من مختلف الأعمار.

ولئن كانت سلطة الإعلام الجديد، قد أفادت في جوانب منها، أفراد وجماعات البلدان العربية والاسلامية؛ أقلّها ترقية مجال التعبير وحرية التواصل لديهم، ومن نواحٍ مختلفة؛ فإنّ هذه الايجابية التواصلية والحرية التفاعلية، ثَبُت أن ظاهرها ليس كباطنها،؛ فمقاربتها عن كثب أماطت اللثام عن جانبها المستور؛ الذي يخدم في حقيقته أجندة غربية لها أهداف وغايات، تسعى إلى تحقيقها في إطار مشروع العولمة الغربية، الذي يكرّس لهوية من القيم الفكرية والأخلاقية المغايرة لقيم وثوابت هوية مجتمعاتنا العربية والإسلامية؛ هوية لم يكتب للغرب أن حققها بمنطق القوة العسكرية، التي خاضتها جيوشه بأقطار الوطن العربي، فلجأ إلى سلطة التقنية وبرمجياتها المتطورة، كونها "تمثل فعل اغتصاب وعدوان رمزي على الثقافات إنّها رديف الاختراق الذي يجري بالعنف المسلح بالتقانة، فيهدر الثقافة في سائر

المجتمعات التي تبلغها عملية العولمة"(عبد الإله بلقزيز، 1998، ص318)؛ سلطة تقنية "وضعت الإنسان موضع التسخير وحاولت أن تجرّده من إنسانيته على الرغم من أنها فتحت أمامه السماء للحصول على المعلومة والاتصال المباشر والحر"(أحمد يوسف، 2013، ص106-107) مع أبناء جنسه.

لقد نتج عن الإعلام الجديد تحولات جذرية وتغيرات عميقة في البنى الثقافية للأمة العربية، كرّست لقيم وتقاليد ثقافية جديدة جنبا إلى جنب مع قيم أمتنا وتقاليدها الأصلية، مما جعل الذات العربية تعايش بوعي أو عدمه انفصاما مستمرا؛ يتجاذبه قطبان أساسيان، قطب الانتماء الذي تستشعر فيه الذات بأنها جزء لا يتجزأ من ثوابت الهوية العربية، وقطب الاغتراب الذي يولج الذات في دوامة من الارتباك الثقافي والعزلة الاجتماعية، نتيجة عدم التوفيق بين جوهرهـا والطارئ عليها، بين سؤال الأصل المتجذر فيها وبين صدمة الانبهار بالوافد عليها.

وعلى ضوء هذا المعطى تتبادر إلى أذهاننا جملة من التساؤلات أهمها:

- كيف يمرر الإعلام الجديد لهوية العولمة الثقافية الغربية يا ترى؟

- ما هي أبرز ثوابت الهوية العربية، التي عمدت عولمة الإعلام الجديد إلى زعزعتها وإحلال ثوابت مغايرة محلّها؟

1-بين العربية ودعوى التخلّف: لم تعد اللغة تُختزل في ذلك المفهوم السطحي، الذي يعتبرها "نظاما من الرموز أو مجموعة من العادات الصوتية المتعلّمة أو رموزا صوتية منتظمة"(أحمد عبده عوض، 2000، ص09)، أو أنّها "أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم" حسب ابن جني(ابن جني، دط، ص33)، وإنّما اللغة أكثر عمقا من حيث ماهيتها، فهي "ليست مجرد أداة أو وسيلة للتعبير أو للتواصل أو مجرد شكل للموضوع، أو مجرد وعاء خارجي للفكرة أو لعاطفة أو إشارة إلى فعل، إنّها وعي الإنسان بكينونته الوجودية وبصيرورته التاريخية، وبهويته الذاتية والاجتماعية والقومية وكليته الإنسانية، إنّها السجل الناطق بهذه الأبعاد جميعها"(محمود أمين عالم، 1997، ص09).

ومن ثم، فللغة أهمية كبيرة ومنزلتها عظيمة؛ فهي مرآة الهوية والحضارة عند الأمم، حيث "تبيّن في تاريخ الثقافة أن اللغة هي أكثر أنظمة الإشارات فعالية، وأكثرها قدرة على التأقلم وأكثرها وجها من حيث وظائفها التواصلية لخدمة تشكيل الهوية وهي في ضوء تعقد أشكالها التعبيرية مؤهلة على أحسن وجه لمواجهة المتطلبات الموجّهة للناس في تفاعلهم مع محيطهم الثقافي والتأقلم بمرونة مع الشروط الموجودة في مجتمع متغير"(محمود السيّد، 2010، ص24).

وللغة العربية ككلّ اللغات منزلة عظيمة، بل هي أشرف اللغات وأقدسها عند العرب والمسلمين عامّة؛ وشرف قدسيتها لم يأت من العدم، وإنما تشريف من الخالق تبارك وتعالى، أَنْ أنزل قرآنه بها على سيد المرسلين وخاتمهم (عليه الصلاة والسلام)؛ قال تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة يوسف: الآيتان[1-2]).

وبموجب هذا التقديس الإلهي للعربية، فإنّها تحارب و تطالُهَا ألوانٌ من المكائد والدسائس من قبل أعدائها وأعداء أمّتها؛ فما يؤكد عداوة هؤلاء للعربية، هو ربطهم لها بالإسلام، وهي "عداوة لا واعية،

تكوّنت استنادا إلى قرون من الصراع بين الغرب وحلفائه من جهة والعرب والإسلام من جهة ثانية، أدت بالفريق الأوّل إلى تحويل عداوتهم اللاواعية باتجاه اللغة العربية. راجين [بذلك] تفكك الوحدة الروحية للعالم العربي"(محمود حدّاد، 2014، ص16)، ومازال هذا العداء الغربي للعربية قائما، إذ يسعى الغرب إلى تجسيده وبشراسة في تبني صراع بين العربية لغة الهوية العربية وبين لغته؛ لغة العولمة، وفق خطط ممنهجة، للتسريع في طمس العربية وفي عقر دارها؛ باعتبارها ثابتا من ثوابت الحضارة العربية.

وبما أن تكريس السرعة والآنية في تفاعل المعلومة وترسيخها لدى المتلقي (المتفاعل معها)، هي من أبرز ميزات وسائط الإعلام الجديد، فقد وجد الغرب ضالته في استثمارها لضرب الهوية اللغوية للشعوب العربية، بزعزعة فكرة الانتماء إلى اللغة الأم وفرض اغترابها على الناطقين بها، مقابل تعزيز عولمة لغته، ولذلك عدّت "اللغة أشدّ الأسلحة الإيديولوجية فتكا، بعد أن فرضت القوى السياسية وقوى المال والأعمال سيطرتها على وسائط الإعلام والاتصال الجماهيري، حيث تبلغ نسبة المعطيات والمعلومات الالكترونية باللغة الانجليزية 88% من مجموع المواد المتداولة عبر شبكة الانترنيت، وهو ما يؤكد هيمنة الإنتاج الثقافي الإنجليزي على المحتويات الثقافية الاتصالية" (فريد الصغيري، 2017، ص674)، في ظل غياب ما يجب أن يضطلع به أهل الاختصاص والخبرة، من أدوار فاعلة في تحصين لغتهم الأم وأمام هذا الاجتياح اللغوي الأجنبي تكون العربية قاب قوسين أو أدنى من الإقصاء؛ ليس من الفضاء الاتصالي الافتراضي فحسب، وإنما تغييبها وظيفيا ووظائفيا داخل بيئاتها الاجتماعية وإحلال نمط لغوي - بما يحويه من قيم اجتماعية، ثقافية - مغاير محلّها، وتلك أخطر درجات العولمة اللغوية التي أصبحنا نستشعر اليوم-للأسف- تجلياتها بمجتمعاتنا العربية الإسلامية.

وقد اتبع الغرب في عولمة لغته والسعي إلى إزاحة اللغة العربية وفرض اغترابها ببيئاتها الناطقة بها، استراتيجية الإلغاء والإرساء وهي استراتيجية ممنهجة، هدف في شقها الأول إلى تشويه ومسخ اللغة العربية بغرض تغييبها وإلغاء رابطها الروحي الجامع بين أفرادها، وهدف في شقها الثاني الموازي للأول، إلى بسط نفوذ لغته وتقويتها مع إرساء قيمها وأنساقها الثقافية، ويبعث تبني الغرب لهذه الاستراتيجية، مدى وعيه بالمكاسب التي يحققها عن طريق استلاب اللغة مقارنة بما لا يحققه باستخدام العنف مع أمتها، فكما يقول شاعر صقلية "إجنازيو بوتيتا":

"إن الشعوب يمكن أن تُكبلَ بالسلاسل، وتُسدّ أفواهها، وتُشرّد من بيوتها، ويَظلون على ذلك أغنياء، فالشعب يُفتقَر ويُستعبَد ما إن يُسلب اللسان الذي تركه الأجداد، عندئذ يضيعُ للأبد" (نبيل علي، 2001، ص233).

ومن أبرز الآليات التي اتبعها الغرب، تفعيلا لهذه الاستراتيجية، تحقيقا لغاياته:

- برمجة عقول الناطقين باللغة العربية، بإيحاءات سلبية وأفكار هدّامة تنال من لغتهم وتنتقص من قيمتها؛ كالترويج لفكرة قصورها العلمي وعدم مواكبتها لمستجدّات التطور التكنولوجي لاسيما عند الناشئة؛ بحكم استخداماتهم المكثفة لوسائط الإعلام الجديد، وهي الفئة المقصودة تحديدا، فالتأثير عليها أبلغ من غيرها، إذ من السهولة السيطرة عليها وجعلها تنصاع لما يخالف نوازعها الفطرية، ويتحقق

ذلك بتعميق "مسار الاغتراب في حياتهم الخاصة والعامة، ومن خلال هذا الاغتراب ينغرس الشعور الوهمي بأنّ الثقافة التي ينتجها الغرب هي ثقافة الكون كله" (محمد محفوظ، 2000، ص113)، فيتشبعون بقيمها ومعتقداتها المهيمنة.

- تشجيع الفرد العربي دون تحفظ أو شعور بالنقص على تشويه لغته والإساءة لها؛ بطمس بلاغة تعابيرها وجماليات تراكيبها، وجعلها فضاء هجينا لتراكيب وتعابير غريبة، شاذة عنها، وذلك مبتغى الغرب؛ فتنكر المرء للغته ضمنيا هو استعداد منه إلى"هجرة أو اهتجار دائم إلى كل ما هو أجنبي" (عبد القادر الفاسي الفهري، 2007، ص164)، ضف إلى ذلك أن "اختلاف اللسان يوقع اختلاف الفهم، ويبعد عن الميراث القومي ويجعل المواطن مرتبطا أشد الارتباط باللغة الغالبة على ذهنه، المتمكنة من نفسه القائمة في شعوره وعواطفه، فيقرأ هذا المواطن لغة القوم الأجانب وحدها"(سامي الدّهان، 1963، ص23).

- الثابت اللغوي من ثوابت السيادة والتوطين، عدم الاستقرار عليه يؤول إلى عدم الاستقرار على الثوابت الأخرى كما أكد ذلك عبد القادر الفاسي الفهري. وعليه فقد عمل الغرب على استثمار الإعلام الجديد في الترويج لمسألة التعدد اللغوي واللهجي داخل الوطن العربي،- حيث"هناك إذكاء للصراع في مستويين: مستوى صراع داخل ألسن الهوية وصراع ألسن الهوية واللغات الأجنبية"(عبد القادر الفاسي الفهري، 2007، ص164)- وتنمية حس هذا التعدد الألسني قد يطال التعددية الثقافية، مما يمكن من ضرب وحدة الوطن العربي، بتشكل النزعات القبلية والحركات الانفصالية من داخله، كل منها تطالب باستقلاليتها وتكريس للغتها وثقافتها الخاصة، وهو ما أصبحت تعايشه وتعاني منه اليوم، العديد من أقطار العالم العربي.

- تكريس لغة العولمة لُغةً للتواصل بين كل أفراد العالم عبر قنوات التبادل الاقتصادي والمعرفي والثقافي، تثبيتا لحضورها وتداولها على حساب غيرها في بيئات غير ناطقة بها، وفي ذلك امتداد للاستيطان اللغوي الثقافي الذي بدأه الغرب مع مستعمراته وغيرها قبل ظهور الإعلام الجديد، كفرضه للإنجليزية بدول الخليج واللغة الفرنسية بدول المغرب.

2-بين الإسلام وأسلمة التطرّف: تمتد عولمة الإعلام الجديد إلى ديانات الشعوب ومعتقداتها أيضا، ليس تقربيا لها من معتنقيها، وإنما تحريف وتشويه لرسالاتها مبادئها، خدمة لأجندة أيديولوجية أو سلطة معيّنة، بهدف تعزيز لمعتقدات دينية مغايرة وتشكيل لطوائف دينية متطرفة، تحرّض على الانفصالية وتخلق بؤر توتر داخل المناطق المستهدفة من العالم، لاسيما في ظل محدودية أو غياب المؤسسات الدينية، التي يؤطرها نخبة من العلماء والفقهاء ورجال الدّين، على مستوى فضاءات هذا الإعلام، لمواجهة مظاهر المدّ الديني المنحرف، المشوّه للمعاني الحقيقة للأديان، عن طريق الإرشاد الديني والتوجيه العلمي الصحيح للمتدينين، والحدّ من كل أشكال التطرف بالعالم.

ويردّ استهداف العولمة للمكون الدّيني، كونه جزءا لا يتجزأ من الهوية الثقافية عند الأمم؛ "إنه أحد أهم القواعد المرجعية للفهم والعمل المشتركين في الممارسة الثقافية الاجتماعية، ويخبر التاريخ الإنساني على مداه، أنه ما من جماعة أمكنها الاجتماع إلاّ والدّين جوهر في بنية نظامها واستمراره، لاسيما أنه ينتمي

إلى ترميز أعلى؛ صفته القداسة وطبيعته الفوقية، فمن حيث حقق الدّين هذه الوظيفة الجمعية المقدّسة ارتدّ إليها، فكان دافعا لها وعاملا لاستمرارها" (مبروك دريدي، 2016، ص119)، وعليه فاستهداف المكوّن الديني، هو تقويض لأحد أبرز ثوابت الهوية الثقافية العربية والإسلامية، وتعطيل لشفرة اجتماع أفرادها.

والحديث عن العولمة الدينية عبر وسائط الإعلام الجديد، يضطرنا إلى التوقف عند مخاطرها التي تستهدف الدّين الإسلامي والشعوب العربية الإسلامية قاطبة، فلا يخفى علينا، أن المسلمين منذ بزوغ فجر الدعوة المحمدية وهم يتعرضون إلى حملات عدائية، همجية من الآخر، بيد أنّها ازدادت شراستها وضراوتها حدّة في حاضرنا، لاسيما مع ظهور تطبيقات التقنية الحديثة والميديا الجديدة، التي استثمرت تطبيقاتها من طرف قوى دولية ومنظمات غربية، متطرفة، في تعبئة عقول فئة الشباب - من المعتنقين للإسلام، غير المتفقهين في شرائعه أو من غير المعتنقين له أساسا- بأفكار سلبية وحشوها بمعتقدات خاطئة عن قيمه ومبادئه، مما ولّد عداءً كبيرا للإسلام وضغينة لا توصف تجاه المسلمين، إما بين المسلمين أنفسهم بإذكاء الطائفية فيما بينهم، وإمّا بين الإسلام وغيره من الديانات الأخرى، مما شجع على ظهور جماعات إرهابية، متطرفة، نسبت انتماءها وولاءها للإسلام وهو براء منها، لدرجة أضحى وقوع أي شكل من أشكال العنف والتطرف بمختلف أنحاء العالم، ينسب للإسلام، فيتهم المسلمون وبه يجرّمون، والقصد من وراء ذلك كله أسلمة التطرف، وخلق حالة اغتراب بين المسلمين والإسلام؛ بأن تصبح علاقة المسلم بدينه أقرب إلى العدم؛ فكرا وشعورا وسلوكا، وفقا لقانون (فرّق تسد)؛ بتشتيت صفوف الأمّة وتعزيز الفُرْقَة بين أفرادها، للتمكّن منها واستنزاف خيراتها.

ويُعزى العداء الدائم للإسلام إلى عامل رئيس؛ هو تزايد هاجس المخاوف الغربية من المدّ الإسلامي واجتياحه للعالم، مما يشكّل تهديدا مباشرا لكيان الحضارة الغربية، التي تبقى بنظر الغرب، المرجعية الوحيدة للعالم، وهو ما أشار إليه "جون إسبوزيتو"، صاحب مؤلّف "التهديد الإسلامي: خُرافة أم حقيقة؟!، الذي ناقش حيوية الإسلام باعتباره قوة عالمية ثم تاريخ علاقاته مع الغرب، حيث اعتبر أنّ الإسلام يشكّل في حقيقته ديانة عالمية وقوة أيديولوجية؛ إذ يحتضن أكثر من خمس سكان العالم ويمتد نفوذه من إفريقيا إلى جنوب شرق آسيا، وهو معطى ضاعف عند الغرب الشعور بالخوف من الخطر الإسلامي، بل قد بالغ الغرب في مخاوفه حسب "إسبوزيتو" لما حاول أن يملأ الفراغ الناجم عن نهاية الحرب الباردة؛- تجربة صراعه مع الاتحاد السوفياتي ومنافسته على حيازة النفوذ العالمي- بعلاقته مع الإسلام، باعتباره إمبراطورية الشرّ البديلة، المهدّدة للاستقرار العالمي، وقد ساهم في إذكاء هذه المخاوف العديد من المقالات الغربية التحريضية، المشوهة بافتتاحياتها وعباراتها لطبيعة الإسلام ومبادئه، فغالبا ما تمت مساواته بالجهاد والكراهية والتعصّب والعنف والتشدّد وقهر المرأة.(جون إسبوزيتو، 2000، ص19)، وهي كلها مزاعم لا صحة لها من الوجود، لم تنتقص من الإسلام، ولا من شرف المسلمين، بقدر ما عززت وجوده، وضاعفت من فرص اعتناقه بالعالم؛ فـ:

إذا أراد الله نشر فضيلةٍ طويت أتاح لها لسانَ حسودِ

3-بين مبدأ الوحدة ووهم الفردانية: كرّست الولايات المتحدة الأمريكية الإعلام الجديد وبوسائطه المتعددة، في تحقيق أهم مكسب لها، من مشروع عولمة العالم؛ الذي يتمثل في اختراقها للدول ثقافيا؛ بفرض نموذجها الثقافي على الهويات الثقافية الأخرى، بهدف خلق ثقافة عالمية، تلغي المركزية الثقافية للشعوب وتخضع أفرادها لقيم نمط ثقافي واحد.

ويسعى الغرب من وراء هذا التنميط الثقافي إلى إلغاء الروابط الروحية المشتركة بين أفراد الوطن أو الأمة الواحدة؛ إذ يعزز لديهم مبدأ الفردانية؛ الفلسفة الغربية الليبرالية، التي "تنظر إلى الفرد على أنه الحقيقة الوحيدة وتعتمده كمبدأ لكل تقويم...بتجرّد عن أيّ سياق اجتماعي أو ثقافي...، تطرح الفردانية قيمها بشكل مستقل عن المجتمع بالشكل الذي تجده عليه، ولذلك لا تعترف بأي وضع وجودي مستقل للمجتمعات أو الشعوب أو الثقافات أو الأمم. هذه الكيانات بالنسبة إليها، ليست سوى مجموعات ذرّات فردية، هي وحدها من تتمتع بقيمته" (آلان دي بينوا، 2015، ص147)، في حين أنّ مبدأ الوحدة يحث على إرساء التماسك والتشارك والتعاون، تقوية لروابط الوحدة الاجتماعية والعلاقات بين الأفراد في نظام مجتمعي، وطني، قومي يستند إلى قيم تاريخية، متوارثة، هي جوهر الرابطة الروحية بين أفراده.

إنّ عولمة الفردانية مسعى خطير، القصد منه "تفكيك العلاقة الاجتماعية وتوهين الانتماءات الوطنية، وإثارة النعرات العرقية والطائفية، وخلخلة الكثير من القيم الاجتماعية والعقائد الدينية، فتتلاشى القيم الوجدانية وتتحول الذات إلى شخصية منفصلة عن جذورها ومشاركتها في هموم وطنها"(حامد عمار، 2000، ص41)،كونها تشبعت بترسانة من القيم والعادات والأذواق الغربية، المغايرة، التي غرزتها فيها، سلطة الميديا الجديدة، التي تسيطر على النفوس وتخضعها باختطاف إدراكها وتوجيهه؛ بتعطيل فاعلية العقل وتكييف المنطق والقيم وتوجيه الخيال وتنميط الذوق وقولبة السلوك والهدف تكريس نوع من الاستهلاك، لنوع معين من المعارف، يفرض على هذه النفوس حالة من الاستتباع الحضاري.(محمد محفوظ، 2000، ص140-141).

هكذا يتحول الإعلام الجديد من مجرد تطبيقات وبرمجيات تقنية، يديرها الإنسان "إلى نظام يتحكم في مصيره ويحدد أولوياته ويطوّع قيمه الاجتماعية والثقافية ويغيّرها إن احتاج الأمر؛ فالاجتماع يستحيل أمرا معنويا أكثر من كونه ماديا والاتصال والتواصل مع العالم يكون بالعزلة والانغلاق والفردانية". (عادل خميس الزهراني، 2019، ص19)

ولئن وقف بعض الفلاسفة الغربيين من الفردانية موقفا نقديا رافضا لها؛ أمثال إميل دوركايم، الذي عدّها نزعة غير طبيعية وظاهرة مرضية - وإن كانت نتاجا ثقافيا أوجدته ظروف اجتماعية واقتصادية معينة-، كونها تهدد بإضعاف المجتمع وبالتمهيد لانهياره (غريغوري بوم، 2016، ص138)، فقد تفطّن بعض المفكرين العرب لهذه النزعة الغربية، وخطرها على تغريب الذات العربية عن أمتها وقيمها الروحية، من هؤلاء المفكر محمد عابد الجابري، الذي شدّد التحذير منها، ضمن عشر أطروحات أو مسلمات في سياق حديثه عن الهوية الثقافية والعولمة.

يصنّف الجابري وهم الفردانية ضمن خمسة أوهام، عملت أيديولوجيا الاختراق الثقافي على تكريسها مثل (وهم الخيار الشخصي، وهم الحياد، وهم غياب الصراع الاجتماعي...)، وهي نفسها مكونات الثقافة الإعلامية الجماهيرية في الولايات المتحدة الأمريكية التي تسعى إلى تكريس إيديولوجيا (الفردية المستسلمة)؛ وهي إيديولوجيا تضرب في الصميم الهوية الثقافية بمستوياتها الثلاثة، الفردية والجمعوية والوطنية القومية و يتجسّد وهم الفردية عند الفرد باعتقاده أن حقيقة وجوده محصورة في فرديته وأن كل ما عداه أجنبي عنه لا يعنيه، وفي ذلك تخريب للرابطة الجماعية التي تجعل الفرد يستشعر حقيقة وجوده في جماعته وأمته، ليبقى الإطار العالمي- العولمي هو الموجود دون سواه (محمد عابد الجابري: العدد 06، ص05).

ويعتبر الجابري أنّ هذا النوع من الغزو الثقافي العالمي، يستهدف "أولا وقبل كل شيء، كل مقومات الخصوصية الثقافية من قيم وأذواق ومختلف أنماط السلوك، الأمر الذي سينعكس أثره حتما وبصورة مباشرة على الفكر العربي ذاته، لأن الفكر العربي، ليس عربيا لأن حامليه عرب، بل لأنه ينتمي إلى الثقافة العربية، فهي التي تمنحه جنسيته وخصوصيته. فإذا أصيبت هذه الثقافة في مقومات خصوصيتها وأصالتها فهل يمكننا بعد ذلك الحديث عن شيء اسمه الفكر العربي؟ إنه سيكون والحالة هذه، فكر الثقافة المهيمنة عالميا، يتلقاه المثقفون العرب، فيجترون قضاياه ومشاكله ومستجداته في إطار من التبعية والانسلاخ عن الذات، وربما أيضا باستسلام وانبهار وتنكر للهوية الوطنية والقومية..." (محمد عابد الجابري: العدد 06، ص75).

وتأسيسا على هذا، لابد علينا من مراجعة طبيعة علاقتنا مع الآخر، بفطنة وذكاء لكشف المستور فيما يصدّره لنا من مشاريع وهمية خطرة، علينا أنّ نشارك بفكر فاعل وثقافة ناهضة في تطورات العالم، بعيدا عن دائرة الصراعات الأيديولوجية التي تجعلنا لقمة سائغة للهيمنة الثقافية التغريبية، القاتلة لذواتنا والمعيقة لحركية الرقّي العلمي لأمتنا.

خاتمة:

إن الميديا الجديدة ليست شرا مستطيرا وليست حملا وديعا، فهي سلاح ذو حدّين؛ كما توظّفها الايدولوجيا العالمية في فرض هيمنتها وبسط نفوذها على العالم، يمكن للأمم أن تستثمرها في تحصين كياناتها والتصدّي للغزو الثقافي المعولم ضدّها. والأمة العربية في مقدمة هذه الأمم المستهدفة، في فكرها وثقافتها والمهددة بخطر ذوبان هويتها، إذا لم تستدرك ما يحاك ضدّها، وتستعدّ استعدادا يجنّبها طوفان العولمة الغربية؛ باتخاذها إجراءات تحصينية، كفيلة بالحدّ من خطرها على ثوابت هويتها الثقافية، ومن الإجراءات المقترحة:

- التسلّح بالمعرفة، مواكبة للتقدم الحاصل على مستوى العلم والتقانة، لتفادي مظاهر الاختراق الثقافي الذي يعصف بكيانات الأمة العربية؛ فكما يرى ونستون تشرشل أنّ "إمبراطوريات المستقبل هي إمبراطوريات العقل"، إشارة منه إلى المعرفة؛ التي يعتبرها الكاتب الأمريكي آلفين توفلر، صاحب مؤلَّف (تحول السلطة)- أهم مصدر للسلطة، التي لها فاعليتها في تحقيق الغاية المرجوة، إذ بإمكانها أن تجعل من

العدوّ حليفا؛ ففي أحايين كثيرة تمكّن المعرفة من إحراز النجاح على الطرف الآخر، وتجنّب الوقوع في المواقف السيئة مسبقا، مما يوفّر الثروة ويجنّب إهدار القوة.(آلفين توفلر، 1995، ص33).

- الوحدة العربية شرط أساسي لحفظ الأمة العربية وتمكينها؛ فالمستقبل للمجتمعات المتكتلة وليس للأقليات الصغيرة، المنفردة، بيد أنّ هذه الوحدة لا تتحقق على مستوى البنى المادية فحسب، وإنما لابد من وحدة مماثلة على الصعيد الفكري والوجداني، تحقيقا للتوازن النفسي والاجتماعي للأمّة، احتذاءً بأوروبا التي خطت خطوات كبيرة على الصعيد الاقتصادي، وهي تمضي قدما في تحقيق وحدتها على الصعيد الفكري والثقافي. (الجابري، 1990، ص78)

- مكافحة الأمية الثقافية لدى الشعوب العربية وتنمية الحس الثقافي الجماعي بمخاطر التنميط الثقافي، الموجّه عبر الميديا الجديدة والتكنولوجيات الرقمية، وإشراك الرأي العام في مواجهة ما تروجه من أفكار عدائية، متطرفة

- ضرورة تقديس سياسات الحكومات العربية لثوابت ومقومات الحضارة العربية والإسلامية والسعي إلى الارتقاء بها، كوضع برامج لغوية قومية ووطنية، مفعلة وليست حبيسة الأدراج لحماية اللغة العربية من اختراق اللغات الأجنبية والمدّ اللغوي الهجين، نتيجة التساهل في تداول اللهجات العامية والألفاظ الأجنبية بمجالات الإعلام والإدارة والتعليم.

- تبني سياسات إعلامية عربية هادفة، واستراتيجيات معلوماتية أمنية تواكب مستجدات العصر تقوية للبنيان الفكري والثقافي للمجتمعات العربية وتحصين أمنها الثقافي من التنميط.

- إقامة مراصد وتشكيل هيئات فاعلة، مهمتها متابعة مستجدات العولمة الغربية، منها ما تحركه وسائط الإعلام الجديد ورصد مخاطرها المهدّدة لمكونات الهوية العربية، مع اتخاذ تدابير وقائية تعزز التماسك الثقافي، الاجتماعي بين أفراد ومجتمعات الأمّة العربية الإسلامية، في ظل الانفتاح على التعدد الفكري والثقافي، المشروع أخلاقيا وقانونيا.

قائمة المصادروالمراجع:

- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

- إسماعيل، إبراهيم: الإعلام المعاصر، وسائله، مهاراته، تأثيراته، أخلاقياته، 2014م، ط1، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر.

- إسبوزيتو، جون: التهديد الإسلامي، خرافة أم حقيقة ؟، تر: قاسم عبده قاسم، 2002م، ط 2،، دار الشروق، القاهرة.

- بدوي، أحمد زكي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية،1977م، ط1، مكتبة لبنان، بيروت.

- الجرجاني، الشريف علي بن محمد: التعريفات، 1988م، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت.

- ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تح: محمد علي النجار، دت، عالم الكتب، بيروت.

- دريدي، مبروك: أنثربولوجيا الهويّة، الدّين ومفهوم المواطنة الثقافية، كتاب: الدين والمواطنة، 2016م، منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، لبنان.

- الدّهان، سامي: المرجع في تدريس اللغة العربية، 1962-1963م، مكتبة أطلس، دمشق

- هنتنجتون، صامويل: صدام الحضارات، تر: طلعت الشايب،1992م، ط2، سطور، القاهرة.

- حنفي، حسن: الهوية،2012م، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

- يوسف، أحمد: علامات فارقة في الفلسفة واللغة والأدب،2013، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر

- ابن منظور: لسان العرب،1999م، ط03، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، لبنان.

- مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، 1979م، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة.

- ميكشيللي، أليكس: الهوية، تر: علي وطفة، 1993م، ط1، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق.

-محمد، محفوظ: الحضور والمثاقفة، 2000م، ط01، المركز الثقافي العربي، المغرب.

- المحارب، سعد بن محارب: الإعلام الجديد في السعودية، 2011م، ط1، جداول للنشر والتوزيع، لبنان.

- السيّد، محمود: اللغة العربية (واقعا وارتقاء)، 2010م، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق.

- عمار، حامد: مواجهة العولمة في التربية والتعليم، ط1، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب، 2000م.

- علوش، سعيد: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1985م.

- عاقل، فاخر: معجم علم النفس، 1985م، ط1، دار الملايين، بيروت.

- عبد الإله بلقزيز: العولمة والهوية الثقافية، العرب والعولمة، 1998م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

- عوض، أحمد عبده: مداخل تعليم اللغة العربية (دراسة مسحية نقدية)، سلسلة البحوث التربوية والنفسية، 1421هـ،2000م، دط، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية، المملكة العربية السعودية.

- عالم، محمود أمين: دفاع عن الخصوصية اللغوية، كتاب: لغتنا العربية في معركة الحياة،1997، دط، سلسلة قضايا فكرية للنشر، العدد (السابع والثامن عشر)، القاهرة.

- علي، نبيل: الثقافة العربية وعصر المعلومات، 2001م، دط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة العدد (265)، الكويت.

- الفارابي، أبو نصر محمد: التعليقات، 1436م، دط، دائرة المعارف العثمانية.

- الفاسي الفهري، عبد القادر: حوار اللغة، 2007م، ط1، منشورات زاوية الفن والثقافة، الرباط، المغرب.

- شفيق، حسنين: نظريات الإعلام وتطبيقاتها في دراسات الإعلام الجديد، 2014م، ط1، دار فكر وفن للنشر، القاهرة.

- شيلر، هربرت: الاتصال والهيمنة الثقافية، تر: وجيه سمعان عبد المسيح، 2007، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

- التويجري، عبد العزيز بن عثمان: الهوية والعولمة من منظور التنوع الثقافي، 2015م، ط2، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة -إيسيسكو، المغرب.

- تومبسون، ميشيل وآخرون: نظرية الثقافة، تر:علي سيّد الصاوي و الفاروق زكي يونس، 1997م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة العدد (223)، الكويت.

- توفلر، آلفين: تحول السلطة، الجزء01، تر: لبنى الريدي، 1995م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة

- بوم، غريغوري: مستقبل الدين، مطارحات إميل دوركايم وماكس فيبر، تر: رشا زين الدّين، ربيع 2016م مجلة الاستغراب، لبنان.

- دي بينوا، آلان: نقد الإيديولوجية الليبرالية، تر: رشا طاهر، خريف2015م، مجلة الاستغراب، لبنان.

- وفيق سليطين: سؤال الهوية ونقد منطق الخصوصية، أوراق مؤتمر الهوية الوطنية، دط، مداد مركز دمشق للأبحاث والدراسات. سوريا

- الصغيري، فريد: دور الوسائط والتقنيات الاتصالية في نشر الوسطية ومقاومة الارهاب الالكتروني، ديسمبر 2017م، الملتقى الدولي: الوسطية في الغرب الاسلامي وأثرها في نشر الاسلام في افريقيا وأوربا، معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي، الجزائر.

- خميس الزهراني، عادل: تشكيل الخطاب الأدبي في تويتر: التقاليد الأدبية والحيل التقنية، 2017م، مجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد 13 العدد03، جامعة مؤتة، الأردن.

- حدّاد، محمود: الخطر على العربية خطر على ثقافة العرب العلمية، فبراير2014م، مجلة العربي، وزارة الإعلام، العدد 663، دولة الكويت.

- الجابري، محمد عابد: إشكاليات الفكر العربي المعاصر، 1990، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

: الهوية الثقافية والعولمة، عشر أطروحات، مجلة الحكمة، العدد 06 ص05.

- http:// hekmah.org/الهوية-الثقافية-والعولمة-10-أطروحات-مح

معايير صياغة الصورة النمطية للمرأة المسلمة في وسائل الإعلام الغربية

Criteria for Shaping the Stereotyped Image of Muslim Women in Western Media

د. سعاد بومدين، جامعة البليد 2- لونيسي علي - الجزائر

boumediensouad@yahoo.com

ملخص البحث

لقد تعرضت صورة الاسلام والمسلمين الى الكثير من التشويه والتزييف والإساءة عبر مراحل تاريخية متعددة ولم تشهد ديانة تشويها في صلب عقيدتها ورموزها الدينية مثل ما شهد الاسلام برموزه المتعددة وشعائره المتنوعة على ايدي الدول الغربية سواء من المؤسسة الدينية او السياسية او الاعلامية، ولغرض الوقوف على كيفية صناعة الصورة الذهنية المشوهة والمسيئة للإسلام والمسلمين في مختلف وسائل الاعلام الغربية.

نسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى التعرف على الصورة النمطية والصورة الذهنية وكذلك الفرق بينهما حيث يوجد خلط بين المفهومين، بالإضافة إلى إدراج أهم المعايير التي تحدد الصورة النمطية للمرأة المسلمة عبر وسائل الإعلام الغربية

الكلمات المفتاحية: الصورة النمطية، الصورة الذهنية، المرأة المسلمة، وسائل الإعلام الغربية.

Abstract:

Through this research paper, we seek to identify the stereotype and the mental image, as well as the difference between them, where there is confusion between the two concepts, in addition to the inclusion of the most important criteria that define the stereotyped image of Muslim women through Western media

Key words: Stereotypes, mental images, Muslim women, Western media.



مقدمة:

لقد أضحت وسائل الإعلام الغربية مساحة لطرح الموضوعات المثارة حول المرأة المسلمة وأضحت الموضوعات التي تثار حولها كلها تصب في بوتقة واحدة وهي محاولة عرض قضاياها دوما لإعطاء انطباع معاكس للمرأة المسلمة ومطالبة دائمة برفع وصاية الدين وفصله عنها وتكريس النموذج الغربي للمرأة وجعله الأساس لقياس المرأة المسلمة والنموذج لها في ذلك. انطلاقا مما سبق يأتي الهجوم على الصورة العامة للمرأة المسلمة كجزء لا يتجزأ من الهجوم على الإسلام كله تحت مسميات العولمة والانفتاح والحداثة وغيرها وبهذا تعتبر المرأة المسلمة الوسيلة الأهم في حربهم ضد كل ما هو إسلامي.

وتصنع الصورة النمطية عبر وسائل الإعلام لدى الغرب عن المرأة المسلمة واقعا غير حقيقي يتم فيه التركيز على جزيئات أحكام الشريعة والدين الإسلامي واقتطاعها من سياقها ثم توظيف ثغرات تطبيقها من قبل العرب لاستخدمها في صياغة هذا الواقع، كما يتم التركيز على عدة جوانب من أدوار المرأة في الحياة ويعتبرونه انتقاصا لمكانتها ومؤشر تخلف وتعجيز لها، وبالتالي تصبح صياغة هذه الصورة النمطية عن المرأة المسلمة مصدر يستقي منه الغربيين المعلومات التي توجههم لأي اتجاه تريد.

وبناء على ما تم ذكره آنفا يمكن الانطلاق من السؤال التالي: **ما هي الصورة النمطية للمرأة المسلمة؟ وما هي معايير صياغتها في وسائل الإعلام الغربية؟**

وللإجابة على هذا السؤال ارتئينا معالجة الورقة البحثية وفقا للعناصر التالية:

- ماهية الصورة النمطية
- الفرق بين الصورة الذهنية والصورة النمطية
- عوامل صياغة الصورة النمطية للمرأة المسلمة في وسائل الإعلام الغربية
- دور وسائل الإعلام في تشكيل الصورة النمطية
- معايير صياغة الصورة النمطية للمرأة المسلمة في وسائل الإعلام الغربية

أولاً-مفهوم الصورة النمطية:

يعرف معجم الاتصال والدراسات الإعلامية الصورة النمطية بأنها حكم مبالغ فيه لشخص أو نوع من الأشخاص أو مؤسسة أو أسلوب أو حدث والتنميط يعني أن ترتب وتصنف وتندفع في حيز ضيق للتعريف، لا يسمح إلا بقليل من التعديل أو التغيير، أي عملية التنميط واسعة الانتشار، كونها ملائمة أو سهلة مثل : السود ،اليهود، المراهقين، النساء، الغرباء هكذا....الخ، فالتنميط أو القولبة تأتي عادة وليس دائما نتيجة للتحيز أو مرافق له، تخدم وسائل الاتصال جيدا لأنها نتاج عمليات إدراكية وتلميحات جاهزة، نادرا ما تعرف بصورة نمطية **(الجبوري، 2010، صفحة 163)**، إنّ الصورة النمطية هي منتج ثقافي لجماعة معينة تقوم على مجموعة من الأحكام المقبولة بشكل مشترك، التي تحدد كل أشكال الاتصال لجماعة من الناس خلال فترة زمنية معينة، فالناس يشكلون اتجاهاتهم عن الآخرين من داخل وخارج ثقافتهم من خلال التجربة المباشرة والتفاعل مع الأفراد و العائلة ووسائل الاعلام، ومن أهم نقاط القوة في الصورة النمطية اشتمالها على ملامح حقيقية، أو تعتمد على الحقائق، ثم يتم تكرار هذه الملامح عبر نطاق واسع من وسائل الاعلام بحيث تبدو هذه الخصائص حقيقية عن هذه الجماعة **(سليمان، 2005، صفحة 162)**.

ولقد حدد ليبمان أربعة أوجه للنمطية هي:

أ.البساطة: هي أبسط من الحقيقة، يمكن تلخيصها في جملتين أو ثلاثة جمل فقط.

ب. مكتسبة: يكتسب الناس النمطية من وسطاء ثقافيين، بدلا من تجربتهم الشخصية المباشرة مع المجموعة المعينة، فالثقافة تعبير عن المعتقدات والقيم بصورة نمطية من خلال وصفها والسيطرة عليها عن طريق مقياس للحقيقة في تلك الصورة.

ج. غير صحيحة أي خاطئة: كل الأنماط كاذبة، بعضها أقل كذبا من الأخرى وبعضها الآخر أكثر أهمية من الأخرى، البعض الآخر أقل ضررا، لكن جميعها كاذبة بطبيعتها فهي محاولات للدعوة بأن كل فرد في مجموعة معينة يشترك معها بصفات مشتركة، لأن كل فرد يختلف عن الآخرين، فالنمطية هي استمالة منطقية.

د. مقاومة للتغير: أي صعوبة التحكم في مواضيع التي تعنى بعدم المساواة عنصريا وجنسيا مثلا في الحياة الأمريكية حذرت أغلب الناس من العقوبات التراجيدية التي تنتج عن المساواة عنصريا وجنسيا، مع ذلك فان النمطية القديمة لا تزال تكون ادراكات واحاسيس الأفراد والجماعات **(مؤتمر فيلادلفيا، 2008، الصفحات 156-195)**

ثانياً- الفرق بين الصورة الذهنية والصورة النمطية:

ثمة خلط كبير في استعمال هذا المفهوم أو تقديم تعريب سليم له في الأدبيات الإعلامية والاجتماعية العربي نجد في اللغة العربية اصطلاحات مثل الصورة الذهنية، الصورة النمطية الصورة المنطبعة، الصورة المقولبة، الأنماط المقولبة، وفق استعمال المترجمين لها مما يرافقها خلط واضح بين دلالتها...

كل هذه الاصطلاحات، stereotype وimage لها مرادفات عربية مقدمة لاصطلاح الصورة الذهنية على وجه التحديد، بينما الثاني وكما استعمله "**والتر ليبمان** " في كتابه الشهير "الرأي العام من عالم الطباعة"، يعني به الصورة النمطية في معرض إشارته إلى إن الإنسان لا يستطيع أن يحيط بالعالم كله عبر مواهبه، لذا يلجأ إلى تكوين صور في خياله عن العالم الذي لا يستطيع أن يدركه عبر التجربة المباشرة من خلال حواسه وتكون هذه الصورة مقبولة لديه، بالتالي الصورة ما هي إلا تمثيل مبسط لبيئة غير حقيقية، ينتج عن هذا التمثيل بسبب ضيق في الزمن الذي يمتلكه الإنسان في هذه الحياة من جهة و محدودية الفرص المتاحة للتعرف الشخصي المباشر على حقائق العالم من حوله من جهة أخرى **(الجبوري، مفهوم الصورة الذهنية في العلاقات العامة، 2010، صفحة 163)**

هناك اتفاق في معظم دراسات الصورة، على أن الصورة الذهنية تقوم على مجموعة السمات الايجابية التي تثير مشاعر الحب والتعاطف والتأييد عن طريق تصوير البطولات والاختراعات والانجازات وحب الخير...الخ، كما يتم اثارة هذه المشاعر عن طريق تصوير المعاناة الانسانية كالظلم والكفاح والانتصار، لكن أهم ما يميز الصورة الذهنية عن الصورة النمطية، هو أن الأولى تحتاج الى بذل جهود أكبر لتحقيق الاقناع، وتحتاج الثانية الى قدر أكبر من المعلومات والحقائق.

ثالثا- الفرق بين الصورة النمطية والصورة الذهنية:

هناك عدة نقاط اتفق عليها مجموعة من الباحثين للتمييز بين الصورة الذهنية والصورة النمطية، نلخصها في النقاط التالية: **(الشطري، 2005، صفحة 119)**

-الصورة الذهنية تبنى على الحقائق الموضوعية والمعلومات الصادقة في حين أن الصورة النمطية تبنى على حقائق مبالغ فيها ومعلومات مشوهة.

- الصورة الذهنية ليست بالضرورة مشحونة عاطفيا، عكس الصورة النمطية التي تكون محملة بالمشاعر الذاتية والعواطف الشخصية.

- كلما زادت المعلومات في الصورة الذهنية زاد وضوحها، في حين أن زيادة المعلومات في الصورة النمطية في اتجاه الموضوع الواحد نفسه، تؤدي الى التعصب والتمييز العنصري.

-صانعي الصورة الذهنية للأشياء والأشخاص والدول والجماعات في أذهان الأفراد يسعون الى تقديم المعلومات والحقائق من أجل توسيع مدارك الناس ومعرفتهم، عكس الصورة النمطية التي غالبا ما تقف خلفها جهات وجماعات ذات مصالح سياسية واجتماعية أو اقتصادية.

أوضح الباحثون أن اختلاف الصورة الذهنية عن الصورة النمطية في نقطتين مهمتين:

أ. أنّ الصورة الذهنية يمكن تغييرها اذ انّها تتسم بالثبات النسبي، أما الصورة النمطية فهي تقاوم التغيير ليصعب تغييرها.

ب. غالبا ما تكون الصورة النمطية متحيزة، فهي في الغالب سلبية عكس الصورة الذهنية التي تكون أحيانا ايجابية وفي ظروف أخرى سلبية **(الجبوري، 2010، صفحة 173)**

من خلال ما سبق ذكره عن الصورة الذهنية والصورة النمطية، يمكن القول أن مفهوم الصورة الذهنية يحظى بحضور واسع في حقول معرفية عدة وهو ما جعل منه مفهوما متعدد الخطابات وفق الحقل المعرفي الذي ينطلق منه و يستعمله على الرغم من توارد استعمال المفهوم في الدراسات الاتصالية منذ عشرينيات القرن الماضي غير إن ذلك لم يمنع من تداخله مع مفاهيم بعيدة أو قريبة منه ، فالصورة النمطية تختلف عن الصورة الذهنية، من باب أن هذه الأخيرة حقيقة ذاتية أو ما يعتقد انها الحقيقة بعزلها عن الحقيقة الموضوعية وفي توجه السلوك وتكون عرضة للتغيير بفعل الأحداث التي تؤثر على الصورة الذاتية للفرد.

رابعا- دوروسائل الإعلام في تشكيل الصورة النمطية :

يتمثل دور وسائل الإعلام في هذا الصدد في تدعم الصور أكبر ما يدورها في تغيير وتعديل هذه الصورة كما أنها تؤدي دورها مهما في خلق صورة ذهنية عن الموضوعات الجديدة التي لا يمتلك **(مسلم، 2008، صفحة 32)** الفرد عنها أيه معلومات ويمر دور وسائل الاعلام في صناعة الصورة الذهنية بثلاث مراحل تتمثل في الآتي:

- القيام بخلق صورا جديدة لم تكن موجودة أصلاً.
- العمل على تقوية وترسيخ التصورات الموجودة.
- إجراء تحويل وتغيير للتصورات الموجودة .

وتبرز أهمية وسائل الإعلام في صناعة الصورة الذهنية في أن معظم الناس يستقون معلوماتهم بنسبة 70% من وسائل الإعلام في بناء وصناعة صور العالم المختلفة، ولا يستطيع الإنسان الهروب من

الرسائل الإعلامية التي تبثها وسائل الإعلام فهي ممتدة أفقيا وعموديا ومنتشرة بشكل يحاصر الإنسان ويخضعه للتعرض لتأثيراته **(طاش، 1993، صفحة 20)**.

تتمثل قدرة وسائل الاعلام في تفسير الاحداث والحقائق التي تجرى في العالم يومياً وبلورتها في صورة معينة وهذا يوفر جهداً على الفرد في التفكير والتحليل، وتلعب وسائل الاعلام ثلاثة ادوار في صناعة الصورة الذهنية وهذه الادوار هي أن تكون ساحة أو طرفاً او اداة لطرح التصورات **(موسى، 1986، صفحة 89)**، اذ تلجأ الحكومات والقوى السياسية المختلفة لاستخدام وسائل الإعلام كساحة تطرح فيها تصوراتها أو قد توظفها كأداة لدعم أو تثبيت تصوراتها أوقد تكون ظرفاً فعالا له مفاهيمه وتصوراته، وقد تتداخل الحالات الثلاث **(النجار، صفحة 459)**وتتفاعل لتصبح وسائل الاعلام ساحة وأداة و طرفاً في الوقت ذاته. وتؤدي الأنظمة السياسية دورها في صنع الصورة الذهنية في عقول الافراد ومن خلال توجيهها لوسائل الاعلام المختلفة، فهذه الصورة لا توجد من الفراغ وهي ليست عشوائية، وإنما الدولة هي التي تشجعها وتفرضها حسب أهدافها السياسية وهي تقدم تغييرها عندما يناسب ذلك أغراضها من خلال أساليب إعلامية متعددة.

ويمكن إجمال أهم الأساليب التي تستخدمها وسائل الاعلام **في صناعة الصورة النمطية** على النحو الآتي: **(سلمان، 1993، صفحة 94)**

1.**انتقاء الأحداث والمعلومات:** إن توجيه القائمين على وسائل الاعلام للمعلومات هي أحد الطرق المؤثرة في تكوين الصورة في عقول الآخرين او هؤلاء القائمون هم الحكومة والنخبة الحاكمة في وسائل الاعلام الذين يختارون من بحر المعلومات الواردة ما يناسب اهتماماتهم، ويخفون ما لا يريدون نشره وتوزيعه وعملية اختيار المعلومات لتكوين الصورة عن أمة ما هي عملية مهمة لان هذه المعلومات يختارها القائمون بحسب اهوائهم السياسية ومعتقداتهم الاخرى الذي يزيد من ترسيخ الصورة الذهنية السابقة عن الامم، وينتقي الاعلام الغربي من بين أطنان الأخبار اليومية ما يروق نشره والتركيز علية وهو ينقل عن بلدان العالم الثالث ما يؤيد النظرة الامبريالية ازاء هذه الدولة وكل ما من شأنه إعطاء صورة سلبية عنها **(عباس، 1995، صفحة 44)**، أما ناشرو الاعلام ومالكوه فأنهم يفسرون عملية الانتقاء بأنها ضرورية للبقاء في عالم التنافس والانتشار السريع لذلك فهم يفصلون انتقاء الأخبار المألوفة والشعبية والمدهشة والمفهومة عند فئات عريضة من الجمهور لان هذه الاخبار الشعبية والمألوفة قد تكون اخبار تعزز الصورة الثابتة لبعض الجماعات.

2. **تلوين الحقائق وتحريفها** :تلجأ المؤسسات الاعلامية بعد انتقاء الخبر الى تلوينه وتحريفه من اجل ان يعرض ويفسر لمصلحة الوضع القائم، وتلوين الخبر هو تعمد إبراز وجه خاص منه وإخفاء وجه وقد تلجا لبعض الوسائل الاعلامية الى تشويه الخبر وابراز معنى اخر غير الذي يقصده قبل التحريف ويؤدي هذا التشويه الى تكوين صورة ذهنية خاطئة عن الأحداث في اذهان المتلقين، فهناك العديد من الاحداث التي تقع في العالم تحتمل تفسيرات متعددة ووجهات نظر مختلفة.

3.**استخدام عبارات ومصطلحات خاصة:** تقدم وسائل الاعلام للجمهور عالماً معيناً ومصنوعاً من الكلمات وتراهن على عادات المتلقي في الاعتقاد انه حيث توجد الكلمات هناك وقائع تقابلها، فكلمه الاصولية الاسلامية، والمتطرفين والمتشددين والارهابيين مصطلحات خاصة مصنوعة بدقة فائقة ودراسات مستفيضة لتوحي بالكثير من المعاني والصور الذهنية.

4. **التركيز على أحداث معينة** :تشير نتائج الدراسات الى ان الرسائل التي تكرر بصورة منوعة يتذكرها الفرد اكثر من غيرها ولكي لا يسأم الجمهور من هذا التكرار فأنها تلجأ الى تنوع المضمون نفسه بالشكل مختلف وقد اتبعت الصهيونية العالمية استراتيجية اعلامية ترمي الى تشويه صورة الاسلام و المسلمين وتقوم بدعم هذه السلبية باستمرار، أذ أن هذه القولبة السلبية تتم بصورة منظمة تقف ورائها جمعيات ومؤسسات لا تقوم بإدارة عملياتها الاعلامية فحسب بل تمارس فضلا عن ذلك مهمة رسم السياسة الأمريكية تجاه العالم العربي **(العائدي، 2001، صفحة 46)** .

5. **شخصنة المو اقف والأحداث**: هي اتجاه الإعلاميين نحو جعل المواقف والأحداث نتائج أفراد أكثر منها نتاج مجتمعات او مؤسسات، ونقل الحدث بدون تقديم السياقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي ينتج من خلالها وفي سياقها، وحجة الاعلامين في هذا هو خوفهم من هروب الجمهور من التعرض للرسائل الاعلامية التي تركز على التحليلات العميقة فضلا عن سهولة متابعة الجمهور للأخبار المشخصة وسهولة فهمها. أضفاء الطابع الدرامي على المواقف والأحداث: قوم وسائل الاعلام في ألعادة أخبارها على شكل قصص إخباريه لها شخصياتها وحكاياتها بصورة مختصرة كتلقي اهتمامات الجمهور العاطفية من خلال الشخصيات والحكايات.

6.**تنميط الأحداث والمو اقف**: وتتم من خلال تقديم وسائل الاعلام لتفسيرات نمطية للمواقف تؤدي الى تنميط الأحداث والمواقف.

7. **تجزئ المو اقف والأحداث: ويعني** تجزئ الأخبار اي عزل القصص الإخبارية عن بعضها البعض وعدم ربطها لذلك فهي تبدو منفصلة ومن الصعب جمعها في إطار واحد.

خامسا- معايير صياغة الصورة النمطية للمرأة المسلمة في وسائل الإعلام الغربية :

لقد حددت الباحثة أرزو ميرالي رئيسة هيئة الأبحاث لحقوق المرأة المسلمة المنشور في صحيفة GUARDIN المعايير التي تستند عليها الصورة الذهنية واستشهدت ببعض الكاتبات الغربيات وهجومهن المكثف على المرأة المسلمة، وتؤكد أن هذه الهجمة تتسم بالمبالغة والطرح المتشدد الذي يفتقد الموضوعية بتصويره تلك المرأة ضحية لما يسمى بالإرهاب الإسلامي، وتستطرد بقولها: "إن المرأة المسلمة في نظر هؤلاء الصحفيين يجب أن تخلّص من هذا الدين وعندما تتخلص منه فسوف تتخلص من الحجاب الذي يغطيها من رأسها إلى قدميها"، وتختتم الباحثة مقالها بتقرير أن هذا الهجوم من قبل الغرب في الإعلام على المرأة المسلمة غير مبرر، وذلك كون المرأة الغربية تعاني الكثير من المشكلات، وتتساءل لماذا لا توجه الأقلام الغربية لحل مشاكل المرأة الغربية بدلاً من توجيه النقد والهجوم إلى المرأة

المسلمة؟(ax=3&ct=6&http://taseel.com/display/pub/default.aspx?id=3072) وتتمثل معايير هذه الصورة النمطية في التالي :

-المعيار الأول: الدعوة إلى رفع وصاية الدين عن المرأة: إن من يطلع على معظم ما يعرض في وسائل الإعلام في هذا الجانب يلمس التعدي التام على الإسلام بهدف نقضه كدستور ومنهج وتشريع، واعتبار الدين حجر عثرة في طريق تقدم المرأة، وتزامن ذلك مع الحملة التي تنامت بعد أحداث 11 سبتمبر ضد القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم وضد شعائر الإسلام. ولكن هناك من الغرب من رفض هذه السلبية في عرض الأحدث واعتبر أن منع الاختلاط وارتداء الحجاب يعبر عن الممارسات الخاطئة للعقيدة وذلك ليس من الإسلام وإنما تسلط من الرجال، وعبر عن استيائه من رجال الحسبة في منعهم الشباب من الاختلاط بالفتيات في الأسواق والأماكن العامة (Pilington, 2002).

والأمثلة السابقة وغيرها العديد، تكشف الدعوة الصريحة لهذا الإعلام في معظم أدبيات إلى إلغاء الدين من حياة المرأة المسلم.

المعيار الثاني: عدم الموضوعية في عرض قضايا المرأة المسلمة :إن معظم ما يقدم من تحقيقات ومقالات حول المرأة المسلمة لا يتجاوز التركيز فيها على التبعية الثقافية ومحاربة القيم الإسلامية.

ولعلنا جميعاً لاحظنا قنوات CNN، وBBC NEWS عندما سلطت الأضواء حول معاملة طالبان للمرأة في أفغانستان حيث كان محور اهتمامها الوضعية الثقافية والاجتماعية للمرأة المرتبطة بدينها وقيمها وتقاليدها حين احتفلت بالمرأة المتحررة من الحجاب بعد ذهاب الطالبان، أما ما أفرزته الحرب الأمريكية في أفغانستان من معاناة مريرة لملايين النساء الأفغانيات والحياة القاسية المثقلة بالخوف والمرض والجوع، كل ذلك لم يشكل محور اهتمام لوسائل الإعلام الغربية، ومن ثم تناوله الأخبار بصورة سريعة وعابرة.

وتشهد الوقائع المتتابعة أن مسألة الحقوق في المنظور الغربي لا تتجاوز تحقيق التبعية الثقافية والقضاء على القيم الإسلامية، ومن دلالات عدم الموضوعية استخدام المنهج الانتقائي في تحرير المقالات والتحقيقات فهؤلاء الإعلاميون في الغالب يعتمدون المنهج الانتقائي في اختيار وتوثيق ما يتفق مع أطروحاتهم الشخصية، وفي حالة إثبات الآراء المخالفة تختتم المقالة أو التحقيق برأي من هو مؤيد للنموذج الغربي.

ويظهر المنهج الغربي الانتقائي غير الموضوعي بكل وضوح في حالة المرأة العربية عندما تهمل نتائج التنمية التي تحققت للمرأة، ويكون التركيز بالدرجة الأولى عند الحديث عن المرأة العربية المسلمة على عباءتها، دون الإشارة إلى أن هذه العباءة لم تمنعها من العمل في التدريس والطب وإدارة البنوك، والتسويق وتقنية المعلومات والتجارة وغيرها مما يشهد به واقع التنمية في بلداننا العربية.

ويمكن أن نستدل أيضا بما وقع في الهند مؤخرا حيث رُفضت الطالبات من دخول الجامعات بالحجاب، هذا ان دل على شيء إنما يدل على أن الإعلام الغربي لا يتحلى بالموضوعية في الطرح، فقد عملت شبكات التواصل الاجتماعي على نقل الوقائع بدلا من المؤسسات الغربية.

-المعيار الثالث: أسلوب الاحتقار: وتتمثل في الأمثلة ذات الصورة الساخرة المغلفة بالاحتقار، نستنتج أن الإعلام الغربي لا يريد أن يعرف عن المرأة المسلمة سوى عباءتها السوداء فمن وصفها بالأشباح السوداء، إلى إطلاق لقب النينجا وغيرها من الأوصاف والمشاعر المملوءة بالاستخفاف بثقافة الآخر واحتقار قيمه واتهامه بالانغلاق والتحجر والجمود.

-المعيار الرابع: تكريس النموذج الغربي للمرأة : وُيعد من أهم المعايير وأبرزها، وهو الهدف الأساس لهذه الوسائل التي تسوق لذات الفكر الواحد، وتشترك جميعها في عرض صورةٍ نمطيةٍ مكررةٍ للمرأة المسلمة، وأساس طرحهم الذي يكاد لا يخلو منه مقال أو تحقيق أن المرأة في عالمنا الإسلامي ممتهنة ومهضومة الحقوق ومسلوبة الحرية، ومن ثمة فلا عجب أن معظم ما يطرح يأخذ في ظاهره خدمة قضاياها هذا من جانب، وفي المقابل ثمة شبه إجماع من النساء المسلمات على رفض النموذج الغربي والتحذير من النتائج الوخيمة حين تدفع الأمور باتجاهه.

(ax=3&ct=6&http://taseel.com/display/pub/default.aspx?id=3072)

ومن خلال المعطيات السابقة وبالقدر الذي ندرك معه فشل نقل النموذج الغربي لعالمنا الإسلامي نقرر أن ذلك الفشل يعود إلى منهجيته المرتبطة بأسلوب مغاير لمنهجنا فهو دخيل، ومنطلقاته وهمية مستوردة، ويُراد لها أن تُنقل كما هي دون النظر في صلاحيتها ومشروعيتها، وبالقدر الذي تدرك معه المرأة المسلمة أن التغيير والتطور لا يمكن أن يكون بنقل النموذج الغربي للمرأة، كون هذا النموذج غريباً عن ثقافتها وفكرها وعقيدتها، ولا يمكن أن يكتب له النجاح والاستمرار، هي تدرك أيضاً أن المحاولات المستمرة لنقل هذا النموذج هي في واقع الأمر عملية تغريب لا ينتج عنها سوى المزيد من التبعية والعجز والشلل.

المعيار الخامس: المرجعية المستمدة من منهجية وفكر الحركة النسوية الغربية (Feminism) أو حركة التمحور حول الأنثى: إن فلسفة هذه الحركة ومنهجيتها وتشريعاتها تتعارض مع الإسلام وشرائعه وقيمه المنظمة لحياة المسلمين. ونستطيع أن نرصد الحضور الفاعل المنظّم لأقلام المنتميات للحركة النسوية الغربية في العالم الإسلامي في تبني الأجندة النسوية للقضاء على حجاب المرأة المسلمة وتغيير قوانين الأحوال الشخصية للأسرة المسلمة، وتجسيد مسألة الحقوق بالمعركة والصراع بين الرجل والمرأة، ناهيك عن الأوصاف التي يطلقها الفكر النسوي في الإعلام الغربي على المرأة المسلمة، من ممتهنة، إلى مواطنة من الدرجة الثانية إلى غير ذلك من الأوصاف الدونية وكذلك نقل صورة غير صادقة في أن ما تحقق للمرأة العربية في مجالي التعليم والعمل إنما هو نتيجة للضغوط التي وضعتها المرأة في سبيل الحصول على حقوقهاhttp://taseel.com/display/pub/default.aspx?id=3072

المعيار السادس: ازدواجية المعايير (DOUBLE STANDAREDS) في التعامل مع القضية الواحدة :

إن ازدواجية المعايير من الأمور المعروفة على نطاق واسع عند الإعلام الغربي في تعامله مع قضايا المسلمين بصفة عامة، وفي شأن المرأة المسلمة علي وجه الخصوص، ولعلنا نتأمل المفارقات العجيبة في ازدواجية المعايير، والتي تظهر تحيز الإعلام الغربي في تعامله مع القضايا عندما يتعلق الأمر بالإسلام والمسلمين فلماذا تستطيع الراهبة أن تغطي من رأسها إلى قدمها، وتكون في نظرهم محترمة فهي تمتثل

لأوامر ربها، ولكن عندما تفعل ذلك المسلمة تعتبر ممتهنة، وعندما تجلس المرأة الغربية في بيتها للعناية بالبيت والأطفال، فهي في نظرهم تقدم تضحية جميلة في سبيل محافظتها على شؤون منزلها، لكن عندما تفعل المرأة العربية ذلك فهي في حاجة إلى أن تحرر، ولماذا يستطيع اليهودي أن يطلق لحيته، ويُنظر إلى ذلك ضمن حقه في ممارسة دينه، وعندما يفعل ذلك المسلم يُعد متطرفاً، ويقتل المسيحي شخصاً ما الدين لا يذكر، ولكن عندما يقاضى المسلم بجريمة ما، فإن الإسلام هو الذي يحاكم في ذلك وبعد كل ذلك يبقى الإسلام هو الدين الأسرع نمواً وانتشاراً في العالم.

خاتمة:

انطلاقا مما تم عرضه سابقا، ينبغي أن نعي الأبعاد الحقيقة لاستهداف المرأة العربية المسلمة، لاسيما وقد أصبحت في يومنا هذا تمثل جزءًا رئيساً من مشروع الدول العظمى والهيئات الدولية للتغيير الثقافي والاجتماعي في المنطقة العربية وحتى الغربية، ومما لا يخفى على أحد أن الإعلام الغربي يسعى إلى غرس القيم الغربية باسم الانفتاح والحداثة وتحقيق المشترك الإنساني والتنميط الثقافي وغيرها من الأهداف، وبالتالي تسعى المجتمعات الغربية عبر مختلف وسائلها الإعلامية المختلفة، لأنها الواجهة والمرآة العاكسة التي تُزين للناظر العربي جمالها ومزاياها ونستدلي في هذا بقول لله تعالى **(ولَن تَرضَى عَنكَ اليَهودُ ولَا النَصارَى حتَى تَتَبِعَ مِلَتَهُم)[سورة البقرة، الآية 120].**

في الأخير تبقى هذه الورقة البحثية حلقة ضمن سلسلة البحوث في الصور النمطية التي تسعى وسائل الإعلام الغربية زرعها في المجتمعات العربية والغربية منها، لتحقيق ما تصبو إليه ضمن استراتيجياتها الخفية التي توهم الأفراد بحقائق لا وجود لها بهدف تنميط الثقافة وتفكيك القيم الأخلاقية التي نص عليها الدين الإسلامي، كل هذا يتم عبر مختلف وسائل الإعلام وهو ما يطلق عليه بمصطلح الحرب الناعمة.

توصيات:

- شرعنة وتقنين مساهمة المرأة المسلمة في الحراك المجتمعي، حتى لا يكون هناك تراجع على مكتسبات المرأة والمحققة بفعل النضال.
- ضرورة وضع خارطة للتصدي للصورة النمطية للمرأة المسلمة في وسائل الإعلام الغربية.
- العمل على إصدار ميثاق أخلاقي يحدد أشكال التعامل مع المرأة المسلمة.
- ضرورة مشاركة المرأة العربية في مؤتمرات عالمية والتواصل مع النساء في المجتمعات الغربية لتصحيح الصورة المنوطة عن النساء المسلمات.
- التواصل الثقافي والاجتماعي مع المنظمات النسائية الغربية الموضوعية لإيصال رسالة الإسلام السمحة تُبين الصورة الحقيقة له، وأن تُدرج قنوات إعلامية شابة وهادفة في الفضائيات الغربية تُطرح باللغات الأجنبية لتوضح الغموض الذي يكتنف صورة المرأة لدى المجتمع الغربي.
- استغلال مختلف وسائط الاتصال الجديدة بما يُحسّن من صورة المرأة العربية المسلمة في العالم، بالاستناد على تعاليم الإسلام.

- تنظيم أنشطة إعلامية لتصحيح المعلومات الخاطئة والصور النمطية عن المرأة المسلمة في الإعلام الغربي.

-نشر حملات توعية خارج البلاد الإسلامية للتعريف بالصورة الحقيقة والواقعية للإسلام عامة والمرأة المسلمة على بصفة خاصة.

قائمة المصادروالمراجع:

-القرآن الكريم ، سورة البقرة الآية، 120 .

1) الكتب

- أحمد بدر، (1981) الاتصال بالجماهير بين الاعلام والدعاية العلمية، وكالة المطبوعات، الكويت.
- سليمان صالح، (2005)، وسائل الاعلام وصناعة الصورة الذهنية، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، بيروت.
- عبد القادر طاش، (1993) صورة الاسلام في الاعلام الغربي، القاهرة.
- عصام موسى، (1986)، المدخل في الاتصال الجماهيري، دار النهاني للطباعة، الأردن.
- على محمود العائدي (1999)، الاعلام العربي امام التحديات المعاصرة، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.
- سامي مسلم (2008)، صورة العرب في صحافة الاتحادية الالمانية، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان
- حامد مجيد الشطري، (2005)، الاعلان التلفزيوني ودوره في تكوين الصورة الذهنية، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن.

2) المجلات

- زيدان الجبوري، (2010)، مفهوم الصورة الذهني في العلاقات العامة، مجلة الباحث الاعلامي، العدد 9-10.
- ميخائيل سلمان(1993)، نظرة الامريكيين الى العرب، مجلة المستقبل العربي العدد 177، لبنان.

3) الملتقيات

-أوراق مؤتمر فيلاديلفيا الدولي الثاني عشر (2008)، ثقافة الصورة، جامعة فيلاديلفيا، دار المجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان.
-أحمد عثمان وسامي النجار: اتجاهات الصفوة المصرية نحو صورة الانسان العربي في الصحف وقنوات التلفزيون الغربي بحث منشور في وقائع المؤتمر السنوي الثامن لكلية الاعلام، جامعة القاهرة.

Edward Pilington.(2002)The women that time forgot)july6,.Guardin Unlimited .

4) المو اقع الإلكترونية

http://taseel.com/display/pub/default.aspx?id=3072&ct=6&ax=3

صورة المجتمعات العربية في القنوات الفرنسية الناطقة باللغة العربية
(دراسة وصفية تحليلية لعينة من حلقات برنامج "في فلك الممنوع" على قناة France 24)

The Image of Arab Societies in French Arabic-Speaking Channels.
Analytical Descriptive Study of a Sample of Episodes of the Program « Fi Falak Almamnoue (In the Orbit of Prohibition) on France 24

ط/د. وليد شايب الدراع، جامعة محمد خيضر-بسكرة، الجزائر
walid.chaibeddra@univ-biskra.dz



نحاول في هذه الدراسة التعرف على صورة المجتمعات العربية في القنوات الفرنسية الناطقة بالعربية، من خلال تحليل مجموعة من حلقات برنامج "في فلك الممنوع" الذي يتم بثه عبر قناة " فرانس 24". إن المقصود بصورة المجتمعات العربية في دراستنا هذه، هو ما يتمثله الأخر عن المجتمعات العربية، أو بعبارة أخرى هي الصورة الذهنية عن موضوع معين، وقد اعتمدت دراستنا هذه على المنهج الوصفي التحليلي وأداة تحليل المضمون، وتوصلنا بعد الانتهاء من الجانب التحليلي للدراسة الى مجموعة من النتائج أهمها أن مواضيع مثل، الكبت الجنسي، اضطهاد المرأة، أخذت الحيز الأخبار من الوقت في الحلقات محل الدراسة، بالنسبة لاتجاه المعالجة طغى عليه الاتجاه السلبي المطلق، أما بالنسبة لأهداف المحتوى المدروس جاءت فئة ترسيخ تصور مسبق في صدارة الأهداف.

الكلمات المفتاحية: التدوين، الصورة الذهنية، المجتمعات العربية، فرانس24، في فلك الممنوع.

Abstract:

In this study, we try to identify the image of Arab societies in the French Arabic-speaking channels, by analyzing a series of episodes of the program « Fi Falak Almamnoue » (In the Orbit of Prohibition), which is broadcast on the channel of France 24. The image of Arab societies in this study refers to what the other thinks about Arab societies, or in other words it is the mental image of a particular topic.This study is based on the analytical descriptive approach and the tool of content analysis. After completing the analytical aspect of the study, we came up with a series of findings, the most important of which is that topics such as sexual repression and women oppression took the longest amount of time from the episodes we studied. Moreover, the direction of treatment was overshadowed by the absolute negative trend and the objectives studied content came into the category of pre-perception.

Keywords: Mental image, Arab societies, France24, Fi Falak Almamnoue(In the Orbit of Prohibition).



مقدمة:

حظي مفهوم الصورة الذهنية باهتمام الكثير من الباحثين في الدراسات الإنسانية والاجتماعية لمعرفة أثرها على السلوك البشري، وكذلك فهم العلاقات المختلفة بين الأفراد والشعوب، حيث أن عدداً كبيراً من المواطنين وحتى صناع القرار لا يعطون أهمية للحقائق الموضوعية والعلمية بقدر ما يخضعون لتأثير الصور النمطية المكونة لديهم عن الآخرين وعن العالم الذي يتعاملون معه، فالصورة الذهنية أصبحت أهم حتى من الحقائق الموضوعية، والحقيقة أن مصدر اغلب هذه الصور النمطية هي وسائل الإعلام التي أصبحت في كثير من الأحيان عامل تشويه و تحقير للشخصية العربية والإسلامية في الغرب.

بدأت القنوات الأجنبية الناطقة بالعربية منذ فترة طويلة بداية بإذاعة bbc العربية في بداية أربعينات القرن الماضي، ويعرف بالإعلام الغربي الناطق باللغة العربية على أنه الإعلام الأجنبي أو الخارجي الموجه للمنطقة العربية، وهو مصطلح يشير إلى مخاطبة شعوب الدول الأخرى وتزويدهم بالمعلومات والحقائق، ويعتقد أن الهدف منه دائما هو أن هدفه التأثير على هذه الشعوب فهو وسيلة من وسائل السياسة الخارجية للدولة الباثة، والهدف الأساسي لأي عملية اتصالية كما هو معلوم هو إحداث تأثير.

تعتبر البرامج الحوارية إحدى أهم ميزات القنوات الفضائية، لما لهذا النوع من البرامج من قدرة على التأثير في المتلقيين، ومن هنا جاء تركيزنا على برنامج "في فلك الممنوع" الذي يبث على قناة فرانس 24، وهو برنامج حواري يتناول بالنقاش العديد من القضايا الخلافية والمثيرة للجدل، حيث حاولنا التعرف على صورة المجتمعات العربية من خلال هذا البرنامج، وهذا بطرح السؤال التالي:

كيف تصور قناة "فرانس 24" المجتمعات العربية من خلال برنامج في فلك الممنوع؟

التساؤلات الفرعية:

1)-ما هي أهم المواضيع المطروحة في الحلقات محل الدراسة؟

2)-ما هو اتجاه معالجة المواضيع المطروحة في حلقات برنامج الدراسة؟

3)-ما هي أهم الشخصيات الفاعلة في حلقات برنامج " في فلك الممنوع" ؟

4)-ما هي أهم الأهداف المتضمنة في الحلقات محل الدراسة؟

5) -ما هو أسلوب تقديم المادة الإعلامية في حلقات الدراسة؟

أهداف الدراسة:

1)-التعرف على صورة المجتمعات العربية من خلال التعرف على أهم المواضيع المطروحة في برنامج "في فلك الممنوع".

2)-التعرف على اتجاه معالجة المواضيع المطروحة في الحلقات محل الدراسة.

3)-التعرف على أهم الشخصيات الفاعلة في حلقات برنامج "في فلك الممنوع"

4)-التعرف على أهم أهداف مضامين حلقات برنامج "في فلك الممنوع"

5)-التعرف على أسلوب تقديم المادة الإعلامية في عينة الدراسة.

أولا- مفاهيم الدراسة:

1.الصورة: تعني "محاكاة" وهي في المجال السيكولوجي مترادفة مع " التشابه "و" النسخ " الصورة : تعني " إعادة الإنتاج "، وفي اللغة العربية تعني" هيئة الفعل " ، الأصل و صفته، ويدل مصطلح صورة الذي يعرف في اللغة الانجليزية image"" على أنها أحد الابتكارات التي يلجأ إليها الإنسان ليحصل بها على شكل مماثل لشيء معين عادة ما يكون جسما ماديا، أو أحد الأشخاص كما أنه يشير إلى التعامل مع الأجسام ذات البعدين مثل الصورة الفوتوغرافية أو أحد عروض الشاشة كما توجد أيضا الصورة المجسمة ثلاثية الأبعاد ومن أمثلها التماثيل والصور ويمكن التقاطها عن طريق بعض الوسائل البصرية مثل الكاميرات والعدسات وغيرها من الوسائل الأخرى (ثابتي، 2013-2014، صفحة 15).

الصورة اصطلاحا: تعتبر الصورة شيء محسوس متعدد المعاني، تستطيع تقديم شخص أو حيوان أو أشياء مختلفة، فمصطلح الصورة استخدم مع كل أنواع الدلالات، فمثلا إذا نظرنا إلى التغيرات المختلفة لكلمة صورة لوجدناها ذات معاني متعددة ومختلفة، ختاما يمكن القول إن الصورة هي أحد دعائم الاتصال البصري وهي رسالة اتصالية تضم مرسل، متلقي، باث (سليمان، 2014، صفحة 165).

البرامج الحوارية التلفزيونية: تعد البرامج الحوارية من أكثر البرامج انتشارا على القائمة والدورات البرمجية لأكثر القنوات الفضائية، ويعتبرها الأفراد نافذة عامة تقوم بتناول القضايا والأحداث بمختلف أنواعها، بأسلوب يدعمه التفسير والشرح والتحليل وعرض وجهات النظر المختلفة، وما يزيد من أهمية البرامج الحوارية في التلفزيون أنها تحتوي التحليلات والتعليقات والأفكار من قبل متخصصين بالقضايا التي يتم طرحها، مما يؤدي بدوره إلى فتح آفاق رحبة وأوضح للمتلقي، من شأنها أن تغير اتجاهاته، هذا عدا عن أنها تعطي المشاهد قدرة أكبر على معاينة الوقائع على أرضها وفهم مستجدات وحيثيات الأحداث

الراهنة وتشكيل الآراء حيالها ، وأيضا تزيد قدرته في مناقشة القضايا المشاهدين الآخرين غيره (اليماحي، 2012 ، صفحة 2) .

2.قناة فرانس 24: انطلقت قناة "فرانس 24 " في 6 ديسمبر 2006 كقناة إعلامية دولية بدأت بثها باللغة الفرنسية والانجليزية ثم بدأت بث إرسالها باللغة العربية لمدة أربع ساعات يومياً في افريل 2007، ثم امتدت مدة البث إلى 10 ساعات يومياً، قبل أن يبث إطلاق البث على مدار اليوم 24 ساعة في أكتوبر 2010 ، ومهمتها تغطية الأحداث بنظرة فرنسية وتوصيل الرؤية والقيم إلى جميع أنحاء العالم، وتبث برامج القناة على ثلاث قنوات: الأولى تذيع باللغة الفرنسية والقناة الثانية تذيع باللغة الإنجليزية والقناة الثالثة تذيع باللغة العربية والقناة الرابعة باللغة الاسبانية، وتقوم القناة ببث إرسالها على الأقمار الصناعية وعن طريق الكابل كما تزود القناة بموقع الكتروني على شبكة الانترنت (www.france24.com) (خطاطبه، 2020، صفحة 26).

برنامج" في فلك الممنوع ": برنامج في فلك الممنوع برنامج حواري يناقش قضايا اجتماعية مثيرة يبث البرنامج أسبوعيا كل يوم خميس من خلال قناة فرانس 24 بالعربية.

ثانيا- منهج الدراسة وأدوات جمع البيانات:

تعتمد الدراسة على المنهج المسحي، والذي يندرج ضمن البحوث الوصفية وقد تم اختيار هذا المنهج لعدة اعتبارات خاصة طبيعة الدراسة ومتطلباتها التي تتلاءم مع هذا المنهج على اعتبار أن منهج المسح، وهو دراسة للحقائق الراهنة المتعلقة بطبيعة ظاهرة أو موقف أو مجموعة من الناس، أو مجموعة الأحداث أو مجموعة الظواهر (حسين، 1995، صفحة 132)، كما أنه من أبرز المناهج المستخدمة في مجال الدراسات الإعلامية خاصة في البحوث الوصفية.

إن الإشكالية المطروحة في هذه الدراسة تتطلب معالجة وصفية للمادة الإعلامية محل الدراسة، وذلك بتحليلها تحليلا دقيقا، يوصلنا إلى استخلاص نتائج محكمة ومضبوطة لهذا ارتأينا الاعتماد على أداة تحليل المضمون على اعتبار أنها أداة منهجية للدراسة الكمية والكيفية لمضمون وسيلة الاتصال، وهو أداة لملاحظة ووصف مادة الاتصال (الحميد، 2009، صفحة 22)، حيث اتبعنا أسلوب العينة القصدية لتحديد مجموعة حيث اتبعنا أسلوب العينة القصدية لتحديد مجموعة من حلقات برنامج "في فلك الممنوع" الذي يبث على قناة "فرانس 24"، والعينة القصدية أو العمدية كما يدل عليه اسمها، هي تلك العينة التي يلجأ الباحث إلى اختيار وحداتها بشكل مقصود، وبطريقة يرى أنها تخدم أهداف دراسته (تمار، 2017، صفحة 98)، اخترنا وعليه فقد تم الاعتماد في اختيار مفردات العينة على الخطوات التالية حيث، اخترنا (04) حلقات من البرنامج، وهي حلقات تم بثها في الفترة من أفريل(2021) إلى مارس (2022)، واخترنا حلقات نرى أنها مناسبة للوصول إلى نتائج معبرة عن مجمل الحلقات المتعلقة بموضوع الدراسة،

وقد اعتمدنا على وحدتي الزمن و وحدة الموضوع كأداة لحساب التكرارات من خلال مجموعة من الفئات التحليلية الخاصة بالشكل والمضمون.

1.تعريف فئات الشكل والمضمون:

فئة القضايا: ونقصد بهذه الفئة مجموع القضايا والمواضيع المطروحة في الحلقات محل الدراسة وقد قمنا بتحديد هذه القضايا عن طريق مؤشرات مستخلصة من الحلقات بعد مشاهدتها، ومن هنا يمكننا عرض مجموعة من فئات القضايا الرئيسية قمنا باستعراضها في الجانب التحليلي من الدراسة.

فئة الاتجاه: نرمي من خلال هذه الفئة إلى التعرف على اتجاه مضمون الحلقات المعنية بالتحليل حيال ما هو معروض من قضايا وأحداث، والاتجاه هنا ينظر له أنه نوع من التقييم الايجابي أو السلبي الذي يتبناه صاحب الرسالة ويضمنه في رسالته.

1)اتجاه ايجابي مطلق

2)اتجاه ايجابي نسبي

3)اتجاه سلبي مطلق

4) اتجاه سلبي نسبي

5) اتجاه صفري

فئة الفاعلين: والهدف من هذه الفئة هو التعرف على الشخصيات المحورية ومختلف الفاعلين والضيوف ذوي العلاقة بمضامين الحلقات محل الدراسة في برنامج "في فلك الممنوع" على قناة فرانس 24.

1)ناشطات نسويات

2) نشطاء حقوقيين

3) أكاديميين وكتاب

4) صحفيين

5) أعضاء تجمعات مثليين

فئة الأهداف: من المعروف أن لكل مضمون هدف أو أهداف يرجو صاحب الرسالة بلوغها سواء كانت معلنة أو مستترة ضمنيا، ونرمي من خلال هذه الفئة إلى التعرف على الأهداف التي تصبو إليها المضامين المقدمة في برنامج "في فلك الممنوع" من خلال الحلقات عينة الدراسة.

1)مناقشة فكرة معينة.

2)ترسيخ تصور مسبق.

3) توصيل معلومة.

4)محاولة تغير الواقع.

فئة طريقة تقديم المادة الإعلامية: ونقصد بها الطريقة التي يتم اعتمادها في البرنامج، بمعنى هل يقوم البرنامج على سرد معلومات وحقائق معتمدة على مراجع معينة، أم أنه يكتفي بآراء وانطباعات الضيوف ومقدمة البرنامج.

1)تقديم أراء.

2)تقديم معلومات.

ثالثا-الدراسة التحليلية:

-جدول يوضح البيانات الخاصة بالقناة محل الدراسة.

اسم القناة	france24
سنة الإنشاء	2006
لغات البث	عربي-فرنسي-انجليزي
رابط موقع القناة	https://www.france24.com/ar/
رمز القناة	FRANCE 24 عربي

***المعلومات الواردة في الجدول مصدرها الموقع الرسمي للقناة.**

جدول رقم (1) يمثل أهم القضايا المتناولة في الحلقات عينة الدراسة.

أهم القضايا	الزمن بالدقيقة
اضطهاد المرأة	36:26 د
التضييق على الأقليات	29:00 د
الكبت الجنسي	51:34 د
خلافات مذهبية	13:36 د
الأصولية والإرهاب	9:40 د
الديكتاتورية السياسية	11:10 د
تخلف اللغة العربية	33:20 د
المجموع	184:16 د

يتبين لنا من خلال الجدول أعلاه أن أهم القضايا التي وظفها برنامج "في فلك الممنوع" الذي يبث عبر قناة "فرانس 24"، تبين لنا أن أهم هذه القضايا تتمثل في عرض ومناقشة موضوع "الكبت الجنسي" بمدة زمنية تقدر ب 51د و34 ثانية، حيث أخد هذا الموضوع حيز مهم من النقاش حول، خصوصا من خلال استضافة مجموعة من الناشطات النسويات، إضافة لتسليط الضوء على هذا الموضوع في عدة دولة عربية مثل المغرب ومصر.

جدول رقم (2) يمثل اتجاه معالجة القضايا في حلقات عينة الدراسة.

اتجاه الفكرة الرئيسة	التكرار	%النسب
اتجاه ايجابي مطلق	02	%6,06
اتجاه ايجابي نسبي	03	%9,10
اتجاه سلبي مطلق	13	%39,39
اتجاه سلبي نسبي	11	%33,33
اتجاه صفري	04	%12,12
المجموع	33	**%100**

كما جاء موضوع اضطهاد المرأة ثانيا بمدة زمنية تقدر 36د و26ثانية، حيث ركز البرنامج على متابعة وضعية المرأة في المجتمعات العربية، من خلال عرض حالات تعرضت للتميز والتعنيف سواء من الزوج أو

العائلة أو المجتمع، ثالثا جاء موضوع اللغة العربية و سؤال هل هي عامل تخلف للمجتمعات العربية بزمن قدره 33د و20ثانية، إضافة إلى كل هذا نجد مواضيع مثل: التضييق على الأقليات في المجتمعات العربية، إضافة موضوع الدكتاتورية العسكرية والخلافات المذهبية في المجتمعات العربية، كلها مواضيع أخذت حيز من النقاش في الحلقات المعنية بالتحليل.

يتضح لنا من خلال الجدول أعلاه أن هناك تباين كبير في اتجاه معالجة القضايا المتعلقة بصورة المجتمعات العربية في عينة الدراسة، حيث نجد أن البرنامج والقائمين عليه حاولوا إبراز الجوانب السلبية المطلقة بنسبة 39,39%، ثم فئة الاتجاه السلبي النسبي ثانيا بنسبة 33,33%، ويجب الإشارة إلى أن القضايا المتناولة في هذا الاتجاه تتمثل أساسا في نقد لقضايا العنف ضد المرأة وكذا التحرش، إن التركيز على الجانب السلبي عموما هو الذي يطغى على المعالجة الإعلامية للمواضيع المطروحة في حلقات برنامج "في فلك الممنوع"

في حين جاء الاتجاه الصفري ثالثا بنسبة 12،12%، ويبرز هذا الاتجاه في مداخلات بعض الأكاديميين والكتاب الذين تميز طرحهم ببعض التوازن، أنا الجانب الايجابي فلا يكاد يذكر، ولا يتعدى نسب بسيطة جدا.

جدول رقم (3) يمثل الشخصيات الفاعلة في الحلقات عينة الدراسة.

الشخصيات الفاعلة	تكرارات	النسب%
ناشطات نسويات	05	%26,31
نشطاء حقوقيين	04	%21,06
صحفيين	02	%10,53
كتاب وأكاديميين	06	**% 31,57**
أعضاء تجمعات مثليين	02	%10,53
المجموع	19	%100

يتبين لنا من خلال الجدول أعلاه والمتعلق بالفاعلين او الضيوف الذين يناقشون المواضيع المطروحة، في حلقات برنامج "في فلك الممنوع" الذي يبث على قناة فرانس 24، يتبين لنا أن فئة الكتاب والأكاديميين جاءت أولا بنسبة 31,57%، وهي نسبة قريبة من نسب فاعلين أخرين مثل الناشطات النسويات ثانيا بنسبة 26,31%، ثم النشطاء الحقوقيين ثالثا بنسبة 21,06%.

إضافة لفاعلين أخرين نذكر منهم أعضاء تجمعات مثليين، إضافة لصحفيين وإعلاميين عرب، إن ما يفسر كون أغلب الفاعلين هم عبارة عن أكاديميين و كتاب و نشطاء حقوقيين وناشطات نسويات، هو

طبيعة البرنامج الذي يخصص الحيز الأكبر من النقاش لمواضيع ذات صلة بالأطراف الفاعلة المذكورة، حيث يمكننا القول أن هناك توجيه لطبيعة الضيوف تماما مثلما يوجد توجيه لطبيعة المواضيع المطروحة، فالغالب الأعم من هؤلاء الضيوف لديهم خلفية ثقافية واحدة، وبالتالي لا نرى التنوع في طرح الآراء، ووجهات النظر المختلفة، وهو ما لاحظناه في حلقات عينة دراستنا هذه، باستثناء حلقة " اللغة العربية ..العيب فيها ام في أهلها؟" وهي حلقة شهدت نوع من التوازن رغم التوجيه الممارس في اختيار الموضوع في حد ذاته.

جدول رقم (4) يمثل أهم الأهداف المتضمنة في الحلقات عينة الدراسة

فئة الهدف	التكرارات	النسبة%
ترسيخ تصور مسبق	08	%47,07
مناقشة فكرة معينة	05	%29,41
توصيل معلومة	02	%11,76
تغيير الواقع	02	%11,76
المجموع	17	%100

يتضح لنا من خلال الجدول أعلاه أن أهداف مضامين حلقات برنامج "في فلك الممنوع" على قناة "فرانس 24" من خلال عينة الدراسة جاءت بالأساس بهدف، ترسيخ تصور مسبق عن المجتمعات العربية بنسبة 47،07%، حيث يسعى البرنامج من خلال مقدمته ومن خلال ضيوفه الى ترسيخ بعض الأفكار والتصورات المسبقة عن المجتمعات العربية، التي يتم وصمها بالتخلف والهمجية والكبت.

إضافة للهدف المذكور نجد هدف أخر وهو، مناقشة فكرة بنسبة 29،41%، حيث سعى البرنامج لطرح مجموعة أفكار مسكوت عنها في ساحة النقاش العام في المجتمعات العربية، إضافة لأهداف أخرى مثل توصيل معلومة أو تغيير الواقع، جاءت أخيرا بنسبة لا تتجاوز 11،76%.

جدول رقم (5) يمثل أسلوب تقديم المادة عينة الدراسة

أسلوب تقديم	التكرارات	النسب%
تقديم معلومات	03	%13,64
تقديم أراء	19	%86,36
المجموع	22	%100

يتضح لنا من خلال الجدول أعلاه أن مضامين برنامج في فلك الممنوع الذي يبث على قناة "فرانس 24" ركزت على أسلوب تقديم رأي بشكل كبير نوعا ما بنسبة تتجاوز 86،36%، في عينة دراستنا حيث أن أغلب ما يرد في البرنامج هو عبارة عن انطباعات وأراء شخصية لمعدي البرنامج وضيوفه، إن التركيز على الجانب

المتعلق بتقديم أراء يأتي متوافق مع نتائج سابقة مثل فئة أهداف مضامين حلقات برنامج "في فلك الممنوع "أي أن الهدف من البرنامج هو ترسيخ أفكار مسبقة يتم على أساسها اختيار ضيوف تكون أفكارهم معلومة مسبقا وتتوافق مع الخط التحريري للبرنامج، وفي نفس الوقت نجد أسلوب تقديم معلومات حاضر بنسبة قليلة لا تتجاوز 13،64%.

نتائج الدراسة:

- تمثلت أهم القضايا التي تناولها برنامج في فلك الممنوع" في قضايا مثل الكبت الجنسي، ثم موضوع اضطهاد المرأة إضافة لموضوع اللغة العربية وسؤال هل هي عامل تخلف للمجتمعات العربية.
- يتمثل اتجاه معالجة المواضيع المطروحة في حلقات برنامج "في فلك الممنوع" في اتجاه معالجة القضايا المتعلقة بصورة المجتمعات العربية، حيث نجد أن البرنامج والقائمين عليه حاولوا إبراز الجوانب السلبية المطلقة، ثم فئة الاتجاه السلبي النسبي، أي أن القائمين على البرنامج يبنون البرنامج على بعض الأبعاد السلبية في الثقافة والسلوك الخاص بالمجتمعات العربية.
- إن أهم الفاعلين الذين يؤثثون النقاش المواضيع المطروحة، في حلقات برنامج "في فلك الممنوع" الذي يبث على قناة فرانس 24، أن هناك تقارب بين العديد من الفاعلين وهم فئة الكتاب والأكاديميين، إضافة إلى الناشطات النسويات، ثم النشطاء الحقوقيين.
- إن أهداف مضامين حلقات برنامج "في فلك الممنوع" على قناة "فرانس 24" جاءت بالأساس بهدف، ترسيخ تصور مسبق عن المجتمعات العربية، حيث سعى البرنامج من خلال مقدمته ومن خلال ضيوفه إلى ترسيخ بعض الأفكار والتصورات المسبقة عن المجتمعات العربية، التي يتم وصمها بالتخلف والهمجية والكبت، إضافة لأهداف أخرى مثل، مناقشة فكرة معينة، توصيل معلومات جديدة...الخ.
- بالنسبة لأسلوب تقديم المادة عينة الدراسة توصلنا الى أن مضامين برنامج في فلك الممنوع الذي يبث على قناة "فرانس 24" ركزت على أسلوب تقديم رأي بشكل كبير نوعا ما، حيث أن أغلب ما يرد في البرنامج هو عبارة عن انطباعات وأراء شخصية لمعدي البرنامج وضيوفه.

خاتمة:

في الختام يمكننا القول أن برنامج "في فلك الممنوع" لا يختلف عن كثير من البرامج التي تعرض في القنوات الفرنسية خصوصا، والقنوات الغربية عموما، هذه البرامج التي تعمل على إعادة إنتاج وتدوير بعض الأكليشيهات التي يتم ترديدها على المجتمعات العربية، حيث يتم التركيز على بعض الجوانب السلبية، والآفات الاجتماعية وتعطى حجم أكبر من حجمها الحقيقي في الواقع العربي لتأكيد صورة موجودة في المخيال الغربي، إضافة إلى هذا حاول القائمون على البرنامج فرض بعض المواضيع دون أي

اعتبار للخصوصية الثقافية للمجتمعات العربية، حيث تحاول إسقاط بعض المفاهيم الغربية التي نشأت في سياقات ثقافية أخرى على الواقع العربي المختلف.

توصيات:

- عموما بالنسبة للتوصيات لا يمكن طبعا أن نخرج بتوصيات للبرنامج محل الدراسة لأن مثل هذه البرامج والقنوات تعمل وفق خطوط افتتاحية، ولها إيديولوجيات تخدمها، وبالتالي الصورة التي تنقلها عن المجتمعات العربية والاسلامية تندرج في هذا الإطار، لكن بإمكاننا الخروج بمجموعة توصيات من خلال هذه الدراسة لمجتمعاتنا يمكن تلخيصها فيما يلي:
- أمام عدم إمكانية وعدم جدوى المنع في ظل الفضاء الاعلامي المفتوح يجب التوعية بمختلف القضايا المطروحة في مثل هذه البرامج بكل جرأة، وعدم التعتيم عليها.
- الاستعانة بأهل الاختصاص والحرص على التوازن في الطرح من خلال استضافة أشخاص يعبرون عن أراء مختلفة.
- نقد السلوكيات الخاطئة في المجتمعات العربية، مثل العنف ضد المرأة أو التحرش، أو التطرف الديني، ومناقشتها بشكل جدي.
- ضرورة استغلال الإمكانيات التي تتيحها مواقع التواصل الاجتماعي، للرد على الأطروحات أحادية الجانب التي تقدمها مثل هذه البرامج لتبيان القضايا الحقيقية التي يطرحها البرنامج ومناقشتها وفي نفس الوقت الرد على المبالغات والتشويه الذي يطال المجتمعات العربية.

قائمة المراجع:

- محمد عبد الحميد، *تحليل المحتوى في بحوث الإعلام*، (2009) دار ومكتبة الهلال، (لبنان)
- يوسف تمار، *أصول تحليل المضمون وتقنياته*، (2017)، ديوان المطبوعات الجامعية، (الجزائر)
- سمير محمد حسين، *بحوث الإعلام*، (1995)، عالم الكتب، (القاهرة)
- علي خميس اليماحي، *دور البرامج الحوارية في تلفزيون أبو ظبي بتوعية طلبة الجامعات بالقضايا السياسية الإقليمية*، (2012)، (رسالة ماجستير كلية الإعلام)، جامعة اليرموك، الجزائر.
- ثابتي عائشة، *صورة المرأة في الإشهار التلفزيوني وتأثيرها على الجمهور المتلقي*، (2014)، *(مذكرة ماستر)* جامعة سعيدة، الجزائر.
- ابراهيم محمد سليمان، *مدخل إلى مفهوم سيميائية الصورة*، (2014)، (رسالة ماجستير كلية الإعلام)، جامعة الزاوية، ليبيا.
- هبه عيسى خطاطبه، *دور البرامج الحوارية التلفزيونية في تعزيز حرية الرأي*، (2020)، (مذكرة الماجستير كلية الاعلام)، جامعة الشرق الاوسط، الأردن.

الإسلام والمسلمون من خلال الشاشات الفضية الهوليودية_ كتاب الصورة الشريرة للعرب في السينما الأمريكية لجاك شاهين _ دراسة موضوعاتية_

Islam and Muslims through the Hollywood Screens the Book of the Evil Image of Arabs in American Cinema by Jack Shahe-en –Thematic Study)

ط/د. نوال بوزكري، جامعة حمه لخضر- الوادي- الجزائر
bouzekri-nawal@univ-eloued.dz



عرفت الساحة الغربية نقلة فريدة على كل الأصعدة ومن ذلك التكنولوجيا. فصار الخطاب الصوتي والمرئي منتعشا جدا، من خلال السينما خاصة التي أخذت بالتطور سريعا جدا وحافظت على قربها من عقل وعيني الجمهور بل باتت تعمل على إبهاره يوما بعد يوم بأحدث الوسائل. فصارت عالما موازيا يؤمن به المتابع. فأمكنها بذلك تمرير ما شاءت من رسائل، ومن ذلك صورة الإسلام والمسلمين. فأردنا أن نقف عند هذه الصورة من خلال البحث في نمطها وأسباب هذا التشكل ونتائج ذلك في بعض الأفلام والأفلام الكرتونية التي عرضتها الشاشة الفضية الغربية في الإعلام والسينما خاصة.

الكلمات المفتاحية: الصورة، الإسلام، المسلمين، السينما، أفلام الكارتون.

Abstract

The western arena has experienced a unique leap in all respects, including technology. The audio and visual discourse has become very refreshing, through cinema in particular, which has developed very quickly and has maintained its closeness to the mind and eyes of the audience, but is working to dazzle it day after day with the latest means. It became a parallel world believed by the follower. Thus, she was able to pass whatever messages she wanted, including the of Islam and Muslims. We wanted to stop at this image by researching its pattern and the reasons for this formation and the results of that in some films and cartoons that were shown by the Western silver screen in the media and cinema in particular.

Keywords: image, Islam , Muslims, cinema, cartoons.



مقدمة:

تلعب السينما اليوم دورا مهما جدا في تقديم صورة الأنا والآخر على حد السواء، إذ باتت الوسيلة المرغوبة الأكثر متابعة نظرا لما أحرزته من تقدم على مستوى المؤثرات والتقنيات الحديثة، ولكن الإشكال الأكبر هو قدرتها على إعطاء صور قد لا تكون حقيقية إطلاقا فيتفاعل معها المتلقي على أنها الواقع،

وتكون هذه المغالطات للأسف على الأغلب مقصودة ومدروسة وتستند على خلفيات أكبر من كونها ذات أبعاد فنية؛ فالآخر الذي تصوره وسائل الإعلام الغربية غالبا هو العدو هو المنافس الذي وجب أن تحاربه بأكثر الوسائل حداثة وتأثيرا في أقصر وقت مع أكبر عدد ممكن من المتابعين وتحديدا بمخاطبة العقل اللاوعي، ونحن هنا نتحدث عن صورة الإسلام والمسلمين الذين عادة ما تفضل وسائل الإعلام الغربية بنعتهم بالعرب، حيث ضربت السينما الغربية المثال الأول في الحرب الإعلامية من خلال أفلام هوليود التي جعلت العالم الإسلامي عالما غريبا ومخيفا يحتاج دوما لتدخل البطل الغربي لمساندته كمتطوع من باب الإنسانية ومحاولة لأن يسود السلام العالم المضطرب العالم الشرقي الذي تطاله دوما الشبهات على كافة الأصعدة؟ يبدو ذلك حقيقيا لمن لم يخض تجربة قراءة تاريخ المسلمين والعرب، ولمن لم يتسنى له أن يعيش وسط المسلمين عربا أو أجانب، إذن سنبحث في أكثر الأفلام عرضا ومتابعة صورة "صورة الإسلام والمسلمين" بحثا عن مدى تأثير هذه الصورة والغاية من ذلك وتنبيه العقل الواعي عن مدى الانخداع الذي قد ترسمه الصورة السينمائية في مخيلة أجيال وأجيال مما يؤدي إلى شرخ كبير في بلوغ عالم متزن يؤمن بالاختلاف ويؤمن بأن الآخر المختلف ثقافيا ودينيا لا يعني اختلافه أنه لا إنساني وقاتل وهمجي " كما يشار إليه". ونحن نتتبع بعض تلك الأفلام اعتمدنا على المشهد والصورة من خلال التيمات التي تقدم وتبث دعما للموقف المراد تحفيز المتابع لالتقاطه فكان المنهج المتبع هو المنهج الموضوعاتي نستقرئ من خلاله الموضوعات الدالة ظاهرة ومضمرة، دون أن ننسى أيضا عرض بعض عناوين الأفلام التي قدمت صورة الإسلام والمسلمين بكثير من الإنصاف دونما مبالغة في الذم أو المدح.

أولا -الأنا والآخر (صراع شرق/ غرب):

إن الحديث عن الأنا يستوجب استحضار صورة الآخر الذي تتحدد من خلاله خصائص وملامح الذات والذات المغايرة لها، وكثيرا ما يكون الحديث عن الأنا والآخر متصل بقطبي الشرق/ غرب، هذي الثنائية التي تشكلت بحكم أحداث ووقائع تاريخية واختلافات ثقافية، فاتسعت الهوة ليكون عنوان هذه العلاقة موسوما: بالصراع والتوتر في غالب الأحيان وللاقتراب أكثر من الحقيقة الكامنة خلف هذا اللاتفاق فيجب أن نحدد المجال الجغرافي والفكري لمعنى الشرق والغرب

يشير إدوارد سعيد إلى تحديد معنى الشرق والغرب بقوله:" إذا كان الشرق هو الآخر بالنسبة إلى الغرب، فإن الغرب سيرصد كل الثيمات التي يختلف بها عن الغرب بوصفها سيمات دونية وربما غير آدمية" (الرويلي، 2002، صفحة 23)، وبالتالي فإننا من خلال هذا التعريف ندرك أن تحديد خريطة التوجهات والفكر والموقع بشرق غرب وأن الغرب يحاول أن يعطي الصورة التي تنافي كل ماله علاقة بالشرق الذي ينظر إليه دوما بوضاعة واحتقار. كما عرف الشرق على أنه: "الأرض التي تقع خارج حدود الغرب ليتشكل من الحضارات العظيمة التي تقع شرق الغرب: الإسلام والصين والهند واليابان" (ساردار، 2011، صفحة 22) ، الملاحظ من خلال هذا التعريف أنه مختص فقط بالجانب المكاني؛ فالشرق ما كان شرق الغرب والمكون من حضارات كثيرة عرفها التاريخ وحددنا ضياء الدين بالدول الأسيوية وأيضا بإطلاق على المنطقة الدول العربية مصطلح الإسلام الذي أصبح يعبر به عن العرب وهذا إشكال كبير سيكون له

تداعيات في تصوير الإسلام لاحقا انطلاقا من أفعال العرب. لذا ربما يمكن بشكل عام أن نفهم التعريف بمعناه الموضوع له هنا لكن يتسبب عدم الضبط الدقيق لمثل هذه المفاهيم لاحقا مشاكل كبيرة وهذا ما ستجده في السينما الغربية وصورة الإسلام والمسلمين عبر شاشاتها الفضية.

بعد أن حددنا الشرق والغرب من حيث البعد الجغرافي واكتشفنا وجود فوقية وتبعية بحسب إدوارد سعيد. ففي الحقيقة يصور الشرق دوما على أنه تابع وبقعة سوداء في العالم ترتبط بالسحر والخرافات والأساطير والطوارئ والصحراء... صورة نمطية، فكان الغرب يرى أنه الجانب المضيء وأنه قادر على مساعدة الشرق في الخروج من تيهه بل يتم تصوير الشرق دوما بصورة أقل قيمة وأهمية من الغرب وهذه الصورة لم تكن سابقا هكذا وإنما تولدت بحكم حدثين تاريخيين غيرا النظرة والتوجهات فتقلب الصورة بحسب الغالب والمغلوب في كل حدث تاريخي.

فكان للتوسع الإسلامي في العالم والبلدان العربية أكثره من خلال الحروب الصليبية خاصة دوره في ظهور الصراع الحضاري ولكأنه يختفي عند المغلوب هنيهة حتى تمنح له الأسباب والسبل ليظهر العداء ويكون الصراع ظاهريا معلنا. ليكون اللقاء التاريخي الثاني بين الشرق والغرب أي بين الفكر الصليبي والإسلامي إن صح التعبير مع حملة بونابارت على مصر سنة 1798 التي كانت حملة عسكرية استيطانية ربما حملت معها بعض بذور الحضارة كما تدعي ولكنها تسببت في فتح مجال لصراع يمتد لليوم إذ خلفت هذه الحملة حروبا شنها الاستعمار التقليدي الأوروبي على العالم الإسلامي ليصبح خرابا ولا زال لليوم يعاني من آثار تلك المواجهات. لذا وسم بالضعف والتبعية في الوقت الذي أصبح الآخر الغرب صاحب القرار وله القدرة على السيطرة وتمرير خطابه المليئة بالكراهية والعداء للعرب المسلمين خاصة بعد أن فرغ هذا الغرب من العدو العسكري " المعسكر الشيوعي" كما أن الغرب لم يجعل من الشرق همه إلا بعد أن شعر بالقوة التي قد تتولد عن هذا الشرق نتيجة الفكر الإسلامي الذي يرى الغرب أنه تهديد صارخ قد يثور في أية لحظة ليقلب موازين قول العالم، خاصة وأن الإسلام يزيد أتباعه يوميا في قلب البلدان الغربية. فسعت السينما خاصة في رسم صورة معينة عن هذا الشرق. سنرى كيف تم تصوير هذا الشرق من خلال كبرى الشركات والمنتجين السينمائيين.

ثانيا- صورة الإسلام والمسلمين في الأفلام السينمائية:

إن العالم اليوم يعتمد على الصورة وأصبحت التكنولوجيا وسيلة سريعة في حمل الأفكار وترويجها بأسهل الطرق وأمتعها، ومن ذلك سعت السينما إلى أسر العقول في قاعات السينما، ثم في البيوت عبر التلفزيون ولا تجد وسيلة لذلك إلا واستثمرتها لبث موضوعاتها خاصة السينما الأمريكية التي غزت العالم أجمع بما يطلق على هذا الإنتاج السينمائي الوفير الذي تقوم على توجيهه والسهر على إنتاجه أياد كثيرة مما أثرى هذا العالم السينمائي الهوليوودي. يقول في ذلك جاك شاهين:" ففي هذه الأيام تصل الأفلام الأمريكية التي تنتجها هوليوود إلى كل شخص تقريبا والأوهام التي تخلقها وتغذيها توزع على طول امتداد العالم" (شاهين، 2003، صفحة 18). وتم استغلال هذه القابلية للانتشار والانبهار بالسينما في تقديم صورة نمطية للعرب في الأفلام وكذا في الرسوم الكرتونية مما انعكس ذلك على فكر الشعوب الغربية

ونظرتهم للعرب المسلمين "وهوليود على مدى أكثر من قرن أيضا، وهي تستخدم التكرار كأداة للتعليم ولتحتفظ رواد السينما بفعل التكرار مرة بعد مرة الصور الشريرة والكريهة للعرب، إنني أطالب القارئ أن يدرس عبر هذه الصفحات مسألة التكرار والمثابرة في التشويه منذ زمن مبكر وحتى اليوم، وأن يتأمل هذه الأنماط المشوهة سيئة السمعة التي أثرت على صدق الخطاب والسياسة العامة" (شاهين، 2003، صفحة 12)، وقد عمل حاك شاهين على رصد أغلب الأفلام التي تناولت صورة المسلم العربي في السينما الأمريكية والتي كانت أغلبها تصور سكان الشرق الأوسط دوما على أنهم أشخاص متخلفون وأشرار فيقول في ذلك:" توقف وتبصر صورة العرب في بكرات الأفلام. فماذا ترى؟ شخوصا بلحى سوداء وأغطية على الرأس ونظارات سوداء. وفي الخلفية سترى سيارات الليموزين، والحريم، وآبار البترول والجمال، أو ربما كان يخفي أسلحة أوتوماتيكية" (شاهين، 2003، صفحة 13)، والإشكالات الأكبر كما أسلفنا الذكر أن العربي لا يصور كفرد شرير وفقط له اسم وتوجه في نطاق محدد كشخصية في فيلم وإنما التصوير يشمل كل عربي مسلم فكأنما الشرق الأوسط لا يعيش فيه إلا المسلمون أو أن كل ما يفعله العربي وإن لم يكن مسلما ينسب للإسلام "ضمن هذه الهجرة والتحول والميلاد عموما يعتبر المسلمون أسرع جماعة دينية من حيث النمو. إذ يقرب من خمسمائة ألف يعيش في ولاية لوس أنجلوس. ويتردد ما بين ستة إلى ثمانية ملايين مسلم يعيشون في أمريكا على أكثر من ألف جامع ومركز إسلامي ومدرسة...أما العرب فإنهم يمثلون12 بالمائة فقط من عدد المسلمين في العالم. ورغم ذلك يتجاهل صناع السينما هذه الحقيقة، ويصورون العرب المسلمين باعتبارهم شيئا واحدا وكأنه كل المسلمين عرب، ويعرضون مرارا وتكرارا وبصورة زائفة العرب جميعا بصفتهم مسلمين. ولذا ينسبون نفس الصفات إلى الاثنين المسلمين والعرب" (شاهين، 2003، صفحة 16).

فروجت السينما لأمر غاية في الخطورة فبات النظر للإسلام ولكل حامل لهذه الديانة يشعر أن الصفات الذميمة التي تليها السينما تعنيه وتخاطبه وتبعث للعالم بأسره رسالة لمعاداته إذ نلاحظ حقيقة عدم فهم حقيقي للإسلام كدين وطريقة ممارسة بعض الناس له. فيربطون تصرف بعض الجماعات المتطرفة بما يزيد عن مليار مسلم في العالم وهذا غير منطقي تماما فلو كان ذلك لكان العالم قد انتهى كليا.

وبالتالي فإن السينما الأمريكية شوهت كثيرا صورة الإسلام والمسلمين ووصفتهم بأبشع الأوصاف وأخذت دوما زاوية واحدة في تقديمهم عبر الشاشات. والإشكالات الأكبر أن العرب أنفسهم عاجزين أن يغيروا هذه الصورة يقول جاك شاهين في ذلك:" الأمر الذي أجده مثيرا للدهشة فعلا. أنه على الرغم من النظرة الدونية الخسيسة إزاء العرب كما تصورهم هوليود وتجعلهم على الدوام مصدرا للخطر يهدد المجتمعات المتحضرة، فإن أحدا لم يلتفت باهتمام إلى هذه الصور الوفيرة للعرب على الشاشة ويتناولها في كتاب" (شاهين، 2003، صفحة 26)، عملت فعلا العدسات التصوير الأمريكية على استغلال اهتمام العالم كله بالسينما لتمرير مثل هكذا صور غير حقيقية. فالدول الإسلامية العربية تعيش فعلا أزمات سياسية واقتصادية تسببت فيها أساسا الدول الغربية وهذا ما نجده في الأفلام العربية لكن لا يعقل أن

ينصف العدو عدوه إن عجزت السينما العربية أساسا عن إنصاف نفسها وإظهار الصورة الحقيقية التي من الصعب أن تترسخ بعد ما أصبحت صورة العربي المسلم ذات بعد معين ترجمته الأفلام الهزلية التي تصور العربي المسلم أحمقا غرائزيا غنيا يميل دوما للعنف والقتل وله رغبة جامحة في السيطرة على العالم يصورونهم ببطون كبيرة وأنوف ضخمة معقوفة وبكوفية وملاءة. يعيشون في الخيام والصحاري أو القصور التي تحفها واحات النخيل. كما يتم تصوير المرأة العربية المسلمة بملاءات سوداء أو كجوار شرقيات يرقصن ويكملن مشهد ترف وثراء الرجل العربي الجائع النهم.

يتساءل جاي ستون وهو ناقد :"أين هي الأفلام التي تظهر العرب والمسلمين كأناس عاديين" (شاهين، 2003، صفحة 16)، توجد أكيد بعض الأفلام التي انصفت المسلمين العرب وكان لها تأثير لابأس به على عقول المشاهدين ورحب بها النقاد السينمائيون المتصلون ولكنها قليلة وعددها محدود وهذا ما أشار إليه كتاب العرب الأشرار في مقدمة مترجمته خيرية البشلاوي:" لم يجد المؤلف جاك شاهين إلا اثني عشر فيلما تقدم صورة إيجابية للشخصية العربية بينما قدمت البقية الكاسحة صورة شديدة السلبية والأحذية والعدوانية؛ باعتبار العربي مصدرا للتهديد، مكشرا عن أنيابه على الدوام، لذلك فإنه يستحق القتل بلا شفقة ولا رحمة" (شاهين، 2003، صفحة مقدمة)، إذن فإن الصور التي تعرض فيها هوليود إطلاق النار مثلا بين الغرب والعرب فإنه تعطي الأحقية دوما للغربي الآخر فتظهر المشاهد التي تجعل الجمهور يتعامل مع القاتل وأن الإغارة مثلا على سكان عزل وعلى أرضهم وحقهم حق مشروع لأنهم يستحقون ذلك.

فترى العربي الذي تحول إلى أشلاء وإلى دماءه التي أضحت مشهدا عاديا يوميا على الشاشة. يعيدك إلى الواقع لتقول إن الشعوب العربية تشربت فعلا هذه المعطيات وباتت واقعا حيا فلا تراهم يتعاطفون مع أطفال فلسطين ولا اليمن ولا العراق ولا أفغانستان ويظهر الأمريكي هو البطل رغم أنه المعتدي والظالمين والقاتل. خطورة السينما وما تروج له هو ما شكل بعدا آخر للقضايا الإنسانية العادلة التي اجتاحت لدعم شعبوي عالمي ولكن حالت السينما وما ترسمه دون ذلك فبات الضغط الذي تمارسه الشعوب على الحكومات لأجل الحرية وحق تقرير المصير والمرافعات على ما يحدث من تجاوزات كارثية في الشرق الأوسط مغيبا تماما تقريبا، لأن ما يتم ترويجه تزييف وخدمة لمصالح الدول الكبرى وحلفائها لا غير لنعي فعلا أننا نحتاج دوما لقراءة ما وراء ما يقدم ولا نكتفي بالمشاهدة والتصديق والتصفيق لما قد يقتل إنسانيتنا ويخدع ضمائرنا عبر صورة مرئية صوتية كاذبة. في الوقت الذي أصبحت السينما سلاحا حقيقيا يدفع ويثبط وخطورته تكمن في تمرير مثل هذه الأفكار لأجيال آتية فتمنعها عن رؤية الحقيقة، لتستمر هذه الأكاذيب تحملها الأجيال التي باتت تأخذ مبادئها من السينما التي أخذت مساحة كبيرة في حياة الناس وخاصة المراهقين والشباب " لقد حان الوقت كي ندرك أن المعلمين الحقيقيين لأطفالنا ليس هم المدرسين ولا الأساتذة في الجامعات. وإنما المخرجون السينمائيون هكذا كتبت لمحامين في صحيفة ذي نيشن the nation" (شاهين، 2003، صفحة 19).

والمتسائل اليوم يقول إن هناك مصالح وعلاقات شراكة وعمل واتفاقات بين الدول الإسلامية والدول الغربية لكن نلحظ أن التدفق السينمائي الذي يسعى لتشويه صورة المسلمين والعرب لازال قائما دونما محاولة من هذه الدول أن تعيد الاعتبار لنفسها تأديتها من خلال تحذيرات ورفع دعاوى ضد مثل هكذا أفلام وتحريف للوقائع. أو حتى سعي نحو دخول العالمية بأفلام تضع عدسات كاميراتها على الوضع الحقيقي في فلسطين وتجاوزات الكيان الصهيوني. وما فعلته أمريكا في العراق وأفغانستان واليمن وسوريا وغيرها من الدول. إلى متى يتم السكوت والرضوخ وتقبل هذه الإهانات. إن هذا إلا إثبات إذن للتبعية والضعف فالغرب يشعر بقوة ما يملكه الشرق من إمكانات وثروات وقدرة الإسلام لو تم إتباعه فعلا على إحداث قلب الموازين ومنح المسلمين قوة حقيقية لذا يتم دوما تسفيرهم واختيارهم لأنهم لم يستطيعوا بعد استثمار إمكانياتهم فباتوا في السينما الأمريكية محل سخرية وكراهية وتخلف لازال المسلمون لم يأخذوا بعد موقفهم مما يذاع حولهم ويعود بالسلب على صورة الإسلام اولا وعلى طريقة التعايش التي يجب أن تكون سواء الجاليات العربية المقيمة في الغرب أو نظرة الغربي إلى العربي المسلم أينما كان " ورغم وجود أسباب عديدة تقف وراء استمرار هذه الصور النمطية لأكثر من قرن. سياسات وأرباح شباك التذاكر، واللامبالاة، وغياب العرب عن صناعة السينما الأمريكية. وتشرح الموقف الآنسة ماجدولين أصفهاني وهي طالبة أمريكية من أصل عربي بقولها:" من أكثر الأسئلة شيوعا تلك التي توجه إلى من قبل زملائي في الفصل: هل امتطيت الجمل. أو هل تعيش أسرتك داخل الخيام. ويبقى ما هو أسوأ: فلقد تعلمت وأنا ما زلت صغيرة جدا أن من بين كل فيلم أمريكي وآخر يوجد عرب إرهابيون" (شاهين، 2003، صفحة 22).

ثالثا -الفهم الخاطئ للإسلام في تصوير السينما الأمريكية:

المتأمل للأفلام الغربية التي تنتج وتصور المسلمين كثيرا ما توظف مفردات تحيل مباشرة إلى مفاهيم العنف والإرهاب والتخويف وفي الحقيقة هي كلمات عادية في قاموسها في الوطن العربي الإسلامي تحمل معنى مقدس وتعبر عن توجه ديني لا غير، لكن بحكم رواجها في أكثر الممارسات الأكثر عنفا من طرف مدعي الإسلام ، جعل كلمات كالجهاد، مكة، العرب، القرآن، الله أكبر، الله، محمد، الإسلام... كلها تحمل شحنة من الدلالات السلبية بالنسبة لما تروج له السينما فبات ذكر هذه الكلمات أمام أي غربي توتره وتفزعه ففي السينما تقرن هذه المفردات بتفجيرات أو اغتصاب أو سرقة... وتوالت السلاسل التلفزيونية على هذه الشاكلة وتصور الإسلام من خلال هذه أبعاد لا يحملها حقيقة ولا يدعو إليها يقول جاك شاهين:" لقد فشل المنتجون في إدراك أن كلمة (Allah) تعني الله باللغة العربية، وأن العرب مسلمين كانوا أم مسحيين يستخدمون كلمة (الله) في صلاتهم وحين يقوم المنتجون لإظهار الشخصية اليهودية أو المسيحية من أبطال الفيلم عندما تتصدى للعرب المسلمين، فإنه يجعل بطله الغربي يوجه لعدوه العربي بلهجة تنم عن الاحتقار والازدراء كلمة(Allah)، وهذا الشعور بعدم الاحترام تجاه(الله) يضلل المتفرجين ويجعلهم يظنون أن العربي المسلم لا يعبد الله الحقيقي رب المسيحيين واليهود وإنما ولاؤه للقبيلة" (شاهين، 2003، صفحة 30).

فامتهن المشهد الغربي السينمائي هذه الصورة التي أصبحت رهينة لتصور قار لا يتغير يتضاعف العداء والتصوير المشين يوما بعد آخر ولا يلتفت الغرب أبدا إلى جرائمهم مع الهنود الحمر والسود والدول العربية، فالغربي دائم هو البطل الحامي المغوار الذي لا يهزم وكل الأجناس الأخرى تعتبر الهامش الذي يسعى الغرب لدفع عربيات نحو التقدم " تبقى بعض الأفلام الأخرى تتضمن كلمة(Ayrab) هي كلمة بذيئة نحتتها هوليود للإشارة إلى العرب يمكن مشاهدتها مع كلمات" داجو"(شخص مجهول) أو(greaser)مزيت للإشارة الميكانيكي (kike) إشارة لليهودي للتقليل من شأنه أو (Nigger)(زنجي) و(gook) إشارة معينة لأبناء الشرق الأوسط" (شاهين، 2003، صفحة 30).

فأضحى الخوف من الإسلام مشهدا مرافقا لكل ما يتصل بالعرب والمسلمين حيث يتردد مصطلح الإسلام فوبيا الذي جعل الإسلام بكل ما يحمله من سلام وشرائع ومبادئ منحصر في تصرفات الخارجين منه والمنادين باسمه ولا يمثلونه إطلاقا. وإسلام فوبيا" كلمة مستحدثة مكونة من كلمتين إسلام وفوبيا، وهي كلمة يقصد بها الخوف أو الإرهاب غير العقلاني من شيء يتجاوز خطره الفعلي المفترض. دخل المصطلح إلى الاستخدام في اللغة الإنجليزية عام1997 عندما قامت خلية بريطانية يسارية التوجه رينميد ترست Rinmid tirestباستخدامه لإذاعة مشاعر الكراهية والخوف والحكم المسبق الموجه ضد الإسلام والمسلمين" (أفروجين، جوان2017، صفحة 275)، فالنظر للإسلام أحيانا يكون بشكل خاطئ وتتوالى الصور تبعا لبعضها ، لكن يوجد من يدرك حقيقة الدعوة الإسلامية ويراها خطرا على العالم الغربي فالهدف هو محاربة الدين في حد ذاته ومحاربة كل من يحمله، وهذا ما حصل عندما تولى الصهاينة إدارة شركات إنتاج الأفلام أين لاحظنا أن الصور النمطية سابقا لليهود في السينما غير حاضرة بل صار الصهيوني الذي يقتل ويشردوا يعذب الأبرياء في فلسطين بطلا وظهر الفلسطينية في الأفلام الهوليودية إرهابيون وقطاع طرق. مفارقة عجيبة حقا نسخا الواقع ووضعت صورة مناقضة على الشاشة الفضية غسلا للأدمغة وبالتالي فالحرب السينمائية أشد تأثيرا اليوم منا نشاهد من حقائق يندى لها الجبين من اعتداءات وتجاوزات لليهود على أرض الفلسطينيين وأرواحهم " في عام1982 عين يورام جلوباس مديرا لقسم صناعة السينما في إسرائيل. وهي وحدة منوطة بها مراقبة كل الأفلام التي تصنع في إسرائيل. وفي نفس الوقت كون الاثنان في الولايات المتحدة شركة لإنتاج الأفلام الأمريكية باسم كانون(cannon)...شكل المنتجات ما يشبه قوات العاصفة السينمائية التي تحث وتشجع على كراهية العرب وإبادتهم في26 فيلما. في فيلم فرقة الجحيم(1985). وقوة دالتا(1986). والشوارع القاتلة(1991)...تقوم فتيات استعراض لاس فيغاس، وقوات المارينز والقوات الخاصة الأمريكية على التوالي بقتل الفلسطينيين" (شاهين، 2003، صفحة 21).

فأصبح فعلا هم السينما الأمريكية برعاية صهيونية وحتى الدعاية والإعلان والسينما الأوروبية تسعى جاهدة لتصوير الإسلام والمسلمين في أبشع الصور وتروجها للعالم. وامتد الأمر للمبشرين ليدعموا هم أيضا هذه الحملة التي شنتها على الإسلام والمسلمين بقول المبشر جونتاكلي: " يجب أن نستخدم القرآن وهو أمضى سلاح في الإسلام ضد الإسلام نفسه، حتى تقضي عليه تماما يجب أن نبين للمسلمين أن

الصحيح في القرآن ليس جديدا وأن الجديد فيه ليس صحيحا" (ميخائيل، 1987، صفحة123). فالاستهداف واضح جدا من خلال تصريحات كثيرة لمبشرين ومنتجين وساسة كلهم يرد ن أن الإسلام أصبح هو العدو الوحيد والذي وجهت كل الأنظار إليه خاصة بعد انهيار المعسكر الشرقي" السوفييت" كمنافس حقيقي تفعلي لأغلب دول الغرب. ومحاربة الإسلام بالنسبة للمبشرين تبدأ من نقطة انبثاقه ومركز قوته وهو القرآن الكريم الذي تستخدم مفرداته للدلالة على العداء ونشر الكراهية بغية كمحاولة لفصل الناس وإبعادهم عن الفهم الحقيقي لما يحمله القرآن وبما في ذلك المسلمين أنفسهم ويعود ذلك لإدراك النضج والوعي الذي يمنحه النص القرآني للمسلمين وهذا ما أشار إليه وليام ايوارتجلاستون بقوله:" مادام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق. ولا أن تكون في أمان" (سامي، 1986، صفحة63). فالصورة المعطاة على الإسلام والتي تبناها الإعلام الغربي عامة مغلوطة كليا فتم خلط الأوراق السياسية والأحداث التي أدت إلى حروب وهجومات توجه الأنظار مباشرة ويشار إليه بالاتهام الإسلام والمسلمين ولو أن القضية لا تمت بصلة للإسلام. خرق غير معهود بهذه النسبة من الأفلام التي شوهت الإسلام يقول إدوارد سعيد:" لم أستطع ان اكتشف أي فترة في التاريخ الأوروبي، أو الأمريكي منذ القرون الوسطى نوقش فيها الإسلام. وفكر فيه خارج إطار العاطفة والتعصب والمصالح السياسية" (سعيد، 2005، صفحة75). فالغرب يعيش حربا نفسية ضد يترجمونها في المشاهد التي تظهر العربي المسلم في أبشع للصفات لأنه مختلف عن الديانات الأخرى مستمر وفي تزايد يوما بعد يوم يشكل تهديدا وفكرة صحة المعتقد عند المسلمين وتمسكهم به يضاعف التخوف منه فيتم تصعيد العداء أو ما يسمى بالقولبة الإعلامية. بمعنى خدمة المصالح الشخصية بواسطة الإعلام من خلال تقويم وتشويه الآخر رغبة في إظهار الأنا المتعالية المركزية.

1 - بعض أهم الأفلام الغربية التي شوهت صورة العربي المسلم:

أ- فيلم Sahara: من خلال العنوان ندرك أن الفيلم يشير إلى الشرق الأوسط غالبا، فكثيرا ما يتم ربط العرب بالصحراء. أظهر الفيلم اختطاف العرب لامرأة غربية وتقدم لشيخ عربي شهواني وهي غير راغبة فيه. مما يثير لدى المشاهد مشاعر الكراهية والبغض اتجاه كامل العرب فالصورة تعميمية وفيها من التعمية والمبالغة والاستهزاء الكثير.



ب- فيلم Looking for Danger: في هذا الفيلم شوهدت المرأة العربية على شاكلة ما تروج له الحكايات القديمة راقصة شرقية القيمة لها سوى أنها جارية تعمل على التمايل بملابس فاضحة في قصر سيدها. الذي لا تعجبه أي منهن فيلجأ لاختطاف امرأة شقراء غربية.

ج- فيلم back to the future (**العودة للمستقبل**): من خلال العنوان يبدو أن الفيلم يختص بفكرة المستقبل والنظر إليه بطريقة ما. ربما يكون فيلم علمي أو مغامرات. خاصة وأنه يعرض مع الأول عالما مهووسا بالتجارب. لكن في لحظة تجد نفسك ترى حربا حيث استحضر الفيلم رجالا عربا ليبيين يطلقون النار على الغرب محاولين منعهم من إكمال مشاريعهم. فالسؤال هنا ما دخل العرب هنا فكأنما أصبح تواجدهم لازمة إما للسخرية والفكاهة الرخيصة وإما للتخويف. وإما بعرضهم مهووسين غرباء مختلفون تماما يحملون صفات مختلفة وفكرا ودينا مختلفا لا يؤمن لهم طرف.

د- فيلمJewel of the Nile(**فيلم جوهرة النيل**): في هذا الفيلم يتقرب العربي من إمرأة غربية ويحاول إقناعها للذهاب معه إلى أرض العرب. ومن ثم يقتلها.

هـ- فيلمHappy Hooker Goes to Washington(**فيلم بائعة الهوى السعيدة تذهب نحو واشنطن**: عرض هذا الفيلم أيضا العربي المهووس بالشقراوات مهما كانت هذه الشقراء فهو يظهر بكل ما يتصل بالجانب اللاأخلاقي.

و- فيلم True Lies (**أكاذيب حقيقية**): في هذا الفيلم وحسب جاك شاهين أنه من بين الأفلام التي جعلت العربي غبيا وأحمقا مثيرا للشفقة والاستهزاء. فبرغم خطرهم وتهورهم فهم لا يستخدمون الذكاء، ويتم عرض الفيلم كل أسبوع تقريبا لترسيخ هذه التصورات الترويجية النمطية عن صورة العرب.

ز- فيلErnest in the army (**إرنست في الجيش**): هذا الفيلم أيضا صور العربي المسلم من الشرق الأوسط وهو يرغب في السيطرة على العالم ويقوم بتهديد أمريكا. وليشكل قوة كبرى في أرض العرب ليعلن عن إطلاق صاروخ كدعوة للحرب. وتستخدم الأزياء دوما العربية كوفية وعمامة التي تشير إلى العرب قديما أو الخليجيين باللباس الأبيض أو بكوفية الرجل الفلسطيني وهذا لإكمال المشهد وتفعيل فكرة أعداء اتجاه هؤلاء وجعلهم بعيدين كل البعد عن السلم والتعايش مع غيرهم

ح- فيلم Net work (**فيلم الشبكة**): من أكثر الأفلام عنصرية إذ يعرض مقدم برنامج مشهور جدا، ينتقد مباشرة النظام السياسي السائد ويفعل ذلك أيضا وهو يصف العرب بكل عبارات الكراهية باعتبار العرب يقومون بشراء كل شيء، وأن على الشعب الأمريكي أن يطالب الحكومة بأن يكفوا عن بيع القنوات والشركات للعرب، وهذا يولد الثورة الناتجة عن الخوف من عدو مجهول. وهي الصورة التي أرادت هوليوود إرسالها وإقناع الأمريكيين بها.

ط- فيلم father of the Bride2 في الجزء الثاني من هذا الفيلم عرضت الشاشة رغبة الرجل العربي الغني الذي يمكنه أن يفعل كل شيء لأجل رفاهيته، فعرض المشهد عائلة العربي وهي تساوم أمريكيا على بيته. الذي رفض لاحقا بيعه لكن طالب العربي منه مضاعفة السعر إن أراد بيته الحامل لذكرياته في مشهد يسيء جدا للعرب كما بين علاقة المرأة بالرجل كيف أنها خاضعة ولا يمكنها أن تتكلم أو أن تقدم رأيت حول أي قرار يقوم به. والجزء الثاني من هذا الفيلم لم يكن في حاجة لإدخال شخصية كهذه في موضوع بعيد كل البعد عن أحداث الشرق الأوسط. لندرك أن الغرب تملأ فراغ السينما بتوظيف البعد الاستهزائي نحو العرب من دون سبب أو مناسبة بعينها جاك(2022 ,).





2 -القضية الفلسطينية في هوليوود

كانت ولا زالت هوليوود تعرض اليهود على أنهم أصحاب الأرض والحق، وأن الفلسطيني إرهابي معتدي يفزع الأهالي ويهجم على المدنيين الإسرائيليين للمتعايشين. ومن بين هذه الأفلام التي قامت بتغليط الرأي العام نذكر:

أ- فيلم the Delta force: حيث يقوم في هذا الفيلم الفلسطينيون باختطاف طائرة ويروعون المسافرون وخاصة اليهود الذين تم التخلص منهم بدم بارد ودون سبب حسب ما أورده الفيلم.

ب- فيلمBlack Sunday (الأحد الأسود): صور هذا الفيلم المرأة الفلسطينية كإرهابية فترسل منطادا وتحاول قتل 80 ألف مواطن أمريكي. وتقتل كل من تصادفه وهو تصوير جديد للمرأة الفلسطينية اليوم على شاشات السينما الغربية. رغبة في تشويه صورة القضية الفلسطينية. فأصبحت المرأة العربية المسلمة في عيون العرب إرهابية وشريرة. ولا يجب أن يتم التعاطف مع العرب كليا هذا ما تسعى إليه صراحة مثل هكذا مشاهد.

ج- فيلم Death Before Dishonor (الموت قبل العار): يظهر هذا الفيلم كيف غار الفلسطينيون على عائلة إسرائيلية وفي وقت العشاء وأبادوها دونما مقدمات تحت صراخ الأطفال من الخوف والفزع كمشهد درامي. ويقوم الفيلم أيضا بتوجيه الكاميرا نحو الفلسطيني بكونه شريرا. فيتم اختطاف رجلا من البحرية الأمريكية ويعذبونه ويقتلون آخر، ويحرقون العلم الامريكي. ويدفعون أحد الرهائن ليكون انتحاريا فيفجر في السفارة الأمريكية. هذا ما تصوره الأفلام الغربية حول القضية الفلسطينية. تصوير غير حقيقي وغير عادل. ولا يصورون أبدا ما يحصل فعلا في السجون والتعدي السافر للاحتلال

الإسرائيلي والجانب الإنساني للفلسطينيين بل إن هوليود لها قرابة الثلاثين فيلما تتحدث تتناول صورة الفلسطيني كمعتدي وظالم وشرير...كيف وشركات الإنتاج السينمائي تمول وتدار من طرف اليهود. لكن الإشكال أن الصورة استطاعت أن تترسخ وتبني تصورا معينا قارا عن العرب والمسلمين وكل الحروب الدامية التي يتعرض لها الشرق بسبب الغرب واليهود تعيد هوليود صياغتها بطريقتها كي تنال هي الصورة المثالية للشعب الإنساني المثالي. ويبقى الشرق هو الآخر الذي يعيش سوء التقدير والفهم.

3- الأفلام التي انصفت العرب المسلمين:

بالرغم أن الصورة العامة التي قدمتها السينما الغربية عن العرب على أنهم أشرار إلا أن هناك أعمالا سينمائية سعت لحمو هذه الصورة وقدمت دوافعها وصورت العربي المسلم كشخص عادي له أخلاق وإنسانية وله أسرة وأبناء يحبهم ويحبونه ويتعايش مع الآخرين كأي فرد عادي لا يختلف في أحلامه وطموحاته وطريقة عيشه عن غيره فهو يمارس شعائره الدينية بطريقة طبيعية ولا خوف منه ولا ضرر يلحق بمن اقترب منه. ومثل هذه الأفلام محدودة العدد لكنها حقيقية وتصور الشرق الأوسط كبلدان عادية وهذا ما عبر عنه جاك شاهين حين زيارته لأكثر من خمس عشرة بلدا عربيا وإدراكه الحقيقي لمدى الاختلاف الذي تقدمه السينما وبين الواقع الذي عاشه مع العرب المسلمين في أراضيهم يقول في ذلك": وهؤلاء يرتدون الملابس التقليدية والغربية واغلبهم مسالمون ولا يميلون للعنف فقراء وليسوا أثرياء. والغالبية العظمى منهم لا يعيشون داخل الخيام ولا يحيط بهم الحريم واغلبهم لم ير في حياته بئر بترول أو يمتطي الجمال ولا يوجد منهم من يستخدم البساط السحري في سلبياته. وأساليب حياتهم تجافي وتتحدى أي شكل من أشكال التنميط" (شاهين، 2003، صفحة 16).

ومن هذه الأفلام التي أعطت صورة إيجابية عن العرب المسلمين نجد:

أ- فيلم the vigilant(الحارس اليقظ): في هذا الفيلم كان العربي أو المسلم" فهوليود كما أشرنا تربط الإسلام بالعرب" هنا ذا دور فعال إيجابي؛ بتدخله في الوقت المناسب لإنقاذ بطل الفيلم الأمريكي.

ب- فيلم chandou: حاول هذا الفيلم أن يزيل بعض ما تروح له الأفلام الأخرى حول المرأة العربية التي تصور غالبا إما راقصة إما في لباس اسود مغطاه تكمل فقط المشهد واما إرهابية كما في فيلم موت قبل العار. لكن هذا الفيلم يصور المرأة العربية والمصرية تحديدا على قدر كبير من الجاذبية. وأنصف الفيلم العرب المسلمين بعض الشيء من خلال تصوير الوقائع والأماكن

ج- فيلم أسد الصحراء: أتى الفيلم على إبراز قوة العرب وثورتهم على الغازي المعتدي الفاشي، والذي يهزمونه دفاعا عن أرضهم.

د- فيلم العملة السابعة: يظهر الفلسطينيين بصورة إنسانية كأشخاص عاديين عكس ما أرادت هوليوود غالبا إظهاره

هـ- فيلم(روبن هود... أمير اللصوص): يخوض شخص مسلم عربي الحرب وفي صورة أفضل من عشرين فارسا إنجليزيا. ثم يقوم بمساعدة روبن هود بمواجهة شرور عمدة **توتينجهام**.

و- فيلم المحارب ال13: يقيم في هذا الفيلم باحث مسلم علاقة صداقة مع محاربين أوروبيين شماليين ويساعدهم في التصدي وهزيمة سكان الكهوف البدائية.

ز- فيلم Kingdom (مملكة السماء): عرض هذه الحروب الصليبية. ودخول صلاح الدين لفلسطين. وتم عرض مشهد تفاعل معه العرب المسلمون والمسيحيين، وهو حينما دخل صلاح الدين للكنيسة ووجد صليبا على الأرض فرفعه وأعاده للمذبح كنوع من التعايش وتقبل الآخر وعرض هذا الفيلم في دور السينما في لبنان وهذا المشهد قد جعل الجمهور يقف ليصفق. هذا يبين فعلا تأثير الصورة البصرية والصوتية على العقول. فكيف لا تفعل كل تلك الأفلام التي صورت العرب المسلمين بطريقة مكررة طيلة قرن، في أذهان الغرب والعرب على حد السواء. وما الهدف وراء هذا الإصرار سوى زيادة نسبة الهوة والتباعد.

ح- فيلم paradise Now (الجنة الآن): وهو فيلم بالعربية لمخرجه هاني سعد يشير للصراع الفلسطيني اليهودي ويعرض ثلاث شخصيات كل شخصية لها فكرها ورأيها في معالجة الحصار اليهودي على فلسطين. فيقرر الصديقان أن يدفعها بأنفسهما للموت في عملية انتحارية لعلهم يغيرون وضعهم هذا ولكن تتدخل صديقتهم ليعملوا عن هذا القرار لأنه لن يغير شيئا. بما أن القضية أكبر من ذلك بكثير وأن ما سيفعلانه يسمى انتقاما. فالفيلم لم يمل لأي من الرأيين هو فقط عرض تفكير الفلسطيني ورغبته في التحرر والتخلص من جور الصهاينة بطريقة الرد بالمثل أو بالقوانين الإنسانية.

-3صورة المسلمين العرب من خلال أفلام الكرتون:

تعتبر أفلام الكرتون خطابا نمطيا الايديولوجيا معقدا يختزل صوره فكريه باعتبارها لها قوه التأثير على المتلقي فالنص كيان متكامل له ذكاؤه الخاص وقوه التأثير على حد تعبير إمبرطو إيكو، فلها منهج مخطط على الجيل الجديد، تعمل على شحنه بالقيم التي لا تتناسب مع القيم الإسلامية خاصة وأن الطفل في مراحله العمرية الأولى يتخذ من شخصيات الكرتون الخيالية قدوة له في تصرفاته وسلوكياته. وقد وصلت الأفلام الكرتونية ذروتها من استخدام الوسائط التكنولوجية والإبداع الذي يجعل حتى الكبار مهووسين بمتابعتها وتتبع ما تطرحه. ومن بين الأفلام الكرتونية التي تحمل صورة الشرقي العربي المسلم نجد:

أ -فيلم علاء الدين: كما حدث سابقا مع النازية في تصويرها لليهود، وكما صورت أمريكا أعداءنا من النازين واليابانيين. وغيرهم ها هي تجعل العرب المسلمين قضيتها على الشاشة الفضية فكما فعلت ذلك في الأفلام لم تسلم الأفلام الكرتونية أيضا من هذا التوجه. فكما صورت طرزان في أرض السود للانتقاص من هؤلاء، سنجد الأمر نفسه موجها العرب المسلمين. من مثل ذلك فيلم علاء الدين والمصالح السحري والذي تبدأ شارته بالتعبير عن أرض العرب بكونها صحراء وأنهم يقطعون الأذن ولكنه يحبها لأنها أرضه، يرى جاك شاهين أن الأمر غير معقول بأن يقدم محتوى كرتوني بهذه الفضاضة والجرأة التي تسيئ إلى

الآخر. كما يصورون العرب بسيوف كبيرة وملامح شريرة يتربصون دوما ومستعدون دوما القتل تعطشا للدماء.





ب -الفيلم الكرتوني علي بابا: هو الآخر صور العرب على أنهم محل سخرية ومرجعا للضحك لا غير. فهذا الفيلم أيضا قدم العربي المسلم على أنه شخص لا عقل له مجرد مهرج يجعلك تضحك وتحتقره في الوقت عينه. بل يظهر أيضا قسوة العرب وبكونهم غلاظ جفاة لا رحمة فيهم ولا إنسانية.





وبهذا نقول إن صورة الشرق لازالت نفس الصورة من بداية ظهور السينما الصامتة والتي لم تتوانى منذ بدايتها في إعطاء هذا النمط الصورولوجي للعربي المسلم إلى اليوم. رغم وجود بعض الأفلام والجهود من طرف العرب في إزالة هذه الصورة الضبابية عن حقيقتهم وحقيقة قضاياهم وأرضهم . لكن يرى جاك شاهين أن نسبة 25 بالمائة هي ما توجهه هوليود من أفلام تتناول العرب في أكثر الأفلام تهجما وإساءة وهو يأمل أن تتغير هذه الصورة مع الوقت ولربما تحركت السينما العربية والإسلامية خاصة لمحو ومناهضة ما يروج حولها خاصة في عصر أصبحت السينما أكثر الوسائط إقناعا فتحمل الناس على تبني أفكارها التي تمر بها فحتى لو رأى بعدها الغربي ما يستدعي وقفة وتعاطفا إنسانيا فهو لن يفعل شيئا لأن السينما قد صورت خلفية لكل القضايا التي يراها الغربي وحتى العربي كل بلدان العالم بطريقة مختلفة بما يمكنها أن يخدم مصالح سياسة ذلك البلد . وعدم رد الاعتبار وإنتاج افلام بنفس ما تفعل هوليود هو ما زاد الأمر تعقيدا فكأنما العربي المسلم راض تماما بما يقال عنه وما يشار إليه به. فحتى أن الكتاب الذي جمع الأفلام الغربية ودرسها وبين حقيقة ما تسعى إليه هوليود هو جاك شاهين من امريكا الجنوبية والذي

أعرب عن أسفه نتيجة هذا التقبل الذي يفقد الصلات بين الشعوب ويقتل الروح الإنسانية ويوجهها توجيها خاطئا.

خاتمة:

في نهاية هذه الورقة البحثية نجمل بعض نتائج هذا البحث فيما يأتي:

_ تعتبر السينما الغربية وتحديدا الأمريكية من أكثر الوسائل اليوم في تحريك الرأي العام كما شاءت، فهي تخدر عقولهم وتجعلهم مغيبي التفكير فتأتي أحكام الشعوب الغربية تحديدا على الشعوب والبلدان المسلمة والعربية نتيجة هذا التأثر وبالتالي ذلك له تداعياته على مصالح الشعوب السياسية والاقتصادية والدينية...وهذا التمويه أضر قضايا إنسانية عدة في العالم الإسلامي خاصة القضية الفلسطينية التي صورتها وسائل الإعلام الغربية بطريقة لا تمت للواقع بصلة أبدا وجعل المجرم ضحية والضحية صاحب الحق قاتلا قلب الأحداث والمستجدات فظل العالم الإسلامي لدى الآخر محكوم عليه بصورة نمطية وجهت الإنسانية والحقائق لوجهة أخرى. فكم هي خطيرة السينما حينما تخدم مصالح أفراد على حساب شعوب وقضايا إنسانية عادلة.

_ تكمن قوة الإعلام والسينما الغربية في كونها منتشرة وتدلف البيوت جميعها وتجعل الوسيلة إلى ذلك الحبكة والتشويق والإثارة التي تبدع التقنيات الحديثة في إظهارها بخبرة وسلالة وذكاء.

_استطاع كتاب جاك شاهين أن يعيد النظر فيما تفرزه سينما الغرب " سينما هوليود" من خلال تصنيفه للأفلام الأكثر خطورة على عقول الجماهير العربية وعلى حتى المسلمين الذين راحوا ضحية هذه الصورة التي كانت أغلبها مهينة ودونية، فقد كان الكتاب لفتة ضرورية وحاسمة في تصفية الإعلام الغربي آملا لذلك المؤلف أن تكون هناك ردود فعل إيجابية للمسلمين في تصوير واقعهم من زاوية وشاشة أكثر شفافية وإظهارا لزيف ما تم تصويرهم عليه من الإعلام الغربي.

_ يحتاج المسلمون حقيقة سواء عربا أو من غير العرب أن يواكبوا ما يتم بثه غربيا وان يعوا جيدا الرسائل الموجودة خلف كل عمل، خاصة وأن الإعلام الغربي جعل من المسلمين هدفا ومنافسة وقوة إقليمية وعالمية يجب أن يتم محوها من خلال حرب إعلامية شرسة، والتصدي لها أكيد يكون بسينما إسلامية لا تقل تطورا وذكاء تقدم محتواها للعالم تصحيحا وإظهارا للأنا المسلمة، والتأكيد ومن دون شك أن ذلك سيكون فعلا فعالا جدا في إعادة الاعتبار أولا ثم رسم أبعاد لم يعهدها الغربي الذي يتلقى فقط من السينما العربية صورة الآخر ليتخلص من الصورة النمطية للمسلمين ويتهيأ لحقيقة أخرى قد تقلب موازين القضايا والعالم في مناحي عدة بداية بتشكيل جيل جديد لا يتبع الزيف السائد في السينما الغربية نهاية بإيجاد حلول لقضايا كثيرة تسبب الإعلام الغربي في تشويه حقيقتها والإصرار على خدمة مصالحه على حسابها.

وأخيراً نأمل أننا حاولنا أن نحيط بهذا الموضوع المتشعب والواسع ليبقى البحث مستمرا لكل من أراد البحث فيه وتقديم إضافات في هذا المجال.

توصيات :

-تعتبر الشاشة الفضية الهولوبودية تحديدا فتحا تكنولوجيا هائلا أدخل العالم بأسره في بوتقة الأحادية القطبية، فلا يتم النظر للعالم إلا من خلال ما أراده الغرب خاصة أمريكا.

- شكل الإسلام قوة كبيرة في منطقة الشرق الأوسط والعالم أسره، والخوف منه خوفان خوف سمي بإسلاموفوبيا ناتج عن تلك التنظيمات التي لا تصور الإسلام الحقيقي " التطرف والتزمت" والموجود في كل الديانات على كل حال...لكن اهتمام الإعلام الغربي بالإسلام ناتج عن الخوف الثاني وهو الخوف من قوة الإسلام كدستور حياة وقوته لو طبقت فعلا تعاليمه فلن يكون للغرب وجود في الشرق الأوسط فتنتهي مصالحهم نهائيا، لذا بات الهدف هو تشويه صورة الإسلام والمسلمين. ووضعهم في قفص الاتهام في كل القضايا السيئة.

_ السياسة والإعلام وجهان لعملة واحدة "هوليود" إنتاج سياسي دعما وترويجا ومتابعة وتمويلا. وتواطؤ مع القوة الاقتصادية الكبرى في العالم وهم اليهود، التي تبحث عن مصالحها في الشرق الاوسط بالتالي تعتيم كلي وتضليل للرأي العام حول القضايا الإنسانية العادلة وعكس الأدوار باستعمال أسرع الوسائل وأكثرها تأثيرا ومخادعة.

_ التنميط والإصرار على جعل العرب المسلمين مجرمين وأشرار وتصويرهم أغبياء وماديين... هي حرب إعلامية أعطتها السينما بعدها الخرافي والإثاري الذي يعزز ما تريد إقناع المشاهد به. فحتى بعض تلك الأفلام المنصفة للمسلمين تبدو أقل إيرادا في حين تستخدم كل الوسائل وتدفع ملايين الدولارات من أجل فيلم يروج لعداء المسلمين واحتقارهم وتمجيد الذات الغربية باعتبارها ممثلة للإنسانية والعدل. وتجد مبررا لحروبها على المسلمين فيتم التعاطف مع المجرمين وازدراء المظلومين. وهذا يزيد خطورة حينما تجاوز الشاشة والسينما فأصبح حقيقة. فلا أحد يتعاطف مع القضايا الإنسانية للمسلمين المسالمين. وهذا بسبب سعي السينما لذلك وتروج لليوم لذلك حتى في أفلام الكرتون التي تقدم للأطفال إعلانا عن استمرارية العداء والدعوة إليه إظهارا وإضمارا

_ لا يمكن تغيير صورة المسلم والإسلام عند الغرب إلا إذا عايش الغرب المسلمين وبعض أدرك حقيقة الأمر. ولكن الأغلبية لا يمكنها أن تحتك بالمسلمين وتكتفي بما يروج عنهم. والسبيل لتغيير الصورة هو صورة أخرى مناقضة يقدمها المسلم عن نفسه ويروج لها باعتبار السينما اليوم هي كل شيء ربما تأثيرها يتجاوز تأثير الصورة التي تصور الدمار وما يحصل في الوطن العربي في الإعلام العالمي بسبب الغرب وأطماعهم. نظرا لدمج العناصر التي تخدم غرض صاحب الفكرة وتطعيمها بزيف الصورة والألوان والموسيقى وتداخل الأحداث يجعل المتابع يصدق ما يراه. فعلى المسلمين أن يستيقظوا لأجل الدفاع عن قضاياهم بدءا بصناعة سينمائية ممتازة تسقط الزعم الغربي وتتبنى الحقائق والوقائع كما هي باستخدام فنيات السينما. وهذا يتأتى بجهد متكامل... لكن هل يفكر العرب المسلمون فعلا في ذلك وهل يمكن أن يتخلى بعض منهم عن مصالحهم مع الغرب لنصرة قضاياه القومية الإسلامية من أجل وطن عربي مسلم يقيم الشريعة الإسلامية ويشكل حضارة بتطبيق تعاليم الإسلام التي تنتظر تطبيقا فقط لفتح جديد وعالم أكثر سلام...

قائمة المراجع:

- إدوارد سعيد.. تغطية الإسلام وكيف تتحكم في الإعلام ويتحكم ..في بيئتنا لسائر بلدان العالم. (2005)، رؤية للنشر والتوزيع. (القاهرة).
- جاك شاهين. الصورة الشريرة للعرب في السينما الأمريكية. الجزء الأول. (4 4, 2003). المركز القومي للترجمة. (القاهرة).
- سليمان ميخائيل. صورة العرب في عقول الأمريكيين. (1987). مركز دراسات الوحدة العربية. (بيروت. لبنان).
- شاهين جاك. العرب الأشرار. شريط وثائقي. (4 4, 2022). تم الاسترداد من https:// Agezerra.net.
- ضياء الدين ساردار. الاستشراق. صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية. (2011). هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، كلمة. (أبو ظبي).
- كهينة أفروجين. الإسلام فوبيا في ظل الإسلام المكتوب. (جوان2017). مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، 275.
- مسلم سامي. صورة العرب في صحافة ألمانيا الاتحادية. (1986). مركز دراسات الوحدة العربية. (بيروت. لبنان).
- ميجان الرويلي. دليل الناقد الأدبي. المركز الثقافي العربي. (2002). المركز الثقافي العربي. (بيروت. لبنان).

الإصدارات الإعلامية لتنظيم الدولة (داعش) وتعامل الإعلام الغربي معها

Media of the ISIS and the Western Media's Dealings with it

ط/د. حميدي مصطفى، جامعة البليدة 2–لونيسي علي- الجزائر
hamidimustapha92@hotmail.com



لقد شهد العالم الإسلامي في الآونة الأخيرة انبعاثا للحركات التكفيرية المتطرّفة الّتي هزّت أمن العديد من الدول العربيّة والإسلاميّة صانعة بذلك العديد من التّحدّيات الأمنية والاقتصادية والاجتماعية، إذ تمكّنت هذه التّنظيمات الإرهابية من تشويه صورة المسلمين خاصّة أنّ العالم الغربي أحسن توظيف النّشاط الإعلامي الإرهابي لصالحه، وعليه في هذه الدّراسة سنتطرّق إلى أهمّ الوسائل والحيل الإعلامية الّتي اعتمدتها التّنظيمات المتطرّفة مشيرين إلى توظيف الإعلام الغربي لهذه الإصدارات الإعلامية بهدف خدمة أجندة سياسية خاصّة، مع إبراز ضرورة العمل على رد إذاعات الاعلام الغربي وقطع الطريق امام كل من يحاول ربط الارهاب الدولي بالدين الاسلامي وذلك لا يكون الا عن طريق توضيح صورة الاسلام الحقيقي المجسد في مبادئه واخلاقياته الراقية وتجريم وفضح وتعرية المنظمات الإرهابية وإسقاط اللباس الديني عنها.

الكلمات المفتاحية: التّطرّف، الإعلام الغربي، الإعلام الجهادي، التّحدّيات الأمنية.

Abstract:

The Islamic world has recently witnessed a resurgence of extremist takfirism movements that shook the security of many Arab and Islamic countries, thus creating many security, economic and social challenges, as these terrorist organizations were able to distort the image of Muslims,especially that the Western world has used terrorist media activity in its favour.

In this study, we will address the most important media means and tricks adopted by extremist organizations, pointing out to the Western media's use of these media publications in order to serve a special political agenda

Keywords Social Media, Jihadist Media, Security challenges, Western media



مقدمة:

لقد أصبحت وسائل تكنولوجيا الإعلام والاتّصال سلاحا فاعلا بامتياز في يد العالم الغربي وفي يد التّنظيمات المتطرّفة حول العالم على حدّ سواء، خاصّة بعد أن تحوّلت إلى إحدى أهمّ أدوات الجيل الرابع من الحروب، ومعارك السّيطرة على العقول والقلوب والتّأثير في الرّأي العامّ الدولي.

لقد أدركت الجماعات الجهادية أهمّية وسائل الإعلام في دعم مسيرتها الجهادية ونشرها بين أنصارها وهذا ما أكّده كبير منظّريها الدّكتور أيمن الظّواهري (عطوان، ما بعد بن لادن، 22، 2014) حيث صرّح في إحدى الإصدارات المرئية نشرت على موقع يوتيوب قائلا " إنّ أكثر من نصف هذه المعركة تجري على ساحات وسائل الإعلام بما يبدو أشبه بسباق لاستمالة قلوب الأمّة وعقولها»(أبو علي، وسائل الإعلام، 1427) .

ومن هنا يتّضح أنّ الحركات المتطرّفة أدركت القيمة الحقيقية للتّكنولوجيا الإعلامية بل إنّها لم تكتف بخاصّية استغلال الإعلام في نشر أفكارها، وإنّما تعدّتها إلى استخدام تكنولوجيا الاتّصال خاصّة بعدما فشلت في استخدام الطرائق التّقليدية السّرّية لتجنيد الشّباب بسبب الضّغط الأمني المتزايد، حيث اعترف أبو مصعب السّوري صاحب كتاب دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، بفشل طرائق التّجنيد التّقليدية قائلا: "فشل أسلوب عمل التّنظيمات السّرّية الهرمية في ظلّ الهجمة الأمنية الدّولية والتّنسيق الإقليمي، وعجز التّنظيمات السّرّية عن استيعاب كلّ شباب الأمّة الّذين يريدون أداء فريضة الجهاد والمقاومة بالإسهام بفعل ما دون الاضطرار للالتزام بتبعات الانتساب للتّنظيم المركزي"(أبو مصعب السّوري، دعوة المقاومة، 79، 2014).

وعليه قد مثّلت شبكات الاتّصال كالإنترنت ملاذًا آمنا لنشر أفكار التّطرّف، وتشكيل شبكات تجنيد عبر عمليات التّحفيز واستعطاف الشّباب من خلال ما يسمّى بالإعلام الجهادي"، ولعلّ أبرز تنظيم إرهابي تمكّن من استغلال العالم الرقمي الافتراضي هو تنظيم الدّولة الإسلامية المعروف بـ "داعش ."

ومن هذا المنطلق نطرح التّساؤل التّالي: ما هي أبرز محطّات تطوّر الإعلام الجهادي ومراحله؟ وما هي أهمّ المنابر الإعلامية المرئية والمكتوبة لتنظيم الدولة المستغلّ من طرف الغرب؟ وكيف استطاع الغرب توظيف هذا النّشاط الإعلامي لهدف تشويه صورة الإسلام والمسلمين؟ وما هو السّبيل لمكافحة هذه الظّاهرة؟

أولا- مفاهيم عامّة:

1- مفهوم التّطرّف: لغة: التّطرّف هو التّفعَل - بتشديد العين - من طرف يطرف طَرَفا بالتّحريك، وهو الأخذ بأحد الطّرفين والميل لأحدهما أي إمّا الطّرف الأقصى أو الطّرف الأدنى(الفيروز أبادي، المحيط، 83، 1989) ، أمّا اصطلاحا هو الغلوّ والتّعصّب في الأفكار كانت ذات مدلول ديني أو عرقي أو حزبي أو ما شابه.

والتّطرّف يدعو إلى تجاوز الحدّ المعقول، ومخالفة نصاب التّوازن، وعدم الاعتدال في السّلوك والتّصرّف، أو هو عدم التّسامح مع الغير كيفما كانت هوّيته وملّته ونحلته وطائفته المذهبيّة أو السّياسية أو الاجتماعية أو الدّينية(الشبل، الجذور التاريخية،8) ، وممارسة التّطرّف هو عمل غير مشروع دينيا، وغير مقبول قانونيا، لأنّه فعل إجرامي بامتياز قائم على التّرويع والتّرهيب والتّخويف والتّهديد والقتل الشّنيع، وقد حرّمته الأديان والمعتقدات السّماوية جميعها.

2- مفهوم الإرهاب: لغة: ومصدره رهب رهبا وأرهب إرهابا بالفتح والكسر، وهو الإخافة والتّخويف(الفيروزأبادي،92) أمّا اصطلاحا فيعرّفه الاتّحاد الأوروبي:" بأنّه الأعمال الّتي ترتكب لهدف ترويع الأهالي، أو إجبار حكومة أو هيئة دولية على القيام بعمل أو الامتناع عن القيام بعمل ما، أو تدمير الهياكل الأساسية السّياسية، أو الدّستورية أو الاقتصادية، أو الاجتماعية لدولة أو هيئة دولية، أو زعزعة استقرارها بشكل خطير ، وتشمل أعمال الاختطاف واحتجاز الرّهائن وإنتاج الأسلحة وحيازتها واستخدام المتفجّرات وإجراء أبحاث على أسلحة"(فليحان، استراتيجية التّنظيمات المتطرّفة،3).

ورغم تعدّد التّعريفات لمسألة الإرهاب إلّا أنّ جلّها يصبّ في مفهوم استخدام العنف غير المبرّر الّذي يسعى إلى الإضرار بالأشخاص أو الدّول والهيئات ولعلّ أبلغ مثال الهجمات الإرهابية الّتي شنّتها التّنظيمات المتطرّفة وعلى رأسها القاعدة وتنظيم الدّولة والّتي طالت الأخضر واليابس من الأهداف المدنيّة والعسكريّة.

ثانيا- الإعلام الجهادي ومراحل تطوّره:

منذ بداية ظهور جماعات الفكر الجهادي المتّطرّف، حرصت هذه الجماعات بدورها على امتلاك أدوات اتّصال وآليات مع جمهورها وأنصارها، والعمل على التّواصل لغرض حشد المتعاطفين أو المذبذبين من جمهور الرّأي العام، وقد مرّ الإعلام الجهادي بأكثر من مرحلة تطوّر أهمّها:

1 - منابر المساجد والدّروس الدّينيّة: حيث اقتصرت آليات التّواصل بين الجماعات ذات الأفكار الجهادية مع جمهورها من خلال الدّروس الدينية في المساجد عقب الصّلوات، وفي خطب الجمعة، وقد نشطت هذه الجماعات بشكل كبير من خلال هذه الأدوات البسيطة مستغلّة تأثير الحديث عن الدّين في عقول المتلقّيين لخطابها الدّيني المغلوط، لاسيما أنّ ظهورها قد تزامن مع حقبة من المشاكل السّياسيّة الّتي اجتاحت عددا من دول المنطقة كأفغانستان والجزائر في حقبة التّسعينيات ، حيث استخدمت المساجد والمجالس الدّينيّة منابر ترويجية للأعمال الإرهابيّة تحت غطاء فكرة فريضة الجهاد.
2- المنشورات السّرّية: وذلك من خلال العمل على إصدار صحف ومجلات محدودة الانتشار هي أقرب للمنشورات توزعّ بحرص على المتلقّيين، وكذلك من خلال انخراط أعضاء هذه الجماعات والمحسوبين عليها في أنشطة اجتماعية خدميّة للمجتمع المحلّي الّذي تنشط فيه، لهدف حشد متعاطفين ومؤيّدين

قاعدين – أي لا يمارسون الجهاد المسلّح، ولا ينتظر منهم الانخراط فيه-، وقد عُرفت الجماعات المصرية بهده المنشورات خاصّة عند جماعة الجهاد الإسلامي وجماعة الهجرة والتّكفير(الشّيباني، الحركات الأصوليّة، 273، 2008).

3- الإدارة الإعلاميّة: وقد كان أوّل ظهور لاستراتيجية إعلاميّة ذات ملامح واضحة لتنظيم جهادي، خلال عام 1988، عندما اتّخذ زعيم تنظيم القاعدة قرار إنشاء "إدارة إعلام القاعدة"، الّتي أطلق عليها فيما بعد اسم "الجناح الإعلامي" للتّنظيم، والّتي عنيت في ذلك الوقت بإصدار البيانات الصّادرة عن قيادات التّنظيم، وتعميمها على مختلف معسكراتها(أبو هنية، الجهادية العربية، 2018،144)

4 -**الاستعانة بشبكة الإنترنت:** كان سبق الظهور الأوّل لجماعة جهادية على شبكة الإنترنت من نصيب تنظيم القاعدة من خلال منتديات جهادية كبرى أنشأتها قيادات التنظيم، كوسيلة لنشر أفكار التنظيم في الفضاء الإلكتروني، والتغلّب على التضييق الذي بات يعانيه التنظيم على الأرض، كما أنشأ التنظيم مؤسّسة" السحاب للإنتاج الإعلامي2001م .

ثم مؤسسة الأندلس للإنتاج الإعلامي" عام 2009 الخاصة بفرعه في بلاد المغرب العربي أو ما يعرف بتنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، أمّا في العراق فقد نشأت مؤسّسة إعلامية جهادية سنة 2006م(جاسم، داعش والجهاديون الجدد، 2014، 72) والتي مثّلت الوجه الأوّل لتنظيم داعش، آنذاك كان يعرف باسم دولة العراق الإسلامية وكان هذا التنظيم خاضع رمزيا لتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين.

ثالثا- أهمّ مصادر الإعلام الغربي "الإصدارات الإعلامية لتنظيم الدولة الإسلامية":

تعدّ الإصدارات الإعلامية لتنظيم الدولة الإسلامية (داعش) إحدى أهم مصادر الإعلام الغربي حيث لا تخجل الآلة الإعلامية الغربية في توظيفها لتحقيق أعراض سياسية محددة، خاصّة وإن أدركنا أنّ الإعلام الدّاعشي سعى إلى إيصال رسائله لمختلف أرجاء المعمورة وذلك من خلال مؤسساته الإعلامية التالية:

1-**مؤسّسة الفرقان للإنتاج الإعلامي:** وهو أوّل الأجهزة الإعلامية التّابعة لتنظيم الدّولة الإسلامية، حيث تمّ تأسيسها في نوفمبر 2006 حينما كان التّنظيم تحت اسم الدّولة الإسلامية في العراق، تقوم مؤسّسة الفرقان بإنتاج مقاطع الفيديو، والملصقات، والنشرات، والبيانات الرسمية الصوتية والمكتوبة(صلاح، داعش والإدارة التوحش،2015، 84).

إصدارتها: وقد أصدرت المؤسّسة أكثر من 200 مقطع فديو إضافة إلى تسجيلات صوتية لقادة التّنظيم الإرهابي كما أنّ هده المؤسّسة أنتجت سلسلة من الإصدارات المرئية والّتي هي أقرب إلى الأفلام الهوليودية لكن بصبغة واقعية كالإصدار "قوافل الشّهداء" (جزءان)، و"دولة الإسلام باقية"، و"فرسان الشّهادة" (خمسة أجزاء)، و"حصاد المنهزمين في بلاد الرّافدين" لكن أشدّها شهرة سلسلة أفلام صليل

الصوارم المشكّلة من أربعة أجزاء حيث نال هذا الإصدار -الذي تميز بجودة الصورة والمؤثرات والشحن الدرامي، شهرة كبيرة بعد أن حقّق 56 ألف مشاهدة على موقع اليوتيوب خلال 24 ساعة من وضعه على الموقع(سلسلة صليل الصوارم، على الرابط، أُنظر المرجع).

حاول التّنظيم في هدا الإصدار استعراض قوّته العسكرية مستخدما سياسة تحطيم العظام عبر تصويره للعمليات الحربية من اقتحامات للثكنات العسكرية للجيش العراقي، وعمليات قنص ومعارك انغماسية وصور ومشاهد لتفجيرات انتحارية مع تصويره للجنود الأسرى وعمليات قطع الرؤوس وهذا يدخل ضمن سياسة ترهيب الأعداء وإخضاعهم لغرض الفوز في ميدان المعركة النفسية.

تم نشر هذا الإصدار في عدد من المواقع الغربية لهدف تعزيز فكرة مضلّلة مفادها أن الدافع الحقيقي لهذه الجرائم هو مشروع الإسلام السياسي الدموي.

2-مؤسسة الاعتصام للإنتاج الإعلامي:

وهي المؤسسة رقم اثنان بعد "الفرقان" استحدثها التنظيم بعد دخوله سوريا، ولها نفس مهام الوظيفية الإعلامية من حيث إنتاج الأفلام الوثائقية الجهادية ومن أهمّ إصداراتها المرئية "سلسلة نوافذ على أرض ملاحم"(سلسلة نوافد على أرض الملاحم،7، انظر المرجع) كما ركزت هده المؤسسة على نشر الخطاب الديني المتطرف القائم على التحريض وتكفير أنظمة الحكم ومؤسساته مع توعّده وتهديده بتنفيذ الأعمال الإرهابية، إضافة على ذلك اهتمت المؤسسة بمشاريع التجنيد والاستقطاب عبر الدعوة إلى الانضمام للساحات الجهادية وميادينها.

3-مركز الحـياة للإعـلام: من أهم وأقوى المؤسسات الإعلامية لتنظيم الدولة حيث إنه يعمل على استعطاف العناصر الجهادية واستقطابها من خارج النطاق العربي، إذ إنه ينتج أفلام ومجلات وأناشيد في الغالب تكون باللغات الأجنبية كالإنجليزية والألمانية والتركية والروسية(عبد الرحمان، داعش من الزنزانة،2015،201) من أهمّ إصداراته المرئية سلسلة "لهيب الحرب" (جزءان) لم تختلف كثيرا هذه السلسلة عن إصدار "صليل الصوارم" سوى أنها كانت باللغة انجليزية **مخاطبة العالم الغربي** وبطبيعة الحال فئة الشباب الغربي المسلم المتعاطف معه، كما أنه وثق هذا الفيلم الدعائي مشاهد تكشف لأول مرة العديد عن المعارك التي خاضها التنظيم خلال الأشهر الماضية على جبهات عدة (سلسلة لهيب الحرب، انظر المرجع)، حيث يقاتل ضد النظام السوري، والنظام العراقي، ويقاتل الجيش الحر، وجبهة النصرة، وأطياف قتالية أخرى ذات طبيعة مسلحة.

وجدير بالذكر إنّ أغلب الوكالات الإعلامية الغربية اعتمدت على الإصدارات المرئية لتنظيم الدولة لأجل صناعة أفلام وثائقية أو إعداد تقارير إعلامية أظهرت مدى وحشية هذا التنظيم الإرهابي رابطة هذه الأعمال بالإيديولوجية العقائدية وهي الإسلام ممّا يخلق خلطا عند المتلقي الغربي فيتسبب في تشويه صورة الإسلام.

رابعا- الإصدارات الإعلامية المكتوبة:

أنتج مركز الحياة للإعلام عددا من مجلات ناطقة بعدة لغات عرفت بأسلوبها الكتابي الراقي، وهنا يحاول التنظيم مخاطبة فئة العقلاء أو المفكرين من خلال طرح مشاريعه المستقبلية، وقد تمكن التنظيم بالفعل من استقطاب عدد معتبر من ذوي الكفاءات العلمية العالية كالأطباء والمهندسين...الخ.

1-مجلة دابق: وهي أوّل مجلة ورقية والكترونية للتنظيم، بدأ صدورها دوريا كلّ ثلاثة أشهر ثم أصبحت شهرية وتوزع مباشرة في مناطق سيطرة التنظيم ودوليا عبر البريد الإلكتروني، وقد صدر العدد الأول منها في النصف الأول من سنة 2014 بعنوان "عودة الخلافة"، وقد قيل إن التنظيم أخذ اسمها من لفظ ورد في قول النبي محمد صل الله عليه وسلم "لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق أو بدابق" وهذا يدخل في سياسة استغلال النصوص الشرعية لأجل تبرير إيديولوجيته (مجلة دابق، 7، انظر المرجع).

وتعنى الصحيفة في مجملها بالحديث عن إنجازات تنظيم الدولة وما قدمه ويقدمه للمسلمين والمشاريع التي يسعى لإقامتها، وتوعية الناس بإقامة شرع الله وحدوده في البلاد، وبقضايا الخلافة الإسلامية وأهميتها وأهدافها ودورها في إحقاق الحق، إضافة إلى شرح أسباب وجوب بيعة الناس وتوضيحها ضمن حدود الدولة الإسلامية وخارجها لخليفة المسلمين أبي بكر البغدادي.

ومن أبرز الأمور التي نشرها موقع المجلة (في 30 ديسمبر/كانون الأول 2014) حوار مع الطيار الأردني معاذ الكساسبة الطيار الأردني الذي أسره التنظيم بعد إسقاط طائرته في مدينة الرقة شمالي سوريا(الجزيرة، حوار الطيار الأردني، انظر رابط المرجع) قبل أن يبث التنظيم شريطا مسجلا لإعدام الطيار حرقا، كما نشرت المجلة في 18 نوفمبر/تشرين الثاني 2015 صورة قالت إنها للقنبلة البدائية الصنع التي تم بها إسقاط الطائرة الروسية فوق شبه جزيرة سيناء بمصر قبل ذلك بنحو ثلاثة أسابيع.

وقد قالت صحيفة بريطانية إن تنظيم الدولة يعرض "**مجلة دابق**" بنسختها الإلكترونية باللغة الإنجليزية على موقع أمازون المعروف عالميا منذ 24 ماي 2015، رغم أن المجلة تساعد تنظيم الدولة في تجنيد مقاتلين أجانب من الدول الغربية.

وهذا ما يطرح أسئلة عديدة حول تعاطي الدول الغربية الملتزمة بملف مكافحة الإرهاب في مثل هذه حالات، كما أوضحت الصحيفة أن أسعار المجلة بين 8 و29 دولارا أميركيا للنسخة الواحدة(louisa loveluck ,islamic state) ويمكن إيصالها إلى المشتري خلال يوم واحد، وأضافت أنها تتناول قضايا إسلامية وأخرى معاصرة وتنشر تقارير إخبارية سياسية واقتصادية ومقالات متنوعة وأنها تستخدم تقنيات عالية كي تصدر بطباعة فاخرة وبصور ملونة.

2- مجلة الرومية: هي مجلة إلكترونية دورية تصدر عن مركز الحياة للإعلام، ظهرت المجلة بعد وفاة أبي محمد العدناني ونشرت على الإنترنت بعدة لغات مختلفة منها **الإنجليزية والفرنسية والألمانية**

والروسية والإندونيسية والأردية الأويغور، ما يميز هذه المجلة أنها تستهدف مسلمي آسيا وتعمل على استقطاب شباب آسيوي بشكل عام وجماعات إسلامية متطرفة بشكل خاص ، وما يحسب للتنظيم أنه تمكن بفضل جهوده الإعلامية(Bethan McKernan, Isis' new magazine,2016) من ضم العديد من الجماعات المتطرفة إليه كانضمام جماعة أبي سياف الفيليبينية وإعلانها الولاء له.

كما حاول التنظيم المتاجرة في قضية مسلمي الأويغور المضطهدين من قبل الجمهورية الصينية الشعبية، مما أعطى فرصة إلى الآلة الإعلامية الصينية في محاولة منها إلى تبرير العنف المفرط اتجاه مسلمي الإيغور بدعوى أنهم مرتبطون بجماعات جهادية متطرفة كتنظيم الدولة.

3- مجلة القسطنطينية: هي مجلة ناطقة باللغة التركية نُشرت على الإنترنت من قبل مؤسسة الحياة للإعلام التابعة للتنظيم، والقسطنطينية هو الاسم القديم لمدينة اسطنبول وله دلالته الرمزية، تنشر المجلة رسائل ومقالات مضادة لحزب العدالة والتنمية وكذلك حزب العمال الكردستاني والحزب الديمقراطي التركي، كما أنها تسعى إلى استقطاب الشباب التركي مستغلة القرب الجغرافي بين معاقل التنظيم وتركيا(مجلة القسطنطينية، 3، انظر رابط المرجع).

4- مجلة المنبع: هي مجلة تصدر باللغة الروسية على شبكة الإنترنت، يقوم بنشرها مركز الحياة للإعلام التابع للتنظيم تنشر المجلة أخبار المعارك والعمليات التي يقوم بها التنظيم، وكان من بين مواضيعها العملية التي تبناها التنظيم وهي إسقاط الطائرة الروسية في سيناء والتي تسببت في مقتل أكثر من 200 سائح روسي، كذلك عملت المجلة على دعوة المسلمين في القوقاز(مجلة المنبع،4،انظر رابط المرجع) إلى الجهاد ضد روسيا والانضمام إلى ولاية القوقاز التابعة لتنظيم بعدما نجح التنظيم في اختراق المجموعات الجهادية الشيشانية والداغستانية وإلحاقها بتنظيمه الإرهابي وهذا ما يسمى بدعشنة المقاومة القوقازية.

5-مجلة دار الإسلام: وهي مجلة تصدر باللغة الفرنسية تنشر أعمالها على الشبكة الرقمية تستهدف الشباب الفرنسي المسلم محاولات استقطابه، تنشر مقالات حول تجربة الشباب الفرنسي مع تنظيم الدولة إذ ثبتت شهادات لفرنسيين شاركوا في أعمال قتالية في سوريا والعراق، كما أنها تعلق على الهجمات والأعمال الإرهابية التي وقعت في فرنسا، وقد استغل الإعلام الفرنسي هذه المجلة لأجل نشر الدعاية المغرضة اتجاه الإسلام والمسلمين، وأعطى نفسا إضافيا للأحزاب اليمينية المتطرفة.

6- مؤسسة الأجناد للإنتاج الإعلامي: هي مؤسسة إعلامية جهادية كان ظهورها في 2014 اهتمت بالإصدارات الصوتية الدعائية من أناشيد الجهادية الحماسية (مجموعة مؤلفين، جماعة العنف التكفيري، 233،2006)، وقد أنتجت العشرات من الأناشيد التي لها طابع تحفيزي تحريضي تعمل على تحميس مقاتلين في ساحات المعارك -ففي إحدى المقاطع المنتشرة على يوتيوب فيديو يظهر إنشاد أحد مقاتلي داعش وهو مختبئ خلف إحدى دبابات التنظيم خلال معارك كوباني الشهيرة- كما أنها تستقطب الأنصار والمتعاطفين مع التنظيم، ومن أشهر الأناشيد الجهادية التي بثتها مؤسسة الأجناد: " رابط وصابر

يا همام"، "حياة الذل لا أرتضيها"، "نهضنا نهضنا"، "لله در معسكر الأبطال"(أناشيد، الإنتاج الإعلامي، انظر رابط المرجع).

7- وكالة الأعماق الإخبارية: هي وسيلة الإعلام تقوم بمهمة وكالة الأنباء الرسمية للتنظيم، كان أول ظهور لها كان في أوت 2014 م خلال معارك عين العرب –كوباني-، وهي أشهر المواقع التابعة للتنظيم رسميًا(وكالة أعماق، انظر رابط المرجع) ومهمتها نشر أخبار التنظيم السياسية والعسكرية على مدار الساعة، وبثّ تسجيلات مصورة لمعاركه وما يتعلق بها، ورسومات بيانية إخبارية (إنفوغراف) توضح "إنجازاته" الميدانية.

كما أنها تؤكّد أو تنفي تبني التنظيم لهجماته في الدول الأخرى، وهي معتمدة عند أغلب والكالات والمؤسسات الإعلامية العالمية خاصة الغربية، إذ ينقل عنها كل من رويتز والجزيرة وbbc البريطانية وفرنسا24 وهذا يعود إلى مصداقيتها إلى حد ما، وفي هذا يشير الصحفي في قناة فرانس24 وسيم نصر قائلا "إن عمل هذه الوكالة يتمثل في التمسك بالحقيقة الواقعية، فعندما تخسر، هي نادرا ما تتحدث عن ذلك، ولكنها لا تعطي معلومات كاذبة للحفاظ على مصداقيتها مع جمهورها".

وعليه إن "أعماق" بمثابة وكالة أنباء تنشر برقيات واقعية جدا للحديث عن "مقاتلي تنظيم الدولة"، ولا تهدف إلى إثارة تعاطف الجمهور، وهذا ما يعزز مصداقيتها ويعطي انطباعا أن هذا التنظيم يخاطب الجميع الأعداء والأنصار وحتّى الصحافة العالمية التي من المفترض أنها حيادية في هذا الصراع (جاسم، الاستخبارات الأوروبية،177،2018).

خامسا-مو اقع التواصل الاجتماعي:

لا يكتفي التنظيم باستخدام مؤسساته الإعلامية المختلفة في نشر أفكاره المتطرفة واستقطاب جموع الشباب بل يتعداه إلى استغلال منصات التواصل الاجتماعي (فيسبوك- التويتر -انستغرام...).

1 -الفيسبوك Facebook: يعدّ الفيسبوك من أهمّ وسائل التواصل الاجتماعي استخداما في عملية استقطاب الجهاديين وتجنيدهم، حيث تبدأ عملية الاستدراج الفكري للمتعاطفين مع التنظيم ، بعدها يتم توجيههم إلى المواقع والمنتديات المرتبطة بالتنظيم كمنبر التوحيد والجهاد، مما يمكّن ويسهّل على التنظيم تجنيد أعضاء جدد(مواقع التواصل الاجتماعي،2019) من كافة أنحاء العالم خاصّة وأن هذا التنظيم تجاوز كامل العقبات اللغوية والثقافية بفضل اختلافات عناصره العرقية (عرب- أكراد- تركمان- اوزبك – ألمان...) المتحدة في أفكاره الإيديولوجية المتطرفة.

2-التويتر Twitter : يعتمد تنظيم الدولة على موقع تويتر بفضل خاصيته المتسمة بالعمومية وسهولة التدوين مباشر وبث التغريدات، فعلى سبيل المثال يستقطب التنظيم على موقع تويتر عددا هائلا من المغردين.

ويقدر مراقبون غربيون حساباته على هذا الموقع بـ12 ألف حساب تويتر. ويستخدم مغردوه الوسوم (الهاشتاغات) الأكثر رواجا على تويتر لبث دعاياته، كما حدث عندما استغلوا وسم (هاشتاغ) كأس العالم في البرازيل عام 2014 (#Brazil2014) في التغريد برسائل رآها كل متابع لذلك الوسم حتى ولو لم يكن مؤيدا للتنظيم.

حيث إن التنظيم على دراية كبيرة بوسائل التواصل الاجتماعي وكيف يتم استغلالها(تويتر وتنظيم الدولة، 2019) وتفاوت استخدام هذه الوسائل بحسب الأوساط الاجتماعية، فهم مثلا يستخدمون تويتر في الخليج بينما يوظفون فيسبوك في سوريا، كما يستغلون في أمريكا التويتر أكثر من الفيسبوك لأن انتشار الأول هناك أقوى من الثاني(دابق واعماق، 2019) وهذا يدل على قدرة التنظيم التحليلية لمنصات التواصل الاجتماعي وحسن تعاطيه معها.

3- موقع اليوتيوب youtube: استغل التنظيم منصات موقع اليوتيوب الخاص بنشر مقاطع الفيديو لأجل تمرير خطابه الدعائي لهدف التعريف عن نفسه والتسويق الذاتي، مستغلا الثغرات الأمنية والاحترازية لهذا الموقع حيث إن نظام المراقبة على اليوتيوب يتم بعد وضع الفيديوهات على الموقع مما يمكن للمشاركين المتعاطفين أو الأنصار بتحميلها مباشرة قبل الحذف.

كما يسهم الموقع في نقل التجارب العسكرية مثل طرق صناعة القنابل واستخدام الأسلحة،(فالح، 6) وقد رصد دراسات دولية مختصة في شؤون الجماعات الإرهابية أنه ما بين عامي 2014و2015 أنتج التنظيم أكثر 15 ألف وثيقة دعائية من بينها 845 فيلم وثائقي وهذا العدد كبير قد تعجز عن إنتاجه أكثر من بعض الدول العربية، وهذا ما يسمى بسياسة استثمار ضعف الخصم الإعلامي القائم على استغلال الفراغ الإعلامي المعارض لتنظيم الدولة حيث إن تعاطي الإعلام العربي مع التنظيم لايزال ضعيفا وهزيلا وروتينيا مقتصرا على حصره بظاهرة الإرهاب والإسلاموفوبيا.

أما عن الإعلام الغربي فيبدو لي أنه متورط إلى حد كبير حيث يلاحظ أي متتبع لحالة التناقض عند العالم الغربي الذي يزعم محاربة هذه التنظيمات الارهابية إذ إنه يسمح لهذه التنظيمات الإرهابية بالتمدد في مواقع التواصل الاجتماعي ومنصّاته التي يفترض أنها مملوكة لشركات غربية.

رابعا- **تعامل الإعلام الغربي مع الإصدارات الإعلامية الإرهابية:**

تعمل الآلة الإعلامية الغربية على تشويه صورة الإسلام والمسلمين من خلال ربط العمليات الإرهابية التي تقوم بها الجماعة الإسلامية المتطرفة بالرسالة الإسلامية وذلك عبر تقديم الإصدارات الإعلامية الإرهابية إلى المتلقي الغربي دون أي حرج حيث يسهم الإعلام الغربي في نشر الدعاية الإرهابية مما ينتج عنه أثر عكسي عند المجتمعات الغربية غير المسلمة ويعزز ظاهرة الإسلاموفوبيا، ومن أهم وسائل الدعاية الإعلامية الغربية نذكر:

1– **القنوات الإعلامية :** من أهم القنوات الإعلامية الغربية التي سلطت الضوء على نشاط الحركات الجهادية المتطرفة **قناة VICE NEWS** وهي قناة إعلامية أمريكية كندية تابع لشركة **فايس ميديا** مختصة في إنتاج الأفلام الوثائقية التي تتحدث عن الجماعات الإرهابية والمتمردة في كامل دول العالم، إلا أنها في الآونة الأخيرة ركزت أعمالها على الحركات الإسلامية الجهادية، فنجد العديد من الإنتاجات كان أشهرها،(VICE NEWS, Hind Hassan , 2014)الفيلم الوثائقي الذي أنتج سنة 2014 والذي حمل عنوان **THE RISE OF ISIS (صعود داعش)** في هذا الفيلم الوثائقي نجد أن هذه القناة نجحت في التوغل إلى أرض الواقع تحت سيطرة داعش في تلك الفترة 2014 كالموصل والرقة وعرضت أهم الأحداث الجارية هناك من العمليات القتالية، إلى إعدامات ميدانية تحت شعار تطبيق الشريعة الإسلامية على الطريقة الداعشية، كما أنها اعتمدت في تقديم مادتها الإعلامية على توظيف إصدارات إعلامية لتنظيم الدولة (داعش) كإصدار صليل الصوارم، كذلك التقت هذه الوكالة الإعلامية بعدد من القادة الميدانيين لتنظيم داعش الإرهابي وعرضت وجهات نظرهم والتي كانت في الغالب رسائل تجسد منهج الراديكالي المتطرف الذي يتوعد فيها الحكومات والمجتمعات الغربية على حد سواء بالخراب والقتل.

هذا الفيلم الوثائقي كان أحد أهم الأدوات الإعلامية التي استخدمها الغرب لأجل تعزيز فكرة إرهاب الإسلام، حيث إنه عرض على أكثر من قناة تلفزيونية غربية، كان أشهرها قناة **BBC** الدولية وباللغات المختلفة(bbc,جيم موير،2014) وقد بلغ عدد المشاهدات في منصات اليوتيوب إلى أكثر من ثمانية ملايين مشاهد أغلبهم من الدول الغربية(انظر رابط المرجع)، أي بمعنى أدق كان له بصمة واضحة في رسم صورة الإسلام عند المجتمعات الغربية والتي هي في حقيقة صورة مشوهة عن الإسلام تم تخريجها من منابع إعلامية غربية مضللة.

سادسا- مراكز الدراسات الغربية:

تعمل هذه المراكز المتخصصة في رصد نشاطات الجماعة الإرهابية على خلط الكثير من المفاهيم حيث إنها ستسقي مادتها الأولية من الإصدارات الإعلامية للجماعة الإسلامية المتطرفة التي تتحدث باسم الدين الإسلامي، كذلك مما يلاحظ أن هذه المراكز لا تميز بين المقاومات الشعبية الشرعية التي تدافع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها كالمقاومة الفلسطينية بمختلف فصائلها، وبين الجماعات الجهادية التكفيرية ومن أشهر هذه المراكز نذكر:

1- **مركز مجموعة سيات للاستخبارات SITE Intelligence Group :** وهي عبارة عن شركة ربحية تضم مجموعة بحثية مختصة في تتبع الكيانات الإرهابية مقرها بمدينة بيثيسدا ولاية ميرلاند الامريكية تهتم برصد الجماعات اليمينية التي تدعو إلى سيادة البيض، إلا أن اهتمامها الأكبر هو تقصي أخبار ومعلومات الجماعات الإسلامية المتطرفة، مادتها الأولية في ذلك الإصدارات الجهادية الخاص بالداعش أو القاعدة أو

الحركات الإسلامية الأخرى، يعمد هذا المركز على الربط بين المقاومات الإسلامية الشرعية التي تدافع عن حقوق الشعوب المحتلة كالشعب الفلسطيني والتنظيمات الارهابية، (Rukmini Callimachi ,2017 ,newyorktimes) محاولا منه ايصال رسالة اعلامية مضللة الى المتلقي الغربي مفادها ان النضال الفلسطيني لا يخرج عن بوتقة الارهاب الاسلامي الدولي.

وقد يبدوا هذا منطقيا ان أدركنا ان مؤسس هذا المركز هي **ريتا كاتز** المرأة إسرائيلية صهيونية معادية للامة العربية والاسلامية رغم انها من اصول عراقية (يهود العراق) الا انها اشتهرت بمعاداتها للمجتمعات الاسلامية في الولايات المتحدة الامريكية، كما انها تسببت في ايقاف عدد من الجمعيات الاسلامية في الولايات المتحدة الناشطة في العمل التبرعي الخيري الداعم للقضية الفلسطينية، بحجة ارتباط هذه الجمعيات مع حركات مسلحة في فلسطين، كما ان هذه المحللة الإسرائيلية لها العديد من المقالات المنشورة في مجلات مرموقة كمجلة نيويورك تايمز تهاجم فيها القضية الفلسطينية وتحاول ربطها بالإرهاب العالمي.

2- **مركز GTD:** المعروف بقاعدة البيانات الإرهاب العالمي (**The Global Terrorism Database**) وهي عبارة عن قاعدة للبيانات مفتوحة المصدر تتضمن معلومات عن الهجمات الإرهابية المحلية والدولية في جميع أنحاء العالم من عام 1970 حتى عام 2019 ، وتشمل الآن أكثر من 200000 حادث إرهابي ، تتوفر معلومات عن تاريخ ومكان الحادث، والأسلحة المستخدمة وطبيعة الهدف، وعدد الضحايا، وعن الجهة المسؤول(Overview (Global Terrorism ,.2022).

كذلك هذا المركز يعاني من عمى الألوان بحيث انه لا يميز بين الاعمال القتالية المشروعة (المقاومات الشعبية) وبين الحركات الإرهابية بحيث يعتبر ان أي كيان معادي للعالم الغربي هو عبارة عن كيان إرهابي حيث يدرج حركات المقاومة الفلسطينية واللبنانية والافغانية في قائمة الجماعات الإرهابية وهذا بحد ذاته يعد تضليل اعلامي معلوماتي.

3- **مركز جهاد واتش** (***Jihad Watch***)***:*** هو أحد اهم مراكز رصد الحركات الجهادية يديره روبرت سبنسر المشهور بمعاداته للإسلام والمسلمين خاصة وانه يعتبر احد اهم كوادر منظمة(SIOA) (أوقفوا أسلمة أمريكا) المنظمة اليمينية المتطرفة الداعم لنشاط الاحتلال الصهيوني(robertspencer, Jihad Watch,2019).

يعمل هذا المركز بشكل متعمد وصريح على تشويه صورة الإسلام والمسلمين بحيث انه يعتبر ان الخلل الحقيقي ليس في الجماعات الإرهابية بل في الإسلام بحذ ذاته، اذ انه يروج لفكرة ان الإسلام يدعوا الى الإرهاب والشمولية يستغل هذا المركز الخطاب الديني المتطرف

المنشور في الإصدارات الإعلامية لتنظيمات المتطرفة كتنظيم داعش من اجل ان يعزز نظرياته المتآمرة والحاقد على الدين الإسلام.

سابعا-سبل وطرق مكافحة الارهاب الاعلامي والإسلاموفوبيا الغربية:

من اجل هزيمة اعلام الغربي العالمي لابد لنا من تجفيف منابع ودوافع الاعلام الغربي وذلك لا يتأتى الى عن طريق قضاء على التنظيمات الارهابية التي تروج الاسلام المشوه في الاوساط العالمية، وهزيمتها في هذا الجانب يتطلب جهود حقيقة في أكثر من محور(هزيمة عسكرية- فكرية- اقتصادية- إعلامية).

1- على المستوى العسكري: إن القضاء على القدرات الإعلامية لتنظيم مرهون بالتحرك العسكري إذ لابد من تحطيمه وهزيمته واقعيا في ساحات المعارك وميادين القتال، وحقيقة إن هذا الأمر قد تحقق بفضل الجهود الدولية من خلال ما يسمى التحالف العسكري الدولي لمحاربة داعش.

فبعدما كان تنظيم يسيطر على أجزاء واسعة من العراق وسوريا والتي كانت مساحتها أكبر من حجم المملكة البريطانية، ها هو اليوم محاصر في قرى وبوادي نائية، وهذا نجاح قد تأتى بفضل التنسيق الجوي والبري إذ تمكنت القوات العراقية المدعومة بمليشيات الشيعة (شبكة الجزيرة،2019) من هزيمة التنظيم وإخراجه من معاقله وطرده نحو البوادي.

أما في سوريا فيعود الفضل إلى المليشيات الكردية "كقوات سوريا الديمقراطية" التي تحدت وصمدت في وجه التنظيم الإرهابي مدعومة بطيران التحالف الدولي، الذي عمل على استهداف مقاتلي التنظيم ونسف آلياتهم الحربية.

وبطبيعة الحال إن الهزيمة العسكرية الميدانية جعلت التنظيم يخسر العديد من استوديوهاته ومقراته الإعلامية التي كانت تتواجد في مدن وقرى التي كان قد أخضعها سابقا، مما جعل قدرته إنتاجية في المجال الإعلامي تقل وتتراجع، وهذا ما أكده أحد المسؤولين الأمريكيين في بيان نشرته جريدة المدن قوله: "كانت جهودنا ناجحة في هزيمة الخلايا الإعلامية لتنظيم داعش وقمنا في سوريا باستهداف أعضاء التنظيم الإعلاميين وبنيتهم التحتية وإمكانياتهم كما أن المنشورات متعددة الوسائط التي كان ينتجها التنظيم تأثرت بشكل رئيسي، وسمى عدداً من المنشورات التي توقفت، مثل "دابق" و"القسطنطينية" باللغتين الإنجليزية والتركية"(داعش, جريدة المدن,2019).

لكن رغم هذه الهزائم وخسائر التي تكبدها التنظيم ستبقى الأذرع الإعلامية للتنظيم مستمرة في العمل على مستوى أصغر وخارج مناطق الصراع من أجل ضمان مرونتها، بالإضافة إلى أن الفكر المتطرف الذي يدفع مقاتليه ومؤيديه للقتال حتى الموت(موقع العربي، 2019) هو ذاته الذي يحرك العمليات

الإعلامية، فيما انتقل الإعلام الداعشي للترويج عبر الزوايا المظلمة في الإنترنت، إلى أن "داعش" فكرة والفكرة لا تموت، في تحد للحرب المستمرة على الإرهاب.

2- على المستوى الإعلامي: لا تقل المعركة إعلامية عن الجبهات الحربية الميدانية حيث وجب استغلال المنابر الإعلامية الشبابية التي لها حضور ومتابعين كثر على مواقع التواصل الاجتماعي، من خلال طرح برامج تعالج قضية إيديولوجية لتنظيم داعش وتحذر من اعتناق أفكاره، موضحا مواطن الضعف والخلل والقصور الفكري للتنظيم وهذا يتحقق من خلال تكاثف كامل، حيث لابد من الاستعانة برجال الدين وعلماء في العلوم الشريعة يعملون على رد الفتاوى التكفيرية الجهادية بالبرهان والدليل الشرعي(موقع مسلم،2019).

كذلك تعاطي البرامج التلفزيونية الثقافية الساخرة التي تشرح أفكار الداعشية بطريقة فكاهية(الشباب العربي، 2019) هزلية حيث أنها ستقزم حجم تنظيم الدولة في عقول الشباب.

-تعرية تنظيم الدولة وتفنيد خطابه الإعلامي من خلال كشف عن حقائق المرعبة التي تعكس الوجه الحقيقي لداعش وهذا يكون عن طريق بث شهادات حية لضحايا التنظيم والهاربين من ظلمه، فعلى سبيل المثال إشارة إلى مجازر التنظيم في مدينة الرقة ودير الزور كمذبحة قبيلة الشعيطات التي راح ضحيتها أكثر من 800 شخص بعد إصدار التنظيم قرار وحشي وهمجي بقتل كل من هو فوق 14 عاما(ناجون، الحياة، 2019) وقد وثق التنظيم بنفسه تلك الإعدامات الجماعية شاهدا على قبح سريرته وفظاعة أعماله(موقع العربية، انظر رابط المرجع) هذه شهادة ستكون لها قدرة على خلق صورة بشعة عن تنظيم في نفوس الشباب بل ستجعل أنصاره يعيدون نظر في مسألته.

-العمل على رد إذاعات الاعلام الغربي وقطع الطريق امام كل من يحاول ربط الارهاب الدولي بالدين الاسلامي وذلك لا يكون الا عن طريق توضيح صورة الاسلام الحقيقي المجسد في مبادئه واخلاقياته الراقية.

خاتمة:

تمثل الحركات الإرهابية المتطرفة تحديا حقيقيا للسلم العالمي والدولي، ويزيد من خطورتها قدرتها على المناورة والمرونة العالية في التعامل مع مختلف الظروف والضغوط، حيث نجحت هذه التنظيمات إلى حد ما في تعلم طرق التأقلم والاستفادة الجيدة من مختلف المعطيات المتاحة، كحالة تنظيم داعش في استثماره الجيد في تكنولوجيا الإعلام والاتصال، مما جعل هذا التنظيم أداة جيدة ومميزة لنشر الدعاية المغرضة ضد الإسلام والمسلمين التي يسعى الإعلام الغربي ومن يقف خلفه إلى ترويجها للعالم، وعليه وجب على كل المنابر الإعلامية العربية والإسلامية قطع الطريق أمام هذه الظاهرة من خلال إبراز الصورة الحقيقية للإسلام، تجريم وفضح وتعرية المنظمات الإرهابية وإسقاط اللباس الديني عنهم ، حيث إن

الأفكار الإرهابية لا تعترف بدين ولا بعرق همها الوحيد تنفيذ مشاريعها الظلامية المتطرفة التي تنم على خلل في ذهنياتها النفسية، كذلك وجب على المجتمعات الإسلامية التي تعيش في الغرب أن تراقب سلوكها الاجتماعي داخل هذه البيئة حيث إنهم يعدّون السفراء الحقيقيون للإسلام في البلاد الغربية.

قائمة المراجع:

- أبو مصعب السوري، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، (2004) منشور على انترنت، ص 1379.
- الفيروز ابادي، قاموس المحيط، (1998) تحقيق، محمد نعيم العرقوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 831.
- علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب والعنف، منشور على الأنترنت (دت) ص 8.
- فالح فليحان، استراتيجية التنظيمات المتطرفة في التجنيد عبر الانترنت، (2018) جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، ص3.
- رضوان أحمد الشيباني، الحركات الأصولية الإسلامية في العالم العربي، (2006) مكتبة دبولى، القاهرة، ص 273 .
- حسن ابو هنية، الجهادية العربية اندماج الأبعاد: النكاية والتمكين بين الدولة الإسلامية وقاعدة الجهاد،(2018) المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ص 144.
- جاسم محمد أسد، داعش والجهاديون الجدد، المكتبة العربية، (2014) بيروت،ط1، ص72.
- صلاح عبد الحميد، تنظيم داعش وإدارة التوحش، أطلس لنشر والإنتاج الاعلام، الجيزة، (2015) ص84.
- سلسلة صليل الصوارم،ج2، متاحة على الرابط التالي : https://archive.org/details/for.sal.3.original.quality.part2
- سلسلة نوافذ على أرض ملاحم، ج7، متاحة على الرابط التالي : https://archive.org/details/nawafid-7
- احمد عبد الرحمان مصطفى، داعش من زنزانة إلى الخلافة، (2015) دار الحروف منثورة للنشر الإلكتروني، مصر، ص 201.
- سلسلة لهيب الحرب، ج1، متاح على الربط التالي : https://archive.org/details/FLAMSOFWAR011
- -مجلة دابق، عدد 7، متاح على رابط التالي : https://azelin.files.wordpress.com/2014/07/islamic-state-22dc481biq-magazine-122.pdf

- الجزيرة، حوار للطيار الأردني الأسير مع مجلة لتنظيم الدولة، الرابط الموضوع : https://www.aljazeera.net/news/arabic/2014/12/30/حوار-للطيار-الأردني-الأسير-مع-مجلة-لتنظيم-الدولة
- مجلة القسطنطينية، عدد3، متاح على الرابط: https://archive.org/details/Al-Hayat_Medya-001
- مجلة المنبع، عدد 4، متاح على الرابط https://archive.org/details/abu_idrees_tutanota_44 :
- مجموعة مؤلفين، جماعات العنف التكفيري: الجذور البنى العوامل المؤثرة، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط 1، 2006، ص233.
- كل أناشيد مؤسسة أجناد للإنتاج الإعلامي على الربط التالي : https://archive.org/details/hadmaswar_tutanota_20151128
- وكالة أعماق الإخبارية، موقع الرسمي متاح على الرابط التالي http://www.a3maqpress.gq :
- جاسم محمد، الاستخبارات الأوروبية معالجة ناقصة لظاهرة المقاتلين الأجانب، المكتب العربي للمعارف، القاهرة، ط2018،1م، ص 177.
- مواقع التواصل الاجتماعي آلية التجنيد الأسرع، موقع الوطن، تم الاطلاع عليه في مارس 2019م، https://www.elwatannews.com/news/details/3712753
- تويتر وتنظيم الدولة... سلاح ودعاية وتجنيد، شبكة الجزيرة، تم اطلاع عليه في مارس 2019م، https://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2015/3/24/تويتر-وتنظيم-الدولة-سلاح-ودعاية-وتجنيد
- "دابق" و"أعماق"... أذرع إعلامية لتنظيم الدولة، شبكة الجزيرة، تم اطلاع عليه في مارس 2019م، https://www.aljazeera.net/encyclopedia/issues/2015/12/15/-دابق-و-أعماق-أذرع-إعلامية-لتنظيم-الدولة
- أبرز فصائل الحشد الشعبي في العراق، شبكة الجزيرة، تم اطلاع عليه في مارس 2019م، https://www.aljazeera.net/encyclopedia/military/2017/10/23/أبرز-فصائل-الحشد-الشعبي-في-العراق
- داعش" يخسر معركة الإعلام أيضاً"، جريدة المدن، تم اطلاع عليه في مارس 2019م، https://www.almodon.com/media/2019/2/27/داعش-يخسر-معركة-الإعلام-أيضا
- داعش الفكرة التي لم تمت، موقع العربيtrt ، تم اطلاع عليه في مارس 2019م، https://www.trtarabi.com/opinion/داعش-الفكرة-التي-لم-تمت-16038
- فتوى العلماء في "خلافة داعش"، موقع مسلم نت، تم اطلاع عليه في مارس2019م، http://almoslim.net/node/213696

- الشباب العربي يرد على تطرف "داعش" بالسخرية، موقعmade for mind ، تم اطلاع عليه في مارس2019م، https://www.dw.com/ar/الشباب-العربي-يرد-على-تطرف-داعش-بالسخرية-a/17884489
- ناجون من مجزرة، صحيفة الحياة، تم اطلاع عليه في مارس2019م، http://www.alhayat.com/Articles/4871694
- فيديو يظهر انتهاكات داعش بحق الشعيطات في دير الزور، موقع العربية، تم اطلاع عليه في مارس 2019م، https://www.alarabiya.net/ar/arab-and-world/syria/2015/01/13/فيديو-يظهر-انتهاكات-داعش-بحق-عشيرة-الشعيطات-في-دير-الزور.html
- Louisa Loveluck, Islamic State magazine sold on Amazon, https://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/islamic-state/11657251/EIslamic-State-magazine-sold-on-Amazon.html
- Bethan McKernan, Isis' new magazine Rumiyah shows the terror group is 'struggling to adjust to losses', independent, 2016-09-06 , https://www.independent.co.uk/news/world/middle-east/isis-propaganda-terror-group-losses-syria-iraq-a7228286.html

البروباغندا" في خطاب المنظمات الدينية الغربية تجاه الدول الإسلامية: دراسة حول دور الهيئات الكنسية العالمية في دعم انقسام السودان

"Propaganda" in the Discourse of Western Religious Organizations towards Islamic Countries: a Study on the Role of International Church Bodies in Supporting the Division of Sudan

ط/د. مصطفى بشراوي، جامعة الجزائر 03 -الجزائـــر
bacharmust@gmail.com



تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على الدور الخفي للهيئات الكنسية العالمية في دعم انقسام السودان. وقد توصلت الدراسة إلى أن المؤتمرات والندوات التي كانت تعقدها الهيئات الكنسية العالمية لدعم الجنوبيين دور مهم في ازدياد مشاعر الكراهية والبغض بين أبناء السودان خاصة بتبنيها خطابا عدائيا وتحريضيا تجاه دولة السودان المسلمة، مما أدى في النهاية إلى انقسام السودان لدولتين.

كلمات مفتاحية: السودان، هيئات كنسية عالمية، بروباغندا، كراهية.

Abstract:

This study examines the hidden role of the world's ecclesiastical bodies in supporting sudan's division.

The study found that conferences held by international church bodies to support southerners ultimately divided Sudan into two states.

Keywords: Sudan, World Ecclesiastical bodies, Propaganda, hatred.



مقدمة:

تسعى العديد من المنظمات والهيئات الدولية لتقديم العون والدعم الدولي للشعوب الموجودة في بؤر التوتر متسترة بغطاءات متعددة؛ تنموية، إنسانية، تعليمية... فضلا على أن العديد من هذه المنظمات تتدخل لتنفيذ أجندات خفية.

وتُمثّل دولة السودان أنموذجا مهما لتدخُّل عديد المنظمات الدينية والإنسانية على غرار الهيئات الكنسية العالمية مستغلة بذلك ما قامت به السلطة المركزية في الخرطوم تجاه الأقاليم الجنوبية بهدف حماية السودان من الامتداد والتوسع للديانة المسيحية في الجنوب.

كل هذه الظروف فتحت المجال أمام تدخل الهيئات الكنسية العالمية وعلى مراحل تاريخية ممتدة بدأ من فترة الاستعمار البريطاني والتي عملت على استغلال الفجوة بين الحكومة المركزية في الخرطوم والأقليات الدينية في الجنوب والتي اعتمدت في ذلك على بث خطاب بروباغندي-تهويلي بشأن الأحداث في الجنوب فضلا عن دعمها للجماعات المعارضة بجنوب السودان على جميع المجالات والأصعدة وعلى عقود ممتدة عملت على غرس فكرة الانفصال في أذهان الجنوبيين وبأنهم مختلفون كليا عن الشمال بالإضافة إلى إقناع الشعب الجنوبي بضرورة تكوين دولة تحفظ للمواطن الجنوبي حقوقه وتصون كرامته معتمدة في ذلك على مجموعة من الاستراتيجيات والوسائل من خلال عملها على إعطاء القضية بعدا دوليا والتي لاقت دعما وقبولا واسعا لدى عديد الأطراف الدولية والإقليمية، مستغلة بذلك النّهج التصعيدي من قبل الحكومة المركزية في الشمال تجاه شعب الجنوب.

ويرى عديد الباحثين أنه ورغم العمل الإنساني الذي قامت به الهيئات الكنسية العالمية في مساعدة الأقليات الدينية في جنوب السودان بإنشاء دولة وفقا للمبادئ التي يريدونها إلا أن دورها كان مُسيساً ومرتبط بأجندات خفية.

أهمية الدراسة:

تكتسي الدراسة أهمية بالغة انطلاقا من متغيراتها، كون الدولة السودان دولة مهمة في العالمين العربي والإسلامي لما تحتويه من تنوع ثقافي والتي تحظى باهتمام الباحثين والأكاديميين وذلك بالنظر لحجم الثروات الطبيعة والموارد التي تكتنزها، والتي جعلتها مطمعا أمام أطراف خارجية عديدة عملت على استغلال ظروف التهميش والفقر التي يشهدها الإقليم الجنوبي إذ عملت هذه الأطراف بالتنسيق مع القوى العالمية الكبرى على غرار (الهيئات الكنسية العالمية) على تقديم الدعم للجنوبيين متخفية بغطاءات مختلفة في إطار مساعيها لتقسيم السودان.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى إظهار المبادئ العامة التي تقوم عليها استراتيجية الهيئات الكنسية العالمية تجاه مشكلة الجنوب طيلة سنوات الحرب في الجنوب إضافة إلى طبيعة الدعم المقدم للقبائل والجماعات الدينية في الجنوب.

كما تهدف الدراسة إلى استقراء وتحليل الجوانب الخفية من وراء تدخُّل الهيئات الكنسية العالمية في مشكلة جنوب السودان والجهود التي بذلتها في دعم انقسام السودان ونشوء دولة جنوب السودان الفتيّة متخفّية بأقنعة مختلفة.

منهج وأدوات الدراسة:

أما المناهج والأدوات المستعملة في تحليل هذا الموضوع فهي كالآتي:

المنهج الوصفي: يعتمد المنهج الوصفي على خاصية الوصف التي تعد السمة الأساسية لأغلب البحوث العلمية، عبر وصف للظاهرة أو الموضوع المراد البحث فيه والتعرف عليه (عمار، 2014، الصفحات 138-139) وسيتم اعتماد هذا المنهج للتعرف على الأفكار العامة المتعلقة بالاستراتيجية والأهداف التي تبنتها (الهيئات الكنسية العالمية) في دعم انفصال جنوب السودان.

منهج دراسة الحالة: حيث يعد منهج دراسة الحالة من أهم المناهج في العلوم الإنسانية والاجتماعية بالتركيز على ظاهرة جزئية معتمدا في ذلك على الدعائم المادية والمعنوية، وذلك قصد الإحاطة بالموضوع المدروس وإدراك خفاياه والتي ينظر فيها للجزئيات من حيث علاقتها بالكل الذي يحتويها على أساس أن الجزئيات هي جانب أو مظهر من مظاهر الحقيقة الكلية (أحمد ش.، 1997، صفحة 87).

وسيتم اعتماد هذا المنهج لفهم وتحليل الخطاب التصعيدي لدى الهيئات الكنسية العالمية تجاه مشكلة جنوب السودان بالإضافة إلى مختلف الأدوار التي قامت بها تقديمها الدعم وعلى مختلف الأصعدة؛ إعلامي وعسكري لأبناء الجنوب والتي أدت لانقسام السودان لدولتين.

ويبدو أن النظرية الأنسب لتحليل الموضوع هي نظرية المؤامرة، ومما لا يدع مجالا للشك أن للهيئات الكنسية العالمية وجود وأنشطة مُتجذرة منذ دخول الاستعمار البريطاني للسودان، والتي لجأت لاستخدام أساليب واستراتيجيات خفية لشق الوحدة السودانية.

ومع هذه الحقائق فإني أتوقع من بعض قارئي هذه الدراسة أن يتبادر إلى أذهانهم أن ما جرى للسودان مبني على نظرية المؤامرة والاعتقاد بصحتها والتضخيم بشأنها، لهذا فإن الموقف السليم من نظرية المؤامرة هو التوسُّط بين التهويل والتهوين معتمدين في ذلك على المنهج القرآني المتمثل في إثبات كيد أعداء الأمة للدول المسلمة والتحذير منه، وفي الوقت نفسه تبيان أن هذا الكيد لا ينفذ إلى الأمة ولا يضر بها إلا إذا مكنته من نفسها بضعفها ووهنها، ولقد أثبت القرآن العظيم تآمر أعداء الأمة تحت مسمى المكر في مواضع، والكيد في مواضع أخرى، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ (نوح: 22)، أي عظيما جدا، وفي آية أخرى يصفه بأنه يكاد يزيل الجبال في قوله أيضا: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (إبراهيم: 46)، إضافة إلى إخبار الله تعالى أن هذا الكيد لن يتوقف عن المسلمين ما داموا على دينهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾ (البقرة: 217)، والآيات في هذا المعنى كثيرة (صالح، 2016، الصفحات 190-191).

وبكثير من مشاعر البغض والكراهية تدخلت الهيئات الكنسية العالمية في مشكلة الجنوب إذ وفّرت للجنوبيين سبل الدعم والإسناد سعيا منها لإسماع صرختهم والوقوف في صف مطالبهم عبر إقناع الدول الكبرى بأن هناك حرب اضطهاد ديني في الجنوب، وأن أمر انفصال الجنوب هو ضرورة حتمية لحماية مسيحيي الجنوب.

ومن هنا يمكن طرح الإشكاليات التالية:

– ما دور الخطاب البروباغندي الذي انتهجته الهيئات الكنسية العالمية في دعم انقسام السودان؟

وتتفرع عن الإشكالية الرئيسية تساؤلات فرعية:

– ما هي الوسائل والاستراتيجيات المنتهجة من طرف الهيئات الكنسية في دعم أبناء الجنوب؟
– ما هي الأهداف التي تسعى المنظمات الكنسية العالمية لتحقيقها من التدخل في مشكلة جنوب السودان؟

وسيتم وضع الفرضيتيْن التاليتيْن قيد الاختبار:

– كلما زاد النظام السوداني في تجاهل الجنوب، كلما تصاعد الخطاب "البروباغندي" للهيئات الكنسية العالمية تجاه السودان.
– كلما ازداد الخطاب التحريضي للهيئات الكنسية العالمية، كلما ازدادت عزلة النظام السوداني دوليا.

لمعالجة الإشكالية السابقة نتّبع الخطة التالية:

أولا: العلاقة بين الدولة السودانية ومسيحيو جنوب السودان.

- مدخل مفاهيمي عام والتطرق للتواجد المسيحي في الجنوب.
- نداءات الاستغاثة والخطاب "البروباغندي-التحريضي" للهيئات الكنسية العالمية ضد الدولة السودانية.

ثانيا: الأجندات الخفية لتدخل الهيئات الكنسية العالمية في مشكلة جنوب السودان.

- استراتيجيات دعم الهيئات الكنسية العالمية لانقسام السودان.
- الأبعاد الاستراتيجية لتدخل الهيئات الكنسية العالمية في دعم انقسام السودان.

أولا- العلاقة بين الدولة السودانية ومسيحيو جنوب السودان:

مرّت العلاقة بين الحكومة السودانية وأتباع الديانة المسيحية في الجنوب بمد وجزر طبعها التضييق الواضح على أتباع الطائفة المسيحية بل وعلى كل الجماعات والإثنيات التي تعيش في الإقليم الجنوبي فاتحة المجال أمام تدخل الهيئات الكنسية العالمية لدعم وإغاثة مسيحيي الجنوب.

1- مدخل مفاهيمي عام والتطرق للتواجد المسيحي في الجنوب: تُعتبر عملية الضّبط المفاهيمي والاصطلاحي عمليّة مُهمّة في أيّ بحثٍ علمي في مجالي العلوم القانونية والسياسية كونها تُساعد القارئ في فهم المْوضوع المدْروس وتسمح بتدرُّج القارئ وتجعله يتعرف على مفاتيح الدّراسة بشكلٍ مُبسّط، فضلاً على أنها تُشكّل مدخلاً مُهماً للدّراسة، انطلاقاً من هذا سنتناول مفهومي "البروباغندا" وخطاب الكراهية:

- **تعريف "البروباغندا":** تُعرف "البروباغندا" بأنها دعاية موجهة أحادية المنظور لتوجيه مجموعة مركزة من الرسائل بهدف التأثير على آراء أو سلوك أكبر عدد من الأشخاص وتعود أصول المصطلح إلى اللاتينية "بروباغندا" بمعنى نشر معلومات مضللة، حتى تطورت بمعناها الحالي في الحرب العالمية الأولى لتستخدم في الدعاية السياسية والحربية ويرى "ديفيد ويلش" في كتابه "الرايخ الثالث... السياسة والدعاية": «أن هناك مفهوميْن مغلوطيْن بخصوص مصطلح "البروباغندا"، الأول هو أن المصطلح لا يتعلق فقط بتغيير المواقف والاتجاهات والأفكار، وإنما هو معني بالأساس تأكيد اتجاهات ومعتقدات موجودة بالفعل من أجل تركيزها وتشذيبها والهدف منها تغيير السرد المعرفي للأشخاص المستهدفين لأجندات سياسية» ومن هنا يمكن أن نضع تعريفا موجزا للمفهوم فالبروباغندا سياسيا تعني: الترويج؛ واقتصاديا تعني الدعاية؛ ودينيا تعني التبشير وتابع "ويلش"، عن المفهوم المغلوط الآخر الذي يرى «أن الدعاية تتشكل فقط من أكاذيب وتزييف، بينما في الحقيقة الدعاية تشتغل بمستويات مغايرة من الحقائق: الكذبة المباشرة، نصف الحقيقة، والحقيقة خارج السياق» (جورج، 2015، الصفحات 9-10).
- **تعريف خطاب الكراهية:** يستخدم خطاب الكراهية لوصف مجموعة واسعة من خطابات أو كلمات مهينة جداً، من الكراهية والتحريض على العنصرية العرقية والدينية والجنسية وصولا إلى السباب والتشهير، مرورا بأشكال التحيز المتفاقمة لذا يمكن بسهولة التحدث عن خطابات الكراهية لأنها متعددة الأوجه ويأتي استخدام المفرد في الدلالة إليها أي خطاب الكراهية بسبب السمة المشتركة الخاصة بها وهي التحريض على الكراهية أو الحث على العنف وهو يعتمد بالأساس في فعل الإقناع على المنطق وعلى موقع المتكلم وأيضا التأثير العاطفي من خلال إثارة الغريزة (الدينية) (التحرير، 2014).

وبالنسبة لدخول الديانة المسيحية إلى المنطقة فقد دخلت المسيحية إلى شمال السودان في القرن الخامس ميلادي واستطاع القائمون عليها أن يقيموا مملكة في القرن السادس عرفت بمملكة النوبة

المسيحية لتحتل مكانة مهمة وسط المعتقدات الوثنية المنتشرة (محمد ا.، 1972، صفحة 56) لتشهد بعد ذلك المنطقة اهتماما كبيرا من طرف الإرساليات المسيحية التبشيرية بخاصة في مرحلة الحكم الثنائي البريطاني - المصري فقد بدا واضحا الدعم البريطاني لنشر تعاليم الدين المسيحي وقد انطلقوا من فكرة أن تعاليم السيد المسيح الأكثر ملائمة لتطور ورفاهية الشعب الجنوبي (محمود، 2014، الصفحات 165-166) كما عملت الحركات التبشيرية على استغلال الظروف الاقتصادية السيئة للقبائل الجنوبية ومن أبرز البعثات الكنسية التبشيرية؛ "الكنيسة الأسقفية البروتستانتية" عام 1899 و"الكنيسة الإنجيلية" في 1903، و"الكنيسة الكاثوليكية" في الخمسينات وفي الستينات "جمعية الكتاب المقدس" إلا أن أهم البعثات هي "مجلس الكنائس العالمي" (محمد ف.، 2011، الصفحات 21-22) وينقسم المسيحيون في جنوب السودان إلى عدة مجموعات والتي سنوردها على النحو التالي:

- **"كاكوا" و "كوكو" في منطقة "سي" و "كاجوكاجي":** دخلت المسيحية لهذه المنطقة منذ ثلاثينيات القرن الماضي ولقد تعرضت هذه المنطقة إلى نزوح بفعل الحرب، حيث لجأ 50% بالمائة من سكانها إلى شمال أوغندا التي صارت تشكل أرض المنفى لهم، وبعد عام 1997 عندما وقعت منطقتهم في يد الجيش الشعبي لتحرير السودان وعاد منهم حوالي 80000 وكانوا يرون أن ذلك نصر للمؤمنين بفضل العناية الإلهية (عبده، 2009، صفحة 107).
- **أقاليم "الأزاندي" و "الباكا" في "طمبرة" و "بامبيو" و "مريدي":** ومن زعماء الكنيسة بأن هذه الأقاليم "مناطق تبشيرية" ولقد عملت الكنيسة على حماية القيم والثقافة التقليدية لسكان هذه المناطق (عبده، 2010، صفحة 55).
- **سكان "الجور" من "المفولو" و "الوالو":** بفضل انتشار النشاط التبشيري في المنطقة تأثر السكان بالقيم الدينية المسيحية، ففي عام 1995 أعلن القس "ريوبين ماكير" أن الذين اعتنقوا المسيحية في المنطقة بلغ نحو 16000 فرد (عبده، 2009، الصفحات 107-108).
- **"النوير" و "الأنواك" في منطقة أعالي النيل:** شهدت القبائل النيلية أكبر انتشار للمسيحية، حيث بلغ عدد البروتستانت 1500 بروتستانتي، وكان هناك عشر أبرشيات شرق وغرب أعالي النيل، وبلغ عدد التجمعات والطوائف المسيحية ما بين 60 إلى 100 بينما كان عددها أقل من 100 عام 1983، وتزايد العدد ليصبح 800 في التسعينات، ويرى الأنثروبولوجيون أن هذا التحول يشكل ظاهرة تستحق الدراسة من حيث الدوافع والمسببات (عبده، 2010، صفحة 56).
- **"المورو" في منطقة "مندارى":** على الرغم من قلة عدد هذه المجموعة، إلا أنها منذ بداية القرن العشرين ظهرت أكثر اعتناقا للمسيحية، وتكيفوا بسرعة مع التعليم النظامي وأصبحت لهم نخبة متعلمة كبيرة العدد نسبيا وقد كان منهم أسقف الكنيسة في وقت سابق (محمد ا.، 2007، صفحة 54).

- **منطقة جبال النوبة:** إن هوية سكان منطقة النوبة ذوو الملامح الأفريقانية وديانتهم المسيحية ولغتهم غير العربية جعلتهم أكثر عرضة للاضطهاد والتهميش، ما دفع بالحركة الشعبية لتحرير السودان لاستقطابهم في صفوف الحركة (عبده، 2010، صفحة 56).

وفي فترة تواجد الاستعمار البريطاني عملت الإدارة البريطانية بإشراف مختلف الهيئات الدينية والتبشيرية المسيحية في غرس بذور النزعة الانفصالية لدى القيادات الجنوبية، حيث بدأت معهم في مجال مجلس المدن وسعت إلى تدريبهم على ممارسة الحكم والسلطة، ثم جاءت عملية التدريب الأخرى والتي كانت تقرر الاتجاهات التي ستسير عليها السودان في إطار الحكم الذاتي وبدأت نتائج ما غرسه المبشرون في نفوس هؤلاء القيادات بجانب نتائج التدريبات السياسية وإيقاظ رغبتهم السياسية برؤية جديدة تجاه شمال السودان تظهر في الممارسة السياسية لهؤلاء القيادات في الجمعية التبشيرية وحصر القيادات لتوجهاتها في ثلاث محاور:

- **المحور الأول:** التمسُّك بالمسيحية كدين أساسي في الجنوب، والتمسك بكل السياسات والتوجهات التي قامت بها الإرساليات التبشيرية والتي اعتبرتها القيادات خدمة للجنوب في الأطر السياسية والاقتصادية والاجتماعية.
- **المحور الثاني:** كيفية الوصول إلى الفيدرالية بالنسبة للجنوب نظام سياسي يحافظ على أبعاده الثقافية وعقائده بعيدا عن الثقافية العربية الإسلامية، وبالتالي يشكل الوجدان السياسي لهؤلاء القيادات في إطار منظور جديد، حيث بدأ النمو السياسي تدريجيا.
- **المحور الثالث:** لقد ساهمت المدارس التبشيرية وبإشراف من الهيئات والمنظمات الكنسية العالمية في تغيير البنية الثقافية والتي استهدفت دخول دين جديد في الجنوب وثقافة جديدة من خلال تعليم اللغة الإنجليزية وتغيير في العادات والأنماط السلوكية للإنسان الجنوبي، مما أسهم في توسع إدراك ذهنية الفرد الجنوبي بأنهم يختلفون كليا وجزئيا عن الشماليين سواء قديما في إطار ثقافة الأجداد والتمسك بالأفريقانية أو في إطار المكتسبات الثقافية الجديدة التي جاء بها المستعمر البريطاني للسودان، ومن هنا عملت الهيئات التبشيرية في غرس مشاعر الكراهية تجاه كل ما هو عربي إذ عملت على نصح رؤساء ونواب رؤساء المناطق الجنوبية بالتخلي عن أسمائهم العربية والزي العربي، كما صدرت الأوامر للتجار بأن لا يعرضوا أي ملابس اعتاد أبناء الشمال على ارتدائها وإبدالها بالملابس المشابهة للطراز الأوروبي (أحمد م.، 2001، صفحة 247).

وورداً على ذلك قامت الحكومة السودانية بمجموعة استراتيجيات أسهمت في تحرّك وتجييش المنظمات والهيئات الكنسية العالمية والتي عملت على نقل قضية الجنوب ومناشدة الغرب للتدخل لإنقاذ الجنوبيين الذين صاروا يواجهون أشكالاً متعددة من الاضطهاد الديني والثقافي والتي من بينها:

- **تسييس العامل الديني:** لقد قامت الحكومة الشمالية بإتباع سياسات أفضت إلى إعطاء المشكلة بُعداً دينيا، ومن بين هذه السياسات ما قام به الفريق "عبود" بقمع المعارضة السياسية من أبناء

الجنوب إضافة لعمل الحكومة على تسريع تطبيق استراتيجيتي "الأسلمة والتعريب" في مناطق الجنوبيين الذين لا يدينون بالإسلام (العفيف، 2006، صفحة 49)، وقد كانت هذه الإجراءات مصحوبة بطرد المبشرين المسيحيين أو التضييق على أنشطتهم وكان التحول الأكبر استبدال عطلة الجمعة في الجنوب بيوم الأحد في 1960 وشملت الأشكال الأخرى للقمع رفض منح تمديد التأشيرة للمبشرين وأيضا حرمانهم من المواقع التي كانوا يشغلونها وحجز ممتلكاتهم، وفي عام 1964 تم طرد 200 مبشراً كاثوليكياً لجماعة كبيرة من الكنيسة الأنجليكانية و المبشرين الأفارقة (Waldemar, 2014, p. 214).

- **تبني استراتيجيتي الأسلمة والتعريب:** مع تسلم العسكر الرئاسة بتولي الفريق "إبراهيم عبود" في السودان قام بفرض عملية التعريب وتوسيع نطاقها في الجنوب وهي بمنزلة "ثورة من أعلى الدولة إلى الأسفل" وذلك رداً على السياسة الاستعمارية نحو الجنوب (التنصير وغلق المناطق على الشماليين) فأصبحت اللغة العربية هي لغة رسمية في الجنوب وحل يوم الجمعة محل يوم الأحد كعطلة رسمية، وفي 1961 تم حظر كافة التجمعات الدينية خارج الكنائس وتم طرد كل الإرساليات التبشيرية وقدّمت أموال الدولة لبناء المساجد والمدارس الدينية الإسلامية، وتعرّض شيوخ القبائل للضغط لاعتناق الإسلام (توفيق، 2015، صفحة 33) وتشير الدراسات الحديثة إلى أن ازدياد أتباع الكنيسة يعود إلى فرض الرئيس "عمر البشير" في 1989 لقانون الشريعة، حيث ارتفعت نسبة المسيحية في جنوب السودان من 10 إلى 20 بالمائة، إلى أنه وصلت إلى حدود ما يقارب 60 إلى 80 بالمائة من السكان بحلول القرن الواحد والعشرين، كما أن زيادة نسب معتنقي المسيحية في تزايد مستمر والتي تُفسّر كرد فعل عدواني على تطبيق الشريعة الإسلامية بالإكراه إضافة لإحساسهم بأن المسيحية توفر ملاذاً آمناً لهم (Timothy, 2011, p. 14) تنفيذا لذلك تم تقسيم جنوب السودان إلى مناطق عمل للحملات التبشيرية بين البعثات المسيحية الأوروبية الكاثوليكية المختلفة "البريطانية والإيطالية والنمساوية" وتنافست فيما بينها في تقديم الخدمات ونشر التعاليم النصرانية بالجنوب، كما عملت في وضع امتيازات كثيرة من بينها تخفيض 40 بالمائة من التذاكر الركاب العاملين في الجمعيات التبشيرية وكذلك 30 بالمائة من قسمة ترحيل أغراضهم وأمتعتهم على سكك الحديد والبواخر النيلية وتميزت تلك المرحلة بالشحن الديني والكراهية بين المسيحيين والمسلمين خاصة بعد إعلان حكومة السودان تطبيق الدستور الإسلامي، مما زاد من مخاوف الجنوبيين بأن الشماليين يسعون إلى "أسلمة الجنوب"، كما تعززت هذه الكراهية بعد أحداث "جوبا" في 8 تموز/يوليو 1965، و "واو" في 11 أب/ أغسطس 1965 عندما فقد عدد من الجنوبيين أرواحهم نتيجة عمليات قام بها الجيش والشرطة ضد المتمردين والمتعاطفين مع عمل الهيئات الدينية، ونتيجة لتلك الأوضاع هجر السياسيون الجنوبيون جنوب السودان، وكانت حكومة عبود تقمع المعارضة السياسية في الشمال والجنوب وتزُج بهم في السجون... كما عملت على طرد المبشرين الأجانب في جنوب السودان وتم القبض على بعض المبشرين الكاثوليك، نظرا لمؤامراتهم وتوزيعهم لمنشورات تحريضية.

وعلّلت الداخلية قرار الطرد بأن الأصوليين المسيحيين من الأجانب يقومون ببعض الأعمال التي من شأنها تهديد أمن ووحدة السودان خاصة أن بعد وضعهم لعديد التقارير السوداء والتي شابها الكثير من التضخيم و"البروباغندا" التهويلية عن انتهاكات الحكومة السودانية، خاصة أن كل اجتماعاتهم كانت تعقد بدعم وضغط من اللوبيات الأصولية المسيحية واليهودية (عبد القادر إ.، 2006، صفحة 27).

وفي قرار نهائي في 27 فبراير 1968 صدر قرار عن وزارة الداخلية بطرد جميع الأصوليين المسيحيين المبشرين من جنوب السودان حيث بلغ عددهم 617 مبشراً وعلى الرغم من عدم توافر أي تفاصيل دقيقة عما حدث إلا أنه من المؤكد أنها تركت الكثير من مشاعر المرارة في وجدان الشعب الجنوبي، لتعرف الأوضاع مزيدا من السوء خاصة بعد إعلان الرئيس السابق "جعفر النميري" تطبيق الشريعة الإسلامية في 1983.

غير أن تلك الاستراتيجيات والسياسات لم تحقق أي تغيير كبير في الجنوب، وبقي الدين المسيحي يشكل عنصراً مهماً في الايدولوجيا الجنوبية.

2- نداءات الاستغاثة والخطاب "البروباغندي-التحريضي" للهيئات الكنسية العالمية ضد الدولة السودانية:

من المتفق عليه أن الحكومة السودانية قامت بانتهاكات ضد شعب جنوب السودان، لكن يجدر التنويه إلى أنه ليس بالحجم الذي كانت تتحدث عنه مختلف الهيئات الكنسية العالمية في تقاريرها وفي مختلف الندوات الدولية التي عُقدت لمساعدة شعب الجنوب في مواجهة الاضطهاد الديني والثقافي لذا تدخلت الهيئات الكنسية بنشاطاتها المتعددة والداعمة لأبناء وقبائل الجنوب سعيا منها لإسماع صوت المضطهدين والمهمّشين وإعطاء القضية بعداً دولياً.

- **مرحلة نداء الأساقفة المحليين:** تعكس وثائق هذه المرحلة الدور الذي كان يقوم به الأساقفة الكاثوليك في المناطق التي كانت تحت سيطرة الحركة الشعبية بهدف إسماع صوت أبناء الجنوب، وفي عام 1984 قامت المنظمات الكنسية بإقامة الصلاة في كنيسة "كنتور" في جوبا اشتركت فيها جميع الفئات الكنسية هناك تحت "ستار السلام والغذاء"، بينما كان مغزى تلك الصلاة سياسيا إذ صاحبها وضع ملصقات وشعارات تنادي برفض الإسلام والتعريب في الجنوب، مما انعكس على التوجه الذي تبنته الحركة الشعبية في مفاوضاتها مع الحكومة والتي وضعت فيما يعرف بإعلان DOP الذي تضمن علاقة الدين بالدولة حيث دعت الحركة الشعبية إلى قيام نظام علماني في السودان، وهي النقطة التي أثارت جدلا واسعا في المفاوضات التي عقدت بين الطرفين طيلة التسعينيات من القرن الماضي، بل حتى في المفاوضات التي تلته (عبده، 2010، الصفحات 45-46-47-48-49-50-51) إضافة إلى إصدار عدة بيانات أخذت صدى عالمي:

- **مذكرة أسقف "لوي" في ديسمبر 2000:** بعد الهجوم على كاتدرائية "فريزر" في ديسمبر 2000 جراء غارة حكومية نُفذت جواً كتب أسقف "لوي" وللمرة الثانية مذكرة سجلت على مواقع الانترنت بحث المجتمع الدولي وخاصة منظمة الوحدة الإفريقية (الاتحاد الإفريقي حاليا)، ومنظمة الأمم المتحدة لكبح جماح الحكومة السودانية لما ترتكبه من إبادة في حق سكان الجنوب والمناطق المتأثرة بالحرب، ويتهم أسقف "لوي" في مذكرات مجلس الأمن بأنه يغمض عينيه عن الإبادة الجماعية في الجنوب، ويلتمس في مذكراته من مجلس الكنائس العالمي وجميع المؤتمرات الكنسية الإفريقية استخدام صلاحياتها لفتح ملف الوضع المأساوي في الجنوب لإقرار العدالة والسلام.
- **نداء الأسقف "بامبيو" من "دنفر" يوليو 2000:** بمناسبة انعقاد المؤتمر العام للكنيسة الأسقفية رقم 73 في مدينة "دنفر" صرح "بيتر موندي" أسقف "يامبيو" للصحفيين قائلا: «إن الولايات المتحدة قادرة على مساعدة المسيحيين في السودان الذين يتعرضون للاعتقال واغتصاب النساء، إننا نناشد المجتمع الإنجليكياني بأن لا ينسانا وأن يصلي من أجلنا ويتحدث نيابة عنا وأن الولايات المتحدة قادرة على وقف الأعمال العدائية في الجنوب، إذا ما أرادت ذلك».
- **نداء أسقف "رمبيك" من روما في 24 أوت 2000:** صرح من روما الأب "أنطونيني" المتحدث باسم "أباء كمبيوني" بوكالة (Misna) أن الأسقف "رمبيك" تحدث إليه في مناسبات متعددة أنه مع تدخل قوات سلام تابعة للأمم المتحدة في جنوب السودان.
- **نداء الأب "هلوي بوما" من ألمانيا مايو 2000:** صرح الأب "بوما" أثناء وجوده للعلاج بألمانيا بقوله: «سوف لن يكون هنالك تحسن للأوضاع إذا ما انتظرنا حدوث شيء من الداخل، لأنه ولمدة 40 سنة لم يتوصل الجانبان لاتفاق سلام، والسبب هو توجه الحكومة نحو المشرق العربي وليس تجاه إفريقيا، فدول المشرق العربي تعتبر السودان بلدا عربياً في المقام الأول وإفريقياً في المقام الثاني ومن ثم فإنها تعادي المسيحية، ويخلص إلى أن الحل يتمثل في تدخل قوات من منظمة الأمم المتحدة أو من منظمة الوحدة الإفريقية "الاتحاد الإفريقي حاليا"».
- **نداء "مكرم" أسقف "الأبيض" من أميركا مارس 2000:** يعد أسقف "الأبيض" من أشد المناهضين للنظام السياسي في البلاد وقد مثل أمام الكونغرس الأمريكي ليؤكد على الفضائح التي ترتكبها حكومة السودان ضد شعبه، وفي أثناء وجوده بأمريكا عقد لقاء مع وزيرة الخارجية الأمريكية "مادلين أولبرايت" استمر أكثر من ساعة سعيا وراء الحصول على إدانة من الحكومة الأمريكية ضد الخرطوم وفي لقاء له نظمته "منظمة الإغاثة بالسودان" صرح "مكرم" للمراسلين قائلا: « إنني أنبه أصدقائنا والعالم بما يحدث في السودان من اضطهاد وأعلنت مرارا للعالم أن جبهة الإنقاذ الإسلاموية في الخرطوم تشن حرب إبادة ضد المسحيين في الجنوب سعيا لإقامة نظام حكم إسلامي».
- **نداءات مؤتمر الأساقفة المحلي:** إن النداءات السابقة للأساقفة الذين يعملون في المناطق التي تحتلها الحركة خرجت من دائرة نداءات المعونات ووقف الحرب وإحلال السلام إلى نداءات تطالب بالإدانة والتدخل العسكري، وتظهر هذه النزعة في المؤتمرات الكنسية المحلية والإقليمية ومنظمات

حقوق الإنسان، بالإضافة إلى الحملات الإعلامية المناهضة للحكومة، وفي إحدى الجلسات الدورية رفع المؤتمر المحلي للأساقفة في المناطق المحتلة من مقره بنيروبي مذكرة احتجاج للأمين العام للأمم المتحدة يبدي فيها اعتراضه على ترشيح السودان لعضوية مجلس الأمن وأن البترول هو الدافع الحقيقي وراء الغارات التي تشنها الحكومة على المواطنين في مدارسهم وكنائسهم ومستشفياتهم وعندما قدم السيناتور "جون دانفورث" مبعوث الرئيس الأمريكي تقريره عن جنوب السودان أرسل المؤتمر المحلي مذكرة في مايو 2002 إلى الرئيس الأمريكي يطالبون فيها بما يلي:

- اعتراضهم على إعلان تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد؛
- مناشدتهم الرئيس الأمريكي الوقوف بصلابة في مساندته لحقوق الإنسان كورقة أساسية لتقدم محادثات السلام (علي، 2005، الصفحات 13-14-15).

ثانيا-الأجندات الخفية لتدخل الهيئات الكنسية العالمية في مشكلة جنوب السودان

لقد قدمت الهيئات الكنسية العالمية دعما منقطعا النظير لصالح مسيحيي الجنوب معتمدة في ذلك على مجموعة من الاستراتيجيات ومتخفية بأقنعة ووسائل مختلفة سعيا منها للإسراع في تقسيم السودان.

1-استراتيجيات دعم الهيئات الكنسية العالمية لانقسام السودان:

لقد حملت الهيئات الكنسية المعاناة التي يتعرض لها أبناء الجنوب مستغلة الهوة الكبيرة بين الحكومة السودانية والمعارضة في الجنوب فبدأت الهيئات الكنسية العالمية وفي عديد اللقاءات والندوات الدولية إلى ممارسة "بروباغندا" دعائية وخطاب تهويلي بأن هناك مظالم يتعرض لها أبناء الطائفة المسيحية بجنوب السودان وأن الأمر يتطلب التدخل العاجل لوقف الانتهاكات التي صارت الحكومة السودانية تمارسها، لذا عملت هذه الهيئات في العمل على المستويين الدولي والإفريقي:

أ- **المستوى الدولي:** لقد عملت الهيئات الكنسية العالمية في التنسيق بينها وعلى مستوى عالي من التوافق فيما بينها بين كل من الكنائس الأوروبية ومختلف المنظمات واللوبيات المسيحية بالولايات المتحدة الأميركية، هذا بالإضافة إلى الدور المحوري والمهم للكنائس البريطانية في إطار الحملة الشرسة والتحريضية لتصعيد المشكلة مع الحكومة السودانية، ولقد تبنت الهيئات الكنسية العالمية الدفاع عن مسيحيي الجنوب كونها قضية عقدية تم ربطها بتفسيرات دينية، وهنا يمكن القول أن الفاتيكان والكنائس الأوروبية يريان أنها مشكلة دينية، وأن حكومة الشمال متهمة بممارسة اضطهاد وسيطرة عربية على أفارقة ومسيحيي الجنوب، كما أن الحكومة السودانية بتوسيع انتهاكاتها يجعلها في مواجهة الفاتيكان والهيئات الدينية المسيحية العالمية لما تمتلكه من سلطة ونفوذ في مختلف دوائر صنع القرار بأميركا والدول الأوروبية.

ب- **المستوى الإفريقي:** وتمثل في الدعم الدولي لمختلف الهيئات والهيئات العالمية لمجلس كنائس عموم إفريقيا ودول الجوار السوداني لممارسة "البروباغندا" والتضليل وذلك بإعطاء صورة أن الصراع في

السودان هو بين العرب والأفارقة، وانطلاقا من ذلك توسع التمرد بدعوى أن المعارضة الجنوبية تمثل الإفريقي المسيحي في مواجه العربي المسلم، وبالتالي كان لزاما على دول الجوار السوداني أن تقدم العون لهؤلاء الأفارقة المضطهدين (من وجهة نظرهم) في مواجهة السيطرة العربية، لتتوسع بذلك مشاعر الكراهية في إطار دول الجوار السوداني الداعم لانفصاليي جنوب السودان فكانت الأسلحة تأتي وبشكل ضخم من حدود كل من؛ أوغندا، وأثيوبيا والكونغو وكانت تقدم لهم بطرق مختلفة سواء عن طريق الطرق البرية المتاحة أو عن طريق الطائرات بطريق الإسقاط في مناطق الأحراش التي كانوا يعسكرون بها (عبد القادر إ.، 2006، الصفحات 267-268-269-270) وفي نفس الاتجاه تواصل عقد المؤتمرات الدولية على الصعيد الدولي والإقليمي برعاية من مختلف الهيئات الكنسية العالمية لدول الجوار الإقليمي في شرق أفريقيا بجوار السودان الذي يضم أساقفة تسع دول في اتحاد كنسي يعرف باسم "اتحاد أساقفة شرق إفريقيا الكاثوليكي" لتأخذ بعد ذلك مشكلة الجنوب بعدا دوليا إذ عملت على عقد عدة مؤتمرات دولية دعما لمسيحيي الجنوب:

- **مؤتمري "نيروبي" و "تنزانيا" 2000-2003:** حيث تم في هذين المؤتمرين نقل المعاناة والاضطهاد الذي يتعرض له مسيحيو الجنوب إلى مندوب السامي للشؤون الدينية بهيئة الأمم المتحدة، حيث أودت الحرب الدينية -حسب تقريرهم- بحياة مليوني شخص وشردت ما يربو على أربعة ملايين آخرين إضافة إلى تسجيل عدة انتهاكات للنظام السوداني تمثلت في:
  - التضييق على الحريات الدينية؛
  - انتشار تجارة الرقيق والإعدامات العشوائية؛
  - استخدام الطعام كسلاح للحرب؛
  - مصادرة ممتلكات السكان ومواردهم في مناطق الحرب (علي، 2005، الصفحات 15-16).
- **نشاط منظمة Operation Life Line Sudan (OLS)**: تُعتبر من المنظمات الكنسية التي عملت في مجال الإغاثة في جنوب السودان وهي منظمة أطلقها المجتمع الدولي في أبريل 1989، وهناك نحو 40 منظمة تقوم بتنسيق مبادرة "شريان الحياة" (OLS) التي تتكون عضويتها من عدة منظمات تابعة للأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية العاملة في جنوب السودان، وتتكون مبادرة "شريان الحياة" (OLS) من منظمة "اليونيسيف" ومنظمة برنامج الغذاء العالمي والتي تعد من أبرز المنظمات الإنسانية والكنسية التي لعبت دورا كبيرا في سد حاجيات المحتاجين والمتضررين من الحرب في الجنوب هي مكونة من مجموعة من الدول الاسكندينافية وبريطانيا إضافة إلى المنظمات التابعة للكنيسة الكاثوليكية والأسقفية والسّبْتية (جون قاي، 2009، صفحة 201).
- **مجلس الكنائس العالمي:** يُعتبر هيئة تنظيمية تجمع كل الكنائس بمختلف اتجاهاتها العقدية في شكل تجمع ديني يقوي سلطة الكنيسة الدولية في التفاوض والتنسيق وتبادل المعلومات

ومن أهم نشاطاته مساعدة اللاجئين ودعم التنصير إضافة لإعداد البحوث والدراسات الاجتماعية الدينية والاقتصادية بمساعدة اللاجئين في جنوب السودان في الدول المجاورة لجنوب السودان، كما يقوم بمساعداته بالتنسيق مع مجلس الكنائس الإفريقية ومجلس الكنائس السوداني (محمد ا.، 2007، صفحة 45) وتتحدث الكنائس العالمية وبالصوت الجهير عن صحوة كنسية في الجنوب تتوافق مع خواتيم الألفية الثانية للميلاد، حيث وجد "كالفير كليف" (Calver Clive) رئيس منظمة إغاثة العالم نداء ذكر فيه :«*الكنيسة في السودان من أكثر الكنائس نموا في العالم ولكنها مع ذلك مضطهدة، وهي تناضل والأهم من ذلك أن الكثير من أبناء الجنوب يموتون جوعاً..*» (أحمد م.، 1999، صفحة 30).

ولقد لعب مجلس الكنائس العالمي دورا بارزاً في مواجهة العنف في جنوب السودان خاصة دوره في انجاز اتفاقية أديس أبابا التي ساهمت في إحلال السلام بجنوب السودان في تلك المرحلة (محمد أ.، 2004، صفحة 393) لتشهد المرحلة اللاحقة توترا بين الكنائس السودانية مع السلطة الوطنية خاصة مع إعلانات قرار تطبيق الشريعة الإسلامية ابتداء من سبتمبر 1983، حيث أرسل مجلس الكنائس العالمي وفدا إلى السودان لمناقشة المشروع الذي تتبناه حكومة السودان القائم على "أسلمة الجنوب وتطبيق الشريعة" (محمود، 2014، الصفحات 229-230-231-232-233-234-235-236-237-238-239-240-241-242-243)كما رفع قادة الكنائس الكاثوليكية والأسقفية ومجلس الكنائس السوداني مذكرة للدولة مستنكرين قرار تطبيق الشريعة بينما امتنعت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية عن التوقيع، و ابتداء من عام 1985 وبعد سقوط الرئيس "النميري" ومجيء الديمقراطية الثالثة، أصدر مجلس الكنائس العالمي ومختلف الهيئات الكنسية في الجنوب وثيقة تتوسل فيها للولايات المتحدة والغرب بالامتناع عن تزويد السودان بالسلاح كما اجتهدت في الضغط لإلغاء قرار تطبيق الشريعة (عبده، 2009، الصفحات 114-115-116-117-11-119-120)

وبضغط كبير من اللوبي الصهيو-مسيحي والجماعات الدينية في أمريكا وأوروبا تم عقد ندوة بالكونغرس في أكتوبر 1993 بعنوان (السودان...المأساة المنسية) لدراسة أسباب النزاع في السودان والتي انتهت إلى إصدار ما يعرف باسم "إعلان واشنطن" الذي نص ضمن توصياته على أن النزاع بين الطرفين لابد أن يحل عن طريق وسائل سلمية، ووضع جدول أعمال للسلام والمصالحة والديمقراطية، والموافقة على تسهيل جهود الإغاثة في المناطق المتضررة من الحرب (أسامة، 2015، صفحة 122) ولقد تميزت هذه المرحلة بـ:

- توجيه الأنظار الغربية نحو الانتهاكات الجسيمة التي تمارسها الحكومة السودانية؛
- الدعم الإنساني لأبناء الجنوب المضطهدين؛
- فتح المدارس والكنائس لتعليم أبناء الجنوب؛

- تدريب الكوادر السياسية في الكنائس وتكوين القيادات العسكرية الجنوبية لمواجهة السودان العربي المسلم؛ (أحمد أ.، 2011، صفحة 78).
- تسهيل جهود الإغاثة للاجئين الجنوبيين في الدول الإفريقية المجاورة؛
- ترسيخ فكرة في أذهان الجنوبيين بأن الجنوب مختلف عن الشمال في كل شيء؛
- الدعم الاقتصادي لعديد المشاريع التي من شأنها إخراج الجنوبيين من حالة الفقر والتهميش.

2-الأبعاد الخفية لتدخل الهيئات الكنسية العالمية في دعم انقسام السودان:

لقد عملت الهيئات الكنسية بمختلف انتماءاتها المذهبية على خط دعم محادثات السلام بخطوات محسوبة ومدروسة بدءا بإثارة عطف الرأي العام المحلي والعالمي باسم المساعدات الإنسانية القائمة على الدعم الغذائي والطبي ثم الانتقال بالمطالبة بإحلال السلام كمطلب إنساني (عبد العزيز، 2007) ولقد أضافت للسلام شعارا وهو "ضرورة تطبيق العدالة" والذي يهدف إلى دعم "حق تقرير المصير"، ففي الوقت الذي كانت تجري فيه محادثات السلام كانت الكنيسة الكاثوليكية قد أعدت برنامجا متكاملا لنشاطها في مرحلة السلام أطلقت عليه (برنامج السلام: التصور، والرسالة والقيم) وتم إعداد ذلك البرنامج في مؤتمر الأساقفة السودانيين بروما في سبتمبر1997، وقد تضمن تدخل أسقف الخرطوم ورئيس مؤتمر الأساقفة السودانيين بقوله: «إن كلمة سلام أصبحت من الكلمات المتداولة في بلادنا اليوم ولطالما انتظرنا جميعا السلام أن مستقبل بلادنا وسعادة شعبنا يعتمدان على نوع السلام الذي ننتظره، وهناك أنواع للسلام سلام الموتى وهو السلام الذي بعد إبادة الخصم والسلام الذي يتم فيه وقف إطلاق النار ولكن الناس يُداس عليهم بالأقدام محتقرين ومضطهدين ومستغلين وغير سعداء وهناك سلام لا يتكلم فيه الناس مع بعضهم البعض وهو سلام "البكم" لأن الناس فيه يكرهون ويخافون بعضهم البعض لوجود الأنانية والجشع ويتساءل رئيس الأساقفة عن نوع السلام المطلوب سلام يكون فيه الناس مستعدون للتضحية حتى الموت، ومن هنا تولدت رؤانا للسودان، *ومن الآن فصاعدا لن نعمل من أجل السودان، ولكن لنوع السودان الذي ننشده..*».

ولقد أصدرت الهيئات الكنسية في الداخل والخارج "وثيقة روما لبرنامج السلام" حيث تؤكد هذه الوثيقة على الآتي:

- تأكيدهم على إزالة جميع مظاهر الحرب والعنف والاضطهاد والتفرقة الدينية والعرقية؛
- السعي لاحترام حقوق الإنسان وضمان توزيع الفرص في التعليم، العمل والموارد الاقتصادية؛
- مساعدة الفقراء والمحتاجين لتحسين مستوى حياتهم.

بعد هذه المرحلة عقدت الهيئات الكنسية مؤتمرا في "نيروبي" بعد عام من مؤتمر "روما" وتم التأكيد على:

- ضرورة إقامة لجان في كل أسقفية تهتم بمسألة السلام وعلى هذه اللجان أن تبادر بوضع صياغة للبرامج الاجتماعية للكنيسة عن طريق دورات وورشات عمل، وهذا لبث قيم السلام في الجنوب؛
- مناشدة المؤتمر بتحسين وإنشاء حكومة تقوم على العدالة والديمقراطية وليس على القوة العسكرية؛ إضافة لدعم الصلح بين المجموعات الإثنية المتقاتلة، إضافة لدعمهم لحث وتشجيع زعماء القبائل والأعيان لاستخدام الوسائل التقليدية لفض النزاعات القبلية كإسهام ملزم وفعال من جانبهم لمحادثات السلام في السلام؛
- السعي لإعادة النازحين والنساء والأطفال الذي تم اختطافهم وتسهيل عودتهم إلى ديارهم؛
- دعم وإنشاء أدوات اتصال داخلياً وخارجياً تقوم بمساندة ومساعدة الجنوبيين فيما يتعلق بالدعاية والسياسات المتبعة من طرف حكومة السودان والحركة الشعبية لتكون في متناول أيدي الأساقفة والسفراء الأجانب وأعضاء البرلمانات ومنظمات حقوق الإنسان ووسائل الإعلام الأجنبية؛
- تشجيع التعاون الكنسي بين الكنائس في الداخل والهيئات الكنسية في الخارج وهذا لزيادة التواصل وإخراج مسيحي الجنوب من العزلة والاضطهاد اللذان يعيشا فيهما؛
- تطوير العمل في مجال التعليم والصحة وإعداد برنامج للبعثات الخارجية في مجالي الدراسات العليا والتدريب المهني (أحمد أ.، 2011، الصفحات 77-78).

بعد هذه المرحلة كان لزاما على الحكومة السودانية الرضوخ للجماعات المعارضة بالجنوب، فبدأت البحث عن القوى الحقيقية المحركة لهذه الأوضاع لذلك بدأت تتجه نحو مجلس الكنائس العالمي ومجلس كنائس عموم إفريقيا لبدء الحوار من أجل السلام وهذا بالطبع يعطينا مؤشرا واضحا عن مدى التغير الحاصل في ميزان القوى (عبد القادر إ.، 2006، صفحة 270).

وقد صاحب دور المنظمات والهيئات الكنسية العالمية الاعتماد على خطاب الشحن والكراهية وزيادة العداء تجاه المسلمين والتي وصفتهم بتبني "الإيديولوجيات العدائية" بتبنيهم سياستي "الأسلمة و التعريب"، حيث استقطب المسيحيين الجنوبيين الوثنيين من "مدخل الظلم والتهميش" الذي يتعرضون له معتمدين في ذلك على المدخل الديني والظلم والتهميش الذي يتعرض له الجنوبيون، حيث غازل الجنوبيون عطف الرأي العام العالمي لدعم التمرد الجنوبي، فالجنوبيون أصبحوا الأقرب إلى الوجدان الغربي من حيث الديانة وكذلك لامس الجانب الإنساني (الظلم والاضطهاد) قلوب الغربيين، حيث يشكل هذا الجانب أحد الأجندات الأساسية لدى العديد من المنظمات التبشيرية في الغرب، فتحرك الغرب وعلى رأسها أمريكا بمنظماتها ولوبياتها، فمن الملاحظ أنه في بداية التسعينيات زادت القوة العسكرية للتمرد بدرجة عالية إذ عمل انفصاليو الجنوب على لاستقطاب العنصر الأفريقاني (غير المسلم) في منطقة جنوب النيل الأزرق وجبال النوبة في جنوب كردفان، ولم تستطع الحكومة صد الزحف العسكري للتمرد باتجاه الشمال إلا بعد أن لجأت إلى "بروباغندا" وتجييش للمشاعر على أساس ديني (عبده، 2009، الصفحات 119-120).

فبفعل الدعم والضغط المتواصل من المنظمات الكنسية العالمية تم مناقشة مشكلة الجنوب في عدة مؤتمرات دولية وإقليمية، كما أن اللوبي الصهيو—مسيحي مارس ضغوطا متواصلة على الإدارة الأمريكية للتحرك تجاه مشكلة جنوب السودان، فبعد تواصل القتال طيلة عقود بين السلطة ومتمردي الجنوب تم عقد "اتفاق ماشاكوس الإطاري" 2002 والذي تم برعاية أمريكية ودول إفريقية مسيحية ثم تلتها اتفاقية السلام الشامل بـ"نيفاشا" الكينية 2005 والذي تضمنت أهم بنوده منح أهل الجنوب تقرير المصير عن طريق الاستفتاء بنهاية الفترة الانتقالية في عام 2011، وتمكين الحركة الشعبية من السيطرة تماما على إدارة الولايات الجنوبية أثناء الفترة الانتقالية في الفترة الممتدة من 2005 إلى2011 (عثمان، 2017، صفحة 379) وبرغم العقبات والعراقيل تعتبر اتفاقية "نيفاشا" الموقعة بصورة عاجلة وبضغوط أمريكية شديدة تتويجا لصيرورة تراكمية من المفاوضات الشاقة بين الحكومة السودانية والحركة الشعبية إذ أسهمت اتفاقية "نيفاشا" في إنهاء القتال الدائر منذ عقود، والتي يرجع الفضل فيها إلى الهيئات الكنسية العالمية ونقل مشكلة الجنوب إلى دوائر السياسة الخارجية الأمريكية، وتشير الإحصاءات بحسب الإحصاءات الواردة من المعارضة الجنوبية إلى أن الحرب في الجنوب راح ضحيتها أكثر من مليوني شخص، وقلما توجد أسرة لم تفقد احد أفرادها أو أحد أقربائها، بل إن أُسراً لم يبقى منها إلا فرد واحد وهو ما جعل اتفاقية السلام الشامل (CPA) محطة هامة ومفصلية في تاريخ "السودانيْن" الشمالي والجنوبي والتي تعتبر ممهدا لانفصال جنوب السودان عن الدولة الأم وإعطائه الحق في تقرير مصيره عبر استفتاء شعبي بعد ستة سنوات (2011) (محمد ص.، 2015، الصفحات 75-76-77-78-79-80-81-82).

وهنا يمكن القول إن تدخل الهيئات الكنسية العالمية بخطابها "البروباغندي" التحريضي والذي أفضى في الأخير إلى فقدان جزء مهم من دولة عربية وإسلامية لم يكن بدافع إنساني محض وإنما هو التخفي وراء استراتيجيات مدروسة وبعيدة المدى لعل من أهمها:

- **السيطرة على بترول السودان:** تعددت التحليلات التي تؤكد أن نفط القارة الإفريقية أصبح يشكل أهمية استراتيجية كبرى للولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية ولحاجة هذه الدول الكبيرة والدائمة للبترول، فإنها تسعى لإيجاد مناطق جديدة لإنتاجه في بحر قزوين أو في جنوب السودان (محمد ع.، 2005، صفحة 275) أو في العراق بوصفه بديلاً أو احتياطيًا لبترول منطقة الخليج والذي ربما تؤثر الأحداث والصراعات الدائرة في الشرق الأوسط على استمرار تدفقه إلى أمريكا والدول الغربية (مجدي، 2003، الصفحات 244-245) وكانت الولايات المتحدة تريد اقتناص الفرصة للقيام باستغلال بترول السودان بدلاً من الشركات الأجنبية العاملة هناك، خاصة أنها شركات آسيوية صينية وهندية وماليزية، مما يتعارض مع المصالح الأمريكية خاصة أن إنتاج البترول في تزايد مُستمر، ولذلك ليس بغريب أن تلعب الشركات الأمريكية للنفط الدور الأساسي في دفع الإدارة الأمريكية للتدخل لعقد اتفاق "ماشاكوس" والتي دعمها اليمين المسيحي المحافظ ويُشير تقرير اللجنة الأمريكية للحريات الدينية إلى أن النفط هو مفتاح المسألة السودانية وأن الحل هو اقتسام

عائداته بين الشمال والجنوب، أو وضع عائداته تحت إدارة دولية أو بالأحرى أمريكية، وتدور تلك المناورات تحت مظلة "المنظمات الكنسية العالمية"، وتحت بند القضاء على الإرهاب في أنحاء العالم.

- **تقليص الدور المصري عربياً و إفريقياً:** يُشكل السودان بالنسبة لمصر البعد الأمني والجار العربي الإفريقي كما أن لمصر دوراً تاريخياً في هذه المنطقة من شرق إفريقيا التي تضم كلا من؛ السودان والصومال وأثيوبيا واريتريا وجيبوتي وأوغندا فقد عرفت كثير من مناطق تلك البلدان العالم الحديث ودخلت في تاريخه عن طريق مصر (هاني، 2015، الصفحات 110-111) ومما لا شك فيه أنه كان لمصر دوراً مهما في جنوب السودان وإقرار الأمن فيه منذ القرن التاسع عشر وبعد ذلك فإنه لما تعقدت مشكلة جنوب السودان في نهاية القرن الماضي، بعد حرب أهلية دامية، تم تحييد مصر من القيام بدورها الطبيعي بإشراكها في حل مشكلة الجنوب التي تخص مصر كما تخص السودان، وقد لعب الدور الأمريكي على تقويض وإضعاف المكانة الإقليمية لمصر في العالم العربي وفي منطقة حوض النيل، والتي تحققت باحتواء الدور المصري والقيام بدفعه في المشاركة الصريحة في استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية الوقائية في مكافحة الإرهاب خاصة في الشرق الأوسط (إجلال، 2006، صفحة 194).

كما تم عقد اتفاق "ماشاكوس" في كينيا عام 2002 والذي أثار موضوع بحث تقرير المصير لجنوب السودان كاستجابة لمقترحات منظمة "الإيقاد" الموجهة أمريكيا والذي تقوده اللوبيات الصهيو-مسيحية لذا تم استبعاد المبادرة المصرية—الليبية والدور العربي من القيام أي دور لحل مشكلة الجنوب في إطار السودان الموحد، وعُقدت اتفاقية "ماشاكوس" دون أخذ رأي مصر أو الجامعة العربية أو حتى الاتحاد الإفريقي وأُسند الحل لدول الجوار الإفريقي المحاذية للحدود الجنوبية لدولة جنوب السودان؛ كينيا أوغندا، جيبوتي، واريتريا، وأثيوبيا، وهم شركاء لمنظمة "الإيقاد" وذلك بدعم وتوجيه من الولايات المتحدة وبريطانيا وإيطاليا، في مقابل ذلك بذل اللوبي المسيحي في الإدارة الأمريكية بتوجيه من المنظمات الصهيو-مسيحية الحاقدة جهودا حثيثة لمنع أية مبادرة لجمهورية مصر العربية أو دول إسلامية أخرى (زكي، 2011، الصفحات 172-173).

- **تزويد دولة الكيان الصهيوني بمياه النيل:** سبقت فكرة توطين اليهود في قلب العالم العربي الحركة الصهيونية وكان في هذا التوطين مصلحة للإمبراطورية البريطانية وحماية مصالحها وبعد أن ورثت الولايات المتحدة الأمريكية كثيراً من تركة الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية، حيث أصبحت إسرائيل قاعدة وقوة تستخدمها الولايات المتحدة لخدمة مصالحها في المنطقة، كما أن قادة إسرائيل كانوا يعلمون أن أمن الكيان الصهيوني واستمرار تدفق المساعدات والدعم لهم يتطلب أن تربطها علاقات مع دولة قوية، وبالتالي مادامت إسرائيل على هذه الدرجة من الأهمية الحيوية في الاعتقاد الأمريكي فإنه من الضروري جعل إسرائيل قوية وقادرة على حماية نفسها، وبالتالي فالاستفادة من

مياه النيل يضمن بقائها، وبالنظر إلى استراتيجية موقع منطقة النيل مما جعلها مجالاً للاستهداف الأمريكي والقوى الكبرى (عبد القادر ر.، 2018، الصفحات 83-84).

وفي هذه المرحلة كان نشاط الهيئات الكنسية العالمية الناشطة أوروبيا وعالميا كبيرا إذ عملت على تسويق التصور الغربي عن الحكومة السودانية، التي كانت تتحدث على أن السودان تقود حرباً دينية في الجنوب، وأنها تسعى لتصدير الثورة الإسلامية إلى دول الجوار لكي تبدو المشكلة الأساسية ليست في رفع الشعار نفسه بل في الكيفية وفي الخطاب السياسي والإعلامي المُعتمد على الصبغة الدينية (هاني، 2003، الصفحات 264-265) مما جعل الأمر يبدو للولايات المتحدة الأمريكية وكأنه تحد للزعامة الأمريكية في فترة بدأت فيها الولايات المتحدة الأمريكية ترتيب الوضع الدولي تحت مسمى "النظام العالمي الجديد" (عبده م.، 2005، الصفحات 66-67).

يضاف إلى ذلك إلى أن المنظمات الكنسية المؤيدة للولايات المتحدة الأمريكية تنشط في القارة الإفريقية وترى في السودان بتوجهاته الإسلاموية يشكل خطراً على مصالحها، ولذلك لم يكن غريباً أن تمارس جماعات الضغط الدينية في المجتمع الأمريكي خاصة المسيحية ضغوطا على إدارة "بوش" للتحرك لدعم الانفصاليين الجنوبيين والقضاء على القوة السودانية (توفيق، 2015، الصفحات 125-126).

ولقد شهدت المرحلة اللاحقة ترديا في الأوضاع الأمنية في الجنوب، مما استدعى زيارة النائب الأول للرئيس السوداني ورئيس حكومة الجنوب "سلفاكير" للولايات المتحدة في الرابع من نوفمبر 2007 والتي استمرت قرابة أسبوع والتي كان لها انعكاس على الوضع الداخلي حيث اتفقت الحكومة المركزية مع المعارضة في الجنوب بإيعاز أمريكي وبضغط من اللوبيات والجماعات الدينية هناك على حل المشاكل العالقة لتسريع انفصال جنوب السودان (بدر، 2008، الصفحات 152-153).

خاتمة:

لقد شكل العامل الديني عُنصراً مهما في مشكلة جنوب السودان من حيث الهوية والتسييس والبعد الخارجي بالنظر للدور المهم والفاعل الذي قامت به الهيئات الكنسية العالمية من حيث إسهامها في تجييش العداء والكراهية تجاه المسلمين والذي أسهم بالنهاية في فقدان جزء مهم من دولة عربية مسلمة.

ومما سبق يمكن الوصول للنتائج التالية:

- لقد كان دعم الهيئات الكنسية العالمية لانفصاليي الجنوب على مختلف الأصعدة إنسانياً وإعلامياً وعسكريا... إذ عملت على زيادة التنسيق بينها وبين الكنائس الإقليمية مما كان له دور مهم في إيصال صوت مسيحي الجنوب للخارج، كما أن نجاح الهيئات الكنسية في دعم قبائل وإثنيات الجنوب في أطماعهم الانفصالية كان لم يتحقق دون لجوء هذه الهيئات للتضخيم والتهويل بأن ما يجري في

الجنوب هو حرب اضطهاد ديني تشنها الحكومة السودانية ضد قبائل وإثنيات الجنوب، ومنه الزيادة في عزلة النظام السوداني إقليمياً.

- غباء وسوء تعامل النظام السوداني مع مشكلة الجنوب خاصة بإعلانه الواضح لعديد المرات التجاهل الصريح لقوانين الشرعية الدولية ولجوئه للقوة المفرطة تجاه مسيحيي الجنوب دون معرفة للتبعات، مما شكل فرصة سانحة للهيئات الكنسية العالمية التي استغلت العلاقة السيئة بين الطرفين والتي نجحت في التعبئة والتجييش.
- العمل على زيادة عزلة النظام السوداني إقليمياً ودولياً مما أدى لتسارع الأحداث والذي أفضى في النهاية لانفصال وتشكل دولة جنوب السودان والتي تدين بالعداء لكل ما هو عربي وإسلامي.

وفي الأخير يمكن القول إن أدوار مختلف الهيئات والمنظمات الدولية سواء كانت اقتصادية أو دينية أو ثقافية... تتعامل بازدواجية مفضوحة خاصة فيما يتعلق بدول العالم الثالث، والدليل هو ما قامت به الهيئات الكنسية العالمية من "بروباغندا" دعائية في سبيل تعبئة وتجييش القبائل الجنوبية ضد الحكومة السودانية مما كان له تداعيات خطيرة أفضت إلى انفصال ونشوء دولة جديدة على خاصرة الدولة السودانية ألا وهي جمهورية جنوب السودان والتي تدين بالكراهية لكل ما هو عربي وإسلامي مما يجعل دولة السودان والدول العربية المجاورة في مواجهة التبعات الخطيرة لهذا الانفصال.

توصيات:

- إن نجاح الهيئات الكنسية في دعم قبائل وإثنيات الجنوب في أطماعهم الانفصالية كان لم يتحقق دون لجوء هذه الهيئات للتضخيم والتهويل بأن ما يجري في الجنوب هو حرب اضطهاد ديني تشنها الحكومة السودانية ضد قبائل وإثنيات الجنوب، ومنه الزيادة في عزلة النظام السوداني إقليمياً.
- ضرورة الحذر من النشاطات المشبوهة لعدة منظمات غربية الناشطة بالدول العربية والإسلامية، بالإضافة لضرورة وضع لوائح وقوانين تنظم عمل ونشاط هذه المنظمات.

قائمة المراجع:

أ-اللغة العربية:

1) الكتب:

- مختار موسى عبده. (2009). *مسألة الجنوب ومهددات الوحدة في السودان* (الإصدار 1). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- أبو سعدة أحمد. (2011). *جنوب السودان وآفاق المستقبل* (الإصدار 1). مصر: مكتبة مدبولي.
- أحمد عبد الغفار محمد. (2004). *فض النزاعات في الفكر والممارسة الغربية: دراسة نقدية تحليلية* (الإصدار 1). الجزائر: دار هومة للنشر والتوزيع.
- أحمد قلندر محمود. (2014). *جنوب السودان مراحل انهيار الثقة بينه وبين الشمال 1955-1983)* (الإصدار 1). سوريا: دار الفكر.

- إسماعيل عبد القادر. (2006). *الأصولية المسيحية وأزمة الهوية في السودان*. القاهرة: مؤسسة الطوبجي.
- الباقر العفيف. (2006). *ما وراء دارفور الهوية والحرب الأهلية* (الإصدار 1). (سليمان محمد، المحرر) مصر: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.
- البحيري زكي. (2011). *مشكلة جنوب السودان بين الميراث التاريخي والتطورات السياسية 1955 – 2011* (الإصدار 1). القاهرة: دار ركائز المعرفة للدراسات والبحوث.
- الفاضل التونسي محمد. (2007). *السودان من الحوار إلى الأزمة المفتوحة: صراع الهوية وإشكالية الانتماء* (الإصدار 1). المنصورة: دار كلمة للنشر والتوزيع.
- المدني توفيق. (2015). *تاريخ الصراعات السياسية في السودان والصومال*. الهيئة العامة السورية للكتاب: الجمهورية العربية السورية.
- المعتصم محمد. (1972). *جنوب السودان في مائة عام* (الإصدار 1). مصر: مطبعة النهضة.
- بوحوش عمار. (2014). *مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث* (الإصدار 1). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- رزيق المخادمي عبد القادر. (2018). *قيادة أفريكوم الأمريكية حرب باردة أم سباق للتسلح؟* (الإصدار 1). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- شلبي أحمد. (1997). *المنهجية في التحليل السياسي: المفاهيم، المناهج، الإقترابات والأدوات* (الإصدار 1). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- صالح عمر أبو مطاري محمد. (2015). *مستقبل السودان في ظل اتفاق السلام الشامل* (الإصدار 1). مصر: المكتب العربي للمعارف.
- صدقة جورج. (2015). *التحريض الديني وخطاب الكراهية*. بيروت: برنامج الأمم المتحدة .
- حمد عبد الغفار أحمد. (2001). *مؤتمر المائدة المستديرة لحل مشكلة جنوب السودان 1965-1966 والأقليات في القانون الدولي العام* (الإصدار 1). الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.
- نواي عثمان. (2017). *السودان من العنصرية إلى التطهير الإثني: مآلات جدل الهوية وأزمة التغيير* (الإصدار 1). مصر: دار النخبة.
- نوت يوه جون قاي. (2009). *جنوب السودان آفاق وتحديات* (الإصدار 2). الخرطوم: دار غزة للنشر والتوزيع.

2) المجلات:

- حسن الشافعي بدر. (يناير, 2008). "زيارة كير لواشنطن... التوقيت والدلالات". *مجلة السياسة الدولية ، 43* (171).

- حمد أحمد طه أسامة. (2015). ، *الدور الأمريكي في تسوية مشكلة جنوب السودان* . مصر: المكتب العربي للعارف.
- رأفت إجلال. (2006). *السودان على مفترق الطرق بعد الحرب... قبل السلام* (الإصدار 1). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- رسلان هاني. (جوان, 2003). "الأزمة السودانية: خلط الأوراق في الداخل.. وتطورات إيجابية في المحيطين الإقليمي والدولي". *مجلة السياسة الدولية ، 38* (53).
- رسلان هاني. (أفريل, 2015). "الموقف المصري من إطار ماشاكوس". *مجلة السياسة الدولية ، 40* (160).
- زنداقي صالح. (ديسمبر, 2016). "الماسونية أهدافها وأساليبها بين الماضي والحاضر" . *مجلة الشهاب* .
- صبحي مجدي. (أكتوبر, 2003). "النفط وإنهاء الحرب الأهلية في السودان". *مجلة السياسة الدولية ، 37* (150).
- عثمان حبيب الله محمد. (أوت, 2005). "التطورات السياسية في السودان منذ أربعين عاما". *مجلة السياسة الدولية ، 40* (161)، صفحة 275.
- عكاشة إبراهيم علي. (2005). "الكنائس المحلية والسلام في السودان". *مجلة دراسات إفريقية* (33).
- فرج مصباح محمد. (2011). "التنصير في إفريقيا (السودان نموذجا)". 21-22.
- فرج مصباح محمد. (2011). "التنصير في إفريقيا: السودان نموذجا". (7).
- مختار موسى عبده. (2005). "مستقبل العلاقات السودانية الأمريكية بعد اتفاقية السلام".. *مجلة المستقبل العربي* (319).
- مكي حسن أحمد. (1999). "الكنائس السودانية في مفترق طرق خيارات التحالف والتعايش والمجابهة". *مجلة دراسات إفريقية* (20)، صفحة 30.

3) المو اقع الإلكترونية:

- بن غويزي الشاطري عبد العزيز. (20 أكتوبر, 2007). ، *مجلس الكنائس العالمي نظامه ودوره في التنصير*. تاريخ الاسترداد 01 03, 2022، من بحوث: https://www.islamtoday.net/bohooth/artshow-34-10566.htm
- عبده, مختار موسى. (2010). *"البعد الديني لمسألة جنوب السودان مع إشارة إلى الفترة (1989-2005)"* . تاريخ الاسترداد 02 03, 2022، من المعرفة: https://search.emarefa.net/ar/detail/BIM-43500-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B9%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86%D9%8A-%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%A3%D9%84%D8%A9-%D8%AC%D9%86%D9%88%D8%A8-

%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%AF%D8%A7%D9%86-
%D9%85%D8%B9-%D8%A5%D8%B4%D8%A7%D8%

- مختار موسى عبده. (2010). *"البعد الديني لمسألة جنوب السودان مع إشارة إلى الفترة (1989-2005)"*. تاريخ الاسترداد 01 03, 2022، من المعرفة: https://search.emarefa.net/ar/detail/BIM-43500-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B9%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86%D9%8A-%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%A3%D9%84%D8%A9-%D8%AC%D9%86%D9%88%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%AF%D8%A7%D9%86-%D9%85%D8%B9-%D8%A5%D8%B4%D8%A7%D8%

- هيئة التحرير. (25 سبتمبر, 2014). *"البروباغندا" كلمة نسمعها كثيرا فما معناها ؟* تاريخ الاسترداد 01 03, 2022، من قدس: https://qudsn.net/post/49518/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B1%D9%88%D8%A8%D8%A7%D8%BA%D9%86%D8%AF%D8%A7-%D9%83%D9%84%D9%85%D8%A9-%D9%86%D8%B3%D9%85%D8%B9%D9%87%D8%A7-%D9%83%D8%AB%D9%8A%D8%B1%D8%A7-%D9%81%D9%85%D8%A7-%D9%85%D8%B9%D9%86%D8%A7%D9%87%D8%A7

ب. اللغة الإنجليزية:

1) المقالات:

- Waldemar, C. (2014). "the historical and religious conditions of the split of Sudan in the context of Christian-Muslim relationships the person and challenges". *Uniwersytet Papieski Jana Pawła II w Krakowie , 4* (1), 214.

2) المو اقع الإلكترونية:

- Timothy, B. (2011, 08 12). *Building Social Capital in South Sudan: How local churches*. Retrieved 03 01, 2022, from uottawa.ca: https://ruor.uottawa.ca/bitstream/10393/23900/1/BROWN%2C%20Timothy%2020115.pdf

الصّورة النّمطيّة للمرأة المسلمة في الإعلام الغربي

The Stereotype of Muslim Women in Western Media

ط/د. بوطرنيخ محمد، المركز الجامعي مرسلي عبد الله تيبازة- الجزائر
mohamedeali18@gmail.com



تهدف الورقة الحالية إلى محاولة توضيح الصورة الحقيقية للمرأة المسلمة في مجتمعاتنا ، وتلك التي تعرضها وتنقلها وسائل الإعلام المختلفة من حصص وأخبار ومقالات علمية، من خلال تصويرها وتشويهها لحياة المرأة المسلمة، فالغرب وبالخصوص الإعلام الغربي يسعى جاهدا إلى تشويه مكانة المرأة المسلمة في الإسلام زعما منهم، أن المرأة المسلمة أفقدها الإسلام حقوقها ومكانتها من ذلك راحة الإعلام الغربي ينشر سمومه و ضلالاته في وسائل الإعلام التي طورها اكثر ليسهل عليه الإفساد والتضليل لأنّ ذلك من الوسائل الجديدة التي اهتم بها الغرب أيماّ اهتمام لذلك نجد أحدهم يقول إن صورة واحده تعادل ألف كلمة فهم يقومون بإرسال الصور الكاريكاتوريه والتي تحمل في دلالتها السيميولوجية معاني كثيرة يعرفها المتعلم وغير المتعلّم.

الكلمات المفتاحية: الصورة النّمطية، للمرأة المسلمة، الإعلام الغربي.

Abstract:

Muslim women have been subjected and subjected to many harassments by Western enemies and others regarding what is broadcast and transmitted through various media outlets, including quotas, news and scientific articles about the life of Muslim women - .That the Muslim woman has lost her rights and status in Islam, and the convenience of the Western media spreading its poison is its misguidance in the media that it has developed more to make it easier for it to corrupt and mislead, because that is one of the new means that the West has paid great attention to, so we find someone saying that one picture is equivalent to a thousand words, so they By sending caricatures that protect in their semiotic connotations many meanings known to the educated and the uneducated.

Keywords: stereotyped image, of Muslim women, Western media



مقدمة:

تلعب وسائل الإعلام المختلفة الصحفية والاذاعية والتلفزيونية دورا كبيرا في حياة النّاس من خلال رفع مستوى الوعي الثّقافي لدى المتلقّين لتلك الوسائل وهذه الوسائل تساهم في نقل المعلومات المتعدّدة والمتنوّعة في مختلف، المجالات كما انّها تقوم بنقل التّجارب والخبرات إلى الجمهور وكلّ ذلك يعدّ من الوظائف الأساسيّة لوسائل الإعلام كما نجد لها وظائف في المجالات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية

والتّعليمية وغيرها حيث أثبتت الدّراسات الإعلامية أنّ وسائل الإعلام تساهم بشكل كبير في تشكيل اتجاهات الأفراد نحو قضيّة من القضايا الاجتماعية أو السياسية أو الدينية وفي القرن العشرين وبعد الحرب العالمية الأولى ظهرت نظريات إعلامية ومن أبرزها نظرية الطلقة السّحريّة حيث شبهت الرسالة الإعلامية بالمصل الذي يحقن به ويصل في لحظات قلائل إلى كلّ أطراف الجسم وهذا يعني أنّ وسائل الإعلام على الشبيه من ذلك وفيه مماثلة بالمصل والّذي ينتقل في كافة أطرف الجسم وكذلك وسائل الإعلام لها تأثير في كافة فئات المجتمع ومؤسّساته وعليه فإنّ هناك وسائل إعلام تعمل على رفع الوعي الاجتماعي والصحي والاقتصادي للجمهور وهناك وسائل إعلام تعمل على هدم القيّم الأخلاقية للأفراد وتشويه صورة فئة معينة لمجرد انتمائها لتوجه معين أو مذهب معين أو ديانة معينة الأمر الذي يؤدّي الى تكوين صورة نمطية لدى المستقبلين لهذه الوسائل عن الفئات المستهدفة، كالمرأة المسلمة مثلا.

-أهمية الدراسة:

تمارس وسائل الإعلام الغربية منذ القديم إلى اليوم حملة شرسة على المسلمين وبالخصوص القضايا التي تتعلق بالمرأة المسلم ومّما زاد من أهميّة دراسة الصّورة النّمطيّة للمرأة المسلمة في الإعلام الغربي ما يلي:

- أنّ الإعلام الغربي يشارك في نقد ونشر الصورة الذهنية السّلبية عن المرأة المسلمة ليعيد إنتاجها.
- إنّ عمليّة صناعة الصّورة الذّهنية التي تشوّه المرأة المسلمة لها جذورها وأهدافها.
- عمليّة صناعة الصورة النّمطية وانتاجها في الإعلام الغربي يتمّ عن قصد وبشكل متعمّد وذلك كمحاولة منهم للقضاء على حياء المرأة المسلمة وعفّتها وكرامتها

-الإشكالية: تتمثل الإشكالية الرئيسية في التساؤل الآتي:

ما مدى مساهمة الإعلام الغربي في تشويه صورة المرأة المسلمة؟

والذي يتفرع إلى ما يلي:

1/ ما الوسائل الإعلامية التي يعتمد عليها الغرب لتشويه صورة المرأة المسلمة؟

2/ ما هي الصورة النمطية التي يشكّلها الإعلام الغربي للمرأة المسلمة؟

3/ ما هو دور الإعلام الإسلامي والعربي فيتحسين صورة المرأة المسلمة لدى الغرب؟

-الأهداف: من الأهداف الاساسية التي يريد الباحث الوصول إليها ما يلي:

1/ إعطاء تعريف للصورة النمطية وبعض من المفاهيم.

2/ معرفة الوسائل التي يعتمد عليها الغرب في تشويه صورة المرأة المسلمة.

3/ الاطلاع على سبل المواجهة والطّرق التي تمكّن الاعلام الإسلامي والعربي من تحسين صورة المرأة المسلمة لدى الغرب.

-فرضيّات الدراسة: من بين فرضيات الدراسة ما يلي:

1/ توجد وسائل إعلامية مهمة يعتمد عليها الغرب لتشويه صورة المرأة المسلمة.

2/ يعمد الغرب في وسائله الإعلامية إلى إشاعة مفاهيم ومصطلحات تزيد من تشويه صورة المرأة المسلمة لدى الآخر(الغرب ومن يوالونهم).

3/ كلما كانت برامج وحصص تليفزيونية وإذاعية وكذا ملتقيات علميّة متنوعة تحقّقت مكانة المرأة المسلمة ومكانة الإعلام الإسلامي والعربي.

- **منهجية الدراسة**: لقد تم الاعتماد في هذه الدراسة على الأسلوب الوصفي التحليلي لأنّه المناسب لهذه الدراسة إذ يقوم هذا الأسلوب بتحديد خصائص الظاهرة ووصف طبيعتها وذلك عن طريق الجمع المعلومات المتعلقة بالصورة النمطية للمرأة المسلمة في الإعلام الغربي وذلك بغرض الدراسات وتحليلها والخروج من نتائج واضحة ودقيقة عن الظاهرة المدروسة.

أولا-مفاهيم عامة:

1-مفهوم الصورة النمطية: ومن بين التعريفات التي يمكن أن نشير إليها نذكر ما يلي: يعرّفها بعض الباحثين بأنّها رأي ثابت ذو طبيعة تقييمية تعميمية يشير إلى فئة من الناس (سكان محليين أو عناصر أوجماعة معينة...الخ).

ويعرّفها الباحث غردون أيليوت بأنّها اعتقاد مبالغ فيه يرتبط بفئة، وظيفته تبرير السّلوك أجزاء تلك الفئة، وتعرّف بأنّها حكم قيمة - سلبي او ايجابي - بالغ البساطة والتعميم يقترن بفئة من النّاس(قوميّة ديّانة جنس جماعه معينة...الخ)، متجاهلين تلك الفروق الفردية بين أعضاء تلك الفئة ويصعب تغييره في معظم الأحيان.

أمّا الباحث بليفة ميلود فقد عرّفه على أنّها القوائم أو النّماذج الجاهزة التي يكون يكوّنها فرد أو جماعة أو شعب عن فرد أو شعب أو جماعة أخرى يفعل عمليات تاريخية تراكمية تلعب وسائل الإعلام دور كبير فيها اليوم ومن خلال هذه الصورة النمطية يمكن أن نعرف تصور الشّعوب عن بعضها البعض والمواقف المتّخذة طبقا لهذه النماذج الجاهزة (بليفة مولود، 2014م، ص ص 19، 18)

فمن خلال هذه التعريفات يتّضح أنّ الصورة النمطية في هذه الدراسة تدلّ على مجموعة الأفكار التي تشكّل لدى الفرد الغربي عن المرأة المسلمة وهذه الأفكار والمعتقدات تتشكّل بفعل الإعلام الغربي لنقل صورة سيّئة عن المرأة المسلمة لبني جلدتهم أو حتى لمن يوالونهم

2- المرأة المسلمة: المرأة كائن شريف خصّصتها القدرة لتكثير النوع الإنساني في وظيفتها من هذه الحيثيّة السّامية جدّا ولا يستطيع أن يجاريها الرّجل فيها بوجه من الوجوه

وقد متّعها الله تعالى بحسن أداء هذه الوظيفة بكلّ ما تحتاجه من الأعضاء وناسب بين تركيبها وتلك الوظيفة بحيث ترى أّن كل شيء فيها يدل على ان القدرة الالهية قصرتها عليها ولذلك نرى بين جسمها وجسم الرجل من الاختلافات والتباين ما ينطبق بالبداهة أنّهما لم يخلقا ليتسابقا في مجال واحد البتة.

وجاء في دائرة المعارف القرن التاسع عشر تحت لفظة امرأة ثم يأتي:

لا تختلف المرأة عن الرجل باختلاف شكل اعضاء التناسب كليهما فقط، نعم لا شك في أن تلك الأعضاء هي أكبر اختلافات التي بينهم ولكن كل الاعضاء الاخرى حتى التي تظهر أكثر تشابه فيما بينها ترينا تغير خاصا (محمد فريد وجدي، 1999، ص 15).

لذلك فالمرأة المسلمة هي ذلك المخلوق الذي ميّزه الله على الرجل فأعطى الله للمرأة خصائصها الخاصة والمميّزة كما أعطى لها مكانتها الخاصة بها داخل المجتمع الذي تنتمي إليه لكن الغرب الحاقد يريد أن يشكّل امرأة على مزاجه وعلى مراده للقضاء على التعاليم الإسلامية وبالخصوص ما يخصّ المرأة بالتحديد.

3- مفهوم الإعلام : يعرّف الإعلام على أنّه التعريف التّعبير جديد حلّ محلّ تعبير الدّعاية التي لحقت بها الشوائب ونالت من مفهومها وأبعدتها عن السّمع والشّعور وهو لفظ يقابله في اللغة الانجليزية Information الذي يعني الاستعلام والخبر والإعلام واللفظ العربي(الإعلام) يحمل في تضاعيفه عدّة معاني متقاربة يعني الاستعلام عن الحوادث والأخبار والروايات كما يشير إلى الدّعاية والتّوجيه والإرشاد (نعمان ماهر الكنعاني، 1968م، ص 01).

كما يعرّف الإعلام كذلك على أنّه الاستخدام الذي يدلّ بشكل أساسي على مضمون الرّسائل أحيانا لوصف حالة لا يحدث فيها تبادل الرّسائل على الإطلاق وهي حالة على الأرجح نادرة أمّا العملية الإعلامية فهي عملية لا عقد للعمليّة الاتصالية العامة، له أدوات جماهيرية ووسائل الإعلام من خلال الاتصال يهدف إلى تزويد الناس بالأخبار الصّحيحة والمعلومات السّليمة والحقائق الثّابتة (ردينة عثمان يوسف ومحمود جاسم الصميدعي،2014م، ص20).

وعليه فالإعلام من خلال ما سبق يدلّ على إعلام الناس وإخبار الناس بالأحداث الموجودة والتفاعل معها وهذا ما يقوم به الإعلام الغربي وكذا الإعلام العربي وكل الاعلام له أهداف معلنة وأهداف خفية فالإعلام الغربي من خلال برامجه و حصصه التي يقدمّها يسعى جاهدا الى تقديم صوره سيئة عن الاسلام والمسلمين وبالخصوص شأن المرأة المسلمة فيصوّرها للرأي العام العالمي على أنّها امرأة مظلومة ومهضومة الحقوق لكن وللأسف الشديد فإنّ الإعلام العربي أصبح يقدم برامج لا تتواءم مع ثقافة المجتمع العربي والإسلامي و لا يعير أيّ اهتمام لخصوصيات المجتمع المسلم بصفة عامة.

ثانيا- نظرة عامة حول الاعلام الغربي:

إنّ الصورة العامة للإسلام والمسلمين في العالم وإن كانت تعكس من سوء الفهم فإنّها ترسّخ فكر الحقد والجهل المركّب في عموم الأحوال وهي لا تقلّ تشويها عن تلك التي يتمثّلها عن طريق مناهج التعليم بل إنّ الاعلام يقوم ويغذيها بما يقدّمه وباستمرار من مواد تكرّس الصّورة النّمطية القائمة التي يتمّ عرضها عبر القنوات الفضائيّة للأدمغة وعلى مدى 24 ساعة (ناجية اقجوج، 2009، ص39).

1- تعريف الإعلام الغربي :يعرف الإعلام الغربي بأنّه عملية إعلامية تعريفية تنقل المعلومات المشاهدين فالإعلام الغربي الفضائي يلعب دورا كبير على فئات المجتمع فهو من خلال تأثيراته المختلفة يستلزم بحثا معمّق في اجتراح نظريته ومناهج ومدرسة اعلامية خاصية تقاطع مع الأساليب الرّاهنة حيث

النّسخ والتّقليد وتهتمّ أكثر بدورها في تنمية وتنوير مجتمعاتها وليست تنويرها من دونما بوصلة و يعرف الاعلام الغربي من خلال الوظائف فالمدرسة الليبرالية ترى أنّ وظيفتها تكمل في الحرية من خلال التّدخّلات الحكومية ويقوم الإعلام الغربي على هذه النّظرية بعض المفكّر الليبراليين منهم جاك بلاك وفريدريك انا للإعلام وظائف اربع هي الاخبار الترفيه الاقناع نقل الثقافات (سمية ابراهيم المكاوي 2016م،ص107).

إذا فالإعلام الغربي كما قال فريدريك يقوم بنقل الاخبار والاقناع ونقل الثقافة الخاصة به والتي يريدها أن تسود في جميع بلاد العالم وهو بذلك يسعى إلى إخلال الثقافة الغربية المسجة المقيتة مكان الثقافة الاسلامية الفتية النقية.

2- أهداف الإعلام الغربي : ينقسم الاعلام الغربي الوافد إلى بلاد المسلمين إلى قسمين هما:

- أولا: اعلام ا الرذيلة والمجون ويهدف أولا وأخيرا لإفساد الأخلاق ونشر الرذيلة بكلّ أنواعه - ثانيا: قال أحد الباحثين يخطئ من يظن أن الاعلام بمحطّاته المرئيّة والمسموعة و المقروءة من يظن أنّه عالم عيني يسير بغير تخطيط ولا أهداف إنّه لمجرد الإتجار أو الترفيه او لملء الفراغ بل إنه اعلام موجّه لتدمير ما تبقى من الاخلاق وتشكيل جيل ممسوخ أجوف والاعلام الذي يملكه الغرب على رأسهم اليهود والصليبيون يحقّقون من خلاله عدة اهداف:

-تكريس الشتات والتجزئة للأمّة الإسلامية من خلال إذكاء روح القوميّة والوطنيّة الطائفيّة والالتفاف حول الهويّة الجاهلية (مصر والفرعونيه وفلسطين والفينيقية، وغيرها).

- ارغام العالم الإسلامي كلّه على القبول والسّماع لوجهة النّظر الغربيّة في كل الاحداث دون جدل، بل ودون ابداء رأي، أو مناقشة، ولا أقصد باب رأي حول قضية لا تهمّنا بل قضايانا المصيريّة التي تعيش معها.

- تشويه صورة المسلمين ووصفهم بالتخلّف والرجعية والجهل والاضطهاد للأخرين من خلال إبراز نماذج شاذة لا تمثّل الاسلام وأهله وتشويه صورة الاسلام.

- تشويه صورة الحركات الجهادية المخلصة، وأنّهم أوصوليّون وتكفيريّون كما قام الاعلام الغربي بمخاطبة الجمهور العربي عبر الصحف والمجلات والقنوات والإذاعات كإذاعات مونتي كارلو،بي بي سي، بدرجه اكثر وضوحا من الاذاعات العربية في الدول المجاورة (سمية ابراهيم المكاوي، 2016م، ص ص 108-109).

ودلالة هذا النجاح الغربي الإعلامي هو قدرته على اجتذاب كثير من رموز الأدب والفكر والثقافة العربية للعمل فيه فضلا عن الجرأة التي تتّسم بها في طرح كثير من القضايا العربية أمّا إسهام الاعلام الغربي النّاطق بالعربية في الارتقاء بالصناعة الاعلامية العربية فإنّه يجب أن يعلم أنّ هذا الانتقال لم يكن هدفا للقائمين على هذه الوسائل الغربية بل إنّ النّخب العربية وبعض دوائر صناعة القرار العربي تنبهت لمخاطر إقبال الجمهور العربي على مثل هذه الوسائل وعملت على تقديم البديل الإعلامي العربي المشابه وفق ما سمحت به الظروف فكانت إذاعة صوت العرب والشرق الأوسط بديلا مطروحا لإذاعة مونتي كارلو ،بي بي سي رغم فارق الإمكانات والخبرات فولّدت كذلك صحف عربية، دولية في الخارج التي تتيح هامشا

أكبر من الحريّة والتّنوع مثل العرب الدّولية ومجلّة الحوادث والشّرق الاوسط والحياة وغيرها ، ولا شك أنّ في هذا إفادة للصناعة الاعلامية العربية وشاهد هذا أنّ كثير من الكفاءات الاعلامية التي تعمل حاليا في قنوات وصحف وإذاعات عربية سبق لها العمل في وسائل الاعلام الغربية باللغة العربية ولكن هذه الوسائل فرزت كثير من المنبهرين بالثقافة الغربية المحتقرين لثقافتهم العربية الامّ وبعض هؤلاء للأسف أصبحوا مسؤولين في وسائل إعلامنا العربي فبدت كثير من برامجنا نسخا مشوها لما يقدّمه الاعلام الغربي ومن ذلك برنامج تلفزيون الواقع ستار اكاديمي وفي يومنا الحاضر اصبح الاعلام الغربي خطرا يهدد العالم الاسلامي لأنّ الاعلام الغربي أصبح هو الاعلام العربي بفضائياته وبرامجه المختلفة، ومثال ذلك المسلسلات و عروض الأزياء التي تترجم من الانجليزية الى العربية و كلّها تحمل الضرر لمخالفتها لديننا وعاداتنا وتقاليدنا (سميه ابراهيم المكاوي، 2016، ص ص 110،109).

ثالثا- صورة المرأة المسلمة في الإعلام الغربي :

أصبحت المرأة المسلمة في الإعلام الغربي نموذج للتخلّف والرجعيّة والاضطهاد وأن أبرز نموذج لتخلّف للمرأة المسلمة هو ذلك الغطاء الذي ترتديه فهو يغطيها من رأسها الى قدمها مما يجعل من الاسلام حجرة عثرة امام التقدم و انفتاح المرأة على حدّ تعبيرهم وقد شنت حملة ضاربة على الحجاب في المدارس والمعامل والادارات الحكومية من طرف السياسيين وبعض المثقفين حيث رأت في حجاب المرأة مع ثقافة المجتمعات الغربية و قيامها كما تتعمد وسائل الاعلام الغربية استعمال أسلوب الاحتقار والنظرة الدونية للمرأة المسلمة في شكل صور ساخرة تصفها بآلة الانجاب الشبح الاسود (العرباوي قصير، 2016م،ص 27).

وكما جاء في مقال للباحثة نورة خالد السعد أنّ الاعلام الغربي ينطلق من معايير عند تناوله لقضية المرأة المسلمة من هذه المعايير ما يلي:

- **المعيار الاول** : **الدعوة الى رفع وصاية الدين عن المرأة** : إن من يطّلع على معظم ما يحرر في هذا الجانب يلمس التعدّي التّام على الاسلام بهدف نقده كدستور ومنهج تشريع واعتبار الدّين حجرة عثرة في الطريق لتقدّم المرأة وتزامن ذلك مع الحملة التي يشنّها الغرب للقرآن والرّسول صلّى الله عليه وسلّم و ضدّ شعائر الإسلام و الشواهد على ذلك كثيرة في ذلك الإعلام ومنها انتقاد ادوارد بيكنغتون في صحيفة Gardin حكم الشريعة وصف فيها بالمشدّدة حيث تتيح للرجل الزواج من أربعة في حين لا يتاح ذلك للمرأة وانتقد حد الزنا وأشار الى أنّ منع الاختلاط وارتداء الحجاب يعبّر عن ممارسته الخاطئة للعقيدة وذلك ليس من الاسلام وانّما تسلط من الرجال وعبّر عن استيائه من رجال الحسبة في منعهم الشباب من الاختلاط بالفتيات في الاسواق والاماكن العامة كما اعربت باربرا سلافن في صحيفه ايزا نيوز سببا في احداث تغيّرات ثقافيّة واضحة في المملكة وأن يعيد السعوديون النّظر في مسلسل القيود المفروضة على المرأة كالحجاب والسفر بدون محرم ويضيف كريستوف نيغولز صحيفة نيويورك تطبيق المرأة للقيم الاسلامية في المملكة المعاملة غير انسانية كما انتقدت قناة سي. ان .ان حكومة كشمير في تطبيقها لأحكام الشارع وذلك بإغلاق محلّات بيع الكحول ودور السّينما ومطالبة النّساء بالالتزام بالحجاب الشرعي والامثلة السّابقة وغيرها

العديد تكشف الدعوة الصريحة لهذا الاعلام في معظمه أدبياته الى إلغاء الدين من حياة المرأة المسلمة هذه الدعوة تستخدم جذورها من العلاقة التاريخية بين الاسلام والغرب منذ القديم والنّظر إليه على أنّه شكل وكيان ذو صبغة واحده ونظام صارم لا يعرف المرور في العقلية التي نتجت عن الحروب الصليبية تشكّل وتحدّد العلاقات المشتركة بين الغرب والاسلام فقد ذكر كل من نورمان دانيال في كتابه(Islam and the west making of image).

كلود في كتابه الحروب الصليبية أن آباء ومؤسّسي الحروب الصليبية استعانوا لإشعال الكره ضدّ كلّ ما هو اسلامي وخاصة ضدّ الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم بحملةٌ لنشر الجهل على كل ما هو اسلامي وحجب كل المعلومات الصحيحة ونشر المعلومات المغلوطة عنهم بين النّاس وأسهمت وسائل الاعلام الغربية في ترسيخ هذه الصورة المشوهة ضدّ الاسلام وتعاليمه، تبلغ الادعاءات ذروتها بإلحاح وسائل الاعلام على ذكر الاسلام مصحوبا دائما بصفه مثل استبداد الشرقي وقمع النساء المخالف لحقوق الانسان وأنّ المسلمين يتمسّكون بأخلاقيّات بالية من وجهه نظرهم مثل العفة قبل الزواج موقف الاسلام من العلاقات خارج الزواج والخيانة الزوجية والاجهاض والشذوذ الجنسي والحجاب يخالف موقف الغرب تماما وهو موقف لا يتقبله الغرب (نوره خالد سعد، 2008م،ص-ص27-29).

- **المعيار الثاني**: **عدم الموضوعية في عرض قضايا المرأة المسلمة**: حقيقة هامة تفيد بأنّ معظم ما يقدّم من تحقيقات ومقالات حول المرأة المسلمة لا يتجاوز التركيز فيها على التبعية الثقافية ومحاربة القيم الاسلامية ولعلّنا جميعا لاحظنا القنوات سي. ان. ان عندما سلّطت الاضواء حول معاملة طالبان المرأة في افغانستان حيث كان محور اهتمامها الوضعية وتقاليدها حيث اختلفت بالمرأة المحررة من الحجاب بعد ذهاب طالبان أمّا ما افرزته الحرب الامريكية في افغانستان من معاناة مريرة لملايين النّساء الافغانيات كلّ ذلك لم يشكّل محور اهتمام لوسائل الاعلام الغربية ومن ثمّ تناولته الاخبار بصورة سريعة، في السيّاق نفسه خطاب السيدة بوش الاذاعي الذي أوردته قناة سي ان ان في افغانستان حيث وصفت حياة المرأة بالقاسية والمهينة.

ويظهر ذلك بوضوح كذلك في حال المرأة السعودية عندما تهمل نتائج التنميّة التي تحقّقت للمرأة في المملكة ويكون التركيز بالدّرجة الاولى عند الحديث عن المرأة على عباءتها دون الاشارة الى ان هذه العباءة لم تمنعها من العمل وغيرها مما يشهد به واقع التنمية في المملكة السعودية.

3- **المعيار الثالث: أسلوب احتقار و النظرة الدونية**: تنعكس مظاهر الاحتقار والنظر الدونيّة للقيم الاسلامية المحافظة في بعض ما يحرر وفي هذا السياق نبحث ممّا رأى نيكولز كريستوف في صحفتي نيويورك تايمز افتتح تحقيقه بإطلاق لقب الاشباح السّوداء على نساء المملكة وأنّ المرأة السعودية مصنّفة في الغرب بممسحة الأرجل والاثريّة المغطاة بالسّواد وفي ختام تحقيقه يقول استمرّيت في سؤال النساء السعوديات كيف يشعرن وهنّ ممتهنات واستمررن باعتزازهنّ وكرامتهنّ انّهن غير ممتهنات (نورمة خالد سعد، 2008، ص-ص30-32).

-المعيار الرابع: تكريس النموذج الغربي للمرأة و أنه النموذج الذي يحتكم إليه : يعتبر هذا المعيار من أهمّ المعايير وابرزها ارتباطا بالمعايير الثلاثة السابقة حيث تشترك جميعها في عرض صوره نمطيّة مكرره للمرأة المسلمة وهذا هو الهدف الأساسي ومجمل طرحهم الذي قد لا تخلو منه مقالة او تحقيق أن المرأة في عالمنا الإسلامي ممتهنة ومهضومة الحقوق و مسلوب الحرية، في صحيفة (the christian sciencemonitor) تحقيقا أجرته نيكولا جوتي مع عدد من المسلمات في كل من افغانستان وايران والمملكة العربية السعودية أكدن جميعا أنّ الدين والثقافة شكّلت حياتنا وإن كان لديهن أي مشاكل فاكّدن على انّ الحجاب لبس واحد ولا عجب ان تؤكد المحررة انّ هؤلاء النّسوة يفخرن بطبيعة الإسلام ومكانة المرأة فيه لا سيما وانّ مجموعة من الطّبيبات والمعلّمات الافغانيات اكّدن انهن وبعد ذهاب الطالبان لم يتخلين عن حجابهن وما تناقلته وسائل الاعلام الغربية وما ينضوي تحت تخليهن عن الحجاب غير صحيح وان احكام الاسلام يتبعها المسلم في أفغانستان طوعا رجالا ونساء ولم يفرض بحد السّيف كما يصوره ذلك الإعلام ويعزز ذلك مقابل كريستوف في صحيفة نيويورك تايمز لعدد من الأكاديميات السعوديات تعبيرا عن رفض دهن الصورة النّمطية التي تتعرّض لها المرأة المسلمة ورفض وصفهن بالممتهنات من قبل وسائل الاعلام الغربية حيث يقول ولكن النساء السعوديات يرفضن بشد الصورة النمطية التي تعرض بها المرأة المسلمة السعودية في الاعلام الغربي وتقول احدى الاكاديميات نعم انني لست ممتهنه انا اعطي جسدي ووجهي وانا سعيدة بكوني أطيع اوامر ربي وتستطرد اخرى بقولها انك لا تستطيع الذهاب الى الهندية وتسالها لماذا تلبس الساري ولا تستطيع ان تسال الغربية لماذا تلبس الفستان القصير إذا هذه هي عباءتنا وهي جزء من ثقافتنا ولم تكن مصدر ازعاج لي على الاطلاق انا ألبس ما أريد ولكن ليس أمام الرّجال غير المحارم لماذا يفرض عليّ أن أكشف ساقي وصدري هل هذه هي الحرية (نورة خالد سعد،2008م،ص ص،33،34).

-المعيار الخامس: المرجعيّة المستمدّة من منهجيّة وفكر الحركة النّسوية الغربيّة : نستطيع ان نرصد الحضور الفاعل والمنظّم لأقلام المنتميات للحركة النسوية في دفع الأجندة النسوية الغربية للقضاء على الحجاب وتغيير قوانين الأحوال الشخصية الإسلامي وربط مسألة حصول المرأة على حقوقها بالصراع بين الرجل والمرأة والحقيقة أننا عندما نتناول بالتحليل على سبيل المثال ما يصدر عن قناه بي بي سي نيوز فإننا نلاحظ الحضور القوي لهذه الحركة من خلال محررات أخذن على عاتقهن التخصص في قضايا نساء العالم الاسلامي بولادة مجلس وطني للمرأة في مصر يملك القوّة بإدخال تشريعات جديدة تلغي قانون الأحوال الشخصية الاسلامية الى اشادة يكون عدد الخريجات من النساء في بعض الدول الاسلامية اكثر من الرجال الى التنديد بالحجاب الاسلامي و الهجوم على الدول الإسلامية التي تفصل بين الجنسين في التعليم والعمل الى تمجيد للناشطات العربيات مباركة جهودهن وتغطية مناشطهن في مجال تحليل المرأة العربية وفرض القوانين التشريعية الوضعية ناهيك عن الأوصاف الدونية ونقل صورة غير صادقة ما تحقق للمرأة في المملكة العربية السعودية في مجال التعليم والعمل إنما هو نتيجة للضغوط التي وضعتها المرأة السعودية في سبيل الحصول على حقوقها ، ولا شك أن النساء المسلمات عامة والمرأة في المملكة

العربية السعودية على وجه الخصوص اتجهنا لرفض المسألة التغريبية فلم تعد اشكالية المرأة بالزي فحجابها العنوان لكرامتها وتعليمها اصبح طريقة لرفض مناهج التغريب (نورة خالد السعد، 2008م، ص ص ،38،37).

-**المعيار السادس**: **ازدواجية المعايير في التعامل مع القضية الواحدة ويعدّ هذا المعيار من أخطر المعايير على الإطلاق في معاملة المرأة المسلمة والإسلام:** تعدّ ازدواجية المعايير من الأمور المعروفة على نطاق الواسعة في وسائل الإعلام الغربية في تعامله مع قضايا المسلمين بصفة عامة وفي شأن المرأة المسلمة على وجه الخصوص ولعلّنا نتأمّل المفارقات العجيبة في ازدواجية المعايير والتي تظهر تحيز الإعلام الغربي في تعامله مع القضايا عندما يتعلق الأمر بالإسلام والمسلمين يتمثل في الآتي:

- تستطيع الراهبة أن تغطي راسها الى قدميها وتكون في نظرهم محترمه فهي تمثل اوامر ربها ولكن عندما تفعل ذلك المسلم تعتبر ممتهنة.
- عندما تجلس المرأة الغربية في بيتها للعناية بالبيت والاطفال فهي في نظرهم تقدم تضحية جميلة في سبيل المحافظة على شؤون منزلها ولكن عندما تفعل المرأة المسلمة ذلك فهي في حاجة إلى أن تتحرر.
- عندما يقتل المسيحي شخصا ما فالدّين لا يذكر ولكن عندما يقاضي المسلم بجريمة فإن الإسلام هو الذي يحاكم.

رابعا- وسائل واساليب تصحيح صورة المرأة المسلمة في الاعلام الغربي:

إن لتصحيح صورة المرأة يجب ان تتظافر جهود عديدة للعمل على تصحيح هذه النظرة التي هي بأذهان الغربيين واتباعهم سواء من قريب او من بعيد وما دام ان قضية المرأة من قضايا الاسلام المهمة وبالتالي تصحيح النظرة الى قضية المرأة المسلمة وكلّ القضايا الاسلامية

لذلك فان كل تشويه لا بد له من تصحيحا لانّ الحكم على الشيء فرع عن تصوره كما انّه لابدّ من اقرار واعتراف ووقفة مع الذّات قبل فتح الحوار ولابدّ من ذكر حقائق اهمها:

- ليس كل تشويه في الغرب هو من قبل الغربيين فقط.
- ليس كل المشوهين لصورة الاسلام جاهلين لحقيقته.
- ليس كل الغربيين معادين للإسلام.

-الحقيقة الاولى: يؤكدها واقع الحال وتؤكدها باستمرار السلوكيات بعض المسلمين في الغرب وهذا باعتراف اشخاص عاديين ورؤساء منظمات اسلامية في الغرب واكّد لنا هذا رئيس رابطه العلماء بالدنمارك السيد محمد فؤاد البرازي لمّ جاء لمحاضرة اذ يقول وهو يتحدّث عن صورة المسلمين هناك انّ في الدنمارك عددا مهمّا من المسلمين مخصص منهم عشرة آلاف من المغاربة منهم من يدجر بالمخدرات ومنهم يشتغل بالسرقة وبلاوي اخرى

لذلك كان نداؤه حينها خذوا الامر على محمل الجد وأوفد اصحاب الفكر الثاقب الى تلك المجتمعات اوفدوا قوافل دعويه

-الحقيقة الثانية: تؤكّدها على الخصوص كتابات وتصريحات المفكرين الغربيين سواء المنصفين منهم أمثال برنارد شو دورانت، لامارتين وغيرهم (ناجية أقجوج، 2006م، ص ص40،41) .

انهم انصحّ القول في عناد يقوده الهوى وتورثه المصلحة ويحذره الغرض فهم يخشون على مصالحهم وسلطانهم لذلك يكيدون له كل ذلك الكيد وكل هذا الكيد الذي لا يفطر بشتى الطرق وبكل الوسائل عن طريق مباشر او عن طريق غير مباشر يحاربونه وجها لوجه ويحاربونه من وراء الستار يستهزئون به من اهله من يحاربه لهم تحت اي ستار وهم دائما كما يشير اليه القران في آياته.

فمما سبق يتضح ان هذه الحقائق مهمّة اذا تمّ اتباعها على الاقلّ تساهم في اعطاء الصورة الصّحيحة للإسلام والمسلمين لكن اليهود هم اليهود مهما فعل المسلمون فلن يغير من حالهم وهذا ما نجده في التوقيع القرآني اذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [سورة البقرة، آية 120].

1-واجب العلماء: فواجب العلماء من أئمة ودعاة ومفكّرين في تبصير المسلمين وتصحيح صورة الاسلام في اذهان وعقول الغربيين واجب عظيم شأنه كبير أثره مرجوع ثماره صعب لكن غير مستحيل تحقيقه ان شاء الله هذا الواجب الذي يمكن ان نلخص في أربع نقاط اساسية تتوقف كل نقطة على الاخرى:

-**النقطة الاولى**: ضرورة تطبيق المرجعية في ترشيد الصحوة وفي اسلوب الحوار محاوله تشويه ورد كل شبهه بالعلم والحكمة والموعظة الحسنه عملا بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [سورة النحل، آية 125] (ناجية أقجوج، 2006م ، ص - ص،41-43).

-**النقطة الثانية**: ترشيد فكر الاجيال الناشئة في الغرب الجيل الثالث والرابع على الخصوص عند اعتبار انّها تمثّل الاسلام هناك وعليها يتوقف مستقبل الحضور الاسلامي وهي تتحوّل يوما بعد يوم الى جزء من النّسيج الاجتماعي لتلك المجتمعات الغربية ولانّ الغرب او بعض الغربيين لا يمكنهم ان يتعرّف على الاسلام إلا من خلال التعايش ومن خلال سلوكيات المسلم سواء مع المسلم أو مع غير المسلم أو في ردود فعله وهذا الأهمّ في تعامله مع حملة التشويه المتكررة على اعتبار انّه يمثّل الاسلام في الغرب.

-**النقطة الثالثة**: تكثيف جهود المنظمات الإسلامية وضرورة اختيار الدعاة الى الغرب من أجل تصحيح المفاهيم الخاطئة لانّ جهود المنظّمات تبقى -كما من وكيفا - جهود لا تشفي المريض ولا تصحّح العليل سواء بالنّظر الى عدد الدعاة أو مستواهم المعرفي واختلافاتهم المذهبيّة أو حتى الفترات المحدودة التي يتمّ فيها إرسال هذه البعثات إلى الغرب ويشير المسلم هوفمان وهو الماني انّ الدعاة الذين ترسلهم هيئة المنظمات نماذج طيبة وبعضهم يتحدث عن الاسلام بصورة منفّرة.

-**النقطة الربعة**: تفعيل دور الخريجين من الكليات الشرعية لان الوضع يتطلب علماء أكفّاء على مستوى من الثقافة الدينية المتفهمة لكافة الاديان والقادرين على التواصل والتحاور باللغة المختلفة من اجل تحسين توجيه الخطاب ويجب على الدعاة الذين يتوجهون للغرب ان يدركوا وبعمق اولويّات الدعوة الاسلامية اسس نجاح الحوار وان يركّزوا على الثوابت والقديم محلّ اتّفاق مع ادراك المتغيرات والاخذ

بعين الاعتبار المنظومة الاجتماعية التي سيلقي في ظلّها هذا الخطاب في وسط المجتمع المسلم (ناجية أقجوج، 2006، ص- ص،43-45).

2- **مسؤولية الاعلام**: بعد واجب العلماء تأتي مسؤولية الاعلام باعتباره أهمّ العناصر المؤثّرة في الخطاب الديني من جهة وفي بلورة وتفعيل الندوات والمؤتمرات التي تهدف الى التّصحيح من جهة اخرى ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

•**النقطة الاولى**: ترشيد وسائل الاعلام وتكوين الاجيال من الاعلاميين المؤثرين في الراي العام الموجهين غير الموجهين لكي يكون الاعلام مركزا في إطار السّلوك الصّحيح وأن يسعى باستخدام الآليات الممكنة لعرض الاسلام بصورة صحيحة حسنة في عيون الغرب خصوصا.

•**النقطة الثانية**: توظيف المنابر الاعلامية لخدمة عرض الاسلام على اعتبارها الوسيلة الممثلة للردّ على التّهم والافتراءات والشّبهات وذلك عن طريق انشاء قنوات إسلاميه.

•**النقطة الثالثة**: التعامل مع الاعلام الغربي بمنطق التّحديث لا بمنطق التّغريب والعمل الجاد على ايجاد استراتيجية من اجل فرض أنموذج عربي اسلامي على الغرب كما حاول الغرب فرض نموذج والسعي الى الاستقلالية بأن لا يكون اعلامنا مجرد اجترار لبرامج الغرب المشوهة على جميع المستويات بأن لا يكون اعلاميون إمّعة للإعلام الغربي ولكن نقول لهم وطّنوا انفسكم إن أساء الاعلام الغربي ان تحسنوا وان كنتم تبصرون الذنب فلا داعي لاقتفاء أثره ﴿وإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ولكن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [سوره البقرة ،اية 11،12].

• **النقطة الرابعة**: رصد كل ما يبثّ في القنوات الغربية من أخبار وافلام لتصحيح ما يصدر عنها من تشويه وافتراء وتهم كما يخططون أو عن غير عمد كما يبرّرون، ومحاولة دحضها كل حسب نوعها بالحكمة والموعظة الحسنة والحجج الدامغة فنواجه الاكاذيب بالحقائق سواء على مستوى الصورة أو الكلمة او الكاريكاتور والافلام بالأفلام تعكس روح الثقافة الإسلامية.

•**النقطة الخامسة**: التطلّع الى اعلام اسلامي يهدم اطماع الغرب في العالم الاسلامي ويغنينا عن الفضائيات المسخّرة لتحطيم الهويّة الاسلامية وترسيخ القيم اللاأخلاقية وتكريس الثقافة المادية الفارغة لذلك يجب اعداد اعلاميين مسلمين يتفهمون خطورة المرحلة.

•**النقطة السادسة**: الاهتمام بصحافة الاطفال ورسوم الكرتون مرورا بالكلمة الصّادقة والخطاب الجاد الذي يوافق مستوى عقلية أطفال القرن الحالي والشباب القرن الذي يليه (ناجية أقجوج، 2006، ص ص،47،48).

خاتمة:

وفي الأخير يمكن ان نقول ان صورة الاخر وبالخصوص الاسلام والمسلمين يشكّل مادّة دسمة للبرامج والحصص التلفزيونية بالإضافة للملتقيات العلمية المحلية والعالمية التابعة للغرب والمنظمة من طرف بعض الهيئات الغربية ولعلّ صوره المرأة المسلمة في المجتمعات الغربية هي إحدى القضايا الاساسية التي أخذت حصّة الاسد من اهتمامات الغرب وهذا الاهتمام ليس من جانبه الايجابي و إنّما من جانبه السلبي،

وذلك بهدف التشويه والتخويف والتهويل والاشاعة والسلبيات التي يوصم بها الاسلام والمسلمين وبالخصوص المرأة المسلمة وهذا ما يتجسّد في الاعلام الغربي والذي يسعى جاهدا لهدم القيم الاسلامية وبالخصوص قيم الحياء والشّرف والمحافظة على الزيّ الاسلامي الاصيل للمرأة المسلمة وإبداله بقيم الحضارة الغربية القائمة على قيم الانفتاح والحداثة، والخنوع، والعري وعليه فإنّ الغرب لم ولن يهدأ ولن يستقيم أمره حتى يرى الاسلام والمسلمين في نكد وفي خوف وفي اللاأمن وفي خراب ودمار .

واختم هذه الورقة بأبيات شعرية حيث يقول فيها الشاعر:

لا تمنحي المستشرقين تبسما　　إلا ابتسامة كاشر متجهم

أنا لا أريد بأن أراك جهولة　　إن الجهالة مرة كالعلقم

فتعلمي وتثقفي وتنوري　　والحق يا أختاه أن تتعلمي

ومن بين النتائج التي يمكن وضعها مايلي:

-ان الاعلام الغربي مازال في حقده وعنجهيته وحربه على الاسلام والمسلمين.

-الاعلام الغربي له امكانات وكفاءات ماديّة وبشرية مسخّرة لتنفيذ خططه.

-ان محور المادة الاعلامية للغرب هي الاسلام والمسلمين وبالخصوص المرأة.

-عدم وجود إعلام اسلامي منافس للإعلام الغربي ممّا زاد من سيطرة الاعلام الغربي.

وبناء على هذه النتائج فإنّنا نوصي بما يلي:

-ضرورة اجراء ملتقيات علمية وطنية ودولية تعمل على ايصال الصورة الحسنة عن الاسلام والمسلمين وبالأخص المرأة المسلمة.

-الدعوة الى إنشاء قنوات إعلامية هادفة، تعمل على دحض الافتراءات والاكاذيب الغربية عن حقيقة الاسلام والمسلمين.

-على المرأة المسلمة أن تعتزّ وتفتخر بثقافتها الاسلامية الاصيلة حتى أنّ الغرب يكره المتنصل من أصله لكنّه صدق وهو كذوب.

-اعداد وتكوين مرشدات بتخصصاتهم الدينية والنفسية والاجتماعية يتولون مهمة الارشاد والتوجيه للمرأة المسلم، مع شرط الكفاءة الدينية والاخلاقية والعلمية.

-ضرورة الاصلاح الاجتماعي والتربوي من طرف علماء متخصصين ومتضلعين في تخصصاتهم العلمية المختلفة، كالعلوم الشرعية، وعلم الاجتماع، وعلم النفس.

قائمة المصادروالمراجع:

- القرآن الكريم

- بليفه ميلود: صوره الغرب في المخيال الثقافي والاجتماع الشباب الجزائري، رسالة الدكتوراه، العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ وعلم الاثار والثقافة الشعبية، التخصص انتربولوجيا الجامعة، تلمسان الجزائر، 2014م.

- محمد فريد وجدي: المرأة المسلمة دراسة نقدية لدعاة تحرير المرأة، مكتبة اخواء السلف، ط 1، السعودية، 1999م.

- نعمان ماهر الكنعاني: مدخل في الاعلام، دار الجمهوريه، (د،ط)،العراق،1968م

- ردينة عثمان يوسف ومحمود جاسم الصميدعي التسويق الاعلامي المبادئ الاستراتيجيات، دار المناهج، ط1، الاردن ،2014م.

- سمية ابراهيم المكاوي: الإعلام الاسلامي والاعلام الغربي في حاضر اليوم (دراسة مقارنة)، رسالة ماجستير كلية الدراسات العليا، السودان، 2016م.

-لعرباوي قصير: صوره الاسلام والمسلمين في الاعلام الغربي، مجله العلوم الاجتماعية، سطيف الجزائر، 2016م.

-لعرباوي قصير: "صورة الاسلام والمسلمين في الاعلام الغربي"، مجله العلوم الاجتماعية، سطيف الجزائر، 2016م.

-نوره خالد السعد: صورة المرأة المسلمة في الاعلام الغربي ورؤية تحليلية، مجلة الادب والعلوم الانسانية، ع2، السعودية، 2008م

- ناجية اقزوج: تصحيح صوره الاسلام في الغرب يوم دراسي، كليه الشريعة، فاس المغرب ،2006م.

دور صفحة "المسلمون الجدد"(New Muslims)في تحسين صورة الإسلام لدى الغرب
دراسة تحليلية لعينة من الفيديوهات الأكثر متابعة على الـ(YouTube)

The Role of "New Muslims Site in Improving the Image of Islam in Occident
An Analytical Study on YouTube Videos

د. نجاة بوثلجة، جامعة قسنطينة 3 –صالح بوبنيدر- الجزائر
nadjoute@gmail.com



يهدف المقال إلى إبراز أهمية استخدام شبكات التواصل الاجتماعي في تصحيح الصور النمطية السلبية عن الإسلام والمسلمين، من خلال القيام بدراسة تحليلية استهدفت عينة من الفيديوهات الأكثر متابعة على منصة اليوتيوب، عبر تقصي الدور الذي تؤديه صفحة "المسلمون الجدد" في إعادة تشكيل فضاء افتراضي إيجابي يصحح الصورة السلبية التي طالما تناقلتها وسائل الإعلام الغربية عن الإسلام والمسلمين بسبب الفكر المتطرف والأجندات السياسية، إلا أن صفحة "المسلمون الجدد" قدمت الإسلام في صورته الصحيحة الداعية إلى المحبة والشمولية وقبول الآخر، ونقد كل صور العنف والإرهاب التي طالما شوهت حقيقة هذا الدين وأتباعه.

الكلمات مفتاحية: الصورة الإيجابية، الإسلام، شبكات التواصل الاجتماعي، صفحة "المسلمون الجدد".

Abstract :

This article aims to describe the importance of using social media to correct negative stereotypes about Islam and Muslims. Through an analytical study of a sample of the most followed You Tube videos , we focuse on the role of "New Muslims" site in redesigning a positive virtual space which would correct the negative image generally conveyed by the media in the West echoing certain extremist ideologies and political agendas of various actors. This site (New Muslims) presented the true image of Islam, advocating affection, humanism and acceptance of "the other", and criticizing all forms of violence and terrorism which distorted the image of this religion and its followers.

Keywords: Positive Image, Islam, Social Media, "New Muslims" page.



مقدمة:

أشار المؤرخ الأمريكي (Will Durant) (دورانت، د.س، الصفحات 777-778) صاحب كتاب "قصة الحضارة" المجلد السادس إلى أن «أن الصراع الظاهر للبشرية بين الغرب والشرق هو صراع على الثروات، إلا أن الصراع الحقيقي في الواقع هو صراع بين أكبر ديانتين في العالم هما الإسلام والمسيحية»، ويرى في ذات السياق المؤرخ (نيكولا لوبورغ) تعقيبا على نظرية "الاستبدال العظيم" التي صاغها الكاتب (رينو كامو) سنة 2011 أن هذا الأخير قام فقط بتحديث النظرية بعد أحداث 11 سبتمبر 2011 من أجل إخفاء أبعادها المعادية للسامية وتكييفها مع صدام الحضارات وكراهية الإسلام. (الجزيرة نت، 2020) فانتشرت عبر وسائل الإعلام الغربية حملات دعائية متسارعة استهدفت تشويه صورة الإسلام والمسلمين وترسيخها لدى الرأي العام العالمي، وفي السياق ذاته أبانت نتائج بحث تحليلي شمل مراجعة 345 دراسة منشورة من سنة 2000 إلى 2015 اهتمت بدور وسائل الإعلام في بناء الهوية الإسلامية عن اهتمام المضامين الإعلامية الغربية بموضوع الهجرة والإرهاب والحرب بهدف تأطير صورة سلبية عن المسلمين، وترسيخ نظرة عنصرية تُصور الإسلام –في الغالب- على أنه دين عنيف. (Saifuddin & Jorg , 2017, p. 219)

ضمن هذا المسار انتشرت بالعالم الافتراضي وساحات الشبكات الاجتماعية العديد من التجاوزات والانتهاكات الأخلاقية المرتبطة بحرية التعبير في علاقتها بمسألة الإسلام والمسلمين؛ كنشر الأكاذيب وترويج الشائعات وتأجيج الصراعات والانقسامات، وتعزيز التعصب ورفض الحوار ونشر الخوف من الإسلام، بيد أن صفحة المسلمون الجدد (Muslims New) خلافا للصفحات أو المجموعات أو مواقع التشبيك الاجتماعي الأخرى حاولت احترام أخلاقيات التعبير في الفضاء الافتراضي متجنبة كل أشكال الاتصال العدائي الذي من شأنه تأجيج التمييز العنصري أو التحريض على الكراهية بكل أشكالها، وعليه جاءت الدراسة التحليلية الراهنة للبحث في مسألة آليات صناعة صورة إيجابية للإسلام والمسلمين لدى الغرب وفوقا عند عتبة التساؤل الإشكالي الآتي: كيف ساهمت صفحة "المسلمون الجدد" (New Muslims) عبر المنصة الاجتماعية (YouTube) في نشر صورة إيجابية عن الإسلام والمسلمين؟ تفرع عنه حقل استفهامي ارتكز البحث فيه عن أهم القضايا والمواضيع المتناولة في علاقتها بأساليب الحجاج المختلفة، وكذا البحث في السمات السوسيو-ثقافية لمعتنقي الإسلام، والأساليب الفنية الموظفة في إخراج الفيديوهات –عينة البحث-.

أولا- الإجراءات المنهجية:

يوجد ارتباط وثيق بين المعارف العليمة والمناهج التي تستخدم للكشف عنها والتأكد من صحتها، لأن مفهوم العلم يقوم على وجود مجموعة معارف منظمة يمكن التحقق من صحتها بمناهج بحث علمية، (أبو زيد، 1998، صفحة 13) تستند إلى مبادئ عقلانية وتحليلية في تفكيك الأفكار المركبة وجعلها بسيطة لفهم تعقيدات الظواهر الإنسانية، (دوتيه، 2009، صفحة 1021) هذا وتُعد الظواهر البحثية المرتبطة

بالميديا الجديدة من أكثر الظواهر الإعلامية تعقيدا لارتباطها بمعطيات وبيانات تتجدد باستمرار، استلزم تجميعها الاعتماد على المنهج الوصفي لتقصي أهمية استخدام شبكات التواصل الاجتماعي وآليات توظيفها لتصحيح الصورة النمطية السلبية المتجذرة في ذهنيات الرأي العام الغربي عن الإسلام والمسلمين، وتقصي دور صفحة (New Muslims) في إعادة تشكيلها وبناء صورة إيجابية وترسيخها مجددا في الفضاء العام الافتراضي.

في ظل البيئة الرقمية الجديدة ثمة حاجة مُلحة على نحو أكبر لتطوير أساليب تحليلية تتكيف مع الصيغ التعبيرية والصور المستحدثة للخطاب الرقمي، وفهم العلاقة بين المستويين الجزئي والكلي لمختلف المنشورات التي تعكس صورا نمطية معينة عن الشعوب والمجتمعات والأيديولوجيات السلطوية التي تساعد في تكريسها، ضمن إطار تحليلي عام يوضحه توظيف المنهج الكمي "منهج المسح" بقراءة كيفية للبيانات المجمعة، عن طريق استخدام أداة تحليل المضمون لعينة من الفيديوهات الأكثر متابعة على منصة التواصل الاجتماعي (YouTube).

أحصت الباحثة 200 فيديو صنفه موقع (YouTube) بالأكثر مشاهدة في الفترة الممتدة من 20 جانفي إلى 20 فيفري 2022، اختارت منها 50 فيديو –بناء على ذات المؤشر- أي ما نسبته 25% من مجموع الفيديوهات المصنفة، اعتمادا على ما يسمى بالعينة المنشأة (Corpus institué) يتم توظيف هذا النوع من العينات بغرض تقديم إجابات محددة عن فرضيات البحث أو أسئلته الفرعية، (Garric, & Longhi, 2012, p. 06) يقوم من خلالها الباحث بالتحديد الجيد للإطار الكلي لمجتمع البحث الأصلي، حتى يتوجه أكثر نحو التجانس والانسجام في تكوينات هذا المجتمع، ومن ثم اختيار عينة بيانات مناسبة وليست ممثلة للدراسة؛ يقصد بكلمة "مناسبة" أن تكون العينة بطبيعتها وحجمها كافية وقادرة على الإجابة على تساؤلات البحث (جوني، 2015، صفحة 45) أي "تحقيق خاصية التشبع المعايناتي/ المعلوماتي"، وعليه تكون عينة الفيديوهات المختارة من الصفحة المستهدفة أكثر نفعا في تقديم معلومات ثرية حول موضوع الدراسة، على اعتبار أن مقدار المعلومات على الشبكة هائل ويتوسع بمعدلات هندسية متشعبة ولا مركزية، لهذا السبب يتحتم على الباحث اختيار عينة من إجمالي البيانات المصنفة إلكترونيا والمحافظة على سياق زمني متماسك. (Herring, 2004, p. 349)

ثانيا- الدراسة التحليلية:

1-تعريف صفحة (المسلمون الجدد): صفحة (New Muslims) متخصصة في نشر قصص الأشخاص الذين دخلوا الإسلام حديثا، يتابعها 174 ألف مشترك، تم استحداثها بتاريخ 23 مارس 2020 لديها صفحات على شبكات التواصل الاجتماعي الأخرى كالفيسبوك، الأنستغرام والتويتر والتلغرام، تُقدم لمستخدميها منشورات تفاعلية في شكل فيديوهات، تتراوح مدة عرضها عموما من الدقيقة إلى النصف ساعة. المسلم الجديد حسب الصفحة هو كل إنسان عاد إلى أصل فطرته دون إكراه، اعتقادا بتحقيق

إركان الإيمان وقولا بالنطق بالشهادتين، لذلك تلخص شعرها المرئي في رفع أصبع سبابة اليد اليمنى بالنسبة لصفحتها على موقع(YouTube). (صفحة المسلمون الجدد) وفي الهلال بالنسبة لصفحتها على موقع (Facebook) التي يتابعها أكثر من 1.971.275 مشترك. (المسلمون الجدد).





2-علاقة العناوين بمضمون الفيديوهات: يُعد العنوان العتبة الأولى التي من خلالها يقيم المتلقي تفسيراته وتأويلاته المختلفة، لذلك يعتبره "ليو هوك" (Lio Hoek) «مجموعة من الدلائل والجمل وحتى من النصوص، قد تظهر على رأس النص أو المضمون لتدل عليه وتشير بفحواه الكلي»، (علاق، 2009، صفحة 35) وظفته صفحة "المسلمون الجدد" كعنصر بنائي مهم تحقيقا للفت الانتباه وجذب الجمهور. اتجهت عموم العناوين نحو "التركيب اللغوي المباشر" على نحو: (قادني حادث مرور إلى دخول الإسلام: سارة فيليبينية/ صينية تروي قصتها)، و(حارس مسجد عندما رأى التعامل والأخلاق عند المصلين أسلم، بينما انزاحت عناوين أخرى نحو "التراكيب اللغوية غير المباشرة" مثل: (كيف أسلم القس والعالم الأمريكي د. جيرالد ديركس الحاصل على الماجستير في اللاهوت من جامعة هارفرد؟) ،و(أسلمت وبكت حينما سألوها ماذا أعطاك الإسلام؟ استمعوا لجوابها) مشكلة استفهاما دلاليا لدى المتلقي على اعتبار أن البناء التركيبي الناقص "معنويا" يدفع الجمهور نحو استدراك المعنى بمتابعة مضمون الفيديوهات.

3- علاقة المواضيع بالأساليب الإقناعية:

الجدول 01: يمثل علاقة المواضيع بالأساليب الإقناعية

الأساليب الاقناعية	عاطفية		عقلية حجاجية		المجموع	%
المواضيع	ك	%	ك	%		
الإسلام منهج حياة/ الإسلام دين شمولي/ توضيح الإسلام للغاية من الوجود/ العقيدة والتوحيد.	08	16	42	84	50	17,86

مشكلة اندماج المسلم الجديد في مجتمعه/ التمييز العنصري	41	91,11	04	08,89	45	16,08
المرأة والإسلام: الحجاب/ تعنيف المرأة.	14	36,84	24	63,16	38	13,57
الإسلام والمشاكل النفسية	05	11,36	39	88,64	44	15,74
الإسلام والعلاقات الاجتماعية	21	55,26	17	44,74	38	13,57
القرآن والإنجيل	27	90	03	10	30	10,71
الإسلام والإعلام الغربي: الصورة النمطية	17	68	08	32	25	08,93
الدعوة إلى نشر الإسلام والدفاع عنه	08	80	02	20	10	03,57
المجموع	175	62,50	105	37,50	280	100

المصدر: (إعداد الباحثة)

يمثل الجدول رقم (01) علاقة المواضيع بالأساليب الاقناعية في الفيديوهات المنشورة على صفحة "المسلمون الجدد" –عينة التحليل-، حيث اتضح تناول موضوع "الإسلام كمنهج حياة" في المرتبة الأولى بنسبة 17,86% اعتمادا على الإقناع العقلي والمحاججة العلمية بالدرجة الأولى بنسبة 84% مقارنة بالاستمالات العاطفية التي جاءت في الدرجة الثانية بنسبة 16%، تلاها موضوع "اندماج المسلمون الجدد

مع مجتمعاتهم وتعرضهم للتميز العنصري" في المرتبة الثانية بنسبة 16,08%، اعتمادا على الاستمالات الاقناعية العاطفية بالدرجة الأولى بنسبة 91,11% ثم العقلية بنسبة 08,89%.

جاء موضوع علاقة "الإسلام بالمشاكل النفسية للإنسان" في المرتبة الثالثة بنسبة 15,71% وظفت فيه وسائل الإقناع العقلي بالدرجة الأولى بنسبة 88,64% ثم العاطفي بنسبة 11, 36%، ليأتي بعده موضوع "المرأة والإسلام" و"الإسلام والعلاقات الاجتماعية" بنسب متساوية قدرت بـ13,57%، غير أن طرق الإقناع الموظفة كانت متباينة، حيث تصدرت أساليب الإقناع العقلي الدرجة الأولى موضوع "المرأة والإسلام" بنسبة 63,16% ثم العاطفي بنسبة 36,84%، بينما تصدرت الاستمالات العاطفية موضوع "الإسلام والعلاقات الاجتماعية" الدرجة الأولى بنسبة 55,26% ثم الحجج العقلية بنسبة 44,74%.

جاء موضوع "القرآن والإنجيل" والمقارنة بينهما في العينة المختارة بنسبة 10,71% ارتكز الإقناع فيه على عرض الجوانب العلمية بطريقة عقلية منطقية بالدرجة الأولى بنسبة 90%، تلته الاستمالات العاطفية بنسبة أقل بكثير قُدرت بـ 10%، أما فيما يخص موضوع علاقة "الإسلام بالإعلام الغربي وبتكوين صورة نمطية سلبية عنه" فقد جاء في المرتبة السادسة بنسبة 08,93% اعتمد في عرضه على الاستمالات الاقناعية العاطفية بالدرجة الأولى بنسبة 68% ثم العقلية بنسبة 32%، بينما ترجع نسبة 03,57% إلى موضوع "الدعوة إلى الله ونشر الدين الإسلامي" أين احتلت فيه أساليب الإقناع العاطفي صدارة التوظيف بنسبة 80% ثم العقلي بنسبة 20%.

بناء على بيانات الجدول نلاحظ أن كل الذين دخلوا الإسلام من جنسيات وديانات مختلفة أرادوا نشر الصورة الحقيقية عن الإسلام بعدما اكتشفوا أنه دين شمولي وعميق، فهو نظام شامل لكافة شؤون الحياة، أي أنه ليس مقتصرا على إنسان أو اتجاه معين دون غيره، إنما يمزج ويوازي بين أمور الدين وتشريعاته لتتماشى الحياة معها وفقاً لأحكامها وأفعالها، وبالتالي يُنظم الحياة العقائدية من حيث علاقة العبد بربه، ومن حيث -كذلك- اعتباره منهجا منظِما للعلاقات الاجتماعية بين الأفراد، تركيزا على المحاججة العقلية المنضوية في القرآن الكريم، ومن الحكمة الإلهية أن هذا الكتاب ضم حججا وبراهين ودلائل قطعية مُلزمة للإيمان بها، مثلما جاء في قصة إسلام القس والعالم الأمريكي (د. جيرالد ديركس الحاصل على الماجستير في اللاهوت من جامعة هارفرد)، حيث حاجج أهل الكتاب بما يجودنه مكتوبا في كتبهم (الإنجيل/ الزبور)، كما حاجج –كذلك- العلماء والفلاسفة بأدلة علمية وجدلية ومنطقية دامغة مثلما جاء في قصة إسلام عالم فيزيائي ترك الإلحاد واعتنق الإسلام لماذا؟ الإجابة جاءته واضحة من القرآن الكريم، ذلك أنه حوى أسمى أساليب الحجاج العلمي الجدلي والبراهين العقلية، كل تلك الحجج لامسوها بعقولهم وحاولوا نقلها لغيرهم.

الإسلام دين عميق ونقي –حسب ما تضمنته عينة الفيديوهات المحللة- بتركيزه على الجوانب العقلية والروحية والجسدية للإنسان، ذلك أن تعاليم الإسلام شاملة لكافة مراحل حياة الإنسان بدءاً من كونه

جنينا في رحم أمه وصولاً إلى وفاته، فقد وجدوا فيه كل الإجابات على الأسئلة الوجودية التي كانوا يبحثون عنها "الغاية من الوجود"، فالإسلام وفر لهم إجابة واضحة عن أسئلة الفطرة الأربعة الأساسية: من أين جاء الإنسان؟ ولماذا يعيش؟ وما النهج الذي يجب اتباعه في الحياة؟ أو ما هي القيم التي يجب أن تحكم حياته وتوجهها؟ وإلى أين سيمضي بعد الموت؟ بأدلة لامست مسائل التوحيد وإثبات الخالق، هذا ما لم توفرها لهم دياناتهم سواء كانت نصرانية أو يهودية أو حتى وثنية وإلحادية، وفي خضم حديثهم عن الإسلام مقارنة بالنصرانية أكدوا أنها لم تكن تتضمن نظاما متكاملا للحياة بل كانت مختلفة حد التناقض في الكثير من الأحيان، الأمر الذي جعل الكثير من المسيحيين يتجهون نحو "الإلحاد" أو عدم الاكتراث بالدين وإخراجه من حياتهم إلى أن جاءتهم هداية الله إلى طريق الإسلام على نحو ما جاء في قصة إسلام شابة روسية انتقلت من دين لآخر بحثا عن الحقيقة إلى أن وصلت إلى الإسلام واعتنقته؛ الفيديو جاء بعنوان: (من الهندوسية إلى الإسلام فنانة روسية تروي قصة إسلامها).

القراءة عن الإسلام بالتوجه نحو القرآن الكريم المتضمن لمعانيه العميقة المترجمة –في غالبية القصص- إلى اللغة الإنجليزية كان سببا في أن تستمر امرأة خمسينية في مسيرة إسلامها بعد أن كانت تميل للإلحاد بدرجة كبيرة، مؤكدة أنها اقتربت من الإيمان عند قراءتها للقرآن الكريم ولامست آيات الهداية بسورة النساء قلبها، حيث لم تستطع منع نفسها من قراءته مرات عديدة، الفيديو جاء بعنوان (جاهدت نفسها بقوة حتى لا تقرأ القرآن مرة أخرى لكن القرآن غلبها وجعلها تبكي وتدخل الإسلام) بمعدل مشاهدة بلغ (413K)، إضافة إلى قصة شابة بريطانية كانت لها تجارب سيئة مع الكنائس الكاثوليكية التي كانت ترتادها، مؤكدة أن القساوسة لا يحبون الأسئلة وعلى المسيحيين التقليد الأعمى رغم كل التناقضات والغيبيات التي كانت بين ثنايا "الأناجيل الأربعة"، الأمر الذي ساقهم (المسيحيين) إما للإلحاد غير التام أو الهداية بالقرآن لأنهم وجدوا فيه الجواب العلمي والمنطقي لكل أسئلتهم، مثلما حدث للشابة الكندية التي قالت للقس إذا لم تجبني عن أسئلتي سأصبح مسلمة وقد كان لها ذلك، وكذا قصة الشابة الإسبانية التي اعتنقت الإسلام بعد قراءتها للقرآن، الفيديو جاء بعنوان: (قصة مؤثرة لإسلام ياسمينة من إسبانيا!! ترويها لكم).

بعد اعتناق الإسلام طواعية وتذوق حلاوة الإيمان، يبدأ التفكير في كيفية الاندماج الاجتماعي وفي العواقب التي ستواجههم بعد اعتناقهم الإسلام كالتعرض للعنصرية والخوف من التهميش والشعور بالعزلة نتيجة تخلي أسرهم وأصدقائهم عنهم، بسبب النظرة السلبية التي يحملونها عن الإسلام والمسلمين، واعتبارهم إرهابيين ومجانين وغير متحضرين ومتطرفين كما جاء في قصة إسلام الفتاة الاسكتلندية؛ الفيديو جاء بعنوان: (رحلتي إلى الإسلام –كنت أظن أن المسلمين مجانين- ولكنني دخلت الإسلام) بمعدل مشاهدة بلغ (398K)، وقصة شباب من جنسيات مختلفة واجهوا واقعا مريرا فرض نفسه: طرد من منزل أو عدم تسديد تكاليف الدراسة بالجامعة، غير أنهم تجاوزا كل ذلك واقتنع أولياؤهم بإسلامهم نظير حسن أخلاقهم؛ الفيديو جاء بعنوان: (تبرأ منه والده بعد أن أعلن إسلامه –شباب يروون

قصص إسلامهم)، وفيديو آخر بعنوان: (تشرد بعد إسلامه- رحلة عبد الرحمان إلى الإسلام-) وقصة فتى مسيحي اعتنق الإسلام وأصيب والده بصدمة، وقصة شاب بريطاني دخل الإسلام فوجد نفسه يُستجوب من طرف الشرطة بعد أن قامت خالته بالتبليغ عنه، غير أن الوقائع أدهشت رجال الشرطة الذين سارعوا في طلب العفو منه لأنه وبكل بساطة أصبح مسلما؛ الفيديو جاء بعنوان: (هذا الشاب دخل الإسلام فأتت الشرطة لتحقق معه فكانت المفاجأة) بمعدل مشاهدة بلغ (166K).

وإذا ما أردنا التعمق قليلا في ذات الفكرة نقول أن تلك الصورة السلبية النمطية عن الإسلام والمسلمين نابعة أساسا من "الإعلام الغربي" الذي نجح حقيقة في تشكيلها بأمثلة صارخة عبرت عن حقد وكراهية مُسرفة للدين الإسلامي، إن هذه الكراهية ليست طارئة أو مفاجئة بل نتيجة جُهد مُنظم وخُطط مدروسة، فقد سبقتها الكثير من الخطوات التي أسست لعمق نفسي رَسَّخ للإسلاموفوبيا أو إرهاب الإسلام خصوصا بعد (11 سبتمبر 2001) وأحداث (شارلي إيبدو سنة 2015) وفقا لما تضمنه عينة الفيديوهات المحللة، لتصبح الإسلاموفوبيا الشماعة التي تُبرر بها محاربة الإسلام، هذا المصطلح دخل إلى الاستخدام في اللغة الإنجليزية عام 1997م، عندما قامت مجموعة يسارية التوجه من المفكرين في بريطانيا تدعى (رنيميد ترست) باستخدامه لإدانة مشاعر الكراهية والخوف والحكم المسبق ضد الإسلام المسلمين خصوصا بعد أحداث 11 سبتمبر 2001. (المجالي، 2019)

الصورة النمطية السلبية لامست –كذلك- موضوع "المرأة المسلمة" ووصفتها بالمقهورة لأن الإسلام كان السبب في تعنيفها ويوقع بتعاليمه ظُلما عليها "الحجاب"، غير أن "المسلمات الجدد" ورغم تأكيدهن لهذه الصورة حاولن نشر الصورة الحقيقية للمرأة في الإسلام، وأنهن لامسنا الرقي والحماية في تعاليمه الحنيفة مقارنة مما كنَّ عليه سابقا. المسلمات الجدد بفرنسا –تحديدا- تعرضن للتمييز بسبب ارتدائهن للحجاب بعد أن شرَّعت فرنسا قانونا يُجرم ارتداء الحجاب عام 2004 تحت ستار "شمولية مبادئ الجمهورية" وباسم "العلمانية واللائكية"؛ فالمجال الديني في فرنسا منذ ثورة 1789 دشن نهاية السلطة الدينية على الدولة والمجتمع، حتى أنه لا يتمتع (المجال الديني) بنفس الحماية التي تتمتع بها حرية التعبير عن الرأي، وبالتالي يمكن التعرض للأديان وللحرية الدينية بالانتقاد بشكل قد يصل حد التشهير والتشويه والسب والإساءة والتمييز، مثلما حدث للشابة الفرنسية ذات الأصول اليهودية أين كان ارتداؤها للحجاب سببا في طردها من العمل، إلا أن ذلك لم يثن من عزيمتها الإيمانية؛ الفيديو جاء بعنوان: (امرأة مُلحدة من أصل يهودي تعتنق الإسلام)، وفيديو آخر جاء بعنوان: (لماذا يدخل الناس بفرنسا الإسلام-هذا ما يغيظ رئيس فرنسا)، وفيديو ثالث حمل عنوان: (فرنسي يروي قصة إسلامه ويبكي ما السبب؟ من الخمور واللهو إلى دين الإسلام).

تأكيدا لذات الفكرة أجرى المعهد الفرنسي للبحوث العامة "آي إف أو بي" (IFOP) في الفترة الممتدة من 29 أوت إلى 18 سبتمبر من عام 2019 دراسة على عينة بلغت 1007 من المسلمين امتدت أعمارهم من 15 سنة فما فوق، وجهت لفحص مُتغير التمييز العنصري ضد المسلمين في فرنسا، أظهرت نتائج الاستطلاع

البحثي أن 40% من المسلمين يشعرون بأنهم يتعرضون للتمييز، وأن أكثر من ثلث هذه الحالات كانت في السنوات الخمس الأخيرة (ربط التمييز بأحداث شارلي إيبدو 2015)، كما بينت النتائج كذلك أن 60% من النساء المحجبات يتعرض للتمييز، وأن 44% من المسلمات اللواتي لا يرتدين الحجاب وجدن أنفسهن ضحية للمضايقات اللفظية أو الإهانات التشهيرية وحتى الاعتداءات الجسدية؛ كما أوضحت نتائج الدراسة من ناحية أخرى أن 13% من حوادث التمييز الديني ضد المسلمين في فرنسا حدثت في نقاط مراقبة الشرطة، و17% منها في مقابلات العمل و14% أخرى وقعت عند استئجار أو شراء مسكن. (عمران، 2020)

الأمر لم يكن بهذا السوء في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية أو حتى في روسيا وكندا وأستراليا فمثلا نجد قصة إسلام أول قاضية محجبة في بريطانيا؛ الفيديو بعنوان: (قال لها أقاربها اخلعي الحجاب حتى تنجحي، أول قاضية محجبة في بريطانيا) بمعدل مشاهدة بلغ (887K)، وقصة الفيليبينية المقيمة بالولايات المتحدة الأمريكية، جاء الفيديو بعنوان: (قادني حادث مرور إلى دخول الإسلام سارة فيليبينية/ صينية تروي قصتها)، إضافة إلى قصة مدربة نجوم هوليود ومنافسة رياضية تترك الشهرة وتدخل دين الإسلام، وتروي قصتها مع الحجاب، وقصة السنغالية التي سألت الداعية "نايك ذاكر" في قاعة محاضرات كبرى (لماذا تغطي المرأة المسلمة شعرها؟، فيأتيها الجواب وتدخل الإسلام) وتتحجب في عين المكان بمعدل مشاهدة بلغ (1M)، وهو نفس السؤال الذي قاد شابا بريطانيا من أصول إسبانية للإسلام بعد أن اكتشف "حقيقة الحجاب في الإسلام" وأنه وسيلة للحفاظ على المرأة وجعلها تتصدى لكل توترات المجتمع وهو معنى عميق جدا، حيث حاول مشاركة ذلك مع الجمهور في جلسات نقاش بالساحات العامة في لندن، جاء الفيديو بعنوان: (بحث في كل الأديان وصُدم بحجاب المرأة في الإسلام وأصبح الآن مسلما)، كل تلك الفيديوهات والقصص رسمت صورة إيجابية عن حجاب المرأة المسلمة حديثا وحثها على ضرورة التمسك به لأنه جزء من عقيدتها، إضافة إلى ترسيخ صورة إيجابية عن المرأة في الإسلام لدى الرأي العام العالمي.

أظهرت معظم القصص أن حجاب المسلمات الجدد كان مباشرة بعد اعتناقهن للإسلام وأنهم يفتخرن بذلك، بينما أشارت بعضهن إلى تأخير ارتدائه بسبب خوفهن من الأهل بالدرجة الأولى ومن المجتمع بالدرجة الثانية، غير أن ذلك الخوف سرعان ما تلاشى بعد أن حقق الإسلام لهن –كما لباقي المسلمين الجدد- التوازن النفسي المفتقد في حياتهن السابقة، بعد أن كن يعشن في مجتمع سلبهن الاستقرار النفسي؛ بمعنى أن الإسلام كان عاملا أساسيا للوصول إلى التصالح والراحة النفسية والتوازن الفكري والروحي، وتجاوز حالات الاكتئاب والفراغ والتوتر والضياع الذي كانوا يعانون منه إلى درجة وصول معظمهم للانتحار، مثلما جاء في قصة الشابة الأمريكية التي انتقلت من كتابة الأشعار الموسيقية إلى الشعر الدعوي؛ الفيديو جاء بعنوان: (من الموسيقى إلى السجود –كانت ملحدة تريد الانتحار فقالوا لها اسجدي فحصل ما لم تتوقع) بمعدل مشاهدة بلغ (211K).

لم تقتصر الانعكاسات الإيجابية للإسلام على الجانب النفسي للمسلمين الجدد، بل تعداها إلى تحسين علاقاتهم بالآخرين "أسرهم وأصدقائهم وجيرانهم وزملائهم في العمل" بعد أن لامسوا تنظيم الإسلام للعلاقات الاجتماعية، وكيف وضع لها أُسساً ومبادئ تضمن التراحم والتكافل والسلام والمحبة بين الناس، وجعل فيها الناس إخوة حتى ولو لم تكن تربطهم قرابة أو معرفة، وشرَّف هذه العلاقة الأخوية أكثر وأكثر، كما أمر المسلم أن يُحب لأخيه ما يُحب لنفسه وأن يعامله كما يحب أن يُعامل، اتضحت هذه الصورة الإيجابية في الكثير من قصص المسلمين الجدد، كما كانت سببا –بالنسبة لبعضهم- في دخولهم الإسلام كقصة الشاب البريطاني الذي دخل الإسلام مُتأثرا بسلوك مُسلم، قال: إنه فتح له أبواب الإسلام بحسن أخلاقه بعد أن اشترى له –رغم فقره- القرآن الكريم، مما جعله يفكر في هذا الدين الذي مدَّه بتلك الأخلاق، الفيديو حمل عنوان: (كان يظن أن المسلمين مجرمين- دخل الإسلام بسبب كرم مسلم فقير) بمعدل متابعة بلغ (555K)، وكذا قصة حارس مسجد في كندا الذي تأثر بأخلاق المصلين فاعتنق الإسلام؛ جاء الفيديو بعنوان: (حارس المسجد عندما رأى التعامل والأخلاق عند المسلمين أسلم وهو يبكي).

أهم ما دعا إليه المسلمون الجدد من خلال قصصهم المؤثرة إلى ضرورة تأسيس بيئة إسلامية يركنون إليها لتساعدهم على الدعوة إلى الله، ومؤكدين أنه لس من اليسير عليهم التأقلم مع حياتهم بعد الإسلام بعدما أشرقت قلوبهم بالإيمان واستنارت عقولهم بالقرآن، واستجدت عليهم أمورا مختلفة يجب أن يوطنوا أنفسهم عليها إذا أرادوا تحقيق التوازن في مجتمعاتهم الغربية، فكانت المساجد والجمعيات والنشاطات الدعوية من مناظرات ومحاضرات ودروس الملاذ الوحيد لهم، وأن الدعوة إلى الإسلام لا تقتصر بالتحسر على الصورة التي يريد الإعلام الغربي تثبيتها عن الإسلام بربطه بالعنف ومعاداة الديموقراطية والظلم، بل الانطلاق في مجال الدعوة الرحب؛ كقصة الشابة اليهودية التي تمنت لو ولدت مسلمة، داعية كل مسلم بأن يدافع عن دينه ما استطاع إليه سبيلا، الفيديو جاء بعنوان: (فتاة يهودية تدخل الإسلام وتنصح المسلمين نصيحة مبكية) بمعدل مشاهدة بلغ (1.3M).

العمل على نشر الصورة الحقيقية للإسلام كالتركيز على مفردات التوحيد من محبة الله والخوف منه والتوكل عليه وتعظيمه، والأخذ بالتدرج في الدعوة وتبليغ الأحكام، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يُجيب المسلم الجديد بما يقتضي الحال، إذ لا يمكن بيان الشريعة دفعة واحدة، لاسيما لحديث عهد بالإسلام، وهذا ما يجب أن ينتهجه الداعية مع المسلم الجديد، وعدم الاكتفاء بالتكبير في المساجد فرحا بإسلامهم ومُعانقتهم بل لابد من توفير محاضن اجتماعية وتربوية، وتخصيص مراكز للعناية بالمسلمين الجدد، وإقامة مؤتمرات تناقش قضاياهم واهتماماتهم، كقصة الفتاة الكندية التي وجدت في محاضرات الدعاة بالجامعة التي كانت تدرس بها بابا نحو الهداية، الفيديو جاء بعنوان: (ابنة ضابط شرطة قالت للقسيس إذا لم تجبني على أسئلتي سأصبح مسلمة) بمعدل مشاهدة بلغ (1M).

التعبير بدموع الفرح كانت السمة البارزة في قصص المسلمين الجدد دون استثناء –في الفيديوهات عينة التحليل-، وقد أوضحت دراسة قامت بها الباحثة (أوريانا آراغون) من جامعة (ييل) الأمريكية نُشرت بمجلة (سيوكولوجيال ساينس) الدورية الأمريكية أن الإنسان يُظهر هذه التعابير المزدوجة عندما تطغى عليه المشاعر –إيجابية كانت أم سلبية-، واستنتجت الطبيبة النفسية من دراستها بأن "دموع الفرح" هي آلية لا شعورية يقوم الجسم باللجوء إليها في حالات الفرح أو السعادة المفرطة من أجل إعادة التوازن إلى الحالة النفسية والشعورية للإنسان. (لماذا نذرف الدموع في أوقات الفرح أيضا؟) ارتبطت السعادة المفرطة في قصص المسلمين الجدد في وصولهم للحقيقة واعتناقهم الإسلام ونطقهم بالشهادة وملامسة قلوبهم آيات الهداية كما زادها الأداء الصوتي قوة في إيصال المعنى، مثلما جاء في النماذج الآتية: (فرنسي يروي قصة إسلامه ويبكي) و(دخل الإسلام وذرفت عيناه بالبكاء).

يُعد هذا النوع من التعبير أسلوبا اقناعيا عاطفيا مثيرا لحالات التقمص الوجداني لدى الجماهير المتابعة فهو جزء لا يتجزأ من الاتصال، لأنه يربط ذهن المرسل وذهن المتلقي، والتقمص الوجداني هي المقدرة على فهم الحالة الذهنية لشخص آخر، كأن تقول له إنني أفهم مشاعرك (علم الدين، 1990، صفحة 96) قد يصل هذا النوع من التعبير الاقناعي إلى درجة أخذ الأدوار في التقمص الوجداني، كأن نضطر إلى إعادة النظر في صورتنا الذهنية عن أنفسنا ونعيد تعريف ذاتنا. (علي أحمد، 1971، صفحة 102) يُترجم التقمص الوجداني لمتتبعي صفحة "المسلمون الجدد" إلى ممارسات تشاركية إيجابية عبر مواقع التواصل الاجتماعي (فايسبوك، ويوتيوب وأنستغرام وتويتر) من خلال إعادة نشر الفيديو ومشاركته (Share) والنقر على أيقونة الإعجاب (Like) أو توظيف الرموز التعبيرية (Emoji) بهدف شرح المشاعر والأحاسيس التي يصعب التعبير عنها. (العنزي، 2020، صفحة 07) بالمقابل لم نسجل ولا حالة عبرت عن عدم الإعجاب بالمضمون المنشور (Deslike)؛ التفاعل الإيجابي مع الصورة المروج لها عن الإسلام والمسلمين عبر مواقع التواصل الاجتماعي عزز من أهميتها في تشكيل هويات افتراضية، ذات تأثيرات سُلطوية قد لا يكون للمستخدمين على علم بها. (Jones, Chik, & Hagner, 2015, p. 25) وعليه يكون التهافت مثلا على منشورات "صفحة المسلمون الجدد" وزيادة نسبة مشاهدتها ومشاركتها وتداولها عاملا أساسيا في الرفع من درجة أهميتها وقيمتها التأثيرية (تفسير علاقة السلطة والأيديولوجيا بالتكنولوجيات الرقمية).

4- السمات السوسيو-ثقافية لمعتنقي الإسلام:

الجدول 02: يمثل السمات السوسيو-ثقافية لمعتنقي الإسلام –عينة البحث-

النوع	ذكور		إناث		المجموع	%
السمات	ك	%	ك	%		
الفئة العمرية						

أطفال	/	/	/	/	/	/
شباب	10	18,18	45	81,82	55	88,71
كهول	03	42,86	04	57,14	07	11,29
شيوخ	/	/	/	/	/	/
المستوى التعليمي						
جامعي	07	27,92	19	73,08	26	41,94
غيرمحدد	06	16,67	30	83,33	36	58,06
الانتماء الجغرافي						
دول أوروبا الغربية	06	23,08	20	76,92	26	41,94
دول أوروبا الشرقية	/	/	06	100	06	09,68
دول أمريكا الشمالية	04	18,18	18	81,82	22	35,48
دول أمريكا الجنوبية	/	/	/	/	/	/
دول آسيا	02	50	02	50	04	06,45
دول أفريقيا	/	/	01	100	01	01,6101
أستراليا	01	33,33	02	66,67	03	04,84
الانتماء الديني						
المسيحية	08	22,86	27	77,14	35	56,45
اليهودية	/	/	05	100	05	08,06
الوثنية	/	/	02	100	02	03,23
الإلحاد	05	25	15	75	20	32,26
المجموع الكلي	13	20,97	49	79,03	62	100

يوفر الجدول السابق بيانات إحصائية كمية توضح مختلف العلاقات القائمة بين "النوع: ذكورا وإناثا" والسمات السوسيو-ثقافية لمعتنقي الإسلام حديثا –وفقا لعينة الدراسة المعتمدة-، حيث تبين القراءة العمودية للجدول أن السمات الأساسية للمسلمين الجدد ارتكزت في الفئة العمرية الشبابية بنسبة 88,71% كما أن الكثير منهم يتمتع بتعليم جامعي بنسبة 41,94%، وأن غالبيتهم ينتمون إلى دول أوروبا الغربية (بريطانيا وفرنسا وإسبانيا) بنسبة 41,94%، ودول أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة

الأمريكية وكندا) بنسبة 35,48%، كما أن دياناتهم السابقة تراوحت بين المسيحية بنسبة 56,45% واليهودية بنسبة 08,06%، بينما اختار بعضهم طريق الإلحاد بنسبة 32,26%، في حين توفر القراءة الأفقية للبيانات الإحصائية دلالات كامنة خلف تلك السمات –إن صح التعبير- فعند تمحيص النظر في علاقة النَّوع بالسن يتضح لنا أن متغير الإناث تمركز في الفئة العمرية الشبابية بنسبة 81,82% مقابل متغير الذكور الذي كانت نسبته 18,18%.

تشير الإحصاءات العددية الموضحة في الجدول أعلاه النابعة من قصص المسلمين الجدد أن الإسلام لا يزال ينتشر رغم العداء والتشويه الذي يتعرض له، بل إن وقائع مأساوية كأحداث 11 سبتمبر 2001 وأحداث "شارلي إيبدو" بفرنسا عام 2015- كانت من جهة أخرى مثيرة لدى الكثير من الغربيين لإعادة النظر والتفكير في هذا الدين الذي يحاربه الغرب بشتى الوسائل، بل وكانت سببا في دخولهم الإسلام، كقصة الشابة الفرنسية ذات الأصول اليهودية، التي تأثرت بأحداث "شارلي ايبدو" والهجوم الدامي الذي استهدف مقر الجريدة عام 2015 ونفذ من قبل الإخوان "شريف وسعيد كواشي" يوم 07 جانفي، (حسن، 2017) مسفرا عن مقتل 12 شخصا من بينهم رسامي الكاريكاتير "كابو وشارك وولينسكي" إضافة إلى إصابة 11 شخصا بجروح خطيرة. (Le journal Charlir hebdo, 2015)

جريمة القتل هذه فتحت باب التفكير واسعا أمام الشابة الفرنسية (Aude) حول مشروعية نشر رسوم مسيئة للدين الإسلامي في علاقتها بمسألة حرية التعبير، خروج (Aude) عن الحشد الجماهيري والتعبئة النفسية والإعلامية العالمية، وعن قانون الوحدة الذهنية الذي أشار إليه الباحث (غوستاف بولون) صاحب نظرية التحكم بالجماهير (لوبون، 1991، صفحة 53) استدعى من (Aude) الانفرادية الواعية التي جعلتها تتساءل أيهما كان أولى بالاهتمام ما نشرته المجلة الساخرة للكاريكاتير المسيء لرمز يعتبر أسمى الرموز لأكثر من مليار وربع مسلم وتداعياته العنيفة التي أدت إلى مقتل عدد كبير من محرري المجلة أم بالحملة الإعلامية والمظاهرة السياسية الحاشدة التي تصدرها الرئيس الفرنسي (فرانسوا هولاند) للرفع من شعبيته المتدنية في استطلاعات الرأي العام الفرنسي والاستثمار في هذه الواقعة المؤلمة، هذا ما توصلت إليه الشابة الفرنسية (Aude) بعدما قادتها الحادثة إلى البحث والقراءة عن الرسول الكريم "محمد صلى الله عليه وسلم" لتجد نفسها –في نهاية المطاف- مسلمة؛ الموضوع جاء بعنوان: (امرأة مُلحدة من أصل يهودي تعتنق الإسلام) بمعدل مشاهدة بلغ (220K).

حادثة إسلام الشابة الفرنسية (Aude) لم تكن استثنائية فقد أشار تقرير إحصائي أعده ونشره "موقع الجزيرة" حاول من خلاله تقديم تفسيرات حول طريقة تفاعل الرأي العام الفرنسي مع قضايا الإساءة للإسلام وللنبي محمد "عليه الصلاة والسلام" بصورة متكررة، حيث غلب على النتائج التي أظهرها محرك البحث غوغل من فرنسا ومنصة ويكيبيديا باللغة الفرنسية، زيادة هائلة في البحث عن المفردات المرتبطة بالإسلام بدرجة كبيرة تزيد عن أضعاف الفترات المعتادة، وحدث ذلك تزامنا مع ثلاث فترات زمنية هي: بداية عام 2006، وبداية العام 2015، والفترة التي تلت عملية نشر الرسوم المسيئة من عام 2020،

أظهرت نتائج البحث باللغة الفرنسية ومن فرنسا بكلمات مثل: (Islam) و(Mohamet) و(Mohamet caricature)، تزايدا رقميا هائلا بالتزامن مع نشر الرسوم المسيئة وإعادة نشرها وردود الفعل إزاءها، كما زاد البحث عن الإسلام بمتوسط 20 إلى 70 ضعفا مقارنة بالبحث عن المسيحية واليهودية في الفترة ذاتها، وتصل لأعلى قمة لها شهري أفريل وماي وجوان من العام ذاته، (عمران، 2020)

كما زاد البحث عن نبي الإسلام في الأعوام 2006 و2015 و2020، وهو ما يؤكد ترابطا مباشرا بين معدلات البحث عن صفحة الإسلام وصفحة محمد (صلى الله عليه وسلم) بالفرنسية وبين أحداث الرسوم المسيئة للنبي الكريم، وكانت صحيفة "شارلي إيبدو" التي نشرت الرسوم الكاريكاتيرية المسيئة الأولى بحثا لعام 2015 لتشكّل استثناء طوال الأعوام العشرة الماضية في البحث المرتبط بالإسلام في فرنسا. (عمران، 2020)

الاحتكاك بالمسلمين من جنسيات مختلفة في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأستراليا كان عاملا أساسيا في بلورة الشكوك حول الصورة النمطية التي تروج لها وسائل الإعلام الغربية –خصوصا بعد أحداث 11 سبتمبر 2001- بالتوجه نحو البحث والقراءة عن الإسلام، وقد قادهم هذا السلوك إلى تغيير نظرتهم عن الإسلام والمسلمين، بل والتوجه نحو اعتناق الإسلام، هذا وتشير نتائج دراسة نشرها مركز "بيو للأبحاث" (Pew Research) بموقعه الإلكتروني سنة 2015 أن الإسلام يعتبر الدين الأكثر انتشارا في العالم مقارنة بالديانات الأخرى، وتشير التوقعات الدينية لعام 2050 إلى تسجيل زيادات في عدد المسلمين مقارنة بالمسيحيين في العالم بما يعادل 70%، وذلك راجع إلى صغر سنهم وارتفاع معدل الخصوبة لديهم، وستضم آسيا 52.8% من مسلمي العالم، ونحو 24.3% من المسلمين سيعيشون في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، و20% في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، و02% في أوروبا. (المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، 2017)، أضاف ذات المركز أن الإسلام يجذب إليه الكثير من الشباب، كما يتوقع أن يشهد عدد المسحيين تراجعا ملموسا بحلول عام 2070. (دراسة أمريكية: الإسلام سيصبح أكبر ديانة في العالم بحلول 2070، 2018) من بين الدلائل التي يمكن اعتبارها أكثر منطقية –فيما يخص توقعات مركز "بيو للأبحاث" عن انتشار الدين الإسلامي في العالم إضافة إلى "عامل الخصوبة" اتجاه المسلمون الجدد نحو الدعوة إلى الله بشتى الطرق كالاعتماد على وسائل التواصل الاجتماعي باعتبارها آلية ديناميكية فاعلة تساهم في إعادة تشكيل الصورة الحقيقية عن الإسلام والمسلمين.

من بين المؤشرات المهمة التي رُصدت بالجدول أعلاه، نلاحظ أن نسبة معتبرة من المسلمين الجدد كانوا "ملحدين" وللتدقيق أكثر في هذه السمة السوسيو-ثقافية نوضح بأن النسبة تراوحت بين الإلحاد التام والإلحاد غير التام (يبقى الإيمان بالله قائما)، يمكن تفسير ذلك بناء على البيانات المستمدة من (رابطة مسح القيم العالمي) في تقرير نشرته مجلة (فورين أفيرز) الأمريكية؛ بناء على نتائج بحث أنجزه (رونالد إنغلهارت) و(بيبا نوريس) استهدفا تحليل الاتجاهات الدينية في 49 دولة، أشار التقرير إلى أن البلدان التي تتمتع بدرجة عالية من الأمن والعلمانية فإن الناس يعطون أولوية عالية بشكل متزايد للتعبير عن الذات،

ثم إن اعتمادها على المعرفة يؤدي إلى تقليل أهمية الدين في حياة الناس، ومنذ عام 2007 إلى 2019 – تقريبا- أصبحت الأغلبية العظمى من البلدان موضع الدراسة أقل تدينا، ولم يقتصر ضعف إيمان الناس في المعتقدات الدينية على البلدان ذات الدخل المرتفع فقط، بل اتضح ذلك في معظم أنحاء العالم، غير أن سكان البلدان الـ18 ذات الأغلبية المسلمة يمكن اعتبارها استثناء من التراجع الديني العالمي. (الجزيرة نت، 2021)

5- الأساليب الفنية الإخراجية:

الجدول 03: يوضح الأساليب الفنية الموظفة في الفيديوهات –عينة البحث-

الأساليب الفنية / الفيديوهات	ك	%
المدة الزمنية لعرض الفيديو		
أقل من 15 د	30	60
من 16 إلى 30 د	20	40
أكثر من 30 د	/	/
أسلوب العرض		
أسلوب السرد القصصي	28	56
أسلوب الحوار	21	42
أسلوب إلقائي	01	02
أماكن التصوير		
منزل	28	56
قاعة محاضرات كبرى	02	04
مسجد/ مكتبة	07	14
تصوير خارجي (حدائق، مطاعم)	10	20
مقطع من حصص تلفزيونية	02	04
درا رعاية	01	02
المجموع	50	100

المصدر: (إعداد الباحثة)

يوضح الجدول رقم (03) الأساليب الفنية الموظفة لعرض تجربة المسلمين الجدد وفقا لعينة الفيديوهات المحللة، حيث اتضح أن النسبة الأكبر كانت للفيديوهات الأقل من 15 دقيقة بنسبة 60%،

تلتها الفيديوهات التي تراوح عرضها ما بين 16 و30 دقيقة بنسبة 40%، في حين لم نسجل فيديوهات تعدى توقيت عرضها النصف ساعة، عند الانتقال لأسلوب العرض اتضح بروز أسلوب السرد القصصي المشوق بالدرجة الأولى بنسبة 56%، تلاه الأسلوب الحواري بنسبة 42% ثم أسلوب الإلقاء بنسبة 02%.

أماكن تصوير الفيديوهات كانت متنوعة بين تصوير داخلي وخارجي، احتل التصوير بالمنازل المرتبة الأولى بنسبة 56%، تلاه التصوير بالحدائق العامة والشوارع والمطاعم المرتبة الثانية بنسبة 20%، ثم التصوير بالمساجد والمكتبات بنسبة 14%، كما ضمت الفيديوهات تصويرا بقاعات المحاضرات الكبرى ومقاطع من حصص تلفزيونية بنسب متساوية قدرت بـ04%، في حين عادت المرتبة الأخيرة للتصوير بدار رعاية صحية بنسبة 02%.

تميزت الفيديوهات –عينة البحث- بأسلوب فني وإخراجي بسيط ولغة بصرية فعالة، تناسقت فيه الكلمات والعبارات مع ديناميكية المشاهد، كما تآلفت اللقطات بزوايا التصوير القريبة والبعيدة تحقيقا لإبراز العمق المعنوي في القصة، تناسقت كذلك أماكن التصوير الداخلية والخارجية بالمؤثرات الصوتية الهادئة، انطوت –جميعها- تحت نسيج تواصلي تفاعلي بطبيعة تعبيرية وجدانية مؤثرة، أسست لها التعبيرات الصوتية والجسدية "الإيمائية والإشارية" لمعتنقي الإسلام، قادت انفعالاتهم في التعبير عن حياتهم الجديدة "كأنهم ولدوا من جديد" وفي جعل المتلقين يتقمصون تلك المشاعر بنقلهم من تجاذبات الصورة السلبية عن الإسلام والمسلمين إلى حقيقة الدين الإسلامي.

ارتكز الأسلوب الفني في إخراج الفيديوهات –عينة البحث- على السرد القصصي (Storytelling) بمعدل زمني لم يتجاوز الربع ساعة، يُعد هذا الأخير من أكثر الأساليب الفنية فعالية في صناعة المحتوى عبر شبكات التواصل الاجتماعي وفي جذب الجميع مهما كانت أعمارهم وخلفياتهم، حيث يقوم على عملية الدمج بين الحقائق والمعلومات وبين أسلوب السرد لتقديم قصص واقعية لأشخاص اعتنقوا الإسلام حديثا؛ السرد القصصي فن تفاعلي تُستخدم فيه الكلمات والأفعال لتشجيع عقل المستمع أو القارئ وإثارته، وهو شكل من أشكال الفن التعبيري القديم. (الفارس، 2021) استخدمت فيه –بالنسبة لعينة البحث- الكلمات والحركات الجسدية وإيماءات الوجه لإثارة الخيال وتصور الأحداث الموصوفة في قصص المسلمين الجدد، زادها تناسق أماكن التصوير مع السردية المتسلسلة في عرض الأحداث قوة في التعبير وإيصال المعاني الإنسانية العميقة "الفرحة باعتناق الإسلام" إلى متتبعي الصفحة؛ إذ غالبا ما يؤدي المكان وظيفة دفع الحدث وتكثيف الحوار، وكلما انتقلت الشخصيات عبر الأمكنة زادت الأحداث وتعدد الحوار، (زاوي، 2014-2015، صفحة 177) خصوصا إذا كان المكان اجتماعيا كالمنازل والمطاعم والشوارع وقاعات المحاضرات والحدائق العامة أو هادئا كالمساجد والمكتبات، في حين تشاكل الأسلوب الحواري مع زيادة مدة عرض الفيديو، أين وصلت تقريبا النصف ساعة، بهدف التخفيف من رتابة السرد أو الشعور بالملل لطول مدتها، بينما اقتصر أسلوب الإلقاء على فيديو واحد بمدة زمنية لم تتجاوز (الدقيقة و59 ثانية)،

وعلى الرغم من قصر مدته إلا أنه حقق أعلى نسبة مشاهدة بلغت (1.3M)؛ جاء الفيديو بعنوان: (فتاة يهودية تدخل الإسلام وتنصح المسلمين نصيحة مبكية).

خاتمة:

في العالم العربي يولد معظمنا مسلما ولا نكاد نشعر بقيمة هذا الدين العظيم ونجدد الإيمان به إلا فيما نذر، بيد أن الأمر يختلف بالنسبة للمسلمين الجدد، حتى أنه من المفارقات العجيبة في قصصهم أنها تعيد إلينا الشعور بالفخر وبعظمة هذا الدين، الذي طاله التشويه من طرف الإعلام الغربي؛ وقد تلخصت نتائج الدراسة التحليلية لعينة البحث المستهدفة في النقاط الآتية:

-بينت الدراسة أن مسارات الحجاج تناسبت وطبيعة المواضيع المتناولة، حيث ارتكزت على الإقناع العقلي المبرهن لحقائق الإيمان استدلالا بالقرآن الكريم، أين وجدوا فيه الجواب العلمي والمنطقي لأسئلتهم المرتبطة بالغاية من الوجود، بينما ارتبط موضوع المرأة في الإسلام وقضايا التمييز العنصري، إضافة إلى موضوع الاندماج المجتمعي ونشر الدعوة الإسلامية بالاستمالات الاقناعية العاطفية.

-أوضحت الدراسة أن السمات الأساسية لمعتنقي الإسلام كانت مرتكزة في الفئة العمرية الشبابية المتعلمة بالجامعات، كما أن غالبيتهم ينتمون إلى دول أوروبا الغربية (بريطانيا وفرنسا وإسبانيا) ودول أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة الأمريكية وكندا)، بينما تراوحت دياناتهم السابقة بين المسيحية واليهودية، في حين اختار بعضهم طريق الإلحاد.

-بينت نتائج الدراسة أن الفيديوهات –عينة التحليل- جاءت بأسلوب إخراجي بسيط ولغة بصرية فعالة، ارتكزت فنيا على السرد القصصي بمعدل زمني لم يتجاوز الربع ساعة؛ استخدمت فيه الكلمات والحركات الجسدية وإيماءات الوجه "دموع الفرح" لإثارة الخيال وتصور الأحداث الموصوفة في قصص المسلمين الجدد، زادها تناسق أماكن التصوير مع السردية المتسلسلة في عرض الأحداث قوة في التعبير وإيصال المعاني الإنسانية العميقة "الفرحة باعتناق الإسلام" إلى متتبعي الصفحة.

توصيات:

- احترام أخلاقيات التعبير في الفضاء الافتراضي وتجنب كل أشكال الاتصال العدائي الذي من شأنه تأجيج التمييز العنصري أو التحريض على الكراهية بكل صورها؛ كالاعتماد على وسائل التواصل الاجتماعي باعتبارها آلية ديناميكية فاعلة تساهم في إعادة تشكيل الصورة الحقيقية عن الإسلام والمسلمين.
- العمل على زيادة نسبة مشاهدة ومشاركة وتداول المنشورات الحاملة للصورة الإيجابية عن الإسلام، تُعد هذه العملية عاملا أساسيا في الرفع من درجة أهمية تلك المنشورات ومن قيمتها التأثيرية (علاقة السلطة والأيديولوجيا بالتكنولوجيات الرقمية).

- تعزيز النشاطات الدعوية الافتراضية بتنظيم مناظرات ومحاضرات ودروس على الخط تُعنى بنشر الصورة الحقيقية عن الإسلام والمسلمين.
- توفير محاضن دعوية افتراضية تهتم بقضايا واهتمامات المسلمين الجدد عبر مختلف دول العالم.

قائمة المراجع:

1/ الكتب:

- جان فرانسوا دوتيه. ترجمة جورج كتورة. معجم العلوم الإنسانية. (2009). المؤسسة الجامعية كلمة ومجد للدراسات والنشر والتوزيع. أبو ظبي.
- جوني دانييل. ترجمة: عطية عبد الرحمان طارق. أساسيات اختيار العينة في البحوث العلمية - مبادئ توجيهية علمية لاختيار العينات البحثية. (2015). مركز البحوث.
- علي جعفر علاق. الدلالة المرئية -قراءات في شعرية القصيدة الحديثة-. (2009). دار الشروق. الأردن.
- علي علي أحمد. سلوك الإنسان. (1971). مكتبة عين شمس. القاهرة.
- غوستاف لوبون. ترجمة: صالح هاشم. سيكولوجية الجماهير. (1991). ط01. مكتبة الفكر الجديد: دار الساقي.
- فاروق أبو زيد. مدخل إلى الصحافة. (1998). ط02. عالم الكتب. القاهرة.
- فيصل مونس العنزي. واقع استعمال الرموز التعبيرية في البيئة الإعلامية الرقمية -دراسة استشرافية-. (2020). مكتبة الملك فهد الوطنية. السعودية.
- محمود علم الدين. تكنولوجيا المعلومات وصناعة الاتصال الجماهيري. (1990). العربي للنشر والتوزيع. القاهرة.

2/ الرسائل الجامعية:

- أحمد زاوي. بنية اللغة الحوارية في رواية محمد مفلاح. (2014-2015). أطروحة دكتوراه تخصص لغة عربية. كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها. جامعة وهران. الجزائر.

3/ مراجع باللغة الأجنبية:

- Jones, H., Chik, A., & Hagner, C. *Discourse analysis and digital practices.* (2015) . University of Reading- Routledge-. London.
- Garric, N., & Longhi, J. L’analyse de corpus face à l’hétérogénéité des données : d’une difficulté méthodologique à une nécessité épistémologique (2012). *revue-langages.*

- Herring, S. Computer mediated discourse analysis: An approach to reaserching online behavior. (2004, March). (N. Y. Campridge University Press, Éd.) *Desining for virtual communities in the service of learning*, pp. 338-376.
- Saifuddin , A., & Jorg , M. Media representation of Muslims and Islam from 2000 to 2015: A meta- analysis. (2017). *the International Communication Gazette, VOL 79*(Num 03), pp. 219–244.

4/ مو اقع الأنترنيت:

- آلاء الفارس. طريقة السرد القصصي. (13 ,09 2021). تاريخ الاسترداد 04. 03. 2022، https://mawdoo3.com
- المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية. (29.11. 2017). تاريخ الاسترداد 01/19 /2022، sid=208&https://www.iicss.iq/?id=40
- الجزيرة نت. (03.15. 2020). تاريخ الاسترداد 01.19. 2022، برنامج خارج النص.https://www.youtube.com/watch?v=u2HuKzMX31g
- الجزيرة نت. (06.26. 2021). تاريخ الاسترداد 27. 02. 2022، https://www.aljazeera.net/news/cultureandart
- الجزيرة نت. عبد الله عمران. بيانات وإحصاءات ونسب...آراء الفرنسيين عن الإسلام وبحوثهم عبر الأنترنيت. (10.26. 2020). تاريخ الاسترداد 10.01. 2022، https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2020/10/26
- دراسة أمريكية: الإسلام سيصبح أكبر ديانة في العالم بحلول 2070. (03.10. 2018). تاريخ الاسترداد 10 03. 2022، https://p.dw.com/p/2u5m4
- لماذا نذرف الدموع في أوقات الفرح أيضا؟ (بلا تاريخ). تاريخ الاسترداد 03.03. 2022، https://www.dw.com/ar
- محمد علي حسن. شالي إيبدو تهاجم الإسلام على غلافها عقب هجمات برشلونة. (23 .08. 2017). تاريخ الاسترداد 18. 01. 2022، الوطن: https://www.elwatannews.com/news/details/2453847
- نصر المجالي. الحكومة البريطانية ترفض مقترحات تعريف Islamophobia. (05.16. 2019). إيلاف. تاريخ الاسترداد 20. 01. 2022، https://elaph.com/Web/News/2019/05/1250280
- ويل دورانت. قصة الحضارة. (د.س). http://www.al-mostafa.com/ pdf.
- Le journal Charlir hebdo. (2015, 02 25). Consulté le 18 01, 2022, sur l'express: https://www.lexpress.fr/actualite/medias/charlie-hebdo_1623146.html

- https://www.facebook.com/almuslimunaljudud
- https://www.youtube.com/channel/UCZVyxrYVbLIU0TZX__S81fg?sub_confirmation=1

سبل صناعة صورة إيجابية للإسلام و المسلمين لدى الآخر من خلال الاعلام العربي الإسلامي: (تجربة مجلة إعلامية عربية اسلامية- دراسة وصفية و تحليلية)

Ways to Create a Positive Image of Islam and Muslims Among the Other Through the) Arab-Islamic Media : Experience Arab-Islamic Media Magazine-Descriptive and (Analytical study

د. فتيحة أمرار، جامعة علي لونيسي البليدة 02 –الجزائر
amrarf173@gmail.com



هدفت الدراسة الى معرفة سبل صناعة صورة ايجابية للإسلام و المسلمين من خلال الاعلام العربي الإسلامي المكتوب. وذلك بتحليل مضمون مجلة عربية إسلامية.

ولتحقيق أهداف الدراسة تم تطبيق أسلوب تحليل المضمون، باتباع المنهج الوصفي التحليلي .وخلصت الدراسة الى نتائج منها: أن النوع الصحفي الغالب في تقديم مضامين مجلة البشرى الكويتية هو الأخبار، وكانت أهداف مضامينها ثقافية، أما الوسائل الاتصالية المستعملة فهي الحفلات و المسابقات، و قد استعانت بإرفاق المواد الاعلامية المنشورة بالصور كأسلوب لإقناع جمهورها، أما جمهورها المستهدف فتمثل في فئة المسلمين.

الكلمات المفتاحية: صورة الإسلام ، الاعلام الإسلامي، المجلة.

Abstract :

the study aimed to find out ways to create a positive image of Islam and Muslims through the Arab Islamic written media. By analyzing the content of an Arab Islamic magazine.

To achieve the objectives of the study, the method of content analysis was applied, following the analytical descriptive approach .The study concluded that the predominant type of journalism in the presentation of the contents of the Kuwaiti magazine al-Bashir is the news, and the objectives of its contents were cultural, while the means of communication used are concerts and competitions, and has used the attachment of media materials published pictures as a way to convince its audience, and its target audience is the category of Muslims.

Keywords: image of Islam, Islamic Media, magazine.



مقدمة :

يشكل الاعلام قوة ثقافية واجتماعية وسياسية قادرة على إحداث تغيير هام في المجتمع وعلى خلق مواقف وقيم ورؤى جديدة، لما لها من أثر طاغ على الجمهور، ومن ناحية أخرى تقوم وسائل الإعلام بترسيخ وتأييد القيم والعادات والتقاليد والأنظمة وخاصة المرتبطة بالتصور، ويلج الإعلام على مستوى العالم بطريقة واسعة إلى التنميط فهو يقوم بدور الرمز الذي يقدم للجمهور المتلقي مفهوما ما، أو مفتاحا سريعا ومشتركا لشخص أو مجموعة من الأشخاص.

وقد بين البشاري (البشاري، 2004) أن وسائل الاعلام الغربية المختلفة، سواء مجلات أو صحف أو تلفزيون، أو إذاعة تسعى بشتى الطرق لنشر صورة سلبية ومشوهة عن الإسلام والمسلمين، عن طريق وصفهم بأوصاف همجية وبدائية، و الترويج لذلك عن طريق الضرب على وتر المشاعر والأحاسيس الإنسانية. كما ان تشويه الصورة العربية و الإسلامية في الغرب رافقه عاهات وشوائب كثيرة قائمة في الجسمين العربي و الإسلامي، ولذلك فإن تصحيح الذات العربية والذات الإسلامية يجب أن تكون له الأولوية قبل الحديث عن مسؤولية الغرب، ومن هنا فانه من المؤكد أن الطريق الصحيح لمقاومة تحيز الغرب ووسائل اعلامه ضد الأمة الإسلامية وتصحيح الصورة النمطية والسلبية، هو إقامة مشروع حضاري جديد تستعيد فيه الأمة عافيتها ووحدتها وقدرتها على تحقيق النهضة والتقدم وفي إطار هذا المشروع يتم إقامة صناعة إسلامية قوية للإعلام والمعلومات تواجه الصورة المشوهة داخل الأمة قبل أن تواجهها في الخارج، ومن هذا المنطلق تأتي هذه الدراسة التحليلية لبحث معالجة الاعلام العربي الإسلامي لقضايا الإسلام و المسلمين من خلال التساؤل الآتي: كيف عالجت مجلة البشرى الكويتية قضايا الإسلام والمسلمين ؟

ويتفرع من هذا السؤال الاشكالي حقل استفهامي يتناول شكل ومضمون الرسالة الإعلامية الإسلامية لمجلة البشرى الكويتية التي أنشأت لتصحيح صورة الإسلام و المسلمين من خلال التعريف بالإسلام وتعليم اركانه لغير المسلمين.

- ما هي الأنواع الصحفية المستعملة في معالجة قضايا الإسلام والمسلمين في صفحة مجلة البشرى الكويتية؟
- ما هي الأركان المستعملة في مضامين مجلة البشرى الكويتية؟
- ما أهداف مضامين مجلة البشرى الكويتية؟
- ماهي الوسائل الاتصالية المستعملة من طرف مجلة البشرى الكويتية لإيصال الرسالة لجمهورها.
- ماهي وسائل الاقناع المستعملة من طرف القائمين بالاتصال للتأثير في الجمهور؟
- ما الفئات المستهدفة من مضامين مجلة البشرى الكويتية؟
- ما دور الاعلام الإسلامي في معالجة ظاهرة الاسلاموفوبيا وتشويه صورة الإسلام؟

أولا-الاطار المنهجي للدراسة:

1- **أهمية الدراسة:** تستمد الدراسة أهميتها من خطورة الصورة النمطية المشوهة والسلبية المنحازة التي يقدمها الغرب عن الإسلام والمسلمين، وعدم توافر أبحاث إعلامية في آليات تصحيح صورة الإسلام،و توافر أعدد كبيرة من الدراسات حول الصورة النمطية السلبية للإسلام و المسلمين.

2- **مفاهيم الدراسة:**

أ-الصورة:

التعريف الاصطلاحي: تعرف الصورة بأنها" مجموعة من معارف الفرد، ومعتقداته في الماضي والحاضر والمستقبل والتي يحتفظ بها وفقا لنظام معين عن ذاته وعن العالم الذي يعيش فيه. (السيد، 2006). وتعرف الصورة على أنها شكل الأشخاص أو الأشياء، أو منظر موضح على الورق، أو ما شابه التصوير أو الرسم (بدوي، 1991)

اجرائيا: من أهم التعريفات التي تقترب من موضوع دراستنا، التعريف الذي قدمه الأكاديمي سليمان صالح الصورة الذهنية بأنها" مجموعة السمات و الملامح التي يدركها الجمهور و يبني على أساسها مواقفه واتجاهاته نحو موضوع الصورة. وتتكون تلك الصورة عن طريق الخبرة الشخصية للجمهور القائمة على الاتصال المباشر أو العمليات الاتصالية الجماهيرية" (صالح، 2005).

ب-الاعلام الإسلامي:

تعريف الإعلام لغة: نقل المعلومات الى الآخرين عن طريق الكلمة أو غيرها بسرعة، وهذا المدلول هو الذي أشار اليه الراغب الاصفهاني في تفريقه بين الإعلام و العلم بقوله: اعلمته وعلمته في الأصل واحد إلا أن الاعلام اختص بما كان بإخبار سريع، و التعليم بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلم. معجم مفردات القرآن الكريم ص356

تعريف الاعلام اصطلاحا: إذا كان الاعلام كما يقول إبراهيم امام يعني " تزويد الجماهير بالأخبار الصحيحة والمعلومات والحقائق الثابتة، والسليمة، والتي تساعدهم على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع، أو مشكلة من المشكلات، بحيث يعبر هذا الرأي تعبيرا موضوعيا عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم. (امام، 1980).

اجرائيا: لإعلام الإسلامي على ضوء هذا الإطار يعني "الإعلام الذي يعكس الروح والمبادئ والقيم الإسلامية، ويمارس في مجتمع إسلامي، ويتناول كافة المعلومات والحقائق، والأخبار المتعلقة بكافة نواحي الحياة السياسية، والاقتصادية والقانونية والدينية والاجتماعية،والثقافية، والأخلاقية، وهو المفهوم الذي ينطبق على موضوع دراستنا.

ج-تعريف المجلة اصطلاحا: يقول محمد الغلاييني أنه يصعب على الباحثين أن يعرف المجلة تعريفا محددا لأنها واسعة المدلول، مختلفة المستوى فمنها الرفيع ومنها الهابط، كما أن وقت إصدارها مختلف فمنها الأسبوعي، ومنها الفصلي، ولكنها تدخل تحت اسم المطبوعات الدورية. (الغلاييني، 1985، صفحة 173).

تعريف المجلة اجر ائيا: المجلة المقصودة في دراستنا هي مجلة البشرى الكويتية، دعوية شهرية، تصدر عن لجنة "التعريف بالإسلام" التابعة لجمعية النجاة الخيرية غرة كل شهر ميلادي، تعنى بشؤون الإسلام و المسلمين.

3-منهج الدراسة وأداتها: تستخدم الدراسة منهج الوصف التحليلي، لاستعراض مضمون المادة الإعلامية وتحليلها تحليلا كميا وكيفيا مستخدمة أداة تحليل المضمون التي تعطي الفرصة لتحليل المعلومات و الأفكار التي تناولتها المجلة تحليلا علميا، من أجل الكشف عن الطريقة التي عالجت بها مجلة البشرى الكويتية قضايا الإسلام و المسلمين لتحسين صورتهما لدى الأخر، وقد ركزنا على عدة فئات للإجابة عن سؤال الإشكالية، منها فئة الأركان أو القضايا المتعلقة بالإسلام و المسلمين، فئة الأنواع الصحفية المعتمدة المستعملة في معالجة القضايا المتعلقة بالإسلام و المسلمين، فئة الجمهور المستهدف من مضامين مجلة البشرى الكويتية، فئة وسائل الاقناع التي استعملتها للتأثير على القارئ، وغيرها من الفئات التي تجيب عن تساؤلات الدراسة.

واعتمدنا في جمع البيانات من مجتمع الدراسة على أداة استمارة تحليل المضمون التي تعرف بانها " أداة التحليل التي يصممها الباحث لتساعده في جمع البيانات المطلوبة ورصدها لإيجاد معدلات تكرارها، وهي أداة مفيدة للباحث تساعده على استكمال عناصر التحليل من جهة، وتجعل عمله منظما وهادفا من جهة ثانية" (وآخرون، 2015).

وقد اشتملت استمارة تحليل المحتوى الخاصة بهذه الدراسة على ثلاث محاور جاءت كالآتي:

المحور الأول: يحتوي على معلومات عامة حول مجلة البشرى الكويتية(رقم عدد المجلة، تاريخ الصدور...).أما **المحور الثاني:** يحتوي على معلومات خاصة بفئات الشكل، مثل الأنواع الصحفية. و**المحور الثالث:** يحتوي على معلومات خاصة بفئات المحتوى، مثل طبيعة الموضوعات أو الأركان، فئة الأهداف من مضامين مجلة البشرى، فئة الجمهور المستهدف وغيرها.

4-مجتمع الدراسة وعينتها: يعرف مجتمع البحث بأنه" جميع أفراد الظاهرة المقصود دراستها، في حين يقصد بالعينة الجزء الذي يتم اختياره من المجتمع لتطبيق الدراسة عليه، وفي الدراسات الإنسانية ومنها دراسات الاعلام و الاتصال، لا يتم اللجوء الى اختيار عينة من المجتمع الا إذا تعذر تطبيق الدراسة على كل مفردات مجتمع البحث. (الجيزان، 2004).

ويتمثل مجتمع الدراسة في الاعداد الصادرة سنة 2014 من مجلة البشرى الكويتية المتاحة على شبكة الانترنت. وعليه تم الاعتماد على عينة عشوائية بسيطة، الذي يعتمد على الأسلوب العشوائي القائم على الصدفة في التعيين عن طريق القرعة، وهذا النوع يستخدم على مستوى المجتمعات المتجانسة المعروفة المفردات. (مرسلي، 2005). وقد حصلنا على المفردة التي تحمل العدد 131بشكل عشوائي، وهو العدد الصادر في جانفي.

5-الدراسات السابقة : تعد أدبيات البحث من العناصر التي يجب على الباحثين الرجوع اليها لمعرفة ما تم إنجازه من دراسات مشابهة لنفس الموضوع، وقد تم تحديد بعض الدراسات التي لها علاقة بموضوع دراستنا لأجل الاستفادة منها في بناء الإشكالية، وتحليل وتفسير نتائج الدراسة، ومن الدراسات التي عثر عليها وهي قليلة، وقد سبق الإشارة الى قلة الدراسات التي تناولت موضوع "سبل صناعة صورة إيجابية للإسلام والمسلمين لدى الآخر" لأن الدراسات الآتية لم تتناول معالجة قضايا الإسلام و المسلمين في وسيلة إعلامية بغرض معرفة اساليبها في تصحيح صورة الإسلام و المسلمين.

- **آليات تصحيح صورة الإسلام على شبكة الانترنت: دراسة تحليلية نقدية:** (عثمان، 2016)، **ناقشت الدراسة السؤال الآتي:** ما هي التشابهات و الاختلافات بين العرب و الغرب في إظهار الصورة السلبية للمسلم على شبكة الانترنت وما الآليات التي يطرحها كل منهما لتصحيح تلك الصورة؟
- **دور الاعلام الجز ائري في تصحيح صورة الإسلام:** قناة القرآن نموذجا (مراح): هدفت الدراسة الى التعرف على مدى مساهمة قناة القرآن الكريم في تصحيح صورة الإسلام لدى الشباب الجامعي الجزائري، وتساءلت عن مدى متابعة الشباب الجامعي الجزائري لبرامج قناة القرآن الكريم، واتجاهات الشباب الجامعي الجزائري نحو دور قناة القرآن في تصحيح صورة الإسلام، و مدى تأثر الشباب الجامعي الجزائري ببرامج قناة القرآن الكريم،
- **الإعلام الإسلامي ودوره في معالجة ظاهرة الإسلاموفوبيا وتصحيح صورة الإسلام في الغرب:** (جفافلة، 2020)، حاولت الدراسة الكشف عن أسباب تشويه صورة الإسلام و المسلمين في الغرب، معرفة أبرز مظاهر الاسلاموفوبيا وانعكاساتها، معرفة استراتيجيات تصحيح صورة الإسلام،

ثانيا- الإطار النظري للدراسة:

1-دور الاعلام الإسلامي في معالجة ظاهرة الاسلاموفوبيا وتشويه صورة الإسلام :

أ-دور الاعلام الإسلامي وأهدافه: إن الإعلام الإسلامي لا يقتصر على قضايا معينة يحققها لهذا الإنسان، ولكنه يتدخل في كل قضية من قضاياه بالدور الملائم والمناسب، فله أهدافه العقائدية، للإبلاغ بها صافية نقية، ولترسيخها في نفوس المدعين، ولرد الشبهات المغرضة من فبل المناوئين لصد الآخرين عن الوصول إليها. وله **أهدافه الثقافية**: لتعميم الوعي والفهم، والتعليم والتثقيف والمعرفة، والتربوية من أجل إيجاد الفرد الصالح السوي، وله **أهدافه الاجتماعية**: الرامية الى تماسك المجتمع وترابطه، وترسيخ

معاني الأخوة والمحبة والإيثار فيه، وغرس روح التعاون والتقوى فيما بينه، وتبدأ أهدافه الإصلاحية بالفرد، ثم الأسرة، ثم المجتمع ثم الحكم في آن واحد، وله **أهدافه الترفيهية**: للتسلية والترويح، ولتجديد النشاط وأداء الواجبات والقيام بالمسؤوليات. (منتصر، 2011). وله **أهدافه الاقتصادية**: الرامية الى تحسين أوضاع الأمة في الكسب والانفاق وترشيدها في الأخذ والعطاء، والحماية من الغش والاحتكار، والتحذير من النهب والاستغلال، والربا. وله أهدافه **العسكرية والجهادية**: للتوعية والاستنفار ورفع الروح المعنوية في صفوف المجاهدين وللحرب النفسية في الأعداء المحاربين، ثم لكشف المخططات وفضح المؤامرات وللإسهام في التعبئة العامة والإعداد الشامل من الناحية الفكرية والمعنوية والروح القتالية...الخ. (الوشلي، 1993-1994).

ويمكن تلخيص أهم أهداف النظام الإسلامي في:

- **نشر عقيدة التوحيد:** يجئ اهتمام الإعلام الإسلامي بنشر العقيدة الإسلامية لأن التشريع الإسلامي أهتم ببيان الركن الأول والأساس في الإسلام، وهو العقيدة و الايمان بالله تعالى وحده، ونبذ عبادة الاصنام، ، و أن الله تعالى هو الخالق الرازق قادر على كل شيء، وقد أقام الإسلام الدعوة الى هذا كله على أساس من الأدلة العقلية و التاريخية. (هيفاء، 2015).
- **الذود عن أخلاق المجتمع الإسلامي وتزكيته:** وهذا هدف من أعظم أهداف الإعلام الإسلامي وأبعادها أثرا في النفوس و أدومها في الزمن المنظور أو البعيد لأن برامج الاعلام تؤثر في الشباب والشيوخ والأطفال والنساء، فقد أصبحت وسائل الاعلام أداة تأثير في النفوس ولا يوجد فرد من أفراد المجتمع لا يتعرض لتأثيرها، و نتيجة للدور التوجيهي لوسائل الاعلام وجب على الاعلام الإسلامي أن يلتزم بقواعد أساسية لبلوغ هدفه وهو المساهمة في تربية المجتمع وتزكيته و الدفاع عن أخلاقه القرآنية و آدابه الإسلامية. (جميل، 1995).
- **التصدي للحملات التي تواجه المسلمين:** واجه الإسلام عبر تاريخه الطويل -ولا يزال – تحديات وحملات عديدة تستهدفه وتستهدف المسلمين، ومن الحملات الضارية التي يتعرض لها المسلمون حملات التبشير بالنصرانية، والجدير بالذكر أن الاعلام الإسلامي قد تصدى لحملات التنصير، إذ كتب علماء المسلمون والمفكرون الإسلاميون كتبا متنوعة منذ قرون توضح خطر الزحف النصراني على العالم الإسلامي. ولا يزال الإعلام الإسلامي المكتوب يتصدى لهذه الحملة، والمطلوب من الاعلام الإسلامي المزيد من التصدي لهذه الحملات وتحصين الإسلام والمسلمين، وأن يوضح الاعلام الإسلامي أن قادة هذه الحملات هم أعداء الشعوب الإسلامية وأعداء لعقيدة الإسلام.

2-دور الاعلام الإسلامي في مواجهة حملات التشويه الغربية للإسلام:

الواقع اليوم يفرض على وسائل الاعلام العربية والاسلامية أن تقوم بدور كبير وأكثر من أي وقت مضى لإيضاح صورة الإسلام والمسلمين الحقيقية في الغرب، والعمل بكل الطرق والأساليب لتصحيح الصورة السلبية التي رسمت في مخيال الغربيين وثقافتهم ووسائل اعلامهم. وباعتبار أن وسائل الاعلام لها

الدور الفاعل في رسم الصور وتنميطها، فإن لها أيضا دور في كبير في تصحيح تلك الصور، وعلى هذا الأساس توجد مجموعة من الاعتبارات التي يجب النظر اليها عند محاولة بث دور وسائل الاعلام في تغيير صورة الإسلام و المسلمين في الخارج منها:

أ-أجندة جديدة للإعلام في العالم الإسلامي :أن تغيير صورة الإسلام و المسلمين في الغرب ليست مهمة سهلة بسبب ذلك التراث الغربي المتراكم عبر قرون من العداء الديني و السياس، الا أنه يمكن لا يمكن من التسليم بعدم جدوى المحاولة، ونجاح الجهود في السعي نحو تصحيح صورة الإسلام والمسلمين لدى المجتمعات الغربية مرهون بعاملين هما:

- اقتناع المسلمين بضرورة العمل الجاد من أجل تغيير تلك الصورة، ولذلك اجمع الكثيرون على بذل الجهود في هذا الشأن.
- العامل الآخر لإنجاح الجهود في تصحيح الصورة يتمثل في وجود بيئة قابلة للتغيير في الغرب، وتدل بعض المؤشرات على أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر فتحت أعين الكثيرين في المجتمع الامريكي على حقيقة جهلهم وعدم معرفتهم بالإسلام، فبدأوا يتساءلون عنه بدافع الرغبة في المعرفة أو بدافع الفضول أو بدافع التعرف على العدو.

ب-أما عن عناصر ومكونات تغيير الصورة السلبية عن الإسلام و المسلمين في المجتمعات الغربية فتتمثل في:

1- فيما يخص المضمون الإعلامي الموجه للغرب، ويشمل:

- مضامين متصلة بمكونات الصورة الذهنية في المجتمع الغربي.
- مضامين مشتقة مما ينشر في وسائل الإعلام للرد عليها بصفة مستمرة.
- مضامين توضح تسامح مبادئ الدين الاسلامي مع الديانات الأخرى.

2- الجهات التي يمكنها القيام بدور في تحسين الصورة:

- سفارات الدول الإسلامية لدى الغرب.
- المؤسسات و المنظمات الإسلامية.
- مؤسسات المجتمع المدني و الجمعيات الأهلية في الدول الإسلامية.
- الأجهزة الإعلامية الإسلامية.

3- الجمهور المستهدف:

- مجموعة النخبة و صناع القرار في المجتمعات العربية.
- أصحاب المؤسسات الإعلامية للتأثير عليهم.

- الأحزاب و الجماعات المعروف عنها ميلها الى الإسلام.
- الحكومات.

4- الوسائل الاتصالية التي يمكن استخدامها:

- انشاء قنوات إسلامية بلغات موجهة للمجتمعات الغربية.
- التوسع في استخدام الانترنت لنشر ما يصحح الصورة السلبية عن الإسلام و المسلمين.
- الاستعانة بوكالات متخصصة في العلاقات العامة للقيام بحملات طويلة الأمد لتحسين الصورة.
- عقد ندوات ومؤتمرات مع الجماعات المؤثرة في تلك المجتمعات.
- الصحف و المجلات في الدول الغربية من خلال حملات مدفوعة الأجر.

2-سبل تصحيح صورة الإسلام والمسلمين: إن مسؤولية تصحيح صورة الإسلام والمسلمين تقع على عاتق المسلمين جميعا ويمكن وصف ذلك بضرورة وضع مشروع برنامج للرد على حملات التشويه الإعلامي للإسلام والحضارة الإسلامية وكذا تصحيح بعض الصور المغلوطة في العديد من المستويات ونذكر منها:

- **على مستوى الدول الإسلامية:** حيث يقتضي تحسين صورة الإسلام والمسلمين وجود تحرك عربي إسلامي منظم داخل المجتمعات الغربية ودعم المنظمات الاسلامية داخل هذه البلدان للتأثير على مجتمعاتها بدلا من الاكتفاء باقتناء سياساتها، كما يجب على الدول الاسلامية مواجهة ما يعرف بصدام الحضارات، مما يعني إبدال التصادم مع الغرب بما يعرف حوار الحضارات.
- **على مستوى الإعلام الإسلامي**: مما يعني ضرورة وضع خطة إعلامية إسلامية موحدة للرد على حملات التشويه تقتضي ما يلي: ضرورة إنشاء قناة فضائية اسلامية لبث برامجها بمختلف اللغات الأجنبية وتعمل الدول الإسلامية على تمويلها ماديا وبشريا، استثمار الفضاء الإعلامي في الغرب من خلال عرض قضايا العالم الإسلامي واستئجار ساعات من البث الإذاعي والتلفزيوني في بعض القنوات الغربية المستقلة ومحاولة تعريف المجتمعات الغربية بالحضارة والثقافة العربية و الإسلامية، تشجيع قادة العمل الإسلامي في الغرب على إنشاء صحف ومجلات باللغات الأجنبية . وكذا استغلال شبكة الانترنت من خلال إنشاء مواقع خاصة بالإسلام والمسلمين من أجل تصحيح الأفكار والمعلومات والمفاهيم الخاطئة التي تروج ضد الإسلام.
- **على مستوى رجال الدين، الفكر والتعليم:** حيث أنه من واجب رجال الدين والأئمة والدعاة والمفكرين تصحيح صورة الإسلام والمسلمين في أذهان الغربيين من خلال استخدامهم أسلوب الحوار مع الغير ومحاولة إقناعهم بالحجة والدليل وبالعلم والحكمة والموعظة الحسنة، وكذا

ترشيد فكر الأجيال العربية والاسلامية المتواجدة في البلدان الغربية باعتبار أنها تمثل الاسلام خارج أوطانها الأصلية. أما في الجانب الأكاديمي فيجب على الأكاديميين العرب والمسلمين تقديم دراسات علمية وملتقيات وندوات باللغات الأجنبية ويكون الغرض منها هو تصحيح المفاهيم الخاطئة عن الاسلام والمسلمين لدى الغرب،

- **على مستوى الجاليات المسلمة بالخارج:** من خلال استخدام المسلمين المقيمين بالخارج أسلوب التواصل والاندماج مع المجتمعات الغربية الأصلية ومحاولة التنسيق مع المنظمات الإسلامية للتأثير في الرأي العام الغربي بضرورة قبول الأخر وكذا الدعوة إلى إنشاء الاتحادات والجمعيات التي تعمل على التعاون والتواصل وتبادل الخبرات والمعلومات مع اتحادات وجمعيات غربية أخرى، مما يوطد عالقات سلمية وتعاونية بين المسلمين وغير المسلمين.

ثالثا- الإطار التطبيقي: تحليل محتوى مجلة البشرى الكويتية:

1- **التعريف بالمجلة:** هي مجلة التعريف بالإسلام، الأولى في العالم الإسلامي، تصدر في دولة الكويت، دعوية شهرية، تصدر عن لجنة "التعريف بالإسلام" التابعة لجمعية النجاة الخيرية غرة كل شهر ميلادي.

2- **نشأتها:** أسست عام 2002 م، وتعنى بشؤون التعريف بالإسلام، وتعليم أركان وأصول هذا الدين للمهتدين الجدد، وتوعية المجتمع المسلم بأهمية الدعوة إلى الله.

3- **رسالتها:** بيان أهمية الدعوة إلى الله، وتعريف المسلمين الجدد بحقيقة الإسلام وعظمته وجماله بأسلوب حضاري يجمع بين الأصالة والمعاصرة بعيدا عن العصبية والحزبية.

4- **لغتها:** الحكمة والموعظة الحسنة بأسلوب صحفي قائم على السهل الممتنع، مع التركيز على الطرح الحضاري الهادئ والمتزن.

5- **جمهورها المستهدف:** المهتدون الجدد وأصحاب العقول المستنيرة والفطرة النقية من غير المسلمين، وكذلك عامة المسلمين وأصحاب الأيادي البيضاء.

6- **أهدافها:** تتمثل في:

- إبراز دور لجنة التعريف بالإسلام الدعوي والخيري.
- تعليم وتعريف المهتدين الجدد بقواعد الإسلام.
- تعزيز انتشار تعاليم الدين الإسلامي في الأوساط غير المسلمة.
- إبراز أهمية الدعوة إلى الله في كل زمان ومكان.
- تغيير الصورة النمطية السلبية عن الاسلام والمسلمين.

7- **فلسفتها:** تتمثل في:

- مخاطبة شريحة المهتدين الجدد وغير المسلمين.
- رعاية المهتدين الجدد وتعليمهم الإسلام.

- إبراز سماحة الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.
- عشرات القصص الرائعة مع مشاهير أسلموا.
- حوارات متنوعة مع مهتدين أبصرت قلوبهم الإسلام في الكويت.
- حصرية لأوضاع المسلمين في العالم خاصة بالغرب.

الجدول رقم 01: يوضح الأنواع الصحفية في مجلة البشرى الكويتية

	التكرار و النسبة	التكرار	النسبة%
الأنواع الصحفية			
الافتتاحية		1	%2,27%
المقال		9	20,45%
التعليق		1	2,27%
العمود		1	2,27%
الحوار		1	2,27%
التقرير		2	4,54%
الأخبار		29	65,90%
المجموع		44	100%

المصدر: من تصميم الباحثة

يتبين من خلال الجدول رقم 01 أن اكثر الأنواع الصحفية التي قدمت بها مضامين مجلة البشرى الكويتية هي الأخبار بنسبة 65,90% ، بعدها يأتي المقال بنسبة 20,45%، ثم التقرير بنسبة 04،54%،ثم الافتتاحية و العمود و التعليق و الحوار بنسبة 02،27%.

ومن بين الاخبار التي وردت في مجلة البشرى الكويتية نجد ما يلي:

أكثر الأخبار التي أتت في مجلة البشرى كانت في ركن التعريف بالإسلام دار النوري زارت المهتدين الجدد وغير المسلمين في مستشفى الجهراء، ففروا الى الله برنامج دعوي للجالية الكيرلاوية بفرع خيطان، التطوعي للتعريف بالإسلام شارك بازار مدرسة الكويت البريطانية، اشهار اسلام سيدتين في ختام حفل قوارير، نسائية دار النوري تدرب داعياتها الميدانيات، وهي كلها أخبار عن نشاطات لجنة التعريف بالإسلام. بالإضافة الى اخبار عن مشاريع جمعية النجاة الخيرية في ركن مشاريع النجاة مثل إنجازات مشروع الأضاحي. وركن العالم الإسلامي الذي يقدم فيه مواضيع تتعلق بالإسلام والمسلمين الثقافية والاقتصادية والسياسية. وركن مختارات من الأوقاف الذي يعرض أخبار عن منجزات ونشاطات وزارة الأوقاف.

أما المقالات فاتجهت إلى غالبيتها إلى معالجة القضايا الثقافية مثل صناعة المناخ الداعم للحوار الحضاري في ركن ملف العدد، موضوع اليوم العالمي للغة العربية في ركن رسائل دعوية، اللغة جسر

تواصل مع الآخرين في ركن طريق الهدى، موضوع فضل معرفة الأسماء الحسنى في ركن من الإسلام، موضوع عن الملحد الذي يخاف الله في ركن الاعجاز العلمي، الاحتضان الإسلامي لغير المسلمين(السائحين) في ركن فكر.

ثم مواضيع التقرير مثل مدرسة السلام العربية، تقرير عن شخصية مشهورة اهتدت في ركن مشاهير اهتدوا، والحوار الذي اجري مع شخصية مسلمة بلغارية حول الآثار الإسلامية في بلغاريا و اللغة العربية.

إلى جانب الافتتاحية التي كان موضوعها يرتبط بالموضوع الرئيسي للعدد، والتعليق الذي كان موضوعه الاعلام المسؤول والدور المنشود، والعمود في ركن بالخير نلتقي والذي عالج قضية انحدار المسلمين. و الملاحظ هنا هو غياب البورتري والروبرتاج والتحقيق اللذين لم يظهروا ولا مرة في هذا العدد.

الجدول رقم02: يوضح اركان مجلة البشرى الكويتية

الأركان ومواضيعها	التكرار	النسبة%
التعريف بالإسلام	10	%16.66
رسائل دعوية	1	%1.66
العالم الإسلامي	6	10%
حوار العدد	1	%1.66
مشاريع النجاة	1	%1.66
ملف العدد	1	%1.66
اعلان	10	%16.66
طرق الهدى	1	%1.66
من الإسلام	1	%1.66
الاعجاز العلمي	1	%1.66
تقرير	1	%1.66
وقفة مع مهتدية	2	%3.33
فكر	1	%1.66
مختارات من الأوقاف	4	%6.66
مشاهير اهتدوا	1	%1.66
صحتك بالدنيا	4	%6.66
دعوة غير المسلمين	1	%1.66
الدعوة الالكترونية	6	10%
نحن و الغرب	1	%1.66
فتاوي	3	5%
حصاد الكتب	1	%1.66
بالخير نلتقي	1	%1.66
المجموع	60	100%

تشير بيانات الجدول رقم 02 الى أن أغلب المواضيع التي تعالجها مجلة البشرى الكويتية تركزت في ركني التعريف بالإسلام و الإعلانات بنسبة 16،66%، ثم ركن الدعوة الالكترونية بنسبة 10% التي تساهم في الدعوة الى السلام و الالتزام بأركانه عبر بعض التطبيقات مثل تطبيق التذكير بأوقات الصلاة و القبلة، ثم مواضيع مختارات من الأوقاف التي تبرز نشاطات وإنتاج وزارة الأوقاف في المجال الإعلامي كإنتاجها لفيديو كليب "يحلو الوصال" الذي يتعلق بركن الصلاة، وفيلم "الإسلام باختصار" ، وركن صحتك بالدنيا بنسبة 06،66%، ثم ركن فتاوي الذي يقدم جملة من الفتاوي الصادرة عن كبار علماء الأمة والمجامع الفقهية

والتي تهم كل مسلم، والتي تتعلق بمستجدات الحياة و المعاملات. ثم ركن وقفة مع مهتدية الذي ينقل قصص المهتدين الجدد و حكايتهم مع اعتناق الإسلام بنسبة 3،33%.

الجدول رقم 03: يوضح الهدف من مضامين مجلة البشرى الكويتية

التكرار و النسبة		التكرار	النسبة %
الهدف			
اجتماعي		5	**10,63%**
اقتصادي		1	2,12%
ثقافي		11	**23,40%**
ترفيهية		3	6,38%
الدعوة الى اعتناق الإسلام		8	**17,02%**
الذود عن اخلاق المجتمع الإسلامي و		1	2,12%
التصدي للحملات التي تواجه المسلم		1	%2,12%
الدعوة الى استرجاع القيم الإسلامية		1	2,12%
نشر عقيدة التوحيد		1	% 2،12
تحبيب أعمال الخير و البر		1	% 2،12
نقل ما يتعرض له المسلمين		2	% 4،25
تعارف بين المسلمين وغيرهم		3	% 6،38
تعليم اللغة العربية		2	%4،25
التعريف بالإسلام لغير المسلمين		6	%12،76
المجموع		47	100%

المصدر: من تصميم الباحثة

يتضح من الجدول رقم 03 أن أهداف مضامين مجلة البشرى الكويتية ثقافية بنسبة **23،04%** لتعميم الوعي و الفهم، و أهداف تنصب حول الدعوة الى اعتناق الإسلام بنسبة قدرت ب 17،02**%** حيث اهتمت المجلة بنشر العقيدة الإسلامية لأن التشريع الإسلامي أهتم ببيان الركن الأول والأساس في الإسلام، وهو العقيدة و الايمان بالله تعالى وحده، ونبذ عبادة الاصنام، بعدها يأتي هدف التعريف بالإسلام لغير المسلمين بنسبة 12،76 **%** لتعزيز انتشار تعاليم الدين الإسلامي في الأوساط غير المسلمة. وبعدها الأهداف الاجتماعية بنسبة قدرت ب 10,63% الرامية الى تماسك المجتمع وترابطه، وترسيخ معاني الأخوة والمحبة والإيثار فيه، وغرس روح التعاون والتقوى فيما بينه. ثم الأهداف الترفيهية للتسلية والترويج، ولتجديد النشاط وأداء الواجبات والقيام بالمسؤوليات، والتعارف والتواصل بين المسلمين وغير المسلمين بنسبة 06،38%. وبعدها الهدف الذي وجه نحو تعليم اللغة العربية فاللغة عامل محوري في الدعوة إلى الله عز وجل، فبها يستطيع الداعية التعرف على معتقدات وعادات وسلوكيات من يقوم بدعوتهم، وتتيح له فرصة الاطلاع على كتبهم من خلال ما تخطه أقلام كتابهم ومفكريهم، وهدف نشر عقيدة التوحيد، وهدف موجه لنقل ما يتعرض له المسلمين من غير المسلمين بنسبة 04،25%، أما هدف: الدعوة إلى

استرجاع القيم الإسلامية، تحبيب أعمال الخير والبر، التصدي للحملات التي تواجه المسلمين والأهداف الاقتصادية فكانت بنسبة 02،12%.

الجدول رقم 04: يوضح الوسائل الاتصالية المستعملة في مضمون مجلة البشرى

الوسائل الاتصالية	التكرار و التكرار	النسبة
عقد ندوات ومؤتمرا لجماعات المؤثرة في تلك المجتمعات	2	10,52%
وكالات متخصصة في العلاقات العامة	1	5,26%
استخدام الانترنت	2	10,52%
المحتوى في مستجدات الحياة و المعاملات	1	5,26%
معارض	1	5,26%
دورات تدريبية	1	5,26%
محاضرة	1	5,26%
الزيارات	2	10,52%
أفلام	1	5,26%
تنظيم رحلات	1	5,26%
تنظيم حفلات و مسابقات	4	21,05%
فيديو كليب	1	5,26%
توقيع اتفاقيات شراكة	1	5,26%
المجموع	19	100%

المصدر: من تصميم الباحثة

يشير الجدول رقم 04 الى ان الوسائل الاتصالية المستعملة من طرف لجنة التعريف بالإسلام لبلوغ أهدافها كما يتضح من خلال تحليل مضامين مجلة البشرى الكويتية هي: تنظيم حفلات ومسابقات بنسبة قدرت ب %21,05 % وهي وسائل ترفيهية، فالإسلام دين اللين والرحمة، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام، يتخلل أصحابه بالموعظة و كان يقول (روحوا القلوب ساعة و ساعة).استخدام الانترنت لنشر ما يصحح الصورة السلبية عن الإسلام والمسلمين بنسبة قدرت ب 05،26%، وقد تقاسمت هذه النسبة مع عقد ندوات ومؤتمرات مع الجماعات المؤثرة في تلك المجتمعات ، إقامة المعارض وانتاج الأفلام وبرمجة الزيارات والمحاضرات، دورات تدريبية ، وهي من وسائل الاتصال الشخصي والجمعي الذي يعزز الاتصال بين المسلمين وغير المسلمين، وبين المسلمين.

جدول رقم 05: يبين وسائل الاقناع في مجلة البشرى الكويتية

التكرار و النسبة وسائل الاقناع	التكرار	النسبة%
استخدام الأمثلة و الشواهد	11	7,23%
استخدام الاحصائيات و الأرقام	3	%1.97
مخاطبة المشاعر و الاحاسيس	10	%6.57
ذكر الضرر و الخطر للتخويف	2	%1.32
استعمال الصور	75	%49.34
نقل الاخبار	31	%20.39
نقل معلومات علمية	13	%8.55
ذكر الاحاديث و الايات	3	%1.97
ذكر مقولات	2	%1.32
نقل حقائق	2	%1.32
المجموع	152	100%

المصدر: من تصميم الباحثة

تشير بيانات الجدول رقم 05 الى أن مجلة البشرى الكويتية سعت الى التأثير على القراء من خلال استعمال أساليب متنوعة، لكن نجد أسلوب ارفاق المواد الاعلامية المنشورة بالصور قد احتل المرتبة الأولى بنسبة 49،34% ، لأن الصور تلعب دورا مهما في كسب ثقة القارئ، ثم الحصول على قناعته، والصورة الواحدة تغني عن العشرات من الكلمات. وبعدها يأتي أسلوب نقل الاخبار بنسبة 20،39% وقد وثقت تلك الاخبار بالصور كتعبير عن مصداقيتها والحصول على قناعة القارئ، لدرجة يجعل القارئ يشعر أن الصحفي يعلق على تلك الصور وبالتالي يصدق ما يقرأ ويقتنع به، وفي المرتبة الثالثة نجد أسلوب نقل المعلومات العلمية التي تكررت بنسبة 08،55% في أركان: **صحتك بالدنيا** التي تحمل حقائق علمية عن فوائد بعض الأغذية لجسم الانسان، وركن **الاعجاز العلمي** الذي نقل معلومة علمية مفادها أن الملحد يخاف الله، نشرت في مجلة دولية تهتم بعلم نفس الأديان، وركن دراسات الذي نقل معلومات علمية عن الديانة البوذية، ثم ركن الدعوة الالكترونية التي تنشر كل جديد في مجال التكنولوجيا والتي تفيد المسلمين في دينهم و دعوتهم الى الله. ثم الاستعانة بأسلوب الأمثلة و الشواهد بنسبة 07،23% المستعملة في المقالات و الاعمدة و الافتتاحية التي تتطلب ابداء الراي حول الأخبار، مما يستدعي استعادة الوقائع السابقة المشابهة التي تعتبر كشواهد على ما يحدث، وإعطاء امثلة لتوضيح أوجه التشابه بين الحدثين وما يربط بينهما. بعدها يأتي استعمال أسلوب مخاطبة المشاعر و الاحاسيس في حالة يكون فيها القائم بالاتصال في صدد الوعظ الذي هو أمر او نهي بترغيب أو ترهيب، وهذا الأسلوب استعمل في الإعلانات لترغيب الناس في مساعدة الفقراء أو بتحبيب الاعمال الخيرية عامة، والترهيب في بعض الأحيان بذكر الضرر الذي ينجم مثلا عن عدم صناعة المناخ الداعم للحوار الحضاري في ركن ملف العدد، والضرر الذي يحمله الإعلام الهابط للمجتمع من خلال افساد الشباب.

الجدول رقم 06: الجمهور المستهدف من مضامين مجلة البشرى الكويتية

الجمهور المستهدف	التكرار و النسبة	التكرار	النسبة%
غير المسلمين		17	**37.77%**
الجاليات الإسلامية		4	**08.88%**
النساء الداعيات		1	02.22%
العاملين مراكز البحوث و الدراسات		1	02.22%
الأطفال		1	02.22%
المسيئين للاسلام و المسلمين		1	02.22%
العاملين في وزارة العدل		1	02.22%
المسلمين		18	40%
العاملين في القطاع الخيري و التطوعي		1	02.22%
المجموع		45	100%

المصدر: من تصميم الباحثة

توضح بيانات الجدول رقم 06 ان الجمهور المستهدف من مضامين مجلة البشرى الكويتية هو فئة المسلمين بنسبة 40%، لأن مهمة التعريف بالإسلام، والدعوة إلى إعتناق الإسلام يقوم بها المسلمون وليس غيرهم، كما تخاطب هذه الفئة عند الدعوة الى القيام بالأعمال الخيرية عبر الإعلانات. ثم تأتي فئة غير المسلمين بنسبة 37،77%، تضم الجاليات غير المسلمة الوافدة إلى الكويت لدعوتهم إلى إعتناق الإسلام، وبعدها تأتي فئة الجاليات الإسلامية في الدول الأجنبية، وهي الفئة التي تساعد في التعريف بالإسلام هناك.

خاتمة:

بناء على ما سبق يمكن القول أن تجربة مجلة البشرى الكويتية في التعريف بالإسلام، محاولة أتت لمواجهة التضليل والتشويه والاساءات للإسلام والمسلمين، سعت من خلالها جمعية النجاة الخيرية إلى التعريف بالإسلام، وتعليم أركان وأصول هذا الدين للمهتدين الجدد، وتوعية المجتمع المسلم بأهمية الدعوة إلى الله. وهي تجربة محلية، تخاطب المسلمين المقيمين بالكويت، وغير المسلمين الوافدين إليها، تمثل آلية من آليات تصحيح صورة الإسلام والمسلمين، بتقديمها صورة مشرفة عن الإسلام، في زمن تكالب الغرب على المسلمين بشن حملات إعلامية مقصودة تهدف إلى تشويه صورة الإسلام والمسلمين لدى الرأي العام العالمي بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، خاصة و ان المجلة أسست عام 2002، للرد على تلك الحملات والمحاولات اليائسة للنيل من هذا الدين السماوي الخالد الذي تكفل الله سبحانه وتعالى بنشره وخلوده إلى يوم الدين، بقوله تعالى:{ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**}، **الآية 33 من سورة التوبة.**

لقد كشفت نتائج دراستنا أن :

- أكثر الأنواع الصحفية التي قدمت بها مضامين مجلة البشرى الكويتية عدة أنواع لكن النوع الصحفي الغالب هو الأخبار .
- كما سجلنا أن أغلب المواضيع التي تعالجها مجلة البشرى الكويتية قد تركزت في ركني التعريف بالإسلام و الإعلانات.
- أهداف مضامين مجلة البشرى الكويتية ثقافية .
- الوسائل الاتصالية المستعملة هي حفلات و مسابقات .
- استعمال أساليب اقناع متنوعة، لكن الأسلوب الغالب ارفاق المواد الاعلامية المنشورة بالصور.
- أن الجمهور المستهدف من مضامين مجلة البشرى الكويتية هو فئة المسلمين.

توصيات:

- عدم التركيز على الأهداف الثقافية فقط، بل يجب التركيز على الهدف الاسمى الذي يجب السعي من أجله، وهو التصدي للحملات التي تواجه المسلمين، والذود عن اخلاق المجتمع الإسلامي وتزكيته.
- أن يحرص القائمين على الاتصال على ان يتعرفوا على مدى تأثير رسائلهم الإعلامية على الجمهور حتى يتمكنوا من تلافي أوجه القصور أو التشويش الذي قد يحدث أثناء عملية الاتصال ويؤثر على درجة الاستجابة.
- نقل الاخبار عن ما يتعرض له الإسلام و المسلمين في الدول الغربية من حملات التشويه والاضطهاد.
- أن توجه الرسائل الاعلامية الى فئة المسيئين للإسلام و المسلمين.

قائمة المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم: الاية 33 من سورة التوبة

2- المعاجم

– أحمد زكي بدوي. (1991). *معجم مصطلحات الدراسات الانسانية و الفنون الجميلة التشكيلية*.: دار الكتاب المصري.

– معجم مفردات القرآن الكريم ص356 القاهرة

3- الكتب:

– إبراهيم امام. (1980). *الإعلام الاسلامي*. القاهرة: الدار الأنجلومصرية.

- أحمد بن مرسلي. (2005). *مناهج البحث العلمي في علوم الاعلام و االتصال*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

- حاتم حسين منتصر. (2011). *ايديولوجيا الاعلام الاسلامي*. عمان، الاردن: دار أسامة للنشر و التوزيع.

- سليمان صالح. (2005). *وسائل الاعلام، و صناعة الصورةالذهنية* . الكويت: مكتبة الفلاح للنشر و التوزيع.

- عبد الرحمان عس، وآخرون. (2015). *البحث العلمي، مفهومه، وأدواته، وأساليبه*. عمان: دار الفكر ناشرون وموزعون.

- عبد الله قاسم الوشلي. (1993-1994). *الاعلام الاسلامي في مواجهة الاعلام المعاصر*. اليمن -صنعاء: دار البشير للثقافة و العلوم الاسلامية.

- محمد البشاري. (2004). *صورة الاسلام في الاعلام الغربي*. عمان، الأردن : دار الفكر للنشر و التوزيع.

- محمد الموفق الغلاييني. (1985). *وسائل الاعلام و اثرها على الامة السعودية*. دار المنار للنشر و التوزيع.

- محمد بن عبد العزيز الجيزان. (2004). *البحوث الإعلامية: أسسها، اساليها،مجالاتها*. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر .

- مرفت الطرابيشي، عبد العزيز السيد. (2006). *نظريات الاتصال*. القاهرة: دار النهضة العربية.

- **المجلات**

- أماني عبد الرؤوف محمد أحمد عثمان. (2016). آليات تصحيح صورة المسلم على شبكة الانترنت: دراسة تحليلية نقدية. *مجلة البحوث و الدراسات الاعلامية العدد 02 الصادرة عن المعهد العالي للاعلام*.

- راضي، سمير بن جميل. (1995). الاعلام الاسلامي وهدفه. (رابطة العالم الاسلامي، المحرر) *سلسلة دعوة الحق*(172).

- طبيب شريفة، سعيد مراح. (بلا تاريخ). دور الاعلام الجزائري في تصحيح صورة الإسلام، قناة القرآن نموذجا. *مجلة المقدمة*.

- فريدة فلاك، داود جفافلة. (16 جانفي, 2020). الإعلام الإسلامي ودوره في معالجة ظاهرةالإسلاموفوبيا وتصحيح صورة الإسلام في الغرب. *مجلة دراسات انسانية واجامتعية العدد 01*.

- فوارس فياض، هيفاء. (2015). الوظيفة التربوية للاعلام الاسلامي وواقعها المعاصر: رؤية نقدية تحليلية. *مجلة الفكر الاسلامي المعاصر*(81)، صفحة 86.

كيفية بناء الصورة الحسنة للإسلام

How to Build a Good Image of Islam

د. عبد الرحمان نشادي، جامعة البليدة 2 لونيسي علي- الجزائر
nar1nar2@gmail.com



تسعى هذه المداخلة إلى بيان الطريقة السليمة لبناء الصورة الحسنة للإسلام، بعد أن تم تدنيس وتشويه صورة الإسلام والمسلمين بشتى الوسائل، مما أثر ذلك بالغا على حياة الإنسان المسلم في العالم وجعلها نكدة أينما اتجه.

الشيء الملاحظ هنا، أن هذه الحملات العدائية ممنهجة، وبالتالي يجب الوقوف لها بعرض المبادئ التي يجب أن يتحلى بها المسلم لتشتيت هذه الحملة.

الكلمات المفتاحية: مبادئ؛ الصورة الحسنة؛ الإسلام؛ الصورة؛ الحملات العدائية.

Abstract

This intervention seeks to explain the proper way to build a good image of Islam, after the image of Islam and Muslims has been desecrated and distorted by various means, which greatly affected the life of a Muslim in the world and made it miserable wherever he went.

We note here, that these hostile campaigns are systematic, and therefore we must stand up to them by presenting the principles that a Muslim must possess in order to disperse this campaign.

We note here, that these hostile campaigns are systematic, so a Muslim must have these principles to disperse this campaign.

Keywords: principles, the good image, Islam , Image, hostile campaigns.



مقدمة:

لا شك أن مثل هذه المفاهيم، العنف، تهديد السلام العالمي، الحرب وضرب أجهزة الدولة والإسلام والمسلمين، التطرف الديني، العصيان، الطائفية، المنظمات الإرهابية "والمعارضة" معاداة السامية، القيم الديمقراطية حقوق الإنسان والجهاد، إلخ. تلخص في مجملها الكلمة الرنانة التي تقشعر لها الأبدان وهي

كلمة "الإرهاب" التي أضحت تشكل تهديدا صارخا للأنظمة القائمة حسب ما تدعيه هذه الأخيرة. ولعل أكبر دليل على هذا هو تكتل الدول فيما يعرف بمحاربة الإرهاب عبر العديد من المنظومات التشريعية، كالاتفاقيات الدولية والإقليمية وعبر الآليات النظامية كحلف الناتو ومجلس الأمن الدولي والمحكمة الأوربية لحقوق الإنسان، إلخ.

لقد ارتبط صريحا مفهوم الإرهاب لدى الغرب بالدين الإسلامي والتطرف الناتج عنه، ويظهر ذلك جليا بعد أحداث سبتمبر 2001 بعد تقنين الحملة المضادة للدين الإسلامي وإعلانه دينا متطرفا ينتج العنف والإرهاب ولا يقبل بالآخر ولا يتعايش مع الديمقراطية. وبالتالي إعلان الحرب بلا هوادة على التنظيمات الإسلامية وحتى على الدول التي تأويها، كما هو الحال في أفغانستان مع حركة طالبان. وفي العراق بعد أن تحولت الحرب من القضاء على النظام السابق لصدام حسين إلى الحرب على التنظيمات والجماعات الإسلامية وتصنيفها لاحقا كمنظمات إرهابية مثل الجماعة الإسلامية في مصر وداعش والقاعدة وبوكو حرام والجماعة الإسلامية بالجزائر، إلخ.

ليس هناك أدنى شك في أن هذه الحملات العدائية لهذا الدين قد غذتها تلك الأفعال المسيئة التي لا تمت بأي صلة للإسلام مما أدى إلى تشويه سمعته على نطاق عالمي بصورة ممنهجة خصوصا باستخدام التكنولوجيا الحديثة للإعلام والاتصال، فنجد العديد من المواقع العنصرية والمؤسسات الإعلامية التي تعمل دون كل في تشويه هذا الدين كتلك الصور المنشورة والمسيئة عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقد ساعدها على ذلك نظام الحكم العالمي التي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية فيما تدعيه الحرب على الإرهاب.

إشكالية هذه المداخلة تدور حول كيفية بناء الصورة الحسنة للإسلام وفق السؤال الآتي: ماهي مبادئ بناء الصورة الحسنة للإسلام؟

أولا- تحديد بعض المفاهيم:

1 .مفهوم الصورة : ورد من أسماء الله تعالى، المصوّر، أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها. (ابن كثير، 2000، صفحة 1856) وذلك كما جاء تفسيرا للآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (القرءان الكريم، الحشر 24، 2015، صفحة 548) وقال أيضا: ﴿**هُوَ الذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ (القرءان الكريم، آل عمران 6، 2015، صفحة 50) وقوله أيضا: ﴿**فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾ (القرءان الكريم، الانفطار 8، 2015، صفحة 587) أصل اشتقاق الصورة من صاره على كذا أي أماله إليه، فالصورة مائلة إلى شبه أو هيئة، والتصوير جعل الشيء على صوره، والصورة هيئة يكون عليها الشيء بالتأليف. (أبي الطيب ، 1995، صفحة 174) الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى

حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته، يُقال صورة الفعل كذا وكذا، أي هيئته وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته. (ابن منظور، 1997، صفحة 473).

كما يمكن تعريف الصورة اعتمادا على ما جاء في المعاجم اللغوية العربية أنها هي الشكل أو النوع أو الصفة وكذلك تعني التماثل، ويقول الرازي في مختار الصّحاح أن الصورة جمعها صور، وصوره تصويرا، فتصورت الشيء أي توهمت صورته فتخيِّل لي. (فرغلي، 1991، صفحة 15).

"الصورة هي التمثيل البصري لشيء أو شخص أو حيوان أو أي شيء آخر يمكن التقاطه بالعين البشرية من خلال تقنيات مختلفة مثل الرسم والتصميم والتصوير الفوتوغرافي والفيديو وغيره." (-facts news.org، 2022)

2. مفهوم الصورة الذهنية : الصورة الذهنية، تعني حضور صورة في الذهن للأشياء التي سبق أن أدركها - الإنسان - بحاسة من الحواس. (عبد الله ثاني، 2005، صفحة 206)

كما تعرف الصورة الذهنية image أيضا بأنها: الصورة الفعلية التي تتكون في أذهان الناس عن المنشآت والمؤسسات المختلفة، وقد تتكون هذه الصورة من التجربة المباشرة أو غير المباشرة، وقد تكون عقلانية أو غير رشيدة، وقد تعتمد على الأدلة والوثائق أو الإشاعات والأقوال غير الموثقة، ولكنها في النهاية تمثل واقعًا صادقًا بالنسبة لمن يحملونها في رؤوسهم. (فندي، 2020)

وفي العموم كما ورد عن قاموس ويبستر الصورة هي تمثيل مرئي لشيء ما ويمكن أن تكون هي نفسها الصورة الذهنية (التصور العقلي) أو الانطباع عن شيء ما. (merriam-webster, 2022)

ونقصد بالصورة الذهنية تلك التصورات والتخيلات والأفكار التي تتشكل في ذهن الناس وما يجول بخاطرهم بخصوص ما ينشره الغرب عن الدين الإسلامي.

3. مفهوم الصورة النمطية: هي تصور يتصف بالتصلب والتبسط المفرط لجماعة ما يتم على ضوئه وصف الأشخاص الآخرين الذين ينتمون إلى هذه الجماعة، وتصنيفهم استنادا إلى مجموعة من الخصائص والسمات المميزة لتلك الجماعات (العيثاوي، صفحة 765) يتضح من هذا التعريف، أن الصورة النمطية هي انتاج تخطيط مسبق تتناسب وأهداف ومصالح الجماعة التي ترغب في تشكيلها وهو ما أسميناه بالوعي المعلب، للدلالة على أن صورة الإسلام تم حبكها وصناعتها بإحكام وترويجها للناس في شكل جاهز للاستهلاك كما هو الحال مع السلع المادية الأخرى.

ثانيا- تشكيل الوعي المعلب لدى الغرب بالمفاهيم المفروضة:

لقد عمد الغرب إلى استخدام وسائل الإعلام والاتصال في حملته المعادية للإسلام كأكبر وأهم القنوات التي تساهم في تشكيل الصورة المشوهة للإسلام، كمثل تلك الحملة العدائية والشرسة التي تمت بنشر

الرسوم المسيئة للنبي صلى الله عليه وسلم، وتلك الموائد المستديرة والحوارات التي أدارها السياسيون والرهبان والمتطرفون عن الدين الإسلامي التي أدت إلى العديد من المظاهرات المناهضة للدين والتي نتج عنها فقدان العديد من النفوس البريئة بسبب هذه الكراهية والعنصرية للدين. وكذلك نشر الصور الكاذبة والأخبار الملفقة ووجهات النظر المتطرفة وإنتاج الأفلام التي من شأنها تمس الدين الإسلامي وذلك بإتاحة مواقع التواصل الاجتماعي لنشر ذلك

1. تشكيل صورة الإرهاب : ورد في القرءان الكريم عن كلمة "رهب" قال تعالى: ﴿وإياي فارهبون﴾ خافونِ في ترك الوفاء به دون غيري. (المحلي و السيوطي، 2001، صفحة 10)

حسب الإنتربول، الإرهاب يشتمل على مجموعة من التهديدات المعقدة: الجريمة المنظمة في مناطق الصراع، والمقاتلون الإرهابيون الأجانب، و"الذئاب المنفردة" التي تشرّبت ثقافة التطرف، والاعتداءات باستخدام المواد الكيميائية والبيولوجية والإشعاعية والنووية والمتفجرات. (الإنتربول، بلا تاريخ)

"الإرهاب تهديد عالمي يستدعي إيجاد حلول مشتركة لمكافحته." (NATO، مايو 2020، صفحة 5)

"لمنع الإرهاب والوقاية منه يجوز للدول أن تتخذ تدابير تنتهك، على سبيل المثال، الحق في احترام الحياة الخاصة، أو في حرية التعبير أو تكوين الجمعيات أو الحق في انتخابات حرة." (المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان، 2016، صفحة 2)

"لوقف الهجمات الإرهابية، يجوز أن تكون الدول ملزَمة باستخدام القوة الفتاكة." (المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان، 2016، صفحة 4)

الإرهاب نفسه ليس ظاهرة جديدة، غير أنَّ بدايات القرن الحادي والعشرين أخذت تتسم بتركيز أشد على هذه المسألة وبازدياد الوعي بشأن الأفعال والجماعات الإرهابية. (مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة، بلا تاريخ) وقد كانت القاعدة الشعلة التي اضرمت النار في الإسلام بعد واقعة 11 ديسمبر 2001 وأتاحت الفرصة واسعا للغرب من الهجوم بشتى الوسائل عليه (الإسلام) سياسيا وعسكريا وإعلاميا وثقافيا ودينيا واقتصاديا، ومنها بدأت تتشكل الصورة النمطية عند الغرب، الذي جعل من هذا الدين عدوا للسامية وقيمها، وبها دخل العالم في مرحلة جديدة من التعايش اللاسلمي، القائم على محاربة الإرهاب وكل مذهب معاد للسامية مما أتاح الفرصة واسعا أيضا للتدخل الأجنبي في الدول، أحيانا بدعوى محاربة الإرهاب وحماية السامية وبذريعة حماية الأمن القومي الوطني وأحيانا أخرى بحماية الأقليات وحقوق الإنسان.

لقد دأبت الخطابات السياسية في الغرب على تشويه صورة الإسلام وقد تبعتها وسائل الإعلام والاتصال في تضليل الرأي العام وتشكيل الوعي المعلب، بخلق صورة نمطية أو ذهنية مشوهة للإسلام وهي ربط ظاهرة الإرهاب بالإسلام والمسلمين في العالم والترويج لها بشدة وباستخدام شتى الوسائل. "الإسلام

دين عنف ولا يقر بالحرية وهو دين باطل مشوه ومكتوب يشوبه التحريف وليس دينا سماويا، لا يعترف بقيم المرأة والمساواة، إلخ.

2. التطاول على النبي صلى الله عليه وسلم: كان التطاول على هذا النبي صلى الله عليه وسلم مجسدا أكثر في صورة الإرهابي وهو الذي صنعه وجاء به في شكل دين سماوي ليرهب به الناس، والتطاول أيضا حتى على شخصه الكريم واتهامه بالشهوانية، ولعل الفلم المشهور على وسائط التواصل الاجتماعي، يظهر وبعناية تامة استهداف الدين الإسلامي من طرف الغرب بالدعايات الآتية: اغتصاب أو زواج محمد بزوجة ابنه وأكثر منه أن النبي صلى الله عليه وسلم شهواني لديه العديد من النسوة.

3. الشرق عدو الغرب: لا يزال يعتقد المواطن في الغرب عامة أن دول الشرق عامة كالدول الأسيوية مثل الصين وكوريا الشمالية وإيران وأفغانستان والعراق وسوريا والدول العربية عامة أو ما يوصف على حسب تعبير جورج بوش "دول محور الشر" وهذه الفكرة متولدة من قبل بسب الحرب الباردة بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي.

4. الإسلاموفوبيا وتشويه صورة القرءان الكريم: الإسلاموفوبيا، هو نشر الخوف من الدين الإسلامي بدعوى أن هذا الدين أو القرءان الكريم يدعو إلى العنف، وقد قالها أكثر من واحد على الشاشات التلفزيونية متهمين هذا الدين بالتطرف وقد ذكرت المنظمة الإسلامية للدفاع والحقوق المدنية "كير" أن رجل الدين اليهودي الحبر (مارفن هير) رئيس مركز سيمون وسينتل للتسامح اتهم القرءان الكريم بأنه تحتوي على وجهات نظر متطرفة، أثناء مناقشة إمكانية التعايش السلمي بين اليهودية والمسيحية والإسلام في برنامج على قناة CNN إذ قال (مارفن هير): إن القرءان يدعو إلى العنف، وسأذكر لكم آية قرآنية ﴿**يآ أَيُّهَا الذِين ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ**﴾ (الحمداني، 2011، صفحة 181) على العموم الترويج للقرآن الكريم، بأنه ليس كلام الله تعالى وأنه كلام محمد صلى الله عليه وسلم. والدين الذي جاء به ليس دينا سماويا وأحكامه مقتبسة من الديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية.

5. صورة المرأة واحتقارها: يصورون المرأة بلباسها الشرعي على أنها في قفص وهي ليست حرة ولا تعادل الرجل والدين الإسلامي يحتقرها، ولذلك جاءت دعوتهم إلى نبذ هذا الدين والنفرة منه بتحرير المرأة في العمل والأكل والشرب واللباس والخروج وجعلها مساوية في الحقوق والواجبات مع الرجل، لأن الدين الإسلامي حسبهم لا يحفظ لها حقوقها ولا يساويها مع الرجل وأن هذا الدين يبيح تعدد الزوجات ويسمح ببيع وشراء المرأة ويجعلها جارية في الدين لا تصلح إلا للجنس والعشق والزنا.

6. الترويج للحروب الصليبية والأرمجدون: الأرمجدون أو الهيرمجدون، هي معركة جاء ذكرها في سفر الرؤيا باسم هيرمجدون وستقضي بشكل نهائي على غير المؤمنين!! وهيرمجدون سهل في فلسطين يقع بين الخليل والضفة الغربية ويضم حتى اليوم بلدة تدعى مجدون. وحين يأذن الله بنهاية الدنيا يكون اليهود قد تجمعوا في فلسطين فينزل بينهم المسيح ليهديهم للنصرانية. وعندها ستزحف جيوش (الكفار) لذبح اليهود

فيهب النصارى لنجدتهم فتقع معركة عظيمة بقيادة المسيح في سهل هيرمجدون.. ويقول القس هال ليندسي في كتابه (العالم الجديد): "تصوروا 200مليون جندي من أعداء المسيح يزحفون من كل مكان نحو فلسطين. ورغم كثرتهم يذهب إليهم المسيح حيث يتجمعون في سهل هيرمجدون فيقتل منهم الملايين فتسيل الدماء انهاراً ويمتلئ الوادي بملايين الجثث فيرسل الله ماء طاهراً فيمحو آثارهم فلا يبقى غير المؤمنين وحدهم"... (الأحمدي، دون سنة)

وتظهر تلك الدعايات في أفلام الكرتون الموجهة للصغار والمحشوة بالرموز الدينية كالنجمة السداسية والعين داخل المثلث والشخصيات بعين واحدة، إلخ. ونفسها الرموز نجدها في الأفلام والسينما وغيرها وكلها توحي إلى الاستعداد للحرب والهجوم على الدين الإسلامي، لذلك يرون الضرورة لتعظيمها وتقديسها.

7. خطر الإسلام : الترويج لفكرة أن الإسلام يشكل خطرا يهدد العالم وهو أخطر من النازية والفاشية والشيوعية، وأنه يزحف باتجاه أوربا ليستعمرها، والتركيز على معركة بلاط الشهداء وعرضها بطريقة تخدم الهدف الدعائي الصهيوني والغربي. (الحمامي، 2015، صفحة 195)

ثالثا- نتائج تشويه صورة الإسلام:

- نشر الصور المسيئة للنبي صلى الله عليه وسلم.
- ترويج الكتب والأفلام وشتى الدعائم المعادية للدين الإسلامي.
- القيام بتظاهرات معادية للدين الإسلامي.
- حرق المصحف الشريف.
- مشكل النقاب والخمار والحجاب في الغرب.
- الاعتداء على المسلمين في الغرب وعزلهم وتهميشهم.
- الاعتداء والهجوم على المساجد والمراكز الإسلامية.
- تنامي العنصرية الدينية والطائفية لدى الغرب.
- طرد المسلمين وانتهاك حقوقهم.
- إبادة المسلمين.

1- مبادئ بناء الصورة الحسنة للإسلام

1.المبدأ الأول: ما يجب أن يكون عليه الإنسان المسلم

1.1. العلم والتمسك بكتاب الله وسنة النبيّ صلى الله علية وسلم

أول ما نزل من القرءان كلمة ﴿**ٱقْرَأْ**﴾ (القرءان الكريم، العلق 1، 2015، صفحة 597) والقراءة تستوجب التعليم كما دلت الآيات على ذلك لاحقا ﴿**ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ**

(2) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (3) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (4) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ (5)﴾ (القرءان الكريم، العلق 1-5، 2015، صفحة 597) والنبي صلى الله عليه وسلم ترك لنا أعظم حديث يخص حالنا اليوم ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: ((**قد تركتُ فيكم بَعْدي ما إن أخذتُم، لم تضلُّوا: كتاب الله، وسُنَّة نبيِّكم صلَّى الله عليه وسلَّمَ**)) (السَّقَّاف، 1443هـ) وفي أحاديث أخرى متممة للمعنى تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن تأمّر عليكم عبد ؛ فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضّوا عليها بالنواجذ ، و إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**)) (النووي أ.، 2007، الصفحات 21-22)

فعبارة عضوا عليها بالنواجذ من دون شك في المعنى إلحاح شديد وتأكيد في مشروعية إتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده وهذا طبعا بعد كتاب الله عز وجل، ولا شك أنه إذا تركنا ذلك سوف يسلط الله تعالى علينا الذل والهوان ولن يرفع هذا عنا إلا بالرجوع إليه. أول الخطوات التي لابد منها هو التوجه نحو التعليم الصحيح وهو العلم الشرعي المتعلق بمعرفة الله تعالى والمعروف بالتوحيد ثم التوجه إلى العلم الدنيوي ليكون ملازما للعلم الشرعي. والملاحظ، لما ابتعدت الأمة عن الدين صار هذا هو حالها، **فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومِن قلَّةٍ نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السَّيل، ولينزعنَّ الله مِن صدور عدوِّكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوَهَن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوَهْن؟ قال: حبُّ الدُّنيا، وكراهية الموت))** (الألباني، صحيح سنن أبي داود، 1998، الصفحات 24-25) كما جاء ذلك في الحديث النبوي. يكفي أن نورد مثالا عن المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الذي ألفته أكاديميات غربية متخصصة في دراسة الدين الإسلامي.

ونذكر لكم مثالا آخر، الكتب الإسلامية أو المخطوطات التي ألفت في القرون الأولى موجودة في الدول الغربية وحتى تلك الكتابات والرسائل التي كان يكتبها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك موجودة لدى الغرب في باريس. السؤال الذي يطرح نفسه لماذا هذا الاهتمام بهذه الكتب؟ وما الغرض من تأسيس الأكاديميات الإسلامية ودراسة الشريعة وتأليف الكتب الإسلامية من طرف المستشرقين؟ هل هو حبا في الدين؟!

العودة والرجوع إلى الله لكسب العزة بالكتاب والسنة لقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ (8)** ﴾ (القرءان الكريم، المنافقون 8، 2015، صفحة 555) ولكم أن تنظروا وتحكموا بظاهر الآية، أن هذه العزة لم تمنح لغير المؤمنين، فالسر هنا هو أن المؤمنين يتميزون عن غيرهم من الناس في تعلق قلبهم بربهم.

2.1 العمل الصالح :قال صلى الله عليه وسلم: ((**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه))** (الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، 2001، صفحة 106) وفي هذا الشأن قال تعالى في سورة التوبة الآية 105: ﴿**وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ وجاء في تفسيرها أنه، يحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير أوشر، فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة. (السعدي، 2002، صفحة 351)

وقال تعالى أيضا في سورة فاطر الآية 10: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ (10)**﴾ يريد سبحانه أن ينبه ذوي الأقدار والهمم من أين تنال العزة ومن أين تستحق... (القرطبي، 2006، صفحة 354)

3.1 تقوى الله وحسن الخلق: الآيات الدالة على التقوى كثيرة ولعل هذه الآية تلخص صراحة المبتغى قال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ (القرءان الكريم، الطلاق 2-3، 2015) وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا فجاء عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "لو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم" (**تفسير{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا}**، 2008) وعن أبي هُريرة رضي الله عنه قَالَ: سُئِلَ رسولُ اللَّه ﷺ عَنْ أَكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، قَالَ: (تَقْوى اللَّهِ وَحُسْنُ الخُلُق، وَسُئِلَ عَنْ أَكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ فَقَالَ: الفَمُ وَالفَرْجُ). رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. (النووي م.، 1431هـ، صفحة 273)

أما فيما يخص الخلق العظيم، فقد مدح الله تعالى نبيه في سورة القلم الآية 4 ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وجاء في تفسير السعدي للآية الكريمة معناه: عاليًا به، مستعليًا بخلقك الذي منّ الله عليك به، وحاصل خلقه العظيم، ما فسرته به أم المؤمنين، [عائشة - رضي الله عنها-] لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن» (السعدي، 2002، صفحة 879)

الشاهد من هذا، هو التحلي بصفات وخصال النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم باللين والمشورة والإحسان والتلبية والمساعدة على قضاء حاجات الناس، إلخ.

قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

والصدق أرفع ما اهتز الرجال له   وخير ما عَوّد ابنا في الحياة أبُ

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه   فقوّم النفس بالأخلاق تستقم

وقال أيضا:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا (إسلام ويب، 2020)

4.1. التلطف والوسطية والاعتدال: التَّلَطُّفُ بِالعَدُوِّ: الاِحْتِيالُ عَلَيْهِ لِلاطِّلاعِ على أَسْرارِهِ. وتلطّف الشّخْص في الأمر: ترفَّق فيه وعالجه بأدب "تلطَّف في معالجة المشكلة- ﴿**فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا**﴾". (المعاني، 2022)

قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ**﴾ (القرءان الكريم، الآية 143، 2015) فالوسطية اختيار من الله لهذه الأمة ومنهج الله فهم تكريم منه سبحانه لتحقيق الأمن والسلام بين الأفراد وزرع الثقة والطمأنينة والإحساس بالآخرين وتحقيق التعاون والتكافل بين الأغنياء والفقراء. (مستعد، 2017)

5.1. الدعوة الى الدين بالعمل التطوعي:

قال تعالى: ﴿**ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (125)**﴾ (القرءان الكريم، النحل 125، 2015، صفحة 281) تصحيح مفهوم الدعوة إلى الله في مثل هذا الوضع، فلا يمكن البتة مجادلة الغرب في هذا الشأن، لأن هذا الأخير مشحون بالعدائية والسلبية من الإسلام، فيجب حينئذ القيام بالأعمال الحسنة والتطوع وعمل الخير إلى أقصى حد بغرض إعطاء صورة حسنة تمكن من ترسيخ فكرة التعايش مع هذا الدين وعدم المبالغة في هداية الناس فالله تعالى وحده هو الذي يهدي إليه من عباده من يشاء. وهذا لا يعني البتة أيضا استهجان الحكمة، فالمطلوب مخاطبة الناس بالأسلوب الحسن والمناسب لهم، وابداء النصح الحسن، والترغيب في الخير، واستخدام الرفق واللين.

2. المبدأ الثاني: ما على وسائل الإعلام والاتصال القيام به

لقد أوضح جليا الدكتور هاشم أحمد نغيمش الحمامي رئيس قسم الدعوة والدراسات الإسلامية ما على الإعلام الإسلامي الدولي القيام به، نوردها بإيجاز فيما يلي:

- غرس فكرة أن دين الإسلام رسالة سماوية صالحة لكل زمان ومكان.
- الإسلام دين توحيد خالص.
- الإسلام دين الوسطية.
- كشف محاولات التضليل الإعلامي الغربي.
- بيان مكانة المرأة في الإسلام وتوضيح مسألة التعدد.
- تحريم الإسلام للرق والعبودية.
- الإسلام دين لكل الناس لا يفرق بين معتنقيه من البشر.

- حرية الأديان مكفولة في الدين الإسلامي.
- إثبات أن القرءان الكريم كتاب الله منزه من التحريف.
- التعريف بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم.
- الدين الإسلامي دين مكمل للديانات السماوية الأخرى وهو دين حيوي يواكب التطور.
- الدين الإسلامي دين نطور ورقي.
- تمجيد لغة القرءان الكريم
- توضيح الصورة المشرقة لبطولات المسلمين والتأكيد على أن المسلم شجاع يقاتل من أجل عقيدته ولا تدفعه أطماع ومكاسب دنيوية، فالمؤمن الحقيقي زاهد في الدنيا راغب في الآخرة وهو يتصدق بكل أمواله في حالة الجهاد في سبيل الله، والسيرة الإسلامية مليئة بتلك الشواهد.
- بيان حقيقة الفتوحات الإسلامية التي جاءت لتخلص الإنسان من ظلم الملوك.
- الإسلام رسالة للسلام ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**﴾ (القرءان الكريم، المائدة 32، 2015، صفحة 112) وأن صفة الإرهاب ألصقتها الجهات المعادية للإسلام ظلما وبهتانا، وهي ظاهرة لا تمت للإسلام بصلة.
- بيان أ، المحرمات في الدين الإسلامي من عند الله وهو أعلم بما يضر وينفع. (الحمامي، 2015، الصفحات 195-198)
- من جهتنا نضيف في هذا المجال على المرأة المسلمة نفسها، أن تقوم بواجبها بدرء تلك المغالطات الموجهة إليها وتصحيحها كما هي في الواقع المعاش، بإبراز المكانة التي تحظى بها في الإسلام.
- التمكين لهذا الدين باستغلال وسائل التواصل الاجتماعي والرد على الشبهات بالحكمة والموعظة الحسنة.

خاتمة:

العودة إلى المقومات الاصلية للدين هي السبيل الوحيد للخروج من أزمة الدين، فبالبعد عن الدين ابتعدنا عن الدنيا ولهذا الغرض لم يستطع الإنسان المسلم أن يحظى بما يمكنه له دينه، حيث أصبح الفرد المسلم يتبع الحضارات الغربية حتى أقصى حدودها حتى تولد لديه الشعور بالغرابة من دينه وكأنه مقيد أما الإباحية الغربية الجارفة التي لا تعترف بالكوابح المنظمة للحياة المادية والمعنوية.

جاء عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- مرفوعاً: ((**لتتبعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟**)) فهذا الحديث يخبرنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأن هذه الأمة ستقلد الأمم السابقة في عاداتها

وسياساتها ودياناتها، وأنها ستحاول مشابهتهم في كل شيء، كما تشبه ريشة السهم للريشة الأخرى، ثم أكد هذه المشابهة والمتابعة بأن الأمم السابقة لو دخلت جحر ضب مع ضيقه وظلمته لحاولت هذه الأمة دخوله، ولما استفسر الصحابة -رضي الله عنهم- عن المراد بمن كان قبلهم، وهل هم اليهود والنصارى؟ أجاب بنعم. (موسوعة الأحاديث النبوية، بلا تاريخ)

إعادة الاعتبار للغة، كيف كانت اللغة سابقا وكيف أصبحت؟! فاللغة مستهدفة وهي تضعف بضعف أهلها. والتميز بالأخلاق والمعاملة الحسنة والدعوة الى الله بالفعل والقول وليس بالمجالس، كما ينبغي إعادة النظر في الخطاب الإعلامي.

قائمة المصادر والمراجع:

1-القرآن الكريم

2-المراجع باللغة العربية

- إسلام ويب. (30 08, 2020). *من أقوال الشعراء في الأخلاق*. تاريخ الاسترداد 12 03, 2022، من إسلام ويب: https://bit.ly/3Ll8uNa

- facts-news.org. (2022). *تعريف الصور*. تاريخ الاسترداد 06 03, 2022، من FACTS-NEWS.ORG: https://bit.ly/3qEzQWG

- NATO. (مايو 2020). *المنهج المرجعي لمكافحة الإرهاب*. هيئة اركان الناتو الدولية. تاريخ الاسترداد 04 03, 2022

- أبو الحمد محمود فرغلي. (1991). *التصوير الإسلامي، نشأته وموقف الإسلام منه وأصوله ومدارسه* (الإصدار 1). القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

- أبي الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير. (2000). *تفسير القرءان العظيم* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار ابن حزم.

- أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور. (1997). *لسان العرب* (الإصدار 1، المجلد 4). بيروت، لبنان: دار صادر.

- أبي زكرياء يحي بن شرف النووي. (2007). *الأربعين نووية* (الإصدار 4). القاهرة، مصر: دار السلام.

- أبي عيد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي. (2006). *الجامع لأحكام القرءان والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان* (الإصدار 1، المجلد 17). الرسالة.

- الإنتربول. (بلا تاريخ). *الإرهاب*. تاريخ الاسترداد 09 03, 2022، من الإنتربول: https://bit.ly/3uBwGo1

- المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان. (2016). *الإرهاب*. المجلس الأوربي. تاريخ الاسترداد 04 03, 2022

- المعاني. (2022). *تعريف و معنى تلطف في معجم المعاني الجامع - معجم عربي عربي*. تاريخ الاسترداد 12 03, 2022، من المعاني: https://bit.ly/3Ilr3cz

- *تفسير {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا}*. (23 02, 2008). تاريخ الاسترداد 12 03, 2022، من طريق الإسلام: https://bit.ly/3tL7L25

- جلال الدين محمد المحلي، و جلال الدين عبد الرحمان السيوطي. (2001). *تفسير الجلالين* (الإصدار 3). القاهرة، مصر: دار الحديث.

- خديجة مستعد. (24 09, 2017). *الوسطية والاعتدال.. الطريق لفهم معاني الإسلام*. تاريخ الاسترداد 12 03, 2022، من الجزيرة: https://bit.ly/3tSlTGV

- ريا قحطان الحمداني. (2011). *الإسلاموفوبيا، جماعات الضغط الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية* (الإصدار 1). القاهرة، مصر: العربي للنشر والتوزيع.

- صديق البخاري أبي الطيب . (1995). *فتح البيان في مقاصد القرآن* (المجلد 2). صيدا، بيروت، لبنان: المكتبة العصرية.

- طارق علي حمود العيثاوي. (بلا تاريخ). صناعة الصورة الذهنية في وسائل الإعلام، صورة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في وسائل الإعلام الأمريكي. (كلية الآداب، الجامعة العراقية ، المحرر) *مجلة مداد الآداب*(10)، صفحة 878. تاريخ الاسترداد 10 03, 2022، من https://bit.ly/3Liveh0

- عبد الرحمن بن ناصر السعدي. (2002). *تيسيرالكريم الرحمن في تفسير كلام المنان* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.

- عز الدين فندي. (05 05, 2020). *الصورة الذهنية في العلاقات العامة*. تاريخ الاسترداد 09 03, 2022، من المنظمة الألمانية الدولية للسلام و التنمية: https://bit.ly/3uEnYW6

- علوي بن عبدالقادر السَّقَّاف. (1443هـ). *حَديثُ الثَّقلَينِ (كتاب الله وعترتي) (كتاب الله وسنتي)*. تاريخ الاسترداد 15 03, 2022، من الدرر السنية: https://bit.ly/3JL0CEt

- فهد عامر الأحمدي. (دون سنة). *هرمجدون.. آخر معارك الدنيا*. تاريخ الاسترداد 17 03, 2022، من الرياض: https://bit.ly/3JOmHSo

- قدور عبد الله ثاني. (2005). *سيميائية الصورة، مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم*. وهران: دار الغرب للنشر والتوزيع.

- محمد ناصر الدين الألباني. (1998). *صحيح سنن أبي داود* (الإصدار 1، المجلد 3). الرياض، السعودية.

- محمد ناصر الدين الألباني. (2001). *سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها* (المجلد 3). الرياض: مكتبة المهارف للنشر والتوزيع.

- محي الدين يحي بن شرف النووي. (1431هـ). *رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين* (الإصدار 1). الرياض، السعودية: دار ابن الجوزي.

- مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة. (بلا تاريخ). *الإرهاب والتطرف العنيف*. تاريخ الاسترداد 05 03, 2022، من UNODC مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة: https://bit.ly/3NqTrn6

- موسوعة الأحاديث النبوية. (بلا تاريخ). *حديث: لتتبعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟* تاريخ الاسترداد 16 03, 2022، من موسوعة الأحاديث النبوية: https://bit.ly/3DdZkzc

- هاشم أحمد نغيمش الحمامي. (15 06, 2015). تشويه صورة الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام العالمية وسبل مواجهتها. (جامعة زيان عاشور الجلفة، المحرر) *التراث، 5*(2)، صفحة 243. تاريخ الاسترداد 01 03, 2022، من https://bit.ly/3qEB3xc

3-المراجع باللغة الأجنبية

- merriam-webster. (2022). *Image*. Consulté le 03 09, 2022, sur Merriam-Webster: https://bit.ly/3utUBWl

تأثير الإرهاب على صورة الإسلام في السياسة العالمية بعد أحداث 09/11

The Impact of Terrorism on the Image of Islam in World Politics after the 11/09 Attacks

د. إيمان تمر ابط، جامعة باتنة 01 -الجز ائر

imenetamerabet@gmail.com



بعد نهاية الحرب الباردة ارتبط الإسلام بالسياسة العالمية في النظريات الغربية (نهاية التاريخ لفرانسيس فوكوياما وأطروحة صدام الحضارات لصمويل هنتغتون)، وبعد أحداث 09/11 توحدت الجهود الدولية تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة لمكافحة الإرهاب الدولي الذي أصبح يشكل تهديدا على منظومة السلم والأمن الدوليين وأعلنت الولايات المتحدة الأمريكية حربها على الإرهاب بداية بأفغانستان سنة 2001 وفي العراق سنة 2003 وهي السياسة التي انتقدتها الإدارات الأمريكية المتعاقبة (من حيث التكلفة والنتائج) وتراجعت عنها تدريجا إلى أن تم انسحاب قواتها من أفغانستان في نهاية سنة 2021.

تهدف المداخلة إلى دراسة تأثير الجماعات الإرهابية عل صورة الإسلام في هندسة السياسة العالمية بعد أحداث 09/11، هذه التنظيمات التي تتخذ من الإسلاموية مرجعية فكرية لنشاطها والتطرف العنيف أسلوبا ووسيلة لها الأمر الذي طرح إشكالية التداخل بين الإرهاب والإسلام (الإرهاب الإسلامي)، وجعلت من الدول الإسلامية ملاذا لنشاطها ومجالا لتدخل فواعل دولية لبعث الاستقرار والأمن فيها: أفغانستان، العراق، ليبيا، سوريا لدوافع جيوسياسية بمبررات دولية وذلك في إطار الاستراتيجية الدولية للحرب على الإرهاب.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، السياسة العالمية، الجماعات الإرهابية الإسلاموية، الأمن والسلم الدوليين، الحرب على الإرهاب.

Abstract :

After the end of the Cold War, Islam appeared as a unit of analysis in world politics and a source of threat in Western theories (end of history of FUKUYAMA, clash of civilizations of HUNTINGTON), the vision that will be confirmed after the attacks of 9/11, when the international community united under the supervision of the UN to fight against international terrorism, of which the United States of America declared its “war against terrorism”; the strategy that was criticized by the various presidents of the United States until the final withdrawal of American military forces from Afghanistan in August 2021.

Our intervention aims to study the impact of Terrorism on the image of Islam in the planning of world politics, through the emergence of the concept of "Islamic terrorism" in the Western discourse of the war against international terrorism as a legitimate and legal framework for intervention in Islamic countries which pose geopolitical issues: Afghanistan, Iraq, Libya, etc.

Keywords: Islam, World Politics, Islamist Terrorist Groups, International Peace .and Security, war against terrorism



مقدمة:

تعتبر معاهدة وستفاليا لسنة 1648 المرجعية القانونية والدولية لنشأة الدولة القومية بالمفهوم الحديث باعتبارها تنظيم سياسي يتمتع بالسيادة المطلقة داخليا وخارجيا، وتؤسس لبداية الاستقرار في أوروبا بإقرار الصلح بين مذهبي البروتستانت والكاثوليك بعد سلسلة من الحروب الدموية التي دامت 30 عاما (1618 – 1648)، وتضع حدا لكل الأطر النظرية التي عالجت أصل نشأة الدولة على أسس دينية، فلسفية، تعاقدية، اجتماعية... وتكون نقطة محورية في تاريخ تنظيم العلاقات الدولية ومصادر القانون الدولي.

يرجع ارتباط الدين بالسياسة إلى عصور قديمة حيث كان الحاكم هو الإله أو المفوض من الإله لتسيير شؤون العبيد لتكون الدولة من هذا المنظور نظام مقدس وإرادة الحاكم تسمو عن إرادة المحكومين وواجبة التطبيق، ولعبت الكنيسة وسلطة "البابا" في أوروبا خلال العصور الوسطى دورا كبيرا في إضفاء الشرعية على حكم الملوك والأباطرة، التحكم في توجيه رأي الرعية لدرجة أن تحولت عقائد الكنيسة إلى مبادئ سياسية وتم التداخل بين السلطة الروحية (البابا) والسلطة الزمنية (الإمبراطور) بل وأن إرادة البابا فوق إرادة الإمبراطور لأن الإمبراطور من صنع البشر بينما الكنيسة فهي من صنع الله، إلى أن بدأت موجة الإصلاح الديني وحركة التنوير كثورة سياسية ضد الكنيسة والاستبداد فظهرت حركة العلمانية الذي يشير إلى ضرورة فصل الدين عن الدولة وتنظيم العلاقات الاجتماعية عن طريق فرض الحقوق وإقرار الواجبات في وثيقة تعاقدية "الدستور".

الإسلام هو رسالة سماوية بلغها الرسل والأنبياء كان محمد صل الله عليه وسلم آخرهم مفادها التسليم أن (**لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله)**، يستمد تعاليمه استنادا إلى كتاب الله القرآن الكريم والسنة النبوية:

"... لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..."(*سورة البقرة*، الآية: 256، ص.42).

"... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ..."(*سورة الكافرون*، الآية: 6، ص.603).

تقتبس العديد من دول العالم بعض أحكام قوانينها العضوية (الأسرة، التجاري...) من الدين الإسلامي على غرار الجزائر والتي جعلته مبدأ دستوريا "**الإسلام دين الدولة**"، ولتعزيز التعاون الدولي بينها تم تأسيس منظمة التعاون الإسلامي سنة 1969 لتكون ثاني أكبر منظمة من حيث عدد الدول الأعضاء فيها بعد هيئة الأمم المتحدة، حيث تضم في عضويتها 57 دولة تهدف أساسا إلى تعزيز سبل التضامن والتعاون بين الدول الأعضاء، توحيد الصوت الجماعي للعالم الإسلامي في السياسة الدولية وحماية مصالحه.

إلا أنه تعتبر الهجمات الإرهابية 09/11 التي نُسبت لتنظيم القاعدة في الولايات المتحدة الأمريكية حدث عالمي ارتبط على إثره الدين بالإرهاب الذي تم تصنيفه تهديد للسلم والأمن الدوليين؛ حيث تم الإعلان عن استراتيجية الحرب على الإرهاب برعاية أممية وشرعية دولية وإثارة حالة تأهب للعالم لهذا التهديد الجديد واللاتماثلي الذي أحدث خللا بالأمن الوطني لأكبر دولة في العالم في نظام دولي أحادي القطبية.

والظاهرة الجديدة التي عرفتها المنظومة الدولية تكمن في بروز الجماعات الإرهابية **الجهادية** التي تتخذ من الدين غطاء لممارسات **متطرفة وعنيفة** على أساس أن الهدف منها هو الدعوة إلى إقامة دولة الخلافة الإسلامية وهي السبيل لتطور ورقي الشعوب العربية خاصة بعد ما عرفته المنطقة العربية من ثورات شعبية في إطار ما يعرف بالربيع العربي منذ سنة 2011 (تونس، مصر، سوريا، الجزائر...) والتي طالبت الإطاحة بالأنظمة القائمة وبناء دول جديدة تحتكم إلى الديمقراطية ودولة الحق والقانون ومن أبرز هذه التنظيمات: تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام حيث تمتد تشعباته إلى جنوب آسيا إلى دول الساحل الإفريقي والمغرب العربي.

الإشكالية الأساسية التي تطرحها المداخلة تتمثل في الترابط بين السياسة العالمية والدين الإسلامي من خلال دراسة سلوك التنظيمات الإرهابية في تكوين صورة الإسلام والمسلمين لدى المجتمعات الغربية؛ فإذا كانت إيران، تركيا، ماليزيا نماذج لدول إسلامية غير عربية نجحت في تكوين صورة الدولة الإسلامية النموذجية إن صح التعبير والتي تعبر عنها مؤشرات: التعليم، الثقافة، السينما، الأمن، التنمية... قطر ودبي دول عربية استبعدت عامل الدين في تسيير شؤونها الداخلية أصبحت مدنا لاستقطاب عروض الاستثمارات العالمية، فإن صورة الترهيب من الإسلام والمسلمين خلقتها الجماعات الإرهابية التي نشأت في العديد من الدول التي عرفت أزمات داخلية وأصبحت بؤرة لنشاطها: الجزائر، أفغانستان، العراق، ليبيا، سوريا...والتي عرقلت مسار التنمية الاقتصادية فيها: السياحة، الاستثمار الأجنبي، التجارة، التعليم...وأثرت على علاقاتها الدبلوماسية.

التساؤلات المطروحة: لماذا ارتبط الإسلام بالإرهاب؟ ما هو دور التنظيمات الإرهابية في تشكيل صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب وكيف أثرت على رسم السياسة العالمية تجاه الدول الإسلامية؟

أولا-الإسلام والإرهاب: ثنائية الدين والإيديولوجية:

إذا كان الإسلام ديانة والإرهاب هو حركة أو تنظيم له أهداف سياسية يصنفه المجتمع الدولي من أكبر المخاطر التي تهدد السلام العالمي، فلماذا ارتبط الإسلام بالإرهاب وما هي أهم المفاهيم والمقاربات التي تفسر ذلك؟

1-الإسلام والإسلاموية : في البداية لابد من تحديد المقصود بالدين والإيديولوجية وكيف يتحول الدين إلى إيديولوجية حتى يمكن التمييز بين الإسلام كديانة والإسلاموية كحركة سياسية تتبنى الإسلام كمرجع للحكم والسلطة.

تتعدد التعريفات المقدمة **للدين** فمن وجهة نظر لغوية هو الخضوع والطاعة ومن رؤية فلسفية ونظرية فهو مجموعة الشعائر والمعتقدات الروحانية والتي استمد منها الإنسان طاقته عبر مختلف الأزمنة، قدم عالم الاجتماع الفرنسي **ايميل دوركهايم** في كتابه **"الأشكال الأولية للحياة الدينية"** سنة1912 تعريفا للظاهرة الدينية بتجريدها من التفسيرات الميتافيزيقية التي تربط الدين بالقوى فوق الطبيعة: الآلهة والأرواح والتي كانت سائدة في ذلك الوقت، فالدين هو نظاما تضامنيا للمعتقدات المرتبطة بأشياء مقدسة؛ ممارسات ومعتقدات تجمع الجماعة وتعبر عن الذين ينتمون إليها (**الحريري، تاريخ النشر 2016/02/25**).

وفي محاولة لفصل الدين عن العقل يعرف الدين بأنه محاولة تصور ما لا يمكن تصوره فهو ذلك الجانب المثالي في الحياة الإنسانية، أو أنه يعبر عن توجيه الإنسان سلوكه وفقا لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية يعترف لها بالسلطان عليه ويطيب له أن يشعر باتصاله بها، ومن وجهة نظر إسلامية الدين هو وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات وإلى الخير في السلوك والمعاملات (**دراز، 2016، ص 35.**).

وعليه الدين هو مجموعة القيم المثالية والمعتقدات الروحية التي تمسكت بها الجماعات البشرية عبر التاريخ بغض النظر عن مصدرها، وإذا قمنا بإسقاط تعريف **دوركهايم** على الدين الإسلامي فإن الإسلام هو مجموعة مترابطة من السلوكيات والمعتقدات المنتظمة والمترابطة تتعلق بمصدر مقدس (الله) تنشأ على إثره رابطة معنوية بين معتنقيه توحدهم وتميزهم عن المجموعات الأخرى (الأمة الإسلامية).

الإيديولوجية أو علم الأفكار، هي العلم الذي أطلقه الفرنسي **ديستوت دي تراسي** خلال حقبة الثورة الفرنسية وأضفى عليه ثلاثة خصائص: النزعة المادية، العلمانية والشمولية؛ حيث يمكن دراسة الأفكار بشكل مادي مثل باقي العلوم الأخرى على غرار علم الطبيعة والحيوان... وفق منطق علمي منفصل عن كل التأويلات ما وراء الطبيعة وبأن الإيديولوجية تشمل كل العلوم باعتبارها تتشكل من مجموعة من الأفكار بالأساس، إلا أن ذلك لم يتحقق بسبب بروز العديد من الإيديولوجيات التي انحصرت في أفكار معينة ورؤية محددة تحاول فرضها كما هو الحال بالنسبة للنازية التي تأسست من أفكار **أودولف هتلر** في كتابه كفاحي والتي حاول تطبيقها خلال الحرب العالمية الثانية، الشيوعية تشكلت من أفكار **كارل ماركس وفلاديمير لنين** والتي كانت منافسة للإيديولوجية الليبرالية خلال فترة الحرب الباردة (**هيود، 2012، ص.11**) ومن هنا يظهر الارتباط الوثيق بين الإيديولوجية والسياسة، وكيف تتحول الأفكار والرؤى الفلسفية أو النظرية إلى أهداف سياسية يتأثر بها القادة السياسيين وتؤثر في تشكيل طبيعة النظم السياسية، وعلى ضوء ذلك يظهر متغير السياسية في تحليل العلاقة بين الإسلام والإيديولوجية من خلال مفهوم الإسلاموية.

الإسلام هو إحدى الديانات السماوية الثلاثة (اليهودية، المسيحية، الإسلام) القائمة على عقيدة التوحيد حيث تعني الاستسلام لله والخضوع له بفعل أوامره المذكورة في كتاب الله (القرآن) وسنة رسوله محمد صل الله عليه وسلم (السيرة النبوية)، يعتنقها 24% من إجمالي سكان العالم لتكون الديانة الأكثر انتشارا بعد المسيحية، وفي دراسة لمركز بيو للأبحاث والدراسات التي قدرت ارتفاع عدد المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية بعد أحداث 09/11 من 2.35 مليون نسمة سنة 2007 بما يعادل 0.8% من مجموع السكان، إلى 3.85 % في سنة 2020 أي ما يقارب 1.1% من إجمالي عدد السكان(**بشير، تاريخ النشر 2021/09/21**) لتكون أكبر دولة من حيث عدد المسلمين في أمريكا الشمالية تليها كندا ثم المكسيك.

الإسلاموية هي أيديولوجية ظهرت في بداية القرن 18، في إطار موجة الإصلاح الديني التي عرفها العالم الإسلامي والتي تدعو إلى حداثة المجتمع الإسلامي من خلال الاستفادة من إيجابيات المجتمع الغربي المتمثلة في التكنولوجيا والتعليم والاحتفاظ بالتعاليم والثقافة الإسلامية من أبرز منظريها: **جمال الدين الأفغاني، محمد عبدو وراشد رضا.**(Elkarawi, 2018, p.14)

تطورت الإيديولوجية الإسلاموية لتنقسم إلى ثلاثة تيارات أو مراكز إيديولوجية بينها اختلافات مذهبية، سياسية واجتماعية إلا أنها تشترك في تبني المرجعية الدينية الإسلامية في تشكيل نظام الحكم: الإخوان المسلمين في مصر، الوهابية في المملكة العربية السعودية والتركي-الإسلاموي في تركيا ليظهر اتجاه رابع بعد نجاح الثورة الإيرانية 1979 للشيخ الخميني وقيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية:

ظهر تيار **الإخوان المسلمين** في مصر سنة 1928، لمؤسسه **حسن البنا** كحركة مناهضة للاستعمار البريطاني في مصر تهدف إلى بناء دولة إسلامية وتكوين إسلام مجتمعي في مواجهة الثقافة الغربية، بدأ مساره في جانب تقديم المساعدات الإنسانية ومن ثم تم اتهامه باغتيال شخصيات سياسية بارزة في النظام المصري وتم رفض تصنيفه كحزب سياسي في عهد الرئيس السابق حسني مبارك وإنما الاكتفاء بكونه منظمة دينية لتقديم الدعم الاجتماعي، إلا أنه في سنة 2011، تمكنت حركة الإخوان المسلمين من الوصول إلى السلطة في مصر عن طريق ممثلها **محمد مرسي بعد** فوزه بالاستحقاق الانتخابي سنة 2012، بعد الثورة الشعبية التي أطاحت بنظام حسني مبارك ليكون أول رئيس منتخب في مصر ولمدة سنة وبسبب اتهامه بالدكتاتورية جسدت مصر الانقلاب العسكري على الديمقراطية على يد وزير الدفاع **عبد الفتاح السيسي** سنة 2013 ليتسلم مقاليد الحكم سنة2014. بعد إعادة تنظيم انتخابات رئاسية وتم تصنيف حركة الإخوان المسلمين كمنظمة إرهابية وعُرض مؤسسها على المحاكمة القضائية. **Tartuce, publié)** **le : 18/05/2021)**

الوهابية هي حركة دينية نشأت نهاية القرن الثامن عشر، في منطقة نجد شمالي شرق شبه الجزيرة العربية وهي دعوة دينية سلفية تسعى إلى استعادة نموذج الدولة الإسلامية الأولى عبر التمسك بمبادئ الإسلام الأصيل والابتعاد عن التأويل، سميت بالوهابية نسبة إلى قائدها **محمد بن عبد الوهاب** الذي تأثر بالفكر الحنبلي **لابن تيمية و ابن قيم الجوزية**، مركزا على ثلاثة مبادئ: عقيدة التوحيد، الجهاد

المشروع في سبيل نشر الفكرة بشرط عدم مخالفة القرآن والسنة والخروج عن السلف، تدعوا إلى إقامة إمارة إسلامية يترأسها الإمام.

في سنة1747تحقق التحالف بين محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود وتم تقاسم السلطة السياسية والدينية بينهما حيث تم تكفير من لم يعتنق مبادئهم وهاجموا المناطق المقدسة للمذهب الشيعي في العراق وفي اتجاههم إلى بلاد الشام ومصر تلقوا مواجهة شديدة من طرف **محمد علي باشا** والي مصر والشام ليتم القبض على مؤسسها **محمد بن سعود** عام 1819، و في بداية القرن 19 عاد التيار الوهابي بقوة حيث تمكن الأمير عبد العزيز آل سعود من بسط سلطانه على منطقة الحجاز سنة 1926 وتم إلغاء كل التعاليم غير الإسلامية لتبدأ الدولة السعودية في التشكل ولنشر فكرها الأصولي المحافظ للسلف أسست الوهابية الجامعة الإسلامية العالمية ورابطة العالم الإسلامي، قامت بتمويل إنشاء مدارس ومعاهد دينية وجمعيات في أوروبا والولايات المتحدة.(**دياب، 2014 ص ص. 30-33**).

النظام التركي-الإسلاموي المنبثق عن الفكر الصوفي لمؤسسه **أتاتورك** بجعل الدين يخضع لرقابة السياسة وليس العكس، وهو المبدأ الذي يستمر على نهجه الرئيس الحالي **رجب طيب أردوغان** منذ توليه للحكم سنة2002 جعله يكتسب تأييد شعبي ساعده على إحباط محاولة انقلاب عسكري ضده سنة 2013، حيث تكمن قوة الإيديولوجية التركية- الإسلامويه في الجمع بين الجانبين: القومية والإسلاموية فالقومية تقدم للإسلاموية دعم قوي وتاريخي لتنمية البلاد من خلال النظام التعليمي والإسلاموية تقدم للقومية تميز يجعل تركيا تتجاوز حدودها الجغرافية عن طريق الدبلوماسية العثمانية الجديدة.(**Elkarawi, *op.cit*, pp.16 - 17**).

إيران المنافس الرئيسي للملكة السعودية بسبب مفهوم تصدير الثورة التي تبنتها الشيعة بعد نجاح الثورة الإيرانية لقائدها **آية الله الخميني** سنة 1979، والتي أطاحت بنظام الشاه الموالي للغرب، فتحت المجال أمام الصراع المذهبي السني الشيعي في المنطقة وأدت إلى اندلاع الحرب العراقية الإيرانية 1980 – 1988، وبالرغم من فشل فكرة تصدير الثورة إلا أن إيران تعتبر مثالا ناجحا للدولة الإسلامية التي تجمع بين الأصولية والحداثة المستمدة من أفكار **الخميني** في كتابه الحكومة الإسلامية القائمة على نظرية ولاية الفقيه وهو المرشد أو الولي الفقيه القائد الأعلى للثورة الإسلامية والرجل الأول في الدولة الذي يلم بالفقه والدين ويتمتع برؤية سياسية وإدارية لتسيير شؤون البلاد (**ميسوم، 2018، ص ص 163 –164**).

يتضح مما سبق أن الإسلاموية هي إيديولوجية ظهرت خلال القرن 18، ارتبط من خلالها الدين الإسلامي بالسياسة فمن دين واحد وموحد للإسلام مصدره القرآن الكريم والسنة النبوية"...**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**..."(**سورة المائدة، الآية رقم03، ص.107**) إلى تعدد المذاهب والتيارات التي عبرت عنها مختلف الاتجاهات الإيديولوجية التي تختلف في مضمونها ولكن مصدرها واحد وهو الشريعة الإسلامية وعقيدة التوحيد: الإخوان المسلمين، الوهابية السلفية، الصفوية، الشيعية... ولكن التساؤل المطروح كيف ارتبطت هذه الإيديولوجيات بالعنف؟ ولماذا تم تصنيفها على أنها جماعات إرهابية؟

2-الراديكالية والتطرف العنيف: بعد نهاية الحرب الباردة ظهرت النظريات المفسرة للعلاقات الدولية على أساس متغير الدين، ومن أبرزها أطروحة صدام الحضارات **لصمويل هنتنغتون**، التي تجعل من الإسلام هو التهديد الجديد للغرب بعد انهيار الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفييتي، من منطلق أن الإسلام يرفض في جزء منه الديانات الأخرى من غير التوحيد ويحث على الجهاد ضد غير المسلمين، حيث يقول أنه ليس صحيحا أن الإسلام لا يشكل خطرا على الغرب وأن الإسلاميين فقط هم الخطر، ذلك أن تاريخ الإسلام خلال أربعة عشر قرنا شكل خطرا على أية حضارة واجهها خاصة المسيحية وأن للإسلام حدودا دموية مشيرا إلى الصراعات التي عرفتها منطقة البلقان، الهند ودول الشرق الأوسط**(لونيسي،2010 ، ص. 6)**.

في التصور الغربي الإسلام يرتبط في جزء منه بالتطرف ورفض الآخر، وهذا التطرف يتم التعبير عنه بالعنف عن طريق الهجمات الإرهابية التي نسبت إلى التنظيمات والمجموعات التي ظهرت في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا والتي تعكسه مؤشرات الهجمات الإرهابية في التقارير والأبحاث الصادرة عن المنظمات الدولية، ومن المنظور الديني الإسلام دين التسامح، السلام والتعايش وهو ما تضمنته العديد من الآيات القرآنية:

"...ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ..." (سورة النحل، الآية 125، ص.281).

في حين أن التطرف هو تبني رأي راديكالي تجاه موضوع سياسي أو إيديولوجي بحيث يظهر صاحبه الرفض القطعي والمطلق للآراء المخالفة له، أما التطرف العنيف فهو الاقتناع بأن العنف أو دعم استعمال العنف هو الحل الأمثل لحل النزاعات الإيديولوجية، الاجتماعية والسياسية. **(USAID, p.9)**

أما الراديكالية هي حركة تهدف إلى إحداث تغيير جوهري في وضع قائم؛ فالناشطون الذين حرصوا على إزالة نظام الطبقية أو فرض نظام التصويت أطلقت عليهم تسميت راديكاليين، وبالتالي لا تمثل الراديكالية تهديدا ما لم ترتبط بأعمال غير شرعية كالتحريض على الكراهية مثلا وهو الحال بالنسبة للراديكالية الإرهابية فهي مسار ديناميكي يتقبل من خلاله الفرد العنف الإرهابي سبيلا للقيام بفعل ما وعليه يجب تكثيف الجهود القضائية والجنائية لمكافحة كل محاولات التجنيد، التحريض والاستقطاب حيث اتفق المجتمع الدولي على أن الإرهاب لا يرتبط بدين، عرق أو جنسية معينة وإنما جريمة تشكل تهديدا للسلم والأمن الدوليين.(منظمة الأمن والتعاون في أوروبا، ص.21).

وبالتالي التطرف العنيف والراديكالية من أهم مسببات العمل الإرهابي، الذي ينشط في المناطق الهشة التي توفر ملاذا أمنا له، حيث صنفت الدول الأكثر عرضة للإرهاب خلال سنة 2021 من حيث عدد الهجمات كما يلي: أفغانستان، العراق، الصومال، بوركينافاسو، سوريا، نيجيريا ومالي بسبب الهجمات التي نظمتها الجماعات الإرهابية التالية: **(Global Terrorism Index, 2022, pp15-16)**

الدولة الإسلامية: تعتبر الجماعة الإرهابية الأكثر دموية لسنة 2021، تأسست كجماعة تابعة لتنظيم القاعدة سنة 1998 لتعود بقوة سنة 2014 وتعلن عن تأسيس دولة الخلافة الإسلامية في العراق

والشام، إلا أنه بفضل الجهود الدولية في مكافحة الإرهاب خسر التنظيم كل الأقاليم التي استولى عليها في مارس 2019، ومع ذلك فهو المسؤول عن 29%من وفيات الإرهاب الدولي لسنة 2021 وكان المتسبب في 794 هجوم إرهابي في 21 دولة بالرغم من أنه عدد منخفض مقارنة بسنة 2020.

الشباب: جماعة إرهابية ظهرت في منطقة شرق إفريقيا سنة 2006، باعتبارها امتداد لتنظيم القاعدة في كينيا والصومال، وفقا لإحصائيات سنة 2021 انخفضت نسبة الوفيات التي نُسبت إلى هذا التنظيم بنسبة 17% مقارنة بسنة 2020 وتسببت بـ: 571 حالة وفاة.

جماعة نصرة الإسلام والمسلمين: تأسست سنة 2017 في منطقة الساحل الإفريقي وإفريقيا جنوب الصحراء، جسدت تحالف الجماعات الإرهابية التي كانت تنشط فيها: أنصار الدين، المرابطون، تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي تقوم بأعمال التهريب كمصدر للتمويل، تسببت في 351 حالة وفاة بنسبة 50% في مالي و49% في بوركينافاسو وهي أعلى نسبة سجلها التنظيم منذ نشأته.

حركة طالبان: تأسست في أفغانستان سنة 1994 من مجموع طلبة المدارس الدينية في إقليم قندهار على الحدود الباكستانية لتعلن سنة 1996 سيطرتها على أفغانستان واعتبارها إمارة إسلامية، استمرت في الحكم إلى غاية 2001 بعد التدخل الأمريكي في أفغانستان على أساس أنها تحوي تنظيم القاعدة المتهم بهجمات 09/11، لتصبح بعد ذلك حركة متمردة ولكنها عادت بقوة سنة 2021 وتحكم سيطرتها على بعض الأقاليم في أفغانستان ومنها العاصمة كابول، ومع ذلك فقد تسبب التنظيم في مقتل 376 شخص في سنة 2021.

من خلال ما سبق نستنتج أن الجماعات الإسلاموية قد نشأت في مناطق عرفت نزاعات مسلحة وكانت عرضة لتدخل قوى دولية لإحلال السلم فيها، تمارس العنف بدرجة عالية من التصعيد والتنظيم متسببة في مقتل عدد كبير من المدنيين للتأثير على الحكومات الناشئة فيها على أساسا أنها أنظمة موالية للغرب، تقوم بعقد تحالفات مع التنظيمات الإجرامية لضمان تمويلها وبالتالي استمرارية نشاطها في إطار ما يعرف **narcoterrorism**.

ومن الملاحظ أن ارتباطه هذه الجماعات الإرهابية بالإسلام يعود لثلاثة عوامل: المرجعية الدينية الإسلاموية المبنية على السلفية الجهادية والتطرف والدعوة إلى بناء دول الخلافة الإسلامية في الأقاليم التي تنشط فيها، التسمية التي تطلق على التنظيمات الإرهابية والمستمدة من مصطلحات دينية "نصرة الإسلام والمسلمين، تنظيم الدولة الإسلامية..."، واستعمالها للعنف الممنهج ضد المدنيين وباسم تطبيق منهج الإسلام الأصيل تفجير البنى التحتية والأماكن العمومية، الاغتيالات الجماعية، اختطاف المدنيين وسرقة أموالهم وإجبارهم على الخروج من منازلهم...

ثانيا- الإسلام في السياسة العالمية بعد أحداث 09/11:

يُجمع المجتمع الدولي على أن الإرهاب تنظيم لا ينتمي إلى دين، جنسية أو عرق معين ولكنه مصدر للتهديد وجريمة تخل بمنظومة السلام العالمي، إلا أنه ساهم بشكل كبير في تكوين صورة سلبية عن الدين الإسلامي لدى المجتمعات الغربية بسبب مرجعيته الإسلاموية المتعصبة التي يترجمها بممارسات عنيفة

منظمة، وازدادت حدة بعد هجمات 09/11 والحرب الإعلامية والعسكرية التي شنتها الولايات المتحدة الأمريكية على الإرهاب في ظل إدارة الرئيس السابق **جورج بوش الإبن**، كرد فعل على أكبر هجوم تتعرض له في تاريخها استهدف برجي التجارة العالمية وجزء من مبنى البنتاغون، ليدخل متغير جديد في تفسير علاقة الإسلام بالإرهاب وهو الجيوسياسة وحماية الأمن القومي والمصالح الإستراتيجية للدول.

1-الإرهاب الدولي مصدر لتهديد السلام العالمي: تمثل أحداث 11 سبتمبر نقطة تحول جوهرية في تطور الإرهاب، حيث شكات ما يعرف **بالإرهاب الجديد أو الإرهاب المعولم le terrorisme mondialisé**، وأضفت البعد الدولي على ظاهرة الإرهاب من حيث أنه يتجاوز الحدود الجغرافية للدولة الواحدة في إطار ما وفرته له العولمة ووسائل التكنولوجيا الحديثة، اعتراف دولي بخطورة الإرهاب على السلم والأمن الدوليين حيث يمثل هاجسا لكل الدول ويتم ربطه بأي سلوك عدواني واعتباره عملا إرهابيا وقد كانت من نتائج ذلك أن تم تشكيل تحالف دولي ضد الإرهاب وأصبحت الحرب على الإرهاب الشكل الرئيسي للصراع على الساحة الدولية (**الغنامي، 2009-2010، ص.155**)، وبالتالي فقد شكلت أحداث 11 سبتمبر تحولات في ظاهرة الإرهاب على عدة مستويات منها:

الإرهاب عابر للحدود: ظهور الإرهاب في شكل شبكات عابرة للحدود حيث أنه استفاد من العولمة وآلياتها العابرة للدول وخاصة أنظمة المعلومات والانترنت ووسائل الاتصال، مما جعل سهولة انتشاره في كل مناطق العالم من دون أن تكون له قواعد ثابتة ومحددة ومجهول المصدر بمعنى أنه من الصعوبة تحديد هوية الفاعل « anonyme »، وبالتالي صعوبة التحكم جغرافيا وقانونيا في الظاهرة.(**المجذوب وسرحان، 2005، ص.77**).

وفي هذا السياق أصبح الإرهاب يتميز بوقوعه في أكثر من دولة، يتأثر حاملي جنسية أكثر من دولة من وقوع العمل الإرهابي، تنوع وتباين جنسية المشاركين، وقوع هذا العمل في دولة غير الدولة التي يحمل جنسيتها القائمين بتنفيذ العمل الإرهابي، التجهيز والتخطيط له في دولة أخرى غير دولة التنفيذ، فرار كل المجموعة أو بعض مرتكبي العمل الإرهابي إلى أراضي دولة ثالثة بعد تنفيذهم لهجماتهم الإرهابية...(**الشكري، 2008، ص.89**).

تقنين الحرب على الإرهاب: وتتمثل في الرعاية الأممية للحرب الأمريكية على الإرهاب بحيث أصبح له بعد عالمي واعتراف دولي (بالرغم من أنه كان يتم اعتبار العشرية السوداء في الجزائر خلال فترة التسعينيات شأن داخلي وليس إرهابا يهدد المجتمع الدولي والسلم العالمي) وأن كل الدول معنية بهذا التهديد ولابد لها من التحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية لمواجهته وإلا يتم تصنيفها ضمن محور الشر، وتظهر الشرعية الدولية للحرب على الإرهاب في القرارات الصادرة عن مجلس الأمن نذكر منها (متوفرة على الرابط الإلكتروني التالي: ***القرارات التي اتخذها مجلس الأمن في عام 2001 | الأمم المتحدة - مجلس الأمن(un.org)***).

قراررقم 1368، الصادر في 2001/09/12 يؤكد فيه على ضرورة مكافحة وبكل الوسائل التهديدات التي يتعرض لها السلام العالمي بسبب الأعمال الإرهابية، ويسلم فيه بالحق الفردي أو الجماعي للدفاع عن

النفس ويدعوا الدول الأعضاء إلى العمل معا وبصفة عاجلة من أجل تقديم مرتكبي هذه الجرائم وتسليمهم للعدالة.

قرار رقم 1373، الصادر في 2001/09/28 في إطار أحكام الفصل السابع من الميثاق يؤكد مجلس الأمن على ضرورة العمل الجماعي لمكافحة الإرهاب من خلال الالتزام بمنع ووقف تمويل الأعمال الإرهابية، الامتناع عن دعم المنظمات الإرهابية لوقف عمليات التجنيد وإمدادهم بالسلاح، الإنذار المبكر وتبادل المعلومات الخاصة بأعمال وتحركات الشبكات الإرهابية.

قرار رقم 1386، الصادر في 2001/12/20 وبموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة وانطلاقا من أن الوضع في أفغانستان يمثل تهديدا للسلم والأمن الدوليين، يأذن إنشاء قوة دولية للمساعدة الأمنية في أفغانستان ويمكن للدول الأعضاء المشاركة فيها بالأفراد والمعدات، حيث عليها التعاون مع السلطة الأفغانية المؤقتة في تنفيذ ولاية القوة.

وفي خطاب للرئيس جورج بوش في 2001/09/14 بمقر الكاتدرالية الوطني - واشنطن حول الهجمات الإرهابية التي تعرضت لها الولايات المتحدة الأمريكية، أعلن فيه الحرب الأمريكية على الإرهاب العدو الذي أخل بأمنها الوطني لتكون مسؤوليته الأولى الرد على هذه الاعتداءات وتخليص العالم من الشر:

"تشن الولايات المتحدة حربا على إرهابيين، لديهم قدرات عالمية، إن العدو ليس نظاما سياسيا واحدا، أو شخصا، أو معتقدا، أو أيديولوجية، وإنما هو الإرهاب العنف المتعمد المدفوع سياسيا المستهدف الأبرياء"(استراتيجية الأمن الوطني للولايات المتحدة الأمريكية، تاريخ النشر: 2019/07/01،(politics-dz.com)).

وقد حاولت الولايات المتحدة الأمريكية حشد أكبر عدد ممكن من التحالفات الدولية في حربها على الإرهاب ودعت الدول إلى تبني موقف واضح ومحدد **"إن استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية تقوم على مواجهة شاملة لكل ما تعتبره تنظيمات إرهابية وأن العالم ليس أمامه سوى الوقوف مع الإرهاب أو في الجهة المقابلة"**، **(السرحان، 2017، ص.11)** وتم على إثر ذلك إدراج الدول الداعمة للإرهاب وتسعى لتطوير أسلحة الدمار الشامل في خانة الدول المارقة أو محو الشر على غرار: العراق، كوريا الشمالية وإيران.

2.التدخل الأمريكي في أفغانستان والعراق: قراءة جيوسياسية: هل قرار التدخل الأمريكي في كل من: أفغانستان، العراق هي عمليات عسكرية لمكافحة الإرهاب؟ أم لحماية مصالح استراتيجية في سياساتها؟ علما أن الولايات المتحدة الأمريكية قدمت الدعم للعراق خلال حرب الخليج الأولى والثانية، لتنقلب التوازنات وتقوم بتنظيم عملية إعدام الرئيس السابق للعراق **صدام حسين** صباح يوم 2006/12/30 الموافق لتاريخ 10 ذو الحجة (عيد الأضحى).

بدأت الولايات المتحدة الأمريكية حملتها الجوية في أفغانستان بتاريخ 7 أكتوبر 2001، في إطار قوات حلف شمال الأطلسي تطبيقا لمقاربة الضربة الاستباقية التي تعني توجيه ضربة عسكرية على العدو هدفها استباق الهجوم أو الخطر قبل وصوله بعد أن تأكدت كل المؤشرات المادية الدالة على وجوده واستعداده

لشن الهجوم فيتم استباقه وإجهاض قوته (**البصر اتي، تاريخ النشر: 2021/12/03**) حيث كان الهدف من هذه الحرب هو الانتقام من حركة طالبان واستبدال حكمها بنظام موالي والقبض على المسؤول عن الهجمات الإرهابية وقائد تنظيم القاعدة **أسامة بن لادن** على أن يكون ذلك في إطار حرب مفتوحة لا يحدها زمان أو مكان يمكن أن تمتد إلى أقاليم أخرى حيث تمنح الحق للولايات المتحدة الأمريكية من استعمال القوة العسكرية ضد الدول التي تدعم الحركات الإرهابية انطلاقا من مبدأ الدفاع عن النفس(**السرحان، المرجع السابق الذكر، ص.14**).

ومن وجهة نظر جيوسياسية فإن الحرب الأمريكية في أفغانستان كان لها أهداف استراتيجية تتمثل في: ضمان تواجد عسكري (قواعد عسكرية دائمة) للقوات الأمريكية في آسيا الوسطى مما يجلها في نقطة مراقبة للقوى النووية المتواجدة هناك: الهند، باكستان، الصين، روسيا وإيران مستقبلا وكذا تطويق روسيا والحد من التدخل الصيني والإيراني في أفغانستان، إضافة إلى حماية مصادر الطاقة من النفط والغاز المتواجدة في منطقة بحر قزوين الذي يحتوي على نسبة 16% من الاحتياط العالمي للبترول(**البصر اتي، تاريخ النشر: 2021/12/03**).

وفي سنة 2002، بدأت الولايات المتحدة الأمريكية التحضير للحرب في العراق في إطار مفهوم الحرب الوقائية المبنية على تبرير هجوم عسكري للوقاية من خطر وشيك بسبب امتلاك العدو لأسلحة الدمار الشامل وبالتالي فهو هجوم مبني على الحدس والتخمين الذي يمكن أن يكون مبني على معلومات غير صحيحة.

وفي جلسة لمجلس الأمن المنعقدة في فيفري 2002، قدم رئيس الولايات المتحدة الأمريكية **جورج بوش الابن** تقريرا يتضمن تهما موجهة لنظام **صدام حسين** بأنه يقوم بشراء أسلحة الدمار الشامل ويقدم الدعم تنظيم القاعدة على أساس أنها حقائق مبنية على معلومات استخباراتية موثوقة وأن التدخل لإسقاط النظام هو ضرورة أمنية، إلا أنها فشلت في الحصول على الموافقة الدولية في إطار هيئة الأمم المتحدة وفي مارس 2003، وبتمويل ذاتي تدخلت الولايات المتحدة الأمريكية بالتحالف مع بريطانيا في العراق وحطمت بغداد لتتغير التوازنات الإقليمية في المنطقة وتصبح إيران القوة الجديدة المؤثرة فيها.(**السرحان، المرجع السابق الذكر، ص.18**).

إذا تدخلت الولايات المتحدة الأمريكية عسكريا في العراق للوقاية من الخطر الذي قد يشكله النظام بمجرد امتلاكه لأسلحة الدمار الشامل التي يعمل على تطويرها ولنشر الديمقراطية وبناء دولة الحق والقانون، إلا أن الهدف الجيو سياسي للولايات المتحدة هو تحقيق مصالحها الجيو اقتصادية بالدرجة الأولى وهو ضمان النفط حيث يمتلك العراق ثاني احتياطي للنفط في العالم بعد السعودية، ضمان أمن إسرائيل وإنجاح خطة السلام في الشرق الأوسط كما أن هذا التدخل على حليف تقليدي (صدام حسين) هو رسالة ضمنية لدول العالم بهيمنة الولايات المتحدة وقدرتها على التدخل وبالقوة العسكرية في حالة وجود تهديد لمصالحها الحيوية (**البصر اتي، تاريخ النشر: 2021/12/03**).

ومن ناحية النتائج، فإن التدخل الأمريكي في كل من أفغانستان والعراق جعلهما تتصدران التصنيف الدولي للدول الفاشلة، ومناطق لنشاط التنظيمات الإرهابية الإسلامية على درجة عالية من التصعيد ومصدرا لتدفق اللاجئين وكذا مناطق أهلكتها الحروب الدموية والنزاعات المسلحة، أعلنت الإدارة الأمريكية عن تلقيها لمعلومات خاطئة بخصوص نظام صدام حسين وضرورة انسحابها من أفغانستان.

وبعد عشرين سنة من التدخل الأمريكي في أفغانستان، أعلن الرئيس الحالي للولايات المتحدة الأمريكية **جو بايدن** في أفريل سنة 2021 قرار الانسحاب التام للقوات الأمريكية من أفغانستان على أن يتم ذلك في شهر أوت من نفس السنة على أقصى تقدير، مؤكدا على أن الهدف من الحرب قد تحقق وهو القضاء على زعيم القاعدة أسامة بن لادن المتسبب في هجمات 09/11، وأن أفغانستان لم تعد تمثل تهديدا استراتيجيا لواشنطن، حيث أن هذه الحرب كلفت الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من **02 ترليون مليار دولار** وخسائر في وحدات الجيش الأمريكية وجعلت من أفغانستان بؤرة للعنف والصراعات الداخلية ونشاط التنظيمات الإرهابية.(**أبو كريم، تاريخ النشر: 2021/08/20**).

خاتمة:

من خلال ما سبق نستنتج:

- الإسلاموية، التطرف، الجهاد، الإرهاب هي مفاهيم ومقاربات جعلت من الدين الإسلامي يتصدر خطابات الدول الغربية في فترة ما بعد هجمات 09/11، وتم ربط الإسلام بالإرهاب (الإرهاب الإسلامي)؛ الفاعل الجديد من غير الدولة الذي يهدد السلم والأمن الدوليين، يتخذ من التطرف العنيف أسلوبا له والإسلاموية مرجعا لتبرير أعماله العدوانية وهذا ما يطرح ضرورة التمييز بين الإسلام كدين لقيم التسامح والتعايش السلمي الذي يعتنقه أكثر من 20% من سكان العالم، والإسلاموية الإيديولوجية السياسية التي تتبناها الجماعات الإرهابية بتوظيف الدين لخدمة أجندة سياسية الإسلام بريء منها.
- السياسة الدولية للحرب على الإرهاب هو مبرر دولي للولايات المتحدة الأمريكية مكنها من فرض سيطرتها على العالم بعد 09/11، المرحلة المحورية في تاريخ العلاقات الدولية والتي جعلت من الإرهاب تهديدا دوليا مرتبط بالإسلاموية وأظهرت أن السياسة العالمية تبنى على ثنائية المصلحة والقوة التي يؤكد عليها الاتجاه الواقعي في تفسير العلاقات الدولية؛ فلا صداقة دائمة ولا عداوة دائمة وإنما مصلحة دائمة وأن الدول في ظل نظام دولي يتميز بالفوضوية تسعى إلى ضمان أمنها وتعظيم مصلحتها لاكتساب اكبر قدر ممكن من القوة وما الحرب الوقائية والاستباقية التي اعتمدتها الإدارة الأمريكية **لجورج بوش الإبن** في أفغانستان والعراق إلا إطار لإضفاء الشرعية والتي أثبتت من خلالها فرض سيطرتها على العالم تحت شعار **(من ليس معنا فهو مع الإرهاب).**

قائمة المراجع:

1- الكتب:

- اندرو هيود، ترجمة: محمد، صفار، (2012)، ***مدخل إلى الإيديولوجيات السياسية***، ط.1، المركز القومي للترجمة (القاهرة).
- حافظ دياب، (2014)، ***السلفيون والسياسة***، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مصر).
- عبد السلام محمد الغنامي، (2009-2010)، ***قراءة في التحولات الدولية الراهنة***، ط.3، مطبعة الخليج العربي.
- علي يوسف شكري، (2008) ***الإرهاب الدولي***، ط.1، دار أسامة للنشر والتوزيع (عمان).
- محمد، المجذوب و أحمد، سرحان، (2005) ***الإرهاب الدولي في ظل المتغيرات الدولية، ط.1***، منشورات الحلبي الحقوقية (لبنان).
- محمد عبد الله، دراز، (2016)، ***الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان***، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة (مصر).

2- المقالات:

- إلياس، ميسوم (2008)، "النظام السياسي الإيراني وآليات صنع القرار فيه"، في: ***المجلة الجزائرية للدراسات السياسية***، المجلد05، ع.1.
- علي، لونيسي، (2010) "الإرهاب الإسلامي كبديل عن الإرهاب الشيوعي في منظور الولايات المتحدة الأمريكية"، في: ***مجلة معارف***، ع.9.
- صايل، السرحان وعلي، الشرعة، (2017) "الأهداف الإستراتيجية الأمريكية في أفغانستان والعراق قبل أحداث 11 سبتمبر 2001 وما بعدها"، في: ***مجلة دراسات وأبحاث***، ع.27.

3– الروابط الإلكترونية:

- "إستراتيجية الأمن الوطني للولايات المتحدة الأمريكية"، تاريخ النشر: 2019/07/01، في الرابط الإلكتروني:
- ***.(politics-dz.com)***
- حسن الحريري، "دوركايهم وسوسيولوجيا الدين من أجل فهم أصله"، تاريخ النشر:2016/02/25، في الرابط الإلكتروني: ***aawsat.com***.
- محمد بشير، "المسلمون موجودون بشكل متزايد في الولايات المتحدة الأمريكية بعد 20 عاما من أحداث 09/11"، تاريخ النشر 2021/09/21، في الرابط الاكتروني:
- *مركز بيو للأبحاث(pewresearch.org)* .
- محمد نور البصراتي، "إستراتيجية الحرب الاستباقية وتأثرها في العلاقات الدولية – دراسة حالة الولايات المتحدة الأمريكية 2001-2020"، ***المركز الديمقراطي العربي***، تاريخ النشر: 2021/12/03 في الرابط الإلكتروني:
- ***.(democraticac.de)***

- منصور أبو كريم، "الانسحاب الأمريكي من أفغانستان الأسباب والتداعيات"، ***المركز الديمقراطي العربي***، تاريخ النشر: 2021/08/20، في الرابط الإلكتروني:
- ***(democraticac.de) .***
- منظمة الأمن والتعاون في أوروبا، الوقاية من الإرهاب ومكافحة التطرف العنيف والراديكالية المؤديين إليه: مقاربة الشرطة المجتمعية، فبراير 2014.
- الأمم المتحدة - مجلس الأمن، القرارات التي اتخذها مجلس الأمن في عام 2001، في الرابط الإلكتروني:

un.org

-المراجع باللغة الأجنبية:

1-Rapports :

- Hakim, Elkarawi,(2018) la fabrique de l’islamisme, ***institut Montaigne***.
- USAID, lexique de la radicalisation et de l’extrémisme violent dans l’espace G5 du Sahel.
- Global Terrorism Index (2022), mesuring the impact of terrorism***, Institute For Economics And Peace***.

2-Liens Électroniques :

- Giovanna Tartuce, les frères musulmans en Egypte, publié le : 18/05/2021, en ligne sur : *oseem-eum.org.*

آليات ووسائل تعزيز الصورة الإيجابية للإسلام والمسلمين لدى الآخر وسبل تفعيلها

Mechanisms and Means of Enhancing the Positive Image of Islam and Muslims With the Other, and Ways to Activate It

د. العطري بن عزوز، جامعة عمار ثليجي- الأغواط- الجزائر
be.elottri@lagh-univ.dz



لقد فرضت الحالة المتوترة والمتأزمة بين العالم الإسلامي والآخر، ضرورة البحث في الأسباب والعوامل الكامنة وراء تلك المشكلة، فمن أهداف الدراسة هو محاولة معرفة الآليات والوسائل التي نعزز بها الصورة الحقيقية الإيجابية عن الإسلام، وكيف يمكن تفعيلها في الواقع، أمام تطبيق هذا المشروع، فقد تناولت هذه الدراسة هذه الإشكالية من خلال البحث عن العوامل المؤثرة في نشر تلك الصورة الذهنية السلبية عن المسلمين لدى الغرب، واقتراح الآليات والوسائل والسبل لتقديم صورة أوضح عن الإسلام والمسلمين لدى المجتمعات الغربية، وقد استخدمت في معالجة هذه الإشكالية المنهج الوصفي والتاريخي، بالإضافة إلى المنهج المقارن والمنهج النقدي أحيانا، من أجل تحقيق أهداف ونتائج البحث التي توصلت إليها، ومن أهمها ضرورة تفعيل دور الحوار والتواصل مع الآخر بالوسائل الممكنة بعيدا عن أي صدام بين الثقافات، ووضع معايير علمية وشرعية ومنهجية لمن يتصدر الدعوة.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، الآخر، الصورة، آليات، وسائل.

Abstract :

The tense situation between the Islamic world and the other has imposed the necessity of researching the causes and factors of this problem. One of the objectives of the study is an attempt to identify the mechanisms and means by which we enhance the true positive image of Islam and how it can be activated on the ground. And ways to present a clearer picture of Islam and Muslims in Western societies. Sometimes it is decisive, in order to achieve the goals and results of the research reached, the most important of which is the need to activate the role of dialogue and communication with the other by possible means away from any clash between cultures and scientific status, legal and methodological standards for those who lead the call.

Keywords: Islam, the other, the image, the mechanisms, the means



مقدمة :

يبدو أن العلاقة بين العالم الإسلامي والعالم الغربي أصبحت متوترة للغاية، بحيث كلما تظهر حادثة عنف أو إرهاب في العالم، إلا وكان للعالم الإسلامي نصيب من الاتهام أو التحريض، ويكون الإعلام الغربي سباقا في التشويه والتحريف و نشر التخويف لدى المجتمعات الغربية من الإسلام والمسلمين وترويج صورا

تبعث على القلق، ثم يتعرض المسلمون في الغرب للمضايقات و الاستفزازات، وأمام هذا الوضع يتساءل كثير من المسلمين والغربيين عن المخرج من هذه المشكلة، للبحث عن السبل والآليات لتوضيح الرؤية على حقيقتها عن الإسلام والمسلمين، وعن الوسائل التي يمكن استخدامها لإيصال الصورة للآخر.

إشكالية البحث:

إشكالية البحث تتمثل في تشخيص مشكلة العلاقة بين الإسلام والغرب، والبحث عن حل لتلك الصورة المحرفة لدى الغرب عن الإسلام والمسلمين، فالإشكالية تبحث عن الإجابة عن التساؤلات الآتية وهي: ماهي الآليات والوسائل التي نعزز بها الصورة الإيجابية للإسلام والمسلمين؟ وكيف يمكن تصحيح الصورة الذهنية لدى الغرب عن المسلمين ؟ وما هي أهم السبل الممكنة لتفعيلها في واقع المجالات المختلفة؟ وما هي المقترحات أو النتائج المهمة القابلة للتطبيق لمعالجة الإشكالية؟.

أهمية البحث:

تكمن أهمية الموضوع في الحالة المتوترة المتأزمة التي تعيشها المجتمعات في العالم المعاصر اليوم، سواء في المجتمعات الإسلامية أو في المجتمعات الغربية، مما يبعث على حالة من الخوف والقلق، ومن هذا المنطلق أردت أن أعالج هذه المشكلة من خلال هذا البحث الذي يركز على الآليات والوسائل التي نعزز بها تحسين الصورة الذهنية التي تنظر بها المجتمعات الغربية للإسلام والمسلمين، وهو مطلب في غاية الأهمية من أجل تحقيق التعايش الإنساني بين المجتمعات والثقافات.

أهداف البحث :

- وضع الآليات المناسبة لتصحيح الصورة الذهنية لدى الغرب عن الإسلام والمسلمين
- اقتراح الوسائل الممكنة لتعزيز الصورة الإيجابية للإسلام والمسلمين لدى الآخر
- الوقوف على أهم الأبعاد التاريخية والحضارية والاجتماعية التي تشكل صورة الإسلام والمسلمين لدى الآخر.
- التطرق لظاهرة الإسلام وفوبيا، والبحث في عوامل تكريسها.
- البحث عن السبل الممكنة لتفعيل الرؤية الصحيحة للإسلام في المجالات المختلفة.
- معرفة طبيعة الأفكار السلبية أو الإيجابية عن الإسلام والمسلمين من خلال كتابات الغربيين

منهج البحث:

استخدمت في هذا البحث المنهج الوصفي والتحليلي من خلال وصف ظاهرة الخوف والقلق التي ترسمها وسائل الغربية وتحليلها بواقعية ثم تركيبها بشكل أوضح واقرب إلى الحقيقة بالاستعانة أيضا بالمنهج التاريخي والمنهج المقارن بين الصورة الذهنية لدى المسلمين عن الغرب، والعكس، مع اللجوء أحيانا إلى المنهج النقدي من خلال نقد الذات ، أو نقد آخر، ومن ثم استنباط النتائج المهمة التي تجيب عن إشكالية البحث .

خطة البحث:

خطة البحث مقسمة إلى مقدمة وعرض وخاتمة ونتائج، حيث تناولت المقدمة، الإشكالية وأهمية الموضوع وأهدافه ، والمنهج المتبع في الدراسة، ثم الخطة، وفي العرض تناولت العناصر الأساسية في البحث وهي: بيان الصورة السلبية للإسلام والمسلمين لدى الغرب في المجال التربوي والإعلامي ، ثم عرض للعوامل المؤثرة في ترسيخ الصورة السلبية للمسلمين لدى ، الآليات والوسائل الضرورية لتصحيح تلك الصورة الذهنية عن الإسلام والمسلمين عند الآخر، وأهم الجوانب التي يمكن من خلالها تصحيح الصورة ، وسبل تفعيلها في الواقع . ثم جاءت الخاتمة متضمنة نتائج البحث والتوصيات.

أولا- الصورة الذهنية للإسلام والمسلمين في المجال التعليمي والإعلامي عند الغرب:

1. صورة الإسلام والمسلمين في المجال التربوي والتعليمي:

مما هو معلوم أن المناهج التربوية والتعليمية في الغرب وامريكا خالية من التربية الدينية، وترتكز على النهج العلماني الذي يطبق مبدأ فصل الدين عن الدولة، وأصبح شأن الدين تقوم به الأسرة، ويدرس تاريخ الأديان في مادة التاريخ " سرد الأحداث التاريخية يتم من خلال موضوعات وقضايا محورية في الأديان السماوية الثلاثة، اليهودية والمسيحية والإسلام، كما يتم التركيز على الأحداث التاريخية التي كان لها تأثير في حياة الشعوب في الغرب، في حين أغفلت الإشارة إلى الأحداث التاريخية الهامة في دول الشرق الوسط وافريقية واسية، لأن الاهتمام كله منصب على أوربة وأمريكة وتاريخهما القديم والحديث" (المحجوب، 2013، صفحة 38)

وهكذا يمكن القول أن التربية والتعليم في العالم الغربي والأمريكي تركز على نشر الأفكار التي تعطي صورة ذهنية مسبقة -خاصة في المرحلة الابتدائية – عن العنصر الغربي والافتخار بتاريخه ووطنه وانجازاته، وعدم الاهتمام بالآخر ورفضه، وهذه الصورة الذهنية نقلها مؤلفي الكتب المدرسية للأجيال الناشئة، والذين نقلت إليهم من الدوائر الاستشراقية، هذا بالإضافة إلى ما تروجه البرامج التلفزيونية خاصة الرسوم المتحركة من مضامين تحتقر المسلم وحضارته وقيمه وثقافته. وتدعي أن النبي محمد ρ التقى بالأحبار والرهبان من اليهود والنصارى وأخذ عنهم وعن التوراة والانجيل وألف كتاب القرآن، وغير ذلك من التحريف للتاريخ والحضارة الإسلامية.

ولم يكتف صامويل هنتجتون Samuel Huntington الأستاذ بجامعة هارفرد، بمؤلفه "صراع الحضارات " العام 1992م، حتى أصدر العام 2004م- دراسته بعنوان: "من نحن؟" وقد شن فيه هجوما على ما أسماه: الإسراف في تدريس ثقافات وأديان الأمم الأخرى، ومن بينها الإسلام، في إطار المناهج الأمريكية، وقد أشار إلى بروتستانتية أمريكا وأنها أصبحت في خطر بسبب تلك الدراسات الأجنبية الوافدة من ثقافات وحضارات وأديان العالم الأخرى، الأمر الذي سيقود إلى تفكيك الوحدة الثقافية الأمريكية، ثم قال: "أما ما يرمي إليه دعاة التعدد الثقافي حاليا، فهو على العكس من ذلك، فهم يطالبون بتقليل دروس اللغة الإنجليزية، وإيقاف عملية تشرب الطلاب الأمريكيين بقيم الثقافة الأمريكية، وأسوأ من ذلك إعطاؤهم فرصة لدراسة لغات وثقافات وقصص أبطال الأمم الأخرى، كالأمم الإسلامية" (Huntington, 2004, pp. 62, 173) .

يتضح مما سبق أن مناهج التعليم في معظم دول الغرب وامريكا تعطي صورة محرفة عن الإسلام والمسلمين يغلب عليها التعميم وتزوير الحقائق التاريخية، وفي دراسة ميدانية قام بها متخصصين للمناهج الدراسية الغربية، أظهرت:" المنهج البريطاني والألماني والفرنسي والإسباني، تتجاهل التاريخ الحقيقي للمسلمين، ولا تزال مشبعة بنزعة عدائية شديدة للإسلام والمسلمين" (وقيع الله، 2006، الصفحات 163-165)

2. صورة الإسلام والمسلمين في المجال الإعلامي:

من المؤكد أن النفوذ الصهيوني في وسائل الإعلام بكل أنواعه هو أحد أبرز العوامل في تشويه صورة الإسلام والمسلمين لدى الآخر، ولعل أبرز مظهر نكاد نعايشه يوميا في وسائل الإعلام هو إظهار المسلمين بأنهم مصدر العنف والإرهاب في العالم، سواء عن طريق أحداث تظهر تلقائية، أو مفتعلة ثم يلصقونها بالمسلمين، ويُظهرون الإسلام على أنه دليل التخلف والرجعية، وتصويره على أنه خطر على أمن واستقرار المجتمعات في العالم، هذا بالإضافة إلى المظاهر الأخرى التي يروجون لها في شتى المجالات " وقد قامت باحثة أمريكية اسمها تيري Terryبدراسة الصور النمطية للعرب في السيناريوهات السينمائية لمنطقة الشرق الأوسط، وخلصت إلى نتائج رئيسية هي: الأولى يظهر العرب في أدوار الخصم أو الشرير ويظهر الإسرائيليون في دور البطولة أو أدوار الخير. والثانية يمثل قصص الجاسوسية، في هذا الشق يظهر الأمريكيون والإسرائيليون كجواميس مطوقين في علمهم وهم يحاربون قوى الشر، ويظهر العرب في أعمال مثل "صلاح الدين: Saladin والجهاد Jihad والعنقاء Phoenix كنوع من الشر يتوق إلى استخدام أي طريقة دموية أو وحشية، و يشمل الشق الثالث فكرة بأن الولايات المتحدة الأمريكية وبقية الدول الغربية تعتمد كليا على البترول العربي، وفي هذا السياق يبرز العرب وكأنهم أشرار يتحملون تبعات نقص البترول في السوق أو زيادة الأسعار، مما يبرر أي عمل عدواني ضدهم من أجل السيطرة على النفط، وتهيئة ذلك الاحتياطي النفطي للدول الغربية" (غزيول، صفحة 55)

ولعل السبب الرئيس في تأثير وسائل الإعلام الغربي على الجماهير، كونها تعطي تلك الصورة الذهنية المغلوطة باتجاه واحد في غالب الأحيان، بحيث لا يستطيع المشاهد أو المستمع أو المتلقي الرد على تلك المزاعم، مما يشكل خطرا حقيقيا في تضليل الشعوب الغربية لتأخذ صورة نمطية سلبية عن الإسلام والمسلمين، وترسخ مفاهيم خاطئة تزيد في شحنة الحقد والكراهية والعدائية اتجاه المسلمين، وخاصة القاطنين في البلاد الغربية، الذين أصبحوا مصدر خوف وقلق لدى الغربيين لما لهذه الأقليات من دور في نشر الثقافة الإسلامية في أوساط هذه الأوطان الغربية، حيث اعتبروا ذلك خطرا يهدد الوجود الغربي المسيحي، والأمر الذي زاد من قلقهم هو سرعة انتشار الإسلام في الأوساط المسيحية دون اكراه.

ثانيا: العوامل المؤثرة في ترسيخ الصورة الذهنية السلبية عن الإسلام والمسلمين لدى المجتمع الغربي:

من المؤكد أنه توجد عوامل كثيرة ساهمت في نشر تلك الصورة الذهنية السلبية في نظر الغرب عن الإسلام والمسلمين، ويمكن أن نلخصها فيما يلي:

1- **العامل التاريخي والحضاري:** وهذا العامل لعب دورا فعالا في تشويه الحضارة الإسلامية والتاريخ، فمنذ سقوط الأندلس بدأ الاستشراق ينتشر في أوروبا وأصبح علما وموضوعا منهجيا، حيث أنشئت مدارس خاصة به، لدراسة التاريخ الإسلامي وتعلم اللغة العربية وتحقيق التراث الإسلامي، ومن ثم قاموا بحملة شرسة على تشويه التاريخ الإسلامية والحضارة الإسلامية وإثارة الشبهات حول الإسلام ورسوله، وساهموا في نشر النعرات القبلية والعصبيات المذهبية والنزعات الطائفية، والعقائدية، وإثارة الخلافات لتفريق وحدة المسلمين، واضعاف روح الأخوة بين المسلمين، مستغلين الوجود الاستعماري للبلاد العربية الإسلامية بالاستلاء على المخطوطات وأخذها إلى الجامعات الغربية ودراستها وتحقيقها لمعرفة عناصر القوة في الإسلام من أجل استهدافها وتشويه الحقائق التي تضعف من المسلمين وتشكك في دينهم وتعطي صورة محرفة عن التاريخ والحضارة الإسلامية لدى الغرب. وهكذا ترسخت فكرة الصراع بين العرب والغرب عبر التاريخ.

2- **العامل الإعلامي والتعليمي:** وقد رأينا سابقا ان هذان العاملان قد لعبا دورا هاما في ترسيخ الصورة العدائية ضد المسلمين، وإعطاء صورة ذهنية لدى الغرب بخطورة الإسلام باعتباره دين تطرف وتخلف ودموية، ويحاولون اقناع الكتاب من المسلمين بأن سبب تخلفهم هو الدين، وذلك من أجل نشر هذه الفكرة في الأوساط الإسلامية، هذا بالإضافة إلى تشويه الرموز الإسلامية، ومنها تلك الصور التي نشرتها وسائل الإعلام والتي تسيء للنبي محمد صلى الله عليه وسلم لإحداث التصادم والمواجهة الدامية أو اللفظية بين الثقافتين، وكان القصد منها هو مزيد من المضايقات على المسلمين المتواجدين في الغرب.

3- **عامل التنافر بين الفكر الفلسفي الغربي و الفكر الإسلامي:** فالنظام الغربي مبني على الجانب المادي، الذي لا يعترف إلا بالمصلحة المادية الشخصية، التي تقدس الإنتاج، والبحث عن أسواق له في بقاع الأرض، على درجة تبرير استعمال القوة العسكرية لقهر الدول والدخول في اتفاقيات تكون لصالحهم، وقد عبر عن ذلك أكثر من مسؤول امريكي، بقولهم من لا يكون معي فهو ضدي، خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001م . فحين نجد أن الفكر الإسلامي مبني على التوازن بين المادي والروحي، والاعتراف بالآخر، ويدعوا إلى السماحة والسلم العالمي، وغيرها من المبادئ التي لا يعترف بها الآخر، وبقوم بتحريفها وتشويهها.

4. **العامل الديني والأخلاقي والثقافي:** فلو امعنا النظر في العلاقة المتأزمة بين الشرق والغرب، لوجدنا أن العامل الديني كان سببا في الصراع بينهما وذلك من خلال الحملات الصليبية الغربية سواء التي أراقت الكثير من دماء المسلمين في فلسطين ومنطقة الشام، أو تلك الحملات الصليبية الحديثة والتي استعمرت أغلب البلاد العربية وسلبت خيراتها، وتلك الحقائق تدرس في كتب التاريخ والفكر الإسلامي، مما يعكس انطباعا سلبيا لنظرة الشرق للغرب، فحين أن وجود المسلمين طيلة القرون الماضية في أوروبا واسبانيا كان الدين عاملا إيجابيا في تحسين صورة المسلمين في أوروبا إذ يوصيهم بعدم التعدي أو الظلم ويدعوهم إلى

نشر الدين والقيم الثقافية والمعارف والعلوم والتعايش مع الآخر والتسامح معه، وهذا باعتراف المنصفين منهم " شمس العرب تسطع على الغرب" وأن" التاريخ لم يعرف فاتحا أرحم من العرب" ويقول الأمير البريطاني تشارلز: " إن الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتفاهم والعيش في العالم، الأمر الذي فقدته المسيحية، فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة" (معدي، 2008، صفحة 61)وغير ذلك من الاعترافات المسجلة في كتبهم. والعلاقة العدائية جاءت من كون أن الغرب يحاول أن يجسد نظرة مشوهة ومحرفة عن الدين الإسلامي ويتدخل في عرقلة المشاريع الإسلامية سواء في البلاد الإسلامية أو في الغرب، ومحاربة كل مظاهر ما يسميها هو بالإسلام فوبيا، هذا بالإضافة إلى نشر الفساد الأخلاقي والاجتماعي، والإساءة للمعتقدات الإسلامية، مما يضطر بعض المسلمين للرد على هذه العدوانية بالرد اللفظي أو المسلح أو بقناعة استحالة التوافق بين الثقافتين، وهذا يؤدي إلى مزيد من التوتر والتأزم.

ثالثا- آليات ووسائل تعزيز الصورة الإيجابية للإسلام والمسلمين لدى الغرب:

1. آليات تعزيز الصورة الإيجابية للإسلام والمسلمين لدى الغرب:

بالرغم من صعوبة الأزمة المتوترة بين المسلمين والآخر، ولأننا نملك رد الفعل، ولا نملك الفعل، مما يصعب علينا القيام بقرار شجاع وحاسم، فإن على المجتمعات الإسلامية حكومات وشعوبا أن تسعى إلى تقديم الصورة الصحيحة للإسلام والمسلمين من خلال مراجعة الذات والواقع ، وممارسة النقد الذاتي البناء لمواجهة التحديات والضغوط التي تتعرض لها الأمة الإسلامية، والتغييرات الدولية بصفة عامة، ولذلك وجب التفكير في الآليات الممكنة لتعزيز الصورة الإيجابية للإسلام والمسلمين لدى الغرب، وهو الأمر الذي يؤكد عليه الكثير من علماء الغرب، في حوار مع بروفيسور علم الاجتماع فيليب توماس Philippe Thomas عن مدى مساهمة العرب في تغيير الصورة لدى الغرب قال: " أعتقد بشكل عام أن العرب غالبا سلبيون، فالأشياء لا تفهم لوحدها، ولكن يجب إبراز بعض الأفكار، وعلى العرب توضيح قضيتهم، والتعريف ببلادهم وآرائهم، عليك بالدعاية والتعريف عن نفسك، يجب تزويد الآراء بالمعلومات وهذه عملية ثقافية" (العريضي، 1998، صفحة 45) فهذا دليل على أن المجتمعات الغربية لا تعرف الكثير عن المسلمين، إلا من خلال وسائل الإعلام التي تزور الحقائق، وبالتالي فإن المسؤولية ملقاة على عاتق المسلمين جميعا، فمن الضروري التفكير في الآليات التي قد تحسن الصورة لدى الغرب، نذكر منها ما يلي:

أ- الأزمة بين المسلمين والآخر، تحتاج إلى مواجهة الواقع بشيء من التفاؤل لإدارة الأزمة وتشخيص المشكلة بواقعية، بمعنى يجب الوقوف على الحقائق والاحاطة بها، والتمكن منها، ومعالجتها، ومعرفة جيدة بثقافة الآخر،" من أسباب عدم ادراك الناشئ عن اختلاف الثقافات ما حصل مع عمر بن الخطاب عنهτ في طريقه لا ستلام بيت المقدس، فلما وصل "أذرعات" وقف في طريقه المهنئون يقدمون أنواعا من اللهو، وكان هذا عرفا لأهل تلك البلاد يقدمون الاحتفالات بين يدي الملوك قبيل توقيع الصلح، ولم يدر عمر في البداية دلالة هذه الألعاب فأمر بردهم فنبهه أبو عبيدةτ إلى دلالته، وأن ردهم يفهم من جانبهم على أنه يضمر شرا نحوهم، فشكر عمر لأبي عبيدة صنيعته، وقال:

فعمر وآل عمر بأمر أبي عبيدة" (الكيلاني، 1430هـ) مما يتحتم علينا التعرف على ثقافة الآخر وادراك مقاصدها.

ب- تفعيل الدعوات الرامية إلى التعايش بين الثقافات والحضارات، والدعوة إلى الحوار الموضوعي من أجل الاتفاق على القواسم المشتركة، وهي دعوة القرآن الكريم قال تعالى:" **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**[آل عمران:64] حيث حددت الآية الكريمة منطلقات الحوار وموضوعه وأهدافه، ومن هذه المنطلقات نستنتج ضرورة الاحترام والانصاف والعدل ونبذ التعصب والكراهية.

ت- تنظيم المؤتمرات والندوات في البلدان الغربية بالتنسيق مع الهيئات والجامعات العربية والغربية لتوضيح الصورة الحقيقة عن الإسلام والمسلمين، وقد أجريت محاولات بالفعل في السنوات الأخيرة، حيث " عقد المجلس الأوربي عدة مؤتمرات وندوات لمعالجة هذه القضية الشائكة، واصدر قرارات وتوصيات في غاية الأهمية، تتسم بالموضوعية والرغبة الصادقة في التصحيح وفي إدراج الحقائق التاريخية الثابتة، وخاصة فضل الحضارة الإسلامية على العرب والمسلمين في النهضة الأوربية، وتم الاتفاق على وجوب التصدي لعملية العداء للإسلام، وتصحيح الأخطاء والصور النمطية التي تشوه صورة العرب والمسلمين والإسلام وحضارته في الكتب المدرسية الأوربية والغربية عموما، باعتبار تلك الأخطاء تؤدي إلى مشاعر الكراهية بين الشعوب، وإلى إشعال نار الحروب وانعدام السلم" (المحجوب، 2013، صفحة 58).

ث- دعوة الآخر بالاعتراف بالإسلام كدين له وجود واقعي، على الأقل من باب العدل، إذ يعترف المسلمون باليهودية والمسيحية والتوراة والإنجيل، والاشادة بأنبياء اليهود والنصارى، ومن أبرزهم إبراهيم وداوود وسليمان وموسى وعيسى عليهم السلام جميعا، ودعوة الآخر بالاعتراف بمحمد النبي العربي. وبالقرآن المنزل عليه.

ج- اقناع كل الحركات الإسلامية بمختلف توجهاتها، بضرورة تقديم الصورة الصحيحة للتدين الواعي والموافق للفهم مقاصد القرآن والسنة في احترام اليهودية والمسيحية، وعدم اجبارهم على اعتناق الإسلام بالقوة إلا عن طريق الاقتناع ، لقوله تعالى:" **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**" [البقرة:256]

ح- العلاقات الإنسانية بين الشعوب مبنية على أساس التعارف والتعاون على الخير والتقوى، انطلاقا من وحدة الجنس البشري، وقد بين ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم**}،[الحجرات:13]

خ- يجب ترسيخ فكرة التفاعل الحضاري بدل التصادم الحضاري، وهذه الفكرة كانت موجودة ابان الحضارة الإسلامية التي تفاعلت مع كل الحضارات واستفادت منها، وأفادت، وهو الآلية البديلة للفوضى وانكار الآخر أو احتقاره، بدل التبادل المعرفي والثقافي معه، وتعزيز قيم التعايش السلمي.

2. وسائل تعزيز الصورة الإيجابية للإسلام والمسلمين لدى الغرب:

في البداية يجب أن نمارس نقدا ذاتيا صادقا وواقعيا مع أنفسنا من أجل تغيير الواقع بما يتفق مع ثوابت الحضارة الإسلامية، لنتحول إلى الحضارة الإنسانية التي يتعايش فيها الجميع دون اقصاء، ولذلك يجب توفر عاملين أساسين وهما:

- الوعي بضرورة النقد والتغيير من طرف جميع النخب المثقفة، ونشره بين الناس.
- البحث عن البيئة القابلة للتغيير من الغرب، ولعل أحداث 11 سبتمبر جعلت كثير من الغربيين يبحثون عن معرفة حقيقة الإسلام...مما يتوجب علينا تقديم لهم الصورة الصحيحة عن الإسلام والمسلمين بكل الوسائل المتاحة، ولعل من أبرزها نذكر ما يلي:

أ- **تعزيز الصورة الإيجابية بالوسائل المكتوبة**: وذلك عن طريق الكتب والمجلات والصحف وترجمتها إلى اللغات. وهذه مهمة المراكز البحثية التي تقوم الدراسات والأبحاث الميدانية، مع القيام بتوزيع الكتب والأشرطة وإقامة المعارض والملتقيات، من المؤكد أن الحوار مع الآخر هو أفضل وسيلة من أجل تصحيح المفاهيم، وتقريب الرؤى، وتحديد آليات التفاهم مع الآخر على القواسم المشتركة.

ب- **تعزيز الصورة الإيجابية بالوسائل المسموعة والمرئية**: وهي كثيرة ومتنوعة يمكن استحداث قنوات تلفزيونية خاصة للتعريف بحقيقة الإسلام ومقاصده وأهدافه السلمية.

ت- **تعزيز الصورة الإيجابية بوسائل التواصل الاجتماعي:** المواقع الالكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي يمكن أن تلعب دورا هاما في تحسين صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب، بالتواصل مع الآخر عن طريق الفيسبوك أو التويتر أو الواتساب أو البريد الالكتروني وغيرها ذلك من الوسائل الكثيرة

رابعا- دور العلماء والباحثين والإعلاميين في تحسين الصورة الإيجابية للإسلام والمسلمين لدى الآخر:

1-دور العلماء في تحسين الصورة: للعلماء المسؤولية الكبرى في توعية الناس والأتباع والمحبين لهم، من خلال نشر الوعي بضرورة تقديم الصورة الصحيحة للدين والتدين، وخاصة المتواجدين في الغرب وأمريكا، فمن الضروري أن تكون لقاءات بين علماء الإسلام وعلماء الغرب لتصحيح المفاهيم وتبادل الأفكار والرؤى، فمسؤولية العلماء والدعاة والمصلحين هي نشر الفكر الصحيح في الغرب، وقد اتهم كثير من الغربيين علماء الإسلام والمسلمين عموما بأنهم يتكلمون مع أنفسهم، ويتذمرون من العلماء والمفكرين والإعلامين الغربيين من تحريف الحقائق، وهم لم يقدموا شيئا لهم، فلذا على العلماء المسلمين أن يجتمعوا على رؤية مستقبلية واضحة المعالم، في كيفية الاتصال بعلماء ومفكري الغرب والتحاور معهم لوضع خطة موضوعية مشتركة لاحترام الأديان وعدم المساس بمقوماتها ورموزها. على العلماء المعاصرين أن يقتدوا بعلماء الحضارة الإسلامية الذي وقفوا موقفا مشرفا ضد الحملات المعادية للإسلام من طرف الزنادقة والفلاسفة والفرق الإسلامية، حيث ألفوا الكتب، وحصنوا العلوم الإسلامية من التحريف، وقد نجحوا في ذلك نجاحا باهرا.

2. دور الباحثين في تحسين صورة الإسلام: مسؤولية الباحثين في عرض مباحثهم المتعلقة بتحسين صورة الإسلام والمسلمين انطلاقا من النقد الذاتي أولا، بضرورة تصحيح المفاهيم المتعلقة بالتدين الحقيقي النابع من مقاصد القرآن والسنة، لنبين للشباب المتحمس للدين، بأن التطرف ليس من الدين، وأنه مبرر للآخر ليتهم المسلمين بالتطرف واللاتسامح، وهي الصورة موجودة بالفعل في الظاهرة الإسلامية في الغرب، وسببها قصور في الفهم وعدم التميز بين أساليب الخطاب القرآني أو النبوي، وطريقة توظيف النصوص ودلالاتها الظاهرة والباطنة، وغير ذلك من المفاهيم التي يجهلها كثير من المتحمسين للدين، " يعتبر التطرف في الدين أحد أخطر منابع اللاتسامح، لتلبسه ببعد شرعي، وتوظيفه للنص الديني، وسرعة تصديقه من قبل الناس، وقدرته على التخفي والتستر تحت غطاء الشرعية والواجب والجهاد والعمل الصالح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" (الغرباوي، 2008، صفحة 56) فواجب الباحثين في شتى المجالات العلمية أن يكون تركيزهم في بحوثهم على نشر الوعي وتصحيح المفاهيم من أجل بناء الإنسان المسلم الذي يعكس الصورة الحقيقية للإسلام.

3.دور الإعلاميين: بما أن الإعلام في البلاد العربية والإسلامية هو الأكثر فاعلية في التعامل مع الإعلام الغربي، فإن المسؤولية ملقاة على عاتقهم في تحسين صورة الإسلام والمسلمين، والرد على الحملات المعادية للإسلام بالحوار والأسلوب الأفضل دون اللجوء إلى الإساءة أو التسفيه أو التجريح، ويكون ذلك عن طريق حوارات ولقاءات لرجال من الإعلام الغربي والعربي والإسلامي من أجل البحث عن الحلول لمشكلة التنافر بين الثقافتين الإسلامية والغربية، باعتبار أن لها تداعيات خطيرة على المجتمعات إذ تهدد الأمن والاستقرار بين الشعوب، فالإعلام العربي والإسلامي يجب أن يخاطب الشعوب الغربية بلغتها ومباشرة لمنع الوسيط الذي يوظف الأخبار توظيفا سياسيا أو أيديولوجيا للأفكار من قبل الإعلام الغربي، فيجب أن نحاور الإعلام الغربي من جهة لنبين له خطورة ما يقوم به من تأجيج الصراع بين الشعوب وأن ذلك قد يؤدي إلى حروب فتاكة بوسائل مدمرة لا تبقي ولا تذر ثم نخاطب الشعوب بضرورة أخذ المعلومة من مصادرها الأصلية لفهم حقيقة الإسلام والمسلمين. " الواجب في ظل الواقع الراهن يفرض رسم خطة محكمة وبرنامج عمل هادف، من أجل رصد كل الحملات والانتهاكات التي تمارس وتعلن ضد الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي بكل مكوناته من كلمة وصوت وصورة، والبحث عن أسبابها وخلفياتها ثم الرد عليها وتفنيدها" (بن سعيد، 2013، صفحة 100).

4. الجوانب المهمة في تصحيح صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب:

أ- الجانب السياحي: من الأسس التي تستند عليها العلاقة بين المسلمين و الآخر أساس الإيمان بالتعايش الإنساني بين الأديان والشرائع المختلفة والثقافات المتباينة، وافضل وسيلة للتعارف الثقافي بين الشعوب هو الجانب السياحي، فكثير من السواح من شتى الدول الغربية يأتون إلى البلاد العربية والإسلامية بهدف السياحة والتعرف على العادات والتقاليد فينبغي أن ننشر الوعي بين التجار والحرفيين والدليل السياحي بأن يكونوا صورة حقيقية للإسلام في تعاملهم معهم بالصدق والأخلاق الإسلامية والقيم الإيمانية، فالسياحة من الجوانب المهمة في تعزيز علاقات التفاهم والصداقة والتعاون بين مختلف الدول

وشعوبها، وتقريب الرؤى بينها، وقد ذكر الكاتب الإيرلندي أوسكار وايلد أن :" السفر تهذيب للعقل وأنه يلغي الأفكار المسبقة لدينا" (المزياني، 2011). ولا ننسى أن السياحة مطلب قرآني أمر به من أجل التعرف الثقافات والأديان قال تعالى:" **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**"[العنكبوت: 20]

ب-الجانب العلمي: الحقيقة التي لا ينكرها أحد، أن الإسلام لم يسبقه أي دين من الأديان السماوية أو الوضعية في دعوته إلى العلم والإشادة بفضله ووجوب طلبه، والحضارة الإسلامية خير شاهد على تلك التطورات العلمية في شتى العلوم، وهكذا أمسى العلم والدين متفقان على هداف واحد، عكس ما شاع عند الغرب من العداء بينهما فأصبحت المادية الغربية تعيش الصراع بين الدين والعلم، ومن ثم انتقلت فكرة صراع المادية الغربية مع الإسلام والذي أفرزته الفلسفة الماركسية والتناقضات الدينية والاجتماعية، التي يحاول الغرب أن يصدرها إلى المسلمين ليوهم ساستهم شعوبهم بأن الصراع خارجي، وأن مشكلتهم هي مع الإسلام، إذن فهذه الفكرة مما يتوجب على المسلمين تصحيحها، ولكن بعد تحصين واقعنا مما خلفه الاستعمار في ديارنا، " ولعل من أخطر ميادين التدافع الحضاري، مشكلة تحديد المفاهيم والمصطلحات، والمفردات المعرفية التي تعبر عن الثوابت الحضارية والمرجعية الثقافية، أي أن الأفكار والعقائد هي وسائل التحصين وأسلحة التدافع والحَراك الفكري" (القيديدي، 1415هـ، صفحة 44)

ومن هنا يجب أن ننقل للغرب المفهوم الحقيقي للحضارة الإنسانية من خلال التصور الإسلامي عن طريق البعثات العلمية واللقاءات والمؤتمرات والكتب وكل وسائل الإعلام الحديث والمعاصر، لنبين لهم مقولة برناردلويس:" إن الحضارة الإسلامية، رغم تنوع أصولها، لم تكن مجرد جمع آلي للثقافات القديمة، بل هي بالأحرى خلق جديد، انبعثت فيه هذه العناصر لتكون حضارة جديدة، وذلك بأن انتقلت إلى صور عربية وإسلامية، وهذه العملية سمة مميزة لكل مرحلة من مراحل هذه الحضارة" (لويس، 1954، صفحة 192)

ج-الجانب السياسي: العلاقة السياسية بين المسلمين والمجتمعات الأخرى مبنية على السلم، باعتباره أصل من أصول العلاقات الإنسانية بين الدول، فلا يسمح للمسلمين الدخول في شؤون الدول، إلا لحماية الحريات أو الأقليات المسلمة لمنع الفتنة في الدين، ومن هذا المنطلق، فالسلم هو الأصل وليس الحرب أو العنف أو القوة، واللجوء للحرب يكون في حالة الدفاع عن المسلمين وأراضيهم، " والمسلم هو رعية إسلامية أين كان موطنه، وذلك لأن ولاية المسلم لا تكون لغير المسلم، فإذا وجد المسلم ضيما في تلك البلاد، وجب الهجرة إلى البلاد الإسلامية" (أبو زهرة، 1995، صفحة 63)

ومعنى هذا لا يحق للمسلم أن يستخدم العنف أو الإرهاب أو أي صورة للقتل أو الاعتداء، كرد فعل وإنما إذا تعرض للمضايقات يهاجر إلى بلده المسلم أو بلاد أخرى يجد فيها الأمان، وفي حالة وجود رعية غير مسلم في بلاد المسلمين فليس أيضا أن نستخدم معهم القوة أو العنف أو أي شكل من أشكال الاعتداء، وقد أمرنا القرآن الكريم وكذلك السنة النبوية بوجوب اللجوء للسلم وكراهية القتال او العنف، وهذا ما قرره عمر بن الخطاب τ عندما تسلم مدينة القدس" إيليا" العام: 644م حيث كتب للنصارى عهدا قرر فيه " الأمان لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها،

وأنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم. ولا يسكن بأيليا معهم أحد من اليهود. وعلى أهل أيليا أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن.. ومن أحب من أهل أيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلى بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم.. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين.." (حميد الله، 1985، صفحة 474)

د. الجانب الثقافي: التبادل الثقافي هو مطلب أساسي من أجل تغيير الصورة الذهنية الخاطئة عن الإسلام والمسلمين، فيمكن استثمار كل الأنماط الثقافية التي لا تؤثر في الثقافة الإسلامية وجذورها، بمعنى وجب معرفة حقيقة الثقافة الغربية ومرتكزاتها لكي نعرف كيف نتعامل معها، " الثقافة الغربية، ذات موقف استئصالي عبر تاريخها الوسيط و الحديث والمعاصر وحتى كتابة هذه السطور، ذات نزعة مركزية غربية تنكر تنوع العالم إلى حضارات متعددة ومستقلة في ثقافتها، حيث ترى أن الثقافة بدأت بالإغريق وانتهت بالحضارة الغربية الحديثة، واسهامات المسلمين في الثقافة والحضارة ما هي إلا النقل كساعي البريد" (عمارة، صفحة 135) فلذلك وجب على النخب المثقفة المسلمة أن تنطلق من هذا التصور من اجل تفنيده وتوضيح الصورة الحقيقة عن الثقافة الإسلامية التي لا تقصي أحدا ولا تخشى من الثقافات الأخرى، والدليل على ذلك أن الحضارة الإسلامية استفادت من الحضارات الأخرى وما تحمله من فلسفات ومعتقدات وأفكار تناقض التصور الإسلامي، ومع هذا أخذت منها النافع المفيد وادرج من ضمن العلوم الإسلامية، والباقي تمت ترجمته وشرحه وتبليغه للآخر، دون تحريف أو تزوير كما فعلت الثقافة الغربية. وتلك الحقيقة بأدلتها التاريخية والمنهجية التي يجب أن نبلغها للآخر. والذي نؤكد عليه هو أن الفعل الثقافي الحضاري الذي تريد أن تقوم به النخب الفكرية والثقافية يجب أن تكون له مرجعية مرتبطة بكيانها وهويتها الإسلامية، بمعنى تأكيد الذات أولا أمام الثقافات المختلفة، ثم الانطلاق نحو التصحيح والتبليغ للآخر، أو الإفادة منه. وهذا ما أشار إليه مالك بن النبي بأن المشكلة تكمن فيها حينما تقبلنا الفكر الغربي، وليس المشكلة في الثقافة الغربية " إننا لا يجوز أن نتساءل: لماذا توجد عناصر قاتلة في الثقافة الغربية؟ بل فليكن سؤالنا في صورة أخرى: لماذا تمتص بالضبط طبقتنا المثقفة في البلاد الإسلامية هذه العناصر القاتلة؟ " (بن نبي، 2002، صفحة 131)، في المناسبات الثقافية نوزع الكتب والنشرات وإقامة المعارض والمهرجانات، والتبادل الثقافي بين الدول.

خامسا: سبل تفعيل الآليات والوسائل في الو اقع لتحسين صورة الإسلام والمسلمين:

السبيل لتفعيل الآليات والوسائل في الواقع هو مراعاة هذه النقاط:

1- ترسيخ فكرة الاعتراف بأن الاختلاف سنة من سنن الوجود، قال تعالى: **{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}**، [هود: 118] وأن الغاية منه هو التعارف والتعايش، ومن هذا المنطلق فلا يحق لمجتمع أن يلغي الآخر لسبب جنسه أو دينه أو لغته أو موقعه الجغرافي، وغير ذلك مما يتطلب التكامل والتعاون.

2- من أجل تفعيل الآليات والوسائل المذكورة آنفا، يجب الانطلاق من مبدأ الحق في اختيار الدين أو الثقافة دون اكراه ولا قهر أو غزو فكري أو عسكري او تزييف للحقائق، فالحوار والواصل هو السبيل للمناقشة والاقناع بالأدلة والبراهين.

3- التأكيد على أن التعايش السلمي بين الأمم والشعوب ممكن في ظل الحضارة الإنسانية التي تعيش تحت كلمة سواء وهي الإيمان بالله تعالى خالق الوجود كله، والإيمان بالقيم التي دعت إليها الأديان السماوية

4- مبدأ التأثير والتأثر سنة من سنن الحياة وقد مرت به كل الحضارات، بما فيها الحضارة الإسلامية، ولهذا فلابد من التفاعل والتعاون بين الحضارات والثقافات والشعوب، وخاصة في عصرنا الحالي، الذي أصبحت كل الدول، وكأنها دولة واحدة بوسائل التواصل الاجتماعي، وتطور وسائل النقل والإعلام.

خاتمة:

الأزمة المتوترة بين المسلمين والغرب اليوم، تبعث على حالة من القلق والخوف من سوء عواقبها، مما يتطلب الأمر المزيد من الجدية والعمل المشترك من أجل تقريب المفاهيم وتصحيح، والتي قد خلصت إلى انها أزمة وعي بالذات، تتطلب مراجعات تبدأ بالذات وتصب في الواقع الذي نريد أن نغيره، على المسلمين أن يراجعوا أساليب التغيير لديهم والمناهج المتبعة في الدعوة، والوسائل المتوفرة لديهم، وآليات التغيير والتصحيح، ويكون ذلك من خلال دراسة معمقة وجادة ودقيقة ومتكاملة، يقوم بها أهل الاختصاص من كل علم العلوم، لوضع برنامج عمل متكامل وممنهج وواقعي قابل للتطبيق من أجل توضيح الحقائق وتبليغه للآخر، ويمكن أن أخلص بعض نتائج هذه الدراسة فيما يلي:

نتائج:

- نشر الوعي بمقاصد القرآن الكريم والسنة الصحيحة، القائمة على الوسطية والاعتدال والتوازن.
- الوعي بالأبعاد الحضارية والثقافية للشعوب والأمم، وضرورة التعايش بينها من غير تصادم، والفهم الصحيح للدين والتدين.
- كثير من الشباب، وبعض أنصاف دعاة أو كما يسميهم ابن باديس "متعيلمين" تصدروا مجالس الدعوة ولم يكونوا مؤهلين لإعطاء الصورة الحقيقية للإسلام، فضلوا وأضلوا، ولذا يجب تأهيل دعاة بمعايير صحيحة عن الإسلام مظهرا ومخبرا .
- يجب وضع معايير علمية وشرعية ومنهجية لمن يتصدر الدعوة، ووضع عقوبات صارمة لمن ينشر فكرا خارج المرجعية الإسلامية لكل بلد.
- القدوة بالقول والعمل والسلوك، والخلق الحسن والجدال المفيد مع الآخر.
- الالتزام بوسائل الدعوة وأساليبها المشروعة في القرآن والسنة ...
- الدعوة على بصيرة: أحسن الأساليب في الحوار والتواصل مع الآخر ودعوته إلى الاستماع إلى الحق والحقيقة، هو أن تكون مستمدة من كلام الله تعالى، وكلام رسولهρ قال تعالى: { **قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ**

أَدعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلمُشرِكِينَ}، [يوسف: 108] فقد حددت الآية الحوار مع الآخر بأن يكون على بصيرة، التي تعني حسن الكلام عن علم ووعي وحكمة بديانة الآخر وعاداته وتقاليده وأحواله مما يجب أن تحترم وتراعى.

- يجب الوصول إلى القاعدة العريضة في المجتمع الغربي عبر وسائل التواصل الاجتماعي
- علينا تصحيح الخطاب الإسلامي الموجه للغرب، بأن يرعي خصائص المجتمع الغربي
- يجب أن نساهم في نشاطاتهم الثقافية ومعارضهم لإثراء القيم الإنسانية.

توصيات:

- انشاء قنوات فضائية إسلامية تبث البرامج باللغات المشهورة لتصحيح صورة الإسلام والمسلمين، والرد على المغالطات والاتهامات والافتراءات .
- نبحث عن كل الوسائل التي لها تأثير على المجتمعات الغربية، لتصحيح المعلومات الخاطئة عن الإسلام
- الدعوة إلى إقامة مؤتمر أو منتدى فكري عالمي، لفتح قنوات الحوار والتواصل مع العلماء والخبراء والمفكرين من المسلمين وغير المسلمين، لتصحيح المفاهيم وإزالة الشبه والمغالطات .
- استحداث جهاز إسلامي للإنتاج الإعلامي متعلقة بالبرامج والأفلام والتقارير الإخبارية التي تصاغ وفق نظرة موضوعية حقيقية بعيدا عن تشويه الحقائق وتحريفها.
- إنشاء مواقع الكترونية شاملة، يتم من خلالها نقل المعارف الصحيحة باللغات المتداولة في العالم وفي مقدمتها اللغة الإنجليزية.
- اصدار الأشرطة السمعية والبصرية والأقراص المدمجة للتعريف بالإسلام، والعمل على توزيعها على أوسع نطاق ممكن.
- الدعوة إلى الحوار الهادف بكل الوسائل لتحسين صورة الإسلام والمسلمين لدى الآخر، وإظهار جوانب السماحة والقيم الإسلامية.

قائمة المراجع:

- أحمد القديدي. الإسلام وصراع الحضارات (44 ذي الحجة, 1415هـ).. كتاب مجلة الأمة (قطر)
- المحجوب بن سعيد. الإسلام والإعلاموفوبيا (2013).. دار الفكر.(دمشق)
- برنارد لويس. العرب في التاريخ. (نبيه فارس ومحمود يوسف زايد، المحرر) (1954).دار العلم للملايين (بيروت).
- حسين معدي. علماء وحكماء من الغرب أنصفوا الإسلام (2008). دار الكتاب العربي (دمشق)
- عبد الله إبراهيم الكيلاني. إدارة الأزمة، التراث والآخر. (131 جمادي الأولى, 1430هـ). (مركز البحوث والدراسات، المحرر) كتاب مجلة الأمة، (قطر)
- ماجد الغرباوي. التسامح ومنابع اللاتسامح. (2008). الحضارية (بغداد).
- مالك بن نبي. في مهب المعركة (2002). دار الفكر(دمشق)

- محمد أبو زهرة. العلاقات الدولية في الإسلام (1995).دار الفكر العربي (القاهرة)
- محمد المزياني. السياحة تعزز التسامح والتفاهم بين الشعوب (30 09, 2011).. تم الاسترداد من موقع قناة ألمانية بالعربية DW: https://2u.pw/5BsWp
- أحمد حميد الله. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة (1985).دار النفائس(بيروت)
- محمد عمارة. الإسلام والآخر (بلا تاريخ).. مكتبة الشروق الدولية.(القاهرة)
- محمد غزيول. الصورة النمطية للإسلام والعرب من خلال الصناعة السينمائية. (بلا تاريخ). مطبعة أنفوا (فاس).
- محمد وقيع الله. الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة (2006). المكتبة الإسلامية (الرياض)
- يحي العريضي. الإسلام والغرب (1998). (المجلد 1). دار الرشيد (بيروت)
- 15.Huntington,S.who Are we (2004).the challenge to Americans national Identity. Simon of schustes (New York).

دور الفرد المسلم في تحسين وتسويق صورة الإسلام لدى الآخر-الغرب- (العلماء، الباحثين، والإعلاميين أنموذجا)،

The Role of the Muslim Individual in Improving and Marketing the Image of Islam to the Other -the West- (Scholars, Researchers, and Media, as a Model)

د. موسى سيد علي، جامعة البليدة 2 –لونيسي علي- الجزائر
Sidalimoussa5@gmail.com



يعتبر الحوار مع العالم الغربي بمثابة التحدي الكبير الذي يواجهه كل مسلم في هذا العصر، وهذا تبعا لجملة من التراكمات التي حدثت في الماضي ومازالت تحدث في وقتنا الحاضر، والتي من بينها الحروب وبعض الأحداث المفبركة التي غرضها تشويه صورة الآخر لأغراض مدسوسة بغية الوصول لأهداف ما، حيث سيطرت الصناعات الإعلامية الغربية على تدفق الأخبار والمعلومات المشوهة لحقيقة العالم الإسلامي أجمع، ما جعل صوت الإعلام العربي غير قادر على الوصول والنقاش ومواجهة الماكينة الإعلامية والدعائية للغرب، وقد هدفت هذه الورقة العلمية التحليلية إلى اقتراح سبل وطرائق من خلالها يمكن لنا كمجتمع إسلامي تفعيل دور المسلم في صناعة وترويج الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين كخيار يمكن الاعتماد عليه في تحسين وتصحيح تلك المغالطات والفهم الخاطئ لصورة الإسلام والمسلمين.

الكلمات المفتاحية: الحوار، العالم الغربي، تشويه، الإسلام، المسلمين.

Abstract:

Dialogue with the Western world is the great challenge that every Muslim faces in this era, this is according to a series of accumulations that occurred in the past and still occur in the present day, among them are wars and some fabricated events whose purpose is to distort the image of the other for hidden purposes in order to reach some goals, western media industries dominated the flow of news and information distorting the reality of the entire Islamic world, what made the voice of the Arab media unable to reach and debate and confront the media and propaganda machine of the West, This analytical paper aimed to propose ways and methods through which we as an Islamic society can activate the role of the Muslim in creating and promoting the true image of Islam and Muslims as a reliable option in improving and correcting those inaccuracies and misconceptions of the image of Islam and Muslims.

Keywords: Dialogue, The Western world, Distortion, Islam, The Muslims.



مقدمة :

لا يزال الصراع بين العالم الإسلامي والعالم الغربي قائما منذ الأزل، وبدرجة خاصة بعد جملة أحداث التشويه المنهجي التي تمت صناعتها في المخابر خلال السنوات القليلة الماضية لعل أبرزها أحداث (11 سبتمبر 2001، والفيلم السينمائي الهولندي "فتنة"، والرسوم المسيئة للنبي صلى الله عليه وسلم في الصحيفة الدانماركية) التي كانت بمثابة الأحداث الذي جعلت من كلمة "العرب" و"المسلمين" بكونها مرادفة للإرهاب وكل ما هو مخيف لدى العالم الغربي، فإذا كان هدف العالم الإسلامي هو تحسين الصورة وتصحيح المغالطات والدعايات التي يقوم بنشرها الإعلام الغربي عن الإسلام والمسلمين، فإن الغرب لا يزال يخلق الأزمات من أجل المزيد من التشويه بغض النظر عن ماهية البواعث الكامنة وراء هذا العدوان.

وفي ظل هذا العدوان المتواصل والأحداث المتسارعة وظهور "الإسلاموفوبيا" في الغرب، فإن إشكالية العالم الإسلامي اليوم تتمثل في كونه غير قادر على مجاراة الخطاب والإعلام الغربي وماكينته الدعائية العدائية للإسلام والمسلمين بصفة عامة، لذلك جاء تفعيل دور المسلمين ضرورة ملحة من أجل تصحيح تلك المغالطات المقصودة، وفي ظل هذا التزييف الإعلامي للغرب عن حقيقة الإسلام والمسلمين نجد أن العالم الإسلامي يواجه صعوبة في تسويق الحقيقة وتحسين الصورة لدى الآخر، وإن كان هذا المسعى واجب الجميع بغض النظر عن المناصب والمكانة الاجتماعية التي يشغلونها، إلا أن التأثير هنا يختلف، فعلى سبيل المثال فإن دور العلماء والباحثين والإعلاميين له تأثير واسع الأفق بالمقارنة مع الآخرين، ومن هنا جاء تفعيل دور هؤلاء كبديل في ظل غياب استراتيجية مدروسة في العالم الإسلامي والتي من شأنها تصحيح وتقويم ما يمكن تقويمه.

أولا-الغرب ومحاولات تشويه صورة الإسلام والمسلمين:

كثرت في السنوات القليلة الماضية حملات التفتيش والاعتقالات والمضايقات على العرب والمسلمين الزائرين والمقيمين في العديد من الدول الغربية من قبل الأجهزة الأمنية المختلفة بسبب وبدون سبب، فمنذ أحداث 11 سبتمبر 2001 أصبحت العمليات الإرهابية والجرائم مقترنة بالعرب والمسلمين وانتشرت بذلك ثقافة الخوف من الإسلام. هذا الدين الذي تم تصويره وتقديمه للرأي العام من قبل الصناعات الإعلامية والثقافية على أنه دين القتل والعنف والإقصاء وعلى أنه دين غير متسامح، كما استهدفت حملات إعلامية ودعائية مغرضة ومضللة عديدة الدين الإسلامي من خلال التخويف من الإسلام والمسلمين والتحريض ضدهم ومطالبة أجهزة الأمن من تكثيف حملات الاعتقالات والتدخل في تفاصيل الحياة الشخصية للمسلمين المقيمين في الدول الغربية ومراقبة تنقلاتهم ونشاطهم وحتى تصرفاتهم اليومية. وهكذا انتشرت صناعة الخوف وتفننت فيها بعض الدول والجهات التي تستهدف كل ما هو عربي ومسلم. (محمد قيراط، 2022، ب.ص)

لقد اهتزت صورة الإسلام والعرب في السنوات الأخيرة في الرأي العام الدولي بصورة خطرة جدا أسهمت في العديد من المرات في اتخاذ مواقف معادية وسلبية ضد الشعوب العربية والإسلامية، وكنتيجة لهذه الحملات المنهجية والتشويه والتضليل المنظم أصبح الرأي العام في الدول الغربية معاد ومتخوف من الإسلام والمسلمين والعرب وأصبح ووفق الصور النمطية التي قدمت له يؤمن بصراع الحضارات وصدامها، والأخطر من هذا فإن قادة الرأي وصناع القرار والساسة وحتى نسبة كبيرة من المثقفين انضموا إلى قافلة التهجم على الإسلام واستهدافه وتشويهه، وأصبح العديد ينّظر ويفسر في شؤون الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية عن جهل وبثقافة الحقد والكراهية والانتقام. (نفس المرجع، ب ص)

ومما لاشك فيه أن الإسلام منذ ظهوره شكل متغيرا فاعلا في تاريخ الحضارات الإنسانية، لأنه دين وحضارة، بخلاف الديانات السماوية الأخرى، لذلك كان ولا يزال ينظر إليه في الغرب نظرة شك وريبة وخوف، هذه النظرة تزداد حدة وعمقا ونحن ندلف بوابة القرن الحادي والعشرين، لقد انتشر في الغرب الخوف من الإسلام وهو خوف غير مبرر وأصبح الإسلام يوصف بالعدو البديل بعد الشيوعية التي سقطت والخطر القادم الذي يهدد حضارة الغرب، وبدأ الترويج لنظرية صراع الحضارات، وصرنا نرى اليوم وبدون أدنى شك استعدادا غربيا لصراع جديد ضد الإسلام والمسلم، غير أن هذا الصراع مختلف هذه المرة عما عهدناه من الغرب، فالمسألة ليست احتلالا لبلدان العالم الإسلامي ونهب خيراتها، فهذه قد عرفناها وتعاملنا معها ولم تعد تخيفنا، إنه يريد أن يفرض علينا صراعا يريده الحلقة الأخيرة في تاريخ صراعاته مع الإسلام و المسلم، إنه يريد في هذه المرة القضاء التام على الإسلام تاريخا وحضارة ومفهوما ورسالة و رمزا. (الغزال علي أحمد محمد، شوقي بشير عبد المجيد، 2006، ص01)

ومن هنا يتجلى لنا عمق الصراع بين الغرب والعالم الإسلامي، حيث تتجلى أن هذا الصراع ليس صراعا من أجل الثروات أو الموقع الاستراتيجي الذي تتمتع به الدول العربية أو الإسلامية جمعاء، وإنما هو صراع عقائدي في الأصل يمتد تاريخه لمرحلة ظهور الإسلام إلى يومنا هذا، جامعا كل أشكال التغيرات الاجتماعية والثقافية والتاريخية والسياسية التي حدثت خلال مراحل تاريخية معينة مثل عصر الفتوحات الإسلامية يوم كانت الحضارة الإسلامية في أوج عطائها على كافة الأصعدة سواء في جانبها العلمي، الاقتصادي، السياسي وحتى الديني، فالقضية هنا هي مسألة انتقام وأحقاد تاريخية ضد كل ما يرمز للإسلام، لذلك نجد الغرب اليوم يرفض الحوار الصريح والاحترام المتبادل المبني على الحقيقة المجردة من الأكاذيب والأحداث المفبركة التي غرضها تشويه صورة الإسلام، مثل خلق الأزمات والحروب في البلدان الإسلامية والاستعانة بالمرتزقة في ثوبهم الإسلامي للقتال فيها وتصويرهم بأنهم مسلمين إرهابيين، بل ونجده في نفس الوقت يسخر كل الإمكانيات المتوفرة من إعلام ودعاية وأموال.. إلى غيرها من السبل والمشاهد والأحداث المفبركة التي غرضها الإساءة للدين الإسلامي والمسلمين عامة.

وحتى حملات التبشير والإغراءات الباهظة المخصصة لها يمكن اعتبارها من الأساليب المخصصة والمدروسة من أجل محاربة الإسلام من الداخل والدعوة للتخلي عن العقيدة الإسلامية، هذه الدعايات التي غالبا ما نجدها تستهدف الفئات الهشة في كل المجتمعات الإسلامية واستغلال قلة وعيها وضعف التدين لديها من أجل تجنيدها لمحاربة الزحف المارد للدين الإسلامي الذي أصبح يزعج الغرب كلما تعرض للمضايقة ومختلف أشكال وأحداث التشويه التي تعترضه.

ثانيا- **كيف السبيل لتسويق صورة الإسلام الصحيحة لدى الآخر؟:**

إن العالم الإسلامي كأمة اليوم وبصفة عامة يقف أمام مفترق طرق غير مسبوق في ظل الزحف الحضاري والإعلامي الغربي عليه الذي يحاول بكل السبل احتلال موقعه وتجريده من ذاتيته وطمس هويتها لا بد له اليوم أن ينفض الغبار على نفسه من خلال إحياء موروثه الديني والحضاري والعلمي من خلال إيجاد الحلول التي من شأنها رد الاعتبار لنفسه ومواجهة الآخر والصمود في وجه العداء المستمر والمتواصل ضد الإسلام والمسلمين في شتى بقاع الأرض، وهذا من خلال بعض الأساليب البديلة التي يمكن من خلالها نقل الصورة الحقيقية والصحيحة للإسلام لدى الآخر في ظل التظليل الإعلامي الموجود في الغرب عن حقيقة الإسلام والمسلمين ورسالتهم النبيلة في هذا العالم، ولعل من أبرز الطرائق أو السبل نجد ضرورة تفعيل دور العلماء والباحثين والإعلاميين أيضا ومختلف السبل الأخرى المتوفرة.

1- دور العلماء والباحثين والإعلاميين في تحسين صورة الإسلام والمسلمين:

أ- دور العلماء في تحسين صورة الإسلام والمسلمين لدى الآخر: يقول الدكتور عبد الفتاح إدريس أستاذ الفقه المقارن بجامعة الأزهر "أن تصحيح صورة الإسلام لم تعد مهمة أفراد أو جماعات في دولة إسلامية، بل أصبحت دعوة عالمية يجب أن تتبناها منظمة لها صفة العالمية، لها منهج غير عاطفي، لا يتخذ من الشعارات والبيانات والتصريحات منهجا لمهمته، تجند للقيام بهذا العمل من صح فكرهم، ورسخ علمهم، وشهد لهم بالمقدرة على ما يناط بهم" (أحمد السيد النجار، محمد عبد الهادي، 2015، ص02).

كما طالب الدكتور عبد الفتاح "أن تكون في الشرق والغرب لقاءات مشتركة بين علماء دين مسلمين وغير المسلمين، وإفساح المجال لعلماء الدين السماوي غير الإسلامي بالتحدث في هذه اللقاءات، فإن هذه الديانات السماوية مساحات مشتركة، لتأكيد أن الإسلام لا يعرف العنصرية، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يؤكد هذه الأمور المشتركة بين الديانات السماوية، إذ قال: (الأنبياء أخوة لعلاّت، أمهاتهم شتى ودينهم واحد)، ومعنى: بنو العلات: بنو الرجل الواحد من أمهات شتى، بما يعبر عن وحدة الأديان التي جاءت بها الرسل، ومن ثم فإن من عوامل تصحيح صورة الإسلام إفساح المجال لغير المسلمين في التحدث عن الإسلام وسائر الديانات بمحضر من المسلمين، لتصحيح الفكر المغلوط في نفوس غير المسلمين عن الإسلام، بل إن من المنتسبين إلى الإسلام الذين تزور عنهم عدسات الفضائيات، من لا يعرف عن الإسلام إلا قشوره". (نفس المرجع، ص02)

وقبل مُدّة أسلم "كريستوفر مورغان" وقد كان محلل الشؤون الدينية في صحيفة (صانداي تايمز) وكان مِمّا قال: "إن البروباغاندا المسلمة والعربية عاجزة عن وضع صورة إيجابية عن الإسلام، والمطلوب أن نصنع صورة صحيحة وسليمة عن أنفسنا"، وختم مستشهداً بقول لأحد الذين اعتنقوا الإسلام من مواطنيه: "أشكر الله أنى اكتشفت الإسلام قبل أن اكتشف المسلمين. (علي عبود معدي، 2022، ب.ص)

إنّ من أعرق المشكلات التي تُواجه المسلمين؛ وجود حالة من التصرفات المذمومة، والأفكار المنحرفة التي تلتصق بالإسلام أو تنسب نفسها للإسلام؛ والإسلام منها براء، لهذا نشطت حركات الإصلاح في العالم الإسلامي التي تُحاول تتبع الاهتراء في التفكير؛ وتنقية الإسلام من الدواخل المُغايرة لمنهجه؛ أو الأفكار الخارجيّة التي تُحاول أن تسود فيه؛ فضلاً عن استثمار العدو للخلل في نفسية بعض المنتسبين إليه وتحريك أفكارهم وتصرفاتهم نحو ما يخدم مصالحهم، ومن هنا نرى كيف وقف علماء الإسلام بوضوحٍ وقوّة ضدّ الخوارج الذين فهموا الدين بطريقة ملتوية وأسباب باطلة؛ وحرّفوا مُراد الله، واجتهدوا في فهم الدين بعيداً عن السنّة النبوية؛ ثمّ قاموا بتكفير ولاة المسلمين وعلى رأسهم علي بن أبي طالب؛ وخرجوا على جماعة المسلمين، وأمعنوا فيهم القتل وسفك الدماء واستحلال الأعراض بدون حق. (خباب بن مروان الحمد، 2019، ب.ص)

وقد وقف علماء الإسلام ضدّ حركات الشيعة والرافضة والفِرق الباطنيّة التي كفّرت غالب الصحابة؛ وادّعوا العصمة في أئمتهم، وقاموا بتأويل القرآن على غير تأويله الصحيح؛ وصرفوا نصوصه لما يعكس نظرتهم للأحداث السياسيّة، وضخّموا من قضايا اجتهاديّة أو فقهيّة؛ لتكون في منصب الاعتقاد ونصب الولاء والبراء؛ وخاصّة في اعتقاد الإمامة، أو الولاية التكوينيّة، وانقسموا أقساماً كثيرة، وقاموا بأعمال وخرافات وطقوسٍ ما أنزل الله بها من سلطان؛ في بكائياتهم في الحسينيات التي يلتقون فيها وينوحون على مقتل الشهيد الحسين بن علي – عليهما السلام – وما يعتمل في أذهانهم ونفسيتهم من تحريك الأحقاد، وتثوير النفوس ضدّ مخالفيهم من أهل السنة؛ فضلاً عمّا يعرضه الإسلام في ضرب الرؤوس بالفؤوس، والأجسام بالموس. (نفس المرجع، ب.ص)

ومع أنّ علماء الإسلام كانوا يوصون بالزهد والروع وحسن التعبد والتقلل من الدنيا، والسعي لمكاسب الآخرة؛ إلاّ أنّهم وجدوا فئة شطحت عن الطريق وغلت في دينها؛ واستخدمت الخرافات والتواشيح الشعرية؛ والرقص أثناء الذكر؛ واستخدام أدوات الطرب وقت قراءة القرآن والأناشيد؛ فضلاً عن مبالغةٍ شديدةٍ يقومون بها في الاستغاثة بالأموات، وقصدهم بطلب الحوائج؛ مِما يُخشى فيه الوقوع في الشرك وعبادة القبور، وعودة الوثنيّة من جديد في الأمّة. (نفس المرجع، ب.ص)

ومن هنا يتجلى لنا بوضوح تام أهمية تفعيل دور العلماء في تحسين وتصحيح الصورة المشوهة للإسلام وأهمية ذلك بالنسبة للآخر (العالم الغربي)، فتصحيح صورة الإسلام ليس بالضرورة أن تكون من أجل الآخر فقط، بل من أجل حماية المسلمين والإسلام من الأفكار الدخيلة على دينهم والتي بسببها انتشرت العديد من المغالطات والفئات التي تدعي الإسلام وهي على خطأ جسيم في حقيقة الأمر، فالمعالجة الفعلية لهذه المسألة يجب أن تبدأ من الداخل ثم تنتقل إلى الخارج، وبهذه الطريقة نضمن الانتشار الصحيح للعقيدة وصورة الإسلام والمسلمين إلى الغرب، لأن مشكلة الإسلام الفعلية اليوم –بنسبة ما- تكمن في

أفعالنا نحن المسلمين التي لا تمد للإسلام بصلة في بعض الأحيان، وهذا ما يمكن اعتباره من بين العوامل المساهمة في تشويه صورة الإسلام لدى الآخر.

ب- دور الإعلام في تحسين صورة الإسلام والمسلمين لدى الآخر: نظراً لأهمية الإعلام وتأثيره القوي والرهيب والواسع على الجماهير فقد اهتمت به الدول والمؤسسات وجماعات الضغط، ورصدت له الأموال الطائلة وهيأت له الإمكانات الضخمة، الكل يكافح من أجل الاستحواذ على مشاعر وعواطف الجماهير من أجل تحقيق غاياته. وبقدر قوة الإعلام، وما يبذل فيه من جهود يكون أكثر تأثيراً واستحواذاً على آراء الجماهير والقدرة على ترسيخ الأفكار والمعلومات التي ينقلها ذلك الإعلام بصرف النظر عن عدالتها ومصداقيتها، وكما هو واضح وجلي فإن الإعلام الغربي هو المهيمن والمسيطر والمؤثر في كثير من الميادين بسبب امتلاكه للوسائل والإمكانات التقنية والفنية والبشرية المتميزة والقادرة على أداء الرسالة المراد إيصالها إلى المتلقي بنجاح وفاعلية. (علي عبود معدي، مرجع سابق)

وأصبح الرأي الذي تطرحه وسائل الإعلام الغربية هو الرأي أو الخبر يؤثر في قناعة العام العالمي سواء كان صادقاً أو غير صادق، بل يصل الأمر إلى حد قيام الإعلام الغربي بعرض أخبار الأمم الأخرى وخصوصاً أمتنا الإسلامية للعالم وبالشكل الذي يريد، وذلك بسبب ضعف تأثير الإعلام في البلاد الإسلامية. نظراً لما يعانيه من أزمات شديدة في مجالات متعددة، ولعل أشدها سوءاً عدم وجود خطة أو آلية إعلامية موحدة على المستوى العربي أو الإسلامي، وهو ما يجعله بلا هوية، غير محدد الأهداف والغايات متعدد الولاء، والخطابات، وفي كثير من الأحيان متعاكس الاتجاهات. ولسوء الحظ فإن هذا الإعلام قد أخفق خلال العقود الماضية في أن يكون مؤثراً أو أن يكون منافساً، أمام السيل الإعلامي العرم الذي ينطلق من دوافع عديدة وخلفيات أيديولوجية وتاريخية تكن العداء لكل ما هو إسلامي ورسم صورة مشينة للمسلمين. وعلى العكس فقد فقدت بعض وسائل الإعلام العربية مصداقيتها خلال العقود الأربعة الماضية حيث استفاق المواطنون من أحلامهم التي أشبع الإعلام مشاعرهم بها تحت وطأة الهزيمة وهول الكارثة. (نفس المرجع)

ولأهمية الجانب الإعلامي في هذا العصر، يستعرض "محمد قيراط" في مقاله على الموقع الإلكتروني لجريدة "الشرق" جملة من الإجراءات التي يجب أن تقوم بها الدول العربية والإسلامية لبناء حوار فعال لمواجهة الوضع غير السوي ولتقديم الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين وللرد على الأساطير والأكاذيب في حق الإسلام والمسلمين هي: (محمد قيراط، 2022، ب.ص)

- تحرير الإعلام العربي من القيود ومن القوانين البالية: وهذا يعني تحرير القائم بالاتصال والمثقف العربي من كابوس الرقابة الذاتية حتى يتمكن من إنتاج رسالة إعلامية قادرة على المنافسة والتأثير في الرأي العام سواء على الصعيد المحلي أو الدولي، وكذلك جعل المؤسسة الإعلامية وسيلة للإبداع والإنتاج الفكري ومنبرا للحوار والنقاش البناء.

- توفير الإمكانيات والوسائل وشروط النجاح للقائم بالاتصال حتى يؤدي رسالته على أحسن وجه. والعمل على تطوير مهاراته وإمكاناته من خلال دورات تعليمية وتدريبية بصفة دورية ومستمرة.

- تجديد الخطاب الإعلامي العربي: الخطاب الإعلامي الإسلامي والعربي بحاجة إلى تطوير وإلى منهج جديد في الشكل وفي المضمون وفي المنهجية. حيث ضرورة تحريره وإعطائه الحرية الكاملة لطرح القضايا الرئيسية التي تهم الشارع والرأي العام محليا أو دوليا مع ضرورة تماشيه مع متطلبات العصر واحتياجاته، وكذلك الخروج من النمطية والرتابة والتبعية.

- إنشاء مرصد عربي لوسائل الإعلام الغربية: العرب بحاجة إلى مرصد لوسائل الإعلام الغربية لمتابعة التجاوزات في حق الإسلام والمسلمين والعرب والرد عليها بالسرعة الفائقة وتفنيد كل الأساطير والأكاذيب والحملات الدعائية، هذا الرصد يجب أن يكون منهجيا وبطريقة منظمة للمتابعة أولا بأول كل ما يسيء للإسلام والمسلمين والعرب في مختلف وسائل الإعلام العالمية وفي مختلف المنتجات الثقافية.

- إنشاء مركز للدراسات والبحوث: يقوم بتزويد صانع القرار بالمعلومات والإحصائيات الضرورية لاستخدامها في تصحيح صورة العرب والمسلمين وفي إقامة حوار منهجي وبناء مع الآخر.

لقد آن الأوان لترشيد ودعم الإعلام العربي المسلم وتجنيده بمختلف الإمكانيات اللازمة ليساهم في ترويج الصورة الحسنة للإسلام والمسلمين في شتى بقاع الأرض، هذا في ظل الحرب الشعواء التي يشنها الإعلام الغربي ضد الإسلام والمسلمين وقرآنهم ورسولهم عليه أضل الصلاة والسلام، وهذا عن طريق تأسيس مكاتب إعلامية تطلع بشكل مستمر على ما يقوله وينقله الإعلام الآخر عن الإسلام والمسلمين لمواجهته ودحض دسائسه وبرامجه التي لا تنتهي بالصراخ والعدوان ضد كل ما يرمز لما هو إسلامي.

ج-دور الباحثين والمراكز البحثية في تحسين صورة الإسلام لدى الآخر: غالبا ما نجد مع نمو أي ظاهرة اجتماعية أو سياسية أو ثقافية أو اقتصادية، ينبري لها أهل الخبرة والاختصاص في الإطار المؤسسي الذي يجمعهم لدراسة تلك الظاهرة، وتقديم نتائج أبحاثهم وخلاصة آرائهم إلى الحكومة أو الأجهزة التنفيذية في الدول الغربية. (خالد الشرقاوي السموني، 2019، ب.ص)

وانطلاقا من هذه الأهمية للمراكز البحثية والمعاهد الفكرية واستشعارا بدورها المؤثر في البنية السياسية والثقافية والاجتماعية، تأتي أهمية استكشاف وضعياتها الحالية، وأبعاد الدور الفعلي الذي يمكن أن تؤديه في العالم الإسلامي، وبالخصوص فيما يتعلق بتحسين صورة الإسلام لدى الآخر. (نفس المرجع، ب.ص)

ومما لا شك فيه أن صورة الإسلام و المسلمين قد شوهت بشكل كبير في وسائل الإعلام الغربية، فقد دأبت وسائل الإعلام الغربية على وصف المسلمين بالتخلف والجهل والتعصب، وكونهم لهم صلة وثيقة

بالإرهاب والعنف والإجرام، وكأن الدين الإسلامي هو دين يحث على الإرهاب و على العنف ويشجع على عدم الأمان والاستقرار. (نفس المرجع، ب.ص)

وعلى الرغم من وجود اتجاه عام سابق للعداء ضد الإسلام، إلا أنه منذ بداية التسعينات من القرن الماضي أصبح الخطاب الإعلامي العالمي يتجه بشكل واضح وظاهر لكافة شعوب العالم وبصفة خاصة الشعوب الغربية بمحاولة الإساءة للدين الإسلامي والمسلمين ووضعهم في إطار ذي جانب عدائي للحضارة الغربية بصفتها الحضارة المتميزة والقوية في هذا العصر. ويمكن لنا تحديد بداية ظهور ذلك الاتجاه، منذ عام 1993، عندما قام المفكر الأمريكي "صمويل هنتنجتون" بالتنظير لحرب قادمة سوف تواجهها الحضارة الغربية بعد أن انتهت من التو من حربها ضد الاشتراكية العالمية بانهيار الاشتراكية في عام 1989. (أليكسي جورافيسكي، 1996، ب.ص)

لمّا كان الدفاع عن الإسلام بالوسائل المتاحة واجباً وفريضة على كل مسلم ،كان على المراكز البحثية والثقافية والفكرية المتعلقة بالعالم الإسلامي العمل على تحسين صورة الإسلام وتوضيح دورها عملها وأهميته على الساحة العالمية، ومد الجسور مع الآخر وتحسين العلاقات مع صناع القرار في أنحاء العالم كافة، وتعزيز قيم الحوار الحضاري والتصدي لكل الحملات المعادية للإسلام. (مروان الفاعوري، 2013، ب.ص)

فالخطوة الأولى التي ينبغي أن نخطوها في سبيل مواجهة الحملة المعادية للإسلام هي أن نمارس نقداً ذاتياً صادقاً لواقعنا الحالي وأن ندرك بأنفسنا أن الصورة السلبية التي يروجها الغرب عن واقع المجتمعات الإسلامية تحتوي على قدر كبير من الحقيقة وعلينا هنا أن نتحلى بالقدرة على النقد الذاتي بنفس القدر الذي ننتقد به الآخر. (خالد الشرقاوي السموني، مرجع سابق ذكره، ب.ص)

ومن هنا فإن أي عمل ناجح وجدي في سبيل إصلاح صورة العرب والمسلمين ورد الحملات المعادية لهم في الإعلام الغربي لابد أن يبدأ بالاعتراف بالواقع وبالإقرار به وأنه إذا أردنا أن نوقف عملية الغش والتلاعب التي تقوم بها أجهزة الإعلام الغربية من خلال استغلال سلبيات الواقع العربي والإسلامي الراهن لتبرير الهجمة العنصرية والسياسات العدائية ضد المجتمعات العربية والإسلامية، فينبغي علينا أولاً أن نبدأ بتغيير هذا الواقع بما يتفق وقيم الحضارة الإسلامية وثوابتها أولاً وبما يتناسب مع القيم والمبادئ التي أصبحت محل اتفاق بين الحضارات الإنسانية ثانياً.(نفس المرجع، ب.ص)

ولذلك ينبغي بنا أن ننظر إلى مسألة الصورة المشوهة للإسلام في الإعلام الغربي بجدية تامة وأن لا نعدها قضية هامشية لا قيمة لها، وقد نبه كثير من الباحثين والمختصين من الطرف الإسلامي ومن

الطرف الغربي على حد سواء إلى خطورة هذه المسألة وتأثيراتها السلبية على العقل الغربي والسلوك الغربي منذ سنوات عديدة. (عبد القادر طاش، (2002)، (ب.ص).

ويجب التذكير بأن نجاح جهودنا في السعي نحو تصحيح صورة الإسلام والمسلمين في المجتمعات الغربية مرهون بعاملين اثنين، أولهما : وجود الاقتناع التام من النخبة المثقفة من المسلمين بضرورة العمل الجاد من أجل تغيير تلك الصورة، ومن المؤكد أن هذا الاقتناع موجود قبل أحداث سبتمبر 2001 ولكنها تعززت أكثر بعد الأحداث، ولذلك تنادى الكثيرون على مختلف المستويات الرسمية والفكرية والشعبية على بذل الجهود في هذا الميدان، وبدأت بعض المراكز الإسلامية الناشطة في المجتمعات الغربية، وبخاصة في الولايات المتحدة، تنظيم برامج ونشاطات تستهدف الرد على الحملات المعادية للإسلام وتوضيح الصورة الصحيحة عنه. (خالد الشرقاوي السموني، نفس المرجع السابق)

ونشير هنا، على سبيل المثال، إلى ما يقوم به مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (Cair) من دور ملحوظ في مواجهة محاولات تشويه صورة الإسلام والمسلمين من قبل الوسائل الإعلامية والدوائر السياسية في أمريكا، وفي توعية الرأي العام الأمريكي بقضايا الإسلام والمسلمين وتحسين صورته، وينشط المجلس الآن في صنع الأخبار اليومية للمسلمين وتوزيعها على وسائل الإعلام الأمريكية والغربية عن طريق شبكة (Islam- info.net) وهي من أكبر شبكات الاتصال المسلمة في الغرب، كما يساهم المجلس في الرد على ما كتب ضد الإسلام والمسلمين في الصحف الغربية، وبخاصة الأمريكية. (أحمد محمود أبو زيد، 2007، ب.ص)

أما العامل الآخر من العوامل التي يعتمد عليها نجاح جهودنا في تصحيح الصورة في وجود بيئة قابلة للتغيير في الغرب، وتدل بعض المؤشرات الجديدة على أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر فتحت أعين الكثيرين في المجتمع الأمريكي على حقيقة جهلهم وعدم معرفتهم بالإسلام فبدؤوا يتساءلون عنه إما بدافع الرغبة الحقيقية في المعرفة أو بدافع الفضول أو بدافع التعرف على العدو.

إن عدم المعرفة بالإسلام، بسبب نقص المعلومات عنه أو عدم الاهتمام المسبق به يعد عنصراً مساعدا على التغيير ويسهل مهمتنا كثيراً، ويعترف القس والأستاذ الجامعي الإسباني "ميليو غاليندر" أن أول ما يتعين على الغربيين فهمه كي يفهموا الإسلام هو تأهيل أنفسهم لكي يكونوا قادرين على تحقيق مثل هذا الفهم. وقد أدلى "غاليندر"، الذي يدير مركز الدراسات الإسلامية المسيحية في مدريد، بهذا التصريح بعد أن اكتشف أن الغالبية الكبرى من قساوسة وراهبات الكنيسة الكاثوليكية يجهلون الإسلام تماما. (عبد القادر طاش، 2002، ب.ص)

إن الأحداث الأخيرة وتداعياتها وفرت بيئة ملائمة للعمل من خلال هذا الاستعداد والقابلية للتعرف على الإسلام وتفهم قضايا المسلمين لدى الشعوب الغربية وبخاصة في أمريكا. كما أن رياح الانفتاح العالمي التي نتجت عن التطور المذهل في تقنيات الاتصالات الحديثة بشتى أشكالها، بالإضافة إلى مقتضيات العولمة الإعلامية والاقتصادية والثقافية، تساعدنا على الوصول إلى الجماهير الغربية بيسر وسهولة. (خالد الشرقاوي السموني، نفس المرجع السابق)

ومن هذا المنطلق نرى أن المراكز البحثية يمكن أن تلعب دورا أساسيا في الرد على المغالطات ودحض الاتهامات والافتراءات التي توجه للإسلام والمسلمين وتصحيح الكثير من المعلومات الخاطئة التي تروج حول الإسلام والمسلمين. (نفس المرجع السابق)

وحتى يتسنى لهذه المراكز تحقيق أهدافها لا بد من اعتماد خطة استراتيجية للتغيير على ما يمكن تسميته "صناعة الصورة البديلة" من خلال تقديم المعلومات الصحيحة وفق منظومة متكاملة ومستمرة غير منقطعة، وأن تتوجه جهود هذه المراكز في صناعة الصورة البديلة إلى القاعدة الشعبية العريضة في المجتمعات الغربية ولا تقتصر أو تركز على الساسة وصناع القرار، فإن الشعوب الغربية تبدي استعداداً وقابلية للتغيير، ولم يعد من الصعوبة اليوم الوصول إلى الجماهير عبر العديد من وسائل الإعلام وشبكات المعلومات وقنوات الاتصال الشخصي. كما أن العديد من المؤسسات المدنية في المجتمعات الغربية توفر لمراكز البحوث ساحة ملائمة لإيصال رسائلها إلى قطاعات متنوعة من الأفراد والجماعات. (نفس المرجع السابق)

كذلك من أجل صناعة الصورة البديلة إلى مزيج من العمل الإعلامي والعمل الثقافي والعمل الدبلوماسي التي تقوم به مراكز البحوث، فتغيير الصورة المشوهة وإحلال صورة بديلة مكانها لا يكفي لتحقيقه الاعتماد على نوع واحد من هذه النشاطات، بل نحتاج إلى الحركة في جميع هذه الجهات. وهناك بعض المراكز البحثية التي استطاعت أن تصل إلى وسائل الإعلام المؤثرة في الغرب وتوثق صلتها بالمؤسسات الإعلامية ذات النفوذ، ولاشك أن هذه العلاقات والصلات متى ما نمت ونضجت فستساهم في تثقيف أولئك الإعلاميين وتصحيح مفاهيمهم وتصوراتهم عن الإسلام وذلك عن طريق تزويدهم بالمعلومات والتعبير لهم عن الآراء حول القضايا والموضوعات التي تتعلق بالدين الإسلامي. (نفس المرجع السابق)

وتمارس المراكز أيضا ألوانا متعددة من النشاط الثقافي عبر وسائل متنوعة مثل: توزيع الكتب والنشرات وإقامة المعارض والمهرجانات، وتقوية برامج التبادل الثقافي مع مراكز البحوث وهيئات التدريس في الجامعات الغربية. وأحيانا يكون للاتصال الشخصي لأعضاء المراكز البحثية مع المفكرين الغربيين دور فعال في تكوين الصور الذهنية وتغييرها، خاصة وأنه اليوم تتوافر لنا وسائل وقنوات مثل شبكات التواصل الاجتماعي وأنظمة البريد الإلكتروني وغيرها، إذا علمنا أن الدول الإسلامية تمتلك حاليا عدداً من

المؤسسات الفاعلة والمعاهد ومراكز البحوث التي تحتاج إلى دعم مادي ومساندة معنوية لتؤدي دوراً رائدا في هذا الخصوص. (نفس المرجع السابق)

وإن المتتبع لحركة المراكز الإسلامية مثلا سيلحظ الدور العظيم الذي تقوم به لتحقيق أهداف الدعوة الإسلامية وتقديم الصورة الحقيقية للإسلام والتعريف بهذا الدين الحنيف وعمارة المساجد والعناية بها، بالإضافة إلى المعاهد والأكاديميات الإسلامية وإقامة الكراسي العلمية عن الإسلام في شتى الجامعات ومراكز البحوث المتقدمة في العالم، وما تقدمه سائر الجهات المعنية من خدمات وتعاون مع المراكز عبر ممثليات بلدانها الإسلامية في سائر الدول، وهي جهود مشكورة رأينا ومازال العالم يرى ويجني ثمارها في معرفة الدين الإسلامي المعرفة الحقيقية، وتصحيح المفاهيم الخاطئة عن أبنائه خاصة ما اجتهدت القوى المضادة له في ترسيخه في الأذهان من وسم الإرهاب وأن الدين الإسلامي يرعاه ويربي رعاياه عليه. (نفس المرجع السابق)

والجدير بالذكر في هذا السياق ، أن المراكز البحثية في أمريكا مثلا قامت -بعد أحداث 11 سبتمبر- بحملة كبيرة لتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام في جانب الإرهاب، وعدم ربط ما حدث من كارثة بالاعتقاد الديني أو التوجه الإسلامي، ونجحت المراكز الإسلامية في ذلك بحيث أقبل الكثير من الأمريكيين على الاستفسار عن الإسلام وتصحيح مفاهيمهم عنه، وتضاعف عدد من دخل في الإسلام أربع مرات عن المعدل السنوي بعد الأحداث، كذلك يقابل المسلمون في الخارج شبهات كثيرة تثار ضد الإسلام كحرية المرأة، وحرية الاعتقاد، والحدود الشرعية، وغيرها، وتقوم المراكز البحثية بكشف هذه الشبهات وتفنيدها وتصحيح النظرة تجاهها عن طريق استضافة العلماء وعقد الندوات وتوزيع النشرات. (نفس المرجع السابق)

وعلى هذا الأساس، فإن المراكز البحثية قد تصحح المفاهيم المغلوطة عن الإسلام والمسلمين بطريقة غير مباشرة، حيث إن كثيراً من غير المسلمين يأخذون تصوراتهم عن الإسلام والمسلمين من مصادر إعلامية غير محايدة، فيبنون الأفكار والقناعات على غير أساس صحيح، فعندما يتعرفون على المسلمين ويقرؤون عن الإسلام تتغير قناعاتهم وتصوراتهم ومفاهيمهم، وهذا ما يحصل يومياً في البلاد غير الإسلامية، وهذا ما نرى أثره حين يعجب غير المسلمين بسلوك المسلمين التعبدي والاجتماعي.

إن نجاح مهمة الباحثين والمراكز البحثية على اختلاف تخصصاتها ومجالاتها بصفة عامة في تصحيح صورة الإسلام والمسلمين ليست مهمة سهلة يمكن تنفيذها بارتجال وبشكل فردي، بل لابد فيها من العمل الجماعي القائم على تنسيق الجهود وعقد اللقاءات بين المراكز البحثية المهتمة بالدراسات حول الإسلام والمسلمين، وفي ظل تفاقم ظاهرة "الإسلاموفوبيا" تبدو الحاجة أكثر إلى تنسيق الجهود وربط جسور

التعاون بين مختلف الجهات المهتمة، وهو ما يستدعيه عمل المراكز البحثية والهيئات والمنظمات الإسلامية.

كما أن هذه المهمة لن تكون مجدية إلا إذا كان خطاب التصحيح موجهاً إلى الغربيين بلغاتهم، وهو أمر ليس من السهل تحقيقه نظراً إلى جملة من الحواجز والعوائق من بينها كون المهتمين والمتعاونين لا يتقنون لغات أجنبية في مستواها العلمي الأكاديمي الذي يسمح باكتساب منهج الرد والتفنيد، كما أن من العوائق صعوبة التسويق في الغرب لكل ما هو إسلامي خاصة إذا كان يتوجه بالدفاع عن حقائق الإسلام ضد التهم والافتراءات والطعون.

ولا غرو أن تكوين أساتذة جامعيين منتسبين إلى مراكز بحثية في الدول الإسلامية من أجل اكتساب مهارات التواصل مع المفكرين الغربيين أمر جد إيجابي، حيث يمكن الاستعانة بهم عند الحاجة من طرف المراكز البحثية و المؤسسات الجامعية في مجال تصحيح صورة الإسلام.

وأخيرا ينبغي التأكيد على أن المراكز البحثية في الدول الإسلامية في حاجة إلى الدعم المعنوي و المادي لأداء دورها على أحسن وجه ، خصوصا في مجال الدفاع عن قضايا الأمة الإسلامية.

خاتمة:

يتضح لنا من خلال هذا التدخل أن صورة الإسلام السيئة لدى الغرب صحيح قد ساهمت فيه العديد من العوامل، والتي ذكرناها سابقا من خلال هذه المداخلة لكن ما تم التوصل إليه من خلال مختلف القراءات ونحن بصدد تحضير هذا التدخل هو أن العالم الإسلامي نفسه ضحية لأفكار دخيلة لا صلة بينها وبين الإسلام الصحيح، هذه الأفكار التي أصبحت بمثابة أسلوب حياة يومي يعيش ويعتقد به الفرد المسلم دون تحري أو تحقيق في مصدر ومدى صحة تلك الأفكار التي استحوذت على عقله، لذلك من بين المهام الواجب القيام بها من طرف جميع الفاعلين في المجتمع أفراد أو مؤسسات لتصحيح العقيدة وحسن تسويق صورة الإسلام والمسلمين للآخر، هي إصلاح عقيدتنا وسلوكياتنا وأخلاقنا لتتناسب مع ما أمر به الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم، هذا حتى نكون على طريق سوي ومنهج صحيح عند مناقشة الآخر حول مختلف السموم والأفكار المعادية للإسلام التي يبثها من خلال تسخيره لمختلف الإمكانيات والوسائل في سعيه لتشويه صورة الإسلام والمسلمين على حد سواء.

قائمة المراجع:

- قيراط محمد، (2022)، في التشويه المنهجي للإسلام، مقال منشور على الموقع الإلكتروني لجريدة الشرق، الموقع: https://al-sharq.com.

- الغزال علي أحمد محمد، شوقي عبد المجيد، (2006)، الصراع الحضاري بين الغرب والإسلام ومصير الحضارة الإسلامية في القرن الحادي والعشرين (دراسة تحليلية)، رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية أصول الدين، قسم العقيدة الإسلامية، السودان.
- أحمد السيد النجار، محمد عبد الهادي، (2015)، من يصحح صورة الإسلام في الغرب؟، مقال منشور في جريدة الأهرام اليومي، مصر، 27 نوفمبر 2015، ص02.
- علي عبود معدي، (2022)، إعلامنا الإسلامي وضرورات المرحلة، مقال منشور في الموقع الإلكتروني لجريدة الرياض، السعودية، الموقع: https://www.alriyadh.com/25313.
- خباب بن مروان الحمد، (2019)، تحسين صورة الإسلام وسمعته ودواعي الاهتمام، مقال منشور في الموقع الإلكتروني لمجلة البيان: https://www.albayan.co.uk/Article2.aspx?id=6633 .
- محمد قيراط، (2022)، سبل تصحيح صورة الإسلام وبناء حوار فعال مع الآخر، مقال منشور على موقع جريدة الشرق، الموقع: https://al-sharq.com.
- خالد الشرقاوي السموني، (2019)، المراكز البحثية ودورها في تحسين صورة الإسلام، مقال منشور في الموقع الإلكتروني للمركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية، أنظر الموقع: https://webcache.googleusercontent.com/search?q=cache:aEXdPloGekJ:https://democr aticac.de/%3Fp%3D59974+&cd=1&hl=ar&ct=clnk&gl=dz .
- أليكسي جورافيسكي، (1996)، الإسلام والمسيحية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- مروان الفاعوري، (2013)، دور المراكز الفكرية والثقافية في تعزيز قيم الحوار الحضاري، من منشورات المنتدى العالمي للوسطية، سلسلة الفكر الوسطي.
- عبد القادر طاش، (2002)، رئيس تحرير صحيفة البلاد السعودية: المقال ورقة عمل مقدمة لندوة "صورة العالم الإسلامي في الإعلام الغربي بين الإنصاف والإجحاف" التي نظمتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو) في الرباط.
- أحمد محمود أبو زيد، (2007)، المسلمون.. في مستقبل أمريكا السياسي، أنظر الموقع: http://www.alukah.net/culture/0/802/#ixzz47pJGONNS26
- عبد القادر طاش، (2002)، رئيس تحرير صحيفة البلاد السعودية، ورقة عمل مقدمة لندوة "صورة العالم الإسلامي في الإعلام الغربي بين الإنصاف والإجحاف" التي نظمتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو) في الرباط.

دور وسائل الإعلام و رجال الدين و مراكز البحث في تصحيح الصورة الذهنية للإسلام والمسلمين لدى الغرب

The Role of The Media, Clerics and Research Centres in Correcting the Mental Image of Islam and Muslims in the West

ط/د. فروجي قويدر عبد الرحيم، جامعة مولود معمري تيزي وزو –الجزائر-
abderrahime2121@gmail.com



سنتناول في هذا المقال دور وسائل الإعلام بشكل عام ، في تشكيل الصورة الذهنية للإسلام و المسلمين لدى الغرب ، و ذلك من خلال تحديد المفاهيم الخاصة بالإعلام ، و الصورة الذهنية النمطية للإسلام و المسلمين في الثقافة و وسائل الإعلام الغربية كما تناولنا سبل و طرق تصحيح الصورة الذهنية للإسلام لدى الغرب ، من خلال توضيح دور الأزهر و المراكز البحثية في تصحيح هذه المفاهيم الخاطئة عن الإسلام و المسلمين.

الكلمات المفتاحية: الإعلام ، الصورة الذهنية ، لمراكز الفكر و الأبحاث .

Abstract :

In this article, we will discuss the role of the media in general, in shaping the mental image of Islam and Muslims in the West, by defining the concepts of the media, and the stereotypical mental image of Islam and Muslims in Western culture and media, as well as ways and ways to correct the mental image. To Islam in the West, by clarifying the role of Al-Azhar and research centers in correcting these misconceptions about Islam and Muslims .

Keywords: Media, mental image, think tanks and research.



مقدمة :

يشهد العالم في عصرنا الحالي تطوّراً رهيباً في وسائل الإعلام، حيث هيمنت هذه الأخيرة على مجالات الحياة السياسيّة ، الاجتماعيّة ، الفكرية والثّقافيّة ، و أدّت أدوارًا هامّة في تغيير بعض المفاهيم أو ترسيخ

مفاهيم أخرى قد تكون صائبة أو خاطئة ، فوسائل الإعلام تعدّ من أهمّ القنوات الفاعلة في تقديم الأخبار وتشكيل الصّور بطريقة مبهرة ومثيرة ومبالغ فيها ، حيث تؤدّي أدوارًا هامّة في المجتمعات الإنسانيّة ، وتأثّر في جوانب الحياة المختلفة ، حيث تمدّ الإنسان بمختلف المعلومات والأفكار ، الانطباعات والتّصورّات المختلفة ، و هو ما يُسهم في تشكيل مختلف الصّور ، و نلحظ أنّ هذه الوسائل عادةً تقوم بتقديم هذه المعلومات وِفق سيّاسة إيديولوجيّة تهدف إلى خدمة مصالحها وأغراضها وسيّاساتها والأشخاص الذّين يمتلكونها ويسيّرونها إنّ نجاح هذه الوسائل وتوسيع شهرتها بالدّرجة الأولى يعزى إلى مدى نجاحها في تشكيل الصّور الذّهنيّة ، وهذا ما تتوفرّ عليه وسائل الإعلام الغربيّة الكبرى ، والتي فرضت حضورها وسلطتها داخل أنحاء المعمورة في إطار ما يعرف بالعولمة الإعلاميّة. أدّت وسائل الإعلام الغربيّة دورًا سلبيًّا في تشكيل بعض الصّور الذّهنيّة عن العرب والمسلمين ، وتعزيز نظرة الاحتقار والازدراء اتجاه الإسلام والمسلمين ، فوسائل الإعلام الغربيّة خاصّة الأمريكيّة والفرنسيّة قد شكلت العديد من الصّور التي تفوح منها العنصريّة والكراهيّة خاصّة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001.

تزداد صورة الإسلام و المسلمين تشويها و تحريفا في وسائل الإعلام الغربية في عصر تزداد فيه القوة التأثيرية لوسائل الإعلام و قدرتها على تشكيل الصورة النمطية عن الأفراد و الشعوب ، باعتبارها المصدر الأساسي لاستقاء و تلقي المعلومات و تشكيل الصورة عن المجتمعات الأخرى ، فقد انشغل الإعلام الغربي بتناول كل ما يتعلق بالعالم الإسلامي و قضاياه و ما يتعلق بالمسلمين و الربط بينهم و بين العديد من الصور النمطية السلبية ، و التي و إن انتشرت اليوم عبر وسائل الإعلام ، فهذا لا ينفي وجود جذورا لها ضاربة في التاريخ و إن التاريخ و إن اختلفت العوامل و الأدوات و الأساليب ، فالتاريخ يحفل بالعديد من مصادر الصور النمطية السلبية للإسلام و المسلمين منذ المواجهات الأولى بين الإسلام و الغرب و لكن توظيف الوسائل الإعلامية جعل الصورة أكثر انتشارا وسلبية ما بات يستدعي ضرورة العمل على دراسة وتشخيص هذه الصورة و العمل على بحث مختلف السبل و الأدوات و الاستراتيجيات من أجل التغيير والتصحيح. (بوعنان، 2017، صفحة 01)

أولا- تحديد المفاهيم:

1. المفهوم الاصطلاحي للإعلام : تعددت المداخل و المفاهيم الخاصة بالإعلام الجديد ، البعض ركز على مميزات مثل فين كروسبي vin crodbie حيث رأى أن الإعلام الجديد يتميز بأن رسائله الفردية تصل في وقت واحد إلى عدد محدود من البشر ، و أن كل واحد من هؤلاء له نفس درجة السيطرة و الإسهام المتبادل في هذه الرسالة

وضع ريتشارد ديفيز Richard Davis و ديانا أوين Diana Owen الإعلام الجديد وفق ثلاثة انواع هي :

- **الإعلام الجديد بتكنولوجيا قديمة :** و الذي يعود إلى مجموعة من الأشكال الصحفية في الإذاعة و التلفزيون و الصحف ، و يشيران إلى راديو وبرامج الأخبار الحية Live Shows و البرامج المسائية مثل Night Line ، و برامج الصباح المعروفة مثل صباح الخير أمريكا Good Morning America و برامج التابلويد مثل Inside Edition الشبيهة بصحافة التابلويد الورقية و يشمل التجديد في حالات أخرى نموذج برنامج أوبرا Opera winfiry و قنوات مثل أم تي في M T V المتخصصة في الموسيقى.
- **إعلام جديد بتكنولوجيا جديدة :** تمثله جميع الوسائل التي نعايشها الآن التي تعمل على منصة الكومبيوتر ، وهي الوسائل التي مكنت من إنقاذ حالة التبادل الحي و السريع للمعلومات
- **إعلام بتكنولوجيا مختلطة :** فيه تزول الفوارق بين القديم و الجديد ، فقد أصبحت الحدود الفاصلة بين أنواع الوسائل المختلفة حدودا اصطناعية Artificiel و حدثت حالة تم فيها تبادل للمنافع بين الإعلام القديم و الجديد .

فمن الواضح من خلال تلك التعريفات أن هناك استحالة لوضع تعريف شامل عن الإعلام الجديد، و لكن يمكننا الاتفاق بأن فكرة الإعلام الجديد يمكن استقراؤها من أن الإعلام الجديد يشير إلى حالة من التنوع في الأشكال و التكنولوجيا والخصائص التي حملتها الوسائل المستحدثة عن التقليدية خاصة فيما يتعلق بإعلاء حالات الفردية Individuality و التخصيص Customization و هما تأتيان من ميزة رئيسية هي التفاعل و بالتالي فهناك مجموعة من الخصائص و المميزات التي يتمتع بها الإعلام الجديد عن ما سبقه و هي تتمثل في دمجه للوسائل المختلفة القديمة و المستحدثة في مكان واحد عل منصة الكمبيوتر و شبكاته ، و ما ينتج عن ذلك من تبني هذا الإعلام للتكنولوجيا الرقمية و حالات التفاعلية، وتطبيقات الواقع الافتراضي، و تعددية الوسط، و تحقيقه لميزات الفردية و التخصيص، وتجاوزه لمفهوم الدولة الوطنية و الحدود الدولي (عثمان د.، الصفحات 6-7).

2. **مفهوم الصورة الذهنية:** إن لمفهوم الصورة الذهنية معان متعددة لكنها متقاربة و تتفق جميعها على أنها صورة أو شيء قريب من الصورة بأشكالها المختلفة سواء ما يبدو في المادة أو ما يجري في الأذهان ، و حسب قاموس ويبستر على الأنترنت (Webster,2019) فهي مفهوم عقلي شائع بين أفراد جماعة معينة يشير إلى عدة دلالات منها المادة الفوتوغرافية أو الصورة التي يتم إنتاجها على شاشة إلكترونية (مثل شاشة التلفزيون و الكومبيوتر) و الصورة الذهنية قد تكون انطباع عن شيء ما و هذا أقرب دلالة لما يتم استخدامه في هذه الدراسة ، و حسب القاموس نفسه ، فإن الصورة الذهنية هي المفهوم العقلي الذي يشترك فيه أعضاء الجماعة و يرمز إلى الموقف والتوجه الأساسي لأفرادها، و هي أيضا فكرة idea عن شيء ما أو مفهوم Concept لشيء ما (النوافلة، 2020، صفحة 6).

3. **مدخل مفاهيمي لمراكز الفكر و الأبحاث :** ثمة غموض يحيط بتعريف مراكز البحث و الدراسات أو الثينك تانكس Think Tanks.

فتعريف هذه المراكز لا يزال خلاف ، نظرا لأن المفهوم فضفاض و يحتما أكثر من تعريف بسبب كثرة التفاصيل و الحيثيات التي تحيط به ، و الأبعاد التي تكتنفه.

و بالتالي يمكن القول أن بعض مراكز الفكر و الأبحاث و المخابر ، القليل منها تستشرف أحداث كما يقول هواردج وياردا Howard J Wiarda أستاذ العلاقات الدولية في جامعة جورجيا ، و أستاذ باحث في مركز ودرو ويلسون في واشنطن ، بأنها عبارة عن مراكز للبحث و التعليم ، و لا تشبه الجامعات و الكليات ، كما أنها لا تقدم مسافات دراسية ، بل هي مؤسسات غير ربحية ، و إن كانت تمتلك منتجا و هو الأبحاث . (محمود، 2020، صفحة 217)

ثانيا-الصورة الذهنية و النمطية للإسلام و المسلمين في الثقافة ووسائل الإعلام الغربية :

تعد وسائل الإعلام إحدى المؤسسات الاجتماعية و الثقافية التي تسهم في تشكيل الصورة الذهنية والنمطية في مخيلة الأفراد نظرا لانتشارها الواسع وقدرتها على الاستقطاب ناهيك عن المزايا و الخصائص الأخرى التي تجعل منها نافذة مفتوحة على العالم يستقي منها الفرد المعلومات والتجارب والخبرات ، وقد حظيت الصورة باهتمام الباحثين والمؤلفين نظرا لدورها الفاعل و المؤثر في تكوين الآراء و الاتجاهات نحو الأفراد و الجماعات والمنظمات، وصورة الإسلام و المسلمين من الصور التي دأب الإعلام الغربي على رسمها وتشكيل المخيال الغربي،حيث أضحت قضايا الإسلام والمسلمين والمسائل المتعلقة بالعالم العربي والإسلامي مادة خصبة لوسائل الإعلام الغربية على اختلافها و شكلت جزء من ثقافة الغرب انطلاقا من هذا نحاول البحث في طبيعة هذه الصورة في الثقافة و الإعلام الغربي بدءا بالصحافة المكتوبة مرورا بالمقررات الدراسية و وصولا إلى السينما الغربية ، وقبل أن نستعرض ما تمت الإشارة إليه مؤخرا لا بأس من الوقوف على مفهوم الصورة و الصورة الذهنية و النمطية .

يرجع استخدام كلمة صورة إلى انطباع ، فكرة ذهنية ، وهي قد تكون ملتقطة بإحدى آلات التصوير أو مرسومة و قد تكون صورة لشيء أو لشخص في ذهن إنسان ما أي : فكرته التي كونها عن ذلك الشخص وصورته التي رسمها له في ذهنه أي انطباعه عنه ، وقد دخل مفهوم الصورة الذهنية إلى حقل دراسات السلوك الدولي خاصة بعد الحرب العالمية الثانية وذلك من ضمن الاهتمام بما يسمى بالشخصية القومية ، فظهر مفهوم الصورة النمطية القومية التي توصف بأنها السمات الشائعة الثابتة التي تسري على الشعب ما من جانب شعب آخر ، والتي تأخذ شكل العقيدة العامة الجماعية والتي تصاغ على أساس غير علمي أو موضوعي ، تأثرا بأفكار متعصبة تتسم بالتبسيط في تصورها للأخر (انتصار إبراهيم عبد الرزاق ، صفد حسام الساموك ، 2011 ، ص ص 65 ، 67 ، 68).

وتعرف الصورة النمطية أيضا بأنها تعميمات على الأفراد على أساس انتمائهم لجماعة معينة، وبالتالي يتم تدعيم شأن الجماعة الذاتية و التقليل من شأن المجموعة الأخرى (ميرال مصطفى عبد الفتاح، 2013 ، ص ص 35 ، 36).

ويرى بعض الباحثين أن الصورة النمطية عبارة عن مفهوم يتضمن عملية من التصنيف والتقييم واستخدامه غالبا ما يرتبط بتمثيل الجماعات الاجتماعية (أحمد زكريا أحمد ، 2009 ، ص299).

ثالثا-صور العرب و المسلمين في الصحافة الغربية :

يعتبر الكاريكاتير السياسي مصدرا يمكن الاعتماد عليه و الثقة به في معرفة المواقف العامة تجاه دولة ما كما يمكن التنبؤ من خلاله برد الفعل أو اتجاهات الجمهور نحو هذه الدولة، ويكاد يتفق معظم الباحثين على أن رسامي الكاريكاتير الغربيين هم أعظم المخطئين في حق العرب، إذ بينما تضاءلت الرسوم الكاريكاتورية بالنسبة إلى معظم الجما عات العرقية في الولايات المتحدة، وفي غيرها من دول الغرب فإنها ازدادت ضد العرب، وتوجد عدة دراسات حاولت تحليل الرسوم الكاريكاتورية المتعلقة بالعرب في الصحافة الغربية بصفة عامة والأمريكية بصفة خاصة، ويمكن عرض النتائج الرئيسية لبعض الدراسات على النحو التالي :

1. **مخلوقات شبيهة بالحيوانات:** حيث تم تصوير الفلسطينيين على أنهم فئران مذعورة تدخل جحورها أو تقع في الفخ، كما أنهم براغيث ابتليت بهم المنطقة وتم سحقهم، وفي حرب الخليج تم تصوير الجنود العراقيين على أنهم يحاربون على مال ضد الولايات المتحدة الأمريكية.

2. **القادة الهمج:** عادة يظهر الحاكم العربي في شكل ديكتاتور ينادي على رعيته ليهاجموا أو ليطردوا الأجانب الوثنيين (الصلبيين) ، ويستخدم في ذلك كلمة الجهاد ضد الكفار ، ودوافع الحكام للحرب عادة شخصية وربما تكون دوافع تخيلية أو رغبة في جعل سلطتهم غير متنازع عليها.

3. **الخداع و المكر:** هو أحد السمات الرئيسية للعرب في الأعمال الكاريكاتورية، فهم يتظاهرون بأنهم يريدون السلام و لكنهم يعملون من أجل الحرب (أيمن منصور ندا، 2004 ، ص ص 194 ، 197).

4. **أما في دراسة أدموند غريب :** فقد ذهب الباحث من تحليله لاتجاهات الكاريكاتير في الصحافة الأمريكية نحو العرب، إلى أن العربي يظهر في الكاريكاتير الأمريكي حافي القدمين حاملا خنجر، وتظهر رسومات تصف في كثير من الحالات أرض العرب بأنها مجرد صحراء قاحلة ، وآبار نفط وسيارات فخمة وتظهر في الحملة الكاريكاتورية على العرب عدة تيارات منها : إظهار العرب بشكل إرهابيين أو مؤيدين للإرهاب، إظهار إسرائيل بمظهر الضحية البريئة.

وعليه وانطلاقا من مجمل الدراسات التي خلص إليها الباحثون في الصحافة المكتوبة متمثلة في الكاريكاتير السياسي فقد أسفرت عن صورة سلبية مرتسمة للعرب والمسلمين في الغرب تجردهم أحيانا من الإنسانية و تحيل إلى الدموية و العنف و التطرف أحيانا أخرى

رابعا-صورة العرب و المسلمين في المقررات الدراسية :

تعد المدرسة أقوى المؤسسات الاجتماعية التي تسهم في تكوين الصورة النمطية عن الذات و الآخرين في أذهان التلاميذ والطلاب، وقد أجريت دراسات كثيرة في هذا الصدد ومنها دراسة العلمي 1957 عن الكتب الدراسية في المداس الابتدائية في أوهايو حيث أشارت إلى هذه الكتب كانت تسمى الإسلام (بالمحمدية) ، وفي هذه التسمية ما فيها من الإيحاء إن لم يمكن التصريح بأن المسلمين يضعون محمدا في مرتبة الإله (حاشا وكلا) ، ولكن دراسة القزاز أثبتت تغيرا في هذا الاتجاه، و قد احتوت بعض الكتب على صور مزعومة للرسول (صلى الله عليه و سلم) مع بعض التعليقات أو النساء والبنات لا يأكلن إلا ما تبقى من طعام الرجال و الأبناء وأن الأبناء يعلمون بأن أمهاتهم ما هن إلا خادمات لهم، وأن البنات لا يحسبن ضمن أولاد الأب (عبد القادر طاش ، 1975 ، ص ص 75 ، 77).

هذا وقد أثبتت العديد من الدراسات الأخرى أن الكتب المدرسية في المدارس الأمريكية والأوربية مملوءة بالأغلاط المستبقة التي تساهم في زرع الكراهية، والحقد في نفوس الأطفال ففي سنة 1973 شكلت رابطة دراسات الشرق الأوسط للمرحلة الإعدادية، وقد استقرت نتائج دراستها على أن غالبية الكتب المدرسية أخطأت في مواضع كثيرة، وأنها تكرر الصور النمطية و الموروثة عن الإسلام و المسلمين وتعمل على استمرارها مع التهوين من شأن المسائل البرى، وتضخيم المسائل التافهة (عبد الحليم حمود ، 2010، ص 190).

ولا تزال العديد من الدراسات الحديثة تكشف حجم التضليل الممنهج والتشكيل الخاطئ لصورة الإسلام و المسلمين و بالأخص في الكتب والمناهج الإسرائيلية.

إن ما يتعلمه الأطفال في المدارس ويشبون عليه من كراهية للعرب والمسلمين تتجسد في عقولهم اللاواعية وعلى امتداد سنوات التعليم و باعتماد المناهج المعدة بطريقة ممنهجة تنطوي على ما يحيل إلى ما هو خارج الإنسانية المرتبطة بكل عربي و مسلم (جفافلة، 2020، الصفحات 61-62-63)

خامسا-تصحح صورة الإسلام في الغرب :

يقول الدكتور عبد الفتاح إدريس، أستاذ الفقه المقارن بجامعة الأزهر، أن ما عقد وما سيعقد من مؤتمرات أو ندوات معلوم سلفا نتيجتها وما تسفر عنه ، وأن الذين عقدوا وشاركوا في المؤتمرات والندوات

المتعددة في هذا البلد يعلمون النتيجة ، وأنها لن تكون سوى تشويه إعلامي ، ليبارك المغلوبون على أمرهم الجهود المبذولة ، والدعاء لأصحاب الحناجر بالمزيد من الخطب والكلام المستهلك ، وقد مضى عام أو يزيد على عقد هذه المؤتمرات والندوات في هذا السياق ، كما مضى أكثر من ذلك على بعث القوافل في الداخل والخارج ، لتكون النتيجة بعد ذلك كله لا شيء. وأضاف : إن البعض قد توهم من خلال أحلامه أنه بمستطيع - بقدراته المحدودة - أن يقضي على الإرهاب ، ويقضي على بغض غير المسلمين للإسلام وأتباعه، ويبدو أن العاملين في هذا المجال قد غرر بهم مستشاروهم ، وأوهموهم بالدخول في منزلق نتيجته الفشل المتيقن، فضلا عن أن هؤلاء الواهمين لا خبرة لهم ولا دراية بسبل مواجهة الفكر المنحرف، فثقافة العشوائية طاغية على تحركاتهم ، والمجال لا يتسع لذكر نماذج هذه العشوائية، إلا أن المتيقن أنه لا أثر لصنيعهم في الواقع ، فإن الإرهاب تزداد وتيرته وصوت الضلال يعلو، والعنف الذي يمارس ضد المسلمين تزداد مساحته ، وإيذاء المسلمين في رموزهم مستمر والاضطراب والقلق الذي يجتاح بلاد الإسلام شرقا وغربا بسبب الفكر الضال دائم ، فالصورة شديدة القتامة، لن يزيل قتامتها أو يخفف منها جهود جماعة محسوبة على الإسلام، أيا كانت الألقاب التي أطلق عليها. وأشار أن تصحيح صورة الإسلام لم تعد مهمة أفراد أو جماعات أو مؤسسات في دولة إسلامية ، بل أصبحت دعوة عالمية ، يجب أن تتبناها منظمة لها صفة العالمية ، لها برنامج غير عاطفي . لا يتخذ من الشعارات والبيانات والتصريحات منهجا لمهمته، تجند للقيام بهذا العمل من صح فكرهم ، ورسخ علمهم وشُهِد لهم بالمقدرة على ما يناط بهم، وأن لا تتوقف هذه الدعوة البتة . بحسبان أن الخطر على الإسلام وأهله لا يأتي فقط من غير المسلمين، بل ربما كان أشده خطرا ما يصدر من المنتسبين إلى الإسلام، وأن هذا الخطر لا تتوقف مظاهره، بحسبانه يحقق غاية لدى ضعاف النفوس والمفسدين في الأرض، وأن يكون للقائمين بتصحيح صورة الإسلام تلاحم واختلاط بغير المسلمين، ليمكنهم انتزاع الصورة المغلوطة التي استكنت في نفوس المسلمين وغيرهم من الإعلام المغرض في الدول الإسلامية وغيرها.وطالب بضرورة ان تكون في الشرق والغرب لقاءات مشتركة بين علماء دين مسلمين وغير مسلمين وإفساح المجال لعلماء الدين السماوي غير الإسلامي بالتحدث في هذه اللقاءات، فإن بين الديانات السماوية مساحات مشتركة ، لتأكيد أن الإسلام لا يعرف العنصرية ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يؤكد هذه الأمور المشتركة بين الديانات السماوية ، إذ قال : (الأنبياء أخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد)، ومعنى : بنو العلات : بنو الرجل الواحد من أمهات شتى، بما يعبر عن وحدة الأديان التي جاءت بها الرسل، ومن ثم فإن من عوامل تصحيح صورة الإسلام إفساح المجال لغير المسلمين في التحدث عن الإسلام وسائر الديانات بمحضر من المسلمين ، لتصحيح الفكر المغلوط في نفوس غير المسلمين عن الإسلام ، بل إن من المنتسبين إلى الإسلام الذين لا تَزورُّ عنهم عدسات الفضائيات ، من لا يعرف عن الإسلام إلا قشوره https://gate.ahram.org.eg/daily/News/456431.aspx .

سادسا- دور الأزهر في تصحيح صورة الإسلام في الغرب :

يتصدر الأزهر مؤسسات العلم الإسلامي القادر على تصحيح الإسلام، وتعتبر زيارات شيخ الأزهر للدول الغربية مبادرة الدبلوماسية الدينية لتصحيح الكثير من المفاهيم و المغالطات التي تحولت إلى حقائق مسلم بها، و يعتبر خطاب شيخ الأزهر أمام البرلمان الألماني تطبيقا عمليا لتجديد الخطاب الديني.

فكان الهدف من زيارات الإمام الأكبر للعواصم الغربية التعريف بجوهر الدين الإسلامي، وتصحيح الصورة الذهنية المشوهة لدى البعض بسبب تصورات وتصرفات الكثير من التنظيمات الإسلامية المتطرفة (أيمن عبد المجيد، 2016/03/23).

دعا شيخ الأزهر رئيس مجلس حكماء المسلمين في فرنسا سفراء الدول العربية و الإسلامية التي تنسق الجهود و العمل بشكل جدي على تصحيح الصورة المغلوطة من الإسلام في الغرب ، وأنتم جميعا مسؤولون عن تقديم الصورة الحقيقية للإسلام من خلال :

- وضع خطة مدروسة وفق أسس علمية لمواجهة ما يروجه الإعلام الغربي من مغالطات عن الإسلام و المسلمين (لؤي علي ، 2016/05/28).
- دعا شيخ الأزهر سفراء الدول العربية و الإسلامية إلى التواصل مع أئمة المساجد و التدخل في الوقت المناسب لتصحيح المفاهيم و مواجهة الفكر المتطرف .
- و أوضح شيخ الأزهر إن الإعلام الغربي سروج صورة عن الإسلام ، موضحا دقيقة واحدة في الإعلام قد تذهب بجهد عام كامل من الإعداد و العمل تقوم به المؤسسات الدينية الكبرى في نشر سماحة الدين (وائل فايز ، 2016/05/28).

ويتابع فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدبلوماسية الدينية لبعض الدول الإفريقية والغربية لنشر صحيح الدين وتجديد الخطاب الديني، ويطلق مجلس حكماء المسلمين .

قافلة تشمل جميع قارات العالم لنشر صحيح للدين و مواجهة مصطلح الإسلامفوبيا ، والرد على من يتهم الإسلام بالتطرف، و لتعزيز السلام و نشر وسطية الدين الإسلامي من خلا عقد لقاءات و حوارات مع كافة فئات المجتمع في دول (نيجيريا – السنيغال – فرنسا) بهدف نبذ التطرف ونشر ثقافة التعايش المشترك (محمد كمال ، 2016/04/28)

وبذلك يمكن التصدي للإرهاب و نبذ دعاوى التكفير من خلال رجال الأزهر المتميزين بالفهم الصحيح للإسلام، فزيارات شيخ الأزهر للدول الغربية للرد على اتهام الغرب للإسلام من خلال سلوكيات بعض المسلمين التي يراها الغرب ، وتصحيح بعض المفاهيم المغلوطة في العقلية الذهنية الغربية، من خلال شرح وسيطية الإسلام، وعلاقة المسلم بغير المسلم، و شرح الأخلاقيات الراقية التي يكون عليها الإسلام ورد شيخ الأزهر على انحراف بعض الأشخاص على التعاليم الإسلامية الذين يفكرون الآخرين بقوله تعالى : يريد الله بكم اليسر و لا يريد بكم العسر (صابر رمضان ، عبد الرحمان العدوى ، 2016/04/28).

واستطاع شيخ الأزهر من خلال خطابه إمام البرلمان الألماني التي أبرز فيها معاني التسامح والسلام أن يقدم صورة صحيحة للإسلام لدى الغرب، ويؤكد عضو مجمع البحوث الإسلامية أنه خطاب فارق وفي غاية الأهمية ...وستكون له نتائج إيجابية خلال الفترة المقبلة، فلابد من تكرار مثل هذا الخطاب أمام برلمانات العالم.(أحمد عرفة سعد ، 2016/01/16)

ويتضح مما سبق أن منهج الإسلام الوسطى المعتدل، واستخدم شيخ الأزهر الدبلوماسية الدينية لتصحيح الصورة المغلوطة عن الإسلام في عيون غير المسلمين لمواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا نتيجة ظهور التيارات المتشددة والمتعصبة. (سليمان، 2016، الصفحات 156-157)

سابعا-المراكز البحثية و دورها في تصحيح المفاهيم الخاطئة للغرب عن الإسلام :

لما كان الدفاع عن الإسلام بالوسائل المتاحة واجبا و فريضة على كل مسلم ، كان على المراكز البحثية والثقافية والفكرية المتعلقة بالعالم الإسلامي في العمل على تحسين صورة الإسلام وتوضيح دورها وعملها وأهميته على الساحة العالمية ، ومد الجسور مع الآخر وتحسين العلاقات مع صناع القرار في أنحاء كافة، وتعزيز قيم الحوار الحضاري والتصدي لكل الحملات المعادية للإسلام (م.مروان الفاعوري ،سلسلة الفكر الوسطي 25)

فالخطوة الأولى التي ينبغي أن تخطوها في سبيل مواجهة الحملة المعادية للإسلام هي أن نمارس نقدا صادقا لواقعنا الحالي وأن ندرك بأنفسنا أن الصورة السلبية التي يروجها الغرب عن واقع المجتمعات الإسلامية تحتوي على قدر من الحقيقة و عليها هنا أن نتحلى بالقدرة على النقد الذاتي بنفس القدر الذي ننتقد به الآخر.

ومن هنا فإن أي عمل ناجح وجدي في سبيل إصلاح صورة العرب و المسلمين ورد الحملات المعادية لهم في الإعلام الغربي لابد أن يبدأ بالاعتراف بالواقع وبالإقرار به وأنه إذا أردنا أن نوقف عملية الغش والتلاعب التي تقوم بها أجهزة الإعلام الغربية من خلال استغلال سلبيات الواقع العربي والإسلامي الراهن لتبرير الهجمة العنصرية والسياسات العدائية ضد المجتمعات العربية والإسلامية فينبغي علينا أولا أن نبدأ بتغيير هذا الواقع بما يتفق و قيم الحضارة الإسلامية وثوابتها أولا وبما يتناسب مع القيم والمبادئ التي أصبحت محل اتفاق بين الحضارات الإنسانية ثانيا. و لذلك ينبغي بنا أن ننظر إلى مسألة الصور المشوهة للإسلام في الإعلام الغربي بجدية تامة وأن لا نعدها قضية هامشية لا قيمة لها، وقد نبه كثير من الباحثين والمختصين من الطرف الإسلامي ومن الطرف الغربي والسلوك الغربي منذ سنوات عديدة (د.عبد القادر طاش ، 9-10 يناير 2002)

ونشير في هذا الصدد إلى أن هناك حاجة ماسة إلى القيام بعمل سريع لسد الثغرة القائمة بين المجتمعات الإسلامية والشعوب الغربية، لأن من شأن هذه الثغرة إذا ما استمرت أن تؤدي إلى أخطار جسمية لا تهدد العلاقات بين هذه الشعوب فحسب ولكنها قد تهدد استقلال البلاد العربية وأمنها ومقومات وجودها، وقد بدأت بوادر ذلك من خلال أطروحات بعض المنظرين في المجتمعات الإسلامية الذين تأثروا بالنظريات الغربية المعادية للإسلام.

ويجب التذكير بأن نجاح جهودنا في السعي نحو تصحيح صورة الإسلام والمسلمين في المجتمعات الغربية مرهون بعاملين اثنين، اولهما: وجود الاقتناع التام من النخبة المثقفة من المسلمين بضرورة العمل الجاد من أجل تغيير تلك الصورة و من المؤكد أن هذا الاقتناع موجود قبل أحداث سبتمبر 2001 . ولكنها تعززت أكثر بعد الأحداث، ولذلك ينادي الكثيرون على مختلف المستويات الرسمية والفكرية والشعبية على بذل الجهود في الميدان. وبدأت بعض المراكز الإسلامية الناشطة في المجتمعات الغربية . وبخاصة في الولايات المتحدة، تنظيم برامج ونشاطات تستهدف الرد على الحملات المعادية للإسلام وتوضيح الصورة الصحيحة عنه.

ونشير هنا، على سبيل المثال إلى ما يقوم به مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (Cair) من دور ملحوظ في مواجهة محاولات تشويه صورة الإسلام والمسلمين من قبل الوسائل الإعلامية والدوائر السياسية في أمريكا ، وفي توعية الرأي العام الأمريكي بقضايا الإسلام و المسلمين وتحسين صورته . وينشط المجلس الآن في صنع الأخبار اليومية للمسلمين و توزيعها على وسائل الإعلام الأمريكية و الغربية عن طريق شبكة (Islam-info.net) وهي من أكبر شبكات الاتصال المسلمة في الغرب ، كما يساهم المجلس في الرد على ما كتب ضد الإسلام و المسلمين في الصحف الغربية ، وبخاصة الأمريكية (د.أحمد محمود أبوزيد ،2007 /05/26).

وبالإضافة إلى ذلك ينظم المجلس حملات تعريفية بالإسلام والمسلمين وقضاياهم لفئات مخصصة كالصحفيين و المعلمين ورجال الأمن، كما يقوم بإعداد بحوث ودراسات ميدانية وتوجيه رسائل للشعب الأمريكي على هيئة كتب و نشرات أما العامل الآخر من العوامل التي يعتمد عليها نجاح جهودنا في تصحيح الصورة في وجود بيئة قابلة للتغيير في الغرب وتدل بعض المؤشرات الجديدة على أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر فتحت أعين الكثيرين في المجتمع الأمريكي على حقيقة جهلهم و عدم معرفتهم بالإسلام فبدأوا يتساءلون عنه إما بدافع الرغبة الحقيقية في المعرفة أو بدافع الفضول أو بدافع التعرف على العدو.

إن عدم المعرفة بالإسلام، بسبب نقص المعلومات عنه أو عدم الاهتمام المسبق به يعد عنصرا مساعدا على التغيير و يسهل مهمتنا كثيرا ، و يعرف القس و الأستاذ الجامعي الإسباني إميليو غاليندر أن أول ما يتعين على الغربيين فهمه كي يفهموا الإسلام هو تأهيل أنفسهم لكي يكونوا قادرين على تحقيق مثل هذا الفهم، و قد أدلى غالندر، الذي يدير مركز الدراسات الإسلامية المسيحية في مدريد، بهذا التصريح

بعد أن اكتشف أن الغالبية الكبرى من قساوسة و راهبات الكنيسة الكاثوليكية يجهلون الإسلام تماما (د. عبد القادر طاش ،9-10 يناير 2002).

إن الأحداث الأخيرة و تداعياتها وفرت بيئة ملائمة للعمل من خلال هذا الاستعداد والقابلية للتعرف على الإسلام و تفهم قضايا المسلمين لدى الشعوب الغربية و بخاصة في أمريكا، كما أن رياح الانفتاح العالمي الذي نتجت عن التطور المذهل في تقنيات الاتصالات الحديثة بشتى أشكالها بالإضافة إلى مقتضيات العولمة الإعلامية و الاقتصادية و الثقافية، تساعدنا على الوصول إلى الجماهير الغربية بيسر وسهولة، ومن هذا المنطلق نرى أن المراكز البحثية يمكن أن تلعب دورا أساسيا في الرد على المغالطات ودحض الاتهامات والافتراءات التي توجه للإسلام والمسلمين و تصحيح الكثير من المعلومات الخاطئة التي تروج حول الإسلام و المسلمين.

وحتى يتسنى لهذه المراكز تحقيق أهدافها لا بد من اعتماد خطة استراتيجية للتغيير على ما يمكن تسميته صناعة الصورة البديلة من خلال تقديم المعلومات الصحيحة وفق منظومة متكاملة ومستمرة غير منقطعة، وأن تتوجه جهود هذه المراكز في صناعة الصورة البديلة إلى القاعدة الشعبية العريضة في المجتمعات الغربية ولا تقتصر أو ترتكز على الساسة و صناعة القرار، فإن الشعوب الغربية تبدي العديد من وسائل الإعلام وشبكات المعلومات و قنوات الاتصال الشخصي، كما أن العديد من المؤسسات المدنية في المجتمعات الغربية توفر لمراكز البحوث ساحة ملائمة لإيصال رسائلها إلى قطاعات متنوعة من الأفراد والجماعات.

كذلك من أجل صناعة الصورة البديلة إلى مزيج من العمل الإعلامي والعمل الثقافي والعمل الدبلوماسي التي تقوم به مراكز البحوث، فتغيير الصورة المشوهة وإحلال صورة بديلة مكانها لا يكفي لتحقيقه الاعتماد على نوع واحد من هذه النشاطات بل نحتاج إلى الحركة في جميع هذه الجهات . وهناك بعض المراكز البحثية التي استطاعت أن تصل إلى وسائل الإعلام المؤثرة في الغرب وتوثيق صلتها بالمؤسسات الإعلامية ذات النفوذ، ولا شك أن هذه العلاقات والصلات متى ما نمت ونضجت فستساهم في تثقيف أولئك الإعلاميين وتصحيح مفاهيمهم وتصوراتهم عن الإسلام وذلك عن طريق تزويدهم بالمعلومات والتغيير لهم عن الآراء حول القضايا والموضوعات التي تتعلق بالدين الإسلامي.

وتمارس المراكز أيضا ألوانا متعددة من النشاط الثقافي عبر وسائل متنوعة مثل : توزيع كتب والنشرات وإقامة المعارض والمهرجانات، وتقوية برامج التبادل الثقافي مع مراكز البحوث و هيئات التدريس في الجامعات الغربية ، وأحيانا يكون للاتصال الشخصي لأعضاء المراكز البحثية مع المفكرين الغربيين دور فعال في تكوين الصور الذهنية وتغييرها، خاصة وأنه اليوم تتوافر لنا وسائل وقنوات مثل شبكات التواصل الاجتماعي وأنظمة البريد الإلكتروني وغيرها ، إذا علمنا أن الدول الإسلامية تمتلك حاليا عددا

من المؤسسات الفاعلة والمعاهد ومراكز البحوث التي تحتاج إلى دعم مادي ومساندة معنوية لتؤدي دورا رائدا في هذا الخصوص. (السموني، 2019، الصفحات 8-9-10-11).

ثامنا- الجانب النقدي لوسائل الإعلام المختلفة المؤثرة في معالجة الصورة السلبية للمسلم على شبكة الإنترنت:

1. الطرح العربي : ساد الطرح العربي لهجة تميل إلى تبرير تقاعس المسلمين في الدفاع عن الصورة المشوهة كمقولات وكالات الأنباء تنقل أخبارا خاطئة عنا بسبب وجود مشكلة اللغة التي تمثل حاجز الاتصال (محمد حسن علي البلهاسي ، 2001) ، كما أن الصهيونية سيطرت على وسائل الإعلام ...و سدت على المسلمين ...أهم مراحل تحسين الصورة (دور وسائل الإعلام في تصحيح الإسلام ، 2010)

ولم تستطع احتجاجات زعماء الأقليات المسلمة ...إيقاف الحملات المسمومة، لتتحكم القوانين المعمول بها هناك في بلادهم، فهي مقولات بها شرح و تفسير لتقاعس المسلمين بحجج منطقية لا تحث على التحفيز لإيجاد آليات لتصحيح الصورة ، كما رفض الطرح نظرية المؤامرة (محمد حسن علي البلهاسي ، 2001).

2. الطرح الأجنبي : لجأ الطرح الأجنبي إلى مهاجمة وسائل الإعلام الغربية فذكر الآليات السلبية التي صيغت بمقتضاها الصورة السلبية كالاعتماد على التبسيط و التعميم و البعد عن التنوع (Shadid.w , Van konigsveld,2002).إلا أنه في ذات الوقت دافع عنهم قائلا بأن ضيق وقت الصحفيين كان السبب في التقصير في ذات الطرح .

كما رجح إطلاق إسناد مصطلح **العدو الجديد** للدعاية والإعلام اليهودي (Al Ashri Mamduh,2004). لتدخل الديانة اليهودية كمحك أساسي في التشويه بل دخلت أيضا الديانة المسيحية حيث التركيز الشديد على الإختلافات بين ثنائية الإسلام والمسلمين من جهة والمسيحية والغرب من جهة أخرى (Shadid.w,Van konigsveld,2002) في وسائل الإعلام الغربية.

تاسعا- التشابه بين الطرح العربي و الأجنبي لوسائل الإعلام بصفة عامة:

تشابه الطرحان في اللجوء إلى التمرير الإيجابي لسوء الصورة المنبعثة في وسائل الإعلام الغربي، حيث يبرر الطرح العربي إلى أن وكالات الأنباء تنقل الأخبار الخاطئة عنا بسبب وجود مشكلة اللغة التي تمثل حاجزا في وجه الاتصال السريع (محمد حسن على التهامي :2001) مما يلغي تعمد الإساءة و هذا ما أكده الطرح الأجنبي، ومما يؤكد ذلك إلقاء اللوم على النمطية المسبقة و ليس العيب في القائم بالاتصال فكثيرا ما يلجأ إلى خبير للتحليل النقدي المتوازن ولكي يعطي أحكاما مسبقة على ذات نمط الأخبار والسلبية

السابقة (Shadid.w,Van konigsveld,2002) و لم يلتفت الطرح لأهمية نقد هذا الخبير الذي جاء ينقد ويحلل الأخبار بل له دور في أن يعطي أحكاما طبقا للموضوعية و ليس بالأحكام المسبقة.

تشابه الطرحان في إسناد الصورة السلبية إلى السياسة في الطرح العربي فخطورة الصورة المشوهة ليست في أذهان حاملها، ولكن إذعانها على عملية اتخاذ القرار السياسي على المستوى الدولي (دور وسائل الإعلام في تصحيح دور الإسلام : 2010) أما الأجنبي فاقترنت الصورة السيئة في وسائل الإعلام بأنها تتجه تضامنية مع بعض المواقف الحكومية (Mustafa jamal :2007) ،كما أن غالبا ما تعتمد وسائل الإعلام الأمريكية على الصورة السلبية المسبقة للإسلام من أجل تبرير الحاجة إلى التدخل العسكري من جانب الجيش الأمريكي لحفظ ماء الوجه و خاصة عندما يكون هناك تدخل مخطط له (Progler.JA)

عاشرا- الاختلاف بين الطرح العربي و الأجنبي لوسائل الإعلام بصفة عامة:

اختلف الطرحان في تفسير العلاقة بين الإساءة للإسلام و المسلمين و طبيعة الدين الإسلامي فالطرح العربي ربط الدين بالحركات الإسلامية حيث يشير إلى أن الإعلام الأوربي ربط بشكل كبير بين الإسلام كدين و بين ممارسات بعض الحركات المتشددة ، و لم يفرق هذا الإعلام بين المسلم المعتدل في ممارسته الدينية و بين المسلمين المنتمين إلى جماعات إسلامية (محمد بشاري : 2003)

بينما الطرح الأجنبي قام بتفسير علاقة الإساءة بطبيعة الدين من حيث تأكيد الإعلام على أنه دين يدعم عدم المساواة و غياب الديمقراطية ، و التركيز على ثقافة دين المهاجرين و مناقشة معايير و قيم المسلمين هل هي متوافقة مع الثقافة الغربية أم لا.

ركز الطرح الأجنبي على مفهوم المؤامرة في اتجاه الإعلام الغربي فوسائل الإعلام هي التي كانت وراء تلك المكائد في عصرنا الحديث و لا أحد ينكر دوره في بناء الرأي العام و التأثير على القرارات العليا المنبعثة عن السياسة الخارجية (Shahazad Ali :2009)

ركز الطرح العربي على ربط آليات الغرب في التشويه بربط الإسلام بالإرهاب من أجل تصوير المسلمين و الإسلام بأنهم يشكلون الخطر و العدو (محمد بشاري : 2004) ، وأن وسائل الإعلام نجحت بالفعل في إرساء حقيقة شديدة القتامة ، بأن العالم الإسلامي و معه الحضارة الإسلامية و الفكر الإسلامي و المناه الدراسية في المجتمعات الإسلامية في وضع المتهم

الأول و الرئيس المسؤول عن تفشي الظاهرة الإرهابية (متولي عباس السكري ، 2004)

أدرج الطرح الأجنبي إساءة الإعلام للمسلم و المسلمين و هو يتأرجح بين المهاجمة و الدفاع ، بينما ذكر الطرح العربي آليات إساءة وسائل الإعلام في صيغة المهاجمة. (عثمان د.، الصفحات 376-377-378).

خاتمة :

بالنظر إلى ما قمنا بعرضه من مفاهيم و معلومات، تعتبر وسائل الإعلام احدى المؤسسات الثقافية والاجتماعية التي تسهم بشكل كبير في التأثير في مختلف الفئات العمرية ضمن مجتمع معين ، حيث يكون مدى هذا التأثير كبيرا، حيث يقوم بتصحيح الصورة الذهنية الخاطئة التي يتناقلها أفراد هذا المجتمع عبر شبكات التواصل الاجتماعي، وكذا مختلف اماكن التفاعل المختلفة و المتوفرة ضمن فضاء لتبادل المعلومات والمعارف المختلفة، وتتجلى وتتجسد عن طريق دعمها بواسطة الدراسات البحثية المنجزة في مختلف المراكز البحثية، وكذا تناول رجال الدين لهذه القضايا الحساسة الراهنة، والتي تأثر في الإسلام والمسلمين بشكل مباشر، فيكون التأثير كبيرا إذا كانت الرسالة بواسطة نافذة إعلامية فيكون التأثير كبيرا، وقد يمس مختلف أطياف المجتمع وكذلك يكون صداه كبيرا، والصور الذهنية للأشياء والأشخاص و الدول والجماعات في أذهان الأفراد إنما تكتسب من خلال معلومات وحقائق معينة تزيد من توسيع معارفهم وأفكارهم الخاصة بمن حولهم . وتسهم في تسهيل تعاملهم مع الغير ضمن هذه المعارف المكتسبة.

قائمة المراجع:

- فريدة فلاك ، د. داود جفافلة ، مصادر الصورة الذهنية و النمطية للإسلام و المسلمين في وسائل الإعلام الغربية ، 2020 ، . *مجلة الباحث في العلوم الإنسانية و الإجتماعية*،61-62-63.
- أسماء بوعنان ، صورة الإسلام و المسلم الآخر في الإعلام الغربي عوامل التشكيل وسبل التغيير. (2017) ، *مجلة العلوم الإنسانية - جامعة الإخوة منتوري قسنطينة الجزائر* ، 1
- أماني عبد الرؤوف محمد أحمد عثمان ، (بلا تاريخ). آليات تصحيح صورة المسلم على شبكة الإنترنت -دراسة تحليلية نقدية-، *مجلة البحوث و الدراسات الإعلامية* ، 376-377.
- عزه عبد العزيز عبد اللاه عثمان ، (بلا تاريخ). الإشكاليات المنهجية لبحوث الإعلام الجديد في العالم العربي - دراسة من منظور تحليلي نقدي ، *المجلة العربية لبحوث الإعلام و الإتصال*، 6-7.
- خالد الشرقاوي السموني ، *المراكز البحثية و دورها في تحسين صورة الإسلام* ،2019 ، الرباط ، المملكة المغربية: المركز الديمقراطي العربي.
- سلمى بلخير ، شرقي محمود ، واقع مراكز الفكر و الدراسات في الجزائر بين الضرورة الإستراتيجية و رهانات المستقبل *مجلة الأبحاث القانونية و السياسية*، (2020)، 217.
- ع ، س ، سليمان ، دور الجامعة في تغيير صورة الإسلام في الغرب ، 2016 ، المجلة العلمية لكلية التربية ، جامعة الأزهر ، اسيوط ، 156-157.
- يزن أكرم النوافلة.). الدور الإتصالي للعلاقات العامة في تشكيل الصورة الذهنية لدى الصيادلة (2020. *جامعة الشرق الأوسط*، 6.

إتيقا الاعتراف و العدالة من أجل إرساء ثقافة العيش المشترك بين الإسلام و الغرب وفق رؤية بول ريكور

The Ethique of Recognition and Gustice in Order to Establish a Culture of Coexistence Between Islam and The West According to Paul Ricoeur's Vision

ط/د. بوعبدالله حميدة، جامعة الجزائر2 - الجزائر
bouabdallah.hamida @univ-alger 2.dz



يتمحور البحث حول مسألة العلاقات بين الشرق و الغرب و العمل على تغيير الرؤية السلبية المتجذرة عن الإسلام و المسلمين من قبل الغرب ، من خلال الوقوف على مبادئ فلسفة إيتيقية قوامها التسامح ، الاختلاف والعدالة، لأن المجتمع العالمي لابد أن يكون الكل فيه منفتح و متقبل للآخر بدون إيديولوجيا أو دوغمائية ، وهذه الدراسة ذات الطابع الفلسفي التحليلي ، تهدف إلى مقاربة العلاقة المتوترة بين الشرق و الغرب و إعادة صياغة السبل و الاستراتيجيات التي تنمي فكرة التعايش المشترك و التسامح العالمي ،وقد توصلنا من خلالها إلى أن العلاقة بين الطرفين ليست سلبية مطلقة ، إنما هناك إمكانية لإزالة الفوة بينهما من خلال إثبات حاجة كل منهما للأخر وضرورة احترام ثقافة و معتقد كل حضارة ، مما يرسي حضارة كونية من كونها تحسين الصورة عن الإسلام .

الكلمات المفتاحية : إتيقا الإعتراف ، بول ريكور ، التعايش المشترك ، الذات و الغيرية ، الإسلام.

Abstract :

The research revolves around the issue of relations between east and west , and working to change the rooted negative vision of Islam and muslims , by standing on the principles of an ethical philosophy based on tolerence ,difference and justice because the global community must be open and accepting of the other without intolerancẹ .

This study is of a philosophical and analytical nature that amis to approach the relationship between east and west and reformulate strategies that develop the idea of coexistence and global tolerance , that is the establishment of an open linded and educated human being the difference between them by proving the need to each of them for the other, and the need to respect the culture religion and beliefs of each civilization ,for cosmic civilization that will improve the image of Islam .

keywords: ethic of recognition ,coexistence ,self and otherness , Islam.



مقدمة :

تمثل إشكالية العلاقة بين الشرق والغرب، أحد المشكلات المتجذرة في المتون الفلسفية، حيث عرفت هذه العلاقة توترا وتذبذب عبر التاريخ الطويل، إذ نجد علاقة استقلال، فتلاقح، وتبعية وتهميش لأحدهما للآخر، انطلاقا من هنا تشكلت صورة الشرق بالنسبة للغرب ولا سيما المسلمين خصوصا فكانت النظرة الطاغية ذات طابع سلبي، تهمش وتشوه وتصغر قيمة الإسلام والمسلمين، وقد أسسوا لذلك دراسات استشراقية لتشويه وتزييف كل منتجات المسلمين وابداعاتهم ووصف العقل المسلم بالكسول والعاجز ، لكن رغم ذلك لا يمكن الجزم على الكراهية بين الشرق و الغرب لأن هنالك من الفلاسفة والمفكرين من أبناء الحضارة الغربية يولون أهمية ومساندة وموقف إيجابي للمسلمين و يدعون إلى سبل العيش المشترك و تقبل الآخر ، خاصة في ظل الازمات القيمية المعاصرة ، فالعودة لتأسيس الأنا وإنقاضها من الاغتراب واللاإنسانية والغرور والعنف، مرهون بالغير و التبادل الفكري و العقائدي ، وقد دأب الكثير من الغربيين على إبراز أهمية الإسلام والمسلين و ضرورة التبادل والتقارب بين الأنا والآخر لتقويم سير الحضارة الغربية وتوافق الحضارات وتعايشها ، ومن هؤلاء الفرنسي رونيه غينون وإدغار موران وبول ريكور، هذا الأخير قد اتخذ موقفا منفتحا على مختلف الثقافات والديانات ، وبالتالي نتساءل عن : موقف ريكور من الإسلام؟ و كيف تساهم إتيقا الاعتراف الريكورية في بسط العلاقة بين الشرق والغرب وفتح أفق تبادل و تعايش ثقافي و عقائدي ؟

أولا-موقف بول ريكور من الإسلام :

تنطوي فلسفة بول ريكور على الاهتمام بالمجال التأويلي للمقدس و أهميته في ظل انتشار سياسات تدنيسية وتراجع لكل المقدسات و تهميشها، وبهذا المنهج التأويلي يحاول إعادة إدخال هذه المقدسات في تحرير و بناء الذات الفاعلة و المسؤولة التي عملت مخرجات الحداثة على خلخلة تكوينها، " فإذا كان الإيمان بالكتاب المقدس عبارة عن تجربة دينية، فإنه إيمان تثقيفي بمعنى التكوين و التنوير و التربية ضمن شبكة النصوص التي يرتقي بها الوعظ كل مرة إلى الكلام الحي ... فالذات التي بلغت الكتاب المقدس قد تصبح ذات مستجيبة للنصوص " (بول ، 2011، صفحة 67)وبالتالي للكتاب المقدس دور جوهري في إعادة تشكيل الذات على أسس يقينية و صحيحة .

فكلنا في ظل المجتمعات المعاصرة التي تطغى عليها سمات الشتات و الضياع و الهويات المجروحة " كلنا في حاجة ماسة إلى من يذكرنا بأننا كائنات إنسانية في مواجهة الهمجية كيفما كان لون بشرتنا وديننا

وإلحادنا وثقافتنا وموقعنا الاجتماعي ، كلنا في حاجة أن نكون سويا، و توجهنا جميعا إلى بعضنا البعض وتلك هي قوة التغاير الرابط الذي يستثمر عندما ينهار كل شيء " والذي سيذكرنا ليس إلا **المقدس،** فالفيلسوف ريكور يدلي بأهمية الآخر بل مركزيته في تشكيل الأنا، فالهوية لا تتأسس مستقلة عن الغير لأن الغير هو الذي يمدها بمكانتها فيقول : " لا يمكن أن أقدر أنا ذاتي من غير أن أقدر غيري من حيث هو ذاتي عينها " (ricoeur , 1990, p. 332) ، فالحياة الجيدة وفقه هي التي تكون بالغير و لأجله ، وبالتالي فلسفته الغيرية لا تفترق عن ما ينادي به الإسلام حيث يقول عز وجل في كتابه الكريم {**إِناَ خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وقَبَآئِل لِتَعَارَفُوا**}، (الحجرات :14) ، فتيمة الاعتراف بالآخر ووجوده من أساسيات الحياة الجيدة بدلا من الإنطواء و المركزية الأناوية .

بول ريكور الفيلسوف الفرنسي المسيحي الديانة، لم ينظر للإسلام نظرة سلبية، بل العكس من ذلك فهو يتقبل هذا الدين و يدعو للتفتح و الحوار بين الثقافات والديانات، فهو يصرح بأنه رغم اطلاعه غير الكافي للإسلام، إلا أنه ينظر إليه من زاوية ثقافية وتاريخية خالصة وربما يكون هنالك إضافات سيضيفها للديانات المسيحية واليهودية، ويؤكد قائلا : " يجب الاعتقاد بأنه يتوفر على قوة روحية لأنه ليس بالعنف فقط ولا بالغزو اعتنقه ملايين البشر، إنه جهل يتعين تبديده لأنه يجاورنا من زمن بعيد ويقيم ين ظاهريتنا " (بول ، 2011، صفحة 94) ،فهو يصرح بأن المسلمين يتوفرون على الأساس الجوهري والقاعدي الذي يتوفر عليه المسيحي .

ولاسيما نظرته للحجاب، حيث قدم نقدا لاذع للنموذج العلماني في الحالة الفرنسية من خلال التوقف عند مسألة الحجاب وقضية منعه في الشارع وحضره في المؤسسات التعليمية، حيث يرى أن الحضور المكثف للجالية المسلمة يمثل فرصة سعيدة بالنسبة للفرنسيين ضد عناصر التفكيك التي تلغمه، يقول "الآن وقد صار بين ظهرانيا متمتعين بوضع مزدوج كأجانب مقيمين لهم حقوق وبطاقة إقامة أو باسم قانون الأرض كمواطنين فرنسيين من ديانة إسلامية " ، ومنه يتساءل هل يتعين قبولهم في المدرسة وفق معاييرنا الخاصة، بلا أدنى تنازل أم ينبغي فتح مفاوضات، وبحق انطلاقا من فكرة أن المدرسة هي فضاء علمانية وسطية بين علمانية الامتناع وتلك التي تقترن بالمواجهة يسمها علمانية ثالثة، معتبر أن الفرنسيين يتواجدون في وضعية العاجز ولا يملكون سولى حلول قمعية لأنهم لم يبلوروا هدا المفهوم الخاص بالعلمانية الثالثة، وهذا الأمر مأسوف عليه .

ويعترف قائلا: " إنني مصدوم فيما يتصل بقضية الحجاب، لأننا لم نقترح على هؤلاء الفتيات المسلمات حلولا أخرى، معتبرا أنه لا يمكن أن أمنع نفسي من التفكير بأن هناك شيئا مضحكا في إعطائنا الحق لفتاة مسيحية في أن تظهر مؤخرتها في حين تحرم فتاة مسلمة من الحق في تغطية رأسها " (بول ، الإعتقاد و الأنتقاد، 2011، صفحة 50)لنبدأ هنا أيضا في تتبع يصنعه الآخرون ؟ كيف يتصرف الإنجليز في هذه الحالة ؟

يراهن الفيلسوف ريكور على أهمية الحوار وواجبية العودة إلى لحظة الحوار، وأنه يستحيل العيش بعيدا عن الآخروية، فلا يمكن لأي مجتمع بدون أفق آخروي .

إنه يتخذ موقفا وسطيا في كل نسقه الفلسفي و بالتالي يتميز بالعدل فكما يوان بين أخلاق العملية والنظرية، فلإسلام هو الوسيط بين المسيحية و اليهودية و بالتالي ينطبق و المعيار خير ا أمور أوسطها .

ثانيا-جدلية الهوية و الغيرية :

لا يمكن الحديث عن الهوية بمعزل عن الغيرية، فهي فلسفة قائمة بذاتها، تتأسس على توكيد العلاقة بين الذات و الآخر ، ويذهب بول ريكور في تأسيس الغيرية من أجل أولا إعادة تشكيل الذات المجروحة من خلال كوجيتو الإقتدار، فلإنسان حسبه لابد له من تفعيل قوة الاقتدار الكامنة فيه لأنها موجودة و لا بد من تفعيلها و جعلها مسؤولة وثانيا ليس لذاتها وإنما لأجل الغير " فالإيتيقا لا تتأسس بالمرة على وحدة الذات ... هي من حيث المبدأ إتيقا الآخر، إنها انفتاح رئيسي على الغير يخضع الهوية إلى الإختلاف " (ALAIN , 1993, p. 18) .

فنحن" بحاجة إلى بعضنا البعض باعتبارنا شركاء في كيفيات الحياة تمتلكها قيمها و تحددها بذاتها " (JOHN , 1987, p. 20)، معرفتنا لذاتنا تتعزز بغيرنا لذلك لا يمكن الفصل بيننا و بين الآخر بل هناك ممهاة واضحة ،وهو ما يعنيه بكتابه الذات عينها الآخر، لأن تجربة التذاوت تعني ؛أن تقدير الإنسان لذاته أو تقدير الذات لذاتها لا تختزل في مجرد علاقة الذات بذاتها، فهذا الشعور يتضمن فضلا عن ذلك طلبا موجها للآخرين ، إنه يتضمن الأمل بموافقة متآتية من الآخرين بهذا المعنى يكون تقدير الذات ذاتها ظاهرة انعكاسية و علائقية في الآن نفسه .(بول ، العادل، 2003، صفحة 55) .

إن الذات لا تتعرف على ذاتها إلا بواسطة الآخر ، فيشكل الآخر التنوع و الاختلاف وبالتالي انفتاح الذات و تجاوز مركزيتها، فالآخر ليس فقط مجرد مقابل للعينية ، بل إنه ينتمي إلى التكوين الحميمي لمعناه ، وبذلك تكون الإتيقا التي نحتاجها هي " العيش الجيد مع الآخر و من أجله في مؤسسات عادلة " (بول ، الذات عينها الآخر، 2005، صفحة 608) ،ولا توجد طريقة للخروج من الذات إلا بالتغرب في الغير .

ثالثا- الإتيقا من أجل مجتمع العيش المشترك :

يفضل بول ريكور مصطلح الإتيقا بدل الأخلاق، كون الإتيقا اكثر قربا للممارسة الأخلاقية فهي ذات طابع عملي تحول الأخلاق من الطبيعة الصورية الشكلانية الجافة، نحو البراكسيس، وتقوم هذه الإتيقا على مبادئ أهمها :

1- الاعتراف: للاعتراف أهمية قصوى في تنمية التقدير الاجتماعي للفرد، سواء بالتقدير على المستوى الأنطولوجي أو الحقوق في مجتمع الاحتقار والإذلال، فالتعارف أحد الآليات الإيتيقية التي تحمي كرامة الانسان و قيمته الاجتماعية، وينتقل بول ريكور بالاعتراف في ثلاث مناحي من الاعتراف بالذات، إلى الاعتراف بالآخر أو ما يطلق عليه الاعتراف المتبادل، و أخيرا إلى الامتنان، فالاعتراف في التداول يعني الإقرار بالامتنان والشكر، وأيضا يدل حسب ريكور على الموافقة و القبول للشيء بوصفه حقيقة من جهة وبما هو إقرار وامتنان وتصريح ومكافأة ، ويتتبع جذور الاعتراف من الفيلسوف الألماني هيجل في جدلية العبد والسيد . (بول، سيرة الإعتراف، 2010، صفحة 11) .

الدلالة الأولى التي يحيل اليها الاعتراف ضمن نطاق فلسفة العيش المشترك والغيرية تتمثل في " الاعتراف كتعيين و تحديد للهوية ولا يظهر الاعتراف إلا في صورة المواجهة والصراع ضد حالات ووضعيات الإنكار" (الزواوي ، 2012، صفحة 35) ، فالاعتراف بالذات يسميه إقرار بالمسؤولية والشهادة، ويكون وفقا لذات قد تكون الإنسان القادر .

كما يتسع الاعتراف لنطاق الممارسة الجمعية فتظهر بالتالي فكرة الاعتراف المتبادل ، في معانيها التقدير والاستحقاق من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية بناءا على فكرة الاقتدار والاستطاعة، فالهويات الجماعية تحتاج إلى الاتفاق كرهان للبحث عن الهوية ، لم يكتف ريكور بفكرة الإنسان القادر ذاتيا وإنما يضيف علاقة الهوية بالغيرية، والاعتراف المتبادل هو الذي يتناسب مع هذه العلاقة المضطربة للشرق والغرب .

الاعتراف المتبادل بين الذات والآخر يظهر في حالات الاعتراف والسلم ويطلق على مواضيع من قبيل العطاء والكرم، ويعرف بالاعتراف الرمزي الذي يتغذى على أخلاقيات المناقشة والحوار والتواصل مع الغير ، "لا تحيا الذات وحدها و إنما تكشف سريعا البنية الثنائية الحوارية للعيش وهذا لا يتطلب فقط الاهتمام بالآخر بل العناية به ورعايته ، وتقدير الذات ينعكس احتراما للآخر ومن دون هذا الاحترام ليس هناك تبادل ممكن مع هذا الاخر " (بول ، الذات عينها الآخر، 2005، صفحة 49) ، فعلاقة الذات والآخر تتجلى من خلال فعل التعارف .

يرى أن الاعتراف ربما يكون حلا لمشكلة فلسطين وإسرائيل فهو " يقودنا بالأسس السردية المؤسسة لهويتهما الخاصة إلى إرادة قوية في تخيل جديد للعداء التاريخي بينهما " (ريتشارد، 2009، صفحة 165)، فالأمر لا يتطلب مرسوم عفو أو محو للذاكرة ، وإنما إعمال الذاكرة وخدمتها لما يساعد العفو والصفح وتحرير الماضي من محدوديته وتعصبه، ومن هاجس العنف والانتقام .

2- مبدأ الصداقة و الرعاية: ليسود التعايش بين الشعوب بمختلف ثقافاتها ودياناتها و عاداتها وبالتالي يكون الاعتراف اختلافا، لا بد من أن تكون هناك رعاية وإهمام وبالأخص الصداقة ولكن هذه

الأخيرة تتمايز فهي ليست واحدة ،إنما درجات فهناك صداقة المنفعة ، وصداقة اللذة ، وصداقة الخير أو الفضيلة، وأفضل هذه الصداقات التي من شأنها الرقي بالتوافق والتعايش، هي الصداقة الخير، " فمتى أحب الناس بالفائدة و المنفعة، فإنه لا يطلب في الحقيقة إلا خيره الشخصي، ومتى أحب الإنسان بسب اللذة فهو لا يعني في الواقع إلا هذه اللذة نفسها، وعلى الوجهين فإنه لا يحب من يحبه من أجل ما هو في الواقع بل هو يحبه لمجرد كونه نافعاً وملائماً " (أرسطو ، 1924، صفحة 227) ،فهذه الدرجة من الصداقة الخير فضيلة وتنشأ للخير بدون أهداف، فالصداقة الكاملة يقوم بها الفضلاء الذين يريدون الخير لغيرهم والصداقة من هذا القيل باقية وهي الصداقة التي نحتاج إليها لتليين العلاقة بين الشرق والغرب لا للمنفعة ولا الاستغلال وسط النفوذ والتبعية .

فمن أجل أن يكون المرء صديق ذاته عليه أن يكون قد سبق له أن دخل في علاقة صداقة مع الآخر كما لو كانت الصداقة للذات عينها تأثيرا ذاتيا مترابطا وثيقا مع التأثير بالغير الصديق ومن أجله، لابد إذن من تأسيس أفق للتواصل والحوار الغير متحيز والمفتوح والمتعاون " فأعظم قادة البشر هم من تركوا مجالا للشك ، فلا يمكن تأسيس النمو الحقيقي في الوعي البشري إلا بممارسة الحوار والحب " (زيغموند و سانسواق أوريك ، 2018، صفحة 03) .

فمن الواجب أن ترنو المجتمعات للحظة الحوار، كون "أسس التربية المستقبلية هو تنمية الحوار والتفاهم والتسامح والصداقة بين الشعو ب والأمم والحضارات والجماعات العنصرية والدينية، فالسلم هو أساس التضامن الفكري والمعنوي بين البشر، القادر على التخفيف من حدة أشكال التعصب والتمييز القائمين على أساس الدين والمعتقد " (عبد العزيز، مبادئ فلسفة التعايش، 2013، صفحة 55)،إنه من الضروري إقامة حوار بعيد عن كل تعسف وعنف أي بديمقراطية صنفها الأول عدم اللجوء إلى العنف عند انعدام الاتفاق بين فرد و آخر أو فرد و مجموعة .

3- الحس بالعدالة: إن العدالة لا تقوم إلا بواسطة ارتباطها بالصداقة والحب، فالحب هو المستقبل الذي يسمع أنين كل المهمشين و المعذبين، واللذين تركتهم حسابات السياسيين خارج أي اهتمام، الحب هو صرخة كل الذين يرزخون تحت خط الفقر

لا توجد هنالك عدالة مطلقة، بل لابد أن تكون منفتحة على أفق التغيير دوما الذي يأتيها من الحب الذي هو عطية مجانية وبالتالي لا تخضع لأي حساب، فريكور فيلسوف الحوار الثقافي بلا منازع هدفه الإستماع إلى الحضارات الأخرى، وفتح الباب أمامها، لتكشف ما هو مخبأ أو مطمور عندها لعل فيه إغناء جديد للبشرية (بول، بعد طول تأمل، 2006، صفحة 126) .

إن التعايش المشترك يسبق كل إمكانية لوجود جماعة أو أمة إنها الطبيعة اللاانتقائية للعيش المشترك، فالآخر فرع و جزء من الأنا، هو انعكاسها وصداها شبحها وظلها الذي لا يفارقها، إنه المصير

المؤجل للهوية، كما أن الحوار والتبادل لابد أن يكون ضمن مؤسسات تضمن لهم حقوقهم وإنسانيتهم، ويؤكد كذلك هابرماس على أهمية التواصل الذي غدى الصوت الوحيد القادر على توحيد عالم فقد كل مرجعياته، على أن يستند التواصل للعقل والخضوع لأخلاقيات المناقشة والحوار العقلانيين .

ليست العدالة مجرد نظام أخلاقي إنما هي نظام مؤسساتي ونسق معايير محددة للتعايش ورفع المظالم والضرر، فهي تتطلب للفرد أخلاقا للمسؤولية تمكنه من الانتقال من مستوى الحياة الإيتيقية إلى مستوى التحقق الفعلي للعيش المشترك وثقافة تبادل الاعتراف، وإذا ما وضعناها في بعدها الأخلاقي فهي تؤمن العيش المشترك بطرحها في الآن نفسه استقلالية الذات والطابع الكوني للعلاقة بالغير الذي يقتضي من الذات احترام الإنسانية فيه وهكذا ترتقي العدالة لظاهرة كونية .

من منظور البعد الأخلاقي للعدالة يقتضي ريكور الابتعاد عن التماسف، أي الابتعاد عن الطرفين الذي يمثل أحدهما الانغلاق الفرداني المطلق والاستبعاد الغريب للأجنبي و الغير بصفة عامة من خلال أشكال الهشاشة والكراهية والتطرف ، و الطرف الثاني الذي يمثل التماهي المطلق مع الكيان الاجتماعي باسم المحبة الكاملة أو الأخوة بشكل يحولها للذوبان، و بالتالي يسمح معيار التماسف بموضعة الآخر داخل البنيات الأساسية للقدرة الإنسانية والاعتراف بوجوده ، فتبرز القدرة في التعبير عن اختلافنا وغيريتنا .

4- التواصل واجب إيتيقي: يرى ريكور بأن الأخلاق الواجبية للتواصل تستمد مصدرها وقوتها :«بشكل أساسي من أنها دمجت في إشكالية واحدة الأوامر المطلقة الكانطية الثلاثة: مبدأ الإستقلال الذاتي بحسب مقولة الوحدة، ومبدأ الاحترام بحسب مقولة التعددية ومبدأ مملكة الغايات بحسب مقولة الشمولية، وبتعبير آخر، فإن الذات مؤسسة مرة واحدة في بعدها الكلي (الكوني) وفي بعدها الحواري البينشخصي والمؤسساتي (بول ، الذات عينها الآخر، 2005، صفحة 526)؛أي هنا أخلاق التواصل الخاضعة لمبدأ الواجب يتضح أن مصدرها الأوامر الثابتة الكانطية، حيث أن الإنسان هو الكائن الوحيد الحر والذي له أن يضع قوانينه بنفسه أي النابعة من إرادته وتصبح كونية، وهذا الكائن يوجد في إطار الاحترام بينه وبين الغير حيث يوجد تعدد الآراء وهذا الاحترام خاضع للإلزام، وهنا الناس باحترامهم لبعضهم البعض ينشأ الحوار بينهم في ظل مؤسسات تحكم بالعدل للجميع.

أقام ريكور الأخلاق الصورية "الشكلانية" وأعاد بناءها مع الفيلسوف كارل أوتوأبل فأساس أخلاق التواصل أن تنشأ تجربة التواصل من خلال وجود أفراد يتفاعلون فيما بينهم ويتفقون في اللغة التي يتناقشون بها، وهؤلاء الأفراد يجمعهم عالم واحد ولكل منهم الحق في المشاركة في الحوار والتواصل بقدرته على استعمال اللغة استعمالا معقولا يحترم فيه خصوصية الغير الذي يتحاور معه بحيث يتقبل كل منهما الحقيقة من الآخر ويضع في حسابه أنه ليس هو مصدر الحقيقة وحده، أي يشترط في تجربة التواصل وجود أشخاص لهم لغة مشتركة بحيث لكل فرد الحق في التواصل باستعمال اللغة بصفة مقبولة ولا

تجرح الغير الذي يحاوره، ويجب أن لا يرى بأنه هو الذي يعرف الحقيقة كاملة. (بول ، الذات عينها الآخر، 2005، صفحة 625).

يقول هابرماس: "لقد غدا التواصل الصوت الوحيد القادر على توحيد عالم فقد كل مرجعياته" (حسن، 2005، صفحة 151) أي حسبه المجتمعات الحديثة ذهبت للإعلاء من شأن وقيمة التواصل لتخطي المشاكل التي وقعت فيها ومعالجتها، وهنا اهتمت البشرية بالتواصل ووضعت آمالها فيه،

كذلك يؤكد هابرماس أن أي فرد له القدرة على النقاش وأن يلج فيه بصفة كلية ومباشرة بشرط أن يتبع معايير أخلاقية من صنع الوعي الأخلاقي أو بالأخص الأخلاق النظرية، وهذه المعايير تكون محددة والهدف من هذا النقاش بين الأفراد هو الوصول إلى صيغة أخلاقية كلية وشاملة .

حسب ريكور فإن أخلاق المحاجة في المناقشات الحادة ليست سوى سير لغوي فيه عدد كبير من ألعاب اللغة يحركه مثلا عند الحديث عن قصص معاشة ربما تثير الإعجاب أو الحزن أو النفور، ومن خلال ألعاب اللغة يحدث التواصل بين الناس ويتعلمون معنى العيش المشترك معا، وللعبة اللغة مطلب الكونية أو التعميم الكلي ويشترط ريكور لفعاليته أن يقبل توسط الألعاب الأخرى أو المناقشات الأخرى، وعند الوصول إلى أحسن حجة من خلال أخلاق المحاجة تأخذ في الحسبان وتقدم إلى المشاركين في التحاور والنقاش،(بول ، الذات عينها الآخر، 2005، صفحة 537)وهذه المناقشة من أساسها أن تكون حول "أشياء الحياة "،وهنا يتناقش الأفراد في النهاية" عن أفضل طريقة لكل شريك في المناقشة العامة الكبرى، لأن يستهدف من وراء كل التوسطات المؤسساتية بلوغ حياة منجزة مع الآخرين ومن أجلهم في مؤسسات عادلة" (بول ، الذات عينها الآخر، 2005، صفحة 62)، أي أن أفضل مجال للتنافس فيه بين المتشاركين في الحوارات الكبرى من خلال المؤسسات بوضعها كوسيط للتناقش بهدف العيش الجيد مع الغير ومن أجلهم في مؤسسات تحفظ لهم العدالة والإنصاف .ومن الأمثلة التي تحوي أخلاق المحاجة نجد النصوص الإعلانية لحقوق الإنسان والتي تعترف بها جميع الدول وهي من صنع الغرب، والقوانين التي تضمن هذه الحقوق هي قوانين غربية بحتة وبهذا العمل فإن الثقافة الغربية وقيمها هي السائدة ووافق عليها العالم بأسره.

وأصبحت هذه القيم الغربية هي المنتجة في تاريخ البشرية ولا تتدخل فيها ثقافات الدول الأخرى، وريكور هنا يرفض هذا الوضع حيث لا توجد كلية كونية ببعض القيم فالكلية الكونية تكون بتشارك كل الدول بثقافاتها المتنوعة وهنا يكون اعتراف متبادل على صعيد تقبل الآخر، وكل واحد يتقبل قناعات الغير، وفي هذا الصدد يرى إن أوجه الحكمة العملية التي نلاحقها طيلة هذه الدراسة هو هذا الفن للمحادثة حيث تختبر أخلاق المحاجة داخل صراع الاقتناعات ،ما يظهر من الحكمة العملية هو فن المحادثة والحوار، فيوضع المتناقشون بحججهم تحت الاختبار كل حسب قناعاته الخاصة وثقافاته وهنا يكون تقبل للآخر .

ثالثا- القدرة الإيتيقية رهان الاعتراف بالذات و الانفتاح على الآخر:

يشكل الإنسان ذات إيتيقية قادرة، ينبغي أن تعمل على تحقيق الغايات الإيتيقية لهذه الحياة على غرار الديمقراطية و التعايش ، الخير، الاعتراف المتبادل، الإنصاف، المساواة، فالقصد الإيتيقي شامل لمختلف مشكلات الحياة السياسية و الاجتماعية والاقتصادية، فتصبح من هذا المنظور الحياة العملية ليس مجرد تنظيم، بل جهدا وقدرة للذات لتحقيق غايات هذا القصد على المستوى الحياة المشتركة، والإنسان لا يصبح ذات إيتيقية فاعلة إلا داخل المجتمع وبالتدقيق داخل مؤسسات فاعلة، فقصدية الحياة الفاضلة تتطلب فكرة العيش مع الآخر وما يميز العدالة أنها تتجاوز الطابع المباشر للعلاقة البينشخصية بل تصبح علاقة متوسطة وكونية لذلك لابد من سبل ديمقراطية للحوار والتفاوض للخلافات والصراعات.

فثقافة تدبير الاختلاف بما هو اعتراف بقدرة الذات الإنسانية على تجاوز اضطهادات العنف، تدل على يقظة و حكمة الإنسان القادر كمواطن مسؤول عن حق الاعتراف بذاته كقادر وبالغير في إطار العيش المشترك كفيلان بضمان استمرارية العيش المشترك، فالإيتيقا السياسية ضامنة لحقوق الافراد وحدود حرياته، وتحدد وجهات التعايش ودخول المجتمعات سبل الحوار و التفاعل بين الثقافات .

فأن نحقق الاعتراف كمطلب وأن نكون عادلين يعني ؛أن نعترف للآخر بقدرته على التعبير عن غيريته بالنسبة لنا و إظهار ذلك على مستوى الفعل، بقدر ما نطالب نحن بحقنا في ممارسة القدرات، لقول هويتنا والتصرف وفق القصد الإيتيقي على نحو من احترام وتعايش مشترك بما يضمن الخير العام، يقتضي الأمر إذن أولوية السلم على العنف والأمن على الحرب والتعايش بدل الإقصاء .

يرى ريكور تحقيق الاعتراف و العيش المشترك يتطلب جهاد و مكابدة وصراع من أجل انتزاعهما، بمعنى لابد أن تكون هناك قوة وعمق للنزاع والتنافس والاختلاف للدفع نحو التعايش بين الأفراد والمجتمعات، فهو الوسيلة للخروج من الأنانية نحو ثقافة تاريخية للاعتراف و ينبغي اعتبار المؤسسات الاجتماعية الأسرة، المدرسة، مؤسسات الثقافة بمثابة فضاءات للاعتراف وترسيخها في إطار تأسيس واستدامة الحياة العملية القائمة على التعايش المشترك .

إذن من خلال الإتيقا الصغيرة التي يؤسسها بول ريكور والتي تنبني على قدرة الذات وملازمتها للغير في إطار المؤسسات العادلة، وأنه لا يحيا الإنسان حياة جيدة إلا من خلاله تبادلاته الفعلية مع الآخر سواء كان مختلف في دينه أو عرقه أو ثقافته، فهذه الذات لن تتحقق بالسعادة مالم تنفتح على غيريتها، وخاصة في ظل العصر الراهن الذي يسوده الصراعات والنزاعات بين الشعوب حول مركزيتها و تهميش أحدهما للآخر، فمقصد الإيتقا القائم على أخلقة الممارسة الاجتماعية من واجبية الاعتراف وضرورته، وأهمية الصداقة التي ثمن العدالة وتشد خيطها الناظم فتحميها من الميل نحو المنفعة، وكذلك العدالة كاعتراف

واختلاف ستعزز العلاقات بين الشرق والغرب ،وربما تكون هي السبل الكفيلة بتحسين العلاقة بينهما وتغيير صورة أحدهما بالنسبة للآخر .

خاتمة :

من خلال مجموعة العناصر التي تناولنا يمكننا أن نجمل أهم النتائج المتوصل إليها فيما يلي :

لا يمكن الجزم المطلق على الموقف السلبي والصورة المشوهة التي يضعها أغلب الغربيين عن الإسلام، بل هناك من الغربين من وقفا موقف مدافع ومساند للإسلام ويساهم بصورة أو بأخري لبيان شفافية الإسلام وأحقيته بل، واعتباره الممر الوحيد لفلسفة الحق والحقيقة، وهؤلاء كثر من بينهم الفيلسوف الفرنسي رينو غينو، الذي اعتنق الإسلام في نهاية حياته كذلك المغترب الفلسطيني إدوارد سعيد الذي حاول تحسين نظرة الغرب للإسلام من خلال دراساته الإستشراقية ، ومثيله وائل حلاق المكرس لفلسفة أخلاقية، لاسيما مواقف الذين يدعون للتعايش والكونية على غرار جوديث بتلر الأمريكية، و نظيرتها نانسي فريزر؛ مدافعات على الأقليات والمهاجرين و الاختلاف الثقافي ومنه نظرتهما الإيجابية للآخر وإتيقا المسؤولية و الغيرية التي نادى بها إمانويل ليفيناس .

تبرز الدراسة موقف ريكور المنفتح على الإسلام و المقدسات ودعوته الصارمة للتعايش السلمي والمشترك بين الشعوب والجماعات من خلال تأسيسه لإتيقا قائمة على :

- الاعتراف بالآخر وبالذات، باعتبار الذات لا تحيا بالبعد عن الغير لأنه من مكوناتها الحميمية وعينيتها، و تقدير الذات يتوقف على تقدير الغير و احترامه، فالانا ترى ذاتها من خلال الغير، وبالتالي لابد من أن يكون هناك اعتراف متبادل بين الطرفين من شأنه أن يجعل من العلاقات متوافقة، متبادلة وبالتالي فاعلة وناتجة و هذاما تحتاجه عملية إعادة تصحيح الصورة المغلوطة عن الإسلام و المسلمين كآخر مقابل الأنا الغربي .
- مبدأ الحب و الرعاية، فبالرعاية للغير واحترامه وحبه من غير انتظار فائدة ولا هدف إلا بحكم إنسانيته ،تنمو نفس العلاقة وتتكوثر التبادلات الخالصة والتي لا تزول .
- الحاجة إلى عدالة مفتوحة تتجاوز حدود جماعة منغلقة، تعطي حقوق الآخر وبالتالي تعترف به ولا تقف عند البعد النظري إنما تنقلها لنطاق البراكسيس من خلال التجسد بواسطة المؤسسات سواء الاجتماعية أو الثقافية و غيرها .
- كما يؤكد ريكور على ضرورة تنمية الحوار الغير متحيز، و التواصل بين الثقافات والايمان بالاختلاف كأساس للحرية والتعايش العالمي .

- كما يشير ريكور لضرورة و إلزامية الحوار والنقاش الحداثي، بحيث يدعو لذلك ويشيد باحترام الآخر من خلال إتباع والتحلي بأخلاقيات المحاججة والنقاش، من أجل إرساء ثقافة تواصلية كونية لا يهمش فيها طرف .
- ريكور يراهن على ايتيقا عملية استهدافية تمارس فعليا وتساهم في تغيير الوضع المعاصر بحل مشكلاته وعلى غرارها إشكالية النزاعات والصراع بين الأنا والآخر وضرورة تقبلهما لبعضهما من أجل سيادة السلم و السلام .
- كما يعتبر الاختلاف الفكري والعقائدي والثقافي، فبالاختلاف يكون التنوع والتمايز ومنه يحدث الائتلاف والتآلف بين التغايرات، فلاختلاف حياة، وبالتالي فالإتيقا التي يحتاجها العالم اليوم هي إتيقا الاختلاف و الاعتراف، والتسامح .

توصيات :

- السعي لإنشاء علم استغرابي، يرد على الدراسات الاستشرافية التي تشوه صورة الإسلام .
- تكريس مبادئ الحق في الاختلاف و الاعتراف بالثقافات و تعددها بالقضاء على المركزية، وهذا في إطار تخصيص مؤسسات ناظمة لذلك .
- السعي لتكريس الخصوصية و الانفتاح و احترام خصوصية الإسلام في نصوص قانونية .
- على المسلم أيضا التكثيف من الملتقيات والدراسات و التوعية في وسائل الميديا بضرورة تقبل الآخر المختلف دينيا و ثقافيا واحترام حريته ، من أجل حضارة كونية يكون فيها الكل أخ للكل .

قائمة المصادر و المراجع :

_ القرآن الكريم

_ BADIOU ALAIN .LETHIQUE . ESSAI SUR LA CONSIENCE DU MAL. 1993 .HATIER paris .

_ paoul ricoeur .SOI MEME COMME UN AUTRE. FRANCE: EDITION DE SEUIL ,1990, Edution de seuil ,France .

_ RAWLS JOHN ,THIORIE DE LA JUSTICE . PARIS: PARC AUDARD SEUIL, 1987,parc audard seul, paris .

_ -أبو مسهولي عبد العزيز. مبادئ فلسفة التعايش ، 2013 ،افريقيا الشرق، الدار البيضاء

_ باومن زيغموند، و سانسواق أوريك ، عن الله و الإنسان.، 2018 *ط1* ، الشركة العرية للأبحاث و النشر، بيروت .

_ بغورة الزواوي . الإعتراف من أجل مفهوم جديد للعدل. *دراسة في الفلسفة الاجتماعية، 2018، ط1* ،دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت

- حمدي أبوالنوري ، و حسن أبو النور ، يورغن هابرماس الأخلاق والتواصل. ، 2012 ، التنوير للطباعة و النشر.، بيروت
- ريكور بول ، الإعتقاد و الأنتقاد. 2002 ، *ط1*،. ترجمة : العمراني حسن ، دار تويقال ، المغرب .
- ريكور بول ، سيرة الإعتراف ،2010 ،*ط1* ، ترجمة : إنقزو فتحي ، دار سيناترا ، تونس
- ريكور بول ، العادل. *ج2، ، 2003 ، ط1* تحرير : عيادي عبدالعزيز، و كشتو منير ، بيت الحكمة ،تونس .
- ريكور بول ، الذات عينها الآخر. 200 ، *ط1* ، تحرير : جورج زيناتي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت
- ريكور بول ، بعد طول تأمل. ، 2006 ، *ط1* ، تحرير : فؤاد مليت ، الدار العربية للعلوم.، بيروت .
- طاليس أرسطو ، علم الأخلاق إلى نيجوماخوس ،*ج2 ، 1924 ، ط1*. تحرير: لطفي السيد أحمد، دار الكتاب المصرية، القاهرة .
- علي حرب ، خطاب الهوية ، 2008 ، منشورات الإختلاف ، الجزائر
- كيرني ريتشارد ، دوائر الهيرمينوطيقا عند بول ريكور.، 2009 ، تحرير : كندي سمير، دار أزمنة للنشر ،الأردن .
- مصدق حسن ، النظرية النقدية التواصلية. 2005 ، *ط1* ، المركز القافي العربي ، بيروت

تصحيح الصورة النّمطيّة الغربيّة عن الإسلام من خلال الحوار مع الآخر

Correcting the Western Stereotype About Islam Through Dialogue With the Other

د. إسماعيل عريف ، جامعة الوادي- الجزائر
ismailarif025@gmail.com



لمّا أكثر الغرب من ظُلم الإسلام وأتباعه، وذلك حينما رسّخ في ذِهن أُممه وشعوبه صورة نمطيّة مظلمة قاتمة مجحفة في حقّ المسلمين ودينهم؛ شمِلتْ المعتقد والتّاريخ والحضارة والثّقافة والأُمّة، وذلك باتّخاذ كافّة الأساليب والوسائل المحقّقة لهذا الغرض؛ هبّ المسلمون بمختلف أطيافهم وتوجّهاتهم إلى تصحيح هذه الصُّورة الغربيّة غير المنصفة، فسلكوا سبيل الحوار مع الآخر، رغبة منهم في تحسين صورة الإسلام وبيان حقيقته النّاصعة لكلّ مَن يحطّ من قدره، فجنّدوا لذلك مختلف الأساليب الحواريّة المباشرة وغير المباشرة لتحقيق هذا المسعى النّبيل؛ أملًا في نُصرة دينهم ودعوة الآخرين إليه.

الكلمات المفتاحيّة: تصحيح، الصّورة النّمطيّة، الغرب، الإسلام، الخوار، الآخر.

Abstract:

Because the West is more unjust than Islam and its followers, when it established in the mind of its nations and peoples a dark and dark stereotype unjust to Muslims and their religion, including belief, history, civilization, culture and the nation, by taking all the methods and means achieved for this purpose; Muslims of all walks of life and their orientations to correct this unfair Western image, so they took the path of dialogue with the other, in order to improve the image of Islam and to show its bright reality to all those who degrade it, so they recruited various direct and non-dialogue methods. To pursue this noble endeavour, in the hope of supporting their religion and inviting others to it.

Keywords: Correction, Stereotype, West, Islam, Bellows, The Other.



مقدّمة:

لطالما اتّسمت العلاقة بين الإسلام والغرب على مرّ العصور والمراحل الزّمنيّة بطابع العدوانيّة، وذلك منذ ظهور الدّين الإسلامي في القرن السّابع للميلاد، وقد تنوّعت أشكال هذه العدوانيّة واختلفت أساليبها ووسائلها، ولعلّ من أكثر الوسائل والأساليب استعمالًا فيها؛ التّراشق بالهرطقة والزّندقة، وتصوير الآخر

بصورة سلبيّة دنيئة خسيسة، واعتباره مجرمًا خارجًا عن القانون، ولا شكّ أنّ الغرب متمثِّلًا في أوربّا وأمريكا قدّ شكّل صورة قاتمة مظلمة عن الإسلام وأهله وكلّ ما يتعلّق به منذ العصور الوسطى وإلى العصر الحديث، هذه الصّورة المخيفة التي باتت صورة نمطيّة معروفة وبديهيّة عند الشّعوب والأُمم الغربيّة، بل وأضحت متوارثة جيلًا عن جيل، وازداد هذا الأمر خطورة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي اتُّهم المُسلمون بها.

ولأنّ هذه الصّورة النّمطيّة مجانبة للحقيقة ومخالفة للواقع المُعاش والمُشاهَد؛ فقد سعى المسلمون جاهدين -بشتّى أجناسهم وطوائفهم ومستوياتهم وتوجّهاتهم العقائديّة والفكريّة والسّياسيّة- إلى تصحيحها والحدّ من انتشارها وازديادها، ومن ثمّ محوها بشكل نهائي، لكيلا تبقى راسخة أو عالقة بأذهان الأجيال الجديدة الغربيّة، ولئلّا تلوكها ألسنة وسائل الإعلام الغربيّة والعالميّة في كلّ محفل أو مناسبة، وحتّى لا ينشأ عليها الجيل الإسلامي الجديد؛ فتكون سببًا في تنامي النّظرة السّلبيّة والعدائيّة ضدّ أهل الغرب، ولم يدّخر هؤلاء –أي المسلمون- أيّ جهد في سبيل تحقيق هذا المطلب السّامي (الدّفاع عن الإسلام) باعتباره واجبًا شرعيًّا وضرورة حضاريّة في الوقت ذاته، فراحوا يجرّبون ويستعينون بمختلف الوسائل والأساليب التي يرونها كفيلة بجلب هذا المكسب، وقد كان من بيت تلك الأساليب والوسائل التي اتّخذوها كأداة ومنهج بخصوص هذا الشّأن؛ **الحوار مع الآخر**، إيمانًا منهم بفاعليّته ومقدرته على تحقيق مطلبهم هذا.

وتأسيسًا على ما سبق وصفه، وحصرًا لهذا الموضوع في إطار منهجيّ محدّد؛ تمّ بلورة إشكاليّة له في سؤال مفاده:

إلى أيّ مدى أسهم الحوار مع الآخر في تصحيح الصّورة النّمطيّة الغربيّة عن الإسلام؟

وللإجابة عن هذه الإشكاليّة اقتضت منّا المنهجيّة العلميّة تقسيم البناء الهيكلي لموضوع هذه الدّراسة إلى عناصر ثلاثة مع مقدّمة وخاتمة؛ فأمّا المقدّمة فقد سبق بيانها، وأمّا العناصر الثّلاثة فهي على النّحو الآتي:

- مفهوم الصّورة النّمطيّة الغربيّة عن الإسلام.
- حقيقة الصّورة النّمطيّة الغربيّة عن الإسلام؛ أشكالها ومضامينها.
- الحوار مع الآخر كسبيل لتصحيح الصّورة النّمطيّة الغربيّة عن الإسلام.

أوّلًا- مفهوم الصّورة النّمطيّة الغربيّة عن الإسلام:

إذا كانت النّمطيّة بالمعنى العام تعني؛ الأمر الذي يعدُّ تمثيلًا أو تطبيقًا لصورة أو نوع تقليدي على طريقة واحدة، لا تغيير ولا جديد ولا إبداع فيه؛ أي أنّه يمتاز بالرّتابة والجمود، (عمر، 1429هـ/ 2008م،

صفحة 2286)، أو هي: "مجموعة من الأحكام والصّفات والتّقديرات العامّة ذات الدّلالة الإيجابيّة أو السّلبيّة التي تنطبق على جماعة بأكملها؛ أي: مجموعة من الأفراد يجمعهم عرق أو قوميّة أو وطن أودين، إذ إنّ التّعميم والتّكرار والمدلول الخُلقي أو الاجتماعي والتّطبيق على جماعة بأسرها، هي العناصر المكوّنة للصّورة المُقولبة". (نصر، 1995م، صفحة 20)؛ الأمر الذي يجعلها تمتاز بخصائص متعدّدة منها: عدم الدّقّة، والثّبات والجمود، والعاطفة، والتّبسيط والتّعقيد، والتّعميم، والتّصنيف، والسُوء، والاكتساب والتّعلّم، (كامل، 2017م، الصفحات 84-87)، وأنّ "الغربيّة "نسبة للغرب المعروف المُقابل للشّرق، والذي تمثّله أوربّا وأمريكا، فإنّ المقصود بالصّورة النّمطيّة الغربيّة عن الإسلام: تلك الصّورة الذّهنيّة السّلبيّة القاتمة والمظلمة عن الإسلام والمسلمين، اللّاصقة والرّاسخة والعالقة بأذهان أجيال البلدان الغربيّة منذ أمد بعيد وإلى الوقت الحالي، وهي ذات أحكام وتقديرات عامّة مجحفة وقاسية وغير عادلة ولا منصفة في حقّ هذا الدّين وأتباعه، وقد تبلورت هذه الصّورة المليئة والمُثقلة بالأكاذيب والتّشويهات والتُّهم وغير ذلك، بفعل تراكمات وعوامل دينيّة وتاريخيّة وثقافيّة واجتماعيّة تظافرت كلّها وساهمت في إظهار محتوى غير لائق عن الإسلام وأهله في المخيال الشّعبي الغربي، لاسيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م.

ثانيًا- حقيقة الصّورة النّمطيّة الغربيّة عن الإسلام: أشكالها ومضامينها:

حينما يكون هناك تساءلٌ عن حقيقة الصّورة النّمطيّة الغربيّة عن الإسلام، فإنّ الجواب لا يخرج عن تلك التّهم الباطلة والأقاويل الزّائفة والتّشويهات الكاذبة التي تُقال عن الإسلام كدين والمسلمين كأتباعٍ لهذا الدّين؛ بسبب البُغض والكراهيّة والعدوانيّة والهمجيّة الغربيّة المقيتة القديمة المتجدّدة، بحجّة الحضارة الإنسانيّة والنّقاء العرقي والتّقدُّم والرّقي والمركزيّة التّاريخيّة والسُّموّ الجنسي...

من ذلك رمي الإسلام وأهله بالكفر والهرطقة والمروق من التّعاليم الصّحيحة للدّين؛ إذ أُعتبِر الإسلام – في هذه القرون- نوعًا من الانشقاق الدّيني، أو هو هرطقة ضمن المسيحيّة، فقد ادّعى بعض الأوربّيين أنّ رسول الإسلام كان كاردينالًا كاثوليكيًّا تجاهلته الكنيسة في الانتخابات البابويّة، فقام بتأسيس طائفة مُلحدة في الشّرق، انتقامًا من الكنيسة في الغرب، هذا وقد اِعتبرت أوربّا المسيحيّة –في القرون ذاتها- أنّ محمّدًاصلى الله عليه وسلم هو المرتدّ الأكبر عن المسيحيّة الذي يتحمّل وحده وزر وإثم انقسام نصف البشريّة أو أكثر عن الدّيانة المسيحيّة. (عمارة، 1425هـ/ 2005م، الصفحات 64-65).

كما زعموا أنّ هذا الرّجل كان ساحرًا، لفّق معجزة زائفة كيْ يستميل العُقلاء من العرب، وليدمّر الكنيسة في إفريقيا والشّرق الأوسط، ويقال: إنّه درّب حمامة على نقر الحبّ من أُذنيه بحيث تبدو وكأنّها الرّوح القدس، وأنّه كان مصروعًا؛ أي مسكونًا بشياطين، وقد تمّ التّركيز على حياته الجنسيّة بشكلٍ مسرفٍ بالقول: إنّه كان مثالًا للمنحرفين، وقيل: إنّه كان يجذب النّاس إلى دينه من خلال تشجيعهم على

إشباع غرائزهم الأكثر انحطاطًا، ثمّ زعموا أنّه لا شيء في ادّعاءات محمّد صحيح، فقد كان –في نظرهم- دجّالًا بارِد الدّم، خدع كلّ أتباعه تقريبًا، ومَن رأى من أتباعه أنّ أفكاره مخالفة للعقل بقيَ صامتًا لطموحٍ خسيس في نفسه، كما زعموا أنّ شخصًا يُدعى (سرجيوس)؛ راهب هرطوقي كان قد أُجبِر على الهروب من المسيحيّة، قابَل محمّدًا في الجزيرة وزوّده بنسخة مشوّهة عن المسيحيّة، وقد انتهى محمّدًا –وفق تصوّرهم- نهاية مأساويّة مناسبة له، فقد مزّق قطيعٌ من الخنازير جسده أثناء واحدة من تشنّجاته الشّيطانيّة. (أرمسترونغ، 2002م، الصفحات 28-29).

وفي خطبة البابا أوربان الثّاني التي حثّ فيها المسيحيين على الحروب الصّليبيّة ضدّ المسلمين؛ انتهاكٌ لحرمة المسلمين وحطٌّ من قدرهم، وسخريّة بانتمائهم العرقي، واستهزاءٌ بكرامتهم، إذ قال: "أيُّ خزي يجلّلنا وأيُّ عار، لو أنّ هذا الجنس من الكفّار –يعني المسلمين- الذي لا يليق به إلّا كلّ احتقار، والذي يسقط في هاويّة التّعريّ عن كرامة الإنسان، جاعلًا من نفسه عبدًا للشّيطان قد قُدّ له الانتصار على شعب الله المختار". (عمارة، 1425هـ/ 2005م، صفحة 69).

وقد وُصِف المسلمون في ملحمة رولاند بأنّهم "الشّعب الذي لا يُروَى تعطّشه لسفك الدّماء، والذي لعنه ربُّ السّماء، فهم كفرة وكلاب وخنازير فجرة، هم عبدة الأصنام التي لا حول لها ولا قوّة، الذين لا يستحقّون إلّا أن يُقتلوا وتُطرَح رممهم في الخلاء، فهم إلى جهنّم بلا مراء". (عمارة، 1425هـ/ 2005م، صفحة 69)، وهذا كلّه إنّما قيل حقدًا على المسلمين ودينهم.

وعمومًا، تتّصف الرّؤية الغربيّة التّقليديّة للإسلام بنوعٍ من العنصريّة والتّشدّد في إطلاق الأحكام التّعسّفيّة، وهذا الأمر ناتجٌ عن نظرة ذاتيّة نرجسيّة من جهة، وعن عدم معرفة حقيقيّة بهذا الدّين من جهة أخرى، وأيّامّا كان الأمر، فإنّ هناك الكثير من الأحكام السّلفيّة الخاطئة تبدُر من المسيحيين تجاه الإسلام، منها: الإسلام هو مذهب الاستسلام للجبريّة، الإسلام هو مذهب الأحكام الشّرعيّة، الإسلام هو مذهب الإباحيّة، الإسلام دين التّعصّب، الإسلام دين التّحجّر، الإسلام دين الخوف، (بورمانس، 1986م، الصفحات 98-104)، وكلّ هذه الأوصاف؛ هي أوصافٌ خطيرة جدًّا، تجعل من هذا الدّين بعيدًا تمامًا عن مبادئه التي جاء لتحقيقها؛ وهي الوسطيّة والعدل والرّحمة والتّوازن والمساواة...، وغير ذلك من مبادئ وأساسيات يتّسم بها كلّ دين سماوي ذي مصدرٍ ربّاني.

ومن الصّعوبة بمكان تحديد جميع التّصوّرات الغربيّة عن الإسلام خاصّة في العصور الوسطى، إلّا أنّه إجمالًا يمكن القول بأنّ هذا الدّين كان معتبرًا في هذه الذّهنيّة (جورافسكي، 1425هـ/ 2005م، الصفحات 72-73):

- دينًا جنسيًّا؛ إذ كانت دعوى التّحلّل الجنسي للمسلمين (وصولًا إلى حدّ القول والزّعم بأنّ القرآن نفسه يتساهل ويتسامح مع اللواطة) من أكثر القصص والموضوعات انتشارًا في المؤلّفات التي كتبها الأوربّيون عن الإسلام في القرون الوسطى.
- الإسلام عقيدة ابتدعها محمّد، وهي تتّسم بالكذب والتّشويه المتعمّد للحقائق، إنّه دين الجبر والانحلال الأخلاقي، والتّساهل مع الملذّات والشّهوات الجنسيّة، وهو دين العنف والقسوة والإرهاب والقتل وسفْك الدِّماء.

إنّ هذه الصّورة التّقليديّة والتي يتبنّاها والأوربّيون تجاه الإسلام في القرون الوسطى؛ هي من صنع رجالات الكنيسة، فالذين شكّلوا هذه الرّؤية هم بالتّحديد لاهوتيّون ألمانًا وفرنسيين وايطاليين، في وقت كانت فيه هذه البلدان (ألمانيا وفرنسا وايطاليا) تمثّل قلب المسيحيّة الكاثوليكيّة، وقد تغلغلت هذه الصّورة النّمطيّة في ذهن الغرب المسيحي بفعل هؤلاء اللاهوتيين؛ لأنّهم كانوا يمثّلون الكنيسة والثّقافة والخُلاصة الاجتماعيّة للمجال الحضاري المسيحي الغربي، (سوذرن، 2006م، صفحة 12)، فلقد بدأ تشكيل هذه الصّورة في هذه العصور تحديدًا؛ أي في زمن المبادلات الثّقافيّة الأكثر فعاليّة، إذ تشكّلت في الوعي الغربي القوالب النّمطيّة الذّهنيّة عن الإسلام، وهي التي نشأت في كثير من جوانبها بارتباطٍ مسبق وارتهان شرطي بنوع وطبيعة الموقف التّقليدي للكنيسة عن هذا الدّين، ذلك أنّ أدب أوربّا القرون الوسطى حول الإسلام، وضِع في غالبيته العظمى من طرف رجال الدّين المسيحيين، الذين استندوا إلى مصادر شديدة التّمايز والتّباين؛ كالحكايات الشّعبيّة وقصص الأبطال والحجّاج والقدّيسين والمؤلّفات الجداليّة اللاهوتيّة، وشهادات بعض المسلمين، وترجمات مفكّريهم وعلمائهم، (جورافسكي، 1425هـ/ 2005م، الصفحات 66-67)، وغير ذلك من المصادر التي نسجوا منها هذه الصّورة، ويُمكن إجمال تلك المصادر وإرجاعها إلى ثلاثة مجالات رئيسيّة؛ هي: مجال التّأويل للكتاب المقدّس، مجال الرّؤيا النّشوريّة، ومجال المخيّلة الشّعبيّة. (سوذرن، 2006م، صفحة 70).

هكذا كانت صورة الإسلام في القرون الوسطى في التّصوّر الغربي ورجالات الكنيسة، وهي صورة تشويهيّة قائمة على العنصريّة والبُعد عن الموضوعيّة، ولا شكّ أنّ هذه الصّورة لها أبعادها وأهدافها الدّينيّة والحضاريّة، فهي تعكس خلفيّة الصّراع المحتدم الذي كان سائدًا آنذاك أو مسيطرًا على الفكر في تلك الحقبة بين المسلمين والمسيحيين، ثمّ إنّ هناك هدفًا رئيسيًّا يبرّره؛ هو وأْدُ الإسلام في مهده، ثمّ إنّ هذه الصّورة النّمطيّة عن الإسلام لم تتغيّر كثيرًا في العصر الحديث، إذ بقيت لها جذور راسخة في نفوس المسيحيين، كما أنّ لها أنماطًا مشابهة للأنماط الموجودة في العصور السّابقة، ولقد عمِد بعض المستشرقين إلى إبرازها والدّعوة إليها، ومحاولة غرسها في النّفوس والضّمائر.

ومن أمثلة هؤلاء، بروكلمان الذي تحدّث عن نظام الزّواج في الإسلام بطريقة تشويهيّة، مليئة بالدّسائس والشّبهات، قوامها أنّ الدّين الإسلامي يدعو إلى الجنس والفسق عن طريق تعدّد الزّوجات،

وملك اليمين الذي يتضمّن عددًا غير محدودٍ من النّساء، وهذا ما يؤدّي إلى الاستخفاف بالحياة العائليّة الهادئة، ما دام مسموحٌ للمسلم أن يجمع إلى زوجاته الأربع العدد الذي يروق له من السّراري. (بروكلمان، 1968م، صفحة 80).

وإذا كان هذا هو أحد الأوجه بالنّسبة لنظرة الغربيين إلى المسلمين ودينهم في العصر الحديث، فإنّ هناك أوجُهًا أخرى عديدة يمكن أن تُذكر بهذا الصّدد، منها على سبيل المثال لا الحصر؛ اتّهام أتباع هذا الدّين بالتّعصّب والعنف والإرهاب، خاصّة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ التي تحوّلت فيها الأنظار إلى الإسلام باعتبار أنّ مَن قام بهذه العمليّات الهجوميّة؛ هي مجموعة إسلاميّة متطرّفة، فازداد الشّكّ عند النّاس بالمسلمين، وحدثت الاعتداءات المختلفة على الأمريكيين المسلمين، كما حصل بفعل ذلك العديد من الأحداث واتّخذت لأجله الكثير من الإجراءات والتّدابير القانونيّة والسّياسيّة والمدنيّة، (لطفي، 1425هـ/ 2004م، صفحة 266)، وتأكيدًا على إلصاق التّهمة بالإسلام وأهله جرّاء هذه الأحداث الأليمة، استعمل الغرب كافّة الوسائل بغية تحقيق هذا المقصد، فتمّ مثلًا عرض فيلم أمريكي بعنوان: (الجهاد في أمريكا) بالولايات المتّحدة، يتمحور مضمونه في أنّ (الدباغ، 1422هـ/ 2001م، الصفحات 94-95):

الجماعات المتطرّفة الإسلاميّة...........تقوم بالاغتيال والقتل.
الاغتيـــــالالقتـــــل..........إرهــــــــــاب.
الجماعـــات الإسلاميّـــة..........إرهـــــابيّـــــة.

وفي السّياق ذاته، وكاستمراريّة لهذه الفكرة، نجد مقال الكاتب السّياسي الأمريكي (إيميت تيريل) المنشور في مجلّة "هاربر"؛ وهي مجلّة النّخبة من المثقّفين الأمريكان، والذي اتّهم فيه الإسلام بأنّه دين تطرّف وإراقة الدّماء والتّعصّب والإرهاب، ويتمحور مضمونه حول (الدباغ، 1422هـ/ 2001م، الصفحات 95-96):

الجهـاد............هو نوع من..........القتل والاغتيال.
القتل والاغتيال.......................إرهــــــاب.
الجهـاد..................................إرهــــاب.
الجهـاد...........هو جزء...............من الإسلام.
الإسلام..................................إرهــــاب.

وما جاء في هذا المقام من صورٍ سابقة هو غيض من فيض، وقد ضُرِب كمثال عن الصّورة النّمطيّة الغربيّة عن الإسلام وأهله، والتي لها أشكالٌ متعدّدة ومتنوّعة، تكاد تعمّ جميع المجالات؛ الثّقافيّة والدّينيّة والاجتماعيّة والتّاريخيّة والحضاريّة...، ولا شكّ أنّ ذلك يحزُّ في نفوس المسلمين وتتفطّر له قلوبهم، حينما

يسمعون بهذه الاتّهامات والمغالطات تجاه دينهم وعقيدتهم وشريعتهم التي يعتقدون كمالها ونزاهتها عن كلّ دنس ولغط، ممّا يدفعهم إلى اتّخاذ الحذر والاحتياط من المسيحيين، لمّا يدعونهم للتّحاور معهم والاجتماع بهم على طاولة واحدة.

ثالثًا- الحوار مع الآخر كسبيل لتصحيح الصّورة النّمطيّة الغربيّة عن الإسلام:

إن الأسلوب اللّيّن الرّقيق والكلام الهادئ الذي فيه أخذ وردّ، يمكن أنْ يجد لقلب المُخاطَب طريقًا ولفطرته مسلَكًا، وذلك هو ديدن الحوار الهادف المؤسَّس على الأخلاق والآداب الصّحيحة ذي الرّسالة الواضحة والأهداف البيّنة، ونحن في هذا المقام إنّما نخصّ بالذّكر الحوار المؤسّساتي المنظّم الذي يتمّ فيه النّقاش بهدوء وسكينة وتبادل في الأدوار ووجهات النّظر، والذي يكون في مجالس خاصّة وطنيّة أو إقليميّة أو دوليّة؛ سواء أكان ذلك في المؤتمرات الحواريّة التي تعقد بين المسلمين وغيرهم، أو في حصص إعلاميّة، أو حتّى في المنتديات والصّحف والجرائد وغير ذلك من هذه القطاعات.

ولأنّ تكالب الغرب عن الأُمّة الإسلاميّة في شتّى مقوّماتها الدّينيّة والثّقافيّة والتّاريخية والاجتماعيّة قد تفشّى وفاق الحدود كما أسلفنا القول في العنصر الثّاني؛ فإنّ تصحيح صورة الإسلام لديه ولدى جميع الأُمم الأخرى، قد أصبح أمرًا محتومًا، بل وواجبا على ذوي العلم والمكانة العليا، لمحو تلك الصُّورة النمطية التي نسجها الغرب حول الإسلام وأهله، فقد "آن الأوان لبذل الجهود الحثيثة لإيجاد فهمٍ صحيح للإسلام، يؤدّي إلى التّقليل من سوء الفهم والجهل بحقائقه، وهو ما يقتضي منّا إعادة النّظر في أساليب طرحنا للإسلام، وثقافته، وحضارته، وطرائق تعبيرنا عن أفكارنا أثناء مخاطبة الآخرين بما يتناسب وتصحيح الصُّورة، وتبديد سوء الفهم العالق بأذهان الغربيين". (أقجوج، 2009م، صفحة 05).

ولمّا كان هذا هو ديدن الغربيين في عرض صورة الإسلام؛ هبّ المثقّفون من المسلمين إلى الدّفاع عن دينهم ضدّ تلك الاتّهامات المُلفَّقة، والنّداءات المغرضة المُصوَّبة نحو المسلمين من أجل تشويه صورتهم في الرأي الغربي العام، وذلك عن طريق الحوار مع الطَّرف الآخر، إذ وجدوا فيه - أي الحوار- الطَّريقة الأمثل والأسلوب الأنجع لتبيين الصُّورة الحقيقيّة للإسلام وأهله، وفي ذلك يقول أحمد شاهين: "هناك بعض المفاهيم الملتبسة عن الإسلام، وقد فهمها الغربيون فهما خاطئا وهي تحتاج إلى تصحيح وتوضيح حسب التَّصوُّر الإسلامي، ويمكن القيام بهذا الدَّور في المجتمع الغربي من خلال إرسال الدُّعاة المتّخصّصين الذين يُجيدون اللّغات المختلفة ليعرضوا الإسلام من مصادره الصّحيحة، وفي صورة مبسَّطة يسهل فهمها واستيعابها، وهذا لن يتمَّ إلا من خلال المحاضرات والنّدوات التي تعتمد على لغة الحوار". (شاهين، 2003م، صفحة 12).

وإذا كانت هذه الافتراءات والاعتداءات تُحاك ضدَّ الإسلام والمسلمين من أجل إضعاف قوّتهم، وتشويه صورتهم، واستئصال شوكتهم، فإنّ "واجبنا القومي والشّرعي يدعونا إلى تفهُّم هذه الظّاهرة وجذورها،

ويدعونا كذلك إلى مزيد من الوعي والتَّوعيَّة لشعوبنا حتّى لا نقع نحن أنفسنا في الفخّ، كما يدعونا إلى الانفتاح والحوار مع الآخرين من دول الغرب وشعوبه لتبيان سماحة الإسلام ووسطيّته، وزيف الاتّهامات والادّعاءات الغربيّة التي من ورائها الأصابع الصّهيونية، كما يدعونا إلى أن تسارع مؤسّساتنا الرّسميّة والشعبيّة إلى أداء واجبها في هذا المجال، لنفهم كيف تحاك عقدة الخوف من الإسلام في الضّمير الغربي، ونقاوم تسرّبها إلى مجتمعاتنا أوّلا، واستمرار الحوار مع الغرب في هذا المجال ثانيًا، ولو استدعى ذلك إيجاد مؤسّسات متخصِّصة في ذلك ثقافية وإعلاميّة عربيّة وإسلاميّة في بلاد العرب والغرب على السّواء". (الدباغ، 1422هـ/ 2001م، صفحة 09).

كما أنَّ الحوار يهدف إلى القضاء على الصُّورة النّمطية التي حملها الغرب عن الإسلام؛ لهذا فالحوار أشبه بالتّعريف بالثّقافة العربيّة الإسلاميّة للغرب، وهو سعيٌ مستمرٌّ لإصلاح الصُّورة النمطيَّة المشوّهة للإسلام، ويقترح أصحاب هذا المسعى مجموعة من الآليات تتمثّل في (جيدل، 2003م، الصفحات 453-454):

- إنشاء قناة فضائيّة باللّغات الأجنبيّة لعرض الصُّورة الصَّحيحة للحضارة العربيّة الإسلاميّة، وإذاعة عربيّة باللّغات الأجنبيّة للغرض نفسه.
- تبادل الأساتذة والباحثين والطُّلّاب بين الجامعات العربيّة والأوربيّة للاحتكاك المتبادل والتَّعرُّف على المصادر.
- القيام بمشاريع بحثيَّة مشتركة بين الجانبين حول نشأة هذه الصُّورة النّمطيّة، وكيفيَّة التَّخلُّص منها.
- صياغة عدّة مشاريع بحثيّة حول (حوار الحضارات) من طرف باحثين عرب وأوربّيين؛ لتبديد الصُّورة النّمطيّة، وتقديم الصُّورة الصَّحيحة.
- عقد ندوات ومؤتمرات دوليّة حول هذه الموضوعات بإشراك باحثين من الجانبين، ونشرها باللّغات الأجنبيَّة؛ سعيا منهم إلى تصحيح الأحكام الشَّائعة على الحضارتين العربية والأوربيّة.
- الرّدُّ على الاستشراق، وعلوم الانتروبولوجيا الثّقافيّة، وعلوم الإنسان بوجه عام، والكشف عن نشأة هذه الصُّورة النّمطيّة وتطورها حتّى أصبحت أحكامها شائعة مقبولة لدى الرّأي العام.
- وضع الصُّورة الإسلاميّة الصَّحيحة على شبكة المعلومات، حتَّى تصبح متاحة للجميع في عصر ثورة المعلومات.

وهكذا يكون للحوار دور فعَّالٌ في رفع تلك الصُّورة اللّا واقعيّة عن الإسلام وأهله، والّتي حاول الغربيُّون تمريرها في الأوساط النّخبويّة والشَّعبيَّة، وبذلوا في ذلك الغالي والنفيس، واتّبعوا كل المسالك، واتَّخذوا كلَّ التَّدابير والوسائل الموصلة لهدفهم المنشود؛ والمتمثّل في تحطيم صورة الإسلام الحضاريّة.

ومن تلك الأمثلة الرّائعة التي ضربها المفكّرون والمثقّفون المسلمون في استماتتهم في الدّفاع عن صورة الإسلام في المحافل الحواريّة الدّوليَّة؛ ما جاء على لسان عصمت عبد المجيد وهو يردُّ على فرانسواز جورستيت، وذلك إبَّان انعقاد المؤتمر الدَّولي للتّعاون الأوربي المتوسِّطي الذي شهدته مدينة مرسيليا بفرنسا في أوائل مايو عام1996م، حيث هاجمت جورستيت الإسلام واتَّهمته بمعاداة المرأة وتكريس دونيتها بالمقارنة مع الرّجل، فتصدَّى لها عصمت عبد المجيد قائلا (عصمت، 1997م، الصفحات 548-549):

"إنَّ الإسلام الّذي تتحدَّثين عنه يا سيّدتي؛ ليس هو إسلامنا الصَّحيح، وإنَّما هو إسلامكم أنتم الذي صنعتموه بأنفسكم من محض افتراءات وأكاذيب لا علاقة لها بواقع الدّين ولا بحياة المسلمين، فديننا الحنيف هو دين التَّسامح والتَّراحم والرَّأفة، لكنّ المؤسف أنّكم عندما تتحدَّثون عنه تتناسون ذلك، ولا ترونه إلا من منظور الأصوليّة والتّطرّف.

لا يا سيّدتي، الإسلام الصّحيح ليس هو ما تتحدّثين عنه، فالمرأة المسلمة تنعم بكلّ الحقوق التي ينعم بها الرَّجل، سواء بسواء، فهي في دولة مثل مصر- بلدي- عضوة في البرلمان، ووزيرة في الحكومة، والجامعات المصريَّة تعجُّ بآلاف الطّالبات، وإنَّ هناك نساء سفيرات لمصر في أوغندا واليابان، وغير ذلك من البلدان.

ثمّ، ألم تسألِ نفسكِ يوما، إذا كان الدّين الإسلامي بهده الدَّرجة من التَّخلُّف الذي تتحدثين عنه، فلماذا ولجه- طائعا مختارا- رجل بحجم الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي...

وأخيرا – سيّدتي النَّائبة- نحن أبناء دين سمح ينشد السَّلام مع النَّفس ومع البشر على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم، ونمدُّ أيدينا إليكم عن فهم ووعي كاملين، فليس أقلَّ من أَن تمدُّوا إلينا أيديكم وتفتحوا لنا قلوبكم بالدّرجة نفسها من الفهم والوعي الصّحيحين بديننا وحياتنا".

وهكذا أوضح عصمت عبد المجيد سماحة الإسلام بصورة عامّة ورأفته ورحمته بالمرأة على وجه الخصوص، مجسّدا بذلك دور الحوار في إقحامه لدعوى الخصوم بخصوص ما يثيرونه ضدّ الإسلام والمسلمين، وقد رحَّب المشاركون في هذا المؤتمر بملاحظات الأمين العام لجامعة الدول العربية التي دحض بها شبهات المشكّكين في عدالة الإسلام، والحاقدين على أهله ومنظوماته ومؤسّساته، كما قدّمت فرانسواز اعتذارها للأمين العام ولكلّ المسلمين الموجودين بالقاعة، وقالت إنَّها اعتمدت في كلِّ ما قالته في مداخلاتها على دراسة أعدَّها أحد الباحثين خصِّيصا للاتّحاد الأوربي، وأنّ هدفها الأساسي هو المساهمة في خلق مساندة أوربيّة نسائيّة لنضال المرأة العربيّة والمسلمة في إطار التَّعاون الذي ينبغي أن يربط بين ضفَّتيْ البحر المتوسِّط في شماله وجنوبه، وأضافت قائلة: "لقد استفدت كثيرا ممَّا قاله الأمين العام لجامعة

الدُّول العربيّة، وإنني أؤكِّد اقتناعي بضرورة إرساء قواعد جديدة ومُنصِفة عادلة للفهم المتبادل بين أوربًّا والإسلام". (عصمت، 1997م، الصفحات 549-550).

وفي هذا السّبيل حاور المسلمون المسيحيين على أمل تعريف هؤلاء بدين الإسلام وحقيقته، وتحسين تلك الصّورة الغربيّة القاتمة التي رسمها رجال الكنيسة وغيرهم من الفلاسفة والمفكّرين والمستشرقين الغربيين عن الإسلام والمسلمين؛ حيث اجتمع الطّرفان (الإسلامي والمسيحي) في مناسبات عديدة تمثّلت في تلك المؤتمرات الحواريّة، التي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر (بورمانس، 1986م، الصفحات 164-165):

- لقاء قرطبة المنعقد فيما بين 10 و15 أيلول/سبتمبر عام 1974م، بغية: تقديم الإسلام للمسيحيين وتقديم المسيحيّة للمسلمين بشكل موضوعي ونزيه، الدّين والتّوسّع السّياسي، أزمة الإيمان لدى الشّباب... .
- لقاء برّمّانا اللبنانيّة المنعقد فيما 12 و18 تموز/جويلية عام 1972م؛ لبحث سبل التّفاهم والتّعاون بين المسيحيين والمسلمين على المستوى الإنساني، والتّأكيد على أنّ الحوار الحقّ يقوم على الاعتراف بالحرّيّة الدّينيّة المطلقة والاحترام المتبادل.
- لقاء هونغ كونغ الصّينيّة المنعقد فيما بين 04 و10 كانون الثّاني/جانفي عام 1975م، والذي تدارس فيه الطّرفان كيفيّة إمكانيّة التّعايش والتّفاهم والتّعاون بين المسيحيين والمسلمين في بلدان جنوب شرق آسيا.
- لقاء طرابلس الليبيّة المنعقد فيما بين 01 و06 شباط/فيفري عام 1976م، والذي ناقش مجموعة من القضايا؛ من أهمّها: إزالة الأفكار المسبقة والتّفاهم السّيئ بين المسيحيين والمسلمين، وكذا بحث سبل التّعاون بينهما في الحياة اليوميّة، ولا شكّ أنّ مجالات التّعاون كثيرة ومفتوحة .

وهكذا كان الحوار مع الآخر في كثير من المحافل الدّوليّة والإقليميّة؛ هو الطّريق المفضّل لكثير من العلماء والمفكّرين المسلمين للتّعريف بالإسلام وتبيين حقائقه، وبوسطيّة أتباعه ونزاهتهم وبراءتهم من الهمجيّة والعدوانيّة والأعمال الإرهابيّة، وبُعدهم عن الأخلاق الذّميمة والمشينة، وأنّ الحضارة الإسلاميّة هي حضارة عريقة قائمة على الصّدق والأمانة ومكارم الأخلاق، وأنّ التّاريخ الإسلامي هو تاريخ بريء من كلّ ما يُنسَب إليه من مآثم ومجازر، وبهذا يكون الحوار مع الآخر وسيلة لتصحيح تلك الصّورة النّمطيّة الذّهنيّة الرّاسخة في ذهن هذا الأخير (ولاسيما الإنسان الغربي) عن الإسلام وأهله.

خاتمة:

إتمامًا لموضوع هذه المداخلة، وتلخيصًا لمعلوماتها وأفكارها؛ نُثبت هاهنا أهمّ نتائجها، والتي نلخّصها فيا النّقاط الآتية:

- حِقد الغرب على الإسلام؛ دينًا ومقدّسات وأتباعًا وحضارة وثقافة.
- نشأة الصّورة النّمطيّة الغربيّة عن الإسلام منذ ظهور هذا الدّين، واستمرارها إلى العصر الحاضر.
- تعدّد أشكال وصور هذه الصّورة بين الافتراء والتّشويه والتّضليل وكيْل التُّهم والانتقام... .
- شمولها لكثير من عناصر الإسلام؛ مثل: الدّين، الرّسول، القرآن، الحضارة، التّاريخ، المجتمع، الثّقافة... .
- محاولة المسلمين تحسين وتصحيح صورتهم وصورة دينهم لدى الغرب، وذلك بشتّى الطُّرق والأساليب.
- من تلك الأساليب المنتهجة في هذا المجال؛ الحوار مع الآخر؛ أي المخالف في العقيدة والدّين والفكر والحضارة والثّقافة.
- تنوّع أشكال الحوار مع الآخر؛ فمنها ما يكون بالتّقابل في الملتقيات والنّدوات الحواريّة، ومنها ما يكون بوسائل الإعلام، ومنها ما يكون بالصّحف والجرائد والمجلّات...، وغير ذلك من هذه الوسائل.

قائمة المصادر والمراجع:

- أحمد عبد الهادي شاهين. (2003م). **الحوار بين الأديان تعايش لا تقارب** (المجلد 1). القاهرة، مصر: دار الثقافة.
- أحمد عمر عمر. (1429هـ/ 2008م). **معجم اللغة العربيّة المعاصرة** (المجلد 1). القاهرة، مصر: عالم الكتب.
- أليكسي جورافسكي. (1425هـ/ 2005م). **الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم** (المجلد 3). (محمد خلف، المترجمون) بيروت، لبنان، دمشق سوريا: دار الفكر المعاصر.
- حداد لطفي. (1425هـ/ 2004م). **الإسلام بعيون مسيحية** (المجلد 1). بيروت، لبنان: الدار العربية للعلوم.
- ريتشارد سوذرن. (2006م). **صورة الإسلام في أوربا في القرون الوسطى** (المجلد 2). (رضوان السيد، المترجمون) بيروت، لبنان: دار المدار الإسلامي.
- سارة عبد العزيز كامل. (2017م). **صورة الصحفي في السينما -مشاهد صحفية في الأفلام العربية-** (المجلد 1). القاهرة، مصر: العربي للنشر والتوزيع.

- عبد المجيد عصمت. (1997م). **من جهود الأمانة العامة لجامعة الدول العربية لتعميق الحوار بين الإسلام والغرب**. الإسلام والغرب: الماضي، الحاضر والمستقبل، (الصفحات 548-549). القاهرة.
- عمار جيدل. (2003م). **حوار الحضارات شروطه ومقاصده**. شروط الحوار المثمر بين الثقافات والحضارات (الصفحات 453-454). الجزائر: منشورات المجلسالإسلامي الأعلى.
- كارل بروكلمان. (1968م). **تاريخ الشعوب الإسلامية** (المجلد 5). (منير البعلبكي، و أمين فارس، المترجمون) بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.
- كارين أرمسترونغ. (2002م). **الإسلام فيمرآة الغرب -محاولة جديدة في فهم الإسلام-** (المجلد 21). دمشق، سوريا: دار الحصاد للنشر والتوزيع.
- مارلين نصر. (1995م). **صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسة** (المجلد 1). بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- محمد عمارة. (1425هـ/ 2005م). **الإسلام في عيون غربيّة بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء** (المجلد 1). القاهرة، مصر: دار الشروق.
- مصطفى الدباغ. (1422هـ/ 2001م). **الإسلام فوبيا islamophobia -عقدة الخوف من الإسلام-** (المجلد 2). عمان: دار الفرقان.
- موريس بورمانس. (1986م). **توجهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين** (المجلد 1). بيروت، لبنان: منشورات المكتبة البولسية.
- 15-ناجية أقجوج. (2009م). **الصّورة النّمطيّة للإسلام في المتخيّل الغربي -سوء فهم أم جهل مركب-** (المجلد 1). فاس، المغرب: مطبعة أنغو برانت.

جزيرة "كوه باني" التايلاندية نموذج مجتمع إسلامي يُحتذى

The Thai Island of "Ko Panyi" a Model of an Islamic Society

د. محمد عليوة، جامعة الجزائر2 -الجزائر
mzjhonsmith@gmail.com



لا تقدّم المجتمعات الإسلامية اليوم الصورة المثالية أو على الأقل التي تليق بمن يحمل تعاليم الإسلام ويتّخذها منهجا في حياته، وتزداد صورة الإسلام والمسلمين تشويها وتحريفا في وسائل الإعلام الغربية، ومن هذا المنطلق صار من واجب المجتمع الإسلامي اليوم وأكثر من أيّ وقت مضى تحسين صورة الإسلام وسمعته وتصحيح صورتنا كمسلمين نمثل هذا الدين تمثيلا حقيقيا، فما سبل تحقيق ذلك في الواقع بعيدا عن الشعارات النظرية المجردة؟ أولا لا يجب حصر الدّين في التديّن والعبادة، مع ضرورة استغلال كلّ المجالات العصرية المتاحة ثانيا (الرياضة – السياحة – العلم – التّجارة - الفنّ ...) وعدم التقيّد بالطرق التقليدية في الدعوة.

وكنموذج تطبيقي ناجح لما سبق ذكره، يمكن اعتباره مثالا وقدوة في تقديم صورة مثلى عن قدرة الإسلام والمسلمين على الرقيّ والتطور وصناعة الحياة دون الذوبان في هوية أخرى غير الهوية الإسلامية أو تشويهها لإرضاء أطراف أخرى. اخترت سرد تجربة جزيرة المسلمين (كوه باني) التايلندية، إذ وجدت فيها النموذج المثالي للمجتمع المسلم الذي يجسد تعاليم الإسلام ومبادئه في مختلف سلوكات أفراد الجزيرة وأشكال عيشهم وتعاملهم مع ضيوفهم (السياح) من مختلف الديانات، وعدم تأثرهم سلبا بالتفتح على العالم الخارجي، إذ حافظوا على هويتهم ومبادئهم الإسلامية، بل كانوا هم المؤثرين حيث استطاعوا تقديم الصورة الصحيحة والمثلى للمجتمع المسلم المتفوق الذي لا يخشى التحدّيات ويستطيع التطور والنهوض ولكن دون التنازل عن شيء من دينه أو أخلاقه.

الكلمات المفتاحية : المجتمع الإسلامي، نموذج، كوه باني، السياحة، المحافظة.

Abstract :

Islamic societies today do not present the ideal image, or at least that befits someone who carries the teachings of Islam and adopts them as a method in his life, and the image of Islam and Muslims is increasingly distorted in the Western media. And correcting our image as Muslims, we represent this religion in a true way, and religion should not be limited to religiosity and worship. With the exploitation of all available modern fields (sports - tourism - science - commerce - art...) and not being bound by the traditional methods of preaching.

As a successful applied example of the above, it can be considered as an example and a role model in presenting an ideal picture of the ability of Islam and Muslims to advance, develop and create life without melting into an identity other than the Islamic identity or distorting it to satisfy other parties. I chose to narrate the experience of the Thai "Muslim Island (Ko Panyi) as I found in it the ideal model of the Muslim community that embodies the teachings and principles of Islam in the various behaviors of the island's members and their ways of living and dealing with their guests (tourists) of different religions and not being negatively

affected by openness to the outside world, so they preserved their identity And their Islamic principles. Rather, they were influential, as they were able to present the correct and optimal image of the superior Muslim community, which is not afraid of challenges and can develop and advance, but without compromising any of its religion or morals.

Keywords: Islamic society, model, Ko Panyi, tourism, commitment.



مقدمة :

لا تقدّم المجتمعات الإسلامية اليوم الصورة المثالية أو على الأقل التي تليق بمن يحمل تعاليم الإسلام ويتّخذها منهجا في حياته ، وتزداد صورة الإسلام والمسلمين تشويها وتحريفا في وسائل الإعلام الغربية في عصر تزداد فيه القوة التأثيرية لوسائل الإعلام وقدرتها على تشكيل الصور النمطية عن الأفراد والشعوب، باعتبارها المصدر الأساسي لاستقاء وتلقي المعلومات وتشكيل تصور عن المجتمعات الأخرى، فقد انشغل الإعلام الغربي بتناول كل ما يتعلق بالعالم الإسلامي وقضاياه وما يتعلق بالمسلمين والربط بينهم وبين العديد من الصور النمطية السلبية، والتي وإن انتشرت اليوم عبر وسائل الإعلام، فهذا لا ينفي وجود جذور لها ضاربة في التاريخ مع اختلاف العوامل والأدوات والأساليب، فالتاريخ يحفل بالعديد من مصادر الصور النمطية السلبية الكاذبة عن الإسلام والمسلمين منذ المواجهات الأولى بين الإسلام والغرب ولكن توظيف الوسائل الإعلامية جعل الصورة أكثر انتشارا وسلبية ، ما بات يستدعي ضرورة العمل على دراسة وتشخيص هذه الصورة والعمل على بحث مختلف السبل والأدوات والاستراتيجيات من أجل تغيرها ولا يتم ذلك إلّا بالتصحيح أولا. فما سبل تحقيق ذلك في الواقع بعيدا عن الشعارات النظرية المجردة ؟

أولا- صورة المجتمعات الإسلامية:

قبل مُدّة أسلم "كريستوفر مورغان" وقد كان محلل الشؤون الدينية في صحيفة (صانداي تايمز) وكان مِن ضمن ما قاله : " إنّ البروباغاندا المسلمة والعربية عاجزة عن وضع صورة إيجابية والمطلوب أن نصنع صورة صحيحة وسليمة عن أنفسنا"، وختم مستشهداً بقول لأحد الذين اعتنقوا الإسلام من مواطنيه : "أشكر الله أنّي اكتشفت الإسلام قبل أن أكتشف المسلمين" (معدي) . ولطالما ظلّت هذه العبارة الأخيرة تحزّ في نفوس كثير من المسلمين الغيورين على الإسلام الذين يأملون في تمثيل أمثل لدينهم لدى الآخر. فمن أعرق المشكلات التي تُواجه المسلمين، وجود حالة من التصرفات المذمومة التي تصدر من فئة ليست بالقليلة من المسلمين أنفسهم ، والأفكار المنحرفة التي تلتصق بالإسلام أو تنسب إليه رغم براءته منها كلّ البراءة. ففي زمننا المعاصر يسعى كثيرٌ من الناس لاستخدام الدين بما يروق لهم، فيستخدمون الدين طِبقاً لمصالحهم، ويتدثّرون به لتلبية رغباتهم ومنافعهم الخاصة، فإن خالف الدين قناعاتهم تركوه خلفهم ظهرياً، فأخذوا من الدين ما يُريدون، وتركوا منه ما لا يريدون، مستندين إلى قوانين بشرية وضعية لتكريس استبدادهم وظلمهم وفسادهم وليس لإصلاح الواقع، والعودة بالناس نحو التدين الحقيقي، بل

إنّهم يُحاربونه وقتما يكون مُخالفاً لهم، ويسمحون به حالما يحقق مصالحهم، ولا شكّ أنّ هؤلاء القوم يدخلون في من قال فيهم الله تعالى: {أَ **فتـؤمنون بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**} (القرآن، صفحة البقرة 85)

لهذا نشطت حركات الإصلاح في العالم الإسلامي التي تُحاول وتنقية الإسلام من الدواخل المُغايرة لمنهجه والأفكار الخارجيّة التي تُحاول أن تسويد صورة معتنقيه، فضلاً عن استثمار العدو للخلل في نفسية بعض المنتسبين إليه وتحريك أفكارهم وتصرفاتهم نحو ما يخدم مصالحهم.

كما أنّ من أسباب تشويه صورة المجتمع المسلم وجود بذور فكريّة منحرفة أصلاً بين المسلمين تحمل الفكر المادي وتريد أن تلبس الإسلام لباس التجديد الديني، وهو في الحقيقة يسعى في الخفاء لإرضاء التوجه الغربي سواء عن قصد أو بتوجيه غير مباشر، إذ يُراد منهم التركيز على قضايا يقومون بنشرها باعتبارها من أسس الدين الإسلامي، وفي الحقيقة لا يُسمح لها أن تكون مُقامة في الناس إلاّ إذا وافقت الهوى الغربي أو توافقت مع الرؤية الفكرية معهم، كعملية تنقيح لجوهر المضمون الإسلامي، ليتوافق مع الفكر الغربي، كما نرى اليوم الكثير من العبارات الدارجة في الواقع مثل: الحرية، السلام، المساواة، الإنسانية، المجتمع المدني، الإسلام الحضاري، ولا يُسمح لها كشعارات إلّا تحت مظلة الإسلام على النمط الغربي، وقد صرّحوا بذلك فقالوا: " أهم مبادرة منفردة يمكن أن تقوم بها الولايات المتحدة لمكافحة التطرف الإسلامي تتمثل في مساندة التجديد الإسلامي) عن تقرير معهد السلام الأمريكي" (الأمريكي). ويقول فرانسيس فوكوياما أيضا " فالواضح أنّه بات ممكناً اختراق العالم الإسلامي -على المدى الطويل- بالأفكار التحرّرية" (فوكوياما، 1993، صفحة 62)، وهذا لا يعني أنّهم حريصون على الإبقاء هذا الاستنبات الفكري الغربي ضمن منهجيات بعض المسلمين الذين يصفونهم بالمعتدلين فحسب، بل يعتبرن هذه المرحلة للانقضاض أصلاً على الإسلام بذاته، وقد قال داعية العولمة الأمريكي صامويل هنتنجتون: "المشكلة المهمّة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام" (هنتنجتون، 1998م، صفحة 245)

ولذلك يُحاولون تشويه الإسلام والتنفير منه بمختلف الطرق حسدا وعدوانا، لهذا قال الله تعالى: { **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** } (القرآن، صفحة النساء 54)، وقد جاء في مقررات أكبر وأخطر مؤتمرات الكنائس الغربية لتنصير المسلمين الذي عقد في كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1978م: "إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية ... وإن النظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة دينياً واجتماعياً وسياسياً ... إنه حركة دينية معادية للنصرانية، مخططة تخطيطاً يفوق قدرات البشر ... ولابد من مئات المراكز، التي تؤسس حول العالم، بواسطة النصارى، للتركيز على الإسلام، لفهمه، والتعامل معه، واختراقه في صدق ودهاء". (جورافيسكي، نوفمبر 1996 ، صفحة 117)

وما يفتح الباب أكثر أمام هؤلاء المغرضين عدم معرفة حقيقة الإسلام من الداخل، وأخذه من خلال كلام المستشرقين، أو أفعال المسلمين من ذوي العنف والتطرف، أو عدم مخالطتهم لواقع المسلمين، أو سماعهم عن الحروب والكوارث والاقتتال بين المسلمين، فيُظَنُّون أنّ المسلمين على قدر كبير من السلبية والفساد، وغياب الدولة الإسلاميّة الراشدة التي تحكم المسلمين وتكون نموذجاً للآخرين في التطبيق السليم للشريعة، كما أنّ تقدم الإسلام وانتشاره في الغرب يُشعرهم بالتخوف العميق من الإسلام، لهذا يحاولون تشويه صورته، وجود أنظمة تحول دون تطبيق تعاليم الإسلام وتظهر للآخرين أن تطبيقه يؤدي إلى التضييق والتشدّد، ووجود الممارسات الخاطئة والمنحرفة من طرف الأقليات الإسلامية في دولٍ غير إسلاميّة، أو انطباعات عدد من السُّيّاح والزائرين للدول الإسلامية من خلال تعامل أو مظاهر تلك الدول.

ومن هذا المنطلق وجب تحسين صورة الإسلام وسمعته بل تصحيح صورتنا كمسلمين نمثل هذا الدين تمثيلا حقيقيا، ولا يجب حصر الدّين في التديّن والعبادة. بل وجب على المجتمعات الإسلامية اليوم استغلال كلّ المجالات العصرية المتاحة (الرياضة – السياحة – العلم – التّجارة - الفنّ ...) لإيصال الرسالة التي تظهر قوة المسلمين وقدرتهم على الإبداع دون ضرورة للتخلي عن هويتهم ومعتقداتهم، وأنّ ذلك لا يلحق الأذى بغير المسلمين، بل يجب تبليغ أنّ الإسلام يراعي مصلحة جميع البشر وليس المسلمين منهم فقط. وعدم التقيّد بالطرق التقليدية في الدعوة.

ثانيا- سبل تصحيح صورة المسلمين لدى الآخر:

يعتبر الحوار مع الغرب تحديا كبيرا يواجه كل مسلم في القرن الحادي والعشرين، ونجاح الحوار يتوقف على استعداد الطرفين للتحاور والتفاهم، والمقصود بالاستعداد هنا هو نية الحوار وإرادة فهم الآخر ومحاولة التعرف عليه واحترامه، كما يقوم الحوار على الاحترام المتبادل والإنصاف والعدل ونبذ التعصب والكراهية. وحتى يكون الحوار ناجحا يجب أن يكون متكافئا ومتوازيا بين الطرفين.

ما نلاحظه اليوم بين الإعلام العربي والغرب هو سيطرة الصناعات الإعلامية والثقافية الغربية وخاصة الأمريكية منها على تدفق الأخبار والمعلومات في العالم، وقد جعل هذا الوضع الإعلام العربي تابعا ومستهلكا غير قادر على الحوار والنقاش ومواجهة الآلة الإعلامية والدعائية الغربية، فالوضع الراهن يتطلب استثمارا منظما ومنهجيا في الصناعات الإعلامية والثقافية لتقديم مخرجات إعلامية وثقافية وعلمية تخاطب الآخر بلغته ومنطقه وتبصره بالأدلة والبينة والحجج والبراهين بواقع الإسلام والمسلمين وتاريخ الحضارة الإسلامية.

وقد أفرزت الحملات الدعائية والصور النمطية والتشويه المنهجي الذي تبنته الآلة الإعلامية والصناعات الثقافية الغربية موقفا سلبيا ومعاديا للإسلام والعرب، ففي الوقت الذي يعترف فيه الإسلام بالآخر وباحترام الديانات والثقافات والحضارات والشعوب نلاحظ رفض النصرانية واليهودية للآخر وللتعدد والاختلاف وعدم القبول بالآخر والعمل على استئصاله، والمتضرر الأول من هذا الوضع هم المسلمون والعرب وهم بذلك بحاجة إلى تحرير إعلامهم من القيود والتبعية والأزمة التي يتخبط فيها، وهم كذلك بحاجة إلى مشروع إعلامي واضح المعالم يواجهون به التشويه والتضليل ويقدمون من خلاله حضارتهم وحقيقة دينهم وتعاليمه ومبادئه.

كما أنهم بحاجة إلى استراتيجية عمل وإلى مشاريع يقدمون من خلالها الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين والعرب والحضارة الإسلامية، وموقف المسلمين كذلك من الغرب، بحاجة لأن يتخلص من نظرية المؤامرة ومن الأحكام المسبقة والصور النمطية وفكرة أن الآخر لا نية له في التحاور والتفاهم، فالعرب والمسلمون بحاجة إلى أن يهتموا بصناعة الصورة والرأي العام.

انعدام الحوار أو عدم تكافؤ الحوار وصراع الديانات وصراع الحضارات لا يخدم إلا الطرف الذي يريد أن يعيش في ظل الأكاذيب والأساطير والتشويه والتضليل والصور النمطية، والطرف الذي يريد أن يسيطر ويهيمن ويفرض ثقافته ووجهة نظره ويقصي الآخر. فبعد فشل الحوار وظاهرة الإسلاموفوبيا والتشويه المنهجي للإسلام والمسلمين والعرب، وأزمة الإعلام العربي وغياب مشروع إعلامي عربي لمواجهة الصور النمطية والتشويه والتضليل، ما هو الحل وما هي الإجراءات العملية لتصحيح الوضع وبناء جسور الحوار والتفاهم مع الآخر؟ فيما يلي نستعرض جملة من الإجراءات التي يجب أن تقوم بها الدول العربية والإسلامية لبناء جسر فعال لمواجهة الوضع غير السوي ولتقديم الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين وللرد على الأساطير والأكاذيب في حق الإسلام والمسلمين.

ثالثا- "كوه بانيي" النموذج الو اقعي للمجتمع الإسلامي المثالي

وكنموذج تطبيقي ناجح لما سبق ذكره، يمكن اعتباره مثالا وقدوة بل وفخرا لكلّ مسلم يصبو إلى تقديم صورة مثلى عن قدرة الإسلام والمسلمين على الرقيّ والتطور وصناعة الحياة دون الذوبان في هوية أخرى غير هويته الإسلامية أو أن يتنازل عن مبادئه وعقيدته أو أن يشوهها لإرضاء أطراف أخرى. اخترت أن أقاسم من خلال هذه المداخلة قارئ هذه السطور تجربة جزيرة المسلمين (كوه بانيي) وهي عبارة عن قرية صيد إسلامية ساحرة عائمة في مقاطعة (فانغ نغا) جنوبي تايلاند، مبنية على ركائز متينة طائفة فوق (بحر أندامان)، حيث تم بناء منازل وممرات على هذه الركائز في نهاية القرن 18 من قبل الصيادين (الملايو)، يتألف سكانها من 360 عائلة متشكلة من 2000 شخص (تقريبا)، ينحدرون من عائلتين مسلمتين تعملان في البحر من جزيرة (جاوا) الأندونيسية، قدموا إلى (كوه بانيي) قبل 250 عاما " (أبطال الماء- فتية لم تتجاوز أعمارهم 15 عاما استطاعوا تغيير حياة سكان جزيرتهم العائمة)، ويتكون مجتمع الجزيرة الصغير هذا من مئات الأكواخ والمطاعم والمنازل التي يعيش فيها القرويون والتي تم بناؤها على ركائز متينة فوق البحر الضحل، وهو إنجاز رائع وفريد من نوعه للهندسة غير الرسمية. وقد اتسعت المستوطنة على مر السنين، وهي تضم الآن أيضاً مبانٍ مُشيدة على أرض جافة، ويوجد في القرية اليوم مدرسة ومسجد ومركز صحي وملعب وسوق عائم والكثير من متاجر الهدايا التذكارية الصغيرة وعدد من المطاعم الكبيرة التي تطل على بحر أندامان، كما أن هناك فندقا وأكواخ تقدم أماكن إقامة ليلية. ورغم أنّ الجزيرة شهدت زلزالا عنيفا في عام 2004م من جراء التسونامي إلّا أنّها استطاعت مواصلة عملية البناء بفضل حسن التخطيط (إنشاء المطاعم والمتاجر والفندق وتوسيعه ...).



"مضت السنون، وأنجب أسلافهم الأبناء والأحفاد كبرت العائلات والشاطئ الضيق لم يعد يتسع للمنازل فبدأ الآباء ببناء منازلهم فوق الماء واستمرت حياتهم ببيوت عائمة واكتظاظ رهيب، حياة رتيبة تدور حول البحر والصيد بطالة وفقر عزلة وجهل صعاب عدة كانت تواجههم في الماضي ندرة في مياه الشرب وغلاء في أسعار السلع والكهرباء بسبب البعد عن اليابسة.

واستمر أمرهم على هذه الحال حتى عام 1986م، حتى جاء فتية لا تتعدى أعمارهم 15 سنة، أسسوا فريق كرة قدم وغيروا حياتهم، أصبح جميع من في الجزيرة يعشق كرة القدم، وكانوا يشاهدون المباريات دائما، لكن في الحقيقة لم يسبق لأحد من سكان الجزيرة لعبها، والاكتظاظ هو السبب فهم يعيشون في جزيرة عائمة فوق الماء، ولا توجد مساحة فارغة ولو من بضعة أمتار " (أبطال الماء- فتية لم تتجاوز أعمارهم 15 عاما استطاعوا تغيير حياة سكان جزيرتهم العائمة).

ويروي أحد هؤلاء الفتية قائلا: " في مونديال المكسيك عام 1986م، أخذتنا الحماسة فقررت أنا وأصدقائي تشكيل أول فريق لكرة القدم في الجزيرة، حصلنا على كرة قدم وتوفّر العدد الكافي من اللاعبين، ولم يكن ينقصنا حينها سوى توفر مساحة يمكننا اللعب فيها، حاولنا أن نلعب في أزقة الجزيرة، ولكننا وبعد محاولات عديدة استسلمنا للحقيقة المرّة (لا نستطيع لعب كرة القدم هنا)، وفي غمرة اليأس طرأت لي فكرة، اقترحت على أصدقائي أن نبني ملعبا على الماء، انطلقنا في جميع أنحاء الجيرة نبحث عن خشب أو أي قطع قد ينفع في البناء، ووصل بنا الأمر إلى استعمال السفن القديمة وإزالة الخشب الزائد من بعض المنازل.

بعد جهد كبير ووقت ليس بالقصير، انتهينا من بناء الملعب، لم يكن الملعب مثاليا، كان صغيرا ومائلا غير ثابت، وقد توزعت على أرضيته المسامير الناتئة، والأهم من ذلك أن الكرة كانت تقع من على جنبات الملعب بين الفينة والأخرى، فكنا نمارس السباحة أكثر من لعب كرة القدم، رغم التحديات والمصاعب أمضينا وقتا جميلا جعلنا أكثر الأطفال سعادة، ولم نكن نتخيل في تلك اللحظة حجم النجاح الذي سنحققه ، ولم يدر أبدا في خلدنا أنّ نجاحات فريقنا ستكون سببا رئيسيا في تغيير حياة سكان جزيرتنا

نحو الأفضل " (أبطال الماء- فتية لم تتجاوز أعمارهم 15 عاما استطاعوا تغيير حياة سكان جزيرتهم العائمة).



حاز الفريق المؤسس على البطولة في أول مشاركة له، وتوالت إنجازات الفريق حيث فاز بـ 7 بطولات في الإقليم لسبع مواسم متتالية، ورغم أنّ كل البطولات التي فازوا بها كانت للناشئين ولم تكن بطولات رسمية، وقاموا بتطوير الفريق ليصبح نادي كرة قدم محترف، ونافس الفريق فرقا قوية من خارج الإقليم (حوالي 8 أو 9 فرق من العاصمة) واندهش الجميع من رؤيته يحقق البطولات تواليا، متسائلين: كيف يمكنهم الفوز وهم لا يملكون أرضية ولا أحذية للعب؟ كانوا يلعبون بأقدام حافية وبكر ثقيلة ومع ذلك هزموا الفرق التي تملك الملاعب والأحذية.

وكان ذلك سببا كافيا لإخراج الجزيرة إلى العلن، وفكّ العزلة عنها، إذ بدأ الإعلام يتحدث وينشر الإعلانات عن نادي بانيي لكرة القدم ويسلط الضوء عليه، حيث جاءت وسائل إعلام أمريكية وتناولت قصة ملعب كرة القدم العائم في الماء وعرضته في الولايات المتحدة الأمريكية، فوفد على إثر ذلك الكثير من الأشخاص من الولايات المتحدة غلى الجزيرة لرؤية ذلك الإنجاز والوقوف عليه بأنفسهم.

يقول برسان (أحد المدربين في نادي بانيي لكرة القدم): "بعد 30 عاما تغير شكل ومساحة الملعب، وعندما رأى السكان الملعب الخشبي في وسط البحر ظنوا للوهلة الأولى أنّ السلطات تبني ميناء جديدا، فأصبح الصيادون يربطون قواربهم على أطراف الملعب لحجز مواقع لهم هناك، اليوم وبعد النجاح الذي حققه النادي أصبح هذا الملعب أسطوريا، وهو مخصص لتدريب الناشئين" (أبطال الماء- فتية لم تتجاوز أعمارهم 15 عاما استطاعوا تغيير حياة سكان جزيرتهم العائمة).

جميع المهن قبل النادي كانت تدور حول الصيد، ولا شيء غير صيد السمك وأكله، وقلة من كانوا يعملون بالتجارة وجلب البضائع، البطالة منتشرة والشباب لا يعملون، ففتح النادي فرص عمل جديدة، يقول برسان: "أنا مثلا أصبحت مدربا أعمل في النادي وهذه هي مهنتي ومصدر رزقي، والأمر غير مقتصر على وظائف في النادي، لقد أصبح لآباء هؤلاء الأطفال مصادر رزق متنوعة مثل الحرف والتجارة ولم يعد نشاطهم مقتصرا على صيد السمك" (أبطال الماء- فتية لم تتجاوز أعمارهم 15 عاما استطاعوا تغيير حياة سكان جزيرتهم العائمة).

"وتغيرت الجزيرة كثيرا منذ أن أصبحت مقصدا سياحيا، حياة السكان وطريقة العيش تغيرت في السابق لم يكن أحد يمتلك متجرا، وكان السوق تجمعا للصيادين فقط، وعندما بدأ السياح بالتوافد إلى الجزيرة فتحت المتاجر وكذلك المطاعم والعديد من التجارات الأخرى، كان الجميع بمن فيهم النساء يشاركون في صيد الأسماك، وبعد قدوم السياح أصبح النساء يعملن في المتاجر، وأصبح الجميع يكسب أموالا أكثر بفضل تنوع النشاط بين المتاجرة وبيع الأسماك، فقد الصيادون يبيعون أسماكهم مباشرة إلى السياح والمطاعم في حين لم تكن الأطعمة البحرية في السابق تباع بل كانت تتم مقايضتها ببضائع أخرى كالأرز أو السكّر مع التجار في البرّ، فأصبحت الحياة أسهل لأن الكثير من القوارب تأتي وتذهب إلى اليابسة وزاد الطلب على البضاعة والخدمات، وهذا ما جعل كل شيء أرخص وأسهل من السابق (في الماضي كانوا يدفعون ما بين 30 إلى 60 دولارا للذهاب إلى اليابسة، وأصبحوا في الحاضر يدفعون 1.5 دولارا فقط لأن الكثير من القوارب تأتي إلى الجزيرة وتغادرها، فلم يعد كل راكب بحاجة لاستئجار قارب بمفرده للذهاب إلى اليابسة " (أبطال الماء- فتية لم تتجاوز أعمارهم 15 عاما استطاعوا تغيير حياة سكان جزيرتهم العائمة).

وأهم معالم الجزيرة التي كانت تستقطب السائحين (أغلبهم من غير المسلمين) : الملعب العائم لكرة القدم والصخرة وجزيرة جيمس بوند (فجزيرة بانيي هي الطريق الوحيد لزيارة جزيرة جيمس بوند) والقوارب السياحية، كما تشتهر الجزيرة باللؤلؤ الطبيعي الذي يعدّ أكثر البضائع مبيعا، كما يروج بيع الأطعمة البحرية الطازجة وتحتوي الجزيرة على 6 مطاعم، لتلبية حاجة الزيادة الكبيرة في أعداد السياح القادمين إلى الجزيرة الذين يبلغ عددهم حوالي 200 ضيف في اليوم وفي بعض المواسم يصل عددهم إلى 300 أو حتى 400 شخص، وأبرمت هذه المطاعم عقودا مع أكثر من عشرين شركة سياحية. بالإضافة إلى فندق يأوي السياح الذين أصبحت تستقطبهم الجزيرة، وكانوا في السابق يأتون بأعداد قليلة كما أنهم يأتون في النهار ويغادرون ليلا، وفكرة إنشاء الفندق تمكنهم من المكوث مدة أطول بالجزيرة.



يقول ناثاكت (أستاذ في مدرسة بانيي): "اليوم وبعد التغيير الذي شهدته الجزيرة بدأت العائلات تهتم بالتعليم، خاصة أنها باتت تجني الأموال الكافية لإرسال أبنائها إلى عاصمة الإقليم للدراسة، تضم المدرسة حاليا 137 طالبا، تبدأ الصفوف التمهيدية من عمر 3 سنوات وحتى 5 سنوات، ثم المرحلة الابتدائية من عمر 6 سنوات حتى 12 عاما، بعد ذلك بعض الطلاب يكملون تعليمهم الديني في المسجد، وغالبية الطلاب يذهبون إلى عاصمة الإقليم لمتابعة دراستهم، وقلة من الأولاد يتابعون الدراسة من منازلهم، والدراسة في الجزيرة مجانية، ونقوم بتدريس جميع المواد التي يعلمونها في مدارس العاصمة (اللّغتان التايلاندية والإنجليزية ومادّتا الرّياضيات والاجتماعيات والعلوم الإنسانية والدين الإسلامي، يقول أحد المتمدرسين: أحب المدرسة وكرة القدم، لقد علّمتني المدرسة كثيرا من الأمور من خلال المواد التي ندرسها، كما علمني قيامي بالواجبات المدرسية تحمل المسؤولية، أريد إكمال الدراسة والذهاب إلى الجامعة" (أبطال الماء- فتية لم تتجاوز أعمارهم 15 عاما استطاعوا تغيير حياة سكان جزيرتهم العائمة).

كان أهالي اللاعبين يشجعون أولادهم على لعب الكرة في نادي بانيي، فالسكان يفخرون بالنادي لأنه غير حياتهم نحو الأفضل، قبل النادي كان الأطفال يساعدون أهاليهم في الصيد، ويقضون أوقات فراغهم في الأزقة والطرقات، في الماضي لم يكن هناك مدرسة، اليوم أصبحوا يذهبون إلى المدرسة صباحا، وبعد ذلك يمضون وقتهم في التدريب ويساعدون أهلهم كذلك. كما أنّ كل العائلات تشجع أبناءها على التعلم الديني، فهم يتعلمون في المدرسة بالطبع، وبعد المدرسة، يذهبون إلى المسجد لتعلم الإسلام والتفقه الدّين وقراءة القرآن.

صحيح أنّ الجزيرة تغيرت كثيرا منذ أن أصبحت مقصدا سياحيا، تغيّرت حياة سكانها وطريقة عيشهم (نحو الأفضل)، ولكن السكان حافظوا على دينهم رغم الانفتاح الكبير، وتمسكوا بالعادات والتقاليد والأخلاق فهذه الأمور لم تتغيّر، وفي ذلك يقول حاج عثمان بن عبد الله (إمام المسجد): "نحن جمعا

مسلمون من أهل السنّة والجماعة، الإسلام منهج حياة جميل ويسهل علينا حياتنا، الجميع هنا يتمسّك بالدين وأصوله لأن السكان مسلمون بنسبة 100%.

ويواصل قائلا: كلّف بناء المسجد مئات الآلاف من الدولارات (تحفة معمارية مميّزة) وقد جمعنا المال من جميع أهل الجزيرة، ساهم الأهالي بتقديم المساعدات، وكان لهم فضل السّبق في بناء المسجد، وتأتي تبرعات السّياح في المقام الثاني، وذلك بعد وضع صناديق تبرع في الجزيرة من أجل بناء مسجد ليكون مكانا للصلاة والعبادة. الآن يبلغ عدد سكان الجزيرة 2000 شخص، والجميع يصلي في هذا المسجد لأنه الوحيد في الجزيرة " (أبطال الماء- فتية لم تتجاوز أعمارهم 15 عاما استطاعوا تغيير حياة سكان جزيرتهم العائمة)



"جميع أهل الجزيرة مسلمون طيبون لطفاء، فعند تجوّلك في القرية تسمع أصواتهم العالية وهم يتحدّثون دون إسرار أو همس مما يشعرك بالطمأنينة والأمان بينهم، وهم بسطاء لا تفارق الابتسامة وجوههم، والأهم من ذلك هو عدم وجود مشاجرات لأن المشروبات الكحولية ممنوعة في الجزيرة.

فالجزيرة تحرص على تطبيق 3 قواعد مهمة وثابتة: يمنع دخول الكلاب والكحول ولحم الخنزير حتى على غير المسلمين، ورغم اختلاف دينهم إذ أنّ المسلمين يمثلون أقلية في تايلاند واختلاف عاداتهم إلا أنهم يتعايشون مع الديانات والثقافات الأخرى دون مشاكل ويشعرون بأنهم مواطنون تايلانديون دون تمييز، ويتعاملون مع البوذيين والمسيحيين الذين يشكلون الأغلبية الساحقة في البلاد دون مشاكل ، فتمسكوا بالإسلام دون أن يفرضوه على الآخرين، آخذين بكل ما هو إيجابي من الخارج مع ترك السلبيات. وتوافد السياح لم يفقد الجزيرة طابعها البسيط وحياتها الهادئة وبقي الأمان يميّزها، بالإضافة إلى الرابط الأسري الذي يمثل إحدى القيم التي حافظ عليها السكان، فكلهم عائلة واحدة، وهذا الأمر يجعلهم يعيشون بسلام دون خصومات أو جرائم تذكر، والأبواب عندهم تبقى مفتوحة نهارا وليلا، كما أنّ البساطة والنقاء هي أكثر ما يعجب السياح في جزيرة بانيي، ففي المساء تصبح الجزيرة هادئة جدا، ففي النهار تنتشر الوضاء وأصوات القوارب التي تأتي محملة بالسياح وتغادر ، لكن بعد السابعة مساء يخيم الهدوء على الجزيرة وتصبح وديعة للغاية " (أبطال الماء- فتية لم تتجاوز أعمارهم 15 عاما استطاعوا تغيير حياة سكان جزيرتهم العائمة).

فيخطئ من يعتقد أنه لا توجد سياحة إلا بوجود الفواحش والعُري والعربدة، أو من خلال ابتزاز أموال السياح والنصب عليهم، أو التسول أمامهم، فالإسلام بريء من هذه المفاسد، والله تعالى لا يصلح عمل المفسدين، بل يجب أن تكون السياحة مشروعة والوسائل المؤدية إليها مشروعة، فقد رد الله على هؤلاء بقوله سبحانه وتعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (القرآن، صفحة التوبة 28)، وقوله تعالى أيضا: { قُل لاَّ يَسْتَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (القرآن، صفحة المائدة 100)، كما يجب الالتزام بشريعة الإسلام في كل نواحي الحياة ففيها خير الدنيا وخير الآخرة وخيرهما معاً، ويعتبر الكسب من السياحة غير المشروعة كسباً حراماً خبيثاً لا يبارك الله فيه.

ولا بد أن تكون السياحة في مجال الطيبات سواءً في المأكل أو المشرب أو الكلام أو السلوك، وتجنب الخبائث والفواحش، فالسياحة بلا أخلاق تصبح فُحْشَاً ورذيلة وانحلالاً وتسيباً، وبلغة أخرى يجب أن تساهم السياحة في تنمية القيم الأخلاقية عند المسلم، أو المحافظة عليها، ومن القيم الأخلاقية المعاملة الحسنة والصدق والأمانة والحب والتعاون والعفة والنزاهة والكرم والجود وتأصيل روح ومعنى الأخوة بين الناس.

كما أن الالتزام بالقيم الإيمانية والأخلاقية يحقق أو يُشكل الشخصية الإسلامية المتميزة سلوكاً في كل شيء وبذلك تعتبر رمزاً للإسلام، وهذا من موجبات السياحة في الإسلام، مع ضرورة المحافظة على الفرائض والواجبات المشروعة، فلا يجوز أن تؤدي السياحة الترفيهية إلى تعطيل المسلم عن القيام بفريضة من فرائض الإسلام أو ضياع واجب ديني .

ويخطئ كذلك من يظن أن الإسلام يتخذ موقفاً رافضاً للسياحة، حيث إن الباحث والناظر في الفكر والتراث الإسلامي يجد لها أصولاً، وقد حث الإسلام الحنيف عليها باعتبارها أفضل وسائل التعارف بين الناس، وإفشاء السلام والأمن ونشر دعوة ودين الله، والترويح عن النفس، وأداء الفرائض والواجبات الدينية وما في حكم ذلك، على أن يحكم ذلك كله أحكام وقواعد الشريعة الإسلامية حتى تكون صالحة ونافعة، ومن دون السياحة يصعب تبليغ صورة الإسلام والدعوة أو التحفيز على اعتناق هذا الدين، وكانت السياحة من أهم وسائل سفراء الإسلام الأوائل الذين أرسلهم رسول الله إلى العالم لدعوة الناس للإسلام.

والسياحة في الإسلام ليست لغرض الترفيه فقط رغم أنّه القصد الأول منها في زمانن، بل تعني التنقل من مكان إلى مكان بهدف التدبر والتأمل في خلق الله أو التعارف بين الناس، أو طلب العلم المحمود، أو الدعوة إلى الله أو الترويح عن النفس، أو أداء الفرائض والواجبات الدينية وما في حكم ذلك ....، فيعدّ السفر إلى الأراضي المقدسة على سبيل المثال سياحة دينية للعمرة والحج وللتعارف بين الناس وتحقيق العديد من المنافع المشروعة وفي هذا الخصوص يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد مسجدي هذا والمسجد الأقصى والمسجد الحرام»، ففي هذا الحديث حث على السياحة الدينية، كما كان التجار المسلمون يتنقلون من دولة إلى دولة للتجارة وللدعوة وهكذا، وهذه جميعها

نماذج من أشكال السياحة في الإسلام، وتأسيساً على ذلك، فالإسلام يحث على السياحة التي تحقق منافع مشروعة للإسلام والمسلمين.

من المؤثر التعرف على نموذج إسلامي مشرق كهذا -وقد تأثّرت شخصيا بقصة هذه الجزيرة- يتشكل أفراده نسبة 100 % من المسلمين في حين يعدّ المسلمون أقلية في تايلاند إذ تعتنق غالبية السكان الديانة البوذية (94%) ويشكل المسلمون نسبة (5%)، ووجدت فيها النموذج المثالي للمجتمع المسلم فقد تجسدت تعاليم الإسلام ومبادئه في مختلف سلوكات أفرادها وأشكال عيشهم وتعاملهم مع ضيوفهم من مختلف الديانات وعدم تأثرهم سلبا بالتفتح على العالم الخارجي ، فحافظوا على هويتهم ومبادئهم الإسلامية ، بل كانوا هم المؤثرين حيث استطاعوا تقديم الصورة الصحيحة والمثلى للمجتمع المسلم المتفوق الذي لا يخشى الصعاب والتحدّيات ويستطيع التطور والنهوض ولكن دون التنازل عن شيء من دينه أو أخلاقه، بل إنّ الانفتاح والتعليم تسببا في زيادة الوعي وجعلا سكان الجزيرة أكثر قدرة على حل كثير من المشاكل، فمثلا كان لديهم أزمة في مياه الشرب، وكان عليهم جلبه من اليابسة لعدم وجود مكان لتخزين مياه الأمطار، ولكن الأمر تحسن وأصبح هناك بئر وخزانات يمكن تعبئتها بالمياه مباشرة من خارج الجزيرة

وقد تجلّت محافظتهم في عدة صور كأسمائهم التي تظهر هويتهم الإسلامية بوضوح (محمد– نوح– عثمان– عبد الله ...، ضف إلى ذلك أنّ غالبية نسائهم محتجبات إن لم نقل كلّهن تقريبا ما عدا الصغيرات في السنّ).

صحيح أن قلة عدد سكان الجزيرة ونظام عيشهم ساعدهم على المحافظة والالتزام إلا أنّ التفتح والتطور الذي شهده سكانها كان كفيلا بتغيير ثقافتهم وإضفاء سلوكات ومعتقدات دخيلة في أوساطهم، وهذا ما يحسب لأرباب الأسر في هذه الجزيرة إذ تمكنوا من عرس العقيدة والمبادئ الإسلامية في أبناهم غرسا، للصمود في وجه الإغراءات والأطماع والتحلي بنظام العيش الصحيح وجعل صورة المسلم مرتبطة كلّ الارتباط بالإسلام، وقد استوعبوا جيّدا أنّ المسجد يلعب دورا محوريا في حياتهم (حفظ القرآن- العبادة– تعليم) ولذلك منحوه أولوية كبرى من خلال مساهمة كل من في الجزيرة في بنائه، وذلك دليل على وعيهم بمكانته الدينية والاجتماعية، كما أنّ مساهمة ومساعداتهم السياح في إتمام بنائه رغم بعدهم التام عن الإسلام لدليل آخر على نظرتهم الطيبة إلى الإسلام من خلال أهل المنطقة وهي الصورة التي يسعى كل مسلم إلى رسمها لدى من يجهل حقيقة الإسلام والمسلم الحق، ويظهر من خلال أدائهم للصلاة خشوع فريد يجعلنا نلمس صفاء قلوبهم وعدم طغيان الماديات عليها، وأهم نقطة تجلب الانتباه وتثير الإعجاب في الجزيرة، الأمن وعدم وجود الشجار وانعدام الجريمة والسرقة وأي نوع من أنواع الاعتداءات وهي ميزة تفتقدها أكبر الدول وأعظمها في العالم.

خاتمة :

ما يمكن أن يتعلمه العالم عموما من تجربة جزيرة (بانيي) ونحن كمسلمين على وجه الخصوص (باعتبارها مجتمعا إسلاميا 100 %) هو الانفتاح الإيجابي رغم تواجدهم في إقليم (تايلاند) الذي تسوده غالبية البوذية وأغلب سياحها من المسيحيين وديانات أخرى من غير الإسلام، وقد وجدت فيها النموذج

المثالي للمجتمع المسلم فقد تجسدت تعاليم الإسلام ومبادئه في مختلف سلوكات أفرادها وأشكال عيشهم وتعاملهم مع ضيوفهم من مختلف الديانات وعدم تأثرهم سلبا بانبهار ودهشة بالتفتح على العالم الخارجي لقناعتهم بأنها مجرّد مظاهر يأخذون منها ما ينفعهم دون انسلاخ من قيمهم، فحافظوا على هويتهم ومبادئهم الإسلامية، بل كانوا هم المؤثرين حيث استطاعوا تقديم الصورة الصحيحة والمثلى للمجتمع المسلم المتفوق الذي لا يخشى الصعاب والتحدّيات ويستطيع التطور والنهوض ولكن دون التنازل عن شيء من دينه أو أخلاقه، بل إنّ الانفتاح والتعليم تسببا في زيادة الوعي وجعلا سكان الجزيرة أكثر قدرة على حل كثير من المشاكل.

صحيح أن قلة عدد سكان الجزيرة ونظام عيشهم ساعدهم على المحافظة والالتزام إلا أنّ جزيرة (باني) يجب اتّخاذها نموذجا مصغّرا للمجتمع الإسلامي المحافظ المثالي الناجح، فالتفتح والتطور الذي شهده سكانها كان كفيلا بتغيير ثقافتهم وإضفاء سلوكات ومعتقدات دخيلة في أوساطهم كما يحدث في معظم البلاد الإسلامية، إلّا أنّ سكان الجزيرة استطاعوا بحكمة احتواء هذا الانفتاح واستثماره في ما ينفعهم بما لا ينافي قالبهم الخاص، وهذا ما يحسب لأرباب الأسر في هذه الجزيرة إذ تمكنوا من غرس العقيدة والمبادئ الإسلامية في أبناهم غرسا، للصمود في وجه الإغراءات والأطماع والتحلي بنظام العيش الصحيح وجعل صورة المسلم مرتبطة كلّ الارتباط بالإسلام ، وقد استوعبوا جيّدا أنّ المسجد يلعب دورا محوريا في حياتهم (حفظ القرآن- العبادة– تعليم) ولذلك منحوه أولوية كبرى من خلال مساهمة كل من في الجزيرة في بنائه، وذلك دليل على وعيهم بمكانته الدينية والاجتماعية، كما أنّ مساهمة ومساعداتهم السياح في إتمام بنائه رغم بعدهم التام عن الإسلام لدليل آخر على نظرتهم الطيبة إلى الإسلام من خلال أهل المنطقة وهي الصورة التي يسعى كل مسلم إلى رسمها لدى من يجهل حقيقة الإسلام والمسلم الحق، ويظهر من خلال أدائهم للصلاة خشوع فريد يجعلنا نلمس صفاء قلوبهم وعدم طغيان الماديات عليها، وأهم نقطة تجلب الانتباه وتثير الإعجاب في الجزيرة، الأمن وعدم وجود الشجار وانعدام الجريمة والسرقة وأي نوع من أنواع الاعتداء، فهذه الميزة تفتقدها أكبر الدول وأعظمها تطورا وحضارة، والفضل في ذلك لاتّباع تعاليم الشرع الإسلامي بمنع الخمور وكلّ أنواع اللّهو المحرّم والقمار والمعاملات الربوية المحرمة، وهذا للأسف ما نفتقده في مجتمعاتنا الإسلامية، إذ ترخص تجارة الخمور والملاهي والمعاملات الربوية، بل تقنن المقامرات والمسابقات الربوية المشبوهة حتى صار ينظر إلى هذه الأمور على أنّها عادية وألفتها قلوب الناس، وصار النهي عنها تعصّبا وتشدّدا في غير محله.

قائمة المصادر و المراجع :

1) **القرآن الكريم**، برواية حفص.

2) الكتب:

- إليسكي جورافيسكي، الإسلام والمسيحيين -سلسلة أعلام المعرفة215، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر(1996).

- فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والرجل الأخير،ترجمة م.إ.العربي، مركز الإنماء العربي، بيروت، (1993).

- صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، ترجمة طلعت شايب، دار سطور، القاهرة، (1998).

3) المجلات والجرائد:

- معدي علي عبود، إعلامنا الإسلامي وضرورات المرحلة، جريدة الرياض، على الرابط: http://www.alriyadh.com/25313

- تقرير معهد السلام الأمريكي:https://www.usip.org/sites/default/files/sr164_arabic.pdf

4) فيديو وثائقي:

أبطال الماء- فتية لم تتجاوز أعمارهم 15 عاما استطاعوا تغيير حياة سكان جزيرتهم العائمة. على موقع : https://doc.aljazeera.net

توصيف قناة "فهد الكندري" لشخصية المسلم الجديد ودورها في تصحيح الانطباع عن الإسلام لدى الغرب- دراسة وصفية تحليلية لعينة من مقاطع الفيديو خلال الفترة من18 أوت إلى 18نوفمبر2021

The "Fahd Al Kandari" Channel Characterizes the Character of the new Muslims and Their Role in Correcting the Impression of Islam in the West An Analytical- Descriptive Study of a Sample of Videos From August 18 to November 18, 2021

د. كلفاح أمينة، جامعة البليدة 2 لونيسي علي -الجزائر
a.kelfah@univ-blida2.dz



تهدف هذه الورقة العلمية إلى تسليط الضوء على ظاهرة مهمة وهي "المسلمون الجدد" في الغرب والدور الذي يلعبونه في تصحيح صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب وتغيير الانطباع المتجذر في الفكر الغربي منذ مئات السنين حول دين التوحيد، ومن أجل ذلك قمنا بتحليل مجموعة من الفيديوهات التي تدخل ضمن سلسلة "المسلمون الجدد" التي تعرضها قناة "فهد الكندري" على موقع يوتيوب مستخدمين في ذلك أداة تحليل المضمون، وقد وصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج من أهمها: التركيز على الأبعاد العقائدية والتشريعية بالإضافة إلى الأبعاد الأخلاقية والسلوكية والتي تعتبر الخطوة الأولى التي يبدأ بها الراجعون إلى الإسلام، كما أن أبرز القيم التي ظهرت من خلال الفيديوهات عينة الدراسة هي قيم حب الخير للآخرين إلى جانب التكافل والتسامح وبر الوالدين.

الكلمات المفتاحية: المسلمون الجدد، صورة الإسلام، الانطباع عن الإسلام، رهاب الإسلام، تحليل المضمون.

Abstract :

This scientific paper aims to highlight the important phenomenon of "new Muslims" in the west and the role which they play in correcting the image of Islam and changing the impression rooted in western thought hundreds of years ago around the religion of unification. To that end, we analyzed a series of videos in "the new Muslims" series shown o, YouTube by the "Fahd Al Kandari" channel using content analysis tool. The study has reached a number of results, the most important of which is focus on ideological and legislative dimensions as well as ethical and behavioral dimensions that are considered the first step by which those returning to Islam begin. The most prominent values that have emerged from the study sample videos are the values of good love of others, besides solidarity, tolerance, and parental righteousness.

Keywords: Islam, New Muslims, image of Islam, impression of Islam, Islamophobia, content analysis.



مقدمة :

"إن الصلة بين الإسلام والغرب تشكل عنصرا مهما من عناصر العلاقة التي تربط الشرق بالغرب أو الشمال بالجنوب، والتي طالما اتسمت بالريبة والعداء"، هكذا استهل الدكتور "كامل الشريف" الأمين العام للمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة المداخلة التي ألقاها خلال أشغال مؤتمر "الإسلام والغرب وحقوق الإنسان" عام 1994 بالمملكة الأردنية الهاشمية، وبعد قرابة العشرين سنة من ذلك التاريخ لاتزال مسألة العلاقة بين المسلم والآخر أو بين الإسلام والغرب من المسائل الراهنة، هذه العلاقة التي يغلب عليها الخوف المرضي من الإسلام والمسلمين وبكل ما يمت لهما بصلة، أو كما يطلق عليه "الإسلامفوبيا" (رهاب الإسلام)، هذا المصطلح الذي يرى الكثير من الباحثين بأنه ذا أغراض سياسية أكثر من كونه حقيقة حالة ذهنية متجذرة.

"الدين جزء لا يتجزأ من مشروع الإنسان" كما جاء في فكر الفيلسوف والمفكر الجزائري "مالك بن نبي" على العكس تماما مما كان ينادي به الفيلسوف الألماني 'فريدريك نيتشه" الذي كان يرى بأن "موت الإله يحرر الإنسان، وأن ترك الإيمان بالله يفتح الطريق للإبداع الإنساني، كاشفا عن سبل جديدة للتعبير عن قدراته (...) وقبول واقع أن الإله قد مات يعيد توزيع الممكنات، إذ يستطيع الإنسان أن يصير شيئا آخر مختلفا ومبدعا"، ولكن الواقع أثبت بأن الدين لم ولن يكون خارج لعبة الأمم، على حد قول الفيلسوف الفرنسي "أندري مولر" بأن "القرن الحادي والعشرين سوف يكون روحيا دينيا أو أنه لن يكون".

ومما سبق يمكن القول بأن سعي الكثير من الدول حول العالم لتبني الفكر اللائكي وتقزيم دور الدين عموما والدين الإسلامي بوجه خاص والتقليل من أهميته في الحياة العامة يعد مغامرة لا تحمد عقباها، حيث يعتبر الفيلسوف الالماني "ألبرت إشفايتزر" "**Albert Schweitzer**" أن "المستقبل سيكون من نصيب الأديان، (...) وأن الأديان التي سيكتب لها التمدد والانتشار هي تلك التي تتميز بالصبغة الأخلاقية وتنحاز لحقوق الإنسان وللحريات"، وهذا يختلف تماما عن الفكر الغربي والذي بحجة الخوف من الإسلام بدأ يحاول فرض القيم الغربية على الآخر في مجالي الحرية والتقدم، على أساس أن العقيدة الإسلامية هي عقيدة قمع وكبت للحريات ولكل أنواع التطور والإبداع، وعادة ما يتم ربط الإسلام في المخيال الغربي المتشدد بالتخلف والهمجية، في سعي لترسيخ صورة نمطية سلبية عن الإسلام والمسلمين، والتي لم تبدأ من اليوم فقط وإنما من عهد الحروب الصليبية، حيث يقول المفكر "محمد أسد" أن "الحروب الصليبية هي التي حددت في المقام الأول والمقام الأهم موقف أوربا من الإسلام"، والمشاعر المعادية للإسلام تمتد عميقا في المجتمع والثقافة الغربيتين منذ مئات السنين.

وبالرغم من كل الحملات الغربية الشرسة لتشويه صورة الإسلام والمسلمين والتي تأتي في مقدمتها الحملات الإعلامية، مازال الإسلام يعتبر الدين الأكثر نموا وانتشارا في العالم، حيث يبلغ عدد المسلمين اليوم حول العالم ما يفوق 1.8 مليار شخص أي بما يعادل 24.1 % من سكان العالم، خاصة مع تنامي ما

يمكن أن نطلق عليه بظاهرة "المسلمين الجدد" التي إنتشرت بشكل كبير في الدول الغربية، حيث تزايد إشهار الأجانب من جنسيات ومن خلفيات دينية وعقائدية متنوعة لإسلامهم في الغرب، حتى صاروا اليوم ينافسون المسلمين المهاجرين من العالم الإسلامي من حيث العدد، وينافسون حتى الديانات الأخرى وعلى رأسها المسيحية في عقر دارها وفي أكثر الدول تشددا ومحاربة للإسلام.

إشكالية البحث:

وتأسيسا لما سبق بيانه جاء إحساسنا بالإشكالية، مع بدأ الإهتمام المتزايد في الغرب بتصاعد ظاهرة دخول أهل الغرب إلى الإسلام خاصة بعدما تحولت من حالات كانت في وقت مضى فردية منعزلة إلى ظاهرة حقيقية حيث تزايد عدد المسلمين المعاصرين من أصل غربي بشكل ملفت وتزامن ذلك مع تنامي الأزمات العالمية التي جذبت أنظار الغرب نحو الإسلام، وبرز خطاب إعلامي غربي جديد أبطاله من المسلمين الجدد يقدم إنطباعا معاكسا تماما لذلك الذي مازالت وسائل الإعلام الغربية تسعى لترسيخه من عشرات السنين، وساهم الانتشار الواسع لشبكات التواصل الإجتماعي في تسليط الضوء على هذه الفئة من المسلمين وإيصال أصواتهم إلى بني جلدتهم أولا وإلى المسلمين المشككين في دينهم، من خلال عدد كبير من القنوات على موقع اليوتيوب التي تنقل شهاداتهم وقصص دخولهم الإسلام. ومن هنا جاز لنا طرح التساؤل الرئيسي: كيف قدمت قناة "فهد الكندري" على اليوتيوب المسلمين الجدد ؟ وما هو الدور المنوط بالمضمون المقدم في سبيل تصحيح انطباع الغرب عن الإسلام؟

ويتفرع التساؤل الرئيسي إلى مجموعة من التساؤلات من أجل تغطية مختلف أجزاء البحث، هي كالتالي:

التساؤلات المتعلقة بالمضمون:

- ماهي الموضوعات التي تضمنها فيديوهات قناة "فهد الكندري" في عينة الدراسة؟
- ما هي مواصفات(سمات) الشخصيات التي ظهرت من خلال مضمون فيديوهات قناة "فهد الكندري" في عينة الدراسة؟
- من هو الجمهور المستهدف بمضامين فيديوهات قناة"فهد الكندري" في عينة الدراسة؟
- ما هي الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها القائمون بالاتصال من خلال مضامين فيديوهات قناة "فهد الكندري" في عينة الدراسة؟

التساؤلات المتعلقة بالشكل:

- ما هي المستويات اللغوية المستخدمة في فيديوهات قناة "فهد الكندري" في عينة الدراسة؟
- ما هي الأساليب الإقناعية المستخدمة في فيديوهات قناة "فهد الكندري" عينة الدراسة؟
- ما هي عناصر الإبراز المستخدمة في عرض مضامين فيديوهات قناة "فهد الكندري" في عينة الدراسة؟
- ما هي القيم الظاهرة عبر فيديوهات قناة "فهد الكندري" في عينة الدراسة؟
-

أولا- التأصيل النظري للدراسة:

1-صورة الإسلام لدى الغرب - انعكاس في مرآة قديمة مشوهة: من أهم الاعتقادات الراسخة في أذهان الغرب أن كل مسلم هو في الأصل عربي، وبأن كل عربي هو بالضرورة مسلم، وهذا الطرح ليس بجديد وإنما هو نقاش قد أثاره المستشرقون منذ مئات السنين، حيث تسائل بعضهم عما إذا كانت الحضارة العربية في القرون الوسطى حضارة عربية بالفعل أم أنها حضارة شعوب جمع بينها الإسلام (عابد الجابري، 2012، صفحة 9) والواقع أن الحدث الأهم الذي وضع العرب في مجرى تاريخ العالم كما يقول الباحث "حلمي خضر ساري" هو ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية مع بداية القرن السابع الميلادي، وبنهاية سنة 732 ميلادي كان العرب قد تدفقوا خارج حدود شبه الجزيرة العربية حاملين لرسالة الإسلام (ساري، 1988، صفحة 19)، ومنذ تلك المرحلة بدأ العداء اتجاه الإسلام والمسلمين يتشكل، حيث هنالك اتساق بين نظرة الغرب للإسلام والرؤية التي ورثها العقل الغربي من التراكمات التاريخية التي حفل بها تاريخه الكنسي الصليبي والاستشراقي الاستعماري (بن سعيد، 2010، صفحة 10)، فالإستشراق يعتبر أحد أخطر أنواع الغزو الفكري والثقافي التي قامت بأبشع الحملات على الإسلام أكثر من الحملات العسكرية نفسها (عالم شوق، 2006، صفحة 63)، حيث دخلت تحت غطاء الحملات الفكرية والثقافية لتنشط في أوساط العلماء والمفكرين والمثقفين في بلاد الإسلام وتنشر سمومها.

إن الإسلام كان ولازال يمثل تهديدا للغرب، وقد ولدت خلال الحروب الصليبية فكرة المدنية الغربية التي كانت تكن أشد العداوة للإسلام، (شلبي، 2004، صفحة 07)وبالرغم من أنه كان في الجانب الإسلامي رغبة في التسامح على الدوام إلا أن المسلمين لم يتلقوا المعاملة بالمثل، وفي هذا يقول "مالك بن نبي": "إن أوربا التي جعلت نفسها المشرف الوحيد على الجنس البشري لم تعترف منذ عصر بوكاشيو - منذ كانت مدنيتها لا تزال في المهد ترضع اللبن العربي – بأية مدنية إسلامية" (بن نبي، 1954، صفحة 29)

ويربط أغلبية الباحثين بين العداء الغربي للإسلام، وبين ظهور هذا الأخير كمنافس للكنيسة التي اعتبرت المسلمين بربرا متوحشين داخل البلاد الأوربية ووباء من أوبئة الزمن، بدأ رجال الكنيسة والأمراء الأوربيون يشوهون صورة الإسلام مع نمو أهميته عالميا (بوزنيته، 2004، صفحة 287) ، وقد دأب الغرب منذ ذلك الوقت على نشر صورة نمطية قاتمة عن الإسلام والمسلمين، وهذا العداء المتجذر والمشحون بالافتراءات وإن كان له تاريخ قديم جدا كما أشرنا، فإن يعيد نفسه كل مرة مثل أحداث 11 سبتمبر 2001 التي استغلت في إعادة بعث العداء للمسلمين في كل بقاع الأرض وتصاعدت حملات العداء التي طالت رموز الدين الإسلامي في الغرب وتشويه القرآن الكريم والاعتداء على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، (أقجوج، 2009، صفحة 7) عبر وسائل الإعلام من خلال الأفلام والبرامج المسيئة والرسومات الكاريكاتورية والتصريحات الرسمية المغرضة، وبالتالي فإن التصورات الغربية المعاصرة حول دين المسلمين على حد قول "أليسكي جورافسكي" لم تتكون وتترسم في صفحة بيضاء خالية، وإنما إنعكست في مرآة قديمة مشوهة. (جورافسكي، 1990، صفحة 59)، وقد حافظ الغرب على هذه الصورة السيئة حتى بعد تدهور

الكنيسة وانفصال الدين عن الدولة، ورغم التغيرات الجذرية التي مرت بالمجتمعات الغربية حضاريا وثقافيا وسياسيا. (بوزنيته، 2004، صفحة 288)

أ- القوالب النمطية للشخصية المسلمة في الإعلام الغربي– وجه آخر للمرآة المشوهة: يرى المفكر "إدوارد سعيد" بأن عملية تشويه صورة الإسلام عبر التاريخ قد مرت بثلاث مراحل هي: المرحلة الصليبية، والمرحلة الإستشراقية، والمرحلة الإعلامية التي تم الإعتماد من طرف الإعلاميين على الأفكار المسبقة التي أنضجتها واختلقتها المرحلة الصليبية والمرحلة الإستشراقية، وقد صنع الإعلام الغربي صورة مخيفة ومروعة عن الإسلام والمسلمين، مستعيدا في ذلك الإحتكاك العنيف الذي طبع تاريخ العلاقة بين الإسلام والغرب في أثناء الحروب الصليبية كما إستند إلى الدراسات الإستشراقية المتحاملة على الإسلام وحضارته، وفي مقام أخر يقول "إدوارد سعيد" أيضا لم يصبح الإسلام رمزا للرعب والخراب وجحافل الهمجيين الشيطانية الكريهة بلا سبب، فلقد كان يمثل لأوربا صدمة نفسية متصلة الحلقات... (سعيد، 2006، صفحة 124).

وفي نفس السياق يقول الباحث "عبد القادر طاش" بأن: "الباحث المتفحص في اتجاهات صياغة وتكوين الصورة النمطية في الإعلام الغربي، يلاحظ –دون عناء كبير- أنه لم يلق دين من الأديان، أو حضارة من الحضارات، أو أمة من الأممن من التشويه المنتظم والتحريف المستمر في تلك الوسائل ما لقيه الدين الإسلامي وحضارته وأمته" (طاش، 1993، صفحة 67)، وهنالك منظومة عامة متكاملة لعبت دورا في نشر وترسيخ هذا الحقد على مذار السنين اتجاه الإسلام والمسلمين، ومن بين أهم هذه النظم خاصة في العصر الحديث "المنظومة الإعلامية"، التي تعتبر من أقوى وسائل الحرب الموجهة ضد هذا الدين وأكثرها شراسة، خاصة وأن الغرب يمتلك ترسانة إعلامية ضخمة تعتبر واجهة لتوجهات وايديولوجيات وأحقاد الدول الغربية الكبرى، وفي هذا تشير الباحثة "أقجوج ناجية" في كتابها "الصورة النمطية للإسلام في المخيال الغربي" بأن: "الصورة العامة للإسلام والمسلمين في الإعلام وإن كانت تعكس حالة من سوء الفهم فإنها ترسخ فكر الحقد وسوء القصد والجهل المركب في عموم الأحوال،...، والإعلام يقويها ويغذيها بما يقدمه وباستمرار من مواد تكرس تلك الصورة النمطية القاتمة التي يتم عرضها عبر الفضائيات العابرة للقارات" (أقجوج، 2009، صفحة 39)، وإلى جانب ذلك هنالك مجموعة من الصور المترسة بفعل الإعلام في الغرب:

- إن وسائل الإعلام تعتبر من أهم وأخطر المؤسسات الاجتماعية التي تسهم بدول فاعل ومؤثر في صياغة الصور النمطية في العقل في المجتمعات الحديثة (خالد السعد، 2007، صفحة 7)، وهنالك مجموعة من الملامح البارزة التي تكون الصورة المشوهة التي تقدمها وسائل الإعلام الغربية عن الإسلام لخصها "عبد القادر طاش" كما يلي: (طاش، 1993، صفحة 67)
- إظهار العرب في صورة المتناقضين دينيا مع الغرب، فهم غير مسيحين ومتطرفين يناهضون الصليبيين.

- إظهار العرب في صورة أبطال الروايات الغرامية لألف ليلة وليلة، الذين لا يهمهم إلا النساء والشراب والجنس.
- إظهار العرب بأنهم مصدر المتاعب والإرهاب والعنف.
- إظهار العرب بأنهم السبب في الحظر المفاجئ للنفط عن الغرب.

وقد ساهم الإعلام الأمريكي بشكل خاص في نشر وترسيخ صورة قاتمة عن الإسلام والمسلمين، فالصحفي الأمريكي كما يصفه "ليو جيفري" يبحث عن الخبر والمعلوماة ليس من أجل قيمتها الثقافية والمعرفية، وإنما من أجل مساحة الإثارة والاهتمام التي تحدثها لدى الرأي العام الذي يمكن أن يستثيره الخبر (أقجوج، 2009، صفحة 40)، وما زاد من قوة المضامين التي يبثها الإعلام الغربي ضد الإسلام هو إنعدام التوازن في تدفق المعلومات والأخبار بين دول الشمال ودول الجنوب، فالنظام الإعلامي المهيمن على الساحة الإعلامية يتميز بسيطرة مجموعة من الدول في المجالات الفكرية والثقافية، وتصدير نماذجها لمختلف دول العالم وعلى رأسها الدول العربية والإسلامية (نغيمش الحمامي، 2015، صفحة 189)، ويعتبر الإسلام من أكثر الأديان تعرضا للإساءة والتشويه والقذف في الغرب عموما وعبر وسائل الإعلام الغربية على وجه الخصوص، والمسلمين هم مادة مستباحة لكل أنواع الشتم والتجريح، ويوصف بكل أنواع الأوصاف على رأسها التشدد والتطرف، بالرغم من أن هذه الصفات لم تكن يوما من صفات المسلمين بل نسبت إليهم ظلما وبهتانا، وفي هذا تقول "كارين آرمسترونج" الباحثة البريطانية في مقارنة الأديان "في الإسلام لا يكتمل إيمان المسلم ما لم يؤمن بالأديان الأخرى والأنبياء الآخرين، وأنه لا إكراه في الدين، في حين نحن الغربيين مازلنا إلى اليوم لا نعترف بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم (...) لدينا في الثقافة الغربية تاريخ طويل من الرعب من الإسلام –الإسلاموفوبيا- يرجع لأيام الصليبيين، فقد صمم رهبان مسيحيون من أوربا في القرن الثامن عشر على أن الإسلام دين عنف أنتشر بالسيف، وأن محمد صلى الله عليه وسلم كان دجالا فرض دينه على العالم الرافض بقوة السلاح، وكانوا يسمونه فاسقا ومنحرفا جنسيا، وأصبحت هذه القصة المشوهة عن حقيقة النبي صلى الله عليه وسلم واحدة من الصور النمطية المقبولة في الغرب وكان من الصعب على الغربيين النظر إلى محمد عليه الصلاة والسلام في ضوء أكثر موضوعية" (أرمسترونج، صفحة 16)، ولا تزال وسائل الإعلام الغربية دائبة على دعم وترسيخ الصورة التي تحدثت عنها "آرمسترونج" لتصل بنا الأمور اليوم كشعوب مسلمة إلى تصديق ما يقال عنا وعن ديننا، فقد ساهمت المضامين الإعلامية الملغمة التي تبثها وسائل الإعلام العالمية في التأثير على بعض الفئات الهشة التي تعاني من الفراغ الروحي والتي لم تجد من يأخذ بيدها ويعاملها معاملة الإسلام الحقيقي، حيث لعب بعض رجال الدين المسلمين دورا مهما في دعم حملات التشويه الغربية للإسلام والمسلمين بطبيعة الخطابات التي يبثونها والسلوكات التي يقومون بها، ليصبح مثل هؤلاء ممن لا يمثلون الإسلام بأي شكل من الأشكال النماذج التي يعرضها الغرب في حربه المستعرة على الإسلام منذ آلاف السنين.

وقد حدد الباحث "هاشم أحمد النغيمش" أهم المركزات التي ينطلق منها الإعلام المعادي للإسلام كما يلي: (نغيمش الحمامي، 2015، صفحة 193-195)

- يدعي الإعلام المعادي للإسلام بأن القرآن الكريم ليس كلام الله وأنه كتاب وضعه محمد صلى الله عليه وسلم وهو عبارة عن حكم ومواعظ قالها الرسول عليه الصلاة والسلام.
- الإسلام ليس دينا سماويا بل هو طريقة مأخوذة من الديانة المسيحية واليهودية وأن محمد صلى الله عليه وسلم أخذ ذلك من أحد الرهبان، وربما اقتبس القرآن من هاتين الديانتين.
- يدعي الإعلام الغربي أن الإسلام ليس دينا عالميا وأن محمدا عليه الصلاة والسلام لم يكن يتصور أن هذا الدين سيكون عالميا، بل إنه كان يطمح لسيادة القبائل العربية في الجزيرة العربية.
- ترهيب الرأي العام من الإسلام وذلك بزعمهم أن الإسلام يشكل خطرا على الغرب والمسيحية.
- العقلية المسلمة هي عقلية متخلفة تتسم بالبربرية والعنف.
- محاولة طمس الحضارة العربية الإسلامية وإغفال أي دور إيجابي لها.
- محاولة لصق تهمة الإرهاب بالإسلام، والإدعاء بأن الإسلام هو دين إرهابي.
- الترويج لأن اللغة العربية هي لغة معقدة، وهي غربية وغير سهلة وبالتالي لا يمكن أن تكون لغة عالمية.

وتأسيسا لما سبق يمكن أن نلخص أهم أسباب تفشي ظاهر الإسلاموفوبيا عبر وسائل الإعلام الغربية في ثلاثة عناصر رئيسية:
- احتشاد التاريخ بالكثير من وقائع الصراع بين الإسلام والغرب: حيث سبق وأن تناولنا هذه الفكرة والتي تشير إلى مرحلة بزوغ فجر الإسلام وبداية إنتشاره في الأراضي الأوربية ومزاحمته للمسيحية وأتباعها.
- بالإسلام: مما ساهم في تفشي ظاهرة الخوف من الإسلام والميل إلى معاداته والنفور منه، حتى بين أبناء المسلمين أنفسهم الذين لديهم معرفة سطحية بدينهم، والذين باتوا يستقون معلوماتهم عن الإسلام من وسائل الإعلام الغربية وقبله من كتابات المستشرقين وآرائهم حول دينهم، وقد إزدا خوف الغرب من الإسلام خلال هذه المرحلة واعتبروه دينا دمويا إقترن في أذهانهم بالخوف والرعب. (برش و قارش، ،2018، صفحة 197)
- عدم القدرة على الفصل بين واقع المسلمين ودينهم: فعادة ما يتم الحكم على الإسلام من خلال الإنطباع أو الصورة المترسخة حول بعض الأنظمة السياسية التي تزعم أنها تعتمد على الشريعة وتعاليم الدين الإسلامي في الحكم، وهي أنظمة معروفة بتطبيق سياسات القمع اتجاه كل من يخالفها دائما باسم الدين، ويتم الترويج لهذه الصورة عن عمد عبر وسائل الإعلام الغربية وحتى الافلام والمسلسلات على أنها حقيقة وواقع المسلمين ومصير كل من يعتنق هذا الدين أو يتعامل مع أتباعه.

2-الإسلام في الغرب:

أ- عندما يجد الراجع إلى الإسلام الطريق إلى الحق: من خلال هذا العنصر سوف نتناول واقع المسلمين الذين يعيشون في الغرب وتحديدا المسلمون من أصول غربية ممن أسلموا حديثا، ذلك أن العيش في بلاد الغرب وأنت تعتنق دينا يرفضونه ويحاربونه بشدة هو تحد يومي، ولما يكون المسلم من أصل غربي يواجه تحديات أكبر، حيث تتسم النظرة الموجهة إليه بالإستغراب وعدم الإستيعاب، فما الذي يجعل شخصا ولد في الغرب وتربى على مبادئ الحرية وثقافة الانفتاح حسبهم، يترك كل هذا ويعتنق دينا يوصف في وطنه بالتشدد والهمجية والتخلف؟

إن الإنطباع المترسخ في أذهان الغربيين عن الإسلام والمسلمين عميق جدا ومتجذر كما سبق وذكرنا، مما يجعل من الصعب استيعاب كيف لشخص ولد في هذا المجتمع وتشبع منذ نعومة أظافره بالخوف والريبة من الإسلام أن يتخلى عن كل شيء ويعتنق هذا الدين، مواجها بذلك مجتمعا بأكمله؟ ولعل أهم وأول خطوة قام بها هؤلاء هي كسر حاجز الأحكام المسبقة، حيث يشير "بوزنيته أنكة" إلى أن العالم الغربي يركز كثيرا على الماديات والغرائز ويبتعد بالإنسان عن الفطرة، وما إن يبدأ الشخص بالعودة إلى فطرته وطرح الأسئلة الصحيحة حتى يتضح له الحق من الغي، ويبدأ في التأمل والتفكير في حياته والهدف منها وما بعد الموت، وفي الخالق، وهي المرحلة التي تبدأ التناقضات التي يقوم عليها المجتمع الغربي في البروز بشكل جلي (بوزنيته، 2004)،

إن ظهور الإسلام كعقيدة توحيدية على الأراضي الأوربية نظر إليه في البداية ككارثة أسوأ من الإجتياحات التترية للمراكز الحضارية والثقافية في العالم، وقد استثار هذا الأمر الفزع الشديد والقلق لدى المسيحيين الأوربيين (جورافسكي، الإسلام والمسيحية، 1990، صفحة 93)، وهذه المشاعر اتجاه هذا الدين أساسها مجموعة كبيرة من الأحكام المسبقة التي توارثتها الأجيال لغاية اليوم، حيث يبقى نفس الإنطباع الأول اتجاه الإسلام والمسلمين مترسخا ومتجذرا في الأذهان عند الغرب، وهو إنطباع يسيطر عليه الخوف نظرا لكون إدراك الإسلام لديهم يمكن أن يوصف بأنه إدراك جزئي، حيث يتم التركيز على الجوانب السلبية وأهمال الجوانب الإيجابية، والواقع أن ماظهر من سلب في الدين الإسلامي فهو عبارة عن الممارسات والسلوكات الخاطئة للمسلمين أنفسهم بعضهم وليس جميعهم، ويتم الربط بين الإسلام والإسلاموية المتطرفة التي تشغل واجهة الأحداث نظرا لانتشارها الإعلامي (فيوليه، 2014، صفحة 16) والتركيز الكبير عليها، بالرغم من وجود تيارات متشددة في باقي الأديان لكن من النادر أن يتم التطرق إليها وإن حدث ذلك يقابل برفض وامتعاض كبيرين في الأوساط الغربية. وفي ظل هذا المناخ الفكري والعقائدي المتشدد في الغرب واصل الإسلام الإنتشار والتجذر في أصقاع الأرض وفي أوربا تحديدا بين أشخاص وجدوا فيه دين الحق والحل لكل مشاكلهم وعقدهم، حيق يلم يقتصر الأمر على الباحثين والمفكرين الكبار في الترجمة ومقارنة الأديان الذي أكتشفوا حقيقة الإسلام بعد سنوات وسنوات من البحث ومخالطة المسلمين، وإنما توسع ليشمل حالات فردية متفرقة تعرفت على الإسلام بالفطرة واعتنقته ، فقوة الإسلام لم تكن أبدا السلاح والقوة ولا بالتقدم التكنولوجي ولا حتى بالمسلمين أنفسهم، ولكنها تكمن في القرآن

كلام الله (الموصلي،2014، صفحة 16)، وقد جاء في دراسة "بوزنيته" (بوزنيته، 2004)بأن الكثير ممن أعتنقوا الإسلام قد صرحوا أنه من الأسباب التي شجعتهم على ذلك:

-أنه لا يوجد في الإسلام تناقض بين العقيدة والعقل، وأن عقيدة التوحيد في الإسلام واضحة دون تشويه، وهذا على العكس من باقي الأديان التي تعرضت للكثير من التحريف على مر التاريخ، لذلك يبقى كتاب الله القرآن هو الكتاب الوحيد المحفوظ الذي لم يطله أي تحريف والإعجاز الذي يحتويه كفيل بأن يدل أي شخص على طريق الحق.

-أن الإسلام يتمثل بعقيدة ونظام للتطبيق، أو بإيمان وعمل، وأنه لا يبقى فلسفة نظرية، كما أن أفعال المسلمين وسلوكاتهم ومعاملاتهم نابعة من تعاليم الدين وليست منفصلة عنه.

-أن الإسلام يوافق الفطرة، فنحن نولد مسلمين، وكل الأنبياء كانوا كذلك.

-أن الإسلام لا ينقصه شيء، ولا يحتوي على أي شيء لا ضرورة أو لا سبب له.

-أن الإسلام رسالة عالمية هادفة في أي مكان وزمان، وهي قابلة للتكيف مع جميع الثقافات والأمم والشعوب (عبد الرازق، 2007، صفحة 15).

وتلعب الأقليات المسلمة في الغرب أدوار مفصلية في طبيعة الإنطباعات المترسخة عن الإسلام في الغرب، ولدى هؤلاء دور كبير في إعتناق أشخاص من خلفيات دينية مختلفة الإسلام، حيث أن الأقليات المسلمة قادرة على نقل صورة مشرقة عن الدين الإسلامي، وبذلك يكون كل مسلم عبارة عن داعية للإسلام بسلوكه ومواقفه، كما كان لتطور فقه الأقليات المسلمة في بلاد الغرب دورا مهما أيضا في إنتشار الإسلام، حيث تلعب مجالس البحوث والإفتاء في تأطير حياة المسلمين بشكل يتماشى والمكان الذي يعيشون فيه، وكل هذا يحفز الكثير من التائهين المتخبطين من إيجاد الخلاص والعودة إلى الحياة من خلال دين الحق.

ثانيا: مجتمع وعينة الدراسة:

يعرف مجتمع البحث بأنه:"ذلك المجال من المقالات أو الصور أو الوثائق أو البرامج الذي يضم الإجابة عن الهدف من استعمال تقنية تحليل المضمون". (تمار، 2017، صفحة76)

ويقدم مجتمع البحث عناصر للدراسة ومجالها الوصفي، فهو مجموعة واسعة تشكل الأطار المرجعي للتحليل، حيث يجعل لهذه العناصر قيم تحدد وفق طبيعة مجتمع البحث. (تمار، 2017، صفحة 130)

ومجتمع الدراسة هنا يتمثل في المضامين التي تعرضها فيديوهات قناة "فهد الكندري" على اليوتيوب، ويتعلق الأمر بفيديوهات سلسلة المسلمين الجدد تحديدا. التي تقدم شخصيات غربية اعتنقت الإسلام حديثا.

تتناول قناة "فهد الكندري" على اليوتوب مواضيع كثيرة لكنها تتعلق جميعها بالجوانب الدينية على شكل سلسلات لكل منها عنوان وفترة زمنية، منها ما يعرض في شهر رمضان المبارك مثلا، ومنها أيضا ما يكون على شكل مواسم، ومن بينها قمنا باختيار سلسلة حملت عنوان "المسلمين الجدد" يلتقي خلالها صاحب القناة "فهد الكندري" شخصيات غربية من نساء ورجال أسلموا حديثا، يحكون عن تجربتهم مع

الإسلام وكيف اعتنقوه، كما يصفون كيف كانت حياتهم قبل أعتناق الإسلام وبعده، وتمثلت عينة الدراسة في الجزء الثالث من هذه السلسة، وقد كانت عبارة عن عينة قصدية حيث تم اختيار 13 فيديو من السلسلة بما يتماشى وطبيعة البحث، أي فقط الفيديوهات التي تعرض شهادات المسلمين الجدد وشخصياتهم الجديدة وذلك خلال الفترة الممتدة ما بين 18 أوت 2021 إلى 18نوفمبر 2021.

الجدول رقم (01): يمثل عينة الدراسة

رقم الفيديو	عنوان الفيديو	مدة الفيديو	تاريخ نشر الفيديو
01	قصة إسلام إيفون ريدلي في أفغانستان	5:30د	2021/08/18
02	من اللبرالية إلى الإسلام	4:40د	2021/08/26
03	صحفي بريطاني من دوي القدرات الخاصة وجد الإسلام على أرض فلسطين	7:49د	2021/09/02
04	ملحد إهتدى بالإسلام في ملهى ليلي معدما هزه اليوم الآخر	6:14د	2021/09/09
05	مسيحي وجد نصوص تتنبأ بقدوم النبي	5:18د	2021/09/16
06	تركت الإسلام، فعادت له مرة أخرى	8:53د	2021/09/23
07	أمينة بليك- بريطانية تسبب الإعجاز العلمي في القرآن في إسلامها	6:40د	2021/10/07
08	أبو بكر كان سببا في إسلامه	3:51د	2021/10/14
09	شاب إسباني سجد لله سبحانه وتعالى دون أن يعرف شيئا عن الإسلام	6:39د	2021/10/21
10	رحلة مدرسية كانت سبب إسلامه	3:33د	2021/10/28
11	حبه لكتب التاريخ كان سبب إسلامه	5:17د	2021/11/04
12	شعورها بالطمأنينة في ليلة مرعبة سبب إسلامها	4:30د	2021/11/11
13	تجربته مع الجن كانت سبب إسلامه	5:48د	2021/11/18

ثالثا: منهج الدراسة وأدواتها:

1-المنهج: إن اختيار منهج البحث في دراسة أي موضوع لا يأتي بشكل عشوائي، أو لمجرد ميل الباحث لمنهج دون آخر، و إنما هي مسألة تفرضها طبيعة البحث أو المشكلة التي يتناولها الباحث، فاختلاف المواضيع من حيث التجديد و التعقيد، وكذا تنوع البحوث من حيث المتغيرات، يستلزم اختلافا في المناهج المستخدمة، ويتوقف استخدام الباحث لمنهج دون غيره على طبيعة الموضوع قيد الدراسة.

واعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج الوصفي الذي يعرف بأنه: " تصوير ما هو كائن أي الوضع الراهن، أو الحادثة، فهو يصف خصائصها و مركباتها و العوامل التي تؤثر فيها، و الظروف التي تحيط بها، و يجدد العلاقات الإرتباطية بين المتغيرات التي تؤثر على تلك الظاهرة، و من ثم التنبؤ و الاستنتاج للأوضاع المستقبلية التي ستؤول إليها هذه الظاهرة" (محمد المغربي، 2007، صفحة96). وقد حاولنا الكشف عن الطريقة التي تصف بها قناة "فهد الكندري" المسلمين الجدد وتقدمهم إلى الرأي العام، محاولين معرفة الدور الذي يمكن أن يلعبه هذا الأمر في تصحيح إنطباعات الغرب عن الإسلام والمسلمين عموما.

2-أداة البحث: أما عن الأداة التي استخدمناها لتحقيق ذلك فكانت أداة تحليل امضمون باعتبارها الأداة الأنسب لدراستنا والتي تعرف بأنها:"وسيلة بحث غير مباشرة تستخدم في معالجة النصوص المكتوبة والأشرطة الصوتية والأفلام المصورة بغض النظر عن الزمن الذي تنتمي إليه" (بن مرسلي، 2007، صفحة 249-250)، بشقيها الكمي والكيفي، نظرا لتكاملهما، حيث يقول في ذلك "يوسف تمار" بأن الجانب الكمي في تقنية تحليل المحتوى هو بمثابة المنبر الذي يساعد الباحث عل ما سيأتيه من تحليل كيفي، ويعد هذا الأخير من أصعب الإجراءات في تحليل المحتوى لأنه يفترض فيه أن تفسر الأرقام والإحصائيات في مجالات أخرى أكثر اتساعا على شاكلة السياقات الاجتماعية والسياسية أو الإعلامية التي تحيط بالإشكالية محل الدراسة. (تمار، 2017، صفحة 164)

أ-وحدات التحليل: هي أصغر عنصر في تقنية تحليل المضمون، وهب الوسيلة القياسية التي يتبناها الباحث عند تحليله للمضمون قصد قياس مدى تواجد أو عدم تواجد مكونات الفئة، وبالنظر إلى طبيعة دراستنا فقد وقع اختيارنا على كل من وحدة الموضوع ووحدة الكلمة، كما اعتمدنا على العد كأسلوب لقياس التكرارات.

ب-فئات التحليل:

- **فئات ماذا قيل؟(المضمون):** طبيعة المواضيع، مواصفات الشخصيات المعروضة، الجماهير المستهدفة، الأهداف المراد تحقيقها.
- **فئات كيف قيل؟(الشكل):** المستويات اللغوية المستخدمة، الأساليب الإقناعية المستخدمة، عناصر الإبراز، القيم الظاهرة.

رابعا:التحليل الكمي والكيفي لفئات المضمون (ماذا قيل؟)

جدول رقم 02: يوضح طبيعة المواضيع المعالجة من قبل مقاطع الفيديو عينة الدراسة

طبيعة المواضيع	التكرار	النسبة%
موضوعات عقائدية	13	19.11
موضوعات تشريعية	13	19.11
موضوعات أخلاقية	13	19.11
موضوعات إجتماعية والثقافية	13	19.11
موضوعات متعلقة بالإعجاز العلمي في القرآن	13	19.11
موضوعات بالتعلق بالجوانب الروحية وعالم الجن	03	4.41
المجموع	**68**	**100**

نعالج من خلال هذا الجدول مسألة أهم المواضيع التي تناولتها الفيديوهات عينة الدراسة، حيث وجدنا أن كل الفيديوهات تقريبا قد ركزت على نفس الموضيع، حيث جاءت المسائل العقائدية والتشريعية والأخلاقية وتلك المتعلقة بالإعجاز العلمي في القرآن الكرين بنفس النسبة والتي قدرت ب 19% وبقيت نسبة قليلة فقط قدرت ب 4.41% لمسائل متعلقة بعالم الجن، حيث تعرض عدد من المسلمين الجدد الذين ظهروا في الفيديوهات إلى أحداث نعتوها بالمرعبة تعرضوا خلالها لمحاولة الإيذاء من قبل الجن، وكانت تلك الحادثة من أهم الأسباب التي جعلتهم يتجهوم للبحث عن إجابات وجودها في دين التوحيد الإسلام، وكان من الطبيعي أن تكون بقية المواضيع متساوية وظاهرة بنفس الأهمية في كل الفيديوهات، فالمسلم الجديد أول شيء يهتم به هو الجوانب العقائدية والتشريعية التي تجعله يفهم دينه، مثل أحكام الصلاة والصوم والحجاب بالنسبة للنساء، بالإضافة إلى الجوانب الأخلاقية التي تمثل صلب الدين الإسلامي، حيث أكد الشاب الإسباني "نور الدين" مثلا بأن من أهم الأسباب التي جعلته يغادر قريته ويبحث عن الحقيقة وهو المسيحي أصلا، هم أصدقاء السوء الذين كان يتسكع معهم لسنوات طويلة، مع شعور بداخله بأن ما يفعلونه خطأ ويتنافى مع الأخلاق والقيم الإنسانية.

جدول رقم 03: يوضح مواصفات الشخصيات المقدمة عبر مقاطع الفيديو موضوع الدراسة ومحدداتها

<table dir="rtl">
<tr><th colspan="2">مواصفت الشخصيات ومحدداتها</th><th>التكرار</th><th>النسبة%</th></tr>
<tr><td rowspan="4">الشخصيات قبل اعتناق الإسلام</td><td>اتباع إحدى الديانات السماوية</td><td>12</td><td>41.37</td></tr>
<tr><td>الالحاد</td><td>01</td><td>3.44</td></tr>
<tr><td>عيش حياة اللهو والتسلية</td><td>03</td><td>10.34</td></tr>
<tr><td>الضياع والبحث عن الإجابات</td><td>13</td><td>44.82</td></tr>
<tr><td colspan="2">المجموع الفرعي</td><td>29</td><td>100</td></tr>
<tr><td rowspan="5">الشخصيات خلال مرحلة اكتشاف والتعرف على الإسلام</td><td>طرح أسئلة وجودية</td><td>13</td><td>29.54</td></tr>
<tr><td>البحث عن الإجابات في الكتب</td><td>05</td><td>11.36</td></tr>
<tr><td>إستشعار وجود قوة تقودهم</td><td>13</td><td>29.54</td></tr>
<tr><td>التعرف على الإسلام بمجهود شخصي</td><td>12</td><td>27.27</td></tr>
<tr><td>التعرف على الإسلام من خلال مسلمين</td><td>01</td><td>2.27</td></tr>
<tr><td colspan="2">المجموع الفرعي</td><td>44</td><td>100</td></tr>
<tr><td rowspan="2">الشخصيات بعد اعتناق الإسلام</td><td>إيجاد الإتزان في الحياة وتكون الشخصية الجديدة</td><td>13</td><td>31.70</td></tr>
<tr><td>الثقة في النفس والقدرة على المواجهة</td><td>13</td><td>31.70</td></tr>
</table>

	الرفض من قبل العائلة والمحيط القديم	2	4.87
	البدء بالقيام بالدور المنوط بالمسلمين	13	31.70
المجموع الفرعي		**41**	**100**
المجموع الكلي		**114**	**100**

إن مسألة الشخصيات الجديدة للمسلمين بعد إعتناقهم دين الإسلام مهمة للغاية، حيث قدمت لنا الفيدوهات بالشكل الذي عرضتهم به توصيفا دقيقا لهم قبل دخول الأسلام وبألسنتهم، والجدول بأن أغلب العينات كانت تعيش حياة من الضياع والبحث عن سبيل للخلاص، منهم من كان اللهو هو سبيله للهروب، ومنهم من اختار العزلة والإنطواء لأنه لم يجد نفسه بين أقرانه، حتى هؤلاء الذين كانوا يملكون إنطباعات سيئة عن الإسلام سواء من الإعلام أو نتيجة تعرضهم للأذى وسوء المعاملة من مسلمين مثل الفيتنامي الملحد الذي كان يتعرض للتنمر من طرف مسلمين في المدرسة نظرا لكونه يبدوا مختلفا شكلا(ملامح آسيوية) عن البقية، لكنه وبعد سنوات طويلة اكتشف بأن بعض المسلمين لا يمثلون الإسلام في شيء وتعرف على هذا الدين بالطرق الصحيحة.

أما المرحلة التي تلت إعتناقهم الإسلام، فقد اتفق أفراد العينة بأنهم وجدوا الإتزان وعرف كل منهم هدفه في الحياة، كما أكتسبوا ثقة في النفس كانوا يفتقدونها سمحت لهم بمواجهة مجتمعاتهم فمنهم من واجه عائلته ومنهم من واجه محيط عمله وجاء ذلك بنسب متساوية قدرت ب 31.70% . ولكن منهممن اضطر ليدفع ثمنا باهظا مثلا اليوناني "ستيف كريس" الذي تبرأت منه عائلته ورفض والداه التواصل معه، ومع ذلك لازال بعد أكثر من عشر سنوات يحاول إصلاح العلاقة معهم ويجعلهم يتقبلونه بشخصيته الجديدة، خاصة وأن رفضهم لاعتناقه الدين الإسلامي له أسباب عميقة تتعلق بكرههم في الأساس لكل ما يذكرهم بالدولة العثمانية نظرا لطبيعة الأحداث التاريخية التي وقعت بينها وبين اليونان.

جدول رقم 05: يوضح الجماهير المستهدفة من طرف مقاطع الفيديو موضوع الدراسة

الجماهير المستهدفة	التكرار	النسبة%
المسلمون	13	25
المسلمون الجدد	13	25

أتباع الديانات السماوية	13	25
الملحدون	13	25
المجموع	**52**	**100**

من خلال هذا الجدول يظهر جليا بأن الفيديوهات عينة الدراسة تستهدف جماهير واسعة وليس فئة بعينها، حيث جاءت النسب متساوية بين استهداف المسلمين عموما والمسلمون الجدد بالإضافة إلى أتباع بقية الديانات السماوية والملحدين وذلك بنسبة 25% لكل الفئات، وعند متابعة الفيديوهات المعنية بالدراسة يتضح لنا عمق الرسائل التي تتضمنها، حيث يعرض رجال ونساء من خلفيات مختلفة جمعهم دين الحق وتغيرت حياتهم للأحسن، وهذه رسالة قوية لجميع المتابعين المحتملين للبرنامج، خاصة وأن ضيوف الحلقات المختارة يعرضون حياتهم قبل وبعد اعتناقهم الإسلام.

لكن ومن خلال متابعتنا لتفاعلات المتابعين وتعليقاتهم، وجدنا أن كل التعليقات لمسلمين ولا يوجد تعليقات لمتابعين من خلفيات دينية أخرى، وحتى ولو كان هذا لا يعني أنه لايوجد متابعين من غير المسلمين خاصة وأن الفيديوهات باللغة الإنجليزية مع ترجمة باللغة العربية لكي تمس شرائح واسعة.

جدول رقم 06: يوضح أهداف القائم بالاتصال من الفيديوهات عينة الدراسة

أهداف القائم بالاتصال	التكرار	النسبة%
التعريف بفئة المسلمين الجدد في الغرب	13	41.93
تحسين إنطباع الإسلام والمسلمين لدى الغرب والمسلمين أنفسهم	05	16.12
زيادة مستوى الوعي بمكانة الإسلام مقابل باقي المعتقدات الدينية	13	41.93
المجموع	**31**	**100**

هذا الجدول خصص للتعرف على أهداف القائم بالاتصال من خلال الفيديوهات عينة الدراسة، وتوصلنا إلى أن فئتي التعريف بالمسلمين الجدد في الغرب وزيادة مستوى الوعي بمكانة الإسلام بنسبة 41.93% وتليها تحسين صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب والمسلمين بنسبة 16.12 %، وقد خصص "فهد الكندري" من خلال قناته مومّوعة من البرامج على شكل سلاسل تهتم بالدين الإسلامي ومن بينها السلسلة التي قمنا باختيار عينة دراستنا منها وهي "المسلمون الجدد"، حيث ساهم هذا البرنامج في تسليط الضوء على فئة مهمة في الغرب وفئة المسلمين الجدد.

ومن أهم النقاط التي تم التركيز عليها هي كون المسلمين الجدد هم في الواقع من الراجعين للإسلام لأنه دين الفطرة، والتساؤلات التي كانوا يطرحونها حول الحياة هي في الواقع أسئلة فطرية، وهي ليست بالأمر الجديد حيث يزخر التاريخ الإنساني بمن يمكن أن نطلق عليهم بالباحثين عن الحق.

خامسا: التحليل الكمي والكيفي لفئات الشكل (كيف قيل؟)

جدول رقم 07: يوضح الأساليب الإقناعية المعتمدة في الفيديوهات عينة الدراسة ومحدداتها

الأساليب الإقناعية		التكرار	النسبة%
أساليب تعتمد على الوحيين	القرآن الكريم	13	50
	الأحاديث النبوية	13	50
المجموع الفرعي		**26**	**100**
أساليب عاطفية	لغوية	13	72.22
	الرموز والإشارت	00	00
	تعابير الوجه	05	27.77
المجموع الفرعي		**18**	**100**
أساليب عقلية وفكرية	سيرة النبي محمد عليه الصلاة والسلام	13	48.14
	سيرة الصحابة والتابعيين	13	48.14
	تاريخ الحضارة الإسلامية	01	3.70

المجموع الفرعي	**27**	**100**
المجموع الكلي	**71**	**100**

لقد جاءت الأساليب الإقناعية المعتمدة في الفيديوهات مقسمة بين أساليب تعتمد على الوحيين (القرآن والسنة) بنسبة 26 % والأساليب العقلية والفكرية المتمثلة في سيرة النبي محمد عليه الصلاة والسلام والصحابة والتابعين وتاريخ الحضارة الإسلامية بنسبة 27% ، أما الأساليب العاطفية فجاءت بنسبة 18%. حيث اتشهد كل أفراد العينة بآيات قرآنية وبأحاديث نبوية، وصرح أغلب أفراد العينة بأن سيرة النبي محمد عليه الصلاة والسلام وصحابته كانت ملهمة بالنسبة إليهم، حيث صرح "نور الدين" الشاب الإسباني بأنه أحس بأن "سورة الضحى" التي كلم فيها الله عز وجل نبيه محمد موجهة إليه هو أيضا لأنه كان يعاني من اليتم والضعف والضياع لكن الله عز وجل هداه إلى طريق الصواب وفتح أمامه أبواب الرزق مع الدين الإسلامي.

كما أن "ستيف كريس" اعترف بأن قراءته للكتب التاريخية حول الحضارة الإسلامية هي التي جعلته يتعرف على هذا الدين ويحبه من نفسه دون أن يدعوه أي شخص لاعتناق الإسلام. واعتناق الإسلام أساسا تعلم المبادئ الأساسية من اليوم الأول بداية من العقيدة مثل أحكام الطهارة وفقه العبادات وهي مرحلة مهمة جدا وشديدة الصعوبة في نفس الوقت بالنسبة للمسلمين الجدد، لكن وبعد المرور بها نصل إلى مسلم واع وملتزم خاصة مع وجود عائق اللغة.

جدول رقم 08: يوضح المستويات اللغوية المستخدمة في مقاطع الفيديو عينة الدراسة

المستويات اللغوية	**التكرار**	**النسبة%**
اللغة العربية الفصحى	13	33.33
اللغة الإنجليزية	13	33.33
اللغتين معا	13	33.33
المجموع	**39**	**100**

يوضح هذا الجدول المستويات اللغوية المعتمدة في الفيديوهات، ويتضح من خلاله أن كلا من اللغتين العربية والإنجليزية مستخدمتان معا في كل الفيديوهات، وذلك بنسب متساوية تقدر ب 33.33%، حيث يتحدث جميع الضيوف باللغة الإنجليزية ويتحدث معهم صاحب البرنامج "فهد الكندري" باللغة الإنجليزية أيضا خلال الحوار، لكن خارج الحوار يتحدث باللغة العربية، كما أن هنالك دبلجة باللغة العربية لما يقوله الضيوف، وبالتالي يتحقق الهدف المطلوب من البرنامج حيث سبق وأشرنا إلى أن الجماهير المستهدفة هي من خلفيات ودول مختلفة واعتماد اللغة الإنجليزية في الحوار يحقق ووصول الرسالة.

جدول رقم 09: يوضح عناصر الإبراز المعتمدة في مقاطع الفيديو عينة الدراسة

عناصر الإبراز		التكرار	النسبة%
عناصر إبراز سمعية	موسيقى	13	44.82
	أناشيد دينية	13	44.82
	آهات وترانيم	13	44.82
المجموع الفرعي		**29**	**100**
عناصر إبراز بصرية	الديكور	13	25
	الترجة إلى العربية في مقاطع الفيديو	13	25
	صور الطبيعة	13	25
	صور المدينة	13	25
المجموع الفرعي		**52**	**100**
المجموع الكلي		**81**	**100**

يوضح هذا الجدول أنه من أهم عناصر الإبراز التي اعتمد عليها صناع الفيديوهات عينة الدراسة هي العناصر البصرية بنسبة 52 %بالمقارنة مع العناصر السمعية المتمثلة في الأناشيد الدينية والآهات التي قدرت نسبتها ب29%، حيث تم التركيز على ملامح الضيوف من المسلمين الجدد، وخلال حديث مقدم البرنامج تظهر صور عشوائية لمدن كبرى ومناطق من الريف حيث تظهر أشعة الشمس تختلط مع الأعشاب الخضراء، واختيار هذه الصور لم يكن عشوائيا، حيث تظهر صور المدن الكبرى عندما يكون المتحدث يحكي عن ضيوفه قبل اعتناق الإسلام حيث تظهر في الصور الإزدحام المروري وتصاعد الدخان الأسود والأبخرة إلى السماء، أما صور الطبيعة المبهجة فيتم ربطها بالحديث عن الضيوف بعد إعتناقهم الإسلام. أما الديكورات فجاءت محايدة لدرجة أننا لا ننتبه إليها خلال مشاهدة مقاطع الفيديو حيث يتم التركيز على وجوه الضيوف ووجه المقدم بغض النظر عما يحيط بهم.

جدول رقم 10: يوضح القيم الظاهرة عبر مقاطع الفيديو عينة الدراسة

القيم	التكرار	النسبة%
قيم التسامح	09	28.12
قيم التكافل	09	28.12
قيم حب الخير للآخر	13	40.62
قيم البر بالوالدين	01	3.12
المجموع	**32**	**100**

إن الفيديوهات جاءت تزخر بكم كبير من القيم، ومن أهم القيم التي ظهرت عبر الفيديوهات هي قيم حب الخير للآخر بنسبة 40.62% ، وجاءت بعدها قيم التسامح والتكافل بنسبة 28.12% ، أما قيم البر بالوالدين فجاءت أخيرا بنسبة 3.12%، وهي قيم اكتسبها المسلمون الجدد أنفسهم بعد اعتناقهم الدين الإسلامي ومن أهمها إكتساب صفة حب الخير للجيع بغض النظر عن خلفيتهم الدينية، وهي رسالة يساهم المسلمون الجدد في نشرها سعيا منهم لتغيير الإنطباع المترسخ والمتجذر في العقل الغربي منذ مئات السنين، فالإسلام هو رسالة عالمية هادفة. فأغلب أفراد العينة فضلوا الإبتعاد عندما تلقوا معاملة سيئة من محيطهم سواء العائلي أو محيط العمل والأصدقاء، حتى أن أحد أفراد العينة لم يتقبله والداه بعد إسلامه ومع ذلك بقي يبرهم ويسأل عنهم حتى وهم يصدونه.

مناقشة وتفسير نتائج الدراسة:

إن الصور السلبية المترسخة في الفكر الغربي تعود جذورها لمئات السنين كما سبق وتناولنا في الجزء النظري للدراسة، وهنالك رفض تام لتقبل حقيقة أن الإنطباع الذي لديهم عن الإسلام هو خاطئ تماما ولا أساس له، وأن رهاب الإسلام هو سياسة وإستراتيجية اتبعها الغرب وتحديدا العالم المسيحي لمحارب الإسلام في كل مكان، ومن خلال هذه الدراسة حاولنا تسليط الضوء على فئة مهمة في العالم الإسلامي هي فئة المسلمون الجدد، وبالرغم من أنها ظاهرة ليست بالجديدة حيث عرف التاريخ اعتناق شخصيات كبيرة ومهمة وأشخاص عاديين للإسلام على مر السنين، لكن كان هذا سلوكا فرديا إن صح القول، بالمقارنة مع الوقت الراهن حيث ارتفعت نسب الراجعين للإسلام وأصبح لديهم صوت قوي يعبرون من خلاله عن أنفسهم وحياتهم الجديدة بعد اعتناق دين التوحيد، ومن خلال تحليل مضمون عينة من الفيديوهات المخصصة للمسلمين الجدد عبر قناة "فهد الكندري" توصلنا إلى جملة من النتائج من أهمها:

-أن طبيعة الموضوعات التي تعرضها الفيديوهات تدور حول الموضوعات العقائدية بشكل رئيسي وهذا راجع لكون فئة المسلمين الجدد أصعب مرحلة يمرون بها هي مرحلة التعرف على العقيدة بعمق، على الأحكام وتشريعات الدين الإسلامي، كما أن الجانب الأخلاقي في المعاملات والحكم على الآخر مهم جدا لأنه برز في كلامهم.

- حدثت تغييرات عميقة في شخصيات المسلمين الجدد بعد اعتناقهم للإسلام، حيث برز لنا من خلال تحليل الفيديوهات أن من أهم التغيرات التي حصلت هي الوصول إلى الإتزان والثقة بالنفس بعد أن كان أغلبهم يعانون من التيه والضياع بلا هدف في الحياة، وكانت طاقة النور بالنسبة إليهم هي اكتشاف الإسلام الحق.

- إن الجمهور المستهدف متنوع، حيث يمس المسلمين والمسلمين الجدد وحتى شخصيات من خلفيات عرقية ودينية مختلفة، ولم يظهر من خلال التحليل أنهم يستهدفون فئة بعينها دون الأخرى.

- من أهم الأهداف الظاهرة في الدراسة هي التعريف بالمسلمين الجدد وبفضلك ذلك محاولة تغير الصورة الذهنية والإنطباع السلبي المترسخ في أذهان الغرب عن الإسلام والمسلمين، والهدف يمس أيضا المسلمين أنفسهم ممكن فقدوا إيمانهم بدينهم لأي سبب من الأسباب.

- تظهر الدراسة أن الأساليب الإقناعية المستمدة من القرآن والسنة بالإضافة إلى الأساليب العقلية المعتمدة على سيرة النبي وصحابته وقصص الحضارة الإسلامية هي أكثر الأساليب اعتمادا في برنامج المسلمون الجدد على قناة "فهد الكندري".

- تم إعتماد اللغتين الإنجليزية والعربية في الفيديوهات، وهذا لأن المسلمين الجدد من أجناس مختلفة والإنجليزية هي لغة عالمية، بالإضافة إلى اللغة العربية بما أن القناة هي في الأساس قناة عربية، وهذا الإختيار مهم جدا لكونه قادر لأن يصل بالمضمون إلى شرائح واسعة بغض النظر عن المجتمع الذي ينتمون إليه.

- عناصر الإبراز تم استخدامها بشكل ذكي خاصة البصرية منها، حيث ركز صناع المحتوى على وجوه الضيوف لإبراز تعابير وجوههم، بالإضافة إلى مرافقة حديث مقدم البرنامج بصور وفيديوهات متنوعة تعبر بشكل مجازي عن مضمون ما يقوله، لذلك فقد جاءت عناصر الإبراز السمعية البصرية موظفة بأفضل شكل ممكن.

- ظهرت مجموعة كبيرة من القيم عبر الفيديوهات عينة الدراسة، مثل قيم التكافل والتسامح والبر بالوالدين، وأكثر قيم برزت هي قيم حب الخير للآخر، وهي تنم بشكل صريح عن الشخصيات الجديدة للمسلمين الجدد بعد اعتناقهم الإسلام بالمقارنة مع حياتهم قبلا.

خاتمة:

قناة"فهد الكندري" من القنوات المهمة على موقع يوتيوب التي تهدف إلى التعريف بالإسلام عن طريق مجموعة من البرامج المتنوعة والتي من بينها سلسلة "المسلمون الجدد" التي استهدفت من خلالها القناة عينة جديدة من المسلمين لتخرج بذلك عن الشكل النمطي للبرامج والقنوات الدينية خيث يتحول أبناء الغرب إلى دعاة ومعرفين بهذا الدين، بالتالي يصبح إيصال الرسالة أقل صعوبة عما إذا كان مسلم من أصول غير غربية يقوم بذلك، وتتحقق أهداف القائم بالإتصال الذي يسعى إلى تغيير الصورة النمطية والإنطباع المترسخ في أذهان الغرب عن الإسلام والمسلمين، والواقع الذي توصلنا إليه يحيلنا إلى أن المجتمعات الغربية هي التي يجب أن تكون مصدر خوف ورهاب بفعل الضياع الذي يعيشه الأفراد ومختلف أنواع الشذوذ والإنحلال الخلقي، والبرغم من التطور الحضاري الذي وصلت إليه هذه المجتمعات إلا أن محاولتها تهميش دور الدين في الحياة اليومية هو نفسه السلاح الذي سوف يصل بها إلى الحظيظ في يوم من الأيام.

قائمة المراجع:

- أحمد بن مرسلي. (2007). مناهج البحث العلمي في علوم الإعلام والاتصال. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- إدوارد سعيد. (2006). الإستشراق المفاهيم الغربية للشرق. (محمد عناني، المترجمون) القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.
- المحجوب بن سعيد. (2010). الإسلام والإعلاموفوبيا. دمشق: دار الفكر.
- أليسكي جورافسكي. (1990). الإسلام والمسيحية. الكويت: عالم المعرفة.
- أنكه بوزنيته. (2004). من أسلم من أهل الغرب حديثا، آراء وآفاق. مجلة الإحياء(8).
- بشرى برش، و محمد قارش. (2018). ظاهرة الإسلاموفوبيا في الفضائيات الإخبارية بين التناول الموضوعي والتضخيم الإعلامي في ضوء الأحداث الراهنة. مجلة العلوم الإجتماعية، 07(30).
- حلمي خضر ساري. (1988). صورة العرب في الصحافة البريطانية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- سامي الموصلي. (2014). فوبيا الإسلام. د.ب.ن: دار المعتز للنشر والتوزيع.
- شاكر عالم شوق. (2006). الإستشراق: أخطر تحد للإسلام. دراسات، 3.
- صلاح عبد الرازق. (2007). الأقليات المسلمة في الغرب، قضايا فقهية وهموم ثقافية. دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت.
- صوفي فيوليه. (2014). الإسلاموية المتطرفة والغرب. (محمد أحمد صبح، المترجمون) دمشق: دار النينوى للدراسات والنشر والتوزيع.
- عبد القادر طاش. (1993). صورة الإسلام في الإعلام الغربي. القاهرة: الزهراء للإعلام العربي.
- عبد الودود شلبي. (2004). الإسلام والغرب. القاهرة: مكتبة الآداب.
- كارين أرمسترونج. (بلا تاريخ). محمد نبي لزماننا. (فاتن الزلباني، المترجمون) مكتبة الشروق الدولية.
- كامل محمد المغربي. (2007). أساليب البحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية. الأردن: دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- مالك بن نبي. (1954). مستقبل الإسلام. (شعبان بركات، المترجمون) بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.
- محمد عابد الجابري. (2012). مسألة الهوية، العروبة والإسلام والغرب. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- ناجية أقجوج. (2009). الصورة النمطية للإسلام في المتخيل الغربي. فاس: أنفو-برانت.
- نورة خالد السعد. (2007). صورة المرأة المسلمة في الإعلام الغربي رؤية تحليلية. مجلة جامعة الملك عبد العزيز، 16(2).

- هاشم أحمد نغيمش الحمامي. (2015). تشويه صورة الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام العالمية وسبل مواجهتها. التراث، 5(2).
- يوسف تمار. (2017). مناهج وتقنيات البحث في الدراسات الإعلامية-الإتصالية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

جهود الداعية البريطاني دارن مايت في تحسين صورة الإسلام والمسلمين داخل المجتمعات الغربية -دراسة تحليلية لعينة من حواراته في الشوارع لندن -

An Intervention Entitled: The Efforts of the British Preacher, Darren Might, in Improving the Image of Islam and Muslims within Western Societies -An Analytical Study of a Sample of his Conversations in the Streets of London -

د.أميمة رزاقي، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة –الجزائر
omaimaabi@yahoo.com



تهدف هذه الدراسة أساسا إلى تقديم نموذج حي لمسلمين حاولوا جاهدين تقديم صورة إجابيه للإسلام والمسلمين لدى الأخر الغربي، وتنفرد بكونها تختار نموذج لمسلم غربي اعتنق الإسلام بعد صراع طويل بين شرائعه وغرائزه وشهواته ليختار بعد ذلك الإسلام عن قناعة وتسليم، ويتعرف عليه على حقيقته ثم يرغب بعد ذلك في نشره والدعوة إليه من خلال تفنيد كل الشبه التي تنفر منه.

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج الوصفي وأداة تحليل المضمون، قمنا من خلالها باختيار عينة قصدية لحصص حوارية كان يدعو فيها دارن مايت إلى الإسلام في شوارع لندن ويقوم بتصويرها. ثم قمنا بتحليلها شكلا ومضمونا لنخلص في النهاية إلى أهم الموضوعات التي طرقها والأهداف التي رمى إليها، وكذا الأساليب الاقناعية الموظفة في ذلك وجمهوره المستهدف ولغته المستخدمة

الكلمات المفتاحية: جهود الدعاة الغربيين –تحسين صورة الإسلام- المجتمعات الغربية.

Abstract :

The main objective of this study is to present a living model of Muslims who have tried hard to present a positive image of Islam and Muslims to the Western other, and is unique in that it chooses a model for a Western Muslim who converted to Islam after a long struggle between its laws, instincts and desires, to choose Islam after that with conviction and submission, and to identify it with its truth and then desire after This is in publishing and advocating for him by refuting all the similarities that repel him.

In this study, we relied on the descriptive approach and the content analysis tool, through which we chose an intentional sample of dialogue sessions in which Darren Might was calling for Islam in the streets of London and photographing it. Then we analyzed it in form and content in order to conclude in the end the most important topics that were addressed and the goals that were aimed at, as well as the persuasive methods employed in that, its target audience and its language used

Keywords: The effort of western speakers of islam- Improving the image of Islam - Western societies-



مقدمة :

يرى الأديب الفلسطيني إيدوارد سعيد في كتابه تغطية الإسلام كيف يحدد الإعلام والخبراء الغربيين رؤيتنا إلى بقية العالم فيقول:" قد تكون مبالغة طفيفة إذا قلنا إن تغطية المسلمين والعرب ومناقشة أمورهم وفهمهم لا تخرج عن صورتي موردي نفط أو إرهابيين محتملين، ولم يصل سوى القليل جدا من تفاصيل وكثافة البعد الإنساني وشغف الحياة العربية والإسلامية إلى وعي أولئك الأفراد الذين تقوم وظيفتهم على تغطية العالم الإسلامي". ولعل هذه الصورة المنقولة ازدادت قتامة مع الأحداث العالمية الجديدة وتغير موازين القوى، التي جعلت الإسلام بالرغم من محاصرته يشتد وفي حالة تركه بحرية يمتد.

كردة فعل على ذلك استأنفت التيارات المتطرفة العمل من جديد على تعزيز خطاب الكراهية تجاه المسلمين في محاولة دؤوبة لاحتوائه، كما ساهمت وسائل الإعلام خاصة الحديثة منها كوسائل التواصل الاجتماعي العمل على نشر الإسلام فوبيا، سواء في شكل جهود أفراد أو مؤسسات أو جمعيات وغيرها وبدعم من حكومات علمانية لبرالية، تسعى إلى صنع وتفصيل إسلام جديد لا يشكل خطرا على الدول الغربية، بل يتسم بالميوعة والقابلية للتمدد في زخم الحياة الغربية المادية.

وفي المقابل نلحظ وجود جهود فردية ومؤسسية تعمل جاهدة لتحسين الصورة النمطية التي لايزال الغرب يروج لها عن الدين الإسلامي والمسلمين واصفا إياهم بالإرهاب والأصولية الإسلامية والتطرف وغيرها، ومن بين الجهود الفردية ما يقوم به الداعية المسلم البريطاني ذو الأصول اليونانية دارن مايت الملقب بحمزة، لذلك ارتأينا إجراء دراسة تحليلية تبحث في شكل ومضمون الرسالة التي ينشرها هذا الداعية المسلم في شوارع المدن الغربية بغية تحسين صورة الإسلام، وعليه صيغت إشكالية الدراسة في التساؤل التالي: كيف ساهمت جهود الداعية البريطاني دارن مايت في تحسين صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب؟

أولا-تساؤلات الدراسة:

1- أسئلة خاصة المضمون (ماذا قيل؟):

- ما هي أهم الموضوعات التي يتناولها الداعية دارن مايت؟
- ما هي الأهداف التي يسعى دارن مايت إلى تحقيقها؟
- من هو الجمهور المستهدف من خلال حوارات دارن مايت؟

2-أسئلة خاصة بالشّكل (كيف قيل؟):

- ما هي الأساليب الإقناعية العقلية المستخدمة في حوارات دارن مايت ؟
- ما هي الأساليب الإقناعية العاطفية المستخدمة في حوارات دارن مايت ؟
- ما هي اللغة المستعملة في حوارات دارن مايت ؟

ثانيا- أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم نموذج تطبيقي عن جهود أفراد مسلمين في تحسين صورة الإسلام والمسلمين لدي الغربيين، وتفنيد الصورة النمطية التي تعززها وسائل الإعلام الغربية ووسائل التواصل الاجتماعي؛ وذلك من خلال الكشف عن أهم الموضوعات التي يتطرق إليها هؤلاء الأفراد والأهداف التي يسعون إلى تحقيقها والجمهور المستهدف بمضامينهم، بالإضافة إلى طريقة عرض هذه المضامين من خلال الكشف عن نوع الأساليب الاقناعية المعتمدة في ذلك واللغة المستخدمة.

ثالثا-أهمية الدراسة:

-الكشف عن المحتوى الرسالي للداعية دارن مايت الذي استطاع الإسهام بشكل فعال تحسين صورة الإسلام والدعوة إليه بطريقة جعلت الكثير يعتنقونه.

-الاطلاع على مدى نجاح هذا الشخص في تغيير الصورة النمطية للإسلام والمسلمين لدى الغرب. -ولعل تقديم دراسة بهذا الشكل قد يكون حافزا للتجنيد في شكل أفراد ومؤسسات من أجل دحض فكرة الإسلام فوبيا، والنظرات الحقودة للمسلمين وكذا فكرة الأصولية الإسلامية والراديكالية والتطرف وغيرها مما وسم به الإسلام.

رابعا- مفاهيم الدراسة:

1-الجهود: الجَهدُ والجُهد هو الطاقة والجُهد المشقة، وجَهُد الرجل في أمر بمعنى جدّ فيه وبالغ، ويقال أجهد لك الطريق وأجهد لك الحق أي برز وظهر ووضح، والجهد: الوسع والطاقة والمبالغة والغاية وبذل الوسع، والمجهود وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل

(ابن منظور، دت، ص133).

2-المسلمون الغربيون: ونقصد به كل الأشخاص الغربيين الذين تعرفوا على الدين الإسلامي بطرق مختلفة ثم اعتنقوه لقناعتهم الخاصة بمناسبته لكل زمان ومكان وشموليته، على اختلاف مستواهم الثقافي ومكانتهم الاجتماعية.

3-الداعية دارن مايت: أو هو حمزة مايت: كما صار اسمه بعد إسلامه، شاب بريطاني من أصول يونانية عاش في جنوب ولز القريبة من لندن رفقة والده وأخيه وزوجته والده في مقاطعة استشارية للبيض، وانتهى به الحال مع العصابات اين عاش نوعا من الغوغائية والفوضى ولكن وبعد أحداث كثيرة مرت في حياته وتعرفه إلى اشخاص مسلمين بدأ يلتزم بتعاليم الإسلام كالتوقف عن شرب الخمر والسكر والمعاملات الربوية دون اعتناقه إلى سنة 2002، وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمر 2001 م تهيأت الأسباب لدخوله الإسلام فاسلم وكان حينها ذو 27 سنة، وهو إلى يومنا هذا يبحث في الشؤون الإسلامية ويمارس الدعوة في شوارع إنجلترا بطرق مختلفة.

4-تعريف اجرائي لجهود الداعية البريطاني حمزة مايت في تحسين صورة الإسلام وهي: كل ما يقدمه ويبذله من تضحيات في سبيل تجميل صورة الإسلام النمطية التي شوهتها وسائل الإعلام الغربية داخل مجتمعاتها وخارجها، كما ساهم في ذلك الأفعال والأفكار الهدامة التي تبناها الأشخاص المتدينون عن جهل.

خامسا-نوع الدراسة ومنهجها:

1-نوع الدراسة: تصنف دراسة جهود المسلمين الغربيين في تحسين صورة الإسلام والمسلمين ضمن الأبحاث الوصفية، وقد عُرّف الوصف بأنه:" أسلوب من أساليب التحليل المرتكز على معلومات كافية ودقيقة عن ظاهرة أو موضوع محدد من خلال فترة أو فترات زمنية معلومة، وذلك من أجل الحصول على نتائج عملية ثم تفسيرها بطريقة موضوعية، وبما ينسجم مع المعطيات الفعلية للظاهرة"(عبيدات محمد، 1999، ص46)

2-منهج الدراسة: تنتمي هذه الدراسة إلى المنهج المسحي كونه من أنسب المناهج للدراسات الإعلامية التي تندرج تحت الدراسات الوصفية وهو يهتم بدراسة الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، في مجتمع معين، بقصد تجميع الحقائق واستخلاص النتائج اللازمة لحل مشاكل المجتمع (حجاب محمد، 2002، ص78)

3-أداة الدراسة: اقتضت الدراسة التي بين أيدينا استخدام أداة تحليل المضمون (المحتوى)، ويرى بيرلسون (Brillson) أنه: "أسلوب البحث الذي يهدف إلى الوصف الكمي والموضوعي والمنهجي للمحتوى الظاهر للاتصال"(عبد الحميد محمد، 2009، ص16)

سادسا-مجتمع الدراسة وعينتها:

1-مجتمع الدراسة: يقصد بالمجتمع "Population مجموعة من المفردات التي نريد دراستها إما لوصفها أو لاستقراء السمات العامة لها، أو لاستقراء العلاقة بينها" (صيني سعيد إسماعيل، 1994،

ص220)، ويتكون مجتمع هذه الدراسة من كل الحلقات المصورة التي يمارس فيها الداعية دارن مايت الملقب بحمزة الدعوة في المدن الغربية، منذ إسلامه إلى اليوم. وتم اختيار هذا البرنامج تحديدا لأن جل المواضيع التي ناقشها تقريبا تهدف إلى تقديم صورة حسنة عن الإسلام للآخر كما أسلم على يده العديد من الغربيين رغم جهوده الفردية غير المؤسسة.

2-عينة الدراسة: نقصد بالعينة جزاء صغيرا مختارا بعناية من مجتمع الدراسة لصعوبة إجراء التحليل عليه كاملا. وفي هذه الدراسة وقع اختيارنا قصديا على مجموعة من الحلقات المصورة للداعية حمزة مايت بما يتناسب ومقتضيات الدراسة وكذا ضيق الوقت، كما أنها متاحة ومتوفرة على شبكة الإنترنت، يوضحها الجدول رقم1.

جدول رقم (01) يوضح عينة الدراسة ورو ابطها على موقع اليوتيوب

الحلقات	رو ابطها
الحلقة 1	https://www.youtube.com/watch?v=vcED0bGAdOs
الحلقة 2	https://www.youtube.com/watch?v=5xAYU7cdh-U
الحلقة 3	https://www.youtube.com/watch?v=oQeTEKZBEd4
الحلقة 4	https://www.youtube.com/watch?v=hoSio-hdOaw
الحلقة 5	https://www.youtube.com/watch?v=ikvU32IBtYM&t=203s

سابعا-فئات التحليل ووحداته:

وهي التصنيفات التي سنجزئ على أساسها المادة التي سنقوم بتحليلها، وتقسم فئات تحليل المحتوى إلى نوعين: فئات تدور حول المحتوى أو المضمون وتصاغ في سؤال ماذا قيل؟ وهي فئة الموضوعات والأهداف والجمهور...، وفئات تصاغ في سؤال كيف قيل؟ وهي فئة القوالب الفنية والأساليب الاقناعية واللغة المستخدمة وغيرها.

ثامنا -وحدات العد والقياس:

وهي وحدات المحتوى التي يمكن اخضاعها للعد والقياس بسهولة ويعطي وجودها أو غيابها أو إبرازها دلالات تفيد الباحث في تفسير النتائج الكمية". (عبد الحميد محمد، 2010، ص135)، وقد تم الاعتماد على وحدة الفكرة والموضوع والكلمة وتتبع تكرار ظهورها في الفئات الشّكل والمضمون.

تاسعا -عرض وتحليل نتائج الدراسة التحليلية:

يتضمن هذا الجزء من الدراسة وعرض وتحليل وتفسير نتائج الدراسة التحليلية، لنتمكن من الوقوف على الموضوعات الدعوية والأهداف التي سعى حمزة مايت إلى تحقيقها.

أولاً-النتائج المتعلقة بفئة المضمون ماذا قيل؟

1-فئة الموضوعات:

يبين الجدول رقم (02) فئة الموضوعات في البرنامج عينة الدراسة:

الموضوعات	التكرارات	النسب %
الموضوعات العقدية (الإيمان بالله الرسول الكتب...)	16	34.78
الموضوعات التشريعية (العبادات الأحكام الشرعية ...)	06	13.04
الموضوعات الأخلاقية (القيم الآداب ....)	06	13.04
الموضوعات العلمية (الإعجاز العلمي في القرآن...)	02	4.34
الموضوعات الاجتماعية (المعاملات، العلاقات ..)	05	10.86
موضوعات تاريخية (السيرة النبوية والأنبياء، الفرق الإسلامية)	09	19.56
موضوعات أخرى	02	4.34
المجموع	46	100

يبين الجدول رقم 02 فئة الموضوعات التي ركز عليها الداعية دارن مايت في تحسين صورة الإسلام والمسلمين لدى المدعوين الغربيين، حيث كان تركيزه بالدرجة الأولى على الموضوعات العقدية المتعلقة بالإيمان بالله والملائكة والرسل والكتب وغيرها وهذا أمر طبيعي لأنه يدعوا إلى اعتناق دين التوحيد وأن كل الذين تحاور معهم إما يهود أو نصارى أو ملحدين وذلك بنسبة 34.78% في حين حازت الموضوعات التاريخية على نسبة 19.56% وهي الموضوعات التي تناولت سيرة الأنبياء والمرسلين جميعا خاصة نبي الله عيسى وموسى ومحمد صلوات الله عليهم جميعا، لتتساوى الموضوعات التشريعية والأخلاقية بنسبة 13.04% والتي ركز من خلالها حمزة مايت على التعريف بأحكام الإسلام وشرائعه وبيان يسرها وسهولتها

وكيف تكون قربة لله تعالى في زخم الحياة المادية المتسارع، في حين ناقش في الموضوعات الأخلاقية أهم القيم التي يدعو إليها الإسلام وتعتبر جزءا منه ولا يكتمل الدين إلا بها كبر الوالدين والإحسان لهما وغيرها.

في حين حازت الموضوعات الاجتماعية التي تتناول العلاقات والمعاملات على نسبة 10.86%، تطرق فيها إلى الكثير من أنواع المعاملات خاصة الربوية منها وخطرها على المجتمع لما تلحقه من أضرار مادية واجتماعية بالمتعاملين به، وأنها سبب الكثير من الأزمات الاقتصادية العالمية لذلك هي محرمة في الدين الإسلام، أما العلاقات في الإسلام فيجب أن تكون مبنية على احترام الكبار وتوقير الصغار والبر والإحسان للمؤالف والمخالف في الدين، وأن كل ما ينسب للمسلمين من عنف هو راجع إلى تحريض ضدهم أو فهمهم الخاطئ للدين في حين رتبت الموضوعات العلمية والموضوعات الأخرى في الترتيب الأخير بنسبة 4.34%، والتي تم من خلالها طرح بعض قضيا الإعجاز في القرآن الكريم والسنة النبوية كأدلة على حجية السنة والقرآن وصلاحهما لكل مكان وزمان.

2-فئة الأهداف:

يبين الجدول رقم (03) فئة الأهداف في البرنامج عينة الدراسة

الأهداف	التكرارات	النسب %
تعريف الناس بالإسلام الصحيح من خلال مصادره الحقيقية	**07**	**12.06**
دفع كل أنواع الشبه عن الدين الإسلامي	**10**	**17.24**
التقديم معلومات صحيحة ودقيقة عن الدين الإسلامي	**09**	**15.51**
الدعوة إلى اعتناق الدين الإسلامي	**10**	**17.24**
بيان تسامح الإسلام والمسلمين والذود عنهم	**05**	**8.62**
تفنيد القول بأن الإسلام دين قتل ودموية وإرهاب	**13**	**22.41**
بيان أن الإسلام دين مساواة ونبذ للعنصرية	**03**	**5.17**
أهداف أخرى	**01**	**1.72**
المجموع	**58**	**100**

يبين الجدول رقم 02 نتيجة مهمة مفادها سعي الداعية دارن مايت إلى تحقيق جملة من الأهداف بغية تغيير الصورة النمطية للغرب حول الإسلام، حتى وإن لم يعتنق هؤلاء الأشخاص الدين الإسلامي إلا أنهم يتعرفون عليه بالطريقة الصحيحة عكس ما تروج له وسائل الإعلام الغربية، ولذلك كان أكثر هدف ركز عليه هو تفنيد القول بأن الإسلام دين قتل ودموية وإرهاب لأنها الصورة القاتمة التي أصبحت وسما للإسلام والمسلمين اليوم جراء ما نسب للإسلام زورا وما اقترفته أيدي بعض المتعصبين والمتطرفين وذلك بنسبة 22.41%، في حين رتب هدفي دفع كل أنواع الشبه عن الدين الإسلامي والدعوة إلى اعتناق الدين الإسلامي في الترتيب الثاني بنسبة 17.24% إذ حاول دارن مايت تفنيد الكثير من الشبه التي علقت بالإسلام كالزنا واستباحة الأطفال والنساء والتجارة بهم وبيعهم، كما كان يدعو في أحيان كثيرة إلى اعتناق الدين الإسلامي لمن وجد لديه استعدادا لذلك.

أما هدف التقديم معلومات صحيحة ودقيقة عن الدين الإسلامي فقد حاز على نسبة 15.51% ورتب في الترتيب الثالث إذ سعى من خلاله إلى تقديم معلومات مستسقاة من المصادر الحقيقة للدين الإسلامي كالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وغير ذلك من آراء العلماء وأقوالهم، ليكون بذلك متقاربا مع هدف تعريف الناس بالإسلام الصحيح من خلال مصادره الحقيقية الذي حاز بدوره على نسبة 12.06%.

في حين أن هدف بيان تسامح الإسلام والمسلمين والذود عنهم حاز على نسبة 8.62%، وهدف بيان أن الإسلام دين مساواة ونبذ للعنصرية في الترتيب مت قبل الأخير بنسبة 5.17 % أما الترتيب الأخير فقد كان لأهداف متنوعة أخرى بنسبة 1.72 %

3-فئة الجمهور المستهدف:

يبين الجدول رقم (04) فئة الجمهور المستهدف

الجمهور	التكرارات	النسب %
جمهور مسلم	00	00
جمهور مسيحي	02	20
جمهور يهودي	02	20
جمهور ملحد	05	50
جمهور آخر	01	10

المجموع	10	100

يتضح من خلال بيانات الجدول رقم 04 أن أغلب الجمهور المستهدف هم الملحدون وذلك لأنهم يمثلون غالبية الأشخاص الذي تحاور معهم حمزة مايت إذ بلغت نسبتهم 50%، ويتساوى المسيحيون واليهود بنسبة 20%، أما الجمهور المسلم فقد حظي بنسبة 00% وهي نسبة منعدمة لأنه ليس المستهدف من هذه الدعوة إلا في بعض الإشارات، أما الجمهور الآخر فقد حاز على نسبة 10% ونقصد به ما كان يطلق عليه حمزة مايت جمهوري خلف الكاميرا أو المتابعين خلف الشاشات على اختلاف أديانهم وعرقياتهم وأجناسهم وأعمارهم.

ثانياً-النتائج المتعلقة بفئة الشكل كيف قيل؟

1-فئة الأساليب الإقناعية:

تنوعت الأساليب الإقناعية في عينة الدراسة فمنها العقلي ومنها العاطفي، وقد صنفناها في الجدولين رقم (05) و(06) بناء على تصنيفات المتخصصين والباحثين ككتاب الإعلام والدعاية لعبد اللطيف حمزة، ودراسة الأساليب الإقناعية في قناة هدى الفضائية للباحثة فيروز بوزيدة.

أ-فئة الأساليب الإقناعية العقلية:

يبين الجدول رقم (05) فئة الأساليب الإقناعية العقلية في البرنامج عينة الدراسة

الأساليب الإقناعية العقلية	التكرارات	النسب %
الاستدلال بالقرآن الكريم والسنة النبوية	11	15.06
الحوار برفق	04	5.47
أقوال العلماء والمفكرين	01	1.36
الأمثلة المنطقية والو اقعية	16	21.91
الدراسات العلمية والاحصائيات والأرقام	05	6.84
تقديم معلومات وحقائق تاريخية	14	19.17
التساؤل والتوقع	11	15.16

التكرار والاستمرار	06	8.21
سرد أحداث شخصية	05	6.84
المجموع	73	100

يتضح من خلال الجدول رقم 05 أن أكثر هدف ركز عليه الداعية دارن مايت هو الأمثلة المنطقية والواقعية بنسبة بلغت 21.91%، وذلك راجع لالتزام الحياد والموضوعية وكذا التحيز كونه مسلما، أما الأسلوب العقلي الثاني الذي استخدمه هو تقديم معلومات وحقائق تاريخية بنسبة 19.17%، لأنه يعتبر من أحسن الأساليب العقلية لإقناع المخالفين وذلك راجع كذلك لتكوينه المعرفي في فترة ما قبل إسلامه وما بعده، كما تم استخدام أسلوب التساؤل والتوقع بنسبة معتبرة قدرت ب 15.16%، أما أسلوب الاستدلال بالقرآن الكريم والسنة النبوية فقد حاز نسبة 15.06%، حيث استدل بالنصوص الشرعية في المواقف التي تحتاج تدعيم رأيه أو نفي شبهة عن الإسلام، خاصة في المواقف التي تتعلق بالقتال والجهاد ويوم الحساب وبر الوالدين وغيرها.

تم استعمال أسلوب التكرار والاستمرار بنسبة قليلة مقارنة بالأساليب السابقة حيث حاز على 8.21%، ونقصد به هنا تكرار مقولة أو موقف أو فعل معيناً والتركيز على فكرة بذاتها لترسيخا لدى المتلقي أو المحاور.

في حين تساوى أسلوبي الدراسات العلمية وسرد أحداث شخصية بنسبة 6.84%، وتلاهما أسلوب الحوار برفق بنسبة 5.47%، في حين حاز أسلوب أقوال العلماء والمفكرين على أقل نسبة قدرت ب 1.36%، وذلك راجع في تقديرنا إلى تقديم أصول الدين من مصادره الأصلية قبل الرجوع إلى أقوال العلماء بالرغم من قناعته بأهمية رأي العالم في أمر ما، وقوله أن العالم في الشرع رجل أفنى عمره في دراسة شيء ما فمن غير المعقول أن نكون أفهم منه في تخصصه.

ب-فئة الأساليب الإقناعية العاطفية:

بين الجدول رقم (06) فئة الأساليب الإقناعية العاطفية في البرنامج عينة الدراسة

الأساليب الإقناعية العاطفية	التكرارات	النسب %
استخدام الأساليب اللغوية	06	22.22

توظيف الترهيب والترغيب	05	18.51
تقديس الأشخاص وتعظيمهم	03	11.11
جس النبض	02	7.40
أسلوب الاستعطاف والاستهجان	05	18.51
أسلوب تجريم الخصوم	04	14.81
أساليب أخرى (التمثيل)	02	7.40
المجموع	27	100

يوضح الجدول نتيجة مهمة مفادها أن أكثر الأساليب الإقناعية العاطفية استخداما من قبل الداعية دارن مايت هو استعمال الأساليب اللغوية بكثرة حيث حازت أعلى نسبة قدرت ب 22.22%، لأنها أحسن الأساليب الحجاجية التي يتم من خلالها عرض البراهين والأدلة بطريقة يصعب تفنيدها. كما استخدم أسلوبي الترهيب والترغيب وأسلوب والاستعطاف والاستهجان بنسبة متساوية قدرت 18.51%، فالأول كان استخدامه بكثرة في عرض الآيات القرآنية وشرحها حيث يعتبر من أبرز الأساليب شيوعا في القرآن، وأسلوب الاستهجان فكان للنفور من الأفعال الشنيعة التي يرتكبها غير المسلمين من شرب للخمر وانحراف وقتل للأبرياء وإبادة جماعية وغيرها على عكس المسلم الملتزم بتعاليم الإسلام الحقة فإنه يكون بعيدا كل البعد كل ما هو شنيع مستهجن.

في حين استعمل أسلوب تجريم الخصوم وشيطنتهم بنسبة 14.31% خاصة في مواضع الحديث مع اليهود حول ما يرتكبونه في فلسطين بدعوى الحق الديني في فلسطين، وما يقومون به من انتهاكات في حق العزل والمدنيين. ويليه في الترتيب الرابع أسلوب تقديس الأشخاص وتعظيمهم بنسبة 11.11% والذي كان مستخدما في تعظيم شخص النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم جميعا وذكر صفاتهم وما كانوا عليه من أخلاق عالية.

كما حاز أسلوبي جس النبض وأساليب أخرى غير المذكورة ما نسبته 7.40%، إذ استخدم جس النبض لمعرفة موقف بعض الذين تحاور معهم في مواضيع معينة، أما الأساليب الأخرى فنقصد بها التمثيل التنكيت وغيرها.

2-فئة اللغة المستخدمة:

بين الجدول رقم (07) فئة اللغة المستخدمة في البرنامج عينة الدراسة

اللغة المستخدمة	التكرارات	النسب %
إنجليزية	06	75
عربية فصحى	02	25
المجموع	08	100

اللغة المستخدمة في حوارات ولقاءات دارن مايت هي اللغة الإنجليزية إلا ما كان منها في موضع قراءة آية قرآنية أو ذكر لله تعالى الذي لا يكون إلا باللغة العربية، لذلك نجدها حازت على أكبر نسبة قدرت ب 5.62% حين شكلت اللغة العربية ما نسبته 37.5%.

ثانياً: نتائج الدراسة التحليلية:

خلصت هذه الدراسة إلى عدة نتائج منها:

-جهود الداعية دارن مايت جهود فردية تعمل على تحسين الصورة النمطية التي شكلها الغرب حول الآخر المسلم، حيث انشغل بتصويره وتحديد ملامحه وتحليله وتقديم دراسات فورية عنه، الأمر الذي قد جعله في ظنهم معلوما (ادوارد سعيد، ص29).

-ركز الداعية دارن مايت على الموضوعات العقدية لأنها أساس الدين في الإسلام وهو يدعو لها باعتبار جمهوره مخالف للدين فمنهم اليهود والنصارى والملحدون.

-الهدف الأسمى الذي سعى الداعية دارن مايت إلى تحقيقه هو تفنيد القول بأن الإسلام دين قتل ودموية وإرهاب، كما حاول دفع كل أنواع الشبه عنه وتعريفهم بالإسلام الصحيح من خلال مصادره الحقيقية.

-جمهور الداعية دارن مايت متنوع فمنهم اليهود والنصارى والملحدون، ولكن أغلبه هم الملحدون.

- نوع الداعية دارن مايت في الأساليب الاقناعية فمنها العاطفي ومنها العقلي فغلب على الأساليب العقلية منها الأمثلة المنطقية والواقعية وكذا تقديم معلومات وحقائق تاريخية، أما العاطفية فقد أكثر من استخدام الأساليب اللغوية.

-اللغة المستخدمة في حوارات دارن مايت كلها باللغة انجليزية إلا ما كان موضع ذكر للآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تكون باللغة العربية ويليها شرح باللغة الإنجليزية.

خاتمة

"مع كل ما طال الإسلام من تشويه فإن الأغلبية تتفق على اعتبار الإسلام كبش الفداء الذي تنسب إليه كل ما يتصادف أن يكره في الأنساق السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة في عالم اليوم، فاليمين يرى أن الإسلام يمثل الهمجية، واليسار يرى أنه يمثل حكم الدين في القرون الوسطى، والوسط يرى أنه يمثل الغرابة المموجة "(ادوارد سعيد، ص37).

وفي مواجهة هذا السيل العرم من الحقد والكراهية تبقى جهود الأفراد والمؤسسات المسلمة العاملة على تحسين صورته وتقديم الإسلام للعالم من خلال مصادره الحقة ضئيلة جدا وغير قادرة على مواجهة هذا الزخم الإعلامي ومراكز البحث التي يسيطر عليها الغرب.

توصيات:

- تحويل الجهود الفردية العاملة على تحسين صورة الإسلام والمسلمين إلى عمل جمعوي مؤسس يتحلى بالنظام والانضباط والتأصيل الشرعي لكل ما يتطرق إليه.
- عقد مؤتمرات علمية مكملة لهذا المؤتمر وداعمة له، كما يتم طبع أعمال هذا الملتقى ونشرها عبر قناة متخصصة في اليوتيوب تعنى بخدمة الإسلام والمسلمين وخاصة الأقليات المضطهدة داخل المجتمعات الغربية.

قائمة المصادروالمراجع:

- ابن منظور، لسان العرب، دت، بيروت لبنان، دار صادر، ج15،
- إدوارد، سعيد، **تغطية الإسلام**، 2006، القاهرة، مصر، رؤية للنشر، ط1.
- حجاب، محمد منير، **أساسيات البحوث الإعلامية والاجتماعية**، 2002، القاهرة، مصر، دار الفجر للنشر والتوزيع.
- صيني، سعيد اسماعيل، **قواعد أساسية في البحث العلمي**، 1994، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة، ط1.
- عبد الحميد، محمد، **تحليل المحتوى في بحوث الإعلام**، 2010، القاهرة، مصر، دار عالم الكتب، ط1.
- عبد الحميد، محمد، **تحليل المحتوى في بحوث الإعلام**، 2009، جدة، دار ومكتبة الهلال، دط.

- عبيدات محمد، وآخرون، **منهجية البحث العلمي، القواعد والمراحل والتطبيقات**، 1999، عمان، الأردن، دار وائل للنشر، ط2.

ماذا فعل السياسيون في الداخل لتصدير صورة شعوبهم إلى الخارج ؟

What did the politicians inside to export the image of their people to the outside?

د. ناصري زواوي، جامعة محمد بن أحمد، وهران 2، الجزائر
nasrizouaoui@yahoo.fr



ترتبط صورة المسلم في الغرب ارتباطا وثيقا بالإرهاب، وهذا كان نتيجة ظروف اجتماعية صعبة أفرزتها الأوضاع السياسية القائمة، و قد استغل الغرب نزول الشعوب العربية إلى الشوارع للمطالبة بتغيير تلك الأوضاع فقاموا بخلق معارضات متطرفة بهدف إسقاط الأنظمة السياسية القائمة من جهة، و تحويل المسلم إعلاميا إلى آلة للقتل من جهة أخرى.

والدراسة هذه هي عبارة عن بحث اجتماعي وصفي يهدف إلى تسليط الضوء على طبيعة الفكر السياسي في بلداننا العربية، و على حجم المشاكل الاجتماعية و علاقتها بصورة المسلم في الخارج. وقد خلصت الدراسة إلى أنه لابد على السياسي أن يعمل على الاستثمار الجيد في الموارد الطبيعية و البشرية، و تحقيق العدالة الاجتماعية، وأن يحقق الحرية والاستقلالية لكل المؤسسات بما فيها الإعلامية و القضائية.

الكلمات المفتاحية: السياسة، الاقتصاد، الثقافة، الفقر، الإسلام.

Abstract :

The image of Muslims in the West is closely linked to terrorism, and this was the result of difficult social conditions created by the existing political situation, and the West took advantage of the descent of Arab peoples into the streets to create extremist oppositions with the aim of overthrowing existing political regimes, and even transforming the image of the Muslim into a killing machine. This study is descriptive social research aimed at highlighting the nature of political thought in our Arab countries, and the magnitude of social problems and their relationship to the image of Muslims abroad. The study concluded that a politician must make good investments in natural and human resources, achieve social justice, and achieve freedom and independence for all institutions, including the media and the judiciary.

Keywords: Politics, Economics, Culture, Poverty, Islam.



مقدمة :

كثيرةٌ هي صورُ المآسي التي تُعلنها و بشكلٍ دوري الصحف والقنوات التلفزيونية الغربية عن مسلم اليوم، المسلم الذي رُبطت صورته بعيدا عن الحضارة، المسلم الذي لخَّص حسبهم كل معاني الدونية جراء الحياة التي يعيشها في وطنه الأم، والتي جعلت كلمة الإسلام مرادفة لكلمة الإرهاب التي هي وليدة الأجهزة المخابراتية الغربية التي كانت تسعى للاستحواذ على خيرات الشعوب العربية بعد تهجيرها، فَعُومِلَت هذه الشعوب بأساليب مبالغ فيها من التطرف و العنصرية، حتى أصبح مسلم اليوم لا يستطيع أن يعيش حياةً طبيعية في البلدان التي هاجر إليها (رغم أن هجرته لم تكن سوى بحثا عن آليات لتحسين ظروفه المادية) دون أن ينظر إليه على أساس أنه جزء من تلك الثقافة المشوهة التي تسمح للمسلم من قتل أخيه المسلم.

نهدف من خلال هذه الدراسة أن نسلط الضوء على الأسباب العميقة التي ساهمت في تشكيل صورة المسلم لدى الغرب و ليس فقط النتائج و التداعيات، الأسباب التي نعتقد أن الممارسة السياسية تتحمل جزء كبير في صناعتها، و لذلك ستكون معالجتنا للموضوع انطلاقا من الإشكالية التالية: **كيف ساهمت ممارسات السياسي في تشكيل وتسويق صورة المسلم لدى الغرب ؟**

أولا- صورة السياسي في الخارج:

الحديث عن السبل التي من خلالها يمكننا تحسين صورة أوطاننا العربية في الخارج ربما تختلف حسب التجارب التي عاشها كل واحد منا، بحيث قد نختلف في الرؤى لكن نلتقي في قضية أنه يجب تشريح الواقع الذي نعيشه كمنطلق تقوم على أساسه أي محاولة لتحسين أحوالنا الداخلية حتى تتغير نحو الإيجاب صورتنا لدى الآخر.

فالحديث عن مجتمعاتنا العربية في هذا القرن يقودنا إلى ملامسة حقيقة ما يجري داخل هذه المجتمعات على كل الأصعدة خاصة منها السياسي، الاقتصادي وحتى التعليمي والثقافي، وذلك بسبب انعكاسها المباشر على الحياة الاجتماعية للفرد والجماعة، فلا يكاد يوجد مجتمع عربي اليوم يخلوا من الاهتزازات التي تمسه على هذه المستويات بوجه خاص.

لم نستطع أن نسوق للغرب و لا نموذجا سياسيا واحدا وليد التجربة العربية، يكون خاليا من التزوير أو التمليك أو الانقلاب على صوت الشعوب، بحيث نجد و نلاحظ أن كل ما يطبع ممارساتنا السياسية إلا و لها علاقة بالولاء و التبعية، و صناعة الأجهزة المكملة للعبة السياسية من أحزابٍ و جمعيات، وقد نجحت السلطة الجزائرية "مثلا" إلى حد بعيد في ممارساتها السياسية و هي تلبس رداء القومية و التحرر حتى صنعت لنفسها منظرين استأجرتهم مثلها مثل غالبية الأنظمة العربية آنذاك بما تغدِقهُ عليهم من مناصبَ و وَجاهةٍ، أو تفتحُهُ أمام أعينهم من سجونٍ و معتقلات، فتحوِلُهم سريعا إلى أدوات طَيِّعَة تتفانى في تبرير الممارسات السياسية البائسة للأنظمة العربية (**الطاهر عبد الله، 1979، ص09**).

الفكر السياسي في البلدان العربية لا يزال يتملكه الشغف بالجلوس مطولا على الكرسي، ثم صناعة السلطة و امتلاكها، وأحيانا صناعة القوانين التي يمرون من خلالها و بدون سابقة حساب، فكثيرة هي التغييرات التي مست دساتير الدول العربية في فترة زمنية وجيزة جدا في محاولة لصنع واحدٍ على المقاس، ليس مقاس الشعوب طبعا وإنما مقاس الرئيس، كل ذلك يحدث على مرأى و مسامع أجهزة الإعلام الغربية، فأي صورة استطاع أن يسوقها السياسي العربي إلى الغرب في ظل الانتشار الواسع للممارسة الديمقراطية فيها (الغرب).

ما يميز الدول العربية هو أنها تمتلك مقومات مادية طبيعية "بترول، سياحة، معادن، شريط ساحلي، قوة شبانية"، زائد المنطقة الجغرافية الواحدة التي استطاعت توحيد هذه الدول، زائد اللسان الواحد الذي يسمح لأي فرد من التنقل بين هذه البلدان و بدون قيد يذكر، لكن ذلك لم يتحقق ولن يتحقق مادامت العداوة موجودة بين النخب السياسية، الإطارات التي لم تصنعها الشعوب بقدر ما صنعتها الأنظمة الغربية لتفتيت المنطقة والاستحواذ على مؤهلاتها بأبخس الأثمان.

وفعلا فقد نجحت الأنظمة الغربية حين ساهمت في صناعة السياسي في تلك الدول، لأنه كان أشد حرصا من الغرب على القضاء على معالم التقدم في بلده، فطُمِست الثقافة، وطمس معها العلم والتربية، وذهبت الأخلاق خاصة على المستويين السياسي والاقتصادي، وجُوِّعتِ الشعوب، واتسعت رقعة الفساد والتزوير، وهُجِّرتِ الأدمغة و الكفاءات، وسُجنت المعارضة، وضعُفَ حس المواطنة لدى الغالبية.

الضغط الذي عاشته الشعوب العربية أنتج حالةً من الإغتراب، سعت للوصول إليها كثيرا الأنظمة الغربية قصد الإستثمار فيها، فاستُقطِبت كل الأصوات المعارضة للتأسيس فيما بعد لما عرف بالربيع العربي، بهدف تسهيل الدخول إلى البلدان العربية مجتمعةً طمعا في مواردها الطبيعية.

لقد مثل المشهد العام في البلدان العربية مشهد الكعكة التي طالما حلم الغرب بتقسيمها مناصفة، وقد لعبت وسائل الإعلام الغربية دورا بالغا في التمهيد لذلك، مستعطفة شعوبها بأن العربي اليوم يمثل عبئً على الحركية التي يشهدها العصر، ولا يمكنه التطور في ظل الأنظمة التي حكمته، وأنه عاجز على مواكبة التغييرات مما يوجب تحريره لإسماع صوته، وقد تحركت لأجل ذلك أيضا المنظمات الحقوقية العالمية.

الذي يهمنا في هذا العرض ليس نظرة الغرب لمجتمعاتنا العربية، أو كيف حاولت الدخول وصناعة الإرهاب بيننا، بل هو الحالة التي ساهم أبناء جلدتنا في صناعتها، هو الوضع السياسي العفن الذي أنتجته الأنظمة السياسية التي عرفتها بلداننا العربية، ففي الجزائر مثلا قد تم اغتصاب الدستور لأكثر من مرة في عهد الرئيس المخلوع عبد العزيز بوتفليقة، و ليس لأي هدف تنموي أو مجتمعي أو حضاري، بل وفقط

حتى تستطيع بعض الأطراف النافذة من الاستمرار في الحكم و تصدير خيرات ومقومات هذا الشعب للخارج.

الذي يهمنا هو الصورة التي أخذها عنا الغرب، والتي ساهم السياسي في بلورتها، شعوب تنام على البترول و دائرة الفقر فيها في اتساع رهيب، فالصورة التي استطاعت أن تصل مسامع الغربيين تتلخص في كوننا عاجزين عن التغيير في بلداننا، ولا نستطيع تحقيق أي تنمية، هي صورة تتجاوز الأطروحات التي ألصقت كل شيء في العامل الديني، لأن أصحابها كمصطفى الأشرف مثلا في كتابه "**الجزائر الأمة والمجتمع** " يرى بأن المؤرخين لتاريخ الجزائر يرون أن الشعور الديني (أو التعصب الإسلامي حسب زعمهم) هو وحده الذي جعل الشعب الجزائري يلتف للدفاع عن قضيةٍ تُعتبرُ روحيةً أكثرَ مما تعتبرُ قومية (**مصطفى الأشرف، 2007،ص 47**).

محنتنا لا تتعلق بالدين فقط، لأنه حتى ولو استطاع رجل الدين و بفعل فاعل من أن يعطي صورة عن المسلم الذي يذبح أخاه المسلم، و هي الصورة التي اعتمدت عليها الأجهزة المخابراتية الغربية في الدخول لهذه البلدان، إلا أن المهم هو الصورة التي أخذها عنا الغرب بكامل مكوناته أيضا، وهي الصورة التي استطاع رجل السياسة والاقتصاد من صناعتها وتصديرها للخارج أيضا، صورة التزوير في الانتخابات والانقلاب على صوت الشعوب، صورة سرقة أموال الشعوب لشراء العقارات في دول غربية وتكديسها رفقة الذهب في بنوك سويسرا، صورة بيع خيرات و مستقبل تلك الشعوب بالدينار الرمزي لمافيا المال الفاسد، و هو ما ساهم في جعلها تسعى فيما بعد للسيطرة على الحياة الاقتصادية وذلك في غياب الوعي وتبلور الطبقات الاجتماعية (**عبد العالي دبلة، 2004، ص10**).

فصورة المسلمين لدى الغرب تستطيع أن تتجاوز إشكالية الدين بالنسبة إلينا لأن مشاكلنا عميقة ومتعددة وكل الحلول كانت عقيمة أيضا، فالسلطة في الجزائر مثلا لم تتشكل بعد الاستقلال إلا بعد سلسلة من الانقلابات والتضحيات التي قام بها السياسي، لأنَّ حراكَ ما تحت البروليتاريا والمزارعين لم يستجب لمثل هذه الطموحات و الآمال (**عبد العزيز راس مال، 1993، ص131**)، لأن عامة الشعب كان يبحث عن أبسط حقوقه المعيشية و فقط عكس الفئة التي تلقت تعليما في المدرسة الفرنسية، كما أنه ومباشرة بعد 5 جويلية يوم الاستقلال عرفت جبهة التحرير الوطني أزمةً حادة كادت أن تعصف بالجزائر في حرب مدمرة لا نتيجة منها (**عمورة عمار، 2002، ص210**) ، وذلك بسبب التكالب على السلطة، و قد حدث ذلك تحت مرأى الغرب كذلك، و لم يكن الإسلام هو الفاعل، لأن الإحالة إلى قيم الإسلام لم تكن مُعاشة إطلاقا في مجال السياسة بل في مجال الأخلاق والسلوك الثقافي (**غازي حيدوسي، 1997، ص.ص 6-7**).

لقد قمنا بتسويق عدة صور عنا للخارج، حتى أصبح الغرب أدرى بحالنا من ساستنا، فهم اعتمدوا على مختلف الأدوات العلمية والمنهجية لدراسة الحالة التي نعيشها، بينما النخب السياسية التي حكمتنا

بنت قراراتها على التقارير الارتجالية المغلوطة في كثير من الأحيان التي كانت تصلهم، و بين مخابر العلم التي كان يعتمد عليها الغرب لتنفيذ مخططاتهم، وجلسات القهوة و الشواء التي كان يعتمد عليها مسؤولينا لصناعة مستقبل بلداننا، وجدنا أنفسنا اليوم أمام صورة سلبية في أذهان الآخر، لا يمكن تجاوزها نظرا للأثر الحرج الذي خلفته على المستويين الاقتصادي والاجتماعي، والأرقام التي بتنا نتذيلها في مختلف التصنيفات العالمية لدليل على حجم الصورة السلبية التي سوقناها للطرف الآخر.

ثانيا-انعكاس الفقر على صورة المسلم في الخارج:

حديثنا في هذا الجزء متعلق بالفقر في الوطن العربي، الفقر الذي تسبب فيه الفساد السياسي، الفساد الذي لا يشبه نظيره الموجود في الدول الغربية لأنه يقف عائقا أمام كل أشكال التنمية، بل ويتجاوز ذلك حين يكون سببا في تحويل الأموال الموجهة إلى التنمية إلى وجهات مشبوهة تتجاوز الحدود الجغرافية.

فأوطاننا ليست أراضي جرداء مثلما هي عليه أراضي أخرى من العالم، بل هي غنية أحيانا بموارد طبيعية تفتقر إليها بعض الدول العظمى، لكن الفساد السياسي الذي أشرنا إليه سابقا هو ما ساهم في اتساع رقعة الفقر في البلد مشكلا حالة اجتماعية صعبة باتت تؤرق حياة المواطن في بلده، ولعل مفهوم الفقر هنا يتغير حسب طبيعة كل مجتمع، إلا أننا سنأخذ بتعريف الماركسيين له على أنه نتاج الصراع بين الطبقات الثرية و الفقيرة، إذ تبحث الأولى عن زيادة أرباحها من خلال استغلال طاقات الطبقة الفقيرة وتسخيرها لخدمتها، هذا الصراع مرده إلى عدم تحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية التي تولد قيما متصارعة بين الطبقتين (**عمر معن خليل، 1998، ص 192**).

إن مسألة الفقر تُطرحُ من عدة جوانب في بلداننا، ففي بلد بترولي كالجزائر مثلا نرجعها لغياب العدالة الاجتماعية، لأنه منذ فترة غير بعيدة ظهر أثرياء جدد سمحت لهم بعض الظروف السياسية المعينة من البروز و بقوة، مستفيدين دون غيرهم من الريع البترولي، مما سمح لهم من اقتناء العقارات في بلدانهم وبلدان أخرى من العالم، والقيام بإدخال أبنائهم في أرقى الجامعات و المدارس العالمية، ومن التداوي في أكبر المستشفيات الغربية، و هو الأمر الذي ساهم في التأسيس لصورة سلبية عن واقع المعيشة في الجزائر، و عن غياب الوطنية في صورة الحاكم المسلم نتيجة بعده عن الأخلاق الدينية.

تلك الصورة استطاعت لوحدها خلق أسلوب حياة جديد في الدول العربية و منها الجزائر، صورة جعلت أسلوب حياة عامة الناس يتميز بعدم المشاركة في عملية البناء داخل الأنظمة الاجتماعية الأساسية في الدولة، وذلك بسبب تغييب المواطن عن المشاريع التنموية الحقيقية من جهة، ومن جهة ثانية نظير الخدمات الاجتماعية الهشة التي تقدمها الدولة للعامل البسيط مقابل الاقتطاع الضريبي الشهري الذي أنهك كاهله، وهو ما ساهم في إشعال فتيل الاحتجاجات العمالية و الإضرابات و جعلِها في

تزايُدٍ مستمر للتعبير عن ضعف القدرة الشرائية للعامل، والذي كلما خرج للشارع للتعبير عن انشغالاته إلا و قُوبل بأجهزة الدولة الأمنية و القضائية وحتى الإعلامية، وهو ما جعل بعض النقابات تستنجد ببعض التنظيمات العمالية و الحقوقية العالمية "الكافرة" للضغط على المسؤولين "المسلمين" داخل البلد، وهو ما نعتقد بأنه ساهم أيضا في تسويق صورة سلبية للخارج عن ضعف صورة المواطن إن لم نقل غيابها في فكر رجل السياسة في البلد، كون أن هذا الأخير يشتغل وفق مبدأ ما سماه البنك الدولي بإساءة استعمال الوظيفة العامة للكسب الخاص (**التنير سمير، 2009، ص 15**).

لقد تجاوزنا في بلداننا إشكالية فقر المجتمعات إلى فقر الأفراد، فالأوطان مملوءة بالخيرات المادية واليد العاملة، إلا أن اللاعدالة التي مست كل الجوانب خاصة ما تعلق منها بتوزيع الثروة، المعرفة والتكنولوجيا، اتخاذ القرار الذي بقي في يد أقلية تحاول كل مرة فرض ثقافتها و هيمنتها على الأغلبية هو ما أسس للحالة الاجتماعية التي بات يعيشها الأفراد في وسط أوطانهم الغنية طبيعيا.

الانتقال من إشكالية فقر المجتمعات إلى فقر الأفراد لا يجعلنا نتوقف عند ما تم تقديمه على أنه غياب للعدالة الاجتماعية وفقط، بل هو نتيجة حتمية لمحاولات القطب الواحد "أمريكا" الهيمنة على مختلف الدول في العالم التي تراها مساهمة في تغذية اقتصادها، والتي تبعتها محاولات أخرى للدول الغربية لصناعة ممولين لها لإشباع رغبات شعوبها المادية، أين كان لإفريقيا نصيب من هذه الهيمنة التي وجدت من يدافع عنها من السياسيين المحليين خوفا من مشاهد العقوبات الاقتصادية و الحصار ومتابعة القادة ... التي تكررت في عدة دول من العالم، مما جعل قادة دول العالم الثالث يقدمون بلدانهم على طبق من ذهب للقوى الرأسمالية، مما نتج عنه استنزاف كبير لخيرات هذه الدول و تفقير شعوبها.

هذه الصورة كافية لوحدها في إذلال الغرب، لكن بما أن الآلة الإعلامية في صفهم رفقة التنظيمات الحقوقية العالمية، فقد تم خلق وصياغة تسميات مهذبة تخفي حالة الهيمنة هذه، ولعل أبرزها هو مصطلح "تحرير الشعوب من الأنظمة المستبدة" من أجل إزالة الأنظمة المعارضة و وضع أنظمة موالية للأنظمة السياسية الغربية، وبروز مصطلح "العولمة" الذي وجد لنفسه منظرين حتى داخل دول العالم الثالث، إذ يقول في هذا الصدد أحد الخبراء الاقتصاديين للبنك الدولي بأن الدول الآسيوية القليلة التي انتفعت من العولمة هي تلك التي أدارت العولمة بطريقتها، أما البلدان التي تضررت وهي الغالبية فهي التي أخضعت نفسها لأحكام الشركات الكبرى والمنظمات الاقتصادية الدولية، وهي المؤسسات المؤيدة للعولمة (**أماني غازي جرار،2019، ص272**).

لقد استطاعت الآلة الإعلامية وبالصوت والصورة من صناعة مشاهد إعلامية على النموذج الهوليودي تظهر فيها الشعوب المسلمة أنها شعوب متخلفة تعرقل التطور الذي يشهده العالم، وأنه ينبغي تحريرها من الأنظمة السياسية التي صنعتها، وبالتالي فقد أدى ذلك ولوحده إلى كسب تأييد شعوب الدول

الرأسمالية مقابل الصورة السلبية التي تم ترسيخها في عقولهم على أن الإسلام يشكل خطرا على أمن الشعوب ومستقبلهم، وأنه يجب العمل على اجتثاثه.

صورة مثل هذه يعرفها جميع السياسيين الغربيين و رجال الإعلام و المثقفون على أنها صورة خاطئة تم فبركتها لأهداف غير نبيلة، كما تعرفها كذلك و جيدا شعوب دول العالم الثالث، لكن الفقر الذي نجم عن التدخل الغربي في هذه الدول هو ما أسس لحالة من الانقسامات في المجتمعات المتخلفة للاستحواذ على السلطة، بين فريق يحاول أن يبقى تابعا و آخر يحاول تغيير الأوضاع، مما نتج عنه تطاحنات داخلية انتهت بإراقة الدماء أحيانا بفضل الأسلحة التي كانت توزعها القوى الإمبريالية وبالمجان على القوى المعارضة، وهو ما استغلته القوى الإعلامية الغربية لتحسين صورتها، وتبرير و تعزيز تدخلها في هذه الدول.

لقد ساهمت أنانية بعض الأطراف في الوصول إلى الحكم وما انجر عنها من ممارسات غير حضارية من تسويق صورة سلبية عن المواطن في تلك المجتمعات، إذ وفي ظل غياب وسائل الإعلام المحلية وعدم فعاليتها في صناعة المشهد الخارجي و التأثير نلاحظ الدور الذي تلعبه أقوى المحطات التليفزيونية العالمية، إذ مثلا و نحن اليوم نشهد حربا بين الروس وأوكرانيا نلاحظ كيف استطاعت وسائل الإعلام جعل رئيس روسيا **بوتين** في صورة الخارج عن القانون عالميا، رغم أن ما فعلته أمريكا، بريطانيا و فرنسا لم يفعل بوتين ثلثه، وعليه وفي ظل توفر القوى الإعلامية الغربية وصورة الفقر والتقاتل على السلطة في المجتمعات المتخلفة لم تستطع صورة المواطن المسلم من أن تجد مدافعا عنها في المحافل الدولية.

لقد استطاع الفقر المنتشر في بلاد المسلمين من خلق حركية جديدة لنقل الغضب إلى الشارع، وهو ما استثمرت فيها الأنظمة السياسية الغربية لإعطاء صورة مقيتة عن الحياة في بلاد المسلمين نتيجة الظلم المسلط عليهم من أنظمتهم، مما أدى في نهاية المطاف إلى تشويه صورة المسلمين في الغرب كذلك.

ثالثا- أثر التطرف على البناء المجتمعي:

قضية التطرف ليست قضية مجتمع دون غيره، فهي ظاهرة عالمية معروفة منذ القدم، صاحبت الإنسان عبر مختلف المحطات الدينية والاقتصادية والسياسية التي صاحبته، بل تجاوزت ذلك حين أخذت بعدا إيديولوجيا آخر، ومسألة التطرف قد لا يمكن التطرق إليها مثلما هي موجودة في الغرب على حد الاعتقاد، لأنه على المستوى العربي قد ساهمت في تغذيتها عوامل أخرى خاصة منها الفقر وتدني الأوضاع المعيشية بصفة عامة بسبب تبعية الأقلية الحاكمة للغرب كما أشرنا سابقا، وهو ما جعل الأغلبية المسلمة في هذه المجتمعات تتوحد فيما بينها عقائديا لتغيير الأوضاع المتردية، و هو ما أدى في نهاية المطاف و بمباركة غربية لإنتاج التطرف والإرهاب في البلدان المسلمة.

نتساءل هنا عن كيف استطاع المتطرفون المسلمون "الإرهاب" من صناعة صورة وترسيخها في عقول الشعوب الغربية، في مقابل مختلف المؤتمرات العلمية والندوات والأفلام والفيديوهات التي قدمها الباحثون والعلماء ورجال الدين و الإعلاميون في محاولة لتحسين تلك الصورة، الجواب يكمن في ضعف الإعلام العربي و هشاشته في مقابل قوة نظيره الغربي الذي كثيرا ما عمل على العداء ضد المسلمين، من خلال فبركة الفيديوهات و الصور ونشر المعلومات الخاطئة عن الكراهية المنتشرة بين العرب، وعن دوائر الصراع حول السلطة المنتشرة بين مختلف الأطراف والفصائل الواحدة في المجتمع الواحد، وتغذية النزاع بين الأشقاء من أجل الفرقة.

رابعا- كيف تنامت هذه الصورة في الداخل ؟:

يؤدي الصراع بين النخب ومختلف القوى السياسية "موالاة و معارضة" إلى تفعيل أدوات التفرقة بين الأفراد داخل المجتمعات، وهو ما سمح بظهور جماعات راديكالية ذات إيديولوجية مغلقة لا تقبل الحوار، خاصة تلك التي اصطدمت مصالحها مع مظاهر الحداثة التي عرفتها المجتمعات في هذا الزمن، وهو ما يجعلها تسعى إلى مقاومة التغيير من خلال تجسيد طموحاتها و تحقيق أهدافها بمختلف الوسائل بما فيها أدوات العنف و الإرهاب.

لقد أدى الفهم الخاطئ للإسلام مقابل كثرة الدعاة إلى إحداث شرخ كبير في الخطاب الإسلامي عند العرب، مما أنتج لنا حالة اجتماعية أكثر تعقيدا بسبب ظهور نماذج غريبة عن المسلمين الجدد، إذ يكفي الصراع الدائر بين الإخوان و السلفيين، و بين السلفيين فيما بينهم لإعطاء صورة عن الفهم الخاطئ في تفسير الدين، أو إدخال ما ليس بنصوص دينية و اعتبارها من أصول الدين، أو تغيير في تفسير بعض النصوص الدينية بحيث تخدم فكرته (**عبد الحي عزب،2015، ص03**).

ويلعب التطرف الديني دورا بالغا في تشويه صورة الإسلام حتى في الداخل فكيف الحال بالخارج، لأن الطرف المتعصب يسعى لإلزام الآخرين للقيام بشعائر الدين حسب اعتقاده، و هو ما يؤدي غالبا إلى موجة من المشاحنات كثيرا ما انتهت بتصادمات مع أجهزة الدولة، تنفلت أحيانا لتشكل وجبة دسمة للمؤسسات الإعلامية الغربية.

فالحركات الإسلامية الراديكالية كثيرا ما ارتبط وجودها بالفقر، فهي تجاوزت الأفراد المؤسسين لها لتلقى إقبالا و ترحيبا كبيرين من طرف الشباب الذي يمثل القاعدة التي لا تزال تبحث عن العيش في رفاهية و لو عن طريق كسر شوكة وعود الحكام الكاذبة، أو استبدال تلك الأحلام بتضحيات يعتقدون أنها تضمن لهم جنات الفردوس الخالدة، فبرزت لدى الحركات الإسلامية الراديكالية في العقدين أو الثلاثة الماضية و أخذت في التطور و النمو لتصبح امتدادا لعقلية التطرف (**نبيل عبد الفتاح،2003، ص32**) ، وبالتالي فإننا نعتقد بأن ظهور هذه الحركات و بالطريقة التي تشتغل بها قد قدَّمت الجميع "حركات و دول"

على طبق من ذهب للولايات المتحدة الأمريكية لتفتك بها على مرأى من العالم و في وضح النهار (**تركي علي الربيعو،2006، ص221**)، خاصة إعلاميا حين أصبح الغربي بصفة عامة ينظر للعربي كلما ارتبط اسمه بالإسلام على أنه إرهابي، مما دفع به و لعدة مرات لطرد المسلمين من دولهم الغربية نتيجة العداء الكبير الذي ساهمت في صناعته المؤسسة الاستخباراتية الغربية مستندة على الآلة الإعلامية في ذلك.

تنامي هذه الصورة داخليا يعود إلى عدة أسباب أهمها هو:

- عدم إحساس المواطن بالوطنية في وطنه، إذ بات يعتقد بأنها مجرد شعارات يستخدمها الساسة في أوقات معينة لتحقيقي أهداف أو تمرير سياسات معينة.
- غياب العدالة الاجتماعية مما نتج عنه الفقر و الحرمان و تقسيم المجتمع إلى طبقات اجتماعية متفاوتة، مقابل ظهور أثرياء جدد من الاستخدام الغير الشرعي للمال العام.
- غياب الحصانة الثقافية التي تسمح للمواطن من التمييز بين ما هو ديني و ما هو مصطنع ومفبرك الهدف منه وراءه هو صناعة أفراد راديكاليين يسهمون في تحطيم مجتمعاتهم العربية.

خامسا- هل هناك سبل لتصحيح هذه الصورة ؟:

إن إعادة إنتاج نفس الممارسات في مجتمعاتنا العربية على المستويين السياسي والاقتصادي لن يؤدي إلا إلى إعادة نفس السيناريوهات السابقة، وربما تحت ثوب آخر غير الإسلام، لكنها تنتهي كلها في نهاية المطاف بتشويه صورة المسلم في الخارج.

ولن تستطيع صورة المسلم من أن تتحسن في الخارج إلا إذا اشتغل السياسي على تحسين تلك الصورة على المستوى الداخلي، وذلك لن يكون إلا إذا تم التعاطي بجدية مع عدة مواضيع لا تزال مطروحة بقوة كمطالب من عمق المجتمع، وعلى رأسها:

- التوزيع العادل للثروة.
- تحقيق العدالة الاجتماعية.
- الابتعاد عن خلق التنظيمات المدنية و السياسية والنقابية و الأجهزة التابعة للسلطة.
- تحقيق الحرية و الاستقلالية لوسائل الإعلام و لأجهزة الرقابة و العدالة.
- الابتعاد عن تسييس المدرسة والجامعة والعمل بجدية على جعلهما فضاءا لتجسيد السياسات التعليمية الفاعلة و الفعالة و ليسا فضاء للمنافسة على تطبيق السياسات الاجتماعية الهشة.
- القضاء على إشكالية التزوير التي تتفاقم حدتها كلما تزامن اقتراب الحدث الانتخابي.
- الاستثمار في المورد البشري.
- الاستثمار في الموارد الطبيعية المختلفة و خلق اقتصاد بديل عن المحروقات.

وبالتالي، هناك إمكانية لتصحيح هذه الصورة إذا كانت هناك نية من طرف السياسي بأن لا يكون تابعا للأنظمة الغربية التي جعلت من بلداننا أسواقا لعرض و بيع منتجاتها مقابل تحطيم كل الموارد الطبيعية وتهجير اليد العاملة المحلية، و ها هي دول المشرق قد نجحت إلى حد بعيد في صناعة صورة عن المواطن الخليجي الذي ارتبط اسمه بالرخاء، أين أصبح التنافس بقوة من طرف مشاهير الرياضة وهوليوود لقضاء عطلة أو امتلاك مسكن في دبي، يعني حيث توفرت وتحققت الإرادة السياسية على أعلى المستويات تغيرت حالة المجتمع نحو الأفضل، وها هي قطر كذلك حققت قفزة كبيرة حين احتضنت منافسات كأس العرب معلنة عن بداية عهد جديد يحمل آفاقا واعدة على كل المستويات.

خاتمة:

نستطيع القول أن الصورة التي وجدنا أنفسنا اليوم عليها في الخارج هي بسبب الأنظمة السياسية التي تعاقبت على تسيير بلداننا، و التي لم تكلف نفسها عناء البحث عن جوهر ما في هذه الشعوب من قوة وإرادة للبناء، فقتلت كل محاولات التغيير بل وأجهضتها في رحمها مقدمة بذلك خدمة للقوى الإمبريالية التي حكمت العالم.

وبفضل علماء الغرب من أنتربولوجيين وعلماء الاجتماع والنفس استطاعت هذه الدول من فهم طبيعة ما يجري داخل أوطاننا، وكذا من دراسة عقلية المواطن العربي، فعملت على تفكيكه بقوة في مشهد أفقدنا صورتنا في الخارج كما في الداخل، فكثرت الانقسامات وتعددت الإيديولوجيات، واحتد الصراع على المستوى الثقافي والاجتماعي والسياسي، بل وامتد على الديني، فوجدت الشعوب العربية نفسها أمام ثلاث جماعات تنخر تقدمها:

-جماعة شبه السياسيين: وهم مجموعة من الحكام الليبراليين المتهمون بالموالاة للغرب ويسعون لتنفيذ مخططاته على الأراضي العربية، وفي مقابل الاتهامات الموجهة إليها تسعى هذه الجماعة لعرقلة مصالح الجماعات الأخرى و تسخر منها كمحاولة للثأر لنفسها.

-جماعة المنعزلين: و هم كبار السن من المتدينين الذين تجاوزهم قطار التغيير، ويعلمون جيدا التوجه الذي يسير عليه السياسيون في بلدانهم لكنهم لا يملكون آليات التغيير، وأن سبب ذلك يعود لبعد مجتمعاتهم عن تعاليم الدين وتأثرها بنماذج الحياة التي نادى بها الغرب.

-جماعة الشباب: وهم قاعدة المجتمع التي لا تزال تبحث عن شيء من الأمل للعيش برفاهية، وقد تصبح أداةً طيعة في أيادي أخرى حين تعتقد بأن لا مستقبل لها، خاصة إذا كانت هذه الأيدي ذات نزعة راديكالية.

وبالتالي، فإن غياب أي مشروع تنموي و استثمار حقيقي في بلداننا العربية يقود في النهاية إلى صناعة أشكال متعددة للمقاومة و التطرف، و التي تنتهي بصناعة صورة سلبية عن دول تمجد الحرية و كل يوم تقوم باغتيالها.

توصيات:

بعد تقديمنا لهذه الدراسة حول ماذا فعل السياسيون في الداخل لتصدير صورة شعوبهم للخارج؟ و بعد الخاتمة التي عالجنا فيها أهم النتائج التي وصلت إليها الدراسة، سنحاول تقديم بعض التوصيات التي نراها مهمة و لعل أبرزها:

- هو أن يتم التفكير بتدريس الثقافة الإسلامية في مختلف الشعب العلمية بما يتماشى و إعداد المواطن العصري، وذلك لبناء حصانة ثقافية لشعوبنا الإسلامية تفاديا لاستثمار أي جهة فيها.
- حث الطلبة على ضرورة الاهتمام بواقعهم و موقعهم في هذا العالم من خلال تنمية مهارات التفكير الإيجابي لديهم.
- ضرورة أن تكون هناك دورات تكوينية للقائمين على الشأن السياسي خاصة الجدد منهم على رأس المجالس المنتخبة، مثلهم مثل زملائهم في التربية و التعليم العالي و في قطاعات أخرى تعول عليها الدولة في عملية البناء.
- ضرورة أن تبتعد مؤسسات التنشئة الاجتماعية عن كل التجاذبات الإيديولوجية الضيقة.
- أن تعمل الجامعة على بناء الفرد "المواطن" و ليس فقط الفرد المنتج "العامل".
- أن يكون هناك عمل جاد و فعلي من طرف السلطات العليا في بلداننا على الاستثمار الأمثل في الشباب، وذلك من خلال دمجهم في عملية البناء و بعيدا عن الحلول الارتجالية، المؤقتة والترقيعية.

قائمة المراجع:

- الطاهر عبد الله، 1979، **نظرية الثورة من ابن خلدون إلى ماركس**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- مصطفى الأشرف، 2007، **الجزائر الأمة و المجتمع**، ترجمة حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر.
- عبد العالي دبلة، 2004، **الدولة الجزائرية الحديثة**، دار الفجر، القاهرة.
- عبد العزيز راس مال، 1993، **كيف يتحرك المجتمع و نتائج ذلك على العلاقات الإجتماعية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- عمورة عمار، 2002، **موجز في تاريخ الجزائر**، دار ريحانة للنشر و التوزيع، الجزائر.
- غازي حيدوسي، 1997، **الجزائر التحرير الناقص**، دار الطليعة، بيروت.
- عمر معن خليل (1998)، **علم المشكلات الإجتماعية**، ط1، دار الشروق للنشر، فلسطين.
- التنير سمير (2009)، **الفقر و الفساد في العالم العربي**، دار الساقي، لبنان.
- أماني غازي جرار (2019)، **قضايا معاصرة: المناهج الفكرية و السياسية**، دار اليازوري العلمية للنشر و التوزيع، عمان.

- عبد الحي عزب عبد العال (2015)، **التطرف و الغلو و أثر ذلك على الشعوب و المجتمعات**، ورقة عمل، المؤتمر الدولي حول موضوع دور العلماء في الوقاية من الإرهاب و التطرف، جامعة نايف، الرياض، بين 07 و 09 أفريل.
- نبيل عبد الفتاح (2003)، **سياسات الأديان: الصراعات وضرورات الإصلاح**، دار ميريت، القاهرة.
- تركي علي الربيعو (2006)، **الحركات الإسلامية في منظور الخطاب العربي المعاصر**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء –المغرب-.

الدراما التاريخية التركية ودورها في تصحيح الصورة النمطية السلبية للإسلام والمسلمين قراءة تحليلية لمسلسل قيامة أرطغرل

Turkish Historical Drama and Its Role in Correcting the Negative Stereotyped of Islam and Muslims. Analytical Reading of the Series Ertugrul Resurrection

ط/د. مزيادي نعيمة، جامعة قسنطينة 03- الجزائر

naima.meziadi@univ-constantine3.dz



تهدف هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على تجربة الدولة التركية في الدفاع عن صورة الإسلام والمسلمين من خلال المسلسلات التاريخية التركية التي شهدت انتشارا واسعا في الآونة الأخيرة وعرفت التفافا كبيرا حولها خاصة في ظل التشويه الإعلامي للإسلام والمسلمين سواء في السينما أو الأفلام أو الأخبار. وذلك من خلال إجراء قراءة تحليلية لمسلسل قيامة أرطغرل. والتي أظهرت اهتمام الدولة التركية بإنتاج ودعم المسلسلات التاريخية وعلى رأسها مسلسل قيامة أرطغرل سعيا إلى إبراز مبادئ وقيم الدين الإسلامي الحقيقية وتصحيح الصورة النمطية المشوهة للإسلام والمسلمين مثل المساواة، العدل، الإنسانية، التسامح، العفو، الأخوة وغيرها، كما أنصف المسلسل الإسلام في احترامه للمرأة ومكانتها المهمة في العائلة والحكم، وإظهار الإسلام كنظام ملائم لتسيير العالم في مختلف المجالات، عن طريق احترام والالتزام بالقواعد والقوانين التي يقوم عليها. مع الحياد والموضوعية في نقل الصورة الحقيقية والطبيعية للمسلمين من فئة ملتزمة ومحافظة على مبادئ وقيم الإسلام وأخرى غير ملتزمة.

الكلمات المفتاحية: الدراما التاريخية التركية- مسلسل قيامة أرطغرل- الصورة النمطية- صورة الإسلام والمسلمين.

Abstract:

This research paper aims to shed light on the experience of the Turkish state in defending the image of Islam and Muslims through the Turkish historical series, which witnessed a wide spread in recent times and Saw a spike in popularity around, especially in light of the media distortion of Islam and Muslims, whether in the cinema, films or news. This is done by conducting an analytical reading of the Artegrel Resurrection series. Which showed the interest of the Turkish state in the production and support of historical series, especially the Ertugrul Resurrection series, in an effort to highlight the true principles and values of the Islamic religion and correct the distorted stereotype of Islam and Muslims such as equality, justice, humanity, tolerance, forgiveness, brotherhood and others. The series did justice to islam as a religion that respects women and their important status in family and governance, and portrayed it as a convenient system to rule the world in different fields, through respect and commitment its rules and laws. With impartiality and objectivity in conveying the true and neutral image of Muslims from a group that is committed and preserves the principles and values of Islam and others who are not.

Keywords: Turkish historical drama - Ertugrul Resurrection series - stereotype - the image of Islam and Muslims.



مقدمة:

تروج للإسلام والمسلمين صورة نمطية سلبية اقترنت بما يعرف أو يسمى بالاسلاموفوبيا، والتي تسعى وسائل الإعلام الغربية المختلفة إلى ترسيخها وتأكيدها عبر مختلف الوسائط الإعلامية وتكرارها عبر إنتاجها الإعلامي والسينمائي، إذ تصور المسلم على أنه إرهابي ومتوحش وقاتل وبربري وهمجي ومتشدد في آرائه وأفكاره ومتأخر ثقافيا وحضاريا، كما تصور الإسلام على أنه دين السفح والقتل، ولم تسلم أيضا المرأة المسلمة من التنميط الغربي السلبي فقد كانت تظهر دوما على أنها راقصة من حريم الأمير يقتصر دورها على تلبية رغباته.

فحسب الإحصائيات الأخيرة صورت أغلب الأعمال الفنية والسينمائية الغربية الإسلام والمسلمين بطريقة خاطئة ومتحيزة والقلة القليلة فقط منها من تعاملت بحياد في تصوير المسلم والثقافة الإسلامية وكذا العرب. وأخرى جد قليلة إن لم نقل نادرة منها من أنصفت الإسلام والمسلمين. فقد وظفت السينما كوسيلة لنشر خطاب الكراهية ضد الإسلام والمسلمين ورسم وترسيخ صورة نمطية سلبية لدى الغرب سواء بالنسبة لحجاب المرأة أو اللحية بالنسبة للرجل أو القضية الفلسطينية وغيرها.

وأمام تصاعد موجهة التحريف والتشويه لصورة الإسلام والمسلمين، كان لابد من القيام بحركة في المقابل للرد على الأساطير والأكاذيب في حق الإسلام والمسلمين من أجل تصحيح هذه الصورة وإبراز الحقيقة ومحاربة خطاب الكراهية باستغلال مختلف الوسائل والتقنيات المتاحة وبتضافر جهود الأمة الإسلامية والمسلمين عبر مختلف بقاع العالم.

وتعتبر الدولة التركية السابقة في السير نحو تصحيح صورة الإسلام وإنصافه وإبراز المبادئ والقيم التي ينادي بها، من خلال استغلال وسيلة جد فعالة وهي الدراما، حيث قامت الدولة التركية بدعم وإنتاج دراما تاريخية قوية ومتنوعة غزت العالم بترجمتها إلى العديد من اللغات، فقد وظفت الدراما كقوة ناعمة في تصحيح هذه الصورة النمطية التي رسمت ورسخت هي الأخرى عن طريقها، فبرزت العديد من الأفلام والمسلسلات التاريخية التركية التي أنصفت الإسلام وحاولت تصحيح الصورة النمطية المشكلة حوله نذكر منها قيامة أرطغرل، المؤسس عثمان، نهضة السلاجقة العظمى، ألب أرسلان، محمد الفاتح، السلطان عبد الحميد، بربروس وغيرها. عالجت هذه الأخيرة فترات زمنية متعددة، حيث اختص كل مسلسل بفترة معينة وتناولها بأحداثها وشخصياتها وأماكنها، وكان التصور الإسلامي هو الحاكم الذي أدار حركة الأحداث وتناولها، من خلال تجسيد حقيقة الدين الإسلامي وتعاليمه ومبادئه وقيمه.

ويعتبر مسلسل قيامة أرطغرل من أبرز وأنجح هذه الأفلام، الذي بث عبر شاشات أكثر من 80 دولة(أمريكا اللاتينية، الشرق الأوسط، شمال إفريقيا، البلقان، روسيا...) وحقق نسب مشاهدة عالية وعرف التفاف جماهيري كبير داخل تركيا وخارجها.

ونحن نسعى من خلال هذه الدراسة إلى إبراز دور الدراما التاريخية التركية في تصحيح الصورة النمطية المشوهة للإسلام والمسلمين عن طريق إبراز حقيقة المسلم ودين الإسلام انطلاقا من تحليل مسلسل "قيامة أرطغرل" كنموذج لهذه المسلسلات التاريخية والكشف عن مدى تجسيد المسلسل لمبادئ وقيم وأسس الدين الإسلامي.

وقد انطلقنا في هذه الدراسة من التساؤل التالي: **ما دور الدراما التاريخية التركية في تصحيح الصورة النمطية السلبية للإسلام والمسلمين؟**

أولا-الإطار المفاهيمي:

1-الصورة النمطية: هي الشيء المكرر على نحو مطرد وعلى وتيرة واحدة لا تتغير. كما يمكن تعريفها بأنها المعتقدات التي تراكمت وأصبحت مقبولة مقدما بحكم العادات والتوقعات المألوفة دون أن تكون نتاجا لتقديرات جديدة متطورة للظواهر، وهي لا تماثل الواقع بمعنى أن كل ما هو نمطي لا نستطيع الحكم عليه بالصدق أو الكذب مما يوقعنا في أخطاء التعميم والأحكام غير الصحيحة. (تنيو، 2020، صفحة 414).

كما ورد في معجم Lexique d information communication أن الصورة النمطية هي "نوع من الأفكار الجاهزة أو الأحكام المسبقة، في الغالب تكون جماعية متجذرة في عمق التصورات، وهي مستمرة، وهي تصور مبسط للآخر. ويعود ذلك في العموم لقلق يكون قد مر به الفرد إزاء ما يمكن أن يكون غريبا عنه أو صعب الوصول إليه" (بولكعيبات و بولكعيبات، 2018، صفحة 45).

2-الدراما التاريخية: يعرفها الكاتب والمؤرخ الإسباني فرانشيسكو رويت في كتابه-المسرح الدرامي- بأنها "انعكاس لبعض الأحداث التي جرت في الماضي، ويتم عرضها كقصة تاريخية يتم الفصل فيها بين زمنيين، الزمن الذي جرت فيه القصة وأحداثها والزمن الذي يتم سرد القصة فيه.

كما تعرفها برحيل سمية في دراستها "دور الدراما التركية في تعزيز قيم المواطنة لدى الشباب الجزائري" بأن الدراما التاريخية هي عمل فني مكون من عدة حلقات يحكمها وحدة الموضوع والفكرة والهدف، تدور الحبكة الدرامية فيها من خلال صراع بين الشخصيات التي تؤدي أدوارا حول موضوع اجتماعي تاريخي أو حول قيمة من القيم (أبو صلاح و كناكر، 2021، صفحة 71).

3-الإسلاموفوبيا: كلمة مستحدثة، تتكون من كلمتين إسلام وفوبيا، وهي كلمة يقصد بها الخوف أو الرهاب غير العقلاني من شيء يتجاوز خطره الفعلي المفترض، دخل المصطلح في اللغة الإنجليزية عام 1997 عندما قامت خلية تفكير بريطانية يسارية التوجه تدعى "رنميد ترست" Trest Ranmid باستخدامه لإدانة مشاعر الكراهية والخوف والحكم المسبق الموجه ضد الإسلام والمسلمين.

بالرغم من استخدام المصطلح على نطاق واسع حاليا، إلا أن المفهوم الأساسي له تعرض لانتقادات شديدة إذ عرف بعض الباحثين "الإسلاموفوبيا" بأنها شكل من أشكال العنصرية فيما اعتبرها آخرون بمثابة ظاهرة لتزايد عدد المهاجرين المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي، فيما ربطها البعض الآخر بانفجارات 11 سبتمبر 2001. وعرف قاموس "أكسفورد" الإسلاموفوبيا بالخوف والكراهية الموجهة ضد الإسلام، كقوة سياسية تحديدا، والتحامل والتمييز ضد المسلمين (أفروجن، 2017، الصفحات 274-275).

ثانيا- الإطار النظري للدراسة:

1-عوامل تكوين الصورة النمطية: تعتمد وسائل الإعلام على ثلاث عمليات في تشكيل الصورة النمطية تتمثل في:

- **التركيز:** حيث تستغل وسائل الإعلام حاجة الناس إلى تصنيف وعدم قدرتهم على استيعاب الأحداث والمشكلات العالمية والاجتماعية المعقدة، وعدم قدرتهم على البحث عن المعلومات أو تحليلها أو تفسيرها للتركيز على زوايا معينة تدخل في عملية التصنيف، لكن عملية التركيز تميل إلى التوافق مع الصورة النمطية الموجودة، أو تؤكد على سمات جيدة لهذه الصور، أو تؤدي إلى صناعة أخرى لها.
- **التكرار:** تقوم وسائل الإعلام بتقوية الصور النمطية الموجودة في الثقافة المروجة وتدعيمها عن طريق تكرار السمات والصفات التي تتضمنها هذه الصور من خلال الشخصيات والتركيز على زوايا معينة من الأحداث، مع تكرار هذه الزوايا حتى تصبح هذه الصور جزءا من الواقع.
- **الحذف:** تقوم وسائل الإعلام بحذف حقائق معينة، أو زوايا أحداث التي تتناقض مع الصورة النمطية الموجودة في الثقافة المروجة، والتي تمثل تحديا لها، أو تلك التي تفسر الأعمال العنيفة التي ترتكبها الجماعات الإثنية أو الدينية (اختفاء الأحداث في سياقها التاريخي) (رداوي و عامر، صفحة 58).

وكل هذه العوامل تم استخدامها في تكوين صورة سيئة ومشوهة عن الإسلام والمسلمين بمختلف الملامح وحول مختلف القضايا.

2-الصورة النمطية للإسلام والمسلمين في الثقافة والإعلام الغربي: ترسم للعرب والمسلمون في وسائل الإعلام الغربي من أفلام سينمائية ورسوم متحركة وصور متحركة... صورا نمطية متحيزة وغير منصفة وتروج في صورة حملات إعلامية ويتعرض لها ملايين من الناس في وقت واحد تقريبا فيتأثرون بها ويتلقفونها بينهم وترسخ في عقولهم جميعا، فتتكون ثقافة جمعية تعادي المسلمين والإسلام بصورة خاصة.

وقد خلصت دراسة الأستاذ جاك شاهين وهو كاتب أمريكي بعد تحليله ل900 فيلم سينمائي أمريكي إلى أن العرب يصورون تبعا لأكثر التصنيفات خشونة وسلبية، هم شيوخ مترفون ذو كوفيات وقمصان

تظهر جليا علامات الترف والبذخ وانتفاخ البطن والسمنة المفرطة، وهم إرهابيون عديمو الضمائر ذوي لحى طويلة، قتلة ولا يتورعون عن قتل الأبرياء

أما الإسلام فيصور على أنه دين قبلي وبدائي، والمسلمون هم حملة التخلف والبدائية (بودهان، 2006، الصفحات 5-6).

3-مصادر الصورة الذهنية والنمطية للإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية: باتت ترسم للعربي والمسلم صورا سلبية سيئة فمنذ ظهور الإسلام وهو يتعرض لحملات التشويه والتحريف. ذلك أن الصورة النمطية السلبية المرسومة للإسلام والعرب والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية ليست وليدة الفترة الراهنة وإنما ترجع لعقود طويلة ممتدة ضاربة في أعماق التاريخ، وهذه الصور يعاد تأكيدها وتكرارها كلما سنحت الفرصة.

"وقد شكل الاستشراق، التنصير والاستعمار أهم المصادر الغربية لهذه الصورة. إذ يعد الاستشراق أولى مصادر الصورة الذهنية للإسلام والمسلمين في الغرب، فالاستشراق يدرس كل ما له صلة بالشرق ولغاته ومعتقداته بغض النظر عن أهدافه وغاياته. ويعد الدافع الديني من أهم دوافع الاستشراق حيث شكل بديلا عن القوة العسكرية ومكن المستشرقون من تحقيق أهداف وغايات ما كانت تتأتى لهم سبل أخرى فمن خلال الحرص على الإلمام بالدين الإسلامي ومعرفته، إلى جانب ترجمة القرآن الكريم للغات أخرى والإلمام بالعلوم والثقافات الإسلامية سعى المستشرقون إلى محاربة الإسلام وأتباعه وتشويه صورته لدى الآخر.

كما لا يقل الدافع الاستعماري والاقتصادي أهمية عن الدافع الديني، حيث تم استعمار العديد من الدول العربية والإسلامية للحصول على مقدراتها واستنزافها بمختلف الطرق، وفي شتى المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية ليتسنى للمستعمر تفكيك أواصر الشعوب المستعمرة وإنجاح حملاته الاستعمارية إن تطلب الأمر القضاء على تراث وثقافة وهوية وانتماء هذه الشعوب المغلوبة على أمرها.

كما يمثل التنصير أحد هذه المصادر، حيث حاول المنصرون بناءا على أهدافهم المسطرة استمالة المسلمين وإدخالهم في الدين المسيحي بكل الطرق والأساليب المباشرة وغير المباشرة وإن تخفوا باسم البعثات العلمية والجمعيات الخيرية والإنسانية، وبخاصة الدول التي تجري الحروب على أراضيها من خلال بعثات الإغاثة واستغلال تدهور أوضاع المسلمين لتقديم المساعدات باسم المسيح إما بالتصريح المباشر أو الضمني.

ويعد الاستعمار من المصادر الأساسية التي أسست لنظرة الإسلام والمسلمين في المخيال الغربي، إذ يعد من أهم المؤسسات التي ساهمت في صياغة وصناعة الصورة النمطية لوسائل الإعلام بمختلف وسائطها (فلاك و جفافلة، 2020، الصفحات 56-60).

4-سبل تغيير الصورة النمطية للإسلام والمسلمين: إن عمليات التشويه الكبيرة التي يتعرض لها المسلمون عامة والعرب خاصة من قبل وسائل الإعلام الأمريكية والغربية الأخرى تتطلب جهودا كبيرة من قبل وسائل الإعلام الإسلامية والعربية، وذلك عن طريق إنتاج برامج وأفلام ومسلسلات تحسن من صورة

العربي والمسلم في الإعلام الغربي، حيث ستساهم عملية إنتاج هذه الأفلام والمسلسلات في كشف الصورة الجيدة للإسلام والمسلمين ونفي صفة الإرهابية والعدائية عند المسلمين ويجب أن يكون هذا الأمر عن طريق إنشاء قنوات إسلامية موجهة للغرب وبلغاتهم، وذلك حتى يتم نقل الرسالة الإعلامية بسهولة.

كما أن أكثر ما يجب أن يقوم به الإعلام العربي هو تنفيذ حملة عربية منظمة تقدم وتعرف بالحقائق الصحيحة والصادقة عن الإسلام والمسلمين، ويجب أن تستخدم في ذلك مختلف الوسائل والتقنيات الحديثة وكذا لا بد من الموضوعية في الحملة الإعلامية ويمكن تحقيق ذلك عن طريق التعاون مع المؤسسات والجمعيات العربية والإسلامية والأمريكية والتي أصبح لديها الخبرة والمعرفة في كيفية مخاطبة الرأي العام (اللواء، 2017، الصفحات 16-17).

وبالتالي وجب وضع خطة إعلامية إسلامية متسقة للرد على حملات التشويه تقتضي ما يلي:

- استثمار الفضاء الإعلامي في الغرب من خلال عرض قضايا العالم الإسلامي واستئجار ساعات من البث الإذاعي والتلفزيوني في بعض القنوات الغربية المستقلة ومحاولة تعريف المجتمعات الغربية بالحضارة والثقافة العربية والإسلامية.
- تشجيع قادة العمل الإسلامي في الغرب على إنشاء صحف ومجلات باللغات الأجنبية وربط قنوات الاتصال مع الصحفيين والمفكرين والأساتذة الجامعيين المتعاطفين مع الإسلام والمسلمين، وكذا إنشاء مواقع إلكترونية خاصة بالإسلام والمسلمين من أجل تصحيح الأفكار والمعلومات والمفاهيم الخاطئة التي تروج ضد الإسلام.
- الدعوة إلى تضافر الجهود العلمية من خلال المؤسسات الأكاديمية الإعلامية والهيئات المختصة بالشؤون الإعلامية في العالم من أجل وضع إستراتيجية إعلامية متكاملة طويلة المدى لتصحيح هذه الصورة المشوهة.
- ضرورة إنشاء جهاز إعلامي للبحوث، يتولى رصد وتحليل واقع ما يقدم عن الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية وإعداد الدراسات العلمية والحقائق التي يعتم عليها في الرد على ما يقدم من صور مشوهة أو إساءة تتعلق بالمسلمين وثقافاتهم ودينهم.
- ضرورة إنشاء جهاز للإنتاج الإعلامي يتولى إنتاج برامج وأفلام وتقارير إخبارية وغيرها، تتناول الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين ونقلها للشعوب الأخرى من خلال القنوات الفضائية والمواقع الالكترونية (تنيو، 2020، صفحة 421).
- تجديد الخطاب الإعلامي العربي. فالخطاب الإعلامي الإسلامي والعربي بحاجة إلى تطوير وإلى منهج جديد في الشكل والمضمون وفي المنهجية، وضرورة تحريره وإعطائه الحرية الكاملة لطرح القضايا الرئيسية التي تهم الشارع والرأي العام محليا ودوليا مع ضرورة تماشيه مع متطلبات العصر واحتياجاته، وكذلك الخروج من النمطية والرتابة والتبعية.

- إنشاء مركز للدراسات والبحوث يقوم بتزويد صانع القرار بالمعلومات والإحصائيات الضرورية لاستخدامها في تصحيح صورة العرب والمسلمين وفي إقامة حوار منهجي وبناء مع الآخر (قيراط، 2017).
- تشجيع المبادرات الذاتية للأفراد المؤهلين من المهنيين وأساتذة الإعلام الذين يتعاملون مع تكنولوجيا العصر وفي مقدمتها شبكة المعلومات الدولية من أجل توظيف مهاراتهم لإبراز الصورة الصحيحة للعرب والمسلمين وتفنيد الأكاذيب التي دأبت أجهزة الدعاية الصهيونية على ترويجها بصفة دائمة.
- إنشاء صندوق إسلامي للإنفاق على تحسين صورة الإسلام يتم تمويله من خلال دعم الحكومات في الدول الإسلامية وجمع التبرعات من المؤسسات والشخصيات الإسلامية.
- مخاطبة العالم إعلاميا وذلك وفق القيم الإنسانية العامة والحقوق المشتركة والمفاهيم المتفق عليها والابتعاد عن مواقع الحساسية والتنافر واعتماد أسلوب التبشير ونبذ المهاترات الإعلامية والتشهير بالقوى المعادية (بوعنان، 2017، صفحة 286).

ثالثا- الإطار التطبيقي: قراءة تحليلية لمسلسل قيامة أرطغرل.



1-نبذة عن مسلسل قيامة أرطغل: هو مسلسل تركي تاريخي من كتابة وإنتاج "محمد بوزداغ" وإخراج "متين جوناي"، تقع أحداثه في القرن الثالث عشر الميلادي، ويعرض دوافع تأسيس الدولة العثمانية من خلال عرض سيرة حياة الغازي أرطغرل بن سليمان شاه، قائد قبيلة قايي من أتراك الأوغوز المسلمين ووالد عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية.

"المسلسل به كثير من الوقائع التاريخية العامة الخاصة بتنقلات قبيلة قايي، ولكن أغلب أحداث المسلسل التفصيلية هي من الوقائع الدرامية غير التاريخية من وحي خيال وإبداع الكاتب والمنتج محمد بوزداغ، إلا أنها تخدم الخط العام للأحداث التاريخية من إقرار الحق والعدل والرحمة" (مسلسل قيامة أرطغرل).

عرض المسلسل عبر 5 مواسم ضمت 150 حلقة، وقد شاهده نحو 3 مليارات مشاهد في العالم، وبث على شاشات التلفزيون في 71 دولة، مدبلجا إلى 25 لغة مختلفة أبرزها: العربية، الإنجليزية والأوردية. كلف

مسلسل قيامة أرطغرل قرابة نصف مليون دولار للحلقة الواحدة، وقد حافظ في جميع مواسم بثه على المراتب الأولى في نسب المشاهدة (أبو صلاح و كناكر، 2021، صفحة 01).

بدأ عرض أول حلقات الموسم الأول في 10 ديسمبر 2014، ثم عرض الموسم الثاني من 30 سبتمبر2015 إلى 8 يونيو 2016، الموسم الثالث من 26 أكتوبر 2016 إلى يونيو 2017، ثم الموسم الرابع 25 أكتوبر 2017 وأخيرا الموسم الخامس من 7 نوفمبر 2018 وانتهى في 29 ماي 2019 على قناة تي أر تي (TRT) كما عرض أيضا على قنوات أخرى: روسيا، رومانيا، باكستان، إيران، إندونيسيا، المجر، اليونان، بلغاريا، البوسنة، الهرسك، أذربيجان، أفغانيستان، ألبانيا، جورجيا، قطر، مقدونيا، سلوفينيا، صربيا، ليتوانيا، كرواتيا، بنغلاديش وقنوات أخرى بالإضافة إلى منصة نتفليكس باللغة التركية والعربية والإنجليزية (قيامة أرطغرل(مسلسل)).

وقد حاز على خمس جوائز"السعفة الذهبية"، منها جائزة أفضل مسلسل تلفزيوني وأفضل ممثل في مسلسل تلفزيوني لبطل المسلسل "إنغين ألتان دوزياتان" (قيامة أرطغرل).

2-دعم الدولة التركية لإنتاج الأفلام التاريخية التركية:

أمام تصاعد هجمات الغرب وحدتها ضد الإسلام والمسلمين وتأكيدها وتكرارها للصورة النمطية السلبية للإسلام والمسلمين بتصويرها للإسلام على أنه دين عنف وإرهاب وانتشار وترسيخ مصطلح اسلاموفوبيا، كان لا بد من القيام بموجة مضادة للتصدي ومحاربة هذه الصورة النمطية وكذا العمل على تغييرها وتصحيحها وإبراز الحقائق المغيبة في ظل انتشار هذه الصورة النمطية.

وتعتبر الدولة التركية من بين الدول السباقة في تصحيح هذه الصورة من خلال قيامها بإنتاج ودعم الكثير من المسلسلات التاريخية وعلى رأسها "قيامة أرطغرل"، "كوت العمارة"، "السلطان عبد الحميد"، "بربروس"، "الملحمة"، المؤسس عثمان"، "محمد الفاتح"، "نهضة السلاجقة العظمى"،"الأسد الباسل"...

ومعظم هذه المسلسلات حققت نسب مشاهدة جد عالية لم يسبق تسجيلها.جسدت من خلالها حقيقة الإسلام والقيم والمبادئ التي ينادي بها. حيث تم توظيف واستغلال الدراما التي تم من خلالها رسم هذه الصورة النمطية عن الإسلام لتكون بدورها الوسيلة التي تعمل على تصحيح هذه الصورة المشوهة، فقد "كان التصور الإسلامي هو الحاكم الذي أدار حركة الأحداث ضمن هذه المسلسلات التاريخية وتناولها، فأظهر طبيعة التسامح الإسلامي في علاقة المسلم مع الآخر غير المسلم، والعدل كما يأمر به الدين، وسياق التعاون والجهاد لرفع الظلم والدفاع عن المظلومين"موقع موقتاما"

وقد أولت الدولة التركية اهتماما بهذه المسلسلات التاريخية، والذي تجلى بدعمها اللوجستي والمعنوي لها، وإنتاج التلفزيون الرسمي التركي TRT لأهم هذه الأعمال التي اليوم تحتل الشاشات العالمية، وتعرض على أكثر من 71 دولة حول العالم، وترجمت إلى مختلف اللغات العالمية، واحتلت النصيب الأكبر من شاشات العالم العربي ودول البلقان والدول الإسلامية، ومؤخرا باتت جزءا من الشاشة الصغيرة لدول أمريكا اللاتينية

كما يتجلى اهتمام الدولة التركية بها النوع من الدراما من خلال اهتمام الرئيس التركي نفسه بهذه المسلسلات التاريخية حيث "زار الرئيس "رجب طيب أردوغان" ورئيس الوزراء السابق"داوود أغلو" موقع تصوير مسلسل قيامة أرطغرل، وأيضا صحب معه ثلة من ممثلي المسلسل أثناء زيارته للكويت، في سابقة لم تحدث من قبل أن اصطحب رئيس دولة أبطال مسلسل ما في زيارة رسمية لدولة أخرى" (خمفوسي، 2020).

3-صورة الإسلام والمسلمين عبر مسلسل قيامة أرطغرل: ظهر من خلال مسلسل قيامة أرطغرل كما هو الحال في باقي المسلسلات التركية التاريخية التي اجتاحت العديد من الشاشات عبر مختلف دول العالم صورة الإسلام والمسلم الحقيقية غير المقترنة بمصطلح العنف والإرهاب والتشدد وكذا السواد والظلم. بالتركيز على القيم الإسلامية والمبادئ التي ينادي بها الدين الإسلامي.

إلا أنه عمل على إبراز الجانب المظلم من المسلمين غير الملتزمين من خلال التطرق إلى العدو الداخلي وهم أتراك مسلمين لكن بسبب جشعهم أو غرورهم أو غيرتهم هم على استعداد لارتكاب أي خيانة لتحقيق أهدافهم الخبيثة.

حيث لم يغفل المسلسل التمييز والتفريق بين أعداء الداخل وأعداء الخارج وجعل الحرب عليهما على النفس الدرجة من الوجوب حتى يتم تنقية الصف لقيام دولة قوية.

فالمسلسل لم يقم على تصوير المسلم على أنه فرد مثالي، بل عمل على نقل الصورة الحقيقية والتي توضح وجود اختلاف بين مسلمين ملتزمين ومحافظين على القيم والمبادئ الإسلامية، ومسلمين غير ملتزمين ولأسباب شخصية كالجشع والغرور يرتكبون مختلف أنواع الخيانة والجرائم التي ينهى الدين الإسلامي عن ارتكابها.

4- التصور الإسلامي عبر مسلسل قيامة أرطغرل:

يقوم مسلسل قيامة أرطغرل بالتركيز على الجانب الديني من خلال ربط الأحداث وتطورها بالجانب الديني والإيماني كما عمل على إبراز حقيقة الإسلام على أنه دين حق ونصر للمظلومين من خلال العديد من الرسائل التي يطرحها عبر حلقاته بطريقة مباشرة أو ضمنية تمثلت في:

- يقدم مسلسل قيامة أرطغرل صورة حقيقية وطبيعية للإسلام بعيدا عن التفسيرات الطائفية والعنصرية والاستبدادية المشوهة التي يروج لها.
- يدعو المسلسل إلى مكارم الأخلاق والتمسك بالدين الإسلامي من خلال أحداثه التي تحمل رسائل مباشرة وأخرى غير مباشرة.
- ربط الأحداث بالسيرة النبوية وسير الأنبياء واعتمادهم كقدوة للمحاربين والسادة في حل مشاكلهم والتمسك بقضيتهم ودفاعهم عن دينهم وشعبهم.

- يقوم المسلسل على نصرة الإسلام والمسلمين من خلال توظيف مصطلحات وعبارات إسلامية تتكرر عبر معظم الحلقات أثناء الغزوات وكذا أثناء تحقيق الانتصارات مثل" الله أكبر"، "الحي هو الله"، "الحق هو الله"...
- أيضا يظهر من خلال المسلسل مشاهد دعاء وصلاة الشخصيات البطولية وأثناء الغزوات وتكرارها وكذا ذكر الله واحترام الرسول صلى الله عليه وسلم.
- كما أكد "قيامة أرطغرل" على أن الانتصارات لا علاقة لها بالقوة ولا بالعدة ولكن بحمل قضية الأمة وتقديم التضحيات في طريق نصرتها دوما، وربطها بالله عز وجل والإيمان به والتوكل عليه والثقة به ورفض نسب الانتصار لشخص البطل.
- كل نتائج الصراعات في المسلسل تؤكد أن العاقبة للصالحين دائما سواء في الحرب مع الصليبيين أو المغول أو الخونة، رغم الصعوبات والتحديات التي يمر بها المظلومين وأصحاب الحق.

5- تجسيد القيم الإسلامية عبر المسلسلات التاريخية التركية:

انتشرت في الآونة الأخيرة موجة من المسلسلات التركية التاريخية التي تأخذ مرجعيتها من التاريخ والتي حققت نجاحا كبيرا على المستوى الداخلي والخارجي وترجمت إلى العديد من اللغات. هدفت هذه الأخيرة من خلال مضامينها إلى تصحيح صورة الإسلام والمسلمين المشوهة خاصة مع ترجمتها إلى العديد من اللغات وبثها عبر مختلف الدول. وقد ساهمت هذه المسلسلات في إبراز وتقديم جزء من تاريخ الأمة الإسلامية واطلاع المسلمين على صفحات منسية من تاريخهم المجيد.

وفي هذه الدراسة تم الاعتماد على مسلسل قيامة أرطغرل كنموذج للمسلسلات التاريخية التركية الذي بين من خلاله التركيز على تصوير واستحضار الطقوس والمظاهر الإسلامية من خلال العادات والتقاليد واللباس وغيرها من مظاهر الحياة الإسلامية.

كذلك يبرز من خلال المسلسل أن الهدف الأسمى للأرطغرل والمحاربين هو نشر الدين الإسلامي ونصرة المظلومين عبر مختلف المناطق التي طالتها الفتوحات الإسلامية وإبراز أن الإسلام يدخل تلك الأماكن فتزهر من خلال إبراز الازدهار الذي تعيشه المناطق التي تم فتحها وأيضا الرحمة والعدل في تسيير هذه المناطق واحترام الديانات الأخرى وعدم إجبار مواطني هذه المناطق على اعتناق الإسلام بل احترامهم وكل طقوسهم الدينية.

وفي هذا الصدد يقول الكاتب والصحفي التركي محمد سليمان عن أهمية المسلسلات التاريخية "من الناحية الأولى هي مهمة في تسويق وإعادة طرح القيم الإسلامية والعادات والتقاليد الحميدة الموجودة بالمجتمعات الإسلامية منذ القدم، في ظل وجود حملة تشويه كبيرة من الغرب للقيم الإسلامية. حيث تبين هذه المسلسلات قيمة الجهاد على أنه عمل إنساني لرفع الظلم عن المظلومين وليس تلذذا بالقتل، أو حبا في الحرب كما تفعل بعض التنظيمات التي تنتسب إلى الإسلام في اليوم الحاضر" (الكحلوت، 2017).

أيضا وظف المسلسل" العلماء ورجال الدين الذين يظهرون على أنهم المرشدون الأخلاقيون من خلال تقديم دروس روحانية وحياتية في الأوقات الصعبة لحياة الأبطال ليقوموا بدور البوصلة الأخلاقية للشخصيات التي ترشدهم لكيفية التعامل مع الموقف بأمثلة من القرآن والحديث وحياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم" (قيامة أرطغرل: دراما تركية بنكهة عالمية، 2020).

كما أخذت شخصية محيي الدين بن عربي (المعروف بالشيخ الأكبر) حيزا مهما في المسلسل، إذ جعل منه المسلسل بمثابة الزعيم الروحي والمرشد الديني والمعلم، من خلال تقديم النصح والتعليمات الدينية خلال أحداث المسلسل ويعزز ذلك بذكر الآيات القرآنية والأحاديث الدينية. كما يقوم بسرد قصص بطولية دينية للأطفال ودروس دينية تحكي لهم تفاصيل الغزوات الإسلامية واستنباط مختلف العبر منها.

"ويؤكد الدور المهم لابن العربي على أهمية الدين وتركيز المسلسل على الجانب الديني. ويعزز المزج بين المسوغات التاريخية والدينية لتشكيل وقيام الدولة التركية" (بشير، 2021).

ومن هنا فإن مسلسل قيامة أرطغرل قدم الوعظ الديني بصورة مباشرة أو غير مباشرة كما عمل على إبراز مبادئ وقيم إسلامية عظيمة كالتوكل على الله، التسامح، الرحمة، العفو، الأخوة، المساعدة، الإنسانية، العدل، الشورى، نصرة المظلوم، عدم التفريق بين المسلم وغير المسلم، حماية الأبرياء، الثقة في الله وعدم الاستسلام... وأيضا التعريف بتعاليم الإسلام من الصلاة، الزكاة وغيرها وإبراز بركاتها ومكانتها.

كذلك أعاد المسلسل الشرعية للجهاد بعد حملات التشويه والتشكيك المقترنة به في البيئة المعاصرة وإلصاقه بالإسلاموفوبيا، من خلال التركيز على إخلاص المحاربين لقضايا الأمة والدين الإسلامي وإبراز أهداف الفتوحات الإسلامية التي تسعى إلى رفع الظلم ونصرة المظلومين وإعطاء كل ذي حق حقه. ولعل تميز المسلسل بتكرار "الله أكبر" قد أعادت الهيبة والمصداقية للعبارة السامية في ظل استخدامها لدى الغرب في تصوير الانتهاكات الغير أخلاقية والغير إنسانية من قبل جماعات تدعي انتسابها للإسلام، كما تمثل رسالة مقصودة للمتلقي العادي، وكذلك تصحيحا لمواقف مغلوطة حول الجهاد، وفضحا للجماعات الإرهابية المسلحة التي توظف حاليا القيمة السامية للجهاد والقتال في سبيل الله بشكل أساء لصورة الإسلام وجوهره.

6- قيامة أرطغرل مكانة المرأة في الإسلام:

ما يلاحظ على مختلف الانتاجات السينمائية الغربية تصويرها لوحشية الدين الإسلامي والمسلمين في التعامل مع المرأة ومكانتها في العائلة والمجتمع عموما. حيث تظهر من خلال هذه الانتاجات على أنها عبدة، تتم معاملتها بأبشع الطرق واستغلالها وليس لها أي رأي أو مكانة في اتخاذ القرارات التي تخص المجتمع أو الجماعة التي تنتمي إليها رغم أن الإسلام أعز المرأة وأعطاها كل حقوقها.

لكن المسلسلات التاريخية التركية جاءت بنظرة مغايرة تسعى من خلالها إلى إنصاف الدين الإسلامي والمسلمين من جميع الجوانب، وفيما يخص المرأة ومكانتها فقد أنصفت المسلسلات التاريخية التركية الإسلام في كيفية معاملة المرأة ومكانتها في الحكم والعائلة وتمتعها بحقوقها ودورها في المجتمع، ومن بينها

مسلسل قيامة أرطغرل الذي أبرز مكانة المرأة في الإسلام وتصدى للصورة النمطية السيئة المروجة للدين الإسلامي في استغلال واستعباد المرأة.

حيث صور المسلسل حقيقة مكانة المرأة ودورها في اتخاذ القرارات المهمة والمصيرية. كما صور النساء على أنهن ذوات قوة وعزيمة، وشركاء في تسيير شؤون القبيلة حيث جسد المسلسل دور النساء في التجارة وتسييرها وكذا الحكم في القبيلة أثناء غياب سيد القبيلة الأول والتحقيق حول مختلف المسائل المهمة وغيرها. كما تقوم النساء بدور رؤساء القبائل بدلا من أزواجهم أو أخوانهم والقيام بمختلف المسؤوليات التي تقف على عاتقهن تحملا لأعباء الحكم والسيادة.

أيضا جسد المسلسل قوة النساء ومهارتهن في القتال فهن يقاتلن بالسيوف والخناجر، وذلك لحماية أنفسهن من العدو ولم يقتصر دور المرأة على الطبخ وأشغال المنزل كما يتصوره الغرب. كما يوضح المسلسل من خلال أحداثه وتكرارها لفكرة حرية المرأة في اختيار شريك حياتها، فأثناء تقدم شخص ما لها، فإنها تملك الحرية في القبول أو الرفض ولا تمارس عليها أي سلطة في إجبارها على الزواج لإرضاء أي شخص حتى لو كان سيد القبيلة.

كما يبرز احترام الرجل لزوجته وأفكارها من خلال التشاور معها حول مختلف القضايا والأخذ بمشورتها وفق الأحداث الجارية، ويلاحظ من خلال المسلسل أن سيد القبيلة الأول وحسب خصوصية الموضوع يجمع كل من سيدات وسادة القبيلة للتشاور والخروج برأي صائب دون التفريق بين المرأة والرجل

وكلها رسائل بارزة وأخرى كامنة يهدف من خلالها لمسلسل إلى تصحيح صورة الإسلام المشوهة في التعامل مع المرأة ومكانتها في الحكم والعائلة.

8- الإسلام نظام حياة متكامل مسلسل قيامة أرطغرل:

المشاهد والمتتبع لحلقات مسلسل قيامة أرطغرل عبر مواسمه الخمس يلاحظ أنه يقوم بشكل كبير على إبراز مبادئ وقيم وأسس الدين الإسلامي، ومدى ملائمته كنظام لتسيير العالم عبر مختلف المجالات، عن طريق احترام والالتزام بالقواعد والقوانين التي يقوم عليها، في التنظيم أو العقاب. إذ يظهر من خلاله:

- العدل في اتخاذ القرارات، وكذا الفصل بين قضايا القبيلة والعلاقات الشخصية فيجسد من خلاله معاقبة الأخ وقتل العم بتهمة الخيانة تطبيقا لعادات وقوانين القبيلة..
- عدم استغلال السلطة والسيادة لتحقيق مصالح ذاتية، بل يبرز من خلال قيامة أرطغرل أن غاية السيد والمسؤولين هو حماية الشعب، إحقاق الحق ونصرة المظلومين وتحقيق الرفاهية والازدهار لهم عبر انتقالهم بين العديد من المناطق، بحثا عن الأمن والتجارة لتحقيق الرفاهية. كما يبرز من خلاله تقسيم الغلة والغنائم أثناء الغزوات والفتوحات بين كل أفراد القبيلة من سادة ومحاربين وعامة الشعب.

- كما يدعو الدين الإسلامي للتعايش مع مختلف الديانات الأخرى واحترام معتنقي هذه الديانات ومختلف الطقوس الدينية الخاصة بعبادتهم، أيضا يتجلى من خلال المسلسل فتح التجارة مع غير المسلمين وفق اتفاقيات ومعاهدات ترضي كل الأطراف.

خاتمة:

تشهد ظاهرة خطاب الكراهية تصاعدا وتناميا متزايدا ضمن البيئة المعاصرة وبتوظيف العديد من الوسائل على غرار وسائل الإعلام والمنصات الرقمية، ومنه تواجه المجتمعات في الوقت الراهن مستويات معقدة من التعصب ورفض الآخر خاصة تصاعد موجة خطاب الكراهية ضد الإسلام والمسلمين.

وتعتبر الدراما من أنجع الوسائل الموظفة والمستخدمة في صناعة صورة نمطية سلبية ومسيئة للإسلام والمسلمين وفق غايات القائمين عليها. وهذا ما جعل الدولة التركية تتفطن وتقتنع بأهميتها كقوة ناعمة في تحقيق مختلف الغايات والأهداف في شتى المجالات، ومن هنا كان استغلالها في تصحيح صورة الإسلام والمسلمين التي طالتها الكثير من التحريفات والتشويهات، والتي جعلت الإسلام مقترن بمصطلح الإسلموفوبيا والسواد والظلم والجهل والهمجية والخوف.

ويمثل مسلسل قيامة أرطغرل التاريخي إحدى نماذج وتجارب الدولة التركية الذي حظي باهتمام ودعم الدولة التركية على غرار العديد من المسلسلات التاريخية، والذي قدم صورة حقيقية منصفة للإسلام والمسلمين من خلال:

- التعريف بالثقافة الإسلامية والمبادئ والقيم التي ينادي بها دين الإسلام من عدالة، مساواة، رحمة، نصرة المظلوم، الإنسانية، الأخوة، التضامن، احترامه الديانات الأخرى وغيرها.
- سعى إلى تقديم الصورة الحقيقية للمسلم الملتزم والمحافظ على مبادئ وتعاليم الإسلام مع الحرص على الطرح الموضوعي بالإشارة إلى فئة المسلمين غير الملتزمين الذين يرتكبون مختلف أنواع الخيانة والجرائم في سبيل تحقيق مصالحهم الشخصية.
- كما أنصف المسلسل الإسلام في احترامه للمرأة ومكانتها المهمة في العائلة والحكم، وتقديمه كنظام ملائم لتسيير العالم في مختلف المجالات، عن طريق الالتزام بالقواعد والقوانين التي يقوم عليها.

توصيات:

انطلاقا من رؤية أهمية الدراما التاريخية التركية ونتائجها الإيجابية في تقديم صورة حقيقية وطبيعية عن الإسلام والمسلمين، والنجاح الكبير الذي حققته في انتشارها عبر مختلف أرجاء العالم واجتياحها بيوت العائلات عبر مختلف الدول والقارات وجب الأخذ بالتجربة والاقتداء بها في توظيف واستغلال السينما والإعلام في مواجهة خطاب الكراهية المتنامي ضد الإسلام والمسلمين من خلال:

- تقديم انتاجات عربية إسلامية بمعايير عالمية، توضح حقيقة العرب باعتبارهم الممثل الأول للإسلام والمسلمين تسعى إلى تعريف الغرب بالثقافة العربية والإسلامية.
- التركيز على المرأة وإنصافها من خلال تقديم انتاجات فنية ودرامية تبرز مكانة المرأة في الإسلام.

- الاهتمام بالدراما التاريخية بالنسبة للعرب والمسلمين في عرض تاريخ الأمة الإسلامية المجيد، وأيضا تدعيم إنتاج أفلام ومسلسلات تعرض سير شخصيات إسلامية وعربية قيادية شكلت محورا مهما في تاريخ الإسلام والأمة الإسلامية، ولما لا ترجمتها إلى لغات أخرى لتحدي الحاجز الجغرافي والتعريف بالثقافة الإسلامية عبر مختلف أرجاء العالم.

قائمة المراجع:

1-الكتب:

- أبو بكر عزيز أحمد اللواع، (2017)، الصورة النمطية للعرب والمسلمين في الإعلام الغربي، كلية الإعلام - جامعة الأزهر، تركيا.

2-المجلات:

- إدريس بولكعيبات، وليلى بولكعيبات، (سبتمبر،2018). الصورة النمطية السلبية عن المسلمين في الإعلام الغربي، مجلة الرسالة للدراسات والبحوث الانسانية، المجلد 02 (العدد 08).

- أسماء بوعنان، (جوان، 2017). صورة الإسلام والمسلم الآخر في إعلام الغربي عوامل التشكيل وسبل التغيير، مجلة العلوم الإنسانية ، المجلد أ (العدد 47).

- إياد لطفي أبو صلاح، وأسامة كناكر، (2021)، أسباب مشاهدة الدراما التركية التاريخية:دراسة على مسلسل قيامة أرطغرل، مجلة أريد الدولية للدراسات الإعلامية وعلوم الإتصال، المجلد 02 (العدد 04).

- فاطمة الزهراء تنيو، (2020)، الصورة النمطية السلبية عن الإسلام والمسلمين في الغرب:أي استراتيجية إعلامية لتصحيح الصورة؟ مجلة المعيار، المجلد 24 (العدد 50).
- فريدة فلاك، وداود جفافلة، (12 مارس، 2020)، مصادر الصورة الذهنية والنمطية للإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والإجتماعية.

- كهينة أفروجن، (جوان، 2017)، الاسلاموفوبيا في الإعلام المكتوب الغربي: بحث في مصار الصورة النمطية المعادية للإسلام، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية (العدد 12).

- منال رداوي، وأمال عامر، (بلا تاريخ)، الصورة النمطية للمرأة المسلمة في الإعلام الغربي تجارب ورؤى، مجلة المقدمة (العدد الأول).

3-المو اقع الإلكترونية:

- خالد بشير، (31 أوت، 2021)، الدراما التريخية التركية..ما أبرز الرسائل والإسقاطات الكامنة خلف الرواية؟ تاريخ الاسترداد 07 أفريل، 2022، من موقع حفريات: https://cdn.hafryat.com

- قيامة أرطغرل، (بلا تاريخ). تاريخ الاسترداد 07 أفريل, 2022، من منصة نت فليكس: https://www.netflix.com

- قيامة أرطغرل(مسلسل)، (بلا تاريخ). تاريخ الاسترداد 07 أفريل, 2022، من موقع ويكيبيديا: https://ar.m.wikipedia.org

- قيامة أرطغرل: دراما تركية بنكهة عالمية، (08 جويلية، 2020)، تاريخ الاسترداد 07 أفريل، 2022، من موقع سينما تلاس: https://www.cinematlass.us

- حمد خمفوسي، (11 مارس، 2020)، ما هي علاقة أردوغان بمسلسل قيامة أرطغرل؟ تاريخ الاسترداد 07 أفريل، 2022، من موقع الجزيرة: https://www.aljazeera.net

- محمد قيراط، (07 أفريل، 2017)، سبل تصحيح صورة الإسلام وبناء حوار فعال مع الآخر، تاريخ الاسترداد 07 أفريل، 2022، من موقع الشرق: https://m.al-sharq.com

- مسلسل قيامة أرطغرل، (بلا تاريخ)، تاريخ الاسترداد 07 أفريل، 2022، من موقع تيفي فان: https://a.tvfun.com

- هناء الكحلوت، (17 مارس، 2017)، "دراما السلاطين"تأسر القلوب ..تركيا تعيد كتابة تاريخها للعالم، تاريخ الاسترداد 07 أفريل، 2022، من موقع الخليج أونلاين: https://alkhaleejonline.net

مدرسة الحكمة الخالدة بين الخلفية الإسلامية ونقد الحضارة الغربية

The School of the Perennial Philosophy between the Islamic Background and the Criticism of the Western Civilization

ط/د. بن باليط عيسى ،جامعة الجزائر1_ بن يوسف بن خدة- الجزائر
benbalitaissa@gmail.com



الدراسة ستسلط الضوء على مدرسة روحية عرفت بموقفها الصارم تجاه المباني الفلسفية و المادية للحضارة الغربية حيث قامت هذه المدرسة على استلهام التراث الروحي و الصوفي الشرقي، و محاولة تكييفه تكيفا يلائم المحيط الحضاري الغربي من خلال مصطلحات تصف الأزمة الروحية التي وقعت فيها الحضارة الغربية، وخاصة أن ممثلي هذه المدرسة أغلبهم يتبنون الاتجاه الصوفي الإسلامي مما ساهم في رسم صورة إيجابية للتراث الإسلامي ككل، كما أنها ستتعرض لأهم المحاور النقدية للحضارة الغربية محاولة في ذلك ضرورة تصحيح المسار الروحي للإنسان الغربي الحديث، معتمدين في ذلك على إعادة بعث التراث أو الحكمة الشرقية في الأوساط الغربية أما في الجزئية الأخيرة من هذه الدراسة التي ستتعرض لأهم الشخصيات الممثلة لمدرسة الحكمة الخالدة والتي لا تزال أعمالهم تنال احتراما كبيرا من قبل الأوساط الأكاديمية في الدوائر الغربية.

الكلمات المفتاحية: الحكمة الخالدة، الحضارة الغربية، التراث الروحي الصوفي.

Abstract:

The study will highlight a spiritual school known for its strict attitude towards the philosophical and intellectual background of Western civilization, where this school was inspired by the eastern spiritual and sufi heritage, and try to Transfer it to the Western civilized environment through terms describing the spiritual crisis in which Western civilization occurred, especially since the representatives of this school mostly adopt the Islamic Sufi trend, which contributed to the drawing of a positive image for the Islamic heritage, finally in the last part of this study, which will present the most important figures representing the School of The Perennial Philosophy, whose work continues to be highly respected by academia in the Western circles.

Keywords : Perennial Philosophy, Western Civilization , Sufism, Eastern Tradition.



مقدمة:

يعيش العالم اليوم تحولات كبرى في جميع المجالات بداية من التحولات المعرفية التي شهدها هذا العصر وبظهور مناهج العلوم الإنسانية والعلمية أين أصبح كل شيء معرض للدراسة والتحليل والنقد، ليصير فيها الانسان الحديث يرفض وجود سقف يُحدد رؤيته التحليلية والنقدية، حيث امتدت هذه الرؤية إلى دراسة الظاهرة الدينية ومحاولة كشف أعماقها بداية من اعتبارها ظاهرة إنسانية واجتماعية تقبل التفكيك والدراسة.

أُعتبرت نتائج تلك الدراسات مرضية ومحققة نوعا من التقدم في تحليل الظاهرة الدينية وخاصة تلك التي تهتم بدراسة تأثيرات المفاهيم الدينية بالإنسان والمجتمع، إلا أنها لم تحقق نتيجة بخصوص دراسة جوهر الدين وخاصة تلك النصوص المتعلقة بالبعد الروحي للإنسان. حيث أدى ذلك إلى اختزال الدين في نتائج تلك الدراسات ونفي كل شيء قد يُحتمل فيه وجود بعد روحي، ولا يتأتى بلوغه إلا عن طريق دراسة التراث الروحي والغوص في اعماقه وخوض تجربة روحية فيه، أما دراسة الأنساق الظاهرة دون افتراض وجود جوهر واحد تقوم عليه تلك الانساق والمظاهر فإن هذا يؤدي لا محالة إلى اختزال الظاهرة الروحية وجعلها مجرد ظواهر نفسية واجتماعية تحقق أغراضا تطورية فقط.

كانت هذه الإشكالية التي وقعت فيها تلك الدراسات والفلسفات التي تقوم عليها الحضارة الغربية كفيلة في ابعاد الانسان الحديث من التحقق في أمر تلك النتائج ومحاولة تقييمها فيما يلائم ثنائية العقل والروح دون رجحان كفة على أخرى، حيث ساهمت المذاهب الفلسفية التي كانت منتشرة في العالم الغربي ومشكِّلة لرؤيتها المادية التي امتدت إلى أبسط أمور الحياة إلى انتاج انسان مشتت الفكر لا يُعرف له قاعدة روحية يبني عليها بعده الوجودي، وأضحى يرى في كل شيء على أنه نسبي قابل للتغير والتطور ولا شيء ثابت في عالم تحكمه الحركة الدائمة، وأما السكون الذي يُمهد لإعادة تقييم هذه الرؤية المادية من جديد ومحاولة تصحيح مسارها كان مجرد مضيعة للوقت، أو ربما سببا من أسباب التخلف كما يعتقد في ذلك انسان الحضارة الغربية.

كل هذه الظروف والنتائج مهدت لظهور مدرسة روحية كانت ستعكس تيار المعادلة المادية، انطلاقا من الغوص في التراث الديني العرفاني والروحي للأديان قاطبة، وبعدها كشف الأزمة الروحية التي أوقعت انسان الحضارة الغربية في نوع من الجنون يكاد يعصف بوجوده وحضارته التي لطالما افتخر بها.

ظهرت مدرسة الحكمة الخالدة في مناخ مادي كان لا يعترف بأي قيمة مطلقة في هذا الوجود، ما جعل الامر صعبا لخوض غمار نقد مباني الحضارة الغربية الذي كان هدفها انقاذها من السقوط أو الانحدار إلى مراتب سفلى وربما انهيارها من أساسها.

ظهور المدرسة في بيئة غربية لا يعني أنها غربية بالأساس، بل إن تشبعها بالتراث الروحي الشرقي وخاصة الإسلام جعلها يتخذ من هذا التراث مبدأ وأساسا لفلسفتها وأعمدتها.

الدراسة ستُعرِّف بهذه المدرسة الروحية مركزة في ذلك على خلفيتها الإسلامية، بحيث ساهمت في ذلك على رسم صورة إيجابية للإسلام والمسلمين في الغرب، كما أصبح أعمدة هذه المدرسة أيقونات رمزية للتراث الروحي وممثلين رمزيين للعرفان الإسلامي في الغرب، وبل فتح تخصصات أكاديمية تُعنى بدراسة أعمال هؤلاء من الشخصيات الروحية.

ستقف الدراسة على ثلاث محاور أساسية و هي أولا المقصود بمدرسة الحكمة الخالدة، بحيث ستعرض أراء الباحثين في تاريخ المصطلح ومعانيه، أما المحور الثاني فسيكون عن المحاور الأساسية التي تعتمدها المدرسة في نقد الحضارة الغربية، وذلك باختيار نموذج واحد من تلك المحاور و هو نموذج رونيه غينون (Rné Guenon) في كتابه أزمة العالم الحديث (La Crise du Monde Modern)، بحيث أن اعتماد هذه الشخصية لكونها ذو خلفية إسلامية تُعد من مبين المؤسسين الأوائل للتيار الروحي The Perennial) (Philosophy أو كما تُسمى بتيار الحكمة الخالدة، أما المحور الثالث من الدراسة سيتعرض إلى أهم أعمدة هذا التيار الروحي بحيث ستركز الدراسة على شخصيتين إسلاميتين محوريتين في هذه المدرسة. الشخصية الأولى هو رونيه غينون الذي أشارت إليه الدراسة في محورها الثاني الذي يُسمى كذلك بالشيخ عبد الواحد يحي، أما الثاني فهو بروفيسور الدراسات الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية وهو السيد حسين نصر.

أولا- تعريف مصطلح الحكمة الخالدة (the perennial philosophy):

يرى بعض الباحثين أن أول استخدام لهذا المصطلح يعود إلى الفيلسوف "ليبنيز" وبعدها ليتم استعماله من قبل المذهب الكاثوليكي وخاصة في أعمال اللاهوتي توما الإكويني أو ما يُسمى بـ: Cathoilic) (Neo thomist وتستخدم في هذا السياق للدلالة على التوفيق بين المدرسة المشائية والفلسفة الأفلوطونية المحدثة وذلك أثناء ترجمة الفلسفة الإسلامية خلال عصور النهضة الأوروبية، ويذهب رأي آخر من الباحثين على أن المصطلح يعود إلى القرون الأولى من ظهور الفلسفة المسيحية ممزوجة بالرؤى الهيلنستية والأفكار اليهودية لتلتقي بعدها كذلك بأديان أخرى كالهندوسية و الزرادشتية (w.R.Ing, 2015) .

يقوم هذا التعريف على التأريخ للأفكار العرفانية والروحية بينما المصطلح بحد ذاته يُشير إلى حكمة أزلية خالدة يستحيل فيها التأريخ لها تأريخا يقوم على زمن خطي كما هو معهود في الدراسات التاريخية.

يقول ريتشارد جونس (Richard H.jones)حول عيوب الدراسات الأكاديمية وفشلها أحيانا في دراسة الظاهرة العرفانية في الأديان ما يلي:

(...في الدراسات الاكاديمية اليوم يعمل المؤرخون و فلاسفة الأديان على دراسة الظاهرة العرفانية في الأديان على ما يسمى بالمقاربة النسقية لما يسمى بالظاهرة العرفانية في التاريخ، بينما يتم التغافل كليا عن عنصر مهم تقوم عليه الرؤية العرفانية وهو عنصر الحقيقة المطلقة (the perennial truth) والتي تعتبر أساسا للرؤية العرفانية، فدراسة التراث العرفاني الروحي يعتمد أساسا على دراسة التاريخ ولغة النصوص وثقافتها انطلاقا من مبانيها الاجتماعية و عدم اعتبارها مجرد ظاهرة عابرة للثقافات...)(H.Jones, 2021)

يدل ما ذُكر سابقا على ضرورة دراسة الظاهرة العرفانية ومن بينها فلسفة الحكمة الخالدة من خلال نصوصها والتمكن من مصطلحاتها وأراء أهلها من هذا التيار المعرفي، دون اعتبارها مجرد أفكار انتقلت وفق عملية تاريخية اختزالية ترى في كل شيء على أن لها بداية تاريخية لتليها مرحلة الانتشار والظهور كمذهب أو رؤية لها أنصارها في التاريخ.

وصف " WILBUR URBAN" هذا التعارض بين الرؤية التاريخانية والفلسفة العرفانية على أن فلسفة الحكمة الخالدة التي تنتمي إلى الظاهرة العرفانية الروحية تقوم على عدم الفصل بين القيمة والحقيقة، كما أنها ظهرت كرد فعل على الرؤية التاريخانية التي حولت مسألة الحقيقة المطلقة التي تدعوا إليها الأديان إلى مجرد حقائق نسبية تحكمها العملية التطورية، فعلم النفس و البيولوجيا مثلا قامتا باختزال حقيقة الإيمان إلى ما يسمى بغريزة الايمان من أجل البقاء لتنتهي هذه الرؤية إلى فلسفة عدمية وهمية. (H.Jones, 2021, p. 66)

ومن خلال ماسبق فقد قدم الفيلسوف هوستن سميث (Hostun smith) تعريفا للفلسفة الخالدة بقوله:

(...Let us be clear the perennial philosophy is a philosophy, not a sociology or anthropology that would jump out of the empirical bushes if only squinted hard enough, the perennialist arrives at the ubiquity of his outlook more deductively than inductively...) (SMITH, 2012)

(... لنكن واضحين بخصوص الفلسفة الخالدة على أنها فلسفة _أقرب ما يكون إلى حكمة_ وليست علما اجتماعيا أو أنثروبولوجيا حافلة بالنتائج التجريبية وإذا أمعنا جيدا فإن فيلسوف الحكمة الخالدة يصل خلال وجهة نظره إلى معرفة الوجود المطلق بطريقة تأملية وليس بطريقة استقرائية...)

يقول كذلك أحد أعمدة هذه المدرسة وهو "فريتجوف شيون" (FRITHJOF SCHUON) في تعريف الحكمة الخالدة ما يلي:

(the term philosophia perennis signifies totality of the primordial and universal truths and therefore of the metaphysical axiom whose formulation does not belong to any particular system ...) (Fitzgerald, 2O10, p. introudction)

(...مصطلح الحكمة الخالدة يدل على شمولية وكونية الحقائق الروحية وأن شكلها الميتافيزيقي لا ينتمي إلى نظام معين...)

يدل كلام (FRITHJOF SCHUON) على أن المدرسة الخالدة لا تحكمها إيديولوجية معينة تُضيق عليها رؤيتها، بل إن فلسفتها شاملة لكل إطار أو نظام يقوم على الرؤية الميتافيزيقية الروحية.

يوضح (SCHUON) هذه النقطة فيقول:

(..."Religo perennis", designating by this term the essence of every religion; this means the essence of every form of worship, every form of prayer and every system of morality, just as Sophia perennis the essence of all dogmas and all expression of wisdom ...) (Fitzgerald, 2O10)

(... "الدين الخالد" مصطلح يُعبر عن جوهر الدين وهذا يعني جوهر كل شكل من أشكال العبادة وكل شكل من أشكال الصلاة وكل نظام أخلاقي وكذلك الحكمة الخالدة فإنها تعبر عن جميع العقائد ومظاهر الحكمة...)

قد يتوهم البعض فيظن من هذا الكلام أن هذه الفلسفة أو هذه المدرسة تقوم على رؤية تعددية دينية وفرق بين الرؤية التعددية للحق والرؤية التي ترى أن الحق واحد ولكن قد تتعدد أوجه التعبير عنه وهذا هو مبدأ هذه المدرسة.

السؤال الذي تطرحه هذه الدراسة هو كالتالي:

إذا كانت الحقيقة واحدة في ذاتها ومتعددة في اشكالها كما تقره هذه المدرسة فلابد أن يكون لها ممثلين من خلفيات دينية متعددة تجمعهم ميتافيزيقا واحدة وحكمة واحدة، وعليه فماهي الخلفية الإسلامية لهذه المدرسة ومن يُمثلها؟

ثانيا- ما هو المصطلح الذي يطلقه ممثلي هذه المدرسة بخلفيتها الإسلامية على أفكارهم ورؤيتهم؟

المصطلح الذي سيتم اعتماده في هذه الدراسة هو: **(**Traditionalism)_ **مدرسة التراث الروحي**_ الذي يبدو صعبا للترجمة لكونه يحمل تأويلات عدة قد تخرج عن إطار الدراسة وعليه يقول في هذا الصدد (Mark Sedjwick) بخصوص هذا المصطلح ما يلي:

(...there are many sorts of traditionalist and many traditionalist movements. In the widest sense of the word, a traditionalist may be more than conservative, possibly a nostalgic person who hankers after the customs of his or her youth. A traditionalist may also be someone who prefers a specific established practice over something that replaced it...) (SEDGWICK, 2004, p. 21)

(... من خلال المفهوم الواسع لهذه الكلمة هناك معاني كثيرة لكلمة (tradionalist) _التي تعني حرفيا التقليدي_ والحركات التقاليدية والتراثية التي تُعبر كذلك على شخص محافظ أو شخص يتغنى بالتقاليد وتراثه التي كان يعيشها في شبابه، وقد تعني كذلك شخصا يُفضل نمطا من الممارسة الذي استبدل بنمط آخر جديد...)

ولا نقصد بالانحياز نحو التراث تلك الحالة السلفية التي ترفض جميع أنماط الحياة الجديدة وتتقوقع على ماضيها بما فيه من تخلف وتقهقر وأخطاء. (غينون، 2016، صفحة 5 مقدمة المركز المترجم)

كل هذه المعاني لا تصب في الإطار الذي رسمت له هذه الدراسة، بحيث أن المصطلح يُمثل فلسفة عميقة يتجاوز المعاني العامة التي توحي بنوع من الحنين للماضي ورفض لكل ما هو جديد أو حديث.

فالمراد من التراث هو تجاوز غبار الحداثة والعلم المادي والوصول إلى الحكمة الخالدة والعلم القدسي المنضوي في التراث المتوزع في شتى الثقافات والأديان والمذاهب السابقة (غينون، 2016، صفحة 5 مقدمة المركز المترجم)

(... the Word Tradition derives from the latin verb trader to hand over or to hand down, and in an etymological sense a tradition is a statement of belief or practice transmitted _especially Orally_ from generation to generation...tradition primarily in this sense, as a belief and practice transmitted from time immemorial_ or rather belief and practice that should have been transmitted but was lost to the west during the last half second millennium A.D...) (SEDGWICK, 2004, p. 21)

(... كلمة تراث _ tradition_ مشتقة من اللفظة اللاتينية " trader" التي تعني إعادة البعث أو الانتقال، وفي هذا المعنى الاشتقاقي فتعني اللفظة بيان العقيدة أو الشعائر التي انتقلت من خلال ما يُسمى بالتراث الشفوي من جيل إلى آخر بداية من مرحلة قديمة، وقد تعني كذلك الاعتقاد أو ممارسة معينة والتي كان من المفترض أن تنتقل إلى الغرب لكنها ضاعت أثناء نصف الألفية الثانية بعد ميلاد المسيح...)

السؤال هو: كيف ضاع هذا التراث الروحي من الانتقال الى الغرب؟

حسب مدرسة الحكمة الخالدة أو مدرسة التراث الروحي فإن الغرب اليوم يعيش أزمة على الصعيد الروحي بسبب ما يُسمى بضياع انتقال هذا التراث الروحي إلى الحاضنة الغربية. (SEDGWICK, 2004, p. 21)

بخصوص المراحل التاريخية لظهور هذه المدرسة (Traditionalism) يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل:

- المرحلة الأولى تبدأ من سنة 1930 حيث قعدت أعمال ومؤلفات رونيه غينون (Guenon) لظهور فلسفة التراث الروحي، وغالبا ما يتم ارجاع تأسيس هذه المدرسة إليه.
- المرحلة الثانية وخلال هذه المرحلة بدأت الممارسة التطبيقية لهذه الفلسفة تظهر بشكل واضح وهذا من خلال اعتماد الطرق الصوفية كمثال للميتافيزيقا الشرقية وذلك في بيئة كانت شبه مادية.
- المرحلة الثالثة كانت بعد سنة 1960 حيث بدأت أفكار المدرسة بالانتشار بشكل كبير في الأوساط العامة في الغرب ولتنتقل من الغرب إلى العالم الإسلامي وروسيا. (SEDGWICK, 2004, p. 22)

ثالثا- المحاور الاساسية التي تقوم عليها مدرسة التراث الروحي في نقد الحضارة الغربية:

ستعتمد الدراسة في هذا الجزئية الخاصة بالأسس الروحية في نقد الحضارة الغربية على كتاب يُعد مرجعا أساسيا في هذا الموضوع، الكتاب للمؤلف الفرنسي روني غينون (GUENON) الذي تحول إلى الإسلام فأصبح اسمه الشيخ عبد الواحد يحي عنوانه: أزمة العالم الحديث "La Crise du Monde Moderne" حيث يدل عنوانه من الوهلة الأولى على رؤية مناهضة للفلسفة والحضارة الغربية.

أ/ هيكلة فصول الكتاب: يحمل الكتاب عناوين فصول دقيقة في هيكلة النقد الموجه للعالم الحديث الذي يقوده اليوم الغرب بمختلف منظوماته المعرفية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها.

المصطلحات ستكون خاصة بالمؤلف ورؤيته الروحية العميقة وفريدة من نوعها بالنسبة للقارئ المتخصص، وما يجدر الإشارة إليه كون تأليف هذه الكتب العميقة في نقدها جاء تأليفها بعد فترة من اسلام "رونيه غينون" وتبحره في أعماق العرفان الصوفي الإسلامي.

الكتاب يحوي تسعة فصول وهي كالتالي:

الفصل الأول: العصر المظلم _ l'Age Sombre_

الفصل الثاني: التعارض بين الشرق والغرب. _L'opposition Entre Lorient Et l'occident_

الفصل الثالث: المعرفة والفعل _Connaissance Et Action_

الفصل الرابع: العلم المقدس والعلم الدنيوي Science Sacrée Et Science Profane

الفصل الخامس: الفردانية individualism

الفصل السادس: الفوضى الاجتماعية Le Chaos Social

الفصل السابع: حضارة مادية Une civilization matérielle

الفصل الثامن: الاجتياح الغربي L'envahissement Occidental

الفصل التاسع: بعض الاستنتاجات Quelques Conclusions (غينون، 2016)

ب/ محاوره الأساسية: يقوم نقد رونيه غينون للحضارة الغربية على محاور ثلاثة كما بينهما في كتابه وهي:

المحور الأول: هذه الحضارة الغربية وإن كانت ظاهرة فريدة من نوعها لكنها دائما تخضع لسنن الله في جميع الحضارات.

يقول رونيه غينون في مقدمة كتابه أزمة العالم الحديث ما يلي: (... إن هذه الحضارة التي يتبجح بها المحدثون لا تحتل مكانة متميزة في تاريخ العالم، وأنه من الممكن أن تلقى المصير نفسه الذي لقيته حضارات أخرى اختفت عبر أزمنة تتفاوت في قدمها وأن بعضها لم يُخلف سوى آثارا ضئيلة وبقايا إما أنها لا تكاد لا تُرى وأنها لا يمكن التعرف عليها إلا بصعوبة.) (غينون، 2016، صفحة 10)

المحور الثاني: حدوث الأزمة كإشارة على النهاية ولكن ما نوع هذه النهاية حسب الشيخ عبد الواحد يحي_ غينون_؟

يُميز "غينون" بين نوعين من النهاية نهاية راديكالية لكل شيء وهذا هو مفهوم العامة بخصوص نهاية العالم، أما المفهوم الثاني فهو نهاية دورة زمنية تاريخية لحضارة معينة وهذا هو المقصود من حدوث أزمة كآخر مرحلة لحضارة معينة.

يقول غينون: (...الكثير من العقول مسكونة اليوم بفكرة نهاية العالم ولنا أن نتأسف لذلك من بعض النواحي لأن المبالغات التي تترتب على هذه الفكرة المفهومة بشكل سيء والهذيان المسيحي الذي هو نتيجة لها في مختلف الأوساط ...هذه النهاية ليست نهاية العالم بلا شك بالمعنى العام الذي يُريد فيه بعض الناس فهمه ولكنه على الأقل نهاية عالم ما، وإذا كان هذا الذي ينبغي أن ينتهي هو الحضارة الغربية بشكلها الراهن ..ولو أردنا وضع الأشياء في نصابها أننا وكما يبدوا نقترب فعلا من نهاية عالم ما أي نهاية عصر ما أو دورة تاريخية ما يُمكن أن تتناسب في هذه الحالة مع دورة كونية بحسب ما علمتنا إياه كل العقائد التقليدية ...) (غينون، 2016، صفحة 12_13)

مفهوم الزمن عند رونيه غينون يختلف عن الرؤية العامة التي تعتقد على أن الزمن مجرد خط مستقيم له بداية ونهاية، بل يؤكد غينون على أهمية الزمن ومفهومه انطلاقا من التراث الروحي الذي نجده مبثوثا في الأديان وخاصة التراث الصوفي منه، بحيث يذهب غينون إلى أن للزمن طبيعة دورية وليست مستقيمة وبالتالي فإن مفهوم النهاية عنده لا يتعدى نهاية دورة زمنية حضارية وبداية دورة حضارية أخرى جديدة.

المحور الثالث: الرفض الملح للظلام الذي دخلت فيه الحضارة الغربية وضرورة التمسك بالتراث الروحي، وعدم الانسياق للمادية الغربية بشتى أنواعها.

يقول رونيه غينون مؤكدا على هذا المحور (... ويبقى أن نقول على الفور أنه ليس من سبب للاكتفاء بأن نتلقى بشكل سلبي الفوضى والظلام الذي يبدو للحظات أنه انتصر لأنه لو كان كذلك لن يبقى لدينا سوى الصمت، هذه واحدة بعكس ذلك لكي نعمل بقدر ما نستطيع للخروج من هذا العصر المظلم...) (غينون، 2016، صفحة 14)

فالمؤلف وبعد غوصه العميق في البنية التحتية للحضارة الغربية استطاع أن يصل إلى فرضية نهاية الحضارة الغربية هذه الفرضية تزداد احتمالا بعد الازمة الروحية التي يعيشها العالم الحديث وأن الانهيار سيحدث عاجلا أم آجلا.

الدراسة أشارت إلى العناوين الرئيسة من نقد الشيخ عبد الواحد يحي للحضارة الغربية في كتابه أزمة العالم الحديث، في حين أن للشيخ كتبا ومؤلفات ورسائل عديدة تصور الأمر بدقة متناهية، بحيث لا يمكن حصر رؤية الشيخ في هذه المحاور الثلاثة التي هي عميقة على أن تحصرها هذه الأوراق المعدودة.

رابعا- أعمدة مدرسة التراث الروحي:

لا يمكن الحديث عن مدرسة التراث الروحي التي تنتمي إلى تيار الحكمة الخالدة دون الإشارة إلى أهم الشخصيات الممثلة لهذه الرؤية وخاصة أن هؤلاء يتبنون جميعا الطريق الروحي الصوفي الإسلامي كقاعدة أساسية لتأسيسهم المعرفي وكمنطلق أساسي لنقد الحضارة الغربية.

الدراسة ستقف على شخصيتين إسلاميتين تنتمي إلى هذه المدرسة الروحية بحيث ستشير بشكل مختصر إلى فلسفتهم وبعض مؤلفاتهم.

1/ رونيه غينون_ الشيخ عبد الواحد يحي _:

اسمه (René Jean-Marie Joseph Guénon) (1951 _1886) كان الابن الوحيد لزوجين كاثوليكيين في مدينة (Blois) درس الرياضيات وتخصص فيها في معهد باريس (Collège Rollin) بهدف أن يدخل إلى جامعة التقنيات (Polytechnique)، و في سنة 1906 ترك غينون معهد رولين وانضم إلى طائفة سرية

باطنية مختصة في التنجيم وهذا قبل فترة قصيرة من اندلاع الحرب العالمية الأولى، كانت تسمى الطائفة التي انضم إليها غينون (Marinist Order) وفيها تعرف لأول مرة إلى نصوص حكمة الفيدانتا (Vedanta_perennialism) لكن سرعان ما تخلى عن المنظمة لينضم بعدها إلى حركة كانت تسمى بفرسان الصليب او المعبد التي تأسست سنة (1243_ 1314) وبعدها إلى منظمات روحية مختلفة كانت تنشط في الغرب (SEDGWICK, 2004, p. 39 _53)

بعد هذه الانتقال من منظمات غنوصية وسرية هاجم فيها غينون كل تلك المنظمات التي كانت تدعي معرفتها بالتراث الروحي ووصفها على أنها زيف روحي (conterfeit spirituality)التي هي بعيدة كل البعد عن المعرفة الروحية الأصيلة.(Perry, The Revival of Interest in Tradition, 1991)

في سنة 1927 إلى غاية1930 سافر غينون إلى مدينة القاهرة ويُعلن فيها دخوله إلى الإسلام، وفي القاهرة انضم غينون إلى الطريقة الشاذلية الصوفية ليحول اسمه بعدها إلى" الشيخ عبد الواحد يحي" ثم تزوج في مصر ويستقر فيها، حيث تفاجأ أحد عشاق كتب روني غينون بعد أن اكتشف أن جاره الشيخ عبد الواحد يحي في مصر هو نفسه روني غينون. (Perry, Coomaraswamy: The Man, Myth, and History, 1977)

كان الشيخ عبد الواحد يحي غزير التأليف وكان مهتما كثيرا بسؤال السلوك الروحي (Initiation spiritual) حيث نشر ما يقارب عن 25 مقالة في هذا الموضوع وذلك من خلال رؤى عرفانية متعددة كما أنه استطاع نشر 17 كتابا خلال حياته.(Guénon, 1909)

ومن أهم المصطلحات التي يُعرف بها غينون مصطلح التراث الروحي (primordial tradition) الذي يستخدمه كثيرا في مؤلفاته فما الذي يعني غينون بهذا المصطلح؟

يقول (Gai Eaton) في تعريف هذا المصطلح حسب روني غينون ما يلي:

(…Guénon “believes that there exists a Universal Tradition, revealed to humanity at the beginning of the present cycle of time, but partially lost…. [His] primary concern is less with the detailed forms of Tradition and the history of its decline than with its kernel, the pure and changeless knowledge which is still accessible to man through the channels provided by traditional doctrine…) (Eaton, 1995)

(... يعتقد غينون بوجود نوع من الحكمة أو التراث الروحي الذي قد أوحي أو أعطي للبشرية خلال أول مرحلة من بداية الدورة الزمنية لكن بعد ذلك فُقد جزء منها... حيث اهتم بتاريخ هذا التراث وكيفية

انحداره لكن اهتمامه الأكثر كان البحث عن جوهر المعرفة الروحية التي لا تزال موجودة ويمكننا الوصول إليها عن طريق المذهب الروحي ...)

وقد كان جل اهتمام روني غينون منصبا في دراسة الحكمة الشرقية ومنها الرؤية الصوفية العرفانية ونقلها إلى الغرب، حيث لم يكن من هدفه شرقنة الغرب بمفهومها الإيديولوجي كما يفهم البعض بل بإمكان القول إنه أراد ان يُضيف للحضارة الغربية بعدا آخر كانت قد فقدته خلال عهود قديمة وهو البعد الروحي الذي نجده غائبا في الانسان الغربي.

يقول(Coomaraswamy) في معنى نقل الحكمة الشرقية إلى الغرب ما يلي:

(...If Guénon wants the West to turn to Eastern metaphysics, it is not because they are Eastern but because this *is* metaphysics. If 'Eastern' metaphysics differed from a 'Western' metaphysics—one or the other would not be metaphysics...) (Coomaraswamy, 1979, p. 72_73)

(...إذا كان غينون قد أراد تحويل الغرب إلى الميتافيزيقا الشرقية ليس لأنها" شرقية" ولكن لانها "ميتافيزيقا "وإذا كانت الميتافيزيقا الشرقية تختلف عن الميتافيزيقا الغربية فلابد أن تكون إحداهما ليست ميتافيزيقا حتى..)

يُشير "كوماراسوايمي" على ان المقصود بالحكمة الشرقية لا يعني تحويل الغرب إلى شرق بل لأن الحكمة في ذاتها واحدة وإذا افترضنا وجود حكمتين ثنائيتين فلابد أن ان تكون إحداهما باطلة.

يمكن تقسيم اعمال روني غينون إلى خمسة أقسام قائمة على تحولاته الفكرية والروحية وهي كالتالي:

_ القسم الأول: أعماله في فترة ما قبل 1912حيث كانت مجرد مقالات نشرت في الدوريات الخاصة بالعقائد الروحية (Occultist periodicals) .

_ القسم الثاني: كان عبارة عن تصريح بالتخلي عن المنظمات الروحية الزائفة التي كان ينتمي إليها سابقا حيث كتب في كشف زيفها وبطلانها.

ومما لابد من الإشارة إليه في هذا القسم وخاصة في دحض جميع العقائد الزائفة التي كان قد انضم إليها في وقت مبكر من حياته فقد كتب ميرسيا إلياد مُشيرا إلى أهمية أعماله ما يلي:

(...The most erudite and devastating critique of all these so-called occult groups was presented not by a rationalist outside observer, but by an author from the inner circle, duly initiated into some of their secret orders and well acquainted with their occult doctrines;

furthermore, that critique was directed, not from a skeptical or positivistic perspective, but from what he called 'traditional esoterism'. This learned and intransigent critic was René Guénon...) (Eliade, 1976, p. 51)

(... إن أكثر الأعمال النقدية تدميرا لما يُسمى بالمنظمات الروحية السرية -الزائفة_لم تأتي من ملاحظ عقلاني خارج تلك المنظمات بل جاءت من مؤلف كان داخل تلك الدائرة وكان عارفا ببعض أسرارهم ومطلعا على المذاهب السرية وعليه ذلك النقد لم يكن قائما على مفهوم شكي وضعي بل كان مصدره مما يُسمى بالتراث العرفاني الروحي وهذا النقد العلمي العنيد كان من طرف روني غينون...)

كان نقد روني غينون عميقا لكونه متبحرا في علوم وأسرار تلك المنظمات الزائفة وأن هذه الرؤية النقدية يجب أن تُثمن لكونها قد جاءت من "باطن" وممن كانت له تجربة روحية عكس الدراسات الأخرى التي هي قائمة على دراسة الظاهر فقط.

_ القسم الثالث كان في عرض الميتافيزيقا الشرقية.

4_ القسم الرابع عن التراث الروحي في أوروبا وعن الكشف الروحي الصوفي

5_ كان في نقد الحضارة الغربية

قد يكون هذا التقسيم غير دقيق لخصوصية أعمال روني غينون التي تُعبر عن حياته وعمق رؤيته الروحية، إلا أنها قد تساعد في التدرج في معرفة حياته الفكرية وقراءة أعماله وفق تلك الحالات الروحية التي كان يعيشها.

لقد أُعتبر روني غينون العارف بالله في عصره (The providential interpreter of this age) (Schuon, p. 359.)

حيث كانت وظيفته تذكير أهل هذا العالم الذين هم في غفلة بأول المبادئ وإعادة بعث معاني المطلق فيهم بعد أن فُقدت تلك المعاني. (Perry, Coomaraswamy: The Man, Myth, and History, 1977, p. 163)

2/السيد حسين نصر (Sayyed Hossien Nasr)

السيد حسين نصر بروفيسور الدراسات الإسلامية في جامعة جورج واشنطن ورئيس مؤسسة الدراسات التراثية، يعتبر من أهم الشخصيات المسلمة التي تنتمي إلى التيار الروحي أو مدرسة الحكمة الخالدة كما يُعتبر كذلك كأهم شخصية ممثلة للخطاب الإسلامي في العالم ككل (Moris, 1999, p. 9_32)

ولد السيد حسين نصر في سنة 1933 في مدينة طهران الإيرانية بعد ثماني سنوات من تولي رضا شاه الحكم في إيران، اشتهرت عائلة السيد حسين بالعلم والتصوف وقد كان هم والد السيد النصر تغيير النظام المدرسي التقليدي وجعله نظاما تعليميا حديثا وخاصة بعد كونه مديرا للتربية في إيران (Moris, 1999, p. 209_31)

اطلع السيد نصر خلال سنته العاشرة على كتب العلماء وسمع لمناظراتهم حيث كان يُفضل قراءة الكتب الفلسفية وحتى الغربية منها ويصف السيد حسين نصر أهم مرحلة في حياته التعليمية بتلك التي كان يتناقش فيها مع والده حول مواضيع الفلسفة والمسائل الكلامية.

حينما بلغ السيد نصر الثلاثين عاما تعرض والده لحادث مرور وعلم بأنه لن يتحسن فقرر بعدها إرسال نصر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، تمكن السيد حسين نصر من تعلم اللغة الإنجليزية بسرعة وبعد أربعة سنوات تخرج كطالب متفوق أظهر موهبة استثنائية في الرياضيات و العلوم، أُختير من بين الطلبة لدراسة الفيزياء حيث كان يعتقد من أن الفيزياء مفتاح لمعرفة الحقيقة "الفيزياء طريق لمعرفة طبيعة الأشياء" كما يقول السيد نصر لكن سرعان ما تعرض لخيبة بخصوص طبيعة الأشياء التي اختار دراساتها. (Nasr, p. 9)

قرر السيد حسين نصر ترك تخصصه بعد سماعة لمحاضرة للفيلسوف برتراند راسل الذي صرّح فيها بأنه ليس هناك مكان للحقيقة الأنطولوجية في مجال الفيزياء، خلال تلك الفترة تأثر السيد نصر بالفيلسوف الإيطالي (Giorgio di Santillana) وبفضله تعرف على كتابات "رونيه غينون" ثم بعدها ليتعرف كذلك على كتابات "كوماراسوايمي" و"فريثجوف شوان" وخلال سنة 1954 أعلن السيد حسين نصر انضمامه لمدرسة الحكمة الخالدة نهائيا. (Chittick, 2022)

دخل السيد نصر سنة 1956 جامعة هارفرد كمتخصص في الجيولوجيا والجيوفيزيائية وبعدها إلى البحث في تاريخ العلم ويعمل مع ثلة من الباحثين البارزين في هذا المجال ومجال الدراسات الإسلامية من بينهم (George Sarton)، (Harry Wolfson)، (Bernard Cohen) حيث أنهى أطروحة الدكتوراه التي نشرت سنة 1964 بعنوان:

(An *Introduction to Islamic Cosmological Doctrines*)

(مقدمة في العقائد الكونية الإسلامية) سافر السيد نصر إلى أوروبا حيث التقى "بشوان" و(Titus Burckhardt) ثم يدخل مباشرة في الطريقة الصوفية الشاذلية.(Chittick, 2022)

عاد نصر سنة 1958 إلى إيران لدراسة التراث الإسلامي العرفاني ويستقر فيها ويُصنف كأصغر بروفيسور في إيران آنذاك، وخلال عشرين سنة من مكوثه في إيران كان السيد نصر غزير التأليف حيث

نشر كتبا بالإنجليزية والفارسية، من خلالها استطاع أن يؤسس لإعادة بعث التراث الروحي في سياقه الأكاديمي الحديث.

ترك نصر إيران سنة 1979 على أمل بالعودة بعد أسبوعين فقط، لكن وجد نفسه مستقرا في لندن ثم بعدها ليزور جامعة (Utah) الأمريكية ثم جامعة جورج واشنطن سنة 1948. (Chittick, 2022)

دعي السيد نصر قبل فترة من مغادرة إيران إلى المشاركة في إلقاء محاضرات حول اللاهوت الطبيعي في اسكتلندا، حيث شارك في تلك المحاضرات العديد من الفلاسفة والعلماء من بينهم: ويرنر هايزنبرغ، وليام جيمس، بول تيليش، أرلوند توينبي، استطاع سيد نصر أن يلقي عشر محاضرات كان قد اعتبرها "هدية من السماء" بفضلها نشر كتابا يُعد من أهم مؤلفاته عنوانه (المعرفة والمقدس) knowledge and the Sacred) حيث جمع الكتاب رؤيته الفلسفية الكاملة وصرّح فيه بقوله:

(...in a sense my most important philosophical work and has had perhaps greater impact outside the circle of scholars of Islamic thought than any of my other writings...) (Nasr, p. 77_78)

(... أهم أعمالي الفلسفية التي لها تأثير كبير خارج الدائرة الاسلامية من كتاباتي الأخرى ..)تتبنى المؤلفات الأولى للسيد نصر مفاهيم المدرسة التراثية للمعرفة الإسلامية وخاصة الكتابات الفلسفية و الصوفية الإسلامية، حيث كان تخصصه في دراسة الكونيات الإسلامية والعلم والعرفان الإسلامي جعله يقدم موقفا تأويليا جديدا لا نجده في الكتابات الاكاديمية، ليتم بعدها نشر عمله الأول حول العقائد الكونية الإسلامية من قِبل جامعة هارفارد، حيث أصبح بعدها الممثل الرئيسي للأفكار والدراسات الإسلامية في الغرب لكونه ادخل مفاهيم جديدة إلى الأكاديمية الغربية كان قد استقاها من التراث الروحي الإسلامي، وذلك عن طريق إعادة صياغتها صياغة تلائم المحيط الحضاري الغربي(Chittick, 2022)

خاتمة:

تُعتبر الحضارة الغربية اليوم مثالا للحضارة المتطورة والتي حققت الكثير في مجال العلم والعلوم الإنسانية، هذا التطور لم يكن ليجعلها حضارة تلامس المطلق في كل شيء بل إن قيامها على بعد مادي من غير تصور شيء وراء المادة وغياب شعاع الروح والحقيقة المطلقة كفيل بأن يجعلها حضارة مؤسسة على جرف هار قد يهوي بها إلى دركات سفلى من الظلام الدامس، يعيش فيها الانسان مشتت الفكر نادرا ما يتطلع إلى السماء ويستشرف في نفسه أفق القيم الروحية.

أصبح الانسان الحديث اليوم يمارس نوعا من التدين ان صح التعبير تجاه حياته المادية، وهذا ان دلّ على شيء فإنما يدل على غياب التوجه الصحيح للفطرة السليمة التي أصبحت ترى في المادة السبيل الوحيد لخلاصها لأنه وكما يقال الطبيعة لا تأبى الفراغ، هذه الظروف الوجودية التي يعيشها اليوم

الانسان الحديث لطالما عبّرت عنها مدرسة الحكمة الخالدة بجميع أطيافها وخلفياتها ودعت إلى ضرورة إعادة الأمور إلى مكانها الصحيح، وإلا فإن هذه الأزمة الروحية قد تؤدي إلى انحدار الحضارة والرجوع إلى نقطة الصفر من جديد.

وإن التأكيد على البعد العرفاني الروحي من قبل هذه المدرسة ليست دعوة إلى ترك البعد العقلي واختزال كل شيء في بعد أحادي فقط، و انما جاءت هذه المدرسة لتعيد بعث الروح من جديد في عالم تحكمه رؤية اختزالية مادية لا تعترف بوجود شيء وراءها، و عليه فإن النصوص الإسلامية الروحية التي اعتمدها أقطاب المدرسة الروحية قد نقلت مثالا إيجابيا عن الرؤية الإسلامية وسبل تخليص الانسان من هذه الازمة و التي يجب أن تُثمن بشكل أو بآخر لأنها ساهمت في رسم صورة واضحة للإسلام الذي ظن فيه الانسان الغربي أنه مهدد لوجوده وقيام حضارته، إلا أن هذه المدرسة و بنقلها للتراث الروحي للإسلام و جعلها ملائمة ومشيرة للازمة التي يعيش فيها الانسان الغربي الذي أضحى يستشرف في هذا الدين منطلقا لإعادة بعث روحه وإحياء حضارة قائمة على ثنائية السماء والأرض.

مما يجدر الإشارة إليه هو ضرورة نقل اعمال هذه المدرسة إلى العالم الإسلامي لكونه متأثرا كذلك بطيف الحضارة الغربية خاصة أن هذا العالم يعيش أزمات مهددة لوجوده وأن التغيير أمر ضروري لاستدراك الأمور ولما لا إعادة بعث حضارة تستشرف أفق الإنسانية جمعاء.

قائمة المراجع:

- Chittick, W. C. (2022, 03 13). world Wisdom. Retrieved from http://www.worldwisdom.com/public/authors/Seyyed-Hossein-Nasr.aspx#_edn5
- Coomaraswamy, A. K. (1979). The Bugbear of Literacy. London: Perennial Books.
- Eaton, G. (1995). The Richest Vein. Ghent: NY: Sophia Perennis et Universalis.
- Eliade, M. (1976). The Occult and the Modern World. Chicago: Occultism, Witchcraft and Cultural Fashions.
- Fitzgerald, M. O. (2O10). Frithjof Schuon Messenger of the Perennial Philisophy. Bloomington: world wisdom .
- Guénon, R. (1909). "La Demiurge". La Gnose .
- H.Jones, R. (2021). Perennial Philosophy and the History of Mysticism. Sophia, 1.
- Moris, Z. (1999). Knowledge is Light: Essays in Honor of Seyyed Hossein Nasr . Chicago:: ABC International.

- Nasr, S. H. (n.d.). Intellectual Autobiograph.
- Perry, W. (1977). Coomaraswamy: The Man, Myth, and History. Studies in Comparative Religion, 1-11(03), 160.
- Perry, W. (1991). The Revival of Interest in Tradition. Colombo: Sri Lanka Institute of Traditional Studies.
- Schuon, F. (s.d.). René Guénon: Definitions quoted by M. Bastriocchi, . The Last Pillars of Wisdom.
- SEDGWICK, M. (2004). Against the Modren World Traditionalism and the Secret Intellectual History of the Twentieth Centry. New York: OXFORD UNIVERSTY PRESS.
- SMITH, H. (2012). IS THER A PERENNIAL PHILISOPY? Journal of the American Academy of Religion, 560.
- w.R.Ing. (2015). the perennial philosophy. CAMBRIDGE UNIVERSITY PRESS, 66.
- رينيه غينون. (2016). أزمة العالم الحديث. (عدنان نجيب الدين _ الشخ جمال عمار_، المترجمون) العتبة العباسية المقدسة: المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية.

مقتطف من اشكالية المؤتمر

أصبح الحديث عن صورة الاسلام والمسلمين أحد أهم الموضوعات الشائكة التي تثير اهتمام الباحثين والمتخصصين لاسيما بعد أحداث 11 سبتمبر، كونها شكلت منعرجا خطيرا في العلاقة بين العالمين الإسلامي والغربي أثر بشكل مباشر على صورة الاسلام والمسلمين لدى الآخر، حيث ظهرت حملة إعلامية استهدفت كل من الإسلام والمسلمين أخذت الطابع القانوني بحجة محاربة الإرهاب، فتم ربط كل ما له علاقة بالإسلام والمسلمين بالعنف والتطرف وعدم قبول الآخر، مما أدى إلى التشويه صورة الإسلام والمسلمين لدى الرأي العام العالمي. هذا وتشير العديد معظم الدراسات والبحوث الأكاديمية أن صورة الإسلام والمسلمين لدى الآخر وخصوصا الغرب ما هي إلا محصلة لتراكمات ثقافية وتاريخية واجتماعية خلقتها ولا تزال تغذيها القوالب المشوهة منذ لحظة ظهور الإسلام وصولا إلى مختلف الأحداث المعاصرة.

من خلال هذا الطرح يظهر جليا لنا أن صورة الإسلام والمسلمين تشكلت لدى الآخر من جملة عوامل، يمكن تصنيفها ضمن عوامل دينية وفكرية، وعوامل تاريخية، وعوامل ذاتية وموضوعية، بما فيها عوامل مرتبطة بواقع المسلمين اليوم.. وتتفاعل هذه العوامل وتتشابك وتكاملها لتشكل مجمل الصورة الراهنة للإسلام والمسلمين في الوعي الجمعي لدى الآخر.

وأمام واقع هذه الصورة النمطية المزعجة والمغلوطة عن الاسلام والمسلمين، والتي تعطي انطباعات سيئة عن كل ما هو عربي وإسلامي يقع علينا واجب تصحيح وإبراز صورة الاسلام والمسلمين والذي يستدعي الاحساس المتزايد بضرورة مساءلة النفس ومراجعة الذات للنظر في مسؤولياتنا نحن المسلمين بخصوص طبيعة صورة الاسلام والمسلمين في الغرب، فالأمة الإسلامية مطالبة اليوم أكثر من أي وقت مضى بممارسة ضرب من ضروب النقد الذاتي البناء لمواجهة التحديات والضغوط التي تتعرض لها دون التكاسل أو التهاون بحيث تصبح معركة تصحيح صورة الإسلام والمسلمين ومواجهة التغييرات الدولية بصفة عامة هي معركة ذاتية بالدرجة الأولى تخص العالم الإسلامي. وأمام هذا الواقع المر نتساءل اليوم كيف يمكننا كباحثين وأكاديميين إيجاد السبيل الذي يمكننا من تصحيح هذه الصورة المغلوطة والعمل معا على صناعة صورة إيجابية للإسلام والمسلمين في فكر الآخر؟

مقتطف من إشكالية المؤتمر



